

9me Année No. 392

Lundi - 6 - 1 - 1941

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العــدد ٣٩٢ « القاهرة فى يوم الاثنين ٨ ذو الحجة سنة ١٣٥٩ — الموافق ٦ يناير سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهــــرس

الرسالة
فى عامهـا التاسع

تدخل (الرسالة) فى عامها التاسع والموكب البشرى لا يزال منقطع السبيل ، ترجف جموعه الجرارة على هوة من هُوَى العدم لا يدرك نهايتها الطرف ، ولا ينير غيابتها الأمل ، ولا يهتف فى جنباتها الموحشة إلا زبانية الردى وأبالسة الشر ! وكان الظن بالعقل الذى عبَّد الجبال وذلل الرياح وسخر الأبحر أن يمهد للناس طريق الحياة فلا يضلوا هذا الضلال ، ولا يهلكوا هذا الهُلك ؛ ولكن الله الذى خلق العقل كان يعلم أنه مهما تقدم وتعلم لا بد مفتقر إلى وحيه وهديه . وماذا يصنع العقل المحدود المدى والطاقة إذا شغبت به الأهواء وتمردت عليه الغرائز ؟

لم يدخل العالم مع الزمن فى مرحلة جديدة من عمره الطويل ، ولكنما سار الزمان ووقف الإنسان ؛ وقف أمام عقبة كأداء من الكفر بالدين كله وبالحق كله ، تقاطرت على صخورها الصم دماؤه ، وتناثرت على ثناياها الحداد أشلاؤه ، والفلك السائر يرقب على مدار العام بنى آدم وقد هاج بهم الضلال فتراشقوا بما فى أيديهم وخزائنهم من طيبات الرزق وثمرات الحضارة وبُلَغ الحياة ؛ ولا يعلم غير الله متى تجتاز الهوة الغامضة

وتُذلل العقبة الكؤود ، فإن منطق الناس لا تغنى أقيسته ما دامت الأمور تجرى على الهوى ، وتقوم على الباطل ، وتعتمد على القوة !

أجل تدخل (الرسالة) فى عامها الصحفى التاسع ، ولكنها فى عمرها الطبيعى ظلت كما ظل العالم كله واقفة على حدود العام الماضى لا تجد قسطها من النمو والبداءة ، لأن الحرب التى ضربت بكل شر وأضرت بكل شىء ، كانت أقسى ما تكون على الصحافة : قطعت عنها الوارد من الورق حتى بلغ ثمنه اثنى عشر ضعفاً ، فنقصت فى الكيف والكم ، بقدر ما زادت فى النفقة والهم ؛ وقطعت عليها السبيل إلى الأقطار الأخرى بصعوبة النقل وشدة المراقبة وعسر المعاملة ، فتعذر وصولها إلى البلاد المحاربة ، وقل انتشارها فى الأقطار البعيدة ؛ وشُغل الناس بأخبار الحرب وأفكارها وأوزارها وأطوارها عن النظر فى الأدب اللباب والفن الخالص ، فلم يقرأوا إلا ما يتصل من قريب أو بعيد بهذه القيامة القائمة . ولم يكن للرسالة مناص من أن تتأثر بما تأثرت به الصحف الكبرى فى الأمم العظمى ، فنقصت حجمها بعض النقص ، واقتصدت فى زينتها بعض الاقتصاد ؛ ولكنها واءمت بين الأدب والواقع فجعلت من الأقلام المرهفة أسلحة مشروعة فى هذه الحرب ، تهاجم الطغيان ، وتدافع الجور ، وتؤيد الحق ، وترسم الطريق ، وتهتف بالبطولة ، وتذود عن الخلق ، وتمهِّد للسلام ، وتبحث فى المستقبل ؛ حتى تهيأ لمجموعتها الثامنة من أدب الحرب فى أبواب المقالة والشعر والقصص ما لم يتهيأ مثله للأدب العربى كله فى سابق عصوره

على أننا والحمد لله لا نخشى على (الرسالة) شر الحرب ، فإن هذه الحرب المشئوم أبطلت كل قوة وعطلت كل عدة ما عدا قوة الإيمان وعدة الصبر . وفى انجلترا الصابرة واليونان المؤمنة المثل والقدوة . وما دامت (الرسالة) مؤمنة بآرائها ، مطمئنة إلى قرائها ، فستلوذ بالصبر حتى تنسلى هذه الهموم وتنجلى تلك الكرَب . والشجرة كلما مكّن الزمن لأصولها فى بطن الأرض ضمنت لنفسها الغذاء والرى ، فهى فى الظاهر تخضع لقوانين الطبيعة : تزوى فى الصيف ، وتعرى فى الخريف ، وتقشعر فى الشتاء ، ثم تورق فى الربيع ؛ ولكنها فى الباطن تزخر بالحياة المكنونة فى غصونها القائمة وجذورها النائمة

* * *

لقد كانت لنا فى مفتتح كل عام من أعوام الرسالة شكوى من ركود الأدب وكساد الصحافة وسطوة الأمية ؛ ولكن هذه الشكوى أصبحت اليوم فى جانب ما يشكو منه الناس ضرباً من الدلال والعبث . ليس فى العالم شعب ولا مذهب ولا خُلق ولا نظام ولا عمل إلا وهو الآن فى موضع الشكوى من انقلاب الوضع فيه واستشراء الفساد به . وما شبوب هذه الحرب إلا نُفضة هذه الحمى الاجتماعية التى غيرت معانى الخير فى فهم الإنسان وذوقه وعقله وضميره ؛ فهو يلتمس السلامة والسلم من وراء هذه الحرب فى دين يكمّل نقصه فى الإدراك ، ويقيد طموحه للشهوة ، وينظم علائقه بالجماعة ، وينطوى على قوة ذاتية تضمن له البقاء والنقاء والنماء والتجدد ، فلا يهن على الأحداث ولا يبلى على الزمن . والرسالة تعرف هذا الدين بالعقل وتدعو إليه بالحكمة ؛ فهى فى جهادها الأدبى على ضوء هذه العقيدة منار للطريق القاصد ومنهج للاصلاح الحكيم

إنا نعتقد مخلصين أن العروبة إذا اتحدت كانت بقوميتها أساساً لنهضة الشرق ، وأن الشرق إذا نهض كان بطبيعته أضمن للسلام من الغرب ، وأن الإسلام إذا تجدد كان بسياسته أصلح لإقرار العدل من كل نظام ، وأن الأزهر إذا أُصلح كان بثقافته أهدى إلى تربيتنا من أية جامعة

تلك عقيدتنا جعلناها دعوة الرسالة من يوم أصدرنا الرسالة . والحمد لله قد أبلغناها على الحق وأمضيناها على الصدق فلم نزيِّن المحال ولم نموِّه الباطل . وسيرى قراء الرسالة أنها ، من غير أن تقطع وعداً أو تجدد عهداً ، تسير فى سبيلها الواضحة بقدم ثابتة وخطى متزنة ، فلا تعسف لتضل ولا تسرع لتكلّ ولا تجازف لتنقطع . وإذا كان للرسالة ما تشكره وتُزهى به فتلك معونة الله التى وقتها تمليق الشهوات الحاكمة ، وتحقيق الرغبات المريبة . ولَيزيدنّ الله من يشكره ، ولينصرنّ الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز !

احمد حسن الزيات

هو عيد الميلاد
ولكن أى ميلاد ؟!
للدكتور زكى مبارك

كان من حظ المسيحية أن يبعُد مكانها فى التاريخ ، لتكثر فرص الشعر والخيال حول ميلاد المسيح ، عليه السلام ، حتى جاز لفريق من المؤرخين أن يرتابوا فى شخصية المسيح ، كما ارتابوا فى شخصية سقراط (؟!)

والارتياب فى وجود تلك الشخصية النبوية لا يضر ذلك النبي فى كثير أو قليل ، ولكنه يؤدى إلى غاية لم يفطن لها أولئك المرتابون ، وتلك الغاية هى التحقق من ظمأ الإنسانية إلى نور يُطلّ من علياء السماء . نور جميل جذاب يبدد ما فى الضمائر من ظلمات الجحود

ولنفرض جدلاً أن الرأى ما رأى أولئك المؤرخون ، وأن الإنسانية هى التى ابتدعت ذلك الميلاد ، فكيف اختارت هذا الوقت من السنة وهو طليعة الشتاء ؟

إن الذى اشتغل بالفلاحة يدرك أن الأرض فى هذا الوقت تختلج بقوة وعنف ، وتتهيأ لثمرات العام المقبل بلذة وشوق ، وهى فى « الظاهر » غافية ، ولكنها فى « الباطن » جذوة من اليقظة العارمة والإحساس الفوّار

فى هذا الوقت تنظر الأرض إلى البذور وهى تقول : هل من مزيد ؟

فى هـذا الوقت تستيقظ الأشجار التى جردها الخريف من الأوراق ، ولو شرّحت تلك الأشجار لظهرت عناصر «المُزور» وهى الأثداء التى يرضع من رحيقها الورق الجديد

فى هذا الوقت تُلقى بذرة فتنجح وتلقَى بذرة فتخيب ، لأن الأرض فى هذا الوقت تحيا حياة عَصَبية ، والحياة العصبية لا تعرف التدليل ، فهى لا تقبل من البذور إلا ما يقوى على دفع عوادى البرد والجليد ، ولن يكون الأمر كذلك بعد ثلاثة أسابيع من تاريخ الميلاد ، فحينئذ ترق الأرض وتلطُف فتحضن البذور الضعيفة بترفق واستبقاء

فهل فهمنا الآن كيف اختارت الإنسانية هذا الوقت لتاريخ الميلاد ، على فرض أنه تاريخ مصنوع ، وعلى فرض أن البحث من حيث هو بحث يسمح بالنظر فى الفروض ، بدون اعتداء على مقام المسيح ، عليه وعلى نبينا أفضل الصلوات ؟!

أما بعد فقد كان لى مع هذا التاريخ تواريخ

كنت أحمل باقات الأزهار وطرائف الهدايا إلى مآلف القلوب والأرواح يوم كان لى قلبٌ وروح ، قبل أن تدور الدنيا من حولى بإفكها المرجف وبغيها الأثيم ، وقبل أن أعرف أن شجرة الحب كشجرة الميلاد فيها أوراق صناعية لا تحسّ ما يحيط بها من أضواء وألوان ، ولا تقدر على نقل القلب من مكان إلى مكان

وما أقسى الصحوة من غفوة العقل ! وما أشقى العقلاء !

لو كانت الدنيا أرادت ما أريد فأطالت فى غوايتى لعرفتُها أكثر مما عرفتُ ، لأن الحب المفتون يتغلغل إلى السرائر ، وإن اتُّهم بالغفلة والحمق ، ولأن العاشق الجاهل قد يرى المحاسن قبل أن يرى العيوب ، والتثقيف الصحيح هو الذى يروضك على النظر فى المحاسن قبل النظر فى العيوب ، ولو قويتْ جوارحنا حق القوة لأنِسنا بجميع الوجوه وجميع الأشياء ، ولكننا مع الأسف نتلقى دروس الحياة عن المملولين والضعفاء ، والتلميذ صورة الأستاذ فى أكثر الأحايين

كانت لى غاية من المُشتاق بالحب ، والمُهيام بالجمال ، فما هى تلك الغاية ؟

كنت أرجو الطب للنفوس العليلة التى لا تستريح إلا إلى شكوى الزمان

كنت أسمو إلى خلق البشاشة والأريحية فى صدر هذا الجيل

كنت أحارب النزعة الأثيمة التى تقتل الأرواح والقلوب باسم الوقار والعقل

هل سمعتم بقصة الشيخ خليل ؟

هو رجل من علماء المالكية كان يفتخر بأنه لم يخرج من الأزهر مرة واحدة ليرى النيل ، ولهذا الشيخ أحفاد وأسباط فى العقلية ، وأولئك الأحفاد والأسباط هم السُّوس الذى ينهش عظام الأخلاق ــ إن صحت هذه العبارة المجازية ــ فأخطرُ الآفات أن تَصدرُ النصيحة عن رجلٍ خَمَدَ فعَقل ، لأن الناس يَسِمونه بالعقل ولا يَصِمونه بالجمود ، وكذلك يتلقون عنه درس الموت وهم يتوهمون أنه يدعوهم إلى مزاحمة الأحياء

إلى متى الصبر على هذا الفهم السقيم لمعنى الأخلاق ؟ ومتى ندرك أن الخُلُق من صور الحركة ، وليس من صور الركود ؟

الُخلُق جارحةٌ من الجوارح ، وما سُمِّيت الجوارح جوارح إلا لقدرتها على السيطرة والامتلاك ، فالعين التي لا تجرح ليست عيناً طبيعية ، وإنما هي عين صناعية ، إلى آخر القول في وظائف الأعضاء ، أو منافع الأعضاء ، كما كان يعبّر الأقدمون

ولكن من الذي يسمح بعدَ هذا الكلام دعوة إلى الُخلق الصحيح ؟

وكيف يعيش المتوقرون والمتزمتون إذا استمع الناس لمن يقول بأن الابتسام للحياة من شواهد « العافية الأخلاقية » ؟

إن الشرق مبتلى بالانحراف في فهم الأخلاق ، فهي عنده سلب لا إيجاب ، وهو يفكر فيما يترك قبل أن يفكر فيما يصنع ، والنواهي والزواجر هي عنده الهدف الأول حين يتسامى إلى الاتسام بكرائم الخلال

فما أصل هذا الانحراف في فهم الأخلاق ؟

لعل هذا الانحراف يرجع إلى المعلمين ، وكان التعليم مهنة مقصورة على الرهبان وأمثال الرهبان . فالُخلُق في أذهانهم هو انحسار واحتجاز وانقباض ، ومن هنا يؤخذ المعلم بقيود لا يؤخذ بها غيره من طبقات المجتمع ، لأن الرهبانية مفروضة عليه وإن لم يخطر في باله أنه مشدود إلى حظيرة الرهبانية . هو يحمل أعباء ميراث ثقيل من التبعات والتكاليف ، ميراث يرجع إلى العهد السحيق يوم كان الناس يتوهمون أن كلمة الخير لا تجيء إلا من مصدر مجهول ، ويوم كان « سَدَنة الهياكل » ينتفعون بهذه الغفلة العقلية فيتحدثون من وراء حجاب باسم السماء ، وما تكلمت السماء ، وإنما تكلم ناس مبرقعون ُخلقوا من الوحل لا من الطين ! وبفضل تلك العقلية أنكر قوم أن تكون النبوة من حظ رجل يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، وهي عقلية باقية إلى اليوم ، وإن زعم « ناس » أنهم سلموا من دائها الوبيل

لقد كثر المؤلفون في الأخلاق ، فماذا صنعوا ؟ هل غيّروا ما بنفس الأمة من الفهم المنحرف لمعنى الحياة ؟ هل راضوها على التخلق بأخلاق العصر ، ولكل عصر أخلاق ؟ هل استجابوا لدعوة العزة الروحية والعقلية فخلقوا الشوق إلى مسايرة ما في الآفاق العالمية من الصيال بين الأرواح ، والصراع بين العقول ؟

علم الأخلاق ُيدرس منذ أعوام طوال في معاهدنا العالية ، فأين محصول تلك الدروس ؟

كل ما وقع هو التلخيص لمشكلات أحسها بعض الأخلاقيين في الغرب ، والأخلاق إحساس لا تلخيص ، وفي الشرق مشكلات غير تلك المشكلات ، لأن له أمراضاً غير تلك الأمراض ؛ ومن أمراض الشرق أن تجوز فيه الأستاذية الأخلاقية لناس لم يتمرسوا بمعضلات الوجود

تلك خواطر ساقها ما وقعتُ فيه ليلة عيد الميلاد ، فقد أخلفت موعداً لا يخلفه الرجل إلا وهو مكروب ، وهو موعد يذكر بإخوة له من قبل ، يوم كنت مشبوب الصبوة في مفاتن باريس ، عليها أطيب التحية وأجزل الثناء !

وبماذا اعتذرت ؟ قلت إني أحبر مقالاً لإحدى المجلات ، وهل يصعب الاختراع على من يعايش أبناء هذا الزمان ؟ !

ومضيت وحدي أجوب الظلمات بعد إخلاف ذلك الميعاد ، فراعني أن أجد في قلبي فراغاً عميقاً مخيفاً يذكر بالفراغ المنصوص عليه في بعض الأحاديث ، ففي الآثار أن الجاني قد يهوي في قاع جهنم سبعين خريفاً ، وكان قلبي كذلك ، فلو هويتُ في أعماقه سبعين سنة لما وصلت إلى قرار مكين . وكيف وقد أعفيته من ثورة الوجد في ليلة عيد الميلاد ، فلم ُيمس إلا وهو فضاء في فضاء ، وتلك حال القلب « الخالي » من الأهل ، والوجد أهل ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون !

ورجعت إلى داري بعد لحظات ، وكان في نيتي أن أطوّف بأرجاء القاهرة إلى نصف الليل ، رجعت سليم القلب من الأسواء ولا يسلم القلب من الأسواء إلا وهو عليل ، فالقلب كالطفل ، لا ُيقبل على اللعب إلا في أوقات العافية ، وإن جهل ذلك « علماء » الأخلاق

وأردت أن أطب لقلبي فذكرته بما مرّ في العام الماضي من مكاره وعقابيل ، ودعوته إلى النظر في قصة الصديق الذي كنت أشرب على ذكراه أكواب الدمع ، وهو اليوم لا يذكرني حين يعاقر أكواب الصفاء . وذكرتُ قلبي بإحساني إليه حين جعلت له ماضياً في الصداقة والحب ، فذلك الماضي هو الأحجار التي بنينا بها وجودنا الصحيح ، وجود القلب الخافق والروح المعطوف ، وهو الشاهد على أن حياتنا لم تخلُ من نوازع وأهواء ، وأن لنا تاريخاً في معاقرة الحقائق ومقارعة الأباطيل

فهل وقع هذا المنطق من قلبي موقع القبول ؟

إنه لم ُينكر أنس الرجل بماضيه في الصداقة والحب ، وإن زلزلت الأرض زلزالها فتغيرت جميع المعالم من ذلك التاريخ

ولكنه أنكر الاكتفاء بثروة الماضي ، وإن امتلأ بنمير الذكريات العِذاب ، فما كانت الذكريات إلا ومضة البرق لعين الساري الحيران ، وهي ومضة تزيغ عينيه ولا تهديه ، وهي أيضاً تزيد حقده على ظلم الوجود

وعمدت إلى القلم أثير به معركة أدبية ، فقد كنت أعرف أن قلبي يكتحل بغبار المعارك التي يثيرها قلمي ، فما نفع ذلك بشيء ، وصاح القلب : « هذه ليلة الميلاد ، فأين الميلاد ؟ ! »

أين الميلاد ؟ وكيف ؟

هل يجب أن أولد في هذه الليلة كما ولد المسيح ؟ وهل أولد في كل سنة مرة ، وما ولد المسيح إلا مرة ؟ !

فأجاب القلب في حزم عنيف : يجب أن تولد من جديد في كل لحظة ، لأن المُقام على حال واحد يُفسد مياه الأنهار ، فكيف تراه يصنع بأفكار الرجال !

— ولكن ليلة الميلاد قد ضاعت عليَّ وعليك ، يا قلبي !

— إن ضاعت ليلة الميلاد فقد بقي يوم الميلاد

وفي الصباح هتف الهاتف ـ وهو التليفون كما كان يسميه أهل لُبنان ـ والهاتف روح لطيفة كانت بيني وبينها أشياء ، وقد قدِمتْ من بلدٍ بعيد لتراني يوم الميلاد ، فهتفتُ :

يا قلب يومي ويومك عيد ! !

وخرجنا معاً ، أنا وقلبي ، لاستقبال تلك الروح ، وقد وُلد الهوى من جديد ، الهوى الذي ظلمناه باسم الوقار والعقل ، وطال الحديث وطاب حول ما كنا عليه ، وما صرنا إليه ، ومن شرب من عيون تلك الظبية ما شربتُ لا يقول إنه رآها في يوم الميلاد ، وإنما يقول إنه رآها في أبد الخلود !

وعادت تلك الظبية إلى ضلالها القديم فأمرتني أن أكتب ما يجيش في صدري وأنا في حضرتها السامية ، وهو امتحان أؤديه كلما التقينا ، وحياتي كلها امتحانات ! فامتشقتُ القلم وكتبت :

« باسم الله الذي أقسم بالقلم وما يسطُرون أسجل هذه الكلمات : عُنِيتْ الحكومة المصرية كما عُنِيتْ سائر الحكومات بتدبير معاشات الموظفين ، بحيث يجد الموظف ما يقتات به بعد بلوغ الستين ، ولكن الحكومة نسيت أو تناست أن في الأمة رجالاً لهم خدمات صوادق وليسوا موظفين فليس لهم معاش ، وهم الرجال الذين انقطعوا للصحافة والتأليف ؛ فالأستاذ فلان خدم الصحافة نحو عشرين سنة ثم هدّه التعب ، فهو اليوم يعاني البطالة والمرض بلا عائل ولا معين . والأستاذ فلان أخرج طائفة من المؤلفات الجياد ، وكان يعيش عيش الفقراء من تلك المؤلفات ، وهو اليوم لا يقدر على التأليف ، فهو في فقر مُدقع ولا يسأل عنه أحدٌ من أصحابه القدماء . وفلان كانت له سابقة في الابتكارات الأدبية ، وهو اليوم مُعْوِز لا يجد القوت الطفيف . وفلان قضى شبابه وكهولته في التدريس بالمدارس الحرة ثم قصمه المرض فخرج بلا معاش وله أطفال يصرخون من الجوع في كل صباح وفي كل مساء »

وعند هذه الكلمة شرقتُ بدموعي ، وكاد صوتي يرتفع بالنحيب ، فصاحت الظبية :

— تبكي وأنا معك ؟ هل تقصَّ ما كان بيني وبينك ؟ ويلي عليك وويلي منك ! !

— نعم ، يا شقية ، هي قصة حبي ، فدعيني أدوّن كل شيء ! ثم مضيت فكتبت

« والدولة التي تنفق ما تنفق على مختلف الشؤون لا تذكر أن في مصر كتاباً وشعراء وباحثين أعجزهم المرض عن السعي في سبيل القوت ، ولهؤلاء آثار ظاهرة أو خفية في نهضة الأمة وقد يكون لهم تلاميذ — ولو بالفكر — من بين كبار الوزراء فما الذي يمنع من أن تفكر الدولة في حماية هؤلاء من قسوة الاحتياج »

ثم سكتُّ ، فقالت الروح : هل وصلتَ في مكايدتي إلى ما تريد ؟

فقلت : ستعلمين بعد لحظات ! ثم كتبت :

« قد يقال إن الدولة لا تستطيع معاونة أهل الأدب بصفة رسمية ، لأن الأدب ليس له رسوم ولا حدود ، وهو مباح الحُرُمات يدعيه من يشاء ! وأجيب بأن الدولة تستطيع أن تجعل الفصل في هذه القضية من اختصاص مدير الجامعة أو وزير المعارف ومن المفهوم أن هاتين الجهتين لهما دراية صحيحة بأقدار الأدباء والباحثين ، وأنا أرضى بأن ترصد الدولة مئتي جنيه فقط في كل شهر لعشرين رجلاً من هؤلاء ، فإن استجابت الدولة لدعائي فقد

ترفع عن كاهلي عبئاً ثقيلاً جداً ، هو عبء التفكير في أدب كانت له جولات موفقة في ميدان البيان ، وإن كان من ألد خصومي »

وغلبني الحزن فبكيت ، فقالت الروح : يظهر أنني دللتك أكثر مما يجب ، فعدت أسرع من الأطفال إلى البكاء !

فاستمهلتها لحظة وكتبت :

« والدولة مع ذلك ... »

ثم فكرت قليلاً وكتبت .

« والدولة التي تترك بعض الأدباء يموتون من الجوع هي الدولة التي تمن علينا بأنها أنشأت وزارة للشؤون الاجتماعية ! »

ثم ؟ ؟ ثم أحسست يداً تصدني عما أكتب بقسوة وعنف ، فعرفت ، أني في حضرة تلك الروح ، وأن المقام لا يسمح بمثل هذا الكلام الحزين

— ماذا قلت فيّ ؟

— قلتُ إنك غبية وحمقاء !

— أنت وحدك النبيّ ، وأنت وحدك الأحمق !

— هذه كلمة حق ، لأني قضيت عشرين سنة في خدمة أمة لا تعرف أن القلم له حقوق

— وما شأن القلم فيما بيني وبينك ؟

— القلم هو الذي يجرني أحياناً إلى محاورة الحمقى لأدرس الغرائز والطباع !

— Ça suffit ! Ça suffit !

— ليكن ما تريدين ، أيتها الروح ، فإشارتك أمرٌ يطاع أما بعد ، وسيطول شقائي بأما بعد !

أما بعد فقد حدثني الشاعر حافظ ابراهيم مرات كثيرة أنه كان يتمنى الاتصال بقصر جلالة الملك ليكون سفيراً بين القصر الرفيع والأدب الرفيع

وقد مات حافظ قبل أن يظفر بتحقيق تلك الغاية ، ولم نسمع أن رجلاً فكّر فيما فكّر فيه حافظ ، ولم يصل إلينا من قُرب أو من بُعد أن ناساً يسرّهم أن يكون للأدب حظ من الرعاية والتشريف بقصر المُلك ، مع أننا في عصر فاروق بن فؤاد بن اسماعيل

لقد شق قلمي في الدعوة إلى أن يكون للأدباء مكان في الحياة الرسمية ، لأنهم عنوان الحياة وزينة الوجود ، ولأن آثارهم هي الباقيات الصالحات فوق جبين التاريخ .

* * *

ثم انتهى الحُلم ، حُلم اليقظة في يوم الميلاد ، ورجعتْ تلك الروح إلى بلدها البعيد ، وبقيتُ حيث كنت أعاني بلاء الهجر وعناء الصدود

أيها البلد الذي لا أسميه تخوفاً من الرقباء !

فيك أيها البلد الجميل روحٌ لطيفة يصلني بِرها من وقت إلى وقت ، فيك روح لا تحتفل بعيد الهِجرة ولا عيد الميلاد ، ولكنها تذكرني في عيد الهجرة وعيد الميلاد ، لأنها تشعر باحتياجي إلى البِر في مواسم الأرواح والقلوب

أيتها الروح ، أنا مشتاق إلى مصدر الوحي ، فمتى تعودين ؟

أنا في دنياي غريب ، أيتها الروح ، وأنت البَلسم الشافي لوحشة الغريب

هو عيد الميلاد ، ولكن أي ميلاد ؟ هو ميلاد الحب الصادق ، فتلك أول مرة مسحتِ فيها دموعي بأناملك اللطاف ، يا حجتي الباقية على أن الهوى إلهٌ معبود .

زكي مبارك

الرسالة في سنتها التاسعة

على الرغم من استحكام أزمة الورق ومواد الطباعة وارتفاع أثمانها الى عشرة أضعاف ، ستستمر الرسالة على نظام العام السابق من التخفيض والتقسيط والاهداء مع المشتركين القدماء . أما المشتركون الجدد فيؤدون الاشتراك كاملا مقسطاً أو غير مقسط . ومن المقرر أن المشتركين القدماء لن يتمتعوا بمزايا الاشتراك المخفض الا اذا بدأوا اشتراكهم من نصف ديسمبر الى آخر يناير سنة ١٩٤١ ، ولن يمد الأجل بعد ذلك .

٢ – أومنُ بالإنسان !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

الطبيعة تنتظر — عالم جديد من الفكر والحديد — حيوانات ووحوش حديثة — قدرة الفكر — الثقة بالانسان — كنوز مدخرة — حياة مريضة

كل شيء فى الطبيعة يبدو عليه أنه ينتظر غاية الحياة الإنسانية ... ويبدو على الإنسان كذلك أنه ينتظر غاية مجهولة فى حياته على الأرض ...

كل شيء ينتظر بلوغ الإنسان إلى غايته ، كما ينتظر كبار البيت بلوغ طفل عزيز ...

وكل شيء فى البيت مسخر للطفل : يضحك له إذا ضحك ، ويألم إذا تألم ، وتمرض أمامه دواب البيت وحيوانه ودواجنه ولعبه

وهكذا الطبيعة أراها تنتظر صابرة غير متململة أن يسير هذا الطفل الإلهى ويهتدى إلى الطريق المقصودة المرصودة ... وهو لا يزال يتعثر ويذهب ذات اليمين وذات الشمال ويرتد وينتكس ويعترك ويحترب ويخلد إلى تراب الطريق يعبث فيه فى ذهول وغفلة ، لا يعرف كيف يمد بصره إلى حدود الأفق البعيد الذى يناديه : أنظر إلىّ دائماً ، واضرب بيديك ورجليك فى العقبات والسدود حتى تصل

وكان لعبثه وتلبثه عذر فيما مضى أيام كان يدور على نفسه وسط المبهمات والألغاز ، وأيام كانت طريق حياته بهماء معتمة تلفها جهالات وتحيط بها أهوال ... كل ما فيها غامض مغلق ، سواء أكان جامداً أم حياً أم صائتاً أم ناطقاً أم ساكتاً ... فهو لا يرحم سائلاً ولا يجيبه ...

كهوف وأغوار ورياح مجهولة المهابّ ، وأمطار غير مدفوعة بتدبير ، وصرخات وحش وطير وبهائم ، ونجوم تطلع وتغور ، وشمس تشرق وتغرب ، وجبال واقفة لا تريم ولا تزول ، وما لا عدد له من الأهوال والأحوال . ولكنه الآن راكب الريح والماء والأثير وطاوى الأرض فى خطفات ، ورائد السماء بالمقربات ، وكاشف الجن المستور بالمكبرات ، وقايس أبعاد النجوم وأضواءها بدقيق المقايسات ، وصانع الحيوان والوحوش الحديدية من السيارات والدبابات والمدافع والطائرات والماخرات والغائصات ، فلا يليق به أن يصر على العبث والزحام على التراب بعد رأى الكنوز فى كل أفق تتفتح لعينيه

وكان قدراً مقدوراً أن تبقى العناصر والحيوانات خادمة له حتى يبلغ أن يستغنى عنها بما يصنعه تقليداً لها ومحاكاة لنماذجها ... فحين عجز الحصان وضاقت طاقته عن إشباع شهوة السرعة عنده ركب آلات سرعتها كذا ألفاً من الأحصنة ... وحين عجز الزيت والشمع عن إشباع شهوته للضوء صنع مصباح الكهرباء فأضاء له بقوة كذا ألفاً من الشموع ... وحين هدد بفناء أقواته ولباسه ابتدأ يركب أقواته من العناصر التى يتركب منها النبات واللحم ... وصار يصنع الصوف والحرير من اللبن والخشب ... وصار يأخذ الزبد والدهن من الماء ... بعد أن يحلل ويعزل ويطهر بالترشيح والتبخير والتكثيف كما ترفع الشمس والهواء النازات والأمواه المقطرة من الأبوال والأقذار وتعيدها إلى الأرض صالحة فى دوراتها الأبدية ...

وقد رصد لكل قوة فى الطبيعة مقياساً يقيس قوتها ويبين اتجاهها حتى يحترس منها ويتقى وينتفع ... فللأمطار مقياس ، وللضغط الجوى مقياس ، ولاتجاه الرياح مقياس ، وللزمان مقياس ، وللمكان مقياس ، وللحرارة والرطوبة وغيرهما مقاييس

وأظنه بهذا قد وضع عينه وفكره على حركة كل شيء واتجاه كل شيء فى المادة . وذلك كله بمثابة خيوط الشبكة الحديدية التى ابتدأ يطارحها على قوى الطبيعة التى تنفعه أو تضره فى مرافق حياته ... وهذه الأرصاد التى أرصدها لا بد ستنتج له عالماً فكريًا جديداً يسلم روحه إلى عالم خلق جديد

وأعتقد أن هذه الحرب ابتداء دورة زمنية بالإنسان وبتوالم فكره وروحه وجسمه . فليرصد الراصدون ذلك فى يقظة وانتباه

أجل ، إنه عالم جديد من الفكر والحديد ... الفكر المطلق البارد القانص لأسرار المادة والقوة ... والحديد الطائع البليد القاسى المتمم لإرادات الرجال ... الذى وجد فيه القلب الإنسانى أعظم معبر عن بأسه وتصميمه فى اختراق السدود فصهره وشكله بنار عزمه قبل أن يصهره بنار كيره ويشكله بمطرقته

ولقد ضمرت أظفار الإنسان منذ أن اعتمد عليه . وكان كشفه مبدأ انقلاب فى حياته ، والآن يبتدئ به انقلاباً أعظم بعد أن سلط عليه خياله وعلمه وصار يطير به ويزحف ويدفع ويجر

وهل تظنون أن هذه الأهوال التى يشهدها الإنسان الآن لا تترك فى نفسيته آثارها المحتومة فتخلقه خلقاً آخر ؟

أتظنون أن قلبه وفكره لا تغيرها رؤية هذه الطرق الحديثة في البناء والإفناء والهدم والسرعة والانقضاض والحشد والتعبئة ومباشرة هذه الوحوش والحيوانات الحديدية ؟

إن من شهد تغير العالم بعد الحرب العظمى التي أظهرت قوة الآلة واختفى وراءها الإنسان يوقن أنه ستختفي بعد هذه الحرب أشياء وتظهر أخرى ...

وأخشى ألا يقام للحياة الفردية بعد هذه الحرب وزن بعدأن رأى الفكر أن ملايين من الجماجم والقلوب البشرية تسحق وتحرق بجمهور النار ... وملايين من المعابد والمعاهد والمنازل المقدسة العامرة بالتحف ومخلفات العلم والفن والجمال تنسف وتذرى في الريح هشيما وهباء ودخاناً

لقد احترق الإنسان الأوربي مع جميع ما جمعه من الذهب وأقامه من البيوت والمحاريب والتماثيل ...

ولقد اختفت روح الحياة الرفيقة الوديعة الماثلة في اللحم والدم والأعصاب والإحساس وابتدأ عالم جديد من فكر مجرد غير مصحوب بإحساس

وقد لبس الفكر أجساماً من المادة العمياء، وكأنه قد انفصل عن الأجسام الإنسانية، واختبأ واستتر في السيارة المصفحة والدبابة والطائرة . وصار يدب ويطير بهذه الأجسام الحديدية كأنه هو والحديد الذي يختفي فيه جسم واحد . فهو للآلة كالروح والعقل في الجسم الحي . وقد صنع للآلات أحشاء فيها حرارة ونبض، ولكن ينقصها السر الإلهي الذي في « الأميبة » ذات الخلية الواحدة، ويخيل إلى أن الإنسان هو ذلك السر الإلهي لتلك الحيوانات الحديدية

وحين قصرت دواب الأرض التي سخرها في خدمته عن سرعة عقله صار يبحث عن القوى المجردة كالكهرباء ويلبسها أجساماً من الجماد، ويسيرها بها بطاقة عظيمة مصحوبة بفكره وتسديده . فترى السيارة الآن تحيد عن العقبات بأسرع مما يحيد الحصان عنها . فهي أطوع للانسان من الحصان، لأنها ترى بعينه وتتحرك بسرعة فكره

والفكر المجرد طليق في غير حدود . والوجدان والإحساس مقيدان في حدود الأذواق والمشاعر . فإذا لم يصحب الفكر بالوجدان والإحساس اخترق الإنسان به الآفاق في سرعة فائقة كأنه شعاع ثاقب، بل هو أسرع من الشعاع . بل ليس شيء أسرع من الفكر

ولقد يخيل لفكر الإنسان أنه يستطيع أن يضع يده في النار فلا تحترق، ويمشي برجليه على الماء فلا يغرق، ويسلم جسمه للريح فيطير، وينظر بعينه وراء السدود فيرى ما وراء الآفاق . فالفكر لا يرى كل أولئك مستحيلاً ... ولكن الوجدان والإحساس يقيدانه بالحدود الموضوعة للمادة، ويهددان الجسم بالألم إذا لم يعترف بهذه الحدود والقوانين

وقد خيل الفكر لبعض السفسطائيين اليونانيين قديماً أن كثافة الأجسام وهم من الأوهام، وأقام الدليل النظري لمارضيه على ذلك، فتحدوه أن يخترق بجسمه الجدار الذي أمامه، فقام واندفع إليه بقوة، وكانت النتيجة المحتومة: تحطم جسده وفدخ رأسه ...

إن فكر السفسطائي لم يخطئ في توهمه استطاعة اختراق الجدار، ولكنه أخطأ حساب الوجدان والإحساس . والحقيقة أن الفكر لا حدود له ما دام يسير وراء القوانين الطبيعية ... فلقد استطاع أن يخترق الجدران والجبال بالصوت والصورة والحركة حين خضع للنواميس الطبيعية فخضعت هي له كذلك .

ولست أدري أقريب أم بعيد ذلك اليوم الذي يستطيع الإنسان فيه أن يخترق الأجسام بالأجسام مع وجود الالتئام وعدم الصدام، وأن ينقل الأجسام من مكان إلى مكان كما ينقل الصور والحركات والأصوات، وبالسرعة ذاتها التي يجري بها هذه المعجزات . . .

إن الثقة بالعقل الإنساني بعد أن فعل ما فعل في تغيير الأرض ينبغي أن تكون من البداءة للانتفاع بها في بناء الحياة الجديدة ...

وكما آمنا بعلم الطب لتنظيم حياة الأجسام ينبغي أن نؤمن بعلم النفس لتنظيم حياة الأرواح

وقد كان الإنسان في الحقب السابقة منزوع الثقة بنفسه لكثرة ضغط عوامل الطبيعة عليه وكثرة العقبات التي تعترض سبله وتجعله يشعر بحقارته وضعفه وسط عظمة الأسباب والقوى الطبيعية ...

ولكنه بعد أن تمكن من صنع كل شيء لنفسه والانتفاع بأكثر القوى، والمناعة ضد الأوباء والطوفان والقحط والصواعق يجب أن يكون إيمانه بعقله إيماناً أصيلاً ليصنع به مستقبله صنعاً يريحه ويرقيه ويجعله يتفرغ للفكر فيمن خلقه قادراً هكذا . . .

الأزهر وبعثاته العلمية

للدكتور محمد البهى

حقاً — كما يقول صديقى الفاضل الأستاذ محمود الشرقاوى فى عدد الرسالة الأخير (٣٩١) تحت عنوان « الأزهر وبعثاته العلمية » — أن الأستاذ الأكبر المراغى كان جريئاً يوم أرسل بعثة « فؤاد الأول » إلى أوربا عام ١٩٣٥ ، وأن سعادة عبدالسلام الشاذلى باشا كان جريئاً أيضاً أو أشد جرأة يوم أرسل من قبل بعثة الإمام محمد عبده سنة ١٩٣١ لأنه أرسلها فى وقت كان الأزهر ممثلاً فى شخص شيخه السابق ضد فكرة إرسال البعوث من الأزهر إلى أوربا . ولولا لباقة الشاذلى باشا فى أن أتاح لعضوى بعثة الإمام محمد عبده التشرف بمقابلة جلالة الملك الراحل ، الملك فؤاد، والاستماع إلى رغباته السامية فيما يجب أن يكون عليه الأزهر لخلد ذكرى الإمام بشىء آخر غير بعثة أزهرية توفد إلى جامعات أوربا لتربط ثقافة الشرق الماضى بثقافة العصر الحاضر .

وكان الشاذلى باشا جريئاً ، وكان الأستاذ الأكبر المراغى جريئاً كذلك فى إرسال هذه البعوث الأزهرية إلى أوربا ، لأن ذلك منهما اعتراف بحاجة الأزهر إلى توجيه جديد فى البحث والتفكير ، وفى الوقت نفسه اعتراف بجمود الثقافة الأزهرية ووقوفها عند حد معين لا تتجاوزه وهو ما وصل إليه المسلمون إلى القرن الخامس عشر تقريباً . والاعتراف بهاتين الحقيقتين فى وقت يسيطر فيه على العقلية الأزهرية مبدأ « لم يترك الأول للآخر شيئاً » ، وتسيطر فيه كذلك فكرة « الكتاب » فى الدرس والبحث لاشك أنه يحتاج إلى جرأة وإلى جرأة كبيرة .

وكان حقاً أيضاً أن يسأل صديقى الفاضل الشرقاوى عن إنتاجنا العلمى وأن يحاول شرح « عدم إنتاجنا » — إن وصل إلى ذلك — بما ذكره : « إلى أن نرى أثركم وإنتاجكم وتجديدكم وما جعلتم فى الأزهر من بيئة علمية جديدة وثقافة جديدة وحرية جديدة فى البحث . سنقول إنكم لم تفيدوا شيئاً مما تعلمتم ولا تميز لكم على من لم يبعث ولم يدرس فى جامعات أوربا أو أنكم لا تجدون من أنفسكم شجاعة ولا قوة لكى تكونوا منتجين ولا مفيدين »

وهذا الذى يسأل عنه الصديق سألنى عنه كثير من إخوانى ومعارفى فى غير البيئات العلمية ، فى وزارة الخارجية ؛ ولكنهم فقط لم يواجهونى بما حاول أن يجيب به الأستاذ الشرقاوى . وبالرغم من ذلك كنت أشعر أنه يتردد فى نفوسهم

* * *

صحيح أننا لم ننتج بعد إنتاجاً جامعياً يتمثل فى تأليف يقوم البحث فيه على الاستقلال فى التفكير وعلى إبداء رأى خاص فى مشكلة من مشاكل العلم الذى تخصصنا فيه ، حتى يدمج

إن الإنسان يأتى بأعمال عظيمة فى صميم غايات الحياة وهو عنها غافل لا يدرك ماذا تكون نتائج عمله فى مستقبله ومركزه .

وإن مصانع « فورد » مثلاً تخرج فى كل ثانية واحدة سيارة كاملة ! هذا جبروت وملكوت إنسانى واسع يتفتح أمام عيون الراصدين لحركات الابن البكر للأرض !

فهذه السيارات حيوانات حديدية تولد كاملة من أصلاب المصانع وأرحامها ولا تحبو ولا تدرج ببطء الطفولة وإنما تسير بسرعة الفكر الإنسانى كما قدمنا فى هذا المقال ...

وهى وأشباهها مما نتج من اللقاح بين الفكر والحديد قد ملأت الأرض وأذلت دولة الخيل والبغال والإبل ، وصيرتها أشياء أثرية يوشك الناس أن يحتفظوا بها فى المتاحف أو حدائق الحيوان ...

* * *

فى كل ذرة رمل ، وقطرة ماء ، ولمعة شعاع ، وخفقة نسيم ... كنز مدخر لمستقبل الإنسان على الأرض ...

فليعرف ذلك الذين يشكون الفقر وشح الموارد الطبيعية . أولئك الذين يثيرون الحروب من أجل الطمع والاغتصاب « أن تكون أمة هى أربى من أمة » وليسلموا قياد الإنسانية لعلماء الطبيعة الذين يضربون معاولهم على كل منجم فى الأرض والماء والهواء والشعاع

ولتأخذ الحياة عريضة ؛ بالانتفاع بكل ما فى الأرض ، وباستعمال جميع قوى الإنسان والجماد والحيوان ، وباستخراج كل كامن من النبات والركاز ، وباستنزال كل معلق من الشعاع والماء والهواء وبتوليد كل ما يمكن أن يولد من العناصر والقوى ، وبوضع كل شىء أمام كل شىء لينشأ من الأوضاع المختلفة التى لا عدد لها حيوات جديدة معقدة لا عدد لها ، يترقى بها الفكر والحياة ويغزر فيضهما وترحب بها آفاق النفس ، ويظهر لنا بعدها أن الكون ملىء بالأسرار وكلمات الله التى لا تنفد .

عبد المنعم خلاف

هـذا البحث ضمن البحوث العلمية فيكمل ناحية نقص فيها — وذلك طبعاً غير التأليف المدرسي ، فقد أخرجت من هذا النوع ثلاث مذكرات : في الفلسفة الشرقية ، وفي الفلسفة الإسلامية ، وثالثة في علم النفس العام (بالاشتراك مع الأستاذ عبد العزيز عبد المجيد في هذه الأخيرة) — . ولـكن ليس عدم إنتاجنا الجامعي راجعاً — كما يقول الأستاذ الشرقاوي — إلى أننا لم نفد شيئاً ممـا تعلمنا في أوربا ، ولا إلى أننا لم نجد من أنفسنا شجاعة ولا قوة لـكي نكون منتجين ولا مفيدين ، بل يرجع إلى حالة أخرى خارجة عن معرفتنا وشجاعتنا ؛ يرجع إلى بيئة الأزهر العلمية

الأزهر يغاير الجامعة في أن بيئته العلمية لم تتهيأ بعـد (تمام التهيؤ) للأبحاث العلمية الحديثة ، للأبحاث الجامعية . لأن هذه تقوم أولاً على حرية النقد ، وهذا معناه عدم منح القداسة لبعض المواد دون بعض . وثانياً على عدم التقيد « بالـكتاب » كمصدر للبحث ومقياس للحقيقة . والأزهر — في الواقع — يسير في أبحاثه على منح القداسة لبعض المواد دون بعض — وإن كان بينها شديد الشبه من وجهة البحث — وعلى التعلق بمبدإ الكتاب . نعم مناهج التعليم لا تنص على كليهما ولـكنهما من الأمور المتوارثة التي أصبح لها حرمة المبادئ العامة . وليست العبرة في ملاحظة الظواهر بما يقوله المنهاج ، ولـكن بما تتبعه النفوس

فمثلاً يفرض منهاج التعليم في الأزهر تدريس الفلسفة ، وأزيد من هذا يجعلها مادة أساسية في كلية أصول الدين ؛ ولـكن الفلسفة في نظر كثير من الأزهريين ما زال منها « الفاسد » ، وهو أكثرها ، و « الصحيح » ، وهو أقلها . وما زال كثير منهم يخفي في نفسه الضغينة للفلسفة والفلاسفة ويضعها في مرتبة دنيا عن عالم الـكلام ، مع أن هذا الأخير يشارك الفلسفة الإلهية في الموضوع وفي الغاية ، وهي محاولة تحديد الإله أو مبدإ الوجود وعلاقته بالكون وبخاصة بالإنسان . ومع أن الفلسفة الإغريقية التي نقلت إلى المسلمين كانت سبب تراثه ونمائه . هذه التفرقة أثر متوارث عن الغزالي ؛ فكتابه « إحياء علوم الدين » قد أصبح منذ القرن الثاني عشر إلى الآن صاحب الـكلمة في التوجيه الديني وفي تحديد علاقة البحث العقلي بالدين.

والغزالي هو صاحب « تهافت الفلاسفة » ؛ وهو صاحب الرأي :

بثلاثة كف الفلاسفة العدا . . . .

ومجومه ضد الفلسفة كان السبب غير المباشر في اختلاف الرأي في جواز الاشتغال بالمنطق — وهو فرع من الفلسفة — أو عدم جواز الاشتغال به أو الترديد بين الحرمة والجواز :

فابن الصلاح والنواوي حرما وقال قوم ينبغي أن يعلما

والقـولة المشهورة الصحيحة جـوازه لـكامل القريحـة

فمنهاج التعليم العالي في الأزهر وإن فرض تدريس الفلسفة إلا أنها لا تتمتع بقداسة ولا احترام كما يتمتع علم آخر كعلم الـكلام مثلاً

وكما أن مبدأ « قداسة » بعض المواد دون بعض يسود التعليم في الأزهر ، كذلك مبدأ « الكتاب » إذ أن « مدرس الموضوع » لم يخلق بعد في الأزهر وإن كان في طريق الخلق والتكوين . فالحقائق العلمية في مادة من المواد مصدرها كتاب معين بالذات ، والتمكين في الخلافات العلمية ومشاكل البحث لم يزل إلى كتاب مخصوص . ولعل مبدأ الكتاب فرع عن مبدأ القداسة لأنها إذا منحت لـمادة من المواد قد تتعداها لأمر ما ، إلى مؤلف بالذات فيها

وبيئة مثل هذه البيئة التقليدية لا تقبل طبعاً بسهولة نتائج البحث العلمي الحديث لأنها قد ترى فيها ما يجرح عاطفة عندها تحرص على صيانتها . وعلى صاحب البحث الجامعي قبل أن يبرزه إلى الوجود أن يهيئ النفوس له بالتوجيه تارة ، وبالنقاش فيما ألفته وصانته حتى الآن عن النقاش تارة أخرى ، وإلا كانت نتيجة بحثه الجامعي سلبية محضة ، وكان شأن هذا الباحث شأن القانون الذي فرض مادة في منهاج الدراسة لم تهيأ لقبولها النفوس بعد في الإهمال وعدم الاعتبار

وهذه التهيئة كانت ـ وما تزال ـ من مهمتنا ؛ وهي مهمة ليست يسيرة . كم كان شاقاً ما صادفني من صعاب في العام الماضي عند عرض فلاسفة المسلمين ! فكانت نفوس الطلاب متشوقة أولاً وبالذات إلى سماع الحـكم عليهم بالإسلام أو بالـكفر . ولم أفلح إلا بعد جهد مضن في إقناعهم بالفصل بين القيم المختلفة ، وفي أن مهمة مؤرخ الفلسفة الحـكم على الفيلسوف من ناحية إنتاجه العقلي فحسب

من ذكريات أوروبا

باريس الصغيرة

للأستاذ أحمد فتحي مرسي

لم يكن من بد أن نكتب عن باريس الصغيرة بعد أن لحق بشقيقتها الكبرى ما لحق من نكد الحياة ، وعنت الزمان ، ما جعلها تشيع زمان اللهو والغفلة ، وتستقبل زمان الجد والحذر والحرص ، وبعد أن نالها ما هي الأخرى أو كاد أن ينالها ما نال أختاً لها من قبل فتكاثفت عليها أزمات السياسة ، وضائقات الحرب ، ونكبات الطبيعة ؛ وآن لهذه الوجوه التي لم تتقبّض أسرّتها إلا من الضحك أن تتقبّض يوماً من الجد والحزن والتفكير ... وإذا كانت باريس قد لقيت من أقلام المحبين والمعجبين والمحتفين بها الكثير من كلمات الرثاء والعزاء والذكر ، فلا أقل من أن نشيّع الشقيقة الصغرى بكلمة أو كلمتين

وباريس الصغيرة ، أو باريس شرق أوربا كما اصطلح على تسميتها عارفو الباريسيين هي مدينة بوخارست حاضرة رومانيا ، وليس في هذا الاسم إغراق أو مغالاة ، فبين المدينتين تشابه كثير ، فأحياء بوخارست الجديدة تشبه أحياء باريس ، وحياة اللهو والمجون في بوخارست تعدل حياة اللهو والمجون في باريس أو هي تزيد عليه ، ونساء بوخارست متحرّرات عابثات كنساء باريس مولعات بتقليد الباريسيات في التأنق والتجمل إلى حد بعيد ، وإن كن أجمل منهن وآنق . وكما أن باريس هي مدينة المرح والحياة ومحط آمال الشباب في غرب أوربا ، فبوخارست هي مدينة المرح والحياة ومحط آمال الشباب في شرقها . وإذا كان شباب أوربا يستقبل الموت اليوم في محور « روما برلين » فقد استقبل الحياة من قبل في محور باريس بوخارست ... حتى نهاية المدينتين - يشاء القدر أن تكون متشابهة - فكما تعتز المرأة الجميلة بشبابها وجمالها وتحرص على صيانته ، وتحذر أن يمسه سوء ، كان ما فعلت الباريستان ، فسلمتا طائعتين مختارتين حذر أن يمس جمالها من الحرب سوء ، أو يناله في الدفاع أذى .

* * *

هبطت مدينة بوخارست من عام وبعض عام ، وكنت قبل سفري تتناثر حولي عن عبثها ومجونها أقوال أصدقاء لي زاروها من قبل ، فلم أكن ألقي إليهم أذناً صاغية ، وأحسب أن بكلامهم الكثير من مبالغات الشباب وخياله . ثم حدثتني عنها أديبة بولندية قابلتها في أثينا ، فكنت أيضاً كثير الشك في كلامها ، وكان يعزز هذا الشك في رأسي أن بوخارست — وإن كانت مدينة أوربية — إلا أنها أقرب إلى الشرق منها إلى الغرب ، فليس ثمة ما يجعلها تختلف عن نظيراتها من مدن شرق أوربا كاستنبول وأثينا وصوفيا . فلما ركبت القطار من ميناء كونستنزا — وهي مرفأ روماني — في طريقي إلى بوخارست ، حدث ما جعلني أصدق ثم أصدق ما قيل ، بل حدث ما جعلني أرى أن فيما سمعته عن هذه البلاد الكثير من القصد والإيجاز ، لا المبالغة والإغراق

كان القطار مزدحماً فوقفت في الممشى أتلهّى بالنظر من النافذة ، ثم أخذت أذني في أقصى الممشى ضجة ، فتلفت فإذا شاب بدا لي من وجهه أنه تركي — مقبلٌ عليّ وقد تحلقت به خمس فتيات — أستغفر الله — بل خمس فاتنات ، إي والله خمس — وهو يسير بينهن في هيئة العروس أحاطت بها وصيفات الشرف ، يجذب هذه ، ويقبّل تلك ، ويعانق الثالثة ، وهن يتضاحكن من حوله ، ويتجاذبنه من سترته ! فلما بلغني هذا

على أن الإنتاج العلمي الجامعي كما هو وليد القدرة على الإنتاج وكثرة الاطلاع وهضم المقروء وليد الزمن أيضاً . وبذا يفترق عن الإنتاج الصحفي أو الإنتاج المدرسي . ونحن نطمئنك أيها الصديق برغم عدم هذه التهيئة الكافية في بيئة الأزهر العلمية لقبول الأبحاث الجامعية ، وبرغم هذه الصعاب التي نلقاها في التوجيه ، على أن « بيئتنا العلمية » في نمو ، وعلى أن لنا في جمهرة الطلاب وفي كثير من الشبان المدرسين أعواناً مخلصين ، وعلى « أن لنا أسلوباً خاصاً ونقصد في دراستنا وفي إنتاجنا وفي توجيهنا التعليمي مقصداً خاصاً يقوم على حرية البحث ، وقداسة الفكر ، والشجاعة في مواجهة ما نلقى من عنت » . . . ونطمئنك أكثر من هذا على أننا قطعنا في إنتاجنا الجامعي خطوات عديدة . وكل ما نرجوه ، حتى يبرز هذا الإنتاج إلى الوجود ، هو توفيق الله .

محمد البهي

مدرس علم النفس والفلسفة

بكلية أصول الدين

الموكب المرح ، حيّانى الشاب ضاحكا ، وجعلت الفتيات يحدقن فى وجهى طويلاً ثم قالت إحداهن :

— هذا تركى آخر

فقالت أخرى :

— بل هو مصرى

وقالت ثالثة ضاحكة :

— أما تجيب أيها التمثال ؟

ثم تضاحكن وانصرفن عنى ضاحكات

بمثل هذا العبث والمرح تقابلك الفتاة الرومانية ، فهى دائماً باسمة مرحة ، تنازلك إذا لم تنازلها ، وترميك بالجمود إذا لم تسايرها فى مرحها . وحسبك أن تعلم أن أول ما يتعلمه الأجنبى فى بوخارست من اللغة الرومانية — وهى لغة تشبه الإيطالية إلى حد — هى كلمات : « جميلة . إلى أين يا فتاة . ما هذا الجمال النادر » وما شا كل ذلك من كلمات المعابثة والمنازلة . وكثيراً ما كنت أخطئ فى نطق هذه الكلمات فكانت تصحح لى النطق بها من أعابثها من الفتيات فتقول لى مثلاً : « فورمواسا (أى جميلة) وليس فورموزا . انطقها هكذا فورمواسا بحرف « S » إنك لا تحسن النطق . اصحبنى لأعلمك »

فإذا بدا لك أن تكون رجل جدّ واتزان ، أخذن يثرنك وينازلنك ، ويتشبثن بأذيالك أينما رحت ، بل يمسكن بك فى الطريق ، فإذا ألطفت بإحداهن ودعوتها إلى نزهة أو طعام لبتك طائعة دون روية أو تريث أو تفكير ، وسايرتك فى كل ما ترغب ، فهى سهلة القياد لا تعرف المعارضة !

وفتاة بوخارست اجتماعية بكل ما تحتمل الكلمة من معنى . قلما تراها تسير وحيدة ، فإذا لم تجد من تزامله زاملت من تصادفه فى الطريق . وهى فى ذلك تتخير أتفه الأسباب للتعرف ، ثم تضع يدها فى يدك ، وتطرح التكلف والملاينة جانباً ، وكأنها تعرفك من سنين ... حدث مرة أن كنتُ جالساً فى مقهى فى شارع اليزابيتا ، فدنت منى فتاة جميلة ، ثم سألتنى إن كنت مصرياً ، فلما أجبتها بالإيجاب أخرجت ورقة وقلماً وسألتنى أن أكتب لها اسمها باللغة الهيرغليفية . فقلت لها : « إنها لغة قدماء المصريين وقد اندثرت ، ولغتنا الآن هى العربية » فقالت : « إذن فلتكتب اسمى بالعربية » فكتبته لها ، ولكنها بدل أن تنصرف جعلت تتعجب من الخط ، فلم أجد بداً من دعوتها للجلوس فأسرعت بالقبول ولم تقم حتى دعوتها للعشاء فى اليوم التالى ... ومثل ذلك يحدث للمرء مرات عدة فى بوخارست

ومن الفتيات من لا تتحرى هذه المقدمات ، فتراها تقابلك وتبدؤك بالسلام ، والسؤال عنك وأين أنت يا أخى ، أو هى تجذبك بيدها ، أو تخطف قبعتك ، أو تقبلك ، أو تعانقك . كل ذلك دون أن يكون لك بها سابق عهد ! والعجيب فى هذا أنها تفعل كل ذلك فى بساطة ودون استحياء . وأعجب منه أن هذا العمل لا يلفت أنظار المارة ، على الرغم مما لاحظته من فضول الرومانيين العجيب ... فقلما تخرج من جيبك صورة أو خطاباً فى الطريق دون أن يشاركك فى النظر إليها أو قراءته كل من حولك ، ومن ليسوا حولك . بل أكثر من ذلك فإنهم يبدون لك ملاحظاتهم ، فيقول أحدهم مثلاً : « لو وسّدت رأسك كفك فى الصورة لكان أفضل » أو : « لو كانت الصورة على مسافة أبعد لكانت أوضح من ذلك » أو : « هذا الخطاب مكتوب بخط عجيب » ... إلى غير ذلك من الملاحظات التى لا تنتهى إلا بإخفاء ما فى يدك عن نواظرهم .

وعلى الرغم من هذا الفضول العجيب فقلما يلتفت إليك مارّ وأنت تعانق فتاة أو تنازلها ولو كنت فى جمع حافل من الناس لكثرة ما أخذت عيونهم مثل هذا المنظر . وقد حدث لى فى أول ليالىّ ببوخارست أن كنت أتناول العشاء فى مطعم مع صديق مصرى وصديقة رومانية ؛ وكانت معى بعض صور لأهرام الجيزة فرغبت الفتاة فى واحدة منها ، فقال صديقى معابثاً : « وكم تدفعين ثمناً لهذه الصورة ؟ » فقالت : « ما يطلب » فقال ضاحكا : « إنه يقنع بقبلة أو قبلتين ، وإن كانت الصورة ثمينة جداً » فقالت : « إذن فليفعل » فقال : « ليس أمام كل هؤلاء الناس » فقالت : « وما شأنهم فى ذلك ؟ » . ثم قامت فقبلته وقبلتنى ، فأخذنى الخجل ، وجعلت لا ألتفت حولى خشية أن تأخذنى الأنظار من كل جانب فتزيد فى خجلى ، ولكن لشد ما كانت دهشتى حين تلفتُّ فلم أجد أحداً أعار ما حدث أى اهتمام ، بل وجدت كل من حولى يفعل ما نفعل !

ومثل هذه الحال من المجون والاستهتار كان لها أثر بالغ فى حياة أطفالهم ، وصغار الفتيات ، فكثيراً ما كنّ يترامين علينا فى أوقات متأخرة من الليل

والظاهر أن هذا الانحلال الأخلاق فى رومانيا ، مرجعه الحروب المتلاحقة التى تقلّبت عليها فأفنت رجالها ، ثم خلفتها وعدد نسائها أكبر من عدد الرجال، وهؤلاء الرجال ـ على قلتهم ـ منصرفون عن النساء لكثرة عددهن ، وسهولة منالهن ، لذلك نرى رجال رومانيا وشبانها مدللين متراخين قليلى الغيرة على جانب غير قليل من الطراوة والضعف والتهاون مع نسائهم : فالفتاة فى بوخارست . قد تسهر معك إلى الثانية عشرة ، أو الواحدة صباحاً ، ويستأذن أخوها أو قريبها لينصرف ، وهو يقول لكما مبتسما : أرجو لكما وقتاً طيباً ، أو سهرة موفقة ، أو شيئاً من ذلك . ثم ينصرف لشأنه

وفتاة بوخارست فوق ذلك من أجمل نساء العالم وجهاً وجسما ومن أكثرهن تحرّراً ، فهى تساير نزواتها وأهوائها إلى أبعد الحدود ، لا تخشى فى ذلك لومة لائم ، أو كلمة رجل ؛ ثم هى ساذجة مطواع طيبة القلب ، تصارحك بكل شئونها ولو لم تقابلها إلا مرة واحدة ، وهى بعد ذلك وفية كل الوفاء

* * *

والحدائق فى بوخارست ، هى مستراد الشباب ، وميدان الغزل ، وملاذ الهوى ، يقصدها القوم جميعاً قبيل الغروب . والمدينة غنية بحدائقها فقد وهبها الله موقعاً طبيعياً غنياً بالبحيرات الطبيعية ، فأنشأوا حولها الحدائق ، وغنوا الخمائل والأشجار والخضرة ؛ ففى وسط المدينة تقع حديقة (تشيشميجو Cismigiu وبأطرافها تقع حدائق كارول الثانى على شواطىء بحيرة هيراستراو Herăstrau ، وحديقة تىْ Tei على شواطىء بحيرة Tei ، وحديقة البوتانيك Gradina Botanic ، وحديقة كارول الأول وتتوسطها بحيرة طبيعية جميلة ... وغيرها ...

وكل هذه الحدائق آية فى الجمال والتنسيق والموقع . ولن أنسى أمسيّة قضيتها فى مطعم أنيق فى حديقة كارول الثانى يطل على البحيرة ، وقد انعكست أضواؤه على صفحتها الهادئة ، وانتثرت بها الزوارق البخارية ذات الأضواء الملونة ، وهى تتخطر فى هينة ورفق على أنغام الموسيقى ... منظر جميل يجذبنى إلى هذا المكان كل مساء

وفى حديقة كارول الأول بحيرة طبيعية ، يقع على شاطئها مسجد شرقى آية فى الجمال والفن ؛ فإذا أقبل المساء انسابت الزوارق إلى عرض البحيرة ، وعلى كل زورق عاشقان ، جمعهما الهوى ، وأظلهما الظلام ، وأغرتهما هدأة الليل الجميل ، فذهبا يتناقلان الحديث ، ويتشا كيان الهوى ، ويتبادلان العناق ؛ فأنت لا تسمع أينما أدرت أذنيك إلا همسات الغزل ، وأصوات القبل ، وخفقات المجاديف قد اختلطت بضحكات النساء

وعلى مقربة من المدينة تقع غابة « بانيسا » Bâneasa ، وهى غابة صغيرة جميلة كانت لنا فيها جولات نذكرها بالخير ، وعلى أميال منها بحيرة سناجوف Snagov فى موقعها الطبيعى الساحر ، وهى أروع ما وقع عليه نظرى فى هذه البلاد

ولا أود أن أختم القول قبل أن أشير إلى رخص تكاليف المعيشة فى بوخارست إلى حد لا يتصوره العقل، ولا يصدقه إلا من زارها ، ويرجع ذلك إلى فقر البلاد ، وانخفاض سعر « اللىْ » Lei — وحدة العملة الرومانية — انخفاضاً كبيراً . وحسبك أن تعلم أن ما ينفقه الإنسان فى القاهرة فى يوم، يكفيه فى بوخارست ثلاثة أو أربعة أيام على الرغم من كونها بلاداً أجنبية غريبة عليه. وأرخص ما فى المدينة الطعام ولا سيما اللحم — فالبلاد بلاد سهول ومراعى — وهم فى طعامهم أقرب إلى الشرقيين منهم إلى الغربيين. ولعل ذلك يرجع إلى عهد الاستعمار التركى . وأظهر مشروبهم البيرة والنبيذ والسويكا — وهو الشراب الوطنى للبلاد — وقلما تخلو مائدة من إحداها

* * *

هذه هى بوخارست أو باريس الصغيرة كما يسمونها ، مدينة المرح والحياة والجمال . وهذا بعض حقها علىّ ، وإنه ليعزّ علىّ وعلى عارفيها ما نالها من محنة ، ولنا فيها ذكريات وأصدقاء وأحباب ، خفف الله عنها وعنهم ، وأجل لهم العزاء

(القاهرة) « فهمى »

حكم استئنافياً بتغريم أحمد عليوه التاجر بالدرب الأحمر بالقضية ١٦٠٩٦ بجلسة ١٥ ديسمبر سنة ٩٤٠ : جنيهاً لبيعه كبريتا بأزيد من التسعيرة .

وحى العام الجديد

إنسان وحيد فى العيد

[مهداة إلى الأستاذ الزيات مترجم «آلام فرتر»]

فى ليلة من ليالى هذه الأيام الأخيرة من ديسمبر ، أيام الوداع والرجاء ، وداع عام مضى ورجاء عام جديد ، جلس إنسان وحده فى حجرة باردة ، طقسها بارد ولكنها حارّة الذكريات

إنسان وحيد جلس يكتب فلم يستطع ، مايحسه قلبه لا يستطيع أن يكتبه ، وما يكتبه يجده بعيداً غريباً عما فى قلبه وصدره . ما يكتبه يجده بارداً كصورة الحريق واللهب والبركان على قطعة من الشمع الملون ، وفى شعر هندى يقال : « مات المعنى الحىّ حين احتواه اللفظ . ينطق اللسان فضلة ما فى القلب »

إنه يجلس إلى الراديو يدير مفتاحه ، ينتقل به من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب ، فلا يسمع إلا الرقص والغناء والموسيقى . الأحاديث لا يسمعها ، يمر عليها فى مفتاح الراديو ، كما يمر الشهاب فى السحاب

الدنيا كلها تغنى وسط هذه الذبحة البشرية ، والناس كلهم يرقصون على دقات الجاز الصاخب وعلى أنغام الفالس الهادئ الناعم كأحلام الصفاء فى آخر الليل ، وبعض الناس فى هدوئهم وصمت وقارهم وصفاء قلوبهم ينشدون ويرتلون . أولئك هم المتوجهون إلى الله فى السماء

***

أيها الصاخبون الراقصون على الجاز والفالس ، خذونى معكم .

أنا إنسان وحيد غريب فى هذه الدنيا . إنسان يريد أن يعيش وأن يعرف الحياة وأن ينطلق بعد حبس طويل . يريد أن يفرح ويقفز ويبتهج كما تفعلون . ثم يلقى جسمه المنهوك فى الفراش بعد المرح الطويل فينام وقد حل فى قلبه السلام

أيها المؤمنون الخاشعون المرتلون المتوجهون إلى الله فى السماء ، خذونى معكم .

أنا إنسان يريد أن يهدأ وأن يعيش وأن يهب قلبه للصفاء والنقاء بعد سواد طويل ، يريد أن يتوجه إلى أن يتأمل ويصلى ، قد انصرفت عنه دنياه ويئس منها ، يحبها ويريدها ولكنها لا تريده . قد أشقاه إدبارها ولم تقبل عليه مرة ، فهو يريد أن يعلو عليها يأساً منها ، وأن يتوجه إلى ربه مثلكم يرتل ويتأمل ويصلى ويبتهل حتى ينهك جسمه كما أنهك الرقص جسوم الراقصين فينام وقد حل فى قلبه السلام .

***

إنه يسير فى الطرقات ويركب ما يركب الناس ، فيجد الشاب والفتاة والعجوز والصبى كلّ قد أمسك هدية لمن يحب قربان حبه ، الورود والأزاهير يحملونها يضمونها إلى صدورهم ضمة العشق

ويرى الناس قد أذهلهم الشقاء واستولى عليهم جهد العيش فلا يتحدثون ولا يفكرون إلا فيما يأكلون ويكتسون ، ليس لهم حبيب ولا يريدونه ، وليست لهم زهور ولا قرابين ولا يريدونها

أيها العاشقون السعداء يحملون الهدايا ، خذونى معكم

أنا إنسان وحيد يريد أن يهدى إلى من أحب شيئاً ، يهدى إليه قلبه وحنانه وحبه وحاضره كله ومستقبله كله

بلى . لقد أهدى إلى من أحب هذا كله وفوق هذا كله ، ولكن من أحب لم يقبل منه ما أهدى ، وطرد الرسول والرسل وانصرف عنه كما انصرفت عنه دنياه ويئس منه ... من حبيبه . إنه يحبه ويريده ولكنه لا يريده

قلبه وحنانه وحبه وحاضره كله ومستقبله كله ، لا يريده . وفوق هذا كله لا يريده

أيها الحاملون الهدايا والأزاهير إلى عشاقكم ومحبيكم وأزواجكم ، خذونى معكم

إنى أريد أن أكون واحداً منكم فأتقدم إلى حبيبى خيراً مما تقدمون . . . مع قلبى وحنانى وحبى ، فإذا رضى عن هديتى وتقبّل قربانى ملأ قلبى الفرح وشمخ رأسى فوق كل رأس ، وأتعبنى حمل السعادة فأنام وقد حل فى قلبى السلام

أيها الأشقياء التاعسون خذونى معكم

أنا إنسان وحيد أريد أن ابتئس وأن أشقى حتى أذهل ، وحتى يموت فى قلبى الرجاء من كل شىء والأمل فى كل شىء ، وأن يستولى علىّ جهد العيش والفكر فيما آكل وما أكتسى

حتى يرهق جسمي الفكر والجهد فأنام وقد حل في قلبي السلام

***

رأيتكم من قبل في كثير من مثل هذه الأيام الأخيرة من ديسمبر ، أيام الوداع والرجاء

رأيتكم من قبل أيها الراقصون والمرتلون والعاشقون والذاهلون بالشقاء فلم أطلب أن أكون منكم . لأني كنت أوقن أني سأكون خيراً منكم عند ما تقبل عليّ دنياي

دنياي كانت أخي الغائب حتى يعود ، والقلب الذي رجوته واصطفيته وأحببته وارتقبته ، وصبرت على ما لم يصبر له الصابرون حتى يكون معي ، حتى يكون لي وحدى

وكنت في سنوات كثيرة أجلس في هذه الأيام الأخيرة من ديسمبر أسمع وأرى مواكب حياتكم أيها السعداء فأبتسم ، ستقبل دنياي وأغدو خيراً منكم يوم يعود لي أخي البعيد ، ويوم يكون القلب الحبيب لي وحدى

ثم جاءت الأيام الأخيرة من ختام هذا العام ، فإذا الأخ البعيد لم يعد ، ولن يعود ، وإذا القلب الحبيب قد ردّ عليّ - مطروداً - قلبي وحناني وحبّي ، واختار أن يكون لغيري ، له وحده ، وإني أحبه وما كرهته

***

في هذا العام أجلس وحدى في غرفة باردة ، طقسها بارد لكنها حارة الذكريات ، أسمع وأرى مواكبكم أيها السعداء ، ولكني لا أبتسم . لن أكون في يوم ما خيراً منكم ولا واحداً منكم

إن أخي لن يعود ، والقلب الحبيب لن يعود ، فلن تعود لي دنياي ، وما كانت دنياي لي حتى تعود

***

إنسان وحيد في العيد

كان يسير في ركب الحياة معه أخوه وحبيبه ... زوجه ... لا يريد غيرهما ولا يرجو ، فسقط أخوه والركب يسير . فتخلف يقضي حقه يواريه ويبكيه ، وقلبه يتوجه إلى حبيبه الذي بقي يرجوه لا سواه

يتوجه إليه بالرجاء والعزاء ، يريده وحده لا يريد غيره ولا يرجو

وماذا يهمني من الركب وليس لي فيه ... ؟

إنه - القلب الذي أحببته - معي . وأنا به مع الركب وأمامه أسبقه وأعلو عليه . ونحن وحدنا القافلة والركب والحياة والدنيا لنا أنا - معه - غني عن جميع الناس

إنني به غني عن العالمين

فلما أفاق وقضى لأخيه بعض حقه تلفت فإذا الحبيب الذي كان بقي . ما بقي ... ! سلك بنفسه في زحمة الحياة وخلّف القلب الوحيد لا رجاء ولا عزاء . وشق الطريق لذاته لم يتلفت .

الركب بعيد ، وهو منه منفرد وحيد . ما بقيت به قوة . ليس حوله سوى الظلام والوحشة والأحزان وذئاب الطريق . وفي قلبه الحسرات الباقيات ولا أحد معه

***

أيها السعداء الذين أرى مواكبهم وأسمع رقصهم على الجاز الصاخب والفالس الهادىء الناعم كأحلام آخر الليل ، والذين يقضون هذه الأيام الأخيرة من العام . أيام الوداع والرجاء ، ثم ينامون وفي قلوبهم السلام .

خذوني معكم ... « محمود »



٢ — صاحب السلطان الحقيقي

قدمت صاحب السلطان الحقيقي إلى قرائي في المرة السالفة أو بالأحرى قدمتهم إليه! فهو من يقدم إليه الناس جميعاً ولا يقدم قط إلى أحد، ومن كان يمارى في ذلك فليشهد مجلساً من مجالسه ثم لينظر هل يقدم هو مهما كان من خطره إلى صاحب السلطان أم يقدم صاحب السلطان إليه

حرصت بعد المرة الأولى على رؤيته حرصاً أنساني كل متعة وحقر في نفسي كل فرجة فأعددت منظاري وظللت أنتظر بصبر فارغ وشوق نازع حتى حانت الفرصة فدعاني إلى داره رجل من أطراف القرية رأيت وجهه يقطر السرور وهو يفضي إلى بما نال من شرف ضيافته الشيخ في تلك الليلة

وتفضل الرجل فدعا شاباً من ذوى قرباى كان مى فقبل كما قبلت واشترط مثلما اشترطت ألا نمكث حتى العشاء، فما كان كلانا يتطلع إلا إلى رؤية الشيخ. وكان رفيق الشاب قد تشوق إلى رؤيته بعد ما سمعه عنه وكان وقد ظفر بالأمس القريب بإحدى الإجازات العليا تمتلئ رأسه بفلسفة الفلاسفة. ولعله كان يرغب أن يعد لنفسه منظاراً مثل منظاري، أو لعله كان يريد أن يطبق على الشيخ ما في رأسه من فلسفة. فقد حدثني أنه يعلم من أمر هؤلاء الأشياخ أنهم جدُّ أذكياء وأنهم يسيرون على قواعد «سيكولوجية» دقيقة تغيب عن الأغفال من العامة.

وكان صاحبي ونحن في الطريق إلى تلك الدار التي احتوت الشيخ وحاشيته يحدثني ضاحكا أنه كف يده في الصباح بعد أن هم بالتصدق على مسكين بنصف ريال وأنه يخشى أن يظهر الشيخ كرامته فيفضح بخله في المجلس

وبلغنا الدار فإذا حشد من أنماط الناس من رجال ونساء قرب الباب، وإذا الشارع أمامها مكنوس مرشوش، وإذا وفود المدعوين يدخلون الدار قبلنا؛ وإذا الدخان يتصاعد من النوافذ. ولما كنا في وسط الدار لم يفت منظاري ذلك النشاط الذي ملأها، فهؤلاء النسوة مشتغلات كل منهن بعمل يتصل بإعداد الطعام، وفتيان الدار يدخلون ويخرجون من المنظرة التي جلس فيها الشيخ وفي أيديهم «صينيات» القهوة والقرفة والشاي ووجوههم جميعاً متهللة مستبشرة

ودخلنا المنظرة فهب من فيها جميعاً وقوفاً لتحيتنا إلا الشيخ؛ ولأهل الريف أريحية جميلة في اللقاء والترحيب. ورفع الشيخ عينيه وهو متكئ على وسادتين في صدر القاعة، وما إن رآنا من عنصر المطربشين حتى سرت في وجهه غمة أسرع فأخفاها؛ وتكلف البشاشة، وسرنا نحوه فتظاهر أنه يهم بالوقوف فأقسمت عليه ألا يفعل؛ ومد إلينا يده وهو جالس فسلمنا، وما كان أعظم دهشة هؤلاء الوقوف من الرجال حينما رأونا لا نقبل يد الشيخ! وما كان أعظم أسفي أن أكدر عليهم صفوهم بهذا الذي فعلت وصاحبي! ولكن ما الحيلة وعندي أن أبكيهم جميعاً أسهل عليّ من أن ألثم تلك اليد الكريمة؟

وأرادوا أن يفسحوا لنا مكاناً في صدر الحجرة ولكن الشيخ حريص على أن يظل دراويشه إلى جانبه؛ وأنقذت أنا الموقف فأشرت عليهم بإحضار كرسيين لنا قرب الباب لنستريح في جلستنا في ملابسنا الأفرنجية. وقبل أن نجلس سألت الشيخ ألا يؤاخذنا إن جلسنا ونحن أعلى منه فطيبت بذلك خاطر صاحب الدار وضيفانه، ثم قلت إن بركة الشيخ لتمسنا ونحن بعيدان، فرشقني بنظرة مستريبة ثم ردها سريعاً وفي وجهه الراحة والضيق معاً، فهو مرتاح إلى هذا التكريم الذي يصدقه مني الجلوس وإن لم يصدقه هو، ثم هو ضائق بجبتي وبحضوري وصاحبي في تلك الساعة

واتجهت الأنظار إلى الشيخ وكان صاحبي من الدهشة كأنه ذهل عن نفسه؛ وساد السكوت لحظة فما يتكلم أحد حتى يتكلم الشيخ. وكنت قبل دخولنا الحجرة تبينت صوته وهو يتحدث عن المال وأنه عرض زائل، وعن الجود والبخل، وفطنت إلى أنه كان في سيرة أحد البخلاء. ولم يفطن صاحبي إلى شيء لدهشته ولأنه لا يعرف صوت الشيخ. وغمغم الشيخ ثم عاد إلى ما كان فيه من حديث، والحديث البخل عنده قيمته فقال: «هيه... سبحان من يرث الأرض ومن عليها... هو حد منا راح يأخذ حاجة معاه... إيه نصف ريال ولا نصف جنيه ولا حاجة فارغة زى دى... ياما فلوس بتروح في المسخرة»

وتشعب الحديث، وأديرت علينا أقداح القرفة أكثر من مرة ونحن لا نستطيع لما نسمع من الأيمان لها رداً. ثم سمعت صاحب الدار يسأل عن شخص اسمه عمر ورأيت الشيخ ينهض واقفاً ثم يجلس بعد بضعة ثوان؛ ولكنه لا يلبث حتى ينهض مرة ثانية فعجبت وخفت أن يكون ذلك منه نذيراً بحريق جديد؛ وما جلس المرة الثانية حتى صاح صاحب الدار بمن يدعى عمر

كرة أخرى . فهب الشيخ واقفاً من فوره ، ففطنت أنه لن يطيق أن يسمع اسماً من أسماء الخلفاء الراشدين وهو جالس ، وتتبعته أنظر مبلغ ما فى هذا الظن من صحة فاتسق لى القياس كل مرة

وكان ذلك قد ألهانى لحظة عن صاحبى الذى سرت الدهشة فى وجهه قد كر نصف الريال والذى أخذ إجلاله للشيخ وإعجابه به يتغلب شيئاً فشيئاً على مظاهر النكران والجحود فى وجهه وخوافى العلم والفلسفة فى نفسه ورأسه ! ...

ودخل رجل فشكا إلى الشيخ أن ابنه لا ينام ليله مستريحاً ، وتناول الشيخ ورقاً وقلماً وخط له حجاباً وصرفه فخرج الرجل فرحاً مطمئناً . ودخل ثان فشكا إليه أنه محروم من البنين وأنه يتحرق شوقاً إلى غلام يؤنسه وللشيخ ما يطلب . وضحك الشيخ من سذاجته إذ يصرح أمام الناس أو يظن أن الشيخ يطلب شيئاً ، وطلب الشيخ منه منديلاً فلم يجد معه شيئاً فأخذ طاقيته ووضعها فى حجره وقرأ ثم قرأ وردها إليه وبشره بغلام؛ ونهض الرجل وكأنه يحمل بين يديه ذلك الغلام ...

ودخلت امرأة ملففة فى ثيابها وطرحتها ترجو من الشيخ رقية لوحيدها كى يعيش ، فجاد عليه الشيخ برقية وخرجت المرأة مزهوة ؛ ودخلت بعدها غيرها تستجير ببركة الشيخ ، فإن ابنتها يرتعد جسدها الملتهب وتمسكها « اللمونة » حتى ما تفارقها ؛ وفهمت أنا أن المسكينة مريضة بحمى ربما كانت الملاريا ، وأمرها الشيخ أن تحضر وعاء به ماء ، فذهبت فأحضرته ، وتناوله الشيخ فقرأ ثم قرأ ، وصاحبى ينظر دهشاً ، وبصق فيه الشيخ بصقة على رغم علم صاحبى وفلسفته ، وناوله المرأة لتشرب ابنتها من ذلك الماء أثناء الليل ، وكم تمنيت لو قفزت من مكانى لحطمت ذلك الوعاء وأسلت بركته على رأس الشيخ !

ودخل شاب قوى البنية ، بادى الجرأة ، فما دنا من الشيخ حتى صرخ الشيخ فى وجهه يطرده ويصيح به : أيها العاصى ، ابعد عنى. وتوسل الشاب إليه حتى سمح له بالجلوس، وأمر الشيخ دراويشه ، فطرحوا ذلك الفتى ورفعوا رجليه على نحو ما يفعل معلم الصبيان فى المكتب ، وتناول الشيخ عصاه وهم يضربه . فاستجار الفتى بالنبى ، فألقى الشيخ العصا وهم واقفاً ، ثم أمر أعوانه فأطلقوه ، وأخذ عليه الشيخ العهود والمواثيق ويده على المصحف ، ثم صرفه والناس يعجبون كيف عرف الشيخ أنه شقى ، ونسوا أن للشيخ دراويش هم مصدر علمه اللدنى العجيب

وجاء بعد ذلك أمر حيرنا معاً أنا وصاحبى ، وحار منظارى حتى كدت أشك أن الشيخ قد أفسد على بكراماته سحره ، فقد جىء للشيخ بأربعة فتيان متهمين فى سرقة فجلسوا أمامه يرتعدون فرقاً وكلهم ينكر ما نسب إليه ، ولما يئس منهم الشيخ طلب بيضة بطة أو أوزة فذهب صاحب الدار ليحضرها ولما عاد بها قابله أحد الدراويش عند الباب وأخذها منه ، ثم وضعها فى جيبه حتى طلبها الشيخ فأخرجها وأعطاها إياه أمام أعيننا ووضعها الشيخ تحت يسراه ، ثم قرأ وقرأ وقرأ وقال إنه سيرفع يده فتتجه البيضة إلى السارق ، ونظر فى وجوه الفتية فأصروا على إنكارهم . وما كان أشد عجبى وعجب الجالسين جميعاً أن رأينا الشيخ يرفع يده فتظل البيضة فى مكانها بضع ثوان ، ثم تبدأ تتدحرج وتقف ، ثم تتدحرج وتقف ، وعظم خوف السارق بطبيعة الحال ، وقبل أن تنحرف البيضة إلى من سرق أخذها الشيخ وقد بعدت عنه نحو ثلاثة أذرع وأمر الفتية أن يخرجوا فيفضى من سرق منهم بسره إلى من يرسله معهم من الدراويش ، وعاد ذلك الدرويش بعد قليل يحمل المصاغ المسروق !

وأقبل من فى الحجرة على الشيخ يقبلون يديه ، ونظر إلى صاحبى وقال فى لهجة عجيبة : « وما قولك ؟ بل ماذا يرى منظارك فى هذه المعجزة ؟ » ونهض الشيخ واقفاً فدعا دراويشه ومن جلس معه إلى « حلقة ذكر » وبدأ ذلك الذكر فى حماسة شديدة واشتدت الحركات وارتفعت الأصوات ، ونسى الناس أنفسهم حول الشيخ وعظمت الرهبة فى وجه صاحبى الشاب فأمسكت بذراعه مخافة أن يثب فينضم إلى الحلقة !

وكان موعد تقديم الطعام قد قرب فانتظرنا وصاحبى حتى انتهت لحظة التجلى ، وخرجنا بعد أن سلمنا من بعد على الشيخ ومن معه وسرنا وصاحبى يسألنى فى لهجة كلهجة طفل خارج من ملعب يستوضح أباه حركة (بهلوان) ؛ ولم نكد نبعد حتى سمعنا من يشاركنا الحديث ، فإذا هو أحد دراويش الشيخ السالفين وهو اليوم من الخارجين عليه ، وقال ضاحكا : طول ما فى البلد مغفلين وأكل العيش سهل . يا سيدنا الأفندى البيضة كانت موجودة فى جيب صاحبنا غير الثانية ، وهى فارغة وفى جوفها خنفسة ... دا شغل احنا عارفينه ، وبكرة ياما يشيل الشيخ من الطيور والسمن والخرفان وهو خارج من البلد . وضحك صاحبى وأخذ يعود إلى جحوده ونكرانه

الخفيف

العقد الفـــريد

للأستاذ محمد سعيد العريان

« بعد أسابيع قليلة ، تظهر الطبعة الجديدة من كتاب « العقد الفريد » ، التي تنشرها المكتبة التجارية بالقاهرة ، في ثمانية مجلدات ؛ وقد حققها وضبطها وراجعها على مصادرها الأولى الأستاذ محمد سعيد العريان

« ونحن ننشر فيما يلي المقدمة الجامعة التي قدم بها هذه الطبعة للتعريف بالكتاب ؛ إذ كان مما يهم كثيراً من قراء الرسالة أن يعرفوا عن الكتاب ما لا بد أن يعرفوه ؛ وخاصة إن كان هذا البحث مما يدخل في المنهج الذي أعدته وزارة المعارف لامتحان المسابقة بين المدرسين للترقية إلى المدارس الثانوية »

يُعَدُّ كتاب « العقد » لابن عبد ربه من أقدم ما وصل إلينا من كتب الأخبار والنوادر ؛ لم يسبقه إلى هذا الباب فيما نعرف إلا ثلاثة نفر : الجاحظ صاحب البيان والتبيين ، سنة ٢٥٥ هـ ؛ وابن قتيبة صاحب عيون الأخبار ، سنة ٢٧٦ هـ ؛ والمبرّد صاحب الكامل سنة ٢٨٥ هـ

على أن ابن عبد ربه وإن كان مسبوقاً إلى التأليف في هذا الباب قد اجتمع له في هذا الكتاب ما لم يجتمع مثله في كتاب قبله ولا بعده من كتب هذا الفن ، فكان بذلك حقيقاً بالمنزلة العلية التي أحلّه إياها أدباء العربية ؛ إذ كان مصدراً من أهم مصادر التاريخ الأدبي التي يُعوَّل عليها ويُستند إليها ، بحيث لا يغني غناءه كتاب في المكتبة العربية على غناها وما احتشد فيها من تراث أدباء العرب

والحق أن هذا الكتاب هو موسوعة أدبية عامة ، يوشك مَن ينظر فيه أن يجزم بأنه لم يغادر شيئاً مما يهم الباحث في « علم العرب » إلا عرض له ، وأعني بـ « علم العرب » مجموعة المعارف العامة في الأدب والتاريخ والسياسة والاجتماع التي تتكون منها عناصر الثقافة العربية العامة لعهد مؤلف هذا الكتاب ؛ وحتى الفروع التي انشعبتْ من علم العرب قريباً من ذلك التاريخ واختصت بالبحث في « علوم الدين » ثم تميّزت باستقلالها ... لا يَعْدَم الباحثُ أن يجدَ فروعاً من مسائلها قد عرض لها صاحب العقد في أبواب متفرقة من كتابه ، لعله لا يجد لكثير منها نظائر في كثير من الكتب الخالصة للبحث في هذه العلوم

وثمة فضل آخر يميز صاحب العقد على سابقيه ممن عرضوا لهذا الباب ، هو أن ابن عبد ربه أندلسي من أهل الجزيرة يتحدث عن أدب المشارقة فلا تقصّر به مغربيّته عن اللحاق والسبق ؛ ولعل هذا كان بعض دواعي ابن عبد ربه إلى تأليف كتابه ؛ إذ كان في طبعه من المنافسة وحب التغلّب ما يحفزه إلى هذا المضمار ، كما سنذكره بعد

وليس بي من حاجة إلى الحديث عن نهج صاحب العقد في تأليف كتابه ؛ فقد تكفل هو بتبيان ذلك في مقدمة الكتاب ؛ ولكن الذي يعنيني أن أذكره هنا ، هو أن ذلك النهج الذي سلكه مسبوقاً إليه وسلكه كذلك مَن بعده ، كان يستند إلى قاعدة مقررة « في علم الأدب » كما عرفه القدماء . أنظر إلى ابن خلدون يقول في مقدمة تاريخه : « هذا العلم - يعني علم الأدب - لا موضوع له يُنظَر في إثبات عوارضه أو نفيها ، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته ، وهي الإجادة في فنّي المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم ؛ فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة ، من شعر عالي الطبقة ، وسجع متساو في الإجادة ، ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة ، يستقرى منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية ، مع ذكر بعض من أيام العرب ، ليفهم به ما يقع في أشعارهم منها . وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة ؛ والمقصود بذلك كله ألا يخفى على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم إذا تصفحه ... ... ثم إنهم إذا أرادوا حدّ هذا الفن قالوا : الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها ، والأخذ من كل علم بطَرَف »

هذا الحد الذي ذكره ابن خلدون في تعريف علم الأدب - توفي سنة ٨٠٨ هـ ، كان معروفاً لكل المشتغلين بالأدب قبل عهد ابن خلدون ، وعليه كان نهج المؤلفين قبل ابن عبد ربه وبعده : يجمعون من أشعار العرب وأخبارها ، ويأخذون من كل علم بطرف ؛ ليكون من ذلك سبيل إلى تحصيل الملكة ، وإلى الإجادة في فنّي المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم ؛ وإذ كان ابن عبد ربه لم يقصد من كتابه إلى أكثر من هذا المعنى ، فقد كان ذلك نهجه في تصنيف كتابه والحشد له ، والتفنن فيما ينقل

ويختار من أشعار العرب وأخبارها ، ومن أطراف كل علم وطرائفه
ولقد وفق ابن عبد ربه فيما جمع لكتابه من فنون الأخبار ، ورعته العناية رعاية هيأت لكتابه الخلود والذكر ؛ فإن كثيراً مما اجتمع له في هذا الكتاب قد عصفت الأيام بمصادره الأولى فدرست آثارها وضاعت فيما ضاع من تراث المكتبة العربية وآثار الكتاب العرب ، وبقي العقد خلفاً منها لا غناء عنه ولا بديل منه ، يرجع إليه الأديب والمؤرخ واللغوي والنحوي والعروضي وصاحب الأخبار والقصص ، فيجد كل طلبته وغرضه ولا يستغني عنه غير هؤلاء من طلاب النوادر والطُّرف في باب الطعام والشراب والغناء والنساء والحرب والسياسة والاجتماع ومجالس الأمراء ومحاورات الرؤساء ، وغير ذلك مما لا يستوعبه الحصر ولا يبلغه الإحصاء

***

على أن ابن عبد ربه لم ينظر فيما جمع لكتابه من الفنون نظر المختص ، بحيث يختار ما يختار لكل فرع من فروع المعرفة بعد نقد وتمحيص واختبار ، فلا يقع منه في باب من أبواب الفن إلا ما يجتمع عليه صواب الرأي عند أهله ، لا ؛ ولكنه نظر إلى جملة ما جمع نظر الأديب الذي يروي النادرة لحلاوة موقعها لا لصحة الرأي فيها ، ويختار الخبر لتمام معناه لا لصواب موقعه عند أهل الرأي والنظر والاختصاص . أنظر إليه فيما روى من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم مثلاً ، تجد الصحيح والمردود والضعيف والمتواتر والموضوع . واقرأ له ما نقل من حوادث التاريخ وأخبار الأمم والملوك ، تجد منه ما تعرف وما تنكر ، وما تصدق وما تكذب ، وما يتناقض آخره وأوله ، ولم يكن ابن عبد ربه من الغفلة بحيث يجوز عليه ما لا يجوز ، ولكنه جامع أخبار ومؤلف نوادر ، جمع ما جمع وألف ما ألف ، ولكل ناظر في الكتاب بعدُ ما يأخذ وما يدع . ذلك كان شأنه وشأن المؤلفين في هذا الفن من قبله ومن بعده ، على حدود متعارفة بينهم ورسوم موضوعة . على أن ذلك لا يَعني أن ما جَمع من مثل تلك الأحاديث وهذه الأخبار ليس له مغزاه عند أهل الاختصاص والفن ، ولكنها أشياء للاستدلال لا للدليل كما يقول أصحاب المنطق

***

ذلك هو موجز الرأي في التعريف بهذا الكتاب وقيمته فيما عرض له من أبواب العلم والأدب ، وبقي علينا أن نعرف المصادر التي استند إليها ابن عبد ربه من الكتب والرواة

يقول ابن عبد ربه في مقدمته : « وقد ألفت هذا الكتاب ، وتخيرت جواهره من متخير جواهر الأدب ومحصول جوامع البيان ، فكان جوهر الجوهر ولباب اللباب ، وإنما لي فيه تأليف الاختيار ، وحسن الاختصار ، وفرش لصدر كل كتاب ؛ وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء ، ومأثور عن الحكماء والأدباء

وهذا الذي يقوله المؤلف في وصف كتابه، يدعونا إلى السؤال: من أين اختار ابن عبد ربه مختاراته ؟ وما هي مصادره الأولى ؟

انظر إليه تجده يروي عن الشيباني ، والمدائني ، والأصمعي ، وأبي عبيدة ، والعتبي ، والشعبي ، والسجستاني ، والجاحظ ، وابن قتيبة ، والمبرد ، والرياشي ، والزيادي ، وابن سلام ، وابن الكلبي ، وغيرهم من علماء المشارقة ؛ وعن الخشني ، وابن وضاح ، وبقي بن مخلد ، من علماء الأندلس ؛ فأي هؤلاء لقي ابن عبد ربه فأخذ عنهم شفة إلى شفة ، وأيهم نقل إليه من أخباره راوية عن راوية ؟

لم يعرض أحد ممن ترجموا لابن عبد ربه — للحديث عن رحلة له إلى المشرق ، إلا فروضاً نظرية استنبطها بعض المتأخرين لدلائل يستند إليها في كتاب « العقد » ولا نراها تصلح للاستدلال ؛ فلم يبق إلا أن صاحب العقد قد رَوَى من أخبار المشارقة ما نقل إليه حيث هو في مُقامه من قرطبة ، ولم يعبر البحر ولم يركب الصحراء ؛ وقد كان من شيوخ ابن عبد ربه في الأندلس كما سنذكره بعد : الخشني ، وبقي بن مخلد ، وابن وضاح ؛ وللأولَين منهم رحلة إلى المشرق ورواية

على أن كثيراً من كتب المشارقة وعلومهم كانت ذائعة بالأندلس لعهد ابن عبد ربه ، وكان لها عند العلماء منزلة ومكان ؛ فليس ثمة ما يمنع أن يكون ابن عبد ربه قد استعان كثيراً أو قليلاً بما كانت تضم المكتبة العربية في قرطبة من آثار المشارقة .

(البقية في العدد القادم) محمد سعيد العريان

أجندة أمين عبد الرحمن

أهدت إلينا مطبعة أمين عبد الرحمن « الأجندة » و « مفكرة الجيب » اللتين أعدتهما للعام الجديد . وهما متقنتا الطبع على ورق مصقول ومجلدتان خير تجليد .

الشروق ...

[مهداة إلى «الرسالة» عروس المشرق في صباح عيدها التاسع]

للأستاذ محمود الخفيف

شدَّ ما ذكَّرَ قلبي الفرحا مولدُ النورِ على الأفقِ البعيدِ
كمْ هفا القلبُ إليه وصحا واجتلى في الشرقِ هذا الوضحا
ورأى في كلِّ رُكنٍ بسمةً
حلوةً تُهدي إلى الصبحِ الوليد

في شعابِ النفسِ ألقى الابتساما فلقدْ همتُ بمسراهُ المديدِ
زدتُ ما دُرتُ بعينيَّ هياما بسنًا يا حُسنهُ إذ يتراءى !
لمحاتٌ كابتساماتِ المنى
ورؤى مثلُ رؤى الحُلمِ السعيد

السَّنا الورديُّ حولَ الأفقِ ذابَ في فيضٍ من النورِ جديدِ
ملءُ نفسي سحرُ هذا الشفقِ ألقِ أجملْ بهِ من ألقِ
أمسِ كمْ كانَ لروحي منهلاً
قبلَ هذا الشكلِ في قلبي الشهيد

رفَّ قلبي للسنا المنسكبِ في جنابٍ أخضرِ الزرعِ رغيدِ
رمتْ الشمسُ خيوطَ الذهبِ فجرتْ فوقَ رفيفِ العشبِ
نهلتْ عيناي من بهجتها
آه ! كم طفتُ بها غيرَ وحيد

ونسيمٍ عبقريٍّ خفقِ سرقَ العطرَ من الزهرِ النضيدِ
عبقتْ أنفاسُهُ في الغسقِ وسرتْ في صُبحهِ المؤتلقِ
راحَ يستافُ فؤادي عطرَهُ
هاتفاً في خفقهِ هلْ من مزيد ؟

لألأَ النورُ رؤوسَ الشجرِ في انهلالٍ بالغِ الحسنِ فريدِ
ووميضُ الطلِّ فوقَ الزهرِ زادَ حولي عبقريَّ الصورِ
مُجتلى صليتُ في محرابهِ
حالمَ النظرةِ صوفيَّ السجود

ساجعاتُ الأيكِ في ألحانها فرحةٌ مرَّتْ على قلبي العميدِ
المراحُ الحقُّ في تحنانها وهنيءُ العيشِ في أفنانها
سجعاتٌ لمْ تشبْها كُدرةٌ
بدأتْ في مولدِ الدهرِ الأبيد

أيقظَ الغافينَ نورُ المشرقِ حبذا يقظتُهمْ بعدَ هُمودِ
أنا ما بينَ خيالٍ مونقِ ملءُ نفسي ونهارٍ مشرقِ
لمعٌ في الشرقِ يوحي نورُها
لفؤادي من أحاديثِ الخلود

مطلعُ النورِ شجاني نورُهُ وجلا للنفسِ موموقَ العهودِ
أجملُ البشرِ لنفسي ذكرُهُ أبدًا يُبهجُ روحي سحرُهُ
كمْ بعثتُ النفسَ في آفاقِهِ
كلما ضاقتْ على نفسي قيودي

في فجاجِ الشرقِ أطوى الأعصرا من زمانٍ شامخِ العزِّ وطيدِ
إبتنى المجدَ بهِ عالي الذرى سادةٌ كانوا كساد الثرى
شدَّ ما يملأُ نفسي كِبرةً
أنْ أغنّي باليامين الأسود

دولةَ الفاروقِ هزتْ خافقي وازدهاني الملكُ في دارِ الرشيدِ
أتأسّى بجلالٍ صادقِ كلما ضقتُ بشكٍّ طارقِ
في غدٍ يوقظ فتيانَ الحمى
ومضاتُ الوحيِ منْ مجدٍ تليد

آذنَ المشرقُ بعدَ الغلسِ بصباحٍ دافقِ النورِ جديدِ
لاحَ لي منْ فجرِهِ المنبجسِ لمحُ نورٍ ليسَ بالمحتبسِ
إيه كمْ أبهجني منْ نورِهِ
مولدٌ هلَّ على الأفقِ البعيد !

صغتُ هذا الشعرَ منْ غرَّتهِ وتغنيتُ بهِ حلوَ النشيدِ
منْ سنا الشرقِ ومنْ روعتِهِ ومعاني السحرِ منْ فتنتِهِ
والوضاءِ الغرِّ منْ أيامِهِ
وحيُ (إلياذي) وألحانُ قصيدي

الى « الرسالة » الغراء

في عامها التاسع

للأديب إبرهيم محمد نجا

أقبلى كالربيع يخطر فى الـكو   ن ، فتهتز زهرة الأيام

أقبلى كالشباب يشرق فى النفـ   ـس فتشدو عرائس الأحلام

أقبلى كالسرور ، كالنشوة البيـ   ـضاء أو كالشفاء بعد السقام

أقبلى كالنسيم رقرقه الفجـ   ـرُ ، فغنَّى بأعذب الأنغام

أقبلى كالنمير يسكبه النَّبْـ   ـعُ فتروى به القلوب الظوامى

كأغانى الطيور ، كالأمل البا   سم ، أو كالضياء بعد الظلام

كالأصيل الجميل كالشفق الحا   لم كالفجر كالضحى البسام

كالندى فى الزهور كالعطر فى الأ   نفاس كالبدر فى ليالى الغرام

أقبلى كالسلام بعد حروب   طال فيها تناحر الأقوام

* * *

يا ابنة النيل إن فى مصر نوّا   ما ، فهزّى مضاجع النوّام

وامسحى عنهم الفتور ، يهبوا   هبَّة الأسْد روّعت فى الموامى

واسكبى فى النفوس بلسمك الشا   فى ، و بثى الحياة فى الأجسام

واحملى المشعل الـكبير وسيرى   فى طريق الحياة نحو الأمام

إنما أنت قَبْسة من ضياء الـــه يهدى بها قلوب الأنام

إنما أنت يقظة بعـــد نوم   وبلوغ المنى ، ونيل المرام

ونعيم فى العيش بعد شقاء   وصفاء فى الأفق بعد قتام

ووثوب إلى الأمام إلى الغا   ية بعد النكوص والإحجام

وصعود إلى السماء إلى الذر   وة بعد الحياة تحت الرغام

إنما أنت صرخة الحق فى الشر   ق ، و بعث لعزة الإسلام

إنما أنت رجعة البطل الظا   فر من ساحة الوغى والصدام

إنما أنت عودة النور والآ   مال ، بعد الظلام والآلام

* * *

لك فى الشرق يا ابنة النيل ذكرٌ   ومقام أعْظِمْ به من مقام

فى فلسطين كم أسوت جراحا   ت وكفكفت من دموع سجام

ذدت عنهم أذى المغير بقول   يتلظى لهيبـــه المترامى

ولو اسطعت غيره ذدت عنهم   بشبا الرمح ، أو بحد الحسام

فى فلسطين ! أين ما كان فى مصـ   ـرَ ، وأرض العراق أو فى الشام؟

قدر بطت القلوب بعد انفصامٍ   وجمعت الصفوف بعد انقسام

وزرعت الآداب فى شاطئ النيـ   ـل ، ورويتها بمـــاء الغمام

فزكا أصلها ، وطابت فروعًا   وتبـــاهت بزهرها البسام

واستوت تحت ظلها لغة الدّيـ   ـن ، وقامت على أعز دعام

وحميت الأخلاق من سطوة الشرْ   رِ ، وبَغْى الهوى ، وجهل الطغام

وجمعت الشباب فى ظل نبع   عبقرى الرؤى ، طهور ، سام

رفرفت فوقه الأمانى ، وغنت   فى رباه عرائس الإلهـــام

وهفت نحوه المواكب شتى   تتشكىّ ممـــا بها من أوام

فاسكبي فى النفوس من نبعك العذ   ب ، و بثى الحياة فى الأجسام

واحملى المشعل الـكبير ، وسيرى   فى طريق الحياة نحو الأمام

واهزئى بالفناء يا زهرة النيـ   ـل ، وعيشى على مدى الأعوام

وَابسمى للخطوب إن عبس الدّهْـ   ـرُ ، ولا تعبئى بكيد الخصام

ولك الحق غاية وطريق   وإمامٌ ... أنعم به من إمام

ولك الله ناصر ومعين   وهو نعم النصير ، نعم الحامى

(طنطا)   ابرهيم محمد نجا



١ — متى ينضج الأديب ؟

من قراء « الرسالة » شابٌ يقيم بإحدى قرى المنوفية ، وهو شاب يشتعل حماسةً لأدبه ، ويؤمن بأنه مظلوم أقبح الظلم ، لأن « الرسالة » لا تلتفت إلى ما يرسل إليها من القصائد الجياد

كتب إليَّ هذا الشاب منذ شهرين خطاباً يشرح فيه تغافل الأستاذ الزيات عن فنه الجميل ، وكان خطابه قطعة نثرية مقبولة ، فرجوت أن يكون شعره مثل نثره ، ودعوته إلى إرسال إحدى قصائده « لأتوسط » فى نشرها بالرسالة ، فجاءت منه قصيدة طويلة تشهد بأنه بعيد من الصياغة الشعرية ، وإن كان على شيء من قوة الإحساس ... وكانت النتيجة أن أشارك هذا الشاب فى حقده على الأستاذ الزيات لتغافله عن القيمة « الصحيحة » لأشعار المبتدئين ! !

وفى هـذا اليوم تلقيت خطابين من هذا الشاب يفيضان بالتوجع والتفجع ، وينذران بخاتمة أليمة ، إن قصّرتُ فى تشجيعه على نشر ما يريد . والخواتم الأليمة معروفة ، وأخفُّها أن يحبس الشاب نفسه فى قرار النيل إلى يوم البعث ، بعث الأشعار والأجساد !

وقد تفضل هذا الشاب بإرسال صورته إليَّ ، فقد تبخل الأقدار بأن أراه ، وعندئذ تكون هذه الصورة مبعث ندم مقيم على ما ضيعت عليه من فرص التشجيع !

وأجيب بأن لهذا الشاب أن يقتل نفسه حين يشاء ، ما دام يتوهم أن الحياة كل الحياة أن ينشر قصيدة فى إحدى المجلات ، وإن لم يصل إلى النُّضج الصحيح

لقد قلت ألف مرة ومرة : إن التسامح مع المبتدئين جرمٌ فظيع ، لأنه يهوّن عليهم الحياة الأدبية ، ويوهمهم أن الأدب لا يفرض على أصحابه تكاليف من الدراية والخبرة والاطلاع على أسرار الوجود

اسمع . يا بنى

تنقسم الأخشاب إلى أنواع : خشب للوقود ، وخشب للسقوف ، وخشب للنوافذ والأبواب ، وخشب لدقائق الأثاث ، والنوع الأخير هو أثمن الأخشاب

فهل تعرف أعمار هذه الأصناف ؟

تتفاوت أعمارها بحسب القيمة ، فمن الأخشاب ما ينضج فى خمسة أعوام ، ومنها ما ينضج فى خمسين عاماً ، لأن الطبيعة لا تقدر على إنضاج الصنف الجيد إلا فى الأزمان الطوال

فكم سنك ، يا بنى ؟ كم سنك ، فلن تكون قيمتك إلا بقدر ما أنفقت الطبيعة من الزمن فى تكوين عقلك ؟

صورتك تحدثنى بأنك لم تجاوز العشرين ؟ فهل تصدّق أن الأدب الجيد يتمّ لأحد فى سن العشرين ، تلك أيامٌ خلَتْ ، حين كان جمهور الشاعر والخطيب من عوامّ الناس ، أما اليوم فجمهور الشاعر والكاتب والخطيب ، جمهور مزوّد بثقافات لا تخطر لمن كان فى مثل سنك على بال ، وهو جمهور لا يتصدق على أحد بالمنازل الأدبية ، وإنما يخضع راغماً لسيطرة العبقريين ، أو شهرة النوابغ ، فانتظر حظك إن استمعت قولى وأجّلت توديع الحياة إلى أجل بعيد

وتقول إنك تحب ، وإن لك عواطف تستحق التسجيل

فما أنت والحب ، وهو من مثلك أشبه الأشياء بعبث الوليد؟

الحب من مثلك فورة سطحية لا تصل إلى أعماق الروح ، لأن الحب أيضاً يَفرض ألواناً من التثقيف ، وهى عزيزة عليك ، لأنك فى سن العشرين ، سن الأطفال ، فإن لم يكن بدٌّ من أن تعبر عن عواطفك فعبِّر عنها بأسلوب من يكون فى سنك ، وذلك بعضّ الأنامل ، أو نطح الجدران ، أو الامتناع من تناول الغذاء ! !

اسمع ، يا بنىّ

لعلك خُدِعت بما كان يقال من بخل الكهول بتشجيع الشباب ، فجئت تتهم صاحب « الرسالة » بالتجنى عليك ، فاعرف الآن أن ذلك اتهامٌ مردود ، وإنما الحق كل الحق أنك لم تقدم شيئاً يحسن عرضه على القراء ، فأنت ما زلت فى دور التكوين ،

إلا أن تريد أن يكون عمر مواهبك قريباً من عمر خشب الوقود ، وهذا أيضاً أنواع ، فخشب السنط يحتاج إلى عمر أطول من عمر الصفصاف ، ليكون أقوى وأنفع ، والقوة والنفع لا يوهبان في الزمن القليل

يجب أن يعرف شبان اليوم أن الصحافة الأدبية ليست ميداناً للتمرين ، فالقارئ لا يدفع « القرش » إلا إذا اطمأن إلى أنه سيجد زاداً للعقل والقلب والذوق . والصحافة الأدبية هي عنواننا في الشرق ، فيجب أن تكون حروفها من عصارة العقول والقلوب ، وتلك هي المزية الأصيلة للصحافة الأدبية في هذا الجيل

أقول هذا ، وأنا آسف ، فقد كنت أحب أن يكون في الصحافة ميدان للتمرين ، ولكن ما الذي يصنع الصحفيون وقد صارت الصحافة من الميادين الاقتصادية ، والنضال في عالم الاقتصاد لا يفوز فيه إلا من يقدمون أجود الأصناف ؟

قلت لكم من قبل إن الكاتب الذي يعتمد على ماضيه كاتب مخذول ، لأن القارئ يحكم على الكاتب بآخر مقال . ولمجلة الرسالة ماض جميل ، ولكنها لا تعتمد عليه ، وإنما تعتمد على ثروتها الجديدة في كل أسبوع ، فاعرف ذلك أيها الأديب المنتظَر . أعد نفسك لجهاد الأيام المقبلات . كتب الله لك العافية ، ونجاك من جميع الأسواء ؛ إنه قريب مجيب .

٢ — الى الأستاذ سباعي بيومي

نشرت الرسالة كلة بإمضاء محمد فهيم عبيد عن كلام وقع منك وأنت تحاضر عن المبرد بمدرسة دار العلوم ، فقد تحدثت عن أخلاق الشيخ سيد المرصفي بما لا يليق ، فإن كان ذلك الكلام لم يقع منك فانفِه في العدد المقبل ، وإن كان وقع منك فسارع إلى الاعتذار ، إبقاء على ما بيني وبينك من وداد ، فما أستطيع السكوت عن رجل يتعرض لأخلاق الشيخ سيد المرصفي بسوء ، ولو كان من أعز الأصدقاء

وإلى أن يثبت أن الراوي افترى عليك ، أعلنُ غضبي على ما بَدَر منك ، فقد كنت أظن أنك تعرف أن الشيخ سيد المرصفي له تلاميذ يحفظون عهده الوثيق

وسترى كيف تجيب ، إن كنت في المدوان على ذلك الرجل العظيم من الأبرياء

زكي مبارك

بحث لا تجريح

عزيزي الأستاذ الزيات

بعد التحية . أرجو أن ينشر في عدد الرسالة القادم الرد أطلعني عليه اليوم عبد الرحمن أفندي أيوب الطالب بدار العلوم على التعليق الذي نشر في عدد الرسالة الماضي على محاضرتي « أسلوب المبرد في كامله » ولك الشكر

السباعي بيومي

. . . مسألة المرحوم المرصفي لم تبلغ من الأمر ما وصف ، وبفرض ذلك فمنذ متى كان المرصفي من المقدسين الذين لا تجوز تخطئتهم ولا نقدهم ؟ وإذا كان لتقدمه في الزمن سلفاً صالحاً — كما يعبر الكاتب — مبرأ من العيوب ، أفليس من باب أولى أن يكون المبرد تبعاً لهذا القياس أصلح منه وأقوى لغة وأدباً وعلماً كما هو الواقع ، يزين كل هذا تواضع واعتراف بأن هذا أمر لا يعرفه إذا لم تكن له به سابقة علم ، بينما يعبر المرصفي بقوله : « كذب المبرد في هذا » ، و « المبرد في هذا كاذب » دون تورع عن هذا التعبير الجاف الجافي

إن الأستاذ السباعي لم يقل عن المرصفي إلا أنه كان يملكه الغرور ؛ والمرصفي ذاته يسجل على نفسه هذا في كل ما كتب خاصة في مقدمة « رغبة الآمل وأسرار الحماسة » ، وكأنه لا يعترف لأحد سواه بعلم من المتقدمين أو المتأخرين

والأستاذ السباعي في حديثه عن المبرد وما يتصل به إنما يصدر في ذلك عن دراسة بعيدة الأمد ؛ فهو قد كتب « تهذيب الكامل » من أكثر من عشرين سنة ؛ ثم كانت طبعته الأولى سنة ١٩٢٣ . فهل يستطيع الزميل أن يرينى مظاهر الأستاذية بعد أن يعلم أن الطبعة الأولى من رغبة الآمل كانت سنة ١٩٣٠ ، وأن فهارس الكتاب وعناوينه تتفق إلى حد كبير مع تلك التي كان أستاذنا السباعي أول من نظمها في كتابه الذي سبق كتاب المرصفي بنحو سبع سنين . أم أن الأمر لا يعدو أسبقية الزمن فيحكم الزميل بهذه الأستاذية في سذاجة سطحية

إن الكمال العلمي لا يهتم كثيراً بالتوافه ، وإن السماحة الفكرية في دار العلوم تسمح بكل شيء إلا التهجم والنيل المستور بستار من الغيرة أو الحماسة للعلماء

عبد الرحمن أيوب



من أيام الصبـــا

للأستاذ محمود البدوى

كنا خمسة ... خمسة من الشبان المتمردين على الجماعة والخارجين على حدود الناس ، والذاهبين مع مرح الشباب ولهوه ... كنا قد انقطعنا عن المدرسة ، وتخلفنا عن الرفاق ، وسرنا مع نزق الشباب وطيشه ، فطُردنا من الأهل وحُرمنا من الصحب ، وتقطعت بنا الأسباب ... وذهبنا على وجوهنا نبغى العيش من التصعلك والتشرد وركوب متن الأهواء ... ثم ارتددنا على أعقابنا ، وضمتنا القرية الحبيبة بعد طول شتات ... فانطلقنا نعمل فى الحقول ونشرف على حراسة المزارع ...

وكانت الأيام المشردة قد مسحت ما على أجسامنا من غضارة المدينة ولينها ، فالتفت سواعدنا واشتد عودنا ، وأصبحنا أقوى ساعداً وأعظم قوة من هؤلاء الريفيين الذين يقضون حياتهم بين أحضان الطبيعة ، ناعمين بالحياة الحرة ، فى الهواء الطلق ، والجو المشمس ...

كنا جالسين فى حقل من حقول المزرعة وحولنا الأجران ، والليل ضارب بجرانه والصمت رهيب ... وكنا قد تأخرنا عن زمن الحصاد ، فحرمنا بذلك من أمتع «أيام الصبا» ولهوه ... كنا نقف وراء صفوف الحاصدين ونرقب هذه السواعد القوية وهى تطوى سنابل القمح طيًّا ، وخلفنا الفتيان الأشداء يكومون الأحمال وينيخون الإبل ، ونساء الفلاحين يلتقطن السنبل الساقط ، ويجمعن قوت الأيام السود ... وكنا نزجر العجائز الدميمات منهن ، وندع الصبايا الجميلات يتوغلن حتى الحقول ... كانت أسواطنا تخطئ دائماً ... ومع ذلك ، فما قطعنا القلوب حسرات ، ولا ندمنا على ما فرط منا من إثم ... كنا ذاهبين مع الصبا بقلوب نزقة ، لا نحسب لأوضاع الناس حسابا . نتخذ من عطلة الصيف وأيام الحصاد مرتعاً خصيباً لشبابنا الجامح وعواطفنا الجائشة ... ونظل النهار بطوله واقفين فى قلب المزرعة تحت لفح الشمس ، لا نكل ولا نمل ، لأننا نرى فى كل ساعة وجهاً فاتناً صبوحاً من تلك الوجوه القروية النضرة التى تستغرق الطرف ، وإن كانت تعيش فى ظلام الفقر وبؤسه ...

فإذا أقبل المشى انطلقنا وراء الإبل المحملة بالقمح ، وخلفها الجمالون يحدونها بأصواتهم الشجية ... حتى نبلغ الأجران ، فتناخ الإبل ، وتفك عنها أحمالها ، وهى تهدر هديراً قوياً كان يبعث فينا النشاط والحماسة والقوة ...

فإذا تمت الأجران وعلت كالأطواد اتخذنا من ظلالها

جائزة بابا نوبل

ذكرتنى مقالة « ذوى السلطان » فى بعض أعداد الرسالة الأخيرة بعظيم آخر من المتعاقلين المتعالين كنت مرؤوساً له يوم نشرت ترجمتى لأقاصيص طاغور ، وقد أهديت نسخة منها إليه بمحضر من بعض أصدقائه

قال وهو يتعالم : « طاغور هذا رجل عظيم »

قلت : « هو ممن حازوا جائزة نوبل »

وما كدت ألفظ بكلمة نوبل حتى بدت عليه علائم خيبة الأمل فىّ وقال فى صوت شديد الدلالة على الأسف : « أو أنت أيضاً تنطقها بالباء »

قلت فما صحتها أفادنا الله بعلمك ؟ فقال هى جائزة بابا نويل وقد حذفت كلمة بابا على سبيل التخفيف ، ثم شاعت كلمة نوبل من باب التحريف

قلت أفادكم الله ! وما أحسب الحائزين لجائزة نوبل إلا فرحين مبتهجين لو ردت إليهم الطفولة فاستبدلوا بالجائزة هدية من هدايا بابا نويل

وانصرفت مع أحد الذين حضروا الحديث ، فقلت له ما رأيك فيما سمعت ؟

قال : العلم واسع

قلت : والجهل أوسع

عبد اللطيف النشار

وأوكارها أعشاشاً لغرامنا . كان كل شيء في تلك الساعات النزقة اغتصاباً وقسوة . كانت لنا الساعة التي نحن فيها ، لم نكن نفكر في المستقبل ، ولا كانت عيوننا ترتد إلى الماضي . كنا نطوي الشهور في المزارع بين الرياض والغياض ، ولا نرى منازلنا إلا نادراً . كان من الصعب علينا أن نحبس قوتنا الدافقة وحيويتنا العظيمة بين الجدران . كنا كالأعشاب البرية وهي تنمو تحت أشعة الشمس على أتم غراس وأنضجه ، نفتح سواعدنا عند ما يشعشع النور ونستقبل بصدورنا ندى الفجر ، ونود من قوة عضلاتنا لو نقاتل ونرضي تلك الغريزة الفطرية في الإنسان

كنا مسلحين دائماً حول أجسامنا أنطقة البارود ، فإذا أقبل الليل وضل إنسان العين في سواده ، صوبنا بنادقنا في كبد الفضاء ، وأطلقنا النار وأرسلنا عيوننا وراء سهام البارود النارية وهي تخترق حجب الظلام الكثيف ، وملأنا خياشيمنا برائحة البارود ...

كانت تلك الليالي من أمتع ليالي حياتنا ، وكانت ذكراها تبعث فينا الحماسة والنخوة ... كنا نذكرها وكأننا ننظر إلى حلم جميل ولى

رحنا نسترجع تلك الذكريات الحلوة ونحن جالسون في هذه الليلة الصيفية المظلمة على جرن عال يشرف على أجران المزرعة ، والظلام من حولنا شديد ، والمكان موحش رهيب ...

وكان جرن كبير من الأجران قد ذُرِىَ وأعد قمحه للمخازن . وكان علينا أن نسهر عليه حتى تنطوي لحمة الليل ، فأخذنا نتبادل الأحاديث المتعة ونطرد النوم بكل الوسائل ... أوقدنا النار ، وشربنا الشاي ، ولمنا البنادق وملأنا خزاناتها بالرصاص

وكان ينهض واحد منا كل ساعة ومعه كلبان من كلاب الحراسة ، فيدور حول المزرعة ويتفقد مرابط الخيل وحظائر الماشية ...

ونهض أحدنا ، وكنا مستغرقين في الحديث فلم نشعر بغيابه ... ، وسمعنا على غرة نباح كلاب شديد قادم من شرق المزرعة ... ثم ومض البارود ، وأز الرصاص ، وملأ الدخان عنان الجو ، فنهضنا مسرعين واتجهنا إلى الناحية التي سمعنا منها صوت الطلقات ... ثم خفنا أن تكون هذه حيلة بارعة لتبعدنا عن الزرعة ، فعدنا إلى مكاننا وأعيننا لا تتحول عن سهام النيران الحامية ...

وانقطع صوت النار وبقي صوت الكلاب ، وأخذ نباحها يقترب منا ... ثم برز شبح في الظلام ، فصوبنا بنادقنا وهتفنا بالقادم ... فرد علينا اسماعيل (أحد رفاقنا) بصوت أجش ... واقترب منا وهو يلهث ، ووجهه يتصبب عرقاً ، وغدارته تفوح منها رائحة البارود ...

فصحنا في صوت واحد

— هل أصبت ... ؟

— لا ولله الحمد ... وإنما كدت أن أقتل ... وكل ذلك بسبب هذين الملعونين ...

واستطرد وهو يشير إلى واحد من الكلبين

— لن ترافقني مرة أخرى يا مسعود !

فسأله رفيق له :

— هل مررت على القرية ؟

فأجاب في إيجاز متعمد :

— أجل ...

— وهل كان من الضروري ذلك في هذه الساعة من الليل ... ؟

— أجل ... كنت في حاجة إلى تبغ ...

— أكنت في حاجة إلى تبغ أم كنت في حاجة إلى شيء آخر ... ؟

فصمت ولم يجب على أن وجهه كان ناطقاً بفعلته ... وسأله أحدنا مازحاً :

— أكنت تعس حول الزرعة أم كنت تسطو على بيوت الناس ؟ ... هكذا والله هي الحراسة ...

وضحكنا جميعاً ، وعدنا إلى مكاننا الأول من الحقل ، وجلس اسماعيل ناحية ، وأخذ يمسح بندقيته ، وعلى وجهه سمات من ارتد خائباً بعد جهاد طويل

وسأله أحدنا :

— ولكن لماذا أطلقت النار ... ؟

— أنا لم أبدأ بإطلاق النار ، وإنما هم الذين بدأوا ...

— هم ... ! من هم ... ؟ من الذى أطلق عليك النار ... ؟

— بصر بى بعض الفلاحين عند ما نبح هذا الكلب الملون وظنونى لصاً ... وكنت على قيد أذرع من خبائها ... فأطلقوا النار فى الهواء . فنبت فى جوف الظلام وأطلقت طلقتين معاً .. وجريت ... وحلت لى هذه المطاردة وتصورت نفسى لصاً يبغى السرقة لا مخلوقاً دنيئاً يسطو على خباء امرأة فى غلس الليل وتحت ستاره ! وبادلت الفلاحين الطلقات السريعة . فظنونى عصابة كاملة من الأشقياء ثم راوغت تحت جناح الليل ووليت هارباً

— ما كان أحلاها قتلة ... !

— أجل والله ما كان أحلاها قتلة ... وما كان أطيب وقع النبى على نفسها ... !

وقال عثمان وهو يبتسم ابتسامة عريضة وكان أشد رفاقنا بطشاً وأعظمهم قوة :

— أي مشقة يلقاها الرجل دائماً وهو فى طريقه إلى الرذيلة ومع ذلك لا يزدجر ... !

وصمت برهة ليشعل لفافة تبغ ... والابتسامة لا تبارح وجهه القوى التعابير الدقيق الملامح ... ثم أجاب على سؤاله بنفسه :

— لماذا ؟ أجل لماذا ؟ ألأن ركوب الصعب من الأمور دائماً شائق ، أم لأن الاستيلاء على ما فى حوزة الناس فيه إمتاع ولذة ؟ ماذا كان يحدث يا صاح لو رآك زوجها ... أى موقف حرج ... دفعت نفسك فيه ... وأى مصيدة ؟ أنا أعرف أن المرأة هى علة الشقاء الإنسانى ... كما أنها قد تكون علة هنائه أيضاً ... ذكرتنى أيها الأخ الشهم ... بحادث كدت أن أنساه فما تحدثت به لإنسان ؛ بيد أنى أشعر برغبة قوية تدفعنى إلى أن أقصه عليكم ...

فسررنا وتوقعنا فى حديث صاحبنا مغامرة ممتعة نتسلى بها حتى انبلاج الصبح

ونظرنا إليه فى شوق ولهفة ، وكان قد أطرق ، ثم رفع وجهه وقد غامت عيناه قليلاً ، ثم لانت ملامح وجهه . وأنشأ يقول بصوت واضح النبرات :

— كنت فى التاسعة عشرة من عمرى وفى أول دراستى العالية ، وكان قد مضى على سبعة أعوام فى القاهرة قضيت جانباً منها مع بعض أقربائى ، ومضيت الجانب الآخر مع بعض الأسر الفرنجية التى تنزل عن غرفة من سكنها للطلاب البعيدين عن أهليهم ... وكنت دائماً أتخير الأسر الهادئة الكريمة الخلق . وأقمت مرة مع سيدة أجنبية ، وكانت صبية جميلة وحديثة العهد بالقاهرة . وكان زوجها يعمل سحابة النهار وجزءاً كبيراً من الليل ، وكنت أرجع من المدرسة فى الساعة التى يكون فيها الرجل قد عاد إلى عمله ... ولهذا ما كنت أراه إلا نادراً . وكانت الزوجة مع جمالها دمثة الطبع ، طيبة الأخلاق ؛ فأخذت تعنى بى عناية فائقة : ترتب غرفتى ، وتنظم كتبى ، وترتق ملابسى الممزقة وتعمل لى أكثر مما تعمل لزوجها . وكانت تحب أن ترى ما فى القاهرة من حسن ، فزرنا معاً أجمل الضواحى وأنضر البساتين ، وهى تزداد بى كل يوم تعلقاً وألفة ، حتى توثقت بيننا عرى المودة وأصبحت تترقب عودتى من الجامعة أكثر مما تترقب عودة زوجها من عمله، وأصبحت ألج عليها غرفتها فى أى وقت، وأراها على أى حال تكون عليه ...

ومرت أيام وأنا لا أحس بوجود الزوج معنا فى منزل واحد وأصبحنا من وفرة السعادة كأننا فى حلم جميل ...

رجعت مرة إلى المنزل ساعة الظهر فلم أجد السيدة فى ردهة البيت كعادتها ، وكنا فى قلب الصيف ، والحر شديد فتمددت على فراشى ونمت . واستيقظت قبل مغرب الشمس وهتفت باسمها فلم تجب ... فنهضت من فراشى ومشيت نحو فسحة البيت فرأيت باب غرفتها موارباً فادركت أنها نائمة

وحركت بابها برفق ... ودخلت وعينى على السرير ... فوجدت جسماً ممدداً ملتفاً فى ملاءة بيضاء ... وحلى لى أن أداعبها قبل إيقاظها فتقدمت من السرير حتى قربت منها وجذبت رجلها فلم تتحرك ... فتحولت إلى خصرها ودغدغتها ... ووقفت أرقب حركة جسمها وأنا لا أكاد أتماسك من مغالبة الضحك المكتوم ... وتحرك الجسم أخيراً وأزاحت الملاءة . وظهرت مقدمة رأس ... رأس صلعاء ... !

فذهلت وسمرت فى مكانى مبهوتاً

— كان وجه زوجها ... ؟

— أجل ...

فانفجرنا ضاحكين ... ولما هدأت عاصفة الضحك عاد الصديق إلى حديثه

— كان موقفاً حرجاً ... فشدهت ... ووقفت ذاهب النفس وجسمي يتصبب عرقاً . ثم رأيت نفسى أقول فى غضب بصوت المحموم :

— سأغادر الغرفة يا سيدى ... !

فنظر إلى الرجل دهشاً ... وقال وهو يصعد فى بصره :

— ستغادر الغرفة ! ما السبب يا سيدى ! ما الذى جرى ؟

— أثاث الغرفة رث ... ثم هى بعد ذلك متناهية فى القذارة

— كيف ذلك يا سيدى وقد جئنا لك بكل شىء جديد ؟

— أبداً إنها غاية فى القذارة

وتدفق من فى كلام لا أعرف له معنى وكان لا بد من ذلك لأنجو بأعصابى

وعدت إلى غرفتى وأنا لا أكاد أتصور شيئاً مما حدث ، ولازمتنى حالة من الهدوء غريبة ... ثم لبست ملابسى وخرجت إلى الطريق ... وهنا عادت إلىّ الخواطر وأخذت أتصور الموقف على شناعته وحال الزوج بعد أن يرجع إلى نفسه ويدرك أنى كنت متهجماً على مخدع زوجه ... وواضعاً يدى على سريرها ... وجسمها ... !

وظللت جزءاً كبيراً من الليل وأنا متردد بين العودة إلى المنزل أو إيفاد صديق ليجىء لى بمتاعى وكتبى ... ثم رأيت الرأى الأول واتجهت صوب البيت وأنا مقدر كل الأحداث .. وكان الزوجان قد ناما ... وبقيت أساهر النجم حتى الصباح ...

ورأيت الزوجة فى اليوم التالى جالسة تقرأ فى كتاب على أريكة فى الردهة ... فمررت بها وأنا أذوب خجلاً ... وتطلعت إلى وجهها فرأيته لا ينم على شىء مما حدث بينى وبين زوجها ، فقد كانت تبتسم فى مرح ... فغاظنى هذا وبلغ منى الألم مبلغه

وقضيت بعد ذلك أياماً فى البيت ونظرى لا يقوى على مجابهة الرجل ، وكان يغيظنى منه بروده وهدوءه وامتلاكه زمام أعصابه وكنت أتخيل أنه بلغ مبلغاً هائلاً من خبث الطوية وبراعة الحيلة وأرى فى صمته تبييتاً لأمر فى نفسه ، وكنت أود لو يثور ويضاربنى وتنتهى المعركة بيننا مع أسوأ الفروض

وجاءت عطلة العيد فبارحت الغرفة إلى الريف ولم أعد إليها بعد ذلك أبداً ... تركتها مخلفاً فيها أمتعتى وكتبى ... وهى تذكار دائم على أيام هنية

ولا زلت أرى المرأة وزوجها كلما ذهبت إلى القاهرة ... وأغلب الظن أنهما لم يغيرا المنزل ... كما أن الرجل لا يزال على حاله هادئاً بارد الطبع لا تعبر ملامح وجهه عن حزن أو فرح أو أى انفعال نفسانى ... أو عاطفة من عواطف الجنس البشرى أما المرأة فقد أصيبت بأزمة نوعاً !

* * *

وفرغ صاحبنا من قصته وانطلق يدخن ، وعدنا نشرب الشاى ، وكان الفجر قد قرب وبدت خيوط النور فى الشفق ، فدرنا حول المزرعة لآخر مرة ، وكنا قد تمشينا فى أول الليل ، فلما دنا الفجر أحسسنا بجوع شديد وكان الطعام سيجىء إلينا عند الشروق ولا طاقة لنا على انتظاره فقد اشتدت علينا وطأة الجوع وأخذت بطوننا تعصرنا عصراً ...

وبعثنا اثنين منا إلى حديقة كروم قريبة ليحملا لنا منها ما يمسك بطوننا . وجلسنا فى انتظارهما بصبر فارغ وقد انقطعنا عن الحديث . وإذا بنا نسمع نباح كلاب المزرعة فجأة . فصوبنا أبصارنا تجاه الصوت فرأينا غباراً شديداً يسد عرض الأفق . ومددنا أعناقنا فأبصرنا قطعاناً كبيرة من الضأن قادمة من الطريق الزراعى الكبير ومتجهة إلى بعض القرى القريبة ... وظهر أمامها رجلان ضخمان يلوحان بعصوين طويلتين ... وحول القطيع كلاب كاسرة تطوقه من كل جانب وخلف القطيع امرأة ترتدى دثاراً أسود فاحماً ... وتهش بعصا رقيقة على الغنم وتزجر فى صوت رنان كلاب المزرعة عن كلابها ...

وقربت القطعان منا ... وكان أحد الرجلين معلقاً فى عنقه مزماراً طويلاً ... أما الآخر فكان يحمل على ظهره قربة ضخمة فيها متاعهم ... وأخذنا نرقب القطيع بعينى الصقر حتى بعد عنا فشيعناه بأبصارنا وبطوننا الخاوية تمزق أحشاءنا . وحدجنا الأحمال الصغيرة التى تتوثب حول القطيع الماضى فى طريقه بعيون جائعة ومر فى ذهننا خاطر سريع ودون أن ننبس بكلمة انسللنا فى أثر القطيع متجنبين طريقه ... وجرينا شوطاً ، ثم كنا فى جرن كبير من أجران القمح المش فى أقصى المزرعة ومرت قطعان الضأن وملأ خياشيمنا الغبار المتطاير من أرجلها . وكانت المرأة

لا تفتأ تتلفت يمنة ويسرة وتضرب الصغار بعصاها ... وجاوزوا حدود المزرعة وابتدأ الرجل حامل المزمار يزمر ، ومدت القطعان أعناقها ثم تقدمت فى صمت وسكون عجيبين . وانقطعت المرأة بعد صوت الزمار عن الكلام ، وسكنت حركة الكلاب وانقطع نباحها . وكان فى القطيع حمل صغير ما فتئ طول الطريق يتوثب ويركض فى كل اتجاه ، ويضرب برجليه الأرض . فلما سمع صوت الزمار سكن أيضاً واستقام بأعجوبة كسائر رؤوس القطيع ... وكنا قد تهيأنا له لنقتنصه ... فما سمعنا صوت الزمار حتى شلت أيدينا وعجزنا عن الحركة ، وبقينا ممددين على الأرض وعيوننا تتطلع إلى السماء وتتأمل النجوم ... ورجع المزمار الحلو يتردد . كان كأنه مزمار داود يبعث من وراء الأجيال ويدوى وحده فى هذا الليل وهذا السكون . ظللنا فى مكمننا حابسين أنفاسنا ، وصوت المزمار يهفو ، والقطيع يسير ، ونحن نرقبه عن بعد ولا نستطيع أن نتحرك

ورجعنا إلى مكاننا من الحقل ونحن لا نستطيع أن نعلل هذه الظاهرة الغريبة التى اعترتنا فى تلك الساعة . أكان ذلك من تأثير الموسيقى ، أم شعور آخر أيقظته الموسيقى

وعاد الرفيقان الذاهبان فى طلب الكروم ... وكان أحدهما يحمل كروماً ، أما الآخر فكان يحمل شيئاً آخر ... كان يحمل حمل الضأن الذى أفلتناه من أيدينا

وأشعلنا النار وشويناه ... وكنا ننظر إلى اللب الأحمر وهو يشوى لحمه ... ونتصوره منذ لحظات وهو يجرى ويتوثب بين رفاقه مرحاً سعيداً طروباً ، فيعصر الهم أفئدتنا

ولما جلسنا نأكل انقطعنا جميعاً عن الكلام كأن على رؤوسنا الطير . وكانت كل قطعة من اللحم تستقر فى جوفنا تمزق أحشاءنا تمزيقاً ... كنا نتصور أن الحمل لا يزال يجرى ويتوثب والقطيع يسير والزمار يزمر .

محمود البدوى

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)

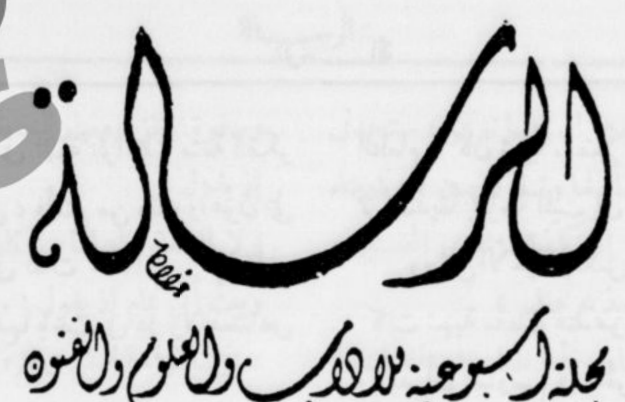


9me Année No. 393

Lundi - 13 - 1 - 1941

بدل الاشتراك عن سنة
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٣٩٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٥ ذو الحجة سنة ١٣٥٩ — الموافق ١٣ يناير سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــــرس

صفحة

الضحيـــة

للأستاذ عباس محمود العقاد

كلمة لها تاريخ ، ولتاريخها اتصال بالعادات والعقائد وأطوار اللغات والألفاظ ، ولا سيما فى انتقالها من المحسوسات إلى المجردات ، ومن البساطة إلى التركيب

كم من الذين يتحدثون بالتضحية فى معرض الحب أو الحماسة الوطنية أو المعانى الروحيـة يذكرون أن أصلها الأول أكلة فى الضحى ؟

فالتغدية تقديم الطعام فى وقت الغداة ، والتعشية تقديم الطعام فى وقت العشاء ، والتسحير تقديم الطعام فى وقت السحر ، والتضحية بالشاة أن تذبح الشاة أو تؤكل ضحى على هذا السياق

وهذا هو المعنى الذى صعد به الإسلام من أكلة إلى قربان إلى فداء ، إلى هذه المعانى التى نرددها اليوم كل صباح ومساء

وتاريخ الكلمات فى الانتقال من المادية إلى الروحية هو تاريخ العقل الإنسانى فى فهم الحقائق والنظر إلى الحياة

فما العقل ؟ وما الكتابة ؟ وما الفن ؟ وما الجمال ؟ وما العلم ؟ وما الرسم والتمثيل ؟ وما الجوهر واللباب ؟

كلها لها أصول لا تزال تلمس باليد وتدرك بالحس ، وكلها قد صعدت من هذه الأصول المحسوسة إلى تجريد لا تدركه العقول إلا بعد شفوف وإمعان

وإذا كانت متابعة الكلمات فى اللغة الواحدة متمة للفكر ومعواناً على فهم الأصول والحقائق ، فأمتع من ذلك وأعون على الفهم أن تضاهى بين الكلمات فى لغات مختلفات . فإن لهذه المضاهاة فائدة صحيحة لا يستغنى عنها باحث فى علم ولا مستاص لتاريخ ولا متعمق فى دين

* * *

انتقلت التضحية من أكلة فى الضحى إلى أسمى معانى المفاداة التى يهون فيها بذل الأرواح

ولكن الفداء نفسه قد انتقل فى معانيه مثل هذا الانتقال بل أبعد من هذا الانتقال

فقد كان الفداء فى بدايته الأولى أشبه شىء « بالزيارة » التى يحملها اليوم أهل الميت إلى قبره من فاكهة يفرقونها ، أو ريحان ينثرونه ، أو ذبائح ينحرونها ويفرقونها على المساكين فى جدة الوفاة

وكان اعتقاد الهمج الأولين أن الأموات يطلبون الغذاء كما يطلبه الأحياء ، ومن هؤلاء الأموات أقوياء بطاشون ينتقمون أشد النقمة ممن يحرمهم نصيبهم فى الطعام والشراب ، ومنهم أعزاء محبوبون يشق على أحبابهم أن يتخيلوهم بعد الموت جياعاً عطاشى محرومين هائمين يبتغون الرى والشبع ولا يرتوون ولا يشبعون ، ومنهم شفعاء مقبولون يأخذون ويعطون : يأخذون « الزيارة » ويعطون بديلاً منها ما فى ضمير الزائرين والمتشفعين

وترق معنى الفداء الذى نشأ هذه النشأة قليلاً قليلاً حتى هذبته الأديان وصقلته الحضارة ، فاقترب من معنى الإحسان وابتعد من معنى الخوف على الأحياء وإشباع من فى القبور

فالذين يتصدقون بالطعام اليوم لا يقصدون به أن يأكله الموتى ولا أن يدفعوا به غضبهم ونقمتهم إذا جاعوا وظمئوا وصنعوا بالشاربين الطاعمين ما يصنع الجياع الظماء

ولكنهم يقصدون أن يحسن الله إلى موتاهم كما يحسنون هم إلى المعوزين ، ويودون أن يبلغوا أولئك الموتى أنهم لا يزالون من المعزة عندهم بحيث كانوا فى أيام الحياة ، فهم يبذلون لهم ولا يضنون عليهم . ويتعمد بعض الزائرين أن يختاروا من صنوف الطعام ما كان شهياً مفضلاً عند الميت فى أيام حياته ، تعزياً بالفكرة لا تصديقاً بحاجة الميت إلى غذاء الأحياء

وبعض الأحياء يعكس الأمر فيحرم على نفسه الصنوف التى كانت شهية مفضلة عند موتاه ، كأنما يأبى أن يستمتع بما حرموه ويريد أن يساويهم فى الحرمان ، وكلاهما شعبة من معنى واحد هو الوفاء والادكار ، والضن على النفس فى سبيل من ضنت عليهم الحياة باللذات والطيبات

* * *

ذلك أصل من أصول الفداء ، وهو رعاية الأموات

وله أصل آخر أعرق من هذا فى الهمجية وأبعد منه عن تهذيب الدين والحضارة

وذلك الأصل يقابل الجزية التى يفرضها السيد على العبد ، والأدب الذى يستوجبه الغالب من المغلوب

فمن الأدب الذى كان يستوجبه الفاتح المنتصر من المنكسرين أمامه أن تظهر عليهم ذلة الانكسار والتسليم ، وأن يسومهم كل ما يريد ولو لم تكن له فائدة فيه ، وأن يسلبهم فيعطوه صاغرين ، ويقمعهم فيمتثلوا خاشعين ، وأن يطالبهم بالأتاوات والرهائن من الرجال والنساء والأنعام ، ومن الأزواد والخيرات والحطام

وكان المنهزمون يستنقذون أنفسهم بتسليم فريق منهم للقتل ، ويستنقذون أموالهم بإهداء نفيسها ومختارها واستبقاء ما يزهد فيه الفاتح أو لا يهتدى إليه

فلما عبد الهمج أربابهم وأوثانهم واعتقدوا فيهم القوة والغلب جعلوا لهم حقاً فى الضحايا والهدايا كحق المنتصر على المهزومين ، وافتن الكهان فى تنظيم هذه الجزية « المقدسة » التى تؤول إليهم فى الحقيقة سراً وجهرة فى كثير من الأحيان ؛ فانتظمت من ثم شعائر التضحية والفداء ؛ وبالغ بعضها فى القسوة حتى تقاضت للأرباب والأوثان بواكير كل شىء من حيوان ونبات ، وفى طليعتها الأبناء وهم رضعاء أو دارجون

وقصة إبراهيم هى حد فاصل فى نظرة الأديان إلى الفداء كما كان قديماً وكما هو مفروض الآن . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى

أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال يا أبتِ افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتلّه للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدّقتَ الرؤيا ، إنا كذلك نجزى المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم »

وهكذا ترى لفظ الفداء ومعناه . فأما لفظه فحسبك انتقاله من الضحية التى هى شاة تذبح فى الضحى إلى الضحية التى هى قربان وإحسان

وأما معناه فالانتقال فيه أعظم ، لأنه انتقال من أكلة إلى ذروة الأخلاق العليا . إذ كانت خلاصة كل خلق وكل عقيدة وكل تكليف أن يجود الإنسان بما يعز عليه ، وأن يفضل بعض الحرمان على بعض النعمة ، وأن يعصى داعى الغريزة إذا حسنت له كل سلامة وكل كسب ، وبغضت إليه كل إقدام وكل إعطاء

وهنا يفوق الإنسان الغريزة فيرتفع من حضيض البهيمية إلى شرف الآدمية

وحيثما وجد دين وخلق فهنالك عصيان لغريزة من الغرائز لا مراء ، فإن الدين والأدب لازمان لهذا ونافعان لهذا ، لا لأنهما مطاوعان للغريزة فى كل ما تمليه وترتضيه

الغريزة تقول لك إن اللذة خير من الألم ، وأن الحياة خير من الموت ، وأن الأثرة خير من الإيثار ، وأن حبس المال خير من بذله ، وأن الراحة خير من المشقة

ولو كان هذا هو الخير حقاً لما ظهرت الأديان والأخلاق ، ولكانت الغريزة وحدها كافية كل الكفاية وفوق الكفاية ، ولأصاب الإنسان الخير كما يصيبه الحيوان بغير عناء

ولكن الخير الإنسانى شىء نفيس ، والشىء النفيس له ثمن عزيز ، وما الثمن العزيز إلا الجود بما نضن به ونغليه

ولهذا كانت الضحية عنوان الدين كله وقوام الخلق كله ، فحيث لا ضحية فلا دين ولا خلق ، بل غريزة حيوانية يتساوى فيها الناطق والأعجم ، ويتلاقى فيها المريد وغير المريد

وفرائض الأديان تكليف

والتكليف لا يخلو من الكلفة بحال ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ومعناها أن تحمل ما تطيق وليس معناها ترك العمل لأنك تطيق تركه ويسعك أن تتناساه

وفى الشعر العربى بيتان لشاعرين حكيمين هما خلاصة الأدب وصفوة الخلق ومعيار التفاضل بين الفضائل ، وهما بيت أبى الطيب إذ يقول :

لولا المشقة ساد الناس كلهمُ ... الجود يفقر والإقدام قتال

وبيت أبى تمام إذ يقول :

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها ... تنال إلا على جسر من التعب

ومعنى البيتين البليغين البالغين فى الحكمة كلمة واحدة وهى : « التضحية » أو « الفداء »

فقولك إن الراحة خير من التعب ، وأن الأخذ خير من العطاء ، وأن السلامة خير من الإقدام ، قول مفهوم قبل أن يكون خلق وقبل أن يكون دين

فلما وجب على الإنسان أن يفهم أن بعض العطاء خير من بعض الأخذ ، وأن بعض الراحة شر من بعض التعب ، وأن بعض الموت أكرم من بعض الحياة ، وأنه إنسان مكلف وليس بسائمة مهملة ، كان له خلق ، وكان له دين ، وكانت الضحية التى يرمز إليها المسلم فى عيده الكبير هى قوام ذلك الخلق وأساس ذلك الدين .

عباس محمود العقاد

الرسالة فى سنتها التاسعة

على الرغم من استحكام أزمة الورق ومواد الطباعة وارتفاع أثمانها الى عشرة أضعاف ، ستسير الرسالة على نظام العام السابق من التخفيض والتقسيط والاهداء مع المشتركين القدماء . أما المشتركون الجدد فيؤدون الاشتراك كاملا مقسطاً أو غير مقسط . ومن المقرر أن المشتركين القدماء لن يتمتعوا بمزايا الاشتراك المخفض الا اذا بدأوا اشتراكهم من نصف ديسمبر الى آخر يناير سنة ١٩٤١ ، ولن يمد الأجل بعد ذلك .

مسابقة الجامعة المصرية لطلبة السنة التوجيهية

مطالعات في الكتب والحياة

لعباس العقاد

للدكتور زكى مبارك

— ٩ —

موضوع الدرس فى هذه المرة هو كتاب المطالعات فى الأدب والحياة للأستاذ عباس محمود العقاد عضو المجمع اللغوى ، وهو كتاب يقع فى أربع وعشرين وثلثمائة صفحة بالقطع المتوسط ، وقد نشرته المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ، وثمنه خمسة عشر قرشاً . والنسخة التى أنقدها هى الطبعة الثانية ، ولهذه الإشارة معنى ، فهى تشهد بأن هذا الكتاب نال بعض ما يستحق من النباهة والذيوع .

شخصية المؤلف

العقاد أديب منوّع المواهب : فهو كاتب وشاعر وناقد وخطيب ، على تفاوت فى هذه الأوصاف لا يوجبه التقصير أو نقص الأدوات ، وإنما يوجبه التفات هذا الأديب إلى بعض الفنون أكثر من التفاته إلى البعض ، فهو كاتباً أقوى منه شاعراً ، لأن ذهنه ارتاض على التعبير بالترسل ، أكثر مما ارتاض على التعبير بالقريض

ودرس اليوم لا يتصل بمواهبه الشعرية والخطابية ، وإنما يتصل بمواهبه النثرية والنقدية ، فن هو بين الكتاب والنقاد ؟

للعقاد فى الكتابة والنقد شخصيتان مختلفتان كل الاختلاف : فالعقاد الكاتب السياسى يَرمِى ويُرمَى ، ويَظلِم ويظلَم ، فى كل وقت ، فهو من أبناء السماء عند قوم ، ومن أبناء الأرض عند آخرين . أما العقاد الكاتب الأدبىّ فهو من الطبقة الأولى بشهادة الجميع

والعقاد الناقد لا ينحرف عن القصد إلا فى حال واحد ، حال الحكم على من يعاديه من المعاصرين ، أما حكمه على المفكرين الذين بَعُد عهدهم فى التاريخ فهو فى غاية من العدل والسداد ، وقد يصل به الرفق إلى المبالغة فى إظهار المحاسن وإخفاء العيوب

وانحراف العقاد فى كتاباته السياسية والنقدية يشهد بأنه سليم الشخصية ، وللسلامة هنا مدلولٌ خاصٌ ، هو اكتمال الحيوية والإحساس ، فالعقاد يصادق بعنف ، ويعادى بعنف ، فأصدقاؤه ملائكة ولو كانوا شياطين ، وأعداؤه أبالسة ولو كانوا ملائكة مقربين . وهو مستعد لخوض النار مع أصدقائه إن أوجب الوفاء أن يشاطرهم عذاب الحريق ، أما أعداؤه فهو لهم بلاء وعناء ، وهو يلقاهم فى السر والعلانية بأقبح ما يكرهون

وقد شاع وذاع أن العقاد رجلٌ حقود ، وهو كذلك ، فالحقد من كبريات الفضائل فى بعض الأحايين ، وقد نُجزَى عليه خير الجزاء يوم يقوم الحساب ، فالله أحكم وأعدل من أن يعاقبنا على تأديب من يحاولون النض من أقدارنا الأدبية وهم جهلاء !

ما نظرت فى شراسة العقاد مع خصومه إلا قلت : هذا رجل ، والرجال قليل

وما نظرت فى سماحة العقاد مع أصدقائه إلا راعنى ما فى طبعه من بشاشة وأريحية ، فهو لهم عماد فى جميع الظروف ، وهم من أخوّته الوفيّة فى أنس أنيس

والواقع أن الرجولة لها تكاليف ، وهى تجشّمنا مصاعب لا تخطر لأحد من الضعفاء فى بال ، فالرجل الحق هو الذى يقدر على الضر كما يقدر على النفع ، أما المخلوقات « الرقيقة » التى تُحاكمنا إلى شريعة « الأخلاق » فى كل ما نكتبُ وفى كل ما نقول فهى شخوصٌ بوائد خلّفها التاريخ ، كما يخلّف النهر العارم أوشاب العشب المعطوب

الرجولة الحق تَفرض الشجاعة الحق ، ولا تتم الشجاعة لرجل إلا إذا جاز أن تصل به أحياناً إلى حد التهور والجنون ، لأن ضبط النفس لا يتيسر فى كل وقت ، كما يتيسر لبعض من يفهمون أن الرجل « الصالح » للانتفاع بالمجتمع هو المخلوق « المصقول » !

وما قيمة القلم إن لم يَخِز بسنانه عيون المتمالين والمتماقلين من حين إلى حين ؟

وما حظ الأمة فى أن يتخلق جميع أبنائها باللُّطف والظُّرف[1] ؟

أعاذنا الله من زيغ البصائر فى هذا الزمن المخبول !

(١) الجمهور فى مصر ينطق الظرف بضم الظاء ، وهذا النطق صحيح إذا راعينا الاتباع ، لأن كلمة الظرف تقرن كثيراً إلى كلمة اللطف

مطالعات العقاد فى الكتب والحياة

العقاد فى هذا الكتاب ناقد وكاتب ، وقد خلص من الشوائب التى تعرض له فى بعض كتاباته النقدية أو السياسية ، خلص خلوصاً مبيناً ، فهو لا يلتفت إلى ما يحيط به من أحقاد الساسة أو ضغائن الأدباء ، وإنما يخاطب العقل وجهاً إلى وجه ، ويسمو بنفسه إلى طلب المنزلة بين أهل الخلود

والعقاد من هذه الناحية أقدر من طه حسين على ضبط النفس . نجد العقاد يقول فى هامش بعض الفصول « من مقال نشر فى البلاغ » فما المراد من عبارة « من مقال » ؟

كان المقال فى الأصل يحوى فكرة باقية أضيف إليها التحامل على أحد المعاصرين ، وهو حين يجمل مثل هذا المقال فصلاً من كتاب يحذف الجزء المشوب بالتحامل ويكتفى بالجزء الذى يصور فكرة باقية ، ومن أمثلة ذلك ما صنع العقاد فى كتاب « الفصول » ففى ذلك الكتاب فصل عن « المتأنقين » ، وهذا الفصل أنشأه العقاد للسخرية من سعادة الأستاذ « أحمد لطفى السيد باشا » ، ثم رأى أن يحذف تلك السخرية من جانبها الخاص ، وأن يكتفى بجانبها الأصيل ، وهو احتقار التأنق فى تناول عظائم الشؤون

أما الدكتور طه حسين بك فقد أساء إلى نفسه وإلى تاريخه حين عجز عن تهذيب مقاله عن « عنترة بن شداد » فى الجزء الأول من الطبعة الثانية لكتاب « حديث الأربعاء » ففى ذلك المقال تعريض قبيح بمعالى الأستاذ حلمى عيسى باشا ، وسيسأل الناس فى المستقبل عن الموجب لذلك التعريض القبيح ، لأنه لا يصدر عن رجل ينتمى إلى الأستاذية فى الأدب والأخلاق

وما أعيبه على الدكتور طه أعيبه على نفسى ، فقد أثبتُّ فى الطبعة الثانية من كتاب البدائع فصلاً دميا عن « طه حسين بين البغى والعقوق » ، وهو فصل عانيتُ من شؤمه ضروباً من المقابيل ، وعرّضنى لمكاره ومتاعب لم أدفع شرها إلا بنضال عنيف

ومن أعجب العجب أن يكون عباس العقاد أقدر على ضبط النفس من زكى مبارك وطه حسين !

الشجاعة الأدبية

يمتاز كتاب المطالعات بالشجاعة الأدبية ، فما المراد من ذلك ؟

أيكون المراد أن العقاد يطاش ذات اليمين وذات الشمال بلا تدبُّر للعواقب ؟

أيكون المراد أن العقاد لا يبالى ما عليه الناس من عقائد وتقاليد ؟

لا هذا ولا ذاك ، فالعقاد فى هذا الكتاب يساير الناس ويساير العُرف إلى أبعد الحدود ، وإنما المراد أن العقاد يثور على العوامّ بقوة وعنف ، والعوامّ فى هذا المقام ليسوا هم الطبقة المحرومة العلم والمعرفة من التجار والزُّراع والصناع ، وإنما هم طبقة المثقفين من أبناء الجيل الجديد ، والعقاد لم يُضف هذه الطبقة إلى العوام بصريح المقال ، وإنما أضافهم إليها بلسان الحال

وتظهر هذه الشجاعة فيما كتب العقاد عن « المرأة » فكلامه فى هذا الموضوع الدقيق لا يصدُر إلا عن الملهَمين ، ولو شئت لقلت إنه فصّل فى هذه المشكلة بما لا يُبقى مجالاً لأحد من بعد ، فقد استوفى الموضوع من أطرافه بكلام مُحكم سديد ، وهو من أقدر الكاتبين على الغوص فى أعماق المعضلات

« خيانة المرأة لا تعاب على المرأة »

هذا كلام غريب ، ولكن العقاد يفسره تفسيراً صحيحاً ، فتلك الخيانة المرذولة لها وجه جميل هو الوفاء للحياة

« غرام المرأة بالمال فرعٌ من غرامها بالشباب »

هذا أيضاً كلام غريب ، ولكن العقاد يفسره تفسيراً صحيحاً فقد كانت القدرة على اكتساب المال من أقوى الشواهد على الرجولة فى جميع الأزمان

« المرأة دون الرجل فى جميع الأوصاف وهى لا تقدر أبداً على القيام بما يقوم به الرجال »

وهذا كلام أغرب من سابقَيْه ، ولكن العقاد يقف موقف النمر الشرس ويقول :

« إننا فى عصر يميل إلى محاباة المرأة فيما يكتب عنها من آراء فلسفية كانت أو اجتماعية ، لأن آداب الأندية توشك أن تبنى على آداب الكتابة ومباحث الفكر ، فيحبس الكاتب قلمه عن كل ما يغضب المرأة ولا يوافق دعواها ، كما يحبس لسانه عن ذلك فى أندية الأنس ومجالس السَّمر ، ويكتب حين يبحث فى مسائل الاجتماع بقلم السمير الظريف لا بقلم الناقد الأمين »

ثم يجعل السذاجة والبلاهة والغفلة من نصيب المتظرفين الذين يحكمون بأن المرأة ظُلِمتْ فيما سلف من عهود التاريخ

والحق أن أنصار المرأة لم يكونوا إلا رجالاً ضعفاء ، فهى لم تخلَق إلا لغاية واحدة ، هى بقاء النسل ، وهى لم تقدر ولن تقدر على مباراة الرجال فى جلائل الأعمال

وكيف تستطيع ذلك وهى قد أشركت بوظيفتها الأنثوية ؟

الرجل هو الذى يخلق المرأة ، يخلقها على هواه ، ويتمثلها كائناً حياً له مآرب وأغراض ، وهى أمام العقل دُمية مصنوعة لا تُفصِح ولا تُبين ، بعد ذلك الشّرك الدميم

المرأة الصحيحة هى المرأة التى عرفها الآباء والأجداد ، المرأة الطبيعية التى أوحت ما أوحت إلى الفنانين والشعراء ، يوم كانت مخلوقاً له قلب خفاق ، وروحٌ حنّان

أما مرأة اليوم فهى مخلوق سخيف ، لأنها تطلب ما لا ينبغى لها من الحقوق ، وهى لذلك تافهة القيمة ، سقيمة الإدراك

وتعرّض العقاد للمرأة من جميع نواحيها فأسمعها ما لا تحب أن تسمع . ومن المؤكد أن العقاد كتب عن المرأة ما كتب وهو فى عافية ، لأن الرجل لا يغايظ المرأة إلا وهو خلِيّ ، لأنه حينئذٍ يثق بأنها ستُجذَب إليه ولو ضربها بأعنف السياط

وقاسم أمين لم يكن فى أول حياته من أنصار المرأة ، وإنما كان عدوًّا للمرأة ، فلما ضَعُف تظرّف وصاغ لها عقود الثناء !

ورُوَّاد « الصالونات » فى البلاد الغربية لم يكونوا من الفحول ، وإنما كانوا من الظرفاء ، ولو كانوا فحولاً لتغيّر مركز « المتحذلقات » فى التاريخ

وخلاصة القول أن التلطف مع المرأة يجب أن يكون فنًّا من فنون الغَزَل الخدّاع ، فالدمع فى عين العاشق هو السم فى ناب الثعبان ، والثعبان يخدّر فريسته بالسم كما يخدّر العاشق فريسته بالدمع . والاغتيال من ضروب القتال !

لحظات الصفاء

وللعقاد فى كتابه هذا لحظات صفاء ، وأظهر تلك اللحظات هى اللحظة التى كتب فيها مقالة « بين الله والطبيعة » أو « بين التاريخ الغابر والحاضر المشهود » . فالعقاد فى هذه المقالة قد ارتفع إلى آفاق السماء ، ولو لم يكتب العقاد غير هذه المقالة لكانت سلّمه الأمين إلى معارج الخلود

كتبها وهو فى أسوان ، وقد نشأ هذا الأديب فى أسوان ، ولعل نشأته فى تلك المدينة تفسّر ما فطِر عليه من الهيام بالفنون

هى مقالة عجيبة فى المعنى والأسلوب ، مقالة كاتب راعته زُرقة السماء فى أسوان ، ومن لم يرَ زُرقة السماء فى أسوان فلن يغنيه الزعم بأنه رأى جمال الطبيعة فى سائر بقاع الأرض .

ولو جُمع ما أوحت أسوان إلى العقول والأحلام فى مختلف اللغات لكانت منه ثروة تَرُوع وتَهُول

وقوة العقاد فى هذه المقالة تستر ضعفه وهو يصور إحساسه حين وقف « على معبد إيزيس » فالفرق بين المقالتين بعيد ، لأن الكاتب كان انتزف قوته فى المقال الأول فهمد فى المقال الثانى ، والقُوى الإنسانية لها حدود

المتنبى فى كتاب المطالعات

انساق العقاد إلى الكلام عن المتنبى وهو يدرس رسالة الغفران للمعرى ، فكانت فرصة لتشريح بعض الجوانب من ذلك الشاعر الصوّال

وتظهر دقة النظر عند العقاد فى أكثر ما كتب عن المتنبى ، فالأدباء يرون تَسامى المتنبى إلى المُلك من شواهد العظمة النفسية ، أما العقاد فيرى ذلك التسامى ضرباً من الخذلان ، لأن المتنبى أخطأ حين « ظن أن السموّ لا يكون إلا بين المواكب والمقانب ، وأن النبالة لا تصح إلا لذى تاج وصولجان وعرش وإيوان » .

ثم انتهى العقاد إلى أن المتنبى المخذول فى طلب المُلك صار على الزمن « أظفر ما يكون خائباً وأخيب ما يكون ظافراً » . فهو « ليس بملِك ولا أمير ولا قائد ولا صاحب جاه ، ولكنه فخر العرب وترجمان حكمتهم ، والرجل الفرد الذى نظم فى ديوان واحد ما نثرته الحياة فى سائر دواوين التجارب والعظات »

وهذا كلامٌ نفيس جدًّا ، ولكنه يحتاج إلى تعقيب ، فانحراف المتنبى فى فهم العظمة الذاتية هو السبب فيما صار إليه من العظمة الباقية على الزمان

المتنبى قضى دهره فى طلب المُلك ، ولو عَقَل لأدرك أن الشاعرية الحق أبقى على الزمن من المُلك

ذلك ما يريد العقاد أن يقول ، ولكن ما رأيه إذا حدثناه أن ذلك الانحراف هو الذى أوجب أن يولع المتنبى بدرس أوهام العوامّ والخواصّ ؟ ما رأيه إذا حدثناه أن تلك النزعة المنحرفة هى التى فرضت على المتنبى أن يدرس الموارد والمصادر من أخلاق الناس وأن يوغل فى التعرف إلى ما هم عليه من هدى وضلال ؟

لو أعفى المتنبي نفسه من طلب المُـلك لوقف عند الخالص الصريح من أوطار النفس وأهواء الوجدان ، فكان صورة ثانية من البحترى شاعر الروح الصداح والقلب الطروب

طلبُ الملك غيَّر ما بنفس المتنبي فنقله من أفق إلى آفاق ، وحوله إلى رجل مُظلمة لا يهمه غير درس المستور من أصول الوشايات والأراجيف ، وحوّله أيضاً إلى رجل طاغية باغية لا يتذوق معانى العطف والإشفاق

وهل عرف الناس قلباً أقسى من قلب المتنبي ، المتنبي الثائر على الناس والزمان ؟

يجب أن يُفصل نهائياً فى هـذه القضية ، فأدب المتنبي من صور اليأس المصوف ، وليس من صور الأمل المطوف ، وهو لذلك خليق بأن ننظر إليه بحذر واحتراس

حظ المتنبي من الشعر الوجدانى حظ ضعيف ، فما سبب ذلك ؟

يرجع السبب إلى أن الدنيا فى عين المتنبي لم تكن إلا مناوح انتهاب واصطياد ، والنهب والصيد يوجبان أن يبكر الرجل إلى المفاوز والآجام وهو فى درع من المكر ، ولثام من الدهاء

زار المتنبي مصر وأقام فيها سنوات ، فماذا رأى فى مصر ، وكانت لذلك العهد ما تزال عامرة بما ترك الفراعين من غرائب الفنون ؟ أين بشاشة الحقول المصرية فى شعر المتنبي ؟

لم ير المتنبي فى مصر غير وجهين اثنين : وجه الفقيه المرائى ، ثم وجه النديم الختُول ، لأن ما كان يطلبه المتنبي كانت المقادير حصرته فى أيدى الفقهاء والندماء

وقد حقد المتنبي على مصر أبشع الحقد ، لأنه لم يرها إلا فى وجه كافور ومن يحيط بكافور . ولو كانت الشاعرية هى التى تسيطر على أهواء المتنبي لوجـد لمصر مذاقاً غير ذلك المذاق ، ولـكان من المأمول أن تنسيه مرابعها الأواهل وحشة الغربة والانفراد ، ولكن المتنبي كان طالب ملك ، أستغفر الحق ، بل كان يطلب « ضَيْعة » فلم يظفر بغير الضَّياع !

ورحيل المتنبي عن مصر رحيل بغيض ، فقد ثار على مصر فى البادية لا فى الحاضرة ، وذلك يشهد بأنه لم يفكر جديًّا فى تأليب الجمهور المصرى على ذلك « الأستاذ » !

ماذا أريد أن أقول ؟

ما يهمنى النص على ما وقع فيه المتنبي من خطأ وصواب ، وإنما يهمنى القول بأن حرص المتنبي على طلب الملك هو الذى خلق تلك الشاعرية الطريفة ، الشاعرية التى لا تعرف الهيـام بالازهار والرياحين ، وإنما تعرف الغرام بالصوالج والتيجان ، فتقضى الدهر فى درس أسرار القصور ، وفحص أخلاق الحاكمين والمحـكومين

ومن المؤكد أنه كان يجب أن يكون فى تاريخ العرب شاعر من هذا الطراز الفريد ، فالمتنبي إذاً من الحجج البواقى على أن الشاعرية العربية موفورة الحظ من تنوع الطعوم والألوان

ملاحظات

لا يتسع المجال لعرض ما أجاد العقاد وهو يدرس المتنبي ، ولكن لا مندوحة من تقييد بعض الملاحظات ، لأن لذلك فائدة فى تشويق الطلاب إلى النقد الأدبى

١ — قال العقاد : « مما لوحظ على المتنبي ولعه بالتصغير فى شعره إلى حد لم يُروَ عن شاعر غيره » فأرجو أن يذكر العقاد أن أعظم الشعراء ولعاً بالتصغير هو ابن الفارض ، وقد فصلت ذلك فى كتاب « التصوف الإسلامى » فلا أعود إليه فى هذا الحديث

٢ — حكم العقاد بأن عصر المتنبي كان « بدعاً فى العصور العربية » وقد قال مثل هذا القول فى عصر ابن الرومى ، فأى قوليْه نصدّق ؟

٣ — حكم العقاد بأن المتنبي « لم يفارق كافوراً إلا باختياره » فما حيثيات هذا الحكم ، وفى أى كتاب قرأ أن الرجل يرحل عن بلد يحبه فى ليلة عيد ؟ وكيف غاب عن العقاد أن المتنبي لم يفارق كافوراً إلا بعد أن أصبحت حياته تحت رحمة العيون والأرصاد ؟

٤ — قضى العقاد بأن المتنبي صفح عن أبى العشائر ، وقد كاف أحد الخدم باغتياله وهو سار فى ظلام الليل . فعلى أى سند قضى العقاد هذا القضاء وهو يعرف أن الضغينة أقوى خلائق المتنبي ؟ أيكون استند إلى أقوال من ترجموا للمتنبي ؟ وكيف وهو يعرف أن تلك الأقوال يغلب عليها الإفك والتهويل ؟

٥ — يرى العقاد أن التبحر فى العلوم آفة يبغضها المتنبي ، وحجته أن المتنبي يقول :

أبلغُ ما يُطلَب النجاح به الطبـــع وعنـــد التعمق الزلل

فهل كان المتنبي من الغفلة بحيث يتوهم أن التبحر فى العلوم آفة إنسانية ؟

هنا دقيقة لم يفطن لها العقاد ، وهى ثورة المتنبي على « فيران المكاتب » كما يعبر الفرنسيون ، و « فيران المكاتب » هم الذين يقولون ولا يفعلون ، فإذا اقترن القول بالفعل ، فتلك ظاهرة يرحب بها المتنبي كل الترحيب

٦ — غض العقاد من عمر بن أبي ربيعة ، لأنه وقف شعره على فن واحد هو النسيب ، ولو تأمل العقاد لعرف أن ابن أبي ربيعة من كبار المبتكرين ، ومن عظام المناصرين ، وهو عندنا أول شاعر رأى قضاء العمر فى الهيام بالجمال عملاً تنصب له الموازين

٧ — وحكم العقاد على ابن مناذر وابن الضحاك بمثل ما حكم به على عمر ، فأين علمه الصحيح بمواهب هذين الشاعرين ولم يبق لواحد منهما ديوان يشهد بما له أو عليه ؟ وكيف فاته التنبه إلى ما كان لهما من التأثير العميق فى الحياة الذوقية والاجتماعية بالعراق ؟

الظاهر أن العقاد لا يرضيه إلا أن يكون الشاعر مغرماً بتشريح الـ Caractères كما أجابنى حين قلت له إن الشريف الرضى كان أولى بعنايته من ابن الرومى ، فليعرف إن شاء أن الشاعر لا يفكر فى إرضاء الناقدين ، وإنما يفكر فى تأدية الرسالة الموحاة إليه من عالم الغيب ، أو عالم الطبع ، ولا يهمه بعد ذلك أن يقال إنه عرف شيئاً وغابت عنه أشياء

موقف محرج !

لم أصل إلى ما أريد فى تشريح كتاب « المطالعات » للأستاذ عباس العقاد ، لأن منهج هذه الدروس يوجب الاكتفاء بمقال واحد عن كل كتاب ، ولأن امتحان المسابقة سيكون بعد أسبوعين اثنين ، فماذا أوصى به طلبة السنة التوجيهية وهم يراجعون هذا الكتاب الدقيق ؟

أوصيهم بأن يذكروا أن العقاد له فى كل فصل منهج خاص وأنه قد يناقض نفسه من حيث لا يشعر ، لأن يومه قد ينفصل عن أمسه كل الانفصال

وأوصيهم بأن يذكروا أن العقاد مولع بالرنين فى الأسلوب لأنه شاعر ، والشاعر حين يكتب لا يستطيع التخلص من الغريزة الموسيقية ، وهل يطيب النثر الفنى ويجود إلا من الكتاب الذين كانوا فى مطالع حياتهم شعراء ؟

وأوصيهم بأن يذكروا أن عيب العقاد وعيب المازنى فى الغرام بالسجع والازدواج عيب مغفور ، لأن هذين الكاتبين لم يكونا إلا شاعرين ضاق عنهما نظام القريض

وأوصيهم بأن يذكروا أن المازنى والعقاد لم يغتصبا تلك المنزلة الأدبية إلا بجهاد موصول جاوز الثلاثين من الأعوام السمان والعجاف

وأوصيهم بأن يذكروا أن غرام المازنى والعقاد بالشرح والتفصيل فيما يعرضان له من دقائق الشؤون يرجع إلى أنهما ابتدءا حياتهما الأولى باحتراف التدريس ، والتدريس يوجب التفكير فى تفهيم الأغبياء قبل التفكير فى مسامرة الأذكياء ، ولعل هذا هو السبب فى اهتمام طه حسين وأحمد أمين بالطواف حول هوامش المشكلات !

وأوصيهم بأن يذكروا أن المازنى والعقاد كانت إليهما زعامة النقد الأدبى فى أعوام الحرب الماضية ، وأن الكتابة السياسية لم تستطع أن تصرف هذين الرجلين عن العناية بالأسلوب

أما بعد فأنا أشعر بأنى لم أقل شيئاً فى العقاد ، مع أنى قلت فيه كل شيء ، فإن كنت أنصفته فقد أنصفته بحق ، وإن كنت ظلمته فقد ظلمته بحق ، ولكنى قبل كل شيء وبعد كل شيء قد انتصرت على نفسى فتناسيت ما كان بينى وبينه من القتال فى سنة ١٩٣٥ على صفحات جريدة الجهاد يوم سمحت له نفسه بأن ينضم إلى غريمي طه حسين

والله المسئول أن يطيل حياة هذين الرجلين ، فهما من ذخائر مصر على وجه الزمان . وهل سيطرت مصر على الحياة الأدبية فى الشرق إلا بفضل ما فى أبنائها من شراسة وعرامة واستطالة واستعلاء ؟

زكى مبارك

الذوق الفنى فى مصر
وأسطورة نهر الجنون
للأستاذ سيد قطب

أسطورة « نهر الجنون » معروفة ، ولكن لا ضرر من التذكير بها فى هذا المقام ؛ فهى تتلخص فى أن ملكا رأى فى نومه أن النهر الجارى بجوار قصره يصاب كل من شرب منه بالجنون . وأصبح فوجد أفراد الشعب كله – والملكة معهم – قد شربوا من النهر وجنوا ، فحزن وقلق على شعبه وعلى رفيقة حياته ، ولم يكن هناك أحد لم يشرب إلا الملك والوزير

وبينما كان الملك ووزيره فى شغل شاغل بالطب لهذه الكارثة كانت الملكة حزينة قلقة على الملك الذى جن — فى رأيها ورأى الشعب — لأنه لم يشرب هو ولا وزيره ...

وأخيراً ، شرب الملك وشرب الوزير ! ! !

* * *

هذه الأسطورة تتكرر كل يوم فى مصر – فى عالم الفنون – بين العقلاء المجانين ، وهم قلة قليلة ، والمجانين العقلاء وهم كثرة كثيرة ! !

فى مصر مدرسة فنية عرفت باسم « المدرسة الحديثة » ، وهى تجاهد منذ ثلاثين سنة لرفع الذوق الفنى ، بل لخلق الذوق الفنى . ولكن الذين اتبعوها لا يزالون فئة قليلة ، والذين فهموها فئة أقل ، والذين تجاوبوا معها بعد فهمها فئة أندر . وهؤلاء هم الذين لم يشربوا من النهر ، ولا تزال آراؤهم فى الحياة والفن تثير العجب العاجب بين الشاربين !

وهذه المدرسة يبدو أن كل همها موجه لتصحيح مقاييس الأدب ، ولكنها فى الواقع تجاهد فى تصحيح مقاييس الإحساس بالحياة جملتها وتفصيلها ، وتقويم الأذواق فى أصولها وفروعها ، فكل ما هو مادة حياة ومادة شعور ينال عناية هذه المدرسة . ومن ثم كان للموسيقى وللغناء نصيب وافر من جهادها

ولقد أغضب زعماء هذه المدرسة وأملأ قلوبهم ظلاماً ويأساً إذا قلت لهم : إنهم فشلوا أشنع الفشل فى رسالتهم ، وأن أتباعهم – على قلتهم – ليسوا جميعاً بفاهمين حقيقة دعوتهم لأن طباعهم لا تتسع لها ، وإحساسهم لا يستوعبها

وإنى لأخشى أن أقذف بها كلمة مزعجة مؤذية فأقول لهم : إن الظواهر حتى الآن تكاد تجزم بأن طبيعة هذا الشعب ليست على استعداد للتجاوب معهم ، وأن الشذوذ وحده هو الذى أطلعهم بين ظهرانيه ، وأن المشكلة ليست مشكلة الفهم والتفهيم ، ولكنها مشكلة الطبيعة التى لا تتسع لمثل ما فى نفوسهم من أحاسيس . وعليهم إذن أن يشربوا من النهر ، أو أن ينزووا عن المجانين العقلاء !

وإنها لصيحة مزعجة ، ودعوى يتمنى مدعيها من صميم نفسه ألا يكون محقاً فيها ، ولكن الدلائل جميعها – مع الأسف – تدل على صدقها الأليم

والخطب فى هذه المسألة متفاوت الدرجات ، فقد يكون فى الأدب أخف – إلى حد ما – لظهور طبقة قليلة من الشبان تبشر بالخير الضئيل . ولكنه فادح فادح فى الموسيقى والغناء . هذه الموسيقى التى لا نسمع غيرها ، وذلك الغناء الذى ليس لدينا سواه

فقد مضت القرون تلو القرون ، وليس لنا موسيقى واحد ، ولا مغن واحد . وكان « سيد درويش » فلتة شاذة ، وهو مع هذا لم يرتفع إلى المستوى العالمى ، ولكنه كان « إنساناً » فى فنه ، يحمل طابع الآدميين ، وكان هذا كسباً ، لأن « الآدمية » وحدها ، لا الآدمية الممتازة هى التى نفتقدها فى موسيقانا وغنائنا ، فلا نعثر على ظل لها فى الجميع ، وما نزال نسمع ألحاناً وأنغاماً ، هى رجع للتأوهات الحيوانية المريضة وصدى الميوعة المسترخية المتوفة ، دون أن يخطئ ملحن أو مغن مرة واحدة فيسمعنا صوت الإنسان السليم !

والقارئ يرى من هذه الكلمات ، أن قائلها « لم يشرب من النهر » ولا شك . وإلا فهل يصدق أحد والأغانى ترن فى الآذان ليل نهار ، وتحملها أجنحة الأثير بالعشى والأبكار ، أن ليس فى مصر مغن واحد ولا مغنية منذ أجيال ، وليس فيها ملحن واحد منذ قرون ، وليس فيها موسيقى واحد فى تاريخها الطويل ؟ .

أهذا كلام ؟ ! أليس هو الجنون بعينه ، أو العقل الذى هو عين الجنون ؟

في مصر مطربون ومطربات ، وفي مصر مُلحنون وموسيقيون ، والشعب كله يردد أغانيهم وألحانهم ، ويتهافت على حفلاتهم ورواياتهم ، ويدمي أكفه من التصفيق إعجاباً بهم ، فهل يصدق أحد أن مصر ـ فيما عدا أغاني سيد درويش لم تطعم الموسيقى ، ولم تتذوق الغناء ، ولم يتردد في جوها صدى واحد فيه مسحة الآدمية ؟

هذه قولة غليظة ـ لم تشرب من النهر ـ ولكنها كانت خليقة أن تنبض بها كل فطرة ، وأن يرددها كل لسان ، لولا أن الجميع قد شربوا مع الأسف شربوا حتى فقدوا وعيهم فهم مخمورون لا يفيقون من هذه الألحان المريضة ولن يصدقوا من يقول لهم : إنهم مخمورون ، لأن الأغلبية لا بد أن تكون هي الواعية في جميع العصور !

***

وبعد فما جدوى هذه الكلمات ؟

لقد كان يرجى لها بعض الفائدة ، لو سرت مع الشاربين المخمورين إلى منتصف الطريق ، وكتمت عنهم نصف الحقيقة ، وارتضيت أنصاف الحلول . لو قلت لهم : إن هناك أغنيات وألحاناً سليمة وأخرى غيرها مريضة ، وأنك تعجب من فلان أو فلانة بكذا وكذا ، وتنكر عليهما كيت وكيت . . .

أما وأنت تجبه هذه الملايين ـ على اختلاف ذوقها الفني ـ بأن ما يستحسنونه سواء من حيث أنه لا ينتسب إلى فن الموسيقى وفن الغناء ، وأن ما يسمعون إنما يتفاضل في دائرة بعيدة عن دائرة الفنون الآدمية ، فيرتفع أو ينحط ، ولكنه لا يعبر في ارتفاعه أو انخفاضه عن نفس إنسانية على الإطلاق ...

أما وأنت تدعي هذه الدعوى غير المعقولة ، فلا سمع ولا تصديق وعليك أن تشرب من النهر الذي شرب منه الجميع . . .

هذه كارثة . كارثة أن نعيش أمة كاملة بلا موسيقى ولا غناء وأن يكون غذاؤها الروحي هو هذا الترنيم المريض الزائف . وأشد من هذه الكارثة هولا أن تستسيغ هي هذا الغذاء

ولست أدري كيف يكون العلاج ، والذين يتولون العلاج في غالب الأحيان هم أنفسهم مخمورون ، شاربون من النهر ، وإن نموا على الشاربين !

موسيقى جديدة وتلحين جديد ومطربون ومطربات جدد ، وأذواق للسامعين غير هذه الأذواق . أذواق لا تستسيغ أية قطعة أو لحن مما تتردد في مصر منذ مئات السنين . كل هذا وفي آن واحد هو ما نحتاج إليه لنحسب في عداد الآدميين

والمعجزة وحدها هي التي تستطيع أن تفعل ذلك لا الجهد البشري ولا المدرسة الحديثة ، ولا عشرات الكتب ، ولا ألوف المقالات في الصحف

وتسألني : وفيم إذن تكتب هذه الكلمة ، وتشغل بها فراغاً من صفحات هذه المجلة ، وفراغاً من وقت القراء ؟ فأجيبك : إنها صيحة من لم يشرب من النهر ، أو هي صيحة الجنون في عرف المجانين !

(حلوان)

سيد قطب

تقويم هذا العام

للأستاذ عباس محمود العقاد

تقويمُ هذا العام من ... لحظاته الأولى لديك

قوى ارفعيه وارفعي ... عنه الغطاء براحتيك

من يوم مطلعه إلى ... رُجْعاه ، موقوفٌ عليك

***

وإذا انتهت أيامه ... والكل عام منتهاه

فعليك أنت وداعه ... وترحِّبين بما تلاه

ونحن إذا دار المدى ... ورعيتُ وحدى ملتقاه !

***

هي قبلةٌ ضمت عُرَى ... عامين فاتصلا اتصالا

ومُنى الخواطر في غدٍ ... عام كسابقه مآلا

لا نعجلن به فما ... أقسى الحياة على العَجالى

***

لا . لا . فهذا يومنا ... وغدٌ ، وبعد غد ، خفاء

أنا مغمضٌ عيني ومستـ ... ـمع إلى حادى الرجاء

فإذا سمعت حداءه ... فدعيه يمضى حيث شاء

عباس محمود العقاد

خواطر فى رأس السنة

للأستاذ صديق شيبوب

النظام أساس العالم ، والتوقيت من الأسس التى يقوم عليها النظام . عرفه الإنسان منذ عصوره الأولى ، أى منذ لاحظ أن اليوم ليل ونهار ، وأن الأيام يتلو بعضها البعض الآخر متشابهة فى شكلها البارز ، متباينة طولاً وقصراً ، وبرداً وحراً . فإذا الأيام مجموعة فى فصول ، والفصول مقسمة إلى شهور ، والشهور مضمومة فى السنة . ولم يلبث التوقيت بالسنة أن استولى على الإنسان فى كل مرافقه

لكل إنسان على اختلاف عمله سنته الخاصة به . فللمزارع سنة ، وللتاجر سنة ، وللعامل سنة ، حتى الحكومة عندنا لها سنتها المالية الخاصة ؛ وللشمس سنة ، وللقمر سنة ، وللنجوم سنة . وكل واحدة من هذه السنين تختلف فى بدايتها ونهايتها عن السنين الأخرى ؛ فسنو الأجرام السماوية موقتة بدورانها ، وسنو طبقات الناس موقتة باختلاف الفصول وتأثيرها عليها

على أن الناس إذا اختلفت سنتهم الخاصة وفقاً لأعمالهم وأغراضهم فقد اعتنقوا كذلك سنة بعض الأجرام السماوية ، وخاصة الشمس والقمر . فجمل بعضهم السنة الشمسية ، كما جعل البعض الآخر من السنة القمرية ، عامة لكل الطوائف

هذا دليل من الأدلة على أن الإنسان يتطلع أبداً إلى السماء كأنها مهبط وحيه ومصدر هديه فى حياته . فعيناه أبداً مرفوعتان إليها يتأمل فى قبتها الزرقاء الجميلة ، ويسر بانعكاس أضوائها ، وغرابة غيومها ، واختلاف ظلالها ، وتنوع ألوانها ، من فجر طالع ، إلى صبوح براق ، إلى غبوق داكن ، إلى شفق أحمر لامع إلى غسق أسود ، إلى ليل حالك ، ويعجب بخطوطها الزرقاء التى لا نهاية لها ، وأجرامها المتقدة كأنها أنوار تتلألأ فى بحر لا شاطئ له ، وبجوهراتها الساطعة التى لا توزن حجارتها بالمثقال . إنها ثروة عظيمة بعيدة المنال ، لا ينضب معينها ، ولا تزول بهجتها ، ولا تنحط قيمتها ، لا أول لها ولا آخر ؛ لا يستطيع الإنسان جمعها ، أو تناولها ، أو فقدها ، أو هبتها ، أو توريثها ، ولا يحول بينه وبينها غير الموت

ولكن الموت إذا نزل بالإنسان فإنه أضعف من أن ينزل بها وأن يزيل بهجتها ورواءها . إنه مثل النسر المحلق فى كبد السماء العاجز عن أن يحول دون تغريد البلابل

فالسماء رمز الأشياء التى لا تموت . هذه شمسها تمتلئ قبتها العميقة كأنها هاوية لا قرار تنتهى إليه ولا جبال ولا أرض تضمها ؛ هذه الشمس تشرق وتغرب على مناظر الطبيعة فى شتى الفصول تثبت حرارتها فى الأرض وما عليها . وهذا القمر حالم فى تنقله وتطوره ، وهذه النجوم تشع بريقاً كأنه خفق فؤاد مضطرم ...

لله أحلام الإنسان وآماله التى تلتقى عند هذه النجوم ! إنها محط أنظاره يسائلها عن ماضيه وحاضره ، ويرى فى بعضها مصدر تفاؤله وفى البعض الآخر مبعث تشاؤمه ، بينما هى فى أبراجها ساهمة تتابع سفرها الطويل اللانهائى لا تحير ولا تبدى ، ولعلها لا تراه ولا يخطر لها ببال ، ولا علاقة تربط بينها وبينه

على أنها مصدر راحة وطمأنينة فى سكونها الغريب . والسماء تتحدث إلى الإنسان بلغة عجيبة لا يستطيع التعبير بها أبلغ الألسنة . إن فى سكوتها الرائع أعظم بلسم لشفاء القلوب . إنها قد تروع فكره حيناً ، ولكنها — مهما اختلفت اعتقادات الناس بها — تظل غذاء للنفوس ببريق ألوانها وسطوع شموسها وأقمارها ، وفكرة الاستقرار والسمو التى توحيهما إليها

ما أجمل الحياة لو قضيناها محدقين فى السماء !

* * *

يثير التحديق فى السماء فى نفس الإنسان فكرة أصله ومصيره . من أين أتى وإلى أين يذهب ؟ هل الوجود والعدم سيان ! وإذا كان مصدره لا يثير اهتمامه لأن الماضى قد فات ، وهو فى ذمة التاريخ ، فما المستقبل ؟ كيف يمهد له أسباب الطمأنينة والسعادة ، وهما غايته التى ينشدها فى وجوده ، وهما قصده من مصيره ، والمصير من عالم الغيب ، ولكنه الرجاء يحدو الإنسان والآمال تبعث الشجاعة لقلبه ونفسه . والإنسان يقارن دائماً بين الماضى

والمستقبل ، متبرماً بالماضي منتظراً من المستقبل ما يعوض عليه ما فات . فكم سمعناه يقول : « لو كنت أدرى ... » و « إذا أتيح لى أن أعيش من جديد ... »

أما الرجل الحكيم فهو الذى يعرف كيف يوفق بين الماضى والمستقبل ، فكأنه يقضى حياته محاولاً استخلاص الحكمة مما يمر به من الحوادث ، والحكمة كلمة كبيرة تدل على صفاء العقل والقلب . وما أحوج العالم اليوم إلى مثل هذا الصفاء !

إذا نظر الإنسان إلى الحقائق الواقعية وجد أن الصبر من أدق مظاهر الحكمة ، وله فوائد جمة تعود على صاحبه بالرضا . ومن فقده فقد خيرات وفيرة ، لأن الزمان لا يحترم غير الأعمال التى كان الصبر من أكبر العوامل التى ساهمت فيها .

كان الكردينال مازارين ، الوزير الفرنسى الكبير ، يقول : « أنا والزمان » ، وهو قول ينطبق على أفعال أعظم أمة فى هذا العصر . وقد وصل الوزير الفرنسى بالمبدأ الذى سار عليه إلى أعلى قمم المجد ، كما وصلت إليه الأمة البريطانية لأن الصبر معناه الرزانة والتعقل . لذلك نجد الصبر من المزايا التى يتحلى بها الإنسان فى سنى نضوجه وشيخوخته ، لأن فى الشباب حماساً يدفعه إلى تعجل الأمور ، وهو يتولى فى وقت واحد حل شتى المسائل فى أقصر مدة من الزمان

ومن غرائب الاضداد عجلة الشباب وصبر الشيوخ . يستعجل الشباب الأمور وهو يعرف أن أمامه متسعاً من الحياة يتيح له التريث فيها ويعالجها الشيخ فى أناة وصبر بينما يشعر أن ما بقى له من العمر قصير الأجل وأن الحياة تفلت من بين يديه وأن الموت قريب منه واقف له بالمرصاد

وهذه ظاهرة تصدم المنطق صدمة قوية ولكنه ينتقم لنفسه إذ يدلل على أن الأعمال المرتجلة هباء تذروها رياح الحياة ، وأن الزمان أداة قوية تطلب قسطها من الاحترام له ، وأنه سيد يجب إعطاءه ماله من حق

والطبيعة خير أستاذ للناس فى احترام الزمان لأنها ترضى بأحكامه وتخضع لقوانينه ، فلكل ظاهرة من ظواهرها مدتها المقررة وفصولها المعروفة . لأن الطبيعة قوية تصمد لتقلبات الزمان ولا تتأثر بها

حقاً إن الصبر من أبرز الدلائل على القوة ، وهو من أكثر مزاياها أناقة وطرافة

* * *

كم فى الحياة من اضداد تباعد بين المظهر والحقيقة !

يعيش الإنسان موزعاً بين المنافع التى يصبو إليها والغرائز التى تتنازع نفسه ، وهو يحاول أن يوفق بين هذه وتلك وأن يضفى عليها ثوباً تظهر فيه للناس من غير أن تقذى عيونهم

هناك عصور يستولى فيها الكذب على الإنسان فرداً ومجموعاً يعرف المجموع مواضع ضعفه فيخفيها ويظهر بمظهر القوة والغطرفة . ويعلم الفرد أنه حفنة من تراب فى مصدره ومصيره بينما تمتلئ نفسه كبرياء وخيلاء . وتقبل كل طبقة من طبقات المجتمع على التعالى للوصول إلى ما فوقها : وطبقة العمال أقصى همها التركز لتوازى الطبقة الوسطى (البرجوازية) بينما هى تحتقر مبادئها وتقاليدها . وتحاول الطبقة الوسطى التسامى إلى الأرستقراطية بينما تتناول وسائلها وترفها ومظاهرها بنقد شديد

تنعت المرأة الرجل بالقوة وهى تعرف مكامن ضعفه ، ويصف الرجل المرأة بالجمال وهو يعرف أن فى الرجولة جمالاً لا تقاربه الأنوثة . وهكذا أضفى كل واحد من نوعى البشر على صاحبه نعوتاً لا يعتقد بصحتها . وقد خلق كل واحد لصاحبه مزايا ثم اطمأن إليها . ولعل أبرع هذا الخلق وأجله خلق الرجل للمرأة ، فقد بنى لها عرشاً وأجلسها عليه آلهة يطالع فى عينيها سعادته وغبطته ، ويستنزل من جناتها نعمته ولذته . والغريب فى هذا أنه صادق فى عقيدته التى اختلقها ، مغرور بكذبه الذى أجراه ، وأن غبطته فى أن يفتر بهما

ولا غرو فى ذلك فكثيراً ما يضحى الإنسان بسعادته فى سبيل لذته ، وتسهل عليه هذه التضحية إذا تعودها . إن طريق اللذة مفروش بالدمقس والحرير بحيث يستطيع السير عليه من وُلِد حافى القدمين كما يسير على العشب الناعم . أما السعادة فقد خلقت للصالحين من البشر ، إما لأنهم يعتقدون بأنهم سعداء ، أو لأنهم ينتظرون السعادة مطمئنين إلى نوالها .

فالسعادة مطمح النفوس الكبيرة ، وكل نفس شريفة إذا

السياسة التوجيهية في الأزهر

للأستاذ محمد محمد المدنى

في العـدد (٣٩١) من « الرسالة » مقال كتبه الأستاذ محمود الشرقاوى ، بمناسبة مقال فى العدد الذى قبله للدكتور محمد البهى عن « شخصية الأزهر العلمية »

والأستاذ الشرقاوى يصف مقال الدكتور البهى بأنه مقال جيد ، وفيه صدق كثير ، وقد أثار فى نفسه طائفة من الخواطر يعتقد أن فيها — هى أيضاً — صدقاً كثيراً وفيها صراحة

ومع أن الأستاذ يبدو معارضاً لفكرة الدكتور ، بل مهاجماً له فإن من يتأمل فيما قاله يجده قد وافقه فى كل ما قاله ، ثم نقل البحث إلى شىء آخر

ولست فيما أكتب اليوم بالمدافع عن أعضاء البعوث الأزهرية إلى أوربا ، فذلك شأن يخصهم ، وهم أولى بأن يردوا على أسئلة الأستاذ التى وجهها إليهم ؛ ولست كذلك مهاجماً لأحد من الناس أو لطائفة من الطوائف ، ولكنى أريد أن أقول إن الأستاذ الشرقاوى لم يكن صريحاً على الرغم مما ادعاه لنفسه من الصراحة فى أول مقاله ؛ فهو يقول للدكتور البهى : لا تحدثنا عن إنتاج جماعة كبار العلماء ، ولا عن قيمة هذا الإنتاج فى نظر العلم ، ولكن حدثنا عن إنتاج هذه البعوث الأزهرية التى أنت واحد من أعضائها ، والتى وضع الأزهر فيها آماله ، وظل يرقبها فى لهف وشـوق ، مملأً نفسه بعهد جديد يمتاز بالحرية فى الرأى ، والاستقلال فى التفكير : أين هو هذا الإنتاج ؟ وأين طابع هذه البعوث الخاص الذى تتميز به عن أشياخها ؟ وأين التجديد الذى أفاده الأزهر من بعثة الإمام محمد عبده أو بعثة فؤاد الأول ؟

هكذا يتساءل الأستاذ ، ثم يصرح بأنه لم ير دليلاً يدل على أن هذه البعثات قد جددت ، أو سارت على نهج غير النهج الذى سار عليه الأشياخ من قبل « فلا هى قد أقامت فى الأزهر مدرسة للتجديد خاصة ، ولا نهجت فيه منهجاً دراسياً ولا تأليفياً خاصاً ، ولا لمت حولها معسكراً جديداً يرفع معها وبعدها شعلة النور فى الأزهر ... الخ »

ثم يحاول الأستاذ تعليل ذلك ، فيجد نفسه « أمام واحد من فرضين : إما أن تكون هذه البعوث لم تفد شيئاً مما درست فى جامعات أوربا ، ولم ترتفع بتفكيرها عن أشياخها وعن زملاء أعضائها الذين لم يبعثوا ولم يدرسوا ... وإما أن تكون هذه البعوث العلمية قد أفادت من دراستها الأوربية عقلية جديدة حرة وتفكيراً جديداً حراً ... الخ »

كانت طموحة ، لأن الطموح يتطلب قوة وتضحية ، وهو فى مجموعه دليل على كبرياء النفس ، والكبرياء فضيلة إذا كانت سلاحاً من أسلحة النضال

إن مظاهر الكذب التى ألمنا بها تجعلنا نستنتج أن كل الناس يمثلون دور المنفعة على مسرح الزمان ، وأنهم فى اطمئنانهم إلى ما يلعبونه يصبح الدور الذى يمثلونه أقرب إلى حقيقتهم من الأصل . لقد أصاب شكسبير كبد الحقيقة عند ما تلهى بهؤلاء الأشباح وجعلهم يمثلون دور المجانين حتى صاروا فى حقيقتهم مجانين

إن الأشياء والبشر كافة يغالطون فى هـذا القمار المنظم الذى ندعوه الحياة .

القلب يغالط العقل ، والعقل يغالط القلب ...

يولد الطفل ممسكا بيديه أوراق لعب كبيرة ثم يرميها فى الحياة مناضراً بها فإما أن تنطلى حيلته فينعم بما ربح ، وإما أن تنفضح فيشقى بما فقد

***

وبعد ، فقد تعودت كل طائفة من الناس النظر فى شئونها عند نهاية السنة المقررة لها . فالزارع يجيل رأيه فيما زرع وحصد ، والتاجر يوازى بين ما اشترى وما باع ، والحكومة توازن بين ما جمعت وما أنفقت ؛ وهكذا فإن من فضائل الوقف بين عامين أنه يثير فى النفس شتى الأفكار والتأملات

وقد تنازعت نفسى هذه الأفكار وأنا أصغى إلى صراخ الإنسانية وأنينها ، وإلى دوى المدافع وترجيع صداها ، وإلى خصومات الأمم ودعاياتهم ، وإلى صرير أقلام الكتاب ودوى آلات الإذاعة والطباعة ؛ فرأيت أن أدون ما جال بخاطرى ، ولعلى أصبت المرمى ولم أخطئ السبيل .

صديق شيبوب

ردد الأستاذ بين هذين الأمرين ، ولكنه نفى الأول منهما مستدلاً بأن أعضاء هذه البعوث جميعاً مبرزون فى دراساتهم الجامعية ، وفى درجاتهم العلمية التى نالوها ، وفى البحوث التى فازت بالتقدير ، فهو إذاً يستبعد الغرض الأول ويستبقى الغرض الثانى ، وهنا ينتهى عهده مع الصراحة ، فيفر من مواجهة الحقيقة التى يراها ، ويعود إلى الترديد فيقول : هل يتوجه اللوم فى عدم إنتاج هذه البعثات إليهم أم أين يتوجه ؟

كأنى بالأستاذ الشرقاوى يريد أن يكون صريحاً فى نفس الوضوع كما كان صريحاً فيما وجهه إلى الدكتور البهى ، فهو يهم بأن يطلق لنفسه العنان ثم يعود فيؤثر الأبهام ، وكأنى به متفقاً مع صاحبه فى كل ما ذكره غير مخالف له فى شىء منه ، ولكنه يؤثر أن يظهر فى ثوب المعارض له

ولا علينا من ذلك ، ولكننا نسأل الأستاذ الشرقاوى : ما هى الناحية الثانية التى يحتمل أن يتوجه إليها اللوم ؟ ما هو هذا الشىء الذى يحتمل أن يكون قد صرف أعضاء البعوث عن الإنتاج مع قدرتهم عليه ؟ أتقصد به أن البيئة الأزهرية غير صالحة لتلقى الفكر الجديدة ، وتقبل الإنتاج الحر المبنى على التفكير المستقل لأنها ما زالت تعد التجديد خروجاً على ما ينبغى من تقديس القديم والفناء فيه ، والدوران من حوله ؟ أم تقصد أن التجديد والإنتاج العلمى مرتبطان بالسياسة التوجيهية ، فكلما كانت هذه السياسة ماضية فى طريقها القويم ، حريصة على تشجيع العاملين ، وإثارة الجهود ، والانتفاع بالمواهب ، نما الإنتاج ، وكثر المنتجون ، وتشجع العاملون . وكلما انحرفت هذه السياسة عن طريقها القويم وأدخلت فى تقدير الأعمال اعتبارات غريبة عنها ، فترت الهمم ، وكلت العزائم ، وضعف التفكير ، وقل الإنتاج ؟

نحن نعرف أن كثيراً من الاعتبارات قد يعوق سير الإصلاح ، ويصرف الساسة الموجهين عن الطريق ، ويلويهم من حيث يريدون أو لا يريدون عما رسموه من الإصلاح وأخذوا به أنفسهم من التوجيه

فقد يكون فى بيئة من البيئات رجل حر الضمير ، مستقيم الفكرة ، له فى الإصلاح برنامج شريف ، وله غيرة محمودة على هذا البرنامج ، ولكنه مع ذلك لا يرى بأساً من أن يجامل شخصاً ما فيسند إليه عملاً ممتازاً من الأعمال الإصلاحية ، لا لأنه ممتاز فى نفسه ، ولا لأنه ناجح فى عمله ، ولا لأنه لا يوجد فى أقرانه من هو خير منه ، ولكن لاعتبار آخر ، كأن يكون صديقاً مثلاً ، أو أن يكون قد تطلع فى يوم ما إلى منصب ما فلم ينله ، فمن الرأى أن يترضى ، ومن الرأى أن يعوض !

وقد يحيط بالمصلح الشريف المخلص أعوان شرفاء مخلصون لا يدفعهم إلا الإخلاص للفكرة الإصلاحية ، ولكنه مع ذلك ربما أهمل آراءهم ، لا لأنه بحثها فتبين وجه الخطأ فيها ، ولا لأنه اقتنع بأن غيرها أولى بالقبول منها ، ولا لأن أصحابها مشكوك فى إخلاصهم أو فى حسن تقديرهم ، ولكن لاعتبار آخر لا ينبغى أن ينظر إليه ، ولا أن يغلب جانبه ، كالميل إلى تمثيل عنصر معين فى ناحية من النواحى

وقد يخضع المصلح لاعتبارات أخرى غير هذه وتلك ، يدفعه إليها على الرغم منه قانون تقليدى ، أو عرف قائم ، فتراه مثلاً لا يسند أعمالاً خاصة إلا إلى طائفة خاصة ، لا لأن هذه الطائفة أجدر من غيرها بتولى هذه الأعمال ، ولا لأنها أقدر من غيرها على السير بها فى طريق النجاح ، ولكن لاعتبار آخر قد لا يكون له صلة بهذا الموضوع أصلاً ، كاعتبار شرط التوغل فى السن مثلاً فى حق الأعضاء الذين ينتخبون لعضوية جماعة ما ، أو يرشحون لتولى منصب ما وهكذا

نعرف هذا كله ، ونعرف أنه شر ما تصاب به بيئة من البيئات ، وأنه داء خطير يصيب الإنتاج العام بالشلل ، ويؤدى إلى الجمود والركود ، ثم إلى الانحلال والموت !

ونعرف أيضاً أن العامل الذى يجد أن المقاييس التى من حوله ليس أساسها التفكير والعمل والدأب والإنتاج ، وإنما أساسها شىء آخر غريب عن هذا كله ، وبعيد عن هـذا كله ، هذا العامل لا يلبث أن يفتر ، وأن يضعف ، لأن القدرة على الإنتاج وحدها غير كافية ، ولكن ينبغى أن يصاحبها التشجيع والإغراء

فهل يريد الأستاذ الشرقاوى شيئاً من ذلك ويمنعه شىء ما أن يقوله ، وأن يكون صريحاً فيه ؟

ألا إنه لو علل ما يقول به من عقم البعوث العلمية بالسياسة التوجيهية لما كان منصفاً ، ولما قال صواباً ، فإن على رأس الأزهر شيخاً ممتازاً فى تفكيره ، ممتازاً فى شخصيته ، بعيد النظر فيما يقدم

العقــــد الفريد

للأستــاذ محمد سعيد العريان

(بقية ما نشر فى العدد الماضى)

قد قدَّمنا القولَ فى صدر هذا البحث أنه لم يسبق ابنَ عبد ربه إلى التأليف فى باب الأخبار والنوادر على هذا النحو إلا ثلاثةُ نفر : الجاحظ ، وابن قتيبة ، والمبرِّد .

أما الجاحظ والمبرِّد فقد كان لهما نهج فى التأليف يخالف نهج العقد ، على اتفاقهما فى الموضوع والغرض ؛ فكان انتفاعه بما اطلع عليه من مؤلفاتهما فى المادة لا فى الطريقة . وأما ابن قتيبة ، فإن بينه وبين ابن عبد ربه مَشَابهَ من وجوه ، حَمَلَتْ بعض الباحثين على الزعم بأن صاحب العقد كان فى نهجه وفى تبويبه لاحقاً مقلِّداً ، بل قد غَلاَ بعضهم فى الاستنتاج فزعم أن ابن عبد ربه قد سطا على كثير من كتب ابن قتيبة ، فنقلها نقلاً إلى عقده بحالها من غير تغيير كبير . وإنه مما يقوِّى هذا الزعم ، تلك الشهرة العظيمة التى كان يحظى بها ابن قتيبة عند أهل الأندلس ، حتى كانوا يتهمون من خلت مكتبته من مؤلفاته . ولكن العقد الفريد على الرغم من ذلك غير عيون الأخبار ، وابن عبد ربه غير ابن قتيبة ، ولكل من الرجلين شخصيته المتميِّزة بوضوح من خلال مختاراته ، ولكل منهما مزاجُه وروحه ومذهبه وجوُّه الذى يعيش فيه ويُصدر عنه ؛ فسواء كان هذا الزعم صحيحاً أو مبالغة فى الاستنتاج ، فلن يضيرَ ذلك صاحبَ العقد شيئاً ، ولن ينقص شيئاً من قدر كتابه ، إذ كانت المادة التى اجتمع منها الكتابان ليست ملكا لأحد الرجلين ، ولا هى أثراً من إنشائه الأدبى الخالص ؛ ولكنها تراثٌ مشترك يتوزَّعه أبناء العربية مما خلَّف آباؤهم

... وليس معنى أنه لم يسبق ابن عبد ربه فى بابه إلا هؤلاء النفرُ الثلاثة أنه لم يأخذ عن غيرهم ، ولكن الذى نمنيه أن انتفاعه بكتب هؤلاء النفر كانت أظهر دلالة على نفسها ، وإلا فقد كانت مكتبة قرطبة لهذا العهد حافلة بطائفة من الكتب لم يجتمع مثلها فى زمان فى مكان ، فلا بد أن يكون ابن عبد ربه قد استعان منها بالكثير إلى جانب ما أخذ من أفواه العلماء المغاربة الذين كانت لهم رحلة إلى المشرق أذاعوا بها علم العربية بين الشرق والغرب

* * *

ويقول الأستاذ أحمد أمين عميد كلية الآداب فى جامعة القاهرة ، فى بحث نشره للتعريف بصاحب العقد (مجلة الثقافة ، العدد ٩٤ — ١٥ أكتوبر سنة ١٩٤٠) : « إن أمالى أبى على القالى كانت هى النواة الأولى التى بذرها أبو على فى الأندلس من علوم المشرق ، وعليها تخرج مشهورو الأدباء فى الأندلس ، ومنهم ابن عبد ربه ... »

وظاهر كلام الأستاذ العميد صريح فى أن ابن عبد ربه كان لاحقاً لأبى على القالى ، وأنه من تلاميذه ، وأن كتاب « الأمالى » أسبق من « العقد الفريد » ، وأنه أول ما نقل إلى المغاربة من علم المشرق ...

وأرى هذا كله خطأ لا يستند إلى دليل من التاريخ ، فقد

عليه أو يحجم عنه من عمل ، وهذا الشيخ العظيم فوق أنه يشرف على الأزهريين من أسمى مكان فى الأزهر ، يتمتع من حبهم وطاعتهم وحسن انقيادهم بما لم يتمتع به أحد من شيوخ الأزهر ، فلا يستقيم مع هذا أن تكون السياسة التوجيهية فى عهده ملتوية عن الطريق ، غير مؤدية إلى الغرض المنشود . ولن يرضى الأستاذ الأكبر بأن يضع بالأمس أسس الإصلاح ، ويرسم منهاج النهوض ، ويضىء شعلة التجديد ، حتى إذا اجتذب بها القلوب ووجه إليها النفوس ، وضعها فى طريق العواصف الجامحة من رغبات أو شهوات

فلنستبعد هذا الغرض ، فلا يبقى معنا إلا أن الأزهر لم يصبح بعد بيئة صالحة لتلقى الإنتاج العلمى الذى أساسه التفكير الحر ، والاستقلال فى النظر ، وعدم افتراض الثقة المطلقة إلا فيما ورد عن المعصوم

فهل هذا هو ما أراده الأستاذ الشرقاوى ؟ إن يكنه فلا ينبغى أن يعد العقم فى الإنتاج قصوراً فى البعثات الأزهرية ، ولا عيباً فى السياسة التوجيهية ؟

محمد محمد المدنى

المدرس بكلية الشريعة

كان مَقْدَم أبي على القالي إلى الأندلس بعد وفاة ابن عبد ربه بسنتين وأشهر (توفى ابن عبد ربه بقرطبة سنة ٣٢٨ ، وكان مقدم أبي على القالي في إمارة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٣٠) ، وكان تأليف كتابه الأمالي بعد مقدمه بسنين ؛ إذ كان هذا الكتاب هو مجموع محاضراته في جامع قرطبة

فإذا أضفنا إلى ذلك أن ابن عبد ربه قد فرغ من تأليف كتابه « العقد » في سنة ٣٢٢ على ما نرجحه ، وقدرنا المدة التي أملى فيها أو على محاضراته في جامع الزهراء قبل أن يجمعها في كتاب ببضع سنين ، كان لنا من ذلك برهان لا يدفع بأن العقد الفريد كان أسبق من الأمالي ببضع عشرة سنة ؛ فلا وجه هناك للقول بأن ابن عبد ربه كان من تلاميذ أبي على ، وبأن كتابه على منهاجه

وأما قوله إن كتاب الأمالي كان النواة الأولى من علم المشارقة في الأندلس ، فينقضه ما كان معروفاً قبل ذلك في الأندلس من كتب القوم ، حتى روى ابن كثير في تاريخه : أن أهل المغرب كانوا يتهمون من لم يكن في بيته من مؤلفات ابن قتيبة شيء ؛ (توفى ابن قتيبة سنة ٢٧٦ ، وكان مولد أبي على سنة ٢٨٨) ، وكان للمغاربة من العناية بتحصيل علم المشرق والتبكير إليه ما دعا المستنصر إلى أن يرسل وراء النسخة الأولى من كتاب الأغاني لأبي الفرج فيشتريها بألف دينار ...

أضف إلى ذلك أن رحلة المغاربة إلى المشرق كانت متصلة لطلب العلم منذ أوائل القرن الثالث ؛ فلا يمكن مع هذا أن يكون علم أبي علىّ جديداً على أهل الأندلس في أواسط القرن الرابع ، وأن يكون نواة وقدوة ، ومنشئ مدرسة يتخرج عليها مثل ابن عبد ربه مؤلف العقد ... ...

* * *

ويتحدث ابن عبد ربه في مقدمته عن « تأليف الاختيار وحسن الاختصار » ؛ فأى معنى لما يذكر من حسن الاختصار في هذا المقام ؟ أتراه يعنى حسن الاختصار في المجموع ، أو في كل خبر على حدته ؟ أعنى : هل كان ابن عبد ربه يروى الخبر بحروفه كما سمعه أو قرأه من غير اختصار فيه ، وإنما كان يختصر في كل جملة ما يروى من الأخبار بحيث لا يثبت منها إلا ما تدعو الحاجة إليه ، أو كان يختصر الخبر نفسه فيحذف من حروفه ما يحذف وينقص ما ينقص ذهاباً إلى الاقتصاد في التعبير عن المعنى الذى ينقله ؟ ...

أقول : هذا كتاب العقد بين أيدينا ، وقد نظرت فيه طويلاً ، وعاودت النظر مرات ؛ فبدا لى من طول المراجعة أمر لا بد من التنبيه إليه : ذلك أن بعض دواعى ابن عبد ربه في تبويب كتابه ، كانت تقتضيه أن يثبت الخبر مرات في أبواب متفرقة ، لصلاحيته للدلالة في أكثر من موضوع واحد ؛ فإذا أنت حققت النظر في هذه الأخبار المكررة فقلّ أن تجد منها خبراً مروياً في موضعين بحروفه على وجه واحد ؛ فثمة الحذف والزيادة والإبدال ؛ وليس هناك من سبب - فيما نرى - لهذا الاختلاف في رواية خبر واحد في كتاب واحد لمؤلف واحد إلا أن يكون المؤلف يملك من حرية التصرف في رواية هذه الأخبار ما يسمح له أن يرويها بلغته ، ويؤديها على الوجه البيانى الذى يراه ؛ فهو يرويها بالحذف والاختصار حيناً ، وبالبسط والزيادة حيناً آخر ؛ ... فهل كان ذلك بعض ما يعنيه ابن عبد ربه بـ « حسن الاختصار » ؟ ...

... ولقد يكون هذا الخلاف في رواية خبر واحد نتيجة لازمة لاختلاف الرواة الذين ينقل عنهم ، أو نتيجة لازمة لاختلاف الكتب التي ينظر فيها ويقتبس منها ؛ ولكن كيف يكون التعليل حين يكون راوى الخبر في الموضعين واحداً ، والكتاب المنقول عنه واحداً كذلك ؟ ...

أظن أنه يحق لى بإزاء مثل ذلك أن أزعم بأن ابن عبد ربه لم يكن ينظر إلى شروط الرواية تلك النظرة المتحرجة التي تفرض على مثله في هذا المقام أن يلزم جانب الحرص في المحافظة على نص ما يرويه بحروفه ، وأنه كان يجيز لنفسه أن يتصرف في رواية بعض الأخبار تصرفاً يؤدى بها معناها دون حروفها ؛ وأحسب ذلك يصلح تعليلاً لانفراد ابن عبد ربه في بعض ما ورد في كتابه من نصوص تخالف ما أجمع عليه رواتها في مختلف كتب الأخبار والنوادر ؛ وأحسبه كذلك سبباً فيما التزمه صاحب العقد ونبه إليه في مقدمته ، وهو حذف الأسانيد فيما روى من أخباره

فإذا صح ذلك ، كان العقد إلى جانب ما قدمنا من التعريف بمزاياه ، مرجعاً لغوياً يمكن الاستناد إليه في بحث شيء من

للتطورات اللغوية لبعض معانى العربية بين الشرق والغرب

صحيح أن بعض هذا الاختلاف فى رواية بعض الأخبار قد يكون مرجعه رواة الكتاب نفسه وكتبته ونساخه ، ولكن ذلك إذا صح فى قليلها لا يصح فى سائرها ؛ وقد نبهنا فى هامش هذه الطبعة إلى كثير من أنواع هذا الاختلاف ، فليرجع إليها من شاء للنظر والاستدلال

* * *

بقى أن نسأل : لماذا قصر ابن عبد ربه كتابه على أخبار المشارقة وهو من هو علماً وتحصيلاً ومعرفة بآداب قومه ، وقرطبة هى ما هى فى ذلك العصر الزاهر فى الأدب والعلم والفن والسياسة ؟

تعليل ذلك سهل ميسور لمن يعرف تاريخ ذلك العصر فى قرطبة وبغداد حاضرتى البلاد العربية فى الغرب والشرق

لقد كان فرار عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان إلى الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية فى الشرق ، محاولة جريئة لإقامة حكومة أموية فى المغرب بإزاء الحكومة العباسية فى بغداد ؛ ولقد حالف التوفيق عبد الرحمن الداخل فتم له كثير مما أراد ، وأقام عرشاً لبنى أمية فى الأندلس يتوارثه بنوه سيداً عن سيد ، كلهم يحرص على النهوض بدولته إلى المنزلة التى يجعلها تناظر بغداد ؛ فمن ذلك كانت المنافسة بين الدولتين فى الشرق والغرب دائبة لا تنى ، وكانت الوفود لا تفتأ ساعية بين الحاضرتين ، فلا يظهر جديد فى بغداد حتى يكون نبؤه فى قرطبة ، ولا ينجم نجم فى قرطبة حتى يذيع خبره فى بغداد ؛ واتخذت المنافسة بين الدولتين مظاهراً علمياً يبدو أثره فيما كان من اهتمام المغاربة بالرحلة إلى الشرق للتزود من معارفه ، وفيما كان من تطلع المشارقة إلى الأندلس ليعرفوا كل جديد من خبره وما أحدث علماؤه وأدباؤه فى مختلف فروع المعرفة

على أن المغاربة مع ما كان فيهم من اعتداد بأنفسهم وعصبية لبلادهم لم يكن منكوراً لديهم أن علم العربية فى المشرق كله ، منه نشأ وفيه نما وربا ؛ فكانت إليه أنظارهم ، وإليه حجهم وقبلتهم ، ولا يتم تمام العالم منهم — عند الرؤساء وعند العامة — إلا أن يكون علمه مشرقياً

وكما نشاهد فى مصر لعهدنا من يتزيد فى الفضل بكثرة ما يروى من علم الأوربيين وما يقص من مشاهداته لديهم وما يروى من أخبارهم — كان هنالك فى ذلك العهد ... ...

... وفى ذلك العهد كان ابن عبد ربه ، وكأنى به وقد رأى المنزلة التى ينزلها علماء المشارقة من نفوس قومه ، والمكان المرموق الذى تحتله مؤلفاتهم وكتبهم ؛ حتى كان شأن ابن قتيبة وكتبه عندهم ما قدمنا — كأنى به وقد رأى ذلك ، فدبر أمراً ، وأحكم خطة ، واتخذ طريقاً ؛ ثم خرج على الناس بكتابه يقول : هأنذا ، وها هم أولاء !

وكان علماء الأندلس يرحلون إلى المشرق ، فرحل الشرق إلى الأندلس فى كتاب ابن عبد ربه ... !

ذلك وجه الرأى فيما أحسب لاقتصار كتاب ابن عبد ربه على أخبار المشارقة إلا قليلاً منه ، لا أرى ذلك وجهاً سواه

ورحل كتاب ابن عبد ربه إلى المشرق تسبقه شهرته ، ووقع فى يد الصاحب بن عباد ، فأقبل عليه مَشُوقاً ملهوفاً يلتمس فيه عِلْمَ ما لم يعلم ، فما هو إلا أن نظر فيه حتى طواه وهو يقول أسِفاً : « هذه بضاعتُنا رُدَّت إلينا ! » ... ثم دار الزمان وجدَّت الحوادثُ فى آثار العرب ، فأخذتهم بالسنين ونقص من الأموال والأنفس والثمرات . وتبعثرت المكتبة العربية وخلت بعد امتلاء ؛ ولكن علم المشارقة ظل محفوظاً بين دفتى كتاب ابن عبد ربه المغربى الأندلسى القرطبى ... !

هذا ، وقد كان كتاب العقد من بعدُ ، مرجعاً له خطره ومقداره عند كثير من علماء المشارقة ؛ فنقل عنه القلقشندى فى صبح الأعشى ، والنويرى فى نهاية الأرب ، والأبشيهى فى المستطرف ، والبغدادى فى خزانة الأدب ، وابن خلدون فى المقدمة ، وغير هؤلاء كثير ؛ حتى قل أن يخلو كتاب من كتب النوادر بعدُ إلا كان العقد مرجعه وخزانة علمه . ولو أننى ذهبت أستقصى أسامى الكتب التى سطا أصحابها على العقد فاحتملوا من خزائنه ما أغناهم وذهب بشهرتهم كل مذهب لأعيانى البحث وانقطع بى دون الاستقصاء

محمد سعيد العريان

من أساطير الهند

شاد لهـــا الحب لؤلؤة

[بتصرف من اج . جى . ولز H. G. Wells.]

للأستاذ إبراهيم العريض

إنى لا أستطيع أن أحكم لنفسى فى الخلاف الناشئ منذ العصور حول هذه القصة . أهى أشد القصص مرارة فى الحب ، أم إنها مثل رائع لخلود الحسن ؟ فالقصة وما دار حولها من نقاش بات في علم أولئك الذين يدرسون الأدب الفارسى فى العصور الوسطى .

إنها أقصوصة جد قصيرة . وإن كانت شروحها قد شغلت حيزاً كبيراً من أدب ذلك الجيل المنثور ، فحسبها بعضهم خيالا شعريا ، واعتبرها آخرون رمزية ، فكثرت فى مغزاها الأقاويل ؛ وذهب رجال اللاهوت فيها مذاهب شتى ، واهتموا منها فى الأخص بالجانب المتعلق بالبعث بعد الموت ؛ وضرب رجال الأخلاق بها الأمثال ، واتخذوها موضوعا للعبرة . وهناك غيرهم من لا يرى فيها إلا الحقيقة عارية من كل لبوس . اج . جى . ولز

جلَوْها له فى نقابِ الجمالِ عروسًا أتمَّ الصِّبا عامَها

وكانَ قريباً بعهدِ الطُّفوا ةِ لمَّا تتــوَّج إذْ رامَها

خَلَت على قلبه كالشُّعاع ترى عينهُ فيــهِ أحلامَها

سلِ الزهرَ عن ضحكِها عندَ ما تُفتِّحُ للطــلِّ أكمامَها

سلِ الطيرَ عن نُطقِها عند ما تبثُّ مع الفجــرِ أنغامَها

وما حكَتا من معانى الفتو نِ ما يُلهِمُ الشِّعرَ إلهامَها

وما شرِقَتْ عينُها بالسُّرورِ فتنفضُ من خمرِه جامَها

إذا خطرتْ شذَّ بينَ القلو بِ من لا يُبارِكُ أقدامَها

وكانتْ يدُ الحكمِ عن أمرِه تُنفِذُ فى الخلقِ أحكامَها

فعاشَ لِإمتاعِها بالوُجودِ ونوَّر بالحبِّ أيّامَهـــا

***

وعاشتْ وإيّاهُ فى روضةٍ من الحبِّ أفنانُها دانيَهْ

إذا عادَ من همِّه بالنها رِ ألفَى لديها المُنى غافيه

فمِجْمرةُ العودِ فى جانبٍ ومِفرَقةُ العودِ فى ناحيه

ومِن حولِ هاتين شفَّت ستائـــرُ عن كلِّ نُمرُقةٍ غاليه

وقد عقدَ الوردُ حولَ السريـــرِ من مثلِ ألوانِها حاشيه

فتُسرِعُ باسمــةً نحوه وتأخذُ يُمناه كالشاكيه

وتهوِى به بينَ تلكَ الظِّلالِ وتبقَى الظِّلالُ على ما هِيه

فلا تسمَعُ الأذنُ غيرَ الصَّدى صدى الرُّوحِ تهفو إلي ثانيه

ولا تُبصِرُ العينُ إلاّ بدًا تمرُّ برِفقٍ على ناصيــه

إلى أن تذوبَ الشِّفاهُ التى تُناغيهِ فى همْســةٍ خافيه

***

وكانت قِصاراً ليالى الهناءِ ولـكنَّها ازدهرتْ كاملَهْ

فلمْ يشعُرا بحُداءِ الربيعِ ولا كيفَ مرَّتْ بهِ القافله

وحلَّ الخريفُ لتنعَى الطيورُ إلى الروضِ أوراقَه الهاطله

تبدَّلَ فى عينِها كلُّ لونٍ فيالكِ مِنْ صُفرةٍ قاتلَهْ

فهامتْ فرادَى على وجهِها وكانت تَقِــرُّ ممّا نازلِه

وماذا تؤمِّلُ بينَ الغُصونِ وقد تركَتْها الصِّبا عاطِله

على كلِّ صاوٍ لها رَنَّةٌ تُسائله ، لو وعَى سائلَه

وأمسى أديمُ الثرى صورةً لِما رسَمتْهُ الخُطا العاجله

ومن بينِ مِنْ شيَّعتْها الطيورُ إلى عالَمٍ لا ترى ساحلَه

على صِغَرِ السِّنِّ بين الحسا نِ زهرةُ آمالِهِ الذّابـــله

***

وأدمى المُصابُ فؤادَ الأميرِ وأفقدهُ رُشــدَهُ فى أساهْ

فظلَّ ثلاثاً بلا بُلغــةٍ وقد برِمَتْ نفسُه بالحياه

يلوحُ لنــاظِره طيفُها فيجزَعُ من دمعِه إن محاه

ويضحكُ مِنْ قلبِه ساخرًا إذا لم يرِنَّ اسمُها فى صداه

وكم أطرقَ الرأسَ حتى إذا أحسَّ بذلكَ جُنَّتْ يداه

وكم لبِثتْ عينُهُ فى الظلامِ شاخِصَةً لا ترى ما يراه

وتلّى عَلَى صَـوْمِهِ رَابِعٌ وما زال جُثمانُهَا في كراه

فلم يجترئْ أحَدٌ بعْدُ أنْ يوارِيَ هيكلها في ثراه

تمُـدُّ النساء عليها الحريرَ فيحسَبْنَهُ قائماً في صلاه

إلى أن تمثّلها فِـكْرَةً فقرَّر تنفيـذَها ، في ضحاه

***

فأصدرَ أمرًا إلى شعبه دعا فيـه بادِيَهُم والحضرْ

فما خطرتْ قبْلَه فِـكرة كتلك ببالِ جميع البشر

ووافاهُ مِنْ كلّ فجٍ عَميقٍ بُراةُ الدُّمى والفنونِ الأُخر

وتمّ له من مُعدّاتِهِمْ وأسبابهم ما اقتضاهُ الأثر

فصبّ لتابوتِهـا فِضةً وزخرفَ أطرافَه بالصُّوَر

وقوّمَ بالعــاجِ أركانه وزانَ قوائمَـه بالدُّرر

وشادَ على قُدْسِهِ حَضْرةً بناها من المرمرِ المُختَفر

وقدّرَ شِبْشًا لها صَـنْدَلاً وجمّلَ كِسْوتَه بِالطُّرَر

وقامت له شُرْفَةٌ في البنا ءِ مقصُورةٌ غُلِّفت بالسُّـتُر

فكان يُفارِقُها بالعِشاءِ ويأتي لِزَوْرَتِهَا في السَّحر

***

ومرّتْ سِنونَ على صرحِه وما زالَ يعملُ في شانِهِ

يُحِسُّ إلى حبِّها في الضُّلو عِ كالبحرِ يغشى بطوفانه

فيَسْعَى ليُعلِنَهُ للأنام ولا يستريحُ بإعْــلانه

وتلكَ التي أجّجتْ قلبَهُ فأغرتْ حَشاه بطُغْيانه

ففي طَرْفِهِ أبداً حَــيْرةٌ إذا جالَ في حُسْنِ بُنيانه

فكم عاودَتْ يدُه بالصلا حِ شَكلاً يُدِلُّ بإتقانه

وكم أعجبَ الناسَ ما شادَهُ وأنكرَه هُوَ في آنِهِ

فهدّم من سقفِه ما استقرّ وبدّل هيئَــةَ أركانه

وفي البدْءِ كانتْ له نزعةٌ إلى المُستقــلِّ بألوانه

تخفّفُ حِدّتَهــا توْقُه حَديثًا لإظهــار سُلْطانه

***

مضى في التطوُّرِ ذاكَ البِناء ومهّــدَ أوّلُهُ آخِرَهْ

فيأخذ إيوانُه في اتّسَاعٍ تحيطُ السواري به دائِره

وتلكَ هيَ النارُ في صدْرِه ولـكنها التهبَتْ زاهره

ففي كلِّ رُكْنٍ لها آيةٌ تُحدّثُ عن حُسْنِها شاعِرَه

لقد كانَ يُرْضِيهِ منها البهاء فأصبحَ لا يرتضِي الباهِره

وأكسبَهُ ضربُه في الفنو نِ ذوْقًا هدَى فِطْرةً طائِرَه

ليختارَ من وحيِها ما يَجِلُّ ويُهمِلَ عن عَمْدٍ سائِرَه

فكم شُرْفةٍ أثقلتْها النقو شُ ردَّ مُرادِقَها حاسِره

لِتَنْهَضَ من فوقِها قُبّةٌ تخالُ السماءَ بِها غائِره

يغيبُ عن الحسِّ مَنْ زارَها ويَشْهَدُ في ظلِّها الآخِره

***

تهلّلَ بالحُسنِ وجهُ الضريحِ وقامتْ منائِرُه باتّزانْ

تُطِــلُّ على أثرٍ للخلو دِ قامَ على آخرٍ وهْوَ فانْ

وكانت تجيءُ إليهِ الوفود تُبارِكُ نُمْنُمَتَـــهُ بالعِيان

فتَشْــدُو أدلاؤُهُمْ بالتي على حُسْنِها عُقِدَ المهْرجان

وكيفَ قضتْ في صِباها فشادَ لها الحُبُّ لؤلؤةً في الزمان

فتَخْشَعُ أطْرافُهم للمكينِ وتخفِتُ أصواتُهم في المـكان

وكم شاعرٍ هائمٍ في الخيالِ تمثّلَها فبكَى من حنان

وحسناءَ تحبِسُ أنفاسَها لعاقبةٍ – مِثْلِهَا – في الحسان

وعاشَ الأميرُ على عَهْدِهِ يقومُ لها كلَّ يومٍ بشان

ومَنْ حَوْلَه مُلْهِمَاتُ الفُنُونِ تَرِفُّ على قلبِهِ بالأمانِ

***

وأمْسَى بشَيْبتِهِ ذاتَ يومٍ تُنادِمُه روحُهــا الساريَهْ

يرى الوافِدَاتِ إلى قبرِها وهُنَّ يُزغرِدْنَ في عافيه

فيُثْمِلُه حُسْنُ ما قدْ أتمّ ويَذْكُرُ ما لم يكُنْ ناسِيَه

لقد لبِسَ الصرحُ هذا الجلالَ بأشرافِ قُبّتِـــه العاليه

ولم يبْقَ رُكنٌ على حَجْمِه سِوَى موضعِ التربةِ الزاكيه

ونظرتُه ترْتمي في البِناء فتسبحُ في جوِّه صافيــه

ولـكِنّها كلّما راجعتْ سواريَهُ ... ساريةٌ ساريه



شئ نادر :

الوصـــول

للأستاذ عزيز أحمد فهمى

كن فى مجتمع وانظر إلى الناس من حولك وتفرس فيهم ، فإنك تستطيع بعد شيء من التدرب والتعلم أن تحدد ، ولو بالتقريب ، شخصيات الكثيرين منهم ، فتقول إن هذا الأول شخص جاد مستقيم فى عمله مستقيم فى لهوه ، فهو يعمل ليعيش ، ويلهو ليعمل ، كأنما هو آلة حكم عليها أن تدور دورتين دورة ذات اليمين ودورة ذات الشمال . فإذا تركته ونظرت إلى الثانى قلت إن هذا الثانى شخص حائر لا يعرف لماذا نوجد فى هذه الحياة ولا يعرف أى أعباء الحياة يحمل ولا أيها يدع ، فهو يرمق كل شئ باهتمام ، ولا تعدو رمقته إلى الأشياء هذا الاهتمام ، ولا تجوزه إلى الاختبار والمعرفة ثم الاستغلال . فإذا تركته ونظرت إلى الثالث قلت إن هذا الثالث مغالط اختلس فى الدنيا ما كان غيره أحق به منه ، وهو يعرف أنه مختلس ، ويعرف أن المختلس مهدد بالانفضاح ، ولذلك فإنه يعمد إلى تغطية مغالطته الأصلية المجرمة بمغالطات أخرى فرعية هى أيضاً مجرمة . فإذا تركته ونظرت إلى الرابع قلت إن هذا الرابع ضعيف هزيل ولكنه راغب فى الحياة ، وفى لون مريح من ألوان الحياة يرضاه ، فهو يتوسل إليه بإهدار كل مواهبه وكل قواه لا يعبأ بأن يكون موضع النقد ، ولا بأن يكون موضع السخرية ، ولا بأن يكون موضع التحقير ما دام يصل إلى الذى يريد من الراحة الرخيصة التى اشتهوته والتى طمع فيها على غير جدارة منه لها ... فإذا تركته ونظرت إلى الخامس قلت إن هذا الخامس حقود ، فإذا تركته ونظرت إلى السادس قلت إن هذا السادس بخيل ، فإذا تركته ونظرت إلى السابع قلت إن هذا السابع بحاثة ، فإذا تركته ونظرت إلى الثامن قلت إن هـذا الثامن فنان ... وهكذا ...

بل إن من الناس من تستطيع بالنظرة الأولى إليه أن تعرف الحرفة التى يحترفها ، فهذا تعرفه معلماً من عنايته بالنظافة والنظام ، ومن حركاته الميكانيكية التى اصطنعها لتكون نموذجاً للتلاميذ يتحركون على نغماتها ، ولتكون فى الوقت نفسه ستاراً بينه وبين التلاميذ فلا يكشفون مع وجودها حركات نفسه الطبيعية التى فطره عليها الله ، وأنت تعرفه كذلك من صوته وإشاراته وحديثه الذى يتكلف به التفهيم بحسب أصول البيداجوجيا . . . وذاك تعرفه محامياً من لباقته ورشاقة ضميره التى تبدو فى اتساع آفاق أحاديثه ، تلك الأحاديث التى يحرص المحامى البارع كل الحرص على أن تكون كلاماً لا معنى له حتى إذا اختلف مع موكله بعد الحكم الابتدائى استطاع أن يتفق مع خصم موكله ليترافع عنه لدى محكمة الاستئناف . . . وذلك تعرفه سمساراً من سهولة دخوله على الناس وسهولة خروجه من الناس ، فهو يحدث من يشاء بما يشاء إلى أن يشاء قطع الحديث ليحدث آخر بما يشاء أيضاً حتى يرى أن يصل الاثنين وأن ينسحب هو ليصل غيرهما بالحلال أو الحرام ... وآخر تعرفه عسكرياً من سماحة عقله وسماحة نفسه

أصابتْ عِثاراً على نُقطَةٍ ... فكرّتْ على نفسِها ثانيه

فيشْعُر كالشّوْكِ فِى صدْرِهِ ... يُوخزُ من قلبِـهِ داميَهْ

فينْهضُ فِى قبْضَةٍ مِنْ ذُهُولٍ ... يجرُّ خُطاهُ بلا واعِيَـه

* * *

وعادَ غداةَ غَـدٍ واجِماً ... وفى سِرِّهِ الْخُطةُ التاليَهْ

وسادَ السكونُ على المُلهِبينَ ... كأنَّهُمُ الجَمْرةُ الخابيه

فشاعِرُهم قائمٌ بالوَصِيدِ ... يُسائِلُ عمّا جَرى رَاوِيَه

ودارَ بنظْرَتِه فى المَكانِ ... وألقى على صحنِه ثانيــه

ورَوّى طويلاً وقال : ارْفعُوهُ ! ... وَأوْمأَ لِلتُّرْبةِ الزاكيه

(البحرين) إبراهيم العريض

فهو لا يطمع من الدنيا فى شىء أكثر من الذى يطمع الإنسان فيه إذا كان فى « استراحة » إحدى المحطات : لقمة سائغة ، وشربة هنية ، بعدها جرس القيام .. ثم للصحافى تعرفه صحافياً بقدرته المجيبة على دس نفسه فيما يعرف وفيما لا يعرف ، وبقدرته الأخرى على الاستخفاف بحكم الناس عليه ؛ فهو يقبل عليهم فى النكبة لا ليشاركهم الأسى ولا ليواسيهم ولا ليخفف عنهم وإنما ليرام كيف يبكون ، وكيف يذرفون الدمع ، وليته مع ذلك يحاول أن يعرف هذا البكاء وهذا الدمع هل هما صادقان أو هما كاذبان وإنما الذى يعنيه هو تسجيل الوقت الذى بدأ فيه البكاء والوقت الذى انتهى فيه ، وتقدير الدمع الذى ذرف كأنما ناس يريدون أن يشربوه أو أن يعوموا فيه ... وهكذا

هذا شىء يحدث ... وأنت تستطيع - كغيرك - أن تميز الناس بالنظرة الأولى أو بالنظرة الثانية ، فما الذى يحدث للناس حتى يتشكلوا هذا التشكل الذى يحددهم ويحصر شخصياتهم ؟ وهل تحدد الشخصية وانحصارها مما يدل على قوتها ، أو مما يدل على ضعفها ؟

أما الذى يحدث للناس ، فيكون من أثره أن تتشكل شخصياتهم وأن تتحدد وأن تنحصر وأن تتميز ، فهو أن الواحد منهم يقع تحت تأثير عاطفة من العواطف أو حرفة من الحرف ، ويتركها تعمل فى نفسه . والنفس كما نعلم تعمل فى البدن ، ولكل عاطفة لون من العمل تنصبغ به النفس ويتشكل به البدن . ومهما كان من الخير فى العاطفة الواحدة أو فى الحرفة الواحدة ، فإن تغلبها على الإنسان فيه اختلال لتوازنه النفسى وفيه تشويه لشكل بدنه ، فالله لم يخلق إنساناً بعاطفة واحدة طاغية عليه ، كما أنه لم يخلق إنساناً محترفاً حرفة واحدة تؤثر فيه هذا الأثر الشنيع

وإنما الناس الذين خلقهم الله أطفال ، أصفياء ، عواطفهم موجودة لا حصر لها : فالسعيد منهم هو ذلك الذى إذا نما العقل فيه تمكن به من حفظ التوازن بين هذه العواطف الموجودة الكثيرة فلم يسمح لإحداها بأن تغلبه على أمره ... فإذا استطاع هذا ، فهو ينمو ويكبر ولا يزال وجهه كوجوه الأطفال ، ولا تزال شخصيته كشخصيات الأطفال ، فيها هذا الشيوع السمح الذى لا يستطيع الناظر إليه أو المحقق فيه أن يعزم به فيقول : إن هذا الإنسان حقود ، أو إنه غيور ، أو إنه طماع ، أو إنه محام أو إنه معلم ، أو إنه مهندس ، أو إنه شىء ما ... وإنما يقول هذا إنسان ، فإذا أراد أن يعرف أى إنسان هو كان عليه أن يباشره وأن يختبره ، فعندئذ تتبين له مواهبه واتجاهاته العقلية والنفسية. ولا بد فى هذه الحال أن تنكشف له ميزات عجيبة ، لأن الإنسان الذى يستطيع — وعلى الخصوص فى هذا العصر — أن ينجو بنفسه من الخضوع لإحدى العواطف أو لمجموعة خاصة منها ، وأن ينجو من آثار الحرفة والمهنة ، لهو إنسان قوى النفس استطاع أن يصل أو أن يعود إلى الأصل الطبيعى لنفسه ، وهو الأصل الذى فطره الله عليه ، وهو أصل خصب صاف غنى فيه كل العواطف ، وكل المواهب ، وكل القوى الخلقية ، وإن تفاوتت مقاديرها عند الناس

ومن الفنانين الذين استطاعوا أن يصلوا إلى هذا الصفاء : شارلس لاتون ، فأنت تنظر إلى وجهه فترى وجه طفل لا يستطيع اللحم المتراكم فيه أن يحجب صفاءه ولا نقاءه

ونجيب الريحانى يقترب اليوم من الستين ، ومع هذا فمهما تفرست فى وجهه فإنك لا تستطيع — والصلاة على النبى — أن ترى فيه تجعيدة أو خطاً يستر عاطفة حادة أو يشير إلى أن هذا الرجل قد قهره الزمن على أن ينصبّ فى قالب ما . ولذلك فإنه قدير على أن يمثل كل شخصية من الناس ، وعلى أن يعلم الممثلين كيف يمثلون ما اختلف من الشخصيات

والأستاذ أحمد أمين — على ما أنا متحامل عليه — تراه فلا تعرف أهذا الرجل أديب ، أم هو عالم ، أم هو تاجر ، أم هو من ذوى الأملاك ، أم هو ممن يرزقهم الله يوماً بعد يوم ... ولست أدرى أأتاه ذلك لأنه من أولئك الذين تحدثنا عنهم ، أم لأنه مجموعة من الرجال : فيهم الأديب والعالم والتاجر وذو الأملاك ، والذى يرزقه الله يوماً بعد يوم ، وقد تعادل فيه هؤلاء جميعاً فلم يقو واحد منهم على أن يختص بالظهور فيه

ويشبهه فى ذلك الأستاذ الزيات ... بل إنه يزيد عنه غموضاً فى صوته ، فهو لا يزال إلى اليوم يشبه أصوات الأطفال ...

أما الرجل الجبار فى هذا الوصول فهو الاقتصادى الفنان الكبير طلعت حرب ... فهذا رجل إذا لم تكن تعرفه ورأيته وأقسم لك جمهور من الناس بأنه طلعت حرب لما صدقت ، فهو لا يبدو عليه أنه باشا ، ولا أنه اقتصادى ، ولا أنه صاحب

البريد الأدبي

الجيل

يمضد مقالة الدكتور زكي مبارك في (الجيل) مستدرك التاج «والجيل القرن» «والقرن — كما في النهاية — أهل كل زمان وهو مقدار التوسط في أعمار أهل كل زمان، وكأنه المقدار الذي يقترن فيه أهل ذلك الزمان في أعمارهم وأحوالهم. وقيل: القرن أربعون سنة، وقيل: ثمانون، وقيل: مائة، وقيل: هو مطلق الزمان»

والجيل في هذه اللزومية:

دين وكفر وأنباء تقص وفرقان (م) ينص وتوراة وإنجيل
في كل جيل أباطيل يدان بها فهل تفرد يوماً بالهدى جيل؟
وما تزال لأهل الفضل منقصة والأصاغر تعظيم وتبجيل!

الجيل في قول الشيخ قد يراه الدكتور من حججه

م

حول مسابقة الأدب العربي

في هذا العدد من الرسالة يظهر المقال التاسع، وفي العدد المقبل إن شاء الله يظهر المقال العاشر في نقد كتاب «المختار» للأستاذ عبد العزيز البشري، ويرى طلبة السنة التوجيهية أن موعد المسابقة اقترب وأنه صار من المتعذر أن نكتب عن «تحرير المرأة» و«ديوان إسماعيل صبري»

أما كتاب تحرير المرأة فقد نشرت عنه «الرسالة» مقالين لباحثين فاضلين، فأنارت الطريق أمام الطلاب، وأما ديوان إسماعيل صبري فمعه أربع دراسات لحضرات الأساتذة الأفاضل طه حسين وأحمد أمين وأنطون الجميّل وأحمد الزين، وفي هذه الدراسات ما يوضّح ملامح هذه الشاعرية أحسن توضيح

لكن بقي جانبٌ من هذه الشاعرية لم يلتفت إليه هؤلاء الباحثون، وذلك الجانب هو تأثير إسماعيل صبري في الشعر الحديث من الناحية الوصفية، وأريد بها وصف الآثار المصرية وكنت أحب أن أنشر في «الرسالة» مقالة في خصائص هذا الجانب من شاعرية صبري، ولكني لم أجد ما أقوله بعد البحثين اللذين أثبتهما في الطبعة الثانية من كتاب «الموازنة بين الشعراء» وهما يقعان في سبع وعشرين صفحة، فإن رأى الطلبة أن يرجعوا

مشروعات، ولا أنه صاحب جهاد، وإنما هو رجل منكسر ينثني رأسه وهو جالس إلى صدره ذلاً واستغفاراً، وتتطلع عيناه إلى السماء رجاء واستعطافاً، ويتهادى صوته في حديثه كأنما يخشى التعثر أو الخطأ، مع أنه اليوم في السبعين أو نحوها، ومع أنه الرجل الأول في مصر

السنون مرت به ولكنها لم تفعل به شيئاً، والصعاب صدمته ولكنها لم تحفر في نفسه مجرى، وإنما كان يقبل في السنين الماضيات جميعاً على اليوم بعد اليوم، أو على الساعة بعد الساعة يبحث عن موضع الحق أين هو فيلصق به، والصعاب كانت تصدمه فكان يردها بدرع الحق أيضاً فلم تكن لتؤثر فيه، ولذلك استطاع أن يبقى إلى اليوم كأنه طفل كبر جسمه ولكن نفسه ما تزال صافية مرتاحة

وإذا كان الوصول إلى هذا الصفاء لازماً للناس جميعاً، لأنه أهم أسباب الراحة والاطمئنان، فهو ألزم ما يكون لأهل الفن ما دام تعبيراً من حياة الروح عند صاحبه وعند غيره من الناس، فهذا الصفاء يمكن للفنان من الاطلاع على حقيقة نفسه كلما اعتراها طارئٌ من طوارئ الحياة، فيلحظ بهذا الاطلاع ما ينتاب النفس الطبيعية عند هذا الطارئ بالذات؛ فإذا ضمن صفاء نفسه واستقامتها فقد ضمن بها مقياساً لا يخطئ يمكنه من الحكم على سائر النفوس وهي تحت تأثير الطوارئ المختلفة، فإذا لحظ بعد ذلك كيف تعبر نفسه عما تفعله بها الطوارئ، وكيف تنزع إلى الاستغراق في هذا الطارئ أو التنصل من ذاك الطارئ، استطاع بعد ذلك أن يقيس نفوس الناس على نفسه الصافية فإذا وجد اختلافاً بحث عن علته وسببه عندهم ...

وهذه موضوعات للأدب، وللموسيقى، وللتمثيل، وللغناء، وللرسم، وللرقص ...

إنها حياة النفس وما الفن إلا تصوير هذه الحياة، وما الوصول إلى الفن الصادق إلا من هذه الطريق ...

كان الله في عون الفنان إذا أراد أن يكون صادقاً ...

عزيز أحمد فهمي

إلى هذين البحثين فى كتاب الموازنة بين الشعراء فسيكون لذلك بعض النفع ، لأنهم سيرون ملامح لم يروها فى تلك الدراسات ، وقد يكون فيما فصلنا من الموازنة بين صبرى ومطران مماث لم يلتفت إليها الطلبة من قبل

وأنا أرجو أن يكتب الله التوفيق لجميع المتسابقين ، وأنتظر بعون الله ورعايته أن يكون إجابات المتسابقين شاهداً على اهتمام الشبان فى مصر بعبارة الأدب الحديث والله عز شأنه هو الموفق

زكى مبارك

الرواية الإسلامية فى عدد أصحاب الكهف

ذكر الأستاذ الجليل زكى مبارك فى العدد (٣٩١) من مجلة الرسالة الغراء أنه بمراجعة التفاسير فى قوله تعالى : (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ، قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل) يعرف أن أصحاب القول الأول هم اليهود ، وأصحاب القول الثانى هم النصارى ، وأصحاب القول الثالث هم المسلمون ، وقد جعل الرواية الإسلامية أن عددهم ثمانية بإضافة كلبهم إليهم

ولعل صديق الأستاذ زكى مبارك يقصد الرواية الإسلامية المشهورة ، فلا تكون هذه الرواية فى الإسلام ضربة لازب وإن اشتهرت بين المسلمين ، فكم من أمور اشتهرت بيننا معشر المسلمين وليست فى شىء من ديننا . والحقيقة أن ظاهر القرآن الكريم على أن هذه الأقوال الثلاثة لأهل الكتاب خاصة ، فهم الذين قالوا مرة إنهم ثلاثة رابعهم كلبهم ، وقالوا مرة إنهم خمسة سادسهم كلبهم ، وقالوا مرة إنهم سبعة وثامنهم كلبهم ، وقد أمر الله تعالى نبيه عليه السلام أن يرد عليهم أقوالهم المختلفة بقوله : (قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل) ثم أمره بعد هذا ألا يمارى فيهم إلا مراء ظاهراً ، واختيار أحد هذه الأقوال وحمله على القرآن والإسلام ليس من المراء الظاهر فى شىء ، والحكمة ظاهرة فى ترك ذلك المراء ، لأن الإسلام لا يعنى بعدد أصحاب الكهف ولا غيره من شأنهم ، وليس من شأنه أن يدخل فى جدال مع أهل الكتاب فى تلك التفاصيل ، وإنما يسوق قصة أهل الكهف للعبرة والعظة ، شأنه فى كل ما قصه علينا فى القرآن الكريم ، والعناية بتلك التفاصيل من شأن علم التاريخ لا من شأن الكتب السماوية .

وقد تمسك الذين رجحوا أن يكون عدد أصحاب الكهف ثمانية من علمائنا بهذه الواو التى وردت فى قوله تعالى : (وثامنهم كلبهم إذ لم يقل قبلها ورابعهم وسادسهم ، ولكن هذه الواو إذا دلت على مثل هذا فإنما تدل عليه فى قول الذين حكى الله تعالى هذا القول عنهم ، ولا تدل على ترجيح الله تعالى لهذا القول على القولين قبله

وإذن يكون الراجح عندنا فى عدد أصحاب الكهف أنه مما استأثر الله بعلمه مع القليل الذى ذكره فى كتابه ، وليكن بعد هذا عددهم أربعة أو ستة أو ثمانية ، فكل هذا من الرجم بالغيب. ولا يهمنا فى ديننا بشىء ، ولو كان المسلمون كلهم يعرفون عددهم وأنه ثمانية ما قال الله تعالى فى عددهم (ما يعلمهم إلا قليل)

عبد المتعال الصعيدى

فى ديوان اسماعيل صبرى باشا

قرأت ديوان اسماعيل صبرى باشا الذى صححه وضبطه وشرحه ورتبه الصديق الشاعر الأستاذ أحمد الزين والذى قامت بنشره لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٨ م فلفتَ انتباهى خطأ وقع فيه الأستاذ الزين رأيت أن يصححه كل من اقتنى الديوان . فى صفحة ١٨٦ قصيدة عنوانها « الحرب الإيطالية فى طرابلس أيضاً » أولها :

يَا بِنتَ رُومَا لا تكونى كمَا كانَتْ أثِينَا بَيْنَ قِيلٍ وقالِ

وهذه القصيدة مُشكَّلةٌ كل أبياتها بكسر اللام فى القافية وهذا خطأ تصويبه تسكين اللام كى يصير وزن القصيدة :

مُستفعلن مستفعِلُن فاعانْ مُستفعلنْ مُستفعلنْ فاعلانْ

فليس من الجائز أن نقول :

مُستفعلنْ مُستفعلنْ فاعانْ مُستفعلن مُستفعلن فاعلانِ

والخطأ فى القول الثانى هو كسر النون فى « فاعلانِ » وصحته تسكين اللام بقول « فاعلانْ »

عبد الرحمن الخميسى

قصيدة كبلنج

قرأت فى العدد (٣٨٩) من الرسالة الغراء ترجمة الأستاذ عبد الواحد الخطيب لقصيدة كبلنج الخالدة (إذا ...) فوقفت عند السطر الثانى والثالث منها عند ما لاحظت اضطراباً فى المعنى فقد جاء فى ترجمة الأستاذ ما نصه (وكان فى إمكانك أن تثق بنفسك حينما يشك فيك بعد أن تعرف رأيهم ووجهتهم التي يعيبونك فيها) فالضمير فى رأيهم يعود على فاعل يشك التى بناها الأستاذ لصيغة المجهول ، وكان الصواب أن يذكر فاعلها وهو (الناس) كما ورد فى الأصل الإنجليزى

هذا وإننا نشكر للرسالة الغراء فتحها المجال لأبناء العربية ممن قدّر لهم الوقوف على الأدب الإنجليزى الزاخر ليطالعونا على عيونه وفرائده .

(عكا . فلسطين) عرفات الطاهر

ميكرسكوب كهربائى يكبر ٢٥ ألف مرة

من أخبار أمريكا الأخيرة أن أحد المصانع الكبرى بها R. C. A. وهو مصنع للراديو قد تمكن من إخراج ميكرسكوب يستعين بالقوة الكهربائية لإعطاء نظر قوته ٢٥ ألف مرة . وهذا الميكرسكوب قد وضع تصميمه العالم الدكتور فلاديمير زوركين Vladimir K. Zworykin ، العالم فى علم الرؤيا اللاسلكيـة (تلفزيون) ، وتمكن المصنع من صنعه بمعونة نفر من أقطاب صناعة العدسات وعلى رأسهم الدكتور لادسلوس ماركون أشهر إخصائى فى صنع الميكرسكوبات

ولا شك أن هذا الجهر يفتح مجالاً كبيراً للعلماء فى شتى الأبحاث التى ظلت خفية أو مجهولة ، بل وفى شتى الصناعات الكيميائية التى تعتمد على الكيمياء الصناعية كما هو الحال فى الراديو ، وقد يفسر هذا إقدام هذه الشركة على تمويل المشروع

ومن البديهى أن استخدام هذا الجهر فى علم البيولوجيا سيعود بأعظم النفع على الإنسانية إذ سيكشف عن جزئيات الميكروبات ، كما أنه سيكون ذا فائدة كبيرة فى دراسة علم المادن المضوية Organic وغير المضوية Inorganic التى لا يمكن رؤيتها بالمجاهر المادية

ومن قوة هذا الجهر أنه يستطاع به رؤية الميكروبات الدقيقة التى لا يمكن رؤيتها بالضوء المادى ، فلقد استعمل المصنع ضوءاً قوته من ٣٠ ألف — ١٠٠ ألف فولت حتى استطاعوا أن يشاهدوا به الموجات الضوئية الدقيقة

وهذا الجهر مزود بآلة فوتوغرافية غاية فى الدقة تستطيع أن تصور التطورات المختلفة التى تمر تحت عدساته . وحسب القارىء فى الدلالة على دقتها أن يعرف أن فى استطاعتها تصوير جزء من مليون من السنتيمتر . وشريطها رقيق جداً بدرجة حساسة وهو مصنوع من مادة النتركيلولوس

وعدسات هذا الجهر ثلاث : الأولى تجمل المشاهدة حوالى مائة مرة ، والثانية تصلها إلى ٢٥٠ مرة ، والثالثة تضاعفها إلى ٢٥ ألف مرة ؛ وجميع هذه المكثفات واقعة تحت تأثير منبع كهربائى قوته كما قلنا أقلها ٣٠ ألف فولت وآخرها ١٠٠ ألف فولت ، وفى أسفل هذه المدسات الآلة الفوتوغرافية الدقيقة ... وأرجو أن أستطيع فى فرصة أخرى توضيح هذا الشرح بصور لهذا الجهر العجيب مصطفى مشعل

سفساف لا سفاسف

جاء فى كلمة الدكتور عبد الوهاب عزام عدد (٣٨٨) هذه الجملة :

« ويعلو عن (سفاسفه) » . فقد ند قلم الدكتور السيال عن هذه اللفظة ، فاستعملها بمعنى الردىء ، والذى ورد فى كتب اللغة « سَفْساف » ولم يرد إلا سُفاسِف بالضم بمعنى شديد

جاء فى القاموس مادة (سفف) ، « وجوعٌ سُفاسِف بالضم شديد ، والسفساف الردىء من كل شىء والأمر الحقير ، وسفسف عمله لم يبالغ فى إحكامه » وفى لسان العرب السفساف الأمر الحقير وأورد شاهداً ما جاء فى الحديث : « إن الله سبحانه وتعالى يحب معالى الأمور ويكره سفسافها » وأنكر سفاسفه قال : « وفى حديث فاطمة بنت قيس إنى أخاف عليك سفاسفه

قال ابن الأثير هكذا أخرجه أبو موسى فى السين والفاء ولم يفسره وقال : ذكره العكبرى بالفاء والقاف ولم يورده أيضاً فى السين والقاف قال : والمشهور المحفوظ فى حديث فاطمة هو : إنما هو إنى أخاف عليك قسقاسته وهى العصا قال : فأما سفاسفه وسقاسقه فلا أعرفه إلا أن يكون من قولهم لطرائق السيف سفاسقه وهى التى يقال لها « الفرند » فارسية معربة

وأستفهم من حضرة الدكتور الأديب : هل هناك فرق بين الصبر الجميل والصبر . فقد جاء فى القرآن الكريم حكاية عن سيدنا يعقوب « فصبر جميل » وأمر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : فاصبر صبراً جميلاً ، وبقوله : فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، فهذا دليل على أن هناك أنواعاً للصبر بينها فروق . أرجو الإجابة على هذا مع جميل الثناء

(القاهرة) فخر الدين غزى

الى الدكتور عبد الوهاب عزام

إنك وحدك – فيما أعلم – الذى تستطيع بلسانك الفارسى أن تسلك القلم العربى المبين فى هذه الناحيـة التى عنت لى فى دراسة الأدب العباسى . تلك الناحية هى تأثير اللغة العربية فى اللغة الفارسية تأثيراً شاملاً لا ريب فيه ، وتلك الثغرة أتقدم إلى فتحها فى البحث الأدبى إذ المستفيض فى كتابات الناس على كثرتها وتنوعها أنها لم تتعد الحديث عن تأثير الفارسيـة فى العربيـة تأثيراً عاماً فى الألفاظ والأساليب والأخيلة والمعانى وكل ما يضرب فى هذه السبل، ويذهبون فى العوامل التى أدت إلى ذلك كل مذهب ، وليس يعنينا هنا أن نقول إن العربيـة اقتحمت على الفارسية معاقلها أو كادت تمحوها حيناً من الحين، أو أن نتاج العقول الفارسية الراجحة إنما هو بالعربية ، إذ كان شعر الشاعر منهم بالعربية كبشار ، وأدب الأديب منهم بالعربية كابن المقفع ، وتأليف المؤلف منهم بالعربية كابن قتيبة والطبرى ، نعم هذا حسن ولكنى أعتقد أن هناك شيئاً وراء ذلك كله وهذا الشىء لم يعرض له أحد من الباحثين فيما قرأت من تواريخ اللغة والأدب . وهل رأينا أحداً ألف كتاباً أو بحث بحثاً فى تأثير اللغة العربية فى الفارسية وآدابها . لا نقول إن هذا لون فى البحث لا يعرض له إلا المؤرخ الفارسية وأدبها ، فالباحث الحديث لا يقف قلمه عند النظرة البدائية أو نظرة الطائر كما يقولون . والمهم هنا هو أن أنص بقوة على أن اللغة الفارسية لا بد أنها تأثرت تأثيراً عميقاً باللغة العربية فى الألفاظ والأساليب والأخيلة والمعانى والأفكار ، إذ المعلوم أن سريان مثل هذه التأثيرات شىء معنوى لا يمكن أن تضع يدك عليه وتقول إنه وصل إلى هنا وابتدأ من هناك ، أو تستطيع أن تقف تياره عند حد معين ، فذلك بالماديات أليق ، وإذا كان كذلك فإنى أتقدم إلى الدكتور الفاضل عبد الوهاب عزام راجياً أن يسلك القلم فى هذا الموضوع الخطير وله فى العربية العرفان بالجميل ، وهذه إشارة عجلان لعلها تحظى بالجواب من العالم الوقور .

احمد عبد الرحمن عيسى



الحب والسحر

للأستاذ نجيب محفوظ

انتهى من فرش شقته - أو حجرته إن أردت الدقة - لأنها كانت مكونة من حجرة متوسطة الحجم وردهة صغيرة ، وكان الأثاث في غاية البساطة كذلك لا يعدو الفراش الخشبي الصغير وخواناً يستعمل مائدة للطعام ومكتباً للمذاكرة وكرسياً وصندوقاً لحفظ الملابس والكتب ومسطرة مدرسة الصنائع المعروفة بطولها . وهذه الشقة هي الطابق الأول لمنزل صغير مكون من طابقين متماثلين بحارة دعبس بالوايلية . هداه إليه أهل الخير ، فوجده صالحاً لتلميذ مثله بمدرسة الصنائع ومن أسرة ريفية متوسطة الحال بقليوب ، واكترى الشقة بخمسين قرشاً بعد أن رفضت صاحبة البيت تخفيض مليم من أجرتها ...

واستقبل الحياة في البيت الجديد بنفس راضية ، وعلم أن صاحبته تدعى « أم فردوس » ، وأنها أرملة أسطى عربجي كارو ولكنها تعيش الآن من أجرة شقته وما تربحه من بيع مواد للسمنة : كالمفتقة والملفات وبعض التركيبات الأخرى ؛ ثم هدايا الأمر التي تعمل بها : « كبلانة » أو « خاطبة » . وكانت امرأة قصيرة بدينة قوية البنية ، تصبغ شعرها بالحناء ، وتملأ ساعديها بالأساور الذهبية ؛ وكانت قسماتها مقبولة ، ولكن صوتها خشن جهوري ، السب أهون ما يقذف به مما جعلها مرهوبة الجانب في الحي كله . وتساءل منذ اليوم الأول لإقامته في البيت : ترى هل لأم فردوس بنت تدعى فردوس حقاً ؟ ... وأين هي ؟ هل تقيم معها في البيت أم أنها في بيت زوجها ؟ ... وربما كان الباعث على السؤال حب الاستطلاع ليس إلا ، وعلى أية حال جاءه الجواب سريعاً ، ففي صباح أحد الأيام ، وكان يهم بمغادرة شقته إلى المدرسة سمع وقع أقدام خفيفة فصوب بصره إلى أعلى السلم فرأى فتاة في السادسة عشرة مرتدية مريلة المدرسة الزرقاء تهبط في تؤدة حاملة حقيبتها ، فانتظر حيث هو موسعاً لها الطريق ، وقد التقى بصره ببصرها وهي تمايله بعين يملؤها الارتباك ، ولما حاذته خال أنه سمعها تحييه بصوت خافت قائلة « صباح الخير » فقال لها بلهجته الريفية القحة « صباح الخير » ... ثم تبعها على مهل حتى خلصا إلى الطريق ، ولم تلتفت الفتاة إلى الوراء ، ووضعت حقيبتها على خاصرتها وأحاطتها بذراعها ومضت ... ترى هل تكون الفتاة فردوس بنت أم فردوس ؟ ... رجح ذلك مستدلاً بتحيتها له ، وعلى أية حال كانت الفتاة خمرية اللون ، سوداء العينين والشعر ، ناهدة الثديين ... فبدت لعينيه الريفيتين آية من الحسن ، وكان يتمثل فردوس من قبل كأمها : غليظة ، تسعى في الأسواق ملتفة بالملاءة اللف ، فإذا به يجدها تلميذة لطيفة تسر الناظرين ... فجرت ابتسامة على شفتيه الغليظتين ، وولول قائلاً بلهجته الريفية : « وي وي يابوي » ... ولذ له أن يعيش في بيت واحد مع هذه الفتاة الجميلة ، ولكنه كان قليلاً ما يسعد برؤيتها بخلاف أمها التي كانت تقوم بتنظيف شقته ، وتجالسه في أوقات الفراغ ، وتحدثه - بمناسبة وبغير مناسبة - عن شئون مختلفة وعن أناس كثيرين من الجيران ، وقد ساق الحديث يوماً إلى ناحيته فسألته عن أسرته ومستقبله وصارحها الشاب بأنه من أسرة سيدهم !... وإنه يملك فدانين وعدداً من القراريط وجاموسة ، وأنه التحق بمدرسة الصنايع بعد أن قضى ثلاث سنوات بالمدرسة الثانوية وقال لها في شيء من المباهاة أنه سيكون يوماً ما مهندساً وأصغت المرأة إليه باهتمام وانتباه وكانت تتمثل الفدانين والجاموسة والمهندس للشاب وتختلس منه نظرات عميقة تدل على الحذر والدهاء ... ثم دعت له دعاء طيباً بصوتها الأجش ...

وسارت الحياة على وتيرة واحدة ولم يكن يغير من رتابتها إلا سفره كل أول خميس من الشهر إلى قليوب حيث يبيت ليلته ويعود مساء الجمعة حاملاً معه بيضاً وفطيراً وزبدة يهدي إلى أم فردوس منها نصيباً معلوماً ...

وفي يوم من الأيام وكانت المرأة تجالسه خاطبته برجاء قائلة :

— والنبي ياسي حماد تفهم فردوس الحساب لأنها ضعيفة فيه

وابتهج الشاب بالدعوة أيما ابتهاج . ولم يكن الأمر سهلاً كما يبدو لأنه كان نفسه ضعيفاً في الحساب وكان بينه وبينه ثأر قديم منذ اليوم الذي اضطره فيه إلى اليأس من الاستمرار في المدرسة الثانوية وإجباره على اختيار مدرسة الصنائع بدل المدرسة الحربية التي كان على استعداد لأن يجود في سبيل الالتحاق بها

يبيع للفدادين والجاموسة . ولكنه قبل الدعوة دون تردد وصعد إلى شقة أم فردوس ، ووجد الفتاة وكأنها فى انتظاره وكانت ترتدى فستاناً أنيقاً ، وترسل شعرها الأسود فى ضفيرة طويلة جاوزت ردفيها . فقامت لتحيته وجلسا تفصل بينهما مائدة وضعت عليها كراسة الحساب ، وقالت لها أمها : إن « حماد افندى قبل أن يدرس لهـا الحساب » وجلست معهما برهة ثم خرجت إلى الردهة لأعمالها التى لا تنتهى ، وكان الدرس شاقاً على المعلم والتلميذة على السواء ، ولـكنه لم يرض بالهزيمة وإفلات الفرصة السعيدة من بين يديه فشرح لها الدرس على قدر فهمه . وكان إذا غلبه الارتباك نظر إليها وسألها قائلاً : «فاهمة ؟» فتهز رأسها بالإيجاب سواء أكانت فاهمة أم غير فاهمة . ووجد حامد فى هذه الدروس فرصة جميلة للاجتماع بفردوس ، وكان يجذبه إليها ما يجذب فتى مثله فى فورة الشباب إلى فتاة فى نضوجها وحسنها انطوى عليهما بيت واحد ، وربما كانا معاً يكابدان هذا الشعور الطبيعى ولكنهما لم يتقدما فى علاقتهما عن أول يوم لاتقيا فيه لأن الشاب كان ريفياً « خاماً » وكان يقنع بأن يقول لها صباح الخير أومساء الخير وهو يحدجها بنظرة ذات معنى كأنها تتوسل إليها أن تفهم ، أو أن يضغط على يدها إذا مدتها إليه بالسلام . وكان كثير الحذر فى التعبير عن شعوره خشية أن تتنبه إليهما أم فردوس لأنه كان يتوهم أنها لم تتنبه إليهما بعد ...

واطردت الأيام وهو جد سعيد بحياته ، حتى كان صباح جمعة ، وكان من عادته أن يمضى صباح الجمعة خارج البيت إلى ما بعد الصلاة ؛ وكان يقطع حارة دسوقى فى طريقه إلى شارع الملك فالتقى بأم بخاطرها الغسالة وهى ملتفة فى ملاءتها القذرة كغرارة الفحم ، وكانت تنسل له ثيابه ثم انقطعت على أثر شجار قام بينها وبين أم فردوس تبودل فيه القذف والسب وشد الشعر والبصق وحركات أخرى غاية فى الغرابة ، فأقبلت المرأة عليه وحيته وقالت :

— يا سي حماد أنا أرغب فى مقابلتك منذ زمن طويل فالحمد لله الذى أراد بك كل خير ... تعال أحدثك حديثاً يهمك ...

وانتبذت به مكاناً خالياً من الحارة ثم استدركت تقول :

— أنت شاب طيب القلب لا تدرى من أمور الدنيا شيئاً فاحذر هذه المرأة ... أم فردوس داهية شريرة تجد منذ زمن طويل فى الإيقاع بك ...

فبوغت الشاب بهـذا القول وأخذه العجب وسألها فى ارتباك ظاهر : « أى إيقاع بى تعنين ! »

فقالت المرأة وهى تخافت من صوتها :

— إبنتها ؟ ... ألا تفهم ؟ ... إبنة المربجى ... فردوس التى تسير فى الطريق عارضة ردفيها وساقيها لـكل من رأى ، فلا هى من مقامك ولا من مقام أسرتك وأنت الحسيب النسيب مالك الفدادين ... فاحذر ثم احذر، إنها تحتال عليك مستعينة بالشياطين..

وسكتت المرأة ريثما تستريح وجعلت تلحظ الشاب وتقرأ الدهشة المرتسمة على وجهه بارتياح ثم أدنت رأسها من رأسه غير مشفقة عليه من رائحة رأسها ونكهة فمها واستطردت تقول :

— لقد أخذت منديلك خفية وأعطته للشيخة زهية وأعطت قميصك للشيخ لبيب وأنت لا تدرى شيئاً والسحر فى فعله ، والبخور فى عمله ، وأرواح الشياطين تطوف ليل نهار

فتبدى الخوف على وجه الشاب وعبس وجهه . . . ولم يكن خالى الذهن من هذه الأمور ، ولا كان ممن يستهينون بها فساوره القلق وتساءل متجاهلاً عواطفه ، مظهراً عدم اكتراث

— وما عسى أن يعنى هذا ؟

فضربت المرأة صدرها بيدها وقالت :

— هذا يعنى كل شيء يا مسكين ؛ هذا الذى أوقع المرحوم الأسطى شلبى من قبل . واعلم أنها دخلت فى العمبق ، وحصلت على حجاب رهيب دسته تحت حشيّة سريرك ، وحفظت ابنتها كلاماً سحرياً مخيفاً تتلوه صباح كل جمعة على فراشك وهى تثابر على ذلك أسبوعاً بعد أسبوع ، فأفسد عليها عملها الشيطانى ، وانج بنفسك ... والآن وقد حذرتك ، فإنى تاركتك لحكمتك والله يلهمك الصواب ...

وسارت المرأة فى سبيلها ، ولبث هو فى مكانه لا يريم عنه متفكراً قلقاً يعجب لتلك الأمور الجليلة التى تدور من حوله وهو عنها غافل ... رباه ! أسحر وبخور وشياطين ؟ ! ... أكل هذا ليتزوج من فردوس ؟ وكان بغير شك قلقاً خائفاً ولـكنه أحس لذة خفية وفخاراً ، ثم تساءل : هل يستمر فى طريقه أم يعود إلى البيت ليرى بنفسه ما يحدث فى غرفته ؟ وولى وجهه شطر حارة دعبس دون تردد فبلغ البيت بعد زمن قصير وكانت النوافذ مغلقة والباب مواربا كعادته فدخل بهدوء لا يحدث صوتاً ورأى باب شقته مغلقاً ، ترى هل هو مغلق بالمفتاح ؟ وهل فردوس حقاً بالداخل؟ ثم صعد ببصره إلى أعلى السلم وأدار الأكرة بخفة ودفع الباب

فى حذر فانفتح ، نخفق قلبه وقال لنفسه إن أم فردوس لا تترك الباب هكذا إذا لم يكن أحد بالداخل ، ثم دخل ورد الباب بهدوء ، وهنا اقتحمت أنفه رائحة بخور جميلة مخدرة فانتفض رعباً وتمتم بصوت غير مسموع قائلاً : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم » ولكن شغفه تغلب على خوفه فتقدم بخفة كأنه يسير على حبل فى ملعب ووضع أذنه على باب الحجرة فلم يسمع حركة ولا نأمة فانحنى حتى استطاع أن ينظر إلى الداخل من خصاص الباب فرأى دخان البخور تتصاعد سحائبه فى هدوء إلى سماء الغرفة ، واستطاع أن يرى سريره بوضوح ... رباه ... لم يكن خالياً ... كانت فردوس تتربع عليه فى ثوب أبيض ناصع البياض متلفعة بخمار أبيض كذلك كأنها على وشك صلاة ، ورآها تضع على كفها رسالة مطوية تستغرق فى النظر إليها وتحرك شفتيها حركة منظمة كأنها تتلو آية ؛ ولبث ينظر إليها فى سكون ودهشة ، وكان يجد قلقاً غريباً ، ولكنه لم يشعر بغضب أو سخط بل جمل يراقبها أخيراً فى شغف ثم رآها تنثنى حافة المرتبة وتضع ما بين يديها تحتها ، ثم رآها تتمدد على ظهرها فى هدوء وهى تظن أنها بمأمن من الرقباء وتسحب الوسادة وتضمها عليها بالطول ، ثم احتضنتها بيديها وكأنما راحت فى سبات عميق ، وراقبها بعينين دهشتين وراح يتساءل أكل هذا حقاً من أجلى أنا ؟ ! ... أكل هذا لكى تتزوج منى أنا ... واطمأن إلى المنظر الغريب ووجد فى مراقبته لذة لا تعادلها لذة ؛ وأحس تخديراً ود لو لم يصح منه أبداً . وتدفق الحنان من حناياه فتمنى لو يحتويها فى تلك اللحظة بين يديه ...

ثم رآها تزيح الوسادة عنها وتعيدها إلى مكانها وتعتدل جالسة ثم تهبط إلى الأرض وتميل إلى المبخرة لترفعها فتوقع أن تمضى بعد ذلك إلى الباب وانتبه إلى حاله ، فسارع إلى الباب وفتحه وأغلقه بقوة متعمداً أن يحدث صوتاً مسموعاً واتجه نحو غرفته وهو يصفر صفيراً عالياً فانفتح باب غرفته وبرزت الفتاة وقد علا وجهها شحوب وارتباك وقالت باضطراب :

— عدت مبكراً ... أنا كنت أنظم حجرتك وأبخر الشقة

واتجهت نحو الباب مهرولة فاعترض سبيلها ، وكانت عواطفه المضطربة تشجعه على الاستهانة فقال برقة :

— شكراً ، لقد عدت لأنى أحسست بتعب ، وإنى لآسف على إزعاجى لك ... استريحى ، ولكنها قالت بسرعة ولم تكن أفاقت بعد من ارتباكها

— دعنى أخرج وإلا استبطأتنى أمى

فقال لها برجاء وهو يشير إلى الكرسى :

— استريحى قليلاً ... أرجو أن تمكثى معى هنيهة فإن لدى ما أقوله لك ...

وكانت عواطفه ثائرة فدفعها برقة نحو الكرسى حتى جلست كارهة ، ثم قال لها بصوت متهدج :

— فردوس ! هذه فرصة سعيدة لأنفرد بك وأقول لك ...

وأعياه القول فسكت ؛ ولكنه كان يشعر بأنه ينبغى أن يقول شيئاً وإلا لم يجد عذراً ينتحله لإبقائها . فقال بصوته المضطرب :

— أنت جميلة فى الثوب الأبيض ... أعنى أنك فيه أجمل منك فى أى ثوب آخر ... الواقع أنك جميلة دائماً وفى أى ثوب كان ...

فاشتد الارتباك بالفتاة وتضرج وجهها بالاحمرار فازدادت فتنة وازداد افتتاناً . فلم يملك أن قال لها :

— فردوس ... أنا ... أنا أحبك ... وقد أبقيتك هنا لأقول لك إنى ... أريد أن أتزوج منك

لم تستطع الفتاة البقاء فقامت واقفة واتجهت نحو الباب ولكنه اعترض سبيلها مرة أخرى وقال لها :

— هل أنت غاضبة ؟ ... صدقينى يا فردوس سأتزوج منك

ونظر إلى وجهها بعين فاحصة فلم ير غضباً ولكنه أحس ارتباكها وتعثرها بالخجل فأوسع لها ، ولما حاذته هوى بفمه فقبل خدها ، ولم تقل له شيئاً ، وسارت حتى غيبها الباب ، ودخل الشاب إلى حجرته ، وجلس على حافة سريره كعادته ؛ ثم دس يده تحت الحشية حتى عثرت بالحجاب ، فوضعه على كفه بديم إليه النظر فى سكون وتهيب ، ولم يجسر على فك رباطه فأعاده إلى مكانه ، وتفكر ملياً ثم قال وهو يبتسم : « من يستطيع أن يقول بعد اليوم أن السحر خرافة ؟ ! »

أما فردوس فصعدت السلم مسرعة تقفز كل درجتين معاً ، ولم تكن أمها فى الشقة ، فجرت إلى الغرفة يكاد يصرعها الفرح وجعلت تروح وتجىء وهى تقول باضطراب : « يا بركتك يا شيخة زهية ... يا بركتك يا شيخة زهية ... ! »

نجيب محفوظ

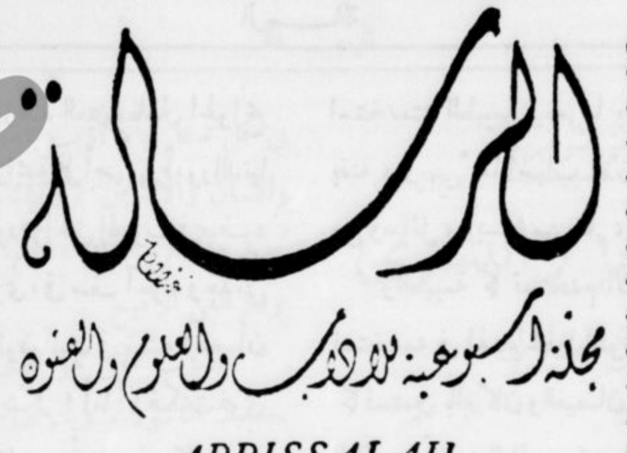
(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)



9me Année No. 394

Lundi - 20 - 1 - 1941





ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٣٩٤ «القاهرة فى يوم الإثنين ٢٢ ذو الحجة سنة ١٣٥٩ — الموافق ٢٠ يناير سنة ١٩٤١» السنة التاسعة

خواطر مريض

عقدنى «الروماتزم» شهراً بالسرير لا أتورك ولا أتحرك. وكانت دنياى فى هذه الفترة الفاترة قد انحصرت فى غرفة المرض كما تنحصر دنيا الطائر السباح فى القفص، أو حياة المخاطر الطامح فى السجن. فالنشاط الحيوى الجياش بالعمل والأمل ينقلب فى المريض والسجين نوعاً من الهدوء الفلسفى الصوفى يردُّ كل ثورة إلى السكون، ويروض كل رغبة على الرضى، ويزيل عن البصر والقلب غشَـوات الباطل فيرى المرء كل شىء على طبيعته، ويدرك كل معنى على حقيقته

أين القفص الضيق الحاصر من جو السماء يسبح فيه الطائر ملء جناحيه، فيرى فى كل دوحة عشاً لحبه، وفى كل روضة مسرحاً لغنائه؟ ولكن البلبل الأسير يعرف بعد قليل كيف يطوى جناحيه على الصبر، ويختصر سماءه وهواءه وأرضه وروضه فى هذه الأسلاك المدنية الباردة يغرد بينها ويثب فوقها ويستقبل الصباح بمرح النشوان، والمساء بهدوء الخلى

وأين السجن الوحش المظلم من رقعة الأرض يضرب فيها الناس طليق العنان حر الإرادة، يفترس مع القوة، ويختلس مع الضعف، ويجمع فيشح، ويطامع فيهتلك؟ ولكن أشعب السجين يعرف كيف يرد طماحه، فيرى فى جدران السجن حدود مطامعه وغاية دنياه، فيسخر من كيد المنافسة وبغى الخصوم،

الفهـــرس

ويخطو بأنفاسه الرخية إلى أجله وهو زهيد الدين مطمئن الجوانح

كذلك أنا: وجدتُني بعد معركة رابحة على أمر من أمور الدنيا دارت ثلاثة أشهر بين العجز والفقر يقودهما الحق الهيوب في صف، وبين القدرة والغنى يؤيدهما الباطل الجريء في صف آخر. وجدتني بعد هذا الجهاد المجهد على سريري كما يكون الميت في نعشه! غير أن الميت فقد الحس والوعي فلا يتألم ولا يتكلم؛ أما أنا فكنت قوي الشعور بالألم، شديد الرغبة في الكلام، أبصر في كل صباح حواجبَ الشمس تنفذ إليّ من خلال الزجاج رخية لينة، فتغمرني بالدفء، وتشيع فيّ سر الحياة، وتُسكت عني صوت المرض؛ ثم تتركني لتعطي الدنيا الكبيرة، ما أعطته دنياي الصغيرة، وأظل أنا محدود الآمال مردود المطامع لا يصلني بحياة الناس غير طنُفٍ مقابل تتمثل عليه طولَ النهار صباحة الشباب في أفواف الربيع؛ والشباب الجميل لا يعنيه إلا أن يُعجِب ويجذب ويلذ

تلك هي حياتنا الدنيا! أراها من وراء المرض على لونها الأصيل ووضعها الحق: ظاهرةٌ متغيرة من ظواهر الطبيعة المتجددة، مَثَلها في الإنسان كمثلها في الحيوان، تعيش بالغذاء إلى أمد مأمود، وتبقى بحفظ النوع إلى أبد محدود. ولو لم يتدخل الإنسان بعقله وعلمه في نظام الطبيعة لجرى تيار الحياة دفاقاً مستقيماً في مجراه المرسوم المحتوم كما يجرى في النبات الوحشي والحيوان الآبد. ولكن آدم جعله الله خليفة في الأرض فلا بد أن يكون كل ما فيها خاضعاً لتدبيره مسخراً بأمره. وكان أمره وتدبيره على الرغم من اعتماده فيهما على دين الله وفلسفة العقل لا يخلصان من سلطان الهوى وطغيان الغريزة؛ ومن أجل ذلك كانت حياة الإنسان وحدها عرضة للتعقيد والارتباك والتناقض

ومن أعجب أمور الإنسان أنه هو وحده الذي فطن عن طريق العيان والبرهان أن حياته على هذا الكوكب الفاني موقوتة؛ ومع ذلك كان هو وحده الذي استعمر هذه الأرض على أنه باق وهي خالدة؛ فهو يكدح حتى ما يعرف طعم الراحة، ويجمع حتى ما يدري معنى الإنفاق، ويسلب أخاه أو وديده حق الحياة ونعمة السلام ليزيد في ماله الضخم قطعة، أو يضم إلى أرضه العريضة رقعة. وقد سول له غروره أن يتبجح بأنه سخر الطبيعة لخدمته، وذلل قواها لمشيئته؛ والحق الذي طمسته الكبرياء في ذهنه أن نوعه هو الوحيد في أنواع الحيوان الذي استخدمته الطبيعة ليعمرها بعمله، وينظمها بعلمه، ويزخرفها بفنه، ويهيئ لها أسباب الازدهار والاستمرار والنمو بما يبتكر من وسائل، ويسن من نظم، ويؤثل من مال، ويدخر من رزق

والطبيعة كما تستخدم الإنسان في البناء لاطراد العمران، تستخدمه في الهدم لحفظ التوازن، فهي تستعين بحروبه الطاحنة كما تستعين بالبركان والفيضان والموَتان على قطع الفاسد، وحذف الزائد، وتجديد البالي، وتعديل القُوَى، وكفكفة الباطل

هؤلاء الذين يجمعون ما لا ينفقون، ويبنون ما لا يسكنون، ويدخرون ما لا يأكلون؛ وأولئك الذين زعموا لقومهم سيادة العالم، وأجازوا لأنفسهم قتل الشعوب، ووقفوا على شهواتهم طيبات الأرض، قد استغلتهم إرادة الطبيعة القهارة التي لا تعرف اليوم ولا المكان ولا الفرد، وإنما تعمل للأبد والكون والجنس

الغذاء والماء والهواء والمأوى وصلات الجنس هي النعم المبذولة لكل حي بحكم وجوده، فلو كان مما ينفع الطبيعة ويصلح الأرض سلامُ الناس وهدوء العيش لألهمتهم القناعةَ وعودتهم الرضى وجنبتهم الأثرة؛ ولكن فوضى الطبيعة هي نظامها المطرد، وفسادها الظاهر هو صلاحها المضمر؛ والفرد هو الأضحية المحتومة لبقاء الجنس، والحاضر هو القنطرة المهدومة لعبور المستقبل!

في المرض يزداد يقين المرء بأن الدنيا زائلة، فهو يأسى على ما جنى ويندم على ما جمع؛ ولكنه حين يصح تمتد آماله وتتشعب مطامعه ويعود عبداً للطبيعة يعمل لأنها تريد، وينفذ لأنها تحكم، فليت شعري إذا عقل كل الناس فعمل كل امرئٍ ما يلزم، وقنع بما يقوت، وكف عما لا يحل، فبماذا يشتغل قضاة المحاكم وقواد الجيوش وصناع الأسلحة ورؤساء الأحزاب؟

أوشكت يدي من برح الألم أن تقف! فعسى الله أحكم الحاكمين أن يبتلي الدكتاتورين الكبير والصغير بروماتزم العقل والقلب فتقف رحى الحرب وتغلق أبواب جهنم!

الشمس تجمع هلاهل نورها على المنازل العالية لتهرب من رؤية الأكداس المكدسة من جثث الإنسان على عُدْوتي البحر الأبيض. وفتاة الطُّنُف الحسناء تلم غسيلها المنشَّر لتغلق عليها الباب من البرد القارس. وليل (طوبة) الطويل يقترب بأوصابه رويداً من المريض المسكين! فاللهم حنانيك ورحماك!

احمد حسن الزيات

مسابقة الجامعة المصرية لطلبة السنة التوجيهية

«المختار» لعبد العزيز البشرى

للدكتور زكي مبارك

— ١٠ —

حديث اليوم عن « المختار » للأستاذ عبد العزيز البشرى « عضو مكتب المجمع اللغوى » لا عضو المجمع اللغوى ، كما ظن من أخطأوا فهم قرار وزير المعارف . ولسنا بهـذا نستكثر عليه عضوية المجمع وقد ظفر بها الأستاذ أحمد أمين ، وإنما أردنا تحديد مكانه بجوار « الخالدين »

فمن صاحب هذا الكتاب ؟

كانت بينى وبين الأستاذ عبـد العزيز البشرى مصاولات سجلتُها فى كتاب « الأسمار والأحاديث » ثم انتهت تلك المصاولات بالحقد من جانب ، وبالصفح من جانب ، فمن الذى حَقَد ؟ ومن الذى صفح ؟ لقد رجعتُ إلى قلبى أستفتيه فلم أجده يضمر لهذا الرجل غير الإعزاز والتبجيل ، ولكنى مع ذلك أنكر مذهبه فى الإنشاء ، ولا أرى رأى وزارة المعارف فى إفهام الطلبة أن نثر البشرى يصلح للاقتداء والاحتذاء ، إن صح أن لوزارة المعارف رأياً فى الكتب التى تفرضها على الطلاب ، فسيأتى يومٌ نتبين فيه أنها قد تحكم على بعض الكتب بالسّماع ، وهو يومٌ غير بعيد ، ما دامت وزارة المعارف إلى رجال لا تؤذيهم كلمة الحق من أمثال الدكاترة هيكل والسنهوري وغربال[1]

عبد العزيز البشرى كاتب مشهور ، مشهور جداً ، حتى جاز للأستاذ خليل مطران أن يحكم بأنه « أعرف من كل معرَّف بين الناطقين بالضاد » ومن كان كذلك فهو أقوى من أن يُهدَم ، ولا خوف عليه من صيحة النقد الأدبى ، وإذاً فلا بأس من إسماعه قول الصدق بتلطف وترفق ، عساه يغيّر ما بأسلوبه من تكلف وتصنّع وقعقعة وعجيج .

البشرى كاتب « على الطريقة البِشرية » . كاتب يذكّرك فى كل سطر بأنه أديب يتصيّد الأوابد من مجاهيل القاموس واللسان والأساس ، وتلك حال الناشئين المبتدئين ، وهى حال يُنكرها أعلام البيان ، لأنها تشهد على أصحابها بالبعد من الاتسام بوسم الفن الرَّفيع

الكاتب الحق هو الذى يشغلك بنفسك ، ويوجهك إلى مصيرك المنشود ، ويفرض عليك درس غرائزك وأهوائك ، بدون أن يفكر فى حملك على الإعجاب بخصائصه الإنشائية . ولو شئت لقلت إن الكاتب الحق لا يخطر فى باله حين يكتب أنه من أصحاب الأساليب ، لأن الكاتب العظيم تصبح عنده الكتابة من وحى الفطرة والطبع ، بحيث لا يشعر أن التأنق غرض مقصود ، وإن أضافه الفن الجميل إلى طوائف المتأنقين

الكاتب الحق يقتنص قلبك وعقلك فى مهارة الصائد الختول الذى يرى الصيد ولا يراه الصيد . الكاتب الحق يروضك على تغيير ما بنفسك بنفسـك ، فلا تتوهم أن له يداً فى نقلك من حال إلى أحوال ، وإنما تشعر أنه يعبّر بالنيابة عنك ، وأنك لو حملت القلم لكنت أقدر منه على الإبانة والإفصاح .

الكتابة من فنون التدريس ، والمدرس الحق هو الذى يحاورك وكأنه تلميذ مثلك . هو الذى عناه لامرتين حين قال :

Et mon cœur dans leurs cœurs se verse goute à goute

والأساس فى الكتابة أن تكون فنّا أخفى من نظرة العاشق بحضرة الرقباء . هى سياسة دقيقة جدًّا . هى سياسة تشبه مُسرى العافية إلى الجسم العليل ، وقد تشبه تسرُّب الداء إلى الجسم الصحيح ، لأن الكتابة فن ، والفنون تتجه إلى الهدم كما تتجه إلى البناء ، على فرض أن الفن قد يسىء فى زعزعة بعض الأمور من التقاليد

الكاتب الحق هو دائماً من أصحاب المبادئ والعقائد ، فى حدود ما يتصور من المبادئ والعقائد ، لا فى حدود ما يتصور الناس ، ومن هنا يجوز للكاتب أن يلقاك بما تحب وبما لا تحب ، وهو حين يستفحل قد يزلزل رأيك فى جميع الشؤون ولو حدثك عن مواقع هواك

والوصول إلى هذه الغاية يحتاج إلى سياسة عالية ، وتلك السياسة قد تستوجب أن يطوى عنك الكاتب ما يرى إليه من مقاصد وأغراض ، ليضمن غفوة عقلك عن مقاومة ما يدعو

---

(١) لست بهذه الاشارة أتودد إلى هؤلاء الرجال ، وإنما ذلك هو رأيى فيهم سراً وعلانية .

إليه . وقد تحار فيما يريد منك الكاتب ، ثم تعرف بعد قليل أنه لم يُرد لك غير ما يريد لنفسك ، وهو في الواقع أصاب مقاتلك من حيث لا تشعر ، وكيف تشعر وقد استدرجك بأسلوب ألطف من اللطف وأخفى من الخفاء ؟

فأين البشري كاتباً من هذه المعاني ؟

هو رجلٌ صخّاب ضجّاج يدقّ الأجراس الضخام حين يدخل الغابة للصيد ! !

ألم يَعجب البشري من أن يصل علي يوسف إلى قمة البلاغة وليس في كلامه نظمٌ متكلف ؟ وما ذلك النظم ؟ هو عنده نظم يتكلفه « صدور الكتّاب » ، كأن صدور الكتّاب لا يكونون إلا متكلفين ! وكان الأمر كذلك عند البشري ، لأنه لم يفهم البلاغة على وجهها الصحيح ، فكانت في ذهنه أجراس طنطانة وأصوات ضجيج

كل همّ هذا الرجل أن يقنعك في كل حرف بأن الكتابة شيءٌ ضخمٌ فخمٌ يروعك ويهولك ، وإن لم يكن لذلك موجب توحيه الفكرة أو يفرضه البيان ، فلأي غرض يصنع بنفسه هذا الصنيع ؟ ومتى يعرف أن السحر من أوصاف البيان ، والأصل في السحر أن يقدّم الأباطيل وهي في مرأى العين حقائق لا أباطيل ؟

هل سمعتم بالرحا التي تطحن القرون ؟ هي البشري في بعض نثره القعقاع !

يندُر أن تجد في نثر هذا الرجل صفحة خلت من التكلف . ويندر أن تشعر بأنه خلا لحظة إلى قلبه يستلهمه ويستوحيه ، فهو مشدود في كل وقت بزمام للتفصّح الثقيل ، إلا أن يثور على « حرفة » الكتابة فيرسل نفسه على سجيتها الأصيلة ، وذلك لا يقع منه إلا في أندر الأحايين

عبد العزيز البشري من الأذكياء ، ولكن ذكاءه انحرف بعض الانحراف ، فلم يكن له في أدبه من أثر غير ما عرفنا وعرفتم من القرم إلى التندر والإغراب

كنت أتمنى أن يدرك البشري كنه الوشائج بين جذور الفن وجذور الذكاء ، ولكن البشري مضى لطيته فلم ينتفع بآراء الناقدين .

كان البشري يستطيع أن يكون كاتباً عظيما ، لأن لهذا الرجل ذخيرة منسية من الفطرة والطبع ، ولو أنه استجاب لوحي روحه لأتى بالعجب العجاب ، ولكنه تكلف ما لا يطيق ، فأضيف إلى المتحذلقين

ولكن ما الموجب لمواجهة هذا الكاتب الفاضل بهذا النقد الجارح ؟

هو الموجب الذي فرض أن أفسد ما بيني وبين المرحوم مصطفى صادق الرافعي وكان من كرام الكاتبين

فأنا بصريح العبارة أتهم أهل التكلف وأراهم أطفالاً في دولة البيان

وليس معنى هذا أني أنكر قيمة الصياغة الفنية ، فالكتّاب الكبار قد يشقون في تحبير ما يكتبون أعنف الشقاء ، ولكنهم ينتهون إلى عرض آرائهم بأساليب هي الغاية في الوضوح والجلاء ، فلا يتوهمُ متوهمٌ أنهم عانوا عَنَت الإنشاء وقد هاموا على وجوههم في تجاليد الليالي

هل سمعتم بالسمك الرّعاد الذي لا يوجد في غير نهر النيل ؟ هو سمك كسائر الأسماك ، ولكن فيه قوة كهربائية ، وكذلك الكلام البليغ : فهو كلام كسائر الكلام ، ولكن فيه قوة كهربائية وصلت إليه من ثورة الروح أو فورة الوجدان

ليست القوة في اللفظة اللغوية ، اللفظة التي يدلنا المجمع اللغوي على قبرها المجهول ، وإنما القوة في اللفظة التي يَحُلها روح الشاعر أو الكاتب فتصبح وهي محمّلة بالمعنى الفائق والخيال الطريف

فكيف جاز للشيخ البشري أن يمنّ علينا بأنه أحيا بعض الألفاظ من موت ، وهو لم يسكب عليها قطرة واحدة من دم القلب ؟

حدثنا الأستاذ خليل مطران في مقدمته لكتاب الشيخ البشري أنه وقف منه موقف الدليل من المتحف ، وقد صدَق ثم صدق ، فزائر المتحف يخرج كما يدخل ، فلا يكون محصوله غير ذكريات ، ولا كذلك زائر المعرض فهو يقتني ما يروقه من النفائس حين يشاء

فهل كان الأستاذ خليل مطران يعني ما يقول وهو يجعل كتاب الشيخ البشري متحفاً من المتاحف ، لا معرضاً من المعارض ؟

المتاحف نفائس ، ولكنها لا تصلح للاقتناء ، لأنه يعرّضها للبوار الشنيع !

فالتحف المصرى هو أعظم ما فى العالم كله من النفائس ، وهو يقدَّر بألوف الملايين من الدنانير ، ولو بيعتْ ذخائره لجعلت المصريين أغنى الناس أجمعين ، ولكن هذا التحف النفيس يمسى وهو من سَقَط المتاع إذا عُرِض للبيع ، فحياته فى الموت ، ونباهته فى الخمول

وكذلك تكون « آثار » الكتّاب الوامقين بالزخرف والبريق ، فألفاظهم نفائس ، ولكنها رسومٌ هوامد ، وهى لا تُنقل من المعاجم إلى « المختار » إلا كما ينقل الرفات إلى « الضريح »

والقول الفصل أن الكتابة قلبٌ يُفصح وعقلٌ يبين ، وليست ألفاظاً تُضَمّ إلى ألفاظ . الكتابة قوة روحانية لا تتفق للكاتب إلا بموهبة سماوية ، فمن أراد أن يكون كاتباً فليرحل من طبقات الأرض إلى أجواز السماء

الكتابة رزق من الأرزاق ، فمن حدثكم أنه يملك منها ما يريد فهو جهول ، فما كانت الكتابة إلا بوارق يمنّ بها الرزاق الوهاب ، وهو قد يمنّ بها على من يجهلون أنه أهلٌ لأعظم الحمد وأجزل الثناء ، لأن المنة لا تعظم إلا حين تساق إلى أهل الجحود !

محصول « المختار »

بعد هذا الشؤبوب ننتقل إلى الجزء الأول من « المختار » فنراه محصولاً من الجهد المحمود فى عرض طوائف كثيرة من صور الدنيا والناس ، وإن كان قُدِّم بروحٍ مكدود ، ونفسٍ مجهود ، لأن الكاتب لا يفصح عما بنفسه إلا بعد أن يعانى من المشقات ما لا يطاق

هو تحفة فنية ، وكيف لا يكون كذلك وهو عصارة ذهن البشرى مدة الحياة ، كما طاب له أن يقول فى عبارة الإهداء ، والبشرى من كتابنا الكبار ، وإن قيل فى أسلوبه ما قيل

وهل من القليل أن يكون عندنا كاتب يقضى الليل والنهار فى تعقب الألفاظ والتعابير ليؤلف منها قافلةً حائرة لا تعرف أين السبيل فى بيداء الوجود ؟

هل من القليل أن يكون عندنا رجلٌ يستطيب الحبس بين جدران داره ليتسقّط مرابع العشب اليابس من خيالٍ آبد ، أو لفظ مجهول ؟

هذا المعنى وحده مما يُطلَب ، فليكن عندنا ألف بشرىٍّ ، لأن تنوع الأساليب من شواهد الحيوية فى الشعوب ، وبضدها تتميز الأشياء

عبد العزيز البشرى كافَح فى ميدان الكتابة كفاح المستميت ، فلنعرف له هذا الفضل ، ولنذكر أنه قضى ثلاثين سنة وهو معدودٌ من أبطال القلم فى هذه البلاد . ولنذكر أيضاً أنه رجلٌ ذوّاق إلى أبعد الحدود ، فقد يندُر أن يكون له مثيل فى الطرب لأطايب الدقائق الذوقية لعوامّ الناس ، أما فهمُ الشيخ عبد العزيز للشعر فهو أعجوبة الأعاجيب

ينقسم كتاب البشرى إلى ثلاثة أبواب : الأدب والوصف والتراجم ، وفى كل باب فصول منها الوسط والجيد والرائع ، وهو يحتفل بالأسلوب فى جميع الفصول على الطريقة البشرية ، ويكفى أنه صار كاتباً له أسلوبٌ خاصّ

مَطلَع الكتاب محاضرة ألقاها البشرى فى أول اجتماع لنادى القلم المصرى ، وهو النادى الذى يجتمع أعضاؤه مرة فى كل سنة ليتناولوا معاً طعام العَشاء !

فما الذى قال فى تلك المحاضرة الافتتاحية ؟

كان الظن أن تكون محاضرة ينقلها روتر وهافاس إلى جميع بقاع الأرض ، لأن مصر أول أمة فى التاريخ أقيم فيها لحامل « القلم » تمثال ، ولكنها كانت محاضرة سطحية لم يرسم فيها المحاضر غير خطوط يغلب عليها العِوَج والانحراف ، فى غير موجب للعوج أو الانحراف

فمن أغلاط هذه المحاضرة أن الكاتب جعل توليد الفنون الشعرية فى الأندلس أثراً من آثار الانحطاط . ألم يقل إن الأندلسيين « ولّدوا فى الشعر فنوناً لتؤدى من الأغراض اللينة الرخوة ما عسى أن تثقل عليه أوزان الشعر ؟ » ذلك ما قال بالحرف ، وهو شاهدٌ على غفلته عن الغرض الذى استوجب أن يفكر الأندلسيون فى توليد القوافى والأوزان

ومن أغلاط هذه المحاضرة أن الكاتب عاب التكلف على « أصحاب البديعيات » فهل يعرف مَن « أصحاب البديعيات » وقد عدّهم من الشعراء المتكلفين ؟

أصحاب البديعيات لا يعاب عليهم التكلف ، يا فضيلة الأستاذ لأن التكلف عندهم غرض مقصود ، فهو نظم تعليميٌّ يجرى مجرى « المُتُون »

ومن أغلاط هـذه المحاضرة أن يظن الكاتب أنه كان من الطبيعي أن ينحط الأدب المصري في عهد الأتراك « ولو قد ظل مع هذا على شأنه الأول من القوة وسمة التصرف لما كان أدباً مصريًا ، ولا كان مما يتسق لأذواق المصريين »

فما معنى ذلك ؟ هل يتوهم أن مصر في العهد التركي كانت تحولت إلى بيئة تركية ؟ هو إذاً يجهل أحوال مصر في تلك العهود ، فقد كانت في مصر بيئات منفصلة عن المجتمع السياسي كل الانفصال ، وبفضل تلك البيئات ظلت مصر موئل اللغة العربية في عصور الظلمات ، إلا أن يجوز قياس المجتمع في العهود الماضية على المجتمع في هذه العهود !

محاضرة البشري في افتتاح نادي القلم المصري تشهد بأن اطلاعه على تاريخ الأدب في مصر مبتور الأطراف

ثم ماذا ؟ ثم نقرأ بحثه عن « حيرة الأدب المصري » فنعرف أن الكاتب هو الحيران :

هو بحث نُشِر في مجلة المعرفة سنة ١٩٣٢ وإنما نصصتُ على التاريخ لأمسك بتلابيب الكاتب الذي يقول :

« وعلى الجملة فإنك لو تصفحت هذا الأدب المصري القائم لرأيته موزعاً بين حياة في الجزيرة لعصر الجاهلية وصدر الإسلام ، وبين حياة في بغداد أو الأندلس ، وبين حياة في لندن أو برلين أو باريس أو روما أو موسكو ، ولكن أين هذا الأديب الذي يصور عواطفه المصرية التي يُلهمها ما ينبغي أن يُلهم المصريَّ من عواطف وإحساس »

ذلك هو فهم الشيخ البشري للأدب المصري في سنة ١٩٣٢ فهل رأيتم فهماً أغرب من هذا الفهم ؟

في سنة ١٩٣٢ كان أدباء مصر فريقين : فريقاً لا يعرف غير الأدب العربي القديم ، وفريقاً لا يعرف غير الأدب الأوربي الحديث كما يتصور الشيخ عبد العزيز ، فأين كان أدباؤنا الكبار من أمثال حافظ وشوقي والزيات وهيكل والمازني والعقاد وتيمور وطه حسين ؟ هل كان هؤلاء جميعاً من المذبذبين بين القديم والحديث ؟ وأين كان الصحفيون من أمثال حافظ عوض وعبد القادر حمزة وتوفيق دياب ؟

أشهد أن عبد العزيز البشري لم يصدُر في حكمه إلا عن وَهمٍ هو أشبه الأشياء بالإفك المدخول !

أما بعد فما جملة القول في هذا الكاتب ؟

هو من أمهر الوصافين للمرئيات ، حتى لتحسب أن قلمه ريشة رسام تتنقل بين الألوان ، ولكن أين الكاتب المنشود ، الكاتب الذي يحدثنا عما نعرف أو نجهل من أسرار النفوس وسرائر القلوب ؟

لقد تفقّـدتُ هذا الكاتب في مقالات عبد العزيز البشري فلم أجده ، بالرغم من طول الصبر على البحث والتفقد ؛ فأين ذهب وكنت أرجو أن أراه في ثنايا تلك المقالات ؟

تحدثك مقالات البشري أنه صحب كثيراً من الناس ، وتنظر فتراه وصف ملامح من صحب من الناس ، ولكنك لا تجده تنبه إلى ما تدل عليه خصائص تلك الملامح ؛ فهل يكون من حق الناقد أن يفترض أنه لم ير وجوه الناس إلا عن طريق « الصور الشمسية » ؟

البشري الكاتب له عينان تريان الألوان ، وأذنان تسمعان الأصوات ، ولكنه عاش بلا قلب ، فلم يدرك دقائق الفروق بين الألوان والأصوات من حيث الدلالة على المعنويات

كان البشري في مختلف أطوار حياته موصول الأواصر بكبار الرجال ، فماذا استفاد ؟ وماذا أفاد ؟ هل سمعتم أنه نقل رجلاً من رأي إلى رأي ؟ هل سمعتم أنه انتقل من حال إلى حال ؟ البشري هو هو لم يتغير ولم يتبدل ، فقد قامت الشواهد على أنه ظل دهره على مذهب واحد في فهم الأدب والحياة ، مع أن الدنيا تثور من حواليه في كل حين

أنظروا ما صنع البشري وهو يصف « بنك مصر » لتروا كيف وقف عند المرئيات ولم يتعدها إلى المعنويات !

ما هو بنك مصر في نظر البشري ؟

هو قصرٌ « فُرِشتْ أرضه بجلود الصِّلال ، أو بالوشي الصنعانيّ نُمنِم بمثل أكارع النمال »

أتلك هي صورة « البُنُوك » في نظر الأديب ؟

كنت أرجو أن ينظر البشري نظرةً أبعد من هذه النظرة ، فللبنوك معانٍ أخطر وأعظم من السقوف والجدران ، ولكن البشري لا يفكر في غير المرئيات

ثم أسأل نفسي مرة ثانية عن الموجب لإيذاء هذا الكاتب الفاضل بهذا النقد الجارح

وأجيب بأن هذا أثر الغيظ من خيبتى فى هذا الكاتب ، فهو من عصابة أدبية أساءت إلى الأدب المصرى حين صيرته معاحف تهاويل ، ومعارض تزاويق ، ثم فرضتْ على الدولة وعلى الجمهور أن يفهموا أن هذا هو الأدب الحق ، وأنْ لا أدب سواه !

لم يُجِد البشرى إلا فى فن واحد : هو وصف المرض ، فما نظرتُ فيما كتب فى وصف بلائه بالأمراض إلا صرخت بالتوجع له من أعماق القلب ، ومن أجل حزنى عليه مزقت الصورة الأولى من هذا المقال وكتبته مرة ثانية ، وما أذكر أنى كتبت مقالاً مرتين منذ عهدٍ بعيد ... أجاد البشرى وصف المرض ، ولكنه وقف عند الغرض القريب فلم يتغلغل فى وصف بلاء الرجال بالأمراض ؛ فأين هو من مقال شِبلى شُمَيِّل فى وصف عناء المريض ؟ شِبلى شميّل الذى يقول :

« ذقتُ ذل السؤال ، بعد عزّ الإفضال ، فلم أجد أشق من المريض » !

إن الفرق بين مقال البشرى عن المرض ومقال شميل عن المرض أبعد مما يتصور القراء ، فما السبب فى هذا البعد ؟

السبب أن شميّلا تأذى بالمرض فوصفه بصدق ، أما البشرى فرأى المرض فرصة لمقالة أدبية فقال كلاماً يُعوزه الصدق ، ولو صدق البشرى فيما حكى عن مرضه لكان من الحتم أن يموت قبل أعوام طوال !

عبد العزيز البشرى مزخرفٌ ومبهرِج ، وبفضل الزخارف والبهارج وصل إلى أشياء ، لأن الجمهور عندنا قد يكتفى من الكاتب بإجادة التزيين والتلوين

يسأل البشرى عن الكاتب الذى يصور العواطف المصرية وأنا أسأل عن الكاتب الذى يصور العواطف الإنسانية ، فما يهمنا أن نكون مصريين كما يهمنا أن نكون إنسانيين ، فالشاعر الإنسانى يجد لعواطفه صدًى فى جميع البلاد ، أما الشاعر « المحلى » فأفقه ضيق محدود ... وما أريد الغض من العواطف التى توحيها الأجواء المحلية ، وإنما أريد أن يتغلغل الشاعر والكاتب فى أعماق الأرواح والقلوب بحيث يحدّث قراءه عن آفاق روحية وعقلية لا يهتدون إليها إلا بوحى من العقل الملهم والقلم البليغ

أنا أرجو أن يدرك كتّاب هذا العصر أننا مللنا من الحديث المعاد ، وأننا نودّ أن يكون لهذا العصر تاريخ جديد فى الأدب العربى ، تاريخ ينطق بأننا عبّرنا عما فى نفوسنا وقلوبنا بصراحة وصدق وإخلاص ؛ تاريخ يشهد بأننا تغنّينا صادقين بعواطف هذا الجيل ، وتألمنا صادقين من مآتم هذا الجيل

لا أريد أن يكون الكاتب مصريًا ، وإنما أريد أن يكون إنساناً مصريًا ، إنساناً تَعنيه الوشائج الإنسانية ، ومصريًا تَعنيه الأواصر المصرية ؛ وأنتظر أن يكون الكاتب المنشود رجلاً قديراً على تشريح العواطف والأحاسيس قبل أن يكون رجلاً قديراً على ترقيش الألفاظ والتعابير . وأرجو أن يفهم أن له مهمة أسمى وأعظم من القناعة بإعجاب أهل هذا الجيل ؛ فالكاتب الحق لا يخاطب العصر الحاضر وحده ، وإنما يسكب رحيق قلمه فى أذن الزمان وقلب الوجود

الكاتب الحق هو الذى يفرض علينا أن ندرس عواطفنا وأهواءنا فى كل وقت ، ويشعرنا بأن حساب الضمير لا يقِلّ قدسيةً عن أداء الصلوات . الكاتب الحق هو الذى يروضنا على الاقتناع بأن نعمة القلم الصوّال أعظم من جميع النعم ، وأنفس من جميع الذخائر ، وأشرف من جميع ألوان التكريم والتعظيم والتشريف ، لأنه يمكّن صاحبه من مناجاة الضمائر والقلوب ، ويوحى إلى القارئ أنه قَبَسٌ من السر المكنون فى سرائر الغيوب

الكاتب الحق هو الذى لا تَصرفه الأكاذيب والأراجيف عما يجب عليه من الفناء فى خدمة الواجب . هو الذى يستعذب الأذى فى سبيل الشريعة الأدبية — والأدب من الشرائع — هو الذى يرى أن لا بأس عليه من الحرمان فى أبشع جوانبه ونواحيه ، ما دام يؤمن بأنه كاتب موهوب ، لأنه يعرف أن نعمة الكتابة لا توهب لغير المصطفَين من أذكياء الرجال

الكاتب لا يستوحش من زمانه إلا وهو متكلف ، لأنه يستفيد من الظلم أكثر مما يستفيد من العدل ، ولأنه ينتفع بالفوضى أكثر مما ينتفع بالنظام ، ولأن الإساءة من أهل زمانه قد تصيّره رجلاً لا يعتمد على غير صاحب العزة والجبروت

الكاتب رجلٌ مؤمن . ألا ترون كيف يحتقر ما بأيديكم يا ظالمى أنفسهم بعبادة المنافع الفانية ؟

زكى مبارك

٣ - أومنُ بالإنسان!

للأستاذ عبد المنعم خلاف

نظرة واسعة — لمن الحياة؟ — ممثل مجهول ... — زواج الفكر بالمادة — أعماق النفس هي أعماق الكون — الحياة هي الانسان — الباقيات — أمومة الأخلاق وأبوة العلوم — نوعان من الرجال — المكازتان ...

في السماء: كل نجم عليه غشاء سرمدي من السكون ... ولو ألقيت نظرة على النجوم والكواكب لم تر شيئاً إلا لمحة عينك أنت واختلاج ضوء يكاد يكون من خداع النظر ...

وفي الأرض: كل شيء يسير في حركات محدودة وسنن مطردة ونكاد لا تسمع إلا أصوات هبوات الريح أو لطمات الموج أو أصواتاً تظهر من تلاقي الريح بالأشياء أو عبث الأمواج بالأشياء ... وما عدا ذلك فأصوات حيوان لا تعدو أن تكون مقاطع ونبرات بسيطة محدودة يصح أن تلحقها بمزيف الرياح على شعاب الجبال وقصبات الأشجار، أو بهدير الأمواج ذلك الصوت الواحد المكرر على توالي الأزمان.

ولا ترى إلا تلك الدورات الأبدية من ليل ونهار، وربيع وخريف، وشتاء وصيف، ورياح وأمطار، وفيضانات دورية، وأرحام تدفع وأرض تبلع، وحياة رتيبة للبهائم والوحش والطير والأسماك ...

تلك هي الحياة في الأرض من غير الإنسان ... لا تجديد في أساليبها ولا تنويع إلا ما خلق الله على الجلود والريش والأزهار والثمار والجدد البيض والحمر في السفوح والجبال ... وإلا ما تنقله الرياح والمياه في دوراتها من مكان إلى مكان ... وإلا ما توزعه قوى الطبيعة بالمكيال الوافي والوزن الواسع الكريم. فلا يضاف للطبيعة شيء لم يكن منها، ولا يتقلقل فيها شيء من موضعه، ولا ينقح فيها شيء يستحق التنقيح

إذاً لمن هذا كله؟ لمن الليل والنهار، وهذه الآلات الهائلة التي تدار، والحيوان الآبد والداجن والأزهار والثمار والأنهار والجبال وألوان الشفق في الأصائل والأسحار؟. أهو للحمير والقرود والنمور والثعالب والفيلة والآساد والفهود والثعابين والخفافيش والبوم والغربان والحشرات والديدان؟!

كلا! ليس في هؤلاء من يصح أن يفقه شيئاً من ذلك الإبداع والجمال ولا أن يسند إليه الدور الأول في رواية الحياة ... وإنما هذه مخلوقات على هامش الحياة ... هن أعاجيب وتهاويل وصور لزينة المسرح ودواب لحمل الأدوات والآلات إليه ... أو إن شئت فقل إن هؤلاء «حروف» في أبجدية «الأسماء» التي يلزم أن تتألف منها رواية الحياة التي يمثلها ممثل مجهول ... ممثل لا بد أن يكون حراً يذهب في أي اتجاه على المسرح، ويجدد في التمثيل والإخراج كل يوم، ويقوم بأدوار جميع ما على الأرض ويتمثل فيه الابتكار الذي يجعل الحياة غير يوم مكرور دائم مملول لدى النظار من سكان السماء، وسكان الأرض من الراصدين الواعين ... ويحشر كل شيء في رواياته ويضع عقله وقلبه على كل شيء ...

وَمنْ هذا غير الإنسان؟!

لقد وزع الله عقوله وقلوبه على المواد والقوى سافلة وعالية، فجعل أفئدة من الناس تهوى إلى خدمة شيء، وأفئدة أخرى تهوى لخدمة شيء آخر كي لا يتعطل أفق من آفاق الحياة من غير نظر إليه وتفرس فيه. ولكي يزاوج بين خواطر الفكر وخواص المادة فتنتج الأحكام عليها، وتتبين حكمته المخبوءة وراء أسرارها ولتطلع العقول على فنه وإحاطة علمه بكل شيء ...

قانون المزاوجة هنا أيضاً: فبين فكر الإنسان وبين أسرار المادة زوجية تنتج علماً أو فناً أو إحساساً أو شعوراً ...

«ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون»

والإنسان كالقيثارة ذات الأوتار الكثيرة ... تظل صامتة ساكتة حتى تضربها يد الأقدار بالملومات والأحزان والأفراح فيظهر ما في أوتارها من نغم عجيب ...

فالأرض من غير الإنسان هي ذلك البيت الصامت وذلك الدولاب الدائر وتلك الدورات الأبدية التي لا غاية لها ولا بد تتلقى فيضها وتنتفع بقواها. ولا اطراد في ارتقائها ولا تغير في أوضاعها ولا زيادة فيها

فأين المخرج من تلك الحدود الواقفة الجامدة؟ وأين الباب إلى ما هو أعظم وأوسع؟

إن عمق النفس هو الذى يوحى بعظمة الدنيا وتنوع المناظر فإذا خرج المرء من نفسه العميقة تبين له أن الحياة فى وحدة قوانينها وتشابه دوراتها ومقاطعها ما هى إلا شىء محدود ممل مسئم ... ولكن الإنسان أدرك عظمة الله وعظمة الكون لما أدرك عمق نفسه وعرف الطريق إلى الكمالات والصور التى لا تتناهى لما عرف باطن نفسه وخرج إلى عالم أرحب وأوسع لما أطال النظر فى نفسه

وما عرفت الإنسانية جلال الله ولا تبينت صفاته وتوضحت لها حكمته ، إلا من عقل الإنسان الفائق الذى أطال النظر فى الدنيا ذات الدورات المحدودة المكررة وأطال النظر فى النفس ذات الدورات غير المحدودة وزاوج بين هذه وتلك

وهذا يسلمنا إلى أن نقول : إن الإنسان هو الحياة الدنيا بالمعنى المعقد المركب غير المتناهى . . .

ولا حد للحياة إذا التقت الطبيعة بالعقل الإنسانى الذكى الحساس المفكر . . .

ولا دخل للطبيعة إلا فى تقديم المواد الخام إلى يده وفكره ليصنع بهما ذلك التنويع الدنى . . .

ويخيل إلى أن فى روحه ميراثاً خفياً من نظام الجنة وجمالها وراحتها واتساعها ، وهو يحاول بعد طرده منها أن يوجدها فى الأرض . . . والله معه !

وإذا كان كل شىء فى هذا الوجود يرمز إلى معنى بسيط فإن النوع الإنسانى يرمز إلى جميع أنواع الحياة وألوانها مضروباً بعضها فى بعض كما يضرب عدد هائل من الأرقام فى نفسه من الواحد إلى آخر العدد إن كان للعدد آخر . . .

فالإنسان هو « مكان » التقاء عوالم الوجود المشهود كله ليحدث من التقاء كل شىء بكل شىء منفردين نتائج وصور بسيطة ، ومن التقاء جميع الأشياء بعضها ببعض نتائج وصور معقدة لا يمكن تقريبها إلا للعقول الكبيرة التى لا تكاد تدركها إلا بالوهم أو بالذهن الرياضى صياد الأخيلة والأحلام والفروض

***

وعمار عالم الفكر بتلك المعانى الناتجة عنه هو وتنوعها إلى ما لا نهاية أمره معجب ! وخصوصاً إذا تصورنا أنها معان محدودة بحدود الرءوس البشرية ، معدومة فى غيرها ، إلا إذا خرجت وتجسدت وتشكلت فى قميص مادى ...

ترى هل هى ذات وزن وحياة عند الله الكبير ذى العقل المحيط والعلم الواسع ؟ وهل هى على تناقضها واختلاف الانفعالات المتصلة بها ذات قيم عنده ؟ أم هى ملاه وسلويات لذلك النوع المدلل فى الأرض تموت معه وليس لها فى سجل الوجود أثر بعده ؟

إن تصور فناء عالم الأفكار العظيمة الرائعة التى تتداول عقول الإنسانية كاف وحده أن يقذف فى قلوبنا الإيمان بوجود عالم ثان وعقل آخر يحصى ذلك الحصيد ويجنى ذلك القطاف العجيب الناتج من ازدواج الحياة المادية والروحية فى الإنسان

أسرتان اثنتان من أفكار الإنسان هما الباقيتان فيما أرى على وجه الزمان فى سجل الأرض :

أسرة الأفكار الخلقية وأسرة الأفكار العلمية التجريبية ...

والأسرة الأولى هى التى سددته إلى غايته وهيأته للخلافة فى الأرض ، وتحدرت فى أعصابه ، وأيقظته إلى سموه ، وجعلته ذا قيمة لدى نفسه ... وإلى تلك الأسرة ينتمى الدين ، ومنها انفتحت أبواب السماء للانسان ونزل إليه وحيها

والأسرة الثانية هى التى مهدت له طريق الحياة المادية ، وسلطته على الطبيعة يرتفق منها مرافق حياته ما وسعته الطاقة ، وهى التى أنمت ثقته بنفسه وأظهرت آثار وجوده وجعلته متصرفاً فى المادة بما لا طاقة لغيره من الأنواع به ...

والأسرة الأولى كانت الأساس فى بناء الحياة المدنية وإتاحة الفرصة للفرد أن يفكر ويعمل لخدمة المجموع فى حماية القوانين والمعاهدات ، وكانت الأساس فى توجيه روح الفرد إلى المثل العليا وبناء سيادة الإنسان ...

وقد استصبحت الإنسانية بأنوار الأنبياء بناة الأخلاق قبل أن تستصبح بأنوار العلماء بمئات القرون ... وكانت الأخلاق للحياة بمكان الأمومة الرحيمة تنمو فى رعايتها الطفولة وتشب وترشد . وكانت العلوم بمكان الأبوة الساعية الجاهدة ...

فالأرض مدينة لنوعين من الرجال : الباحثين فى أطواء الروح الإنسانية ، المستخرجين منها وسائل طمأنينتها ، السباقين إلى إدراك سموها وتفردها ، الواضعين لها أسس قيمها الذاتية ،

الرائدين بأبصارهم وبصائرهم كل أفق فى الأرض والسماء ، المستنزلين لها أسرار السماء بالإخلاص والبكاء ... وهم لا شك الأنبياء والأصفياء الذين لم يقفوا عند حدود الكثافات والسدود والقيود المادية ، بل ارحبوا وافضوا فأتوا بالخير والتفاؤل والاطمئنان

والنوع الثانى هو نوع المخترعين الذين يزيدون فى وسائل راحة الأجسام ويخففون المشقات والآلام وينمون قوة الخلق والتقليد فى يد الإنسان ويزيدون صور الحياة بالتنويع والترصيع والتوشيع والافتنان

ولئن كان النوع الثانى هو صاحب الدولة على عقول الناس الآن لكثرة ما فتح عليهم من بركات الأرض فينبغى ألا ينسى المفكرون أن النوع الأول هو مقيم أساس الحياة الإنسانية والآخذ بيد البشرية حتى بلغت دور الرشد . وهو الأكبر خدمة والأبعد أثراً ، إذ هو الذى بعث فى النفوس طمأنينتها على قيمتها وأيقظها لذاتها وأرشدها لمدخرات روحها وعقلها ، وهو الذى أوجب عليها الملاءمة بين ما تصنع وما تنتظر

وستستحيل كل بركات العلم إلى آفات ونقم وشرور إذا لم تتذكر الإنسانية جهاد آبائها الأنبياء القدماء وتقيم حياتها الجديدة على أسس ما أفنوا أعمارهم فى وضعه وتوسيده ، وما قتلوا وصلبوا فى سبيل إعلائه وتشييده

* * *

غير هاتين الأسرتين السالفتين من الأفكار فهو زبد يذهب جفاء ... هو باطل لا حقيقة له ثابتة دائمة . هو صور عابرة لتسلية النوع فى جهاده وتخفيف إعناته

ويخيل إلىّ حتى درجة الظن ... أن فكر الإنسان لا يجدى عليه شيئاً إلا حين يتجه إلى فتح جديد فى عالم أخلاقه أو فى عالم المادة للانتفاع بها وكشف خصائصها ، ولقط أسرارها واستخدامها ، وأنه ما وضع فى الحياة موضعاً أصيلاً إلا فى هذا الموضع . . .

فمعرفته بأخلاقه تقيم حياته على الصراط السوى الذى ليس فيه عقبات وسدود من فعل الغرائز والشهوات وعقابيل الطفولة وتفرغه للعمل المثمر الدائم فى المادة

ومعرفته بأسرار الطبيعة تفتح له أبواب العمل فيها وتنتج له بركات من السماء والارض وتريحه وترقيه وتفرغه للعبادة بالفكر والعمل

أما فترات التفلسف النظرى والهيام وراء البدوات والفروض فتلك لا محصول وراءها أو هناك محصول ضئيل

* * *

هاتان عصوان لا يستطيع الإنسان أن يمشى بدونهما خطوة واحدة ، وإنما يدور على نفسه كما كان فى العصور الأولى ولو كان فى القرن العشرين ...

ولا يمشى بإحداهما ويترك الأخرى إلا أصيب بالعرج والتعثر فأمم الأخلاق بدون علم وعمل فى المادة أمم بائدة مستضعفة معطلة القوى ، محدودة الحياة ، مسلوبة الحقوق .

وأمم العلم بدون أخلاق سباع ضارية يأكل بعضها بعضاً وتأكل غيرها ، ويتجه كل علمها وفنها إلى خدمة الشر والإثم وتستحيل بركات العلم فيها إلى نقم ، كما يتجه كل العلم والهندسة فى الشوكة إلى قمتها الحادة ، وكما يستحيل الدسم فى الطعام إلى سم إذا ذهب صلاحه واختلت أخلاطه .

عبد المنعم خلاف

الرسالة فى سنتها التاسعة

على الرغم من استحكام أزمة الورق ومواد الطباعة وارتفاع أثمانها الى عشرة أضعاف ، ستستمر الرسالة على نظام العام السابق من التخفيض والتقسيط والاهداء مع المشتركين القدماء . أما المشتركون الجدد فيؤدون الاشتراك كاملا مقسطاً أو غير مقسط . ومن المقرر أن المشتركين القدماء لن يتمتعوا بمزايا الاشتراك المخفض الا اذا جددوا اشتراكهم من نصف ديسمبر الى آخر يناير سنة ١٩٤١ ، ولن يمد الأجل بعد ذلك .

لامرتين[1] ولوروج[2]

يمتدحان النبي عليه أفضل الصلاة والسلام

للأستاذ محمد توحيد السلحدار

الله يهدي من يشاء و « لكل نفس هوى في الدين يمنيها » . فليس غريباً ألا يؤمن المسيحي إيمان المسلم ؛ غير أن بعضهم جهل أو تجاهل ، من كل وجه ، فضل الإسلام على الإنسانية والمدنية وقدر نبي المسلمين . وشعر بعضهم ، في أحوال شتى ، بحاجة إلى تقرير جانب من الحق في شأن هذا الدين القيم وآثر الاعتراف بعظم نبينا الكريم . ومن هذا الفريق ريمون لوروج الذي ألف كتاباً عنوانه « حياة محمد » ، طبعه فاسكيل[3] سنة ١٩٣٩ ، في باريس

وقد كتب له السيد قدّور بن غبريت مقدمة ذكر ضمنها أن تقديم مؤمن لكتاب صاحب له غير مؤمن أمر دقيق، خصوصاً في مقدمة لموضوع ليس بد من أن يتضح اختلاف نظريهما فيه ؛ وأنه هو لا يسلّم من غير تحفظ بالمعنى البشري البحت الذي تصوّره المؤلف في النبي ، لبعد هذا المعنى عن الشهادة بالرسالة ، ولاعتقاد المسلم أن الحوادث والأزمات التي قد تكون وجهت محمداً نحو الرسالة هي أمور فوقها ذلك النداء السماوي وكلمات الله نشرها الرسول بأمانة وإقدام بين الناس . وإن السيد ، بعد أن تحفظ لهذا الخلاف على الأصل ، هان عليه أن يحيي ضمير المؤلف ونبوغه في ترجمته النبي

وذكر أيضاً أن المؤلف فيلسوف لا تضطرب نفسه من مسائل الأجناس ولا من تعارض المذاهب ؛ فهو يعيد المشاكل السياسية والاجتماعية كلها إلى مستوى المصالح المشتركة بين البشر أجمعين ، لأنهم على رغم الاختلاف الثانوي المؤقت الذي يفرقهم فيه جهلهم وحدّتهم الأصيلة ، ليس يمكن في الحقيقة تصورهم منقسمين انقساماً لا مرجع عنه

(١) Lamartine الشاعر الفرنسي ، السياسي ، المشهور (١٧٩٠ م - ١٨٦٩م) ؛ دخل مجلس النواب سنة ١٨٣٤ ، ثم كان عضواً في الحكومة المؤقتة التي أعلنت الجمهورية الثانية سنة ١٨٤٨

(٢) Raymond Lerouge كاتب من رجال فرنسا في مراكش

(٣) Fasquelle

وذكر أن الكتاب يمثل جهداً من أصدق الجهود التي بذلت في جعل الكثيرين من غير المسلمين يعرفون قدر النبي ورفيع شأن الإسلام في تاريخ المدنية

وأهم ما جاء في هذه المقدمة كلام عن النبي للشاعر لامرتين يجانس الموضوع ، أورده السيد قدّور و « عرف فضله لفرنسا » وقصد بإيراده أن يعجب به أبناء ملته . وقد نقله من « تاريخ تركيا » حيث قال[1] ذلك السياسي الفرنسي ما ترجمته الحرفية :

« لم ينو إنسيٌّ قط ، عن إرادة ذاتية أو غير إرادة ، أن يبلغ غرضاً أسمى من غرض محمد إذ كان بلوغه فوق طاقة البشر : فهو تقويض الأباطيل التي جعلوها بين الخالق والمخلوق ، وهداية الإنسان إلى الله ، وإقامة معنى الربوبية المبني على العقل والتقديس في بهرة ذلك الزحم المختلط من آلهة الوثنيين المادية المسيخة . ولم يعتزم إنسي صنماً قط وبيداه بوسائل على مثل ضعف وسائله ومثل هذا التفاوت بين القوى البشرية والعمل المنوي : إذ أن محمداً ، في تصوره مشروعاً على هذه الضخامة وفي إنفاذه ، لم يكن له من وسيلة سوى نفسه ، ولا من مساعد غير عدد قليل من الرجال في ركن من الصحراء . وأخيراً لم يتم أنسيّ قط ، في زمن أقصر من زمنه ، انقلاباً في الدنيا على مثل هذه السعة وهذا الدوام : إذ لم يمض قرنان على الدعوة الإسلامية حتى كان الإسلام منادى به ، مسلحاً ، سائداً في ثلاثة البلاد العربية ، فاتحاً للتوحيد فارس وخراسان ، ومصر وأثيوبية والمعروف من أفريقية الشمالية بأسره ، وعدة من جزر البحر المتوسط ، وأسبانيا وجانباً من فرنسا

وإذا كان سمو الغرض ، وضعف الوسائل ، وجلال النتيجة ، أموراً هي ثلاثة المقاييس لعبقرية المرء ، فمن ذا الذي يجرؤ على أن يوازن من الجهة الإنسانية بين محمد ورجل من عظماء التاريخ الحديث ؟ فإن أشهرهم لم يقلبوا غير أسلحة وقوانين وإمبراطوريات ؛ ولم يؤسسوا ، حين أسسوا شيئاً ، سوى دول مادية كثيراً ما انهارت قبلهم ؛ أما هذا فقد قلب جيوشاً وشرائع وإمبراطوريات وشعوباً وبيوتات مالكة وملايين من الرجال في ثلث المعمور من الكرة ؛ لكنه زاد فقلب مذابح وآلهة

(١) « تاريخ تركيا » لصاحبه لامرتين ، الجزء الثاني من طبعة باريس لسنة ١٨٥٤ ، ص ٢٧٦ وص ٢٧٧

ويلات السلم ...!

للأستاذ سيد قطب

هذه الحياة الدنيا عجيبة ، فهي ما تزال تنشئ السم وتدس فيه الترياق ، وتخلق السقم وبين طياته عناصر الشفاء . وما تزال تخيل لأبنائها السذج أنها موشكة على تلاف مشرفة على البوار ، فتثير فيهم قواهم الكامنة ، وتستحث منهم هممهم الراكدة ؛ ثم إذا هي تنفصل من الداء ، وتنهض من الكبوة ، أشد ما تكون عافية ، وأوفر ما تكون قوة ؛ كصحو الطبيعة غب الوابل المنهمر ، وصفو السكون بعد العاصفة الهوجاء !

وإن من عجائب هذه الحياة أن تكون للسلم ويلات ، ربما فاقت ويلات الحرب ، بل هي تفوقها بكل تأكيد . ألا وإن من عجائبها أن تجعل الحرب ترياقاً لسموم السلام !

وما يخالجني الشك في أن فرنسا كسبت بهذه الهزيمة أضعاف ما كسبت غداة المدنة بالنصر . ومهما بدا هذا القول عجيباً فإنه قمين بالتصديق . ومن شاء أن يختبر صدقه فلينظر فيما كانت عليه فرنسا قبل الحرب ، وما يلوح أنها ستكون عليه بعدها

لقد عبث النصر السابق والرخاء الغابر بفرنسا عبثاً شديداً ، فلقد غدت قبل الهزيمة شيعاً وأحزاباً لا حصر لها ، ولا تدرك أسماؤها فضلاً على مبادئها ، بل أهوائها . ولقد كان التشعب السياسي والحزبي أهون ما نكبت به فرنسا ، فلقد أصابها ما يصيب الأمم المنحلة من تدهور خلق ، وإباحية ، وبيئة ، وفردية مقيتة ، واستهتار معيب ؛ ولقد نُسيت فرنسا ليذكر الفرنسيّ ! وبات كل فرد أمة ، فكل فرد وشأنه ، وكل امرئ ولذائذه ، وكل نفس وشهواتها ، وعاد الأخذ نهباً والمنح سيراً وغلبت الرفاهة وحب الراحة على الجميع

هذه فرنسا التي هزمت في أسبوعين ، وكانت ستهزم نفسها لو لم يهزمها الجرمان ، وكانت ستخذل قضيتها لو لم تخذل في الميدان . . .

وهذه ـ ولا شك ـ بعض ويلات السلام ، أو الاطمئنان إلى السلام ! أما فرنسا بعد الهزيمة ، فها هي ذي مغلوبة على أمرها

وديانات وأفكاراً وعقائد ونفوساً ، وأسس قومية روحانية على كتاب أصبح كل حرف منه شرعة قومية روحانية تضم شعوباً من كل لسان وكل لون ، وجعل لهذه القومية الإسلامية طابعاً لا يبليه الزمان بما نفث فيها من بغض للآلهة الزائفة ، وحب لله الواحد المنزه عن المادة . وهذه الوطنية المنتقمة من الاستهانة بالله هي خاصة أتباع محمد وفضيلتهم . ولقد كان فتح ثلث الأرض لعقيدته معجزته ، والأحرى أنها لم تكن معجزة رجل ، بل كانت معجزة العقل . وإن معنى وحدانية الله التي نادى بها والناس في سأم من العبادات الوثنية كان معنى له في ذاته من القوة ، حين تفجر على شفتيه ما أضرم معابد الأصنام العتيقة جميعاً ، وأشعل بأضوائه ثلث العالم

. . . إن حياة محمد وتأمله الديني ولعنائه الشديدة للفعالة لأباطيل بلاده ، وإقدامه على مواجهة حفيظة الوثنيين وحنقهم مواجهة الجسار ، وثباته على احتمالهم في مكة خمس عشرة سنة ، وقبوله أن يُعد بين مواطنيه فضيحة علنية (يعني قدوة سيئة تثير السخط) حتى كاد يكون ضحيَّة ، وهجرته أخيراً ، ووعظه بلا انقطاع ، وحروبه السجال ، وثقته بالنجاح ، وأمنه في الهزيمة أمناً فوق القدرة الإنسيَّة ، وحلمه عند الفوز ، وطموحه الفكري الخالص البريء من طلب السلطان وصلواته بلا نهاية ، وحواره في البُرحاء ، ووفاته وظفره بعد القبر ، كل أولئك يشهد بأكثر من الكذب بل يشهد بالإيمان ، وكان هذا الإيمان هو الذي جعل له القدرة على إقامة عقيدة ، وكانت هذه العقيدة مثناة : وحدانية الله وتنزه الله عن المادة ، فواحدة تقول إن الله موجود والأخرى تقول ما ليس الله به ، واحدة هادمة بالسيف آلهة زائفة والأخرى مُشهرة بالكلام سيرة

إن محمداً فيلسوف ، خطيب ، داع ، مشرع ، محارب ؛ وهو فاتح أفكار ، مقيم عقائد معقولة وعبادة بلا صور ؛ وهو مؤسس عشرين دولة دنيوية ودولة واحدة دينية ، ذلكم محمد ! فأي إنسيّ كان أعظم منه بكل المقاييس التي يقاس عليها العظام الإنساني »

محمد توحيد السلحدار

ولكنها أشد حيوية وأكثر يقظة ؛ فلقد تنبهت فيها كل حاسة ؛ ولقد وحدها الخطر وهي ممزقة كل ممزق — والجسم الحي يتنبه ليدفع الخطر — ؛ وأخذ كل فريق يعمل على طريقته ، ولكن لفرنسا ، لفرنسا وحدها لا لنفسه أو حزبه ، ولا لمطامعه ولذائذه

فهذا « بيتان » الشيخ يجدد شباب فرنسا ! ويوحي إليها في كل حركة وكل عمل وكل خطبة أن تنهض ، ويبشرها بالنهوض ، وهو في الوقت ذاته يذكرها بالخطر الجاثم والهول المحدق ، ويستنهض فيها الماضي والمستقبل ، ويقودها إلى الإيثار بعد الأثرة ، وإلى التضامن بعد الفردية ، وإلى الإنسانية الدفة بعد الارتكاس في الشهوات

وهذا « فيجان » يحتمي في الشمال الإفريقي ، ليشد ساعد الشيخ ، ويثبت أقدامه أمام الغول الجرماني ؛ وليبث في نفوس الفرنسيين الثقة بأن لهم بقية من قوة ، ومسكة من مقاومة ، وأنهم خليقون بالثبات بعد التقهقر ، والنهوض بعد العثار ، والرجاء بعد القنوط ، والعزة بعد الاستسلام

أما « ديجول » ، فالحديث عنه نافلة ، ذلك أن موقفه خطبة صامتة أبلغ من كل خطبة ، وذلك أنه يمثل قلب فرنسا الحي ، قلبها الشجاع الأبيّ ، الذي لم يعترف بالهزيمة غداة الهزيمة . وإن « ديجول » وحده لشهيد بأن في هذه الأمة حياة ، ولو طمست كل الأدلة والبراهين

وما من شك أن فرنسا ستنهض وقد تطهرت من أرجاسها ونقيت من أدرانها . ستنهض باسم الرجولة والتضحية والأخلاق ، وستكون خيراً لنفسها وللعالم من فرنسا الممزقة الغارقة في الشهوات .

ولقد صنعت ألمانيا سنة ١٩١٨ ما تصنعه فرنسا اليوم ؛ فكانت الهزيمة حافزها الأول إلى وثبتها الجديدة . ولو لم يقم على هذه النهضة رجل مريض النفس ، شاذ السليقة ، لانتفع بها العالم في التعمير بدل التخريب ، وانصرفت هذه الطاقة الضخمة من القوة الخارقة في غير هذا السبيل

وما أريد أن أضرب المثل بانجلترا ، فقد يكون الخلق الإنجليزي فوق مستوى أفهامنا ، بل فوق مستوى أفهام العالم . هذا الخلق الذي يخلق من الشعب كله أبطالاً في ساعة المحنة ، ويجعل من البشر ملائكة في لحظة الخطر ، ويحيل الأفراد كتلة واحدة ما لها من فكاك

ومع هذا فقد كاد السلم ، وكاد الغنى ، يضعفان من أعصاب هذا الشعب ، فذهب إلى الحرب متثاقلاً ، ونام عن الاستعداد حتى دهمته الأهوال . ومن يدري لو طال به السلم ، وأملي له في الدعة ما كان يصيب هذا الخلق المتين من الوهن ، وهذه الأعصاب الفولاذية من الانحلال

* * *

للسلم ويلات ...

ومصر — كنانة الله في أرضه — أشد أمم الأرض بلا استثناء إصابة بهذه الويلات !

فأين ما كان في فرنسا من تشعب وتشمت مما في مصر ؟ وأين ما كان هناك من فردية مقيتة وأثرة بغيضة مما في كنانة الله ؟ وأين ما كان في وطن نابليون من رفاهة مريضة وترف ذليل ، وفساد في الخلق والضمير ، مما يجري هنا في وطن رمسيس ؟

لا يحاول أحد أن يكتم عنا ما نحسه في أعماقنا ، ولا يجادل أحد فيما تلمسه أيدينا وتراه عيوننا ، ولا يفهم أحد أنه من الخير لنا أن نعصب عيوننا فلا نرى سوءاتنا

إن في مصر من « ويلات السلم » ما لا يتصوره أي أجنبي عنها؛ وفرنسا المنحلة المريضة الغارقة في الشهوات كانت قديسة طهوراً بالقياس إلينا ... كانت أمة ولسنا نحن أمة ، وهذا أخصر ما يصورنا من ألفاظ

في مصر ما لا يحفظ التاريخ من فحش يمج بها وفحش يكتم كما قلت في قصيدة منذ سنوات

وليس هذا « الفحش » بقاصر على ما ينصرف الذهن إليه أول وهلة ، ولكنه فحش يشمل كل شيء . يشمل الضمائر والأسرار ، ويشمل التصرف الشخصي اليومي للألوف والملايين

في مصر فحش من الفقر وفحش من الغنى ، فحش من الحرمان وفحش من المتاع . وفيها فحش من النعومة التافهة يقابله فحش من الخشونة الصارمة

وفي مصر مشاحنات ومنازعات ، ولكنها ليست على شأن جليل ولا غرض عظيم . وفي مصر أثرة عمياء صغيرة المطامع قريبة الآفاق لا تعدو لذة كلذة الحشرات والهوام

ومنشأ هذا كله طول عهدنا بالسلم الرخيصة والدعة المريضة والأمان التافه . كل ذلك عبث بأعصابنا فأوهنها وبآمالنا فقرب مداها ، وبهمومنا فأصغر قيمتها ، والخطر الذي يثير الأعصاب ،

وينبه الحواس، ويكبر الهمم، ويغذى الطموح قد حرمتنا الأقدار إياه، فمنحتنا طبيعة سمحة لا تحوجنا للجهد ولا تثير فينا الجهاد، وسلبتنا نعمة الاستقلال أحقاباً متطاولة فلم نضطلع من عهد طويل بأعباء الاستقلال

علم الله لقد كانت أكبر أمنية لى أن أعيش حتى أرى مصر تخوض معركة. معركة واحدة، تطهرها كما تطهر النار الخبث، وتبعث فيها الرجولة الكامنة والتضامن الوطيد، وتشفيها من رخاوة السلم وانحلال الدعة ونومة الفراش!

وإن مصر لكاسبة كاسبة لو خاضت المعركة. كاسبة ولو تحطمت دورها وتمزقت أجسادها، لأنها ستبنى أخلاقاً وتوحد كياناً، وترتفع فوق مستوى الحرص الحيوانى على الحياة إلى مستوى الحرص الإنسانى على الكرامة. ولأن حيويتها ستنبض فى ساعة العسرة، وأعصابها ستشتد فى مواجهة الخطر، فتعوض فى المستقبل أضعاف ما تخسر من دور وما تفقد من أجساد!

لو خضنا المعركة - أية معركة - ما بقى ذلك الشباب الناعم الناعس، وما كان الإنذار بغارة جوية - لا للغارة - سبباً فى ارتماد الفرائص من الهلع، واصطكاك الأسنان من الذعر، وتساوى الرجال بالنساء فى العويل والصياح!

لو خضنا المعركة - أية معركة - ما حدثك شاب «أرستقراطى» عن «النكبة» التى حلت به لأن «مهرة» فاتته، ولا عن «الكارثة» التى تسود حياته لأن منافساً له من بنى طبقته فاز بقلب راقصة - إن كان لها قلب!... ولا عن «ويلات الحرب» التى رفعت من أثمان العطور والخمور!

أى والله هذه أحاديث شباب «الوسط الراقى» فى مصر، وتلك مطامعه وآفاقه فى الحياة. وإن كثيرين من أبناء الطبقة الوسطى - عماد الأمم - ليقلدون هؤلاء مع الأسف، فإن لم يقلدوه فى هذا، فالكارثة عندهم أن لم يجدوا وظيفة بعد تخرجهم، والنازلة أن بعض زملائهم سبقوهم فى الدرجات، وويلات الحرب عليهم هى وقف العلاوات والترقيات!

لو خضنا المعركة - أية معركة - لبرئنا من الأثرة الحمقاء التى يحسب فيها التبرع بالجنيه من صاحب الألوف مفخرة تشيد بها الصحف، وتطوع فتاة فى مستشفى مبرة تنشر من أجلها الصور. ذلك أن التبرع بالأرواح والتطوع بالدماء يصبحان إذ ذاك عملاً يومياً لا يلفت الأنظار!

لو خضنا المعركة - أية معركة - لسكتت ألسن الدعاة الحزبيين عن الخوض فى الشخصيات وترفعوا عن المشائم والأسلاب، ولكان لهم من هموم مصر ما يشغلهم عن هموم الحكم، ومن مطالب الوطن ما يلهيهم عن مطالب الأنصار!

ولو خضنا المعركة لكان لنا أدب غير أدبنا الباكى الحزين ولكانت لنا أمجاد نتغنى بها، ومخاطر ندعو إلى اقتحامها، ومخاوف نثير الهمم إزاءها، ولكانت لنا عزة تستشعرها نفوسنا ويتغذى بها إحساسنا

إى والله، ولا سمعنا فى ذلة باكية «ما يهونش» أو «ميلت يختى فى الحب يختى» أو «ياحبيبى تعال الحقنى شوف اللى جرالى من نار حبك» أو «ليه تلاوعينى وانت نور عينى». ولألفنا أن يكون نشيدنا القومى المختار: «لا والنبى ياعبده»!

***

اللهم إن تكن قد كتبت علينا ألا نخوض المعركة، فابعث اللهم علينا بركاناً ثائراً أو زلزالاً محطماً أو سيلاً جارفاً أو كارثة ما من كوارثك الرحيمة التى تنقذ بها عبادك من نومة الأمن ورخاوة الدعة وويلات السلام!

فإن تكن اللهم قد أردت حرمان هذا الجيل من رحمتك فلا تحرم الأجيال الآتية ما حرمتنا، إنك أرحم الراحمين!

«حلوان» سيد قطب

يا قمـــــر !

للأستاذ محمود البشبيشى

يا سمير الحزن فى خلوته ، ورفيق السعيد فى جلوته !
كل ما فيك سحر ... وكل ما فيك بِشْر
سحر يغمر القلوب بشعاع النور فتطرب
وبشر يشمل النفوس فترتاع الآلام وتهرب !
... لا حزن معك ... ولا ضلال بظلك يا قمر !
يا هادى السارى فى البيداء ... وقاهر الظلمة بالضياء

***

شراع أنت للملاح لايبلى مع الزمن ، ولا يضطرب مع الريح فيصيبه الوهن ! يقهر موج البحر ، كما يقهر أمواج الفكر ، فتسير السفينة بفضله فى أمان ! ويهدأ الملاح فيصوغ لك شكره فى ألحان

***

كم لك على الأمواج من قُبل ليست كالقبل ! بل زادت عليها معنى النور !

قبلٌ من نور ! يا سحرك يا قمر ! ترقص من فرحة اللقاء ، على ثغور الماء ...

قبلٌ من نور ! يا سحرك يا قمر ! تخشى الرقيب فتضطرب وتتنقل !

ولا تقع فى اضطرابها وتنقلها إلا على شفة من موج ، أو خد من زورق !

قبلٌ من نور ! يا سحرك يا قمر ! تبعث الغيرة فى قلوب الأشجار الحالمة ، فى الضفاف الناعمة ، فتمد لك أوراقها تنوراً تطمع فى قبلة من نور !

. . . ومن عجب يا قمر أنك تقبلها وتقبلها غير ما هائب ولا خائف من عتاب الأمواج وثورة قلوبها

***

للحقائق المجردة فمل السحر فى كل شىء ، تنزل بالغنى إلى الفقير لتقربه من النجاة ، وترتفع بالفقير إلى الغنى لتشعره بالحياة

... فكيف وحقيقتك يا قمر من نور !!

تنزل بالسماء فى معنى الشعاع إلى الأرض لتقول لها إنك لازلت تراباً !! وترتفع بالأرض إلى السماء فى معنى الظلال وانعكاس النور لتقول للسماء إنك لا زلت سماء ما دام فيك ضياء !!

***

فى نورك يا قمر معنى قلب المؤمن ، لا يلمس شيئاً من أشياء الحياة إلا طهره !

فى نورك يا قمر معنى كلمة الحق ! لا تحل فى مكان إلا خرجت منه كلمة الكذب ! !

فى نورك يا قمر معنى كلمة الحب ! لا تُرى فى مكان إلا جملت من صخوره قلوباً !

فى نورك يا قمر ماذا فى نورك يا قمر ؟! ...

***

حقيقة أنت ... ولكن حقيقة متغيرة ... !

فأنت عند الجاهل قرص لا أكثر ولا أقل من ضياء وسناء !

جُملت لتخفف من وحشة الانتقال من معنى النور إلى معنى الظلام

لا يعلم من سرك غير أنك تغيب لتطلع الشمس ، وأن الشمس تغيب لتطلع أنت !

وأنت فى عين الفيلسوف حقيقة النور ، ولسان السماء الذى تخاطب به الأرض لتذكرها أن هناك رقيباً عليها خبيراً يرى كل شىء حتى دبيب الخواطر فى النفوس !

ومن عيونه المحسوسة لو عقل القوم ! عيونك يا قمر .

عجباً يا قمر ! نظرة سطحية جملتكَ قرصاً من ضياء ، ونظرة عميقة جملتكَ عيناً من سناء !

فما نظرة العاشق إليك يا قمر ؟

***

نظراته لا تنتهي إلى أمد . كل نظرة فيهـا تنعطف على نظرة انعطافاً لا نعلم كيف يكون ، لأنه سر من أسرار قلبه وأسرار نورك ! تقلبت على قلبه وجوه الأيام بما فيها من لقاء وما فيها من فراق فنظر إليك يا قمر كأنما فيك مفتاح قلبه ، وتكلم كلاماً ، إنى لا أعلمه ، فهل تعلمه يا قمر ؟

لقد أحصرنى التطول إلى أسرار نظراته إليك ، فهل من معين منجد ومساعد منشد ؟

أين أنت يا دكتور مبارك وهـذا الموقف موقفك ! وإنك لناصح أمين لا تعرض الرأى على تهمة ؟

وأين أنت يا زيات وهذا حديثك (فى الجمال) ، فإن المعانى هنا أصبحت لقلبى قُلَّباً !

وإنى لأخوض فى أوعاث وأوعار !

فما نظرة العاشق إليك يا قمر !

***

يا قمر ! أنت قمر !

وهذا كل ما يستطيع الشاعر أن يقول لأنك فوق كل ما يقول

نعم أنا لا أستطيع
أن أصفك وصفاً يحمل
كل معانيك يا قمر
ويكون فى ألفاظه
معنى النـور والسـحر
والجمال والأحلام
لا أستطيع إلا إذا
قلت: أنت قمر!... يا قمر
وهكذا لا توصف
الحقيقة إلا بالحقيقة ! !

***

يا أفكارى ! لقـد
تمجـدت اليـوم رغم
الجاحدين الحـاسدين

لقد بلغت اليوم عرش النور رغم خفافيش الظلام
لقد أنصت لك القمر وتفتحت آذان السماء !
يا أفكارى لقد تمجدت اليوم ، فأنصت لك القمر !

***

يا قمر هأنذا أناجيك فهل تسمع النجوى ؟

هأنذا أعيد لك أنشودتى المنظومة شعراً يأرج ويتوهج بعبيرك وأنوارك . . .

يا أيها القمر السخى بنـوره فيم احتجابك عن وحيد سارى
فى ظل نورك حين تبدو باسما أرب النفوس ومتعة الأنظار
كم فى الدجى مذ غبت من متأمل بين النجوم ينوء بالأكدار
أمهدئ الأفكار إن جد السرى

هـلا رحمت مبلبـل الأفـكار

يا مشرق القسمات طبعك رحمة فإلام تتركنى لوقت سرار
يا باعث الأنوار تنتظم الربى والوهد ، طال الشوق للأنوار

***

« انظر القمر ، وارقب الخطر ، واسأل القدر ! »

محمود البشبيشى



اللورد روبرت بادن باول
الكشاف الأعظم العالمي
للأديب خميس زهران

توفى اللورد بادن باول الكشاف الأعظم فى نيرى بكينيا فى صباح ٨ يناير وهو فى الثالثة والثمانين من عمره . وكان قد مرض مرضاً خطيراً بنوبات قلبية فى نوفمبر من السنة الماضية ثم تحسنت صحته ولكنها ظلت معتلة ... وقد احتفظ الفقيد بصحته ونشاطه حتى الثمانين ثم أخذت بعد ذلك فى الانحطاط . ومما يذكر عنه أنه اتخذ له داراً فوق منحدرات جبل كينيا حيث عاش مع قرينته حتى توفى

واشتهر الفقيد فى حرب البوير فى جنوب أفريقا ودافع من مافكنج ؛ ولكنه نال شهرته العالمية عندما أسس حركة الكشافة عام ١٩٠٨ فنجحت نجاحاً عظيماً وأصبح عدد الكشافين والمرشدات فى العالم قبل وفاته نحو خمسة ملايين

بادن باول اسم يعرفه كل من له إلمام بتاريخ الكشافة، ويمجده كل من درس مبادئها واعتنقها فى أى قطر من أقطار المعمورة ، فهو يترعم تلك الحركة المضنية التى ابتكرها ، وقد وقف نفسه على خدمة الشباب فى العالمين . وهو هو فى نفسه وأخلاقه وعاداته ونزعاته لا يفرق بين جنس وجنس ، ولا يوازى إلا بين النفس والنفس مجردة

ولد الطفل الإنجليزى « روبرت » مؤسس مذهب الكشف من أبوين كريمين هما « بادن باول » والسيدة « هزيتا هراس » ورأى النور فى هذه الحياة لأول عهده بها فى ٢٢ فبراير عام ١٨٥٧ فى شمال هايدبارك بلندن ، وكان أبواه ممن اشتغلوا بالتربية ولم يكن يدور بخلدهما أن ذلك الابن السادس سوف يأتى بمذهب فى التربية هو خلاصة آراء علمائها وأظهره عملياً فى ثوب الكشافة ، فحقق بذلك نظريات سقراط وأفلاطون ، ثم أقوال ابن خلدون ولوثر ومن بعدهم روسو وبستالوتزى وسبنسر فقد أجمع كل هؤلاء الفلاسفة الأخلاقيين وغيرهم أن أول الواجبات الإنسانية تأهيل النفوس إلى اكتساب الكمال الممكن بتأسيس الملكات الصالحة وتأصيل الفضيلة الذاتية بإصلاح الأنفس الناطقة حتى تستحق النظر فى حال غيرها أو تمرين سواها ؛ ووافقهم على هذا المبدأ الحقيقى حكماء السياسة والشرع عموماً لتسليم البرهان القاضى بعلو الغاية من التربية وإن اختلفوا فى الكيفية على حسب المدارك والاقتضاءات الزمنية



اللورد روبرت بادن باول الكشاف الأعظم العالمى بملابس الكشافة تتقدمه ابنته « بتى » بملابس المرشدات (الفتيات الكشافة) وخلفه المستر « ولسن » مدير معهد جلويل عند دخوله المعسكر الدولى الكشافة (جامبورى) الذى أقيم فى هولندا سنة ١٩٣٧

وقد دخل فى العقد التاسع من عمره وقد منحته الطبيعة ما عندها من فتوة وقوة ولم تحرمه لذة الألقاب والغنى فتدرج فيهما إلى أن بلغ ذروة الأولى وأصبح فى درجة لا بأس بها من الثانية وكان لا يزال قدوة للشباب ومرجع المربين : يلبس كالطفل وكالشاب وكالرجل وهو فى الواقع كهل لا بل شيخ . إنما تعاليم الكشف وحياة الكشف جعلت من شيخوخته الشباب الغض والعامل المجد الآخذ من المجتمع بأكبر نصيب . فبادن باول فى حركاته وسكناته كان يمد من الشباب الناهض وإن يكن شيخاً فى مظهره وفى منظره ، لأنه كان يلبس ما يتذوق الشباب ويتحرك كما يتحرك الشاب ، ويجانس الفتية ويجالسهم دون غضاضة أو تنافر . ولعله فى هذا كان يتحدى الطبيعة ويتحدى الذين إذا استقبلوا الخمسين ترحموا على الدنيا وعلى الحياة ، وعاشوا أمواتاً يبحثون عن القبر ويستضيفون اليأس فى كل أطوارهم

وتاريخ طفولة روبرت مملوء بالحوادث والمفاجآت فقد مات أبوه « بادن باول » الأستاذ بجامعة أكسفورد وهو فى الثالثة من عمره فكفلته أمه السيدة هزيتا ابنة الأميرال « السير سدنى سميث » من أعلام البحرية مدة الحملة الفرنسية مع إخوته الستة وكذا أخته الوحيدة . ولم تلحقه بمدرسة ما بل اكتفت بتعليمه المنزلى . وكانت لدى بادن وإخوته سفينة يمخرون بها عباب اليم

فيجازفون بأنفسهم متغلبين على الأعاصير حتى قويت ملكاته وصار يستعمل المجداف بلباقة وذكاء وتعلم الاعتماد على النفس . وبقى بادن يتلقى بعض العلوم الخفيفة والمعارف السهلة فى منزله إلى أن بلغ الحادية عشرة من عمره فأدخل مدرسة روزهيل الابتدائية فمكث فيها سنتين كان خلالها العلم الفرد فى الألعاب مما جعله محبوباً من أقرانه وأساتذته . ولقد قال عنه الدكتور هايج برونى فى سياق كلام له: « ماشككت قط فى كلمة قالها. ولقد برهن فى جميع أدوار حياته أنه رجل شريف لا يعرف زوراً ولا بهتاناً ولا يخاتل ولا يشك فى كلامه » . ولما بلغ الثالثة عشرة من عمره التحق بمدرسة تشارترهاوس تلك المدرسة التى تحدث « تكرى » عنها وأشاد بذكرها فى رواياته القصصية . وكان سيره التعليمى عاديا كشأن الطلبة المتوسطين إلا أنه يبزهم فى اللغتين اللاتينية واليونانية ، وينافسهم فى الأخلاق الفاضلة والصفات النبيلة . أما فى الألعاب بأنواعها فهو ابن بجدتها وفارس حلبتها ؛ شهد بذلك ناظر مدرسته حيث كتب على لوحة الإعلانات قبيل انعقاد مباريات كرة القدم السنوية : « إن الطالب روبرت بادن باول حارس مرمى يقظ هادئ الخلق يعتمد عليه دائماً »

وفى عام ١٨٧٦ ترك الفتى روبرت مدرسة تشارترهاوس ، وكان عمره إذ ذاك تسعة عشر عاماً ، فأخذ يفكر فيما عساه يكون مستقبله ، ولم يكن قد قرر اتجاه حياته بعد . وفى بعض الأحيان تخضع مصاير الناس لمصادمات تافهة لا وزن لها ، وقد يتغير حظ الإنسان ويتبدل مصيره ، لا لشيء إلا أن القدر يريد أن يحقق ما كتب فى صفحته . ومن المحقق أن الامتحان العسكرى الذى صادف انعقاده وقت خروج روبرت من المدرسة كان له من الأثر فى حياته أكثر مما كان يتوقع ، فإن تفوقه ونجاحه بين سبعمائة طالب آخرين دخلوا معه هذا الامتحان بالرغم من عدم ميله إلى الجندية أرغمته على الالتحاق بالفرقة الثالثة عشرة من الهوزار بالهند، وهكذا هيأت له المصادفة الدخول فى جيش بلاده

ولما ذهب إلى الهند ضابطا فى الجيش أعجبته الطبيعة وهام بها ، فأخذ يرى بنفسه فى أحضانها ، ويطبخ طعامه بيده ، ويهيئ فراشه من أغصان الشجر ويهتدى إلى الاتجاهات : بالرياح والنجوم والشمس والقمر ؛ ويعيش مع الحيوانات والطيور ، ويلاحظ نظم حياتها ويدرس أنواعها حتى نمت لديه قوة الملاحظة والاستنباط ، واتسع نطاق ذاكرته ورهفت حواسه ودقت .

ولقد قيل إن أول عمل قام به هناك هو أنه جمع عدداً كبيراً من أولاد الأوربيين الصغار ونظمهم واخترق بهم شوارع مدينة لكنو ، لاعبين على بعض الآلات الموسيقية ، وكان يعزف هو على آلة تدعى « أوكارينا »

واللورد بادن باول ذو اطلاع وافر على شئون ممالك كثيرة ، فقد انتقل من الهند إلى بلاد الزولو بجنوبى أفريقيا بعد أن قام بسفرات أخرى طويلة كان له فيها مغامرات جريئة وتجارب قيمة

لا ننظر إلى بادن باول كما ننظر إلى كل شاب ، فهو فى طفولته وفى شبابه ككل منا ، ولكن النظرة التى تهمنا هى من يوم أن هداه الله ، أو قل من يوم أن بعث الكشف من رقدته فى صدر « توماس ستون » ؛ فقد وقع فى سنة ١٩٠٤ أن تنبه الأمريكيون إلى مسألة الكشافة وما يكون لها من وقع حيوى . فذهب المستر توماس ستون الذي كان يتولى إدارة غابات كندا إلى تأليف نفر من أبناء الإنجليز هناك لاستغلال هذه الغابات فجعلهم فرقاً على رأس كل واحدة منها واحد يقوم عليهم يدربهم على النظام والعيش فى العراء ، يأخذهم إلى الغابة ليعلمهم تسلق الأشجار واقتفاء الأثر ، والمراوغة ، والاختفاء عن أعين الرقباء ، والتعرض للشمس . ويعلمهم كذلك السباحة وبعض الحرف النافعة ، ويمنعهم شرب الخمر والتدخين

فلما رأى ذلك السير روبرت بادن باول وكان إذ ذاك فى أمريكا الشمالية أعجبته خطة الرجل وصادفت هوى فى نفسه ، ولكن ما لبث أن أسدل النسيان عليها ستاره

وذلك اليوم هو حين صدرت له الأوامر بالذهاب إلى جنوب أفريقيا لتأدية خدمة عسكرية ، وحين عهد إليه تدريب قوة من الوطنيين لم يكن لهم عهد بالحربية

مائة شاب من سكان جنوب أفريقيا كانوا المزرعة التى غرس فيها « الماجور بادن باول » تعاليمه كتجربة . ومائة لا أكثر استطاعوا أن يؤيدوا صدق مذهب الكشف ، لكن بقيادة هذا الزعيم الكبير ، وهم اليوم يعدون بالملايين فى أنحاء المعمورة ، لا يقف تيارهم جنس أو دين أو مذهب ؛ بل كلهم يعتنقون مذهب الكشف راضين قانعين بفوائده سواء لأجسامهم ولعقولهم ولاستعدادهم للحياة كأفراد عاملين وكأعضاء فى المجتمع نافعين .

واللورد بادن باول فضلاً عن شهرته ككشاف أعظم كان يعتبر بحق بطل واقعة مفكنج ، فقد أظهر أثناء حصار مدينة مفكنج عام ١٨٩٩ من النبوغ والعبقرية في الفنون العسكرية ما أطلق ألسنة مواطنيه بالمدح والثناء عليه

وتلك ولا شك كانت حرباً هائلة لم يكن الإنجليز يتوقعون أن يكون للكشافين أثر فيها . فلم يلبث أن دعى الجنرال بادن باول إلى جنوب أفريقيا عند قيام حرب البوير ، فقام بأعمال جليلة رفعت من ذكره في بلاده

ومما يذكر في هذا الشأن أن الجنرال الإنجليزي حصر بجيشه في مفكنج وهي مدينة صغيرة واقعة في سهول أفريقيا الجنوبية ولم يكن أحد يظن بأنها ستهاجم من العدو كما لا تتوقع أنت مهاجمة العدو لبلدتك أو قريتك إذ أن هذا بعيد الاحتمال

قال بادن باول : « ولما وجدنا أننا سنهاجم في مفكنج أخبرنا حاميتنا عن النقط التي ينبغي الدفاع عنها . وكان عدد رجالنا قريباً من ٧٠٠ ما بين شرطي ومتطوع ومنظم . ثم سلحنا من الأهلين ٣٠٠ وكان بعضهم من رجال الحدود القدماء الذين هم أهل لهذه المهمة . غير أن كثيراً منهم كانوا تجاراً وكهنة وغير ذلك ولم يشاهدوا سلاحاً من قبل ولم يجربوا تعلم الحركات العسكرية أو الرمي . لذا لم يكن يرجى منهم خير في البدء . اجتمع لدينا بعدئذ ألف رجل كلفوا بالدفاع عن السكان الذي يضم ٦٠٠ امرأة (بيضاء) وولد ، ٧٠٠٠ من الأهلين وكان محيطه نحو خمسة أميال . أليس من المضحك أن تلقى عدواً يقصد قتلك وأنت لم تتعلم الرمي قط ؟ »

لقد اضطرب الجيش لهذا الحصار الشديد ولم تعد هناك نفس لم يداخلها الخور إلا صاحب ذلك القلب العظيم الذي عرف الحرب من قبل وبلاها فقد كان على بينة من أمره ؛ ومعنى هذا أن لا سبيل أمامه غير الإذعان لمشيئة الظروف فلا بد مما ليس منه بد

اختلى بعد ذلك بزميله اللورد « ادوارد سيسل » لحديث قصير استشاره خلاله فيما يختص بالدفاع وأدلى باقتراحه ذاكراً خطة صديقه « توماس ستون » فوافقه عليها، وقد سره وأحيا الأمل في نفسه أنه قد وجد على الأقل رجلاً خبيراً بالعمل الذي ينتويه والذي عهد به إليه وخفف من غم الجنود وشجعهم، كما أعاد الثقة إلى نفوسهم مشهد هذا القوام العسكري المهيب وتلك اليد القابضة أبداً على السيف المتدلي بجانبه كأنه قد استحال قطعة متصلة بيدنه ، وهاتان العينان اللتا كنتان أبداً لا تضطربان ولا تختلجان ، وحديثه كلما تكلم عن المخاطر بلهجة المحتقر لها المستخف بها كل الاستخفاف « أرجو أن تحلوني مكاناً حامي الوطيس متأجج النيران » « نعم قد يحاولون الاقتحام ولكني أظن أن لا حاجة بي إلى أن انبه جندياً أن عشرين رجلاً من البواسل أولي العزم — وهو ما أعتقده فيكم جميعاً — قادرون بلا شك على الثبات في الدفاع عن مدينة كهذه إزاء عشرة أمثال أو قل عشرين من أمثال العدد الذي يتقدم به البويريون لاقتحام مفكنج » « وما أنا إلا جندي مثلكم وما سيقع لكم هو واقع لي . فهل رأيتم أثراً للضعف أو التخاذل عندي، أو لمستم مني ناحية شك في النصر ؟ » ولما ضربت مدينة مفكنج لأول مرة طير خبر ذلك وعاق عليه قائلاً : « كسر إناء طبيخ ومات كلب » ولقد كتب إلى أحد القواد البويريين : « إنك لم تأخذ المدينة بالقعود عنها والتطلع إليها »

وجعل بادن باول يظهر الاستخفاف من الحصار إلى درجة جعلت رجال الحامية جميعاً مطمئني الصدور مرتاحي الخواطر ، كما أن ثقته التامة بالنتيجة واستعجاله القتال تركهم في ذهول من أمره وإعجاب بشجاعته

(البقية في العدد القادم)

خميس زهران
زعيم جوالة باسكندرية

كلمات...

رجل كسيح

رجلان أبرزتهما هذه الحرب وأبانت للعالم كله عن قيمتهما وأن كليهما يصدق فيه قول شاعرنا العربي القديم : وما كل ألف لا تعدّ بواحد

أما أولهما فهو تشرشل ، وأما ثانيهما فهو رزفلت

وقصة الحياة التي حيَّها رزفلت ، هي قصة فذة عجيبة بين حيوات البشر . بل هي مثال كامل فريد لا يمكن أن تصل إليه الإرادة البشرية وقوة الخلق والكفاح

فهذا الرجل الذي استوى على كرسي الرياسة في أكبر جمهورية في العالم القديم والحديث ، وتولى سياسة أعظم الدول مالاً وقوة وفتوة ، والذي اختارته هذه الأمة ليسوس أمرها ثلاث دورات متواليات ، ولم تُنل هذا الشرف ولا هذه الكرامة ولا هذه الثقة أحداً قبله في تاريخها

وهذا الرجل الفرد الذي يقف من وراء المحيطات يخطب مائة مليون من الناس يرسل في خطابه الصواعق والحمم ، والذي يضع قوته وقوة أمته على كفة من كفتي هذه الحرب العاتية فتشيل ، ويسيّر بقوته وفكره وعزمه تاريخ العالم الحديث والمستقبل ، وتاريخ الحضارة البشرية ومستقبلها إلى وجهة خاصة من السير .

هذا الرجل الذي بلغ بنفسه هذا المبلغ هو إنسان مملول كسيح ... !

وقد رأيت هذا الرجل منذ أيام على شاشة السينما يخطب الناس لانتخاب الرياسة فيستولى على عقولهم وقلوبهم وعواطفهم ويكادون أن يدموا أكفهم تصفيقاً له . ويزور المصانع والمعامل فيتحدث ويسير ويضحك ويداعب كأنه شاب في الثلاثين فتوة وحيوية . وكان يقف يتوكأ على عصاه ويسير يجر نصفه الأسفل كأنه لا حياة فيه . إنه كسيح أصيب في طفولته بالشلل .

***

سألت نفسي يا ترى لو أن طفلاً مصرياً أو شرقياً أصيب بما أصيب به رزفلت في طفولته فمات نصفه من الشلل ، فأيّ إنسان وأي رجل و كهل يصير هذا الطفل المصري أو الشرقي ؟

أما إن كان غنياً فسينشأ شاباً مدلّلاً تافهاً ساقط النفس خائر العزم مريض القلب والنفس كمرض جسده . شاب مدلل تافه يأكل خير الطعام ويلبس خير اللباس لارجاء لنفسه في نفسه ولا رجاء لأحد فيه ، فقد خلقه الله — في زعمه — غير صالح لعمل ولا لرجاء . ستبكي أمه ويحوقل أبوه ويزعم الثلاثة أنهم خاضعون لما قدّر الله حين ابتلاهم . فهو إنسان يطعم ويشكو حتى يجيء فيه قضاء الله

وأما إن كان فقيراً فهو كصاحبه ساقط الهمّة خائر العزم مريض النفس والقلب مشلول الفكر والعقل والعزيمة كمرض جسده . مستسلم — في زعمه — لقضاء الله لا عمل ولا رجاء حتى يحين فيه القضاء

بل إن صديقي يقول : لو أن رزفلت نشأ في مصر أو في بلد شرقيّ لوجدنا مكانه إلى جانب ضريح من أضرحة الأولياء قد مدّ نصفه الكسيح في الشمس يعرضه على الناس "فرجة"(1) ، ثم يمدّ يده يسأل الناس أن يدفعوا إليه ضريبة الصدقة ... !

« محمود »

(1) في القاموس : الفرجة التفصي من الهم . والتفصي الخروج والتخلص

رسالة الشعر

من نوازى القلب !

للأستاذ محمود الخفيف

أينَ ليلاتُ أدمُعى وسُهادى … ورِضائى بِشقْوتى وعِنادى ؟

أينَ مِنّى ضلالتى أشتريها … بالذى قد أضلّنى من رشادِ !

***

أنا أشقى يا ويلتا بانطلاقى … من إسارى فأينَ منّى وثاقى

آهِ ! من لى بساعةٍ من زمانٍ … كانَ بعضَ النعيمِ فيه احتراقى !

***

لم يعدْ ثَمَّ بعدَ موتِ الأمانى … غيرُ ماضٍ أصبو له وأُعانى

إن يكن عَودُ عيشِه مستحيلاً … فشفائى فى غفوةِ النسيانِ

***

كيف أنسى؟ الله لى! ما لقلبى … من جراحاته عُلالةُ طِبّ

وقصارى العذابِ ذكرى حُبًّا … لم يعد بعدُ غيرَ سالفِ حبٍّ !

***

أىُّ طِبٍّ لحائرٍ فى الضلوعِ … بين يأسٍ فى خفقِه ونزوعِ

ذكرُهُ اليأسَ إن توثّبَ ينفيـ … ـهِ ويغريه ثم طولُ الهجوعِ !

***

سِحرَ ماضىَّ غيرَ تلك الليالى … بعضُ هذا لم يجرِ يوماً ببالى

لا ترى العينُ فى محيّاكِ معنى … غيرَ ما تدّعينَ من إقبالِ

***

فى محيّاى لهفتى وأُوامى … وخيالُ القديمِ من أحلامى

أزهقتْ بسمتى على شفتيّا … خطراتٌ فيهنّ ماضى هُيامى

***

لا تخالى ادّعاءكِ الودَّ يُغنى … تقرأُ الصَّدَّ فى ودادِكِ عينى

وسواءٌ لدىَّ ما تُبصرُ العيـ … ـنُ وما غابَ فى ضميرِكِ عنى !

***

يستوى اليومَ وَيْحَ نفسى ودٌّ … إن أردتِ الولاءَ حقًّا وصدُّ

رِعدةُ الأمسِ عندَ مرآكِ إثمٌ … وأنينٌ ألهبَ الحشا منكِ وقدُ

***

السُّلُوَّ السُّلُوَّ ... ويلكَ فؤادى … أن يبلَّ السرابُ غُلّةَ صادى

قد تولّى بعدَ الثلاثينَ عاما … نِ فقصرُ الشبابِ فى الزهّادِ

***

لحرامٌ علىَّ كلُّ حلالٍ … من مراحِ الشبابِ حلوِ الليالى

بعدَ فيضِ النعيمِ لستُ أبالى … من نعيمِ الحياةِ بالأوشالِ

***

إن دعانى لِلّهوِ بعضُ صحابى … واستخفّتهمو نوازى الشبابِ

فأنا فيهمو الضحوكُ الذى يخـ … ـفى عن الصحبِ غاشياتِ العذابِ

***

ضحكَ الزهرُ فوقَ موحشِ رَمْسى … فحكانى بين الأسى والتأسّى

ومجونُ الرفاقِ حولىَ ضوضا … ءُ صداها فيه عذابٌ لنفسى

***

وإذا الليلُ هزَّ فى أسحارِه … ساجعاتِ الخميلِ من أطيارِه

والنهارُ الضحوكُ هلَّ من الأفـ … ـقِ وفاضَ الوضىءُ من تيّارِه

***

وإذا ما الربيعُ فى ريعانِه … ألِفَ السحرَ فى رُؤى مهرجانِه

وتعالتْ ألحانُه فى الضحى الطلـ … ـقِ فهاجَ الحنينَ فى ألحانِه

***

لا النهارُ الضحوكُ يملِكُ لُبّى … لا ولا فى الربيعِ عيدٌ لقلبى

ماتَ فى مهجتى السرورُ وأمسى … علقماً بعدَ موتِه كلُّ عذبِ !

الخفيف



وفاة هنري برجسون

توفي في الأسبوع الماضي الأستاذ هنري برجسون الفيلسوف الفرنسي العظيم وعضو الأكاديمية الفرنسية عن ٨٢ سنة

وقد تخرج برجسون في مدرسة المعلمين العليا وبعد أن حصل على دكتوراه الدولة في الفلسفة أخذ يدرّس العلوم الفلسفية في مدرسة فرنسا فلم يلبث أن أصبح من أبرز أساتذتها منذ سنة ١٩٠٠، وطبقت شهرته الآفاق فأخذ الطلبة يفدون عليه من جميع أنحاء العالم لسماع محاضراته وتعاليمه

وقد وضع برجسون مؤلفات عديدة في الفلسفة منها « قوة التطور المبدعة » و « القوة الروحية » و « الضحك » . وقد انتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية سنة ١٩١٤ ونال جائزة نوبل للآداب في سنة ١٩٢٧

حقوق المؤلفين في الدانمرك

فكرت الحكومة الدانمركية في حظ المؤلفين وفيما يلحقهم من غبن فقررت أخيراً زيادة دخلهم المادي تشجيعاً لهم على مواصلة العمل والإنتاج

ومن التدابير التي اتخذتها أنها فرضت رسماً على كل من يطالع أي كتاب من المكاتب العامة أو في أندية المطالعة ، وفرضت رسماً آخر على كل من يقتبس جزءاً من كتاب ويذيعه بالمذياع أو الحاكي

وهذه الرسوم تجمع بعد انقضاء فترة معينة وتوزع على الكتاب الذين انتفع بمؤلفاتهم للاذاعة أو المطالعة .

اعلان الحرب على الفقر

نصب الأديب الأمريكي توم كروس نفسه مدافعاً عن فقراء نيويورك ، وعقد العزم هو وجمع من أنصاره على إعلان حرب شعواء على الفقر والتعطل ، وقد أخرج كتاباً بعنوان « طريدو الجوع » ، رسم فيه صوراً مروعة من حياة رجل أمريكي متعطل شريد .

ولقد تناول المؤلف بطل قصته في حياته اليومية ، فأظهر لنا كيف يعيش ، ومع من يعيش ، وماذا يأكل ، وكيف يلهو ، وفي أي أمكنة يقضي لياليه ، وكيف ينحط جسمه وينحط عقله وتفنى كرامته حتى يستحيل إلى آلة صماء

وقد أعجبت هيئة اتحاد العمال الأمريكيين بهذا الكتاب ، واتخذت منه وسيلة لمكافحة الفقر والدعاية للطبقة العاملة ومحاربة التعطل، فطبعته على نفقتها ووزعت منه آلاف النسخ بثمن زهيد ليكثر انتشاره بين العمال وصغار الموظفين

ومن الظواهر التي أحدثها هذا الكتاب اهتمام الرئيس روزفلت به واعترافه في جمع من الصحفيين بقيمته ومصارحته لهم بأن توم كروس هو أول أديب شعبي ظهر في أمريكا وأول قصصي إنساني تحرر من دراسة أخلاق الطبقة الوسطى وأقبل على دراسة حياة العامل والفلاح من الجانب الاجتماعي الاقتصادي الذي يسيطر في هذا العصر كل السيطرة

حول أهل الكهف

إلى أستاذي الدكتور زكي مبارك

قلت يا سيدي في تحليل كتاب « أهل الكهف » إن عندك ثلاثة فروض كان توفيق الحكيم تحت تأثيرها عند كتابته القصة ... وهي قوة الشهوة ، وقوة الحب ، وقوة الإيمان

وأنا معك أيها الأستاذ الجليل حين تقول إن الكاتب لم يصور الشهوة العارمة التصوير الذي يجعلها شهوة عارمة .

ولكني لا أفهم الغرض الذي يرمي إليه الدكتور حين يقول إن توفيقاً عرض للحب في أدب ولطف كما يصنع العذريون الضعفاء ... وهل عند الدكتور أن العاشق العذري ضعيف ؟ وكيف يجوز هذا ؟ وأهل الصبابة العذرية يكابدون في الحب أهوالاً ، بل ويقاومون في الحب قوتين : قوة الحب نفسه والدكتور خبير بها عليم ، وقوة كبت العواطف الملتهبة بنار الشهوة ؟ إن العذريين لم يكونوا ضعفاء وعندهم قوة الصبر وقهر النفس وشهواتها . . .

وأكثر من هذا أن توفيقاً صور الحب تصويراً عاصفاً قوياً في مواضع كثيرة . وما ظنك بمن يقبر ويبعث فتكون أول عاطفة تموج في صدره هي عاطفة الحب . حب مشيلينا

لبريسكا ... ويظهر ذلك فى حديثه مع مرنوش فى أول فصل وفى حب مرنوش لزوجته وولده ، وهو نوع نبيل من الحب جعله فى آخر الأمر بعد أن شعر بفقدهما بفضل الموت فى الكهف على الحياة بغير قلب !

وأكثر من هذا أيضاً أن قوة الحب فى نفسه جعلته يعشق بريسكا الثانية مجردة عن حقيقة الأولى ! ويظهر ذلك حين يقول (سيان عندى أن تكون هى أو لا تكون . أحب هذه المرأة التى رأيتها فى اليقظة ...)

هذا من ناحية الحب ... أما من ناحية الإيمان والارتياب ، فأنا أرد على سؤال أستاذى الجليل : « ماذا صنع توفيق فى وصف الإيمان ، وماذا صنع فى تشريح أوضار الارتياب ، وأين المعركة التى أثارها بين نسائم الهوى وزوابع الضلال ؟»

إن توفيقاً صنع كثيراً فى وصف الإيمان . . . بل الإيمان المتجسم الذى يبلغ حد التسليم بكل شىء فى شخص يمليخا ... حين أجرى على لسانه الفرق بين التدين بالوراثة والتدين عن عقيدة وإقناع ؛ وحين يقول : إنه لا يتصور الوجود بدون عقيدة الإيمان ولا انتهاءه بدونه ؛ وحين يقول : إنا لا نملك حق السؤال ... إنما ينبغى لنا أن نعتقد

تلك ناحية الإيمان القوى ، أما ناحية الارتياب فتبدو واضحة فى حيرة وتهكم مرنوش حين يقول له يمليخا : « إن رحمة الله قريب » ؛ فيصرخ : « حقيقة ! قرب السماء من الأرض تلك الرحمة التى لا تسعف إلا من يستطيع الانتظار » ؛ وحين يقول له يمليخا : « لا تسخر ، إن الله حق » ؛ فيقول : « لا شأن لله بنا ها هنا ... نحن اللذان أوقعنا بنفسينا ! »

وحين يقول له يمليخا « كل شىء على الأرض بأمر الله » ؛ فيصرخ : « إلا ما نحن فيه ، فقد حدث بفعل الإنسان » ... ألست ترى أن توفيقاً تعرض هنا لأخطر نواحى الارتياب حين يشك فى رحمة الله ... وحين لا يجعل له يداً فى حالته ... وحين يقول : إن ما يفعله الإنسان لا سلطان لله عليه

إن توفيقاً لم يكتب هذه القصة ، ولم يعرض هذه الأفكار — وإن لم تكن جديدة — إلا لنرض فى نفسه ، وما أقام الإيمان يناقش الارتياب إلا ليعالج إحساساً اضطرب فى نفسه من قبل . أنا أشعر بهذا فهل للدكتور العظيم أن يتكرم فيلقى نظرة كاشفة على حقيقته ؟

« المنصورة » حسين حسنى محمود البشبيشى

اللوزينج

جاء فى عدد الرسالة (٣٨٧) فى كلمة الدكتور زكى مبارك هذه الجملة :

« وحشو اللوزينج فى تعبير كتاب القرن الرابع يضرب مثلاً للشىء يكون حشوه أجود من قشره ... » ، وهذه كلمة عابرة لا تعطى القارئ الثمرة الكافية ، وبخاصة من وجهت إليهم تلك الدراسات . فتوضيحاً للفائدة وبسطاً للمقام . أذكر هذه الكلمة :

قال فى المصباح : مادة لوز « اللَّوزِينَج — بهذا الضبط — شىء من الحلواء شبه القطائف يؤدم بدهن اللوز » وهو جمع مفرده « لَوْزِينَجَة » . جاء فى كتاب حصاد الهشيم ن ٣٤٧ « بإجمال » « جاء فى يوم أمام المكتفى (لوزينجه) فقال : هل وصف ابن الرومى اللوزينج ؟ فأنشد قوله :

لا يخطئنى منك لوزينج   إذا بدا أعجب أو عجبـــا
لم تنلق الشهوة أبوابها   إلا أبت زلفاه أن يحجبا

وهو على حسنه نادر جداً فى اللغة قال فى ثمار القلوب للعلامة الثعالبى ص ٤٨٨ : سمعت أبا الفرج يعقوب بن ابراهيم يقول : سمعت أبا سعد رجاء يقول : دخلت يوماً على أبى الفضل ابن العميد فقال لى : امض إلى ابى الحسين بن سعد فقل له : هل تعرف لقول عوف (إن الثمانين وبلغتها) ثانياً فى كون الحشو أحسن من المحشو ؟

قال : فسرت إليه ، وبلغته الرسالة فقال : سألنى عنه محمد بن على بن الفرات فسألت عنه أبا عمر غلام ثعلب فقال : سألت عنه ثعلباً فلم يأت بشىء ؛ ثم بلغنى أن عبيد الله بن عبد الله سأل المبرد عنه فأنشده قول عدى بن زيد لابنه زيد بن عدى فى حبس النعمان

فلو كنت الأسير ولا تكنه   إذا علمت معد ما أقول

قوله : ولا تكنه . حشو مستغنى عنه ولكنه فى الحسن نظير ، وبلفتها :

ومما عثرت عليه فى حشو اللوزينج من الشعر قول البحترى يمدح المتوكل :

وجزيت أعلى رتبة مأمولة   فى جنة الفردوس غير معجل

فقد تم الكلام عند قوله : فى جنة الفردوس ؛ وقال : غير معجل أى بعد عمر طويل لأن الجنة إنما يوصل إليها بالموت

وقول أبى الطيب يمدح كافوراً :

ومحتقر الدنيا احتقار مجرّب   ترى كل مافيها ـوحاشاك ـفانيا

فقوله : وحاشاك . حشو فيه حلاوة ، وعليه طلاوة

قال العكبرى : وحاشاك من أحسن ما خوطب به فى هذا الوضع ؛ والأدباء يقولون هذه اللفظة حشوة ولكنها حشوة فستق وسكر »

وضد هذا الحشو . حشو الأكر لأنها تحشى بكل شىء ساقط : قال جحظة : أنشدت لأبى الصقر شعراً لى فقال : يا أبا الحسن ، لا زلت تأتينا بالغرر والدرر ، إذا جاءنا غيرك بحشو الأكر (٤٩٠ ثمار القلوب) . ثم إنه قد ذكر مؤلف كتاب الثمار أنه افتتح كتاباً صغير الجرم لطيف الحجم فى نظائر هذا الحشو وترجمه بحشو اللوزينج . فأطرح هذا السؤال على الدكتور المبارك : أين يوجد هذا الكتاب ؟

فخر الدين غزى

حول الفيتامين

جاء فى مقال قصة الفيتامين للأستاذ عبد اللطيف حسن الشامى المنشور بالعدد (٣٨٢) من الرسالة عن البلاجرا

١ — « ويوجد هذا المرض فى بلاد البترول » وأظنه يقصد بلاد التيرول

٢ — فى العمود الثانى من الصفحة ١٦٣٦ يقول : « زد حقيقة ثابتة أخرى وهى انتشار مرض البلاجرا فى الأوساط الفقيرة فقط فى البلدان التى تعتمد فى غذائها على الذرة اعتماداً كلياً فاستنتج من هذا ارتباط مرض (البرى برى) بالتغذية »

وهذا خطأ إذ اعتقد أن الأستاذ يقصد مرض البلاجرا كما هو مفهوم من معنى الجملة . فتكون « فاستنتج من هذا ارتباط مرض البلاجرا بالتغذية »

٣ — وجاء فى الصفحة ١٦٣٧ ـ العمود الثانى ـ « وتارة أخرى تتعاونان معاً على تنبيه (النخاع الشوكى) ودفعه إلى تكوين الكرات الحمراء ... الخ »

وهنا أخطأ الأستاذ أيضاً فهو يقصد النخاع العظمى (Bone Marrow) لأن النخاع الشوكى (Spinal Cord) هو قسم من الجهاز العصبى والموجود فى القناة العظمية داخل العمود الفقرى وليس له أى وظيفة فى تكوين الكريات الحمراء كما هو معلوم . أما الذى يكوّن هذه الكريات الحمراء فهو النخاع العظمى الأحمر أى (Red Bone Marrow) الموجود داخل العظام . كما أن هذه الغلطة مكررة أيضاً فى شرح الشكل المرسوم فى الصفحة ١٦٣٦

بهجت قدورى سلمان
بكلية الطب ببغداد

وزارة المعـــارف العمومية

إعلان مسابقـة (٢)

عن كتب دراسية للمدارس الثانوية

تعلن الوزارة فى هذه المسابقة عن حاجتها إلى الكتب الآتية بعد ، للاستعمال بالمدارس الثانوية ابتداء من العام الدارامى ١٩٤٢ — ١٩٤٣ . وستشترى الوزارة حق تأليف الكتب التى تسفر المسابقة عن تقريرها للمدارس الأميرية لمدة أربع سنوات نظير المكافأة المقدرة .

وآخر ميعاد لتقديم الكتب للوزارة هو أول ديسمبر سنة ١٩٤١ .

وعلى كل مؤلف يرغب فى دخول المسابقة أن يتقدم للوزارة فى ميعاد غايته آخر مارس سنة ١٩٤١ باسمه ، وأن يدفع للوزارة ، مع الطلب الذى يقدمه عن هذه الرغبة رسماً قدره ٣ ٪ من قيمة المكافأة المقررة للكتاب الذي يعتزم تقديمه فى المسابقة على ألا يرد هذا الرسم بحال من الأحوال .

والكتب المطلوبة هى : —

١ — كتاب فى الدين فى جزءين أحدهما للسنتين الأولى والثانية ، والآخر للسنتين الثالثة والرابعة ؛ مكافأة الجزءين معاً مائة جنيه .

٢ — ثمانية كتب فى الرياضة ثلاثة منها لمرحلة الثقافة ، هى كتاب فى الحساب مكافأته مائة وعشرون جنيهاً ، وكتاب فى الجبر مكافأته مائة وخمسون جنيهاً ، وكتاب فى الهندسة والمبادئ الأولية لحساب المثلثات مكافأته مائتا جنيه . وخمسة كتب للسنة التوجيهية شعبة الرياضة : هى كتاب فى الجبر مكافأته مائة وعشرون جنيهاً ، وكتاب فى الهندسة مكافأته مائة وخمسون جنيهاً ، وكتاب فى الهندسة التحليلية (التحليل الرياضي) مكافأته مائة وعشرون جنيهاً ، وكتاب فى حساب المثلثات مكافأته مائة وخمسون جنيهاً ، وكتاب فى الميكانيكا النظرية والعملية مكافأته مائة وخمسون جنيهاً أيضاً

٣ — كتابان فى الطبيعة أحدهما لمرحلة الثقافة العامة فى أربعة أجزاء : الأول فى خواص المادة للسنة الأولى مكافأته مائة جنيه ؛ والثانى فى الحرارة للسنة الثانية مكافأته مائة جنيه أيضاً ، والثالث فى الضوء والصوت للسنة الثالثة مكافأته مائة وعشرون جنيهاً ، والرابع فى المغناطيسية والكهرباء للسنة الرابعة مكافأته مائة وعشرون جنيهاً كذلك . والكتاب الثانى للسنة التوجيهية فى جميع فروع المادة مكافأته خمسمائة جنيه .

٤ — كتابان في الكيمياء : أحدهما لمرحلة الثقافة العامة ، والآخر للسنة التوجيهية ؛ كل منهما فى جزءين : أحدهما فى الكيمياء النظرية ، والآخر فى الكيمياء العملية ؛ مكافأة الكتاب الأول بجزءيه معاً مائة وعشرون جنيهاً ومكافأة الكتاب الثانى مائتا جنيه .

١٦٠٦

٥ — أربعة كتب فى التاريخ الطبيعى : أحدها فى علم الأحياء للسنة الرابعة مكافأته مائة جنيه والثلاثة الأخرى للسنة التوجيهية واحد منها فى علم الحيوان والثانى فى علم النبات مكافأة كل منهما مائتا جنيه ؛ والثالث فى الجيولوجيا مكافأته مائة وخمسون جنيهاً .

٦ — سبعة كتب فى التاريخ : الأول فى تاريخ مصر القديمة ، والثانى فى تاريخ العصور الوسطى مكافأة كل منهما مائة جنيه ، والثالث فى تاريخ أوربا من عهد النهضة إلى الثورة الفرنسية مكافأته مائة وعشرون جنيهاً ، والرابع فى تاريخ مصر الحديث ، والخامس فى تاريخ أوربا الحديث ، والسادس فى النصوص التاريخية عن مصر الحديثة ، والسابع فى النصوص التاريخية عن أوربا من عهد الثورة إلى الوقت الحاضر مكافأة كل من هذه الأربعة الأخيرة مائة وخمسون جنيهاً .

٧ — سبعة كتب فى الجغرافيا : الأول فى بسائط الجغرافية الفلكية والطبيعية وأفريقية ، والثانى عن آسيا وأسترالاشيا ، والثالث عن الأمريكتين ، والرابع عن أوربا مكافأة كل من هذه الأربعة مائة جنيه . والخامس فى حوض النيل ومصر والسودان مكافأته مائة وخمسون جنيهاً ، والسادس فى الجغرافية الطبيعية والبشرية للسنة التوجيهية مكافأته مائة جنيه ، والسابع فى الجغرافية العملية للسنة التوجيهية مكافأته ثمانون جنيهاً .

٨ — كتاب فى الأخلاق للسنة الثالثة مكافأته ستون جنيهاً

٩ — كتاب فى الرسم الهندسى مكافأته مائة وعشرون جنيهاً

١٠ — كتابان للتعليم الثانوى للبنات . أحدهما فى صحة الأم والطفل مكافأته مائة جنيه ، والآخر فى التمريض المنزلى مكافأته خمسون جنيهاً

١١ — كتاب فى تربية الطفل ومبادئ علم النفس للتعليم الثانوى للبنات مكافأته مائة وخمسون جنيهاً

١٢ — ثلاثة كتب فى التدبير المنزلى للتعليم الثانوى للبنات . أحدها فى الطهى مكافأته مائة جنيه ، والثانى فى الغسل والكي مكافأته سبعون جنيهاً ، والثالث فى إدارة المنزل مكافأته خمسون جنيهاً

١٣ — ثلاثة كتب فى اللغة الفرنسية : الأول لمرحلة الثقافة فى أربعة أجزاء مكافأتها معاً ثلثمائة جنيه ، والثانى للسنة التوجيهية شعبة الآداب مكافأته مائة جنيه ، والثالث للسنة التوجيهية شعبة الرياضة والعلوم مكافأته ثمانون جنيهاً

وكتب المواد التى لم تذكر فى هذا الإعلان لا تزال موضع نظر الوزارة . وقد وضعت الوزارة لهذه المسابقة شروطاً وتوجيهات خاصة يمكن للمتسابقين الحصول عليها من إدارة التوريدات بشارع درب الجماميز بالقاهرة مقابل قرشين عن كل نسخة

٧٦٣٢



كنز في فندق

عن الانجليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

فتح إدوارد لانجتون الباب فى رفق وأطل فى الغرفة الخالية إطلال الخائف الحريص، والحرص من دأب الذى يقدم على الإتيان بعمل يحرمه القانون. وكان لانجتون لصاً لا يحترف اللصوصية ولكنه من هواتها كأنها عنده بعض الألعاب التى تراد للتسلية.

ولما وجد الغرفة خالية دخل مسرعاً وأغلق الباب دونه، ثم دخل إلى غرفة أخرى بداخل الأولى فوجدها غرفة زينة ليس بها سوى فرش قليلة، وأمشاط ومرآة فوق دولاب صغير، وبضعة دبابيس، فقرر لانجتون أن هذه الأشياء لا تساوى المخاطرة التى قام بها لدخول الغرفة

وتردد لحظة ليقرر الخطة التى يتبعها. وفي هذه الأثناء كان « الكابتن كورنيش » نائماً فى فندق باريزيان فى ميدان أفرتون فى لوندرا وهو فى هذه اللحظة تحت رحمة هذا اللص الذى احتل جزءاً من المكان الذى استأجره الكابتن

ورأى اللص أن يفتش تحت المناضد لعله يرى شيئاً ثميناً قبل أن يخرج. فلما لم يجد شيئاً فتح الأدراج فى دولاب الزينة وهو مغضب، فكاد الدرج الأول أن يسقط على الأرض للشدة التى استعملها فى فتحه. وفى هذه الحركة رأى اللص فى الدرج ذهباً. وفى اللحظة التالية لاحظ أن مع الذهب شعر سيدة فرفع الصرة ووجد تحتها صورة شمسية لفتاة يعرفها وهى الآنسة « بورلورن »، فوضع الصورة فى جيبه وهو مغتبط كأن حصوله على الصورة قد أدناه من الفتاة نفسها. وشعر بعامل سرى فى ضميره يدعو إلى السرور بهذا الاستكشاف، ونظر إلى الباب نظرة طويلة، ثم خرج فى صمت وهدوء تاركا الذهب ومكتفياً بالصورة. واختار لخروجه ممراً لم يخط بضع خطوات فيه حتى وقف خلفه، فوجد أنه قد غادر المكان المخصص للكابتن كورنيش، وأنه صار فى مأمن، واستأنف سيره وهو يتصنع مشية طبيعية حتى لا يكون موضع ارتياب، ولكنه رغم تصنعه الهدوء، كان يلمس بيده اليمنى جيبه الذى فيه المسدس ليستوثق منه

***

وأخيراً وصل إلى منزله، وهو منزل صغير نظيف، يبعد نصف ساعة عن الفندق؛ وكانت أمه فى الفراش، ولكنها غير نائمة، ولم تحس بحركته وهو خارج، لأنه توخى الابتعاد عن غرفتها فى أثناء ذهابه إلى الفندق

لكنها الآن أحست بحركته وهو عائد، وسمعت صوت المفتاح وهو يفتح به الباب، ووقع أقدامه وهو يمشى فى الممر. وأحست بحركته وهو يتناول الطعام على عجل، ويدخل غرفة نومه فيغلق دونه بابها. وبعد أن امتنعت الأصوات من جهته، اطمأنت الأم وأدركها النعاس... ولقد كان يكفى لقتلها غماً أن تخالج نفسها أية ريبة فى أن ابنها، وهو سليل أسرة كبيرة، يجرؤ على الاتيان بما يأتى به من الأعمال. ولم يخطر ببالها كذلك أنه الآن يشعر مشاعر غريبة شاذة لعثوره على صورة هى أثمن عنده من الطلاسم التى يقتنيها الغير لجلب الخير ودفع الشر

وبعد يومين كان لانجتون يكتب خطابات متعددة لأناس يعتقد أنهم على اتصال بمرجريت بورلورن، وكتب كذلك إليها يطلب موعداً للقاء

وبالرغم من أنها لم ترد على خطابه، فإنه ذهب إلى المكان المعين فى الموعد المضروب؛ وبعد ربع ساعة كانت الفتاة مقبلة نحوه، وكانت تحيط بها من الجلال والفتنة هالة مثل التى كانت تحيط بها فى أول يوم رآها فيه منذ سنين

وبدأته بالسؤال عن سبب كتابته لها وتعيين الموعد، فقال: إننى ما كنت لأجرؤ على طلب مقابلتك فى هذا المكان وفى هذه الساعة لولا أن معى شيئاً أريد أن أقدمه إليك

وكان صوته فى مخاطبتها صوت من يعلم سراً؛ وقال لها بصوت خافت: أكنت لا تظنين سبباً لطلبى إياك غير الرغبة فى رؤيتك؟

فقالت وقد احمرت وجنتاها: لست أعرف

قال : « إننى فى المرة السالفة أديت لك خدمة ولكنها لا تذكر بالقياس لخدمتى فى هذه المرة فإننى دخلت خلسة فى مكان لا بد أن تكونى قد زرته فى إحدى المرات ، ولكننى لم أجدك فى هذه المرة ووجدت ... ماذا عراك حتى تغير لونك »

وكان لون الفتاة فى هذه الآونة يكاد ينبط منه الدم

فقالت : « يظهر أنك تريد أن تكلمنى عن شىء مضى ولكن ... »

فقال مقاطعاً :

« كلا ... إننى لا أريد أن أكلمك عن شىء ماض ، فإنى كنت فى مكان الكابتن آرثر كورنيش بالفندق

لم تكن مرجريت بعد ذكر هذا الإسم بحاجة إلى كلمة أخرى تنبه شعورها فأرخت أهدابها إلى الأرض وأنصتت ، وكان إصناؤها سؤالاً ، فأجاب عليه لانجتون : « إن الكابتن لم يعلم إلى الآن أننى زرت مكانه . ولعله لا يعلم كذلك أننى أخذت شيئاً »

قالت الفتاة :

« ولكن كيف عرفت أننى أعرف الكابتن ؟ »

فقال وهو يتظاهر بأنه لم يسمع سؤالها :

« لقد دخلت مكانه فى الفندق منذ ليال ... »

قالت الفتاة مقاطعة إياه :

« وهل تريد بواسطتى أن ترد إليه ما أخذته من عنده ؟ »

فهز لانجتون رأسه وقال :

إننى إن رددت ما أخذته فلن يكون ذلك باختيارى

ثم أدرك أن فى قوله شيئاً من المغالطة فقال : « إن كورنيش لن يعلم أننى زرت حجرته؛ وأنا إنما فعلت ذلك لمصلحتك ولمصلحتى »

قالت : « شكراً » ثم وقفت مرتبكة لأنها لا تعرف كيف يكون لها مصلحة فى دخوله الفنادق خلسة . وعاد لانجتون إلى الكلام فقال : « بقى أن تعرفى ماذا فقده الكابتن »

ثم ابتسم ابتسامة ضعيفة وقال : « إننى على كل حال لم أستطع مقاومة الرغبة فى رؤيتك »

وظل ينظر إليها وهو صامت وظلت هادئة فقدم إليها الصورة وتركها فى مكانها وعاد إلى منزله .

***

بعد أيام قليلة كان الكابتن آرثر كورنيش واقفاً فى بيت مارجريت بورلون . وكان يقول : « منذ أيام قليلة وصلت إلىّ صورتك بالبريد دون أن أعرف أنها فقدت منى ، وإنى لأعجب كيف حصل عليها من ردها إلىّ »

قالت : « إن الذى تقوله يدهشنى ، فإنى كنت أحسبك تحرص على تذكار مثل هذا فتصونه فى مكان أمين

فقال كورنيش : سأفعل ذلك فى المستقبل

وكان يحاول أن يحدق فى عينيها ، ولكنها كانت تتجنب نظراته ؛ وعاد إلى الكلام فقال : لكن الخط الذى كتب به عنوانى على المظروف يشبه خطك ، فهل أنت التى أرسلتها ؟ كيف وصلت إلى يدك وكيف سرقت من عندى ؟

ولما رأى الابتسامة التى على ثغرها تدل على صدق ظنه مدّ إليها يديه ليضمها إلى صدره ، فقالت بهدوء : سأخبرك على شرط أن تبرهن لى على حبك

قال : أنت تعرفين أننى لم أكن فى وقت من الأوقات قليل الحب لك ، فما الداعى إلى هذا السؤال ؟

فقالت : إن هذا التأكيد هو كل ما أريده منك . إن الذى أعطانى الصورة هو ذلك اللص الخاطر الذى أسدانى خدمة فى يوم من الأيام ، هل تعرف اللفتنانت دورن ؟

قال آرثر : اللفتنانت دورن ! يستحيل أن يكون هو الذى أخذ الصورة

فقالت : نعم ليس هو ، ولكنه الرجل الذى أنقذنى من اللفتنانت دورن

قال وقد جرى فى عروقه دم الغيرة : « وماذا حمله على ذلك ؟ ولماذا يدخل غرفتى ليأخذ صورتك ؟ »

فقالت : « ألا تزال تشعر بالغيرة بعد أن رددت إليك صورتى وبرهنت على أننى لك وحدك ؟ »

فضمها الكابتن إلى صدره وقبلها .

***

وبعد هذا اليوم صينت صورة الفتاة فى مكان أمين ، ولكنه بالأسف ليس مكان إدوار لانجتون الخاص فى حبه الشديد المهارة ، فإن حسن الحظ لا ارتباط له بهاتين الصفتين .

عبد اللطيف النشار

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)

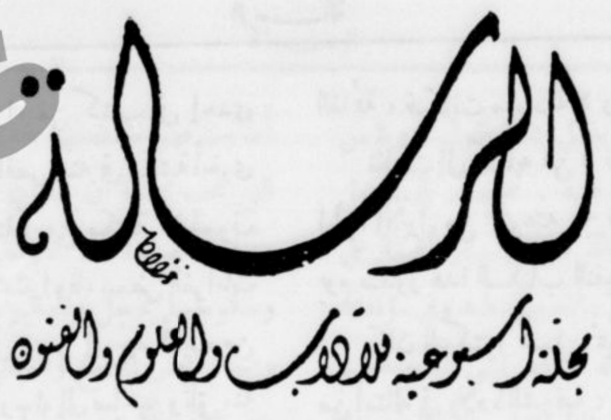


9me Année No. 395

Lundi - 27 - 1 - 1941

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique



بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٣٩٥ « القاهرة في يوم الاثنين ٢٩ ذو الحجة سنة ١٣٥٩ — الموافق ٢٧ يناير سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــرس

في ســــــوق الوراقين

للأستاذ عباس محمود العقاد

راجت سوق الكتب القديمة بعض الرواج في هذه الأيام كما راجت في أيام الحرب الماضية ، لأن الوارد من كتب أوربا قليل ، ولأن طالب الكتاب الأوربي الجديد ينتظره طويلاً قبل أن يتلقاه في البريد ، فإذا وجده مقروءاً قديماً فذلك خير من انتظاره جديداً بكراً بعد أشهر أو أسابيع ، ومن هنا تروج الكتب العربية القديمة التي ترد من أوربا أو التي طبعت في هذه البلاد ، لأن الذي يبيع مكتبته عند إحساسه بارتفاع الأسعار يبيع منها الأفرنجي والعربي على السواء

وفي سوق الوراقين وباعة الكتب القديمة فلتات كثيرة من التاريخ ، وفلتات كثيرة من الأخلاق ، وفلتات كثيرة من العجائب : نسميها فلتات لأن المرء يجدها معروضة بين يديه دون أن يطلبها ، وقد تكون الفلتة منها أنفس وأولى بالاقتناء من البغية المطلوبة

أذكر أني عثرت بكتاب لي عليه تعليقاتي وملاحظاتي بعد فقده بخمس وعشرين سنة ، ولو علم بائعه سره عندي لغالى بثمنه ، ولكنه أعطانيه وهو مفرط فيه مسرور بما نقدته من ثمن قليل بالقياس إلى رغبتي فيه ، كثير بالقياس إلى رغبة البائع في تصريفه

وأذكر أنى عثرت على عدة أجزاء من كتاب فى إحدى المكتبات ، ثم عثرت بعد حين على الناقص منه فى مكتبة أخرى

وأخبرنى بعض الإخوان أن كتاباً من مكتبة الفيلسوف الإنجليزى برتراند رسل التى بيعت فى انجلترا وفاء ببعض الغرامات مازال يطوف الأرض حتى وصل فى مصر إلى يد أديب من المعجبين بالفيلسوف العظيم ، فاشتراه وأرسله إلى صاحبه وتلقى منه جواباً بالشكر والتحية لا يزال من أعز محفوظاته

وإلى جانب هذه العجائب والمصادفات عجائب أخرى من أخلاق الناس وولعهم بضروب الاقتناء والادخار

فهذه كتب جديدة قديمة معروضة للبيع بعد طول احتباسها على الرفوف ، وهى جديدة لأنها غير مفضوضة ولا مقروءة ، وقديمة لأنها اشتريت منذ عهد بعيد

لماذا اشتراها المشترى وهو لا يقرأها ، ولعله لم يكن ينوى أن يقرأها ؟ ... هنا العجب من بعض الأخلاق والعادات . فقد عرفت أناساً يغالون بشراء الكتب على قدر قدمها فى الطبع وندرتها فى الأسواق ؛ وأناساً يبذلون فى الكتاب من الثمن على قدر سعة الهامش وصلاح الكعب للتجليد !

ويحضرنى هنا أن الأوربيين يصنعون من الخشب نماذج لها شكل الكتب من بعيد ، يملأون بها الرفوف العالية من المكتبات ويشغلون الرفوف السفلى بالكتب الصحيحة التى تقتنى للمظاهر لا للقراءة ، لأن قصراً بغير مكتبة معابة فى البلاد الأوربية ، فلا غنى لبعض أصحاب القصور عندهم عن هذا التشبيه والتزييف

أما نحن فلم نرتفع بعد إلى هذه المرتبة !

لأن خلو القصور من المكتبات عندنا لا يعاب ، فلا حرج على صاحب قصر أن تسأله عن مكتبة فلا تراها ، وإن كان يتحرج من خلو القصر من الاسطبل ... والقصر كله بمن فيه وما فيه أحرى أن يحسب فى الاسطبلات !

* * *

والمصادفة التى صادفتها اليوم فى سوق الوراقين هى شىء من غير هذا القبيل : هى كتب الدكتور شبلى شميل مرصوصة كلها فى رزمة واحدة ، ومعها رواية له عن الحرب الماضية كنت أتوق إلى الاطلاع عليها ولا سيما بعد شبوب نيران هذه الحرب القائمة ، فكانت مصادفة « ورّاقية » من أحسن المصادفات

نظرت إلى كتابه عن « فلسفة النشوء والارتقاء » — وهو الجزء الأول من مجموعته — فعادت بى الذاكرة ثلاثين سنة إلى يوم صدور هذا الكتاب النفيس

كان الدكتور شبلى شميل فقيراً كما ينبغى للأحرار الشرفاء من أمثاله فى بلادنا الشرقية ، وكان عسيراً عليه أن يطبع مجموعته بغير معونة من أصحاب الأريحية الغيورين على العلم والثقافة . فلما تبرع له المتبرعون بالمعونة الكافية طبع المجموعة فى جزءين ، وذكر أسماءهم جميعاً ومقدار ما تبرعوا به فى ختام الجزء الثانى ، وقدم الأسماء بهذه العبارة الصريحة الحكيمة : « أذكرها مجردة عن النعوت مكتفياً بجمال الأعمال ، وكم يجمل بالناس أن يتعودوا ذلك اختصاراً للوقت وانصرافاً للجد . وسيكون ذلك منهم متى غلب النظر إلى الجوهر على الاستمساك بالعرض فى كل أعمالهم »

وجعل الدكتور ثمن المجموعة الواحدة جنيهاً مصرياً عدا أجرة البريد ، وهو ثمن معتدل لنفاسة طبع الكتاب ونفاسة موضوعه ، وقلة الراغبين فى قراءة هذه الموضوعات

ولكن الجنيه ثمن مرهق للشاب الخالى من العمل ، وكنت يومئذ خالياً من العمل مريضاً أستشفى ببلدتى أسوان وأشعر بما يشعر به المريض الخالى اليدين من تكاليف العلاج

فكتبت إلى الدكتور ما فحواه : « إنى أعلم أنك تدعو إلى الاشتراكية الصالحة التى تتجنب الغلواء ، ومعنى ذلك أنك تأبى على الأغنياء أن يحتكروا موارد المال ، فما بالك الآن تريد أن يحتكروا موارد العلم والمال معاً ، وهل تحسب أن أحداً من غير الأغنياء يقوى على شراء كتاب بجنيه ؟ »

فما هو إلا أن وصل الخطاب إلى الدكتور ووصلت الصحف اليومية إلى أسوان حتى قرأت فيها أن الدكتور شميلاً قد أهدى مائة نسخة من مجموعته إلى الأدباء والطلاب ، ولم يمض يوم أو يومان حتى جاءنى الجزء الأول ومعه خطاب منه يشبه الاعتذار لما فاته من ذكر هذه الحقيقة بغير تذكير ، ويشبه الشكر على أننى قد نبهته إلى ما كان خليقاً أن يتنبه إليه !

هذه قصة عارضة تلخص مناقب هذا الرجل الحر الصريح الشريف أوفى تلخيص

فهو عالم يحب العلم والتعليم ، ويعمل بما يقول ، ويؤمن بالحجة المقنعة ولو كانت فيها خسارة عليه ، ثم يبادر إلى العمل بما يقتضيه ذلك الإيمان ، وليست مائة جنيه بالخسارة الهينة على رجل محدود الموارد كانوا يحاربونه في رزقه وفي طبه وفي مؤلفاته وإن كان كسب الألوف ميسوراً له لو أنه نسي أمانة العلم وانصرف إلى طلب الثراء من حيث يطلبه أصحاب الأقلام

أخذت المجموعة كلها من جديد ، وأخذت معها الرواية التي كنت أتوق إلى مطالعتها فإذا العجب فيها أعجب من هذه المصادفة ، لأنها نبوءة صدقت في الحرب الماضية قبل انتهائها بأكثر من ثلاث سنوات ، ولو نشرها ناشر على أنها مما يقال في الحرب الحاضرة لما احتاج في إعادة نشرها إلى تبديل كثير .

قال بلسان أحد أبطال الرواية وهو المدعي العام الذي يشرح تهمة الإمبراطور أمام المحكمة الدولية : « إنه لغريب جداً أن أمة كالأمة الألمانية حاصلة على قسط وافر من العلم تخضع خضوعاً أعمى لنظام إمبراطورية كنظامها عريق في الأثرة والاستبداد . وأغرب من ذلك دعواها وهي في رق هذا الحكم أنها ذات (كلتور) يجعل تربيتها أرقى من تربية سائر الأمم العريقة في الحضارة . ونحن مع اعترافنا بأنها بلغت شأواً بعيداً في العلم والصناعة ونالت امتيازات جمة على سواها لا يجوز لنا أن نجهل أن هذا الكلتور الذي تفاخر به يجعلها عبدة لنظام حكومة يديرها فرد أو أفراد غير مسئولين حقيقة . وقط ما كان العبد أرقى من الحر . وإذا كان في علمها وعملها شيء كثير من الإتقان فإنك قلما تجد فيهما شيئاً من الابتكار ، لأن العبد إذا كان أصبر على العمل فالابتكار من امتيازات الحر وحده . وإذا كنا نراها تتعمد الشر كثيراً لسواها وتستخدم علمها لهذه الغاية خلافاً للآخرين فلأن ذلك من أخلاق العبيد . ولولا أن تكون هذه الأخلاق غريزية في هذه الأمة لما مالأت إمبراطورها على جنايته الكبرى مع ما هي عليه من العلم ، ولأدركت حينئذ أن الأمم التي قامت لتذلها وسعت لتبديدها لكي تحل محلها إنما هي أعضاء نافعة في جسم العمران ، بل لعرفت أن نجاحها هي نفسها لا يتم لها بدون التعاون معها ... »

إلى أن قال وما أشبه الليلة بالبارحة : « وليس اللام على الأمة الألمانية المتضامنة مع حكومتها في السراء والضراء مهما أساءت فهم مصلحتها بقدر اللام على مجموع الهيئة الاجتماعية التي يجب عليها أن تكون هي نفسها متضامنة لدفع الشر عنها وتوفير المصلحة لها عموماً ، وهذا انحطاط في هذه الأمم وحكوماتها يخجل منه اليوم . فعوضاً من أن تهب جميعها هبة واحدة لنصر المجتمع والقبض على الجاني تركته يسرح ويمرح ويعيث في الأرض فساداً ، وادعت الحياد كأن لا ناقة لها في ذلك ولا جمل ، وزعمت أنها تستفيد من ممالأته ، فشرعت تنصره في السر وهي تدعي العزلة في الجهر ، وهو لو أتيح له النصر لما كان حظها منه إلا الإذلال ؛ وكيف يكون غير ذلك وحظ حلفائه منه ليس أفضل ... أنظروا إلى حليفتيه العظيمتين النمسا وتركيا كيف أنه قبض عليهما بيد من حديد واستخدمهما لمصلحته دون مراعاة أقل مصلحة لهما ، حتى لو أرادتا الانفصال اليوم عنه لما استطاعتا ، كأنهما جزء من مملكته أو مستعمرة من مستعمراته »

وانتهى تأليف الرواية في نهاية شهر يونية سنة ١٩١٥ قبل انتهاء الحرب الماضية بأكثر من ثلاث سنوات ، وقبل ظهور الهزيمة في صفوف الألمان بعهد بعيد ، بل انتهت وهم منتصرون متقدمون ، فإذا به يجزم بهزيمتهم ويصدق النبوءة حين يقول في لهجة الثقة واليقين :

« قد يستغرب القارئ — وقد أنهيتها بهذه الصورة — مع أن الألمان حتى الآن في انتصار . ولكن من يقدر الأمور بعين الناقد البصير يعلم أن الألمان من بعد فشلهم في حملتهم على باريس لم يعد يرجى لهم تحقيق حلم ، وما انتصاراتهم الجزئية اليوم إلا تطويل لأجل الحرب . ولذلك هم اليوم يتخبطون ويبذلون آخر ما عندهم من الجهد عسى أن يحرزوا من النصر ما يحمل الآخرين جميعاً أو فرادى لعقد صلح لا يغبنون فيه ولا يثلم مقام امبراطورهم لدى أمته التي جر عليها كل هذه المصائب على غير جدوى أو بخسائر لا تعوض . لأنه يستحيل اليوم أن يرجع العالم ويثق بهم ويخلص لهم ويفتح أبوابه لمتاجرهم ويحسن الظن بعلمهم وعلمائهم كما كان في الماضي . فهم في هذه الحرب خاسرون كل شيء : المقام الأدبي والمركز الاقتصادي التجاري ... وانتصار الألمان على الروس اليوم وحفظ مراكزهم في الأماكن

أخلاق القرآن

العفو

للدكتور عبد الوهاب عزام

العفو خلق يسمو بصاحبه عن الانتقام ، ويكبر به عن المجازاة ، ويتعالى عن أن يلقى الشر بالشر ويجزى السيئة بالسيئة . العفو خلة تؤثر الرحمة على العقاب ، وتحل المودة محل العداوة ، والوئام محل الخصام . ترى الرجل يؤذى فى نفسه أو ماله فإذا قدر على خصمه استكبر أن ينزل إليه فيأخذه بجريرته ، وآثر أن يغفر ويرحم ، ووجد فى هذا الإحسان من العزة والعظمة والطمأنينة ما لا يجد فى الانتقام ، ولقاء الجناية بجزائها

وإنما العفو عند المقدرة . فليس الذى يصبر على الضيم ، ويخنع للقوة ، ويستسلم للظالم عفوا ، ولكن خائفاً ذليلاً . رحم الله أبا الطيب الذى يقول :

كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لاجئٌ إليها اللئام

وقد قال تعالى فى وصف المؤمنين : « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون » . وقال بعض المفسرين : « كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفوا »

وعظماء الناس يؤثرون العفو ما لم يجدوا فيه مفسدة لأمر من أمور الدين أو الدنيا . وقد عرف بذلك كثير من ملوك المسلمين ولا سيما الخليفة المأمون العباسى . ورويت فى العفو عند المقدرة أخبار تنبئ عما يملك قلب الرجل العظيم من الحلم والعفو فى الخطوب الجسام . كما أثر من استعطاف المؤمنين فى مقام العقاب ما يذهب بالحفيظة ، ويوجب المغفرة

كانوا يرون العفو وسيلة إلى استصلاح النفوس وإزالة الأحقاد ، وإحلال الوئام محل الخصام فيؤثرونه على الانتقام

قال خالد بن الوليد لسليمان بن عبد الملك : « إن القدرة تذهب الحفيظة ، وقد جل قدرك عن العقاب ونحن مقرون بالذنب . فإن تعف فأهل للعفو ، وإن تعاقب فبما كان منا »

وقال رجل لبعض الأمراء : « أسألك بالذى أنت بين يديه أذلُّ منى بين يديك ، وهو على عقابك أقدر منك على عقابى ، إلا نظرت فى أمرى نظر مَن بُرْئى أحبُّ إليه من سقمى ، وبراءتى أحب إليه من جُرمى »

وقال بعضهم : إن عاقبت جازيت ، وإن عفوت أحسنت ، والعفو أقرب للتقوى

والقرآن الكريم يحث على هذا الخلق الكريم ويهدى الناس إلى هذه الخلة التى تلقى جهل الجاهل بحلم العفو ، وشر المسيء بخير المحسن

سمى الله تعالى نفسه العفوّ ، قال : فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوًّا غفورا ؛ وفى آية أخرى : وهو الذى يقبل

التى احتلوها فى الغرب لا يستغربان لمن يعلم أنهم منذ أكثر من نصف قرن ولا سيما فى عهد امبراطورهم الحالى يستعدون لهذه الحرب ويعدون لها العدة . بخلاف خصومهم فقد ثبت أنهم من قلة حذرهم منها وفراغهم من العدة لم يكونوا ينوونها . . . فإذا كان الألمان حتى الآن أقوياء أشداء فذلك طبيعى ، وهم ما خاضوا غمار هذه الحرب إلا وكانوا على أتم الأهبة لها . لكن إذا كان الألمان وهم فى منتهى قوتهم لم يتمكنوا من تحقيق حلمهم ، وخصومهم فى غفلة غير مستعدين ، فهل يرجى ذلك لهم بعد سنة وهم فى تناقص وخصومهم فى تزايد ؟ هذا أمر لا يقبله العقل ، ولا سيما إذا رأينا ما تؤول إليه حالهم بحصر البحار . . . ولهذا كله نرجع ونكرر القول أن انتصارات الألمان اليوم ليست إلا تطويلاً لأمد الحرب وأن مصيرهم فى الآخر إلى الفشل التام »

صدق الدكتور وأصاب فى ذلك الزمان ، وكذب الأغبياء وأخطأوا فى كل زمان . ولقد ذكر الأوربيون لحكمائهم أمثال هذه النبوءات النافذة والنظرات الثاقبة ولم تذكر هذه النظرة للدكتور شميل بين قراء العربية الذين هم أحوج إلى التذكر والاعتبار

فإذا كان صواباً قول بعض الأدباء المازحين للدكتور : « إنك يا صاح نكبة على الناس ، لأنك تخالفهم فى كل ما يقولون » . . . فأصوب منه جواب الدكتور على تلك التحية الجافية حيث قال : « إن كنت أنا نكبة على الناس لأنى أخالفهم فكم نكبة أعانيها وحدى من أولئك الناس وأنا واحد وهم ألوف ؟ » .

عباس محمود العقاد

التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ؛ وقال أيضاً : وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ؛ وقال : إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء ، فإن الله كان عفواً قديرا .

وقد أمر الله سبحانه الناس بالعفو فقال للرسول صلوات الله عليه : خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ؛ ويقول : فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر . ونهى أن يعاقب المسيء بحرمانه من الصدقة والبر فقال : ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ والله غفور رحيم

وأجاز القرآن المجازاة بالعدل ولكن جعل العفو أقرب للخير فقال : « وأن تعفوا أقرب للتقوى . » كما قال في وصف المؤمنين : « والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ، وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم . ولمن صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور . »

وقد أشاد القرآن بالعافين عن الناس ، وبين عظم جزائهم في قوله : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » .

وكانت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم عملاً بأمر القرآن وتأدباً بآدابه . قال رسول الله : « أمرني ربي أن أصل من قطعني وأعفو عمن ظلمني . »

فانظر إليه يوم فتح مكة والجزيرة العربية في سلطانه ، وصناديد قريش طوع أمره ، وقد لقي ما لقي منهم أكثر من عشرين عاماً وفي كل بقعة من مكة والمدينة ذكرى ما لقي من ظلم وعدوان وأذى ، وفي كل جماعة من قريش رجال قد قسوا عليه وعلى أصحابه ونالوا منه ومن دينه ، وصدوا عن دعوته جهد طاقتهم . فما مد إليهم يوم الفتح والقدرة يداً بعقاب ، ولا جازاهم بما فعلوا ولا بأقل مما فعلوا ، بل عفا عنهم عفواً عاماً شاملاً وكان أكبر أعدائه أعظمهم نصيباً من عفوه ورحمته . قال : يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً . أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء . وفر صفوان بن أمية أعدى أعدائه خوفاً من ذنبه ويأساً من العفو ، فأرسل وراءه النبي من يؤمنه وأعطاه عمامته أمارة الأمان . فلما طلب منه أن يجعل له الخيار شهرين ليدخل فيما دخل فيه الناس أو يهاجر قال : أنت بالخيار أربعة أشهر

ولما اجتمعت عليه قبائل هوازن بعد الفتح وأرادت أن تؤلب عليه القبائل وترد فتح مكة هزيمة خرج الرسول لحربها وكانت واقعة حنين التي لقي فيها المسلمون ما لقوا من الهزيمة أول الأمر ثم وثب الرسول وانحاز إليه أنجاد أصحابه حتى أنزل الله سكينته ونصره . فلما ظفر بالقوم وقد عظمت جنايتهم ، جزاهم بالإساءة إحساناً وبالذنب عفواً . يقول الطبري :

أتى وفد هوازن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالجعرانة وقد أسلموا فقالوا يا رسول الله إنا أهل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء مالا يخفى عليك ، فامتن علينا منّ الله عليك . فقام رجل من هوازن ... فقال : يا رسول الله إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كنّ يكفلنك (يعني أنهم قوم حليمة مرضعة الرسول)

امنن علينا رسول الله في كرم فإنك المرء نرجوه وننتظر

فقال رسول الله : أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ فقالوا : يا رسول الله ، خيّرتنا بين أحسابنا وأموالنا ؛ بل تردّ علينا نساءنا وأبناءنا فهم أحب إلينا . فقال : أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم . فإذا أنا صليت بالناس فقولوا إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا ، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم

فلما صلى بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به . فقال رسول الله : « أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم » وقال المهاجرون : « وما كان لنا فهو لرسول الله » ؛ وقالت الأنصار : « وما كان لنا فهو لرسول الله » . وقال الرسول :

الحديث ذو شجون

للدكتور زكى مبارك

أدباء مصر الجنوبية — الفداء المفقود ! — أين متحف وزارة المعارف ؟ — جريمة السكان فى نظر الجنية الحسناء

أدباء مصر الجنوبية

مصر الجنوبية هى السودان ، وهو تعبير جميل ، ويزيده جمالاً أنه لم يصدر أول مرة إلا عن أدباء تلك البلاد

والحق أننا فرطنا فى حق السودان كل التفريط من الوجهة الأدبية ، وإن لم نتغفل عنه من الوجهة السياسية . ولو أننا بذلنا فى خدمة السودان أدبياً معشار ما بذلنا فى خدمته سياسياً لوصلنا إلى نتائج باهرة فى توحيد القلوب بين من يقيمون هنا ومن يقيمون هناك ، ولكننا تركنا أمر السودان للساسة ، والساسة عندنا لا يفكرون كثيراً فى الوسائل التى تجعل تعاطف سكان وادى النيل أمراً طبيعياً لا يحتاج إلى تعب أو نضال

ومن العجيب أن يفكر السودان فينا قبل أن نفكر فيه ، فهو يهتم بأخبارنا ، ويساير حياتنا الأدبية والاجتماعية والسياسية ، ويرى من الواجب أن يتعرف إلينا فى كل وقت ، فأين نحن من هذه الشمائل الروائع ؟

أين الباحث الذى فكر فى قضاء شهر أو شهرين فى السودان لدرس ما هنالك من تطور الآداب والفنون والأذواق ؟

أين الشاعر الذى رأى من واجبه نحو وطنه أن يستلهم الوحى من منابع النيل ؟

أين المؤلف الذى خاطر بجزء من وقته وماله ليخرج كتاباً عن السودان ، وهو اليوم فى يقظة أدبية تستحق التسجيل ؟ (مع عرفان الفضل للباحثين داود بركات وعبد الله حسين)

ولنفرض جدلاً أن السودان لا يرتبط بمصر من الوجهة القومية أو السياسية ، فكيف يغيب عنا أن السودان قطر أصيل فى العروبة ، وأن أهله من النماذج الجميلة لأدب النفس وشرف الوجدان ، ومَن كانوا كذلك فهم جديرون بعناية الباحثين والمفكرين من كتاب وشعراء !

الفطرة السليمة لا تزال من حظ أهل السودان . ولو أن معالى الدكتور هيكل باشا كان أقام بينهم مدة أطول من المدة التى أثمرت كتابه الطريف « عشرة أيام فى السودان » لظفر بمحصول نفيس فى تقييد الأوابد من مكارم الأخلاق

أقول هذا صادقاً ، فما أذكر أبداً أننى رأيت ما أكره فيمن عرفت من السودانيين ، فالسودانى مفطور على طيبة القلب ، وهو يرى نكران الجميل من أفظع العيوب ، وله بوارق من الذكاء تؤهله لاحتلال الصف الأول بين رجال الفكر إذا ظفر بالتوجيه الرشيد .

فتى نعرف واجبنا نحو أدباء مصر الجنوبية ؟

ومتى نفهم أن الأخوة لها حقوق ؟

أما بعد ، فأنا أتأهب لكتابة سلسلة من المقالات عن الأدب الحديث فى السودان ، ولكن المصادر بعيدة منى ، إلا شذرات قليلة قدمها إلىّ أحد أعضاء النادى السودانى بالقاهرة ، وهى شذرات لا تحقق ما أريد ، فما ذا أصنع ؟

كنت أتمنى أن تتاح فرصة لزيارة السودان والوقوف على أخبار الحياة الأدبية هناك لأحدث قراء « الرسالة » فى جميع الأقطار العربية عن إخوان مجهولين حفظوا عهد العروبة والإسلام فى بلد جميل ، يغفُل عن جماله أكثر العرب والمسلمين

كنت أتمنى أن أرى السودان ، ولو فى وقدة الصيف ، لأقول لإخوانى هناك : إن مصر لا تنساكم ، ولن تنساكم ، ولو ضُرب بينها وبينكم ألف حجاب

« أما من تمسك بحقه من هذا السبى منكم فله بكل إنسان ست فرائض من أول شىء نصيبه . فردُّوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم »

ذلكم مثل من أمثال تُبين عن خلق رسول الله ، وهو الخلق العظيم الذى أوحاه إليه القرآن ، وإنما تتجلى عظمة العظيم بالعفو حين القدرة ، والترفع عن الاقتصاص بالذنوب

وذلكم تأديب القرآن أمةَ القرآن ، وتعليم رسول الله عباد الله . وإنما يريد القرآن أن يكون المسلمون أكبر من أن يُذلوا إذا غُلبوا ، وأعظم من أن ينتقموا إذا قدروا .

عبد الوهاب عزام

متى أرى السودان ؟ متى ؟ متى ؟

سأسارع فأراه فى وجوه شعرائه وكتابه وخطبائه فى حدود ما أصل إليه من آثارهم الأدبية ، إلى أن يمنّ الله بزيارة أشرب فيها ماء النيل ممزوجاً بالطين ، كما شربت ماء الفرات ممزوجاً بالطين ، لأقول : إنى ذقت رحيق النيل كما ذقت رحيق الفرات . متى أشرب أول كوب من النيل وأنا بنادى المعلمين فى الخرطوم ، كما شربت أول كوب من دجلة وأنا بنادى المعلمين فى بغداد ؟

لن أنسى أبداً كيف ذقت ماء دجلة أول مرة ، ولن أنسى أبداً كيف رحلت إلى « الفلوجة » لأذوق ماء الفرات فى طعمه الأصيل قبل أن ترفع عنه الأقذاء

اللقاء قريب ، يا إخوانى فى السودان ، فسأتحدث عن أدبكم بعد أسابيع ، على شرط أن تذكروا أن الخطأ يغلب فى الحكم على المجهول ، وقد قضت الأقدار بأن تكون أحكامى على أدبكم منقولة عن السماع ، وهو يخطىء أكثر مما يصيب

أما وفاؤكم لمصر ، فلن يجزيكم عنه قلمى ، وإنما يجزيكم عنه من شاءت إرادته العالية أن تكونوا مضرب الأمثال فى الصدق والمروءة والإخلاص

العقاد الحقود

فى صبيحة اليوم الذى ظهر فيه مقالى عن نقد كتاب « المطالعات فى الأدب والحياة » ، طلبنى الأستاذ عباس العقاد بالتليفون وأنبأنى أن صدره انشرح لذلك المقال ، وأنه موافق على ما ورد فيه من الملاحظات ، إلا عبارة واحدة آذته أشد الإيذاء وهى العبارة التى تسجل أنه رجل « حقود » ؛ فأجبته بأنى نظرت إلى الحقد من بعض جوانبه الأخلاقية ؛ ثم وجهته توجيهاً يرتضيه رجال الأخلاق ، وأضفت نفسى إلى جملة الحاقدين لنكون سواء فى التخلق بهذا الخلق الجميل ! مع الاعتذار لحضرة الأستاذ نجيب هاشم الذى ساءه أن يكون لى بين أهل الحقد مكان

وهل ينكر العقاد أنه رجل حقود ؟

إليكم القصة الآتية :

فى مصر شاعر « مشهور » هو الدكتور أحمد عارف الودينى المقيم بشارع المَعجم فى مصر الجديدة[1] ، وهو شاعرٌ قَصَر شعره على الإخوانيات ، فلا يقرض الشعر إلا فى تحية صديق ، أو تهنئة زميل ، وقد تسمو به همته إلى مجاملة الأمراء والملوك فى المواسم والأعياد

لقيته مرة فى « الترو » بصحبة الأستاذ العقاد ، فسألنى عن الرأى فى شعره ، فقلت : أنت يا دكتور ودينى أشعر رجل فى مصر بعد الأستاذ الجارم ! فظهرت عليه أمارات الاكتئاب ، ولكن الأستاذ العقاد تلطف فصرح بأنه أشعر من الجارم فى بعض الفنون !

ومضى الدكتور الودينى إلى الجارم بك لحدثه بما قلت وبما قال العقاد ؛ فأعلن الجارم أن الرأى ما رأى العقاد ! ثم لقينى الدكتور الودينى بعد أشهر وهو يقول :

— هل تعرف كيف ناقضَك العقاد ؟

— وكيف ناقضنى العقاد ؟

— العقاد يرى أننى شاعر العرب

— أنت شاعر العرب ؟ أنت ؟

— وبشهادة العقاد !

— وكيف والعقاد يرى نفسه أمير الشعراء ؟

— هو أمير الشعراء ، وأنا إمام الشعراء ، والأمير يأتمّ بالإمام ، كما قال الجارم الصنّاج

— هذا جائز ، ولكن ما الدليل على أن العقاد يعدُّك شاعر العرب ؟

— كتب إلىّ خطاباً يقول فيه :

« إلى المفرد العَلَم ، صاحب الإنبيق والقلم ، شاعر العرب فى شارع المعجم ؛ عزيزى ونور عينى ، الدكتور عارف الودينى »

— وهل ترى أن العقاد مدحك بهذا القول ؟

— تلك غاية المدح !

— وهل ترى أن العقاد صنع معك أجمل مما صنعتُ ؟

— بالتأكيد !

— إسمع ، يا دكتور ، أنا جعلتك أشعر الناس فى مصر بعد الجارم ، والعقاد جعلك شاعر العرب فى شارع المعجم

— وما العيب فى ذلك ؟

(١) سنعرف قيمة النص على اسم الشارع بعد لحظات

— العيب أنه جملك أشعر من الأستاذ أمين الخولى ولم يزد، والخولى جارك!

وعندئذ تربّد وجه الدكتور الودبنى وقال: يظهر أن العقاد رجلٌ حقود!

والحق أن العقاد حَقودٌ حقود، وإلا فكيف جاز أن يجعل الدكتور الودبنى شاعر العرب فى شارع المجم، فقط، مع أنه شاعر العرب بعد الجارم!

والحق أيضاً أن الخطأ لم يقع إلا منى، فالدكتور الودبنى كان استراح إلى ذلك اللقب الطريف وعدّه تلطفاً من الأستاذ العقاد، والعقاد يلاطف أصدقاءه فى أكثر الأحايين، ولكنه فى هذه المرة يسىء مع سبق الإصرار؛ فقد غاظه أن تتسع آفاق الشاعرية «الودبنية» بحيث يكون صاحبها أشعر الناس بعد الجارم، والشعراء يحقد بعضهم على بعض!

وعزاء للودبنى، فلن يكون إلا شاعر العرب فى شارع المجم، بفضل ما فى هذه العبارة الطريفة من عذوبة الطِّباق والجِناس.

أين متحف وزارة المعارف؟

عرف قراء الرسالة خبر الخطاب الذى تلقيته وأنا فى باريس من الدكتور طه حسين، الخطاب الذى قال فيه «أحمد الله إليك» وهى العبارة التى عدّها من المخترعات، وصار يبدئ ويعيد بأنى تعودت الافتراء عليه؛ ثم ظهر أن الخطاب صحيح بشهادة كاتبه الأمين «توفيق»، وقد رجوت الدكتور طه أن يشترى منى ذلك الخطاب قبل أن أبيعه لمتحف وزارة المعارف، ولكنه لاذ بالصمت البليغ

أتركُ الدكتور طه لشأنه، فقلبى يحدثنى بأنه رجلٌ لا يحفظ العهد، وأنتقل إلى الأستاذ مصطفى أمين المفتش المساعد لكبير مفتشى اللغة العربية بوزارة المعارف

عندى ذخيرة للبيع، ذخيرة أدبية ولكن أين المشترى؟ وأين من يعرف حاجتى إلى المال وقد شاع وذاع أنى من الأغنياء؟

عندى كتاب لا يصلُح للاقتناء من حيث هو كتاب، ففى مكتبتى منه نسختان، وإنما يصلح للاقتناء حين يتبرأ منه من أهدِىَ إليه، وهو صديق «أمين»!

هذا الكتاب هو «تاريخ آداب اللغة العربية فى العصر العباسى» للمرحوم الشيخ احمد الاسكندرى وعليه إهداء بإمضاء المؤلف «إلى حضرة صديقه الفضال مصطفى أمين» وبتاريخ ٢٦ يناير سنة ١٩١٣

فأى أثر أعظم وأشرف من كتاب يهديه الشيخ أحمد الأسكندرى إلى صديقه الأستاذ مصطفى أمين فى مثل ذلك العهد البعيد، يوم كان الناس يعرفون قيمة الوداد؟!

أين نحن من سنة ١٩١٣؟

وهل هان كتاب الشيخ الأسكندرى وكان من المراجع التى اعتمد عليها مؤلف «ذكرى أبى العلاء»؟

هو كتابٌ وجدته عند أحد البقالين بمصر الجديدة وقد اشتريته بنصف درهم، فأين من يشترى منى هدية أحمد الأسكندرى إلى مصطفى أمين؟

وأين متحف وزارة المعارف لأقدم إليه تلك التحفة السنية؟ أين لا أين؟!

جريمة الكتمان فى نظر الجنية الحسناء

لم يكن الكتمان جريمة قبل أن أسرف على نفسى بالكلمة التى نشرتها فى «الرسالة» عن الجرائم الأدبية، وكنت نسيت تلك الكلمة، فلم يذكّرنى بها غير اللام الذى عانيتُه من الجنّية التى كانت ترى أن أعلم الغيب فأعرف لأى سبب قضت أيام الصيف فى الصعيد، الجنية الرخيمة الصوت التى تُزلزل وجودى حين تباغمنى الحديث من وراء حجاب، الجنية التى تقرأ الأشعار والمقالات والأقاصيص وتزعم أنى أسرق أفكارها المبتكرة فى كل ما أحدث به قرائى من ألوان الجد والفتون، والتى تهدد برفع أمرى إلى القضاء إن عدت إلى انتهاب ما تُسرُّ إلى أذنىّ أو عينىّ من معانى وآراء[1]

من الذى يهدّد، يا شقية، أنا أم أنتِ؟

ومن السارق والناهب؟ أنا أم أنتِ؟

أتحداك فى السر والعلانية أن تمضى خطوة واحدة فى تنفيذ ذلك التهديد، فإن فعلتِ فسوف ترين كيف أقتلع جميع الأشجار

(١) لا أرى إهلال كلمة «معانى» فى حال الخفض، لأنها تجر بالفتحة والفتحة لخفتها بقيت فى حال النصب فلا موجب لحذفها فى حال الخفض

والأزهار من الجيزة الفيحاء ، وكيف أصيّرها أقفر من الفؤاد الذى جازه غيث الحب فأمسى وهو يَباب

ومن أنتِ حتى أسرق منكِ ؟ هل كنتِ إلا طيفاً شفافاً يحاور روحى وهو معتصم بأجواز السماء ؟ هل كنتِ إلا روحاً يتمثل فى صوت رنان حنان يُنقل من وادى الخلود إلى وادى الفناء ، إن جاز القول بأنك من أهل دنيانا الفانية ؟

من أنتِ حتى أسرقُ منك ، ومن دمِي المسفوح على سنان القلم خُلِق روحك الظّلوم ؟ أنا أسرق منكِ وما كان ذكاؤك الوهّاج إلا شرارة طارت عن فؤادى ؟ ويطيب لك أن تحتجبى عنى لتصح دعواك فى التأبى والتمنع . فهلا نطقت بقولة الحق فاعترفت بالخوف من المصير المحتوم لمن يواجه الحب العاصف ؟

حماك الله من روحى ، يا شقية ، وكتب لك السلامة من غزوات قلبى !

ثم تعالَىْ إلى كلمة سواء :

لقد هدّدتِ بالقطيمة الباغية إن لم أكتب « الصفحتين الممزقتين من جديد » الصفحتين المظلومتين بسبب التخوف من الأكاذيب والأراجيف

فمن يردّ عنى عدوان أبناء الزمان ، إذا خرجت على شريعة الكتمان ؟

أنت يا طفلتى جاهلة جَهْلاء ، ولو كنت تعرفين من خلائق أهل العصر بعض ما أعرف لعز عليك أن تمدى الكتمان من الذنوب

أهل العصر ، يا طفلتى الغالية ، لا يسرهم أن يَنْبُغَ فيهم كاتب بليغ إلا أن يكون بوقة ضجّاجة تهتف بما يرتاحون إليه من الإفك والرياء

الكاتب ، يا طفلتى الغالية ، قد يستبيح ما لا يباح من النقد الجرىء ، وبعض أهل العصر يفهمون جيداً أن منازلهم الأدبية لم تكن إلا ضرباً من المتاع المسروق ، فهم يتصورون الناقد فى شبح رجل يقدم عنهم بلاغاً للنيابة العمومية !

ومن أجل هذا يحرص قوم على إفهام الجمهور أن الرجل لا تكون له إلا شخصية واحدة ، فهو موظف فقط ، أو كاتب فقط ، وليس من حقه أن يكون موظفاً بالنهار وكاتباً بالليل ، وكيف يحق له ذلك وهو بَشرٌ مثلهم خُلِقَ للوظيفة بالنهار ، ولمنادمة السخفاء بالليل ؟ !

الكاتب ، يا طفلتى ، رجل مهدد فى كل وقت ، لأنه من عنصر غريب لا يرتاح إليه المجتمع ، إلا أن يكون من أهل البراعة فى خل المجتمع ؟ وذلك خلق لم أفكر فيه ، ولا يسرنى أن أصير إليه ، لأنى أمقت الفناء فى أقوام كل محصولهم من الشرف أن يقال إنهم يبغضون الاستعباد ، وكنت أرجو أن يكون قرائى ملوكا يسيطرون على جميع الممالك والشعوب ، فعزة الكاتب من عزة القارىء ، ولا يستريح إلى السامع الذليل إلا المحدث الذليل

وقد أنفقت من شباب القلم ما أنفقت فى خلق جيل يفهم عنى ما أريد ، ثم كانت لجيجتى فيك يا شقية ، فأنت تريدين أن أخضع للجمال ، وأنا لا أعرف إلا خُيلاء السيطرة على الجمال ، والرجال قوامون على النساء ، ولو كره المتظرفون من أبناء الجيل الجديد !

وأنا مع هذا شديد الرغبة فى الخضوع لإرادتك السامية ، كما يتطامن الصائد فى أصول الأدغال ، فماذا تريدين أن أقول ؟ هل تريدين أن أكتب الصفحتين الممزقتين من جديد ؟

أنا عند ما تريدين لتكونى بإذن الهوى عند ما أريد ؟

وإلى قلبك البكر أسوق الحديث فى غير هذا الحديث

زكى مبارك

فرق لمكافحة الغناء المريض

للأستاذ سيد قطب

إذا صح ذلك الصدى الذى استرجمته لكلمتى فى العدد الأسبق من « الرسالة » عن « الذوق الفنى ونهر الجنون » من إخوان لى فى الفكرة لم أعرفهم من قبل ، كان عدد الذين « لم يشربوا من النهر » أكثر كثيراً مما قدرت ، وكان عجيباً أن يضيموا هكذا فى غمار الشاربين المخمورين !

وإنهم ليفضون إلىّ بأسباب غريبة لصمتهم عن الجهر بآرائهم ، أسباب لم تصادفنى مرة واحدة ، ولو صادفتنى لعرفت كيف أثور عليها وكيف أحطم شباكها ، ولكان مجرد اصطدامى بها حافزاً للثورة المحطمة لا للسكون الكظيم

إنهم يشكون نفوذ بعض المشتغلين والمشتغلات بالغناء المريض فى مصر ، هذا النفوذ الذى يعوّق المقالات فى إدارات الصحف فلا تنشر إذا كان فيها تصحيح لطريقتهم فى الموسيقى والغناء ، ويحبس الأغانى والألحان فى محطة الإذاعة فلا تذاع ، إذا كان فيها كشف للضعف وتأثير فى الشهرة ، وفرصة للموازنة بين المشهورين وغير المشهورين ... هذا النفوذ الذى يشتريه بعض المشهورين والمشهورات بالمال والشفاعات تارة ، وبجاه المعجبين بهم الشاربين من النهر معهم من أصحاب السلطان والمرشحين للسلطان تارة !

ولست أدرى مدى هذه الشكايات من الصحة ، ولكن تواترها على ألسنة لا مصلحة لها فى الادعاء ، وبسط حوادث معينة فى صحف « محترمة ! » معينة . كل هذا جعلنى أوجس شراً ، خشية أن تقبر هذه الكلمة التى يخطها قلمى فلا تبصر النور ، وأن تصدها الشفاعات والدسائس عن الظهور !

وعلى الرغم من ثقتى بالرسالة التى أوسعت صدرها غير مرة لنقد عظماء الفكر فى الشرق والغرب ، فأنا أرجو أن تعذرنى فى هذا التوجس ، فإن الحوادث التى سمعت عنها تشير إلى خطة منظمة يتوسل إليها بعض المشهورين والمشهورات بكل وسيلة مهما كلفتهم من جهد وتضحية ، لكتم النقد وإذاعة الثناء ، وقبر كل نبوغ يبزغ ، ويهدد شهرتهم بين الغوغاء

وحين يصح هذا يكون جناية على الفن والذوق والخلق ، وعلى كل إحساس رفيع فى الأمة وكل شعور كريم ، جناية يجب مكافحتها ، وأننى لأهب هذا القلم لهذا الكفاح وأعلم أن الحواجز والسدود التى يشكو منها الشاكون لن تحول دون هذا القلم حين يريد

إننا لن نشتم هؤلاء الناس الذين يسحقون روح الشعب فى كل أغنية ، ويهدون عزيمته فى كل لحن ؛ ولن نوجه إليهم فاحش اللفظ ولا هجر القول ، ولا شأن لنا بأشخاصهم ، ولكننا ننتقد طريقتهم ، ونندد بآثارها المقيتة فى النفوس . وما دام الأمر كذلك فسنجد لهذا القلم مجالاً غير محدود ، على الرغم من كل الحواجز والسدود ، ولن يكون هؤلاء المشتغلون والمشتغلات بالغناء الزائف المريض بأعز من عظماء الفكر الذين تناولهم النقد فى أبعد الحدود

والأمم تنشئ الفرق لمكافحة المرض حين ينتشر الوباء ، ولمكافحة الذب حتى يصب الحم على الأبرياء ، ولمكافحة المخدرات حين تهدد سلامة البلاد ... فمن واجب مصر أن تنشئ الفرق لمكافحة الغناء المريض الذى يسحق كبرياءها ، ويحطم رجولتها وأنوثتها ، ويثير أحط غرائزها ، ويخدر أعصابها كالمخدرات

وما أمزح أو أتهكم ! فأنا أقترح جاداً إنشاء هذه الفرق ، من كل ساخط على هذا الترنيم الوجيع ، مشمئز من هذا التكسر الخليع . وهذه الفرق تستطيع الشيء الكثير : تستطيع بث الدعوة ، وضرب المثل ، ومقاومة كل نفوذ مجارى يبذل فى إدارات الصحف ومحطة الإذاعة ... وتستطيع تتبع هذه الأنغام بالتجريح والتهجين فى كل مجتمع وناد ، مع تصحيح الأفهام وتقويم الإحساس

ولست أبالغ حين أنهى إلى وزارة الشئون الاجتماعية وإلى وزارة الدفاع أن هذه الأغانى تعوق جهودهما فى انتشال المجتمع المصرى وتقويمه ، وفى بث روح الحماسة وتقويتها ، فشبان البلاد وشوابها مشغولون ومشغولات بالمأتم الدائم فى كل مذياع ، الحافل بالنائحين والنائحات ، وبالدموع الرخيصة

المتصنعة، وبالدغدغات الخليعة المتكسرة في الألحان والأغنيات

وحين نكافح «الطابور الخامس» يجب أن نحسب حساب «الغناء المريض» ويجب أن نسكت هذه الدغدغة وهذا التميع وتلك المخدرات المتسربة إلى الضمائر الهامسة في الأخلاد

وما كان لأي «طابور خامس» أن يؤثر ما تؤثر هذه الأغاني — حتى الأناشيد الوطنية والحماسية التي خرجت أشبه بالمناحة مرة، وبالنشيج المترنح مرة — إذا استثنينا «نشيد الجامعة» لأم كلثوم

لم تبق عاطفة إنسانية نبيلة لم يشوهها هذا الغناء، ولم يبق شعور وجداني كريم لم يفسد طبيعته

فالحب مثار الحيوية في النفوس، ومبعث القوة في الوجود. هذا الحب الذي تدخره الحياة لأبنائها، لتبيحه لهم في أفضل ساعاتهم وأملئها بالفيض الروحاني، والتفتح العقلي، والنضوج الجسمي، وتعبر به عن أقصى غبطتها بهم ورضاها عنهم، وتدل به على صلاحيتهم لها وأدائهم لحقوقها. هذا الحب الذي هو «جواز المرور» من حمله من الأحياء أباحت له الحياة خدرها وأثمن مكنوناتها (كما يقول العقاد). هذا الحب الذي يفجر في الإنسان كل منابع السمو والعطف والمرح والاستعلاء كما يفجر في الحيوان — في صورة الغريزة — كل منابع النضج والقوة والازدهار

هذا الحب كله عاد في ذلك الغناء رجع الصدى المهزيل للغريزة المضموفة، وصوت الأسى الذليل للحيوانية المريضة، ودمعة الضعف الكسير للرغبة العاجزة

والألم أنفس الأحاسيس الإنسانية. الألم الطهور الكريم صقيل الطبيعة البشرية، ومنضج المشاعر الفجة؛ وبوتقة الشهوات الخبيثة . . .

هذا الألم عاد في ذلك الغناء تصنعاً زرياً، وتكسراً شائهاً، وتميعاً «مقرفاً» ونعومة خبيثة

والفنون على الإجمال، هي رمز الأمل الطليق من قيود الواقع المحدود، المتعالي على مطالب الضرورة القاصرة، وهي مهرب النفس الإنسانية الطموح حين يعجز الواقع عن تلبيتها فتجد في الفنون دنيا من المستقبل، وعالماً من الملأ الأعلى، وفسحة من الكمال الموموق

ولن تكون الفنون تعبيراً عن جوعات الأجسام، ولاشهوات اللحم والدم إلا في أحط صورها وأولى درجاتها، ولكن ألواناً من القوة الحيوانية العارمة، والنشاط الغريزي الفاره، والجوع البهيمي المتنزي قد يعجب النفس لما فيه من معنى الحيوية المتوثبة والقوى المتحفزة

فموسيقى الجازبند تعبير عن الحيوانية الهائجة ولكنها قد نجد لها شفيعاً في الدنو من دائرة الفنون بما فيها من قوة الهياج، وضجة الزياط، وثورة الدم في العروق

ولكن أي شفيع للحن أو أغنية هي تعبير عن الحيوان الضعوف السقيم، يتميع بالغريزة العاجزة الكليلة، ويتخلع بالرغبة العجفاء المزيلة، ويدغدغ غرائز السامعين المخدرين؟

ما سمعت أغنية واحدة أو لحناً واحداً، ولا سيما الأغنيات الأخيرة إلا أحسست بالتقزز للرجل المتراخي النائم على نفسه، المتخاذل في حركاته، المهوم للنعاس في نغماته، وللمرأة المتخامة في نبراتها، المدغدغة في تأوهاتها، ولشواب البلد وشبانها يتهالكون من الرخاوة، ويتحاملون من الهزال، ويرفعون عقيرتهم بالنواح: «يالوعتي ياشقايا ياضنى حالي — طول عمري عايش لوحدي — مايهونشي»

وكل هذا هين لولا فجيعتي في شاعر أعزه وتربطني به روابط ودية وثيقة، وصلات أدبية طيبة. وقف مرة أمام المذياع يقدم قطعة من تأليفه لحنت هذا التلحين، وأديت هذا الأداء؛ فقال: إنها في صورتها هذه الممسوخة تعبر عما أحس به وهو ينظم مقطوعته، وأنه يهتز بهذا التعبير كل الاهتزاز

شعرت بالفجيعة مع ثقتي بأن عوامل غير عامل الإعجاب الفني بكل تأكيد هي التي أوحت إليه بما يقول. شعرت بالفجيعة لأنه شاعر وصاحب قلم، وكل ذوي الأقلام يتمين أن يكون مكانهم في صفوف المكافحين عن ذوق الأمة الفني وعن سلامة فطرتها التي تنهكها هذه الألحان

ولقد انتهيت إلى مقاييس لا تخطئ في تقدير صحة الفطرة الفنية وسلامة الشعور الإنساني، وهي في يدي كمقياس الحرارة في يد الطبيب. فأيما إنسان دل مقياس الحرارة في فمه على رقم غير الرقم الصحي، فهو مريض مهما نطقت ملامحه بالصحة

دير مديان (*)

للأستاذ صلاح الدين المنجد

قال الشابشتي : « وهذا الدير على نهر « كرخايا » ببغداد ؛ وكرخايا نهر ينبثق [1] من المحوّل الكبير ويمر على العباسية [2] ويشق الكرخ ويصبُّ في دجلة ، وكان قديماً عامراً والماء فيه جارياً ، ثم انطم [3] وانقطعت جريته بالبثوق [4] التي انفتحت في الفرات

وهو دير حسنٌ نَزِهٌ حوله بساتين وعمارة ؛ ويُقصد للتنزه والشرب . ولا يخلو [5] من قاصد وطارق . وهو من البقاع الحسنة النزهة . وللحسين بن الضحاك فيه :

(*) راجع أخبار هذا الدير في ياقوت (ج ٢ ص : ٦٩٥) طبعة أوروبا — وفي مسالك الأبصار ص ٢٧٧

(١) في الأصل « يشق » ولا معنى لها ، وقد أوردها كذا ياقوت في معجمه والعمري في مسالكه . ولعل الصواب كما أثبتنا .

(٢) محلة كانت ببغداد . قال ياقوت ج ٣ ص ٦٠٠ : « وأظنها قد خربت الآن ، وكانت بين يدي قصر المنصور قرب باب البصرة . وهي منسوبة إلى العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس »

(٣) من العامي الفصيح .

(٤) في الأصل « بالسوق » على أن ياقوتا أثبتها « البثوق » . جمع بثق . جاء في الأساس « انبثق عليهم الماء إذا خرق الشط أو كسر السكر لجرى من غير مجرى . والبثق المكان المكسور ، فعل بمعنى مفعول . »

(٥) في الأصل « يخلوا »

حث المدام فإن الكأسَ مترعة
مما يهيج دواعي الشوق [1] أحيانا

إني طربت لرهبانٍ مجاوبة
بالقدس بعد هدوٌ الليل رهبانا

فاستنفرت شجناً مني ذكرتُ به
كرخَ العراق وأحزاناً وأشجانا

فقلتُ والدمعُ في عينيَّ مطّرد [2]
والشوق يقدح في الأحشاء نيرانا

يا دير مِديانَ لا عُرِّيت من سَكَنٍ
ما هِجْتَ من سَقَمٍ يا دير مِديانا

هل عند قَسِّك من علم فيخبرني
أن كيف يسعد وجه الصبر من بانا [3]

سقياً ورعياً لكرخايا وساكنه
بين الجنينة والروحاء من كانا [4]

قال : وكان أبو علي بن الرشيد يلازم هذا الدير ويشرب فيه . وكان له قيان يحملهم [5] إليه ويقيم به الأيام لا يفتر [6] عزفاً وقصفاً . وكان شديد التهتك ، وكان من يجاور الموضع يشكون ما يلقون منه . فانتهى الخبر إلى إسحق بن إبراهيم الطاهري وهو خليفة السلطان ببغداد ؛ فوجّه إليه يقبّح له فعله وينهاه عن المعاودة لمثله . فقال : « وأيّ يد لإسحق عليّ وأيّ أمر له فيّ ؟ . . . أتراه يمنعني من سماع جواريّ والشرب بحيث أشتهي . . . ؟ » فلما أتاه هذا القول منه أحفظه ، وأمهل حتى إذا كان الليل ركب إلى الموضع وأحاط به من جميع جهاته . وأمر أن يُفتح باب الدير ويُنزلَ به على الحال التي هو عليها . فأنزل به وهو سكران في ثياب مصبّغة ، وقد تضمخ بالخلوق [7] فقال :

(١) في الأصل إلى جانب الشوق « الحزن »

(٢) في معجم البلدان « في عيني منحدر . . . »

(٣) في مسالك الأبصار ص ٢٧٧ : « . . . وجه الصبر من خانا » ورواية الشابشتي أحسن .

(٤) في مسالك الأبصار ص ٢٧٧ : « . . . لكرخايا وساكنها »

(٥) كذا في الأصل ، والضمير يعود إلى القيان ج قين وهو العبد (القاموس)

(٦) في الأصل « لا نفتر » وهو تحريف

(٧) الخلوق نوع من الطيب

وجوارحه بالعافية ؛ وأيما إنسان أحس في ضميره اختلاجة للحن من تلك الألحان المريضة ، فهو مشوه الفطرة سقيم الطبع ، شارب من النهر مخمور

وللصحافة رسالة يجب ألا تنكل عنها ، وواجب يجب أن تؤديه ؛ وقد تعاورني الرجاء واليأس في إصلاح هذه الحال ، ولكن يجب أن تكون فداحة العبء مثيراً لمظائم الجهد ، ومن يدري ، فقد نعثر على كنز مخبوء في طبيعة هذه الأمة ، أو منبع مطمور من منابع الفطرة ، نزيل عنه الركام ، فإذا تفجرا كتسح هذه الرواكد وتلك المخلفات

« حلوان »

سيد قطب

سوءة لك ! رجل من ولد الخلافة على مثل هذه الحال ! » ثم أمر ففُرش بساط على باب الدير وبُطح عليه وضربه عشرين درّة ، وقال : إن أمير المؤمنين لم يولني خلافته حتى أضيّع فى الأمور وأهملها ، ولا حتى أدعك وغيرك من أهله تمرونه (1) وتفضحونه وتخرجون إلى ما خرجت إليه من التبذل والشهرة وهتك الحرمة (2) إلى الديارات والحانات ، وفى تأديبك صيانة للخلافة وردع لك ولغيرك عن هذه الفضيحة . ثم أمر بعماريات (3) كانت معه فأركب فيها مع حُرمه وردّه إلى داره . فبلغ ذلك المعتصم فكتب إليه يصوب رأيه وفعله ويأمره ألا يرخص لأحد من أهل بيته فى مثله

وأم أبي على هـذا تعرف « بشكل » . وكان الرشيد قد اشتراها وصاحبة لها تعرف « بشذر » فى يوم واحد . فحملت شذر وولدت « أم ابنها » (4) ؛ فخدمتها « شكل » وبلغ بهما الحسد إلى أمر عظيم من العداوة حتى اشتهر ذلك . وحملت « شكل » وولدت أبا على . وماتت أماها ؛ وبقيت العداوة بين أبي على وأم ابنها ، حتى بلغ الأمر إلى أن تهاجيا بالأشعار ، وشاع أمرها فى جميع آل الرشيد . فلما قتل الأمين وورد المأمون إلى بغداد جلس يوماً وعمه إبراهيم بن المهدى وأبو إسحاق (5) أخوه والعباس ابنه ، وتذاكروا العداوة التى بين هذين ، فقال : لقد سمعت بخبر عداوتهما بخراسان ولقـد هممت أن أصلح بينهما . ووجّه فأحضر أم ابنها وأقبل يعاتبها وهى مطرقة لا تردّ جواباً . ثم أمر بإحضار أبي على ، فلما رأته أم ابنها تنقّبت وسترت وجهها . فقال المأمون : كنت مُسفرة فلما حضر أخوك تنقبت ؟ قالت : والله يا أمير المؤمنين لسفورى بين يدى عبد الله بن طاهر وعلى بن هشام ، أوجب من سفورى لأبي على ، فوالله ما هو لى بأخ ولا للرشيد بابن ، وقد قال الله عز وجل : « الذين أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » . قال ابن عباس : « آمنهم من البرص والجـذام » ... وهو والله أبرص ، ما هو إلا ابن فلان الفراش ... ! فأمر المأمون أخاه أبا إسحاق فجلدها حداً . فقالت : « سوءة يا أمير المؤمنين أن تحد أختك لابن الفراش وسننت على بنات الخلفاء الحد ، فوالله لقد ظننت أن أمره يستتر : فأما الآن فوالله لتتناقلنه الرواة وليتحدثن به إلى أن تقوم الساعة . ونهضت فقال المأمون : قاتلها الله ... فلو كانت رجلاً لـكانت أقعد بالخلافة من كثير من الخلفاء ... وقلد أبا على الصلاة على جنـائز أولاد الخلفاء ليدرأ عنه العيب (1)

(لهذا الفصل بقايا)

(دمشق) صلاح الدين المنجد

(1) عر فلان إذا لقب بلقب يعره أي يشينه (اللسان ٦ : ٢٣٤)

(2) فى الأصل كلة طمست وغابت

(3) العماريات ضرب من الهوادج يجلس فيه (معجم دوزى ج ٢ : ١٧٢)

(4) فى الأصل : أم أبيها ، وهو تحريف

(5) كذا فى الأصل ، والأولى أن تكون أبا إسحاق بالعطف على المفعول منه

(1) فى هامش الـكتاب عند هذه السطور ما يلى : « ألا رحم الله لى أمير المؤمنين المأمون ما كان أوسع علمه وأغزر عقله فى أمره وتقليده لأبي على فى الصلاة على الجنائز من أولاد الخلفاء ... ... » بخط ردىء غير خط الناسخ

عرابى الفلاح

حديث شيخ معمر من قرية عرابى باشا

للأستاذ محمود الشرقاوى

سيظل اسم عرابى باقياً مذكوراً فى التاريخ المصرى الحديث ما بقى فى مصر شعور بالقومية المصرية . وستظل الحركة العرابية أو « هوجة عرابى » باقية مذكورة فى ضمير الشعب المصرى حية على لسان أفراده وفى قلوبهم حتى تتمكن لمصر الحياة الحرة وحتى تتمكن للشعب المصرى « الفلاح » السيادة التى جاهد عرابى لها ولقى فى سبيلها ما لقى وما يلقى المجاهدون الأحرار

ومهما تكن نتائج الثورة العرابية . ومهما يكتب المؤرخون عن أخطائها فستظل ويظل اسم عرابى معها مذكوراً فى ضمير الأمة المصرية كأول حركة قومية خالصة ، وأول « تنبّه » للشعور بالقومية المصرية فى العصر الحديث ، وأول هبة لتحقيق السيادة المصرية للدم المصرى

وقد عرف الكاتبون وكتب المؤرخون البحوث والتحقيقات عن عرابى البطل وعن ثورته . ولكنى عرفت بمصادفة موفقة حديثاً عن العظمة النفسية التى كان يتميز بها عرابى ؛ وعن الشعور الراسخ بالعزة الذاتية التى كان يحسها لمجرد أنه مصرى وفلاح

وقد بلغ شخص عرابى من الرفعة والمجد ما بلغ ، وارتفع اسمه وعلا إلى حيث ارتفع ، ولكن هذا كله لا يغير من نفسه ولا من شعوره بالفخار أنه مصرى وفلاح ، وبيننا إلى اليوم من لم يبلغ شيئاً ولا ارتفع اسمه شيئاً ولكنه يعلو بنفسه أن يكون فلاحاً وهو من طينه ومن ترابه

بل لقد جعل عرابى نسب فخره أنه فلاح تحدر من أصلاب فلاح ونشأ مثلهم ومعهم بين الماء والطين

وحديث هذه الواقعة هو ما سأكتبه لقراء « الرسالة » كما سمعته

* * *

منذ أيام عشرة قبض الله إليه شيخاً معمراً فى قرية « هرّية رزْنة » قرية عرابى باشا فى جوار الزقازيق وقد جاوز المائة

وهذا المعمر هو الشيخ على نجم معلم القرية ، وكان فيها صاحب « كتّاب » تعلم فيه وحفظ القرآن أبناء هذه القرية وما جاورها جيلاً بعد جيل ، وكان أبوه من قبله معلماً صاحب « كتّاب »

وقد قدر لى أن أجلس إلى هذا الشيخ المعمّر قبل أن يقبضه الله إليه ، وأن يحدثنى عن نبْت قريتهم عرابى وأنه كان يتعلم القراءة ويحفظ القرآن فى كتاب أبيه ، وكان « عرابى » يصغره سناً وإدراكا ويتخلف عنه فى الحفظ . فكان الشيخ محدثى - رحمه الله - « عريفاً » عليه كما يقولون فى لغة كتاب القرية

وبقيت العلائق بين « العريف » المعلم الشيخ على نجم وبين أحمد عرابى حتى انتهى لما بلغ من مجد ومن مكان ، وكان من خاتمة الثورة العرابية ما عرفنا ونقل عرابى باشا إلى جزيرة سيلان ثم أعيد بعد عشرين سنة فيها

قال الشيخ المعمر رحمه الله :

وقصدت ومعى زميل من شيوخ القرية نهبط مصر لنرى عرابى باشا بعد رجوعه من المنفى ، وكان يوم جمعة وحلّ علينا وقت صلاتها قريباً من عابدين ، فدخلنا مسجداً نصلى فإذا بنا ونحن خروج ننتعل أحذيتنا على باب المسجد نرى عربة تقف أمامه وقد صعد إليها رجل كبير ضخم عرفته ، فقلت لصاحبى الشيخ : أليس هذا عرابى باشا ؟ لقد تغير كثيراً ، وكأنه لم يعد يُبصر . فقال صاحبى بعد صمت : ألا ترى من الخير لنا أن نعود وألا نذهب إلى بيت عرابى ، فإنى لا أستطيع أن أراه هكذا فى ختام أيامه كسيراً مخذولاً مهيضاً

وهل تظن أنه يعرفنا بعد كل هذه السنين وهذه الأحداث وهذه الغربة ؟ وإننا نخجل أنفسنا حين نعرض عليه أو يستأذن لنا منه فلا يذكر أشخاصنا بأسمائنا . فهلم بنا نعود . قال محدثى ولكنى عارضت صاحبى وشجعته وقلت له لقد جئنا إلى القاهرة لنزور عرابى ولا بد إن شاء الله أن نزوره . وقصدنا إلى بيته فى شارع خيرت بعد صلاة الجمعة بساعات

فلما قدمنا منزل عرابى باشا استقبلنا على بابه بعض الخدم والعبيد واستقبلنا واحد من أبنائه وهو لا يعرفنا . فلما عرفناه أنفسنا قال إن الباشا ليس فى البيت وترك لنا أن نجلس أمام البيت على « دكة » البواب حتى يعود فيستأذن لنا عليه الخدم ، فجلسنا وقد نظر إلىّ صاحبى كأنما يذكرنى ما قال ونحن نترك

اللورد روبرت بادن باول

الكشاف الأعظم العالمي

للأديب خميس زهران

(بقية ما نشر في العـدد الماضي)

انطلق بادن باول ومعه زميله إدوارد سيسل لتنفيذ التدابير التي ارتأياها . فوضع كل المتدربين في خط القتال وأخذ يجمع الأحداث الذين تتراوح أعمارهم بين ١٢ ، ١٦ سنة وألف منهم فرقة ألبسها الزي العسكري وعهد إليهم ببعض الأعمال مثل نقل البريد والمؤونة والإشارات وحراسة المخازن وغير ذلك من الأعمال التي تحتاج إلى نشاط أكثر من احتياجها إلى تمرين « لقد كانوا فتياناً لا يسددون الرماية ، ولكنهم كانوا يركضون حولنا كالأرانب » . وشرع هو ورجاله في حفر الخنادق حول المدينة لتكون بمأمن من الأعداء

« كان لكل رجل قيمة وبما أن عددهم أخذ في النقصان شيئاً فشيئاً بسبب سقوط القتلى والجرحى ، أصبحت واجبات القتال والمراقبة ليلاً أصعب على الباقين . ثم إن اللورد إدوارد سيسل رئيس أركان الحرب جمع الأولاد في المكان وجعل منهم فرقة تلامذة حربيين وألبسهم وشرع في تدريبهم وأصبحوا بعد حين جماعة لبقين منظمين ، وكنا حتى ذلك الحين نستعين بعدد وافر من الرجال لحمل الأوامر والرسائل والمراقبة وأمثال ذلك . فأضحت هذه الواجبات الآن على التلامذة الحربيين وذهب الرجال لتدعيم خط النار

ولقد أدى هؤلاء الأولاد تحت رئاسة « جوديير » أعظم خدمة واستحقوا الأوسمة التي نالوها عند نهاية الحرب . كان معظم هؤلاء يحسن ركوب الدراجة ، لذلك تمكنا من تأسيس بريد ، استطاع الناس بواسطته إرسال الخطابات إلى رفاقهم الموجودين في مختلف القلاع أو حول المدينة دون أن يعرضوا أنفسهم لخط النار . وجعلنا لهذه الرسائل طوابع بريد رسم عليها صورة تلميذ حربي يركب دراجة

قلت لأحد الأولاد مرة عند ما جاء تحت وابل من النيران : ستصاب يوماً وأنت تركب على هذه الصورة والشرر يتطاير من كل صوب . فأجاب : سيدي إنني أنطلق سريعاً بالدراجة ولن يستطيعوا الوصول إليّ .

المسجد وقد رأينا عرابياً وهم بنا صاحبي أن نعود .

ونحن وقوف على هذه الحال إلى حائط البيت انتهت إلى الباب عربة عرابي ونزل منها أمامنا يتمهّل ووقع بصره علينا ، وبعد دقيقة أو دقيقتين وقد هممت بالتقدم للسلام عليه ناداني : ألست أنت « عرابي » الشيخ علي نجم ؟

وسألني وصاحبي فقصصت عليه كيف جئنا وما قال لنا خدمه وابنه ؛ وكنا دخلنا معه وقربنا إلى حيث يجلس يستقبل ؛ فلما سمع منا تغير لونه ووقف ووقفنا ؛ ثم رجع إلى أول الحديقة ونادى ابنه الذي استقبلنا وطلب معه من في البيت من اخوته ثم وقف وهم جميعاً أمامه ، فحدثهم باللغة التركية حديثاً طويلاً كان فيه ظاهر الغضب . وقد وقفوا جميعاً أمامه صفاً واحداً رؤوسهم على صدورهم مشتبكة أيديهم كأنهم في صلاة ؛ ثم قال ختام كلامه باللغة العربية ، وقد فهمنا منه غضبته وما حدث أبناءه — وخدمه واقفون — باللغة التركية ؛ وكان ختام عرابي باشا حديث أبنائه كأني أسمعه الآن يقول مشيراً إليّ وإلى صاحبي :

هذا زميلي في الكتّاب ، وهذا عرابي جلست إليه يسمع مني القرآن فهو معلمي ؛ وأنا فلاح ابن فلاح تحدرت من أصلابهم وأنا بهم فخور ، فخور بأني نشأت ولعبت في الماء والطين معهم ؛ وأنا عرابي باشا ، ولكني فلاح ومن قرية « هريّة » ، وهؤلاء الفلاحون هم أهلي وعشيرتي ومنهم دمي ، فمن جاء منهم إلي لا يجلس بالباب .

ثم أمر أولاده فانصرفوا وهم سكوت ؛ ودخلنا فجلس معنا ساعات يحدثنا عن صبانا وأيام الطفولة ويسألنا عن رفقاء الكتاب . وأراد أن يستبقينا ليلتنا فشكرنا واعتذرنا . ولم يتركنا عرابي باشا حتى خرج معنا خطوات من حجرته واستحلفنا أن نعود إليه وأن نراه

قال محدثي الشيخ المعمر : ولم يشأ الله أن نزوره ولا أن نراه . ولكننا نحبه كما كان يحبنا

قلت يرحمك الله أيها الشيخ كما يرحم الله عرابياً البطل الفلاح

محمود الشرقاوي

يظهر أن هؤلاء الأولاد لم يفكروا فى القذائف قط . كانوا دائماً على استعداد لتنفيذ الأوامر مع أن الخطر كان منهم على قاب قوسين أو أدنى . وهكذا صارت المدينة فى حركة ونشاط متواصلين وقد سرت فى نفوس الجميع روح الثقة والأمل

فإن نعجب فلنعجب لهذا الساحر كيف أوتى هذه الجاذبية المدهشة التى سرعان ما أحالت الحامية خلقاً جديداً وأشاعت فى جنودها النشاط والرغبة فى العمل

وحدث فى تلك الأثناء حادث طريف يدل على ذكائه الفطرى فقد نصب أعلاماً سوداء حول المراعى الخضراء موهماً العدو أنها ملأى بالمفرقعات والألغام لكى يتقى شر الإغارة عليها ولتبقى سليمة ترعى فيها إبله وماشيته وهما قوام حياة جيشه المحاصر . فلما رأى جنود العدو هذه الأعلام ساروا فى طريقهم ولم يصوبوا أفواه بنادقهم ولا قذائفهم صوب هذه المراعى خشية انفجار المفرقعات المهلكة والتى ظنوها شراكا منصوباً لهم . ومما ساعد على نجاح خدعته هذه أن حدث أن الأعداء أطلقوا أعيرتهم النارية على إحدى عربات السكك الحديدية ظانين أن بها بعض رجال الحامية الإنجليزية ولم يكن بها إلا مفرقعات حقيقية فما لبثت أن تطايرت الشظايا والمفرقعات فأصابت المئات منهم . وهكذا سنحت الفرصة لرجال الحامية الذين هجموا على الأعداء فأدخلوا الذعر فى قلوبهم وجعلوهم يلوذون بالفرار

تلك واقعة واحدة سقناها للتدليل على شجاعة بادن باول فى تلك الحرب التى استمر لظاها مدة ٢٨٠ يوماً وانتهت بأن طلب قائد الجيش البورى الصلح حقناً للدماء معترفاً بما أبدته تلك الحامية الضئيلة العدد من البسالة الفائقة والمقدرة النادرة

ولنترك الآن روبرت نفسه يصف الحالة أثناء الحصار بتلك الجمل التى خاطب بها رجال حاميته مفكنج بعد أن فك الحصار عنها ومودعاً لهم « لقد كان مثلنا إبان ذلك الحصار كمثل أسرة سعيدة واحدة ، والآن جاء وقت الفراق . إنى أذكر أنى قلت لكم يوم أن حوصرنا وتقطعت بنا الأسباب : اربضوا ربضة الأسود . صوبوا إلى المرمى بنادقكم . ولقد قمتم بذلك خير قيام فكانت النتيجة ما ترون . ولقد أثنوا على شخصى الضعيف ، ولهجت الألسن بذكرى والثناء علىّ الثناء كله وفاتهم أنه من السهل أن يكون المرء ربان سفينة ونسوا الحامية التى هى شراع السفينة مفكنج التى أخرجتها من العواصف القاصفة والزعازع المتلفة وأوصلتها إلى الميناء بسلام »

كل هذا حدث بفضل بادن باول الذى كان الناس يشكون فى نجاحه فى هذا الحصار ولكنه بجده ونشاطه ومثابرته على العمل وإيمانه بقدرته على النصر تمكن من التغلب على الصعاب التى اعترضته وفاز بنصر مبين رفعه إلى أوج المجد والشهرة

حياة بادن باول الملأى بالمجازفات والأخطار وما شاهده من بطولة الصغار فى ظروف عدة وما لديهم من قوى كامنة تدفعهم لاختراق النيران بنية القيام بالواجب ، وجهل الجنود بمعرفة الاتجاهات واستعمال الفئوس فى الغابات ، وجهلهم أيضاً إيقاد نار فى يوم اشتدت فيه الرياح أو هطلت فيه الأمطار : كل هذه أوحت إليه المبدأ الذى نسير عليه

فلما وضعت حرب البوير أوزارها آلى السير روبرت بادن باول على نفسه أن ينشر نظام الفتية الصغار بطريقة أوسع وأنظم فى بريطانيا العظمى إذا ما ألقى عصاه بها . ولما رجع إلى وطنه لم يأل جهداً فى تنفيذ فكرته فأقام معسكراً تدريبياً فى جزيرة صغيرة تسمى برونس ونجح نجاحاً جاوز الآمال فيه . شجع نجاح ذلك المعسكر السير روبرت بادن باول على المضى قدماً فجاهر بفكرته وأعلنها للملأ ؛ فندد بها الاستعماريون لما فيها من إخاء عالمى ولما تحويه من إزالة للفوارق الصناعية بين الإنسان وأخيه الإنسان ؛ وازدراها الاشتراكيون لأنهم توهموها عسكرية مقنعة ليس فيها لخير الإنسانية من شىء ، وسخر كثير من زيها ورأوا فيه خروجاً عن اللياقة وضرباً من التصابى ، فصمد لهم جميعاً وصابرهم إلى أن أصدر كتابه "Scouting for Boys" فى ربيع سنة ١٩٠٨ وقد وجه فيه الخطاب للفتيان أنفسهم فأقبلوا عليه إقبالاً عظيما والتهموا ما فيه التهاماً ، وانخرطوا فى سلك الحركة مؤمنين بمبادئها مصدقين بتعاليمها

وفى عام ١٩١٠ أسست الكشافة ليتعلم فيها معتنقوها الصبر واحتمال المكاره والاستمساك بالعقيدة والاستهانة بكل شىء فى الحياة عداها ، ويلقنهم البساطة والحياة الطبيعية لتطهر نفوسهم من الأطماع ولتخلص من الدسائس والمواجس فيجتمع لكل

أبنائها إرادة قوية وعزم من حديد ، فإذا اجتمع للانسان الإرادة وطهرت نفسه وقوى إيمانه بفكرته فمن ذا الذى يستطيع أن يقف فى طريقه ؟

وعاش الكشافون عيشة التقشف : ألم يعش الخلفاء الراشدون عيشة الفقر وأملاك دولتهم تمتد وتتسع ، ورقعة امبراطوريتهم تعظم وتترامى ؟ ألم يكن رداء عمر (مرقعة) ذهب أصلها وبقيت رقعها وجيوش المسلمين تهد امبراطورية الروم ؟ ألم يرسم محمد صلى الله عليه وسلم للقادة والزعماء وأصحاب الرسالات والمبادئ والعقائد دستوراً جليلاً حكيما حين قال : « طوبى لمن أنفق مالاً اكتسبه من غير معصية ، وجالس أهل الفقه والحكمة ، وخالط أهل الذل والمسكنة . اللهم أحينى مسكيناً وأمتنى مسكيناً وأدخلنى فى زمرة المساكين » . اتخذ بادن باول لجماعته زيًّا خاصاً خاكى اللون رخيص الثمن بسيط المظهر ؛ وشجعهم على عقد الاجتماعات والقيام بالرحلات والمخيمات ، وعلمهم الاقتصاد فى معيشتهم ، وعودهم إلى الأخوة فى مأكلهم ومشربهم ، والمحبة فى معاملاتهم والإخلاص فى صداقتهم ، ومنعهم عن التدخين وشرب الخمور ، وحرم عليهم الفسق والفجور ، ليحفظ لهم صحة أجسادهم وقوة أبدانهم وسلامة عقولهم وبارز شخصياتهم ووافر كرامتهم . لم يكن وقت التمرين قاصراً على التربية البدنية ، بل تعداها إلى التربية الروحية ؛ فأقام المخيمات التدريبية لبث الروح العسكرية فيهم ، وألقى المحاضرات التاريخية ليزيدهم تعلقاً بكل ما هو قوى، ومحبة لكل ما هو وطنى ، وأذكى فيهم شعلة الحماس بالأغانى القومية والأناشيد الوطنية . ويعزى السبب فى انتشار الكشافة إلى إيمان بادن باول وعقيدته فى صحة ما يدعو إليه . ولا غرو ، فإن أصحاب المذاهب والمبادئ الاجتماعية الكبرى التى أثرت فى تاريخ العالم وغيرت مجراه لم يتمكنوا من جذب النفوس إلى مبادئها إلا بعد أن ثملوا بخمرتها ، وبذلك أمكنهم توليد تلك القوة العظيمة الأثر فى النفوس ، ألا وهى الإيمان ، وهى التى تجمل المرء عبداً لمذاهبه .

وقد تزوج اللورد روبرت بادن باول فى اكتوبر سنة ١٩١٣ بمس أوليف ورزق منها ولداً وابنتين ، وانتخب كشافاً أعظم للعالم فى أول معسكر دولى أقيم فى انجلترا سنة ١٩٢٠ ، ولقد أنعم عليه صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى جورج الخامس عام ١٩٣٠ بلقب لورد جزاء وفاقاً على قام ما به من عمل جليل .

وكرمته جامعة ليفربول ومنحته لقب دكتور فى القانون (L. L. D.) ولقد جمع اللورد بادن باول خريجى معهد جلويل بارك Gilwell Park المخصص لتدريب معلمى الكشافة على فنونها المختلفة نظرياً وعملياً ، وهو قصر فخم وسط ضيعة كبيرة فى مقاطعة اسكس بالقرب من لندن وسألهم أن ينتخبوا له اسمه الجديد الذى يضاف عادة بعد اللوردية فأجمعوا على جلويل فاغتبط به وأظهر ارتياحه

فبادن باول رجل خليق أن يعلم عنه شيئاً وأن يشغل حيزاً فى ذاكرة كل فرد منا ومكانة فى نفس كل واحد ؛ ولا غرو إذا تقدمنا لقراء الرسالة بسيرة هذا البطل إعجاباً بهذا الطراز الجديد من الرجال وهم الذين لم يشهدوا فى عصرنا غير رجال مزيفين من الحواشى . رجال أو أشباه رجال ولا رجال ممن لم يحذقوا غير التخنث والأناقة ولم يبرعوا فى غير الخبث والمكر ومضغ الكلام وتزجيج الحواجب ! أو بالاختصار رجال من أولئك الذين تلقى بهم المصادفة فى طريق العظماء وتأتى بهم الظروف إلى مجالس الأمراء وأهل الخطر والشأو البعيد . وما أوسع المسافة بين أمثال هؤلاء وبين هذا الرجل النبيل العزيز الجانب الذى تعبق منه روائح المعسكر والخيام كما يعبق منه أريج المخدع والصالون ! رجل وأى رجل !

من كان يدور بخلده أن صبى فرنسا وصبى استراليا وصبى مصر وصبى أمريكا يتلاقون فى مكان واحد : لا يفرقهم جنس ولا تنفرهم ديانة ولا تبعدهم لغة أو سياسة ؟ ومن كان يتوهم ولو على سبيل التفكهة أو المداعبة أن ابن مصر الشرق الناطق بالضاد تأخذه العصبية الكشفية فينهض إلى منافسة ابن التاميز الغربى فى اعتناق مذهب التربية الحديث

إنها آية الكشف وإنها معجزة بادن باول أن يأتلف الشباب حول المبادئ الكشفية ، وإن شئت فقل إنها مبادئ الشباب الحديث الذى يريد أن يرث الأرض جميعاً لا فرق عنده بين وطن وغربة

إن شئت فقل عنها إنها آداب المعاشرة وآداب المؤاكلة وآداب العائلة وآداب الإنسانية وآداب المجتمع الراقى وآداب الحياة الصحيحة الخالية من شوائب السعادة . فما أعذبها مبادئ لو أن السياسة تتركها وشأنها فى الدنيا دون أن تعكر لها صفو أو تكدر لها مجتمعاً

إنما هى فى الواقع توحيد لنظم التربية وعامل قوى لإزالة



محمد أفندي ...!

قيل وما أكثر ما قيل إن قلة الذوق في مجتمعاتنا مردها في الغالب إلى خلوها من المرأة؛ وإلى هذا أشار صاحب الرسالة في أكثر من مناسبة، وعنده أن الشباب إذا ازدانت مجتمعاتهم بالأوانس شدوا الشكيمة وكبحوا جماحهم وحرص كل امرئ منهم على أن يظهر على خير ما يحب من دماثة الخلق ورقة الحاشية ولطف الحديث

ولكن منظاري قاتله الله بل عافاه الله وصرف عنه كل غشاوة يأبى إلا أن يكشف لي عن موقف لا تتحقق فيه هذه الفكرة بل لقد نقضت فيه من أصولها وجاء الأمر على عكس ما تفاءل المتفائلون وتمنى الكاتبون

كنت مسافراً إلى الريف الحبيب في قطار فالتقيت في ممر من ممراته بثلاثة من الشبان تقاربت أعمارهم، وكان كل منهم بادي العافية حسن البزة متهلل القسمات؛ ونادى أحدهم رابعاً لهم كان في اتجاهي يسبقني بخطوات فقال له: أمامك في هذه العربة قبل الآخر بديوان تجد محمد أفندي إلى جانب الشباك الأيمن وقد حجزنا أمكنة فانتظرنا هناك

ودخل « رابعهم » هذا الديوان المشار إليه وأحسست كأني أنجذب إلى هذا الديوان نفسه فدخلت واتخذت مكاني، ولكني لم أجد إلى جانب الشباك الأيمن غير آنسة أجنبية لم تقع عيني في نهاري كله على أجمل منها صورة وأملح منها محيا، وبدت لي في منتصف العقد الثالث من عمرها كالوردة في زمن الورد بلغت أقصى تفتحها ومنتهى ريعانها

وكانت متجهة ببصرها إلى النافذة، لا تلتفت إلا ريثما ترمق الداخل، ثم تعود فتتجه اتجاهها الأول، وكان على محياها الجميل ما يشبه الهم من فرط سكونها واحتشامها

وتحرك القطار وجاء الشبان الثلاثة وجلسوا في ضوضاء بعد أن نظر كل منهم إلى هيئته في المرآة، فأصلح ما تشعث منها، وتشاغلت عنهم بكتاب في يدي، ولكن منظاري لم يغفل عنهم، فرأيتهم يتخاطبون بالأحداق لحظة، وعلى فم كل منهم ابتسامة خبيثة، وكلهم يومئ لصاحبه برأسه نحو النافذة اليمنى

وقطع أحدهم فترة هذه الإشارات اللاسلكية بقوله: « محمد أفندي ثقلان علينا بمنى قوى »؛ وضحك الآخرون ضحكات ماجنة مائعة ... وفطنت أن محمد أفندي لم يكن غير تلك الآنسة التي تتجه بنظرها إلى الفضاء الممتد خارج القطار!

وأيقن أربعتهم أنها لا تعرف العربية. فانطلقت ألسنتهم بألوان من القحة، عجبت ولن أزال في عجب، أن لم يبد على وجه أحدهم أي قدر من الخجل لتلك الألفاظ التي أخجل الآن لمجرد أن أتذكرها! ثم ذهب كل منهم يتظرف بما وسمته سماجته، فهذا يأتي بضروب من النكات لا يسيغها إلا ذوقه وذوق أصحابه، وذلك يداعب خاتمه الماسي وساعته الذهبية، وآخر يخرج حافظة نقوده فيقلب الأوراق المالية ثم يردها إلى جيبه، هذا فضلاً عما تنافسوا في سرده من المغامرات التي صرف فيها ما صرف من الأموال وكلها بالضرورة من نسج الخيال — كل أولئك و « محمد أفندي » في شغل عن ظرفهم ولطف حديثهم بالنظر إلى فضاء الأرض

ولما أفرغوا ما في جعبهم من بارد النكات وسخيف الحكايات انتظرت أن يتطرق إليهم اليأس أو يمسهم شيء من برودة الموقف فيخجلون؛ ولكنهم انتقلوا إلى ما هو أدهى وأمر مما كانوا فيه فراحوا يصفون في طريقة بهيمية جمال تلك الآنسة التي لم يبد على قسماتها إلا ما يبدو على قسمات تمثال من التماثيل من الثبات

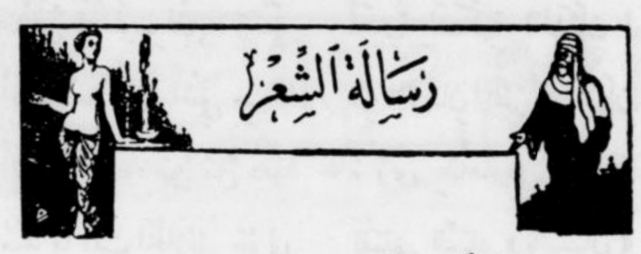
الفوارق، لكن أنى للكشف وغير الكشف أن يزيل الفوارق وفي الدنيا من جنود الشيطان أضعاف أضعاف بني الإنسان

رحمك الله يا جبار الكشف وأنعم بك من صرب حطم القيود وزحزح العقبات من طريق مبادئه الصحيحة!

ها هي ذي الفقرة الأخيرة من رسالته التي أذاعها لأبنائه كشافي العالم من روديسيا: « لقد عشت جندياً ثم كشافاً، أما المرحلة الثالثة من حياتي فتتوقف على ما يريده لي الأطباء »

ذلكم هو المرحوم الدكتور روبرت بادن باول ولورد جلويل وملك قلب كل كشاف، فرحمة الله رحمة واسعة

خميس زهران
زعيم جوالة باسكندرية



نهر النسيان ... !

[إلى الذين هموا بالرحيل ولم يعرفوا إلى أين .. !]

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

اِسْقِيَانِي مِنْ خَمْرَةِ النِّسْيَانِ   وَانْسَيَانِي فَقَدْ نَسِيتُ زَمَانِي !
وَنَسِيتُ الشَّبَابَ وَالسِّحْرَ وَالأحْـ   ـلَامَ وَالْفَنَّ وَالرُّؤَى وَالأغَانِي
وَنَسِيتُ الْمُنَى وَكَانَتْ شُعَاعًا   بَاهِتَ الظِّلِّ حَائِرًا فِي جَنَانِي
وَنَسِيتُ الأسَى وَكَانَ رِيَاحًا   أزْجَتِ الْجِنُّ خَطْوَهَا فِي كِيَانِي
وَنَسِيتُ الأيَّامَ حَتَّى تَلَاشَتْ   كَهَشِيمٍ عَلَى تُرَابِ الزَّمَانِ
وَنَسِيتُ الأنْغَامَ رَعَّاشَةَ الشَّدْ   وِ حَيَارَى حَزِينَةَ الْعِيدَانِ
وَنَسِيتُ الدُّمُوعَ وَهِيَ أغَانٍ   أخْرَسَتْهَا زَوَابِعُ الأحْزَانِ
غَرِدَاتُ السُّكُونِ مَخْنُوقَةُ اللَّحْـ   ـنِ تَشَاجَتْ بِسِحْرِهَا أجْفَانِي !

على حال واحدة ، ثم شاءت لهم دماثتهم أن يجعلوها موضعاً لنكاتهم فهى ابنة بائع اسفنج فى الريف أو هى لا تكلف أكثر من نصف ريال يدفع لحزبى إلى غير ذلك مما أمسك القلم عن ذكره من عبارات هؤلاء الظرفاء المهذبين !

ودنا القطار أخيراً من إحدى المدن فنهضت الفتاة لتنزل ومدت يدها إلى الرف لتأخذ حقيبة صغيرة فتقدم أحد هؤلاء الظرفاء وأنزلها لها فتناولتها وهى تقول له فى عبارة فصيحة : « أشكرك جداً يا أفندى » ثم خرجت من الديوان

ونظرت إلى وجوههم وحمرة الخجل تلهب وجنتى ، وأشهد لقد شاعت فى تلك الوجوه الصفيقة شىء من هذه الحمرة ولكن لعل ذلك مرجعه إلى وجودى ، ولعلهم لو كانوا وحدهم لأجابوها بضحكة من ضحكاتهم أو بنكتة من ظريف نكاتهم .

الخفيف

وَنَسِيتُ الْجَمَالَ حَتَّى كَأنِّي   لَمْ أضَمِّخْ بِنُورِهِ ألْحَانِي
فَنَسِيتُ الْعَبِيرَ وَالزَّهْرُ يُذْكِيـ   ـهِ بِفَجْرِ الطَّبِيعَةِ النَّعْسَانِ
وَنَسِيتُ النَّدَى وَقَدْ كَانَ خَمْرًا   لِبَنِي الطَّيْرِ لَمْ تُرَقْ فِي دِنَانِ
وَنَسِيتُ الأنْسَامَ تَنْقُلُ فِي الْمَرْ   جِ صَلَاةَ الطُّيُورِ لِلْغُدْرَانِ
وَنَسِيتُ النُّجُومَ وَهِيَ عَلَى الأُفْـ   ـقِ نَشِيدٌ مُبَعْثَرُ الأوْزَانِ
وَنَسِيتُ الرَّبِيعَ وَهْوَ نَدِيمُ الشِّـ   ـعْرِ وَالطَّيْرِ وَالْهَوَى وَالأمَانِي
وَنَسِيتُ الْخَرِيفَ وَهْوَ صِبًا مَا   تَ فَسَجَّتْهُ شَيْبَةُ الأغْصَانِ
وَنَسِيتُ الظَّلَامَ وَهْوَ أسَى الأرْ   ضِ وَتَابُوتُ شَجْوِهَا الْحَيْرَانِ
وَنَسِيتُ الأكْوَاخَ وَهِيَ قُلُوبٌ   دَامِيَاتٌ تَلَفَّعَتْ بِالدُّخَانِ
وَنَسِيتُ الْقُصُورَ وَهِيَ قُبُورٌ   ضَاحِكَاتُ الْبِلَى مِنَ الْبُهْتَانِ
وَنَسِيتُ النَّعِيمَ وَالْبُؤْسَ مَاذَا   تَرَكَا لِي مِنْ شِقْوَةٍ أوْ أمَانِ ؟
وَنَسِيتُ السَّلَامَ وَالْحَرْبَ سِيَّا   نِ شَذَا النَّوْرِ أوْ لَظَى الْبُرْكَانِ
وَنَسِيتُ الْهُدُوءَ وَالضَّجَّةَ الْهَوْ   جَاءَ سِيَّانِ سَكْتَتِي أوْ بَيَانِي !
وَنَسِيتُ الْكَلَامَ مَاذَا جَنَى الْمُصْـ   ـغِي إلَيْهِ سِوَى بُغَاءِ اللِّسَانِ ؟
وَنَسِيتُ السُّكُونَ وَهْوَ عَزِيفٌ   أبَدِيُّ الصَّدَى أشَلُّ الْمَثَانِي
وَنَسِيتُ الْحَيَاةَ وَهِيَ رَمَادُ   نَفَخَتْ ذَرَّهُ يَدُ الشَّيْطَانِ
وَنَسِيتُ الْفَنَاءَ وَهْوَ بِجِسْمِي   هَادِمٌ يَرْصُدُ الْفَنَاءَ لِبَانِي !
وَنَسِيتُ النِّسْيَانَ وَالذِّكْرَ حَتَّى   صِرْتُ وَهْمًا فِي خَاطِرِ النِّسْيَانِ !
وَتَجَرَّدْتُ مِنْ زَمَانِي وَكَوْنِي   لِزَمَانٍ مُحَجَّبٍ عَنْ عِيَانِي
وَإذَا بِي فِي قَفْرَةٍ ألْقَتِ الصَّمْـ   ـتَ عَلَيْهَا صَوَامِعُ الرُّهْبَانِ
خَاصَمَ الدَّهْرُ لَيْلَهَا فَهْيَ دَهْرٌ   مَا رَأتْهُ مَرِيرَةُ الأكْوَانِ
وَلَوَى الْجِنُّ خَطْوَهُ عَنْ ثَرَاهَا   فَهِيَ حَتْفٌ لِكُلِّ إنْسٍ وَجَانِ
لَا ظَلَامٌ ، وَلَا ضِيَاءٌ ، وَلَكِنْ   غَيْهَبٌ حَائِرٌ عَلَى الْكُثْبَانِ
لَا سُكُونٌ ، وَلَا ضَجِيجٌ ، وَلَكِنْ   هَمْهَمَاتٌ يَلْغَطْنَ فِي وِجْدَانِي
جُبْتُ فِيهَا حَيْرَانَ أقْذِفُ نَفْسِي   فِي خِضَمٍّ مُغَيَّبِ الشُّطْآنِ
وَإذَا أشْيَبٌ يُغَمْغِمُ كَالْمَجْـ   ـنُونِ بَيْنَ السُّهُولِ وَالْوِدْيَانِ
شَعْوَذَتْهُ السَّمَاءُ فَهْوَ خَيَالٌ   يَتَزَيَّا بِصُورَةِ الإنْسَانِ

آدميّ الرؤاء أذهله الوهـم   وغشّته هبلة الحيوان

نقش العنكبوت فوق محيّا   ه ظلالاً من صفرة الأكفان

مقلتاه بئران دلوهما الظـنّ   وغيبان في الدجى تائهان !

وبداه لقامة الزمن الأعـرج   عكّازتان مشدودتان !

ثمّ إحداهما ولوّح بالأخـرى   لوادٍ مخدّر نعسان

فيه نهر من الدموع ، وجبٌّ   مترعٌ بالأنين والأشجان

وقلوبٌ أقلّها بين جنبيـه   سفين يجري بلا ربّان

والهات ، مجرّحات ، حزانى   مزّقتها فواجع الأزمان

بينها ناكلٌ ، وآخر شجّتـه   يدٌ للأسى بغير سنان

وشقيٌّ يسوقه نحس دنيا   ه إلى مرفأ شقيّ المكان

ويتيمٌ ، وبائسٌ ، وغريبٌ   وشريدٌ مقطّع الأرسان

ومنادٍ دعا الأماني فصدّتـه !   وعادت إليه بعد الأوان

وحبيبٌ أردته في لهب الأسـقام   والسهد صرعة الحرمان

وطعينٌ بخنجر الظلم باكٍ   دفنت نوحه يد الطغيان

أرعشتني السفين واستلب الأشـيب   وعيي ، ربّاه ماذا دهاني ؟

فتهاويت كالهشيم على أشـلاء   روحي المفزّع الأسيان !

ثمّ ناديته فأمعن في الصمـت   قليلاً وصاح بي : من دعاني ؟

قلت : روح معذّبٌ ! قال : من أيـن ؟   فقلت : الأسى إليك رماني

خلّني أستقي الهدوء ، وألقى   بين كفّيك راحة السلوان !

قال : أقبل فكم بدنياك صرعى   شربوا من يديّ رحيق الحنان

فتلاشت دموعهم ، أرأيت الشّـكّ   تبليه نورة الإيمان !

واستطارت شجونهم ، أرأيت الطيـف   تطويه هبّة الوسنان !

قلت : من أنت ؟ قال : رؤيا خيال   كلّ حيّ على الوجود رآني

أنا معنى في خاطر الغيب ذابت   حول أسواره جميع المعاني

أنا كهفٌ مغلّفٌ في حشا الدهـر   يشعّ الفناء من جدراني

غلّفت في ثراي دنيا الشقيّيـن ،   ولاذ الوجوم في أركاني

وارتمت حولي الحظوظ التعيسـات ،   ونام العذاب في أحضاني

مدفنٌ للخطوب قلبي ، ومنفى   أبديٌّ لنكبة الحدثان !

أنا طبّ الأيام أشفي جراحا   ت الزمان المرزّإ اللهفان

أنا بحر الهدوء من ملّ دنيا   ه رمى عبأها على شطآني

منذ ما دبّت الخلائق حولي   لقّبتني السماء « بالنسيان »

فنسيت الحياة والموت ما أد   ري أحيٌّ أنا هنا أم فان ؟!

مرّ بي « آدم » قديماً فأوما   ت إليه بطرف هذا البنان

فسقى قلبه من النهر كأساً   وتلاشى عن أعيني في ثوان

وإذا بي أراه يهتك سرّ الـخلد   في غير هدأة أو توان

مال بالدوحة التي قدّس اللـه   جناها فلم تنلها يدان

وجنى من ثمارها هذه الدنـيا   وأحداث هذه الأكوان

عبّ خمري فأذهلته عن الغيـب   وأقصته عن ظلال الجنان !

ليته لم يذق رحيقي ولم يهـرع   لنهري ولم يطاوع بناني !

أنا سرّ الوجود من رام سرّي   نسي الحشر قلبه في جناني ..

. . . .

قلت : يا حادي الخطايا لقبرٍ   مردت ركنه يد الغفران !

يا هواي الذي تهافت بالرو   ح عليه وبالحجا والجنان

أينما سرت جرّ طيفك أحلا   مي ومن نهرك المصفّى سقاني

منذ ما جئت للثرى وأنا صبّـك   فارحم عبادتي وافتتاني !

مزّقتني أشواك دنياي واغتا   لت شبابي وأزعجت ألحاني !

الهوى والنشيد — يرعاهما اللـه —   بتيه الخلود قد ضيّعاني !

تركاني أهيم كالعاصف المشـدوه   في كلّ بقعة ومكان

لاذ عمري بشاطئيك فدعني   في ثراك الغريب أدفن زماني

فتمطّى فزلزل الأرض تحتي   وطوى الصمت في الفلا إذ طواني

محمود حسن اسماعيل

حكم استئنافيا بتغريم عبد القادر حسن المداوي التاجر بمصر القديمة بالقضية ١٦٠٩٩ بجلسة ١٥ ديسمبر سنة ١٩٤٠ ٦ جنيهات لبيعه لحم بأزيد من التسعيرة .



شيء فظيع

أربعة قتلى، والخامس له الله

للأستاذ عزيز أحمد فهمي

أيام العصر الذهبي لشركة ترقية التمثيل العربي ، أخرجت هذه الشركة رواية عن « محمد على الكبير » . وأسرفت الشركة في الإنفاق على إخراج هذه الرواية إسرافاً كان يريد أن يناسب ذكرى ذلك الأسد الذي جاء مصر جندياً صغيراً ثم استولى عليها بأخلاقه وعقله وشخصيته ، ثم نفخ فيها من هذه الأخلاق وهذا العقل وهذه الشخصية الملكية ما استطاعت مصر أن تستولى به على غيرها من جاراتها القريبات والبعيدات ، حتى لقد هجمت على تركيا الشامخة بقوتها الفتية الحقة ، وحتى لم تجد تركيا مفراً من أن تستنجد بانجلترا وفرنسا ، وروسيا أيضاً على ما أظن ، لتقف هذه الدول مجتمعة تيار الهجمة المصرية الجارفة ...

هذه الذكرى الجبارة ، أرادت شركة ترقية التمثيل العربي أن تخلدها برواية « محمد على الكبير » فلم تأل جهداً في إعداد العدة لها ، ولقد استعانت الشركة أيامها بالسراي الملكية نفسها ، فاستأذنتها في أن يطلع مندوبون منها على مخلفات محمد على الكبير في متحف القصر ، وأن يأخذوا لها صوراً ورسوماً ما أرادوا ذلك ، وكان أن تم كل الاستعداد على أكمل الوجوه ، وكان أن وعد المغفور له الملك الأسد المسلم فؤاد الأول بشهود التمثيل في الليلة الأولى ...

وهنا نقف وقفة أمام طيف فؤاد الأول فقيدنا الكريم

لقد كان رحمه الله رجلاً فذاً له جلال وله رهبة . وكانت تنبعث من ذاته ملكية طبيعية تنتشر حوله فإذا كل ما اشتملته خاضع لها خضوعاً طبيعياً لا إرادة فيه ، وكان فيه من الحيوية ما ينشر هذه القوة إلى أفق بعيد قد لا تستطيع شخصية أخرى أن تمد سلطانها الطبيعي إليه . وقد لحظت هذا عند ما افتتح رحمه الله الجامعة المصرية في سنة ٣١ أو ٣٢ إذ أعدت الجامعة له سرادقاً هائلاً في الفضاء الذي كان خلف كلية الآداب ، وأعدت له الجامعة عرشاً نصبته على منصة عالية ، فلما جلس جلالته على العرش مستمعاً إلى الخطباء ، ولما وقف الجارم بك يلقي شعراً انصرفت أنا عن الشعر ، وكنت بين الطلاب ، إلى مشاهدة هذا الجمع والتأمل فيه ، وكان أن مددت بصري إلى نهاية السرادق أو نهاياته جميعاً ، فإذا بي أرى كل فرد من هـذا الزحم قد ترك الشعر مثلما تركته أنا ، وأسلم نفسه بحواسه جميعاً إلى هذا الملك كأنه ينتظر منه أن يلقي إليه إشارة فيسرع إلى تلبية الإشارة . . . كل فرد كان على هذه الحال ، ومن يومها آمنت بأن فؤاد الأول لو لم يكن ملكاً لكان ملكاً ...

أمام هذه الشخصية ... من الذي يستطيع أن يمثل دور محمد على الكبير تمثيلاً حياً ، يبدأ حياً ، ويستمر حياً وينتهي بانتهاء الرواية حياً لا تخلخل فيه ولا هبوط ؟!...

لقد كانت مشكلة ، ولقد حلتها شركة ترقية التمثيل العربي بأن عهدت بالدور إلى عبد العزيز خليل ...

ووجدها عبد العزيز خليل فرصة العمر

وفي ليلة الملك هدر عبـد العزيز خليل ساعتين أو ثلاث ساعات من ساعات يقظته الفكرية وهي الساعات القليلة التي تمد في حيـاة الفنان الإنتاجية في إعداد شكله ونفسه بالمكياج ، أما شكله فقد لعب فيه بالأدهان والشعر والأصباغ ، وأما نفسه فقد لعب فيها بالكبر ليكون كالرجل الكبير الذي سيمثله ، وبالتقوّي حتى يكون كالرجل القوي الذي سيغيده إلى الأنظار والأسماع والأفئدة ، وبالتسلط حتى يكون كذلك السلطان محمد على

ورفعت الستار ، وبدأت الرواية ودخل محمد على ... محمد على الممثل دخل إلى المسرح

ولكن حدث أن حضرة صاحب الجلالة الملك بالقوة والحق فؤاد الأول وقف احتراماً لمحمد على ... فوقف الشهود معه أمراء ووزراء ومن هم دون ذلك

فهل كان جلالته يقف لأى ممثل آخر ... مهما كان الممثل!

لا . وإنما جلالته وقف جزاء وتكريماً لهذا الممثل الذى أفنى نفسه واستحضر بدلاً منها نفس محمد على ، فلم يبد من نفسه شىء وإنما دخل إلى المسرح وهو محمد على فلم يكن عجباً من حفيد محمد على أن يقوم إجلالاً لمحمد على هذا الذى يراه ماثلاً أمامه ...

لقد اضطرب عبد العزيز خليل ولم يعرف كيف يتخلص من هذا الموقف المربك ، فكان أن ألهمه الله الخلاص إذ أشار بيده إشارة شاملة إلى الممثلين من حوله وقال : تفضلوا يا أولادى

وانتهى التمثيل ، وبلغت السراى إعجابها إلى الأستاذ عبد العزيز خليل ، ومنحت شركة ترقية التمثيل العربى ممثلها هذا الفذ مبلغاً كبيراً من المال مكافأة له على تشريفها فى عينى الملك

ودارت الأيام ، وانفضت شركة التمثيل العربى ... وإذا بعبد العزيز خليل ممثل معطل ، حتى الفرقة القومية التى تضم الأساتذة : محمد على إسماعيل ، وإبراهيم محمود عبد الله ، وعبد الله محمود إبراهيم ، لا تريد أن تعترف بالأستاذ عبد العزيز خليل ممثلاً لماذا ... ؟

ليس هناك سبب إلا أنه ممثل عظيم ، وأنه وصل إلى ما لم يصل إليه ممثل مصرى ؛ وهذا عند أهل التمثيل كاف جداً لأن يكون مبرراً للقتل ؛ فكلما جاء ذكر عبد العزيز خليل جاءت معه النميرة وجاءت معه النميمة ، والاغتياب ، والتهم الحقة والتهم الباطلة ، وكل ما يمنع عنه الرزق والخبز والماء والهواء إذا أمكن ...

فإذا ثار عبد العزيز من شدة هذا الضغط الحرام وقال كلمة نابية ، أو كلمة خارجة استشهد على هذه الكلمة الشهود وحوسب عليها أشد الحساب . . . وغيره يا ما أكثر ما يقول ، ويا ما أكثر ما يفعل ، ولكنه مسامح ومقبول منه كل ما يقول وكل ما يفعل إذ لا خطر منه على أهل الفن كالخطر المنظور من عبد العزيز خليل والرؤساء يسمون الداهنين المتملقين ، ولا يسمون الصادقين

وعلى هذا الأساس سيموت عبد العزيز جوعاً فى مصر بعد أن مات عطشاً إلى فنه ...

فإلى من يشكو عبد العزيز وأمثاله ؟! ...

إلى الله وأنه سميع مجيب ... وهو الرزاق وحده ، وهو المنتقم الغفار ، الجبار الرحيم

* * *

وعبد الحميد الديب ، الشاعر الذى يهجو بالشعر الأستاذ العقاد ويأخذ منه أجر الهجاء

لماذا يعطيه الأستاذ العقاد أجراً على هجائه وهو الذى إذا عمد إلى القلم هاجياً تقصفت أمام هجائه الأقلام ؟ ... لاريب أن العقاد يشعر بحلاوة فى هجاء الديب ، وهذا الشعور اعتراف من العقاد بأن الديب أديب كبير وشاعر يفاجئه بمعان وأخيلة يستحسنها ويطرب لها ... وشهادة العقاد واعترافه لها أثرها فى حياة الكثيرين من الأدباء فى مصر ؛ فهناك ناس أصبحوا بين الأدباء المعدودين والشعراء الملحوظين ، وما كانوا ليكونوا شيئاً مذكوراً لولا أن العقاد زكاهم بكلمة أو كلمتين ...

وهذا عبد الحميد الديب لا ريب أنه كان يحب من الأستاذ العقاد كلمة عن شعره وأدبه ينشرها فترفعه من صفوف المغمورين الجياع إلى صفوف البارزين المرتاحين ...

ولكن الأستاذ العقاد له من شغله ما ينسيه عبد الحميد الديب فلا يذكره إلا وقت ما يراه ، ووقت ما يستمع إلى هجائه ، ووقت ما يدفع ثمن هذا الهجاء ... ثم ينساه ...

لقد ضاقت الحياة النظيفة بعبد الحميد الديب . وانجرف فى تيار لا ريب أنه أول من يكرهه ويمقته ، ولكن كيف سبيله إلى الحياة النظيفة وهو كلما طرق باب عمل فى صحيفة طن الذباب وأزت الصراصير فى آذان أصحاب العمل بأن هذا رجل فاسد وأنه كيت وكيت ، كأن أولئك الذباب والصراصير من مختلسى حرفة الأدب والشعر لا فساد فيهم ولا كيت ولا كيت ، والواقع الذى يعلمه الله أنهم كلهم فساد وكيت وكيت ...

الذباب والصراصير ...

أنقذ الله منهم عبد الحميد الديب . . .

وحسن سلامة ... اللحن الذى انجذب إلى حسن الأنوثة وجالها فانطبعت فى روحه بحركاتها وسكناتها ، والذى يلحن كلما ضاق به الحال لبديعة أو بيا لحناً أو لحنين ولا يعود إليهما إلا إذا ضاقت به الحال مرة أخرى ... والذى كلما لحن لحناً اغتصبته « المونولوجيستات » و « العوالم » ورحن يتاجرن به فى الليالى والأفراح ملاقيات ما شاء الله من النجاح والترحيب والأجر الكريم ... وصاحب الحق الأول فى هذا كله مغمور مفلس لا يهتم به أحد لأنه إذا اهتم به أحد ظهر فى الميدان ظهوراً قد تنكسف معه أضواء الكثيرين من الكواكب والنجوم ...

وعلى هذا أيضاً تلوثت سمعة حسن سلامة ، فكلما اقترح مقترح على واحد أو واحدة من أصحاب العمل باستغلال مواهب حسن سلامة هيأ الشيطان لحسن عقلاً ذمياً مناعاً للخير معتدياً أثيماً يقول إن حسن سلامة مجنون بالنسوان وأنه خطر على الراقصات والمغنيات اللواتى يجمعهن به العمل ، وأنه خطف فلانة من مسرح كذا ، وفلانة من صالة كذا

والمسكين لا يخطف ولا يغتصب وإنما هو يتزوج ويطلق بحثاً وراء الراحة والعيش المطمئن ...

إن هـذا اللحن جدير بأن يمهد إليه استوديو مصر تلحين الأغانى فى أفلام استعراضية قصيرة يتوفر عليها مخرج لبق رشيق وتقوم بأدائها فنيات خفيفات كأولئك اللواتى نراهن فى استعراضات هوليود ...

هـذا صحيح ... ولكن أين هو ذلك المخرج ، وأين هن الراقصات ، وأين هو ذلك المدير الذى يسمح لمحن شاب بالتجلى والظهور يتبعهما المجد والربح الوفير

لا شيء من هذا فى مصر ... وإنما يجب على حسن سلامة أن يموت ...

***

وسيد سليمان ... الذى لا تنقصه الصبغة ليكون مثل « آل جولسن » ... إنه مغن وممثل ومونولوجست وزجال أيضاً لو أن الفرصة أتيحت له للظهور فى السينما لجذب الجماهير وقفز قفزة قد يعلو بها على مرتبة القابضين والقابضات على خناق الفن فى مصر ... ولو أنه أتيح له أن يلقى مونولوجاته الاجتماعية الحية بين الفصول الدسمة جداً التى تمثلها الفرقة القومية لغطى الفرقة وفنها الهائل جداً ...

ولكن منذا الذى يسمح له بهذا ؟ ... أهم مجانين ... إن عليه أن يموت ... ولكنه لن يموت ...

***

هؤلاء أربعة ... والخامس ... عزيز أحمد فهمى



العوائد [١]

الأستاذ مصطفى محمد ابرهيم ضم (الأهالى) محسناً إلى قبيل العربية، والأهالى والأهلون والأهلات [٢] عربيات خالصات.

وحاول الأستاذ أن ينقد (العائلة) فى (تحرير المرأة) إنقاذاً لغوياً... بيد أنه نسى (العوائد) أو تناساها، فهل يحاشى صاحبه ناقدها الأستاذ محمداً أبا بكر ابرهيم فى تخطئته إياها؟

إن العلامة الفيومى فى (المصباح المنير) يقول: العادة معروفة والجمع عاد وعادات وعوائد [٣]

والعلامة الشيخ ابرهيم اليازجى تقبل (العوائد) فى (الضياء) تقبلاً مليحاً على حنبلية فى اللغة عنده وعلى ولعه بتخطئة الصحيح، فقد ورد هذا الجمع فى مقالة له لا لغيره فى مجلته: «... ولا يطلب علماء هذه الأيام الوقوف عليها (أى على طائفة من الكتب)، إلا بقصد الاطلاع على الشيء الغريب، كما يحب أحدنا الاطلاع على (عوائد) أهل الصين» [٤]. وروى نصًّا فى التاج فى جواب سؤال: ومن جموع العادة عوائد ذكره فى المصباح وغيره وهو نظير حوائج فى جمع حاجة نقله شيخنا» ثم قال ـ أعنى اليازجى ـ: «فالظاهر من هذا النص أن هذا الجمع منقول عن العرب لثبوته عند أئمة اللغة [٥]»

وبين العلامة الفيلسوف ابن خلدون وبين [٦] (العوائد) حلف أو محالفة أو معاهدة متينة مستمرة فهو لا يترك (عوائده) هذه فى حال فى مقام يقتضيها:

«... — فى أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله و (عوائده) — والسبب فى ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فى من غلبها وانقادت إليه، إما لنظره بالكمال بما وقر [١] عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعى إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك انتحلت جميع مذاهب الغالب، وتشبهت به؛ أو لما تراه من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس، وإنما هو بما انتحله من (العوائد) والمذاهب تغالط أيضاً بذلك عن الغلب، وهذا راجع للأول، ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب فى ملبسه ومركبه وسلامه وفى سائر أحواله»

«أن (العوائد) تقلب طباع الإنسان إلى مألوفها، فهو ابن (عوائده) لا ابن نسبه»

«... — فى أن رسوخ الصنائع فى الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها — والسبب فى ذلك ظاهر، وهو أن هذه كلها (عوائد) للعمران والألوان، و (العوائد) إنما ترسخ بكثرة التكرار وطول الأمد، فتستحكم صبغة ذلك، وترسخ فى الأجيال [٢]»

فهذه (العوائد) التى طولنا الكلام فيها أو عليها هى من جموع العادة والسلام.

***

بشر بن عوانة

قالت جريدة المكشوف البيروتية فى مقال نشرته فى العدد (٢٨٣) بعنوان «شاعر جاهلى غير موجود يعيش ألف سنة»: إن الأستاذ بطرس البستانى صاحب كتاب «أدباء العرب» كان فيما تعلم أول من أنكر وجود بشر بن عوانة، وأظهر أنه هو

(١) تراجم الرسالة ٣٨٩ و ٣٩١ ص ١٨٢٢ و ١٨٧٨

(٢) الأهلات من جموع الأهل وهي بسكون الهاء وفتحها، وفى اللسان: الأهالى جمع الجمع

(٣) زاد بعضهم العيد...

(٤) السنة ٤ ص ٣٥٥

(٥) السنة ٢ ص ٤٠٤

(٦) تكرير بين مع الظاهر أكثر من الكثير فى كلام الجاهليين والاسلاميين والأئمة، وقد أخطأ الحريرى فى تخطئة ذلك

(١) وقر فى قلبه كذا: وقع وبقى أثره (الأساس)

(٢) إنما يعنى ابن خلدون بالأجيال هنا هو مايقصده الدكتور زكى مبارك. وفي فصل آخر في المقدمة. «... ولا يزال الفكر يخرج لصنائعها ومركباتها (يعنى الصنائع أو الصناعات) من القوة أو الفعل بالاستنباط شيئاً فشيئاً على التدريج حتى تكمل، ولا يحصل ذلك دفعة، وإنما يحصل فى أزمان وأجيال» ويضاف إلى قول التاج فى الرسالة ٣٩٣ قول المصباح وهو هذا: «والقرن أيضا الجيل من الناس»

وقصيدته فى وصف قتاله للأسد من خلق بديع الزمان الهمذانى فى مقامته البشرية . والكشوف التى جملت من همها حماية الإنتاج الأدبى وتصحيح نسبته إلى صاحبه ، يسرها أن نعلم أن الرسالة هى أول من نبه إلى أسطورة بشر بن عوانة فى الصفحة ٣٥ من عددها التاسع والسبعين الصادر فى ٧ يناير سنة ١٩٣٥ ، وهو العدد الأول من سنتها الثالثة ، فنرجو أن تنبه إلى ذلك

حول العدد الممتاز من مجلة الحديث السورية

نوّه الأديب السيد نصار فى العدد (٣٨٨) من (الرسالة) بالعدد الممتاز الذى أصدرته مجلة الحديث السورية ، وخصت به المستشرق المنتحر الدكتور (اسماعيل أحمد أدهم) ، وقد أشار إلى ما كتبه أدباء مصر الأعلام عن المستشرق المذكور ، وأغفل ذكر الكتاب الآخرين وقال : « وعداها لا توجد كلمات أخرى لكاتب مصرى . . . ! » كأن الكلمات الأخرى لا تستحق التنويه والإشارة ، مع أن الوفاء كان يقضى على الأديب بأن يذكر الكتاب السوريين الآخرين (والمجلة سورية) ولا بدّ من التنويه بأنه إلى جانب كلمات إخواننا المصريين كلمات أخر . منها كلمة عنوانها « دمعتى على أدهم » لأديبة الشام السيدة وداد سكاكينى ، وأخرى عن « قوة الإيمان وعذاب المفكرين » للأديبة الرقيقة الآنسة فلك طرزى صاحبة (الآراء والمشاعر) ، وقصيدة رائعة للشاعر المعروف عمر أبى ريشة عنوانها « ظمأ الروح » ، وثانية للشاعر الأديب الأستاذ زكى المحاسنى عنوانها « الستار » ، وثالثة للشاعر صلاح الأسير ، ورابعة للشاعر شارل نحورى ، وهؤلاء كلهم سوريون

ولعلى أعود إلى نقد العدد ومضامينه بعد حين .

(دمشق) المحب

الى الدكتور زكى مبارك

قرأت مقالكم النفيس « مطالعات فى الكتب والحياة » لعباس العقاد فى مجلة الرسالة الغراء ولشدّ ما أعجبنى حين اطلعت على ملاحظتكم الصغيرة حول كلمة الظرف إذ أنكم ضممتم الظاء فيهما صاعين فى ذلك الاتباع خصوصاً لأن الجمهور فى مصر ينطق الظرف بضم الظاء ؛ فهل لى أن أستبين من ملاحظتكم هذه وأنتم من خلفاء سيبويه القرن العشرين أنكم لا تبالون بقواعد النحو والصرف بل تسيرون على منهاج المراغة فى الاتباع من الألفاظ وتغالون فى تحوير أصول النطق الصحيح وقواعده السليمة ؟ وهل لى أن أنقدكم وأؤاخذكم على ذلك وأنتم أول من سبقنى فى نقده للأستاذ أحمد أمين وجنايته على الأدب العربى ، فحملتم حملة شعواء عليه لغلطة فى التحريك ارتكبها وهو أمام المذياع .

وتفضلوا بقبول أسمى تحياتى إلى روحكم الطيبة من أبناء الجيل الجديد .

(حيفا — فلسطين) الياس سليمان بحوث

فتيات فى الأزهر

أتيح لى أن أستمع إلى المناظرة الطريفة التى أقيمت بطنطا بين فريق من طلاب الأزهر . وكان موضوع المناظرة يدور حول السماح للفتيات بالانتظام فى سلك طلاب الأزهر على نحو ما هو متبع الآن فى كليات الجامعة المصرية . . .

وأذكر أن الأديبة أمينة السعيد كانت أول من أثار موضوع تعليم الفتاة فى الأزهر ، فتحدثت إلى صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى حديثاً نشرت خلاصته الصحف . أذكر منه أن فضيلته رحب بالفكرة على أن تكون الفتيات فى عزلة عن الشبان ، أى أن تنشأ لهن فصول خاصة يتلقين فيها أصول الدين الحنيف »

وقد ذكر المستشرق الإنجليزى (مستردن) فى كتابه « الحياة الفكرية والتعليمية فى مصر فى القرن التاسع عشر » ما خلاصته « أن الحملة الفرنسية فى قدومها إلى مصر وجدت فى صحن الأزهر بضع نساء يتعلمن إلى جانب الشبان ويتفقهن فى قواعد الدين . وكانت هناك عالمة ضريرة يلتف الشبان حولها ويتلقون الدروس منها ؛ كما أنه كان فى معهد طنطا الدينى جماعة من الفتيات يحضرن الدروس الدينية ويستمعن إلى التفسير والحديث »

ابراهيم ابراهيم الخولى

تصحيح

كتب الأستاذ سيد قطب كلمة فى العدد الماضى من الرسالة الغراء عن الذوق الفنى فى مصر وجهها إلى المدرسة الحديثة ، ولا أريد الآن التدخل بين الأستاذ وجماعة الأدب الحديث ،

ولكنى أريد — وأرجو الأستاذ أن يغفر لى تطاولى — أن أصحح خطأ جاء فى حديثه عما سماه سهواً منه « أسطورة نهر الجنون » . فقد أراد الأستاذ أن يستند فى حديثه إلى أسطورة قديمة ولكنه ذكر بدلاً منها مسرحية للأستاذ توفيق الحكيم على أنها الأسطورة القديمة

أما الأسطورة فإنما تتحدث عن بئر شرب منها الناس فجنوا ولم يجد الملك ووزيره بدا من الشرب منها هما أيضاً ليكون شأنهما شأن الناس ، ولم يجيء فى الأسطورة أى ذكر للملكة

وحديث النهر وحديث الملكة وقصة قلقها وحزنها كل ذلك من خيال مؤلف المسرحية ، ذكرها ليصور مسرحيته وعرض مشاهدها ونسقها كما شاء له خياله متخذاً أسطورة البئر أساساً للمسرحية ...

هذا هو التصحيح الذى أردته ، وأسأل الأستاذ قطب المعذرة مرة أخرى

محمود عزى

أسئلة

سيدى رئيس تحرير الرسالة

تتبعت كل ما قيل فى تفسير بيت ابن عربى . بذكر الله تزداد الذنوب الخ فى أعداد الرسالة السابقة وقد ذهب الأستاذ الباجورى إلى أن لرجال التصوف نظرات عكسية تقلب الحقائق المعلومة إلى حقائق أخرى عليا لا يدركها غير أهلها . لذا أرجو من الأستاذ الباجورى أو الدكتور زكى مبارك الذى توصل لحل الكثير من قول أعلام الصوفية أن يفسر لى أحدهما تفسير ابن عربى لقوله تعالى : « مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً » . ولقوله تعالى : « أنا ربكم الأعلى »

قال ابن عربى أغرقوا أى قوم نوح فى بحار العلم بالله وهو الحيرة ، فأدخلوا ناراً أى نار المحبة ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ، فكان الله عين أنصارهم وأن الكل بالله ولله بل هو الله

أما قول فرعون أنا ربكم الأعلى وإن كان الكل أرباباً فصح قوله أنا ربكم الأعلى وإن كان عين الحق ، فالصورة لفرعون باختصار من كتاب النصوص . إﻫ . والسلام عليكم ورحمة الله

(بواد نوباوى . أم درمان) يوسف محمد أغا

الجمعية العربية ببريطانيا

اجتمعت الهيئة العامة للجمعية العربية ببريطانيا يوم الأحد الموافق ٧ يولية سنة ١٩٤٠ فى الساعة الخامسة بعد الظهر وقررت ما يلى :

أولاً : أن تبقى أموال الجمعية (ومقدارها مائة وثمانية وعشرون جنيهاً وستة عشر شلناً وبنسان) باسم « الجمعية العربية » فى المصرف . ويودع حق نقل مالية الجمعية إلى ثلاثة أشخاص يمثلون ثلاثة أقطار عربية يكون لهم كاتم السر من بينهم . وانتخب السادة : عبد العز نصر (عن مصر) وموسى الحسينى (عن فلسطين) وعبد العزيز الدورى (عن العراق) . ثم انتخب السيد عبد العزيز الدورى ليكون « نقيب الجمعية » أو كاتم السر

ثانياً : فى نهاية الحرب ، ترسل الهيئة الموكلة بياناً إلى الطلاب العرب فى انجلترا بواسطة :

(ا) المفوضيات والقنصليات العربية فى انجلترا

(ب) مكاتب البعثات والنوادى العربية فى انجلترا

(ج) الجامعات

(د) الصحف العربية

تنبئ فيه الطلاب العرب فى انجلترا بأن « الجمعية العربية » (١٩٣٧ — ١٩٤٠) تركت مبلغ (١٢٨ جنيهاً و ١٦ شلناً وبنسين) لجمعية عربية تؤسس بعد الحرب فى انجلترا بشرط :

(ا) أن لا يقل عدد أعضائها من خمسة عشر عضواً على أن يمثلوا قطرين عربيين على الأقل

(ب) أن تقبل مبدئياً دستور الجمعية العربية (ببريطانيا) السابقة .

(ج) أن يشهد بذلك أحد الوزراء المفوضين العرب فى لندن

(د) وينقل حق التصرف بأموال الجمعية لأول جمعية عربية تثبت تحقق الشروط السابقة فيها .

ثالثاً : وإذا لم تؤسس جمعية عربية فى انجلترا بعد انتهاء سنتين من إمضاء معاهدة الصلح فإن اللجنة تتصرف بأموال الجمعية حسب مواد قانونها الأساسى

هذا مع العلم بأن الجمعية العربية قد وقفت أعمالها مدة الحرب

عبد العزيز الدورى
نقيب الجمعية العربية ببريطانيا



مكافأة رلف ...

عن الانكليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

كان النسيم يهب من جانب البحر لطيفاً هادئاً ولكنه بارد على الرغم من هدوئه ، وكان رلف مارنج يرتعش وهو واقف ويدثر نفسه بردائه وقد قلب ياقة السترة ولفها حول عنقه ، وقد استمر وقوفه مدة طويلة وهو عديم الحركة . ثم مشى وهو يتلفت نحو كل باب يمر به ليعرف أى المنازل هو الذى يريد ، ورأى على ضوء المصباح الرابع فى ذلك الطريق منزلاً ذا حديقة صغيرة فوقف أمامه واشتد خفوق قلبه وحاول عبثاً أن يهدئ من اضطرابه ، ثم أخرج من جيبه مظروفاً وراجع وصف المنزل الذى يراه على ما كتب على ذلك المظروف بالرغم من أن ما يقرؤه كان منطبعاً فى ذاكرته وبالرغم من أن هذا المنزل هو الذى يريده بغير شك

وحاول رلف أن يفحص المنزل فيما وراء الحديقة ؛ ولكن النور كان قليلاً فلم يستطع أن يرى غير هيكل يحيط به الظلام . ففتح باب الحديقة ومشى فوق ممر ضيق بين النبات . ولما صار أمام باب المنزل عاد إلى الوقوف مرة أخرى وهو يحاول تهدئة نفسه ، ورفع بصره فوجد مصباحاً ضئيلاً يضيء فى إحدى الغرف . أما سائر النوافذ فكانت مغلقة ؛ فدق الجرس وهو يسائل نفسه كيف يقابل الفتاة التى جاء لمقابلتها ؟ وفتح الباب فتنهد تنهد الراحة ، وأطلت الخادمة فسألته ماذا يريد . فسكت لحظة ثم قال : هل بيرتا كاستر هنا ؟

قالت : سأسأل ، ولكن من أنت ؟

فتردد رلف قبل الإجابة ثم قال : قولى لها إن صديقاً قديماً يريد مقابلتها !

فظهر الارتباك على وجه الخادمة من عدم ذكر الاسم ، وقالت : إنتظر قليلاً حتى أعود

ثم أغلقت الباب ودخلت . فابتسم رلف ابتسامة مؤلمة من لجوئها إلى هذا الاحتياط

وبعد قليل عادت وقادته إلى غرفة الاستقبال ، فجلس وهو يدير لحظه فى كل ما حوله ليفحص المكان ، وقد اجتمعت فى ذهنه فى هذه اللحظة كل الذكريات القديمة . ورأى على المكتب صوراً فى أطُر ، فنظر إلى إحداها نظرة طويلة وقد علت وجهه مسحة من الحزن وهو ينظر إلى الوجه الجميل الذى يراه فى الصورة ويوازن بينه وبين الوجه الذى شهده فى أيامه الأخيرة

وقد شوش عليه هذه الخواطر فتح الباب ودخول فتاة ، فالتفت إليها ولاحظ أنها تتجاهله رغم ما كان بينهما من صداقة متينة منذ سنوات . فقال فى نفسه : هل يحدث مرور سبع سنوات كل هذا التغير أم لأن الخمس الأخيرة من هذه السنوات قد قضيتها فى السجن ؟

ثم دنت بيرتا فلاحظ اضطرابها وسألته : هل تريد مقابلتى ؟ فلم يجبها ، لأن اضطرابه كان أشد مما سبق فأعادت سؤالها : لماذا جئت إلى هنا ؟

وكانت كلماتها تخرج ببطء وفى شيء من التردد . فمشى نحوها وقد خانه النطق ، فقد كان منذ عهد طويل يحلم بهذه المقابلة ، وكان قد أعد ما سيقوله فى كل مرة فكر فيها فى هذه المقابلة . ولكنه الآن لا يذكر حرفاً واحداً

قالت : ماذا تريد ؟ فأجابها : لقد جئت ... ألم تلاحظى يا بيرتا أن حبى إياك لم يتغير بعد كل هذه السنوات ؟

قالت بيرتا : لقد كنت أظن بعد حدوث . . . ثم سكتت فجأة كأنما أرادت أن تصوغ جملتها فى أسلوب آخر . وقالت : لقد كنت أعنى بحبك لما كنت تستحقه . ولو أنك كنت تحبنى حقاً لما هبطت هذا الهبوط

فاصفر وجه رلف وعرته رعشة وقال : هل أنت تعتقدين إجرامى ؟

فتراجعت بيرتا قليلاً وقالت : ماذا كنت أعتقد غير ذلك ؟ إن القرائن كلها ضدك وأنت لم تدافع عن نفسك أى دفاع ؛ وقد حاولت أن أفهم كيف لا تكون أنت المجرم ؟

فمشى رلف فى الغرفة ذهاباً وجيئة وهو مفقود الصبر ، ثم وقف أمامها فجأة وقال : أقسم بشرفى أنى لم آخذ المال ، وأنت تقولين أنك تحبينني ، ولكنك تعتقدين أنني مجرم ؛ وأنا أقسم بشرفى أنى برىء يا بيرتا

ثم قال بلهجة مؤلمة : لقد قضيت خمسة أعوام فى الجحيم ؛ ولكن آلامى فى هذه المدة لا تذكر بجانب الآلام التى أعانيها فى المستقبل إذا أنت طردتنى

لم تجبه بيرتا وكانت فى أعماق نفسها تعرف أنها تحب الرجل ولكن شبح الجريمة المنكرة التى كانت تعتقد أنه ارتكبها قد حال بينها وبين الجواب الذى تود من صميم قلبها أن تجيب به

ومشى رلف نحو الصورة التى كان ينظر إليها أولاً ويلاحظ الشبه التام بين صاحب هذه الصورة وبين أخ لبيرتا ؛ ثم عاد إلى الالتفات نحوها وقال : وإذا برهنت لك على براءتى ، فهل تتزوجين منى ؟

فأطالت نظرتها إليه وقالت : ربما ، ولكن من الصعب أن أعد . إنك الآن غريب وإن أخى ...

ثم أحنت رأسها فاغرورقت عينا رلف بالدموع وقال بصوت يدل على التأثر : لقد علمت

قالت بصوت فيه رنة البكاء : هل سمعت ؟

فلم يجبها ولكنه عاد إلى الالتفات للصورة

قالت : لقد كنت أحبه ؛ وبعد ذلك الحادث استقال من منصبه ، وكنت أحاول منعه عن السفر ولكنه سافر وحصل على عمل فى روسيا وقد مات بعد عهد قصير وكنت يوم سفره أشعر بأنى فقدت كل شيء

فقال رلف : لقد كنت معه عند موته

التفتت بيرتا واصفر لونها وابيضت شفتاها وأخذ يقص عليها كيف قام بواجباته فى مدة المرض والاحتضار وبعد الوفاة .

فقالت : شكراً لك يا رلف ولكن كيف قابلته ؟

قال : بعد خروجى من السجن أردت السفر لأتناسى هذه النكبة وعلمت أنه سافر إلى روسيا فسافرت إليها فأدركته فى الوقت الأخير

وكان وهو يتكلم يلاحظ ما يبدو عليها من التأثرات ، فأدرك أنه إلى ما قبل هذه اللحظة لم يكن يعرف مقدار حبها لأخيها

وكره استمرارها على هذه الحالة النفسية فحاول تغييرها وجثا على ركبتيه بالقرب منها وأمسك بيديها وقال : ألا تسمحين يا بيرتا بأن تجعلى لى من قلبك مكان أخيك ؟ إننى أجعل حياتى كلها وقفاً على إسعادك . تعالى نسافر من هنا فنقيم فى مكان بعيد نحاول فيه نسيان هذه الذكريات

فخلصت بيرتا إحدى يديها من بين يديه ووضعتها فوق رأسه . فشعر رلف فى هذه اللحظة بالسعادة التامة . وقالت : أنت تعرف يا رلف أننى أحبك ولكنك تعرف الذى يحول بينى وبينك . وعليك أن تبرهن على أنه خطأ

قال رلف : إننى لا أستطيع يا بيرتا أن أبرهن على أنى برىء؛ ولكن ألا تثقين بما أقول ؟ إذا كنت تحبينني فيجب أن تثقى بما أقول

فلم ترفع بيرتا رأسها ولم تجب . فوقف رلف ثم مشى متباطئاً نحو الباب وهو يأمل أن تستوقفه بكلمة . ولكنها لم تتكلم . ففتح الباب ورأسه منحن إلى الأمام ، واجتاز الممر على مهل وهو لا يزال يأمل أن تناديه . فلما صار عند باب الحديقة أخرج من جيبه اعتراف أخيها ومزقه بحالة تدل على أن عزمه على تمزيقه كان نتيجة فكرة فجائية . ووقف ذاهلاً وهو لا يعرف كم وقف

وشعر بيد توضع فوق كتفه ، وصوت رقيق يقول : « إننى يا رلف أكتفى بقولك فإنى أثق بك وبما تقول »

عبد اللطيف النشار

تعليق المترجم

رحم الله الشاعر العربى الذى يقول :

بنفسى وأهلى من إذا عرضوا له ... ببعض الأذى لم يدر كيف يجيب
ولم يعتذر عذر البرىء ولم تزل ... به سكتة حتى يقال مريب
لقد ظلموا ذات الوشاح ولم يكن ... لنا فى هوى ذات الوشاح نصيب

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطانة حسين — عابدين)



9me Année No. 396 — Lundi - 3 - 2 - 1941

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٣٩٦ « القاهرة في يوم الاثنين ٧ محرم سنة ١٣٦٠ — الموافق ٣ فبراير سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــرس

في عيد الهجرة

تقليـــد كريم

يسنه صاحب الجلالة الفاروق

« لكاتب كبير »

لم يكن رأس السنة الهجرية من الأيام التي تحتفل بها الحكومة المصرية بصفة رسمية ، وإنما يرجع هذا التقليد المحمود إلى دعوة هتف بها شباب الحزب الوطني قبل أكثر من ثلاثين سنة على لسان « إمام واكد » الذي سُجن فيها بعد مدة طويلة بعد أن حوكم في قضية سياسية كان لها في قلوب الجماهير دويّ وضجيج

وقد استجابت الحكومة لتلك الدعوة في سنة ١٣٢٧ وكان رئيس الحكومة يومئذ بطرس غالي باشا ، فتقرر أن تُغلق المصالح والدواوين في اليوم الأول من السنة الهجرية ، وبهذا أضيف يوم الهجرة إلى الأعياد الرسمية

ولكن الاحتفال بذلك اليوم لم يُصبَغ بصبغة التعميم ، فقد كان في بداية أمره مقصوراً على حفلة يقيمها الحزب الوطني

لا يزال صديقنا الزيات يعاني مضاعفات المرض ؛ ولعل انقطاعه من قرائه هذا الأسبوع أيضاً أشق عليه من مرضه ، فنطلب له من الله الشفاء ولنا من القراء المعذرة

فى « كلية مصطفى كامل » بحىّ الجمالية . وقد حضرت ذلك الاحتفال مرة واحدة ، وهى أول مرة وآخر مرة رأيت فيها الزعيم محمد بك فريد الرئيس الثانى للحزب الوطنى . وكان خطيب الحفلة على فهمى كامل بك ، الذى مات وهو يخطب فى رثاء محمد فريد ، فى مساء الحادى والثلاثين من ديسمبر سنة ١٩٢٦

ثم اتسع نطاق الاحتفال بعيد الهجرة بعد ذلك ، فكان يحتفل به فى الأزهر وفى الجمعيات الإسلامية

ويظهر أن أول وزير أشار بأن تقام الحفلات فى المدارس الأميرية تكريماً لعيد الهجرة هو معالى الدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف

ثم ماذا ؟

ثم صار الاحتفال بعيد الهجرة موسماً عظيماً بفضل التقليد الكريم الذى شرعهُ جلالة الملك حين رأى أيده الله أن يحضر الحفل الجامع بالأزهر الشريف . وهى أول مرة يظفر فيها عيد الهجرة بمثل هذا الاهتمام المرموق من ملك مصر والسودان ، وفى معيته الشيوخ والنواب والوزراء وسفراء الممالك الإسلامية

وحفلة عيد الهجرة فى الجامع الأزهر بالقاهرة تذكّر بصلاة « الجمعة اليتيمة » فى جامع عمرو بالفُسطاط . فالجمعة اليتيمة يحضرها ملك مصر فى كل سنة باحتفال جليل فى جامع عمرو ، لأنه أول مسجد أُسس فى الديار المصرية بعد أن فتحها عمرو بن العاص ؛ وكذلك ظفر الأزهر بغنم جديد هو جعله بصفة رسمية مكان الاحتفال بهجرة الرسول

ولكن بقى شىء وأشياء

بقى التفكير فى جعل هذا العيد موسماً حيويًّا يتصل بأذواق الناس فى فنون المعاش ؛ ولا يكون ذلك إلا يوم يصبح هذا العيد وله فَرحة دنيوية تشبه فرحة الميلاد فى الغرب ، وفرحة النيروز فى الشرق . وهذه الفرحة لا تتمّ إلا إذا وصلناه بحياتنا الاجتماعية ، فمنحناه فرصة من الوقت تسمح بأن تكون أيامه مجالاً للهدايا والرحلات والانشراح

من الجميل حقاً أن يبكّر إمام جلالة الملك فيصلى الصبح بمسجد الحسين ، ثم يخطب فى الناس مذكراً بما عانى الرسول من مكاره الاغتراب فى سبيل الدين . ومن الجميل حقاً أن يخطب شيخ الأزهر بعد صلاة المغرب مذكراً بفضل الأذى فى إذكاء الأرواح والقلوب

كل أولئك جميل ، ولكنى أعتقد أنه لا يصيّر هذا العيد موسماً شعبياً بالمعنى الذى نريد ، كموسم « المولد النبوى » ، وهو موسمٌ اتصل بأذواق الناس إلى أبعد الحدود ، وإن لم يصل إلى الغاية فى خلق فنون أدبية تذكّر بالفنون التى خلقها النيروز فى العصور الخوالى

فما الذى يمنع من أن تفكر وزارة الشؤون الاجتماعية فى تنظيم عيد الهجرة تنظيماً دنيويًّا بعد أن فكرنا فى تنظيمه تنظيماً دينياً ؟

عيد الميلاد فى الغرب له تقاليد دنيوية هى السبب الأكبر فيما له من جاذبية ، فكيف يفوتنا أن نجعل لعيد الهجرة تقاليد دنيوية بخصائص تغاير خصائص عيد الميلاد ؟

قد يقال إن قرب عيد الهجرة من عيد الأضحى يمنع الحكومة من السخاء بالامتيازات التى تجود بها فى الأعياد ، وهذا حق ، ولكن لا بدّ من التفكير فى خلق أسلوب جديد يجعلنا نشعر فى أول ليلة من المحرّم بأننا مقبلون على عيد سعيد

تعوّد المصريون أن يذكروا موتاهم فى الأعياد الإسلامية ، وبذلك ضيعوا على أنفسهم فرصة الانشراح فى ليالى الأعياد ، فهل يكون عيد الهجرة فرصة لموسم جديد لا تذرف فيه الدموع ولا تشقّ الجيوب ؟

إفرحوا ، أيها الناس ولو متكلفين !

إفرحوا ، أيها الناس ولو متصنعين !

إفرحوا ، إفرحوا ، فالفَرَح هو الزاد الوحيد الذى لم يذقه الناس جيداً فى مصر والشرق

إفرحوا لأفرح معكم ، ولأذوق بفضلكم نعمة الشهود لمواكب الأفراح !

« كاتب »

الحديث ذو شجون

للدكتور زكى مبارك

فى قصر جلالة الملك — التجنى على مصر والشرق — أهل الكهف — حشو الوزينج — مناجاة القمر ومناجاة الشمس — إلى طلبة السنة التوجيهية — الهجوم الآثم على الشيخ سيد المرصفى — إن قول الحق لم يدع لى صديقاً

فى قصر جلالة الملك

كان من الحظ السعيد أن ألتفت إلى الروح اللطيف الذى يسود جوّ التشريفات يوم دخلت قصر عابدين مع المهنئين بقدوم العام الهجرى الجديد

فاذا رأيت هنالك ؟

كنت أحسب أن النـاس يقيدون أسماءهم فى الدفاتر ثم يخرجون ، كما كنت أصنع قبل أن ألتفتَ إلى ذلك الروح اللطيف ؛ ولـكنى فى هذه المرة عرفت ما لم أكن أعرف ، فقد رأيت المهنئين من وزراء ونواب وشيوخ وأعيان وعلماء يتلاقون فرحين مبتهجين ، ثم يتبادلون الأحاديث الطوال ، وكأنهم تلاقوا على ميعاد فى مكان يرحّب بتلاق القلوب أطيب الترحيب

كان الرجال يستقبل بعضهم بعضاً فى بشاشة وأريحية ، وكان كل زائر يرى نفسه فى داره ، وقد تجرّد مما يجرى خارج القصر من مختلف الشؤون ؛ فهو فى حَـرَم مقدّس لا تهتف فيه النفوس بغير معانى الرفق والصدق والإخلاص

فى قصر جلالة الملك ترى للوجوه ملامح لا تراها إلا هنالك ؛ فقد ترى رجالاً يتلاقون مبتسمين منشرحين ، وكنت تعرف من قبل أنهم لم يكونوا إلا متباعدين متنافرين ، فتدرك أن جلال المكان يوحى بالتآخى والصفاء

إن باب ذلك القصر يُفتَح للجميع فى المواسم والأعياد ، فما الذى يمنع من اغتنام هذه الفرصة السخيّة لتتخذ منه ملتقى لأرواحنا وقلوبنا فى كل موسم وفى كل عيد ؟

لا بدّ من لحظات ننسى فيها شواجر الخصومات اليومية ، ونلتقى فيها منزهين عن أسباب التعادى والشقاق ، فكيف يفوتنا أن نجعل رحبات ذلك القصر ميادين لسباق العواطف فى تلك اللحظات ؟

أقول هذا وقد شفى الله صدرى من خصومات محاها تلاقى الوجوه والقلوب فى قصر جلالة الملك ، فرجعت وفى صدرى أنوار لم أشهد مثلها من قبل ، والمكان الطيب كالبلد الطيب لا يثمر غير الخيرات والبركات

أعزّ الله جلالة الملك ، وجعل قصره موئل العواطف والأرواح والقلوب ، وأدام على أمته نعمة الأنس بنفائس المعانى وكرائم الأغراض

التجنى على مصر والشرق

أنا لا أقول بوجوب التغاضى عما فى مصر والشرق من عيوب ، فالدعوة الإصلاحية قد توجب أن نكشف عن مواطن الضعف فى مصر والشرق ، وإنما أكره أن نتجنى على بلادنا بلا موجب معقول ، فذلك يوحى إلى القراء أننا خلقنا متخلفين عن جيش العبقرية والنبوغ

أكتب هذا وقد قرأت كلمة الأستاذ « محمود » عن روزفلت وهو العبقرىّ « الـكسيح » ففى رأى هذا الـكاتب أن الشلل لو أصاب طفلاً مصريًا أو شرقياً بمثل ما أصاب به روزفلت لـكان مصيره أن يكون « تافهاً ساقط النفس خائر العزم مريض القلب »

وما لمثل هذا التجنى حملنا الأقلام ، أيها المربى الفضال

فى مصر والشرق مئات من أصحاب العاهات وصلوا إلى منازل لا تقل فى قيمتها الجوهرية عن منزلة روزفلت ، إلا أن تكون « رياسة الحـكومة » هى المثل الأعلى بين منازل التشريف !

وما خطر الكساح فى أرض مثل أمريكا ، وقد عرف أهلها أن مرجع الحـكم إلى العقل ؟

إن كان عندك بقية من الإنصاف ، أيها الأستاذ ، فوجهها مشكوراً إلى المجاهدين فى مصر والشرق ، ولا أقصد المجاهدين من أصحاب العاهات ، فأولئك رجال أقاموا ألوف البراهين على ما يملـكون من قوة العزائم والنفوس ، وإنما أقصد المجاهدين من أهل السلامة فى الأجسام والحواس ، فأولئك أقوام يعانون كساحاً أفظع وأثقل من الـكساح الجثمانى ؛ فالكسيح جسمياً يشعر بأنه مشدود إلى الأرض من وجهة حسّية ، أما الـكساح الذى

يرزأ به الرجل السليم من أهل النبوغ والعبقرية فيُرمى عليه من المجتمع المتخلِّف ، المجتمع الذى ينظر إلى النوابغ والعبقريين بارتياب واحتراس ، ثم يشدهم بعنف ليقيموا حيث أقام فى حضيض الغفلة والجمود

فى أوربا وأمريكا يتلهف الناس إلى المبتكر الطريف فى الآداب والفنون ، فيمضى الأديب إلى غايته وهو مطمئن إلى السلامة من تجنى المجتمع عليه ، فكيف ترى الناس يصنعون فى « أفريقيا وآسيا » أو فى « مصر والشرق » وقد أقفِل باب الاجتهاد فى الأدب ، كما أقفل باب الاجتهاد فى الدين

كل ما ظفرنا به من الحرية فى الأدب هو الجدال حول القديم والجديد . وقد ظهر بعد أن انجلت المعركة أن الخلاف لم يَدُر إلا حول الأسلوب ، ففلان من أنصار الجديد لأنه لم يستأسر لمثل أسلوب الجاحظ أو ابن العميد ، وفلان من أنصار القديم لأنه لم يتحرر من أساليب القدماء

أما التجديد فى الفكر ، فهو محرمٌ علينا تحريماً قاطعاً . وليس من حقنا أن نصارع الأمواج الفكرية إلا إذا جازفنا بحقوقنا المشروعة فى التمتع بثقة المجتمع ، وهو لا يثق بنا إلا إن جاريناه فيما درج عليه من إيثار القرار والركود

وليس هذا شهادة على أننا خضعنا لأهواء المجتمع فيما نعالج من فنون الفكر والعقل ، فقد ثُرنا عليه فى كثير من الظروف لنوجهه كما نريد ، ولكن تلك الثورة لم تمر بلا عقاب ، فقد رأينا أن المناصب الفكرية أصبحت وقفاً على الموسومين بمسايرة المجتمع فى ضلاله وهداه ، ولم يصل إليها من أحرار العقل إلا أفرادٌ آزرتهم قوى سياسية لا فكرية . ولو كان العقل وحده هو الذى يقدِّم ويؤخر لرأينا فى مصر والشرق موازين غير تلك الموازين ، ولكان من المؤكد أن تشهد مصر ويشهد الشرق موسماً جديداً من مواسم المذاهب والآراء

إن رئيس الحكومة يستهدى جلالة الملك ألقاب التشريف لمن يتبرع بمبلغ من ماله الموروث لإحدى الجهات الخيرية ، وذلك تشجيعٌ واجب ، وهو يحض الأغنياء على بذل أموالهم فى أبواب الخير ، ويروضهم على الاقتناع بأن الدولة ترعى الضمائر اليواقظ ، لتجزيها خير الجزاء

ولكن الدولة التى تحفظ جميل المحسنين بأموالهم تنسى جميل المحسنين بعقولهم ، وإلا فهل تذكر الدولة جماعات المكافحين فى سبيل الأدب والبيان وهم يؤدون خدمات تعجز عنها المدارس والمعاهد والكليات ؟

المال يُعَدّ فيكون له حساب، أما الدم الذى يُسفح على سنان القلم فى تجاليد الليالى فليس له حساب . ولو أن حملة الأقلام الجياد كانوا أنفقوا أعمارهم الذواهب فى الاتجار بالتراب لوصلوا إلى إدانة الدولة بما يستوجب أن تستهدى لهم من جلالة الملك ألقاب التشريف ، بدون انتظار أو اقتضاء ... فمتى تسمع الدولة هذا الصوت وهو تذكيرٌ بواجبها فى إعزاز العقل ؟ لقد حق قلمى وهو يذكِّر الدولة بحقوق الأدب الرفيع ، الأدب الذى تَدين له الدولة دَيناً أرزن من الجبال ، وهى تعرف وكأنها تجهل ، وتجاهلُ العارف قد يَثقل فى بعض الأحايين !

ذلك المصير المحزن هو مصير أرباب الفكر فى مصر والشرق ، فمن توهم أنهم فى بلادهم سعداء فهو مخلوق نقلته الغفلة من أرض الواقع إلى سماء الخيال ... وما أسعد الغافلين !

هل سمعتم بالأدب القديم عند السُّريان ؟

قيل : إن السريان كانوا أقدر الأمم القديمة على نظم أغانى الحزن والبكاء ، فهل كان لذلك من سبب غير ابتلائهم الموصول بالكوارث والخطوب ؟

ونحن فى مصر أمعنّا فى الدعوة إلى نظم أناشيد الجهاد ، مع أننا كل لحظة فى جهاد ، فمتى ندعو إلى نظم « نشيد العدل » ومن بلوانا بالظلم صرخ الدهر صرخة الإشفاق ؟

كم مرة فكر فينا مَن نخاطر فى سبيل إسعادهم بأعز ما نملك وهو العافية ؟

إن الزميل الذى يعرف فى سريرة قلبه أنه مَدينٌ لك ولو بلمحة من لمحات القلب والعقل ، والذى يؤمن بأن الحياة الأدبية مدينةٌ ببعض الدَّين لصرير قلمك ، والذى يوقن بأنك نقلت صوت مصر إلى أسماع الشرق ، هذا الزميل يتلقف أخبارك من أفواه أعدائك ليجوز له التطاول عليك فى غيبتك ، عساه يشفى صدره الموبوء بجرائيم الضغائن والحقود

وفى مثل هذا الهواء الفاسد يعيش الأديب فى مصر والشرق ثم ينسى الناسون أنه لم يكن من المكافحين ، وأن الشلل لو أصابه بمثل ما أصاب روزفلت لأصبح من المتسولين !

حدثتنا إحدى المجلات أن جرائد أمريكا عابت على روزفلت أن يُرقى كاتبه بلا استحقاق ، وأنه أجاب : كيف لا يستحق الترقية وهو الذى يكتب خُطبى ؟

فأى رئيس فى مصر أو فى الشرق يطمئن إلى عقل أمته فيصرّح بمثل هذا التصريح ؟

وأين من يعترف للكاتب بأنه عنوان مصر من الوجهة العقلية أو السياسية ؟

وهل يستطيع « خلف الأحمر » أن يميط اللثام عن وجهه ليقول : إنه المنشئ الأصيل لهذه الخطبة أو تلك ، والمؤلف الأصيل لهذا الكتاب أو ذاك ؟

وهل صدّق الناس قول « خلف الأحمر » قديماً حتى يصدقوا قوله حديثاً ؟

الفرق بين « الخلفين » أن الأول استفاد من تزوير القصائد والأراجيز ، أما الثانى فلم يظفر بغير الخيبة والحرمان

أما بعد ، فأين أنا مما أريد ، وقد انتقلت من الدفاع عن مصر والشرق إلى الهجوم على مصر والشرق ؟

أنا أريد القول بأن الحيوية لم تنعدم أبداً من مصر والشرق ، والكفاح الذى فرضته الصُّروف على الأفكار والعقول لم يمنع المصريين والشرقيين من الجرى فى ميادين الفكر والعقل ، ولو اعتدل الميزان لعرف قوم أن القليل منا كثير وفوق الكثير ، لأنه يُبذَل من دماء القلوب ، ولأنه يقدَّم بلا انتظار الثواب ، وقد يقدَّم مع انتظار العقاب ، فالفضل ذنب من لا ذنب له فى « بعض » البلاد !

السائر الذى يقطع ألف ميل فى طريق مسلوك ليس أعظم من السائر الذى يقطع مئة خطوة فى طريق شائك ، ولكن أين من يعرف ؟

والكاتب الذى يُعَدّ قراؤه بالملايين ليس أعظم من الكاتب الذى يُعَدّ قراؤه بالألوف ، وقد ظهر الأول فى الغرب وظهر الثانى فى الشرق

ارفعوا عن كواهلنا الأثقال ، وانزعوا من أقدامنا الأغلال ، ثم انظروا كيف نستبق إلى أجواز الفكر والخيال

فإن عجزتم عن تحرير كواهلنا وأقدامنا فحرروا قلوبكم من آصار الحسد والحقد لنشعر بأننا سنُجزَى على صدق الجهاد ، ولو بالبَسَمات والدعوات الصالحات

إلى من يتوجه قلب الأديب فى أمثال هذه البلاد ، وهو من كيد الزملاء فى عناء ؟

إلى من يتوجه ؟

يتوجه إلى الله الذى جعل سواد المداد أشبه الأشياء بسواد العيون فهو يحيى ويميت كيف يشاء

يتوجه إلى الله ، وهو الأنس الأنيس لغرباء الأرواح والقلوب

يتوجه إلى الله خالق الشرق والغرب وفاطر الأرض والسموات ، الله الذى أقسم بالقلم فى كتابه المجيد ، فكان بشهادته السامية أكرم ذخائر الوجود

يتوجه إلى الله الذى جعل بأس القلم أفتك من بأس النار والحديد ، ومن القلم يخاف من لا يخاف ، ومن صريره استمدّ من لا يَهُولهم زئير الأسود

يتوجه إلى الله الذى يجعل من عزلة الكاتب دنيا صاخبة هى العِوض الأنفس من كل مايفوته من الأنس بالمجتمع الصخاب.

وهل يعرف الكاتب ما هى العزلة ودنيا الناس جميعاً ليست إلا سَمّ الخياط بالقياس إلى دنياه الفيحاء ؟

يتوجه إلى الله الذى يخلق الضر للنفع ، والذى يبتلى الأديب بما يشاء ، ليصوغه كما يشاء ، وليكون حجته البالغة على أن العاقبة للصابرين

متى أومن بك يا ربى ؟ ومتى أعرف حكمتك فى بعض ما سوّيت من المخلوقات ؟

إرفع الحجاب لحظة واحدة لأومن بأنْ ليس فى الإمكان أبدع مما كان

حول أهل الكهف

أحسنَ فضيلة الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدى فى استدراكه على ما سميته « الرواية الإسلامية » فى تحديد عدد أهل الكهف ، فهذه التسمية قد توهم أن ذلك هو الرأى الإسلامى بدون موجب لذلك . والحق أنى لم أرد غير إثبات رأى كان قال به فريق من المسلمين قبل نزول سورة الكهف ، وفى هذا الرأى ما يكفى لمناقشة المؤلف فى خلق بيئة الرواية المسرحية ، لأن هذا الرأى كان يجعل جمهوره أعظم وأضخم فيتيح له فرصة التعمق لدرس طوائف من المعضلات الاجتماعية

أما كلمة الأديب حسين محمود البشبيشى فهى تشهد بأنه قرأ

الرواية وقرأ النقد بفهم وعقل ، ولكني أرجوه أن يلقاني بعد عامين ، فقد يعرف من الإيمان والارتياب مالم يعرف ، وقد يدرك أني رميت إلى غرض فات عليه ، لأني أرمز إلى معانيَ كثيرة في أغلب ما أعرض له من الشؤون

وهنا يجب النص على أن مقالي في نقد رواية أهل الكهف وقع من الأستاذ توفيق الحكيم موقع القبول ، ولم يعترض إلا على عبارة واحدة ، وهي العبارة التي تقول بأنه ليس من أرباب الفكر العميق ، وهو اعتراض يؤيده أسف الشاعر صاحب « الجندول » فهو يرى أن الحكيم مفكر متعمق وإن أظهرته السخرية بغير ما هو عليه . وأنا أيضاً أرى الأستاذ الحكيم من ذخائرنا الأدبية ، وقد أعلنت إعجابي بكتابه « عصفور من الشرق » في كثير من المناسبات ، وفي بيئات لا تخطر له في بال ، فقد وجهتُ إليه أنظار أهل الأدب في العراق ، وليس ذلك بالقليل في تكريم هذا الصديق

الأستاذ الحكيم رضى عن مقالي في نقد مسرحية أهل الكهف ، فما شأنك أنت ، يا سيد حسين ؟

التفت إلى دروسك ، أيها التلميذ النجيب ، قبل أن أشكوك إلى أبيك !

حشو اللوزينج

سألنا الأديب فخر الدين عزى عن كتاب الثعالبي في « حشو اللوزينج » أين يوجد ؟

وأجيب بأن الثعالبي قال إنه كتاب « صغير الجرم لطيف الحجم » ومعنى ذلك أنه رسالة صغيرة سجّل بها ما صعُب عليه تسجيله في كتاب « ثمار القلوب » لئلا يخرج على شرط التأليف ولم يتفق لي أن أظفر بهذه الرسالة ، فأرجو هذا الأديب أن يؤلف رسالة في معناها ، فقد وَضَح المنهاج ، ولم يبق إلا تقييد الشواهد وهي مبثوثة في رسائل الكتّاب وقصائد الشعراء

مناجاة القمر ومناجاة الشمس

خطرتُ في بال الأستاذ محمود البشبيشي وهو ينظم مقالهُ في مناجاة القمر ، فهل يعلم أنه خطر في بالي وأنا أنظم مقالي في مناجاة الشمس ؟

سأوجه إليه هذا المقال بعد أن تنشر « الرسالة » كلمتي عن البلبل والروض ، تعقيباً على كلمة وجّهها إليّ منذ أسابيع ، وهي كلمة لم يسرقها من « الجنينة الحسناء » لأنها صدرت في اليوم الذي تلقيت خطابها فيه ، فكان ادعاء السرقة من المستحيلات !

آه ، ثم آه ! !

لقد ذكرتني نجوى القمر حين صدرتْ عن البشبيشي وهو في المنصورة بنجوى القمر حين صدرتْ عن صاحب « مدامع المشاق » وهو في سنتريس ؛ فقد جاء في مقدمة ذلك الكتاب ما نصُّه بالحرف :

« وإنك لتعلم ، أيها القمر ، كيف كنت أصدِف عنك ، وأنا أطالع ذلك الوجه الذي نَعِمتَ مني بثغره المفلّج ، وأنفه الأقنى ، وطرفه الأحور ، وجبينه الوضّاح . وإنك لتعلم ، أيها القمر ، كيف هجرتك حين غاب ، وتعلم أني لا أنظر إليك إلا حين السِّرار لأرى كيف يفعل الشحوب بك ، وكيف تنال منك الليالي ! وإنها لشماتة طفيفة أحزن من بَعدها على خلود متعتك بصِباح الوجوه ، وعلى عودتك لشبابك ، في حين أني أودّع كل يوم جزءاً من شبابي ، وواحسرتاه على ما أُودّع من أجزاء الشباب ! ! »

ولكن لا بأس ، فقد نويت أن أعيش إلى أن أرى الشمس والقمر من بعض ما أملك ، وما دام هذا القلم طوع يميني فلن يَبيت قلبٌ إلا وهو مني على هوًى أو بغض ، فما كنتُ في زماني إلا صوت القلب والوجدان

نويت أن أعيش ، نويت أن أعيش ، وليس على الله بعزيز أن ينصر أرباب القلوب

الى طلبة السنة التوجيهية

تلقيت خطاباً من الأقصر « بفتح الهمزة وسكون القاف وضم الصاد ، وهي جمع قصر ، وبذلك سمّى العرب تلك المدينة لكثرة ما رأوا فيها من أقْصُر الفراعين » . أقول تلقيت خطاباً من الأُقصر بإمضاء « غريب جادو » يثني فيه على الدراسات التي نشرتها « الرسالة » في تشريح الكتب الخاصة بمسابقة الأدب العربي . ثم يقترح أن أكتب مقالاً مفصّلاً عن كتاب « المكافأة » ، ومقالاً آخر عن كتاب « الأدب التوجيهي »

وأجيب بأني فصّلت القول عن كتاب المكافأة ومؤلفه أحمد بن يوسف في بحث يقع في تسعَ عشرة صفحة من كتاب

في الاجتماع اللغوى

تطـــور الدلالة

أنواع التطور الدلالى وخواصه

للدكتور على عبد الواحد وافى
مدرس الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

ترجع ظواهر التطور الدلالى إلى ثلاثة أنواع :

(أحدها) تطور يلحق القواعد المتصلة بوظائف الكلمات وتركيب الجمل وتكوين العبارة ... وما إلى ذلك ، كقواعد الاشتقاق والصرف (المورفونوجيا) والتنظيم (السنتكس) ... وهلم جرا . وذلك كما حدث فى اللغات العامية المنشعبة من اللغة العربية إذ تجردت من علامات الإعراب[1] وتغيرت فيها قواعد الاشتقاق[1] واختلفت مناهج تركيب العبارات[2] .

(وثانيها) تطور يلحق الأساليب ، كما حدث للغات المحادثة العامية المنشعبة عن العربية إذ اختلفت أساليبها اختلافاً كبيراً عن الأساليب العربية الأولى ، وكما حدث للغة الكتابة فى عصرنا الحاضر إذ تميزت أساليبها كذلك عن أساليب الكتابة القديمة تحت تأثير الترجمة ، والاحتكاك بالآداب الأجنبية ، ورقى التفكير ، وزيادة الحاجة إلى الدقة فى التعبير عن حقائق العلوم والفلسفة والاجتماع ... وهلم جرا .

(وثالثها) تطور يلحق معنى الكلمة نفسه ، كأن يخصص معناها العام فلا تطلق إلا على بعض ما كانت تطلق عليه من قبل ، أو يعمم مدلولها الخاص فتطلق على معنى يشمل معناها الأصلى ومعانى أخرى تشترك معه فى بعض الصفات ، أو تخرج عن معناها القديم فتطلق على معنى آخر تربطه به علاقة ما وتصبح حقيقة

(١) يوقف فى جميع هذه اللهجات بالسكون على جميع الكلمات المعربة بالحركات ، وتلتزم حالة واحدة في الكلمات المعربة بالحروف (المثنى ، جمع المذكر السالم ، الأسماء الخمسة ... الخ . فيقال أخوك مجتهد ، ضربت أخوك ، سلم لى على أخوك ...) . فوظيفة الكلمة فى الجملة لا تفهم فى لغاتنا العامية إلا من مجرد السياق أو من ترتيبها بالنسبة لبقية عناصر الجملة

(١) تغيرت وجوه التصريف العربية تغيراً كبيراً فى اللغات العامية ، حتى لا نكاد نعثر فيها على فعل باق على حالته العربية الصحيحة من هذه الناحية

(٢) فمن ذلك مثلا نعت المثنى بصيغة الجمع (فيقال « كتابين كبار » ، بدلا من « كتابين كبيرين) وتأخر الاشارة فى تركيب الجملة من المشار إليه ، (فيقال مثلا فى عامية المصريين : « الكتاب ده ، الكتابين دول ، الرجاله دول » ، بدلا من : « هذا الكتاب ، هذان الكتابان ، هؤلاء الرجال »)

« النثر الفنى » ، وليس عندى ما أقوله بعد ذلك البحث المفصَّل ، فمن كان يهمه أن يعرف أسرار « المكافأة » فليقرأ ذلك البحث . أما كتاب الأدب التوجيهى فسأخصه بمقال أو مقالين بعد أسابيع

الهجوم الآثم على الشيخ سيد المرصفى

كثرت الخطابات التى تَرِد إلىّ فى تحقيق ما ادعاه الأستاذ السباعى بيومى فى حق الشيخ سيد المرصفى ، وكنت أغفلت هذا الموضوع عن عمد ، لأن الأستاذ السباعى له علىّ حقوق ؛ فقد كان دائماً من أنصارى ، ولم آخذ عليه ما يريب ، ولأن مقام الشيخ المرصفى أقوى من أن يُهدَم بكلمةٍ جارحة تساق إليه فى إحدى المحاضرات

ولكن سكوت الأزهريين عن الانتصاف للشيخ المرصفى أزعجنى ، وكنت أرجو أن يكونوا درعاً واقية لذلك الشيخ الجليل ، وهو رجلٌ لم يرِ مثله الأزهر منذ أجيال طوال

فماذا أصنع ؟

مضايقةُ الأستاذ السباعى بلاء ، لأنه صديق ، والسكوت عن نصرة الشيخ المرصفى بلاء ، لأنه أستاذى ، فماذا أصنع ؟

سأنقل القضية من وضع إلى وضع ، فأصيرها قضية أدبية لا قضية شخصية ، وأبيِّن أن السباعى بيومى يستُر جنايته على المبرِّد بجنايته على المرصفى

ولكن كيف ؟

سيرى صديقنا السباعى أن « تهذيب الكامل » لم يكن إلا جناية أدبية ، وسيعرف أن التطاول على مقام الشيخ المرصفى لا يذهب بلا عقاب

وقد زعم الأستاذ السباعى أن الشيخ المرصفى سرق بعض أفكاره ، فليستعدّ للدفاع عن النظرية التى نهبها نهباً من كتاب « النثر الفنى » ونشرها فى مجلة « السراج »

ولكن على شرط أن يؤمن فى سريرة نفسه بأنى أكره البغى على أصدقائى ، وأن أمرى لم يكن إلا شبيهاً بأمر أكثم ابن صيفىّ حين قال : « إن قول الحق لم يَدَع لى صديقاً »

وإلى اللقاء فى غير بغى ولا عدوان ، فما أستبيح إيذاء أصدقائى ، ولو ظلموا أنفسهم فظلمونى

زكى مبارك

فى هذا المعنى الجديد بعد أن كانت مجازاً فيه ، أو تستعمل فى معنى غريب كل الغرابة عن معناها الأول . . . وهلم جرا .

***

هذا وللتطور الدلالى بمختلف أنواعه خواص كثيرة من أهمها ما يلى :

١ — أنه يسير ببطء وتدرج . فتغير مدلول الكلمة مثلاً لا يتم بشكل فجائى سريع ، بل يستغرق وقتاً طويلاً ، ويحدث عادة فى صورة تدريجية ، فينتقل إلى معنى آخر قريب منه ، وهذا إلى معنى ثالث متصل به . . . وهكذا دواليك حتى تصل الكلمة أحياناً إلى معنى بعيد كل البعد عن معناها الأول . فكلمة bureau مثلاً كانت تطلق فى المبدأ على صنف خاص من الأقمشة الصوفية étoffe de bure ، ثم أطلقت على غطاء مائدة المكتب لاتخاذه غالباً من هذا الصنف ، ثم أطلقت على مائدة المكتب نفسها ، ثم أطلقت على مقرّ العمل والإدارة الملازمة المكتب له . فلا علاقة مطلقاً بين أول مدلول لهذه الكلمة وهو القماش الصوفى وآخر مدلول لها وهو مقر العمل والإدارة ، على حين أن العلاقة وثيقة بين كل معنى من المعانى التى اجتازتها والمعنى السابق له مباشرة[1]

٢ — أنه يحدث من تلقاء نفسه بطريق آلىّ لا دخل فيه للإرادة الإنسانية . فسقوط علامات الإعراب فى اللهجات العربية الحاضرة ، وتغير أوزان الأفعال[2] ، وتأنيث بعض الكلمات المذكرة ، وتذكير بعض الكلمات المؤنثة[3] ، وجمع صفة المثنى ، وتأخير الإشارة عن المشار إليه ، وتزحزح كثير من المفردات عن مدلولاتها الأولى إلى حقائق جديدة . . . كل ذلك وما إليه قد حدث من تلقاء نفسه فى صورة آلية لا دخل فيها للتواضع أو إرادة المتكلمين

(١) هذه الخاصة صحيحة فى تطور الكلمات وتطور الأساليب . أما تطور القواعد فكثيراً ما يحدث بدون تدرج

(٢) فيقال مثلا : « كِبِر ، يِكْبَرْ » بدلا من « كَبِر ، يَكْبَرْ » أو « كَبُر ، يكْبُر » ومثل هذا يقال فى معظم الأفعال العربية

(٣) فيقال مثلا فى عامية المصريين : « رأس كبيرة وبطن كبيرة » . بدلا من « رأس كبير وبطن كبير »

٣ — أنه جبرىّ الظواهر لأنه يخضع فى سيره لقوانين صارمة لا يد لأحد على وقفها أو تعويقها أو تغيير ما تؤدى إليه . وإليك مثلاً حالة اللغة العربية ، فعلى الرغم من الجهود الجبارة التى بذلت فى سبيل صيانتها ومحاربة ما يطرأ عليها من لحن وتحريف ، ومع أن هذه الجهود كانت تعتمد على دعامة من الدين ، فإن ذلك كله لم يحل دون تطورها فى القواعد والأساليب ودلالة المفردات إلى الصورة التى تتفق مع قوانين التطور اللغوى فأصبحت على الحالة التى هى عليها الآن فى اللهجات العامية

٤ — أن الحالة التى تنتقل إليها الدلالة ترتبط غالباً بالحالة التى انتقلت منها بإحدى العلاقتين اللتين يعتمد عليهما تداعى المعانى[1] ونعنى بهما علاقة المجاورة والمشابهة[2] . فتارة يعتمد انتقال الدلالة على علاقة المجاورة المكانية ، كتحول معنى ظعينة (معناها فى الأصل المرأة فى الهودج) إلى معنى الهودج ومعنى البعير[3] ؛ وتحول معنى ذقن فى عامية المصريين إلى معنى اللحية[4] ، وتحول معنى bureau من غطاء المكتب إلى المكتب نفسه ، وكتأنيث الرأس فى عامية بعض المناطق المصرية (انتقل إليه التأنيث من الأعضاء المجاورة له وهى العين والأذن) . . . وهلم جرا . وتارة يعتمد على علاقة المجاورة الزمنية ، كتحول معنى الوغى إلى معنى الحرب ، بعد أن كان معناها اختلاط الأصوات فى الحرب (فلا يخفى أن العلاقة بين هذه الأصوات والحرب هى علاقة المجاورة الزمنية) ؛ وكتحول معنى العقيقة (هى فى الأصل الشعر الذى يخرج على الولد من بطن أمه) إلى معنى الذبيحة التى تنحر عند حلق ذلك الشعر[5] . وكتذكير كلمة été (فصل الصيف) التى كانت مؤنثة فى الأصل لمجاورة مدلولها مجاورة زمنية لمدلول كلمة مذكرة وهى Printemps فصل

(١) من المقرر فى علم النفس أن حضور معنى ما يدعو إلى الذاكرة بعض المعانى المرتبطة معه بعلاقة المجاورة أو المشابهة

(٢) هذا هو تفصيل ما يقصده علماء اللغة ، إذ يقررون أن تطور الدلالات خاضع لقانون التماثل Loi de l'analogie

(٣) المزهر للسيوطى الجزء الأول ص ٢٠٧

(٤) الذقن فى الأصل هو مجمع عظمى الحنك . ولا يخفى أن هذا الوضع مجاور للشعر النابت فى الوجه

(٥) المزهر للسيوطى الجزء الأول ص ٢٠٧

الربيع[١] . وتارة يعتمد على علاقة المشابهة ، كتحول معنى الأفن (وهو فى الأصل قلة لبن الناقة) إلى معنى قلة العقل والسفه ، وتحول معنى المجد (وهو فى الأصل امتلاء بطن الدابة من العلف) إلى معنى الامتلاء بالكرم ... وهلم جرا[٢]

٥ — إن التطور الدلالى فى غالب أحواله مقيد بالزمان والمكان . فمعظم ظواهره تقتصر أثرها على بيئة معينة وعصر خاص . ولا نكاد نعثر على تطور دلالى لحق جميع اللغات الإنسانية فى صورة واحدة ووقت واحد

٦ — أنه إذا حدث فى بيئة ما ظهر أثره عند جميع الأفراد الذين شملهم هذه البيئة . فسقوط علامات الإعراب فى لغة المحادثة المصرية لم يفلت من أثره أى فرد من المصريين

* * *

ومن هذه الخواص يتبين فساد كثير من النظريات القديمة بصدد هذا التطور

فليس بصحيح ما ذهب إليه بعض العلماء من أن هذا التطور نتيجة لأعمال فردية اختيارية يقوم بها بعض الأفراد وتنتشر عن طريق المحاكاة[٣]

وليس بصحيح كذلك ما ذهب إليه أعضاء المدرسة الإنجليزية وبعض الباحثين من الفرنسيين كالعلامة بريال Bréal إذ يرون أن التطور الدلالى يسير باللغة نحو التهذيب والكمال ويسد ما بها من نقص ويخلصها مما لا تدعو إليه الحاجة . وذلك أن اتجاهات كهذه لا يمكن أن تتحقق إلا فى تطور اختيارى مقصود تقوده الإرادة الإنسانية فى سبيل الإصلاح . أما وقد ثبت أن التطور الذى نحن بصدده تطور تلقائى آلى لا دخل فيه للإرادة الإنسانية فلا يتصور أن يتقيد فى اتجاهه بالسبل التى تقول بها هذه النظرية . وإن موازنة بين الحالة التى كانت عليها اللغة العربية فيما يتعلق بدلالة ألفاظها وقواعدها فى الإعراب وغيره وما آلت إليه فى اللغات العامية الحاضرة لأكبر دليل على ما نقول ؛ فمن الواضح أن هذا التطور لم يتجه دائماً نحو التهذيب والكمال ، بل أدى فى معظم مظاهره إلى اللبس فى دلالة الكلمات والخلط بين وظائفها وأنواعها وجرد اللغة مما بها من دقة وسمو ، وهوى بها إلى منزلة وضيعة فى التعبير . وما حدث فى اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله فى كثير من اللغات . وإليك مثلاً قواعد اللغة اللاتينية التى انقرضت فى اللغات المنشعبة عنها ، فإن معظم هذه القواعد كان كبير الفائدة فى بيان وظيفة الكلمات وتحديد مدلولاتها وتعيين العلاقات التى تربط عناصر العبارة بعضها ببعض ، وقد أدى انقراض هذه القواعد فى اللهجات المنشعبة عن اللاتينية إلى كثير من اللبس والاضطراب

حقاً إن هذه المذاهب تصدق على بعض مظاهر التطور الدلالى الخاص بلغات الكتابة ، فتطور لغات الكتابة يعتمد فى كثير من نواحيه على عوامل أدبية مقصودة ترمى إلى تنقيح اللغة وتهذيبها والسير بها فى سبيل الكمال .

علي عبد الواحد وافي
ليسانسيه ودكتور فى الآداب من جامعة السوربون

(١) كانت الفصول فى الفرنسية القديمة من حيث التذكير والتأنيث على النحو الآتى : الربيع (مذكر) ، الصيف (مؤنث) ، الخريف (مذكر) ، الشتاء (مذكر) . ثم انتقل تأنيث الصيف إلى الخريف ، وانتقل فيما بعد تأنيث الخريف إلى الشتاء ، فأصبحت الفصول جميعها مؤنثة ماعدا الربيع ، ولكن تذكير الربيع لم يلبث أن انتقل فيما بعد إلى الصيف وتذكير الصيف رد إلى الخريف والشتاء توهماً المذكر القديم فأصبحت جميع الفصول مذكرة فى اللغة الفرنسية الحالية

(٢) قد يعتمد انتقال الدلالة من حالة إلى حالة على علاقة التضاد بين الحالتين (إطلاق الكلمة مثلاً على ضد مدلولها القديم) ، والتضاد فى الواقع مظهر من مظاهر التشابه ، إذ لا يوجد تضاد شيئين يشتركان فى صفة عامة كالطويل والقصير ، والأسود والأبيض ، وهلم جرا . أما الأمران اللذان لا يشتركان فى صفة ما فلا يوجد بينهما تضاد كالأحمر والطويل مثلا

(٣) قال بهذا الرأى الفاسد جماعة من العلماء على رأسها Sayce, Sweet, Jespersen, Iard

٤ ـ أومن بالانسان !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

عود لتوضيح معنى جليل — دنيا المهندسين — صوفية مادية — إلى المتندين على المباحث الروحية — نتائج لقانون التسلسل والترق — فرضية لا بد منها — إشارة قرآنية عجيبة — ضروب من العقول — أدوار المعرفة وأدوار العـلم — إنسانية العبرق المضيمة — العلم دين — أين رجال القمة فى الفكر والخلق ؟

يدفعنى التفاوت الكبير الذى أشرت إليه سابقاً بين قوة بعض الآلات التى صنعها الإنسان من الحديد وغيره من المعادن وبين قوة الحيوان والإنسان نفسه ، إلى أن ألح بالبيان والتوضيح على هذا الموضع لأثبت به الحجة فى الدعوة إلى الثقة بالإنسان بعد أن استطاع أن يصنع موجودات عظيمة قوية تخافه وتخلف الحيوان فى السرعة والاحتمال والانبعاث والدقة فى الحساب والرصد وقياس الدقائق وإبراز الخفايا وجلب المنافع والأضرار .

وهذا لا يعنى أن هـذه الآلات مستقلة بحياتها ومدركة لما تفعله ، ولكنه يعنى أن الإنسان مد حياته وتفكيره إليها ، وأقامها مكانه فى رصد حوادث الحياة وأداء بعض أفعاله فيها كى يتفرغ لغيرها ويتجه إلى فتوح وغزوات جديدة فى مجاهل الكون . . .

ولست أستطيع أن أغفل هذا التفاوت العظيم بين هذه الآلات ، وبين النماذج الحية من أجسام الحيوان التى اتخذها الإنسان أساساً لعمله وطرق إيجاد ما أوجده بدون أن أصل منه إلى مدى بعيد من الاستنتاج قد ينفع العلم وينفع الدين وينفع علم الاجتماع فى تحديد وضع الإنسان . . .

وينبغى قبل كل شىء أن أقول لمن عساهم يخشون من مغالاتى فى تقدير قيمة الإنسان وإعجابى بما صنعه من الآلات التى فاقت قدرة الحيوان وقدرته هو على العمل والاحتمال آلاف الأضعاف : إننى لا أبنى من وراء ذلك إلا لفت أنظار الغافلين إلى قدرة الفكر الإنسانى وإلى وجوب تمجيده عن المسفاف الحقير من التصرف وإطلاقه يرود وينظر ويعمل فى ملكوت الطبيعة . . .

ولا أقصد بتمجيد الفكر الإنسانى إلا تمجيد بارئه وواضع أسراره فى هذا الجسم المحدود الضئيل . . . فلا يتوهمن متوهم أننى سأخرج بغلوى فى تمجيد الإنسان إلى شىء أشبه بإشراكه فى الخلق والإيجاد ، فإننى قد حددت هذا النوع فى مقال سابق بأنه آلة فى يد البارئ يتمم بها التنويع والتفريع فى خلق المادة وتصويرها .

ولا يسعنى غير هـذا بعد أن رأيت وفكرت فى أعمال تلك الطائفة المجيدة التى لم يلتفت إلى وضعها فى الحياة بعد ولم يعرف لها خطرها فى تحقيق الغرض من خلق النوع ولم ينظر إليها ولم تنظر لنفسها نظراً صوفياً . . . وأعنى بها طائفة المهندسين . . . أولئك الشعراء الصامتين الذين يرسلون قصائد مجسمة ويفعلون الأعاجيب من المواد المبعثرة المشوشة المختلطة الملقاة بدون نظام وتنسيق ، ويقيمون منها هذه الأشكال الموزونة المصقولة المنوعة التى عملت فيها آلاف العقول والأيدى بالتلوين والتزيين والإخراج الفنى الغنى باللفتات الذهنية واليقظة لألوان الشفق وأفواف الزهر ، ومزج الأضواء والظلال . . .

أو يقيمون أجساماً آلية تنبض بالنار والبخار وتسمى بهما أو بالكهرباء وتضيف إلى عالم الحركة فى الأرض قوى أخرى تملأ مسمع الزمان مع كل ما يدور فوق وتحت . . .

أولئك الذين تسير أعينهم على مواقع يد الله يلقطون أسرارها من غمار الحياة الزاخرة وعباب المائع و « المتبلور » والجامد ، ثم ينظمون كل هذه الأفانين ويتخذونها أساساً لقوة التقليد وقدرة الابتكار التى فى أفكارهم وأيديهم

أولئك الذين يسيرون على أسلوب الله من العمل فى المادة مع الصمت . . . ويتلقون فيوض المواد والقوى الطبيعية من يده الكريمة فيقسمونها ويوزعونها ويتممون ما أراده فيها ويجلون ما أخفاه فى أطوائها وثناياها ثم يضعونها فى الأرض مجملة منسقة متاعاً للعيون ومثابة للأجسام ومظهراً وتأويلاً لأحلام الروح فى عالم الجمال

ولن ينتهى العمل الهندسى للانسان فى الأرض إلا بعد أن يملأ شعابها وهضابها وهواءها وماءها وسهولها وأوعارها بآثار يده وفكره . فإنه مخلوق برهن على أنه يصلح للعيش فى اليابس والماء والهواء ، وأنه لا شىء إلا وهو واجد فيه حقلاً ليده يعمل فيه ويأخذ منه . . .

وإننى ما سمعت صوت قارىء واحد يتلو كلام الله فى تمجيد ذاته العليا فى محطة الإذاعة فتردد صوته جميع آلات الالتقاط

فى جميع الأنحاء وتبث ذلك التمجيد إلى زوايا الدنيا وأركانها وطبقات الجو إلا أحسست أن الإنسان ابتدأ يؤدى رسالته وعبادته ويُنطق بها الجماد ويُسمع بها على رغم الأبعاد ...

***

تلك صوفية مادية حديثة ينبغى أن تكون من مظاهر التدين فى هذه العصور التى تسير فيها الدنية المادية بحياة الإنسان فى ساعة واحدة أضعاف ما كانت تسير به مدنيات العصور السالفة فى عشرات السنين ...

نعم إن أصول الدين واحدة ثابتة لا تتغير ، ولكن ما نشأ حولها بفعل جهالات الإنسان وتزيداته ينبغى ألا يجعلنا جامدين متحجرين فى طرق العبادات ، فنفهم أن عباداتنا قاصرة على الأشكال الموروثة بل يجب أن تكون انتقالات العلوم بنا سبباً فى أن نعبد الله بها وأن نزيد فكرنا فيه من أجلها . وتلك عبادة مطلقة من قيود الطقوس والرسوم والأشكال ... عبادة يستطيع أن يقوم بها من يسير بسرعة ألف ومائتى ميل فى الساعة ... ويرتفع إلى طبقات الجو العليا ، وينخفض إلى أعماق البحار السفلى ... ويتنفس فى أقصى الشرق فتسمع أنفاسه من أقصى الغرب ... ذلك الذى يستطيع أن يترك فى كل مكان كلمة تشهد بالله وينطق بها الأحجار والأشجار والماء والهواء ...

فبين العلم المادى والتصوف هنالك يجب أن يقف الإنسان الحديث ينادى الله وفى قبضة يده مفاتيح أسرار المادة ونواميسها وفى قلبه صلاة دائمة جامعة ... !

***

وهذه الصوفية المادية تمجد العلم المادى والعمل به وتخضع لدولة الأجسام ولا تثور عليها ولا تعطل قواها بل تنميها ، لأنها تعرف أننا ما خلقنا فى عالم الأجسام إلا لنعرف قوانينها ونؤمن بها

وينبغى أن نقول هنا لبعض المغرمين بمباحث الروح الذين يفرحون إذا عثروا على حادثة غريبة لا يمكن تفسيرها تفسيراً مادياً ليتخذوها حجة على وجود قصد وعالم آخر وراء هذا العالم المادى : إن ما تنرمون به وتنفقون حياتكم من أجله لا يمكن أن يبلغ مهما كثر إلى عشر معشار الحجج التى تستطيعون أن تأخذوها من ذلك العالم الظاهر الملىء بالعجائب والمعجزات التى لا تحتاج العقول معها إلا إلى حركة ارتداد إلى مبادئ الأشياء ، وإلا إلى اليقظة الدائمة لمراقبة كل شيء والدوران حوله

وما حاجتنا إلى أن نستمد من عالم غير مرئى حججاً إن رآها شخص فسوف لا يراها آلاف ؟ مع أن ما بين أيدينا وما خلفنا ملىء بالعجائب التى يراها كل فرد ، ويخضع للمنطق المستمد منها كل سليم الطبيعة غير شاذ ولا شارد . « وكأيّن من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون »

فنحن نستطيع بجهد فكرى قليل أن نأخذ من هذا العالم المادى الظاهر أدلة كثيرة على أن وراءه عالماً آخر بل عوالم أخرى مجردة من قيود حياتنا هذه ولو لم نر من ذلك شيئاً ... فإن الرؤية ليست هى الطريق الوحيد إلى التصور والحكم

والنظرة العلمية المبنية على إدراك قانون الترقى وقوة التطور تبين لنا أنه ما دام قد وقف الإدراك بواسطة جسم من الأجسام عند حد الإنسان بعد أن تدرج إليه فى سائر أنواع الحيوان ، فينبغى أن يكون وراء الإنسان أفق حياة عاقلة أخرى هى بطبيعة سلم الترقى مجردة من الأجسام . وكما أن هذه الآثار والمشاهد البارعة التى نراها فى العالم المادى نتيجة لعوامل خفية نوعتها وشكلتها فلا بد أن يكون فى غير الأرض آثار ومشاهد أخرى هى نتيجة لعوامل ونواميس أخرى غير التى كان من نتائجها ظهور عالمنا الذى ندركه بحواسنا . وهذا هو اللائق باتساع الكون الذى أرضنا فيه كذرة رمل فى صحراء . فلا يصح أن تكون أساساً فى الحكم على جميع ما فيه

وهذا حكم نحكمه خضوعاً للفرضية الآتية التى تحل لنا هذا الإشكال وإن أوقعتنا فى غيره ... :

تخيل إنساناً خرج إلى الحياة أعمى أصم أبكم معدوم اللمس والشم ... فهل مثل هذا يكون لعالمنا وجود عنده ؟ بالطبع ، لا ... ولكننا مضطرون إلى أن نحكم أن عالمنا هذا موجود ولو لم يوجد فى حواس هذا الممسوخ ...

وكذلك نحن مضطرون إلى أن نحكم أن وراء عالمنا هذا عوالم أخرى ، ولو لم توجد لنا حواس تدركها ... لأن هذا هو الذى يتلاءم مع اتساع الكون واتساع قدرة المسيطر عليه ، واتساع عالم الفروض والصور فى بعض العقول

وقد أشار القرآن إلى معنى عجيب يتفتح معه خيالنا ويأخذنا فى عالم لا نهاية له من الفروض وإن كان لا طاقة لنا بإدراك ما فيه من الصور . قال : « أفرأيتم ما تُمنُون ؟ أأنتم تخلقونه

أم نحن الخالقون ؟ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ... »

وما تحته خط هو موضع النظر الطويل ، وباب للخيال الجنّبح ... ولكنه خيال مطموس الصور لأنه لم يجد أصباغاً وألواناً ينتزع منها ما يريد أن يؤلفه ويركبه ويَفتَنّ في تهاويله

وكيف ذلك وقد قالت الآية : « فيما لا تعلمون ... ! »

* * *

وينبغي لمن لم يدرك ألا ينكر على من أدرك ... فإن جوانب الكون واسعة ورسالات علم الله إلى العقول كثيرة ... وليست كل العقول قادرة على الغوص في أعماق الكون . كما أنه ليست كل الأجسام قادرة على الغوص في أعماق الماء . فمن لم يستطع السباحة والغوص في تلك اللجج والرجوع إلى الشاطئ فليلزم وليحذر حتى لا يغرق ويذهب في أهوال المعاني ...

وما في العالم « المتبلور » شيء تافه بالنسبة للعالم الذي تلتقي فيه أمواج المعاني ويمس عباب الفروض والغيوب والرموز ، ولكن ما فيه لا يكون أساساً لأحكام الحياة الدنيا ... وعقل الإنسان كطفل الأم : ينبغي ألا تطلقه في المخاطر والمزالق إلا إذا شب وكان له قوة واقتدار ...

ومن العقول نوع لا يعيش إلا في أعماق الكون . فإذا طفا على السطح وأخذ بظاهر الحيـاة اختنق وقلت فيه الحياة ، كالسمك الكبير ...

ومن العقول ما هو مساير لظاهر الحياة لا يتخلف عنها ولا يتقدم ...

ومن العقول ما هو واقف متخلف انقطعت به الطريق فلم يصل إلى العالم الفكري الموجود الآن في أذهان الأمم المتحضرة ، وهذا عقل محروم فاته كثير من رسائل الله إلى الفكر الإنساني

ومن العقول ما هو أسرع من الحياة بحيث يرى مشاهد آخر ساعة فيها كصور مكررة قديمة لا تثير في نفسه تطلعاً ، فلو خرج من الحياة لم يخسر شيئاً ولم يفته شيء، وهذا هو العقل الفائق السابق

والنفس إذا عرفت قرار الحياة وأصولها لم تبال بما يحدث في فروعها من تلون وتبدل ، وما عند هذا الصنف من صور كمال الحياة أرحب من الموجود وأكمل . فهو يسير في مستحدثات الأيام كما يسير المرء في طريق معروفة له تردد عليها مراراً من كثرة فكره في الموجود والمعدوم وما يصح أن يوجد

وهذا قد يعمل في الحياة بجد وصبر ، ويسير كما يسير الغافلون بدفعة دولاب الحياة ، وطواعية لحركات سيرها بالناس . وإنما يطيع آمالها ويزاول أعمالها خضوعاً لقانونين عظيمين من قوانينها: وهما الأمل والعمل ...

وهكذا الطبيعة رسالات من علم الله إلى الفكر الإنساني العام . يتلقاها كل عقل حسب طاقته واتساع حوزته ، ويأخذ منها ما قدر ويسر له ...

فينبغي لمن لم يدرك ألا ينكر على من أدرك ... ينبغي لرجل الشارع ألا يجادل في عالم « أينشتين » أو « أديسون » أو الغزالي ومن إليهم من العقول الفائقة التي أطلت على الأرض وكانت فيها كالثمرات التي تلقط أسرار نوعها وتحفظ بذوره وترقيها

* * *

وبين الإلـه الباريء الكبير وما عنده من عوالم المعاني والقوى المجردة والكمالات التي لا تتناهى ، وبين عالم الولد والكثافات ، وقف الإنسان التائه المتأمل الساعي وراء المعرفة حيناً من الدهر لم يتقدم فيه خطوات كثيرة ، ثم انقسم فريقين : فريقاً استمر في التفكير المجرد في الطبيعة وما وراءها ، وأدرك بعض اتجاهات الكون باللمحات والنظرات الشعرية الخاطفة ، وقنع بذلك حتى خرج من الحياة « عارفاً » غير « عالم » ولا « عامل » ...

وفريقاً أعياه التفكير المجرد ، ولم يجد له محصولاً يملأ يديه ويشهد له الناس بأنه أدركه وقنصه ، فانصرف إلى أنواع الحياة في الأرض وأشكال المادة يعبث فيها ويدور حولها ويخرج أسرارها حتى « علم » ثم أخذ يقلد ويبتكر

وكما أن الأقدمين كانوا ينظرون إلى أعمال الطفولة وحب استطلاعها الأشياء على أنها عبث ولعب لا طائل تحته . . . كذلك نظروا إلى أعمال أكثر الرجال في المادة وتنويعها وملء الحياة بضجاتها وأصواتها على أنها عبث ولعب لا يليق بمن يسير إلى الموت والفناء . وكان المثل الأعلى للحياة الصالحة عندهم أن يطلّق الناس أعمال الدنيا ويذهبوا إلى المعابد والمعاهد يتلون الأوراد ويفلسفون ويرسلون الأشعار ولا يرفعون في الأرض حجراً على حجر ، فيكونون عنصراً مستهلكاً غير منتج يأخذون من الحياة أغذية وأعمالاً ، ولا يعطونها إلا أقوالاً وأشعاراً ،

لست أومن بالإنسان

للأستاذ زكي نجيب محمود

وقع لي منذ سبع سنوات كتاب، لعله أنفع ما قرأت من الكتب، لأنه غاص بي إلى قلب الطبيعة ولبابها؛ فقد كنت قبل قراءته لا أفهم إلا عن بني الإنسان دون ألوف الألوف من الكائنات التي تملأ فجاج اليابس وأغوار الماء، فعلمني هذا الكتاب النفيس كيف أفهم عن الحيوان ما يريد. فلئن كان الإنسان يلوك لسانه يميناً ويساراً ويخبط به في أعلى وأسفل ليرمز بهذه الحركات إلى معان، فليس الحيوان بأقل قدرة منه في ذلك. يتناقل أفراده المعاني بهز الأذناب وتحريك الأهداب... وقد كان علمي بلغة الحيوان موضوع فكاهة وسخرية من أصدقائي جميعاً، يلذعونني بتنكاتهم كلما نهق حمار أو زقزق عصفور، ولكني مضيت في دراستي لا يثنيني ما لقيت في الدرس من مشقة وعناء، لأني رأيت أنه إن جاز لمعاهد العلم أن تفني من طلابها زهرات أعمارهم في دراسة لغة قديمة دَرَسَ أهلها وطواهم الزمن في جوفه العميق، لخليق بواحد من بني آدم أن يعنى بلغات «أقوام» تعاصرنا وتعاشرنا وتبدل لنا وحشة العالم بهجة وأنساً. وأحمد الله أن كتب لي التوفيق فأعانني على بلوغ ما أريد. فها أنذا أجلس إلى مكتبي ذات مساء، والليل منشور الذوائب ضارب بجرانه، والسكون عميق لا أسمع فيه إلا حفيفاً خفيفاً وهمساً خافتاً، وهاتان فراشتان قد التقتا تحت مصباحي وأخذتا تسمران بحديث رائع جذاب، لم أملك معه إلا أن ألقي الكتاب جانباً لأنصت...

— لقد أنبأتني زميلة حديثاً عجيباً هذا المساء: أنبأتني أن كاتباً بليغاً من بني الإنسان قد رفع القلم يجول به ويصول في عشيرته من بني آدم، ليقول في ورع وإيمان إنه يؤمن بالإنسان!

— وفيم كل هذا العناء؟

— لأنه واحد من بني الإنسان! ياليت شعري ماذا تقول الأبقار لو تحركت بين حوافرها الأقلام، وماذا تزعم الأطيار لو كان تغريدها كلاماً من الكلام؟

— وهل تؤمن البقرة إلا بفصيلة الأبقار، والعصفور إلا بقبيلة الأطيار؟

وجاء برغوث يقفز حول الفراشتين جذلان فرحاً، ويحوم فوقهما صاعداً هابطاً؛ ولم أكن واأسفاه قد أتقنت لغة البراغيث

ويقفون في طريق تحقيق بعض الغايات الكبرى من خلق الإنسان

هؤلاء لا تزال منهم بقايا كثيرة في الشرق، بل هم الكثرة الغالبة فيه. وهم الذين جعلوا إنسان الشرق كأكداس الحصيد وأهراء الغلال التي تترك في أماكنها حتى تقتلها الآفات وينخر فيها السوس... وهم بذلك يضيعون على الإنسانية ثروات تحصل عليها من تشغيل أفكار هؤلاء الملايين وأيديهم. وهم بذلك يتركون أفراد الناس من غير تنسيق وتنظيم في الحشد والتعبئة للمعابد والمعاهد والمعامل والحقول والجيوش ...

هؤلاء ينبغي أن يزيلوا عن عيونهم غشاوات القرون الأولى ويعدلوا أفكارهم على مقتضى ما توحيه سنن الله الدقيقة التي تجعل من تصرفات جميع قوانين الطبيعة في وقت واحد لحناً موسيقياً متسقاً يشترك في توقيعه كل شيء... ويعلموا أن الكفر بعلوم الطبيعة والفسق عن نظمها كالكفر بعلوم العقائد والفسق عن نظم الأخلاق

إن الإيمان بالعلم وتنظيم الحياة الإنسانية بطرقه وإطلاق الأفكار فيه هو الدين الواحد الذي يدين الإنسانية جميعها وتلتقي عليه بأفكارها وأيديها... وقد جعلها تلمس عرشها المرموق، وتعرف دولتها المأمولة في مستقبل الحياة...

ولكن أين العصا السحرية التي ستفعل في تعديل شهوات الأمم وغرائزها وتعصباتها الذميمة، بحيث تجتمع على خدمة العلم والحياة بأفكارها وأيديها؟

ذلك ما يسأل عنه رجال التربية والمفكرون في الدين والاجتماع

رجال التربية فلاحو حقول الطفولة: منطقة النمو الدائم وعُلَب أسرار المستقبل...

ورجال الفكر رسامو المثل العليا القادرون على استدراج الناس إليها وسجنهم فيها...

ولكن هؤلاء وأولئك لا يزالون بعيدين عن مقاليد الحكم وتسلم مقاود القطيع بينما مكانهم هناك لو صحت الأوضاع...

ولا يزال محترفو السياسة والدجاجلة بها المتخلفون عن بلوغ القمة في الفكر والخلق هم الغالبين المتسلطين...

وهؤلاء هم سر البلاء النازل الآن بالناس، كما كانوا في القديم...

عبد المنعم خلاف

لا فيها من عسر وتعقيد ، ولـكني استطعت رغم ذلك أن ألتقط من حديثه مع إحدى الفراشتين ألفاظاً متناثرة علمت منها ما يريد .

قالت فراشة تحدث البرغوث الوثاب ، وقد ضاق صدرها بلهوه وعبثه :

— هلا اصطنعت يا أخي شيئاً من الجد في ساعة يجد فيها الحديث ؟ ما كل ساعة للهو والطرب

— وفي أي أمر خطير تتحدثان ؟

— في هذه النشوة التي أخذتك بغير مبرر معقول

— وأي حافز للطرب أشد وأقوى من عالم فسيح خلقه الله لي ألهو فيه وأمرح ؟ ...

فقالت الفراشة الثانية :

— أخلق الله هذا العالم الفسيح لك أنت ؟ وماذا تقول إذن في الإنسان الذي سخر الطبيعة بعقله الجبار ؟ !

— ومن تقصدين ؟ أتريدين هذا الحيوان الذي ضمرت فيه رجلان وطالت رجلان ؟ هل تعلمين لماذا خلق الله هذا الإنسان ؟ هل تعلمين فيم سعى هذا المسكين آناء الليل وأطراف النهار ؟ ليطعمَ فيجود لحمه فيصبح طعاماً شهياً للبراغيث . ألا ما أشقى عالم البراغيث إن لم يكن بين صنوف الحيوان هذا الإنسان ! !

وجاءت بعوضة تسعى ، تهز جناحيها الصغيرين طياً ونشراً ، وأخذت تدنو من الفراشتين قليلاً قليلاً ، ومالت برأسها تستمع للحديث ، فلما استجمعت أطرافه اقتربت من الفراشتين ولبثت بينهما صامتة . وحدّث ما شئت عما ملأ نفسي من سرور حين رأيت البعوضة تهم بالكلام ، لأنني بلغت في فهمها حداً بعيداً بحيث لا تخفى علي من ألفاظها خافية ، ولأني عهدت في البعوض حكمة عجيبة وعلماً واسعاً ، لست أدري أني له بمثله ، ولا أنفك يوماً عن التفكير في هذه الحشرة الغريبة ، فهل جاءها العلم مكسوباً من تجاريب الحياة ، أم هو موهوب مفطور في جبلّتها ؟

قالت البعوضة بعد صمت :

— فيم الحوار ؟

فأجابت الفراشة المتحمسة ، ولعل حماستها مستمدة من شبابها :

— في آدمي زعم لقومه أن كل شيء في الطبيعة يرقب أملاً واحداً هو الإنسان ، كما ينتظر كبار البيت بلوغ طفل عزيز : كل شيء في البيت مسخر للطفل ، يضحك له إذا ضحك ، ويألم إذا تألم ! ثم زعم لقومه — ويا هول ما زعم — أن الليل والنهار والحيوان الآبد والداجن ، والأزهار والثمار والأنهار والجبال ، وألوان الشفق في الأصائل والأسحار ... كل هـذا وغير هذا من صنوف ما يطوى الكون بين دفتيه ، إنما خلق للانسان ! !

قالت البعوضة :

— ومن يكون هذا الإنسان ؟

— قرد نهض على قدميه

— أو يكون النهوض على الأقدام كفيلاً له بهذا كله ؟ هل تعلمين يا عزيزتي أن هذا الإنسان أحدث صنوف الحيوان عهداً بهذه الأرض

— عرفت ذلك من زميلتي منذ دقائق

— إن كانت كائنات الله قد خلقت لينعم بها الإنسان وحده ، فمن ذا كان يستمتع بها قبل ظهوره ؟

فأجابت الفراشة العجوز في رزانة :

— قال كاتبهم هذا البليغ ، إن ذلك كله صُوَرٌ جاءت قبله لتزخرف له المسرح ... إنها حروف تتألف منها الرواية التي يمثلها الإنسان !

— ويحه ! هل صَوَّرَ الخيال لهذا المغرور أن الله قد زَيَّنَ الطاووس بريشه الجميل ليُمتِعَ الإنسانُ ناظريه ، ورقَّشَ الأفعى لينظر إليها الإنسان وهي تتلوى وتتحوى في صندوقها الزجاجي في حديقة الحيوان ؟ وماذا هو قائل في الجراثيم التي تفتك بيدنه لتعيش ؟ تلك الجراثيم التي إن أفلح في نزع واحدة منها مما يسكن في جوفه ، باضت له ألوف الألوف من صغارها ؟ ... لو أنصف المسكين لعلم أن الله جلت قدرته أبدع قصيدة الكون العظمى منظومة منغومة ، والإنسان بيت من أبياتها . إن سر الوجود ليستعلن في الجرثومة الضئيلة كما يستعلن في الإنسان والقرد والأفعى ! إنها أنغام تنسق كلها لتنشئ موسيقى الوجود ! وهل يعظم الشاعر ببيت واحد أكثر مما يعظم بقصيدة عامرة بالأبيات والقوافي ؟

فقالت الفراشة العجوز :

— أراكم تعجبون وليس في الأمر ما يدعو إلى العجب ؟ لقد ذكرتم أن الإنسان بين صنوف الحيوان طفل وليد . إنه ما يزال يعبث في مهده ويلهو ، أفيكون عجيباً من الطفل أن يتشبث بالأشياء ويمسك بها في قبضته صائحاً : هذا كله لي ، لي وحدي دون سواي ؟ فاغفروا له هذه النزعة الصبيانية حتى تُمَـلِّه

أسبوع فى تاريخ الأزهر

للأستاذ محمد محمد المدنى

ليس الأزهر جامعة من هذه الجامعات الحديثة التى عامرت جيلاً أو جيلين من الزمان ؛ وليس الأزهر وليد ثقافة واحدة لم تبلُها الأحداث ، ولم تصقلها التجارب ، ولم تمحصها العقول والأيام ...

إنما الأزهر تاريخ حافل بأمجد الذكريات ، وسفر ممتلئٌ بأروع الآثار ؛ إنما الأزهر عمر ثقافة عالية فى اللغة والفقه والتشريع ، ومثال من أمثلة التدرج الهادئ الرزين فى العلم والتفكير والنضوج

أليس من المجيب مع هذا أن يقال : « أسبوع فى تاريخ الأزهر » وهل تحسب الأسابيع والشهور فى تاريخ طويل ممدود لا يحسب بالعشرات من السنين ، وإنما يعد بالمئين ؟

بلى إنه لعجيب ، ولكنه مع ذلك أسبوع ، وسيظل أسبوعاً معروفاً متميزاً لا تغمره هذه المئات من السنين !

ذلك هو الأسبوع الذى ابتدأت فيه مناقشة الرسائل التى قدمها لأول مرة الطلاب المتخرجون من كلية الشريعة لنيل شهادة « الأستاذية » فى الشريعة الإسلامية

احتفل الأزهر لهذه المناسبة احتفالاً ظاهراً لا فيما أعده لها من مكان منظم منسق ، ولا فيما وضعه لها من نظام محكم دقيق ، فإن الأزهر يسير فى أمثال هذا على طبيعته الساذجة التى لا تعرف الدعاوة ولا تحب الإعلان

ولكنه كان احتفالاً ظاهراً لما احتشد له من علماء وطلاب ، ولما شهده من رجال الفكر وأهل العلم ، ولما ضم فى نسق واحد بين ألوان مختلفة من التفكير ، وعناصر متباينة فى وجهات النظر

جمع هذا الحفل بين العالم الكبير الذى عاش طول حياته فى ظل ثقافة محافظة ترى التجديد خروجاً على الدين ، وافتياتاً على السلف الصالح من علماء المسلمين ، وترى الاجتهاد والنظر مزلقة من مزالق الهوى والضلال ، وبين العالم الشاب الذى يرى الحياة أمام عينيه قد اصطبغت بصبغة غير التى يعهدها هؤلاء الآباء ، واتسمت بطابع غير هذا الطابع الذى ألفوا أن يروها متسمة به ، والذى يرى من حقه بل من واجبه ألا يعيش بعقله وروحه فى عصور عفّى عليها القدم ، وأخنى عليها الزمن ، بينما يعيش

الدهور أنه جزء من كلٍّ عظيم . . .

وهنا قفز البرغوث قفزات لفتت له الأنظار ، فقال :

— حدثونى — نشدتكم الله — ماذا حدا بالإنسان أن يتبجح فيزعم لنفسه ما زعم ؟

فأجابت الفراشة المتحمسة :

— أغراه بذلك ما له من علم وأخلاق ؟ وما يدرى أنه بعلمه يكمل النقص فى غريزته وفطرته ، وأن أخلاقه حين تحلم بالمثل الأعلى فهى فى أحلامها دون ما يسود ممالك النمل والنحل من أخلاق ! إن الحيوان لا يعرف العرى والجوع ، وأما الإنسان بكل ماله من علم وأخلاق ... آه ! وددت لو خرج هذا الكاتب البليغ من لفائفه « الصوفية » فيخوض فى برد الليل ساعة فيرى بنى جنسه قد ألقاهم البؤس فى العراء . حرمتهم الطبيعة الفراء اتكالاً على علم الإنسان وأخلاقه ، فعجز العلم والأخلاق أن يهيئا لهؤلاء الأشقياء وطاء أو غطاء ! وددت لو خرج الكاتب البليغ لحظة من « تصوفه » الذى يدفئه بين جدران داره وفوق حشايا مخدعه ليرى كم من بطون قومه قد باتت خاوية على الطوى ...

ولكنه لن يبارح هذا النشاء « الصوفى » ليرى الحقيقة « عارية » حتى يخزه فى رقاده واخز

فقال البرغوث وهو يثب فى جذل طروب :

— لكم منى هذا الصنيع . والله لأقضّنّ مضجعه هذا المساء ، لعل السهاد أن يحفزه على التفكير فى هؤلاء الذين ينبتون القمح حتى يملأ الأهراء ثم لا يأكلون ، والذين يزرعون القطن حتى تنص به المخازن ثم لا يكتسون . . . والله لأؤرقنه هذا المساء لعله يعيد التفكير فى هذا الإنسان الذى يقتل بعضه بعضاً بأدوات من العلم ، ويهلك بعضه بعضاً بنزوات من الأخلاق

. . . قال ذلك البرغوث وانصرف ، وكان الليل قد انتصف ، فأطفأت سراجى وأويت إلى مخدعى ، وبى إشفاق على صديقى خلاف من هذا البرغوث اللعين !

***

خلافُ يا صديقى ، لا تسرف ! أفيكون هذا الإنسان الذى جارت به السبيل وحار الدليل جديراً منك بالإيمان ؟

زكى نجيب محمود

بجسمه وعمله فى عصر العلم ، والتفكير الحر ، والتجديد النافع !

جمع هـذا الحفل بين العالم الذى ظل عمره فى أحضان الأزهر وبين ربوعه ، وبين العالم الذى عاش دهراً فى أوربا فرأى ما لم يكن قد رأى ، وعلم ما لم يكن قد علم ، فاشتجر فى نفسه القديم مع الحديث ، وامتزج فى ثقافته الشرق بالغرب

وكنت ترى إلى جانب هؤلاء وأولئك طلاباً أزهريين يحرصون فى لهف وشوق ، وإلحاح وإصرار على شهود هذا الحفل ، والاستماع إلى نقاش فيه وجدال بين طالب منهم ، وأعلام من أساتذتهم على أساس الحجة والبرهان ، والبحث الحر ، والنهج العلمى المستقيم

وكنت ترى فى هـذا المحيط الأزهرى الصاخب زواراً من غير الأزهر ، جاءوا ليشهدوا هذه المناقشة العلمية التاريخية التى تدور فى الأزهر لأول مرة والتى يرأسها رجل من أفذاذ المفكرين ، وكبار المصلحين ، وهبه الله عقلاً ممتازاً وفكراً رشيداً وقلباً جريئاً

ودارت المناقشة ، وتجلت فيها حرية الرأى سافرة ليس من دونها حجاب ، سليمة لم تفسدها مداراة ولا مصانعة ولا تخوف . وانطلق العلم فيها على سجيته لا يتعثر فى تركيب من تراكيب المؤلفين ، أو لفظ من ألفاظ المصنفين ، وسمعنا مبادئ لا نعدو الحقيقة إذا عددناها جديدة فى جو الأزهر ، أو حسبناها توجيهاً صالحاً للتفكير العلمى بين العلماء والطلاب ، ومبدأ لتحول دراسى خطير فى حياة هذا المعهد العظيم

وكان من المبادئ الجليلة التى سمعناها ما قرره فضيلة الأستاذ الإمام المراغى من أن الدين فى كتاب الله غير الفقه ، وأن من الإسراف فى التعبير أن يقال عن الأحكام التى استنبطها الفقهاء وفرعوا عليها ، واختلفوا فيها ، وتمسكوا بها حيناً ، ورجعوا عنها حيناً : إنها أحكام الدين ، وأن من أنكرها فقد أنكر شيئاً من الدين ، فإنما الدين هو الشريعة التى أوصى الله بها إلى الأنبياء جميعاً ؛ أما القوانين المنظمة للتعامل والمحققة للعدل والدافعة للحرج فهى آراء للفقهاء مستمدة من أصولها الشرعية تختلف باختلاف العصور والاستعدادات ، وتبعاً لاختلاف الأمم ومقتضيات الحياة فيها ، وتبعاً لاختلاف البيئات والظروف . ولو جاز أن يكون الدين هو الفقه مع ما نرى من اختلاف الفقهاء بعضهم مع بعض ، وتفنيد كل آراء مخالفيه ، وعدها باطلة ، لحقت علينا كلمة الله : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء »

وهذا معنى قد جلاه الأستاذ الأكبر فى هذه المناسبة ، وكان قد عرض له برفق فى أحد دروسه الدينية عند تفسير قوله تعالى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه »

وكان من المبادئ التى قررها فضيلة الأستاذ الأكبر أيضاً مسألة تأثير العرف فى المعاملات ، وقد ضرب لذلك مثلاً بأن عُرفنا الحاضر قد أهدر المعايير والأوزان فى التعامل بالذهب والفضة ، فأصبحنا نصرف الذهب بالفضة من غير نظر إلى الوزن ولكن على أساس العد ، وكذلك الأمر فى صرف الفضة بالفضة

وكان من المبادئ التى قررها فضيلته أيضاً التفريق بين ما حرم لنفسه وما حرم لغيره ، وما ينبنى على هـذا التفريق من جواز إباحة الأخير عند الحاجة

وسمعنا أيضاً مبدأ من المبادئ الهامة فيما يتصل بالمروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقوم على أساس التفريق بين ما يقرره النبى صلى الله عليه وسلم على أنه مبلغ عن الله ، وما يقرره على أنه أمام للمسلمين ، وما يقرره على أنه قائد للجيش فى زمن الحرب ، وما يقرره على أنه قاض ... الخ ، وأن بعض ذلك يكون ملزماً للمسلمين فى جميع عصورهم ، وبعضه لا يكون ملزماً

سمعنا ذلك كله ، ورأينا آثاره بين السامعين ، وسمعنا غيره من أعضاء الهيئة العلمية التى كانت تناقش الرسائل ، ثم تحرينا أن نعرف آثاره فى أحاديث العلماء والطلاب ، وتحرينا أن نعرف آثاره فى الفصول الدراسية ، فإذا الجميع طوال هذا الأسبوع مشغولون بهذه المبادئ يتناقش فيها الأستاذ مع الأستاذ ، والطالب مع الطالب ، ورغب الطلبة إلى أساتذتهم فى تفصيل مجملها ، وتوضيح مشكلها ، والتمثيل لها ، والتطبيق عليها

ولعل من الظواهر السارة التى تستحق التسجيل أننا رأينا لأول مرة احتياطاً فى التعليق ، وحرصاً عند التعقيب ، وزهداً فى وصف الناس بالخروج أو المروق ، وانصرافاً إلى الفكرة من حيث هى فكرة ، لا باعتبارها قولاً يخفى وراءه غرضاً من الأغراض

ونحن نسجل هذه الظاهرة الهامة فى تاريخ الأزهر مغتبطين

كلمات

مكافآت للقراء . . . !

فى بريد « الرسالة » الأدبى من عددها الأخير خبر قرأته ووقفت عند تلاوته بالعجب والحسرة

ذلك الخبر الذى يقول فى عنوان : « حقوق المؤلفين فى الدنمرك » . إن حكومة هذه الدولة فكرت فى حفظ حقوق المؤلفين وفيما يلحق بهم من غبن ، فقررت زيادة دخلهم المادى تشجيعاً لهم على مواصلة الإنتاج والعمل

ومن التدابير التى اتخذتها لذلك أنها فرضت رسماً على كل من يطالع أى كتاب من المكاتب العامة أو فى أندية المطالعة ؛ ورسماً آخر على كل من يقتبس جزءاً من كتاب ويذيعه بالمذياع أو بالحاكى

قرأت هذا الخبر مرة ومرة ، ثم أخذنى — كما قلت — العجب والحسرة ، وكيف لا أجد فى قلبى الحسرة وقد مرّ فى خاطرى اسم فلان ، كاتب من أساتذة الجيل ، وقد أوشك منذ سنتين أن يُطرد من بيته لأنه عجز عن وفاء أجره شهوراً .

ومرّ فى خاطرى اسم فلان ، مفكر من الطراز الأول ، قضى سواد عمره فى الكتابة والترجمة والتحرير ، يكدح الكدح كله الليل والنهار فى جزاء جنيهات قلائل ينفقها نصف حيوان ، أو نصف إنسان مستكرش ، لأنه قريب فلان أو محسوبه أو حميمه فى سهرات الليل ... !

وذلك الكاتب المفكر كان منذ سنوات عشر يربح فى كل شهر ثمانين جنيهاً ، فإذا هو الآن بعد الكهولة والجهد وكثرة العيال ينحدر منها إلى عشرين أو ثلاثين ، كأنما عمله من نوع ذلك الذى قاله فيه ابن الرومى تهكمه الظريف اللاذع :

فيا له من عمـل صالح   يرفعه الله إلى أسفل !

ومر فى خاطرى اسم فلان الكاتب الشاب الملتهب الذى قعد به المرض والعجز من طول ما أجهد عقله وأعصابه وفكره ليكتب ويفيد ، فلم تفده كتبه ولا مؤلفاته ولا بحوثه وترجماته حين عجز وانهد[1] بالعجز والمرض ، لم يفده شيئاً من ذاك كساء ولا طعاماً ولا دواء .

* * *

فهذا حظ الكاتب والكتاب فى مصر منار الشرق وزعيمه وطليعة أقطاره

وذلك ما يجد الكاتب والكتاب فى بلد من بلاد أوربا كما نقلت لنا الرسالة فى بريدها ، وحين تفرض هذه الضريبة على القراءة فى دنيمرك لن ينقص بسببها عدد القارئين، فإن الكتاب عندهم كالطعام والشراب ، وتريد حكومتهم أن تزيدهم براً ورعاية

وقد وجدنا فى مصر وزارة معارفنا تجرى اختباراً وتقيم مسابقة للسنة التوجيهية تهدى فيها الجوائز تحايل تلاميذ مدارسها حتى تعودهم أن يقرأوا ، ووجدنا الصديق الدكتور زكى مبارك وهو يكتب عن واحد من تلكم الكتب المختارة يذكر أنه طبع مرتين . وذلك دليل على حظه من الرواج ... ! وعما قليل تخصّص الجوائز فى مصر للقراء ... ! وفى دنيمرك تفرض عليهم المكوس

وقد يخرج بعضنا بل أكثرنا قد نال درجة كبرى من الجامعة وهو لا يعرف أن يقرأ كتاباً ، ولا يعرف أين فى القاهرة دار الكتب ، ولا يجد أن ذلك ينقصه ولا يعيبه ... !

إنه لا يزال أمامنا شوط كبير تنقطع دونه الأنفاس حتى تصدق علينا القولة التى قالها الخديو إسماعيل :

« إن مصر قطعة من أوربا »

« محمود »

(١) يقال هدّه المصيبة أوهنت ركنه

ونهنئ عليها فضيلة الأستاذ الإمام ، كما نهنئه بهذا الأسبوع الفريد فى حياة الأزهر العلمية ، ونرفع إلى فضيلته اقتراحين

الأول : أن يأمر بوضع خلاصة لهذه المناقشات تعرض فيما بعد على فضيلته لأقرارها وإذاعتها بين أهل العلم ، فإن هذه الصفحة جديرة بأن تضاف إلى تاريخ الأزهر كظاهرة من ظواهر الرقى الفكرى فى عهد الإمام المراغى .

الثانى : أن يعمل على أن تكون مناقشة السادة الأجلاء ، المرشحين لجماعة كبار العلماء ، مناقشة علنية ، فإنى أعتقد أن من حق العلم عليهم أن ينشروا بين الناس ثمرات عقولهم ، وأن يقطعوا ألسنة الناقدين ، وأن يردوا بذلك على الذين يتساءلون : لماذا يفرض على طلاب الأستاذية هذا اللون من التمحيص العلمى على ملأ من الناس أجمعين ، بينما تمر رسائل « أساتذة الأساتذة » متسللة فى خفية وتستر ؟

محمد محمد المدنى
المدرس بكلية الشريعة

تجديد أغراض المجمع اللغوى

لصاحب المعالى وزير المعارف

نص كلمته فى افتتاح مؤتمر مجمع فؤاد الأول للغة العربية

سيدى الرئيس . زملائى المحترمين . سيداتى . سادتى

تفضل معالى الرئيس فسألنى خلال هذا الأسبوع الأخير : أأنا على استعداد لأنى كلمة فى هذه الجلسة الافتتاحية للمؤتمر أتناول فيها شأناً من الشؤون المتصلة بأغراض مجمعنا ؟ وقد شكرت لمعاليه هذه الدعوة وقبلتها ، مغتبطاً أن أتحدث إليكم ، رغم ضيق الوقت ، فى أمر أعده جليل الخطر فى حياتنا وفى مستقبلنا

وأود قبل أن أعرض لهذا الأمر أن أشكر لمعالى الرئيس ما وجهه إلىّ وإلى زملائى الجدد من عبارات التحية ، كما أود أن أنوه بالجهود الكبيرة التى بذلها المجمع قبل أن أنضم أنا وهؤلاء الزملاء الأفاضل إليه . وحسب من شاء أن يطلع على الذكرة الموجزة التى وضعها المجمع ووزعت فى هذا الاجتماع ليقدر ما بذل من هـذه الجهود . أما الذين اطلعوا على مجلة المجمع وعلى محاضر جلساته ، فهم لا ريب أعظم تقديراً لجسامة هذا الجهود . وإن جاز لى أن أعبر عن رأى زملائى الجدد فليس يسعنى إلا أن أشكر باسمهم وباسمى زملاءنا المحترمين الذين قاموا بهذا المجهود ، وأن نذكر الذين قضوا أجلهم بالخير ، وأن نطلب لهم من الله مثوبة ومغفرة

وليس ينقص من قدر هذا المجهود الكبير أنه ما يزال فى بدايته ، أو أن لى أو لغيرى بعض ملاحظات عليه يراد بها مزيد من دقة التوجيه إلى الغرض المنشود حيناً ، وتبلغ حد النقد فى بعض الأحيان . فالغرض العظيم الذى أنشئ المجمع لتحقيقه ، والعمل الجسيم الذى لا بد منه لبلوغ هذا الغرض ، يحتاجان إلى كثير من الأناة والروية ، وإلى زمن لا تعد السنين شيئاً مذكوراً فيه . لقد قضى المجمع الفرنسى منذ أنشأه ريشليو عشرات السنين قبل أن يضع معجمه الأول للغة الفرنسية . ومع هـذه الأناة ، ومع ضخامة المجهود الذى بذل خلال هذه السنين الطويلة ، وجهت إلى هذا المعجم ألوان كثيرة من النقد كانت موضع اعتبار المجمع وتقديره أثناء مراجعة معجمه . ولا تزال لجنة المعجم فى المجمع الفرنسى تراجعه وتضيف إليه وتحور فيه تبعاً للتطور اللغوى فى تلك البلاد ، متوخية فى عملها أن تحافظ على سلامة اللغة الفرنسية وعلى ملاءمتها لحاجات الحياة وتطورها ، مؤمنة دائماً بأن اللغة كائن حى متصل أوثق الاتصال بكل صور الحياة ، يسايرها فى نمو ما ينمو وانقراض ما ينقرض وتطور ما يتطور . فالمجمع الفرنسى ، ككل من درسوا اللغة ومارسوها ، يرى أن اللغة هى صورة الحياة فى إدراك الذين يتكلمون هذه اللغة ، وأنها لذلك مرآة تقدم هؤلاء القوم أو تأخرهم ، نشاطهم أو قعودهم ، قدرهم الصحيح لحقائق الحياة أو توهمهم الباطل لهذه الحقائق :

وكيف لإنسان أن يغمط المجهود الذى قام به المجمع وقد أقر أكثر من أربعين قاعدة فى اللغة تيسرها وتوسع أقيستها ، وتلينها للترجمة عن مستحدثات المعانى ، وقد استخرج آلافاً من المصطلحات فى علوم الأحياء ، والرياضة ، والطبيعة ، والاقتصاد السياسى ، والقانون ، وتاريخ القرون الوسطى ، والموسيقى ، والرسم ، والعمارة ، وقد أقر طائفة جليلة من المسميات الحديثة فى الشئون العامة كأدوات المنازل وأثاثها ، وما تتناقله الألسن والأقلام فى الأسواق والأندية والصحف ، وقـد بدأ بوضع المعجمات التى تدعو إليها الحاجة ، وقد صحح من الأعلام الجغرافية فى مصر وأفريقيا وآسيا عدداً عظيما ، وقد نشرت مجلته بحوثاً بلغت صفحاتها نحو ألف وخمسمائة . هذا وما إليه جدير بتقدير الناس جميعاً وثنائهم ، وإن وجه إلى بعضه من النقد ما قد يقره المجمع نفسه ، وما قد يدعوه إلى أن يعدل عن شىء أقره إلى ما يراه خيراً منه وأدنى إلى تحقيق غايته .

سادتى : لقد كان ما يتصل باللغة من شئون التعليم مما وجه إليه المجمع عناية مذكورة ؛ وأنتم تقرأون فى المذكرة التى وضعها المجمع بين أيديكم أنه وضع نصب عينيه أخذ الناشئين بصحيح العربية فيما يتدارسون من العلوم والفنون ، وأنه قد وجه جل همه من هذه العناية إلى المصطلحات التى تدخل فى التعليم الثانوى ، وأن بين المعجمات التى يتوفر على وضعها معجما علمياً صغيراً للتعليم الثانوى فى الأقطار العربية ، وآخر تثبت فيه طوائف من المواد والألفاظ والصيغ تغنى الطالب الثانوى والمثقف الوسط عن غيره من المعجمات ، وأنه وافى وزارة المعارف بنحو ثلاثة آلاف وخمسمائة مصطلح لإدخالها فى كتب التعليم وفى التدريس .

ولم يتم بعد وضع المعجمين اللذين أشرت إليهما ليتسنى إبداء الرأى فيهما . وقد سألت وزارة المعارف عما وافتها به إدارة المجمع فعلمت أن هذه المصطلحات لما تعرض على رجالها ، وأن تجارب الطبع لهذه المصطلحات لا تزال حبيسة فى المطبعة الأميرية منذ سنة ١٩٣٩ . وقد أرسلت إلىّ إدارة المجمع من أيام هذه المصطلحات فعرضتها على الفنيين من رجال الوزارة فأقروا طائفة مما اطلعوا عليه ولم يقروا طائفة أخرى . ثم إننى ألقيت على هذه المصطلحات نظرة عجلى ألهمتنى ما أريد أن أتحدث إليكم اليوم فيه .

جاء فى المذكرة التى وضعها المجمع بين أيدينا تمهيداً لهذه الجلسة أن من يترسم آثار المجمع « لا يرتاب فى أنه ، فى تشدده فى المحافظة على لغة العرب ، وبعث ما لا عهد للجمهرة به من قديمها وبجفوها مما يقع عندها موقع الغرابة أو ما هو أشد من الغرابة فى أول الأمر ، فإنه من ناحية أخرى لا يفتأ يترخص أعظم الترخص ، وييسر أبلغ التيسير . على أن ترخصه هذا وتيسيره إنما يقعان فى حدود اللغة ، وما مضى من مذاهب علمائها الأعلام ؛ فلا سيادة لعامية ، ولا طغيان للعجمة على لغة الكتاب »

هذه الفقرة من مذكرة المجمع قد جلت أمامى كثيراً مما رأيته فى المصطلحات التى اطلعت عليها ، وفى المسميات التى وضعها المجمع لحاجات الحياة المتداولة . فهو قد آثر أن يبعث من تراث اللغة المهجور ما رآه معادلاً لهذه المسميات والمصطلحات . ولا إخالنى مخطئاً فى هذا التصور وقد وضع المجمع منذ سنوات جوائز مختلفة لمن يضعون طوائف من الكلمات العربية الفصيحة للمسميات الحديثة وللمصطلحات العلمية والفنية والأدبية ؛ ثم نبه الذين يتقدمون لهذه الجوائز أنه يفضل عند التسمية ما وضعه القدماء من الكلمات الصحيحة ثم هجر وتنوسى ، واستعمل بدلاً منه ألفاظ مولدة حديثة ، أو عامية ، أو أعجمية ؛ فإن لم يعثر على شىء من ذلك وضعت الكلمة وضعاً جديداً بطريقة من طرق الوضع القياسية

لست أتردد فى الموافقة على هذه الخطة فى أمر المصطلحات العلمية كلما وجد اللفظ العربى القديم الذى يؤدى الغرض من هذا المصطلح أداء دقيقاً يقره المتخصصون من العلماء . ولعلى لا أتردد كذلك فى الموافقة عليها إذا استعمل لفظ أجنبى للتعبير عن معنى قديم كان العرب يعبرون عنه بلفظ عربى . لكنى أقف متردداً، ويطول ترددى ، فيما خلا هاتين الصورتين ؛ وفيما يوضع من المسميات لحاجات الحياة المتداولة . ولا أحسبنى دون ذلك تردداً فى أمر الألفاظ العامية إذا أمكن تقويمها لتسترد صورتها العربية الصحيحة

أيها السادة : إن الغرض الأساسى من إنشاء هذا المجمع إنما هو جعل اللغة العربية ملائمة لحاجات الحياة فى عصرنا مع المحافظة على سلامتها . هذا الغرض يتضح جلياً فى المذكرة التى وضعها المجمع اليوم بين أيدينا ، فكل ما بذل من جهود الأفراد والجماعات فى أمر اللغة من عهد محمد على الكبير إلى اليوم قد توخى هذا الغرض . وقد سجل مرسوم إنشاء المجمع هذا الغرض فى المادة الثانية منه تسجيلاً صريحاً . ولكى تلائم اللغة حاجات الحياة فى عصر من العصور يجب أن تكون صورة صادقة لكل ما تتناول الحياة فى هذا العصر . ويجب أن تكونَ سليقة للمتكلمين بها والكاتبين لها ، ويجب أن تكون بذلك أداة التفاهم بين هؤلاء جميعاً تفاهماً يتم فى غير عسر ولا مشقة . ويجب لذلك أن يكون القدر المشترك منها بين الجميع ، من الصبى الناشىء إلى العالم الكبير ، ومن ربة البيت فى أهلها إلى المتحدث فى الفنون والعلوم والآداب . يجب أن يكون عظيما بحيث ييسر هذا التفاهم ويجعله فى متناول الجميع ؛ فلا يقع خلاف بينهم فيه بسبب اللغة وألفاظها وإن أمكن أن يقع بسبب تفاوتهم فى الثقافة . وكل جهد يبذل لزيادة القدر المشترك تيسيراً للتفاهم المتبادل ، يدنى من الغرض الذى تنشأ مجامع اللغة لتحقيقه

إذا كان هذا صحيحاً ، وأعتقد أنه صحيح ، وجب ألا نتقيد فى جعل لغتنا ملائمة لحاجات عصرنا بالحدود التى وضعت فى عصر العباسيين أو فى عصر الأمويين ، أو فى الجاهلية ، لحاجات عصرهم . فإذا أردنا أن نضع معجما يغنى المثقف الوسيط ، ويغنى الطالب الثانوى ، وجب مع محافظتنا على سلامة اللغة ألا نهمل تطورها إلى حيث وصلتنا اليوم ، ووجب أن ندرس بعناية هذا التطور فى لغة الكتابة وفى لغة الكلام

لقد رأى العالم العربى فى كل العصور ، إلى عصرنا الحاضر ، خطباء اهتزت لبلاغتهم المنابر ، ومحامين كانت مرافعاتهم مثلاً عالياً للبلاغة القضائية ، وكتاباً فى الصحف وفى المجلات ومؤلفين قدرهم أهل هذه الأمم أسمى التقدير . هذه الخطب ، وهذه المرافعات ، وهذه الكتابات على اختلاف أنواعها وعصورها ، تصور تطور اللغة ، فلا سبيل إلى إنكارها . وهذه الخطب

والمرافعات والصحف والمجلات والكتب تحوى قدراً مشتركا عظيما جداً من ألفاظ اللغة وتراكيبها ! ومن أساليبها التى تتفق مع تصور الناس للحياة فى هذا العصر ؛ وأبناؤنا فى المدارس، وجماهيرنا المثقفة تثقيفاً وسطاً، تستمع إلى هذه الخطب والمرافعات، وتقرأ هذه الصحف والمجلات والكتب، بشغف أكثر من شغفها حين تقرأ الكتب القديمة . أفيقال مع هـذا أن فى هذه الخطب والمرافعات والصحف والكتب ألفاظاً عامية لا يجوز أن تكون فى معجمات اللغة ؟ أم الحق أنه يجب علينا ألا نهمل هذه الثروة اللغوية الحية ، وأن نسجل منها كل ما يتفق مع ذوق العربية وأقيستها ، وأن ما نقوم به من ذلك هو الذى يجعل اللغة لغة الحياة تسير معها وتتطور بتطورها ؟

وأذهب إلى أبعد من هذا . إن فى اللهجات العامية للبلاد العربية المختلفة لقدراً عظيما من الكلمات المشتركة ، والتى يمكن أن ترد إلى أصل عربى دون حاجة إلى أكثر من تقويمها بعض التقويم . هذه ثروة ضخمة تقابل حاجات الحياة وتعبر عنها أصدق تعبير . مع ذلك درجنا على التنكر لهذه الألفاظ والعبارات ، وعلى اعتبارها مبتذلة لا يجوز للمتكلم الفصيح ، أو للكاتب البليغ ، أن يكتبها أو يتكلم بها . أما وقد انحدرت هذه الألفاظ إلينا من العرب الأولين الذين نزحوا إلى مصر وإلى غير مصر من البلاد العربية ، فلست أدرى لم تكون مبتذلة ، ولم لا تدخل فى معجماتنا وفى كتابتنا وخطابتنا ، وفى مصطلحاتنا المختلفة ؟ السبب الوحيد فى نظرى هو أننا نريد أن تكون اللغة وقفاً على طائفة خاصة ، وأن تكون لها من أجل ذلك أسرار تغيب عن الكافة ، كما أراد الكهنة فى عهد الفراعنة أن يجعلوا حقائق الدين سراً موقوفاً على طائفتهم ، وأن يدعوا للناس من الزيف ما يتنزهون هم عنه ، وما يسخرون منه

أيها السادة : إن ما أطالب به المجمع من إقرار ما يجوز إقراره من هذه الألفاظ المتداولة فى الكلام وفى الخطابة وفى الكتابة بعد رده إلى حدود اللغة السليمة هو ما تقوم به مجامع اللغة فى بلاد العالم أجمع ، وهو ليس بدعاً فى لغتنا العربية منذ عهدها الأول ؛ والمادة الثانيـة التى حددت أغراض مجمعنا تطالبنا به ، فهي قد نصت على أن يقوم المجمع بوضع معجم تاريخى للغة العربية ، وأن ينظم دراسة علمية للهجات العربية الحديثة ؛ وهذان الأمران يتصلان أوثق الاتصال . فاللهجات الحديثة تشتمل كما قدمت على قدر عظيم مشترك من الألفاظ والعبارات العربية ، كما أنه قد اندس إليها بحكم الحوادث التاريخية واختلاط الأمم العربية بشعوب أجنبية عدد عظيم من الألفاظ غير العربية . فالدراسة العلمية المقصودة هنا ، والتى تتفق مع مهمة المجمع ، لا بد أن يكون مرماها تحديد الألفاظ العربية فى هـذه اللهجات المختلفة تحديداً علمياً دقيقاً للاستفادة منها فى وضع المعاجم التى نص عليها فى أغراض المجمع ؛ أما المعجم التاريخى ، فيجب أن يتناول تطور اللغة على العصور إلى وقتنا الحاضر ، وأن تكون الألفاظ العربية السليمة التى يصطنعها الناس فى أحاديثهم وخطبهم وكتاباتهم بعض هذا الذى يتناوله

أيها السادة: إن هذا الذى قدمت صحيح فى نظرى كل الصحة، واضح كل الوضوح . لذلك كان عجبي ولا يزال شديداً ألا يفصل من تاريخ اللغة وآدابها فى معاهدنا شىء فيما وراء العصر العباسي ولم يدرس الأدب الحديث إلا من عهد قريب ، وعلى نحو لا يزال بدائياً غير متصل بما سبقه من تاريخ الأدب واللغة . ولقد لاحظت منذ سنوات على المعجم التاريخى للدكتور فيشر ، وهو المعجم الذى يعنى المجمع بطبعه الآن ، أنه لا يتناول إلا العهد الأول من صدر الإسلام ، وكنت قد فهمت يومئذ أن هذا المعجم سيضاف إليه ما يتم الغرض منه بتناول تاريخ اللغة إلى وقتنا الحاضر . ولا أظن أحداً يخالفنى فى أن ما دون كتب الفقه والأدب والفن والعلم فى العصور المختلفة يجب أن يكون بعض هذا التاريخ ، ولا أظن أحداً كذلك يخالفنى فى أن الألفاظ العربية الأصل مما تتناوله لهجات العصر الحديث تدخل فى نطاق هذا التاريخ

أيها السادة: إننى أعتبر هذا العمل أساسياً لتلائم اللغة حاجات الحياة فى العصر الحاضر . فاللغة اليوم ملك مشاع للجميع . يقرؤها الناس فى الصحف ، ويسمعونها فى الإذاعة ، ويخاطبهم بها الخطباء ، ويتلونها فى الكتب . لم تبق وقفاً على القارئين والكاتبين ممن تثقفوا ثقافة لغوية عالية ، بل صارت أداة التفاهم فى هـذا العصر الكثير الحاجات والمطالب ، والذى يسر للناس من كل الطبقات أن يقفوا على السر من كل شىء ، لا تختص فئة منهم دون الأخرى ، بما يزاول الناس من علم وفن وأدب وصناعة وتجارة . فكلما تيسرت اللغة للناس ، وكلما شعر الطالب فى دور العلم بأنها لا تقف عقبة فى سبيل المعرفة التى يبتغى النهل من وردها كانت الأداة الصالحة للغرض الذى وجدت اللغات من أجله . بذلك يحب الناس اللغة ويرون جمالها فى بساطتها ، وفى وضوحها



صاحب السلطان الزائل

أقبل فسلم فى صوت كأنه الهمس ، وأحسست ولم أكن عرفت بعد شيئاً من أمره روح الذلة فى صوته ؛ ومد إلى من نهض لتحيته يداً ممروقة مرتعدة كأن بها استخذاء من أن تصافح الأيدى الممدودة إليه ، ونهضت فيمن نهضوا فسلمت وأنا فى حيرة من عبارات التحية توجه إليه مشفوعة بلقب « البك »

وأخذت نعته بهذا اللقب على أنه ضرب من المزاح ، فكثيراً ما رأيت بعض المازحين فى القرية ينادون بهذا اللقب رجلاً بلغت به الفاقة حداً جعله مضرب المثل فى البؤس ، وجعل لقب « البك » مضافاً إليه أكثر بلاغة فيما يتضمن من تهكم وفيما يثير من ضحك باستعماله هذا الاستعمال

ولكنى لم أر للمزاح أثراً فى وجوه الجالسين ، بل لم أر فيها إلا التزام الجد والحرص على مظهر الاحتشام والسكون ، وفهمت أن الابتسام يتقى بين الجلوس فيما يدور بينهم من حديث ، فما تكاد تنفرج الشفاه حتى تنضم فى استدراك سريع

واتجه منظارى إلى هذا البك الجديد ، وأخذت أختلس النظر إليه ، وكان كلما زدته نظراً زادنى دهشة ذلك اللقب الذى يسبغ عليه فى جد لا أثر للعبث فيه . وظللت أنظر إلى معطفه الذى تراكم عليه ما تراكم من آثار الزمن ، وإلى جلبابه الذى لم أعرف ماذا كان لونه قبل أن يعلق به ما علق من تشويه ، والذى راح يستر خروقه بأطراف ذلك المعطف الذى يعد تسميته بالمعطف وهو على تلك الحال من قبيل تسمية صاحبه بالبك ... ! أما طربوشه ، فقد اتسق فى هذا النظام اتساقاً بليغاً ، إذ كانت اسطوانته من لون وقرصه من لون آخر ، غير أن أحد جانبيه أكثر كدرة من الجانب الثانى ، وإن كانت تلك الألوان جميعاً بقايا حمرة زائلة

وعرّفه إلىّ وعرّفنى إليه أحد الخبثاء الذى أخذ ينظر إلى منظارى ، وكأنه كان يرى فيه — كما حدثنى بذلك بعد — آلة تصوير ، وما كاد يذكر لى اسمه حتى ذهب اللغز من ذلك اللقب الذى لقب به ؛ وقلت فى نفسى : أهذا هو الذى سمعت من أخباره ما سمعت ؟

وتزاحمت فى ذهنى صور ما علمت من أنبائه ، وبرزت من بينها صورة كانت بين غيرها من الصور ، كما يكون المارد بين الأقزام . فهذا الرجل الذى أراه أمامى ، هو بعينه الذى أشعل ذات ليلة دخينة لإحدى المغنيات فى بندر قريب ، لا بعود من الكبريت كما يفعل عامة الناس ، ولكن بإحراق رقعة من الورق تركها حتى أتت عليها النار بعد أن أشعل بلهيبها تلك الدخينة . ولم تك هاتيك الورقة بذات قيمة كبيرة ، فهى من فئة الخمسة جنيهات فحسب !

واضطجع صاحب السلطان الزائل اضطجاعة فيها بقايا الكبرياء ، ونظرت إلى وجهه فرأيت فى سحنته خيال تماظمه الماضى ، واستكباره يحيط به خيال استخذائه الحالى ومسكنته . والحق لقد كانت نظراته مزيجاً عجيباً من العظمة والذلة والرضاء والضجر والخجل والتبجح ، ثم كان وجهه الشاحب يذكرنى بتلك الصورة التى كانت تعلق على الجدران لمحاربة « الكوكايين » !

ووجهت إليه بعض عبارات التحية فرد فى هدوء واتزان وهو ينظر إلىّ نظرات من يريد أن يستوثق من صدق تحياتى ،

وفى تكشفها غير محجوبة بحجب التعقيد الذى يحتاج دراسة السنوات الطوال لحل رموزه وتبين أسراره

أيها السادة : هذا ما تيسر لى أن أحدثكم اليوم فيه . وهو بعض ما نطلب به فى هذا المجمع لتيسير اللغة العربية حتى تفى بحاجات حياتنا ومطالبها . وقد أحيلت على المجمع مسألة الكتابة العربية وتيسيرها ؛ وهذه مسألة جوهرية فى نظرى ونظر الكثيرين ، لعلها تزيد الناس إقبالاً على القراءة وعلى اللغة ودراستها . وأرجو لذلك أن تنال ما هى جديرة به من البحث

وأختم كلتى معتذراً لحضراتكم عما قصرت فيه ؛ فقد كان واجباً علىّ أن أزيد فكرتى جلاء ؛ لكن الوقت لم يتسع أمامى . فلعله يتسع من بعد . ولعلنا نوفق إلى الوفاء بما يجب علينا من تيسير اللغة لتلائم حاجات العصر ، مع المحافظة على سلامتها ، والعمل على ما يزيدها حياة وقوة وجمالاً .

محمد حسين هيكل باشا

كأنه لا يصدق أنه اليوم أهل للتكريم بعد أن هلك عنه سلطانه .
على أنه ينتمي إلى أسرة معرقة لا يزال لبعض أفرادها جاه عظيم وثراء ، وإن كان ثراؤها لا يبلغ اليوم في مجموعه عشر ما كان لها منه بالأمس . ولعل خيال ذلك الجاه الباقي في أسرته هو الذي يجعل الكبرياء تتغلب في وجهه أحياناً على الاستخذاء وإن كان الاستخذاء قد بات وهو طابعه الجديد

وقدم إليه أحد الجلوس دخينة فتناولها في صورة عجيبة وفي وجهه أمارات توحي بأنه يفهم من هذه التحية أنها ضرب من إعطاء المحروم ، وعلى شفتيه ابتسامة تصور هذا المعنى وتبرز ما في قرارة نفسه منه . وأيد ذلك لي إسراعه بأخراج علبة الدخائن من جيبه وتقديمه دخينة إلى من سبق فقدم إليه مثلها ، ثم إنه تقدم في خفة وظرف فيهما طيف أريحيته الماضية فأشعل الدخينة لصاحبه ولكن بعود من (الكبريت) . . .

وأردت أن يتكلم لعل الحديث يميل به إلى الإفضاء ببعض ما يقوم في نفسه من هذه الحال التي تدلى إليها بعد عزة ، ولكنه لزم الصمت ، وكان صمته أيضاً يجمع بين الحياء والاستعلاء . . .

ودخل علينا شيخ من أهل القرية فما وقعت عيناه على ذلك البك حتى أقبل عليه في اهتمام شديد وهو لا يفتأ يكرر قوله : « شرفت بلدنا يا بك ! أهلاً وسهلاً يابن الأكابر . دي البلد كلها منورة بوجودك فيها ! الله يرحم والدك البك الكبير »

وأخذ ذلك الشيخ يفيض في وصف سجايا البك الكبير وأبهته وجاهه ، ويحكي في ذلك الحكايات الطويلة ، ويذكر الضياع التي عمل فيها بأسمائها ، ويقارن بين ما كانت تخرجه من خيرات هاتيك الضياع ، مستشهداً برأي البك الصغير كأنها لا تزال ملك يديه يتمتع بخيراتها جميعاً ؛ ثم تنهد ذلك الشيخ وختم حديثه في سذاجة محبوبة قائلاً : « هيه سبحان من له الدوام ! يا ابني ما تزعلش انت ابن الأكابر على كل حال ، وعندنا احنا يا فلاحين نقول إن دبلت الوردة ريحتها فيها »

ومضى الشيخ وأنا أفكر فيما ضرب من مثل ، وأنظر إلى تلك الوردة الذابلة فلا أحس من سابق رائحتها فيها ، ويتملكني الإشفاق حيناً ، ولكني أذكر الورقة ذات الجنيهات الخمسة وأتصورها مشتعلة في يده فينفي الإشفاق من قلبي شعور يكاد يقرب من الشماتة لولا أني أكره الشماتة ، شعور هو في الواقع إحساس خفي بعدالة الجزاء وتطابق الجريمة والعقوبة

ولما ذكر أمامي اسم البك الكبير وذكرت ثروته الماثلة التي انتهت إليه هو أيضاً من والده ، وموطن هؤلاء وأسرتهم الكبيرة قرية تقع غير بعيد من قريتنا ، عجبت كيف بدد هذا البك الصغير الماثل أمامي أو هذا الشيطان الكبير ثروة أبيه على هذا النحو حتى لم يبق له منها إلا الذكرى

وتكلم أخيراً صاحب ذلك السلطان الضائع ، وكأن حديث ذلك الشيخ أثار شجونه ، وأخذ يصف لنا كيف كان يعيش ، وهو لا يدري أنه يسرد علينا قصة سفهه ! ولعله كان يحس أن لم يبق له من الثروة إلا افتخاره بما كان له من ثروة ، إن كان ذلك من دواعي الفخار ، ونسى سكونه الأول فأطنب وأفاض في غير تحفظ أو استحياء . ومن درر حديثه قوله : « ياما شوفنا عز ! دا الواحد كان يأخذ معه ألف جنيه إلى الإسكندرية فيعود بعد أسبوع ما فيش في جيبه غير أجرة الوابور ... دا أنا كنت هرون الرشيدي اللي بيقولوا عليه »

وقلت وكان ذلك المال من إيراد أملاكك طبعاً ، فتلعثم قليلاً وقال لو كان ذلك المال من إيراد أملاكي ما ضاعت أملاكي ؛ إنما كان بعضه من الإيراد وبعضه من البنك ، وآه من البنك . . . آه من البنك !

وإذ ذكر لي البنك ذهب من نفسي كل عجب ، فكم استدرج البنك من أمثال هذا الذي ورث ما ورث فلم يشعر بقيمة ملكه حتى ذهب عنه كما جاء إليه . ثم سألته عن مصير هذه الضياع فقال أخذها الخواجه خريستو تاجر القطن . وأحزنني أن يمتلك مثل خريستو من ثرى هذا الوادي أرضاً أولى بها بنوه ، أرضاً كانت تكفي لأن يعيش عليها أكثر من مائتي أسرة من تلك الأسر التي تكدح صابرة في وهج الشمس وتسقي بعرق جباهها تربة وادينا ولا تمتلك الواحدة أكثر من فدانين أو ثلاثة فدادين

وسألته عن شعوره إذا مر اليوم بهاتيك الضياع . ولشد ما أدهشني قوله إنه لم يرها كلها ، وأنه لا يعلم إلا موضع ما كان يحيط بقصره منها ؛ فلقد كان أمر زراعتها وتمهدها مفوضاً إلى نظاره الثلاثة الذين يمتلك الواحد منهم اليوم ما لا يقل عن ثلاثين فداناً ، من أرض أجداده

وكان مجلسنا هذا في دكان بدال . ولما هم البك بالانصراف

وداع الشعر

A DIEUX A LA POESIE

للشاعر الفرنسى لامرتين

كان لامرتين من أعظم شعراء فرنسا فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر وهو غنى عن التعريف، وتعد آثاره الأدبية من أنفس ما أبدعه الخيال الرائع.

ومن تلك الآثار قصيدة بديعة نسج بردها يوم كان ملحقاً بمفوضية فرنسا بنابولى عام ١٨٢٠ حيث كان انهماكه فى تحبير الرسائل الدبلوماسية يحول بينه وبين استرساله فى قرض الشعر فأفرغ فى هذه القصيدة وداعه الشعر (المترجم)

لما اعتزمت اعتزال الشعر خالجنى ... موطد العزم لكن خاب تصميمى
ودعته صادقاً لكنما عرضت ... منازع الفكر تدعونى لترنيم

تألبت وهى شتى فى بواعثها ... وطالما ناشدتنى نظم تلحينى
هناك فى ساعة حل السكون بها ... فى وحدة الصمت عاد الشعر يغرينى

حيث الوجود حليف النوم أجمعه ... حتى الأمانى استكنّت فى زواياها
فى غابة برزت كالطيف ثابتة ... فما تهادى نسيم فى حناياها

هناك مرحلة فى العمر شاردة ... كأنما النفس فيها نفس وسنان
فلا التنفس فى الأحشاء منسجم ... ولا الحماس لقرض الشعر نادانى

والطير وهو الذى يُضفى ببهجته ... على الرياض سروراً بالغ الأثر
لا ينجلى ساجعاً فى كل آونة ... وفى الظهيرة يهوى ظُلة الشجر

فإن بدا الفجر ناغى الكون مبتهجاً ... وفى الغروب يناجى دورة الفلكِ
يشف تلحينه فى الصبح عن طربٍ ... وفى المساء يناغى وحشة الحلكِ

ربابتى، ساعة الهجران قد أزفت ... لكِ الوداع إذن من مغرم دَنِفِ
يا من تنهّدكِ المشجى يثير جوًى ... وكم يثير وداعى بالغ الأسفِ

أنّى تلامس كفى منكِ ناصيةً ... ولم يزل باكياً من شجوه الوترُ
قد أقبلت ساعة التوديع مسرعةً ... فهاكِ عَبْرَةَ ودٍ وهى تنهمر

أنّهما لعينى أن تُخفى لها أثراً ... وتلك ثائرة من واكف الشجنِ
كم دمعةٍ سكّبتها النفس واأسفى ... فبلّلتْ وتراً أوفى ولم يخنِ

لم تستطع زفرات منكِ صاعدةٌ ... تجفيفها، فحكت طلاً على قننِ
إن الربابة لم تُمنح مُكلّلةً ... بالسرو والناس فى هذى الدنا التعسه

إلا لتسكين آلامٍ لنا انتشرت ... حيث الدموع من الآماق منبجسه
ما كل ما يرسل الأنغام مُشجيةً ... إلاّ يردد آلاماً وآمالا

أما السعادة لم ينطق بها وترٌ ... بل حالف الصمتَ تلو الصمتِ أجيالا
أحلى الأغانى أغانٍ طاب مسمعها ... من بلبلٍ ناحبٍ أو شاعرٍ باكِ

تحت الظلال على قبر توسده[1] ... أعزّ خدنٍ يناجى روحه الشاكى
ربابتى، أنتِ مثلى سرتِ فى أثرى ... حزينةَ الصوتِ والإنشادِ والنغمِ

لم تمتزج قط بالأنغام يُنشدها ... أهل السعادةِ والإقبالِ والنعم
بغصن صفصافة فى الشط عالقة ... طليقة كطيور الغاب فى الأيك

أبت يدى لكِ ربطاً كالأسير على ... أبواب قصر عظيم أو حِمى مَلك
لم تُلهمى أبداً فى أى آونةٍ ... نوائر النفثِ تعزيزاً لذى حزب

فأنتِ قد فقتِ طهراً كل خاطرةٍ ... ولم تداعبكِ إلاّ نفثة الحب

(١) يلمح الشاعر إلى شعره الملهم من حزنه على عشيقته الفقيد Elvire بطلة قصته (روفائيل) التى شغفته حباً فى نابولى ثم قضت بعد أن صرعها مرض السل

طلب من التاجر أشياء ولكن التاجر نفى وجودها عنده. فلمحت عينا البك بعض الأصناف المطلوبة على رف من الرفوف فأشار إليها قائلاً: «أمال إيه ده؟» وأجاب التاجر بأن غيره دفع ثمنها وسيرسل فى طلبها. وضحك صاحب السلطان ضحكة مُرّة وهو يهز رأسه قائلاً: «هيه ... طيب! السلام عليكم» ثم خرج وتنفس التاجر الصعداء

واتجه إلينا ذلك التاجر وقال فى لهجة اعتذار: إن قريبه فلان بك الذى ينفق عليه أمره ألا يعطيه شيئاً إلا بإذن كتابى قال: «دا مسكين ضيع كل ما يملك فى المكيفات، اللهم احفظنا وباع عفش بيته. وهل تاب بعد كده؟ لا، دا صنف لا يستحق النعمة»

ومضيت وفى نفسى كلمة التاجر الأخيرة وأنا أحدث النفس قائلاً كم ذا بمصر من هذا الصنف الذى لا يستحق النعمة!

الخفيف

هل قطّبت جبهتي يوماً لكارثة … هوجاء عاتية من قسوة القدر ؟
كلا ، بفضلك لم أجزع لصدمتها … ولم أبالِ بما ألقاه من خَطرِ

وأينما ذهبت نفسي سمعتُ صدًى … من السماء لصوتٍ حين تبعثه
نفسي الغريبة فوق الأرض مابرحت … تُصغي لما دَأب الإلهام ينفثُهُ

على الربا حيث يبدو الرقيب إذا … لاح النهار كما لو فوقها بزغا
إذ كنتِ في صحبتي كيما أردّدما … نظمتُ في مدح معبودي له صِيَغا
ما كان أول إشعاعٍ يُفيق بها … إلا وقد فتر الإنشاد أو فرغا

كم كنتِ تُلقين بالأنغام موحشةً … على هدير حبالِ الفلك والموجِ
وقد بدا البرقُ خلاّباً بزرقتِه … يخبو ويسطع عَبْرَ الأفق في الأوجِ

وكنتِ مثل طيور العاصفات تُرى … محلّقاتٍ على الأمواج في البحرِ
وكدتِ أن تلمسي من فوقها زَبَدًا … يعلو ويهبط بين المد والجزرِ

تلك التي طالما استرعت مناظرها … مرآى قد حالفت أنغامها نَغَا
تنهُّداتك مع أصواتها امتزجت … فكان رجع صدى الحنين منسجما

وطالما ارتعشت شجواً حبائلها … القائمات عليها نفثتي الرخوة
تحكي ارتعاشاً عرا الأوتار من شجن … أناملي حرّكت في روحها النشوة

ربابتي ! ربما ألقاكِ بعدُ ، متى … رأيتِ يوماً نذير الموت يقتربُ
تليه غاشيةُ الأحلام موحيةً … من السماء أموراً ما بها لَعِبُ
تكون قد بعدت عنا الحياة كما … لو أصبحت ذِكرياتٍ مهدها الكتبُ

وإذ يعود شباب الخلق ثانيةً … يحفه طائف حلو لنسيان
قد ينحني المرء أوقاتاً عليكِ ففي … رنينكِ العذبِ تلطيف لأحزان

وهذه الريح إذ تجري محلقةً … من فوق أرواحنا في برزخ العدم
تهب في الفجر أحياناً مُبكّرةً … كما تهب بياتاً هبَّ مُحترم
وكم يروق لها إعمالها عبثاً … بشعر ريحانةٍ أو ذقن ذي هرَم

إيهاً للحية هوميروس[1] تحجبها … قُطّاعةٌ من جليد عن ذوي النظر
وكأن لمع شعاع الفكر مؤتلقاً … يعيد نوراً خبا من قبلُ في البصر

(١) تصور لنا الأقصوصة القديمة (هوميروس)

ألم يكن ملتن[1] الأعمى بذي بصر … فكم جلا غيهباً في حومة الفِكَر ؟
ألم تحم حول عيني ملتنٍ طُرَفٌ … من رائع الحب والآمال والصور؟
تحكي الفراشة حامت قبل أن هبطت … على فلورا[2] التي تهوَى على الأثر
يبدو وميض جناحيها كبارقةٍ … أضاءها شَفَق وضّاء كالشرر

ربابتي ، ربما تأتين قاصدةً … زيارتي بينما الميعاد لم يحِنِ
فتمتطين مياه البحر طافيةً … من شاطئٍ لسواه طفو متزن
أكون قد غالبتني موجة فقضت … على حياتي غريقاً ماؤها كفني
وغيّب اليم صوتي تحت لجّته … فضاع لحن شكاني فيه من زمن
وقد نأى بي مصيري في غياهبه … عن السموات ، إن الهجر يؤلمني
كخُشبة البحر تحت الماء شاردة … وقد رمى الموج عظمي رمي مُمْتَهِنِ
على الرمال يُرى ملقًى بشاطئه … فيا لهول رُفاتٍ هالكٍ عَفِنِ

لكنما أنتِ يا من ترسلين على … شتى المسامع أمواجاً من الطرب
وتركبين متون الموج سابحةً … لا ترهبين دنو الموت والعطب
إن البماج على متن البحار جرت[3] … تحكيكِ من حسدٍ في موكبٍ لَجِب

(الأسكندرية) — محمد أسعد ولاية

(١) (ملتن) شاعر انجليزي (١٦٠٨ — ١٦٧٤) كفيف البصر أيضاً . ومن أشهر مؤلفاته الشعرية (الفردوس المفقود)
(٢) (فلور) إلهة الأزهار عند الرومان (٣) تقول الأقصوصة تغني البماج عند ما تشعر بدنو منيتها غناء ممتازاً ويستحوذ عليها الابتهاج لاعتقادها أنها مقبلة على لقاء الاله (أبولون) التي هي في خدمته



المجمع اللغوي والمعجم الوسيط

حدثنا ثقة من المتصلين « بالمجمع اللغوي » أن اللجنة المؤلفة لوضع المعجم الوسيط قد أنجزت حتى الآن مائة وستين صفحة فقط من هذا المعجم ، إذا صفت حروفاً وطبعت لا تتجاوز جميعها مائة صفحة ؛ وإن هذا العمل استغرق من عمر المجمع سنة ونصف سنة ، وإنه استغرق من عمر المعجم ثلاثة أرباعه ، لأن الزمن المحدد لإتمامه سنتان . وزاد محدثنا على ذلك أن العمل في هذا المعجم يكلف الدولة لا أقل من مئة وعشرين جنيهاً في الشهر . فكأن هذه الصفحات المئة قد كلفت الدولة ٢١٦٠ جنيهاً مصرياً وأن الصفحة الواحدة كلفت الدولة قرابة ٢٢ جنيهاً . فإذا كانت صفحات هذا المعجم ستبلغ على ما يقال ألفي صفحة ، استغرق تأليفه ثلاثين سنة ، وبلغت نفقات نقله من المعجمات القديمة ٦٤٨٠٠ جنيهاً مصرياً . هذا غير ما يستهلك فيه من ورق وآلات كاتبة وجزازات ونفقات طبع وأجور إخصائيين يحققون ما يرد به من الألفاظ العلمية وأسماء الحيوان والنبات ورد بعض الكلمات غير العربية إلى أصولها الصحيحة ، وهذه قد تجعل نفقات هذا المعجم ١٠٠٫٠٠٠ جنيه

وبعد ، فإذا قلنا إن المال لا قيمة له إلى جانب العلم ، فما بالكم بالزمن ؟ وإذا قلنا إن الزمن لا قيمة له إلى جانب المال ، فما بالكم بالعلم ؟ وإذا قلنا إن العلم لا قيمة له إلى جانب الزمن ، فما بالكم بالمال ؟

خبيرات في الكذب

حضرة الأستاذ الجليل رئيس تحرير الرسالة الغراء

يقول كثير عزة :

وإن حلفت لا يخلف النأى عهدها فليس لمخضوب البنان يمين

ويقول المثل العربي القديم :

« لا يفل الحديد إلا الحديد »

ولعل وزارة الاستعلامات الإنجليزية ترى هذين الرأيين في الجنس اللطيف وفي وجوب الاستعانة به على فل حديده ؛ وذلك أنها أنشأت كما ورد في البريد الإنجليزي الأخير مكتباً أسمته مكتب فحص الأكاذيب وعهدت برياسته إلى آنسة تدعى « اليزابيث مونرو » يعاونها أربع أوانس انجليزيات يحذقن اللغة الألمانية ويعمل معهن عدد كبير من النساء. ومهمة هذا المكتب فحص الأخبار الواردة من ألمانيا والتعرف على الكاذب منها بالمقارنة ، لتظهر مواضع التناقض وبوسائل أخرى يعرفنها

وتقول رئيسة هذا المكتب أن مكتبها مفتوح للعمل آناء الليل وأطراف النهار ، وأن عدد الموجودات به في أية ساعة لا يقل عن اثنتي عشرة . ولما سئلت عن عدد الأكاذيب التي يستكشفنها كل يوم أجابت : « إنني لا أحب أن أقترف أكذوبة أنا الأخرى . ولذلك أقول في غير مبالغة أننا نستكشف ما لا يقل عن مائة أكذوبة ألمانية كل يوم »

ومن أمثلة تلك الأكاذيب ما أذاعه الألمان من أن ساعة « بيج بن » دقت في منتصف الليل ثلاث عشرة دقة بسبب ما أصابها من التلف الناشئ عن الغارات . وأن أهل لندن فزعوا فزعاً شديداً من هذا الفأل السيء لأن معظمهم يتشاءم من العدد ١٣

وثبت أن الساعات مهما أصابها من التلف فلا يمكن أن تزيد دقاتها عن الحد المعتاد

ولست أرى رأي كثير عزة في نسبة النساء إلى الكذب ؛ ولكن النساء تتوقف سعادتهن وسعادة أطفالهن على صدق الرجال فهن أقدر على استكشاف الكذب . . . هي خبرة فنية فيهن !

عبد اللطيف النشار

التعليم في مصر في السنوات العشرين الماضية

قال صاحب المعالي وزير المعارف من كلمة قيمة ألقاها في الاجتماع الأول للمجلس الأعلى للتعليم :

حسبي لتصوير السرعة التي سار بها التعليم وتطور في مصر أن أذكر لحضراتكم أن مصروفات التعليم المدرجة في ميزانية الدولة العامة كانت في سنة ١٩٢٠ (١٫٠١٣٫٥٠٣) جنيهات مصرية ، وأنها الآن ١٨١ ر ٦١٩ ر ٥ جنيهاً مصرياً ، منها لوزارة المعارف ٨٨١ر٧٦٩ر٤ جنيهاً وللجامعة ٣٠٠ر٨٤٩ جنيهاً . وقد كان عدد

المدرسين بمدارس الوزارة فى مراحل التعليم المختلفة سنة ١٩٢٠ (١٢٩٣) مدرساً ، وهم اليوم ٧٢٧٧

وكانت مدارس التعليم الثانوى سنة ١٩٢٠ تسعاً بها ٣٣١٤ تلميذاً ، أما الآن فهى ست وثلاثون بها ١٩٧٤٩ تلميذاً

وقد انتقل عدد مدارس التعليم الابتدائى من ٣٤ فى سنة ١٩٢٠ إلى ١٣٢ مدرسة الآن، وانتقل عدد تلاميذها من١٠٧٤٩ فى سنة ١٩٢٠ إلى ٢٤٣٠١ الآن

أما التعليم الفنى (صناعى وتجارى وزراعى) فكانت مدارسه سبعاً فى سنة ١٩٢٠ وأصبحت الآن سبعاً وثلاثين . وكان عدد تلاميذها ١٤١٢ سنة ١٩٢٠ فأصبحوا الآن ١٣٨٠٠

ولم يكن بمصر فى سنة ١٩٢٠ غير مدرسة ثانوية واحدة للبنات ، عدد تلميذاتها ٢٨ . أما اليوم فعندنا ثمانى مدارس من هذا النوع بها ألف وستمائة تلميذة

وفى هذه الفترة أنشئت إلى جانب التعليم الثانوى للبنات المدارس النسوية الراقية والمدارس الفنية والخصوصية : كالفنون الطرزية ، والثقافة النسويه ، وكلية البنات وما إليها . وقد بلغ عدد هذه المدارس الآن خلا مدارس المعلمات اثنتى عشرة مدرسة بها ٢٤١١ طالبة

وكانت مدارس البنات الابتدائية خمساً فى سنة ١٩٢٠ عدد تلميذاتها ٨٤٣ ؛ أما الآن فعدد هذه المدارس اثنتان وثلاثون ، وعدد تلميذاتها ٣٤٨٩

وقد تضاعف نشاط التعليم الحر واستأثر بالحظ الأكبر من التعليم الابتدائى ، وبحظ غير قليل من التعليم الثانوى . كانت مدارسه فى سنة (١٩٢٠) ٦١ مدرسة للبنين ، و٢٥ مدرسة للبنات بها ١٤٦٣٨ تلميذاً وتلميذة . أما الآن فالتعليم الحر الابتدائى ٢٥١ مدرسة للبنين و٩٢ مدرسة للبنات ، بها جميعاً ٥٦٦٩١ تلميذاً وتلميذة . وكانت مدارس التعليم الثانوى الحر فى سنة (١٩٢٠) ٣٢ للبنين فقط بها ٤٤٩٠ تلميذاً ؛ أما الآن فقد صارت ٥٩ مدرسة للبنين و ١٢ مدرسة للبنات بها جميعاً ١٤٦٢١ تلميذاً وتلميذة

وكانت مدارس التعليم الأولى والتعليم الإلزامى فى سنة ١٩٢٠ ٣٩٧٨ مدرسة بها ٥٨٥١ معلماً و٢٦٢٥٥٣ تلميذاً . أما الآن فمدارسه ٤٦٣١ مدرسة بها ٢٥١٣٠ معلماً و١١٤٨٢١٩ تلميذاً . وحظه من ميزانية وزارة المعارف ١٥٤٨٨٨٤

تصحيح رواية فى مقال

حضرة الأستاذ الجليل صاحب الرسالة الغراء

لأستاذنا الجليل الدكتور عبد الوهاب عزام أسلوب قوى رائع فى أبحاثه القيمة عن أخلاق القرآن نتابعهما بدقة وشغف ... ونستزيده منها . وإنه لماض أعزه الله

... غير أنى لاحظت فى موضوع (العفو) المنشور فى العدد ٣٩٥ من الرسالة ما يلى :

قال خالد بن الوليد . لسليمان بن عبد الملك : « إن القدرة تذهب الحفيظة . وقد جل قدرك عن العقاب ونحن مقرون بالذنب. فإن تعف فأنت أهل للعفو ، وإن تعاقب فبما كان منا » ويبدو لى الخطأ فى اسم خالد بن الوليد أو السهو أو إنه يقصد خالداً آخر ، فما كان رضي الله عنه من رجال سليمان بن عبد الملك ولا شاهد عصره . ولا إخال أحداً يجهل تاريخ موت خالد إذ وافاه الموت فى حمص سنة إحدى وعشرين فى عهد الفاروق عمر ابن الخطاب . وهو القائل على فراش الموت : لقد طلبت القتل فى مظانه، فلم يقدر لى إلا أن أموت على فراشى، وما من عملى شيء أرجى عنده بعد أن لا إله إلا الله من ليلة بتها وأنا متترس والسماء تهلنى بمطر إلى صبح حتى نغير على المشركين فإذا أنا مت فانظروا فى سلاحى وفرسى فاجعلوه فى سبيل الله ...

وأوصى وصية واختار أميناً عليها عمر بن الخطاب على ما كان بينهما ، فلما بلغ أمير المؤمنين عمر نبأ موته ووصيته قال فى حزن وألم : ما على نساء الوليد أن يسفحن على خالد دموعاً

وسمع راجزاً يذكر خالد فقال والأسف ملء فؤاده : رحم الله خالداً . رحم الله خالداً .

(المنصورة) خالد عبد المنعم

فتيات فى الأزهر

نشرت الرسالة فى عددها رقم (٣٩٥) نبذة بقلم الأديب « ابراهيم ابراهيم الخولى » بعنوان : « فتيات فى الأزهر » ورد فيها أن المستشرق الإنجليزى « مستر دن » فى كتابه : « الحياة الفكرية والتعليمية فى مصر فى القرن التاسع عشر » ذكر ما خلاصته أن الحملة الفرنسية فى قدومها إلى مصر وجدت فى صحن الأزهر بضع نساء يتعلمن إلى جانب الشبان ... الخ

والذى أعرفه أنه ليس للأستاذ « هيورت دن » مدرس



الرفاق الثـــلاثة

عن الأنكليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

« عزيزى :

إن خطابك المؤرخ فى ١٦ من هذا الشهر قد تضمن من الحماقات ما تضمنه كل خطاب تكتبه لأن المركز الذى وضعت نفسك فيه سببه فقدانك التروى والتعقل . . . »

بهذه الألفاظ بدأ هنرى وارنج خطابه الذى كان يمليه على كاتبته وهو جالس إلى مكتبه وهى بجانبه تكتب على الآلة الكاتبة . ثم نهض متبرماً ومشى وعلائم الملالة والسأم بادية عليه حتى وصل إلى النافذة فأطل منها ثم أخرج من جيبه خطاب ابنه فأعاد تلاوته وهو يتأفف وقال : « خمسون جنيهاً ! هذا كثير ! هذا تصرف غير معقول »

العربية بقسم اللغات الشرقية بجامعة لندن كتاباً يحمل العنوان الذى ورد فى سياق النبذة التى سجلها الأديب ، وإنما عنوان كتابه هو : « مقدمة عن تاريخ التعليم فى مصر الحديثة »

An Introduction to the History of Education in Modern Egypt.

والكتاب مطبوع فى لندن عام ١٩٣٨

ولا يحوى هذا الكتاب أية معلومات من النوع الذى ذكره الكاتب ، وإنما الشائع أنه كانت فى مصر فى الجيل الماضى بضع نساء لهن إلمام بالنحو والعروض والشعر ومنهن : « فاطمة الأزهرية » و « ستيتة الطبلاوية » . وقد درست عليهما السيدة « عائشة التيمورية » القصائد والموشحات والأزجال . فإذا كان حضرة الكاتب يعرف غير ما تقدم ، فأرجو ألا يبخل بإرشادنا إلى ما فيه النفع

محمد أمين حسونة

ثم عاد إلى السكوت وإلى الإطلال من النافذة فنبهته الكاتبة قائلة : « ألا تريد إتمام الخطاب ؟ »

فمشى نحوها ووضع يده على كتفها برفق وقال فى صوت يتصنع فيه العذوبة : « لقد كنت شارد الذهن – إن ابنى الشقى – »

وتنهد ثم قال : « إن ابنى يعاملنى معاملة سيئة ، فقد رفض مساعدتى إياه على اختيار عمل مناسب واشتغل بحرفة التمثيل ثم تزوج من ممثلة تعسة »

وكان الأب يرتعش عند ما ذكر الجملة الأخيرة . فقالت الكاتبة : « هل هذه الممثلة جميلة ؟ »

قال هنرى : « إننى لم أرها ولا أريد أن أراها » . فقالت الكاتبة : « والخطاب ؟ »

قال : « أتركيه الآن » . ثم أنعم نظره فى عنق الكاتبة وذراعيها وقال : « ألا تتعبين من العمل يا مس ماسترز ؟ »

فقالت : إننى أتعب كثيراً ولكن لى جلداً على العمل

قال : ألا تحبين التنزه و ... والسرور ؟ فقالت : إننى أجلس أحياناً فى مقهى من مقاهى حى سوهو

قال : إن المقاهى كثيرة فى أحسن من هذا الحى الحقير . ثم سكت وعاد ذهنه إلى الشرود ، وبعد قليل التفت إليها وقال : ماذا كنت أقول لك الآن ؟

فقالت : هل كنت تدعونى إلى العشاء ؟

قال : إننى آسف ، لقد كنت أفكر ...

فقاطعته قائلة : إننى أقبل إذا أردت

فابتسم وبدا على وجهه السرور ؛ وقال : هذا حسن

قالت : ولكن خطاب ابنك ؟

فتحولت حالته مرة أخرى إلى الغضب وقال : إننى لن أبعث إليه بدرهم واحد

قالت : إذا كانت هذه هى معاملتك لابنك فإنى لن آمنك على نفسى

فقال الأب فى شىء من الغضب : لماذا تهتمين كثيراً بابنى ؟ قالت : أنا لا أهتم ؛ فقال : إذن فلماذا ... ؟ فأحنت رأسها

ولم يجبه ؛ وكان منظرها وهي تتحدث باعثاً لخاطر جنوني في نفس هذا الشيخ الفاني فانحنى وقبل شعرها اللامع ؛ فقالت بصوت خافت وهي لا تزال مطأطئة الرأس : متى ... غداً ؟

فأجابها : نعم في الساعة السابعة

قالت : وماذا تقول في الخطاب ؟

ثم نظرت إليه وهي تبتسم ابتسامة مغرية ؛ فقال : أملي الخطاب كما تريدين

فقالت وهي تستأنف الكتابة : أما عن المال ، فإن طلبك إياه وقاحة

قال : اكتبي كما تريدين . فعادت إلى الكتابة وهي تقرأ ما تكتبه : ولكنني مع ذلك أبعث إليك تحويلاً بمبلغ خمسين جنيهاً ، ثم قالت : هل أوقع الخطاب بتوقيع « والدك الحنون » ؟

فلم يجبها ؛ وسكتت هي أيضاً

* * *

كان مطعم لويز بلو مزدحماً عنـد ما دخل هنري وكاتبته فجلسا متقابلين في وسط الزحام على جانبي منضدة ، وكانت تحدثه بصوت رخيم وينظر إليها نظرة إعجاب وسألها : « هل أبواك على قيد الحياة ؟ »

فبدا عليها الاضطراب وقالت بصوت متغير : « إن أبي لا يزال حياً »

فقال هنري : « إنني آسف إذا كان هذا السؤال قد جدد لك ذكرى تريدين نسيانها ، ولكنني أشتاق إلى معرفة شيء عنك

قالت : « إن أبي تزوج بعد أمي ولم أستطع الحياة مع زوجته فتركتها » فقال هنري : « ألم تفكري في العودة ؟ »

قالت : « إذا أردت فإنني لا أستطيع لأنه طردني من المنزل »

فقال : « ولكنه بغير شك أعطاك شيئاً من المال »

قالت الكاتبة : لقد أرسلت إليه مرة أطلب مالاً فرفض

فقال هنري : « ياله من وحش ! أيستطيع الآباء أن يفعلوا هذا ؟ ... »

ثم تذكر الأب بعد ما نطق بهذه الجملة أنه كان بالأمس يريد أن يرفض مطلب ابنه في المال فخجل ، وفي هذه اللحظة رأى شاباً يدخل المطعم وقد دلت حالته على أنه يبحث عن إنسان بعينه ، لأنه كان يدور بلحظه حول كل المناضد ، ولما أدار هذا الشاب وجهه عرفه هنري وإذا به ابنه

احمر وجه هنري فجأة ونظرت إليه الكاتبة مستغربة ، ثم تمتم بكلمات فهمت منها أنه قد آن أوان الذهاب

ولكن قبل أن يتحرك امتدت إليه يد الشاب وقال : سعدت مساء يا أبي

فسأله هنري : ما الذي تمنيه باقتفاء أثري ؟

قال الابن : أليس لي يا أبي أن ... ولكن قبل أن يتمم جملته وقع نظره على الكاتبة فسكت ، وأشار له أبوه بالجلوس فشكره وجلس ، وقال هنري وهو يقدم لابنه كأساً من النبيذ : قل لي لماذا أتيت إلى هنا ؟

فقال الابن ببرود : أليس لي أن أبحث عمن يأخذ زوجتي فيدعوها إلى العشاء في المطاعم ؟

قال هنري وقد احتدم غيظاً : زوجتك ! هـذه كاتبتي يا روبرت » . فقال روبرت : « هذه السيدة كاتبتي أنا يا أبي »

فنظر هنري إلى ابنه ثم إلى الكاتبة فابتسمت ووافقت على قول روبرت فعادت إلى الأب حالة الغضب ، فقال روبرت : « إننا نريد يا أبي أن نصطلح . فزمجر هنري وقال الابن : « لقد مرت بي وبزوجتي ظروف عصيبة ففكرت في هـذه الحيلة . وجاءت للاشتغال عندك ونحن آسفان على إغضابك »

وقالت الكاتبة : « إنني على ما أراه قد حزت رضاك وإعجابك فلا أظنك تظل على غضبك من زواج ابنك بي »

ومدت قدمها من تحت المنضدة نحو قدمه لتداعبه كما كان يفعل منذ خمس دقائق . ولكنه لم يجرؤ على ذلك ، وقال وهو مغضب : « لقد خسرت كاتبتي يا روبرت »

فقالت وهي تبتسم : « خير لك أن أكون زوجة ابنك »

عبد اللطيف النشار

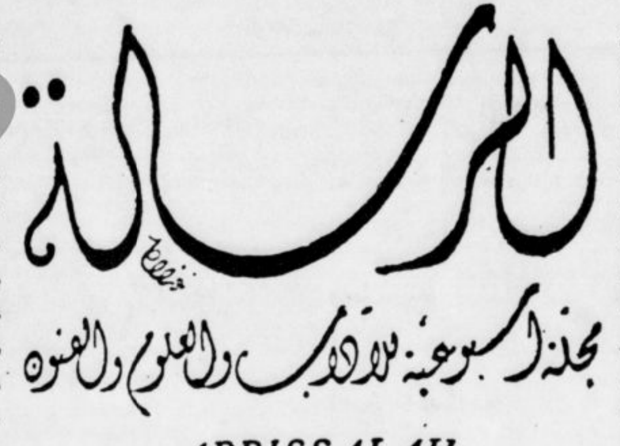
(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)



9me Année No. 397

Lundi - 10 - 2 - 1941





ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٣٩٧ « القاهرة في يوم الإثنين ١٤ محرم سنة ١٣٦٠ — الموافق ١٠ فبراير سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

فلسفة الضحك

للأستاذ عباس محمود العقاد

والذي ذكرني هذا الموضوع نعي الفيلسوف الفرنسي « برجسون » ، لأنه صاحب رأي من الآراء المعدودة في « فلسفة الضحك » ، ولأن الأشياء التي توضع في الذهن موضع التناقضات من دأبها أن يذكر بعضها ببعض ؛ فالبكاء من ألزم الأشياء لفجيعة الموت ، والضحك يناقض البكاء على جميع الألسنة ، وإن لم يكونا في الواقع نقيضين أو طرفين متقابلين

فالحزن نقيض السرور ولكنه ليس بنقيض الضحك ؛ وقد يحزن الحيوان الأعجم ولكنه لا يضحك أبداً ولا يستطيع أن يضحك ، إذ الضحك خلة إنسانية ملازمة للعقل والضمير . ويقال : إن الإنسان حيوان ضاحك ، كما يقال : إن الإنسان حيوان ناطق : كلاهما وصف لا ينفصل عن التمييز الإنساني ولا يكون لغير الإنسان

وهنا ينبغي أن ننبه إلى أن قهقهة القرد ليست من الضحك إلا في الصوت ، وأن الببغاء قد تحاكي الإنسان الضاحك كما تحاكي الإنسان المتكلم ، ولكنها جميعها أصداء وأصوات ليس لها من التمييز المنطق نصيب

ولا غرابة في أن يُعرَّف الإنسان بالضحك كما يعرَّف بالنطق

الفهـــرس

والتمييز، لأن المنطق هو الذي يجعلنا نضحك، وكل عمل مضحك فهو في حقيقته منطق ناقص أو قضية يختل فيها القياس والترتيب

ومن ثم يضحكنا الأطفال لأنهم لا يحسنون القياس، ولكنهم يركبون القضايا المنطقية تركيباً فيه نقص واختلال

فالطفل الذي يرى أباه يحلق ذقنه فيصر على أن يحلق ذقنه مثله يقيس قياساً منطقياً لا يدري موضع النقص فيه

وكذلك الطفل الذي يصيح في أهله أن يردوا شعره إليه بعد حلقه، إنما يقيس الشعر على الأشياء التي تؤخذ منه وترد إليه كلما شاء استردادها، فيخطىء القياس

والكبار الذين يضحكوننا إنما يصنعون مثل هذا: يقيسون ويخطئون القياس، ويكتفون بالمحاكاة ولا يتصرفون

ولو أننا نظرنا إلى كبار الممثلين المضحكين لوجدنا أنهم يتعمدون الخطأ على هذا المنوال، ويتبعون أسلوباً في وضع الأمور في غير مواضعها يتنوع ويختلف على حسب أمزجتهم وملكاتهم ولكنه يلتقي في خلة واحدة وهي اختلال القياس

فلوريل وهاردي مثلاً قد أدخلا السجن في إحدى رواياتهما ثم استطاعا الإفلات منه ونعما بالسكر والنزهة وهما مفلتان، فلما طاردهما الحراس في الطريق هربا إلى باب السجن يلتمسان الخلاص هناك: قياس منطقي لا شك فيه، ولكن النقص فيه ظاهر للمتفرجين وإن لم يظهر للممثلين على حسب الدور الذي كانا يمثلانه

وشارلي شابلن قرأ فلسفة الضحك للفيلسوف برجسون قبل أن يمثل لنا الإنسان الآلي الذي يأكل بالمدد المتحركة في روايته (أنوار المدينة)، وكذلك لاحظ هذه الفلسفة على ما نظن في الكلمات التي كان يغنيها بغير معنى ولا وحدة في بعض مواقف تلك الرواية، لأن مذهب برجسون أن سبب الضحك هو تصرف الإنسان كما تتصرف الآلة، بغير تمييز بين المتفقات والمختلفات، وبين ما يقتضي التغيير وما ليس يقتضيه

وهذا مذهب مطابق لما أسلفناه من تعليل الضحك باختلال القياس أو الاطراد على نسق واحد لا يوجب الاطراد

رجل دخل السجن مرة فهرب وسكر وطرب فهو يحسب كل دخلة إلى السجن منتهية إلى هذه النتيجة، ويمضي على هذا السنن كما تمضي الآلة التي تأتي بحركة واحدة ولا تقدر على تغييرها إذا تغيرت الدواعي والموجبات

فالضحك إنما هو سلاح الإنسانية للمحافظة على المرتبة التي وصلت إليها فوق الجماد وفوق الحيوان، ومن هنا استحال على الحيوان أن يضحك لأنه لم يصل إلى هذه المرتبة وليس عنده من التمييز ما تستدعيه

ومذهب برجسون هذا هو جزء متمم لفلسفة كلها في حقيقة التطور وحقيقة المادة والفكرة، فهي تركيبة شاملة يفسر بعضها بعضاً ويقوم الدليل من إحدى نواحيها على إثبات سائر النواحي. وله براعة في هذا التوفيق مع سهولة في التعبير لم يرزقها فيلسوف حديث بعد « شوبنهور » الذي انفرد بهذه المزية بين فلاسفة الألمان وسائر الفلاسفة في عصره

* * *

وللقارئ أن يراجع النكات أو المواقف التمثيلية التي أضحكته ليعرضها على هذا المذهب، فهو واجد فيها لا محالة تصرفاً هو أشبه بحركة الآلة منه بتمييز الإنسان الناطق، أو واجد فيها شيئاً من وضع الأمور في غير موضعها وقياسها على غير مقياس صحيح

ومن أمثلة ذلك تلك النكتة التي تروى عن ظريف من أبناء البلد يقول عن أحد الأطباء إنه يعلق مريضاً على باب المستوصف!

فذلك الطبيب على حسب هذه النكتة يرى أن أصحاب الدكاكين يعلقون على وجهاتها نماذج مما يعملون فيه، وهو يعمل في المرضى ويستمد منهم تجارته، فلماذا يا ترى لا يعلق مريضاً على باب دكانه؟

وهذا هو التصرف الآلي كما يقول برجسون، أو هذا هو القياس بغير القياس الصحيح

ومن أمثلة ذلك « حانوتي » في إحدى الروايات الهزلية التي عرضت بمسارحنا المصرية يملأ جيوبه بالمناديل المطوقة بالسواد ليقدمها إلى الباكين من أهل الموتى على سبيل الإعلان « عن المحل »!

فالتصرف في هذا الموقف كتصرف الطبيب الزعوم، والقياس هنا كالقياس هناك

ومن الواجب أن نفرق بين موضوع الضحك وبين شعورنا الذي نواجه به الإنسان المضحك، فإنهما شيئان منفصلان كل الانفصال كانفصال حقيقة الجمال عن شعورك أنت بالإنسان الجميل

فنحن نعطف على الطفل الذى نضحك منه ، ونزدرى الرجل الكبير الذى يصنع مثل صنعه ، وننفر من المغرور المكابر الذى يبعث الضحك والسخرية ، ونألم للمريض الذى يخطئ كما يخطئ الأطفال وأشباه الأطفال ، وما من إحساس من هذه الأحاسيس داخل فى طبيعة الضحك وحقيقته الفلسفية ، بل هو عارض يلازم الضحك أو يفارقه ويكون عند هذا الإنسان على خلاف ما يكون عند غيره : فقد يؤلمنى ما يوجب الازدراء عند الآخرين؛ وقد تغتبط لرؤية العدو فى موقف السخرية وتأسى لرؤية الصديق فى ذلك الموقف بعينه

***

إن نى برجسون لم يذكرنى فلسفة الضحك وحدها بل ذكرنى أموراً كثيرة منها ما يحزن ومنها ما يبعث الرجاء

ذكرنى نصيب الفلسفة بيننا نحن المصريين منذ عشرات الآلاف من السنين ، فلم يكن للفلسفة قط نصيب حسن بين المصريين أقدمين كانوا أو محدثين

لم ؟ لأن الدولة القوية تنشأ إلى جانبها الكهانة القوية ، ولأن الكهانة القوية قد استأثرت فى مصر القديمة بالبحث عن حقائق الكون وأسرار الحياة ، وأدخلتها فى عداد المراسم الدينية التى تفرضها على الأفكار ، ولا تسيغ فيها التجديد والابتكار

أما بعد انقضاء الدولة القديمة والكهانة القديمة فالاستعباد علة محققة من علل القضاء على الفلسفة فى هذه الأمة ، لأن الفلسفة هى المعرفة التى يطلبها العقل لذاتها أو يطلبها لذاته ؛ فهى من مطالب الأحرار وليست من مطالب المستعبدين الذين يريدون ما يرادون عليه ويحصرون همتهم فى المنفعة والجزاء

وقد ينبغ بين هؤلاء المستعبدين حكماء من معنى الحكمة التى هى اختبار واتعاظ وانتفاع بتجارب السابقين

أما الحكماء من معنى الحكمة التى هى نفاذ إلى كنه الحقائق ، فظهورهم وارتفاع شأنهم بين المستعبدين مستحيل أو كالمستحيل

هاتان علتان أرضاهما لتعليل كساد الفلسفة بين أبناء هذه الأمة فى الزمنين القديم والحديث ، ولا بد من مرانة طويلة على الحرية قبل أن يزول هذا الأثر من آثار الاستعباد

ولكن هل العلة التى أرضاها هى العلة التى تطابق جملة الأسباب ؟ وهل هى دون غيرها التى تطابقها ، أو هنالك علل أخرى يقول بها من ليس يرضيهم من أمر هذه الأمة ما نرضاه ؟

العلل التى تقال فى هذا الصدد كثيرة ، ومنها ضيق الواعية وانطباع الذهن على سهولة التفكير والتقيد بالمحسوسات والعمليات

ومنها قلة الجد والجلد وأخذ الحياة بالظواهر والوقوف بها عند السكك المطروقة والعادات المكررة التى تصد عن الإبداع وتغلق منافذ الاستغراب والتساؤل والاستطلاع

وكلتا العلتين تستند إلى الأخرى ، وكلتاهما لا نرضاها ولا نجزم بنفيها لأننا لا نرضاها !

***

قلنا إن نى برجسون ذكرنا أموراً تحزن وأموراً تبعث الرجاء . فهذا الذى يحزن وهو حزن هين فى عرف الكثيرين !

أما الذى يبعث الرجاء فهو تلك النبوءة التى أنبأ فيها الفيلسوف بهزيمة السلاح المادى أمام الآداب الإنسانية يوم أن نشبت الحرب الماضية وكان الناس فى شك من عقباها لما شاهدوه من بطش السلاح المادى خلال المعارك الأولى

فقد كان برجسون مؤمناً بغلبة الروح على القوة المادية ، وكان يبنى ذلك الإيمان على مثل السبب الذى اعتمده فى تعليل الضحك ، وهو أن التقدم الإنسانى مرهون بتقدم الروحيات على الآليات ، وأن الإنسان لم يخلق ضاحكا ليصبح آلة مغلوباً بقوة الآلة ، بل خلق ضاحكا ليسخر من الآلات ، ومن يردونه إلى حكم الآلات .

عباس محمود العقاد

أخلاق القرآن

صلة الأرحام

للدكتور عبد الوهاب عزام

(خاتمة)

أمر القرآن الكريم بالرحمة العامة والإحسان الشامل — الرحمة التي تنال القريب والبعيد والإنسان والحيوان ، والإحسان الذي يعم الناس جميعاً ويشمل كل فعل وكل قول . . .

ثم خص ضروباً من الناس فوكد الأمر بالإحسان إليهم ، وكرر الوصية بالبرّ بهم ، ومن هؤلاء ضعاف الناس من الفقراء واليتامى إذ كانوا أحوج إلى العطف ، وأجدر بالبر ، وأولى بالإحسان .

وممن وكد القرآن الأمر ببرهم والإحسان إليهم ، ذوو القرابة . لأن القريب أعرف بقريبه وأدنى إليه ، ولأن الإحسان العام يبدأ بالقرابة ثم يتسع فيهم ، ولأن مودة القرابة تمكن الأواصر بينهم وتشيع المحبة فيهم ، وتقربهم إلى التعاون . ومن هذه المودة في القربى تستحكم روابط الأسر ، ومن الأسر تتألف الأمة متينة الأساس محكمة البناء . فمودة القربى دُربة على المودة العامة ، وتمهيد للاحسان الشامل . والقطيعة بين الأقرباء فسادٌ وإن صغر كبير ، وشر وإن قل مستطير ، وعلة في النواة تبين في الشجرة ، وخلل في الأسرة يظهر في الأمة

لذلك وكد كتاب الله الأمر بمودة ذوي القرابة وصلة الأرحام ولا سيما الوالدان

عظَّم القرآن صلة الأرحام إذ قرن تقواها بتقوى الله تعالى فقال : « واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً » . وأمر بتوفية القرابة حقها إذ قال : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل » . وقرن قطع الأرحام بالإفساد في الأرض إذ قال : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم »

وقد جاء في حديث الرسول صلوات الله عليه وسلامه أن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه قالت الرحم : « هذا مقام العائذ بك من القطيعة . قال : نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى يا رب . قال : فهو لك » وقال رجل للرسول : « أخبرني بعمل يدخلني الجنة » فقال : « تعبد الله لا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم » وفي الحديث أيضاً : « لا يدخل الجنة قاطع »

ذلكم أمر القرآن والسنة بصلة الأرحام عامة والنهي عن قطعها . وأما بر الوالدين خاصة فقد أعظم القرآن أمره ، وكرر الأمر به في آيات كثيرة . وحسبك أن القرآن قرن الإحسان إلى الوالدين بتوحيد الله ، وشكر الله بشكرهما في آيات قال : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً » وقال : « قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً » وقال : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا . »

بل أمر القرآن الكريم أن يحسن الولد المسلم إلى أبويه غير المسلمين وإن دعواه إلى الكفر واجتهدا في رّده عن الإسلام . قال : « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكرلي ولوالديك . إليّ المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إليّ ثم إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون »

وجاء في الحديث أن رجلاً سأل رسول الله أي العمل أحب إلى الله عزّ وجلّ ؟ قال : الصلاة على وقتها . قال ثم أي ؟ قال : بر الوالدين . قال ثم أي ؟ قال الجهاد في سبيل الله . وروى عبد الله بن عمرو « أن رجلاً قال للنبي : أجاهد . قال : ألك أبوان ؟ قال نعم . قال : ففيهما فجاهد . » وقد ذكر رسول الله الكبائر فقال : الشرك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين . »

وأما الإحسان إلى الأولاد فله من شفقة الوالدين ما يغني عن الترغيب والإيصاء ؛ ولكن يقع في البشر شذوذ يصيب الولد بقسوة الوالد . وقد علم القرآن الناس البر بالأولاد ولا سيما

البنات فعصم دماءهن وجعل لهن حقاً في الميراث ، ورفع مكانة المرأة وجعل لها مثل ما عليها من الحقوق والواجبات

وفي رسول الله أسوة حسنة للوالد الشفيق والأب البار .

قبّل رسول الله الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً ، فقال الأقرع : إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً . فنظر إليه رسول الله ثم قال : من لا يرحم لا يرحم . وقال أعرابي للنبي : تقبلون الصبيان ؟ فما نقبّلهم . فقال : « أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك ؟ »

هكذا أشاد الإسلام بحقوق القرابة وأواصر الأسرة ووكد رعايتها وجعل لها مسحة من التقديس ، لأن الناس لا يتحابون ويتوادون ويتعاونون إلا أن تبدأ هذه المحبة وهذا التعاون من الأسرة ، ثم تتسع عاطفة الخير فتعم القريب والبعيد ، وتفيض على الأمة كلها ثم تنال الناس جميعاً

وإنّا لنرى اليوم أواصر الأرحام تتقطع ، وعرى القرابة تنفصم ، وبناء الأسرة يهن بما بعدنا من قرآننا وديننا وتاريخنا وسنتنا . شغل رب الأسرة عن أسرته ، وثارت بالأولاد الفتنة ، وظن الأحداث أن الحرية أن ينتهكوا حرمات الأسرة ، وأن الجدّة أن يثوروا على سلطان الوالدين

ألا إن على المصلحين أن يطبوا لهذا الداء ، وأن يبذلوا ما يملكون من فكر وعمل في تقوية أواصر القرابة وإحكام بناء الأسرة على قواعد من الحب والإيثار ، وإكبار الكبير والعطف على الصغير ، والتعاون على الخير والحق

خاتمة

قصصت عليكم طرفاً من أخلاق القرآن ، وحدثتكم بنبذة من آدابه وشذرة من وصاياه ، وإن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

تكلمت عن العدل ، والوفاء بالعهد ، وعن الإحسان والصدق والصبر والعفو ولم أرد أن أستقصي أخلاق القرآن وآدابه فهي شريعة الإسلام الأخلاقية كلها ، وهي تهدي إلى ما بعدها ، وترشد إلى ما وراءها . والقرآن الكريم كنز من الأخلاق لا يفنى ، ومنبع للفضائل لا ينضب . فليت المسلمين يرجعون إليه ليتبينوا سننه ، ويتخلقوا بأخلاقه ، ويتأدبوا بآدابه ، لتكون لهم عصمة في هذا العصر المفتون ، وقبساً وعزاً من هذا الذل ، واجتماعاً من هذه الفرقة ، وعلماً من هذه الجهالات ، وهدى من هذه الضلالات ، ولتكون لهم بعد الشقاء سعادة ، وبعد الشدة رخاء ، وبعد العسر يسراً .

ألا إن كتاب الله الكريم لا يدعو إلى أخلاق الصوامع كما بينت لكم ، ولكن يدعو إلى أخلاق تسعد الناس في معارك الحياة ، وترشدهم في فتنها ، وتوفي بهم على الغاية التي أرادها الله لخلقه ، وهدى لها عباده ، وبعث من أجلها رسله . الأخلاق التي يحيا بها موتى الشقاء لا التي يموت بها الأحياء . وإن فيها لسعادة الفرد والجماعة وسعادة الناس كافة ، وإن فيها لنجاة العالم من كوارثه ، وخلاصه من مهالكه ، وإنما هي السلام في نفس الفرد ، وفي جماعة الأسرة ، وفي نظام الأمة ، وفي مجتمع البشر . وهل هي إلا تخليص النفس من ضلالاتها ، وتطهيرها من أرجاسها ، وإبراؤها من أهوائها ، ثم حكمها بعدل الله الذي يبصر بالواجب كما يبصّر بالحق ، ويدعو إلى العطاء كما يدعو إلى الأخذ ، وينزل الناس على حكم الإنصاف المؤلف للقلوب ، والألفة المعينة على الخطوب ، والتعاون الذي يذلل الصعاب ، ويبلّغ المقاصد ، وينيل المطالب ، ثم إقامة الجماعة في نظام جامع من الإنصاف والألفة والمودة والتعاون يردّ عداوتهم محبة ، وحربهم سلاماً ، وظلمهم عدلاً ، وجشعهم قناعة ، ويجمع القلوب والعقول والأيدي على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان .

إلى هذه الأخلاق يدعو القرآن ، وإلى هذه المقاصد تقصد أخلاق القرآن . فمن لي بأن يهتدي المسلمون بها لتهدي الأمم بهم ؟ ومن لي أن يلجأ المسلمون إليها ليكونوا لها حجة قائمة وإليها دعوة صادقة ، ويذكروا أنهم أمة واحدة يهديها كتاب واحد ، وأن أخلاق القرآن هي الوشائج التي تجمعهم والسنن التي تنظمهم ، والأسطر التي تؤلف بين كلماتهم ؛ ثم يحذروا أن يذهب نظامهم بدَداً ، واجتماعهم اضطراباً ، بما فرطوا فيما أورثوا من هذه الأخلاق القويمة ، وهذه السنن الصالحة ، وهذه القوانين الجامعة

يقول الله تعالى : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » . ويقول : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين . ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » . صدق الله العظيم .

عبد الوهاب عزام

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

البلبل العائد إلى الروض — بيني وبين أصدقائي

البلبل العائد إلى الروض

كنت أحب أن أجزى الأستاذ البشبيشي ثناء بثناء، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ ولكن غرامي بالمشاغبة غيّر مقام الخطاب، فأنا سألقاه بالملام لا بالثناء، وهو المسئول عما سيقع في كلامي من قسوة وعنف، لأنه حدثنا أنه مُقْبِلٌ على أمر عظيم هو العودة إلى الروض، وقد كادت كلته بالرسالة تشهد بأنه يعاني مشقة أليمة في رياضة جناحيه على النهوض، بعد طول القرار بأرض المجهود، إن جاز الوهم بأن النفوة تجوز على قلب ذلك الصديق

ومالي لا أقول الحق فأصرح بأني أخاف على الأستاذ البشبيشي عواقب العودة إلى روض الأدب والبيان؟

أنا أخاف على هذا الصديق أشد الخوف، لأن ماضيه القريب دلني على أنه تعرّض لغضب الأدب مرتين، ولو شئت لقلت إنه تعرض لغضب الله مرات ... ولكن كيف؟

نسى الأستاذ البشبيشي أو تناسى أن الله يسوق المكاره إلى النوابغ من وقت إلى وقت ليفتح عيونهم وقلوبهم على ما في الوجود من أنوار وظلمات، ونسى أو تناسى أن الله يطالب أولئك النوابغ بالحمد على تلك المكاره، لأنها في الواقع نِعَم سوابغ

فما الذي صنع ذلك الصديق وقد تفضل الله بامتحانه مرة ومرتين ومرات ليشرع القلم في وصف ما يعتلج في ضمير الوجود من آراء وأهواء وحقائق وأباطيل؟

أوذِيَ البشبيشي بالظلم والغدر والعقوق، فهل استفاد قلمه من ذلك الإيذاء؟

أيكون آثر العفو عن ظالميه؟ إن كان ذلك فما الذي صدر عن قلمه في ذلك الصفح الجميل؟

المهمّ هو أن ينتفع الكاتب من جميع الظروف، فيكون لقلمه حنين ورنين وصرير وزئير، وَفقاً لاختلاف الأحوال من قلق وهدوء، وبؤس ونعيم، فإن ضيّع هذه الفرص السوانح وترك عواطفه تخمد وتبيد فهو غير أهل للعودة إلى الروض، ونحن على صده قادرون، فليس منا مَن يضيّع فرصة الانتفاع بمواسم القلوب في القبض والبسط واليأس والرجاء

إن روض الأدب ليس حديقة مصقولة الحواشي كالحدائق التي تقام في قصور الأمراء والوزراء، فتلك حدائق لا تغنّي فيها البلابل إلا وهي محبوسة في أقفاص، أو ما يشبه الأقفاص من المغاني المسقوفة بأسلاك الحديد

روض الأدب ليس من تلك الحدائق حتى يقول الأستاذ البشبيشي إنه قادم للغناء وفي يده وَتَرٌ حنّان هو قلمه البليغ

هيهات، هيهات، وإنما روض الأدب جنة وحشية تشبه الجنة التي اعترك فيها الخير والشر والهدى والضلال لعهد آدم وحواء

في روض الأدب أزهار ورياحين، وفيه أيضاً أشواك وحيات وشياطين

هو روضٌ وحشي تجاورَ فيه الكِناس والعرين، واقترب فيه عش الطائر من وكر الثعبان، وأنتَ واجدٌ بذلك الروض ما شئت من صنوف السم والترياق، ففيه أنهار من الشهد وبحار من الصاب، وفيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من أفانين الود والحقد والصدق والبهتان

في ذلك الروض الوحشي لا يغرد البلبل إلا وهو مطمئن إلى أنه تفرد بالقدرة على السباحة في لجج الهواء... وفي ذلك الروض يزأر الأسد وهو واثق بأنه السيد المطلق، وفيه ينعم الظبي حين يعرف مسالك الأمان من كيد أولئك «السكان»

كل شيء حيّ في ذلك الروض حتى هوامد الأعشاب وصوامت الغدران. فما الذي أعددت، أيها البلبل، لزيارة هذا الروض؟

ما أشد خوفي عليك، يا صديقي، فأنت فيما يظهر لم تسمع بأفاعي الرياض

البلبل في ذلك الروض يغني بالنهار، ويسهر خائفاً بالليل، لأنه يعرف أن في ذلك الروض خلائق مؤذية تتسلق الأشجار في الظلمات لتمصر رقاب البلابل ثم تبتلعها برفق؛ والموت هو الموت ولو جاء في أعقاب النشوة بكؤوس الرحيق

وأنا جربت الحياة في روض الأدب، وعرفت من أهوال ذلك الروض ما لا تعرف. وهل تعرف أني كنت في روض

الأدب بُلبلاً وأفعواناً ورئبالاً ؟ هل تعرف أنى غنّيت وَلدَغتُ وَهَصرتُ ؟ هل تعرف أنى قابلتُ خلائق ذلك الروض بأسلحة مختلفات : منها الصوت الرخيم ، والناب المسموم ، والِمخلبُ الفاتك ؟

وهل ألام على ما صنعت وأنا أعيش فى مَسبعة سميت تفاؤلاً بالروض ؟

وتقول : إننى اجتذبتك إلى هذا الروض ؛ وما قلت إلا الحق فقد كان قلمى ولن يزال مسموع الصوت ، مستجاب الدعاء ، ولكن كيف اجتذبتك ؟ ما صنعت ذلك ترفقاً بك ولا عطفاً عليك ، وإنما أردت أن تكثر النفوس فى تلك المسبعة الفيحاء ، ليذهب عنى بروحك الؤنس بعض ما أقاسى من مُضجِرات الاستيحاش ، إن صح لمثلى أن يتهيب العزلة والانفراد فى روض السباع الضاريات

أما بعد ، فهذا روض الأدب ، وهذا بلبل يعود بعد طول الغياب ، ليغرّد فوق أفنان « الرسالة » الشّجراء

والحق أنه لن يرى لأول وهلة أن روض الأدب من الغابات الوحشية ، وكيف وفى ذلك الروض كتاب وشعراء وعلماء ؟ ولكن العبرة بالخواتيم ، والخواتيم فى أيدى أناس غير أولئك ، ناس لا يعرفهم ولا يعرفونه ، وهم الذين يحكمون على الأدب وهو منهم بَراء

لو فهم كل قارئ ما تريد أن تقول ، لكان من السهل أن يأتلف الأسد والغزال ، والبلبل والثعبان

ولو فهم كل قارئ أن للكاتب حقاً فى أن يؤدى رسالته بالأسلوب الذى يختار لعرف قومٌ أنْ لا موجب للحيرة فى أمرى وقد طويتُ محاسنى ونشرتُ عيوبى ، لأسلم من آسار التكبر والازدهاء ، ولأجعل الرأى فى سعادتى وشقاوتى لمن تفرد بالعزة والجبروت ، له الحمد وعليه الثناء

هذا روض الأدب ، وهذا بلبل يعود
أهلاً وسهلاً ومرحباً ! !

ولكن يجب أن يعترف الأستاذ البشبيشى بأننا خصصناه بالأهل والسهل والمرحب ، وهى ألفاظ لم نسمع بها فى هذا الروض فما كان إلا مسارب صِلال ومدارج ذئاب

الأدب ؟ الأدب ؟

ماذا جنينا من أيامه ولياليه وقد سبَقَنا المتجرون بالنمائم والدسائس والأراجيف ؟

إن الجاسوس يملك من الثروة أضعاف ما يملك الأديب ، وأهونُ الحظوظ فى الدنيا هى حظوظ الأديب ؛ فأين من يتوجع لبلائنا بالدنيا والناس ؟

آمنت بالله ، وتُبتُ إلى الله ؛ فما عرفت نعمةً أعظم من نعمة الخلوة إلى القلم فى لحظات السيطرة الروحية على زِمام الوجود

إلى القلم ، إلى الروض ، إلى مُشتَرَك الهدى والضلال ، إلى حيث نصافح بالفِكر والروح شياطين النفوس وملائكة القلوب !

ومن الله الذى أقسم بالقلم وما يَسطُرُون نسأل الأمان من إخوان الزمان

بينى وبين أصدقائى

وأصدقائى فى هذا الحديث هم قراء « الرسالة » الذين تطيب لهم مراسلتى من حين إلى حين ، وهم خير الأصدقاء ، لأن الصلات الروحية أعظم وأنفس من جميع الصلات ؛ ومع اعترافى بهذه الحقيقة التى تؤنس روحى فأنا لا أؤدى حقوق هذه الصداقة إلا فى أندر الأحايين ، لأن صفحات « الرسالة » تضيق عن تسجيل ما يدور بينى وبينهم من فنون الأحاديث ؛ فماذا أريد أن أقول لهم فى هذه الكلمات ؟

١ — أريد أن أطَمْئن الأديب « البيسى » الذى نقل إلىّ عواطف بعض إخوانه فى الإسكندرية عما كتبته فى تأنيب الشاب المقيم بإحدى قرى المنوفية ، فقد عدّوا كلامى تثبيطاً لعزائم الشبان ، وتخوفوا عواقبه فى قتل مواهب ذلك الأديب الناشئ .

وأجيب بأن ذلك الشاب لم ينتحر — كما توقعت — وإنما أجاب جواباً يشهد بأنه خُلق للحياة لا للموت ، وذلك ما كنت أبغى ، فما يسرنى أن تكثر الأرقام ، وإنما يسرنى أن تكثر الأعلام ، وأديبٌ واحدٌ متمكن أنفع للأمة من ألوف الأدباء الموسومين بالجهل المصقول ، وأعيذ الأديب « الدسوقى » أن يكون من هؤلاء

٢ — وأريد أن أقول للأديب « . . . . » إن ثناءه على ما أكتب في النقد الأدبي لا يغريني بالسير في ذلك الطريق إلى نهاية الشوط ، لأن الجمهور يغيب عنه الفرق بين النقد والتجريح ، وهو يتوهم أن لنا غاية في تعقب الآثار الأدبية بالتزييف والتصحيح . . . يضاف إلى ذلك أني أكره أشياء من بعض الناس ، ففيهم من يعيش بوجهين ، فيكتب إليّ مشجِّعاً ، ويكتب إلى من أنقدهم متوجعاً ؛ كالذي صنع فلان حين رجا أن يكون كتابه خاصًّا لا يصل إلى أسماع القراء ! فهل تراهم سمعوا منه شيئاً ؟ ! وهل عرفوا أنه يقيم في بلد يقيم فيه شاعر كبير اسمه أحمد . وهو غير الشاعر أحمد الكاشف ؟

٣ — وأريد أن أقول لصاحب « جريدة مصر العليا » إني راض عن التسمية الطريفة لمصر الشّمالية ومصر الجنوبية ، وهو يعرف ما أعني

٤ — ثم أنظر في جريدة « الأحوال » البغدادية فأجد صورة « شارع فيصل » بجانب الكرخ ، وتحت الصورة كلمات موجّهة إليّ برفق ولطف ، كلمات دبّجها أديبٌ كريم عزّ عليه أن أشكو زماني فهو يقول :

« أنت أكبر من الزمان ، ما دام لك إخوانٌ أوفياء »

وعندئذ أتذكر أن لي في العراق ذخيرة روحية ، ثم أتذكر تمثال فيصل ، فمع من جلست في رحاب ذلك التمثال وصدري يفيض بالكروب في ليلة عتاب :

يا روعةَ البدر في سَماهُ	وفتنةَ الزهر في الغصونِ
تناسَ ما شئتَ سوف تخبو	حرارة الدمع في الشؤون
وسوف تَبلَى على الليالي	غرائب السِّحر في العيون
أستغفر الحبَّ سوف يَبقَى	على صروف الأسى حنيني

وتذكرت الخطابات التي تلقيتها من الكرخ ، وأجبت عنها بالصمت ، فراراً من عواقب الافتضاح ، وهل كنت إلا طيفاً زار في السحر بساتين الكرخ وبغداد ؟!

٥ — وهذا خطاب من الأستاذ جاسم الرجب يشرح خلافاً بينه وبين الأستاذ شاكر الجودي حول مقال نُشر في « الرسالة » بدون إمضاء ، ثم فنّدته بعُنف ، ويرى السيد جاسم أن الناقد هو الكاتب ، وأجيب بأني نسيت ظروف ذلك المقال !

أما ثورة السيد جاسم على فلم « فتاة متمردة » ودعواه أنه يغض من المجتمع المصري فهو كلامٌ لا أوافقه عليه ، فذلك الفلم من الأفلام الجيدة ، وقد شاهدته فأبكاني ، وهو يمثل صورة من أزمات النفوس تقع في مصر كل يوم ، وقد تقع أيضاً في العراق ، لو التفت هذا الصديق إلى ما يمرّ بالنفوس من مكاره وخطوب .

٦ — وذاك خطاب من أخ صادق يقول فيه : « هل يذكر الدكتور زكي مبارك أنه ألقى في البريد المصري تذكرة واحدة لإخوانه في بغداد وما عرف فيهم غير الصدق والوفاء ؟ »

وأجيب بأن العراق شغلني عن العراقيين ، ولو جُمع ما كتبته في الجرائد المصرية عن العراق لكان مادة تكفي لتأليف ألف خطاب ، فهل يتفضل هذا الاعتذار الطريف ؟

وأنتهز هذه الفرصة فأوجه العتاب إلى رقابة البريد في مصر ، فهي تفتح جميع الخطابات التي تَرِد إليّ من العراق ، فماذا ينتظر الرقباء ؟ هل يتوهمون أن من المحتمل أن يكون في تلك الخطابات ما يستوجب السؤال والجواب ؟

وماذا يصنع رجل مثلي أكثر من الذي صنع ليقنع قومه بأنه لا يعرف غير الهيام بخلق المودّات لمصر في أقطار الشرق ؟ وكيف كانت تصير الصلات بين مصر والعراق لو صفح قلمي عمن حاولوا تكدير تلك الصلات ؟

الرقباء ينفذون خطة يقضي بها الواجب ، ولكن من حقنا على الدولة أن نذكّرها بأننا نعرف من المسئولية مثل الذي تعرف ، فنحن جنودها الأمناء ، وما يجوز لها أن تؤذينا ولو بالتلميح ، إلا أن يقال إن الرقباء لا يعرفون اسم زكي مبارك وهو عُذرٌ مقبول !

٧ — وأريد أن أشكر للأديب الذي يكتب إليّ من « فارسكور » حماسته البالغة في ملاحقتي بالنقد العنيف ، ثقةً بأن خفاء اسمه ينجيه من بطش قلمي ! ثم أرجوه أن يتذكر أن عنواني هو « مصر الجديدة » فلا موجب لهيام خطاباته بين إدارة الرسالة ووزارة المعارف ، فقد يعرّضها ذلك الهيام للضياع

أما التوجيه الذي ينتظره مني فهو سهل ؛ فقد دلت رسائله على تباشير من الفهم الصحيح ، ويكفي أن يثابر على المطالعة الجدية بدون انقطاع ، وليقصر مطالعاته مؤقتاً على أطايب

٥ - أومن بالإنسان !

رد وتعليق

للأستاذ عبد المنعم خلاف

من الدفتر القديم — فى حدود البداهة — فليكن قرداً نهض على قدميه ، ثم ماذا ؟ — وارث الحياة — الشر يلد والعلم يدفن — الأشقياء الهالكون — نتائج الايمان بالانسان ونتائج الكفر به — أخلاق العلماء — الألمان والانجليز والعرب — المنادكة وعبادة الأبقار والثعابين — صوفية شاردة تتخيل وصوفية مادية تتحقق — استغلال سر الوجود على تفاوت — برغوث أبى العلاء — مذهب هدامة — فترات التمهيد لظهور الانسان — لا تمس فى غرائز الانسان — العلم أضاف حياة للحياة — ما أشدت بأخلاق الانسان — الدولة كائن عضوى واحد — تقدم العلم وتخلف الخلق — لو آمن بنفسه — يوم قريب — لغير المؤمنين

قرأت المقال الطريف لصديقى الأستاذ زكى نجيب محمود الذى أخرجه مخرج الإنكار لما ذهبت إليه من رأى فى القيمة السامية لحياة الإنسان وتفرده بالسيادة بين الكائنات، وبتوجه منافع ما فى الأرض كله إليه ، وبتفرده بالتغلب على كثير من قوى الطبيعة الأرضية وتسخيره إياها ، وببساطة الحياة فى الأرض بدونه ، وبقدرته على إيجاد عوالم ومعان وصناعات ومدن وآثار ورسالات لم يكن فى الحياة شىء منها ، وبقيامه وسط دورات الأرض الأبدية المحدودة المكررة ، بحياة حرة تذهب فى أى اتجاه وتكاد تكون منفصلة عن حياة الطبيعة

وكنت أود أن أعيد فى صدد الرد على صديقى ما سبق أن ذكرته فى العددين ٣٥٣ ، ٣٥٦ من هذه المجلة رداً على سائل بيروتى سألنى عن مسائل تدور حول الإنسان ، وآخر مصرى رأى أن يذكرنى بحياة النظام والدقة التى تحياها أمم النمل والنحل وغيرها حين رأى إشادتى بالقيمة السامية لحياة الإنسان ، ولكن إعادة ذلك الحديث على قرب العهد به مما يضيق به صدرى ويضيق عنه نطاق « الرسالة » ومنهاجها ؛ فأحيل صديقى والذين قرأوا مقاله فأثر فيهم على هاتين المقالتين السالفتين فإن ما فيهما كفيل — فيما أرى — أن يلقى ضوءاً عريضاً غزيراً كاشفاً على الفروق بين أمم الحيوان وأمة الإنسان أبى العجائب ...

غير أنى أود أن أزيد هنا بعض أفكار أقدم قبلها أسئلة بديهية

المؤلفات فى الأدب الحديث ، لأنه أقرب إلى الأفهام والعقول ، إذ كان صوراً تمثل أذواق الناس فى هذا الجيل ، وله بعد ذلك أن يطالع من الأدب القديم ما يشاء

وأعتقد أن من حقه أن ينشر فى « الرسالة » بعض خواطره ، لأنه يملك القدرة على التعبير المقبول

٨ — وأريد أن أقول للأستاذ « م . م . م » إن نثرك أقوى من شعرك ، وقوة الروح لا تعوزك ، وإنما يعوزك ما كان يسميه القدماء « شِدة الأَسر » فى صوغ القصيد ، فأرجو أن تكثر من حفظ القصائد الجياد ليرتاض طبعك على النظم الرصين

أما الأديب « مجنون القريض » فسيكون له بين الشعراء مكان

٩ — وأريد أن أقول للأديب « الصنمانى » إنى تلقيت خطابه بأطيب القبول ، ونحن أنصار الحرية فى الرأى ، فمن واجبنا أن نرحب بكل ما يؤيد دعائم الحرية ، وإن أخطأ صاحبه فى التعبير عن قلبه السليم

١٠ — وأقول للأديب إلياس سليمان بحوث إنى لا أصدّق أن فى الدنيا رجلاً أغير منى على لغة العرب ، فليس من حقه أن يتوهم أنى لا أبالى قواعد النحو والصرف حين ألتمس وجهاً لضم الظاء من « الظرف » فى نطق المصريين ، وما شأن هذه المسألة بالنحو والصرف ، يا حضرة الأديب ؟

أنا أقول إن « الظُّرف » أخذ حكم « اللُّطف » عن طريق الإتباع ، ثم بقى له الحكم مع الانفراد ، وهناك علة ثانية وهى التمييز بين المحسوس والمعقول ، والمصريون عرب ، وهم لا يخطئون فى لغتهم عن جهل ، وإنما « يخطئون » لأسرار قد تخفى على بعض القراء ، فتتوهمهم مخطئين وهم على صواب

والحق أنه لا بدّ من التماس العلل والأسباب لانحراف النطق عند بعض الجماهير ، فذلك الانحراف قد يصدُر عن سليقة مستورة لا يتنبه لها اللغويون ، وهذا ما أردت النص عليه ، يا سيد « سليمان » !

زكى مبارك

ألقيها على صديقى خليفة (سليمان بن داود) (مفهم الطير والبهائم والردة) والفراش المبثوث والبعوض والبرغوث :

هل رأى أو سمع أن أمة من أمم الحيوان والحشرات اصطادت إنساناً ووضعته فى قفص وعرضته أمام الأنظار ؟

وهل رأى أو سمع أن فرساً أو حماراً ألجم إنساناً وركبه أو حرث عليه حقله أو وضع على ظهره حمله ؟

وهل رأى أو سمع أن جملاً أو فيلاً أو ديكا أو خروفاً قدم لإنسان حفنة من شعير أو أعواد برسيم أو قدح ماء ؟

وهل رأى أو سمع أن برغوثاً أو بعوضة أو فراشة صنعت دواء ووضعته فى منضخة ماصة كابسة ثم أطلقته على الإنسان لتخدره أو تدفع أذاه أو تقتله ؟

وهل رأى أو سمع أن حيواناً ما قطف زهرة ووضعها فى أصيص يتأمل جمالها ويزين بها مسكنه ، أو أقام معرضاً أو متحفاً للبذور والثمار أو منتجات الحيوان والإنسان ؟

هل رأى أو سمع أن جماعة من الأبقار أو الأغنام ثارت على جزار وأمسكت به وذبحته وسلخته ، وأخذت من لحمه وشعره وجلده وظفره منافع ؟ أو على الأقل أدركت لماذا تساق هى إلى المذابح ؟

هل اصطنع ذئب أو سبع من سباع الأرض سلاحاً يدفع به غائلة الإنسان ومكايده وحبائله ؟

أترك لصديقى زكى أن يدرك سير الحياة بالإنسان ، ووضعه بين الأحياء من خلال الأجوبة على هذه الأسئلة

ثم لنفرض ما يقوله بعض شراح نظرية النشوء والترقى صحيحاً من أن الإنسان أصله قرد نهض على قدميه ... ثم ماذا ! ؟

لقد سبق هو وتخلفت سائر الأنواع ... إذاً هو وحده كان محفوفاً بعناية الذى خلق الأنواع كلها حتى جعله فى قمة الحياة العضوية الحيوانية ، ثم بثق فى رأسه بثقاً صار منبع عالم جديد عريض مخالف لسائر أساليب الحياة المعهودة ، إذ جعله يصنع موجودات تفوق قدرة الحيوان ، وقدرته هو على السرعة والاحتمال والنقل والسمع والبصر والتكبير والتجهير والتقريب ، ولم نر غيره حيواناً يخترع آلة لصيد فريسته . ولم نر أمة من أمم النمل تخترع عجلة تحمل عليها الأثقال التى تعانى نقلها من مكان إلى مكان ، ولم نر أمة من أمم النحل تفكر فى دفع عدوان الإنسان على عسلها الذى تتعب وتدأب فى جنيه واشتياره من رحيق الأزهار ونوار الثمار على كثرة ما جربت من غزواته لها ، وكل حيوان يعيش فى نطاق ضرورات حياته لا يتجاوزه . فلئن كان قانونا « الانتخاب الطبيعى » و « بقاء الأصلح » أقنومين عظيمين من أقانيم نظرية النشوء والترقى كما يعترف بذلك أنصارها — وصديقى زكى منهم — فهما اللذان وضعا الإنسان هذا الوضع الممتاز ... موضع القمة فى سلسلة الأنواع . وما دام الإنسان استطاع أن يتغلب على سائر حيوان الأرض يستبقى منه ما له فيه نفع ويبيد منه ما يشاء ويجد من الطبيعة إقبالاً عليه وكرماً فى إمداده بوسائل التغلب على ما يريد إبادته ولا يصده صاد عن اقتحام الغابات والأجام والبحار والمناقع للصيد والتلهى بالقتل ... ما دام الإنسان استطاع أن يفعل كل هذا والطبيعة تساعده على فعله فهو إذاً الابن البكر للحياة فى الأرض ، وهو المقصود بها بحكم قانون « انتخاب الأصلح » ، وهو وارثها لأنه الأقوى ...

سيقول صديقى زكى : « وماذا أنت قائل فى الجراثيم التى تفتك ببدن الإنسان لتعيش ؟ تلك التى إن أفلح فى نزع واحدة منها مما يسكن جوفه باضت له ألوف الألوف من صغارها ؟ »

وأقول : إن مصير هذه الجراثيم مصير غيرها من قطعان الوحش وسائر أعداء الإنسان التى تغلب عليها وتحصن منها وأوشك أن ينظف الأرض من غوائلها ... وإن تاريخ كشفه لها قريب جداً ، ومع ذلك استطاع أن يقيم أسباب المناعة منها فى المسكن والملبس والمطعم والمستنشق ... وما دام قد رصد حياتها وعرف أوكارها ، وسلط عليها حرساً من المجاهر والمخابير والعقاقير ، فهو لا شك واصل إلى التغلب عليها فى سائر البقاع ما دام قد تغلب عليها فى مناطق المستشفيات ودور النقاهة وكثير من المنازل والمدن التى لا تهمل وسائل الوقاية العلمية ...

وإنه لجهاد مشكور وأمر عظيم أن يقتحم الإنسان بعلمه وأدواته هذه المناطق التى عاشت دهوراً وراء نظره وفوق وهمه وتخيله ...

وإنها لعناية من بارئ الطبيعة بهذا النوع أن يعرفه أعداءه واحداً واحداً ويمكن له في الأسباب حتى يتغلب عليها جميعاً ...

وإنه لبدء حياة جديدة لهـذا الإنسان في الأرض أن يعلم ما ظهر وما بطن وما خفي وما استعلن من هؤلاء الأعداء ...

وأظن يا صديقي أن من السهل على الذي تغلب على أعدائه من الجراثيم الخفية أن يتغلب على غيرها من البراغيث الظاهرة ... تلك التي حسبت واحـداً منها جديراً أن يقض مضجعي فأشفقت عليّ ...

فلتلد بطون الشر والألم ما تستطيع من أطفالها ... فستلد قوانين العلم مقامع ومهالك لهذه الأطفال ...

وإن الأشقياء الهالـكين في الحياة الدنيا هم الـكافرون بالعلم وبالإنسان الذي أنتج هذا العلم ...

أولئك الذين يعيشون بأساليب القرون الجاهلة العاجزة، وينظرون إلى الحياة نظر العجز وضعف الثقة بروح الإنسـان وعقله ، ونظر القاصرين الذين لم يدركوا ذلك النمو السريع للحياة الإنسانية في مدى قصير جداً من الزمن وهو أربعة آلاف سنة وهي عمر التاريخ الذي نعرفه ...

أولئك الذين لم يدركوا بعد كيف قفز الإنسان في السنوات الخمسين الأخيرة من عمره قفزات حققت كثيراً من أحلامه في الانطلاق والسيطرة والإنتاج والاستغلال والتوليد والتقارب بين أجناسه وأقطاره واختزال المسافات والأبعاد وإقامة الأرصاد لحوادث الحياة وظواهر الطبيعة

أولئك الذين لا يزالون يعيشون كما كان يعيش آباؤهم الأولون الذين لم يكونوا يعرفون من الدنيا إلا حدود البقعة التي ولدوا فيها أو القطر الذي ينتمون إليه ... ولم يكونوا يعرفون أن في الأرض محيطات هائلة وقارات مجهولة وعوالم مستورة ، وأن الأرض ما هي إلا كرة صغيرة جداً كذرة رمل في صحراء ... الذين كانوا يبيتون في الظلام والبرد ، وأنهارُ النور والنار على بعد ضربة معول منهم في منابع النفط والبترول ... ويعيشون تحت رحمة غيض الماء وفيضه بدون أن يقيموا سداً أو خزاناً يحفظ الماء ويحفظهم من طغيان الماء ... والذين كانوا يأكلون الموت ويشربونه في المطاعم والمشارب الملوثة بالجراثيم ...

أولئك الذين كان كفرهم بالإنسان وعدم إدراكهم لسموه وتفرده بين سائر الأنواع السبب الأكبر فيما نراه يسود حياته من اصطناع أساليب الحيوان الفاتك الضاري المتشهي الغافل الذاهل عما يدور في السماء ويجري في الأرض من العجائب والمعجزات وأفانين الحياة ...

وما يجر الشر والإثم والسفالة على النفس الإنسانية إلا غفلتها عن مقامها الممتاز في الحياة ، وإلا أخذها بظاهر الحياة الجسمية الآلية التي تجعلها والحيوان في حظيرة واحدة . وما كان جهاد أنبيائها وحكمائها الذين خطوا بها خطوات واسعة إلى الأمام إلا نتيجة لإدراكهم امتيازها وما فيها من قوى زائدة عما في غيرها من سكان الأرض ...

وأخلاق العلماء شيء عظيم عميق لأنها أخلاق بنيت على العلم بأعماق النفس الإنسانية . وقد قال سقراط « الفضيلة معرفة ، والرذيلة جهل »

والفرق بين أخلاق السادة وأخلاق العبيد هو مبدأ الفلسفة الألمانية الحديثة التي سنها « نيتشه » للألمان فكان إدراكهم معنى السيادة وحديثهم حولها أكبر باعث لهم على نهضتهم الجبارة التي جعلتهم يفهمون في أنفسهم أنهم فوق مستوى سائر الأجناس

وأخلاق الإنجليز المبنية على ثقتهم بأنفسهم وتفردهم من بين سائر البشر بطبيعة ممتازة وروح ممتازة هي التي جعلتهم فوق المستوى الإنساني الحالي في الصبر والاحتمال والثبات وسعة الحيلة والوقار والسكينة في السلم والحرب

فهم يؤدون لهذا الاعتقاد وتلك الثقة بالنفس مهرها من الفعال الـكريمة والصبر الجميل والدم العزيز والمال المبذول والمساكن المترفة

وقديماً كانت العرب أمة ضائعة المكانة لما كانت مفقودة الإحساس بسمو نفوسها ومواهبها ، مغمورة فيما يحيط بها من الطبيعة ، مدمجة فيها ، عابدة للحقير والجليل منها حتى تسمى أفرادها بأسماء الجماد والحيوان السافل والنبات الحقير : فقالوا حجر وصخر وكلب ويربوع وحنظلة ، إلى آخر أسماء ما يحيط بهم ، وطافوا بالأحجار والأشجار عابدين عاكفين ... فلما أيقظهم موقظهم العظيم لأنفسهم وما فيها من امتياز على سائر ما يحيط بها فلا يليق بها أن تلتمس لشيء من هذا المحيط عبادة ، ولا أن تبتغي إليه زلفى أو وسيلة ، ولا أن تقدم إليه قرباناً من دمائها ودموعها وسائر قرباتها ؛ بل يجب أن تبتغي بذلك كله وجهاً أسمى وقدرة أعظم لا تدركها الابصار ولا تستوعبها الأفكار ... حين هذا بدا السر الخفي في هذه النفوس الضائعة واستعلن كما يستعلن نور الصباح عريضاً في الآفاق ، ومضى أفرادها إلى فجاج الأرض حاملين رسالة وموطدين دولة ومقيمين حضارة

وها نحن أولاء نرى « الهندوكيين » يأتون في عباداتهم للأبقار والحيات وكثير من الحيوان مخازى وسخافات تلطخ وجه الإنسانية بالحياء والخجل والعار ... كل هذا لأنهم توهموا أن في البقر والثعابين سراً وروحاً مقدساً يعبد ، فتركوها تعيش وتسرح وتهيم في الشوارع والبيوت والطرقات وهاموا وراءها وأكلوا روثها وشربوا بولها وتقربوا للثعابين ورحبوا بلدغاتها وموتهم بأنيابها وتركوا بلادهم تصاب بطواعين الأبقار التي تترك حتى تشيخ وتصير عشاً للجراثيم التي تنتقل منها إلى عابديها وساكني بلادها ... والأبقار المسكينة في ذهول وغفلة عن قربات هذا الإنسان الضال وتقديسه إياها ... فهي تبول عليه وتنطحه ولا تنفعه ...

وهكذا كان الإنسان فريسة للأوهام وعبادة الأحجار والأبقار والجعلان والقطط والحيات وغيرها حين لم يكن مؤمناً بنفسه وطيد الثقة بها ، فاهماً أن جميع ما في الأرض مخلوق له ومسخر لمنفعته ...

ولست أدرى من منا الذى أوغل في لفائف الصوفية وشرودها أنا أم صديقي زكي ؟

إن صوفيتي مادية تؤمن بالعلم وتعترف بدولة الأجسام ولا تشرد وراء الأوهام ، فلا تتخيل أن الإنسان العظيم الخصيم المبين الفكر المبتكر مخلوق ليكون طعاماً للبراغيث والبعوض والقمل ... وإنما تعلم أن هذه الحشرات مخلوقة لحمل الإنسان على تنظيف جسده وثيابه ومسكنه وبيئته من القاذورات والعرق والأتربة والمناقع الراكدة الآسنة ... فلولاها لأصابه الكسل عن كثير من أعمال النظافة والتطهير والتجميل

وقد كانت هذه الحشرات تعيش في الأصل على النبات والحيوان ، ثم لصقت بجسم الإنسان وتطورت بلصوقها به . فلا يصح أن يقال إن الإنسان خلق لأجلها ...

وصوفيتي لا تخيل إلى « أن سر الوجود يستعلن في الجرثومة الضئيلة كما يستعلن في الإنسان والفرد والأفق ! » كلا ... هناك فروق هائلة بين استعلان قدرة الله في الجرثومة ذات الخلية الواحدة ذات الوظيفة الواحدة ، وبين استعلانها في الإنسان ذى الخلايا التي لا عدد لأنواعها وأشكالها وصورها وأوضاعها ووظائفها منفردة وموضوعة في مجاميع ومنتجة حياة كلية . هو كالفرق بين جزىء صغير في قالب حجر موضوع في عمارة من ناطحات السحاب ، وبين المهارة نفسها بما فيها من زخرف وزينة ... وفي هذا التشبيه تجاوز كبير وقياس مع الفارق الهائل . نعم إن الجرثومة شيء ثمين عظيم كأول خطوة في سبيل الحياة ... ولكنها لن تبلغ مبلغ الإنسان الذى هو آخر خطوات الحياة وحلقتها النهائية كما تقول نظرية النشوء

وما أعتقد أن خالقاً عظيما حكيما يخلق كرة أرضية هائلة ، ويجعل فيها رواسى من فوقها ، ويجرى فيها بحارها وأنهارها ، ويقدر فيها أقواتها ليعيش عليها عالم من البراغيث أو النمال أو الثعابين أو الأبقار أو السباع عيشة أبدية بدون خليفة فائق عليها يستطيع أن يضع الحمل بجوار الذئب ، والأسد بجوار الغزال ، وكل عدو بجوار عدوه كما هو الحال في حدائق الحيوان . إن الحياة حينئذ تكون عبثاً وفيضاً لا يتلقاه أحد يعى ويفكر ويعمل في الأرض عملاً مجيداً

وإن الصوفية التي تقول بهذا ما هي إلا شرود وراء الأوهام

وعدم الإدراك لغايات الحياة والتمييز بين آفاتها

إنها صوفية كصوفية أبي العلاء المعرى المريض شاذ الطبيعة الذي يقول :

تسريح كفك برغوثاً ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجا !
كلاهما يتوق ، والحياة له عزيزة ويروم العيش مهتاجا

ولنتصور الناس جميعاً على مذهب أبي العلاء وبعض متصوفة الهند ... لا يأكلون اللحوم ولا الألبان ولا العسل ولا سائر منافع الحيوان ... ويتركون للبراغيث والقمل والضفادع والعقارب والثعابين وسائر الحشرات ، وللسباع والبهائم حرة طليقة فى الحياة ما دامت الأرض ميراثاً مشتركاً بينها وبينهم ، وما دامت جميعها مقصودة بالحياة ، وما دام « سر الوجود » قد استعلن فيها استعلانه فى الإنسان ... فاذا تكون النتيجة ؟

هى فناء الإنسان بفناء أقواته التى تأكلها قطعان الأنعام والسباع وعراجل الحمير وأسراب الطير والحشرات وغيرها ... هذا إن عاشت وعمرت دهراً ، فإن فنيت فالأرض خراب . . .

***

تساءل صديق على لسان أحد حشراته : من ذا كان يستمتع بكائنات الله فى الأرض قبل ظهور الإنسان ؟

وأجيب : كان يستمتع بعضها ببعض ويعيش بعضها على بعض كما هو الحال الآن ... فالسباع تأكل الأنعام ، والأنعام تأكل النبات ، والحشرات يعيش بعضها على النبات وبعضها على الحيوان ...

ولكن ينبغى أن نعلم ما يقوله العلم من أن الحياة الحيوانية على الأرض لم تكن غزيرة ولا كثيرة الأنواع قبل عصر ظهور الإنسان . . . نظراً لقسوة عوامل الطبيعة من الأمطار والثلوج والبراكين والزلازل التى لم تكن تسمح بحياة كائن ضعيف ؛ فلما استقرت القشرة الأرضية قليلاً وهدأت عوامل الغليان والتشقق ، وصارت الأرض صالحة للحياة ، خلق الله فيها الحيوانات الضخمة الزاحفة ، ثم انقرضت بفعل الزلازل والفيضانات واختلافات الطقس ...

وهكذا الأرض مرت بأدوار وراء أدوار حتى صلحت لحياة هذه الأنواع التى نراها تعمر الأرض ... وكان كل هذا تمهيداً لإخراج ذلك النوع الذى صار خليفة الأرض وفاتح أغلاقها ومخرج أسرارها ...

وفترات التمهيد لهذه الحياة الصالحة المعمرة لا يصح أن يعترض عليها معترض بأنها ضاعت هباء . . . فإن أيام الله ليست كأيامنا تقاس بالسنين الشمسية والقمرية ، بل هى دهور بالنسبة لنا ، ولكنها لحظات بالنسبة للذى خلق الأزمان ويدير الأفلاك دورات هو أعلم بمقدارها ... والله أعلم متى ينضج الثمار !

***

زعمت فراشة الأستاذ أن علم الإنسان وأخلاقه هما سر تبجحه ودعواه الامتياز ، مع أن علمه يكمل النقص الذى فى غريزته وفطرته ، ومع أن أخلاقه فى مثلها الأعلى الذى تحلم به هى دون ما يسود ممالك النمل والنحل من أخلاق ...

وأنا أنكر إنكاراً باتاً أن يكون فى غرائز الإنسان نقص يحتاج إلى تكميل ، وأن يكون العلم هو هذا المكمل . . . وإنما أرى أن غرائزه التى تضمن له حياة آلية رتيبة كحياة أنواع الحيوان ، غرائز كاملة يستطيع أن يعيش بها فى مفتتح حياته وتكفيه ... فإذا نظرنا للعلم على أنه نتيجة لغريزة حب الاستطلاع فهو إذاً أثر من آثار هذه الغريزة ، ولكن لا يقال إنه تكميل لها إذ لا نقص فيها ...

فالعلم نتيجة لهذه الغريزة كما أن الولد نتيجة للغريزة الجنسية . وحب الاستطلاع غريزة مشتركة فى جميع أنواع الحيوان ، ولكنها فيما عدا الإنسان محدودة بحدود ضرورات حياة الأنواع وفى الإنسان لا حد لها . ولذلك أنتجت للانسان علماً زائداً عما يحتاجه وعما يمكن أن يدركه أى حيوان . وهذه القابلية الطبيعية الدائمة فى هذه الغريزة هى التى أنتجت نمو علم الإنسان وفكره ونمو الحياة به دائماً . . .

والإنسان الفطرى المحدود الذكاء يكاد يعيش بالغريزة وحدها فهو لا ينوع ما ورثه من الحياة ولا يزيد عليه ولا ينقص منه . وهو مع هذا يحيا وينمو وسط الأهوال . . .

فغرائز الإنسان التى تكفل له حياة كحياة الحيوان غرائز كاملة يحيا بها حياته الضرورية

أما العلم فيفتح له أبواب حياة خاصة منفصلة عن حياة الطبيعة . . .

فالقول بأن علم الإنسان يكمل النقص الذى فى غريزته وفطرته قول غير مفهوم . . .

وأما أخلاق الإنسان الحالية فلم أدافع عنها بل نعيت عليها واعترفت بفسادها وقصورها إلا فى قليل من الأمم وهى التى أدركت أن للحياة الإنسانية قوانين تشبه قوانين الطبيعة فى صرامة عقابها لمن يخالفها . . .

واعتقادى أن الدولة كائن عضوى يسرى عليه ما يسرى على أى جسم ذى أعضاء من وحدة المنفعة والضر ... الدولة كالجسم الواحد لا يصح أن يترك فيه شىء فاسد ولو كان ظفراً وإلا فسد كله ... ولا يليق أن يكون فيه عضو مريض وآخر صحيح بل يجب أن يصح كله ...

والقلب فى الجسم يقذف الدم إلى كل خلية لتحيا ، وكذلك يجب أن يقذف قلب الدولة إلى كل فرد فيها غذاء الجسم والفكر والروح ليحيا الحياة الكاملة

والفكر فى الجسم الواحد حارس يقظ أمين يتلق الرغبات ويصدر الأوامر ، وكذلك يجب أن يكون قادة الأمم والمسيطرون عليها ...

فأنا لم أشد بأخلاق الإنسان الحالية وإنما أشدت بعلومه وفتوحه فى مجاهل الكون ، وأريد من وراء هذه الإشادة يقظة النفس المادية الدائرة مع الحديد البليد القاسى فى غير وعى وإحساس إلى آثارها وتفردها بين الكائنات حتى تعلم وضعها الصحيح ...

والواقع أن أخلاق الإنسان لم تتطور كما تطور علمه وفكره ، بل لا يزال يعيش بمواريث التاريخ السيئة المغلوطة ، ولم يجد له زعماء انقلاب فى روحياته ، كما وجد زعماء انقلاب فى مادياته ...

فالانقلاب الجسمى والآلى والصناعى فى حياة الإنسان لم يصحبه انقلاب نفسى يجمله يصفى تركات الماضى فى الأخلاق ويتحرر من مواريث التاريخ السيئة ويقيم حضارة روحية تناسب هذه الحضارة المادية التى أقامها فى مدى السنوات الخمسين الأخيرة .

ولو آمن الإنسان بالإنسان وأدرك مدى الرحلة التى رحلها فى الحياة والخطوات التى سارها فى التاريخ ومركزه بين الكائنات كخليفة فى الأرض خلف الله على جميع مقدراتها ، وصنع فيها موجودات فاقت نماذج الحيوان فى الدقة والاحتمال والسرعة والخدمة آلاف الأضعاف ، وعرف أن الله ما كان ليعطيه هذه القدرة العظيمة على الصنع والإنشاء والافتنان إلا وهو به حَفِىٌّ، وعليه متفضل ، وله مكرم ، وإياه مسدد وموفق ، ولتطوراته مرتقب ومنتظر بلوغه رشده ؛ لو آمن بهذا كله لأسرع إلى إقامة الحياة على ما أقام الله الطبيعة عليه من العدل الموزون والرحمة السابغة والتوزيع الكريم ، فإذا لم يذهب الإنسان إلى هذا طائعاً مختاراً كما فعلت أمم الشمال فى أوربا ، فسوف يذهب إليه مكرهاً بالحديد والنار فى يوم أحسبه قريباً ...

***

ملء يدى الاثنتين نصوص من القرآن تثبت أن جميع ما فى الأرض خلقه الله للانسان وخوله إياه واستخلفه عليه وجعله متاعاً وتذكرة له ، ولكننى آثرت أن أقدم حججاً من الفكر الطليق والنظر الحر والعلم العصرى حتى لا يقول قائل من المنكرين المفتونين : أساطير الأولين ...

عبد المنعم خلاف

العلم يخطو بسرعة فى خدمة الانسان

الموسيقى والغناء والحروب

للأستاذ محمود البشبيشى

لا تستطيع النفس أن تتخلص من مشاعرها وعواطفها لأنها بضعة منها ، بل إن الشعور والعاطفة هى الحياة نفسها ... وما تحسب من الأعمار أيام تمر من غير أن يشعر بها الإنسان ولا يصيبه فيها ألم أو فرح ... وإذا كانت الحياة هى الشعور بما فى الحياة كانت مصادر الشعور من أسس الحياة التى لا سبيل لإنكار وجودها ؛ ومن هذه المصادر : الجمال ، والشعور به هو عاطفة الحب والوفاء ، والوطن ، والشعور به هو عاطفة الحنين والفداء

وليس فى مقدور الإنسان وقد خلق وفى نفسه تقدير الحسن من الأشياء ، ألا يعجب به ويتأثر . . . بل إن الإنسان إذا فقد هذا الشعور فقد معه صفة الإنسانية ، وأصبح كالصخر يحتضن الزهر والشوك ولا يفرق بين رقة هذا وغلظة ذاك . . .

تمر الصور بالإنسان فيتأثر بها ، وقد يزداد هذا التأثر فيصير حباً يلازمه ، فيتعلق بها تعلق روح وقلب . فإذا فارقها تعلق بها تعلق ذكرى وحنين . وإذا طال الفراق ، وتمرد الشوق ، صاغ أشواقه نغماً ورتلها نشيداً ؛ وإن ذلك منه لهو الوفاء بعينه ، الوفاء الذى ضاق بأسلوب الحديث والكتابة . فخرج فى أسلوب منغم منظم أصدق فى التعبير عما فيه من عاطفة روحية من كل الأساليب

ومن هنا كانت الموسيقى والغناء !

كانت الموسيقى وليدة الإعجاب بالشىء ، فهى شعور وعاطفة نحو هذا الشىء . وكذلك الغناء ، كانت الموسيقى تعبير الروح الذى عجز عن عرضه اللسان بلغة الكلام ، فهى إحساس روحى نبيل لا سبيل للخلوص منه ، وكذلك الغناء

الموسيقى إذن من مادة الشعور والعاطفة والروح ، وليست من مادة الفكر والمنطق والاجتماع . . . ومن ثم لا يعقل أن نقيدها بموازين الفكر والمنطق والاجتماع . وكذلك الغناء . فمثلاً مما يقع تحت النقد الدعوة إلى تثبيط العزائم وقت الحروب . ومما يقع تحت النقد تنفير الناس من الجهاد بأساليب الخوف والتهاون

ومما يقع تحت النقد اشتغال القوم بالنظريات الفكرية والجدل والخطر يتوثب ! كل هذا قد ينتقد لأن من ورائه الضرر

ولكن ليس من المعقول أن ينتقد التعبير الموسيقى فى مختلف صوره الوجدانية وكذلك الغناء

لأن الموسيقى من الشعور ، والشعور فوق القيود ، بل هو قيد اتجاهات الحياة فينا

فقد يجوز أن تنتقد فكرة أو رغبة أو طريقة حياة وعمل ، لأن العقليات صاحبة الحكم هنا ، تتفاوت وتتباين . يجوز هذا ولا يجوز أن تنتقد وتنكر أو لا تقبل قطعة موسيقية وجدانية ، لأن المشاعر والأحاسيس تتلقاها ، إما بعاطفة الطرب للنغم ، أو بعاطفة الحنين والذكرى ؛ والمشاعر فى الحالتين محتاجة لها

ومن ثم لا يجوز لكائن من كان أن ينكر أناشيد العاطفة وموسيقى العاطفة فى زمن الحروب

لأنها صورة من صور الروح الإنسانية ، وعبير من مشاعرها ولون الحياة فيها ، ولا يمكن أن تقيد أو تفقد . . . بل من العار أن يتجرد الإنسان منها ، لأنه حينئذ يتجرد من آدميته — وإن ظن بعض الناس غير هذا — إنه لو تجرد منها فقد أصبح لا يقيم لحوادث الحياة وزناً ، وساء تقديره لمؤثرات العيش ... فلا حظ يحركه ، ولا حزن يؤرقه ، ولا فرح يطربه ، ولا شوق يقلقه . وغاية القول أنه لو تجرد من عواطفه التى تطرب للنغم الوجدانى فى كل زمان ومكان ، سقط من سجل الوجود ، لأنه حينئذ لا يتأثر بما يدور فى المجتمع وما يطرأ عليه من تقلبات الحياة

أجل ، إن من لا تتأثر عواطفه ، وتتحرك مشاعره ، ومن لا تكون فى نفسه عقيدة الحب لا يكون جديراً بالحياة ولا تنتظر منه النفعة ، ولا يكون فيه رجاء وغناء . وكيف وقد انفصل عن كل شىء ، فلا تربطه عاطفة بشىء !!

يا قوم إن موسيقى العاطفة والحب تلهب فى النفس الحنين وتؤجج الشوق . واشتداد الحنين والشوق إلى المحبوب مثلاً يكون فى الجندى خاصة ألواناً من المثل العليا منها الرغبة فى حماية هذا المحبوب لتدوم له السعادة به ، وحمايته تقتضى حماية الوطن لأنه منه ، وما الوطن إلا موطن الأهل وروض الأحبة

ومن هذه المثل الشعور بالعاطفة الروحية التى تربطه بالمحبوب .

وإن هذه العاطفة نفسها لصورة مصغرة لما يربطه بوطنه الذى يرتع فى ظلاله ويحب

وحقيق بالذى ينجذب إلى محبوب ويحس بعاطفة روحية نحوه ، ويميل إلى حمايته أن ينجذب إلى الوطن ، وتتغلغل عاطفة الوفاء له فى نفسه ، ويجد نفسه مدفوعاً إلى حمايته ، لأنه بذلك يحمى الأحبة فيه

وقد تكون الأغنية الوجدانية أشد أثراً فى إشعال حمية المحارب من أى مؤثر آخر ، لأنها تحرك فى نفسه رغباته ورغبات الأحبة ، وتهيج أشواقه وأشواقهم ، وتصور آماله وآمالهم ، فيستميت فى القتال رغبة فى النصر ، ويرد الموت حباً فى الحياة ، بل حباً فى العودة إلى الحبيب قاهراً لا مقهورا

والموسيقى فى حالة الحرب والسلم ترتفع بالإنسان عن عالم الأرض فيحتقر الأغراض والشهوات ، وتصوغه فى قالب روحى نبيل ، يجعله يرى الحياة بعين الروح التى لا تقيم لعرض الدنيا وزناً ، ولا تهتم إلا بصيانة الشرف والكرامة

ومن عظمة الموسيقى الوجدانية خاصة أنهـا تخاطب كل النفوس لا فرق بين كبير وحقير ، لأنها تخاطب الروح المشترك فيهم . ومن هنا يكون أثرها فى تهذيب الاحساس أعظم خطراً من كل المؤثرات المادية ومن الترهيب والترغيب

وليس هناك عيب فى أن جنـديًا يتغنى بأغنية حب . . . بل العيب فى أن يتجرد الجندى من معنى القلب فلا تكون له صفة غير صفة إراقة الدماء ولو فى الدفاع عن النفس . إنك حين تقول للجندى : يا لك من رجل لا يعرف غير القتال ، تجرده من كل معانى الحياة ؛ ولـكنك لو قلت له : يا لك من رجل جمع بين حاجات القلب والدفاع عن حاجات القلب ، وألف بين نزعات الروح والدفاع عنها . . . إنك لو قلت له هـذا ترفعه إلى مرتبة البطولة والروحانية

ليس فى الأمر كارثة ، ولن تكون فيه كارثة ، بل إن فى الأمر طبيعة . . . وطبيعة فطر عليها المصرى فلا سبيل لفك قيودها لأنها فيه وهو فيها

عجباً أى عجب ! ماذا يريدون من المصرى أن يغنى ؟ أنشيد القوة ؟ ولم يفسّر لنا أحدهم معنى تلك القوة . وكيف يكون الغناء قوة وهو فى طبيعته محاولة تحكم فى مخارج الصوت بالعواطف الرقيقة ، فلا يخرج لفظ إلا وقد مسحه المغنى بيد العاطفة تخرج فى ثوبها الرقيق الأنيق الندى

ليس فى الأمر كارثة ولن تكون فيه كارثة

ولغة الغناء فى مصر وعاطفة الغناء الرقيقة « المتهمة عند بعض الفضلاء » هى لغته وعاطفته فى المغرب ، والهند ، وسوريا ، وفلسطين ؛ ثم هى نفسها عند الأتراك . وغاية القول أنها مشتركة فى جميع بلاد الإسلام ... فما السر فى ذلك ؟ والبحث وراء هذا السر هو الذى يجب أن يكون مجال القول ... وكل ما عداه ضرب من الأوهام والأباطيل

السر فى ذلك هو أن الإسلام طبعها بطابع الروحانية الرقيق النبيل . وكان القرآن الكريم أعذب ما يكون ألفاظاً يترنم بها ويتغنى . ومن منا لا يسبح فى عوالم روحانية إذا مسه سحر من ترتيل « الشيخ رفعت » ؟ ومَن من هؤلاء الدعاة يدلنا على طريقة أوقع أثراً فى النفس من هذه الطريقة الرقيقة فى ترتيل القرآن ؟

أو ليس القرآن حافلاً بأبلغ معانى القوة وأبلغ معانى التوسل والدعاء وأبلغ معانى الوعيد ؟ ... ولماذا ترى الناس يتلونه فى نغم رقيق نبيل ؟ ولماذا يشتد أثره وفعله إذا تلى كذلك وهو العظيم الأثر البالغ الغاية ؟ ؟

السر فى ذلك هو الوصول إلى مخاطبة المشاعر والروح قبل مخاطبة العقل ، فيتذكر الإنسان ويتعظ ... فتلك العاطفة النبيلة الضغط على النفوس ، هى العاطفة التى سار على هديها الغناء فى الشرق كله ، وسلـكت موسيقاه سبيلها . ومن هنا كانت الأغنية الوجدانية تدخل على النفس برقتها ، فتهيج أشجاناً ، وتحرك عاطفة ، فيتذكر الإنسان المعهود ويرتبط بالوفاء ، ذلك الخلق النبيل السامى ... وحين تكون الذكرى متصلة بالوفاء ، يكون من ورائها الخير كل الخير والفداء والتضحية

... ليس فى الأمر كارثة ، ولن يكون فيه كارثة ، لأن الأغنية منتزعة من صـور الطبيعة المصرية السهلة الباسمة ... هنا النيل ينساب فى حلم كأنما يخشى أن يوقظ الشاطئ الحالم ! والسماء أصفى من ضمير الوليد ... ليس فى مصر براكين ثائرة ، وليس فى مصر جبال شاهقة وعواصف وأنواء ...

فكيف تنكرون أن يكون فى الموسيقى هذا الصفاء وتلك الرقة ؟ غيروا الطبيعة نفسها قبل أن تغيروا العواطف الصادرة عنها

من الغريب أن يعيب إنسان على جندى مصرى أنه يتغنى بأغنية حب ، وما علم أن هذا الجندى مقبل فى يوم من الأيام

على الموت ... فمن الرحمة بنفسه أن يعيش على عبير الذكرى ...

لقد أدركت بريطانيا العظمى خطر الموسيقى وخطر الغناء واللهو البرىء فى إيقاظ عواطف الجنود ، فأنشأت فى مصر أماكن خاصة (كفندق المتروبوليتان) ، تعرض فيها عليهم شتى أنواع الأغانى والموسيقى واللهو الطاهر ...

فعلتْ هذا لأن الخير فيه عظيم : فهى تعرض عليهم الأنشودة لتلهب فيهم الذكرى والحنين ... فيشتد الوفاء ، وترتبط أرواحهم بأرواح الأحبة فى الوطن ...

ومن ثم يكون الشوق إلى العودة ظافرين . وليس الأمر ببعيد ، وها هى ذى صفحات التاريخ العربى المجيد ، ترينا كيف كان العرب فى أشد المواقف حرجاً ، وفى ظلال السيوف والرماح يتغنون بذكرى الأحبة . وكفى أن نتذكر قول عنترة فى معلقته :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

« المنصورة » محمود البشبيشي

من فصول كتاب « الديارات » للشابشتى

٢ - دير مديان

للأستاذ صلاح الدين المنجد

... ونرجع إلى ذكر إسحاق بن ابراهيم ، ونورد طَرَفاً من أخباره فى حزمه وضبطه بقدر ما يليق بالكتاب

إسحق هذا هو ابن طاهر بن الحسين ، ويكنى أبا الحسين ، وكان المأمون اصطنعه وولاّه خلافة عبد الله بن طاهر بحضرته لما أخرج عبد الله إلى خراسان . وكان أشد الناس تقدّماً عنده واختصاصاً به . فذكر عبد الله بن خرداذبَة أنه حضر مجلس المأمون يوماً وقد عرض عليه أحمد بن أبى خالد رقاعاً فيها رقعة قوم متظلمين من إسحاق بن ابراهيم ؛ فلما قرأها المأمون أخذ القلم وكتبَ على ظهرها : « ما فى هؤلاء[1] الأوباش[2] إلاّ كل طاعن واش . إسحاق غرسُ يدى ، ومَنْ غرستُه أنجب ولم يخلف[1] ، لا أعدى عليه أحداً[2] . » ثم كتب إلى إسحاق رقعة فيها : « من مؤدب مشفق إلى حصيف متأدب . يا بنى ! من عز تواضع ، ومن قدر عفا ، ومن راعى أنصف[3] ، ومن راقب حذر ، وعاقبة الدالة غير محمودة ، والمؤمن كيّس فَطِن والسلام . »

وذكروا أن بعض ولد الرشيد - وكان له موضع من النسب ومكان فى المعرفة والأدب - مرض ببغداد مرضاً طال ، ولم يقدر على الركوب ، واشتهى التفرج والتنزه فى الماء ، فأراد أن يبنى زلاّلا[4] يجلس فيه فمنعه إسحاق وقال :

« هذا شىء لا نحب أن يُعمل مثله إلا بأمر أمير المؤمنين » فكتب إلى المعتصم يستأذنه فى ذلك ، فخرج الأمر إلى إسحاق بإطلاقه له . فكتب إسحاق : « ورد علىّ كتاب من أمير المؤمنين بإطلاق بناء زلاّل لم يحدّ لى طوله ولا عرضه ، فوقفت أمره إلى أن أستطلع الرأى فى ذلك ... » فكتب إليه يحمده على احتياطه ويحد له ذرع الزلاّل

* * *

قال أبو البرق الشاعر : كان إسحاق يجرى علىّ أرزاقاً . فأنشدته يوماً ؛ فسألنى عن عيالى وما أحتاج إليه لهم . ثم قال لى : يحتاج عيالك فى كل شهر من الدقيق كذا ، ومن كذا كذا ... فما زال يخبرنى بشىء من أمر منزلى كثير جهلته وعلمه هو

* * *

وذكر أبو حشيشة الطنبورى قال : كنت يوماً فى منزلى إذ طَرَق البابَ صاحبُ بريد وقال : أجِبْ . فلما قال أجِبْ علمتُ أنه أمرٌ عال . فلبست ثيابى ومضيتُ معه حتى دخلنا دار إسحاق بن ابراهيم . فعُدِل بى إلى ممر طويل فيه حُجَر متقابلة ، تفوح من جميعها روائحُ الطعام . فأُدخلتُ حجرة منها ، وقُدِّم إلىّ طعام فى نهايةِ النظافة وطيبِ الرائحةِ ، فأكلتُ . وجاؤونى

---

(١) فى الأصل : هولا وهو تحريف

(٢) الأوباش من الناس الأخلاط مثل الأوشاب وهو جمع مقلوب من البوش

(١) من الاخلاف ، يقال أخلف ما وعده ، هو أن يقول شيئاً ولا يفعله فى المستقبل

(٢) أى لا أجعل أحداً يسمو عليه

(٣) كذا فى الأصل ولعلها « رعى » ولكل وجه

(٤) الزلال : ضرب من السفن

بثلاثة أرطال فشربت، وأحضروني صندوقاً فيه طنابير، فاخترت طنبوراً منها وأصلحتُه على الطريقة، وأُخرجتُ من الموضع إلى حجرة لم أر أحسن منها، وإذا في مجلسها رجلان على أحدهما قباء ملحم وقلنسوة سمّورية[1]، وعلى الآخر ثيابُ خزّ وستارةٌ مضروبة. فسلّمتُ وأُمرتُ بالجلوس، فجلستُ. فقال لي صاحب السمّورية: غنّ، فتغنيتُ:

ما أراني إلا سأهجرُ مَنْ لَيـ ... ـسَ يراني أقوى على الهجران
ملّني واثقاً بحُسْنِ وفائي ... ما أضر الوفا على الإنسان[2]

فغنيته فشرب رطلاً، ونقر الستارة وقال: غنّوه. فغنى الصوتَ أحسن غناء في الدنيا، وخِلتُ أن البيت يرقص! . فقال لي: كيف ترى؟ قلت: والله يا مولاي بغّضوا إليّ هذا الصوت وسمّجوه في عيني. فضحك واستعادنيه ثلاث دفعات، فشرب في كل دفعة منها رطلاً. ثم قال: أتعرفني؟ قلت: لا، قال: أنا إسحاق بن ابراهيم، وهذا محمد بن راشد الخناق[3] ووالله لئن ظهر حديث هذا المجلس منك لأضربنك ثلاث مئة سوط. قم، إذا شئت. فقمت من بين يديه، فلحقني الغلام بصرة فيها ثلاث مئة دينار فاجتهدت أن يأخذ منها شيئاً، فأبى.

وذكر عمرو بن بانة قال: وجه إلى إسحاق بن ابراهيم في آخر النهار... فصرت إلى داره، وأدخلت عليه وهو جالس في طارمة[4] ملبسة بالخز على دجلة، وقد انبسط القمر على الروشن[5] وعلى دجلة، وهو من أحسن منظر رأيت قط، والمغنون جميعاً بين يديه. و (بذل) جالسة وراء مقطع في الطارمة. فلم يزل جالساً بموضعه ونحن بين يديه إلى أن نودي بالفجر، فقام وقمنا. وقال لنا الغلمان: انصرفوا، فنزلنا إلى الشط ودعونا بسميرية[6] فجلسنا فيها جميعاً، وقلت لهم: إن منزلي أقرب من منازلكم فاجعلوا مقامكم اليوم عندي ففعلوا و...[1] في المنزل؛ فطلبت فيه شيئاً يؤكل فلم أجد: فأمرت بإحضار المائدة، فأحضرت فارغة، وطرحت في وسطها مئة درهم صحاحاً وقلت: يوجه كل واحد فيشتري له ما يريد. فما كان بأسرع من أن امتلأت بكل شيء... فأكلنا وشربنا، ومرّ لنا يوم طيّب، وتفرقنا في آخر النهار، وفي قلوبنا غصص مما فعله بنا إسحاق، وما فاتنا من تلك الليلة الحسنة في ذلك الموضع الحسن. فمضيت بعد ذلك إلى «بذل» وسألتها عن السبب فيما فعله. فقالت: قد سألته عن ذلك فقال: ويحكِ أنا أشتهي الشرب في مثل هذه الليلة منذ سنة وأواقع[2] نفسي به. فلما حصل لي جميع ما أريده واشتهيته أردت أن أرى نفسي سلطاني عليها، وقهري لها ومنعها مما تحبه لئلا[3] تقودني إلى ما تريد ففعلتُ ما رأيتِ

وكان مع ذلك حسن المروءة كريم النفس فذكر أبو حشيشة الطنبوريّ قال: دعاني في بعض الأيام فصرت إليه وجلست أغنيه، وعليه درّاعة خز خضراء لم أر أحسن منها قط. فجعلت أنظر إليها، وفطن لنظري[4] فدعا بالخازن وقال: كانوا جاؤونا منذ أيام بعشرة أثواب خز خضر، هذا أحدها، فجئني ببقيتها. فأحضر تسعة أثواب يتجاوز حسنها كل وصف فأعطانيها، فبعت من رذالها الثوب بمئة دينار

* * *

وكان المأمون يصير إليه في داره، فيقيم عنده الأيام هو وغلمانه وحشمه أنساً به وثقة بمكانه[5]

(دمشق) صلاح الدين المنجد

(1) لعلها نسبة إلى السمور: دابة يتخذ من جلدها فراء
(2) الشعر للعباس بن الأحنف. وقد ورد كذا في الديوان (طبعة الجوائب بالآستانة). وفي الأغاني: ج ٧: ٢٩٩ (دار الكتب):
قد حدا بي إلى الجفاء وفائي ... ما أضرّ الوفاء بالانسان
(3) نديم ومغن
(4) بيت من خشب يبنى كالقبة (القاموس والأساس)
(5) الروشن: مكان عال مشرف وكأنه «الشرفة»
(6) السميرية: ضرب من السفن (الساد) وفي (تكملة إصلاح = ما تغلط فيه العامة) للجواليقي ما يلي: «وهي السميرية لضرب من السفن بالياء، وهي منسوبة إلى رجل يقال له سمير أظنه كان بالبصرة وهو أول من عملها فنسبت إليه، ولا تقل سمارية فإنه خطأ». (التكملة للجواليقي مطبوعات المجمع العلمي العربي وتحقيق التنوخي ص ١٩١)

(1) كلمة مبهمة: ولعلها في معنى: اقتنا
(2) في الأصل أدافع وهو تحريف. وفي القاموس أواقعه: أحاربه وهو المقصود هنا
(3) في الأصل: ليلا وهو تحريف
(4) في الأصل: فطن بنظري، والأولى فطن لنظري يقال فطن للأمر (الأساس — والقاموس)
(5) روى الشابشتي طرائف كثيرة من إسحاق انتخبنا منها ألطفها وأبينها

الانتاج الأزهرى

للأستاذ عبد العزيز محمد عيسى

« إن الأزهر إذا أصلح كان بثقافته أهدى إلى تربيتنا من أية جامعة . » (الزيات)

[افتتاحية الرسالة فى عامها التاسع]

عادت الرسالة الغراء إلى العناية بالشئون الأزهرية على دأبها ، بعد ما عادت الحياة إلى الأزهر أثر إجازته الطويلة ، وبعد ما اطمأن الأساتذة والطلاب إلى موضوعاتهم وساروا فيها شوطاً ليس باليسير . وعدت أساهم مع الكاتبين ، وألقى بدلوى فى الدلاء ، ولسنا نبتغى من وراء ذلك - علم الله - إلا الخير لهذا المعهد المبارك الذى نرجو أن ينال من الإصلاح ما يتمناه المحبون المخلصون .

وفى النفس حاجات ، وللقلب خفقات ، إذا ما ذكر إصلاح الأزهر وجرى على الألسن . ولكننا نقف فى كلمتنا اليوم عند الحديث عن الإنتاج الأزهرى لتردده على أقلام الكاتبين

فقد نغمط الأزهر حقه إذا وقفنا بالإنتاج عند ما كان من جماعة كبار العلماء وجعلنا ذلك الأساس الذى يبنى عليه التقدير والاعتراف بشخصية الأزهر العلمية . ونحن لا نؤمن بأن إنتاجهم يمثل هذه الشخصية ، وإنما يمثل شخصياتهم أنفسهم ومدرسة تلقوا عنها وعقيدة فى التحصيل والتأليف درجوا وما زالوا عليها

وسواء لدينا أنشر إنتاجهم أم لم ينشر فرسائل كثير منهم على ما نعتقد صورة أريد بها تبرير الرسميات ، وأغلب الظن أنها لا تعدو فى الجودة رسائل المتخصصين إن لم تكن الأخيرة أفضل من بعضها . فمن الغبن الكبير إذن أن نجعل إنتاج هذه الجماعة دليلاً على شخصية الأزهر العلمية

وفى الأزهر غير هذه الجماعة طائفة مهما قل عددها لها استقلال فى البحث والتفكير، ولها حرية فى الرأى والنقد وأبحاث قوية نشرت وتداولتها الأيدى ، وهذه الطائفة من غير شك - لاعتراف الجميع بها - تمثل الأزهر الناهض من الناحية الفكرية ، وهى بحق أولى أن تدل على شخصية الأزهر العلمية

قد يكون من الإحراج أن نقصر الإنتاج على إبداء رأى خاص فى مشكلة من مشاكل العلم . ولو أننا فعلنا ذلك لكان كل ما نسميه الآن إنتاجاً للأزهر وما عدا الأزهر غير إنتاج ؛ أو لكانت كثرته الغالبة على هذا الوصف . ولم لا نعد الإنتاج المدرسى إنتاجاً متى كان قائماً على الشخصية والتصويب أو التخطئة لما للعقل فيه مجال ، والمناقشة للموروث والتعقيب عليه ؟ أليس ذلك هو الاستقلال فى التفكير والإعلان للرأى الخاص بعد الدرس والبحث ، وإذن ففى الأزهر إنتاج قل أو كثر

هناك فرق بين الإنتاج والقدرة عليه وإن كان أحدهما لازماً لصاحبه وأثراً من آثاره . ومما لا شك فيه أن هذه القدرة على الانتاج موفورة لدى الكثير من رجال الأزهر وإن لم يظهر الانتاج الفعلى إلا من قليل منهم

وإذا أنتَ سألت عن السبب فى إحجام الكثير عن الانتاج فلا يستطيع منصف أن يجيبك إلا بأن فقدان التشجيع والاغراء من ناحية القائمين بالأمر فى الأزهر هو السبب الوحيد لذلك . فهم قد رأوا إخواناً لهم حاولوا أن ينتجوا بل أظهروا صوراً من إنتاجهم كان معترفاً بها ؛ ولكن أحداً من الرجال الرسميين لم يقل لهم إنكم أحسنتم ، ولم يشجعهم بكلمة تجعلهم يدأبون على مثل هذا العمل أو تجعل غيرهم يسير فى طريقهم . نخير لهم إذن ألا يسيروا فى طريق لا يحمد السائرون فيها

إن الأزهر يطالب من علمائه أن يكونوا منتجين ، وأن يعرضوا علمهم لناشئة الجيل الجديد فى صور تلائم جيلهم ، ولكنه لا يأخذ بأسباب ذلك . فهو مثلاً لا يأخذ بسنة وزارة المعارف فيعلن عن حاجته إلى الكتب اللازمة لتحقيق مناهجه ، ويشترط فيها ما يشترط من نظم وتوجيهات ، ويجعل ذلك كل عام أو عامين أو أكثر ليكون له من ورائه ثروة طائلة من الإنتاج سواء فيما يقرره من ذلك أو فيما ينشره أصحابه على الناس ليوازنوا بينه وبين ما اختير

إنه لو فعل ذلك لزرع فى نفوس علمائه الاستقلال فى الفكر والجهر بالرأى والصراحة فى الحق - وهى أهم مقومات الإنتاج الصحيح - ولقضى على فكرة اعتقاد عجز العلماء عن مسايرة الحياة الجديدة وعن الخروج عما درسوه من كتب وعبارات

أليس من العيب أن يظل الأزهر إلى الآن يقرأ فى سنتيه الأولى والثانية الثانويتين كتباً فى البلاغة لمعاصرين من غير

الأزهريين وفيه مائة من المتخصصين فى البلاغة كل واحد منهم قادر على أن يخرج كتاباً مثلها إن لم يكن أفضل منها !

لا تقل أيها القارئ بعد ذلك مالهم لا يؤلفون ، فإن عدم التشجيع كما قدمنا وعدم الإغراء بتقرير الكتاب أو بشراء حق التأليف أو ما إلى ذلك هو الذى صرفهم فكان سبباً مهماً فى قلة الإنتاج ؛ ولو أن هذا الباب فتح لجاءت كتب كثيرة ولنشرت أبحاث ينبغى أن تحسب فى إنتاج الأزهريين كما حسب مثلها لغيرهم

أو ليس من العيب كذلك أن يقرر الأزهر فى أقسامه الثانوية كلها كتاب فى تاريخ أدب اللغة لفظته وزارة المعارف منذ زمن طويل ؛ وفيه كذلك مائة أو يزيدون من المتخصصين فى أدب اللغة ! وليس ذلك لعجزهم عن إخراج أفضل منه ، فقد برهنوا على انتفاء ذلك عنهم ، ولكن لاعتبارات أخرى على نحو الاعتبارات التى أشار إليها صديقى الأستاذ المدنى فى مقاله « السياسة التوجيهية فى الأزهر » عدد الرسالة ٣٩٣

ففيم كان يضيع هؤلاء وأمثالهم سنى تخصصهم إذا لم يستطع أحدهم أن يؤلف كتاباً يرضى به منهج الدراسة ويعلن به رأيه فى هذه الموضوعات الأدبية مثلاً التى لا ينبغى أن يمتقد الإنسان فيها رأى غيره ، ولا أن يلقن الطلاب فيها عبارات كتاب بعينه ذلك عيب واضح يشكو منه الأساتذة والطلاب جميعاً .

ونحن إذ ندل عليه نرجو أن يلتفت إليه القائمون بالأمر فى الأزهر فيعملوا على تلافيه وإبعاده حتى لا يظل الأزهر كلاً على غيره فيما تخصص فيه أبناؤه وعطلوا أنفسهم سنوات للعناية به ومعرفة مناهج بحثه

ونستطيع أن نقول مثل ذلك فى كثير من مواد الدراسة ، فإنها تقرأ فى كتب لا صلة لها بالعقلية الحاضرة ولا بالأسلوب المألوف . ومن الخير كل الخير أن يعدل عنها إلى ما يوافق ذلك وأن يوسع المجال للمستطيعين وتعطى الفرصة لهم . ولست أقصد بذلك — طبعاً — إلى عيب هذه المواد والتنقيص من قيمة كتبها . ولكنى أعتقد أنها جعلت لزمان مضى ، فمن الجائز أن يصلح بعضها لزماننا ، وأن يتعارض بعضها الآخر معه فلنبق على ما يصلح ولندع ما عداه . فإننا إن لم نفعل ذلك صدق علينا أننا نعيش فى عصر غير العصر الذى يعيش فيه الناس

على أنه مما يعوق الانتاج الأزهرى ويقف فى سبيله أن الدراسة فى الأزهر ما تزال تلتزم « طريقة الكتاب » . فأنا كمدرس حريص على أن أهضم عباراته وأساليبه : السائغ منها والملتوى ، وأفهم ذلك الطلاب كلمة كلمة وحرفاً حرفاً ما له ضرورة وما ليس له ضرورة ، لأنه فى الكتاب المقرر ، والطالب أمامى يهتم بذلك ويوليه عنايته ، لأنه يرى شبح الامتحان مخيفاً ، ويرى أنه لا ينجيه منه إلا أن يفهم كلمات الكتاب ، وكلما تمثل له هذا الشبح فى أثناء (الحصة) حقق ودقق وأخذ وأعطى وفكر وقدر

وعلى فرض أنه لا بد من ذلك فى بعض المواد ، فإننا لا نعدل فى بعضها الآخر إلى « طريقة الموضوع » ، لتمكن للمدرس من الجمع والتحصيل والإبقاء والإلغاء ، فيظهر بذلك شخصيته ويظهر إنتاجه واستقلال فكره . ألا إننا لو فعلنا ذلك لكنا محسنين إلى الأزهر ، إلى علمائه وطلابه ، وإلى العصر الذى نعيش فيه

إن الدراسة على هذا النحو فرصة من الفرص الجيدة التى تمهد السبيل لظهور الانتاج الأزهرى والانتفاع به ، فإذا لم تتح هذه الفرصة لعلمائه ، فعلى من يقع إثم التعويق عنها ؟

لا ينبغى أن نسرف فى التشاؤم ولا أن نقول : إن مدرس الموضوع لم يخلق ، ففى الأزهر كثير عندهم هذا الاستعداد ، فليكن عملهم بدء الغيث . فإن أصابوا فذلك ما نرجوه ، وإلا كانوا النواة الحسنة لمن يجيء بعدهم من إخوانهم وأبنائهم . وإذا نحن انتظرنا بالدراسة الموضوعية إلى أن يخلق مدرس الموضوع ولم نعمل على خلقه وتكوينه ، تقطعت بنا السبل وخلفتنا القافلة ولم نصل إلى ما نريد

إن أنسب الأوقات لإعلان هذه الآراء والمناداة بها هو ذلك الوقت الذى يدير الشئون فيه شيخ هو خير شيوخ الأزهر فيمن رأينا

ونحن إذ نجهر بذلك وننادى به فإنما نعبر عن رأى الكثيرين من العلماء ، وبخاصة ذووا الصراحة منهم ، ونحتذى فى الوقت نفسه خطة المصلح الأكبر الإمام المراغى التى رسمها فى أول خطاب له فى الجامع الأزهر حين عاد شيخاً له للمرة الثانية

فهل يجد هذا النداء المتواضع من سميع ؟

عبد العزيز محمد عيسى
مدرس بمعهد القاهرة

فتنـــة الزَّنج (*)

ورثاء البصرة فى شعر ابن الرومى

للأســـتاذ محمود الشرقاوى

فى هذا الوقت الذى نسمع فيه ونقرأ أنباء ذلك الخراب الذى يصيب المدائن العظيمة من هذه الحرب بين انجلترا وألمانيا ؛ وذلك العذاب الذى يصبّ على الآمنين من أهلها ، ينزل عليهم من السماء ، ذكرت قصيدة من عيون الشعر ومجانبه قالها « ابن الرومى » فى حال تشبه هذه الحال ، هى قصيدته فى رثاء البصرة . وقبل أن أقدم لقراء « الرسالة » هذه القصيدة العجيبة أذكر خلاصة سريعة من التاريخ عن « فتنة الزنج » الذين جرى على أيديهم خراب البصرة فى القرن الثالث الهجرى :

صاحب الزنج

فى شهر شـوال من سنة خمس وخمسين ومائتين ، خرج فى فرات البصرة رجل وزعم أنه على بن محمد بن حمد بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ؛ وجمع الزنج الذين كانوا يسكنون السباخ وعبر دجلة فنزل الديناري ، وكان قد شخص من سامرّا سنة تسع وأربعين ومائتين إلى البحرين ، فادعى بها أنه على بن عبد الله بن محمد بن الفضل بن الحسن بن عبيد الله ابن العباس بن على بن أبى طالب ، ودعا الناس بهجر إلى طاعته ، فاتبعه جماعة كثيرة من أهلها ومن غيرهم . وكان أهل البحرين قد أحلّوه بمحل نبى ، وجبى الخراج ونفذ فيهم حكمه ، وقاتلوا أصحاب السلطان بسببه

ذلك هو مبدأ ظهور صاحب الزنج كما رواه ابن الأثير فى تاريخه الكامل ، ومنه نعرف أنه رجل دعىّ أفاق ، كان اسمه الحقيقى على بن محمد بن عبد الرحيم ونسبه فى عبد القيس ، وأمه من قرى الرى ، وأن أمه لأبيه كانت جارية سندية ، وكان متصلاً بجماعة من حاشية المنتصر ، كان معاشه منهم يمدحهم ويستميحهم بشعره منهم ومن غيرهم

وقد جعل هذا الرجل العجيب لنفسه خطة بارعة للوصول إلى غرضه والحصول على ما يبتغيه من الحكم والسلطان . فجعل لنفسه زوراً هذا النسب الشريف يصل به إلى الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه . مرة على أنه ابن محمد بن أحمد بن عيسى إلخ . . . ومرة على أنه ابن عبد الله بن محمد بن الفضل . وهو فى كليهما واصل نسبه إلى على بن أبى طالب . ثم استولى على جماعة من ضعاف العقول فى أهل البحرين ، فجعل نفسه بينهم نبياً يزعم لنفسه الآيات حتى قال : « إنى فكرت فى الموضع الذى أقصده حيث نبت بى البلاد فأظلتنى غمامة وخوطبت منها فقيل لى: إقصد البصرة »

ومن الدهاء العجيب الذى تحايل به صاحب الزنج أنه بدأ دعوته بين العبيد والدهماء والأراذل من الشعب فزعم أنه ناصرهم وخارج بهم من الذل والفقر والعبودية

ذكر ريحان — أحد أصحابه الأول — قال : « كنت موكلا بغلمان مولاى أنقل لهم الدقيق ، فأخذنى أصحابه فساروا بى إليه وأمرونى أن أسلم عليه بالأمرة ففعلت . فسألنى عن الموضع الذى جئت منه فأخبرته . وسألنى عن أخبار البصرة فقلت : لا علم لى . وسألنى عن غلمان السودجيين وعن أحوالهم وما يجرى لهم فأعلمته . فدعانى إلى ما هو عليه فأجبته فقال : إحتل فيمن قدرت عليه من الغلمان وأقبل بهم إلى . ووعدنى أن يقوّدنى على من آتيه به واستحلفنى ألا أعلم أحداً بموضعه وأن أرجع إليه ؛ وخلى سبيلى »

« وما زال يدعو غلمان أهل البصرة ويقبلون إليه للخلاص من الرق والتعب ، فاجتمع عنده منهم خلق كثير فخطبهم ووعدهم أن يقوّدهم ويملّكهم الأموال . وحلف لهم بالأيمان ألا يغدر بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئاً من الاحسان إلا أتى به إليهم »

وكان من الطبيعى وقد دخل هذا الأفاق على العبيد من هذا الباب وأطمعهم أن يكونوا أحراراً ، بل وعدهم أن يملكهم الأموال وهم أنفسهم مملوكون لمواليهم ، كان من الطبيعى أن يجد من نفوسهم قبولاً لدعوته وحماسة فى الدفاع عنها

فهذا الرجل الماكر أقام دعوته على ثلاثة عمد رواسخ : أولها هذا النسب الشريف الذى ادعاه لنفسه متصلاً بالحسين بن على . وثانيها دخوله على المستضعفين الأذلاء من العبيد حتى قال الطبرى إنه جمع لدعوته الزنج الذين كانوا « يكسحون السباخ » وكذلك فى النجوم الزاهرة . وهؤلاء يدفعهم ما هم فيه من البؤس والتعس والشقوة إلى المناصرة والاندفاع . وكيف بهم يقودهم رجل شريف من نسل الامام على يمنيهم ويعدهم ويجعل نفسه

(*) الزنج بفتح الزاى (وتكسر) جيل من السودان وهم الزنوج « القاموس والمصباح »

موكلا بخلاصهم من الرق والذل والفقر والهوان . ويصل نفسه بهم حتى يكون وهو الرجل الشريف « صاحب الزنج »

وثالث هذه العمد ادعاؤه النبوة أو ما هو قريب منها . وقد آمن بدعوته قوم من هؤلاء العبيد . وبذلك أثار فى نفوسهم أشد ما فيها من العواطف قوة وجوحاً من العواطف : الإيمان والنفع الذاتى بعد الوصول إلى الحرية ، وهى أعز ما تشتهيه النفس الإنسانية .

ظهور الفتنة

لا أريد بعد ذلك أن أتابع الخطوات التى مشت بها فتنة الزنج فى العراق ؛ ولكنى أبرز من ذلك أمرين يستطيع القارئ أن يعرف بهما إلى أى حد استطاع صاحب الزنج أن يكوّن مع عبيده السود قوة قاهرة تخيف الولاة وتحارب جند الخليفة ، وتدخل الرعب فى قلوب الناس

أذكر أن صاحب الزنج استطاع فى سنتين اثنتين أن يأخذ من جند الخليفة بلاد الأبلة وعبادان والأهواز والبصرة ، واستطاع فى هاتين السنتين (وهما سنتا ست وخمسين ومائتين وسبع وخمسين) أن يحارب من الولاة ومن القواد سعيدا الحاجب وابن المدبر ، ومسيرا المولد وموسى بن بغا وعدة غيرهم ، واستطاع أن يهزم كثيرين منهم وأن يأخذ منهم ما أخذ من البلاد

وأذكر هذه القصة التى رواها ابن الأثير تدل على ذلك الفزع والرعب الذى ملأ به صاحب الزنج قلوب الناس ، وذلك الحقد والجبروت الذى ملأ به قلوب زنوجه العبيد على أسيادهم ومواليهم

يقول ابن الأثير إن موالى هؤلاء العبيد وقد رأوا سلطان صاحب الزنج على عبيدهم وخافوا بطشه أتوا إليه « وبذلوا له على كل عبد خمسة دنانير ليسلم إلى كل منهم عبده . فبطح أصحابهم وأمر كل من عنده من العبيد فضربوا مواليهم . . . أو وكيلهم كل سيد خمسمائة صوت . ثم أطلقهم »

فتأمل ذلك الرجل الذى يبطح السيِّد المالك ليضربه عبده ومملوكه خمسمائة صوت . ولا يبيع هذا العبد بخمسة دنانير لسيده وصاحب رقبته ، وهو لا يملكه ... !

خراب البصرة

وبقى هكذا حال صاحب الزنج وزنوجه يستفحل أمرهم ، ويستشرى داؤهم ، حتى كان شهر شوال من سنة سبع وخمسين ومائتين ، فاجتمع الأعراب من البحرين بإمرة محمد بن يزيد الدارمى ، وتجمع عليهم كثيرون من مثلهم أتباع صاحب الزنج ، وأحاطوا البصرة من أطرافها فدخلوها وقت صلاة الجمعة لثلاث عشرة بقيت من شوال . وأباح صاحب الزنج لزنوجه البصرة يوم الجمعة وليلة السبت ويوم السبت يفعلون بها وبأهلها ما يشاؤون ... ! حتى حرق المسجد وأحرقت البصرة فى عدة مواضع ، واتسع الحريق من الجبل إلى الجبل

وقدّمت الخدعة إلى أهل البصرة بأن من دخل دار فلان فهو آمن ؛ فجاء أهل البصرة قاطبة إلى دار الأمان ثم غُدر بهم وقتلوا ، فكان السيف يعمل فيهم وأصواتهم مرتفعة بالشهادة ، فقتل ذلك الجمع كله ولم يسلم إلا النادر منهم . وعظم الخطب بالقتل والتحريق والنهب ؛ فمن كان من أهل اليسار أخذوا ماله وقتلوه ، ومن كان فقيراً قتلوه لوقته . وبقوا كذلك عدة أيام (١)

ابن الرومى

هذه الصورة الدموية البشعة التى تلخصها تلك السطور السابقة عن خراب البصرة على يد الزنج قد أوحت لعلى بن العباس ابن جريج (ابن الرومى) قصيدة عجيبة هى من غرائب الشعر العربى وضوح بيان وقوة تصوير وإعجاب خيال وصدق عاطفة . وهى من بدائع الشعر العربى كله . هذه القصيدة هى التى نقدمها لقراء الرسالة

(البقية فى العدد القادم) محمود الشرقاوى

---

(١) اعتمدت فى كتابة هذا الفصل على رواية الكامل فى التاريخ ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى

من أدب الحرب

نهاية زعيم ...

[مرفوعة إلى المغفور له خالد الذكر السنيور موسوليني !]

للأستاذ أحمد فتحي مرسي

خفِّضْ عليكَ مِنَ العذابِ الصبرُ أجملُ في المُصابِ
وَلَّى صوابُكَ لا أصبـ ـتَ ولا رجعتَ إلى الصوابِ
لكَ إنْ تشأ في الخطبِ تَعْـ ـزِيتي وإنْ شئتَ انتحابي
هوِّنْ عليكَ فهذهِ الدُّ نيا كلمّاحِ السَّرابِ
فيها القريبُ إلى ابتعا دٍ، والبعيدُ إلى اقترابِ
لا تجزعنَّ من الصعا بِ فأنتَ غلَّابُ الصعابِ
كم ذا خدعتَ الناسَ بالـ ـتمويهِ والكَلِمِ العِذابِ
فَلَكَ الجواري المُنشآ تُ ملأنَ آفاقَ العُبابِ
ولكَ الأسودُ الضاريا تُ بغيرِ أظفارٍ ونابِ
ولكَ التحيّةُ والتَّجِلَّـ ـةُ في مجيئكَ والذَّهابِ
ولكَ اللسانُ الطَّلْـ ـقُ فيَّاضُ البلاغةِ والخطابِ
يأتيكَ من تضليلِهِ الغرَّا رِ بالعجبِ العُجابِ
ولكَ الضميرُ العفُّ يُلْبَـ ـسُ ثمَّ يُخلَعُ كالثيابِ
يتخلّصُ الوعدُ الكِذا بُ بهِ إلى وعدٍ كِذابِ
ولكَ القليلُ من الفطا نةِ والكثيرُ من الرِّغابِ
ولديكَ من خُدَعِ السيا سةِ ما يزيدُ على الجرابِ
كذّبتكَ أحلامُ الكرى وزهتكَ أوهامُ الشرابِ
أسدُ اللسانِ ولستَ في ساحِ الوغى أسدَ الوِثابِ
ضلَّ الذي ركبَ الضلا لَ إلى الرغائبِ والطِّلابِ

إنّي أناشدُكَ الدمَ الـ ـمُهراقَ في شُعَبِ الهضابِ
والرفقَ بالأرواحِ تَذْ هبُ في العِراكِ والاحترابِ
وفلولَ جندِكَ هائما تٍ في السهولِ وفي الروابي
وكتائبَ الأسرى تَوَا لَى في شُحوبٍ واكتئابِ
هلَّا قنعتَ من «الغنيـ ـمةِ» والهزيمةِ بالإيابِ

يا أوحدَ القوّادِ قُلْ لي ما لجيشِكَ في اضطرابِ
أعلمتَ غيرَكَ عبقريُّ (م) الجهلِ، مشئومُ الركابِ
فيمَ الترفُّقُ والتلطُّـ ـفُ بالمغيرينَ الغضابِ
أأقولُ مُحتشِمٌ — هداكَ اللـ ـهُ — بلْ خوفُ الغِلابِ
أينَ الرجالُ، وأينَ أبـ ـطالُ «الصراعِ» والانسحابِ
قد سُقتَهم بل سُقتَهنَّ (م) إلى المماتِ بلا حسابِ
ألطفْ بهنَّ فما يُطِقْـ ـنَ — فديتهنَّ — أذى الضرابِ
رفقاً، فما صبرٌ لهنَّ (م) على البعادِ والاغترابِ
من كلِّ ممشوقِ القوا مِ حشدتَهُ غضَّ الإهابِ
ما تفعلُ الصحراءُ بالأ غنامِ في الأرضِ اليَبابِ
قد أجدبَ المرعى وجفَّ (م) لديهِ منهلُ السحابِ
ليستْ مُوطَّأةَ الفِرا شِ، ولا مُمهَّدةَ الجنابِ
يخلُصنَ من صُلبِ القَنا ةِ إلى الألوفِ من الصِّلابِ
لمّا بدا يومُ الهزيـ ـمةِ في دُنوٍّ واقترابِ
زِنَّ الخدودَ لها وخضّبـ ـنَ الأظافرَ بالخضابِ
ورمينَ مُشرَعةَ القنا ونبذنَ مُرهفةَ الحِرابِ
وأخذنَ أهبتهنَّ للأسـ ـرِ المباركِ والذهابِ
وجعلنَ يَعْدُدْنَ الدقا ئقَ في اشتياقٍ وارتقابِ
إنْ تحملِ السيفَ النسا ءُ، فألفُ بشرى للرقابِ

أقسمتُ باللهِ العليِّ وبالرسولِ وبالكتابِ
والليلِ والإصباحِ والـ ـجيشِ المُشرَّدِ في الشِّعابِ
لولا التعففُ والترفُّـ ـقُ والجنوحُ عن السِّبابِ
لجلوتُ منكَ، وقد جلو تُكَ للعيونِ بلا نقابِ
أضحوكةَ الدنيا وسُخـ ـريةَ المجالسِ والصِّحابِ



خزائن الكتب في قصور الأندلسيين

حديث حضرة العلامة الأستاذ عباس محمود العقاد عن مكتبات القصور الأوربية في المقالة الأولى في الرسالة الغراء (٣٩٥) — ذكرنا بشيء في (نفح الطيب) أرويه حاشية لحديث حضرة الأستاذ . وفي خبر النفح فائدة تاريخية وأملوحة :

قرطبة أكثر بلاد الأندلس كتباً ، وأهلها أشد الناس اعتناء بخزائن الكتب . صار ذلك عندهم من آلات التعين والرياسة حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب ، وينتخب فيها ، ليس إلا لأن يقال : فلان عنده خزانة كتب ، والكتاب الفلاني ليس عند أحد غيره ، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به

قال الحضرمي : أقمت مرة بقرطبة ، ولازمت سوق كتبها مدة ، أترقب فيه وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء ، إلى أن وقع ، وهو بخط مليح ، ففرحت به أشد الفرح ، فجعلت أزيد في ثمنه ، فيرجع إليّ المنادي بالزيادة عليّ ، إلى أن بلغ فوق حده ، فقلت له : يا هذا ، أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى ما لا يساوي . فأراني شخصاً عليه لباس رياسة ، فدنوت منه وقلت : أعز الله سيدنا الفقيه ! إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده

فقال لي : لست بفقيه ، ولا أدري ما فيه ، ولكني أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد ، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب ، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ، ولم أبال بما أزيد فيه ، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير

قال الحضرمي : فأحرجني وحملني على أن قلت له : نعم لا يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك . يُعطى الجوز من لا أسنان له ! وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلاً ، وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه !

« باحث »

المجمع اللغوي والمعجم الوسيط

أخي الأستاذ الجليل صاحب « الرسالة » الغراء

بعد التحية اللائقة ، قرأت كلمة تحت عنوان : « المجمع اللغوي والمعجم الوسيط » عرض فيها كاتبها لنفقات هذا المعجم وظل يترقى بهذه النفقات حتى أبلغها ١٠٠٠٠٠ جنيه مائة ألف من الجنيهات !!!

والواقع أن وزارة المعارف تعاقدت مع سبعة من العلماء اللغويين بعضهم من حضرات أعضاء المجمع ، وبعضهم من حضرات أساتذة الجامعة ، على أن يقوموا في مدى عامين بوضع هذا المعجم على أحدث الأساليب في نظير مبلغ معين يقل عن ألف وسبعمائة جنيه لهم جميعاً . وقد قام تقدير هذا المبلغ على أساس ما تجيز به وزارة المعارف المؤلفين الآخرين

أما دعوى أنهم لم ينجزوا إلا مائة وعشرين صفحة إلى الآن فهي من نوع ذلك الحساب أيضاً !

وتفضل يا صديقي بقبول أزكى السلام ، وأخلص الاحترام .

المخلص
عبد العزيز البشري
المراقب الاداري للمجمع

عطفاً على بـــلدٍ ضعيـــفِ الرُّكنِ مخذولِ الشبابِ

قد عادَ مهجـــورَ الرِّحا … بِ وكان محشودَ الرِّحابِ

عَمِّي بصائرَهُ الضــلا … لُ عن الحقيقةِ وَالصَّوابِ

وَالعينُ تبصرُ في الضيا … ءِ وَليسَ تبصرُ في الضبابِ

قد سُقتَهُ — نَبْتَ الجنا … نِ — إلى المزيمةِ وَالخرابِ

وَرَكنْتَ للآمالِ ، وَالآ … مالُ أمنعُ من عُقابِ

كُفَّ الخداعَ عن الورى … قد جاءهُمْ فصلُ الخطابِ

إنَّ المحجَّبَ سوفَ يَبْـــدُو للعيونِ بلا حِجَابِ

دَعْهُمْ وَشَأْنَهُمْ جَـــزَا … كَ اللهُ مَوْفُورَ الثَّوابِ

لاَ يَوْمَ لِلأقْوامِ حَتَّى … تَذْهَبَنَّ بِلاَ إِيَابِ

(القاهرة) « فتى »

خصومة أدبية

ما أحبها إلى نفسى خصومة أدبية تقوم على صفحات الرسالة الغراء بينى وبين صديقى الدكتور زكى مبارك ، فإن فى الخصومات الأدبية للمتخاصمين مجالاً واسعاً للبحث والتدقيق ، ولحضرات القارئين مجالاً أوسع للموازنة والتحكيم

وإنى لأشكر لصديقى الدكتور إثارة هذه الخصومة ، وأطمئنه على نزولى ميدانها عن طيبة خاطر واستراحة فؤاد ؛ غير أنى قبل الخوض فى هذه الخصومة أرى من حق نفسى وحق الموضوع علىّ ، كما أرى من حق الرسالة وقرائها كذلك ، أن تتسع صفحاتها فى العددين المقبلين لكلمتين اثنتين لى

فأما إحداهما فلوضع الأمر الأصيل فى نصابه وتقريره على وجهه ، لأنه الذى دعا الدكتور إلى كلمته الأولى المنشورة فى العدد ٣٩٢ وكنت أغفلت الرد عليها عسى أن يتحرى الحقيقة ولكنه لم يفعل .

وأما الأخرى فحول النظرية التى ادعى فى العدد الأخير أنى نهبتها من كتابه النثر الفنى ونشرتها فى مجلة السراج حتى يعلم حضرات القراء أينا الناهب

وأما الذى يهدد به ويعتزم تبيينه ، من أن تهذيبى للكامل لم يكن إلا جناية أدبية ، ومن أن التطاول على مقام الشيخ المرصفى لا يذهب بلا عقاب ، فهو ما سيكون حلبة الخصومة ، وليعرف الملأ إذ ذاك — إن هو اجترأ على الكتابة بعد كلمتى هاتين — أينا الجانى على الأدب بآثاره ، وأينا القليل الاطلاع الطائش الأحكام فى أبحاثه ، وإلى اللقاء

السباعى بيومى

أستاذ بدار العلوم

إلى الدكتور مبارك

كان قلمكم الثائر قد خط فى مقالكم الخامس فى نقد آراء الأستاذ أحمد أمين وتبيان جنايته على الأدب العربى (الرسالة ٣١٤ — ١٠ يولية سنة ٩٣٩) أن هذا الأستاذ لم يؤت أسلوباً خاصاً ، وأنه ما كان فى يوم من الأيام أديباً ، وكان مما قلتموه يومئذ :

— إن أحمد أمين ليس له أسلوب

وإن الرجل لا يكون له أسلوب إلا يوم يصح أنه يحس الثورة على ما يكره والأنس بما يحب . فعندئذ تعرف نفسه معنى الانطباعات الذاتية ، ويعبر عن روحه وعقله وقلبه بأسلوب خاص . . .

ولقد عانى أحمد أمين فى الواحات فلم يصفها ، واشتغل بالقضاء الشرعى فما توجع مرة واحدة للمآسى التى رآها ، ولو كان أحمد أمين أديباً لكتب خواطره وسطر إحساساته فى القضاء وفى الواحات ، « ولكن أحمد أمين لم يكن أديباً وإنما كان موظفاً مخلصاً لواجب الوظيفة لا يرى ما عداها من الشئون » (الرسالة ٣١٤ ص ١٣٣٧ — ١٣٣٨)

ويمضى على ذلك سنة ونصف سنة ، ويأتى العدد (٣٨٤ — ١١ نوفبر سنة ١٩٤٠) من الرسالة فما نجد يا ترى ؟ وما ذا نرى ؟

نجد أن الدكتور زكى مبارك يقول : « يجب الاعتراف بأن لأحمد أمين أسلوباً ... وبأن لهذا الأسلوب شخصية تتميز بالسهولة والوضوح ... » ؛ وبأن فى كتابه « فيض الخاطر » مقالات من الأدب الذاتى ، « وهو الأدب الذى يصور الكاتب وإحساساته ...

ثم رجا طلاب السنة التوجيهية « أن يفطنوا وهم يقرأون كتاب « فيض الخاطر » إلى أن المؤلف أديب . . . يصور لواعج نفسه »

فهل للأستاذ أن يجلو لنا السر الذى جعل أحمد أمين أديباً ؟ أم إن ذلك كان من باب : (رضيت فكسوته ، وغضبت فجردته ...!)

وللدكتور مبارك منا أجل التحيات

« دمشق » صموع الديبه المجيد

متحف وزارة المعارف

تساءل الدكتور زكي مبارك في أثناء مقاله في عدد الرسالة (٣٩٥) عن متحف وزارة المعارف ليقدم إليه هدية سنية ، هي رسالة من الدكتور طه حسين ، وكتاب من مؤلفات الأستاذ أحمد الاسكندري كان أهداه للأستاذ مصطفى أمين ، وعلى الكتاب عبارة « إهداء بقلم الاسكندري »

وأذكر بهذه المناسبة أني بحثت عبثاً عن متحف وزارة المعارف لأهدي إليه تحفة تاريخية لها قيمتها الأدبية ، وهذه التحفة هي عدة رسائل بخط المغفور له إبرهيم أدهم باشا ثاني نظار المعارف المصرية على عهد ساكن الجنان المغفور له الخديو إسماعيل ولا شك أن مثل هذه الرسائل مكانها متحف وزارة المعارف الذي يصونها من التلف ويحفظها من الضياع ، فمثل هذه الرسائل أصبحت ملكا للتاريخ والأجيال المقبلة

ومن العجيب أن يكون للبريد متحف ، وللسكة الحديد متحف ، وللصحة متحف ، ثم لا يكون لوزارة المعارف متحف !

حقاً إن هذا نقص يجب أن يكمل ، وثغرة من الواجب سدها ونرجو أن تولي وزارة المعارف هذه الملاحظة عنايتها ، وأن تنظر إليها بعين الاعتبار ، ولا سيما وعلى رأس هذه الوزارة أناس عرفوا برجاحة العقل وقوة العزيمة ومضاء الهمة

(القاهرة) إبرهيم أدهم

تصويب

جاء بالعدد ٣٩٥ في مقال (دير مديان) : قال الله عز وجل « الذين أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » والصواب « الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف »

محمد الساكت
بكلية أصول الدين





البغض الأول

للقصصي الروسي أنطون شيخوف

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

جلس جماعة من المصطافين في كوخ بين الحشائش الخضر وكانت الليلة قمراء ونافذة الكوخ مفتوحة ينفذ منها ضياء القمر . وكانت روائح النبات تفوح في المكان والأصدقاء يتحدثون أحاديث مختلفة، وتناول الحديث ذكر النساء والحب فقص كل منهم أقاصيص كثيرة حتى تجاوز عدد هذه الأقاصيص المائة أقصوصة

وكان في ركن من الكوخ ضابط لزم الصمت من أول الليلة وظل يتثاءب ؛ فلما جاء دوره صاح :

« ليس في التحدث عن الحب غرابة ، فكل النساء قد خلقن للحب ، وليس لأحدكم أن يفاخر بالحب ؛ فهل منكم من جرب البغض الحق ؟ هل عرف أحدكم الكراهية ؟ »

لم يجبه أحد ، واستمر الضابط يقول : « أنا قد جربت هذا البغض فقد كرهتني فتاة فدرست في شخصي أعراض الكراهية الأولى ؛ وإنما قلت الكراهية الأولى كما يقال الحب الأول . ولكن هذه التجربة الغريبة قد حدثت في عهد من العمر لم تكن لدى فيه فكرة واضحة عن الحب والبغض فقد كنت لا أتجاوز الثامنة من العمر » وليس هذا مطلب القصة بل مطلبها فتاة فأنصتوا :

خرجت من المدرسة في أصيل يوم من الأيام وجلست أمام مكتبي في الغرفة التي أذاكر فيها ، وكانت مربيتي — وهي فتاة حديثة عهد بالمدرسة — تطل من النافذة

نظرت إلى فتبينت على وجهها الارتباك ، وسألتني وهي لا تكاد تعي ما تقول : هل الأشجار تتنفس الأكسجين ؟

فقلت : نعم

قالت : وماذا نتنفس نحن ؟

فقلت : ثاني أكسيد الكربون ؟

قالت : أصبت ، وثاني أكسيد الكربون غاز خانق يوجد في الكهوف وفي بعض المياه ، وقد رأيت كهفاً بالقرب من مدينة نابولي يكثر فيه هذا الغاز ، ورأيت كلباً ألقي فيه فمات لساعته

قالت لي مربيتي بعد هذا الحديث : إن أبي وأمي ليسا بالمنزل ، وإن أخي يشكو الصداع وأنه ذهب للطبيب وأن ليس بالمنزل غيري وغيرها ، ثم سألتني وهي لا تزال تطل من النافذة على الأشجار وما يليها من الفضاء :

ما هو الأفق ؟

فقلت : هو الخط الوهمي الذي عنده تلتقي السماء بالأرض

وعادت فسألتني وهي لا تزال تنظر إلى الأشجار : وهل الأشجار تتنفس الأكسجين ؟

فقلت : نعم ، ثم رأيت في يدها ورقة مطوية قد شدت عليها أناملها ونظرها يرتد عن الأشجار وقالت : في إيطاليا كهف بالقرب من نابولي يكثر فيه هذا الغاز الخانق ، هل تقول : إن الأفق هو الذي تلتقي عنده السماء بالأرض ؟

وكانت وهي تقول ذلك كالحالمة ، وتجلي اضطرابها الشديد ، ثم مشت ذهاباً وإياباً في الغرفة بحالة تدل على القلق وقالت لي : إقرأ درس الرياضة حتى أعود بعد نصف ساعة

خرجت مربيتي من الغرفة ، ورأيتها وهي تمشي في الحديقة بخطوات المحموم ، وكان وجهها أكثر احمراراً من عهدي به ، واضطرابها جلي إلى درجة استلفتت نظري ، فقلت في نفسي : إلى أين تذهب يا ترى ؟

وطويت الكتاب وقلت : أتبعها وكنت أحسبها ستنتهز غياب أمي فرصة وتسرق بعض الفواكه من أشجار الحديقة . ولكنها لم تفعل بل تجاوزت كوخ البواب وخرجت من المنزل ، وتبعتها مختفياً وراء الأشجار حتى وصلت إلى البحيرة . وهنالك ... هنالك وجدت أخي الذي قالت إنه مريض وأنه ذاهب إلى الطبيب

لم يكن أخي عند ما شاهدته مريضاً بل وقف عند ما رآها وكأن قوة غريبة دفعت كلا منهما إلى الآخر فتعانقا وقبلها وقبلته وفهمت من كل حركاتها وإن كنت صغيراً أن هذه أول مرة فعلت فيها مثل ذلك

وكان وراءها أكمة عاليــة فعدنا خلفها وعدت إلى المنزل وأنا أشعر بخجل شديد. ولم أر أكثر من ذلك، ولـكن لـكونى متقدماً فى الذكاء عمن كانوا فى مثل عمرى فقد فكرت فى الأمر وقلت لا بد من الاستفادة منه. ثم ابتسمت ابتسامة المنتصر، وذلك لأن فى معرفة الأسرار لذة لا يستهان بها خصوصاً إذا كانت أسرار أخى الذى له نفوذ بالمنزل، ومربيتى التى لها نفوذ علىّ

لما عادت مربيتى إلى الغرفة كالعادة نظرت إلى وجهها الجميل وعينيها البراقتين، وكان السر الذى أكتمه يكاد يمزقنى فقلت: لقد عرفت! لقد رأيت!

قالت: « ما الذى رأيته، وما الذى عرفته؟ »

فقلت: « رأيت أخى يقبلك وأنت تقبلينه عند البحيرة »

عند ذلك وجدت النار تكاد تتقد فى عينيها، وجلست خائرة القوى على المقعد ولم تنطق بحرف، وأعدت جملتى وزدت عليها: « إنتظرى حتى أخبر أمى »

فنظرت إلى باهتمام ورعب؛ ثم لما تبينت أنى لن أفعل أمسكت بذراعى وهى فى حالة شديدة من اليأس، وقالت بصوت خافت: « هــذا لا يليق ... أتوسل إليك ... ! بالله لا تقل شيئاً! إن الشرفاء لا يتجسسون ... أتوسل إليك ... ! »

لقد كانت مربيتى المسكينة تخاف من أمى، وهذا سبب من أسباب فزعها، ولـكن أهم هــذه الأسباب هو افتضاح حبها الأول. وأنتم بلا ريب تقدرون شعورها فى هــذه الحال. وفى الصباح عرفت أنها لم تنم طول ليلتها لأنى رأيت حول عينيها هالة زرقاء مسودة، ورأيت على عينيها علامة السهاد. ولمـا وجدتها وحدها بعد ذلك فى غرفتى قلت: « لقد عرفت، لقد رأيت! »

فنظرت إلى ولم تجب، ثم لما رأيت أخى وحده قلت له هذا القول، فلم يكن ليخاف خوف المربية، بل شتمنى فخفت أنا... ولم أعد أجرؤ على تكرار كلمتى أمامه. أما المربية فقــد أردت الاستفادة من معرفة سرها، فصرت لا أذاكر، وصرت أعبث فى غرفتى كما أشاء فلا تشكو إلى أمى ولا تظهر لى الضجر. وحافظت على تلقينى دروسى متى أردت وعلى شرح ما أطلب شرحه، وهى تتغاضى وتلزم الوقار. ولـكن مضى أسبوع وضاق صدرى بالسر

فجلست مرة مع أمى وكانت معنا المربية وأخى فقلت لأمى: « لقد عرفت! لقد رأيت! » فبدا الفزع والرعب على وجه المربية وبدا الغضب على وجه أخى ولـكنى لم أزد ولم تسألنى أمى.

ومن ذلك اليوم صرت أرى نظرات المقت والـكراهية الجنونية على عينى المربية وصارت تقرض أسنانها كالذئب كلما رأتنى؛ وبدأت أعرف كيف تكون كراهية الشياطين.

وفى يوم من الأيام كانت تلقننى الدرس فسمعتها تقول: « إننى أمقتك؟ ليتك تعرف مقدار كرهى لك أيها الحيوان » ثم زادت على ذلك: « إننى لا أخاطبك ولـكننى أعيد جملة من رواية. »

كانت بعد ذلك تأتى إلى غرفة نومى وتنظر إلى وأنا بين النوم واليقظة نظرة مقت؛ وصارت الحالة تزداد حتى أمسكتنى من ذراعى مرة من المرار وقالت: « إننى أكرهك وما تمنيت لإنسان من الشر مثل الذى أتمناه لك وأريد أن تفهم ذلك. »

كان ذلك فى الليل، وكان ضياء القمر الشاحب ينير الغرفة، ونظرت إلى عينيها فسررت أولاً، لأن هذا الشىء جديد، ثم خفت فصرخت بصوت عال، ثم عزمت على أن أخبر أمى؛ على أنى لو كنت أعرف جوابها لما عزمت هذا العزم الأحمق

لقد أجابتنى: « وما شأنك أنت؟ أنت صغير فلماذا تتدخل فيما لا يعنيك؟ »

وكانت أمى فاضلة رقيقة الإحساس؛ وكانت تتجنب ما يؤدى إلى الفضيحة فلم تطرد مربيتى فى الحال بل انتظرت مدة كانت تنصرف فيها عن المربية شيئاً فشيئاً ثم أخرجتها بعد مدة من المنزل لسبب آخر انتحلته. وأنا لا أزال أذكر تلك النظرة التى رمتنى بها المربية وهى تغادر المنزل

بعد ذلك بعهد طويل صارت مربيتى زوجة لأخى وهى فلانة التى تعرفونها جميعاً. وتغيرت ملامحى فلم أعد أشبه ذلك الغلام الذى كنته، ولـكنها بالرغم من ذلك لا تزال تنظر إلىّ إلى اليوم نظرة بعيدة عن الود، وتعاملنى كلما زرت أخى معاملة غير معاملة الأصهار، وما ذلك إلا لأن البغض الأول كالحب الأول ليس من السهل أن يزول

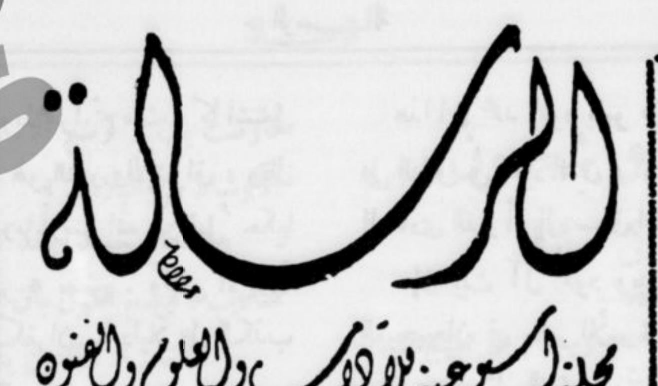
عبد اللطيف النشار

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)



9me Année No. 398

Lundi - 17 - 2 - 1941



مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٣٩٨ « القاهرة في يوم الاثنين ٢١ محرم سنة ١٣٦٠ — الموافق ١٧ فبراير سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

محمد محمود باشا



رجلان يُرْبكان الكاتب إذا حاول أن يكتب عنهما: رجل لا يستطيع أن يجد ما يقوله فيه، ورجل لا يستطيع أن يختصر مايعرفه عنه. ووصف (الأول) بالرجولة تساهل في التعبير، وإطلاق لفظ الرجل على (الآخر) قصور في اللغة؛ فإن من المسلَّمات في تاريخ الإنسان أن من أفراده من يعلون حتى يكونوا خيراً من الملائكة، ومنهم من يسفلون حتى يكونوا شراً من البهائم. أولئك هم أصحاب الرسالات لحياتهم للناس، وهؤلاء هم أصحاب الشهوات لحياتهم لأنفسهم. ولا مراء في أن الرجل الذي فقدته مصر في هذه الأيام السود كان من المثابة الأولى في الرجولة: تجلت في خلائقه مزايا الإنسان الرفيع فاتفق على نبله الصديق الحميم والعدو الكاشح؛ وتمثلت في أعماله خلال الشريف الحر فاعترف بفضله الوطني النزيه

الفهـــــرس

والأجنبي المنصف ؛ وعاش محمد محمود عمراً ثم مات ، كما اشتمل القبس حيناً ثم انطفأ ، فقال قوم هو النور والإشراق ، وقال آخرون بل هو النار والإحراق ؛ وما أرسل الله من قبلُ حكيما ولا زعيماً إلا آمن به بعض وكفر به بعض . وليس الإيمانُ بالدعوة دليلاً على الصدق ، ولا الكفران بها دليلاً على الكذب

* * *

لا يَعنى « الرسالة » من تاريخ صاحب الهوى الرفيع والنفس الكبيرة محمد محمود إلا دينه وخلقه وأدبه ؛ وهو فى هذه الثلاثة بإجماع الكلمة كان مضرب المثل وموضع القدوة . فدينه دين المعتقد عن علم ، وخلقه خلق التقى عن عقيدة ، وأدبه أدب السرى عن أصالة . وما اجتمعت هذه الصفات فى زعيم حكيم إلا كانت ضماناً لحسن نيته وأماناً من سوء عمله

أما السياسة فلا تزال فى الشرق العربى كله أثراً للعوامل الأجنبية ، فلا تتأثر برأى حزب ولا تتغير بإرادة حكومة . فمن الخطل أن ندخلها فى أسباب الحكم على زعيم أو حاكم ما دام يتأثر بها ولا يؤثر فيها . وإذا اعتبرنا السياسة على هذا الوجه السلبي شهوة من شهوات النفس الطموح تصل من طريقها إلى المال أو الجاه أو الحكم ، فقد أبى لزعيم الأحرار الدستوريين نبل فطرته وكرم أسرته أن يجعل أى عَرَضٍ من هذه الأعراض الدنيا غاية لهذا الطريق

اجتمعت لمحمد محمود باشا أرستقراطية النسب والمال والعلم والمنصب . فلو أنه كان يندلق على الناس بالبطر والزهو فى الشوارع والمجامع لما كان ذلك بِدْعاً من الأمر ، ولكنه - برّد الله بالرحمة ثراه - ظل طول حياته يطالع الجمهور ويعالج الأمور ومن دونه حجاب من التصون الكريم لا يسمح له أن يتخذ الشعب إطاراً لصورته ، ولا مظهراً لعظمته

لم يقل أحد من الناس فى وقت من الأوقات :

هذا محمد محمود يعرض سلطان منصبه على عيون الفقراء ، أو يفرض إعلان موكبه على حناجر الدهماء ، أو يرفد ثروته الضخمة بعضوية ظنينة فى شركة من الشركات أو فى بنك من البنوك !

ولم يقل أحد من الناس فى مناسبة من المناسبات :

هذه زوج محمد محمود تتمرد على تقاليد الشرق وآداب الإسلام ، فتشهد مع الرجال حفلات النهار وسهرات الليل !

ولم يقل أحد من الناس فى حالة من الحالات :

هذا ابن محمد محمود ينبو على القانون فى الدواوين ، أو يعربد على الناس فى عماد الدين ، أو يتنبل باللباس والمركب فى طريقه إلى نادى القمار أو إلى سباق الخيل !

إن بيت آل محمود وبيت آل عبد الرازق هما المثالان الصحيحان فى مصر للأسرة النبيلة الحديثة . ذلك لما تهيأ لهما من وسائل التودد وشمائل الفتوة ؛ وجماع هذه الوسائل وتلك الشمائل قيامهما على أركان من المجد والمال والعلم والشخصية القوية قلما تجتمع كلها لبيت واحد . والسر كله فى الشخصية الأصيلة التى خلقت من التليد والطريف والشرق والغربى مدنية مستقلة كانت أبلغ حجج الإسلام والشرق على من يقولون بلسان الجهالة والوضاعة إن الإسلام ينافى التمدن ، وإن الشرق يجافى الحضارة

ومن هنا كانت حياة الفقيد العظيم بخصائصها المميزة من العزة والعفة والإباء والصدق ، رسالة خلقية تقوم على الدعوة والقدوة فى فترة من المصلحين الصالحين تفككت فيها الأواصر وتحللت العقد وانماعت النفوس ، وأصبح كل عمل يجوز ، وكل شيء يمكن ، وكل وضع يستقر !

* * *

رحم الله محمد محمود ! لقد كان فوق الشهوات والحزازات والحوادث فكان عفَّ اليد واللسان والضمير . وكان الناس لندرة هذه الخلال فيهم يحسبونه قد نزع فى ذلك إلى أبناء « أكسفُرد » ؛ وما كان الشبه بينه وبينهم إلا فى صفات القوة كصراحة الخُلق وصرامة النظام والاعتداد بالنفس والاستقلال فى الرأى وما يستتبع أولئك من المحافظة على السُّنن الموروث والاكتراث للعرف المتَّبع . وأصول هذه الأخلاق مما ينبت طبيعةً فى أقاليم الصَّعيد ؛ ولكنها تزكو زكاء الكلمة الطيبة إذا غذت أرومتها خصائص الجنس الممتاز وفضائل الدين الصحيح

فإذا برَّح بالأمة الحزن عليه فذلك لأنه كان المثل الشاهد على أنها تلد الرجال المكمَّلة إذا نشَّأتهم على سننها القويمة ، ولأنه كان القدوة الحسنة لمن كان يشك فى نجاح الأخلاق الكريمة

رحم الله محمد محمود ، وعزى أسرته على رزئه أجمل العزاء ، وعوض أمته من فقده خير العوض !

احمد حسن الزيات

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

اتجاه جديد فى وزارة المعارف — الهجوم الآثم على الشيخ سيد المرصفى سيزلزل الهاجين عليه وسيقهر بعض الناس على الانسحاب من ميدان الدراسات الأدبية واللغوية ... والحق أقوى وأغلب

اتجاه جديد فى وزارة المعارف

لا يمرّ أسبوع بدون أن يطّلع الجمهور على أخبار جديدة عن وزارة المعارف ، فهى فى هذه الأيام مثار حركة ومجال نشاط ، والحركة فى أقبح صورها أجمل من السكون ، لأن السكون فى أجمل صوره من نُذُر الفناء

ومن مظاهر الحيوية فى وزارة المعارف لهذا العهد خطب الدكتور هيكل باشا ، وهى خُطب تشهد بأن هـذا الرجل يريد أن يجعل لنفسه تاريخاً فى تطوّر التعليم ، وهو بذلك خليق ، فلهذا الرجل لفتات ذوقية واجتماعية تضعه فى الصف الأول بين أقطاب الفكر فى هذا الجيل

والظاهر أن وزارة المعارف أصبحت من الوزارات المجدودة ، فهى منذ أعوام طوال صاحبة الحظ الأوفر من أحرار الرجال . ألم يتولّ أمورها أعلامٌ كان منهم : زكى أبو السعود ، وأحمد ماهر ، ولطفى السيد ، وبهى الدين بركات ، وعلى ماهر ، ومحمد على علوبة ، وحلمى عيسى ، وعلى زكى العرابى ، وأحمد نجيب الهلالى ، ومحمود فهمى النقراشى ؟

وزارة المعارف هى تاج الوزارات ، وإليها يرجع الفضل فى تكوين العقول والقلوب والأذواق ، وعن وزارة المعارف يصدُر النشاط الأدبى والفنى والاجتماعى ، وهى صوت مصر فى الشرق والغرب يوم يوضع للفضل ميزان

تلك وزارة المعارف ، فما حالها فى هذه الأيام ؟

كان يُظَنّ أن المسيطرين على وزارة المعارف قد يفوتهم النظر فيما يوجّه إليهم من الملاحظات عن طريق الجرائد والمجلات ، ثم ظهر أن فى الوزارة رجالاً يقرأون ما يكتب ويسمعون ما يقال ، وإن كان فريق منهم يعيش فى أبراج من العاج !

لقد آمنت وزارة المعارف بأن من الواجب أن يظفر التلميذ المتوسط بالنجاح فى امتحانات النقل والامتحانات النهائية ، فأوصت بأن « توضع الأسئلة بحيث تكون الإجابة فى متناول الأوساط من التلاميذ »

وهذا فتح جديد ، فقد كان مفهوماً أن الامتحان من ضروب التأديب ، ليصح القول بأن « من المحنة جاء الامتحان » !

وماذا تغنم الأمة حين ينجح التلميذ المتوسط ؟

يقول المتحذلقون إن نجاح الأوساط من التلاميذ قد يجنى على سمعة العقلية المصرية ، وهؤلاء المتحذلقون هم مصدر البلاء ، وهم عند التحقيق بعيدون كل البعد من السياسة الحكيمة فى رياضة العقول ، والزمن الغافل هو الذى قضى بأن يكونوا من المربّين

إن النجاح — ولو عن طريق التسامح الرفيق — يقوّى الشخصية المعنوية ، ويزيد فى عزائم التلاميذ ، ويُشعرهم بأن الجِدّ له جزاء ، ولو كان أقل مما يجب أن يتحلى به الطالب الرشيد

لم يعرف المربّون فى مصر أن نتائج الامتحانات العمومية — تلك النتائج الضعيفة الهزيلة — كانت الشاهد على أنهم حُرموا نعمة التوفيق فى إيقاظ الغوافى من عزائم التلاميذ ؛ وكانت البرهان على أن الجاذبية بينهم وبين تلاميذهم قد انقطعت أقبح انقطاع ؛ وإلا فكيف جاز أن يقضى التلميذ سنة كاملة بين أيدى أساتذته بدون أن يستفيد ، أو بدون أن تعى آذانه نصف ما يسمع ، أو بدون أن يتجه قلبه إلى معانٍ جديدة تسوقه سوقاً إلى منازل الفضل والتشريف ؟

المربّون هم علة العلل فى فساد هذا الجيل ، فهم السبب فى ذهاب البشاشة من الحياة المدرسية ، وهم الذين حوّلوا الجوّ المدرسى إلى مجازر نفوس ، ومصارع قلوب ، بفضل ما وَقر فى أذهانهم من أن وزارة المعارف لا تريد إلا أن يكونوا جبابرةً مستكبرين

لا يصلح المدرس لمهنة التدريس إلا حين يشعر التلميذ بأنه أبرّ به من أمه وأبيه . أما المدرس الجهم الوجه ، الغليظ الكبد ، القاسى القلب ، فله مكان آخر هو حراسة المساجين . ومن العجيب فى مصر ألا تنال المدارس من العناية بعض ما تنال السجون ! فالسجون مصدر خير على من يعيشون فيها ، لأنها تؤهلهم للحياة ؛ أما المدارس فهى تؤهل بعض أبنائها للتشرد البغيض ، لأنهـا ترى ثلاثة أرباعهم فى الشوارع بلا رحمة ولا إشفاق ، بحجة أنهم لا يجيبون وفقاً لنماذج الإجابة ، وهى

صور لا يضمها من شابت نواصيهم فى التعليم إلا بعد إجهاد الفكر فى غفَوات الليل ! !

ليت المدرسين يعلمون ! ليت المدرسين يعلمون ! ولو استطعت لـكررت هذه العبارة ألف مرة ! ولـكن أين من يسمع ؟ !

يدخل المدرسون إلى أماكن التصحيح فى الامتحانات العمومية وهم لا يدركون ما يُقبِلون عليه من شؤون لا يجوز فيها المزاح ، فيصنعون ما يصنعون بمصاير جيل برىء لا ذنب له غير الاعتراف بأبوّة أولئك « الراحمين » ، وتكون النتيجة أن يفقد أكثر الشبان فضيلة « الاكتراث » لأنهم يشهدون أن المقصر قد يفوز ، وأن المجاهد قد يخيب . وأين الفوز فى امتحانات لا ينجح فيها بين كل مائة تلميذ أكثر من ثلاثة وعشرين ثم لا يُقبل منهم فى الجامعة غير آحاد !

والأمة المصرية التى تبحث عن المادن المطمورة فى الصحراء الشرقية والغربية هى ذاتها الأمة المصرية التى تقتل عواطف شبانها بسيف الامتحانات العمومية ؛ ثم يأخذ بعض جلاّديها جزاءهم على ذلك القتل ، ولم يبق إلا أن تُحلَّى صـدورهم بالأوسمة والنياشين ! !

غـيِّروا ما بأنفسكم ، يا بنى آدم ، من المدرسين بهذه البلاد .
غـيِّروا ما بأنفسكم ، قبل أن يضع الله السم فيما تنالون من أجور الامتحانات !

المعروف للجميع أن البكالوريا فى مصر أصعب منالاً من البكالوريا فى فرنسا وانجلترا وألمانيا . فهل نحن أعظم من الفرنسيس والإنجليز والألمـان ؟

وماذا غنمنا من قوة البكالوريا فى مصر وهى لا تكفى للانتساب إلى الجامعة المصرية إلا فى حدود أضيق من سمّ الخِيَاط ؟

نريد أن نعرف مصاير أبنائنا فى هذا البلد الذى قيل فيه إنه مَجْمَع الغرائب !

نريد أن نعرف إلى أى حد تنتهى الخصومة بين الجامعة ووزارة المعارف !

ولـكن من يبلغ هذا الصوت إلى الرجال المسئولين ؟

من يبلغهم هذا الصوت والشيوخ والنواب لا يهتمون بغير مسائل فردية يتقدم فيها طالب على طالب بدرجة أو درجتين ؟

ليس المهمّ أن يُستجوَب وزير المعارف عن هذه التوافه من الشؤون ، وإنما المهمّ أن يُستجوَب عن مصاير المتعلمين فى هذا الجيل

المهمّ حقاً وصدقاً أن ينسى الوزير أنه مسئول أمام الشيوخ والنواب، وأن يذكر أنه مسئول أمام الضمير المصرى، والضمير المصرى يصرخ صراخ الجزع والرعب من ضياع أبنائه بين الجامعة ووزارة المعارف

وقد ظهرت تباشير تشهد بأن الوزير قد سمع صراخ الضمير المصرى لهذا العهد ، فتى يقال إنه نودىَ فأجاب ؟ ومتى نسمع أن التعليم صار من وسائل الحياة الـكريمة فى هذه البلاد ؟ متى ؟ متى ؟ علينا أن ندعو ، وعلى الوزير أن يجيب !

الهجوم الآثم على الشيخ سيد المرصفى

فى العدد ٣٩١ نشرت الرسالة كلة بإمضاء محمد فهيم عبية جاء فيها أن الأستاذ السباعى بيومى وصف الشيخ المرصفى « بكثير من الأخلاق الذميمة كالنل والحقد والحسد وسطحية البحث والتطاول الذميم » وأنه « حَكم بأن أخلاقه ذهبت بفضله كما تذهب الريح العَصوف بسحيق التراب »

وفى العدد ٣٩٢ نشرت الرسالة ردًّا بإمضاء عبد الرحمن أيوب مع كلمة من الأستاذ السباعى بيومى تشهد بأنه أقرّ ما جاء بذلك الرد ، وهو يتلخّص فى أن الأستاذ السباعى حكم بأن الشيخ المرصفى « كان يملـكه الغرور » وأن « الأستاذ السباعى فى حديثه عن المبرد وما يتصل به إنمـا يصدُر فى ذلك عن دراسة بعيدة الأمد » وأن كتابه ظهر فى سنة ١٩٢٣ على حين لم يظهر كتاب الشيخ المرصفى إلا فى سنة ١٩٣٠ ، وأن فهارس كتاب الشيخ المرصفى وعناوينه سُرقت من كتاب الأستاذ السباعى ، وأن المرصفى لم يكن أستاذ السباعى !

وفى العدد نفسه ٣٩٢ نشرت لى الرسالة كلة عتاب موجهة إلى الأستاذ السباعى بيومى ، وقد جاء فى تلك الـكلمة أن الأستاذ تحدث عن أخلاق الشيخ المرصفى بما لا يليق ، « فإن كان ذلك الـكلام لم يقع منك فانفِه فى العدد المقبل ، وإن كان وقع منك فسارع إلى الاعتذار ، إبقاء على ما بينى وبينك من وداد ، فما أستطيع السكوت عن رجل يتعرض لأخلاق الشيخ المرصفى بسوء ، ولو كان من أعزّ الأصدقاء »

ثم لقينى صديق عزيز فقال : لم يرضنى تحدّيك للأستاذ السباعى بيومى ، فقد كان يتفق فى أحيان كثيرة أن يحمل

مقالاتك من موضوعات الدروس بدار العلوم وذلك من شواهد الإعجاب

وعندئذ رجعت إلى نفسي لحفظتُ للأستاذ هذا الفضل، وآثرت الصمت، ولكن الأديب علي محمد حسن كتب إليّ خلاصة ما تجنّى به السباعي على المرصفي وأكد أنه قال:

« أنا أحذركم من قراءة كتاب المرصفي فإن فيه من الخطأ أكثر مما يتوهم أن يكون في كتاب الكامل من الخطأ، وأنا أدعوكم مرة أخرى إلى إساءة الظن بهذا الرجل، فقد كان ممتلئاً غروراً » وأكد هذا الأديب أن الأستاذ السباعي لن ينكر ذلك الكلام « وقد كان الحضور كثيرين من أساتذة وطلاب »

ومع هذا فقد كان في النية أن أسكت عن الأستاذ السباعي لأنه صديق، ولأن هجومه لن يقلقل مركز الشيخ المرصفي وهو أرزن من الجبال، ولأن الأقدار قضت بأن يكون الأستاذ السباعي من زملاء الأستاذ محمد هاشم عطية والأستاذ أحمد زكي صفوت، وهذه الزمالة تمنحه عندي طوائف من الحقوق

ثم ماذا؟ ثم رأيت أنه ليس من الصعب أن أدفع الشر عن تاريخ الشيخ المرصفي، وأن أقدّم في الوقت نفسه خدمة أدبية للأستاذ السباعي، ولن يُخدَم الأستاذ السباعي وهو صديق إلا بجذبه إلى الجدل على صفحات الرسالة في أسلوب رفيق لا يغض من مركزه بين تلاميذه بمدرسة دار العلوم

وإنما نصصت على الأسلوب الرفيق لأن أكثر الأدباء يفرّون من وجهي بحجة أني لا ألقاهم إلا بقلم تطير عن أسلاته شظايا الشراسة والعنف

وقد استجاب الأستاذ السباعي لهذه الدعوة، وأعلن على صفحات الرسالة أن في الخصومات الأدبية مجالاً واسعاً للبحث والتدقيق

وما دام الأمر كذلك فأنا أقدم الحقائق الآتية:

أولاً — قضى الشيخ سيد المرصفي شبابه في خدمة كتاب الكامل للمبرد، وظفر من ذلك الجهاد بكتاب اسمه: « رغبة الآمل في شرح الكامل » وقضى الأستاذ السباعي بيومي شبابه في خدمة كتاب الكامل للمبرد، وظفر من ذلك الجهاد بكتاب اسمه: « تهذيب الكامل »

فماذا كانت النتيجة؟

كانت النتيجة أن يكون الفرق بين « رغبة الآمل » و « تهذيب الكامل » كالفرق بين المرصفي والسباعي، وهو بونٌ شاسعٌ جداً بحيث يعجز عن اجتيازه نوابغ الطيارين من الإنجليز والألمان، ولو كانوا أقدر من بعض الناس على التحليق في جِواء الادعاء

ثانياً — أعلن الأستاذ السباعي أن كتاب الشيخ المرصفي ظهر في سنة ١٩٣٠ والصواب أنه ظهر سنة ١٩٢٧ وليس لهذا التاريخ أهمية، وإنما الأهمية للتاريخ الذي أخذ فيه الشيخ المرصفي يشرح الكامل، وهو تاريخ يرجع إلى أكثر من أربعين سنة يوم أوصاه الشيخ محمد عبده بتدريس « الكامل » لطلاب الأدب من الأزهريين، ففي ذلك العهد ثار الشيخ الشنقيطي وطلب إلغاء ذلك الدرس، وكان مفهوماً عنده أن المبرّد أكبر من أن يتسامى إلى نقده رجلٌ من المحدَثين، ولكن الشيخ محمد عبده تلطف فأرسل الشيخ ابراهيم عامر إلى الشيخ الشنقيطي ومعه ملزمة من شرح الشيخ المرصفي، فدهش الشيخ الشنقيطي وسارع إلى الاعتذار، ثم صارحَ الشيخ محمد عبده بأن المرصفي لا يقلّ علماً بأسرار اللغة عن المبرّد

ثالثاً — كان كتاب « رغبة الآمل » كاملاً من جميع الجوانب حتى الفهارس في سنة ١٩١٥ وقد رأيته بعينيّ في ذلك العهد ورآه معي الشيخ الزنكلوني طيّب الله ثراه!

ولن أنسى ما حييتُ تلك العبارة الشعرية التي صرخ بها الشيخ المرصفي وهو يقدّم إلينا شرحه على كتاب المبرد، لن أنساها أبداً، فقد قال شيخنا العظيم وهو يخاطب المبرّد:

« الله على أيامك، يا بَطَل!! »

والكتاب الذي كان كل من جميع نواحيه حتى الفهارس

عددنا السنوى الممتاز

سيصدر في أواخر المحرم عددنا السنوي الممتاز حافلاً بتحليل الشخصيات العظيمة والمواقف الكريمة في الغزوات النبوية والفتوح الإسلامية بقلم أعلام البيان في مصر والشرق العربي. وسيكون بعون الله على الرغم من سوء الأحوال الحاضرة جديراً بجلال الموضوع ومكانة الرسالة.

قبل سنة ١٩١٥ هو الكتاب الذى سُرِقتْ بعض فهارسه من كتاب ظهر فى أواخر سنة ١٩٢٣

رابعاً — لم يكن الشيخ المرصفى يطّلع على شىء من مؤلفات المعاصرين ، فكيف اختص الأستاذ السباعى بتلك العناية ؟ تلك والله إحدى الأعاجيب !

خامساً — كان الشيخ المرصفى أول رجل تسامَى إلى نقد مؤلفات الأكابر من القدماء ، وكان أول رجل أقرّ « كرسى الأدب » فى الأزهر الشريف ، وكان أول رجل جعل للأديب مكاناً بين « جماعة كبار العلماء » فكان بتلك الصفات أوحد عصره بلا جدال

فماذا صنع الأستاذ السباعى فى دار العلوم ، ولن يكون إلا الرابع أو الخامس بين أساتذة تلك الدار، مع التسامح الشديد ؟

سادساً — برّأ الأستاذ السباعى نفسه وطهّر تاريخه من التلمذة للشيخ سيد المرصفى ، فأين هو من تلاميذ الشيخ المرصفى وكان منهم محمد ابراهيم هلال ، ومحمود حسن زنانى ، وأحمد حسن الزيات ، وعلى عبد الرازق ، وطه حسين ؟

سابعاً — ترك الشيخ المرصفى ذخيرة عظيمة ، منها : شرح الكامل ، وشرح الأمالى ، وشرح الحماسة ، وشرح العقد الفريد، وشرح أراجيز رؤبة وأراجيز العجاج ؛ ومنها : التعقيب على لسان العرب ، والنص على أغلاط صاحب المفصّل والكشاف . فماذا صنع الأستاذ السباعى ، وكان عمره موقوفاً على نقل نصوص الكامل من مكان إلى مكان ؟ !

ثامناً — أثر المرصفى فى عصره أبلغ التأثير ، فكان الرجل يتشرف بالانتساب إليه ، كما صنعتُ حين رثيته يوم وصل نعيه وأنا طالب فى جامعة باريس ، فكم طالباً يسرّهم أن يقولوا : إنهم تلاميذ السباعى بيومى ؟ !

تاسعاً — كان تلاميذ المرصفى يقيّدون جميع ما ينطق به ، ولو عن طريق المزاح ، وقد قيدتُ من كلامه ثلاثين كراساً ، فأين ما قيّد تلاميذ السباعى من كلامه البليغ ؟

عاشراً — دخلتْ مؤلفات الشيخ المرصفى على القلوب بدون استئذان ، ولم يدخل كتاب الأستاذ السباعى دار العلوم إلا بعد أن صار أستاذاً بتلك الدار ، وبعد أن مات الشيخ علاّم !

أما بعد ، فهذه طلائع لغزوة شريفة تنقل عقل الأستاذ السباعى من وضع إلى وضع ، وذلك فضلى عليه ، وهو واجب الصديق نحو الصديق ؛ وقد تلطّف فأشار إلى أنه سيخاصمنى خصومة أدبية ، وهى خصومة أرحب بها كل الترحيب ، لأنى أشعر شعوراً صادقاً بأنى موكلٌ بإحياء العزائم والقلوب

وقد أسرف فى الكرم فأعلن أنى لن أجترئ على الكتابة بعد أن ينشر فى « الرسالة » كلمتين !

وأقول : إنى لن أصفح عنه أو يشتغل محرراً متطوعاً بمجلة « الرسالة » ثلاث سنين ، كما قهرت أخاً له من قبل على أن يشتغل محرراً متطوعاً بجريدة « البلاغ » ثلاث سنين !

هى محنةٌ صُبتْ من شاهق على الأستاذ السباعى ، فليتحملها صابراً ، وليوطّن نفسه على أن الخصومة بينى وبينه لن تنتهى قبل بداية شهر مايو ، وهو الموعد الذى حدده الشيخ الأسيوطى لنهاية الحرب بين الإنجليز والألمان ! !

وكيف يخيفنى تهديد الأستاذ السباعى وليس فى ماضيه الأدبى غير نقل نصوص كتاب الكامل من مكان إلى مكان ، وتلك مهمة يقوم بها أحد النساخين بدراهم معدودات ؟ !

أمثلى يخاف من عواقب الجهر بكلمة الحق وقد قضيت دهرى ممتحَناً بعداوات الرجال ؟

الأستاذ السباعى يهدد بمقالتين اثنتين ، وهو يعرف من نفسه أكثر مما أعرف ، فهل يتوهم أنى سأخلى له الميدان ليخاطر نفسه كيف شاء ؟ !

لقد تلطفت معه أكثر مما يجب ، ولم يحفظ جميلى ، فكيف يرانى أعطف عليه وقد تردّى بثوب العقوق ؟

ثم أما بعد ، فقد حكمت على الأستاذ السباعى بترك دروسه فى دار العلوم ليشغل نفسه بمخاطرتى ، وليقول : إن « تهذيب الكامل » أعظم من « رغبة الآمل » ، كما كان نجم الأرض أعظم من نجم السماء ! ! !

وماذا يمنع من أن يكون السباعى أعظم من المرصفى ؟ ماذا يمنع وقد اختلت الموازين وفسدت الدنيا إلى أبعد حدود الفساد ، حتى جاز للأستاذ السباعى أن يهدد صديقه القديم :

زكى مبارك

إلى الدكتور زكى مبارك

خصومة أدبية

للأستاذ السباعى بيومى

أولى الكلمتين

وعدت حضرات القراء فى عدد الرسالة الأخير أنى سأنشر فى عدديها المقبلين كلمتين اثنتين ، أتوجه فيهما بالحديث إلى صديقى الدكتور زكى مبارك . وهذى أولى الكلمتين ، وهى كما رسمت حين وعدت ، ترمى إلى تقرير الموضوع الأصيل الذى من أجله كتب الدكتور

ألقيت محاضرة بمدرج على مبارك باشا فى دار العلوم عن « أسلوب المبرد فى كامله » وعقب انتهائى منها طلب أحد مستمعيها من طلاب كلية اللغة العربية السماح له بكلمة ، فأجبته إلى ما طلب ، وكانت كلمته أربعة أسئلة ألقاها ، رمى المبرد فى رابعها بالغرور والادعاء ، وأنه كان لا يتحرى إذا أجاب . فرأيت الموقف يقضى علىّ أن أرد عليه ، وفعلاً رددت ، وكانت إجابتى عن السؤال الأخير تتلخص فى نفي تلك الصفات الذميمة عن المبرد نفياً قاطعاً ، استدللت عليه بأمور ، منها أن من شأن من لا يتحرز فى إجابته ألا يمسك إذا لم يتثبت ، وإنما يرمى بالقول جزافاً ، ويخترع الإجابات اختراعاً ، وعهدنا بالمبرد أنه غير ذلك ، فقد رأيناه فى كامله إذا عرض له مالا يعرفه اعترف بذلك ، خضوعاً لتلك الكلمة الجامعة التى لا ينزل على حكمها إلا الثقات الأعلام ، وهى « من قال لا أدرى فقد أجاب » ثم أخرجت من الكامل شاهداً على ذلك أسمعته الحاضرين ، ومنها أن من خالط قلبه الغرور وتملكه الادعاء لم يك فى مقدوره أن يخفى ذلك فى مصنفاته ، بل لا بد أن يفضحه أسلوبه

ومهما تكن عند امرئ من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وليس فى كامل المبرد على كثرة كتبه فيه ونسجه حول أصوله ، ما ينفى عنه صفة التواضع العلمى ، أو يلقى على أبحاثه ولو ظلاً صغيراً من الكبرياء والادعاء

ودعماً لهذا الاستدلال الأخير فى أن أسلوب الكاتب يشف عن خلائقه ، قلت للسائل — وقد ذكر أنه استقى ذلك من شرح الشيخ المرصفى على الكامل — إن مؤلفات المرصفى هى التى تنم عن خلق الغرور والادعاء فيه ، كما يعلم ذلك من اطلع على هذا الشرح ومقدمته ؛ وكذلك من اطلع على مثلهما فيما عمله بديوان الحماسة . وقلت : وإنه لتأصل هذا الخلق فيه كان شديد التحامل على المبرد والتشهير به فيما يظن أن المبرد أخطأ فيه ؛ ثم قلت : وكم كنا نتمنى للشيخ المرصفى أن يجرد علمه من غروره ، ويسبل على تآليفه ثوباً ضافياً من التواضع والاعتدال ، حتى يكون ذلك أبين لفضله وأدل على نبله

وأخيراً قلت : ولا يبعد أن تكون البيئة العلمية التى عاش فيها المبرد قد تقولت عليه ما تقولت حسداً وبغياً ، فإن علماء عهده ما كانوا يعهدون من علمائهم إمامة فى اللغة إلا فى ناحية واحدة منها ، كناحية قواعدها ، أو ناحية مفرداتها ، أو ناحية آدابها ، ولكن المبرد كان إماماً ذا آراء فى هذه النواحى الثلاث جميعاً ، فهم بما كانوا يتقولون عليه إنما يريدون انتقاصه شفاء لما دب فى صدورهم عليه من حقد وحسد

ولقد خفت أن يهجس فى نفوس السامعين تنزيه قلوب هؤلاء العلماء من رذيلة الحسد فأتبعت ما سبق بقولى لحضراتهم : ولا تستبعدن الحسد على العلماء ، فإن من طبيعته أن يكون أقرب إلى الأدنين منه إلى الأباعد ، وأسرع إلى قلوب العلماء منه إلى قلوب الجهال ، وإذا ما شئتم مزيداً فى معرفة هذه الطبيعة — طبيعة الحسد — فاقرءوا رسالة الجاحظ فيه ، وهى أكثر من اثنتى عشرة صفحة

ذلك ما قررته فى إجابتى عن السؤال الأخير ، بعد الذى قررته فى الإجابة عن الثلاثة قبله . وما كان أشده عجباً وأبعده غرابة أن تطوى صحيفة الإجابات الثلاث وقد سلخت فيها نحو الساعة ، ثم تشوه هذه الإجابة الأخيرة تشويهاً يمسخها مسخاً ، وإذا أنا أمام الواصل إلى منها كالذى يستمع إلى الآية « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة » دون ذكر هذه الجملة الحالية بعدها « وأنتم

سكارى حتى تعلموا ما تقولون » فقد كان هـذا الواصل أننى وصفت الشيخ المرصفى « بكثير من الأخلاق الذميمة كالغل والحقد والحسد وسطحية البحث والتطاول الذميم » وأننى تمدبت ذلك إلى « تجريح طوائف العلماء على اختلاف مهنهم وحكمت بأن طباع الحسد والحقد لا تجد لها مراحاً خصيباً كالذى تجد من قلوب العلماء »

وارحمتا للأخبار من رواتها ! فما كان منى عن الشيخ المرصفى علم الله إلا أسفى على ما خالط مؤلفاته من غرور وادعاء وتطاول على المبرد فى أسلوب غير حميد ؛ وما زلت معتقداً هذا رضى الدكتور أم سخط ، وواثقاً أن كثيراً من أهل العصر يعلمونه على ، ويعرفون كيف يستدلون عليه استدلالى . وكم كنت كما قلت فى إجابتى أعنى خلوّ مؤلفات المرصفى من غروره ، حتى لا يذهب هذا الغرور بفضله ، وما كان منى عن العلماء شهد الله إلا أنهم فى بيئة المبرد حسدوه تنوع ثقافته وتمدد إمامته ، وأن هذا الحسد لم يك من شأن علمهم أن يبعده عنهم ، لأن الحسد كما يقولون مُوَكل بالأدنى، وهو كما ذكر الجاحظ فى رسالة الحسد : « قد صار فى العلماء أكثر منه فى الجهال ، ودب فى الصالحين أكثر منه فى الفاسقين » . وأنا بهذا الرأى لا زلت ولن أزال أدين ، وافق الدكتور أم خالف .

هذا يا صديقى الدكتور هو الأمر الأصيل على جليته ، قد بسطته موضوعاً فى نصابه مقرراً على وجهه ، لا كما تطايرت به الإشاعات بل الإشاعات المغرضة ، وأنت بما تدخله روايات السوء على الأخبار جد خبير . وقديماً قالوا : وما آفة الأخبار إلا رواتها . ولعلك يا صديقى عتبت علىّ أنى لم أجبك أول ما سئلت ، وما كان لك أن تعتب ، فتلك عادة الناس فيك وموقفهم منك . على أنى أخالف تلك العادة وأجيبك عسى أن تستريح .

تعلمْ يا صديقى أن إغفال إجابتك ما كان إلا استبعاداً عليك أن تفهم ما فهمت ، وإلا أملاً أن يردك هذا الاستبعاد إلى الحقيقة تستقيها بعيداً عنى ، من غير كاذب فيها أو مشوه لها ، وشهود المحاضرة كانوا بحمد الله كثيرين . ولا أكتمك سبباً آخر قوى هذا الإغفال فى نفسى ، ذاك هو أمرك لى أن أسارع إلى نفى ما سمعت إن كان لم يقع ، وإلى الاعتذار منه إن كان قد وقع ، وإسرافك فى هذا الإسراع تطلبه فى أول عدد يصدر من الرسالة ، وثالثة الأثافى أن تقول لى : « إلى أن يثبت أن الراوى افترى عليك ، أعلن غضبى على ما بدر منك » . سبحانك اللهم وتعاليت ! فما كان لأحد أن يقول : «ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى » إلا أنت .

تلك الثلاث يا صديقى وغيرهن كن محرضاتى على ترك أول عدد من الرسالة يصدر خلواً من نفيى واعتذارى ، لأقف على ما فى كنانتك من سهام ، ولأتذوق ما قد يصبه غضبك فى الجام . وهأنت قد اغتررت فكتبت كلمة ثانية تؤذننى فيها بخصومة تريدها أدبية ، والله أعلم بما تريد ، وترمينى فيها بفرية السرقة منك ، جاهلاً كما ستعلم فى كلمتى الثانية أنك أنت الذى افتريت وسرقت

وبعد فإن وصاتى لك يا صديقى أن تتريث ، فإن فى العجلة وبالاً عليك ، وألا تعود تغتر بسكوتى عنك ، فما مثلى ومثلك فيه إلا كما قال الأول :

ما بال من أسعى لأجبر عظمه
حفاظاً وينوى من تطاوله كسرى

أظن خطوب الدهر بينى وبينهم ... ستحملهم منى على مركب وعر
وإنى وإياهم كمن نبه القطا ... ولو لم تنبه باتت الطير لا تسرى
أناة وحلماً وانتظاراً بهم غداً ... فما أنا بالوانى ولا الضرع الغمر

السباعى بيومى

في الاجتماع اللغوي

تطور معاني المفردات

عوامله وآثاره

للدكتور علي عبد الواحد وافي

مدرس الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

لهذا النوع من التطور الدلالي[1] عوامل كثيرة سنعرض لبعضها في هذا المقال، مرجئين تكملتها إلى مقال آخر إن شاء الله

١ — عوامل تتعلق بانتقال اللغة من السلف إلى الخلف. فكثيراً ما ينجم عن هـذا الانتقال تغير في معاني المفردات. وذلك أن الجيل اللاحق لا يفهم جميع الكلمات على الوجه الذي يفهمها عليه الجيل السابق. ويساعد على هـذا الاختلاف كثرة استخدام بعض المفردات في غير ما وضعت له عن طريق التوسع أو المجاز. فقد يكثر استخدام الكلمة مثلاً في جيل ما في بعض ما تدل عليه، أو في معنى مجازي تربطه بمعناها الأصلي بعض العلاقات، فيعلق المعنى الخاص أو المجازي وحده بأذهان الصغار ويتحول بذلك مدلولها إلى هذا المعنى الجديد. وإليك مثلاً كلمة saoul الفرنسية؛ فقد كان معناها في الأصل «الشبعان» من الطعام، ثم كثر استخدامها في عصر ما في النشوان من الخمر، عن طريق المجاز والتهكم، وللتحرج من استخدام الكلمة الصريحة في هذا المعنى وهي ivre. فعلق هذا المعنى الجديد وحده بأذهان الصغار في هذا الجيل، وتحول إليه مدلول هذه الكلمة فأصبحت صريحة فيه[2]، وانقرض معناها القديم في لغة التخاطب

وإلى هذا العامل ترجع أهم الأسباب في تحول الكلمات إلى معان كانت مجازية في الأصل، وفيما يعترى المدلولات في نطاقها من سعة أو ضيق. بل إن طائفة من العلماء، على رأسها العلامة هرزوج Herzog قد رجعت إلى هذا العامل وحده كل ما يحدث من تطور في الدلالة[3]

٢ — وكثيراً ما يتغير مدلول الكلمة على أثر انتقالها من لغة إلى لغة؛ فقـد يخصص مدلولها العام، وتقصر على بعض ما كانت تدل عليه في لغتها الأصلية، وقد يعمم مدلولها الخاص، وقد تستعمل في غير ما وضعت له لعلاقة ما بين المعنيين، وقد تنحط إلى درجة وضيعة في الاستعمال فتصبح من فحش الكلام وهجره، وقد تسمو إلى منزلة راقية فتعتبر من نبيل القول ومصطفاه... كما أشرنا إلى ذلك في بعض مقالاتنا السابقة

٣ — وقد يكون العامل في تغير معنى الكلمة أن الشيء نفسه الذي تدل عليه قد تغيرت طبيعته أو عناصره أو وظائفه أو الشئون الاجتماعية المتصلة به... وما إلى ذلك. فكلمة «الريشة» مثلاً la plume كانت تطلق على آلة الكتابة أيام أن كانت تتخذ من ريش الطيور، ولكن تغير الآن مدلولها الأصلي تبعاً لتطور المادة المتخذة منها آلة الكتابة، فأصبحت تطلق على قطعة من الحديد مشكلة في صورة خاصة. والقطار كان يطلق في الأصل على عدد من الإبل على نسق واحد تستخدم في السفر والنقل، ولكن تغير الآن مدلوله الأصلي تبعاً لتطور وسائل المواصلات فأصبح يطلق على مجموعة عربات تقطرها قاطرة بخارية. و «البريد» كان يطلق على الدابة التي تحمل عليها الرسائل، ثم تغير الآن مدلوله تبعاً لتطور الطرق المستخدمة في إيصال الرسائل، فأصبح يطلق على النظام والوسائل المتخذه لهذه الغاية في العصر الحاضر. و «بنى الرجل بامرأته» كانت تستخدم كناية عن دخوله بها؛ لأن الشاب البدوي كان إذا تزوج يبنى له ولأهله خباء جديداً؛ ولا نزال نستخدم هـذه العبارة كناية عن نفس المعنى مع أن الزفاف لا علاقة له في نظمنا الحاضرة بالبناء. وقد جرت العادة في بعض العصور بفرنسا أن يقضى المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة مدة عقوبتهم في أعمال التجديف على ظهر السفن الملكية؛ ومن ثم جاءت عبارة envoyer aux galères ووصف galerien ولكن تغير الآن مدلولها، مع بقائهما في الاستعمال، تبعاً لتغير النظم المتصلة بهذه العقوبة ونوعها

٤ — عوامل تتعلق باختلاف الطبقات والجماعات. فكثيراً ما ينجم عن اختلاف الناس في طبقاتهم وفئاتهم اختلاف مدلول الكلمات وخروجها عن معانيها الأولى. ويؤدي إلى ذلك ما يوجد بين الطبقات الناطقة باللغة الواحدة من فروق في الخواص الشعبية

---

(١) ذكرنا في المقال السابق أن التطور الدلالي ينتظم ثلاثة أنواع: تطور القواعد، وتطور الأساليب، وتطور معاني المفردات (٢) لا تقل الآن كلة saoul من كلة ivre في صراحتها في التعبير عن النشوان إن لم تزد عنها في ذلك

(٣) "V. Meillet : Comment les mots changent de sens" dans " L'Année Sociologique " T. 9. p. p. 6, 7. — V. aussi Herzog : Streitfrangen der romanischen Philologie.

والجسمية والنفسية ، وفى شؤون السياسة والاجتماع والثقافة والتربيـة ومناحى التفكير والوجدان ومستوى المعيشة وحياة الأسرة والتقاليد والعادات ... ، وفى الظروف الطبيعية والجغرافية المحيطة بكل جماعة منها ، وما تزاوله كل طبقة من أعمال وتضطلع به من وظائف ، والآثار العميقة التى تتركها كل وظيفة ومهنة فى عقلية المشتغلين بها ، وحاجة أفراد كل طبقة إلى دقة التعبير وسرعته ، وإنشاء مصطلحات خاصة بصـدد الأمور التى يكثر ورودها فى حياتهم ، وتستأثر بقسط كبير من انتباههم ، وما يلجئون إليه من استخدام مفردات فى غير ما وضعت له ، أو قصرها على بعض مدلولاتها للتعبير عن أمور تتصل بصناعاتهم وأعمالهم ... وهلم جراً . فمن الواضح أن هذه الأمور وما إليها من شأنها أن تخرج بالكلمات عن مدلولاتها الأولى وتوجه معانيها فى كل طبقة وفى كل جماعة وجهة تختلف عن وجهتها عند غيرها فينشأ من جراء ذلك ما يعرف « باللهجات الاجتماعية » التى تكلمنا عنها فى مقال سابق

علي عبد الواحد وافي
ليسانسيه ودكتور فى الآداب من جامعة السربون

٦ - أومن بالإنسان !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

بين الغفلة واليقظة — صيحة فى أذن الانسان — لو ، ولعل ، وربما — لا ملام على الأقدار — لم تفت الغاية — نقطة البدء فى الحياة الفكرية — الجناية الأولى — حادث عظيم — آثار من الوثنية — الوضع الأصيل للدين — ديانة الحياة

حينما أعس وأندس إلى مجلس فى مقهى بلدى حقير أرقب الحياة الإنسانية فى بعض جوانبها ، وأتفرس فى وجوه القوم ونواصيهم ، وأتسمع إلى أحاديث دنياهم وآمالهم وأعمالهم ، وأتتبع نظراتهم للحياة فأجدها لا ترتفع إلى شىء سام ، ولا تدور حول قضية من القضايا العليا للحياة ، ولا تفكر فى مبدأ أو مصير ، ولا تتساءل عن صلاح أو فساد ...

وحينما أقذف بجسمى فى زحمة سوق من الأسواق بين ضجيج الحركات والأصوات والأبواق وصفقات الأيدى الحائلة على الأيدى المختولة فى العقود والمبايعات ، وسائر الارتفاقات والمشاحنات

وحينما أرصد حياة الأفراد اليومية . فأجدها سلسلة من الغفلات والأكلات واللذات والأعمال الآلية التى لا استحضار فيها لمعان كريمة ، ولا يقظة فيها إلى أسرارها ومآل الإنسانية بها ... وإنما هى دورات رحوية وسير أعمى وراء دولاب الحياة من غير سؤال : إلى أين المسير ؟

حين هذا كله أجد فى نفسى كأن الإنسانية غريقة فى غفلتها وذهولها ، وكأنها خلقت لهذه الغفلات ولن تكون لغيرها ، ولن تكون لحياة أخرى وراء هذه الحياة ... وكأنها منفصلة عن حياة الطبيعة الحادة الواعية العادلة الموزونة انفصالاً يكاد يجعلها عالماً مستقلاً ...

ذلك وحى رؤيتى لغفلات الناس وانقطاعهم عما يدور فى الأكوان ، وإهمالهم التفكير فى مبدأ الحياة ومنتهاها وفى خفايا الطبيعة وأسرارها ...

وحين أجلس مجلساً تثار فيه الأفكار عن الكون والفساد والحقائق والأباطيل وتصول فيه العقول وينبرى بعضها لبعض بالاعتراض والرد والتعليق والتشقيق والبيان الساحر والحجج اللاقفة ...

أو حين أقرأ كتاباً يعرض فكرة من أمهات الأفكار ويسيل به سيلها فيفيض على الفكر والفؤاد ...

أو حين أرى آلة معقدة التركيب تطير أو تسير أو تخفق بالأصوات والبرقيات مما أخرجه عقل مهندس ذى قدرة على الاستيعاب والتقليد والابتكار ...

أو حين أرى شيخوخة جليلة واقفة فى محراب تتلو صلوات أو ترتل آيات فى إطراق وخشية واستحضار لعظمة الكون وجلال بارئه ...

أو حين أسمع نشيداً من شاعر ذى قلب اتسع وتيقظ للأحاديث الصامتة والناطقة فى الطبيعة ، واسترق السمع للنغم الدائب فى الكون ، والموسيقى الأبدية فى حركات نجوم السماء ونجوم الأرض ...

حين هذا وذاك وذلك أقول : هنا موضع تكريم هذا الجنس ومؤهلات خلافته ...

هنا الإنسانية التى تقنع العقل الحائر بقيمته وقيمة الطبيعة وقيمة الخير والحق والجمال

هنا وضوح وانكشاف لمعنى سيادته وملكوت واسع يصح

أن نستند إليه فى تخيل مستقبله وفى تبين موضعه وسط ما يعمر الكون من المخلوقات ...

ثم أصيح : أيها الإنسان ! تيقظ لنفسك لتفرح بها ... تيقظ إنك حى تسمى وترى وتفكر وتتجه فى أى اتجاه تريد وسط الظلام والجماد والنور والصمت والبكم والصمم والعمى

أنت الذى تفقه وتدرك تلك الحياة التى لا تجد غير عينك وأذنك وسائر حواسك

تذكر أنك المقصود بكل هذا الذى يحيط بك وأنك خليفة على مقدرات الأرض وأن فى يدك قوة من قوى التعمير والإنشاء والتوجيه والتنيير والتنويع والتفريع ، وذلك شرف عظيم !

تيقظ واهتف فى سمع الزمان والمكان : أنا أنمو وأرق وأتكلم وأفكر وليس أمامى حدود وسدود أيتها الخلائق الواقفة المحدودة ...

واجلس بجانب الجماد والنبات والحيوان فترات لترى الفوارق بينك وبينها ... ولن يغفر خالق الإنسان لامرئ جاء إلى الحياة ولم يجلس مجلساً بين هذه الكائنات يوازن بينها وبين نفسه ويحدد موضعه منها ، ثم يرفع عينه إلى السماء ويخفضها إلى القبر حتى يرى الطريق بينهما . . .

تيقظ إلى الذى مسنا بالحياة ونحن نجهلها ونجهله ، وأخرجنا ذاهلين إلى ضحى النهار وسواد الليل ، وأرانا مشاهد ثابتة صارمة فى السماء ومشاهد مرنة متغيرة فى الأرض ، وبدأ حياتنا من نطفة ، ومط أجسامنا من مضغة لحم ملقاة فى ظلمات الأرحام إلى أجنة مكتملة التخليق إلى أطفال دراجين إلى غلمان يافعين إلى مراهقين متفتحين إلى شبان مشبوبين إلى كهول وشيوخ منتظرين لا يعلمون وراء أيامهم أياماً ...

إلى الذى أدار الشمس أمام عيوننا دوراناً يبلى فى أجسامنا نسيجاً وينسج آخر ، ويزيد فى أفكارنا صوراً وينقص أخرى ، ويطوى الأيام تحت أقدامنا سفراً فى الزمن ، ثم يطوينا بالأيام عضواً عضواً وذكرى وراء ذكرى ...

إلى الذى فتح فى نفوسنا نهماً لا يشبع من أطايب الوجود وحقائق الوجود ، ثم سجننا فى سجون القبور إلى يوم النشور ...

إليه منا نحن الذين نبحث عنه منذ أن دخلنا عالم الفكر وننتظره وراء الأستار ونقرع باب الزمان والمكان فى غرة كل يوم وقفا كل مساء نسائل عنه ، ومعنا عيون تقود وأقدام تسير وقلوب تتلفت وراء كل ورقة فى كل شجرة وكل ذرة فى كل مدرة . وتنظر فى الوجوه والعيون والألسنة ، وما يزحف وما يمشى وما يطير وما تحمله الريح وما يحمله الماء والأثير وما تحمله قوة القوى : الفكر !

أواه ! أية غفلة هذه التى تنشى الناس وتتركهم عمياً ذاهلين عن مجىء الحياة بهم من غير اختيار إلى دار العجائب وعن سيرها بهم إلى دار المجهول ! وعن سير الشمس والقمر وتوارد الأيام وسقوط الأمطار وأسفار الرياح إلى مختلف النواحى !

ثم أية غفلة هذه التى تنشى عقولهم وتصرفها عن الفكر فيمن جاء بهم وسيذهب... ذلك الذى استتر وأصر على تكبره واختفائه؟

* * *

ولو دخل الإنسان الدنيا بكامل نفسه وفكره حين يولد ، ولم يدخلها فى غيبوبة الطفولة وذهولها وتدرجها به من البسائط إلى المركبات إلى المعقدات وهو فى شغل عن الأسباب والمسببات إذاً لخرج منها مجنوناً بمجرد دخوله إليها من شدة الفجأة ودهشة العجب !

ولعل الله الخالق المبدع شغل أكثرهم بصغائر الحياة والنزاع عليها ، وجعلهم كالقطيع الغافل المرتاح السادر فى غفلته وعماه عن المعلوم والمجهول من أمور الحياة ... وأخرجهم فى خطوط مرسومة وحلقات مفرغة ليعملوا فى الأرض كما تعمل الثيران فى الطواحين ... تدور وهى لا تعلم أنها تدور ولماذا تدور ... وضربهم بفتنة الدنيا ، فزاغت منهم الأبصار عن الحقائق إلا فى فترات الدين والصلوات ... وحتى هذه أدركوها وهم فى خمار المادة وسعار الشهوات ، إلا قليلاً منهم وهم العارفون المدركون لأرصاد الطبيعة وشىء من تدبير الله فيها ... لعله فعل هذا ليخفف عنهم دهشة الفكر فى أعاجيب صنعه التى كلما زاد فيها الإنسان تفكيراً زاد حيرة ...

وهؤلاء العارفون لو اطلعوا على الغيب لاختاروا الواقع وانصاعوا تحت حكم الأقدار ، ولو فى مقارفة الأضرار والأوصاب ، إذ قد عرفوا أنهم لا بد أن يخضعوا ليشتركوا فى حبك الخديعة التى أرادها الخالق المبدع لأطفال الحياة الذين هم جمهور الإنسانية العاملة التى عليها عمار الأرض بالأسلوب المادى المعروف

وربما كانت غرائز القطيع المنيفة هى التى تنمى حركة الحياة الدنيا وتوسع آفاقها ، كما ينمى عنف غرائز الطفل مستقبله ويوسع من آفاق حياته ...

إذاً ، فلا ملام على الأقدار التى تدبر كل شىء وتضعه بميزان

ولا يجوز مطلقاً أن نتوهم أن حياة الإنسان بما فيها من أزمات ومآثم قد خرجت على الأقدار ، وأنه قد فاتت على الله الغاية من خلق هذا النوع — كما توهم بعض من كتب إلىّ منذ حين — فإن الإنسانية لا تزال فى دور تفتح المدارك واستقبال الشباب ، والشباب فيه لوثات كثيرة ، ولا بد أن تتدرج إلى أدوار الرشد الخالص فى كهولتها وشيخوختها ، وأن تحقق الغاية من خلقها كما أرادها ربها ...

وكل مآثم الحياة الإنسانية وأزماتها قد تغتفر ويجد الفكر لها تعليلاً ، إلا الكفر بخالق الحياة أو الإشراك به !

وكذب من يريد خديعة نفسه وخديعة الطبيعة وخديعة رب الطبيعة !

ذلك الذى يريد أن يفرض للحياة الفكرية الإنسانية مبدأ غير نقطة البدء التى يراها الفكر أول حياته ومفتاح عاله ...

كذب وضل ضلالاً بعيداً وخسر خسراناً مبيناً ، وقلب الحياة على أم رأسها وأم رأسه !

إن نقطة البدء فى الحياة الفكرية ، هى الفكر فى صاحب الدنيا : هذا البيت الكبير الهائل الذى جاء بنا إليه وأسكننا فيه من غير اختيار منا ... الفكر فيه حتى نعرفه وندرك طرق تسييره للحياة والطبيعة ، فنسير على خطواته وأسلوبه ...

إنه مجهول للحواس ولكنه معلوم للفكر ... وقد رأينا ظل يده يقع على كل شىء ويضع كل شىء فى موضعه

ومن أضلُّ ممن يأخذ أطفال الحياة أول نشوئهم ويباعدهم عن نقطة البدء هذه ويضعهم فى مكان سحيق ، فيستمر أول الطريق عندهم مجهولاً وآخره مجهولاً ، ووسطه مختلطاً مشوشاً كذلك !

الجناية الأولى هى إهمال الفكرة الأولى : وهى السؤال عمن جاء بنا إلى هنا ، ويمضى بنا كمابرى سبيل . ومن وراء الجناية الأولى تتلاحق أخواتها التى تجعل الحياة أغلاطاً مسلسلة

***

إن انفصال جنين إنسانى من رحم أمه حادث عظيم ينبغى للانسانية أن تتلفت إليه وتوليه أجل عناية ؛ فلعل فى الوليد حلقة جديدة فائقة تحمل سراً جديداً من أسرار تكوين هذا النوع

ولكن الإنسانية أو الدولة تجنى على نفسها إذ تهمل وصل كل عقل ناشئ بمفتاح الحياة ، ومفيض فيضها وموصل رحماتها

وكأن الوثنية لم ترتفع ببعض آثارها من الأرض للآن ...

وما الوثنية ؟ هى انصراف العقل الإنسانى عن الفكر فى مصدر الحياة وما يليق له من الكمالات وعن شكره الدائم ما دامت آلاؤه وفيوضه تملأ النفس بالحياة وتتواتر على الجسم ... ثم الركون إلى حجر أو بشر أو شىء من الأشياء ينسى الإنسان معه الإحساس بالحياة ورب الحياة ويستغرق فى ذلك النسيان حتى يتعبد ويلوذ بما ركن إليه ...

وها نحن أولاء نرى فى هذا العصر آلهة منصوبة من المتاع والشهوات والآلات والأعمال والصناعات يستغرق عقل الإنسان فيها حتى ينسى صاحب الحياة ...

قد يظن ظان أنى مغال فى الصوفية حين أدعو إلى أن يكون عقل الإنسان دائماً مرآة لشعاع ساقط من سماء الله ... ولكن هذا هو الوضع الأصيل الحقيقى للدين على ما أفهمه وعلى ما فسرته به فى مقال سابق من أنه الإحساس الدائم بالحياة والفكر فى مبدعها لتكون لذاتها وآلامها وأطرابها وأوصابها صوراً وألواناً من العبادة ...

والإسلام الذى هو دين الطبيعة ودين الحياة قد رسم لنا هذا حين سن رسوله أن يذكر اسم رب الحياة عند الأكل والشرب والجماع وسائر الأعمال والآلام ، حتى عند ما يريد الإنسان أن يدخل المكان الذى يخرج فيه ما فى جوفه من الأذى ... !

ولن يكون الدين غير هذا ... فليحمله فى نفسه من شاء ، وليتركه من شاء ...

***

ألا إنها « ديانة الحياة » التى تستحق وحدها أن يحيا الإنسان بها ويسعى جاهداً فى سبيلها لتحقيق غاياتها ...

وغاياتها : العقيدة الثابتة التى لا تتزعزع بخالق الحياة الواحد وحفظ الحياة نقية قوية متجددة كما هى فى الطبيعة ... ورصد قوانين الطبيعة التى تسير الحياة بنظام دقيق فى الجليل والحقير ...

أيام الرواق ...

للأستاذ محمد محمد المدنى

الرواق العباسى هو أشهر أروقة الجامع الأزهر ، وكان الأستاذ الامام محمد عبده عليه رضوان الله ، يلقى فيه دروسه التاريخية التى هى من مفاخر الأزهر ، وقد شهد الرواق فى الأيام الماضية القريبة مناقشات الرسائل الفقهية التى تقدم بها طلاب الأستاذية من كلية الشريعة ، وكانت هيئة الامتحان برياسة فضيلة الأستاذ الامام المراغى الذى انتهز هذه الفرصة ليلقى على الأزهريين أنفع الدروس ، ويضرب لهم أحسن الأمثال ، فما أشبه الليلة بالبارحة !

شفاك الله يا صاحب « الرسالة » ، وألبسك ثياب الصحة ضافية ، وأدالك من هذا المرض عافية سابغة كما يتمنى لك أصدقاؤك ومحبوك !

فى مثل هذه الأيام من العام الماضى ، كنت تكتب ، وكنا نكتب معك عن « فقهاء بيزنطة » الذين شغلوا الناس عما يجدى من العلم النافع ، والفقه المفيد ، بالجدال فى المحراب والشيطان وفائدة الأربعاء ، كما شغلوهم من قبل فى زر العمامة : « أيبتر أم يُضفى ، وفى شعر الذقن أيُحفى أم يُعفى ، وفى قبور الموتى : أتسوّى بالأرض أم تقام ! »

وكنت تأسف ، وكنا نأسف معك ، على الواقع الذى يكسف البصر ، ويرمض الفؤاد ، ويثير الظنون ، من أن أحداً من هؤلاء السادة لم يضم إلى المكتبة الإسلامية — على كثرة ما أرغموها عليه من رسائلهم — سفراً واحداً يشرح للناس عبقرية هذا الدين ، وفلسفة تشريعه ، ووجوه إصلاحه ، وأسباب خلوده ، على ضوء العلم الكاشف ، ونظام التأليف الحديث !

فليتك الآن كنت معافىً طليقاً ، لم يقعدك هذا العائق الكريه ، لتشهد معنا « أيام الرواق » !

إذن لرأيت فقهاء من غير الطراز الذى أثار بالنقد قلمك ، وأسال باللوم والتثريب بيانك ، ولرأيت الأزهر يكتب صفحة خالدة سوف تسجل فى تاريخه العلمى بيضاء ناصعة ، وسوف يتحدث عنها الأبناء والأحفاد كما نتحدث نحن عن صفحات الفخار فى ماضينا المجيد !

لم يكن الإمام المراغى فى هذه الأيام رئيس هيئة الامتحان فحسب ، ولو أراد ذلك واكتفى به لمرت هذه الأيام كما تمر غيرها من أيام الأزهر ، لا تلفت نظراً ولا تثير عبراً ، ولكنه أراد أن ينتهزها فرصة يضرب فيها للأزهريين جميعاً أروع الأمثال فى شتى نواحى العلم والفقه والتأليف والإفصاح !

فرأيناه وهو يناقش رسالة « النسخ » يأخذ على صاحبها أنه نقد أبا مسلم الأصفهانى نقداً مراً ، وتعصب عليه تعصباً ظاهراً ، لا لأنه هدم فكرته ، ووصل إلى أنها باطلة بالدليل العلمى الواضح ، ولكن لأنه يخالف جمهور العلماء وأكثرية المفسرين القائلين بوجود النسخ فى القرآن

وجه الأستاذ الأكبر هنا درساً نحب أن يلتفت إليه الأزهريون وأن ينتفعوا به ، فإنه قال للطالب : لقد كنت قاسياً على أبى مسلم فى غير ذنب جناه ، ولا شطط صار إليه ، فإن هؤلاء الذين قالوا بالنسخ فى القرآن مثلوا له بآيات بلغت عدتها عشرين آية ، فجاء الفخر الرازى وناقشهم فى تسع منها أو ثمان فظهر له أنها لا ينبغى أن تعد من باب النسخ ، فإذا جاء أبو مسلم ونقض بقية العشرين مبيناً بالدليل والبرهان ما صار إليه ، أيكون مستحقاً لهذا اللوم المنيف ، وكيف تحرمون على أبى مسلم ما تبيحون للفخر الرازى ؟

ورأينا الأستاذ الأكبر فى مناقشته لرسالة الزكاة ، ثم فى مناقشته لرسالة الحجر ، مثال العالم الذى درس نظم المعاملات دراسة موضوعية وافية ، وأدركها إدراكا صحيحاً ، فأصبح بصيراً بكل ما حوله ، لا يُخادَع ، ولا يُغالَط فيه .

تجلى هذا المعنى مرة فى رسالة الزكاة ، فقد أراد الطالب

واستخدام تلك القوانين لصنع موجودات جديدة على النماذج والأساليب التى فى الطبيعة ... وعدم الغفلة والذهول حتى لا نرى نهار اليوم كنهار أمس ... فلا يكون الزمان عندنا يوماً مكرراً مملولاً ، ولا يكون إحساسنا بالحياة واحداً فى مراحل عمر الفرد وعمر الجماعة ، فإن ذلك إحساس جسدى فقط بالحياة ... ووراءه إحساس فكرى روحى عند من لهم إخلاص الفكر فى الكون ...

أولئك الذين يرون كل يوم جديداً ... ثم يسبقون الحياة والزمن ... ثم يموتون ليولدوا مرة ثانية من بطن الدنيا ليروا مشاهد أخرى جديدة ... فإن العالم لا ينتهى أمده عند رؤية النفس والأرض والنجوم

وإن الذى صنع هذا العجب الذى نراه ، لا بد قد صنع غيره لا نراه

عبد المنعم خلاف

أن يعتبر (البنكنوت) من جنس الحوالات بالديون ، فسأله الأستاذ الأكبر : هل تحققت فى هذه الأوراق شروط الحوالة بالدين من رضا المحال والمحال عليه ، حتى تكون حوالة صحيحة ؟ ثم أفاض فى شرح اقتصادى تاريخى لنظام التعامل بالورق قديماً وحديثاً جلّى به المسألة للسامعين ، وضرب بهذه الدراسة الوافية أحسن الأمثال لمن يريد أن يصل إلى استنباط فقه جيد مستقيم !

وتجلى هذا المعنى مرة أخرى فى رسالة الحجر ، فقد قرر الطالب أن قانون المجالس الحسبية قد أخذ بمبدأ معين ، فأنكر عليه الأستاذ الأكبر ذلك ، وسأله عن مرجعه الذى اعتمد عليه فى تقريره ، فظهر أنه اعتمد على سؤال شفوى وجهه إلى أحد العارفين بنظام المجالس الحسبية واطمأن إلى جوابه ! وهنا ألقى الأستاذ الأكبر درساً عاماً فى الأمانة العلمية ، وما يجب على الباحث من التحرى وطول الصبر والأناة حتى لا يقع فى مثل هذا الخطأ الكبير !

وقد أثار الأستاذ الأكبر فى مناقشته لرسالة الطلاق مسألتين تستوقفان النظر ، وتستحقان البحث والدرس

إحداهما : أن الطالب كان يقرر أن الشريعة الإسلامية إنما أعطت حق الطلاق للرجل دون المرأة ، لأن الرجل أسمى من المرأة تصرفاً وأرجح عقلاً ، وأقدر على أن يحسن استعمال هذا الحق فيسمو به عن مواطن العبث ومواقع الهوى والغرض

فقال له الأستاذ الأكبر وهو يحاوره : إننا أولاً لم نجرب المرأة لنعرف إن كانت تستطيع أن تحسن استعمال هذا الحق لو أعطى لها أو لا تستطيع ، ولكننا إذا نظرنا إلى الرجل وجدناه قد أساء استعمال هذا الحق إساءة أصبحت مضرب الأمثال ، فهو يقسم بالطلاق حين يبيع ويشترى ، ويقسم به حين يمزح مع أصحابه ، ويقسم به حين يلعب النرد ، ويقسم به فى كل تافه من الأمر ، فإذا كانت العلة تدور حول إحسان استعمال هذا الحق أو إساءته ، فها هو الرجل قد أساء ، فهل لنا أن ننتزع منه هذا الحق لنضعه فى يد القاضى ؟ وحينئذ لا يجوز للزوج أن يطلق زوجته إلا أمامه ، فنكفل بذلك مصلحة الرجل والمرأة معاً ، ونجعل بذلك رباط الأسرة فى يد أمين بعيد عن الهوى ، خال من الغرض ، قدير على التدبر والنظر والموازنة والحكم العادل !

هكذا أورد الأستاذ الأكبر سؤاله واضحاً لا يكتنفه غموض ، جلياً لا يحيط به لبس ولا تعقيد ، ولكنه مع ذلك كان حريصاً على ألا تنسب إليه هذه الفكرة ، على أنها أمر قد بُت فيه وفرغ منه ؛ ولكن على أنها سؤال قابل للمناقشة والبحث ، ولذلك قال للطالب : إنى سائل فقط ، ولست قائلاً بهذه الفكرة ، ولا مقترحاً الأخذ بها ، ولا مشيراً بتشريع فيها !

ومسألة أخرى فى رسالة الطلاق ، عرض لها الأستاذ الأكبر ، وشرحها شرحاً وافياً ، ذلك أنه ورد فى الصحيحين أن الطلاق الثلاث فى لفظ واحد كان سبباً فى وقوع طلقة واحدة فقط على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى خلافة الصديق رضى الله عنه ، وفى صدر من خلافة عمر ، ثم قال عمر رضى الله عنه : إن الناس قد استعجلوا فى أمر كانت لهم فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم ، فأمضاه . فهل لعمر بوصفه إماماً للمسلمين أن يشرع ما لم يشرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ هل له أن يبطل سببية معتبرة شرعاً ويضع موضعها سببية أخرى ؟ وكيف ذلك مع أن الحكم بسببية صيغة من الصيغ فى استتباع أمر ما مما اختص به الشارع دون سواه ؟

يقول الأستاذ الأكبر : إن عمر لم يبطل سبباً ، ولم يضع سبباً ، وإنما رأى مصلحة فى أن يمنع الناس من بعض ما أبيح لهم من قبل ، ذلك أن الرجل كان إذا طلق امرأته ثلاثاً فى لفظ واحد لم يلحقها بذلك إلا طلقة واحدة يباح للزوج معها أن يراجعها ما دامت فى عدتها ، ويباح له أن يتزوج بها مرة ثانية إذا خرجت من هذه العدة بدون أن تنكح زوجاً غيره ؛ فكل ما فعله عمر أنه منع الأزواج من هذا الحق الذى كان مباحاً لهم ، فأصبح الزوج لا يستطيع أن يراجع زوجته من هذا الطلاق وهى فى عدتها ؛ وأصبح لا يستطيع أن يعقد عليها إذا خرجت من عدتها إلا بعد أن تتزوج سواه ويطلقها ، وإنما منعهم من ذلك لمصلحة رآها . ومن المقرر أنه يجوز للحاكم أن يمنع الناس من شىء كان مباحاً لهم من قبل إذا كان للصالح العام مصلحة فى ذلك

هكذا قرر الأستاذ الأكبر المسألة على هذا الوجه ، وفيها بعد ذلك وجه آخر لم يعرض له فضيلته هنا ، ولعله عرض له فى مذكرة قانون الطلاق سنة ١٩٢٨

بين رجال الدين والفلسفة

تمهيد ...

للأستاذ محمد يوسف موسى

هذا موضوع لا زلت به حفياً وله متطلباً . تصديت لبحثه منذ زمن ، وقرأت لأجله كثيراً من المراجع التي أرّخت الإسلام وحالة العلم والعلماء في العصور المختلفة . وقد أعلم أن بحث الخلاف بين رجال الدين والفلسفة أبيّ الزمام عسير العلاج ، وأنه حرى أن يجعلني مرمى النظر الشزر وغرض الألسنة الحداد . ولكن الأيام وما خلعته من قداسة على بعض رجال الدين حالت دون نقد ما كان لهم من آراء وأحكام بالتحليل والتحريم والإيمان والتكفير ، وما كان لهذا من أثر جعل كثيراً يجمدون مع الزمن ويأبون إلا أن يجعلوا أصابعهم في آذانهم . ولكن الخصومة المشبوبة النار بين أنصار القديم وبين أنصار الجديد في الأزهر وغير الأزهر ؛ لكن هذا وذاك جعلني أستسهل الصعب ، ولا أتهيب الخطر ، وأحاول أن أبين ـ بعد استعراض مراحل هذا الخلاف وألوانه ومظاهره عصراً بعد عصر ـ أن ما كان يوماً ما بين الدين وبين الفلسفة ، بل كان بين بعض رجال الدين وبين الفلسفة لبواعث يرجع بعضها لحب الدين والعمل على الذب عنه ، وبعضها يرجع للجهل والتعصب وحب الرياسات . هذا واجب يتعين على بعضنا أن ينتدب له نفسه ؛ لأنه مما يوجع القلب ويحز في الصدر ألا يزال الكثير — حتى في هذه الأيام — يرى ما كان يراه بعض الذين اتخذوا الدفاع عن الدين وسيلة لذيوع الاسم من أن هذا الفيلسوف ملحد وذاك كافر من غير بينة أو دليل ، إلا ما سمعه عن أحد أولئك الذين تقدم بهم الزمن ، دون أن يكلف نفسه محاولة الاطلاع على شيء من الآراء التي كانت السبب في الحكم بالكفر أو الإلحاد في الدين ، ودون أن يتعرف البواعث الحقة التي بعثت على هذه الأحكام ليعرف ما كان منها لله وما كان للدنيا وزينتها ! وأحب قبل كل شيء أن أجلو أمري وأشرح قصدي من هذه المحاولة .

١ — لست من القائلين ببقاء القديم على قدمه ، ولا من الذين يعيبون بعض الشيوخ لما شبوا عليه ، وانطبعوا بمرور الأيام به ، من الحياة حسب مناهج القرون الماضية وأساليبها ، والعزوف عن الجديد والتخوف منه ، وعدم القدرة على تحضير البحوث العميقة الشاملة التي تحتاج لكثير من مراجع لا طاقة لهم بالرجوع إليها .

٢ — ولست لهذا من الذين يرون أن شخصية الأزهر العلمية منوطة بجماعة كبار العلماء وما يقدمون من رسائل لا نعلم عنها شيئاً إلا أنها تتفق ومبلغ جهود مقدميها ، وإلا أنها صور لا يستغنى عنها المؤرخ لأنها تعبر عن الحياة التي حيوها والنهج الذي درجوا عليه

هذه الشخصية العلمية للأزهر يجب أن يخلقها — إن كانت غير موجودة — الشبان الذين واتتهم الوسائل ، أو تهيأت لهم السبل ، وعرفوا طرق البحث وأساليبه ، وعلى حبل الذراع منهم ما يدنيهم من الغاية ويقربهم من القصد . فلنقتصد من أجل هذا في اللوم ، ولنعمل على تدارك ما عجز عنه الآخرون غير ملومين ، إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها

إن في ميدان العمل لمتسعاً لجميع الجهود الصادقة . هناك مثلاً كتب علم الكلام في حاجة شديدة لمن ينفي عنها ما دخلها من آراء غير صحيحة النسب لمن تعزى إليهم من الحكماء والفلاسفة وغيرهم من أصحاب المذاهب الكلامية . هذه الكتب يجب أن يتوفر على دراستها نفر من الأكفاء الذين درسوا علم الكلام على النحو المعروف في الأزهر ، وآخرون من الأزهريين الذين درسوا الفلسفة الإغريقية في مصادرها الصحيحة ، ليكون في مقدورهم تقويم ما فيها من تلك الآراء ونسبة ما يصح منها لأصحابها ، وتبيين ما دخل علم الكلام من فلسفة اليونان تبييناً

أما بعد . فهذه أمثلة مما اضطلع به فضيلة الأستاذ الأكبر الإمام المراغي من توجيه للأزهريين في « أيام الرواق » لم نقصد بها إلى الاستيعاب وإنما أردنا تنبيه الأساتذة والإخوان والأبناء إلى وجه العبرة منها ليستخلصوه وليعتبروا به ، وليعلموا أن مجال العلم والتحقيق أوسع وأجدى مما يتصوره عليه سادتنا الأعلام « أعضاء الجماعة » ، أولئك الذين قضوا عاماً كاملاً يتناقشون في حملة العرش ، وما صفتهم ، وهل هم أوعال أو غير أوعال !

محمد محمد المدني

المدرس بكلية الشريعة

فتنـــة الزَّنج

ورثاء البصرة فى شعر ابن الرومى

للأســتاذ محمود الشرقاوى

— ٢ —

خلاصة

جئنا فى مقالنا الأول عن فتنة الزنج[1] على مبدأ ظهور صاحب الزنج وبدء فتنته واستيلائه على العبيد والزنوج وخروجه بهم على الولاة حتى دخل بهم البصرة وخرّبها فى شهر شوال من سنة سبع وخمسين ومائتين . وكان دخوله إليها وقت صلاة الجمعة لثلاث عشرة بقيت منه ، فأباحها صاحب الزنج لأتباعه ليلة ويومين يفعلون بها وبأهلها ما شاءوا .

رثاء ابن الرومى

بدأ ابن الرومى قصيدته فى وصف هذه الحال بهذه البداية الجازعة :

ذاد عن مقلتى لذيذ المنام   شغْلها عنه بالدموع السجام

أىّ نوم من بعد ما حل بالبصـ   رة ما حل من هنات عظام ؟

أى نوم من بعد ما انتهك الزنـ   ج جهاراً محارم الإسلام ؟

إن هـذا من الأمور لأمر   كاد ألا يقوم فى الأوهام

ومن هذه البداية يشعر القارئ بما يريد ابن الرومى أن يوحى إليه من الجزع والتهويل والتقديم لأمر عظيم « انتهكت به محارم الإسلام » حتى أن هذا الأمر العظيم يكاد ألا تصدقه الأوهام

ثم ينتقل بعد هذا الإيحاء وإثارة الغضب والسخط فى قلب سامعه وقارئه إلى وصف ما يريد فيقول مجملاً فى بيت واحد :

أقْدم الخائن اللعين عليها   — وعلى الله — أيَّما إقدام

ثم يعود بعد هذا الإجمال البارع إلى مافى نفسه من الحزن واللهفة على ما أقدم صاحب الزنج من أمر فيقول هذه الأبيات :

لهف نفسى عليكِ أيتها البصـ   رة لهفاً كمثل لهب الضرام

لهف نفسى عليك يامعدن الخيـ   رات لهفاً يعضنى إبهامى

لهف نفسى عليك يا قبة الإسـ   لام لهفاً يطول منه غرامى

لهف نفسى عليك يا فرْضة البلـ   دان لهفاً يبقى على الأعوام

لهف نفسى لجمعك المتفانى   لهف نفسى لعزّك المستضام

بهذه اللهفات المتواليات قد هيأ ابن الرومى قارئه لأن يقرأ وصفه القادم لما حلّ بالبصرة ، وقد امتلأ قلبه بالغيظ والغضب الذى أوحاه إلينا فى مطلع قصيدته . ثم يقول :

بينما أهلها بأحسن حال   إذ رماهم عبيدهم باصطلام

دخلوها كأنهم قطع الليـ   ل إذا راح مدلهم الظلام

---

(١) عدد ٣٩٧ من الرسالة

يرتفع به الشك وينجلى به الحق ، وتسهل معه دراسة علم الكلام .

وهناك أيضاً مسألة أخرى أعدها هامة من الطراز الأول ، أعنى بها تأريخ الأزهر ببيان الرسالة التى أنشئ أولاً لأجلها ، ومدى تطور هذه الرسالة على مدى القرون ، وما يجب أن تكون عليه فى المستقبل ، وتأريخ رجالاته الأعلام حتى تصل للعصر الحاضر .

إن من أعجب العجب أن يؤرخ مفكرى الإسلام كثير من المستشرقين ومن بينهم العالم الفرنسى كارّادى فو Carra de Vaux فى خمسة مجلدات تشمل ما يزيد على الألفين من الصفحات وأن نجد فى المعجمات الفرنسية ترجمات لمن يجب أن يكون لهم ذكر فى التاريخ ، بينما كبار من خرجهم الأزهر ، ومن لهم علينا أكبر المنة — بما ندرس من مؤلفاتهم وبما أفادوا العلم فى النواحى المختلفة — أصبحوا منسيين منا ولا نجد السبيل لتراجم لهم إن أردناها ! هـذا وذاك من الأعمال جدير بأن يستأثر بكثير من جهود من يرى فى نفسه الكفاية منا حتى يكون لنا شىء نباهى به فى العيد الألفى للأزهر ، وأرجو أن يكون منا غير بعيد

٣ — الناية التى أستشرف إليها هى إذاً المساهمة — فى غير تثريب على الغير من كبار الشيوخ الذين أدوا ما طلب منهم كما فهموه — فى تهيئة بيئة علمية ينظر فيها الطالب بعقله لا بعقل أحد ممن سبقوه ، ويرى فيها الرأى لأن الدليل يعضده لا لأن الغزالى أو مثله ذهب إليه . بذلك يصح لنا وجه الحكم فى العداء الذى زعموه بين الدين والفلسفة ، ويسهل الإقناع والاقتناع ، ونصحح كثيراً من قضايا الماضى وأحكامه ، ونبنى على ماض غير مدخول ، وأساس متين لا وهن فيـه . وإلى اللقاء القريب — إن تفضلت الرسالة الغراء — إن شاء الله تعالى

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين

أيّ هول رأوا به أي هول ... حقّ منه يشيب رأس الغلام
إذ رموهم بنارهم من يمين ... وشمال ، وخلفهم ، وأمام
كم أغصوا من شارب بشراب ... كم أغصّوا من طاعم بطعام
كم ضنين بنفسه رام منجّى ... فتلقوا جبينه بالحسام
كم أخٍ قد رأى أخاه صريعاً ... تَرِب الخد بين صرعى كرام
كم أبٍ قد رأى عزيز بنيه ... وهو يُعلى بصارم صمصام
كم مفدّى فى أهله أسلموه ... حين لم يحمه ، هنالك ، حامي
كم رضيع ، هناك ، قد فطموه ... بشبا السيف قبل حين الفطام
كم فتاة ـ بخاتم الله ـ بكرٍ ... فضحوها جهراً بغير اكتتام
كم فتاة مصونة قد سبوها ... بارزاً وجهها بغير لثام
من رآهن فى المساق سبايا ... داميات الوجوه للأقدام
من رآهن فى المقاسم ـ وسط الزنـ ... ـج ـ يقسمن بينهم بالسهام
من رآهن يتّخذن إماء ... بعد مِلْك الأمام والخدام

هذه القطعة من قصيدة ابن الرومى قد رأى فيها القارئ كيف دخل الزنج على البصرة وأهلها على أحسن حال ، فكان جيشهم كأنه قطع الليل . وكيف أخذتهم نار الزنج من خلفهم وأمامهم ومن يمين وشمال . ثم هو يقدم إلينا هذه الصور الشعرية الرائعة كأنها الرسوم أو التماثيل فى قوة تصويرها . فهذا شارب أو طاعم حين هجم عليه الزنج غصّ بشرابه وطعامه ، وهذا هارب ضنين بنفسه قد جبهته سيوفهم وتلقت جبينه ، وهذا أخ يرى أخاه صريعاً قد عفّر التراب خده بين كرام غيره ، معفّرة خدودهم . ثم يقدم إلينا صورة من تلكم الفتيات الأبكار على خاتم الله قد فضحهم الزنج وفضّوهن جهرة بغير اكتتام . ثم ساقوهن إلى السبي يفرقونهن بينهم ويقتسمونهن مماليك وكنّ من قبل يملكن الإماء والخدام

ثم يعود بعد إبراز هذه الصورة القوية من السفك والقتل والعدوان إلى شعوره النفسي يوحى به فيقول :

ما تذكرت ما أتى الزنج إلا ... أضرم القلبَ أيما إضرام
ما تذكرت ما أتى الزنج إلا ... أوجعتني مرارة الأرغام

ثم يعرج إلى ذكر صور مجملة بعض الإجمال عن بيع السبايا وتخريب البيوت البارة كانت مأوى الضعاف والأيتام . ودخول القصور العامرة كانت من قبل صعبة المرام . ثم يقدم لنا بعد ذلك صورة كلها حياة وكلها حركة وكلها دقة ووضوح وهى قوية غاية القوة عن مدينة البصرة وكيف كان زحام الخلق فيها وعماد أسواقها وتلك الفلك التى تسير منها وإليها بالتجارة والناس ، وتلك القصور ذوات الأحكام من بنيانها ، وكيف استحال هذا كله — بفتنة الزنج — إلى خراب وصمت لا يرى فيه غير أيد وأرجل مقطوعة ورؤوس مهشمة ووجوه دامية بين الخرائب تسفى عليها الرياح :

عرّجا صاحبىّ بالبصرة الزهـ ... ـراء تعريج مدنف ذى سقام
فاسألاها — ولا جواب لديها ... لسؤال — ومن لها بكلام ... ؟
أين ضوضاء ذلك الخلق فيها ؟ ... أين ذاك البنيان ذو الأحكام ؟
بدلت تلكم القصور تلالا ... من رماد ومن تراب ركام
سلط البثق[1] والحريق عليها ... فتداعت أركانها بانهدام
وخلت من حلولها ، فهى قفر ... لا ترى العين بين تلك الأكام
غير أيد وأرجل بائنات ... نبذت ، بينهن أفلاقُ هام
ووجوه قد رملتها دماء ... بأبى تلكم الوجوه الدوامى
وطئت بالهوان والذل قسرا ... بعد طول التبجيل والإعظام
فتراها تسفى الرياح عليها ... جاريات بهبوة وقتام
خاشعات كأنها باكيات ... باديات الثغور ، لا لابتسام ...!

ولا شك فى أن القارئ يشعر بتلك القدرة الفائقة التى صور بها ابن الرومى ذلك المشهد ، مشهد خرائب البصرة وقصورها التى أضحت تلالاً ، ومشهد تلك الأيدى والأرجل مبعثرة فيها قد نبذت بينهن أفلاق هام ، ومشهد تلك الهام ملقاة خاشعة باكية قد بدا منها الثغر وبرزت النواجذ ولكن لا لتبتسم ... !

ثم ينتقل ابن الرومى بعد ذلك إلى ذكر مسجد البصرة وما حل به فيقول مخاطباً صاحبيه أيضاً :

بل ألما بساحة المسجد الجا ... مع إن كنتما ذوى إلمام
فاسألاه ـ ولا جواب لديه ـ ... أين عباده الطوال القيام ... ؟
أين عمّاره الألى عمّروه ... دهرهم فى تلاوة وصيام
أين فتيانه الحسان وجوها ؟ ... أين أشياخه أولو الأحلام

(١) فى القاموس [بثق النهر بثقاً وبثقا وتبثاقاً كسر شطه ينبثق الماء] ولعل صاحب الزنج كان قد كسر « شط العرب » الذى تقع عليه البصرة ، فتصدق صورة ابن الرومى عن حصارها بالماء والنار .

تحريض وإثارة

إلى هذه الغاية يكون ابن الرومى قد أبرز تلك الصورة البارعة القوية الصادقة عن وصف ما حل بالبصرة وأهلها على يد الزنج ، فهو ينتقل بعد ذلك الوصف إلى تهييج الناس وتحريضهم وإثارة نفوسهم على صاحب الزنج وزنوجه حتى يثأروا منه لأنفسهم وأهليهم . وهنا تبرز الغاية التى قصد إليها ابن الرومى ، ونعتقد أنه تعمدها حين بدأ قصيدته بتلك البداية ... وقد أشرنا إلى ما تشعر به من الرغبة فى التحريض والإثارة حين ذكر ابن الرومى « محارم الإسلام » ، وحين قال بعد ذلك بيتاً قصدنا أن نسقطه من موضعه لنذكره الآن وهو :

وتسمى - بغير حق - إماماً ... لا هدى الله سعيه من إمام

وقد ذكر هذا البيت بعد ذلك الذى يقول فيه إن الخائن اللعين صاحب الزنج قد أقدم عليها وعلى الله

كل هذه الإيحاءات بالهياج والثأر يجملها ابن الرومى دعوة صريحة فى هذه القطعة التى ينتقل إليها بعد ذكر المسجد الجامع وعباده وفتيانه وشيوخه أولى الأحلام

أى خطب ، وأى رزء جليل ... نالنا فى أولئك الأعمام
كم خذلنا من ناسك ذى اجتهاد ... وفقيه فى دينه علام
واندامى على التخاذل عنهم ! ... وقليل عنهم غناء ندامى
وأحيائى منهم -- إذا ما التقينا ... وهم -- عند حاكم الحكام
أى عذر لنا ؟ وأى جواب ؟ ... حين ندعى على رؤوس الأنام :
يا عبادى ! أما غضبتم لوجهى ... ذى الجلال العظيم والإكرام ؟
أخذلتم إخوانكم وقعدتم ... عنهم - ويحكم - قعود اللئام ؟
كيف لم تعطفوا على أخوات ... فى حبال العبيد من آل حام ؟
لم تغاروا لغيرتى ، فتركتم ... حرماتى لمن أحل حرامى
إن من لم يغر على حرماتى ... غير كفء لقاصرات الخيام
كيف ترضى الحوراء بالمرء بعلاً ... وهو - من دون حرمة - لا يحامى

ثم يقدم لنا ابن الرومى بعد هذا التحريض القوى هذه الصورة البارعة عن خصومة تخيل أنها واقعة بينه وبين النبى عليه السلام عن هؤلاء الشيوخ والفتيان وكيف لم يثأر لهم :

واحيائى من النبى إذا ما ... لامنى فيهم أشد اللام !
وانقطاعى إذا هم خاصمونى ... وتولى النبى عنهم خصامى !
مثلوا قوله لكم - أيها النا ... س - إذا لامكم مع اللوام
« أمتى ! أين كنتم إذ دعتكم ... حرة من كرائم الأقوام ...؟
صرخت : يا محمداه ... ! فهلاَّ ... قام فيها رعاة حقى مقامى ...!
لم أجبها إذ كنت ميتاً فلولا ... كان حى أجابها عن عظامى ! »

وأريد هنا أن أشير إلى براعة ابن الرومى إذ انتقل من خطاب نفسه فى الأبيات الأول إلى خطاب من يحرضهم حين بدأ يصف خصومة النبى عن قتلى الزنج فقال : « مثلوا قوله لكم أيها الناس »

ثم يندرج ابن الرومى بعد هذه الإثارة وإهاجة النفوس إلى الدعوة الصريحة إلى الثأر من صاحب الزنج فى هذه القطعة التى هى ختام قصيدته ، والتى نكتفى منها بهذه الأبيات :

انفروا - أيها الكرام - خفافاً ... وثقالاً إلى العبيد الطغام
أبرموا أمرهم وأنتم نيام ، ... سوءة سوءة لنوم النيام
صدقوا الظن إخوة أملوكم ... ورجوكم لنوبة الأيام
أدركوا ثأرهم فذاك لديهم ... مثل رد الأرواح فى الأجسام
لم تقروا العيون منهم بنصر ... فأقروا عيونهم بانتقام
أنقذوا سبيهم - وقل لهم ذا ... ك حفاظاً ورعية للذمام
عارهم لازم لكم ، أيها النا ... س ، لأن الأديان كالأرحام
لا تطيلوا المقام عن جنة الخلـ ... ـد فأنتم فى غير دار مقام
فاشتروا الباقيات بالعرض الأد ... نى ، وبيعوا انقطاعه بالدوام

***

هكذا ينتهى ابن الرومى من قصيدته فى رثاء البصرة وفيما أصابها وأهلها من صاحب الزنج وفتنة الزنج وتحريض الناس على الثأر منه ومنهم

وأعتقد أن القارئ يجدنى لم أكن مغالياً حين قلت فى ختام مقالى الأول عن هذه القصيدة من شعر ابن الرومى إنها قصيدة عجيبة من غرائب الشعر العربى ، وضوح بيان ، وقوة تصوير ، وإعجاب خيال ، وصدق عاطفة ، وأنها من بدائع الشعر العربى كله

وأزيد على ذلك اليوم أن ابن الرومى كان فى تحريضه الناس وتهييجه لهم ، ماكراً خبيثاً وقوياً عارماً شديد التأثير ، يكاد شعره فى ذلك يدفعنا نحن الآن -- أحد عشر قرناً -- إلى الثورة والهياج

محمود الشرقاوى



المتعاظمون

هذا الفريق من بنى آدم أو هذا الصنف كثير شائع ، ولكنى أقصر الحديث هنا على بعض أصحاب السلطان منهم ؛ ولسوء حظك أو لسوء حظى أنا — على أقرب الرأيين إلى الصحة — أن يرى هؤلاء فى كثير من المجالس . ولست بحاجة إلى منظار ، بل ولا إلى عينين — لا قدر الله — لترى هؤلاء النـاس ، أو تحس سلطانهم إن صح عندهم أنهم ناس من الناس ...

ومن عجيب أمر هؤلاء أنهم وإن كانوا على رغم أنوفهم الشم ناساً يجرى عليهم ما يجرى على سائر الخلق لا يؤمنون إلا بأنهم فوق مستوى الناس ، وعسير عليك أشد العسر أن تقنعهم من بعيد أو من قريب بأن لهم مثلك يدين ورجلين وحواس وما إليها من جوارح وأحشاء ، وأنهم يأكلون كما تأكل ، وإن لم يكن مما تأكل ، وأنهم يشربون وينامون ويفرحون ويغضبون ويمرضون ويموتون كما يجرى عليك من أحكام الطبيعة سواء بسواء

هذا الفريق الذى أتحدث عنهم هم أصحاب السلطان من أصحاب الديوان . ولعلك لم تنس بعد أحاديثى عن أصحاب الديوان ، وإن كنت وقفت بك عند صغارهم لا خوفاً من كبارهم علم الله . وما لى أقسم وها أنذا أعرضهم عليك جملة وأحشرهم أمام المنظار فى غير تهيب ولا رفق :

ترى الشخص منهم — وهو شخص رضى أو لم يرض — فى ردهة من ردهات دور اللهو ، أو فى سيارة عامة ، إن لم تكن له سيارة خاصة ، أو فى عرض الطريق ، فتحييه تأدباً منك وعملاً بمـا يوجبه الذوق وتفرضه الإنسانية ، فيدهشك أنه يبدو عليه كأنه لا يلقى منك تحيـة ، بل تراه وكأنه يلقى منك إهانة ؛ وإلا فما باله وقد كان منبسط الأسارير : يتجهم لك ويشمخ بأنفه ويرميك بنظرة كريهة كأنه يريد أن يخيفك فى غير داع لذلك ولا مناسبة ؛ ثم يرد تحيتك الحارة برفع سبابته قليلاً تجاه رأسه العالى ، أو بإيماءة بسيطة ، ويمضى وكأنه لم يكن يرد تحية ، وإنما كان يرد على توسل سائل بإلقاء مليمين فى كفه المبسوطة ! ...

ولقد تعجب لذلك ، ولـكن عجبك دليل بساطتك أو طيبة قلبك ... والحق أنى أريد أن أقول دليل « عبطك » فاقبلها منى ولا تدعنى أموه فأتحايل على الألفاظ ، ولخير لك على أى حال أن تكون كما أذكر ، وتكون لطيفاً ، من أن تكون فظاً غليظ القلب ، وإلا فلك الخيار ، ولكن على شرط أن يتوافى لك السلطان قبل كل شىء ...

وفيم تعجب وعنده أن التحية توجه إلى مقامه ممن هم دونه ، إنمـا هى ضرب من عدم الاحتشام بين يديه ، فهى لذلك ضرب من عدم اللياقة ، أو هى جرأة تلحق بقلة الأدب عند بعضهم ، وما أردت أنت إلا أن تكون مؤدباً ... ولقد يصور له كبرياؤه وغروره أن ذلك منك تحد لذاته الخطيرة والعياذ بالله ، وفى ذلك سر تجهمه وتعاظمه وكريه نظراته وتفسيره تأدبك بأنه قلة أدب

وكأنى بك ، أيها القارئ ، تضحك منى وتقول فى نفسك إنما يصور بما يكتب ما وقع له ، وأريد أن أكون صادقاً ، فأسلم لك بصحة هذا ، ولـكن قل لى بربك ، ما ذنبى لتضحك منى يا أخى — سامحك الله — وأينا أجدر بضحكاتك ، أنا أم ذلك المتعاظم المتكبر ؟ ثم اعلم أنى لم أغضب ولن أغضب لمـا يكون بينى وبين هؤلاء المتعاظمين . لم أغضب لأن ما حدث هو ما كنت أتوقعه ، بل إنى لأضحك إذ أقع من ذلك على مادة لمنظارى ، ثم إنى لن أغضب لأنى أعرف كيف أكيل لهم بنفسى كيلهم متى أردت ، فأزيدهم غيظاً وأزداد منهم ضحكا ، ولو علمت الحق لرأيت أنى دائماً ألقاهم بالعصيان المدنى ، وهو سلاحى السلبى الوحيد الذى لا سبيل لى إلى غيره

جمعنى بفريق من هؤلاء مجلس من المجالس ، أو قل قادتنى الظروف على رغمى إلى هذا المجلس ، فما كان لى أن أغشى مجالس أصحاب السلطان مختاراً ، فانتحيت ناحية وجلست ، وقادت الظروف كذلك بعض أصدقائى ممن هم فى مثل سنى ، وفى مثل مركزى الصغير ، فحمدت الله وزال عنى القلق ، فلقد كنت أحس نفسى غريباً قبل مجىء هؤلاء الذين لا حول لهم ولا سلطان ، وانفرجت شفتاى لأول مرة منذ جلست أرد على تحيات هؤلاء الأصدقاء ، فما وجه إلى أحد من أصحاب السلطان تحية تنفرج لهـا الشفاه ،

فلم تك ثمة إلا إيماءات متكلفة لاذعة قصيرة، أو إشارات باليد آلية لا روح فيها، اللهم خلا رجل منهم تلطف فجاد عليّ بتحية منادياً إياي باسمي ولكن بعد أن فعل ذلك من هم على شاكلتي من الخلان

وجلست صامتاً أترقب وأنا أخفي ضحكي مما رأيت على وجوه أصحاب السلطان من معاني الازدراء عند دخول أصحابي، ولقد حياهم هؤلاء السذج في أصوات طلقة، وفي إشارات وانحناءات دمثة جميلة، فما عادوا إلا بأشارات وإيماءات أرستقراطية كانت هي الأخرى جميلة على رغمي وعلى رغم منظاري!

واستأنف أحد أصحاب السلطان ما كانوا فيه من حديث، واحتدم النقاش بين هؤلاء السادة، فهذا يعترض على ذاك، وذلك يرى ما يرى جاره أو لا يرى الصواب في رأيه، وفي وجوه الجميع بشر أو تحمس أو ضحك من دعابة أو نكتة يطرد من هاتيك الوجوه شبح الكهولة أو يستمهل الشيخوخة لحظات

وبدا لأحد السذج من الرفاق - رفاقي أنا - فحشر نفسه في الحديث يحسب أنه يكلمني أو يكلم أحد أقرانه، فما أسرع ما بدت الدهشة على وجوه الجميع! ثم تغافلوا عنه بأطراقهم، وقطع عليه أحدهم كلامه فساق الحديث إلى رأي جديد، وذهبت كلمات المسكين هباء أو أقل من الهباء

ثم تكلم شاب آخر لم يتعظ بما جرى لسالفه فكان من أحب المناظر عندي، ولا أقول من أبغضها أن أرى على وجوه أولئك السادة ذلك الاتفاق الذي لم يقصدوا إليه لأنهم اعتادوه كلما تطفل على حديثهم العالي متطفل لم تصل بعد مداركه إليه ولا هيأه مركزه حتى لمجرد الاستماع له، وهو اتفاق على المقاطعة أو الإغفال لأمر المتكلم. وأحسب أنهم لو نظروا ساعتئذ إلى ذلك الساذج الثاني لأخذتهم الشفقة لحمرة الخجل تتوقد في محياه فما تقسو قلوبهم إلى حد أن يعرضوا عنه وهو على تلك الحال

على أن اثنين منهما رمياه بنظرة ولكن بعد أن خفت في وجهه حمرة الخجل ورأيتهما يزدريانه في صمت، فهو مرؤوسهما في الديوان ولا يجمل به أن يجرؤ مثل هذه الجرأة فيناقش رؤساءه. وكم أتمنى لو يتاح لي من البيان ما أصور به ما ارتسم على محياها الكريمين من اشمئزاز! وكم يؤلمني ألا تسعفني الألفاظ بما أريد!

وأتى أحدهم بنكتة تصلح لأن تكون نكتة ولكنه أتى بها لسوء حظه في ضجيج من النقاش فلم يفطن إليها غيري فضحكت بصوت يسمع فالتفت نحوي ضاحكا مسروراً وصاحب النكتة يبحث دائماً عن الضاحكين من نكتته ويسر إذ يجدهم ... على أن هذا ما لبث أن قطع ضحكته بغتة كأنما أزعجه أن يتبادل وإياي الضحكات ثم تكلف العبوس ونظر إليّ ولكني لم أقطع ضحكتي فقد كانت هذه الحركة منه أدخل في معنى النكتة من عبارته وأدعى إلى الضحك منها

وما يريد أصحاب السلطان ممن هم أصغر منهم إلا أن يتزلفوا إليهم فينهضوا وقوفاً إذا أقبل أحدهم ويشيعوه إذا انصرف، فإذا تقدم أحد هؤلاء الصغار ففتح باب السيارة حتى يركب «سعادة البك» أو حمل له معطفه حتى يلبسه فذلك هو ما يكبر به في عين سعادته ولذلك دخل كبير في قياس كفايته في عمله وإن لم يكن لعمله صلة ما بعمل «الجرسونات»! والعجيب أنك ترى الرجل من هؤلاء يتصاغر وينكمش كأنما يدخل بعضه في بعض إذا كان أمام من هم أكبر منه وذلك بقدر ما يتعاظم وينتفخ إذا نظر إلى من هم دونه

وبعد فقد أفهم أن أرى أصحاب السلطان في دواوينهم متعاظمين وإن عد ذلك مرذولاً منهم أينما كانوا، فإن الرجل منهم يكون هناك في «منطقة نفوذه» وما يذهب إليه في الغالب حيث مقر سلطانه إلا طالب حاجة عنده

ولكن كيف أفهم لعمري أن يتعاظم عليك هؤلاء خارج دواوينهم ولقد تكون بحيث لا تربطك بهم صلة من عمل أو من حاجة؟ بل كيف يتعاظمون وإن كان يصلك بهم العمل أكبر صلة وإن منهم من لا يفضلك إلا بما ساقته إليه الظروف من منصب بحيث لو رجع القهقرى إلى مثل سنك لكنت أحسن منه عقلاً وأقوى تفكيراً وأكثر اطلاعاً. ولقد تكون اليوم أكثر منه ذكاء على رغم جاهه، بل ولقد يكون من الغباء بحيث لا يصح أن تقيس عقلك إلى عقله إلا إذا أردت أن تمتهن نفسك

وبعد فنحن أمة تكثر الكلام في الديموقراطية وتبالغ في السخرية أحياناً من حيث لا تدري فتعطيل الكلام عن الانتخابات مثلاً أتكون مباشرة أم غير مباشرة؟

الخفيف



إن كنت فناناً !

... فهـــذه نفسى !

للأستاذ عزيز أحمد فهمى

يارب محمد ! أستغفرك يارب محمد !

أعصابى متراخيـة . عقلى نائم . عيناى تريدان أن تنطبقا كأنهما زهدتا النور ، وما هو زهد ولـكنه تسليم

نفسى تهرب منى ، وتتحجب عنى ... أريد أن أعرف ماذا بها ؟ أسألها فيقع السؤال فيها كما تقع الحجرة على كومة التبن المحروق ، فلا صوت ، ولا رد على الصوت ، ولا شيء

إذن فماذا بقى لى ؟ لا شيء !

وإذن فماذا أصنع ؟ ... لا شيء . والصبر طيب . والنجدة عند رب محمد ...

اللـهم إنى قد أسأت ، اللـهم إنى قد أسأت !

هأنذا أعترف لك وما أنت بحاجة لأن يعترف لك مذنب . ولكنى أريد أن أفضح نفسى لعلك تريد بعد ذلك فتمحو بلطفك وكرمك ما سطرته على جبينى بحكمتك وخبرتك من الإثم ، وآثار الإثم ...

لن أعدد ما ارتكبت ، فإنى لا أحصيه . ولـكنى أقول إنى ما تركت إثماً إلا واقترفته

ولقد كان شر آثامى أنى فى يوم أنكرتك . أعوذ بك من نفسى . وأعوذ بك لها

لقد انطلقت يوماً أعربد بروحى وبدنى ، وأقول — وبئسما كنت أقول — إن الخبطة العشواء التى أوجدت هذا الـكون وإنما أوجدتنى حكمتنى فى الكون كما حكمت الكون فىّ ، فما دام هو يأخذ منى فلآخذ منه ، وما دام هو يستبد بى فلأستبد به ... ومن أنا ... ؟؟

حقاً إنى كفرت يا ربى . ولـكنى لا زلت أتوسل إليك حتى بكفرى . فقد كنت أحبك وأنا منكرك

ألست أنت صاحب هـذا البحر الذى كنت أصارع الريح وأنا ساع إلى أعتابه فى ليالى الشتاء العاصفة المقمرة لأجلس عنده وأنا سكران فى يدى السيجارة كلما نهقت منها نفساً شهقت معه من البحر أملاً ، وكلما زفرت نفساً زفرت معه إلى البحر هماً . لقد كنت أتبادل الأنفاس مع البحر ، هذا الوحش المحبوس عن الأرض الراضى بالحبس

لقد كنت أحبه . ولقد أحبنى هو أيضاً فأعطانى الـكثير من نفسه : جلداً ، وصبراً ، وصفاء ، وغنى ، وحياة ، وقوة ... ومسكنة مع هذا كله وذلاً

لقد سبحتك فيه يا رب لأنى كنت أراه وأبادله الحب ، وكان عقلى أصغر من أن يؤمن بك غيباً

ثم ألست أنت صاحب تلك السامية التى كانت تربق علىّ أضواءها فأشرب منها وأشرب وأشرب وأنا لا أدرى لماذا لا أرتوى على كثرة ما أنا شارب حتى علمت أن ما كنت أشربه لم يكن إلا نوراً ، والإنسان لا يرويه النور وحده إن لم يمزجه بشيء من الظلمة . فلما بحثت عن الظلمة انفلت النور منى ، وكف يده عن أوتار قلبى

من يومها يارب وأنا غارق فى ظلمات وظلمات ولـكن بعد أن آمنت بالنور . فالهم شعاعاً ، رحمة منك وعزاء

ثم ألست أنت صاحب حديقة النزهة ... أنت صاحبها رغم أنف المجلس البلدى

كنت كلما اكتأبت وثقلت على واجبات الجبر والـكيميا ، وأرهقتنى حياة المدرسة الجـافة التجأت إلى النزهة أفرغ فيها ذبولى وآخذ من أزهارها وأشجارها نضرة ... وبهجة ... واطمئناناً وفرحاً ...

ما أكرمها الأشجار والأزهار ! ما أحلاها ! إنها تتضور حباً ، وتشرئب إلى عاشق يهفو إليها بنظرة ... وخفقة

وما أقسى عشاق الأشجار والأزهار ... أطمعهم صمتها وسكونها واستسلامها فانهالوا عليها قطفاً ... والقطف قتل ... وأكرمهم يجود عليها بشعر . والشعر كلام ...

إننى لم أسرف يا رب فى قطف الأزهار ، وإسألها

كنت أقنع بالذى تنفثه هى راضية من الحنين المؤمل ، والشهوة المتبخرة الرطبة ... وكنت أعود عنها إلى المدرسة وأنا كالقرنفلة الناطقة الحية : أبذر فى قلوب الناس حباً أبعثره وأبعثر وراءه من

تلك الزأرة التى أعطانيها حبيبي الأزرق ذو الأمواج وذو الأنفة !

ثم ألست أنت صاحب هذه السماء التى كنت أتقلب على الرمال إليها لأسرح بنفسى فيها مرتحلاً من نجم إلى نجم ، ومن كوكب إلى كوكب ، متباعداً عن الأرض ما استطعت ، مختاراً من أكوانك أقصاها كأنما كنت أريد أن أستوعب ملكك ، فما استوعبت شيئاً وما كنت إلا لأرتد حسيراً ، ولكن بعد أن تطول حيرتى فيك وفى ملكك ...

سبحانك ! قد خلبت لبى ...

يا صاحب الصحراء تخرج فيها الحى من الميت ... يا لمسرحك هذا الأقفر من مسرح !

يا صاحب الناقة الصابرة ! يا صاحب النخلة المتكبرة ! يا صاحب السلحفاة الصائمة الساخرة ! يا صاحب الغزالة النافرة ! أليس هذا فنك ! وهل عشقت سواه حين كنت أنكرك !

ما عشقت سواه وأنا منكرك ! ولا عشقت سواه وأنا راج أن أعرفك ! وما سوى ذلك إلا العدم، فكل موجود من أثرك وصنعك يا رب محمد ! أستغفرك !

وأحمدك وأشكرك . فلقد ذكرتنى بك حين أنسيتنى نفسى ، وأنا حين أذكرك أهدأ وأطمئن ، لأنى أعرفك الرحمن الغفار الذى ينقشع أمام رحمته وغفرانه كل ضلال وكل عطب ؛ والذى إن عاقب أرسل فى العقاب راحة ورضى ، وقرن بالعسر يسراً . وإن مع العسر يسراً

بدأت أنتعش ...

زوابع من الإسكندرية تناديني . أريد أن أنطلق . أريد أن أعربد مرة أخرى ؛ ولكن عربدة المؤمن المطمئن

أريد أن أصرخ . أريد أن أبطش بهذه الظلمات التى بطشت بى حين أمنت إليها . أريد أن أقيم الدنيا وأقعدها . فهل أنا قادر من ذلك على شيء ...

إذا أردت أنت فإنى قادر ، وإذا لم ترد فهأنذا كما أردت ...

قلبى ينبض بالأمل فيك ، وعقلى شارد وراء هذا الأمل يريد أن يعرف ما هو ، ولكنه تعب ولم يعرف ما هو ... فأرشدنى .

ليس أشهى لدى من أن أشعر بأنى أرضيتك وأنك أرضيتنى وأنا طماع ، دنىء النفس . قد أتخم ولكنى قد لا أشبع .

أنت الذى خلقتنى . فساعدنى على نفسى . وخذ بيدى ، وأنت تستطيع . ولا أحد غيرك يستطيع .

أنت تطالبنى بالتوبة ؛ ولكنك أرجأت التوبة فى قرآنك إلى سن الأربعين . فلى الآن إن مددت فى عمرى عشر سنوات باقية قد أستجديك بعدها عشراً ، وقد أستجديك بعدها عشراً ، فما أحسب التوبة ممكنة وقتك الخلاب يدغدغ العيون ، ويناوش الأسماع ، وينكث القلوب ...

ثم لماذا يتحتم على أنا أن أتوب ؟ !

أأنا إنسان عاقل ورشيد ؟! إنى لا أظن ذلك . فليس عاقلاً رشيداً هذا الذى يستمرىء أن يفضح نفسه بنفسه . ولا هو عاقل رشيد هذا الذى يطاول من هم أشد منه قوة وآثاراً فى الأرض ، وينوخ للضعيف الهزيل يركبه ويضرب بطنه برجليه ...

أنا يارب كما تعلم . فعافنى . واسمح لى أن أقضى فى ملكك هذا ما قدرت لى من البقاء وأنا تحت رعايتك وعطفك . فلست إلا طفلاً غراً آنته دلال استحكم فى نفسه من كثرة ما استقاه وعبه من نفح القرنفل والياسمين

واحمنى يا رب من الشر أن يسكن نفسي . واملأ قلبى سلاماً . وانزع منه كل حقد وكل غل

واحمنى يارب من الشر أن يقذفنى به حاقد أو مغلول ؛ فأنا أعجز من أن أتاقى قذائف الشر المتستر ، ولدغات الحقد والنغل

يا رب محمد . إحفظ يحيي السيد فقد أقرضنى اليوم عشرة قروش ، وإن كان لا يعرف متى سيستردها

هو طالب فى ليسانس الحقوق . فخذ بيده فى امتحانه القريب ... أرجوك بحق محمد

عزيز أحمد فهمى



المسلمون « قوارى » الله فى الأرض

وردت لفظة من الجموع الشاذة فى قول لابن الخياط (أوغيره) فى الإمام مالك :

يأبى الجواب فما يراجع هيبة والسائلون نواكس الأذقان
هدْى التقى وعز سلطان التقى فهو المطاع وليس ذا سلطان

فى كتاب (الحيوان) للامام أبى عثمان الجاحظ ذى الأحاديث الطلّة[1] المنورة ، فقال محققه وشارحه الأستاذ عبد السلام محمد هرون فى أمر تلك اللفظة :

« نواكس جمع ناكس وهو من الجمع الشاذ وقد أسهب البغدادى عن نحو هـذا الجمع فى الخزانة (١ : ١٩٠ — ١٩٥) وفى مجلة الرسالة العدد (٣١٥ ص ١٣٩٤) بحث قيم ، واستدراك طيب لهذا الشذوذ[2] »

راجعنا هذا البحث فى (المجلة) فألفينا فيه ثمانية عشر جمعاً لكنه قد فاته جمان ذواشان . ولا نقول : إن سبب هذا الفوت هو قلة الاستقراء أو العجز إذ لا نجهل أنها لغة العرب بل لغات العرب كما أنا ما نسينا ما روى فى (الرسالة) عن (رسالة الإمام الشافعى فى أصول الفقه) : « لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً ، وأكثرها ألفاظاً ، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبى »

وذانك الجمان الشاذان الفائتان هما القوارى والسوابق

١ — فى الفائق : فى الحديث : الناس قوارى الله فى الأرض ، وروى المسلمون ، وروى الملائكة . وفى الصحاح : الأصمعى : الناس قوارى الله فى الأرض أى شهداء الله ، أخِـذ من أنهم يقرون الناس أى يتبعونهم فينظرون إلى أعمالهم . حكاه أبو عبيد فى المصنَّف . وفى النهاية : أى شهوده فإذا شهدوا الإنسان بخير أو شر فقد أوجبَ[3] ، وأحدهم قار ، وهو جمع شاذ ؛ حيث

(١) طال وطلة لا طلى ولا طلية . يراجع (حديث طل) الرسالة ٢١٨ ص ١٤٧٤

(٢) الجزء ٣ بتحقيق وشرح عبد السلام محمد هرون ص ٥٨٢

(٣) أوجب فلان وجبت له الجنة أو النار ، وهذه موجبة ، وركب للوجبات (الأساس) قالوا : الموجبة تكون من الحسنات والسيئات

هو وصف لآدمى ذكر كفوارس ونواكس .

جرير :

ماذا تمد إذا عـددت عليكم
والمسلمون بمـا أقول قوارى[1]

راجز :

حـــدثنى الناس وهم قوارى
أنك من خــــير بنى نزار
لـكل ضـيف نازل وجارى

٢ — قال محمد بن مالك : ... وشذ فى الفارس مع ماماثله .

قال ابن عقيل : وشذ فارس وفوارس وسابق وسوابق

حماسى[2] :

إن تُبتدر غاية يوماً لمكرمة تلق السوابق منا والمصلينا

القنانى فى مدح الكسائى :

أبى الذم أخلاق الكسائى وانتحى
به المجد أخلاقَ الأبُوَّ السوابق[3]

أغلب الظن أن نديدةَ سيبويه قد أخبره تضمين فى الفعل (انتحى) أو حذف وإيصال كما سره هذا الجمع اللطيف للأب وهذا الجمع الشاذ ، إنهم النحاة ... ***

ضبط الكتابة العربية

أصدر معالى وزير المعارف قراراً جاء فيه : أنه رغبة فى ضبط الكتابة العربية ، بحيث يمكن أن تقرأ فى غير تعرض للخطأ واللحن ؛ وفى تقريب قواعد اللغة العربية إلى فهم الجيل الحديث

(١) هذه رواية الفائق ، وفى الديوان : ماذا تقول وقد علوت عليكم

(٢) فى الحماسة : بعض بنى قيس بن ثعلبة . وفى الكامل : رجل يكنى أبا مخزوم من بنى نهشل بن دارم . هو بشامة بن حزن النهشلى

قلت : أما أبو العباس فقد سكت عن السوابق وأما التبريزى فقد قال : إنما قال (المصلين) ولم يقل المصليات مع السوابق لأن قصده إلى الآدميين وإن كان استعارهما من صفات الخيل ، ويجوز أن يكون أخرج السابق لانقطاعه من الموصوف فى أكثر الأحوال ولنيابته من المجلى — وهو الاسم الأول منها — إلى باب الأسماء فجمعه على السوابق ... قلت : قل : إنه شاذ واسترح ...

(٣) هذه رواية ابن يعيش في شرح المفصل ورواية اللسان والتاج هي هذه :

أبى الذم أخلاق الكسائى وانتمى له الذروة العليا الأبو السوابق

روايات ...

دون أن يكون فى ذلك مساس بجوهر اللغة وأصولها . ورغبة فى تشجيع الأدباء المعاصرين على تصوير الحياة الحديثة فى أدب يجمع بين نشر اللغة وروعة الأسلوب ، تقرر أن يمهد إلى مجمع فؤاد الأول للغة العربية فى أن يدرس ما من شأنه تيسير الكتابة العربية وقواعد النحو والصرف ، والتماس الوسائل إلى تشجيع الأدباء على التنافس فى الإنتاج الأدبى الممتاز ؛ على أن يعرض المجمع على معالى الوزير فى نهاية هذا العام ما تصل إليه مباحثه من النتائج

وقد أبلغ هذا القرار إلى حضرة المراقب الإدارى للمجمع للعمل على تنفيذه

تحريف معنى بيت بالنحو

وعجيب أن يحرف معنى بيت بالنحو وهو لم يوضع إلا لصون اللسان عن الخطأ فى الكلام ، ليصح المعنى ويستقيم الفهم ، وهذا البيت الذى حرف النحو معناه هو قول الشاعر :

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى فما انقادت الآمال إلا لصابر

فأو فى البيت من النواصب التى تنصب الفعل المضارع بنفسها عند الكوفيين . وبأن مضمرة عند البصريين ، وهى فى البيت بمعنى إلى ، وعلى هذا يكون معنى البيت : ليكونن منى استسهال للصعب إلى إدراك المنى ، لأن الآمال لا تنقاد إلا لمن يصبر على تحمل الصعاب فى سبيلها — فهناك صعاب يستسهلها أولاً ؛ ثم يكون بعدها إدراك المنى ، ويجتمع فى ذلك الأمر أن اجتماع السبب والمسبب ؛ ولكن علماء النحو لا يرضون إلا أن تكون أو عاطفة مع كونها ناصبة ، ويجعلون المعطوف المصدر المنسبك من الفعل المنصوب بها ، ويجعلون المعطوف عليه مصدراً متصيداً من الكلام السابق عليها ، ويكون تقدير البيت على ذلك العطف الذى يتكلفونه : ليكونن منى استسهال الصعب أو إدراك المنى — وهنا يقع التحريف فى معنى البيت ، لأن أو العاطفة لها معان غير معنى أو الناصبة ، وقد جمع ابن مالك معانى العاطفة فى قوله :

خَيِّرْ أَبِحْ قَسِّمْ بأَوْ وأَبْهِمِ واشكك وإضرابٍ بها أيضاً نُمى
وربما عاقبت الواو إذا لم يُلف ذو النطق للبس منفذا

أما أو الناصبة فتكون بمعنى إلى أو إلا ، وكلاهما ليس من من معانى أو العاطفة ، ولهذا كان تقدير البيت على العطف تحريفاً لمعناه ، وخروجاً به عن معنى إلى المقصودة منه

عبد المتعال الصعيدى

حول الإنتاج الأزهرى

قرأت فى مقال الأستاذ عبد العزيز محمد عيسى « الإنتاج الأزهرى » فى عدد الرسالة ٣٩٧ ما يلى :

« أليس من العيب أن يظل الأزهر إلى الآن يقرأ فى سنتيه الأولى والثانية الثانويتين كتباً فى البلاغة لمعاصرين من غير الأزهريين وفيه مائة من المتخصصين فى البلاغة كل واحد منهم قادر على أن يخرج كتاباً مثلها إن لم يكن أفضل منها »

ولعل هذا الذى يراه الأستاذ لا يراه أحد سواه ، أو لعله إذا نظرنا إليه بالعين التى رآه هو بها لعددناه آخر العيوب إذا لم يكن بد من احتسابه أحد العيوب

وإذا كانت الجامعة المصرية قد تقدمت الجامعة الأزهرية خطوات فى الانتاج والتأليف فهل قال أحد أساتذة الجامعة بوجوب أن تكون كل الكتب التى تقرأ فى الجامعة من إنتاج الجامعيين

ولقد أشار الأستاذ إلى ما سنته وزارة المعارف فى إعلانها عن الكتب التى هى فى حاجة إليها ، وأريد أن أقول فى هذا الصدد هل طلبت وزارة المعارف أن يكون المتقدمون للمسابقة ذوى ثقافة معينة أو يشغلون مراكز معينة فى شعب التعليم ، ولعله ليس ثمة شك فى أنه لو تقدم أحد الأزهريين لمسابقة وزارة المعارف ورأت لجنة التحكيم أن كتابه أفضل الكتب المقدمة لما وقع الاختيار على غير كتابه

محمود أحمد وصيف

كتاب « تشرتشل »

لا شك أن ونستون تشرتشل هو رجل الساعة فى بريطانيا ؛ ويتصل التطور الذى حدث فى الحرب أوثق اتصال مع رآسته للوزارة الإنجليزية

ومن عجب أن هـذا الشيخ الـكبير لا تزال فيه ذخيرة من الفتاء والشباب تستمد منها انجلترا فى أحرج الساعات التى تمر بها الآن

ولقد كتب الـكاتبون عن أعـداء الديمقراطية وذكروا حياتهم ؛ ولـكن صديقنا محرر المقتطف يكتب أول كتاب عن أول منافح عن الديمقراطية وأول مكافح لشرورها فى العالم . ولعله يتحفنا بعد كتابه هذا بكتاب عن حياة (روزفلت) صديق الديمقراطية فى العالم الجديد ، فإن سير هؤلاء العظماء تعمل عملين : تحييهم من ناحية ، وتحيي همم القارئين من ناحية أخرى

وكتاب تشرشل ظهر فى سوق الأدب فى حينه المناسب ، وفرصته السانحة ، فإن هذا الرجل يزداد نجمه كل يوماً ألقاً وسطوعاً ؛ وهو إلى جانب إرادته الماضية وعزيمته المصممة أديب كبير ، وأدبه من نوع خلقته القوة وصاغته الشيئة فخرج أدباً قوياً . فله كتاب فى وصف الحرب العظمى . وله ترجمة لوالده اللورد راندولف تشرتشل ؛ وله مئات من المقالات وعشرات من الخطب التى تفيض بالإيمان القوى : إيمان الواثق بنفسه لا المغرور بما يملك

يصور هذا الـكتاب حياة تشرشل تصويراً عذب السياق ، حلو السرد ؛ قرأته فما مللته ولا غالب النوم جفونى أثناء مطالعته . وكيف ينام الإنسان وهو يقرأ حياة حية يقظة ، حياة قوية فتية ، حياة ملآى بالمفاجآت والمغامرات

وتشرشل من يومه يحب الصيال والنضال ، ولعل نضاله اليوم هو أعلى مثل لما يستطيع الرجل المسئول أن يفعل ، وهو يتكلم . . . ولـكن أفعاله دائماً أكثر من كلامه . وقد أشار هو نفسه إلى ذلك فى خطبته الأخيرة التى أذاعها على الشعب يوم ٩ فبراير حيث يقول : « فى أوقات الحرب توجد أشياء كثيرة تستحق القول ولكن شعارنا دائماً الأعمال لا الأقوال »

إن كتاب الأستاذ فؤاد صروف عن تشرشل هو قطعة من أدب الحرب ؛ وكثيراً ما كتب صديقنا فى أوقات السلم عن العلم والصناعة فأجاد فى كل فن تناوله . وهو حين يكتب اليوم عن حياة رجل كُتب له أن يدير أفظع حرب عرفها التاريخ فإنما تجيء كتابته داعياً على الغرار الذى عودنا والنهج الذى طالمنا . وهو غزار فيه وضاحة فى التعبير ، وتسلسل فى الأداء ، ومتابعة للحوادث

لقد قرأنا كثيراً عن وحوش هذه الحرب الطحون . فهل آن لنا أن نقرأ عن مصارعى تلك الوحوش ؟

الحق أن كتاب تشرشل هو أول خطوة فى هذه السبيل ؛ فلعلنا نسمع غداً عن وايفل ، وويلسون ، وأوكونور ، وماكى ، وبيفر بروك ، ومانكساس ، وغيرهم من أبطال النضال وأعلام القتال؟

إن تاريخ هؤلاء العظماء يجب أن يتلى فى كل زمان ومكان ، ويجب أن ينقل إلى كل لسان . لأنهم — كما كتبت إلىّ مس سانتيز الـكاتبة الأمريكية — لا يدافعون عن بريطانيا فحسب ، ولـكنهم يدافعون عن قضية الحق والسلام .

محمد عبد الغني حسن



فنـــدق الدانوب

للأستاذ محمود البدوى

عدت إلى كونستنزا وتزلت فى « فنـدق الدانوب » مرة أخرى كما شاءت كاترينا ، على الرغم من أنه ليس من الفنادق التى نشتهى فى هذه المدينة ، فهو يبعد عن البحر ويبعد كذلك عن أنظار السائحين ، والجانب الأكبر من حجراته لا يدور مع الشمس ، ولا يشرف على مناظر خلابة ، وهو إلى جانب هذا يقع فى قلب المدينة ، وعلى خطى قليلة من الخط الحديدى ، فالمقيم فيه ينام على صـوت المجلات وهى تدوى على القضبان ، وينهض على صفير القطر وهى تبرح المحطة !

على أن كل شىء يتحول فى نظرك إلى جمال وفتنة عندما ترى كاترينا ... تلك الفتاة الروسية الجميلة التى تعمل فى الفندق

وكنت قد لبست حلتى وتهيأت للخروج عندما دخلت كاترينا غرفتى فحيتنى فى ابتسامة ساحرة ! وهصرت ستر النافذة وقالت ووجهها مشرف على الطريق :

— نمت نوماً عميقاً وحلمت بكاترينا كالعادة ؟

— أجل يا كاترينا ... وحلمت أننا نجرى على ساحل البحر فى كارمن سلفيا ... وأنت تطفرين من المرح وتقذفيننى بالكرة ... والآن ، هل تحققين هذا الحلم ... ؟

— ماذا ؟ أتنزه معك ؟ والعمل والفندق ؟ ... أنا لا أمشى مع الشبان فى الطرقات ... !

— طبعاً يا كاترينا ... أنت لا تمشين مع الصعاليك من أمثالى ... !

— آه ... صعلوك ... ماذا تقول صعلوك ؟ ... لا تقل هذا ومالت بخصرها على مائدة صغيرة فى الغرفة وهى تهتز من الضحك وتزيح خصل الشعر المتدلية على جبينها ، وتمر بأناملها على فمها ، وقد تورد وجهها وأشرق محياها ... ثم سكنت نأمتها ... وأخذت ترنو إلى وعلى وجهها سحنة الفتاة الريفية التى لا تعرف من حروف الحياة شيئاً ... وقالت بصوت حلو لين النبرات :

— أنت لا تعرف شعور الفتاة يا شوقى ... كيف أخلع رداء الحياء وأمشى على شاطئ البحر شبه عارية وعيون الشبان تأكلنى ؟ كلا ... أنا فتاة من أسرة روسية معروفة ... وأنت تقول لى هذا الكلام لأنك لا تعرفنى ... ترى أمامك فتاة فقيرة تعمل فى فندق ... هذا هو كل ما تعرفه عنى ... إفهم شعور العذراء يا شوقى !

— طبعاً ... أنا أعرف شعور العذراء يا كاترينا ... ولكن هذا لا يمنعك من التنزه معى لترى الدنيا ... الدنيا ليست هنا فى هذا الفندق ...

فاحمر وجه كاترينا ، وأسبلت جفنيها ، وغضت رأسها كطفل صغير ارتكب عملاً يعده مزرياً ... ثم رفعت أهدابها وقالت بصوت خافت :

— كيف أخرج معك بهذا الثوب ... ؟ أنظر ... !

ونظرت إلى ثوبها وكان ينمث على الرثاء حقاً ... !

— أليس معك غيره يا كاترينا ؟

فغضت رأسها ثانية ، وانسدلت أهدابها على هاتين العينين الزرقاوين اللتين لا تعرف من أسرارهما وتعابيرهما شيئاً ... ورفعت جبينها وقالت ويدها على عاتقى :

— أبداً ... أنا فتاة وحيدة وفقيرة ... !

— سأجود لك بثوب جديد يا كاترينا ...

فاهتز جسمها ... كأن سيالاً كهربائياً سرى فى ألياف لحمها ... وطوقتنى بذراعيها وقالت وهى نشوى طروب :

— والآن ، سأجئ لك بالإفطار ... وسنفطر سوياً ... ولكن لا تأكل الطعام كله كما تفعل دائماً ، ولا تدع للصغيرة المسكينة كاترينا شيئاً ... أوه ... أنت مروع !

***

رجعت ذات ليلة إلى الفندق متأخراً ، بعد أن قامرت وأفرطت فى الشراب ... لعبت الروليت فى الكازينو وخسرت كثيراً ، وطيرت الخسارة الأحلام من رأسى ... وصعدت

درجات الفندق متثاقلاً حتى بلغت غرفتى ... وقد خيم السكون العميق على الطابق كله ... وفيما أنا أدير المفتاح فى الباب سمعت رنين قبلات فى إحدى الغرف ... ثم صوت ضحكات ... ضحكات كاترينا بعينها ، فلا أحد يضحك مثلها بقلب طروب ... وسمعت إثر ذلك صوتها وهى تتحدث فى همس ... وفتحتُ باب غرفتى ودفعته ورائى بغيظ وحنق ...

وبعد لحظات فتح الباب برفق ، ودخلت كاترينا وهى تتثاءب وعيناها شبه مغلقتين كأنها مستيقظة من نوم عميق ... وأفاقت فى التو من تأثير مخدر ! وجلست على الديوان وهى تفرك عينيها ووضعت ساقاً فوق أخرى ومالت بجسمها إلى الوراء وقالت وهى أشبه بالناعة أو الحالمة :

— لماذا تأخرت هكذا ؟ كنت فى الكازينو طبعاً ... لقد أبصرت بك لبزا مع بعض الغوانى ...

فصمت ولم أجب ... ونظرت إلى هذه الفتاة وهى تتكسر وتتثاءب ، وتتصنع التعب الشديد وتحاول الاستفاقة من النوم ، وقد كانت منذ لحظة فى أحضان رجل ، وحاولت أن أقرأ فى عينيها شيئاً ينم عن حقيقة أمرها فلم أستطع

وجلست وهى تسارقنى النظر . ثم نهضت ومشت إلى صوان الملابس وجاءت لى بجلبابى . فتناولته منها ، ودفعتها عنى فابتعدت قليلاً ولم تقل شيئاً ، وظلت هادئة ووجهها ساكن الطائر ونظراتها لا تتغير

وقلت بصوت خشن وقد تحول بصرى عنها

— والآن أريد أن أنام يا كاترينا

— ألا تريد شيئاً ... ؟

فرفعت وجهى ونظرت إليها نظرة يتطاير منها شرر الغضب . فوقفت فى وسط الغرفة أكثر من دقيقة وهى لا تبدى حراكا ولا تحرك ساكناً ... ثم مشت متثاقلة إلى الباب ...

وأغلقتُ الباب وراءها بعنف وغيظ ولا أدرى لماذا كنت أحنق إلى هذا الحد

* * *

وذهبت مرة إلى مطعم من مطاعم السمك الفخمة فى شارع كارول لأتعشى ... بعد أن ترددت طويلاً فى ولوج بابه ... وجلست فى ركن بعيد عن الخلق وأنا شاعر بالنفور والقلق ... ودرت ببصرى الحائر فيمن حولى ... كما ينظر الرجل الغريب

إلى قوم لا يعرفونه ... وشد ما كانت دهشتى عند مالمحت كاترينا جالسة إلى مائدة فى وسط القاعة مع كهل أنيق الملبس رائع المظهر ... وكانت ترتدى ثوباً من الحرير الفاخر لا ترى مثله إلا فى قصور الأمراء !... ولما وقع بصرها على ابتسمت وأحنت رأسها فى أرستقراطية أصيلة ! ... ولمحت فى عينيها وهى تنظر إلى ذلك البريق الخاطف الذى يبدو ثم يختفى فى لمح الطرف ... ولا تعرف منه شيئاً على الإطلاق ... ونظرت إلى هيئتها وبزتها وقارنتها بالنساء الجالسات فى المطعم فإذا بها تبزهن جميعاً ... فهى آنق مظهراً وأحلى شكلا وأنضر وجهاً ورجعت أذكرها وهى فى ثوبها الأبيض البسيط فى الفندق كفتاة ريفية ساذجة يبدو من مظهرها أنها لا تعرف من شئون الحياة شيئاً ... وأدركنى العجب

وغافلتها وهى تحادث صاحبها وانسللت إلى الخارج وعدت من بعض المراقص إلى الفندق فوجدتها جالسة فى غرفتى منكبة على المكتب تكتب رسالة ! ورفعت وجهها لما شعرت بى ... وتوقفت عن الكتابة ونظرت إلى وهى باسمة ... ثم عادت تكتب وبعد دقيقتين طوت الرسالة وغلفتها وقالت : « إننى أكتب رسالة إلى صديقة عزيزة فى بلغراد ... هل رأيت ذلك العجوز الذى كان معى الليلة فى المطعم ؟ إنه عمى ! جاء أمس من بلغراد وحدثنى عن مرض كاتوشنكا العزيزة فجلست أكتب إليها هذه الرسالة فى الحال . إنها من أعز صديقاتى وقد طردنا الحمر معاً . وكنا نعمل سوياً فى بودابست ، ثم طوحت بنا الأقدار ... وما زلت أنحط حتى وصلت بى الدرجة إلى العمل فى هذا الفندق ! هل تتصور أننى سأترك هـذا اليهودى يحاسبك على هواه ... ويقدم إليك الكشوف فى آخر الشهر كأنك مهراجا من الهند ... كل شرقى عند هذا الرجل الجشع مهراجا ... لا ... أنت طالب مسكين يا شوقى ؛ عند ما يجىء ديمترى وبدفع لك بهذه الأوراق ألقها فى هذه السلة ... سأحضر الحساب فلا تسل عن ذلك اليهودى يا شوقى ! »

وكانت تتكلم بسرعة كأنها تتلو من ورقة أمامها ثم كفت عن الكلام . ونظرت إليها فإذا بها ساهمة كأنها تفكر ... ولأول مرة فى حياتى أشاهد كاترينا تفكر ، فإن رأسها الصغير الجميل لا يتسع للتفكير ...

وطوقتها بذراعى وقلت لها :

— هل نذهب غداً إلى أيقوريا ؟

— أجل ... ولكن ليس أيقوريا ... أو كارمن سلفيا ... أو ماما يا ... سنذهب بعيداً بعيداً عن كل هذه البلاد

وكانت تحلم ؛ وما أعذب الأحلام في رأس فتاة في مثل سنها وجمالها ... وضممتها إلى صدري فسكنت واستراحت وأغمضت عينها نصف إغماضة ، ثم انتفضت فجأة واعتدلت في جلستها وصاحت :

— ما هذا ... هل تملت هذا الجوح في بخارست ؟ أنت تعرف أنني عذراء ... أنت مروع !

وسافرت من كونستنزا إلى مدينة صغيرة على الدانوب ، وعدت منها بقطار بوخارست السريع إلى الميناء مباشرة ... ولم أشأ الذهاب إلى الفندق مخافة أن ألتقي بكاترين فتبقيني أياماً أخر

ولما اقترب موعد السفر صعدت إلى ظهر السفينة ووقفت على الجسر أرقب حركة المسافرين والمودعين وقد علت وجهي تلك السكآبة التي تعلو الراحل من بلاد يحبها ... بلاد قضى فيها أسعد أيامه وأمتع لياليه . وكانت الشمس قد غربت وبدت تلك الميناء الصغيرة تتلألأ في غبش الغسق ؛ وأخذت أستعرض في ذهني الصور الجميلة التي مرت على في تلك البلاد ... مناظر سينايا الخلابة ... وشواطئ الدانوب الساحرة ... وحسان بخارست ... وغانيات كارمن سلفيا ... وفاتنات ممايا ... وفندق بولونا ... وفندق الدانوب ... وكاترينا ... أجل كاترينا ... ! واتكأت على السور الحديدي وعيني إلى الأفق وكل شيء يمضي سريعاً ... ولمحت فتاة تهبط المنحدر المشرف على الميناء . وكانت تمضي على عجل وبصرها لا يتحول عن السفينة ... وفتحت عيني وتبينتها فكانت كاترينا . وقفت لحظة حائرة ... ثم نقلت بصرها في الركاب ... ولمحتني فجرت على الرصيف حتى وقفت أمامي وهي تلهث ... فنظرت إليها مشدوهاً وسألتها :

— ما الذي جاء بك ... ؟ وكيف عرفت أنني سأسافر اليوم ... ؟

— هذا سهل ! ... دعك من هذا الآن ... كيف حالك ... شد ما تغيرت ونسيت كاترينا المسكينة التي لا يذكرها أحد ...

ولم أستمع لباقي حديثها ... فقد درت ببصري في الركاب لأحصي عدد الذين جاءت تودعهم كاترينا ... فلا بد أن يكون منهم من نزل في فندق الدانوب والتقى بها !

ورأت نظراتي ، وقرأت مادار بخلدي ... فامتقع لونها وغضت طرفاً ... ثم رفعت رأسها وقالت وقد اختلجت نبرات صوتها :

— شوقي ... هل تحسب أنني جئت أودعك كلا ... أنت مروع ! إنني جئت أرقب هذه السفينة وهي مقلعة وسائرة برهة في الطريق الذي تسير فيه السفن إلى وطني ... سأركب هذه السفينة يوماً ما ... وأعود إلى وطني ، وأرى بافلوفنا ، وسونيا ، وأولجا مرة أخرى ... إنني أجيء إلى هنا كل أسبوع وأرقب السفن وهي مبحرة وأتخيل أن ذلك اليوم سيأتي ولا بد أن يأتي ... فلا تحسبن أنني جئت أودع الصعاليك أمثالك ! ... فاستغرقت في الضحك

— لا تقولي هذا يا كاترينا ... إنني مسافر اليوم وسأعود غداً لأراك ولا بد أن نلتقي ثانية

— حقاً ... ؟

— أجل ... لا بد وأن أعود في العام المقبل وكل عام بعده لأرى كاترينا ...

— والآن اصمت واقترب ... أرأيت ؟ إننا لا نستطيع أن نتصافح ... إنتظر لا بد من ذلك ...

واحمر وجهها ولمعت عيناها ، وظهرت في أبدع ما كونها الله ... وقد اختلجت شفتاها ، وتهدل شعرها ، ورف لونها ، وتورد خداها ... وعلت أنفاسها ، ومالت برأسها إلى الوراء ، وارتفعت بجسمها قليلاً ... وانحنيت عليها ... والتقت يدانا ... وتصافحت أنفاسنا ...

ودوى صفير الباخرة ... وتراجعت كاترينا ... ووقفت جامدة كالتمثال ... وعيناها مخضلتان بمثل الدمع ...

وشيعتها ببصري وهي تصعد المنحدر الذي جاءت منه ... ولكنها لم تكن تمضي مسرعة ... بل كانت تسير على مهل كاسفة البال حزينة ، كأنها استفاقت من حلم ...

محمود البدوي

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)



9me Année No. 399 | Lundi - 24 - 2 - 1941

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

السنة التاسعة « القاهرة في يوم الاثنين ٢٨ محرم سنة ١٣٦٠ — الموافق ٢٤ فبراير سنة ١٩٤١ » العـــدد ٣٩٩

الفهـــــرس

من دروس الحرب

بين اللاتينية والجرمانية

كان بعض المولعين بتصنيف الناس من علماء الأجناس يقولون إن الله اصطفى الآريين على الساميين بمواهب العقل الأصيل فآتاهم الحكمة ؛ ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي العلم والحكم وهيئ بفطرته لملك الأرض وتمدين العالم . واستغل المستعمرون هذه الفكرة فسرقوا بها مُلك العرب ، ونسوا أن العرب ، وهم ساميون ، كانوا خلفاء الله وورّاث المعرفة في الدنيا ؛ واستغلها النازيون آخر الأمر فسرقوا بها مال اليهود ، ونسوا أن اليهود ، وهم ساميون ، كانوا الرأس الخلاق واليد المصرفة في ألمانيا

ولعل هؤلاء المصنفين لخلق الله يشغلون بالهم اليوم بما يتجلى من الفروق بين اللاتينية والجرمانية وهما شعبتان من الآرية ، ليعلموا أن من عوامل البيئة والتربية وطريقة العيش ما لا يقل أثراً في اختلاف العقل وتغير الُخلق عن عوامل الجنس والوراثة . ولئن كان في فكرة الآرية والسامية أكثرُ الكذب الذي يسنده الغرض ؛ فإن في فكرة اللاتينية والجرمانية أكثر الصدق الذي يؤيده الواقع . وإذا كان الغربيون قد انتفعوا بفكرتهم في أن يسودوا ، فإنا حريون أن ننتفع بفكرتنا في أن نتحرر

***

لأمرٍ ما تنهار اللاتينية وتتماسك الجرمانية وقد مسهما من هذه الحرب الطحون عذاب لا يختلف !

هنا الديمقراطية الوادعة تتمثل فى دولةٍ جرمانية هى انجلترا ، ودولة لاتينية هى فرنسا ؛ وهناك الدكتاتورية الباغية تتمثل فى دولة من الدول الجرمانية هى ألمانيا ، ودولة من الدول اللاتينية هى إيطاليا ؛ فما هو إلا أن امتحنت الحرب بنارها معدن الفريقين حتى ذابت فرنسا هنا وتفككت إيطاليا هناك ، وظلت الأمتان الجرمانيتان ثابتتين ، تتصارعان بعبقريات الذهن ، ومبتكرات العلم ، ومهلكات المادة ، والعالم كله يشهد هذا الصراع المنيف المخيف وهو من هوله الهائل لا يتقارُّ ولا يتمالك . وسيكون النصر ولا ريب للفريق الذى يحالفه الحق والصدق والصبر ؛ ويومئذ تنقسم الجرمانية كذلك إلى سكسونية تعتمد على قوة الُخلق ، وتوتونية تعتمد على سمة الحيلة

ليت شعرى من أين أُتيت اللاتينية حتى انخرعت فما تقوم ، وانماعت فما تتماسك ؟ لم تُؤت يا زعماء الشرق إلا من جهة خصائصها التى تبجحت بها حيناً من الدهر ، وهى الإفراط فى الأدب والفن والكلام ، حتى غلب فيها النظر على العمل ، والحفظ على التفكير ، والخيال على الواقع . وقاعات التمثيل على أندية الرياضة ؛ فمن المعقول ألا يقام لها وزن مع الجرمانية التى كان من أظهر خصائصها الممتازة أن ألّفت ثقافتها وحضارتها من عناصر معلومة المقادير مضبوطة النِّسب من كل مايتصل بالمادة والأدب ، ويدخل فى غذاء الجسم والروح ، فلا يطغى معنًى على معنى ، ولا يجور شىء على شىء ؛ ثم هى لا تفهم الفرد إلا بالأمة ، ولا العلم إلا بالتطبيق ، ولا العمل إلا بالتجويد ، ولا رياضة العقل إلا برياضة البدن ، ولا غاية الآخرة إلا بطريق الدنيا . وكل ما يصدر عن الجرمانية من نتاج الفكر واليد موسوم بسمات القوة والدقة والجد

***

ماذا عسى أن نصنع يا زعماء الشرق العربى وهذه اللاتينية المتخلفة المجفاء قد غلبت علينا لوجودنا على البحر الأبيض المتوسط ، واتصالنا بشعوبها المختلفة فى العمل والتجارة ، واعتمادنا على رسلها الدينيين فى التربية والتعليم ، فأخذنا من أهلها حب الكلام وشهوة الجدل . فقادتنا كتّاب ومحامون ، وجيشنا هُتّاف ومتظاهرون ، وُعدتنا أحزاب وصحف ! وإذا لم يكن زعيمنا من صاغة الكلام وراضة المنابر انصرفت عنه الأسماع ونبت عليه النفوس ولو كان ملء سكوته العمل المثمر !

من صفات اللاتينية فينا أننا لا نزال نتعلم بالحفظ ، ونتقدم بالمحاباة ، ونعمل بالواسطة ، ونقنع بالشكل ، فلا يهمنا من النظام إلا أن يبقى مظهره وإن ذهب جوهره

ومن مظاهر اللاتينية فينا أنْ ضعف إيماننا بالمثل الأعلى والخير الأعم . فالأمة معناها : أنا أكون ، والوطنية منزاها : أنا أعيش . فإذا تناقضت منفعة الفرد ومنفعة الأمة ، وتعارضت رغبة النفس وإرادة الوطن ، وقع الضمير الاجتماعى فى غشية ثقيلة لا يبالى المرء فيها أن يخون أو يسف أو يسقط

ومن بلايا اللاتينية فينا أننا نسرف فى الوعود ، ونتزيد فى الحديث ، ونداجى فى النصيحة ، ونكابر فى الحق ، ونجاحش فى النقاش ، ونركن إلى شعبذة الحظ ، ونستكين إلى معابثة القدر ، ونستأمن إلى مخادعة السلامة

فإذا شئنا أن نتقى العواقب المحتومة لهذه التربية الفاشلة ، فلنطهر قلوبنا من رواسبها المتراكمة، ولنهيئْ نفوسنا لحياة جديدة تنكشف عنها هذه القيامة القائمة . فإن مما لا شك فيه أن الحياة الحاضرة بمذاهبها ونظمها تنصهر الآن فى نار هذه الحرب لتصوغها يد الخالق المصور صياغة أخرى تتفق مع تقدم الإنسانية فى سبيل الخير المحض والكمال المطلق ؛ ومتى خلصت العقول من الهوى ، وبرئت النفوس من الأثرة ، وطهرت القلوب من الحقد ، عاد الناس إلى شريعة الحق الخالد فيلتقى الشرق والغرب ، ويأتلف الأحمر والأسود ، وتطمع الأمم والشعوب أن يعيشوا فى عالم من الإخاء والرخاء جديد . وهل ذلك على الله ببعيد ؟

احمد حسن الزيات

لحكم رجال الأدب العربى

السباعى بيومى

يستر جنايته على المبرد بجنايته على المرصفى

للدكتور زكى مبارك

— ١ —

عرف قراء « الرسالة » أن الأستاذ السباعى توعدنى بمقالتين خطيرتين : الأولى فى تحديد ما قال فى الشيخ المرصفى ، والثانية فى دفع النظرية التى نهبها من كتاب النثر الفنى ، وكان يرجو أن أنتظر إلى أن يفرغ من المقالتين المرتقَبتين ، لعلنى أعتبر فلا أجترئ عليه ، وقد شاع أنى من كبار المجترئين !

وقد نشر مقالته الأولى ، فعرفنا أنه يصرّ على اتهام الشيخ سيد المرصفى بالغرور ، ولم يبق إلا أن ينشر مقالته الثانية ، وهى مقالة عرفنا مضمونها مقدماً ، فهو سيُثبت أنه لم يَسرق من كتاب « النثر الفنى » وإنما سَرَق منه مؤلف « النثر الفنى » فكان حاله حال اللص الذى رأى صاحب الدار يمشى من بُعد فصاح : « مين اللى ماشى هناك ! »

وأنا لن أنتظر إلى أن يفرغ الأستاذ من تحبير مقالته الثانية ، فما كان أول باحث سَرَق من كتاب النثر الفنى ، ولن يكون آخر باحث يسرق من كتاب النثر الفنى ، فقد كتمتُ سرقته من كتابى أربع سنين ، لأنى أشعر بالارتياح كلما تذكرت أن عندى ذخائر يتطلع إليها الناهبون من الفضلاء

لن أنتظر ، لن أنتظر ، فليواجهنى إن استطاع ؛ وأنا ماضٍ إليه بقلمٍ أمضى من السيف وأعنف من القضاء ، ولن أتركه بعافية أو يعترف بأنه يستر جنايته على المبرد بجنايته على المرصفى .

ولكن كيف جَنَى على المبرد وقد قضى شبابهُ فى خدمة كتاب « الكامل » ؟

تلك هى النقطة ، كما يقول لافونتين !

اسمعوا كلمة الحق ، أيها الناس :

المبرّد دان اللغة والأدب والنحو والتصريف والتاريخ الإسلامى بكتابٍ نفيس اسمه « الكامل » وهذا الكتاب قد شرّق وغرّب فانتقل من يد إلى يد ومن بلد إلى بلد على اختلاف الأجيال ، وبذلك تعرّض للتصحيف والتحريف ، وإذاً كان من الواجب ألا يتقدم لنشره من أبناء العرب غير من يملك القدرة على إصلاح ما أفسدت تلك الأجيال

فهل يكون السباعى بيومى هو المصلح المنشود وما قال أحدٌ بأن الله وهبه نعمة الذوق الأدبى ، وهى نعمةٌ سامية لا يظفر بها من كل جيل غير آحاد ؟

كان المصلح المنشود لكتاب الكامل هو شيخنا المعظم « سيد بن على المرصفى » الذى قضى من عمره عشرين سنة وهو يراوح المبرّد ويغاديه بالنظر الثاقب والفهم العميق

ولكن المرصفى مات وصار من حق كل باغٍ أن يتقوّل عليه كيف شاء ، ولو كان فى منزلة السباعى بيومى ، وهو كما وصف نفسه أستاذ بدار العلوم !

هل سمعتم أشياء من أقوال الدكتور طه حسين ؟

أتعب الدكتور طه نفسه فى النَّيل من « دار العلوم » فكان يقول : هى مدرسةٌ عاقر ، ومن الواجب أن تُغلَق بدون تسويف !

فهل غضب السباعى بيومى وهو « أستاذ بدار العلوم » كما ذيّل اسمه وهو يحاورنى بمجلة الرسالة الغرّاء ؟

وكيف يغضب والدكتور طه رجلٌ يضر وينفع ، وهو يملك المحو والإثبات فى أعضاء بعض اللجان بوزارة المعارف ، والسباعى يطمع فى أن يعيّن عضواً باللجنة التى تنقل كتاب « هانوتو » من الفرنسية إلى العربية ؟ !

أما الشيخ المرصفى فهو اليوم جسدٌ هامد لا يملك دفع الضر عن سمعته ولو صدر عن باغٍ فى منزلة السباعى بيومى

الشيخ سيد المرصفى مات وشبع من الموت ، وهو اليوم لا يملك دفع عادية الذباب

مات المرصفى ثم مات ، ولكن تلاميذه أحياء ، والويل كل الويل لمن يتعرض لشيخنا المعظم بكلمة سوء ، ولو كان من أعزّ الأصدقاء

أيُشتَم المرصفى فى مصر وهو قَرِيع الزمخشرى والمبرّد ؟

ألم يكف المرصفى أن يعيش غريباً ويموت غريباً ؟

لم يوجد فى الأزهر من يدرك قيمة الشيخ سيد المرصفى غير الشيخ محمد عبده ، وبموت « الأستاذ الإمام » أصبح المرصفى من الغرباء

وقد عرف المصريون قيمة الشيخ محمد عبده بعد الموت ، فكيف يجهلون قيمة الشيخ سيد المرصفي بعد الموت ؟

السباعي بيومي هو الذي أراد الإعلان عن نفسه بالقدح في الشيخ المرصفي ، فليدفع ثمن ذلك الإعلان بلا إمهال

ولكن كيف يدفع ذلك الثمن ؟

إلى رجال الأدب العربي أسوق الحديث :

أخرج السباعي كتاباً سماه « تهذيب الكامل » في جزأين أولها في المنثور وثانيهما في المنظوم ، ومعنى ذلك أنه قدّم وأخّر في نصوص الكامل ليقع المنثور في جانب والمنظوم في جانب . فهل يرى القراء أن هذا عملٌ مطلوب ؟ وهل يرون أن المبرد كان يعزّ عليه أن يصنف كتابه على هذا الوضع لو أراد ؟

المبرد راوَحَ بين المنثور والمنظوم لحكمة تعليمية ، هي نقل الذهن من فنّ إلى فنّ ليبعد عنه السآمة والملال ، وقد أضاع السباعي تلك الحكمة التعليمية بصنيعه « الجميل »

والفرق بين الكامل وتهذيب الكامل هو الفرق بين روح المبرد وروح السباعي ، فأنت حين تقرأ الكامل تواجه روحاً لطيفاً هو روح أبي العباس – طيب الله ثراه – وقد كان مثلاً رائعاً في صباحة الوجه ولطافة الروح ، وحين تقرأ تهذيب الكامل تواجه روح السباعي بيومي ، وهو روح السباعي بيومي بلا نزاع ولا جدال !

ومهما يكن من شيء فقد استطاع السباعي أن يطارد المرصفي ، المرصفي شارح الكامل ، المرصفي الذي أقام البراهين على أن مصر وُجِد فيها رجلٌ يصاول المبرد ، ويمشي إليه مَشْيَ البازل إلى البازل في شراسة وكبرياء

استطاع السباعي أن يحرّم على شرح المرصفي دخول « دار العلوم » ليجهل طلبة تلك « الدار » أسرار كتاب الكامل ، وليجهلوا مبلغ أستاذهم السباعي من « العلم » بما وقع في « الكامل » من تحريف وتصحيف

أنا أعرف أن دار العلوم مدرسة عالية لا يزورها أحدٌ من المفتشين ، إلا إن ظمئ إلى فنجان من القهوة يحتسيه في مكتب العميد أو مكتب الوكيل ، وإذاً فمن العسير أن تسنح الفرصة لمحاسبة الأستاذ السباعي بيومي على ما يصنع في تكوين الطلبة بتلك الدار ، وهم الجيل المقبل من رجال التربية والتعليم

أعرف ذلك ، وأعرف أن الذوق نهاني عن زيارة دروس الأستاذ السباعي بالجامعة الأمريكية ، وأنا عن تفتيشها مسئول ، لأنه لا يجوز ذوقاً أن أفتش على مدرس رأته وزارة المعارف صالحاً للمشاركة في إعداد المدرسين

ولكن يظهر أن الأستاذ السباعي محتاج إلى من يعاونه على إعداد دروسه بدار العلوم ، فقد رأيت أنه لم يفطن إلى ما في كتاب « تهذيب الكامل » من تصحيف وتحريف قضى بهما انتقال « الكامل » من يد إلى يد ومن بلد إلى بلد على اختلاف الأجيال !

يضاف إلى ذلك أن كتاب « تهذيب الكامل » تسرَّب إلى « كلية اللغة العربية » وقد يتسرب إلى « كلية الآداب » بحجة أن الدكتور طه حسين قَرَنَه بكتاب « مدامع العشاق » في أحد فصول « حديث الأربعاء »

ماذا أريد أن أقول ؟

أنا أريد النص على الأغلاط التي عجز عن إدراكها ذهن السباعي ، وفطن لها عقل المرصفي ، وهي أغلاطٌ ستؤذي السباعي أعنف الإيذاء ، لأنها ستقنعه بأن ثناء الدكتور طه حسين على صنيعه في كتاب خدمة الكامل لن ينجيه من عذاب النقد الأدبي ، وهو عذابٌ أليم

سأقوم بهذا الواجب خدمة لأبناء دار العلوم وخدمة لجميع طلاب الأدب العربي ، وعلى الأستاذ السباعي أن يناقشني إن استطاع ، وهو لن يستطيع ، ولو ظاهره ألوف من المعجبين بقدرته على الاستهانة بفضائل التدقيق والتحقيق

والأستاذ السباعي قد شتمني بمجلة الرسالة مرتين ، فليكف عن شتمي – غير مأمور – فإن الألسنة والأقلام لم تُبق في شتمي مزيداً لمستزيد ، ولو حاسبَ الله أعدائي وخصومي على ما اجترحوا آثمين في إيذائي لسلط عليهم شآبيب البلاء

لا تشتمني ، يا سيد سباعي ، فحسبي ما أعاني من البلوى بمحنة النقد الأدبي . ألا تراني أحاور أناساً لا أرتضيهم نسّاخاً لمقالاتي ومؤلفاتي ؟

لقد لامني الناصحون على ما اقترفت من التنازل إلى مساجلة بعض الناس ، فهل تعرف كيف كان جوابي ؟

لقد أجبت بأن الأدب كالعلم ، والعالم يشرّح جسم الضفدعة كما يشرّح جسم الإنسان ، فمن واجب الأديب أن يفهم أنْ لا عيب في أن يهتم بتشريح ما يضاف إلى الأدب ولو صدر عن نكرات

لا تشتمني ، يا سيد سباعي ، ولا تصفني بالغرور والاجتراء ، فلو أنك رأيت الدنيا بعيني لطاب لك أن تتخلق مثل أخلاق ، فما اغتررت ولا اجترأت إلا وأنا أعرف أن في الدنيا ناساً أخف وزناً من الهباء

لا تشتمني ، يا سيد سباعي ، فأنا رجلٌ « شتيم » وذلك حرفٌ لا يخفى عليك

لا تشتمني ، يا سيد سباعي ، فما أملك محاسبتك لو أردت الانتصاف لنفسي ، وماذا أقول في تجريحك ولستَ بشاعر ولا كاتب ولا مؤلف ولا خطيب ؟

ليس لك غير نقل نصوص « الكامل » من مكان إلى مكان ، فهل فهمت أسرار « الكامل » ؟ وهل « هذبت » أو « شذبت » تلك الغابة الشجراء ؟

ما أنت و « الكامل »

أيها المفضال ؟ !

الأمر في ذلك لشيخنا العظيم سيد بن على المرصفى ، الشيخ الذى ربانا على الصراحة والصدق والإخلاص ، وهو المنافس الأعظم للأساتذة الأماجد : محمد المهدى ومحمد الخضرى وإسماعيل رأفت ومنصور فهمى وأحمد ضيف وطه حسين

أما بعد فقد آن للأستاذ السباعي أن يقرأ ما يرضيه ، وعليه أن يجيب ، إن كان يملك الجواب ، وهيهات ثم هيهات ! !

١ — فى تهذيب الكامل ج ٢ ص ٢٦٢ قال الأخطل :

ناز عتهم طيّب الراح الشمول وقد صاح الدجاج وحانت وقعة السارى

ولم يلتفت السباعي إلى التحريف فى « نازعتهم » وقد التفت إليه المرصفى ، فنص على أن الصواب « نازعته » لأن الأخطل يقول قبل هذا البيت :

وشاربٍ مربحٍ بالكأس نادمنى لا بالحصُور ولا فيها بسوّار

٢ — فى تهذيب الكامل ج ١ ص ٣٨ ورد قول الشاعر :

إذا ما حقبٌ جالَ شـــددناه بتصدير

وهنا أتعب السباعي نفسه فأثبت فى الهامش نقلاً عن المضاف إلى المتن أن هذا الشاعر هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وهذا خطأ ظاهر ، وإنما الشعر ليزيد بن ضبة الثقفى يمدح الوليد بن يزيد ، وقد أفضت إليه الخلافة « انظر تحقيق الشيخ المرصفى ج ١ ص ١٠١ من رغبة الآمل فى شرح الكامل »

وعذر الأستاذ السباعي أنه غير مسئول عن التحقيق ، لأنه أستاذ بدار العلوم ! !

٣ — فى تهذيب الكامل ج ٢ ص٣٠٧ قال المبرد : رُوى لنا أن رجلاً من الصالحين كان عند ابراهيم بن هشام فأنشد إبراهيم قول الشاعر :

إذ أنت فينا لمن ينهاك عاصيةٌ وإذ أجرّ إليكم سادراً رسنى

فقام ذلك الرجل فرمى بشق ردائه وأقبل يسحبه حتى خرج من المجلس ، ثم رجع على تلك الحال فجلس ، فقال له هشامٌ : ما بك؟ فقال : إنى كنت سمعت هذا الشعر فاستحسنته فآليت أن لا أسمعه إلا جررت ردائى كما سحب هذا الرجل رسنه

والشاهد فى كلمة «رجل من الصالحين » فقد أشقى الأستاذ السباعي نفسه بالنص فى الهامش على أنه ابن أبى عتيق ، نقلاً عما أضيف إلى متن الكامل ، فهل سمع أحد أن ابن أبى عتيق كان يُعَدّ فى الصالحين ومساعداته لعمر بن أبى ربيعة تشهد بأنه كان من أهل الخلاعة والمجون ؟ لا يُطالَب من السباعي فهم هذه الدقائق ، فلنرض تحقيق الشيخ المرصفى وقد نقل أن ذلك الرجل الصالح هو أبو عبيدة بن عمار بن ياسر « رغبة الآمل ج ١ ص١٥٥ »

٤ — فى تهذيب الكامل ج ٢ ص ٣٠٨ قال الشاعر :

فقلت له تجنّبْ كل شيء يعاب عليك إن الحرّ حرٌ

ثم قال المبرد فى التعقيب على هـذا البيت : فهذا كلام ليس فيه فضلٌ عن معناه ، وقوله « إن الحر حرٌ » إنما تأويله أن الحرّ على الأخلاق التى عهدنَ فى الأحرار ، ومثل ذلك « أنا أبو النجم وشعرى شعرى » أى شعرى كما بلغك وكما كنت تعهد ، وكذلك

عددنا السنوى الممتاز

سيصدر فى اليوم الثالث من شهر مارس المقبل عددنا السنوى الممتاز حافلا بتحليل الشخصيات العظيمة والمواقف الكريمة فى الغزوات النبوية والفتوح الإسلامية بقلم أعلام البيان فى مصر والشرق العربى . وسيكونه بعون الله على الرغم من سوء الأحوال الحاضرة جديراً بجلال الموضوع ومكانة الرسالة .

قولهم « الناس الناس » أى الناس كما كنت تمهدهم

وتعقيب المبرد سديد ، ولكن الأستاذ السباعى ينقل فى الهامش أن من هذا قول الله عز وجل : « فغشيهم من اليمّ ما غشيهم » بدون أن يدرك أن الأخفش الذى نقل عنه قد أخطأ الفهم ، فالآية ليست مما اتحد فيه المبتدأ والخبر لفظاً ، وإنما هو موصول أسند إليه فعلٌ جُعل مثله صلة ، للمبالغة فى التهويل (رغبة الآمل ج ١ ص ١٥٥) . وكان المأمول أن لا تغيب هذه المسألة البسيطة عن ذهن أستاذ بدار العلوم

٥ — فى تهذيب الكامل ج ٢ ص ٣٠٩ تكلم المبرد عن الخيل المحبوكة الأصلاب فقال : « المحبوك الذى فيه طرائق ، يقال لطرائق الماء حُبك واحدُها حِباك » . وبهذا سها المبرد سهواً لم يفطن له السباعى ، فقد فسر الكلمة بما لا يراد منها فى تركيبها ، والصواب أن يقول : فالمحبوك الذى أُحكم خَلقه ، من حبكت الثوب إذا أحكمت نسجه ، يريد أن أصلاب الخيل موثقة مدمجة . ثم يقول : والمحبوك أيضاً الذى فيه طرائق (رغبة الآمل ج ١ ص ١٦١) وهو كتاب المرصفى المحكوم عليه بالغرور والادعاء !!

٦ — فى تهذيب الكامل ج ٢ ص ٢١٢ ، أنشد المبرد قول حاتم الطائى :

إن الكريم من تلفّت حوله ... وإن اللئيم دائم الطرف أقودُ

وقد غيّر المبرد لفظ البيت وروايته ، بدون أن يتنبه السباعى لذلك ، والصواب :

فمنهم جوادٌ قد تلفّت حوله ... ومنهم لئيم دائم الطرف أقود

لأن حاتماً يقول قبل هذا البيت :

كذاك أمور الناس راض دنية ... وسام إلى فرع العلا متورد

« راجع رغبة الآمل ج ١ ص ١٧٧ »

٧ — فى تهذيب الكامل ج ٢ ص ٣١٢ ورد قول الأشهب ابن رُمَيلة :

أسود شرًى لاقتْ أسود خفية ... تساقوا على حرد دماء الأساود

وقد تفضل الأستاذ السباعى فأثبت فى الهامش أن رميلة هى أم الشاعر ، ولم يتعب الأستاذ فى هذا التحقيق ، فقد نقله عما أضاف أبو الحسن إلى متن الكامل ، فكيف يجيب لو سأله أحد طلبة دار العلوم عن أبى هذا الشاعر وهو قد عرف أمه وجهل أباه ؟

الجواب عند الشيخ المرصفى « المغرور » فقد جاء فى رغبة الآمل ج ١ ص ١٧٩ أن أبا هذا الشاعر هو ثور بن أبى حارثة ابن عبد الدار

٨ — وفى تهذيب الكامل ج ٢ ص ٩٢ ورد قول ابن الإطنابة

وإجشامى على المكروه نفسى ... وضربى هامة البطل المُشيح

وسكت السباعى عن « الإطنابة » فلم نعرف أهو اسم أمّ الشاعر أم اسم أبيه ، وإنما سكت السباعى لأنه لم يجد ماينقله عن أبى الحسن ، فليعرف إن شاء أن الإطنابة هى أم الشاعر ، أما أبوه فهو عامر بن زيد مناة أحد أشراف الخزرج « رغبة الآمل ج ٢ ص ٢٣ »

٩ — فى تهذيب الكامل ج ٢ ص ٣١٥ قال رجل من بنى عبس يخاطب عروة بن الورد :

لا تشتمنّى يا ابن ورد فإننى ... تعود على مالى الحقوق العوائد

ومن يُؤثر الحق النؤوب تكن به ... خصاصة جسم وهو طيان ماجد

وإنى امرؤٌ عافى إنائى شِركةٌ ... وأنت امرؤ عافى إنائك واحد

أقسّم جسمى فى جسوم كثيرة ... وأحسو قَراح الماء والماء بارد

والسياق الذى أورده الأخفش وغفل عنه السباعى يوهم أن الأبيات الأربعة من شعر ذلك العبسى ، والصواب أن العبسى لم يقل غير البيتين الأولين ، أما البيتان الأخيران فهما جواب عروة بن الورد ، وقد نقل الشيخ المرصفى (ج ١ ص ١٩٥) أن عبد الملك بن مروان كان يحفظ لعروة الأبيات الأخيرة ، وثانيها هذا البيت :

أتهزأ منى أنْ سمنتَ وأن ترى ... بجسمى شحوب الحق والحق جاهدُ

فإن ارتاب الأستاذ السباعى فى تصحيح الشيخ المرصفى فليرجع إلى ديوان الحماسة فى باب الأضياف والمديح ليرى هذه الأبيات الأخيرة منسوبة إلى عروة بن الورد ، والمفهوم أن ديوان الحماسة مما يحفظه الطلبة بمدرسة دار العلوم !

ثم أما بعد ، فهذا هو المنهاج الذى سنسلكه فى بيان فضل المرصفى على السباعى وعلى جميع من يقرأون الكامل للمبرد ، وسنرى فيما بعد غرائب وأعاجيب من غفلة السباعى عن فهم أغراض المبرد ، فكيف ترونه يصنع ؟ هل يصرّ على القول بأن المرصفى كان رجلاً مغروراً ، وأن من الجريمة أن يدخل كتابه « دار العلوم » ليخلو الجوّ لمن تفوتهم البسائط من الأغلاط ؟

إلى الدكتور زكي مبارك

خصومة أدبية

للأستاذ السباعي بيومي

معذرة يا صديقي الدكتور ، فقد حملني ما ظهر في كلمتك السالفة من مخالفة الرفق الذي تطلبه قولا وتنبذه عملا أن أقسو عليك في عبارة هذه الكلمة بعض القسوة ، ولدينا مزيد ...

كلمتي الثانية

أينا الذي نهب وادعى ؟

وجه إليّ صديقي الدكتور زكي مبارك كلمة بعدد « الرسالة » رقم ٣٩٦ كان مما ذكره فيها قوله :

« وقد زعم الأستاذ السباعي أن الشيخ المرصفي سرق بعض أفكاره ، فليستعد للدفاع عن النظرية التي نهبها نهباً من كتاب « النثر الفني » ونشرها في مجلة السراج »

فهالني من صديقي أن يهفو تلك الهفوة ، بل أن يسقط تلك السقطة ، لأنه بنى هذا الزعم الفاسد على شيء سطحي ظاهري لا يأخذ به محقق ولا يغتر فيه باحث ، ذلكم هو أنه رأى تاريخ العدد الذي نشرت فيه تلك النظرية بمجلة السراج ، لاحقاً لتاريخ نشر كتابه المذكور — ناسياً أنها ثابتة لي قبل تاريخ هذا النشر بزمن طويل — فادعى أني نهبت وسرقت ؛ وها أنذا باسط هذه المسألة للقارئين بسطاً يجعلهم يوقنون أن صديقي هو الذي نهب وسرق ؛ ثم أبى إلا أن يصحب ذلك بجاه عريض من الادعاء والتطاول على رجالات الأدب قدماء ومحدثين ، وإلى حضراتهم البيان :

قال الدكتور في كتابه « النثر الفني » من كلامه على نشأة المقامات : « وكان المعروف أن بديع الزمان الهمذاني هو أول من أنشأ المقامات ، ولم أجد فيمن عرفت من رجال النقد من ارتاب في سبق بديع الزمان » ؛ ثم قال : « وقد وصلت إلى أن بديع الزمان ليس مبتكر فن المقامات ، وإنما ابتكره ابن دريد المتوفى سنة ٣٢١ ، وإلى القارئ النص الذي اعتمدت عليه في تحرير هذه المسألة » ؛ وهنا ساق النص الآتي :

«قال أبو إسحاق الحصري حين عرض لكلام بديع الزمان: — كلامه غض المكاسر، أنيق الجواهر، يكاد الهواء يسرقه لطفاً، والهوى يعشقه ظرفاً ؛ ولما رأى أبا محمد بن الحسن بن دريد الأزدي أغرب بأربعين حديثاً ، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره ، واستنخبها من معادن فكره ، وأبداها للأبصار والبصائر ، وأهداها للأفكار والضمائر ، في معارض عجمية وألفاظ حوشية ، فجاء أكثر ما أظهر تنبو عن قبوله الطباع ، ولا ترفع له حجبها الأسماع ، وتوسع فيها إذ صرف ألفاظها ومعانيها في وجوه مختلفة وضروب متصرفة ، عارضها بأربعمائة مقامة في الكدية ، تذوب ظرفاً وتقطر حسناً ؛ ولا مناسبة بين المقامتين لفظاً ولا معنى ، وعطف مساجلتها ووقف مناقلتها بين رجلين ، سمى أحدهما عيسى ابن هشام، والآخر أبا الفتح الأسكندري ؛ وجعلهما يتهاديان الدر ويتنافثان السحر ، في معان تضحك الحزين وتحرك الرصين ، يتطلع منها كل طريفة ، ويوقف فيها على كل لطيفة ، وربما أفرد أحدهما بالحكاية ، وخص أحدهما بالرواية » . إنتهى النص

وأنا أؤكد لحضرات القارئين أن قول الدكتور « وكان المعروف أن بديع الزمان الهمذاني هو أول من أنشأ المقامات » لم يكن المعروف وإنما كان المنكر الذي ينكره التاريخ ويبرأ منه

لقد أنذرني الأستاذ السباعي ، فهل يجيب عن هذه المؤاخذات قبل أن ينفذ ذلك الإنذار الفظيع ؟

المهمّ هو أن ينظر أبناء دار العلوم في هذه المؤاخذات الموجّهة برفق إلى نسخة « تهذيب الكامل » لا إلى الأستاذ السباعي ، فما أجرؤ على الهجوم عليه ، وهو أديبٌ يراني ويرى أستاذي من المغرورين المجترئين !

المهمّ هو الصدق في خدمة اللغة العربية ، وأنا بهذه الدراسات أخدم لغة العرب خدمةً يعجز عنها السباعي بيومي . وإن طال الشوط وسيطول فسيندم السباعي على ما اجترح من ستر جنايته على المبرد بجنايته على المرصفي

إن قلبي ليكتحل بالغُبار الذي يثيره قلمي ، فمن طاب له أن يلقاني في ميدان النقد الأدبي فليوطّن نفسه على مكاره لا يصبر على لأوائها غير الخناذيد

وإلى اللقاء ، فللحديث شجون وشجون

زكي مبارك

الأدب قديماً وحديثاً ، وإنما هي مقدمة ساقها الدكتور باطلة ليبني عليها تلك النظرية التي طنطن بهـا وعج . وليسمح لي صديقي أن أعيد على مسمعه ما سبق أن رميته به من قلة الاطلاع ، فإن ذلك النص التاريخي لم يكن هو الذي كشف عنه . وكيف وقد كان نصاً معروفاً متداولاً نقله كثير من الأقدمين تدليلاً على أن البديع لم يكن المنشيء الأول للمقامات ، كابن خلكان وياقوت في كتابيهما وفيات الأعيان ومعجم الأدباء، وكالشريشي في شرحه لمقامات الحريري . ولولا ضيق (الرسالة) في هذى الظروف لنقلت نصوص هؤلاء الأعلام ، ثم لذكرت غيرهم وأتيت على نصوصهم، في سبيل نقض هذه الدعوى التي ادعاها الدكتور، تلك التي أخجل أن أسميها دعوى بالمعنى المعروف لأنها ظاهرة الفساد والبطلان ، وليس للخصومة بشأنها أي مجال ، ولكن صديقي حين صادفه هذا النص وهو يقوم بما يقوم به في زهر الآداب ـ بتكليف من طابعه الحاج مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية ولولاه ما كان عثر ـ اعتقد أنه عثر على ما لم يعثر عليه إنسان، وأنه بهذا الكشف عن ذلك الكنز : كنز توت عنخ أمون قد أصبح فارس ميدان أو فارس الميدان ، وإذن فليجل وليصل وليمش في الأرض مرحاً حتى يخرق الأرض أو يبلغ الجبال طولاً ؛ ثم ليستمع الناس له مرغمين ساكتين وهو يقول بعد القول الذي فندناه : « ولم أجد فيمن عرفت من رجال النقد من ارتاب في سبق بديع الزمان إلى هذا الفن ، وإنما رأيت من يطل سبقه بنزعته الفارسية » جاهلاً أن رجال النقد يأبون عليه ذلك إن كان قد عرفهم ؛ فإن تلك النظرية التي يزعم كشفها بيده وتقديمها للأدباء مخترعة ببحثه ، معروفة للأدباء الحديثين ، ومدروسة منهم للمتأدبين . وها نحن أولاء أبناء دار العلوم فتحنا عيوننا أول ما درسنا الأدب بتلك الدار على هـذه النظرية المزعوم كشفها وتلقيناها على أيدي أساتذتها في العُشر الأول من هذا القرن الذي أوشك أن ينتصف ، أي منذ أربعين من السنوات

هذه هي الحقيقة ناصعة، ولكن ليس لي أن أتركها من غير دليل أقدمه لصديقي الدكتور ، بعد الذي قدمه عن نفسه من أنه لا ثقة للناس في اطلاعه ولا علم لهم باتساع أفقه ، وإذن فليتلق هذا الدليل من إحدى مذكرات المرحوم الشيخ أحمد الإسكندري ، فقد كان يدرس تلك النظرية لطلبة دار العلوم قبل أن يكون الدكتور شيئاً . قال رحمه الله في الصفحة ٣١٠ من مذكرة مطبوعة في الأدب العباسي لطلاب السنة الكتبية ١٩٢٩ — ١٩٣٠ طبعة أخيرة ، وهو يتكلم على المقامات في ترجمة البديع ما نصه : « وكان ممن أعجبته هذه الطريقة ـ يعني طريقة المقامات ـ ابن دريد ، فأراد أن يلقن نابتة زمانه اللغة والأدب في هذا النوع من الكلام . قال أبو إسحاق الحصري في كتابه (زهر الآداب) : وقد ذكر أبا الفضل الهمذاني بديع الزمان ـ وهذا اسم وافق مسماه ، ولفظ طابق معناه، كلام غض المكاسر، أنيق الجواهر » إلى آخر هذا النص الذي ادعى كشفه الدكتور ثم نقله في نثره معجباً به أيما إعجاب

أصدقت إذن يا صديقي أنك كنت في قولك : « ولم أجد فيمن عرفت من رجال النقد من ارتاب في سبق بديع الزمان إلى هذا الفن » أجرأ منك في قولك السابق : « وكان المعروف أن بديع الزمان هو أول من أنشأ المقامات »

صدق صدق يا دكتورَ ثم اخل إلى نفسك واحسب عدد من درسوا في دار العلوم على هذا العالم الجليل حقبة تقرب من ثلث القرن ؛ وما كان متوسط عدد كل فرقة على سنيه ينقص عن الستين ؛ فإذا ما حسبت علمت أن من يعرفون تلك النظرية من خريجي دار العلوم وحدهم ، فما بالك بغيرهم، يناهزون الألفين بل يزيدون . ثم اذكر يا صديقي أن هؤلاء الخريجين يدرسون ذلك لتلاميذهم في مختلفات المدارس ، وفيهم من درسوها لطلاب دار العلوم وطلاب كلية اللغة العربية ؛ ودونوا هذا في مذكراتهم مفصلاً مبسوطاً ، قبل أن تدونه أنت في كتابك موسوماً بسمة الاختراع ؛ وأنا أحد من فعل ذلك لطلابي في المعهدين المذكورين منذ أن بدأت دراسة الأدب فيهما سنة ٣٢ — ٣٣ وكتابك لم يطبع إلا سنة ٣٤ ؛ وكذلك فعل زميلي وابن دار العلوم الأستاذ محمود مصطفى في كلية اللغة العربية التي لا يزال فيها إلى الآن

الحق يا صديقي أنك كنت جريئاً إن صح أن يسمى جراءة هذا الادعاء ؛ والحق أن الخجل كان قد رفع حيناً زهوت بهذا الكشف المزعوم زهو الطاوس ، فقلت إنك حين أطلعت عليه المسيو مرسيه بباريس دهش وعجب كيف اتفق الناس مع هذا

على أن بديع الزمان هو منشئ فن المقامات ، وأنه أتحفك بهذه العبارة يقولها لك من باب الإطراء وهى : « يظهر أنه ضاع علينا من تاريخ الأدب العربى شىء كثير » ؛ ثم زدت فى الزهو فنسبت إلى الدكتور طه حسين من العجب والدهش مثل ما نسبت إلى المسيو مرسيه ، وأنه جال معك فى حديث ألهمه إياه نبأ هذا الاختراع ، ولم يك باقياً عليك إلا أن تذيع أخبار هذا الكشف على تيارات البرق وموجات الأثير

والآن ، أفما كان الأجدر والأولى بالأستاذ الإسكندرى وأمثاله من المحدثين الذين سبقوا إلى هذا الكشف بسنين أن يدعوه لأنفسهم إن كان هناك اختراع ؟ ولكن حاشا لهم وهم ممن يحترمون الحقيقة ولا يتغفلون السواد أن يدعوا دعواك . وأما كان لى أن أرميك — إذ رميتنى بالسرقة والنهب — أنك أنت الذى على افتريت ومنى نهبت ؟ ولكن حاشا ونحن كأساتذتنا نحترم الحقائق ولا نتغفل السواد ، أن نفعل ما فعلت ؛ فإنما الأمر مفهوم معروف ، وأنت فيه المتأخر المسبوق . والذى لا شك فيه بعد هذا البيان أنك كذبت على القدماء ، واغتصبت جهود المحدثين ، ثم لم تتسلل لواذاً ولم تخلص نجياً كما يفعل السارقون ، ولكن أبيت إلا أن تهلل وتكبر ، وتتعالى وتتجبر ، ثم تتغالى فى الزهو بنفسك ، واجتذاب الإعجاب بك من غيرك ، وإذا بالحق يصرعك وينتقم للأدب والجماهير منك ... وإنى أستحلفك بالله يا صديقى صادقاً ، كيف وصفت نفسك إزاء ما سميتها نظرية وهى من البدهيات بما وصفت ؟ أكان ذلك عن جهل منك إلى هذا الحد ، أم هو تغرير وادعاء ليس من بعده بعد ؟

وبعد فقد آن لى أن أكر راجعاً على كلمتك التى رميتنى فيها بالسرقة منك بعد أن قبضت عليك متلبساً بالسرقة التى ادعيت ، فأعلق على باقى ما ذكرت فيها بعبارات خاطفة ؛ إن شئت بسطت كل عبارة منها فى مقال كالذى سمعت :

١ — جعلت عنوان كلمتك « الهجوم الآثم على الشيخ سيد المرصفى » وهذا أمر غبت عنه ولم تشهده فكيف أقدمت عليه قبل أن ينجلى لك ؟ وإذا سوغك تطاولك أن تسميه هجوماً فكيف وصفته متسرعاً بالآثم فكنت الآثم بما وصفت ؟

٢ — تزعم أن الخطابات قد كثرت عليك فى تحقيق ما ادعيته على فى حق الشيخ المرصفى ، وأنا أجزم قاطعاً ، وأحلف غير حانث ، أنه لا خطابات ؛ وإذا كانت فإنها لا تعدو ركب النميرى الذى قال فيه :

ولما رأت ركب النميرى أعرضت وكن من أن يلقينه حذرات

فلما سئل فيم كنت ؟ قال والله إن كنت إلا على حمار هزيل ولى رفيق على أتان مثله

٣ — تقول : « وكنت — أى لولا تلك الخطابات — أغفلت هذا الموضوع عن عمد ، لأن الأستاذ السباعى له على حقوق » وما كنت أفهم إلا أن تلك الحقوق إنما هى حقوق الصداقة ، فإنى لا زلت بها حفياً وعليها حريصاً ، ولكنك جعلتها يا صديق : « أننى كنت دائماً من أنصارك » وليس لمثلى أن ينخدع بخدعة الصبى هذه تسوقها إليه ، فالحقيقة المرة التى أسمعك إياها الآن بعد أن طنيت زماناً ولم ترد ، أنك ما كنت فى يوم زعيماً فى الأدب حتى يصح أن يكون لك أنصار ، وإنما زعامتك نسج عنكوت حكته من حولك ، وتركك الناس تلهو به وتلعب ، ثم زدت هذه العلة أخرى تقول فيها : « ولأن مقام الشيخ المرصفى أقوى من أن يهدم بكلمة جارحة تساق إليه فى إحدى المحاضرات » . وإنى أحذرك جريئاً على تحذيرك إن كنت تريدها خصومة أدبية بينى وبينك أن تترك الآن الشيخ المرصفى ، فإن التحكك به لن يغنى عنك فى الموضوع شيئاً ؛ وإذا ما صفى الحساب بيننا عدت أبين لك أن مكانة الشيخ المرصفى لا تعلو على النقد ؛ وأن الذى يصفه بمحض ما وصف به المبرد لا يكون قد عدا الحقيقة ، ولا تعدى على السلف الصالح ، فإن المبرد على أية حال أعلم من المرصفى علماً ، وآدب منه أدباً ، ثم هو أدخل منه فى السلفية الصالحة دخولاً يقوم شاهداً عليه عدد وافر من القرون

٤ — ورابعاً تقول : « ولكن سكوت الأزهريين عن الانتصار للشيخ المرصفى أزعجنى وكنت أرجو أن يكونوا درعاً واقية لذلك الشيخ الجليل وهو رجل لم ير مثله الأزهر منذ أجيال طوال » . وأنا أصدقك القول يا صديقى بغض النظر عن نصيب هذا التفضيل الذى أسبغته على الشيخ من الحقيقة والواقع ، بأن عبارتك هذه من باب الاستجداء الذليل والملق الرخيص الذى ينقص منك ولا يزيد فيك ، فقد فاتك أن الأزهريين يقدسون حرية البحث فى دراساتهم أول ما يقدسون ، وأنهم يرون المبرد

قبل أن يرثوا للرصفى ، وأن ديدنهم فى ماضيهم وحاضرهم يأبى عليهم إجابتك إلى ما تطلب ، لما يحسونه فى طلبتك من غرض وهوى ، ولأنه إذا كانت هناك حقيقة اعتدى عليها كان من شأن هذا الاعتداء أن يحفزهم على نصرتها من دون صراخ لك فيها ولا استعداء منك بشأنها .

٥ — وخامساً تعتبر مضايقتى بلاء لصداقتى ، والسكوت عن الرصفى بلاء لأستاذيته ، ثم تخرج من هذه الحيرة بنقل القضية من وضع إلى وضع ، لتصيرها أدبية بعد أن كانت شخصية ، ثم تعلن عن هذه الخصومة فإذا هى أمران ، أحدهما زعمك أنى زعمت الشيخ الرصفى قد سرق بعض أفكارى ، وإهابتك بى أن أستعد للدفاع عن النظرية التى نهبتها من كتابك النثر الفنى ونشرتها فى مجلة السراج ، والآخر أننى أستر جنايتى على المبرد بجنايتى على الرصفى ، وأنك ستعرفنى أن تهذيبى للكامل لم يكن إلا جناية أدبية ، وأن التطاول على مقام الشيخ الرصفى لا يذهب بلا عقاب

ورأيى لك يا صديقى فى الأمر الأول، أمر سرقتى من تترك إلى مجلة السراج قد سمعت فيه كلمتى الثانية هذه التى سقتها إليك بشأنه، واثقاً أن لك فيها دواء ناجعاً من الادعاء وشفاء شافياً من الغرور، وراجياً أن تكون أهلاً لثقتى هذه فيك

أما رأيى لك عن الأمر الثانى فقد أنبأتك آنفاً بإرجائه إلى ما بعد كلمتى هذه والسابقة ، لأنه موضع الخصومة وفيه سيكون النزال . وإنى بهذه الخصومة لجد مسرور ، أتدرى لماذا ؟ لأنى سأعرضك فيها للجمهور على حقيقتك التى غشيتها ما غشيتها ، وتسامح الناس معك فيها ما تسامحوا . وسيكون أول كشف لك فيما عملت ، واقعاً على زهر الآداب إن شاء الله ، لأنه دون سائر أعمالك أشبه بما عملت فى تهذيب الكامل الذى عددته جناية أدبية ، حتى إذا ما أخرجتك بمقالاتى فيه ، معترفاً لى ببراءتى من هذه الجناية ، ومعترفاً على نفسك بإجرامك على الزهر وصاحبه وعلى الأدب ، انبريت إلى تصانيفك — التى لا شبه لها عندى إلا أفراخ البنات كثرة عدد وقلة غناء — أرد ما ليس لك فيها وهو أكثرها إلى مآخذه ذاكراً ما أوقعت فيه من تحريف ،

وأبين زيف ما هو من صنع يدك وهو القليل ، بما لا مخرج لك منه أمام الناس لا أمام نفسك

٦ — بقى قولك فى نهاية كلمتك إنك تكره البغى على أصدقائك وإن أمرك معهم لم يكن إلا شبيهاً بأمر أكثم بن صيفى « إن قول الحق لم يدع لى صديقاً » وما كان أكثم لك بشبيه ، فإن الذى لم يدع لك صديقاً إنما هو دأبك على الباطل فى كثير مما تبحث ، وبغيك على حق الصديق فى جل ما تنقد ، حتى لقد أمللت ومللت . ولقد حدثتنى نفسى أن أكون فيما بغيت علىّ عاملاً بالآية (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) كما فعل كثير ، ولكنى رأيت فى بعض وجوه الحزم — وأنت عالم بالوجه الذى رأيت — أن أحيد فى معاملتك عن تلك الآية السمحة إلى هذه الآية العادلة (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل) وحقاً لا تثريب علىّ ولا سبيل (إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم)

وإليك يا صديقى سلامى حتى ألقاك فى مقالى المقبل بالدفع المنيف لما كتبت فى العدد الماضى مصحوباً بالهجوم الأعنف على ما صنعت بزهر الآداب

السباعى بيومى

فى العقد

لأستاذ جليل

— ١ —

طالعت الجزء الأول من كتاب العقد الذى أظهرته فى هذا الوقت لجنة التأليف والترجمة والنشر، أو دولة العلم والأدب والفضل فى مصر، وضبطه العلماء الأجلاء : الأستاذ الكبير أحمد أمين، والأستاذ الفاضل أحمد الزين، والأستاذ الفاضل إبراهيم الإبيارى، فرأيت فى هذه الطبعة الرائعة تحقيقاً كثيراً، وفضلاً فى الشروح والتعاليق كبيراً. وقد عثرت على أشياء فى هذا الجزء فى أربع مئة[1] صفحة كنت أعانى ضعفها (والله) فى صفحة واحدة من تلك الطبعات القديمات الخبيثات[2]. ولا ريب فى أن أكثر الخطأ فى طبعة اللجنة إنما هو تطبيع، وإن لم يرد فى جريدة الإصلاح، وسأكتب فى هذا (الإملاء) معظم ما وجدت غير متبع ترتيب الأقوال فى صفحاتها.

***

١ — ص (١١٩) قال الشنفرى :

إذا حُملتْ رأسى وفى الرأس أكثرى
وغودر عند الملتقى ثَمَّ سائرى

وجاء فى الحاشية : فى ١ : احتملت. وفى عيون الأخبار : هم ضربوا وفى البخلاء : إذا ضربوا

قلت : هذا البيت فى مقطوعة (ثلاثة أبيات) رويت فى العقد وفى ديوان الحماسة، ورواية أبى تمام : (إذا احتملوا)، وفى شرح التبريزى : (ويروى إذا احتملت)، واللفظة غير مشكولة. وإذا صحت هذه الرواية، فالفعل مبنى لما سمى فاعله، فيعود الضمير إلى (أم عامر) فى البيت قبله فى أول المقطوعة :

لا تقبرونى إن قبرى محرم عليكم ولكن أبشرى أم عامر[1]

أو إلى شىء حذفه أبو تمام، فقد كان يختار من قصيدة طويلة بعض أبياتها. وضبط (حملت) بالبناء لما لم يسم فاعله مشكلة أى مشكلة، بل مصيبة... إذ يؤنث بها (وطن النهى)[2] والرأس فى أقوالهم فى جميع أزمانهم مذكر. قال التاج : اجمعوا على أن الراس مذكر

ويلوح لى أن صاحب هذه الأبيات هو صائغ اللاميتين : لامية الشنفرى ولامية تأبط شراً... فى الرثاء، وأولها :

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيلاً دمه ما يُطل[3]

قال التبريزى : (إنها لخلف الأحمر وهو الصحيح)؛ وقال أبو على فى أماليه : كان أبو محرز أعلم الناس بالشعر واللغة، وأشعر الناس على مذاهب العرب. حدثنى أبو بكر بن دريد أن القصيدة المنسوبة إلى الشنفرى التى أولها :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فإنى إلى قوم سوا كم لأميل

له، وهى من المقدمات فى الحسن والفصاحة والطول؛ فكان أقدر الناس على قافية

قلت : وأبو بكر بن دريد كان خير خلف لخلف ولمن سلف من الصواغين المزخرفين، فصنع ما صنع، وأمالى القالى ملآنة مما ابتدع

٢ — ص (٣٦١) ودخل أعشى ربيعة على عبد الملك ابن مروان، وعن يمينه الوليد، وعن يساره سليمان، فقال له عبد الملك : ماذا بقى يا أبا المغيرة؟ قال : مضى ما مضى وبقى [ما بقى] وأنشأ يقول. ورويت مقطوعة بيتها الرابع هو هذا :

وإن فؤادى بين جنبى عالم بما أبصرت عينى وما سمعت أذنى

وجاء فى الحاشية : زيادة (ما بقى) يقتضيها السياق والألف فى ب : مضى وبقى

---

(١) لقد آن أن ندع الهزل فى الهجاء، وأن نرسم ألفاظ العربية جادين، فاكتب (يا فتى) أربع مئة أو خمس مئة بهذه الصورة كل لفظة على حدة دون نقصان فى ثلاث ولا زيادة فى مئة

جاء فى صبح الأعشى : أثير الدين أبو حيان : أكتب أنا مئة بغير ألف كما تكتب فئة لأن كتب مئة بالألف خارج عن القياس.

(٢) لم أقف على الطبعة التى أخبرنا بها فى (الرسالة ٣٩٢ ص ٨) الأديب الكبير الأستاذ محمد سعيد العريان؛ ولم نعلم بظهورها فى السوق

(١) فى البيت خذم. والرواية فى طبعة العقد (فلا تدفنونى) وقد ذكرت فى الحاشية الرواية الصحيحة فى الحماسة والأمالى

السيدة أم عامر... هى الضبع

(٢) ابن الأثير فى الفصل الخامس فى جوامع الكلم، فيما جاء من ذلك قول أبى تمام :

سبق المشيب إليه حتى ابتزه وطن النهى من مفرق وقذال

فقوله وطن النهى من الكلمات الجامعة، وهى عبارة عن الرأس، ولا يجاء بمثلها فى معناها مما يسد مسدها

(٣) قالوا : إن شاعر الجرمان الأعظم (غوته) نقل هذه القصيدة إلى الجرمانية وسماها نشيد الانتقام

قلت : جاء فى شرح الحماسة للتبريزى : ... فقال له : يا أبا المغيرة ما بقى من شعرك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، لقد بقى منه وذهب ، على أنى الذى أقول ... الأبيات . وقوله : ذهب أى ذهب منه ، وهو قول حلو محكم . والبيت الرابع هذه روايته فى الحماسة :

وإن فؤاداً بين جنبىَّ عالم بما أبصرت عينى وما سمعت أذنى

قال الإمام التبريزى : « نكّر فؤاداً لأنه باتصال قوله بين جنبىَّ — اختص ، حتى علم أنه قلبه من بين القلوب » وقد ائتم المتنبى بهذا الشاعر فى قوله :

وفى الناس من يرضى بميسور عيشه ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكن قلباً بين جنبىَّ ماله مدى ينتهى بى فى مراد أحده

وتنكير فؤاد الربى وقلب الكندى فى هذا المقام — من ألطف الكلام

٣ — (ص ٣٦٧) والدهر « أطرقُ مستتب »

وجاء فى الحاشية : كذا ورد هذان اللفظان (أطرق مستتب) فى الأصول والأغانى (ج ١٨ ص ٧٤ طبعة بولاق) ، وكذلك فى النسخة الخطية ولم تتبين معناها

قلت : هذا القول من أمثالهم ، وقد رواه الميدانى فى (مجمع الأمثال) ، وقال فى تفسيره : أى مطرق منغض منقاد . وفسره فى مكان آخر بقوله : الطرق استرخاء وضعف فى الركبتين[1] ، والاستتباب : الاستقامة : يريد أن الدهر تارة يعوج وتارة يستقيم

قلت وأطرق فى التفسير الأول مبنى من (أفعل) قال الرضى : وعند سيبويه هو قياس من باب أفعل مع كونه ذا زيادة ، ويؤيده كثرة السماع ، ويجوزه قلة التغيير لأنك تحذف منه الهمزة وترده إلى الثلاثى ، ثم تبنى من أفعل التفضيل ، فتخلف همزة التفضيل همزة الأفعال ، وهو عند غيره سماعى مع كثرته

٤ — (ص ٣٦٧) فلا تجعل بيننا وبينك الأسدة

قلت : لا تجعلن بجنبك الأسدة . وهو من أمثالهم . قال الميدانى فى كتابه : هذا مثل يقع فيه التصحيف ، فقد روى بعض الناس : لا تحفلن بجنبك الأشد ، وتمحل له معنى يبعد عن سنن الصواب . وقد تمثل به أبو مسلم صاحب الدولة حين ورد عليه رؤبة بن العجاج ، وأنشد شعره[1] ثم قال له أبو مسلم : (إنك أتيتنا والأموال مشفوهة[2] ، والنوائب كثيرة ، ولك علينا معول ، وإلينا عودة ، وأنت لنا عاذر ، وقد أمرنا لك بشىء وهو وَتِح[3] . فلا تجعلن بجنبك الأسدة ، فإن الدهر أطرق مستتب) ؛ ثم دعا بكيس فيه ألف دينار فدفعه إليه . قال رؤبة : فو الله ما أدرى[4] كيف أجيبه ... قال الجوهرى : السد بالفتح واحد الأسدة ، وهى العيوب مثل العمى والصمم ، جمع على غير قياس ، وكان قياسه سدوداً ، ومنه قولهم : لا تجعلن بجنبك الأسدة ، أى لا يضيقن صدرك فتسكت عن الجواب كمن به صمم أو بكم ...

قلت : كان أبو مسلم من كبار البلغاء الفصحاء . أورد الإمام الزمخشرى فى الكشاف قراءة له فى تفسير الآية الكريمة : (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق . ومن قُتِلَ مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً ، فلا يسرفْ فى القتل ، إنه كان منصوراً) فقال : (وقرأ أبو مسلم صاحب الدولة : فلا يسرفُ بالرفع على أنه خبر فى معنى الأمر ، وفيه مبالغة ليست فى الأمر

وهذا الخبر فى الكشاف يدلنا على مكانة أبى مسلم فى العربية وقدره العظيم عند جار الله

ووصف المدائنى أبا مسلم — كما نقل ابن خلكان — فقال : كان قصيراً أسمر ، جميلاً حلواً ، نقى البشرة ، أحور العين ، عريض الجبهة ، حسن اللحية وافرها ، طويل الشعر ، طويل الظهر ، قصير الساق والفخذ ، خافض الصوت ، فصيحاً بالعربية والفارسية ، حلو المنطق ، راوية للشعر ، عالماً بالأمور ، لم يُرَ ضاحكاً ولا مازحاً إلا فى وقته ، ولا يكاد يقطب فى شىء من

---

(١) فى الركبة واليد يكون فى الناس والأبل ، وقد طرق كفرح فهو أطرق وهى طرقاء (التاج)

(١) فى العقد : فأنشدته :

ما زال يأتى الملك من أقطاره
وعن يمينه وعن يساره
مشمراً لا يصطلى بناره
حتى أقر الملك فى قراره

قلت : فى ديوانه : مشمر ، أى هو مشمر

(٢) الأساس : وماء مشفوه كثرت عليه الواردة ، ومن المجاز : قول أبى مسلم لرؤبة : أتيتنا وأموالنا مشفوهة

(٣) شىء وتح : قليل وتح بفتح الأول وسكون الثانى وفتحه وكسره

(٤) يصور رؤبة تلك الحال

بين عامين

سراب وأمل ...

للأستاذ شكرى فيصل

— ١ —

رجعت اليوم مبكراً إلى غرفتي المتواضعة في الضاحية النائية ، في موكب من الوحدة والصفاء والانطلاق ، فلم يعد يحلو لى أن أطوّف فى أرجاء المدينة ، أو أذرع شوارعها العابسة بعد أن لفّتها الظلمة ، وغيض منها النور ، وكرهت نفسى هذا الرداء الأسود ذا النجوم الزرقاء الكابية الذى يضفونه على جنباتها الزاهية ، فلم أجد إلا مصباحى وزاويتى ... أعوذ بهما من شر الظلام الحالك

جلست إلى جوار النافذة أرقب النهار المدبر . لقد تجهمت السماء ، وأخذت تودع ألقها الصافى ، وانتشرت فى أطرافها البراقع القاتمة كأنها نذر الليل الزاحف ... ولم يبق من الشمس إلا تلك الشعاعات الجريئة القوية التى أبت الهزيمة ، وكرهت الفرار ، فوهبت دمها القانى لهذا الطرف البعيد من الأفق كآخر ما تملك من فداء وتضحية ! !

لشد ما يأسرنى الغروب ..! إنى لأجد له فى نفسى أجل الوقع . أترى كان ذلك لأنه يذكرنى آمالى الغاربة التى بددتها الريح وابتلعها اليأس ؟

— ٢ —

كان كل ما فى الضاحية يتشح بالسكون ، ويغرق فى الصمت ، ويدعو إلى التأمل . . . هذه الأرض الحلوة الطيبة تضم ذراريها التى تفتحت عنها من الخضرة الزاهية ، وتنام معها على هدهدة المساء ؛ وهذا النخيل القائم ، يرتكز إلى نفسه ، كأنما مل هذا الانتصاب ؛ والشارع الطويل الممتد ، كأنما كان طريقاً فى صحراء لا يقطعه إنسان ، ولا تجوزه مركبة ، ولا تخترقه سيارة ؛ وهذه الخراف الصغيرة فى أرض الجارة العجوز قد اطمأنت إلى حظيرتها الناعمة ... لم يبق أحد أو شىء ... إلا أنا ... أنا وهذه الساعة التى لا تنى تتحدث وتتحدث .

— ٣ —

واستغرقت فى هـذا التأمل ، وأصغيت إلى هذا الحديث ، وأحسست له معنى جديداً . لقد كنت أستمع إليه فى الصباح وعند الظهيرة وفى المساء ، فلم يكن ليحظى بشىء من انتباهى إليه وإصغائى له ، ولـكنه بات إلىّ الآن معنى رهيباً أجد له فى نفسى ألواناً من الصدى ، وأنواعاً من التأثير ، ثم هو يقترن إلى هذه الشعاعات الأخيرة الذاهبة فى الفضاء فيكون معها شيئاً رائعاً ينفذ إلى أعماق ، ويستثير فيها الذكريات الجائعة التى احتضنها الألم وغشاها الحزن

أيظل الإنسان رهن هذه اللفتات النفسية التى تصرفه عن دنياه ، وتباعد بينه وبين أجوائه ، وتقذف به فى عوالم مواجة ، وتطيح به هنا وهناك ألعوبة فى يدها . يذكر كل شيء وينسى كل شىء ، ثم لا يخرج من هذا الذكر والنسيان بغير الابتسامة الفاترة أو النظرة القلقة أو الأمل المريض

وتثاءب الـكون ، فسرت فى جسم الأرض نسمة هادئة اهتز معها العشب الأخضر ، وانثنت لها أغصان النخيل ورقص قرص الشمس المضطرب فى كبد الأفق وهو يغوص فى بحر اللانهاية

— ٤ —

فى هذه الساعة كانت تتمثل آخر معارك النور والظلمة على مشهد الـكون . لقد ظلت هذه المعارك أياماً كثيرة ما أطولها ! لقد امتدت مع العام الراحل كله ، تسجل غدر الزمان وغلبة الشر وتظهر هذا الإنسان المتفائل على مكاره الحياة ومصاعب الدهر ، ولـكنه يأبى إلا أن يسرف فى التفاؤل ، ويُغرق فى الضحك ، ويرى الحياة بعينى طفل غرير

وأصغيت من جديد إلى حديث الساعة ، كما أصغى لوحى الحنين حين يهيج بى الشوق ، وعجبت لنفسى كيف تأخذ على هذه التمتمات الخافتة كل مشاعرى وانتباهى ، أكان ذلك لأنها نشرت لعينى

أحواله ، تأتيه الفتوحات العظام فلا يظهر عليه أثر السرور ، وتنزل به الحوادث الفـادحة فلا يرى مكتئباً ، وإذا غضب لم يستفزه الغضب

وكان أبو مسلم ينشد فى كل وقت :

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت ... عنه ملوك بنى مروان إذ حشدوا
ما زلت أسعى بجهدى فى دمارهم ... والقوم فى غفلة بالشام قد رقدوا
حتى طرقتهم بالسيف فانتبهوا ... من نومة لم ينمها قبلهم أحد
ومن رعى غنما فى أرض مسبعة ... ونام عنها تولى رعيها الأسد

(١٤ ، ١٦)

***

حديث الماضي ، وطوفت بي فى ثنايا العام ، ووقفت بى عند هذه اللحظات من سنة خلت ، حين كنت أرقب مطلع الشمس من ضمير الأفق ومنبت البذور فى مغرس الأمل ، وحياة النعيم فى دنيا الشقاء ؟ أم كان ذلك لأنها تريدنى أن أعب من هذا النور المرتجف قبل أن يخنقه الظلام ، وأتزود بهذه الحرارة قبل أن يودى بها العدم ، وأشهد ساعة الوداع قبل أن يطوى الليل ؟ !

سواء لدى الأمر فلقد أثرت أنينها الساعة القابعة فى طرف الغرفة كل شجونى فاستفاقت على أنغامك العذبة ذكرياتى الغافية كما تستفيق جماعة الطير على أنداء الفجر ، وتحركت نفسى الراكدة على نبراتك الساحرة كما تتحرك صفحة الماء فى استقبال النسيم ، وأحسست حرارة الحياة حين خضت على هدى منك هذا الفضاء الذى أخلفه ورائى فى العام الراحل

لقد كنت أتجنب أن أنظر إليه ، لأنه يرهبنى أن أرى الزهرة الناضرة تذوى فى الكهف المظلم ، والبرعم الحلو ينطفئ فى رطوبة الفناء ، والشعلة المقدسة تخفت فى مهب الريح العاتية

— ٥ —

فى مثل هذه اللحظات من العام الماضى كنت اقتطفت هذه الزهرة من روضة الصبى فغرستها فى أرض الحياة ، وسقيتها بماء الأمل ، وغذيتها بالأمانى ، وانتظرت ثمرتها الغضة ... ولكن الحياة التى ألفت الغدر وعشقت الشر ، تريد أن تمنع عنى الأريج وتحول بينى وبين الثمرة !

وفى مثل هذه اللحظات من العام الفائت ، حملت يداى المصباح الذى يستمد حرارته من دم القلب ، ونوره من شعاع العقل ، وطوفت به أنشد الهدف وأرنو إلى الغاية ... ولكن السبيل ما تزال تعلوها العقبات ، وتعترضها الحواجز ، وأنا أمضى وأمضى ... ثم أجدنى حيث كنت ... كأنما أدور حول محيط الدائرة دون أن أستطيع بلوغ مركزها ، والمصباح يرف رفيف الأمل المنكسر ، كأنما يظهرنى على خفقات القلب الآيسة من هذا الطواف الممل ...

وفى مثل هذه اللحظات أيضاً مددت يدى إلى الحياة ، فى نفسى السرور ، وعلى وجهى البشر ، وفى يمينى الحق ... وانطلقت أصافحها ، تملأنى الثقة ، ويزدهينى المستقبل ، ولم أفطن لهذا الغطاء الناعم الذى كان يكسو يدها ويريق عليها مظاهر الفضيلة ... ثم أدركت بعد أن القفاز يستر الشوك ، وأن الشوك ينطوى على السم ، وأن السم يكيد للحق ويخنق المستقبل

لقد أدركت الآن لماذا كان لدقات الساعة فى هذه اللحظات مثل تلك الروعة وذاك الأثر ... لقد كانت توقع بنبراتها الحادة رنين الأمل الهادى فى قرارة اليأس ، وتمثل حشرجات الأمانى فى صدر الزمن ، وتبكى بنغمتها المؤثرة العام الراحل ... وكانت تستفزنى أن أرفع بصرى إلى السماء ، وأدير نظرى فى الكون لأشهد هذا الوداع . فما كنت أستطيع أن أرى شيئاً ، فقد اختلط علىّ الأمل واليأس ، كما يختلط قتام الليل بوضح النهار ، وتساوى عندى الأمس واليوم ، كما تساوى الماضى والمستقبل فى عمر الدهر ، وأحسست فى نفسى فراغاً كبيراً ممتلئاً بكل شىء ويتسع لكل شىء ... يتجاوب فيه كل صدى ، وترن فيه كل نغمة ... ثم تضيع فيه هذه الأشياء والأنغام والأصداء ، كما تضيع هذه الأشعة فى كهوف الأفق

— ٦ —

إنى لأفتح عينىّ الآن فلا أرى شيئاً ، لقد امتزجت فى أذنى الأصوات المنبعثة عن حداء الزمن ، وضحك الأمل ، وصعقات العاصفة ، كما اختلطت فى عينىّ الأنوار المنبعثة من جوف الماضى وغياهب الآتى ، وصفحات الحاضر ... فما تغرينى دقات الساعة لأن الزمن لم يعد شيئاً فى حياتى ، فقد أسفت للزمن ، وما تبكينى الشجون ، لأن اليقين قد طوى الألم ، وما ينتابنى القلق ، لأن الإيمان يصرع الهواجس

سأقتطف الزهرة الجديدة من قلب الصبى الناعم ... وسأغرسها فى رعاية الله وحنانه وبره ، وستمتد يدى من جديد لتصافح ملائكة السمو والمجد ، وسأحمل المصباح ، يستمد نوره من الإيمان واليقين ، وسأنشد الغاية رضى النفس ، وسأقطف الثمرة ، تباركها يد الله ، وأحقق الهدف يهدى إليه نور الله ...

فى طرف الأفق ، كانت تغيب الأرض غلالة النور ، وفى كبد الجو كانت تطلع السماء أنوار النجوم ، وتبعث شعاعاتها المهتزة على الأرض المكروبة ، تبشرها بالنور الطالع والفجر القريب ، وفى الحاشية البعيدة ، كان يرقص خط دائر من النور . لقد طلع الهلال ، وولد العام ، فماشت معه آمال ، وانتعشت أمانى وضحكت نفوس

« القاهرة » شكرى فيصل

حكم استئنافياً بتغريم فهمى حسانين سلامه التاجر بالمنيل بالقضية ن ٩٦٧٤ بجلسة ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٤٠ جنيهاً ونصف لبيعه عدسا بأزيد من التسعيرة .

الفنون وضمائر الشعوب

للأستاذ سيد قطب

حين تفسد الفنون فى أمة من الأمم تفسد فطرتها ، والعكس صحيح ، فما تفسد سليقة الأمة حتى تتبعها الفنون ؛ ومن هنا كان اهتمامنا بمكافحة « الغناء المريض » لأننا نكره لهذا الشعب أن تفسد فطرته ، كما نكره له أن يكون عنوان هذه الفطرة هو هذا الغناء

والموسيقى والغناء أمسُّ بضمائر الشعوب من سائر الفنون ، فقد يكون الأدب كما يكون النحت والتصوير لغة جماعة من خواص المثقفين المدربين على الإحساس والفهم ، أما الموسيقى والغناء فهما لغة البداهة والتعبير المباشر عن أعماق السليقة

نعم إن الطبائع تتفاضل فى فهم الموسيقى والغناء والحس بهما ، ولكن يبقى مع ذلك فارق أصيل بين السلامة — وهى أولى درجات الفنون ، والمرض — وهو لا يلتبس على طبيعة مستقيمة أو فطرة سليمة

ونحن لا نتطلب من الملحنين والمطربين اليوم سمواً فى التعبير عن الفطرة الإنسانية ولا امتيازاً فى الإحساس على الجماهير ، ولكننا نقنع فقط بالسلامة فى الشعور الإنسانى ، بل نتواضع فنقنع بالسلامة الحيوانية ، غير أننا لا نجد حتى هذا المطلب المتواضع فيما يذيعونه من أغنيات ولحون

ويبدو أننا مبالغون فيما نطلب من هؤلاء الناس ، وأنه تكليف مجهد لطبائعهم ولثقافتهم ذلك التكليف الذى نسومهم إياه . وإذا كانت هناك بارقة من أمل فلن تكون فى محاولة توجيههم أو تقويم فطرتهم أو رفع مستوى إحساسهم ؛ فذلك ما لم يتهيئوا له ، ولكن المحاولة يجب أن تتوجه إلى وخز طبيعة هذه الأمة ، فإن كان فيها خير عافت هذا الترجيع وانصرفت عن هذا الترنيم ، وإلا فقد « وافق شن طبقة » وعفاء على الجميع !

ووجه المبالغة فيما نكلفه هؤلاء الناس أن الموسيقى والغناء مهما يكونا لغة الفطرة وتعبير البداهة ، فهما فى حاجة إلى طبائع سليمة ، وتلك موهبة لا يبوّئها إلا القليلون وإن كانت تبدو حقاً مباحاً للجميع ، وفى حاجة إلى ثقافة عقلية ونفسية كذلك وإلى فهم أو إدراك لدُنّى لمهمة الفنون ، وتلك شقة بعيدة على نشأة هؤلاء القوم ، وآفاق لم يفتحوا أعينهم عليها ولم يتطلعوا مرة واحدة إليها .

الفن — شعراً كان أم تصويراً أم غناء أم موسيقى ... — هو « صورة الكون فى نفس إنسان » وهو « تبلور الحياة فى حس فنان » فهل ترى حين تقول هذا الكلام لمن كان من المشتغلين بالموسيقى والغناء فى مصر يحسبك تتحدث بلغة مفهومة أم يفغر فاه عجباً من هذه اللغة الغريبة التى لم يسمع بها فى لغة أبناء هذا الزمان ولم يحس لها تفسيراً فى نفسه وهو يعالج ما يعالج من ألحان ؟!

الموسيقى والتلحين ، هما هذا الذى يدرسونه فى معهد الموسيقى الشرقى من السلم الموسيقى والمسافات فى النوتة والتوفيقات التوقيعية بين وزن القطعة التى بين يدى الملحن وبين النغمات التى تناسبها — أيا كان معنى هذه القطعة وجوها الفنى فذلك آخر ما يفكر فيه الملحنون . فإن خرج (موسيقار مجدد) عن هذه الحدود ، فإلى بعض الألحان الإفرنجية وبعض ألحان سيد درويش : سرقة واقتباساً وتمزيقاً وتشويهاً ، ويا ليتها سرقة صريحة واضحة ولكنها « مرمطة » لهذه الألحان المسروقة حتى تلين وتتكسر وتتخلع وتناسب هذه الدغدغة الماجنة التى يدعونها تجديداً فى التلحين

هذه وتلك آفاق المشتغلين بالموسيقى والغناء فى مصر ، فما تكون إذن « صور الكون فى نفس إنسان وتبلور الحياة فى حس فنان » ؟ ما يكون هذا الكلام الذى يشبه المعميات والألغاز عند هذه النفوس الضعيفة الصغيرة ، وهذه العقول المسكينة المحدودة ؟!

بلغتنى قصة طريفة عن مولد قطعة غنائية يتميع بها شبان البلد وشوابه فى هذه الأيام ، ولست متأكداً من صحة جميع تفصيلات هذه القصة ولكنها ليست بعيدة التصديق ولا متعارضة مع المعروف عن هؤلاء « الفنانين » !

قال مغنى القطعة لمؤلفها : ما رأيك فى « مايهونش » ألا ترى أنها تكون « مؤثرة » ؟ قال المؤلف : تكون ! . قال المغنى : وحياة أبيك تضع لنا عليها « طقطوقة » . . . فكان !

هذه قصة لا أجزم بصحة تفصيلاتها هى بالذات ولكنها تتفق مع ما أجزم به من طريقة تأليف المقطوعات الغنائية وبواعثه وعن غناء هذه القطع وأسبابه فى نفوس المؤلفين والمطربين ، فليست هذه البواعث أحاسيس نفسية تبعث بالقطعة فى نفس مؤلفها ألفاظاً وأوزاناً وفى نفس مغنيها نغمات وألحاناً

فكيف يتأتى إذن لهذه الأغانى أن تكون شعوراً إنسانياً كريماً ، أو شعوراً حيوانياً وتلك بواعث القول والغناء عند هؤلاء وهؤلاء !

ولكننى أغمط التأليف الغنائى حقه حين أسوى بين مستواه ومستوى التلحين والغناء فى هذه الأيام ، فنحن إذا تجاوزنا عن المؤلفين المحترفين الذين يطنون كالذباب حول المطربين والمطربات نجد آخرين من كرام الشعراء ومشهورى الأدباء قدموا بعض مقطوعاتهم للغناء ، ولكنها خرجت من يدى اللحن جثثاً هامدة بعد إخضاعها للنغمات المحفوظة والترنيم المجوج

ولو سارت خطوات الموسيقى والتلحين فى مصر على هدى خطوات الشعر ، لكان لنا فن موسيقى محترم ، ولكننا شيئاً فى رقمة العالم العريضة التى تموج بالفنون الحية، بينما نحن منها فى الرميم

ولا زلت أذكر أن مطربة كبيرة مشهورة ذات صوت فريد فى جوهره مستمد لأداء كل النغمات ، كانت تغنى فى مناسبة بهيجة قطعة تفيض ألفاظها غبطة ، ولكنى كنت أتصورها هناك وراء « الميكرفون » وهى تعتصر دموعها اعتصاراً وتنوح نوح الفجّع الكلوم !

وإذا ذكرنا الأصوات فلنعترف مرة أخرى أن لدينا منها ثروة لم نحسن استغلالها بالتلحين ، كما لم نحسن استغلال ثروة التأليف ، فالتلحين هو علة العلل ، لأنه جوهر الإحساس الفنى وموجّه الأصوات والأنغام ، وهو فى أيدى هؤلاء الفارغين المشوهى الفطرة ، بل فى يد هذا الحطام الآدمى الذى لا يقوى على إحساس الآدميين

وكل لفظ مؤدب عف لا يكفى لتصوير جريمة التلحين على بعض المطربات والمطربين ، وعلى سبيل المثال أذكر المطربة « أسمهان » فى جوهر صوت هذه المطربة تعبير عن لذة الغريزة وفورة الجنس ، وهو فى نظر المدمين من التعبير السليم مثلنا مكسب كالكمكة فى يد اليتيم ! لأن السلامة الحيوانية مطلب من المطالب البعيدة عنا فى عالم الغناء ، ولكن التلحين المشوم لم ينتبه إلى هذه الخاصة فى ذلك الصوت ، فما هى إلا أغنية أو أغنيتان تبدو فيهما حتى تتوارى وراء التلحين المريض الشائه والتكسرات المنشوشة التى ينفر منها حتى الحيوان السليم !

وبعد فما كان لنا أن نأمل شيئاً فى محترف الغناء والتلحين ، ولكن أملنا كله كما أسلفت فى طبيعة هذه الأمة ، وفى ضمائر القلة القليلة التي « لم تشرب من النهر » أن يثيرها الاشمئزاز من كل ما ترجعه الأوتار والحناجر فى هذه الأيام ، وأن تدفعها حوافز البشرية الحساسة ، فتقوم بالدعاية الواجبة فى كل مجتمع وكل صحيفة ضد هذا الزيف الكريه

ولقد حمدت للأستاذ « عبد الحميد يونس » المذيع بمحطة الإذاعة برنامجه المختار « نصف ساعة من الموسيقى الغربية » وهممت أن أرسل إليه — على غير معرفة — رسالة شكر وإعجاب بحسن اختياره للاسطوانات التى أذاعها لولا أن صرفتنى عن ذلك بعض الشاغل العارضة

وإنى لأذكر ذلك اليوم علاجاً مضمون العاقبة للسامعين وجرعة منبهة إلى ما فى الكون من تعبير رفيع عن المشاعر الإنسانية فى الموسيقى العالية يجب تكراره وتكراره كل يوم ضمن برامج محطة الإذاعة لا بين الحين والحين

وإنى لأخشى أن يكون وقف هذا البرنامج ثمرة لسعى بعض المشهورين بالغناء المريض ، فقد كان فى بعضه كشف لمواضع سرقاته وفى بعضه عرض لمثل حية رفيعة تعاف النفوس بجوارها فهم الرخيص .

سيد قطب

دراسة شاعر

جوفرى شوسر

للأستاذ أحمد الطاهر

إذا أنست لهذا الشاعر وتذوقت شعره ، فإنك واجد فيه صورة ناطقة لبلاد الإنجليز فى العصور الوسطى ، أو فى القرن الرابع عشر الميلادى . وأجمل ما فى هذه الصورة أن « شوسر » يمثل بأسلوبه البارع – الذى وصفنا فى مقال سابق – نظرية اجتماعية أخلاقية ، تتلخص فى أن الغرائز الإنسانية باقية كما هى على مدى الدهر ، لا تتغير ولا تتحول ، وهى سواء فى الناس جميعاً ، وأما ما يكتنفها أو يخفيها من التخلق أو اكتساب العادات أو ما إلى ذلك ، فما هو إلا عرض لا يتصل بجوهرها . خذ مثلاً رجال الدين — كما أراد شوسر — أولئك الذين هاجمهم فى عنف وشدة، تر أنه لا يحفل بما يبالغ فيه بعضهم من إبداء النسك والتبتل والتظاهر بالتأبد والتنطس ، وإنما يعمد إلى المسوح السوداء فيرفع أسدالها ، وإلى المسابح فيقطع أوصالها ، ثم يبرز لك الرجل من وراء ذلك إنساناً ككل الناس : يأكل ويشرب ويلعب ويطرب ويضطرب فى كل شأن من شئون الحياة ، كما يضطرب سائر الناس . فينزع إلى الهدى والرشد أحياناً ، وإلى الغواية والمشوة أحياناً . والشاعر حين يتناولهم بقلمه ، لا يصدر عن ضغينة فى نفسه ، ولا عن ميل إلى التندر والتظرف ، ولا عن استخفاف بالدين . كلا ، بل لقد كان هو من أكثر الناس تديناً وإغراقاً فى الصلاح والتقوى . إنما هى أسباب أخرى لو سمعها اليوم « شوسر » لم يرض عنها ، أو لم يعترف بها : فعصره كان عصراً تغلى فيه مراجل الثورة النفسية ، يؤجج أوارها عناصر أربعة متنافرة متدابرة : الكنيسة والشعب والبرلمان والقصر .

فى القصر إدوارد الثالث ثم ريشارد الثانى يرهقان الشعب بالجبايات والأتاوات ، ويسرفان فى التمكين للأشراف وأصحاب الضياع من إذلال الدهماء عبيدهم ومواليهم يبتزون جهودهم ويستغلون نشاطهم ، ولا أقول أموالهم فما كان للعبيد والموالى أموال ولا أملاك . والبرلمان يأنس فى الملك ضعفاً وخوراً فى حين من الأحيان، وجبروتاً غاشماً فى حين آخر، وطراءة فى الشباب فى عهد من العهود فيحفزه للنضال حقه المهضوم وسلطانه المكلوم وتغريه كثرته فيثور ثم يناوئ ثم يعتدى ثم يغالى . كل ذلك على حساب الشعب ؛ والشعب مرهق مغلول ضعيف مفلول يتلقى العذاب من ملك يرميه بالتمرد ويكديه بالجباية، ومن أمير أو شريف يتهمه بالكسل ويرهقه بالعمل . والكنيسة يطيب لها أن تثبت وجودها بأن تتهم الناس بالكفر والضلال وتعزو سوء الحال إلى إسراف الملك فى سلطانه والحد من سلطانها فتصور الشعب فريسة أطماع الملك الضليل ، وتصور الملك مغلوباً على أمره من شعب مغرق فى الأباطيل، وتستعدى الشعب على الملك والبرلمان يوماً، وتستعدى البرلمان أو الملك على غيره يوماً آخر . وهكذا ألقيت بينهم العداوة والبغضاء وألبسوا شيعاً وأذيق بعضهم بأس بعض . تلك أمة قد خلت .

وهنا نتساءل أين موضع شاعرنا من هذا المعترك المصطخبة أمواجه المتلاطمة أفواجه ؟ كان من رجال القصر وسفرائهم ومن خدم الملك ، فليس عجيباً أن نراه من رجال الدين فى الموضع الذى رأيناه ؛ وليس غريباً أن نراه يصورهم بالصورة التى تفزعهم وإن تلطف أو داجى ، ولا يتعاظمنا أن ينظم قصة فيسلكهم فى صدرها ساخراً مقذعاً متندراً : قال :

فى عصر الملك الصالح أرثور كنت ترى بلادنا الإنجليزية مشرقة بالبشر رافلة فى حلل النعيم تمرح فى أرضها وغابها أميرات الجن يحوطهن صاحبات لهن من الخود الرعابيب، فإذا أمسى المساء خطرن على مروج الزهر، وإذا أصبح الصباح رأيت فى الأرض ما تناثر من عقود الزهر التى نظمنها فى حلقات رقصهن . وأما الآن فما بقى فى الأرض إلا شحاذو الكهان والرهبان نفروا كل مليحة من أميرات الجن، وأفزعوا كل غضة من بنات الغاب، وملئوا المكان بعد أن كان زاخراً بالأميرات . كان أحد فرسان ذلك الملك الصالح ممتطياً صهوة جواده وعلى وجهه سحابة من الحزن وغشاوة من الشجن فأفضى به التسيار إلى جانب من الغابة قد اتخذته أميرات الجن مرقصاً فركض إليهن جواده يلتمس عندهن شفاء من آلام نفسه وأوصاب صدره ، فما إن رأينه حتى

شردن وتوارين ولم تبق إلا عجوز شمطاء شوهاء قامت إليه وأخذت عليه السبيل ثم قالت: « أآكول فى عونك أيها الفارس؟ » قال: « نعم أيتها الجدة ، وإن لم تفعلى لأكون من الهالكين » لقد سلفت منى بادرة لا تليق بالسادة الأشراف . أسأت إلى فتاة فحكمت علىّ الملكة بأن أقصى عن بلاطها سنة ثم أعود فأنبئها وفتياتها الناضبات بجواب عن سؤال حيرتنى به ألا وهو « ما أحب شىء للمرأة؟ » فإن أعجبهن جوابى كنت سعيداً موفقاً، وإن أخطأنى التوفيق فهنالك هلاكى . ولقد تصرم يا جدتى العام بعد أن التمست الجواب عند الأمهات والزوجات والعانقات فما اتفقن على رأى ولا عرفن شيئاً واحداً هو أحب ما يحب النساء : قيل لى إن النساء يعجبهن الملق والمداجاة؛ وقيل لى أحب شىء إليهن الحب والهوى؛ وقيل بل الزواج وقيل المرح والطرب؛ وقيل التكريم والثناء ، وقيل البذخ والثراء؛ وقيل غير هذا وأنا لا أزال حائراً مضطرباً . فهل عندك الجواب وعندى لك كل حاجة تريدين قضاءها وكل مطلب مجاب؟ » قالت العجوز : «أتقسم أن لى عندك كل حاجة مقضية ؟» قال: نعم . وأقسم بشرفه ليفيَنّ لها بما وعد : قالت : «هلم معى إلى القصر» وأفضت إليه فى الطريق بالجواب .

فلما بلغا القصر عقدت الملكة مجلساً ومثل أمامها الفارس وقالت له : « حياتك رهن بالجواب عن هـذا السؤال : أى شىء أحب إلى المرأة سواء أكانت عانساً أم بكراً أم زوجة » قال الفارس : « ليس أشهى إلى المرأة يا صاحبة الجلالة من السيطرة والسلطان تشتهى السيطرة على زوجها وعلى بنيها وعلى ثروتها وعلى ضيعتها وعلى كل شىء وكلهن فى ذلك سواء . أنتن أيتها النساء تردن الحكم ، تردن التحكم فى جميع الناس ، تردن أن يكون لـكن الأمر وعلى الرجال الطاعة . » وما فرغ من إلقاء جوابه حتى أمّن الحاضرات عليه وغشيت وجه الملكة حمرة لا تخفيها .

وهنا برزت العجوز وصاحت : « أنا يا مليكة صاحبة هـذا الجواب لقنته إياه بعد أن أقسم ليأتمرن بأمرى ويجيبن مطلبى ؛ وهأنذا بحضرتك أتنجّزه وعده . وما حاجتى إلا أن يتزوجنى » شده الفارس لهـذا المطلب العسير الفظيع ، والتمس إليها الوسيلة للخلاص من وعده ، وأخذ يغرى هذه العجوز بالثروة والنشب فما أغنى عنه ماله وما كسب ، وكرهت الملكة أن تكون هذه الشمطاء زوجة لفارس من فرسان القصر؛ ولـكنها آثرت ذلك على أن يدنس الفارس شرفه فينقض عهده ، وينكث وعده وأمرته أن يتزوجها . وبنى بها الفارس مكرهاً فى ليلة لم ير أسود منها . ولم يخف عليها حنقه وغيظه إذ قال : « ليت مصابى بك كان عند قبح وجهك وكبر سنك، ولكنه تجاوز هذا إلى خسة منبتك وضعة نشأتك » قالت العجوز : « أهذا كل ما يؤلمك ـ ألا تعلم أن شرف المنبت وطيب الأعراق ليست إلا ثروة عتيقة موروثة ، وماذا يغنى عنك حسبك ونسبك؟ إن كان لك مجد تليد فالفضل فيه لمن كسبه من آبائك وأجدادك ؛ وإن كان لك مال قد خلفوه لك واسم كريم قد ألصقوه بك واعتمدت على هذين فى طلب المجد والشرف ، فما أخيب مسعاك وما أبعدك عن بلوغ القصد . المجد والشرف لا يشتريان بالمال . هأنذى امرأة وضيعة المنبت لا أملك طارفاً ولا تليداً ، ولـكننى لست امرأة سوء هل كان المسيح غنياً وهو مثلنا الأعلى فى المجد والشرف ؛ كلا بل كان جهده أن يفعل أفعال الـكرام . أما قبح وجهى وكبر سنى فإنى أعرض عليك فى ذلك اختياراً : أتريدنى عجوزاً حصيفة الرأى أم فتاة ضالة فى سبيل الحياة؟ » قال الفارس : « الرأى لك أيتها العجوز العاقلة » قالت : « ألا ترى أننى بسطت عليك سلطانى وأخضعتك لأمرى فأذنت لى أن أفعل ما أريد » قال : « نعم » قالت : « انظر إلىّ واعجب لما تحولت إليه قسماتى » فنظر الفارس وإذا بالعجوز قد تحولت إلى فتاة نضرة غضة لم تقع عيناه على أجمل منها .

(الأسكندرية) أحمد الطاهر الصاغ



معركة السياسة

بين هتلر وبيتان

للأستاذ يوسف شبلي

كان المحور الدكتاتوري فى المدة التى سبقت إعلان الحرب فى سبتمبر فى سنة ١٩٣٩ ، وفى المدة التى لحقت إعلانها لا يقوم على أساس مشترك فى العمل بين طرفيه ، أو تساو عادل فى إبداء الرأى والقطع فيه ، بل استقل بتوجيه المحور فى أعماله وفى أفكاره طرف واحد دون الآخر ؛ وتطور الأمر فيما يختص بأحدهما إلى احتلال القدمة ؛ وفيما يختص بثانيهما إلى الوقوف فى المؤخرة ؛ حتى أهمل أمره وهان شأنه فى الكبيرة والصغيرة على السواء

ولقد حار الكل فى تعليل الموقف فى مظهره الجديد ، وطارت الأفكار فى تلمس المعاذير والأسباب كل مطار ومدار ؛ فكثرت الاحتمالات ، وتعددت الإشاعات ، واجتهد القريب والغريب فى الاستنتاج والاستخراج ؛ ونشط الفهيم والمقيم فى الإفصاح والإيضاح . إلا أن شيئاً واحداً انقطع دونه التفكير وجف عنده مداد التحبير ، وهو أن يكون الضعف سبب الجمود ، ونفاد الحيلة العلة الأصيلة فى هذا الهبوط والقعود

أليس من دلائل القوة أن يعمد الزعيم الإيطالى فى كل مناسبة وغير مناسبة إلى الخطب الحماسية يلهب بها أعصاب سامعيه ، حتى إذا انتهى من إلقاء الخطاب تأبط شباب الفاشست — وكلهم دون سن النضوج — منشورات مليئة بالقذف والبذاء فى الإنجليز والفرنسيين ، وهرولوا مسرعين إلى حيث يقيم السفير الإنجليزى فيقابلونه بالصفير والتهليل ، وبالصاق تلك المنشورات على سيارته وعلى دار سفارته !

بل أليس من دلائل القوة أن يعمد السنيور موسولينى فى تقديم مطالبه ونشر مآربه إلى رأس المدفع فيتخذ منه مسنداً، وإلى جناح طائرة فيجعل منه مقعداً ، ليكون من مجمل هذه المظاهر الجوفاء والحركات النكراء صورة لقوة الزعيم ورمزاً لغضب الحليم !

ما كان أحد يتوسم فى إيطاليا غير القوة والجبروت ، حتى إذا أشرفت معركة فرنسا فى الميدان الغربى على الانتهاء ، وأعلنت إيطاليا الحرب على الحلفاء ، طمعاً فى كسب غير مشروع ، ورغبة فى غنم مأمون ومضمون ؛ وحتى إذا فوتت انجلترا على الدكتاتورية قصدها بإطالة أجل الحرب ، وتعين على إيطاليا أن تقوم بدورها فى القتال ، تكشفت الحقيقة السافرة عن ضعف تام فى جميع ميادين الحياة والنشاط

وبينما أحد طرفى المحور يعانى مرائر الهزائم المتوالية فى ميادين القتال : ففى الميدان الشرقى انقلبت الجيوش اليونانية فى الدفاع فى بادئ الأمر إلى الهجوم ؛ وانتقلت بالحرب من البلاد اليونانية إلى الميدان الألبانى فى بضعة أيام . وفى شمال أفريقيا وشرقها ، أحرزت الجيوش الإنجليزية انتصارات حاسمة فى معارك فاصلة ، فوصلت فى الشمال إلى ما بعد بنى غازى وأسرت ثلاثين ومائة ألف أسير ، وغنمت كثيراً من عتاد القتال ؛ كما توغلت فى الشرق أميالاً عديدة فى المستعمرات الإيطالية . نقول بينما أحد طرفى المحور يعانى كل ذلك ، إذا بالطرف الثانى يفشل فشلاً تاماً فيما كان يأمله من غزو الجزر البريطانية جواً وبحراً ، وما كان يرومه من إنهاء الحرب فى هذا الميدان ؛ وكلما امتد الوقت بالحرب زاد استعداد الجزر البريطانية لملاقاة العدو إذا غامر بغزوها ، حتى صارت فكرة الغزو اليوم مما لا يمكن تحقيقه أو الإقدام عليه

وهنا وجب على إيطاليا أن تطلب المساعدة الألمانية لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من حطام ومخلفات ... كما وجب على ألمانيا أن تبحث عن ميدان جديد تقهر فيه إنجلترا ، يكون أقل مناعة ، وأضعف حصانة

ولما كان أمام الألمان خطة واحدة يجب عليهم أن يسلكوها ، وهى إما الاتجاه شرقاً ، والانتقال بالحرب إلى البلقان ، ثم إلى الشرق الأدنى ؛ وإما الاتجاه جنوباً ، لتجربة خطة الغزو بحراً فى ميدان ضيق إلى شمال أفريقيا ؛ فقد وجدت فى هزيمة حليفتها واضطرارها إلى طلب المساعدة الفرصة المرتجاة ؛ فتسللت الجنود الألمانية إلى شمال إيطاليا ، واحتلت أسرابها الجوية جميع المطارات لتعمل هذه القوات فى ميدان البحر الأبيض المتوسط ، وتمنع النجدات البريطانية فى حالة الاتجاه شرقاً ، أو الاتجاه جنوباً

غير أن المطارات الإيطالية ، صار يقابلها فى ليبيا بعد الانتصارات الإنجليزية الأخيرة عدد مضاعف من هذه المطارات ، مما يجعل التفوق للقوات الإنجليزية فى هذا الميدان

إذن يجب البحث عن قواعد بحرية وجوية جديدة تطل على البحر الأبيض لضمان التفوق والاطمئنان على نجاح التجربة الجديدة

ولكن كيف السبيل إلى ذلك ، ولم يبق إلا أسبانيا وفرنسا . أما أسبانيا فقد قال جنرالها لهر هتلر : إن للبحر الأبيض بابين ، أحدهما غربي ، والآخر شرقي ؛ فإذا تمكنت من إقفال الباب الشرقي ، فكرت في مساعدتك في إقفال الباب الغربي في جبل طارق ، وهذا رد لا يفوت معناه ومغزاه على لبيب

اتجه الهر هتلر إلى فرنسا ، فهي أولى بأن تتحمل نتائج الهزيمة ، وغرم الانكسار . فكاشف المسئولين من رجال حكومة فيشي بأغراضه ونياته ، من الاستيلاء على الموانى الفرنسية ، في فرنسا غير المحتلة وفي المستعمرات ؛ ومن انضمام وحدات الأسطول للعمل مع الأسطولين الألماني والإيطالي ، ضارباً بشروط الهدنة التي حفظت لفرنسا أسطولها ومستعمراتها ناحية الأفق ؛ فأبى عليه الريشال بيتان وصحبه أن يجيبوه إلى هذه المطالب والأغراض ؛ وابتدأت المركة السياسية بين هتلر وبيتان ، تلك المركة التي كانت منذ شهر يونيو من السنة الماضية ، تتفاوت بين مظاهر اللين والشدة ، وبين الاعتدال والاحترام ، تبعاً لتطورات الحال ، وظهور المفاجآت بين آن وآن

ففي الأيام التي تلت انكسار فرنسا في الميدان الغربي ، كانت هذه المركة بين ألمانيا وفرنسا ، تعلوها مسحة من اللين والتهاون ، حيث كان الزعيم الألماني يمني نفسه بقرب غزو إنجلترا ، والدخول إلى قصر بكنجهام ، إذ يشرب فيه نخب الانتصار !

وأما اليوم ، وقد أغلقت جميع الأبواب ، وسدت كل المنافذ والفتحات ؛ ولم تمد يد تمتد إلى الزعيم الألماني بالمصافاة ، فقد تطورت المركة بينه وبين بيتان إلى احتدام عنيف ، وصفته التلغرافات بأنه نضال البقاء أو الفناء

والحقيقة أن الهر هتلر يحسب حساباً خاصاً للفرنسيين ، لما يعرفه عنهم من حدة المزاج ، ولما يعلمه تمام العلم من استعداد المستعمرات لاستئناف القتال ضده عند الإشارة الأولى . لذلك جاملهم كثيراً في بداية الأمر ، وحاول جاهداً أن يستدرجهم إلى داخل الدائرة الألمانية بالحسنى ولين الجانب . ولم يطرق بابهم بشدة إلا عند ما أفزعته الحوادث ، ووصل إليه فعل التيارات الآخذة في الاقتراب منه . حتى لقد فضل أن يلج الباب الإيطالي ، بحيلة هتلرية ، تحت ستار المساعدة ومباشرة عملية الإنقاذ ، قبل أن يطرق الباب الفرنسي ، ويلح في طلب ولوجه

وإذا كانت الأنباء قد أجمعت على القول بثبات المرشال بتان أمام تهديد الألمان ، ورفضه إجابة مطالبهم ، معرضاً فرنسا لما يحتمل أن تتعرض له ، من ظروف قاسية ، لن تكون بحال أقسى مما هي عليه الآن ؛ فليس الغريب أن تأتينا الأنباء بمثل ذلك ، بل الغريب أن يجيب المريشال بتان هذه الطلبات ، ويستسلم للتهديدات ، في وقت وضح فيه الطريق أمام الحلفاء ، واتسعت فرجات النور وسط الظلام الذي كان مخيماً على أوربا عند عقد الهدنة بين الفرنسيين والألمان

إن العوامل التي ترغب الفرنسيين في استئناف القتال ، وتحفزهم إلى تجديد النضال ، كثيرة وعديدة . نجد هذه العوامل في ثبات البريطانيين ، وظهور قدرتهم التامة على الوصول بالحرب إلى نتيجة مرضية . وفي موقف أمريكا التي وعدت رسمياً بمساعدة الحلفاء مساعدة لا تسمح لدولتي المحور بالانتصار بأي حال من الأحوال ؛ كما أن القانون الذي يطلق يد الرئيس روزفلت في العمل ، على وشك أن يفوز بالإقرار في مجلس الكونجرس . وفي شجاعة اليونانيين، واستبسالهم في الهجوم في الميدان الألباني وفي الانتصارات الباهرة التي أحرزتها الجيوش الإنجليزية في ميادين الحرب الإفريقية الثلاثة ، مما يبشر بضياع الإمبراطورية الإيطالية قريباً . وفي موقف الدول التي لم تدخل الحرب بعد ، ولكنها أعلنت في صراحة تامة عن عزمها على الدفاع عن كيانها ضد كل من توسوسه نفسه بمباشرة الاعتداء عليها . وأخيراً في روح الحماس البالغة عند أهل المستعمرات الذين يتحرقون شوقاً إلى ملاقاة العدو ، والانتقام للشرف الفرنسي من هزيمة يونيو من السنة الماضية

وإذا تركنا كل ذلك ، نجد أن لفرنسا قوة مادية في أسطولها، وفي مستعمراتها كفيلة بترجيح كفة الحلفاء إذا اختارت أن تستأنف القتال إلى جانبهم . وإذا عرفنا أن الخمسين مدمرة التي أرسلتها أمريكا إلى إنجلترا ، كانت سبباً حاسماً في بعض الميادين ، خصوصاً في ميدان البحر الأبيض المتوسط ؛ فكم بالحرى يكون الفصل لمائة وخمسين مدمرة تملكها فرنسا . لا شك أن عدداً كهذا ، يضاف إلى قوة المدمرات البريطانية ، وما عساه أن يرد من أمريكا ، وما تخرجه المصانع قريباً يكون له فصل الخطاب فيما هدد به الهرهتلر في خطبته الأخيرة من عزمه على مباشرة حرب الغواصات في الربيع القادم

من وراء المنظار

المتعاظم الصغير

يملك حب العظمة عليه نفسه ، ولقد ركبه هذا التعاظم منذ مدرجه وكبر معه ، فهو اليوم فى منتصف العقد الرابع ، طفل فى الخامسة والثلاثين . قتر على نفسه حتى اقتنى سيارة قديمة راح يتشبه بها بذوى اليسار من أصحاب السيارات الفخمة ، وإن كان مرتبه كله لا يساوى ما يدفع هؤلاء من (بقشيش) ؛ وقتر على نفسه مرة أخرى ، فقضى الصيف فى أوربا ، وإن كان من ذوى رحمه الأدنين من لا يكاد يجد قوته .

ومن أحب الأشياء إليه أن يذهب فى سيارته إلى القرية ، فيطلق نفيرها هناك عالياً فى داع وفى غير داع ، وينظر الفلاحون البسطاء إلى هذا « المحدث » مبتسمين ، فيزهى إذ يخيل إليه غروره أنها ابتسامات الإعجاب . ولقد رأيته مرة — وكأنه أحد الدكتاتورين يدخل مدينة على رأس قوته المصفحة لكثرة ما تجبر يومها وتعاظم ، ولكن سيارته لسوء حظه أصابها فى تلك اللحظة عطل فوقفت ، ونظر مبهوتاً على صوت ضحكات قريبة ، وكنت غير بعيد من الفلاحين الضاحكين ، فخبست ضحكاتى مخافة أن يفهم الدكتاتور أنى غيران !

ومن آلم الأشياء عنده أن تمر به فلا تحييه ، ففى ذلك إنكار منك لعظمته ، ولقد يبلغ به الألم من ذلك حد الحى ، فإذا أقبلت مع ذلك تحييه : تباطأ وهو يقبل عليك ، وتكلف سلام العظماء ونبرات العظماء وحركة رؤوس العظماء وعبوس العظماء أو تبسمهم حسب مقتضيات الظروف

وشاع فى القرية أو أشاع هو فيها أنه ما من كبير من رجال الحكومة إلا وله عنده مكانة مهما اختلفت على كراسى الحكم ألوان الأحزاب ، وتهاوت عليه عرائض البسطاء يطلبون الاستخدام وما تزال تتهاوى عليه وهو يدسها كل مرة فى جيبه فى اتزان ووقار بالغين ولكنهما مع ذلك يثيران الضحك العميق !

وهو ينظر إلى هؤلاء من عل ويفرح أشد الفرح إذ يجد من يتملقه ، ويفتر إذ يكون بعض الناس منه كما يكون هو ممن يطرق أبوابهم من ذوى المناصب مستجدياً متملقاً ، وهو كثيراً ما يتملق ويستجدى ، وقصارى أمره أن يظفر بتعيين فراش أو نقل ساع من جهة إلى أخرى يحبها ويحسب ذلك هو الجاه أعظم الجاه ، وهكذا يتمسكن ويتضاءل فى المدينة ليزهى ويتعاظم فى القرية ويريق ماء وجهه عند أولى المناصب من يعرف منهم ومن لا يعرف ليصعر خده لطالبي الرزق وذلك عنده من أعظم لذات حياته

وإذا جلس أحب أن يلتف حوله طالبو جاهه وفضله وثراه ؛ يعجب أشد العجب إن صفرت الحلقة من حوله ، فهو يعتبر نفسه كبيراً عظيماً ومن حقه أن يلتف حوله الناس كما يلتفون حول

فإذا ألانت فرنسا قناتها ، مع توفر أسباب الثبات ، وأجابت الألمان إلى ما يطلبون ؛ وقنعت بنصيبها الذى بذلته فى هذه الحرب ، وبنصيبها الذى قدر لها أن تنتهى إليه ، من جرها فى ذيل العربة الألمانية ؛ فكيف يكون موقفها من مؤتمر الصلح القادم ، عند ما تنتهى الحرب بنصرة الحلفاء !

أترضى فرنسا لنفسها ، ويرضي كبرياء شعبها ، وكبرياء قوادها ، وفيهم أبطال فردون ، وأبطال المارك الهائلة فى الحرب الماضية ، أن تلعب اليونان ، وبولندا ، وهولندا ، والنرويج ، وتركيا ، دوراً رئيسياً فى هذا المؤتمر ، ولا تستطيع فرنسا أن تمثل دوراً ثانوياً فيه ! وإذا أجلستها إنجلترا إلى جانبها فى مكان الصدارة من المؤتمر ، فكيف يكون موقفها فيما بينها وبين نفسها وهى تعلم الدور الذى قنعت بتحمله والقيام به

لا شك أن كل ذلك ، فى جملته وفى تفصيله ، قد قدره المرشال وأعوانه حق قدره وحسبوا حسابه فى المفاوضات الدائرة الآن بين فرنسا وألمانيا ، فى صدد المطالب المزجاة . ومن يدرى ! فقد يرى المسئولون عن مصير فرنسا من رجال حكومة فيشى ، أن متاعب الحرب من جديد إلى جانب حليفتهم أقل من المتاعب التى تنشأ عن مزيد ومزيد من التسليم ، فيفضلوا الحل الأول على الثانى ويصلوا بدورهم فى الحرب إلى النهاية المفروضة على أمثالهم

وليس الغريب أن يقر قرارهم على شىء من هذا ، بل الغريب أن يقف الفرنسيون جامدين ، وأن يدوم تصميمهم بالتخلف فى الطريق . وستأتينا « جهيزة » فى الأيام القليلة القادمة بفصل الخطاب فى هذا الشأن الخطير ، عند ما يقول المرشال بتان كلمته النهائية فى شأن المطالب الألمانية ، وهى كلمة الشرف والإباء ، والأنفة والكبرياء ، على ما نظن ، ويظن معنا الكثيرون .

(دار الأهرام) يوسف شبل

الفنان

[مهداة إلى الصديق النابغة صلاح الدين طاهر]

للأستاذ عبد المعطي حجازي

كلما أسفر فى الليل القمرْ مثل معنى فى خيال الشاعرِ
أو مشى الموج صفوفاً واندثر كأمانٍ هجستْ فى خاطرِ
أو سرى برق أو انهلّ مطر كسنا الشرّ ودمع الحائرِ
أو تهادى فى الأصيل الجدوَلُ خافتَ الأنغام حلو النّبراتْ
قبس الفنان عنها بعض ألحان الخلود
وجلا للناس منها بعض أسرار الوجود
وإذا احمرّتْ من العُتبِ خدود أوشكتْ من خجل تستعرُ
وإذا ماست من الدّل قدود عبث الكاس بها والوتر
وإذا ثارت على الصدر نهود بأمر الثوبُ فلا تأتمر
أو تناجت فى الشفاه القبل فتلاقت فاستحالتْ نَغَماتْ
ترجمتها ريشة الفنان للحسن نشيدا
وكستها روعة الألوان أبداعاً جديدا
وجمال العيش فى صبح الربيعْ وجلال الموت فى ليل الخريف
والمنى تشرق فى الوجه البديع والأسى يعصف بالقلب الضعيف
وحنان الأم للطفل الرضيع ووميض القدر فى الوجه النحيف
وابتسام الدهر لما يقبلُ وعبوسَ الحظ عند النائبات
كلها أصداء حس وخيال عبقرى
مزجت سعداً بنحس وجميلاً بزَرِى
أيها السابح فى دنيا الجمالْ كشعاع الشمس فى الروض الأنيق
تنثر النور وتلقى بالظلال كسنا العين من الهدب الرشيق
تمزج الحس بألوان الخيال مثلما يمزج بالماء الرحيق
أنت للفن نبى مرسل شهدت عيناى منك المعجزات
أنت ظل الله فى الأرض افتناناً وابتداعا
أنت وحى الشمس للروض حياة وشعاعا
أيها الطائر كالنسر الجسورْ بجناحين : سموّ وابتكار
تحت ظل الغصن أو فوق الصخورْ ترسل الوحى إلى غير عثار
فإذا الطّود على الرق سطور وإذا الروض نزيل فى إطار
وإذا الماضي جديد مقبل هب كالنائم من طول سُبات
أيها الجبار هذا الكون مَغْنًى فى خيالك
وصدى سجله الفن ليحيا فى ظلالك
أيها الساهر والناس نيامْ تصنع الحسن وتلهو بالخلود
أيها الراهب فى دير الظلام تكشف الأستار عن لغز الوجود
هذه دنياك ، دمع وابتسام وأغاريد عِذاب ورعود
ونعيم بالأمانى مثقل وجحيم مستطير الجمرات

أقرانه من العظماء ، وما كان فى حلقته إلا من يضمر له السخرية حين يريه الاحترام

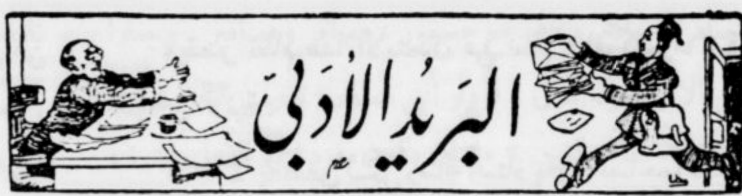
وتراه يلوك بعض كلمات إفرنجية تمد على أصابع اليد فيحرك بها لسانه فى لهجة متعامة أكثر تحطما من سيارته ، لهجة أشبه بلهجة الأوربى الذى ينطق كلمات عربية لم تطرق سمعه إلا منذ شهر ، وأرى شأنه فى هذا كشأنه فى استبدال ملابسه العربية بحلة إفرنجية

أما مكانته عند من يزعم من الكبراء فقصاراه فى هذا السبيل ألا تفلته فرصة إذا رأى أحد هؤلاء أو بعضهم فى أى مكان فيتقدم إليهم محيياً متهللاً يهز الأيدى التى تمتد فى فتور إليه هزاً حماسياً قوياً وهو يقول : « أهلاً فلان بك ... كيف حال سعادة البك » . ولا ينصرف إلا بعد أن يكرر تحياته وإن هموا هم بالانصراف دون أن ينظروا إليه لأنهم لا يعرفونه ! وهى بعد مقدرة على أى حال أميل إلى أن أسميها (فن الحياة) فى الناس من لا يستطيع أن يسلم على من يعرف حق المعرفة ممن هم أكبر منه !

رأيته ذات يوم يطلع المحيطين به على البطاقات الكثيرة التى جاءته فى العيد ، وقد مهد لذلك بذكر ما شاء له زعمه ممن يعرف من « الباشوات والبكوات » . وكانت البطاقات كلها مرسلة إليه حقاً وفيها من هذه الألقاب حقاً ؛ ولكن لم أر على واحدة منها غير كلمة (للشكر) فحسب !

وآخر مرة رأيته فيها كان محنقاً فقد حياه أحد الريفيين بقوله يا شيخ فلان ، وهذا هو اللقب الذى يجرى على ألسنة البسطاء من أهل الريف إذا أرادوا التعظيم ، وعجبت لم يغضب وهو شيخ فى نشأته العلمية قبل كل شىء وكان أولى به أن يجعل هذا اللقب مدعاة فخره ، ولكن هيهات أن يرضى حتى بالأفندى وهو عند نفسه سعادة البك !

الخفيف



زهر الآداب

أخبرني جماعة من الأصدقاء أن الأستاذ السباعي بيومي حدثهم أنه سيكشف الأغلاط التي فاتتني وأنا أنشر كتاب الحصري ، كما أصنع في كشف الأغلاط التي فاتته وهو ينشر كتاب المبرد

وأقول : إني طبعت كتاب « زهر الآداب » مرتين ، وقد تداركت في الطبعة الثانية ما فاتني في الطبعة الأولى ، فإن كان الأستاذ يريد كشف أغلاط الطبعة الثانية فسيؤدي إليّ جميلاً أذكره له مع الثناء في الطبعة الثالثة . أما إن كان يريد كشف أغلاط الطبعة الأولى فجهده ضائع ، لأني سبقته إلى ذلك بنحو عشر سنين ، ولأن صفحات الرسالة تضيق عن الحديث المعاد

أنت عنوان الحياة	أنت رمز للزمان
مستبد أنت عات	ورفيق أنت حانِ
إن يكن في الأرض سحر أو جمالْ	فهو الفنان في الدنيا سناهْ
أو يكن في الحب شوق أو ملال	فهو الفنان للحب صداه
أو يكن للشمس نور أو جلال	فهو الفنان مشكاة الحياه
ذلك الفنان وحي منزل	أنطقَ الصامتَ بل أحيا الموات
أوقفت ريشته الدهر	فلبى واستجابا
وكستْ من خلدها العمر	مدَى العمر شبابا
بَشَرٌ مثل جميع البشر	رفعته ريشة عن مستواهْ
كاد لولا قطرة من حذر	يزدري الناس ويحيا كإله
إنه الفنان ، صوت القدر	وهوى الفنان دستور الحياه
هو دنيا رف فيها الأمل	وثوى اليأس ودارت دائرات
عالمٌ تصطخب الآلا	م والآمال فيه
ويضل العقل والأفها	م فيما يحتويه

(الاسكندرية) عبد المعطي حجازي

الوحدة العربية

أجبت دعوة « جماعة الطلبة العرب » بكلية الآداب لسماع محاضرة الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام في شرح (عناصر الوحدة العربية) فالتفت ذهني إلى ظاهرة تستحق التسجيل ، وهي إقبال الجمهور على تلك المحاضرة مع بعد المكان ، فهل يكون ذلك إلا دليلاً على أن فكرة الوحدة العربية صارت في مصر من الأمور ذوات البال ؟

أرجو أن ينشر الدكتور محاضرته تبليغاً لما دعا إليه من كرائم الأغراض

نقل الأديب

من واجبي نحو نفسي أن أعلن أني استوحشت لغياب الشذرات النفيسة جداً ، الشذرات التي كان ينشرها الأستاذ الجليل إسعاف النشاشيبي على صفحات (الرسالة) فمتى يعود ؟

هي مختارات منقولة من هنا وهناك ؛ ولكن الذوق في نقلها قد بلغ الغاية في شرف التحليق ؛ وأظنها ستصبح كتاباً يحق له أن يسمى « كتاب الأمة العربية »

زكي مبارك

بعد انتهاء مناقشات رسائل الأستاذية

في يوم الإثنين الماضي انتهت المناقشات العلنية لرسائل « الأستاذية » الأزهرية المقدمة في هذا العام . وقد رأيت بهذه المناسبة أن أدلي ببعض الملاحظات بشأن هذه الدرجة العلمية التي لا أشك في أن الأزهر يفتتح بها في حياته الدراسية الحافلة عهداً جديداً سيكون ذا أثر بعيد في توجيه نشاطه العلمي توجيهاً صحيحاً .

وقبل أن أدلي بهذه الملاحظات ، أود أن أنوه بظاهرتين جديرتين بالتسجيل ، تجلتا بوضوح أثناء المحاضرات العامة والمناقشات العلنية :

الأولى : أن الأزهريين قد خطوا خطوة موفقة في التقريب بين طريقتهم الخاصة في التعمق في النقاش والبحث والتحليل اللفظي ، والطريقة الحديثة في العرض المنظم والابتكار ، بما جعل

جهور المستمعين يدرك أن الطريقين تتكاملان ، ولا غنى عن الاستعانة بهما معاً فى الدراسات الأزهرية فى العصر الحاضر .

الظاهرة الثانية : وجود مدرستين علميتين فى الأزهر : المدرسة القديمة التى تتشبث بما خلف السلف من تراث علمى تقف بنشاطها عند حد تفهمه وتفهم أحكام الشريعة والعلوم المتصلة بها فى نطاقه ؛ والمدرسة الحديثة التى ترى أن السير على منهاج أولئك الأئمة الأمجاد يقتضى بذل المجهود الشخصى المستقل لأداء رسالة العصر الحاضر للشريعة وعلومها ، كما أدوا رسالة عصورهم لها ؛ ومن وافر حظ الأزهر أن تتم الغلبة للمدرسة الحديثة فى ظل إدارته الحالية

تفضل الأنظمة التى اتبعت فى امتحان هذه الدرجة نظائرها المتبعة فى امتحانات الدكتوراه فى الجامعات الأخرى فى نواح ، كما تقصر عنها فى نواح أخرى

أما ما تفضلها فيه فهو :

١ — إلزام طلاب « الأستاذية » بإلقاء محاضرات عامة تمطى مع الرسائل فكرة صحيحة عن مقدرة كل منهم فى الإبانة بالقول والكتابة والبحث

غير أننا نلاحظ على المحاضرات والرسائل أن موضوعات معظمها أبواب عامة من الفقه لا يكون للمجهود الشخصى فيها سوى أثر ضعيف قوامه التجميع والتنظيم . وعهدنا بموضوعات الرسائل والأبحاث الجامعية التى من هـذا القبيل أن يتناول كل منها بالبحث نقطة معينة يتولى الباحث تقرير كيان مستقل لها مما لا يبرز فيه سوى المجهود الشخصى المستقل

٢ — خضوع كل عضو من أعضاء لجنة مناقشة الرسائل لرقابة بقية الأعضاء أثناء دوره فى المناقشة ، تلك الرقابة التى يظهر أثرها بتدخلهم للفصـل فيما يكون موضع خلاف بين الأستاذ وصاحب الرسالة ، أو لجلاء بعض النقط الغامضة أو لغير ذلك مما تتكشف المناقشة عن ضرورة الاشتراك فى بحثه . وإننا مع ترحيبنا بمثـل هذا التدخل النافع لا يفوتنا أن ننبه إلى أن ما تقضى به الضرورة يتقدر بقدرها الذى لا ينبغى تجاوزه بحال

٣ — جعل الحكم فى صلاحية الرسالة للمناقشة فى يد هيئة بدلاً من فرد

ويقصر نظام هذا الامتحان عن نظام « الدكتوراه » فى النواحى الآتية :

١ — لا يخصص لـكل رسالة أستاذ يكون لصاحبها نصيب فى اختياره ليشرف على توجيهه توجيهاً علمياً أثناء كتابتها

٢ — التساهل فى إقرار صلاحية رسائل المناقشة ظهر أنها لم تكن جديرة بذلك مما أدى إلى تكليف أصحابها تقديم رسائل أخرى .

٣ — لم يتبع التقليد الجامعى فى إتاحة الفرصة لصاحب الرسالة لعرضها بإيجاز على جمهور المستمعين قبل البدء فى المناقشة

٤ — لم يبدأ أعضاء اللجنة أدوارهم فى المناقشة بالتنويه بما يعتبرونه مواطن إجادة فى الرسالة المقدمة ، بل كان كل همهم محصوراً فى تقصى النقائص أو الإطراء بصفة عامة مما فوت كثيراً من التشجيع النافع والتنويه بما يستحق التنويه

٥ — كانت الأحكام التى صـدرت فى الرسائل متأثرة فى الغالب بمـا أصابه أصحابها من التوفيق فى المناقشة الشفوية ، لا بمجهود كل منهم فى كتابتها وأثره الشخصى فيها

٦ — لا يقضى النظام الحالى — فيما نعلم — بطبع الرسائل ولم توضع قواعد لتبادلها مع الجامعات الأخرى ؛ وينبغى — على الأقل — أن يقوم الأزهر بطبع الممتاز منها على نفقته مع تقرير نظام التبادل حتى يعم النفع

ابراهيم زكى الدين بدوى

المتخرج فى الأزهر وكليتى حقوق باريس والقاهرة

تعليق

طلب منى من لا تسعنى مخالفته ، أن أعلق على ما كتبه الأستاذ مصطفى محمد ابراهيم فى العدد الأخير من الثقافة فى إيجابه أن تكون مفاتيح جمعاً لمِفْتَح ، وتخطئة من يقول إنها جمع مفتاح

وعندى أن الأستاذ قد أسرف فى دعوى التخطئة ، ولو قال إن جمع مفتاح على مفاتح فى غير ضرورة مخالف لرأى البصريين لـكان قوله أدنى إلى الصواب .

فلقد جوّز الـكوفيون زيادة الياء فيما يماثل مفاعل فى عدته وهيئته ، وحذفها ممـا يماثل مفاعيل ؛ فقالوا فى جمع جعفر :

جمافر وجمافير ، وفى جمع عصفور : عصافر وعصافير . وجعلوا من الأول قوله تعالى : « ولو ألقى معاذيره » ومن الثانى قوله : « وعنده مفاتح الغيب » على أن يكون مفرد الجمع الأول مقدرة ، ومفرد الجمع الثانى مفتاح .

محمود حمزة
مفتش بالمعارف

الى الأستاذ محمود الخفيف

تحية طيبة ... وبعد فقد تهجمت (من وراء المنظار) على نائب محترم نمزه ونجلّه ويعظمه أعيان دائرته فكتبت إليك هذه الكلمة رداً على مقالك من غير تعليق

قرأ أحد النواب الفرنسيين ذات صباح مقالاً يهاجمه فيه الكاتب هجوماً بلغ حد الإهانة ، فبلغ به الغضب مبلغاً عظيما وأسرع إلى صديق له يسأله كيف يستطيع أن يرد هذه الإهانة : أيدعو الصحفى إلى المبارزة ؟ أم يطلب منه أن يعتذر رسمياً ؟ ولكن صديقه كان عاقلاً إذ ابتسم وقال : « لا عليك يا صاحبى من هذا كله ، فإن نصف قراء الصحيفة لم يلاحظوا هذا المقال ، ونصف الذين لاحظوه لم يقرأوه ، ونصف الذين قرأوه لم يفهموه ، ونصف الذين فهموه لم يصدقوه ، ونصف الذين صدقوه لا قيمة لهم ... فماذا يبقى بعد ذلك ؟ »

هل أنت فاهم يا صاح ؟ وهل عرفت أنك كالحادى وليس له بعير ؟

حسين فهمى صادق
بكلية الحقوق

الى الأديب حسين فهمى

حيرتنى فى غير داع بكلمتك ، فما كتبت مقالى عن شخص معين ؛ والذى كتبت عنه ليس بنائب ولا بذى دائرة بالطبع ، ولا هو ممن يعزه أحد بالضرورة

وما قابلت إنساناً ممن يفهمون ما يقرأون إلا حدثنى أن هذه الصور التى أجلوها إنما هى صور شائعة فى كل بلد فلا تعنى واحداً بالذات

أما عن قصتك فيكفى أن أنبهك وكنت خليقاً أن تنتبه من تلقاء نفسك أنى لم أكن حادياً بغير بعير ، وأظنك فهمت الآن مَنْ بعيرى . . . فأنت بلا شك من ذلك النصف الذى فهم ، ولا علىّ إن كنت صدقت أم لم تصدق

الخفيف

شبابيك القلل

كتب الدكتور زكى محمد حسن فى العدد ١١٢ من (مجلة الثقافة) مقالاً بهذا العنوان أود أن أعلق عليه بكلمة صغيرة فقد قال فيه : « ومن العجيب أن يعنى بزخرفة شبابيك القلل إلى هذا الحد بينما تبقى القلل نفسها بغير طلاء أو رسوم زخرفية » .

ولقد فات الزميل الفاضل أن القلل فى العصور الوسطى كانت على نوعين أحدهما نسميه — فى اصطلاحنا العرفى — « القلل الصيفية » وتستعمل صيفاً وهى من الفخار غير المطلى ، لأن مسامها تساعد على تبريد الماء . والنوع الثانى « القلل الشتوية » وتستعمل شتاء لأنها مكسوة بطلاء زجاجى يحفظ على الماء درجة حرارته الطبيعية

وقد لاحظنا أن بعض أبدان القلل التى وصلت إلينا من هذين النوعين تزدان برسوم زخرفية غاية فى الجمال كما يظهر ذلك فى اللوحات الثلاث الأول من كتاب الأستاذ أولمير الذى ذكره فى مقاله . وإذا كنا لم نجد كثيراً من القلل ذات الرسوم الزخرفية فهذا يرجع إلى أن الأجزاء التى عثرنا عليها هى بقايا من هذه القلل فقط ، ولا ينهض ذلك دليلاً على ما ذهب إليه الدكتور من أن أبدان القلل لم تكن مزخرفة

وقال أيضاً : « إن الرسوم الآدمية ورسوم الحيوان والطيور والأسماك التى نراها على تلك الشبابيك يشهد معظمها بأن صانعها كانت تنقصه المهارة ودقة الملاحظة حتى أن رسومه تبدو صبيانية وغير دقيقة »

ولئن صحت هذه الملاحظة نسبياً فيما يختص بالرسوم الآدمية فإنها لا يمكن أن تصح بأى حال فى الحيوانات والطيور والأسماك

وأن نظارة واحدة للرسوم التي نشرها الدكتور — وهي ليست بأجمل ما في مجموعة شبابيك القلل — لكافية للاقتناع بما كان عليه هؤلاء الفنانون من دقة الرسم وحرية التعبير

وعند ما تعرض لتأريخ هذه الشبابيك قال « وليس من السهل تأريخ شبابيك القلل المحفوظة في المتاحف والمجموعات الأثرية لأنها من منتجات الفن الشعبي »

فهل للزميل المحترم أن يعرّف لنا ما يفهمه هنا من اصطلاح الفن الشعبي ؟ ألم تكن القلل كباقي أنواع الصناعات الزخرفية في الفن الإسلامي مثل الخزف والخشب والمنسوجات والزجاج الخ ... فيها الثمين والرخيص ، يشتريها خاصة الناس وعامتهم كل على حسب مقدرته المالية ؟ وكانت الرسوم الزخرفية والدقة الفنية في الصناعة توزع بين هذا وذاك كل حسب قيمته ؟

وفي ختام كلمته قال الدكتور زكي بعد أن أشار إلى كتاب الأستاذ أولير عن شبابيك القلل : وصفوة القول أن الأستاذ أولير ظن أنه يستطيع الوصول إلى تأريخ بعض شبابيك القلل بواسطة الموازنة بين رسومها ورسوم سائر التحف الممكن معرفة تاريخها ، ولكننا نظن أنه بالغ في تقدير النتائج التي تؤدي إليها هذه الطريقة

فهل فات زميلي الدكتور أننا عثرنا على بعض هذه الشبابيك مطلية بالطلاء ذي البريق المعدني ، وكان الفضل الأكبر في ذلك إلى الأستاذ حسين راشد رئيس أمناء دار الآثار العربية ، كما ذكر ذلك الأستاذ أولير في مقدمة كتابه (ص ٨ وما بعدها) ، ونشر صورها في اللوحة الأولى ، وكان لهذه المجموعة أكبر الأثر في تأريخ شبابيك القلل التي تنسب إلى العصر الفاطمي ؛ والبريق المعدني كما يعلم صديقي الفاضل معروف وقت استعماله في الخزف المصري . ولا أدري لماذا لم يذكر حضرته هذا النوع في مقاله . ولعله على رأي آخر في هذا الصدد نود لو يكشف لنا عنه

دكتور محمد مصطفى
أمين مساعد دار الآثار العربية



الرجـــل الصامت

عن الروسية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

كان في فندق القرية ضيوف كثيرون لا أعرف معظمهم، وانقضى النهار وجانب من الليل ونحن في هرج وضوضاء، فلما بلغت الساعة الثانية بعد منتصف الليل بدأنا نفكر في النوم فانصرف من انصرف وبقي في الفندق ثمانية. ولم يكن خالياً من غرفه غير أربع، فقالت لي صاحبة الفندق: إن هذا الضيف سيكون شريكا لك في غرفتك واسمه (ماكسيم سيمونوفتش) وأشارت إلى رجل قصير القامة ضئيل الجسم فقلت: لا بأس وإن كنت أوثر أن تكون لي غرفة وحدي

تقدم نحوي سيمون وقال: أترى مانعاً من مشاركتي إياك؟ . . .

فقلت: كلا وماذا عسى أن يكون المانع؟. فقال إنني قليل الكلام وأخشى أن يكون من عاداتك قبل النوم أن تتحدث فلا تسر برفيق صامت مثلي

قلت: وأنا أيضاً أحب الصمت. فقال: إذن فلن يؤذيك صمتي الطويل

ودخلنا غرفة النوم فقال: في الناس من لا يستطيعون الصبر على صاحب صامت، ولذلك سألتك حين رأيتك هل تحب الكلام فإن كثيرين ممن عرفوني أبغضوني لأنني قلما أتكلم

ابتسمت وقلت له: لا يشغل بالك هذا الخاطر. فقال: شكراً لك. وخلع إحدى حذائيه وأمسكها بيده. ثم أطرق لحظة وقال: لقد حدثت لي حوادث بسبب الصمت أذكر لك منها: أنني سكنت في عهد شبابي في غرفة واحدة مع صديق لي اسمه أورلوف وكان ينقضي اليوم واليومان وأنا صامت؛ فتضجر وصار يسخر مني ويتهمني بأنني سيء الضمير، وسألني: هل أقسمت لا أتكلم؟ فقلت: كلا. فقال: إذن تكلم. فقلت: عن أي شيء؟

وانقضى يومان وأنا صامت، فأمسك زجاجة وقال: تكلم وإلا ضربتك بها في رأسك

قلت: إن ذلك لن يكون جميلاً منك لو فعلته

ومضت ثلاثة أيام ولم أتكلم. ودخلنا لنبدل ثيابنا كما نفعل الآن نخلع حذاءه ورماني به وقال: أنت كالميت لا تنطق ولا تتحرك، وأن الحياة معك كالحياة بين المقابر؛ فسأترك لك الغرفة غداً. هذا ما قاله ولكن هل تعرف ماذا فعل؟

قلت: كلا

فضحك سيمون واستمر يقول: والله لقد خرج ... خرج من الغرفة ولم يعد إليها وقد كان في حالة عصبية ... ولكن هل تعرف أن فتاة غضة الشباب موفورة الصحة تنتابها هذه الحالة؟ لقد كانت لي خطيبة أحبها وكانت تحبني وقالت إنها أحبتني لأني رجل جد وعمل ولأنني مفكر غير ثرثار. لقد قالت ذلك في أول عهدي بها ولكن لما قدم العهد بيننا سألتني لماذا أنا كثير الصمت؟ فقلت ولماذا أتكلم؟ فقالت أليس لديك ما تقول؟ قل ما فعلته اليوم أو ما رأيته. فقلت لها باختصار لقد كنت في مكتبي ثم تغديت وجئت لزيارتك. فقالت: إنها تخافني لأني قليل الكلام فقلت: هذه طريقتي فأحبيني كما أنا...

وبعد أيام زرتها فوجدت معها شاباً كثير الكلام، فظل يحادثها بغير انقطاع، وكان كل حديثه تافهاً، وإنني لأعجب له كيف كان يؤاتيه هذا الكلام. لقد كان يسألها هل تعرف الرقص، ثم يقص عليها خبراً رآه ويسألها عن معنى إهدائها إليه وردة صفراء ... كلام كثير لا أعرف من أين يختلقه وهل لإهداء وردة صفراء أي معنى؟ وكانت تصغى إليه ... إلى أحاديثه التافهة ... إلى أسئلته ... وكانت تجيبه ... وكنت أراهما ولا أتكلم. ثم أخذا يتهامسان ويبتسمان وهما ينظران إلي. وبقيت صامتاً ثم تركت لهما المكان ... وبعد أيام زرتها فجاء هذا الشاب وقال لي: ما الذي تفعله هنا! اذهب وإلا قتلتك فقلت: جئت

لأزور ماريا بتروفنا فقال : اذهب أيها الوغد

وأردت إقناعه بأنه مخطئ ولكنني رأيت الفتاة تضحك وتقول : اذهب فإنني لا أحبك لأنك قليل الكلام ! آه ما أحمق هذه الفتاة !

لما بلغ سيمون هذا الحد من حديثه كنت شعرت بحاجة شديدة للنوم ، فابتسمت وقلت : قصة جميلة ! أسعدت مساء

فقال : سعد مساؤك وطاب نومك . إن الرجال خير من النساء ، فهم يزنون الأمور بميزان المنطق ، وأما النساء فهن غاية في الغرابة . إنني أعترف لك بأنني أحببت امرأة متزوجة وأحبتني في أول الأمر ، ولكنها بعد ثلاثة أيام فقط زهدت فيّ واحتقرتني وقالت : لقد قبّلتُ قبلك كثيراً من الرجال ، ولكنني لم أقبّل غيرك جثة هامدة ... أنت رجل مضحك فاذهب من أمامي ... لقد قالت لي ذلك ؛ فلما لم أذهب ، خرجت هي من تلك الغرفة ، وقالت لزوجها بنفسها : إن في المنزل رجلاً غريباً ... هل أنت سامع ؟

فقلت له وأنا بين النوم واليقظة : إنني أريد أن أنام ، فنحن في منتصف الساعة الرابعة ، فقال : أنحن في منتصف الساعة الرابعة ؟ لقد آن وقت النوم

وخلع حذاءه الثاني وقال : لقد كنت مسافراً مع أحد الأعيان ، فبقيت كعادتي صامتاً في الطريق

عند ذلك أغمضت عيني ودفنت صوتي بالغطيط لكي يحسبني نائماً فيسكت ، ولكنه استمر يقول : فسألني عن الجهة التي أسافر إليها ؛ فقلت له : نعم ... هل نمت أيها الشاب ؟ هل أنت سامع ؟ أنائم هو ؟ أهو غير نائم ؟ ها ها ! لقد كان الشاب الذي سكنت معه يفعل مثل ذلك ... لقد كان ينام ساعة يضع رأسه على الوسادة ... إن الناس لا يحبون كلامي ... ها ها !

فرفعت رأسي وقلت له بلهجة التهكم :

— لقد قلت لي إنك رجل صامت ، وأنا الآن أشك فيما تدعيه

فقال : إنني أتكلم عن حوادث جرها حب السكوت . ومن تلك الحوادث ، أنني ذهبت مرة لأعترف للقسيس فسألني :

— أي خطيئة ارتكبتها ؟ فقلت : خطايا كثيرة

فقال : قلها . قلت : كل الخطايا

فسكت القسيس وسكت أنا

فقلت له بصوت الغضب وقد جلست على الفراش :

— كلما زدت في حديثك عن الحوادث المؤيدة لحبك للصمت زاد في نفسي اليقين بأنك كاذب !

فقال : لماذا ؟ هل في حديثي ما يبعث على الشك في حبي للصمت ؟ إن حبي للصمت قد آذاني كثيراً ، فقد كنت مرة بالمكتب ، فجاء رئيسي وسألني : هل لدي أخبار ؟ فقلت : كلا ، فقال : ما معنى قولك كلا ؟

قلت : إنني نائم ، ليلتك سعيدة ! ليلتك سعيدة !

فقال سيمون : ليلتك سعيدة ، وقد قلت له إنني لا أعلم شيئاً من الأخبار ، فقال : هذا جواب غير مناسب ؛ فقلت : وبأي جواب أجيبك ؟

غلبني النعاس فنمت نوماً عميقاً ، ولما استيقظت في الصباح سمعت صوتاً بجانبي ، ونظرت إلى سيمون فوجدته يقول :

— وقد طلبت مني زوجتي الطلاق لأنني صامت ، وهي تريد إنساناً لا جاداً ؛ فقلت لها : يا عزيزتي ليدا وعن أي شيء أتكلم ؟

عبد اللطيف النشار

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)



9me Année No. 400

Lundi - 3-3-1941

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للأدب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
٢	ثمن هذا العدد

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٤٠٠ — « القاهرة فى يوم الإثنين ٥ صفر سنة ١٣٦٠ — الموافق ٣ مارس سنة ١٩٤١ » — السنة التاسعة

الفهـــــرس

يومان من أيام الرسول



يومان من أيام الرسول تضمنا سر النبوة كما تتضمن النواة سر النخلة ، ولخصا تاريخ الإنسانية كما يلخص الجنين تاريخ الإنسان . ذانك يومه الخائف المجهود وقد خرج مهاجراً إلى المدينة ، ويومه الآمن المشهود وقد رجع ظافراً إلى مكة !

كان يومه الأول خاتمة لثلاثة عشر عاماً من المحن الشداد والآلام الفواتن تظاهرت على الإيمان والصبر حتى قال الرسول وهو يلوذ بحائط من حوائط ثقيف : اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ...

وكان يومه الآخر فاتحة لثلاثة عشر قرناً من النصر المؤزر والفتح المبين، خنس فيه الشرك واستخذت الجهالة وذلت قريش حتى قال الرسول وهو واقف بباب الكعبة: لا إله إلا الله، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده!

وإذا كان للرسول في تاريخ الإسلام يومان لا تزال العقول تقع منهما كل يوم على سر، فإن مصدر هذه الأسرار معجزتان لله لا تزال الأفهام تكشف فيهما كل حين عن آية: معجزة الرسول في خلقه، ومعجزة القرآن في بيانه. وقد انكسر القرن الرابع عشر على هاتين المعجزتين والأذهان البصيرة الوثنية والمادية تدرس آثارهما وتستبطن أسرارهما، فما بلغت من ذلك كنهاً ولا غاية

كان محمد في يوميه العظيمين مثل الإنسانية الأعلى: حمل رسالة الله وحمل أبو جهل رسالة الشيطان، واستحالت مكة المشركة جبلاً من السعير سد عليه طريق الدعوة، فكان يخطو في طرقها وشعابها على أرض تمور بالفتون وتتسعر بالعذاب؛ وتتفجر عليه من كل مكان سفاهة أبي لهب بالأذى والهون والمهاياة والمقاطعة. وكل قريش كانت يومئذ أبا لهب إلا من حفظ الله. وافتن شياطين مكة في أذى الرسول، فعذبوه في نفسه وفي قومه وفي أصحابه ليحملوه على ترك هذا الأمر فما استكان ولا لان ولا تردد. وحينئذ تدخّل الشيطان بنفسه في (الندوة) فقرر القتل، وتدخّل الله برَوْحه في (الغار) فقدر النجاة. وانطلق محمد وصاحبه ودليله وخادمه على عيون المشركين في الطريق الموحش الوعر إلى يثرب. وكأن هؤلاء الناجين بدين الله لم يكادوا يدخلون في غيب الطريق حتى انشقت الصحراء عنهم فإذا هم عشرة آلاف من جند الله يجرّون الحديد على النياق الكوم والخيول الجرد، والرسول في كتيبته الخضراء من المهاجرين والأنصار لا يظهر منهم وراء الدروع غير الحدَق، وإذا أبو سفيان زعيم قريش قد اشترى حياته بإسلامه، ثم وقف مع العباس بمضيق الوادي يشهد جيش الفتح وهو زاحف إلى مكة ويقول: هذا والله ما لا طاقة لنا به! لقد أصبح ملك ابن أخيك يا أبا الفضل عظيماً. فقال له العباس: يا أبا سفيان، إنها النبوة!

ثم نجا أبو سفيان إلى مكة فصاح بأعلى صوته: يا معشر قريش، لقد أتاكم محمد بما لا قبل لكم به، فأسلموا تسلموا

أهذه مكة الطاغية التي لبثت إحدى وعشرين سنة تفور بالسفه والحقد والإفك والضغينة والمعارضة على محمد ودين محمد وأصحاب محمد؟ ما بالها خشعت خشوع الجناح الكسير وسكنت سكون المقبرة المهجورة؟ لقد باتت ليلة من ليالي يناير الباردة الطويلة وقلبها يرجف من هول الغد وانتقام الفاتح. ثم أصبحت مكة الساهدة فإذا أهلها بين قابع في منزله، أو عائذ ببيت الله، أو لائذ بدار أبي سفيان؛ وإذا فرق الجيش المحمدي الظافر تنحدر من (ذي طوى) مكبرة مهللة إلى جهات مكة الأربع. فلما ارفضّت المخاوف عن الناس خرج القائد الأعظم من قبته المضروبة بأعلى مكة يؤم المسجد الحرام، وعلى جوانب الطرقات ألسنة المسلمين تذكر، ومن وراء الحجرات عيون المشركين تنظر، والرسول الكريم قد طأطأ رأسه على رحله حتى كاد أن يمس قادمته؛ فلم يجر على باله أن هذه الأرض التي طورد فيها وسال دمه عليها قد أصبحت ملكه، وأن هؤلاء الناس الذين قذفوه بالأحجار ورموه بالأقذار قد أصبحوا أسراه، حتى دخل المسجد فطاف؛ ثم أقبل على الأرستقراطية الصاغرة وهي تتطامن من القلق والفرَق وقال لأهلها الذين أفرطوا عليه في البذاء والإيذاء: يا معشر قريش، اذهبوا فأنتم الطلقاء!

* * *

كان يوم الهجرة وما قبله تشريعاً من الله في حياة الرسول للفرد المستضعف إذا بغى على حقه الباطل، وطغى على دينه الكفر، ليعرف كيف يصبر ويصابر، وكيف يجاهد ويهاجر، حتى يبلغ بحقه ودينه دار الأمان فيقوى ويعز

وكان يوم الفتح وما بعده تشريعاً من الله على لسان الرسول ويده للأمة إذا اتسعت رقعتها واجتمعت كلمتها واستحصدت قواها لتعلم كيف تنسى الضغائن إذا ظفرت، وتحتقر الصغائر إذا كبرت، ثم لا تحارب إلا في الله ولا تسالم إلا في الحق

كانت المدينة وحدها بعد يوم الهجرة مجالاً لسياسة الرسول يضم شتات الجماعة ويوثق عقدة الدين ويجمع أهبة الحرب؛ فألف بين الأوس والخزرج، وآخى بين المهاجرين والأنصار، وعاهد بين المسلمين واليهود، حتى تكتب في يثرب جيش الله الذي فتح الدنيا بفتح مكة!

ثم كان العالم كله بعد يوم الفتح مشرقاً لوحي الله وهدى الرسول، فطهره الإسلام من الأرستقراطية بالمساواة، ومن

الدين مصدر المدينة الفاضلة

لإمام المسلمين الأستاذ الأكبر
الشيخ محمد مصطفى المراغي
شيخ الجامع الأزهر



فى هذا الوقت العصيب الذى يَفرق الله فيه بين عهد وعهد، وبين نظام ونظام، تعود ذكرى الهجرة النبوية التى فرق الله بها بين الشرك والوحدانية، وبين الحيوانية والإنسانية، فتكون للقلوب المؤمنة هدى يزيل الضلال، وأملاً يذهب اليأس

وذكرى الهجرة هى ذكرى ما لقيت دعوة الحق من كيد الباطل، وما أدركت بالصدق والصبر من نصر الله؛ إذ لم تكد تشرق من غار حراء حتى استخفت فى دار الأرقم، ثم لجأت إلى غار ثور وقد طاردها الظالم من كل سبيل، وهاجمها الكفر من كل جانب. وهناك أراد الله سبحانه وتعالى أن تدرك قدرته كلمتَه فطمس عين الباطل فلم ير، وزلزل قدم الشرك فلم يلحق، ومكن لرسالته أن تشرق فى الأبصار والبصائر، فاهتدى من حار ورشد من غوى وقوى من ضعف وعز من ذل. ذلك لأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون. وقد « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ». ثم صدقهم الله وعده، فجعلهم وراثاً للأرض، وخلفاء على الناس، ووطد لدولتهم الملك، وأسعد بمدنيتهم العالم، حتى نسوا الله فأنساهم أنفسهم، واستجروا للهوى فأخضعهم لغيرهم، وتركوا الجادَّة وسلكوا الـبُنيَّات فضلوا آثار السلف، وغفلوا عن تطور الزمان، وقصّروا فى اتخاذ العدة، حتى تمزقت وحدتهم، وضاعت هيبتهم، وأصبحوا أتباعاً وأوزاعاً، يُقضى عليهم ولا يقضون، ويُمضَى لهم ولا يمضون « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وكثير منهم فاسقون »؟

لقد تحدث بعض الذين مكنتهم القوة المادية من السلطان عن نظام جديد للعالم يكفل له السلام والعدل؛ ومثل هذا النظام لا يمكن أن يقوم إلا على أساس الدين؛ فقد دلت تجارب الماضى الطويل أن نظم الإنسان لا تبرأ من النقص لإعواز الكمال فيه وغلبة الهوى عليه. وإذا استحال على العالم كله اعتناق مدنية دينية واحدة، لأن الله لم يشأ أن يجعل الناس أمة واحدة، فان المسلمين أولى الشعوب بالمبادرة إلى هذه المدنية الفاضلة، لأنهم مدينون لدين الله بسلطانهم الذى طبق الأرض، وعمرانهم الذى جمّل الدنيا، وشريعتهم التى نظمت فوضى الطبيعة؛ ولولا الدين ما كان لهم علم ولا حكم ولا حضارة

ولعل الذين استهوتهم مدنية الغرب من الشرقيين فقلدوها تقليد التابع الذليل، قد أدركوا اليوم بعد أن زيفتها التجارب وكشفتها الأحداث وحكم عليها أهلها، أن الرجوع إلى مدنيتهم أحق، واقتباس النافع من حضارة الغرب أولى، وإنشاء مدنية فاضلة مستقلة تقوم على الدين الصحيح والأخلاق القويمة والتقاليد الصالحة، هو الأشبه بأبناء الذين ورثوا مدنيات الشعوب وثقافات الأمم، ثم أجروها على دستور القرآن، ووسموها بطابع العرب، حتى جعلوها مدنيتهم الخاصة، إليهم تُعزى وعنهم تؤخذ

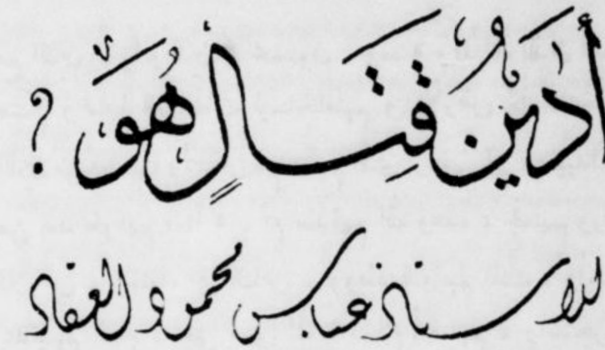
أسأل الله سبحانه وتعالى أن يلهم المسلمين الصواب، ويسدد خطاهم فى طريق الحق، ويهيئ لهم من أمرهم رشداً

محمد مصطفى المراغى

الرأسمالية بالزكاة؛ ثم علم الناس حكم الشورى، وألزمهم قضاء العدل، حتى أخرجهم من الوطنية المحدودة إلى الإنسانية المطلقة

ذانك يومان من أيام الرسول تضمنا أسرار نفسه ولخصا أطوار حياته. فهل تطمعون يا من تظنون أن الزعامة تجوز من غير صدق، والجهاد يفوز من غير صبر، والحياة تصلح من غير إيمان، أن تكون لكم فى رسول الله أسوة حسنة؟

احمد حسن الزيات



من المطاعن التى وجهها أعداء الإسلام إليه أنه دين سيف وليس بدين إقناع : يريدون بذلك أنه لا يقنع الأمم التى دعيت إليه لولا الغزو والإكراه بقوة السلاح

ولتمحيص هذا القول الذى يقال ويعاد فى كل زمان نقرر هنا بعض الحقائق التى يسلّمها المنصف ولا ينكرها إلا المكابر ، لنثبت أن الإسلام شأنه فى استخدام القوة كشأن كل دين ، وأنه ما كان لينتصر بالقوة لو لم يكن إلى جانب ذلك صالحاً للانتصار

« فالحقيقة الأولى » أن هذا الطعن لو صدق لوجب أن يصدق فى بداية عهد الإسلام الذى دان فيه بهذا الدين كثير من العرب المشركين ولولاهم لما كان له جند ولا حُمل فى سبيله سلاح

لكنّ الواقع أن الإسلام فى بداية عهده كان هو المتعدّى عليه ولم يكن من قِبله اعتداء على أحد ، وظل كذلك حتى بعد تلبية الدعوة المحمدية واجتماع القوم حول النبى عليه السلام ، فإنهم كانوا يقاتلون من قاتلهم ولا يزيدون على ذلك : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »

وكانوا يحاربون من لا يؤمَن عهده ولا يتقى شره بالحلف والمسالمة : « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون »

وقد صبر المسلمون على المشركين حتى أمروا أن يقاتلوهم كافة كما يقاتلون المسلمين كافة ؛ فلم يكن منهم قط عدوان ولا إكراه

وحروب النبى عليه السلام كلها حروب دفاع ، ولم تكن منها حرب هجوم إلا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد الإيقان من نكث العهد والإصرار على القتال ، وتستوى فى ذلك حروبه مع قريش وحروبه مع اليهود أو مع الروم

* * *

« والحقيقة الثانية » أن الإسلام إنما يعاب عليه أن يحارب بالسيف فكرة يمكن أن تحارَب بالبرهان والإقناع

ولكن لا يعاب عليه أن يحارب بالسيف « سلطة » تقف فى طريقه وتحول بينه وبين أسماع المستعدين للاصغاء إليه

لأن السلطة تزال بالسلطة ، ولا غنى فى إخضاعها عن القوة ، ولم يكن سادة قريش أصحاب فكرة يعارضون بها العقيدة الإسلامية ، بل كانوا أصحاب سيادة موروثة وتقاليد لازمة لحفظ تلك السيادة فى الأبناء بعد الآباء ، وفى الأعقاب بعد الأسلاف ، وكل حجتهم التى يذودون بها عن تلك التقاليد أنهم وجدوا آباءهم عليها ، وأن زوالها يزيل ما لهم من سطوة الحكم والجاه

وقصد النبى بالدعوة عظماء الأمم وملوكها وأمراءها لأنهم أصحاب « السلطة » التى تأبى العقائد الجديدة ، وتبين بالتجربة بعد التجربة أن السلطة هى التى كانت تحول دون الدعوة المحمدية وليست أفكار مفكرين ولا مذاهب حكماء ، لأن امتناع المقاومة من هؤلاء العظماء والملوك كانت تمنع العوائق التى تصد الدعوة الإسلامية ، فيمتنع القتال

ومن التجارب التى دل عليها التاريخ الحديث كما دل عليها التاريخ القديم أن السلطة لا غنى عنها لإنجاز وعود المصلحين ودعاة الانقلاب ؛ ومن تلك التجارب تجربة فرنسا فى القرن الماضى ، وتجربة روسيا فى القرن الحاضر ، وتجربة مصطفى كمال فى تركيا ، وتجارب سائر الدعاة من أمثاله فى سائر البلاد

فمحاربة السلطة بالقوة غير محاربة الفكرة بالقوة ، ولا بد من التمييز بين العملين لأنهما جد مختلفين

* * *

« والحقيقة الثالثة » أن الإسلام لم يحتكم إلى السيف قط إلا فى الأحوال التى أجمت شرائع الإنسان على تحكيم السيف فيها

فالدولة التى يثور عليها من يخالفها بين ظهرانيها ماذا تصنع إن لم تحتكم إلى السلاح ؟

وهذا ما قضى به القرآن الكريم حيث جاء فيه : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله . فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين »

والدولة التى يحمل أناس من أبنائها السلاح على أناس آخرين من أبنائها بماذا تفض الخلاف بينهم إن لم تفضه بقوة السلطان ؟

وهذا ما قضى به القرآن الكريم أيضاً حيث جاء فيه : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ؛ فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله . فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين »

وفى كلتا الحالتين يكون السلاح آخر الحيل ، وتكون نهاية الظلم والاعتداء نهاية الاعتماد على السلاح . ثم يأتى الصلح والتوفيق أو يأتى التفاهم بالرضى والاختيار .

* * *

« والحقيقة الرابعة » أن الأديان الكتابية بينها فروق موضعية لا بد من ملاحظتها عند البحث فى هذا الموضوع

فاليهودية كانت كما يدل عليه اسمها أشبه بالعصبية المحصورة فى أبناء إسرائيل منها بالدعوة العامة لجميع الناس ، فكان أبناؤها يكرهون أن يشاركهم غيرهم فيها كما يكره أصحاب النسب الواحد أن يشاركهم غيرهم فيه ، وكانوا من أجل هذا لا يحركون ألسنتهم ، فضلاً عن امتشاق الحسام ، لتعميم الدين اليهودى وإدخال الأمم الأجنبية فيه ، ولا وجه إذن للمقارنة بين اليهودية والإسلام فى هذا الاعتبار

أما المسيحية فهى قد عنيت « أولاً » بالآداب والأخلاق ولم تعن مثل هذه العناية بالمعاملات ونظام الحكومة

وهى قد ظهرت « ثانياً » فى وطن تحكمه دولة أجنبية ذات حول وطول وليس للوطن الذى ظهرت فيه طاقة بمصادمة تلك الدولة فى ميدان القتال

أما الإسلام فقد ظهر فى وطن لا سيطرة للأجنبى عليه ، وكان ظهوره لإصلاح المعيشة وتقويم المعاملات وتقرير الأمن والنظام ، وإلا فلا معنى لظهوره بين العرب ثم فيما وراء الحدود العربية

فإذا اختلفت نشأته ونشأة المسيحية فذلك اختلاف موضعى طبيعى لا مناص منه ولا اختيار لأحد من الخلق فيه

وآية ذلك أن المسيحية صنعت صنع الإسلام حين قامت بين أهلها الدول والجيوش ، وحين استقلت شعوبها عن الأجانب المتغلبين ، وأربت حروب المذاهب فيما بين أبنائها على حروب صدر الإسلام مجتمعات ...

* * *

« والحقيقة الخامسة » أن الإسلام شرع الجهاد ، وأن النبى عليه السلام قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله »

وجاء فى القرآن الكريم : « فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرّض المؤمنين ، عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً »

وحدث فعلاً أن المسلمين فتحوا بلاداً غير بلاد العرب ولم يفتحوها ولم يكن يتأتى لهم فتحها بغير السلاح

لكنّ هذه الفتوح لم يتم شىء منها قبل استقرار الدولة للاسلام ، فلا يمكن أن يقال إنها كانت هى وسيلة الإسلام للظهور وقد ظهر الإسلام قبلها وتمكن فى أرضه واجتمعت له جنود تؤمن به وتقدم على الموت فى سبيله

ثم إن هذه الفتوح كانت تفرضها سلامة الدولة إن لم تفرضها الدعوة إلى دينها

فلو قدرنا أن الخليفة المسلم لم يكن صاحب دين ينشره ويدعو إليه لوجب فى ذلك العهد أن يأمن على بلاده من الفوضى التى شاعت فى أرض فارس وفى أرض الروم ، ووجب أن يكف الشر الذى يوشك أن ينقض عليه من كلتيهما ، وأن يمنع عدوى الفساد أن تسرى منهما إلى حماه

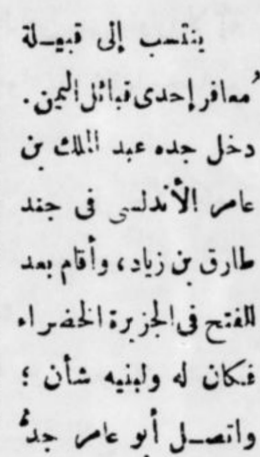
هذا إلى أن الإسلام قد أجاز للأمم أن تبقى على دينها مع أداء الجزية والطاعة للحكومة القائمة ، وهو أهون ما يطلبه غالب من مغلوب

* * *

المنصور بن أبي عامر

للدكتور عبد الوهاب عزام

[مفخرة من مفاخر التاريخ العربي ، ومثل من الهمة الطامحة ، والنفس الهمامة ، والعزم الذي لا يفل]



— ١ —

ينتسب إلى قبيلة مُعافر إحدى قبائل اليمن. دخل جده عبد الملك بن عامر الأندلسي في جند طارق بن زياد، وأقام بعد الفتح في الجزيرة الخضراء فكان له ولبنيه شأن؛ واتصل أبو عامر جدّ المنصور بالخلفاء في قرطبة، وعدّت أسرة أبي عامر في أسر الوزراء . وكان أبو حفص والد المنصور متألهاً زاهداً ، شغل بالحديث عن خدمة الخلفاء ، ومات قافلاً من الحج فدفن بمدينة طرابلس .

وأمّ المنصور من أسرة تميمية — أسرة بني برطال — ويقول القسطلي في المنصور :

تلاقت عليـه من تميم ويعرب شموس تلالا في العلا وبدور
من الحميريين الذين أكفهـم سحائب تهمي بالندى وبحور

— ٢ —

ونشأ محمد (المنصور) نجيباً ، طامحاً ، عظيم الهمة ، كبير القلب . أثر عنه أيام طلبه العلم بقرطبة نوادر تنبئ باعتداده بنفسه واستشرافه المعالي . يقول محمد بن إسحق التميمي :

« كان محمد بن أبي عامر نازلاً عندي في حجرة فوق بيتي ، فدخلت عليه في بعض الليالي في آخر الليـل ، فوجدته قاعداً على الحال التي تركته عليها أول الليل حين فصلت عنه ؛ فقلت له : ما أراك نمت الليلة . قال : لا . قلت : فما أسهرك ؟ قال : فكرة عجيبة . قلت : فيماذا كنت تفكر ؟ قال : فكرت إذا أفضى إليّ الأمر ومات محمد بن بشير القاضي ، بمن أستبدله ، ومن الذي يقوم مقامه ؟ فجلت الأندلس كلها بخاطري ، فلم أجد إلا رجلاً واحداً . فقلت : لعله محمد بن السليم . قال : هو والله ، لشدّ ما اتفق خاطري وخاطرك »

وكذلك رشحته المعالي نفسه العظيمة وآماله الكبيرة ، والمرء حيث يضع نفسه

« والحقيقة السادسة » أن المقابلة بين ما كانت عليه شعوب العالم يومئذ قبل إسلامها وبعد إسلامها تدل على أن جانب الإسلام هو جانب الإقناع لمن أراد الإقناع

فقد استقر السلام بين تلك الشعوب ولم يكن له قرار ، وانتظمت بينها العلاقات ولم يكن لها نظام ، واطمأن الناس على أرواحهم وأرزاقهم وأعراضهم وكانت جميعها مباحة لكل غاصب من ذوي الأمر والجاه

فإذا قيل إن المدعوين إلى الإسلام لم يقتنعوا بفضله سابقين، فلا ينفي هذا القول أنهم اقتنعوا به متأخرين ، وإن الإسلام مقنع لمن يختار ويحسن الاختيار إلى جانب قدرته على إكراه من ركب رأسه ويقف في طريق الإصلاح

ومن نظر إلى الإقناع العقلي تساوى لديه من يستميلك إلى العقيدة بتوزيع الدواء والطعام ، ومن يستميلك إليها بالخوف من الحاكم على فرض أن خوف الحاكم كان ذريعة من ذرائع نشر الإسلام

فالشاهد الذي تطعمه وتكسوه ليقول قولك في إحدى القضايا ، كالشاهد الذي ينظر إلى السوط في يديك فيقول ذلك القول : كلاهما لا يأخذ بإقناع الدليل ولا بنفاذ الحجة ولا يدفع عن عقيدته دفع العارف البصير

وصفوة ما تقدم أن الإسـلام لم يوجب القتال إلا حيث أوجبته جميع الشرائع وسوّغته جميع الحقوق ، وأن الذين خاطبهم بالسيف قد خاطبتهم الأديان الأخرى بالسيف كذلك : إلا أن يحال بينها وبين انتضائه أو تبطل عند أبنائها الحاجة إلى دعوة الغرباء إلى أديانها ، وإن الإسلام عقيدة ونظام ، فهو من حيث العقيدة قد نشأ وتأسس قبل أن تكون له قوة ، وهو من حيث النظام شأنه كشأن كل نظام في أخذ الناس بالطاعة ومنعهم أن يخرجوا عليه .

عباس محمود العقاد

— ٣ —

صار محمد من أعوان قاضى قرطبة محمد بن السليم ، ثم تقلب فى القضاء ، وجعل وكيلاً لعبد الرحمن ابن الخليفة المستنصر وأمه . ولما مات عبد الرحمن ، جعل وكيلاً لأخيه هشام ، ورتب له خمسة عشر ديناراً كل شهر

وعرف الخليفة قدر الرجل ، فكان ينـدبه فيما يُعضل من الأمور ، ثم ولاه الشرطة الوسطى . ولم يأل ابن أبى عامر جهداً فى التقرب من هشام وأمه صبح ، وكانت ذات مكانة عند الخليفة

وعهد الخليفة إلى ابنه هشام فحرص ابن أبى عامر على أن يحتفظ لهشام بولاية العهد ، ثم الخلافة بعد أبيه ، على كثرة ما اجتهد الصقالبة فى تولية المغيرة بن عبد الرحمن الناصر عم هشام

وتولى قيادة الجيش إلى غزوة نكص عنها كبراء الدولة ، ورجع منها مظفراً فزاد هيبة ومكانة . ثم ولى شرطة قرطبة فسيطرت على المدينة هيبته وعدله . فأمن الأخيار وسكن الأشرار

يقول صاحب البيان المغرب :

« فضبط محمد المدينة ضبطاً أنسى أهل الحضرة مَن سلف من أفراد الـكفاة وأولى السياسة ، وقد كانوا قبله فى بلاء عظيم يتحارسون الليل كله ، ويكابدون من روعات طرّاقه ما لا يكابد أهل الثغور من العدو . فكشف الله عنهم بمحمد بن أبى عامر وكفايته وتنزهه ؛ فسد باب الشفاعات ، وقمع أهل الفسق والدعارات، حتى ارتفع البأس وأمن الناس . وأمنت عادية المتجرمين من رجال السلطان حتى لقد عثر على ابن له فاستحضره فى مجلس الشرطة وجلده جلداً مبرّحاً كان فيه حمامه . فانقطع الشر جملة »

ولما رجع من غزاته الثالثة ظافراً رفعه الخليفة إلى الوزارة وجعل راتبه ثمانين ديناراً وهو راتب الحجابة ، ثم شارك أبا جعفر الحاجب ثم استبد بالحجابة عام سبعة وستين وثلاثمائة ؛ فقد بلغ أرفع مناصب الدولة

— ٤ —

سيطر ابن أبى عامر سبعة وعشرين عاماً على الأندلس كلها فصرف أمورها فى الحرب والسلم كما يشاء ، ولم تجتمع أمور الأندلس فى يد واحدة قادرة إلا يد عبد الرحمن الناصر ويد المنصور ابن أبى عامر . فأما الناصر فقد ورث ملكا ثبّتته رأيه وعزمه ومضاؤه وإقدامه ، وأما ابن أبى عامر فقد رفعه إلى السلطان نفس طماحة وعزيمة ماضية وخلق مرير . ولم تكن هيبته فى نفوس أعداء الأندلس دون هيبته فى الأندلس ، فقد أولع بالغزو وانتدب للجهاد فغزا خمسين غزوة فى شمالى الأندلس ، لم تنتكس له راية ، ولا بعدت عليه غاية ، حتى بلغ (شنت ياقوب) فى أقصى الجزيرة إلى الشمال والغرب ، وما طمع أحد من المسلمين قبله أن تنال همته هذا المكان القصىّ . لقد صدق صاحب البيان حين قال :

« ثم انفرد بنفسه وصار ينادى صروف الدهر : هل من مبارز ؟ فلما لم يجده حمل الدهر على حكمه فانقاد له وساعده . فاستقام أمره منفرداً بمملكة لا سلف له فيها . ومن أوضح الدلائل على سعده أنه لم ينكب قط فى حرب شهدها ، وما توجهت قط عليه هزيمة ، وما انصرف عن موطن إلا قاهراً غالباً على كثرة ما زاول من الحروب ، ومارس من الأعداء ، وواجه من الأمم ؛ وإنها لخاصة ما أحسبه يشركه فيها أحد من الملوك الإسلامية . ومن أعظم ما أعين به ، مع قوة سعده وتمكن جنوده ، سعة جوده ، وكثرة بذله ؛ فقد كان فى ذلك أعجوبة الزمان »

— ٥ —

وكان المنصور عادلاً شديداً فى الحق لا تأخذه فيه محاباة ولا شفقة ، ولا يعرف فى إنفاذ الحق هوادة : « جاء إلى مجلسه رجل فناداه يا ناصر الحق لى مظلمة عند هذا الفتى – وأشار إلى أحد فتيانه – وقد دعوته إلى الحاكم فلم يأت . قال المنصور : اذكر مظلمتك ، ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية . وقال للفتى : انزل صاغراً وساو خصمك فى مقامه حتى يرفعك الحق أو يضعك . وقال لصاحب الشرطة : خذ بيد هذا الظالم الفاسق وقدمه مع خصمه إلى صاحب المظالم ينفذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق »

ولما عاد الرجل المتظلّم إلى المنصور يشكره قال له : « قد انتصفت أنت فاذهب لسبيلك . وبقى انتصافى أنا ممن تهاون بمنزلتى » . وعاقب الفتى وعزله

ما ثبت سلطان هذا الرجل الطماح المتسلّط المقدام إلا بهذا العماد من العدل والإنصاف وإيثار الحق على نفسه وخاصته

وكان له فصّاد فاحتاج إليه يوماً فقيل له إنه فى حبس القاضى لحيف كان منه على امرأته . فأمر المنصور بإخراجه مع رقيب من رقباء السجن ليفصده ثم يعود إلى محبسه . وشكا الرجل إلى المنصور ما ناله من القاضى فقال : « يا محمد إنه القاضى !

فتح مصر

كما صوره الأدب المجهول

للدكتور زكي مبارك

دخل العرب مصر يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين لهجرة الرسول ، على خلاف في ذلك لا يغير الجوهر من موضوع هذ الحديث

ولم تكن مصر بعيدة عن أذهان العرب في الجاهلية ، فقد تحدث القرآن عن أخبار مصر بإفاضة وإطناب ، وذلك يشهد بأن العرب كانوا يسايرون ما يقع في مصر من حوادث وتقلبات ، ومن هنا كانت الحكمة العالية في عناية القرآن بالتحدث عن مصر وملوك مصر وهو يدعو إلى الاعتبار بمصاير الجبابرة والظالمين

كان العرب يعرفون مصر قبل الفتح ، وكانوا ينزحون إليها من وقت إلى وقت ، طلباً للغنى والاثراء . ومن شواهد ذلك شدة القرب بين اللغة العربية واللغة المصرية ، وهو قرب يؤيده الاتحاد في ألفاظ كثيرة تعد بالمئات ، ألفاظ نطق بها العرب والمصريون مع تشابه في الجرْس والمدلول ، وذلك لا يقع بين أمتين عن طريق المصادفات ، وإنما هو برهان على قوة التعارف فيما غبَر من عهود التاريخ .

والحق أن الفترة التي سبقت ظهور الإسلام كانت من مواسم اليقظة العربية ، فكان للعرب سفراء من التجار بأكثر البلاد التي فُتحت في أيام الخلفاء ، ولا سيما مصر والشام ، فمن العسير أن نصدّق أن مصر لم تخطر في بال العرب إلا قبيل سنة عشرين وكانوا يعرفون في جاهليتهم أنها أعظم مصادر الخيرات والثمرات ، وأنها الطريق إلى أفريقيا الشمالية ، وبأفريقيا الشمالية أقطار تسامع بها العرب ودخلت في أساطيرهم قبل الإسلام بأزمان

أقول هذا — وهو حق — لا ثبت أن ما سطَّر التاريخ من أخبار فتح مصر لم يكن إلا من صنع الأديب المجهول ، فمن هو ذلك الأديب ؟

في الأدب العربي عشرات أو مئات من الأدباء المجهولين ، فالذي سطَّر خطب وفود العرب على كِسرى أديبٌ مجهول ، والذي دوَّن مشاورة المهدي لأهل بيته أديبٌ مجهول ، والذي

وهو في عدله . ولو أخذني الحق ما أطقت الامتناع عنه . عُدْ إلى محبسك أو اعترف بالحق فإنه هو الذي يطلقك »

فمن يسأل عن ملك العرب والمسلمين كيف ثبت هذه الحقب الطويلة على أعاصير الخطوب ففي هذا وأمثاله جواب

— ٦ —

وكان على كثرة مشاغله ذا عناية بالأدب والعلم يجتمع العلماء والأدباء كل أسبوع ويتناظرون في حضرته ، ويمدحه الشعراء

وكان رحمه الله ديّنا متألها ورعاً كتب بيده مصحفاً كان يحمله في أسفاره . وجمع ما علق بثيابه من غبار الحرب وأوصى أن يجعل في حَنوطه إذا مات ، كما فعل أمير العرب ابن حمدان من قبله : صنع من غبار الوقائع لبنة لتوضع في قبره تحت رأسه .

واتخذ المنصور كفنه من مال موروث من أبيه ومن غزل بناته اتقاء للشبهة ، وتورّعا أن يكون في أكفانه مال يرتاب فيه .

— ٧ —

توفي المنصور سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة غازياً بمدينة سالم في أقصى الثغور الأندلسية ففرح أعداؤه بموته وصوّروا جنازته ولا تزال صور الجنازة في متاحف أوربة

رحم الله المنصور بن أبي عامر ! إن في سيرته لقدوة حسنة لكل طامح يسمو بنفسه إلى الدرجات العلى في المنصب والدين والخلق .

رحم الله المنصور ! إن في سيرته لحجة يوم نفاخر بتاريخ العرب والإسلام .

عبد الوهاب عزام

ألف رسالة الطير والحيوان بين رسائل إخوان الصفاء أديبٌ مجهول ، والذى حرّر المساجلة بين المقوقس وعبادة بن الصامت يوم حصار حصن بابليون أديبٌ مجهول ، فماذا صنع هذا الأديب ؟

يجب أولاً أن نفهم أن العرب لم يدونوا أخبار الفتوحات يوماً بيوم ، كما يصنع الناس فى هذا العهد . فقد كان العرب محمومين بالقتال والصيال ، وهل دونوا القرآن إلا بعد الخوف عليه حتى يهتموا بتدوين أخبار الفتوحات ؟

إذا فهمنا هذا أدركنا بسهولة أن ما دُوِّنَ من أخبار فتح مصر لم يكن إلا صورة من التاريخ المزخرف ، وهو تاريخ يمثل عقل الكاتب أكثر مما يصور الواقع ، وإلا فكيف جاز أن يتفق عمر بن الخطاب مع عمرو بن العاص على خطاب يتلقاه عمرو فى الطريق وفيه هذه الكلمات : « إن أدركك كتابى هذا قبل أن تدخل مصر فارجع إلى موضعك ، وإن كنت دخلت فامض لوجهك ... »

ليس هذا خبراً من الأخبار ، وإنما هو أقصوصة من الأقاصيص ؛ فعمر بن الخطاب لا يسيِّر جيشاً لفتح مصر إلا وهو مصمم على ضم مصر إلى الممالك الإسلامية . وعمرو بن العاص لا يُدافع رسولاً يحمل إليه خطاباً من أمير المؤمنين ، كما تشاء « القصة » أن تقول لغرض شريف هو وصف عمر بالحذر ، ووصف عمرو بالإقدام ، وكذلك وُصف عمر وعمرو فى أكثر ما تحدث به القصاص ، وهم أقطاب التاريخ المزخرف فى شباب العصر الإسلامى

ثم انتقل الأديب المجهول إلى وصف الحوار الذى دار حول حصن بابليون ، وهو حوار نرى فيه المقوقس يتكلم اللغة العربية بفصاحة يصورها هذا التحذير الطريف :

« إنكم قد ولجتم بلادنا ، وألححتم على قتالنا ، وطال مقامكم فى أرضنا ، وإنما أنتم عصبة يسيرة ، وقد أظلتكم الروم وجهزوا إليكم ومعهم العدة والسلاح ، وقد أحاط بكم هذا النيل ، وإنما أنتم أسارى فى أيدينا ، فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم ، فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ، ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفاً لطلبكم ورجائكم ، فابعثوا إلينا رجالاً من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شىء »

ثم يتلطف الأديب المجهول فيجعل رسول عمرو إلى المقوقس هو عبادة بن الصامت مع جماعة من الفرسان ، فلأى غرض تخير عبادة لذلك اليوم المشهود ؟

أنا أفترض أن الفن الأدبى هو الذى قضى بذلك التخيير ، فقد كان عبادة أسود ، وكان العرب يعيّرون بالسواد ، فلم يكن بد من قرن الشجاعة بالسواد ليصبح وهو من مزايا الرجال

المقوقس : كيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم ، وإنما ينبغى أن يكون دونكم ؟

أصحاب عبادة : إنه وإن كان أسود ، كما ترى ، فإنه من أفضلنا موضعاً ، وأفضلنا سابقة وعقلاً ورأياً ، وليس يُنكَر السواد فينا

المقوقس : تقدم يا أسود ، وكلمنى برفق ، فإننى أهاب سوادك

عبادة : قد سمعت مقالتك ، وإن فيمن خلّفتُ من أصحابى ألف رجل كلهم مثلى وأشد سواداً منى

من هذا الحوار نفهم أن ذلك الأديب المجهول قد اتجه إلى الدفاع عن اللون الأسود ، وهو لون كان يعيَّر به العرب فى بلاط كسرى وبلاط قيصر ، وشعور العرب بالتأذى من السواد هو الذى فرض على شعرائهم أن يكثروا من التغنى بالبياض ، وهم لم يجعلوا « البياض نصف الحُسْن » إلا لكثرة ما عيَّرهم الناس بالسواد ، وهل كانت رسالة الجاحظ فى تفضيل السُّود على البيض إلا دفعاً لما تأذى به العرب من أراجيف الشعوبية وهم قومٌ ألحوا فى تعيير العرب بالسواد ؟

أنا أفترض أن سواد عبادة له دخلٌ فى جعله رئيس القوم عند محاورة المقوقس وقد شجُع عُبادة وهو أسود ، وجَبُن المقوقس وهو أبيض ، ليُظهر الأديب المجهول فضل الأخلاق على الألوان ، إن لم أُخطئ فى هذا الافتراض

ولكن ما الغاية الأصيلة لذلك الحوار الجميل ؟

هو حوار يصور الخصائص الإسلامية فى أدب النفس ، وينفى عن العرب تهمة القول بأنهم لم يفتحوا الممالك إلا حبًّا فى المغانم الدنيوية

لهذا نرى الأديب المجهول يُنطق رسل المقوقس إلى عمرو بهذه الكلمات :

« رأينا قوماً الموتُ أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، وإنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على رُكَبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يُعرَف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد »

فهذا كلام مصنوع قد ابتدعه ذلك الأديب المجهول ليصور شمائل المسلمين على ألسنة رسل المقوقس ، وإلا فكيف يمكن الحكم بأن هذا الكلام وقع بألفاظه ومعانيه ، وما كان رسل المقوقس يتكلمون العربية ، ولا كان الغزاة بقادرين على تسمُّع ما دار فى مجلس المقوقس من وصف العرب بتلك الأوصاف ؟

والظاهر أن الأديب المجهول كان حريصاً على تأكيد هذه المعانى ، فلم يكتف بإجرائها على ألسنة رسل المقوقس ، وإنما أجراها بصورة أروع على لسان عبادة بن الصامت ، إذ تصوره يقول وهو يحاور المقوقس :

« أنا قد وليت وأدبر شبابى ، وإنى مع ذلك بحمد الله ما أهاب مئة رجل من عدوى لو استقبلونى جميعاً ، وكذلك أصحابى ، وذلك إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد فى الله واتباع رضوانه ، وليس غزونا عدوًّا ممن حارب الله لرغبة فى الدنيا ولا حاجة للاستكثار منها ، إلا أن الله عز وجل قد أحل ذلك لنا ، وجعل ما غنمنا من ذلك حلالاً ، وما يبالى أحدنا أكان له قناطير من ذهب أم كان لا يملك إلا درهماً ، لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يسد بها جوعته ليلته ونهاره ، وشملة يلتحفها ، وإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه ، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه فى طاعة الله تعالى واقتصر على ما يبلغه ، لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاءها ليس برخاء ، إنما النعيم والرخاء فى الآخرة ، بذلك أمرنا الله وأمرنا به نبينا ، وعهد إلينا أن لا تكون همة أحدنا فى الدنيا إلا ما يمسك جوعته ، ويستر عورته ، وتكون همته وشغله فى رضاء ربه وجهاد عدوه »

ثم ترفق الأديب المجهول فأدار الحوار بأسلوب رشيق يجد القارئ تفاصيله فى الجزء الأول من « النجوم الزاهرة » ويرى فيه ملامح من الحِجَاج الذى دار بين كسرى وأشياخ العرب يوم صاولهم وصاولوه فى الصورة التى زخرفها أديب آخر مجهول

ومن الطريف أن نرى المقوقس يزيِّن لأصحابه الصلح مع العرب بطريقة تشبه ما يسمى فى هذا العصر « حجة دعاة التردد والهزيمة » فنفهم أن ذلك الأديب كان من أئمة الابتداع

المقوقس لأصحابه : أطيعونى وأجيبوا القوم إلى خصلة واحدة من هذه الثلاث[1] فوالله مالكم بهم طاقة ، ولئن لم تجيبوا إليها طائعين لتجيبنهم إلى ما هو أعظم كارهين

أصحاب المقوقس : وأى خصلة نجيبهم إليها

المقوقس : إذن أخبركم ، أما دخولكم فى غير دينكم فلا آمركم به ، وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقووا عليهم ، ولن تصبروا صبرهم ، ولا بد من الثالثة « وهى دفع الجزية »

أصحاب المقوقس : فنكون لهم عبيداً أبداً ؟

المقوقس : نعم . تكونون عبيداً مسلطين فى بلادكم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم خير لكم من أن تموتوا عن آخركم

أصحاب المقوقس : فالموت أهون علينا

وبهذا انقطع الأمل فى الصلح ، ودارت الحرب فاقتحم المسلمون الحصن ، وانتهت الأمور إلى الخصلة الثالثة بعد أن أدى المصريون واجبهم فى الدفاع عن بلادهم دفاعاً سلم من الخضوع لتخاذل المقوقس ، وإن انتهى بالتسليم بعد احتدام نار القتال ، والهزيمة فى الحرب لا تنقض من أقدار المحاربين ، فالغالب والمغلوب فى شرف الرجولة سواء

قد يعترض معترض فيقول : وهل نظن أن يوم الحصن خلا من مفاوضات بين عمرو بن العاص والمقوقس حتى نحكم بأن ما دُوِّن من ذلك لم يكن إلا بِدعاً حبَّره أديب مجهول ؟

وأجيب بأنى واثق بأن المفاوضات دارت بين الفريقين ، وإنما أرتاب فى صحة الوثائق التى صوَّرت بها تلك المفاوضات ، لأنها أصغر مما يجب أن يكون ، ولأنها أنطقت المقوقس وأصحابه بألفاظ صنعها كاتب فنان

ثم ماذا ؟ ثم أهجم على خطاب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب فى وصف مصر الخطاب الذى يقول : « مصر قرية غبراء وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ، ميمون الروحات » والذى يقول : « فبينما مصر

(١) هى الشروط التى عرضها عمرو بن العاص على المقوقس

يا أمير المؤمنين ، لؤلؤة بيضاء ، إذا هى عنبرة سوداء ، فإذا هى زمردة خضراء ، فإذا هى ديباجة رقشاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء »

أهجم على هذا الخطاب فأحكم بأنه موضوع لأنى أستبعد صدوره عن عمرو بن العاص ، ولأنى أراه عَبث عابث ، لا كلام رجل مسئول

أما بعد فقد كان أسلافنا يقولون فى ختام كل بحث : « والله أعلم » فأنا أختم هذا البحث بعبارة « والله أعلم » تأدباً بأدب السلف وفراراً من وصمة الرجم بالغيب

كتب الله لنا النجاة من الخطأ وهدانا إلى الصواب ، إنه قريب مجيب

زكى مبارك

أثر الهجرة فى التشريع الإسلامى

للأستاذ محمد محمد المدنى



فى هجرة النبى صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة عبر عظمى ما تزال الأقلام والأفكار جاهدة فى كشفها، وللبحث عنها ، وتجلية أسرارها

ومن هذه العبر التى ينبغى أن يلتفت إليها المسلمون وينتفعوا بها، ما نجعله اليوم مساق الحديث وموضوع المقال

كان للهجرة فى التشريع الإسلامى أثر معروف مذكور ، ولهذا الأثر ناحية دلالة وإرشاد ، ربما كان القول فيها جديداً ، والبحث عنها مفيداً

فأما الأثر المعروف المذكور ، فهو أن القرآن الكريم ظل ينزل بمكة ثلاثة عشر عاماً لا يعرض فيها إلا إلى أصول الدين ، وقواعد الإيمان ، وبرهان التوحيد ، ومحاسن الأخلاق ، يريد بذلك أن يقتلع ما كان للعرب من العقائد الفاسدة ، والأخلاق المستنكرة ، ويزيل ما فى نفوسهم من شُبَه فى إرسال هذا الرسول إليهم على فترة من الرسل ، وظلام من الشرك ، وإغراق فى الجهل ، وجمود على تقاليد الآباء والأجداد ولو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون !

ولا يكاد يُعرف أن القرآن الكريم عُنِىَ فى هذه الفترة إلا بهذه الناحية يضرب لها الأمثال ، ويقص لها القَصَص ، ويحشد لها الآيات البينات ، فإذا عنى بغيرها فإنما يعنى بما كان من سبيلها من التشريع الذى له صلة بحماية العقيدة والحفاظ على أساس الدعوة

فلما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة جعل القرآن ينزل بياناً للعبادات والمعاملات والنظم وأحوال الناس ، وجعلت آياته تترى فى تشريع كل ما يتصل بحياة الفرد والجماعة من المواريث والوصايا والزواج والطلاق والقضاء والجنايات والحدود والجهاد وغير ذلك

هذه السياسة التى ساس بها القرآن أمر الإسلام فى مكة والمدينة ، وأخذ بها المسلمين فى سبيل التمكين لهم ، والتثبيت لسلطان دينهم ، سياسة ظاهرة الرشاد ، مضمونة النجاح ، متفقة مع نظام التدرج الطبيعى الذى أخذ الله به جميع الكائنات فما كان الله ليدع الناس فيما هم عليه من رجس وعبادة أوثان وتقاطع وتدابر وحروب وفتن وسفك دماء ، ثم يدعوهم فجأة إلى النظام المطلق الشامل ، وقد ألفوا الفوضى ، ويأخذهم بالتشريع المحكم المفصل ، وقد عاشوا فى كفالة الأهواء والشهوات ، ويتعبدهم بأنواع من العبادات فيها سمو وفيها تهذيب ، وهم الذين كانوا فى مراتع لانى يسيمون !

ذلك هو المعروف المذكور من أثر الهجرة فى التشريع الإسلامى : أما موطن العبرة فيه ، وناحية الإرشاد والدلالة منه ، فهى أنه يحسن بنا ، ونحن بصدد الدعوة إلى أن يكون التشريع الإسلامى أساساً للقانون العام فى مصر والشرق ، أن نطبق هذه السياسة الرشيدة التى ساس بها القرآن أمر المسلمين الأولين ،

لنضمن نجاح هذا المسعى الشريف ، وليعود ذلك على الإسلام بالعزة والقوة !

إن أهم ما يعترض هذا المسعى ، ويقف في سبيل تنفيذ هذه الفكرة ما يتخيله كثير من الذين بيدهم الحول والطول ، وتحت إشرافهم مراكز المال والاقتصاد ، وفي عهدتهم حراسة الأمن والطمأنينة في الدولة ، وبث أسباب الرغد والرفاهية في الأمة من أن في الأخذ بالشريعة الإسلامية الآن إعناتاً للناس وإرهاقاً ، وشللاً لحركات التعامل التي أصبحت جزءاً من النظام العامة في العالم كله ، وتنفيراً للأجانب من الإقامة بيننا ، ونحن أحوج ما نكون إلى التعاون معهم ، والانتفاع بنشاطهم ، وما يديرون بيننا من أموالهم !

يقول هؤلاء للذين يطالبون بالتشريع الإسلامي : ماذا تصنعون في هذه المصارف التي انبثت في صميم الحياة المالية ، وأصبحت في سائر الدول أساساً من أسس الاقتصاد لا يستغني عنه تاجر ، ولا زارع ، ولا موظف ، ولا صاحب مال ؟ وماذا تصنعون في هذه الشركات التي فتح الله بها للصناع أبواباً من الرزق ، وجعل منها للأموال الراكدة حظاً من الربح ، وسد بها حاجة بعد حاجة مما لا يستغنى عنه الناس ؟ لاشك أنكم ستضطرون إذا بسطتم سلطان الشريعة الإسلامية إلى إغلاق هذه المصارف ، ونقض هذه الشركات ، التي تتصرف تصرفاً لا يتفق وآراء الفقهاء ، فإذا لم تغلقوا المصارف ولم تنقضوا الشركات ، أرهقتموها بالشروط والنظم التي توافق شريعتكم إرهاقاً لا تستطيع معه الحياة ، ولا أداء ما تؤديه إلى الناس من خدمات !

ثم كيف تنفذون الحدود ؟ كيف ترجمون الزاني ، وتقطعون السارق ، وتقتصون من عين بعين ، ومن سن بسن ؟ بينما العالم ناظر إليكم ، متعجب من هذه العقوبات الصارمة تنزلونها على الجناة بلا رحمة ولا شفقة في الوقت الذي اتجهت فيه أنظار المصلحين إلى مداواة الإجرام ، بإصلاح نفوس المجرمين ، وإلى اقتلاع أسباب الشر ، بتهذيب الأشرار في غير عنف ولا تغليظ ؟

ومتى تصبر على سياط الجلاد أجسام غذيت بالنعيم ، ونشئت على الرفاهية وعاشت في عصر الطب والكهرباء والدافئ والمراوح بين مروج الحدائق ، وفي متاع القصور ؟

ومتى يعيش معكم أجنبي إن لم تنفذوا الحد فيه نفذتموه في صديق له أو جار أو عميل ، فإذا هو يلقاه بيد مبتورة ، أو عين مفقوءة ، أو سن كسير ؟

هكذا يقول الذين يُدْعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ! وهم من غير شك مخطئون ، لأن الشريعة الإسلامية تستطيع أن تنظم أحوال المصارف والشركات بما لا يتنافى مع قواعدها ، ولا يرهق القائمين بها ، ولا المتعاملين فيها

وهم مخطئون فيما تخيلوه من أمر الحدود والقصاص ، فإن هذه الأشياء التي اعترضوا بها هي الوسيلة إلى اقتلاع الإجرام من أساسه ، واجتثاث الفساد من أصوله ، وتوفير الجهود العظيمة التي تذهب سدى في مكافحة الإجرام والمجرمين !

وهم مخطئون لأنهم حين يظهرون بهذا المظهر الذي يفيض رحمة وشفقة بالمجرمين وأهل الفساد ، يتناسون إجرامهم وفسادهم وما أساءوا به إلى الآمنين !

وهم مخطئون لأنهم حين يذكرون اتجاه المدنية الحديثة إلى تهذيب الجناة وإصلاح نفوسهم بالرفق واللين ، ينسون اتجاه بعض الأمم إلى إعدام المجرمين ، وأصحاب الشذوذ ، والمصابين بالأمراض التي لا يرجى لها شفاء ، رفقاً بالأمة في مجموعها وصيانة لها كما يصان الجسم ببتر بعض أعضائه الفاسدة التي لا يرجى لها صلاح !

هم مخطئون لهذا كله ، ولكنهم لا يقتنعون بخطئهم ، ولا يرجعون عن غيهم ، ومن العبث أن ننفق الوقت والجهود في سبيل إقناعهم وما هم بمقتنعين ، ونحن لا نستطيع أن نمضي في طريقنا ، ونغض النظر عنهم ، لأن هؤلاء — كما قدمنا — لهم أثر لا ينكر في توجيه سياسة البلاد ، ولهم قوة وسلطان يستطيعون بهما إقامة العراقيل ، ووضع العقبات في سبيل كل مشروع لا يرضون عنه ، ولا يقتنعون به

فما هي الحيلة التي ينبغي أن نتوسل بها إذن إلى تنفيذ هذه الفكرة الجليلة ، فكرة إحلال التشريع الإسلامي محل التشريعات الوضعية ؟

إن أثر الهجرة في التشريع الإسلامي يوحي إلينا بهذه الحيلة ، ويرشدنا إلى هذه الوسيلة ، فما دام الله القادر العليم الحكيم ،

قد ارتضى للمسلمين أن يعيشوا حيناً من الدهر موقتاً بدون تشريع تفصيلي شامل، لأن المصلحة كانت يومئذ تبرر ذلك، وما دام هذا لم يؤثر في اطراد تقدم المسلمين ونجاح دعوتهم، فيحسن بنا أيضاً وقد عاد الدين غريباً كما بدأ، أن ننادي بتنفيذ ما ليس بيننا وبين أحد خلاف عليه ونؤجل تنفيذ ما فيه الخلاف، حتى إذا اقتنع الناس فيما بعد بما لم يقتنعوا به اليوم مضينا في تنفيذه أيضاً، وإلا صبرنا حتى نهيء لذلك العقول والأفكار

ينبغي أن نقول لهؤلاء الذين يحاجوننا عن دعوتنا: سنترك لكم المصارف والشركات تسير على النظام الذي شرعتم لها حتى نستطيع إقناعكم بنظام أفضل منه يتمشى مع التشريع الإسلامي وينهض بحاجات الأمة، وسنترك تنفيذ هذه العقوبات التي ترونها صارمة منافية للرحمة حتى نقنعكم يوماً ما بخطأ فكرتكم، وفساد تخيلكم، وسننفذ ما نحن وأنتم عليه متفقون؛ فقد رضي الله مثل ذلك للمسلمين من قبل. فتعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ولنتعاون جميعاً على جعل التشريع الإسلامي أساساً لما نشرع بعد اليوم من قانون أو نضع من نظام!

إن الشريعة الإسلامية لا تأبى مثل ذلك، وقد أوقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه تنفيذ القطع في عام المجاعة، وأخذ بذلك أحمد بن حنبل والأوزاعي[1]. وقد روى في سنن أبي داود أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن تقطع الأيدي في الغزو. وروى صاحب أعلام الموقعين أن عمر رضي الله عنه كتب إلى الناس: «أن لا يجلدن أمير جيش ولا سرية ولا رجل من المسلمين حداً وهو غاز حتى يقطع الدرب قافلاً لئلا تلحقه حمية الشيطان فيلحق بالكفار[2]»

وفي كل هذا توسيع على المسلمين وإرشاد لهم إلى رعاية المصالح وتقرير الظروف والأحوال؛ ولا شك أن من مصلحة الإسلام الآن أن نأخذ في تشريعنا الحاضر بما نستطيع أن ننفذه من أحكامه، على أن نوقف ما لا يمكن تنفيذه حتى يهيء الله للمسلمين من أمرهم رشداً

هذه فكرتي، ولعلي أكون قد جليتها وأوضحتها حتى لا أثير بها ثائرة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، ويحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم

محمد محمد المدني
المدرس بكلية الشريعة

---

(١) أعلام الموقعين ج ٣ ص ٣٣
(٢) أعلام الموقعين ج ٣ ص ٢٩

طارق بن زياد

من شاطئ إلى شاطئ

للأستاذ علي محمود طه




أشباحُ جنٍّ فوق صدرِ الماء ... تهفو بأجنحةٍ من الظلماء ؟

أم تلك عُقبانُ السماء وَثَبْنَ من ... قُنَنِ الجبالِ على الخضمِّ النائى

لا ، بل سفينٌ لُحْنَ تحت لواء ... لمن السفينُ تُرَى ! وأىُّ لواء ؟

ومَن الفتى الجبّارُ تحت شراعها ... متربّصًا بالموج والأنواء ؟

يُعلى بقبضتِهِ حمائلَ سيفِهِ ... ويضمُّ تحت الليل فضلَ رداء

ويُنيلُ ضوء النجم عاليَ جبهةٍ ... من وَشْمِ (إفريقيّة) السمراء

ذَهَبٌ بيوتقةِ السّنى من ذَوْبِهِ ... مَسَحَتْ مُحيّاهُ يدُ الصحراء

لونٌ جلَتْ فيه الصحارى سحرَها ... تحت النجوم الغُرِّ والأنداء

وسماء بحرٍ ما تطامنَ موجُهُ ... من قبلُ لابنِ الواحةِ العذراء

بحرٌ أساطيرُ الخيالِ شطوطهُ ... ومسابحُ الإلهامِ والإيحاء

ومدائنٌ سحريةٌ شارَفْنَهُ ... بنخيلها وضفافِها الخضراء

ومعابدٌ شُمٌّ ، وآلهةٌ على ... سُفُنٍ ذواهبَ بينهنَّ جوائى

أبطالُ يونان على أمواجه ... يطوون كلَّ مفازةٍ وفضاء

يتجاذبون الغارَ تحت سمائهِ ... يتناشدون ملاحمَ الشعراء

مازال يرمى الرُّومَ وهو سليلُهم ... ويُديلُ من (قرطاجة) العصماء

حتى طَلَعْتَ به فكنتَ حديثَهُ ... عجباً ! وأىَّ عجائبِ الأنباء

ويساءلونَ بك البروقَ لوامعاً ... والموجَ فى الإزبادِ والإرغاء

من علَّمَ البدَوِىَّ نَشْرَ شراعِهِ ... وهداهُ للإبحارِ والإرساء !

أين القِفارُ من البحارِ؟ وأين من ... جِنِّ الجبالِ عرائسُ الدأماء

ياابن القِبابِ الحمرِ ويحك! من رمى ... بكَ فوق هذى اللجّةِ الزرقاء ؟

تغزو بعينيك الفضاء وخَلْفَهُ ... أفقٌ من الأحلامِ والأضواء

جُزُرٌ مُنَوَّرَةُ الثغورِ كأنها ... قطراتُ ضوء فى حفافِ إناء

والشرقُ من بُعْدٍ حقيقةُ عالَمٍ ... والغربُ من قُرْبٍ خيالةُ رائى

ضحكتْ بصفحتِهِ المنى وتراقصتْ ... أطيافُ هذى الجنّةِ الفيحاء

ووثبتَ فوق مروجها وتلمّستْ ... كفاكَ قلباً ثائرَ الأهواء

فكأنما لكَ فى ذَراها مَوعِدٌ ... ضَرَبَتْهُ أندلسيةٌ للقاء !

ووقفتَ والفتيانُ حولكَ وانبرتْ ... لكَ صيحةٌ مرهوبةُ الأصداء

هذى الجزيرةُ إن جهلتم أمرَها ... أنتم بها رهطٌ من الغرباء

البحرُ خلفى والعدوُّ إزائى ... ضاع الطريقُ إلى السفينِ ورائى

...وتلفتوا فإذا الخضمُّ سحابةٌ ... حمراء مُطْبَقَةٌ على الأرجاء

قد أحرقَ الربّانُ كلَّ سفينةٍ ... من خلفهِ إلا شراعَ رجاء !

ألقى عليه الفجرُ خيطَ أشعةٍ ... بيضاء فوق الصخرة الشمّاء

وأتى النهارُ وسار فيه طارقٌ ... يبنى لملكِ الشرقِ أيَّ بناء

حتى إذا عبرَتْ لَيالٍ طوّفَتْ ... أحلامُهُ بالبحر ذاتَ مساء

ترعى على الأفقِ المرصّعِ قريةً ... أعظِمْ بها للغزوِ من ميناء !

مدَّ المساء لها على خلجانها ... ظلاً فنامتْ فوق صدر الماء !

علي محمود طه

العقيدة الإسلامية تكون البطولة

عمر المختار

للأستاذ محمد عبد الرحمن الجديلي

دخلت الهزيمة على الطليان من أقطار الصحراء، فأمعنوا في الفرار لا يتلبثون ولا يستأنون . . . لا ينتظرون عند المساء صباحاً، ولا عند الصباح مساء، كأنما يهزمهم الرعب، ويقتلهم الخوف، من قبل أن تدهمهم الجيوش، ومن قبل أن يحاط بهم

كلما طلع نهار أو غسق ليل، تتتابع الصور الشاحبة لتلك الهزيمة النكراء، وفي أعقابها ألمح صوراً مشرقة لأبطال (طرابلس) ومن بينها صورة فريدة تتألق أمام عيني في هالة من الجلال والتهيب. تلك هي صورة البطل المسلم الشهيد (عمر المختار) ومن عجب أن تتلاحق الصورتان: صورة الهزيمة النكراء، وصورة الشجاعة البلقاء!

هذه صورة للأفئدة الهواء، وتلك صورة للأحلام الرزان، وللنفوس الوثابة مطمئنة راضية مرضية

***

تباركت يا ألله!! تجلت آيتك الكبرى في هذا البطل المسلم الصحراوي، فقد أفرغت عليه إيماناً من فرعه إلى قدمه، فإذا هو وقد خرج صورة مجسدة للعقيدة الإسلامية، يضرب للناس أروع الأمثال: من حمامة نفس وقوة بأس، لا يحدث نفسه بالإدبار، ولا يفسد مروءته بعرض زائل، ولا ينتقص رجولته بقبول المضيمة والهوان

في شوال من عام ١٣٢٩ هـ اندفعت القذائف (الطليانية) الغادرة، مصوبة إلى طرابلس وبرقة، فكانت مؤذنة بتوقد جذوة الإيمان في قلوب المجاهدين؛ ومن بينهم عمر المختار

لم يكن لهم من العتاد ولا من الذخر ولا من الحشد ما اجتمع لأولئك الغادرين، ولكن كان لهم شأن واحد أغناهم عن كل أولئك الشئون ... كان لهم إيمان، وكانت لهم عقيدة، ولم يكن لهم أهواء، ولا بهم نزوات ... وحسبك هذا غناء أي غناء ... !

فلقد بقي عمر المختار يفل شوكة أعدائه، ويقلم أظفارهم، ويتخطفهم من حولهم، ويكسر من سلطانهم، حتى كانت سنة خمسين وثلاثمائة وألف الهجرية!

ثنتان وعشرون سنة دأباً، وعمر لا تخضد شوكته، ولا تفل عزيمته، تتكسر الأحداث أمام يقينه وإيمانه

وما خطبه بعد ذلك؟ — نضر الله وجهه — امتدت يد غادرة من وراء ظهره، فعبثت بحريته، ثم عبثت بحياته الدنيا، لكنها — في الحق — قد أطلقت روحه إلى أعلى عليين، فإذا موته حياة، وإذ ذكره خلود، وإذا سيرته سناء ...

ويا فرق ما بين ثبات الأعزاء، وبين فرار هؤلاء الأذلاء، وبضدها تتميز الأشياء

***

نشأ «عمر المختار» ببرقة، من أبوين مسلمين، لقناه العقيدة الإسلامية، وثقفاه بالقرآن الحكيم، ونشأه أبوه «المختار» في زاوية «الجغبوب» في البيئة السنوسية، تلك البيئة التي تلهم النفس فجورها وتقواها، وتفقهها أن قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها، ثم تبعث في الإنسان: حرية الإرادة وحرية الفكر، وسلامة الرأي وصفاء الطوية؛ وقلما ينحرف ربيب تلك البيئة عن الفطرة النقية: فطرة الله التي فطر الناس عليها

فلما بلغ « عمر » أشده واستوى ، اكتملت فيه معانى الرجولة ، وبرزت صورته صورة « للرجل الكامل المسلم »

* * *

اختاره — فى صدر شبابه — « السيد المهدى السنوسى » ليرافقه فى رحلة إلى السودان ، وكانت فراسة السيد المهدى فراسة صادقة ، فقد اجتمع حول « عمر » بالسودان رجال أولو بأس وأولو قوة ، عرفوه بالحاسة الصادقة ، وعرفهم بنور الله ؛ ثم أحبوه وأكبروه وأعظموه

والسيد المهدى معنى بأمره ، معجب بإيمانه ، يرى أنه قد جمع ـ فى برديه ـ ما تفرق فى القبيل وتناثر فى الرجال ، فكان يقول : ليت لنا عشرة كعمر ، إذن لفتحنا بهم كل قلب موصد ، وأرنا كل بصيرة مطموسة ...! ثم تركه فى السودان يعلم الناس الرجولة الإسلامية

* * *

عُقِدَ الصُّلح الأبتر بين تركيا القديمة وبين الطليان سنة ١٩١٢ م واشتعلت نيران الحرب فى البلقان ، واستقدمت الدولة « أنور » فسلم الأمر « لعزيز » المصرى ، وهم « عزيز » أن يدع للقتال وأن يذهب إلى الحدود المصرية ، فتحرج الموقف ، وثارت روحٌ عاصفةٌ عنيفة بين المجاهدين ؛ وأخذ كل فريق يكافح الفريق الآخر ، وتمشت فتنة عمياء صماء ، وكاد المجاهدون يخربون بيوتهم بأيديهم

وهنا تتدارك الجميع رحمة الله ، ويظهر الفيصل المنوار « عمر المختار » ، فيطفئ نيران الشر ، ويجدع أنف الفتنة ، ويهيب بالمختلفين : يا للفضيحة ويا للعار ...! لو تسامعت الأمم : أن المجاهدين قد أصبحوا ـ وبأسهم بينهم شديد ـ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى

دوت تلك الصرخة فى شعاب الصحراء ، وفعلت فى النفوس كما يفعل السحر ، ونزل الثائرون على حكم « عمر » ؛ عزمهم جميع ، وقبلتهم واحدة

وهكذا يكتب لهذا البطل الظفر على نوازع النفوس ، ويتبسط سلطانه على نزوات القلوب ، ويستل السخائم والـتِّرات بهدْى الدين ، وبترياق الإخلاص

أحصى الرواة « لعمر » ألف معركة اشتبك فيها مع الطليان فى ثنتين وعشرين سنة ، وهو يتعقبهم ، وهم يحتالون لأسره ، ويتحيرون فى القضاء عليه ، ويستبدلون القائد بالقائد ، وعمر وحده هو القائد الصامد ، حتى ظنوا — آخر المطاف — أنهم قد رموه بالداهية الدهياء « بجرازيانى »

ويتحدث جرازيانى فى مذكراته : أنه قد نازل عمر فى ثلاث وستين ومائتى معركة ، كانت مدتها عشرين شهراً

وعمر — كما وصفه شوقى — :

لم تُبق منه رحى الوقائع أعظماً تبلى ، ولم تُبق الرماحُ دماء

* * *

كان عمر قافلاً إلى برقة من رحلة له فى مصر يصلح ذات البين ، فلقيه عسس الطليان وتصدوا لقتاله وهم فى سيارات ثلاث ، مسلحات فتاكات مزودات، وعمر فوق صهوة جواده ، وسلاحه سلاح أبناء الصحراء ، فما هو إلا أن كر كرة فى حصانة اليقين وثبات المؤمنين ؛ فإذا بالسيارات الثلاث ، وقد صرن سلباً وغنائم ، وإذا بأصحابها الطليان ، وقد صاروا خبراً من الأخبار ؛ ولله إلهام شوقى :

بطل البداوة لم يكن يغزو على «تنك» ولم يك يركب الأجواء

لكن اخوخيل حمى صهواتها وأدار من أعرافها الهيجاء

* * *

ما نسى جند عمر ولا قواده : أنهم يحمون عقيدة ، وأنهم جند الله ...

ويا ما أروع وأرهب الصورة التى يصفها عمر لوقعة كرسّه بالجبل الأخضر ، وقد حانت صلاة الظهر ، وقائد الوقعة الشهيد « الفضيل أبو عمرو » ، فقسم الجند طائفتين ، وصلى بهم صلاة الخوف ، فطائفة تأخذ حذرها وأسلحتها ، وطائفة تتوجه إلى ربها وقد انجلت الوقعة عن قتلى عددهم خمسمائة طليانى بينهم (ماجور) وثلاثة ضباط

* * *

أعجز الطليانَ شأن عمر ، وأعياهم أن يأخذوه أخذ الجند للجند ، فهو لا يضجر ولا يستخذى ، فأعملوا السفارة بينهم وبينه ليتها دنوا ، وأرادوا أن يعرفوا شرطه لوضع السلاح

وحقن الدماء ، فكانت شروط عمر ، قطعةً من عقله ، كلها سياسة رشيدة ، وكلها من العزة والكرامة والسداد

فأولها : أن يشهد المفاوضات مندوب من (مصر) ومندوب من (تونس) ليكون الناكث مسئولاً أمام العالم بشهادة مندوبي الأمتين .

وثانيها : حرية المسلمين الدينية ، وتأديبهم لكل خارج على الدين أو هازئ به أو مستخف بتعاليمه أو متهاون في شعائره

وثالثها : أن تكون اللغة العربية لغة رسمية في البلاد ، كالطليانية سواء بسواء

ورابعها : أن تنشأ مدارس يعلم فيها التوحيد والتفسير والحديث والفقه وعلوم الدين

وخامسها : أن يلغى قانون سنة ١٩٢٣م الذي يحرم على الوطنيين دخول المدارس العالية ، كما يلغى القانون الذي ميز حقوق الطليان عن حقوق الوطنيين ، وأن ترجع الحكومة ما غصبته من الأملاك والأموال

عرف الطليان من تلك الشروط أن الأيام والأحداث لم تنل من شدة الشكيمة العمرية ، فأظهروا له وفاء بشروطه ، وأضمروا لها الغدر والخيانة . ثم راحوا يدبرون للمجاهدين الحصار والإجاعة ؛ وفكروا أن يذرُّوا عليه الصحراء من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها بالإجاعة .

وقد اختار عمر المبيتَ على الطوى ، وأن يسلم له الشرفُ الرفيع ؛ كما وصفه شوقى :

خُيرتَ فاخترت المبيتَ على الطوى
لم تبن جاهـاً أو تـلم ثراء

إن البطولة أن تموت من الظما ليس البطولة أن تعب الماء

وهكذا بقيت البطولة العمرية تبعث اليأس في نفوس الطليان منها ، حتى أصيبت من مأمنها ! أصيبت من مأمنها يوم سلمت (جغبوب) للطليان ، فحصروا — بالأسلاك الشائكة — الرقعة التي يأوى إليها المجاهدون ، وحموْهم أن يتصلوا بالحدود المصرية ، حتى لا يجدوا قوتاً ، وحتى تنقطع بهم الأسباب

وبينما (عمر) يتنقل — بين الغداة والأصيل يوم الجمعة الثاني والعشرين من ربيع الثاني سنة ١٣٥٠ هـ — يستطلع كمينا ، أو يناوش شرذمة ، وهو في خمسين فارساً من رجاله ، إذ التقى بطائفتين من الطليان كانتا تجدّان في قص أثره ، فأحدقوا به ، وثارت في نفسه — تلك الساعة — كل المعاني التي قامت عليها بطولته ، فهاجمهم هجوم المستأسد ، من اليمين ومن الشمال ، حتى تساقط رجاله ، ونفق جواده من تحته ، فنزل عنه يترنح من الجراح ، ثم يحاول النهوض ، فتكاثروا من حوله رجالاً وركباناً

واهتزت الأسلاك البرقية في جوف الصحراء ، ومن فوق أعلام الشواطئ : أن البطل قد أمسى أسيراً ، فسالت الأودية بالكتائب والفصائل ، واجترأت السرايا والأجناد ، وكانت من قبل تتحاماه وتخشاه

وجاء طراد حربي فنقله إلى بني غازي ، وتقررت محاكمته هناك في مركز الإدارة الفاشستية

وإنها لمحاكمة أبانت عن نقائب وصفات في عمر ، ما سمعنا بمثلها من قبل في الموقف الضنك والساعات الفاصلة

وقف عمر أمام الحكام العسكريين كما قال فيه شوقى :

لبي قضاء الأرض أمس بمهجة لم تخش إلا للسماء قضـاء
وافاه مرفـوع الجبين كأنه سقراط جر إلى القضاء رداء

* * *

سئل عمر : هل أنت رئيس الثوار ضد إيطاليا ؟

فأجاب بنبرات قوية وفي حزم قاطع : نعم !

سئل : هل شهرت السلاح واشتركت في القتال ، وأمرت بقتل الجنود ، وجبيت الضرائب ؟ فأجاب على كل ذلك بنعم !

سئل : هل لديك ما تقوله بعد ذلك ؟ وكأنما أرادوا أن ينتزعوا من عمر — في البرهة الذاهلة — ضراعة أو استعطافاً ، ولكن هيهات هيهات ، فقد أجاب :

ليس لدى شيء وراء ذلك :

الأسد تزأر في الحديد ولن ترى في السجن ضرغاماً بكى استخذاء

واختلى الحكام العسكريون ثم أعلنوا حكم « الإعدام »

ولم يستطع محاكمو « عمر » إلا أن يصرحوا وقت المحاكمة بقولهم : إن المتهم يمتاز عن بقية الزعماء بأنه لم يبتز أموال الدولة شهادة بأفواههم تسجل عليهم عار الحكم ، وتخلد للشهيد النزاهة والعفة في جهاده المتصل المنيف ! !

في الحروب

بماذا كان ينتصر الإسلام

للأستاذ عبد العزيز البشري



ما وقع حدثٌ من أحداث هذه الحرب، وخاصةً في ألبانيا التي أصبحت معتركاً حامىَ الوطيس، بين دولة صغيرة، قليلة العَدَد، قليلة العُدد، ضئيلة الموارد، كل همها من العيش أن تحظى داخل حدودها بالأمن والسلام، قانعةً باليسير مما أفاءت عليها الطبيعة، وما يعالجه أبناؤها النشيطون من فنون الصناعات، وما يُزْجونه إلى أسواق العالمَ المختلفة من ألوان التجارات؛ لها من كلّ أولئك مَقنع وليس لها فيما وراءه أي مطمع، فإذا كان لها جيش أو كان لها أسطول فبقدر ما تؤمّن الحدود وتمنع الثغور، ولو إلى حين — أما الطرفُ الثاني من هذا المعترك فدولةٌ عظيمة، قويةٌ بعَددها، قويةٌ بعُددها، قوية بصناعاتها وبتجاراتها، قوية بمستعمراتها الواسعة الشاسعة التي ضَمِنت أرَضوها من الكنوز المدنية ما يُغنى في كل شيء من أسباب الحياة القوية الفنية ليس أعزَّ منها في هذا العالمَ حياة — ومع هذا فإننا نرى أن هذه الدولة الصغيرة الدقيقة في كل شيء، لا تفتأ تضرب هذه الدولة العظيمة الضخمة في كل شيء، كلما طلعت الشمس ضربة، وتركلها كلما غربت الشمس ركلة. وبين ذلك لا تفتأ في كل ساعة تجرعها من الصاب والعلقم ما يَفْرى الخناجر، ومن الغِسلين ما يذيب الأحشاء. وتلوّن لها من الهانات ما أجراها مثلاً للخزى على ألسُن العالَمين

لعمرى ما وقع حدثٌ من هذه الأحداث إلا أذكرنى سيَر العرب السابقين، وأحضرنى شأنهم في فتوحهم ومغازيهم. فلم يكن هؤلاء في الأكثر الأغلب أكثر من عدوِّهم عَدداً، ولم يكونوا كذلك أقوى منه عُدداً، ولم يفوقوه في تنظيم الجيوش وتنسيق الكتائب، وتدبير المكايد، وإحكام خطط الحرب، وتدبير وسائل الكر والفر؛ بل لقد كانوا أضعف وأهون شأناً في كل أولئك جميعاً! ومع هذا فإنهم ما صارعوا إلا صرعوا، ولا قارعوا إلا قرعوا، ولا شدوا إلا ظفروا، ولا حملوا إلا قهروا، ولا هجموا إلا انتصروا؛ ففتحت بين أيديهم أبواب المعاقل، ومهدت لهم السبل إلى أمنع المدائن، وحشدت لهم أضخم المغانم، واستأسر لهم من المقاتلة أضعاف أضعافهم في يسر، يلفت عين الدهر. وكذلك لم تجهد دورة الفلك إلا قرناً واحداً حتى دانت لهم مناكب الأرض، وذلت نواصى البر والبحر![1]

[1] كان يوم اليرموك لا يزيد جيش العرب فيه على سبعة وعشرين ألفا، إذ كان جيش الروم لا يقل عن مائتى ألف مقاتل، أما حرب القادسية سنة ١٦ هـ، فكان جيش العرب بين تسعة آلاف وعشرة، في حين كان جيش الفرس لا يقل عن مائة وعشرين ألفا، وأما فتح الأندلس سنة ٩٢ فلم يزد جيش السلمين الغزاة فيه على بضع مئات من العرب وعشرة آلاف من البربر، بينا كان عدد جند العدو لا ينقص عن مائة ألف، ومما ينبغى ذكره هنا أن هذا الفتح العظيم تم في ثمانية أيام لا أكثر!

لقد لخص «الطليان» تلك المقاومة المصرية في ثنتين وعشرين سنة، فإذا هي قد تركزت في البلاغ الرسمى الذى صدر عقب تلك الأحداث يقول:

«هكذا انتهت حياة الرئيس العظيم «البرقاوى» أحد تلاميذ مدرسة «جغبوب» القرآنية»

***

فيا أيها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها:

مَن مبلغ أبناء هذا الجيل من المسلمين: أن تاريخ البطولة الإسلامية لا يتصل حاضره بماضيه، إلا إذا وجدت مدارس على غرار مدرسة جغبوب القرآنية، تعلم القرآن، وتعلم العقائد، وتعلم العزة والكرامة!!

الجديدلى

إذن لم يظفر العرب ، في حروبهم ، كل هذا الظفر ، ولم يتهيأ لهم ما دوّخوا من البلاد ، وما ملكوا من الأقطار ، وما فتحوا من هذه الفتوح العظيمة في قواصي الأرض وأدانيها لأنهم كانوا أكثر من عدوهم عدداً ، ولا أمضى سلاحاً ، ولا أعلم بفنون الحرب وأخبر بأساليبها ومكايدها ؛ بل لقد علمت أنهم كانوا دائماً دونه في جميع أولئك بما لا يجوز فيه تشبيه ولا يصح معه القياس

وبعد ، فلعمري ما مشى النصر بين أيديهم أنَّى قاتلوا في شرق الأرض وفي غربها ، بالغاً ما بلغ من الضآلة عددهم ، وواقعاً حيث وقع من الضعف سلاحهم ، إلا بأسباب ثلاثة :

١ — الإيمان ٢ — الرحمة ٣ — العدل

فالإيمان يُيسر على النفس التضحية ، مهما جلَّت ، بل لقد يُغرى بها ويدفع إليها في المطالب الجسام .

ولا تنس أن من أثر الإيمان بناء النفس على الصبر عند معاناة الشدائد وخوض المكاره ، فإن إصابة الغرض الذي يدفع المجاهد إليه إيمانه لحقيقة بأن تحد من عزمه ، وتشد من متنه ، فلا يعتريه خوَر ولا خذلان ، وأنت خبيرٌ بأن الصبر هو مفتاح النصر ، وصدق من قال : الشجاعة صبر ساعة ، والأمثلة على هذا مما لا يحيط به الحساب !

وبعد هذا أحسب أن العَجب قد أخذ فيك باديء النظر ، من نظم الرحمة والعدل في أسباب الظفر في الحروب والتنكيل بالأعداء ، والواقع أنهما قد يكونان أمضى من السيف في كسب الحروب ، وذلك بأن القسوة وغلظة الكبود لا تجدى على القاتل شيئاً ألبتة ، بل إن شهرته بين مقاتليه بالرأفة إذا تمكَّن ، والعدلة إذا حكم ، لما يخزلهم من الاجتهاد في قتاله ، ويُشيع فيمن وراءهم قلة الاستحماس لهم وتثقل القادرين على القتال عن نجدتهم ، بل لقد يرجون النصر لهذا العدو ليخرجوا من ظلمهم ، وينعموا في ظلال حكم ملائكة الرحمة والرقة والعدل والإحسان

وكذلك ساد العرب الدنيا ، وما هداهم إلى هـذا إلا دينهم العظيم ...

والشواهد على هذا في حروب المسلمين مما لا يبلغه ، كذلك الإحصاء

وبحسبنا أن نورد في هذا الباب مثلين يسيرين : أولهما أن أبا بكر الصديق ، رضى الله عنه ، قال في وصاة له لأسامة ابن زيد قائد أحد جيوشه ولأصحابه ، وهم مرتحلون إلى الحرب التي وجههم إليها : « لا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثِّلوا[1] ، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تتبعوا مولياً ، ولا تقعروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيراً إلا للأكل ، وإذا مررتم بقوم فرّغوا أنفسهم في الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . الخ »

أسمعت حديثاً في الرحمة بالعدو القاتل والرقة له أبلغَ من هذا الحديث ؟

ذلك بأن الإسلام لا يبغي بالحرب كيداً ولا شفاء ضغن ! إنما يبغي بالحرب أعلى المُثُل : فإما دفع أذًى ، وإما بسط الحق والخير والفضيلة في هذا العالم . قال الله تعالى يخاطب رسوله الكريم : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) صدق الله العظيم

ولقد قال تعالى في كتابه العظيم : (إن الله يأمُرُ بالعدْلِ والإحسان ، وإيتاء ذي القربىَ ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، يعظكم لعلكم تذكرون)

وكيف ظنك بدين يأمر بالإحسان حتى في القتل ! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا قَتلتم فأحسنوا القِتلة) .

أما التمثيل حتى بالحيوان فقد أغلظ هذا الدين في النهى عنه ، واشتد في الوعيد عليه ؛ فقد رُوى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (مَن مَثَّل بحيوانٍ فعليه لَعنة اللهِ والملائكةِ والناس أجمعين)

وتلك كانت سنة الغزاه والفاتحين في صدر الإسلام

وإن تعجب فعجب أن يكون ذلك أدب الإسلام في عصر كان من السائغ المألوف فيه سَوم المحكومين المقهورين ألوان الخسف من إهدار الدماء ، وتخريب الدور ، واستصفاء الأموال ، في غير جرم يُقترف ، أو إثم يجترح ، حتى كاد يكون ذلك شرعاً مشروعاً وواجباً مفروضاً !

(١) مثل بالقتيل : نكل به ، كأن يفقأ عينه ، أو يشق بطنه ، أو يقطع عضواً من أعضائه

وأما المثل الثانى فأجلوه لك فى حادثين مأثورين عن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، وهـذان الحادثان معروفان شائعان ، وما كنت لآتى بهما لولا أنه قد اقتضى الإلمام بهما نظم للقال : وأولهما ما حكى من أن جبلة بن الأيهم — وكان آخر ملوك بنى غسان — أسلم وخرج إلى مكة ، فلما كان فى بعض طوافه ، داس رجلٌ من فزارة على طرف ردائه فحل أزراره ، فلطمه جبلة ، فاستعدى الرجل عليه عمر ، فدعى به ، وخيره بين أن يترضى الرجل أو يقيد له منه . فقال : يا أمير المؤمنين : أتقيده منى وأنا ملك وهو سوقة ؟ فقال : ولكن الإسلام سوى بينكما !

وأما الحادث الثانى ، فما حكى عن رجل من أهل مصر قدم على عمر ، فقال : عائذ بك يا أمير المؤمنين ! فقال رضى الله عنه : عذت بمعاذ ! فقال : لقـد ضرب ولد عمرو بن العاص ولدى (وكان عمرو يومئذ عامله على مصر) ، فأرسل فى طلبه معه ولده واستقاد من الولد والوالد جميعاً ؛ ثم أقبل على عمرو وقال : يا عمرو بماذا استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟

***

هذه الأمثلة ، على قلتها ، تريك مبلغ ما يدعو إليه الإسلام من الرحمة بالمقهور والرقة له ، وإقامة العدل بين الناس ، مهما يكن الفرق بين الظالم والمظلوم ، وأخـيراً توطيد الحرية وتوكيدها على أنها حق طبيعى للانسان ، كائناً من كان

أما الحرب فى هذا العصر ، فلقد صارت إلى ما ترى ، وهى إن امتازت بشىء فأبرز ما فى وجوه هذا الامتياز أن ضحاياها وصالو حرها من المستأمنين الوادعين ، أصبحوا أكثر كثيراً ممن تجردوا للقتال ، واستنفروا للكفاح والنزال ؛ بل لقد تعدل الموبقات القواصف من الطائرات عمداً عن المسالح ومستودعات الذخائر ، وثكنات الجند ، وغير ذلك من أسباب الحرب ، إلى دور المستأمنين ، حيث المرأة ترضع ولدها ، وحيث الرجل الذى نام ليستجم للعمل من بكرة الصباح إلى غاية النهار الأطول ، سيما على الأم الشيخة والزوج والطفل الثلاث أو الأربع ، وحيث المريض المدنف يتلوى على الجنبين من ألم وعذاب — لقد تعدل تلك المدمرات القواصف إلى هؤلاء عمداً ، وتزلزل عليهم الأرض زلزلة ، وتدمر الدور تدميراً ، فإذا هؤلاء أجزاء تتناثر ، وأشلاء تتطاير . فمن سلم منهم على الموت ، فليستقبل حياة شراً من الموت

فإذا جاءك أن الإسلام فتح كل هـذا الفتح ، ومَلَك كل هذا الملك ، وانبسط له على وجه الأرض كل ذلك السلطان فى أقل من قرن واحد ، فإن السر لا يعدو ما قدمنا لك من قوة الإيمان ، وإشاعة العـدل بين الناس ، وإيثار الرقة والرحمة بالإنسان وبالحيوان !

وإذا طلعت عليك الأنباء فى كل صباح وكل مساء بأن الجيش اليونانى الصغير الضئيل لا يفتر لحظة واحدة عن صفع الجيش الطليانى الضخم الكثيف باليد ، وركله بالرجل ، إذ لا يكاد يرى فيالقه وكتائبه إلا من الأقفاء من انهزام بعد انهزام — إذا طالعتك الأنباء كل ساعة بهذا فصدق ، وأحل الأمر كله على قوة الإيمان بحق الوطن المعتدى عليه بغير إثم ولا عدوان !

فإذا قال لك قائل ، لقد ذهب عنك ما فعلت القوة القوية من اجتياح للممالك ، وقبض على نواصى الشعوب ، واستصفاء لأموال الأمم ، وامتصاص لدمائها ، واتخاذها عبيداً ، فقل له لا تعجل بالحكم ، فإن الله ليملى للظالم ، ولتعلمنّ نبأه بعد حين

عبد العزيز البشرى

فارس وفارس

للأستاذ محمود الخفيف



بَنِي الشرقِ أيامُ أبطالِكُمْ شَدَوْتُ أُحَدِّثُ أخبارَها
أُغَنِّي لكُمْ لَحنَ قيثارةٍ تَهُزُّ البطولاتُ أوتارَها
وَأُسمِعُكُمْ من حديثِ الخلودِ أغاني الليالي وأسمارَها

بَنُو السيفِ نحنُ، بُناةُ العُلاَ رَكِبْنا الرِّمالَ وَخُضْنَا البِحارا
شَرَعْنَا عَلَى الدِّينِ منها جَنَا وسِرْنا إلى حيثُ شِئْنا اقتدارا
وأخلاقنا ... كم بأخلاقِنا رَكَزْنا صُوًى وَرَفَعْنَا مَنارا
وكم أفقٍ فى سماءِ العُقولِ شَأَوْنَا بني الأرضِ فيهِ ابتكارا

إلى فِتْيَةِ الشرقِ هذا النشيد تقارَعَ فيهِ القَنَا واشتجَرْ
وَقَعْقَعَتِ البيضُ بين الصفوفِ وَغَالَ الكُماةَ الرَّدَى واستَقَرْ
وَحَمْحَمَتِ الخَيْلُ تحتَ الغُبارِ أضاءتْ جوانبَهُ بالشَّرَرْ

أُدِيرُ النَّشِيدَ إلى فارِسَيْنِ حَوَتْ رُكْنَيِ الأرْضِ لُقْياهُما
فَمِنْ أنجُمِ الشَّرْقِ هَذا الكَمِيُّ وَمِنْ أُفُقِ الغَرْبِ ثانِيهِمَا
وكلٌّ يُرَى بين فُرْسانِهِ غَدَاةَ الوَغَى الفارِسَ المُعْلَمَا
على هذه الأرْضِ تَفْنَى القُرُونُ وَتُوحِي البُطولةَ ذِكراهُما

سَمَا بابْنِ أيُّوبَ مُلْكٌ بَنَاهُ فأعْلَى عَلَى السَّيْفِ هذا البِناءْ
أخو الخَيْلِ والسَّيْفِ والبيدِ والليْـ ـلِ يَمْضِي فيُزْجِي الردى كيفَ شاءْ
فتى كان فى الشَّرقِ بعد الظَّلامِ الضياءَ وكانَ بِمِصْرَ الرَّجاءْ
كَرِيمُ الخُصُومَةِ عَفُّ الحُسَامِ يُرِيكَ التُّقَى وَيُرِيكَ المَضاءْ

فَتَى الغَرْبِ إفْرِنْدُهُ فَيْصَلٌ به المُلْكُ فى ظِلِّهِ يَحْتَمِي
لهُ لَقَبٌ فوقَ تاجِ المُلوكِ به باتَ يُقْرَنُ بالضَّيْغَمِ
على الماءِ كُرْسِيُّهُ قائمٌ وَذِرْوَتُهُ فى ذُرَى الأنجُمِ

مَشَتْ فى النَّجِيعِ إلى (أُرْشَلِيمَ) جِيَادٌ من الغربِ رُعْنُ الخَبَبْ
خَبَبْنَ بِكُلِّ مُدِلِّ الحُسامِ صَرِيمِ الخِصامِ دَعِيِّ الحَسَبْ
لقدْ كان للدِّينِ ما هَزَّهُ فأصبحَ لِلْمُلْكِ حين اغتربْ

مَضَوْا يَزْدَهِي الفوزُ أفراخَهُمْ وَيُغْرِي بُزاتِهِمُ المأْرَبُ
غِلاظٌ، سَرَابِيلُهُمْ مِنْ حَدِيدٍ مِنَ الصَّخْرِ أكبادُهُمْ أصْلَبُ
يُحَدِّثُ كُلاًّ هَوَاهُ بِما يُجَنْدِلُ فى القُدْسِ أو يَسْلُبُ
وَيَسْتَهْزِئُونَ بِدُنيا الهِلالِ وَحَشْدُهُمُو بالمُنَى يَصْخَبُ

فما إنْ نَجَا قَطُّ مِنْ بَطْشِهِمْ صَبِيٌّ ولا طِفْلَةٌ لاعِبَهْ
ولا مُقْعَدٌ قَوَّسَتْهُ السُّنُونَ وَلاَ جَدَّةٌ شَمْسُها غارِبَهْ
وَلاَ سَلِمَتْ من بناتِ الحِجالِ عَرُوسٌ مُلَفَّفَةٌ هائِبَهْ

لدى مَدْرَجِ السَّمْحِ عِيسَى المَسِيح أثارَ دُعاةُ السلامِ القِتالا!
مُسُوحُ الرَّهابينَ باتَتْ حديداً وألسِنَةُ الزاهِدِينَ نِصالا
وَعُدَّ هُدًى كلُّ غَيٍّ جَسُورٍ وأصبحَ كلُّ حَرامٍ حَلالا

وطالتْ على الشرقِ سودُ السّنين — أذلَّ الصّليبُ بهنَّ الهلالا

أقاموا على البَغْى بُنيانَهم — وعاشوا على البغى دهراً طويلا
وغمٌّ على الشرقِ تسعينَ عاما — فما يلمحُ النورَ إلا ضئيلا
يَسيلُ على الأفقِ جُرْحُ الهلال — إذا ما أطلَّ، سَقيماً هزيلا
وتسمعُ مِصْرُ ومَنْ بالحجاز — ومَنْ بالعراقِ الأذانَ عويلا

وما زال يبْطِشُ طغيانُهم — إلى أن تألّقَ فجرُ الأملْ
وهل من الشرقِ مثلَ الصباحِ — زعيمٌ تردّى ثيابَ البطلْ
تُجدِّدُ ونباتُه ابنَ الوليد — وسعدًا وعمرًا بنيه الأوَلْ

إذا سارَ فالنصرُ من يُمنِه — فتًى لا يرى العيشَ إلا كفاحا
فتًى ذِكرُهُ هزَّ شُمَّ الحصونِ — ويغزو اسمُهُ إذ يهزُّ السلاحا
صلاحٌ ومن كابنِ أيوبَ سيفاً — إذا ذكرَ الدارعونَ صلاحا؟
ومَنْ مثلُه حين يُعطِي العهودَ — ويَرْعَى الحدودَ ويأسو الجراحا

مشى نحوَ «حطِّين» فى فيلقٍ — يرفُّ له النصرُ حولَ العَلَمْ
يدينُ لأروعَ ثبْتِ الجنانِ — جميلِ الفعالِ كريمِ الشيمْ
ذلولِ السماحةِ حلوِ اللسانِ — عصيِّ الإباءِ بعيدِ الهِمَمْ

تقدّمَ فانهارَ من حَولِه — على البغى ركنٌ أقيمَ اغتصابا
رأى يومَ حطّينَ تحتَ العجاجِ — جنودَ صلاحٍ أسوداً غضابا
ألوفُ الرجالِ لديه أسارى — ومَن فرَّ ليس يطيقُ اقترابا
ويُذعِنُ كلُّ قويٍّ عزيزٍ — وتهوي المعاقلُ باباً فبابا

ودانَ له القدسُ بعد الإباء — وأعظِمْ به للهلالِ انتصارا
وراحَ المظفّرُ يُولِي الأمانَ — ويُطلِقُ فى «أُرْشليم» الأسارى
وأجملُ ما كان عفوُ الرجالِ — إذا ساقهُ مانحوهُ اقتدارا

ترفّعَ لا سيفُهُ قاتلٌ — بريئاً، ولا وعدُهُ خاتلُ
ولا غرَّهُ النصرُ فى أوجِهِ — ولا خابَ فى عدلِهِ آملُ
وديعُ السماتِ جميلُ الأناةِ — وفى درعِهِ أسدٌ باسلُ
يلوذُ به الحقُّ مستعصماً — ويَفرَقُ من وجهِهِ الباطلُ

وأدهشَ أعداءهُ نبلُهُ — وذاعت أحاديثُ أفعالِهِ
وأروعُ ما هزَّ سمعَ الفرنجِ — من الفضلِ غُرَّةُ أفضالِهِ
يجود لفديةِ بعضِ الأسارى — لفرسانهِ الشُّمِّ من مالِهِ!

تألّقَ فى الشرق نور الهلال — وصاحبه اليُمنُ فى طلعتِهِ
وكانَ غريباً بأوطانِهِ — خيالُ المذلةِ فى هالتِهِ
تبسّمَ فى الأفقِ بعدَ الشحوبِ — فغاظَ وأعجبَ فى بسمتِهِ
ودوّى فأطربَ صوتُ الأذانِ — جلالُ المصلّينَ فى نبرتِهِ

أفاقَ على نبأٍ جاءهم — بنو الغربِ، يكرهُهُ السامعونا
تثيرُهُمُ النُّذُرُ الشائعاتُ — ويقتنصُ الفرصةَ الطامعونا
وينفخُ فى الصُّورِ رهبانُهم — فيأتى على الصيحةِ الدارعونا

وهبّتْ من المغربِ العاصفه — على الشرقِ تُنذرُ بالراجفهْ
ففى البحرِ طائفةٌ فى السفينِ — تُسارِعُ فى إثرِها طائفهْ
وفى البرِّ فوقَ متونِ الجيادِ — ألوفٌ مدجّجةٌ زاحفهْ
إذا هاجها الزحفُ غنّى الحديدُ — وغنّتْ حناجرُهم هاتفهْ

أطلّتْ على الحشدِ أسوارُ عكّا — خِضَمّاً يزيدُ لديها ارتطاما
حوى المُرْدَ والشِّيبَ والعِلْيةَ الصّيدَ والتابعيهم خليطاً تَرامى
نشاوى النّصالِ، بأرماحهم — جنونٌ سقاها هناك احتداما

ومن دون عكّا شُبولُ العرينِ — من الشرقِ تمنعُ أسوارَها
يطوفُ على الجُندِ سلطانُهم — مَهيبَ الملامحِ قهّارَها
مُطاعاً له طَلْعةٌ فى الصفوفِ — تعوّدتِ الجندُ إكبارَها
ويَفديهِ فى الحربِ أجنادُهُ — إذا راحَ يركبُ أخطارَها

وعزّتْ على الطالبين القلاعُ — وإذ مرَّ عامانِ زِدْنَ امتناعا
وذاقَ حُماةُ الصليبِ الهوانَ — فما شهدوا مثل هذا صِراعا
أهابوا وقد عجَّ موجُ المنايا — بأوطانِهم فأجابتْ سِراعا

وَلَبَّى الملوكُ النِّداءَ ففي البَـــرِّ جيشُ « فِردريكَ » جَمُّ العددْ
وجيشُ الفِرنسيسَ حشدٌ عظيمٌ   وفى البحرِ أسطولُ قلبِ الأسدْ
فتَى الغربِ رِيكَرْدُ خيرُ السيوفِ   الجسورُ النَّجيدُ القويُّ السَّنَدْ
فتًى ليسَ يَنْزِعُ عن قوْسِهِ   سِواهُ ولا جَلَّ عنهُ أحدْ

وَأرْغَمَ « رِيكَرْدُ » تلك الحصونَ   فما إنْ تطَامَنُ إلاَّ لهُ
وَإنْ كان لاَقَى من ابنِ القِفارِ   من البطشِ والبأسِ ما هالهُ
وكانَ « صلاحٌ » رَمَى بالرِّجالِ   « فِرِدْرِيكَ » يَدْفَعُ إقبالَهُ

وما كادَ يزْهَى بإِكليلِهِ   فتَى الغَرْبِ حتَّى اعتراهُ الهزالُ
ألَحَّ على جِسْمِهِ القَسْوَرِيِّ   لدى ساحةِ المَوْتِ داءٌ عُضال
ثوَى اللَّيْثُ حيناً على رَغمِهِ   وَعُلِّقَ ـ حتَّى يبِلَّ ـ القِتال
يَعَذِّبُهُ خَوْفُهُ أن يطولَ   ضناهُ ، وأن يَتراخى الرِّجال

وَأعْجَبَ ذاكَ المصورَ المريضَ   طَبيبٌ سعى من لدُنْ خَصْمِهِ
يقول لهُ قومُهُ : أقصِـــهِ   وَنَجِّ دِماءَكَ من سُمِّهِ
فقال : جَهِلتُمْ لعَمْرِى صلاحًا   تَنَزَّهَ عن ذاكَ عالى اسمِهِ !

سقاهُ وناولهُ رُقعـــةً   تَنَزَّي وَغَمْغَمَ لمَّا تلاهَا !
نَمى لهُ البُرْءُ فى طيِّهَا   صلاحٌ لِتَدْرِى الوَغَى من فتاها:
« إذا رُمْتَ سِلماً مَنَنتُ بها   وإنْ رُمْتَ حَرْباً أدرْتُ رَحاها
وأعْزِزْ بِنَفْسٍ كَنَفْسِكَ أنْ   يكونَ بِغَيْرِ الحُسامِ رداها »

وَأكْبَرَ « ريكرْدُ » هذا العَدُوَّ   فأثنَى وأطنبَ فى حَمْدِهِ
وكم أخجلته لدى ذِكْرِها   شمائلُهُ الغُـــرُ فى جُنْدِهِ
أخو البيدِ أسمَى فروسيَّةً   فأنَّى لهُ ذاكَ فى بِيدِهِ ؟

أتَتْ بابَهُ من بَنَاتِ الفِرِنجِ   تُوَلْوِلُ أمٌّ ، وَتَدْعُو بهِ
قَدْ اختَطَفَ ابناً لها فارِسٌ   وَيَا هَوْلَ ما كان من غَضْبِهِ
بكى رَحْمَةً وَهْوَ ذاكَ الذى   إلى اللَّيثِ يُنْسَبُ فى وَثْبِه
وَأجْزَلَ لِلجُنْدِ من مالِهِ   فِدًى للصَّـــبِيِّ ، نَجِيَ بهِ

وَمَالَ إلى السِّلْمِ قَلْبُ الأَسَدْ   وَلَبَّى صلاحٌ فأمضَى العهُودا
وَلَـكِنَّهُ رِيعَ أنْ جاءَهُ   من الخصمِ خُلْفُ أثارَ الجُنودا
لقد فتَكَ القَوْمُ بالأبرياءِ   وَما إنْ رَعَوا لِلعُهُودِ وُجُودا

سقَتْ أرْضَ عَكَّا دِماءٌ حَرا ٌ   وَطافَ الفِرِنْجُ بها باطشينا
فوارِسُهُمْ يَذبحونَ النِّساءَ   وَزُغْبَ البناتِ بها وَالبنينا
وَكم ذَكَرُوا الشرقَ سُلطانَهُ   وَصَفْوَةَ فُرْسَانِهِ هازئينا
أهَابَ صلاحٌ بفُرْسانِهِ   فَسَلُّوا سُيوفَهُمو صائحينا

لدى غابِ أرْسُوفَ سَوَّى الرجالَ   صُفُوفاً تَلاَحَقُ تحتَ العَلَمْ
مِنَ الفِيلِ أصْحَرَ أجنادُهُ   وَجَرَّ الحديدَ أسُودَ الأجَمْ
ونَادَى المنَادُون فيهم هَلُمُّوا   تراءى العَدُوُّ لنا من أمَمْ

هُنَا الشرْقُ جُنْدُ الهلالِ ، هنا   بنو الشَّمْسِ والبِيدِ شُمُّ القَنَا
دماءُهُمو كم كَوَتْهَا الصَّحَارى   وأعْظِمْ بِصَحْرَائِهِم مَوْطِنا
خِفَافُ الميا كِلِ ضُمْرُ الجِيَادِ   إذا زَحَفُوا قلتَ وَمْضُ السَّنَى !
تَنَادَوْا على نقرَاتِ الطُّبولِ   فداعٍ هناكَ وشادٍ هنا

على فرْسخين يُرَى الغَرْبُ حَشْدًا   خَليطاً هناكَ تَلاَقَوْا دِرَاكَا
فَمِنْ كلِّ لِسْنٍ ومن كلِّ شَعْبٍ   وَمَلْكٌ هنا وَأميرٌ هنا كا
حُمَاةُ الصَّلِيبِ نَسُوا فى الصَّلِيبِ   خِصَاماً فَشَى بينهم واعترَاكا

وَدَارَ القِتَالُ فَطَارَت سِهامُ   بَنِى البيدِ يَغرَقُ فيها البَصَرْ
تُصَوَّبُ تحتَ مُثَارِ العَجَاجِ   وَتَنْقَضُّ يقْدَحُ منها الشَّرَرْ
فَتُصْمِى الجِيَادَ وَتُلْقِى الرِّجالَ   على الرَّمْلِ مُلْتَهِبًا وَالصَّخَرْ
كأنَّ الجحيمَ رَمَتْ باللَّظَى   على مُلتَقًى بالغُبَارِ اعتَكَرْ

وَذَاقَ الفِرِنجُ صُنُوفَ العَذَاب   ففى كلِّ يوْمٍ يَرَوْنَ الرَّدى
وَرَاحَ قَبيلٌ يقولون : ماذا   نَرَى من سِهام العَدُوِّ غدا
يُسِرُّونَ سُخْطاً على من دَعَاهمْ   وَأوْرَدَهُمْ ذلِكَ الموْردا

وَغيظَ الفِرِنْجُ فَشَدُّوا الوَثَاقَ   وَجَدَّتْ لهمْ كَرَّةٌ خاسِرَه !
وَهَرْوَلَ رِيكردُ بين الصُّفوفِ   يَشُـــدُّ عَزَائِمَهَا الخائِرَهْ
وَزَمْجَرَ كاللَّيْثِ يَدْعُو الجُنُودَ   وَيَجْمَعُ آلافَهَا النَّـــافِرَه
وَهَاجَ ، فَجُنَّ جنونُ الرِّجالِ   وَكَرَّتْ عَلَى صَوْتِهِ زائرَه

مشروعية الحرب في الإسلام

دفع شبهة لا موجب لها

للأستاذ محمد فريد وجدي



اشتد خصوم الإسلام عليه فى إقراره الحروب، ذاهبين إلى أن الدين الذى يشرع لتطهير قلب الإنسان من الميول العدوانية، وتخليص نفسيته من آثار الحيوانية والوحشية، لا يجوز له أن يقر مبدأ التناحر فى العالم الإنسانى؛ فإن كان ولا بد فدفاعاً عن النفس، أو ذياداً عن الحوزة؛ أما الهجوم على الآمنين فى ديارهم للتبسط فى الأرض، والتوسع فى وسائل الثروة، فإن رآه طلاب الدنيا سائغاً، فلا يصح أن يمده دعاة السمو الخلقى من محاولات الصالحين

كثرت هذه الشبهة فى رؤوس خصوم الإسلام، ورأوا فيها مثاراً خصباً للتشهير به، ونبزه بالألقاب، حتى تأثر بذلك بعض المدافعين عنه، فأخذوا يحاولون أن يثبتوا أن كل ما ورد فيه خاصاً بالحرب، فالمراد منه الدفاع لا الهجوم، وغاب عنهم أنهم بعملهم هذا يضرون بقضية الإسلام، ويسجلون عليه الشبهة أصرح تسجيل

الحق أن الإسلام أقر الحرب دفاعاً وهجوماً، لأن مهمته التى شرع من أجلها لا تتم إلا على هذا الوجه؛ فليس الإسلام بدين خاص شرع لجماعة من الناس فى بيئة محدودة من الأرض كما كانت عليه حال جميع الأديان التى شرعت للأمم قبله، ولكنه شرع ليكون ديناً عاماً للأمم كافة، فهو بحكم الغاية التى أنزل من أجلها يجب أن يماشى ما فطرت عليه الطبيعة البشرية، فى كل ما تدفعها إليه الغرائز النفسية، من الحركات الاجتماعية؛ وقد اندفعت الجماعات فى التناحر لا لمجرد توفية أغراضها المادية، ولكن لحاجتها الأدبية أيضاً، فلولا الحروب التى ثارت بين الجماعات، لتعطل تقدمها فى طريق العمران والمدنية

دَعا وَتقدَّمَ تحتَ السِّهامِ ... بِبُنْناهُ صَمْصامُهُ الهائِلُ
تحدَّى الرَّدى وَمَشى تحتَهُ ... فما إن تصدَّى لهُ صائلُ
يُهزْهِزُ فى النَّقْعِ إفرِنْدَهُ ... فيُومِضُ عاليهِ وَالسّافلُ

مَضى مُغْضَبًا خانَهُ جُنْدُهُ ... يُفزِّعُ ذاكَ وذا يَضربُ
يُجَنْدِلُ كلَّ فتيٍ مِن عِداهُ ... وما كلٌّ من سيفِهِ المَضرِبُ
لهُ وَثبةُ الأسْدِ، صَمْصامُهُ ... كما نقضَّ فى الحُلْكةِ الكوكَبُ
وَطاشَ الكماةُ جنودُ صلاحٍ ... وَطابَ لهم فى الوغى المَهْرَبُ

تَلَفَّتَ تحتَ اللِّواءِ صلاحٌ ... إلى جَحْفَلٍ حَوْلَهُ رُوَّعا
تَفرَّقَ فى البيدِ إلّا فَريقاً ... يُفَدُّونَ ذا الباسِلَ الأرْوَعا
وَما طاشَ فى الرَّوْعِ مِمّا رَأى ... وَهَلْ شيمَةُ اللَّيثِ أن يَفزَعا؟

رَأى جُنْدُهُ اللَّيثَ تحتَ اللِّواءِ ... فعادُوا يموتُونَ دُونَ اللِّوا
وَجدَّ اللِّقاءُ وَحَقَّ الفِداءُ ... وَأجفَلَ بَعْدَ الصِّيالِ العِدا
وَخَفَّ صلاحٌ فقادَ العديدَ ... وَأعمَلَ فى الزاحفينَ الظُّبا
رَأى هَيْبَةَ الأسْدِ من دُونِهِ ... فخافَ العَدُوُّ الوَغى وانثنى

وأرسَلَ ريكردُ يدعُو صلاحًا ... إلى السِّلْمِ حينَ تَوانى الأمَلْ
يقول: لَقيتُ هنا مُشْبِهِي ... وَأحْبَبْتُ فى الشَّرْقِ هذا البَطَلْ
وَلَبّى ابنُ أيُّوبَ عالى الجبينِ ... عَلَيْهِ من المجدِ أضْفَى الحُلَلْ

الخفيف

كما نبه إليه علم الاجتماع نفسه ، ودورة الحياة الإنسانية العامة تجعل الحرب من ضروريات التطور أيضاً ، فإن تلاشى الجامدين وعديمى الصلاحية للحياة ، وضرورة نبوغ الأصلح فالأصلح للبقاء ، لا يمكن أن يتم فى بيئات يسودها السكون المطلق . هذه أمور يدركها أولو العلم إدراكهم للبدهيات ، وهذا لا يمنع أن يجيء عهد تصبح فيه الحرب شراً مستطيراً بسبب زوال الموجبات الطبيعية لها ، ونشوء عوامل أدبية تقوم مقامها فى تطوير الجماعات دون أن تضطرها إليه بواسطة الحركات العنيفة ؛ يجوز أن يكون قد أظلنا الآن ذلك الزمان ، فيقرر البشر بعد هذه الحرب المستعرة حذف هذه الوسيلة الجامحة ، فينعم الناس بسلام يناسب ما وصلوا إليه من علم ومدنية ، وقد أشار الإسلام نفسه إلى إمكان حدوث هذا العهد ، فجاء فى كتابه : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله »

ولكن إلى العهد الذى شرع فيه الإسلام وما بعده إلى أكثر من اثنى عشر قرناً ، لم تكن فكرة السلام العالمى قد نشأت ، وقد رأينا الأديان التى جاءت ناهية عن الحرب كالبوذية والنصرانية قد اضطرت إليها ، وتوسلت بها ، وهذه الديانة الأخيرة لم تستطع أن تستقر كدين إلا بواسطة حروب شنتها ، حتى اضطرت البابوية إلى اتخاذ الجيوش البرية والبحرية ، وإلى الاشتراك فى الحروب دفاعاً وهجوماً على حد سوا

فكيف يراد من الإسلام وقد شرع ديناً عالمياً ، أن يتجرد منها ، وهو مضطر بحكم مهمته أن يسيطر على الغرائز الجبلية ، ويهيمن على الميول النفسية ، محاولاً التأثير فيها بالتعديل والتقويم ، دون أن يعرقل ناموس التطور الذى يعمل إلى إيصالها لغاياتها البعيدة من السمو الذى قدر لها أن تبلغه بجهودها الذاتية

إن الصفة المميزة للاسلام أنه دين يماشى الطبيعة ويعدلها ، ولا يلاشى عاطفة منها ؛ ولو كان غير ذلك لما صلح أن يكون ديناً عاماً للبشرية بأسرها ، ولا أن يكون محترم الأصول ، مراعى التعاليم ، لا عذر للمتخلف عنه ، أو للخارج عليه

أفكنت تريد أن ينشأ الإسلام ناهياً عن الحرب فلا يتم له قيام أصلاً ، بدليل لجوء جميع الأديان إلى الحرب بعد أن أعيتها الحيل فى القيام بدونها ؟ أم كنت تريد أن يحرمها على أتباعه ، ثم متى اضطرتهم الحيـاة لها لجأوا إليها ، غير آبهين لنهيه عنها ، كما حدث ذلك لأهل الأديان التى كانت قبله ؟

لا هذا ولا ذاك ، فالإسلام دين صراحة ومنطق ، يعطى كل حالة من حالات الإنسان حقها من التقدير والرعاية ، ويبنى حكمه فيها على مصلحتى المادة والروح معاً

فالحرب إن كانت شراً فهى من الشرور الضرورية ولو فى أوائل الأدوار البشرية ، وإغفالها أو تركها بلا ضوابط تديفضى بالآخذين به إلى الإفراط أو التفريط فيها ، وقد يكون فى ذلك القضاء عليهم ، فجعلها الإسلام لهذا السبب من أهم ما عنى به ، وختم كل آية نزلت فى الحرب بوصاة مؤكدة بوجوب العدل فيها وعدم توخى العدوان بوساطتها ، إلى حد لم يسبق له مثيل فى كل ما أثر عن تعاليم الأمم قديماً وحديثاً

لم يكتف الإسلام بكل هذا فوضع للسلم والحرب أصولاً بدأها بوجوب احترام العهود ، وبوجوب تتبع الحوادث الاجتماعية ، مع إحاطة كل منها بما يحميها من التطرف والظلم ، حتى إذا أفضت الأمور إلى تحكيم السيف أحاط حكومته بالملطفات من كل ضرب ، عاملاً على ألا تراق قطرة دم لم يكن لإراقتها موجب يوجبها ، حتى أمر بعدم تعقب المهزومين ، وباحترام حياة خدَمة المحاربين ، وحياة الهَرْمى والنساء والأولاد ورجال الدين

فى تاريخ الإسلام من هذه الناحية طرائف لا يروى مثلها عن جماعة من الجماعات الإنسانية إلى اليوم ، منها أن أسامة بن زيد تعقب مهزوماً حتى صعد وراءه الجبل ؛ فلما رأى الرجل السيف يهوى عليه نطق بالشهادتين ، فلم يكترث أسامة له وقتله ، فلما بلغ ذلك النبىَّ صلى الله عليه وسلم استحضره وعنفه على فعله ، فقال أسامة : يارسول الله إنه نطق بها تقية لينجو بنفسه . فقال النبى منكراً عليه : أشققت عن قلبه ؟

لا أظن أن بعد هذا غاية فى التنبيه على وجوب احترام الحياة البشرية

محمد فريد وجدى

مجموعات الرسالة

على طريقة الصين

أو

طريقة أبي دلامة

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني



قرأت في بعض ما كتب عن الصين الحديثة وحروبها الداخلية – قبل أن تغزوها اليابان – أنه كان يحدث أن يخرج القائد من القواد الصينيين لقتال غريمه فيلتقي الجمعان ويصطف الجيشان ويبرز أحد القائدين ، ويدعو خصمه فيخرج إليه ويقفان بين المعسكرين يتبارزان ولكن بالحجة والمنطق ، ويتصاولان ولكن على الورق والخرائط ، ويتجادلان في أي الخطتين كانت خليقة أن تجيء صاحبها بالنصر ، حتى يقتنع أحدهما بأن الدائرة كانت ستدور عليه لا محالة ، فيعد نفسه مهزوماً ، ويرتد بجيشه عن الساحة ، وينصرف خصمه وقد رفع ألوية النصر

كذلك قال بعض الكتاب . وقد زعموا أيضاً أن هذا بعض ما أطمع اليابان في الصين وأوهمها أن قتالها أمر هين ، وأن المنال قريب والغاية في حكم المدركة ، فإذا بها تتورط في حرب لا تعرف لها منها مخرجاً ولا تتبين لها نهاية قريبة ، بعد أربع سنوات طويلات دخلت في خلالها مئات من المدائن ، واحتلت رقعة أوسع من نصف القارة الأوربية ومازالت الحرب – إذا اعتبرنا قوة المقاومة – كأنها في بدايتها

وليس من همي أن أقول شيئاً في الصين ، وإنما سقت هذا الخبر لأني ذكرت به مشبهاً له من أخبار أبي دلامة الشاعر الماجن الظريف فقد حكوا عنه – وحكى هو عن نفسه فيما يروون عنه – أن الخليفة – المنصور أو المهدي – غضب عليه لاعتكافه على الخمر، فأمر به فخرج في بعث حرب مع روح بن حاتم المهلبي لقتال الشراة . قال أبو دلامة : « فلما التقى الجمعان قلت لروح : أما والله لو أن تحتي فرسك ومعي سلاحك لأثرت في عدوك اليوم أثراً ترتضيه » فضحك وقال : « والله لأدفعن ذلك إليك ولآخذنك بالوفاء بشرطك » ونزل عن فرسه ونزع سلاحه ودفعهما إليَّ ودعا بغيرهما ، فلما حصل ذلك في يدي زالت عني حلاوة الطمع فقلت له : « أيها الأمير هذا مقام العائذ بك » فقال : « دع عنك هذا » وبرز رجل من الخوارج يدعو إلى المبارزة فقال : « اخرج إليه يا أبا دلامة » فقلت : « أنشدك الله أيها الأمير في دمي » قال : « والله لتخرجن » قلت : « أيها الأمير فإنه أول يوم من الآخرة وآخر يوم من الدنيا ، وأنا والله جائع ما شبعت مني جارحة من الجوع ، فمر لي بشيء آكله ثم أخرج » فأمر لي برغيفين ودجاجة ، فأخذت ذلك وبرزت عن الصف فلما رآني الشاري أقبل نحوي وعيناه تتقدان ، فقلت له : « على رسلك يا هذا كما أنت » فوقف ، فقلت : «أتقتل من لا يقاتلك...» قال : « لا » قلت : « أتقتل رجلاً على دينك » قال : « لا » قلت : « أفتستحل ذلك قبل أن تدعو من تقاتل إلى دينك » قال : « فاذهب عني إلى لعنة الله» قلت : «لا أفعل أو تسمع مني» قال : «قل» . قلت : «هل كانت بيننا قط عداوة أو ترة ، أو تعرفني بحال تحفظك عليّ ، أو تعلم بين أهلي وأهلك وتراً » قال : « لا والله » قلت : « ولا أنا أعرف والله لك إلا الجميل الرأي، وإني لأهواك وأنتحل مذهبك وأريد السوء لمن أراده لك» قال : «يا هذا جزاك الله خيراً

فانصرف» قلت: «إن مني زاداً أحب أن آكله معك لتتأكد المودة بيننا ويرى أهل العسكر هوانهم علينا» قال: «أفعل» فتقدمت إليه حتى اختلفت أعناق دوابنا وجمعنا أرجلنا على معارفها والناس يضحكون، فلما استوفينا ودعني، فقلت له: «إن هذا الجاهل - يعني روح بن حاتم - إن أقمتَ على طلب المبارزة ندبني إليك فتتعبني وتتعب، فإن رأيت ألا تبرز اليوم فافعل» قال: «قد فعلت» ثم انصرف وانصرفت، فقلت لروح: أما أنا فقد كفيتك قرني فقل لغيري أن يكفيك قرنه كما كفيتك. فأمسك. وخرج آخر يدعو إلى المبارزة، فقال لي: اخرج، فقلت له:

إني أعوذ بروح أن يقدمني ... إلى النزال فتخزى بي بنو أسد

إن البراز إلى الأقران أعلمه ... مما يفرق بين الروح والجسد

إن المهلب حبَّ الموت أورثكم ... وما ورثت اختيار الموت عن أحد

لو أن لي مهجة أخرى لجدت بها ... لكنها خلقت فرداً فلم أجد

فضحك وأعفاني

وهذا الذي تكلم به أبو دلامة قرنه فكفاه شره، احتجاج قوي لترك الحرب، ولو كان الأمر إلى الجنود المسوقة وخوطبت بمثله لكان الأرجح في الرأي والأغلب في الاحتمال أن تلقي السلاح وتنفض يدها من كفاح لا تعرف باعثاً عليه أو موجباً له، ولكن الأمر للقادة والرؤساء وهؤلاء لا يعبأون إلا بما يطمعون فيه ويسمون له، ولا يبالون من رضي ممن سخط، ومن بقي ممن هلك، إذا هم أدركوا بغيتهم ونالوا وطرهم

وقد خاطب الألمان جنود فرنسا بمثل كلام أبي دلامة - في هذه الحرب فكانوا في الشهور الأولى - شهور الركود والتربص - كل ليلة ينادونهم من خط سجفريد «أن لماذا تحاربوننا يا معاشر الفرنسيين ولا عداء بيننا وبينكم ولا مطمع لنا في مستعمراتكم، وقد سمعتم «الفوهرر» يقول في خطبته إن بناء خط سجفريد اعتراف من ألمانيا بأنها تمد الحدود بيننا وبينكم نهائية، ولولا ذلك ما جشمت نفسها مشقة البناء ونفقاته، إنما غريمنا وغريمكم الإنجليز، وقد زجوا بكم إلى الحرب ليقاتلونا بكم» الخ الخ وقد فعل هذا الكلام فعله في نفوس الفرنسيين وظهر أثره في معركة فرنسا

وأعود إلى صاحبنا أبي دلامة فأقول: إن الرصافي - شيخ شعراء العراق في هذا الزمان - أسبغ الله عليه برد العافية صنع شعراً في خبر أبي دلامة مطلعه «قضت المطامع أن نطيل جدالاً» قال فيه:

أمن السياسة أن يقتل بعضنا ... بعضاً ليدرك غيرنا الآمالا

تفنى الجيوش ولا ضغائن بينها ... سبقت ولا ترة ولا أذحالا

واستطرد إلى قصة أبي دلامة ثم ختم القصيدة بقوله:

إن الدهور - وهن أمهر سابك -

ستَرُدُّ أضداد الورى أشكالا

حتى كأني بالطباع تبدلت ... غير الطباع وزلزلت زلزالا

وكأنني ببني الملاحم أصبحوا ... لأبي دلامة كلهم أشكالا

ويا عسى ولعل، وسمع الله منك يا صديقنا، ولكن هيهات... هيهات! والسلام عليك إذا لم يكن على الأرض سلام

ابراهيم عبد القادر المازني



مزامير للنفس العربية

للأستاذ عبد المنعم محمد خلاف

٣ – غول المهد الأول [١]

كان فى المهد الأول للعربية « غول » عجوز شوهاء، عُمِّرت هناك دهراً طويلاً تأكل أكباد الرجال بالحقد والضغينة والحسد والأنانية والتفرد، وتلعب بقلوبهم، تتخذ منها عقوداً وقلائد، وتفترس للقبائل، إذ تغرى بينهما العداوة والبغضاء، فتوقد نيران الحرب الطاحنة لتلغ فى دماء الجميع: القاتل والمقتول، والخاذل والمخذول ...

وقد اتخذوها إلٰهةً معبودةً وقدموا لها القرابين من دماء الأحرار، وزينوا عرشها بجماجم الشباب المفتون دائماً بالبطاش والحرب، وأنشدوها الأشعار، واجتلبوا لها الأسمار، وقرعوا الطبول، ونفخوا الزمور ...

ما تركتْ فيهم شاباً يكتهل أو كهلاً يشيخ؛ فكبدها عطشى مخلوقة من نهم الرمال، وجسمها للدم المسفوح والدمع النضوح ... فلم تكُ تبق للحياة إلا النساء والأطفال والمستضعفين، من الذين يقال فيهم: بقايا السيف، وطلقاء عفو القادرين ...

وكان لها كأسان: تتلقى فى إحداهما دم الرجال، وفى الأخرى دمع النساء على الرجال ... ثم تمزج وتشرب وتعربد وتقهقه ... كاشفة عن أنيابها الزُرق المسنونة ... !

***

تلك هى الفُرقة! حليلة الشيطان المحظيّة ... يقدمها بين يدى الجليل الخطير من كيده، ورصدها لتحطيم الشأن المعظم فى حياة الإنسان غريمه ... أخرجه بها من الجنة حين فرق بين هوى آدم وحواء ووصايا ربهما، فأزلهما ... فهبطا إلى الأرض للمحنة والعناء ... فكانت فى يده مفتاحاً عريقاً يفتح به قلوب بنى آدم للشر، ويغلق به أبواب الخير ...

وقد أسكنها قلب الجزيرة العربية، وأوصاها ألا تترك قلوب هذه الأمة تجتمع وشملها يلتئم وذكاءها الخارق وبيانها الحاذق ييسران لما خلقا من أجله؛ إذ كان يعلم أن وثيقة ملاعنه وبيان خدائعه للنفس البشرية، ستكتب بقلم هذه الأمة، وتسجل فى « كتابها »، وتنزل على قلب أحد أبنائها؛ فاستجمع لها كل خبائثه ومكايده، واستمان حليلته وأرصدها لها بكل سبيل، وفتنها بأكرم خصالها: الشجاعة والكرم والبيان!

حوّل الشجاعة إلى وحشية وإسراف فى سفك الدماء، كأن ذلك حرفة ...

وحوّل الكرم إلى إسراف فى مقومات الحياة وتفريط فى بنائها المادى، حتى لا يحصل تمدين فيستقر السلام، فيكون وراءه عمران مستفحل وخدمة باقية فى الذريات والأعقاب، للتحضير والترقية والتهذيب ...

وحول البيان إلى شقاشق تهدر ثم تضيع، وأناشيد ترسل فيما لم تخلق له؛ إذ تسجل المخازى وتعرض العورات على الأسماع، وتهيم بأصحابها فى أودية الخيال ...

وكان يعلم أن الظلم والشرك والعبودية والجهالة — وتلك هى قوائم عرشه — ستهدم بأيدى هذه الأمة، وأن ألاعيبه وتماثيله التى كان يملأ بها معابد الأقوام وجوامع إنسانية الشرق والغرب ستتركها معاول العرب حطاماً وجذاذاً ... فجعل من بينها سداً ومن خلفها سداً، وغشى أبصارها عن إدراك مواهبها ومكارمها وما عندها من الفطرة الصادقة. ووضع همه الأول فى تفريق قلوبها وتمزيق وحدتها، ووسوس لكل قبيلة أنها

(١) انظر العدد ٣٥٥ من « الرسالة »

أمة لها دم خاص منحدر من ماء السماء وضياء النجوم ... وإلى كل فرد أنه خير هذه الأمة، وأنه عَـلمها الفرد، وبدرها والفرقد! فغنى لنفسه وشرب على هواها مع النجوم فى ظلمات الليل، ومع الشمس والشياه والبعران فى مراعى الصحراء ...

وفى الأرض أمامه سمة ومذهب لـكل من أراد الاستقلال والتملك ...

وفى السماء هول وعظمة يغريانه بمد آفاق نفسه كما يشتهى ...

وفى القلب الإنسانى حطب ولهب لـكل ُفرقة ولكل شرود وجموح فلا عليه أن ينشد الإمارة ولو على الحجارة ...

* * *

يا لهذه الصرخات الدائمة فى أذن الصحراء من حناجر فتيان هذه الأمة!

يا لَبكر ... ! يا لَتغلب ! يا لَمضر ! يا لَربيعة ! يا لَعـدنان ! يا لقحطان ! يا لـكل قبيلة على كل قبيلة !

وسباع الأرض وهوامُّهـا وخَشاشُها، وعقبان السماء ونسورها، تتسمع إلى هذه الصيحات وتتبعها؛ لأنها أبواق دعوتها إلى الولائم التى تقام من الدماء التى تَشْخَب، والبطون التى تبقر، والأكباد التى ُتفرى، والقلوب التى تسحق، والعيون التى تفقأ، والأشلاء التى تتناثر ...

فـكم من قلب كبير لبطل كريم فى فم ذئب لئيم ... !

وكم من لسان فصيح بليغ فى منقار غراب بكىء منكر الصوت قبيح المرآة ... !

وكم من عين نجلاء صافية تحت خنفساء قذرة وعقرب عمياء!

ثم يصحو الذين نحروا الجزور وشربوا الخمـور وأنشدوا الأشعار وهتفوا وصرخوا بدعوى الجاهلية، ويستيقظون بعد ابتراد الغُلة وذهاب الحميّة وسكون التِّرَة، ويعودون إلى الخيام يسمعون البوم والخفافيش وندب النساء وعويل الأطفال على الجثث الطريحة على الشراجع والنعوش ...

والغول واقفة تقهقه فيذهب صوتهـا كصرخات مفزعة فى شعاب الجبال وبطون الوديان وأغوار الـكهوف ...

ثم يسمع لقهقهتها صدى بعيد من حناجر الشباب الهاتفين: إلى الحرب ...

إلى الفطام من الحب ونعيم السلم وقرار الأمن ...

إلى الثأر من الذين قتلوا الآباء واستحلوا الحرمات ...

ثم تدور الرحى على أمواج الرمال وضفاف بحار السراب والآل فيلتقى رجل برجل «تحيةُ بينهم ضربٌ وجيع»

ثم ترقص الحرب عارية حمراء، تنوس على الآفاق ذوائبها السود وغدائرها التى نسجت من ريح السموم ... !

* * *

وتحولت الأمة العربية تحت سحر هذه الغول إلى أمة من الأحطاب ... لا تتوهج عناصرها وتظهر عبقرياتها الـكامنة إلا إذا مستها النار برهة تستحيل بعدها إلى رماد وهباء منثور تذروه الرياح على وجه الصحراء أرض الفناء والصمت الذى لا يخرقه إلا صرخات هذا الإنسان الضائع الفريد ...

أما النمو والإيراق والإزهار والإثمار فتلك أدوار لم يكن لشجرة الأمة العربية منها نصيب كبير ... وأنى للأخشاب والأحطاب أن تثمر وأن يكون فيها مناطق نمو؟ لقد أوشك الجفاف المادى والمعنوى أن يميت جذور هذه الشجرة العظيمة العريقة فاحتبس عنها فيض السماء وسيح الأرض مدة جعلت لبابها يوشك أن يموت ويقسو كالأحجار أو يكون أشد قسوة

ولـكن الله رب الطبيعة وموزع إنسانها وحيوانها ونباتها على بقاعها بقدر موزون، ومخرج الحى من الميت ومفجر العيون الثرّارة من قسوة الحجارة ... كان يصنع هذه الأمة هكذا تحت عوامل الحرمان والقسوة والجفاف والجهالة ليصنع منها معجزته الأخيرة ويخرجها فجأة على إنسانية الشرق والغرب الناعمة المتعلمة الغنية بموارد الخصب والمـال وأفانين الحـكمة والجمال كما يخرج الفجر الصادق الوضاح من ظلمة الليل البهيم ... ليعلم الإنسان أن عقله وقلبه فى قبضة الذى «الأرضُ جميعاً قبضَتُهُ والسموات مطويات بيمينه ...» الذى يجلو بياض النهار وينسخ سواد الليل ويحيى الأرض بعد موتها ويحول بين المرء وقلبه ... الذى وضع قوانين الطبيعة وإن شاء خرقها: فهو لا يخضع لهـا كما يخضع أبناء العجز والفناء ...

فقال للفجر الصادق فى حياة الإنسانية: ابزغ من هنا ... من أفق هذه العقول المحرومة من هدى النبوات وإرشاد العلوم، واسطع من هذه السماء التى لا ينظر إليها أحد من عبّاد دنيا الروم وفارس والمفتونين بعلوم اليونان ... وأشرق من أرض الأوثان على المعابد والهيا كل والبيَع والصوامع «لئلا يعلمَ أهلُ الـكتاب ألاّ يقدرون على شىء من فضل الله وأن الفضلَ بيد الله يؤتيه من يشاء»

وقال للنهر الدافق مخصب العقول البشرية: تفجر من هنا. من هذه الرمال الظامئة والجبال الكزّة القاسية، من غير نطفة واقفة

غضبة إسلامية

للأستاذ عبد الله عفيفي بك



استهل عام اثنين وستين وثلثمائة والدولة الإسلامية ببغداد تعانى جرحاً أليماً أصابها فى الصميم، فقد اقتحم الروم بلاد الجزيرة وأمعنوا فيها، ودخلوا نصيبين واستباحوا وقتلوا وسبوا أهلها إلا من نجا بنفسه وهم عدد قليل

وجاء الناجون إلى بغداد ودخلوا المساجد وكسروا المنابر ومنعوا الخطباء ووقف رجالهم ونساؤهم وأطفالهم يخطبون الناس.

وهل هنالك أخطب من امرأة تقص على الناس مأساة ابنتها العذراء، أو طفل يحدثهم عن مذبحة إخوته الصغار؟

هنالك ثار المسلمون ومادت بغداد بثورتهم حتى أصبحت أرضها وسماؤها وجوها ونهرها وجبلها رجوماً من النار

وكان عز الدولة بن بويه القائم بالأمر فى خلافة المطيع لله غائباً بالكوفة، فذهب إليه وفد من علماء المسلمين ووصفوا له الخطب الفادح والثورة الجامحة، وأن ليس للمسلمين طريق إلا أن ينتقموا أو يموتوا، وعادوا وعاد معهم عز الدولة، ونادى بالنفير فى الناس...

هنالك ثارت الجماهير، وتألبت العامة، وخرج كل رجل عما يملك، وخرجت كل امرأة عما تملك، حتى عن أولادها فتياناً وصبياناً، وكل من يغنى غناء قل أو كثر فى سبيل الله

ونزل الخليفة عن ماله كله، وأثاث بيته كله، ثم جمع ثيابه وباعها، وهدم داره وباع أنقاضها، وقدم الحديد العاصم لها ليستعين به المجاهدون فى الله

وسار الجيش كالسيل المندفع، أو كالعاصفة الثائرة، وأقوى أسلحته الغضبة الحامية لما أصاب المسلمين من ذل وهوان؛ وغضبة المسلم لله هى شعلة الإيمان فى صدره وقوة الله فى يده

ورحم لاقفة واعية، وأرفض فيضك وأرسل سيحك على المواضع العفنة والبؤر الفاسدة التى اطمأن فيها الشيطان وعشش، ثم باض وفرخ... واغسلها؛ فإن استعصت على التطهير فليجرفها عبابك وليحدر بها سيلك مع القش والغثاء والزبد الذى يذهب جفاء

« هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين! »

وقال للوحدة القومية بل للوحدة الإنسانية الجامعة: استملى من هذه الأرحام المقطعة والعرى المنفصمة، واقتلى « النول » واجمى الفلول... « ... وألف بين قلوبهم. لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم »

« إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون »

فإذا أمة من الرهبان الفرسان يحملون المصحف والسيف لرسم الطريق وحماية السائرين فيه. يأخذون الدين بكاء وخشوعاً بالقلوب فى المحاريب، ودفاعاً نبيلاً فى الميادين، وعملاً صالحاً مثمراً فى الأسواق والمعاهد والحقول والمصانع والجيوش...

وإذا دولة يحكمها ساسون قديسون! ليس فيهم خيلاء الحكام ومطامعهم وغطرستهم، وخداع الساسة وختلهم ونفاقهم، إذ كانوا يفقهون أن الحاكم خادم، والأمير أجير، والسياسة نصح وتربية وإرشاد، لا تجارة واحتراف وذبذبة مع اتجاه رياح المطامع، وخطب جوفاء، ووعود خلابة، وأمانى براقة كالتى يلقيها ساسة هذا الزمان على آذان الإنسانية الشقية ليحشدوها بها فى مواكب مجدهم الشخصى الكاذب وخيلائهم العاهرة...!

عبد المنعم خلاف

وكان الروم قد أقاموا مقالع الصخر ومجانيق الحديد ومقاذف اللهب على أسوار نصيبين ؛ فلما جاء المسلمون قذفهم الروم بذلك كله فلم يبالوا بشيء منه . وما أسرع ما أحاطوا بالعدو وأوقعوا به وقعة قد لا يكون لها نظير في التاريخ . وأسروا أمير الجيوش وقواده وبطارقته والسفاحين من رجاله وساقوهم إلى بغداد ليقضي فيهم أمير المؤمنين بقضاء الله المنتقم الجبار

***

وبعد ثلاث سنوات حشد الروم قوى هائلة ولم يهاجموا هذا الحصن من حصون الإسلام بل هاجموا الحصن الثاني وهو الدولة الفاطمية واقتحموا حلب وحمص وحماة وفعلوا بها مثل ما فعلوا من قبل بنصيبين

وهنا يظهر الروح الإسلامي النبيل

فقد كتب عز الدولة إلى العزيز بالله الخليفة الفاطمي يقدم له ولاءه وولاء الخليفة العباسي ليشترك المسلمون في مصر وبغداد على دفع العدو المشترك ، فتقبل العزيز هذا الود الإسلامي بأحسن القبول وقال إن الجيش المصري سيحمل هذه المرة العبء كله

وسار الجيش الفاطمي يحمل الراية الإسلامية من نصر إلى نصر ، حتى دفعوا العدو أمامهم دفعاً وراء الحدود ، ثم وقف الفريقان متحاجزين يحجزهما نهر يسمى « نهر المقلوب » ولكن الجيش الإسلامي آلى على نفسه أن يضرب العدو في عقر داره ، حتى يقلم أظفاره عن الغدر بالمسلمين ، فكيف وليس على النهر جسر ، وليس فيه مخاضة ؟ هنالك تظهر القوة الإسلامية التي لا تخاف الموت ، فقد خلعت إحدى الفرق الإسلامية ثيابها الظاهرة ، وتقدمت في النهر سابحة ، وبينما هي تسبح كانت تضرب العدو بالنشاب ! ! وكان العدو يضربها كذلك بكل ما ملكت يداه

وبعد جهاد تحار من هوله العقول بلغت الفرقة الشاطئ وتبعها الجيش كله وضربوا العدو ضربة مزقته أشنع تمزيق . ولو طال عمر العزيز بالله أياماً لسار هذا الجيش يحمل رسالة الله إلى آخر مداه

***

أيها المسلمون في بغداد وفي مصر ! بل أيها المسلمون في بقاع الأرض جميعاً :

بعد عامين اثنين ينقضي على موقعة نصيبين التي باع فيها الخليفة ثيابه ونزع الحديد من أنقاض بيته ألف عام

وبعد خمسة أعوام ينقضي على موقعة حلب التي ضرب فيها المسلمون عدوهم وهم مندفعون سابحين في النهر ألف عام

وبعد خمسة أعوام ينقضي على الوحدة المقدسة التي انعقدت بين المسلمين في مصر وبغداد ألف عام

فهل تتأهبون لإقامة الأعياد الألفية لهذه الأحداث الجسام؟

وليست الأعياد زينات تمر ولا أعلاماً تقام ، ولكن الأعياد الشاملة عرض للقوة ، وتوثيق للوحدة ، وإبرام للعهد ، وإذكاء للعزيمة ، وإعزاز للاسلام

فهل أنتم مستعدون ؟

عبد الله عفيفي

كتيبة الإسلام

للأستاذ محمد عبد الغني العريان

مضى الركبُ على وجهه يطأ الحزُونةَ ويجوبُ الصخر في المفازة الجرداء، لا يتكاءده سهل ولا جبلٌ، فما هو إلا أن انتهى إلى «ثنيّة المرار» من أسفل مكة، حتى حطَّ رحاله ووقف ينظر ما يكون من أمره وأمر قريش ...

أربعَ عشرةَ مائة من أصحاب محمد عليهم الدروع والحلق، وفي أيديهم سيوف طالما رويت من دماء المشركين علاً بعد نهل؛ لو شاءوا لدخلوا «مكة» دخول الفاتح لا يقف دون غايته شيء ولا يثبت له بطل؛ ولكن محمداً وأصحاب محمد لم يَسموا مَسماهم ذلك لحرب يَحُشُون نارها في الشهر الحرام في البلد الحرام؛ وإنما جاءوا معتمرين حاجّين يدْعون دعوة السلام في دار الأمن والسلام ...

أفترى قريشاً وقد أخرجت محمداً وأصحابه بليل منذ ست سنين فأجْلَتهم عن ديارهم وأموالهم عَنوة، تأذن لهم اليوم أن يدخلوا البلد الحرام في عدّة وعَدد ليستعلوا ويطوفوا ويدْعوا دعوتهم بين سمع العرب وبصرها؟ ...

وكتّبتْ قريش كتائبها وأجمعتْ أمرَها على أمر؛ وخرج بنو عبد مناف وأحلافهم في جلود النمور، معهم النساء والولدان، يقفون لمحمد على الطريق معاهِدين ألا يدخلها عليهم عنوة أبداً!

ونظر محمد إلى أصحابه عليهم الدروع والحلق، وأيديهم على مقابض سيوفهم يريدون أن يقابلوا عدواناً بعدوان؛ ثم ارتد نظره إلى قومه الذين فارقهم وفارقوه، قد اجتمعت جماعتهم هناك تترقرق دماؤهم بين اللحى والترائب؛ ثم هتف محزوناً أسوان: «يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب! فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة!»

***

هنا جيش وهناك جيش، والرسل ما تزال ساعية ذهاباً وجيئة تحاول (الهدنة) بين العسكرين المتعاديين، حفاظاً على حرمات الشهر والبلد؛ وهدأت فورة الدم حيناً ريثما ينتهي أمر المتفاوضين إلى أمر؛ ولكن هناك، في مكة، على مسيرة ساعة أو بعض ساعة، كان بضع عشرات من المسلمين يعض الحديد على أرجلهم، ويعانون ذلّ الأسر في ظلمات فوقها ظلمات؛ أولئك جماعة من المستضعفين قد تقطعت بهم الوسائل، فلم يهاجروا فيمن هاجر من المسلمين إلى المدينة، وضُرِبَ عليهم أهلهم ومواليهم بسور ليس له باب، يجرعونهم الذل ويسومونهم سوء العذاب ليفتنوهم عن دينهم؛ ولكنهم صُبُرٌ على الضراء، مؤمنين بأن يوماً قريباً يوشك أن ينطلقوا فيه من إسارهم إلى حيث يعبدون الله جهرة، ويتملون وجه محمد وأصحاب محمد ...

متى الميعاد ...؟

كذلك راح كل واحد من هؤلاء الأسارى يسأل نفسه؛ فما هو إلا أن جاءهم النبأ بأن محمداً وأصحابه قد بلغوا ثنية المرار من أرض الحديبية، حتى راح كل منهم يأمل أملاً ويتمنى أمنية، ومضى يُعد عدّته لأمر؛ أليس جيش محمد يوشك أن يدخل مكة فاتحاً منصوراً لا يقف له شيء؛ فما بقاؤهم في الذل والإسار بعد؟

***

... وانتهى العسكران إلى شروط الهدنة الموقوتة، وراح محمد يملي على كاتبه:

«هذا ما صالحَ عليه محمدُ بن عبد الله سهيلَ بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض؛ على أنه من أتى محمداً من قريش

بغير إذن وليّه ردّه عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه ... ! »

ووثب عمر بن الخطاب كالملسوع يقول : عَلامَ نُعطى الدنيَّةَ في ديننا ؟

قال محمد : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعني ... !

ومضى الكاتب يكتب ... ولاح شبح من بعيد يتقارب ، تُجاذبه أثقالُ الحديد في رجليه ؛ وطلع فتى أشعثُ أغبر على وجهه قترة وفي عينيه ذبول ، فما هو إلا أن لاح له مجلس محمد وأصحابه حتى تراى عليه وهو يهتف : الحمد لله الذي آمنني بك يا رسول الله من ذل الإسار وعَسف الكَفَرة !

ذلك « أبو جندل » بن سهيل بن عمرو ، قد فر من أسر المشركين إلى رسول الله يستعينه على الخلاص ...

وصمت محمد ، وغمغم أصحابه بكلام ؛ ونظر إليه أبوه سهيل ابن عمرو وقال وفي لهجته شماتة وسخر : هيهات أن يُؤمِّنك محمد بعد ! ...

وعاد الفتى إلى محبسه وبين جنبيه همٌّ يضيق به !

* * *

وكان ثمة رجل آخر يتربص ، ذلك « أبو بصير » بن أسيد ابن جارية ؛ إن الحديد ليمض على رجليه في محبس بني زهرة بمكة منذ سنوات ؛ فتى يحين له الخلاص بنفسه ودينه ؟

وجاءه ما كان من أمر « أبي جندل » وما حكم فيه رسول الله ، ولكنه لم يجزع

وآب النبي في صحابته إلى المدينة وإن قلوبهم لتفور بالحقد والحفيظة ، فلولا أن رسول الله نهاهم لما انتهوا عما أرادوا ؛ وتوزعتهم خواطر وهموم ، وثقل عليهم ما يلقى إخوانهم هناك ، ولكنهم طائعون لأمر الله ورسوله !

... ووجد أبو بصير مهوة من حراسه فحطم أغلاله ومضى ، وتقاذفته الفلوات وحيداً بلا زاد ولا راحلة ، حتى بلغ يثرب ، وإنه ليعلم ما هناك ...

وجدّ الطلب في أثره ، فما أدركه قومه إلا وهو في أمان محمد ، وما كان أمان محمد ليغني عنه وذلك العهدُ بين محمد وقريش قائم ، ولكن أبا بصير قد أعد عُدته لأمر ... ...

وجاء رسولا بني زهرة يذكّران محمداً العهدَ القائم ويطلبان إليه أن يرد أبا بصير إلى قومه ؛ وما كان لمحمد أن يغدر بما عاهد عليه القوم ...

... وطأطأ أبو بصير رأسه وعاد مع الرسولين أدراجه وعيون المسلمين تشيعه بالدمع ، وإن قلوبهم لتفيض بالألم والحسرة ؛ ولكن أبا بصير لم يلبث أن عاد إلى المدينة وحيداً وعلى ظُبةِ سيفه دمٌ يسيل ! ...

وماذا على محمد بعدُ وقد وفّى بما عاهد عليه القومَ فرد إليهم رجلهم ثم اختار الرجل لنفسه ؟

حرٌّ انتصر فلا جناح عليه !

وافتر ثغر النبي عن ابتسامة وهو يقول : « ويلُ أمِّه مِسعَرَ حرب لو كان معه رجال ! »

وسمعها أبو بصير فوعاها ، ثم ودع صحابته ومضى لأمره وما تزال يده على قائم السيف ...

* * *

وعلى سِيف البحر من ذي المروة ، كَمَنَ أبو بصير كونَ القدَر يتربّص لكل رائحة وغادية

« ويلُ أمِّه مِسعَرَ حرب لو كان معه رجال ! »

كلمة تجاوبتْ بها نسائمُ القفر بين مكة ويثرب ، فإذا صداها يتردد بين جدران المعاقل والسجون حيث يرسف المستضعفون من المسلمين تحت حكم قريش ؛ فلقفتها آذانٌ ووعتها قلوب ...

« بلى ، إن معه لرجالاً لا يريدون شيئاً إلا كان ! »

ذلك كان رجعُ الصدَى !

وفي ظلال صخور الحَرة من ذي المروة على سيف البحر ، كانت جموع تتجمع ؛ وكما تجتمع الظلال ثم تفترق فتراها العيون ولا تلمسها الأيدي ، كان أبو بصير وصحابته ؛ وانطلق السجناء من محابسهم يدّرعون الظلماء من كل حَدَب ليجتمعوا بذي المروة ؛ وركز أبو بصير رايته في الوادي الأفيَح يستظل بها بضعُ عشرات مرابطين على طريق قريش لكل غادية ورائحة ؛ وانثال عليه المددُ ، فإذا العشرات بضعُ مئين ؛ وعسكرتْ « كتيبةُ

درس في التصوف

للأستاذ زكي نجيب محمود

— مالى أراك يا بنى مُنْزَوِياً عن الدرس نافراً ؟

— أخشى، يا أبتاه، أن يثقل على سمعي فيثقل ذلك على نفسك، فما لشبابي الغض وهو في شرخه وعنفوانه ولهذه النظرة اليائسة العابسة، وهي نظرة المدبرين العاجزين ؟

— انظر يا بنى إلى هـذا الفضاء الطليق، وأرسل بصرك في أرجاء الكون الفسيح ... أوَ ينقص من عنفوان شبابك يا بنيّ أن تكون هذا السيل الدافق وذلك الطود الشامخ ؟ هل يحد من شبابك يا بنى أن تكون هذا البركان الفوار وذلك الخضم العنيف الجبار ؟ هل يضيرك يا بنى أن تكون هذه الزهرة في رقتها وجمالها وهذا الليث الكاسر في جده وصرامته ؟

— ومالى ولهؤلاء يا أبتاه، وأنا إنسان، وهي من الجماد والنبات والحيوان ؟

— أنت يا بنى كل هؤلاء ؛ وهؤلاء كلها أنت ... أنت الكون العظيم بكل ما فيه من قوة وفتوة وجلال وجمال ...

— ولكني يا أبت أراني فرداً واحداً محدوداً، فها هي ذي حدودي أراها بعيني وأحسها بأصابعي

— ذلك يا بنى عند النظر الضيق السقيم، أو إن شئت فقل هذه لغة العيون والأيدي، ثم هي كذلك لغة العقل وحده، وهذه كلها أدوات لم يخلقها الله إلا لتفهم المادة المحدودة بالموازين والمكاييل ...

— فإن لم أركن يا أبت إلى حواسي وعقلي، فإلى أي شيء أركن في فهم الوجود ؟

— إلى فطرة عليا يا بنى، هي فوق العقل والحواس ... اركن يا بنى إلى البصيرة لا البصر، فالبصر خادع خادع، فهو تارة لا يريك الموجود، وهو طوراً يريك غير الموجود ...

الإيمان» على الطريق يحمى الحمى ويمنع الجار، وكان على الميمنة «أبو جندل» وعلى الميسرة «أبو بصير» ؛ وكانت قريشُ الكافرة تزوّدها وتَميرها بكل قافلة تغـدو وتروح ! ... وانقطع طريق الرائح والغادي على مكة إلا من أراد أن يُطَلّ دمُه !

* * *

... وتسامع الناس بما هنالك، ففزعوا وراحوا يداولون الرأي ...

وسعى ساعي قريش إلى محمد في المدينة : يا محمد، نسألك بالرحم إلا ما آويتهم، فلا حاجة لنا بهم بعد !

وابتسم محمد، ثم دعا كاتبه ليكتب إلى أبي بصير يدعوه إلى الأمن والدعة ...

ومضى الرسول بكتاب محمد يغذ السير إلى ذى المروة ليدفع كتاب محمد إلى أبي بصير يدعوه إلى الأمن والدعة، بعد جهاد العمر ومشقة الحياة ؛ فما بلغ الرسولُ حتى كان أبو بصير سطيحاً بين اثنين من صحابته وهو ينشد في صوت يختلج :

الحمدُ لله العليّ الأكبرْ   من ينصر الله فسوف يُنصرْ !

ودفع الرسول إليه الكتاب، فتناوله ونظر فيه نظرة ثم أغفى، وكانت إغفاءةَ الأبد !

وسكنت الريح، وخفت الصوت، وتجاوب بين الصخور الصم صدى هاتف :

«اللهم قد بلّغتَ ! اللهم إلى أمنك ودعتك !»

محمد سعيد العريان

إن الوجود يا ولدى كائن واحد ضخم . وهذه الأشياء منه جذوع وفروع وأطراف؛ وهذا الوجود الواحد هو أنت، وأنت هو هذا الوجود ...

— كيف لى أن أفهم هذا القول يا أبت ؟

— إيتنى بثمرة من تلك الشجرة ، فسأحدثك بلغة تفهمها

— ها هى ذى

— ماذا ترى فى جوفها ؟

— أرى فى جوفها بذوراً صغيرة

— اقطع بذرة منها نصفين

— هأنذا ، يا أبت ، قد فعلت

— ماذا ترى فيها ؟

— لا أرى شيئاً

— إن الجوهر الدقيق الذى عجزت عيناك أن تراه قد نبتت منه هذه الشجرة الباسقة . فصدقنى إن زعمت لك أن من مثل هذا الجوهر الدقيق جاء الوجود ، وهـذا الجوهر الذى لا تراه هو الحق الموجود، هو الروح الشامل لأطراف الوجود، هو أنت !

— . . . . . .

— تعالَ يا بنى فضع هذه القطعة من الملح فى الماء ، ثم أذبه

— لقد فعلت

— إيت لى بالملح الذى وضعته فى المـاء

— لست أراه يا أبت ...

— ولـكن ذلك الماء كيف مذاقه ؟

— إنه ملح !

— دع المـاء جانباً واقترب منى ... إن الملح الذى لا تراه موجود؛ وهكذا نعجز أن نرى الوجود الحق فى دخيلة أجسامنا ، ولـكنه موجود ، ومن وجود هذا الجوهر الدقيق جاء الوجود . إنه الحق ، إنه الروح ، إنه أنت

فهذا الرباط الخفى الذى يصلنا بأجزاء الوجود فيجعل منا كائناً واحداً ، قد لا تبصره العيون ، ولا تمسه الأيدى ، ولكنه مع ذلك موجود . وذلك يا بنى أول ما أريد أن أعلمك إياه : الوجود كله حقيقة واحدة لا فرق بين إنسان عارف و كون معروف ؛ فإن زعمت أنك شيء والوجود شيء آخر، فأنت فى نغمة العالم «نشاز» بغيض ... والتطبيق العملى على هذه الخطوة الأولى هو أن تحطم من ذهنك كل ما يميز إنساناً من إنسان ، حطم هذه الفواصل التى تباعد بين الغنى والفقير ، حطم هذه الفواصل التى تفرق بين القرشى والحبشى ، حطم هـذه الفواصل التى تفاضل بين سامى وآرى ... فالإنسانية كلها عند الصوفى رجل واحد

أستغفر الله، بل حطم هذه الحواجز بين الإنسان وأبناء عمومته وخؤولته من بنى الحيوان ، فليس عبثاً أن حرم الله قتل الحيوان آناً من الزمان ، فالحياة كلها عند الصوفى آية واحدة ...

أستغفر الله ، بل حطم هذه الحدود التى تجعل من النبات كائناً ومن الحيوان كائناً ؛ ثم ماذا ؟ ثم امح يا بنى ما أقامه العقل المتكلف بين الحى والجامد من سدود ... فإن الوجود بأسره عند الصوفى كائن واحد

* * *

إن أس البلاء يا بنى هى هذه الحواس التى تجزئ لنا الوجود قطعاً قطعاً فنحسب الوجود أشتاتاً وما هو بأشتات ...

— وكيف السبيل إلى النجاة يا أبت ؟

— عليك بثلاثة أمور : أولها الصلاة وثانيها الصلاة وثالثها الصلاة ... عليك بالصلاة يا بنى ، فهي فترات أراد لنا الله فيها أن نخلص من جزئيات الوجود ، لنتصل بالواحد القيوم خمس مرات كل يوم . ألست ترى كيف يحاول المائل بين يدى ربه أن يغلق حواسه فلا يبصر مما حوله شيئاً ولا يسمع شيئاً ؟ ذلك لئلا تعطل حواسُّه الفكرَ عن الوصل المنشود ... ألا ترى إلى المساجد كيف تزداد روعة على روعة ، ورهبة على رهبة ، حين يخفت ضـوؤها ويهمس صوتها ، وحين لا تكون فيها الحركة إلا فى بطء وتثاقل ... ؟ ولم ذاك ؟ ليساعد الفكر على التركز فى الغرض المقصود ، والحد من عوائق الحواس ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً : فلا نور يبهر البصر ، ولا صـوت يملأ السمع ، ولا حركة تثير الأعصاب ... عندئذ يتحقق ما أجراه أفلاطون فى محاورة فيدون على لسان سقراط :

« ... يكون الفكر على أتمه حين ينحصر العقل فى حدوده

نفسه ، فلا يعكر صفوه أصوات فى السمع ولا رؤية فى البصر ، ثم لا يعكره شعور بألم أو شعور بلذة ... يكون الفكر على أتمه حين تنحصر روابطه بالجسم فى أضيق دائرة ممكنة ، فلا إحساس فى الجسم ، ولا وعى فى الشعور ... عندئذ يطمح الفكر أن يصل إلى الكائن الأسمى »

وتلك هى الفكرة الثانية التى أريد أن أعلمك إياها يا بنى هذا المساء : فارتفع عن صغائر الأشياء ما استطعت إلى الترفع عنها سبيلاً ... إن هذه الأجزاء أشباح زوائل ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ...

* * *

— يا لهول ما تريد منى يا أبتاه ! إن لحمة الحياة وسداها هى هذه الأجزاء التى تدركها الحواس ، فإن حكمت لى على الحواس بالطمس ، وعلى هذه الأجزاء بالبطلان ، ففيم عساى أن أجاهد فى حياتى ، ولطالما علمتنى أن الحياة جهاد ! ؟

— لقد أخطأت يا ولدى ، فإنما أردت لك أن تهمل أحداث الحياة الصغرى لتتعلق نفسك بمعانيها الكبرى ، وفى هذا فليجاهد المجاهدون ... إنما أردت لك أن تهمل القشور لتمُصَّ من اللباب ... فاهجر ما تغريك به الحواس ، ليتسنى لك أن تقبل على الحياة إقبال الجرئ الباسل الذى لم تعد تهزمه المخاوف الصغرى والأخطار التوافه !

إن النبى عليه الصلاة والسلام حين قال : يا عم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته ... إنه حين قال ذلك كان المتصوف الأكبر الذى أهمل صغائر الحياة ولذائذ الحس لينصرف إلى أداء الرسالة الكبرى مهما لقى فى سبيل أدائها من عناء

وتلك هى الفكرة الثالثة التى أردت أن أهديك بها اليوم : اترك جانباً من الحياة لتمعن فى جانب . انفض عن كاهلك غبار الدنيا من ناحية لتقبل عليها نقياً تقياً من ناحية أخرى ...

إن التصوف يريدك أن تقف من دنياك موقفاً وسطاً بين الإهمال والإقبال ، فإن أنت أهملت الحياة كأنك لست منها ، فلست بالمتصوف الحق ، وإن أنت أقبلت على الدنيا كأنها عندك كل شىء فلست بالمتصوف الحق ... إن شغلت منصباً من مناصب الدولة الملحوظة ، فأهملته ولم تأبه لشىء مما يتصل به ، فلست بمنصبك جديراً ، وإن شغلك المنصب بحيث تندك قوائم نفسك لو أفلت منك ، فلست كذلك بالمنصب جديراً . فالرجل الحق هو الذى يبذل وسعه مجاهداً يريد النجاح ولا يخور للفشل ... إن التصوف الصحيح ليريدك على أن تنغمس فى العالم بقدر وتنسحب منه بقدر ، بهذا تكون سيد نفسك ، ولا تصبح ألعوبة لاعب فى أيدى القدر ...

* * *

ولتعلم يا بنى أخيراً أن العالم الحق لا يكون كذلك إلا إن كان متصوفاً ، فهل رأيت عالماً لا يُفنى نفسه إفناء فى سبيل علمه ؟ هل رأيت عالماً لا يضحى بشواغل الحياة الصغرى ليصل فى بحثه إلى الحقيقة الكبرى ؟ هل رأيت عالماً صحيحاً يميل مع هواه فيثبت حقيقة تعجبه ويحذف حقيقة تؤذيه ؟ ثم ماذا ؟ ثم هل رأيت عالماً لا يحب موضوعه إلى درجة الفتنة والجنون؟ وما موضوعه؟ هو الوجود أو ناحية من نواحيه !

— لو كان التصوف يا أبت هو أن أؤاخى بين أجزاء الوجود فأنا أول المتصوفين ، ولو كان التصوف يا أبتاه يدعو إلى إهمال الأجزاء الحسية الصغرى لينعقد الفكر على مهمة كبرى فأنا أول المتصوفين ، ولو كان التصوف معناه الجهاد المخلص فى سبيل الحق فأنا أول المتصوفين

زكى نجيب محمود

في الغار

للأستاذ محمود غنيم



« ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن . إن الله معنا »
(قرآن كريم)

مَنْ ذلك الساري على وَجنائه ... يطوي الدُّجى ويَخُبُّ في أحشائه

في قِلَّةٍ من صحبه ، لكنه ... في فيلق من عزمه ومَضائه

ما ضرَّه حَلَكُ الظلام وقلبُه ... يتألّق الإيمانُ في أرجائه

الصبر والتسليم حَشْوُ إهابه ... والهمّ والتصميمُ مِلءُ ردائه

ينسابُ في آثاره أعداؤه ... وحمامةٌ تنجيه من أعدائه

لو يُحسِنُ الترحيبَ طيرٌ أعجمٌ ... هشَّ الحمامُ مرحّباً بلقائه

أخفاه نسجُ العنكبوتِ ولم تكن ... أُسْدُ الشرى تقوى على إخفائه

جاء النَّفيرُ بخيله وبرَجْلِه ... تتزلزلُ الصحراءُ من ضوضائه

نفرت وحوشُ الغاب خشية بأسه ... ومحمدٌ كالطَّود في إرسائه

ما طوّفت أشباحُهم بخياله ... إلا طوافَ الحُلْمِ في إغفائه

ضاق الفضاء بهم وصدرُ محمدٍ ... ماضاق في اللأواء رَحْبُ فضائه

كهفٌ كَكِفَّةِ حابلٍ في طيِّه ... صدرٌ يتيه الظنُّ في بيدائه

نزلت عليه سكينةٌ من ربّه ... ففؤاده مستسلم لقضائه

ما همُّه نفسٌ يريد نجاتها ... بل مذهبٌ يسعى إلى إعلائه

غرماؤه شدوا إليه رِحالهم ... واللهُ كان أشدَّ من غرمائه

ضلُّوا فلم تأخذه أعيُنهم ولم ... تمتدَّ أيديهم إلى إيذائه

وكذلك شاء الله نُصرةَ عبده ... وارتدَّ شانِئُه بوجهٍ شائه

ما كان أوفى صاحبين كلاهما ... يَفدي أخاه مرحِّباً بفدائه

سَهلٌ عليه أن تسيلَ دماؤه ... ويفوزَ صاحبُه بحَقْن دمائه

غارٌ يضلُّ النجمُ في دَيجوره ... لا فرق بين صباحه ومسائه

لا يأمنان النابَ من ثعبانه ... أو يأمنان الذيلَ من رَقطائه

لا أرضُه الجدباءُ مُثمرة ولا ... في صخره نَبْعٌ يجود بمائه

قضيا النهار على الطَّوى في جوفه ... وتقلّبا ليلاً على حصبائه

***

قم سائل الصِّدّيقَ ماذا صدَّه ... عن ماله وثَناه عن أبنائه ؟

وعلامَ يضربُ في المهامه هائماً ... في سيره كابن السبيل التائه ؟

ما بين ليلٍ حالكِ الأسحار أو ... مُستقبَل كالليل في ظلمائه

ما بين شدة رُعبه ويقينه ... يَنْبَتُّ أو يمتدُّ حبلُ رجائه

لم يخش إلا أن يُصابَ محمدٌ ... بأذى فيفنى دينُه بفنائه

عجبي على الصِّدِّيق ، ماذا يتّقي ... واللهُ رَبُّ العرش من رفقائه ؟

ما أصدقَ ابنَ أبي قُحافةَ صحبةً ... لمحمد عند اشتداد بلائه

قبس من نور صاحب الهجرة

أدبنى ربى فأحسن تأديبى

للأستاذ محمود الشبيني

... وأخذت القوم الحيرة المزوجة بالإعجاب من سحر ما أبان، وصدق ما أظهر. وزاد من حيرتهم وإعجابهم أنه كان أميا؛ فتلطف أبو بكر رضى الله عنه وقد أصابه ما أصاب القوم وأخذه ما أخذهم، وهو العالم الخبير بأنساب العرب وأخبارهم، فقال يا رسول الله: لقد طفت فى العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك؛ فمن أدبك؟ قال: (أدبنى ربى فأحسن تأديبى)

إنها لكلمة جامعة، مركبة من كلمات قليلة فى منطق اللغة، كثيرة فى منطق العقل، تملك القدرة التى تأسر بها كل الحواس. يخيل إلىّ أن الحروف فيها ليست كالحروف؛ فهى من مادة الروح، وهى من عنصر القلوب، ثم هى بعد ذلك كله من جوهر النور السماوى، يتنزل هبةً علوية لخير من يعرف أقدار الهبات.

(أدبنى ربى فأحسن تأديبى)

جماع الحكمة فى ألفاظ حكيمة، ومبعث النور فى ألفاظ من نور، وروض الأخلاق الكريمة فى حروف كريمة، نطق بها أكرم الخلق فزادت فوق سموها سموًّا، لأن الرسول الكريم ترنم بها...

يكاد المرء يلمس رحمة الله فى طياتها تتحرك، ويحس هداية الرحمن خلال كلماتها تتلألأ، وهى من سر الروحانية؛ يخيل إليه أن رقتها سالت فجرت سيلاً من طبيعة الحياة لا التدمير، فهو ينهل من عذبها، ويرى فى ثناياها ألوان الروحانية السماوية تتألق بمعانى الهداية، وتتلألأ بأنوار الحكمة، فهو يتأملها ويكاد البصر يتعلق بها فلا يبرحها

ثم هو يوشك أن يشعر بألفاظها تتحرك من سحر ما فيها، وتحيا فكأنما يلمسها ويراها، وهو لما يظاهر فيها من نضج الحكمة واكتمال ثمارها يكاد يلتهم أطايبها التهاماً، ثم هو لا يشبع من معانيها. ومن ذا الذى يشبع من أطايب حديث الرسول؟

(أدبنى ربى فأحسن تأديبى)

يا له من اعتراف نبيل من أكرم الخلق بفضل بارىء الخلق! اعتراف سلك فى الحياة مسلك الهداية، وقول نهج للناس منهج

لِمَ لا يكونُ خليفةً من بعده ... أرأيت كالصِّدِّيق أو كوفائه؟

* * *

ما ضر غاراً بات يُؤوى المصطفى ... إجدابُ واديه وضيقُ فِنائه

وَدَّت بُرُوجُ النجم لو آوَيْنه ... إذ ذاك أو شاركن فى إيوائه

غارٌ على «الإيوان» جرَّ ذيوله ... عُجْبًا وتاه عليه من عُلَوائه

ما سدُّ ذى القرنين قِيسَ به ولا ... هَرَمُ الكنانة فى علوِّ بنائه

هل كان يدرى الغارُ أن نزيلَه ... سيرجُّ ركنَ الأرض بعد نجائه؟

وَيُزلزل الدنيا بعزم رَفيقِهِ ... وثلاثةٍ كالشُّهْب من خُلفائه

فإذا رجالُ الروم بعضُ عبيده ... وإذا نساءُ الفرس بعضُ إمائه

وَإذا بدين محمد يغزو الورى ... غزوَ الكتائب تحت ظلِّ لوائه

وإذا كتابُ محمد مُتغَلغلٌ ... فى الكون والثَّقلان من قُرَّائه

نجمٌ من الصحراء كان بُزوغُه ... فإذا الحواضرُ تهتدى بضيائه

اللهُ قدَّر أن يُتِمَّ نورَه ... مَنْ ذا الذى يقوى على إطفائه؟

(مدرسة فؤاد الأول الثانوية) محمود غنيم

السعادة . ثم أدبه ربُّه فأحسن تأديبه ، فكان المثل العالى فى خلقه ؛ فهو الأمين طفلاً ، وهو الأمين شاباً ، وهو الأمين شيخاً . ائتمنه قومه فكان له فى الطيبات فضل سابغ ، وفى المكرمات مجد سامق . وأئتمنه ربه فاختصه بأعباء الرسالة ، فنهض بها على أكمل الوجوه ، وما اختصه بها إلا وقد طهره من كل غرض ونزهه عن كل دنس . أدبه ربه فكان أميناً ، ومن أمانته شَمَّت أنوار أخلاقه . لقد أدب الرسولَ ربُّه فسمت أخلاقه ، ونبلت صفاته ، فكان أصدق الخلق حيث يقول : (أدبنى ربى فأحسن تأديبى) ؛ لا يقف صدق هذه الكلمة الروحانية على نبل صفات الرسول وأمانته ، وصدقه ، وسُمُو غايته ؛ بل إنها لصادقة فى كل تصرفاته كرجل اجتماعى . ومن ذا الذى جمع دقيق أمره وجليله مثلما جمع ؟ ومن ذا الذى ربط بين أغراضه وأغراض الإنسانية مثلما ربط ؟ ومن ذا الذى قلب الرأى قبل الفصل مثلما قلَّب ؟

من ذا الذى جرى فى أعماله وراء الضمير الطاهر مثلما جرى ؟ ألم يبعث للعرب ولم تكن تقيدهم غير تبهاء مترامية ، فلم الشمث ، وألف القلوب ، وآخى بين النفوس ، ورأب الصدع ، ووحد الثقافة وناهيك بتوحيد الثقافة فى إنهاض الأمم ! لكم كان الرسول محقاً حين قال : (أدبنى ربى فأحسن تأديبى) فهو مثال المصلح الاجتماعى الذى يعلم أن إدراك الداء هو سر الدواء ، المصلح الذى يخاطب القلوب والعقول ، المصلح الذى يلابس الحياة وما يضطرب فى الحياة ، فتسوقه هذه الملابسة إلى كل مناحى الإصلاح

ولقد كان الرسول كل هذا ، وكان فوق هذا المصلح القوى الكريم الذى لا يغويه السلطان فيبطش ، وما كان منه إلا ما يدل على قوة اليقين ، والترفع عن الأهواء ، والعفو عند المقدرة ، والنفور من الطمع . ألاَ إن هجرة الرسول الكريم لأعظم دليل على إدراكه لروح المجتمع ، وحسن تصرفه كمصلح سماوى ذى رأى سديد ، وفكر صائب . ما هاجر رجل وصاحبه ، وإنما هاجرت فكرة وعقيدة . وما اضطهد رجل وأنصاره وإنما اضطهدت فكرة وعقيدة . وما انتصر رجل ، وإنما انتصرت فكرة وعقيدة

ما هاجر الرسول إلا وقد عقد العزم على العودة ، ولكن بعد أن يستشعر القدرة على رياضة تلك النفوس الجامحة . ما هاجر الرسول إلا بعد أن أدرك أن من العبث نقاش عقول جامحة غطى عليها الغضب ، وران عليها الحقد ، فلا سبيل لتقويم عوجها ، وتثقيف منآدها إلا بعد أن تسكن فيها عوامل الثورة ، وتبرد جمرات التحفز . أدرك الرسول هذا فكان حكيما ، وعلم أن امتداد الزمن بينه وبينهم وابتعاد الشقة — ولو إلى حين — سيفعل فى النفوس الجامحة فعله فتتحرك الضمائر ، وتحيا القلوب . ولقد كان كل هذا ، ودارت السنون ، واجتمع للرسول العدد والعدة ، وفعلت العوامل النفسية فى القوم فعلها ، فرجع فاتحاً منتصراً ؛ ولكنه كان كريم الخلق ، جميل العفو . لقد ضرب للناس بآدابه مثلاً لو أدركوه وساروا فى هديه لعمَّ العالمَ السلام ، ولصفَّقَ فى جوه الإخاء ، ولكن العالم قد فسد تأمله ، ففسدت أغراضه ، وسار أكثره وراء الطمع ، فكان ما كان من جور وطغيان ، واستسلم العالم لحروب تأتى على الأخضر واليابس

وكان الرسول كريم الخلق ، وكان المصلح الاجتماعى البصير ، وكان الخطيب الذى لا يصيبه فى الملمات عِى ، ولا يدركه فى المخوفات بُهْر ، يزن كلامه بميزان الحكمة ، وما كانت آياته السامية إلا صورة لنفسه السامية . كان خطيباً لا يبارى ؛ وكان الشجاع الذى لا يبالى المهالكات

اجتمعت له النجدة والبسالة والشدة ، وكان شهماً فيه صرامة وفيه قوة لا يُطمع فى خداعه ، ولا يُغمز جانبه ؛ وكان عظيم الثقة بنفسه ، وتلك صفة الرجل الذى يعلم أن الله معه وأن الثقة بالنفس من لوازم الرسالات ، حسنت معاشرته واستقامت أغراضه ؛ وكانت له هيبة الروح وسمة الحلم ، وكرم العفو ، ورعاية الرحمن

انظر إليه وقد لقيه على غرة أحد أعدائه ، وشهر السيف على رأسه قائلاً : يا محمد ؛ من يمنعك منى ؟ فقال : (الله) ما أروعها كلمة ! نعم يمنعه الله ، ولقد منعه حقاً ، فسقط السيف من الرجل وأخذه الرسول وقال : ومن يمنعك منى ؟ فقال الرجل وقد أسقط فى يده : كن خير آخذ . فقال الرسول : قل أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله . فقال : لا ، غير أنى لا أقاتلك ، ولا أكون معك ، ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخلى الرسول سبيله

فهل رأيت أعظم نفساً من هذه النفس الروحانية ؟ وهل رأيت رجلاً يقدر الرجولة ولو فى عدوه هذا التقدير ؟ الرسول الكريم يطلب منه الإيمان فيأبى ، ولكنه يعاهده على السلام فيكون له العفو الجميل . إن فى ذلك لآية رائعة للقدرة حين ترحم . إن فى ذلك لفلسفة عالية لو أدركها العالم لتجمعت أطرافه ، ولرفرفت عليه أجنحة السلام

إنها الحكمة من الرسول الكريم الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه

(المنصورة) محمود البشبيشى

وأد البنات عند العرب فى الجاهلية

عوامله الصحيحة وموقف الإسلام منه

للدكتور على عبد الواحد وافى



لم يكن نظام وأد البنات متبعاً عند جميع العرب فى الجاهلية ، بل كان مقصوراً على بعض عشائر من ربيعة ، وكندة ، وطيء ، وتميم . وكانت الطريقة السائدة فى الوأد أن تحفر بجانب الموضع الذى اختير لولادة الأم حفرة عميقة ، فإذا ظهر أن المولود أنثى ، قذف بها حية عقب ولادتها مباشرة فى هذه الحفرة ، وهيل على جسمها التراب ، وبعضهم كان يلجأ إلى وأد بناته فى أمكنة خاصة بعيدة عن المنازل حتى لا يدنسها بجثثهن ورفاتهن . وأشهر مكان كان يجرى فيه الوأد على هذه الطريقة هو جبل أبى دلامة

وقد ظل هذا النظام متبعاً عند العشائر السابق ذكرها حتى قبيل الإسلام ، ثم ألقيت فى نفوس كثير من العرب كراهته ، وانكشفت لهم شروره ، وظهر لهم تنافره مع سنن الطبيعة ونواميس العمران ، فنهض كثير من ساداتهم إلى محاربته والعمل على التخفيف من آثاره ، وكللت جهودهم هذه بالنجاح ، إذ كانت النفوس مهيأة لما يدعون إليه ، فلم يجيء الإسلام حتى كان هذا النظام على وشك الانقراض ، وقد شن الإسلام على البقية الباقية منه حرباً شعواء انتهت بمحوه محواً تاماً ، فلم نسمع بعد وفاة الرسول عليه السلام بأى حادث من هذا النوع ، حتى بين العشائر التى بقيت على دينها القديم

وقد اختلف الباحثون فى العوامل التى حملت العشائر السابق ذكرها على اتباع هذا النظام الوحشى ؛ وانقسموا بهذا الصدد إلى فريقين : فريق يعلله بالفقر ، وآخر يتلمس أسبابه فيما جبل عليه العربى من شدة الحرص على صيانة عرضه ، واتقاء ما عسى أن يصيبه بمكروه

فأما الفريق الأول[1] فيرى أن أسباب هذا النظام ترجع إلى الإملاق وعدم القدرة على تربية الأولاد ؛ وأن التبعة فى هذا تقع على بيئة بلاد العرب وحالتهم الاقتصادية : فإجداب أرضهم وضآلة دخلهم من مهنة الرعى التى كان يزاولها كثير منهم ، واحتكار التجارة فى يد أفراد من سراتهم ، وحياة الشظف التى كانت تعانيها الدهماء ، والمجاعات المتوالية التى كانت تنتابهم ، وكثرة تنقلهم فى طلب الكلأ لأنعامهم ... كل أولئك وما إليه جعل من الصعب على كثير منهم تربية أولاده ، واضطر القبائل السابق ذكرها إلى طريقة الوأد للتخلص من هذا العبء الثقيل . ويرى هذا الفريق فى قوله تعالى : ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ... ما يزيد مذهبه تأييداً

(١) من بين أفراد هذا الفريق الأستاذان روبرتسن سميث الأنجليزى ، ووسترمارك الفنلندى R. Smith, Westermarck

وهذا المذهب لا يتفق فى شىء مع حقائق التاريخ ولا مع المنطق السليم . فمن الثابت أن هـذا النظام لم يكن معمولاً به فى الطبقات الفقيرة وحدها ، بل كان عاماً عند الفقراء والأغنياء فى العشائر التى أخذت به . وقد حدثنا التاريخ عن بعض من وأدوا بناتهم فى العصر الجاهلى ، وذكر من بينهم عدداً كبيراً من سراة القوم وأغنيائهم ، ومنهم عمر بن الخطاب نفسه ... هذا إلى أن فى قصر الوأد فى العشائر السابق ذكرها على البنات دون البنين ، لدليلاً على أن الدافع إليه شىء آخر غير الفقر ؛ إذ لو كان الفقر هو الدافع إليه ، للحق جميع الأولاد بدون تمييز بين الذكور والإناث ... ويزيدنا اقتناعاً بفساد هذا المذهب أنه لم يرد مطلقاً ذكر للفقر فى أى آية من الآيات التى نزلت فى وأد البنات . أما الآيات التى ورد فيها قتـل الأولاد مقروناً بخشية الإملاق ، والتى يزعم أصحاب هذا المذهب أنها تؤيد وجهة نظرهم فهى لا تتحدث عن النظام الذى نحن بصدده ، بل تتحدث عن نظام آخر كان متبعاً عند بعض عشائر العرب ، وهو قتل الأولاد على الإطلاق بدون تمييز بين ذكورهم وإناثهم ، تحت تأثير الفقر وعدم القدرة على تربيتهم

* * *

ويذهب الفريق الآخر من الباحثين إلى أن أسباب هـذا النظام ترجع إلى مبالغة بعض العشائر العربية فى الحرص على صيانة أعراضها واتقاء ما يحتمل أن يصيبها بمكروه . فكان الواحد منهم يخشى ، إن هو أبقى على بنته ، أن تجر عليه وعلى عشيرته عاراً فى المستقبل ، إذا وقعت سبية فى يد الأعداء واستباحوا عرضها أو زلت فى حياتها وقدر لها السقوط . ويروى أنصار هذا المذهب قصة يدعون أن حوادثها كانت السبب الأول فى توجيه العشائر السابقة هذا الاتجاه . وخلاصة هذه القصة أن عظيماً من عظماء العرب يدعى قيس بن عاصم قد سبيت بنته فى غارة شنتها عشيرة معادية على عشيرته ، ثم عقد بين العشيرتين صلح كان من شروطه أن ترد السبايا فى مقابل فدية مالية . غير أن ابنة قيس هذا كانت قد شغفت حباً بمن وقعت فى يده ، فآثرت البقاء عنده ، ولم تقبل الرجوع إلى أبيها وعشيرتها . فآلى أبوها على نفسه ليئدن كل بنت تولد له ، وسارت عشيرته على سنته ، واقتدى بها بعض العشائر الأخرى

وهذا الرأى لا يقل فساداً عن الرأى الأول . فالقصة التى يستند إليها تبدو عليها علامات الاختلاق وأمارات الأساطير . هذا ، إلى أن ما تقرره يتعارض مع النواميس التى تخضع لهـا الظواهر الاجتماعية فى نشأتها وتطورها . فعهدنا بهذه الظواهر أنها لا تنشأ من حادث فردى ، بل تنبعث من العقـل الجمعى ، وترتكز على اتجاهات المجتمع وعقائده ونظمه العامة . على أن قيساً هذا قد شهد الإسلام ومات حوالى السنة العاشرة بعد الهجرة . فلا يعقـل أن يكون هو الذى قد سن نظام الوأد عقب حادث حدث لبنت كبيرة له . إذ يترتب على ذلك أن نظام الوأد لم يظهر إلا قبيل الإسلام ببضع سنين ؛ مع أنه من الثابت أنه سابق لبعثة الرسول بعهـد طويل ، وأنه كان على وشك الانقراض قبيل الإسلام ؛ وفضلاً عن هذا وذاك ، فإنه لم يرد فى أى آية من الآيات الخاصة بالوأد إشارة ما لسبب من هذا القبيل . ولو كان هذا السبب هو الباعث الحقيقى على الوأد ، لعنى القرآن بإظهاره وتقبيحه وبيان ما ينطوى عليه من سخف وانحراف عن التفكير السليم ...

* * *

وقد رأيت ، بعد أن تبين لى فساد هذين المذهبين ، أن خير طريق للوقوف على أسباب هـذا النظام هو الرجوع إلى الآيات القرآنية التى نزلت بصدده ، وربطها بما يتصل بها ، والتأمل فيما عسى أن تتضمنه من إشارة ظاهرة أو خفية إلى العوامل التى دفعت إليه . وقد هدانى ذلك إلى النظرية التى أعرضها فيما يلى:

كانت طائفة من عشائر العرب تلجأ إلى قتل أولادها تحت تأثير الفقر ورغبة فى التخلص من تـكاليف تربيتهم . وهذه الطائفة ما كانت تفرق بين ذكور الأولاد وإناثهم . وهـذا هو ما تشير إليه الآية الواحدة والثلاثون من سـورة الإسراء : (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم

كان خطئاً كبيراً) ، والآية الواحدة والخمسون بعد المائة من سورة الأنعام : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ... الآية)

وغنى عن البيان أن هذا نظام آخر غير النظام الذى نحن بصدد الكلام عنه

وكانت طائفة أخرى من المشائر العربية تئد البنات من أولادها على النحو الذى شرحناه فى صدد هذا المقال . ولم تكن تفعل ذلك خشية الفقر أو العار كما يزعم أصحاب المذهبين السابقين ، بل كانت تفعله بدافع دينى بحت . وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن البنات رجس من خلق الشيطان أو من خلق إله غير آلهتهم ؛ وأن مخلوقاً هذا شأنه ينبغى التخلص منه . وأصل عقائدهم هذه أنهم كانوا يقسمون ما تخرجه الأرض وما تنتجه الأنعام قسمين : قسم ينسبونه لآلهتهم (اللات ، العزى ، مناة ... الخ) ويعدونه من خلقها ، وهو قسم طاهر زكي ؛ وقسم ينسبونه لله تعالى[1] ويعدونه من خلقه ، وهو قسم كانوا يعتقدون أنه مدنس بالرجس ، فكانوا يحرمونه على أنفسهم ، أو يرون أن واجبهم الدينى يقتضيهم التخلص منه أو تقديمه قرباناً لآلهتهم ، وما زُين لهم اعتقاده بصدد نتاج الحرث والأنعام زين لهم اعتقاد مثله بصدد نتاج الإنسان ، فقسموا ما يولد للانسان قسمين : قسم طاهر زكى من خلق آلهتهم وهو جنس الذكور ، وقسم من خلق الله وهو نوع الإناث ، وهو قسم مدنس بالرجس كانوا يحرمون بقاءه ويرون أن واجبهم الدينى يقتضيهم التخلص منه[2] ومن أجل ذلك كانوا يتقون ذبحهن ويؤثرون وأدهن عقب ولادتهن مباشرة حتى لا تنتشر دماؤهن فتنتشر معها ما تحمله من نجس ورجس[3] .

بل كان بعضهم يبالغ فى هذا التحرج فيئدهن بعيداً عن المنازل كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، ولم يقف أمر اعتقادهم هذا عند حدود العالم الطبيعى : عالم النبات والحيوان والإنسان ، بل جاوزه إلى عالم السماء . فكانوا ينسبون لله تعالى من هذا العالم كل ما يعتقدون أنه من نوع الإناث ، ومن أجل ذلك نسبوا إليه الملائكة لاعتقادهم أنهم من هذا النوع

وإليك جميع الآيات التى عرضت لوأد البنات ، وسيتبين لك من التأمل فيها وربطها بعضها ببعض صحة ما ذهبنا إليه

١ — « ويجعلون لما لا يعلمون (أى لآلهتهم التى لا علم لها لأنها جماد . اهـ بيضاوى) نصيباً مما رزقناهم (من الزروع والأنعام اهـ البيضاوى) تالله لتسألن عما كنتم تفترون . ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم (أى لآلهتهم) ما يشتهون (يعنى البنين) وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به . أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، ألا ساء ما يحكمون » (النحل ٥٦ — ٥٩)

فالآية الأولى تقرر عقائدهم فى نتاج الحرث والأنعام ونسبة بعضه لآلهتهم . والآية الثانية تقرر عقائدهم فى نتاج الإنسان ونسبة جنس الذكور لآلهتهم وجنس الإناث لله . والآية الثالثة تصف ما كان يفعله أحدهم إذ يبشر بالأنثى . وغنى عن البيان أن فى مجىء الآية الثالثة عقب الثانية مباشرة لدليلاً على أن ما كانوا يسلكونه حيال البنات من وأدهن أو إمساكهن على هون كان مترتباً على نسبتهم الإناث إلى الله تعالى ، فبدون هذا التفسير يكون المعنى الذى تقرره الآية الثالثة مجرد استطراد لا تربطه بالحقائق التى تقررها الآيات السابقة أية رابطة منطقية وهذا ينبغى أن ننزه كلام الله عنه

٢ — « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا (أى لآلهتهم) فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم (عن طريق تقديمه قرباناً لهم مثلاً) ، ساء ما يحكمون . وكذلك زُين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ، ولو شاء الله ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون . قد

(١) كان الوثنيون من العرب يعتقدون أن الله تعالى هو إله اليهود لأنهم عرفوه من طريقهم ، وكانوا ينظرون إليه نظرة لا تختلف كثيراً عن نظرة المسلمين إلى الشيطان

(٢) كانت عقيدتهم فى الاناث تشبه من بعض الوجوه ما يعتقده عامتنا فى بعض أولاد يرون أنه قد « سبق فيهم الشيطان » أى اشترك فى تكوينهم .

(٣) يقرر كثير من ديانات الأمم البدائية أن الدم هو أهم موطن للزكاة أو الرجس فى الحيوان

خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله ، افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين » (سورة الأنعام ١٣٦ — ١٤٠)

فالآية الأولى تقرر ما كانوا يعتقدونه بصدد ما ينتج من الحرث والأنعام وقسمتهم هذا النتاج بين آلهتهم وبين الله تعالى على النحو الذي شرحناه . والآية الثانية تقرر أن قتلهم أولادهم كان مبنياً على نفس الأساس الديني الذي بنى عليه تقسيمهم السابق ، كما يستفاد ذلك من عطف هذه الآية على ما قبلها ، ومن تصديرها بقوله « وكذلك » ومن نسبة تزيين هذا الفعل إلى الشركاء (وكذلك زيّن لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم) ، ومن قوله « ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم » . ويستفاد من الآية الثالثة أن الذين كانوا يقتلون أولادهم على هذه الطريقة هم الذين كانوا يحرمون بعض منتجات الحرث والأنعام ، وأن الباعث لهم على الأمرين عقيدة واحدة ، والمقصود من الأولاد في هذه الآيات البنات وحدهن ، كما أشار إلى ذلك كثير من المفسرين[1] وكما يدل عليه السياق

٣ — « وجعلوا له من عباده جزءاً (وهو الإناث) إن الإنسان لكفور مبين . أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين . وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً (أي بالجنس الذي نسبه لله) ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، أشهدوا خلقهم ؟ ! ستكتب شهادتهم ويسألون » (الزخرف ١٥ — ١٩)

ولست في حاجة إلى أي تعليق على هذه الآيات ، فهي صريحة في المعنى الذي قررناه ، وخاصة إذا ربطت بالآيات السابقة

٤ — « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذن قسمة ضيزى ... إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ، وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن ... الآية » النجم ١٩ — ٢٧)

٥ — ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً محصوراً . أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيما » (الإسراء ٣٩ — ٤٠)

٦ — « فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ؟ ! أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ؟ ! ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله ، وإنهم لكاذبون . أصطفى البنات على البنين ؟ ! مالكم كيف تحكمون ؟ ! ... » (الصافات ١٤٩ — ١٥٤)[1]

على عبد الواحد وافي
ليسانسيه ودكتور في الآداب من جامعة السربون

(١) انظر البيضاوي مثلا في تفسير قوله تعالى : « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ... الآية » فقد ذكر ما نصه : « يريد بهم العرب الذين كانوا يقتلون بناتهم ... »

(١) ورد الوأد في آية أخرى ، ولكنها لم تشر إلى الدافع إليه ، وهي قوله تعالى : « وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت » (التكوير ٨ ، ٩)

الرنوك في عصر المماليك

للدكتور محمد مصطفى

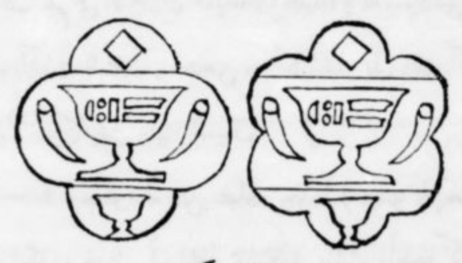


للرنوك شأن عظيم عند الغربيين، لها سجلات رسمية خاصة بها، يسجلون فيها شكل الرنك (الشعار) وألوانه والرسوم التي فيه، مع لقب العائلة التي يحق لها حمله، وأسماء أفرادها، وكل ما يتعلق بهم من البيانات عن تواريخ ميلادهم ونشأتهم وحالتهم المدنية مع إضافة علامة جديدة لبعض أفراد العائلة الجدد. وللرنوك عندهم علماء تخصصوا في البحث فيها، وفي تتبع رنك كل عائلة واستقصاء أصله وتاريخ نشأة العائلة. وهنالك رنوك أخرى للمدن والبلاد في أوربا لتمييز جماعات كل بلد أو صناعاتها أو مناخها عن غيرها. وقد حاول بعض هؤلاء العلماء إرجاع أصل الرنوك عند الغربيين إلى الشرق، وقالوا إنهم اقتبسوا فكرتها أيام اتصالهم بالسلاجقة والأيوبيين والمماليك إبان الحروب الصليبية، بدليل وجود رنوك سلجوقية وأيوبية ومملوكية مشابهة لرنوكهم على بعض الآثار في مصر وسوريا وفلسطين



رنوك بسيطة

وبينما نرى أن للرنوك في أوربا صفة عائلية محضة يتوارثها الابن عن أبيه وجده، نجد أنها كانت تدل في عصر المماليك على الوظيفة التي كان يتقلدها حامل الرنك في البلاط السلطاني. وكان للمماليك في جيشهم نظام عسكري لا يحيدون عنه، فكانوا يعتمدون فيه على الجند من المماليك فقط، يجددون دائماً بشراء مماليك صغار، يتولى جلبهم إلى مصر موظف معين لذلك يلقب بتاجر المماليك. وهؤلاء المماليك الجدد كلهم حديثو السن، يلحقون بمدرسة المماليك بالقلعة حيث يقيدون كمماليك كتابية، ويتعلمون القراءة والكتابة، ويدربون على الأعمال والنظم الحربية. فإذا ما تم تعليمهم وتدريبهم، أعتقهم السلطان، ووهبهم ما يبدأون به حياتهم الحرة، وما يتناسب مع تدريبهم الحربي، أي ملابساً تميزهم عن إخوانهم الأرقاء وأسلحة وخيلاً. وتطلق كلمة مملوك عليهم بعد عتقهم أيضاً، فكان مؤرخو العرب يستعملون اسم «مملوك» لمن يؤدي أعمالاً داخلة في النظام العسكري، وكلمة «عبد» لمن يستخدم في أعمال منزلية مثلاً وهو في الرق.



رنوك مركبة

(عن الدكتور ماير، نفس المرجع ص ٢٧)

ثم يعين السلطان المماليك «الأحرار» الجدد للخدمة في الجيش أو في المقاطعات والبلاد، بعد أن ينتخب منهم عدداً لحراسته وخدمته الخاصة، ولذلك يسمون بالخاصكية. وهؤلاء هم نخبة الجند، يقلدهم السلطان درجات ضباط الجيش ووظائفهم، فيبدؤها الخاصكي برتبة أمير عشرة، فأمير طبلخاناه، فأمير مائة فمقدم ألف، وهذه أرقاها[1]. وكان لكل من هؤلاء الضباط أو الأمراء شعار خاص به يسمى «رنكا» يرسمه على كل ما يمكن أن يتصوره العقل من الأدوات التي يستعملها في حياته اليومية كالأسلحة والمشكاوات والأقمشة والمخطوطات

(١) انظر: Mohamed Mostafa: Beiträge z. Gesch. Aegyptens z. Zeit d. türk. Eroberung; in: ZDMO, Bd. 89 (1935)

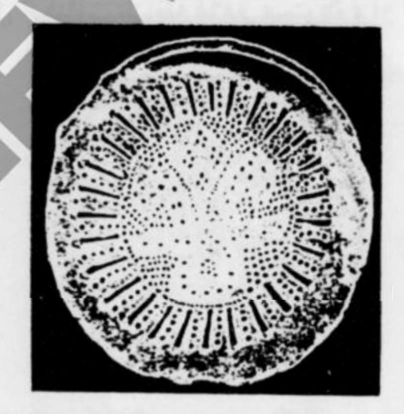
وأدوات الزينة وأوانى الطعام والشراب ، وعلى واجهات المبانى والشبابيك والأبواب والأعمدة وتيجانها وغير ذلك .

والرنوك فى مصر والشام كانت موضوع بحث عند كثيرين من العلماء الأوربيين أذكر منهم Rogers Bey و Karabacek و Van Berchem ويعقوب أرتين باشا . وكان آخر من بحث هذا الموضوع الأستاذ الدكتور L. A. Mayer الذى ألف كتاباً فيه[1] . ولا يزال يتابع البحث ، وينشر ما استجد من الأبحاث فى المجلات العلمية .



شباك قلة عليه رنك به علامة السبع

ومما يؤسف له ألا نجد شيئاً وافياً عن هذا الموضوع فى كتب مؤرخى العرب الذين عاصروا المماليك : كأبى الفداء وكالمقريزى والقلقشندى وأبى المحاسن وابن إياس سوى ما ذكروه من الرنوك عرضاً — وفى حالات قليلة — فى سياق كلامهم عن الحوادث أو وفيات بعض الأمراء . ومن هذه الحالات القليلة ما ذكره أبو الفداء فى تاريخه من علامات وظائف الدوادار والسلاحدار والطشتدار والجمدار والأمير آخور والجاويش . وإننا نعتقد أن مؤرخى العرب اعتادوا رؤية الرنوك ، فلم يجدوا فيها ما يستلفت النظر ولذلك لم يبحثوا فيها ، ويؤيد هذا الرأى الأستاذ جاستون فييت فى نقده[2] لكتاب الدكتور ماير ، ويقول إن الذهبى وصف صورة رنك السلطان كتبغا مع رسم توضيحى له[3] . ولهذا فنحن مضطرون فى دراستنا للرنوك إلى الاعتماد فقط على الكتابات التاريخية التى ترافقها فى بعض الأحيان ، ودراسة تراجم الأمراء المذكورة أسماؤهم فى هذه الكتابات لكى نصل إلى معرفة الوظائف التى كانوا يشغلونها ، ونستخلص من ذلك ما نفسر به رنوكهم



شباك قلة عليه رنك به علامة زهرة الزنبق

وقد دلت هذه الدراسات على أن الوظائف الممثلة فى الرنوك هى وظائف صغيرة فى البلاط السلطانى يشغلها الخاصكية ؛ واستنتج الدكتور ماير أن المماليك كانوا يحتفظون مدى حياتهم برنوك وظائف الخاصكية التى شغلوها فى خدمة السلطان قبل ترقيتهم إلى درجات الأمراء ، بل إن كبار الأمراء كانوا يفخرون بما تولوه فى أول عهدهم بهذه الوظائف الصغيرة

وأثبتت هذه الدراسات أيضاً أن سبع علامات من التى ترى على الرنوك يمكن الاستدلال بها بوجه قاطع على الوظائف التى تمثلها[1] ، وهذه العلامات هى : الكأس للساقى أو الشراب دار وهو من يتولى سقاية السلطان ، والخانجة أو المائدة المستديرة للجاشنكير الذى يتذوق الطعام للسلطان ، وعصاتا لعبة البولو للجوكندار وهو المشرف على هذه اللعبة . والدواة للدوادار أى كاتب السر — وكان المرحوم عبد الحميد مصطفى باشا أول من أثبت أن الدواة علامة كاتب السر — والبقجة المربعة للجمدار أى حامل اللابس ، والسيف أو الخنجر للسلاحدار وهو الذى يحمل أسلحة السلطان ، والقوس للبندقدار أى رامى النشاب . وجل هذه الوظائف لها صبغة عسكرية يتقلدها — على حد قول مؤرخى العرب — « أرباب السيوف » من المماليك . وهنالك علامات أخرى نراها على الرنوك ، منها : السبع والنسر وزهرة الزنبق والوردة والهلال وغيرها . وهذه العلامات إما شخصية كالسبع[2]

---

(1) L. A. Mayer : Saracenic Heraldry, Oxford 1933.

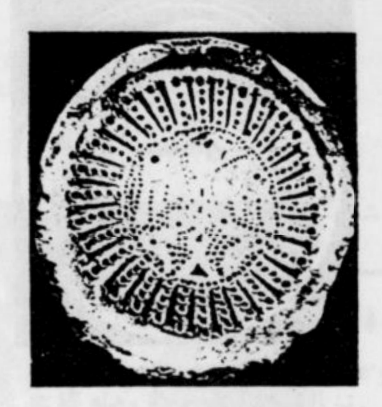
(2) فى مجلة Syria ، ج ١٥ ، سنة ١٩٣٤ ، ص ٩٥ وما بعدها .

(3) انظر أيضاً الدكتور ماير Saracenic Heraldry ، ص ١٤٤ ، حيث أورد ما قاله الذهبى فى كتابه : المنتقى من تاريخ الاسلام

(١) أنظر الدكتور ماير ، نفس المرجع ص ٥

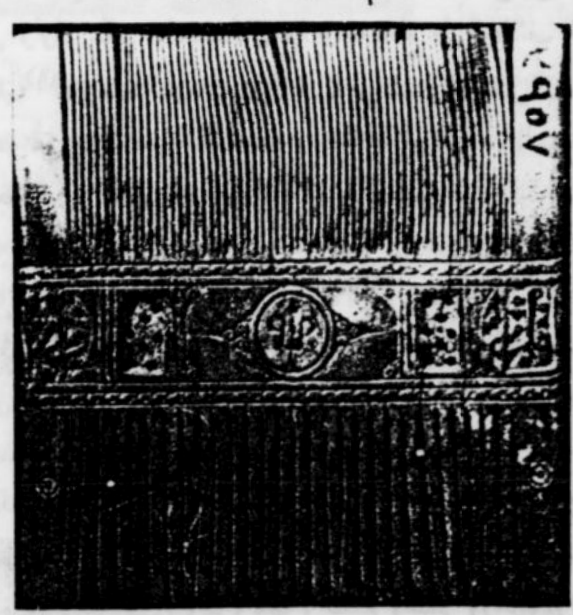
(٢) قال ابن إياس فى بدائع الزهور (طبعة باول كاله ومحمد مصطفى) ج٣ ص٥٠٦ ، إن الأمير يشبك من مهدى الدوادار الكبير « صنع فى رنكه سبعا » ولكننا لم نعثر للآن على آثار باسم هذا الأمير عليها رنك السبع

الذى يرى على نقود السلطان بيبرس البندقدارى ومبانيه ، أو علامات لم يمكن معرفة ما تدل عليه ، لأن تراجم الأمراء المذكورين فى الكتابات المرافقة لها غير مستوفاة ، أو لا تشير إلى



شباك قلة عليه رنك به علامة النسر

الوظائف التى كانوا يشغلونها قبل ترقيتهم إلى درجات الأمراء . وقد استطاع أخيراً الدكتور ماير[1] أن يفسر إحدى هـذه العلامات تفسيراً قريباً من المنطق ، وهى على شكل قرن ، وقال إنها تدل على القرن الذى كان يحفظ فيه البارود ، وذلك لأن أول ظهورها كان فى رنوك الثلث الأخير من القرن الخامس عشر الميلادى ، أى عند ما عمّ استعمال البارود فى الأسلحة .



مشط من الخشب عليه رنك به علامة زهرة الزنبق

وللرنك أشكال مختلفة منها الربع والمدبب والذى يتألف محيطه من تقاطع عدة دوائر ، ولكن أكثر هـذه الأشكال

(١) انظر : L. A. Mayer : Une énigme du blason Musulman, B. I. E., T. XXI, 1939 p. 141 f.

انتشاراً هو الذى يتكون من دائرة يقسمها خطان متوازيان إلى ثلاثة أقسام يسمى القسم الأوسط منها « الشطب » . وتلون الرنوك بألوان مختلفة حسب ما يختاره صاحبها ؛ وتظهر هذه الألوان فى رونقها فى الرنوك المرسومة على الزجاج والخزف والفسيفساء والرسوم الحائطية



مشكاة من الزجاج عليها زخارف وكتابة بالمينا باسم الأمير الملك ورنك به علامة عصاتى البولو

ويقسم الدكتور ماير[1] الرنوك إلى نوعين : رنوك بسيطة ، ورنوك مركبة . فالرنوك البسيطة هى التى تحوى علامة أو أكثر على الشطب ، أو على الرنك مباشرة إذا لم يكن بوسطه شطب ، وهى رنوك شخصية تدل على الوظيفة التى كان يشغلها حاملها قبل ترقيته إلى درجات الأمراء . أما الرنوك المركبة فيرى عليها علامات متعددة على أقسام الرنك الثلاثة ، وهى ليست شخصية ، كما هى الحال فى الرنوك البسيطة ، بل هى رنوك جماعات من المماليك تنتسب كل جماعة منهم إلى أحد السلاطين أو أحد كبار الأمراء كالمماليك المؤيدية والأشرفية والظاهرية مثلاً

(١) انظر : L. M. Mayer : A propos du blason sous les Mamluks Circassiens, Syria, 1937, p. 390 f.

وكانت الرنوك البسيطة هي الشائعة في عصر المماليك البحرية . ولم تظهر الرنوك المركبة إلا في عصر المماليك الشراكسة ، فبدأت بعلامتين فقط على الرنك أيام السلطان برقوق ، وتدرجت إلى أن وصلت إلى سبع علامات على الرنك الواحد في عهد السلطان قايتباي والسلطان قانصوه الغوري

ويوجد نوع آخر من الرنوك خاص بسلاطين المماليك فقط ويسمى في الاصطلاح العرفي - نقلاً عن الغربيين - (خرطوشاً) . وهذا النوع على شكل دائرة مقسمة إلى شطب في الوسط وقسمين آخرين أحدهما أعلاه والآخر أسفله ولا توجد عليه علامات كما في الرنوك الأخرى ، بل عليه كتابات باسم السلطان، مثال ذلك كتابة باسم السلطان قايتباي (انظر الشكل) تقرأ : على الشطب : عز لمولانا السلطان الملك الأشرف ، وفي أعلاه : أبو النصر قايتباي ،



لوح من القاشاني عليه « خرطوش » باسم السلطان قايتباي

وفي أسفله : عز نصره . ويرجع أقدم هذه « الخراطيش » إلى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الميلادي [1] فظهرت أولاً على الأواني كالمشكاوات الزجاج ، وأقدم ما نعرفه منها على المباني خرطوش باسم السلطان الناصر محمد بن قلاون على حائط في حوش بردق بجوار مسجد السلطان حسن

وتوجد بدار الآثار العربية مجموعة قيمة من الرنوك على الأواني والأدوات المختلفة الأشكال والأنواع من الزجاج والخشب والأقمشة والرخام والأحجار والقاشاني والخزف والفخار المطلي



علبة من النحاس باسم الأمير طغيتمر وعليها رنك به علامة الكأس

والنحاس إلى غير ذلك . وكذلك في المتاحف الأخرى والمجموعات الخاصة ، ولكن عدد الرنوك المصحوبة بكتابات تاريخية قليل بالنسبة إلى العدد الهائل الذي وجد منها في حفائر الفسطاط .

محمد مصطفى
أمين مساعد دار الآثار العربية

(١) انظر الدكتورماير : Saracenic Haraldry ، ص ٣٤ وما بعدها

صفحة لامعة من تراث العرب العلمي

ثابت بن قرة

للأستاذ قدري حافظ طوقان



يدهش المؤرخون من حياة بعض العلماء ومن نتاجهم الضخم الملىء بالمبتكرات والنظريات والآراء، ويحيط هذه الدهشة إعجاب إذ يرون هؤلاء المنتجين يدرسون العلم للعلم وقد عكفوا عليه رغبة منهم فى الاستزادة وفى كشف الحقيقة والوقوف عليها . ومما لا شك فيه أن هذا النفر كان يرى فى البحث والاستقصاء والمتابعة لذة هى أسمى أنواع اللذات ، ومتاعاً للعقل هو أفضل أنواع المتاع ، فنتج عن ذلك تقدم فى فروع العلوم المختلفة أدّى إلى ارتقاء المدنية وازدهارها .

ولقد كان فى العرب نفر غير قليل رغبوا فى العلم ودرسوه حباً فى العلم وعرفوا حقيقة اللذة العقلية فراحوا يطلبونها عن طريق الاستقصاء والبحث والإخلاص للحق والحقيقة والكشف عن القوانين التى تسود الكون والأنظمة التى يسير العالم بموجبها .

ومن هؤلاء ثابت بن قرة فقد كان من الذين تعددت نواحى عبقريتهم ، فنبغ فى الطب والرياضيات والفلك والفلسفة ووضع فى هذه كلها وغيرها مؤلفات جليلة ، ودرس العلم للعلم ، وشعر بالمذة العقلية فراح يطلبها فى الرياضيات والفلك فقطع فيها شوطاً بعيداً وأضاف إليها ومهد إلى إيجاد أهم فرع من فروع الرياضيات — التكامل والتفاضل Calculus .

كان ثابت يكنى بأبى الحسن ، ويعجب كثيرون من هذه الكنية لأن (ثابتاً) لم يكن له ولد اسمه حسن ، ولكن الثابت أنه كان له ولدان أحدهما اسمه سنان والآخر إبراهيم . وكنية (أبى الحسن) هى لسنان بن ثابت . أما سبب تكنية ثابت بأبى الحسن فلأن الخليفة المعتضد كان يكنيه بها تحبباً .

ولد ثابت فى حران سنة ٢٢١ هـ ، وتوفى فى بغداد سنة ٢٨٨ هـ « وكان فى مبدأ أمره صيرفياً بحران ثم انتقل إلى بغداد واشتغل بعلوم الأوائل فمهر فيها وبرع » ويقال إنه حدث بينه وبين أهل مذهبه (الصابئة) أشياء أنكروها عليه فى المذهب ، فحرّم عليه رئيسهم دخول الهيكل ، فخرج من حران وذهب إلى كفر توثا حيث اتفق أن التقى بمحمد بن موسى الخوارزمى لدى رجوعه من بلاد الروم فأعجب هذا بفصاحة ثابت وذكائه فاستصحبه معه إلى بغداد ووصله بالخليفة المعتضد فأدخله فى جملة المنجمين ، ويقول ابن النديم : « ... قيل قرأ على محمد بن موسى فتعلم فى داره فوجب عليه حقه فوصله بالمعتضد وأدخله فى جملة المنجمين . . . » وعلى ذكر المعتضد نقول إنه كان يحترم العلماء وأصحاب المواهب والكفاءات ويجلهم ويغدق عليهم العطايا ، فقد روى أنه لما تقلد الخلافة أقطع ثابتاً وغيره (الضياع الجليلة) ، ومما يدل على تقديره لمواهب ثابت وفضله أنه بينما كان يمشى (ثابت) مع المعتضد فى الفردوس وهو بستان فى دار الخليفة ، وقد اتكأ على يد ثابت إذ نزع الخليفة يده من يد ثابت بشدة « ... ففزع ثابت فإن الخليفة كان مهيباً جداً ، فلما نزع يده من يد ثابت قال له : يا أبا الحسن ، سهوت ووضعت يدى على يدك واستندت عليها ، وليس هكذا يجب أن يكون ، فإن العلماء يعلون ولا يُعلون ... »

كان ثابت من ألمع علماء عصره ومن الذين تركوا مآثر جمة فى بعض العلوم ، وكان يحسن السريانية واليونانية والعبرية جيد النقل إلى العربيـة ، ويعده سارطون من أعظم المترجمين ،

وأعظم من عرف فى مدرسة حران فى العالم العربى . وقد ترجم كتباً كثيرة من علوم الأقدمين فى الرياضيات والمنطق والتنجيم والطب . وثابت أصلح الترجمة العربية لمجسطى بطليموس وجعل متنها سهل التناول . ولبطليموس كتاب آخر اسمه — كتاب جغرافيا فى المعمور وصفة الأرض — نقله ثابت إلى العربية ، وأصلح أيضاً كتاب الكرة والأسطوانة لأرشميدس المصرى ، والمقالة الأولى من كتاب نسبة الجذور . وكذلك أصلح كتاب المعطيات فى الهندسة لأقليدس ـ وقد عربه إسحق وهو خمسة وتسعون شكلا . واختصر المجسطى اختصاراً لم يوفق إليه غيره . ويقول ابن القفطى : « ... إنه لم يختصر المقالة الثالثة عشرة ... » وقد قصد من هذا المختصر تعميم المجسطى وتسهيل قراءته . ولا يخفى ما أحدث تعميمه من أثر فى نشر المعرفة وترغيب العلماء فى الرياضيات والفلك

وفى بداية القرن الثالث للهجرة استُعملت الجيوب بدل الأوتار ، ومن الصعب تمييز الشخص الذى خطا هذه الخطوة ، ولكن ثبت أن ثابتاً هو الذى وضع دعوى (منالاوس) فى شكلها الحاضر . وفوق ذلك فقد حل بعض المعادلات التكعيبية بطرق هندسية استعان بها بعض علماء الغرب فى بحوثهم الرياضية فى القرن السادس عشر للميلاد ككاردان Cardan وغير ذلك من كبار الرياضيين ، وقد لا يصدق بعض الذين يمنون بالعلوم الرياضية أن ثابتاً من الذين مهدوا لإيجاد التكامل والتفاضل Calculus ، ولا يخفى ما لهذا العلم من أهمية على الاختراع والاكتشاف فلولا هذا العلم ولولا التسهيلات التى أوجدها فى حلول كثير من المسائل العويصة والعمليات الملتوية لما كان فى الإمكان الاستفادة من بعض القوانين الطبيعية واستغلالها لخير الإنسان . جاء فى كتاب تاريخ الرياضيات للعلامة سمث الأميركى ما يلى : « ... كما هى العادة فى أحوال كهذه يتعسر أن نحدد ـ بتاً كيد ـ لمن يرجع الفضل فى العصور الحديثة فى عمل أول شىء جدير بالاعتبار فى حساب التكامل والتفاضل ، ولكن باستطاعتنا أن نقول إن ستيفن Stevin يستحق أن يحل محلاً هاماً من الاعتبار . أما مآثره فتظهر خصوصاً فى تناول موضوع إيجاد مركز الثقل لأشكال هندسية مختلفة اهتدى بنورها عدة كتاب أتوا بعده . ويوجد آخرون حتى فى القرون المتوسطة قد حلوا مسائل فى إيجاد المساحات والحجوم بطرق يتبين منها تأثير نظرية إفناء الفرق Theory of Exhaustion اليونانية . وهذه الطرق تم نوعاً ما على طريقة التكامل المتبعة الآن . من هؤلاء يجدر بنا أن نذكر ثابت بن قرة الذى وجد حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافىء حول محوره ... »

وأظن إن أساتذة الرياضيات يوافقوننى على أن العقل الذى استطاع أن يجد حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافىء حول محوره لهو عقل جبار مبدع ، يحق لنا أن نباهى به أمم الاختراع والاكتشاف فى هذا العصر ، وهو دليل ساطع على خصب العقلية العربية ، وعلى أنها منتجة إلى أبعد حدود الإنتاج

ولثابت أرصاد حسان تولاها ببغداد وجمعها فى كتاب بيّن فيه مذاهبه فى سنة الشمس، وما أدركه بالرصد فى مواضع أوجهها ومقدار سنيها وكمية حركاتها وصورة تعديلها ... فقد استخرج حركة الشمس وحسب طول السنة النجمية ، فكانت أكثر من الحقيقية بنصف ثانية ، وحسب ميل دائرة البروج وقال : بحركتين مستقيمة ومتقهقرة لنقطتى الاعتدال

وهو أيضاً من الذين اشتغلوا فى الهندسة التحليلية وقد أجاد فيها إجادة عظيمة وله فيها ابتكارات لم يُسبق إليها . وقد وضع كتاباً فى الجبر بيّن فيه علاقة الجبر بالهندسة وكيفية الجمع بينهما . وله أيضاً مقالة فى الأعداد المتحابة ، وهو استنباط عربى يدل على قوة الابتكار التى امتاز بها ثابت . ومن هذه المقالة يتبيّن أن ثابتاً كان مطلعاً على نظرية (فيثاغورس) فى الأعداد ، وأنه استطاع أن يجد قاعدة عامة لإيجاد الأعداد المتحابة . وقد أوضحناها فى كتابنا « تراث العرب العلمى » ، الذى انتهينا منه ، ومنعتنا ظروف الحرب من طبعه فى هذه الأوقات

وثابت أول شرقى بعد الصينيين بحث فى المربعات السحرية وخصائصها ؟ ويقال إنه قسم الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية

بطريقة تغاير الطرق التى كانت معروفة عند اليونان

واشتهر ثابت بالطب وبمؤلفاته القيمة فيه ، ولم يكن فى زمنه من يماثله فى هذه الصناعة . ولا أظن أنى بحاجة إلى القول أنى لست من فرسان هذا الميدان ، لذا أترك البحث فى مآثره الطبية إلى من يُعنون بناحية الطب عند العرب ، ولكن لا بأس من إيراد القصة الآتية التى تدل على ثاقب نظر ثابت وسرعة خاطره وحدة ذكائه . جاء فى كتاب « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » ما يلى : « ... وحكى أبو الحسن بن سنان قال : يحكى أحد أجدادى عن جدنا ثابت أنه اجتاز يوماً ماضياً إلى دار الخلافة . فسمع صياحاً وعويلاً ؛ فقال : مات القصاب الذى كان فى هذا الدكان ؟ فقالوا له : إى والله يا سيدنا البارحة فجأة ؛ فقال : ما مات، خذوا بنا إليه . فعدل الناس معه وحملوه إلى دار القصاب ، فتقدم إلى النساء بالإمساك عن اللطم والصياح ، وأمرهن بأن يعملن مزورة (وهى أكلة معروفة فى ذلك العصر) ؛ وأومأ إلى بعض غلمانه بأن يضرب القصاب على كعبه ، وجعل يده فى يده فى مجسه ، وما زال ذلك يضرب كعبه إلى أن قال : حسبك . واستدعى قدحاً وأخرج دواء ووضعه فى القدح مع قليل من الماء ، وفتح فم القصاب وسقاه إياه فأساغه ، ووقعت الصيحة والزعقة فى الدار والشارع بأن الطبيب قد أحيا الميت ، فتقدم ثابت بغلق الباب ، وفتح القصاب عينه وأطعمه (مزورة) وأجلسه وقعد عنده ساعة ؛ فإذا بأصحاب الخليفة قد جاؤوه يدعونه فخرج معهم والدنيا قد انقلبت ، والعامة حوله يتعادون إلى أن دخل دار الخلافة . ولما مثل بين يدى الخليفة قال له : يا ثابت ، ما هذه المسيحية التى بلغتنا عنك ؟ قال : يا مولاى كنت أجتاز على هذا القصاب وألحظه يشرح الكبد ويطرح عليها الملح ويأكلها ، فكنت أستقذر فعله أولاً ، ثم قدرت أن سكتة قلبية ستلحقه ، فصرت أراقبه ، وإذ علمت عاقبته انصرفت وركبت للسكتة دواء أستصحبه معى فى كل يوم ... فلما اجتزت اليوم الدار وسمعت الصياح قلت : مات القصاب ؟ قالوا : نعم مات فجأة البارحة . فعلمت أن السكتة قد لحقته ، فدخلت إليه ولم أجد له نبضاً ، فضربت كعبه إلى أن عادت حركة نبضه ، وسقيته الدواء ففتح عينه وأطعمته (مزورة) ، والليلة يأكل رغيفاً ، وفى غد يخرج من بيته ... »

والآن نأتى إلى مؤلفات ثابت فنقول إن المجال لا يتسع لذكر كل مؤلفاته لكثرتها . ويمكن لمن يرغب فى الاطلاع عليها أن يرجع إلى كتاب طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة حيث يتجلى له فضل ثابت على العلم وأثره الكبير فى تقدمه . لقد ألف كتباً عديدة ورسائل كثيرة فى الطب والرياضيات والفلك نأتى على بعضها :

كتاب فى العمل بالكرة . كتاب فى قطع الإسطوانة . كتاب فى الشكل الملقب بالقطاع . كتاب فى المخروط المكافئ . كتاب فى مساحة الأشكال وسائر البسط والأشكال المجسمة . كتاب فى قطوع الإسطوانة وبسيطها . كتاب فى أن الخطين المستقيمين إذا خرجا على أقل من زاويتين قائمتين التقيا فى جهة خروجهما . كتاب فى المسائل الهندسية . كتاب فى المربع وقطره . كتاب فى الأعداد المتحابة . كتاب فى إبطاء الحركة فى فلك البروج . كتاب فى أشكال إقليدس . كتاب فى النسبة المؤلفة . مقالة فى حساب خسوف القمر والشمس . كتاب فى صفة استواء الوزن واختلافه وشرائط ذلك . كتاب فى مساحة الأشكال المتكافئة . كتاب فى عمل شكل مجسم ذى أربع وعشرين قاعدة تحيط به كرة معلومة . كتاب فى إيضاح الوجه الذى ذكر بطليموس به استخراج من تقدمه مسيرات القمر وهى المستوية . كتاب فى الهيئة . كتاب فى تركيب الأخلاق . كتاب فى تصحيح مسائل الجبر بالبراهين الهندسية . رسالة فى عدد الوفق . كتاب الفروضات ، وهو ستة وثلاثون شكلا ... وترجم ثابت أيضاً بعضاً من كتاب المخروطات فى أحوال الخطوط المنحنية . ويقول صاحب كشف الظنون : « وهو (أى الكتاب المذكور) سبع مقالات لأبولونيوس النجار الحكيم الرياضى ؛ ولما أخرجت الكتب من الروم إلى المأمون أخرج منه الجزء الأول فوجده يشتمل على سبع مقالات . ولما ترجم دلت مقدمته على أنه ثمانى مقالات ، وأن الثامنة تشتمل على معانى المقالات السبع وزيادة ، واشترط

فيها شروطاً مفيدة ، فمن عصره إلى يومنا هذا يبحث أهل الفن عن هذه المقالة فلا يطلعون لها على خبر . لأنها كانت فى ذخائر المأمون لعزتها عند ملوك يونان . وقال أبو موسى شاكر : الموجود من هذا الكتاب سبع مقالات وبعض الثامنة وهو أربعة أشكال ، وترجم الأربع الأول منه أحمد بن موسى الحمصى ، والثلاث الأواخر ثابت بن قرة ... » — كتاب المختصر فى علم الهندسة . ولمنالاوس كتاب فى أصول الهندسة عمله ثابت فى ثلاث مقالات . كتاب فى أشكال طرق الخطوط التى يمر عليها ظل المقياس ... الخ

ولثابت عدا هـذه كتب أخرى فى الطب منها : كتاب فى مسائلة الطبيب العليل . كتاب فى صفة كون الجنين . كتاب فى المولودين لسبعة أشهر . كتاب فى أوجاع الكلى والمثانى . كتاب فى أجناس ما توزن به الأدوية

أما مؤلفاته فى الموضوعات الأخرى فهى كثيرة منها : كتاب فى حل رموز كتاب السياسة لأفلاطون — مختصر فى الأصول من علم الأخلاق — رسالة فى اعتقاد الصابئين — رسالة فى الطهارة والنجاسة — رسالة فى الرسوم والفروض والعبادات — رسالة فى ترتيب القراءة فى الصلوات وصلوات الابتهال إلى الله عز وجل وكتاب فى الموسيقى ويشتمل على خمسة عشر فصلاً

ومن المؤسف حقاً ألا يصادف المرء إلا القليل من هـذه الآثار التى تركها ثابت إذ القسم الأعظم منها ضاع أثناء الحروب والانقلابات ، ومنها ما هو غاية فى الخطورة من الوجهتين الرياضية والطبية ولو عثرنا على بعض كتبه لانجلت بعض النقط الغامضة فى تاريخ الرياضيات فلقد ظهر من رسالة فى النسبة المؤلفة أنه استعمل (الجيب) وأيضاً الخاصة الموجودة فى المثلثات والمساة (شكل المغنى) أو دعوى الجيوب ، وكذلك لولا بعض القطع التى وصلت إلينا من كتاب له فى الجبر لما عرفنا أنه بحث فى المعادلات التكعيبية

هذا مجمل عن مآثر ثابت فى الفلك والرياضيات يتبين منها الأثر الكبير الذى خلفه فى ميدان العلم كما تتجلى منها العبقرية المنتجة التى تقدمت بكثير من العلوم خطوات واسعة ، وقد اعترف معاصروه بفضله وقدروا نبوغه ونتاجه فسجل بعضهم ذلك فى قصائد رائعة قيلت فى رثائه

جاء فى قصيدة أبى أحمد يحيى بن على بن يحيى المنجم النديم ما يلى :

ألا كل شىء ما خـلا الله مائت

ومن يغترب يُؤمل ومن مات فائت

أرى من مضى عنا وخيم عندنا ... كسَفر نوى أرضاً فسار وبائت

نعينا العلوم الفلسفيات كلها ... خبا نورها إذ قيل قد مات ثابت

وأصبح أهلوها حيارى لفقده ... وزال به ركن من العلم ثابت

ولما أتاه الموت لم يغن طبه ... ولا ناطق مما حواه وصامت

فلو أنه يسطاع للموت مدفع ... لدافعه عنا حماة مصالت

ثقات من الإخوان يصفون وده ... وليس لما يقضى به الله لافت

أبا حسن لا تبعدن وكلنا ... لهلكك مفجوع له الحزن كابت

* * *

إلى أن يقول :

وكم من محب قد أفدت وإنه ... لغيرك ممن رام شأوك هافت

عجبت لأرض غيبتك ولم يكن ... ليثبت فيها مثلك الدهر ثابت

تهذبت حتى لم يكن لك مبغض ... ولا لك لما اغتالك الموت شامت

وبرزت حتى لم يكن لك دافع

عن الفضل إلا كاذب القول باهت

مضى علم العلم الذى كان مقنعاً ... فلم يبق إلا مخطئ متهافت

ولقد توارث آل قرة العلم عن ثابت ، فكان منهم ابنه أبو سعيد ابن سنان ، وكان منهم أحفاده : ابراهيم ثابت وأبو الحسن ثابت وإسحق أبو الفرج . وهؤلاء نبغوا فى الرياضيات والفلك والطب فقد كان منهم الطبيب والعالم والفيلسوف والمهندس ، فأبو الحسن ابن سنان بن ثابت مثلاً كان طبيباً عالماً نبيلاً قرأ كتب أبقراط وجالينوس ، وكان فكاكاً للمعانى ، سلك مسلك جده فى الطب والفلسفة والهندسة وجمع الصناعات الرياضية للقدماء وله تصنيف فى التاريخ .

(نابلس) قدرى حافظ طوقان

هو النبي المنتظر

مسرحية شعرية

للأستاذ محمد عبد الغني حسن



تقدمة

أبطال هذه المسرحية الشعرية جماعة من شعراء العصر الجاهلي ، هم : زهير بن أبي سلمى ، وحسان بن ثابت ، وأعشى قيس ، وقس بن ساعدة. قد جعلناهم في المسرحية هنا يلتقون ويتحادثون ؛ وقد لا يكونون من الناحية التاريخية الزمنية التقوا ، أو جمعتهم دار واحدة ، أو ضمهم مجلس يدور فيه الكلام ، أو تقع فيه الأحاديث

وأولهم « زهير » مات قبل البعثة ، وثانيهم « حسان » عاش في الجاهلية وعمر في الاسلام ، وثالثهم أعد للنبي قصيدة يمدحه بها ويعرض إسلامه ، إلا أن الله لم يشرح صدره ولم يوفق له ، ورابعهم عاش في الجاهلية

ولقد حاولت أن أعرض هنا ألوانا من تفكير كل واحد منهم ، وطرفا من معيشته يبدو خلال حديثه ، كما تدلنا على ذلك كتب التاريخ والأدب .

« فزهير » حكيم مفكر يؤمن بالبعث والحساب ، ويعتقد بالثواب والعقاب ، وقس يشعر ويخطب ، وينظر في الكون وما فيه من ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج فيؤمن بأن له موجداً أوجده ، ومنشئا دبره ، « وحسان » يحس في قرارة نفسه بأنه سيكون له في الغد شأن ، وأن الأقدار تمده ليكون لساناً صارما ، ويكاد يلمح من خلال الغيب ومن وراء السحب مكانه في الاسلام وشهادة النبي له بالجنة

أما « الأعشى » فهو عابث خليع . . . يلهو ويلعب ، ويشرب ويطرب ، ويرى الحياة لذة ومتاعا

المشهد

يجلس هؤلاء الشعراء الأربعة في ناحية من نواحي مكة ، بعد أن جمعهم موسم الحج ، وعلى « زهير » وقار وهدوء ، وهو مطرق إلى الأرض ، بينما يرفع « قس » بصره ، ويقلب وجهه في السماء ، « والأعشى » يبدو في المجلس وقد عاودته خفة الطرب ، وظهرت عليه مسحة من روح عابثة ماجنة ، وبجانبه « حسان » تتحرك شفتاه ويكاد يبدو من بينهم ما لسانه كأنه يريد أن يقول شيئا ... ثم يبدأ الحوار هكذا :

الأعشى :

حَلَفْتُ بهـــا وبأَرْبابها ... وَبالنِّعَمِ الْحُمْرِ فى بابهـــا
وبالمَعْبَدِ الطُّهْرِ فى أرضها ... وبالركْنِ منها وَمحرَابها
وَكُومِ المطَايَا وقد أقبلتْ ... تُساقُ إلى يَدِ حُجَّابهـــا
لأَتخذنْ بهـــا طَوْفَتى ... وَأَقضِى الحقوقَ لأصحابها
وَأَرْجعُ بعْـدُ إلى دارتى ... وفى النَّفْسِ من حُبِّهَا ما بها
فأَنْشقُ من طِيب رَيْحَانهَا ... وَأَشربُ من خَمْرِ أَعْنَابها
وَأَلْوِى بهَا غُصْنَ فتَّانةٍ ... يُلفُّ الشـــبابُ بأثوابها
فأُسمِعهــا الشِّعْر مُسْتَعْذَبا ... وَتُسْمِعنى لحنَ أقصابها

زهير :

ظَننتَ حياةَ المرءِ يا شيْخُ غادةً ... تُلَفُّ وأكواباً تُراقُ وتُسْكَبُ
دَعِ القَصَبَاتِ اليومَ واسمعْ لحكمةٍ ... يؤلِّفها شِعْرًا حكيم مجرِّبُ
أَمَا لكَ فى الشِّعْر المهذَّبِ غايةٌ ... ومالكَ فى صدق التجاربِ مَطْلَب
وَحَتَّامَ تلهو والزَّمانُ كما ترى ... يجيء بأَحْداثٍ جِسامٍ ويذهب
عجبتُ لمن يَقضِي الحياةَ مُلاعباً ... وأيامُهُ من جِدِّها ليس تلعب !

الأعشى :

ما العيشُ إلاَّ صَبَاباتٌ موزَّعةٌ ... وَمُتعةٌ وَلَذَاذاتٌ وأوطَارُ

كم مجلسٍ كان لى فيه مُعابثةٌ — وأرْبُعٌ كان لى فيهن أسمارُ

تظلُّ فيها العذارى يرتمين على — بُسُطٍ وشاهدُنا جُلٌّ وأزهارُ

وكم وقفتُ على الأطلالِ أسألها

قس : وهل تجيبُك فى الأطلال أحجارُ ؟

الأعشى :

بالله هل نفعتْك اليومَ فلسفةٌ — وحكمةٌ نظمَتْها منك أشعارُ ؟

وهل تجاريبُك الغرّاء نافعةٌ — إذا نأتْ بكَ بعد الموتة الدارُ

وهل أتتنا من الماضين تذكرةٌ — أو طالعتنا من الفانين أخبارُ

قس :

عجبتُ لأعشى قيسٍ وهو يداورُ — ويُمعنُ فى أهوائه ويكابرُ

فما صرفَتْه عن هواه شريعةٌ — ولا ردّه عن لهوِه اليومَ زاجرُ

تجاذبه تلكَ القيانُ فؤادَه — وتفتنه تلك المها والجآذرِ

فهل فتنَتْه فى السماء نجومُها — وهنَّ بآفاق السماءِ زواهر ؟

وهل ليلُها الداجي يفتّق ذهنه — وهل صبحُها اللمّاح والضوءُ باهر

وهل فتنته الريحُ والريحُ عاصفٌ — وأثّر فيه البحرُ والبحر هادر

بدائعُ شادتها يدُ القادرِ الذى — تدين له الدنيا وتعنو الجبابر

هو الموتُ ما فى الموتِ شكٌّ على امرئٍ

وللهِ من بعدِ الحياةِ المصائرُ

وما نحن إلا الواردون على الردى — ولو كثُرت بالواردين المصادرِ

زهير :

يا قسُّ إنك قد رُزقتَ لقانةً — ووُهبتَ من فصْلِ الخطاب نصيباً

وأرى عليك من الحكيم ملاحظاً — ترمى الغيوبَ فلا يعُدنَ غيوبا

عينُ البصيرة فيك وهى قويةٌ — نظرَتْ ترودُ العالمَ المحجوبا

أنا ما عرفتُك قبلَ ذلك شاعرا — لكن عرفتُك فى الندِيِّ خطيبا

سبحان من لقّاك من آياته — وحباكَ من صدق اليقين ضروبا

قس :

إنى وجدتُ فى السماء خبرا — كما وجدتُ فى دُجاها عِبرا

أمعنتُ فيها وأطلتُ النظرا — ورحتُ أطوى فى مداها الفكرا

أستقرئ الشمس بها والقمرا — وأقطعُ الفكرَ إليها سفَرا

كأنَّ لي عند السماء وطَرا — فألهمتنى من ذراها سُوَرا

رأيتُ فيها الخالقَ المصوّرا — وقد تجلّى وجهُه وأسفرا

يا ليتَ من أضاء لى ونوّرا — أضاء للأعشى الظلامَ الأكدرا

وفي هذه اللحظة تمر على الشعراء الأربعة فتاة فى برد يمانى مخطط . وقد اعتدل قوامها وأسرعت خطواتها . . . فتغض منها عيون ثلاثة من الشعراء ... أما الأعشى فيتابعها بنظراته الطامعة المتلهفة ... ولا ينصرف من النظر إليها حتى تواريها بعض الجدران فيوجه الكلام إلى « قس » :

الأعشى :

يا ناظراً فى السماء اليوم نظرته — هلّا أطلت لتلك القَينةِ النظرا

مرّت بنا كوميض البرقِ مُعجلةً — كأنها الحُلمُ بعد النوم قد عبرا

تفوح أردانُها مِسكاً وأضورةً — وينفحُ الغصنُ منها زنبقاً عِطرا

ما البدرُ أجمل إشراقاً ولألاءً — منها إذا ما بدا فى الأفقِ أو ظهرا

انظرْ إلى الشمس فى أحضانِ غانيةٍ — وناجِ بين ذراعَىْ حِبِّكَ القمرا

لا تقطع العُمْرَ تفكيراً وفلسفةً — تجنى بها الشوكَ لا تجنى بها الزهَرا

زهير :

صاحبنا الأعشى نطَقْ — بفسقه وما صدَقْ

ما الشعرُ يا أعشى جنو — نٌ ومجونٌ يستبق

الشعرُ حكمةٌ تُصا — دُ من جوانب الأفُق

في الأرضِ ! فى السماء ! فى — ضوء الصباحِ ! فى الغسق

صاعد :

صدَقتَ يا زهيرُ فالشعرُ — هدايةُ البشرْ

من لى بميدانٍ أصو — لُ وأجولُ بالغرَرْ

أنشرُ عَضْباً قاطِماً كأنّهُ وَخزُ الإبَرْ . . .

وهنا يمسك حسان لسانه ويضرب به أرنبة أنفه في زهو وخيلاء . . . من زهو الجاهلية ! ثم يتابع قائلا :

لسانُ حسّانَ الذى يَفرى به صَلْدَ الحَجَرْ

يَقذفُ بالحقِّ عَلَى الباطلِ مَهزومَ الزُّمَرْ

إنى أُحسُّ أنَّ لِى غداً مكاناً يُدَّخَرْ

وأننى يكونُ لِى فيه المقامُ والخطَرْ !

الأعشى :

لعلها أضغاثُ أحلامٍ فدَعْ عنك الهذَرْ

فأىَّ شأنٍ ترتجى ؟ وأىُّ أمرٍ تنتظِرْ ؟

حسان :

لعلَّ هادياً بدَا لعلَّ مُصْلحاً ظهرْ

فَفى بطاحِ مكةٍ شواهدٌ مِن الخبرْ

زهير :

حسّانُ ! أنتَ مُلهمٌ وأنتَ صادِقُ النظرْ

بَشَّرَ عيسى بنَبِىٍّ مَنْ عَصاه قد كفَرْ

يَا ليتنى يَطُولُ بى إلى لِقائهِ العُمُرْ !

حسان :

إنى أُحِسُّ أننى مُدْرِكُهُ على الكِبَرْ

إنَّ دَليلى صادقٌ ما خاننى ولا غدَرْ

زهير :

والحكماء عِندَهم على ظهوره أثَرْ

ترَامَتِ البُشرى به عِندَ النّصارَى فى السُّوَرْ

حسان :

هُوَ الرّسولُ المرتجَى هُوَ النّبىُّ المُنتظَرْ

وهنا يخفض قس طرفه من السماء قائلا :

هُوَ النّبىُّ المُنتظَرْ . . .

محمد عبد الغني حسن

يبغى ربا

للأديب لبيب السعيد

كان كغيره فى القبيل يعكف على « نهم » : يرجو رحمته ويخشى عذابه ، ويتقرب إليه زلفى ... وكان على سنة آله يسعى إلى معبوده بالقربات يؤدى إليه بها بعض حقه ، ويدرأ بها غضبه ، ويبتغى بها مرضاته !

كان فى هذا على آثار آبائه مقتدياً ، ولكن شيئاً من القلق كان يتمز على قلبه ، ولكن جمرات من الشك كانت تلسع ضميره ، ولكن أقباساً كانت تبدو لعقله حيناً بعد حين فتشعره أنه يخبط فى ظلمات ...

أهو الهدى يبدو له ، أم هو الضلال توسوس به نفسه ؟ وصبر أو تصبّر ...

وأتى يوماً إلى « نهم » يصبُّ له لبناً ، وإن فيه لإيماناً يمتزج بالشك ، ونوراً وظلمةً يتصارعان ... على أنه قدّم قربتـه المتواضعة خاشعاً ، ثم انصرف ...

كانت نفسه تبتغى طمأنينة وهداية ، فإما أن تعالج إيمانها بنهم ، وإما أن تطرح هذا الإيمان طرحاً ، لتؤمن إيماناً حقاً بإلـه لا ترتاب فى أنه حق ...

وحانت منه التفاتة عارضة لمعبوده ، فما كان أبلغ دهشه ! لقد رأى — ويا عجباً ! — كلباً يشرب اللبن المقدّس ، والمعبود مغلوب على أمره : أصم ... أبكم ... أعمى ...

وتريّث قليلاً ... فرأى الكلب وقد فرغ من اختلاس قربة المعبود العاجز يرفع رجله فيبول عليه ! !

أذلك مبلغ « نهم » من الحول والقدرة والعزّة ؟ أهذه جلالته وذاك سلطانه :

ألا يا نهـم إنى قد بدا لى ... مدى شرف يبعـد منك قربا
رأيت الكلب سامك حظ عسف ... فلم يمنـع قفـاك اليوم كلبا

لقد تمرّد فؤاده على الإيمان بالتمثال المهين ، وقد بدا له ما كان يخوض هو وقومه من ضلال ...

وسمعته أمه يسخر بإلـهها وإلـه ذويها فهالها الأمر وأقبلت عليه غضبى تنبهه إلى فداحة جرمه وضلالة حكمه وهول زعمه ، مشفقة عليه من عذاب « نهم » !

بيد أن إنكارها ما لبث أن استحال إقراراً ، وإخلاصها لنهم ما لبث أن عاد ازوراراً ، ذلك أنها سمعت حكاية الإلـه التعس ، والحق أبلج لا يستعصى على البصائر إدراكه ، ما دام القلب سليما والنية خالصة

وأنشأت تقول :

فديتك فابغنا ربّا كريما ... جواداً فى الفضائل يابن وهب
فما من سامه كلب حقير ... فلم تمنع يداه لنا برب
فما عبد الحجارة غير غاو ... ركيك العقل ليس بأهل لب

وظلّ النجل المشوق إلى الحق يتحرّى ما تريد الأمُّ المشوقة إلى الحق ... يتحرى ربّا كريماً جواداً فى الفضائل ...

وَصَرَمَ نهماً ، ولبث يصلى حيث يستريح جنانه ، وحيث توجهه القوة العظيمة التى بيدها مقاليد كل شىء ...

***

الكون يريد الله به الخير والرحمة ؛ والقلوب التى عذبها القلق وأضنتها الحيرة يريد الله لها السكينة والاستقرار والمعرفة ، والدجنة الغالبة على الدنيا يريدها الله على أن تنقشع ، والنور الذى أكنّ الله للمهديين من عباده آن انبثاقه ... فالإنسان الكريم الذى اصطفاه الله لهذا كله قد أرسل ...

وبلغ أبا ذرّ مبعث محمد صلى الله عليه وسلم[1] ، فخفقت الأمانى فى صدره ، وود لو صح الأمل ، وقال لأخيه : « اركب إلى هذا الوادى ، فاعلم لى علم هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى يأتيه الخبر من السماء ، واسمع من قوله ، ثم ائتنى . »

(١) اخترنا من روايات إسلام أبى ذر رواية البخارى

وتلبث أبو ذر يرقب عودة أخيه بصبر فارغ، وعاد أخوه يقول: « رأيتُه يأمر بمكارم الأخلاق، ويقول كلاماً ما هو بالشعر »

لم يبلّ هذا القول من أبي ذرّ أواما، فهمّ يتزوّد لرحلة يقوم بها هو نفسه، وحمل شَنّة له فيها ماء، حتى قدم مكة بلد الرجل الذي يأمر بمكارم الأخلاق، ويقول كلاماً تذهب فيه العقول مذاهب ... وأتى المسجدَ يلتمس هذا الرجلَ، ولكنه لم يكن يعرفه، وقد كره أن يسأل عنه ...

وفي اليوم الثالث لمقدمه أقبل عليه عليّ بن أبي طالب، وقد أدرك أنه غريب، فقال: « ألا تحدثني ما الذي أقدمك؟ » قال أبو ذر: « إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدنني فعلت » فلما أخذ موثقه، أخبره بطَلِبته

إذن لقد هدى الجدُّ الموفّق أبا ذر إلى أحد أصفياء الرسول السابقين إلى الانتهال من معينه، الراغبين في نشر دينه

ولكن الظلم يومئذ كان للمؤمنين بالمرصاد، وكانت متابعة محمد يومئذ تكلف فاعلها مالا صبر معه إلا أن تكون الحسنى قد سبقت له من الله هذا، وقد كان من دون لقاء الرسول أذى كثير على أن عليًّا ذلل الصعب، فبلغ الغريب غايته، وحظى بلقاء الرسول، وسمع إلى الحكمة منه وفصل الخطاب

ووضحت الحجة لأبي ذر، واستضاء الحق أمامه كأنه النهار إذا تجلى، وعرف الرب الذي طالما حن إلى معرفته ... فأسلم مكانه ليكون من السعداء بالكرامة قبل أن تكون كرامة، وبالهداية قبل أن تكون هداية، وليكون من المؤمنين القليل قبل أن يكون مؤمنون كثير!

وقال له الرسول رءوفاً به رحيما: « ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري » ولكن أبا ذر كان من إيمانه كالنهر الطافح الفياض لا بد أن يهدر بما فيه ويتدفق على ما يلاقيه، فهو يجيب الرسول في لغة الواثق بربه، المعتز بعقيدته، المتفاني في حبها والدعوة إليها «والذي نفسي بيده لأصرخنّ بها بين ظهرانيهم» ألا فليصرخ أبو ذرّ بها، فما أعذب وما أحلى!! وما الظلم، وما البطش، وما الناس، وما الدنيا تلقاء إيمان أقرّ في الصدر فأضاء جنباته؟ ما الآلام توجع الضعيف، وما الإهانة تلحق الأبيّ، وما الموت نفسه يلحق الحيَّ ما دام يحرز إيماناً ينيله رضوان الله وإعزازه، وينيله الآخرة التي هي الحيوان؟!

أتحسبها كلمةً كان أبو ذرّ قائلها طواعيةً لعاطفة ملتهبةٍ تنثني بعد حين هامدة؟ كلا! لقد خرج حتى أتى المسجدَ — وأهلُ المسجد يومئذ هم ما هم كراهيةً مجنونةً لمحمد وأتباعه، ورغبةً منسعّرةً في حسم شأفتهم جميعاً — خرج حتى أتاهم، فصاح بها ما وسعه الصياح، صاح بالشهادة: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله!

وكان ما كان مرتقباً. كان أن ضربوه حتى أضجعوه، ولم ينقذه منهم إلا العباس الذي أكبّ عليه منذراً إياهم انتقام « غفار » الضاربة في طريق تجارتهم إلى الشام

ولكن أتحسب ثانية أن ذلك كان ليصدّ أبا ذر عن العودة إلى الجهر بشعار الإسلام الذي تشرّبه قلبه؟ أتحسب خشية العدو المتجبر دلفت إلى قلبه الكبير فنمته الهتاف بكلمة الإيمان؟ أتحسب ضعفه وكونه وقتئذ خامس خمسة هم كل مسلمي الأرض ... أتحسب ذلك ليوهن منه ويقهره على كتمان قولة الحق؟ هيهات! فلقد عاد من الغد لمثل ما كان أمس، وقد عادوا فضربوه، وثاروا إليه، لولا أن عاد العباس فأكبّ عليه ...

وقدم أبو ذرّ على أخيه فأخبره بإسلامه فأسلم؛ وانطلقا إلى أمهما وقد وجدا مُبتغاها ... وجدا (الربّ الكريم الجواد في الفضائل)، فلم يكنْ إلا أن تؤمن! ودخلت بمدهم « غفار » جلّها في دين الله، فكانت من كتائبه المجاهدة، وكانت أهلاً لقول الرسول الكريم فيها: « غفار، غفر الله لها!! »

(المنصورة) لبيب السعيد

حكم استئنافيا بتغريم سيد أحمد ابراهيم البقال بروض الفرج بالقضية نمرة ٦٨١٦ بجلسة ٤ فبراير سنة ١٩٤١ خمسون قرشا لبيعه كبريتا بأزيد من التسعيرة

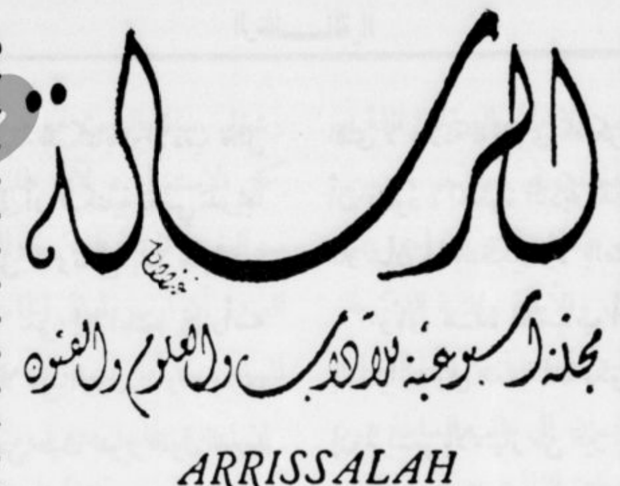
(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)



9me Année No. 401

Lundi - 10 - 3 - 1941





ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العــدد ٤٠١ « القاهرة فى يوم الإثنين ١٢ صفر سنة ١٣٦٠ — الموافق ١٠ مارس سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــرس

صفحة

الفكر و « السلطة »

للأستاذ عباس محمود العقاد

جاءتنى هذه الرسالة من الأديب صاحب الإمضاء أجتزئ منها بما يأتى للتعقيب عليه . قال حضرته :

« ... ما قصدت بهذه الرسالة إلا إلى استجلاء نقطة دقيقة فى حياة الإنسان المفكر . وهى الصلة فى شخص الكاتب بين العقل الكبير مصدر الآراء النافعة التى يرسمها القلم البليغ وبين الطموح إلى السلطة التى هى وسيلة تنفيذ تلك الآراء الداعية إلى الهداية والإصلاح . ولا أعرف مدى طموحك وما تريد . غير أنى أعلم أنك تحمل عقلاً كبيراً وشخصية قوية ، ومن اجتمعت له الشخصية المؤثرة والعقل النفاذ ، لا بد أن يكون عنصر حب السلطة والقيادة من أقوى عناصر طبعه ... لقد جاهدت كثيراً فى ميدان الصحافة والأدب ، ثم بلغت مرتبة نائب ، فهل هذا منتهى جهدك ؟ يبدو لى أنك تبلورت فى مركزك الأخير !

« قد تقول إنك لم تسع إلى منصب القيادة الإدارية مكتفياً بالقيادة الفكرية والأدبية ؛ وقد تقول إن الرجل ذا الفكر الحر لا يمكن أن يطمع فى السيطرة والسيادة ؛ ولكن هذه بالذات هى النقطة التى أريد أن أبحثها معك . فهل يستطيع الكاتب

النابغة أن يعمل كما يكتب ، أم إن مهنة الكتابة والأدب تقتل فيه القدرة على العمل والتنفيذ ؟ يبدو لي أن الكتابة تقضي تدريجاً على قوة البناء والتنفيذ في نفس الرجل ، وتنمي بدلاً منها قوة سلبية — إن جاز هذا التعبير — حتى إذا اختمر في رأسه مشروع أو فكرة عجز عن إبرازه إلا على الورق . وقد يعزى الكاتب نفسه بأنه يعمل عملاً إيجابياً من حيث تنوير عقول الغير ، ولكن هذا غير العمل المباشر الذي يسعد المرء به عند تطبيق فكرة أو تنفيذ مشروع

« وقد كان دزرائيلي كما تعلم أديباً وكاتباً ، وكان يقرض الشعر قبل أن يخوض ميدان السياسة ؛ ولكنه كان يقول : إن الشعر هو صمام الأمان لنفسي ، غير أني أريد أن أفعل ما أقول . وكان دزرائيلي من أقدر وأبرع رجال الحكم الذين عرفتهم انجلترا في تاريخها الطويل

« إني أعتقد أن مصر بحاجة إلى رئيس حكومة من هذا النوع من الرجال الأدباء بطبعهم ذوي العقول النابغة . فما رأيك ؟ أرجو أن أسمع رأيك ، ولو كبدك ذلك كتابة رسالة إليّ ، أو مقال « للرسالة » ، فإني من قرائها المدمنين ، ولك مني ألف تحية ...

المخلص

« الاسكندرية » الياس ابراهيم بدوي

***

والمسوغ الوحيد عندي للتعقيب على هذه الرسالة هو أن أتخذ منها موضوعاً لدراسة نفسية ، وإن تناول هذا الموضوع شخصي فيما يتناوله من أطرافه وشعابه

فكان الخطأ في رأي الكاتب — على ما أرى هو اعتقاده أن « السلطة » نهاية كل قدرة ، وأن السلطة والقدرة شيئان من معدن واحد ، أو شيئان لا ينفصلان

ولبيان هذا الخطأ نسأل : لماذا يطلب الإنسان السلطة ؟ وجواب هذا السؤال أنه يطلب السلطة لسبب من هذه الأسباب الأربعة : أولها أن تسخير الناس طبيعة فيه كالطبيعة التي تشاهد في رأس القطيع بين الحيوانات الاجتماعية ، وفي هذه الحالة تكون السلطة عنده بمثابة الوظيفة الحيوية أو التركيب البدني الذي لا علاقة له بقوى الفكر والروح . إنسان يسود لأنه لا بد أن يسود ، كالقوة المادية الدافعة التي لا بد أن تدفع غيرها ، فلا شأن لها بالتفكير ولا بالضمير

وثاني هذه الأسباب أن الإنسان يطلب السلطة ليشعر بالامتياز ، وفي هذه الحالة يكون هذا الإنسان ناقصاً بين النقص إن لم يشعر بالامتياز من غير سلطة ، ويكون ناقصاً بيّن النقص إن كان سبيله الوحيد إلى الشعور بامتيازه أن يرى إنساناً يقصده في حاجة ، ويرى إنساناً آخر يقف مكتوفاً بين يديه ، ويرى إنساناً ثالثاً يطيعه وإنساناً رابعاً يخشاه . فإن امتياز الفكر والروح يتحقق لصاحبه ولو لم ير بعينيه مظهراً من هذه المظاهر ، كما أن هذه المظاهر تسقط عن صاحبها متى زالت عنه السلطة وزال عنه الأمل في العودة إليها ، فلا يقصده بالحاجة من كان يقصده بها ، ولا يقف مكتوفاً بين يديه من كان يقف بين يديه هذه الوقفة ، ولا يطيعه أو يخشاه من كان يربه الطاعة والخشية ، ولا يحس يومئذ شيئاً من الامتياز الذي أضافته السلطة إليه ثم زال عنه بزواله

أما صاحب الامتياز الحق فهو يشعر به ولو لم يشعر به غيره ، كصاحب الجسم القوي يأكل أكل ذوي المعدات القوية ويعدو عدو أصحاب السيقان القوية ، ويقاوم عوارض الجو كما يقاومها أصحاب البنية القوية ، ولو لم يعلم أحد أنه بهذه المنزلة من قوة البدن . بل إنه ليأكل ذلك الأكل ويعدو ذلك العدو ويقاوم تلك المقاومة ولو اعتقد أناس أنه ضعيف ممعود

وإن صاحب الامتياز الحق ليشعر بامتيازه ويزداد شعوراً به حين ينظر إلى الممتازين الذين يقوم امتيازهم على مظاهر الخشية والرجاء والركوع والانحناء ، فلا يحب أن يبادلهم ما هم فيه ، ولا يهون عليه أن يفقد من حريته ووقته ومتعة عقله ما يفقده هؤلاء للوصول إلى « السلطة » التي تناط بها تلك المظاهر

أيظن الأديب كاتب الرسالة أن الدينار الذهب يتضاءل بين يدي الورقة الزائفة ذات العشرة الدنانير ؟ أيظن أن رواج هذه الورقة التي لا تساوي نصف درهم يغض من قدر المعدن الأصيل الذي لا زيف فيه ؟ إن الطريق السهل لأحرى بالاتباع ، وأسهل الطريقين هنا هو احتقار الذين تروج بينهم الورقة الزائفة ويعمون

عن الذهب الصحيح . فذلك أسهل من الإعجاب بالورقة الزائفة ، ومن مجاراة الغافلين فى غفلتهم والجاهلين فى جهالتهم ، ومن نسيان القيم الصحيحة ذهاباً مع قيم الطلاء الذى يتراءى على وجوه الأشياء ، ومن فقدان الوقت والأمانة والمتعة الفكرية والنفسية التى لا بد من فقدها فى كل سعى إلى لبانة من هذا القبيل

والسبب الثالث الذى يحفز الإنسان إلى طلب السلطة هو اتقاء شرور السلطة والأمان من سيطرة الغالبين ، فهو يتقلد سلاحهم ليدفعهم به لا لأنه يحب ذلك السلاح وينزع إلى الضرب به لغير اضطرار

والسبب الرابع الذى تطلب السلطة من أجله هو الانقلاب الاجتماعى الذى لا يتم بغير قوة مشروعة أو غير مشروعة ؛ فيطلبها صاحب المذهب الاجتماعى ليستخدم سلطان الحكومة فى إصلاح ما يحتاج عنده إلى الإصلاح

تلك هى الأسباب الأربعة التى تغرى المرء بطلب السلطة فيما أراه

فإذا شاء بعض القراء أن نمد المشرحة قليلاً لنضع عليها حالة نفسية محققة فى مواجهة كل سبب من هذه الأسباب فإليهم خلاصة هذه الحالة النفسية مع الإيجاز

فالرجل الذى يطلب السلطة لأنها وظيفة حيوية أو تركيب بدنى هو رجل محسود فى رأى كثير من الناس ، ولكنى أنا لا أحسده ولا أشعر بإكباره ، لأن قوته من قبيل القوى التى تحسب بعدّاد، وتقاس بمقاييس العضل والأوصال، وتخرج من نطاق الفكر والضمير

والرجل الذى يطلب السلطة ليشعر بامتيازه حين يخشاه من يخشى ويطيعه من يطيع ، هو كذلك رجل محسود فى رأى كثير من الناس ، ولكنى أنا أرثى له وأستصغر همومه ، وأرى أنه يشغل عقله ونفسه بالحواشى والظواهر التى تزول بزوال السلطة وتنتقل إلى غيره بانتقالها ، فليست هى من أصالة الخلق ولا من حقائق الطباعة والملكات

والرجل الذى يطلب السلطة ليتقى بها السلطة هو رجل معقول مفهوم ، ولكنى أراه مسرفاً فى طلبه إذا ترك ما خلق له وشغل حياته بالبحث عن سلاح قد يحتاج إليه وقد يستغنى عنه كل الاستغناء ، لأن طلب السلطة شغل شاغل لا يجتمع مع التفرغ للمتعة الفكرية والذوقية ، وسبيلى الذى أوثره فى هذا الصدد أن أرسم لحياتى الخاصة وحياتى الروحية حقوقاً لا أقبل المساس بها أقل مساس ، فإن تركت لى تلك الحقوق فذاك ، وإن اعتدى عليها معتد فيومئذ أرجع إلى سلاحى فلا أدعه حتى أدع ذلك المعتدى نادماً على ما جناه

أما طالب السلطة للإصلاح فله موضعان : موضع الهدم فى المجتمع الذى لم يبق فيـه ما يقيمه على أساس ؛ ولا اختيار فى هذا الوضع لأحد من الناس ، لأنه إنما يفرض نفسه فرضاً على المصلحين ، إما برسالة دينية أو بانقلاب يأتى فى أوانه ، وهو لا يأتى ولم يأت قط إلا فى أعقاب الحروب والهزائم الكبار

والوضع الثانى موضع الإصلاح الحكومى وهو عمل نافع لا شك فيه ، ولكنه يقتضى التفرغ له من البداية ، ولا يعالج فى فترة بعد فترة ، ولا مناوبةً منتظمة بين الأدب والإدارة . وأكبر ما يأتى به المصلح فى هذا الباب ليس بأكبر من فكرة أدبية أو ثمرة فنية يتفرغ لهـا الأديب جهد ما يتاح له التفرغ فى بلادنا الشرقية ، فإن إصلاح سنة أو سنتين لن يكون فى نهايته غير إصلاح مرحلة قصيرة من مراحل الحياة البشرية فى أمة واحدة ، ولكن الثمرة الفنية حقيقة خالدة لذاتها ولو لم يكتب لها البقاء

وقد ذكر كاتب الرسـالة اسم دزرائيلى نموذجاً للأدباء والكتاب الذين يريدون أن يعملوا ما يقولون ؛ فهل لكاتب الرسالة أن يذكر لنا ما هى الفكرة الأدبية التى عملها دزرائيلى فى أيام حكمه ؟ وهل له أن يذكر لنا مثلاً آخر من الأدباء والكتاب الذين يعملون أدبهم فى مناصب الحكومة ؟

فما طلب دزرائيلى الحكم ليعمل فيه ما يفكر فيه الأديب أو الشاعر أو القاص أو الفنان ، ولكنه طلبه ليدفع به الهوان الذى كان يلقاه بين البيئات الأوربية ، وليكره من يزدرونه على أن يحسبوا حسابه ويرجعوا إليه . ولو ازدرانى أحد لرجعت إلى

لنحكم رجال الأدب العربي

السباعي بيومي

يتستر جنايته على المبرد بجنايته على المرصفي

للدكتور زكي مبارك

— ٢ —

ما الذي يوجب أن تشعر يا سيد سباعي بمثل لسع العقرب كلما لوَّحتُ لك باسم الشيخ المرصفي ؟

ما الموجب لهذا الفزع وقد مات المرصفي ومات ثم مات ؟

السبب أوضح من أن يحتاج إلى من ينبّه إليه القراء ، وهو عرفانك بأني سأقهرك على الاعتراف بأن كتابك « تهذيب الكامل » لن يظهر سليما من الأغلاط يوم تطبعه للمرة الثانية إلا وأنت مدينٌ أثقل الدّين لكتاب « رغبة الآمل في شرح الكامل » وهو الكتاب الذي دعوتَ الناس إلى الصدوف عنه ليخفى عليهم فضل مؤلفه عليك

وشبح الشيخ المرصفي سيلاحقك في يقظتك ومنامك ، لأن كتابك لن يطبع بعد اليوم قبل أن تشهد كل صفحة من صفحاته بأنك استعنت بتحقيقات الشيخ المرصفي ، وقبل أن تعترف علانيةً بأنك خضعت لجبروت الحق ، بعد أن طال جدالك فيه

ولو كان الله منحك نعمة الذوق لقدرت قيمة التعصب لرجل ميت لا أنصار له ولا أشياع ، ولا ينتظر أن يكون للتعصب له بارقة من بوارق الثواب ، وقد عاش ما عاش وهو معدوم السناد من العصبيات ، فما استهانتك بالوفاء وهو معنى لا يقيم له الميزان غير أحرار الرجال

ثم ماذا ؟ ثم وجدتَ الفرصة للتخلص من تهمة السرقة من كتاب النثر الفني فيما يتصل بنشأة فن المقامات في الأدب العربي ، لأن كتاب النثر الفني ظهر في سنة ١٩٣٤ وأنت فيما تزعم أعلنت هذا الرأي في سنة ١٩٣٣

نفسي أسألها : لماذا يزدريني هذا الأحد ؟ فإن كان لسبب حق فالحكم لا يدفعه عني ، وإن كان لسبب من هذه الأسباب العارضة ، فأنا إذن أولى بأن أزدري ذلك الأحد ، وهو على خطأ وأنا على صواب

وقال كاتب الرسالة : « لقد جاهدت كثيراً في ميدان الصحافة والأدب ثم بلغت مرتبة نائب . فهل هذا منتهى جهدك ؟ يبدو لي أنك تبلورت في مركزك الأخير ! »

فالذي يقرأ هذا الكلام يخيل إليه أن كرسي النيابة نهاية طريق لي أو مرحلة على الأقل في تلك الطريق

على أن الحقيقة فيما أرى أن كرسي النيابة تعريجة في منعطف الطريق الذي أسير فيه، وأعني به طريق الأدب والكتابة . وكل ما ألتزم به على هذا الكرسي أن أخدم الدائرة التي أنوب عنها ، وقد فعلت ؛ ولي أن أقول إن نائباً آخر لم يفعل لدائرته الانتخابية خيراً مما أفعل . وإلى جانب ذلك أؤدي عملي في النيابة على الوجه الذي أراه ، ولا أستبيح لنفسي أن أتخلف عن جلسات المجلس إلا لعذر قاهر سواء كان لي كلام في الجلسة أو لم يكن لي فيها كلام

تلك هي الصورة الصحيحة لمكان النيابة من حياتي العامة ، وسأعود من تلك التعريجة راضياً مغتبطاً في اليوم الذي تأذن لي فيه حالة الأدب بيننا نحن الشرقيين أن أفرغ للكتابة و « العمل » الأدبي الذي أرتضيه

وصفوة القول أنني أعز الأدب هذا الإعزاز لأنه منحة لا يعطينيها إنسان ، فلن أعلق حياتي ولا قيمتي بمنحة يعطينيها أحد من الناس ولو كانت الشهرة الأدبية التي قد يخيل إلى قوم أنها بغية التمني وغاية الغايات ، فإن جاءت الشهرة غير ممنونة ولا مبخوسة فقد سعت إلى وما سعيت إليها ، وإن أبت أن تجيء على ما أختار فلست أخطو إليها خطوة ... فكيف بالوظيفة والمنصب وما إلى هذه الأشياء ؟

عباس محمود العقاد

فهل تصدق فى سريرة نفسك أنك نجوت من صولة الحق ؟

وهل تظن أن الأسانيد المدونة فى مقالاتى ومؤلفاتى غير قديرة على إلقاء تهمة السرقة فوق منكبيك بصورة لا تُبقى لك فرصة من فرص المكابرة والروغان ؟

إليك أسوق البراهين التى تقطع بأن الشيخ الإسكندرى نقل عنى ، والتى تجزم بأنك سرقت من كتابى

والحمد لله الذى أتاح هذه الفرصة ، ليعرف تلاميذك بدار العلوم أنك تقدم إليهم معارف أدبية لم تشق فى تحصيلها لحظة أو لحظتين ، وإنما نهبتها فى الخفاء ، ولم تكن تعلم لسوء حظك أن الحقوق تردّ إلى أصحابها ، ولو بعد حين

أنت قلت فى كلمتك الثانية إنى التفتّ إلى نص زهر الآداب مصادفة حين قمت بتصحيحه فى سنة ١٩٢٥ ، وهذا حق ، فالمصادفة هى التى هدتنى إلى النص الذى يجعل بديع الزمان متأثراً بابن دريد فى إنشاء المقامات ، ولكن كيف رأيتُ لهذا النص قيمة تستحق التسجيل ؟ إنما كان ذلك لأن الدكتور « أحمد ضيف » كان حدثنا فى محاضراته بالجامعة المصرية أن فن بديع الزمان فى المقامات مستوحًى من الآداب الفارسية ، ولولا ذلك لكان من الجائز أن يمرّ نص زهر الآداب بدون أن ألتفت إلى قيمته فى تاريخ الفنون الأدبية

وقد حدثت الدكتور أحمد ضيف عن هذا النص فأجاب بأنه لا يزال عند رأيه الأول ، ثم حدثت الدكتور طه حسين عن هذا النص فجادلنى فيه وانتهينا إلى رأى سجلته فيما بعد بالتفصيل

وفى سنة ١٩٢٧ شرعت فى تأليف كتاب النثر الفنى باللغة الفرنسية وأثبتُّ فيه النص الذى اهتديتُ إلى قيمته فى زهر الآداب ، ومعنى ذلك أنى حررت هذه المسألة قبل أن يلتفت إليها الشيخ الإسكندرى فى سنة ١٩٣٠

ولكن كتاب النثر الفنى لم يظهر فى مكاتب باريس إلا فى سنة ١٩٣١ فكيف يصح القول بأن الشيخ الإسكندرى نقل عنى ؟

لم ينقل الشيخ الإسكندرى فى سنة ١٩٣٠ عن كتاب ظهر بالفرنسية فى سنة ١٩٣١ فذلك غير معقول ، وإنما نقل الشيخ الإسكندرى عن كتاب نشره زكى مبارك فى سنة ١٩٢٩ وهو الطبعة الثانية من زهر الآداب ، ففى هامش الصفحة ٣٠٧ قال زكى مبارك فى التعليق على عبارة الحصرى ما نصه بالحرف :

« مؤدّى هذا الكلام أن بديع الزمان ليس مبتكر فن المقامات ، وأنه حاكى ابن دريد فى أحاديثه ، وقد استغللتُ هذا النص فى كتابى الذى وضعته بالفرنسية عن النثر الفنى فى القرن الرابع ، وقد دهش المسيو (مرسيه) لهذه الفكرة وعجب كيف اتفق الناس على أن البديع هو منشئ فن المقامات ، ولكنى من جانب آخر أذكر أنى لم أر مثل هذا الكلام فى غير زهر الآداب ، ولا أزال ألتمس له مصدراً آخر ، ولم أعثر على شىء إلى اليوم ، ويزيد فى الدهشة أن صاحب زهر الآداب يروى المسألة على أنها مقبولة معروفة لم تُمسّ بنقض ولا تكذيب ، وقد نقلها عنه ياقوت فى معجم الأدباء » .

ذلك ما جاء فى هامش الجزء الأول من كتاب زهر الآداب وقد ظهرتْ طبعتُه الثانية سنة ١٩٢٩ وكان الشيخ الإسكندرى يقتنى جميع الطبعات كما حدثنى غير مرة ، رحمه الله

ومع ذلك لم تقف المسألة عند كلام أحدّث به أساتذة الأدب العربى ثم أثبته فى هامش كتاب يظهر فى سنة ١٩٢٩ فقد نشرتُ مقالاً رنّاناً فى مجلة المقتطف (عدد إبريل سنة ١٩٣٠) نشرته وأنا مزهوّ زهو الطاووس تحت عنوان : « إصلاح خطأ قديم مرّت عليه قرون فى نشأة فن المقامات »

وكان من أثر ذلك المقال الرّنان أن تثور بينى وبين المرحوم مصطفى صادق الرافعى معركة قلمية على صفحات المقتطف

فهل من المعقول أن تثور معركة قلمية بين زكى مبارك ومصطفى الرافعى ولا يصل صداها إلى الشيخ الإسكندرى « وكان من المشتركين فى المقتطف » وهى فى موضوع يتصل بدروسه فى دار العلوم ؟ !

من الكلام الذى نشرته فى سنة ١٩٢٩ بهامش الطبعة الثانية من زهر الآداب ، والمقال الذى نشرته فى المقتطف سنة

١٩٣٠ أخذ الشيخ الإسكندرى فكرة القول بأن بديع الزمان نقل فن المقامات عن ابن دريد ، وإلا فكيف سكت الشيخ الإسكندرى عن هذه المسألة فى كتابه : « تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى » الذى ظهر سنة ١٩١٣ وكتابه الموسوم بالوسيط الذى شاركه فى تأليفه الشيخ مصطفى عنانى وقد ظهر قبل سنة ١٩٢٥ ؟

لماذا أجّل الشيخ الإسكندرى هذه المسألة إلى المذكرات التى ظهرت فى سنة ١٩٣٠ وهى المذكرات التى حدثتَنا أنها « طبعة أخيرة » ؟!

إنما اهتدى الشيخ الإسكندرى فى « الطبعة الأخيرة » بما قرأ لزكى مبارك فى هامش زهر الآداب سنة ١٩٢٩ وبما نشر زكى مبارك فى المقتطف سنة ١٩٣٠

ولك أن تغيّر هذه الوقائع ، إن استطعت ، ولن تستطيع

ثم أذكر أن الأستاذ أحمد الزين أرسل إلىّ خطاب ثناء بعد قراءة مقالى فى المقتطف ، وأحمد الزين كان يسمُر كل ليلة مع الشيخ محمد عبد المطلب ، فلو كان من الصحيح أن أبناء دار العلوم كانوا يعرفون جلية هذا الأمر منذ بداية القرن العشرين لكان من الواضح أن يفهم الأستاذ الزين أن مقالى فى المقتطف لم يأت بجديد حتى يستوجب خطاب ثناء

وأنا أتحداك أن تثبت أن شخصاً واحداً من أبناء دار العلوم تحدث عن هذه المسألة فى كتاب مطبوع أو مخطوط قبل أن أتحدث عنها فى هامش زهر الآداب سنة ١٩٢٩

انتهت قصة الشيخ الإسكندرى ، فما قصتك أنت ؟

لا تقل إنك قرأت مذكرات الشيخ الإسكندرى فى طبعتها الأخيرة سنة ١٩٣٠ ، ولكن قل إنك كنت ناظراً لإحدى مدارس المعلمين الأولية ، وهى مدرسة يدخلها فى كل شهر ثلاث نسخ من أعداد المقتطف ، فهل يكون من الممكن أن تثور معركة قلمية بين زكى مبارك ومصطفى الرافعى على صفحات تلك المجلة ولا يلفتك إليها أحد من الأساتذة أو الطلاب ؟

اسمع أيها الأستاذ الفضال :

أنت لم تقدم نصاً يشهد بأنك سجلت كلمتك فى عبارة زهر الآداب قبل ظهور الطبعة العربية من كتاب النثر الفنى سنة ١٩٣٤ فلم يبق إلا النص المسجّل عليك فى مجلة السراج سنة ١٩٣٧ وهو قاطع بأنك سرقت من كتاب النثر الفنى وإليك القرائن :

أولاً — من المفهوم عند جميع الباحثين أن الباحث يشير إلى الطبعة الأخيرة من الكتاب الذى ينقل فقرة من فقراته ، فكيف تشير أنت إلى طبعة زهر الآداب القائمة على هامش العقد الفريد وقد انقرضتْ من الأسواق ، ولا تشير إلى طبعة زكى مبارك التى ظهرت فى سنة ١٩٢٩ ؟ أليس ذلك شاهداً على أنك تخشى أن يفطن القراء إلى أنك انتهبت عبارة زكى مبارك ؟

ثانياً — أنا لم أعيّن النظرية التى انتهبتها من كتاب النثر الفنى حين هددتك بكشفها أمام قراء الرسالة ، فكيف عرفتَ أن هذه النظرية هى المقصودة بالذات ؟ ومن أدراك أيها الأستاذ ، أنها سِكين ؟!

ثالثاً — أشقيت نفسك فى التهوين من هذه النظرية ، فما الموجب لذلك التهوين لو كانت من مبتكراتك أو مبتكرات أحد أساتذتك بدار العلوم ؟

إنك تهوّن من شأن هذه النظرية لأنها من مبتكرات زكى مبارك ، فهى عندك شىء عديم القيمة لا يستوجب أن يُزْهى به الرجل زهو الطاووس !!

هذه القرائن هى حجتى عليك ، وهى البرهان القاطع على صحة العبارة التى تقول :

« يكاد المريب يقول خذونى »

ما الموجب لأن تقول إن كشف هذه النظرية لا يساوى كشف مقبرة توت عنخ آمون ؟

إنما كان مَثَلُك مَثَل اللص الذى يهوّن شأن ما سَرق لينجو من العقاب وأنت تدرك الخطر الملفوف فى هذا اللحظ الدقيق !!

وهناك نظرية أخرى متصلة بالمقامات ، وهى نظرية فاتنى النص عليها فى النسخة الفرنسية التى ظهرت سنة ١٩٣١ ولم تفتنى

في النسخة العربية التي ظهرت سنة ١٩٣٤ فهل ترى لما «خبرآ» في «الطبعة الأخيرة» من مذكرات الشيخ الإسكندري ؟ وهل تراك حدثت بها قراء مجلة السراج في سنة ١٩٣٧ ؟

وهناك نظرية ثالثة متصلة بالمقامات وفيها ردٌّ على المرحوم الشيخ محمد عبده وهي مثبتة في كتاب «ليلى المريضة في العراق» فهل تعرف هذه النظرية ؟

وهنالك تحقيق متصل بالمقامات ، وهو موضوع مقال حدثت به صاحب «الرسالة» منذ أكثر من عامين ولم أقدمه لمجلة الرسالة إلى اليوم ، لأنه يفرض الرجوع إلى عادات بعضها في النجف ، وبعضها في بغداد ، فهل تعرف موضوع ذلك التحقيق ؟ وهل تعرف ما بقي مطويًا من أسرار المقامات ؟

أترك هذا الجدال لأوجه الكلام إلى الدكتور عبد الوهاب عزام وكان ألقى محاضرتين عن بديع الزمان في سنة ١٩٣٤ فقد حدثني أمام جماعة من أساتذة الجامعة المصرية أنه اعتمد على كتاب النثر الفني في النظرية التي تقول بأن بديع الزمان نقل فن المقامات عن ابن دريد ، فكيف غاب عن الدكتور عزام أن أبناء دار العلوم نشروا هذه النظرية قبل عشرات السنين ؟

أما بعد فقد ظهر أن الأستاذ السباعي بيومي سَرَق من كتاب النثر الفني ما سرق ، وتبيَّن للجمهور أنه يقدم لتلاميذه زاداً نهبه من كتابي بدون استئذان ، ولست من الملائكة حتى أسكت عمن يسرق مني أكثر من أربع سنين

والأستاذ السباعي يبالغ في شتمي عامداً متعمداً ليقهر أصدقاءنا على وقف هذه الخصومة الأدبية ، عساه ينجو من بطش قلمي

وأقول إني لم أكن أعرف أن اللغة العربية غنيّة بألفاظ الهجاء قبل أن أقرأ كلمته الثانية ، وأنا من الذين يدينون بوجوب طلب العلم من المهد إلى اللحد ، فمن واجبي أن أرحب بمن يعلمني طرائق السباب ، ومن أجل هذا أرفض كل الرفض أن ينتهي ما بيني وبينه بالصلح ، ولو صدر عن الرجل الكريم الذي أسرّ في أذني عبارات ونحن بوزارة المعارف

لقد شتمني هذا الرجل ليصرفني عن تسجيل ما سَرَق مني ، فهل نجا من تطويقه بتلك السرقة البلقاء ؟

لو كان يعقل لعرف أن السرقة من كتاب النثر الفني لا تغض من أقدار الرجال ، لأن كتاب النثر الفني كالشمس يعيش في ضيائها أرباب الوفاء ، كما يعيش أصحاب العقوق

السباعي يهدد ويهدد بنقد مؤلفاتي ، وهو من فضلها يعيش ، فهل رأيتم أقبح وأشنع من هذا الكفران ؟

والسباعي يكاثرني بأبناء دار العلوم ، فأين كان يوم دفعت عنها طغيان كلية الآداب وأنا مدرِّس بكلية الآداب ؟

وكيف يُنكر جميلي في حماية تلك الدار من البغي والعدوان ؟

وفي الأسبوع المقبل يسمع الأستاذ السباعي كلاماً لم يخطر له في بال !

زكي مبارك

خصومة أدبية رضيت فيها الأدباء حكماً

زكي مبارك

يكتب كثيراً ولا يقول شيئاً

للأستاذ السباعي بيومي

— ٣ —

ما كنت أحب لك يا دكتور أن تكتب شيئاً مما سودت به مقال العدد ٣٩٨ ، ومعظم مقال العدد ٣٩٩ – بل كله كما ستعلم – لأنه ليس من الخصومة ولا الخصومة منه وليس بذي فائدة للقارئين. وما كنت أحب أن أجول معك في هذا الخروج لضيق الصفحات الأربع – المحدودة في الرسالة – عن أن تتسع له ولما أوعدت به من الهجوم عليك في زهر الآداب، لولا ما تعتقده من أنه في صميم الخصومة ، وما أخشاه من أن تزين لك نفسك أنك به قد انتصرت

ولقد كان واجباً عليك وخيراً لك أن تنتظر كلمتي السابقتين ثم تكتب في الموضوع ، ولكنك تعجلت ولم تستطع معي صبراً . والآن فإلى جزاء تسرعك في الرد على ما ذكرت بمقاليك مما لم تتناوله كلمتاي ، مشفوعاً بطلبي منك ألا تعود إلى هذا الخروج ، حتى نفرغ للخصومة الأدبية بالمعنى الذي نحمل ويريده الجمهور

تدعي أن صديقاً عزيزاً قال لك : « لم يرضني تحديك للأستاذ السباعي فقد كان يتفق في أحيان كثيرة أن يجمل مقالاتك من موضوعات الدروس بدار العلوم وذلك من شواهد الإعجاب » . وأنك حفظت لي هذا الفضل وآثرت الصمت لولا أن أديباً أثارك بما كتب إليك . ويظهر يا دكتور أن هذا الصديق من الخبثاء الظرفاء الذين عرفوا فيك ما قرره ابن المقفع من أن عجب المرء بنفسه أرحب باب يدخل عليه منه الضاحك عليه والمضلل له . فهو قد أضلك وضحك عليك بما تخيل فتحققت ، وما كان لشيء من مقالاتك أن يكون من موضوعات الدروس في دار العلوم ، ولو حدث لما سميت دار العلوم

وتدعي أنك مع هذا كنت على نية السكوت لصداقتي ولأن هجومي لن يقلقل مركز الشيخ المرصفي ، ثم لأني من زملاء الأستاذين هاشم وصفوت ولهما عليك حقوق ؛ فأما الصداقة فما ينبغي أن تحول دون محاورة الصديقين فيما يفيدهما ويفيد الناس ، وأما أن هجومي لن يقلقل من مركز الشيخ المرصفي فما قريب ستعلم أثره

وتذكر أنك في سبيل دفع الشر عن الشيخ المرصفي ستقدم لي خدمة أدبية بجذبي إلى الجدل على صفحات الرسالة ، وأنا مرحب بدفع هذا الشر عن الشيخ ، ولكن فيما صوبت أنا إليه ؛ ثم إني لشاكر لك جذبي إلى التحرير وغير طامع في رفق أسلوبك ، بل راغب ملح في أن تريني ما تزعمه لقلمك من أنه تطير عن أسلاته شظايا الشدة والعنف، حتى أعلمك – إن لم تكن علمت – أن مثل قلمك أمامي مثل بنادق الأطفال تسمع لطلقاتها دوياً ولا ترى لها كلماً . أما القلم الذي ستواجه مني فهو مسدس ذو طلقات تميت في غير جلبة ولا ضوضاء ، وهأنت ذا قدحت زنده فاصل شرره

وتقول إن المرصفي قضى شبابه في خدمة الكامل ، وأنني قضيت شبابي في خدمته كذلك ، وإني لأكاد أكذبك في الأولى لأنك غير صادق في الثانية قطعاً . فما قضيت في تهذيب الكامل إلا ثلاث سنوات لا تستغرق شباباً ولا بعض شباب ، ثم تتظرف وتحكم بأن الفرق بين الرغبة والتهذيب كالفرق بين المرصفي والسباعي . وإنه لحكم أعاد إلى ذاكرتي هذا البيت :

كأننا والماء من حولنا قومٌ جلوسٌ حولهم ماء

ثم تكذب ما قاله الطالب أيوب من أن كتاب المرصفي ظهر سنة ١٩٣٠ وتقول إنه ظهر سنة ١٩٢٧ ، فتكون سطحياً امام طالب ، لأنك أخذت تاريخك من غلاف أول جزء في الكتاب والطالب أخذه من غلاف آخر جزء منه ، فارجع إلى هذا الجزء رجوع الناقل الذي دل على أنه لم ير الكتاب ، تجد عليه سنة ١٩٣٠ وهو التاريخ الحق الذي لا يعتبر في مجال الاحتجاج سواه . على أنك شعرت بتفاهة ما لحظت لأن كتابي ظهر سنة ١٩٢٣ فقلت : « وليس لهذا التاريخ أهمية » ولكنك عدت فوقعت إذ زعمت أن شرح المرصفي يرجع إلى أكثر من أربعين سنة ، وأنه كان كاملاً من جميع الجوانب حتى الفهارس قبل سنة ١٩١٥ وأنك رأيته بعيني رأسك ورآه معك الشيخ الزنكلوني. وما رأيك يا دكتور أن المرصفي نفسه يكذبك في ذلك بعبارته المدونة في آخر جزء من أجزاء الرغبة عن إتمامه الشرح فما بالك بالفهارس ، وهي بنصها : « وقد انتهى شرح كتاب الكامل

والحمد لله ليلة ١١ رجب سنة ١٣٤٠ من الهجرة » وهذه توافق سنة ١٩٢٣ ، أى أن الشرح وحده دون الفهارس لم ينته إلا سنة ١٩٢٣ لا قبل سنة ١٩١٥ . أليست هذه العبارة تفهم بصريح العبارة أنك كذبت على عينى رأسك ، وإذا كان لنا أن نتركك حراً تكذب على نفسك ، أفلا نؤاخذك أن تكذب على غيرك . ولكنك يا دكتور كنت لبقاً إذ تخيرت هذا النفر ممن انتقلوا إلى جوار ربهم ، وأنا جد واثق أن الشيخ الزنكلونى لو امتد به الأجل إلى حيث كتبت ما كتبت لأشهدت غيره من الأموات سامحك الله

ثم لك فى هذه النقطة حشوة لا علاقة لها بالتواريخ، ولا هى من العبارات الشعرية كما تقول : تلك هى قولتك « ولن أنسى ما حييت تلك العبارة الشعرية التى صرخ بها الشيخ المرصفى وهو يقدم إلينا شرحه على كتاب المبرد — لن أنساها أبداً — فقد قال شيخنا العظيم وهو يخاطب المبرد (الله على أيامك يابطل) » وبعد ذلك تقول : « والكتاب الذى كمل من جميع نواحيه حتى الفهارس قبل سنة ١٩١٥ هو الكتاب الذى سرقت بعض فهارسه من كتاب ظهر فى أواخر سنة ٩٢٣ » والآن فلتسمح لى يا دكتور أن أتركك وأخاطب الناس . أيها الناس يعجب الدكتور من أن الطالب أيوب لا يستبعد على المرصفى أن يكون قد استعان فى كتابه الذى ظهر سنة ١٩٣٠ بكتابى الذى ظهر سنة ١٩٢٣ زاعماً أن كتاب المرصفى كان كاملاً من جميع نواحيه حتى الفهارس قبل سنة ١٩١٥ بالرغم من تكذيب المرصفى له كما سبق ومؤيداً هذا الزعم بآخر حاط من قدر المرصفى إن كان حقاً ، هو أن المرصفى لم يكن يطلع على شىء من مؤلفات المعاصرين فكيف اختص الأستاذ السباعى بتلك العناية . هذا ما يقوله الدكتور أيها الناس، وليس لى من تعليق عليه إلا الجملة التى ختم بها ما قال وهى « تلك والله إحدى الأعاجيب »

ويقول الدكتور عنى بعد جعله المرصفى أوحد عصره بلا جدال « إننى الرابع أو الخامس بين أساتذة دار العلوم مع التسامح الشديد » ونحن أساتذة اللغة العربية بهذا العدد تقريباً فى الدار فكأنه جعلنى الأخير . والحقيقة يا دكتور أنك فى تدخلك هذا غريب ؛ فما أنت فينا والفاضل والمفضول والأول والأخير

أولئك إخوان فضلهم فضلى ومكانهم مكانى وكلنا أعرف بحق صاحبه منه بحق نفسه .

وتقول إن الشيخ المرصفى أثر فى عصره وتمدد له ذخائر كثيرة ، وليس لى رد على الشىء تعرفه أنت ويجهله غيرك . إنى لا أعرف للمرصفى إلا ما عرف الناس ولا أدعى لنفسى من آثار إلا ما لمسوه . فسلهم لتعلم منهم أن عمرى لم يكن موقوفاً على التهذيب ، ثم سل تلاميذى الذين تتحدث عنهم يخبروك بما يفحمك مخلصين صادقين ونخورين بتلمذتهم لى نخرى بأستاذيتى لهم فى غير زهو ولا إعجاب

ذاك ما جملته طلائع غزوة وبه تباهى . فهل لا زلت على هذه المباهاة بعد تنسيقى لما ذكرت وردى على ما سودت ومع هذا فاليك رأيى فى تلك المباهاة نفسها

تقول إنك لن تصفح عنى أو أشتغل محرراً متطوعاً بالرسالة ثلاث سنين ، وما هذا لى بالتهديد فما أنا ممن يضيرهم التحرير ولا ممن تعودوا أخذ أجر على ما يكتبون، لأنى أكتب للكتابة لا طمعاً فى مال، ولذلك يصدر ما أكتب فى غير كلفة ولا إكراه.

وتقول إن خصومتك لى محنة صبت على من شاهق وتطلب منى أن أتحملها صابراً ، وإنها لا تنتهى قبل بداية مايو ، وليس مثلك منى فى هذا التهديد إلا مثل القبرة التى وقعت على رأس فيل ؛ فلما أرادت أن تطير قالت له إنى مخففة عنك وطائرة فقال والله ما علمت بك نازلة حتى أشعر بتخفيفك طائرة . أما الموعد الذى ضربته فهو أمنية تتمناها وتشفق ألا تكون ، ولست أدرى أأوافقك عليها مطمئناً أم أتجاوزها إلى ما بعدها منزعجاً، لن أبين لك حتى أتركك حينا تتعزى بالأجل إشفاقاً عليك وآخر تجزع لطول الأمد تهديداً لك. وسأعلمك فى حاضرى ومستقبلى أن ماضى لم يكن قائماً على خدمة الكامل وحده وأن تهذيبى له لم يكن عملاً يقوم به أحد النساخين بدراهم معدودات وذلك بما أفقك عليه من أنه كان خدمة يعرفها العارفون

وتزعم أنك قضيت دهرك ممتحناً بعداوات الرجال . ورجائى أن تكون رجلاً فيما أصبت به من عدائى وأن تتمادى فى عدم العطف على، ذلك الذى أزمعت تركه لأنى ترديت لك ثوب العقوق، والحقيقة يا دكتور أنه لا عطف منك على ولا عقوق منى إليك وإنما هو

نقاش وحساب يتطلب منك أن تكون الجلد الصبور .

ثم تقول إنك حكمت على بترك دروسي في دار العلوم لأشغل نفسي بمخاطرتك . ويلوح لي يا دكتور أنك ما قلت ذلك إلا لعقيدتك أن مخاطرتي لك تشغلني كما تشغلك مخاطرتك لي، ولكن عقيدتك هذه وهم باطل وظن خاطئ، فإن هجوي عليك وصدي لك لا يشغل مني كل أسبوع إلا الوقت يجري فيه القلم غير متوقف إلى حيث ينتهي المقال وهو وقت يسير في زمن اليوم لا الأسبوع، ثم هو لذيذ الوقع ترتاح لمصيره النفوس .

وبعد فهأنذا مرقل نحو مقالك الأخير فاذا أرى ؟ رأيتك قد سودت أكثر من نصفه بأشياء خرجت فيها عن الجادة وجمعت بينها على الإكراه والقسوة ، فبينا تبدؤه بالرد على كلمتي الثانية قبل ظهورها بهذه الجملة التي لا تقدم ولا تؤخر في الموضوع فتقول عني في تبرئة نفسك من السرقة التي ألبستك طوقها : « فكان حاله حال اللص الذي رأى صاحب الدار يمشي من بعد فصاح : مين اللي ماشي هناك » ، ثم تعقب هذه بقولك : « إني أشعر بالارتياح كلما تذكرت أن عندي ذخائر يتطلع إليها الناهبون من الفضلاء » سبحان المنان الوهاب ! وعلى هذا الغرار من قرع طبلك تقول عني « فليواجهني إن استطاع وأنا ماض إليه بقلم أمضى من السيف وأعنف من القضاء » ، وستعرف أينا الذي لن يستطيع ، وأينا الذي سيكون قلمه أمضى من السيف . أما أن قلمك أعنف من القضاء فمعاذ الله أن أشاركك هذا الكفران وقد علمت عن ابن دريد الذي تحدثت عنه في نظريتك المزعومة ، أن تلميذه أبا على القالي قال : « لما أصيب بالفالج كنت أدخل عليه فيتألم من دخولي فأقول : إن الله تعالى لم يبتله بذلك إلا عقاباً على قوله يخاطب الدهر وليس الدهر إلا الله :

مارست من لو هوت الأفلاك من

جوانب الجو عليه ما شكا

إذا بك تنتقل إلى أن كامل المبرد على ما به من فضل قد حرف وصحف وصار في حاجة إلى إصلاح، وأني لن أكون المصلح المنشود لأني لم أوهب نعمة الذوق الأدبي التي لا يظفر بها من كل جيل إلا آحاد ، وأنت طبعاً من هؤلاء الآحاد إن لم تكن أوحدهم . ثم تقول كان المصلح المنشود له شيخنا العظيم سيد بن علي المرصفي وهو طبعاً من الآحاد الذين رزقوا نعمة الذوق الأدبي والآن أقدم للجمهور شيئاً من أشياء أعرفها للشيخ المرصفي برهاناً واضحاً على أن الذوق الأدبي كثيراً ما خانه في أبسط مظاهره ، ذلك الشيء هو أبيات جاء بها المبرد في الهجاء الموجع فجعلها المرصفي في شرحه من المدح البالغ . ولو كان المبرد يعلم أن ذوقه إلى هذا الحد لأنقذه وصرح بأنها هجاء . وها هي الأبيات وتحتها شرح الشيخ من غير تعليق (صفحه ١٣٢ ج ٤)

قال أبو العباس المبرد : ومما يستحسن من شعر إسحق هذا — يريد ابن خلف — قوله في الحسن بن سهل :

باب الأمير عراء ما به أحد	إلا امرؤ واضع كفا على ذقن
قالت وقد أملت ما كنت آمله	هذا الأمير ابن سهل حاتم اليمن
كفيتك الناس لا تلقى أخا طلب	بفناء دارك يستعدي على الزمن
إن الرجاء الذي قد كنت آمله	وضعته ورجاء الناس في كفن

في الله منه وجدوى كفه خلف

ليس السدى والندى في راحة الحسن

وإلى القارئين كل ما قال الشيخ المرصفي في شرحها بنصه وصورته ، قال — وقاه الله شر تلميذه الدكتور زكي مبارك — : « في الحسن بن سهل » بن عبدالله السرخسي وزير المأمون بعد أخيه الفضل بن سهل (باب الأمير) كأنه يريد أميراً غير الحسن (لا تلقى أخا طلب الخ ...) . تريد إن استجديته أغناك ، فلا تجد غريماً يطلبك (ليس السدى) يريد إلا رجاء السدى ، وهو ندى الليل ، (والندى) : ندى النهار ضربهما مثلاً لجوده ، وقد أخر هذا الاستثناء عن موضعه فثقل ... انتهى شرح الشيخ ، فما رأيك فيه يا دكتور ، إن كنت ممن وهبوا نعمة الذوق الأدبي ؟ وهل لا تزال مصراً على أن المرصفي قضى حياته يراوح المبرد ويغاديه بالنظر الثاقب والفهم العميق ؟ أما أني أتقوّل على المرصفي لأنه مات وشبع من الموت وهذا لا ينبغي ، فهي دعوى لو عمل بها في الأدب ، لمات الأدب وشبع من الموت كما تقول ؟

وإذا بك تقحم الدكتور طه حسين في الموضوع بأنه أتعب نفسه في النيل من دار العلوم ، ولم أغضب ، مع أني أستاذ بها ، وهذا غير ما كان يا دكتور ، فقد كتبت في الصحف والمجلات ، ولكنك لم تقرأ، كما لم تعرف ما ضحيته وما زلت مستعداً لتضحيته في سبيل الدفاع عن دار العلوم ؛ ثم توغل في الإقحام فتدعي أن علة سكوتي هي أن الدكتور طه يضر وينفع ، ويملك المحو والإثبات في أعضاء بعض اللجان ، وردي على هذه الأكذوبة عني وعن الدكتور أني لم أسكت ، ومع هذا كنت عضواً في اللجان ،

وما ذنبي إذا كنت أدمى وتترك ، وأعرف وتنكر ؟

فإذا بك تنادر الدكتور طه إلى الأزهريين ، تحط من قدرهم إذلم ينصروك، وتسلبهم ـ كاذباً في الاثنتين ـ أبسط ما يعرف العلماء من أقدار الرجال فتقول : « لم يوجد في الأزهريين من يدرك قيمة الشيخ المرصفي غير الشيخ محمد عبده ، وبموت الأستاذ الإمام أصبح المرصفي من الغرباء » ؛ ثم تعود إلىّ تتهمني بأني أريد الإعلان عن نفسي بالقدح في المرصفي ، وتطالبني بدفع ثمن هذا الإعلان بلا إمهال ، وما كان هذا القدح ولا ذاك الإعلان لي بمراد ؛ أما الثمن ، فأنا على نقده لك عاجلاً ـ كما تقول ـ ولكن فيما يبصر الناس بقدرك

ثم تشرد يا دكتور فتقول : « أنا أعرف أن دار العلوم مدرسة عالية ، لا يزورها أحد من المفتشين إلا إن ظمئ إلى فنجان من القهوة يحتسيه في مكتب العميد أو مكتب الوكيل » ؛ وتخرج منه إلى أن محاسبتي لذلك من المسير ، والحق أني لست فاهماً ما تعني بهذا الشرود . أتريد أن يغير نظام التعليم ، فيدخل التفتيش إلى التعليم العالي قلباً لأبسط مبادئ التعليم ؟ أم تأمل إذا انقلبت الأوضاع أن تكون المفتش لدار العلوم ؟ وإذا كورت الشمس وكان ما تريد، فهل تحملك رجلاك لتقوم بهذا الحساب ؟ أظنك على علم في كل هذه الأسئلة بالجواب ، كما أنك على جهل بأن الدرس الذي أعطيه في الجامعة الأمريكية ، إنما هو في قسم من أقسامها العالية — ولولا ذلك لم أعطه — هو قسم الصحافة والأدب ، وشأنه في ذلك شأن دار العلوم وسائر المعاهد العالية التي يشرف على الدراسة فيها : ضمير الأساتذة ورقابة الطلاب ، وهما أدق تفتيش

وأخيراً تكثر من هذه الجملة « لا تشتمني يا سيد سباعي » معقباً إياها بتماليل هي الأباطيل . فالشاتم أنت وأنا عن الشتم بعيد ، وإذا كنت تلحن لي في ذلك بأنك « شتيم » ، فأنا ألحن لك « بأني بشر ابن عوانة » . وهاك تمثيلاً منها ليس من الشتم، ولكن الشتم منه هو قولك لي : « فما أملك محاسبتك لو أردت الانتصاف لنفسي ، وما ذا أقول في تجريحك ولست بشاعر ولا كاتب ولا مؤلف ولا خطيب » ؛ وأنا أقول إن لك في هذا أن تجاب :

فأما الشعر ، فلو رضيت لنفسي ما قلته كما رضيت أنت ما قلت، لسويته ديواناً كما سويت ، ولوقعت في الشرك كما وقعت ، فقد اغتررت في طبع ديوانك بنصحك من غرّروا بك ، وخالفت قول من نصحوا لك ، وما ديوانك بشعر شاعر، ولكنه تجميع ناظم

وأما الكتابة ، فها نحن في ميدانها على صفحات « الرسالة » نجول، وسيصدر الجمهور ـ إن لم يكن أصدر ـ حكمه فيها عما قريب

وأما التأليف ، فقد عرفت من عملي فيه تهذيب الكامل ، وستعرف غيره من مؤلفاتي متى انتهيت منه ، ونقاشنا فيه الآن ، فاثبت ولا تفر من الميدان

أما الخطابة ، فرأيي لك فيها يا دكتور أن نتلاقى في حلبتها أمام جمع من الأدباء وجمهرة من السامعين ويقترح على كلينا التكلم بداهة وارتجالاً في موضوع عام من أدب أو اجتماع ، فهنالك وهنالك فقط ـ ولست مزكياً نفسي ولكني مدافع عنها ـ تجد بحراً يغمرك ، وأمواجاً تقطعك وتبهرك ، فتندم طالباً النجاة ولات حين مناص

إلى هنا أقف ، وقد طال الكلام ، مرجئاً الرد على ما وازنت فيه بين « الرغبة والتهذيب » وكل ما يتعلق بهما في المقال ، وذلك لأن دفعه ـ كما ستعرف ـ لا بد أن يسبق بكلمة مني عن الكتابين، تريك سوء ما زينت ، وهنيئاً لك الآن نفاد الصفحات دون بقية الرد والهجوم .

السباعي بيومي

---

٢ - فى العقد

لأستاذ جليل

٥ — (ص ٣٣٥ ، ٣٣٦) والحاتم بن عبد الله :

أماوىّ قد طال التجنب والهجر وقد عذرتنا عن طلابكم العُذرُ
أماوىّ إنى لا أقول لسائل إذا جاء يوماً حل فى مالىَ النزرُ

وجاء فى الشرح : العذر (بضمتين وسكن للشعر) : جمع عذار وهو ما سال على خد الفرس من اللجام . و« عذرتنا . الخ » أى منعتنا الموانع . وأصله من عذرت الفرس بالعذار ، أى شددته به . فالكلام هنا على سبيل الاستعارة

قلت : الشطر الثانى فى البيت الأول هو هذا : (وقد عذرتنى فى طلابكم العذر) وفى الصحاح (عذر) . والشطر الثانى فى البيت الثانى هو هذا : (إذا جاء يوماً حل فى مالنا نذر)

وعُذُر جمع عذير[1] — وقد جاء فى الشعر مخففاً — والعذير الحال التى يحاولها المرء يعذر عليها ، والبيت من شواهد الصحاح واللسان والتاج . والنذر معروف ، نذرت أنذِر وأنذُر نذراً إذا أوجبت على نفسك شيئاً تبرعاً من عبادة أو صدقة أو غير ذلك ، كما فى النهاية

٦ — (ص ٢٢) لما وجه عمر بن هبيرة مسلم بن سعيد إلى خراسان . قال له : أوصيك بثلاثة : حاجبك ... وصاحب شرطتك ... وعمال القَدَر . قال : وما عمال القدر ؟ قال : أن تختار من كل كورة رجالاً لعملك ، فإن أصابوا فهو الذى أردت ، وإن أخطأوا فهم المخطئون وأنت المصيب

وجاء فى الشرح : يريد (بعمال القدر) ذوى الشرف والحسب . والذى فى ١ : (الندر) ، والذى فى سائر الأصول : (القرى) ، ولا يخفى ما فى كلتا الروايتين من التحريف ، وما أثبتناه عن محاضرات الأدباء (ج ١ ص ١٠٢) فى خبر روى عن عمر بن عبد العزيز ...

قلت : ذوو الشرف والحسب لا يُعذَر الإمام أو الوالى إذا وسّد إليهم الأعمال فاخطئوا أو أساؤا ، ورب وَحد[2] خير من ألف حسيب نسيب ، وقد نقلت فى أحد دفاترى من كتاب لا أتذكره اليوم هذا الخبر : « استشار عمر بن عبد العزيز فى قوم يستعملهم ، فقال له بعض أصحابه : عليك بأهل العذر ، قال : ومن هم ؟ قال : الذين إن عدلوا فهو ما رجوت منهم ، وإن قصروا قال الناس : قد اجتهد عمر » . وهو يشبه ما رواه محققو (العقد) عن (محاضرات الأدباء) فى الشرح . فأهل العذر هم فضلاء كبار كرام بأنفسهم[1] قد اطمأن إليهم الجمهور ، وقد يكونون من المحسوبين من الحسباء والمنسوبين[2] وقد لا يكونون[3] ، فإذا وليت طائفة منهم فأخطأت عذر الناس من عمّلها أو ولاها

وينصر ما ذهبت إليه قولٌ فى (مشاورة المهدى لأهل بيته) ص ٢٤٨ : « ... واجعل عمال العذر[4] وولاة الحجج مقدّمة بين يدى عملك ، ونصفة منك لرعيتك ، وذلك أن تأمر قاضى كل بلد وخيار أهل كل مصر أن يختاروا لأنفسهم رجلاً توليه أمرهم ، وتجعل العدل حاكما بينه وبينهم ، فإن أحسن حُمدت ، وإن أساء عُذرت ، هؤلاء عمال العذر[5] وولاة الحجج » والحجج تثبت العذر . . .

٧ — (ص ١٧٦) فرّ أبو خراش الهذلى من قائد وأصحابه ورصدوه بعرفات فقال :

وفونى وقالوا يا خويلد لا تُرَع فقلت وأنكرت الوجوه هم همُ

قلت : رفونى . والبيت من شواهد الصحاح والأساس واللسان والتاج . قالوا : فزع فلان فرفوته إذا أزلت فزعه وسكنته[6] ، اعتبر بمشاهدة الوجوه ، وجعلها دليلاً على ما فى النفوس

٨ — (ص ٢٥٢) قال عبد الله بن الزبير لمعاوية — ويقال بل معاوية قالها لعبد الله — : مالى أراك تطرق إطراق الأفعوان فى أصول الشجر

قلت : فى الحديث : إنما هو (فى أصول السخبر) وهو

---

(١) مثل سرير وسرر (الصحاح)

(٢) رجل وحد : لا يعرف له أصل (المخصص)

---

(١) رجل كريم بنفسه قال الأزهرى : أراد أن الحسب يحصل للرجل بكرم أخلاقه وإن لم يكن له نسب (التاج)

(٢) فى حديث : « كرم المرء دينه ، ومروءته عقله ، وحسبه خلقه » هذا هو القول الحق

دعنى من المرء وأعراقه وماله الجم وأوراقه
فما الفتى كل الفتى غير من يستعبد الناس بأخلاقه

(٣) تراجم الرسالة ٣٤٠ ص ٥١

(٤) و (٥) فى طبعة العقد : القدر ، والعذر — كما فى التاج — هو الحجة التى يعتذر بها

(٦) فى خزانة البغدادى : قال المفضل بن سلمة فى الفاخر والمرزوقى فى شرح الفصيح : رفوت الرجل إذا سكنته وأنشد هذا البيت . . .

شجر تألفه الحيات فتسكن فى أصوله ، الواحدة سخبرة

٩ — (ص ٢) ... فمنذ ذلك يعلم أنها شجرة باسقة الفرع ، طيبة المنبت ، ذكية التربة ، يانعة الثمرة ...

قلت : زكية التربة

فى الأساس : زرعٌ زاكٍ ومال زاك : نام بيّن الزكاء ، وقد زكا الزرع وزكت الأرض وأزكت ، ومن المجاز : رجل زكى : زائد الخير والفضل

وفى اللسان : أرض زكية : طيبة سمينة

١٠ — (ص ١٤٩) ... فسلك به سبيل مَهلكة مُعطشة

قلت : مَعطشة

فى التاج : المعاطش : الأراضى التى لا ماء فيها ، الواحدة مَعْطَشة . المهلكة (ويثلث) : المفازة لأنها تهلك الأرواح فيها

١١ — ... وفرسى هذا حُبِس فى سبيل الله

قلت : حبيس

فى الجمهرة : حبست الشىء أحبسه حبساً إذا منعته عن الحركة ، وأحبست الدابة إحباساً ، إذا جعلته حبيساً فهو محبس وحبيس ، وهذا أحد ما جاء على فعيل من أفعل

فى التلويح فى شرح الفصيح لمحمد الهروى : (وحبست الرجل عن حاجته وفى الحبس فهو محبوس) إذا منعته من التصرف فى أموره أو أحبست فرساً فى سبيل الله فهو محبس وحبيس) إذا جعلته وقفاً على الغزاة يجاهدون عليه ، ومنعت من بيعه وهبته

فى التاج : وفى شرح الفصيح لابن درستويه[1] : أما قوله : أحبست فرساً فى سبيل الله بمعنى جعلته محبوساً فدخلته الألف لهذا المعنى لأنه من مواضعها ، ولا يمتنع أن يقال حبست فرسى فى سبيل الله كما تقول العامة لأنه إذا أحبس فقد حبس ولكن قد استعمل هذا فى الوقف من الخيل وسائر الأموال التى منعت من البيع والهبة

١٢ — (ص ١٩) ... قال (زياد) لا ولكنه لا يسلم على قادم بين يدى أمير المؤمنين ، فقال له ابن عباس : ما ترك الناس التحية بينهم بين يدى أمرائهم ، فقال له معاوية : كف عنه يابن عباس ، فإنك لا تشاء أن تغلب إلا غَلَبْتَ

(١) ابن خلكان : درستويه بضم الدال والراء وسكون السين وضم التاء وسكون الواو وفتح الياء وبعدها هاء ساكنة هكذا قاله السمعاني ، وقال غيره ، هو بفتح الدال والراء والواو ...

قلت : غُلِبت ، فمعاوية لم يخاطب ابن عباس — وقد مره أدب أخيه — مصوباً بل مخطئاً

١٣ — (ص ١٥) ... ثم دخل (معاوية) على أبيه أبى سفيان ، فقال له : يا بنى ، إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا فرفعهم سبقهم ، وقصر بنا تأخرنا ، فصرنا أتباعاً وصاروا قادة ، وقد قلدوك جسيما من أمرهم ، فلا تخالفن أمرهم ؛ فإنك تجرى إلى أمد لم تبلغه ، ولو قد بلغته لتنفست فيه

وجاء فى الشرح : لتنفست فيه كناية عن الاستراحة بعد بلوغ الغاية

قلت : لنوفست فيه أى غولبت وقوهرت ، غالبك أقرانك وقاهروك أو نافسوك فيه كنفِسوه عليك ، ونفس عليه بالشىء ضن به ولم يره يستأهله

١٤ — (ص ١٢) ... فى جنب صلاح العامة وتلافى الخاصة

قلت : وتألف الخاصة

فى حديث حنين : إنى أعطى رجالاً حديثى عهد بكفر ، أتألفهم ليثبتوا على الإسلام رغبة فيما يصل إليهم من المال

وقد جاء فى حاشية (تلافى الخاصة) : فى عيون الأخبار : وتلافى الحادث قبل تفاقمه

قلت : هنا يجىء التلافى فى محله

١٥ — (ص ٣٥٩) ... فأرْونى تتألف لى نوافرها ، ويسكن رُوعى . قال : قد فعلت ...

قلت : فأرودنى ، والإرواد الإمهال ؛ وفى غير العقد هذه الرواية فى هذا الخبر : (فليمهلنى أمير المؤمنين ربما يتألف نافر القول[1] والروع بالضم القلب ، وبالفتح الفزع

١٦ — (ص ٣٦٨) ... قال : فمن كان أبا النجم مثولك ؟

قال : رجلين أتغذى عند أحدهما وأتعشى عند الآخر

قلت : أبا مثواك . أتغدى

فى الأساس : وهو أبو مثواى ، وهى أم مثواى : لمن أنت نازل به . قال :

أفى كل يوم أم مثوى تسوسنى تُنفِّض أثوابى وتسألنى ما اسمى ؟

فى التاج : الغداء[2] طعام الغدوة ، ج أغدية وتغدى أكل

(١) المعارف لابن قتيبة ، والبستان النشاشيبى ص ١١٦

(٢) فى الصحاح : إذا قيل لك : ادن فتغد قلت : ما بى من تغد ولا تعش ، ولا تقل ما بى غداء ولا عشاء لأنه الطعام بعينه

من وحي الهجرة

شكاة ونجوى ...

[مهداة إلى الرجل الكبير الذي أخذ بيدي في الحياة ... إلى خالي]

للأستاذ شكري فيصل

— ١ —

... متى يا رسول الله متى ... تكتحل عيناى بالتطلع إلى مقامك الكريم في أرض النبوة الطاهرة ... ويقدر لى أن أقف بين يديك : أقرؤك السلام ، وأبثك الحنين ، وأفنى فى لثمات أعتابك ؟ ...

لقد طال بى الشوق ، يا رسول الله ، إلى التراب الذى لامس قدميك ، والأرض التى وطأت ركائبك ، والجو الذى نثرت فيه النعيم والسلام ... فتى يا رسول الله ... متى ؟ ...

إن الحنين ليحدونى ، وإن الحب ليهزنى ، وإنى لأجد فى قلبي النور ، وفى عينى الضياء ، وعلى شفتى النغمات الحلوة ... حين أرانى فى مقامك يا رسول الله : هادئ النفس ، مطمئن الخاطر ، كما يطمئن الإنسان إلى خيالات الأمل ، ويهدأ إلى صور الخير ، ويهيم فى أودية من الجمال ...

... متى يا رسول الله : ينسم عبق مكة ، فأنتشى بهذا النسيم ... وأعب منه ملء رئتى ، وأذكر معه هذه البلاد التى كانت مثوى الضلالات ، ففاضت بالنور ... وكانت مثابة العصبيات ، فتدفقت بالتسامح ... وعاشت أبداً فى ظلام الجهل وحماقة الهوى وسلطان الغرض ... ولكنها بدلتها أنوار المعرفة ونعمة العقل وزينة العلم ...

... إنى لتستثيرنى الذكرى يا رسول الله ... يا أسمى من كل إنسان ، وأرفع من كل بشر ، وأكرم من كل مخلوق ... فأصمت لنجواها العذب ، وأنصت لحديثها الرطب ، وأهيم فى دنياها الرفافة التى تموج بالأمان ، وتزدهر بالسلام ، وتنسم بالحب ... فتى يا رسول الله ... متى أمرّغ خدى بأعتابك الطهور وأقبل بشفتى أرضك الحلوة ، وأغيّب وجهى فى أطراف الستائر التى ترف حواليك رفيف الأمل فى القلوب الآيسة ... كأنما تنعش فيها الموات ، وتبعث فيها الحياة ، وترد عليها التحية ...

— ٢ —

... متى يا رسول الله ... يظلنى المسجد النضر ، لأحدثك حديث هؤلاء الذين تركتهم على بيضاء نقية لا يضل فيها السالك ولا يحار فيها السارى ؛ فإذا هم قد ضلوا الطريق، وتنكبوا السبيل وتاهوا فى بيد مظلمة ... لا يجدون المخرج ، ولا يلقون المنفذ ، ولا تتراءى لهم أمارات الهداية . . .

هؤلاء ، يا رسول الله ، الذين خلفت فيهم القرآن ، وأوضحت لهم الغاية ؛ وحلقت بهم فى أجواء السموّ ، وآفاق المجد ، ودنيا السيادة ؛ قد ذلوا ... فضعفوا عن الحق ، وسكتوا عن الواجب ، واستخذوا لإرادة الناس الحقيرة . واطمأنوا إلى هذا الاستخذاء وهذا الضعف ... فإذا قلوبهم غلف ، وإذا آذانهم صم ، وإذا الدعوات التى تستمد منك قوتها ، وتستلهم من وحيك نورها ... لا تفعل فيهم إلا ما تفعل النسمات الطلقة فى الصخور القاسية !

... إن الألم ليغمر النفوس العامرة يا رسول الله فتقعد عن العمل ، وإن اليأس ليملأ القلوب النقية ليفسد عليها الأمل ؛ وأن المهجات لتترى ... فمن يذكرنا مواطن العظمة فى حياتك وسرّ الخلود فى دعوتك ، وجمال الصبر فى جهادك ؟ من يبث ذلك فى قلوبنا يا رسول الله ؟ . . . من ينثره فى أذهاننا كما تنثر السماء سحب الرحمة ؟ . . . من يقول لنا هذا هو الطريق ... بعد أن باعدت بيننا وبينك ضلالات فيها السحر ، وصرفتنا عنك فتن فيها الإغراء

... أين أنت يا رسول الله ، لتشهد المسلمين اليوم وقد نكبوا

أول النهار ، وغديته تغدية أطعمته فى ذلك الوقت
وفى الغداء والعشاء غذاء [١] ...

١٧ — (ص ٣٣٤ ، ٣٣٥) ... وجمل ينادى : أبا عدى أقر أضيافك ...

. . . فقال : إن حاتماً جاء فى النوم فذكر لى قولك وأنه أقراك وأصحابك راحلته

قلت : أبا عدى ، إقر أضيافك ، وأنه قراك [٢]

قرى يقرى (كرمى يرمى) قِرى وقَراء . وأقراه طلب منه القرى

***

(١) الغذاء كـكساء ما به نماء الجسم وقوامه (القاموس)

(٢) فى خزانة البغدادى : ... ويقول : اقرنا ... وزعم أنه قراكم بناقته ...

قرى قبره الأضياف إذ نزلوا به ولم يقر قبر قبله الدهر راكبا

بالفرقة ، وابتلوا بالنزاع فإذا هم لا يد فى حكم ، ولا شأن فى سيطرة ، ولا رأى فى مشورة ، يعيشون فى هامش الحياة كما تعيش النبتة الصغيرة فى ظل الشجرة الضخمة فى جو معتم من الولاء ، لا يمتد لها غصن يقبّل النور ، ولا يشتد لها ساعد يحيى السماء !

أين من يقول لهؤلاء المسلمين يارسول الله إنك كنت تجاهد للحياة التى تحل الضعف ، وتستهجن الصمت ، وتكره الهدوء ؟

أين من يقول لهم إن هذا الهدوء الذى يطمئنون إليه أول نذر الموت ، وأدلة الفناء

لشد ما نحتاج إلى هديك يا رسول الله ... لندرك أن الدنيا ليست دنيا الشهوات التى نقبل عليها ، والغايات التى نسعى إليها ، والمنافع التى نتكالب فى سبيلها ... ولكنها دنيا الحياة الحرة التى لا تستعبد فيها نفوس ، ولا تحنى رءوس ، ولا تبذل كرامات .

... لقد ضل القوم يا رسول الله ... وزين ذلك فى قلوبهم ... فمن يكشف لهم عن وضح الحق ؟... من يرفع علهم حجب الضلالات ؟ ومن يصرف هذه السحب القاتمة من فوق رءوسهم ، ومن بين أيديهم تشوه فيهم العقيدة ، وتفسد عليهم الإيمان

— ٤ —

يا رسول الله إلى الناس ... لقد عمى الناس عن الخير ، لا يفقهون معناه ولا يحسون جماله ، وإنما يتخبطون فى ظلمات الشر وفى دياجير الخصومات . فى أيديهم حراب ، وفى أيمانهم قذائف ، وعلى وجوههم أقنعة ... يتراشقون السهام ويتبادلون القذائف ، ويصطرعون فى هذه الكهوف المعتمة من المادة ، وهذه الأجواء الضيقة من الطيش ... فهلا انتبه أنصارك يا رسول الله فى هذه الفترة من الزمن ، فانتهزوا الفرصة البارقة ، ينشرون أردية السلام ، ويبعثون دعوة الحق ، ويهتفون بالصيحة الكبرى!...

... حبذا يا رسول الله ... حبذا الساعة التى ينشدون فيها نشيد اليقظة ويرددون صرخة الحق ، ويحققون أروع ما جئت به من مبادئ السلام ، وتتموج على حاشية الأفق راياتهم التى تذكر الناس أكرم ما دعوت إليه وما جاهدت من أجله ... وتتلألأ فى صفحة السماء آياتك النير ، تهدى السالكين ، وتأخذ بيد الحيارى ، وتزرع فى النفس معانى الحب والطمأنينة والغبطة

— ٥ —

ألا هل فى قوانا طاقة ، وفى وسعنا جهد ... فنحمل هذا العبء يا رسول الله ؟ وننهض بهذه الصرخة ، ونوقد المصباح : زيته من دمائنا ، وذبالته من نفوسنا ؛ ونجعل من أجسامنا مغرز الراية ومغرس العلم ؟... وهل فى أعمارنا آجال فنرى هديك فوق كل هدى ، وكلمتك فوق كل كلمة ، وتنعم أعيننا بالإنسانية المطمئنة إلى الحياة الآمنة التى تختطها ، والسبيل السوى الذى ترسمه ؟...

... إن العالم يا رسول الله ليموج فى حالك من الظلمة ، وإنه ليسبح فى جاهلية من الهوى ... كهذه الجاهلية التى بددت ظلماتها ، وكشفت غياهبها ، ونشرت فى جنباتها الهداية ... فهلا أهبت بأنصارك ليتأسوا بك ... وليهاجروا إليك ... وليبدءوا دعوتهم بمثل ما بدأتها من قوة وعزيمة وجلد ؟ !

... ركب الإنسانية يستغيث بك يا رسول الله إلى الناس ... فاسأل الله له السلامة فى مهمه النزائز ، والخلاص من ربقة الأهواء ، والنجاة من حرب الغل والضغائن ... وخذ بزمامه إلى ساحل النجاة ، فقد سئم صراع الموج ، وزمجرة الغضب ... وضاق بفوضى المذاهب ، وخداع المظاهر ، وتناحر الآراء . وأسلم وجهه إلى الله . إلى الله وحده يؤمن به ، ويعمل له ، ويتكل عليه

... هذه حالنا يا رسول الله ... فمتى ينبثق الفجر من خلال الضباب الكثيف ، ومتى تبصر العين وجه الحياة : لا تغطيها الدموع ، ولا تخدعها المظاهر ... ومتى يجد المدلجون فى سفين الزمن شعاعات الرحمة وأنوار الهداية ؟

— ٦ —

إن الحديث يا رسول الله ليفجر ينابيع الألم ، وإنه لينشر صفحات كابية : فى إطارها سواد ، وفى جنباتها حزن ، وفى رحابها تاريخ يشهد بالضعف والخور . فما أحوجنا أن نهاجر إليك فنملأ صدورنا من روحك الندى ونظهر عزائمنا بعبقك العطرى ، وندفع هذا الصدأ الذى يأتكل نفوسنا بالتمرغ فى أعتابك الطاهرات

إنى لأرنو يا رسول الله إلى هذه الساعات ؛ وإنى لأهيل عليها الصور ، وأريق عليها الزخارف ... فلا أبلغ بها معشار ما يكتنفها من روعة ، وما يحوطها من جلال ... فمتى أشهد هذا الجلال ، فى مسجدك المتألق ، وروضتك الطاهرة ، وضريحك الحى ؟ !

آه يا رسول الله ... ما أشد حنينى إلى نسمات الصحراء ، ولفحات الشمس ، وجرعات زمزم

والسلام عليك يا سيدى يا رسول الله — شكرى فيصل

حكم استئنافيا بتغريم عبد المعبود عبد الغنى البقال بمصر الجديدة بالقضية ٦٨٨٢ بجلسة ٧ سبتمبر سنة ٩٤٠ جنيها ونصف لبيعه كبريتا بأزيد من التسعيرة

من سماحة الإسلام

الله الله !

للأستاذ كامل محمود حبيب

« يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ؛ وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ؛ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ؛ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون »

(قرآن كريم)

ما لهذا الشيخ يقضي يومه مقبلاً مدبراً يختلس النظر إلى جماعات الأنصار وهم جلوس يتحدثون في هدوء ، وعلى وجوههم نور الهداية يتألق ؟ ماله ينفضهم بنظراته وإن عينيه لتقدحان شرراً ، وإن قلبه ليضطرم حسداً ، وإنه ليحدث نفسه ـ في مغداه ومراحه ـ يقول : يا ويلي ! لقد اجتمع ملأ بني قَيْلة بهذه البلاد لا والله مالنا معهم إذا اجتمع ملؤهم من قرار ؟ لعله يهيء أمراً أو يصنع حادثة

إنه شيخ من يهود قد عسا ، عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم ، يحز في نفسه ما يرى بين الأوس والخزرج من ألفة وإخاء ، ويغيظه أن تجمعهم آصرة أو تربطهم وشيجة ، وهو كان يتربص بهم الدوائر منذ يوم بعاث وما كان قبله ... إنه هو شاس بن قيس

لا جرم ، فلقد كان شاس بعض الفئة الباغية من يهود ممن عتوا عن أمر ربهم ونصبوا الرسول الله صلى الله عليه وسلم العداوة والبغضاء بغياً بغير حق ولا علم ، يتعنتونه ، ويأتونه باللبس ليلبسوا الحق بالباطل ، ويحاولون جهدهم أن يفتنوه ؛ ممن انحدر في دمائهم حب العنت ، وأشربوا في قلوبهم روح المكابرة من لدن مَن قال من أجدادهم : « أرنا الله جهرة » حتى مشرق الإسلام على جزيرة العرب ؛ ممن عموا وتاهوا وارتدغوا في حمأة الضلالة على يدي علمهم

أفكان لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يلم شعث هذا الناس ويجمع شتاتهم على كلمة الدين ... كلمة الأمان والسلام بعد ما كان بينهم من تنافر وتنابذ في يوم بعاث ومن قبله يوم مغلس ومضرس ، ثم لا يتلمس هذا الفاسق حيلة يريد أن يطفئ بها نور الله وأن يؤرث بها ضغائن مسحت عليها يد الإسلام الرفيقة ؟ أفكان للدين الجديد أن ينفث سحره في قلوب الأعداء فيصبحوا بنعمة الله إخواناً . ثم لا يجد هذا الفاجر مَسّ الغيظ في قرارة نفسه يوشك أن يعصف به ؟

لعمري إنه ليعلم أن هذا هو الدين الذي كان ينتظر ، يجده مكتوباً عنده في التوراة ؛ وهذا هو النبي الذي كانوا يستفتحون به على أهل الشرك من قبل أن يأتيهم ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، وأعرضوا عنه ، وحملوا عليه ، حسداً من عند أنفسهم

* * *

وانطلق شاس يفتش عن دواء لداء الغل الذي يحز في نفسه فيثور به فيمنمه القرار ، وينفث في حياته قلقاً ما يطمئن ... انطلق والشيطان يدفعه ويوسوس له ، فاستنام إلى رأي الشيطان ولا ريب ، فللشيطان قدرة على أن يحل كل مشكلة بطريقة شيطانية تبذر — دائماً — غراس الخراب والدمار ، وتلد — أبداً — الشقاق والبغضاء

وجلس الشيخ إلى فتى غِرٍّ أهوج من فتيان يهود يتملقه حيناً وينشر على عينيه ضعفه حيناً ؛ وراح الشيخ يمكر بالفتى يقول : « ... واتخذوني يا بني سخرية إن أنا أقبلت أو أدبرتُ ؛ وأنا رجل كبّار ، قد دقّ عظمي وتقبّض جلدي على مثل ما ترى ، لا حول لي ولا طول ، وهم ما ينفكون يهزأون بكتابنا ويحتقرون ديننا ويتندرون على أحبارنا ، فنستشعر الهوان والذلة ونحن كنا في العز والمنعة . ومَن لنا وللدين إن لم نجد في شبابنا وهم كُثْر، مَن يرد عنا كيد هؤلاء ويدفع أذاهم . يا بني ... يا بني ... »

وأطرق الفتى يتسمّع دويّ صوت الشيخ ، وإن الكلمات ليتردد صداها في مسمعيه فيخترق شغاف قلبه فيلقى السّلم إلى أستاذه رويداً رويداً . ولا ضير فهو يحس مسكنة الرجل وانكساره

ورأى شاس الخديعة تنطلي على الشاب حين أسلس وانقاد فاندفع يحكم المقدة ، فأقبل على الفتى يقول : « يا عجباً ، لقد عرفتك أبداً جلداً إذا حزب الأمر أو أعضلت المسألة ، فما بالك الآن حيران لا تتماسك ؟ لعل خشية القوم قد تسربت إلى قلبك

فانخلع فؤادك رهبة وجزعاً !» . فأجاب الفتى فى سرعة : « كلا، كلا يا سيدى ، ولكنى لا أجد الرأى »

فقال الشيخ فى هدوء : « الرأى عندى أن نسعى فنفرق كلمتهم ونصدع ألفتهم فتنكسر شوكتهم وتنهد قوتهم ، ونظهر نحن عليهم » قال الفتى : « وكيف ؟ » فأجابه الشيخ : « تعمد أنت إلى القوم وهم فى مجلسهم يتسامرون فتذكرهم بأيام الجاهلية وتبعث فى نفوسهم ذكرى ضغائن شغلتهم عنها أعباء الدين الجديد ، وتنشر على أعينهم حديث يوم بعاث وما كان قبله ، وتنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من أشعار ... هذه، يا بنى، هى الشرارة الأولى؛ ولا عجب إن هى سعّرت بينهم نار الحرب التى انطفأت منذ حين

وراح الفتى يندس بين جماعة من الأنصار يصحبه الشيطان ، وأخذ يحمل القوم رويداً رويداً على ذكر أيام خلت ، ويقص حادثات تبعث ميت الحقد ، وتثير دفائن الغيظ ، ثم هو يتلوى فى حديثه ليذكر غلبة الأوس واستخذاء الخزرج ...

ونفذ الفتى من ثغرات ضيقة إلى قرار القلوب ، فتغلغل الحديث فى نفوس القوم ، وتشعب الكلام فنوناً ، واندفع كل حزب يفاخر صاحبه ويباهيه ، ويتطاول عليه ويكاثره . . . ثم شرى الأمر بين أوس بن قيظى أحد بنى حارثة بن الحرث من الأوس ، وجبار بن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج ، فتواثبا على الرُّكَب يريد واحد أن يبطش بصاحبه ، وتناثرت بينهما ألفاظ طمست على صفاء كان بينهما منذ ساعة ؛ وانحازت طائفة من الأوس إلى صاحبهم ، وأعان الخزرج محاميهم ، وانفرط العقد ، ودبّ دبيب الشحناء ، وبدت البغضاء على وجوه القوم ، وطفت عليهم طبائع الجاهلية التى تنشأوا عليها وعاشت فى دمائهم سنوات وسنوات ؛ فقال واحد لصاحبه : « إن شئتم رددناها الآن جَذَعَةً » . فغضب الفريقان جميعاً وقالوا : « قد فعلنا ، موعدكم الظاهرة » . ونفر القوم وهم ينادون : السلاح السلاح !

* * *

وأقبل شاس بن قيس فى جماعة من ضلاّل يهود يرقبون ويبسمون ، وفى رأيهم أن كيد الكافر يفلح ، على حين أخذ الفريقان من الأوس والخزرج ينسلون فى السلاح إلى موعدهم ، إلى الظاهرة . وكادت الفتنة أن تقع فيهار صرح مشيد على يدى فاسق زنديق ، لولا أن مَنّ الله على أوليائه ، فأنقذهم وهم على شفا جرف وانطلق رسول السلام إلى رسول الله (ص) يخبره الخبر ،

« . . . وطارت الهيمة تجمع شتاتهم على باطل ، فهم هناك فى الظاهرة ، تكاد نقمة الله أن تنحط عليهم فيرتدوا كافرين »

فخرج إليهم رسول الله (ص) قبل أن يبلغ الشيطان غايته ... خرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم وإن سيفاً يوشك أن يقرع سيفاً ، فناداهم : « يا معشر المسلمين ، اللهَ اللهَ ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألّف به بين قلوبكم »

وأفاق الأنصار من ذهول حين هبطت كلمات الرسول (ص) على القلوب برداً وسلاماً ، فبدت لهم سيئات ما عملوا وتخاذلت أيدٍ كانت تحمل السلاح ، وأقبل بعض على بعض يتعانقون ويبكون ؛ وانسل الشيطان من بين الفريقين وقد كبته الله ، وارتد عدو الله شاس يستشعر الذلة والهوان . وتصافت قلوب كانت توشك أن تتهاوى على أسنة الرماح لأنها أصغت إلى حديث الشيطان ساعة من زمان ... تصافت ، لأن قوة الإيمان سماوية تترفع — أبداً — عن الحزازات الأرضية

(المحلة الكبرى الثانوية) كامل محمود حبيب

من فصول التاريخ

بنــاءون منسيون
فى تاريخ الامبراطورية البريطانية
للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

تقابل الأمبراطورية البريطانية اليوم محنة قاسية ، هى شر ما ابتليت به فى تاريخها . ولا نستطيع أن نسبق الحوادث ، أو نحكم على المستقبل ، فإن فى ذلك رجماً بالغيب ورمياً بالمجهول ، ولكن الذى لا شك فيه أن هذه الأمبراطورية الواسعة الأطراف تتماسك على المحن وتزداد صلابة على الحوادث ؛ وإذا كان فى الماضى والحاضر دلالة على الآتى وعنوانٌ على المستقبل ، فإن ماضى الأمبراطورية وحاضرها يبشران بمستقبل تعود فيه الأمور إلى قرارها ، وترجع الأحوال إلى نصابها

ولم يسبق فى تاريخ البشرية الحافل ومعرضها المملوء بالحوادث الجسام والأحداث العظام أن تجمع الملمات والظروف القاسية قرابة خمسمائة ألف ألف (٥٠٠ مليون) من أناس يختلفون فى العقيدة، ويختلفون فى لغاتهم وألسنتهم ، ويختلفون فى ألوانهم ، فتراهم جميعاً صفاً واحداً وبناء متماسكاً : تؤلف المصالح المشتركة والعواطف المتحدة بينهم

ولقد قامت فى التاريخ امبراطوريات عظيمة : كالإمبراطورية الرومانية ، والإمبراطورية المصرية القديمة ، والإمبراطورية الإسلامية ؛ ولكنها جميعاً انتابها ما ينتاب الكائنات : فطويت أخبارها وضاعت مقومات وجودها ، ولم يبق منها إلا ذكر يتردد فى أسفار التاريخ

ولكل امبراطورية بناءون اشتركوا فى بنائها ووضعوا فيها اللبنة فوق اللبنة ، والحجر فوق الحجر ، حتى ارتفع البناء واستطال فى الجو ؛ وبعض هؤلاء البنائين مشهورون معروفون تردد الألسنة ذكرهم ، وتقترن أعلامهم دائماً باسم الأمبراطورية التى أقاموا بناءها ورفعوا لواءها ؛ وبعض هؤلاء البنائين منسيون مغمورون لا يهتف باسمهم لسان ولا يتردد ذكرهم على فم ، على حين تبقى أعمالهم خالدة دائمة، لا تنتسب إلى صانع ولا تنتمى إلى مؤسس

وهؤلاء المنسيون فى كل أمة ، وفى كل واد ، وفى كل ناحية من نواحى الحياة . ففى بناتى الأمم منسيون ، وفى العلماء مغمورون وفى الشعراء والأدباء مطويون مقبورون

وليس من الحق أن يطول الأمد على نسيان هؤلاء الناس ، وليس من العدل أن تظل أسماؤهم مكتومة وحياتهم غامضة ؛ وليس مما يشرف الإنسانية أن الجور يجرى على أحكامها ، وأن المحاباة تدخل فى تقديرها وحسابها ، فهى أعدل من تُطلب عنده النصفة ويلتمس منه التقدير

وفى تاريخ الأمة الإسلامية كثير من أمثال هذا النسيان ، كما فى تاريخ غيرها من الأمم . فليس من العدل أن يذكر اسم « الحجاج بن يوسف الثقفى » فى توطيد الملك لبنى أمية وينسى عشرات غيره ممن لا يقلون عنه يداً فى دعائم التثبيت . وليس من الحق أن يذكر أبو مسلم الخراسانى فى الدعوة للدولة العباسية وينسى غيره ممن ساعدوا فى بناء هذا الملك الذى يقول فيه الشاعر العباسى :

أصبح الملك ثابت الآساس ... بالبهاليل من بنى العباس

نعم إن فى بناء الممالك وقيام الإمبراطوريات عوامل أخرى تقوم بجانب العوامل الشخصية ؛ وإذا كانت هذه العوامل الأخرى تذكر فى معرض البحث ومجال الدرس ويلقى عليها ضوء يكشف عن دجاها ، فإن العوامل الشخصية أحق بأن تذكر جميعاً ، وألا يطوى النسيان واحداً أو اثنين أو جماعة منها

والذى يتتبع تاريخ الإمبراطورية البريطانية يجد فيها أسماء كثيرة يعرفها كل شخص ، ويرددها كل لسان ، يلقنها الطفل فى مهده ، ويقرأ عنها فى دراسته الأولى ، ويستزيد البحث عنها كلما كبرت سنه ، وكثر ميله إلى المعرفة ، وزاد شوقه إلى الاطلاع

فهناك (رودس) وأعماله الخالدة فى جنوب أفريقية ، وهناك (كوك) الملاح المستكشف الرحالة الذى راح ضحية مغامراته العظيمة فقتل بأيدى جماعة من سكان جزائر ساندويتش الوطنيين ، وهناك (وولف) القائد العظيم الذى وطد للامبراطورية فى كندا وظهر فى حصار (لويسبرج) واحتلال (كويبك) فى مفتتح القرن الثامن عشر ؛ وهناك (نلسون) أمير البحر العظيم الذى جرح جرحاً بليغاً فى معركة الطرف الأغر ضد الفرنسيين فلم يمنعه ذلك أن يقوم بواجبه وهو فى ساعة النزع الأخير ، وقد حشرجت نفسه وضاق بها الصدر

وهناك (دريك) «وكلايف» الذى مكّن لانجلترا فى بلاد الهند الواسعة وجعلها ملكاً للتاج البريطانى . وهناك عشرات غير هؤلاء يعرف الناس من أنبائهم الكثير

ولكن من سمع فى تاريخ الامبراطورية البريطانية عن (كلسى)؟ ومن حفظ اسم السير (جون ريتشاردز)؟ ومن خطر على باله أن يذكر فى معرض الحديث عن القارة المجهولة الأفريقية اسم (موفات)؟

هذه أسماء ثلاثة لا أظن أن قارئاً سمع بها أوعرف نبأ عنها . فهى مطوية فى تاريخ الامبراطورية مسدول عليها ستار كثيف من النسيان؛ إلى أن تناولها الكاتب الإنجليزى الكبير (آدام بوزويل) فى إحدى المجلات الإنجليزية من شهور قريبة ، وعرف كيف يقدمها إلى قرائه فى إنصاف بعيد عن التهويل والتهليل، وتجنب أن يضفى عليها ثوباً فياضاً من المبالغة والخيال .

أما (كلسى Kelsey)؛ فقد نشأ وضيع المنشأ ، فقير الأهل صرعه الجوع يوماً فسقط مغشياً عليه ، فالتقطه أحد الموظفين بشركة (هادسون باى) وحمله معه على إحدى البواخر حتى بلغا (فورت نلسون) ، وهو بناء خرب متصدع الأركان يحيط به فضاء موحش ، وهناك قام عمل الفراء على يد هذه الشركة

وكان (كلسى) غلاماً شقياً لا يطيع أمراً ، ولا يحترم إرادة ، فحمل إلى الحاكم فأمر بجلده . وتقلبت عليه سنون سود اختلط فيها بالهنود فى كندا وعاش عيشتهم ، وأخذ أخذهم ، إلى أن حان له وقت البناء لمجد بلاده فألّب الهنود على الفرنسيين فى كندا ، وكان الهنود يحبونه ولا يعصون له أمراً؛ فانهالوا على الفرنسيين من كل جانب وأخرجوهم، ومكّنوا للانجليز فى السلطان

وكانت القبائل تدخل فى طاعته ، وتنقاد إلى زعامته بدافع من المحبة له ، وهو أول إنجليزى كشف شمال كندا الغربى وأضافه برمته إلى أملاك الإمبراطورية

أما (جون ريتشاردز) فكان ابن فلاح من غمار الناس لا من خواصهم . دخل فى الجيش جندياً صغيراً جداً لا يؤبه له ولا يعتد به ، ثم أصبح فى زمن يسير قائداً عاماً

وفى أوائل القرن الثامن عشر كان مؤمراً على كتيبة من الجند فى مدينة (أليكانت) ببلاد أسبانيا . وقد كان من حظ انجلترا أن تقاتل ضد فرنسا فى ذلك الحين . ولكن شجاعة «ريتشاردز» وروحه المعنوية القوية سرت إلى ضباطه الصغار وجنوده ، فقابلوا خطراً محققاً من لغم وضعه الفرنسيون لهم ، ولم يحيدوا عن أماكنهم؛ أو يتزحزحوا عن مواقفهم؛ إطاعة لأمر قائدهم . وانفجر اللغم فمات منهم عدد كثير . ومات القائد فى طليعة ذلك العدد

ولكن موتهم كانت حياة لمن بقى بعدهم . فقد ثبت الباقون منهم أمام أعدائهم ، ولم يتلفوا سلاحاً أو يرموا عدة من عدد الحرب حتى جاءهم عدد كبير تحت قيادة أمير البحر الإنجليزى (بنجز) الذى اضطر الفرنسيين إلى الفرار وتولية الأدبار

وبهذه الشجاعة الأدبية الفائقة ، والتضحية الحق التى بذلها (ريتشاردز) استطاع عشرات من الجنود الإنجليز أن يعوّقوا عشرة آلاف جندى من الفرنسيين عن القتال ، وأن يؤخروهم حتى يجىء المدد ويتم النصر ، ويقضى على محاولة فرنسا لتستولى على أملاك الإمبراطورية البريطانية

أما (موفات) فلم يسمع به أحد إلا القليل ممن يقرءون تاريخ الكشف الإفريقى ، وأين منه مثلاً الاسم الواسع العريض الذى يتمتع به ليفنجستون؟ والحق أن هذا الأخير قد قرر فيما قرره أن أعماله فى أفريقية كادت تكون عملاً مستحيلاً لولا أن (موفات) ذلل له السبيل ، ومهد له الطريق

كان (موفات) من أسرة وضيعة الحال ، إلا أن ذلك لم يمنعه أن يكون أحد البنائين المنسيين فى الإمبراطورية البريطانية . والحق أن بناء الأمم لا يحتاج إلى شخصيات من ذوى الحسب وأصحاب النشب؛ بل كثيراً ما تكون الإرادة القوية والعزيمة الصادقة ، والتضحية الفائقة هى العوامل الفعالة فى رفع البناء . وإذا تجردنا من الهوى نجد أن أعظم الدكتاتورين المعاصرين هم من أسر رقيقة الحال ، ومن طبقات لم تبلغ مكان السيادة ، ولا محل القيادة .

وكذلك كان (موفات) . فقد ظل يعمل فى أفريقية مدة خمسين عاماً بين زنوج أفريقية . وكان أمة وحده فى نشر الدعوة للامبراطورية فى وقت لم تشهد القارة السوداء فيه وجهاً واحداً من ذوى البشرة البيضاء ، والعيون الزرق .

ولقد أحبه الرحالة العظيم لفنجستون ، ووثق به واطمأن إليه وتزوج إبنته . وكان (موفات) فى البعثة التى ذهبت إلى أفريقيا بعد عيشة خمسين عاماً فيها ليبحث عن حميه التائه فى مجاهل القارة المظلمة

[مترجمة عن انجلش دیجست] محمد عبد الغنى حسن

كلمة أخيرة

التقليـــــد فى الفنون

أو نسخ «الكربون»

للأستاذ سيد قطب

التعبير الفنى فى كل صورة من صوره - أدباً كان أم تصويراً أم نحتاً أم غناء أم موسيقى - هو انبعاث ذاتى، وفيض نفسى، وانفعال شخصى، يتميز فيه كل فنان عن كل فنان

والله الذى جعل بصمات الأصابع مختلفة فى كل إنسان عن كل إنسان - وهى خاصة جسمية - جعل الشعور الإنسانى والطبائع البشرية أشد اختلافاً وأكثر تفاوتاً، لأن اللامح النفسية أجدر بالتفاوت والاختلاف من اللامح الجسمية فى بنى الإنسان

وتفاوت الطبائع الفنية هو المبرر لظهور الفنان بعد الفنان، حتى يكون للحياة من هـذه الطبائع معرض حافل بصورها المختلفة، ذلك أن الفن صورة الحياة فى نفس فنان، وحين تختلف الصور وتتعدد، يحفل المعرض الخالد بالصور العجيبة

وحين ينعدم هذا التفاوت والتميز المطلوبان فى الفنان، ينعدم المبرر الأول لظهوره على مسرح الفنون، ويفقد حجته فى تمثيل دوره فى الحياة التى لا تحفل بالنسخ المكرورة المعادة، ولا تبالى سوى الجديد المتميز تكثّر به نتاجها الممتاز، وتزيد فى معرضها العجيب

تلك بديهيات مقررة، ولـكننا هنا فى مصر نحتاج أن نبدئ فيها ونعيد وأن نشرحها ونضرب الأمثلة لها، ولو نقلت هذه الشروح والأمثلة إلى أية لغـة لـكانت عجباً هناك بين القارئين، ودليلاً أى دليل على مبلغ تأخرنا فى فهم وظيفة الفنون، بينما نحن فى مصر لا نزال فى حاجة إلى المزيد!

وقد كان معيباً أن يقلد شاعر شاعراً، وموسيقى موسيقياً، ومطرب مطرباً، فى طريقة إحساسه أو طريقة أدائه، ولو كان هذا التقليد غير مقصود، لأنه يعارض غرض الحياة الأول من إظهار فنان بعد فنان، ويعطل وظيفة الفن الأولى من إبراز النماذج والأنماط

وظل هذا التقليد المستتر العارض معيباً، حتى فوجئنا أخيراً ببدعة فاقت كل ما كان يخطر على البال من جراء المسخ الذى أصاب الغناء المصرى، تلك هى ظهور مطرب أو أكثر يقول علناً: إنه يغنى على طريقة مطرب آخر، ويذيع فعلاً، فإذا هو صورة أخرى من أستاذه أو نسخة من نسخ «الكربون»!

كنا ننتظر كل مسخ أو تشويه للطبيعة البشرية - ودعك من الطبيعة الفنية الممتازة - إلا أن يصل هذا المسخ إلى رضاء إنسان أن يكون نسخة أخرى من إنسان، ونسخة مشوهة بطبيعة الحال كنسخة «الكربون» بالقياس إلى النسخة الأصلية

ولست أدرى ما يبرر وجود النسخة الثانية متى كان فى الإمكان الاطلاع على النسخة الأولى. ولست أدرى لماذا يكلف إنسان نفسه مشقة الاطلاع على نسختين مكرورتين أو أكثر وفى واحدة غناء عن الأخريات؟

وما أدرى أسأل المطرب المقلد أو المطربون المقلدون والمطربات المقلدات أنفسهم هذا السؤال؟ وهل علموا أنهم يلغون وجودهم ويفقدون المبرر الأول لهذا الوجود، أم لم يدر فى أخلادهم مثل هذه الأسئلة وهم يندفعون إلى التقليد؟

***

وبعد فلو عزت الدلائل على المسخ والتشويه الذى بلى به عالم الموسيقى والغناء، ففى هذا التقليد الواضح المكشوف دليل لا ينقض على هذا البلاء، دليل على هؤلاء الذين يتصدون لأرفع وظيفة إنسانية وهم مجردون من المؤهلات البشرية الأولية التى ترتفع بالانسانية عن التماثل أو التشابه الملحوظين بين حجر وحجر أو زاحفة وزاحفة، قبل أن تتميز الأشكال وتتنوع الأنماط فى عالم الطبيعة وعالم الحياة ...

وهو دليل على أننا لم نكن مبالغين حين نفضنا أيدينا من هؤلاء الناس، ويئسنا من استطاعتهم تغيير أنفسهم وتبديل طبائعهم؛ وحين التفتنا إلى هذه الأمة وحدها نفحص عن نبع مطمور فى طبيعتها نرجو أن ينفجر فيكتسح هذه المخلفات

وفى ارتقاب هذه المعجزة نقضى الوقت فى تأملات وملاحظات علها تمهد الطريق للنبع المرموق!

يشقشق العصفور حين تمتلئ حويصلته بالحب والماء، ويحس بالدفء والراحة، ويأمن المخاوف والأخطار، ويستشعر فى قواه فضلة دافقة يناجى بها الأليف، ويطلب لها كفئاً من الأنيس

ويغنى الإنسان — على مثال ما تشقشق الطير — حين يجد فى نفسه فيضاً من شعور، وفضلة من طاقة، ويحس براحة للتعبير، ولذة فى التنفيس. يستوى أن تكون هذه الطاقة من لذة أو ألم وأن يكون ذلك الشعور من نعمة أو بلاء، والألم فى هذه الحالة دليل قوة كاللذة سواء، ومبعثه امتلاء النفس بعاطفة ملحة، لإفراغها من الطاقة الدافعة

ولن يكون الغناء فى أية حالة من الحالات دليل ضعف وانحسار فى الوجدان، ولن ينبعث حين ينطوى المرء على نفسه وتفرغ الطاقة الدافعة فى شعوره، فهذه الحالة حين توجد تبعث على الصمت لا على التعبير، وتنزع إلى الانزواء لا إلى الظهور

فالذين يغنون فينضح الضعف فى أغانيهم، ويسيل التخاذل فى نبراتهم، والتهالك فى ألحانهم، هم جماعة من المثلين الزائفين لا يليق بأمة أن تطمئن إلى قيامهم بأرفع وظائفها وهو التعبير الفنى والقيادة الروحية والتطلع إلى الكمال

والحب المظلوم مع المؤلفين والملحنين والمطربين، هو الآخر دليل فيض فى القوة لا دليل انحسار. فلن يحب الحب وهو مضموف هزيل، ولن يبحث عن الحب إلا حين تفيض قواه، ويطلب لهذا الفيض إنساناً آخر يعاطفه ويكافئه؛ حتى الحيوان — لا يحب! — إلا حين تصح بنيته وتفيض غريزته فيطلب الأنثى، ويجهر بالحب على طريقة الحيوان!

وقد يبعث الحب الألم فى بعض الأحيان، ولكنه لن يبعث الضعف فى حالة من حالاته، ولا التميع فى صورة من صوره؛ إلا أن يكون هـذا الحب «السوق» المصطنع الذى يفيض به الغناء فى هذه الأيام

إن حرقات الحب فى حرمانه غريزة قوية كلذائذه فى متاعه، وما كل هذه التكسرات و «المياعات» إلا دنس يلطخ وجه هذا الحب العزيز الكريم، ويشوه جبينه الطاهر النبيل، وما هو إلا مسخ للطبائع وتحريف للغرائز، أوقح ما فيه أنه يتزيا بزى الفنون

ومن المؤلم ألا يكون الغناء وحده هو الذى يقارف هذه الجريمة، بل يشاركه الشعر فيها؛ فإذا الحب بكاء ودموع ولا شىء غير البكاء والدموع. ولن يصاب الحب بالمسخ فوق هذا المصاب، ولن يبلى هذا البلاء إلا حين تشيخ الأمم ويصيبها الانحلال. ومن هنا نحن نشتد فى مقاومته خيفة أن يصدق نذيره فى شعب يهم بالنهوض!

إن للحب ألواناً وأنماطاً، وإن له صعوداً وهبوطاً، وإقبالاً وإدباراً، ولذة وألماً، وفيه رجاء وقنوط، ويقين وشكوك، وجوح وانحسار، وقلق واطمئنان؛ وهو فى كل حالة من حالاته يثير أحاسيس ويلهم تعبيرات؛ فأين هذا الغنى كله من ذلك الفقر المدقع فى عواطف الشعر والغناء، ومن ذلك الثوب الواحد الذى يرتديانه فى كل حال؟

ووراء الحب عوالم أخرى من مباهج الحياة، ومجالى الأطياف والظلال، ومعارض الصور والأشكال، فى الطبيعة والكون؛ فأين هذا كله فى الموسيقى والغناء؟

* * *

أيتها الأمة: إن هؤلاء الذين يهتفون لك بأحط غرائزك، ويتملقون فيك أردأ أحاسيسك، ويخاطبون عندك أسوأ وجداناتك، هم جماعة من التجار المهرجين، يختلسون إعجابك، وينهبون نقودك، ويجزونك على هذا بنشر أسباب الانحلال، وبث عوامل التفكك. وغريزة الدفاع عن النفس فى أبسط صورها كفيلة أن تنبهك أيتها الأمة إلى الذود عن نفسك، وإلى نبذ كل من يخاطبك بغير ما تخاطب به الأمم الناهضة والشعوب الكريمة

وإلى اللقاء — أيتها الأمة — حين تقع المعجزة فينهض فيك فنان فى عالم الموسيقى والغناء.

سيد قطب



المتعاظم الصــغير أيضا

أحب من أعرف من القراء هذا المتعاظم الصغير وما منهم إلا من يراه فيما قرأ عذب الروح خفيف الظل ، يرق كثافة ويلطف روحاً ، حتى لتكاد ألا تراه إذا وقعت عليه العيون

جلست ذات يوم مع كبير من أصحاب الديوان ، جئته زائراً فحسب ، فراح — ولعله ظن أنى جئته لأمر — يشكو إلىّ من كثرة من يجيئونه من طالبي الوظائف لأقاربهم والمحسوبين عليهم من الناس ، وقال وهو يبتسم ابتسامة ساخرة : والعجب أنه كثيراً ما يطلب إلىّ ذلك من لا أكاد أعرف أشخاصهم ، فمن هؤلاء من يرى أن مجرد رؤيته إياى مرة فى أية مناسبة ، كفيل بأن يجعل له حق الوساطة لدى !

وما كاد يتم صاحب الديوان عبارته ، حتى ناوله حاجبه بطاقة فنظر فيها نظرة المتسائل وقطب ، ثم ابتسم مثل ابتسامته السالفة وقال لحاجبه فى شىء من الضجر : أدخله . . .

وفتح الباب ، ونظرت ، فإذا المتعاظم الصغير يقبل متهللاً فيسلم على صاحب الديوان سلام الصديق على صديقه ، وبعد أن سأله كيف حاله وكيف حال أنجاله ، وأعاد ذلك مرة ومرة ، دنا منه وكلمه كلاماً لم أسمعه ، وإنما رأيت فى معارف وجهه التوسل والاستعطاف الشديدين ؛ وأنصت صاحب الديوان وعلى وجهه أمارات من يكظم غيظه ومن يعانى من ذلك ضيقاً شديداً ، ثم نفس عن نفسه بقوله : « يا سيدى الأستاذ هذا ضد القانون » ولكن الأستاذ راح يتوسل من جديد فى ابتسامات قردية السمت ، وحركات من لىّ العنق وإدارة الوجه : مرة إلى اليمين ومرة إلى الشمال ، أشبه بمـا يفعل معك أحد الشحاذين إذا ابتليت به فقطع عليك طريقك

وما فرغ الأستاذ من مسكنته هذه إلا بعد أن راح صاحب الديوان يكرر — وكأنه يصرخ — قوله : « آسف يا سيدى ... يا سيدى قلت لك آسف ... لا تؤاخذنى ... آسف ... آسف »

وبلغ المتعاظم الصغير منتهى عذوبة روحه وخفة ظله ، فراح يلق فى روع صاحب الديوان أنه يعرف فلاناً وفلاناً ، وأنه له عند « سعادة الوكيل » مكانة خاصة ، وأن من أصدقائه كيت وكيت من العظماء والكبراء ، وأنه ما جاء يرجو « سعادة البك » إلا لما عرف من كرمه وبره ، ثم سأله ليغطى خجله أو ليحفظ على نفسه تعاظمها وقد يئس من التوسل ، أيجيب طلبه إذا ظفر بموافقة سعادة الوكيل عليه ؟

وإذ ذاك نهض صاحب الديوان فمد إليه يده يسلم عليه أو يصرفه على الأصح وهو يقول مبتسماً : « يا أخى إن من يعرف هؤلاء لا حاجة به إلى أمثالنا » ... ولم يجد المتعاظم بداً من الخروج ؛ ونظرت إليه وهو يهز اليد التى امتدت متراخية إليـه هزاً قويًّا حماسياً ، فلم أر فى وجهه شيئاً من خجل أو اضطراب ! ...

ونظر إلى صاحب الديوان وهو يتنفس الصعداء الطويلة قائلاً وقد رأى فى وجهى الاستفهام : « تالله يا أخى ما أذكر أنى رأيته من قبل ولم أعرف اسمه ولا وظيفته إلا من بطاقته » !

وانصرفت من لدن صاحب الديوان فررت بذلك المتعاظم وقد وقف فى ردهة من ردهات الديوان يحيط به بعض الريفيين وسمعته يقول لأحدهم : « خلاص يا مصطفى مسألتك انتهت وستعين قريباً ... أما أنت يا حسن فأنا ذاهب إلى سعادة الوكيل من أجلك الآن ... وأنت يا علىّ فكرنى بكره ... فين عبد السميع ؟ موضوعك ينتهى قريباً إن شاء الله ، اطمئن ... »

ومضى المتعاظم الصغير مرفوع الرأس شامخ الأنف يسراه فى جيب سرواله ويمناه يلوح بها مسلما على من يعرف ومن لا يعرف ممن يمر بهم من صغار أصحاب الديوان وكثيراً ما كان يكتفى بإيماءة من رأسه العالى أو ابتسامة من ابتساماته العذبة وإن لم يفطن إليه بعض من كان يجود عليهم بهذه التحيات أو كان يحسبها بعضهم موجهة إلى غيرهم لأنهم يجهلون صاحبها ، وفى نفسه أنه علم يشار إليه أينما سار ؛ وكان كما زعم متجهاً للقاء سعادة الوكيل وإن كنت لأعلم حق العلم أنه لا يعرف عن سعادة الوكيل إلا اسمه وموضع حجرته من حجرات الديوان

الخفيف



خصومة لا عداوة

رأى جماعة من كبار المفتشين وهم الأساتذة جاد المولى بك ومحمد على مصطفى ومحمود محمد حمزة ومصطفى أمين وأحمد على عباس، رأى هؤلاء الأكابر بأخلاقهم وآدابهم أن أقف الجدال الذى أثرته فى وجه الأستاذ السباعى بيومى، وحجتهم أنه وصل إلى درجات من العنف تؤذى كرامة المشتغلين بخدمة اللغة العربية

وأنا أجيب هذه الدعوة، لأنها أول دعوة كريمة صدرتْ لكفّ الشر بينى وبين من أخاصمهم بقلمى لا بقلبى، فلم أسمع مثل هـذا الصوت يوم خاصمتُ رجالاً أعزّاء لم يكن يسرنى أن ينفصم القلم ما بينى وبينهم من عهود

وإنصافاً لنفسى أقول: إنى كتبت ما كتبت وأنا أبتسم. فأنا قد أخاصم، ولكنى لا أعادى. فما استطاعت الدنيا بأحداثها الفوانك أن تضيفنى إلى أرباب الضغائن والحقود، وإلا فما هى البواعث التى تفرض أن أخص الأستاذ السباعى بالعِداء وهو صديقٌ قديم؟

أنا أُتهَم بالقسوة والعنف بغير حق، فما كان من همى فى كل ما أثرت من المجادلات إلا إيقاظ الروح الأدبى واللغوى. أما إيذاء الأدباء والباحثين فهو معنى لا يمر بخاطرى، لأنى أرجو دائماً أن يكون الهدم على عنفه من صور البناء

كان سبب الخلاف هو تبرئة الشيخ المرصفى من تهمة الغرور فما يكون الرجل مغروراً إلا حين يدعى ما لا يملك، والمرصفى من أقران المبرد، وجهد المرصفى فى شرح الكامل قد يكون أعظم من جهد المبرد فى تأليف الكامل، وستُعرف هذه الحقيقة يوم يقام فى هذه البلاد موازين صحيحة لأقدار المفكرين فى القديم والحديث ...

أنا أديت واجبى فى صيانة سمعة الشيخ المرصفى، فماذا صنع تلاميذ هـذا الإمام الجليل، وفيهم أحمد حسن الزيات، ومحمود حسن زناتى، وعلى عبد الرازق، وطه حسين؟

ولكن كيف يصنع أولئك الأساتذة فى البر بذلك الإمام الجليل ...؟

أنا أدعوهم إلى تأليف لجنة أدبية يكون عملها إنقاذ مؤلفات الشيخ المرصفى من الضياع. وأخص بالعناية شرح المرصفى على «أمالى القالى» فقد أخذ من وقت شيخنا العظيم سبع سنين، وهو لا يقل عظمة عن شرح الكامل، وقد يفوقه فى أشياء

منذ نحو ثلاث وعشرين سنة وقف الخطباء والشعراء فى المدرج الذى أنشأه الوزير على مبارك باشا فى ديوان المعارف بدرب الجماميز، وقفوا يرثون الشيخ حمزة فتح الله، وكان فيهم محمد الهراوى وعلى الجارم ومحمد الخضرى، ثم وقف خطيب خُتمت خطبته بالدمع، فمن هو ذلك الخطيب؟

هو الأستاذ الشيخ محمد المهدى بك، أول أستاذ تلقيت عليه دروس الأدب بالجامعة المصرية؛ فقد كان فى خطبته أن جماعة من المستشرقين أرادوا أن يشتروا مخطوطات الشيخ حمزة فتح الله وأنه أجاب: هذه المخطوطات ملكٌ لوطنى!

وقد بكى الشيخ المهدى فأبكانى حين فاه بهذا التصريح النبيل

وأنا من جانبى أذكر أن الشيخ المرصفى كان يصلى العصر بالأزهر منذ نحو عشرين سنة وبجانبه رجل يترصّده من جماعة الناشرين؛ فلما انتهى الشيخ من صلاته أقبل الناشر يقول: أرجو فضيلة الشيخ أن يبيعنا حق النشر لشرحه على الأمالى. فصرخ الشيخ: هذا شرح لا يشتريه إلا ملك!

وكان ذلك آخر العهد بشرح المرصفى على الأمالى، ومصرُ لا تخلو من عقوق إلا أن يتفضل أستاذنا الشيخ محمد مصطفى المراغى فيشترى هذا الشرح من الورثة قبل أن يضيع كما ضاعتْ مئات وألوف من آثار أصحاب الفضل بهذه البلاد

إن نفعتْ هذه الفرصة بعض النفع فى إنقاذ بعض مؤلفات الشيخ المرصفى فسيكون من حق نحو ضميرى أن أتناسى الإيذاء الذى صوّبته إلى الأستاذ السباعى بيومى، وإلا فسأذكر أنى أهنت رجلاً وادعاً بلا نفع ولا غَناء، فما أثرت ميدان النقد الأدبى إلا لغرض نبيل هو إيقاظ النوافى من العواطف والقلوب

المهمّ هو الظفر بنفع محقّق لخدمة اللغة العربية ، فأين من يستمعون هذا الصوت فينقذون مؤلفات الشيخ المرصفي من الضياع ؟ وأين من يذكرون أن الشيخ المرصفي كان أول رجل أقام دولة للأدب واللغة في مطلع العصر الحديث ؟

أما العبارات التي آذيتُ بها الأستاذ السباعي بيومي والتي استوجبتْ أن يتوسط بيني وبينه أولئك الأكابر من المفتشين ، وهم لي وله إخوان ، فأنا أراها عبارات هينة رفيقة ، على شرط أن تنبه الغافلين من تلاميذ المرصفي العظيم ، وإلا فهي إثمٌ اجترحتُه في بلاد لا تعرف حقوق الرجال .

زكي مبارك

تصويبات

حضرة الأستاذ الجليل صاحب (الرسالة)

١ — قرأت في العدد ٣٩٧ من الرسالة الغراء كلمة للدكتور زكي مبارك ، توجيهاً لغلطة في ضم الظاء من كلمة (الظرف) . فقد قال : « أنا أقول إن الظرف قد أخذ حكم اللطف من طريق الإتباع ، ثم بقي له الحكم مع الانفراد ... والمصريون عرب ، وهم لا يخطئون في لغتهم عن جهل ، وإنما (يخطئون) لأسرار قد تخفى على بعض القراء ، فتتوهمهم مخطئين وهم على صواب » الخ ما قال

ومعنى هذا كله أن الدكتور قد أخطأ ، فشقّ عليه أن يعترف بالخطأ ، فراح يتلمس أمثال هذه العلل . نحن لا ننكر أن جمهرة المصريين من أصل عربي ، وأن لغتهم تتكون من لهجات القبائل العربية التي نزحت إلى مصر ، وأنها تشتمل على كثير جداً من الفصيح ، وعلى كثير جداً مما يحتاج إلى يسير من التهذيب والصقل حتى يعود صحيحاً . ولكنا ننكر أشد الإنكار أنهم لا يخطئون في لغتهم ، بل الخطأ والتشويه فاشيان في صميمها . وما ظنك بأمة خالطت الأعجام من كل جنس قروناً وأحقاباً طوالاً ، ولخطر المخالطة والامتزاج جدّ السلف من اللغويين في ضبط اللغة ووضع قواعدها وجمع مفرداتها من أفواه العرب الخلّص ، حفاظاً عليها من أن تتسرب إليها العجمة والتشويه . أفبعد كل هذه المخالطة والامتزاج نجرُؤ أن نحتج بكلام المصريين وضبطهم للألفاظ ؟

ألا إن هذا المذهب إغراء صريح للشباب بالاستهانة بالبحث وأخذ اللغة من مصادرها الصحيحة

وقد أذكرني هذا أني رأيت في الرسالة منذ قريب كلمة لفاضل نبّه فيها الدكتور على أنه من غير الصواب أن يقول : (أمكن له) لأن الفعل متعد بذاته ، ولكن الدكتور لم يجبه . وبينما كنت أتصفح للدكتور من بعد ذلك مقالاً في (الرسالة) ، وجدته يُؤثِر الخطأ نفسه ، حتى لا يقال — فيما أظن — إنه اعترف بأنه أخطأ . وقد يجيب الدكتور عن هذا بأن المصريين يقولون : « أمكن له » فهو صحيح !

٢ — نشب حوار في (الرسالة) بين الدكتور زكي مبارك والأستاذ إسماعيل مظهر حول معنى (الجِبل) . فأنكر إسماعيل مظهر المعنى المُتعالَم للجبيل ، وهو أهل الزمن الواحد . وقال إن الكلمة التي تؤدي هذا المعنى هي (الأهل) ، وساق نصاً من الأغاني يؤيد رأيه وقال — مستنداً إلى ما اطلع عليه من المعجمات — إن الجيل هو الصنف من الناس ، فالمصريون جيل ، والترك جيل ... الخ ، وأصر الدكتور زكي مبارك على أن المعنى المتعالم يُقصد أيضاً من (الجيل) ، ووعد بمواصلة البحث حتى يأتي بالدليل . ولكنه لم يأت به بعد

وإني أدله على دليل : ففي (المصباح المنير) في مادة (ق ر ن) ما يأتي : « والقرن الجيل من الناس . قيل ثمانون سنة . وقيل سبعون » فأنت ترى أن للجيل معنيين قد نُص عليهما

أما (الأهل) التي أتى بها الأستاذ مظهر من الأغاني فيظهر أنها قد تنوسيت لذلك المعنى . فأهمل استعمالها

٣ — قرأت في مجلة « الثقافة » كلمة تحت عنوان : (مفاتح جمع مفتح لا مفتاح) قال فيها الكاتب بعد كلام : « والواقع أنه « أي مفتاح » جمع مفتح بالكسر . وهو الآلة التي يفتح بها . أو جمع مفتح بفتح الميم . وهو المكان لا جمع مفتاح ... الخ . ولو كلف الكاتب نفسه المراجعة لما قال هذا القول . ففي المختار : « والمفتاح مفتاح الباب . وكل مستغلق . والجمع مفاتيح ومفاتح أيضاً » . وفي هذا كفاية . ولا ضرورة لهذه الفلسفة الصرفية التي لجأ إليها الأستاذ الكاتب

ا . ع

صواب بيت

فى عدد مضى من الرسالة ، كتب الأستاذ الباحث «عبد المتعال الصعيدى» كلمة قصيرة ، بعنوان خطأ بيت فى النحو ، اتهم فيها علماء النحو — جيماً — من يوم أن كان هذا الفن بالبصرة والكوفة إلى أن باض وأفرخ فى صحن الأزهر الشريف ، ونسب إليهم من السهو والغفلة الكثير الجم ، إذ أجمت مؤلفاتهم وأفكارهم على أن «أو» فى البيت :

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى
فما انقادت الآمال إلا لصابر

بمعنى «حتى» التى هى للتعليل أو الغاية وقد هداه بحثه إلى أن هذا المعنى الذى جاءت له «أو» لم يكن واحداً مما استقصاه ابن مالك فى قوله :

خيّر أبح قسم «بأو» وأبْهِم
واشكك وإضراب بها - أيضاً - نمى
وربما عاقبت الواو إذا
لم يلف ذو النطق للبس منفذا

والذى يقرأ الكلمة لأول وهلة ، يخيل إليه أن الأستاذ هدم ما بنى البانون ، وقوض ما شيد المشيدون فى حين أن المسألة - كما يقولون - ليست مما يقال فى أمثالها «قضية ولا أبا حسن لها» فإن هذا الذى يقوله ابن مالك ، خاص (بأو) التى تتمحض للعطف ... أما هذه فإنها تكون بمعنى (إلى) إذا كان ما قبلها مما ينقضى شيئاً فشيئاً كالبيت المذكور ... وتكون بمعنى (إلا) إذا كان مما ينقضى دفعة واحدة ... كقول زياد الأعجم :

وكنت إذا غمزت قناة قوم
كسرت كعوبها أو تستقيما

وتكون بمعنى (لام التعليل) كما يقول القائل : لأعطين الفقير أو يرق لى قلبه ... على أننا لو رحنا نتلمس (لأو) فى كل هذه الأمثلة معنى حرف من الحروف التى جمعها صاحب (الألفية) فى بيته - خيّر أبح إلخ - لما ضاقت علينا السبيل

وهل المعنى فى البيت (لأستسهلن الصعب) سوى «ليكون منى استسهال الصعب وإدراك المنى» ... وهكذا دواليك ... وقد كان مما يؤثر عن علمائنا ، أن نكت النحو - كالورد - تشم ولا تدعك .

ابراهيم على أبو الخشب



مازبا...

للأستاذ محمد محمد مصطفى

ليست قصة الصبي البولوني « مازبا » من نسج الخيال . فلا تزال حوادثها مصورة على جدران كنيسة « سانت ماري » في مدينة « جالاتز » برومانيا .

قالت الأميرة « أوجستا » لخادمها وهي تحاوره :

— إني لأعجب من أمر الصبي القائم بباب قصري لا يبرح مكانه منه إلا ليطوف طرفه بنوافذ غرفتي ، فإن عرضت لي حاجة خارج القصر علق بي نظره ما يرتد إلا إذا غبت في حشد الطريق .

فقال الخادم : إنه مازبا يا مولاتي

— ومن يكون مازبا ؟

— هو شريد غريب الأطوار طالما رقت له قلوب الناس ولكنه يمتنع عن أن يناله أحد بعطف أو إحسان إلا أجراً لخدمة يؤديها

— وما مقامه ببابي ؟

وأرتج على الخادم ولوى شدقيه بكلمات لم تدرك منها الأميرة شيئاً . وكانت لحظة هائلة على الخادم المسكين ، أيكذب على سيدته وما كذب في حياته قط ... أم يقول الحق ... ويله من حق ...

أيقول لها إن هذا الشريد هائم بك قد تناهى كل جمال في دنياه إلى صورتك لا يقوم إلا بها ولا يغمض عينيه إلا عليها ؟ أيقول لها : إن قلبه لا يفتر عن الوجيب كلما خطرت أمامه خارجة من القصر أو عائدة إليه ؟ أيقول لها إنها سافرت إلى الريف أياماً قضاها البائس بين سعير وجده ولهيب حبه ؟ أيقول لها إن المدينة كلها تتندر بغرامه وشغفه ؟

وقال الخادم أخيراً :

— سليه يا مولاتي فهو أقدر مني على الجواب الصحيح

***

وخيل لمازبا أن الدهر قد مالأه وأن كل شيء في الوجود يبسم له حين دعاه الخادم للمثول بين يدي الأميرة ، وكان يذرع الأبهاء لا تأخذ عينه تحفة ، ولا يستوقف نظره أثاث ... كان كل شيء يبدو في عينيه طبيعياً كأن له به عهداً . ولما أشار الخادم إلى غرفة الأميرة شحب لون الصبي قليلاً ولكنه واصل السير ، وقالت له الأميرة : أخلت رقعة الأرض من مكان يأويك فجئت تصوب إلي في كل حين نظرة التحين للشر ؟

— شر !... إني لا أحب الشر ومع ذاك فأنا ... ومن أنا حتى أملك للأميرة شراً ؟

وسمعت الأميرة ضجة خارج غرفتها فسألت الخادم عنها فقال :

— إنهن أتراب مولاتي أتين للسمر . فقالت : دعهن يدخلن

وحينما دخلن على الأميرة شدهن وفغرن أفواههن وصاحت إحداهن : يا لمعجزة الحب ... لقد وصل العاشق الشريد إلى مخدع الأميرة . وقالت أخرى :

— بالله اتركهما يتناجيان فنسمع نجواهما ... يا للمنظر الفريد والحدث الفذ !

وعلت قهقهتهن والأميرة تنظر ولا تدرك شيئاً من حديثهن ثم قالت : إنه مازبا يا رفيقات . يبدو أنكن تعرفنه فصحن جميعاً :

— وهل في المدينة من لا يعرفه ؟

فقالت الأميرة : لقد كان يرسل إلي كلما مررت به نظرة أفاق فأوجست منه شراً . فقلن :

— كيف ! ألا تفرقين بين النظرات ؟

وأمرت الأميرة خادمها أن يطعمه ويكسوه وأضافت :

— ولكنك يا مازبا ستقيم بعيداً عن القصر فلا تمد إلى مكانك منه مرة أخرى

فقال الصبي : بالله يا مولاتي ... دعيني ... لا أريد طعاماً ولا رداء ، ولا تحولي بيني وبين مكاني فما في الأرض مكان أحب إلي منه ، وما وجودي به بضارك شيئاً

فرقت له نفس الأميرة وقالت : لك ذلك يا مازبا

وحينما هم بالسير قالت إحدى رفيقاتها :

— مسكين ! لقد شفه الهوى وأضناه الحب .

ودهشت الأميرة ونادته ثانية وقالت :

— أسمعت يا مازبا ... إنهن يقلن إنك عاشق مدنف ... فمن ترى تلك السعيدة التي سلبتك قلبك ؟

وأخذت أذنا المسكين تتجاوب صدى ضحك الفتيات وقد سمر في مكانه لا ينبس ولا يطرف ، وطال صمته والفتيات ينظرن إليه ويضحكن . فقالت الأميرة :

— تكلم يا مازبا ... من هي تلك السعيدة ... أتكون بائعة

الزهور أم بنت بواية المنزل المواجه لقصرنا ؟

فقال الصبي : لا هذه ولا تلك

— فمن تكون إذاً ؟

— إنها فتاة كبدر السماء أنظر إليها ولا أطمع في قربها . يغمرها الترف الذي نشأت فيه ، وتغمرني الأحزان التي ولدت في أحضانها . على أنه إذا كان ذلك بلاء بليت به فما أسعدني بهذا البلاء ، وما أكثر جذلي حين أرقب وجهها في الليالي القمراء كأنها ملك هابط ، أو كأنما قد فرت من الجنان حوراء

وأدركت الأميرة من كلام الصبي وضحك أترابها وتدله عيناه وخفق قلبه التدارك أنها معشوقة ذلك المزأة الشريد فانتفضت كمن مسها الخبل وصفعته صفعة طار لها صوابه ، وأمرت الخادم أن يربطه عارياً على ظهر فرس يطلقها إلى غير وجه في براري الدانوب

وكان وجه مازبا إلى السماء ، والفرس تنهب به أرضاً عذراء لم تطأها قدما إنسان ، وظوت في الفلاة أياماً ، ثم ظهر لعينيها العمران فاتجهت إليه مسرعة كأنما كانت تحس أن حملها لاغب وهنان . ولما اقتربت الفرس من مضرب قبيلة (ساشا) القوقازية اشتد عليها نباح الكلاب . وسرعان ما رفع الخبر إلى زعيم القبيلة (دروفسكي) الذي انطلق يسائل مازبا عن قصته ، ولكن الصبي كان لاه عن لفظهم وأسئلتهم بما قدم إليه من حساء وشواء ، وكان لا يفتأ يسأل بين الحين عن فرسه وما قدم إليها من علف وماء .

وقال مازبا بعد ما طعم وروى : أشكر لكم أيها السادة هذا الطعام وهذا الكساء وأستودعكم الله . . . إلى اللقاء

فقال زعيم القبيلة : إلى أين يا مازبا ؟

— إلى أين ؟ حقاً إلى أين ؟ عفواً أيها الزعيم فإني لا أعرف إلى أين أذهب . فقال دروفسكي :

— يا بني . إن امرأتي عاقر ولم أعقب ولداً وقد أرسلك الله لي فلا تخفر ظني فيك

— لك ذلك أيها الزعيم على ألا تسألني عن ماضي لأنه قد تصرم وطواه الظلام .

وبدت طلائع الفجر ولما يرقأ لعين الأميرة دمع ، وطفقت تحدث نفسها : أي ذنب جناه الصبي لأميته على الصورة التي أوحاها لي غضبي ونزق . ألحديث حبه السامي وتدلهه بي . لقد أتيت أمراً إدًّا . وعاشت الأميرة ساهمة واجمة يروعها طيف الصبي يلاحقها في الغدو والرواح

ولا نقول أن مازبا قد سلاها ، ولكنه طرحها في زاوية معتمة من زوايا قلبه ، وراح ينسج عليها الزمن خيوط النسيان

وتحجرت عاطفته ، فوجه كل حبه إلى وطنه الجديد ، وتعلم الفروسية على فرسه وعلمها لشباب قبيلته ، وأكسبته فطنته ودرايته ومكانته من زعيم القبيلة مهابة كان يزيدها عزوفه عن النساء وبغضه لهن ، وكان الزعيم الكهل يفرك يديه سروراً كلما رأى مازبا جالساً على محفته يحكم بين الناس بالعدل ويصرف الأمور بعزم الشباب وحكمة الشيوخ . وحل موعد جباية الضرائب في عام كان الناس فيه يعترون ، فجأرت القبائل بالشكوى قائلين : يا مازبا ، كن شفيعنا لدى بطرس الأكبر ليرفعها عنا . إنك بمواردنا عليم

ويأسى مازبا لبني وطنه الجديد ولا يدرك فيم تنفق الأموال التي تأخذ منهم قسراً لتحشر في خزائن بطرسبرج فيتصل بزعماء القبائل يحضهم على العصيان والإبقاء على أموالهم قائلاً في حماسة :

— فليأت هذا البطرس هنا ليأخذ منا ضرائبه عنوة إن شاء . يا شباب القوزاق : أفيقوا من سورة الخمر وسحر النساء ، وهبوا لنشعل أوار المعركة لتظفروا بالحرية والمجد

وهكذا نفث مازبا في روح القبائل جمراً من الوطنية يستعر ورغبة جامحة إلى خوض ميدان القتال . وكان بطرس الأكبر داهية أريب ، فأقام ليلة عيد الميلاد حفلاً هائلاً دعا إليه الملوك والأمراء من كل قطر ومصر ، واستدعى إليه مازبا وأمنه على نفسه ووطنه ووعده بالنظر في رفع ضريبة الدولة على أن يظل القوزاق تحت حكم الروس

وكان القصر الإمبراطوري شعلة تتوهج بين الدوح السامق والرياض المزهرة ؛ وقد نشرت الصحاف مثقلة بالّلذ الشهي من ألوان الطعام ، وقام وزير الخارجية بتقديم المدعوين إلى بعضهم ، فهؤلاء مندوبو فنلندا واستونيا والقابعون على الشراب في البهو الخشبي حكام سيبيريا والقادمون علينا يامازبا أمراء وأميرات بولونيا بولونيا ... وقبض مازبا على صدره كأن طعنة أصابته ؛ فذعر وزير الخارجية وقال : أبك شيء يا مازبا ؟

— لا ... لا ... إنه جرح قديم ... قديم جداً ولا أدري كيف آلمني الساعة

واقتربت أميرات بولونيا ، وكان أبرز ما فيهن جمالاً أوجستا وشخص مازبا إلى وجهها المتلألئ ، فانبعث غرام عشرون عاماً من قلبه كبركان ثار بعد طول رقاد ...

وعرفته أوجستا ، فجاءته على استحياء ، ومدت إليه يدها ،

وقد تضرج وجهها وخشع طرفها وانتحت به ناحية ، وأخذت تخالسه النظر ، وازدحمت الكلمات على شفتيها ثم قالت : كأنى بك طفل الأمس يا مازبا ، لم تغير من معارفك الحدثان

— طفل الأمس ... إنه مات فى برارى الدانوب

— وقلبه وحبه ؟

— كلاهما معاً ...

— ولكنى أرى بريق عيناك والتماعها بتلك المعانى الغامضة

— تلك أوهام ...

— إنك تجاهد غرامك يا مازبا ، ولقد لقيت قصاصى بما سهرته من ليال أذرف الدمع على ما قدمت يداى . فهل أنت مقيل لعثرتى ؟

— ما كان لى أن أصفح عنك ولا أرى لك ذنباً

— ألا زلت تحمل لى موجدة ؟

— لا ... ولكنى أوصدت قلبى دون النساء ، ثم أنى على موعد مع القيصر ، فاستودعك الله ...

— مهلاً يا مازبا ...

ولكنه انسل بين الأضياف ، وحينما بعد عنها حدث نفسه :

كادت المرأة تصرعك يا مازبا ... أيها القلب الخائن ، لن أصغى لحديثك المعسول مرة أخرى ...

لقد عاهدت نفسي على خدمة وطنى الذى أطعمنى حين حرمتنى هذه المرأة ، وكسانى حين جردتنى ، وآوانى حين أطلقت بى فرساً تنهب بى البرارى . فليكن جل تفكيرى فيك ولك أيها الوطن أما أنت يا أوجستا ، فسأحاربك فى قلبى حتى تموتى فيه

وانطلق فى طريقه حتى مثل بين القيصر

وقال القيصر لمازبا : قد رفع إلينا قرار المالية فلم نجد بدآ من استمرار الضرائب ، فهل تمدنى بشرفك أن تقوم على جبايتها ؟

— لقد أقسمت لمواطنى أنكم سترفعونها

فقال القيصر لمن حوله : اقبضوا على هذا السيد

وألقى مازبا فى حجرة ببرج القصر تحوطه الأحراس ، واندلعت الثورة فى القوزاق من أقصاها إلى أقصاها ، وأرسل بطرس الأكبر حملة لإخمادها فزادت النار اشتعالاً

وكان الليل قد لف الكون بغلالة سوداء ، والقصر ساكن حينما اعترض الأميرة أوجستا حارس البرج ، فأبرزت له أمر القيصر فتخلى الحارس عن الباب . وكان مازبا يقف هادئاً إلى نافذة البرج كأنما ينتظر أحداً أو كأنه واثق من نجدة القوزاق ، وقالت أوجستا :

— تبعت القيصر فى كل مكان ولم أبرح مقصورته فى الأوبرا حتى وقع على صك العفو عنك ، وقد وعدته أن تقسم لى على طاعته فيما آمرك به . فقال :

— لقد سمع القيصر أنى لا أقسم على ذلك

— إن وطنك الجديد فى حاجة إليك يا مازبا ، فقم الساعة وأخمد فتنته ، وانج بنفسك فإنك لا تدرك أى حتف ستلقاه إن بقيت هنا ليلة أخرى

واستقبل مازبا استقبال الفاتحين ، وكانت الفتيات ينثرن فى طريقه الورود والرياحين ، وكان ألمه بادياً لما حل بقومه على يد جنود القيصر . فقابل قائد الحملة وطلب منه أن يرحل فوراً عن أراضى القوزاق ، وقال قائد الحملة إنه موفد من قبل القيصر وليس لأحد أن يأمره سواه . فقال مازبا : إذاً هى الحرب

وطلب القائد من بطرس الأكبر مدداً سريعاً فأرسل إليه جيوشاً جرارة لم تصمد لها جموع مازبا التى دافعت عن وطنها دفاع الأبطال وأحرقت عاصمة القوزاق وانتقم منهم جنود القيصر أبشع انتقام . وفر مازبا إلى سلطان تركيا عدو القيصر ليجيره ويمده بعتاد يستطيع بها مواصلة القتال ولكن السلطان اعتذر له ونصحه بالقاء السلاح . وهكذا تخلى الحظ الباسم عن الزعيم الشريد فصوحت به الأيام من بلد إلى بلد يفلح الأرض لهذا ويحتطب لذاك وكنت تراه بوجهه الكابد قابعاً فى أسماله ومزقه يصطلى النار التى يضرمها فى إحدى الخرائب فلا تصدق أنه ذاك الذى كان يغشى الولائم فى أبهة الأمراء

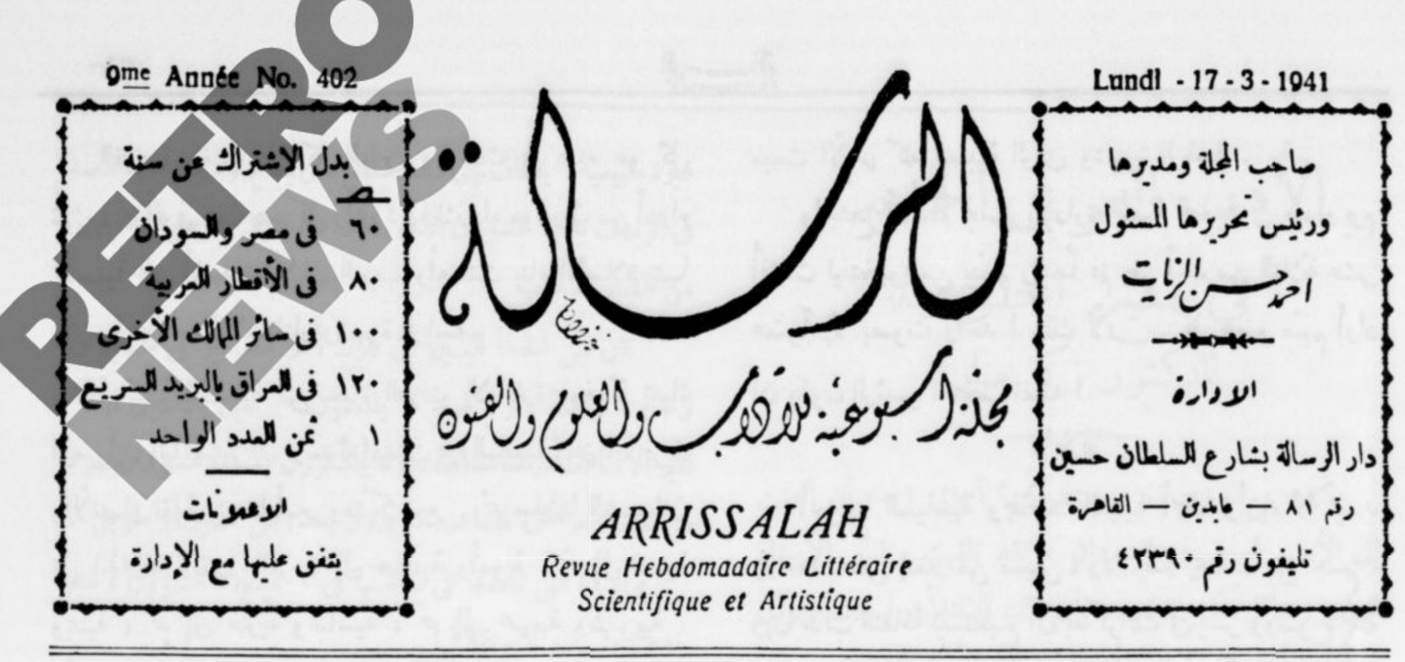
وفى قرية (كييف) عثر حطاب فى الغابة على جثته فأمر قسيس القرية بإلقائها فى مقبرة المجهولين الغرباء

محمد محمد مصطفى
بإدارة مدرسة البوليس



مطبعة الرسالة — ٨١ شارع السلطان حسين عابدين . القاهرة





9me Année No. 402

Lundi - 17 - 3 - 1941

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

السنة التاسعة « القاهرة فى يوم الإثنين ١٩ صفر سنة ١٣٦٠ — الموافق ١٧ مارس سنة ١٩٤١ » العـــدد ٤٠٢

العصبية داؤنا الموروث

كنا ستة فى أحـد مجالس القطار السريع الصاعد إلى القاهرة . وكانت غريبةُ الغرائب أن يجتمع فى هـذا المجلس الطائر القلق ثلاثة ينتسبون إلى ثلاثة أحزاب سياسية ، واثنان ينتمى كل منهما إلى فرقة دينية ؛ وكنت أنا وحدى المستقل فيما بينى وبين الله والناس . وكان مما ليس بُد منه أن يترامى بهم الحديث إلى ذكر ما يشغل الخواطر من شؤون الدين والسياسة والحرب ؛ فكان لـكل منهم هوى لا يتابعه هوى ، ورأى لا يشايعه رأى ، حتى انقلب الحديث اللطيف جدلاً صخاباً لا حيلة فيه إلا للإشارة العنيفة والحنجرة الصُّلبة

حينئذ ابتلعت لسانى ودخلت فى نفسى وتركت هذه الأفواه يقذف بعضها فى وجه بعض ؛ ثم أخذت أفكر فى هذه الصدَعات التى مزقت الـكلمة وفرقت الدين ، وجعلت بعضنا يبنى وبعضنا يهدم ، وأحدنا يسوق والآخر يعوق ، فلم أجد لها مصدراً تشتق منه إلا العصبية !

تصورت فى هذا المجتمع الصغير ، صورة ذلك المجتمع الـكبير ، فعجبت كيف يتسنى فى هذا الجمع الشتيت أن يتفاهم لسان ولسان ، ويتآلف قلب وقلب ، وتتعاون يد ويد ، حتى يجوز أن تنتج من اتحاده قوة ، وأن تنشأ من آحاده أمة !

الفهـــــرس

الفرد فى نفسه هو كل الناس ، وشيئه فى عينه هو كل شىء ، ورأيه فى عقله هو كل رأى ؛ وذلك داء موروث من أدواء العصبية التى أفسدت كيان العرب وأوهنت بناء الإسلام بما يلازمها من حب الاستئثار وشهوة الرياسة

لم تمت العصبية من حياة العرب إلا فترة موقوتة بحياة الرسول . فلما استأثر الله برسوله انبعثت فى (السقيفة) بين المهاجرين والأنصار تقول : منا أمير ومنكم أمير . ثم سلطها الشيطان على الخلافة فانقسم العرب إلى هاشمية وأموية ، ثم إلى قيسية ويمنية ، ثم إلى علوية وعباسية ، ثم إلى عربية وشعوبية . وأغراها بالدين فانشعب المسلمون إلى اثنتين وسبعين فرقة ، تتقاطع بالضلال ، وتتمادى فى الباطل ، وتزعم كل فرقة أنها هى وحدها الناجية ! ولو كان تحزب العرب وتشعب المسلمين لمبادئ تصلح الدنيا وتعز الدين ، لكان ذلك أخلق بمن جعلهم الله أمة وسطاً ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويسارعون فى الخيرات ؛ ولكنهم اختلفوا تعصباً للنفس أو الجنس أو الرأى ، وتوسلاً لبلوغ الحكم أو خضوع الخصم أو فتون العامة

وحب الرياسة وشهوة الحكم هما شر أدواء العصبية وبالاً وأشدها استفحالاً فى الشرق القديم والحديث . ولو ذهبت تستقرى عوامل الشقاق والانشقاق بين العرب فى جميع الأطوار والأقطار لما عدوت ما رُكب فى طباعنا من حب الظهور ، ورغبة التفرد ، ورذيلة الحسد

إذا جاء الأمةَ خير لا نصيب لى منه ولا سلطان لى عليه ، جعلته شراً يستعان على درئه ببدَع تتسم بسمة الدين ، وخدَع تتستر بستار الوطن . وإذا نهضت فى الأمة جماعة للإصلاح ولم يكن لى موضع الرياسة فيها ولا مرجع الفائدة منها ، أشعتُ حولها الرِيَب ، وأطرتُ فوقها الظنون ، حتى يستوحش من ناحيتها الناس فتفشل

تنازع زعيمان عظيمان من زعمائنا على الرياسة أو ما يشبه الرياسة ، فقسما الأمة بنزاعهما قسمين متعارضين لكل منهما آراؤه وحججه ومبرراته ؛ وكاد يدخل على الناس أن هناك مذهبين فى سياسة البلد : أحدهما يصل والآخر ينقطع ! وكان مبعث الأمر كله عصبية الرأى وشهوة الرياسة .

واجتمع أعضاء مجلس الإدارة لجمعية المعلمين فى بغداد يوم أنشئت لينتخبوا من بينهم رئيساً فلم يفز أحد من الثلاثة عشر عضواً إلا بصوت واحد ! ذلك لأن كل عضو منهم أراد أن يكون الرئيس فانتخب نفسه !

***

أحزابنا السياسية وجماعاتنا الدينية أسماء وأزياء لا تجد وراءها مسمى يتميز من مسمى ، ولا جسما يختلف عن جسم . وإن طالب الثقافة ليستطيع أن يذكر لك فى يسر ووضوح جملة الفروق فى الوسائل والغايات بين اليسوعية والماسونية والشيوعية والنازية والفاشية ، أو بين حزب وحزب من الأحزاب البرلمانية فى جميع البلاد الدستورية ؛ ولكنى أتحدى أستاذ الجامعة أن يذكر لى فرقاً أو شبه فرق بين الوفديين والسعديين والدستوريين والمستقلين والوطنيين والشعبيين والاتحاديين ، أو بين الشبان المسلمين ، والإخوان المسلمين ، والأخوة الإسلامية ، والهداية الإسلامية ، وشباب الإسلام ، ومجد الإسلام ، ومن لا علم لى به من هذه الجماعات . ولئن سألتهم ماذا يمنعهم أن يضموا الشتات ويوحدوا الكلمة ويحددوا الغاية ما داموا إخوة فى الوطن أو فى الله ، ليقولُنّ كل حزب منهم : ما يمنعنا إلا أن يكون لغيرنا زعامة الأمة ورياسة الحكومة . ولو سمحت العصبية الآثمة أن يكون للمتحزبين غاية غير هاتين لأمكن الوفاق وسلمت الوحدة ؛ ولكن العصبية هى داؤنا الموروث لا يحسمه عنا إلا طِبابُه الذى عالجه به الله ورسوله : محو الفروق بالحرية والشورى ، وشفاء الصدور بالأخوّة والمساواة ، ورفع النفوس بالإيثار والتضحية !

ويومئذ يحيا فينا الضمير الاجتماعى فنعمل مرؤوسين ومجهولين ، أصدق مما كنا نعمل رؤساء ونابهين ، فنخلص للأمة كما نخلص للأسرة ، ونحب لعامة الناس ما نحب لخاصة النفس ، ونخرج من حدود العصبية إلى آفاق الوطنية سالكين سبيل القانون إلى غاية الحق ، كما يسلك هذا القطار صراطه المستقيم إلى غايته المعلومة !

احمد حسن الزيات

الأدب العربي الحديث

في مصر الجنوبية

للدكتور زكي مبارك

كان من توفيق الله — تباركتْ أسماؤه ! — أن ألتفت إلى الأدب العربي في السودان ، فقد تلقيت وتلقّى الأستاذ الزيات رسائل كثيرة تشهد بأن ذلك الالتفات صادفَ هوًى في أفئدة أهل الغيرة على الأدب في ذلك القُطر الشقيق

ومن الحديث المعاد أن أقول : إن المصريين والسودانيين إخوة ، ولكن يجب أن نعترف صراحةً بأننا فرّطنا في حق تلك الأُخوّة ، فلم نؤدّ لها كل ما يجب من التعهد والرعاية ، ولم نبذل في سبيل إعزازها جهداً يستحق التسجيل

ويزيد في الأسف على ما وقع من التفريط أن البرّ بأشقّائنا في مصر الجنوبيـة لم يكن يكلفنا عَنتاً لو أردناه ، فالسودان قريب ، وجوّه مقبول في أكثر الفصول ، والاتصال بأهله يفتح أمام قلوبنا آفاقاً جديدة من المعاني الأدبية والروحية ، لأنهم يغارون على العروبة غيرةً لا يعرف صدقها إلا من عرف بعض رجالهم الأمجاد ، ولأنهم حفظوا عهد الإسلام في أوقات قلّ فيها المؤمن الصادق والمرشد الأمين

ومن المؤكد أن السودان قادرٌ على المشاركة الجدية في إحياء الأدب العربي ، فلأهله الأماجد ماضٍ مجيد في خدمة اللغة العربية وإن جهله الأكثرون ، ولشبانه في هذا العهد مطامح وآمال ، وقد يقدرون بعد قليل على الظفر بمنازل أدبية يصل صداها إلى جميع الأسماع بالبلاد العربية

في السودان تطلّع شديد إلى الاستفادة من تقدّم العلوم والآداب في العصر الحديث ، ولهذا التطلع سنادٌ مما ورث أهله من معارف العرب القدماء . وإن دام هذا الحال وسيدوم ، فلن يمضى إلا زمن قليل حتى يصبح للخرطوم وأم درمان مكانٌ بين العواصم التي تحمل مشاعل الثقافة العربية من أمثال : القاهرة والقدس ودمشق وبيروت وبغداد ...

أغلب أهل السودان من أرومة عربية ، فغيرتهم على العروبة غيرة طبيعية . يضاف إلى ذلك مُقامهم في بقاع توصف عند القصد في الوصف بأنها الشؤون التي تذرف ماء النيل ، وهو أكوابٌ من القَبَر المُذاب

كان من الخطأ البيّن أن نترك أمر التفكير في السودان لرجال السياسة ، وهم قومٌ لا يلتفتون — حين يلتفتون ! — لغير الاتفاقات والمعاهدات ، ولا يذكرون إلا أن السودان جزء من مصر تعرّض لمصاعب قد تزول بعد زمن قصير أو طويل .

والأمة التي تعتمد على ساستها في « جميع » الشؤون ، غير جديرة بشرف الاستقلال

يجب على رجال الأدب أن يعرفوا واجبهم نحو السودان ، السودان العربي ، بغض النظر عن صفته المصرية ، فمن التقصير الذميم أن ننسى أن السودان من موائل العروبة ، حين نتحدث عن : المغرب واليمن والحجاز وفلسطين وسورية ولبنان والعراق

والعتْب الذي أوجهه إلى أدباء مصر ، أوجهه إلى إخوانهم بسائر الأقطار العربية ، فقد كان يجب على إخواننا في الشرق العربي أن يذكروا إخوانهم في السودان ، فما خلا رأس أديب بمصر الجنوبية من شواغل نبيلة تصل عقله وروحه بأقباس العروبة في هذا الزمان ، وإن لمتْ من أفق سحيق كالأفق الذي تشعّ منه بوارق العروبة بين المهاجرين في أمريكا الجنوبية

أليس من المفوق أن يجهل بعض أبناء العرب أخبار السودان ، مع أن السودان يعرف من أخبارهم كل شيء ؟

لمصر فرصة من فرص الجاذبية ، وهي مكانتها العلمية ، وللحجاز فرصة أعظم ، لأنه وطن الحرمين الشريفين ، والشام معهد ملك بني أمية ، والعراق معهد ملك بني العباس ، فماذا بقى للسودان حتى يهتم به العرب والمسلمون ؟

بقى للسودان حق شريف نبيل : هو تفرده بالصدق الأصيل ؛ فما تعب العرب ولا تعب المسلمون في توطيد سلطانهم الأدبي والروحي في البلاد التي ينبع فيها النيل ، وإنما صدق السودان للعروبة والإسلام بلا دعوة ولا دعاة كأنه أبى أن يتلقى وحي الهداية عن أحد من الوسطاء

السودان العربي حصن حصين ، والسودان المسلم كنز ثمين ، ولو صدق جميع العرب والمسلمين كما صدق السودان لخفّت بليتنا

بالخوارج على العروبة والإسلام فى بلاد لم يحفظ فيها مجد الآباء غير أفراد لا يزيدون عن مئة مليون ، مع أن هَدْىَ العروبة والإسلام كان وصل إلى مئات الملايين

قيل إن أهل السودان وصل عددهم إلى ثمانية ملايين من النفوس ، وأقول إنه ثبت عندى أن أهل السودان وصل عددهم إلى ثمانية ملايين من القلوب ، فما فى عرب السودان رجل بدون قلب ، ولا جاز عند أهل السودان أن يكون الصديق مَلَكاً فى المحضر وشيطاناً فى المغيب ، وإنما السودانى عدو أو صديق ، لأنه يكره الختل والخداع ، إلا أن يكون دخيلاً فى الانتساب إلى تلك البلاد !

نصحنى أحد الأصدقاء بأن أحافظ على الصلوات حين أزور السودان ، لأن أهله لا يحترمون غير من يحافظ على الصلوات

فمتى أزور السودان لأعرف المدلول لكلمة الفجر وكلمة الشفق ؟

كان أبى رحمه الله يوقظنى من النوم لأؤدى صلاة الصبح قبل الشروق ، وقد مات أبى ، مع الأسف الوجيع ، ولم يبق لى صديق يذكرنى بأوقات الصلوات

فما أسعد المصرى المقيم بالسودان ، لأن الجو هناك يقهره على مراعاة النوافل قبل أن يقهره على مراعاة الفرائض !

السودان السودان ، السودان المسلم ، السودان العربى ، السودان المصرى ، وتلك أواصر لا ينكرها إلا جحودٌ أو جهولٌ

إن الذين غلبونا باسم السياسة لا يستطيعون أن يغلبونا باسم الوجدان ، فمتى نعرف قيمة ما خصِصنا به من القدرة على الظفر بثقة الأرواح والقلوب ؟

مصر غنية بالعواطف ، ولكنها لا تعرف كيف تنتفع بذلك الغنى الجميل

مصر التى عذّبت زعماءها وهى تذكرهم بواجبهم نحو السودان لم تقهر واحداً منهم على زيارة السودان

أليس من العيب أن يشهد التاريخ أن السودان لم يزره مصطفى كامل ولا سعد زغلول ؟

إن الشيخ محمد عبده زار السودان وهو موقوذٌ بمرض السرطان ، فكانت تلك الزيارة آية على أنه يعرف معنى الاستشهاد فى سبيل الوطن الغالى ، ومحمد عبده هو محمد عبده ، فمتى يجود بمثله الزمان ؟!

أنا أرجو أدباء مصر أن ينسوا الجدل السياسى حول مراكز مصر فى السودان بعد أن انتهت الأمور إلى ما انتهت إليه ، وبعد أن صح أن الهجرة إلى السودان لا تستهوى ألباب المصريين لأن مصر تشدهم إلى ثراها الخصيب بقيود مجدولة من وشائج الخيرات والثمرات ، وهم لهذا السبب أزهد الأمم فى الانتقال من مكان إلى مكان

كل ما أرجوه من الأدباء والفنانين أن يذكروا أن بلادنا تنقسم إلى شطرين : مصر الشمالية ومصر الجنوبية ، فإن فهموا هذا فقد يصبح من واجبهم أن يصطافوا فى الخرطوم كما يصطافون فى الأسكندرية . ولم يخبرنى الأستاذ عبد العزيز عبد المجيد بجديد حين تلطف فكتب إلىّ يقول : إن جوّ السودان فى يوليه وأغسطس وسبتمبر لا يعرف ما سميته « وقدة الصيف » : لم يخبرنى هذا الصديق بجديد فقد كنت أتابع ما ينشر الذياع من درجات الحرارة فى الصيف وكان يسرنى أن أعرف أن الحرارة فى الخرطوم أقل من الحرارة فى الأسكندرية بنحو عشر درجات

فما تفسير ذلك ؟

تفسيره سهل ، فالصيف فى السودان هو موسم الأمطار ، الأمطار التى تعيش بفضلها مصر الشمالية منذ الأبد الأبيد ، فأين الشاعر الذى تهزه هذه المعانى فيعيش موسماً أو موسمين فى ضيافة الأمطار بالسودان ليعرف أن المصريين القدماء لم يسموا النيل « حابى » إلا وهم يدركون أنه حبَّاء الخيرات والبركات ، بفضل ما ينقل إليهم من أمطار السودان . والحابى هو الوهاب ، وذلك حرف نقله المصريون عن العرب ، أو نقله العرب عن المصريين .

أين الشاعر الذى تهزه هذه المعانى فيزهد مرة واحدة فى تعقب أسراب الملاح فى الشواطىء المصرية أيام الصيف ليرى بعينيه كيف تقتتل الأمطار فى أعالى مصر الجنوبية ليكون من حظنا أن نجد الفرص لملاعبة الأمواج فى أسوان والأقصر وأسيوط والقاهرة والمنصورة ودمياط ؟

إن مصر الشمالية فتنت أبناءها أعظم الفتون ، فلم يعرفوا

أن الروافد مدينة للروافد ، وقد يكون فيهم من يجهل الفرق بين الروافد والرواضع [1]

فتى نصبر على هذه البلادة الدميمة ، البلادة التي قضت بأن نجهل كل شيء من الجوانب الروحية والأدبية في السودان ، وبجياشه وأرباضه قبائل صحيحة النسب إلى يَعرُب وقحطان ؟

كتب الأستاذ الهادي إلى مجلة الرسالة كلمة تحدث فيها عن زعماء السودان ، فمن أولئك الزعماء ؟ لم أعرف منهم غير اسمين اثنين ، مع أني أعرف مئات الأسماء من أهل الفضل في مختلف البلاد العربية والإسلامية ، فكيف جاز أن أطوّق بهذا الغُلّ ، وأنا أعرف أن أقبح الأغلال هو غُلّ الجهل ؟

وهل تفردتُ بالجهل حتى أسوق إلى نفسي هذا الملام المنيف؟

لقد شاركني في هذا الجهل جماعة من الفنانين الفضلاء ، ألم تشهدوا بأعينكم أفلاماً مصرية أُخذت مناظرها من البلاد السورية واللبنانية والعراقية ولم يؤخذ منها منظر واحد من مناظر مصر الجنوبية ؟

إن أردتَ التعرف إلى مناظر السودان عن طريق السينما — أو الخيالة كما يسميها بعض أساتذة اللغة العربية — فاطلب مشاهدة بعض الأفلام الإنجليزية أو الأمريكية ، ولا تنتظر الأفلام المصرية ، لأن الفنانين في مصر لم يعرفوا أن في الدنيا بلاداً غنية بالمناظر الطبيعية مثل السودان وهو الجزء الجنوبي من الوطن الغالي

ومع هذا يقال : إن المصريين يقدّمون دروس الوطنية إلى شعوب الشرق !

قد يجيب بعض الفنانين بأن مناظر السودان ممزوجة بسكان السودان وفيهم أقوام لهم أشكال وأزياء ينكرها الذوق الحديث (؟!)

وأقول إن الجمال الحق هو جمال النفوس والقلوب ، لا جمال الأشكال والأزياء ، فالبدويّ الممزّق الثياب قد يكون أكرم نفساً وأطهر سريرة من الحضري الأنيق

ولسنا أطفالاً حتى ننخدع بالظواهر الكواذب ، وإنما نحن طلاب حقائق ، وطالب الحقيقة يعلم كل العلم أنها غانية عن التزيين والتلوين ، فمن ظن أنه يؤذينا أو يؤذي تلك البلاد بنقل ما فيها من صور تمثل بعض من يعيشون هنالك على الأساليب الطبيعية فهو جاهل بالقيم الصحيحة لحيوات الشعوب ، وهي حيوات تتأثر بظروف المكان إلى أبعد الحدود

وبأي حق نطالب أهل السودان بأن يَستعبَدوا كما استعبِدنا للأزياء الأوربية ؟ وبأي حق يجوز لبعض الموظفين في السودان أن يدخلوا مكاتبهم في ملابس لا ترى الصيف والشتاء إلا بعيون الأوربيين ؟

وهل ظفر الأوربيون بالسلامة من سواد قلوبهم حتى نحاكيهم في جميع الشئون ؟

أوربا هلكتْ بسبب التصنع ، فلنرحم أنفسنا من مهالك التصنع ، ولنتذكر أن نجاحنا في ماضينا يرجع إلى فضيلة الاحتكام إلى العقل في جميع الأمور ، وهي فضيلة حفظت وجودنا سليما على اختلاف الأجيال

أما بعد فأين أنا مما أريد ؟

أنا ماضٍ في نظم سلسلة من الأبحاث عن الأدب الحديث في السودان ، ولكن السودان يصدّني عما أريد ؟ فكيف وقع ذلك ؟

هنا يظهر نضج العقل في تلك البلاد ، فما كاد يصل مقالي بالرسالة إلى مدينة الخرطوم حتى سارعت إحدى الجماعات الأدبية هنالك فأرسلتْ إليّ برقية ترجوني فيها إرجاء الحكم على أدب أهل السودان إلى أن أزور السودان . وكذلك صنع الأستاذ عبد العزيز عبد المجيد ، فقد كتب إليّ خطاباً قال فيه : إن أدباء أهل السودان مع ارتياحهم للحديث عنهم يرجون أن أؤجل هذا الحديث إلى أن أزور السودان

فهل تعرفون السرّ في هذين الاقتراحين ؟

يظهر السرّ جلياً حين تعرفون أني لم أتأهب لإنشاء بضع مقالات للتعريف بالأدب الحديث في العراق تيسيراً لمهمة الدارسين الذين سيتقدمون لمسابقة الترقية للتعليم الثانوي إلا بعد أن كتبت لسعادة مدير التربية والتدريس في بغداد خطاباً أرجوه فيه

---

(١) الروافد هي النهيرات التي تمد النهر بالماء ، والرواضع هي النهيرات التي تحيا بفضل ما تنقل عن النهر من الماء

أن يتفضل فيحدد المعالم الواضحة لأدب أهل العراق ، خوفاً من أن يشط قلمي فيخوض في أحاديث ينكرها أهل العراق

فإذا جاز أن أتحفظ في الحكم على الأدب العراقي بعد أن زرت جميع الحواضر العراقية ، وبعد أن تعرفت إلى جمهرة أهل الأدب هنالك ، فكيف لا أتحفظ في الحديث عن أدب أهل السودان وأنا لم أزر تلك البلاد ؟

الحق أن هذين الاقتراحين على جانب عظيم من السداد ، وبهما يظهر أنه لا بدّ من تأجيل الحديث عن أدب أهل السودان إلى أن أتشرف بزيارة ذلك القطر الشقيق ؟ ولكن متى !

سيكون ذلك بإذن الله في شهر أيلول ، وهو موسم طغيان النيل ، فمندئذ أزور السودان بصحبة صديق يحبه السودانيون وهو الأستاذ الزيات ؛ ثم أكتب عن الجوانب الأدبية ، ويكتب هو عن الجوانب الاجتماعية ، وبهذا يمكن تسجيل صور صحيحة عن السودان ينتفع بها المتشوفون لأخباره من أبناء الأمم العربية

ثم ماذا ؟ ثم أقول : إني علمت أن جريدة « صوت السودان » أخذت تُصدِر أعداداً خاصة في التعريف بأدباء مصر الجنوبية تمهيداً لتحقيق المشروع الذي فكرتُ فيه ، فأرجو أن يتفضل الإخوان هناك بإرسال تلك الأعداد باسم : « زكي مبارك بمصر الجديدة » لأستطيع متابعة هذه الدراسات الأدبية ، ثم أقول أيضاً : إني أرجو أن يتفضل أحد أدباء « السودان » فيرشدني إلى ما صدر عندهم من المطبوعات الحديثة مع النص على المكاتب التي تبيعها لأقتني منها ما يساعد على فهم هذا الموضوع الجليل .

والمهمّ هو أن نكون رجال أعمال ، لا رجال أقوال ، فلن يكون الوعد بزيارة « السودان » زُخرُفاً من القول نلاطف به إخواننا في ذلك القطر الشقيق ، وإنما يجب أن يكون من نياتنا الصوادق أن نعاون معاونة صحيحة على تأريث الأدب العربي في السودان ، وأن نسجل تطوّر الخواطر والأفكار في ذلك الشطر من وادي النيل ، النيل الذي فتن « إميل لودفيج » فزاره في منابعه ، ثم أنشأ فيه كتاباً خلق للسودان ملايين من الأصدقاء

كان أسلافنا أصدق منا يوم عبَدوا النيل ، وكنا عاقين حين اتهمناهم بالوثنية ، فما كان التملق بمصادر الخيرات إلا فناً من الثناء على واهب الخيرات

لما هبطت أسعار الفرنك في فرنسا منذ بضع سنين هتف صوتٌ يقول : أيها الفرنسيون ، انتهزوا فرصة هبوط الفرنك وزوروا أقاليم وطنكم الجميل !

وأقول : إن الحرب قضت بأن تقفَل أبواب أوربا في وجوه المتشوفين إلى ما في أوربا من ملاعب الصيف ومراتع الشتاء ، فانتهزوا هذه الفرصة يا أبناء العرب وزوروا أقاليم وطنكم الجميل ، على شرط أن تذكروا السودان ، فهو اليوم أكبر قارئ للمؤلفات والجرائد والمجلات ، مع تفرده بالاغتراب ظلماً عن قافلة الوحدة العربية

وفي ختام هذه الكلمة أذكر بالثناء العاطر ما صنع طلبة كلية الآداب ، فقد تألفت منهم بعثة سنة ١٩٣٨ لزيارة السودان كما تألفت منهم قبل ذلك بعثات لزيارة العواصم العربية ، فصنيع كلية الآداب يشهد بأن فيها عقولاً تدرك أن وصل الأمم العربية بعضها ببعض غرضٌ يوجبه الصدق في إحياء الأدب العربي والتراث الإسلامي . وسيكون لكلية الآداب في توكيد هذه المعاني مقامٌ يسجله التاريخ بأحرف مسطورة فوق جبين الوفاء .

زكي مبارك

---

٣ - فى العقـــــد

لأستاذ جليـــل

١٨ — (ص ٥٠) قال زياد : ما غلبنى أمير المؤمنين معاوية فى شىء من السياسة إلا مرة واحدة : استعملت رجلاً فكسر خراجه ، فخشى أن أعاقبه ففر إليه واستجار به فأمنه ، فكتبت إليه : إن هذا أدب سَوْءٌ مَن قِبَلى ...

قلت : إن هذا أدبُ سوء لمن قِبَلى

فى (تاريخ الأمم والملوك) لابن جرير الطبرى : ... فبلغ الخبر المغيرة بن شعبة أن الخوارج خارجة عليه فى أيامه تلك وأنهم قد اجتمعوا على رجل منهم ، فقام المغيرة بن شعبة فى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد فقد علمتم (أيها الناس) أنى لم أزل أحب لجماعتكم العافية ، وأكف الأذى . وإنى والله لقد خشيت أن يكون ذلك أدب سوء لسفهائكم ، وأما الحلماء الأتقياء فلا . وايم الله لقد خشيت ألا أجد بداً من أن يعصب الحليم التقى بذنب السفيه الجاهل . فكفوا (أيها الناس) سفهاءكم قبل أن يشمل البلاء عوامكم . وقد ذكر لى أن رجالاً منكم يريدون أن يظاهروا فى المصر بالشقاق والخلاف ؛ وايم الله لا يخرجون فى حى من أحياء العرب فى هذا المصر إلا أبدتهم ، وجعلتهم نكالاً لمن بعدهم . فنظر قوم لأنفسهم قبل الندم ، فقد قمت هذا المقام إرادة الحجة والإعذار

١٩ — (ص ٣٦١) ... دعنى من شعرك الذى لا يأتى آخره حتى ينسى أوله ، وقل فىَّ بيتين يعقلان أفواه الرواة

قلت : يعلقان أفواه الرواة . يقال علق به وعلقه . ومن التفريط أن يغفل القاموس هذا حتى يستدركه التاج . قال : « وما يستدرك عليه علق بالشىء علقاً وعلقه نشب فيه » . وفى الأساس والتاج : قال أبو زبيد يصف أسداً :

إذا علقت قرناً خطاطيف كفه ... رأى الموت فى عينيه أسود أحمرا!

ويخاطب الشاعر إنما رغبه سيرورة بيتيه ، انتشارهما

٢٠ — (ص ٣٤٦) ... أخبرنى عن مالك فقد نُبئت أنك تتحرّى فيه . قال : ياأمير المؤمنين ، لنا مال يخرج لنا منه فضل ؛ فإذا كان ما خرج قليلاً أنفقناه على قلته ، وإن كان كثيراً فكذلك

قلت : فقد نبئت أنك تتجر فيه

٢١ — (ص ١٤٠) قال أبو سعيد المخزومى وكان شجاعاً :

وما يريد بنو الأغبار من رجل ... بالجر مكتحل بالنبل مشتمل

وجاء فى الشرح : الأغبار إما جمع غبر (بالضم) وهو بقية الحيض ، أو جمع غبر (بالكسر) وهو الحقد ، والذى فى الأصول (أغيار) ولم نجد من معانيه ما يناسب السياق

قلت : فى البيت تبديل وتصحيف قديمان ، وهو فى قصيدة صالحة رواها أبو على فى أماليه ، وهذه أبيات منها ، وفيها ذاك البيت كما بناه صاحبه :

فى الخيل والخافقات السود لى شُغُل ... ليس الصبابة والصهباء من شغُلى

ما كان لى أمل فى غـير مكرمة ... والنفس مقرونة بالحرص والأمل

ذنبى إلى الخيل كَرّى فى جوانبها ... إذا مشى الليث فيها مشى مختَبل

ولى من الفيلق الجأواء غمرتهـــا ... إذا تقحمها الأبطال بالحيـــل[1]

ســـل الجرادة عنى يوم تحملنى ... هل فاتنى بطل أو خِمت عن بطل[2]

وهل شآنى إلى الغايات سابقها ... وهل فزعت إلى غير القنا الذبل

مالى أرى ذمتى يستمطرون دمى ... ألست أولاهم بالقول والعمل؟!

كيف السبيل إلى وَرد خُبَعْثِنة ... طلائعُ الموت فى أنيابه العُصُل[3] ؟!

ومايريدون لولا الحين من أسد ... بالليل مشتمل بالجر مكتحل؟!

لايشرب الماء إلا من قليب دم ... ولا يبيت له جار على وجل

لولا الإمام ولولا حق طاعته ... لقدشربت دماً أحلى من العسل!

---

(١) (الفيلق) رماح بفيلق سهباء وهى الكتيبة المذكرة (كتيبة جأواء) كدراء اللون فى حمرة وهو لون صدأ الحديد . تقول : جاء فى كتيبة جأواء ، ثم لوى ذنبه مع لأواء ... كل ذلك من الأساس

(٢) الجرادة : فرس الشاعر

(٣) الخبعثنة : الأسد العظيم الشديد ، واخبعثن الرجل : مشى مشية الأسد (المخصص)

ومن طرف أمثاله السائرة — كما يقول الثعالبي في الإيجاز والإعجاز — قوله :

ليس لبس الطيالسْ من لباس الفوارسْ
لا ولا حومة الوغى كصدور المجالسْ
وظهور الجياد غيـ ـر ظهور الطنافسْ
ليس من مارس الحرو ب كمن لم يمارسْ

٢٢ — (ص ٥٩) لما منع أهل مرو أبا غسان الماء ، وزجته إلى الصحارى ، كتب إليهم أبو غسان : إلى بنى الإساءة من أهل مرو ، ليمسّينّى الماء أو لتصبحنّكم الخيل . فما أمسى حتى أتاه الماء . فقال : الصدق ينبى ْ عنك لا الوعيد

قلت : الإساءة أو الاستناءة فى الطبعات القديمة يصلحها ابن أوس الطائى :

وأغر يلهو بالمكارم والعلا إن المكارم للكريم ملاهِ[1]
يمسى ويصبح عرضه فى صخرة شدخت شواة العائب المضاه
قل للعداة الحاسديه على العلا : رغماً لأنفكم بنى الأستاه[2]!
هو للوفى العهد ظل أراكة ولمضمر الشنآن شوك عضاه

٢٣ — (ص ١٧٧)

فلولا ادّراك الشر قامت حليلتى تخيّر من خطابها وهى أيّم
ولولا ادراك الشر أتلفت مهجتى وكاد خراش يوم ذلك يُيتّم

قلت : هو الشد فى البيتين (أى العدوْ) وشد واشتد : عدا ، قال :

هـذا أوان الشد فاشتدى زِيمْ[3]

ويُيتّم هى يَيتم بفتح أوله ، وعين الفعل تفتح وتكسر . والبيتان فى حماسة البحترى فى قصيدة لأبى خراش فى أول الباب (٢٥) (فيما قيل فى الفرار على الأرجل) وهذه روايتهما هناك :

فلولا دِراك الشد قاظت حليلتى تخيرُ فى خطابها وهى أيم[1]
فتسخط أو ترضى مكانى خليفة وكاد خراش يوم ذلك يَيتم

٢٤ — (ص ٢٥٤) ثم جمل يتشدد عليهم ويقول :

إحملْ على هذى الجموع حوثره

قلت : يشد عليهم

شد على القوم فى الحرب يشِد ويشُد : حمل ، وفى الحديث : ثم شد عليه فكان كأمس الذاهب : أى حمل عليه فقتله ، وشدوا عليهم شدة صادقة

وروى محققو الكتاب فى الشرح عن الكامل : « ثم حمل (أى حوثرة) على القوم وهو يقول » وحمل عليهم مثل شد عليهم. وجاء فى ص ٢٥٥ من هذه الطبعة : « فشدوا عليه شدة رجل واحد فهزموه »

٢٥ — (ص ٧٥) قال القَطامى :

ومعصية الشفيق عليك مما يزيدك مرة منه استماعا
وخير الأمر ما استقبلت منه وليس بأن تتبعه اتباعا
كذاك وما رأيت الناس إلا إلى ما جر غاويهم سراعا !
تراهم يغمزون من استركوا ويجتنبون من صدق المصاعا !

قلت : استجدت القول فرويته ، والقصد هو البحث فى (القطامى) فى فتحة قافه وضمها ، فقد شغل هذا الاسم فضلاء فى القديم وفى هذا الزمان . وسأورد طائفة من أقوالهم لتزول الشبهة ، ويستبين الحق :

قال العلامة الشيخ ابرهيم اليازجى فى نقده طبعة (لسان العرب) : ضُبط القطامى بفتح القاف ، وصوابه بضمها كما صرح به المؤلف فى موضعه[2]

وهذا قول اللسان : والقطامى بالضم من شعرائهم من تغلب واسمه عمير بن شُييم . وقد تبع اللسان الصحاح ، قال الجوهرى : والقطامى بالضم لقب شاعر من تغلب . . .

ولما وقف العلامة الأستاذ الشيخ محمد بهجة الأثرى على

---

(١) الأغر : الكريم الأفعال الواضحها (القاموس)

(٢) فى التاج : قال الأزهرى قرأت بخط شمر :

العرب تسمى بنى الأمة بنى . . .

(٣) البيت من أمثالهم ، نسبه أبو الحسن الاخفش فى حواشى الكامل إلى (رويشد بن رميض العنبرى) ويقال : رميص بالصاد كما فى اللسان . والعنبرى فى الصحاح واللسان والتاج وغيرها . وفى (رغبة الآمل) للعلامة المرصفى : « العنبرى غلط ، صوابه العنزى من بنى عنزة بن أسد . وكثير من الرواة يقولونه رشيد بن رميض بالتصغير فيهما »

---

(١) (دراك) الدراك للمداركة يقال : دارك الرجل صوته أى تابعه ، (الصحاح) الدراك : إتباع الشيء بعضه على بعض فى الأشياء كلها (اللسان) قاظ بالمكان أقام به فى الصيف (الصحاح)

(٢) الضياء السنة ٦ ص ٣٥٧

كلمــة حق

الرافع الى كتابتها

للأب أنستاس مارى الكرملى

كنت اشتريت فى ١٣ فبراير (شباط) من سنة ١٩٣٤ (كتاب الذخيرة فى علم الطب) المنسوب وهماً إلى ثابت بن قرة ، والذى نشره حضرة الدكتور جورجى بك صبحى ، فطالعته مراراً لأستفيد من الوقوف على مصطلحاته ، فخاب أملى ، ثم كتبت إلى حضرة ناشره ، بعد مضى نحو من سنة ونصف ، أى فى ٢٩ يونيو من سنة ١٩٣٦ :

« بعد إهدائى إليك أعطر السلام وأطيبه ، أقول : اقتنيتُ (كتاب الذخيرة فى علم الطب) ، فألفيتُ نسبتهُ إلى ثابت بن قرة غير صحيحة ، وإنى أوافق وِدْمَن Wiedmann على أنه ليس لهذا الرجل الشهير كما ذكرت أنت ذلك ، ناقلاً كلام ودمن فى ص X من مقدمتك الإنكليزية . وأظنه لواحد من الأقباط من المائة السادسة أو السابعة للهجرة ، وكان يجهل كل الجهل أحكام اللغة العربية ، إذ فيه شيء كُثَار من الأغلاط ، وشيء لا يحصى من أوهام المصطلحات الطبية المشوهة أقبح تشويه .

ثم جئت أنت ، فزدت الطين بلة ، والطنبور نغمة ، فصحفت المتن تصحيفاً فظيعاً ، وحريفاً شنيعاً . ولم تجتزئ بذلك ، فأتيت بتصحيفات هى بالحقيقة تقبيحات ، وأوردت تفاسير هى من أبعد التأويلات عن حقائق العلم ، ودقائق العرفان .

فقد ذكر المؤلف مثلاً صفة لداء الثعلب وداء الحية فى ص ١١ عدة أدوية ، ومن جملتها هذه الصفة : « وكذلك ذباب محرق . وكذلك قشور القنفذ وأصل القصب الجفف يدق ويطلى به » . — فقلت فى الحاشية تعليقاً على قشور القنفذ : « البندق . (خط جديد) . ومعنى ذلك أن أحد الأدباء الذين اقتنوا الكتاب وضع فى مكان « قشور القنفذ » : « قشور البندق » . — قلنا : وكان يحسن بك أن تقول : « ما فى المتن هو الصحيح وما جاء بخط جديد أى البندق هو الخطأ ؛ لأن المراد بقشور القنفذ هنا ،

قول العلامة الشيخ ابرهيم كتب فى شرحه « بلوغ الأرب » لفخر العراق الإمام الشيخ محمود شكرى الألوسى :

القطامى بفتح القاف وضمها كما نص عليه ابن الشجرى فى أماليه ، والمجد فى قاموسه ، وعبد الرحيم العباسى فى معاهده . وقول ابراهيم اليازجى فى مجلة الضياء : إن الصواب الضم ، وهم من أوهامه الناشئة من غروره وهوسه ، وقلة تتبعه ودرسه . والقطامى لقب غلب عليه ، واسمه عمير بن شييم ، وهو شاعر إسلامى مقل ، رقيق الحواشى ، كثير الأمثال ، حسن التشبيب وهو صاحب هذا البيت :

إنّـا محيوك فاسلم أيها الطلل ... وإن بليت وإن طالت بك الطيل

الذى انتحل صدره جميل الزهاوى المتفلسف فقال فى مدح أمير عربى :

إنا محيوك فاســـلم أيها الملك

ومصطفوك لعرش شاده الفلك[1] ! !

وينصر قول العلامة الأثرى شيخ العربية الإمام بن جنى قال فى (المبهج) كتابه الذى فسر فيه أسماء الشعراء فى ديوان الحماسة : القطامى بضم القاف وفتحها هو الصقر سمى الشاعر (يعنى قطاميّنا هذا) به لقوله ...

وضبط العلامة محمد محمود الشنقيطى هذا (القطامى) بالفتح فى (المخصص[1]) وضبطه العلامة الشيخ سيد بن على المرصفى فى (الرغبة[2]) بالضم ، وقال الإمام ابن سيدة فى المخصص[3] : أبو عبيد : القَطامى والقُطامى الصقر لأنه يقطم إلى اللحم[4] .

وفى التاج : القَطامى ويضم ، الفتح وسائر العرب يضمون

فمن المستحسن فى طبعة (المفقد) هذه أن يضبط القطامى — وتلك قصته ... — بالضم والفتح فى المتن أوفى الشرح

***

(١) الجزء ٣ ص ٤٢٥

(١) الجزء ١٧ ص ١٣ (٢) الجزء ١ ص ٢٠٩

(٣) الجزء ٨ ص ١٤٩ (٤) بنتهيه

قشور القسطل أى الشاهبلوط، المعروف عند بعضهم بأبو فروة . وسبب تسميته بالقنفذ أن على قشره شوكا يشبه بعض الشبه ظهر أو قشر القنفذ الشائك

وقلت فى الصفحة المذكورة « أو بجلد السمكة الخشنة الجلد وهو السفن » – قلنا : وليس فى لغة من لغات العالم قشر سمكة اسمه السفن (بالضاد) إنما هو السَّفَن ، وهو جلد سمكة تعرف بالأطوم وهى بسين وفاء ونون كما ترى

وقلت فى تلك الصفحة : « وتين يابس محرق مذيف » ولم أعثر على فعل (ذاف) بالذال المعجمة . ولا على اسم المفعول منه (مذيف) . والذى أعهده أنه (مدوف) ، بوزان مخوف بدال مهملة

وقلت – ونحن لا نزال فى تلك الصفحة – : « ويجب أن يمنع أصحاب هذه العلة جميع الأنبذة والتملى من الطعام » – والصواب : « والتملؤ من الطعام – ولا أريد أن أمعن فى تنبيهى إياك على كل ما ورد فى هذا المصنَّف من المشوهات ، فإنها لا تحصى . ويحتاج القارىء إلى وقت طويل لتحريرها وتحويرها لإعادة النص إلى نصابه . ومع ذلك ، يبقى أنه ليس لثابت بن قرة ، لأنه كان صحيح العبارة ، بديع الكلام ، عارفاً بالمصطلحات الطبية كل المعرفة ، وواقفاً عليها وقوفاً تاماً . ولما كان الوقت غير متيسر لى فى هذه الأيام ، لا يمكننى تصحيح هذا الكتاب

ووفقك الله وسلمك من كل ضر وشر »

الأب أنستاس مارى الكرملى

فأجابنى حضرته بتاريخ ٥ يوليه من السنة المذكورة ١٩٣٦ بكتاب أحفظه عندى وأنشره مصوراً إن يُنكر على أنه كتبه إلىّ لتسود وجوه وتبيض وجوه . فكتبت إليه بتاريخ ١٩ يوليه من السنة المذكورة ما هذا نصه :

أشكر لكم جوابكم بتاريخ ٥ الجارى ، ولقد طالعت القدمة الإنكليزية ، وعلمت أن السرعة التى أظهرتم بها هذا الكتاب شفيعة لكم لوقوع الأغلاط فيه ؛ لكن هذه الأغلاط جمة ، لا نكاد نسلم منها صفحة واحدة . على أن الأغلاط المتعلقة بالكلام المنثور لا أهمية لها ، إنما الأهمية فى المصطلحات العلمية . وحالما وصل إلى هذا الكنز ، كتبت على أول صفحة منه « إنه ليس لثابت بن قرة ؛ ومن المحال أن يكون له ، لأن عبارته سقيمة ركيكة ، مشوهة ، كثيرة الأغلاط ؛ ومن البعيد كل البعد أن ينسب إلى ثابت . ولا أريد أن أذكر هذه الأغلاط لكثرتها وأنا أنسب هذا الكتاب إلى رجل صنفه فى المائة السادسة للهجرة (لا الثالثة) ، لأن عبارته عبارة ذلك العصر . ثم إنه استعمل « القنفذ » بمعنى « الشاهبلوط » ، بخلاف ما تقول حضرتك ، ولا سيما أنك ادعمت رأيى هذا بأن قلت : إن الأصل لجالينوس هو بمعنى الفندق ؛ إذن ثبت أن القنفذ هو فى عبارة الذخيرة (ص١١) حين قوله: «قشور القنفذ» ؛ هو هذا النبت لا الحيوان ؛ إذ لا يقال للحيوان قشور القنفذ ، وهيهات أن يقال ذلك !

ووجدت ابن العوام يقول : إن القنفذ هو الشاهبلوط ، وفسره كذلك من نقله إلى الأسبانية والفرنسية – راجع معجم دوزى العربى الفرنسى – فإنه يشرحه هكذا شرحاً صحيحاً مما يؤيد كلام العراقيين ، وهذه التسمية لا تعدو المائة السادسة للهجرة .

وهناك شواهد أُخر على أن الكتاب ليس لثابت ، وذلك من الألفاظ اليونانية والسريانية شوهت أقبح تشويه ، وأنا أجل ثابتاً من ركوب متن هذه الفظائع ؛ فالألفاظ انتقلت من مصحَّف إلى مصحف ، ومن ناسخ إلى ناسخ ، حتى جاءت بتلك الصور الشنيعة ، وهى كلها للمؤلف الجاهل لا للنسّاخ – على ما أظن – . والبراهين التى ذكرتموها فى النص الإنكليزى ، لتبينوا بها صحة نسبة هذا الكتاب إلى ثابت لا قوام لها ، وليست منطقية ، بل فى نهاية الضعف . وما ذهب إليه العلامة Wiedmann هو الحق بعينه ، وإن لم يبين لنا الأسباب والأدلة التى دفعته إلى ذلك القول . وإنما نسب الكاتب ، أو الواضع ، أو المزوِّر هذا الكتاب إلى ثابت بن قرة ، ليروجه على الناس ، كما فعل كثير من الأقدمين مثل هذه الأفاعيل ، وقد اشتهروا بها

أما أن الواضع استعمل مرة شاهبلوطاً ومرة قنفذاً لمسمى

واحد فهذا ناشئ من اعتماده على عدة مؤلفات، وهذا أيضاً لكثير الوقوع فى كتب القوم ، وعندى شواهد لا تحصى تأييداً لهذا الرأى ، ويحتاج هذا التفنيد إلى وضع مقالة طويلة تشرح فيها ملاحظاتى ولولا كثرة أشغالى لفعلت

وعلى كل حال إنى شاكر لفضلكم وحرسكم الله

الأب أنستاس مارى الكرملى

هذا ما كتبته بيدى الفانية . وأما أن أحدهم « رأى عند الدكتور صبحى بك كتاباً بخط يدى أسأله فيه أجراً على تصحيح الكتاب ، وأن طبيباً بالقاهرة اتصل بالدكتور صبحى بك يغريه على أن يجيب حضرة الأب إلى طلبه ، فرفض صبحى بك معتذراً » فالكذب ظاهر من كل كلمة من هذه الكلم . فإن كان بيد صبحى بك هذا الكتاب فليظهره للملأ حالاً بلا أدنى تأجيل ، ويصوره وينشره ليصدقه الناس ، ولا يزيد على ما عرف به من الكذب على الأموات الكذب على الأحياء ، وهذا من الجراءة فى مكان ظاهر ظهور النار على العلم

وإن كان أحد الأطباء قد اتصل به ليغريه على أن يجيب طلبى ، فلا بد لهذا الطبيب من اسم يعرف به ، فلماذا لم يذكره لنا ؟ وكيف يكون لهذه الأكاذيب المنمقة المزوّرة المزوقة مسحة صدق ، والذخيرة طبعت سنة ١٩٢٨ ، وأنا كتبت إليه أولى رسالتىّ فى سنة ١٩٣٦ ، أى بعد مضى ثمانى سنوات على طبعه ؟ وأى فائدة من تصحيحى لهذا المصنف بعد تلك المدة الطويلة ، وقد انتشر بين الناس ، وعرفت أغلاطه ، إذ شرقت وغربت ، ونسفت هضاب العربية وجبالها ودكتها دكا لا يرجى بعده بناية فى مكانه ؟

وأى طبيب فاقد الحظ يعرض مثل هذا العرض ، وقد اشتهر غلط ما طبع وذاع بين الخلائق كلها ؟ فكل هذه خزعبلات وترهات لا يصدقها أعظم الناس بلاهة فكيف تجوز على الأدباء ؟

ولهذا سكتُّ طول هذه المدة ولم أنطق بكلمة ، لأن هذه الأباطيل جبال ، لكنها من ثلج ، تذوب عند إشراق شمس الحقيقة عليها ، ولا يبقى منها أثر . إلا أن بعض إخوانى فى مصر وفلسطين وسورية والعراق ألحوا على أن أقول كلمة الحق ، فجئت بها ، وإن كنت فى غنى عنها .

ومهما يكن من أمر ، فأنا أنذر اليوم الدكتور جورجى بك صبحى ، وشريكه الدافع عنه الأستاذ الفاضل والكاتب النزيه اسماعيل أفندى مظهر ، بأن يثبتا ما تقوّلا علىّ بإبراز الكتاب الذى كتبته أنا واطلع عليه الفاضل الأديب مظهر أفندى [1] ، وأن يذكرا لى صريحاً اسم الطبيب الذى اتصل فى القاهرة بالدكتور صبحى بك ليغريه على أن يجيب إلى طلبى [2] ، وإن لم يفعلا ، فإنى أقيم الدعوى عليهما فى المحاكم المصرية لاتهامهما إياى بشىء أنا براء منه ، ولمعاقبتهما على ما لفّقا علىّ بهتاناً وافتئاتاً . وسوف تظهر المحاكمة من الجانى ومن المجنى عليه ، ومن الظالم ومن المظلوم

وأنا أمهلهما ثلاثة أشهر من نشر هذا الإنذار ، ليتسع لهما الوقت وليثبتا مدعاهما المختلق من أوله إلى آخره

أما قول الأستاذ اسماعيل أفندى [3] : « فإن الكتاب الذى أرسله (كذا) حضرة الأب إلى الدكتور صبحى بك يسأله فيه ذلك (أى أجر التصحيح) ، قد مُزق وألقى به فى سلة المهملات مع الأسف الشديد » فهذا عذر أقبح من ذنب . وكيف يكون هذا الكلام صدقاً ، وهما يزعمان أنى طلبت به أجراً ؟ فلو كان هذا صحيحاً لاحتفظ به الدكتور ، أو لنشره بنصه وفصه ، إذ هو أمضى سلاح بيده ، ليصرعنى به ويقتلنى شر قتلة ؟ — لكنه مزقه (؟!) — قلنا : « إذا كان التمزيق قد وقع حقيقة ، ولعله صادق ، فهو لكى لا يبقى أثراً فى ربيدته ، يطلع من يأتى بعده على جهله لمبادئ اللغة المضرية ذلك الجهل الذى لا جهل بعده . وحينئذ نطالب من الدكتور النصرانى أن يحلف على الإنجيل بين أيدى الشهود فى المحكمة أنه تلقى منى كتاباً أطلب به منه أجراً على تصحيحى لكتابه الذى نشره ممسوخاً باسم ... ثابت ... بن ... قرة ! . وأطلب مثل هذا الطلب من الأستاذ المسلم اسماعيل أفندى مظهر فيحلف على القرآن بين أيدى أولئك الشهود ، ويؤكد أنه ... قرأ ... هذا الكتاب »

فإن فعلا — ولا شك فى أنهما فاعلان بعد أن بيّنّا

(١) راجع الرسالة فى سنتها ٨ ص ١٧٩٥

(٢) الرسالة ص ١٧٩٦

(٣) الرسالة ص ١٧٩٧

أكاذيبهما - فإنى أتخلى عن دعواى ، وأكل أمرى إلى الله . « والله يعلم إنهم لكاذبون » .

الأدلة التى جاء بها الأستاذ مظهر لإبانة أوهامى

أما الأدلة التى جاء بها الأستاذ الجليل إسماعيل افندى مظهر لتبرير صديقه العزيز الدكتور صبحى بك من الأغلاط التى ركب منها ، فكلها موسومة بسمة النطق المسكت للفحم ودونك أعجمها عوداً ، وأشدها هولا ورعوداً :

١ — ليس الأب فى حاجة إلى دراهم لأنه راهب . وكأنه لا يحل للراهب أن يسند المدارس ، ودور الأيتام ، ومعاهد الشيوخ والعجائز ، ولا مساعدة الأرامل بأى وجه كان .

٢ — إن أصل الكتاب مشوه كل التشويه وهذا وحده يجيز نشر الكتب بأغلاطها من غير تحرير ولا تحوير

٣ — إن الأب تعرض لنقد كثيرين من علماء مصر المشهورين ، وكان عليه أن يسكت ولا يتعرض لهم ويقدس أغلاطهم .

٤ — إن الأب سقط وكبا[1] فى دورة المجمع اللغوى السادسة، فن اللازم إذن أن يكبو ويسقط إلى آخر نسمة من حياته !

٥ — ومن آيات منطقه ومقنعات كلامه ، هذه الكلمة التى نوردها بحروفها للقارئ[2] : أيليق بنا يا حضرة الأب المهذب أن نسأل : كيف حصلت على لقب لغوى ما دمت تسقط فى مباحث اللغة هذه السقطات الشنيعات . . . — قلنا : وهذه الأقوال من أكاذيبه أيضاً ، إذ لم أحصل على لقب لغوى من مدرسة أو كلية أو جامعة ، أو حكومة ، أو دولة ما ، ولم ادع هذا المدعى فى ما كتبته . ثم لو فرضنا جدلاً أنى حصلت على هذا اللقب ، فهل لكونى سقطت مرة واحدة فى المجمع يدل على تمادى سقوطى ؟

فما هذه البراهين النخرة ، الواهية الباردة ، الخالية من أثر المنطق ؟ — إذ كم وكم من الأحفياء الذين سقطوا ؟ وهل ما تقوله الدكتور فيشر ومن ماشاه هو الصواب ؟ — وقديماً سقط الخليل ابن أحمد وخريجه الليث ، وكبا أيضاً الفراء والأصمعى وابن مكرم والفيروزابادى والزمخشرى وكثيرون آخرون . فهل هذا يدل على أنه لا يؤخذ بما قالوا ، لأنهم سقطوا مرة بل مرات ؟

٦ — وقال أيضاً الأستاذ المفوه اسماعيل افندى : « ولقد يدعى حضرة الأب أنه لا يخطئ ، لأنه لو كان يسلم بأن الخطأ واقع من أبناء آدم لما انزلق[1] فى نقده إلى حيث انزلق (كذا) اهـ

قلنا : ولماذا لم يذكر لنا غلطاً واحداً من أغلاطنا فى تصحيح عبارة صديقه الدكتور صبحى بك ؟

٧ — وقال أيضاً فى ص ١٧٩٨ : « وكلمة أخيرة أتوجه بها (كذا) إلى الأستاذ الفاضل أحمد أمين عميد كلية الآداب ، ومحرر الثقافة فأسأله : هل من اللائق أن يوجه على صفحات الثقافة ألفاظ وعبارات كتلك التى وجهها حضرة الأب إلى الدكتور صبحى بك وهو له زميل فى الجامعة وأستاذ مثله فيها ؟

قلنا : جاء فى أمثال الفلاسفة العلماء الرومانيين Amicus Plato; sed magis amica Veritas ومعناه : أفلاطون عزيز على ، وأعز منه علىّ الحق : وجاء فى النهاية لابن الأثير فى مادة (ع ط ا) ما هذا نصه بحروفه : « هـ . فى صفته صلى الله عليه وسلم فإذا تُعُوطِىَ الحق ، لم يعرفه أحد . أى أنه كان من أحسن الناس خلقاً مع أصحابه ، ما لم يرَ حقاً يتعرض له بإهمال ، أو إبطال ، أو إفساد . فإذا رأى ذلك تنمر وتغيّر ، حتى أنكره من عرفه . كل ذلك لنصرة الحق

هذا هو الأستاذ العلامة الكبير ذو الفضائل العلية الممتازة فهو ذا يشار إليه بالبنان ، دَيِّن ، تقىٌّ ، ورع ؛ فإذا جاء الحق

(١) كذا يتقدم السقوط على الكبو . راجع الرسالة ص١٧٩٦ ، وهذا التعبير لا يعرفه إلا سكان جزيرة الوقواق

(٢) ص ١٧٩٧ من الرسالة

(١) كذا بهذا الجهل المنطبع لغة هذا ، ولعل هذا الفعل وارد فى اللغة الوقواقية التى يجيدها كل الاجادة ، إذ نسب إلى مئة مثينى راجع مقالته فى الرسالة ص ١٧٩٥ وهذه عبارته : « فقد كان موعد الاحتفال بالعيد المئينى القصر العينى قد أزف » مع أن الصواب هو المئوى والقصر العيني لكن الرجل لا يتقن إلا لغة واقواق ، ومن كان فى تلك الأرجاء .

انتصر له ولم يُحابِ ، إذ كل ما يعرفه هو الأمانة والصدق ومكارم الأخلاق ، وينسى كل ما لم يكن من هذا القبيل ، وهدفه الحق ، لأن الحق صورة الله ، ومن أحبّ الحق فقد أحب الله ، وتعالى فوق كل شيء على الأرض . وهذا هو المطلوب من كل إنسان على الأرض ؛ والسلام على من اتبع الحق واهتدى ، ولم يمارِ ولم يُداجِ ولم يلتفت إلى من سواه عز وجل !

٣ — شكري لمتوخ للحق نائه

لا أمسح قلمي هذا إلا بعد أداء آي الشكر إلى كاتب كبير النفس ، محب للحق حيثما وجده وكل من احتضنه ، مقدر للعلم والأدب ، ومتوخٍّ للصدق ، أعني به الأديب أحمد الشرباصي ؛ فإنه نشر في (منبر الشرق) الصادر في القاهرة في ١٧ يناير من هذه السنة مقالة مُحَجَّلة عنوانها : « من هنا وهناك » ، انتصر فيها للحق المبين وعدل عن محجة الكاذبين ، إذ لم يستحسن ما نشره الأستاذ إسماعيل أفندي مظهر ، وختم تلك الكلمة البديعة قاصمة الظهور ، وفاتكة ما في مفاسد الصدور ، فبدّدت الأكاذيب والشرور ، بهذه الخاتمة :

« أما تفسير الأستاذ مظهر وكشفه للدافع الذي دفع بالأب إلى نقد الدكتور صبحي فهو — إن صح — حقيق بأن يحدث في الأدباء ثورة ، وأن يورث بين الكتاب حرباً تقوّم المعوج وتهدى الضال إلى سواء السبيل »

لقد صدق — وايم الله — الأستاذ الشرباصي في قوله : « إن صح » إذ هذا الأمر ما صح ولن يصح ، إلا إذا غلب الباطل الحق ، وهذا لا يدوم إلا ريثما تنجلي الحقيقة بوجهها السافر الوُضَّاء . ولا يقع هذا الوهم إلا في من يخدع بالظواهر ، على حد ما يخدع المسافر بالآل أو بالسراب ، ذلكم السراب الذي يحسبه الظمآن ماء . وأما العلماء الحكماء البصراء فهم أبعد الناس عن هذه الخوادع الكواذب . وقانا الله شرها

الأب أنستاس ماري الكرملي
من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية

الفكر والسلطة

للأستاذ عبد المنعم خلاف

أود أن أعجل بالدخول فى هذا الموضوع الذى أثاره الأستاذ إلياس إبراهيم بدوى وأثار به قلم الأستاذ الكبير العقاد ؛ فإنه موضوع يشغلنى كثيراً فى هذه الأيام وكنت على أن أفرد له مقالاً من مقالات « أومن بالإنسان » بعد ما أشرت إليه فى إحداها فإنه جدير بالعناية ؛ إذ التناقض بين السلطة والفكر هو السبب الأكبر فى شقوة الإنسان وكفره بنفسه وبالعدالة وبالخير والحياة . فليكن هذا الحديث ملحقاً بتلك الأحاديث وإن لم يكن له عنوانها .

قلت فى المقال الرابع من تلك المقالات : إن الإيمان بالعلم وتنظيم الحياة الإنسانية بطرقه وإطلاق الأفكار فيه هو الدين الواحد الذى يدين الإنسانية جميعها وتلتقى عليه بأفكارها وأيديها ... وقد جعلها تلمس عرشها المرموق وتعرف دولتها المأمولة فى مستقبل الحياة

ولكن أين العصا السحرية التى ستفعل فى تعديل شهوات الأمم وغرائزها وتعصباتها القديمة بحيث تجتمع على خدمة العلم والحياة بأفكارها وأيديها ؟

ذلك ما يسأل عنه رجال التربية والمفكرون فى الدين والاجتماع ، رجال التربية فلاحو حقول الطفولة منطقة النمو الدائم وعلب أسرار المستقبل ، ورجال الفكر رسامو المثل العليا القادرون على استدراج الناس إليها وسجنهم فيها

ولكن هؤلاء وأولئك لا يزالون بعيدين عن مقاليد الحكم وتسلم مقاود القطيع بينما مكانهم هناك لو صحت الأوضاع ... ولا يزال محترفو السياسة والدجاجلة بها المتخلفون عن بلوغ القمة فى الفكر والخلق هم الغالبين المتسلطين ... وهؤلاء هم سر البلاء النازل الآن بالناس كما كانوا فى القديم

فأنا أعنى بذلك أن يكون رجال الحكم فى كل أمة هم رجال القمة فى الفكر والخلق والقدرة على تربية الشعوب ؛ فإن هذا هو الوضع الصحيح للحياة الاجتماعية التى يستقيم فيها كل شىء، ويؤمن المرء فيها بنفسه وبأمته وبالإنسانية جميعاً ؛ إذ لا يجد فى الحياة تناقضاً بين المثل العليا والقوانين المرسومة فى الكتب والواضحة فى نظام الطبيعة، وبين الوقائع العملية التى يسير بها الناس. وحيث لا تناقض بين ما فى النفس وما فى خارج النفس فهناك السعادة وهناك الإيمان وهناك الأمل والعمل المطرد

إن الذى يؤهل الأب لأن يكون قيما فى الأسرة ، هو بذاته الذى يخول الحاكم والسلطان أن يكون قيما فى مجموع الأسر . وأول صفات الأب الفكر والرشد الممتاز والعدالة بين أبنائه والحب لهم جميعاً

والحكم كالأبوة وصاية وخدمة وقيام على الناس بالرعاية والإصلاح والعدل لا سيادة وسلطان أو مكاثرة أو حب تسخير للناس أو طلب للامتياز عليهم أو اتقاء لشرور سلطة أخرى إلى آخر أسباب الحكم التى ذكرها الأستاذ العقاد وبين تفاوتها فى القرب من الصواب

وكما أن الأب فى الغالب هو أكبر أهل البيت عقلاً وأقدرهم على الكسب والإنتاج والإصلاح ... كذلك يجب أن يكون « الأب الشعبى » أى الحاكم الراعى

وقد أغفل الناس هذه البديهية فى الحكم ووسدوا الأمر إلى غير أهله الطبيعيين ، وصار مالكو رقاب الناس وموجهو الأمم غير رجال القمة فى الفكر والخلق ومعرفة اتجاهات الحياة ، وإنما هم المحترفون للسياسة والجائعون للشهرة والعاشقون للجاه والمناصب والبطش والخيلاء ، والجاهلون بعلوم النفس والتربية وأرصاد القدر وسير قافلة الحياة بالأحياء ... الذين صعدوا إلى المناصب بالمكر والخديعة والدجل السياسى ، لا بالطبع الكريم والفكر الناضج والمجهود الصالح والخدمة النافعة ... الذين تقومهم نفوس عوام ، أو هم جعلوا همهم تملق العوام والنزول إليهم بدل أن يرفعوهم بالتربية وقسوة الآباء التى لا يدمنها فى بعض الأحيان ...

ومن رأيى أن الأرستقراطية فى الفكر ضرورية للاجتماع ، وليست مقبوحة كالأرستقراطية فى المال . إذ لو اتبع الحكام

أكثر الدهماء ما خطوا بالإنسانية خطواتها في الترقي ، وماوصلوا بها إلى شيء من أسباب سموها وهداها

والمحترفون للسياسة وعشاق المناصب يحملون همهم تمليق العامة ليركبوها إلى المناصب . أما العلماء والمجاهدون في سبيل الفكر فهم الذين يحملون الناس على أكتافهم إلى واحات السلام والصلاح والانتفاع ، وقد يضربهم الناس ويهينونهم كما يهينون الدواب التي تحمل متاعهم ، ومع ذلك لا يتخلفون عن أداء رسالاتهم في نقل الناس من سيئ إلى حسن ومن حسن إلى أحسن

إن رجال الفكر المخلصين للحقيقة الباحثين عنها الحالمين بصور الكمال هم وحدهم الذين لا تبطرهم المناصب والرياسات ولا يسمون لها إلا لأنها تمكنهم من تحقيق ما يحلمون به من وسائل الإصلاح وإسعاد الناس . وهم الذين يقيمون السياسة على قوانين الفضيلة لا على الختل والخداع وتصيد المال والخيلاء بالجاه

واعتقادي أن شقاء الإنسان السياسي ناتج من أن رجال السياسة الآن صاروا بعيدين عن الأفكار العليا الحرة ، وصاروا تابعين لرجال المال الذين يبعدون عنهم كل ذي فكر وأحلام ومثل عليا في الروح

وعالم المال بؤرة للشهوات العنيفة والغرائز الحادة ، والمنافسة الذميمة ، وحب التملك ، وتبرير الواسطة ، والخوف من التغيير والتحول

وقد نشأ من اللقاح بين هذين الصنفين : محبي تملك الرقاب ومحبي تملك المال ، ذلك الإنسان السياسي الفظيع الذي يخدع القطيع ويلعب به ويحلبه ويسوقه ويذبحه حين الضرورة الشخصية على مذابح الهوان والظلم . ولن تتخلص الأمم من شقائها وفوضى حياتها إلا إذا اختارت رجال حكمها من بين مفكريها الذين لهم روح تحلم بالكمال ، ولهم قدرة عملية على التنظيم والإخراج والتنفيذ ، ولهم مع هاتين الهبتين شخصية قوية تصون المنصب وتخلع عليه من هيبتها وسيادتها الذاتية . فعلى الأمم أن تبحث عن هذا الطراز المفكر الحالم العامل القوى الشخصية بين رجالها وشبابها الناشئين ، وأن تربيه في مدارس خاصة بتخريج الحكام يكون لها برامج تكفل إنضاج المفكر الحاكم السائس المربي

***

وحين يوجد الفيلسوف الحاكم يكون التناسق والتربية النفسية والحقيقة والرضا عن الوطن و « المواطنين »

وقد كان عهد الرئيس الدكتور « مازاريك » في « تشيكوسلوفاكيا » مثالاً صالحاً للحكم تحت وصاية أرباب الفكر الذين لا يخضعون « للروتين » ولا يتحجرون في قوالب الواقع السيئ

فقد فاق « التشك » تحت حكمه جيرانهم جميعاً حتى الألمان ، فاقوهم في التنظيم الداخلي والاقتصادي والرياضي والعسكري والاجتماعي . إذ أنهم كانوا تحت وصاية رجل بصير بآفاق الحياة مدرك اتجاهاتها ، بريء السيرة والسريرة من آفات محترفي السياسة الطالبين للمناصب ولو لم يكونوا أهلاً للوصاية للعامة ، الحاذقين « للمناورات » والمقالب والدسائس مع الجهل بالإصلاح

إذاً فمن الخير للأمم أن يتولى سياستها رجال الفكر وعشاق المثل العليا وأن يطبقوا حياتها العملية على أفكارهم النظرية السليمة

***

ولكن هل من الخير لرجال الفكر أنفسهم أن يوسد إليهم أمر الناس وتدبير سياستهم ومعايشهم ؟ إن لذة الفكر المجرد والهدوء الذي يغمر عاله والأنس به والأحلام فيه والانقطاع إليه شيء عظيم قد يفضله كثير من المفكرين على الاشتغال بصغائر الحياة العملية ومضايقات سياسة الناس وتدبير أمورهم ، ولو كان مع هذا جاه ومال وسلطان وقوة وشهرة

بل إن أكثر الذين أخلصوا للفكر والفن يضيقون ذرعاً بحياة الناس العملية ويخلقون لهم جواً خاصاً بهم يعيشون فيه وحدهم ولا يمدلون به سواه . ولذلك قال الجاحظ ما معناه : « ما لذة الأسد بلطع الدم بأعظم من لذة العالم بعلمه » . وقال أحد الصوفية : « لو علم الملوك ما عندنا من اللذات لقاتلونا عليها »

وقد صور « جبران خليل جبران » وجداني رجل الأدب ورجل النشب و نَظْرتَيْهما للحياة حين قال : « تبادل غني وأديب النشب والأدب ، فرأى الأديب ما بيده حفنة من تراب ، ورأى الغني ما برأسه نفخة من ضباب ... »

فهل يلذ المفكرين أن ينزلوا عن أبراجهم العاجية المليئة

بصور الكمال والجمال والهدوء إلى دنيا الواقع المليئة بالصخب والتشويش والمتاعب ؟

وهل من الخير للحياة أن يظل رجال الفكر فى نظرياتهم وأحلامهم يتصيدونها من آفاق بعيدة ويؤلفون صورها ويدمنون ذلك وينقطعون إليه ، حتى يكثروا أمام الناس صور الكمال ، وأن يتركوا للملوك والساسة المعمليين أن يأخذوا منها الجانب الذى يروقهم ويحلو لهم تطبيقه فى أساليب حكمهم ؟ أم أن من الخير للحياة أن يتولى رجال الفكر بأنفسهم تنفيذ ما فكروا فيه ووفقوا إليه ولو قطعهم ذلك عن إنتاج الأفكار الكثيرة الرائعة ؟

وهل من الخير للرجل أن يخلد ويذكره التاريخ على أنه مفكر أو فنان أو أن يذكره على أنه حاكم سديد مصلح ؟

إن النتاج العلمى والفنى قد يبقى كما هو دائماً فى الكتب والدواوين والآثار . . . يراه الناس كما كان فى عهد صاحبه ... ولكن نتاج الحكم والإصلاح مؤقت بحياة صاحبه فلا تدركه الأجيال التالية ، إلا بالحكاية عنه والسماع . وليس فيه خلود ذاتى كالأثر الفكرى والفنى ، وإنما خلوده بتطبيقه على الحياة العملية . وهذا طبعاً ليس مطرداً ولا كثير الوجود فى جميع العصور ...

فحياة الإصلاح والقوة فى زمن عمر بن الخطاب وعمر ابن عبد العزيز مثلاً انقضت بانقضائهما ، وصار الحديث عنها حديث حكاية مضى أشخاصها . وقليل أن يقتدى بهما حاكم آخر ، ولكن حياة أى كتاب دينى أو علمى أو فنى تبقى تمثل نفس صاحبها ومنتجها دائماً ...

* * *

ومع هذا يجدر بنا أن نعلم أن حياة الفكر وحده لا فائدة منها إلا لفترات « للترف العقلى » والترف العقلى كالترف المالى ما هو إلا شهوة ... شهوة رفيعة

نعم إن للعقل شهوات كشهوات الغرائز ! فالمفكر أو الشاعر الذى يتفرغ لعالمه الخاص ويترك العمل على إصلاح ما يحيط به ما هو إلا كالمدمن المستهتر على الخمر أو القمار ؛ إذ يغيب عن حياة المجموع ولا يجمل بين عقله النظرى والعقل العملى صلة

والسؤال الذى يجب أن يقدم قبل البحث فى هذا هو : أمن الخير للفرد الفقير المريض المحتاج فى الأمة أن تقدم له غذاء ودواء وحياة عادلة أم أن تقدم له لحناً جميلاً أو شعراً رائعاً أو نظرية بارعة ؟

إن الحياة العملية هى الحكم فى هذا ... وقد مضى العلم والفكر القديمان اللذان كانا يدوران على الذاتية واللذة الشخصية وأتى عصر الفكر العملى الذى ينتج محصولاً ينفع الناس فى مرافقهم الماشية

فصاحب الفكر التجريبى الآن قد صار صاحب الخطوة والخالد الأثر عند الناس . لأنه يشتغل فيما يعود عليهم جميعاً ...

وقد لفظت الحياة الحالية كل من يفكر على الأسلوب التجريدى القديم الذى لا ينتج شيئاً يصح انتفاع الناس جميعاً به واحتضنت كل من يقدم لها أعمالاً وأغدقت عليه الثروة والجاه والسمعة ...

* * *

وينبغى أن ينصرف حديثنا هذا إلى غير المفكرين من العلماء الطبيعيين الذين يكشفون عن أسرار الطبيعة . فهؤلاء يجب أن يتفرغوا ويعيشوا فى عالمهم وحده إلا إذا كانت لهم قدرة على الجمع بين حياة الحكم وحياة هذا اللون من العلم

أما الذين يفكرون فى النظريات الأدبية ويدرسون الاجتماع ويضعون فلسفته فيجب أن يختار منهم من يستطيع الاضطلاع بأعباء الحكم وتطبيق النظريات على الواقع

ويجب أن يعلموا أنه لا فائدة من أن يضعوا كثيراً من النظريات والأفكار ويتركوها دفينة بين دفات الكتب من غير تطبيق ؛ وإن المفكر الناجح هو من يصنع فكرة ثم يصنع بها أمة أو جماعة

ويخيل إلىّ أن كل المجهودات الفكرية التى ليست داخلة فى منطقة العمل هى هوى ذاتى وترف عقلى وأقرب إلى الوجدانيات كالموسيقى والألحان

إننا لا نمسك ديوان شعر أو نسمع ألحان الموسيقى أو نقرأ قصص التاريخ إلا إذا فرغنا من أعمالنا الماشية وأقبلنا على أوقات

الفراغ نستمتع بها ، ولن يقبل على هذه الألوان فى كل وقته إلا هاو مستغرق أو محترف مرتزق

وقد يكون من العجيب عند بعض الناس أن يعلموا أننى أعتقد أنه يجب للاصلاح السريع فى مصر أن نضحى بمعيشة الترف العقلى مدة موقوتة تغلق فيها جميع المعاهد العالية مدة سنة أو سنتين نحشد جميع أساتذتها وطلابها للخدمة العامة والاشتراك فى حركات الإصلاح البدائى ونترك التفرغ للبحوث الفكرية والهوايات الفنية ونتفرغ لتدبير أمور الجمهرة الجاهلة من هذه الأمة حتى يعلو مستواها ويتقارب مع مستويات الأمم التى سبقتنا فى التعليم والإصلاح

قد يبدو هذا غريباً عجيباً ، ولكن هو ما أعتقده . لأنى أرى وجود المريض جداً بجانب الصحيح جداً يفقد بهجة الحياة لدى الصحيح ، ويؤلم المريض بالحسد والنظر المحروم ؛ وأرى أن الأولى للعالم والمفكر ألا يوغل فى علمه وفكره ، ويترك غيره جهلاء لا يفهمونه ولا يقدرونه

ووجود عدد من جهابذة العلماء عندنا بجانب ملايين الجهلة التعساء المرضى هو بذاته كوجود الميادين والشوارع الجميلة فى المدن المعدودة فى مصر بجانب آلاف القرى التى تقام من الطين والسرجين والأحطاب والمستنقعات ...

فعلى هذا ينبغى أن يقدر أدباؤنا ومفكرونا أن عملاً صالحاً يقدمونه فى حكم صالح يسمون إلى أن يقوموا عليه ، أولى ألف مرة من تقديم قصيدة رائعة أو مقالة بارعة أو فكرة عبقرية غير عملية ... إذ أن هذا العمل الصالح المثمر أهنأ لدى آلاف من القلوب المحكومة ، وأسرع إلى إسعادها ، وأدنى إلى أسلوب الله فى نفع عباده ، إذ أنه يعمل لهم كثيراً فى تدبير الطبيعة ولا يتكلم ... وإن قانوناً عادلاً يضعه لأمته حاكم رشيد لأنفع ألف مرة من جملة كتب تعرض أفكاراً طلية للترف العقلى . لأن القانون العادل يضمن ضرورات الحياة للناس جميعاً . أما كتب الأفكار ، فتضمن بعض ترف الحياة لبعض الناس ..

ولو ترك محمد عليه الصلاة والسلام القرآن من غير أن يترك أمة قد قام عليها بالتربية والحكم والتوجيه والتعليم لظل القرآن كـكتاب من الكتب لمؤلف من المؤلفين ... ولكنه صنع أمة تجسدت فى أشخاصها معانى هذا الكتاب ومشت تسمى بهم وصاروا هم كلمات حية تشرح آياته . . .

وأظن أن سعادة الرجل الذى ينجح فى تطبيق مشروع يسعد الناس تربو كثيراً على سعادته بإخراج أثر فكرى أو فنى حبيس فى الورق

فليحمل أدباؤنا ومفكرونا نصيباً من الخدمة العملية ، وليروضوا أنفسهم على إسعاد القلوب بالأعمال كما يسعدون الآذان بالأقوال ، وليجتهدوا أن يحققوا معانى مقالاتهم فى أشخاص وأعمال مجسمة ، وليسموا دائماً إلى أن يكون حكامنا وزعماؤنا هم رجال القمة فى الفكر والخلق حتى نلائم بين ما فى النفس وما فى خارج النفس .

عبد المنعم خلاف



الغنـــاء والموسيقى

وحالهما فى مصر والغرب

للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك

— ١ —

هذه أولى أربع كلمات فى الغناء والموسيقى ، وحالهما فى مصر والغرب ؛ وهى ملاحظات عامة لم يُقصد بها إنسان معيَّن ، وليس فيها محازبة لمذهب خاص ، وعرضُها قد لا يخلو من فائدة

ذانك الفنان يجوز اعتبارهما من وجهين : القواعد الفنية[1] ؛ وبواعث الطرب الراجعة إلى ماهية الموسيقى والغناء الأصلية ، أى الدلالة الصوتية على الأحاسيس والخواطر[2]

فالغناء تطريب فى الصوت فى كلام المغنى . والكلام العادى كلمات تدل بذواتها وبنسقها على خواطر وأحاسيس تتلوّن فيه تلون الحال الفكرية النفسية فى المتكلم ؛ فيتلون صوته بالطبع والتبعية إذ يحدث فيه نبرات متفاوتات ، ويجرى فى سرعة وبطء وخطف ووقف ، وذلك كله يقوى دلالات الكلمات والسياق على الخواطر والأحاسيس ، لأنه يزيدها وضوحاً وتأكيداً من حيث لا يشعر المتكلم . فهذا الذى يَحدث فى صوته دلالةٌ صوتية تصاحب الدلالة الكلامية ؛ وهى ماهية الإلقاء ، وقد تكون أصدق من دلالة الكلام الذى تصاحبه : فى مثل عبارة معناها ثناء تلقى بصوت يدل على أن المراد بها مُزاح ساخر ؛ وفى مثل قول غاضب لمغضوب عليه : تفضَّل ، بصوت يعنى الطرد مع أن الكلمة مستعملة فى التكريم

وما الغناء ، على الإجمال ، إلا تطريب يُعلى تلك الدلالات الصوتية فى اللحن المطابق لمعانى كلام الأغنية ، ولمقتضى المقام المعين بهذه المعانى ؛ فتعلو الدّلالات درجات متفاوتات على مستوياتها فى الكلام المُغَنَّى به لو أن صاحبه الفرضى تفوَّه به ، من غير تطريب ، فى ذلك المقام . يؤيد هذه الحقيقة أن الأغنية إذا جاد لحنها ، وأجاد غناءها صوت حسن موافق ، كانت معانيها أعظم وقعاً عند السامع منها إذا هو قرأها هادىء النفس ، أو سمعها مقروءة بلا ترنيم ولا ترتيل . فمن أين تعلو عنده منزلة هذه المعانى والأغنية واحدة على كل حال ؟ أفلا نرى أنها تشرف بتقوية الدلالة الصوتية المبينة عن معانى الكلام وعن حقيقة المراد به ؟ ليس شك فى أن السر والسبب المهم هو تقوية هذه الدلالة ، والأمر صحيح واضح لا فى الغناء وحده بل فى الخطابة والتمثيل أيضاً

تلك الدلالات الصوتية تصاغ فى نغمات متوائمات محكمات على ضوابط فنية ، لتنسجم بالإيقاع فى لحن يبرز معانى الكلام المغنى به ، وعلى قدر المطابقة الواقعة بين نص الدلالات ، أى معانى اللحن ، وبين معانى هذا الكلام يطيب الغناء ولو لم يكن صوت المغنى من أجود الأصوات

* * *

بديهى أن الملحن لا ينطق بالكلام المراد تلحينه ، ولا يستعين أحداً ينطق به أمامه ، كى يلاحظ ما يقع فى مثل هذا النطق من دلالات صوتية ليرفعها فى نغمات يصوغها لحناً ، لكنه إذا كان حقاً فناناً فقهاً فإنه يتفهم ما فى ذلك الكلام من مقاصد وأغراض ، ناظراً فى دقائق ما يكسوها من معارض وأثواب ؛ ويتأمل ما يصور من صور حتى يتوهمها أمام ناظريه ، وحتى تستقر فى بصيرته

---

(١) كالسلم والمقامات ، ومواقع النغمات على المعازف ، والايقاع وضبط الأوزان ، وقياس الألحان بالتك والدم ، أو بالنوتة وما إلى ذلك .

(٢) هنا يحسن التنبيه على الرأى العلمى القائل بأن الأحاسيس يردها التحليل التناهى إما إلى غريزة حفظ الذات ، وإما إلى غريزة حفظ الجنس ، كما يرد إليهما سائر الغرائز ؛ وإن الغرائز والأحاسيس أصلها معقولات كثر ترددها فى الذهن وسلوكها مجاريها العصبية حتى استحالت غرائز وأحاسيس ؛ وأن المعقولات والأحاسيس فى الحقيقة يلازم بعضها بعضاً فى العقل الباطن ، لأنها من حياة النفس الكلية والنفس واحدة ، وحركاتها متصلة من طريق التداعى وإن بروا ظواهرها ، وميزوا بكل باب ملكة من ملكاتها ، تسهيلا لدراستها وتحليل أحوالها .

وعقله الباطن، وما تصف من أحوال نفسية حتى يجدها كأنها في نفسه هو؛ ثم يأخذ في التلاحين متى تهيأت له ملكاته، فيأتي اللحن بطبيعة الحال حاملاً تلك الدلالات، مطابقاً بها معاني الكلام على قدر حساسات الملحن وحسه، ومواهبه ومحصوله الثقافي؛ وإذا كان الكلام أغنية من إنشائه، فقد يكون أقرب إلى السداد في إنشائه لحناً لها

وشأن المغنى في التمكن من اللحن وتجويد غنائه شأن الملحن في تلحينه[1]، وذلك هو الأساس والصراط المستقيم إلى الإجادة يهديهما إليه الطبع ونصيبهما من تحصيل أصول الفن ومن فهم معناه، ومن لم يهتد إليه ويوطد صنيعه على هذا الأساس المتين جاء بشيء غير طائل

أما الموسيقى، ففيها الدلالات الصوتية المصوغة في اللحن الذي يخرجه العازفون من المعازف؛ وهذه الدلالات أملتها نفس ملحنه، إما أخذاً عن أحاسيس وخواطر تضمنها الكلام الذي أنشأ له اللحن، وإما تعبيراً عن حسها الذاتية حين تيقظت فيها ملكة التلحين، وهي حالة استكنت في أعماق تلك النفس بواعثها من خوالج صاحبها في مدى حياته، ومن أخيلته وخواطره إزاء ما شاهد في دنياه وما أدرك من الكون بشعوره وعقله أو بفضل غيره[2]

(١) كذلك الكاتب، يفكر في موضوعه ويشحذ له ذهنه وقريحته، ويهيء نفسه حتى يتصوره تام البناء سوى الهندسة، قبل أن يمسك القلم لكتابته؛ فاذا كتب بعدئذ أجاد على قدر ملكاته، ومعلوماته وأدواته؛ أو هو يرقم لكتابة موضوعه — من مقال طويل أو رسالة أو سفر — منهجا يرتب فيه مقاصده وأغراضه ويحكم الارتباط والتعلق والنسبة بينها، ليكون تحت نظره كالرسم الذي يضعه المهندس ليبني على مثاله؛ فقد رأى بعضهم أن للكتابة ثلاثة أركان: أولها الاختراع، وهو التفكير في الخواطر والأحاسيس التي تكون المقاصد والأغراض، كالمواد الداخلة في البناء. وثانيها الترتيب، ترتيب هذه المقاصد والأغراض في منهج كالرسم للبناء. وثالثها العبارة، وهي الكتابة والانشاء في الموضوع بالأساليب البيانية لتزيين صرحه كزخرفة البناء بأنواع الطلاء وغيره. فاذا كانت المواد جيدة وهندسته جميلة زادته الزخرفة جمالا وإلا ضاعت فيه.

(٢) ولذا جاز أن يقال إن الفن إلهام من تلك البواعث المستكنة في نفس الفنان؛ وبالنظر إلى أصناف التحف الفنية، وهي ثمرة نفوس الفنانين، =

تلك الدلالات تؤديها معازف تختص بها، معازف تحدث من تناسق أنغامها السياق الأساسي في اللحن بينا ترسل معازف أخرى أنغاماً مساعدة، تتلبس به متنوعة فيه، متفاوتة ارتفاعاً وانخفاضاً؛ فهذه تصاحب السياق الصوتي الأصلي وتزينه بتلونها الملائم، إذ تجرى معه مؤتلفة، كصورة الظل مع صاحبه، فتزيده جمالاً وروعة، فهي مصاحبة أو تصوير[1]. فما اللحن في الحقيقة إلا تعبير بدلالات صوتية مدلولاتها خوالج وخواطر وأخيلة جالت في نفس ملحنه، أو استعارتها نفسه من كلام لغيره، من فحواه ودقائق معانيه وما تصف. ومن هنا نظروا إلى اللحن الذي يعبِّر هذا التعبير، ويصور هذا التصوير، نظرهم إلى الكتابة فقالوا: الإنشاء الموسيقى، وميزوا بين إنشاء موسيقار وإنشاء موسيقار آخر، وعرفوا لكل طابعه الخاص

***

الفهيم المستمع إلى موسيقى جيدة، لا يصاحبها غناء، تصل ألحانها إلى سمعه غير مقيدة دلالاتها الصوتية، أي معانيها، بدلالات لفظية. ولذا تجد نفسه بعض الحرية في فهم هذه الألحان الموسيقية التي تحرك في وجدانه خوالج وأحاسيس، وتثير تداعي الصور في مخيلته والخواطر في ذهنه، فتذهب روحه مذاهبها في تأويل الدلالات الصوتية؛ فإذا سكنت إليها طرب ووجد الأريحية، وإذا هو آنس منها ما يعيب اللحن أو العزف أو لم يفهمها، أو لم توافق طبعه، فإنه لا تأنس إليها روحه. وعلى قدر موافقتها وسلامتها أو عيوبها يكون الاكتراث لها، أو الاستكراه والنفور منها

أما الغناء الذي تصاحبه الموسيقى ففيه الدلالة اللفظية تفرض تأدية معان معينة، هي معاني الكلام المغنَّى، على الدلالتين الصوتيتين: دلالة الغناء ودلالة العزيف الموسيقى معاً؛

= صح ما أورد ناقد فاضل ضمن مقال له في العدد الأسبق من الرسالة أو ما قبله، من أن الفن هو «صورة الكون في نفس إنسان» وهو «تبلور الحياة في حس فنان».

(١) Harmonie

فلا بد من المطابقة والائتلاف التام بين هذه الدلالات الثلاث حتى لا يُعكّر نبوٌّ إحداها ونشاز الأخرى صفاء اللحن ونقاء الغناء والموسيقى جميعاً

***

والكلام الذى يغنّيه المغنّى بمصاحبة الموسيقى يصل مع صوتيهما إلى آذان المصغين البصيرين، ويتمكّن معناه اللفظى بيّناً فى أذهانهم فيقيد حرية نفوسهم كل التقييد، فى فهم تينك الدلالتين الصوتيتين فهماً يغايره، وبذلك يمنعهم من تأويلهما تأويلاً يجعل لهما وقعاً عندهم؛ فإذا لم يكن الائتلاف تاماً بين معانى كلام الأغنية ومعانى لحنها وغنائها ومعانى موسيقاها حال هذا العيب الشنيع دون الطرب، وربما سبب الاستكراه والنفور ولو جاد العزف الآلى وصوت المغنى

والمستمع السليم الذوق قد لا يحلل بعقله ما يسمع من الغناء والموسيقى مثل هذا التحليل، ولكنه لا يطرب من غناء وموسيقى تتنافر فيها تلك المدلولات اللفظية والصوتية؛ لأن عقله الباطن يدرك تنافرها، أو لأنها لا توافق مزاجه الروحى، وإن لم يكن بينها تنافر، أو لعدم وضوح معانيها له، ومدار ذلك كله هو الإدراك والذوق

***

ولكن الحقائق المتقدم بيانها ما مبلغ علمنا بها يا ترى؟ وهل يُلتفت إليها فى بلادنا؟ الجواب فى الكلمات الآتية فى الأعداد التالية، وحسبنا الآن إشارة

لما دال الدهر القلّب، وظمت أسباب الانحطاط على الشرق، وتفشّاه الجهل، وذهبت الأخلاق، وضاعت فيه الآداب والفنون، لم يبق بعدها من الغناء والموسيقى، فى الفترة المديدة التى سبقت بدء النهضة المصرية، سوى بقايا ضئيلة ههنا وثَمّ، مسّها الأسواء ولمّا نمعن فى البحث عنها وعن أصولها وضوابطها، ولم نحسن الاعتناء بما بين أيدينا منها، ولم ندرك ماهيتها ونبنى عليها؛ وليس لنا بد من طور آخر نقضيه متلمسين للفن الحق، متعثرين فى سبله

نعم، فإن كثيراً من الملحنين والمغنين والموسيقيين والمستمعين — بقطع النظر عن الأقليات التى تدخل فى باب الاستثناء — لا يزالون عندنا من بيئات دون الوسطى، ضئيل محصولهم، أولية عقولهم، ساذجة نفوسهم، سقيمة أذواقهم. وقصارى البارع من هؤلاء الفنانين أن يتقن تقليد ما ترك الجيل السابق، أو أن يعبث بشيء من بعض آثار القدماء، أو أن يمسخ الفن بما يزعم أنه تجديد وابتكار. وكثير من النقاد مثلهم ولم يفطنوا؛ لمواطن الأدواء، فليس فى مقدورهم أن يصفوا الدواء، ونقدهم مغترض يساير المشتهى ويتحرى مظان المنفعة، وخيره أقل من شره، ولو تنزه وصح لكان فى مصلحتهم ومصلحة الجميع على السواء.

محمد نور عبد السلحدار



ذكرى محمد محمود باشا

في ليلة الأربعاء الماضي وعلى منبر الجامعة المصرية أعلنت مصر ممثلة في زعمائها ووزرائها وأدبائها صادق رثائها وخالص وفائها لفقيدها الجليل النبيل محمد محمود باشا . وكان من خير ما قيل في حفلة التأبين هاتان الكلمتان لشاعرين الكبيرين عباس محمود العقاد وخليل بك مطران ؛ والرسالة تساهم بنشرهما في هذه الذكرى الجليلة

قال الأستاذ العقاد :

أكبرتُ في غيب الزعيم محمد ... من كان يكبر حاضراً في المشهد
حجب الردى عنا بشاشته ولم ... يحجب بشاشة ذكره المتجدد
هيهات ينتقص الزمان مجادة ... السيد بن السيد بن السيد
فخر الصعيد ، وفخر مصر جميعها ... بالرأي ، والخلق القويم الأيّد
من يرسل المثنى عليه ثناءه ... مسترسلا في القول غير مقيد
جمع القلوب على المديح وإن مضت ... نهجين بين مصوب ومصعد
لم نقض في هذى الديار قضية ... ومحمد مما قضوه بمبعـــد
ملء الندىّ وإن تطامن دقة ... كم دقة شحذت مضاء مهند

في دارة (الفلكي) قبلة كوكب ... يعلو على رصد المنايا الرصّد
تطوى المغارب جرمه وشعاعه ... متألق في أوجــه لم يخمد
أكبرت مطلعه ولم يك طالعي ... في كل حين عنده بالأسعد
ورأيته أقصى وأقرب رؤية ... فإذا البروج لكوكب متوحد
مهما اختلفت حياله لم يختلف ... سمت السماء ولا علو المقصد
متحرر مما يعاب كأنه ... متقيد المسعى ، ولم يتقيد
شفت سرائره فكل سريرة ... فيه تضيئك من سراج موقد
فإذا عهدت المحض من عاداته ... لم تلق يوماً منه ما لم تعهد

عز الكنانة فيه فهي فجيعة ... تبلو الكنانة في الضمير وفي اليد
ما في مروءات الشعوب مروءة ... إلا رعتــه بنظرة المتفقد
البر ، والمشهود من آلائه ... بين المحافل دون مالم يشهد
ومعاهد التعليم بين مشجع ... للعاملين بها وبين مزود
وإغاثة الأدب الهيف وإن تشأ ... سرداً فعدد ما بداك واسرد
ونزاهة اليد واللسان هداية ... للمهتدين ، وقدوة للمقتدى
وصراحة الأخلاق ما اشتملت على ... مستغلق فيها ، ولا متأود
والعزة الشماء ، إلا أنهــا ... كالشاهق المخضر لا كالجلمد
وسياسة الوادي ولم يك رابحاً ... منها سوى الشجن المقيم المقعد
وعزيمة لا تكره الشورى وإن ... كانت لتكره حيرة المتردد
شيم وآلاء إذا ما استفردت ... كالقطب عزت في ازدواج الفرقد

عز الكنانة والعزاء ليعرب ... ما بين مُتْهِمِ قومه والمنجد
كم ذاد عنهم والخطوب بمرصد ... والشمل بين مشرد ومبدد
للحق ، لا لخبيئة مطوية ... تلقى العداة الرابضين بموعد
ولنصرة الإسلام لا لعصابة ... تسعى إلى الإسلام سعي المفسد
سمح على ما فيه من عصبية ... سهل ، وإن أعيا قُوَى المتشدد
لا يستطاع على الخصام عناده ... وعليه تعويل الأخ المتودد
من أكسفورد ولو نماه معشر ... للأزهر المعمور لم تَستبعـــد
فيه محافظة ، وفيه طرافة ، ... وأراه في الحالين غير مقلد
ورث الحمية كابراً عن كابر ... والأريحيةَ منجداً عن منجد
غيث الفلاة ونيل مصر كلاهما ... سقياه من أصليه أعذب مورد
فإذا بكت مصر فغير ملومة ... وإذا الحجاز بكى فغير مفند

رحم الإله محمــداً وأثابه ... في خلده الباقي ثواب مخلد
كأن السبيل السرمدي سبيله ... فعليه رضوان الإله السرمد

عباس محمود العقاد

وقال الأستاذ مطران :

هل يعالى الذرى مكان اعتصام ... بعــد مهواك يا رفيع المقام
ما انتفاع النسر المحلق في الأو ... ج ويرمى به من الأوج رام
أي رزء ألم بالعــالَم الفر ... د فألقى الخشوع في الأعلام
أي خطب أصاب أوحد قوم ... فأشاع الأحزان في أقوام
ما جناه الردى بحجبك عنهم ... سبقته جنــاية الأسقام
فتحملت في ليــال طوال ... ما تحملته من الآلام
كان عمرٌ قضيته في اضطلاع ... بالمعــالي وفي مساع جسام
فيه أسرفت بالعزائم حتى ... لكأن المبذول بعض الحطام
جدت في حبك البلاد بأغلى ... ما به جادها شهيد غرام
همم بلغتك أسمى الأماني ... من ثراء ورتبة ووسام
وأعزت بك البلاد وإن لم ... نقض أقصى ما رمته من مرام
فلأمر عاق المهيمن حقاً ... عن قضاء ومطلباً عن تمام

مصر تبكى محمداً بفؤاد   أثخنته السهام بعد السهام
كلما لاح كوكب فى ذراها   كوّرته حوادث الأيام
ينقضى الدهر وابن محمود باق   خالد الذكر فى بنيها العظام
الزعيم الخليق منهـا ولا مَـنٌّ   عليه بالحب والإكرام
الرئيس النزيه فى كل معنى   من معانى ولاية الأحكام
الوزير النهاض ما حَزَبَ الأمـ   ـر بأعبائه الثقال الضخام
الخطيب الذى لمنبره الـ   ـى جلال كمهبط الإلهام
الأديب الذى إذا جالت الأقلا   م جَلَّى فى حَلبة الأقلام
الرصين الرزين إلا إذا ما   عجل الرأى خطة الإقدام
العـدو المبين المتجنى   والنصير الأمين للمستضام
الولى الأوفى لكل موال   والمذم الأكفى لراعى الزمام
رجل كامل الرجولة لا يرمـ   ـى بعزم إلا بعيد المرامى
ليس يُعنى بالترهات ولا ينـ   ـظر إلا من المكان السامى
طبعته شمس الصعيد ولكن   لم يطل منه محمل الصمصام
والنفوس الكبار ليس عليها   حرج من تضاؤل الأجسام
أسمر اللون يعتريه شحوب   قد ترى فيه صُهبة الضرغام
يتلقى الأحداث عسراً ويسراً   وعلى الثغر منه وشك ابتسام
ليس بالأصْيَدِ العيوف ولا با   لبِق المجتدى تحايا الأنام
شيعته البلاد والحزن غلا   ب على الصبر فى الدموع السجام
جيشها ناكس السلاح تماشـ   ـيه وئيـداً شجية الأنغام
وعلى جانبيـه مشترفات   جزعات مخفوضة الأعلام
ووراء السرير تطرد الأفـ   ـواج والهـام تلتقى بالهام
أمة أزجت الجنازة فى أسـ   ـنى مجال الإكبار والإعظام
يا محبىّ محمد وهمُ صفـ   ـوة مصر التقت بهذا المقام
عظم الله أجركم إن وعـد   الله حق للصابرين الكرام
يا شقيقيه إن بيت سليما   ن بأن تبقيا متين الدّعام
يا بنيـه بسنة الله لوذوا   فبهـا برء كل جرح دام
قاسمتكم مصر الرزيئة فيه   وعلى قدرها مدى الاقتسام
فاخلفوه بالحق واتخذوا منـ   ـه لكم خير مرشد وإمام
إن تلك الحياة إن تصلوها   الحيـاةُ جديرة بالدوام

خليل مطران

نشيد اللغة العربية القومى

للأستاذ محمد سعيد العريان

تلحين شربن طاهر

[لمناسبة مهرجان النشاط المدرسى الذى تقيمه وزارة المعارف فى هذا الأسبوع نقدم هذا النشيد لقراء العربية فى مختلف أقطارها] .

لغتى : دينى وطنى

لُغةُ الأمجادِ مُنذُ يَعرُبِ : لغتى
ولسانُ الحقِّ من عهد النبى : لغتى
مجدُها مجدى وتاريخ أبى : لغتى

لغتى : دينى وطنى

لُغةُ الرحمنِ فى قُرآنِهِ : لغتى
ولسانُ الوحى فى تِبيانِهِ : لغتى
وبيانُ الحرِّ عن وِجدانه : لغتى

لغتى : دينى وطنى

يَغفُلُ التاريخُ فى تَسطيرِهِ   عِزَّةَ الماضى ولا تُغفِلُنِى: لُغتى
يَعجِزُ الفنّانُ فى تعبيرِه   عن معانيهِ ولا تُعجزنى: لُغتى
ويَضيقُ الفنُّ فى تصويرِهِ   عن معانيه ولا تخذُلُنِى: لُغتى

لغتى : دينى وطنى

وَسِعَتْ كُلَّ طريفٍ وتَليدِ : لغتى
وَوَعَتْ لى عِزَّةَ الماضى المجيدِ : لغتى
ضَمِنَتْ لى فى فَمِ الدنيا خُلودى : لغتى

لغتى : دينى وطنى



فى مقالة الأستاذ السباعى بيومى

فى القسم الثالث من مقالة الأستاذ المبجل جمع فخور على فخورين فى قوله : « ثم سل تلاميذى الذين تتحدث عنهم يخبروك بما يفحمك مخلصين صادقين وفخورين بتلمذتهم لى ... » والعربية إنما تجمعه على فُخُر ، قال طرفة :

ثم زادوا أنهم فى قومهم غُفُر ذنبهم غير فُخُرْ

ودخلت (هل) فى قوله : « فهل لا زلت على هذه المباهاة » على ناف ، وهى لا تدخل على ناف أصلاً كما قال الرضى . ودخلت (لا) على ماض غير مستقبل فى المعنى ، ولم يكرر ، وقد بين (المغنى) فى الحرف (لا) ما بين . وجاءت (إليك) فى قوله : « ومع هذا فاليك رأيى فى تلك المباهاة » . وفى (الكتاب) : « وإليك إذا قلت تَنَحّ » قال :

إليكم يا بنى بكر إليكم ألمّا تعرفوا منا اليقينا

وإليك من أسماء الأفعال غير المتعدية إلى المأمور كما ذكر (المفصل) . قال التبريزى : « لا يجوز أن يتعدى إليكم عند البصريين ، لا يقال إليك زيدا لأنه معناه تباعد »

من النفع والخير أن يخطئ الكبار فى حين من الأحايين حتى ينقدوا فتغنى اللغة ويستفيد الناس ... (ناقد)

مراجعات لغوية

نشرت الرسالة كلمة للباحث المفضال « ا . ع » فى التعقيب على ما قلت به فى توجيه ضم الظاء من كلمة « الظرف » بمعنى اللطف : ومن رأى حضرة الباحث أننى أخطأت فشق علىّ أن أعترف بالخطأ ، فرحت ألتمس العلل ، إلى آخر ما قال

وأحدد وجه الخلاف فأقول : جاء فى مقالى عن كتاب المطالعات للأستاذ عباس محمود العقاد أنه ليس من الخير لمصر أن يكثر فيها أهل اللطف والظرف ، وقد سمت الظرف بضم الظاء عامداً ، لأنها بالضم تؤدى معنى لا تؤديه وهى بالفتح ، فبين اللفظين ما يسميه العرب بالفرق اللطيف وما يسميه الفرنسيون Nuance

ثم انتهزت الفرصة فقدمت لقرائى توجيهاً لضم الظاء من الظرف فى لغة المصريين فقلت إنه نوع من الإتباع لكثرة إقتران الظرف باللطف ، والإتباع معروف فى اللغة العربية ، وله شواهد كثيرة سجلت بعضها فى كتاب النثر الفنى

ثم وقع بعد ذلك أن انتقد بعض أدباء فلسطين ذلك التوجيه وعدّه دفاعاً عن أخطاء المصريين . وقد أجيب بأن هناك سبباً يضاف إلى الإتباع وهو التمييز بين المحسوس والمعقول ، فالمصريون يفتحون ظاء الظرف إذا أرادوا « الوعاء » ويضمونها إذا أرادوا « اللطف » وأنا أسمى هذا « غريزة لغوية » وأراه من الصواب

وأنا أسأل الباحث المفضال « ا . ع » عما يعرف فى لغة العرب بالمثلثات ، وهى الألفاظ التى تنطق فاؤها بالفتح والضم والكسر أسأله عن السر فى هذا التثليث ، فهل يراه لغة واحدة ينطق بها من شاء كيف شاء فى جميع البلاد ؟ أم يراه باباً من اختلاف اللهجات يَفْصُح بعضها فى مصر ويَفْصُح الآخر فى الشام أو فى العراق ؟

وإليه هذا المثال : كلمة « جزاف » مثلثة الفاء فهى جَزاف وجُزاف وجِزاف ، ولكن المصريين ينطقونها « جُزاف » بالضم ، فهل ترى من الفصاحة أن ينطقها المصرى فى خطبته بالفتح أو الكسر بحجة أن المعاجم تبيحه ذلك ؟

الحق كل الحق أن اللهجات المختلفة شرقت وغربت ، وهى جميعاً صحيحة النسب إلى العرب ، ولكن اللهجة لا تفصح إلا فى المكان الذى استوطنت فيه ، فإن تجاوزنا بها ذلك كان صنيعنا ضرباً من الإغراب . وعلى هذا يكون ضم الظاء فى الظرف على ألسنة المصريين له ثلاثة توجيهات :

الأول : أن يكون اكتسب حكم الإتباع من اللطف ؛ والثانى : أن يكون للتمييز بين المحسوس والمعقول ؛ والثالث : أن يكون لهجة عربية تفردت بها بعض القبائل التى استوطنت وادى النيل

وبهذه المناسبة ، أذكر أن الأستاذ أحمد العوامرى بك كان كتب كلمة فى مجلة المجمع اللغوى عن « نادى التجديف » بالدال المهملة ، فكان من رأيه أنه « التجذيف » بالذال المعجمة ؛ وقد ناقشته يومئذ فى جريدة « البلاغ » ؛ فقلت : إن الشعرانى فى مؤلفاته يرسمها بالقاف فيقول « التقذيف » ؛ وعند مراجعة القاموس المحيط رأيته يثبت ثلاثة حروف هى : المجداف والمجذاف والمقذاف ... فما معنى ذلك ؟ معناه أن العرب لهم فى هذا المعنى ثلاثة ألفاظ تنقل بها الحظ من بلد إلى بلد ومن جيل إلى جيل ،

فمن الواجب إذاً أن ندرك أن المصريين لم يقولوا « التجديف » إلا وهم يريدون « التقذيف » ، فهم قلبوا القاف جيما كما يصنع بعض اليمنيين والمراقبين ، وكما يصنع سكان مصر من أهل الصعيد بدليل أن سكان مصر من أهل المنوفية يقولون « التأديف » ، على عادتهم في وضع الهمزة مكان القاف

وتلك فائدة لا ينكرها باحث مفضال مثل المواصري بك ...

ألم يسمع بالمثل المصري الذي يقول : « على قد فوله قدّفوا له »

فهذا المثل يرى التجديف هو التقذيف ، وقلبت القال دالاً على طريقة بعض القبائل العربية في تحويل المعجمات إلى مهملات

ولهذا البحث تفاصيل سأقدمها لحضرة الأستاذ « ا . ع » إذا بدا له أن يعقّب على هذا البحث من جديد ، فهو فيما أرى من أكابر الباحثين

أما القول بأني أعدّي فعل « أمكنَ » بالحرف وهو يتعدى بنفسه ، فله توجيه سجلته في مجلة أبوللو منذ أعوام حين اعترض أحد أدباء العراق على تعدية فعل « حرَم » بالحرف في بعض قصائدي ، وهو يتعدى بنفسه ؛ وخلاصة ذلك التوجيه أني قد أرى المعنى في بعض الأحايين لا يؤدّى تأدية صحيحة إلا إذا عبرت عنه بتلك الصورة ، وكان الأستاذ محمد عبد الغني حسن يعرف عني ذلك الرأي ، فلم أر موجباً لمناقشته فيه ... ولم يكن إيثاري لذلك التعبير ضرباً من العناد ، كما أراد حضرة الباحث أن يقول ، وإنما كان إيثاراً لحرية القلم في شرح دقائق المعاني ، وهي حرية تفرض الثورة على المعاجم في بعض الأحايين

زكي مبارك

خصومة لا عداوة

قرأت في العدد الماضي من « الرسالة » كلمة للدكتور زكي مبارك عن الجدل بينه وبين الأستاذ السباعي بيومي . جاء فيها :

« رأى جماعة من كبار المفتشين وهم الأساتذة جاد المولى بك ومحمد على مصطفى ومحمود محمد حمزة ومصطفى أمين وأحمد على عباس . رأى هؤلاء الأكابر بأخلاقهم وآدابهم أن أقف الجدال الذي أثرته في وجه الأستاذ السباعي بيومي ، وحجتهم أنه وصل إلى درجات من العنف تؤذي كرامة المشتغلين بخدمة اللغة العربية .

« وأنا أجيب هذه الدعوة ... الخ »

وقد رأيت في الصورة التي عرض بها الدكتور زكي مبارك هذه الوساطة ما دعاني إلى الاستفسار من حضرات من ذكرهم عن الصورة الدقيقة لتدخلهم ؛ فعلمت منهم أن وساطتهم بين الأستاذ الدكتور كانت منصبة على أسلوب الجدل لا على موضوعه ؛ وفي نظرهم أن مستوى المناقشة بين أديبين ورجلين من رجال التعليم يجب أن يرتفع عن هذه اللهجة . أما الفحص عن الحقيقة وتصاول الأقلام في الموضوعات العلمية والأدبية فليس لهم عليها اعتراض بل يسرهم أن يشجعوا عليهما ويستزيدوا منهما

هذا هو رأي حضرات الأفاضل الذين احتج الدكتور بتدخلهم في الانسحاب من المعركة التي أثارها . فإذا كان لدى الدكتور ما يقوله بالأسلوب اللائق فليستمر فيه غير ملوم من أحد ولا محجوج في الانسحاب

وما أبغي بهذه الملاحظة تدخلاً في المعركة ؛ فليس من خلقي أن أتدخل في نزاع فرعي . ولو شئت معركة لاخترت ميدانها الأصيل .

سيد قطب

(الرسالة) : أرسل إلينا الأستاذ السباعي بيومي مقاله الرابع يهجم فيه على الدكتور زكي مبارك فهيأناه للنشر ، ولكن بعض ذوي الرأي والفضل رغب إلينا أن نقف هذه المناظرة العنيفة عند هذا الحد بعد أن أتى أحد المتناظرين الفاضلين القلم إجابة لدعوة زملائه الكريمة

بستان النشاشيبي

أهدى أديب العربية الأستاذ إسعاف النشاشيبي كتابه (البستان) إلى صديقه الأستاذ محمد بهجة الأثري مفتش اللغة العربية ببغداد فأرسل إليه هذه الأبيات الرقيقة :

سيدي « إسعافُ » يا أمثل خُلصان وَخِلّ
أنا من بستانك الزا هر في طيب وظل
بين ورد باسم الثغر وريحان وفُل
زمر نسقها الذو ق على أجمل شكل
أعلاها بعيني وأرعاها بفضلي
أتلقاها باسم وَتَلَقّاني بِدَلّ

***

جل ما أهديت من را ح وريحان ونقل
أسكر المشموم نفسي وغذا المطعوم عقلي

محمد بهجة الأثري

شبابيك القلل

كان للكلمة التي كتبتها بهذا العنوان في العدد ٣٩٩ من « الرسالة » أثر حسن فيما كتبه الدكتور زكي محمد حسن في العدد ١١٥ من « مجلة الثقافة » تعقيباً على مقاله الأول في هذا الموضوع ، فقد تدارك الدكتور زكي — إلى حد ما — ما فاته في مقاله الأول

وإذا قلت — إلى حد ما — فذلك لأنه حاول فى مقاله الأخير أن يفسر قوله : « إن من العجب أن يعنى بزخرفة شبابيك القلل إلى هذا الحد بينما تبقى القلل نفسها بغير طلاء أو رسوم زخرفية » فبعد أن نقل ما كتبته فى « الرسالة » عن القلل الصيفية وهى من الفخار غير المطلى ، والقلل الشتوية وهى المكسوة بطلاء زجاجى ، أراد أن يجد لنفسه عذراً فقال : أما أن هناك قللاً عليها طلاء فأمر لم ننكره أبداً ، وحسب القارئ الذى بادر بالتعليق على مقالنا أن يرجع إلى كتابنا كنوز الفاطميين ولا نخاله يجهله ، ثم استشهد بالعبارة الآتية نقلاً عن الصفحة ١٧٢ من هذا الكتاب

« فالفخار غير المدهون كانت تصنع منه أبسط الأوانى اللازمة لطبقات الشعب ، ولا سيما القلل التى كانت من الفخار غير المطلى ، إلا فى النادر جداً ، لأن المقصود منها تبريد الماء ، ولا بد من المسام للوصول إلى هذا الغرض ، ومن ثم فإن الذى وصل إلينا منها يكاد يكون خالياً من أى دهان زجاجى »

وإنى أود أن أوجه نظر الدكتور إلى أن شبابيك القلل الشتوية ذات الطلاء الزجاجى ، توجد فى دار الآثار العربية وحدها بالمئات — كما كان يجب أن يعلم ذلك — ومن ثم فإنى لا أرى ما يبرر قوله إن هذا النوع منها لا يوجد « إلا فى النادر جداً » و « أن الذى وصل إلينا منها يكاد يكون خالياً من أى دهان زجاجى » ، ولست أرى هنا أى مجال للتفسير اللغوى

وإذا كنت لم أشر إلى كتاب « كنوز الفاطميين » فى كلمتى السابقة فقد كان ذلك لسبب واحد ، وهو أننى اكتفيت بتصحيح ما جاء فى مقال الدكتور زكى ، ولم أجد ما يثير الرغبة فى نفسى لنقد ما أورده فى كتابه

وكيف أجهل هذا الكتاب وقد كان لى — إبان اشتغالى بالتدريس فى جامعة بون — شرف مساعدة الأستاذ باول كالا فى كتابة بحث واف عنوانه « كنوز الفاطميين » وقد نشر هذا البحث ـ كما يعلم حضرة الدكتور الفاضل ـ فى مجلة المستشرقين الألمانية ZDMG فى المجلد ١٤ سنة ١٩٣٥ (ص ٣٣٩ ـ ٣٦٢) ولا ينسى الدكتور زكى محمد حسن ما لهذا البحث ، ولما فيه من حواش قيمة ، من فضل فى وضع كتابه — الذى طبع فى سنة ١٩٣٧ — باللغة العربية فى نفس هذا الموضوع وبنفس هذا العنوان ! وما كنت أود أن أذكره بهذه الحقيقة ، لولا أنه فى تنويهه عن كتابه ، بدلاً من الاعتراف بالفضل ، وجدت — للأسف — ما هو دون ذلك ، وهذا ما كنت أنزه الدكتور عنه .

دكتور محمد مصطفى

تحريف معنى بيت بالنحو

فهم صديقى الأستاذ الفاضل إبراهيم على أبو الخشب أن ما ذكرته فى تحريف معنى بيت بالنحو يدخل فيما يؤثر عن علمائنا — إن نكت النحو كالورد تشم ولا تدعك — والحقيقة أن ما ذكرته فى ذلك من صميم النحو وليس من نكته

وأما الذى ذكره من أن أو المتمحضة للعطف وأو الناصبة ، فلم يأت فيه بجديد فى المسألة . ونحن حين نجرى قول الشاعر : « لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى » على معنى : ليكونن منى استسهال للصعب أو إدراك للمنى ، نكون قد خرجنا بأو الناصبة إلى أو المتمحضة للعطف . وقد اعترفت أيها الأستاذ الفاضل بأن أو المتمحضة للعطف لها معان غير معانى أو الناصبة ، فكيف نحمل إحداهما معنى الأخرى ؟

وليس بحق ما ذكرته من أن المعنى فى البيت على محض العطف، وأن معناه ليكونن منى استسهال للصعب وإدراك للمنى ، لأن هذا يجعل ما بعد أو داخلاً فى حكم ما قبلها من إثبات ونفى وقسم ونحو ذلك ، مع أن المضارع المنصوب بعد أو ، لا يدخل فى حكم ما قبله بذلك الشكل ، ويظهر أثر ذلك صريحاً فى نحو قولك — لا أكلك أو أرضى عنك — فأو فيه بمعنى إلى ، ولا يصح تقدير العطف فيه ، لأنه لا يصح تقديره على العطف — لا يكون منى كلام أو رضاً عنك — لئلا يدخل الرضا فى حكم النفى مع أنه ليس بداخل فيه

وكذلك الأمر فى نحو — لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى ، ولأجتهدن أو أنجح — لأنه على تقدير العطف يكون كاذباً إذا استسهل الصعب ولم ينل المنى ، وإذا اجتهد ولم ينجح مع أنه إذا قال — لأجتهدن أو أنجح — فاجتهد ولم ينجح ، لا يكون كاذباً . على أنه ليس بعد هذا كله ما يدعو إلى جعل أو الناصبة عاطفة ، وإنما ذلك تكلف يلزم للبصريين وحدهم

عبد المتعال الصعيدى



مرض طبيب ...

للأستاذ نجيب محفوظ

قبل عامين تفشى وباء التيفود فى مديرية الغربية تفشياً مخيفاً فتك بنفوس الكثيرين ، وصادف ذلك انقضاء بضعة أشهر على تعيين الدكتور زكى أنيس طبيباً بمستشفى طنطا وفتحه عيادته الخاصة ، وكان فى تلك الأيام يلاق الشدائد التى يلقاها كل مبتدىء فى فنه أن يلقاها أول عهده بالحياة العملية . فكان ينتظر طويلاً وعبثاً توارد الزوار والمرضى مستوصياً بالصبر والتجلد حتى كاد يلحقه الجزع . فلما تفشى ذاك الوباء الخبيث تضاعف عمله بالمستشفى وشحذ نشاطه ومضى يراقب حركة السيارات التى تطوف بالبيوت وتعود محملة بالضحايا بمينين كثيبتين وعزيمة متوثبة، وأحس بالرغم من كل شيء بسرور خفى ، وأحيا قلبه الأمل فى أن يدعى يوماً لعلاج مصاب من الذين تثقل بهم جيوبهم عن الانتقال إلى المستشفيات العامة ، ولم ييئسه تقاطر الناس على كبير الأطباء وبعض الأطباء القدماء بالمدينة وأصغى إلى هاتف تفاؤل ما انفك يهمس لقلبه بأن دوره لا محالة آت .

وصدق أمله ، وإنه ليجلس إلى مكتبه يوماً يقلب صفحات كتاب وتجرى عيناه على أسطره جريان الشرود والملل إذ طرق بابه كهل يدل منظره الوجيه وزيه الريفى الثمين على أنه من الأعيان؛ ولعله قصده بعد أن يئس من العثور على سواه ، فطلب إليه بلهجة تنم على القلق أن يصحبه إلى العامرية على مسير ربع ساعة بالسيارة . وكان الشاب يعد العدة لمثل هذا اللقاء فلم يبد على وجهه أثر مما اضطرب فى صدره من الفرح والظفر ، فألقى على القادم نظرة رزينة وقام من فوره فخلع معطفه الأبيض وارتدى الجاكتة والطربوش وأخذ حقيبته وتقدمه إلى الطريق . والتقى أمام الباب بسيارة فخمة فخفق قلبه مرة أخرى وتريث حتى فتح الرجل الباب وقال له «تفضل» وجلسا جنباً إلى جنب وانطلقت بهما السيارة ، وحافظ على هدوئه ورزانته وصر بأسنانه ليطرد ابتسامة خفيفة تحاول أن تمتلى شفتيه؛ وكأنه أراد أن يدارى عواطفه فسأل الرجل عن مريضه ، وتكلم الرجل فى إسهاب فقال إن المريض ابنه وإنه لم يجاوز العشرين من عمره، وأنه أحس منذ أيام بتوعك وخور ورغبة عن تناول الطعام ، ثم ارتفعت حرارته واستسلم للرقاد فسأله : «هل حقن بالمصل الواقى ؟» فأجاب الرجل بالنفى ، وأعلن عن رجائه الحار ألا يكون الشاب أصيب بالحمى الخبيثة، فصمت الطبيب ملياً يفكر فى هذه الأعراض ويزنها بميزان اختباراته وعلمه، وكانت السيارة فى أثناء ذلك تخترق الطريق الزراعى بسرعة البرق حتى بلغت العامرية وانعطفت إلى حاراتها الضيقة ثم وقفت أمام دار كبيرة ، فدخلا معاً واستقبلتهما أوجه كثيرة بأعين يقتتل بها الخوف والأمل ، فساوره القلق وتلبسه شعوره حين تمرض لأول مريض بدأ به حياته التمرينية فى قصر العينى منذ ثلاثة أعوام ، فاستصرخ قوة إرادته ليضبط بها وجدانه ويجتاز هذه التجربة الجديدة بالنجاح، وأغضى عمن حوله وسدد انتباهه إلى الشاب الراقد بين يديه ، وكشف عليه بعناية فائقة وفحصه فحصاً دقيقاً فترجح لديه أنه مصاب بالتيفود ، وأبدى رأيه فى تحفظ وقال إنه ينبغى أن يفحص المريض فى اليوم التالى ليستوثق من رأيه، فلا آمنهم من خوف ولا أفقدهم الأمل، وظن أنه ضمن لنفسه أن يتردد على المريض حتى يبلغ به الشفاء بفنه أو يودعه القبر بأمر الله . ثم أخذ حقيبته واتجه نحو الباب بخطى وئيدة كأنه يريد شيئاً ، فلحق به والد المريض وهمس فى أذنه قائلاً : «تفضل» فخفق قلبه لثالث مرة ذاك اليوم ومد يده وهو يقول : «شكراً» فأحس بثلاث قطع من ذات العشرة قروش توضع بها ، ثم جلس فى السيارة منفرداً هذه المرة ، وانطلقت به فى طريق العودة ؛ وكانت هذه أول مرة يدعى فيها إلى زيارة مريض فى بيته ، فاغتبط ورضى وأشعل غليونه وراح يدخن بحالة من السرور لم تخل من اضطراب عصبى فأخذ «أنفاساً» سريعة فتوهج التبغ وسخن الغليون ، ولم يستمر فى التدخين طويلاً فوضعه فى جيب الجاكتة الأعلى وأرسل بناظريه خلل زجاج النافذة يشاهد الحقول الممتدة على جانب الطريق الغارقة فى الأفق البعيد ، وكانت تنتهى عند الطريق الزراعى بجدول من الماء ينساب صافياً تستحم فيه أشعة الشمس المائلة للغروب وتنشاه بنور لألاء بهيج يخطف الأبصار ؛ فاستسلم لسحر الرؤية ، وشعر بتخدير لذيذ ، حتى انتبه إلى تغير غريب يسرى فى صدره وجسمه فتحولت أفكاره من الخارج إلى الداخل

فأحس بسخونة تنتشر في أعضائه جميعاً كأن حرارته ارتفعت بغتة، فتململ في جلسته وحرك رقبته بعنف، ثم لم يحتمل شدتها فخلع طربوشه وفك أزرار الجاكتة وأخرج منديلاً يروح به على وجهه وهو يعجب أشد العجب لأن الجو كان معتدلاً لطيفاً، واشتدت وطأة السخونة والتهب جسمه بالحرارة، فجس خديه وجبينه وشعر بثقل في جفنيه ورأسه وضيق في التنفس، وتساءل في حيرة عما أصابه، وخطر له خاطر مخيف: هل يكون مريضاً؟!... وذكر لتوه الحمى الشيطانية التي تفتك بأهل المديرية فتكاً جهنمياً

وكانْ قد حقن نفسه بالمصل الواقي فكيف انتقلت إليه العدوى؟!... هل سبقت الميكروبات المصل إلى دمه؟!... ولفه الذعر، وكان في الحقيقة جباناً رعديداً شديد الهواجس سرعان ما يستسلم للتشاؤم ويقع فريسة سهلة للمخاوف، فعاد يجس خديه وجبينه فوجدها ساخنة وأحس بجسمه يكاد يلتهب التهاباً فاستولى عليه الفزع وارتعدت فرائصه وقال بذهول «ياللويل... لقد أصبت وانتهيت...»

وقطعت السيارة مرحلتها وانتهت إلى عيادة الطبيب الشاب – وكانت عيادته ومقامه في شقة واحدة – فتركها على عجل وصعد إلى حجرة نومه واستدعى التمرجي وقال له: «ناد الدكتور سامي بهجت بسرعة وقل له إني أصبت بالتيفود» فجرى الرجل مرتعباً وأخذ الدكتور يخلع ثيابه بيدين مضطربتين وارتدى البيجامة وارتمى على الفراش في حالة يأس ورعب وغم شديد وقد خيل إليه أن شرايينه ستنفجر من الحرارة. وكان يستحضر في ذاكرته أعراض المرض فلم يعد لديه ثمت شك في أنه مريض؛ وثبت في وهمه بقوة أن هذا المرض سيختم حياته. كان شديد الجبن متهافتْ الأعصاب فلم يستطع أن يأمل قط في النجاة وبات في يأس عظيم، وظل يعد الدقائق الثقيلة المرهقة ويصيح غاضباً «هيهات أن يجد الدكتور في عيادته، وسأجن هنا وحدي...»

وفي أثناء الانتظار فزعت أفكاره المجنونة إلى القاهرة، إلى أمه، ووجد حاجة شديدة إليها، وإلى وجودها إلى جانبه لتسهر عليه؛ وفكر فعلاً في أن يبعث إليها ببرقية، ولكنه لم يقبل هذه الفكرة بسهولة، وأشفق من إرهاقها وإزعاج حياة والده وإخوته الصغار وربما عرضها للخطر أيضاً – وكان هذا أول شعور طيب يخالط قلبه منذ قدم طنطا – فصدقت نيته على أن يطلب إلى الدكتور بهجت نقله إلى المستشفى، وربما تمكن من رؤيتها هناك ليودعها إذا اشتد عليه الحال. وقد حن إليها في تلك الساعة حنيناً موجعاً... وأغمض جفنيه هنيهة يلتمس الجمام ويطرد عن قلبه الوساوس والهواجس، ولكن وجدانه الثائر أبى أن يدعه في راحة أو طمأنينة، أو أن يصرفه عن الانشغال الأليم بمرضه. ولم يكن دار له بخلد أن الطبيب يأمن من الأمراض، ومع ذلك أحس بمرارة وسخط وحنق وساءه أن يفتضح مرضه النادر في أثناء عودته من زورة مريض. أما كان الأجمل أن يجزى غير هذا الجزاء!!... وقر في نفسه أن العدوى انتقلت إليه في أثناء قيامه بواجبه في المستشفى بالرغم من حذره ويقظته فتضاعف سخطه وحنقه، وأسى على حياته التي لم يتح له التمتع بها؛ وكان يدفع إلى فكرة الموت دفعاً عنيفاً، ويقسر على الاستغراق فيها بقوة شيطانية... وحدثه قلبه الرعديد بأن نهايته حمت، فعطف رأسه إلى المرآة وأدام النظر إلى وجهه، فخيل إليه أنه محتقن بالدم الفاسد؛ ولكن كان ما يزال محتفظاً بنضارة الحياة وأثر الصحة الآخذة في الانحلال، فألقى عليه نظرة آسيفة حزينة، كأنما يودع آخر صورة للحياة والصحة عالقة به... ثم أدار رأسه قانطاً، وأسلمه القنوط إلى الاستسلام، وأسلمه الاستسلام إلى الاستهانة، ولاذ بها من مخاوفه، وقال لنفسه علام الخوف والذعر؟ الموت آت لا ريب فيه، إن لم يكن اليوم فغداً... هو النهاية المحتومة على أية حال لمهزلة الحياة... وماذا يضيره أن يقصر دوره في هذه المهزلة؟ فلعل في قصره اختزالاً لآلام مروعة. على أن تمزيه لم يدم طويلاً... وألحت على قلبه الآلام مرة أخرى... فذكر آماله وأطماعه في المجد والثروة، وارتسمت على شفتيه لهذه الذكرى ابتسامة مريرة ساخرة... وشعر بامتعاض يفوق الوصف... وذكر الثلاثين قرشاً التي طرب لها فرحاً قبل حين قصير: فازداد امتعاضه، ولعن رزقه الذي يناله من أيد شحيحة، لا تفرط فيه حتى يهزلها المرض، فتراخى عن الضن به، ولعن النظام الذي يجعل سعادة القوم منوطة ببأساء آخرين... يالها من مهنة مخيفة، يستمد رجالها حياتهم من النفوس المريضة كالجراثيم سواء بسواء... وسخر في ذعره وتشاؤمه من الإنسانية والتضحية والرحمة، تلك الألفاظ الصماء التي حفظها عن ظهر قلب ولم تختلج له في شعور قط...

فهو لم يشمّر أبداً لغير المجد والثروة ، ولم يتصور ساعة أنه يبلغهما بغير معونة المرض ... فعبده وهو لا يدري ، ونصبه آلهاً يقدم له القرابين البشرية كبعل القديم ، حتى سقط هو أخيراً قرباناً له ، فأي حياة هذه ؟ ... وذكر أيضاً في هذيانه وتشاؤمه قروياً بسيطاً عرض له في العيادة الخارجية لقصر العيني ، وكان يريد أن يكشف على حلقه ، فأمره أن يفتح فه ... وكان كلما أدنى منه المجهر يرتجف الرجل الساذج ويغلق فه ، وتكرر ذلك منه حتى اشتد به الحنق ، وكان مرهق الأعصاب من كثرة العمل ، فضرب جبين القروي بالمجهر ، فشجه وأسال دمه ... وقد أسف لذلك حقاً ولكن أسفه لم يخفف عن الرجل شيئاً ... وذكرته هذه الحادثة بما يقع خلف جدران قصر العيني من أعمال القسوة التي تفزع من هولها النفوس البشرية ، فذكر أنه تكاسل مرة عن إجراء عملية لمريض ، لأنه كان أجرى هذه العملية مرات عديدة بنجاح ، فلم يشعر بحاجة إلى تمرين جديد . واسودت الدنيا في عينيه ، وعافت نفسه كل شيء في تلك الساعة الخبيثة

ثم سمع وقع أقدام في الردهة وصوت التمرجي يحادث الدكتور ، فتمشت في أعصابه موجة نشاط ونسي وساوسه ، وفزع إلى القادم بأمل جديد ، ودعا ربه بصوت متهدج قائلاً : « آه يا رب ، خذ بيدي ! هبني حياتي مرة ثانية ، أهب للناس أشرف ما في نفسي حتى الموت »

وما انتهى من دعائه حتى برز الدكتور بهجت من باب الحجرة وهو يقول بصوت مرتفع : مساء الخير يا دكتور . مالك ؟

فقال الشاب بهدوء وإن كان في الحق يستغيث : أُصبت !

ففحصه الدكتور بعينين نافذتين وأصابعه تفتح الحقيبة ، ثم قال : لعلها أنفلونزا

فقال بيأس : كلا ... لا أشكو زكاماً ولا صداعاً ...

— ولكنك لم تشك تعباً أو فقدان شهية في هذه الأيام ... أليس كذلك ؟ !

وتفكر الشاب قليلاً متحيراً ثم تمتم قائلاً : حرارتي فظيعة ... إني أشعر بالمرض شعوراً مخيفاً ...

— هل قست الحرارة ؟ !

فعجب كيف فاته ذلك ، وهز رأسه نفياً ولاذ بالصمت ؛ فابتسم الدكتور بهجت ابتسامة ساخرة ، ودنا منه والترمومتر في يده ، ثم وضعه في فمه وانتظر هنيهة ، ثم أخذه ثانية ورفعه إلى مستوى عينيه ، ونظر إلى وجه الشاب رافعاً حاجبيه وقال ببساطة : حرارتك طبيعية ... أنظر !

وقرأ الشاب الترمومتر وهو لا يصدق عينيه ، وجس خده ثم قال : هذا عجيب ! خدي ما يزال ملتهباً . كيف هبطت الحرارة ؟

وأتى الدكتور بسماعة وطلب إليه أن يفك أزرار الجاكتة ففعل ؛ ووقع بصر الرجل على الفانلا فبدت على وجهه الدهشة وصاح بسرعة وهو يشير إليها قائلاً : « انظر ! »

فأحنى الشاب رأسه ناظراً إلى الفانلا فرأى فوق القلب دائرة مسودة من أثر احتراق خفيف . فاستولت عليه الدهشة وجلس في فراشه وهو يتساءل : « ما الذي صنع بي هذا ! »

فضحك الدكتور بصوت عال وقال : « ها أنت ذا تكشف حمى جديدة يا دكتور ! » . وخطرت للشاب فكرة فالتفت إلى الشجب وقفز من الفراش واتجه نحوها ووضع يده في جيب الجاكتة الأعلى متناولاً غليونه ، وفحص الجيب بعينيه فرأى آثار التبغ الذي أكل البطانة وحرق القميص وأثر هذا التأثير في الفانلا ، ووقف مرتبكا ينظر إلى الدكتور بعينين تسألان الصفح ، وقد أحس بحرارة جديدة هي حرارة الخجل والارتباك

وبعد دقائق وجد الشاب نفسه وحيداً مرة أخرى ، وكان ما تزال تعلو شفتيه ابتسامة الارتباك والخجل ولكنه كان يحس بغبطة وسلام ، وكان قلبه يشكر الله الذي وهبه حياته مرة أخرى

وبر الشاب بوعده واعتزم أن يكون إنساناً قبل كل شيء ، وعاد إلى عمله تنبض في قلبه أشرف العواطف وأنبلها ، وكان يظن أنه سيصمد للتجارب لا ينكص على عقبيه مهما امتد به الزمن ، ولكن وا أسفاه إن انقضاء الليل والنهار ينسي ، ومن ينغمر في الدنيا يذهل عن نفسه ، وللحياة جلبة تبتلع همسات الضمير ، فقد أخذ يتناسى محنته ودعاءه ووعده حتى نسي ولم يعد يذكر إلا عمله ومستقبله وآماله وأطماعه ، ثم ارتد إلى ما كان عليه ، وكانت تلك الأيام القلائل في حياته كهدوء البحر الذي يصفو ويرق حتى يشف عن باطنه ثم لا يلبث أن تهيجه الرياح والعواصف فيرغي ويزبد وتعلو أمواجه كالجبال . ولعله لا يذكر هذه الحادثة الآن إلا كدعابة يتندر بها ويقصها على صحبه إذا دعا داعي الحديث أو السمر !

نجيب محفوظ

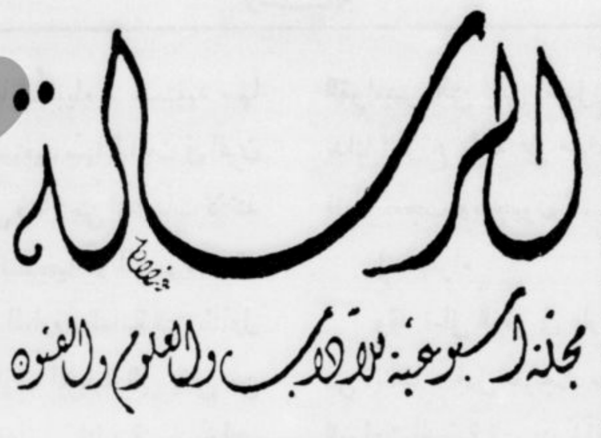
مطبعة الرسالة — ٨١ شارع السلطان حسين عابدين . القاهرة



9me Année No. 403

Lundi - 24 - 3 - 1941





ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٤٠٣ « القاهرة فى يوم الإثنين ٢٦ صفر سنة ١٣٦٠ — الموافق ٢٤ مارس سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــرس

دوائر معارفنا الاسلامية

للأستاذ عباس محمود العقاد

اقتُرح على المجمع اللغوى تأليف معجم لألفاظ القرآن الكريم ، فذهبت أنظر فى المعاجم والموسوعات التى عندنا وعند غيرنا من هذا القبيل ، فلم ألبث أن رأيت بعد مقابلة يسيرة أننا فى هذا الباب جد فقراء

عند الأوربيين موسوعات مختلفة الأحجام والأغراض لأسفارهم الدينية ومأثوراتهم المقدسة

فللتوراة والإنجيل موسوعات صغيرة تفسّر الأسماء والأعلام والوقائع والألفاظ ، فلا تذكر فى الكتابين اسم رجل أو بلد أو قبيل إلا استطعت أن ترجع إليه فى موضعه ، فتعرف شيئاً عن تاريخه وموقعه ومناسبة ذكره ؛ فإذا بك أمام كتاب يكاد أن يفيدك فى كل شىء ، ولا تنحصر فائدته فى فهم التوراة والإنجيل

ولهذين الكتابين موسوعات صغيرة أيضاً تتناول الآيات والأجزاء على الترتيب ، فتقرن بين بعضها وبعض ، وتقابل بين القرائن المختلفة من قديم وحديث ، وتفسر مدلولاتها على حسب العصور والمصادر اللغوية ، فتجمع بين معرفة الشريعتين الموسوية والمسيحية ، وكل معرفة لها بهاتين الشريعتين اتصال

وعندهم موسوعة للطيور التى ورد ذكرها فى التوراة ،

أو للأشجار والأزهار التى تكلم عنها الأنبياء ، فيستفيد منها الباحث فى علمى الحيوان والنبات ، كما يستفيد منها الباحث فى الدين

أما الموسوعات المطوّلة الشاملة فهى ذخائر من المعلومات لا تند عنها دانية ولا قاصية من موضوعات المسيحية أو الموسوية ، وقد يلتبس على القارىء الأمر بين دوائر المعارف العامة التى تتناول كل شىء وكل مادة ، وبين دوائر المعارف الدينية التى يظن من عنوانها أنها مخصصة ولو بعض التخصيص لناحية من نواحى الثقافة الانسانية

بل عندهم معاجم صغيرة للإسلام ليس لها نظير فى اللغة العربية ولا فى لغة من اللغات التى يتكلم بها المسلمون

من ذلك قاموس الإسلام الذى وضعه توماس باترك هيوز Thomas Patrick Hughes وطبعه قبل نيف وخمسين سنة ثم أعيد طبعه قبل بضع سنوات

فهذا القس قضى فى التبشير بين المسلمين والبرهميين والبوذيين ببلاد الهند أكثر من عشرين سنة ، ودرس خلال ذلك ما استطاع أن يدرسه من التواريخ والمباحث الإسلامية ، ثم جمعها فى هذا القاموس أو هذا المعجم كما قال هداية للموظفين الذين يتولون الحكم بين المسلمين ، ومساعدة للمبشرين الذين يجادلون علماء الإسلام ، وللسائحين الذين يطوفون بلاد المشرق ، وللباحثين الذين ينظرون فى المقارنة بين الأديان ، ولكل من يشغله عمله أو نزعة فكره بشأن من شئون المائة والخمسة والسبعين مليونا « هكذا » من الأناسىّ الذين يتبعون محمداً عليه السلام .

ولكنى أقول معترفاً إننى أرجع إلى هذا القاموس حين يستعصى على الرجوع إلى المطولات الدينية للوقوف العاجل على مسألة من المسائل الإسلامية ، سواء تناولت الفقه أو التاريخ أو تقويم البلدان ، ولا أرى مناصاً من مراجعة هذا القاموس وأمثاله على علمى بما فيها من الزيغ المقصود ومن التعصب الذى لا تخلو منه كتب المبشرين

ويتفق كثيراً أن يخوض بعض الجلساء فى مسألة من مسائل الفقه الإسلامى لا يحضرنا الفقيه الحجة الذى نستفتيه فيها ، أو نستدل منه على مراجعها ، فما هى إلا لحظات حتى أوافيهم بالفتوى المجملة ، أو بالدلالة على مظانها ومواضع استقصائها . ويعجبون فيزداد عجبهم حين أطلعهم على قاموس من هذه القواميس التى ليس أسهل من البحث فيها : كتاب انجليزى يدلنا أسرع دلالة على مراجعنا نحن المسلمين أبناء العربية ... فلم لا نعجب ويعجبون ؟ !

إننا فقراء

وقد نعلل الفقر فى علوم الدنيا بخروجها فى الزمن الحديث من أيدينا ، فهل خرجت من أيدينا كذلك علوم ديننا ؟ وهل البواعث الدينية التى عندنا أقل من أن تحقق لنا مايحققه الغربيون ببواعث الشوق إلى المعرفة أو بواعث الشوق إلى السيادة ؟

الحق أن الشوق إلى معرفة الدين نفسه يحتاج قبل ذلك إلى شوق المعرفة فى أعم معانيها ، وأن العجز عن العلم والسيادة يورث العجز عن الإيمان والعقيدة ، حتى بين المتدينين المتقدين

***

وإنى لأجيل الفكر فى هذا وأشباهه إذا بالمجلد الرابع من « دائرة المعارف الإسلامية » يصل إلى يدى ، وهى الدائرة التى ألفها نخبة من المستشرقين باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية ، وثابر على نقلها إلى اللغة العربية الأدباء الأساتذة : « أحمد الشنتناوى ، حافظ جلال ، عبد الحميد يونس ، إبراهيم خورشيد » من متعلمى الأدب والقانون

قلت : وهذا عمل ضخم كنا نحن أبناء العربية أولى بابتدائه وسبق الأمم كافة إليه

واستضخمت مع ذلك نجاح هؤلاء الأدباء الشبان فى الوصول بالترجمة إلى هذه المرحلة البعيدة ، لأن عملهم فى ترجمتها أصعب بين المشارقة من عمل المستشرقين فى تأليفها وتحضيرها بين البيئات الأوربية

هناك تمهيد ملايين يمين على هذه الأعباء ، وهنا تمهيد أفراد معدودين قلما يعاونهم أحد ، وقد يثنى عزائمهم ملايين ! !

فى بضع سنوات أتم مترجمو الدائرة الإسلامية ترجمة آلاف ثلاثة من الصفحات المزدوجة : كلها مصطلحات وإشارات مختزلة وإحالة إلى مراجع مختلفة ، وفيها من شعاب المعرفة ما ليس مقتصراً على الدين ولا على التاريخ ولا على السياسة ولا على المواقع الأرضية ، بل يشمل هؤلاء جميعاً ويزيد عليها ما ليس يحصى

ولا بد أن يدخل فى حساب هذه السنوات حساب التبويب والتقسيم وإعادة الحروف الإفرنجية إلى الأبجدية العربية

فقبل أن يتناول القلم بالترجمة صفحة من ألوف الصفحات التي اكتظت بها المجلدات الإفرنجية ينبغي أن تترجم المواد واحدة واحدة ثم تدوّن في أجذاذها وتنتظم في ترتيبها الجديد : فلا تأتي الكلمات المبدوءة بحرف العين في المجلد الأول ، بل تؤخر إلى موضعها من ترتيب الأبجدية العربية ، ولا تبقى « أشبيلية » مثلاً في حرف السين كما تكتب بالإفرنجية بل تقدم إلى حرف الهمزة ، ولا تتأخر أسماء اسماعيل وإبراهيم وإدفو إلى الحرف التاسع أو الخامس بل يؤتى بها مع الحرف الأول والأجزاء الأولى . وليس هذا العناء بأقل من عناء الابتداء بتحضير المواد والكلمات . ولعل النقل وإعادة الترتيب عرضة لأخطاء لا يتعرض لها البادئون بتدوين الأسماء كما تكتب في لغات الأوربيين

فالوقت الذي يقضى في هذا التبويب الجديد ليس بالوقت القصير ، واستدراك الخطأ فيه من أصعب الأمور ، ووراء مشكلة الوقت مشكلة الإقبال على هذه الأعمال ، ومشكلة المثابرة وهي أعضل ما نعانيه في كل عمل مديد الأجل متشعب الفروع ، ومشكلة الأزمات الدولية والأزمات الداخلية التي تثقل على كاهل التجارة الرائجـة والسلع الضرورية للمعيشة اليومية ، فكيف بتجارة العلم وسلع القراءة !

قال الأدباء المترجمون في الجزء الأول من أجزاء الترجمة العربية : « ... اختمرت فكرة ترجمة تلك الدائرة في رءوسنا منذ أعوام ثلاثة فعكفنا على دراسة المشروع من جميع نواحيه وألممنا بكل الصعوبات المادية والمعنوية التي كثيراً ما تعترض الأعمال العلمية والأدبية في مصر ، وظلت هذه الصعوبات حائلاً بيننا وبين تحقيق أمنيتنا ، ولعلها كانت عين الصعوبات التي وقفت في سبيل غيرنا ممن حاولوا تحقيق تلك الأمنية ، حتى لاح لنا أننا كنا مخطئين حين حاولنا أن نحل الصعاب كلها دفعة واحدة ، فرأينا أخيراً أن نقسم العمل إلى أقسام ثم نشرع في التطبيق خطوة خطوة ، وشعارنا أن كل شيء متيسر مستطاع »

وعندنا أن هـذا الخاطر هو العلامة الأولى للعزيمة العاملة ، لأن القدرة على تقسيم الصعوبات ضرب من القدرة على تذليلها ، وليس أدل على النصر من قدرة القائد على تفرقة الخصوم وهزيمتهم فرقة بعد فرقة . فلو لم يكن الأدباء مترجمو الدائرة أهلاً لفضيلة المثابرة لـما كانوا منذ البداية أهلاً لتصغير الصعوبات بتفريقها والتغلب على أجزائها ، أو على رهبة الإحجام التي تلازم من يجمع الصعوبات ويستضخمها ويزيد عليها من الوهم ما ليس فيها

لقـد شرع بعض الكبراء كما شرع بعض الدواوين الحكومية في طبع موسوعات دون هذه الموسوعة في حجمها وتعقيدها ، وكان منها ما ليس يحتاج إلى ترجمة قبل طبعه ، ومنها ما يحتاج إلى ترجمة ولا يحتاج إلى إعادة تبويب . ثم وقفوا عند البداية أو بعد خطوة قصيرة من البداية ، فانفراد الأدباء مترجمي الدائرة بالمثابرة على هذا العمل الكبير مزية جديرة بالتسجيل في حياتنا الفكرية ، ولهم حق في التهنئة بما جاهدوا وثابروا على قدر هذه الفضيلة النادرة ، وعلى قدر الحاجة إلى تلك الدائرة ، وهي حاجة توجبها الغيرة القومية كما توجبها الرغبة في العلم والثقافة

لكننا لا نكتفي بالتهنئة ، بل نضيف إليها اقتراحاً في صدد ما أسلفناه من شكوى الافتقار إلى الموسوعات الموجزة في أمثال هذه الموضوعات . فمن اليسير على من ينهضون بعبء الدائرة الكبرى أن يتابعوا اختصارها وهم يترجمونها وينشرونها لتخلص لهم من ذلك في سياق العمل موسوعة صغيرة ينتفع بها عدد من القراء أكبر ممن ينتفعون بالموسوعة الكبيرة ؛ بل ينتفع بها من لا يقدرون على التوسع في العربية ولا في اللغات الأفرنجية ، وهم أحوج إلى النفع وأولى بالعناية ، وليس النقص الذي نتمه بتفهيم هؤلاء دون النقص الذي يتم باستيفاء مراجع الإفاضة والاستقصاء .

عباس محمود العقاد

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

هذا عيب ، ولكنه جميل — الظلم البغيض — عتاب موجه إلى الأستاذ الزيات — الدين الاسلامى فى المدارس الأجنبية — تجربة جديدة للتعاون بين المصريين والأجانب — دفع اعتراض — هل انتهزت وزارة المعارف فرصة الاضطرابات الدولية لتمحق ما بينها وبين المدارس الأجنبية ؟ — المحق والتاريخ .

هذا عيب ، ولكنه جميل

أشار أديب غاب عنى اسمه فى مقال نشره بمجلة « الرسالة » إلى أنى أتقاضى أجراً على ما أنشر من المقالات والبحوث فى الجرائد والمجلات ، وهى إشارة جرت مجرى التعريض ، فكان معناها أن قبول الأجر على المقالات والبحوث عيب ، وهو حقيقةً عيب ، ولكنه عيبٌ جميل ، إن كان الكسب الشريف من العيوب

ويظهر أن جمهور القراء فى مصر لا يعرفون ما صارت إليه الصحافة المصرية ، فهى اليوم أعمال اقتصادية يراد منها الربح كما يراد التثقيف . ورجال الاقتصاد لا ينفقون إلا بحساب ، ولا يخرج الدرهم من أيديهم إلا بعد أن يطول حوله الجدال ، وتلك أكبر مزية من مزايا رجال الأعمال ، فهم الصالحون صلاحية حقيقية لتصريف الأمور بعقل وتدبير وسداد ، والكرم رذيلة شنيعة حين يصدر عن رجال الأعمال ، لأنه يشهد بأنهم حُرِموا مزية الضبط والتدقيق . فإن سمعتم أن كاتباً يتقاضى أجراً على مقالاته فى إحدى الجرائد فاعرفوا أن ذلك لم يقع إلا فى سبيل الحرص على منفعة تلك الجريدة ، فهو ليس إعانة تقدَّم إلى الكاتب وإنما هو ربح حلال يناله الكاتب تعويضاً على ما بذل من إجهاد الفكر فى التحرير والإنشاء . وإن سمعتم أن فى مصر جريدة لا تنشر إلا ما يقدَّم إليها بالمجان فاعرفوا أن تلك الجريدة صائرة إلى البوار ثم الزوال ، لأن القراء لا ينتظرون الكتاب المجهولين ، وإنما ينتظرون الكتاب المعروفين ، والكاتب لا يُعرَف فى وطنه إلا بعد أن يشيب فوْداه فى مساورة الأبكار من الحقائق والمعانى

وما أريد بهذه الكلمة أن أقول إنى جدير بالانتفاع بما أنشر فى الجرائد والمجلات ، فهذا القول قد يُعدّ من الزهو فى موطن لا أريد فيه غير توجيه النصح إلى من يسألوننى من وقت إلى وقت عن إمكان الاستفادة المادية من الصحف المصرية وفى توجيه النصح إلى هؤلاء أقول :

لا تصدقوا أن فى مصر جريدة تدفع قرشاً واحداً لكاتب على سبيل المونة والتشجيع ، ولا تصدقوا أن الصحفيين اليوم يجوز عليهم التلطف ، كما كان يجوز على أسلافهم الكرماء من أمثال على يوسف وعبد العزيز شاويش وأمين الرافعى ، فتلك أيامٌ خلَت ، وأصبحت الصحافة قوة أدبية واقتصادية لا ينتفع بخيرها إلا أقطاب البيان ، ومن أجل هذا صحّ القول بأن الصحافة المصرية تحتل المكان الثالث فى العالم بعد الصحافة الإنجليزية والصحافة الأمريكية ، وستظل كذلك ما دام فيها رجال يعرفون أنه لا عيب فى أن تقوّم الأفكار بالأموال ، إن جاز الوهم بأن الأفكار توزن بموازين الأموال

الظلم البغيض

للظلم أشكال وألوان ، فهناك ظلمٌ حلوٌ عذب هو ظلم من يُستملَح منهم الدلال ، وهناك ظلم تافه هو ظلم من لا يُقدّمون ولا يؤخرون ، وهناك ظلم بغيض هو ظلم من تحسن إليهم فيسيئون إليك . فالذين يعيبون علينا أن نتقاضى أجراً على ما ننشر فى الجرائد والمجلات فيهم أناس يظنون فينا القدرة على كل شىء ، فهم يدعوننا فى كل وقت إلى تزكيتهم عند أصحاب الجرائد والمجلات ، ليجولوا ويصولوا ، كما يجول ويصول من من وُهبوا القدرة على التصرف بالخواطر والقلوب

ولو علم هؤلاء أن حرفة الأدب الغاشم قد تحكم على صاحبها بأن يموت قبل الأوان بعشرين عاماً أو ثلاثين لزهدوا فى الظفر المكسوب بثقة القراء ، وهل يثق القراء بكاتب إلا بعد أن يطمئنوا إلى أنه يسوّد القرطاس بالدم لا بالمداد ؟ ثقة القارئ عروس غالية يقدّم إليها الكاتب خاتماً قد اتخذ حديده من الهم الذى سفحه على سنان القلم فى الليالى الطوال

آه ، ثم آه ! !

من يصدّق أن الكاتب الموثوق بكفايته البيانية لا يَنقُل

عواطفه إلى قرائه إلا بعد أن تنفعل خواطره انفعالاً يحوّلها إلى نسيم تنتعش به أرواح الوجود ؟

من يصدّق أن الكاتب الذى يؤثّر فى عصره وزمانه لا يجود بكلمة من كلامه إلا وهو يجود بأكواب حرار من دم الكبد والقلب

ومع هذا يقال إنه أجير لأصحاب الجرائد والمجلات ! !

ولو قدّرت مصر الكاتب حق قدره لعرفتْ أنه عنوانها الصحيح فى الشرق والغرب ؛ فبفضل الكاتب قيل إن مصر زعيمة الأمم العربية ، وبفضل الكاتب قيل إن صحافة مصر تزاحم الصحافة الإنجليزية والصحافة الأمريكية . وهل من القليل أن نكون فى الصحافة أعظم من أمم كثيرة تفوقنا فى الأنفس والأموال ؟

عتاب موجه الى الزيات

إذا صح هذا — وهو صحيح — فكيف يجوز للأستاذ الزيات أن ينشر فى مجلته تعريضاً بأجر يتقاضاه كاتبٌ صاحبَ « الرسالة » بصدق وإخلاص أكثر من أربع سنين ؟

ومن الزيات الصديق ؟

هو الرجل الذى يؤذينى بين قرائى وأصدقائى ، فما ينشر لهم كلمة أقدمها إليه إلا بعد اختبار دقيق

أريد أن أعرف كيف يجوز للزيات أن يسمح بنشر كلمة فيها تعريض بمن ينتفعون بجهاد الأقلام ، وهم أعظم من الذين ينتفعون بجهاد السيوف ؟

وكيف يكون من العيب أن ننتفع بجهودنا الأدبية وهى جهود نخدم بها المجتمع كما يخدمه المشتغلون بالمحاماة والتدريس ؟

وإذا جاز أن يُنشَر فى الرسالة تعريض بمن ينتفعون بثمرات أقلامهم ، ففى أى مكان ينتظر أرباب الأقلام كلمة الحق فى الثناء على ما يقدّمون من تضحيات ، وهم أقل المجاهدين حظاً من الثواب على الجهاد ؟

ومتى نجد رَوْح الوفاء إذا عزّ وجوده عند من قضوا أعمارهم فى الأنس بمعانى الأدب الرفيع ؟

وما هو الأجر الذى يقدَّم إلى الكتّاب فى مصر حتى تصوّب إليهم سهام التجريح ؟

ما زلنا نشكو الغبن الذى يلاحق الصحافة الأدبية فى هذه البلاد ، فليس أمام الكاتب الأدبى فرصة واحدة من الفرص التى يتمتع بها الكاتب السياسى ، لأن مصر التى برعت فى خلق العصبيات السياسية ، لم تفكر فى خلق العصبيات الأدبية ، والكاتب السياسى قد يستطيع التمتع بأجازة يتذوق فيها طعم الراحة شهراً أو شهرين مع حفظ حقه فى المرتب ؛ أما الكاتب الأدبى ، فهو مقهور على معاقرة الكدح الموصول ، إلا أن يغنيه الله عن ذلك الأجر الممنون

من المزعج أن تُنسى حقوق الكاتب الأدبى ، وهو يعاون معاونة جدية على ترقية الصحافة الأدبية ، وهى صحافة لم تكن ولن تكون إلا لوناً من ترَف العقول ، وهى الشاهد على أن الأمة لها فى عالم الفكر مطامح وآمال ، ولكن أين المنصفون ؟

ونحن قد زهدنا فى خدمة الصحافة السياسية ، وهى الصحافة التى يخطب ودها أقطاب السياسة ورجال الأعمال ، والتى تمكّن أصحابَها من نواصى المناصب العالية ، فهل كنا من الموفَّقين فى إيثار ذلك الزهد ؟ هيهات ... فما كان زهدنا فى الصحافة السياسية إلا ضرباً من الخذلان !

قد نعزّى أنفسنا فنقول : إن الجهاد فى الميدان الأدبى أبقى على الزمان ، وتلك والله علالة المهزومين ؛ وإلا فكيف يُحسد الكاتب الأدبى على الانتفاع بجهوده الأدبية ، وهى لن تصل به إلى منازل المجد إلا يوم يتولى أمور الناس رجلٌ فى حصافة ابن العميد ، أو عقل سعد زغلول ؟

وما هى تلك المنافع التى نميَّز بها فى مجلتك ، يا صديقى الزيات ؟

وما الذى استفدت أنت من خدمة الأدب ، وبيدك مجلة أدبية تضرّ بها وتنفع ؟

كل ما غنمتَه هو السلامة من مزالق الشبهات ، وذلك مغنمٌ عظيمٌ جدًّا ، ولكنه قليل الوزن فى العصور الممسوخة ، عصور الزهد فى معالى الأمور . ولو اعتدل الميزان — كما رجونا ألف مرة — لكان للصحافة الأدبية مكان مرموق فى هذه البلاد ، ولكنه لن يعتدل إلا بعد أحيان طوال ، ويومئذ ينسى الناس أن مصر عاش فيها أقوام حفروا أساس الصحافة الأدبية بأسنة الأقلام ، وهم محرومون من عطف الصديق المواسى ، والناصر الرفيق

ومهما تكن العواقب ، فذلك حظى وحظك ، وحظ إخوان كرام رضوا بالشقاء فى خدمة الصحافة الأدبية ليرضوا شهوة العقل ،

وللعقول شهواتٌ أقوى وأعنف من شهوات العيون والقلوب

وهل أقبلنا على الصحافة الأدبية طائعين ؟

لا ، والله ، فما أقبلنا على هذا المورد إلا مسوقين بسوَّاقٍ حُطَم ، هو القلم المفتون باقتراع المعانى

وجملة القول أن ما يعاب عليَّ يعاب عليك ، فمتى تكثُر هذه العيوب ؟ ومتى يكثُر القادرون على الانتفاع بثمرات الأقلام ؟

العيب الحق هو أن تشهد الوقائع بأن الذين ينتفعون من الصحافة الأدبية لا يزيدون عن آحاد ، لأن أدباء مصر لم يستطيعوا إلى اليوم أن يصيّروا الأدب غاية وجودية ، يحيا بها الناس كما يحيون بالطعام والشراب

فهل يستطيع من عابوا عليَّ الانتفاعَ بقلمى أن ينتفعوا بأقلامهم ؟

وهل فيهم من جُعِل رزقه فى سنان قلمه ، كما جُعل رزق فى سنان قلمى ؟

ليت الله يُكثر من المنتفعين بأقلامهم ، لنؤمن ونصدّق بأن القلم صارت له دولة فى هذه البلاد !

ليت ، ثم ليت ! !

الدين الاسلامى فى المدارس الأجنبية

قرأت فى الجرائد خلاصة ما انتهى إليه البحث بين وزارة المعارف ونظار المدارس الأجنبية فيما يتصل بتعليم الدين الاسلامى للتلاميذ المسلمين بتلك المدارس ، وقد فهمت مما قرأت أن البحث وصل إلى غايتين :

الأولى أنه لا يجوز أن يعلَّم تلميذ ديناً غير دينه ولو رضى أهله بذلك

الثانية أنه يجب تعليم الدين الاسلامى للتلاميذ المسلمين بالمدارس الأجنبية

وقد حدثنى بعض من شهدوا تلك المحادثات أن نظار المدارس الأجنبية لم يعترضوا على النص الذى يوجب ألا يتعلم التلميذ ديناً غير دينه ، لأنهم لا يريدون فتح باب الفُرقة والخلاف بين أبناء هذه البلاد ، ولأنهم يعرفون أنهم مؤتمنون على ضمائر من يدخل مدارسهم من أبناء المسلمين

أما النص الذى يوجب أن يتعلم التلاميذ المسلمون مبادئ الدين الإسلامى فقد وافق عليه نظار المدارس الأجنبية بعد جدال بسيط ، وكانت حجة المجادلين أن بعض المدارس قد تتعدد فيها الديانات والمذاهب ، فمن الإرهاق لجدول الدروس أن تخصَّص فيه ساعات لتدريس ديانات التلاميذ على ما بينها من تباعد واختلاف ، وهنا وجدت وزارة المعارف الحل فرضيت بأن تكون دروس الدين الإسلامى فى أيام الآحاد

ذلك ما حدثنى به الصديق الذى شهد تلك المباحثات فما الذى أملك فى التعقيب على هذا الموضوع الدقيق ؟

أواجه الموضوع بصراحة تنفعنا وتنفع ضيوفنا الأجانب فأقول : تنقسم المدارس الأجنبية إلى قسمين : مدارس مدنية ومدارس دينية

أما المدارس المدنية فهى على أتم استعداد لتدريس الدين الإسلامى فى دورها ، لأن نظامها يقوم على احترام جميع الديانات وإن كانت غير مُلزَمة بتدريس الديانات ، وما دام الرأى العامّ فى مصر يرى أن الدين الإسلامى مادة أساسية فى تثقيف التلاميذ المسلمين فهى لا تمانع فى أن يكون فى دورها مكان لتعليم أولئك التلاميذ مبادئ ذلك الدين

بقيت المدارس الدينية ، وهى مدارس لا يُطلَب منها غير الحياد ، فكيف نفرض عليها أن تعلم الدين الإسلامى فى دورها ؟ إنما يجب أن نسهل عليها هذه المهمة فنتولى تعليم مَن بها من التلاميذ المسلمين فى دور المدارس المصرية وفى أيام الآحاد

ذلك ما رأته وزارة المعارف ، وهو رأى أرادت به مجاملة المدارس الدينية ، حتى لا يقال إن وزارة المعارف تجرح إحساس الأجانب من رجال الدين

كل هذا جميل ، وجميل جداً ، وجداً جميل ، كما يعبر الدكتور طه حسين

ولكنه إن وقع فسيشهد بأننا جميعاً نعيش فى عصور الظلمات ؛ فنظار المدارس الأجنبية لا ينكرون أن الإسلام دين يتقرب به إلى الله مئات الملايين . فكيف تضيق به مدرسة يديرها أوربيون أو أمريكيون ، وقد نشأوا فى بلاد لا ترى من العيب أن تدرس الأوهام والأضاليل حتى تشعر بالحرج فى السماح بتدريس الدين الإسلامى « وهو إن لم يكن وحياً من السماء كما يزعم من خاصموه فهو بلا جدال أقوى صورة من صور الضمير الإنسانى ، وأعظم شاهد على سيطرة الفكر والعقل والوجدان »

لو جاز لى أن أتهم وزارة المعارف لقلت إنها تريد اختبار بعض رجال الدين من الأجانب ، فهى تريد أن تجرب مبلغ استعدادهم لتقبُّل التعاون السليم من شوائب الأغراض ، فما الذى سيصنع أولئك الرجال فى الرد على وزارة المعارف ؟

أنا أرجّح أنهم سيفكرون فى منافع تلاميذهم من المسلمين فينظمون لهم دروس الدين الإسلامى بطريقة تعفيهم من التردد على المدارس المصرية وفى أيام الآحاد

فما هى تلك الطريقة ؟

فى المدارس الأجنبية نظام مدرسى يسمى نظام الـ Cours وهو النظام الذى يسمح بأن يقسم التلاميذ إلى فرق مختلفة فى وقت واحد . فمن السهل أن يُتَّبع هذا النظام فى تدريس الديانات فى المدارس التى تختلف فيها الديانات ، وعندئذ يذهب الخطر المتوقع من إرهاق جدول الدروس

دفع اعتراض

قد يقال إن فى تدريس الدين الإسلامى بالمدارس الأجنبية فتحاً لأبواب الشقاق بين التلاميذ المختلفين فى الدين

وأجيب بأن إغفال الدين الإسلامى هو الذى يخلق ذلك الشقاق ، لأنه يفرض على التلاميذ المسلمين أن يتصوروا أنهم مضطهدون ، ويوحى إليهم فكرة الوهم بأنهم يتعلمون فى مدارس تضمر لدينهم معانى العداء المكشوف أو الملفوف

فما مصلحة تلك المدارس فى إغفال الدين الإسلامى ؟

وما الموجب لأن يتعبونا بتجديد خصومات نحب أن تموت ؟

الواقع أن بعض نظار المدارس الأجنبية لم يجدوا من يدلهم على اتجاهات الأفكار والعقول فى هذه البلاد . ولو وجدوا من يرشدهم لأعفونا وأعفوا أنفسهم من الدخول فى محرجات تؤذينا وتؤذيهم أعنف الإيذاء

للمدارس الأجنبية ماض جميل فى نشر اللغات الحية بالديار المصرية ، وذلك الماضى الجميل يحتاج إلى حارس أمين من الحاضر الجميل ...

فمن يبلغ بعض نظار المدارس الأجنبية أن الصديق الحق هو الذى يرشدهم بصدق وإخلاص إلى جلية الأمر فى مواطن قد اشتبكت فيها الأوهام والظنون ؟

إن صدقت النيات فى تحقيق ما تم عليه الاتفاق بين وزارة المعارف ونظار المدارس الأجنبية فسيكون لتلك المدارس مستقبل أروع وأجمل من ماضيها الرائع الجميل

ثم دفع اعتراض

قيل وقيل إن وزارة المعارف قد انتهزت فرصة الاضطرابات الدولية لتصفّى ما بينها وبين المدارس الأجنبية ، وذلك القيل كذبٌ وافتراء ، فوزارة المعارف تفكر فى هذه الشؤون منذ أعوام طوال ، وهى بالفعل قد قررت التفتيش على جميع المدارس الأجنبية منذ سنة ١٩٣٨ يوم كان الحديث عن وقوع حرب عالمية رجماً بالغيب ، فمن التجنى على وزارة المعارف أن يقال إنها تنتهز فرصة الاضطرابات الدولية لتحقق أغراضاً سليمة لا يطعن فى سلامتها إلا أهل الأغراض والأهواء

أما بعد فقد علمت أن قانون التعليم الحرّ سيعدّل بعد تلك الباحثات تعديلاً يضمن السلامة من أخطار الخلاف بين المصريين والأجانب ، ويؤكد الثقة والصفاء بين أولئك وهؤلاء

للحق والتاريخ

حدثنى صديق شهد تلك الباحثات أن أعضاء اللجان الفرعية من الأجانب عز عليهم أن تنتهى فى أسابيع ، فقد راعهم أن يعرفوا أن فى وزارة المعارف رجالاً موسومين بالرفق واللطف فى معالجة الدقائق من المعضلات ، وكانوا يتوهمون أنهم لن يلقوا إلا رجالاً يغنيهم الاعتصام بالحق عن مراعاة الرفق واللطف

وكذلك حدثنى ذلك الصديق أنه لم يكن ينتظر أن تتم تلك الباحثات فى أسابيع ، فقد كانت الاراجيف شاعت أن تصور بعض رجال التعليم من الأجانب بصورة من يعادون العروبة والإسلام فى هذه البلاد . ثم شاء الله أن تشهد الظروف بأنهم أبرياء من مُرَوِّجات تلك الأراجيف

ذلك ما حدثنى به الصديق الذى شهد تلك الباحثات ، وهو لم يخبرنى بجديد ، فقد اتصلت بنظار المدارس الأجنبية عدداً من السنين فلم أجد منهم غير الأدب واللطف والذوق ، ولم أشهد عليهم غير الاهتمام بمراعاة العواطف المصرية ، كتب الله لنا ولهم التوفيق فى خدمة العلوم والآداب والفنون .

زكى مبارك

٤ - فى العقـــد

لأستاذ جليـــل

٢٥ - (ص ١٤٥) كان بعض أهل الفرس (يعنى الفرس بالحرب) يقول لأصحابه : شاوروا فى حربكم الشجعان من أولى العزم ، والجبناء من أولى الحزم ، فإن الجبان لا يألو برأيه ما يقى مهجكم ، والشجاع لا يعدو ما يشد لنصرتكم ، ثم خلصوا من بين الرأيين نتيجة تحمل عنكم معدة الجبان وتهور الشجعان ، فتكون أنفذ من السهم الزالج والحسام الوالج

وجاء فى تعليقة (ما يشد نصرتكم) : كذا فى ا . والذى فى بقية الأصول : « بصائركم » وهو تحريف

قلت : النصرة تصحيف البصيرة أو تحريف البصائر ، والشد يناسب البصيرة أو البصائر ، فالبصيرة الحجة والاستبصار فى الشىء ، والبصيرة ما اعتقد فى القلب من الدين وتحقيق الأمر . وليس أصل القول - كما أرى - (يشد نصرتكم أو يشد بصائركم) وإنما هو (يُشيد ذكركم أو يشيد بذكركم) كما جاء فى هـذه الوصية فى زهر الآداب وثمر الألباب[1]) وفى (غرر الخصائص الواضحة[2]) و (الغرر) يروى عن (الزهر) أصل الجلة كما ذكرنا ثم نسى ناسخ نقط الياء فصارت (يشد ذكركم) فاستركت واستبدلت بالذكر البصيرة أو البصائر أو النصرة حتى يجىء معنى مقبول

وقد يكون أصل (السهم الزالج والحسام الوالج) ما سطر فى الزهر والغرر : (السهم الصائب والحسام القاضب) والسهم الصائب أقعد فى هذا المقام من السهم الزالج

فى التاج : زلج السهم يزلج زلوجاً وزليجاً وقع على وجه الأرض ولم يقصد الرمية . وفى المخصص ، وفى المثل : (لا خير فى سهم زلج) وإذا وقع السهم بالأرض ولم يقصد الرمية قلت : أزلجت السهم

وقد يصوب (السهم الزالج) فى قول القائل بعض التصويب

(١) الجزء ٣ ص ٢٥٥ الطبعة (الزكية المباركية) سنة ١٩٢٥

(٢) ص ٢١٨

ما ورد فى اللسان : قال أبو الهيثم : الزالج من السهام إذا رماه الرامى فقصر عن الهدف ، وأصاب صخرة إصابة صلبة ، فاستقل من إصابة الصخرة إياه ، فقوى وارتفع إلى القرطاس[1] فهو لا يعد مقرطساً

٢٦ - (ص ١٤٥) ... وانفسدت نياتهم

قلت : من يجد هذا الفعل فى مثل هذا الكتاب دون تنبيه عليه يثق بصحته وما هو بالصحيح

فى الصحاح : لا يقال انفسد . ومثل ذلك فى اللسان . وفى القاموس : لم يسمع عنهم انفسد . قال شارحه : فى مطاوع فسد وإلا فالقياس لا يأباه

قلت : لم يحرك الفعل (فسد) فى التاج ، فإن قصد الثلاثى غير المضاعف فهى هفوة عالم

فى ضياء اليازجى : رجل مفسود السيرة وقد انفسد ، وكلاهما خطأ ، لأن فسد لازم فلا يصاغ للمجهول ولا يبنى منه مطاوع

٢٧ - (ص ١٦٩) ... فدخلت فى غِمار الناس ...

قلت : فى غُمار الناس أو غَمار الناس بالضم أو الفتح كما قُيد ذلك بصريح الكلام لا بتوشيح القِلام[2] - كما يقول المجد - فى تهذيب الألفاظ ، والصحاح ، واللسان ، والمصباح ، وحرك بالضم والفتح فى الجمهرة والمخصص وغيرها

والأصمعى يقول : دخل فى خمار الناس . وغمار الناس خطأ ليس من كلام العرب . وقد نسب صاحب المخصص[3] هذه التخطئة إلى ابن السكيت ، وهذا وهم من ابن سيدة . وإنما ابن السكيت ناقل وقد قال بعد كلام الأصمعى : الكسائى : دخلت فى غُمار الناس وغَمار الناس وخُمار الناس وخَمار الناس[4] .

وأثبت الجوهرى فى الصحاح هذا القول إثبات الموافق عليه

والغِمار - بالكسر - جمع الغمر وجمع الغمرة ليس بحجة لمن كسر الغمار فى (دخلت فى غمار الناس أو خمارهم) فى كلام القدماء . . .

٢٨ - (ص ٣٥)

(١) الهدف

(٢) جمع قلم : أى وضع الحركة على الحرف

(٣) الجزء ٣ ص ١٢٧

(٤) ص ٣٦

جانيك من يجنى عليك وقد
تعدى الصحاحَ مبارك الجرب[1]

ولرب مأخوذ بذنب عشيرة ... ونجا المقارف صاحب الذنب

قلت : عشيره . وقد روى الشريشى فى الشرح الكبير هذين البيتين و (قرينه) فيهما مكان (عشيره)

٢٩ — (ص ٧١) ... قال (الوليد بن عبد الملك للزهرى) : يحدثوننا أن الله إذا استرعى عبداً رعيته كتب له الحسنات ولم يكتب له السيآت ، قال : باطل يا أمير المؤمنين ... قال : إن الناس ليُموونا عن ديننا

وجاء فى الشرح : فى الأصول : « ليغروننا » بالراء ، وهو تحريف

قلت : أغواه : أضله ، أو دعاه إلى شىء غوى به أى ضل ؛ وغره يغره : خدعه وأطمعه بالباطل ؛ والقوم قصدوا خدع الخليفة وإطماعه بالباطل ؛ والغر أو الغرور مثل الإغواء ، وربما فضل الأول الثانى فى هذا المقام

٣٠ — (ص ٢٣٤) ... وإذا جرد الوالى لمن غمط أمره وسفه حقه اللين بحتاً والخير محضاً لم يخالطهما بشدة تعطف القلوب على لينه ، ولا بشر يَحيشهم إلى خيره ، فقد ملّكهم الخلع لعذرهم

وجاء فى الشرح : كذا فى ا ؛ ويحيشهم أى يجعلهم يفزعون يقال : حاشه يحيشه إذا أفزعه ؛ والذى فى سائر الأصول : « يحبسهم »

قلت : الحيش : الفزع ، والفزع هنا الخوف والذعر ، لا الفزعَ إلى الشىء ، أى اللجوء إليه ؛ وفى حديث عمر أنه قال لأخيه زيد حين ندب لقتال أهل الردة فتثاقل : ما هذا الحيش والقل[2] ؟ ! أى ما هذا الفزع والرعدة ؟ فاللفظة فى « العقد » هى يحوشهم أو يحيشهم أى يسوقهم ؛ فى حديث عمر أن رجلين أصابا صيداً قتله أحدهما وأحاشه الآخر عليه ؛ يقال : حشت عليه الصيد وأحشته إذا نفّرته نحوه ، وسقته إليه ، وجمعته عليه كما فى النهاية ؛ وفى الصحاح : حشت الإبل : جمعتها وسقتها ، وحشت الصيد أحوشه إذا جئته من حواليه لتصرفه إلى الحبالة

٣١ — (ص ١٧٨) قال كعب بن زهير :

بخلاً علينا وجبناً من عدوكم ... لبئست الخلتان البخل والجبن

قلت : ... وجبنا عن عدوكم . وقد نسبه أبو تمام إلى قعنب[1] بن ضمرة . وفى المبهج : قعنب بن أم صاحب وهى أمه ، وهو أحد بنى عبد الله بن غطفان ، وكان فى أيام الوليد ابن عبد الملك ، والبيت ثالث ثلاثة فى (الحماسة) شقيقاه[2] هما :

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحاً ... منى وما سمعوا من صالح دفنوا

صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به ... وإن ذكرت بشر عندهم أذنوا

وقد تمثل أبو جعفر المنصور بذلك البيت فى مقامين فى خطبتين ذكرهما الطبرى فى تاريخه فى (الخبر عن بعض سيرة المنصور) والبيت فيهما كما روى ديوان الحماسة

احتلت هذه الضئيلة البئيلة[3] (من) ذلك المكان فى البيت — غير متحلحلة عنه — الدهر الأطول فى طبعات (العقد) وقد لحنها فى ثلاث منها ، ثم لم تنتب (لم تستح[4]) الملعونة من ظهورها فى طبعة اللجنة المبجلة . واليقين أنها من ميراث الناسخين ، لكن لكل كتاب أجل ولكل كاتب ولكل كتابة ولكل شىء ، فلن تكون (من) فى البيت فى العقد — إن شاء الله — بعد اليوم ...

٣٢ — (ص ٣٣٤) ورؤى حاتم يوماً يضرب ولده لما رآه يضرب كلبة كانت تدل عليه أضيافه وهو يقول :

أقول لابنى وقد سطّت يديه ... بكلبة لا يزال يجلدها

أوصيك خيراً بها فإن لها ... عندى يداً لا أزال أحمدها

تدل ضيفى على فى غلس الـ ... ـليل إذا النار نام موقدها

---

(١) جانيك من يجنى عليك : من أمثالهم . قال الميدانى : أراد صاحب جنايتك من يجنى عليك فلا تأخذ بالعقوبة غيره ، وذكر له معنى آخر . وفى حديث : لا يجنى جان إلا على نفسه . وفى (الكتاب) ولا تزر وازرة وزر أخرى . هذا قضاء الاسلامية .

(٢) القل بالكسر شبه الرعدة يقال: أخذه قل من الغضب (الصحاح)

(١) فى المبهج : القعنب الشديد الصلب من كل شىء

(٢) وله هذان الاخوان فى أدب الكتاب والاقتضاب وهما :

ولن يراجع قلبي ودهم أبدا
زكنت منهم على مثل الذى زكنوا

كل يداجى على البغضاء صاحبه
ولن أعالنهم إلا كما علنوا

على (فى البيت الأول) مفتحة كما فى الصحاح

(٣) ضئيل بئيل : دقيق صغير أو بئيل اتباع

(٤) استحى واستحيا وقرىء بهما

الغنـــاء والموسيقى

وحالهما في مصر والغرب

للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك

— ٢ —

نسمع اليوم ضجّة فى مصر بين أنصار القديم وأنصار الحديث ؛ فما هو ذلك الذى توهّموه القديم وثبتوا عليه ؟ وما هو ذلك الذى أحدثوه واعتزُّوا به !

لمجلس الموسيقى والغناء الجدى عندهم نظام لا يُمس ولا يتغيّر : مقدمة موسيقية ، تقطّعها تقاسيم بكل معزف لا بد منها فى نظرهم وإن تشابهت وتكررت منذ دهور ؛ ثم ليال ناداها المغنون حتى سوأها فرط التكرار ، فموال عامى ، فدور أو طقطوقة ، أو قصيدة مسيخة فى ترتيب ما يختارون من أبياتها ، معذبة على ألسنتهم اللحانة ، وما أشنع لحانة المغنى منتحل الفن والفن الجميل برىء من تشويه الجمال وإن تعمّد تصوير الدمامة أحياناً ! وجملة ذلك « وصلة » تجمع بين العامى والفصيح حين تضم الموال إلى القصيدة وتجمع بين المتنافرات والأضداد . أما التواشيح العربية القديمة التى أقحموا فيها «أمان» و « يالا للى » لموازنة ألحانها الحاضرة ، فهى فى حكم المهمل ، إذ قلما يغنون بعضها أو جزءاً منها ، وقلما يغنيها أجود الأصوات . وأما الغناء فى السينما وفى التمثيل ، أو فيما يسمونه أوبرا ، فهو أغان مفردة ، مبعثرة يصدق فى أكثرها ما يقال فى غيرها

والأغانى ، على الإجمال ، موضوعها ثابت ثبات الرواسى ، يصور رزيئة عاشق ذليل يومه ناحس ، ومهانة داله عليل ناكس ، وأنين خائر ، وحنين طريد شريد حائر ، سائل حزين يَبكِى ، مستغيث ولا مغيث ؛ فهو موضوع يصف نحيتة مخلوق مجرد من كل حمية ، شاذ عن صحية الرجل السليم ، كأن العشق مرض مهلك لا تكون فيه هنيهة هناء ، أو لحظة بشاشة ، أو فينة صفاء ؛ وكأن العشق الكئيب لا يُغنَّى سواه ، وكأن الإنسان لا يطرب إلا من العويل والنحيب مذ عمى هذا الفن الأنكد عما يفعم فؤاده من شتى العواطف والأحاسيس البشرية ، وهو موضوع مستهجن مملول زاد سماجته الإمعان فى تكراره

وعبارة هذه الأغانى عامية على الأغلب ، ونحن نزعم أننا نحارب الأمية والعامية ؛ فكأن المصريين قاطبة عوام ، وكأن الفصحى

قلت : أقول لابنى وقد سطَت يده[(١)] ...

٣٣ — (ص ١٧٠) وقال بعض العراقيين فيه (أى فى أكول جبان) :

ضعيف القلب رعديدٌ   عظيم الخلق والمنظرْ !
رأى فى النوم عصفوراً   فوارى نفسه أشهر !

قلت : رعديدْ ، إذ لا تصريع[(٢)] فى البيت ، ولا احتياج إلى كف[(٣)] ، واللفظة مصروفة وهذا ظاهر

٣٤ — (ص ١٢٣) كان على بن أبى طالب رضى الله عنه يخرج كل يوم بصفين حتى يقف بين الصفين ويقول :

أى يومىّ من الموت أفرّ   يوم لا يُقدر أو يوم قدرْ
يوم لا يقدر لا أرهبــــه   ومن المقدور لا ينجى الحذر

(١) سطا عليه وبه . السطو البطش برفع اليد (يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا) قال ثعلب : يبسطون إليهم أيديهم (التاج)

(٢) صرع البيت من الشعر جعل عروضه كضربه ، وأكثر مايقع التصريع فى أول الشعر وربما صرع الشاعر فى غير الابتداء

(٣) الكف يدخل مفاعيلن من الهزج حشوا وعروضاً

قلت : أفرّْ بالسكون بلا شدة حتى لا يختل الوزن

ذكرتنى (صفين) فى خبر (العقد) بيتين كانا يقالان فى لياليها وهما هذان :

الليل داج والكباش تنتطح   نطاح أسد ما أراها تصطلح !
فمن يقاتل فى وغاها ما نجـا   ومن نجا برأسه فقد ربح[(١)] !

وإن الدنيا لتتمثل فى هـذا الوقت بهذا القول . والمأمول — وقد استجيبت الدعوة فى الرسالة (٢٥٩) ص (٩٣٢) فعادت جذعة — أن يكون نفع للناس منها جسيما عظيما مثلها

فيحى فياح[(٢)] ... !

* * *

(١) (مانجا) حذفت الفاء من الجزاء ضرورة عند الأكثرين والقسطلانى فى شرح البخارى يقول : حذف الفاء من الجزاء سائغ شائع ومن خص هذا الحذف بضرورة الشعر فقد حاد عن التحقيق ، وضيق حيث لا تضييق

(٢) من أمثالهم . قال الميدانى : هـذا مثل قطام مبنى على الكسر أى اتسعى وأنث الفعل على أن الخطاب للغارة . وفى الأساس : ومن قول مغاويرهم : فيحى فياح أى اتسعى بإغارة وانتشري . قال :

شددنا شدة لا عيب فيهـا   وقلنا بالضحى : فيحى فيـاح

ليست فى شىء مما يصلح للغناء ولم تغن بها مدنيات قبلنا ، وكأن الأمم الحية لا تغنى الآن فى لغاتها إلا بعبارات الأوباش من أبنائها . والأغنية محدودة فى قليل من الجمل ، ولولا تكرار المغنى لكلماتها — وأى تكرار — لما استغرق غناءه دقائق معدودات

تبدأ الموسيقى بمقدمة هى جزىء من بشرف ، أو بشرف فى الأندر ، أو تقليد أين هو من البشارف ؟ وهى حين تعزف واحداً منها تقطعه بما تقحم فيه من تقاسيم بالمازف تنبو لهجتها الطائفة شجواً عن لهجة البشرف الناطقة عن أحاسيس الرجولية ، ولو اتفقتا فى النغمة ، فتكدر صفاء لحنه وتعرقل تسلسله وتسربه فى الآذان ، وتضعف قوة أخذه فى الأنفس الواعية وشده أسره فلا تجد منه كل الطرب وهو عند تتابع روائعه واتصالها مطرب جد مطرب

وهذه المقدمة الموسيقية تباين ما يليها من غناء وإن كان لحنها ولحنه من نغمة واحدة ، كنغمة الصبا أو البياتى ، إذ أننا لم نفطن بعد للدلالة الصوتية ولم ندرك معنى الإنشاء الموسيقى ، أو لم نسمع عنه شيئاً

ثم إن الموسيقى تصاحب الغناء أو تتخلله ، أى تعزف وتسكت ، وتارة تخافت بلحنها مع بعض جمل الأغنية أو بعض كلماتها ، وطوراً يأتلف لحنها مع الغناء والأغنية ، ويختلف أطواراً بمباينة دلالاته الصوتية المتضاربة لدلالاتهما : إذ يذهب اللحن الموسيقى بمدلولاته من البكاء إلى المرح مثلاً ، أو من الضعضعة إلى الثورة أو الرقص بينا يقيم المغنى بغنائه مناحة حامية ، يشنف بها آذان المستمعين

ذلك بأن ملحن الموسيقى ليس يعرف أن اللحن إنشاء يتوخى فيه صاحبه أن يجعله معبراً للمستمع عن ذات ما يصل إلى سمعه مع الموسيقى من معانى الأغنية والغناء بها ؛ ولا يدرك أنه لا ينجح فى صنيعه إلا بإحكام الدلالات ، وإتقان المطابقة بينها ، وتحسين الأسلوب بمحسنات صوتية توائم سياق اللحن الأساسى . وإنما هم الملحن أن يتلقط عبارات صوتية يظنها مؤتلفة لمجرد نظمه إياها فى نغمة الأغنية ، وقد تكون الواحدة من هذه العبارات مطربة فى ذاتها ، لو سمعت على حدة ، وإن باينت أخواتها فى لحنه وهو لا يدرى ؛ لأنه لا يقصد سوى التجميد فى اللحن والتوشيع بما يأخذ أو يسرق من هنا وهناك ، ولا يلاحظ إلا ضبط الأقيسة وإحكام الوقف أو « المحط » لتمكين المغنى من استئناف الغناء ولإظهار أنه لم يخرج عن النغمة

الأقيسة والمحطات ! ذلك وحده ما يعنى به الملحنون والعازفون وما فيه يتبارون ! ولذلك يبرزون القياس أى « الوحدة » بالدف أو الطبلة فى عزفهم الألحان ؛ وليس هذا موضع فخر لمنتحل الفن ، إذ هو شىء أولى ، دون مستوى الفن الرفيع ؛ بل إن فى إظهار القياس والوحدة إظهاراً لتكرار يمل النفس اطراده وملازمته للحن والغناء ، إلا أن يقع فى مواطنه من الموسيقى المحركة[1] كالتى تصاحب الرقص . والفن الحق يتفادى هذا العيب بإخفاء مساند البناء الموسيقى من قياس وغيره ، كما يخفى المهندس دعائم البناء الجميل ، وبعض نواتئه وزواياه ، بحيله الفنية وبالطلاء والزخرفة

وما أكثر الجاهلين من ملحنى الأغانى أن اللحن إنشاء صوتى يوجب عليهم المطابقة التامة بين مدلولاته والمدلولات الكلامية . وليس ينفى هذه الحقيقة ائتلاف الحزن الذليل الفائض من الأغانى والحزن الأذل المتدفق من ألحانها : لأنه ائتلاف لم يأت عن دقة فى حساسية المؤلف ويقظة فى مشاعره وملكاته ولا عن فطنة فنية ، بل هو الشاهد باستقرار عادة التذلل والبكاء واستحالتهما شنشنة بالأدمان . يثبت ذلك أن مدلولات لحن الأغنية الحزينة تأتلف مع مدلولات كلامها ، لكن كثيراً ما تختلف معها فى مصاحبتها لألفاظ العاشق المتضعضع الباكى ، بمعان صوتية مرقصة مرة ، أو ساخرة ومتفنجة أخرى ، أو متهيمة ؛ ولو كانت نفس الملحن حساسة لما جاءت بأمثال هذا الاختلاف فى لحنه . ولو كان مدركا معنى الإنشاء الصوتى والغناء ، لأصلح أخطاء لحنه بالتهذيب بعد تأليفه ؛ أو لو كان فناناً حقاً لما تعمد مثل هذا السخف لإرضاء أحد

أما المغنى ، فقد أصبح مثله الأعلى هو التفوق فى حكاية الذل والحزن ، الحزن والذل وحدهما ! كل الحزن والذل ! وفى وصف بنات الصدر ، حتى تشبع قلبه من الكآبة تشبعاً ينفضها على صوته ، شاء أو لم يشأ ، وحتى قد يكون جيد الصوت ، لكن

---

(١) Musique locomotrice

غناءه على رغم هذه الجودة بكاء حقيقي وعويل ، لا صوت متفن . والفرق عظيم بين الحقيقة والفن الذي يمثلها ، فإن صار تمثيله حقيقة ، فلا يكون فنًّا

وأكثر المغنين إنما صنعتهم مسخٌ لألحان مسيخة ، مسخ زيدها بشاعة بعيوب ليست من الفن ولا الغناء في شيء كما يتوهمون . وهؤلاء عيوب غنائهم عديدة وبيان بعضها فيما يلي :

فمنها أن المغني قد يغني للجماهير بصوت أدركته أعراض الشيخوخة ، ويغني ولو كان من ذوي الخنخنة أو كان مزكوماً ، ولا يفكر في سلامة صوته ، ولا يعنى بنقاء حنجرته وصحة صدره ، وهو يزعم أنه مطرب .

ومنها أن يُقدم على رفع صوته إلى أعلى الطبقات وهو غير قادر ، فيظهر ما يعاني من مشقة . وليس هذا الجهد الجاهد بغناء الصوت الكرواني المتخاذل الذي يحاق بسهولة عظيمة ، ورقاعته أنه غناء لا عناء .

ومنها أنه يقطع الأغنية كلمة كلمة ، ويكرر الواحدة عشرين مرة زاعماً أن كل مرة تأتي بلون من الإيقاع غير ألوان الأخريات ؛ وهذه وتيرة مملة وإن صدق في زعمه ، لأن معنى الكلمة لا يتغير جوهره في هذا التلوين الصوتي الذي يؤكده ؛ وهو زعم لا يصدق في كل المرات ، وإن صدق أحياناً في بعضها . على أن التكرار مرة أو مرتين ، بشرط ظهور مزيته ، معقول مقبول مواضعه ؛ وحسب المستمعين والمغني ، بعد ذلك ، أن يعرض ألوان صوته في سياق اللحن ويترك ما يسئم .

ومنها أنه يطيل الوقف بعد الكلمة بلا داع ولا معنى ، وقد يطول الوقف بين كلمتين ، أو كلمة وجملة ، أو جملتين ، لما يُقحم بينهما من عبارات موسيقية معانيها لا تلائم معاني الغناء : كأنْ تدل تلك على غضب ففرح ، فثورة فدعابة ، بينا تدل هذه على شجن صاعق كالعادة ، فتنفصم سلسلة الغناء وتختلط الدلالات الصوتية المتضاربة ، ويذهب التقطيع والاختلاط بلذة اللحن والصوت المغنَّى إن كانت فيهما لذة

ومنها أنه قد يقف على نصف كلمة ، أو ثلث أو حرف منها ، ولو كان همزة ؛ وقد يستأنف من هذه الهمزة ويجأر بها مراراً فيحدث بذلك نوابئ ومنكسرات صوتية ، مع أن المنحنيات آنق وألطف وأحَب إلى الأذن وتلك النوابئُ مؤلمة

ومنها أنه قد يترك السكوت بإطلاق صوته بغتة كالدفع لقصور ذوقه عن حفظ التناسب ، وقد ينتبه لهذه الفُجاءة ويحاول تخفيفها متعجلاً في النفَس من صوته فيزيد وضوحاً .

ومنها أنه يمد كل حرف من كلمة مداً يطول حتى لا يستطيع المستمع أن يجمع حروفها ، فيضيع معناها ؛ وأنه قد يمسخ اللفظة بتأنق على ذوقه السقيم ، كأنْ ينطق بكلمة الحرية مثلاً : لو حوورييّه ، فلا يفهم أحد هذه الأناقة الشنيعة

ومنها أنه يتأوه ويتوجع كأنه بين يدي سفاح يعذبه أو جراح يجرحه قبل اكتشاف وسائل التخدير الطبّي ، وتارة يتميّع ويتغنّج إثارة للشبق بين بكائه في غنائه بكاء الثكلى

كل أولئك عيوب تشوه حتى أحسن الأصوات وهي غريبة عن الصوت الغنائي ، وكثيراً ما يجتمع منها وحدها ما يُمِضُّ المستمع البصير ، ويوهم أن مجلس الغناء مأتم مجانين ، ويكفي لإخراج هذا الغناء عن الفن

تلك العيوب البيّنة في غنائنا وموسيقانا قد يلاحظها العامة وأشباه العامة ، لكن لا على أنها عيوب بل على أنها محاسن من صميم الفن ، ومن شواهد النبوغ والعبقرية ؛ ويتبعهم في الإعجاب بها كل إمّعة ، خصوصاً في الحفلات حيث تسود روح الجمهرة ، ثم يتأثر من إعجابها السواد الأكبر الذي لا يجرؤ على مخالفة رأيه الأكثرون من الأفراد ، وهذا هو السرّ في كل صيت كاذب مفسد للأذواق .

محمد توحيد السلحدار



من الأدب الرمزي

الزمن الساحر...!

للأستاذ سيد قطب

أيها الزمن !

ما أعجبك ! ما أقدرك !

إننى أراك اللحظة – أو يخيَّل إلىّ أننى أراك ، أو تخيَّل إلىّ أنه يخيل إلىّ أننى أراك ! – هنالك قابعاً مُنزوياً وراء منسجك الأبدى ، تطل بعينيك العميقتين النافذتين من خلف المنسج القائم منذ الأزل ، تنسل خيوط الكون وتنسجها ، فى دأب لا يمل ولا يفتر ، ونظام لا يتقدم ولا يتأخر

إنك هنـاك فى كل ذرة سابحة فى الفضاء ، أو غائصة فى الأعماق ؛ وفى كل خطرة نابضة فى الفكر أو كامنة فى الضمير ؛ وفى كل ومضة مشعة فى الأفق أو مستكنة فى الذريرات ...

وأنت هناك فى البرعم النامى ، والجرح المندمل ؛ وفى الأمنية السانحة والذكرى المتوارية ؛ وفى الأمس والغد ؛ وفى الليـل والنهار ؛ وفى الغدو والأسحار ؛ وفى الأرض والسماء ؛ وفى كل مكان ... ولـكن أحداً – أيهـا الساحر القادر – لا يحس أنك هناك !

إنك لتلأم الجرح فى اللحظة التى تثغره ؛ وأنت هناك فى أعماقه تنسج الأنسجة وتنشىء الذرات ، وترتفع بغوره شيئاً فشيئاً ، وإذا الطعنة الغائرة قشرة عالقة ، ربما خيل إلى الرائى أن وراءها ثغرة ؛ وإذا القشرة نفسها تسقط بعد لحظات ، وكأن لم يكن جرح ولا ثغرة ولا قشرة !

وكذلك تصنع بالجروح الغائرة فى حنايا القلب وشعاب الضمير ...!

وإنك لـكامن هناك وراء البرعم المستكن فى البذرة السـاكنة تدفعه فى رفق ، وتمده فى هدوء ؛ ثم تنبثق به إلى الضياء نبتة ناحلة كابتسامة الوليد ؛ ثم إذا هو فنن صغير ، ففرع كبير ، فدوحة باسقة ، ذات أوراق وأزهار وثمار ... ثم ما ذا – أيها الساحر القادر – ثم إذا هى خشبة خشنة اللحاء يابسة اللباب ؛ ثم إذا هى وقود النار ؛ ثم إذا هى شعاع ذاهب ، وهباب راسب. وأنت هناك من خلفها دائب فى الإبلاء والإنشاء !...

وكذلك تصنع بالأمل البازغ ، والحب الوليد ...!

إنك لا تضيع لحظة واحدة ! ويحى ! وما اللحظات لديك ؟ ليخيل إلىّ أنك تسخر منا ونحن نقسم الوقت لحظات ! وكيف نعرف حدودها فنقول : من هنا تنتهى اللحظة الغابرة وتبدأ اللحظة الحاضرة ! والوقت خيط طويل يلفه لولب الزمن فيمر بنا أو نمر به بلا توقف ولا فواصل ولا حدود ؟... ما اللحظات والثوانى والدقائق والساعات ؟ ما أولها وما آخرها ؟... ما من أول لها ولا آخر إلا فى أوهامنا نحن أبناء الفناء !

إنك هناك وراء منسجك الأبدى تبلى وتجدد فى آن ، بعيداً عن الحس والوعى ، بعيداً عن التأمل والملاحظة ، بعيداً عن الشك والريبة . وربما خيل لبعض السذج أن يرقبوك فى عملك الدائب ، فإذا أنت تبدو لهم ساكناً صامتاً كلما أمعنوا فى الوعى والرقابة ، بينما أنت تعمل عملك ، تنسل وتنسج فى كل شىء ، حتى فى وعيهم ورقابتهم وهم لا يشعرون !

أيها الساحر القادر ... إنك لتحتفظ دائماً بسر اللحظة الحاضرة ، فلا تدع عيناً ترقبها ، ولا حساً يدركها ، ولا فكراً يؤولها ، ولا نفساً تلهمها ... إنها لك وحدك . تنسل خيوطها وتنسج سواها ، ويدك التى تنسل الخيط القديم هى التى تنسج الخيط الجديد ، موصولاً هذا بذاك ، فلا مبدأ ولا نهاية ولا فاصل بين الخيطين تدركه العين أو الضمير ... فإذا خرجت من منسجك أبحتها لحظة عابرة للأبصار والأفكار ، ريثما تنسل وتنسج نفس هذه الأبصار والأفـكار

وقد يحاول بعض السذج أن يقفوا دورتك ، استبقاء للحظة يحبونها أو تفادياً من لحظة يرهبونها ؛ وقد يتشبثون بالأوهام ، ويثبتون أقدامهم بالوقت والمكان ؛ وإذا أنت فى غفلة عنهم تمر بهم ، وتنقل أقدامهم وأوهامهم ؛ وأنت تنسل وتنسج خيوط الأقدام والأوهام !

وكم مرة خيل إليهم أن هناك مفاجأة وطفرة . وما كان من ذلك شيء ، إنما كنت أنت هناك ، وراء المنسج ، في صومعتك الأزلية ، تبلى وتجدد ، وتفنى وتخلق ، وتنسل وتنسج ؛ وهم عنك في غفلة . ثم استيقظوا أو خيل إليهم أنهم استيقظوا ! فهالهم ما أبليت وما جددت ؛ وصاحوا مشدوهين كالأطفال ، وقذفوا في وجهك بعلامات التعجب والاستفهام بينما أنت دائب على منسجك تبلى وتجدد ، حتى في ذلك التعجب وهذا الاستفهام !

* * *

أيها الزمن !

ما أرحمك ! ما أقساك !

إنك لتلأم الجرح وتفتح البرعم ؛ ولكنك تبلى الكيان وتذوى الحياة . وإنك لتمسح على الألم وتزوى الوجه الرعيب ، ولكنك تطوى اللذة وتحجب الوجه الحبيب

إنك لتمنحنا الجديد وتهبنا الطريف ؛ ولكنك تسلبنا القديم وتحرمنا التليد ؛ لا بل أنت تسرق منا هيا كلنا ونفوسنا ، وتخطف ذراتنا وخواطرنا ، وأيًا كان ما تعوضنا فإن تعويضك محدود بالعمر صائر إلى نفاد ، وفقداننا إلى غير رجعة ولا يستعاد

من ذا الذي يستطيع أن يقول في لحظة ما : أنا ... أنا ... أنا الذي كنت منذ لحظة ... إن كل شيء قد تغير منذ اللحظة الفائتة ، فليس هو من كان هناك ... إنك في هذه اللحظة الخاطفة نسلت منه خيوطاً ، ونسجت فيه خيوطاً !

أين الشموس الغاربة وراء الآباد ؟ أين الليالى السارية في مجاهل الأبد ؟ أين النجوم مندمجة من السديم ؟ أين مولد الأرض بجانب منابع الزمن ؟ أين أول فجر وأين أول حى على هذه الكرة السابحة في الفضاء ؟ أين إنسان الغاب في الكهوف والآجام ؟ أين الزلازل والأعاصير ؟ أين النسائم والنفحات ؟ أين الوسوسة والخرير ؟ أين الرفرفة والصدحات ؟ أين البسمات التي رفت على الشفاه ؟ أين العبسات التي غضنت الجباه ؟ أين الهواجس والأفكار ؟ أين الرغائب والأوطار ؟ أين الحب والبغض ؟ أين الهيام والسلوان ؟ ؟ ...

أين ... أين ... ؟ بل أين كلمة « أين » هذه التي لفظتها منذ لحظة ؟ بل أين المقطع الأخير من « أين » الأخيرة ؟ ...

لقد نسلت خيوطها ونسجت سواها ... وهأنت ذا دائب على المنسج الأبدى الجبار !

هأنذا أعيد تلاوة هذه السطور التي خطتها يدى ؛ ولكنها ليست هي كما خطتها ، ولست أنا كما كنت لحظة تسطيرها ... إنك نسلت ونسجت في خيوط يدى ونفسى ، وفي حركاتى وخواطرى ؛ وفي خيوط الصحيفة التي حوتها ، وفي خيوط المداد الذى أثبتها ... وهأنت ذا لا تزال تنسل وتنسج في هؤلاء جميعاً ولن يكون شيء منها كما كان مرة أخرى !

* * *

أيها الزمن !

ما أعجبك ! ما أقدرك ! ما أرحمك ! ما أقساك ! ...

« حلوان » سيد قطب

على هامش الحرب

الديمقراطية البريطانية
وأثرها في الحرب الحاضرة

تسربت الديمقراطية — كنظام سياسي — إلى العالم ، من الولايات المتحدة الأمريكية ، وقد تضمن هذا النظام الاعتراف بما نسميه الآن « حقوق الإنسان » وهي حقه في أن يعيش حراً ويتكلم حراً ، ويعمل حراً ، دون أن يتعرض للتعذيب أو السجن . وكان « أبراهام لنكولن » أول من أعطى الولايات المتحدة حكومة تقوم على المبادئ الأساسية لهذا النظام وقد أثر عنه أنه عرف الديمقراطية بقوله : « هي حكم الشعب ، للشعب ، بواسطة الشعب » أو بعبارة أخرى : « هي حكومة ممثلين للشعب من الشعب ينتخبهم الشعب انتخاباً حراً »

أما في انجلترا فقد كانت أولى الحركات الديمقراطية الكبيرة تلك التي قام بها « الشارتستس »[1] وقد استمدت فلسفتها من أمريكا ، ولكنها منيت بالفشل لأسباب عديدة ، وما لبثت أن أعقبتها — بعد فترة من الزمن — حركة أخرى رمت إلى تحقيق « التمثيل العام » ، وكان أول وأهم الداعين إليها « برايت » صديق « جوبدن » ومن بعده جاء « جلادستون » الذي تسنى له أن يدرس — خلال برلمان ١٨٤١ — ٤٦ — كثيراً من مبادئ « جوبدن »

استمدت هذه الحركة وحيها من أقوال الفلاسفة الراديكاليين الذين يرجع إليهم — أكثر من غيرهم — تحديد « النظرية الديمقراطية » وتوضيحها . إلا أن نظام الحكومة في انجلترا كان قد تضمن ـ من قبل ـ بعض المبادئ الديمقراطية . ومن أشهر الوثائق التي أسارت تلك المبادئ قانوناً : الوثيقة الشهيرة المعروفة باسم « ماجنا كارتا » ، وثيقة الحرية الكبرى لدى الإنكليز : إستخلص البارونات هذه الوثيقة من الملك « جون » ، وختمت في « رنيميد » في اليوم الخامس عشر من شهر يونيو سنة ١٢١٥ ؛ ومن المبادئ التي تضمنتها :

١ — لا يبقى أحد في السجن دون محاكمة

٢ — العدالة يجب ألا تباع ، أو تؤخر ، أو يرفض تحقيقها

٣ — لا يدفع أحد غرامة ، ولا يسجن ، ولا ينفى إلا بعد محاكمة عادلة ، وبموافقة محكمة اللوردات

٤ — أكتسبت الحرية لمدينة « لندن » وعدة مدن أخرى

ثم تأيدت هذه الوثيقة بضع مرات ، بواسطة الحكومات التي تولت حكم انجلترا . وفي سنة ١٢١٥ كان السبب الأكبر الذي دعا إلى عقدها ، هو الحيلولة بين الملك وبين أن يصبح دكتاتوراً ، ويغتصب الحقوق والامتيازات التي كان يتمتع بها البارونات ، أي أنها كانت في الأكثر لفائدة « الأرستقراطية » ولكن الحقوق التي تضمنتها هذه الوثيقة ما لبثت أن أخذت على التدريج تشمل أفراد الشعب ، ثم ما لبثت حكومة البلاد بعد ذلك أن أصبحت في متناول يد كل فرد . وفي النظام الحاضر ما يؤيد ذلك . فمجلس اللوردات يمثل « الأرستقراطية » ومجلس العموم يمثل « الشعب » ؛ والمجلس الأخير هو الأشد قوة ، والأشمل سلطاناً ، ومن حقه على الدوام أن يتأكد من أن مصالح « الشعب » لم تطغ عليها مصالح « الأرستقراطية »

والفرق المهم بين الديمقراطية في انجلترا ، وبينها في غيرها من البلاد ، هو أن الديمقراطية في انجلترا تقوم ـ أكثر ما تقوم ـ على التاريخ والتقاليد . وحسبنا أن نعلم أن المجالس النيابية التي هي أهم مظاهر الديمقراطية الحديثة قامت في انجلترا منذ القرن الثالث عشر !

وثمة فارق آخر بين « الديمقراطية الإنجليزية » وبين زميلتها الأمريكية ، هو أن العاطفة الديمقراطية كانت حتى أوائل القرن الحاضر ، زراعية في أمريكا ، بينما كانت وما تزال في انجلترا ، مدنية صناعية ؛ ولا يخفى أن الحال تغيرت في أمريكا في هـذا الزمن ، فقد أصبحت العاطفة المدنية الصناعية لا تقل ، وربما كانت أزيد ، من العاطفة الزراعية

ومن الفوارق الأخرى أن الحركة الديمقراطية كانت في أمريكا وفي القارة الأوربية قرينة للحركة الوطنية وللحركات

(١) الشارتستس جماعة من المصلحين كانوا ينادون دائماً بضرورة العمل على سيادة ما جاء في مطالبهم

العسكرية ، بينما كانت الحال عكس ذلك فى انجلترا . أنظر إلى الثورة الفرنسية وإلى حرب الاستقلال الأمريكية ، تجد أنهما قرنتا الديمقراطية بالقوة العسكرية للدولة ، بينما كانت القوة العسكرية فى بريطانيا قرينة (نقص فى الحرية) ورد الفعل الناجم عن ذلك النقص . واستخدمت انجلترا قواتها العسكرية فى تنظيم الأمم الخاضعة لها أكثر مما استخدمتها فى الدفاع عن نفسها ، ومن أجل هذا السبب كانت الديمقراطية الإنجليزية أقل حكومات العالم ميلاً إلى الحرب

وقد أصبح « عدم الميل إلى الحرب » هذا فيما بعد خاصية من أهم خواص الأمة البريطانية . ومع أن المعروف هو أن الشعب الذى كان لا يحب شيئاً ما ، فإنه عادة لا يتقنه ، فإن هذه القاعدة تشذ ، عند ما يكون ذلك الشعب هو الشعب البريطانى ، ويكون ذلك الشيء هو الحرب . عرف ذلك نابليون سنة ١٨١٥ وقد بدأ (هتلر) يعرفه الآن

عند ما يكون « ذلك الشيء » هو «الحرب» ، تبدأ انجلترا بطيئة ؛ ولكن متى بدأت ، كان من الصعب إيقاف تلك الآلة الحربية البريطانية الهائلة ، بل قل إنها لا تقف حتى ينتهى عملها النهاية الناجحة المرجوة منه . والبدء البطيء والتقدم المتئد يرجعان إلى (الديمقراطية البريطانية)

فى بعض الممالك يستطيع الديكتاتور أن يشن حرباً متى أراد ذلك ، ولكن — فى انجلترا — لا يستطيع أحد أن يقرر شيئاً ذا أهمية قومية — بل الحرب — دون موافقة الشعب وتأييده الاختيارى له . والإنكليز يكرهون الحرب لأنهم يعلمون أنها مضيعة ومناقضة للصالح العام . وهم يعلمون ذلك لأن حكومتهم تبيح لهم أن يطالعوا الحقائق فى جرائدهم ، وتشجعهم على أن يفكروا ، ويتحدثوا ، ويعملوا ، بحرية ، ومن أجل أنفسهم وهى هذه المعرفة التى تجعلهم يبطئون فى إبداء موافقتهم وتأييدهم لحرب يعلمون عنها أنها تقتضيهم التضحية وتحمل الآلام . وهى الحرية التى يتمتعون بها عند ما يفكرون لأنفسهم ، التى تقنعهم بوجاهة السبب الذى من أجله يحاربون ، وهذا كله هو الذى يصح من أجله للقول بأنهم متى وافقوا على أن يحاربوا من أجل الحرية ، فإنهم يوالون الحرب بشجاعة وقوة ، حتى يفوزوا

إنها الديمقراطية التى علمت الإنكليز أن يكرهوا الحرب . وهى هى نفسها التى تعلمهم كيف يقاتلون ، وذلك لأنهم يعلمون السبب الذى من أجله يحاربون . أما فى الدول الدكتاتورية ، فالناس لا يدرون : لم يقاتلون ؟ وهم هناك يغذون بالأكاذيب والتاريخ الزائف ، فلا يجدون مناصاً من الاعتقاد به . وليس ثمة فى وقت السلم ما يؤدى إلى ثلم هذه العقائد ؛ أما فى أوقات الحروب فإنهم يرون أن زعماءهم غذوهم بالأكاذيب والوعود الزائفة ؛ وهذا يؤدى بهم إلى فقدان الثقة بالحكومة التى أخطأت قيادتهم ، وينتهى بهم الأمر بأن يصيروا عاجزين عن معرفة ما يجب أن يعتقدوه ، وهذا يؤثر فى روحهم المعنوية كمحاربين ، لأنهم متى فقدوا الثقة والعقيدة فقدوا معها الشجاعة والقدرة على تحمل الآلام .

ألا إن من واجب بريطانيا أن تشكر (الديمقراطية) شكراً جزيلاً ، فهى التى أكسبتها حروبها السابقة ، وهى التى سوف تكسبها حربها الحاضرة ، التى هى أكبر من كل حرب مضت

م . ع

على هامش حادث أليم

للأستاذ عبد الله حسين

روّعت البلاد بالحادث الأليم الذى ذهب ضحيته القائمقام محمد شكيب بك ؛ إذ أن الناس لا يزالون حين يعرضون لتفصيلات الحادث ، تتجاذبهم النواحى المختلفة ، وتجيش فى صدورهم المعانى والعبر التى انطوت عليه . ولا شك أن كل قارئ قد نظر إلى الحادث النظرة التى تتفق وما شهده من أمثاله وما انتهى إليه من الدراسات والعلوم ، وقابل بينه وبين ما وصل إلى مسامعه من أشباهه

ولا مراء فى أن من الصور التى يعرض لها الخاطر معانى الانتقام والريبة والوسوسة وضعف السيطرة على الأعصاب ، والصلات القائمة بين الرجل والمرأة ، وبين القريب وقريبه ، وبين الصديق وصديقه ، وبين الرجل وعدوه ، والوسائل التى تعالج بهـا المشكلات الاجتماعية ، حتى يسع المجتمع القضاء على ما يخالف القانون والآداب ، وذلك بإزالة البواعث التى تؤدى إلى ارتكاب الجرائم واقتراف الآثام

ومن واجب المصلحين أن يتناولوا بالتفكير والدراسة علل المجتمع ، وخاصة إذا ما نزلت كارثة ، أو راع الناس خطب عظيم

ولما كان المقام لا يتسع للافاضة فى كل ما انطوى عليه ذلك الحادث الذى ذهب ضحيته ضابط كبير وشاب فى مطلع الشباب ، بل ذهبت ضحيته فتاة كانت لها آمال فى حياة زوجية ، وفزع من أجله صديق برىء لا ناقة له فى الحادث ولا جمل ، اللهم إلا رفقة تبرع بها كرهاً ؛ فإننا نحاول فى هذه الكلمة أن نعالج معنى من هذه المعانى التى قدمنا الإشارة إليها . ذلك أننى عرفت منذ بضع سنوات أحد الموظفين الذين لم يوفقوا فى حياتهم الزوجية لأسباب تتعلق بما كان يملأ رأسه من بواعث الوسوسة والإسراف فى سوء الظن ، وإن بعض الظن إثم

كان صاحبي هذا يستريب من كل شىء ، ويشك فى كل حركة ، لأنه مصاب بآفة سوء الظن فى خلق الله جميعاً وفى مقدمتهم المرأة . فكان يعود فجأة إلى داره لكى يقف على ما تفعله زوجه : أظلت قابعة فى الدار ، أم خرجت على غير انتظار ؟ وهل بقيت فى ثيابها المنزلية ، أم ارتدت ثوباً نظيفاً ؟ فإذا رآها فعلت ذلك ، أطلق لسانه فيها متسائلاً عن سر النظافة ودواعيها ، ذاكراً أن هذا لا بد قد دعا إليه رغبة فى نفسها لكى تلفت أنظار الرجال إليها

فإذا أجابته أنها داخل الدار حيث لن ترى من الرجال غيره ، مضى إلى النافذة المحكمة الإغلاق ونظر إلى الشارع ، حتى إذا لمح الشرطى يقف هنيهة أمام الدار ويلتفت صمدا قال الزوج لزوجته: ها هو الشرطى يقف أمام دارنا ويحدق نظره فى النافذة! إنه عشيقك ، ولا شك ، وهو ينتظرك ويريد منك أن تتحدثى إليه ... ها هو يبتسم . إنه يبتسم لك . يا فاجرة ...

فإذا حدث أن كانت تصحب هذه الزوجة زوجها إلى زيارة أقاربها ، أطلق فيها لسانه ، كلما مر رجل ينظر إليهما نظرة عارضة ، مشيراً إلى أن الناظر رجل يعرفها وتعرفه ، وأنه يومىء إليها الحاجة فى نفس الشيطان !

وهكذا كان أسلوب حياة الزوجين يجرى يومياً على هذا المثال ، حتي وقع ما ليس منه بد ، وهو الطلاق والفراق إلى حيث لا تلاق ، حتى آثرت الزوجة المطلقة أن تفر من مطلقها إلى واق الواق ...!

تلك صورة من صور بعض الأزواج ، وتلك حال زوجاتهم معهم ، ومن العسير أن يقف الناس على الحقيقة ، فإن الناس مطبوعون على إساءة الظن بالمرأة ظالمة كانت أو مظلومة

ومن أجل ذلك وجب على الذين يتتبعون عورات المجتمع ، ألا تفوتهم دراسة النواحى المختلفة ، وألا يتعجلوا بتصديق كل ما يروى ، فإن الحياة مليئة بالغرائب والمدهشات والشذوذ . ومن الإساءة إلى الحق وإلى الإصلاح المنشود ، أن يستقر الرأى على عقيدة لم تهد إليها دراسة صادقة ، ولم ينته إليها تفكير صحيح وإنما بعث عليها وهم قديم أو ظلم مقيم .

عبد الله حسين

مرثية محمد محمود باشا

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

دَفنَتْ وَرَاءكَ فَجْرَهَا الأيَّامُ … سِيَّانِ بَعْدَكَ صَحْوَةٌ وظَلامُ !

نَفضَ الرَّدَى مَغْنَى الحياةِ بخاطِرِي … حزناً ، وَمَاتَتْ في دَمِي الأنغامُ

لا اللَّيلُ مَسْحُورُ السُّكونِ ، وَلا الضُّحَى … كجبينِ مَجْدِكَ آلقٌ بَسَّامُ

أنا ذلِكَ الطَّيْرُ الذي خَلَّفْتَهُ … وَلظَى الهجيرِ لِنَوْحِهِ إلهامُ

تَرِدُ الأسى شَبَّابَتِي فكأنَّها … حطَبٌ يُجاذِبُ صَفحَتَيهِ ضِرامُ

وَكَأَنَّ عُمْرِي زَهْرَةٌ بَرِّيَّةٌ … لا الظِّلُّ يُنعِشُها وَلا الأنسامُ

وَكَأنَّ رُوحِي في الدُّجى صَبَّارَةٌ … بَيْنَ القُبُورِ حَدِيثُها إعجامُ

سُقِيَتْ بِدَمْعِ الثاكلينَ فأطرقَتْ … ثَكلَى تفزَّعُ صَمْتَها الأحلامُ

ماذا دَمِي وَتَرَى وكانَ مُجَلْجِلاً … بِعُلاكَ تَنقُلُ شَدْوَهُ الأجرامُ؟

شُلَّتْ عليهِ أنامِلِي وَتَمَلْمَلَتْ … كَبِدِي وَغشَّتْ حَيْرَتِي الآلامُ

فَوَجَمْتُ كالمأخوذِ أيُّ بَقِيَّةٍ … لِلوَعْيِ تَنشُدُها بِهِ الأوهامُ !

أرْثيكَ ، يا لَخَطِيئَةِ الدُّنيا وهَلْ … يَرْثِي المَعانِيَ الشُّمَّ فيكَ كلامُ

ضجَّ الأثيرُ وَقَدْ رَمَى النَّاعِي بِهِ … خبَرًا لَدَيْهِ انْشقَّتِ الأفهامُ

وَالنِّيلُ كادَ جَوًى تَميدُ ضِفافُهُ … وَتَصَوَّحُ الرَّبَوَاتُ وَالآجامُ

وَالشَّرْقُ جَلَّلَهُ السَّوادُ ، فقُدْسُهُ … دامِي الحشا ، وَعِراقُهُ ، والشامُ

وَالأرْزُ مُرْتَعِشُ الضَّفائِرِ ذاهِلٌ … بَثَّتْهُ نارَ جِراحِها الأهرامُ !

أمُحمَّدٌ كَذَبَ النُّعاةُ فلَمْ يَمُتْ … مَنْ رِيعَ يَوْمَ فِراقِهِ الإسلامُ

وَمَنِ التَفَتَتْ مِصْرٌ وَرَاءَ رِكابِهِ … شِيَعًا يُؤَلِّفُها أسًى وَوِئامُ

وَمَنِ اصْطَفاهُ الخُلْدُ حَتَّى لَمْ يَكُنْ … إلا لَهُ صَرْحُ النُّجومِ مَقامُ

وَمَنِ انتَضَى الأخلاقَ سَيْفاً شَرْعُهُ … أنَّ الغُمُودَ عَلَى السُّيُوفِ حَرامُ

وَمَنِ استعارَ النُّورَ حُجَّتَهُ فلا … زَيْفٌ وَلا رَهَبٌ وَلا إبْهامُ

وَمَنِ استَجارَ القَيْدُ حِينَ أذاقَهُ … لَهَبًا يُؤَزُّ جَحِيمَهُ الإقدامُ

وَمَنِ النَّزاهَةُ كالضُّحَى لا رَأْيُهُ … يَزْوَرُّ عَنْ فِيهَا ولا الأحكامُ

وَمَنِ الحَدِيدُ يُفَلُّ دُونَ عِنادِهِ … إنْ رامَ كَيْدَ بِلادِهِ ظُلَّامُ

فَلَكٌ يَهابُ الدَّهْرُ بأْسَ مَدارِهِ … دارَتْ عَلَيْهِ بِصَفْقِها الأسقامُ

وَطَواهُ مَنْ حَصَدَ السِّنينَ بِمِنجَلٍ … ضافِي الجلالِ يُقالُ عَنْهُ : حِمامُ !

قَدَرٌ رَمَى قَدَرًا عَلَى راحاتِهِ … يَبْيَضُّ مِنْ لَيلِ الخُطوبِ قَتامُ

وَأتاهُ وَالأيامُ حَوْلَ سَرِيرِهِ … أيْدٍ يُرَقْرِقُ طُهْرَها الإحرامُ

تَدْعو السَّماءَ لَعَلَّ كفٌّ طَبِيبِهِ … رَغْمَ القَضاءِ يَعُودُها الإلهامُ !

وَاللَّيلُ تَجْأَرُ بالدُّعاءِ نُجُومُهُ … وَيَئِنُّ تَحْتَ قِبابِهِ الإظلامُ

وَالعائِدُونَ الجازِعونَ حَدِيثُهُمْ … كَدُمُوعِهِمْ باكي الصَّدَى هَمْهامُ

وَالقَصْرُ مَخْنُوقُ السَّكِينَةِ شارِدٌ … سَجَّاهُ في لَهَبِ الذُّهُولِ مَنامُ

هَتَكَ الرَّدَى أستارَهُ ، فإذا بِهِ … قَلْبٌ يُمَزِّقُ صَفْحَتَيْهِ حُسامُ

وَإذا « مُحَمَّدُ » أمَّةٌ مَحْمُولَةٌ … فَوْقَ الرِّقابِ تَلُفُّها الأعلامُ

وَقَصِيدَةٌ دَهْرِيَّةٌ يَبْلَى البِلَى … وَنَشِيدُها تَجْثُو لَهُ الأيَّامُ

مَنْ كانَتِ الدُّنيا تَهابُ جِوارَهُ … أمْسَى يُجاوِرُهُ حَصًى وَرِجامُ

يا زَيْفَ هاتِيكَ الحَياةِ ! وَيالَها … دُنيا حَقائِقُ سِرِّها أوهامُ !

لَمَحَتْهُ مِحْرابُ الإمامِ فأوشَكَتْ … تَخْضَرُّ في يَدِها بِلًى وَرِمامُ

وَتَنَفَّسَتْ نَفَسَ الرَّبيعِ كأنَّما … فَضَّتْ فَواغِمَ عِطْرِها الأكمامُ

وَكأنَّها ظَمْآى إلى نَبْعِ الهُدَى … وَالطُّهْرِ يُقْلِقُها صَدًى وَأُوامُ

لَمَحَتْهُ فارْتَجَزَتْ مَسابِحُ رَمْلِها … لَحْنَ الجَلالِ وَكَبَّرَ النُّوَّامُ !

وَتَوَا كَبَ الشُّهَداءِ أيُّ مُوَدَّعٍ … هذا الذي خَفُّوا إلَيْهِ وَقامُوا؟

وَقَفُوا مَعَ التَّارِيخِ صَوْبَ رِكابِهِ … يَحْدُوهُمُ التَّقْدِيسُ وَالإعظامُ

والشَّمْسُ شَلَّاءُ الشُّعاعِ بَكَى لها … لَمَّا بَكَتْكَ إلى المَغِيبِ غَمامُ

غَرْبِيَّةٌ وَدَّتْ لَوِ انْشَقَّ الدُّجَى … وَأضاءَ لَيْلَكَ طَرْفُها السَّجَّامُ

لِمَ لا وَمَجْدُكَ سارَ في أبْراجِها … وَعُلاكَ مِنْها يُرْتَجَى وَيُرامُ !

يا مُرْسِلَ النَّظَرِ البَعيدِ بِخاطِرٍ … في غَيْبِهِ تَتَعَثَّرُ الأحلامُ

مجـــد بغداد

للأستاذ محمود رمزى نظيم

فى سنة ١٩٣٦ زار مصر وفد عراقى كان بين رجاله شاعر العراق الكبير الأستاذ معروف الرصافى وألقى قصيدة حيا بها مصر ، ودعا الأستاذ محمود بسيونى رئيس مجلس الشيوخ يومئذ ورئيس الرابطة العربية الوفد العراقى إلى داره بحدائق القبة ، ونظم صاحب الامضاء هذه القصيدة يحيى بها العراقيين وشاعرهم ، ولم تسمح الظروف بالقائها ولا بنشرها . وقد رأى تسجيلها اليوم فى الرسالة لتخلد بخلود هذه الصحائف

أهلا بسادة بغداد وشاعرها ... من شاد بالشعر ركناً فى مفاخرها

تهز أعطافها تيهاً قصائده ... لما يصور فيها من خواطرها

فى نهضة بعثت بغداد ثانية ... دار السلام لباديها وحاضرها

وآمنت برسول المجد أمتها ... والمجد مازال يجرى فى مشاعرها

الهاشمى دعاها يوم صالحها ... بدعوة هى نور فى بصائرها

هيهات تذهب بغداد وما صنعت ... والله خلد غراً من مآثرها

تلك الرصافة قد عادت مباهجها ... والحسن فى الجسر مجد فى مرائرها

ونهر دجلة فياض كعادته ... فى المجد يربط ماضيها بحاضرها

فكم ليالٍ تغنت فى شواطئه ... أصغى الزمان إلى تطريب زامرها

وكم حديث كأزهار الربيع بها ... يفيض فى الحى من إلهام سامرها

وكم مجالس علم حوله عقدت ... تجلو القرائح فيها عن جواهرها

واهاً لأيام إخوان الصفاء بها ... وللرسائل تترى فى محابرها

قد خلد المجدَ والتاريخ شاعرها ... والعلم والنور من تخليد ناثرها

بالدين والعلم قد سادت أوائلها ... وهكذا الحال يجرى فى أواخرها

واليوم عادت لبغداد مظاهرها ... بالجيش أو طائرات فى حظائرها

قامت لتحمى من الدنيا كرامتها ... كرامةُ الناس أمست فى عساكرها

يا من نزلتم ضفاف النيل تشبهها ... حول الفرات ضفاف من نظائرها

أرض تآخت بفرس فى منابتها ... كما تآخت شعوب فى حواضرها

وفد العراق بلاد النيل ترقبه ... كأنما هو نور فى نواظرها

إن القلوب التى سُرّت بمقدمه ... تترجم اليوم من أعلى منابرها

بنى العروبة حييتم برابطة ... تهدى تحيتها فى دار كابرها

دار إذا حلت الأضياف ساحتها ... قامت تهلل ترحيباً بزائرها

أهدى التحية تقديراً لشاعركم ... إن العروبة فى زهو بشاعرها

بالأمس قد عطرت مصراً تحيته ... واليوم يسمع منا مثل عاطرها

(الجيزة) أبو الوفاء

محمود رمزى نظيم

قالوا السِّياسةُ قلتُ كانَ بهَوْلِها ... الفارِسُ المُتجبِّرُ المِقدَام !

قالوا الأمَانَةَ قلتُ تِلكَ صَحِيفةٌ ... سَيَظَلُّ يقرأُهُ بها الأقوام !

قالوا الصَّراحَةُ قلتُ رِيحٌ عاصِفٌ ... بيدَيْهِ لا رَيْبٌ ولا إحْجام !

قالوا النَّزَاهَةُ قلتُ تِلكَ شهادَةٌ ... سِيَّانِ فِيها الصَّحْبُ والأخْصام

قالوا النَّبالةُ قلتُ أرْوَعُ آيةٍ ... فِيهِ يُساجِلُ نُبلَها الحُكّام !

قالوا البيانُ فقلتُ عِفَّةُ مَنْطِقٍ ... لمْ تَقترِبْ من طُهرِها الآثام !

قالوا النَّدَى فأجَبْتُ واهِبُ عُمْرِهِ ... للنِّيل تَعرِفُ جُودَهُ الأيَّام !

قالوا عُهودُ الشرق قلت شأتْ بها ... للخافِقَيْنِ عَلَى يَدَيْهِ ذِمَامُ

فى الدِّينُ فى الأخلاقِ فى الحُرَمِ التى ... نَادَى بها لِلعَالَمِ الإسْلاَمُ

قالوا .. فقال المَوْتُ أصْبَحَ سِيرَة ... سَتَظَلُّ تَرْوِى سِحرَها الأهْرَام

وَأظَلُّ أقبِسُ مِن ظِلاَلِ خُلودِهَا ... مَجدًا تُرَقرِقُ خَمْرَهُ الأنْغَامُ

وَتذوبُ رُوحِى كلّما نَادَتْ بهِ ... مَن ذَلِكَ السَّارِى عَلَيْهِ سَلامُ !

محمود حسن اسماعيل

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية : السنة الأولى فى مجلد واحد ٥٠ قرشا ، و ٧٠ قرشا عن كل سنة من السنوات : الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة فى مجلدين . وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشا فى الخارج عن كل مجلد .



الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي (*)

تأليف الدكتور زكي محمد حسن

للدكتور محمد مصطفى

لهذا النقد قصة أطرف بها قراء الرسالة قبل أن أمضى فيه . وذلك أن المؤلف قد طلب مني أن أكتب عن هذا الكتاب تقريظاً بالانجليزية في مجلة الآثار القبطية . فلما قرأته رأيت فيه مآخذ لا يسمح لي الضمير العلمي أن أسكت عنها ، ورأيت من اللباقة أن أطلعه عليها ، فتظاهر باغتباطه لتمحيص الحق ، ولكنه لم يكد يعلم أن النقد أوشك أن ينشر في المجلة حتى نسى أخلاق العلماء ، فحاول أن يمنع المجلة عن نشره ، وسعى إلى بالصداقة مرة وبالعداوة أخرى أن أكف من نشر النقد أو أعدل فيه ، فنزلت بعد لأى على حكم بعض الأصدقاء وحذفت من النص الانجليزي بعض الفقرات ولكني رأيت واجب الأمانة العلمية يقضي بإيثار الحقيقة على الصداقة فعزمت على نشره كاملا في الرسالة

بدأ المؤلف كتابه ببيان عن الأسرات التي حكمت إيران، ثم أعقبه بالكتابة عن مقام إيران في تاريخ الفنون ، وتلا ذلك بتقسيم الطرُز الإيرانية في الفن الإسلامي إلى الطراز العباسي ، والطراز السلجوقي، والطراز الإيراني المغولي أو التتري، والطراز الصفوي، متناولاً العمارة والخط والتذهيب والتصوير والتجليد والسجاد والخزف والمنسوجات والتحف المدنية والزجاج والخشب في كل من الطرز السالفة الذكر ؛ وخرج من ذلك إلى الكلام عن العناصر الزخرفية الإيرانية في العصر الإسلامي ، وتأثير الفن الإيراني الإسلامي على الفنون الأخرى ، واختتم ذلك بذكر بعض ميزات الفن الإيراني . وألحق بكتابه باباً ذكر فيه المراجع ، وتلاه بكشاف عام ، وفهرس للوحات ، ثم أورد اللوحات وخريطة لإيران

وقد كانت إيران كما يقول المؤلف في كلامه عن مقام إيران في تاريخ الفنون (ص ١١) : « ملتقى الفنون القديمة في الشرق الأدنى ، ونمت فيها أساليب فنية ، تأثرت بفنون بابل وآشور ومصر والهند وبلاد اليونان ، وانتشرت في العصور القديمة والعصور الوسطى ، وأثرت في فنون الأمم الأخرى »

وكان لفتح الإسكندر الأكبر لإيران ، ولإمراء الإغريق الذين آلت إليهم إمبراطورية الإسكندر ، أثر كبير في نشر الثقافة الإغريقية في الشرق الأدنى . ثم استولت دولة بني ساسان على مقاليد الحكم في إيران منذ سنة ٢٢٤ ميلادية ، وقضى ملوكها السنين الطويلة في حروب ومناوشات مع الدولة البيزنطية في الغرب إلى أن جاء الفتح الإسلامي ووضع حداً لذلك

ويقول المؤلف (ص ١٢) : « ولم تكن تلك الحروب الطويلة في العصر الساساني تمنع الشعب من العناية بالفنون الجميلة بل كانت من أهم عوامل الاتصال بين الشعبين العظيمين في ذلك الحين : الإيرانيون (كذا) والإغريق ، فزاد التبادل الفني رغم أنف الفريقين، وتسرب إلى فنون بيزنطة كثير من الموضوعات الزخرفية الإيرانية ، ولم تلبث هذه الموضوعات أن اندمجت في الفنون البيزنطية اندماجاً تاماً . ثم نقلتها أقاليم البحر الأبيض المتوسط التي كانت تابعة لبيزنطة في ذلك الحين . ويبدو ذلك واضحاً في زخارف كثير من المنسوجات التي عثر عليها المنقبون عن الآثار في مصر العليا ، كما يظهر أيضاً في كثير من الزخارف التي استخدمت في العصر القبطي ، ولا سيما الرسوم المحفورة في الحجر والخشب »

ولكن المؤلف لم يذكر في هذا الفصل شيئاً عن مدى هذا « التبادل الفني » بين دولة بني ساسان من جهة وبيزنطة ومصر من جهة أخرى ، ولا عن نوع هذه « الأساليب الفنية » و « الموضوعات الزخرفية الإيرانية » ، بل لم يذكر شيئاً عن ذلك في أبواب كتابه الأخرى إلا ما كتبه في بابي المنسوجات والتحف المدنية عن بعض أنواع الزخارف وأشكال التحف الفنية.

وقد كنا نود أن نعرف مبلغ هذا التبادل في الأساليب الفنية ومقدار تأثيرها في الفن الإسلامي ، إذ أن الإسلام أخذ الشيء الكثير من هذه الأساليب مجتمعة أو متفرقة عن حضارات البلاد التي كانت قائمة قبيل الفتوح الإسلامية ، ألا وهي إيران وبيزنطة ومصر ، وكون لنفسه منها فناً ذا شخصية خاصة به

(*) نشر هذا النقد باللغة الانجليزية في المجلد السادس من مجلة الآثار القبطية الصادر في هذا الشهر

أما عن تقسيم الطرز الإيرانية فى الفن الإسلامى إلى أربعة طرز مبتدئاً بالطراز العباسى فالسلجوقى فالإيرانى المغولى أو التترى ثم الطراز الصفوى، فإن المؤلف لم يذكر لنا الأسباب التى جملته يفضل هذا التقسيم . وإنى لا أتفق تماماً مع المؤلف فيما يختص بالطراز العباسى ، إذ أن هذه التسمية لا تطابق التقاليد الفنية التى ورثتها إيران عن الساسانيين، لأن حالة سائر الفنون الإيرانية فيما قبل العصر السلجوقى ظلت — كما قال المؤلف فى ص ٢١٤ — « مدة طويلة لا تعرف من التجديد ما يخرجها تماماً من دائرة الأساليب الفنية الساسانية » . ففى العمارة (ص ٤٤) « تطورت الأساليب الساسانية تطوراً بطيئاً » ، وفى التصوير (ص ٨٤) أولى مدارس التصوير هى مدرسة العراق أو المدرسة السلجوقية، وفى السجاد (ص ١٤٨) : « أن أقدم السجاجيد الإيرانية المعروفة ترجع إلى العصر السلجوقى » ، وفى الخزف (ص ١٦١) « كانت صناعة الخزف من أهم الميادين التى حاز فيها الإيرانيون المكانة الأولى بين الأمم الإسلامية » ، وإذا استثنينا الخزف ذا البريق المعدنى الذى اختلف مؤرخو الفن فى موطن صناعته — إيران أو مصر أو العراق — فإن أنواع الخزف الأخرى حافظت كلها على الأساليب الفنية الإيرانية ، وفى المنسوجات (ص ٢١٤) : « إن صناعة النسيج فى إيران ظلت فى القرون الأولى بعد الإسلام متأثرة بالطراز الساسانى » ، وفى التحف المعدنية (ص ٢٣٨) « أن ما صنع منها فى العصر الإسلامى ظل محتفظاً بالأساليب الفنية الساسانية إلى حد كبير »

ومن العبارات السابقة المنقولة من كتاب المؤلف نجد أن الأستاذ زكى محمد حسن نفسه يعترف باستمرار أثر الفن الساسانى فى إيران فى القرون الأولى من العصر الإسلامى

وإذا استعرضنا تاريخ إيران فى العصر الإسلامى[1] نجد أنها ظلت تحت الحكم المباشر للدولة العباسية فى بغداد إلى سنة ٢٠٥ هـ (٨٢٠ م) أى سبعين سنة فقط . فقد قامت فى إيران بعد ذلك عدة دول كان بعض أمرائها يدعون أنهم من نسل الساسانيين ، وكانوا يشجعون الشعراء والفنانين على إحياء التقاليد الفنية الساسانية وقرض الشعر باللغة الفارسية ، فظهر بينهم « رودكى » عميد شعراء الفرس ، وكتب الفردوسى ملحمته « الشاهنامة »

(١) راجع الدكتور زكى محمد حسن « التصوير فى الإسلام عند الفرس » ص ٧ وما بعدها

وهذه الدول هى : الطاهرية والصفارية والسامانية ودولة بنى بويه

ويقول المؤلف (ص ١٧) : إن الطراز العباسى فى إيران يمتاز فى الفنون التطبيقية أو الفرعية باستخدام الموضوعات الزخرفية الساسانية مع تهذيب بسيط يجردها فى بعض الأحيان من العنف والقوة

وهذا يقارب فى مجمله — وإن كان يتناقض فى الوضوع — مع ما قاله الأستاذ بوب[2] من أن الطرز الإيرانية أيام حكم الخلفاء العباسيين ، استمرت تظهر فى صفات الحماسة والبطولة الساسانية، فكل شىء كان بسيطاً وجريئاً وقوياً ... وفى جهات معينة من إيران تحكم خلق البساطة والقوة هذا فى الفنون خمسة قرون أخرى بعد الفتح الإسلامى

وإذا بحثنا فى إيران عن تأثير الطراز العباسى — أو بعبارة أخرى طراز سامرا (٨٣٨ — ٨٨٣ م) ، وهو أول الطرز الإسلامية الحقة — نجد أن هذا الطراز الجديد فى الإسلام يظهر فى إيران بعد هجر سامرا بمدة طويلة ، أى فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، وذلك فى جامع نايين ، وقد قال الأستاذ بوب فى ذلك[3] :

« حوالى سنة ١٠٠٠ للميلاد نجد الطراز الجديد مجسماً تجسيماً بديعاً فى الزخارف الجصية فى نايين ، وأخذت هوامش نسخ القرآن الشريف تعنى بالرسوم الدقيقة ؛ وفى هذا الوقت بدأت تختفى التقاليد الساسانية فى الحيوانات الخرافية ، ولكن قوة الفن الساسانى لم تنهك بعد ، بل استمرت فى التعبير عن نفسها فى الأشكال القوية النبيلة من الأوانى النحاسية التى كانت تنادى بما ورثته من شعب الأبطال الساسانى بالرغم من التكفيت (التطعيم فى النحاس) الذى كانت غنية به ، ولا تزال الموضوعات والزخارف الساسانية ترمم إلى يومنا هذا »

ومما تقدم يتبين أن اصطلاح « الطراز العباسى » لا يمكن إطلاقه على الفن الإيرانى فيما بين الفتح الإسلامى لإيران والعصر السلجوقى ، وكذلك لا يمكن إطلاق اصطلاح « عصر الانتقال » على هذه الفترة لأن التأثيرات الساسانية الفنية — كما رأينا — استمرت حتى بعد ذلك العصر . وإنى أقترح لهذه الفترة استعمال

(٢) A. U. Pope : An Introduction to Persian Art after the Seventh Century, Oxford 1930, p. 8.

(٣) نفس المرجع ، ص ١٠

« العصر الإسلامى الأول » Early Islamic Period ، وهو نفس التعبير الذى يستعمله مؤرخو الفنون الإسلامية الذين اشتركوا فى كتابة كتاب A Survey of Persian Art[٤] عند تقسيم كلامهم فى الموضوعات المختلفة عن الفن الإيرانى فى العصر الإسلامى[٥]

وإذا رجعنا إلى كلام المؤلف نجد أنه لم يستعمل اصطلاح « الطراز العباسى » فى كتابه إلا فى موضعين اثنين : أحدهما (ص ١٧) عند تقسيم الطرز الإيرانية ، والثانى (ص ٢٩٠) حين تكلم عن « أثر إيران فى الطراز الإسلامى العباسى » . أما فى باقى أبواب كتابه فلم يحافظ على هذه التسمية ، بل استعمل اصطلاح « فجر الإسلام »[٦] متأثراً فى ذلك — كما يبدو لى — بطريقة S. P. A.

وفى كلام المؤلف عن الطراز السلجوقى قال فى (ص ٢٤) « أجل ، وفق الخزفيون بمدينة الرى فى القرن السادس (منتصف القرن الثانى عشر الميلادى) إلى صناعة الخزف ذى البريق المعدنى ويسمونه مينائى »

وأظن أن هذا غير ما يقصده المؤلف ، لأن الخزف ذا البريق المعدنى نوع آخر يختلف عن الخزف المسمى مينائى كما ذكر ذلك فيما بعد (ص ١٦٨ ، ١٨٩) . وأظن كذلك أن المؤلف يقصد هنا النوع الثانى فقط ، لأن الخزف ذا البريق المعدنى معروف منذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) (ص ١٧٢) ، ولأن نسبته إلى إيران لا تزال موضع خلاف بين مؤرخى الفنون (ص ١٦٩)[٧] ، وفضلاً عن ذلك يقول الأستاذ بوب[٨] إن نوع الخزف فى البريق المعدنى فى مدينة الرى « أخذ فى الانحطاط المستمر منذ أواخر القرن الثانى عشر الميلادى ، وربما يرجع ذلك لسببين : ازدياد ضغط مزاحمة الخزف ذى البريق المعدنى المصنوع فى مدينة قاشان ، وارتقاء صناعة جديدة فى نوع معين من الزخارف على الخزف ، قدر لها أن ترفع الفن إلى منتهى درجات الكمال » إلا وهى صناعة الخزف المسمى « مينائى »

والآن إذا حذفنا كلمات « الخزف ذى البريق المعدنى » من جملة الدكتور زكى السالفة الذكر ، فإن العبارة التى تتلوها فى كتابه لا تتناسب تماماً فى معناها مع وصف الخزف من نوع « مينائى »[٩]

وفى كلام المؤلف عن العمارة يقول (ص ٥٠) تحت عنوان « العقد المدبب الإيرانى » ، « وفى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ذاع استخدام العقد المدبب ، الذى أصبح من ميزات العمارة الإسلامية . وسرعان ما عم استعمال العقد المدبب فى كل العمائر الإيرانية وصار ينسب إلى إيران » ، وكذلك فى (ص ٢٩٠) يقول المؤلف : « ويمكننا أن نتبين الأساليب الفنية التى انتقلت منها (بغداد) إلى سائر الأقطار الإسلامية ، والتى لا شك فى أنها إيرانية الأصل ، ومن ذلك العقد المدبب »

ولم يذكر لنا المؤلف هنا المراجع التى اقتبس منها والتى جعلته يقطع بأن العقد المدبب إيرانى الأصل ، مع أنه ذكر بين المراجع التى جمعها فى آخر الكتاب عدة كتب عن العمارة . يقول الأستاذ كريسويل فى أحدها ما يأتى[١٠] : « وهكذا يتبين أن السبعة نماذج الأولى من هذا الشكل (العقد المدبب) توجد كلها فى سوريا ، وبناء على هذه الحقيقة يجب ألا نأخذ بآراء الأساتذة رودوكاناكيس Rhodokanakis وديسو Dussaud وديل Diehl وهرتزفلد Herzfeld الذين يقولون إن العقد المدبب إيرانى الأصل »

وهذا رأى جدير بالاعتبار فى أن العقد المدبب ليس إيرانى الأصل . وقد كنا نود لو أن المؤلف ناقش هذا الرأى لنعلم الأسباب التى جعلته يقطع بأن العقد المدبب إيرانى الأصل . وكذلك فى كلامه عن الأقباء والقباب والمآذن والمقرنصات لم يذكر من المراجع سوى « دائرة المعارف الإسلامية »

وعلى ذكر المراجع أقول : إننى عندما لاحظت قلة عدد المراجع التى ذكرها المؤلف فى حواشى كتابه بالنسبة للعدد الكبير من المراجع التى جمعها فى آخر الكتاب ، رأيت أن أعدها بنفسى

---

(٤) A Survey of Persian Art from Prehistoric Times to the Present, editor, Arthur Urpham Pope, Assistant editor : Phyllis Ackerman, Oxford 1938 — 1939. وسأستعمل لهذا الكتاب هنا الحروف : S. P. A.

(٥) انظر S. P. A. ج ٢ ص ١٤٦٥ و ١٤٦٦ و ج ٣ ص ١٩٩٥ و ٢٢٧٦ و ٢٤٦٦ و ٢٥٩٥ و ٢٧٠٥ .

(٦) انظر ص ١٦٥ و ١٦٩ و ٢١٠ و ٢٣٧ .

(٧) راجع أيضاً A. U. Pope, Ceramic Art in Islamic Times in : S. P. A., II p. 1487 ff.

(٨) نفس المرجع ، ص ١٥٥٩ وما بعدها .

(٩) عن هذا النوع من الخزف انظر A. U. Pope ، نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٥٥٩ وما بعدها .

(١٠) انظر ص ٢٨٠ من كتاب : K. A. C. Cerswell; Early Muslim Architecture, Oxford 1932.



حول العصبية فى الجماعات الدينية

يا أخى الأستاذ الزيات

السلام عليكم

قرأت الآن مقالك « العصبية داؤنا الموروث » فرأيته نفثة من عربى مصرى مسلم يأسى لما جره الخلاف على قومه فى ماضيهم وحاضرهم، ويطب لهذا الداء بالحكمة والموعظة الحسنة، فدعوت لك ولكل داع إلى الخير فينا ، وسألت الله أن يجمع عقولنا وقلوبنا وأيدينا على الحق والخير . ولكنى أخذت على الأخ أنه عدّد الجماعات الإسلامية فى مصر ، بعد أن عدّد الأحزاب السياسية ، يرى أن هؤلاء وهؤلاء أنشأتهم العصبيات وفرقت بينهم . ولست أرى رأيك فى الجماعات الإسلامية التى ذكرت ؛ فما أحسب أن تعددها لعصبية أو تنافس ، ولكن أراه تعاوناً على مقصد عظيم ، تتوسل كل جماعة بإحدى وسائله . وحسبك حجة على ما أقول أن هذه الجماعات لا تختلف فيما بينها ولا تتحاسد ولا يفترى بعضها على بعض ؛ وكثيراً ما تتعاون فى أعمالها ، وإن هذه الجماعات لا ينال القائمين بها إلا إنفاق أوقاتهم وأموالهم ابتغاء الخير ولا يطمع أحدهم فى جر مغنم نفسه أو نيل سلطان من وراء عمله .

وقد دعا داع إلى توحيد هذه الجماعات فلم ينفر أحد من هذه الدعوة بل تلقتها الجماعات بالتفكير فيها والنظر إلى ما يرجى منها . وإذا رأوا أن توحيد الجماعات أجدى عليهم ، وأقرب إلى غايتهم ، فعلوا غير مفكرين فى عصبية أو هوى أو رياسة أو جاه .

فإن استثنى الأستاذ الفاضل هذه الجماعات من داء العصبيات كان أقرب إلى الصواب ، وحسن الظن ، والسلام .

عبد الوهاب عزام

يا أخى الدكتور عزام

إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء ، لأنى أعلم أن إخوان (قبة الغورى) لم يتآخوا إلا لجمع شتات المسلمين وأجناسهم على كلمة التوحيد ، وهم بطبيعة مبدئهم لا ينفرون من دعوة الاتحاد . أما الجماعات الأخر فإن عندى من أخبارهم ما يدل على أن ما بينهم من التنافس والتحاسد مثل ما بين الأحزاب السياسية من ذلك . ولنا عودة إلى هذا الموضوع

(الزيات)

شعر ذو وجهين

فى أواخر سنة ١٩٤٠ تفضل حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك برتبة « باشا » على الوزير العالم الفيلسوف الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا ، وغداة ذلك اليوم أسمعنى صديقى الشاعر الشيخ أحمد الزين أبياتاً فى تهنئة الوزير على مسمع من زملائنا بدار الكتب وحملنى أمانة روايتها إلى معالى الوزير — ولعلى فعلت

وفى فبراير سنة ١٩٤١ تفضل حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك برتبة (البكوية) على الأديب الكبير الأستاذ أحمد بك أمين، وإذا بمجلة الثقافة تنشر الأبيات نفسها موجهة إلى الأستاذ أحمد أمين بك فى عددها الأخير

أما الأبيات فهى :

حبوه بهـا أم حبوها به ... لقد حرت : أيهما يزدهى ؟

وما فخر من ليس بالمنتهى ... على أن تقلّد ما ينتهى ! !

لقد نلت ما تشتهى من فخار ... ونال بك الفخر ما يشتهى

وليس الشاعر هو الذى (حار) وإنما الحائر

« أنا »

إلى ناقدى لغز فى مقالى الثالث

قلت أيها الناقد المشكور : « من النفع والخير أن يخطئ الكبار فى حين من الأحايين حتى ينقدوا فتغنى اللغة ويستفيد الناس » . وأنا معك فيما تقول ، ولكنى أزيد : « ومن السهل

على سبيل العلم بالشىء ، فوجدت أنه ذكر فى حواشى الكتاب واحداً وستين مرجعاً فقط من الثنين والثلاثة والعشرين مرجعاً المذكورة فى آخر الكتاب . وقد كان بودى لو أن المؤلف أكثر من كتابة الحواشى وذكر المراجع التى أخذ منها لتعم الفائدة العلمية . وبهذه المناسبة أقول إن عدد المراجع ٢٢١ لا ٢٢٣ لأن المرجع رقم ٤ تكرر فى رقم ١٩ ، والمرجع رقم ١٢٦ تكرر فى رقم ١٣٠ . وإذا أضفنا إلى هذه المراجع ٦٤ مرجعاً آخر ذكرها المؤلف فى حواشى الكتاب ولم يذكرها مع المراجع فى آخره ، كان عدد المراجع التى جاء ذكرها فى هذا الكتاب ٢٨٥ مرجعاً .

(له بقية) محمد مصطفى

أن يقال لكاتب عربي قد أصبت ، ولكن من الصعب أن يقال له إنك أخطأت » . وإنما زدت ذلك لأن لغتنا كثيرة مناحي الصواب ، ومن هذه الناحية خذ فيما سألت الجواب :

١ — أخذت على جمع نخور على نخورين بالتصحيح حاتماً أن يكون جمعه على نُخُر بالتكسير، تريد أن نخوراً وصف مشترك بين الذكور والإناث وما كان كذلك لا يجمع جمع تصحيح ، ولكنك نسيت أن هذا الشرط محل خلاف بين النحويين ، ولم يكن المنابذون له آحاداً، إنما كانوا الكوفيين جميعاً ، ورأيهم أخذت مؤثراً له على رأى البصريين لما فى تصحيحه من إزالة اللبس، ولأن فى سياق عبارتى من التناظر ما يقتضيه ، فهو مسبوق فيها بجمعين صحيحين كما نقلت وهى : « ثم سل تلاميذى الذين تتحدث عنهم يخبروك بما يفحمك مخلصين صادقين ونخورين بتلمذتهم لى » . ألست ترى أنى لو قلت : « مخلصين صادقين ونخراً » لضاع جرس الكلام ؟

٢ — وأخذت على إدخال هل فى قولى : « فهل لا زلت على هذه المباهاة » على نافٍ وهى لا تدخل على نافٍ أصلاً محتجاً بقول الرضى، كما أخذت على فى تلك العبارة نفسها إدخال لا على ماض غير مستقبل فى المعنى ولم يكرر هو « زال » محتجاً بما بينه المغنى . وأنا أسلم بقول الرضى ، ولكنى لا أسلم بأنها دخلت هنا على نافٍ، فإن الفعل زال ليس فعلاً تاماً وإنما هو فعل ناقص يستلزم كسائر إخوته نافياً قبله، ولو حذف لقدرناه ، وذلك ليفيد مع هذا النافى الاستمرار ثم هو يكون للمستقبل لا للماضى . ألا ترى أن معنى قولى : « فهل لا زلت على هذه المباهاة » هو : « فهل تستمر على هذه المباهاة » . أما إدخال « لا » على ماض غير مستقبل فى المعنى إلا مع التكرار ففضلاً عن أن المعنى هنا للمستقبل كما تقدم هو محل خلاف ، وقد دخلت « لا » فى الفصيح على الماضى الصرف من غير تكرار ، قال الله تعالى : « فلا اقتحم العقبة »

٣ — ثم أخذت على قولى : « ومع هذا فإليك رأيى فى تلك المباهاة » فاهما أن « إليك » معناه تباعد وتنح ، ولكن له معنى آخر هو خذ وإياه أردت . قال صاحب القاموس وهو يذكر معانى « إلى » ما نصه : «وإليك عنى أى أمسك وكف ؛ وإليك كذا أى خذه » . على أن عبارتى لا تحتم أن يكون « إليك » فيها اسم فعل بل تسمه على أنه جار ومجرور محذوف المتعلق المفهوم هو « أسوق » مثلاً والمعنى صالح على التخريجين

هذا ما به أجيب فى إيجاز وهو محقق لما تريد من غنى اللغة واستفادة الناس ، وإليك سلامى .

السباعى بيومى

المجمع اللغوى وتشجيع الإنتاج الأدبى

قررت لجنة الأدب — فى المجمع اللغوى — وضع القواعد الآتية لتشجيع الإنتاج الأدبى

أولاً : تؤلف اللجنة العامة للأدب ثلاث لجان فرعية : لجنة للشعر ، ولجنة للقصة والرواية ، ولجنة للمقالات والبحوث الأدبية من نقد وتاريخ ونحوهما

ثانياً : على كل لجنة من هذه اللجان أن تتقصى الإنتاج الأدبى فى الفرع الذى أسند إليها ؛ وأن تقدم تقريراً فى شهر ديسمبر من كل سنة بملاحظاتها للجنة العامة ، يشتمل على سير الحركة الأدبية فى مصر والعالم العربى طول العام ، وعلى ما يمكن أن يمتاز من الإنتاج فى هذا الموضوع امتيازاً يقتضى تشجيع صاحبه تشجيعاً معنوياً أو مادياً

وعلى اللجنة العامة أن تدرس هذه التقارير فى شهرى ديسمبر ويناير وتعرض تقريرها على مجلس المجمع فى شهر فبراير

ثالثاً : يعقد المجمع جلسة علنية فى شهر مارس ، تعلن فيها قراراته فى ذلك وأسبابها ، وينوه فيها بما استحق التنويه به من الآثار الأدبية

رابعاً : ينشىء المجمع بنصف المبلغ المحدد فى ميزانيته لتشجيع الإنتاج الأدبى جائزتين يمنحان كل عام بعد مسابقة فى فرع من الفروع الأدبية يتغير من عام إلى عام

وينشىء المجمع بالنصف الآخر جوائز تمنح لخير ما يكشف من الآثار الأدبية

خامساً : الآثار الأدبية التى تجاز هى التى تتحقق فيها الشروط الآتية :

(ا) أن يكون الأثر مظهراً للانتاج المستقل

(ب) أن يأتى فى بابه بفائدة محققة

(ج) ألا يكون قد سبق نشره قبل السنة التى تتناولها تقارير اللجان التى سبقت الإشارة إليها

سادساً : لا يجوز لأعضاء المجمع أن يشتركوا فى المسابقات ولا يجيزهم المجمع ، ولا ينوه بأثر من آثارهم الأدبية

حول مبدع فن المقامات

كثر الكلام فى هذه الأيام على نص زهر الآداب الذى يجعل ابن دُرَيد أبا عُذْر المقامات ومبدعها ، وقد وقف على هذا النص فى هذا الصدد الدكتور زكى مبارك أو غيره ، وإنى وقفت على كلام للشريشى شارح المقامات الحريرية يذكر فيه هذا النص وأرى أن أسوقه هنا وهو هذا : « وذكر الحصرى رحمه الله فى كتاب الزهر أن الذى سبّب للبديع رحمه الله تأليف مقاماته هو أنه رأى أبا بكر بن الحسين بن دريد قد أغرب بأربعين حديثاً ذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره ، وانتخبها من معادن فكره ، على طبع العرب الجاهلية ، بألفاظ بديعة حُوشِيَّة . فعارضه البديع بأربعمائة مقامة لطيفة الأغراض والمقاصد ، بديعة المصادر والموارد » . أنظر ج ١ ص ١٢ من هذا الكتاب

محمد على النجار

من أدب آل عبد الرازق

منذ أيام توفى خادم من خدم بيت آل عبد الرازق ، فخرج أهل الفقيد ومعارفه يشيعونه ، وخرج فيهم ، وسار فى مقدمتهم ، صاحب المعالى مصطفى عبد الرازق باشا يشيع الفقيد إلى مقره الأخير .

رأى الشاعر ذلك المنظر ففاض إعجابه بهذا المظهر النبيل بهذه الأبيات :

يا مصطفى ، إن المكارم لم تزل ... فيكم ، ومنكم تستمد جمالها

نشأت ببيتكم ، فكانت منكمو ... نسباً ، وكنتم فى الحقيقة آلها

إن المعالى عند قوم رتبةٌ ... وأراك تشرح للورى أعمالها

أنشر مناهجها على طلابها ... واضرب لنا يا مصطفى أمثالها

علّم ، فإنك كنت خير معلم ... إن المكارم أصبحت يُرثى لها !

تمشى تشييع خادماً مستعبراً ... مستشعراً عند المنون جلالها

وتسير حولك زمرة من جنسه ... ألفوا المذلة واكتسوا أسمالها

أنا ما عجبت فإننى أدرى بكم ... لكن رأيت الناس قالوا : يالها !

إن قلت : ما أديت إلا واجباً ... قلنا : فمن فى مثل فضلك قالها !

عش للمروءة راعياً من بعد ما ... يَتِمَتْ وأفنى ذا الزمان رجالها

محمد جاد الرب

ولم يسعه إلا أن يرسل إلى معاليه هذه الأبيات ، فتلقى من معاليه الرد البليغ الآتى :

حضرة الفاضل الأديب الأستاذ محمد جاد الرب

السلام عليك ورحمة الله وبركاته — أما بعد ، فقد تلقيت كتابك البليغ فى شعره ونثره ، والبليغ فى إعرابه عن عواطف نفس فاضلة تسارع إلى التشجيع على مكارم الأخلاق ، وتلمح أدنى مظاهر الوفاء فتجعل منها فضلاً كبيراً

ولقد وقع فى نفسى أبلغ وقع ما وجهه إلىّ الأستاذ من كلمات عطف وود ، وأسأل الله أن يجعلنى عند حسن ظنه ، وأن ينفعنى ببركة دعائه ، ولا يفتننى بعظيم ثنائه . وحيا الله الأستاذ وبياه

مصطفى عبد الرازق

رحلة الشتاء والصيف

كتب الأستاذ أحمد أمين فى العدد الهجرى الممتاز من مجلة الثقافة (سيرة الرسول فى كلمة) وقد جاء فى مقالته ما يلى : « وجده هاشم — والضمير يعود إلى الرسول صلى الله عليه وسلم — صاحب إيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . سنّ لهم رحلة اليمن والحبشة فى الصيف ، ورحلة الشام فى الشتاء الخ ... » وكان مستنداً فى هذا إلى قوله تعالى : « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف »

وقد لحظت الخطأ الظاهر فى ذلك القول منذ أول قراءتى المقال ، ولكننى كنت أظن أن الأستاذ الفاضل سينتبه إليه ، ويعود إلى تصحيحه ، وقد مرت بضعة أسابيع دون أن يفعل ، فرأيت من الخير أن أعود إلى الموضوع منوهاً عنه بكلمتين . بإذن الأستاذ الزيات مجلّ الله فى شفائه

فمن المعروف أن رحلة الشتاء لم تكن إلى الشام ، ولا رحلة الصيف إلى اليمن والحبشة ، وإنما الأمر بعكس ذلك تماماً ؛ وليس من المعقول أن يرحلوا إلى الحبشة واليمن فى وقد الصيف وحره ، أو يقصدوا الشام فى برد الشتاء وزمهريره . وقد جاء فى الجزء الثانى من (الكشاف) للزمخشرى (الطبعة الأولى المطبعة البهية المصرية سنة ١٩٢٥) صحيفة ٥٦١ سطر ٣٠ — ٣٢ فى تفسير الآيتين الكريمتين المذكورتين آنفاً ما يلى : « وكانت لقريش رحلتان ، يرحلون (فى الشتاء إلى اليمن) ، (وفى الصيف إلى الشام) ، فيمتارون ويتجرون ، وكانوا فى رحلتيهم آمنين لأنهم أهل حرم الله وولاة بيته ، فلا يُتعرَّض لهم ، والناس غيرهم يُتخطفون ويغار عليهم » وكذلك فى البيضاوى وسائر التفاسير

والمسألة قد تكون من باب السهو أو الهفو ، وأغلب الظن

أنها كذلك؛ إلا أن الخطأ فى مثل هذه الأحوال لا يجوز، وهو إن دل على شىء فإنما يدل على عدم التدقيق . لذا رأيت المبادرة بتصحيح ذلك واجباً لأنه يتعلق بما جاء فى القرآن الحكيم، ويمت إلى تاريخ قريش بأسباب ، وسبحان من تفرد بالعصمة

نجدة فتحى صفوة

شرح شافية ابن الحاجب للاستراباذى

جمعت شافية ابن الحاجب زبدة فن التصريف فى أوراق قليلة ، وشرح الاستراباذى عليها شرح جليل المباحث ، جزيل الفوائد ؛ جمع بين تدقيق ابن جنى ، وتعليل الأنبارى ، وترتيب المازنى ، وتمثيل سيبويه . وقد وفق الله السيد محمود توفيق الكتبى فطبع هذا الشرح الجليل مع شرح فوائده للعلامة البغدادى صاحب خزانة الأدب ، بعد أن وكل مراجعة أصوله ، وضبط مبهماته ، وشرح مفرداته ، والتعليق على مسائله ، لثلاثة أساتذة من خيرة المدرسين فى كلية اللغة العربية فجاء الكتاب على خير ما يحب طلاب العربية من دقة التصحيح ، وشدة التمحيص ، وجودة الطبع

تصويب

جاء فى كلمتى فى العدد ٤٠١ من « الرسالة » — ص ٣٠٤ ما يأتى : والواقع أنه (أى مفتاح) والصواب : (أى مفاتح)

(ع.ا)

تصويب

وقع نظرى فى عدد الرسالة الممتاز ٤٠٠ على تحريف لبعض آى الذكر الحكيم ، فرأيت أن أنبه عليه ، خصوصاً وقد صدرت الأعداد التى تلته خالية من تصحيح ذلك التحريف

ورد فى مقال الأستاذ عبد المنعم خلاف (ص ٢٥٣) استشهاد بقول الله تعالى : « والأرض جميعاً قبضته والسموات مطويات بيمينه » والصواب « والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه »

وفى مقال الأستاذ الدكتور عبد الواحد وافى (ص ٢٦٧) استشهاد بقول الله تعالى : « ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلق فى جهنم ملوماً محصوراً » والصواب « مدحوراً »

أحمد محمد شكم



سكون العاصفة

للأستاذ محمود البدوى

كان خالد أفندى يتردد على مقهى « الحرية » فى مدينة المنصورة أصيل كل يوم . ومع أن المقهى يشرف على النيل ، ويقع فى أجل بقعة فى هذا البلد ؛ فإنه لم يحاول مطلقاً أن يملأ عينيه مما حوله من جمال وسحر ... فهو لم يشاهد منظر غروب الشمس فى النيل ، ولا طلوع القمر من وراء السحاب ، ولا الزوارق الشراعية وهى تصبح فى ظل الغسق ... كما أنه لم يعبر جسر طلخا قط ، ويرى ما وراء الجسر من مناظر خلابة فى مدى السنين التسع التى قضاها فى المنصورة منذ أن نقل إليها كاتباً فى تفتيش الرى !

وكان يجلس على ناصية الطريق زمن الصيف ، فإذا جاء الشتاء انتقل مع الجالسين إلى الجزء الشتوى من المقهى على الرصيف الآخر من الطريق ، وألقى بنفسه فى مكان ضيق يعج بالخلق ويزهق الأنفاس . هذه المقاهى الغريبة المنتشرة فى طول البلاد وعرضها تضم خلقاً عجيباً من صعاليك الأرض ، ومحترفى النرد ، وأصحاب العقول الذهبية الذين يدخلون أنوفهم فى كل شىء على ظهر البسيطة ، وينتقدون أنظمة الاجتماع الإنسانى قاطبة ! ويشعرون بأنهم ضحية نظم فاسدة لا سبيل إلى إصلاحها ! فما يعوزهم هو شىء خارج عن نطاق البشرية وحدودها ! على أن خالد أفندى كان يختلف عن هؤلاء جميعاً ، فهو رجل قد جاوز بسنه عمر الشباب ، وحاد بتفكيره عن تفكير المخبولين ! ... بيد أنه كان يتفق معهم فى الحيرة والقلق ، والشعور المطلق بالنقص أبداً ، ولهذا ظلت حياته تسير على منوال واحد ممل معذب ... وكان قد أدرك الجيل الذى يتزوج فيه الشبان قبل الأوان ، فتزوج معهم وأنجب ، وكان زواجه من فتاة طيبة من أسرة كريمة ، والأسر الكريمة كثيرة الود ، فالزوجة عند عماتها وخالاتها ، وخالات عماتها وعمات خالاتها ! كما أنهم محط الرحل فى المدينة لكل من يشرف المدينة من الأهل والصحب . ولهذا فر خالد أفندى من المنزل إلى المقهى ، وقعد على حافة الطريق يرقب الرائحات والغاديات بعين عطشى ...

ولما امتد لهب الحرب ، وكثر عدد المهاجرين إلى الشرق ، اكتظت المنصورة بالخلق ، وازدحم منزل خالد أفندى بأفراد أسرته من المدن المعرضة لشر الغارات . فلما مضت الأيام على غير حادث ، وقفت حركة الهجرة ، وسئم المهاجرون تكاليف العيش الجديدة ورجعوا إلى بلادهم بالتدريج ، ورحل ضيوف خالد أفندى ورحلت معهم زوجته ، فقد رافقت أختها إلى القاهرة . وهكذا أصبح خالد أفندى وحيداً فى المنصورة ، أو أعزب إلى أجل ! وتنفس الصعداء ، وشعر بالحرية المطلقة فى غدوه ورواحه ، وراح يحن إلى أيام شبابه ولهوه

وكانت تمر أمامه ، بعد غروب كل شمس ، فتاة رائعة الحسن جذابة الملامح ، من هؤلاء اللواتى تدفعهن الفاقة إلى العمل . كانت تبيع الحلوى ، وتمر على الجالسين فى المقهى ضاحكة مازحة . وكانت تخص خالد افندى ببعض وقتها ومزاحها ، لأنه رجل وقور حسن السمعة ! وكان يمازحها ويتلطف معها فى الحديث . ثم يشيعها بنظراته النهمة . وكان جسمها أكبر من سنها بارز المفاتن رائع التكوين . وفى عينيها بريق وإغراء قل أن يجتمعا فى عينى امرأة . وكان خالد افندى يدرك هذه المحاسن كلها ولكنه كان يرد نفسه عنها تورعاً . على أنها لما مرت أمامه فى ذلك اليوم تتثنى وتميل بجسمها وعلى شفتيها الرقيقتين ابتسامة ، وفى عينيها ذلك البريق الأخاذ استوقفها وابتاع منها بعض الحلوى ، وهو يضاحكها ويداعبها . ثم همس فى أذنها كلاماً فتورد وجه الفتاة ، وغضت رأسها . ثم مضت عنه ، وهى تهز رأسها ضاحكة وغابت فى جوف الظلام

وظل ساكناً فى مقعده لحظات . وهو ينفض المكان بعينيه ويرقب ؛ ثم اندفع فى الطريق الذى سارت فيه ، وقد زاده تمنع الفتاة حماسة وثورة . وأوسع المجال لخطاه لما اجتاز المقاهى المتناثرة على حافة النهر حتى بدأ يلهث ونفض جسمه العرق . يا لله ... إنه يسير الآن فى الطريق الذى كان يتنزه فيه مع زوجه وأولاده مساء كل خميس حتى يبلغوا شجرة الدر ! لقد مات الآن فى نظره كل شىء وانمحت الذكريات وأسدلت الستر على الماضى كله بخيره وشره . وأصبح لا يرى الآن تحت تأثير العاصفة التى ألهبت جسمه وأشعلت النار فى كيانه ، غير نساء عاريات سابحات فى النهر يتضاحكن ويهتفن به !

وبصر بها وهى تجتاز ميداناً صغيراً على رأس الطريق ينعطف إلى المدينة ، فجمع حواسه فى باصرته ، وانطلق فى أثرها

* * *

ومضى معها تحت ستار الظلام إلى البيت ، ودارت ببصرها فى جوانب القاعة فى تهيب وخجل . ثم جلسا للعشاء ، فأرغمها على الشراب ، فزال عنها حياؤها بالتدريج ، وتفتحت نفسها ، فانطلقت تغنى وتتبختر فى أرض الغرفة كالطاووس الجميل

ولعبا بعد ذلك الورق وتكدست أمامها أكداس القروش ! فرمقته بعينيها وسألته وهى سكرى : « هل تعطينى كل هـذه النقود حقاً ؟ » فضحك وطمأنها

وظهر عليها التعب وبدأت تتثاءب . ورف لون وجهها من فعل الخمر ، وانفرجت شفتاها ، واحمرت عيناها ، وثقلت أهدابها وتفككت أوصال جسمها . فارتمت على أريكة بالقرب من المائدة وظلت تحادثه من حين إلى حين ، وتنظر إليه بعينيها الناعستين ، حتى أحست بلين الفراش فنامت ...

وبقى فى مكانه يحتسى القهوة ويدخن ، وعيناه سابحتان فى قرار الكأس . ثم رفع بصره إليها ، وهى نائمة حالمة ، وقد تهدل شعرها ، وتوردت وجنتاها ، وظهرت على وجهها كله آيات الطفولة البريئة ، وانمحت تكاليف العيش ومظاهر الصنعة من جسمها ونفسها ... فأشرق روحها وبدت على فطرتها ... وبان لون جسمها فى بياض العاج ونعومة الحرير ، وكانت إحدى ذراعيها تحت رأسها والأخرى عند خصرها ... فتحرك الجسم قليلاً وارتفعت الذراع حتى جاوزت العنق ، وغاصت الأنامل الرقيقة فى الخد المورد ، وانحسر الثوب عن الساق ، وانزاح الشعر عن الجبين ، واهتزت الشفتان قليلاً ، وتحرك الجسم حركة من يود الصحو ؛ على أن الأهداب بقيت مطبقة ، والأجفان مسبلة ، والنفَس هادئاً حالماً

ونظر إلى هذه الصورة الرائعة وهو سادر ساهم ، فنهض عن مقعده ووقف أمام النافذة المغلقة ، وفتح مصراعيها ، ومرّ هواء الصيف المنعش على وجهه وأشرف على الليل ، وأطل على الوادى الصامت . ورأى لأول مرة فى حياته محاسن الطبيعة ، وبدائع ما أبدع الله وصور ، واعتمد بجسمه على النافذة وبصره يخترق حجب الليل ويعبر النيل والجسر وماوراء الجسر ، حيث تتجلى الطبيعة فى أروع صورها ، وسبحت عيناه فى الظلام ، واستغرق فى تأملاته ومرت فى ذهنه صور كثيرة واضحة وغامضة... الحرب ... والثارات ... والريف ... والقرية ... وزوجه ... وأولاده ... وشعر بطراوة الهواء ولينه وهو يصافح وجهه ، وبجسمه يعود إلى حالته الطبيعية ، ورأسه يصفو من فعل الخمر ، فانثنى من النافذة ، وانطلق يتمشى فى أرض الغرفة ، وعينه على الفتاة النائمة ووقف أمامها لحظة ... ثم انحنى عليها ، وحملها على ذراعيه كطفل صغير ، ومشى بها إلى مضجعه ، وأضجعها على السرير بحنان ورفق ، وأسدل على جسمها ملاءة خفيفة ، وأبقى وجهها الناضر عارياً ، وانسحب من الغرفة سائراً على أطراف أصابعه ! !

ونام على أريكة فى الردهة نوماً عميقاً هادئاً تشوبه ألذ الأحلام

محمود البدوى

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)



9 me Année No. 404

Lundi - 31 - 3 - 1941

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٤٠٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ٣ ربيع الأول سنة ١٣٦٠ — الموافق ٣١ مارس سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــرس

يوم الفقـــير

تفضل صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا فدعانى أمس إلى زيارته فى داره بالزمالك ؛ ومن طبعى أن أتهيب الزيارة الأولى لأولئك الذين رفعتهم مواهبهم أو مناصبهم عن مستوى العرف ؛ لأن اعتيادهم إمضاء الرأى وإنفاذ الأمر بالصوت الرفيع والسلطان القوى أرهف فى نفوسهم الحس بما يجب لهم على الناس من أدب الجلوس ومصطلح الحديث . والرجل الذى يلف رأسه الحياء، ويعقل لسانه التزايل ، لا يسهل عليه وهو يستمع إليهم أن يعرف متى يصح أن يسأل ، ومتى يجوز أن يعارض ، ومتى ينبغى أن ينصرف

على أننى كثيراً ما جلست إلى بعض هؤلاء ، جلسة التحفظ والاستحياء ، فكنت أشعر بعد قليل أن المهابة تنجلى عنى ، وأن الجلالة تنسرى عنه ، حتى أزعم لنفسى أنى أفهم الموضوع وأجدر بالحديث . ولكن على ماهر باشا ليس كأحد من أولئك الطبول ! إنما هو رجل ـ كما توسمته من وراء لفظه ـ ألمعى الذهن يكتفى منك باللمحة الدالة ، رصين اللب لا يحرك لسانه إلا بالكلمة المرادة ، رفيع النفس لا يُسرُّ فى مطاوى حديثه عصبية ولا ضغينة . وأخص ما يميز ماهر باشا رسوخ الطبع الاجتماعى فيه . ولعل نبوغه

في القانون الدولي العام على الأخص سر من أسرار هذا الطبع .
وأصحاب الفكرة الاجتماعية ينفرون من السياسة الحزبية لأنها فردية مجتمعة ، ولا يميلون إلى الأعمال المالية لأنها أثرة محتالة .
وإذا طُلبوا إلى الحكم نهجوا فيه منهاج الدين من تنظيم أمر الجماعة ، وإصلاح حال العامة ، على قدر ما يسعه طوق الإنسان الضعيف من توخي الإحسان وإيثار العدل . فإذا خرجوا منه لم يسموا للدخول فيه ؛ لأن السعي للحكم لا يخلو من خطوات في سبيل الشهوة الذاتية والمنفعة الخاصة . لذلك كان أظهر العزائم وأصدقها في وزارتي على ماهر باشا سلسلة من الإصلاح الجماعي تتحقق على وجوهها الصحيحة في وزارة الشؤون الاجتماعية والجيش المرابط . وكانت حياة الفلاح والعامل موضوع هذا الإصلاح وموضعه . فلو أن طوارق الحدثان نامت عن مصر حيناً آخر من الدهر لكان من الممكن أن يشعر الفقير بأن له حقاً في خير الله ، وحظاً من نصيب الوطن .
ولكن الحرب التي تتنمّر أخطارها على الرمال والمياه من حدود (الوادي) لا تتيح لأولي الأمر أن يرصدوا الأهبة كلها لمعالجة الفقر ؛ فلم يكن بد من قيام المعنيين بإصلاح الجماعة ليحلوا هذه المعضلة الأزلية بما حلها به الله ، فيجمعوا المبرات ، ويجبوا الصدقات ، وينظموا الإحسان ، ويسهلوا العمل ، ويوفروا القدرة عليه بمكافحة الجهل والمرض ؛ وذلك هو مشروع الزعيم الاجتماعي على ماهر باشا ، سماه (يوم الفقير) وجعله يتجدد في تاريخ بعد تاريخ ، ويتحدد في إقليم بعد إقليم ، ليكون مظاهراً جيلاً لأريحية النفوس المؤمنة المحسنة ، تتعاون فيه على الخير ، وتتنافس في المعروف ، وتقيم ركن الإسلام الخامس

* * *

حدّثني صاحب المقام الرفيع عن سياسته الاجتماعية وما يتذرع لها باليوم الثامن والعشرين من هذا الشهر وما يتلوه من أيام أخر ؛ فسمعت لأول مرة كلاماً له معناه ، ومنهاجاً له غايته . وكان الأخلق بمن سمع كثيراً من القول ، ورأى قليلاً من الفعل ، ألا يبالغ في الثقة ولا يسرف في الأمل ، لولا أن صاحب الفكرة وممضيها على ماهر باشا ، وهو رجل لم يجرب عليه الناس لغواً في كلام ولا عبثاً في فعل . والحق أن الفقير يستطيع منذ اليوم أن يأوي إلى ركن شديد من عطف المليك ورعاية الحكومة ومعونة الشعب . ولعل مقاومة الحفاء ويوم الفقير هما المحاولتان الجديدتان لمحاربة البؤس ومعاونة البائس ؛ لأن المشروع الأول يعتمد على إرادة كريمة ، والمشروع الآخر يستند إلى إدارة حكيمة . وكانت وزارة الشؤون الاجتماعية عسيّة أن تكفي المصلحين هذا الأمر لو أنها انتفعت بما توخاه لها الكتاب من مناهج الرشد ؛ ولكنها حصرت معونتها للفلاح في إقامة الموالد لتفريج الهم عنه ، وتحرير (المجلة) لمعالجة الأمية فيه ! وعسى أن تكون قد بلغت من ذينك مبلغاً يعوض عليها ما تبذل من مال وما تنفق من جهد !

* * *

لقد قطعنا سنة من عمر الرسالة في تذكير المترفين بأن لهم إخوة من خلق الله يأكلون ما تعاف الكلاب من المآكل ، وينامون مع الحيوان في المزابل ، ويقاسون من الأدواء ما لا يقاسيه حيّ في غير مصر ؛ فلم يؤثر فيهم ما كتبناه إلا كما تؤثر النسمات اللينة في الصخر الأصم . ذلك لأن حق الله في أموالهم قد وُكِلَ أداؤه إلى ضمائرهم ؛ والضمائر قد نامت على هدهدة الشهوات ، والعواطف قد قست على جفاف المادة ؛ وبين غفوة الضمائر وقسوة العواطف ذهب وازع الدين ولم يبق إلا وازع السلطان ؛ لذلك لا ينتظر ليوم الفقير ما ينتظر لمقاومة الحفاء من الفوز ، لأن الدافع هناك رهبة الحكومة أو رغبة (الرتبة) ؛ أما الدافع هنا فعاطفة البرّ وهي في أكثر النفوس رسم دارس بين الجشع والأثرة !

* * *

يا أغنياءنا ، لقد جربتم بذل المال في اللهو ، وقتل العمر في العبث ، وفقد الصحة في المجون ؛ فهل كسبتم من وراء ذلك مجداً ، أو وجدتم في عواقبه سعادة ؟ جربوا ولو مرة واحدة أن تمسحوا دمعة على خدّ حزين ، أو تنفسوا كربة عن قلب بائس ، أو تسهلوا طلب العلم لفقير ، أو تمهدوا سبيل العمل لمتعطل ، أو تشاركوا أبناء الشعب في منفعة عامة ؛ ثم انظروا بعد ذلك كيف يشيع في صدوركم الرخاء ، ويرتفع بقلوبكم الإخاء ، وتنعم نفوسكم في الحياتين بين عاجل المجد وآجل الخلود !

احمد حسن الزيات

نظـــرة عامة
فى شؤون الصحافة (*)
لصاحب العزة أنطون الجميل بك

كل شىء كان يغرينى بالإقبال على التحدث إليكم هذه الأمسية فى كثير من الارتياح ، بل من الاشتياق .

فموضوع الحديث « الصحافة » موضوع شائق طريف ، يتصل بعملى اليومى ، فلا هو غريب عنى ولا أنا غريب عنه .

والمحدَّثون صفوة من الشباب المثقف المتطلع إلى العلم والعرفان ، المتوثب إلى الخوض فى ميادين البحث والتفكير : طلبة معهد الصحافة ، وغيرهم من الذين شرفونى بالحضور من أساتذة الجامعة ورجال الأدب والسياسة والجيش ، وصاحبة الجلالة « الصحافة » حرية بمثل هذه البطانة الكريمة .

ومكان الحديث هذا ، هيكل من الهياكل المقدسة التى أقامتها الأمم الراقية للحريات : حرية التفكير ، وحرية البحث ، وحرية الرأى والقول . فى جوه تتقابل الأفكار ، وتتصادم الآراء ، فتشرق من اصطدامها أنوار الحقيقة واليقين ساطعة زاهية ، لا تحجبها سحب الشك والرياء ، ولا تشوبها شوائب المصانعة والمداراة . وما أشوق الصحفى الذى يكتب فى ظل الرقابة والأحكام العرفية إلى مثل هذا الجو النقى الطليق يتنفس فيه ملء رئتيه ! فالظروف إذن كلها مواتية للحديث : موضوعاً ، ومكاناً ، ومستمعين !

لقد وجدتَ مجال القول ذا سعة　　فإن وجدتَ لساناً قائلاً فقلِ

ومع كل ذلك ترددت فى تلبية الدعوة التى وجهها إلىَّ الزميل الصديق الأستاذ محمود عزمى لإلقاء هذه المحاضرة حتى كدت أحجم . لا لأنى لم أجد اللسان القائل أو القلم الكاتب أمام جميع هذه الظروف المواتية والمغرية ، بل لأن حصر الحديث عن الصحافة فى محاضرة هى بطبيعتها ضيقة النطاق ، محدودة المجال ، ليس من الأمور السهلة فى « معهد الصحافة » أمام طلبة يتلقون دروساً مستفيضة على أيدى أساتذة أعلام فى أصول هذه الصناعة وفروعها وتاريخها ، حتى حذقوا قواعدها وألموا بأسرارها وبكل ما يمت إليها عن قريب أو بعيد . لذلك كان اختيار موضوع هذا الحديث ، على سعة المجال ، صعباً . ولم يكن أمامى مفر من جعله يدور حول العموميات فأفرغته فى لمحة عامة ونظرة إجمالية ألقيها إلى الصحافة وشئونها .

تاريخ الصحافة المصرية من بدء عهد الاحتلال هو تاريخ هذه البلاد فى ستين سنة . فمن حاول كتابة تاريخ هذه كتب تاريخ تلك فى هـذه الحقبة الحافلة بالحوادث التى وصلت بنا تطوراتها إلى ما وصلت إليه البلاد من رقى أدبى ومادى ، ومن مركز سياسى واجتماعى .

فما من نهضة قومية سياسية إلا وكانت الصحافة قائدها ، وما من حركة اجتماعية أو إصلاحية إلا وكانت الصحف رائدها ، عليها اعتمدَ وبها استعان رجالُ الفكر والعمل : من الشيخ محمد عبده ، إلى جمال الدين الأفغانى ، إلى قاسم أمين ، إلى مصطفى كامل ، إلى سعد زغلول ، إلى سائر زعماء السياسة والاجتماع . فكانت الصحافة فى أيدى هؤلاء القادة — وفى أيدى أنصارهم ودعاتهم — السلاحَ الماضى للذود عن آرائهم ، والبوق النافخ الذى يذيع صيحاتهم فى جميع أرجاء البلاد وفيما وراء حدودها

أى حادث وقع فى مصر ، وأى إصلاح تمَّ فى مصر ، ولم يكن الدور الأول فيه لصحف مصر ؟ وأى اعتداء وقع على الدستور أو على الحرية ولم تصب شظيته الأولى صحف مصر ؟ وإذا عاد كل منا إلى تذكر أول نبضة وطنية نبض بها قلبه ، أو أول اختلاجة قومية اختلج بها فؤاده ، أو أول ثورة فكرية تأثر بها عقله ، وجد أن مصدرها كان مقالاً فى صحيفة قرأها أو سمع والده يقرؤها

وهذا الذى نذكره عن مصر يجوز أن نذكره عن كل بلد آخر ؛ ولذلك قالوا إن صحافة كل بلاد هى مرآة صادقة لأخلاقها وميولها ومثلها العليا

وما دام هذا مقام الصحافة ، فما أكثر الصفات الواجب توافرها فى من يتجنَّدون لخدمتها ... إذا وجبت الأمانة والصدق والإخلاص فى كل عمل ، فإنها فى الصحافة أوجب منها فى غيرها ؛ لأن ضرر الرجل الذى يخون هذه الواجبات فى عمله محصور فى نطاق محدود ؛ ولكن ضرر الصحفى الذى يخونها يتعدى إلى الألوف ، بل عشرات الألوف ، بل مئات الألوف الذين يتناولون غذاءهم الأدبى والفكرى فى كل صباح وكل مساء من الصحيفة التى يقرأون ، فيكون لهم فيها الغذاء النافع أو السم الناقع

(*) ألقيت فى « معهد الصحافة » بكلية الآداب

لذلك نرى الصحافة تتدرج وتترقى من الوجهة المادية ، فتزداد صفحاتها ، وتكثر أبوابها ، وتتنوّع أنباؤها ، ويُتفنَّن في بحوثها ومقالاتها

ولكنها من الوجهة الأدبية ، لا تزال شروطها وواجباتها كما كانت بالأمس وكما ستكون في الغد ، واحدة لا تتبدّل ولا تتغير « صدقٌ في رواية الحوادث والأنباء ، وإخلاصٌ في بسط الأفكار والآراء ، ونقدٌ حيث ينبغي النقد ، وثناء حيث يجب الثناء . ومن وراء كل هذا ، العمل على تنوير الأذهان ، وتثقيف العقول ، وتقويم الميول ، ومقاومة الأهواء لإرشاد الرأي العام ، وتوجيهه إلى الغرض الأسمى والمثل الأعلى »

نعم ما أكثر واجبات الصحفي ! وما أتعبها وأشقها في التنفيذ ! ولكن ما أنبلها وأسعدها في النتائج !

قلتُ في محاضرة ألقيتها منذ أربع سنوات على أسلاف لكم أيها الطلبة النجباء في معرض الكلام عن واجبات الصحافة :

كم لدينا من المشاكل الاجتماعية والعمرانية والمسائل المالية والاقتصادية والشئون الاشتراعية والإدارية ، ينبغي للصحافة أن تعالجها وتقتلها بحثاً وتمحيصاً ، لتحييها نشراً وتنفيذاً

إن أمامنا أمةً أضر بها النظام الماضي ، يجب أن تتعلم ، فتعرف أن لها عقلاً يجب تثقيفه ، وصحةً يجب تدبيرها ، وثروة دفينة يجب استغلالها ، وأدباً عالياً يجب إحياؤه ، وتراثاً مجيداً يجب إنماؤه ، حتى تدرك الأمة في نهاية الأمر أنها هي « الأمة مصدر السلطات » حقاً . فمن لهذه الواجبات المقدسة غير الصحافة الوطنية ، وهي بعد السلطة الاشتراعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية رابعة السلطات ؟

إن لنا وطناً كان قد هِيضَ جناحه وشتتْ قواه، واستبيحت حياضه واعتُدِي على حماه ، فيجب الذود عن حقوقه ، والدفاع عن مصالحه وشئونه ، وإعلاء كلمته بين الأوطان ، ليظلَّ زعيم جيرانه ، ويُصبح قِرناً محترماً بين أقرانه . فمن لهذا الواجب غير الصحف ، والصحف كما تعرفون قلاعٌ منيعة من الورق لا تؤثر فيها قنابل المدافع ، والأقلام التي تُكتَب بها مصنوعةٌ من الفولاذ الذي تصنع منه السيوف ؟

إن لنا دستوراً ، وقد حلفنا يمين الأمانة له ، وعلى أساسه قام الحكم النيابي بيننا ، فلا بد من الدفاع عنه لتصان حرياتنا الدستورية . وكيف تصان هذه الحريات إذا فقدت صحافتنا حريتها ؟ إن كلمة «شاتوبريان» أشدّ انطباقاً على تاريخنا الدستوري منها على تاريخ سوانا . قال : « إذا فقدت البلاد دستورها فإن الصحافة كفيلة بأن تجده وترده إلى البلاد» . فلقد ضاع دستورنا أولاً وثانياً ، فكانت صحافتنا في طليعة من جدّ وراءه وردّه إلى مصر سليما . فواجب الصحافة ألا تتخلى عن هذا الواجب

إن على رأس الأمة حكومة يجب أن تعاوَن في مشروعاتها الإصلاحية ، مادية كانت أم أدبية . أما معاونة الصحف للحكومة فتقوم على مناصرتها وتأييدها ، كما تقوم كذلك على نقدها ومؤاخذتها في مواطن النقد والمؤاخذة . فكلتا الصحافتين : المؤيدة والمعارضة تقوم بواجبها الصحفي الحق ، ما دام الإخلاص رائدها والصدق نبراسها ، فلا تميل مع الهوى ، ولا تذهب مذهب الأغراض الملتوية . ومن المسلَّم به أن لكل كاتب أسلوبه ولكل صحيفة خطتها : فهذه تأخذ باللين والهوادة ، وهذه تعمد إلى الشدة والعنف . وأمراضنا الاجتماعية كأمراضنا الجسمية: هذه تحتاج إلى الكمادات والمراهم ، وهذه لا بد لها من المبضع يعمل فيها عمله . والحكومة الرشيدة ترحب بالنقد العادل ترحيبها بالثناء الحق . وإذا كانت الحكومات تجزع أحياناً مما تقوله الصحف ، فإنها أحياناً قد تستهدف للتهلكة من جراء ما لا تقوله الصحف .

أعني بذلك أن حرية الكتابة يجب أن تكون مكفولة ، وذلك لمصلحة الحكومة نفسها ؛ فإن حرية القول هي الوسيلة الوحيدة لوضع حد لاستباحة التمادي في حرية الفعل . ولا أعني بذلك حرية الافتراء والتضليل ، كما لا أعني أن تنشر الصحف كل ما تعلم ، فللقول ساعات يضر فيها الخطأ ولا ينفع الصواب

هذه واجبات الصحافة . وأكرر القول أنها واجبات كثيرة متشعبة وشاقة . وهيهات أن تستطيع الصحافة النهوض بها وحدها على الوجه المروم ، إذا لم تقم الحكومة والأمة بواجبهما نحو الصحف

ولقد سبق لي في موقف آخر أن أفضت في تبيان هذا الواجب ، وأكتفي اليوم بالقول إن الأمل بحصول الصحافة على ما لها من حقوق بات معلقاً على تأليف « نقابة الصحفيين » ويخجلني أن أذكر أن ليس للصحف نقابة حتى الآن ، في حين كاد يصبح عندنا لكل صناعة ولكل مهنة نقابة . وتاريخ المحاولات لتأليف نقابة الصحافة طويل مؤلم . ورد ذكرها لأول مرة منذ نصف قرن . فقد كتب منشئ «الأهرام» — طيب الله

نراه — فصلاً فى مثل هذه الأيام منذ ٥٠ سنة جاء فيه :

« لم نقصد فيما كتبناه مراراً عن الجرائد واتفاقها على « سنديك » ينظر فى مصلحتها ، إلا لأننا رأينا هذه البادئ قاعدة جرائد أوربا المتمدنة وأمريكا الحرة

« وشتان بين أهمية جرائدنا وأهمية تلك ، وبين الرأى العام هنا وهناك، وبين حكامنا وحكامهم . فأصحاب الجرائد الأوربيـة أقل احتياجاً منا إلى الاتفاق تحت شروط تضمن نجاح المصلحة ، ولنا من أعمال سانيدك الجرائد فى باريز ولندره وغيرهما شاهد عدل

« ومهما تتباين مبادئ جرائدنا سياسة . فهى أقل تبايناً من أخواتها فى باريز ... وعند الاتفاق يمكن أن يكون لجرائدنا شأن مهم فى خدمة المصلحة العامة بتهذيبها الظالم والمرتشى والمستبد ، فضلاً عن الخدمات الجليلة التى تترتب على اتفاقها من نشر المبادئ الصحيحة ، والاهتمام بالأعمال العامة ... فنرجو من زملائنا الذين يعرفون واجبات الجرائد ويعترفون معنا بفضل المشروع أن يهتموا بتحقيقه ، ويسعوا إلى الوصول إليه ، وكلما أسرعوا فى الأمر حققوا للجرائد أغراضها . والله ولى التوفيق »

ومنذ ذلك العهد قام الصحفيون بمحاولات كثيرة لتأليف جمعية أو نقابة لهم ، فـكانت هذه الهيئات تعمر سنة أو بعض سنة ، ثم يجرّ عليها العفاء ذيوله ، إلى أن استصدرت وزارة على ماهر باشا الأولى مرسوماً فى ٢٠ أبريل سنة ١٩٣٦ باعتماد « نظام جمعية للصحافة » ، ولـكنه لم يوضع موضع التنفيذ . فوجهت بعد مرور سنة — ١٨ أبريل سنة ١٩٣٧ — سؤالاً برلمانياً إلى وزير الداخلية فى هذا الموضوع ، فردّت الحكومة واعدة بالعمل على تأليف هذه الجمعية . ثم مرت الأيام إلى أن انتهى الأمر بتقديم مشروع بقانون إلى البرلمان بإنشاء نقابة للصحفيين

عُرِض هذا المشروع على مجلس النواب فأقرّه فى العام الماضى . وجاء إلى مجلس الشيوخ فعدّله وأعاده إلى النواب ، ولـكن النواب لم يقروا تعديل الشيوخ . فتألفت لجنة مشتركة من بعض أعضاء المجلسين ، وانتهى بها البحث فى أوائل هذا الشهر إلى صيغة ارتضتها ، وعُرضت على النواب فأقروها يوم الأربعاء الماضى (١٢مارس) وسيؤخذ الرأى عليها مناداة بالاسم فى جلسة غد. ثم ترسل إلى مجلس الشيوخ حيث شرفنى زملائى بأن أكون مقرراً لهذا القانون. والأمل وطيد بأن يقره المجلس فى الأسبوع القادم فيصبح قانوناً نافذاً ويضمن للصحافة شيئاً من حقوقها الأدبية والمادية لقاء ما عدّدته مما عليها من الواجبات.

وهذا القانون ينص فى مادته الثانية على أغراض النقابة وهى :

١ — العمل على صيانة حقوق الصحفيين وتحديد واجباتهم

٢ — تنظيم علاقات الصحافة مع الحكومة والجمهور

٣ — سنّ القواعد المنظمة لمزاولة المهنة الصحفية وبيان العادات المرعية فيها

٤ — تسوية المنازعات ذات الصلة بالمهنة التى قد تنشأ بين أعضاء النقابة أو بينهم وبين غيرهم

٥ — العمل على تحقيق كل مشروع أو عمل من شأنه رفع مستوى الصحافة وإعلاء كرامتها . يحظر على النقابة الاشتغال بأى عمل خارج عن هذه الأغراض »

كما أن المشروع ينص فى مادته الرابعة على الشروط التى يجب أن تتوافر فى من يرغب فى الالتحاق بهيئة الصحافة . وهذا النص ذو أهمية كبرى للعمل على رفع مستوى المهنة فلا يلتحق بها كل من هب ودب ، ولا يدعى كل من لا عمل له أنه صحفى . أما هذه الشروط المفروضة على طلب القيد فى جدول الصحفيين فهى :

١ — أن يكون مصرياً

٢ — ألا يقل سنه عن ٢١ سنة

٣ — أن يكون متمتعاً بالأهلية المدنية

٤ — أن يكون حائزاً لما يؤهله للاحترام الواجب للمهنة

٥ — أن يكون حاصلاً على شهادة دراسية عالية من مصر أو من الخارج ، أو أن يكون على درجة الثقافة التى تقتضيها مهنة الصحفى

٦ — أن يكون مالـكا لصحيفة أو ممثلاً له أو مديراً لصحيفة أو لوكالة استعلامات أو رئيس تحرير صحيفة أو محرراً فيها مدة سنتين على الأقل . وفى تطبيق هذه المادة لا تشمل كلمة صحيفة الصحف ذات الموضوعات الخاصة كالجرائد المالية والرياضية والفنية وغيرها، ولا المجلات التى لا تظهر مرة واحدة فى الشهر على الأقل

٧ — أن تكون الصحافة مهنته الرئيسية ، وألا يحترف التجارة فيما ليست له صلة بمهنته .

وقد فرض المشروع عقوبات على أدعياء الصحافة . فقد نصت المادة ٢٢ على ما يأتى :

« لأعضاء النقابة وحدهم الحق فى حمل لقب صحفى . ويعاقب بغرامة لا تتجاوز عشرين جنيهاً مصرياً كل من وصف نفسه

علناً بهذا الوصف أو استعمله مخالفة لأحكام هذا القانون . فإن عاد تكون العقوبة الغرامة التي لا تتجاوز عشرين جنيهاً والحبس لمدة لا تزيد على ثلاثة أشهر أو إحدى هاتين العقوبتين »

رأيتم أن مشروع القانون الذي تلوت على حضراتكم بعض أحكامه قد عرّفنا من هو الصحفي أو الذي يجوز بعد الآن أن يحمل هذا اللقب . فقد اشترط فيما اشترط عليه أن يكون حاصلاً على شهادة عالية أو أن يكون على درجة الثقافة التي تقتضيها مهنة الصحفي

ذلك أن الصحفي مدعوٌّ بطبيعة عمله إلى الكتابة في شتى الموضوعات ، وهذا الشرط غير مقصور على الذين يدبجون المقالات ويكتبون ما يسمونه « الافتتاحية » أو (Êditorial) بل يمتد إلى الذين يكتبون الأخبار ويترجمون التلغرافات الخارجية . إذ كيف يكتب الصحفي عن الأنباء البرلمانية والوزارية ، وعن أخبار القطن والأوراق المالية ، وعن أعمال اللجان وسائر الهيئات ؟ أم كيف يترجم التلغرافات عن الحوادث العالمية وتطورات السياسة الدولية ، إذا لم يكن ذلك المخبر وهذا المترجم كلاهما ملماً بنظام البلد ودستوره ونظمه ، وبعلم الاقتصاد والقانون والجغرافيا والتاريخ العام ؟ لذلك كان البرنامج الذي يسير عليه أساتذة هذا المعهد « معهد الصحافة » حافلاً بأنواع الدراسات القانونية والاقتصادية والتاريخية والجغرافية ليخرجوا لنا صحفيّين مثقفين يشرفون لقب « الصحفي » عند ما يلقبون به ويتشرفون هم بالخدمة في بلاط صاحبة الجلالة

ولعل أحوج ما يحتاج إليه الصحفي إلى جانب ثقافته العامة شيئان : قوة الملاحظة ، فترى عينه في مشاهداته ما لا تراه عيون الآخرين ، ويلمح خاطره في الحوادث والأنباء ما لا تلمحه خواطر الناس . فإذا قرأوا ما دوّنه من ملاحظات قالوا : « حقاً ... إن الأمر لكذلك »

ويحتاج بعد هذا إلى قلم رشيق يترجم عن آرائه وأفكاره ، ويدون الملاحظات والمشاهدات في أسلوب لبق بعيد عن الركاكة بُعْدَهُ عن التقعر ، وأنتم تقرأون كل يوم الخبر الواحد مصوغاً في أساليب مختلفة : هذا يروقكم ويستوقفكم ، وهذا لا تأبهون له فتمرون به مرّ الكرام . والصحفي أكثر من كل كاتب مفروض عليه الإسراع في الكتابة ، فليس أمامه من الوقت ما أمام الباحث والأديب والمحاضر ليبحث وينقّب ويراجع ، بل هو مضطر إلى تدوين الأنباء تدويناً خاطفاً ، أو إلى التعليق على الحوادث تعليقاً يكون ابن ساعته . فسرُّ الصحافة الحديثة السرعة : السرعة في تلقي الأخبار ، والسرعة في إيصالها إلى القراء . وقد جاء انتشار التليفون والتلغراف السلكي واللاسلكي خير معوان لخدمة الصحافة من هذا القبيل ؛ وإذا كان « الراديو » قد نهض ينافس الصحافة في سرعة نشر الأخبار ، فإن منافسته ستظل محصورة ، لأن العبارة المكتوبة لا تزال أحب إلى العقل من العبارة المقولة

وما دمنا في معرض الكلام عن الأساليب الصحفية وتنوعها فلا بد من القول أن صحافتنا في مجموعها قد أصبحت شاملة لكل هذه الأنواع فتوافق جميع الأذواق . فصحافتنا منوعة في مواعيدها : فنها الصباحية والمسائية ، ومنها الأسبوعية والشهرية منوعة في موضوعاتها : فنها السياسية الأخبارية ، ومنها الأدبية العلمية ، ومنها المصورة الفكاهية

منوعة في أسلوبها : فنها الرزينة المعتدلة ، ومنها المتحمسة المندفعة ، ومنها المنتقدة اللاذعة

ولا سبيل إلى المفاضلة بين هذه الأساليب ، فالأمر راجع إلى ذوق الكاتب ومزاج القارئ . والمهم ، أيا كان الأسلوب ، أن يكون قائماً على الصدق والإخلاص كما ذكرنا

هذه صفات عامة تتناول جميع كتاب الصحف . وهناك صفات خاصة تتناول كل طائفة من كتاب الصحيفة الواحدة : فللكتاب والمحررين صفات ، وللمخبرين والمندوبين صفات ، وللمكاتبين والمصححين صفات ، وللمترجمين صفات ، وللموضبين والذين يتولون عمل « تواليت » الصحيفة صفات ، يطول بنا المقام لو شرحناها وفصلنا كل واحدة منها . ولا يقلّ عمل طائفة من هذه الطوائف التي تحضر الجريدة أهمية عن عمل الأخرى ، وإن كان الغرباء عن الصحافة يتصورون خطأ أن الذي يكتب مقالة هو كل شيء في الجريدة

وقبل أن نختم هذا الحديث ، فلنفتح صحيفة من صحفنا اليومية لنرى تطبيق ما قدمت . ماذا نجد فيها عادة ؟

نجد المقالة أو التعليق على أهم حوادث اليوم

ونجد الأخبار والأنباء التي تتصل بحياة البلد

ونجد الأنباء التلغرافية ، وقد طغت في هذه الأيام على سائر

أبواب الجرائد نظراً إلى خطورة حوادث الحرب واشتباك جميع المصالح بها

ونجد أيضاً الإعلانات ، وقد أصبح الإعلان فناً قائماً بنفسه من حيث الشكل والأسلوب ، وهو ركن أساسي في إيراد الجريدة لا غنى لها عنه لتكفل حياتها ، أو على الأقل لتكفل استقلالها

قال لي مدير إحدى كبريات الصحف الأمريكية : « كل مشترك جديد في جريدتنا يخسرنا سبعة دولارات ، ولكننا نرحب به ، لأن « تعريفة » الإعلانات عندنا ترتفع بنسبة زيادة عدد النسخ المطبوعة فتعوض أجرة الإعلانات هذه الخسارة وتعود علينا بربح »

ولا أريد أن أطوي حديثي معكم على هذه البيانات المادية ، بل أستميحكم بضع دقائق أخيرة نتحدث فيها عن أسلافنا البعيدين ، وهم الصحفيون عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام وقد عنيت بهم « الشعراء » فإنهم كانوا يدونون حوادث القبيلة أو الربع في قصائدهم ، فيتناقلها الرواة . وكم من قصيدة سجلت حوادث القوم ووقائعهم الحربية أوفى تسجيل ، حتى لكأنها الصحيفة المصرية تسرد الأنباء والأخبار سرداً ... ودواوين الشعراء زاخرة بهذا النوع من الشعر الإخباري ، فنجد فيها الشيء الكثير منه

اسمعوا على سبيل المثال هذين البيتين لبشار بن برد ، وقد تكلم في البيت الأول عن الحرب الخاطفة (La guerre - éclair) وضمن البيت الثاني وصفاً لواقعة حربية جاء أشبه شيء ببلاغ من البلاغات الحربية التي نقرأها كل يوم ، قال :

بعثنا لهم موت الفجاءة ، إننا
بنو الموت خفاق علينا سبائبه[1]

فراحوا : فريق في الإسار ، ومثله
قتيل ، ومثل لاذ بالبحر هاربه

وهكذا كان الشعراء يدونون الحوادث في أشعارهم كما يفعل الصحفيون اليوم في جرائدهم . وكانوا كذلك يقومون بمهمة الإعلان ، ولا نعرف « التعريفة » التي كانوا يتقاضونها عن الإعلان في شعرهم

ولعل ألطف إعلان بالشعر ما ذكره كتاب الأغاني ، وخلاصته : أن تاجراً من أهل الكوفة قدم المدينة بخمر — والخمار ما تغطى به المرأة رأسها ، وقد عادت (موضة) الآن — فباعها كلها ، وبقيت السود منها فلم تنفق ، وكان صديقاً للدارمي فشكا ذلك إليه . وكان الدارمي قد نسك وترك الغناء وقول الشعر ؛ فقال له : « لا تهتم بذلك فإني سأنفقها لك حتى تبيعها أجمع » ، ثم وضع شعراً للغناء :

قل للمليحة في الخمار الأسود ماذا صنعت براهب متعبد
قد كان شمر للصلاة ثيابه حتى وقفت له بباب المسجد

فشاع غناؤه في الناس ، ولم تبق في المدينة ظريفة إلا ابتاعت خماراً أسود ، حتى نفد ما كان مع العراقي منها

أقف عند هذا الحد ، معتذراً عن تقصيري ، بأني ما ادعيت قط حصر جميع شئون الصحافة في محاضرة ، بل هي نظرة إجمالية تناولت بعض شئون الصحافة ، ولكم أيها الإخوان ، في محاضرات أساتذتكم في هذا المعهد ما يسد الفراغ ويكمل النقص

ولم يبق لي إلا أن أتمنى لكم التوفيق في الصناعة التي اخترتموها لأنفسكم ، وهي صناعة شريفة إذا عرفنا أن نحتفظ لها بمكانتها . وكل ما أرجو ألا تخرجوا إلى ميدان العمل إلا وتكون جميع القيود التي قضت الأحوال الحاضرة بفرضها على الصحافة قد سقطت : القيود المادية التي تحدد عدد الصفحات ، والقيود الأدبية التي تقيد جولات الأقلام ، فتجدوا المجال أمامكم حراً واسعاً ، فالصحافة لا تزدهر إلا في جو الحرية والاستقلال

أنطون الجميل



(١) جمع سبيبة وهي الراية

الأدب العربى الحديث فى العـــراق

للدكتور زكى مبارك

تمهيد — الصلات الأدبية بين مصر والعراق — كيف صارت العروبة فى ديار الرافدين بعد سقوط بغداد ؟ — الجدال بين السنة والشيعة هو الذى حفظ اللغة العربية فى عهود الاحتلال الفارسى والاحتلال التركى — بواكير النهضة الأدبية في العراق — إحياء الأمجاد العربية — الأدب المجهول — روافد الأدب العراق — لمحات من الفروق بين الاتجاهات الأدبية فى مصر والعراق .

تمهيد :

صار من المقرر فى وزارة المعارف المصرية أن تكون الترقية من التعليم الابتدائى إلى التعليم الثانوى مقصورة على من يفوزون فى امتحان المسابقة لذلك الترفيع [1] ، وهذا نظام يسوق المدرسين سوقاً إلى تزويد عقولهم بما يجدّ فى ميادين الدراسات العلمية والأدبية والاجتماعية

وفى هذا العام يجب على المتسابقين فى اللغة العربية أن يؤدوا امتحاناً فى الأدب الحديث بمصر وسائر البلاد العربية ، وهى مفاجأة لم يستعدّ لها مدرسو اللغة العربية ، لأن الأدب الحديث فى غير مصر ، لا يعرفه من بين المصريين إلا أفراد سمحت لهم الظروف بأن يتنقلوا فى بعض أقطار الشرق من أمثال : المازنى والزيات وعزام . فكيف السبيل إلى تعرّف اتجاهات الأدب الحديث فى بلاد مثل : المغرب واليمن والحجاز وفلسطين وسورية ولبنان والعراق ؟

وقد دعانى جماعة من المدرسين إلى إنشاء طائفة من البحوث فى التعريف بالأدب الحديث فى غير مصر من البلاد العربية ، فأجبت بعد تردد ، لأنى أعرف أن ذلك عبء لا ينهض به رجل واحد ، فقد تعددت المذاهب الأدبية فى تلك البلاد ، وصار من الواجب أن يلتفت إليها عدد كبير من الباحثين ليسجلوا ما فيها من خصائص ذوقية وأدبية واجتماعية

ولو لم تفاجأ « الرسالة » بغلاء الورق ، لكان فى تنفيذ الاقتراح الذى قدمتُه إليها فى صيف سنة ١٩٣٩ ما يغنى المدرسين المصريين من التعب فى تعرُّف الاتجاهات الأدبية بالأقطار العربية ؛ فقد كنت اقترحت أن تصدر « الرسالة » أعداداً خاصة تصوّر ما بتلك الأقطار من المذاهب الفكرية والأدبية ، وتعرّف المصريين بأحوال إخوانهم فى بلاد لا يعرفون من أخبارها العقلية غير بوارق تنقلها الجرائد والمجلات من حين إلى حين بأسلوب قد يصل فى الإيجاز إلى الإخلال

وأنا لم أبتكر الاقتراح الذى قدمته إلى « الرسالة » فى صيف سنة ١٩٣٩ ، فقد استوحيته من العدد الممتاز الذى أصدرته مجلة « العرفان » عن مصر ، والعدد الممتاز الذى أصدرته مجلة « المكشوف » ؛ وهما عددان يفصّلان الأحوال الأدبية والاجتماعية فى مصر أجمل تفصيل ، فإلى هاتين المجلتين أقدّم أطيب الشكر وأصدق الثناء

ثم رأيت أن أبدأ بالكلام عن الأدب الحديث فى العراق ، إلى أن أستعدّ للكلام عن الأدب الحديث فى سائر البلاد العربية ، فماذا وجدت ؟ وجدت المهمة أصعب مما تصورتُ ، لأن العراق الذى عشت فيه وتعرّفت إلى ما عند أهله من آراء وأهواء ونوازع وميول ، يحتاج إلى دراسة دقيقة تستنفد أوقاتاً لا أملك منها غير سويعات قصار أسترقها استراقاً من العمر الموزّع بين أعباء ثقال أخفُّها الجهدُ الذى أواجه به قرائى من يوم إلى يوم أو من أسبوع إلى أسبوع

فهل أُحجِم عن مواجهة هذا الموضوع الجليل إلى أن أجد الوقت المنشود ؟

سأتوكل على الله وأتحدث عن الأدب العراق فى الحدود التى يسمح بها جهد المُقِل ، وجهد المقلّ غير قليل . وسيكون الغرض تصوير أدب العراق فى أشخاص شعرائه وكتّابه بأسلوب يجمع ما تفرّق من مذاهب الأدباء بتلك البلاد ، إلى أن تسمح الظروف بإعداد كتاب شامل عن العقلية العراقية فى العصر الحديث ، والله سبحانه هو الموفق

الأدب العراقى :

بسم الله الرحمن الرحيم

وبالبسملة أبتدئُ حين أُقدِم على موضوع تعترضه عِقاب وصعاب

وموضوع اليوم هو تحديد المرحلة التى يبتدئ بها الأدب الحديث فى العراق ، فما هى بداية النهضة الأدبية الحديثة فى تلك البلاد ؟

[1] الترفيع هو الترقية ، فى تعبير أهل العراق

كان العراق يحمل مشاعل الثقافة العربية إلى أن اجتاحه المُغول فى منتصف القرن السابع ، فبعدئذ نهضت مصر بما كان ينهض به العراق ، وقامت القاهرة بمـا كانت تقوم به بغداد ، ورحّبت المدائن المصرية بعثات من العائلات الراقية ، ولعل هذا هو السرّ فى التشابه الشديد بين المصريين والعراقيين فى النطق ومخارج الحروف ، وفى كثير من العادات والتقاليد ، بحيث يمكن الحكم بأن المصريين والعراقيين لم يكونوا على بُعد الدار إلا إخوة أشقّـاء نقلتهم الحوادث من بلد إلى بلاد

فكيف صارت العروبة فى العراق بعد سقوط بغداد وبعد انتهاء ما تلا عهد المغول من خطوب ؟

ظلّ العراق العربى محتلاً بالقوى الفارسية نحو ثلاثة قرون ، وهو أمدٌ يقدَّر بثلاثة أرقام ، ولـكنه أمدٌ طويلٌ جدًّا ، وكان يكفى لمحو اللغة العربية لو صادف أمةً لا تمتّ إلى العروبة بعرقٍ أصيل . ثم جاء عهد الترك فأيد عهد الفُرس من حيث الاستهانة بمقام اللغة العربية ، فماذا صنعتْ تلك اللغة لتحفظ حيويتها إلى أن يجيءُ يوم البعث ، وهو يوم استقلال العراق ؟

ظفرت اللغة العربيـة فى العراق بأسلحة تضر من جانب وتنفع من جوانب ، وتلك الأسلحة هى مصادر النزاع والشقاق بين المذاهب السُّنية والمذاهب الشيعيّة . فقدْ تنامى العراقيون بلوائم بالاحتلال الفارسى والاحتلال التركى ، وظلوا يتجادلون ويتناقشون بلغة القرآن ، وهى اللغة التى حملت إليهم بذور ذلك الخلاف « السعيد »

ومن المؤكد أن المناقشات بين السنة والشيعة فتقت الأذهان وألانت الألسنة فى العراق . ومن المؤكد أيضاً أن المساجد هى صاحبة الفضل الأول فى تأريث الخصومات العقليـة ، وهى خصومات عادت بالنفع الجزيل على الأدب والبيان ، فمن كان يهمّه أن يعرف كيف عاشت اللغة العربية فى العراق برغم الاحتلال الفارسى والاحتلال التركى فليسأل أساطين المساجد فى البصرة والحلة والموصل وبغداد والنجف وكربلاء

تنامى العراقيون بلوائم بالاحتلال الفارسى والاحتلال التركى وأقبلوا على الجدال فى المفاضلة بين الأمويين والهاشميين ، فعاشوا فى دنيا من الفكر والعقل والوجدان كانت أجدى عليهم من دنيا السيطرة المالية والسياسية ، وبذلك حفظوا لغتهم من التضعضع والفناء . ولله حكمة عالية فى خلق أسباب الشقاق بين الرجال .

اللغة العربية فى العراق مدينة أثقل الدين للخلافات المذهبية ، فتلك الخلافات هى التى أوجبت أن يحرص أقوام على رواية أخبار بنى أمية وبنى العباس ، وأن يحرص قوم على رواية أخبار الحسَن والحسين ، وكانت جميع تلك الأخبار مصبوبة فى قوالب هى الغاية فى الفصاحة والبلاغة والبيان

ولو جاز لى أن أستمين هـذا الأسلوب من المنطق لقلت إن اللغة العربية لم تنهزم فى البلاد الفارسية والتركية إلا بسبب انعدام الخلافات المذهبية فى تلك البلاد ، فالفُرس انحازوا إلى جانب ، والترك انحازوا إلى جانب ، وبهذا السلام خَـلَوْا إلى أنفسهم هنـا وهناك فحلّت النزاعات القومية محل النزاعات المذهبية ، واستغنى أولئك وهؤلاء عن الاستنصار بلغة القرآن

فمن كان غاب عنه أن الخلاف نعمة من نعم الله فليذكر هذه الحقيقة ليعرف أن الله قد يَبتلى بالخلاف عباده الأصفياء

عاشت لغة العرب فى العراق أجيالاً طوالاً بأسناد مذهبية ، فمتى فكّـر العراق فى أن يجعل لغة العرب لغة رسمية بعد انقضاء عهود الخلفاء ؟

العراق الحديث

هنا يتسع المجال لبيان الأسباب التى أنهضت العراق العربى فى عهده الحديث ، فمتى انبعثت شرارة العروبة فى العراق ؟

ثبتَ عندى بعد مطالعات كثيرة أن الأدب العراق كان انطوى على نفسه فى عهود الظلمات فلم يكن إلا مطارحات شعرية أو مراسلات نثرية لا تصوّر صراع العواطف ولا صيال العقول ، بغض النظر عن الشجار الذى لم ينقطع بين المذاهب والآراء

فمتى خرج الأدباء العراقيون من صوامعهم ليحدثوا الجمهور عن المطامح السياسية والقومية ؟

كان ذلك يوم صار للعراق مبعوثون فى استنبول ، فهنالك وجدوا إخواناً ثائرين على « الدولة العلية » من رجال مصر واليمن والحجاز والشام ولبنان ، ومن أولئك وهؤلاء تكونت جماعات أدبية وسياسية تنتصف للعرب من الأتراك ، وتطالب بأن يكون للعرب وجود أدبى وسياسى يستردّ الحقوق التى أضاعها الزمان

ولهذه النزعة جذور دخيلة سجلتها بصراحة فى كتاب « ليلى المريضة فى العراق » ونشرتُ من أخبارها أشياء فيما تحدثت به إلى قرائى فى مجلة الرسالة ، ولـكن المصير واحد وإن اختلفت الأسـباب ، وذلك المصير هو الإيمان الراسخ

بأن العروبة فكرة سليمة قد تؤتى أطيب الثمرات إذا تعهّدها الوطنيون المخلصون بالرعاية والتشجيع

إذا عرفنا هذا صح لنا القول بأن النهضة الأدبية الحديثة فى العراق نشأت مع ثورة الأمم العربية على الدولة التركية، وهى ثورة كانت لها بواعث كثيرة أهمها تطلع تلك الأمم إلى التمتع بنعمة الاستقلال

ومن الواضح أن اللغة العربية كانت أداة التعبير عن تلك الثورة بالتصريح أو التلميح فظهرت مقالات وقصائد ومطبوعات أثارت ما أثارت من نوازع الحميّة العربية، وأنطقت الألسنة والأقلام بأدب جديد هو الأدب السياسى، وأريد به الأدب الذى لا يقف عند شرح العواطف الذاتية، وإنما يتسامى إلى شرح ما يعانى المجتمع من أزمات قومية كما يصنع الأدب الاجتماعى

تلك الفترة من حياة العراق الثائر على حُكم الأتراك هى التى نقلت الأدب العراقى من حال إلى أحوال، وهى التى فتحت عيون أدبائه على فنون الأدب الحديث فى الديار المصرية والسورية، وهى التى أوحت إليه أن يجعل العروبة عماد سياسته القومية فى أكثر الشئون.

ثم ماذا؟ ثم نجا العراق من الاحتلال التركى ليواجه مصاعب خلقها مصاعب الاحتلال الانجليزى، فاذا صنع وقد استبدل احتلالاً باحتلال؟

كانت شخصيته قد استحصدت وقويت، وما زالت تستحصد وتقوى حتى صارت أعز من أن يطمع فيها طامع يعتمد على القوة أو يتوسل باللين، وما هى إلا أعوام قصار حتى شرع العراق ينشر العلوم والمعارف باللغة العربية بعد أن ظلت الفارسية ثم التركية لغة التعليم بتلك البلاد فى آماد لا تُعدّ بالأعوام وإنما تُعدّ بالقرون، وبفضل هذه الفتوة رجعت السيادة للغة العرب فى بلاد كان لها فى خدمة هذه اللغة تاريخ مجيد

وبجانب هذا الفضل فى جعل اللغة العربية لغة التدريس فى جميع العلوم كان فضل آخر هو الحرص على إحياء الأمجاد العربية والإسلامية، فأكثر الشوارع وأكثر المنشآت لها أسماء عربية وإسلامية، وأغرم الناس هنالك بمقاومة الألفاظ الأجنبية، لتصبح لغتهم جديرة بالمطمح الذى يتسامون إليه وهو إحياء عهد الرشيد

يضاف إلى هذا وذاك حرص العراق على الاتصال بجميع الأمم العربية، أو الأمة العربية ـ كما يعبر الأستاذ أبو خلدون ـ ولذلك الاتصال ألوان مختلفات، فهو يتابع جميع الحركات السياسية فى البلاد العربية، ويتابع ما يجد فيها من تطور الآداب والفنون، ويسره أن يقال إن له فاعلية فى إحياء التمدن العربى الحديث

وخلاصة القول أن بداية النهضة الأدبية فى العراق تؤرخ بثورة العراقيين على الحكم التركى، ثم تؤرخ بجعل اللغة العربية لغة التدريس فى عهد الاستقلال

الأدب المجهول

وهنا نقف وقفة قصيرة نشير بها إلى لون من الأدب العراقى تصح تسميته بالأدب المجهول، وهو الأدب الشعبى، الأدب الذى لم يدوّن، ولن يدوّن بعد أن صارت اللغة الفصيحة هى الغاية التى يسعى لتأييدها جميع أدباء العراق

فذلك الأدب الذى يتناقله الناس هناك من بلد إلى بلد قد صور طوائف كثيرة من أحلام القلوب، وأوهام العقول، وهو الشاهد على أن العقل العراقى لم يذق طعم الغفوة برغم ما مر بالعراق من أحداث وخطوب تعصف بمنابت الأهواء والآراء[٢]

روافد الأدب العراقى

يقال إن الأدب المصرى الحديث قد انتفع من اتصال أدباء مصر بالآداب الأوربية، وهو قول حق، فمصر قد نقلت عن أوربا أكثر ما صدر عن أدبائها ومفكريها من المذاهب العقلية والاجتماعية، وقد تكون مصر أول أمة عربية عُنِيَتْ عناية جِدّية بنقل آراء أهل الغرب إلى أهل الشرق، ولعلها أول أمة زودت الغرب بعلوم الشرق فى أزمان الحروب الصليبية

فما هى الروافد التى أمدت الأدب العراقى الحديث؟

أنا أرجح أن الأدب الحديث فى العراق قد انتفع بثلاثة ينابيع: أولها الأدب الفارسى وثانيها الأدب التركى وثالثها الأدب المصرى «مع الاحتفاظ بفضل الأدب العربى القديم»

ولكن كيف وصلت إليه تلك الينابيع؟

الجواب حاضر، فاتصال العراقيين بالأدب الفارسى معروف، ولا يزال بين أدبائهم رجال يسايرون الآداب الفارسية ويتأثرون

(٢) فى العراق أشعار شعبية تحيا على ألسنة الناس منذ قرون بدون تدوين، ولو كان الدكتور طه حسين اطلع على تلك الأشعار لعدل رأيه فى رواية الشعر الجاهلى بعض التعديل

ما بها من أخيلة وتعابير ، وقد يكون فيهم من ينظم الشعر باللغة الفارسية كما صنع الزهاوى يوم ذهب إلى إيران للاشتراك فى إحياء ذكرى الفردوسى ، وقد يكون فيهم من يؤلف بالفارسية كما يصنع السيد هبة الدين الشهرستانى

واتصال العراقيين بالأدب التركى لا يحتاج إلى بيان ، فقد كان جمهور أدبائهم على صلة وثيقة بالتيارات الأدبية فى البلاد التركية ، وأكثر رجالهم الكبار تلقوا دروسهم العالية فى استامبول

أما اتصال العراقيين بالأدب المصرى فهو أقوى من اتصال المصريين بالأدب المصرى ، وهـذا كلام يستغربه من تغيب عنه لموازنة بين القراء فى مصر والقراء فى العراق ، فالقراء فى مصر لا يُعنَون بالصحافة الأدبية كما يُعنَون بالصحافة السياسية ، ومن أجل ذلك تفوتهم أشياء وأشياء من النتاج الأدبى . ولا كذلك القراء فى العراق فهم يسايرون الصحافة الأدبية فى مصر مسايرة جدية ، ويعرفون من أخبار الأدب فى مصر أضعاف ما يعرف القراء المصريون

فما السبب ؟ أيكون شبان مصر أقل ذكاء من شبان العراق ؟

لا ، وإنما يرجع السبب إلى قوة الصحافة السياسية فى بلادنا وضعف الصحافة السياسية فى بلادهم ، فشباننا يجدون من أخبار السياسة مايلهيهم عن الأدب الصرف ويحولهم إلى جنود سياسيين ، وشبان العراق لا يجدون من أخبار السياسة ما يلهيهم عن الأدب الصرف ، ولهذا يقبلون على الصحافة الأدبية إقبالاً يستوجب الثناء

ونصل بهذه المحاولة إلى النص على أن أدباء العراق لهذا العهد ينقسمون إلى جيلين مختلفين بعض الاختلاف : الجيل الوثيق الاتصال بالآداب الفارسية والتركية ، والجيل الذى يأخذ أكبر مادة لغذائه العقلى والروحى من الآداب العربية المصرية ، والتفريق أو التمييز بين آثار هذين الجيلين لا يحوج الباحث إلى عناء

ولن يمضى زمن قليل حتى يكون من الصعب أن نجد اختلافاً جوهرياً بين أساليب الكتاب والشعراء فى مصر والعراق ، ويومئذ نضمن اتحاد المشاعر والعواطف والقلوب بصورة لا يبقى معها مجال لدسائس الطامعين فى تمزيق الوحدة العربية ، وهم أقوام يدخلون من أبواب لا تهتدى إليها الشياطين !

خصائص الأدب العراقى

لكل بلد خصائص ذاتية ترجع إلى طبائع الحياة المحلية . واختلاف الخصائص هو المميز الأعظم لثروة الأدب العربى ، وقد تختلف الخصائص فى القطر الواحد ، كالذى نجد من الفرق بين اتجاهات الأدباء فى القاهرة والإسكندرية ، أو الفرق بين اتجاهات الأدباء فى دمشق وبيروت ، أو الفرق بين اتجاهات الأدباء فى النجف وبغداد ، فمن السهل إذاً أن نعرف أن للأدب العراق خصائص لا توجد فى الأدب المصرى ، أو توجد فيهما ولكن لا على السواء ، وهل اتفق الجوهر الذوقى فى الرائيات الثلاث : رائية أبى نواس ورائية ابن درّاج ورائية البارودى ؟ وهى قصائد موزعة الذوق الفنى بين مصر والأندلس والعراق ؟

لا جدال فى أن لكل بلد خصائص، فما خصائص الأدب العراقى؟

نقيد (أولاً) أن العراق يميل إلى التحرر من التزام القافية والتزام الوزن فى القصيد الواحد ، وتلك رجعة إلى نظام الموشحات ، ولكنها من حيث الصورة تخالف نظام الموشحات ، وأشهر شعراء العراق فى الميل إلى هـذا التحرر هو الزهاوى . وقد يكون فيهم من اتساق مع تيار الموشحات فى أغلب ما نظم من القصائد ، وأشهر هؤلاء هو الحبّوبى

وهذه النزعة وُجدت فى مصر ، ولكن بأخف مما وجدت فى العراق ، وقد ظهرت ظهوراً قوياً بين الشعراء السوريين واللبنانيين الذين أقاموا دولة للأدب العربى فى أمريكا الجنوبية

ونقيد (ثانياً) أن الأدب العراقى يمتاز بالإكثار من الحديث عن الأمم العربية ، فلمصر وفلسطين والشام ولبنان صور كثيرة جداً فى أشعار العراقيين ، ويرجع ذلك إلى هيامهم بزيارة البلاد العربية وإلى تعرّف أكثرهم بمصر عن طريق القراءة أو طريق الدرس ، فكثير من أدباء العراق عاشوا فى مصر وتزودوا من معاهدها العلمية . وكثير منهم زاروا مصر وعرفوا من أخبارها الصحيحة ما زادهم بها فتوناً إلى فتون ، وقد يصفها أحدهم من قبل أن يراها كما صنع الأستاذ شاكر الجودى

وقد اهتم الأدب المصرى بوصف البلاد العربية ولكن بأقلّ مما اهتم الأدب العراق ، وإن كانت قصائد شوقى فى وصف مرابع سورية ولبنان سارت مسير الأمثال

ونقيد (ثالثاً) أن الإخوانيات لا تزال مرموقة المكان عند أدباء العراق ؛ فهم يتراسلون بالرسائل والقصائد على نحو ما كان يتراسل أسلافهم القدماء

وقد انقرض هذا النوع من الأدب المصرى أو كاد ، فما عدنا نسمع برسالة كرسالة حفنى ناصف إلى توفيق البكرى ،

٥ – فى العقد

لأستاذ جليل

٣٥ – (ص ٢٢١) ... وأنا أنظر متى يرمينى بسهم يَقصِد به قلبى ...

قلت: ضبطت يقصد بفتح الياء وكسر الصاد وإنما هى يُقصد فى الأساس: رماه فأقصده وتقصده: قتله مكانه. قال أبو حية النميرى:

رمين فأقصدن القلوب ولم تجد دماً مائراً إلا جوى فى الحيازم !

وروت النهاية لحميد بن ثور:

أصبح قلبى من سليمى مُقصدا إن خطأ منها وإن تعمُّدا !

٣٦ – (ص ٣٠٩) إبرهيم بن المهدى قال: قال لى جعفر ابن يحيى يوماً إنى استأذنت أمير المؤمنين فى الحجامة وأردت أن أخلو وأفر من أشغال الناس وأروّح، فهل أنت مساعدى ؟ قلت: جعلنى الله فداك، أنا أسعد الناس بمساعدتك، وآنس بمخالاتك...

قلت: إن قصد بـ(أروّح) التروح بنفسه بالمروحة[1] – وما أظن ذلك – فاللفظة فى مكانها وإلا فهى (أتوحد[2]) كما جاء فى الشرح فى (العقد) أو أستوحد[3]، أى أنفرد، أو أستريح

وقوله (بمخالاتك) فيه تحريف، قد يكون أصله بمخالتك أو مخادنتك (أى صحبتك) أو خلوتك أو إخلائك، يعنى خلوته وإخلاءه به أو إليه أو معه. و(آنس) هى آنسهم

ومن معانى (المخالاة) فى اللغة: الترك. المتاركة. المخالفة. المبارزة. المصارعة. قال: (ولا يدرى الشقى بمن يخالى). قال الأزهرى: كأنه إذا صارعه خلا به فلم يستعن واحد منهما بأحد. وكل منهما يخلو بصاحبه[4]. وهذا التفسير المتوهم لا ينعش اللفظة المحرفة

٣٧ – (ص ١٢٣) ونظير هذا قول قطرى بن الفجاءة:

(١) فى الأساس: روح عليه بالمروحة، وتروح بنفسه

(٢) وحد وتوحدبنى مفرداً (التاج)

(٣) استوحد: انفرد (الأساس)

(٤) اللسان. وفى الأساس: خاليته مخالاة: وادعته. وتخلى من الدنيا وخالاها مخالاة، وما أحسن مخالاتك الدنيا!

أو قصيدة كقصيدة المازنى فى مداعبة العقاد[2]

ونقيد (رابعاً) أن الهجاء لا يزال من الفنون الأدبية فى العراق، وإن كان لا يُنشر فى الجرائد ولا يسجل فى المطبوعات؛ وهذا الفن لم يبق له فى مصر مجال، وإن كان تهاجى الصحف الحزبية فى مصر قد وصل إلى أبعد الآفاق فى النمز والتجريح !

ونقيد (خامساً) أن أشعار المجون لها بقايا فى العراق، وهى أشعار تغلب عليها لطافة الدعابة وخفة الروح، وهذا الفن قد انعدم فى مصر بموت «الحاجّ» محمد المراوى، وإنما قلت «الحاج» لأمطر قبره بفكاهة ينتعش بها ثراه، فقد نظم المراوى قصائد مجونية تفوق مجونيات أبى نواس، إن جاز القول بأن الدنيا عرفت ماجناً يفوق أبا نواس، إلا أن يكون الماجن هو المراوى، وكان رحمه الله غاية فى التقى والعفاف، ولم ينظم أشعار المجون إلا حباً فى تزويد الأدب بمختلف الألوان

ثم نقيد أن للأدب العراقى خصيصة تفوق تلك الخصائص وهى إمعانه فى الصدق، فهو صورة لما يعانى العراق من خطوب وما يطمح إليه من آمال، ولو عُصِر الروح العراقى كما يُعصَر الورد لكان عصيره دموعاً تشبهها الحمامة الوصلية يوم فراق الأليف

أما بعد، فهذا تمهيد للكلام عن الأدب العراقى، وهو تمهيد أردنا به تحديد الرحلة التى قطعها العراق ليصل إلى ما وصل إليه من إعزاز اللغة العربية، وأردنا به النص على روافد الأدب وخصائص الأدب فى ذلك القطر الشقيق

ومن المحتمل أن يكون فى الأحكام التى سقناها فى هذا التمهيد ظِلٌّ من الخطأ الطفيف، ولكنها فى الجملة تستند إلى قواعد سليمة من آفات الميل والانحراف. فما الذى سنصنع بعد هذا التمهيد ؟

سنتحدث عن الأدب الحديث فى العراق بالتفصيل، وبأسلوب يقربّه إلى أذهان القراء كل التقريب، وسنرى ويرى معنا قراء الرسالة فى مختلف البلاد العربية أن البلاد التى أنجبت المتنبى والرضىّ خليقة بأن تؤيد ماضيها الجميل بحاضر جميل

وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلتُ، وإليه أنيب

زكى مبارك

(حاشية): ستقع فى الأبحاث الآتية أحكام لا يرضى عنها جميع الأدباء فى العراق، فليعرفوا سلفا أن الغرض من هذه الأبحاث هو التعريف بالأدب العراقى على حقيقته بلا تزيين ولا تهويل، ليكون العراقيون على بينة من صورهم الصحيحة فى أذهان من محبوهم حيناً من الزمان. والقسوة الحق لا تعاب، وإنما يعاب الرفق المصنوع. وإيمانى بأن أدباء العراق لا تؤذيهم كلمة الحق هو الذى يشجعنى على المضى فى هذا الدرس الصريع. (ز. م)

(٢) السبب فى انعدام هذا الفن بمصر هو إقبال الأدباء المصريين على درس المذاهب السياسية والاجتماعية

وقولى كلما جشأت لنفسى من الأبطال ويحك لا تراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذى لك لم تطاعى

قلت : رواية البيت الأول هى هذه :

أقول لها وقد طارت شعاعاً من الأبطال ويحك لن تراعى

وهو مطلع مقطوعة رواها أبو تمام فى حماسته وابن خلكان فى الوفيات . وجاء فيهما بعد ذينك البيتين :

فصبرا فى مجال الموت صبراً فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عز فيطوى عن أخى الخنع اليراع[٥]
سبيل الموت غاية كل حى فداعيه لأهل الأرض داعى
ومن لا يُعتبط يسأم ويهرم وتسلمه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خير فى حياة إذا ما عُد من سقط المتاع

قال ابن خلكان : هذه الأبيات تشجع أجبن خلق الله ، وما أعرف فى هذا الباب مثلها ، وما صدرت إلا عن نفس أبية ، وشهامة عربية !

ومن قول قطرى[٦] :

ألا أيها الباغى البراز تقربن
أساقك بالموت الذعاف المقشّبا[٧]
فما فى تساقى الموت فى الحرب سبة
على شاربيه فاسقنى منه واشربا

٣٨ — (ص ١٩٠)

أو أبلق ملأ العيون إذا بدا
من كل لون معجب — بنموذج[٨]

قلت : البيت للبحترى فى قصيدة فى الخيل : والرواية فى الديوان وشفاء الغليل والتاج هى : أو أبلق (يلق) العيون ... ويلق فى هذا المقام أدق من (ملأ) وأكثر بحترية ...

(٥) أخو الخنع الذليل ، والخنوع الذلة (اليراع) القصبة التى لا جوف لها . والرجل الذى لاقلب له جبان كأنه لا جوف له . فوضع اليراع مكان الجبان لأنه بمعناه (التبريزى)

(٦) كان طامة كبرى وصاعقة من صواعق الدنيا فى الشجاعة والقوة وله مع المهالبة وقائع مدهشة ، وكان عربياً فصيحاً مفوها وسيداً عزيزاً وشعره فى الحماسة كثير (أعلام الزركلى عن سنا المهتدى المخطوط)

(٧) الذعاف سم ساعة ، المقشب : الذى قد خلط به أدوية تقوية (التبريزى)

(٨) النموذج : مثال الشىء أى صورة تتخذ على مثال صورة الشىء ليعرف منه حاله ، معرب نموره ، والعوام يقولون نمونه ، والأنموذج بضم الهمزة لحن ، كذا قاله الصاغانى فى التكملة وتبعه المصنف ، قال شيخنا نقلا عن النواجى فى تذكرته : هذه دعوى لا تقوم عليها حجة ، فما زالت العلماء قديما وحديثاً يستعملون هذه اللفظة من غير نكير (التاج)

٣٩ — (ص ١٨٧)

إمليسة إمليدة لو عُلِّقت فى صهوتيه العين لم تتعلق

وجاء فى الشرح : إمليسة إمليدة : أملس أملد ، أى لين ناعم . والذى وجدناه فى كتب اللغة أن الأمليسة : الصحراء التى لا شىء فيها من نبات ونحوه ، فاستعاره الشاعر هنا للفرس

قلت : روى البيت فى العقد فى قصيدة لحبيب يصف فرساً . وأغلب الظن أن القول هو أمليسه أمليده . والهاء فى اللفظتين ضمير يعود إلى (الأديم) فى بيت جاء فى الديوان المطبوع بعد هذا البيت :

صافى الأديم كأنما ألبسته من سندس برداً ومن إستبرق

والأمليد والأملود الناعم ، وإمليس أفعيل من الملاسة ، النعومة

٤٠ — (ص ١٧٧) وقيل لرجل جبان فى بعض الوقائع : تقدمْ . فأنشأ يقول :

وقالوا تقدم قلت لست بفاعل أخاف على نخارتى أن تحطما
فلو كان لى رأسان أتلفت واحداً ولكنه رأس إذا راح أعقما

قلت : زاد الناسخون الواو فى أول البيت وصاحبه لم يجلبه وفى البيت خرم[٩] ، وهو فى شعرهم كثير ، والحركة فى (لى) تطبيع

٤١ — (ص ٤٢) وقال ابن قتيبة : لم يقل فى الهيبة مع التواضع بيت أبدع من قول الشاعر فى بعض خلفاء بنى أمية :

يغضى حياء ويغضَى من مهابته فما يُكلم إلا حين يبتسم

وجاء فى الشرح : الشاعر هو الفرزدق

قلت : الذى قاله ابن قتيبة فى (الشعر والشعراء) هو هذا : « تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب : ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه كقول القائل :

فى كفه خيزران ريحها عبق من كف أروع فى عرنينه شمم

يغضى . . . البيت . لم يقل أحد فى الهيبة أحسن منه »

والبيت للحزين الليثى (عمرو بن عبد وهيب) فى أبيات قالها فى عبد الله بن عبد الملك « ووفد إلى مصر وهو واليها » كما جاء فى معجم الشعراء للمرزبانى ، وقد نسب البيت فى كتب كثيرة

(٩) الخرم حذف أول الوتد المجموع من أول البيت كحذف فاء فعولن هنا . وفى قول الشنفري (لاتقبرونى أن قبرى محرم) الرسالة ٣٩٩ ص ٢٠٧ وقد جاء فى الشرح : فى البيت خـرم ، وهذا تطبيع وإنما هو خرم

إلى الفرزدق خطأ ، وربه أولى به ، وفى الرسالة ٣١٦ ص ١٤٥٠ بحث فى هذه النسبة وأبيات الحزين

٤٢ — (ص ١٤٤) . . . أى المكائد فيها أحزم . قلت : هى المكايد مثل الخابل ؛ وهمزُ قراء معايش على التشبيه بصحائف خطأ . وقد وردت اللفظة فى الشرح وفى الصفحة ٢٤٣ مضبوطة

٤٣ — (ص ٨٠)

لو عُدّ قوم وقوم كنت أقربهم قربى وأبعدهم من منزل الذام

قلت : البيت فى مقطوعة منسوبة إلى هشام الرقاشى ، وقد ذكرت فى الشرح روايات مختلفة لها ، ورواية الحماسة والخزانة[١٠] التى لم يشر إليها قد تكون أصحها ، وهى هذه[١١]

أبلغْ أبا مِسمع عنى مغلغلَة وفى العتاب حياة بين أقوام[١٢]

أدخلت قبلىَ قوماً لم يكن لهم فى الحق أن يدخلوا الأبواب قدامى

لو عُدّ قبر وقبر كنت أكرمهم ميتاً وأبعدهم عن منزل الذام[١٣]

فقد جعلت إذا ما حاجتى نزلت بباب دارك أدلوها بأقوام

٤٤ — (ص ٣٥٤) ومنهم (أى من الأجواد) يزيد بن حاتم . كتب إليه رجل من العلماء يستوصله ، فبعث إليه ثلاثين ألف درهم . وكتب إليه : أما بعد فقد بعثت إليك بثلاثين ألفاً لا أكثرها امتناناً ، ولا أقللها تجبراً ، ولا أستثيبك عليها ثناء ، ولا أقطع لك بها رجاء . والسلام

قلت : فبعث إليه بثلاثين ألف درهم ، كما جاء بعد ذلك ، والتعدية بالباء هنا أسلم ، ولقولهم بعثه وبعث به قصة طويلة أنقل بعض ما قيل فيها :

فى اللسان : بعثه أرسله وحده ، وبعث به أرسله مع غيره . . .

فى درة الغواص فى أوهام الخواص : ويقولون بعثت إليه بغلام وأرسلت إليه هدية ، فيخطئون فيهما لأن العرب تقول فيما يتصرف بنفسه بعثته وأرسلته[١٤] ، كما قال تعالى : (لقد أرسلنا رسلنا) ، وتقول فيما يحمل بعثت به وأرسلت به ، كما قال سبحانه إخباراً عن بلقيس : (وإنى مرسلة إليهم بهدية)

فى شرح الدرة للخفاجى : قال ابن بَرّى : بعث يقتضى مبعوثاً متصرفاً كان أو لا ، تقول : بعثت زيداً بغلام وبكتاب ، فلهذا لزمته الباء ، وكذا أرسلت يقتضى مرسلاً ومرسلاً به متصرفاً كان أو غير متصرف . . .

فى المصباح : كل شىء ينبعث بنفسه ، فإن الفعل يتعدى إليه بنفسه ، وكل شىء لا ينبعث بنفسه كالكتاب والهدية ، فإن الفعل يتعدى إليه بالباء فيقال بعث به . وأوجز الفارابى فقال : بعثه أى أهبّه[١٥] ، وبعث به : وجهه . . .

وروى خبر (العقد) فى (الأمالى) وفيه (روح بن حاتم) مكان (يزيد بن حاتم) و (لا أقللها تكبراً) مكان (لا أقللها تجبراً) و (تمننا) مكان (امتنانا)[١٦]

ونقل البغدادى فى (الخزانة) هذا الخبر من بن عبد ربه ، أى من (العقد) ، وفيها (لا أقللها تحقيراً)

وقد حوت خزانة كتب البغدادى نسخة من (العقد) ؛ وقد تكون هى الصحيحة المضبوطة . فأين هذه النسخة وأين سائر كتب الرجل التى سماها فى مقدمة مصنفه وهى — كما قال — :

« المواد التى اعتمدنا عليها ، وانتقينا منها ، وهى ضروب وأجناس » ؛ وقد « اجتمع عنده بفضل الله من الأسفار ، ما لم يجتمع عند أحد فى هذه الأعصار »

وقد كان البغدادى فى القاهرة ، وفيها خزانة كتبه العجيبة المدهشة ، والعهد قريب . قال فى آخر مؤلفه : « وكان ابتداء التأليف بمصر المحروسة فى غرة شعبان من سنة ثلاث وسبعين وألف . وانتهاؤه فى ليلة الثلاثاء الثانى والعشرين من جمادى الآخرة من سنة تسع وسبعين . فتكون مدة التأليف ست سنين مع ما تخلل فى أثنائها من العطلة بالرحلة . فإنى لما وصلت إلى شرح الشاهد (٦٩) بعد (٦٠٠) سافرت إلى قسطنطينية فى الثامن عشر من ذى القعدة من سنة سبع وسبعين ،

(١٠) ج ٣ ص ٣٤٥ (١١) فى الخزانة : أوردها أبو تمام والأعلم الشنتمري وصاحب الحماسة البصرية فى حماساتهم لعصام بن عبيد الزمانى ونسبها الجاحظ فى كتاب البيان لهمام الرقاشى ، وفى الشرح فى العقد : ونسب (الشعر) فى عيون الأخبار إلى أبى القمقام الأسدى

(١٢) المغلغلة : الرسالة لأنها تغلغل إلى الانسان حتى تصل إليه من بعد ، من قولهم تغلغل الماء إذ أدخل بين الأشجار (الخزانة)

(١٣) قال الطبرسى : يريد لو عدت القبور قبراً قبرا إلا أنه اختصر وحذف القبور وجعل القبر فاعلا (نائب فاعل) وأزاله من سنن الحال. وقيل معناه لو عد قبرى وقبر الداخل قبلى لكنت أكرم منه ميتا ، والذام لغة فى الذم

(١٤) قلت : هل يرى الحريرى الريح والصيحة والحاصب مما يتصرف بنفسه ؟ ففى (الكتاب) : إذ أرسلنا عليهم الريح ، إنا أرسلنا عليهم حاصبا ، إنا أرسلنا عليهم صيحة . . .

(١٥) أهبه : نبهه ، بعثه من منامه وهب السيف اهتز وأهبه هزه . . .

(١٦) عدى بعث فى (الأمالى) فى الجملتين بالباء

هل يكفي التراث الشرقي
لنضج الحياة العقلية عند الشرقيين؟
للأستاذ عبد الرحمن الرافعي بك

التراث الشرقي في العلوم والآداب والفنون هو ولا شك تراث مجيد ، ولكنه مع ذلك لا يكفي لنضج الحياة العقلية الحديثة عند الشرقيين ؛ بل يجب لكي يصل هذا النضج إلى مداه من التقدم أن يجمع إلى التراث الشرقي خير ما أنتجته وتنتجه القرائح والعقل البشري في الغرب. ولا غضاضة علينا في ذلك ، فإن الأمم الأوربية نفسها وهي التي تم نضج الحياة العقلية فيها ، لا تفتأ كل منها تقتبس عن أية أمة أخرى في الغرب أو الشرق ما يظهر فيها من مستحدثات التجارب والاكتشافات والمذاهب العلمية . ولذلك قالوا : إن العلم لا وطن له ؛ وإن كان العالم له وطنه كما قال « باستور »

إن التراث الشرقي في ذاته لم يقف عند مستوى واحد ، ولم يقتصر على طابع واحد ، بل كان ينمو ويتطور على مدى العصور . وفي خلال هذا التطور قد اقتبس عن التراث الغربي القديم ، وكان ذلك من عناصر نموه وارتقائه

فالآداب والعلوم والحياة العقلية في عصر الجاهلية تختلف طبعاً عما صارت إليه في صدر الإسلام على عهد الخلفاء الراشدين، ثم في عصر الأمويين والعباسيين ؛ وإنتاج القرائح والعقول في هاتيك العصور قد نما وتطور تبعاً لسنة التقدم الإنساني ، بحيث أن التراث الشرقي يحتوي على أدوار متعاقبة ، لكل دور طابعه وخصائصه . ولست أريد التوسع في بيان ذلك لكي لا نخرج عن جوهر الموضوع ، وأكتفي بالإشارة إلى أن الحياة العقلية والأدبية في عصر العباسيين قد نمت وازدهرت واتسعت آفاقها عما كانت عليه في عهد الأمويين ، وكان من مظاهر هذا الازدهار ظهور العلوم الدخيلة أي المقتبسة عما وضعه رجال العلم والفلسفة والأدب في الحضارات القديمة : كالمصريين والفرس واليونانيين والرومان . فإذا قلنا : إن علوم المصريين القدماء والفرس تعد من التراث الشرقي ، فإن علوم الإغريق والرومان وآدابهم هي من التراث الغربي القديم

نقل إذن علماء العصر العباسي علوم اليونانيين إلى اللغة العربيـة ، فترجموا الفلسفة والأدب والمنطق عن أفلاطون وأرسطو ، والطب عن أبقراط وجالينوس ، والرياضيات والفلك عن أقليدس وأرخميدس ، وغير ذلك كثير ، فكان لهذا الاقتباس أثره في نضج العلوم والأفكار واتساع محيط الحياة العقلية عند الشرقيين . ولا شك أن العصر العباسي في التراث الشرقي يعـدّ العصر الذهبي من الناحية العلمية والأدبية والفلسفية . وقد ظهر طابع هـذا العصر في الشعر والأدب والعلم والفلسفة ، وفي تعدد العلوم وظهور علوم جديدة ، كالطب والكيمياء والصيدلة والجغرافيا والموسيقى والفنون الجميـلة . فهذا الطابع يدلنا على أن ازدهار الحياة العقـلية في التراث الشرقي في ذاته كان مقترناً بالاقتباس عن الحضارات الأخرى

انتهى هذا العصر الذهبي بسقوط الدولة العباسية ، أو بعبارة أخرى بسقوط بغداد في يد التتار سنة ٦٥٦ للهجرة (١٢٥٨ م) وجاء العصر المغولي ، ثم العصر العثماني ، وفيهما أصاب التراث الشرقي الركود ثم الجمود ، وتبع ذلك وقوف حركة التقدم . نعم إن قرائح العلماء والأدباء في الشرق قد استمرت في الإنتاج

ولم يتفق لي أشرح شيئاً إلى أن دخلت مصر المحروسة في اليوم السابع من ربيع الأول ثم شرعت في ربيع الآخر وقد يسر الله التمام وحسن الختام ... »

ومن الكنوز التي ذكرها في المقدمة : « الكامل للمبرّد[17] وشرحهُ لابن السيد البطليوسي ، ولأبي الوليد الوقشي ، ولغيرها[18] ... »

فأين هذه الشروح ؟! أين هذه الشروح ؟! هل عثر عليها أحد ؟! هل اطلع على أحدها أحد ... ؟ ! ***

(١٧) المبرد بفتح الراء المشددة كما ضبط ابن خلكان ، تراجع الرسالة ١٩٩ ص ٧١٢ والرسالة ٢٠١ ص ٧٩٧ والرسالة ٢٠٥ ص ٩٠٨ وخزانة الحموي ص ٢٥٦ والأساس ٢ ص ١٩٣

(١٨) ومن تلك الكنوز : كتاب النبات في مجلدات كبار ستة لأبي حنيفة الدينوري ، منتهى الطلب من أشعار العرب فيه أكثر من ألف قصيدة ، تآليف أبي علي الفارسي كالتذكرة القصرية والمسائل البغدادية والمسائل العسكرية والمسائل البصرية والمسائل المنثورة ، كتاب الشعر والشعراء للجاحظ ، أشعار لصوص العرب ... ، أمالي الزجاجي الكبرى ، أمالي الصولي ، أغلاط الكامل للمبرد ، الحماسة البصرية

إلى ابتداء العهد العثمانى ، ولكن مما لا شك فيه أنه منذ الفتح العثمانى لمصر سنة ١٥١٧ قد وقفت حركة التقدم تماماً ، فكسدت العلوم ، وانحط الأدب ، وجمدت القرائح ، وتراجعت العقول ، وانقضت نحو ثلاثة قرون والشرق فى تأخر من الناحية العلمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ؛ بينما الغرب قد أخذ بأسباب الحياة والنهوض فسبق الشرق عدة قرون فى النضج العقلى . فبديهى أنه عندما ابتدأ الشرق يستفيق من سباته العميق فى نهاية القرن الثامن عشر كان لا بد أن يقتبس من الغرب ما سبقه إليه فى خلال القرون المتعاقبة ؛ لأن العلوم والآداب والاكتشافات والاختراعات قد ضاعفت تراث الغرب بحيث لا يستطيع الشرق أن يأخذ قسطه من الحياة العقلية إلا إذا اقتبس عنه خير ما انتجته قرائح علمائه وفلاسفته وأدبائه فى خلال هذه الحقبة الطويلة من الزمن . فمثل الشرق فى ذلك كمثل التلميذ الذى يقعده المرض أو الكسل عن متابعة الدرس والتحصيل زمناً ما ، فإذا عاد إلى الدرس كان مضطراً إلى أن يأخذ عن أساتذته أو عن مؤلفاتهم ومذكراتهم ما فاته فى مدة المرض أو الكسل لكى يصل إلى مستوى أقرانه فى المدرسة

ولم يتردد الغرب حين بدأ عهده بالبعث والنهوض فى أن يقتبس عن التراث الشرقى حضارته وعلومه ؛ فقد نقل علماؤه فلسفة ابن رشد ودرسوها واقتبسوا منها ، وكانت ينبوعاً لليقظة العلمية فى الغرب

واقتبسوا أيضاً فى عهد الحروب الصليبية العلوم والحضارة الشرقية وحملوها إلى بلادهم وأفادوا منها ، وكانت من العوامل الجوهرية فى نهضة أوربا

فمن الواجب إذن على الأمم الشرقية إلى جانب إحياء التراث الشرقى القديم أن تقتبس عن الغرب تراثه الجديد ، وتأخذ عنه محاسنه ومزاياه . ولو أن حركة التقدم قد تابعت سيرها فى الشرق ولم يقفها ذلك التأخر الذى أصابه خلال قرون عديدة لزاد من غير شك تراثه فى العلوم والآداب ، ولما سبقه الغرب فى هذا المضمار . أما وقد بعد عهده بازدهار الحياة العقلية فعليه إذا أراد بعث هذه الحياة أن يقتبس عن الغرب علومه الحديثة . وهذا على وجه التحقيق ما اتجهت إليه حركة النهضة العلمية والعقلية فى مصر منذ بداية القرن التاسع عشر ، عند ما ولى أمرها محمد على الكبير . فهو إذ أراد أن يبعث الحياة العلمية والعقلية فى مصر لم يقتصر على إحياء التراث الشرقى القديم بل نقل إليها إلى جانب ذلك علوم الغرب وآدابه . وأوفد لذلك البعثات العلمية إلى أوربا فتلقى أعضاؤها العلوم والفنون والآداب فى جامعات فرنسا وغيرها وعادوا إلى مصر وقد اكتملت ثقافتهم فنقلوا إلى اللغة العربية كتب الطب والطبيعيات والرياضيات والفنون الحربية والآداب والحقوق والعلوم الاقتصادية والاجتماعية . فهؤلاء العلماء الذين استوفوا قسطهم من التراث الغربى هم الذين على يدهم بعث التراث الشرقى القديم فى ثوب قشيب ، فعادت إليه الحياة . ولو أنهم اقتصروا على هذا التراث وحده لما كان فى استطاعتهم بعثه واستظهار مفاخره ومزاياه . فعلى ضوء العلوم الأوربية والثقافة الأوربية قد تكشفت لهم حقائق التراث الشرقى وفهموها حق الفهم ، وربطوا بينها وبين عوامل التقدم الحديث بحيث تابعوا هذه العوامل فنهضوا بهذا التراث وجعلوه ملائماً لمقتضيات العصر الحاضر

هناك وجهات نظر ثلاث لا تزال النهضة العلمية والعقلية فى الشرق مترددة حائرة بينها : إحداها ترمى إلى الاقتصار على التراث الشرقى القديم وإحيائه ، وقصر الحياة العقلية على حدوده ومقتضياته ؛ وهذه الوجهة لا تكفى فيما أعتقد لاستكمال أسباب النهضة والحياة فى العصر الحديث . والثانية اطراح التراث الشرقى جانباً وقطع صلاتنا بالماضى واقتباس الحضارة الأوربية والعقلية الأوربية كما هى بما لها وما عليها ، بمزاياها وعيوبها . وهذه أيضاً وجهة نظر خاطئة تنتهى بنا إلى اقتباس العيوب دون المزايا ، وتؤدى إلى نوع من التبعية العقلية والثقافية لأوربا تتطور مع الزمن إلى تبعية سياسية وقومية . والوجهة الثالثة هى إحياء التراث الشرقى مع اقتباس خير ما أنتجه وينتجه التراث الغربى من الناحية العلمية والأدبية ؛ وهى فى اعتقادى الطريقة الوسط التى تكفل لنا نهضة صحيحة فى الحياة العقلية والفكرية

إنى أجد فى تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ما يؤيد وجهة نظرى ؛ فهو الإمام الدينى العظيم ، ومع ذلك قد اقتبس فى علمه وتفكيره عن العلوم والفلسفة الأوربية ، وطالع الكثير من كتب العلماء والمستشرقين والفلاسفة الأوربيين . وكان يتابع دائماً حركة التقدم العلمى فى أوربا ويخالط العلماء الغربيين ويحادثهم ويأخذ

الغنـــاء والموسيقى
وحالهما فى مصر والغرب
للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك

— ٣ —

اشتدّ الاتصال بين مصر والغرب منذ أوائل القرن الماضى بتعدد ضروبه ، مع الزمن ، وتشعّب دروبه ؛ فنمت نزعة المصريين إلى تقليد الغربيين ، شأن المتخلِّف المُستضعَف مع المتقدم صاحب الشوكة والغَلَبة السياسية

وخرج العالم من الحرب الكبيرة الماضية ظمآن إلى التشييد والتجديد والتفوق ، مبتلى بأنواع من الفساد وصنوف من الادعاء، وأدرك عندنا جيل نبت فى أثنائها أو بُعيدها ، واتسع أمامه ميدان التقليد فى الضلالة والهدى ؛ وكثر بيننا سالكو مناهجه ومدعو العلم والفن ، والابتكار والعبقرية ؛ فوُجد بطبيعة الحال مَن دعا إلى التجديد فى الغناء والموسيقى ، وإلى تقليد الغربيين فيهما ، وأقبل عليه فريق من المشتغلين بهما

قام بعضهم بتقليد طائش وهم يحسبون أنهم يحتذون مثال الغرب فى فنه ؛ وكان الأصوب والأجدى ألا يقلدهم إلاّ من كان على قدر من المعرفة بفنهم ، بماهيّته الأصلية وأصوله وأنواعه ، مع صحة الفهم لتعابيره ، كى يكون فى مأمن من تشويه ما فى يده بأخلاط لا هى من هذا ولا هى من ذاك ، كما صنع أناس لا يعرفون من الغناء والموسيقى جملة ، إن عرفوا ، سوى المقام وربع المقام وبعض النغمات ومواقعها على المعازف ، وسوى أقيسة ما يغنون أو يعزفون من الألحان الشرقية والغربية

تورط هؤلاء فى تخليط قديمهم المسيخ بما يسرقون ويحرفون من الألحان والموسيقى الغربية القديمة والحديثة ، ومن أصوات « الجاز » وهم يسمون هذا الخليط الغريب من ألحانهم وغنائهم وموسيقاهم فناً وتجديداً ، مع أن هذا الجديد موصوم بالعيوب المبينة فى هذه الكلمات ، ومع ركوده فى قرار سحيق يبعد به كل البعد عن مستوي الفن الحقيق الذى أوضحنا ماهيته الأصلية

فكل لحن من أكثر جديدهم ألف صنف (أو سلطة روسية — على استعارة فى العامية الفرنسية للمجموع المشوَّش من الأشياء المختلفة) فقد تجد فى هـذه السلطة العجيبة عبارة صوتية ممسوخة من أوبرا ، تتصل بأخرى من شارلستون ، تعانق ثالثة من لحن دور عربى تنتهى إلى نغم من تنجو أو رُمْبا ، يتعلق بذنبه شىء من موسيقى « عشرة بلدى » وماذلك إلا تنافر صارخ بين دلالات موسيقية على مدلولات تجمع غضبة مستفحلة - مثلاً - إلى خلاعة إلى بكاء إلى إيحاء شهوى ، إلى ما لسنا نفهم فى الغناء الجديد أو المبتكر ، من أصوات يمطّ ويمدّ فيها حرف أو أحرف مداً قلقاً فى مواقعه ، شاططاً خالياً من التناسب مضحكا فى شذوذه ؛ وتسمع منها جلجلات مستنكرة ينبو عنها الطبع ،

عنهم خير ما أنتجوا . ولقد كان لذلك أثر كبير فى اتساع مداركه وتفكيره ، بل فى قدرته على الدفاع عن الإسلام وتخليصه من الشوائب التى علقت به فى عصور الركود والجرد ، وتفهيم المسلمين وغير المسلمين حقائقه السليمة . ولا أعتقد أنه كان يصل إلى هذه المنزلة لو اقتصر فى علمه وإدراكه على مدارك التراث الشرقى . ولا أعتقد أن معاصريه من العلماء الذين اقتصروا على التراث الشرقى قد وصلوا إلى مثل هذه المنزلة أو خدموا الإسلام مثلما خدمه الأستاذ الإمام

فحينما حمل (هانوتو) حملاته المشهورة على الإسلام لم تجد من يرد هذه الحملات ويفندها تفنيداً علمياً سديداً مثل الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وكذلك لا تجدون كتاباً دحض حجج الطاعنين فى الإسلام مثل كتابه (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) ومن يطالع هذا الكتاب أو يطالع رده على هانوتو يجد مبلغ ما اقتبسه عن الفلسفة الأوربية والعلم الأوربى والشواهد الأوربية

قد يكون لنبوغ الشيخ محمد عبده دخل فيما بلغه من المكانة العلميـة ، ولكن هذا النبوغ ذاته قد وجهه إلى الاقتباس من التراث الأوربى إذ وجده ضرورياً لاكتمال نضجه وثقافته وعلمه وفى الحديث الشريف : (اطلبوا العلم ولو فى الصين)

وصفوة القول أن التراث الشرقى يحتوى ولا شك على كنوز من العلم والحكمة والأدب ، ولكننا فى حاجة أيضاً إلى كنوز التراث الغربى الحديث لكى يتم لنا النضج والكمال فى حياتنا العقلية

عبد الرحمن الرافعى

وخلخلات مستغربة غالباً ، لوقوعها فى مواضع ليست لها بين عويل ونواح طويل

واللحن المبدع فى الغناء على ذوق الآن (الموضة : à la mode) ، مركب أيضاً ، بعضه شرقى وبعضه غربى ، بولد مسخاً على سنة هذا المذهب الحديث حتى فى الأغنية العربية التى يلفقونها على أوزان لحن بأكمله من رمبا مشهورة أو تنجو معروف ؛ إذ يدخلون فيه عبارات صوتية من ألحان غربية مباينة له وإذ تتنافر مدلولاته الصوتية ومعانى كلام الأغنية فى أذن من يدرك اختلاف المقام المعيَّن بالنص العربى ، والمقام المعين باللحن خصوصاً إذا كان يعرف كلام الأغنية الغربية التى سُرق منها اللحن ، فأبشع بهذا الفن الزائف !

الحق أننا لم نفهم غرض القائلين بأن الموسيقى الغربية أقدر من الشرقية الحاضرة ، وبأنه يجب من أجل ذلك أن نحتذى على مثل منشئيها فى موسيقانا ؛ فلم نفطن لما يحمل بنا أن نقلد فيه الغربيين ، بل اعتززنا بفننا الضالّ ، محدود الإحساس والمدى توهما منا أن موسيقانا أوسع مجالاً وأقدر بربع المقام الذى به نفاخر ونكابر ، ومن قلّت معرفته زاد اعتقاده المعرفة

كان الأحرى أن نقلد غناء الغرب وموسيقاه من حيث هما إجهار بالدلالات الصوتية فى الكلام ، أى لغة نغمية تعبر تعبيره عن خواطر القلب وأحاسيس النفس وجلاجلها ، لأن تلك الدلالات مصداق القائل :

« إن الكلام لفى الفؤاد وإنما   جعل اللسان على الفؤاد دليلا »

نعم ، كان الأحرى أن نقلد غناء الغرب وموسيقاه من حيث هما يصفان ما يصف الكلام ، ويتناولان مثله شتى الموضوعات من نواحى الحياة الإنسانية وظواهر الطبيعة ومظاهرها التى يتأثر منها الإنسان الحى فى أحضانها ، لأنهما يسايران دلالة اللفظ الصوتية ، مُفخّمين لها بالإنشاء الغنائى وبالإنشاء الموسيقى ، ويصفان مواقف المسرحيات التى تمثل الحياة من الأوجه المختلفة وكان يحسن أن نقلد الغرب فيما ارتقت إليه موسيقاه من التصوير[1] الذى عظم شأنه بالتحسين والابتكار فى المعازف

ولقد رأى زُوّار معرض الموسيقى بمدينة فرانكفور الألمانية سنة ١٩٢٨ أن معازف الغربيين كانت تشبه معازف الشرقيين ، وأنهم ظلوا يحسّنونها ويستحدثون غيرها حتى أصبحت الآلات الموسيقية متقنة ، ميسّرة للمنشئ الموسيقى أن يزوّق سياق اللحن الأصلى بألوان من أصواتها تصاحبه وتنمّقه وتؤنّقه فى تواؤم بينها وموافقة له ، فتحجب بهذا التصوير كل وحدة مملة وكل اطراد مسئم . وقد يبلغ عدد العازفين فى النوبة الكبرى زهاء مائة

ذلك كله هو الشىء الجوهرى الذى يجب أن نعالج تقليد الغربيين فيه عسى أن يشبه فنُّنا فنَّ الأحياء فى العبارة عن الشعور السليم والمدارك السامية ، وإلا فما فضل ربع المقام الزائد ؟ وماذا يفيدنا ونحن نقف جامدين به وبالمقامات والنغمات جميعاً عند موضوع واحد محدود ليس فيه غير الذلة البشعة ، والحزن القتال ، والشهوة الوضيعة ؟ ولماذا نرضى بالجمود وليس فى فطرتنا الشرقية شىء يمنعنا من التعبير الفنى عن حركات ما أودَعنا الخالق وأودع الغربيين على السواء من نفس بشرية واحدة وغرائز وملكات متماثلة ؟

يعتذر بعض المغنين والموسيقيين عن عيوب فنهم بذوق الجمهور الذى يرتاح إليه ولا يقبل منه بديلاً . وهم على حق من حيث أنهم من هذا الجمهور وأنه يحتمهم ، ومن حيث أن الذوق كالمَثل الأعلى : ثمرة تنتجها عناصر عديدة منها الوراثة ، والبيئة والتطور .

لكن حقٌ كذلك أن من عوامل التطور تأثير البيئة فى الأفراد وتأثرها منهم ، خصوصاً من الشخصيات القوية بينهم ؛ فالفنان يؤثر فى بيئته وجمهوره وإن تأثر منهما ، ومن هنا نصيبه فى تهذيب ذوق الجمهور وإعلاء مثله الأعلى بقدر مواهبه وسحر فنه ، ومن هنا تبعة الفنون الضالة ومسئولية أصحابها الخلقية فى إفساد الأذواق

وحق أيضاً أن أولئك طلاب منفعة وليسوا بفنانين إلا مجازاً ، لأن محب فنه لا يضحيه تملقاً للعامة وللجماهير ، بل يقدسه قانعاً من الكسب بما يُمسك الرمق . وإن شئت مثلاً لتقديس الفن فانظر كيف أن الموسيقار الفرنسى « بيزيه[2] — منشئ موسيقى كرمن ، الرواية المشهورة عند فنانينا منذ ألف الخلى

(١) Harmonie

(٢) Georges Bizet

ألحان أغانيها العربية[٣] — لم يستسلم لذوق مواطنيه الفرنسيين، حين استهجنوا هذه الموسيقى الوصفية التي أبدع فيها صور بها من حياة الإسبانيين، ولم يهمل أسلوبه الفني؛ فلما علا قدره بكرمن في عاصمة النمسويين وطار صيته رجعوا عن خطئهم، وعرفوا فضل نابغتهم.

نحن إن كففنا عن العيش في الظلام، وفتحنا بصائرنا للنور الحق، وسلك الموهوبون منا سبيل الإصلاح، ظهر فينا المغنى الأحوزي والموسيقار العبقري

فإذا أتيح للموسيقى والغناء المصريين أن يظهر من محبيهما فنانون لا تعبأ شخصياتهم القوية بغير فنهم، ويعرفون ما عندنا وعند غيرنا، فإنهم يأتون بالجديد السليم الذي يسري في النفوس، ويسوق طوائف المحترفين والهواة والمستمعين إلى الطريق القويم فينصلح الذوق العام شيئاً فشيئاً؛ ثم يتصعّد مستوى الفن مع انتشار التعليم والثقافة، وارتقاء البيئة والحياة الاجتماعية، فنبلغ الشأو بعد حين. ووجود نقاد يدعون إلى سلوك سبل الإصلاح هو علامة أوانه بل آية إبّانه.

ومن لم يصدق ما قرأ في هذه الكلمات فإني أوصيه بأن يطلع على بعض كتب الموسيقى الشرقية، وعلى شيء من تاريخ الموسيقى الغربية ومذاهب أصحابها ونقادها؛ وبأن يصغي بانتباه إلى مختارات منها بإرشاد من يفهمها[٤]؛ ولعله يستيقن بعد ذلك أن سبيل الإصلاح والترقي في الغناء والموسيقى عندنا هو دراستهما دراسة فنية ثقافية جدية، وتقليد الغرب فيما تقدمت الإشارة إليه؛ وليس شك في أن المعارضين يسلمون بهذا في مستقبل قريب أو بعيد، تسليم أناس كانوا قبل سنين أدبرت ينعون على المستنيرين معالجتهم إنقاذ اللغة والأدب من جمود طالما أرادوها عليه، ويرمون بإبليس دون الكفر كل من قال بوجوب الإصلاح من شئون الأزهر

محمد توحيد السلحدار

(٣) كتبنا نقداً لتمثيل هذه الرواية بالعربية، ولألحانها وموسيقاها التي ألفها الحلبي، ولعله تقد يزيد هذه الكلمات وضوحا لمن يرجع إليه؛ وقد نشرته الأهرام بأعداد نظنها صدرت من منتصف ابريل سنة ١٩١٧

(٤) ان محطة الاذاعة تسمع الجمهور من حين إلى حين بعيد شيئا من الموسيقى الغربية، وانها لتحسن عملا اذا هي ساعدت على دفع المغنين والموسيقيين في حركة اصلاح، وذلك بان تذيع مرة على الأقل في الأسبوع مختارات من الموسيقى الغربيه تعزفها نوبة كاملة، جديرة بعزفها، مختارات مخصوصة يتقدم كلا منها شرح لموضوعه وبيان لدلالاته الصوتية، والفرق بينه وبين سابقه ولاحقه، ولو بإيجاز.

من ليالي كليوبترا

للأستاذ علي محمود طه

[كتبت إلى الشاعر تقول: « قرأت لك من ليلة النيل والموج، وهو يروى حلم ليل من ليالى كليوبترة، فهلا وصفت لنا ليلة من هذه الليالى؟ وهل لنا بصورة حلم من أحلامها؟ »
فالى صاحبة تلك الاثارة الرائعة إهداء هذه القصيدة]

كِلْيُوبَتْرَا! أيُّ حُلْمٍ مِنْ لَيَالِيكِ الحِسَانِ
طَافَ بالمَوْجِ فَغَنَّى وَتَغَنَّى الشَّاطِئَانِ
وَهَفَا كلُّ فُؤَادٍ وَشَــدَا كلُّ لِسَانِ
هَذِهِ فَاتِنَةُ الدُّنْيَا وَحَسْنَاءُ الزَّمَانِ
بُعِثَتْ فى زَوْرَقٍ مُسْتَلْهَمٍ مِنْ كلِّ فَنّ
مَرِحِ المِجْدَافِ يَخْتَالُ بِحَوْرَاءَ تُغَنِّى
يَا حَبِيبِى هَذِهِ لَيْلَةُ حُبِّى آهِ لَوْ شَارَكْتَنِي أفْرَاحَ قَلْبِي!

نَبْأَةٌ كَالكَأْسِ دَارَتْ بَيْنَ عُشَّاقٍ سُكَارَى
سَبَقَتْ كلَّ جَنَاحٍ فى سَمَاءِ النِّيلِ طَارَا
تَحْمِلُ الفِتْنَةَ وَالفَرْحَةَ وَالوَجْدَ المُثَارَا
حُلْوَةٌ صَافِيَةُ اللَّحْنِ كأَحْلَامِ العَذَارَى
حُلْمُ عَذْرَاءَ دَعَاهَا حُبُّهَا ذَاتَ مَسَاءِ
فَتَغَنَّتْ بِشِرَاعٍ مِنْ خَيَالِ الشُّعَرَاءِ
يَا حَبِيبِى هَذِهِ لَيْلَةُ حُبِّى آهِ لَوْ شَارَكْتَنِي أفْرَاحَ قَلْبِي!

وَتَجَلَّى الزَّوْرَقُ الصَّاعِدُ نَشْوَانَ يَمِيدُ
يَتَهَادَاهُ عَلَى المَوْجِ نَوَاتِيٌّ عَبِيــدُ
المَجَادِيفُ بِأَيْدِيهِمْ هُتَافٌ وَنَشِيــدُ
وَمُصَلُّونَ لَهُمْ فى النَّهْرِ مِحْرَابٌ عَتِيدُ
سَحَرَتْهُمْ رَوْعَةُ اللَّيْلِ فَهُمْ خَلْقٌ جَدِيدُ
كُلُّهُمْ رَبٌّ يُغَنِّى وَإِلَهٌ يَسْتَعِيدُ
يَا حَبِيبِى هَذِهِ لَيْلَةُ حُبِّى آهِ لَوْ شَارَكْتَنِي أفْرَاحَ قلبى!

إِضْحَكِى أَيَّتُهَا الأَرْوَاحُ بِاللَّحْنِ البَدِيعِ
وَامْرَحِى يَا رَاقِصَاتِ الضَّوْءِ بِالمَوْجِ الخَلِيعِ
قَبِّلِى تَحْتَ شِرَاعِى حُلُمَ الفَنِّ الرَّفِيعِ
زَوْرَقًا بَيْنَ ضِفَافِ النِّيلِ فى لَيْلِ الرَّبِيعِ
رَنَّحَتْهُ مَوْجَةٌ تَلْعَبُ فى ضَوْءِ النُّجُومِ
وَتُنَادِى بِشُعَاعٍ رَاقِصٍ فَوْقَ الغُيُومِ
يَا حَبِيبِى هَذِهِ لَيْلَةُ حُبِّى آهِ لَوْ شَارَكْتَنِي أفْرَاحَ قلبى!

لَيْلُنَا خَمْرٌ وَأَشْــوَاقٌ تُغَنِّى حَوْلَنَا
وَشِرَاعٌ سَابِحٌ فى النُّورِ يَرْعَى ظِلَّنَا
كَانَ فى اللَّيْلِ سُكَارَى وَأَفَاقُوا قَبْلَنَا
لَيْتَهُمْ قَدْ عَرَفُوا الحُبَّ فَبَانُوا مِثْلَنَا
كُلَّمَا غَرَّدَ كَأْسٌ شَرِبُوا الخَمْرَةَ لَحْنَا
يَا حَبِيبِى كلُّ ما فى اللَّيْلِ رُوحٌ يَتَغَنَّى
هَاتِ كَأْسِى إِنَّهَا لَيْلَةُ حُبِّى آهِ لَوْ شَارَكْتَنِى أفْرَاحَ قلبى!

يَا ضِفَافَ النِّيلِ باللهِ وَيَا خُضْرَ الرَّوَابِى
هَلْ رَأَيْتُنَّ عَلَى النَّهْرِ فَتًى غَضَّ الإِهَابِ
أَسْمَرَ الجَبْهَةِ كَالخَمْرَةِ فى النُّورِ المُذَابِ
سَابِحًا فى زَوْرَقٍ مِنْ صُنْعِ أَحْلَامِ الشَّبَابِ؟
إِنْ يَكُنْ مَرَّ وَحَيَّا مِنْ بَعِيدٍ أو قَرِيبِ
فَصِفِيهِ، وَأَعِيدِى وَصْفَهُ فَهْوَ حَبِيبِى!
يا حبيبى هَذِهِ لَيْلَةُ حُبِّى آهِ لَوْ شَارَكْتَنِى أفْرَاحَ قلبى!

أَنْتِ يَا مَنْ عُذْتِ بِالذِّكْرَى وَأَحْلَامِ اللَّيَالِى
يَا ابْنَةَ النَّهْرِ الذى غَنَّاهُ أَرْبَابُ الخَيَالِ
وَتَمَنَّتْ فِيهِ لَوْ تَسْبَحُ رَبَّاتُ الجَمَالِ
مَوْجُهُ الشَّادِى عَشِيقُ النُّورِ مَعْبُودُ الظِّلَالِ
لم يَزَلْ يَرْوِى وَتُصْغِى لِلرِّوَايَاتِ الدُّهُورُ
والضِّفَافُ الخُضْرُ سَكْرَى والسَّنَى كَأْسٌ تَدُورُ
حُلُمٌ لم تَرْوِهِ لَيْلَةُ حُبٍّ فَاذْكُرِيهِ واسْمَعِى أفْرَاحَ قلبى!

علي محمود طه



الفنون الايرانية فى العصر الاسلامى

تأليف الدكتور زكى محمد حسن
للدكتور محمد مصطفى

— ٢ —

وفى كلام المؤلف فى الفصل الذى كتبه عن « التذهيب » يقول فى (ص ٧٠) — بدون أن يذكر المرجع — ما يأتى :

« أما زخارف الصفحات المذهبة ، فكانت فى البداية خليطاً من العناصر الزخرفية الساسانية والبيزنطية والقبطية ، فضلاً عن الرسوم المنقولة من كتب اليهود وكتب المسيحيين من أتباع الكنيسة الشرقية »

وأجمل المؤلف فى العبارة التالية لهذه كلامه عن بعض هذه الزخارف .

وقد كتب الدكتور ريشارد أتينجهاوزن[١١] بحثاً وافياً عن تذهيب المخطوطات فى إيران ووصف هذه « العناصر الزخرفية » فى صفحتى ١٩٤٤ و ١٩٤٥ من هذا البحث

ومن الغريب أن نلاحظ أن الدكتور زكى محمد حسن فى هذا الفصل الذى كتبه عن « التذهيب » (ص ٦٨ — ٧٣) لم يشر فى أية ناحية منه إلى هذا البحث الذى كتبه الدكتور ريشارد أتينجهاوزن فى نفس هذا الموضوع ، مع أن هذا البحث يعد أحدث بحث على واف عن تذهيب المخطوطات فى إيران ، فضلاً عن أن جميع البيانات التى كتبها الدكتور زكى عن التذهيب فى إيران فى عصوره المختلفة بمـا فى ذلك الحواشى الأربع التى وردت فى هذا الفصل من كتابه ، قد جاءت كلها ضمن ما كتبه الدكتور أتينجهاوزن فى البحث المذكور وما أورده فيه من حواش

فاننا نرى أن ما كتبه الدكتور أتينجهاوزن فى ص ١٩٤٧ مفصلاً عن ميزات المخطوطات المذهبة فى العصر السلجوقى ، قد أورده الدكتور زكى مجملاً فى الفقرة الأخيرة من ص ٧٠ ، وفى ص١٩٥١ — ١٩٥٢ تفصيل ما جاء فى الفقرة الأولى من ص ٧١ عن الطريقة الجديدة فى الزخرفة والتذهيب فى هذا العصر . وفى ص١٥٥٩ — ١٩٥٦ ما جاء فى الفقرة الثانية من ص ٧١ عن المصحف المحفوظ بدار الكتب المصرية . وفى ص ١٩٦٠ بما فى ذلك الحاشية رقم ١ ما جاء فى الفقرة الأولى من ص ٧٢ والحاشية رقم ١ فى الصفحة نفسها عن مخطوط الشاهنامة المؤرخ سنة ٨٣١ هـ . وأيضاً فى ص ١٩٦٠ وفى الحاشية رقم ٥ ما جاء فى الفقرة الثانية من ص ٧٢ والحاشية رقم ٢ فى هذه الصفحة عن أعلام المذهبين فى العصر التيمورى . وفى ص ١٩٦٠ — ١٩٦١ ما جاء فى الفقرة الثالثة ص ٧٢ عن رسوم النبات والزهور . وفى ص ١٩٦٨ — ١٩٦٩ ما جاء فى الفقرة الرابعة من ص ٧٢ عن أعلام المذهبين فى العصر الصفوى . وفى ص ١٩٦٩ ما جاء فى الجملة الأولى من الفقرة الأولى فى ص ٧٣ عن بعض ميزات المخطوطات الصفوية . وفى ص ١٩٧٠ — ١٩٧١ والحاشية رقم ٩ ص ١٩٧٠ ما جاء فى العبارة الثالثة من الفقرة الأولى فى ص ٧٣ بما فى ذلك الحاشية رقم ٢ فى هـذه الصفحة عن مخطوط بستان سعدى المحفوظ فى دار الكتب المصرية ، وما فيه من « رسم بطة تطير بين سحب صينية » . وفى ص ١٩٧٢ والحاشية رقم ٥ فى هذه الصفحة ما جاء فى الجملة الثانية من الفقرة الأولى فى ص ٧٣ والحاشية رقم ١ فى هذه الصفحة عن مخطوط منظومات الشاعر نظامى

ومما تقدم يتبين أن الدكتور ريشارد أتينجهاوزن قد سبق الدكتور زكى محمد حسن فى سرد الحقائق العلمية عن التذهيب فى إيران ، وقد كان من الواجب على الدكتور زكى أن يشير ، فى الفصل الذى كتبه عن التذهيب ، إلى هـذا البحث ، لا سيما وأن جميع البيانات والحواشى التى أوردها فى هـذا الفصل قد جاءت — كما رأينا — بنفس التسلسل الذى جاءت به ضمن البيانات والحواشى التى كتبها الدكتور أتينجهاوزن

وفى كلامه عن مسألة كراهية التصوير فى الإسلام (ص ٧٤ وما بعدها) لم يأت المؤلف برأى شخصي قاطع فى هذا الموضوع ، بل اكتفى بأن قال : « على أننا لا نميل إلى أن نصدق أن التصوير كان غير مكروه فى عهد النبى عليه السلام وعصر الخلفاء الراشدين ، بل أكبر الظن أن ... » ثم بدأ الفقرة التالية لهذه العبارة بقوله :

(١١) أنظر تذهيب المخطوطات للدكتور ريشارد أتينجهاوزن فى S. P. A. ج ٣ ص ١٩٣٧ — ١٩٧٤ .

« ومهما يكن من الأمر فإن . . . » وقد أشار إلى آراء العلماء الأوربيين بدون أن يناقشها وبدون أن يذكر شيئاً مما جاء في أبحاثهم العلمية

ويقول في ص ٧٦ : « وقد قيل إن العرب ورثوا عن اليهود كراهية التصوير ، وإن أقل الشعوب الإسلامية اكتراثاً بتحريم التصوير في الإسلام إنما هي الشعوب غير السامية الأصل وبنى على ذلك قوله في ص ٧٩

رابعاً — إن الإيرانيين قوم من الجنس الآرى ، ولم يكونوا كالساميين يحسون شعوراً نفسانياً يبعدهم عن التصوير

ولكن نسبة العرب إلى الجنس السامى لا تزال موضع دراسة عند علماء الأجناس . والمسألة هنا مسألة أحاديث نسبت إلى النبي (ص) ويهم المسلمين جميعاً — سواء منهم العرب أو الإيرانيون والشيعة أو السنيون — أن يعرفوا مبلغ صحة نسبتها إليه . وهل تربت كراهية التصوير في الإسلام على هذه الأحاديث أو على عوامل أخرى دخيلة على الإسلام[١٢] . وإذا تكلمنا عن نسبة العرب إلى الجنس السامى ، وجب علينا أن نبحث فيما إذا كان مسيحيو الشرق الأدنى من الجنس السامى أو الآرى ، وهم كما نعلم من العرب أيضاً ، وقد أخذت عنهم مدرسة العراق أو المدرسة السلجوقية « الأسلوب الفنى » في التصوير ، وكما يعترف المؤلف في ص ٨٤ أن هذه المدرسة « كانت عربية أكثر منها إيرانية ، فالأشخاص فيها عليهم مسحة سامية ظاهرة، والأسلوب الفنى مأخوذ ـ إلى حد كبير ـ عن الصور في مخطوطات المسيحيين من أتباع الكنيسة الشرقية »

وفى ص ٨٠ أورد المؤلف حاشية طويلة عن تصوير مخطوطات كتاب كليلة ودمنة، وكذلك بعض العبارات التي قالها ابن المقفع الذي ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية ، عن فوائد الكتاب تستنتج منها أن التصوير يمكن إرجاعه إلى عصور مبكرة في الإسلام . ولكن المؤلف لم يذكر المرجع الذى أخذ عنه هذه الحاشية . وبالنسبة لما لهذه الحاشية من الأهمية الخاصة في تاريخ التصوير ، أقول إننى قد عثرت على حاشية مماثلة لحاشية المؤلف كتبها الأستاذ بوب[١٣] يعلق بها على ما جاء في كلام الأستاذ كينل عن مخطوط كليلة ودمنة

وقال المؤلف أيضاً في ص ٨٠ « ونحن نذهب إلى أن المسئول عن طبيعة التصوير الإيرانى هى البيئة التى يعيش فيها الفنانون ، والأساليب الفنية التى ورثوها عن أسلافهم من سكان الهضبة الإيرانية وبلاد العراق والجزيرة والشرق الأدنى عامة ، فإن هؤلاء لم يكن لديهم ، من الحفلات والألعاب الرياضية والمناظر الطبيعية والعناية بالتربيـة البدنية وتقوية الأجسام ، ما يمكن أن يدفعهم — كالإغريق مثلاً — إلى دراسة الجسم الإنسانى دراسة متقنة والعمل على تصويره أو صناعة التماثيل له بدقة يراعى فيها صدق تمثيل الطبيعة »

ولكن المؤلف يقول في ص ١٨٦ : « وقد استعمل الخزفيون في الرى عدداً وافراً من الزخارف الهندسية والنباتية ، ورسموا معظم الحيوانات التى عرفوها في ذلك الوقت ، ولا سيما الأرنب وكلب الصيد ، كما اتخذوا بعض الزخارف من مناظر الرقص والطرب والموسيقى والصيد ، ولعب الصوالجة (البولو) والحفلات الرسمية ، بل لقد رسم أحدهم صورة طبيب يفصد سيدة أنيقة »

وعلاقة خزف مدينة الرى بالتصوير يقول عنها المؤلف ص ٨٥ : « ولعل أكبر دليل على العلاقة الوثيقة بين هذه الصور السلجوقية وإيران أن رسومها تشبه الرسوم الموجودة على الخزف الإيرانى المعروف باسم (مينائى) والذى كانت مدينة الرى أعظم مراكز صناعته »

ومن عبارة المؤلف عن الخزف نرى أنه كانت لديهم من الحفلات والألعاب ما يمكن أن يدفعهم إلى مراعاة الدقة في صدق تمثيل الطبيعة . ولكنى أظن أن السبب في ذلك هو كما قال الأستاذ لورنس بنيون[١٤] : « إن الروح التى تسود التصوير الإيرانى هى روح الخيال ، فالإيرانيون يحبون ما هو عجيب ومدهش . والخيال بالنسبة لنا (للأوربيين) هو المروب من عالم الحقيقة إلى عالم العجائب . أما بالنسبة لهم (للإيرانيين) فهو نسيم الحياة »

ويستشهد المؤلف في ص ١٢٩ بمثال ضربه الأستاذ لورنس بنيون ولكنه لم يذكر المرجع . وإنى أظن أنه أخذ هذا المثال من مقال الأستاذ بنيون في S. P. A.[١٥]

وفى ص ١٣٠ يقول المؤلف « أجل ، إن تصوير المناظر الطبيعية لم يكن عندهم فرعاً مستقلاً من فروع التصوير ، ولم

---

(١٢) أنظر رأى الأستاذ كريسويل في هذا الموضوع في كتابه Early Muslim Archikchwre ص ٢٦٩ — ٢٧١ .

(١٣) في S. P. A. ج ٣ ص ١٨٣١ حاشية ٢ .

(١٤) أنظر : Laurence Binyon, The Qualities of Beauty in Persian Painting, in : S. P. A. III, p. 1913

(١٥) نفس المرجع ص ١٩١٣ .

تكن له المكانة التى وصل إليها عند الغربيين والصينيين ، ولكنهم عرفوه . ولم ينصرفوا عنه لعجز ، وإنما لأنه لم يوافق طبيعتهم الفنية . واعتقادهم أن الإنسان هو المحور الذى تدور حوله هذه الحياة . فالفنان الإيرانى يأخذ من الطبيعة ما يريد ، ولكنه لا يتقيد بها .

وقد جاءت هذه العبارة شديدة الاقتضاب بحيث يمكن أن يفهم منها عكس ما يريد المؤلف قوله ، وإنى أورد فيما يلى عبارة مماثلة من مقال الأستاذ لورنس بنيون [١٦] لشرح ذلك :

« لا تختلف التقاليد الصينية واليابانية فى التصوير اختلافاً جوهرياً عن تقاليد الفنانين الإيرانيين فيما يختص بالصور المخصصة لرسم الأشخاص أو الصور التى يرى عليها أشخاص فى وسط مناظر طبيعية . أما المناظر الطبيعية نفسها فإنها وإن كانت معروفة فى الفن الإيرانى ، إلا أنها لم تصل إلى الدرجة التى تكون فيها كفرع مستقل من فروع التصوير ، فلم تصبح أبداً مرآة تنعكس فيها أعمال الإنسان ، بل كانت تمثل فقط صورة لأحد المناظر . وكانت للمناظر الطبيعية فى الصين هذه الدلالة ، بل وأكثر من ذلك ، فإنها كانت محاولة للتعبير عن صلة الإنسان بالكون ، وبما أن الكل أعظم من الجزء ، وحياة الإنسان جزء من الطبيعة ، لذلك نرى أن الصينيين ينزلون تصوير المناظر الطبيعية فى أعلى منزلة بين فروع التصوير . وهذا الاختلاف فى طبيعة الفن يأتى من الاختلاف فى تكوين عقلية الشعوب . فعند الإيرانيين ، كما هو الحال عند الأوربيين فى أغلب الأحيان ، نجد أن الإنسان وأعمال الإنسان هى الموضوع الرئيسى الذى تعطى له أهمية خاصة ، أما الطبيعة فتبقى فيما بعد ذلك ، ولا تدرس لنفسها »

وفى هذا المعنى يقول الأستاذ بوب والدكتور أكرمان [١٧] ما يلى : « الحديقة موضوع رئيسى فى كثير من الفنون الإيرانية ... وقد أدى استعمال لوحات القاشانى فى المبانى إلى إمكان تحويل مبنى بأكمله إلى مجموعة ذات ألوان بهجة من الزهور ، تكوّن كتلة واحدة مع الحديقة ذات الزهور الحقيقية التى يقوم المبنى فى وسطها ... وقد تركت الديانة الزردشتية الحياة فى الآخرة غامضة ومبهمة ؛ أما الإسلام فقد كان صريحاً فى ذلك ووعد المتقين بحياة خالدة فى جنات النعيم

(١٦) نفس المرجع ص ١٩١٢ — ١٩١٣ .

(١٧) انظر الحدائق للأستاذ Pope والدكتور Ackerman ، فى S. P. A. ج ٢ ص ١٤٢٧ .

ويقول الأستاذ بوب [١٨] وقد كان معروفاً أن الإيرانيين لم يباشروا أبداً تصوير المناظر الطبيعية الخالصة ، ولكن لا يكاد المرء يكون نظرية فى أى فرع من فروع الفن الإيرانى حتى يظهر اكتشاف جديد يقضى على هـذه النظرية ، وقد وجد الدكتور أجا أوغلو فى استانبول اثنتى عشرة غاية فى الإبداع والجمال ، من المناظر الطبيعية الخالية من أية صورة آدمية

وقد نشر الدكتور محمد أجا أوغلو تسعاً من هذه الصور [١٩] وهو يقول عن تصوير المناظر الطبيعية ما يأتى [٢٠] :

« وإذا حكمنا بما وصل إلينا من الصور إلى الآن ، نجد أن تصوير المناظر الطبيعية لم يعالج كفرع قائم بذاته من فروع التصوير فى إيران ... وليس هذا معناه أن تمثيل الطبيعة كان غريباً على الفنانين الإيرانيين ، فقد كانت المناظر الطبيعية والمبانى فى أشكالها المختلفة موضوعاً محبوباً لديهم لتمثيل الفروسية والحماسة والمناظر الأخرى . ومنذ بدء ارتقاء فن التصوير يمكننا أن نلاحظ ابتهاجاً آخذاً فى الازدياد فى معالجة المناظر الطبيعية كموضوع زخرفى » . « له بقية »

محمد مصطفى

(١٨) انظر : a. u. Pope, An Introduction to Persian Art ص ١٢٧ — ١٢٨ .

(١٩) فى مجلة Ars Islamica ج ٣ سنة ١٩٣٦ ص ٧٧ — ٩٨ راجع أيضاً الأستاذ Kühnel تاريخ التصوير والرسم ، فى S. P. A. ج ٣ ص ١٨٢٩ (٢٠) نفس المرجع ص ٨١ و ٨٥ .

حكم استئنافياً بتغريم عبد الرازق عبد السميع التاجر بمصر الجديدة بالقضية ٩٧٠٤ بجلسة ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٤٠ جنيهاً ونصف لبيعه دقيقاً بأزيد من التسعيرة





إعجاب وتقدير

أيها الأستاذ الجليل (***)

إنى ليطربنى يا سيدى أن أقرأ لكم هذه المقالات القديرة ، الزاخرة بالفائدة ، فى نقد الطبعة الأخيرة من (العقد الفريد) . وليست تلك النقدات وحدها هى التى سبتنى من علمك الغزير ، واطلاعك المنقطع النظير ، وإحاطتك بمـا تكنّه ضمائر أسفار السابقين الأولين من أئمة اللغة وحفاظها ، بل قد تتبعت فى الرسالة الغراء كل ما دبّجته يراعتك منذ أول عهدك بها ، لم تفتنى منه فائتة ؛ بل لقد اتخذت منه دروساً أتوفر عليها وأعكف على الإفادة منها ، والتضلّع من مَعينها الفيّاض

وإنى لأعجب يا سيدى كل العجب – فى هـذا العصر الذى يُباهَى فيه بالقشور وسُخْف القول – كيف تتستّر وتحتجب ، وتقف فى تواريك هذا وعزلتك مرشداً وهادياً ، لا تبغى غير خدمة وطنك ولغتك

وإن أسفت على هذا التستّر والاحتجاب ، فإنما أسفى على أن أمثالى من طالبى المعرفة يودُّون لو أُتيحت لهم فرصة لقائك ، ليستزيدوا منك ، وليتحلّوا بما يشهدون فيك من كمال الخُلق ، ولـكنك زَهِدْت فى نباهة الذكر ، وعِفْت الإعلان ، وآثرت العمل فى جوٍّ خلو من الصخَب والضوضاء

ضربت يا سيدى المثل فى التواضع وإنكار الذات ، وضربته فى تُطهّر قلبك من لُوثة الزهو والعجب والمباهاة . فليتعلم من هذا المثل الصالح مَنْ يتصاولون على صفحات الجرائد والمجلات ، فَيَدعون ما يتصاولون من أجله ، ويخرجون إلى ميادين العيب والتجريح . ليتعلم هؤلاء منك ومن أمثالك الأعِفاء ، أن يقصروا أقلامهم على ما يدافعون عنه من عقيدة : الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان . ولينسوا أنفسهم وأهواءهم فى سبيل الحق ، وليدَعوا شهوة الانتقام والتشفى ، فإن أوقات القراء لأنفَس من أن تبعثر فى مثل هذا اللغو والزور من القول .

مزيداً مزيداً أيها الباحث الجليل ، فإنا إلى علمك وفضلك وخُلقك لَعطاشى

(ا . م)

مقالة الأستاذ السباعى بيومى

أثبتت مقالة الأستاذ الكريم ما قلته فى غنى اللغة واستفادة الناس من خطأ الكبار فى بعض الأوقات، فأعطى لسان العرب ما أعطاه إياه ، وأفاد القوم بما أملاه وإن أحب أن يخالف الأئمة : سيبويه والزمخشرى والتبريزى والرضى وابن هشام . فهل يعن اليوم (أطال الله بقاءه ولا زال فى حصن العربية : (دار العلوم) من أكبر حماته وحماتها) بعلاوات ، بشواهد الجاهليين أو إسلاميين أو المولدين الأولين متفضلاً بمراجعة ما قال الأئمة فى قوله تعالى : « فلا اقتحم العقبة » وحياه الله ، وحيا ربعه !

ناقد

الفقر

الحرب قائمة فى هذه الأيام بين الأديب الكبير الدكتور زكى مبارك وبين جماعة من أجل مقالة نمى فيها الدكتور على الفقراء (المساكين) كسلهم وتواكلهم وغير ذلك . وقد ذكرنى البحث فى الفقر والفقراء — والشىء بالشىء يذكر — بقول موجز للراغب فى (الذريعة) فأحببت نشره فى (الرسالة) الغراء وإن كان فقراء (الراغب) يخالفون فقراء (الدكتور زكى مبارك) . فالراغبيون يتهم الفقر على الكد ، والباركيون دعاهم فقرهم إلى الكسل ... قال الراغب

« حصول الفقر وخوفه المنتجان للحرص هما الباعثان على الجد واحتمال الكد ومنفعة للناس إما باختيار وإما باضطرار . وقد قيل : قيام العالم بالفقر أكبر من قيامه بالغنى ، لأن الصناعات القائمة بالغنى ثلاث : الملك والتجارة والكتابة ، وسائرها قائمة بالفقر ؛ فلو لم يكن الفقر وخوفه فمن كان يتولى الحياكة والحجامة والدباغة والكناسة ، ومن كان ينقل المير والملابس من الشرق إلى الغرب ومن الجنوب إلى الشمال ؟ وعلى منفعة الفقر نبه الله تعالى بقوله : (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض)

ومن تدبر صنع الله تعالى فى ذلك وتأمل ما أشار إليه فى هذه الآيات التى ذكرها لم تعرض له الشبهة التى تعرض لمن يقول : (إذا كان الله جواداً واسعاً فلم خص بعضهم بالغنى ، وجعل أكثرهم فقراء ؛ ومن حق للغنى الذى لا يفنى غناه ، والجواد الذى لا يعرف لجوده منتهاه ، ألا يخص بالعطية بعضاً دون بعض) وذاك أن الجواد هو الذى يعطى كل أحد بقدر استئهاله على وجه يعود بمصلحته ومصلحة غيره وقد فعل ذلك بالعباد .

ذالكم قول (الذريعة) ، وتلكم شرعة الدنيا إلى أن تشاء المقادير ، تبديل المساتير .

« باحث »

فى العقد

ورد فى مقالة الأستاذ (الجليل) الذى يستدرك ما فى طبعة العقد من الخطأ البيتان الآتيان :

جانيك من يجنى عليك وقد تُعدِى الصحاحَ مبارك الجرب
ولرب مأخوذٍ بذنب عشيرهِ ونجا المقارف صاحب الذنب

وقد اختلفت روايات البيت الثانى فى الكتب ، والرواية التى ذكرها الأستاذ تجعل صدر البيت (متفاعلن متفاعلن متفاعلن) مع أنها فى صدر الأبيات الأخرى وفى عجزها أيضاً على وزن (متفاعلن متفاعلن فَعِلن أو فَعْلُن) فتجعل قول الشاعر (ولرب مأخوذٍ بذنب عشيرهِ) شاذاً زائداً عن كل صدر وعجز وإن كان وزنه كاملاً تاماً . وشذوذ هذا الصدر مما لا تسيغه الأذن وإن كان العرب قلما كان يكرثهم أن يشذ الشاعر منهم فيخرج من ضرب إلى ضرب ويرد التفعيلة إلى تمام مبناها فى بعض أبيات قصيدته . لكن اختلاف الرواية إذا أضيف إلى الشذوذ والنبو فى الأذن يجعلنا نأخذ برواية البيت التى هى على ضرب وزن الأبيات الأخرى والتى يتفق فيها الصدر والعجز وهذه الرواية هى :

ولرب مأخوذ بلا ترةٍ ونجا المقارف صاحب الذنب

وورد أيضاً (بلا رَتَقٍ) أى من غير وتر ؛ وأورده صاحب مجموعة المعانى (ولم يقترف) ولكن روايته تغير فعلن إلى فاعلن . أما الزيادة فى المعنى التى أوجبت الزيادة فى ضرب الوزن فى قوله (بذنب عشيره) فغير ضرورية لأن المأخوذ ظلماً قد يؤخذ ظلماً بذنب غير عشيره . ونرجو من أستاذنا الجليل أن يردنا إلى الصواب إن كان فى قولنا خطأ .

عبد السميع صبرى

وأد البنات عند العرب فى الجاهلية

ذكر الأستاذ على عبدالواحد وافى فى للعدد الممتاز أنه لا يصح إرجاع وأد البنات عند العرب فى الجاهلية إلى فقرهم ، لأن ذلك كان يفعله أغنياؤهم وفقراؤهم ، ولا إلى غيرتهم على أعراض البنات ، لأن ذلك يرجع عند من يراه إلى قصة قيس بن عاصم . ووأد البنات أقدم منها عند العرب ، وقد رأى أن يرجع ذلك إلى سبب استنبطه من الآيات القرآنية التى وردت فى وأد البنات ؛ وهو أن بعض العرب كانوا يعتقدون فى البنات أنهن من خلق إله اليهود ، وكانوا ينظرون إليه بنظرة كنظرتنا الآن إلى الشيطان ؛ أما الذكور فمن خلق آلهتهم ، ولهذا كانوا يعتقدون فى البنات أنهن رجس يجب التخلص منه بالقتل ، ثم ساق الآيات التى استنبط ذلك منها ، فساق أولاً قوله تعالى : (ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم تالله لتسألن عما كنتم تفترون . ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ، وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ؛ أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، ألا ساءوا ما يحكمون) الآيات ٥٦ — ٥٩ من سورة النحل ، وقد فسر البنات فى ذلك بالأناث من البشر ، وحمل قوله تعالى (ولهم ما يشتهون) على أنهم يجعلون لآلهتهم ما يشتهون من البنين ، وكل من التفسيرين غير صحيح ، لأن المراد من البنات الملائكة الذين كانوا يقولون عنهم إنهم بنات الله ، والمراد من قوله تعالى (ولهم ما يشتهون) أنهم يجعلون لأنفسهم لا لآلهتهم البنين الذين يشتهون ، فينسبون لله من البنات ما يكرهونه لأنفسهم ، وهذا هو الذى ينطق به ما ساقه من باقى الآيات ، كقوله تعالى : (وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين ، أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ، وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، وجعلوا الملائكة الذين هم عباد

الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون) الآيات ١٥ — ١٩ من سورة الزخرف ، فمن جعلوهم جزءاً هنا لله هم البنات فى آيات النحل ، وهم الملائكة الذين جعلوهم إناثاً هنا ، والمراد أنهم جعلوهم أولاد الله ، فأين هـذا من تفسير الأستاذ وافى لهم بالبنات من بنى آدم ، وأن العرب كانت تعتقد أنهن خلق الله لا خلق آلهتهم ، وكذلك قوله تعالى (وأصفاكم بالبنين) صريح فى أنهم كانوا يجعلون البنين لأنفسهم ، وليس الأمر كما فهمه الأستاذ وافى من أنهم كانوا يجعلونهم لآلهتهم ، وأصرح من هذه الآيات فى ذلك قوله تعالى (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيما) .

فليس فى شىء من الآيات التى ساقها الأستاذ وافى ما يفيد أن العرب كانوا يعتقدون أن بناتهم من خلق الله ، وأنهم كانوا يئدونهن كرهاً لهن لأنهن غير مخلوقات لآلهتهم . وليت شعرى بعد هذا من أين أخذ الأستاذ وافى أن العرب الذين كانوا يئدون البنات كانوا يعتقدون فى الله تعالى ذلك الاعتقاد ، وينظرون إليه كما ننظر إلى الشيطان ، وهم الذين قال الله فى حقهم من سورة الزخرف أولاً (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم) الآية — ٩ — ثم ذكر بعد ذلك الآيات السابقة فى نسبتهم البنات من الملائكة إليه تعالى

والحق عندى أن وأد البنات كان بعضه للفقر من الفقراء ، وكان بعضه لخوف الفقر من الأغنياء ، وكان بعضه لخوف العار والسبى ، ولا مانع من أن يكون بعضه لعقيدة دينية غير التى يذكرها الأستاذ وافى ، فقد كان الرجل يحلف فى الجاهلية لئن ولد له كذا غلاماً لينحرن أحدهم كما حلف عبد المطلب بن هاشم

عبد المتعال الصعيدى

حول سقط وكبا

جاء فى مقال الأب الفاضل أنستاس مارى الكرملى المنشور بعدد الرسالة ٤٠٢ تحت « كلمة حق » يستنكر فيه تعبير الأستاذ اسماعيل مظهر لـكلمة « سقط وكبا » ؛ ويقول فى هامش صفحة ٣٢٠ هذه العبارة : « كذا بتقديم السقوط على الـكبو لا يعرفه إلا سكان جزيرة الوقواق »

فهذا التعبير ، وقد أجازته لغة القرآن فى كثير من آيها ، والواو فيه للجمع المطلق ، ولا تقتضى الترتيب بدليل قوله تعالى حكاية عن منكرى البعث « وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا » ، وإنما يريد نحيا ونموت ، وفى آية ثانية « فكيف كان عذابى ونذر » ، والنذارة قبل العذاب بدليل قوله تعالى « وما كنا معـذبين حتى نبعث رسولاً » ؛ وفى آية ثالثة « إنى متوفيك ورافعك إلى » ، فإن وفاته عليه السلام لا تقع إلا بعد الرفع

صبرى سلامه دياب



ما ليس يفهمه الطفل

قصـــة روسية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

« نيقولاى ألينش » رجل من أغنياء بطرسبرج يبلغ الثانية والثلاثين من العمر ، وهو ممتلئ الجسم ، قوى البنية ، محمر الوجه . وكان قد اتخذ من زوجة المسيو « أرنين » خليلة له ، فقضى معها شطراً من الزمن فى غرام حار متبادل ، ثم خمدت جذوة حبه ، فصار يتردد على منزلها بين حين وحين ، وبينهما نوع من الحب الفاتر ...

وزارها فى يوم من الأيام ، فلم يجدها ، وجلس ينتظرها فى غرفة الاستقبال ، فدخل ابنها الصغير وحياه وقال : إن أمه ستعود سريعاً ، وهى الآن عند الخياطة مع أخته « صونيا » ...

وكان عمر هذا الطفل ثمانية أعوام ، واسمه « أليوشا » ، وهو حسن البزة ، قوى البنية ، عليه ثوب نظيف من القطيفة ، وفى قدميه جورب أسود طويل ؛ وكان يلعب ألعاباً رياضية ، مستمتعاً بما وهبه الله من صحة جيدة ... وبدأ الرجل يحدثه ليمضى الوقت ولكى يداعبه ، فقال : هل أمك فى صحة جيدة ؟

فأقبل الطفل نحوه وقال : « إنها لم تكن قط فى صحة جيدة ، وهى كل يوم تشكو من مرض » ، وأخذ الرجل يتأمل فى وجه الطفل ليرى فيه محاسن أمه فى صباها يوم كان حبهما لا يزال فى سورته وسأله عما يتلقاه فى المدرسة ؛ فقال إنه وأخته صونيا يحفظان قطعة من الشعر الفرنسى . وقال الرجل للطفل : « هل حلقت شعرك اليوم ؟ » فقال : « نعم . وأنت حلقت أيضاً ، لأن لحيتك أصغر من العادة . أتأذن لى أن أمسكها ؟ »

قال الرجل : « لا لا ! لن آذن بذلك » فقال الطفل : « لماذا ؟ هل يؤلمك أن أنزع شعرة أو شعرتين ؟ »

ثم أمسك السلسلة الذهبية المعلقة فى صدر إيلنش وقال : « إن أمى قد وعدتنى أن تشترى لى ساعة إذا انتقلت من فرقتى . إن هذه السلسلة كالتى فى صدر أبى »

قال إيلنش : « ومن أخبرك بذلك ؟ هل رأيت أباك ؟ »

فتلعثم واضطرب وقال : « أنا ... كلا ! »

ولكن الرجل نظر إليه نظرة حادة وقال : « هل رأيت أباك ؟ » فقال : « كلا ... كلا ! »

فقال الرجل : كن شريفاً فإنى أرى من ملامحك أنك تكذب . قل لى : هل رأيت أباك ؟ فقال الطفل همساً : « وهل تعدنى ألا تخبر أمى »

فقال : « أعدك »

قال الطفل : « وهل تقسم بشرفك ؟ »

فقال الرجل : « نعم أقسم »

فنظر الطفل حوله وقال بصوت منخفض : « أستحلفك ألا تخبرها فإنها لو علمت لضربتنى أنا وصونيا والخادم ... أنا وصونيا نقابل أبى كل يوم من أيام الإثنين ، وذلك لأنه اتفق مع الخادم على أن يمر بنا على حانوت ينتظرنا فيه ، وهناك يشترى لنا فواكه وحلوى وبيضاً ويحدثنا »

قال الرجل « يحدثكم بماذا »

فقال : « بكل شىء ، ويقبلنا ويقص علينا قصصاً جميلة ، ويقول إنه سيأخذنا لنعيش معه متى كبرنا . وقد قالت له صونيا لا ، ولكننى قلت له نعم ، وسأبتعد عن أمى ولكنى سأراسلها وأزورها فى أيام العطلة . ويقول أبى إنه سيشترى لى جواداً ، وأنا لست أعرف لماذا لا تدعوه أمى للمعيشة معنا ؟ ولماذا لا تقابله مع أنه يحبها ويسألنا عنها دائماً . ولما مرضت وأخبرناه بذلك بكى وأمرنا باحترامها وطاعتها ... ألسنا بائسين ! ؟ »

قال الرجل : كيف ؟

فاستمر الطفل يقول : أبي قال ذلك ، وقال إن أمي بائسة ، وقال لي كلاماً غريباً لم أفهمه ، لأنه أمرني بأن أسلى من أجلها

قال الرجل : إذن فأنتم تتقابلون بغير أن تعلم أمك ؟ فقال : لا نستطيع أن نخبرها ، فقد أكد علينا الخادم بذلك . وبالأمس قابلت أبي واشترى لي كثرى !

قال الرجل : ألم يتكلم أبوك عني ؟

فأجابه الطفل : عنك ! ؟ لماذا ؟ ثم هز كتفيه .

فسأله الرجل : ألم يقل شيئاً ؟

قال الطفل : ألا يغضبك ما يقول ؟

فأجاب الرجل : لماذا ؟ هل شتمني ؟

قال : كلا . . . ولكنه قال إن أمي بائسة بسببك ، وأنك أفسدت سعادتها ؛ وقد قلت له إنك لا تسبها ولا تهينها ، فهز رأسه !

قال الرجل : هل أبوك يقول إنني أفسدت سعادتها ؟

فقال الطفل : نعم ، ولكن لا تغضب فأنت وعدتني

عند ذلك مشى أليتش في الغرفة ذهاباً وجيئة وقال وهو يهز كتفيه ويبتسم ابتسامة المتهكم : « أنا أفسدت سعادتها ! أنا ؟ هل قال ذلك يا أليوشا ؟ »

فقال الطفل : « ألست وعدتني ألا تغضب ؟ » فقال : « أنا لم أغضب ولكن هذا شيء عجيب . . . أنا أقع في الفخ ولا أسلم من اللوم »

وهنا دق الجرس ، فجرى الطفل نحو الباب ، ودخلت أولجا أم أليوشا وخليلة أليتش ، وقال الأخير عند ما رآها : « نعم نعم إنه مظلوم فهو الزوج المخدوع »

قالت أولجا : « ما الخبر ؟ »

فقال : « اسمعي ما يقوله زوجك ... إنه يقول إنني أفسدت سعادتك وسعادة أولادك »

قالت أولجا : « لست أفهم ما تقول يا أليتش ؟ »

فقال : « سلي ابنك »

فنظرت الأم إلى ابنها في دهشة ، ونظر الطفل إلى أليتش في انزعاج ، وقال الأخير : « إن خادمك يأخذه ويأخذ صونيا إلى حانوت يقابلهما فيه زوجك الذي يحسب نفسه شهيداً ، ويحسبني أفسدت حياته وحياتك »

عند ذلك صاح الطفل : « أنت حلفت لي بشرفك »

فأشار أليتش بيديه وقال : « إن هذا أمر أهم من يمين الشرف »

فقالت أولجا والدموع تملأ عينيها : « أخبرني يا أليوشا متى قابلت أباك ؟ »

فلم يصغ إليها الطفل لأنه كان ناظراً نظرة غيظ إلى أليتش وقالت الأم : « هذا محال ! سأذهب وأسأل الخادم »

ثم خرجت وصاح الطفل وهو يرتعش : « ألم تقسم لي بشرفك ؟ »

فأشار الرجل بيديه مرة أخرى ثم لم يعد يلحظ وجود الطفل فهو رجل ضخم الجثة لا يعبأ بالأجسام الصغيرة ، وجلس أليوشا في ركن من الغرفة يخبر أخته كيف خدعه الرجل حتى عرف سره ؛ وكان يرتعش ويبكي ، وكانت هذه أول مرة وقف فيها وجهاً لوجه أمام أكذوبة . وكم في الدنيا من أشياء لا أسماء لها في لغة الأطفال !

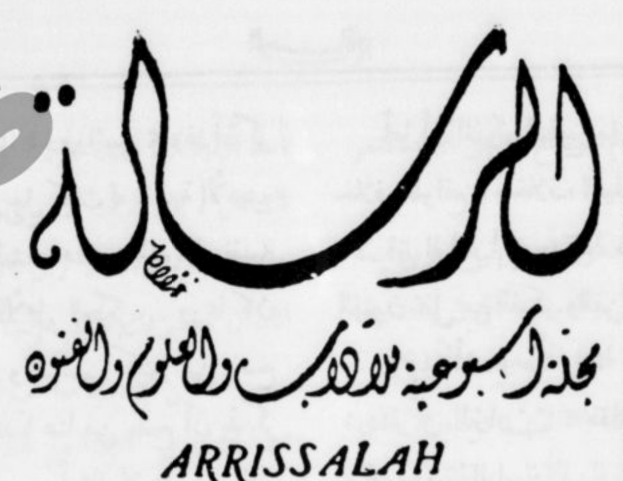
عبد اللطيف النشار

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)



9 me Année No. 405

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 7 - 4 - 1941

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٤٠٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٠ ربيع الأول سنة ١٣٦٠ — الموافق ٧ أبريل سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

عود إلى الفكر و « السلطة »

للأستاذ عباس محمود العقاد

راجعنى الأديب إلياس إبراهيم بدوى فيما كتبت بالرسالة منذ أسابيع عن « الفكر والسلطة » ، وكتب إلىّ يقول :

« اسمح لى بأن أضيف إلى الأسباب الأربعة التى ذكرتها فى إيضاح الدافع إلى طلب السلطة سبباً خامساً ، وإن لم يكن بسبب ، فهناك أناس يطلبون السلطة كحق من حقوقهم الموروثة أو تقليد من تقاليد الأسرة التى لا يليق بهم التخلى عنها . ولعل هذا السبب أبرز الأسباب نتائج من حيث طلب السلطة ، ليس فى هذا البلد وحده ، بل فى جميع البلدان بوجه عام »

وأتبع ما تقدم بقوله : « وكان لا بد أن ينشأ عن هذا السبب سبب سادس مماكس له : سبب يدفع بالرجل الموهوب ذى الشخصية العارمة والإرادة المدربة إلى النظر إلى مثل أولئك الأفراد المتهافتين على السلطة نظرة متعالية ، نظرة من يعتقد مخلصاً أنه أحق بها منهم إذا كانت الغاية من الحصول على السلطة استخدامها فى بناء مجد للوطن . وإن مثل هذا الرجل ليعتبر فى رأيى خائناً لرسالة ممتازة خلق لها إذا لم يعمل على نيل الأداة التى يمكنه بها إبراز مواهبه وممكناته وقدرته على الخلق والإبداع . وما قيمة المتعة الفكرية أو الذوقية إذا لم يستطع الرجل أن يستثمر قدرته البناءة بمطلق طاقته وحيويته »

الفهـــــرس

ثم يقول الأديب : « أما صاحبنا « ديزرائيلي » ، فلم أذكر اسمه نموذجاً ، بل ذكرته عرضاً كرجل كانت له نفسية الأديب ودقة إحساسه بالحياة ، وفق إلى كشف عناصر القوة فى نفسه فسخرها فى سبيل بلوغ المنصب الأعلى للحكم ... وربما كان فى التاريخ الأمريكي والبريطاني والفرنسي كثير ممن يصح أن يتخذوا أمثالاً . وربما كان عندنا هنا من يصح أن يذكر فى معرض التمثيل . غير أن عدم وجود أمثال لا يمنع من خلق أمثال وابتداع خطط جديدة فى الحياة والعمل »

ثم يقول فى ختام خطابه : « فإذا كنت تعتقد أنه لا يمكن الجمع بين الأدب والإدارة فهـذا رأيك وأنت حر فيما ترى . ولئن كنت أشك فى صحة هذا الاعتقاد فما يعزز شكي ما قرأته لك فى رجمة أبي العلاء فى معرض كلامك عما كان يساور أبا العلاء من طموح إلى السلطان لولا ظروفه الجسمية الخاصة التى حالت بين عقله الكبير وما أراد . وهو القائل :

ولم أعرض عن اللـذات إلا لأن خيارها عنى خنسنه »

***

ويلوح من خطاب الأديب أن صاحبه ممن يحبون الاستدراك لمحض الاستدراك ، وهو طبع فى غير قليل من الناس

فنحن نقول إن أسباب طلب السلطة هى فطرة الرياسة ، أو حب الامتياز ، أو اتقاء شرور المسيطرين ، أو الرغبة فى تسخير الأداة الحكومية للإصلاح ، فيأتى صاحب الخطاب بسبب خامس هو ميراث السلطة عن الآباء والحرص على بقائها فى الأسرة ! كأنمـا هذا السبب لا ينتهي إلى واحد من الأسباب الأربعة التي قدمناها ! أو كأننا حين نقول إن النـاس يرثون البيوت ننفى أن البيوت تبنى للسكنى ، أو كأننا حين نعلم أن الناس يصنعون الطعام ليبيعوه ننفى أن نهاية الطعام هى الغذاء سواء صنع فى الأسواق أو صنع فى الدور

فالناس لا يحبون أن يرثوا السلطة إلا لأنها تكفل لهم غرضاً من الأغراض التى قدمناها . وإلا فما بالهم لا يحرصون على وراثة المسكنة من آبائهم المساكين ؟ وما بالهم لا يحتفظون فى الأسرة بالديون والمغارم والوصمات ؟

إنما يحرصون على بقاء السلطة فى ميراثهم لأنها مطلب محبوب ، وإنما هى مطلب محبوب للأسباب التى قدمناها لا لأنهـا تركة موروثة عن الآباء

أما أن المفكر النابغ مفروض عليه طلب السلطان ، فهذا خلاف للواقع ، وخلاف للقياس المطرد فى « تطور » الملكات .

ففى الواقع لم يوجد قط مفكر موهوب وعبقرى مثمر فى عالم الفنون تخلى عن الفكر والفن ليطمح إلى الحكم وإدارة الدواوين

وقبل أن يوجّه إلينا الأديب خطابه الأول كنا نكتب « هتلر فى الميزان » فقلنا من فصل عن كفاءته الذهنية : « إن الحقيقة الراسخة من وراء كل جدل وكل مراء هى أن الفنان الموهوب لن يترك فنه ليعقد مصيره بالسياسة وغيرها من المطالب كائناً ما كان نصيبه منها ، لأن الهبة الفنية كالوظيفة العضوية التى لا تقبل الإهمال ، ولا تزال فى إلحاحها على صاحبها كالهيام القلبى فى إلحاحه على العاشق الممتلئ بالحياة ، فلا هو ينفل عنها ولا هى تمهله إلى زمن طويل

« وهذه الحقيقة وحدها بنجوة عن جميع الأقاويل وجميع الأسانيد . هى الحكم الحاسم فى كفاءة هتلر الفنية ، أو فيما يدعيه من مواهب التصوير والبناء . فهى لن تعدو الطبقة الوسطى بحال ، ولن تتجاوز نصاب التذوق الشائع بين مصطنعى النقد والموازنة فى الفنون »

فهذا رأى قديم لنا نبنيه على الواقع كما نبنيه على المعقول ، لأن التاريخ لم يذكر لنا قط اسماً واحداً من أسماء العباقرة الفنيين طلّق الفن ليحكم الناس ويطلب السلطة . وليس بمعقول أن تمتعه السلطة كما يمتعه الخلق فى عالمه الفنى الذى يصرفه تكوينه إليه .

وهذا الرأى مطابقٌ لسنة التطور التى تنتقل من الجمع إلى التوزيع ، من حصر الملكات إلى انتشارها فى عقول كثيرة .

فاتفق فى زمن من أزمان الهمجية أن حاكم القبيلـة كان حكيمها وساحرها وكاهنها وطبيبها وحافظ تاريخها . فهو فيها جامع لوظيفة السياسة ووظيفة الدين ووظيفة العلم ووظيفة الفن والثقافة ، ثم انقضى هـذا العهد وتوزعت الملكات وأصبحت كل وظيفة من هذه الوظائف شعباً لا تحصى ومقدرة يستعصى الجمع بينها وبين غيرها ، ولا يؤدى هذا الجمع إلى مصلحة للنابغ ولا للمنتفعين بنبوغه

وبعـد هذه الدهور المتطاولة يأتى من يزعم أن إعراض المفكرين وعباقرة الفن عن طلب الحكم خيانة لأمانة النبوغ إذا كانوا يستخدمون السلطة فى بناء مجد الوطن ... ويسأل :

ما قيمة المتعة الفكرية أو الذوقية إذا لم يستطع الرجل أن يستثمر قدرته البناءة بمطلق طاقته وحيويته ؟

فما قيمة الحياة نفسها بغير متعة فكرية أو ذوقية ؟ وما قيمة مجد الوطن إذا خلا من المفكرين والعباقرة الذين يعيشون ويموتون للفكر ، ويعيشون ويموتون لمتاع الأذهان والأذواق ؟ أكل مجد الوطن إذن فى رفع الأيدى بالسلام ، ودق الأرض بالأقدام ، وخطوة إلى الوراء وخطوة إلى الأمام ، وتفرّجٌ على السلطة ومواكب السلطة أيام الزحام ؟

أهذا هو مجد الوطن الذى يخونه أمناء الفكر والذوق لأنهم لا يتطلعون إلى السلطة ولا يتحولون جميعاً إليها كلما وفر عندهم نصيب الفكر والذوق ؟

إن كان الأديب يخال أن المفكر الصادق التفكير لن يشعر بالامتياز إلا وهو متسلط فى الحكومة ، ولن يقعد عن طلب التسلط فى الحكومة إلا لأنه عاجز عنه ، فهو بعيد كل البعد عن دخائل العظمة الفكرية التى هى عظمة لا شك فيها وإن لم يكن لها فى الحكم سلطان

لكنّ العجب فى هذا أن الزهو بالعقول شائع بين جمهرة الناس ، فكيف يفوت الأديب صاحب الخطاب أن يفطن إلى زهو العقول العالية التى تشعر بما لها من الرجحان ؟

يقولون فى أمثالنا الدارجة إن الخلق غضبوا عند قسمة الأرزاق فأرضاهم القدر بقسمة العقول ، فما منهم إلا راض عن عقله وإن سخف وإن ضاق

وتعليل ذلك قريب ، فإن الأرزاق تنتقل من مالك إلى مالك، فللطمع فيها معنى مفهوم ؛ أما العقول فلا تنتقل من أصحابها إلى غير أصحابها ، فليس للطمع فيها معنى غير الإقرار بالقصور ، والحرمان من لذة الغرور

ومغزى المثل كما يقولون أن رضى الإنسان بعقله سهل مألوف فى جميع الطبائع البشرية ، فكيف بالعقل الذى يعلم ما عنده وما عند غيره علماً ليس بالدعوى ولا بالغرور ؟ أليس خليقاً بامتيازه المرضىّ عنه أن يغنيه عن طلب الامتياز من طريق ولاية الأحكام ؟

قلنا فى كتابنا رجعة أبى العلاء : « إن أبا العلاء كان لا يرضى من الدنيا إلا بالسيادة عليها أو بالإعراض عنها . فإما الملك وإما الرهبانية ولا توسط عنده بين الأمرين . فلا يحسبن أحد أن فكرة الملك عارضة فى ذهنه كما يعرض الخاطر فى خلد الشاعر ، فإن للمجد الدنيوى لنزعة مكبوتة فى قرارة ضميره يدل عليها شعره ونثره ، ولا تزال غالبة عليه فى جمحات الأهواء وفلتات اللسان . فسرعان ما يثب إليها كلما عرضت لها لمحة ظهور »

وقد ظن الأديب صاحب الخطاب أن ما قررناه هناك شذوذ مما نقرره فى كلامنا عن الفكر والسلطة ، وما به فى الحقيقة من شذوذ ؛ فالحنين إلى السيطرة فى نفس أبى العلاء إنما هو تعبير عن جانب الحرمان من تلك النفس وليس بالتعبير عن جانب الامتياز والرجحان .

وليس الوجه كما فهم الأديب أن أبا العلاء كان يزداد طلباً للسلطان لو أبصر وملك القوة الجسدية ، ولكنّ الوجه أنه كان يقلع عن هذا الطلب لو زال عنه شعور الحرمان الذى داخله من كبريائه مع فقد بصره ووهن جسده . فيغلب عليه جانب الثقة والامتياز

وأى عجب فى تداخل النزعات واشتباكها فى جميع النفوس الآدمية ؟ ألا يوجد بين ذوى السلطان من يحب أن يشتهر بالكتابة فينتحل ما يكتبه له الكاتبون وليس هو بأديب ؟ أفمن أجل ذلك نقول إن الملكة الأدبية لاصقة بكل حاكم وكل أمير وكل طامع فى الشهرة بالمنثور والمنظوم ؟

ومن الخطأ أن نزعم أن أبا العلاء قد عكف على التفكير لأنه لم يظفر بالملك والإمارة ؛ فإن التفكير ليس بالمنحة « الاحتياطية » التى تجود بها الطبيعة على من فاتته المنح الأخرى ، ولكنها منحة أصيلة من رزقها فكر ومن لم يرزقها لم يفكر وإن أراد . وغاية ما هنالك أن المفكر المتكبر المحروم يتمثل حرمانه فى آماله ودخائل وجدانه شوقاً إلى الغلبة والبأس والولاية ، وهو شوق لا يمد من الملكات ولا من النزعات التى يقاس عليها فى غير هذه الحال

وجملة الرأى أن حاجة الحاكم إلى الفكر كحاجة كل عامل إليه ، فلا يلزم من ذلك أن يشتغل المفكرون بجميع الأعمال لأن جميع الأعمال تحتاج إلى تفكير

على أن الحكم إلزام والفكر إقناع ، وإذا بلغ الإقناع مداه ألزم الحاكمين أن يستمعوا له فكان سلطة فوق السلطة فى هذا المقام

عباس محمود العقاد

في المصادر والأصول

نساؤنا بين التقاليد والتجديد

لصاحب العزة الدكتور منصور فهمي بك

مدير عام دار الكتب المصرية

مقدمة

من الدقة أن يرى بحثنا إلى تناول أحوال المرأة المصرية المعاصرة ، لأن فينا من مد له في العمر فتيسر له أن يصف مسالك نسائنا في فترة محصورة من الزمن ، لعلها البرزخ الفاصل بين ما كانت تجرى عليه أحوال النساء عند السلف القديم ، وبين ما أصبحن عليه الآن ، وما قد يصرن إليه في مستقبل الأيام .

وإني ، مع حرصي الشديد على تضييق مجال البحث وحصره ، قد أتعرض للماضي أحياناً في نظرة خاطفة ، لأجلّي فيه بعض المعالم التي ترسمتها المرأة المصرية في مسيرها لكي تتبين : ألا يزال الدرب الذي تعدو الآن فيه موصولاً بالطريق الذي سلكته عدة قرون ؛ أم أصبح مسيرها مقطوع الصلة بماضيها القريب والبعيد ؟ ولعل المرأة حين اتخذت أسلوبها الجديد ، أخذت تتعرض لمنحدر كثير الزلل والخطر . وإني حين أعني بالبحث في أحوال نسائنا ، إنما أعني بحملة الرسالة الكبرى في تشييد أركان الهناء في الحياة ، بل بحملة سر الرحمن وكلمته في بذل المحبة والرحمة والسلام .

وإني إذ أثير اليوم موضوع المرأة المصرية بين التقاليد والتجديد ، إنما أثير موضوعاً حيوياً للزوجات والبنات والأمهات . وعلى الجملة موضوعاً يتصل بكيان الأسرة وكيان الأمة التي تنتمي إليها ، ونرجو أن نحيا بنا عزيزة ونحيا بها كراماً .

لمحة تاريخية

فمن نيف وثلاثين عاماً كان « قاسم أمين » يحلق بخياله في متسع تاريخ مصر الاجتماعي ، ويلق بنظراته الناقدة في صحائف حياتها العمرانية ، وكان يصيب نفسه وخز من الألم منشأه المظاهر الاجتماعية السيئة التي اتصلت بحياة الأسرة ، دون أن يقرها العقل السليم ، أو يرضاها الشرع الحكيم . ولقد حركت وخزات الألم لسانه وقلمه بما كان ينشده لأمته من ظهور امرأة جديدة تكون على حد قوله : « شقيقة الرجل ، شريكة الزوج ، مهذبة النوع ، مربية الأولاد [1] »

ولعل الصورة المثلى التي كان يتخيلها « قاسم أمين » ويريدها للمرأة المصرية تجمل للنساء كما كان يكتب ويقول :

— رأياً في الأعمال . فكراً في المشارب ، ذوقاً في الفنون ، قدماً في المنافع ، مقاماً في الاعتقادات الدينية ، فضيلة وشعوراً في الوطنية [2]

وكان يعتقد أن المرأة قد تسمو إلى ما ينشده لها من المكانة لو كلت تربية النساء على مقتضى الدين ، وقواعد الأدب ، ووقف بالحجاب عند الحد المعروف في أغلب المذاهب الإسلامية [3]

ومن حق المتأمل أن يجد فيما كان ينشده ذلك المصلح الكبير صورة للمرأة العاملة الجادة الشريفة الكريمة ، وليست صورة المستهترة العابثة في مهازل العيش وترّهات المجتمع ، وأن الاختلاط الذي كان يدعو إليه بين المرأة والرجل إنما هو ذلك الاختلاط البريء من مثيرات المفاسد ، وتدعو إليه مقتضيات الحياة النزيهة المثمرة ، وأن ما كان ينادي به قاسم من الحرية إنما هي الحرية التي تعين على الخير ، وليست تلك التي تركب للشرور والآثام . على أن قاسماً كان شأنه في دعوته لمثله الأعلى شأن كل مصلح تملك فؤاده ولبه المثل الذي كان يدعو إليه ، فكان اهتمامه لتحقيق دعوته أشغل لفكره ، وأصرف لنفسه عن الاشتغال بالبحث في مختلف الوسائل التي تقي أغراضه الصالحة من الانحراف

لقاء الدعوة

وجد قاسم أمين حين دعا دعوته للمرأة المصرية من أيدوه ومن عارضوه ، ومن حذروه سوء العقبى إذا لم تتخذ الحكمة وأسباب الاحتياط

فأما الذين أيدوه فكانوا ممن يعتقدون أن نهضات الأمم وعظمتها تفتقر إلى مسعى الرجال ومسعى النساء ، ورقي الرجال ورقي النساء ، ويكون ذلك بإشاعة التربية والتعليم ونشر الحرية بين أفراد الأمة جميعاً

وأما من عارضوه فكانوا ممن يعز عليهم أن يتغير ما ألفوه في حياتهم من عادات راسخة ضيعت على المرأة الكثير من حقوقها في الحرية والتعليم ، وكانوا من المستضعفين لضغط التقاليد التي أثقلت كواهلهم وكواهل عدة أجيال من آبائهم وأسلافهم

(١) من كتاب المرأة الجديدة (٢) عن تحرير المرأة (٣) من تحرير المرأة

وأما من حذروه ، فكانوا يعتقدون أن المرأة صفات نوعية تتميز بها عن الرجل ، وأن مسالكها وتقدمها ينبغى أن يساير ما انتزع عن فطرتها من الصفات ، وألا يتعدى دائرة ما اختصتها به الأقدار ، وألا يخرج عن الميدان الذى يتحقق فيه فوزها فى كفاحها الحيوى ، ويتجلى فيه إنتاجها فى الوجود ؛ وهؤلاء يقررون على نحو ما يقول الأستاذ فريد وجدى :

« أنهم ليسوا بدعاة إلى ظلمة القرون الأولى ، ولا بمروجى خطة أسر المرأة ، بل طلاب كمال يناسب كرامة الإنسانية ، ورواد مدنيـة حقة يقوم عليها الإنسان غير خائن لأمانته ، ولا غاش لنفسه » [1]

على أن دعوة قاسم كان لهـا الفوز على دعوة معارضيه ، ولم يكن تحذير المحذرين من بعض ما لا يرضون من نتائج هذه الدعوة بمعوق لها عن الانتشار المتواصل السريع ، وذلك لأن حركة النهوض المصرى كانت تشتمل فى شتى ظواهر الحياة الاجتماعية من نيف وخمسين سنة . وكان لا بد لها أن تمتد إلى الأسرة وتتصل إلى المرأة التى هى دعامة البيت وركنه الركين

وعلى ذلك سارت دعوة قاسم مجرى الحياة الاجتماعية المندفعة للرقى ، وفسح للمرأة طريق معبد فى النهضة العامة ، وفتحت لها أبواب التعليم ، ونظمت القوانين لمصلحة النساء ؛ وعلى الجملة سارت النهضة النسائية فى بداية أمرها مؤيدة بالحق يشجعها كل ميال لرؤية المجتمع المصرى يسير من السيئ إلى الحسن ، ومن الحسن إلى الأحسن

الانحراف

لـكن بينما كانت تسير نهضتنا النسائية فى مجراها الصافى إذ شابها ما يعكر شيئاً من صفائها برغم أنها صدرت عن نبعها الأول ، ومن دعوة قاسم ، نقية طاهرة ، فتحول خروج النساء من عزلتهن عن أن يكون وسيلة يسوغها شرف الغاية ليكون غاية لذاته ، أو وسيلة لغاية وضيعة . ولعل من أشد العوامل التى أضعفت قيمة الاختلاط بين المرأة والرجل وسوأت خروجها عن معزلها الذى ظلت فيـه طويلاً هو انتشار بعض الآراء دون أن تفهم على وجهها الصحيح ، ودون أن تنضج فى فهم من تخطفوها وتلقفوها ؛ ومن هذه الآراء ذهابهم إلى أن الاختلاط بين النساء والرجال وتوالى المجامع التى يتلاقون فيها من شأنه أن يهذب من المظاهر ، ويعمل على ترفيع النظرات ، وترقيق

الآداب . وحقاً أن تلاقى النساء بالرجال فى الحدود التى تقتضيها حيـاة التعاون والعمران من شأنه أن يجر إلى عالم النسيان كل الاعتبارات الجنسية

فالفلاحون الذين يتلاقون فى الحقول مع الفلاحات لاستغلال خيرات الأرض ، إنما يجتمعون اجتماعاً طبيعياً لمقتضيات نافعة قاهرة فيتلاقون بدافع هذه المقتضيات ويفترقون عند انعدامها . والمتبادلون من الناس فى المتاجر ، إنما يتلاقون لحاجة وينصرفون عند انقضائها ، والمتلاقون فى المعابد قد يجتمعون رجالاً ونساء لأداء حق من حقوق دياناتهم

وعلى الجملة ، فإن فى دواعى الاختلاط الطبيعى الذى يتحقق لدوافعه الداعية ما يعين على ترويض النزعات الجنسية للاستقرار فى مكامنها ، والوقوف عند حدودها التى تحول دون كل مكروه

التوسع فى الاختلاط واضرار ذلك

لكن الناس قد توسعوا فى هذا الترخص واستباحوا لأنفسهم أن يجوزوا مجتمعات الجد الطبيعية إلى مجتمعات هازلة مصنوعة من شأنها أن تؤدى إلى تحريك الانفعالات التافهة والشهوات الوضيعة والمواقف المرذولة أكثر مما تؤدى إلى ما تزكو به العقول، أو ترتفع به النفوس ، أو تتحقق به فائدة من فوائد الحياة

فقد يزدحم النساء والرجال فى مجتمع من مجتمعات الشاى أو الخمر (الكوكتيل) فلا يلبث هذا المجتمع أن يتحول إلى معارض للتزيين والأناقة ، وإلى مضمار للتأنق بالأقوال الرخيصة ، وبذل التظارف المصنوع ، واتخاذ الابتسامات المنافقة . وإذا كان لبعض النساء من وسائل الزينة ما ينحدر فى المرتبة عن زينة الأخريات ، فسرعان ما تنبض القلوب بالغيرة والحسد ، أو تدق دقات الزهو الأجوف . وإذا كان فى هذه المجتمعات من يعوزه يقظة الفضيلة ، وصلابة الخلق ، فثم النظرات المسمومة ، وثم الأحاديث المهيئة لنزعات السوء ونزغات الشيطان ، ومن ثم فضائح الغواية ، ومآسى الغيرة ، وما قد يجره ذلك من الكوارث فى هدم سعادة الأسر

وإذا ذكرنا مجامع الشاى وحفلات الخمور ، فلنضف إليها ما هو أسوأ منها أثراً من منتديات الميسر ، والمراقص ، والرحلات المشتركة ، ومسارح التمثيل الخليع ، وحمامات السباحة الجامعة . وعلى الجملة ضروب المجتمعات التى تخلط بين النساء والرجال ، وإثمها أكبر من نفعها لو أن لها نفعاً مذكوراً عند من يحسنونها وينزلقون إليها

(١) من المرأة المسلمة

وإذا صح أن بعض ما ذكرت من هذه المجتمعات يخلو مما أشرت إليه من المساوئ ويؤدي إلى فوائده المزعومة من جر الاعتبارات الجنسية إلى عالم النسيان ، فإنها تضعف من المرأة عاطفة الحياء ، وتوهن في الرجل عاطفة الغيرة . وفي إضعاف عاطفة الحياء خسارة كبرى على المرأة ، فإن الحياء زينة لها ؛ وفي إيهان غيرة الرجل خسارة كبرى على الرجولة وحماية الأسرة

ولعل قاسم أمين كان يخشى أن يتجاوز الناس حدود المعقول فيما دعا إليه من الاختلاط حين دعا إليه بعد أن تجاوزوا حدود المعقول في العزلة فقال :

« والذي أراه في هـذا الموضوع هو أن الغربيين قد غلوا في إباحة التكشف للنساء إلى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة من التعرض لثارات الشهوة ، ولا ترضاه عاطفة الحياء [1] »

وهكذا ظلت حركة اختلاط المرأة بالرجل تنمو سريعاً وتشيع إلى أن أصبحت الفتاة التي كانت أمها من نيف وثلاثين عاماً لا تستبيح لنفسها الاتصال ببعض المحارم أصبحت هذه الفتاة ترى الاتصال بالرجال للسمر والتسلي حقاً من حقوقها ، وليس في الحرص على ذلك من عار ولا تأثيم

ومن المقرر أن الاختلاط بين النساء والرجال إذا قام على غير مقتضياته الضرورية الجادة ، وكان مبعثه اللهو والترف ، فإنه لا يلبث أن يقوض دعائم الأمم . وفي تاريخ الرومان شاهد على ذلك :

« فلمـا دعاهم داعي اللهو والترف إلى إخراج النساء من خدورهن ليحضرن مجالس الأنس والطرب ، فخرجن خروج الفؤاد من بين الأضالع ، فتمكن ذلك العنصر الهاجم وهو الرجل لمحض حظ نفسه ، من إتلاف أخلاقهن ، وخدش طهارتهن ، ورفع حيائهن حتى صرن يحضرن التياترات ، ويغنين في المنتديات ، وساد سلطانهن حتى صار لهن الصوت الأول في تنصيب رجال السياسة وخلعهم . فلم تلبث دولة الرومان على هذه الحالة حتى جاءها الخراب من حيث تدري ولا تدري [2] » .

الحرية وسوء فهمها

ولقد أساء الناس فهم معاني الحرية كما أساءوا فهم الاختلاط والدعوة إليه ، وجر ذلك إلى عدة شرور . وليس من شك أن الحرية من مطالب النفوس عند ما يشكو الناس من نظم اجتماعية تحول بينهم وبين الحقوق الفطرية التي وهبت لهم لتأدية رسالتهم في العمران . وقد ينزع الطير المحبوس لحريته ، ويحن للهواء الطلق والأجواء الواسعة ، لأن في الحبس تعطيلاً لأجنحته التي سواها الله للطيران ، وتتدرج بممارسته لـكمال وظيفتها . وقد ينزع الشعب المقهور للحرية التي ضيقها عليه القاهرون لينعم بعزته القومية المسيطرة عليه ، ويطمئن إلى عاداته وآماله المحببة إليه ، ويستغل ثروة بلاده ونتائج كسبه ومسعاه . وقد يطلب المتبادلون المنافع في أسواق التجارة حرية البيع والشراء ليجد كل من الطالب والعارض ما تتحقق به حاجته ومصلحته وأجره . وقد يهيم المؤلف والـكاتب والخطيب حين يصدقون بطلب الحرية لاعتقادهم أن في دعوتهم عوناً للخير والحق . وعلى الجملة قد تطلب الحرية كأداة صالحة يستعين بها المرء لأغراضه العليا من الخير والـكمال . فـما هي إذن تلك الأغراض العليا التي يقصد النساء إليها ويتخذن من الحرية لها أداة صالحة ؟

أما إذا كان طلب الحرية ليصبن من العلم ما يصقل نفوسهن ويقوم أخلاقهن ، فلا يمانع في ذلك أحد ؛ فطلب العـلم الذي تتكمل به النفس فريضة على الناس جميعاً . وإذا كان الباعث على طلب الحرية هو القيام بما ينتفع به المجتمع حين يحتاج لنشاط نسائه ، فليس من ينكر عليهن تلك الحرية حين يقتضيها الحال وتدعو إليها الظروف . لـكن إذا طلبت المرأة حريتها لغير ما ينفع ، كما لو أرادت أن تلبي داعي النزق لتلهو بمخالطة اللاهين ، وكما لو اتخذت من الحرية ما يستخدم لهجران بيتها لتأنس بالملاهي والمزارات والتسكع في الأسواق ، وكما لو أرادت أن تتخذ من الحرية مطية للتبرج رغبة في الزهو بنفسها والغرور بزينتها ، فليس من أحد رشيد يرضى عن حرية تركب للعبث والشطط .

لقد أبيح للـكثرة من نساء الغرب تمشياً مع سوء فهم الحرية أن يتعرفن بمن شئن من الناس ويختلطن بالرجال بمحض اختيارهن حيثما يشأن طوعاً لحقهن في الحرية ، أو اعتماداً على ثقتهن الموهومة بأنفسهن ؛ وقد يحاكيهن في ذلك بعض نسائنا في هذا العصر ، وفي بعض الطبقات مطوحات بأنفسهن بعيداً عن مألوف العرف المصري والإسلامي ، غير مكترثات بما قد يجر إليه هذا الإمعان في الاختلاط من مفاسد خلقية ومن أثر سيء في بنية الأسر وفي تقدم المجتمع وكيان الدولة . وفي الحق أن هذا التجديد المروع

(١) من تحرير المرأة (٢) من المرأة المسلمة لفريد وجدي

الأندية العربية فى العراق

للدكتور زكى مبارك

تمهيد — حفلات القبول — السهرات الصحفية بين القاهرة وبغداد — نادى المعارف — نادى المثنى — نادى الشبان المسلمين — نادى الهداية الاسلامية — النادى العسكرى — نادى البصرة — نادى الجزيرة — الرابطة العلمية والأدبية بالنجف — نادى القلم العراقى .

تمهيد

حين زرت بغداد للمرة الثانية سألت معالى الدكتور سامى شوكت عن منزل أخيه الدكتور صائب شوكت فقال : « إنه يقيم فى شارع المرحوم أبى نواس » وقد فخم كلمة « المرحوم » ليبرز معنى الدعابة فى تعبيره الظريف

والمرحوم أبو نواس يحدثنا فى خمرياته أنه كان يجد الحانات مغلقة الأبواب ، وأنه كان ينادى أهلها من وراء الحجرات ليسعفوه بالشراب وأدوات الشراب ، وللشراب أدوات مختلفات الألوان

وقد سمعت أن حانات بغداد لا تزال على عهدها القديم : فهى تغلق بعد مضىّ ساعات قلائل من صدر الليل ، ويحوج قاصديها إلى قرع الأبواب ، برفق أو بعنف ، وَفقاً لظرف الزمان وظرف المكان ، فلكل محلة فى بغداد ظروف

ماذا أريد أن أقول ؟

أنا أريد القول بأن تقاليد العراقيين فى القديم والحديث توجب أن تكون سهراتهم فى البيوت ، على نحو ما كانت الحال فى مصر إلى عهد قريب ، ويشهد بقوة تلك التقاليد إغلاق الحانات فى صدر الليل ، وسهراتُ البيوت فى العراق القديم وجدت خَلَفاً سعيداً هو سهرات الأندية فى العراق الحديث .

فكيف الحال هنالك ؟ وهل بقى للمنازل حظ بجانب الأندية الأدبية ؟

حفلات القبول

فى العراق ما يسمى « يوم القَبُول » وهو ما نسميه فى مصر « يوم الاستقبال » وهو يومٌ من أيام الأسبوع ينتظر فيه الرجل زائريه فى الصباح أو فى المساء : فمعالى السيد محمود صبحى الدفترى يستقبل زائريه فى صباح الجمعة ، وهو صباحية جميلة يتلاقى فيها أعيان أهل الأدب فى بغداد ، ولها تأثير شديد فى توجيه الحياة الأدبية والاجتماعية . ومعالى الشيخ محمد رضا الشبيبى يستقبل زائريه فى مساء الخميس ، وقد يتلطف باستقبال زائريه فى كل مساء ، لأنه يقيم بضاحية نائية تسمى « الزوية » وله على شط دجلة ناد جميل يشرح الصدور ، ويؤنس العيون ، وفى ذلك النادى تثار مشكلات متصلة بالعلوم والآداب والفنون ، وتُسمع فيه أغاريد « أبى كلثوم الوفدى » وهو الشاعر المفتون بأغانى أم كلثوم وأخبار الوفد المصرى ، هو السيد باقر الشبيبى الذى يحب مصر أكثر مما يحبها المصريون أعزه الله وأدام عليه نعمة الوفاء

وخلاصة القول أن لأكثر أهل العراق أندية تقام فى البيوت أيام القبول وهى أندية توجّه الحياة الأدبية والاجتماعية والسياسية وتسير بالمجتمع العراقى إلى غايات فيها القريب والبعيد ، وقد تكون لها صلة بما يظهر فى الجو العراقى من شئون وشجون ، فالرجال هنالك لا يكفون عن مراقبة الاتجاهات المحلية إلا فى أندر الأحايين

السهرات الصحفية

وبجانب حفلات القبول تقام سهرات الصحفيين فى دور الجرائد والمجلات ، وهى سهرات فاتنة إلى أبعد الحدود . وهل أنسى سهراتى فى إدارة جريدة (العراق) وجريدة (البلاد) ؟ وهل أنسى أن إخوانى فى جريدة (الهدف) كانوا يمدون روحى بأكواب الصفاء ؟ وهل أنسى أن كؤوس الشاى فى جريدة (بغداد) كانت أطيب من كؤوس الصهباء ؟

الصحفيون فى العراق يذكرون بإخوانهم فى مصر من حيث الجاذبية وخفة الروح ، وأنديتهم فى جرائدهم تذكر بأنديتنا فى جرائدنا ، فما ينسى أحد كيف كان النادى الأدبى فى جريدة

فى عادات نسائنا ، هو أشد ما يخشى أثره فى أمة كأمتنا ما زالت فى طورها الحاضر تحبو فى السبيل الموصلة لعظمة الأمم

فإذا كان قد أصاب دولة الرومان ما أصابها من الضعف عند التوسع فى الاختلاط المفسد بين الرجال والنساء ، وعند التوسع فى إطلاق حريتهن ، فإن مثل هذا الاختلاط المنحرف كان له أكبر الأثر فى إضعاف بعض الأمم الغربية المعروفة فى العصر الحديث حين خبت ثقافتها ، وهزل إنتاجها الأدبى المعاصر ، وانحلت قوة المقاومة منها عند الجهاد والكفاح الحيوى

« البقية فى العدد القادم » منصور فهمى

(الجهاد) وكيف يكون النادى الأدبى فى جريدة (الأهرام) وجريدة (المصرى) وجريدة (السياسة) وإن امتزج نادى (السياسة) بنادى الأحرار الدستوريين . وهل كانت (ندوة الدستور) إلا ندوة أدبية قليلة الأمثال ؟

إن الأنس الذى يجده من يسمُر بدار (الرسالة) أو دار (الأهرام) له نظائر فتانة فى دار (العراق) أو دار (البلاد)

وكما نجد فى سهرات الصحافة المصرية أقطاب الرجال فى أكثر الميادين ، نجد فى سهرات الصحافة العراقية أقطاب الرجال فى الأدب والسياسة والاجتماع

وإذا صح للمنفلوطى أن يسجل أن النادى الأدبى فى جريدة (المؤيد) خلق أكابر الباحثين فإنه يصح لنا أن نسجل أن الأندية الصحفية فى مصر والشام والعراق سيكون لها فضل عظيم فى تكوين الجيل الجديد[1]

نادى المعارف

وأنتقل إلى الحديث عن الأندية الأدبية فأقول :

أول ناد أدبى عرفته فى بغداد هو نادى المعارف ، والمعتمد لهذا النادى هو السيد رشيد العبيدى[2] ، وهو أديب عراقى تخرج فى مصر بمدرسة دار العلوم ، وهو زميل السيد حسين بستانة ، إليه وإلى من تخرجوا فى دار العلوم أقدم أطيب التحيات ، فهم سفراء مصر فى العراق[3]

ونادى المعارف هو نادى المعلمين ، وفيه شربت أول كأس من ماء دجلة ، وفيه كنت ألقى من يسألون عنى فى مساء كل خميس

فى نادى المعارف يلتقى المعلمون كل يوم ، فيقرأون الجرائد والمجلات ، ويتجاذبون أطراف الأحاديث ، ويستعدون لاستقبال من يفد على بغداد من رجال العلوم والآداب والفنون

فإن قلتَ إن « نادى المعارف » فى بغداد له تأثير فى توجيه الحياة الأدبية فأنت صادق كل الصدق ، لأنه موصول الأواصر بأكثر البلاد العربية ، ولأن رجاله من أكابر المدرسين ، والمدرسون هم المصلحون الأوائل فى جميع الشعوب

(١) الشام فى جميع ما يخطه قلمى هى البلاد المكونة من فلسطين وسورية ولبنان (٢) المعتمد هو الرئيس فى تعبير أهل العراق

(٣) قد يجهل المصريون أنفسهم أن وزارة المعارف المصرية تؤدى خدمة جليلة لوصل الأمم العربية بعضها ببعض عن طريق التعليم والتثقيف ، فهى تقبل جماعات من الطلبة الشرقيين بالقسم الداخلى فى مدرسة دار العلوم بدون مصروفات

نادى المثنى

ونادى المثنى هو نادى العروبة ، ومعتمده هو الدكتور صائب شوكت ، ولهذا النادى حفلات أسبوعية لاستماع المحاضرات ومجاذبة الأحاديث ، ومن أعضائه السيد محمد مهدى كبة والدكتور عبد المجيد القصاب والسيد عبد المجيد محمود ، وقد تفضل أعضاء هذا النادى فمنحونى « عضوية الشرف » ، والذى وصلنى بهم هو تلميذى القديم السيد جلال الأورفه لى ، ذكره الله بكل صالحة ، وأكرمنى بدوام نعمته عليه ، فهذا المحامى النابغ كان السبب فى أن أقضى سهرات جميلة بقصر صاحب السمو الأمير عبد الإله قبل أن يصير وصياً على عرش العراق

نادى الشبان المسلمين

هو ناد يقوم بالكرخ فى دار جمعية الشبان المسلمين ، وهو ناد خفيف الروح ، وتقام به سهرات مصقولة الحواشى ، وفيه سمعت محاضرة جيدة للأستاذ محمد بهجة الأثرى ، وهو شاعر مجيد يعرفه قراء الرسالة ، وله صداقات متينة مع كثير من الأدباء الكبار فى مختلف البلاد العربية . وكانت له مطارحة أدبية مع الأستاذ الزيات سجلها فى كتيب لطيف . وقد عرفته أول مرة حين دعانى سعادة الأستاذ عبد القادر الكيلانى للتسليم عليه فى دار المفوضية العراقية بالقاهرة ، والسيد عبد القادر هو اليوم عراقى له دار مصرية فى بغداد ، وهو النموذج الحق للذاتية العربية والإسلامية ، أدام الله عليه نعمة التوفيق

نادى الهداية الإسلامية

لم أزر هذا النادى ، وإنما رأيت آثاره الجميلة فى إحياء المواسم الإسلامية ، وله مجلة تصدر باسمه يديرها الأستاذ الطائى ، ومن أعاظم رجاله الأستاذ طه الراوى ، وهو رجل عظيم لا أملّ ولن أملّ من الثناء عليه ، بعد أن رأيت دموعه تنحدر يوم أطلق الرصاص على بعض الأساتذة المصريين فى بغداد

وطه الراوى أستاذ مخضرم تزود من الثقافة الدينية والثقافة المدنية ، وهو من أقدر الناس على ضبط النفس ، فما تسمع منه كلمة تشوك خصومه فى محضر أو مغيب . ويوم تفكر مصر فى مبادلة الأساتذة سيكون من واجبى أن أقترح استقدامه للتدريس فى كلية اللغة العربية أو دار العلوم أو كلية الآداب .

فتى تفكر مصر فى هـذا النظام ليتعارف المصريون والعراقيون بدون التعرض للتكاليف المالية ؟

والمهم أن أسجل أن هذه الجمعية لها مجلة تنشر الثقافة الدينية والأدبية كما لجمعية الشبان المسلمين مجلة تسمى « العالم الإسلامى » ولهاتين المجلتين تأثير فى تكوين الأذواق وتهذيب النفوس ، وإن كنت لا أدرى ما صارتا إليه بعد أن حرمت الاستصباح بظلام الليل فى بغداد

النادى العسكرى

هو نادى الضباط، وهو نادٍ له فى ذهن الأستاذ الزيات تاريخ . فقد قال فيه كلمة لن ينساها البغداديون ، فما هى تلك الكلمة ؟ أظنه قال إنه كان يسمع فيـه صوت السكون ، فما استطعت الاتصال به عند كتابة هذا الحديث فأعرف بالضبط ماذا قال[4]، لأنى شرعت فى كتابة هذا الحديث وأنا بغبار السفر بعد الرجوع من بغداد ، بل أسوان[5]

وفى النادى العسكرى سمعت نكتة عراقية : صحبنى إليـه رفيقان : هما السيد صادق الوكيل ، والسيد جواد الشهرستانى ، وأراد السيد جواد أن يدلنى على الطريق ، فقال السيد صادق : لن يحتاج الدكتور مبارك إلى دليل عند الدخول ، ولـكن سيحتاج إلى دليل عند الخروج !

فهل كان يعرف هذا الشقىّ أن نشوة الأسمار والأحاديث ستحوجنى بعد السهرة إلى السؤال عن الطريق ؟

فى النادى العسكرى يسهر جماعات من ضباط الجيش العراقى وهم رجال على جانب من العلم والأدب والوطنية ، وفيهم السيد مجيد الهاشمى ، وهو رجل منوَّع المواهب ، وله دراية بكثير من فنون المعارف والآداب ، وهو من صلات الوصل بين مصر والعراق ، لأنه موصول القلب والعقل بأكثر ما يصدُر عن وادى النيل

نادى البصرة

هو مجتمع أهل الفضـل بوطن « الجاحظ » و « إخوان الصفاء » ، ولو طالت إقامتى بالبصرة لاستطعت تسجيل ما به من خصائص تمثل ما عند أهل الجنوب من شمائل بيض ، فأهل البصرة بشهادة جميع أهل العراق يمتـازون باللطف والوداعة والـكرم والجود ، وقد سمعت عن السيد الشمخانى أحاديث تذكر بأخبار معن بن زائدة الشيبانى ، وآخر ما سمعت هو ما قرأت فى جريدة الأستاذ عبود الـكرخى عن أخبار السيد الشمخانى فى مواسم الصيد

نادى الجزيرة

هو منتدى أهل الفضل بالموصل ، ومعتمد هذا النادى هو تلميذى القديم الأستاذ جيلمران[6] ، وهذا النادى يقع على شط دجلة وفى رحاب حديقة جميلة هى معترك العواطف بالموصل ، وله تأثير شديد فى وصل الأواصر الأدبية بين الأمم العربية

الرابطة العلمية

هى أعظم جمعية أدبية بالنجف « الأشرف » ، وإنما وصف النجف بالأشرف منافسةً للأزهر « الشريف » . فى النجف معهد دينى يسير على أسلوب الأزهر فى أكثر الشئون ، وإن لم يستطع مسايرة الأزهر فى الانطباع بطابع الزمان

والرابطة العلمية والأدبية بالنجف لها لون خاص ، فأدباؤها فى حكم المنعزلين عن أدباء الموصل والبصرة وبغداد ، ولهم فى إنشاد الشعر طريقة لا يعرفها من سكان العراق غير النجفيين ، وهى طريقة تقوم على قواعد الترنيم ، وعلى مثلها كان الشيخ سيد المرصفى ينشد الشعر فى دروسه بالأزهر الشريف

نادى القلم العراقى

هو تاج الأندية العراقية ، أُسِّس منذ سبع سنين أسوةً بأندية القلم فى كثير من أقطار العالَم القديم والعالم الجديد ، واختير الشاعر جميل صدقى الزهاوى رئيساً ، والدكتور محمد فاضل الجمالى نائب رئيس ، والدكتور متّى عقراوى أميناً للصندوق ، والأستاذ إبراهيم حلمى العمر كاتم أسرار

والرئيس اليوم هو معالى الشيخ محمد رضا الشبيبى ، ونائب الرئيس هو الدكتور محمد فاضل الجمالى ، وأعضاؤه يزيدون على

(٤) فى كتاب (وحى الرسالة) وصف لهذا النادى وحديقته جاء فيه : « والسكون مرهوب الجلال أنيس الوحشة يعمق ثم يعمق حتى تكاد تسمع النبات وهو ينبت »

(٥) أسوان مضرب المثل فى البعد ؛ وأهل مصر يقولون : أبعـد من الشلال !

(٦) « جيلمران » كلمة كردية ، عرفت معناها ثم نسيته ، فما اسمك بالعربية ، يا سيد جيلمران ؟

الثلاثين ، وهم يُختارون من بين الرجال الموسومين بالمواهب العلمية والأدبية

ليس لهذا النادى دار ، وإنما يجتمع الأعضاء من وقت إلى وقت فى منازل يتوافَون إليها على ميعاد ، فهم اليوم فى منزل الأستاذ عباس العزّاوى ، وهم غداً فى منزل الأستاذ جعفر خياط ، وهم بعد غد فى منزل الأستاذ باقر الشبيبى ... الخ .

وعلى من يجتمعون فى داره أن يقدم إليهم الشاى أو الرطبات ، إن اجتمعوا فى العصرية ، فإن اجتمعوا فى المساء كان من واجبه أن يتلطف بتقديم العَشاء الخفيف . ولا يجتمعون فى المساء إلا إن كانت دار الداعى فى مكان بعيد

وفى كل اجتماع يُلقِى أحد الأعضاء مسامرة علمية أو أدبية أو اجتماعية[7] . ثم يدور النِّقاش بعد استئذان الرئيس ، وقد يصل النقاش إلى درجات من العنف لا يخففها إلا ضحكات الدكتور الجمالى وفكاهات الأستاذ أبى إيناس

وأعضاء هذا النادى فى غاية من الحيوية ، وهم يرسلون من يمثلهم فى المؤتمرات التى يقيمها نادى القلم العالمى .

وقد أصدروا أخيراً مجموعة نفيسة ضمّنوها طوائف من المحاضرات التى أُلقيت فى اجتماعاتهم الدورية ، وتقع هذه المجموعة فى أكثر من ثلثمائة صفحة بالقِطع المتوسط ، وبها رسوم لجميع من حوى هذا السِّفر أبحاثهم الجياد

نجد فى صدر المجموعة مقالاً علمياً عن المجريطى إمام فلاسفة الأندلس فى الرياضيات والطبيعيات ، وهو مقال مفصَّل دبجه الأستاذ محمد رضا الشبيبى . ولهذا الأستاذ الجليل بحث آخر فى هذه المجموعة سماه (قصة فتح بغداد) ، وهو يصوّر ما كان عليه المغول من القوة الحربية والسياسية يوم استطاعوا اجتياح العراق ؛ ويمكن بسهولة أن نمدّ هذا البحث من فلسفة التاريخ

وهنالك بحث شائق للأستاذ أحمد حامد الصراف عن (الغُلاة) وهى الفِرقة التى تعبد عَليًّا وتراه خالق الكون وسر الوجود

ولنا ملاحظات على هذا البحث يضيق عنها هذا الحديث ، وقد نرجع إليها بعد حين

وفى هذه المجموعة خلاصة وافية لأعمال المؤتمر الرابع عشر لأندية القلم وقد عُقِد فى بونيس إيرس بالأرجنتين (٥ — ١٥ أيلول سنة ١٩٣٦) ، وهذه الخلاصة هى تقرير قدّمه الأستاذ مجيد خدورى مندوب نادى القلم العراقى ، وفى هذا التقرير إشارات إلى شئون أدبية وفلسفية تستحق الالتفات

ويهمنى أن أوصى قراء الرسالة باقتناء هذا السِّفر النفيس ، فهو عُصارة جهود محمودة فى خدمة العلوم والآداب ، وهو يصوّر جوانب من النشاط العلمى والأدبى فى بغداد

ثم ماذا ؟ ثم أُجمِل الغرض من هذا الحديث فأقول :

إن الآثار المدوَّنة فى الجرائد والمجلات والمطبوعات لا تمثِّل أعمال الأندية العراقية كل التمثيل ، ففى تلك الأندية تدور مطارحات ومساجلات تفوق العدّ والإحصاء ، وفيها تُدرَس أعمال الأدباء الذين يصل صرير أقلامهم إلى العراق . ولأدباء الرافدَين موازين فى النقد الأدبى لا تخلو من تحرّى الدقة والعدل ، وهم يعرفون من أخبارنا الأدبية كل شيء ، ولا تغيب عنهم مرامينا إلا فى النادر من الأحيان ، كأن يصدّقوا أقوال المصريين بعضهم فى بعض ، وما دَرَوا أن تهاجى الصحف المصرية بابٌ من الرياضة على إجادة التعبير فى مختلف الأغراض

والظاهر أنى مضطرٌ إلى تذكير أدباء مصر بأنهم لا يكتبون لأنفسهم ، وإنما يكتبون لأقطار كثيرة ، وتلك الأقطار قد يغيب عنها غرام المصريين بالنكتة والمزاح ، فما نرسله على سبيل الفكاهة قد يُظَنّ من الحقائق ، ثم يؤوّل أسوأ التأويل .

أما بعد فهل يرى القراء أنى دللتهم على مظاهر الحيوية الأدبية فى أرجاء العراق ؟

إننى أوجزت القول عن الأندية الأدبية لأدّخر الفُرص للحديث عن رجال الصحافة وقادة الفكر فى تلك البلاد ، فما أحوال الصحافة العراقية ؟

سأرى ويرى معى القراء كيف تجول الأقلام وتصول فى وطن دجلة والفرات ، على شرط أن يُرفَع الحجاب بينى وبين زملائى هناك ، فلا يقال إننى أخرج على آداب الصداقة والأخوة حين أنتقل من الجد إلى الملام . وهل أذكر أهل العراق بالسوء إلا مصانعة للكاشحين والحاقدين ؟

كلانا مُظهِرٌ للناس بُغضاً وكلٌّ عند صاحبه مكينُ
تخبّرنا العيون بما أردنا وفى القلبين ثَمّ هوًى دفين

زكى مبارك
عضو نادى القلم العراقى

(٧) المسامرة هي المحاضرة في تعبير أهل تونس . وأختار أن يكون البحث محاضرة والتعقيب عليه مسامرة

٦ - فى العقد

لأستاذ جليل

٤٥ — (ص ٣٧٢) هند بنة أسماء

(ص ٩٩) بإبراهيم

(ص ٣٥) لا ستر الله علىّ إذاً ذنبى

(ص ١١٧) : كان خالد بن الوليد يسير فى الصفوف يُذمِّر[1] الناس ويقول : يأهل الإسلام ، إن الصبر عز ، وأن الفشل عجز ، وأن مع الصبر النصر

قلت : أراد محققو (العقد) أن تظهر (ابنة ، وإذن ، ويا إبراهيم ، ويا أهل) كما رأيت استناداً إلى بعض مؤلفات فى (الإملاء) على أنهم لم يعملوا فى كثير من الألفاظ بما جاء فيها

وللفظة (ابنة) بين علمين فى (أدب الكتّاب) لابن قتيبة قول يخالف غيره ، وهو هذا : « وتكتب هذه هند ابنة فلان بالألف وبالهاء ، فإذا أسقطت الألف كتبت هذه هند بنت فلان بالتاء »

وفى (الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب) لابن السيد البطليوسى بحث فى إذن وغيرها جدير بالنشر وهو هذا : « قد اختلف الناس فى إذن كيف ينبغى أن تكتب ، فرأى بعضهم أن تكتب بالنون على كل حال ، وهو رأىُ أبى العباس المبرِّد . ورأىُ قوم أن تكتب بالألف على كل حال ، وهو رأى المازنى[2] ورأى الفراء أن تكتب بالنون إذا كانت عاملة وبالألف إذا كانت ملغاة . وأحسن الأقوال فيها قول المبرد ، لأن نون إذن ليست بمنزلة التنوين ولا بمنزلة النون الخفيفة فتجرى مجراها فى قلبها ألفا ، إنما هى أصل من نفس الكلمة ، ولأنها إذا كتبت بالألف أشبهت إذاً التى هى ظرف ، فوقع اللبس بينهما . ونحن نجد الكتاب قد زادوا فى كلمات ما ليس فيها ، وحذفوا من بعضها ما هو فيها للفرق بينها وبين ما يلتبس بها فى الخط . فكيف يجوز أن تكتب إذن بالألف ، وذلك مؤد إلى الالتباس بإذاً ؟

وقد اضطربت آراء الكتاب والنحويين فى الهجاء ، ولم يلتزموا فيه القياس ، فزادوا فى مواضع حروفاً خشية اللبس نحو واو عمرو ، وألف مائة[3] ، وحذفوا فى مواضع ما هو فى نفس الكلمة نحو خالد ومالك ، فأوقعوا اللبس بما فعلوه ، لأن الألف إذا حذفت من خالد صار خلداً ، وإذا حذفت من مالك صار ملكا . وجعلوا كثيراً من الحروف على صورة واحدة كالدال والذال والجيم والحاء والخاء ، وعولوا على النقط فى الفرق بينها ، فكان ذلك سبباً للتصحيف الواقع فى الكلام . ولو جعلوا لكل حرف صورة لا تشبه صورة صاحبه كما فعل سائر الأمم ، لكان أوضح للمعانى وأقل للالتباس والتصحيف . ولذلك صار التصحيف فى اللسان العربى أكثر منه فى سائر الألسنة ... »

قلت : أصاب ابن السيد فى بعض ما قال ، وأشط فى بعض و « ألقى الشيطان فى أمنيته ... » . وإن الإعجام ولا سيما فى التنقيط[4] ، والعمل بأقوال أئمة فى الإملاء مسهلة ، وعلامات الترقيم ، وشيئاً من التيسير لا يضير ... فى كل ذلك مرغب البطليوسى وأمثاله فى هذا العصر من مستصعبي الحروف العربية وأكثر من مطلوبهم . والحروف العربية والحروف الفرنجية كلها من جنس واحد ، كما ذكر ذلك فى « الرسالة » رقم ٢٢٦ ص ١٧٨١ . وليست المشكلة ولا البلية فى الحرف ، ولكن فى الانحراف ...

٤٦ — (ص ٣٦٠) :

الوحى بين بنى البنات وبينكم قطع الحسام فلات حين خصام

قلت : قَطع الحسامَ ، والجلة خبر الوحى ، وهذا ما يعنيه الشاعر المستجدى ، وإن كان لذاك الشكل وجه . والبيت فى قصيدة من أشهر قصائد (التملق) وفحواها أن الله أعطى

---

(١) قلت : ورد هذا الفعل (يذمر) هنا مضعفا ، والذى فى اللغة هو ذمر يذمر ذمراً وهو ذامر مثل قتل يقتل قتلا . وضبط (يذمر) فى طبعة (اللسان) مشدداً — خطأ . وذمره على الأمر حضه مع لوم ليجد فيه ، يقال : القائد يذمر اصحابه فى الحرب يسمعهم المكروه ليشحذهم كما فى الأساس . وفى الجمهرة : (ذمرت الرجل أذمره ذمراً إذا أحضضته) والفعل : ذمر تذميراً معنى آخر

(٢) الكاتب الكبير الأستاذ إبرهيم عبد القادر المازنى لا يرى رأى ابن عمه . . .

(٣) ابن قتيبة : مائة زادوا فيها ألفاً ليفصلوا بينها وبين منه، ألا ترى أنك تقول : أخذت مائة وأخذت منه فلو لم تكن الألف لالتبس على القارىء (قلت) : كان ذلك أيام قلة الاعجام . وإذا قلت وكتبت اليوم أخذت مئة ، وأخذت منه فلن يلتبس على قارىء . . .

(٤) ففقدان النقط فى الياء فى الفعل أو الاسم فى كل حالة فى أكثر المطابع المصرية — مشكلة . فمن تتم مصانع الحروف هذا النقص ؟ وأصحابها قادرون على الاتمام ... وقد أغضب هذا التفريط حضرة العلامة الأب أنستاس مارى الكرملى فنبه عليه فى مقالاته

العباسيين لا العلويين الفاطميين (إمامة) المسلمين وسياسة دنياهم كيف ؟ ولماذا ؟

مروان بن أبي حفصة لا يسأل عن هذا (الإنطاء) ، ولا يدرى لماذا ؟

لا يبحث عن كيفية ولا سببية، ولا يهمه عباسية ولا علوية، و (بيت القصيدة) عنده هو تلك المنقوشة المسجدية واللينية « وعلى المنقـــوش داروا »

وفى (الإسلام الصحيح) القول الحق الصريح فى الإمامة وفى أمور ذات بال(٥)

٤٧ — (ص ١٥٨) : قال عيسى بن موسى : لما وجهنى المنصور إلى المدينة لمحاربة بنى عبدالله بن الحسن ...

قلت فى طبعات العقد السابقة : لمحاربة عبدالله بن الحسن ، وفى هذا القول خطأ ، فزاد محققو الكتاب محسنين الكلمة (بنى) وزيادة (ابنى) أوفق ؛ فالثائران هما : محمد (النفس الزكية) وأخوه ابراهيم ابنا عبدالله بن الحسن

٤٨ — ص ٦٦ ... فقال أبو جعفر لابن أبي ذئب : ما تقول فى بنى فلان ؟ قال : أشرار من أهل بيت أشرار . قالوا : اسأله يا أمير المؤمنين عن الحسن بن زيد — وكان عامله على المدينة — قال : ما تقول فى الحسن بن زيد ؟ قال : يأخذ (بالإحنة) ويقضى بالهوى . فقال الحسن : يا أمير المؤمنين، والله لو سألته عن نفسك لرماك بداهية أو وصفك بشر . قال: ما تقول فىّ ؟ قال: أعفنى . قال : لا بد أن تقول ؛ قال : لا تعدل فى الرعية ، ولا تقسم بالسوية . قال : فتغير وجه أبي جعفر ؛ فقال ابراهيم بن يحيى بن محمد بن على صاحب الموصل : طهرنى بدمه يا أمير المؤمنين ، قال : اقعد يا بُنى ، فليس فى دم رجل يشهد أن لا إله إلا الله طهور(٦)

(٥) فى ذلك الكتاب: إنما الاسلام دين التساوى ، فالصعلوك مثل الرئيس ومثل الملك ، والملك والرئيس مثل الصعلوك فى هذا الدين. (وفيه) ما كان محمد زعيم عترة حتى يحفل بعترة ، وما كان محمد لقبيلة فيعنى بأمر قبيلة ، وما كان محمد لجيل أو أمة « قل يا أيها الناس ، إنى رسول الله إليكم جميعاً » . وليس (الكتاب) كتاب العرب ، القرآن كتاب العالمين « إن هو إلا ذكر للعالمين » ومحمد للناس أجمعين . (وفيه) والله تعالى ما أنزل فرقانه ليكون شرفاً لقريش أو للعرب «إن هو إلا ذكري للعالمين» « وذكري لقوم يؤمنون » « إن هو إلا ذكر للعالمين » و « هدى للمتقين » فما «أوحى الله إلى عبده ما أوحى» لتوجيه قريش وتشريف هاشم أو أمية

(٦) الطهور مصدر فيما حكى سيبويه (التاج)

وجاء فى الشرح فى تعليقة (بالإحنة) : كذا فى ا . والذى فى سائر الأصول : (بمـا لا يحققه) ، والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

قلت : الإحنة الحقد ، والغضب الطارئ من الحقد . والظن أن (بالأحنة) هى (الرشا) ، ولا يستبعد هـذا فى باب التبديل والتحريف والتصحيف ، وما بذ (العقد) سائر الكتب بكل ذلك من شىء قليل ... والرجل يسجع ، والرشا والهوى يتفقان ... ووصفه العامل بأخذ الرشا أهون خطباً من ذلك (التقريظ) الذى لطم به وجه الخليفة ... وهو الخليفة

٤٨ — (ص ٢٥٠) قال سابق البلوى :

داهن إذا ما خفت يوماً مسلطاً عليك، ولن يحتال من لا يداهن

قلت : أظن أنه سابق البربرى كما فى حماسة البحترى وشرح المقامات للشريشى . وفى التاج : « سابق بن عبد الله البرق المعروف بالبربرى ، روى عن أبي حنيفة رحمه الله وعن طبقته ، مشهور عندهم » وروى البحترى له فى حماسته هذا البيت الفذ :

وفى البحث قدماً والسؤال لذى العمى شفاء ، وأشفى منهما ما تعـايـن

وقد يكون هو وبيت العقد من قصيدة واحدة ، وروى الشريشى هذين البيتين لسابق البربرى :

فحتى متى تلهو بمنزل باطـل كأنك فيه ثابت الأصل قاطن
وتجمع مالا تأكل الدهر دائباً كأنك فى الدنيا لغيرك خازن

٤٩ — (ص ٢٥٢) قال ابن أخت تأبط شرا :

مطـــرق يرشح موتاً كما أطرق أفعى ينفث السم صلّ

قلت :

مطرق يرشح موتاً كما أطـــرق أفعى ينفث السم صـلُ

وقافية البيت مطلقة ، والتشديد غير جائز ولو كانت مقيدة ، والبيت من قصيدة تنسب إلى تأبط شراً وإلى ابن اخته وكلاهما من الأسرة الخلَفية ... وقد نقل (جوته) معانيها نظماً إلى الجرمانية وسماها نشيد الانتقام ، وسأنشرها وكلمة موجزة فى شاعر الجرمان الأعظم

٥٠ — (ص ٢١٨) ... كان رجل من أهل الكوفة قد بلغه عن رجل من أهل السلطان أنه يعرض ضيعة له بواسطَ

فى مغرم لزمه للخليفة ، فحمل وكيلاً له على بغل وأترع له خرجاً بدنانير وقال له : اذهب إلى واسطَ

قلت : بواسطِ ... إلى واسطِ

قال (الكتاب) : وأما واسط فالتذكير والصرف أكثر ، وإنما سمى واسطاً لأنه مكان وسط بين البصرة والكوفة ؛ فلو أرادوا التأنيث قالوا واسطة ، ومن العرب من يجعلها اسم أرض فلا يصرف

فى معجم البلدان : قال أبو حاتم : واسط التى بنجد والجزيرة[7] تصرف ولا تصرف؛ وأما واسط البلد المعروف فذكر لأنهم أرادوا بلداً واسطاً أو مكاناً واسطاً فهو منصرف على كل حال

قالوا : وقد يذهب به مذهب البقعة والمدينة فيترك صرفه . وأنشد سيبويه فى ترك الصرف :

منهن أيام صدق قد عرفت بها أيام واسط والأيام من هجرا[8]

ولقائل أن يقول : إنه لم يرد واسط هذه فيرجع إلى ما قاله أبو حاتم :

٥١ — (ص ٣٧٠)

إذا ما أبى شيئاً مضى كالذى أبى وإن قال إنى فاعل فهو فاعل

وجاء فى الشرح : فى الأصول والأمالى فى الموضعين (أتى) وهو تصحيف

قلت : فى طبعة الكامل فى التاريخ لابن الأثير مثل رواية الأمالى والأصول ، ورواية (العقد) هنا أفضل . وفى تاريخ الطبرى (ج ٩ ص ٢٠٩)

إذا ما أتى شيئاً مضى كالذى أبى وإن قال إنى فاعل فهو فاعل

وإن ثبتت هذه الرواية فالمعنى أنه إن قال فعل ، وتصميمه على ما يأتيه ومضيه فيه كإبائه ما يأباه كما قال :

أبىٌّ لما آبى سريع مباءتى إلى كل نفس تنتحى فى مسرتى[9]

٥٢ — (ص ١٤٢)

أريد حياته ويريد قتلى عذيرك من خليك من مراد

قلت : البيت فى قصيدة لعمرو بن معد يكرب . وروايته فى كتاب سيبويه والكامل والطبرى والخزانة وغيرها : (أريد حباءه) ، وكان أحد الفضلاء خطأ فى (الرسالة) أريد حياته . وهى رواية فى البيت ، ففى شرح شواهد الكتاب للشنتمرى : (ويروى أريد حياته) وفى الخزانة للبغدادى : (ويروى أريد حياته بلفظ ضد الممات) فلا خطأ هناك

***

فى القول ذى الرقم ٥ (الرسالة ٤٠١ ص ٢٩٢) قلت : وعذُر جمع عذير وقد جاء فى الشعر مخففاً . وقد استندت فى أمر التخفيف إلى الصحاح وغيره ثم وجدت فى المخصص (ج ١٣ ص ٨٢) : والعذير ما يحاوله الإنسان ويلزمه ، والعذير أيضاً الحال منه ، وكل ما يُعذر عليه عذير والجمع عذُر ، وأنشد :

(وقد أعذرتنى فى طلابكم العذُرُ)

احتاج إلى تخفيفه ، هذا قول أبى عبيد وهو خطأ ، بل التخفيف جاء على اللغة التميمية

وقلت فى (حلٌ فى مالى النزر) : حل فى مالنا النذر . وهى رواية الديوان وغيره ، ثم وجدت فى الخزانة (ج ٢ ص ١٦٤) حل فى مالنا النزر أى القلة

وفى القول ذى الرقم (٢٥) الرسالة (٤٠٢ ص ٣١٧) طارت قيس فى (التاج) والجملة هى هـذه : فى التاج : القطامى ويضم ، الفتح لقيس وسائر العرب يضمون

ويضاف إلى ما ذكره العلامة الأستاذ الأثرى وما ذكرته فى شأن الفتح والضم فى القطامى هذا القول فى (تهذيب إصلاح المنطق) ج ١ ص ١٨٦ فى باب الفُعال والفَعال : (وقَطامى وقُطامى للصقر) ، وهذا القول فى خزانة البغدادى (ج ١ ص ٣٩٢) : ... وله (أى عمير بن شييم) لقبان ، أحدهما القطامى منقول من الصقر ، يقال له قطامى بفتح القاف وضمها

(٧) فى معجم البلدان : قال الأسود : أخبرنى أبو الندى أن للعرب سبعة أواسط : واسط نجد ، وواسط الحجاز ، وواسط الجزيرة ، وواسط اليمامة ، وواسط العراق ، وقد نسيت إثنين

(٨) واسط مذكر معروف لأن أسماء البلدان الغالب عليها التأنيث وترك الصرف إلا منى والشام والعراق وواسطا ودابقا وفلجا وهجرا فانها تذكر وتصرف ، ويجوز أن تريد به (بواسط) البقعة أو البلدة فلا تصرفه (الصحاح)

(٩) الشنفرى الأزدى فى مفضلية وقبل ذاك البيت :

وإنى لحـلو إن أريدت حلاوتى ومر إذا نفس العزوف استمرت

يكفي التراث الشرقي
لنضج الحياة العقلية عند الشرقيين

للأستاذ عباس محمود العقاد

جرت في هذا المعنى وضده مناظرة في كلية الآداب بين الأستاذ العقاد وفريق آخر من جهة ، وبين الأستاذ الرافعي وفريق آخر من جهة أخرى . وقد نشرنا في العدد الماضي رأى الأستاذ الرافعي ، وفي هذا العدد ننشر رأى الأستاذ العقاد

حضرات الإخوان والأبناء

كان من نصيبي في مناظرة هذه الليلة أن أؤيد الرأي القائل بأن التراث الشرقي كاف لنضج الحياة العقلية عند الشرقيين

وقبل أن أدخل في تفصيلات هذا الرأي أسأل سؤالاً لا أنتظر عليه جواباً لأن جوابه معروف . وهذا السؤال هو : هل يستطيع أحد أن يقول بأن الشرق خلا من العقول الناضجة في العصور القديمة ؟ هل خلا الشرق من الحياة العقلية الناضجة يوم أن كان التراث الشرقي هو التراث الذي لا تراث غيره ؟

فإذا كنا لا نرى أحداً يستطيع أن يزعم ذلك فقد حكمنا بأن التراث الشرقي كاف لنضج الحياة العقلية ، لأننا إذا أنكرنا هذه الحقيقة وجب أن نقول إن الشرق خلا من العقول الناضجة قديماً وحديثاً ؛ وهذا ما لم يقل به أحد من الشرقيين ولا من الغربيين . وأحسب أن مناظريَّ الفاضلين أول من يشتد في نفي هذا الزعم لو جرى به لسان في هذا المكان أو في غير هذا المكان

***

وبعد فمن الواجب أولاً أن نعرف ما هو التراث الشرقي ؟ ثم نعرف ما هو النضج العقلي ؟ ثم نصل إلى النتيجة التي تؤدي إليها معرفتنا بهذا وذاك على وجه الدقة كما يقول الأدباء مقترحو المناظرة ...

فإذا تكلمنا عن التراث الشرقي أو التراث الغربي خرجت من حسابنا العلوم الطبيعية التجريبية أو العلوم التي اصطلحنا على تسميتها بالعلوم الحديثة ؛ لأن الحقيقة من حقائق الحرارة أو الضوء أو قوانين الحركة أو خصائص الأجسام — هي حقيقة ثابتة في جميع الجهات الأصلية شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً بلا اختلاف . أو هي حقيقة إنسانية عالمية تتقرر في لندن كما تتقرر في القاهرة وبغداد ، ولا يكشفها الإنسان حين يكشفها باعتباره شرقياً أو غربياً ، أو باعتباره مولوداً في الشمال أو الجنوب ، ولكنه يخترعها باعتباره إنساناً مدركاً لما حوله حيث كان . وإذا اتفق أن كثيراً من هذه الحقائق العالمية قد كشفها أناس من الغرب فليس معنى ذلك أنها خاصة بالغرب وأهله ؛ إذ هي تتمة للحقائق الطبيعية التي سبقتها منذ بداية عهد الإنسان بالمعرفة ، فهي جزء من التراث الإنساني لا مراء

ويخلص لنا من ذلك أن التراث الشرقي هو التراث الذي عليه صبغة الشرق وينتمي إليه ولا يمكن أن ينتمي إلى غيره ، وأن التراث الغربي هو التراث الذي عليه صبغة الغرب وينتمي إليه ولا يمكن كذلك أن ينتمي إلى غيره . أما العلوم الطبيعية فليست عليها صبغة شرقية ولا غربية ، ولا مانع من أن يكون الإنسان شرقيَّ التراث وأن يكون ملماً بالعلوم الطبيعية في وقت واحد . وعلى هذا كيف يتطرق إلينا الشك في أن التراث الشرقي كاف لنضج الحياة العقلية عند ذويه ؟ بل إذا كان التراث الشرقي وحده قد أخرج عقولاً ناضجة في جميع العصور ، فكيف لا يخرج

واللقب الآخر صريع الغواني ، قال النطاح : أول من سمى صريع الغواني القطامي بقوله :

صريع غوانٍ راقهن ورقنه
لدن شبَّ حتى شاب سود الذوائب

وصريع الغواني لقب مسلم بن الوليد أيضاً لقبه هرون الرشيد بقوله :

هل العيش إلا أن تروح مع الصبا
وتغدو صريع الكاس والأعين النجل

قلت : أنا أنشد :

هل العيشُ إلا أن تروحَ أخا عُلاً
وتغدو خدينَ النُّبلِ والعلمِ والفضلِ

***

هذه العقول إذا جاز أن يقترب بالعلم الطبيعي وما إليه من تراث الإنسان ؟

***

شيء آخر يجب أن يخرج من حسابنا إذا تكلمنا عن تراث الشرقيين وتراث الغربيين ، ونعني هنا المعارف الرياضية من هندسة وحساب وما هو من قبيل الهندسة والحساب ، فإن الحقيقة الرياضية لا تتغير بتغير الزمان والمكان ولا بتغير الأمم والأفراد . وليس من شأنها أن تصطبغ بالصبغة الشخصية أو بالصبغة القومية حيث كانت ، بل هي لا تتوقف على المشاهدات والمحسوسات بمقدار ما تتوقف على قوانين العقل المجرد المعزول عن خصائص الأوطان والأزمان . . . وأين هي الحقيقة الرياضية التي يصح على أي وجه من الوجوه أن تسمى حقيقة يونانية أو مصرية أو صينية ؟ وأين هي الرياضة الشرقية أو الرياضة الغربية ؟ إذا قيل إن هذا قانون رياضي فقد قيل هذا قانون إنساني يملكه الشرقيون والغربيون على السواء ، وامتنع أن يتعارض هذا وما يسمى تراثاً للشرقيين أو للغربيين

ومما تقدم يتبين لنا أن التراث الشرقي يجتمع مع العلم الطبيعي والعلم الرياضي في بيئة واحدة . ونعود فنقول مرة أخرى : إن أحداً لم ينكر أن العقول نضجت في الشرق على تراثه دون غيره ، فكيف ينكر أحد أنها قابلة للنضج إذا جاز أن تضم إليه العلوم الطبيعية والعلوم الرياضية ؟

ونصل بعد هذا إلى النضج العقلي لنقول في التعريف به كلمة وجيزة تؤكد معنى ما قدمناه

فالعقل الناضج كجميع الملكات الناضجة والحواس الصحيحة إنما يتم له النضج بالمرانة والمزاولة أيا كان الشيء الذي تقع فيه المرانة والمزاولة

فحاسة البصر مثلاً تستوفي حظها من القوة بالنظر إلى الأشجار كما تستوفي حظها من القوة بالنظر إلى الصخور

وعضلات الجسم تقوى بحمل النحاس كما تقوى بحمل الحديد أو الفضة أو الذهب أو الجواهر الكريمة

والعقل يستوفي نضجه بأن يعمل ويفكر ويبحث فيما يراه ويحيط به ، أيا كانت المسائل التي يتناولها بتفكيره وبحثه

فالمهم في تصحيح الملكات والقوى العقلية أو الجسدية إنما هو في العمل والمرانة ، لا في الموضوعات والمواد التي يتناولها عمل العامل ومرانة المتمرن ؛ إذ هي في المنزلة الثانية من الأهمية . وقد يقوى النظر في الصحراء وهي خاوية أشد من قوته في المدن وهي آهلة حافلة ، مادام النظر في الصحراء عاملاً لا يكف عن الرؤية والانتباه

ومؤدى ذلك أن المهم في إنضاج العقل الشرقي أن يعمل ولا يكف عن العمل ، سواء كان موضوعه تراث الشرقيين أو تراث الغربيين

فإذا عمل فهو ناضج ، وإذا وجد مادة التفكير فهو مفكر ، وإذا امتلأ بالإدراك فهو مدرك : أيا كان موضوع تفكيره وإدراكه

والمثل المحسوس هنا أحق بالتقرير من الآراء العامة والأحكام المطلقة ، فلنضرب الأمثلة بالأسماء المعروفة ولا نقصر القول على رأي مقنع أو حكم مسلم البرهان

فما القول في هارون الرشيد ؟ وما القول في ابن خلدون ؟ وما القول في جمال الدين الأفغاني ؟ وما القول فيمن سبقهم أو لحق بهم من « الناضجين » الأفذاذ ؟

أكان هارون الرشيد حاكماً ناضج العقل أو لم يكن كذلك ؟ وابن خلدون — ألم يكن مفكراً تاريخياً ناضج التفكير يقل نظيره في السابقين واللاحقين ؟

وهكذا يقال في جمال الدين الأفغاني وكل دراسته شرقية ، وكل ما استفاده من قليل الثقافة الفرنجية لم يؤثر في تكوين عقله ولا في طبيعة التراث الشرقي الذي نشأ عليه . فهم جميعاً أنضج عقلاً من التلميذ الحديث الذي يعلم من العلوم العصرية مالم يكونوا يعلمون

هؤلاء ناضجون لا مراء ، وكانت لهم ومن حولهم حياة عقلية ناضجة لا مراء ، وكان التراث الشرقي هو التراث الذي عولوا عليه بغير التباس ولا مناقضة ، إذا جاز الالتباس أو جازت المناقضة في شئون الرجال النوابغ الذين يعيشون معنا الآن

***

والواقع — أيها الإخوان والأبناء الأعزاء — أن الشرقيين لا يمكن أن تنضج لهم حياة عقلية في غير تراثهم الذي ينتمي إليهم ويصطبغ بصبغتهم

فغير ممكن كما أسلفنا أن نجعل العلم الطبيعي تراثاً شرقياً أو غربياً بأية صفة من الصفات؛ وغير ممكن كذلك أن نجعل العلم الرياضي تراثاً ينسب إلى الشرقيين أو إلى الغربيين

فلم يبق إذن إلا التراث الخاص بالشرقيين الذي لا يشاركهم في خصائصه مشاركٌ من العالمين، وهو التراث المشتملُ على مالهم من أشعار ومواعظ وأمثال وحكايات وآداب وقواعد سلوك، وفي طليعته روح العقائد الدينية والحكمة النفسية والفكرية، وما يصاحب ذلك من فقه شريعة ودين

وقد يسأل السائل في هذا المعرض: وما الرأي في الأشعار والأمثال والحكايات التي تنقل من الغربيين، وهي تراث غربي لا نزاع فيه؟

فجوابنا على هذا السؤال أن التراث الغربي الذي ينتقل إلى الشرقيين ينقسم إلى قسمين: القسم الذي يمكن أن يمتزج بحياتهم وهو من نوع تلك الحياة فلا يلبث أن يدخل في الشرق حتى يصطبغ بصبغته ويجرى على سُنّته، ومثله في هذه الخصلة مثل التفاحة الأمريكية التي تجرى في دم آكلها من المصريين: هي تفاحة أمريكية ما في ذلك خلاف؛ لكنَّ الدم الذي يتولد منها في عروق آكلها دم مصري وليس بالدم الأمريكي أو الذي يُنمى صاحبه إلى الديار الأمريكية

وفرق بين هذه الحالة وحالة النسب الذي يخلط الدماء بالدماء ويخرج لنا سلالة لا هي إلى هنا ولا إلى هناك

والقسم الآخرُ من التراث الغربي الذي ينتقل إلى الشرق هو القسم الذي لا يمتزج بحياة الشرقيين ولا يدخل لهم في عقل ولا روح. وهذا غريب عنهم وهم غريبون عنه. وحكمهم فيه حكم المتفرج العابر الذي يمر به وكلاهما باق حيث كان: هؤلاء شرقيون وذلك تراث غربي لا يدخل في عوامل النضج العقلي أو في عوامل التكوين، سواء رجعنا فيهما إلى الأفراد أو إلى الشعوب

ومعنى هذا أن الحياة العقلية إذا نضجت بين الشرقيين فهي شرقية لاحقة بالتراث الشرقي، أيا كان المصدر الذي جاءت منه أو حملت عنوانه، ولا يصح أن تنسَب إلى غير الشرق إلا كما يصح أن تنسب دماؤنا إلى استراليا وأمريكا لأننا نأكل القمح الاسترالي والفاكهة الأمريكية في بعض الأوقات

وعلى أيِّ حال ليس لنا مناص من إحدى اثنتين: إما أن نقرر أن الشرق خلا من الحياة العقلية الناضجة في جميع العصور وهو مخالف للمعقول ومخالف لإجماع الآراء؛ وإما أن نقرر أن الشرق قد عرف الحياة العقلية الناضجة ولو في عصر واحد من عصوره، وهذا في لبابه مرادفٌ لقولنا: إن التراث الشرقي كافٍ لنضج الحياة العقلية بين الشرقيين.

عباس محمود العقاد

الغنـــاء والموسيقى

وحالهما فى مصر والغرب

للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك

— ٤ —

ثلاث الكلمات التى تقدم إيرادها هى بيان وجيز لملاحظات على الغناء والموسيقى فى مصر والغرب ، يلاحظها كثيرون منا ، ولم يُقصد بعرضها جيلةً سوى لفت النظر إلى ضرورة الأخذ فى إصلاح جدّى يقوّم من أود هذين الفنين وما يتعلق بهما عندنا . فإن استصوبها فنان محب لفنه ، وأحس بقدرة على شىء من هذا الإصلاح وتهيأ له ، فتوخاه ومهد سبيله ، كان له فضل الابتداء والسبق فى خدمة جليلة

والذى يجمل بذوى الهمة من الفنانين هو قبل كل شىء ، أن يحاولوا رفع ذلك الحب المريض من حضيض ذله الذليل ، وأن يطبوه بأشمة البشاشة وروح المشاشة لعلهم يزيلون عن قلبه تسعة وتسعين فى المئة — على الأقل — من هذا الحزن الذى ران عليه ، وينقذونه من طوفان دممه المسخّين ؛ والمجال ، بعد هذا الإسفاف ، واسع شاسع الأطراف : أفليس أمامهم حب الأصحاء ، سعيدُه وشقيه ؟ وسائر الأحاسيس والخوالج كنز لا يفنى . لهم أن يختاروا منه ما يسهل وصفه : كألوان العواطف الوطنية والعائلية ، وكالحماسة والفرح وغيرهما ؛ وفى الطبيعة جمال مشرق باسم يمرح الشباب أمامه فى أحضانها ويلاعب ويداعب ، ويتهكم ويناضب ، ويجالس ويؤانس ، ويتراقص ويتماشق ، ويغنى ويطرب فى هناء وابتهاج . كل ذلك قد لا يتمذر على الفنان الحى تصويره بمنظوم شعره ومنثوره ، أو بألحانه ، أو غنائه ، أو موسيقاه ، إن هو اعتمد على بصيرته وبصره ، واستهدى شموره ، وراد آفاق نفسه ، وطاوع وحى قلبه محترساً من تقليد سواه[1]

وإذا حل أن يُعبر للعامة عن أمثال هذه الموضوعات بالعامية فهل يحرم أن يُعبر عنها بالفصحى للصفوة المثقفة ، وبالفصيحة السهلة الواضحة للخاصة المتعلمة على أن يكون الاتجاه إلى التعميم ؟

والمأمول أن ترجح فى الغناء كِفة ما كان من النثر والنظم شعراً ما دام مجرد استعمال الكلمات التى ألِفها الشعراء : كالقمر والزهر والفؤاد والوداد والنيل والنخيل ، لا يردّ غثّ الكلام وسفسافه شعراً . وإن بين الناثرين والناظمين شعراء بصراء ، تُشعر أغانيهم بقدرة تمكّنهم من الإتيان بأغان تشرّفها ، لولا استقرار العادة على مراعاة التقاليد التى سلطها الجهل وضعف الطبع ، ولولا طلبات الملحنين والمغنين الخاضعين لأذواق الجمهور الفسيدة

أما الملحن ، فالنصيحة الخالصة له أن يوطّد العزم على نبذ العادة القديمة ومقاومة التقاليد السقيمة ؛ وأن يتحاشى عن نية تقليد الشرقى والغربى على حدّ سوّى ، ولا سيما التقليد الأعمى من اقتباس عبارة صوتية معينة — مثلاً — يعجبه أسلوبها فيُقحمها فى لحنه غافلاً عن مدلولها[2] ، أو من مد مخصوص ، أو من تممد التحزن الخارج عن الفن ، وما إلى هذه الأمثلة .

فإن كان صادق العزم ، فسبيله أن يطبّ نفسه أولاً من الذلة والخور والخنوع ، ويشفيها من داء الحزن المضال ، ومن التفجع المقيت والعويل الثقيل ؛ وأن يحررها من بدعة التخنث والتكسر

---

(١) جاء فى المخصص : « ينبغي أن توضع الألحان فيما شاكلها من الأشعار : فمنها ما يلى ويرقق ، وهو لما كان من الشعر فى الغزل ، والتشوق إلى الوطن ، والبكاء على الشباب ، والمراثى والزهد ؛ ومنها ما يطرب ، وهو لما كان فى نمت الشراب ، وذكر الندماء والمجالس ، والصبوح والمسا كر ؛ ومنها ما يشوق وترتاح له النفس ، مثل صفة = الأشجار والزهر ، وللتنزهات والصيد ؛ ومنها ما يسر ويفرح ويحث على الكرم ، وهو لما كان فى المديح ، والفخر ، وصفة الملك ؛ ومنها ما يشجع ، وهو لما كان فى الحرب ، وذكر الوقائع والغارات والأسرى ، وغير ذلك ؛ وهذا كله يدعى غناء » . ج ١٣ ، ص ١٠ ، طبعة بولاق سنة ١٣٢٠ هـ .

نقلنا هذه الفقرة لبيان أن العشق لم يكن فى العربية ، عند المتقدمين ، إلا واحداً من شتى الموضوعات التى تناولها غناؤهم ؛ وكان لكل موضوع عندهم ما يلائمه من الألحان ، كما ترى ؛ وبديهى أنه ليس حتما أن يكون كل الغزل والتشوق إلى الوطن حزينا وأن يغنى بلحن يبكي .

(٢) فى المخصص أيضاً : للألحان لصوص يسرقون النغم كلصوص الشعر . فمن الشعراء للفتضح ، كالسارق للقصيدة والبيت كله ؛ ومنهم دون ذلك ، كالسارق الكلمتين والثلاث ، والسارق للمعنى يكسوه كلاما آخر .؛وكذلك المغنون : فمنهم السارق للفتضح الذى يسرق اللحن كما هو وينقله إلى شعر آخر ، كفعل الطنبوريين فى زماننا هذا وغيرهم من مقاربى أصحاب الميدان ؛ ومنهم من يسرق بعض اللحن بصفة له ، أو صيحة منه ، أو ردة ، أو نشيد ؛ ومنهم من تخفى سرقته ، مثل من يسرق تأليف لحن فى الثقيل الأول ، وينقله إلى إيقاع آخر إما ثانى ثقيل أو رمل أو هزج ؛ ومنهم من يجىء إلى ثلاثة أصوات أو أربعة فى الثقيل الأول على أصبع واحدة فيسرق جزءا من هذا ، أو صيحة من هذا وردة من هذا ، فيصوغ صوتا من أصوات » . ج ١٣ ص ١١

والتميّع ، ليخلص أولاً من كل هذه العلل الوبيلة التي مكنها منه استحسان العامة وأشباه العامة . ومما يعينه على النجاة النزهة الخلوية ، والرياضة البدنية ، والمطالعات المنعشة ، والصاحب المؤنس المفرح ، وإجالة الخاطر في الموضوعات الملائمة للغرض ، والإيحاء التلقائي .

والأجدى له في عمله هو أن يمعن في التفكير بادىء بدء في فحوى ما هو مقبل على تلحينه من الكلام ، وأن ينظر ملياً في جمله وكلماته وحروفه ، ليتبين الروح الذي أملاه ، والموقف الذي يصف ؛ ثم يتصور أنه هو في هذا الموقف ، وأن ذلك الكلام كلامه ؛ فإذا أرهف حسه ، وأيقظ ملكاته ، وهيأ نفسه وشعر بإيحائها وارتياحها إلى التلحين ، أخذ في الترنم بالأغنية ؛ ثم يكرر التغني حتى يجيء مدلول اللحن مطابقاً لمدلول الكلام المعبّر عن الحال النفسية التي استمارها لنفسه هو من الموقف الموصوف بالأغنية ؛ ثم يترك اللحن الذي وضعه أول وضع ، ويرجع إليه مرة بعد مرة لتهذيبه وإحكامه على مقياس تلك المطابقة ، لا ابتغاء جعله مشابهاً للحن آخر ، أو مرضياً لذوق خاص ؛ فيدع الصوت يعبّر التعبير الطبيعي ، ويطابق مقتضى المقام المدلول عليه بالكلام بما أنه قد تمهد اعتقاد وجوده هو في هذا المقام ، واعتاد هذا الاعتقاد حتى استقر ما بفكره ونفسه في عقله الباطن [٤]

وأما المغني ، فسبيله أن يعمل في التدرب على غناء اللحن ما عمل صاحبه في إنشائه ، بعد أن ينفي عن نفسه ما استطاع من ذلك الحزن المميت وتلك الذلة الساحقة ، سواء أكانت تقليدية أم طبيعية ؛ ولا بد له من أمور منها :

أن يقضي مدة قبل مزاولة الغناء في تقوية صدره وتعميق نفَسه ومدّه ، وإلانة حِباله الصوتية ، والتمرّن على التنفس في الغناء ، حتى لا يقطع بقصر نفسه عبارة صوتية من لحن يغنيه ، وحتى لا يظهر أنه يختمها ونفَسه وشيك الانقطاع ، لأن هذا يخدش أسلوب العبارة . ومن مقتضيات الإجادة أن يؤديها أحسن أداء ، ويختمها قادراً بما في نفسه من بقية وافرة ؛ ولذلك كله وأمثاله طرائق وتمرينات معروفة

وأن يهجر الغناء إذا كان من ذوي الخنخنة ، ولا يغنّي مزكوماً أو متخوماً ، أو مخموراً

وأن يحرص في غنائه على نقاء صوته وصفائه ، فلا يعرقل جريانه بمثل قلبه الياء من حرف النداء همزة لينطق آ بدل يا ، أو بما يشبه مأمأة ، ونارة عواء ، أو ما يشبه عند الوقف شهقة الحمال حين يلقي حمله ، أو ما يماثل توجع المريض والجريح في تصويره ألم العاشق

وألا يقطّع صوته بالوقف إلا بالقدر الضروري لإحداث مزيّة ، كتنبيه المستمع إلى معنى الكلمة التي يقع الوقف على آخرها

وألا يطيل غناءه مستعيناً بغناء الجوقة معه ولا يكرر ذلك كثيراً ، وإذا غنّى معها فلا بد له من إظهار صوته على أصواتهم وأصوات معازفهم ، لأن الناس إنما يريدون سماع صوته هو ، وهذا غير الجوقة الغنائية [٥] ؛ لكن لا ينبغي له أن يعلو بصوته إلى طبقة لا يبلغها بغير عناء ، لأن أقلّه يعكّر صفاء صوته ويزيل رواءه ويعيب غناءه وإن أطرب في الطبقة التي يقدر عليها . من أجل ذلك يجب عليه أن يتخيّر من الألحان والأغاني ما يلائم طبعه ، وقوة صوته ، ونوعه

إن المتقدمين من أهل المدنية العربية ميزوا أصوات المغنين فقالوا مثلاً : أجشّ ومُجَلْجِل وكرواني ؛ والغربيون يميزونها فيقولون مثلاً : باسْ وتينور وكونترالتو وسوبْرانو ؛ فلا يغني كل صوت إلا ما يلائمه من الألحان ؛ وظننا أنه قد آن لنا أن نبدأ هذا التمييز مثل أصحاب الفن الصحيح

يحسن بمن يزاول فن الإطراب أن يعتبر بهذه الملاحظات ويتحرز من الخطأ الفني ويتحاشى العيوب المشار إليها في هذه الكلمات وعن أمثالها ، كعدم إخراج الحروف من مخارجها بالدقة ، وعدم لفظ الكلمة واضحة . ومن الأصوات المسموعة في مصر ما يطرب ويمكن الافتتان فيه ، وبين الملحنين والعازفين مهرة ليس يستحيل عليهم التفوق على أنفسهم ، وإنما المعول كل المعول على فهم حقيقة الفن ومقاصده ، بدل القناعة بوسائله

ولسنا نقول إن المسلك الذي ننصح بسلوكه يغلب الوراثة وأثر البيئة واستقرار العادة ، فيغيّر الحال في الساعة ، لكنه مهما كان شأنه فهو مؤثر ، وعامل من عوامل التطور ؛ أو هو كالدواء الذي يوصف لذي علة لا برء منها ، فقد لا يخلو من نفع للمملول إذ الطبائع متفاوتة والشذوذ قد يوجد في بعضها ،

---

(٣) Autosuggestion
(٤) Le conscient dans l'inconscient
(٥) Chœur

ولأسرار الطبيعة مفاجآت، ومحاولة الاهتداء خير من الاسترسال في الضلال، وكل ما يبلغ غاية، له بداية

هذا وإن المقدمة الموسيقية تليها التقاسيم بالمعازف، فالليالي فالموال فالأدوار، نظام لا بأس به؛ على أن تقديسه والتزامه في كل حفلة لا يوجبهما الفن كما يتوهمون، بل إن تحسينه واجب. ولِمَ لا تقام حفلات كبيرة مخصوصة بالموسيقى وحدها وهي مطربة إذا جادت، وفي البلاد ألوف للعازفين والمحبين لها؟ وفي الغرب قاعات مخصوصات بها مشهورات تكتظ من المستمعين.

ولِمَ يصغرون شأن البشرف والتوشيح في حفلاتهم فلا يعنون هذا كله ولا يعزفون ذاك بأجمعه؟ ولِمَ لا يحاول أحد منهم أن ينشيء شيئاً يماثلهما، أو يبتكر أنواعاً أُخر إن استطاع؟

إن موسيقانا لم تدرك شأو غيرها إذ عجزت حتى الآن عن التصوير (Harmoni)، وليس بمعقل أن التصوير مستحيل في الموسيقى الشرقية؛ لأن الموسيقى الغربيـة مثلها، لها سلّم ومقامات ونغمات، ولها الأقيسة الزمنية والإيقاع، ولها الأساليب الصوتية تعبِّر بها عن الأحاسيس تعبير الأساليب البيانية؛ والأحاسيس جميعاً موطنها النفس، وشأن النفس واحد في الإنسان أينما كان؛ والموسيقيَان كاللغتين العربية والفرنسية، مثلاً، اللتين فيهما المجاز والتشبيه والاستعارة والكناية والمحسّنات البديعية، وأوجه البلاغة، لوحدة المصادر البشرية من الفكر والمخيّلة والمشاعر، بل بينهما أوجه شبه في النحو والصرف[٦]؛ وقد كانت موسيقى الغربيين ومعازفهم بسيطة، كموسيقانا ومعازفنا، فتناولوها بالتحسين حتى ارتقيا إلى مرتبة التصوير الذي تفوقا به منذ عرفوا تركيب الأنغام في زمن معاً، أي في إيقاع واحد[٧]، وإخراج الصوت الآلي من طبقته الضعيفة، أو من الجزء الضعيف في زمنه[٨]، وإنشاء الجملة الغنائية تسمع بُعيد الجملة الأساسية في انسجام وائتلاف معها[٩] فأي شيء في الموسيقى الشرقية يمنع من تقليد هذا الفن؟ إذن لا يقول بأن التصوير مستحيل فيها إلا جهول كسول.

والرأي للمشتغلين بالغناء والموسيقى عندنا أن يجدّوا في ترقيتهما معتقدين أن الموسيقى ستبلغ، أو سوف تبلغ، مرتبة التصوير العالية؛ وإذا اتجه نظرهم إلى مظنة وسيلة للترقيـة فعرفوها واستخدموها ارتقوا بفنهم درجة، وطمحت أبصارهم إلى ما فوقها

ونحن، بحمد الله، عندنا الناي كالفلوت، والقانون كالبيانو (وقد استصنع بعضهم بيانو فيه ربع المقام «إيّاه» فصُنع)، وطبلة كطبلة، والكمان، وفي وسع الموسيقيين أن يستعينوا بالصناع على تحقيق أغراضهم بتحسين المعازف على الوجه اللائم لما يتفرسون من وسائل الإصلاح، أو باستحداث ما يعوزهم من الآلات بدل ادعاء الابتكار والتجديد والتفوق بلا حق

فإذا نحن أردنا أن نخرج موسيقانا من حالها البدائيـة، أو طورها الأول الذي ما برحت عارية فيه، فلا بد من أن نأخذ في نسج ثوب موشى لها — ثوب التصوير، وهو غير التوافق بين الألحان وأصوات المغنين

ومتى تيسر التصوير، وتميزت أصوات المغنين بحدود طبقاتها وألوانها، وتبينت نسبتها إلى المعازف، وبدأ التلحين بوحي النفس الحرة من التقاليد، الطليقة من قيد القوالب، البريئة من السرقة، أمكن أن يرتقي الغناء المسرحي بمصاحبة الموسيقى، وأن يقدم أصحاب الفن وشعراء المسرحيات إلى الجمهور أوبريت ثم أوبرا - كوميك، ثم أوبرا جيدة ليس شك في أنها تطربه وتعجبه وإن لم يستسغ ما قدم إليه حتى الآن بهذا العنوان من خليط مستغرب، ومسمى يتبرأ منه اسمه

وليتهم على الأقل يزيدون المعازف إلى ثلاثة أضعاف العدد المعتاد لكل نوع منها في الجوقة، ريثما يهتدون إلى التصوير، فإن ذلك يقوي المزيف فيحسّنه فيما نرى تحسيناً متواضعاً أفضل من لا شيء، لكنه لا يكون من الإصلاح المنشود

ألا إن الجهل والاقتصار في الاشتغال بهذه الفنون على استرزاقها لا يوصلان إلى شيء مما ينهض بها؛ ونهضتها، يوم يتحقق، إنما يكون ثمرة التطور في ضوء العلم والثقافة؛ على

---

(٦) العربية والفرنسية من اللغات التي تتغير فيها صيغ الكلمات وأواخرها في التذكير والتأنيث، والجمع والتثنية، مثلا تبعاً لوظائفها حين تركيبها في الكلام (langues à cas et déclinaisons)؛ وفي اللغتين الاشتقاق (dérivation)، وتصريف الأفعال (conjuguason)، والماضي (prétérit)، والمضارع (présent et futur)، والأمر (impératif) وليستا من اللغات التي تجمع فيها أوائل الكلمات، أو مقاطعها الأول التي لا تتغير، جمعاً لا تتحد فيه كل الاتحاد، فيكون منها مركبات تعبر عن عدة علاقات كاللغة اليابانية (langues agglutinantes). ويعرف ذلك كل من اطلع على بعض المباحث في مقابلة اللغات.

(٧) Contrepoint

(٨) Contretemps

(٩) Contre-chant

أن الأمة تتقدم إذا قام كل جيل من أبنائها بما عليه من حمل أعبائها مسافة على طريق الفلاح ؛ وكلما صح ذوقها ، ورق ودق ، يسمو مثلها الأعلى فى الفن . فعلى محبي الغناء والموسيقى والتلحين ، المشتغلين بالفن من شبابنا المتعلم ، أن يتعلموا ولو مبادىء ما فى الغرب منه ، وأن يكثروا من الإصغاء إلى تحف الموسيقى والغناء لأعاظم المغنين والموسيقيين الغربيين أينما وجدوا إلى ذلك سبيلاً ؛ هذا إلى قراءة شيء من تاريخ الموسيقى وكلام نقادها فى إحدى اللغات الأجنبية ، وقراءة بعض المؤلفات العربية

لكن ذلك وحده لا يُسعف وليس يكفى الآن ، بل العمل المنظم فى هذا الزمن المستنير هو السبيل القصد إلى الغاية ، وفى مصر معاهد أهلية وحكومية للموسيقى يجب عليها أن تلتفت إلى حقيقة حال هـذه الفنون عندنا ، وإلى ما يصلح من شأنها ، فذلك خير لها من أن تظل على الأيام صوراً جوفاء خاوية لا تصلح إلا لتمكين الفن السقيم الضعيف والمحافظة عليه ، ويجمل بالوزارة المختصة أن تعنى بهذا الأمر

يجب أن يحمل أرقى هـذه المعاهد وأقدرها أعباء النهوض بفنونها ، وأن ينشئ لذلك قسما مخصوصاً يهتم بها من الجهة الفنية النظرية ، والعلمية الثقافية ؛ وأن يقوم بشئون القسم نخبة من أصحاب الفن المولعين به لا يُعيِّنهم لوظائفهم فيه سوى مؤهلاتهم الطبيعية والفنية والثقافية وقدرتهم على ما يُندَبون له نخبة ممن يطمحون إلى المنزلة الرفيعة والفضل فى إحياء فنونهم وإنهاضها فى الشرق برأسهم أحقهم بهـذه الرئاسة ، ويجب أن يقتنى القسم مكتبة ينظمها التنظيم العلمى الحديث ، ويجمع فيها المطبوعات الغربية والمؤلفات الشرقية المطبوعة والخطية ؛ ويبحث فى كل مكان عن النصوص الشرقية الدفينة والضائعة ولو مترجمة إلى بعض اللغات الأجنبية كاللاتينية واليونانية والفارسية ، إذ قد يجد فيها ما يلقى ضوءاً على فنون المتقدمين فينير المنهج للمتأخرين ؛ ويشترك فى المجلات الفنية ، ويسترشد عند الحاجة بعض المعاهد الغربية المختصة بهـداية السائل إلى جميع الكتب أو الطبعات أو النصوص فى أى موضوع بعينه [١٠] . ويجمل القسم بعض رجاله صلة بين جهده النظرى وجهد معهده فى اتجاهه العملى . ويجب أن يقوم المعهد بنوع من الإرشاد والرقابة على سائر المعاهد ، وبإرسال البعثات المختارة من الناجحين فى الفنون الشرقية إلى المعاهد الغربية .

ولا بد ، أخيراً ، من التنبيه إلى آفة الغلو فى بذل الثناء لكل من هب ودب من المغنين والموسيقيين ، وعلى ضرر نعته بأعظم النعوت ، كأن الناعت يريد إظهار شاعريته هو وبراعته البيانية فلا ينجح يبعده عن الحقيقة . ذلك يضر حقاً ولو كان بحجة التشجيع أو تمجيد الأمة والوطن حتى لكأن البلاد تنبت النبغاء فى كل فتر من أرضها والعباقرة فى كل شبر ؛ فإن مثل هذا الغلو فى الثنـاء الكاذب يهزأ منه وليس من الحكمة ولا الوطنية فى شيء ، لأنه يغر فيعمى ويصم فيسبب الوقوف ، بل التأخر بدل التقدم ، وهو لا يصدر عن أهلية للتقدير ، وإنما يكون فى الغالب لأغراض بعيدة عن مصلحة الفن والأمة .

محمد توحيد السلحدار

(١٠) Instituts bibliographiques



قطط وكلاب وناس !

منظر كم تمنيت بعده أن لم تقع عليه عيناى ! ومع ذلك فقد لبثت دقائق كثيرة أحلق فيه وأطيل النظر ، كأنما وقعت منه على فرجة تبتهج لها النفس !

فى شارع كبير من شوارع هذه المدينة العظيمة : — القاهرة عين أفريقية وملتقى الحضارتين الشرقية والغربية — وقعتُ على مقربة من صندوق القُمامة ، فإذا بى أرى فى ناحية قططاً ثلاثة ، وفى ناحية أخرى كلبين ، وعلى قيد خطوة من هذه المخلوقات بنتين وصبيين وعجوز

وقفت أنظر ... فيالشناعة ما رأيت من منظر ، ويالهول ما جاشت به نفسى عن المعانى تلقاءه ! وإنى أعيذك أيها القارئ أن تستكثر علىّ استشعار الهول فيما رأيت ، وأن ترده إلى استغراق فى العاطفة يلحق بالضعف ؛ وإلا رميتك أنا بالقسوة ، وعندى أن القسوة هنا — على أى حال — إنما هى شر مما تزعم من ضعف .

راحت هذه المخلوقات الآدمى منها وغير الآدمى تنبش القمامة فتمد الكلاب والقطط أرجلها الأمامية ويمد الآدميون أكفهم حتى لتكاد تلتقى تلك الأرجل وهاتيك الأيدى كأن لا فرق بينها فى شىء

وجعلت أنقل البصر من القطط إلى الكلاب ومن هذه إلى البنتين والغلامين والعجوز وأول ما برز لى من المعانى هو صورة من تنازع البقاء فى هذه الدنيا لاحت بين أفراد كل فريق من جهة ، ثم بين كل فريق وفريق من جهة أخرى

كانت القطط تقوس ظهورها وتنفش شعورها وتخطف العظام إحداها من الأخرى ، فإذا أرادت أن تختطف شيئاً من الكلبين دارت معركة قصيرة بين الفريقين ، فإذا زجر الصبيان الكلبين والقطط فى حذر وخوف ، جرت القطط فتربصت على خطوتين لتعود بعد لحظة ، واستعلن الشر فى وجهى الكلبين ، فتركهما الزاجرون من الآدميين ومضى كل إلى ما كان فيه من عمل . وكان يفرح هؤلاء التعساء من الآدميين إذا دارت المعركة بين الكلبين والقطط واستمرت لحظة طويلة ، فيكبون إذ ذاك فى عجلة ونشاط فى التقاط ما تنكشف عنه القمامة من بقايا العظام ولقيمات الخبز وقشور الفاكهة وما إليها قبل أن يعود فيشاركهم فى التقاطها أفراد الفريقين الآخرين

وكان كل من الصبيين والبنتين والعجوز يزحم الآخر ويسابقه فى نبش كومة جديدة من الكناسة فإذا عثر أحدهم على لقمة كبيرة نوعاً لاح فى وجهه مثل ما يلوح فى وجه الباحث عن الذهب فى أرض الذهب إذا التمع فى عينيه عرق من المعدن النفيس ؛ ويقذف الصبى باللقمة فى حجره وقد زادها قيمة عنده أنها خلصت له من قرنائه ومن القطط الثلاثة ومن الكلبين

ومرت بى أثناء ذلك بعض السيارات الفخمة تحمل أنماطاً من سراة القوم ، ومن هؤلاء من لاحظت أن عيونهم رأت ما رأت عيناى إلى جوار صندوق القمامة ، ولكنى لم أتبين فى وجه من هاتيك الوجوه الناعمة الراضيــة أية اختلاجة من أسف أو من رثاء . أجل لم أتبين فى هؤلاء السادة «عبيطاً» مثلى يرى فى ذلك المنظر ما يستوقف بصره . وإذ ذاك ازداد رثائى ضعفين على أولئك التعساء الذين يشاركون الكلاب والقطط فى نبش الكناسة وليس يملك مثلى لهؤلاء إلا العطف والرثاء

ألا ليت أولئك السادة انتبهوا ففطنوا إلى أن هؤلاء الذين نزلوا إلى مستوى الكلاب ينتمون إليهم فى « آدميتهم » وأنهم فى هــذا الوضع يشينون الجنس كله . ثم ألا ليت أولئك السادة تذكروا أن القليل مما ينفقون فى شهواتهم كفيل بأن يقضى على أمثال هذه المناظر إن كان يهمهم القضاء على تلك المناظر ...

آه ... ليت أولئك السادة حين تقع أعينهم على بنيهم وبناتهم إذ يلقونهم فرحين بما يتقلبون فيه من نعمة ، يذكرون أنهم رأوا بنين وبنات من تعساء الإنسانية تلتقى أيديهم المهزيلة بأرجل الكلاب والقطط فى نبش صندوق القمامة

الخفيف

لذكرى المولد النبوى

ميـــلاد نبى . . .

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

مَنْ ذلكَ المبعوثُ فى الصَّحْراء ... كالصُّبح بينَ جوانبِ الظَّلْماء ؟

نورٌ مِن الحقِّ المُبين ومطلعٌ ... جاءتْ به البُشْرى مع الأنباء

قَبَسٌ من اللهِ الكريم وشُعْلةٌ ... من رحمةٍ ومنارةٌ لِضياء

يَجِدُ السُّراةُ به دليلَ سبيلِهمْ ... ومنارَهُم فى الظُّلمةِ العشْواء

كانوا حيارى ما تألَّفَ جمعُهُمْ ... فى عصْبةٍ أوْ ألِّفوا بإخاء

يتخبَّطُونَ عَلَى ظلامٍ حالكٍ ... جَمِّ العواصِفِ مُظْلِمِ الأنواء

مافيه من وَضَحِ الطَّريقِ مَعالمٌ ... أوْ فيه من هدْى السَّبيل مَرائى

هذا طريقُ الجاهليَّةِ لم يكنْ ... إلاَّ طريقَ الخُلْفِ والشَّحناء

تحدوهمُ فيه نوازعُ فتنةٍ ... وتحثُّهمْ فيه دوافعُ داء ...

هذا طريقُ الجاهليَّة مُوحِشٌ ... ما فيه من نبْتٍ ولا خضْراء

يتعثَّر السَّارونَ فيه بخُطوةٍ ... محبوسةٍ وَمَواطِئٍ عمْياء

لا يستقِرُّ على المسيرِ قرارُهمْ ... كيفَ القرارُ عَلَى الطَّريقِ النَّائى

هذا طريقُ الشِّرْكِ مُختلط الصُّوى ... وَعْرُ المسالكِ ضيِّقُ الأنحاء

ما فيه من مَمْشًى بغيرِ تعثُّرٍ ... أو فيه من قدَمٍ بلا إعْياء

يمشى الحيارى فيه بين مَسارِبٍ ... مطْمُوسةٍ ومعالمٍ نكْراء

متحيِّرين على السَّبيلِ كأنَّهُمْ ... قدْ مَسَّهم جِنٌّ مِنَ الصَّحْراء

شاءٌ بلا راعٍ يؤلِّفُ بينها ... ورواحلٌ تمشى بغيرِ حُداء

أينَ الدَّليلُ على السَّبيلِ يسُوقُها ... ويردُّ عنها صولةَ الأعداء ؟

هذا ظلامُ الجاهليَّةِ لم يكنْ ... إلاَّ ظلامَ الفِكر والآراء

أدْجى من الليل البهيم حُلوكةً ... وأشدَّ وقْعًا مِن يدٍ سوداء

كانوا خفافيشَ الدَّياجى لم تعِشْ ... إلا بجوٍّ حالكِ الأرجاء

يمشُون فى الجهلِ القديمِ قَهاقِرًا ... يترسَّمُونَ به خُطَى الآباء

متفرِّقين هُناكَ ... لم يتفيَّأوا ... لحمايةٍ . . . أو يُمسِكوا ببناء

عَبَدُوا من الأوثانِ كلَّ حجارةٍ ... منحوتةٍ أوْ صخْرةٍ صمَّاء

وَأدُوا وليدَتَهم بغيرِ جريرةٍ ... أرأيتَ مقتولاً بغيرِ جزاء

ما ذنبُها حتى يُعفَّرَ خدُّها ... برمالِ تلكَ الحُفْرةِ الصفْراء ؟

لو أنها سُئِلتْ لكانَ جوابُها ... يُدْمِى القلوبَ بأنفُسِ الرُّحَماء

إرْثٌ من الجهلِ البغيضِ وفكرةٌ ... أدْلى بهـا الآباءُ للأبناء

الجهلُ رقْطاءٌ يُسَمُّ نابُها ... كيفَ الحياةُ على يدِ الرَّقْطاء ؟

وَبدا الصَّباحُ على بطائحِ مكةٍ ... ضاحى المشارقِ ساطعَ الأضواء

يَمشى إلى النُّوامِ فى غفلاتِهم ... ويُفيقُهُمْ مِنْ هَجْمةِ الإغفاء

يأيها النُّوامُ ... ! إن مساءكم ... قد غيَّبته جوانبُ البيْداء

ومحته كفُّ اللهِ وهى كفيلةٌ ... بالصُّبحِ واللَّمعانِ واللألاء

فى نور (أحمَدَ) منه نورٌ ساطعٌ ... أكرِمْ بتلكَ الآيةِ البيْضاء

يَمْشى على ظُلمِ الجزيرةِ ماحيًا ... ظُلماتِ تلكَ الشُّبهةِ القتْماء

الليلُ طالَ على الهجودِ فأبْشِروا ... بالفجرِ بيْن سَنًى وبين سَناء !

هذا عمودُ الصُّبح أبلَجَ واضحًا ... يَمشى بنورِ الحُجَّةِ الغرَّاء

هذا هو الحقُّ المُبينُ فلم يكنْ ... خُدَعَ السَّرابِ ولا مخايلَ ماء

هو نعمـةٌ لله بين قبائلٍ ... ما كان أحوجها إلى النَّعماء

فضْلٌ تمثَّلَ فى ظهور (محمد) ... واللهُ جمُّ الفضل والآلاء

هذا الصباحُ على الجزيرةِ مُشرقٌ ... فى كل رُكْنٍ منه لمحُ رجاء

قد آذنَ الليلُ البهيمُ بجَلْوةٍ ... وانشقَّ عن صُبْحٍ بغيرِ خفاء

نورٌ أضاءَ الحقُّ فى جنباته ... متألِّقَ النَّسَماتِ والأنداء

تنجابُ عن مَسْراه كلُّ دُجُنَّةٍ ... ويغيبُ من مرآهُ كلُّ مَساء

تلك الأشعَّةُ من خلالِ وميضه ... فيها لمرضى النَّفسِ كلُّ شِفاء

بُشراكمُ مرضى القلوبِ، فإنما ... جاء الطبيبُ لكمْ بخيرِ دواء

هذا نبيُّ الله أشرقَ بينكم ... وأتى لكمْ بالوحْى والإيحاء

اللهُ يُلهمُهُ بكل كريمةٍ ... ويُمدُّه بالنَّصرِ والنُّصراء

هذا المبرَّأُ من عيوب زمانِه ... والخالصُ الخالى مِنَ الأقذاء



دراسة اجتماعية لبعض قبائل السودان

في عصر يوم الخميس الماضي ألقى الأستاذ محمد جلال عبد الحميد في سراي الجمعية الزراعية الملكية محاضرة موضوعها « دراسة اجتماعية لبعض قبائل السودان » ، وهي ملخص لمشاهداته ودراساته العلمية أثناء رحلة استغرقت نحو السنتين بين هذه القبائل في السودان وأوغندا ، استهلها بنبذة قصيرة في تاريخ البعثات الإثنولوجيـة بالسودان وأواسط أفريقية فقال : إن البعثات في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر كانت جغرافية وعسكرية ودينية ، ولم تبدأ البعثات الإثنولوجية في تلك المناطق إلا في نهاية القرن الثامن عشر ، وآخر هـذه البعثات هي التي قام بها هو في حوض النيل ابتداء من أكتوبر سنة ١٩٣٦ إلى ديسمبر سنة ١٩٤٠ ؛ فبحث فيها أولاً عن الريف المصري ، ومنطقة نيمولي ، والمنطقة الجنوبية من مديرية الجزيرة ، ومنطقة البحر الأحمر ، ومنطقة بلاد النوبة ؛ وثانياً عن الثروة العلمية لحوض النيل

ثم انتقل إلى دراسة البيئة الجغرافية وأثرها في السكان . ثم تكلم عن الأجناس البشرية ، ثم عن الحياة الاجتماعية ، ثم عن الحياة الدينية ، ثم عن الحياة الأدبية والفنية ، ثم عن النشاط المادي ؛ وختم المحاضرة بخلاصة لدراسة سكان حوض النيل من الوجهة العلمية ، وإمكان وجود قانون اجتماعي للتطور البشري ، وقد اكتفينا بسرد عناصر هذه المحاضرة القيمة اعتماداً على أن الأستاذ المحاضر سيرسل إلينا خلاصة وافية لها

وقد قدم المحاضر إلى الجمهور الدكتور محمد محمود غالي بهذه الكلمة :

عندما سمح سعادة فؤاد أباظة باشا لجماعة تبسيط المعارف أن يقوموا بإلقاء محاضرات في السراي الصغرى ، كان هذا كسباً لأعضاء هذه الجماعة ، وهذه هي المحاضرة الثانية يلقيها صديقنا الأستاذ محمد جلال عبد الحميد ، يحدثنا فيها عن شيء من بحوثه الاجتماعية عن قبائل تحيا في الحوض الطبيعي ذاته الذي نحيا فيه وعلى النهر العظيم الذي نعتمد عليه

كان يربطني بصديقي المحاضر ذكريات تجعلني أثق بشخصه وأنظر بعين الاطمئنان لبحوثه ، وإنني سعيد باهتمام حضرة صاحب السعادة أباظة باشا بشأن جلال ومعاونة سعادته له ودعوته إياه ، هذه الدعوة التي جاءت تكريماً لصديقنا العالم

رأيت المحاضر لأول مرة في باريس منذ عشر سنوات ، ولم تكن قد صقلته الأيام بعد ، أو غيرت فيه ما تلقنه من المجتمع أو المنزل أو المدرسة . دخل « السوربون » يتخبط كغيره ليعلم ما لا يعلم ، ويهضم ما يتعلم ، ويوازن بين ما كان يعلم وما يجب أن يعلم ؛ ولم يكن لجلال معين يكفيه مئونة العيش ، فكافح للأمرين : كافح للكسب أولاً وللتعليم ثانياً . وظننت في وقت أنه سيخر صريع هذا الكفاح المنيف ، ولكنه كسب عيشه في باريس شريفاً ، وصرف ذلك من أجل ما هو أشرف : في الدرس

لم يَمشِ في الجهلِ القديمِ ولم يكنْ ... من يومه في زُمرةِ الجهلاء

الله صفَّاهُ لنُصرةِ دِينه ... واختارهُ لتحمُّلِ الأعباء

حَمَلَ الأذاةَ فكان أقوى عُدَّةً ... وأشدَّ مُصْطَبِرًا على الإيذاء

هــذا الوَفيُّ لربِّه ولدينه ... هل يَنْجَحُ المسْعَى بغير وفاء؟

يا مَن تَغرُّهُمُ الحياةُ رخيصةً ... الله في أخْذٍ وفي إعْطاء !

هذا الفقيرُ أتى يقودُ جماعةً ... استعصمتْ منهُ بخيرِ لِواء

قُلْ للمُدِلِّ بجاهِهِ وبمالِهِ ... المالُ ليسَ مُكوِّنَ العُظماء

هذا رسولُ الله لم يَعْقُدْ به ... عن مجدِه أن كانَ في الفُقراء

يا مُلْكَ قَيْصَرَ قد رُزِئتَ بحادثٍ ... ما شاهَدَتْهُ الرومُ في الأرزاء

ميلادُ (أحمدَ) كان مولدَ أُمَّةٍ ... عربيةٍ وشريعةٍ سمحاء

خرجتْ من الصَّحْراءِ أصْلبَ مكسراً ... كصلابةِ الأحْجار في الصَّحْراء

الرُّمحُ في يدها عَسِيرُ المُلْتَوَى ... والسَّيفُ في يدها صَقِيلُ الماء

كانَتْ أشدَّ على السَّلامِ رِعايةً ... وأشدَّ صبراً في رَحَى الهيْجاء

تَدْعُو إلى الإسلامِ كلَّ جماعةٍ ... وتُجيبُ في الإسْلامِ كلَّ نِداء

محمد عبد الغني حسن

والتحصيل . وعلمته الأيام كيف يتكون ، وكيف يكون رجلاً جمعتنا مصر بعد فرقة ، وسعى إلىّ يحدثنى عما فعل ، وأى شرف ناله من هذا السعى ، وأى غبطة شعرت بها عندما تثبت الفروع التى نجح فيها ، وأى فرح غمرنى عندما علمت أنه أصبح مبعوثاً لمعهد الأجناس الفرنسى لدراسة المناطق الإفريقية التى لا يقبل الكثير منا على ارتيادها ، ثم مبعوثاً لجامعة فؤاد الأول . عندئذ علمت أن الرجل قد تكوّن، وأنه نال تقدير العلماء . بعد ذلك رحل وحيداً إلى قبائل (المابان) وغيرها ، وعاد بعد غيبة طويلة، ثم عرج إلى مناطق الحدود المصرية السودانية على ساحل البحر الأحمر. وها نحن أولاء نسترق من الصديق العالم ساعة قبيل رحلته التى سيقوم بها بعد يومين إلى بلاد النوبة

محمد محمود غالى

تعقيب على مقال

فى المقال الذى نشره الدكتور زكى مبارك فى العدد ٤٠٢ من الرسالة ، رداً علىّ ، مسألتان جديرتان بالتعقيب ، وهما :

١ — أن الدكتور قال : إنه قد عدى (حَرَم) بالحرف [أى من] فى بعض قصائده ، وهو يتعدى بنفسه ، فاعترض عليه بعض أدباء الشرق ، فدافع عن هذه التعدية بأنه قد يرى المعنى فى بعض الأحايين لا يؤدى تأدية صحيحة إلا إذا عبر عنه بتلك الصورة — وهو نفس الدفاع الذى اعتضد به الدكتور فى تعدية (أمكن) باللام .

وأقول لحضرة الدكتور إن الفعل (حرم) يتعدى بمن أيضاً . وعندى شاهد لذلك عثرت عليه فى بعض مطالعاتى للأغانى .

٢ — أن الدكتور ذكر فى هـذا المقال استطراداً أن العوامرى بك كان كتب فى مجلة المجمع اللغوى عن (نادى التجديف) بالدال المهملة ، فكان من رأيه أن (التجذيف) بالذال المعجمة ، قال الدكتور : وقد ناقشته يومئذ فى جريدة البلاغ ، فقلت إن الشعرانى فى مؤلفاته يرسمها بالقاف ، فيقول : (التقذيف) الخ ما قال .

وأقول لحضرة الدكتور : إنى رجعت إلى مجلة المجمع اللغوى ، فوجدت أن العوامرى بك لا يقول شيئاً من ذلك ، بل رأيته قد خطأ التجديف والتجذيف والتقذيف . وقال إن الصواب هو : الجدف والجذف والقذف ، مصادر جدف وجذف وقذف . وبرهن على ما قال فى بحث مسهب .

أقول : وأما أن الشعرانى فى مؤلفاته يرسمها بالقاف فيقول : (التقذيف) ، فالشعرانى ليس بحجة . ولعله يحكى اللفظ الذى كان شائعاً فى زمنه ، كما يقول المصريون الآن : (التجديف) . وليس بين معنى (الجدف) و (التجديف) صلة ، إذ (التجديف) هو الكفر بالنعمة .

ا . ع

نصيب السودان من جهاد الديمقراطية

جميل من مكتب الصحافة أن يطالعنا بأسماء أبنائنا الألى جادوا بالأنفس الموالى والمهج الغوالى فى تدعيم أركان السلام ، سلام قوامه المبادئ الصحيحة والقوميات المعتدلة التى يهمها أن تبقى وأن تساعد الغير على البقاء ، وأن تعين الإنسانية على الخير والنماء

وجميل من مكتب الصحافة أن يسجل لنا والحرب دائرة رحاها أننا لم نكن فى المؤخرة يوم أن حمى الوطيس بين الخير والشر . وجميل منه أن يبادر فيلبسنا تلك القلادة الفاخرة التى يشهد العالم أجمع أننا لم نرض أن يطغى الطغيان على هذا الكون فيعذب الإنسانية ويكبلها بأقسى القيود ونحن واقفون موقف المتفرج الذى لا يهمه الأمر ؛ بل قمنا بنصيبنا فى حفظ تراث الإنسانية الخالد الذى قام على الفضيلة والحق والمساواة

أجل ! فليشهد العالم أننا قمنا بنصيبنا فى حفظ تراث الإنسانية نصيباً بذلناه فى سبيل المال على ما نحن فيه من عسر ، فبعثنا به إلى ما وراء البحار لنشمر أنفساً هنالك أننا لم نكن ناسين ما هم فيه ولا جاحدين ما يعملون . وليشهد العالم أننا قد قمنا بنصيبنا فقدمنا إلى الموت أنفساً عزيزة علينا فى ذاتها عزيزة علينا لأن بلادنا فى قلة منها ، بل وتشكو أرضنا الفاقة والبوار حيث لم تجد من يعمرها فيحييها ولا من يثثمرها فيغنيها

قدمناها إلى الموت أنفساً كان فى حياتها للبلاد نماء وثراء ، وقدمنا إلى الموت أنفساً كانت لأهلها أملاً ورجاء . وقدمنا إلى الموت أنفساً كانت للنزلاء عوناً وسخاء ولجاراتها ذخراً لدى البلوى وبهجة فى الخير والسراء

قدمناها لتحمى ذمار الإنسانية وليلقى عدوها من أيدى أصحابها بلاء ونكالاً ما داموا أحياء ، وليئنوه — إن ماتوا — ملطخاً بدمائهم وهى على وجهه عاراً ولأبنائه شناراً

أما هم فنى موتهم خلود ، وفى موتهم فخار ، وفى موتهم حياة . خلود لأسمائهم وبلادهم وحياة للانسانية الطاهرة التى لا ترضى أن تسود الفوضى ويتحكم الطغيان

فنى ذمة الله من مات وليثم فى خلده منها بما حفظت له البلاد من يد هى سندها يوم أن تجلس الأمم لمطالعة الحساب وهى باقة

عبقة نقدمها لأبناء الأمبراطورية يوم يزف لهم النصر الأخير .

وأنتم أيها الجرحى فلتهنأوا بما متعكم الله به من أوسمة لا تخلع وبما حمدته لكم البلاد من بلاء لا يجحد . إذ أنكم أقمتم الدليل على أنكم لم تهابوا الموت ولم ترحموا العدو حتى تقاكم بما عطلكم عنه أياماً نرجو ألا تطول لتتمكنوا من العودة إلى حيث تسهرون عينه وتطيرون لبه ؛ فلا يقوى على حمل السلاح ليتقيكم به ، بل يتقيكم بما يكف أيديكم عنه (وهو الاستسلام) لأنكم لم تقصدوا تعذيب بنى البشر وإنما قصدتم أن تهزموا الشر الذى كان قد استحوذ على النفوس فأغواها وأضلها عن السبيل السوى والخير المشترك

(الخرطوم) عبد الله عبد الرحمن

جريدة « الإصلاح » فى عامها الخامس

دخلت جريدة « الإصلاح » التى يُصدرها بالسنبلاوين الأستاذ عبد الفتاح قنصوه فى عامها الخامس ، وهى أتم ما كانت استعداداً ، وأصدق ما تكون اجتهاداً ، وأبصر بالغاية التى تتوخاها منذ أنشئت ، وهى علاج الأدواء الاجتماعية بالحكمة الهادية والموعظة الحسنة، حتى غدت فى إقليمى الدقهلية والشرقية وحدة اجتماعية وأدبية لها أثرها الظاهر ومكانها المعروف .

و « الرسالة » تقدم إلى زميلتها العاملة أخلص التهنئات بعامها الجديد ، وتدعو الله أن يديم عليها التوفيق فى خدمة الله والوطن

« مكتوب على الجبين » للأستاذ محمود تيمور

بعث إلى الأستاذ محمود تيمور بسفره القيم « مكتوب على الجبين » فأنست إليه وقتاً غمرنى فيه بألوان اللذة والمتاع فكان من أسعد الأوقات لنفسى، سعادة العقل بإحساس الجمال، وإرهاف الحس بتذوق الفن ، وإمتاع النفس برائع التصوير ، وهو إذ يطالع العربية بمكتوب على الجبين يضيف إلى القصة تحفة فنية من الأدب العالى ، وصفحات خصبة من القصص السامى ، وعالم جديد يطفر بالفكر إلى الحياة الرقيقة ، ويشير إلى المثل العليا من العاطفة

مكتوب على الجبين مجهر ينفذ إلى الأعماق فيظهر وراءه ما دق من خلجات النفوس ، ودنيا زاخرة بألوان العواطف .

ولم ينهج الفنان فيه نهجه فى مؤلفاته الأولى وإنما تجلت فى مؤلفه الأخير دقة تعبير ، وسلامة نظر ، وهدوء طبع ، ساعد المؤلف على كشف نواحى مغمورة فى أدب القصة . ومكتوب على الجبين مجموعة تنتظم من قصص صغيرة تتناول نواحى حيوية مختلفة بالبحث الدقيق والتحليل العميق ، فهو يستلهم فنه من الأعماق كما يتصيد الغواص أثمن اللآلئ من أعماق البحر ، وهو الآن لا يكتب عن حوادث واقعية وكلها من ابتكار الخيال المحض ، فهو إذ يبتكر صورة تكون شخصاً أقرب إليك من أشخاص الحياة ، يمتعك الفنان إذ تشهد حوادث القصة وهى تسير سيراً مألوفاً ينفذ إلى النفس حقيقة تتسم بميسم الواقع ولا يخطر ببال أنها من عمل الخيال الفنى البارع فى تشبيهاته ومعانيه بالغاً غاية الطرافة والإبداع ما يستهوى النفس ويأخذ بمجامع القلوب .

قد تأمل أن أذكر لك ما هذه القصص، وفى ذلك عبث بجمالها وسحرها

صدر الأستاذ كتابه بموضوع فريد عن كتابة القصة الفنية تتلوه أربع عشرة قصة منها : « كان فى غابر الزمان — العيون الخضر — ذات مساء — ابتسامة — قلب كبير — و ... كلها من روائع القصص ، وشعاع الحس المرهف ، والخيال البديع الذى يخلع على الفن آيات الجمال ؛ وللأستاذ أسلوب سهل ليّن يحاكى النسيم رقة ، وأنت إذ تطالع قصصه ، سرعان ما تحلق بك إلى سماء الفن ، إلى أعالى لبنان وجبالها الشامخة ، وبين ربوعها الجميلة وأنسامها العاطرة ، إلى الصحراء الواسعة وبين صخورها ، إلى المجتمع الصاخب ، إلى الموسيقى البديعة ، إلى ... إلى ...

ومكتوب على الجبين هو عاشر مجلد أخرجه الأستاذ محمود تيمور فى العربية، وله فى الفرنسية، وله فى الألمانية مجموعة ترجمها واختارها المستشرق السويسرى الدكتور «ديودمار» ؛ ولا غنى لمثقف عن مطالعة مؤلفات الأستاذ تيمور عامة ، ومكتوب على الجبين خاصة : ففيها غذاء العقل والروح وتعتبر بحق أثمن وأجل ما ظهر فى أدب القصة وذلك ما يشهد للأستاذ بالإبداع، ويكتب لآثاره الفنية الخلود فإلى الفنان أبعث آيات الإعجاب والتقدير ... وإلى القصة تهنئتى بأميرها الأستاذ تيمور

طه عبد الحميد الشيمى



الهذيان

للأستاذ نجيب محفوظ

أوشك الفجر أن يطلع ، وتصايحت الديكة إيذاناً بطلائع النور ، فأخلدت الحجرة إلى السكون والصمت ، كأنما أسلمها أنين المرض الموجع وتأوه الإشفاق الأليم إلى الهمود . كانت ترقد على الفراش امرأة شابة يبدو من اصفرار وجهها وذبول خديها وشفتيها وتضعضع كيانها أنها تعانى وبال مرض يهتصر شبابها . وعلى فراش قريب رقد شاب فى مقتبل العمر يثقل جفنيه السهاد، ويأبى القلق أن تلتقى أهدابهما، يطالع وجه المريضة فى حزن ثم يعطف رأسه إلى مهد جديد فيجرى الحنان فى عينيه الذابلتين ويتمتم فى رجاء صادق : « اللهم صن حياة الأم المسكينة ... وطفلتنا البريئة » . وكان الشاب من ذوى القلوب الرقيقة والنفوس الندية بالرحمة والعطف . وكان على عهد صباه يلذ لرفاقه أن يدعوه رجل البيت ، لما طبع عليه من النفور من المجتمعات والأندية ، والاشتراك فى المظاهرات التى تستهوى أفئدة أقرانه ، والانجذاب نحو البيت بسبب وبغير سبب ؛ فكان يقضى نهاره فى الحديقة يسقى أشجار البرتقال والليمون ، أو فى السطح بين الدجاج والحمام ؛ فإذا كان الخميس أعطى ذراعه لشقيقته ومضيا معاً إلى السينما . ولذلك أخذ يفكر فى الزواج تفكيراً جديًّا منذ اليوم الذى عين فيه مهندساً بمصلحة الأشغال العسكرية . وراح يقتصد من مرتبه ما يقوم بنفقات الزواج من مهر وشبكة وهدايا وفرح ، كما كان يفعل شباب الجيل الماضى . فلم يكد يمضى عليه عامان خارج المدرسة حتى تزوج ، ولم يدهش أحداً أن تنعطف هكذا سريعاً إلى الزواج هذه النفس المطمئنة إلى الحياة البيتية منذ نعومة الصبا ، ولكنه كان سيء الحظ ، فما كاد يستدير عام ويستقبل طفلة حتى أصيبت زوجه بحمى النفاس فزلزل بيته الهادئ المطمئن وارتجت حياته السعيدة . وقد عرف منذ اليوم الأول للمرض ما الخوف وما الإشفاق وما الجزع ، واندفع إلى استدعاء أعظم الإخصائيين من الأطباء حملة الباشوية والبيكوية غير مبق على مال أو ضان بثمين، حتى اضطر إلى بيع المذياع وساعته الذهبية، ولو طلب إليه أن ينقل دمه إليها لأداه إلى آخر قطرة ... وبالغ فى ذلك ، فطلب من مصلحته إجازة كيلا يفارق المريضة ، وكان يرقب أعين الفاحصين من الأطباء ويسألهم ، ويطالع وجه زوجه ساعة بعد ساعة ، ويسأل العرافين ، ويزور أضرحة الأولياء ويفسر الأحلام ، ملتمساً الطمأنينة فى مظانها جميعاً ...

وهل ينسى الليالى التى قضاها مسهداً قلقاً لا يغمض له جفن ينظر ببصر حائر إلى الوجه الشاحب على ضوء المصباح الأحمر الخافت ؟ ... وكانت هى مسكينة تستحق الرثاء ، تضطرب بين النوم القلق واليقظة الحائرة ، وبين النزاع والهذيان ، وما هذا الهذيان ! ... إنه ظاهرة عجيبة تدل على أن الإنسان قد يخون نفسه كما يخون الآخرين . كان يصغى إليها وهى تذكر بلسان متقطع أسماء أناس وأماكن وحوادث كثيرة ، وكان شاركها شهود بعضها ، فجرى الابتسام على فيه ، وترطب التهاب عينيه المحمرتين بنظرة حنان . وفى ذات ليلة سمعها تناديه بصوت واضح قائلة : « صابر » فهرع إليها متسائلاً : « نعيمة ... هل تحتاجين إلى شىء ؟ » ولكنه أدرك أنه خدع لأنها كانت مغمضة العينين يابسة الفم كما يبدو من ازدراد ريقها بصعوبة ، فعلم أنها ماضية فى هذيانها الذى لا ينتهى فعاد إلى سريره ، وما كاد يرقد مرة أخرى حتى سمعها تقول وكأنها تحادثه : « صابر ... أنا متألمة خجلة » فهز رأسه المثقل المتعب وقال لنفسه : « أنت متألمة بغير شك . أعانك الله على ما أنت فيه ، ولكن مم تخجلين ! إن هذا الابتلاء لا يخجل أحداً وإن كان يحزننا جميعاً » وظن أنها تألم لما يتكلفه من حولها من العناء والسهر ، فرمقها بنظرة حنان ورجا أن يكون هذا الشعور من آى اليقظة والشفاء ؛ واستدركت المرأة تقول : « زوجى أحسن الأزواج ؛ أما أنا فشقية ... لست أهلاً لوفائه » فتنهد الشاب حزناً وتمتم قائلاً بصوت غير مسموع : « أنت أهل لكل خير » . وأراد أن يناديها لعله ينتشلها من تيار أفكارها المحمومة ، ولكنها حركت رأسها بعنف على الوسادة وقالت بحنق : « راشد ... كفى وابتعد عنى ... إبتعد ودعنى ... » وكان يهم بندائها فاحتبس الكلام فى فيه ، وحملقت عيناه المسهدتان ، وبدا على وجهه الذهول والإنكار وجلس فى فراشه وهو يتساءل :

« راشد ! من راشد هذا ؟ » . وكان يشعر شعوراً باطنياً بأنه لا يسمع هذا الاسم لأول مرة ، وكأنما سبق أن آذى مشاعره . وأسند جبينه إلى كفه وأغمض عينيه ، وكأن صاحب هذا الاسم يعيش فى الظلام ، فقد رآه وعرفه ، وأحس لذلك رجفة تسرى فى مفاصله ... راشد أمين أو أمين راشد — لا يذكر — شاب نافسه فى طلب يدها على عهد خطبته لها ، ولولا أن والدها فضله هو واختاره لكان قدتزوج منها . وقد تذكرأنه رآه مرة وإن كان لا يحفظ من صورته أى أثر ؛ ورفع رأسه مرة أخرى ونظر إليها بعينين مرتابتين لا تصدقان ؛ ورغب رغبة حارة فى أن يسترىدها ويستوضحها ، ولكنه لم يدر كيف يحثها على الكلام ، ورأى شفتيها تتحركان فى ضعف ؛ فدنا من حافة سريرها وأرهف السمع وكتم أنفاسه وهو يعانى جزعاً مجنوناً فسمع صوتها يقول فيما يشبه الأنين: « من يقول هذا ... أف ... والخيانة ... راشد ... صابر ... الخيانة شىء قذر . . . » فشبك كفيه وشدهما على صدره بحالة عصبية كأنما يضرع إلى شىء مجهول أن يمنع كارثة على وشك الوقوع ، وذهل بصره من طول الجمود على وجهها ، فغاب عنه ما حوله ، وكبر الوجه فى وهمه حتى ملأ الفراغ الذى أمامه فثقل عليه وسمج ، ودوى صـدى صوتها فى أذنيه ، فصار كطنين لا ينقطع ، وثقل تنفسه ويبس حلقه . . . ما هـذا الذى تتكلم عنه ؟! ما هذه الخيانة التى أطلق الهذيان عقدة كتمانها فانطلقت خبيثة منكرة أنكى من الحمى ؟! هل يكذب الهذيان ؟ كيف يكذب الهذيان ؟! ولـكن كيف يصدق أذنيه وما بذل زوج لزوجه عشر ما بذل من الرقة والمودة ، وما بذلت زوجة لزوجها عشر ما كانت تبذله له من الصفاء والإخلاص ؟ فكيف انطوى هذا على أقذر ما تبتلى به الضمائر والنفوس ؟ رباه . . . إنها تقول إن الخيانة شىء قذر ، وإنها لكذلك ، ولكن لا يفزع فى هذيانه من قذارتها إلا من انغمس فى بؤرتها . رباه ... لقد ظن أن ما ابتلى به من مرض زوجه أقسى ما ابتلى به إنسان ، فإذا به بلاء هين عابر ، لا يقاس بما هتك الهذيان أستاره ، وأحس اليأس يحبس أنفاسه ، وكان صابر دمث الأخلاق ، لين الجانب رقيق الحاشية ، لا يدفعه الغضب إلى الانفعال الشديد والعدوان ولـكنه يشل حركته ، ويعطف اندفاع أعصابه إلى صميم نفسه ، فيجعله كسيارة يدفعها محركها ، وتقيد الفرملة عجلاتها ، ولكنه بالرغم من هذا ، تحولت رأسه بحركة عصبية إلى سرير الطفلة ، وبرح فراشه فى سكون ، ودنا منه وأزاح ستاره ، وألقى نظرة غريبة على الوجه الصغير المدمج القسمات وأدام إليه النظر والشك والألم يأكلان قلبه بقسوة ، ثم تحول عنه إلى وجه زوجه كأنه يسألها ويستوضحها ، ودنا من فراشها كالسائر فى نومه حتى التصق به وكانت منمضة العينين بادية الاصفرار والخور ، تقلب رأسها ذات اليمين وذات الشمال ، فألقى عليها نظرة جامدة ، جرى فيها بريق القسوة جريان البرق فى السحاب الداكن ، وكان قبل لحظات إذا وقف موقفه هذا اضطرب جسمه من الحنان والرحمة ، ودمعت عيناه ، ولـكن قلبه تحجر هذه المرة فمال عليها حتى نسمت عليها أنفاسه وسألها : « نعيمة ... نعيمة ... ماذا فعل راشد؟» فلم تنتبه إليه ولم تصح ، فرفع صوته وناداها وهو لا يدرى : « نعيمة » فبلغ صوته مسمعى أمها فى الحجرة القريبة . وقامت المرأة من فراشها مضطربة وهى تظن الظنون وهرعت إليه متسائلة : مالها ... هل أعطيتها الدواء ؟ ولم يكن أعطاها شيئاً ، وكان يريد استبقاء حالة الهذيان التى تمانيها ليستنطقها ما يريد فكذب عليها قائلاً فى استهانة وقسوة : « نم وهى بخير والحمد لله » وعاد إلى فراشه وأسند رأسه المثخن بالجراح إلى الوسادة ليتخلص منها ، ولبثت حماته قليلاً . وفى أثناء ذلك أخلدت المريضة إلى الهدوء والسكينة كأنما راحت فى نوم عميق فبرحت المرأة الغرفة وكان يتشوق إلى إيقاظها ولـكنه خشى التى فى الخارج ، فقضى بقية الليل مفتوح العينين محموم الرأس بالأخيلة الشيطانيـة وعيناه زائغتان ما بين فراش المريضة ومهد الطفلة

وحين سـفور الصباح عاودت اليقظة المريضة وبدا عليها أنها لا تحس شيئاً حتى اهتدت عيناها إليه فدبت فيها حياة ضعيفة وقالت بصوت غدا من وهنه كالصفير « ما الذى أيقظك ؟ لماذا ترهق نفسك هكذا ؟ » فرد عليها بنظرة جامدة وكانت تبدو ذاك الصباح أشد هزالاً وشحوباً، ولاحت فى عينيها نظرة الوداع المخيفة ، وكان يشغل باله شىء واحد أسهده الليل ولم يجهل أن إثارته خطر يهدد بالقضاء عليها ، ولـكنه لم يحس سـواه ولم يبال غيره ، وكان يشعر نحوها ساعته بحنق وكراهية ورغبة فى الانتقام فقال بلهجة جافة : « تـكلمت الليلة الماضية كثيراً ، فشرقت وغربت ، وأجرى الهذيان على لسانك كلاماً يحتاج إلى إيضاح » فلم تفهم شيئاً ونظرت إليه بعينين لا تعبران عن شىء سوى الذهول المطلق ، وأراد أن يسترسل ولـكن منعه عن

الاسترسال صراخ الطفلة فجأة ، فما لبثت أن هرعت إلى الحجرة حماته والمرضعة فنكص على عقبيه مغضباً وهو يقول لنفسه : « الطفلة الملعونة تدارى فضيحة أمها وأبيها ! » . وغادر البيت يهيم على وجهه ومضى يحدث نفسه : « كان ينبغى أن أعلم كل شىء وقد أتيحت لى فرص ، لماذا أفر من صراخ الطفلة ؟ أو من ظهور جدتها ؟ الحقيقة أنى ضعيف ... ضعيف ... دائماً يندى قلبي بالحنان وبالعطف ، فما كان أجدر بى أن أكون ممرضة ... أما رجلاً فلا ... لست رجلاً ولست زوجاً ... فأمثالى نساء كاملات ، أو رجال مغفلون ... ومع هذا هل أنا فى حاجة إلى دليل جديد ؟ دمرت حياتى وانتهى كل شىء »

وقضى النهار ضالاً لا يقر ، يتردد الألم فى صدره مع أنفاسه ، وعاد مع الأصيل إلى البيت فوجدها أسوأ حالاً وأشد هزالاً . وأقبلت عليه حماته تسأله أين كان ، وتقص عليه ما قاله الطبيب ، فلم ينفذ شىء من قولها إلى صدره وعاف الرد عليها بتاتاً ، بل لذ له أن تقول إن الحالة سيئة ، فلتتألم كما يتألم ، ولكن كيف يفهمها أنه يعلم كل شىء ؟ كيف يحادثها فى هذا الموضوع الخطير وأمها لا ترضى بمفارقتها فى مثل تلك الحال الخطيرة ؟ ... واشتد به الحنق ، فاعتزم أن يمنع عنها الدواء ليعاودها الهذيان سريعاً فيسمع منه ما امتنع منه سماعه فى اليقظة ؟ وملأ الفنجان ماء خالصاً ووضعه على فم المريضة فازدردته بامتعاض ... وعاد إلى فراشه يرقب الفرصة ، ولكن زوجه لم تنم فى تلك الليلة ولم تهذ واشتد عليها الألم الوجيع فباتت تئن وتشكو وتضطرب . واستدعى الطبيب عند منتصف الليل فعاينها ولكنه لم ينصح بشىء ، وهمس فى أذنه بأن الحالة جد خطيرة ... وبعد هذا التصريح بنصف ساعة احتضرت المريضة وفاضت روحها

وخلا إلى نفسه ، وكان الذهول مطبقاً على حواسه جميعاً ؛ لأن الموت والخيانة الزوجية انتظما تجاربه الشخصية معاً فى ساعة واحدة دون عهد سابق بهما . وماتت نميمة ولم يحزن لموتها ، ولكن حادثة الموت أذهلت نفسه الرقيقة المرهفة ؛ على أن الحقيقة لم تغب عنه فقال : « لم تمت كما يظنون ... أنا قتلتها ... قتلتها لأنى منعت عنها الدواء ليلتين متواليتين هما أشد ليالى المرض ... فأنا قتلتها ... » وجعل يردد « أنا قتلتها » . فكان يشعر لها بوقع غريب فى نفسه يمتزج فيه الخوف بالارتياح

ثم قال مرة أخرى : « وقتلتنى حياً ، وألصقت إسمى قسراً بطفلة إنسان سواى ... ولكنى قاتل فلست إذن مغفلاً » . وأسند رأسه إلى يده وراح فى تأمل طويل وقد سرت فى جسده قشعريرة البرد والخوف

* * *

كيف انقضت الأيام التى أعقبت الوفاة ؟ ... إنقضت فى ألم وقلق ومخاوف لا يمكن أن تتمثل لعقل إنسان ، ثم أعلن عن رغبته فجأة فى السفر إلى لبنان انتجاعاً للصحة والراحة ، وكان فى الحق يفر من أفكاره وطفلته . ومضى إلى الأسكندرية واستقل السفينة ، والظاهر أن نفسه الرقيقة تمرضت فى البحر لأزمة عنيفة هدت كيانها وأتلفت أعصابه ، فاستشعر اليأس من الدنيا جميعاً وألقى بنفسه فى اليم خلاصاً من عذابه وآلامه ، محتفظاً بأسراره لقلبه ولبطون الأسماك ...

وكان يترحم عليه المترحمون فيقولون : « ما رأينا إنساناً يحب زوجه كالمرحوم صابر ، فلا هو صبر على فقدانها ولا احتمل الدنيا بعدها فقضى على نفسه بعد موتها بأيام ... رحمهما الله ! »

نجيب محفوظ

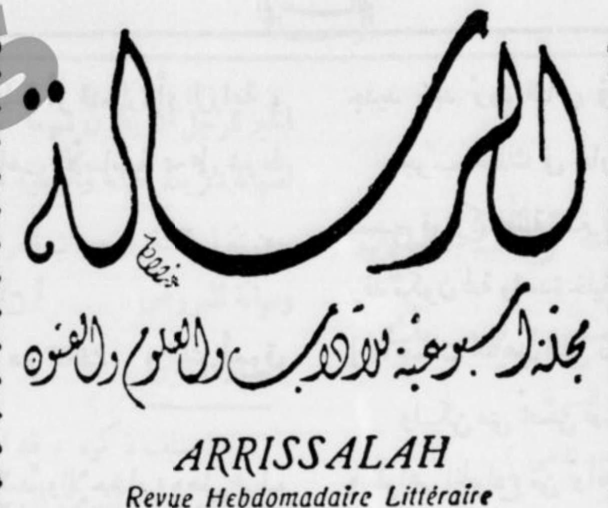
مطبعة الرسالة — ٨١ شارع السلطان حسين عابدين . القاهرة



9me Année No. 406

Lundi - 14 - 4 - 1941





ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

السنة التاسعة « القاهرة فى يوم الإثنين ١٧ ربيع الأول سنة ١٣٦٠ — الموافق ١٤ أبريل سنة ١٩٤١ » العـدد ٤٠٦

الفهــــرس

صفحة

مفتاح السر المجهول

« لـكاتب كبير »

لـكل موجود قوة حيوية تنفع كل النفع أو بعض النفع فى إذكاء روح الوجود ، وما كان تفاوت الأوصاف بمانعٍ أهل الضعف من القول بأن لهم فضلاً فى إكمال الصورة الملوَّنة لخريطة الموجودات . وهل عُرِفت قيمة الفاضل إلا بالقياس إلى المفضول ؟

ولـكنى لا أريد لك أن تكون إشارة تكميليَّة فى الصورة الوجودية ، ولا يرضينى أن يقال إنك على ضعفك مظهر من مظاهر الوجود ، فما أرضى لك هذا المصير إلا يوم يصحّ عندى أنك لا تملك تغيير ما بنفسك ، وأنك لم تُخلق إلا لتكون شاهداً على أن الناس درجات . ومن أين عرفتَ يا جاهل أن الله لم يرد لك الصيرورة إلى منازل الأشراف من أحرار الرجال ؟

إنك تستطيع أن تكون عظيما حين تشاء ، والعظمة الحقيقية هى أن تكون رجلاً نافعاً إلى أبعد الحدود فى الميدان الذى أرادت الطبيعة أن تقفك فيه وقفة الحارس الأمين ، فتكون أعظم الأدباء والمفكرين إن شئت ، وتكون أكبر رجال الأعمال

إن أردت ، وتكون إماماً فى الصناعة أو التجارة أو الزراعة ، وَفقاً لما خصَّك به الله من المواهب الأساسية ، على شرط أن تهتدى إلى مفتاح السر المجهول

فما هذا السر ؟ وما ذلك المفتاح ؟

السر هو نفسك ، والمفتاح هو عقلك . وإليك أسوق الحديث :

فى النفس قُوًى غافية تفوق العدّ والإحصاء ، وهل عرف إنسانٌ قيمة ما تنطوى عليه نفسه من أعاجيب البراعة وغرائب القدرة على خلق المستحيل ؟! لو عرف بنو آدم أقدار أنفسهم لحوّلوا الصحارى إلى رياض وبساتين ، وعاشوا من أرواحهم فى جنات وفراديس . وكيف وبنو آدم بلا عقول ، كما عبَّر أبو العلاء ؟!

إدرُس نفسك فى كل وقت وحاول التعرف إلى ما فى قرارها من القُوى الخافية ، وتذكَّر يا جاهل أن أكثر العظماء لم يكونوا فى بداياتهم إلا نكرات لا تُبشّر بشىء ، وتذكر أنك لم تصل إلى غاية بعيدة أو قريبة إلا بعد الاستصباح بالأقباس المكنونة فى سرائر نفسك ، فما الذى يمنع من أن تجعل التعرف إلى قواك النفسية والروحية فرضاً من فروضك فى صباحك ومسائك ؟

احترس من الغفلة عن نفسك ، فللنفس ومضات تنير أرجاء الوجود ، والتأهبُ للاستفادة من ومضات النفس يزيدها إشراقاً إلى إشراق

وهل كان ما ترى من الروائع والنوادر والغرائب فى آثار الأذواق والقلوب والعقول إلا أثارةً من التأهب لتلقى الوحى الصادر عن ومضات النفس ؟

هى جوهر يشعّ فى كل وقت ، فارفع الحجاب عن عينيك لتنتفع بذلك النور الوهّاج ، فإن لم تفعل فأنت مجرم فى حق نفسك ، وفى حق وطنك ، وفى حق الإنسانية

وهل ترى من المستحيل أن تُوفَّق إلى كشف أفق جديد يزيد ثروة الناس فى الفكر والمعاش ؟

جرِّب حظك فى محاولة التعرف إلى سرائر نفسك ، فقد تصبح قوة كهربائية تغيِّر ما بحيَوات الناس من ألوان وأغانين ؛ وقد تكون لمحة واحدة خليقة بأن تجعل لك مكاناً بين أهل الخلود إن أحسنت التأهب لتلقى ذلك الوحى الجليل

ولكن متى تحسن فهم أسرار نفسك ، وأنت عنها فى شغل بالظواهر الخوادع من توافه الشئون ؟

إن عقلك هو الذى يهديك إلى الانتفاع بالقُوى المستورة فى أطواء نفسك ، فهل استهديت عقلك ؟ وهل فكرت فى أن أكابر الموهوبين قد لا يكون بينهم وبينك من الفروق ما يستوجب أن يتقدموا وتتخلَّف ؟

فكِّر فى مصيرك ، يا جاهل ، فقد يحطك الله فى جهنم لأنك لم تحسن الانتفاع بهَدْى عقلك فى معرفة قُوَى نفسك ، والنفس هى أشرف الأرزاق

وما النفس وما العقل ؟؟

الذى يهمنى هو الاطمئنان إلى أنك تعرف جيداً أنك خُلِقت لغاية غير الغاية التى خُلِق لها إخوتك وزملاؤك ، فالإنسان هو الحيوان الوحيد الذى تختلف فيه ملامح الوجوه ، ومن الواجب أن تختلف فيه ملامح العقول ، فمن أنت ؟ وما صورة وجهك ؟ وما سِمة نفسك ؟ وما صِبغة عقلك ؟

تفرَّدْ وتوحَّد ، يا خِليقة الواحد المتفرِّد . كن أمةً وحدك ليرضى عنك من سوّاك ، فما خلقَك إلا وهو يريد أن تكون فريداً فى الصورة والمراد . فهل ترانى دللتك على مفتاح السرّ المجهول ، وأنا من البحث عنه فى حيرة وضلال ؟

أنا وأنت رفيقان هائمان فى بيداء الوجود ، وفى صدرى من اللوعة إلى كشف المجهول بعض ما فى صدرك ، فخذ بيدى كما أخذت بيدك ، لنصل إلى شاطىء المعرفة واليقين بسلام وأمان ، والله يهدينى ويهديك ! !

« كاتب »

في المصادر والأصول

نساؤنا بين التقاليد والتجديد

لصاحب العزة الدكتور منصور فهمي بك

مدير عام دار الكتب المصرية

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

التبذل

وإني لمناسبة ما ذكرته من الاختلاط لغير مقتضياته الاجتماعية ذكرني صديق بأن بعض فتياتنا قد يغشين المجامع لغرض شريف ذلك هو الرغبة في الزواج وبناء البيت ، وإذا صح ما ذكره صديق ، فإن نبالة النية وشرف القصد لا يحولان دون فساد الأسلوب وتعثر الطريق المتبع ، لأنه لا مأمن من نزوات النفوس ووساوس الشيطان ، إذ يضيع على الرجولة شهامتها فيستخدم الخلطة للعبث والتسلي دون تقدير لما يترتب على ذلك من تردي الفتيات والنساء في سبيل الغواية ، ودون نظر إلى فداحة الإثم حين يصيب كل من جنس الرجل والمرأة من الآخر أنساً لا يحلله إلا صدق المواثيق والعقود وإخلاص النفوس . وزيادة على ذلك فإن الفتاة إذا غشيت هذه المجامع المصنوعة دون حذر شديد ، أو حامت حول حماها ، فقد تقع في مخاطرها ، لأن حظ الفتاة من طيبة القلب وليونة العاطفة وروح الإيثار وسذاجة الوجدان يربو كثيراً عن حظ الرجل الذي راضته أحداث الزمن على مرانة في التفكير وقلة في الحساسية وتغلغل في الأنانية ، مما قد يساعده على أن تكون المرأة هدفاً لخديعة الرجل وتغريره . ولطالما يهفو الرجل فتدفعه هفواته لاستباحة المتعة من المبذول ، لكنه طالما يكرم نفسه باختيار زوجته ممن يكرمن أنفسهن في حمى العزلة وقداسة الصيانة . وأزيد على ذلك أن ابتذال الفتيات لأنفسهن مضيع للعزة والكرامة . وينبغي أن تكون عزة المرأة وكرامتها فوق شرف الزواج ، ولا عزة لمن يتقدمن من النساء في سوق العرض والطلب ، ومن الخير لهن أن يكن معززات مصونات محببات يطلبن في شغف ، لأن في الابتذال إضعافاً للرغبة . ومن الخير للرجل أن يكون شهماً كريماً ، فيستخدم شهامته ومروءته لصيانة شريكة حياته وأم بنيه عن مواضع الذلة ومواطن الابتذال حين تنزل الفتاة في ميدان العرض والطلب فيصيبها ضعة العارض ومهانة المعروض

فساد الذوق

وفيما سلف ذكره ، قد أشرت إلى انحراف الاختلاط عن وجهه القويم ، وأشرت إلى سوء فهم الحرية المعقولة وإلى مهانة الابتذال . أشرت إلى كل ذلك لعناصر مسيئة لنسائنا المجددات ؛ ويجدر بي أن أشير إلى عنصر آخر لا يقل أثره سوءاً . ذلك هو اختلال الذوق في اللباس والتزين . لقد ذكر أحد العلماء الممتازين الحاليين الدكتور « كاريل » في كتاب له إلى ما أصاب العصر الحديث وأهله من ضعف في الإنتاج الصالح، وضمور في الجسوم، وضعف في الذوق الفني . وليس من شك في أن ملابس السيدات الغربيات قد أدركها ذلك الضعف ، من حيث الذوق ومن حيث اللياقة . وإن مستحدثات الأزياء التي يتخذها نساؤنا عن الغربيات وبغيرها بين حين وحين مبدعو الأناقة من أهل التجارة ، تدل أبين دلالة على ضعف هذا الذوق الفني وانحلاله . فالجلباب القصير والحاسر والقبعات قد يؤلم الكثير من أشكالها نظر ذي الذوق السليم . فهبك رأيت امرأة طويلة نحيلة في جلبابها الذي لا يبلغ ساقيها ، ويخرج عن كميه ساعداها الطويلان النحيلان العاريان وتمتد رقبتها الدقيقة من طوقها المفتوح ، وتتخم شفتاها الظاهرتان في وجهها الضئيل بتلك الأصباغ الدامية . أفلا يخيل إليك أنها كالأفعى ولغت في الدماء ؟ وليست هذه الصورة الدميمة البشعة إلا من نتائج اللباس القصير الحاسر الذي لا يرضاه لهذا الجسم ذوق صحيح

التغرير بالمرأة

وكما أساء الاختلاط المطلق والحرية السقيمة المثلة وفساد الذوق الشائع إلى النساء والحديثات المعاصرات كذلك أساءت إليهن فلسفة التغرير . فقد يغرر العصر الحاضر بالنساء حين يدفعهن إلى ميادين من الأعمال الشاقة . كان من الخير أن يزاولها الرجال ويحتملوا أوصابها وتبعاتها دون النساء حرصاً على أن تسلم

وظيفة الأمومة التي هيئت لها المرأة ، ووقاية من زجها في الجهود المضنية التي تعطل فيها صحة انسجتها العضوية ، وتفسد عليها رقة الطبع وسلامة الأعصاب

كتب الأستاذ فريد وجدي (حين بحث في مشاركة النساء الرجال في أعمالهم) قال :

« إن من أقبح مظاهر أسر المرأة في الأفراد والأمم ترك حبلها على غاربها ، وقذفها بذلك الجسم اللين والعواطف الرقيقة والفؤاد المملوء رحمة ، والمهجة المتشبعة بالشفقة ، أن تزاحم الرجال في معترك الحياة كتفاً لكتف لسد رمقها ، فتقضي طول نهارها وجزءاً من ليلها بين لهيب المعامل ودخانها أو على قارعة الطرق بين هيجاء تلك المدنية المفزعة . ولو تسنى لك يوماً من الأيام أن تزور معامل أوربا وأمريكا مما جمع إلى فخامة المبنى وضخامته سعة لا يكاد يحيط بها البصر ، رأيت في داخلها أمراً عجيباً : رأيت جماعات من ذلك الجنس الرقيق مكلفات بأشق الأعمال وأقسى المحاولات العضلية واقفات أمام التنانير المسجورة يمانين أوصاب الحياة ومرارة العيش ، تقرأ على وجوههن التي لفحتها تلك النيران المستعرة هذه الجملة التي لا تذهب من مخيلتك أبداً :

« هذا منتهى أسر الرجل للمرأة »

ومحررو المرأة عندنا بدلاً من أن يعدوا هذا مرضاً اجتماعياً كما يعده علماء العصر الحاضر ويضعوا كل هممهم في حياطة بلادنا منه مثل ما يفعله حكماء أوربا وأمريكا تراهم يودون أن يفتحوا علينا ذلك الباب الهائل لظنهم أننا سائرون خلف أوربا قدماً بقدم[1] » .

ولقد صدق الأستاذ وجدي فيما كتب فحاكاتنا للغرب تدفع نساءنا الحديثات في كل ميادين العمل الاجتماعي ويغرر بهن ليسرن في هذا السبيل من غير قيد ولا حذر . وقد توقع الكثير من علماء الاجتماع سوء عاقبة هذا التمادي في التغرير بالمرأة وتوريط المجتمع في كوارث اقتصادية وخلقية ، حتى أن « أوجست كومت » وهو رأس من رؤوس فلاسفة الغربيين كان يرى من واجب الهيئة الاجتماعية أن تضمن للنساء حياة ناعمة مريحة إذا أعوزهن من يكفلهن من الأقارب والأزواج . وذلك لكي تتجه النساء وجهتهن فيما خلقن له من إسعاد الأسرة ودعم أسسها ، ومن إنعاش جو المحبة ، ومن إشاعة نسمات السلام . وإن ما يذهب إليه هذا الفيلسوف يساير تعاليم الإسلام حين يوجب على بيت المال أن يقوم بنفقات من يفقدن كافلهن ولا يملكن ثروة تدرأ عنهن العوز ، أو ليس لهن من يعولن عليه من ذوي القربى الواصلين للأرحام

ولقد ذهب كذلك « جول سيمون » الاجتماعي الفرنسي إلى تأكيد ما يفصل بين واجبات المرأة وواجبات الرجل في الحياة الاجتماعية مما يدعو في جملته وتفصيله إلى الحد من التغرير بالنساء بزجهن في كل الأعمال التي تقتضيها الحياة العمرانية

الأسرة وقيودها

يتبين مما تقدم ذكره أن للمرأة كمالاً نوعياً خاصاً ، ومضمار هذا الكمال الأمومة وتربية الأولاد وتنظيم البيت وإسعاد من فيه . وعلى حد ما يقول قاسم أمين في كتاب المرأة الجديدة :

« نحن لا نجادل في أن الفطرة أعدت المرأة للاشتغال بالأعمال المنزلية وتربية أولادها ، وأنها معرضة لعوارض طبيعية كالحمل والولادة والرضاعة لا تسمح لها بمباشرة الأعمال التي يقوى عليها الرجال ؛ بل نصرح هنا أن أحسن خدمة تؤديها المرأة إلى الهيئة الاجتماعية هي أن تتزوج وتلد وتربي أولادها . هذه قضية بديهية لا تحتاج في تقريرها إلى بحث طويل »

ومن المعلوم أن تأسيس الأسرة وتكوين العائلات إنما دعم على انتقاد من حريات الأفراد وحد من استقلالهم حيال ما يعود من الفوائد الناتجة عن التكامل العائلي حين يشمل أفرادها الحدب والحنان والمودة والتراحم وما يترتب على ذلك من تبادل المنافع .

لقد كانت المرأة في حالة الهمجية الأولى واسعة الحرية ، وكذلك كان الرجل . لكن تقدم النوع الإنساني وأطوار العمران قضت شيئاً فشيئاً على هـذه الحرية الهمجية إلى أن وصل المجتمع إلى تكوين الأسرة المهذبة المتراحمة على أنقاض هذه الحريات .

ولقد حددت الشرائع وما تعارف عليه الناس لكل من أفراد الأسرة مختلف النظم والحدود ، وعلى ذلك يجب أن يمارس كل من الزوج والزوجة والبنين حقه وواجبه في حدود الله والعرف الصالح

ويسوءنا أن نلاحظ على مجتمعنا في العهد الأخير أن الناس نساء ورجالاً قد تعدوا حدود المعقول والمشروع في السلوك . وبخاصة فيما يتعلق ببنية الأسرة وجوهر آدابها

(١) عن المرأة المسلمة

فى حين قضت حكمة الإسلام أن يكون للزوج درجة على زوجته فى تسيير دفة الحياة العائلية أصبح الحال بعكس ذلك فى الأسر التى طغى عليها التقليد المنحرف الدخيل ، وفى حين كانت تدعو التقاليد الإسلامية بأن تحتجز زينة النساء وتبرجهن للبيت والأزواج ؛ أصبح الكثير من النساء لا يستحسن التزين والتبرج إلا للمجتمعات مع ضعف فى الذوق جرت إليه المحاكاة الطائشة .

وفى حين كانت تقاليد الإسلام لا تبيح للنساء مخالطة الرجال ولا تبيح للرجال مخالطة النساء إلا بشروط وقيود . أصبحت حرية الاختلاط فى بعض الطبقات الاجتماعية رهينة وحى اللهو والهوى والفتون ، وفى حين كانت التقاليد الإسلامية تدفع بالناس إلى التبكير بالزواج والتناسل أصبحت أطوار الأخلاق ، وفلسفة الزمان المستحدثة تغرى بعكس ذلك من التقاليد التى قامت عليها عظمة الماضى وقوة السالفين

وليس من شك أن هذه الحالة التى تواضع الناس على تسميتها بالحياة العصرية حيناً وبمحاكاة التجديد حيناً آخر يتنافى مع التقاليد الأصيلة فينا ، وأن هذه الحالة السيئة تسللت إلى مصر مع غفلة الزمن وضعف الشخصيات والولوع بالمحاكاة ، ولقد شعر الكثيرون منا بخطر هذا الحال الاجتماعى وأخذوا يثورون عليه سراً وفى استحياء فى حين أن دعاة من صميم الغرب قد دعوا جهرة للحد من خروج المرأة عن نطاق عملها ودوائر نشاطها

ورد فى جريدة المقطم منذ أسبوع : أن سيدة سورية طلبت إلى الجهات المختصة فى حكومتها الموافقة على انتظامها فى سلك المحاماة ، فردت تلك الجهات بامتناعها عن إجابة هذا الطلب لمخالفة ذلك لروح القرارات التى أصدرتها الحكومة الرئيسية فى فيشى

على أنى لا أتعرض لإقرار ذلك أو رفضه ، إنما أريد أن أتخذه دليلاً على ما يبديه الغرب من الروح الجديدة ، والرجوع بالمرأة إلى الحدود الواجبة

المعاول

ومما يزيد الأمر عندنا سوءاً أن معاول الإتلاف فى الحياة الاجتماعية متعددة وكثيرة ، فإشاعة الروايات الغرامية ، وعرض المسرحيات الرخيصة ، وترديد النظر فيما يعرض فى دور الخيالة السيئة ، وما يوحيه ذلك للفتيات والفتيان والزوجات والأزواج والاختلاف إلى المتنزهات العامة دون رقابة واحتشام وعصمة ، وقراءة ما يسمونه الأدب المكشوف ، وكثرة الاطلاع على الصور فى أوضاعها الخليعة ، وما إلى هذه المغريات . كل ذلك شأنه شأن المعاول فى هدم الحياة الاجتماعية المنتجة ، وفى زعزعة أسس التربية الصالحة فى كيان الأسر

الدعوة والعمل

وأصبح لزاماً على المفكرين دعوتهم للانقاذ من هذا البلاء ، ولعل هذه الدعوة تجد آذاناً صاغية لما آلت إليه حالة المجتمع من التدهور كما وجدت دعوة قاسم أمين آذاناً صاغية عند ما اشتدت التقاليد القديمة وضيقت الخناق فى حياة النساء ، وعسى أن يكون لوزارة الشئون الاجتماعية والهيئة الحاكمة عمل فى ذلك مذكور قد أتعرض لتفاصيله وبيانه فى فرصة أخرى إن شاء الله

على أننى أرجو من المرشدين الراشدين والكاتبين والكاتبات ورؤس الأسر رجالاً ونساء أن يفطنوا للخطر الذى حفت كلمته فى الغربيين وراء الاستهانة بروابط الأسرة ومقتضياتها ومقوماتها فاستيقظ الغرب يبتغى الوسيلة لوقايتها مما حاق بها وبرد المرأة إلى ما هيأته لها المقادير

منصور فهمى

الصحافة العراقية

للدكتور زكي مبارك

ما عناصر هذا الموضوع الدقيق ؟ —
في صلب المقال جواب من هذا السؤال

لا يجوز إغفال الصحافة عند التكلم عن الحياة الأدبية في بلد من البلاد العربية ، فإلى الصحافة يرجع أكبر الفضل في نشر المذاهب والآراء ، وإليها يرجع الفضل كله في المرونة التي ظفرت بها الأساليب في هذه الأيام ، لأن الكتّاب لم يعودوا يهتمون بالخواصّ ، كما كانت الحال في العصور الخوالي ، وإنما يوجّه الكاتب كلامه إلى جماهير كثيرة فيها العالمون والجاهلون والأذكياء والأغبياء ، وذلك يوجب أن يكون الوضوح هو الخصيصة الأولى من خصائص البيان

والمحصول الأدبي في مصر وسائر البلاد العربية هو في أغلب أحواله مقالات وبحوث نُشرت في الجرائد والمجلات ، والحال كذلك في الأمم الأوربية والأمريكية ، فجانب كبير جداً من الأدب الفرنسي لم يكن إلا صحائف مختارة من بين ما نُشر في الجرائد والمجلات . وكان من تقاليد جريدة « الطان » أن تنشر كتباً جيدة تختار موادّها من بين ما نشرتْ لأكابر الكتاب والباحثين . وكانت جريدة « المؤيد » في مصر صنعت مثل هذا الصنيع فنشرت ما كانت تسميه « منتخبات المؤيد » ولو فكرت الجرائد المصرية في إحياء هذه البدعة الطريفة لظهرت مجموعات علمية وأدبية وفنية تزيد محصولنا الفكري قوة إلى قوة ، وتحفظ ما يعرّض للنسيان من آثار الأذواق والقلوب والعقول

وكانت دار الكتب المصرية شرعت في طبع فهارس لأهم ما ينشر في الجرائد والمجلات ، وهي فهارس لا يلتفت إليها جمهور الباحثين ، وأخشى أن تكون عُطِّلت بعد غلاء الورق ، فتلك الفهارس تؤدي خدمات عظيمة لمن يهمهم الرجوع إلى محصول الفكر والعقل في هذه البلاد ، وتشهد بحرصنا على تقييد الأوابد من معالم الأدب والتاريخ

ويدور الجدل من وقت إلى وقت حول المفاضلة بين المعاهد التي خدمت اللغة العربية كالأزهر ودار العلوم وكلية الآداب ، وعند التأمل نرى أن هذه المعاهد لم تخدم إلا علوم اللغة العربية ، أما نشر الأفكار والمذاهب والآراء ، ورياضة الأقلام على وصف ما جلّ ودقّ من شؤون الحياة بأسلوب واضح مقبول يفهمه العوامّ ولا ينكره الخواصّ ، وخلق الروح الوطني والديني في نفوس الجماهير ، وتقريب ما بين الشرق والغرب من المسافات العقلية ، فذلك كله من ثمرات الجهاد المحمود ، جهاد الصحافة الأدبية والسياسية ، فهي التي رفعت اسم مصر بين أقطار الشرق ، وهي التي أذكت مواهب الرجال ، وهي التي أمدت اللغة العربية بروافد لم تر مثلها في أيامها الزواهر لعهد بني أمية وعصر بني العباس

فما حال الصحافة العراقية ؟

لم يصحّ عندي أن في العراق صحافة تساير ما فيه من النهضات العلمية والقومية ، وإن كثُرت فيه الجرائد والمجلات ، فكيف تخلّف العراق في هذا الميدان مع أنه تقدم في أكثر الميادين ؟

قد يجاب بأن الصحافة هناك ترزح تحت أثقال من القيود بسبب العواصف السياسية ، وهو كذلك ، ولكن ما سبب تلك القيود ؟

يرجع السبب إلى أن الصحافة العراقية ترى أن الحرية لا تكون إلا في الحدود التي تتمتع بها الصحافة المصرية ، وذلك خطأ فظيع : فالمصريون والعراقيون يختلفون أشد الاختلاف في الميول والأهواء ، ولو شئت لقلت إن في الطبع المصري هدوءاً لا يعرفه الطبع العراقي ؛ فالمقالة القاسية في جريدة مصرية لا تغيّر إحساس الجمهور إلا بمقدار ضئيل ، ولا كذلك المقالة القاسية في جريدة عراقية ، فهي تزلزل إحساس الجمهور أعنف الزلزال ، وقد تقبّح سمعة من كُتبت فيه أبشع التقبيح

سمعت أن جريدة عراقية أُغلِقت لأنها كتبت مقالاً عنوانه « الفُرات المائج » ، فكيف أُغلِقتْ من أجل هذا العنوان ؟ أُغلِقتْ لأنها تناست الفرق بين الهياج والطغيان ، فالهياج يضاف إلى السكان ، أما الطغيان فيضاف إلى الماء

والسبب مُضحِك لمن ينظر فيه وهو يجهل المدلول السياسي لهياج الفرات ، أما الذى ينظر فيه وهو يعرف محرر الجريدة ومذهب الحزب الذى ينتمى إليه فقد يعدّه باباً من التحريض ، وقد يراه بوادر لمصاعب لا تطاق ، وما أُحبُّ أن أزيد ! !

ومعنى ذلك أن الصحفيين العراقيين يخرّبون بيوتهم بأيديهم ، فهم لا يعرفون سياسة القول ، وهم يجنون على أنفسهم حين يفكرون فى محاكاة الصحافة المصرية ، وهى صحافة باغية لم تَدَع أديباً صحيحاً إلا مزّقته بلا ترفق ولا استبقاء

قضيت ليلة من ليالىّ الطوال فى بغداد وأنا حزين بسبب ما كان يُنشَر فى جريدة « الرأى العامّ » طعناً فى مصر والمصريين ؛ ولكن كيف ؟ هل كانت تلك الجريدة تشتم مصر والمصريين ؟ لا ، وإنما كانت تنشر أقوال المصريين بعضهم فى بعض ، فتذيع ما كان يقع من التهاجى بين جرائد الدستوريين والسعديين والوفديين ... فماذا صنعتُ ؟

رأيت أن أذهب لمقابلة مدير الدعاية بوزارة الداخلية هناك لأفهمه أن الجمهور العراقى سيحقد على الحكومة العراقية حين يرى نفسه محروماً من الطعن فى وزرائه على نحو ما يتمتع به الجمهور المصرى ، وهو حال إن دام فستكون له عواقب سود . فكانت النتيجة أن تكفّ جريدة « الرأى العام » عن تقديم ذلك الطعام « المسموم » لقرائها « الأصحّاء »

الصحافة الحزبية فى مصر صحافة مؤذية ، وهى كريهة المذاق ، ولن ينجو العراق من شر هذه الصحافة إلا يوم تنجو منها مصر ، وهيهات ثم هيهات !

ولكن الصحافة الحزبية عندنا تستر شرها بالتحدث عن أشياء من العلوم والآداب والفنون ؛ أما الصحافة الحزبية فى العراق فهى سياسة فى سياسة فى سياسة ، ولا يظفر منها القارئ بزاد علمى أو أدبى إلا فى أندر الأحايين

تذكرت صحافة العراق حين نظرت فى كتاب « السلوك ، لمعرفة دول الملوك » وهو كتاب ألفه المقريزى ونشره الدكتور (محمد مصطفى زيادة) بعناية تضيفه إلى أقطاب المحققين ، فرأيت المؤلف لا يرى الدنيا إلا فى أخبار الملوك والوزراء ، أما الشعب فليس له من جهد المؤلف خَلاق[1] وكذلك تكون صحافة العراق لو أن الصحافة العراقية جملت أحوال المجتمع العراقى همّها الأصيل لظفرت بجاذبية روحية وأدبية تغنيها عن الاهتمام بأخبار الوزراء ، والجريدة الموفّقة هى الجريدة التى تحدّث الشعب عن ذات نفسه وتنقله إلى آفاق من الفكر والقلب والوجدان

أما الجريدة التى لا تعرف غير الأخبار الرسمية ، ولا توجه جهودها لغير الجانب السياسى فهى جريدة قليلة النفع فى تربية العواطف وإحياء الآمال

والصحافة الحزبية فى مصر خليقة بأن تسمع هذا القول قبل أن تسمعه الصحافة الحزبية فى العراق

ومن صحافتنا الحزبية أستعيذ بالله ، فهى معول يهدّم ما بيننا من أواصر وصلات

ولكن لا بد من النص على أن مصر تتمتع بمزية عظيمة هى « التماسُك » فما يُهدَم الرجل العظيم فى مصر ولو صُوِّبتْ إليه ألوف الأكاذيب والأراجيف ، أما الرجل العظيم فى العراق فتنهدم قوته المعنوية حين تشتغل الصحافة بتجريحه أسبوعاً أو أسبوعين ، وتلك حالٌ طيبة من جانب وخبيثة من جوانب ، فهى طيّبة لأنها تجعل الحاكمين فى حذر من تغيّر المحكومين ، وهى خبيثة لأنها تجعل سوء الظن أساساً لأكثر الأعمال

والصدق فى حب العراق هو الذى يسوقنى إلى النص على هذا الملحظ الدقيق ، ولكن هل قلت كل مايوجبه الصدق ؟

يجب النص على أن الصحافة العراقية مشلولة بسبب انعدام التعاون بين السلطة التنفيذية والسلطة الأدبية ، فمن واجب الحكومة أن تعين الصحافة على نشر ما لا خطر فى نشره من أخبار السياسة الداخلية والخارجية ، ومن واجب الصحافة أن تراعى جميع الظروف ، فلا تعمل على تهوين أقدار الحاكمين فى أنفس المحكومين فى بلد يتأثر بالقيل والقال

وانعدام التعاون بين هاتين السلطتين فى العراق له نتائج نلمحها من حين إلى حين ! !

أليس من العجب أن نقرأ فى جميع الصحف العراقية أن الحال على ما يرام وفوق ما يرام ، ثم يكون الواقع أن العراق يعانى أزمة وزارية أو دستورية ؟

وأقارن بين الحالة فى مصر والعراق فأقول :

الحرية الصحفية فى مصر تصرف المصريين عن خلق

---

[1] الخلاف بالفتح هو النصيب

الإشاعات والأراجيف ، لأن الصحافة المصرية تقوم بهذه المهمة « خير قيام » فهي تزوّد أهل الفضول بما يكفي لإزجاء أوقات البطالة والفراغ ، وتغنيهم عن الافتنان في اختراع الأقاصيص حول مسالك الكبراء والوزراء

ومن هنا يكون في مقدور الحكومة المصرية أن تعرف ما يتحدث به الناس فتطبّ له قبل استفحال الداء

أما صمت الصحافة العراقية عما يدور في أروقة الدوائر والدواوين فيروض العراقيين على الظن بأن الصحافة تطوى عنهم أشياء ، فيتولون بأنفسهم خلق صحافة جديدة أسميها « الصحافة الشفوية » وهي صحافة لا يُشرف عليها حسيب أو رقيب ، فتجول في الأندية والمجالس بلسان مسموم لا يكبحه عِنان ولا يصده وثاق

ومن هنا تعجز الحكومة العراقية عن الطب لوساوس الجمهور قبل استفحال الداء

وهل أحتاج إلى النص على أن الصحافة التحريرية أخف وقعاً من الصحافة الشفوية ؟

إن الصحافة التحريرية يديرها رجال يمنعهم العقل والمنطق والذوق عن الإمعان في الإرجاف ، أما الصحافة الشفوية فيخبُّ فيها كل مخلوق على حَسب هواه ، وقد يحترفها أقوام لا يعرفون أخطار « الغيبة الاجتماعية » وهي أفظع من الغيبة الفردية ، فأنت حين تغتاب شخصاً لا تؤذي غير رجل واحد ، ولكنك حين تغتاب حكومة قد تعرض أمة برمتها إلى التصدع والانحلال

ولكن ما نتيجة انعدام التعاون بين السلطة التنفيذية والسلطة الأدبية في العراق ؟

النتيجة هي ضعف الأدب السياسي هناك ، وكيف يقوى الأدب السياسي وما تستطيع جريدة أن تقول إنها أسندت هذه الوزارة أو قوّضت تلك ؟ ؟

وكيف ينبغ الكتّاب السياسيون وقد حُرموا القدرة على تشريح المذاهب والآراء ؟

وأرجع مرة ثانية إلى الخطر المخوف على الصحافة العراقية وهو محاكاة الصحافة المصرية ، فتلك المحاكاة هي سبب البلاء ، ويجب أن يكون للصحافة العراقية مسالك جديدة تراعى فيها ظرف المكان ، وتطبّ لأدواء المجتمع العراقي بلا استطالة ولا بغي ولا عدوان

وإلى أن يجيء اليوم الذي يتم فيه التفاهم بين السلطة التنفيذية والسلطة الأدبية . . . ما الذي يجب أن تصنع صحافة العراق إلى أن يجيء ذلك اليوم ؟

أرى أن يفكر الصحفيون العراقيون في تزويد جرائدهم بأطيب الزاد من العلوم والآداب والفنون لتصبح الجريدة وهي جارحة من الجوارح الروحية لا يستغني عنها رجل يتنسّم هواء العراق

إن كان للصحافة العراقية عذر في العجز عن خلق الكاتب السياسي ، فما عـذرها في العجز عن خلق الكاتب الأدبي والكاتب الاجتماعي ؟

ما عذرها وليس للحكومة سلطان على كتاب الأدب والاجتماع ؟ وما عذر أدباء العراق في التخلف عن السبق في ميدان التأليف ؟

لن أنسى واجبي في دعوة أدباء العراق إلى التفكير في الانتفاع بذخائر الثروة الروحية والعقلية في تلك الأرجاء

كان الكبح السياسي في القرن الرابع أعنف من الكبح السياسي في القرن الرابع عشر ، فأين العراقيون اليوم من جهود أسلافهم بالأمس ؟ لقد تمخض الكبح السياسي والديني في القرن الرابع عن ذخائر فلسفية هي « رسائل إخوان الصفاء » فأين ثمرات الكبح السياسي في هـذا العهد ؟ وأين محصول العقول في تدبير الرسائل لشرح أحلام القلوب وأهواء النفوس ؟

كنت كتبت كلمة في الرسالة أصد بها الأديب « الدسوقي » عن الاغترار بما يصدر عن وحي القلب في سن العشرين ، فثار جماعة من أدباء الشباب وعدوا كلمتي تعطيلاً لمواهبهم الأدبية ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفحموني ، وأفحمني شابٌ عراقي حين سألني وهو في بغداد عما كنت أصنع بأحلامي وأفكاري يوم كنت في سن العشرين !

ومن هذا الكلام فهمت أن الحيرة الفلسفية لها بقايا في العراق . وقد عرفت في بغداد شاباً كان ينفق على أهله وهو تلميذ بالمدارس الثانوية من دراهم معدودات كان يجنيها بعرق الجبين في خدمات أدبية شريفة لا تصرفه عن استذكار الدروس ؛ ولا أدري ما صار إليه أمر ذلك الشاب ، وإن كنت أعرف أن مجلة الرسالة قومت أدبه فنشرت له قصة من أدب طاغور بعناية والتفات . وإن صحت فراستي في هذا الشاب فسيكون له بين أكابر الأدباء في العراق مكان

العراق روحياً بخير وعافية، ولكن كيف نخلق الفاعلية الأدبية في العراق ؟ وكيف نخلق المنافسة الجدية بين القاهرة وبغداد ؟ أما بعد فأين أنا مما أريد

حديث اليوم عن الصحافة العراقية ، وقد تكلمت عنها بالتفصيل في كتاب « وحي بغداد » فما هو الجديد في هذا الحديث؟

الجديد هو أن الصحافة العراقية لا تزدهر إلا حين تبتعد عن المشكلات السياسية ، ولكن كيف وكل امرئ في العراق يشغل نفسه بالسياسة ولو عاش في الدربونة الواقعة خلف شارع صريع الغواني ؟

في العراق صحافة أدبية لا تعرف تصريف الفعل من ساس يسوس، وهي صحافة مبثوثة في أرجاء العراق، فنرى لها ملامح في البصرة والحلة والنجف والموصل وبغداد، وقد نراها في الكوفة المسكينة التي عاشت مساجدها الجوامع بعد طول العهد بالخراب، وقد نراها في « العمارة » ممثلة في صحيفة تسمى « الفرزدق » ، قد نرى ملامح الصحافة الأدبية في كل مكان بالعراق ، وإن لم تكن في قوة الصحافة الأدبية في وطن الأزهر والجامعة المصرية

ولكن ... ولكن هل ننسى قيمة الاستقرار في بلد الرشيد؟ لم يسم العراقيون عاصمتهم «مدينة السلام» أو « دار السلام » إلا استجابة لرغبة مقهورة هي الشوق إلى أن تكون عاصمتهم دار الأمان ، وهي في جميع عهودها دار الخوف ، أو دار الحرب ، فما فيها موضع قدم إلا وهو معهد صيال لعزائم الأبطال

والعراق حين يسألك عن حالك يقول : هل أنت مستريح ؟ ومعنى ذلك أن التعب هو الحال الغالب في تلك البلاد !

وأقول إن الاستقرار الصحفي تظهر قيمته في « مجلة المعلم الجديد» فما هي تلك المجلة ؟ هي مجلة تصدرها وزارة المعارف العراقية لشرح شؤون التربية والتعليم ، وقد ظهرت في سنة ١٩٣٥ ، ولا تزال تصدر بقوة وحيوية تشهدان بقيمة النظام في العمل الذي يستريح مزاولوه من أعباء التكاليف الثقال : تكاليف المال

مجلة المعلم الجديد هي السجل الصادق لآثار العقول العراقية في مختلف الشؤون ، وقد عجب الشاعر علي محمود طه صاحب « الجندول » من أن ينال من رعاية تلك المجلة مكاناً لم يظفر بمثله بين مجلات وادي النيل ، فكان ذلك شاهداً على أن مجلة المعلم الجديد تتسامى إلى الرعاية الأدبية لجميع آثار العقول في سائر الأقطار العربية

ما شاء الله كان ، فما نظرت في محصول مجلة المعلم الجديد إلا أيقنت بأن زملائي في بغداد قد وصلوا إلى أشياء ، ولكن كيف وصلوا وهم بأعمالهم التعليمية مشاغيل !

السر كل السر في أن مجلة « المعلم الجديد » لا يُنشر فيها حرف بالمجان ، فهي تتخير من محصول العقول ما تشاء ، ومن أخصب تخيُّر — كما كان يعبّر الأسلاف — وكيف تضيع مجلة تنفق عليها الدولة بسخاء ؟ !

لو أردنا اختبار المواهب العراقية في الصحافة والتأليف ، لدعونا مجلة « المعلم الجديد » إلى التحرر من « كرم » وزارة المعارف هناك ، ولكننا نطلب المستحيل ، فالشرق هو الشرق ، ولا يدوم عمل في هذا الشرق إلا بسناد متين من أسندة الحكومات ! وآه ثم آه من بلاء الاتكال على الحكومات في جميع الشؤون !

ثم أما بعد ، فهذا مقال تحررت فيه من مراعاة الظروف والملابسات في مصر والعراق ، فهل جنيت على نفسي بالهجوم على الصحافة هنا وهناك ؟

أنا الغريق ، فما خوفي من البلل — كما يقول المتنبي — أنا الرجل الذي عانى مكاره الاغتراب في كل أرض ، فكانت غربته في القاهرة أقسى وأعنف من غربته في باريس وبغداد !

وهل كانت الصراحة من أظهر صفاتي ؟ وكيف وقد قضيت العمر في جمع المال لأشترى مثقالاً من الرياء ، وسأموت قبل أن أجمع الثمن الغالي لذلك المثقال ! !

إليك ، يا فاطر الأرض والسموات ، أوجه الرجاء ، فما تقدمت ولا تأخرت إلا بحكمة عالية من كرمك البالغ وحصنك الحصين

زكي مبارك

على هامش الأبحاث النفسية والفلسفية

الدين والفلسفة

للدكتور محمد البهى

هل للفلسفة قيمة العلم واعتبار اليقين فى بحث الله وبحث ما وراء الطبيعة كقيمتها واعتبارها فى بحث العقل الإنسانى وفى بحث القيم الأخلاقية ؟ . هل للدين اعتبار فحسب فيما يحكيه عن الله وعن عالم ما وراء الطبيعة أم يتجاوز اعتباره فى نظر العلم إلى دائرة الإنسان ؟

أطال فيلسوف المذهب المثالى الألمانى « كانت » فى الإجابة عن هذين السؤالين ، ولم يرتض مكس شلر Max Scheler من الفلاسفة المصريين ما ذهب إليه فيلسوف كونس برج Könsberg بشأن الدين

هل الدين يعادى العلم أم يؤاخيه ؟ وهل فى طبيعة الدين ما يساعد أو يمنع الاستمرار فى البحث والاسترسال فى التفكير الحر ؟ ...

تناول كثير من الكتاب علاقة الدين بالفلسفة على هذا النحو ، وهى علاقة الدين بالعلم فى نظرهم . ولم تخل الإجابة من تحيز لطرف منهما ، أو من سوء تحديد لميدان كل منهما ، أو عن سوء فهم لطبيعة الدين أو لحرية الفكر والبحث العلمى

***

لا عن هذا ولا عن ذاك أريد الآن الكلام . بل أريد فحسب أن أضع أمام القارىء مادة للاجابة عن سؤال يتصل بعلاقة الدين بالفلسفة كذلك على نحو آخر وهو : هل من مصلحة الدين أن يُجذَب نحو الفلسفة ؟ وهل من مصلحته أن يفلسف بأن تشرح حقائقه بآراء الفلاسفة ؟

فى العصر الحاضر يميل بعض العلماء إلى شرح القرآن بما عرف — وتستجد معرفته — لعلماء الطبيعة والكيمياء ، وعلماء الهندسة الميكانيكية والكهربائية ، وعلماء المعادن والأحياء ؛ وبالجملة يميل إلى شرحه فى ضوء العلم والفلسفة . ويذهب إلى أبعد من هذا فى وضع منطق دينى لمعرفة الصحيح والفاسد من الدين ؛ وقوام هذا المنطق الدينى الأقوال التى تذكر فى استحضار الأرواح ، وما يدور حول التنويم المغناطيسى ، ونظرية الأثير ، و « التجارب الحسية » على إثبات الروح

وقديماً مال فلاسفة المسلمين وبعض علماء الكلام إلى شرح العقيدة الإسلامية فى الله وفى صفاته ، وفى صدور العالم عن الله ونشأته عنه ، وفى ملائكته ورسله ، وفى الجنة والنار ، وفى الإنسان: فى روحه ونفسه ، وفى صلة جسمه بروحه ، وفى مستقرها ومستودعها ، بما نقل عن فلاسفة الإغريق خاصاً بالمبدأ الأول للكون وبنشأة الكون عنه ، وخاصاً بالأفلاك وبالنفس الكلية التى هى نفس العالم وبفيضها على النفوس الجزئية ، كما مال فريق آخر من هؤلاء القدماء إلى شرح الآيات الكونية بما عرف لبطليموس وأقليدس من فلاسفة اليونان الطبيعيين والرياضيين

وكما ادعى فلاسفة المسلمين الأولون ممن فَلسفوا العقيدة أن تفلسف العقيدة وشرح حقائقها بالآراء الفلسفية وسيلة من وسائل تقويتها وعنوان على تطابقها مع الفلسفة اليونانية ، وفى ذلك إبراز لكمال العقيدة ، لأن الحكمة اليونانية — هكذا ظن أو اعتقد هؤلاء الفلاسفة من المسلمين — تمثل أعلى درجة من المعرفة وأرفع مرتبة من الفضائل . يدعى كذلك بعض العلماء المعاصرين المفلسفين للعقيدة أن تفلسف الدين إبراز له فى ثوب ملائم للعصر وموافق لأهم مظاهره — وهو مظهر العلم — وبذا يقرب من نفوس الخاصة المثقفة من المسلمين ، ويقرب كذلك من أفهام بعض العلماء الغربيين الذين أساءوا إليه عن « جهل بحقيقته » ، وفى الوقت نفسه يبرهن على « صلاحيته لكل جيل وزمان » .

والإنسان الحديث ربما يُسرُّ لهذا اللون من الشرح ، بل ربما يتحيز له ويدعو إليه لما فيه من جدة لم تؤلف ، ولأنه يدل على أن « الكتاب لا يفرط فى شىء » ، كما هلل إنسان القرون الوسطى قبله ، وبالأخص إنسان القرن الثالث والرابع الهجرى ، لخلط الدين بالفلسفة الإغريقية ، وذهب فى هذا الخلط إلى حد بعيد

ولكن وراء سرور الفرد ووراء انفعاله وإكباره لهذا العمل

حقيقة لا تتغير بمظاهر انفعاله وإكباره ، وهى : أمثل ذلك الصنيع يلائم طبيعة الدين ويلائم غايته ؟ ولا شك أن يسر الدين وكونه قريباً من أفهام أكبر عدد ممكن من الجماعة البشرية من أهم خصائص طبيعته . ولا شك أن اقتناع الكثرة به واجتماعها حوله غير متفرقة ولا متحزّبة لتأويل معين لحقيقة من حقائقه غاية رئيسية له .

فإذا كان تفلسف الدين إذاً يساعد على نمو طبيعة الدين ويساعد على تحقيق غايته ، كان من مصلحة الدين جَذْبه نحو الفلسفة ، وكان من مصلحة شرح عقيدته بآراء الفلاسفة

***

دخلت الفلسفة الإغريقية بشرح رجال مدرسة الإسكندرية منذ عصر المأمون فى ثقافة المسلمين ، وأحدثت على إثر دخولها تحولاً فى نشاط المسلمين الدينى والعقلى أساسه الميل إلى الفلسفة فى إنتاجهم فى هاتين الناحيتين . وكانت العقيدة الإسلامية أشد تأثراً بالفلسفة فى نطاق الإنتاج الدينى ؛ إذ من أهم ما تناولته الفلسفة بالبحث المبدأ الأول للكون، وصفات هذا المبدأ، ونشأة العالم المشاهد عنه ، والإنسان ومستقبله وغايته الأخيرة التى يرى فيها سعادته . ووضعت أمام العقل الإسلامى المشتغل بالعقيدة الإسلامية نظرية الواجب والممكن ، ونظرية وساطة العقل الفعال بين الله والعالم ، ونظرية الصورة والهيولى، ونظرية العقول المجردة، ونظرية فيض النفس الكلية على النفوس الجزئية ...

ولم يشأ العقل الإسلامى أن يعالج هذه النظريات فى عزلة عن الدين، ولا أن ينقدها — إذا نقدها — من غير رعاية للدين بل حاول جهد طاقته ، وبالأخص بدء اشتغاله بها ، أن يشرح بعض حقائق العقيدة بما ورد فى الفلسفة من آراء لأنه جعل شعاره : « إذا انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال[1] » . إذ أنه يقول : « وهل الحكمة إلا مولدة الديانة ؟ وهل الديانة إلا متممة للحكمة ؟ وهل الفلسفة إلا صورة النفس ؟ وهل الديانة إلا سيرة النفس[2] ؟ » . وإذ أنه يقول : « لا خلاف بين أحد من العلماء بالفلسفة ولا بين أحد من العلماء بالشريعة بأن غرض الشريعة هو غرض الفلسفة على الحقيقة[3] »

وقد كان للعلماء المسلمين بعض العذر فى تحديد الصلة بين الدين والفلسفة الإغريقية بعد ترجمتها على هذا النحو لأن الفلسفة الإغريقية نقلت إليهم فى ثوب دينى صوفى فى كثير من نقطها ، نتيجة عمل رجال الإسكندرية ، ولأن منطق أرسطو الذى ترجم أولاً ، فى عهد المنصور ، أحدث فى نفوس المسلمين شبه يقين برجاحة العلم اليونانى وعصمة الحكمة اليونانية »

وتبعاً لذلك الشعار وهذا التحديد فى الصلة بين الدين والفلسفة من العقل الإسلامى ، أصبحنا نرى علماء العقيدة يستدلون على مغايرة الله للعالم بنظرية الواجب والممكن التى أسسها أرسطو على نظامه الفلسفى فى الصورة المحضة والمادة المحضة ، والتى استتبعت مما استتبعت من صفات، وحدة الوجود الواجب بمعنى عدم تعدد ذاته وعدم تركب ذاته الواحدة من أجزاء . وقد بنى فريق من المسلمين على مبالغته فى إثبات الوحدة نفى صفات البارى ، كلها أو الكثير منها ، لأن إثباتها — فى نظره — يقتضى التعدد . وسلك فريق آخر من الراغبين فى إثبات الصفات ، تمشياً مع ظاهر القرآن ، وفى الوقت نفسه من الحريصين على نفى ما يوهم عدم الوحدة طريقاً هو أقرب إلى التلاعب بالألفاظ منه إلى الإتيان بنصيب إيجابى جوهرى فى حل هذا الإشكال . فقال : « الله له صفة كذا ... وهى عين ذاته »

كل هذا بعد أن كان المسلم ، وبعد أن كان فى استطاعة كل مسلم كذلك أن يفهم ، أن المعبود غير متعدد لا شريك له ، وأنه غير ما فى الكون من مخلوقات إذا تليت عليه آيات ربه الداعية إلى التوحيد وعبادة الخالق مثل قوله تعالى : « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » . وبعد أن كان يكفيه فى إثبات هذه الدعوى مثل قوله تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون »

تبعاً لذلك الشعار أصبحنا نسمع لأبى الهذيل العلاف من شيوخ المعتزلة رأياً فى أن كلمة التكوين (قول الله للشىء : كن) التى تعبر عن الإرادة الإلهية حادثة لا فى محل ، وأن الإرادة تغاير المريد والمراد . وعلى هذا فكلمة التكوين فى المكان الوسط بين الخالق الأزلى وبين العالم المخلوق الحادث . وهذه الكلمات

---

(١) مقابسات أبى حيان التوحيدى ص ٤٥ ، المطبعة الرحمانية سنة ١٩٢٩ (٢) المصدر نفسه ص ٢٠٠
(٣) الفصل فى الملل والنحل ص ٧٩

المعبرة عن الإرادة الإلهية هى بمثابة جواهر بسيطة تشبه المثل وعقول الأفلاك

يقرأ الكثير من المسلمين لأبى الهذيل العلاف هذا الرأى ولكن الذى يفهم المراد منه قليل ، وهو الذى يعرف المثل ، ويعرف لأى غرض وضع أفلاطون نظرية المثل ، ولماذا كان القول بالوساطة بين المبدأ الأول (الله) والعالم ؟ بينما المسلم إلى عهد الترجمة كانت نفسه مطمئنة إلى الإيمان بخلق الله للعالم على أية كيفية ، وكانت حرارة هذا الإيمان تعمر قلبه فأنتج وساد ، وبينما كان لا ميزة لأحد على غيره فى تصور تأثير الله فى العالم ، ولا مختصاً بسر من أسرار هذا التصور .

تبعاً لذلك الشمار أصبحنا نرى الملائكة تحدد بأنها (جواهر بسيطة ، عقلية ، علاّمة ، فعالة ، وبأنها صور مجردة عن الهيولى مستعملة للأجسام ، مدبرة لها ، ومنها أفعالها [٤] . كما وجدنا هذا التحديد يتخذ أساساً من أسس الإيمان (والثانى من الأمور التى يضعها واضع الشريعة — فى نظر إخوان الصفا — ثم يبنى عليها سائر ما يعمل أن يرى ويتصور موجودات عقلية ، مجردة من الهيولى ، كل واحد منها قائم بنفسه ، متوجه نحو ما نصب له من أمره وهم ملائكة الله تعالى وخالص عباده [٥] .)

فما معنى الجوهر ؟ وما معنى بساطته ؟ وما معنى كونه علاّمة ؟ وما معنى كونه فعالاً ؟ وما معنى الصورة ؟ وما معنى تجريدها عن الهيولى ؟ وعلى أى كيفية يكون تدبيرها الأشياء ؟

لا شك أنها معانٍ لا تفهمها إلا قلة من الخواص فضلاً عن أن تفهمها عامة المسلمين . ومع هذا طولبوا بالإيمان بها فى نظر فريق من علماء المسلمين فى نظر إخوان الصفاء

تبعاً لذلك الشمار رأينا الشريعة الإلهية تحدد « بأنها جبلة روحانية ، تبدو من نفس جزئية فى جسد بشرى ، بقوة عقلية ، تفيض عليها من النفس الكلية ، بإذن الله تعالى ، فى دور من الأدوار لتجذب النفوس الجزئية ، وتخلصها من أجساد بشرية متفرقة ليفصل بينها يوم القيامة [٦] »

لماذا وجدت النفس الكلية ؟ ولماذا كانت المصدر المباشر للفيض ، أو كانت القوة التى تتولى نقل الأثر — وهو الإيجاد — من الله إلى هذا العالم ؟ وما معنى جذب النفوس الجزئية إليها ؟ لا شك أنه لا سبيل إلى فهم ذلك إلا لمن اطلع على فكرة النفس الكلية فى الأفلاطونية وفى الرواقية وفى الأفلاطونية الحديثة ؛ وعلى فكرة جذب « الصورة المحضة — للهيولى » فى رأى أرسطو

تبعاً لذلك الشمار ، رأينا الجنة تفسر بأنها عالم الأفلاك والعقول المجردة ، والنار تفسر بأنها عالم ما تحت فلك القمر ، وهو العالم الأرضى عالم الكون والفساد . ورأينا الشهداء الذين ذكرهم الله فى قوله تعالى : « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » تعلل تسميتهم بالشهداء لمشاهدتهم تلك الأمور الروحانية المفارقة للهيولى .

***

هذا مثال من صنيع العلماء المسلمين بالعقيدة الإسلامية بعد دخول الفلسفة الإغريقية ، وبعد رغبتهم فى شرحها بالفلسفة ، وفى تفلسفها

والعلماء الحديثون المتفلسفون ينهجون نهجهم فى تفلسف العقيدة ، ولكن فقط يستمدون شرحهم الفلسفى من نظريات العلم التجريبى التى تطبع العصر الحاضر بطابعها الخاص ! وقد يستمدونها أيضاً مما بقى لدى أصحاب العلم والحضارة اليوم ، وهم الأوربيون ، من الآراء الميتافيزيكية والأقوال الروحية . وأثر صنيعهم فى العقيدة لا يقل عن أثر ذلكم من قبل

فنرى بعضهم يحاول تحديد الروح ، وهى التى اختص بها علم الله « ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » بما يسميه أدلة حسية (تجريبية طبقاً لطابع العصر العلمى) فيقول : « إن الروح وإن كانت أمراً إلهياً لا يدرك لها كنه ، إلا أن لها جسداً أثيرياً على صورة صاحبها ، غاية فى اللطافة ، لا يعتريه البلى ولا التحلل ، فى قدرتها أن تستبدل مادة من الخارج وأن تظهر بصورة صاحبها فى أحوال خاصة ، ويكون صاحبها إذ ذاك واقعاً فى غيبوبة [٧] »

ونرى تعليقاً من أحد هؤلاء المعاصرين على رأى « لأحد أقطاب الفلاسفة المصريين » يذكره على هذا النحو : « هذه محاولة فلسفية تعتبر أبدع ما أنتجته الفلسفة العالية إلى تأييد الكتاب المجيد . أليس كل ما فى هذا البحث الجليل — وهو

(٤) إخوان الصفاء ﺤ ١ ص ١٨٠
(٥) المصدر السابق ﺤ ٤ ص ١٨٣
(٦) المصدر السابق ﺤ ٤ ص ١٨٢

(٧) مجلة الأزهر ص ٦٢٥ ﺤ ١٠ من المجلد الحادى عشر

رأى أحد هؤلاء الأقطاب — محصوراً فى قوله تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون)[8] »

وصنيع كل من السابقين والحديثين هذا ، وهو جذب الدين نحو الأفكار الفلسفية وشرح العقيدة وحقائقها بآراء الفلاسفة ، شىء آخر يختلف اختلافاً جوهرياً عن محاولة تعليل مبادئ دين من الأديان مما يسمى « حكمة التشريع » ، ويختلف كذلك عن تعليل العاطفة الدينية فى الإنسان وضرورة وجود الدين فى الجماعة البشرية تبعاً لذلك مما يسمى « سيكولوجية الدين »

فتعليل مبدأ الزكاة فى الإسلام مثلاً ، وجعل حظ الذكر فى الميراث مثل حظ الأنثيين ، ومبدأ صلاة الجماعة والحج . . . وتعليل : لماذا كانت طبيعة الدين تحتم وجود أمور تعبدية فى العقيدة ؟ أو لماذا كان الدين ضرورة اجتماعية وعنصراً أساسياً فى التنشئة والتهذيب ؟ أو لماذا كان القانون المستمد من الدين أشد أثراً على النفوس من القانون الوضعى به ؟ تعليل مثل هذه الأشياء غير شرح الحقائق الدينية التى ترد فى أصل العقيدة وفى كتاب العقيدة غير محددة وغير معرفة تعريفاً منطقياً – ويجب أن تبقى غير معرَّفة ، لأن فى عدم تعريفها أساس أبديتها وأساس عمومها – بشروح مستمدة من محيط الفلسفة كما تقدم

وما عنيته للآن بالكلام تحت عنوان « الدين والفلسفة » هو جذب الدين نحو الفلسفة، ومحاولة شرح حقائق العقيدة بالآراء الفلسفية

(٨) المصدر السابق حـ ٤ من المجلد الحادى عشر ص ٢٢٨

والآن نلقى السؤال مرة أخرى : هل مثل هذا الصنيع يساعد على نمو طبيعة الدين ، ومن خصائصها أن يكون وأن يبقى ميسَّراً سهلاً ؟ وهل مثل هذا الصنيع يساعد على تحقيق غاية الدين وهى تتجلى فى التفاف الجماعة حوله من غير تحزب ولا تعصب لتأويل معين فى حقيقة وردت مجملة من حقائقه ؟ أم أن مثل هذا الصنيع سبب من أسباب تعقيد العقيدة وإبهامها على كثير من الناس ؟

وأعتقد أن فى المحاضرة التى أذاعها الأستاذ الكبير الشيخ شلتوت وكيل كلية الشريعة منذ أسبوعين من محطة الإذاعة للحكومة المصرية عن « موقف المسلمين من القرآن وموقف القرآن من المسلمين » ما يلقى كثيراً من الضوء على فهم طبيعة الدين وفهم غاية الدين . ولو تفضل بنشرها على صفحات « الرسالة »[1] لاتضح – أكثر من الآن – قيمة تفلسف العقيدة ، وتحدد – بشىء أكثر من الدقة – أثره فى تفلسف العقيدة نفسها ، إيجاباً أو سلباً

وهو لما له من شخصية علمية دينية ناضجة ، إن فعل لا شك أنه يؤدى خدمة جليلة للبحث العلمى فى تراثنا الإسلامى ، والبحث العلمى فى هذا التراث غايتنا وغايته وغاية شباب الأزهر الحديث

محمد البهى
مدرس علم النفس والفلسفة بكلية أصول الدين

(١) تعتقد الرسالة أن الأستاذ شلتوت لسان صادق من ألسنة الاصلاح الدينى فى هذا العصر ، فاذا أيد الرسالة فى دعوتها الاصلاحية بقلمه ولسانه كسبت منه ما كسبته الدعوى الكبرى من عمر (المحرر)

محمد عبده
ومحاولته إصلاح الأزهر
للأستاذ عثمان أمين
المدرس بكلية الآداب

للأزهر منذ إنشائه قصة طويلة، وله مهمة معلومة نيط به أداؤها. فلم يكن المقصود منه أن يكون مسجداً للعبادة، ولا أن يكون مدرسة للتعليم فحسب، وإنما أثر الأزهر في العالم الإسلامي وفي تكوين العقلية الإسلامية أثراً عميقاً يفوق أثر المساجد والمدارس والجامعات. من أجل ذلك كان إصلاح ذلك المعهد في نظر الشيخ محمد عبده من الأهمية بمكان عظيم، لأنه بمثابة إصلاح للأمة الإسلامية كلها

توجه الشيخ محمد عبده إلى إصلاح الأزهر منذ كان مجاوراً فيه يتلقى على أستاذه السيد جمال الدين الأفغاني. وشرع في العمل لذلك أيام الخديو توفيق. ولكنه لم يستطع في ذلك الحين أن يُدخل إلا بعض الإصلاحات الثانوية. ووجد محمد عبده، منذ البداية، في أكثر شيوخ الأزهر خصوماً ناصبوه العداء. وأدرك حينئذ أنه لن يستطيع السير في حركة الإصلاح دون أن يظفر بتأييد الخديو والحكومة. ولكن الخديو توفيق لم يكن لديه استعداد لفهم التجديد المنشود، فلم ينظر إلى جهود الشيخ محمد عبده بعين العطف والرعاية. ولما جاء الخديو عباس الثاني — وكان قد تربى في أوربا — استبشر الناس بولايته ورأوا فيها فاتحة عهد جديد. وتقدم الشيخ محمد عبده إلى الخديو عباس وكاشفه بجملة رأيه في الأزهر، ورغبه في إصلاحه وتحويله من الحال التي كان عليها، وكان في ذلك الحين أشبه بتكية من التكايا أو ملجأ من الملاجئ، يأوي إليه العجزة والفقراء وأهل الكسل والبطالة

ويمكن أن نلخص رسالة الأزهر كما تراءت حينئذ للشيخ محمد عبده في الأمور الآتية: أن يكون مدرسة جامعة بالمعنى الصحيح يتلقى فيها الطلاب العلم الصحيح الذي يعدهم لأن يكونوا رجالاً عاملين، فيكون منهم لمصر وللاسلام قضاة ذوو نزاهة، وأساتذة باحثون، وعلماء متخصصون، ومرشدون مخلصون يعملون على بث الآراء الدينية الصحيحة، والمعاني الأخلاقية السليمة، ومكافحة الخرافات، والقضاء على البدع والأباطيل

وكلف الخديو الشيخ محمد عبده أن يضع مشروعاً للاصلاح فشكل الشيخ لذلك «مجلس إدارة» من أكابر علماء المذاهب في الأزهر، وجعل هو وصديقه الشيخ عبد الكريم سلمان من أعضائه. وكانت مهمة ذلك المجلس الإشراف على التعليم والتربية في الجامعة الأزهرية

وسار الشيخ في إصلاحاته أول الأمر بسرعة اغتناماً للفرصة، ولم يلق معارضة من أحد مباشرة، وإن كان قد أشير عليه من وقت إلى آخر بتأجيل بعض المشروعات بحجة التدريج والسير بهوادة!

وكان أول أبواب الإصلاح التي وجه الشيخ عنايته إليها هو تحديد مدة الدراسة بالأزهر: فقد جرى العرف منذ زمان طويل أن ينفق المجاورون من أعمارهم الأعوام الطوال في الأزهر، دون أن يجدوا من أولي الأمر أية رقابة على أعمالهم. وحدد القانون بدء السنة الدراسية ونهايتها، كما حددت أيام العطلة والمسامحات. وقد كانت الحال قبل ذلك بلا ضابط: فكان المشايخ والطلاب يمكنهم التغيب متى شاءوا فضلاً عن تغيبهم أيام المسامحات الرسمية

ووجه الشيخ بعد ذلك عنايته إلى نظام التدريس والامتحان: فاقترح أن تعقد للطلبة امتحانات سنوية. ولم يكن ذلك النظام معروفاً قبل ذلك في الأزهر، بل لم يكن عدد من يمتحنون كل عام يزيد على ستة، وهؤلاء كانوا يتقدمون إلى الامتحان لا بحسب دورهم أو ذكائهم أو علمهم، بل بشفاعة الشفعاء وإلحاح الملحين. واقترح الشروع كذلك مكافأة الطلبة المتفوقين من بين الممتحنين، والغرض من ذلك طبعاً هو بث روح التسابق فيهم وترغيبهم في التحصيل

وثالث الإصلاحات التي اقترحها الشيخ محمد عبده: إصلاح لا يقل عن سابقيه أهمية وأثراً، وهو يقضي بإلغاء دراسة بعض الكتب العقيمة — كالشروح والحواشي والتقارير — التي اعتاد المشايخ تلقينها الطلبة من غير فهم، وكان من شأنها أن تشوش عليهم موضوعات العلوم التي يدرسونها؛ واستعيض عن ذلك كله بكتب أنفع وأقرب إلى مدارك الطلاب

ورابع الإصلاحات يرمى إلى تقسيم العلوم التى تدرس بالأزهر إلى مقاصد ووسائل ؛ فأطيلت مدة الدراسة فى « علوم المقاصد » : كالتوحيد والتفسير والحديث والفقه وأصول الفقه والأخلاق . أما « علوم الوسائل » : كالمنطق والنحو والبلاغة ومصطلح الحديث والحساب والجبر ، فهى التى يلزم طلاب شهادة العالمية بأداء امتحان فيها

والإصلاح الخامس يقرر إدخال دروس ومحاضرات جديدة فى علوم : التاريخ والتاريخ الطبيعى والرياضيات والجغرافيا والفلسفة والاجتماع وما إلى ذلك من العلوم التى كان قد أهمل تدريسها بالأزهر إلى ذلك الحين

ويلاحظ أن تلك الإصلاحات المتواضعة لم يستطع الشيخ محمد عبده أن ينفذها جميعها لمقاومة الشيوخ إياها ، إما عن سوء قصد أو سوء فهم ، فضلاً عن وقوف الخديو نفسه حجر عثرة فى وجه المشروع انتقاماً من الشيخ محمد عبده — كما سنرى — ولكن ما نفذ من الإصلاحات المقترحة لم يخل من أن يحمل ثمراً طيباً : فقد شوهدت فى طلبة الأزهر إذ ذاك حماسة جديدة ، ودبت فيهم روح فتية ، وشاعت عندهم رغبة فى التوسع فى التحصيل واستيعاب البرنامج التعليمى . وربما كان من الميسور اطراد ذلك التقدم لولا قيام مصاعب جديدة لم تكن فى الحسبان

والواقع أن الشيخ محمد عبده إذا كان قد استطاع أن يضع مشروعاً كاملاً للاصلاح ، فذلك لأنه كان يحس بأن من ورائه سلطة الخديو تؤيده . هذا إلى أن شيخ الأزهر الشيخ حسونة النواوى كان يشاطر الشيخ محمد عبده كثيراً من آرائه . ولكن سرعان ما تبدل موقف الشيخ حسونة عندما ظهر له أن الشيخ محمد عبده لم يكن من أهل الحظوة لدى الخديو عباس [1] . ولما عزل الشيخ النواوى ، حل محله الشيخ سليم البشرى ، وكان رجلاً محافظاً مناوئاً لكل فكرة عن التجديد . ومع ذلك ، فقد حظى هذا الرجل برعاية الخديو ، وصدر قرار بإلغاء الإعانات التى كانت تعطى للطلبة المتفوقين . وكان معنى هذا العدولَ عن عقد الامتحانات السنوية . ولكن الشيخ سليم البشرى أخذ يعود شيئاً فشيئاً إلى آراء الشيخ محمد عبده . وفترت علاقات البشرى بالخديو فعزله دون أن تذكر أسباب العزل فى المرسوم الصادر بذلك

ومنذ ذلك الحين أصبح منصب شيخ الأزهر شاغراً . وكان لا بد من اتفاق الحكومة المصرية مع ممثل الاحتلال الإنجليزى على تعيين من يشغل ذلك المنصب ؛ فعرضت المعية السنية على الحكومة — بواسطة اللورد كرومر — أسماء طائفة من مرشحيها ومن بينهم الشيخ حسونة النواوى — وكان قد عاد إلى الحظوة لدى الخديو — والشيخ محمد بخيت الذى كان معروفاً بعداوته للشيخ محمد عبده ، والشيخ محمد راشد الإمام الخاص للخديو ، والشيخ أحمد الرفاعى الذى كان معروفاً بصلته بالبلاط الخديوى . ولم تقبل الحكومة أحداً ممن رشحتهم المعية السنية ، ورشحت المعية أخيراً الشيخ على الببلاوى ، فوافقت الحكومة عليه ، وصدر قرار بتعيينه شيخاً للأزهر

وكان الوفاق تاماً بين الشيخ محمد عبده والشيخ الببلاوى ، فعاد الهدوء إلى الأزهر، وأقبل الطلاب على دروسهم وامتحاناتهم، وانصرف مجلس الإدارة إلى الاشتغال بإنجاز الأعمال العديدة التى كانت أهملت فى عهد الشيخ سليم البشرى : فقرر المجلس عقد امتحان لشهادة العالمية التى تمنح الحاصلين عليها حق التدريس فى الأزهر أو القضاء أو الإفتاء ...

وراجت فى تلك الفترة إشاعة مؤداها أن حديثاً دار بين الخديو عباس وبين « الشيخ الببلاوى » على موضوع الإصلاحات الأزهرية التى أنجزها « الشيخ محمد عبده » . وذكروا أن الخديو قال ضمن حديثه للشيخ الببلاوى : « سمعتُ أنك تعمل فى الأزهر كل ما يريده المفتى (الشيخ محمد عبده) ، مع أنك حر فى أن تعمل برأيك ... » . وذكروا أيضاً أن الشيخ الببلاوى أجاب الخديو : « إنى أوافق المفتى كلما رأيت أن الحق معه ، ولو أخطأ لقلت له ، ولكن لم تعرض بعدُ فرصة لذلك ، فالحمد لله على تلك الحال »

وتألف فى الأزهر خلال تلك الفترة حزب لمعارضة الإصلاح ؛ وكان على رأس ذلك الحزب « الشيخ محمد الرفاعى » الذى ذكر اسمه بين مرشحى « المعية السنية » لمنصب مشيخة الأزهر [1] . وكان من أعضاء الحزب « الشيخ المنصورى »

---

(١) اشتهر أمر النفور بين الخديو والشيخ محمد عبده وسببه صدور قرار من مجلس الأوقاف الأعلى — وكان الشيخ محمد عبده عضواً فيه — فى مسألة استبدال أرض للأوقاف فى الجيزة . ولم يكن القرار فى مصلحة الخديو الذى كان شديد الرغبة فى الاستكثار من المال ، كما هو مشهور الخ . . .

(١) ثبت قطعاً أن الحركة التى ترمى إلى مناهضة الشيخ محمد عبده وعرقلة مساعيه الاصلاحية كانت مؤيدة من الخديو عباس

الذى كان قد عينه « الشيخ البشرى » شيخاً لرواق الصمايدة . وشرع الحزب يقدم عرائض ينتقد فيها أعمال مجلس إدارة الأزهر . وفى ذلك الحين كان بعض المسلمين قد طلبوا إلى الشيخ محمد عبده – وكان مفتياً للديار المصرية – أن يدلى بفتوى فى جواز أكل المسلم من ذبائح أهل الكتاب ، وفى جواز لبس (البرنيطة) والتزيى بزى الأوربيين . وأفتى الشيخ محمد عبده مصرحاً بأن القرآن لم يحرم طعام غير المسلمين ولا لباسهم ، لا سيما إذا كان المسلم مضطراً إلى أن يعيش مع الأوربيين . فضج حزب المعارضة وأرجف فى تلك الفتوى ، وأخذ يطعن عليها وعلى شخص المفتى . وكان له مأجورون أخذوا يذيعون أن المفتى إنما يعمل على التقريب بين المسلمين وغير المسلمين . وأسس حزب المعارضة جريدةً يومية اسمها « الظاهر » ، كان غرضها محاربة الفتوى . وقيل حينئذ إن مدير تلك الجريدة كان مؤيداً من الخديو . . . وراجت الأكاذيب والإشاعات ، وتفاقم الأمر حتى أخذ الناس يهمسون باحتمال عزل المفتى . وقالت جريدة « المقطم » حينئذ إن اللورد « كرومر » هو الذى حال دون ذلك العزل ، إذ تدخل فى الأمر وصرح بأن الشيخ محمد عبده أصلح من فى مصر للافتاء ، وأنه لذلك ينبغى أن يبقى فى منصبه

ولاحظ « الشيخ البيلاوى » أن حزب المعارضة أخذ يشتد ويعظم نفوذه بتأييد الخديو إياه ، حتى أصبح وكأنه الحزب الرسمى ، ووجد هو نفسه معطلاً عن العمل . ثم حدثت حادثة « رواق المغاربة » الذين احتموا بالقنصلية الفرنسية ، واحتلوا بعض غرف خالية فى الرواق العباسى ، وانتهى الأمر بإخراجهم منها ؛ ولكن شيخهم كان أكثر الوقت يتردد على « سراى القبة » . وكبرت هذه الأمور على « الشيخ البيلاوى » ويئس من صلاح الحال فاستقال .

ولما وجد الشيخ محمد عبده نفسه وحيداً محروماً من معاونة شيخ مجرب كالبيلاوى ، آثر أن يستقيل من مجلس إدارة الأزهر . وتبعه فى تلك الاستقالة عضوان آخران من أعضاء المجلس هما الشيخ عبد الكريم سليمان والشيخ أحمد الحنبلى

تلك خلاصة لما حدث بالأزهر فى السنوات الأولى لهذا القرن ، ومنها يتبين مقدار ما لقى الشيخ محمد عبده من الأذى فى سبيل إصلاح مناهج التعليم والتربية فى الأزهر ، ومبلغ ما بذل من جهود لتقويم ما فسد من نظم الإدارة فيه

ولكن رغم ما عاناه المصلح من عنت الشيوخ الجامدين ، وما حيك حول مساعيه من دسائس الخديو وحزبه ، فإن شيئاً لا بد أن يبقى ولا تستطيع قوة أن تقضى عليه : ذلك البذر الصالح الذى ألقاه الأستاذ الإمام فى ذلك المعهد يوم ألقى فيه دروسه فبث فيها من حر الآراء وسامى الأفكار ما نرجو أن يحسن الخلف القيام عليه

عثمان أمين

في جنة الدنيا دمشق

غمـــــاغم الربيـع

للأستاذ صلاح الدين المنجد

— ١ —

تعالى يا عروسي الحلوب

تعالى ... يا سيدة بردى المعطر وابنة قاسيون الجميل ...

إسمعي أيتها الغوطة الفنان ...

لقد جئتك مسرعاً ولهان ، وباسماً فرحان ...

خرجت من الغيوم البيض كالعذارى ، نخفقتُ في الفضاء ، ورتمت في الهواء ، وطوفت في الأرض ، ثم أويت إلى أحضانك الريا ... يا غوطة الشآم ... !

لقد حملتُ إليك كل ما تشتهين ...

لك الزهر ... لتحليك بسماته

ولك النحل ... لتطربك همساته

ولك العطر ... لتسكرك نفحاته

فتعالى ... جملت لك الخلود ، وحملت إليك الجمال ، وأويت إلى أحضانك من بين الغيوم ... !

— ٢ —

إسمعي ... إسمعي ...

سأجعلك فتنة النظر ...

سأحييك بالنور والجمال ، وأجعلك مغنى الحب ومرتع الخيال ، وأوشي جنباتك الزهر بالأفياء والظلال ، وأحلي أعطافك الخضر بلآلئ الغمام ... الغمام الذي أذبته لك لؤلؤاً يبسم ويرف ... !

فانظري إلى ...

أنا الربيع الجميل ...

إليك أويت يا غوطة الشآم ... !

— ٣ —

ما لربوعك صامتة لا تبين ... ؟

أأحزنها خفوق المجد ، وزوال النعيم ... ؟ أم شجاها تولى الصحب وفقد الحبيب ... ؟

إسمعي همسي ... ولا تحزني ...

لقد شهدت مواكب الملوك العظام ... وفتحت أحضانك للمحبين والهيام ... وسمعت أحاديث المجد يرويها آل غسان ... ثم استقبلت الفاتحين والغزاة ، وبسمت للطارئين والبُداة ... فرتعوا في المغاني ، وهوموا في الرباع ، ثم ... ثم غيبتهم على حفافي نهرك ، وكفنتهم بوردك وزهرك ، بين العشب والنعناع ...

ألا تحسين ... ألا تحسين ...

وتحتك عظام تئن ، وأطلال تنام ! عظام أو الملوك الغطاريف الرافلين بالحرير ، الغارقين في النعيم ، اللاهين في الحنايا والقصور وأين القصور يا غوطة الشآم ؟ أين أغاني الوليد وأهازيجه ... أين سكرات يزيد وصبواته ... أين ترانيم المجد وأغاريده ؟ ... أين ... أين ... ؟

أقدِّر لتلك الدماء التي شربتِها أن تصبح زهرات حمراء ، ولتلك الرفات التي طويتِها أن تنقلب أعاشيب خضراء ؟ ...

فاضحكي يا عروسي ...

لقد مضوا كلهم وبقيت أنت ... وسيمضي غيرهم وتبقين ! اضحكي لعينيَّ الحلوتين ... أنا الربيع ... فلقد حملت إليك النور ... وأتيت من أجلاك من بين الغيوم ... !

— ٤ —

أيامي قصيرة في الأرض يا عروسي ...

عمر كومضة البرق ، وبسمة الأمل ، وقبلة الحبيب الراحل ...

فافتحي لي أحضانك ... وسأنثر قلبي في جنباتك ... وأروِّي من دمي أكنافك ...

يا من في أحضانك نثرت قلوب ... وبين ذراعيك جادت نفوس ، وعلى شفتيك أهرقت دماء ...

وكان للمجد في صدرك تاريخ ، وللنور في فضائك عيد ، وللحب في محانيك تغريد ، وللأغاني في سمائك ترديد ...

فابسمي لعينيَّ الحلوتين ... يا عروس الشآم فلقد ولدتني الغيوم البيض كالعذارى ... لجئت أحمل لك الحياة والنور !

— ٥ —

واسمعوا أيضاً ... اسمعوا ... !

أنتم أيها الفنانون

يا من تعبدون الجمال وتقدسون النور ...

تعالوا إلى غوطة الشآم ...

أنظروا الجمال الفينان ؛ والدلال النشوان، والتبرج والفتون!

واسمعوا غماغم الهوى المعسول ، وتأوهات الزهر المسحور

وتمتعوا بالربيع النديان غافياً على ركبتى العروس ... ينفث الرحيق ، وينشر الأريج ، ويداعبها بالقبل ، ويسكب بين يديها الدموع ... فتنبت عند كل قبلة زهرة ... ويتفجّر عند كل دمعة ينبوع ...

تعالوا ... وانظروا ميلاد الشعر والحب ...

أقبلوا ... وارنوا إلى هداياى ...

زهـــور سمت نجوم السماء

وعطور فاقت أفاويه الهنود ...

ومياه رقيقة كنجوى المحبين

ولـكن ... لا ... ما العطور ، وما الزهور ...

لقد وهبت لها الحياة ، الحياة ، والجمال والنور

— ٦ —

بشراك يا غوطة الشآم ...

إلى أحضانك جئت من الغمام ...

أنا الربيع الجميل

أنا الذى أدغدغ النهود فتثب ، وأشمل الخدود فتلتهب ، وأغرقُ الألحاظ بالسحر والفتون ... وأهزُّ القدودَ بسكر الشبابِ ، وأغمرُ القلوبَ بالحبِ والحنانِ ...

أنا الربيع ...

أنا ضحكات الشفاه ، وخفقان القلوب ، وغمز العيون ...

أنا رنين القبلات ، واختلاج القسمات ، وأحلام العذارى ، وهمس الأحباب ...

أنا ... أنا نصوع الزهر ، وسطوع العطر ...

أنا الحب ، أنا الجمال ...

مررت على الجنان ... واصطفيت أبدع الألوان ، وجئت إلى أحضانك مسرعاً عجلان ...

فابسمى ... واضحكى ...

فلقد ولدتنى الغيوم البيض كالعذارى ،

فجئتك أحمل لك الحياة الحياة ، والنور ... والجمال ... !

(دمشق) صلاح الدين المنجد

رد على رد

وأد البنات عند العرب فى الجاهلية

للدكتور على عبد الواحد وافى

عقب الأستاذ عبد المتعال الصعيدى على مقال لى فى وأد البنات عند العرب فى الجاهلية[1] بكلمة[2] ترجع خلاصتها إلى النقط الآتية :

١ — يسألنى من أين أتيت بالرأى الذى ذكرته فى هذا المقال بصدد عقائد القبائل التى كانت تئد بناتها ، والعوامل التى كانت تحملها على ذلك

٢ — يرى أن العرب فى الجاهلية كانت تعتقد أن الله خالق كل شىء ، بدليل قوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم » . فكيف يصح مع هذا ما ذكرته من أنهم كانوا ينسبون خلق الذكور لآلهتهم وخلق الإناث لله

٣ — يرى أن ليس المراد بالبنات فى الآيات التى استشهدت بها الإناث من بنى الإنسان ، وإنما المراد بهن الملائكة

٤ — يرى أن آية النحل التى ذكرتها : « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون » ، لا تدل على أنهم كانوا ينسبون الذكور لآلهتهم ، وإنما تدل على أنهم كانوا ينسبونهم لأنفسهم

٥ — يرى أن وأد البنات لم يكن للسبب الذى ذكرته ، بل كان بعضه للفقر ، وبعضه لخوف الفقر ، وبعضه لخوف السبي والعار ، وأن لا مانع من أن يكون بعضه تنفيذاً لنذور كانوا ينذرونها . فقد كان الرجل يحلف فى الجاهلية لئن ولد له كذا غلاماً لينحرن أحدهم كما فعل عبد المطلب

وردى على هذه المسائل يتلخص كذلك فى النقط الخمس الآتية :

١ — لم آت بالرأى الذى ذكرته من كتاب ، ولم أنقله عن أحد ، بل هى نظرية لى استنبطتها استنباطاً من آيات الذكر الحكيم ؛ وصرحت فى مقالى أنه لم يسبقنى بها أحد . فلا محل إذن لمطالبتى بالمرجع الذى رجعت إليه بصددها

٢ — لم يكن العرب فى الجاهلية على دين واحد ، بل كانوا فرقاً كثيرة يختلف بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً فى العقائد والعبادات ، فكان منهم من يعبد الله على ملة إبراهيم ، وكان من هؤلاء الرسول عليه الصلاة والسلام قبل بعثته وكثير من السابقين الأولين إلى الإسلام ، وكان منهم اليهود ، وهؤلاء كانوا ينتمون إلى عدة قبائل يسكن معظمها المدينة وضواحيها وشمال الحجاز (بنو قريظة ، بنو النضير ... الخ) وكان منهم المسيحيون ، وهؤلاء كانوا فرقاً كثيرة تنتمى إلى مختلف مذاهب المسيحية المنتشرة فى ذلك العصر ، وكان منهم عبدة الكواكب ، فكنانة كانت تدين للقمر وللدبران ، وبنو لخم وجرهم كانوا يسجدون للمشترى ، وبنو طيء ألهوا سهيلا ، وبنو قيس بن عيلان توجهوا للشعرى اليمانية (وهم الذين قد سفه الله عقائدهم إذ يقول عز وجل : « وأنه هو رب الشعرى ») ... وهلم جراً ، وكان منهم الدهريون الذين لا يؤمنون بإله وينسبون كل شىء للطبيعة : (إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) وكان منهم الوثنيون عباد الأصنام ، وهؤلاء كانوا فرقاً كثيرة تختلف كل فرقة منها عن غيرها اختلافاً كبيراً فى نوع الأوثان ، ونظرتها إليها ، ومبلغ تقديسها لها ، وعقيدتها فى الله تعالى . ففريق من هؤلاء كان يعتقد بوجود الله وينسب إليه الخلق والأمر ، وما كان يعبد الأصنام إلا لتشفع له عند الله وتقربه إليه . وفى هذا الفريق جاءت الآية التى أوردها الأستاذ وآيات أخرى كثيرة (ألا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) ؛ (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ... الخ) . وفريق من الوثنيين كان ينسب الخير لأصنامه والشر لله تعالى . فكان الله فى نظرهم إله الشر أو ما يشبه الشيطان فى نظرنا ، « تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً » . ولذلك كانوا ينسبون إليه ما يكرهون . وفى هؤلاء يقول الله تعالى : « ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى » (النحل ٦٢) . والقبائل التى كانت تئد بناتها كانت من هذا الفريق ، لأن الآية السابقة جاءت فى سياق الحديث عمن كانوا يئدون البنات . وغنى عن البيان أن من ينسب لله ما يكرهه والدنىء من الأشياء لا يمكن أن يكون ممن يعتقدون أنه تعالى خالق كل شىء . فالآية التى أوردها الأستاذ عبد المتعال والآيات الأخرى التى من نوعها تتحدث عن فريق من العرب غير الفريق الذى نحن بصدد الكلام عنه

---

(١) العدد الممتاز من الرسالة (٣ مارس سنه ١٩٤١)

(٢) عدد (٣١ مارس سنة ١٩٤١)

٣ — تفسير البنات بالملائكة لا يستقيم فى معظم الآيات التى أوردتها فى مقالى السابق . فنى قوله تعالى : « أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين » ؛ وقوله : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذن قسمة ضيزى » ؛ وقوله : « فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنين » . فى هذه الآيات وما إليها لا يستقيم فى نظرى تفسير البنات بالملائكة، لأن الملائكة لا تقابل الذكور من بنى آدم . فلا يصح أن يقال فيمن يقتصر على نسبة الملائكة لله معتقداً أنهم إناث : إنه يختص نفسه بالبنين من الآدميين دون بناتهم، كما تصرح هذه الآيات [1] ، وإنما يقال فيه إنه ينسب لنفسه النوعين من الآدميين — أى الذكور والإناث — وينسب لله الملائكة ويجعلهم من نوع الإناث لا غير

على أن كثيراً من الآيات التى ذكرتها فى المقال السابق ، قد جعلت وأدهم للبنات مترتباً على عقيدتهم هذه « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ، وإذا بشر أحدهم بالأنثى الخ » ولا يستقيم هذا إلا إذا كان الغرض من البنات الإناث من بنى آدم لا الملائكة

حقاً إنهم كانوا يعتقدون أن الملائكة إناث وأنهم كانوا ينسبونهم لله ويعتقدون أنهم أولاده ، كما يصرح بذلك كثير من الآيات ؛ ولكن هذا لا يتعارض مع ما ذهبنا إليه من أنهم كانوا ينسبون البنات من بنى آدم لله تعالى ، بل يزيده تأييداً كما أشرت إلى ذلك فى مقالى السابق . وذلك أن القسمة الضيزى التى أجروها فى عالم الأرض ونسبوا فيها لله تعالى الإناث ولآلهتهم الذكور ، قد أجروا مثلها فى عالم السماء ، فكانوا ينسبون لله تعالى من هذا العالم كل ما يعتقدون أنه من نوع الإناث . ومن أجل ذلك نسبوا إليه الملائكة لاعتقادهم أنهم من هذا النوع . ولذلك جاءت عقيدتهم بصدد الملائكة فى معظم الآيات التى أوردناها فى المقال السابق مصاحبة لعقيدتهم بصدد الأولاد من الآدميين . وذلك يدل على أنهما عقيدتان مرتبطة كلتاهما بالأخرى ومترتبة عليها : « فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ؟ أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ؟ « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قسمة ضيزى . . . إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى » .

فالقرآن فى هذه الآيات يحدثنا عن حقيقتين لا عن حقيقة واحدة : إحداهما ما يعتقدونه بصدد الذكور والإناث من الآدميين ؛ وثانيتهما ما يعتقدونه بصدد الملائكة

٤ — وأما نسبة الذكور لآلهتهم أو لأنفسهم فهذا لا يهم كثيراً فى موضوعنا ، ولا يؤثر شيئاً فى النظرية التى أوردتها ؛ لأن المهم أنهم كانوا ينسبون الإناث لله وأنهم لذلك كانوا يئدونهن ؛ وسواء لدينا بعد ذلك أن كانوا ينسبون الذكور لأنفسهم أو لآلهتهم . على أن ما ذكرناه فى المقال السابق بصدد الذكور تحتمله آية النحل ، وخاصة لأن الضمير فى الآية التى قبلها يرجع إلى الشركاء : « ويجعلون لما لا يعلمون (أى لآلهتهم التى لا علم لها لأنها جماد . اهـ البيضاوى) نصيباً مما رزقناهم تالله لتسألن عما كنتم تفترون ، ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون » . فرجع الضمير فى لهم إلى الشركاء المذكورين فى الآية السابقة ليس محتملاً فحسب ، بل أرجح كثيراً فى نظرى من رجعه إلى المشركين . لأن موضوع الحديث هو تقسيمهم المخلوقات بين الله وشركائهم لا بين الله وأنفسهم . ويزداد هذا المعنى تأييداً إذا ربطت هذه الآيات بآيات الأنعام : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ... » . « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ... »

ويزداد هذا المعنى تأييداً كذلك إذا لاحظنا أنهم ما كانوا ينسبون خلق شىء لأنفسهم ، بل كان ذلك يتردد بين الله وآلهتهم

٥ — لا يمكن أن يكون سبب الوأد هو الفقر أو خوف الفقر ؛ لأن هذا النظام لم يكن معمولاً به فى الطبقات الفقيرة وحدها ، بل كان عاماً عند الفقراء والأغنياء فى العشائر التى أخذت به ، ولو كان الفقر هو الدافع إليه للحق جميع الأولاد بدون تمييز بين الذكور والإناث . ولا يمكن أن يكون سببه خوف العار والسبى للأسباب التى ذكرتها بتفصيل فى مقالى السابق . ولا يمكن أن يكون سببه نذوراً من نوع نذور عبد المطلب بن هاشم لأننا بصدد قبائل كانت تئد كل بنت تولد لها لا بصدد حالات فردية كانت تنحر فيها بعض البنات وفاء لنذور سابقة .

علي عبد الواحد وافي

(١) تراكيب هذه الآيات تفيد القصر كما لا يخفى على الأستاذ عبد المتعال « ألربك البنات ولهم البنون ؟ » ، « ألكم الذكر وله الأنثى ؟ » ... الخ

حول السنوسيين

للأستاذ محمد الأخضر العيساوى

جاء فى الرسالة الغراء عدد ٣٨٥ مقال عنوانه (السنوسيون) للأستاذ حسين جعفر بعضه صحيح وبعضه مبالغ فيه وبعضه الآخر خطأ

وإلى القارئ ما جاء من أخطاء فى مقاله الأول ، قال : (خلف السيد السنوسى الكبير المولود بالجزائر ببلد مستغانم سنة ١٢٠٢ هـ والمتوفى بالجغبوب سنة ١٢٧٦ هـ ولدين الأكبر محمد الشريف والثانى محمد المهدى) والصواب العكس لأن السيد محمد المهدى هو الكبير حيث ولد بماسّةَ بالجبل الأخضر سنة ١٢٦٠ هـ والسيد محمد الشريف هو الصغير لأنه ولد بمدينة درنة سنة ١٢٦٢ هـ

وقد استمر الكاتب فى الكلام إلى أن قال : (ويقال إن الولد الأصغر أظهر ذكاء وكفاءة أكثر من أخيه ولذلك قرر الوالد أن يختبرهما أمام جميع الإخوان فى الجغبوب فأمر ولديه أن يتسلقا نخلتين عظيمتى الارتفاع وسألهما باسم الله ورسوله أن يقفزا إلى الأرض ، فقفز المهدى فى الحال ولم يصب بسوء فى حين رفض الأكبر) : والحقيقة أن هذه القصة كلها لا أصل لها ، وقد جاء فيه أيضاً : (ويجب ألا يخفى أن الثورة التى كانت حدثت فى سنة ١٨٨٨ ، سنة ١٨٨٩ فى (دارفور) من الخليفة عبد الله التعايشى كانت باسم السنوسى) وحقيقة الحال أنها لم تكن باسمه ولا كان له دخل فيها . والدليل على ذلك ما جاء فى جريدة (الجزيرة) التى تصدر بشرق الأردن بتاريخ ٢٣ ذى القعدة سنة ١٣٥٩ الموافق كانون أول سنة ١٩٤٠ بقلم المجاهد الكبير على باشا العابدية المهاجر بتلك الديار وهو من أتباع السنوسيين المطلعين على بواطن الأمور حيث قال فيها (تنبؤ السنوسيين بمستقبل الانكليز) عند قيام مهدى السودان على المصريين والانكليز سنة ١٨٨٨ أرسل إلى السيد المهدى السنوسى رسولاً فى إعلان الجهاد وأن يكون خليفة من بعده ، ولكن السيد المهدى رفض ذلك لسببين (الأول) أن الحكومة المصرية حكومة إسلامية (والثانى) أنه كان يعتقد أن الطليان سيستولون على طرابلس وبرقة وأنه سيأتى يوم يقوم فيه الإنكليز بمحاربة الطليان فى طرابلس وبرقة وسيمدون إلى الأمة الطرابلسية البرقية يد المساعدة لتخليصها من محنتها . . . الخ » . وكتاب السيد المهدى لعبد الله التعايشى فى هذا الموضوع مذكور فى تاريخ مصر ، فمن أراد الوقوف عليه فليراجعه . نعود إلى المقال الأول ، قال فيه أيضاً : « وفى (واداي) كان خلف السلطان يوسف وهو السلطان إبراهيم الذى تولى سنة ١٨٩٨ ، كان يهمل نصائح الشيخ متشجعاً فى ذلك بهزيمة الخليفة عبد الله التعايشى فى أم درمان . وكان رَدُّ السنوسى على هذا أن حرّم على أهل واداى تدخين التبغ وشرب المريسة (البيرة الوطنية) ، فأرسل السلطان إبراهيم إلى السنوسى بأن شعبه يحارب ويموت فى سبيل المريسة ، وأنهم ينبذون تعاليم السنوسية ليشربوها . وكان السنوسى المهدى حكيماً فى تنازله عن رأيه ، معلناً أن الله أجاب على صلاته بأنه جل شأنه قَبِلَ أن يستثنى أهل واداى من هذا التحريم » ؛ فكان حقاً على الأستاذ ألا يذكر هذه الأسطورة التى يَمجُّها السمع ويأباها العقل السليم والنقل ، لأن مثلها يتحاشاها أجهل الجهلاء ، فكيف بأعلم العلماء وأتقى الأتقياء وهو السيد المهدى السنوسى الذى اشتهر بالتقوى والصلاح أن يُحلِّلَ ويُحرِّمَ من عند نفسه ، سبحانك هذا بهتان عظيم

وجاء فى الرسالة أيضاً عدد ٣٨٦ مقال آخر ، وإلى القارئ ما جاء فيه : «وقد عرضت شروط للاتفاق بين الإيطاليين وسيدى أحمد فى النصف الأخير من سنة ١٩١٥ ، وكاد يتم الاتفاق لولا أن سيدى أحمد رفض أن يقبل مركز (بَاى) تحت الحماية »

والحقيقة أن الإيطاليين خطبوا وُدَّه كثيراً ومنّوه بأمانى معسولة ، ولكنه لشرفه وأمانته وعلو همته أَبَى أن يصالحهم على شبر واحد من أراضى المسلمين ولو أعطوه ملء الأرض ذهباً

وجاء فيه أيضاً : « ولذلك أرسلوا (أى الإنكليز) فى نوفمبر سنة ١٩١٥ ابن عمه السيد محمد إدريس من الإسكندرية ليتفق معه (أبى سيدى أحمد) على أن يتخلص من مستشاريه الأتراك فى مقابلة

مبلغ من المال ». فهذا أيضاً مخالف للواقع ، وكان على الكاتب ألا يذكر شيئاً منه حتى يتصل بالسيد إدريس ليكون على بصيرة

وجاء فيه أيضاً : « وأقر شيوخ الطريقة السنوسية سيدى محمد إدريس السنوسى على أن يكون السنوسى الأكبر إلى أن قال : وجد سيدى أحمد المقهور والمخلوع أن من الأفضل له أن يغادر طرابلس ، فغادرها فى غواصة ألمانية من مصراته إلى تركيا مع استمرار ادعائه أنه رأس الطريقة السنوسية »

وهذا أيضاً بينه وبين الحقيقة مراحل ، لأن رئاسة الطريقة السنوسية موكولة للأكبر الأرشد بنص وصية من مؤسس الطريقة السيد محمد بن على السنوسى الكبير ، والسيد أحمد وقتئذ هو أكبر العائلة وأرشدها ، فهو أولى بالرئاسة ، وبأن يطلق عليه اسم السنوسي الكبير . وليس لأحد كائناً من كان أن يخلعه أو يقهره ، لا من مشائخ الطريقة ولا غيرهم

نعم ذهب إلى تركيا فى غواصة كما قال الكاتب . لكن بدعوة منها وقد استفادت منه كثيراً ، حيث فض لها مشاكل كثيرة وثورات فى الأنضول كادت تقضى على حركة مصطفى كمال وهى فى مهدها ، ولولاه ما جنح الأكراد إلى الهدو والسكينة بعد ثورتهم المشهورة

وجاء أيضاً فى آخر مقاله الثانى ما نصه : « فى حين أنهم أبى السنوسيين يعترفون بأنهم على المذهب المالكى ، فإن علماء القاهرة كثيراً ما كتبوا عن انحراف السنوسيين عن الإيمان الصحيح ، ومعظم الاتهامات تنحصر فى أنهم فسروا القرآن الكريم والسنة بدون الاعتماد على مصادر معترف بها »

فأقول : إن هذا أيضاً مما لا ينبغى للكاتب أن يذكره ، لأنه مخالف للواقع ، فالسنوسيون سنيون مالكيون ، وها هى كتبهم بين أيدينا شاهد عدل على ذلك ، فليراجعها من أراد الوقوف على الحقيقة . وهى (بغية المقاصد) و (إيقاظ الوسنان فى العمل بالحديث والقرآن) و (شفاء الصدر بأرى المسائل العشر) ، وكلها للسيد السنوسى الكبير ، توجد فى المكاتب الشهيرة بمصر وغيرها

وإنى أتحدى حضرة الكاتب أن يأتينا ولو بآية واحدة أو بحديث واحد مما زعم أن السنوسيين قرأوهما بدون أن يعتمدوا على مصادر معترف بها ، كما أنى أتحداه أيضاً أن يثبت لنا من هم أولئكم العلماء الذين كثيراً ما أفتوا بانحراف السنوسيين عن الإيمان الصحيح ، وفى أى زمان ومكان حصل منهم ذلك ؟ أظن الأستاذ يمكنه أن يثبت ذلك ، ولو أجهد نفسه مدة حياته .

هدانا الله وإياه للصواب

محمد الأخضر العيساوى
عالم بالأزهر


مجلس مديرية الغربية

يعلن عن توريد بطاطين لملجأ الأيتام بكفر الزيات وتطلب الشروط على عرضحال تمغة نظير دفع ٥٠ مليم وتقدم العطاءات مصحوبة بتأمين ٢٪ لغاية ٢٢ (اثنين وعشرين) إبريل سنة ١٩٤١ والمجلس حر فى قبول أو رفض أى عطاء بدون إبداء الاسباب

٨٠١٤

أطياف الربيع ...

[مهداة إلى جماعة الشعر من شباب كلية الآداب]

للأستاذ محمود الخفيف

هَاتِ يَا زَامِرُ أَلْحَانَ الرَّبِيعِ　　رَاقَ مِزْمَارُكَ يَارَاعِى القَطِيعِ
غَنِّ ما هَزَّكَ فى هَذا الضُّحَى　　مِنْ رُؤًى شَتَّى وَمِنْ سِحْرٍ جَمِيعِ
غَنِّ يَا هَيْمَانُ أَلْحَانَ الهَوَى　　وَالصِّبَا الجَذْلانَ يَلْهُو بالمُنَى

لَحَنَ أُرْغُولِكَ نَشْوانُ الصَّدَى
فى الضِّفافِ الخُضْرِ وَالحَقْلِ المَرِيعِ

الفَرَاشاتُ بِهَا تِيكَ الضِّفافِ　　دَائِبَاتٌ بَيْنَ وَثْبٍ وَطَوَافِ
فَرِحَاتٌ بالزَّمانِ المُونِقِ　　بَعْدَ أَيَّامٍ كَئِيباتٍ عِجَافِ
هَائِمَاتٌ فى ضُحَاهُ المُشْرِقِ　　لاثِمَاتٌ كُلَّ غُصْنٍ مُورِقِ

فَرْحَــةٌ أَعْيَا بَيَانِى وَصْفُهَا
وَأَنَا النَّاسِجُ مَوْشِيَّ القَوَافِى !

قَضِّ سَاعَاتِكَ رَفَّافَ الجَنَاحِ　　دَائِبَ التَّطْوافِ فى كُلِّ النَّواحِى
عَانِقِ الزَّهْرَ هُنَا أَوْ هَاهُنَا　　أَيُّهَا العَاشِقُ أَفْوَافَ الصَّبَاحِ
لَكَ مَاءٌ سَلْسَبِيلٌ وَجَنَى　　أَيْنَمَا مِلْتَ وَظِلٌّ وَسَنَى

لَيْتَ يَا جَذْلانُ لِي بَعْضَ الذى
يَتَوَافى لَكَ من هَذا المِرَاحِ !

الرَّبِيعُ الغَضُّ نَشْوانُ الشَّبابِ　　مَرِحٌ يَطْفُرُ فى كُلِّ الرِّحابِ
أَيْنَمَا دُرْتُ بِعَيْنَيَّ أَرَى　　لَمَحَاتٍ مِنْ سَجَايَاهُ العِذَابِ
كُلَّمَا يَمَّمْتُ رُكْناً مُزْهِرًا　　لاحَ لي تَالِيهِ أَحْلَى مَنْظَرَا !

كُلُّ حُسْنٍ مِلْءُ سَمْعِى هَاتِفٌ
خُلِقَ الحُسْنُ لِقَنْصٍ وانْتِهَابِ

أَىُّ سِرٍّ شَاعَ فى هَذا النَّمَاءِ　　فَانْجَلَى لِلْعَيْنِ مَرْمُوقَ الرُّوَاءِ
فَاضَ وَاسْتَعْلَنَ فى آثَارِهِ　　وَهُوَ صِنْوُ الرُّوحِ فى مَعْنَى الخَفَاءِ

كَمْ أَجَلْتُ الطَّرْفَ فى أَزْهَارِهِ　　وَالجَدِيدِ الغَضِّ مِنْ نُوَّارِهِ

فى زَمانٍ زَيَّنَتْ أَفْوَافُهُ
كُلَّ رَوْضٍ وَكَسَى كُلَّ فَضَاهُ

رَفَّ قلبى لِمَجَالِيهِ الحِسَانِ　　وَلِأَطْيَافٍ بِهِ زِدْنَ افْتِتَانِي
لَمَحَتْ فى كُلِّ شَىْءٍ نَشْوَةٌ　　مَلَكَتْ حِسِّى وَقَرَّتْ فى جَنَانِى
وَمَشَتْ مِلْءَ كِيَانِى هِزَّةٌ　　أَنِسَتْ رُوحِى بِهَا صُوفِيَّةٌ

لَمْ تَكُنْ لِلطِّينِ يَوْمًا تَنْتَمِى
حَرَّكَتْ قلبى وَإِنْ عَىَّ لِسَانِى !

كَمْ أَرَى فى البُرْعُمِ الغَضِّ الوَلِيدِ　　مِنْ طُيُوفٍ ضَاقَ عَنْهُنَّ قَصِيدِى
كَمْ تَرَى رُوحِيَ فى مَوْلِدِهِ　　مِنْ مَعَانِى البَعْثِ وَالخَلْقِ الجَدِيدِ
مَوْلِدٌ ما شَذَّ عَنْ مَوْعِدِهِ　　حَدَّثَ المُبْصِرَ عَنْ مُوجِدِهِ

مَوْلِدٌ ما مَرَّ عَجْلانَ بِهِ
غَيْرُ لاهٍ مُظْلِمِ الحِسِّ بَلِيدِ !

غِبْطَةٌ تَزْهَدُ نَفْسِى فى سِوَاهَا　　فَطِنَ القَلْبُ إِلَيْهَا فَاحْتَوَاهَا
لَيْتَ مَنْ يَقْضِى غُرُوراً عُمْرَهُ　　نَسِىَ الأَوْهَامَ يَوْمًا فَاجْتَلاهَا
لَيْتَهُ فى العَيْشِ يَنْسَى زُورَهُ　　فَيَرَى الحُسْنَ وَيَهْوِى سِحْرَهُ

لَيْتَ هَـذا الحَىَّ يَنْسَى جِسْمَهُ
يُوبِقُ الرُّوحَ وَيُنْسِيهَا هُدَاهَا !

يَا جَمَالاً هَاجَ فى الكَوْنِ هُيَامِى　　أَجْتَلِى دُنْيَاهُ عَامًا بَعْدَ عَامِ
نَشْوَةٌ كَمْ أَلْهَمَتْنِى الفَرَحَا　　يَوْمَ أَتْرَعْتُ بِهَا كَأْسَ غَرَامِى
أَتُرَى يَعْلَمُ إِلْفٌ نَزَحَا　　أَنَّنِى اليَوْمَ حَطَمْتُ القَدَحَا ؟

وَيْكَ يَا قلبى ! أَتَبْكِى كُلَّمَا
جَدَّدَ العَيْشُ دَوَاعِى الابْتِسَامِ ؟

إِغْنَمِ المُتْعَةَ مِنْ هَذا الجَمالِ　　وَانْسَ آلامَكَ فى هَذِى المَجَالِى
أَيُّهَا القَلْبُ إِلامَ المُشْتَكَى　　إِبْتَهِجْ فَالعَيْشُ عَجْلانُ اللَّيَالِي
إِخْتَلِسْ عُمْرَ زَمانٍ ضَحِكَا　　وَانْهَبِ الحُسْنَ إِذا الحُسْنُ زَكَا

هَذِهِ الزَّهْرَةُ تَزْكُو فى الضُّحَى
والدُّجَى يَمْشِى عَلَيْهَا بالزَّوَالِ !

الخفيف



الفنون الإيرانية فى العصر الاسلامى

تأليف الدكتور زكى محمد حسن

للدكتور محمد مصطفى

– ٣ –

وفى كلام المؤلف عن امتداد « نفوذ الأساليب القبطية الإسلامية فى التجليد إلى إيران » يقول فى (ص ١٣٣) : « بل إن ذلك النفوذ امتد أيضاً إلى بلاد منغوليا فى أواسط آسيا حيث عثر فى أطلال مدينة كانت عامرة فى العصور الوسطى على جلد كتاب ينسب إلى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ، وعليه زخارف من إطار ذى فروع نباتية عربية ، وفى وسطه جامة أو صرة من جرابل ، وفى كل من الأركان الأربعة ربع جامة »

ولم يذكر المؤلف المرجع الذى اقتبس منه عبارته هذه ، وقد كان يهمنا أن نعرف اسم هذه المدينة التى – كانت عامرة فى العصور الوسطى – وكذلك المكان الحالى المحفوظ فيه جلد الكتاب المشار إليه بما عليه من « فروع نباتية عربية »

وفى (ص ١٣٤) يقول المؤلف : « وقد عرف المسلمون التجليد فى إيران وغيرها من الأقاليم الإسلامية فى القرون الأولى بعد الهجرة . وذكر ابن النديم فى كتابه الفهرست أسماء بعض المجلدين، كابن الحريش الذى كان يجلد فى خزانة الحكمة للمأمون»

ولم يذكر المؤلف هنا أيضاً المرجع الذى اقتبسَ منه فى كتاب الفهرست لابن النديم ، وبالنسبة لطرافة الوضوع رأيت أن أنقل هنا عبارة مماثلة لعبارة المؤلف كتبها الأستاذ « بوب فى حاشية يعلق بها على ما كتبه الدكتور « جراتزل » عن التجليد[٢١] ، وأورد ابن النديم أسماء المجلدين فى ترتيب تاريخى حتى وقته (القرن العاشر الميلادى) وذكر منهم ابن أبى الحريش الذى كان يجلد فى خزانة الحكمة (مكتبة المأمون) والجراز المُبَيَّنى ، وأبى عيسى وابن شيران ودميانة الأعسر والحسين بن الصفار

وقد أعطى الأستاذ بوب كرجع لعبارته هذه ، كتاب الفهرست لابن النديم طبعة فليجل ص ١٠

وإنى أستغرب كيف أن الدكتور زكى لم يشر فى أية ناحية من الفصل الذى كتبه عن التجليد (ص ١٣٢ — ١٣٨) إلى البحث الذى كتبه الدكتور إميل جراتزل فى نفس هذا الموضوع[٢٢] مع أن هذا البحث يعد أحدث بحث علمى واف عن تجليد الكتب فى إيران . هذا فضلاً عن أن الدكتور جراتزل — وإن كان قد توسع فى كتابة بحثه عن المؤلف — قد أورد نفس الحقائق بنفس تسلسل الأفكار الذى سار عليه الدكتور زكى محمد حسن فى هذا الفصل من كتابه

فإننا نرى أن ما كتبه الدكتور جراتزل فى الفقرة الأولى (ص ١٩٧٥) مفصلاً عن ميزات جلود الكتب الإسلامية ، قد أورده الدكتور زكى محمد حسن ، مجملاً فى العبارة الأولى من الفقرة الثانية (ص ١٣٢) ، وفى الفقرة الثانية (ص ١٩٧٥) ما جاء فى العبارة الثانية من الفقرة الثانية (ص ١٣٢) عن استعمال الخشب والجلد والورق المضغوط فى التجليد . وفى الفقرة الثالثة (ص ١٩٧٥) والفقرة الأولى (ص ١٩٧٦) تفصيل ما جاء فى الفقرة الثالثة (ص ١٣٢) وبداية (ص ١٣٣) عن أساليب التجليد القبطية . وبين مراجع الحاشية رقم ١ (ص ١٩٧٥) نجد المرجع المذكور فى الحاشية رقم ١ (ص ١٣٣) ؛ وفى الحاشية رقم ١ (ص ١٩٧٦) ما جاء فى العبارة الأولى من الفقرة الأولى (ص ١٣٤) عن أسماء بعض المجلدين ؛ وفى الفقرة الثانية (ص ١٩٧٦) ما جاء فى العبارة الثالثة من الفقرة الأولى (ص ١٣٤) عن جلد كتاب عثر عليه الأستاذ بوب ؛ وفى الفقرة الثالثة (ص ١٩٧٦) ما جاء بالعبارة الرابعة من الفقرة الأولى (ص ١٣٤) عن الجلود المحفوظة بمتحف الفنون الإسلامية والتركية فى استامبول ، بما فى ذلك « جلد مصحف السلطان الجايتو » (هكذا أيضاً فى جراتزل) ، وهو كما نعلم السلطان

(٢١) فى S. P. A. ص ١٩٧٦ الحاشية رقم ١

(٢٢) Dr. Emil Gratzl, Book Covers فى S. P. A. ج ٣ ص ١٩٧٥ — ١٩٩٤

محمد خدا بنده . وبين مراجع الحاشية رقم ٣ ص ١٩٧٦ نجد المرجع المذكور فى الحاشية رقم ١ ص ١٣٤ . وفى الفقرة الأولى ص ١٩٧٧ ما جاء فى الفقرة الثانية ص ١٣٤ من أن تيمورلنك استقدم إلى بلاطه مهرة المجلدين فى مصر والشام . وفى الحاشية رقم ١ ص ١٩٧٧ نجد المرجعين المذكورين فى الحاشية رقم ٢ ص ١٣٤ . وفى الفقرة الأولى ص ١٩٧٧ أيضاً ما جاء فى الفقرة الأخيرة ص ١٣٤ . وبداية ص ١٣٥ عن الجامع التى أنشأها شاه رُخ لفنون الكتاب . وفى الحاشية رقم ٢ ص ١٩٧٧ نجد المرجعين المذكورين فى الحاشية رقم ١ ص ١٣٥ . وهكذا ...

ومما تقدم نرى أن الدكتور أميل جراتزل قد سبق الدكتور زكى محمد حسن فى سرد الحقائق العلمية عن تجليد الكتب فى إيران ولقد كان من الواجب على الدكتور زكى أن يشير فى الفصل الذى كتبه عن التجليد إلى هذا ٦ حث لا سيما وإن البيانات والحواشى التى أوردها فى هذا الفصل ، قد جاءت — كما رأينا — بنفس التسلسل الذى جاءت به ضمن البيانات والحواشى التى كتبها الدكتور جراتزل

وإنى أود أن أكتفى بهذا القدر من ملاحظاتى على هذا القسم من متن كتاب الدكتور زكى محمد حسن وطريقة تأليفه ، ولو شئت أن أسترسل فى استعراض باقى فصول الكتاب لتبين لنا أن طريقته فى هذا القسم لا تختلف عنها فى القسم الأول

والآن ألقى نظرة سريعة على لوحات الكتاب . فأذكر للمؤلف بالثناء ، أنه أورد صوراً لبعض التحف الإسلامية الأثرية التى لم يسبق نشرها ـ أو نشرت ، ولكن ليس فى كتاب شامل عن الفنون الإيرانية مثل كتاب A Survey of Persian Hrt ـ بعضها من مجموعة معالى الدكتور على ابراهيم باشا ، وهى الأشكال ٥٥ و ٥٦ و ٥٧ وتمثل ثلاث صور لتزيين الجدران ، والأشكال ٦٩ و ٧١ و ٧٣ لثلاث سجاجيد ، والأشكال ٨٥ و ٨٩ و ٩١ و ٩٩ و ١٠٠ و ١٠١ و ١٠٦ و ١٠٧ و ١٠٩ لتحف مصنوعة من الخزف . والبعض الآخر من مقتنيات دار الآثار العربية وهى شكل ١١١ لطائر من الخزف ، وشكل ١٣٢ لحزام من الحرير ، وشكل ١٣٦ لأبريق من البرونز مع رسمين توضيحين له فى شكلى ١٣٧ و ١٣٨ وشكل ١٧٢ لحشوة من الخشب

ولكن المؤلف لم يشر فى متن الكتاب إلا إلى سبعة وثمانين شكلا من المائة والسبعة وسبعين شكلا التى تتضمنها اللوحات ولم يصف التحف المصورة فى اللوحات ويوضحها توضيحاً كافياً يوفر على القارئ البحث عن وصفها فى متن الكتاب ، بل ولم يذكر المؤلف مقاسات التحف المختلفة — لا فى المتن ولا فى اللوحات — لكى يتمكن القارئ من تصور هذه التحف فى مخيلته بهيئتها وحجمها الطبيعى .

فمثلاً يقول فى وصف شكل ٩٧ فى اللوحة ٨٧ : « صحن من الخزف ، مؤرخ سنة ٦٠٧ هجرية — ١٢١٠ ميلادية ، فى مجموعة يومور فوبولوس » .

وإنى أعطى هنا وصف هذا الصحن نفسه فى S. P. A.[٢٣] للمقارنة ، صحن من الخزف ذى البريق المعدنى ، عليه رسم خسرو يكتشف شيرين مؤرخ سنة ١٢١٠ (جمادى الآخرة سنة ٦٠٧ هـ) مكتوب عليه : صنعه السيد شمس الدين الحسنى ، فى مجموعة يومور فوبولوس ، مقاس القطر ١٣ و $\frac{3}{8}$ بوصة (٣٤ مم)

هذا الوصف غير الوصف الذى أعطاه الأستاذ بوب فى متن الكتاب[٢٤] فى أثناء كلامه عن الخزف من صناعة مدينة قاشان ، كما فعل الدكتور زكى ، ذلك فى ص ١٩٦

وقد وصف المؤلف شكل ٧٥ من اللوحة ٧١ بقوله : « صحن خزفى القرن (٣ هـ — ٩ م) ، فى المتحف الأهلى بطهران » بدون ذكر نوع الصناعة ، وتكلم المؤلف فى متن الكتاب (ص ١٦٧) عن هذا « الصحن » ونسبه إلى نوع « خزف بلاد ما وراء النهر » ، ثم تكلم عنه ثانية فى ص ١٦٨ وسماه « سلطانية » ونسبه هنا إلى نوع آخر من الخزف وهو « الخزف الأبيض ذو النقوش الزرقاء والخضراء ، بينما يسميه الأستاذ بوب[٢٥] « صحن » وينسبه إلى هذا النوع الأخير فقط

ويظهر لى أيضاً أن المؤلف لم يدقق فى ترتيب بعض لوحات الكتاب ، فمثلاً رسم الصحن فى شكل ٨١ كان يجب أن يوضع إلى جانب الصحن فى شكل ٧٦ لأنهما — كما يقول بنفسه — من نوع خزف بلاد ما وراء النهر . لكى يستطيع القارئ أن يقارنهما معاً ، وأن يوضع شكل ٧٥ فيما يليهما حسب تقسيم كلام المؤلف عن الخزف

محمد مصطفى

(٢٣) ج ٥ لوحة ٧٠٨

(٢٤) فى S. P. A. ج ٢ ص ١٥٨٦

(٢٥) فى S. P. A. ج ٢ ص ١٤٨٣ وج ٥ لوحة ٥٧٤ ب



المجمع العلمي العربي يبعث

كان « المجمع العلمي » قد توقف عمله منذ سنوات سبع ، وقد أصدرت مديرية المعارف العامة مرسوماً يبعثه وإحيائه ، وأجمع الأساتيذ أعضاؤه على انتخاب العلامة الكبير الأستاذ كرد علي بك رئيساً له ، فصدر مرسوم جمهوري بذلك

ولا شك في أن المجمع العلمي الذي استطاع بسعي رئيسه وجهود أعضائه — في مدة قصيرة من الزمن — أن يؤدي إلى اللغة العربية ما لم يؤده إليها كثير من الرجالات والمجامع في مدة طويلة ، والذي رفع اسم الشرق في ندوات المستشرقين في الغرب سيعود إلى سيرته الأولى : فيحيي ما اندثر من آثار السلف ، ويسعى للقضاء على الدجاجلة المتجرين باللغة ، ويُعنى بانتخاب أعضاء له ممن كانت لهم في اللغة جهود ، وفي إصلاحها طرائق ، وكان لهم على آدابها وفرائدها وأسرارها ودقائقها اطلاع ، دون غيرهم من المتطفلين ، ولو كانوا من أرباب الألقاب الجوفاء

وقد وضع له برنامج واسع ونظام دقيق ، وسننوه بهما مرة ثانية .

« دمشق » « المخبر »

مناظرات كلية الآداب

مناظرات كلية الآداب شائقة ولكنها في دعوتها إلى التفكير أكثر منها في ختامها للتمحيص وهذا شأن المناظرات في كلية الآداب وفي غير كلية الآداب ، لأن المناظر شأنه غير شأن المحاضر ، ولا بد أن يتقيد بجانب الرأي الذي يدافع عنه أكثر من تقيد المحاضر بجانب خاص من جوانب الرأي وليس تمحيص الحقيقة ووضوحها في المقارنة بين أقوال المناظرين وحدها بل هي في التوفيق بين أقوالهما وفيما يظهره هذا التوفيق من آراء قد تسقط في المناظرة لدفاع كل مناظر عما يدافع عنه من الرأي وتمحيص الحقيقة أيضاً في مناقشة الجملة التي هي موضوع المناظرة وهذا ليس من شأن المناظر وفي بيان أوجه صلاحها للمناقشة وأوجه فسادها ويتضح لنا صواب ذلك إذا رجعنا إلى المناظرة التي كان موضوعها (هل يزدهر الفكر في عهد الفوضى أم في عهد الأمان) كما يتضح في المناظرة التي كان موضوعها (هل يكفي التراث الشرقي - أو العربي - لتمام نضوج الذهن) . ففي المحاضرة الأولى لم يتضح من الجملة نوع الفوضى ونوع الأمان كما لم يتضح من الجملة الثانية معنى التراث ومعنى تمام النضوج فإن من الفوضى فوضى قد تكون ناشئة عن التقاء الثقافات واجتماع الحضارات ، وفوضى قد تكون ناشئة عن الحركات النفسية التي تبعث إلى التفكير ، وكلاهما قد تكون فوضى نسبية تساعد على التفكير وازدهار الثقافة . كما أن من الفوضى فوضى ناشئة عن اختلال النظام واضطراب الدولة ، والفتن والحرب التي تعم وتجعل الحياة غير موثوق من بقائها وتعطل الأرزاق وتشغل الفكر عن الفكر بالتماس طرق تأمين الحياة وطلب الرزق أولاً حتى يستطيع أن يفكر بعد أن يتهيأ له ما أراد ، ومثل هذه الفوضى تعطل أمور التفكير وتمنع من ازدهاره . ومن الفوضى فوضى قد تكون بسبب شدة العصبية للرأي ؛ فكل طائفة تريد أن تغلِّبَ رأيها ، فإذا تعدت العصبية للرأي وسيلة الإقناع إلى وسائل القهر والإلزام ، وصار النصر في تلك الوسائل سجالاً ومداولة وتبع هذه المداولة الفتك والقتل والنهب . منعت كل هذه الأمور من ازدهار الفكر إلى أن تستقر الأمور . ومن الفوضى فوضى نسبية هي أيضاً نتيجة شدة العصبية للرأي ، ولكنها لا تلجأ إلى وسائل الفتك أو لا تدوم على تلك الحال أو لا يكون الفتك سجالاً إلى أمد طويل . وهذه قد يزدهر معها الفكر ومن الفوضى فوضى تتخللها مواطن الأمان ، أو كما يقولون جزائر الأمان ولا يراد بمعنى جزائر الجغرافي وإنما المراد مواطن أمان يطمئن فيها ويستقر إليها المفكرون إذ لا أمان في بقاع أخرى في الوقت نفسه فيكون ازدهار الفكر في مواطن الأمان لا في أماكن الفوضى ومن الفوضى فوضى لا توجد فيها جزائر الأمان فلا تساعد ازدهار الفكر والأولى مثل دويلات العهد الأخير من الدولة العباسية ودويلات مدن الإغريق ودول ملوك الطوائف في الأندلس وغيرها ، ومن الفوضى فوضى ناشئة عن عبث

النفوس وقلة اكتراثها للجد والحق وهذه لا تعين على التفكير. ومن الفوضى فوضى يعقبها تعمير، وفوضى لا يعقبها إلا الخراب والإضمحلال، وفوضى تكون فى أول نشأة الأمم والحضارات، وفوضى فى أواخر عهدها. والأمان أيضاً أنواع، فمنه أمان يكون فى عهد مجد الدولة وبأسها، واستقرار أمورها، واتساع نطاق تجارتها ونمو ثروتها، وهو أمان يساعد على ازدهار الفكر، وقد تتخلله حروب أو لا تتخلله، وهذا الأمان النسبي هو كالذى كان فى عهد الأسرة الرابعة والثانية عشرة والثامنة عشرة فى تاريخ مصر القديم، وكالذى كان فى العهد الأوجستى فى تاريخ روما، وعهد أسرة تيودور والملكة إليصابات فى انجلترة، وعهد لويس الرابع عشر فى فرنسا، وعهد هارون الرشيد فى الدولة العباسية، وعهد بركليس فى الدولة الأثينية، وعهد عبد الرحمن الثالث فى الأندلس، وعهد الديمقراطيات والنظم الحديثة بعد الثورة الفرنسية وبعد حروب نابليون. ومن الأمان أمان يكون معه الجمود والركود وقهر الفكر والفقر وهذا لا يعين على ازدهار الفكر. فترى أن موضوع المناظرة الأولى لم يحدد معنى للفوضى والأمان ونوعهما. وإغفاله هذا التحديد لم يكن داعياً إلى تمحيص الحقيقة وإن كان داعياً إلى الفكر. ثم إن موضوع تلك المحاضرة قصر عوامل ازدهار الفكر أو ركوده على الفوضى والأمان ولم ينظر إلى العوامل الأخرى مثل التجارة وأنواعها، وطرق المواصلات وأثرها، والصنائع وأنواعها، ومثل مصالح الحكومة، ومثل مقدار الثروة والتعليم الخ. وإذا نظرنا إلى المناظرة الثانية وجدنا أيضاً أن معنى تمام النضوج لم يحدد، ولم يحدد معنى التراث كما اتضح من أقوال الأستاذين الكبيرين اللذين تكلما فى المناظرة. ولكنهما كانا متفقين فى لباب الحقيقة وإن اختلفا فى الظاهر

اسماعيل أدهم

ليبيا وبرقة

تكتب الصحف فيما تنشره من أخبار عن طرابلس الغرب كلمتى: ليبيا — برقة. والكثير لا يعرف مدلولها الصحيح ويذهب به الظن إلى أن ليبيا يسمى بها طرابلس الغرب، فلاظهار الصواب نورد ما ذكره ابن خلدون فى تاريخه. قال المؤرخ عن ليبيا: «وهى اسم قبيلة من البربر دخلت تلك الصحراء وعمرتها وهى لا تزال آثارها باقية، وهى تعرف الآن بالتوارق». وعن برقة: «أطلق العرب هذا الإسم على ولاية رومانية كانت تعرف عند قدماء اليونان بالقيروان نسبة إلى قورينة إحدى مدنها وهى غير مدينة القيروان التى مصرها العرب فى أفريقيا بعد الفتح. وقد كان الجزء الشمالى منها يعرف عند اليونان ببنطابلس أى المدن الخمس، لأنه كان فيه خمس مدن كبيرة، الأولى هسبريدرس، وقد سمّاها بطليموس الثالث «هسبريدرس برنيقة» نسبة إلى زوجه برنيقه وسماها العرب برنيق وتعرف الآن ببنى غازى. والثانية برقة وتعرف الآن بالمرج وبها سميت البلاد عند العرب. والثالثة قورينه وبها سميت البلاد عند اليونان، ولا تزال آثارها باقية ويسميها الأعراب قورينه. والرابعة البتولونيه وتعرف الآن بمرسى سوسه. والخامسة توخيره أراسينوى وتعرف الآن بتوكره ونشأ فيها فى زمن البطالسة مدينتان أخريان وهما بطلمايس وتسمى الآن طوليطة ودونيس دورينا وتعرف الآن بدرنة. وكل هذه المدن على الساحل ما عدا برقة وقورينه فإنهما على بضعة أميال منه. هذا ما أثبته ابن خلدون ومنه يعرف أن ليبيا ليست اسماً لطرابلس الغرب.

أبو القاسم سعيد البارونى

الطرابلسى

تأبين الأستاذ فؤاد بليبل

لا تزال أندية الأدب ومجالس الشعر تردد عبارات الأسف على فقد الشاعر الشاب فؤاد بليبل، وتجدد فى كل مناسبة أساها على فجيعة الشعر فيه، فقد كان المتصلون به والقارئون له يعتقدون أن سيكون له فى الشعر الوجدانى أثر مذكور بفضل ما وهبه الله من صدق الشعور وصفاء النفس وعذوبة الروح واستكمال الأداة. والحق أن الحياة القصيرة المضطربة التى حييها فؤاد كانت أشبه بأغرودة البلبل الجريح أدركه الإعياء قبل أن يسكن إلى عشه

وقد فكر لفيف من أصدقائه أن يقيموا له حفلة تأبين يوم الأحد ٤ مايو سنة ١٩٤١ بنادى لبنان فى شارع توفيق رقم ١٢ ولا شك فى أن هذه الحفلة ستكون مظهراً صادقاً لما يكنه إخوان الأدب والروح من الفجيعة واللوعة لهذا الفقيد الكريم

أخطاء في كتاب

للأستاذ محمود مصطفى أستاذ الأدب العربي بكلية اللغة العربية كتب في الأدب يفرض تدريسها على الطلاب . من هذه الكتب كتابه في « الأدب العربي وتاريخه ، في عصري صدر الإسلام والدولة الأموية » ، وقد تصفحنا هذا الكتاب فعثرنا فيه على أخطاء خطيرة نحب أن نلفت إليها أستاذنا الجليل ليتلافاها في الطبعة المقبلة ، كما نحب أن نلفت إليها زملاءنا الطلاب وجلهم بحمد الله من المشتركين بمجلة الرسالة الغراء .

يقول المؤلف في ص ٣٥ « وقوله — يريد النبي صلى الله عليه وسلم — لأبي تميمة الُجهَيْمى : « إياك والمخيلة » فقال يا رسول الله نحن قوم عرب فما المخيلة ؟ فقال عليه السلام : سَبَلُ الإزار »

والصحيح أن النبي قال هذا لجابر بن سليم الُهجَيْمى ، لأن تميمة تابعي وليس بصاحبي حتى يخاطب

ويقول المؤلف في ص ١٢٧ مفسراً بيت حسان :

كلتاهما حلب العصير فعاطني بزجاجة أرخاهما للمِفصَل

« كلتاهما : كلا الماء والخمر . والمعنى في البيت أن الماء والخمر ناتجان عن عصر شيء ؛ فالماء عن عصر السحاب، والخمر عن عصر العنب » ... وهذا التفسير خطأ « أولاً » لأن (كلتاهما) للمثنى المؤنث والماء مذكر والمعروف تغليب المذكر على المؤنث « ثانياً » لأنه قال « أرخاهما » للمفصل وأرخى أفعل تفضيل يقتضي المشاركة مع أن الماء لا إرخاء فيه أصلاً . « ثالثاً » لأنه قال كلتاهما حلب العصير والعصر إذا أطلق انصرف إلى عصير العنب . . .

والصحيح : كلتاهما التي قتلت والتي لم تقتل في البيت الذي قبله وهو:

إن التي ناولتني فرددتها قُتِلَتْ قتلتَ فهاتها لم تقتل

وهكذا روى الأغاني وخزانة الأدب وشرح ابن هشام لبانت سعاد

ويقول المؤلف في ص ١٧٥ : « ... فقد قيل : إن عمرو ابن العاص لما رأى مكتبة الإسكندرية أرسل يخبرها إلى عمر . فقال له : إن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى وإن كان فيها ما يخالفه فلا حاجة إليه ، فتقدم بإعدامها : فأحرقها عمر » ، وهذا كلام يكذبه المؤرخون . . . ويعتمدون على أن إحراقها كان قبل الفتح ...

ويقول المؤلف في ص ١٧٨ : « فقد ذكروا أن عبد الله بن المقفع اعترف بأنه دس على المسلمين أربعة آلاف حديث » . . . والصحيح أنه لم يكن محدثاً ، ولم يقل أحد عنه ذلك ، ولم يرو حديثاً واحداً قط لا صادقاً ولا كاذباً

ويقول المؤلف في ص ١٨٢ : « عمران بن حطان السدوسي شاعر فصيح من الشراة ، وكان في آخر أيامه من القعدة . . . لأن عمره طال فضعف عن القتال ، فكان يدعو بلسانه »

وهذا التعليل نقله المؤلف عن جورج زيدان وهو خطأ ... ولم يكن عمران في آخر أيامه من القعدة كما ذكر . والقعدة فرقة من الخوارج كانوا يرون التحكيم بين عليّ ومعاوية ، ولكنهم قعدوا فلم يقاتلوا ...

ويقول المؤلف في ص ٣٠٨ مترجماً لجرير : « ولد باليمامة سنة ٤٢ هـ في خلافة عثمان » ، وهذا خطأ ، لأن عثمان توفى سنة ٣٥ هـ

ويقول المؤلف في ص ٣٠٩ : « وما زال جرير بالبادية حتى قال الشعر . ثم قدم الشام على يزيد بن معاوية وهو ولي العهد ، ومدحه بقصيدة منها :

وإني لعفٌ الفقر مشتَرَكُ الغنى
سريع إذا لم أرض داري انتقاليا ... الخ

والصواب أن هذه القصيدة قالها جرير يرد بها على الفرزدق قصيدة على وزنها ورويها وهما معاً في النقائض ، وليس فيها بيت واحد في مدح يزيد ... والصواب أيضاً أن جريراً لم يقدم على يزيد بالشام إلا وهو خليفة ... »

وبعد ، فنحن نقدر الأستاذ محمود مصطفى ونجله ، ونعتقد أنه من الأساتذة العاملين في كلية اللغة العربية ، وما قصدنا بهذه التصحيحات إلا خدمة الأدب، وخدمة الكتاب، وخدمة الطلاب الذين سيمتحنون فيه آخر العام

عبد العليم عيسى

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)



9 me Année No. 407

Lundi - 21 - 4 - 1941

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العــدد ٤٠٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٤ ربيع الأول سنة ١٣٦٠ — الموافق ٢١ أبريل سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

المبــالاة

للأستاذ عباس محمود العقاد

كتب إلىّ الأديب صاحب الإمضاء من خطاب يقول فيه بعد تمهيد :

« إن الإنسان يفيد دائماً من التجارب المادية . فالأطباء مثلاً يهتدون بالتجارب الماضية ويطبقون فى فهم آخر ما يصل إليه العلم ؛ ومن ثم كان التقدم الملحوظ فى الطب وسائر العلوم والفنون والآداب . فلماذا لا تسير الأمور كذلك فى معالجة المشاكل النفسية ؟ أريد أن أقول إن الإنسان - كل إنسان - لا يريد أو لا يستطيع أن يطبق القاعدة السابقة على مشاكله النفسية . فمثلاً حدثنا الكثير من الفلاسفة والكتاب عما انتابهم من أزمات منها ما أخافهم أو أيأسهم أو آلمهم ، ثم أردفوا ذلك بأن وضعوا تحت أعيننا تجاربهم وتجاوزهم هذا الطور إلى طور آخر ... وعندنا مثلاً أقرب هو صديقكم المازنى الذى كتب كثيراً مصوراً ما كان يلح عليه فى شبابه من يأس وخوف ، محاولاً أن يقنعنا أن كل ذلك كان عبثاً لا طائل تحته ، وأن الإنسان يستطيع أن يعيش دون أن يكون بحاجة إلى شىء من ذلك ... فلماذا لا يعتبر الشباب بقول المازنى فيأخذ الحياة من حيث انتهى ، ويقضى شبابه فى أنس وراحة وسعادة ؟ لماذا يأبى

الفهــــرس

كل امرىء إلا أن ينهج فى حياته على طريقته الخاصة ، فيقبل على ما يسلمه للخوف والشقاء ويبعج فى الألم واليأس ؟ ... وأريد أن أقول أيضاً : إذا قيض للانسان أن ينتفع بتجارب غيره النفسية على النحو الذى ينتفع به فى التجارب المادية ، أيكون هذا رقياً وازدهاراً ، أم عندئذ تنتفى الحياة ؟ »

وبعد إسهاب فى هذا المعنى يقول الأديب : أرجو أن يتيح لنا الأستاذ ساعة نهرب فيها من حديث السياسة والحرب ونأنس به فيها إلى ظل الأدب الوريف ، وأن يكون ذلك على صفحات « الرسالة » ، فإنى من قرائها المدمنين

« دمنهور » صموع المسيرى

ويحضرنى فى الإجابة عن هذه الأسئلة قول الكاتب الإنجليزى الحديث ستيفنسن Stevenson إننا حين نقول للشاب : هكذا أيضاً كنا نفهم فى شبابنا فنحن نؤيده ولا نفنده بهذه الحجة !

وهو قول حق نافذ إلى اللباب ؛ لأننا ندل به على أن هذا الفهم الذى ننقده ونحاول أن ننفى الشباب عنه إنما هو من طبيعة الشباب التى لا محيد عنها ولا استثناء فيها . فكل شاب إذن خليق أن يفهم الأمور كما فهمها الشاب الذى نلومه ونهديه إلى خطئه !

وهكذا يسألنا الأديب : لماذا لا يعتبر الشاب بقول صديقنا المازنى فيأخذ الحياة من حيث انتهى ويقضى شبابه فى أمن وراحة وسعادة !

والجواب أن صديقنا المازنى نفسه لو عاد إلى الشباب لما اعتبر هذا الاعتبار ولا سلك فى الحياة إلا المسلك الذى عدل عنه بعد حين

وخيراً تصنع الحياة إذ تجعل كل حى مستقلاً بحياته عن التجارب النفسية التى جربها سابقوه . فليس من الحياة أن يعيش الإنسان عالة على شعور غيره ، وليس هذا بالمستطاع لو حسن أن يكون

وفرق شاسع بين المعلومات والتجارب النفسية فى هذا المجال ، فإننى لا أستطيع أن أعرف وحدى جميع المعارف الإنسانية التى عرفها السابقون وأضاف إليها اللاحقون ما أضافوه ؛ ولكنى أستطيع أن أجرب وحدى ما جرّبه كل فرد وحده ، ولا خسارة على فى ذلك !

لا بل الخسارة كل الخسارة فى تركى إياه يشعر « بالنيابة » عنى والغائى لشعورى أنا معتمداً على ما جرّبه واهتدى إليه . أما المعلومات فيكفى أن تنتقل إلىّ ليصبح نصيبى منها ونصيب من عرفوها جميعاً على قدر سواء ، فلا خسارة فى انتقالها من جيل إلى جيل

وينبغى أن نذكر هنا أن التجربة ليست مسألة فهم ولكنها مسألة رياضة

فالحصان الوحشى الذى تربطه بالقيود وتقيم من حوله الموانع لتمنع جماحه وتسلس قياده لا يثوب إلى السلاسة لأنه فهم أنها خير من الجماح ، أو وازن بينهما موازنة فكرية فاختار أفضلهما فى الرأى والمنطق ؛ ولكنه « ريض » على حالة لا يستطيع غيرها ولو فهم أن غيرها هو الصواب

ولو كانت التجارب مسألة فهم لما استعصى خطبها على أحد ، فإن حكمة الحكماء الذين قالوا إن « الصبر مفتاح الفرج » تفهم لفظاً ومعنى فى لمحة عين ، ولكن النفس لا تراض عليها قبل سنين حافلة بالحوادث والدروس ؛ وقد تمضى السنون ولا تبلغ بها مبلغ الرياضة على تلك الكلمات الثلاث !

إن الأقدمين قد أكلوا فشبعوا . فهل نشبع نحن لأن الأقدمين قد عرفوا الشبع من قبلنا دون أن نأكل كما أكلوا ؟

إذا جاز هذا جاز مثله أن نشبع من الحوادث والتجارب دون أن « نأكلها » كما أكلها الذين من قبلنا

ولكنهما خطتان بمنزلة واحدة من البعد والاستحالة : فألوف الألوف لا يشبعونك بما تناولوا من غذاء ؛ وألوف الألوف لا يعطونك التجربة التى تناولوها من حوادث الأيام ؛ وإنما الشبع شىء لا تناله إلا بما تعمله وظائف جسمك ؛ وكذلك التجربة شىء لا تناله إلا بما تعمله وظائف نفسك ، ولو رأيت أمامك كل المجربين وسمعت وصف التجارب من كل لسان مبين

والرجل بمفرده قد يجرب الحالة الواحدة على أنماط وألوان لا يحيط بها الإحصاء ؛ فيخونه عشرة أصدقاء ولا تحذره إحدى هذه الخيانات أن يستهدف لغيرها لأنها مختلفة المنحى والنتيجة .

ويحب عشر نساء ولا تعطيه إحداهن ما تعطيه الأخريات . ويسافر إلى القطر الواحد مرات ثم يعود من كل مرة بتجربة جديدة لا تنسخ ما قبلها ولا تنسخها التي تليها

وهذا معنى التجربة ، وهذا معنى الحياة

والأصل في الحياة المبالاة بالحوادث والمؤثرات ، لأن الكائن الحي كجهاز التلقي والإرسال الذي لا ينعزل مما حوله ولا تنقطع الصلات بين العالم الخارجي وبينه . فإذا انتهى به الأمر إلى تجاهل الحوادث وقلة الاكتراث لها فتلك ضرورة طارئة تراض عليها النفس بعد معالجتها وتكرير علاجها ، ثم يكون الاستقرار عليها بمثابة الصدأ الذي يمنع الاتصال ، فلا تلقٍّ ولا إرسال، أو يكون على أحسنه بمثابة رفع المفتاح وتعطيل الأداء والاستقبال

وربما فهم ذلك في بعض مراحل الحياة التالية ؛ أما الابتداء به في المراحل الأولى فغير مفهوم ولا معهود ، إلا أن يكون عن نقص في التكوين وعجز عن التجربة ما يراد منها وما لا يراد

قيل إن السعيد من وعظ بغيره . ولكن أين هو السعيد ؟ وما جدواه من السعادة إن كان اتعاظه « شعوراً » غير أصيل فيه ! أما إن اتعظ أصيلاً في شعوره فهو هنا مبتدئ وليس بتابع ، وهو يجتنب الخطر لأنه أحسه واختبر منه ما يدعوه إلى اتقائه . فليس هو بعالة على تجربة غيره ، وليست تجربة غيره إلا تذكيراً لناسٍ أو تنبيهاً لغافل

ولنتخيل عالماً يستريح الناس فيه من « المبالاة » فماذا يبقى لهم من الحياة ؟

ماذا يبقى من الحياة لمن لا يبالون الخوف والرجاء ولا يحنون إلى ماض ولا يتوقون إلى غد ولا يحفلون بحاضر ؟

العريان في القافلة مرتاح

وهذا عرى في قافلة الحياة !

ولا شك أن التجارب تعلمنا كثيراً أن العناء لا يفيد ، ولكن من هذا الذي يعاني باختياره ؟ ومن هذا الذي يعاني لفائدة يلتمسها من عنائه ؟

إنما يعاني الإنسان على حسب ما عنده من طاقة للعناء لا على حسب ما يستفيده من العناء

ولهذا يوجد بين الناس آحاد معدودون يطلبون العظائم ويبلغونها ولا يقنعون بما بلغوه منها ، وينظر إليهم ملايين اللابين فلا يتحركون لمثل ما ابتغاه أولئك الآحاد المعدودون ، لأن المحرك هنا هو الطاقة الموجودة وليس هو الفائدة التي لم توجد بعد ولا يُضمن وجودها

إن كرة المطاط تنضرب إلى الأرض مائة مرة ولا تزال تعلو وتسفل في أثر كل ضربة . ثم تنضرب بعد هذا فتقع حيث هي لا علو ولا استفال . ألأنها علمت أن العلو لا يفيد ؟ كلا ... بل لأنها أضاعت مرونتها التي تعلو بها وتهبط ... فمن الذي يطلب من الكرات الجديدة أن تعتبر بمصير هذه الكرة « المجربة » فتقع حيث هي وتضيع من مرونتها باختيارها ما ضاع « بالتجربة » على غير اختيار ؟

ولست أقول للكرة التي سكنت إلى موضعها : غالطي الحقيقة وعاودي الوثوب وقد راضتك الحوادث على اجتنابه ! ! ولكني أقول للكرة الجديدة : إياك أن تغالطي الحقيقة وأن تسكني لأن غيرك قد سكن من قبلك . بل اسكني حين يواتيك السكون ولا تقدرين على غيره ؛ واطلعي وانزلي ما دامت لك طاقة بالطلوع والنزول

فقلة المبالاة لا قيمة لها إن لم تأت بعد مبالاة ، لأنها تكون يومئذ مرضاً أو قصوراً لا يغبط عليه . ولا بد إذن من مبالاة ولو قصيرة الأمد قبل أن تصبح قلة المبالاة تجربة نفسية ورياضة خلقية . وليس شرطاً مع هذا أن تكون تلك التجربة مما يحمد على كل حال ، وأن تكون تلك الرياضة مما يقتدى به كل إنسان

وغاية ما يرجى من انتفاع بتجارب من مضى أن نعيد تجربتها في وقت أقصر وعلى ثقة أوضح وأبصر ... ولم ؟ ليتسع العمر لتجارب أكثر مما جربه الأولون ، لا لينقص نصيبه من التجربة اكتفاء بما جربوه

فتكرر الأجيال عبث إذا كان معناه أن جيلاً واحداً يعالج مشكلات الحياة ثم تعفى بقية الأجيال من علاجها . وتكرر الأجيال معقول إذا كان لكل جيل نصيبه من عبء الحياة وعليه مزيد جديد .

عباس محمود العقاد

القرآن والمسلمون

للأستاذ الشيخ محمود شلتوت
وكيل كلية الشريعة

إن خير حديث يتحدث به المسلمون بعضهم إلى بعض في هذا الشهر الذي يذكرون فيه ميلاد نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، هو ما يتصل بهذه المعجزة الخالدة التي أظهرها الله على يد هذا النبي الكريم، وبها حول العالم من سبل الشر والشقاء، إلى سبل الخير والسعادة

وإن الحديث فيما يتصل بالقرآن الكريم لكثير النواحي. متشعب الأطراف. وقد رأينا أن يكون حديثنا في ناحية من هذه النواحي هي علاقة المسلمين بالقرآن في عصورهم المختلفة، وذلك ينتظم:

(١) القرآن والمسلمون في العهد الأول
(٢) القرآن والمسلمون في العصور التالية
(٣) القرآن والمسلمون في العهد الأخير

وقد رأينا تمهيداً لعرض الموضوع الذي نحاوله أن نقدم بين يديه ما يجلي لنا الغاية التي من أجلها نزل القرآن، والفكرة التي يعمل لاقرارها في هذا العالم.

مقدمة

ا — كان الناس قبل القرآن في عقائدهم وأعمالهم على طرفين متناقضين: إما الأفراط أو التفريط؛ وكلا الفريقين بعيد عن جادة الاعتدال. فبينما كنت ترى فريقاً عكف على المادية البحتة، وشغف بها حتى جرت منه مجرى الدم في العروق، وحرص على تنمية عواملها، وتوطيد وسائلها، وحرم نفسه تذوق اللذة الروحية، إذا بك ترى فريقاً آخر قد نزع إلى الطرف المقابل، ونسى حظه المقدر له في المادة بمقتضى خلقه وتكوينه، فتحكمت فيه تقاليد الروح المحضة، وأعرض عن الدنيا وما فيها، وحرم نفسه متاعها ومباهجها

هذان هما الفريقان المتقابلان يستظل أولهما بظل اليهودية أو الوثنية، ويستظل الآخر بظل المسيحية أو الصابئية أو نحو ذلك

ب — إن انقسام هاتين الفكرتين للعالم على هذا النحو، أو طغيان إحداهما على الأخرى، من شأنه أن يحول بين الناس وبين القيام بواجبهم الذي من أجله خلقوا، وجعلهم الله خلفاءه في أرضه: ذلك الواجب هو عمارة الكون والانتفاع بما خلق الله فيه من شيء، والسمو بالعقل الإنساني على وجه يسعد به الناس في معاشهم ومعادهم؛ ذلك الواجب هو الذي تضمنته الآية الكريمة في بيان حكمة هذا الخلق

« هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً. ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم. وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة. قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ قال: إني أعلم ما لا تعلمون! »

ج — جاء الإسلام وهاتان الفكرتان تقتسمان العالم وتسيطران عليه. فحدد غاية الإنسان في الحياة وأرشده إلى مقوماتها الصحيحة، وأهاب به إلى الفكرتين جميعاً، وحثه على قصد الجادة والاعتدال، وطلب إليه أن يأخذ في كل ناحية بقسط ملائم حتى تتحقق له السعادة على أكمل وجوهها . . .

أوسع له في ضروب القول مستدلاً على عقم المادية البحتة بأنواع الاستدلال، وأخذ يصورها أمامه بأبشع الصور، واتجه به إلى كثير من مواطن الحياة، وحثه على استكمال حاجته منها؛ ونعى على الروحية المحضة، وجعلها من الأساليب التي تنافر الغاية من خلقه لعمارة الكون وخلافته عن رب العالمين

إقرأوا — إن شئتم — قوله تعالى في التنفير من المادية البحتة:

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون. أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو، وللدار الآخرة خير للذين يتقون. أفلا تعقلون؟ »

واقرأوا قوله تعالى في الحث على ترك الروحية المحضة:

« قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها »

واقرأوا قوله تعالى في الحث على الأخذ بالنصيبين:

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد في الأرض »

« فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون »

جاء القرآن لهـذا الغرض : مهمته أن يبلغ العقل البشرى رشده ، وأن ينتفع الناس بالصالح من المادة والمفيد من الروح

وقد اتخذ هذا الاعتدال نهجاً له فى إصلاح العقائد وتهذيب الأخلاق وترسيخ قواعد التنظيم الاجتماعى ، وصرح فى كثير من آياته بأنه يعمل على إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إلى الطريق الأقوم ، وينذرهم سوء العاقبة ، ويبشرهم بالحياة الطيبة إذا هم تمسكوا بمبادئه وعملوا بإرشاداته ، وحرصوا على تنفيذ أحكامه

واقتضت حكمة العليم الخبير أن يكون بعضه مفصلاً وبعضه مجملاً : يفصل ما لا تختلف فيه أغراض الإصلاح ، ولا تتغير فيه وجوهه بتغير الأزمان والأمكنة ، وذلك ما يرجع إلى العقائد والأخلاق ورسوم العبادات ، ويجمل ما تختلف أحكامه بحسب ما تقتضيه أحوال الزمن وتطورات الحياة واختلاف الأمكنة ، تاركا للعلماء تطبيق ذلك على الحوادث والواقعات الجزئية التى يجود بها الزمن

وذلك كله عملاً على سعادة البشر ، وإطلاقاً لسراح العقل ، وحثاً لأهل البصيرة على التمتع بلذات النظر والتنافس فى مجال الاجتهاد

عالج القرآن بذلك العلل النفسية والأمراض الخلقية ، وحل المشاكل الاجتماعية ، ورسم طريق الحياة الطيبة الصالحة فكان كما وصف نفسه :

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم »

« كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير »

« وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين »

« تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً »

القرآن والمسلمون فى العهد الأول :

على هـذا الأساس آمن الأوائل من المسلمين بالقرآن ، فوضعوه بالمحل الأول من مكانة التقديس والعناية ، وسلموا إليه نفوسهم ، وتركوه يتصرف فيهـا بالتزكية والتطهير والتعليم والحكم والسياسة وسائر شئونهم ، العامة والخاصة ، الداخلية والخارجية ، حتى اتسعت أمامهم مسالك الحياة وانفسحت رقعة المملكة الإسلامية طولاً وعرضاً ، فما احتاجوا وهم يقلبون القرآن بين أيديهم ، ويفهمون آياته الواضحة ، وإشاراته الواردة على سَنن اللغة العربية القويم ، إلى قانون سياسى أو مدنى ، ولا إلى نظريات الآداب والأخلاق ، بل كانوا كلما تقدمت بهم الحياة ونظروا فى القرآن ، رأوا فيه حاجتهم ، واستفادوا منه أكبر ما تطمح إليه النفوس الوثابة المتطلعة إلى عز الدنيا ومجد الحيـاة !

حصروا نظرهم إلى القرآن فى الفهم والاتعاظ وتنفيذ الأوامر واجتناب النواهى ، وأخذوا ينشرون ما يفيضه عليهم من أصول التشريع وقوانين الأخلاق والاجتماع على سائر المسلمين فى جميع بقاع الأرض شرقاً وغرباً ، فوحد القرآن بينهم حول الغاية التى لأجلها نزل . وما كانوا ليتجهوا أو ليحاولوا أن يخرجوا بشىء من آى القرآن كلا أو بعضاً عن هذا النهج : نهج العمل ، وتهذيب الخلق ، وإصلاح العقيدة

ما فكروا يوماً فى أن القرآن يبرئ لهم مريضاً ، أو يرد عنهم غائلة عدو ، أو يكشف لهم عن معضلة كونية إلا عن طريق ما أمر به من اتخاذ الأسباب ، وقدح زناد العقل ، والسلوك فى الحياة على ما تقتضيه سنة الحياة .

بهذا سار المسلمون الأولون ، وعظم سلطانهم ، وتربت مهابتهم فى قلوب الأمم ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً .

وبهذا حافظوا على وحدتهم فلم يتفرقوا فى العقائد ، ولم تشتتهم الأهواء والمذاهب ، وسلم لهم دين الله وكتابه خالصين متينين لم تلعب بهما الشهوات ، ولم يتطرق إليهما عوامل الأحداث والابتداع

القرآن والمسلمون فى العهود التالية

مضى ذلك العهد ، وقد اتسعت بفضـل القرآن وتأثيره فى النفوس رقعة الإسلام ، وامتد سلطانه ، ودخلته حضارات وثقافات وعناصر مختلفة وأمم متباينة ، فبدأت عوامل التفكك تتسرب إلى الوحدة الإسلامية

حدثت بدعة الفِرق ، والتطاحن المذهبى ، والتشاحن الطائفى ، وأخذ أرباب المذاهب وحاملو رايات الفرق المختلفة يتنافسون فى العصبيات المذهبية والسياسية ، وامتدت أيديهم إلى القرآن ، فأخذوا يوجهون العقول فى فهمه إلى وجهات تتفق وما يريدون

وبذلك تعددت وجهات النظار فى القرآن ، واختلفت مسالك الناس فى فهمه وتفسيره ، وظهرت فى أثناء ذلك ظاهرة خطيرة هى تفسير القرآن بالروايات الغريبة والإسرائيليات الموضوعة التى تلقفها الرواة من أهل الكتاب وجعلوها بياناً لمجمل القرآن وتفصيلاً لآياته ، ولم يروا بأساً من أن يضيفوا إليه خصائص موهومة فى شفاء الأمراض وقضاء الحاجات وتفريج الكربات

ومنهم من عنى بتنزيل القرآن على مذهبه أو عقيدته الخاصة ، وبذلك وُجدت محكات الفقهاء والمتكلمين وغلاة المتصوفة وغيرهم ممن يروجون لمذاهبهم ويستبيحون فى سبيل تأييدها والدعاية لها أن يقتحموا حمى القرآن ، فأصبحنا نرى من يؤول الآيات لتوافق مذهب فلان ، ومن يخرجها عن بيانها الواضح وغرضها المسوقة له لكيلا نصلح دليلاً لمذهب فلان ، وبهذا أصبح القرآن تابعاً بعد أن كان متبوعاً ، ومحكوماً عليه بعد أن كان حاكما

كانت هذه ثورة ، وثورة غير منظمة ، عقدت حول القرآن غباراً كثيفاً حجب عن العقول ما فيه من نور الإرشاد والهداية . وكان من سوء الحظ أن صادفت هذه الثورة عهد التدوين ، فحفظت ودونت كثير من الآراء الباطلة فى بطون الكتب ، وأخذت بحكم الأقدمية وصرور الزمن نوعاً من القداسة التى يخضع لها الناس ، فتلقاها المسلمون فى عصور الضعف الفكرى والانحلال السياسى كقضايا مسلمة وعقائد موروثة لا يسوغ لهم التحلل منها ولا الاعتداء عليها ولا التشكيك فيها

قيد هذا التراث المقول والأفكار بقيود جنت على الفكر الإسلامى فيما يختص بفهم القرآن ، والانتفاع بهداية القرآن ، لجمد الناس على تقليد هذه الكتب ، واتخذوها حكما بينهم ، واعتقدوا كل ما فيها من غير تمييز بين حق وباطل ونافع وضار ، واعتقدوا أنه لا يصح لمؤمن أن ينكر شيئاً منها ، وقالوا : هذا شىء درج عليه السابقون المتقدمون ، ودونوه فى كتبهم ، وشرحوا به كتاب الله ، وتلقته الأمة بالقبول ؛ وما كان لنا ، ولسنا بأعلم منهم بالدين ، ولا بأبعد نظراً فى فهم أساليب القرآن وتخريج الأحكام ، أن نحيد عما تلقيناه منهم قيد شعرة ، ولا أن نخالفه فى قليل ولا كثير

وبذلك أسلموا عقولهم إلى غيرهم ، وجنوا على أنفسهم بحرمانها لذة التفكير ، وجنوا على دينهم باعتقاد أن هذه الأوهام من الدين

وكما أفسدت عليهم هذه النزعة حياتهم الفكرية ، وصورت لهم دينهم بهذه الصورة المشوهة، جنت كذلك على حياتهم العملية فتركتهم يزهدون فى الدنيا ، ويكبلون الناس بما يفهمونه من معنى القضاء والقدر ، ويكلونهم إلى التوكل الجاف الذى لا يعتمد الأسباب ! وبذلك افتقر المسلمون والناس من حولهم أغنياء ، وضعفوا والناس من دونهم أقوياء ، وحيل بينهم وبين الأخذ بالأسباب على حين سخر الناس السماء والأرض والجو والماء !

محمود شلتوت

« البقية فى العدد القادم »

المسألة الاجتماعية في مصر والشرق

بيني وبين الأستاذين

فكري أباظة وتوفيق الحكيم

للدكتور زكي مبارك

كنت توهمت أن طول عهدي بالصحافة السياسية والأدبية جعلني أعرف الناس بأساليب الجدال ، وأقدرهم على الفهم لمذاهب الصحفيين في إقرار الحقائق وإزهاق الأباطيل

وكنت توهمت أيضاً أن الصحافة تَهدِي الجمهور ، وإن كان الظاهر يلوّح بأنها تستهديه ، فقد كان مفهوماً عندي وعند أكثر الناس أن الصحافة قوة نورانية تبدّد الظلمات ، وتأخذ بيد المجتمع إلى درجات التقدم والارتقاء

كنتُ وكنت ، إلى أن تلقيت عن الأستاذ فكري أباظة درساً لن أنساه ، فما هو ذلك الدرس ؟

كان الأستاذ توفيق الحكيم نشر مقالاً في مجلة المصور عن الإصلاح الاجتماعي ، وقد صرّح في ذلك المقال بأن المجتمع المصري سيظل في انحطاط ما دام في مصر جماعة من الأغنياء يستأثرون بمصادر الخيرات ؛ ثم قرّر أنه لا نجاة لمصر إلا يوم تصبح « المسألة الاجتماعية » في قوة « المسألة السياسية » ، فتسبب إسقاط الوزارات ، وتقدّم وتؤخر في مراكز الأحزاب

وقد رأيت مقال الأستاذ توفيق الحكيم ضرباً من الحديث المعاد ؛ فقد مضت أجيال والناس يتحدثون عن « اليوم الموعود » : اليوم الذي توزَّع فيه أموال الأغنياء على الفقراء . وانتظارُنا لذلك اليوم سيطول ، فمن الخير أن نفكر في إسعاد الفقراء بطريقة عملية ، فندرس أسباب الفقر لنقتلع جذوره من الأساس . ثم رأيت أيضاً أن الكلام عن « المسألة الاجتماعية » ليس إلا « بضاعة أجنبية » فهو منقول عن جماعة من الكتّاب الأوربيين والأمريكان ، وما يقال في الغرب لا يصلُح دائماً لأهل الشرق

وسارعتُ فأرسلت مقالاً إلى المصور في تقرير هذه المعاني . وفي العدد الذي تلا ظهور المقال رأيت الأستاذ فكري أباظة يتبرأ مني ، ويعلن أنه تلقى مئات الرسائل في تفنيد ما رأيت ، وأنه سيتولى الرد عليّ في العدد المقبل ؛ فكان رده تحريضاً للجمهور على الكاتب الذي توهمّ أن الأستاذ فكري أباظه رجلٌ يحترم حرية الرأي ؛ فرددت عليه بمقال أعلنت فيه أن « الفقر مرض ، ولكل مرض أسباب » ، فعاد فقرّر أن الرسائل التي وردت في الرد عليّ بلغت الألف عدًّا . ثم وجّه إليّ كلمات لا يليق صدورها عن زميل كنت أراه غاية الغايات في رعاية أقدار الزملاء

واليوم ، ماذا أريد أن أصنع ؟ ؟

أريد أن أحرر الأستاذ فكري أباظة من الاستعباد للرسائل التي تُمدّ بالمئات أو بالألوف ، فقد يخاف على « المصور » من غضبات القراء ، وأنا أحب أن تدوم عليه وعلى مجلة « المصور » نعمة العافية ، فهو صديق وهي صديق ، وإن لقِيت منه ومنها ما لقيت ! !

أريد أن أختبر قدرة الأستاذ فكري أباظة على الأبحاث التي تحتاج إلى تعمّق واستقصاء ؛ فقد رأيته ينتقّل تنقّل الطير من فَنَن إلى أفنان ، ورأيته لا يصبر على « الطعام الواحد » غير أوقات تُمدّ بالآحاد ، وهو يدرك مَرَدّ هذه الإشارة في الأدب والتاريخ

أما الأستاذ توفيق الحكيم فقد خرج بالصمت عن لا ونعم ، ولكني سأعرف كيف أسوقه برفق أو بعنف إلى شرح مذهبه في الإصلاح الاجتماعي ، إن كان في اعتناق ذلك المذهب من المؤمنين ؛ فأنا أخشى عليه عواقب التودد إلى القراء بأساليب يغلب عليها الترفق المصنوع

وأنا لا أخاف على « الرسالة » كما خاف الأستاذ فكري أباظة على « المصور » ، فالقراء لن ينصرفوا أبداً عن مجلة تواجههم بالصدق في تشريح الآراء والأهواء(١) . ولو كنت أعرف أن مجلة المصور ستخذلني لطويت عنها رأيي ، وتركتها تتودد إلى القراء ، كما تشاء !

أخذ الأستاذ فكري أباظة يبدئ ويعيد في التوجع لمصاير الصناع والعمال والفلاحين ، كأنه يتوهم أن التوجع شفاء من كل داء !

نحن لا نريد أن نقيم اللاطم والمناحات على ما صرنا إليه ، وإنما نريد أن ندرس جميع الظواهر الاجتماعية بصدق وإخلاص ، وإن غضب علينا بعض من لا يفقهون

(١) رأي الرسالة في الفقر والفقراء معروف

فهل يخرج الأستاذ فكرى أباظة على مذهبه المألوف فى تقييد الخواطر اليومية ليلقانى على صفحات الرسالة وقد استعد لنضال شريف سيعود على المجتمع بالنفع الجزيل ؟

لقد نهانى الناصحون عن هذا الموضوع الشائك ، وقالوا إن فى مصر تياراً من الحقد على الأغنياء ، وإن من العقل أن أساير ذلك التيار ، كما يصنع الأستاذ فكرى أباظة والأستاذ توفيق الحكيم

وأقول إنى أقاوم ذلك التيار لمنفعة وطنى ، فالوطن الغالى يناشد أبناءه جميعاً أن يعيشوا فى تعاون وتساند ، وهو يدعو الفقراء إلى الفرح بسعادة الأغنياء ، كما يدعو الأغنياء إلى البرّ بالفقراء . ولن يعطف الله على الفقير إلا يوم يفرح بحلول النعمة على جاره المسعود ، والفقير الذى يفرح بفرح جاره الغنى هو الصورة الصحيحة للأدب الذى دعانا إليه الأنبياء

أما بعد فما هو أصل الخلاف ؟ يقول الأستاذ فكرى أباظة : إنى حملت على الفلاحين والفقراء . لا ، ياصديقى ، وإنما كان رأيى أن الفقر الذى يعانيه بعض الفلاحين والعمال والصناع له أسباب ، لأن الفقر فى الجيب كالعلة فى الجسم ، ولكل نتيجة مقدمات

فما وجه الخطأ فى هذا القول ؟ وهل من الصحيح أن جميع الفلاحين والعمال والصناع منزهون عن الأغلاط ؟

إن كان ذلك فكيف يصيبهم الفقر وهو لا يصيب غير من حُرِموا قوة الأخلاق الاجتماعية والماشية ؟

وكيف اتفق لجميع المصلحين أن يضعوا آداباً لطلب الرزق ، وهى آداب موجهة إلى الفقراء ؟

وكيف يحرّم علينا أن ندعو فقراءنا إلى التخلق بالأخلاق الاجتماعية والماشية ، وهى دعوة تلقيناها عن أسلافنا الأمجاد ؟

وأهجم على الأستاذ فكرى أباظه فأوجه إليه هـذا السؤال :

إذا صح أن جميع الفلاحين والعمال والصناع على جانب عظيم من الأخلاق الاجتماعية والماشية فكيف جاز أن يعيشوا فقراء ونحن نعرف أن السلامة من الآفات الأخلاقية تضمن السلامة من آفات البؤس ؟

ثم أوجه إليه سؤالاً آخر فأقول :

إذا صح أن جميع الفقراء فى غاية من الأمانة والصدق فكيف جاز أن يقوم بينهم وبين الأغنياء حجاز سميك لا تنفذ منه بوارق التعاون إلا فى أندر الأحايين ؟

ثم أوجه إليه سؤالاً ثالثاً فأقول :

إذا صح أن الناس جميعاً بخير من الوجهة الأخلاقية فلأىّ غرض تنشأ الجرائد والمجلات ؟ ولأية غاية تقام حدود الشرائع والقوانين ؟

إن كان الأستاذ فكرى أباظة راضياً عن أحوال الصناع والعمال والفلاحين ففى الدنيا أقوام يرون غير الذى يراه ، ومن حق أولئك الأقوام أن يعلنوا آراءهم بلا تخوف ولا تهيب ، لينقلوا المجتمع من حال إلى أحوال ، وليخطوا فى كتاب الإصلاح الاجتماعى صفحة جديدة يحفظها التاريخ

ثم ماذا ؟ ثم يسألنى الأستاذ فكرى أباظة عن أهلى فى الريف ، وهو يؤكد أن أقدامهم الممزقة وأياديهم الخشنة وصدورهم المحروقة ووجوههم اللوحة تشهد بأنهم أشقى سكان العالم وأعنفهم عملاً وكداً وكدحا

وأقول إن أهلى ليسوا كذلك ، مع الأسف الموجع ؛ فلو كنت أعرف أن لأهلى فى الريف أقداماً ممزقة ، ووجوهاً ملوحة ، لطابت نفسى ، وأيقنت أن الريف لا يزال بخير ، وإنما أعرف أن أهلى وأهلك تسامعوا بأن القاهرة نشأ فيها رجال يبكون أو يتباكون لشقاء الفلاح ، ويزعمون أن الفلاح الأوربى أو الأمريكى يعيش عيش السعداء ، فلا يعانى صحبة الفأس والمحراث إلا وفى يده جريدة يطالع فيها أخبار الصباح أو أخبار المساء ! !

ليت أهلى فى الريف حفظوا عهد جدّى ، فقد كان جدى رحمه الله يحدّث أبناءه بأن الحقل يفرح بصاحبه حين يراه ، وهم اليوم لا يرون حقولهم إلا فى الحين بعد الحين ، وأكثرهم يخجل من أن يسحب بقرة أو يركب جملاً ! وكيف يسحبون البقرات أو يركبون الجمال وهم من أبناء الجيل الجديد ، الجيل الذى ينشىء فى سنتريس أكثر من سبع قهوات مع أن أهلها لا يجاوزون عشرة آلاف ، ومع أن الآباء والأجداد فى سنتريس لم يكونوا يشربون غير الماء القراح

أريد أن أرى بين أهلى رجلاً ممزق القدمين من آثار الكدح الموصول لأتقرب إلى الله بالثناء عليه ، ولأنشر عنه مقالاً فى مجلة مصرية أو شامية أو عراقية

أنا لم أفكر فى « إحداث ضجة » تقع كارثتها فوق رأسى ، كما يهددنى الأستاذ فكرى أباظة ، وإنما أفكر فى مصاير قومى ،

وأنا بشهادة خصومى أصدق الناس فى الوطنية ، ولله الحمد على هذا الميراث النفيس

وأهجم على الأستاذ فكرى أباظه مرة رابعة فأوجه إليه هذا السؤال :

هل تعرف ، أيها السيد ، كيف حُرِم أبناء الريف نعمة الشاعرية ؟

ولكن ما هذه الشاعرية ؟

إليك أسوق الجواب :

كان جميع أبناء الريف يتعلقون بمزارعهم إلى حد الفتون ، فكان الرجل منهم يراعى مزروعاته بشغف وشوق ، ويكاد يعرف كيف تطول الورقة الخضراء من ساعة إلى ساعة ، بل من دقيقة إلى دقيقة ، بل من لمحة إلى لمحة ؛ وكان الرجل منهم يعطف على مواشيه كما يعطف على أبنائه الأعزاء ؛ وكان الفلاح يعرف ملامح كل شجرة ، ويأنس بكل نبتة ، ويكاد ينظم قصيدة رثاء حين يرى سنبلة قصمتها الرياح

فأين أهلونا فى الريف من هذه المعانى بعد أن سمموا بقصة التمدن الحديث ؟

أين أهل الريف من هذه المعانى ، وما نشأ منهم ناشئ إلا وهو يرجو الرحيل إلى القاهرة ، ليجد وظيفة تغنيه عن الأنس بمزارع القطن والقمح والفول ؟

إن أسلافنا القدماء عبدوا مصادر الخيرات فى بلادهم إلى الحد الذى سمح بأن يروا معنى الألوهية فى البقرة الحلوب ، وإلى الحد الذى سمح بأن يعتقدوا أن النيل إله معبود

فأين نحن من أولئك الأسلاف ؟ وأين فينا من يتشرف بأنه فلاح وابن فلاح ؟

لقد توهم الأستاذ فكرى أباظة أنى من « سادة الصالونات الأرستقراطية التى تعيش فى دنيا الجاتو والجيلاتين والجامبون والمارون جلاسيه » . فليعرف أن هذه الألفاظ تحتاج إلى شرح يقرّبها إلى ذهنى بعض التقريب ، لأن بيتى لا يعرف هذه الأصناف ، ولأن من يتفضلون بدعوتى إلى بعض الولائم يطوونها عنى ، ولأنى نسيتها نسياناً تامًّا بعد فراق باريس ، إن كنت ذقت فى باريس غير إقذاء العينين تحت ضوء السراج

ماذا أريد أن أقول ؟

أنا أريد القول بأن دنيا الناس فى مصر قد أصيبت بالانحراف وإلا فكيف جاز أن تكون دعوتى إلى إصلاح أخلاق الفقراء كارثة لا تقع إلا فوق رأسى ؟ !

وكيف يجوز أن يكون الأستاذ فكرى أباظة من خصومى ، وقد اكتوت يداه بالانحراف الاجتماعى كما اكتوت يداى ؟

بلادنا مهددة بالشقاء ، بسبب سوء الفهم لعناصر النظام الاجتماعى ، فما الذى يمنع من أن نتعاون على الإصلاح المنشود ؟

ومتى ندرك أن تمزيق أقدام الفلاحين هو شارة من شارات التشريف ، وليس باباً من أبواب الرثاء ؟

من حق الأستاذ فكرى أباظة أن يتوجع لمصاير الفقراء من العمال والصناع والفلاحين ، أما أنا فلن أتوجع لمصاير أولئك ولا هؤلاء ، لأنى أومن بأن الله خلق منافع الوجود لجميع الناس ثم دعاهم إلى التسابق بقوة العزيمة والأمانة والصدق والإخلاص فربح من ربح وخسر من خسر ، كما كان يعبر أستاذنا الشيخ مصطفى الظواهرى

الله وحده هو الذى يعلم سريرتى فى إثارة هذه المشكلة الاجتماعية ، ومنه وحده أستمدّ العون على من يعادوننى ظالمين آثمين . وإلى اللقاء بعد أن أسمع حجج الناظر الفضال

زكى مبارك

في العقد

لأستاذ جليل

صاحب البيت الثاني : (ولرب مأخوذ بذنب عشيره) هو غير صاحب البيت الأول : (جانيك من يجني عليك ...) وإذا كان قد قاله كما روى صاحب (العقد) والشريشي شارح (المقامات) فقد سار مع العروض التامة . ويظهر أن أديباً استطال[1] الصدر فاستبدل به : (ولرب مأخوذ بلا قرف) ـ واقترف في هذا المعنى أكثر ـ فخرج بذلك من (العروض[2] التامة والضرب الأحذ المضمر) إلى (العروض الحذاء المضمرة والضرب الأحذ المضمر) ولم يذكروا هذه العروض ، ولم ترد في أشعارهم ، وإذا جاءت فإنما تجيء في مطالع القصائد مصرّعة[3] كما قال صاحب (العقد) في مقطوعة (عروضية) :

عينيّ ، كيف غررتما قلبي وأبحتماه لوعة الحب ؟ !
يا نظرة ، أذكت على كبدي ناراً قضيت بحرها نحبي !
خلوا جوى قلبي أكابده حسبي مكابدة الجوى حسبي !
عيني جنت من شؤم نظرتها ما لا دواء له على قلبي !
جانيك من يجني عليك وقد تعدي الصحاح مبارك الجرب[4]

ولا تصريع في بيتينا

وقد يقال : إن أديباً آخر فطن لذلك الخروج في (بلا قرف) فبدل به (بلا ترة) فأقبلت النغمات متوائمة[5] وإن لم يبن البيت هنا إبانته في تينك الروايتين

وبعد فإن رواة البيت : (جانيك ...) في كتب اللغة والأدب قد غلطوا في روايته فالبيت مرفوع لا مخفوض ، ولا إقواء فيه ، وقد قصد صاحب اللسان (وتبعه صاحب التاج) جبره بهذه الرواية :

جانيك من يجني عليك وقد تعدي الصحاح فتجرب الجرب

فما انجبر ، و (مَبارك) في البيت ليست مرفوعة وإنما هي منصوبة

وقد شاء الله أن يكون الفضل في إعلان الرواية الصحيحة المحققة لهذا البيت لمجلة (الرسالة) في هذا الزمان ؛ والإفضال على الأدب العربي في كل جزء ، في كل أسبوع ، هو مجّيراها ، هو دأبها ، وحسبها وحسبنا تلك (الأولى) لربها فيه

البيت لذؤيب بن كعب في مقطوعة (ستة أبيات) قالها في يوم تِيَاس[6] ، وهو من أيام العرب ، وقد ذكره صاحب (العقد) مختصراً ، وأورد ثلاثة أبيات من المقطوعة . وروى الخبر أتم والمقطوعة كاملة أبو عبيدة في تعاليق (النقائض) ، وستظهر تعليقة البيت حقيقة الرواية . وقد رأيت أن أنقل الخبر والأبيات والتعليقة لندور تلك الطبعة الغربية في الشرق . ومحقق (النقائض) وناشرها هو العرباني الأستاذ (ا . ا . بيفن)

قال أبو عبيدة : « كانت قبائل بني سعد بن زيد بن مناة ، وقبائل بني عمرو بن تميم التقت بتيّاس ، فقطع غيلان بن مالك ابن عمر بن تميم رجل الحارث بن كعب بن سعد بن زيدِ مناةَ ، فسمي الأعرج ، فطلبوا القصاص ، فأقسم غيلان ألا يَعقلها ولا يُقصها حتى تحشى عيناه تراباً ، وقال :

لا نعقل الرجل ولا نديها حتى ترى داهية تنسيها

فالتقوا فاقتتلوا ، فجرحوا غيلان حتى ظنوا أنهم قتلوه ، ورئيس عمرو[7] كعب بن عمرو ، ولواؤه مع ابنه ذؤيب ، فجعل غيلان يدخل البوغاء[8] في عينيه ويقول : تحلل غيل[9] ، حتى

(١) استقصره عده قصيراً ـ كما في الصحاح ـ واستطاله عده طويلا وإن لم يرد ـ كما قالوا ـ . في التاج : استعمل البيضاوي كالزمخشري استطال متعديا ، وبنوا منه مستطالا ، ووقع في المفصل ، وقد استعمله السعد في المطول

(٢) عروض الشعر أنثى وربما ذكرت (اللسان)

(٣) ربما صرعوا في غير المطلع

(٤) يختم صاحب العقد كل مقطوعة عروضية ببيت قديم ، وقد ختمت هذه بالذي نحن في مشكلته . . .

(٥) الأساس : غناء متوائم : متناسب ، قال ابن أحمد :

أرى ناقتي حنت بليل وشاقها غناء كنوح الأعجم المتوائم

(٦) اللسان : تياس موضع بالبادية كان به حرب حين قطعت رجل الحارث بن كعب فسمي الأعرج

(٧) يعني بني عمرو

(٨) البوغاز : التراب عامة ، التراب الناعم ، وقيل هي التربة الرخوة التي كأنها ذريرة (اللسان)

(٩) مرخم غيلان ، ومن أبيات الكتاب في ترخيم مروان والبيت للفرزدق :

يا مرو ، إن مطيتي محبوسة ترجو الحباء وربها لم ييأس

مات . فقال ذؤيب بن كعب لأبيه(١٠) كعب :

يا كعب ، إن أخاك منحمق　　إن لم تكن بك مِرة كعب(١١)

أمجود بالدم ذي المضنة في الـــجلي ، وتلوى الناب والسقب

فالآن إذ أخذت مآخذها　　وتباعد الأنساب والقرب(١٢)

أنشأت تطلب خطة غبناً　　وتركتها ومسدُّها رأب

جانيك من يجنى عليك وقد　　تعدى الصحاحَ مباركَ الجرب

والحرب قد تضطر جانبها　　إلى المضيق ودونها الرحب(١٣)

قال أبو عبيدة : أنشدني داود أحد بني ذؤيب : (الصحاحَ مباركُ الجرب) فرفعوا مبارك ، وجروا الجرب ، وذلك أقواء

قال أبو الخطاب : إن عامة أهل البدو ليس تفهم ما يريد الشاعر ، ولا يحسنون تفسيره ، وإنما أتى إقواء هذا من قلة فهم الذين رووه ، وإنما عنى الشاعر (وقد يعدى الأجربُ الصحيحَ مبركا) فلما وجدوه مقدماً ومؤخراً لم يحسنوا تلخيصه ، ووجدوا مبارك لا ينصرف ، فأظلم عليهم المعنى ، وإنما أراد :

وقد تعدى الصحاحَ مباركَ الجربُ(١٤) »

قلت : (الصحاح مبارك) التي لم يفهمها البدو في ذلك الوقت ... هي مثل الحسن وجها في قصة (الصفة المشبهة) ذات الستة والثلاثين وجهاً ... !

ومن أبيات الكتاب :

فما قومي بثعلبة بن سعد　　ولا بفزارة الشُّعرى رقابا(١٥)

قال الشنتمرى : « نصب الرقاب بالشعرى على حد قولك الحسن وجهاً ، ويجوز فيه (الشُّعرِ الرقابا) على ما أنشده بعده وهو كقولك : الحسن الوجه بالنصب على الشبه بالمفعول به . وصف فزارة بالغم وهو كثرة شعر القفا ومقدم الرأس ، لأنه عندهم مما يتشاءم به ويذم ، والمحمود عندهم النزَع ، وهو انحسار الشعر عن مقدم الرأس ، والشعرى مؤنث الأشعر ، وهو منه كالكبرى من الأكبر ، وأنثه لتأنيث القبيلة ، والشعر جمع أشعر ، فجمع لأنه جعل كل واحد منها أشعر ، فجمع على المعنى »

وأختم هذه الأسطر بالشكر للأستاذ المفضال عبد السميع صبري

***

(١٠) في طبعات العقد : لابنه ، وهو غلط

(١١) انحمق الرجل : ضعف من الأمر ، وفي اللسان : فاشدد إزار أخيك يا كعب

(١٢) في طبعة (النقائض) ضبطت الراء بالفتح ، والقرب بالسكون مثل القرابة كما في الصحاح واللسان وغيرهما

(١٣) في طبعات العقد : قد يضطر جانبها نحو المضيق ودونه الرحب .

(١٤) ضبطت الباء في (النقائض) بالكسر بعد شرح أبي الخطاب كله . . . والخبر والشعر في النقائض (٢) ص (١٠٢٥)

(١٥) الحارث بن ظالم . ولرؤبة وهو من أبيات الكتاب :

الحزن بابا والعقور كلبا

والحزن خلاف السهل

على ذكر المولد النبوى

للدكتور عبد الوهاب عزام

الذِكَر العظيمة فى تاريخ الأمم نجوم يُهتدى بها فى ظلمات الأيام، وأعلام يستبين بها الطريق فى ضلالات الزمان، ودعوات إلى الحق والخير تدوّى على مر السنين. والزمان بالناس دائر لا يفتر، تمتورهم أحداثه، وتتداولهم غِيره، فمن لم يعتصم بسبب من الحق، ويستمسك بعروة من العمل الصالح، ضلّ وانبهمت عليه السبل، والتبس عليه الحق والباطل، والهدى والضلال. ومن لم يجعل له قدوة من سير العظماء تردّد وتحيّر، والزمان لا ينتظر المترددين الحيارى، أو ضل وهلك، والدهر لا يشفق على الضُلاّل والهلكى.

وإن لنا معشر المسلمين من سيرة رسولنا خاتم النبيين نجوماً نيّرات، وأعلاماً واضحات، وأسمى تهدى إلى الخير والبر، والتى هى أقوم من أعمال الدين والدنيا. إن لنا من سيرة الرسول الكريم هدى فى كل صغيرة وكبيرة من أعمال الفرد والجماعة.

فقد حفظ لنا التاريخ سيرته فى بيته ومسجده، وفى سياسة الجماعات، وتربية الأمم، وقيادة الجيوش، وفى الإصلاح بين المتعادين، والقضاء بين المتخاصمين، وفى السفر والحضر، والشدة والرخاء، والحرب والسلم، والغضب والرضا، فما تلقانا حادثة من حوادث الزمان، أو عمل من أعمال الحياة خيرها وشرها، وحلوها ومرها، إلا وجدنا فى سيرة سيدنا ونبينا وحبيبنا محمد صلوات الله عليه وسلامه مثلاً عالياً، وأسوة حسنة، ورأياً هادياً، وقضاء فصلاً، يهدينا إلى ما فيه صلاح الدنيا والآخرة. كل فرد منا يجد فى سيرة محمد وهديه شفاء دائه، والتحرر من أهوائه، وإصلاح خلقه؛ وكل فرد منا يجد فى سيرة نبيه الجهاد فى الحياة والصبر على لأوائها، والطموح إلى معاليها، والاستكبار عن دناياها، والإباء على كل ضيم والنفور من كل مذلة

وكل أمة من أمم المسلمين تدوى فيها ليل نهار الدعوة المحمدية تدعوها إلى أن تقوم فى أرض الله على عباد الله بقانون الله «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»

وكل أمة على هذه الأرض تجد فى هُدى محمد ما يَطبّ لدائها، ويقيم من عوجها. وهل أودى بالجماعات إلا عصبيات باطلة، وأهواء جامحة، وشهوات مسلّطة، واستكبار على الحق، ونفور من العدل؟ هل كبّ الناس فى جهنم إلا ما استعر فى قلوبهم من الضغينة، وثار فى رءوسهم من الهوى؟ وهل يعرف التاريخ كمحمد رسولاً جاء بالشرع الجامع، والأخوة العامة، والعدل الشامل؟ هل يعرف التاريخ كمحمد هادياً ألّف بين منازع النفس على قانون من العفة والعدل، وألّف بين الإنسان والإنسان على شريعة من المودة والأخوة، وألّف بين الأمة والأمة على منهاج من الحق والبر والعمل الصالح لخير الناس أجمعين؟ من رفع للناس لواء الأخوة لا يفرق بين الأبيض والأسود، ولا يميز بين المشرق والمغرب؟: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم». من دعا الناس جميعاً إلى التنافس فى الخير على اختلاف أديانهم ونحلهم وأنزل عليه: «ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شىء قدير». «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون»

أين أنتم من هذه الأخوة الجامعة يا ضُلال البشر؟ أين أنتم من دعوة الخير العامة يا دعاة الشر؟ أين أنتم من هذه الرحمة يا قساة القلوب؟ أين أنتم من هذا الصلاح يا فساد الشعوب؟ المسلمون أحق باللوم وأجدر بالتعنيف. فهم أهل هذا الدين

وأولى الناس بهديه ، وهم هم خذلوه وهجروه ، وحفظوا ظاهره وضيعوه . « وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا » فإن ترهم اليوم في فرقة وشقاق فبما ضيّعوا أخوّة الإسلام ، وإن ترهم في مذلة وهوان فبما فرطوا في عزة الإسلام ، وإن ترهم أتباعاً فقد علمهم الإسلام مشرعة السيادة فنبذوها ، وأعطاهم أزمة القيادة فأضاعوها

أيها المسلمون ، هذه ذكرى نبيكم ، وميلاد تاريخكم ، ومبدأ مجدكم ، ومنشأ سعادتكم ؛ فإن شئتم لأنفسكم السيادة والسعادة فكونوا أهلاً لهذا الشرف . كونوا بأخلاقكم وأعمالكم جديرين بأن تسمّوا أمة محمد . ولا تتخذوا الانتساب إلى محمد هزواً ولعباً ، وتحسبوا الإسلام أسماء وأقوالاً ، فإنما هو الأخلاق والأفعال والجهاد الذي لا يفتر ، فمن شاء أن ينتسب إلى محمد فهذه سنته ، ومن شاء مجد محمد فهذه طريقته

« يأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشرا ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا » .

عبد الوهاب عزام

نظرة في منـــــاظرة

للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك

قال بعض أصحاب الفكر والذوق للمعاني : إن الثقافة وعى أطراف صالحة من أثمار العقول ، العلمية والفنية والأدبية ، بها يلتفت المثقف إلى المبادىء والأسباب والقوانين والحقائق ، ويرشد قومه إلى الأصلح لحالهم ، والأنفع لترقيتهم ، والأخلق بالإنسانية ...

ومناظرة الأستاذ العقاد بكلية الآداب ـ في أن « التراث الشرقي كاف لنضج الحياة العقلية بين الشرقيين » ـ هي مشاركة في بحث يمتّ إلى هـذه الثقافة ، إذ يرمى إلى إثارة الأذهان بالكشف عن الحقيقة في الخلاف بين الداهبين إلى الأخذ عن الغرب وبين القائلين بالاقتصار على تراث الشرق ، في سبيل نهضتنا ؛ والحقيقة تتبيّن من مقابلة الشيء بضده ، والموازنة بين الرأيين

ألقى على الأستاذ الفاضل عبء الدفاع عن الرأي الذي يصعب تأييده ، وهو ابن بجدته ، فجاء من الحجج بما يعسر الخروج منه . وكان كلامه ، مع إيجازه المطابق لمقتضى المقام ، أحسن ما يستطيع مثقف أن يقول في الموضوع . وفي الأدب العربي فصول في مثل إيثار الدمامة على الجمال ، ونحو ذلك من الموضوعات التي لا يُجيد متناولها إلا بأوفر دراية ولباقة . لكن ذلك الكلام أذكرنا مناقضات نوردو[1] للآراء المألوفة في الاجتماعيات والنفسيات ، ورسالة روسو[2] في حمد الجهل وتفضيله على العلم ، وقد أجازه عليها مجمع ديجون[3] وكدنا نصدقها يوم قرأناها

استخدم المناظر منطقاً وبياناً في طريقة حصيفة هدته إليها ثقافته ؛ وصاحب المنطق يستطيع أن يهدى به ويضل ، وصاحب البيان ساحر ، والثقافة قدرة إن شاء حائزها أحالت الهدى ضلالا والضلال هدى ، وهو لم يشأ ، بل أراد فتق الأفكار والآراء بالمناقضة ، وتعليم النظر الأدبي وذلاقة اللسان بالمثال البارع ؛ وافتتح كلامه بقوله « كان من نصيبي » أن أؤيد هذا الرأي ، فكأنه أراد أن ينبه في لطف على قبوله القيام بهـذا التأييد كي تقوم المناظرة المفيدة ؛ ولم يقل إن رأيه الشخصي هو الاكتفاء بالتراث الشرقي ، وإن ساق الحجج الحاذقة في كفايته لنضج الحياة العقلية « عند الشرقيين »

***

قال : إن تراث الشرقيين هو « ما لهم من أشعار ومواعظ وأمثال وحكايات وآداب وقواعد سلوك ، وروح العقائد الدينية

---

(١) Max Nordau :
Paradoxes Sociologiques
Paradoxes Psychologiques

(٢) Jean Jacques Rousseau ; Eloge de l'Ignorance

(٣) Dijon

والحكمة النفسية والفكرية ، وما يصاحب ذلك من فقه شريعة ودين » .

أما العلوم الطبيعية التجريبية — يعنى العلوم الحديثة — والمعارف الرياضية ، فإنها خارجة عن التراث الشرق والتراث الغربى معاً ، لأن « الحقيقة الطبيعية ثابتة فى جميع الجهات » ، يكتشفها « الإنسان باعتباره إنساناً مدركا حيث كان » و « ما كشف منها فى الغرب تتمة لما سبقها منذ بداية عهد الإنسان بالمعرفة ، فهى جزء من التراث الإنسانى » ؛ ولأن المعارف الرياضية « لا تتوقف على المشاهدات والمحسوسات بمقدار ما تتوقف على قوانين العقل المجرد ، المعزول عن خصائص الأوطان والأزمان » .

* * *

لكن تحقيق النظر فى التراث الشرق محصوراً فى هذه الحدود يُظهر أن لبابه من ثمر أحوال النفس الواحدة فى البشر ، ومن أحكام العقل البشرى ونتائج تجارب الإنسان أينما كان ، ومن مقتضيات حاجاته فى الحياة الإنسانية : فالحب ـ مثلاً ـ فى الشرق هو الحب فى الغرب ، وكذلك البغض أو الشجاعة أو الجبن ، أو الفرح أو الحزن وسائر الوجدانيات ، وكل أولئك معزول فى ماهيته عن خصائص الأوطان والأزمان ؛ والإنسان « باعتباره إنساناً مدركا حيث كان » ، قد عرف حاجته إلى الحث على الخير والنهى عن الشر ، وإلى إقامة النظام يتقى به آفات الفوضى ؛ وهـذه المعرفة ونتائجها من التراث الإنسانى . ومن الحكم والمواعظ العربية ما له نظائر فى تعاليم « كونفوشيوس »[٤] مثلاً ، أو فى أخلاقيات « فوفنارج »[٥] ؛ وفى الشرائع الرومانية ما يقارب بعض الشرع الإسلامى ؛ وفى الأدب اليونانى ما يماثل بعض الشعر العربى ، وفى الأدب العربى ما يشبه أمثالاً وحكايات هندية أو فارسية أو غيرها ؛ وذلك كله بأن الإنسانية دارجة فى تطور عام واحد مطرد ، على نحو ما بينه « ريكلو »[٦] و « ويلز »[٧] وإن لم تخل قبائلها وشعوبها من أنواع التفاوت فى المدنية

فمهما كان على هذا التراث من مسحة وطنية ومن أثواب اللغة العربية ، فهو فى جوهره حلقة من سلسلة الأعمار العقلية والنفسية ، وهى سلسلة لا يقف تمددها « منذ بداية عهد الإنسان بالمعرفة » .

وتلك أمور إنسانية فى صميمها مهما كانت من قبيل ما يمتزج بحياة الشرقيين ، و « مصطبغ بصبغة الشرق ويجرى على سنته »

وليس هـذا بمانع من أن يقال : « إن الحياة العقلية إذا نضجت بين الشرقيين ، فهى لاحقة بالتراث الشرق أيا كان المصدر الذى جاءت منه أو حلت عنوانه » ، مثل الفلسفة اليونانية كما نقلتها الحياة العقلية الشرقية إلى الشرق العربى ؛ أو يقال : إن الحقيقة الطبيعية أو الرياضية منسوبة إلى العقل الناضج الذى كشفها — كنسبة قوانين الجذب العام إلى نيوتن[٨] — وإن كانت من « التراث الإنسانى »

* * *

أما العقل فإننا إذا اعتبرناه عضواً فى الإنسان ، كعينه وأذنه وسائر أعضائه الظاهرة والباطنة ، فهو ينضج كما تنضج بالبلوغ وتستحصف إلى الأربعين ، وهو يؤدى وظيفته كما تؤدى وظائفها ، وذلك منذ تميز الإنسان عن الحيوان فى ظلمات الماضى الأقصى ، بالنسبة إلى علمنا ، من اللانهاية الزمنية ، وإنما تميز بقدرة عقله على التصور والقياس والحكم . وعقل الإنسان « يعمل ويفكر ، ويبحث فيما يراه ويحيط به ، أيا كانت المسائل التى يتناولها بتفكيره وبحثه » منذ لم يكن له أى تراث فى أى

(٤) Confucius أو Koung-Fou-Tseu

(٥) Luc de Clapiers de Vauvenargues

(٦) Elisée Reclus

(٧) Vells

(٨) Isaac Newton

مكان ؛ ولولا ذلك لما سما إلى مستوى هذه الدنية . فالسلامة البدنية والصحة النفسية تكفيان وحدهما أبداً لتصحيح العقل الذى يصيب ويخطئ ، كما تخطئ العين وتصيب ؛ وبين الأفراد تفاوت فى حصافته الفطرية كتفاوت حدتها فيهم ، ولكنه عقل ناضج بهذا الاعتبار على كل حال .

كان العقل الناضج هذا النضج فى الإنسان « يعمل ويفكر فيما يراه ويحيط به » يوم كان صاحبه يعيش عيشة الوحوش المفترسة ، ويخشى ظواهر الطبيعة التى يجهل كل شىء من أسرارها ؛ ويوم أدرك ضرورة الحد من حريته الفردية الفوضوية ، ويوم وضع نُظُماً للعائلة فالقبيلة ، إلى آخر ما هنالك . وهذه مستويات تدرج الإنسان فى الرق إليها مع تدرج عقله الناضج فى نضجه التطورى بما غذاه ، فى كل وقت ، من تجاربه وتجارب سلفه وعمل عقولهم الإنسانية .

* * *

ويتضح مما تقدم بيانه أن العقل باعتباره عضواً من الإنسان له نضجان : نضج أول هو قدرته على تأدية وظيفته الفطرية ، وهو عام بين الأصحاء لا يُحسن تأديتها إلا به ؛ ونضج ثان هو إدراكه محصول أعمال العقول الإنسانية فى زمان معيّن من حياة البشر مع قدرته على المشاركة فى زيادة هذا المحصول أو تحسينه ؛ فللعقل البشرى فى كل مستوى أعلى من مستويات العرفان العام نضج أتمّ .

والجدير بالنظر إنما هو النضج الذى غذته أثمار العقول الإنسانية فى هذا الوقت ، والذى به يتيسر للمثقف أن يشارك فى إنماء هذه الأثمار أو تحسينها ، فى أية ناحية يميل إليها ، فيكون لعمله شأن يذكر له ويشكر ، والأستاذ نفسه أدرى الناس بالفرق بين نضج عقله القوى قبل أن يعى كل ما استوعب من الثقافة الغربية ، أو العصرية ، وبين نضجه بعد ذلك ؛ لكن كان عليه أن يعارض رأى مناظريه ، فعارضه بطريقة حاذقة شفّت عن هذا النضج الأخير ، أى عن ثقافة سامية

والخلاصة أن العقل يُعَد ناضجاً ، أو غير ناضج ، لا من حيث تأديته وظيفته فحسب ، بل من حيث قيمة ما وعى وما ينتج ، فهى قيمة مناسبة لدرجة علمه وثقافته ، والمهم إذن فى النضج إنما هو مستوى « الموضوعات والمواد التى يتناولها » عمل العقل ؛ ولذا ليس يمكن أن تنضج للشرقيين حياة عقلية إذا هم لم يأخذوا عن الغرب فى هذا العصر . أما إن هم اقتصروا على تراث الشرق بحاله المحدودة فى ثقافة عصر غابر كانوا كأنهم عائشون فيه ، ولمن أراد بنضج العقل ذلك النضج الأول ، أو أراد نضجاً عتيقاً ، أن يقول إن « التراث الشرقى كاف لنضج الحياة العقلية ، ولم يخل الشرق من العقول الناضجة قديماً وحديثاً »

فهارون الرشيد وابن خلدون كان كل منهما ناضج العقل فى مستوى الثقافة العربية فى زمانه ومكانه ، بعدئذ مضى على خروج العرب من شبه جزيرتهم قرنان إلى ثمانية قرون بنوا دولهم فيها على ما طوّعوا للدين والشريعة من نظم ومدنيات وفلسفات لأمم كاليونان والرومان والفرس وسواهم . أما جمال الدين الأفغانى فقد يكون فيما نعتوه به مواضع نظر لعلها تستدعى التحقيق العلمى المتحرّر من المؤثرات الوجدانية والسياسية ؛ ولولا تفاهة ما أفاد من الثقافة الفرنجية لاختلف شأنه . . .

وليس يصح أن نوازن بين عقول أمثال هؤلاء الرجال وبين عقول تلاميذنا لتفاوت الأسنان والتجارب والمشاغل ، ولقلة المحصول فى التلمذة فضلاً عن أننا ما نزال فى سبيل التحصيل من الثقافة الحديثة ؛ ولسنا نشك فى أن بين تلاميذنا النجباء من لا يقل فى نضج العقل ، ذلك النضج الأول ، عن أولئك الرجال حين كانوا فى سن التلمذة

* * *

ألا إن البحار والجبال لم تحل دون التنقل والاتصال بين بنى الإنسان من قديم الأزمان حتى عصر الطيران . والناس إلى الآن يفرقون بين الشرقى والغربى ، وبين الأسود والأبيض ،

والأسمر والأصفر ؛ ولكن ما تحت الجلود لون واحد ، والأجسام جميعاً مكونة من عناصر وخلايا متماثلة ، لا يتميز بها جسم عن جسم إن حُلل لم يبق منه سوى أملاح ومواد قليلة ، لا تختلف فى واحد من هذه الأجسام . وليس يستحيل عقلاً وقياساً أن يتكامل ما بدأ فى الدهارير من تطور ، وأن يأتى على الإنسان حين من الدهر وطور يصل فيهما بالتجارب أيضاً والتقارب ، كما صغرت عقبة المسافات بسرعة المواصلات ، إلى ثقافة واحدة شاملة ، تكبح من شر الغرائز ، وتهدى العقول والنفوس إلى تفاهم أتمّ ، وسلام أدوَم وأعمّ ، فى إنسانية أصفى وأسمى نحو المثل الأعلى

لكن مالنا وللفكر هنا فى مثل هـذا المستقبل الخيالى الأبعد ؟ وحسبنا أن نلاحظ أننا منقادون لِسُنَن التطور ، يسوقنا توافر عوامله فى وجهته الطبيعية ، ولا يمنعه اختلاف آرائنا فى موضوع المناظرة إذ نحن فى الواقع آخذون عن الغرب كما أخذ عنا ؛ وقد نفعل مثل ما فعل السلف الصالح حين صبغوا الفلسفة اليونانية فى زمانهم صبغة عربية ، وكما فعل اليابان فى عصرنا هذا

فلا يظنن أحد من الرجعيين أو من الشباب مُضللا بشهوة جاهلة ، أو بعاطفة غالبة ، أن المناظر الفاضل أراد فى تأييده القوى لذلك الرأى القائل أن يقتصر الشرق العربى على تراثه ، ويهمل كل ما فيه ذرّة حديثة أو غربية ، ثم يعمل بهذا التراث وحده إلى أن يبلغ مستوى يسابق فيه الغرب فى الرقى ؛ لأن ذلك مستحيل عملياً وإن جاز فرضه نظرياً ؛ وإذا نحن جارينا هذا الفرض الخيالى انتهى بنا التخيل إلى أن الشرق ، يوم يبلغ ذلك المستوى ، قد يجد أن الغرب رحل إلى السيارات يستعمرها أو ما شا كل هذا من الأعاجيب التى لا يعرفها العلم . وليس من المعقول أن يهمل الشرق كسب الإنسانية فى قرون ليكدهو قروناً مثلها فى تحصيله .

محمد توحيد السلحدار

من آثام الربيع !

[إلى صلاة جريحة ترتعش
فى زمنى بعد الغروب ...]

للأستاذ محمود حسن اسماعيل

مَضَى رَبِيعٌ وتَهَادَى رَبِيعْ
ولم يزَلْ حَوْلى هُمودُ الشتاءْ
لاَ عِطْرَ فى الْفَجْرِ لِقَلْبٍ يَذِيعْ
وَلاَ شَذًى للرُّوحِ عِنْدَ المَسَاءْ
يَمُرُّ فى صَمْتِى النَّسِيمُ الوَدِيعْ
إعْصَارَ لَيْـلٍ فى مَغَانِى فَنَاءْ
وَمَا بِكَامِي غَـيْرُ هَذا الأَنِينْ
وَلاَ بِجُرْحِى غَـيْرُ هَذا النَّغَمْ
غَدَا زَمَانى جَذْوَةً مِنْ حَنِينْ
وَعُمْرِىَ المَشْبُوبُ رُؤْيَا عَدَمْ !

***

نَزَعْتُ نَفْسِى مِنْ ضَجِيجِ الحَيَاهْ
وَطِرْتُ كالنَّسْرِ لِأَعْلَى القِمَمْ
الغَيْبُ حَوْلى سَابِحٌ فى أَسَاهْ
والصَّمْتُ مَشْبُوبُ الهوى مُضْطَرِمْ
وَإِذْ عَلَى سَفْحِ اللَّيَالى « فَتَاهْ »
مَذْعُورَةُ الرُّوحِ كَشَجْوِ الحُلُمْ
سَأَلْتُهَا : عُمْرِي طَوَاهُ الجُنُونْ
فَهَلْ بِكَفَّيْكِ لِجُرْحِى شفاءْ ؟
قَالَتْ : رَبِيعِى أَزْهَقَتْهُ السُّنُونْ
وَمَا بِكَفِّى غَيْرُ هَذا الشتاءْ !!

٧ ـ أومن بالانسان !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

[أكره أن أضايق القراء ببحث مطول فى مجلة ، ولكن رغبة الأستاذ الكبير الزيات ، وقبض الخاطر فى هذا الموضوع الخطير ، حببا إلى أن أعود إليه]

إنسان غير مفهوم — أوروبا المعمرة المدمرة — نكسة — خديعة ذهبت إلى جهنم ! — نغمات وترتيلات جديدة — تناقض بين حياة الأرواح وحياة الأجسام — من الطبيب ؟ — قانون طبيعى ينتقم لنفسه

الغربى إنسان غير مفهوم ! فقد كفر الأوربيون بالحياة فى هذه الحرب بعد أن جنُّوا بها جنوناً فى وقت السلم . وهم لا يذكرون السلم فى هذه الحرب كما لم يذكروا الحرب فى فترة السلم

لم يتخذوا من قانونى الحياة والموت حداً وسطاً يقيمون عليه حياتهم وما استخلفوا عليه من حياة الآخرين ، فيعيشوا على كفتى ميزان معتدلين آخذين حظاً صالحاً بعدل السلام وبعدل الحرب

هم فجروا فى فترة السلم : فتشهوا وكفروا وعبدوا الهوى واحتقروا الضعيف وشرهوا للمال وغصبوه من أفواه الآخرين بالحديد والنار ، وخانوا أمانة الاستخلاف على الأرض ، وتنازعوا على الطعام الكثير كما يتنازع الأطفال !

وهم فجروا فى هذه الحرب، فلم يرعوا حرمات الحياة الإنسانية التى قدستها الأجيال : فصبوا العذاب على الأطفال والنساء والمستضعفين والمرضى وسكان المعاهد والمعابد المسالمين ، وحرقوا الأقوات والأرزاق والمأوى ... فحياتهم لا تحتمل ولا تستحق العمل بعد هـذه الحرب إذا أصروا على أن يلجأوا لحرب أخرى بهذه الكيفية النكراء التى تدمر ما عمروا وعمر الناس ...

من يصدق أن أوروبا البانية العاملة المعمرة المخترعة العابدة للحياة ، الساعية الجاهدة فى سبيل الكشف والمال والاختراع ، الباحثة المنقبة عن خبايا الأرض وركازها ، الرائدة الكاشفة عن مجاهلها ، المبشرة بالمثل العليا بين الأجناس المتخلفة ، القاضية على تجارة الرقيق ، الحاملة للتجارات والمعلومات ، الواصلة بين أقطاب الأرض صلة اللاسلكى والراديو والتلفزيون ، المرسلة « المبشرين » لتحرير الناس من الوثنية ، الدارسة للأنواع والأجناس ... هى هذه المخربة المدمرة الباطشة بطش النمور والأسود، القاسية على النساء والأطفال والضعفاء، المفتنة فى وسائل الآلام ، الهدامة للدور ، المحيلة عمار المدن إلى خراب القبور ؟ !

***

الأجسام الناجية الجميلة تذوب وتصهر وتسحق عظامها وجماجمها تحت أثقال الحديد والجلاميد ... !

الوجوه المشرقة البيضاء ذات العيون الزرقاء والشعور الذهبية ذهبت قرابين تأكلها النار باختيارها

مسكينة ! طافت فى جميع بقاع الأرض تجمع الذهب الأصفر والذهب الأسود والحديد ، ثم أوقدت على الجميع فى النار واحترقت معه !

جمعت فى أنانية وجشع واعتزاز واعتزام ... لا لتملأ البطون الفارغة ، وتكسو الأجسام العارية ، وتعين أبناء الحياة على نوائب الحياة ، ولكن لتملأ أفواه المدافع وبطون المقابر ... !

خلاصة الإنسانية العاملة المجاهدة التاجرة المحاربة العالمة . تحترق الآن على مشهد من الزنوج والإسكيمو !

الحياة تتحطم بأيدى بنائيها ومقيمى صروحها العالية وجامعى مواد بنائها من لحومهم وعظامهم ودمائهم وذهبهم وحديدهم ونور عيونهم فى المعامل والمعاهد !

الغادة اللعوب الفاتنة ذات المساحيق والأصباغ والعطور والأزهار واللؤلؤ والديباج « والمونوكير » تتكشف عن العجوز الشوهاء السوداء المريضة الرسحاء العجفاء ساكنة الكهوف والمغارات ، الضاربة على الدف لشن الغارات !

الأم العاقلة العالمة تصيبها جنة وجهالة فتأكل بناتها وبنيها ! لندن وبرلين يصب عليهما الخراب والدمار صباً فيباد ما فيهما من مراكز نمو الحياة وعلب أسرارها « وقماقم » أجنتها وولائدها ! ...

والإنسانية الجاهلة النافلة المقيمة بالأكواخ فى القارة السوداء وأواسط التبت ترى هـذه الإنسانية العالمة الدرة الجميلة تشن الغارة على الحياة بالزلازل والبراكين والصواعق الصناعية ... فتحمد الله على الحياة فى الغابات مع الأسود والقرود التى لا تلتقم منها إلا أفراداً !

الحياة تصاب بنكسة حادة يا أطباء الحياة ... فهل من دواء لها فيما صنعتم من العقاقير والأقرباذين ؟!

***

كنا أوشكنا أن نعبد الدنيا ممثلة فى لندن وباريس وبرلين ، وننسى نهاية رحلتنا فى هذه الدنيا غرباء عابرى سبيل ، لا نملك المكث ولا البقاء ، ونخضع لقوانين الزوال والفناء ، ويدور الفلك بنا دورات حتمية تشب الطفل وتشيب الصغير وتفنى الكبير وتلقى بنا إلى العالم المجهول ...

وكنا أوشكنا أن نظن تلك الأجسام الأوربية القوية الجميلة الرقيقة الرشيقة الذكية هى الإنسان المقصود بالحياة . وأما من عداها « فحيوانات بشرية » — كما تعبر المتلرية — ومخلوقات تكميلية خادمة لها تعيش على هامشها وتسير فى خدمتها ، وقبح اعتقادنا فى أنفسنا تبعاً لذلك حتى تركنا لها الأرض طوعاً وكرهاً وخلينا لها مكاننا من الدنيا ...

وكنا اعتقدنا أن عناوين النظم الأوربية ثابتة لا تتزلزل ، ونظمها البارعة عزيزة على أصحابها ، وأن الانسان الأوربى مقدس لدى نفسه وأممه ، فلا تحطيم لدنياه ولا نسف لنظم حياته ولا تمثيل به ولا سحق ولا نثر لأشلائه ...

وكنا أوشكنا أن نرى العالم المادى الدقيق الذى صار التنويع فيه والتشكيل والتلوين والدقة والتركيب كأنه دنيا أخرى من مخلوقات الحديد والصلب والخشب وسائر المواد الجامدة منفصلة عن روح الحياة فى الإنسان فأخذنا نعيش بها عيشة آلية صخابة بدون وعى ووداعة وإحساس من الروح ويقظة للمصير المحتوم !

ولكن هذه الحرب أخلفت تلك الظنون الخاطئة ، وصححت أفهامنا الفاسدة ، وكشفت عن أبصارنا غطاء التمويه وسحر التخييل ، فإذا بنا نعود وإذا بالأوربيين أنفسهم يعودون معنا إلى المعانى الأزلية الخالدة التى نزغت من قلوب أنبيائنا واستنزلوها من السماء بالإخلاص والبكاء لرب الحياة الذى وضع الإنسان فيها موضعه بين الأهوال والألغاز والأسرار ...

وإذا المثل العليا تعود ذكراها إلى الألسنة والأقلام يرددها الساسة وسماسرة المال ! ويخطبون فيها خطابة الأنبياء والمرسلين بين عباد الأوثان بالبيان الساحر والحجج الآخذة ، والإذاعة العريضة الواسعة

وإذا الترتيلات بالحق والسلام والعدالة تنبعث من جميع بقاع الأرض وتنطلق بها حناجر الناس جميعاً ، وتزيد كل أمة فى طنبورها نغمة

وإذا بالنظم الأوربية الظالمة الجائرة المتحجرة تذوب وتنماع تحت حرارة أنفاس الدعاة إلى السلام والحق والعدالة ، وتحت نيران هذه الحرب التى انقمت شر نقمة من طغيان السياسة والرأسمالية والدعوات الهدامة

وإذا بالروح الإنسانية الوديعة الرحيمة المؤمنة بالله وبالإنسانية تعود فى جو مخضب بالدماء ، مندي بالدموع ، مطرز بالآلام، إلى القلوب المهجورة القاسية الكافرة ، كما يعود طير شارد تائه إلى عشه المهجور ، ومكان حنينه وأشواقه ، فيراه خرباً منثور الأعواد ، عبثت به الرياح ، وعششت فيه العناكب ... فما يزال يضم عوداً إلى عود ، وورقة إلى ورقة ، ويرفرف عليه بجناحيه حتى يطرد عنه أنفاس السوء وأوساخ الحشرات ، ثم يعمره بالرحمة والحب والحنين ...

***

لقد بنى الغربيون حياتهم على مناعة الأجسام وحدها من أمراضها ، ولم يبحثوا عن وسائل مناعة الأرواح من آفاتها . فأخذوا الحياة من جانبها الضعيف وتركوا الجانب الآخر ، وقوانين الطبيعة لا ترحم من يخالفها ولا تحابيه ، بل تدافع عن وجودها وتهدم من يحاول هدمها

فمن يدع ثغرة فى بناء الحياة من غير سدها أوشك أن يدخل منها إلى البناء ما يأتى عليه من القواعد ، ويجعله خاوياً على عروشه

وكان جديراً بالإنسان الأوربى الذى يعرف حجم الميكروب الصغير وخطورة آثاره ، فيحترس منه ويقيم الأرصاد والجواسيس خشية اقتحامه عليه ثغرة من ثغرات جسمه . . . أن يعرف أن للحياة الروحية جراثيمها الفتاكة فيجاهد لكفاحها وقتلها كما يفعل بأخواتها جراثيم الأجسام ، حتى تسلم جميع قواعد بناء الحياة من أسباب الانهيار

ولكنه لم يعرف بعد الجراثيم الروحية ، ولا يزال روحه يعيش فى عصر التطبيب بالخرافات ، كما كان يعيش فى عصر الخرافات فى طب الأجسام ...

ولا يزال يسخر بأطباء الأرواح وعلاجاتهم كما كان يسخر بأطباء الأجسام حين يفاجئونه بكشف جديد لمرض قديم

فإلى أن يؤمن بما يصنع له طب الأرواح ويعمل به سيظل شقياً بتلك الأمراض التي هي أشد فتكا من الطاعون والسل والجدري وغيرها من الأمراض التي تهدم الإنسان وحده، ولا تهدم معه تاريخه ومبادئه ومبانيه وأمواله... فمن أعراض أمراض الروح تلك القنابل والصواعق والحرائق التي تترك المدن التي صبت فيها جداول المدنية والعلوم والتقت فيها الحضارات وثمار الجهود المشتركة خراباً ودماراً كأن لم تَغْنَ بالأمس

ولكن ينبغي له قبل ذلك أن يخرج من بين أطباء الأرواح أولئك الدجالين المشعوذين والأغبياء المحدودين الذين قد يقتلون النفوس بالعلاج الخاطئ، أو يغلقونها دون رحمة الله أو يصيبونها بعاهات، أو يعالجونها بالخرافات والشعوذة وأسباب الضلال، كما فعل بأشياعهم الذين كانوا يندسون بين أطباء الأجسام من قبل... حتى يستقيم علاجه على أيدي الإخصائيين الذين خلقهم الله لقيادة النفوس بالسلوك والمعاملة والبيان الواضح والفكر المضيء المنير...

أولئك الأوصياء لا يلزم أن تكون منهم في الأمم كثرة. بل ينبغي أن يكونوا قلة؛ حتى لا تصيبهم مصائب الزحام على الأرزاق والوظائف...

ويجب ألا يرتفعوا إلى المناصب بالوساطات والشفاعات و«الشهادات» بل بأنفسهم وما فيهم من خلق الوصاية الرشيدة والسياسة الحكيمة، والقدرة على إدراك الداء في كل نفس، ووصف العلاج

وينبغي أن يدقق في اختيارهم غاية التدقيق. وينبغي أن تكون وسائل العلاج هي ما صلح من مواريث القديم، وأصلح الآراء في علم النفس الحديث... أي ينبغي أن يكون علم النفس هو أساس التربية الروحية والدعوة إليها كما صار علم وظائف الأعضاء وعلم الأغذية أساس الطب الجسدي الحديث

وعلم النفس أوشك أن يكون من الدقة والصحة بحيث يستطيع أن يضع الإنسان في المخابير والمسابير ويقيس كل ما فيه بأرقام لا تخطئ!

إن قوانين الروح قد غضبت وانتقمت لنفسها شر نقمة من الإنسان الذي لم يقم لها بعد وزناً. وإنه لجهل وصفه ألا يفطن الإنسان الأوربي بعد إلى أن يحمي نفسه من غضبها ونقمتها كما يحتمي من غضب قوانين صحة الأجسام

إنه يخشى أن يمد يده في النار لئلا تحرق، أو يلقي نفسه في الماء لئلا يغرق، أو يقف في طريق قاطرة لئلا يسحق... ولكنه يرضى لنفسه أن يبخل فيُسرَق، وأن يطمع فيُكرَه، وأن يستبد فيحارب؛ وأن يخل موازين العدل فتفسد حياته بفساد حياة الآخرين، وأن يترك الناس إخوانه جاهلين مرضى الأجسام والنفوس فيحرضوه ويشقوا حياته بشقائهم...

كلمة يجب أن تعلم وتكرر دائماً أمام الدولة وأمام الفرد وهي:

إن الدولة كأنها عضوي واحد كالجسم الواحد ذي الروح الواحد... فإذا سمحت لشيء منه ولو كان ظفراً أو منبت شعرة أو خطرة نفس أن يدخله الفساد، فسيلحق الجسم كله — وأنت خلية فيه — آثار ذلك الفساد وآلامه

فاحذر أن يمرض أخوك أو خادمك حتى لا تنتقل عدواه إليك... واشترك في إطفاء الحريق في بيت جارك قبل أن تمتد النار إلى دارك!

عبد المنعم خلاف

إلى الأستاذ أحمد السنوسي

حضرة الفاضل الأستاذ أحمد السنوسي الاخصائي في الأبحاث النفسانية

بعد التحية وواجب الاحترام: يسرني أن أتقدم بهذا معبراً لسيادتكم من عظيم تشكراتي وامتناني مع التقدير العظيم لشخصكم المحبوب، وذلك لما أسديتموه إلي من أياد بيضاء وخدمات لا تقدر بثمن، فلقد كان يا سيدي الأستاذ لعلاجكم لي أعظم الأثر في نفسي، ذلك الذي جعلني أبعث من جديد إلى حياة سعيدة هانئة وشعور قوي بأن لي صفة وقيمة في الحياة بعد أن كنت أتخبط في ظلمات الآلام الوهمية والتخيلات الكاذبة وعدم الثقة بالنفس وتخوف في الأقدام على أي عمل من أعمالي المعيشية تلك التي بسببها أدى وجودي في الحياة عبث، لأن حالتي النفسية السابقة كنت أشعر بأنها مملوءة بالتعاسة وعدم الحظ، كل هذه الأوصاف التي ذكرتها هي أقل ما أتذكره الآن مما كنت فيه

فعليه أجد لزاما علي أن أتقدم برقم هذا لسيادتكم إعترافا مني بفضل علمكم النافع وخدماتكم الجليلة، كما وأني أرى من الواجب علي أن أسجل لسيادتكم (كلمة حق) على صفحات الرسالة كنصيحة مني ليطلعوا عليها الراغبين من الناس الذين يشعرون كما كنت أشعر أنا من الآلام النفسانية

وختاماً لا يسعني إلا أن أسأل الله أن يكثر من أمثالكم.

وتفضلوا بقبول عظيم إجلال وفائق إحترامي

المخلص

مصطفى أحمد شيبه

مدرس لاسلكي سابقا

عنوان الأستاذ أحمد السنوسي

٣٣ شارع الملكة فريدة تليفون ٤٩٤٧٢



وحي المطبعة

كتب جديدة

للأستاذ سيد قطب

دائرة المعارف الإسلامية — علم اللغة — ضحكات إبليس — أسبوعان مع علي ماهر في السودان

لست أدري لم يغمرني شعور بالنشوة كلما أخرجت المطبعة العربية كتاباً جديداً ، وبخاصة في هذه الأيام التي يرتفع فيها ثمن الورق وتكاليف الطباعة بينما تنصرف الأذهان عن الكتب وعن الدراسة إلى الأخبار اليومية وإلى ضجيج الحرب وويلاتها

بل أنا أدري سبب هذه النشوة وهو الشعور بأن الأمة العربية حية نامية لأنها تقرأ ، والقراءة هي الدليل الذي لا يخطئ على الحيوية والتطلع إلى آفاق جديدة ومستقبل خير من الحاضر . فإذا كانت لا تزال تقرأ ، أي لا تزال تحيا وتتطلع في هذا الجو الخانق الذي يشغل الذهن والقلب عن كل شيء ، والذي يبث اليأس والقنوط من الإنسانية ومن المعرفة والثقافة جميعاً ، فهذا دليل لا ينقض على أن في هذه الأمة ذخيرة وأن فيها أملاً

وسبب آخر وهو شعوري ببطولة المؤلفين الذين يؤلفون ويطبعون وينشرون فيضطلعون بمهمات ثلاث لا يضطلع أمثالهم في أوربا وأمريكا إلا بواحدة منها مع عظم الفرق بين البيئة والظروف التي تحيط بهؤلاء وهؤلاء

ولعل هذه البطولة تتجلى حين نعلم أن عدد الناطقين باللغة العربية في جميع أنحاء العالم يبلغون حوالي الأربعين مليوناً ، نسبة المتعلمين فيهم لا تزيد على خمسة في المائة (٢٫٠٠٠٫٠٠٠) ، ونسبة المثقفين في هؤلاء المتعلمين لا تزيد على عشرين في المائة (٤٠٠٫٠٠٠) ونسبة القارئين في هؤلاء المثقفين لا تزيد على ٢٥ في المائة (١٠٠٫٠٠٠) مقسمين بحسب ميولهم وثقافتهم على أنواع التآليف المختلفة ، فأقصى ما يطمع فيه مؤلف أن يقرأ كتابه عشرة آلاف في جميع أقطار العالم ، وهو رقم نظري يهبط عند التطبيق العملي إلى النصف

بينما عدد الناطقين باللغة الإنجليزية مثلاً يبلغ نحو مائة وثمانين مليوناً نسبة المتعلمين منهم تبلغ نحو ٨٠ في المائة ، ونسبة المثقفين في هؤلاء المتعلمين لا تنقص عن ٥٠ في المائة ، ونسبة القارئين من هؤلاء المثقفين لا تنقص عن ٥٠ في المائة . فعدد من يطمع المؤلفون في قراءتهم للكتب لا يقل عن ٣٦ مليوناً من القراء موزعين بطبيعة الحال على حسب مذاهب التأليف ورغبة كل فريق في نوع معين منه بحيث يخص كل مؤلف نحو مليون قد يهبط عند التطبيق العملي إلى نصف مليون

وهذه الموازنة تبين مقدار بطولة المؤلفين بلغة العرب وضآلة الجزاء الذي ينتظرونه على مجهودهم بالقياس إلى زملائهم الإنجليز أو الفرنسيين . ومع هذا فالمشهورون منهم محسودون

جالت في نفسي هذه الخواطر وأنا أتلقى المؤلفات الأربعة التي وردت في عنوان هذا المقال ، فرددت قول القائل : « فليسعد النطق إن لم تسعد الحال ! »

دائرة المعارف الإسلامية :

منذ سنوات خلت ران اليأس على كثير من نفوس الشبان المتخرجين في الجامعة وسواها ، لأن أبواب العمل قد سدت في وجوههم ، وارتفعت الأصوات بالشكوى ، لأن المثقفين لا يجدون ما ينفقون فيه ثقافتهم ونشاطهم

وفي ظلام ذلك اليأس وضجة هذه الشكوى كان جماعة من الشبان يأوون إلى حجرة مفردة في عمارة كبيرة وضعت عليها « لافتة صغيرة » باسم « لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية » ، ومن حولهم غرف كثيرة لأعمال كثيرة ليس بينها وبينهم صلة في سمت ولا اتجاه !

وفي هذه الحجرة المنعزلة لم يأذنوا لظلام اليأس الذي يغشى حياة الشبان ، ولا لضجة الشكوى التي يتمزقون بها في هذا الظلام ، أن يطرقا بابهم ، ولا أن يعكرا عليهم لذة العمل الذي اتجهوا إليه في عزيمة وصبر وسكون

عرفت في ذلك الحين بعض أعضاء اللجنة ، وشاهدت خطواتهم الأولى في عملهم المرتقب ؛ ثم مرت السنون وانقضت الأيام ، وتعاقبت أحوال وظروف على هؤلاء الشبان وعلى مصر والعالم ؛ ولكنهم لم يقفوا يوماً ما عن عملهم المختار ؛ وإذا بي أجد

لدى في هذا العام المجلد الرابع من مجهودهم الضخم وعددين من المجلد الخامس ، وإذا مصر والعالم العربي كله ينتفع بمجهود هذه الجماعة الصغيرة العاملة في صمت العلماء وتواضعهم ، وإذا المسلمون يعرفون من « دائرة المعارف الإسلامية » أكثر مما عرفوه من الكتب الإسلامية العربية ، لأن الدائرة تركز ما حوته تلك الكتب وتشير إلى مراجعه ، ثم تناقشه وتدلي بالآراء المختلفة فيه ، وتزيد عليه ما كتبه كثير من المستشرقين عن الشئون الإسلامية ، وتعليقات من كبار المسلمين الأحياء على كتابة المستشرقين ؛ وإذا الدائرة بعد هذا كله مرجع ثمين من مراجع الإسلام وبلاد الإسلام ، ودليل مرشد إلى المراجع الكثيرة في مؤلفات المسلمين وغير المسلمين

ولست أدري كم قارئاً عربياً أقبل حتى اليوم على قراءة « دائرة المعارف الإسلامية » ، ولكنني أدري أن كل مثقف عربي في حاجة لأن يقرأها ليجد فيها كثيراً جداً مما لا يعثر عليه إلا متفرقاً في مؤلفات عربية ضخمة ، ومما لا يعثر عليه في الكتب العربية على الإطلاق . وليس هذا بالغنم اليسير

علم اللغة

الدكتور علي عبد الواحد وافي مؤلف هذا الكتاب شاب تخرج في « دار العلوم » ، ثم درس في فرنسا حتى حصل على الليسانس والدكتوراه في الآداب من جامعة باريس ، والآن هو أستاذ بكلية الآداب

وليس هذا كل ما يذكر للمؤلف ، فكثيرون تخرجوا في « دار العلوم » ، وكثيرون درسوا في أوربا ، ولكن قليلين هم الذين انتفعوا بدراستهم وثقافتهم كما انتفع الدكتور علي عبدالواحد وكتاب « علم اللغة » مثل لهذا الانتفاع الناضج المكين

قرأت هذا الكتاب ، فإذا هو الأول من نوعه في اللغة العربية ، وإذا الجهد العلمي والدراسة والاطلاع على الكتب العربية والأفرنجية في موضوعه واضحة أشد الوضوح ، وإذا الرغبة في الكمال متجلية فيه كل التجلي ، فلم يكن هناك جهد يجب بذله في الإتقان لم يبذله المؤلف بوفرة وسخاء

والكتاب مقسم إلى ثمانية فصول بعد المقدمة والتمهيد هي : نشأة اللغة الإنسانية وتطورها ، لغة الطفل ومراحلها ومبلغ تمثيلها لنشأة اللغة الإنسانية وتطورها ، فصائل اللغات وخواص كل فصيلة منها وما بينها من صلات ، صراع اللغات ، تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات ، تطور اللغة وارتقاؤها ، أصوات اللغة ، حياتها وتطورها ، الدلالة وتطورها

وبعض هذه الفصول نشر في « الرسالة » ، ولعل الذين اطلعوا على ما نشر ثار في نفوسهم ما ثار في نفسي من الشوق لأن يقرءوا المؤلف كاملاً متسلسلاً متناسقاً . فلقد كان كثير من الأفكار عن اللغة متقطعاً مشوشاً ، حتى جاء هذا البحث فنظمه ورتبه وكساه الثوب العلمي ، وصور اللغة كائناً حيا حياة حقيقية واضحة الملامح ، تخضع لقوانين ثابتة ، لا للمصادفات والأهواء .

وفي هذا الكتاب درست خصائص اللغة التي تدل عليها عنوانات الفصول ، ودرست خصائص المؤلف في آن واحد !

فالوضوح والدقة والعناية بالشواهد والأمثلة ودراسة كل ما يتعلق بالموضوع وغربلته ومناقشة الآراء المختلفة والاستقلال في الرأي بعد هذه المناقشة ، واستخدام كل شوارد المعلومات المتعلقة بالفكرة ... كل هذه الخصائص تلمحها في الكتاب وتلمحها في صاحبه على السواء .

وقد طالعت بلذة وشغف الأمثلة التي أوردها المؤلف من دراسته لتطور اللغة عند « ابنته عفاف » وأعجبت بانتباهه وصبره على ملاحظتها فتلك بعض سمات العلماء ، وأخشى أن يكون تطور اللغة عند هذه الطفلة متأثراً بمصاحبتها لأبيها أكثر من مصاحبتها لأمها ، وأن يكون في هذا التطور شيء من البعد عن الطريق المألوف للأطفال الذين يتأثرون بأمهاتهم أكثر من آبائهم ؛ فإن طريقة المرأة في الحديث وقاموسها اللفظي ونوع معاملتها وتدريبها لطفلها غير طريقة الرجل في هذا جميعه .

وشيء وددت لو خلا منه الكتاب ، فقد عني الدكتور بإثبات المصطلحات الأفرنجية مرة بالحروف اللاتينية ومرة بالحروف العربية مع ذكر ترجمتها . وتلك دقة مشكورة ، ولكنها تشوش ذهن القارئ العربي الذي لا يعرف لغة أجنبية ، والذي يعرف على السواء . وكان يكفي كتابة المصطلحات بالحروف اللاتينية مع إثبات ترجمتها العربية فالقارئ العربي الذي يعرف لغة أجنبية لا يحتاج لكتابة الاصطلاح الافرنجي بحروف عربية

ولا ينتفع به والذى لا يعرف لغة لا تجديه صورة الاصطلاح بالحروف العربية شيئاً وحسبه ترجمة

وذلك مأخذ شكلى صغير . أما الكتاب كله فتحفة للمكتبة العربية جدير بأن يفتح للنقد اللغوى والأدبى مجالاً جديداً فى مطالعات القراء .

ضحكات ابليس

هى قصص قصيرة فى كل منها ضحكة خفية أو غمزة متوارية تبدو فيها « العفرتة » التى تهيئ للعنوان العام !

وقد أصدر مؤلف هذه المجموعة الأستاذ صلاح الدين ذهنى مجموعة قبلها باسم « رئيس التحرير » وقصة طويلة اسمها الدرجة الثامنة ، وهذه هى محاولته الثالثة

تضم هذه المجموعة أربع عشرة قصة قصيرة ؛ والقصة القصيرة أصعب وأدق من القصة الطويلة التى تتسع للترسل والعرض والتحليل ، كما أن القصة أصعب على العموم من الرواية ، لأنها تستغنى عن الوقائع الروائية ، فلا بد أن تستعيض عنها بعناصر أساسية فى صلبها تعوض هذا النقص ، وتلذ للقارئ لذاذة العنصر الروائى الجذاب

ومؤلف هذه المجموعة قد خطا خطوات تستحق الالتفات فى مجموعته الجديدة ، ففيها خمس قصص على الأقل تعد ناضجة كاملة وهى نسبة كبيرة جداً فى فن ناشئ فى اللغة العربية لم يتعد حتى اليوم حدود المحاولات ، وهذه القصص هى : مانكان ، وقريتنا النموذجية ، وكلاب وناس ، والعفريت ، والتوبة

والقصص الثلاث الأولى اجتماعيـة تلمس ثلاث جوانب فى حياتنا الاجتماعية المصرية تصور أولاها « كاريكتيرا » صادقاً لكثيرين من المشتغلين بالمسائل السياسية ، الذين لا تتعدى وسائل نجاحهم فى هذه المسائل أن يكون كل منهم « مانكان » دمية لا رأى لها ولا عقيدة إلا شرح آراء الآخرين ومناصرتها والتقلب على أشكالها ، وتصور الثانية « كاريكتيرا » حقيقياً لتفكيرنا فى إصلاح الريف ذلك التفكير الذى يجنح للترف والرفاهية والظواهر ويغفل المشاكل الحقيقية ولا يحاول الاتصال بعقلية الريف الصميمة . وتصور الثالثة « كاريكتيرا » مؤلماً لتفاوت الحياة بين قوم وقوم فى مصر ، حيث يموت النـاس فى سبيل الكلاب المدللة المحبوبة عند الأسياد المترفين !

والقصتان الأخيرتان إنسانيتان ملونتان باللون المصرى ، اختار لأولاهما شخصية « وكيل المحامى » فى الحى البلدى ، فأبدع فى تصويرهما مما إبداعاً ذكرنى بالقصص الروسى البسيط العميق . واختار للثانية شخصية « الزوج المقامر » ، الهاجر للبيت والزوجة حين يستيقظ ضميره ؛ وقد استوحى فيها قصة « مغلسة نيم » للكاتب الفرنسى « أندريه ديماس » ، وبالفعل جاء أفقها أوسع من آفاق القصص الأخرى .

وفى القصص الباقية محاولات تنبئ عن تبلور وشيك ، وتركز مرقوب

أسبوعان مع على ماهر فى السودان

مؤلف هذا الكتاب الأستاذ « محمد حسنين مخلوف » شاب اشتغل بالصحافة حيناً من الزمن فانطبع تفكيره بالطابع الصحفى . وفى كتابه يبدو هذا الطابع واضحاً : العناية بالأخبار والدراسة السريعة المختصرة المفيدة للحوادث والمظاهر ، والسرد الممتع الجذاب ...

وتبدو فى هذا الكتاب « روح الدعاية » ، ولكن هذا لا يؤثر فى شخصية الكتاب ، ولا يحجب ما فيه من لذة موضوعية وفائدة محققة ، فلست أنكر أن السودان كان قبل قراءتى لهذا الكتاب شيئاً غامضاً مجرداً من التعاطف الحى بينه وبين نفسى . كان فكرة سياسية فى خاطرى كل ما يجمعنى به هو أنه شطر وادى النيل الذى يحتم على الإخلاص الوطنى والكبرياء القوى أن أستمسك به ، وأدعو للاستمساك به ...

ولكن السودان قد استحال فى نفسى بعد قراءة هذا الكتاب كائناً حياً يماطفنى وأعاطفه ، وقد شعرت بحقيقة الأواصر الدموية والعاطفية والعقلية والاقتصادية والسياسية التى تربط شطرى الوادى ، وتعيد وقائع التاريخ الجامدة قصة حياة نابضة

وكل مصرى فى حاجة إلى الاطلاع على هـذا الكتاب ؛ وإن وزارة المعارف لتحسن صنعاً لو جعلته فى متناول أيدى مدرسيها وطلابها ، إذا شاءت أن يحس الجميع إحساساً حياً قوياً بحقيقة العلاقة بين مصر والسودان ، وشاءت أن تمد القومية المصرية بجرعات منبهة ، وأن تحيل مصر والسودان فكرة واضحة فى ذهن الناشئة . وهذا ما يجب أن يكون .

(حلوان) **سيد قطب**



مساجلات

١ — عرفتُ من كلمة الأستاذ « ا . ع » كيف كان وجه الخلاف بيني وبين حضرة صاحب العزة العوامرى بك يوم تعقبته في جريدة (البلاغ) بمناسبة الكلمة التي نشرها في مجلة المجمع اللغوى عن (التجديف) وكنت ظننت أن تعقيبي كان يرمى إلى إقرار كلمة (التقذيف) لأن ورودها في مؤلفات الشعرانى بهذا الضبط يشهد بأن المصريين لا يقولون (تجديف) إلا كما يقولون جال في مكان قال ، وأهل اليمن ينطقون القاف جاف ، وعلى سنتهم يسير بعض أهل الصعيد وبعض أهل الشرقية

وأختصر الطريق فأقول : يرى العوامرى بك أن التجديف والتجذيف والتقذيف كلها خطأ ، والصواب : الجدف والجذف والقذف .

فهل أرجو من الأستاذ « ا . ع » أن يحكم بيني وبين العوامرى بك ؟

إليه أقدم البرهان فأقول :

الجدف أو الجذف أو القذف لا يصوّر الحركة التي يثيرها المجداف أو المجذاف أو المقذاف . والعرب لا يضعّفون الفعل إلا وفقاً لغريزة لغوية تجعل الفعل المضعّف أصرح دلالةً في تعيين المعنى المراد ، ومصدر المجرّد لا يؤدى الصورة التي يؤديها مصدر المضعّف ، فقطعُ الحبْل غير تقطيع الحبل ، والمقذاف لا يَقذِف وإنما يُقذِّف ، كما تشهد عملية التقذيف

أما القول بأن كلام الشعرانى لا يغنى في الاستشهاد فردود بأنى لم أقصد الاستشهاد وإنما قصدت الاستئناس ، والشعرانى يحكى كلاماً صحيحاً لا غبار عليه ، إلا في نظر المتكلفين ، وحُوشىَ العوامرى بك من التكلف ، فهو من أعضاء المجمع اللغوى ، وهم رجال يبيحون الاستئناس بكلام العوام في مختلف اللهجات !

وسكت الأستاذ « ا . ع » عما قلت به من استيطان الألفاظ ، والاستيطان هو الاستوطان ، ولعنة الله على الإعلال فهو إعلال !

فهل يكون سكوته دليل القبول ؟

٢ — لما جمع الأستاذ السباعى بيومى نخوراً على نخورين تعقّبه (ناقدٌ جليل) بكلام يأخذ قوته من السماع والقياس ، فما رأى الناقد الجليل إذا رجوته أن يتسامح في جمع نخور على نخورين وجمع غيور على غيورين ؟ وما رأيه إذا صارحتُه بأن التصحيح في أمثال هاتين الكلمتين أقوى في الإبانة من التكسير؟ وهل تكون كلمة غـُير في مثل قوة كلمة غيورين ؟ في التكسير نفسه شواهد تؤيد القول بحرص العرب على زيادة المبنَى : فأسَد يُجمع على أُسْد وأُسود ، فهل تجرى أسد على ألسنة الناس بقدر ما تجرى أسود ؟

يضاف إلى هذا أن البلاغة قد توجب الخروج على القياس في بعض الأحيان ، وهل كان القياس في أغلب مناحيه إلا ضرباً من الشذوذ ؟ وإلا فبأى حق يكون (فَعِيل) بصورة واحدة في التذكير والتأنيث إذا كان بمعنى مفعول ؟ وما الذى يمنع من الاستئناس بقول صاحب اللسان (امرأة دفينة) وقد جرى كلامه على الأصل في التفرقة بين المذكر والمؤنث ؟ والقِدْر بدون تاء في كلام الشعراء ، وهى قِدرة على ألسنة العوامّ في مصر ، فأى اللفظتين أفصح ؟ الأفصح هو قِدرة ، لأن التاء تؤكد التأنيث ، ولو كره العوامرى والنشاشيبى

وخلاصة القول أنى أدعو إلى التخفف من أثقال التصريف حين تطغى العلة الصرفية على المعنى اللغوى ، ولو كانت مراعاة التصريف نافعة في جميع الأحايين لراعاه العوامّ وهم أصدق إحساساً بمدلولات الكلمات ، لأن محصولهم اللغوى يتكون من ألفاظ تنبض بالحياة في كل وقت ، فالعوام يقولون : إوعَ ، والصرفيون يقولون : عِ . وهل تكون عِ أفصح من إوعَ إلا في نظر من يستخفون بحكم العقل ؟ والعوام يقولون في أغانيهم : إوْفِ بوعدك ، والصرفيون يقولون : فِ بوعدك . فأى الكلمتين أفصح ؟

وخادم يذكر ويؤنث ، ولكن عوامّ مصر لا يقولون إلا خادمة في التأنيث ، فمن ينكر أنهم على صواب ؟ وأنا أسمي

الزوجة زوجة فى جميع ما أكتب ، ولا أرى رجلاً يقول : (سأستشير زوجى) إلا عرفت أنها عليه من القوّامين

٣ — يتوهم كثير من الشبان أن لى مكتباً فى دار الرسالة وأنى أشارك الأستاذ الزيات فى فحص ما يَرِد على الرسالة من أقوال الكتّاب والشعراء ، ومن أجل هذا يوجّهون إلىّ العتب عما يتأخر نشره من آثارهم الجياد !

وكنت أرجو أن يصح هذا التوهم الجميل ، لأشارك الزيات فى توجيه الجيل الجديد ، ولأنشر كلة الأستاذ محمد كامل سليم بك ، فما هى كلة هذا الأستاذ الجليل ؟

رجاه الأديب الأريب عبد الرحمن أبو العينين أن يوصى الأستاذ الزيات برعاية ما يقدّم إلى (الرسالة) من كلمات أو مقالات فرد عليه بهذا الجواب النفيس :

« لستُ أرى من مصلحة الأدب أن أقحمك بنفوذى فى ميدانه، ولا أرى من مصلحتك أنت أن أظهرك بسلطانى بين فرسانه ، وإنما أرى من مصلحة الأدب ومصلحتك معاً أن تبرز مستقلاً بأسلوبك وبيانك ، وتشغل الناس بأفكارك وبرهانك ، وفى ذلك مصلحة ظاهرة للأدب وكرامة واضحة للأديب »

ويخطئُ أشنع الخطأ من يتوهم أن التشجيع ينفع بشئ ، فالقوة الذاتية تقتحم الحواجز والحصون حين تستكمل عناصر الجبروت . والأديب الموهوب سيجد مكانه وإن تخلف عن نصرته ساسة الفكر وقادة البيان

٤ — لم أجب الأستاذ صلاح الدين المنجد فى سؤاله عن أسلوب الأستاذ أحمد أمين ، وقد أجاب عنى أحد الفضلاء فى جريدة « صوت السودان » فليرجع إلى ذلك الجواب إن شاء .

٥ — لبعض القراء مزاج غليظ ، وهو إرسال خطابات مترّمة وبدون إمضاء

وأقول إنى سأرفض جميع الخطابات المترمة ولو صدرت عن « الصدرية » فى بغداد ، فمن طاب له أن يداعبنى بهذا الأسلوب « المقبول » فليعرف أن دعابه مردود

٦ — يظهر أن مقالاتى فى مجلة الرسالة تضايق فريقاً من الناس فيتصدون للرد عليها فى بعض الجرائد والمجلات . فأرجو من أولئك الناضبين أن يرسلوا إلىّ ما يكتبون لأجيبهم إذا اقتضى الحال

٧ — تصل إلىّ من وقت إلى وقت بعض الكتب عن طريق الإهداء ، وأنا أرجو من أخطر فى باله من المؤلفين أن يرسل ما يرسل بثمن محول على البريد ، لأستطيع القول بأنى أشارك مشاركة جدية فى إنهاض التأليف ، ودفع ثمن الكتاب لا يعفينى من الإعلان عنه فى مجلة الرسالة بالمجان حين أراه جديراً بالثناء

وبهذه المناسبة أذكر أنى تلقيت مؤلفات فى غاية من الجودة ، منها (حكايات من الهند) وقد ترجمها الوطنى الصادق عبده حسن الزيات أحد نوابغ المحاماة والاقتصاد ، ومنها (مصر القديمة) للمؤرخ الكبير الدكتور سليم حسن بك ، و (علم اللغة) للباحث المحقق الدكتور على عبد الواحد وافى ، و (تاريخ الدروز) الذى ترجمه الكاتب المبدع أحمد تقى الدين ، و (الأشواق) للشاعر محمود أبو الوفا ، و (الأغاريد) للشاعر محمد فهمى ، و (المكتوب على الجبين) للرجل الكامل محمود تيمور ، وسأتحدث عن هذه المؤلفات بعد قليل

أما دائرة المعارف الإسلامية — وقد ظهر منها المجلد الرابع — فلا تحتاج إلى تنويه ، لأنها أظهر عمل قام به المتخرجون فى كليات الجامعة المصرية ، ولأن الأستاذ العقاد لم يترك فى الثناء على مترجميها مزيداً لمستزيد

زكى مبارك

فى اللغة

قرأت فى العدد ٤٠٥ من الرسالة الغراء قصيدة بليغة عنوانها (ميلاد نبى) ، للشاعر الكبير الأستاذ محمد عبد الغنى حسن . فمنت لى ملحوظتان لغويتان أود أن أعرضهما على الأستاذ وهما :

١ — قال فى وصف الجاهلية :

متفرقين هناك ... لم يتفيئوا نخيلة ... أو يمسكوا ببناء

فمدى الأستاذ (يتفيئوا) باللام وهذا ما لا أعرفه .

قال الجوهرى : « وفيّأت الشجرة تفيئة ، وتفيّأت

أنا فيها » . وفى الأساس : « وتفيأتُ بالشجرة » . وفى التاج : « وعداه أبو تمام بنفسه فى قوله : فتفيأت ظله ممدوداً »

فهل اطلع الأستاذ على نص يتعدى فيه (تفيأ) باللام ؟

٢ — وقال :

ميلاد (أحمد) كان مولد أمة عربية وشريعة سمحاء

والذى أعرفه أن يقال : (سمحة) لا (سمحاء) ، فإن من معانى السماحة السهولة واليسر . فيقال : « عود سمح : بيّن السماحة مستو لا أبن فيه » كما فى الأساس

وفى التاج : « وقولهم : الحنيفية السمحة : هى الملة التى ما فيها ضيق ولا شدة » هذا مبلغ اطلاعى . والله أعلم

(ا . ع)

حول الدين والفلسفة

قرأت كلمة الزميل الفاضل الأستاذ الدكتور محمد البهى بعدد الرسالة رقم ٤٠٦ ، وفيه أراد كما يقول أن يضع أمام القارئ مادة للاجابة عما إذا كان من مصلحة الدين (أن يفلسف بأن تشرح حقائقه بآراء الفلاسفة ؟) وهذا موضوع للرأى فيه مجال كبير ليس من همى الآن الأخذ بنصيب فيه ، ولكن وقفنى عند قراءته ماذهب إليه السيد الأستاذ من أن العقل الإسلامى جعل شعاره وهو يعالج ما أثارته الفلسفة الإغريقية من مسائل أنه (إذ انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال) لأن الحكمة ليست إلا موالدة الديانة وأن هذه ليست إلا متممة لتلك كما جاء فى مقابسات التوحيدى ، رأيت فى هذا الرأى وما تقدم به حضرة الأخ الكاتب لتأييده من سند ما يستوجب هذا التعليق القصير

١ — القارئ لهذين النقلين قد يظن أنهما جميعاً لأبى حيان التوحيدى نفسه ، والواقع غير هذا ؛ فالأول الخاص بانتظام الفلسفة اليونانية والشريعة ساقه التوحيدى فى أثناء عرضه لرأى إخوان الصفاء ، وطريقتهم فى الفلسفة ، والثانى الخاص بأن الحكمة موالدة الديانة الخ من كلام أبى سليمان السجستانى محمد بن بهرام شيخ أبى حيان ، وليس من كلام التوحيدى نفسه ، وكل هذا يظهر بالرجوع لصفحة ٤٦ وصفحتى ١٩٩ ، ٢٠٠ من المقابسات

٢ — من الحق أن فلاسفة الإسلام عنوا فيما عنوا به بفلسفة الدين والتوفيق بينه وبين الفلسفة لعوامل عدة ، منها أن الحكمة — كما يقول ابن رشد فى فصل المقال — هى صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة ، وهم فى هذا مسبوقون بمحاولات اليهود والمسيحيين فى هذه السبيل . ولكن لا أرى من الحق أن هذا كان شعار مفكرى الإسلام جميعاً . هناك كثيرون من مفكرى الإسلام لم يكونوا يرون هذا الرأى ، ولم يكونوا يذهبون إلى فلسفة الدين بشرح حقائقه بالفلسفة ، وأعنى بهم المفكرين غير الفلاسفة من متكلمين وغير متكلمين . ولعل من أقوى الأدلة لهذا ما ساقه التوحيدى ذاته فى أثناء كلامه عن إخوان الصفاء من أن شيخه أبا سليمان السجستانى صرح فى كلام له كثير بعد أن قرأ جملة من رسائل إخوان الصفاء ووقف على قصدهم ، ومنه التوفيق بين الدين والفلسفة ، من أنهم « تعبوا وما أغنوا ، ونصبوا وما أجدوا ، وحاموا وما وردوا . . . لأنه أين الآن الدين من الفلسفة ؟ وأين الشىء المأخوذ من الوحى النازل من الشىء المأخوذ بالرأى الزائل [1] » ؟

بعد هذا أظن أن الأمر أوضح من أن نطيل فيه الكلام ويكفى هذه الكلمة التى لم أقصد بها إلا بيان الحق ، ولعلى أصبت ، وبالله التوفيق .

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين

الى الأستاذ عبد المنعم خلاف

سيدى الأستاذ الزيات

اسمح لى بنشر هذه الكلمات التى تخطر لى إثر قراءة مقالات الأستاذ خلاف :

إن هذا هو الطراز من الكتاب الذى كنا نتشوق إليه فى العربية :

منطق قويم ، وفطرة سليمة ، وحرارة وحماسة وإخلاص ، وإدراك للمدنية الغربية ، وعدم تعصب عليها لمجرد التعصب ، وفهم لمحاسنها ، وإدراك لروح الإسلام والدين ، وعدم تعصب له لمجرد التعصب ، وفهم لمحاسنه ، وإدراك للمثل العليا الأخلاقية الصحيحة ،

(١) المقابسات طبع المطبعة الرحمانية ص ٤٧ ، ٤٩



عطر المنصور

للأستاذ رفعت فتح الله

في إحدى قباب بغداد قرأ المنصور ورقة تشكو ، ثم قبضها في يده تتلوى ، وقد ظل يردد كلماتها ، يكاد يتمزع من الغضب ، كأنه سحاب راعد : في عينيه برقه ، وعلى جبينه قطره ، وفوق سحرته غيمه ، ولم يكد يخفف عن الورقة قبضته حتى انتفضت ، كأنها منخنقة فك خناقها ، فبدت آثاره على صفحتها أثناء ، وعلى كتابتها شحوباً !

ألقى المنصور الورقة من يده ، بعد أن ألقى ما فيها في نفسه ، ولقد ارتمد إذ رأى رعيته تشكو بعض عماله ، وكل راع مسئول عن رعيته ، فأين يفر الظالم من شكاية المظلوم ؟ وكيف يواجه ظلم العامل حزم الخليفة ؟

وأخذ يفصل أنواع المظالم ، ثم ينثرها في رأسه ليرسل إليها تفكيره ، فتواردتها آراؤه كأنها حمام سراع إلى حب منثور ، وتزاحمت ، وتضاربت ، حتى أحس ضرباتها في رأسه ، ثم تلاقت الآراء على رأي سن عليه أمره ، وعقد عليه قلبه : أن يعزل العامل لظلمه ، ويأخذ ماله على عينه ، ويترك المال في بيت مفرد ، يسمى «بيت مال المظالم» ويكتب عليه اسم صاحبه

ولما استراح إلى رأيه نادى صاحبه ليأمره أمره ، ثم قام إلى مجلس أهله ليقضي حق الأهل ، فالتقى في طريقه صبياً يلعب ، فمس فرع أذنه بسبابته ، فنظر إليه الصبي نظرة الصغر إلى الكبر ، فأخذه على ذراعه ، وغمز نغانغه ، وكله مداعباً ، ثم قبله على شغف ، وأرسله على مرح قائلاً : إذا كان الحزم مع الكبير مجازاة ، فهو مع الصغير مناغاة :

ونظر غير بعيد ، فإذا رجل يمشي مشية الأسيان ، يرس الحديث في نفسه فتتحرك شفتاه بما لا تسمع أذناه ، ويفتح عينيه ولكنه لا ينظر بهما ، كأنهما انعكستا على رأسه ، فتجسمت فيهما صور ما وراءها من تفكير ، ولم تتصور أشباح ما أمامهما من منظور ، فهجس في نفس المنصور أنه يرى مظلوماً أصابه بعض عماله ، وارتجع إليه فكره الأول ، فلم يلبث أن أشار إلى الرجل الذاهل إشارة ضاعت في ذهوله ، فأومأ إلى عصا ألقيت في طريق الرجل فاعترضته حتى كاد يتعثر ، ولكنه اعتدل ولم يلتفت !

صاح حاجب المنصور : أيها الرجل !

فالتفت الرجل للتفاتة كأنها إفاقة للنشئ عليه ، ثم برق عينيه وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين

قال المنصور : وعليك السلام يا أسير الشجون ! هل تذكر اسمك ؟ !

قال الرجل : سعيد ... سعيد ... يا أمير المؤمنين !

قال المنصور : أسعيد أنت ؟

قال الرجل : ذاك اسمي لا وصفي ، والأسماء من اختيار الآباء ، والأوصاف من اختيار الأقدار !

قال المنصور : وكيف كنت مع الأقدار ؟

فتأوه سعيد ، وقال :

— جعلت حياتي تتلون تلون الزمن : من سواد الليل إلى بياض الصبح ، ومن حمرة الهجير إلى صفرة الأصيل ... فلقد كان مشرق شبابي مغرب والدي ، وكان ميراثي منه وفراً من الوصايا ونزراً من الدراهم ، فما مددت يدي إليها حتى بعثت فيهما

وأفكار سديدة بارعة ، وبيان رائع .

هل تدري يا سيدي خلاف أننا نقرأ مقالاتك المرة تلو المرة تلو المرة ، ثم لا نكتفي ، ونحس بدافع يدفعنا إلى الإعادة ...

إننا نود لو نتلوها كل يوم ، ولكن يعوقنا عن ذلك أنها غير مجموعة في كتاب

إن كل ما تكتبه جميل ورائع وحبيب إلى نفوسنا لصيق بها

هذه كلمات صوادق . إنها ليست لك ؛ إنما هي للفكرة التي تدعو إليها وتدافع عنها ، إنها لنا (المقالات) ... لأنك تخدمنا بها وتفيدنا .

(دمشق) بشير صادق

نشطة العمل ، كأنها رقية التكسب ، فتاجرت وأخلصت للتجارة حتى برّت بي ودرت ، لله درُّها ! فقد صرت أعد أوقاتي بالدنانير حتى خيل إلى أن أشعة الشمس تجمد في يدي ذهباً !

فحدقه المنصور بعينين تطل منهما نفسه المحبة للمال ، وقد كان المنصور يجمع في صفاته قوة الحزم ورجاحة الرأي وحب المال وطهارة اليد . فسطع في عينيه من معنى الذهب بريقه ، ثم غلب عليهما من معنى الحزم حديده ؛ ثم قال : أليس في هذا سعدك يا سعيد ؟ فكيف احتضرك الهم ؟

قال سعيد :

— لقد كنت أمس قريرَ العين بهيجَ القلب ، إذ رجعت من سفرة راشدة — في تجارة رابحة — فدفعت إلى امرأتي ما أحضرتُ من كرائم الأموال ، وطفِقتُ أشغَلُ يدي بتصفيفها ولساني بتحسينها ، حتى أخذتني نشوة الظفر بما كسبت فأهديتُ ، وأسرعت المرأةُ القبول ... آه ! يالها من عجول ! ! تركتها ضائق النفس ، وخرجت إلى الناس أؤدي حقوقاً لزمتني بالإياب ، ثم رجعت إلى منزلي مع الليل ، فأسرّ إلى حُلماً مُنمنماً ، تشيع فيه أضواء الذهب ، وتنوس عليه أهداب الديباج ، حتى استرد الليل بُردته السوداء ، وطوى فيها حلمي الهنيء ، فصحوت أمد يدي ... قالت المرأة : مالك ؟ قلت : أين المال ؟ قالت : المال أُخذ ... أحسست أن عقلي أُخذ معه ، وقمت أتفحص عن الجدار فما وجدت نقباً ، وطفت أتوسم في الأثاث فما رأيت أثراً ، فأي لص هجم على بيت كأنه حصن ؟ وكيف تسور أو تدخل ؟ تخيل لي أن عقلي قد اختنق ، وأن صدري قد اشتعل ، فسرت تيهان هائماً كمحترق يفر من نار شبت فيه ! ! . . . وهكذا رأيت قرة عيني تسيل في دموع كأنها ينبوع ! . . . وأحسست بهجة قلبي تطير في خفقان ، كأنها غِربان ! ...

قال المنصور : لعل المال مأخوذ غير مسروق

فنظر إليه سعيد نظرة سائلة وهو يردد قوله : مأخوذ ! مسروق ! ... مأخوذ ! مسروق ! ...

فأطرق المنصور عنه قليلاً ، ثم قال : منذ كم تزوجت امرأتك ؟

قال سعيد : منذ سنة

قال المنصور : شابة أم مسنة ؟

قال سعيد : شابة

قال المنصور : ألها ولد ؟

قال سعيد : لا !

قال المنصور : أبرْزة إلى الرجال ، أم مقصورة في الحِجال ؟

قال سعيد : برزة

قال المنصور : جميلة ؟

قال سعيد : إن وجهها كالدينار : أخذت بريقه واستدارته

فهمس المنصور : وتركت لك رنينه وصفرته

ثم قال : يروقك جمالها إذن !

قال سعيد : إنها كالبدر يا أمير المؤمنين

قال المنصور : ذكية ؟

قال سعيد : إن ذكاءها هو السماء التي تُطلع بدرَها

قال المنصور : تلك امرأة حبيبة

قال سعيد : وذاك اسمها يا أمير المؤمنين

قال المنصور : والمال الفقيد حبيب أيضاً ! وابتسم ، ففز سعيد وابتأس !

قال المنصور : لا تبتئس ، فعسى أن يرجع إليك مالك

ثم دعا بقارورة طيب كان يهتم به ويختص ، وقال : يا سعيد هذا طيب يتفاءل به ، فخذ منه شيئاً عسى أن يكون جلاء همك وصقال نفسك ، واستبشر بحسيسه كأنه حظ عصر لك في مدهن ! وتمتع من شميمه كأنه من أرواح الجنة !

فأخذه سعيد وقبله كأنه تميمة سعادة ، واصطانه كأنه مفتاح خزانة ؛ ثم سلم على الخليفة ، وانقلب إلى أهله وقد انتشر الأمل على أصغريه ، كما انتشر الطيب على عطفيه . فلما دخل على امرأته قالت : إني أشم عطراً يتضوع منك . قال : ذاك عطر وهبه لي أمير المؤمنين ، وإني واهب لك منه شيئاً عسي أن يكون لبيتنا فألاً ميمونا . فابتسمت شاكرة للزوج الواهب، ثم انصرفت مفكرة في العطر الموهوب

دعا المنصور أربعة رجال من ثقاته وأراهم طيبه ، وأشمهم منه ، ثم قال لهم : أقعدوا على أبواب المدينة ، فمن مر بكم وعليه

شيء من هذا الطِّيب فأتوني به . فذهبوا حيث أمرهم الخليفة ، وجعلوا يتربَّصون بمن يعرِّجُ بهم أريجُ الطيب ، حتى ضمَّ الليل شملته السوداء ومضى ، وبث الصبح في أطماره ؛ فرقمت الأرض بالأقدام والظِّلال ، وهم يترقبون ويتشممون ، كأنهم من كلاب الصيد في توقع الفريسة ، وإذا رجل قد توهج منه الطيب يجتاز أحد الأبواب ، فانقض عليه أحدهم انقضاض عقاب الطير ؛ فاهتز اهتزاز فراخ الصيد ، وغيَّمت الدهشة في رأسه ، فمادت نفسه ، وحارت عينه ، وسأل فلم يجد جواباً ، ونظر فلم يَرَ مناصاً ، وسيق تائهَ المساق حتى قدم إلى الخليفة ، فتقدم ، ثم سلم تسليم مروَّع لا يدري من أين رَوعه ؟

قال المنصور : ما الذي أقدمك ؟

فنظر الرجل إلى الذي ساقه وقال : الجواب عند هذا يا أمير المؤمنين !

قال المنصور : ما اسمك ؟

قال الرجل : حبيب !

قال المنصور : ما أحب اسمك !

ثم مد رأسه من وراء أنفه وتشمَّم ، ثم قال : وما أطيب طِيبَك ! ...

قال حبيب : هو نفحة من يُمنك يا أمير المؤمنين

فضحك المنصور ، واستعجب حبيب من ضحكه

قال المنصور . أنى لك هذا الطيِّب ؟

فارتد حبيب كأنه لديغ ، ونظر نظرة قد تخشمت جزعاً

فتبسم المنصور ، وقال : لا ترع ، فما أريد بك سوءاً ، وإنما كان مثل هذا الطيب يفوح من سرقة بالأمس ، وقد باح به جسمك اليوم ، وإني أخشى أن يلصق بك ما تتهم به !

قال حبيب : يا أمير المؤمنين ...

قال المنصور : ... وتخفي في نفسك ما الله مبديه ...

قال حبيب : أنا ...

قال المنصور : وأنا أرى على وجهك مسحة براءة ، وعلى يديك مسة طهارة ، ولكني أمرت أن أحكم بما ظهر ، والله ما بطن .

قال حبيب : ليس عندي من المال قديم ولا جديد إلا هدية أهداها إلى من لا أشك فيه

قال المنصور : ومن أهداها إليك ؟

فاعتُقِل لسان حبيب في فمه !

قال المنصور : لقد رأيتك تدرأ عن نفسك حتى كدت تبرأ لولا غموضة تريب تلك الهدية ، فهلا استكملت البراءة ، ونزعت عن يديك تهمة ليست لبوساً لك ! وإني موسع عليك ومخيرك : فإما أن تذكر من أهدى إليك فتجلو صفحتك ويقلب القضاء صفحته ؛ وإما أن تنزل عن الهدية لنرضها على صاحب المال فتسلم من آخر شيء يعلق به الاتهام ، ويكون ذاك أغنى عن التصريح وأنفى للشك وأبلغ في العذر

كاد حبيب يتكلم فيسلم ، ولكن قلبه خفق فسكت ، ودارت عينه ، ودار من ورائها رأسه ، لا يدري : أيمسك المال على بغض يمسه اتهام الأمير ! أم يتركه على حب يوحيه إهداء الحبيب ؟ فإما أن يذكر مهدية المال خلاصاً فنفسه دون ذلك فداء ، والفداء من سنة الحب ، وما كان لفم طهره الحب أن تدنسه الوقيعة ! ... ولقد تعجب حبيب من صروف الأقدار في تصريف الأموال ، فإنه ما كان ليمبأ بمال حتى يَفتن في جمعه ويُفتن بكنزه ، وما تكاثفت سحابة من كسبه حتى تقاطرت في صرفه ! كأن المال زائر عابر : ما سلم حتى ودع ! ولكن هذه الهدية عريت عنده من معنى المال ولبست معنى القلب ، فما يحسب رنين ذهبها إلا صدى الخفوق ! ووثب خياله إلى رجل هنالك قد تجمد قلبه جمود الذهب حتى عد خفوقه رنيناً ! ... رجل هنالك ! ... وأزعجه الخيال بوثبته ، فصحا من غفوته ، فإذا الخليفة يحسه بعينه وبجانبه صاحب الشرطة !

قال المنصور لصاحب الشرطة : خذ هذا الرجل ، فخيِّره في ما خيَّرته ، وأمهله ، فعسى أن ينجده وقته ، فإن أبى فصب عليه من العذاب ألفَ سوطٍ !

(البقية في العدد القادم) رفعت فتح الله

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)



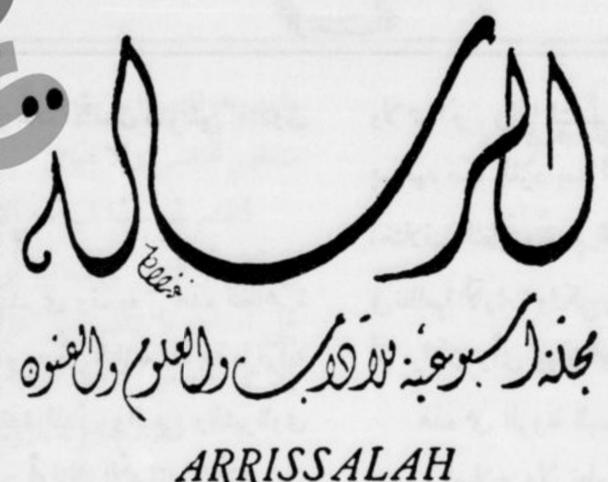
9me Année No. 408

Lundi - 28 - 4 - 1941

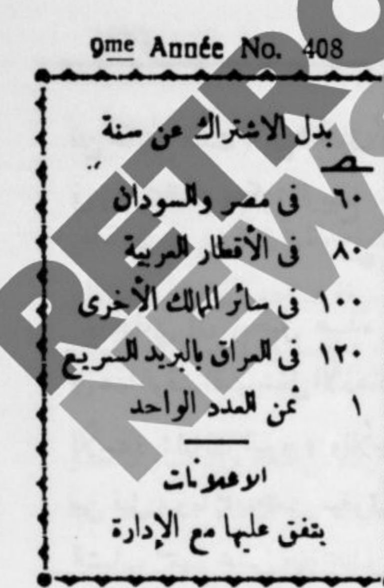
صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique



بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٤٠٨ « القاهرة فى يوم الإثنين أول ربيع الثانى سنة ١٣٦٠ — الموافق ٢٨ أبريل سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــرس

هل انبعث الأزهر؟

يغلب فى ظنى أن الأزهر انبعث فسمع فرأى ففكر! إنبعث كما ينبعث الربيع فى أوائل مارس، تراه سليب الشجر جديب الأرض مقرور النسيم، ولكن أسرار الحياة تكون - من وراء بصرك - قد انبثت فى الثرى، وجرت فى الأصول، وسرت فى الجو، فلا تلبث أن تستعلن فتمد الأرواح بجميل الزهر، وتمتع الأجسام بطيب الثمر

هؤلاء هم شباب الأزهر الجديد أساتذة وطلاباً، قد جلت نفوسَهم ثقافة العصر، وصقلتها مدنية الحاضر، فأشرقت عليها أشعة النبوة ساطعة بعد ما حجبها الغمام والقتام حِقباً بعد حقب. فهم وحدهم الذين يدركون مسافة البعد بين روح الأزهر وحياة الناس؛ وهم وحدهم الذين يملكون تزييف الأباطيل المقدسة التى اتسمت بسمة الحق، وتسمَّت باسم الدين؛ ولكنهم حول هذا الهيكل البالى أشبه بالأغصان الخلفةِ التى تنبت نضيرة على أصل الدوحة العتيقة، ثم لا يتسنى لها الفلظ والسموق لأن الجذور الشيخة لا تمدها بالغذاء كله، والفروعَ الميتة لا تمكنها من الهواء كله. فإذا لم يرسل الله رسول الإصلاح ويؤته ما آتى أولى العزم من الرسل، فيقطع من أعالى هـذه الدوحة ما اعوج، ويجتث من أسافلها ما ذبل، ويكشف عن جذعها الواهن ما التف عليه

من طفيلي النبت ، بني الجفاف على هذه الأفنان النواشئ ، فتذوى في زهرة العمر وبكرة الربيع

* * *

دفعني إلى تعجيل هـذه البشرى وتسجيل هذه الظاهرة في هذا الوقت الذي شغل الأذهان بوحوش النازية الهاجة ما قرأته للأستاذ شلتوت اليوم ، وللأساتذة المدني والبهي والشرقاوي من قبل ، وما سمعته من صفوة من أولئك الأساتذة الأزهريين الشباب ضمهم مجلس من مجالس الرسالة ؛ فلقد كنت — علم الله — أدعو إلى إصلاح الأزهر وفي نفسي خاجات من اليأس ؛ لأن أهله الذين وقفوا عقولهم عند حد النقل ، وقصروا جهودهم على درس القديم : يشرحونه ، أو يحشونه ، أو يقررونه ، أو يختصرونه ، أو ينظمونه ، حتى قرّ في نفوسهم أن القديم أفضل من الجديد ، والماضي خير من الحاضر ؛ فالقرن الأول خير من الثاني ، والثاني خير من الثالث ، وهلم جرا حتى يجعلوا القرن العشرين شر القرون ، وعلماءه أجهل النـاس ، فلا يجوز لفهم أن يبتكر ، ولا لعقل أن يعترض ، ولا للسان أن يقول : إن في الإمكان أبدع مما كان ؛ أولئك لا يستجيبون لدعوة الإصـلاح لأن الإصلاح تغيير أو إبداع ؛ وقبول التغيير محال ما لم يتغـير ما بالنفس ، وإجازة الإبداع باطلة ما لم يتضح معنى البـدعة . ومن أجل ذلك كان لـكل مهديّ « عليش » ، ولـكل محمد عبده « رفاعي » ، ولكل مراغي « . . . »

أجل ، كان يخالجني اليأس من نهوض الإصلاح قبـل أن أتصل عن طريق الرسالة بهذه الطبقة الممتازة من الأساتذة الشباب وتلاميذهم الأنجاب في كليات الأزهر الثلاث . فلما عرفتهم وفهمتهم انبثق في صدري الأمل في أن الأزهر سيعود ويقود ، وأن الإسلام سيحكم ويسود ؛ والأمر رهن بدفن الرميم وكسح الهشيم وانفساح المجال وتحرر العقلية العامة

أعجبني من الأستاذ شلتوت وأصحابه خلوص الدين في قلوبهم ، ونصوع فكرته في عقولهم ، وفهمهم إياه على أنه دين هـذا العصر وشريعة هذا الناس ، فنحن أبصر بموقع الحـكمة فيه ، وأجدر باستنباط الرأي منه . والدين كالشمس ، لا هي تراث ولا هي أثر . وإنما الشمس للحاضر لا للماضي ، وللحي لا للميت ، يستفيد منها الفرد بعد الفرد ، والجيل بعد الجيل ؛ ثم يقتضي اختلاف النظر وتقدم العلم أن يختلف فيها العلماء ، وتتعارض في نظامها الآراء ؛ ولكن رأي فيثاغورس أو بطليموس ، لا يجوز أن يوازَن برأي نيوتن أو هرْشِل

هذه هي المرونة البصيرة التي توجبها سنة الحياة ولا يكون بدونها إصلاح ولا تطور . ولم يُصَب الأزهر بهـذا الجمود إلا لأنه فقد هذه المرونة ، فلم يبال فِصْلَ الزمن في الدنيا وفي الناس . لذلك لم يعلم التاريخ جامعة من جامعات الأرض بقيت في القرن العشرين على ما كانت عليه في القرون الوسطى غير الأزهر !

كان الأزهر أسبق الجامعات الباقية في الدنيا إلى الوجود . أنشئ عام ٩٧٢ م وأنشئت جامعة بولونيا عام ١١٠٠ م وجامعة باريس سنة ١١٥٠ م ؛ ثم تتابعت بعدهن الجامعات في أوربا وأمريكا وكانت كلها تنحو منحى الأزهر في النظام والمنهاج والطريقة ؛ إلا أنها سايرت الزمان وأطاعت التطور واستجابت لداعي الحاجة ، حتى أصبحت مورداً ومَراداً لأسمى ما بلغه العقل الإنساني من الثقافة والمعرفة . ولبث الأزهر وحده حيث كان يمضغ كلام السلف ، ويردد لغو الألسن ، ويملل ضلال الأقلام ، ويصم أذنيه عن أصوات العالم وحركات الفلك ، حتى أصبحت المدارس الأوليـة أدنى منه إلى طبيعة العصر ، وأفهم منه لمعنى الحياة !

لسنا اليوم بسبيل البحث في علل هذا الجمود الزمن المحزن ، فذلك شيء تتصل أسبابه بما انتاب المسلمين من ضلال العقيدة وشيوع الجهالة وفساد الحـكم . وبحسبنا أن نسجل نهاية هذا الجمود بما بدا على بعض الأساتذة وأكثر الطلاب من الطموح إلى السبق والنفور من التخلف والزراية على نهج العلم وطريقة الـكتاب . ومن تفاعل في نفسه القلق والاشمئزاز والسخط لسوء حال أو فساد أمر ، شق عليه الاطمئنان إليه والاحتفاظ به . وتغير النفس إيذان بتغيير الحال ، والشعور بالنقص أول مراتب الـكمال !

احمد حسن الزيات

القرآن والمسلمون

للأستاذ الشيخ محمود شلتوت

وكيل كلية الشريعة

(بقية ما نشر فى العدد الماضى)

القرآن والمسلمون فى العهد الأخير

وصلت إلينا هذه الثورة التى دونت فى بطون الكتب ووضعت موضع التقديس ؛ وهى من الخلط والخبط وتشويه معالم الدين على ما وصفنا

فأقعدت الناس عن النظر فى القرآن ، وملأت أذهان الناس بألوان من الأوهام الفاسدة عن التشريع والعقيدة ، وما يحل وما يحرم ؛ وصار كثير من المسلمين يعتقدون أن الحلال ما أحله فلان فى كتاب كذا، وأن الحرام ما حرمه فى كتاب كذا؛ وأن فلاناً ذكر فى معنى الآية الفلانية كذا وكذا . بل وصل الأمر ببعض أهل العلم إلى أن يقول : إن هذا الشيء ثابت فى القرآن ، لأن فلاناً وفلاناً حملوا عليه بعض آيات الكتاب الحكيم !

لم يستطع الجمهور أن يستخلص خطة عملية واضحة من القرآن بطريق مباشر ، ولم يستطع أن يعتمد على هذه التفاسير الموروثة فى استخلاص هذه الخطة التى هو فى أشد الحاجة إليها

أما أنه لم يجد غرضه وحاجته فى هذه التفاسير فذلك يرجع إلى ما فى كثير منها من الحشو والتخليط والاعتماد على الروايات التى لا تصح

وأما أنه لم يستطع الوصول إلى هذا الغرض من القرآن مباشرة ، فلأن هؤلاء القائمين على أمر القرآن من أهل العلم أوهموا الناس — لغرض ما — أن فهم القرآن ومحاولة النظر فى آياته ، بدون استعانة بكتب السابقين وآرائهم التى دونوها غرض بعيد لا يصل إليه إلا الأفذاذ من أهل العلم وأصحاب العقول الراجحة ، وأن من يطمع فى ذلك أو تحدثه به نفسه من غير أن يستكمل شروطه ، فقد عرض نفسه لغضب الله !

يومئذ تصور الناس القرآن كتاباً عزيز المنال ، بعيداً عن الأفهام ، فهابوه ويئسوا من الوصول إلى معانيه ، وتقبلوا فيه وساطة هؤلاء المحتكرين ، وتلقفوا من أفواههم ما جادوا به عليهم ، واقتنعوا به من القرآن كوسيلة من الوسائل يداوون بها ضعفهم النفسى والاجتماعى

انفتح لهم بهذا باب من الانتفاع بالقرآن لا عن طريق النظر فى آياته أو التدبر فى معانيه أو معرفة هدايته وإرشاده ، ولكن على أساس ما تلقفوا من هؤلاء ، فصاروا لا يعرفون القرآن إلا على نحو من الأنحاء الآتية :

١ — التعبد بتلاوته تلاوة مجردة عن التدبر والاعتبار لا تعدو أن تكون حركات لفظية تضطرب بها الشفاه ، وتنغم بها الخياشيم ومن وراء ذلك قلوب عليها أقفالها

٢ — التبرك به ، فاتخذوا منه التمائم والأحجبة والرُّقى والتعاويذ !

٣ — استنزال الرحمة به على موتاهم فجملوا يستأجرون لذلك القراء المحترفين ليقرأوه فى البيوت أحياناً وعلى القبور أحياناً لقاء أجر معلوم ، ومال مقسوم

٤ — التماسه دواء للأمراض والعلل الجسمية عن طريق تلاوته أو كتابته أو التبخير به أو محوه بالماء ثم شربه

٥ — اتخاذه وسيلة لاستدرار عطف الغادين والرائحين ، فتسولوا به فى الطرقات وأمام المساجد وعلى أبواب البيوت فى صور تنافى الكرامة ولا تتفق مع التقديس

وهكذا أخذوا ينتفعون بالقرآن ، أو بعبارة أدق يستغلون القرآن على هذه الأوضاع الزرية التى لا تليق بكتاب أنزله الحكيم العليم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور

قد يجد الناظر فى كتب السنة ما يفيد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ فى رُقيته شيئاً من القرآن كالفاتحة وغيرها ، كما أنه قد يجد فى كتب الفقه ما يدل على مشروعية القراءة وهبة ثوابها لأرواح الموتى

وسواء أصح هذا أم لم يصح ، وسواء أكانت الرقية ونفعها لخصوصية فى نفس الراقى ، أم لأسرار ذاتية تحملها آيات القرآن وحروفه ، فإن الذى ننكره على المسلمين اليوم ونلقى التبعة فيه على علمائهم أن ينبذوا كتاب الله وراءهم ظهرياً فى كل شيء ، ويتخذوا هذا القرآن مهجوراً إلا فى هذه النواحى التافهة التى لا تقاس بجانب عظمة القرآن

ألا إن فى ذلك لتصويراً للقرآن بصورة تنبو عنها الأذواق ودعاية سيئة عنه أمام العقول المفكرة لو كانوا يعلمون

***

استطار شرر هذه النزعة ، وتفشى وباؤها ، حتى تأثرت بها أذهان المفكرين من أهل العلم والسلطان ؛ تأثر هؤلاء جميعاً إلا قليلاً منهم بهذه النزعة الشعبية الجمهورية ؛ وكان منهم من مالأ العامة وسايرهم في اتجاهه خوفاً منهم ، وكان منهم من تسمم عقله فملأ ، وفسد تصوره لحقائق القرآن الصحيحة ، واعتقد ما اعتقده العامة فيها

نزل هؤلاء وهؤلاء على حكم الشعب ، فلم يقاوموا هذه النزعة فيه ، بل سايروه فيها وزينوها له ، وأخذوا يدافعون عنها كأنما يدافعون عن حق يتوقف عليه بناء الدين ويرتفع به شأن الإسلام والمسلمين . وإذا ما دعا داع إلى استقبال القرآن ككتاب هداية وإرشاد وتشريع ، تناولوه بالألسنة والأقلام ، واتهموه بالزيغ والإلحاد ، والتضليل والإفساد ؛ والله يعلم المفسد من المصلح ، والمضل من المرشد ، إنه عليم بذات الصدور !

أما الحكام الذين طغت عليهم هذه النزعة وبيدهم مقاليد الأمور والتشريع للبلاد ، فقد توهم بعضهم أن الكتاب بعيد عن مجاراة الحضارة والتشريع الحديث ، وأنه لا يفي بحاجات العقول المفكرة والأمم المتحضرة !

نعم يوجد من بين هؤلاء من يفهم حقيقة القرآن ، وأنه لا يضيق صدره عما يقتضيه التطور الحديث من تشريع وتنظيم ، ولكنه يخشى سلطان هؤلاء العامة من جهة ، ويؤثر أن يجاري هؤلاء العلماء من جهة أخرى ، لئلا يتهموه بالمروق ومعاداة القرآن ، فلذلك تراه لا يحب أن يعقد بينه وبين هذه الموضوعات الشائكة صلة ، ولا يشاء أن يمد يده ليضعها في أيدي المصلحين ليطالبوا بالرجوع إلى شريعة القرآن والنزول على حكم القرآن .

وأنه لما يحز في قلوب المؤمنين الصادقين أن هذه الفكرة قد طغت على أذهان كثير من أهل الحكم والنيابة عن الأمة ، حتى صاروا يعتقدون عدم كفاية التشريع القرآني لتنظيم شئون الأمة ومعالجة أمراضها الاجتماعية !

ويبيحون لأنفسهم أن يلجأوا إلى التشريعات الأجنبية ، فيستمدوا منها ما ينظمون به شئون المسلمين : في المدنيات والجنائيات والآداب العامة

وهكذا هانت على المسلمين أحكام القرآن ، بل هانت على المشتغلين بها أنفسهم ، ولم يقدروا قيمتها العلمية والعملية حق قدرها ، فضعفت هممهم عن دراستها وموالاة النظر فيها والانتفاع بها ، وصاروا يكتفون منها بالقليل ، واستساغوا لكرامتهم أن يفروا من التحصيل والعكوف على العلم بكل ما يستطيعون ، وأصبحوا يؤدون ما يؤدون من ذلك في الحدود التي تروقهم ، وفي الأزمان التي يحددونها ؛ ذلك بأنهم مسوقون إلى العلم بعوامل شخصية لا تمت إلى إرادة العلم والتثقف وخدمة الدين والقرآن بأدنى الأسباب

يحسن بعد هذا أن نتحدث عن موقف طائفة أخرى من القرآن - زعمت لنفسها ثقافة خاصة وأخذت تستند إليها في فهم القرآن وتفسير آياته ؛ تلك هي طائفة المثقفين الذين أخذوا بطرف من العلم الحديث وتلقنوا أو تلقفوا شيئاً من النظريات العلمية والفلسفية والصحية وغيرها ثم نظروا في القرآن فوجدوا الله سبحانه وتعالى يقول : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » فتأولوها على نحو زين لهم أن يفتحوا في القرآن فتحاً جديداً . فسروه على أساس من النظريات العلمية المستحدثة ، وطبقوا آياته على ما وقفوا عليه من قواعد العلوم الكونية ، وظنوا أنهم بذلك يخدمون القرآن ، ويرفعون من شأن الإسلام ، ويدعون له أبلغ دعاية في الأوساط العلمية والثقافية

نظروا في القرآن على هذا الأساس فأفسد ذلك عليهم أمر علاقتهم بالقرآن وأفضى بهم إلى صور من التفكير لا يريدها القرآن ولا تتفق مع الغرض الذي من أجله أنزله الله

فإذا مرت بهم آية فيها ذكر للمطر ، أو وصف للسحاب ، أو حديث عن الرعد أو البرق ، تهللوا واستبشروا وقالوا هذا هو القرآن يتحدث إلى العلماء الكونيين ويصف لهم أحدث النظريات العلمية عن المطر والسحاب وكيف ينشأ وكيف تسوقه الرياح .

وإذا رأوا القرآن يذكر الجبال أو يتحدث عن النبات والحيوان وما خلق الله من شيء قالوا : هذا حديث القرآن عن علوم الطبيعة وأسرار الطبيعة

وإذا رأوه يتحدث عن الشمس والقمر والكواكب والنجوم قالوا هذا حديث يثبت لعلماء الهيئة والفلكيين أن القرآن كتاب علمي دقيق !

ومن عجيب ما رأينا من هذا النوع أن يفسر بعض الناظرين في القرآن قوله تعالى : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ،

يغشى الناس هذا عذاب أليم » ، بما ظهر فى هذا العصر من الغازات السامة والغازات الخانقة التى أنتجها العقل البشرى فيما أنتج من وسائل التخريب والتدمير فى هذا الزمان !

يفسرون الآية بهذا ويغفلون عن قوله تعالى بعدها : « ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ، أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ، ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون » ، مما يدل على أن هذه الظاهرة كانت على عهد النبى صلى الله عليه وسلم أصيب بها الذين عارضوه وكذبوه وقالوا معلم مجنون

روى أن رجلاً جاء إلى ابن مسعود وقال له : تركت فى المسجد رجلاً يفسر القرآن برأيه : يفسر قول الله سبحانه : « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين » بأن الناس يوم القيامة يأتيهم دخان فيأخذ بأنفاسهم حتى يأخذهم كهيئة الزكام . فقال ابن مسعود : « من علم علماً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم » ! إنما كان هذا لأن قريشاً استعصوا على النبى صلى الله عليه وسلم فدعا عليهم بسنين كسنى يوسف ، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام ؛ فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد !

وأغرب من هذا وأعجب أن يفسر بعض هؤلاء المفسرين الحديثين شأناً غيبياً من شئون الله الخاصة لم ينزل بتفصيله وحى ، ولم يطلع الله على حقيقته أحداً من خلقه ، ببعض الظواهر الحاضرة التى اكتشفها العلم واهتدى إليها بنو الإنسان :

يفسر الكتاب المبين والإمامَ المبين الذى تحصى فيه الحسنات والسيئات وتعرض على أصحابها يوم القيامة ، بالتسجيل الهوائى للأصوات ، ويقول : أظهر العلم ذلك بالمخترعات البشرية واستخدمه الإنسان فيما يختص بالأصوات ، ولا تبعد أن يستخدمه فيما يختص بحفظ الحركات والسكنات والخواطر النفسية ، والله القادر خلق الكون على هذه السنن لغاية أسمى من ذلك هى محاسبة الناس يوم القيامة ، وعرض أعمالهم عليهم كشريط مسجل يضم جميع حركات الناس وسكناتهم وخواطرهم وأقوالهم ، وما قدموا من عمل

يقولون هذا ويفسرون به قوله تعالى : « علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى » . وقوله تعالى : « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً » .

ويهجمون على الغيب بما لم يأذن به الله ، ويجدون من العلماء من يؤيدهم ويشجعهم ويزكيهم ويتمنى أن يكثر الله من أمثالهم !

إن هؤلاء فى عصرنا الحديث لمن بقايا قوم سالفين فكروا مثل هذا التفكير ، ولكن على حسب ما كانت توحى به إليهم أحوال زمانهم ، فحاولوا أن يخضعوا القرآن لما كان عندهم من نظريات علمية أو فلسفية أو سياسية

ولسنا نستبعد إذا راجت عند الناس فى يوم ما نظرية دارون مثلاً أن يأتى إلينا مفسر من هؤلاء المفسرين الحديثين فيقول : إن نظرية دارون قد قال بها القرآن منذ مئات السنين !

* * *

هذه النظرة إلى القرآن خاطئة من غير شك ، لأن الله لم ينزل القرآن ليكون كتاباً يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع المعارف

وهى خاطئة من غير شك لأنها تحمل أصحابها والمغرمين بها على تأويل القرآن تأويلاً متكلفاً يتنافى مع الإعجاز ، ولا يسيغه الذوق السليم

وهى خاطئة لأنها تعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم فى كل زمان ومكان . والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأى الأخير ، فقد يصح اليوم فى نظر العلم ما يصبح غداً خرافة من الخرافات

فلو طبقنا القرآن على هذه المسائل العلمية المتقلبة لعرضناه للتقلب معها ، وتحمل تبعات الخطأ فيها ، ولأوقفنا أنفسنا بذلك موقفاً حرجاً فى الدفاع عنه وإقناع الناس به

فلندع للقرآن عظمته وجلالته ، ولنحفظ عليه قدسيته ومهابته ، ولنعلم أن ما تضمنه من الإشارة إلى أسرار الخلق وظواهر الطبيعة إنما هو لقصد الحث على التأمل والبحث والنظر ليزداد الناس إيماناً مع إيمانهم

وحسبنا أن القرآن لم يصادم ولن يصادم حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليها العقول . قيل: يا رسول الله، ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيد حتى يعظم ويستوى ويستدير، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان لا يكون على حالة واحدة ؟ فنزل قوله تعالى : « يسألونك عن الأهلة ، قل هى مواقيت للناس والحج. وليس البرُّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها، ولكن البرَّ من

اتقى، وأتوا البيوت من أبوابها، واتقوا الله لعلكم تفلحون»

وإنك لتجد هذا فى سؤالهم عن الروح حيث يقول عز وجل:

«ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً»

أليس فى هذا دلالة واضحة على أن القرآن ليس كتاباً يريد الله به شرح حقائق الكون؛ وإنما هو كتاب هداية وإصلاح وتشريع؟؟

***

قد عرفنا مهمة القرآن التى لأجلها نزل، وعرفنا موقف المسلمين الأولين من هذه المهمة، وما كان لهم بفضل موقفهم هذا من عز وجاه وسلطان

ثم عرفنا موقف المسلمين فى العصور التالية، وكيف عقّدوا على الناس طرق الانتفاع بالقرآن والاهتداء بهديه

وعرفنا كيف تلق المسلمون فى عهودهم الأخيرة كتاب الله فى وسط هذا المزدحم فاشتبهت عليهم معالمه واختلطت بغيرها، فانصرفوا عن القرآن وهدايته وتدبر آياته إلى أشياء لا تنفعهم فى دينهم ولا دنياهم، أو خرجوا به عن مهمته الكبرى، وحملوه ما لا يحتمل مما يروج عندهم أحياناً وتزيفه العقول أحياناً

وعرفنا كيف تقلص عن المسلمين خير القرآن، وحرموا الانتفاع به فى الهداية والإرشاد والتشريع وقد آن لنا أن نتساءل هل للمسلمين أن يفكروا فيما يعود بهم إلى سالف غيرهم ورفيع مجدهم عن طريق القرآن وتشريع القرآن؟

هذا سؤال لا بد أن يدور فى خلد كل مؤمن يعتقد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين

هذا سؤال لا بد أن يتوجه إلى كل من يهمه أمر الإسلام والمسلمين ويكون صادقاً فى غيرته على الإسلام والمسلمين

هذا سؤال لا بد أن نوجهه إلى طائفتين من الأمة، عن آرائهم تصدر وفى خطتهم تسير: هما طائفة العلماء وطائفة الحكام

بل هذا سؤال لا بد أن نوجهه إلى كل فرد فى هذه الأمة من عالم ومتعلم، من حاكم ومحكوم، من شيخ وشاب

فعلى كل من هؤلاء قسط من المسئولية لا مناص له من تحمله: على العلماء البيان والنصح والإرشاد وتيسير سبل الدين وهداية القرآن للناس؛ وعلى الحكام الرجوع إلى هذا المصدر الإلهى فى التشريع والتنظيم؛ وعلى الأمة أن تشعر ولاة أمورها بتلك الرغبة، وأن تنادى بتنفيذها، وتؤازر من آزرها وتحارب من حاربها.

أيها العلماء: اسمعوا ما يقول الله فى كتابه العزيز:

«إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعدما بيناه للناس فى الكتاب، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم؛ وأنا التواب الرحيم»

أيها الحكام: اسمعوا ما يخاطبكم الله به فى شخص الحاكم الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم:

«وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك، فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم. وإن كثيراً من الناس لفاسقون. أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون؟»

أيها المسلمون: اسمعوا ما يناشدكم به الله فى كتابه:

«ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وكثير منهم فاسقون. إعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها. قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون»

محمود شلتوت

الفرد هو الحجر الأول

فى بناء المجتمع

(ما رأى الأستاذين الكبيرين الزيات والعقاد فى موضوع هذا الحديث ؟)

للدكتور زكى مبارك

منذ ليال وقفت فى جمعية الشبان المسيحية ألقِى محاضرة فى تشريح آراء الدكتور طه حسين ، وألقى السامعون طوائف من الأسئلة فأجبت عنها بحذر واحتراس ، لأن أغلبها انصبّ على نقطة دقيقة متصلة بالرأى الذى أعلنتُـه فى معالجة أمراض الفقراء من صنّاع وعمال وفلاحين ، ولكن الاحتياط الذى التزمته فى الإجابة عن تلك الأسئلة لم يمنع من أن يصرخ جماعة من الحاضرين : يسقط عدوّ الفلاح ! يسقط عدو الفلاح !

ولم يؤذنى هـذا الصراخ ؛ لأنه صدق فى صدق ، فأنا عدو الفلاح الكسلان ، وسأمضى فى معاداته إلى أن ينظر فى نفسه فيعرف نعمة الله عليه ، ويدرك أن من الخطر أن يسمع أقوال المرائين الذين يتقربون إليه بأساليب دميمة ستُشقيه وتُرديه ، لأنها تصوّب إلى هدف واحد : هو إقناعه بأنه يعيش عيش الأشقياء ، مع أنه فى حقيقة الأمر أسعد السعداء . وكيف يحرَم السعادةَ وهو أول منتفع بثمرات الأرض ، وآخر من يحمل هموم الكساد عند اختلال الأسواق ؟

الفلاح سعيد ، سعيد ، سعيد ، على شرط أن يسد أذنيه عن أقوال من يرون فى التوجع لشقائه المزعوم وسيلة للظهور بمظهر الغيرة الوطنية ، والوطن برىء ممن يزعزعون ثقة الفقراء بالأغنياء . الوطن برىء من جميع الذين يحاولون زعزعة يقين الفلاح بأن لجماله الحق صورة واحدة : هى تلويح وجهه وتشقُّق قدميه بسبب الجهاد فى استخراج ثمرات الأرض : الأرض الجميلة التى لا ترضى من عشاقها بغير الكفاح الدائم والكدح الموصول ؛ ولن يكون الفلاح سيد هذه الأرض إلا يوم يتخلق بما تخلّق به أجداده الشرفاء . وقد كان أجدادنا يبغضون التأنق ويتفاخرون بالتقشف ويتبارون فى الاخشيشان ، ليصح انتسابهم إلى الأرض التى لا يسود فيها غير من يملكون القدرة على التصرف بالفؤوس والمحاريث

وأرجع إلى موضوع البحث فأقول :

لما شاهد الأستاذ سلامة موسى جماعة يصرخون فى وجهى هاتفين : « يسقط عدو الفلاح ! يسقط عدو الفلاح ! » حدثته النفس بأن وقت الانتصار على خصمه القديم قد حان ، فانتفى قلمه ومضى يجرحنى فى مجلة اللطائف المصورة بعبارات لا تصدر إلا عن كاتب فقد القدرة على ضبط النفس ، وأنا لن أجزيه عن تلك العبارات بما يباريها فى القسوة والعنف ، فما أحب أن يتحول الجدل إلى ملاحاة تصرف القراء عن فهم دقائق الموضوع الذى ثار من أجله الخلاف

وأنا أرى أن الفرد هو الحجر الأول فى بناء المجتمع ؛ وأرى من الواجب أن توجَّـه الجهود الصوادق إلى إصلاح الفرد ، لأن المجتمع يتكون من أفراد . ولا يمكن القول بسلامة بناء من الأبنية إلا عند التأكد من سلامة الموادّ التى كونت ذلك البناء

ويجب حتما أن يكون لكل فرد « شخصية خُلقية » لتكون له « كرامة ذاتية »

ولكن ما هو الخُلُق الذى يتحلى به الفرد ، لتكون له شخصية خلقية ؟

تنقسم الأخلاق إلى قسمين : أخلاق سلبية وأخلاق إيجابية ؛ فالأخلاق السلبية يصوِّرها ترك المحظورات ، وهى الأخلاق التى تخطر فى بال الناس عند ما يسمعون كلمة أخلاق

أما الأخلاق الإيجابية فهى التى تفرض على أصحابها مشاقّ ومتاعب فى تحصيل المزايا النفسية ؛ المزايا التى تنقل الرجل من حال إلى أحوال ، فيحلِّق بعد الإسفاف ، وينبُـه بعد الخمول ، ويخلق لنفسه مكاناً بين المياسير والأغنياء

ولا تكون للرجل شخصية خلقية إلا حين يتحلى بالأخلاق الإيجابية ، أما الاكتفاء بحلية الأخلاق السلبية فقليل الغناء ، لأن ترك المحظورات لا يشهد بقوة الخلق إلا حين يكون الرجل على جانب من القدرة على اقتراف السيئات ، وهو لا يكون كذلك إلا يوم يملك من أسباب الغنى والعافية ما يجعل انصرافه عن المهلكات شاهداً على أنه يجاهد فى سبيل التصون جهاد الأبرار

وحين يتضح هذا المعنى فى نفس كل فرد ، أو فى أنفس أكثر الأفراد ، يمكن الاطمئنان إلى أن بناء المجتمع يتكون من أحجار صِحاح ؛ فالبناء المتين لا يعيبه أن يكون فيه حجر منخوب فى أحد الجوانب ، وإنما يعيبه أن تكثر الأحجار

المناخيب فيُخشى عليه التصدع والسقوط

فما الفرد وما المجتمع فى بناء الأمة ؟

المجتمع هو صورة البناء ؛ والأفراد هم الأحجار التى يتكون منها البناء

فمن حدثكم أن العناية بالفرد علامة الأنانية فاعرفوا أنه رجلٌ سطحىٌّ التفكير ، لا يصل ذهنه إلى لباب الحقائق ، ولا يهتدى عقله إلى دقائق الشئون

يرى الأستاذ سلامة موسى أن من الخطر أن يقول الفرد : « أنا وحدى » وأقول إن من عظمة الأمة أن يكون لأفرادها من القوة ما يسمح لأحدهم بأن يقول « أنا وحدى » ... وما ضَعُفَتْ بعض أمم الشرق فيما غَبَر وفيما حضر إلا بسبب عجز أفرادها عن الشعور بتلك الوحدانية ، فكان أكثرهم شبيهاً بالنباتات الضعيفة التى لا تفارق ذلة اللصوص بالأرض إلا حين تعتمد على جذع منصوب

واعتماد الفرد على المجتمع فى أكثر الشؤون من علائم الانحطاط ، وأعظم كلمة قيلت فى وصف الشخصية الُخلقية هى كلمة الشاعر الذى يقول :

يرى الوحشة الأُنس الأنيس ويهتدى

بحيث اهتدتْ أم النجوم الشوابكِ

والمنحطون هم الذين ينتظرون من الحكومة كل شىء ، فهى عندهم مسئولة عن صيانة جميع المرافق ، وتدبير جميع المنافع ، وإبعاد جميع المخاطر ، و « إصلاح جميع الأحوال »

المنحطون هم الذين يفاضلون بين المرشحين للمجالس النيابية على أساس البراعة فى التزيين والتهويل ، فأقدر الرجال وأصلحهم للنيابة هو من يزعم أنه سيفرض على الحكومة أن تحوّل الدائرة التى ينوب عنها إلى فردوس لا يجتاحت ساكنوه بغير أقراص الشهد وأكواب الرحيق !

وما كان ذلك إلا بسبب الضعف فى شخصية الفرد ، ومن الأفراد الضعاف يتكوّن المجتمع الضعيف

ومن أجل هذا أدعو إلى أن يكون لكل فرد وجود خاص ، بحيث يشعر بالمسئولية الخلقية فى جميع ما يباشر من الشؤون : فالفلاح فى المزرعة يشعر بسعادة عظيمة لوقوفه تحت الشمس حافى القدمين طاعة للواجب ، والعامل فى المطبعة يجد من الأنس فى صف الحروف ما لا يجده اللاعب الظافر بالصيال فوق رقعة الشطرنج ، لأن لصف الحروف وترتيبها جاذبية يخلقها شعور العامل المخلص بأنه لا يؤلف بين حرف وحرف ، وإنما يؤلف بين معنًى ومعنى ويصل روحاً بروح . والمدرس الموفَّق يشعر بأنه مسئول أمام الله عن كل تلميذ ، فتزيده تلك المسئولية قوة إلى قوة ، وتسكب فى ضميره رحيق الاطمئنان . والكاتب الصادق فى كل ما يكتب يتلقى أحسن الجزاء من الشعور بأنه يصدر عن عقيدة منزهة عن الرياء

تلك قطوف من ثمرات الشخصية الُخلقية ، ومنها ندرك أن ليس فى الدنيا سيّد ومَسُود ، ومستأجِر وأجير ، فكل امرئٍ فى الدنيا يعمل لنفسه قبل أن يعمل لمن وثقوا بكفايته لما يُسنَد إليه من أعمال

الشخصية الُخلقية هى مصدر السعادة فى حياة الفرد ومظهر السلامة فى بناء المجتمع

ولا تكمل الشخصية الخلقية إلا لمن يملك القدرة على أن يقول « أنا » ، ولا تصدُر « أنا » صادقةً إلا عن رجل له وجود خاصّ ، وأنا أتمنى أن يكون لكل فرد فى مصر « أنا » لأستطيع الاطمئنان إلى أن المصريين ليسوا أصفاراً تضاف إلى أصفار ، وإنما هم أرقام تضاف إلى أرقام ، والصفر فى ذاته عدمٌ يلبس ثوب الموجود ، ولكنه يصبح وجوداً ذاتياً حين يقف على يمين الرقم الصحيح

والـ « أنا » لا يراد بها التكبر والاستعلاء ، وإنما يراد بها الشعور بقوة الذاتية ؛ فالرجل الذى يطيع القانون « أدباً » رجلٌ من أهل الأخلاق . أما الذى يطيع القانون « خوفاً » فهو من أهل الانحطاط . والذى يباشر الأعمال البسيطة طلباً للرزق رجلٌ شريف ، لأن طلب الرزق عن نية صادقة مطلب من أعظم المطالب ، ولا يعاب على طالب الرزق إلا أن يقترف فى سبيله ما يعاب

زعم عدوٌّ نفسه ـ وهو الأستاذ سلامة موسى ـ أنى حكمت على خمسة عشر مليوناً من المصريين بضعف الأخلاق ، لأنى قلت إن الفقر يشهد على صاحبه بضعف الأخلاق الاجتماعية والمعاشية ، فليعرف عدوٌّ نفسه وعدوٌّ الحق أن الفقير فى نظرى هو الشخص الذى يقاسى الحرمان بسبب الكسل وقلة الأمانة والرضا بالدون من مطالب الوجود ، وليس فى مصر من هذا الطراز غير مئات أو ألوف ، وهم أهل للشقاء الذى يعانون

الصانع الذى يرجع إلى بيته فى كل مساء وفى جيبه خمسة قروش ليس فقيراً

والفلاح الذى يدبّر قوت أهله فى كل يوم بعرق الجبين ليس فقيراً

والكنّاس الذى يكحل عينيه بالغبار ليظفر بالقوت الحلال ليس فقيراً

وإنما الفقراء هم أولئك الكسالى القاطيع الذين يطالبون ما لم يكونوا له بأهل ، كأن ينتظروا الوظائف الحكومية وهم جهلاء ؛ وكأن يخجلوا من ازدراع الأرض وترابُها أشرف من نفوسهم التى ترى حمل الفأس أصعب من التعرض للسؤال ؛ وكأن يتوهموا أن سلامة موسى ، وفكرى أباظة ، وتوفيق الحكيم سيخلقون المستحيل فيوزعون أموال الأغنياء على الفقراء ، وذلك وهمٌ أعرض من البادية التى تفصل بين دمشق وبغداد

إن عدو نفسه وعدو الحق ـ وهو الأستاذ سلامة موسى ـ يقارن بين الوزير والكناس فى المرتب ، ويقترح ألا يزيد مرتب الوزير على مرتب الكناس بأكثر من خمسة أمثال

وذلك كلام لا يصدُر إلا عمن سخّروا أنفسهم لخدمة الرياء الاجتماعى

وهل اختلفت الأصابع فى القِصَر والطول إلا لحكمة عالية هو تضامُها بصورة متساوية عند تناول الأشياء ؟

وكذلك اختلف الحظ بين الوزير والكناس لحكمة عالية ، وما كان هذا الاختلاف أثراً من آثار انعدام العدالة الاجتماعية إلا فى نظر من يسخّر نفسه لخدمة الرياء الاجتماعى

ألم أقل لكم : إن الدنيا فسدت بحيث أصبح الرياء سيد الأخلاق ؟

وإلا فعلى أى سناد اعتمد الأستاذ سلامة موسى حين جرؤ على القول بأن الدكتور زكى مبارك يعيش فى ظلال عقائد بالية ، لأنه يقول بأن انحطاط المجتمع فرع من انحطاط الفرد ؟

لقد اعتمد على مراءاة المجتمع ، وهو مجتمع يُخدَع فينخدع ، وهو أيضاً مجتمعٌ جبان ، فقد عَسُر عليه أن يدفع قالة السوء عن الأغنياء ، مع أن أغنياء مصر أقاموا أصدق الشواهد على أنهم عماد الوطن الغالى ، فهم الذين ثبّتوا قواعد الأزهر الشريف بما وقفوا عليه من الأملاك الثوابت ، وهم الذين أنشأوا الجامعة المصرية ، وهم الذين أقاموا الجمعية الخيرية الإسلامية ، وهم الذين أسسوا المستشفى القبطى والمستشفى الإسرائيلى ، وهم الذين أقاموا لعبادة الله وخدمة العلم مساجد ومدارس تعد بالألوف

فهل من العيب أن أقول بأن الغِنَى يشهد لأهله بقوة الأخلاق الاجتماعية والماشية ؟

وكيف وأغنياء مصر كانوا أسبق الناس إلى داعى الوطن والدين ؟

وما الموجب لأن نضطهد أغنياءنا بغير حق ، وكان يجب أن نفرح بنعمة الله عليهم ، وأن نسأله حمايتهم من التعرض للآفات التى تقضى على النعم بالزوال ؟

ما رأيت رجلاً غنيًّا إلا فرحت وطلبت له المزيد ، ولا رأيت رجلاً فقيراً إلا حزنت وسألت الله أن يجعل له من بعد عُسر يسراً

فما ذنبي إذا كان الله فطرنى على هذه السجية ؟

ما ذنبى وأنا أدعو قومى إلى التعاون الصادق بين الفقراء والأغنياء ، ليظل الوطن فى أمان من النزعات المجلوبة على أيدى جماعات من الأجانب لا يسرهم إلا أن يرونا جميعاً فى تأخر وتقاتل وانصداع ؟

وأرجع إلى جوهر الموضوع فأقول :

حين يصبح لكل فرد شخصية خلقية تضمن منفعتين صحيحتين : الأولى شعور الفرد بقوة الذاتية فتصبح كلمة «الرعاع» بلا مدلول ، وينعدم التعادى بين الأفراد ، التعادى المسبّب عن انعدام الإيمان بتنويع المزايا والمواهب ؛ ولو آمن الناس بأنهم خلقوا مختلفين فى الوجوه والغرائز والطباع لغرض صحيح هو تجميل صورة الوجود لأقلعوا عن مساوئٌ كثيرة مردها الثورة الآثمة على اختلاف المصاير والحظوظ ، فلا يوجد منهم من يوازن بين الوزير والكناس ، كأن الكناسة عمل حقير ، وكأن مزاوليها حقراء ، مع أنهم يؤدون خدمة نافعة لا يغض من شأنها إلا غافل أو جهول

أما المنفعة الثانية من منافع الشخصية الخلقية فهى الإقبال على إعداد النفس لجلائل الأعمال ، بدون اعتماد على الحكومة أو المجتمع

وأخاطر بالمشى فوق الشوك فأقول :

صحّ عندى أن أضعف الناس إرادةً وعزيمة هم المحميّون بالحكومة أو المجتمع ؛ فالأقليات فى جميع البلاد يفزعون إلى أنفسهم فيعيشون أقوياء وسعداء ، لأن شعورهم بالعزلة يوحى

إليهم فكرة التسلح ضد الفقر والضعف ، وما اعتمد إنسانٌ على غيره إلا باء بالخذلان

عيبُ الفرد هو اعتماده على المجتمع واحتماؤه بالقوانين ، فقد شلت من الإنسان مواهب كثيرة منذ اليوم الذى اطمأن فيه إلى أن له عصبية تنصره وحكومة تحميه ... وأنا أدعو إلى اعتصام الفرد بنفسه قبل اعتصامه بعدالة الحكومة وحصانة المجتمع ، فقد يفضى به التواكل إلى غاية حقيرة هى صيرورته عالة على الحكومة وعلى المجتمع . وإذا أصبح كل فرد عالة على سواه فعلى الأخلاق ألف عفاء

ليست الغربة فى أن ينقطع ما بينك وبين أهلك وأحبابك ، وإنما الغربة فى أن ينقطع ما بينك وبين نفسك ، وهى الأهل والصديق ، وهى معوانك على الظفر بحقك من شرف الوجود

جاهِدْ ليلك ونهارك فى التعرف إلى سريرة نفسك ، ففيها عجائب وغرائب من القوى الكامنة كون النار فى السرحة الزهراء ، واعلم أن المجتمع لا ينصرك حين تستنصره إلا إن وثق بأن قوته من قوتك ، وشداه من شداك

يجب أن يكون موقفك من المجتمع موقف الشريك من الشريك ، لا موقف التابع من المتبوع ؛ وليس معنى هذا أنى أدعوك إلى مجاوزة قدر نفسك فتدّعى ما ليس لك ، ولكن معناه أن يصح شعورك بالمسئولية فى جميع أحوالك ولو كان عملك فى ظاهره من أصغر الأعمال

وأنت لا تنال السعادة بالحقد على المسعودين ، فلن يزيدك الحقد إلا شقاء إلى شقاء ، وإنما تنال السعادة بالجهاد الشريف فى سبيل الرزق وإن قضت عليك الأقدار بالعجز عن تحقيق ما تريد ، فما كانت السعادة بكمية ما نملك ، ولو كانت كذلك لامتنع أن يكون فى الفقراء سعداء ، وفى الأغنياء أشقياء ، ونحن نرى أن الغِنى والسعادة لا يجتمعان إلا فى أندر الأحايين

تنبع السعادة من مَعين واحد : هو الشعور بأنك تخدم نفسك وتخدم المجتمع بأمانة وصدق ، ولا عيب فى أن تقول إنك تخدم نفسك بخدمة المجتمع ، فالمجتمع فردٌ مكرر ، والذين يدعون الناس إلى التجرد من طلب النافع ليسوا إلا جهلاء ، فلا عليك إن اتهموك بحب نفسك حين تطلب الجزاء على ما تقدم من خير ونفع ؛ فمن حقك على أمتك أن تدعوها إلى مجازاتك على جهادك ، وليس من حقك أن ترجو ما عندها بالسؤال والاستجداء وإن برعتَ فى الحيلة فسميت هذا المسلك باسمٍ مصقول ، كالأسماء التى اخترعها المتسولون من صنائع الحذلقة الاجتماعية .

وقد تكلم الأستاذ العقاد فى العدد الماضى من « الرسالة » عن « المبالاة » كلاماً فى غاية من الجودة ، وهو يرى المبالاة أقوى الشواهد على الشعور بالحياة

وأقول : إن عدم المبالاة قد يصبح وجوداً حيويًّا إذا صدر عن عمد ، وهو عندئذ من مقومات الشخصية الخلقية . والحق أنْ لا وجود لعدم المبالاة ما بَقِىَ الشعور بالتَّرك والانصراف ، والذين اشتهروا بعدم المبالاة من أقطاب الفكر والعقل كانوا أصحاب مبادئَ من هذه الناحية ، ولم تكن استهانتهم بالمبالاة إلا مبالاةً من نوع جديد

وخلاصة القول أن الفرد مسئول أمام نفسه قبل مسئوليته أمام المجتمع ، ولا قيمة لمسئولية الفرد أمام المجتمع إلا إن صدرت عن نية ، كأن يشعر بأن النظام هو الذى يفرض عليه تلك المسئولية ، والصدقة وهى خير لا تزيد قوة الخلق إلا إذا صدرت عن نية ، وإلا فهى تبديد وإتلاف ، وإن انتفع بها من تقدّم إليه

وهل أخطأ علماء الشافعية حين أوجبوا تقديم النيات على الأعمال ؟ إن لذلك معانى لا يدركها إلا أولو الألباب

أما بعد فأنا مقتنع بهذا الرأى كل الاقتناع ، ولكنى حين أسير فى شوارع القاهرة أرى أوشاباً من الناس لا يعنيهم خطأ ولا صواب ، ولا يهمهم — إن كان يهمهم شىء — إلا أن تُرفَع عنهم جميع التكاليف ، وأن يُرزقوا بغير حساب . وما رأيت تلك الأوشاب المبعثرة ذات اليمين وذات الشمال إلا سألت نفسى عن قيمة الإحصاء الذى تشقى به الدولة من حين إلى حين ، فما يجوز أن نباهى الأمم بالعدد إلا حين نثق بأن كل شخص فى مصر له وجود خاص

الرأى عندى أن نكون جبهة جديدة تحارب النفلة الفردية

٨ ـ أومن بالإنسان!

للأستاذ عبد المنعم خلاف

النقص والتكامل — الانسانية الواحدة — من وحى الحرب العصرية — مقدمات الوحدة — عصر القبيلة الأممى — الأقدار تفصل الجسم الواحد — دفع وهم — الحيرة في أمريكا — أم مجنونة وبنت عاقلة — من توحيد الأرباب إلى توحيد الانسان — لا حياة مع هذه الحرب — قيامة صناعية — سلم طويلة من حرب خاطفة — البضع من السيف — دم الحرب دم مخاض — معان تبق من أمم تفنى

ألمس فى نفسى وفى كل فرد عرفته من الناس مهما كان عظيماً نقصاً أجد تكميله عند غيرى وغيره . وهذا مما يؤكد فى فكرى أن الدولة أولاً جسم واحد يكمل بعضه بعضاً ولا يستقل عضو منه بحياته إلا ظهر مبتوراً ناقصاً فيه تشويه . . . وكماله وجماله فى أن يتضام إلى غيره ويتعاون ويصبر على مضايقة ذلك الغير حتى يستطيع إدراك الكمال المنشود . . .

وكذلك ألمس فى كل أمة وحدها نقصاً أجد تكميله لدى غيرها . وهذا مما يؤكد فى فكرى ثانياً أن الأمم فى المجموعة البشرية كالأفراد فى مجموع الأمة الواحدة ، كل منها لها ميزة تكمل غيرها ، وفيها نقص يكمله غيرها . . .

فالفرد الكامل الذى يستطيع أن يحيا وحده لم يخلق بعد ولن يخلق

والأمة الكاملة التى تستطيع أن تحيا وحدها لم تخلق كذلك ولن تخلق

تلك حقيقة توحى إلينا الإيمان بالإنسانية الواحدة ، وتحتم علينا أن نتناسى مواريث الوحشية القديمة والجهالات الأولى ، وأن نفكر للحياة الواحدة المستقبلة التى يصح أن تنتظم الإنسانية جميعها بعد أن ذهب عنها دور الطفولة التى كانت فيها حدود الأرض ومعارفها مجهولة ، ومواردها وأرزاقها محدودة

ويعظم فى نفسى يوماً بعد يوم وجه الشبه بين سير الحياة بالفرد الواحد من طفولته إلى رشده إلى شبابه إلى كهولته ، وبين سير الحياة بالإنسانية جميعها من طفولتها إلى شبابها إلى كهولتها . . .

وإنى أكاد أجزم أن خطوات سير الحياة بالإنسانية كلها هى خطوات سيرها بالإنسان الواحد . . . وكل من يتفرس فى الحياة الاجتماعية يجدها كحياة الفرد سواء بسواء فى تدرجها من الغرائز والعواطف إلى الرشد والعقل

وكما يحصل للطفل والشاب أن يغضب كثيراً ويكون أنانياً فرديًا فى حاجاته ، ويحطم ما أمامه ولا يبالى النتائج ؛ كذلك الإنسانية فى دور طفولتها : أنانية غضوب تحطم كل شىء فى سبيل منفعتها الضيقة

ولكن كما تمنع التربية وضبط الأعصاب وفعل الزمن الرجولة من أن تلجأ إلى أساليب الأطفال وغرائزهم وتحبسها عن الغضب والتحطيم ، إلا إذا امتدت فيها حياة الطفولة لضعف التربية ، أو للشذوذ أو عدم تقدير النتائج . . . كذلك الإنسانية لا بد أن تصل إلى هذه المرحلة فى يوم ما قريب أو بعيد . . .

يوحى إلىّ ذلك ما أراه فى الحرب الحالية من عنف التحطيم وشدة البأس وجنون الإنسان وقسوة الآلة ، بحيث لا يمكن مطلقاً أن تحتمل الحياة بعد هذه الحرب إذا لم تقمع الغرائز والحاقات التى أثارتها ، وإذا لم يوضع أساس حياة مشتركة للانسانية الواحدة التى ابتدأت وحدتها تبدو وتستعلن فى هذه المجموعات الكبيرة من الأمم ، وهذه الرباطات الوثيقة بينها ومن اختزال المسافات والأبعاد واشتباك المصالح ، واشتراك مناهج الدراسة والثقافة العامة ، ومن معرفة كل جنس بخصائص كل جنس ، ومن الدراسات المنظمة والمؤتمرات الجامعة والجمعيات العالمية ، ومن كثرة الأسفار وامتزاج الطبائع ، واختلاط الأجناس وتفكير أرباب الأعمال فى الأسواق العالمية ، ومن تبادل

والاجتماعية ، جبهة لا يكون فيها كتّاب مراءون يخدعون الأفراد والجماعات ليتسموا بوسم الإصلاح الاجتماعى

وأعضاء الجبهة المرجوة لن يكونوا من الباكين لشقاء العمال والصناع والفلاحين بدموع التماسيح ، ولكنهم سيكونون رجالاً صادقين يؤمنون بأن الشهرة كالرزق فيها حلال وحرام ، ويتقربون إلى الله بالصدق ، ولو عرّضهم الصدق لغضب الجاهلين وكيد المتجاهلين

وبالله أستعيذ من جهل أولئك وسفه هؤلاء !

وأنا بعد هذا أنتظر آراء المفكرين الصادقين فيما قدمتُ من بينات

زكى مبارك

تعلم اللغات والأغانى والرقصات وأدوات الزينة . ومن « الصندوق السحرى » : الراديو الذى سيصوغ حواس الطفولة وقلوبها غير صياغة قلوب الآباء الذين نشأوا محجوزين محجوبين بعضهم عن بعض بالسدود والحدود والتخوم ، ومن « الصورة السحرية » السينما التى تنقل الدنيا وناس الدنيا وتعرض الجميع فى حجرة ضيقة

***

يصح أن نسمى عصرنا الحاضر « عصر القبيلة الأممى » والإنسانية كلها الآن تمر به كما مرت كل أمة بعصر القبيلة . واشتداد التناحر بين مجموعات الأمم المختلفة فى هذا العصر هو صورة مما كان يحدث بين القبائل فى الأمة الواحدة

ولم يحمل القبائل المتعادية فى القديم على الصلح الدائم والاندماج والوحدة الشعبية إلا عنف ما كان بينها من حروب وتخريب وتعطيل للحياة . فلما رأت أنه لا حياة مع الحرية الكاملة والوحشية المطلقة تنازلت كل قبيلة عن بعض حقوقها وحرياتها ورضوا ذلك إما بضغط الأقوى وإما بالإدراك الصحيح للموقف ومراعاة مقتضيات الحياة

وكذلك كان الأمر فى تكوين الأمبراطوريات المختلفة : حروب ونزاع مستمر وتخريب للمالك والملوك ثم اتفاق أخير ونزول من الجانبين عن بعض المصالح فى سبيل المصلحة التى لا غنى عنها للجميع

وكذلك تكونت الولايات المتحدة الأمريكية من جنسيات ومذاهب مختلفة بعد حروب ونزاع دمر حياتهم فى بعض مراحل تاريخهم ...

وكذلك وجدت البذرة التى لا بد أن تنمو بعد هذه الحرب : وهى بذرة « عصبة الأمم » التى سيحافظ الغالب والمغلوب فى هذه الحرب على إيجادها وجوداً فعالاً مسلحاً ، لا وجوداً صورياً كالذى كان عقب الحرب الماضية

وعندى يقين ثابت أن الأقدار تفصل الآن بالحديد والنار جسم الإنسانية الواحدة ذات الحكومة الواحدة كما فصلت جسم كل أمبراطورية على حدة كما فصلت جسم كل أمة على حدة كما فصلت جسم كل قبيلة على حدة كما فصلت جسم كل أسرة على حدة كما فصلت كل جسم على حدة كما فصلت كل عضو على حدة كما فصلت كل خلية على حدة ... !

هو قانون واحد يلف الكون كله ! قانون الجزىء والذرة هو قانون المجاميع ... والالقاح السياسى واللغوى والعلمى والاقتصادى فى المجموعات الكبرى والإمبراطوريات واتحاد الولايات ، هو الوسيلة إلى ذلك الأمل المنشود

ولا يتوهمن واهم أننى أزعم أن الخلاف سيذهب من الأرض كلا ... وإنما سيبقى كما هو فى حدود الدولة بين الأحزاب والآراء والمذاهب الاجتماعية ... وكما يبقى بين الأسرة الواحدة ، وكما يبقى بين القوى المتنازعة فى الفرد الواحد : بين العقل والعاطفة والغريزة لأن الدفع قانون طبيعى كقانون الجذب ... ولكنه دفع لا يفلت من قانون القوة والقهر ، كما هو الحال فى الدولة الواحدة القوية التى لا يفلت منها من يريد الخروج عليها

إن نفوس الأجناس وطبائعها تتغير تغيراً سريعاً من التمايز إلى الاندماج والاتحاد . فلم يبق فى الولايات المتحدة أجناس ، وإنما صارت كتلة واحدة بمرور جيل أو جيلين وبتوحيد اللغة ...

والولايات المتحدة خميرة للحياة الإنسانية المقصودة ، هى نموذج ناقص ولكنه أقرب إلى الكمال ؛ وكان من الواجب أن يحذو العالم القديم حذو هذا العالم الجديد السعيد ، ويترك مواريث التاريخ السيئة وعصبيات الأجناس ونعراتها ، ويتفق على الحد الوسيط الذى يرضى الجميع مع التضحية ببعض الاعتبارات والحريات .

أوربا ولدت أمريكا ... والبنت هنا أعقل من أمها وأسعد . فلا تزال القارة العجوز تحتفظ بأحقادها القديمة ومواريث تاريخها السيء فى عالم الحسد والبغض والخديعة والبطش والتنازع ... ولا تزال تشقى الأرض كلها معها ... بينما أمريكا تسعدها وتجدد الحياة يوماً بعد يوم ، وتنثر الأفراح والمباهج فى كل مكان ...

لقد برئت أمريكا من حب الاستعمار والتنازع عليه ، فبرئت من الشعار المادى الذى يصاحبه ، وبرئت من الصفات الذميمة التى تصاحب خلق الافتراس ... وصارت حبيبة إلى جميع أمم الأرض ...

اتخذت الطريق المشروع إلى الغنى والثروة ، وهو طريق التجارة والمنافسة المحمودة واستغلال الموارد الطبيعية ، لا طريق الغصب والغلاب ... فعاشت تجمع وتعيش بما تجمع وتوزع منه على مؤسسات البر والعلم فى بقاع الأرض ، ثم لا تفجع فيما تجمع ولا تحترق وتدمر معه كما جرى لأمم أوربا الآن ... !

***

لقد خطا الإنسان بادراكه عقيدة توحيد الله خطوته العظمى إلى الكمال العقلي والقلبي ، حين رأى أن العالم كله يساق بيد واحدة ، وتوزن أموره بميزان رب واحد ...

وسيخطو خطوته العملية والعلمية العظمى ، حين يدرك « الإنسانية الواحدة » ويؤمن بها ؛ وكما حلت عقيدة توحيد الإلـه محل كل العقيدة ووجهت الحياة وجهة واحدة بعد أن كانت موزعة على أرباب متفرقين ... كذلك سيحل الإيمان بوحدة الإنسان محل كل وعقداً مستعصية ، وتوجه به الأمم وجهة واحدة هي وجهة الخير المشترك ، بدل الخير المتفرق الضيق الأناني ، ووجهة العلم البانى المعمر ، بدل العلم المخرب المدمر ...

لقد كان منطق الفرقة والتنازع العنيف بين الناس معقولاً في الأزمنة الماضية التى كان بين الأمم فيها حواجز سميكة من الجهالة والأسفار الطويلة ، واللغات المجهولة ، والثقافات المختلفة إلى حد التناقض ... وكان دور تحكيم الغرائز لا بد منه لحل ذلك الإنسان الجاهل على التسابق العنيف إلى كشف بقاع الأرض المجهولة ، وتلقى منافعها الضائعة إذلم يكن له علم وعقل يغنيانه عن الغريزة . وكان الاختلاف الحاد بين الناس معقولاً لأنه لم يكن هناك أفق عقلى أو علمى أو عمـلى مشترك بين أمة وأمة متجاورتين بله المتباعدتين ، ولم تكن الظروف لتسمح بوجود ذلك الأفق المشترك إلا عن طريق الحرب التى كانت وحدها هى الوسيلة الوحيدة للاختلاط بين المتفرقين ، والتعارف بين المتجاهلين ...

أما الآن فقد صار هذا التفرق والتنازع ضاراً بالجميع قاطعاً للعلاقات التى تنمو فى وقت السلم نمواً عظيما غزيراً لم يكن له مثيل فى العصور الأولى ... وصارت العودة إلى تحكيم الغرائز ارتداداً وانتكاساً فى الحياة كانتكاس الرجل الحليم إلى غضب الطفولة الذميم ، إذ قد صار فى يد الإنسان من أدوات الهلاك والدمار أشياء فظيعة تهدم الحياة من أساسها وتسحق براعم نموها وتجعل العمل للحياة ، والسعى لهـا بعد الحرب عبثاً لا طائل تحته ما دامت الحرب تأتى بعـد ذلك لتأكل الأخضر واليابس ولا تبقى ولا تذر

وقد ثبت الآن أن كل ما يصل إليه العلم من أدوات السيطرة والتغلب على قوى الطبيعة وأدوات ترف الحياة ومباهجها يتحول إلى أدوات دمار وإبادة إذا ما ثارت بالأمم ثورة الحرب وبراكين الحقد الدفين ... فلا أمان على الحياة من شىء مع غضب الإنسان .

وقد عاد شعار الجاهلية القديم الذى كان يهتف به المحاربون القدماء ؛ وهو تلك الصيحة : يا منصورُ أَمِتْ !

وقد كانت الأديان والأخلاق قد جعلت للحرب فى العصور المتوسطة قوانين فيها بُقْيَـا على مناطق نمو الحياة ؛ وفيها ذكرى للود القديم والدم والنسب وصلة العلم والفن والعمران ، وكانت الحرب تجد لها فى وقت احتدامها ما يخفف آلامهـا من نبل الفروسية ، ورحمة القادرين ، ووصايا القواد بالضعفاء والمرضى والشيوخ والأطفال والنساء والحرث والنسل :

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها
تذكرت القربى ففاضت دموعهـا !

أما الآن فإذا بطشوا بطشوا جبارين ! لا يذكرون طفولة ولا شيخوخة ولا مخلفات الفنون والعلوم والآثار الثمينة التى هى ملك الإنسانية جميعها ...

ومن كان يظن أن الإنسان الأوربى العالم الفنان الذى فتنته أحاسيس الحياة وجن بها جنوناً فعبـدها فى الزهور والرياحين والحب والألحان والعناية بالطفولة ، واقتنى التحف والمخلفات الأثرية من الجماجم والعظام والأحجار والخرزات ، ولم يدخر فى سبيلها مالاً ، وجمع مجموعات النبات والحيوان ، وحرص على استخراج كنوز الأرض ، والتقى على صفاء فى المجامع العلمية والأدبية والملاعب الرياضية والمؤتمرات العالمية وتبادل تعلم اللغات ، وسكن جميع بقاع الأرض ، وعرف آلام الأجسام والأرواح ، وأنفق الأموال الطائلة على نبش الأرض ليستخرج منها حلقة مفقودة تنير له تاريخ الإنسانية التى يعتز بها ... من كان يظن أن من فعل كل أولئك يجرؤ على أن يهدم حاضر الإنسانية بكل ما حمل فى طيانه من الماضى ، ولا يبالى أن يزهق الإنسان ومدنه وكل ما حمله عقله وقلبه !!

فأين عالم الدفاتر والمحابر والمنابر والمؤتمرات والمجامع والمعاهد والمعابد ؟ أين عالم العقول والقلوب ؟

أين الشعر والفن والرحمة والحب والجمال والخير ؟

أين المعانى التى سجلها الدين والأدب عن الآلام ، ودارت عليها فلسفات وقصص ومسرحيات ؟

أين مؤسسات الرفق بالحيوان ؟

أين كل « الدراما » و « التراجيديا » التي كانوا بها يبكون في المسارح ؟

أكانت ملاهي وملاعب لا أكثر ؟ يا لها إذاً من خديعة عبقرية !

ولكن هذه هي الحرب العصرية ... صورة مصغرة من أهوال القيامة ... بل القيامة ساعة ثم تنقضي الحياة ويستريح الناس بالموت إلى حين ... ولكن الحرب العصرية « قيامات » لا عدد لها ... بها يموت الناس ويبعثون ثم يموتون ويبعثون كلما شنت عليهم غارة جوية إلى أن تضع الحرب أوزارها ...

فيا بني الحياة ! أي حياة هذه ! ؟

إن الله أرحم بالناس من أن يجعلهم لمثل هذه الحياة ... والناس أرفع بأنفسهم من أن يعبدوا مثلها ... إنها مرحلة لا بد منها في طريق الإنسانية الشقية إلى الإستقرار والراحة واللقاء الذي لا بد منه بعد الافتراق والتقاتل

ومن بين ظلمات هذه الحرب الخاطفة السريعة يلمع نور السلام البطيء الطويل ...

ومن بين نيرانها وزلازلها وبراكينها يبدو برد الحياة وثباتها واستقرارها ...

ومن بين قسوة القلوب فيها بقسوة الآلات والمدمرات تلوح عواطف الرحمة والحب ...

لقد كان من نتائج الحروب الكبرى دائماً ابتداء دورة زمنية بالإنسان وانقلاب في أوضاع الحياة ... والذين عاشوا قبل الحرب العظمى الماضية وبعدها يدركون الفرق الشاسع بين الحياتين ...

هذه السرعة التي في الحرب ستكون في السلم ... وكما استحال سيف الحرب إلى مبضع الطب ستستحيل جميع آلات الدمار إلى آلات إنتاج وتعمير ورفاهية

ولا شك أن تشبيه الحرب بحادث المخاض والولادة تشبيه صحيح من كل وجه . . . فكل حرب تلد مولوداً من الطباع والأوضاع والأفكار والآلات والمرافق ... مولوداً يجدد الحياة ويقذف في شعلتها حطباً ويسقيها زيتاً . . . ولا ضير فيما يصحب ذلك من الألم والدم والهزة والخوف ؛ فكل هذه أعراض تصحب حادث الولادة في حياة الإنسان ...

ولن تضيع سدى تلك الأرواح التي ذهبت قرابين للمعاني السامية التي في قلوب الأمم المتحاربة . وإنما هي لبنات في البناء الخفي للوجود الإنساني ... وإنها كلها حية تنظر إلى عراك الجماعات في عالم الظواهر كمراك ذرات تحملها الريح أو حصى يحمله ماء السيل حتى تبلغ مكانها المرصود في بناء الوجود ...

وسواء أوضع حجر في خفاء الأساس أم رفع في علانية القمة ، فالكل بناء واحد ... وتبلغنا الآن أنباء انكسار أمة وانتصار أخرى فلا نلتفت إلى الأفراد فيها . وإنما يعلو عنوانها أو ينخفض وهي صورة موحدة ليس فيها توزيع . فتفرح كلها بالانتصار ولو باد في سبيله كثيرون ، وتستاء كلها بالانهزام ، ولو انتصر فيها كل فرد نصراً فردياً وأتى بأعمال البطولة المعجزة

فهل لأصحابنا الفرديين الأنانيين أن ينظروا موضع الفرد من الأمة على ضوء نار هذه الحرب ، وموضع الأمة من مجموعة الأمم التي تنتسب إليها حتى يتبينوا أنه لا وجود إلا للمعاني العامة التي هي ملك الإنسانية جميعها ؟

إن هذه النظرة تجعلهم يحملون السلم بقلب عارف بها ، ويحاربون إذا كتبت عليهم الحرب بسيوف كمباضع الأطباء : تقطع لتشفى ، وتقتل فتحصن القِتْلة بدون مُثْلة ولا نية إثم أو جريمة . وتجعلهم خصوماً شرفاء رحماء يحاربون بروح رياضية كأنهم يلعبون ، وتجعل من السيوف ظلالاً للضعفاء والمسالمين .

أولئك هم الربانيون المؤمنون بالله وبالإنسان أثمن ودائع الله في الأرض !

عبد المنعم خلاف

أشكر للأستاذ بعير صادق تقديره الكريم ، وأرجو الله التوفيق في طلب الحق والابانة عنه .

كلمة حق

أحمد السنوسي الاخصائي في الأبحاث النفسانية جعلني بفضل علاجه رجلا غير ذلك الرجل الذي حطمت أعصابه الوساوس والخيالات فكان مشتت الأفكار يهاب الموت بلا مبرر بل ويراه في كل عمل يقدم عليه وفي كل طريق يسير فيه حتى غدت حياته جحيم لا يطاق

والآن وبعد خمسة سنوات قضيتها في آلام قاسية شعرت بحياة سعيدة هانئة بعد مدة قصيرة من العلاج النفساني . فنصيحتي لكل شخص يرى نفسه كما كنت أن لا يهمل زيارة الأستاذ أحمد السنوسي الخبير في الأمراض النفسية .

مصطفى أحمد شيبه الحجازى
مدرس لاسلكى سابقا

صورة وصفية دمشقية من القرن الماضي

العجـــوزان !

للأستاذ على الطنطاوى

... أغلق الشيخ الباب فتنفس أهل الدار الصعداء، وأفاقوا إفاقة من يودع الحلم المرعب، أو الكابوس الثقيل، ثم انفجروا يصيحون، يفرغون ما اجتمع فى حلوقهم من الكلمات التى حبسها وجود الشيخ فلم ينبسوا بها. وانطلقوا فى أرجاء الدار الواسعة - والأولاد (صغار أولاد الشيخ وأحفاده) يتراكضون ويتراشقون بما تقع عليه أيديهم من أثاث الدار، ويتراشّون بالماء، أو يدفع بعضهم بعضاً فى البركة الكبيرة التى تتوسط صحن الدار، فيغوص الولد فى أمواهها، فتعدو إليه أمه أو من تكون على مقربة منه فتخرجه بين قهقهة الصغار وهتافهم وتقبل عليه لتنضو عنه ثيابه وتجفف خشية المرض جسده، فإذا هو يتفلّت من بين يديها، ثم يركض وراء إخوته وأبناء عمه ليأخذ منهم بالثأر، والماء ينقط من ثيابه على أرض الدار المفروشة بالرخام الأبيض والمرمر الصافى، التى أنفقت الأسرة ساعات الصباح كلها فى غسل رخامها ومسحه بالإسفنج، حتى أضحى كالمرايا المجلوّة أو هو أسنى ... وعلى السجاد الثمين الذى يفرش القاعات الكثيرة والمخادع، وهم ينتقلون من غرفة إلى غرفة، ومن درج إلى درج، ويفسدون ما يمرون به من الأغراس التى لم تكن تخلو من مثلها دار فى دمشق، من البرتقال والليمون والكباد والفراسكين والنارنج والأترجّ (الطرنج) وقباب الشمشير (زينة الدور) والياسمين والورد والفل؛ تتوسط ذلك كله الكرمة (الدالية) التى تتمدد على (سقالة) تظلل البركة تحمل العنب (البلدى) الذى يشبه فى بياضه وصفائه اللؤلؤ، لولا أن الحبة الواحدة منه تزن أربع حبات مما يسمى فى مصر والعراق عنباً ... والجدة تعدو وراءهم ما وسعها العدو تصرخ فيهم صراخاً يكاد من الألم يقطر منه الدم:

« ولَكْ يا ولَدْ انت وِيّاه ... يقصف عمرى منكم ... وسخّتم البيت ... يا ضيعة التعب والهلاك ... الله يعجل علىّ بالموت حتى أخلص منكم ! »

فيختلط صراخها بصياح الأولاد، وضحك الضاحكين منهم وبكاء الباكين، وهم يتضاربون، ويسقطون ما يمترون به من الأوانى والكئوس ... ولا يصغى لنداء الجدة أحد منهم ...

***

ويلبثون على ذلك حتى ينادى المؤذن بالظهر، فتنطفئ عند ذلك شعلة حماستهم، وتتخافت أصواتهم ويحسون بدنوّ ساعة الخطر، فينزوى كل واحد منهم فى ركن من أركان الدار ينظر فى ثيابه يحاول أن يزيل ما علق بها من الأوساخ، أو أن يصلح ما أفسد منها، كيلا يبقى عليه أثر يعلن فعلته، ويتذكرون ما هشموا من أثاث المنزل حين عاثوا فيه مخربين، فيجمع كل واحد منهم ما يقدر عليه من حطام الأوانى فيلقيه فى زاوية الزقاق فى غير الطريق الذى يمر منه الشيخ، ويرجع النسوة إلى أنفسهن فيسرعن فى إعداد الطعام وإصلاح المنزل. وتدور العجوز لتطمئن على أن قبقاب الشيخ فى مكانه لم يزح عنه شعرة، لا تكل هذه (المهمة) لكنّتيها ولا لبناتها، لأنها لم تنس طعم العصى التى ذاقتها منذ أربعين سنة ... فى ذلك اليوم المشئوم الذى وقعت فيه الكارثة ولم يكن قبقاب الشيخ فى مكانه، وضم إليها القدر مصيبة أخرى أشد هولاً وأعظم خطراً، فتأخر صبّ الطعام عن موعده المقدس (فى الساعة الثامنة الغروبية) عشر دقائق كاملات ...

وللشيخ حذاء (كندرة) للعمل، وخف (صرماية) للمسجد، و (بابوج) أصفر يصعد به الدرج ويمشى به فى الدار، (وقبقاب) للوضوء، وقد تخالف الشمس مجراها فتطلع من حيث تغيب، ولا يخالف الشيخ فى عادته فيذهب إلى المسجد بحذاء السوق، أو يتوضأ بباجوج الدرج ...

وتمد العجوز قميص الشيخ ومنديله، وتهيئ (البقجة) التى تضع فيها ثياب السوق بعد أن تساعده على نزعها وتطويها على الطريقة التى ألفتها وسارت عليها منذ ستين سنة، من يوم تزوج بها الشيخ وكان فى العشرين وكانت هى بنت ست عشرة، وهى لا تزال تذكر إلى الآن كيف وضح لها أسلوبه فى الحياة وبيّن لها ما يحب وما يكره، وعلمها كيف تطوى الثياب وكيف تمدّ القبقاب، كما علمها ما هو أكبر من ذلك وما هو أصغر وحذرها نفسه وخوفها غضبه إذا هى أتت شيئاً مما نهاها عنه، فأطاعت ولبثت هذا العمر كله وهى سعيدة مسعدة طائعة مسرورة لم تخالف

إلا فى ذلك اليوم المشئوم وقد لقيت فيه جزاءها ، ونظرت العجوز الساعة فإذا هى فى منتصف الثامنة . لقد بقى نصف ساعة . . . ففرقت أهل الدار ووزعت عليهم الأعمال ، كما يفرق القائد ضباطه وجنده ويلزمهم مواقفهم استعداداً للمعركة ، فأمرت بنتها الكبرى بإعداد الخوان للطعام ، وبعثت بالأخرى لتمسح أرض الدار التى وسخها الأولاد ، وأمرت كنتيها بتنظيف وجوه الصغار وإبدال ثيابهم حتى لا يرام الشيخ إلا نظافاً ... ثم ذهبت ترد كل شىء إلى مكانه ؛ ولكل شىء فى هذه الدار الواسعة موضع لا يريمه ولا يتزحزح عنه ، سنة سنّها الشيخ لا تنال منها الغِيَر ولا تبدلها الأيام ، فهو يحب أن يضع يده على الشىء فى ظلمة أو نور ، فى ليل أو نهار ، فيلقاه فى مكانه . ولما اطمأنت العجوز إلى أن كل شىء قد تم ، نظرت فى الساعة فإذا هى دون الموعد بخمس دقائق ... فاستمدت وغسلت يديها ووجهها ولبست ثوباً نظيفاً كمهدها ليالى عرسها لم تبدله ، واستمد أهل الدار بكبارهم وصغارهم . فلما استوى عقرب الساعة الثامنة أرهفوا أسماعهم فإذا المفتاح يدور فى الباب . إنه الموعد ولم يتأخر الشيخ عن موعده هذا منذ ستين سنة إلا مرات معدودة عرض له فيها شاغل لم يكن إلى دفعه من سبيل . فلما دخل أسرعوا إليه يقبلون يده وأخذت ابنته العصا فعلقتها فى مكانها ، وأعانته على خلع الحذاء وانتعال البابوج الأصفر ، وسبقته زوجته إلى غرفته لتقدم إليه ثياب المنزل التى يتفضل بها

* * *

غابت الأصوات ، وهدأت الحركة ، وعادت هذه الدار الواسعة إلى صمتها العميق ، فلم يكن يسمع فيها إلا صوت الشيخ الحازم المتزن ، وأصوات أخرى تهمس بالكلمة أو الكلمتين ثم تنقطع ، وخطى خفيفة متلصصة تنتقل على أرض الدار بحذر وخوف ... وكانت غرفة الشيخ التى يؤثرها على يمين الإيوان العظيم ذى القوس العالى والسقف المنقوش الذى لا تخلو من مثله دار فى دمشق ، والذى يتوجه أبداً إلى القبلة ليكون لأهل الدار مصيفاً يغنيهم عن ارتياد الجبال فى الصيف ، ورؤية ما فيها من ألوان الفسوق ، يشرفون من على الصحن المرمرى وأغراسه اليانعة وبركته ذات النوافير ... وكانت غرفة الشيخ رحبة ذات عتبة مستطيلة تمتد على عرض الغرفة التى تعلو عن الأرض أكثر من ذراع كسائر غرف الدور الشامية ، تنطيها (تخشيبة) مدّ عليها السجاد وفرشت فى جوانبها (الطراريح) : الوسائد والمساند ، وقامت فى صدرها دكة أعلى ترتفع عن (التخشيبة) مقدار ما تهبط عنها العتبة . وكان مجلس الشيخ فى يمين الغرفة يستند إلى الشباك المطل على رحبة الدار ، وقد صفّ إلى جانبه علبه وأدواته ، وهنّ حق النشوق الذى يأخذ منه بيده ما يَنشقه من التبغ المدقوق الذى ألفه المشايخ فاستحلوه بلا دليل حتى صاروا يشتمّونه فى المسجد كما حرموا الدخان بلا دليل ... وإلى جنب هذا الحق علبة نظارات الشيخ ومنديله الكبير والكتابان اللذان لا ينتهى من قراءتهما : الكشكول والمخلاة ، وفى زاوية الشباك أكياس بيضاء نظيفة مطوية يأخذها معه كل يوم حينما يغدو لشراء الطعام من السوق ، فيضع الفاكهة فى كيس واللحم فى آخر ، وكل شىء فى كيسه الذى خصصه به ، وهذه الأكياس تنسل كل يوم وتعاد إلى مكانها . وعن يساره خزانة صغيرة من خشب السنديان المتين أشبه الأشياء بصندوق الحديد ، لا يدرى أحد حقيقة ما فيها من التحف والعجائب ، فهى مستودع ثروة الشيخ وتحفه . ومما علم أهل الدار عنها أن فيها علباً صغاراً فى كل علبة نوع من أنواع النقد : من النحاسات وأنصاف التاليك والتاليك وأمّات الخمسين وأمات المائة والبشالك والزهراويات إلى المجيديات وأجزائها والليرات العثمانية والإنكليزية والفرنسية ، كل نوع منها فى علبة من هذه العلب ، فإذا أصبح أخذ منها مصروف يومه الذى قدره له يوم وضع (ميزانية) الشهر ، ثم إذا عاد نظر إلى ما فضل معه ، فضم كل جنس إلى جنسه . وفى هذه الخزانة (وهى تدعى فى دمشق الُخرسْتان) ، الفنار العجيب الذى كان يخرجه إذا ذهب ليلاً (وقلما كان يفعل) يستضىء به فى طرق دمشق التى لم يكن فيها أنوار إلا أنوار النجوم ومصابيح الأولياء وسرجهم ، وأكثر هذه السرج بضاء ببركة الشيخ عثمان نهاراً ويطفأ ليلاً ... وفيها الكأس التى تطوى ... والمكبرة التى توضع فى شعاع الشمس فتحرق الورقة من غير نار ... وفيها خواتم العقيق التى حملها الشيخ من مكة ، فأهدى إلى أصحابه قسماً منها وأودع الباقى خزانته ... وفيها الليرات الذهبية التى كان يعطيها الأطفال فيأكلونها لأن حشوها (شكولاتة) ... وكانت هذه هى عجائب الدار السبع !

وأمام الشيخ (الرحلاية) وفوقها (الشكمجاية) ، وهى صندوق صغير فيه أدراج دقيقة ومخابىء وشقوق للأوراق ،

وبيوت للأفلام فى صنعة لطيفة ، وهيئة غريبة ، كانت شائعة يومئذ فى دمشق ، موجودة فى أكثر البيوت المحترمة ...

والويل لمن يمس شيئاً من أدوات الشيخ أو يجلس فى مكانه. ولقد جنى الجناية أحد الأطفال مرة فعبث بعلبة النشوق فأسرعت أمه فزعة وأخذتها منه وأبعدته وأعادتها إلى مكانها ، فانزاحت لشؤم الطالع عن موضعها مقدار أنملة وعرف ذلك الشيخ ـ فكان نهار أهل المنزل أسود ـ وحرموا بعده الدنوّ من هذا الحى !

* * *

كان الشيخ فى الثمانين ولكنه كان متين البناء شديد الأسر ، أحاط شبابه بالعفاف والتقى ، فأحاط العفاف شيخوخته بالصحة والقوة ، وكان فارع الطول عريض الأكتاف ، لم يشك فى حياته ضعفاً ، ولم يسرف على نفسه فى طعام ولا شراب ولا لذة . ولم يحد عن الخطة التى اختطها لنفسه منذ أدرك . فهو يفيق سحراً والدنيا تتخطر فى ثوب الفتنة الخاشعة ـ والخشوع الفاتن ـ والعالم ساكن لا يمشى فى جوانبه إلا صوت المؤذن وهو يمجد الله فى السحر ، يتحدّر من أعلى المنارة فيخالط النفوس المؤمنة فيهزها ويشجيها ، يمازجه خرير الماء المتصل يصعد من نافورة الدار يمجد (هو الآخر) ربه ويسبح بحمده ، (وإن من شىء إلا يسبح بحمده) ، فيقف الشيخ متذوقاً حلاوة الإيمان ، ثم ينطلق لسانه بـ (لا إله إلا الله) تخرج من قرارة فؤاده المترع باليقين ، ثم ينزع ثيابه وينغمس فى البركة يغتسل بالماء البارد ما ترك ذلك قط طول حياته ، لا يبالى برد الشتاء ولا رطوبة الليل . وكثيراً ما كان يعمد إلى قرص الجليد الذى يغطى البركة فيكسره بيده ويغطس فى الماء ثم يلبس ثيابه ويصلى ما شاء الله أن يصلى ، ثم يمشى إلى المسجد فيصلى الصبح مع الجماعة فى مجلس له وراء الإمام ما بدله يوماً واحداً ، ويبقى مكانه يذكر الله حتى تطلع الشمس وترتفع فيركع الركعتين المأثورتين بعد هذه الجلسة ، ويرجع إلى داره فيجد الفطور معداً والأسرة منتظرة ، فيأكل معهم اللبن الحليب والشاى والجبن أو الزبدة والزيتون والمكدوس ، ثم يغدو إلى دكانه فيجدها مفتوحة قد سبقه ابنه الأكبر إليها ففتحها ورتبها

والدكان فى سوق البزازين أمام قبر البطل الخالد نور الدين زنكى ، وهى عالية قد فرشت أرضها بالسجاد وصفّت أثواب البز أمام الجدران ، ووضعت للشيخ وسادة يجلس عليها فى صدر الدكان ويباشر أبناؤه البيع والشراء بسمعه وبصره ، ويدفعون إليه الثمن ، فإذا ركد السوق قليلاً تلا الشيخ ما تيسر من القرآن أو قرأ فى (دلائل الخيرات) أو تحدث إلى جار له معنّ حديث التجارة ، أما السياسة فلم يكن فى دمشق من يفكر فيها أو يحفلها ، وإنما تركها الناس للوالى والدفتردار والقاضى والخمسة أو الستة من أهل الحل والعقد ، وكان هؤلاء هم الحكومة (كلها ...)

وكان الشيخ مهيباً فى السوق كهيبته فى المنزل ، تتحاشى النسوة المستهترات الوقوف عليه ، وإذا تجرأت امرأة فكشفت وجهها أمامه لترى البضاعة ، كما تكشف كل مستهترة ، صاح بها فأرعبها وأمرها أن تستتر وأن تلزم أبداً حدود الدين والشرف ، وكانت تبلغ به الهيبة أن يعقد الشباب بينهم رهاناً ، أيهم يقرع عليه بابه ، ويجعلوا الرهان ريالاً مجيدياً أبيض ، فلا يفوز به أحد منهم .

وكان الشيخ قائماً بحق أهله لا يرد لهم طلباً ، ولا يمنعهم حاجة يقدر عليها ، ولكنه لا يلين لهم حتى يجرؤوا عليه ، ولا يقصر فى تأديب المسىء منهم ، ولا يدفع إليهم الفلوس أصلاً . وما لهم والفلوس وما فى نسائه وأولاده من يخرج من الدار ليشترى شيئاً ؟ وما لهم ولها وكل طعام أو شراب أو كسوة أو حلية بين أيديهم ، وما اشتهوا منه يأتيهم ؟ ولماذا تخرج المرأة من دارها ، إذا كانت دارها جنة من الجنان بجمالها وحسنها ، ثم إن فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ؟

* * *

يلبث الشيخ فى دكانه مشرفاً على البيع والشراء حتى يقول الظاهر : (الله أكبر) ، فينهض إلى الجامع الأموى وهو متوضئ منذ الصباح ، لأن الوضوء سلاح المؤمن ، فيصلى فيه مع الجماعة الأولى ، ثم يأخذ طريقه إلى المنزل ، أو يتأخر قليلاً ليكون فى المنزل عند ما تكون الساعة فى الثامنة . أما فى العصر فيصليه فى مسجد الحى ، ثم يجلس عند (برو العطار) فيتذاكر مع شيوخ الحىّ فيما دقّ وجل من شؤونه ... إختلف أبو عبده مع شريكه فيجب أن تؤلف جمعية لحل الخلاف ... والشيخ عبد الصمد فى حاجة إلى قرض عشر ليرات فلنهيأ له ... وعطا افندى سلط ميزابه على الطريق وآذى السابلة فلينصح وليجبر على رفع الأذى عن الناس ... !

أى أن هذه الجماعة محكمة ، ومجلس بلدى ، وجمعية خيرية إصلاحية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . وكان (برو العطار)

مخبر اللجنة ووكيلها الذي يعرف أهل الحي جميعاً برجالهم ونسائهم، فإذا رأى رجلاً غريباً عن الحي يحوم حول أحد المنازل سأل عنه من هو ؟ وماذا يريد ؟ وإذا رأى رجلاً يماشي امرأة نظر لعلها ليست زوجته ولا أخته ، ولم يكن في دمشق صاحب مروءة يماشي امرأته في طريق فتعرف به حيثما سارت ، بل يتقدمها أو تتقدمه ويكون بينهما بعد بعيد ، وإذا بنى رجل غرفة يشرف منها على نساء جاره أنبأ الشيخ وأصحابه فألزموه حده ، وإن فتح امرؤ شباكا على الجادة سدوه ، لأن القوم كانوا يحرصون على التستر ويكرهون التشبه بالإفرنج ، فالبيوت تبدو من الطريق كأنها مخازن للقمح لا نافذة ولا شباك ، ولكنها من الداخل الفراديس والجنان . فكان الحي كله بفضل الشيخ وصحبه نقياً من الفواحش صيناً ؛ أهله كأهل الدار الواحدة لا يضن أحد منهم على الآخر بجاهه ولا بماله ؛ وإذا أقام أحدهم وليمة ، أو كان عنده عرس أو ختان ، فكل ما في الحي من طباق وصوان وكؤوس تحت يده وملك يمينه

***

مر دهر والحياة في هذه الدار سائرة في طريقها لا تتغير ولا تتبدل ولا تقف . مطردة اطراد القوانين الكونية ، حتى جاء ذلك اليوم ... ودقت الساعة دقاتها الثمان ، وتهيأ أهل الدار على عادتهم لاستقبال الشيخ ؛ ولكن العجوز الطيبة والزوجة المخلصة لم تكن بينهم ، وإنما لبثت مضطجعة على الأريكة تشكو ألماً شديداً لم يفارقها منذ الصباح . وأدار الشيخ مفتاحه ودخل فلم يرها وهي التي عودته الانتظار عند الباب ، ولم تحد عن هذه العادة مدة ستين سنة إلا أيام الوضع ويوم ذهبت لتودع أباها قبل وفاته ؛ فسأل الشيخ عنها بكلمة واحدة أكملها بإشارة من يده، فخبرته ابنته وهي تتعثر بالكلمات هيبة له وشفقة على أمها، أنها مريضة . فهز رأسه ودخل ، فلما وقع بصره عليها لم تتمالك نفسها فنهضت على غير شعور منها تقبل يده ، فلما مست أصابعه أحس كأنما لمسته جمرة ملتهبة ؛ وكان الشيخ على ما يبدو من شدته وحزمه وحبه النظام ، قوى العاطفة ، محباً لزوجته مخلصاً لها ، فرجع من فوره ولم يأكل ، ولم يدر أحد في المنزل لماذا رجع ولم يجرؤ على سؤاله واكتفوا بتبادل الآراء في تعليل هذا الحادث الغريب ، الذي يشبه في أنظارهم خروج القمر عن مداره . ومضت على ذلك ساعة أو نحوها ، ثم سمع المفتاح يتحرك في الباب فسكتوا وحبسوا الأنفاس وترقبوا هذه المفاجأة . فدخل الشيخ وصاح : « روحوا من الطريق » ؛ فاختبأ النسوة ليدخل الضيف ، غير أنهن نظرن من شق الباب — على عادة نساء البلد — فأبصرن الطبيب وكن يعرفنه لتردده على المنزل كلما تردد عليه المرض . . . وكان الطبيب شيخاً وكانت بينه وبين العجوز قرابة ، ومع ذلك فقد أمر الشيخ العجوز بلبس ملاءتها وألا تظهر منها إلا ما لا بد من إظهاره ؛ ثم أدخله عليها ، فجس نبضها ، وقاس حرارتها ، ورأى لسانها . وكان ذلك منتهى الدقة في الفحص في تلك الأيام ، ثم خرج مع الشيخ يساره حتى بلغا الباب ، فودعه الشيخ وعاد ، فأمر بأن تبقى العجوز في غرفتها وأن تلزم الحمية وتتناول العلاج الذي يأتيها به . . .

***

مرت أيام طويلة والعجوز لم تفارق الفراش ، وكان المرض يشتد عليها حتى تذهل عن نفسها ، وتثقلها الحمى فتهذي ... « صارت الساعة الثامنة ... يلا يا بنت ، حضري الخوان . . . والقبقاب ؛ هل هو في مكانه ... » ؟ وتهم أحياناً بالنهوض لتستقبل زوجها ؛ وكانت بنتاها وكنتاها يمرضنها ويقمن في خدمتها فإذا أفاقت حدثتهن وسألتهن عن الشيخ هل هو مستريح ؟ ألم يزعجه شيء ؟ والدار ؟ هل هي كما تعهدها أم قد اضطربت أحوالها ؟ ذلك همها في مرضها وفي صحتها ، لا هم لها سواه

وحل موسم المقدود وهي مريضة فلم تطق على البقاء صبراً ، وكيف تتركه وهي التي لم تتركه سنة واحدة من هذه السنين الستين التي عاشتها في كنف زوجها ، بل كانت تعقد المشمش والجانرك والباذنجان والسفرجل ، منه ما تعقده بالسكر ومنه ما تعقده بالدبس ، وكانت تعمل مربى الكباد واليقطين ، فيجتمع لها من أنواع المعقودات والمربيات والمخللات (الطرشي) ومن أنواع الزيتون الأسود والأخضر والمفقش والجلط وأشكال المكدوس معمل أمقار (كونسروة) صغير تقوم به هذه الزوجة المخلصة وحدها صامتة ، ولا يعيقها ذلك عن تربية أولادها ولا عن إدارة منزلها وتنظيفه ولا عن خياطة أثوابها وأثواب زوجها وبنيها ، بل تصنع مع هذا كله البرغل ، وتغسل القمح وتعجن العجين ، وكذلك كانت الزوجات في القرن الماضي

حل الموسم فكيف تصنع العجوز المريضة . . . ؟ لقد آلمها الأمر وحز في كبدها ، وبلغ منها أكثر مما بلغ المرض بشدته

نظرات في الشعر

للأستاذ محمود البشبيشي

من الشعر ما يلعب بالنفوس لعباً ، بل يقلب جوهرها قلباً ، فيبعث في الرجل الصخرى المزاج روحاً أرق من نسيم الفجر ، وألطف من شفاه الورد ، وأنقى من دموع الفرح ؛ ومن الشعر ما ينفذ إلى القلوب بغير أذن ، لأن كل لفظ فيه لفظ من القلب ، وكل مقطع من مقاطعه قطعة من الفؤاد ، تتفتح له القلوب لأنه منها ، وتتلقاه خافقة لأن كل نغم فيه من خفقاتها . في الشعر قيودٌ لا انفكاك لها ، ولكنها قيود محبوبة ، يحس بضرورتها من كان من ذوى النفوس الحية ، والقلوب الندية ، ويحس بضرورتها من يضيقون بحرية الحياة الجائرة وقد فسدت ، وحرية الشهوات والنزعات الداجية وقد تمادت ، فيميلون إلى قيد من قيود الشعر يسعدون به ، ويشعرون فيه بمعنى حرية الطهر والنقاء . إنهم يشعرون بالحرية في قيده ، لأن الشعر حين يقيدهم إنما يقيود صوراً حية من الحياة الجائرة ، ويمنعها من الوصول إليهم ، أو يطهرهم منها لحظة ، ويتيح لهم أن يتصلوا بعالم مُنغّم حلونقي هو عالم الشعر

بحث الكتاب في الشعر ، وسيبحثون لأنه موضوع الشعور الحى ، موضوع الروح : موضوع الحياة ، سار مع الزمن ، يضعف في عهد فتذبل أناشيده على الشفاه ، ويشتد في عهد فتغنّى به القلوب ، وما ضعف ولا اشتد لعجزه عن مسايرة الزمن وأطواره ، ولكنه ضعف حين ضعفت المشاعر النبيلة في النفوس ، وغشيت القلوب الأطماع ، واشتد حين تلألأت في النفوس أنوار الشعور ، وأحس الناس أن في صدورهم قلوباً تخفِق ، فمالوا إلى ترجيع الكلام ، حتى يجانسوا بين أنغام القلوب وبينه ... ولعل هذه الصلة هي أصل الشعر ! ومن هنا كان الشعر محبباً إلى النفوس لأنه منظم لمشاعرها ، ولأن الطبيعة وهي مصدرُه مُنظّمة مُنمّقة . ولا عجب ، فكل ما في الشعر من وزن وقافية وموسيقى أساسه النظام . من روعة الشعر أنه خلق نفسه خلْقاً في حياة الإنسان ، لينظمَ ويرتب وينسق كل ما يتصل فيها بالشعور ...

قاله الشاعر حين اضطربت مشاعره في نفسه وغلبته الآلام والآمال ، وتراكت ففقدت النظام ؛ وشعر هو بذلك فضاق واضطرب ، وضج وثار ، وفكر وتأمل ، ولما صدق تأمله أدرك أن في نفسه تعبيراً عجز عن بيانه ، وأن حديثه وخطابته لم يجدياه نفعاً ولم يخففا ألمه ؛ فهو لا يزال مضطرباً ، عاجزاً عن بيان

وهوله ، فلم يكن من ابنتها المخلصة وكنتها الوفية إلا أن جاءتا بالشمش فوضعتاه أمام فراشها وطفقتا تمقدانه أمامها ، وتمملان برأيها فكان ذلك أجل ما تتمنى العجوز

واشتدت العلة بالمرأة وانطلقت تصيح حتى اجتمع حولها أهل الدار جميعاً ، ووقفوا ووقف الأطفال صامتين وحبهم لهذه العجوز الطيبة التي عاشت عمرها كلها لزوجها وبنيها يطفر من عيونهم دمعاً حاراً مدراراً ، وهم لا يدرون ماذا يعملون ، يودون لو تفتدى بنفوسهم ليفدوها . ثم هدأ صياحها ، وجعل صوتها يتخافت حتى انقطع ، فتسلل بعض النسوة من الغرفة ، ووقف من وقف حائراً يبكى

ولكن العجوز عادت تنطق بعد ما ظنوها قضت ، فاستبشروا وفرحوا ؛ وسمعوها تتكلم عن راحة الشيخ وعن المائدة والساعة الثامنة والبابوج والقبقاب ... بيد أنها كانت يقظة الموت ، ثم أعقبها الصمت الأبدى . وذهبت هذه المرأة الطيبة ، وكان آخر ما فكرت فيه عند موتها ، وأول ما كانت تفكر فيه في حياتها : زوجها ودارها . . .

***

ارتفع الكابوس عن صدور الأطفال حين اختل نظام الفلك ولم يبق لهذا الموعد المقدس في الساعة الثامنة روعته ولا جلاله ، ولم يعد يحفل أحد بالشيخ لأنه لم يعد هو يحفل بشيء . لقد فقد قرينه ووليفه وصديق ستين سنة ، فخلت حياته من الحياة ، وعادت كلته لا معنى لها ، وانصرف عن الطعام وأهمل النظام ، فعبثت الأيدى بعلبه وأكياسه ، وامتدت إلى (الخرستان) السرية التي أصبح بابها مفتوحاً ، فلم تبق فيها تحفة ولا مالاً ، وهو لا يأسى على شيء ضاع منه بعد ما أضاع شقيقة نفسه . وتهافت هذا البناء الشامخ ، وعاد ابن الثمانين إلى الثمانين ، فانحنى ظهره وارتجفت يداه ووهنت ركبتاه ، ولم يكن إلا قليل حتى طويت هذه الصفحة ، فختم بها سفر من أسفار الحياة الاجتماعية في دمشق كله طهر وتضحية ونبل !

علي الطنطاوي
المحامي

بما يشعر به فى قرارة نفسه ... وهو لا يزال يشكو ولا يعقل أن يكون سبب شكواه ضعفاً فى رجولته وهو ابن البادية ... إذن لعل فى أسلوب شكواه والتعبير عن آماله نقصاً ... إنه لكذلك فراح يبحث عن لغة جديدة ينفث بها آلامه وآماله فتهدأ نفسه ، فكان الشعر لغته الجديدة ، وكان شفاء علته ، وكان لسان الروح ولسان القلب .

ما أروع الشعر ! لقد خلق نفسه خلقاً ، بل لقد خلقته حاجة النفس البشرية إلى تنظيم مشاعرها ، ومنذ عرف الشعر أصبح ترجمان القلوب ، ولغة النفوس ، ينتقل بك من عالم القيد إلى عالم الخيال ، وتجد أنت فى ذلك لذة لا تدرى كنهها ، ولا تعلم مصدرها ، ولكنك برغم ذلك تحبها وتود الصبح فى سمائها الحالمة ، والشعر يغمر نفس الشاعر وجداناً موزوناً منغماً

يولد الشاعر والشعر فى روحه سر من أسرارها ، لا يظهر إلا إذا انتظمت مشاعره ، ولكنه لا يتقيد بسن ولا بزمن ، وقد تفاوت مواعيد ظهوره بتفاوت نفوس الشعراء واستعدادها لتنظيم حياتها بطبيعة النظام الشعرى الكامن فيها ، فمن الشعراء المفطورين من يتمادى به العمر قبل أن يقول الشعر ، ومنهم من تُشعُ نفسه إشعاع الشعر ، وهى فى أيام الصبا الندية . . . ليس معنى هذا أن ملكة الشعر تقبر طيلة هذه الفترة الخامدة فى نفس الشاعر ، بل إنها لتظهر ولكن فى صور أخرى كأن يميل صاحب النفس الشاعرة فى طفولته إلى اللعب المنظم وجمع الصور الملونة وإلى سماع الموسيقى ، وفى شبابه إلى الرسم الجميل وابتكار الصور البديعة . ذلك بأن ملكة الشعر موجودة فيه ، تنظم اتجاهات نفسه ، وتعمل على السمو بها حتى تتهيأ لرسالة الشعر . ومن عظمة الشعر أن يكون للشاعر المكفوف عيناً يغمر قلبه بالنور فيبدد غياهب الظلمة ، وينثر الشعر أمامه نجوماً وشموساً تبهر عيون المبصرين . ألا إن الشعر وحى يرتفع بالشاعر إلى مرتبة الروحانية ، ففى استطاعة الشاعر أن يعرض لك الصور الحسية الجافة الصامتة عرضاً كله حيوية ناطقة ؛ يصور لك الشىء الذى لم تره ، فتشعر كأنك رأيته ولمسته وخبرته . وما رأيته ولا لمسته ، ولكنه سحر الشعر وفنه وإعجازه ، يجعل من المنويات محسات ، ومن الأخيلة حقائق ، فما أبدعه وما أروعه ! إنتهينا إذن إلى أن الشعر لغة روحية ، هب نسيمها على النفوس عند ما انتظمت المشاعر ، وحينما تهيأت لتلقى الرسالة الشعرية ؛ وأنه أسلوب خلق نفسه فى الإنسان خلقاً ، عند ما ضاقت النفس بمعان لا تصورها خطابة ، ولا يعبر عنها حديث ، وقد ارتاحت النفوس إلى الشعر لأن طبيعته الوزن والنغم والنظام والأناقة ؛ وأحبته حين نظم مشاعرها ، ونظم أحاسيسها فأراحها

وإن الشاعر المفطور يخلق وفى طبعه روح الشعر ، وإن روح الشعر لا تخمد بخمود روح الشاعر ، بل إنها لتظهر فى صور فنية أخرى . ولما كان الشعر وليد العاطفة المنظمة لابست أغراضه أغراض النفس أصدق ملابسة ، وتساوقت معانى القلوب وأحاسيسها فى معانيه وأحاسيسه ، وصار أمراً طبيعياً أن يكون الشعر صورة لنفسية الشاعر ، وعبيراً لأزاهير حبه ، ولهيباً لما يشتعل بين جوانحه من عاطفة ، وشعاعاً لما يتألق فى وجدانه من آمال . وكان بكل هذا حقيقاً أن يكون مجتلى لسائر العواطف الإنسانية السامية

وإن الباحث البصير ليستطيع أن يحدد زمن الشعر الذى يقرؤه إذا أوتى حظاً من دراسة النفس فى مختلف العصور ، بل إنه ليستطيع أن يهتدى بالشعر إلى كثير من أخلاق الشعوب ، فيعرف ما شاع فى كل عصر من الأخلاق ، وما اضطرب فيه من العادات والتقاليد ، وما كان يعتبر فيه مناط الفخر والمفاضلة ، وإنه فى كل ذلك لسائر على هَدْى ما يتأرج به الشعر ، وما تشمه أرواح الشعراء ؛ هبك قرأت الأبيات الآتية :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد ... لنفسى حياةً مثل أن أتقدما

فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ... ولكن على أقدامنا تقطر الدما

نُفلق هاماً من رجال أعزةٍ ... علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما

ألا تشعر بعد طول التأمل ، بل بقليل منه أنها من إنتاج الأدب القديم ، أدب التضحية والفداء ، عصر الشهامة والإقدام ؟ وهبك قرأت قول الشاعر :

إن العيون التى فى طرفها حوَر ... قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به ... وهن أضعف خلق الله إنسانا

ألا تحكم لأول نظرة بأن هذا كلام مُمْعنٌ فى الحضارة ، ممعن فى الرفاهية ، فياض بالرقة ، تلوح على محيّاه نَضرَةُ النعيم ، فلا يلحق بنفسك أقل عجب إذا علمت أنه من كلام (جرير) .

وهبك قرأت قول الشاعر :

أصبحت لا أحمل السلاحَ ولا ... أملك رأسَ البعير إن نفَرا

والذئب أخشاه إن مررت به ... وحدى وأخشى الرياحَ والمطرا

ثم قرأت بعده قولَ الشاعر :

أصبحت لا أستطيع الثوب أحمله وقد أكون وضافِي الدرع سربالى

ولا تكاد يدى تجْرِي شَبا قلمى وكان طوعَ بنانى كل عسّال !

ألا تشعر بأن الشاعر الأول بدوى النشأة ، صحراوى البيئة ، تتراءى فى كلامه مظاهر العربى الصميم ، الذى كل عتاده السلاح والبعير ، ومن طبيعته جوب الفلاة والتعرض للذئاب والرياح والأمطار ؟ أو لا تشعر أيضاً بأن روح الحضارة يهب من عبارة الشاعر الثانى ؟ أفليس أدق فكراً وأحكم نظاماً من الشاعر البدوى ؟ أو ليس له من مفاخر الحضرى القلم يجريه كيف شاء ؟ وإذا أمعنت فى التأمل استطعت أن تدرك أن الشاعر الثانى فارس فى حلبتى البيان والحرب . ألا تراه يقرن بين القلم والرمح ؟ فهل تعجب بعد ذلك إذا علمت أنه رب السيف والقلم (محمود باشا سامى البارودى) ؟ !

وهكذا يستطيع الفنان البصير أن يلمح صور الزمان والحضارات فى مرآة الشعر ؛ ويستطيع أن ينتقل من عهد إلى عهد على هَدْى من الشعر ومن نور البصيرة .

وإنك لتستطيع أن تزن أخلاق الشاعر بشعره ، وتدرك ما كان عليه من مختلف الصفات ، وتعلم من خلال شعره أ كان قوى الروح أم ضعيفه ، جياش العاطفة أم فاترها ، بعيد مدى الآمال أم رهن محابس القنوط ، واسع الرغبة فى الغلبة وذيوع الصيت أم قانعاً بما يفرضه عليه الزمان ، وتقيده به المقادير

الشعر أصدق فى الإفصاح عن نفسية الشاعر من المخالطة ، لأن الشاعر قد يكون فى وقت المخالطة متكلفاً مسوقاً إلى ملابسة الأحوال التى تضطرب حوله . أما إذا قرض الشعر ، فإن عواطفه تتراءى بين سطوره ، وإن حاول الاختفاء واجتهد فى التنكر ؛ ومن هنا كان الإنتاج الشعرى صورة لمختلف الوجدانات ؛ وطبيعى أننا نريد من كل ما تقدم شعر العاطفة ، لا الشعر البالى المأجور ، ولا عجب بعد ذلك أن توفر الناس على الشعر الحى النابض بالشعور الإنسانى دراسة واستيعاباً وشرحاً ونقداً ، أو معارضة واقتباساً ، وكما دل الشعر على أن أبا نواس كان صاحب مجون ، وأن البحترى كان صاحب موسيقى ، كشف لنا عن سر طموح المتنبي وتحليقه فى سماء عالية ، وغلوه فى الفخر والاعتزاز بقدره ، فقد كان الرجل يحمل قلب ملاك ، ولسان شاعر ؛ فلطالما رأيناه يبوح برغم محاربة الدهر له بما يضطرب فى صدره من آمال جسام، وقد كان لا يصنع بما دون النجوم ، وكان يريد من الزمان مالا يبلغه الزمان من نفسه ، أليس هو الذى يقول :

وما رغبتى فى عسجد أستفيده ولكنها فى مفخر أستجدّه

إذا لم تنُط بى ضيعة أو ولاية فجودك يكسونى وشغلك يسلب

وهكذا كان الشعر وليد العواطف إذا احتدمت ، ومنظمها إذا اضطربت ، ومرآة الحياة العامة والخاصة ؛ تنطبع عليها خبايا النفوس ؛ فما أروع الشعر وما أجله ! !

(المنصورة) محمود البشبيشى

البعث . . . !

للأستاذ محمود حسن اسماعيل

حَلَى بِدَيْكِ زَمَانِي طَيْرٌ شَقِيُّ الأَغَانِي
بَكَى إِليكِ حَنانى مُرَوَّعًا مُسْتَطارا . . .
اللَّيْلُ مِنْــهُ اسْتَجَارَا
وَالفَجْــرُ ضَجَّ وَثَارَا
وَالعُمْرُ كالطَّيْفِ ... صَارَا
بَقِيَّةً مِنْ أَمَانٍ عَلَى قلُوبِ الحَيَارَى !!

***

أَشْعَلْتِ نَارَ الحَنِينِ عَلَى رَمَادِ السِّنِينِ !
عَلَى لَظَاهَا دَعِيـــنى أُصَارِعُ الأَقْدَارَا . . .
يَا مَنْ لِجُرْحٍ تَوَارَى ؟
وَعَادَ لِلرُّوحِ نَارَا
هَاجَتْ زَمَانِي فَصَارَا
بَقِيَّةً مِنْ جُنُونٍ عَلَى شِفاه السُّكَارَى . . .

***

مَاذَا وَرَاءَ السِّتَارِ ؟ يَا غَيْبُ أَوْقِفْ مَدَارِى !
لَيْـلِي أَضَلَّ نَهَارِى فَلَمْ يعدْ لى نَهَارَا . . .
بَلْ عَادَ جُرْحًا مُثَارَا
أَدْمَى اللَّيَـــالى وَدَارَا
عَلَى كِيَانِي . . . فَصَارَا
بَقِيَّةً مِنْ غُبَارٍ عَلَى سُكُونِ الصَّحَارَى

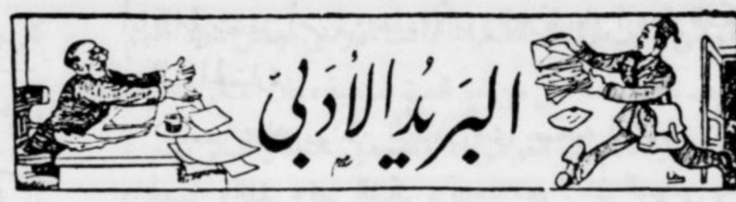
***

هَاتِي لِيَ البَعْثَ هَاتِي المَوْتُ مَلَّ زَمَانِي !
فَإِنْ أَرَدْتِ حَيَاتِي قُومِي اسْكُبِي الأَنْوَارَا
وَأَزْعِجِي الأَوْتَـــارَا
أُحِسُّ عِطْرَكِ طَارَا
إِلى خَرِيفِي . . . فَصَارَا
بَقِيَّةً مِنْ شَكَاةٍ عَلَى رَبِيعِ العَذَارَى . . .

***

يَا كَوْكَبًا هَزَّ دَهْرِى يَا فَجْرَ خُلْدٍ لِشِعْرِى
خَمْرِى لَدَيْكِ وَسِحْرِى فَأَيْقِظِي الأَسْحَارَا
وَنَاغِمِى الأَطْيَــارَا
وَأَلْهِمِى الأَشْــعَارَا
بَارَكْتِ عُمْرِى . . . فَصَارَا
بَقِيَّةً . . . لَسْتُ أَدْرِى ! هَيَّا نُزِيحُ السِّتَارَا . . .

محمود حسن اسماعيل



الفرس والعراق

إلى الأخ الدكتور زكي مبارك

السلام عليكم

اطلعت على مقالك الأول « في الأدب العراقي الحديث » ؛ فإذا أنت تقول :

« فكيف صارت العروبة في العراق بعد سقوط بغداد وبعد انتهاء ما تلا عهد المغول من خطوب ؟ ظل العراق العربي محتلاً بالقوى الفارسية نحو ثلاثة قرون ، وهو أمد يقدّر بثلاثة أرقام ، ولكنه أمد طويل جداً »

وقد وقفت أيها الأخ الفاضل عند هذه الجملة ، وسيّرت فكري في تاريخ العراق بين غارات التتار وهذا العصر ، فلم أعرف أن الفرس ملكوا العراق ثلاثة قرون . ولكن كان تسلطهم على العراق في عهد الشاه اسماعيل مؤسس الدولة الصفوية (٩٠٧ — ٩٣٠ هـ) ، ثم تداوله هم والأتراك العثمانيون حتى سنة ١٠٤٨ ، حينما استولى عليه السلطان مراد الرابع العثماني . وكان العراق في هذه الحقبة دُولة بينهم وبين الترك العثمانيين ، وكان سلطان هؤلاء أغلب عليه ؛ ثم استولى الفرس على العراق زمناً قصيراً في عهد نادر شاه بعد زوال الدولة الصفوية

فليس حقاً أن الفرس ملكوا العراق بعد غارات التتار ثلاثة قرون ولا قرنين ولا قرناً ، وإنما كانت مدداً غير متصلة بين عهد اسماعيل الصفوي وعهد مراد الرابع العثماني كما بينت

والأخ مشكور على اجتهاده واحتماله المشقة لتأريخ الأدب العربي في العراق ، وله تحيتي وسلامي

عبد الوهاب عزام

عود إلى (التجديف)

عاد العلامة الدكتور زكي مبارك ، في العدد ٤٠٧ من الرسالة الغراء ، يطرق باب (التجديف) ، وكنت ظننت أنه أوصد لا إلى رجعة . وقد لخص ما كان قرره من قبل في هذا الموضوع ، ببيان أوفى ، وزيادات متممة . وتلطف في أثناء بحثه هذا فطلب إليّ أن أكون حكماً بينه وبين العوامري بك .

وقد رأيت ، نزولاً على إرادة الدكتور ، أن أرجع كرة أخرى إلى مقال العوامري بك في مجلة المجمع اللغوي ، حتى أضبط الرأي وأحكمه ، فوجدت أنه في هذا المقال ، كما هو في غيره من مباحثه اللغوية ، من أولئك (المحافظين) المتشددين الذين يقفون عند النصوص وأقوال الثقات فيما هو قياسيّ وما هو سماعيّ .

فهو لذلك لا يُبيح أن يقال : التجديف أو التجذيف أو التقذيف ؛ لأنه لم يعثر على أفعال هذه المصادر فيما رجع إليه من الكتب والمعجمات . وليس معنى هذا — كما هو بدهي — أنه يجزم بأن العرب لم تنطق بهذه الأفعال ؛ كما أنه ليس معناه أنه لم يَرْوِها راو ، أو أنها لم تدون في كتاب ؛ وإنما هو يقول — كما يقول دائماً في بحوثه اللغوية — : إن هذا مبلغ جهدي ، وقصارى اطلاعي . فمن عثر بعد ذلك على شيء مما أنكره فليدل به

ثم هو بعد ذلك يحظُر تضعيف جدَفَ وجذَفَ وقذَفَ ، لأن التضعيف للكثرة والمبالغة سماعيّ ، يُحفظ ما ورد منه ولا يقاس عليه ، ولو أن (الجدف أو الجذف أو القذف لا يصور الحركة التي يثيرها الجداف أو الجذاف أو القذاف) كما قال حضرة الدكتور . فليس يُصار إلى التضعيف إذا لحنا في الفعل الذي لم يُسمع تضعيفه معنى الكثرة أو المبالغة ، كما أنه لا يصار إليه إذا أردنا منه (أي من ذلك الفعل) الكثرة أو المبالغة ، فلا يقال مثلاً في نَصَرَ (نصّر) ، ولا في كَرِهَ (كرّه) ، ولا في فهم (فهّم) وهكذا

هذا شأن العوامري بك . وأعتقد أنه شأن الجمهرة من المشتغلين باللغة .

أما العلامة الدكتور زكي مبارك فالذي أستخلصه من نقاشه في هذا الموضوع وغيره (إن كنت قد وعيته حقاً) أنه ربما يترخص ويتوسع ، فيعدل عن المقطوع بصحته إلى غيره ، لعلل وأسباب (رأينا بعضها في مناقشاته في الأعداد الأخيرة من الرسالة) هو مقتنع بكفايتها .

هذا يا سيدي الدكتور ملخص فهمي للرأيين أو المذهبين . فالواقع أن الخلاف بينكما ليس على الأمثلة ، وإنما هو على المبادئ والأصول .

(ا . ع)

مسابقة وزارة المعارف لتشجيع التأليف فى القصة المصرية

تتجه وزارة المعارف إلى تشجيع الأدب والتأليف فى صورة مسابقات تعلن عن جوائزها وتدعو الكتاب لها ، وستعلن قريباً عن مسابقة فى القصة المصرية الطويلة

وسيختار قريباً أعضاء التحكيم من بين كبار الأدباء الموظفين فى الوزارة

وقد علمنا أن الوزارة ستشرط أن تكون مادة القصة رامية إلى واحد من هذين الفرضين :

١ — إحياء صورة من صور التاريخ المصرى الإسلامى ، أو التاريخ المصرى القديم

٢ — تصوير الحياة الاجتماعية الحاضرة مع اقتران التصوير بإيحاء وسائل العلاج والإصلاح التى يتطلبها المجتمع المصرى

وستكون الجوائز كما يلى :

الجائزة الأولى ١٠٠ جنيه ، والجائزة الثانية ٨٠ جنيهاً ، والجائزة الثالثة ٦٠ جنيهاً

وآخر موعد لتقديم قصص المتبارين إلى اللجنة هو منتصف أكتوبر القادم

تعقيب على نقد المناظرات

قرأت كلمة الأستاذ إسماعيل فهمى ، وأود أن أعقب عليها بما يأتى :

أولاً : إن عصر بطليموس الأول والثانى والثالث هو عصر أمان نسبى ازدهر فيه الفكر ، فهو مصداق آخر يدل على أن ازدهار الفكر فى عصور أمان كالتى ذكرها

ثانياً : عصر إحياء العلوم فى مدن إيطاليا هو عصر من عصور جزائر الأمان ، وهو يثبت أيضاً أن ازدهار الفكر فى أماكن الأمان لا فى أماكن الفوضى

ثالثاً : إنّ الفكر يزدهر حقيقة عند مُلتقى الثقافات والحضارات المختلفة ، ولكن ازدهاره عند ذلك الملتقى بسبب الأمان الذى يكون عند تبادل الشعوب لسلع التجارة والأفكار وليس بسبب ما قد ينشأ من الفوضى الفكرية .

رابعاً : إن اختلاف الآراء ليس دليلاً على الفوضى الفكرية ، وإذا نظرنا إلى عصور الحضارة والأمان وجدنا شيئاً كثيراً من ذلك الاختلاف ، إما للتسامح فيه أو تغاض عنه أو عجز عن منعه ، أما إذا لم يتحقق أمر من هذه الأمور الثلاثة بطل ازدهار الفكر وبطلت الحضارة

خامساً : إن مواطن الأمان الذى يصحبه الركود والجمود والجهل والفقر وقهر الفكر ، توجد مع الأمان السياسى فيها الفوضى الفكرية الناشئة من ارتباك الجهل وخطله وارتباك الغباء ، وكثيراً ما يكون تحت الأمان السياسى الظاهر فوضى فى أداة الحكم ، فهو إذاً أمان مزيف

سادساً : إن اشتراط الحذر النفسى والفكرى لنمو الفكر فى الحياة أمر يختلف كل الاختلاف عن اشتراط الفوضى ، وكذلك اشتراط الحركات النفسية أمر يختلف عن اشتراط الفوضى فى قول من يشترطها

سابعاً : إذا كانت الإنسانية قد كسبت من تقاتل الأجناس فقد خسرت كثيراً ، وطالما اضطرت إلى أن تعيد بناء الحضارة من جديد بعد فوضى ذلك التقاتل ؛ فاشتراط فوضى تقاتل الأجناس لازدهار الفكر شرط غير وجيه فى قول من يشترطها

ثامناً : إن الركود والجمود الاجتماعى فى الأمة إذا منعا من ازدهار الفكر لم يكن جالبهما الأمان وانقطاع الحروب والتدهور بسبب السكون والهدوء ، بل لهما أسباب عديدة تختلف باختلاف الأمم ، فمن تلك الأسباب ما هو حيوى (بيولوجى) ومنها ما هو (باثولوجى) طبى ، كالأمراض التى تجتاح أو تتوطن فتهلك أو تضعف الجسم والعقل ، وهذه الأسباب لم تدع دراستها كما ينبغى أن تذيع — ومنها ما هو سياسى لفساد نوع الحكومة ... الخ

تاسعاً : إن ازدهار الفكر فى جزائر الأمان كثيراً ما يكون لأنه من بعض غراس عهد أمان شامل سابق أو قديم ووجدت بذوره وبقاياه من تعهدها برعايته فى جزائر الأمان .

محمد عبد الله

الفكر والفوضى

إن رأيى فى مناظرة ازدهار الفكر أن الوضع الصحيح قد عكس ، فإنى أستطيع أن أفهم أن الفكرة إذا أريد تطبيقها إلى أبعد غاية من غير نظر إلى ما يخالفها ويلطفها من الأفكار الأخرى التى تعين حدودها قد تسبب الفوضى — أى أن الفكر قد يسبب الفوضى — ولكنى أجد صعوبة فى أن أفهم كيف أن

الفوضى تسبب ازدهار الفكر ما دامت الفوضى فوضى ، ولا أفهم كيف تكون معه حتى من غير الصلة السببية ، فإن الفكر خطواته نظام ، والنظام ضد الفوضى ، والفوضى عمياء والفكر بصير ، وكل فكرة — حتى الفكرة التي تقول إن الفوضى تسبب ازدهار الفكر — قد تقضى عليها فوضى المقاطعة والمعارضة وفوضى الاضطهاد والأحقاد ، إلا إذا ناصرتها الفوضى حباً لذاتها .

ويا حبذا لو قرأنا فى الرسالة مناظرة فى الموضوع الآتى : « هل يؤدى الفكر إلى الفوضى أم يؤدى إلى الأمان والنظام ؟ » وهو عكس موضوع مناظرة كلية الآداب

وتكون الفائدة عظيمة إذا تتبع كل مناظر حياة الأمم ومظاهر الفكر قديماً وحديثاً ، ولكل مناظر مجال واسع فى الجانبين من الموضوع ، وهو موضوع قد يستلزم النظر فى موضوع ثان ، وهو : هل الفكر والفلسفة نتيجة النزعات النفسية والعواطف والأهواء أم هما سبب لإثارة تلك النزعات والأهواء ؟ ولا داعى لأن أقول : إن الصواب فى الجانبين معاً ؛ ولكن الفائدة فى بيان شواهد الصواب فى الجانبين ؛ ونضرب مثلاً من التاريخ القديم فنقول : إن الفكر الإغريقى هو أنفس ما يعتز به الأوربيون ، وهم يعدونه أساس حضارتهم ومخترعاتهم ونظامهم ، ولكنه مع ذلك أدى قديماً إلى مذهب السوفسطائية الذى كان له ضرر محقق . إلا أننا نعود فنقول : هل أدى مذهب السوفسطائية إلى فساد النفوس وفساد ميولها ، أم أن فساد ميول النفس أدى بالفكر إلى السوفسطائية ؟ وهذا الموضوع الثانى قد يستدعى موضوعاً آخر للمناظرة ، وهو هل ينبغى أن يكون الفكر حراً طليقاً ، أم ينبغى أن يقيد ؟ وإذا وجب قيده فكيف يقيد ؟ وإلى أى حد ؟ ومن الذى يقيده ؟ وإذا جلب قيده فائدة فهل يجلب ضرراً مع الفائدة ؟ وأيهما أشد وأبقى : الفائدة أم الضرر ؟ وهل كان الفكر الإغريقى أو العربى ينمر كل ثمراته لو كان مقيداً قيداً حقيقياً ؟ هذه مشكلة أخرى من مشكلات الفكر العديدة

السيد خليل

وأد البنات عند العرب فى الجاهلية

قرأت ما كتبه الأستاذ على عبد الواحد وافى رداً علىّ فى هذا الموضوع ، وقد ختم رده بأنه بصدد قبائل كانت تئد كل بنت تولد لها ، لا بصدد حالات فردية كانت تنحر فيها بعض البنات . وإنى أقول فى ذلك كلمة لا أحب أن أقول بعدها كلمة أخرى ، لأن مثل هذا الذى يقوله الأستاذ على عبد الواحد وافى لم تذهب إليه قبيلة عربية أصلاً ، ولا يمكن أن تذهب إليه قبيلة فى أمة من الأمم ، اللهم إلا إذا أرادت أن تقضى على نفسها وتقطع نسلها من بنات وبنين معاً ، وإذا كان هذا شأن ما هو بصدده ، فهو غير صحيح فى نفسه ، ومثله لا يصح أن تحمل آيات القرآن عليه ، ولا سيما إذا كانت لا تحتمله

وقد رأى الأستاذ أن حمل قوله تعالى « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون » ، على معنى أنهم يجعلون لآلهتهم ما يشتهون ، لا يستقيم مع الآيات الأخرى — كما ذكرت — لأنها صريحة فى أنهم كانوا يجعلون ذلك لأنفسهم لا لآلهتهم ، فذكر أن نسبة الذكور لأنفسهم أو لآلهتهم لا يهم كثيراً فى موضوعه ، مع أن موضوعه قائم على نسبة خلق البنين لآلهتهم والبنات لله تعالى

وكذلك رأى الأستاذ أن النصوص القرآنية صريحة فى أن العرب كانوا يجعلون الملائكة بنات لله كما ذكرت ، فلم يسعه إلا أن يعترف بهذا ، ولكنه ذكر أنه لا يتعارض مع ما ذكره من أنهم كانوا ينسبون إليه البنات من البشر ، وأن المقابلة بين البنين والبنات فى نحو قوله تعالى : (أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين) تقتضى أن تكون البنات من البشر كالبنين ، وقد نسى الأستاذ فى هذا آية الإسراء : (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيما) . فالمقابلة فيها صريحة بين البنين من البشر والبنات من الملائكة ، وهى مقابلة سائغة مقبولة ، ووجه ذلك لا يخفى على مثل الأستاذ وافى

ولا أحب أن أطيل بعد هذا فيما أطال به الأستاذ ، ويكفى أن مذهبه يؤدى إلى أنه كانت هناك قبائل تئد كل بناتها لأنها من خلق الله أو الشيطان ، مع أن ذلك لم يكن إلا حالات فردية فى تلك القبائل ، وكان يدعو إليها الفقر من الفقراء ، أو خوفه من الأغنياء ، كما صرح بذلك القرآن الكريم ؛ وخصوا البنات بذلك لأنهن لا يكتسبن

عبد المتعال الصعيدى



عطر المنصــــور

للأستاذ رفعت فتح الله

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

وأمر المنصور حاجبه أن يستقدم سعيداً ، ثم يستقدم زوجه ، فلما قدم سعيد رأى فى الفناء حبيباً مع صاحب الشرطة ، فتعجب ، وقال : أنت أمامى هنا وهناك ! ! ثم جد فى السير كأنه يفر ، حتى دخل على المنصور ، فسلم وحيا ، وبدت فى عينيه نظرة الاهتمام .

قال المنصور : أتعرف الرجل الذى مررت به فى فنائنا ؟

قال سعيد : أعرفه

قال المنصور : أبينكما صداقة ؟

قال سعيد : بيننا شيء

قال المنصور : كيف وجدته ؟

قال سعيد : وجدته رجلاً لا يعرف قيمة المـال

قال المنصور : وكيف وجدت عقله ؟

قال سعيد : هو رجل يروى أدباً ويقرض شعراً

قال المنصور : هل تتزاوران ؟

قال سعيد : قد يزورنا

قال المنصور : ولـكنك لست فارغاً للشعر والأدب !

قال سعيد : إن زوجى تحب الشعر والأدب ، فإذا حضر تناشدا الشعر وتقارضا الأدب ، حتى إذا أفلس أدبه قام عنا

فهمس المنصور : وهل يفلس الأدب كما يفلس المـال ؟ !

ثم قال : لعلك ترغب عن حديثه ؟

قال سعيد : إن أكثر كلامه لا يسمن ولا يغنى من جوع ، فكيف أرغب فيه ؟

قال المنصور : أو لست ترى له خيراً ترتجيه ؟

قال سعيد : إنه ليس غنياً أرتجيه ... غير أنى ...

فبادره المنصور قوله : غير أنك قد استفدت منه !

فاضطرب سعيد وقال : قد كان له جاه ووجه فى عرْض تجارتى ، وله رأى رآنى به فى بعض أمرى ، وإنى لأعجب من جاه لا مال معه ! ومن لسان لا يد له !

قال المنصور : أ تنكر مروءته ؟

قال سعيد : لا ، ولـكنى وددت لو كان غنياً لم تدركه حرفة الأدب

قال المنصور : وطهارته ؟

قال سعيد : لم يذكر للناس فيه رجساً وأسكتا !

ولما قدمتْ حبيبة أبصرت فى طريقها حبيباً وهو على حيرته، يستحثـه صاحب الشرطة ؛ فأنكرت بصرها ، ورنت إليه ، وأطال العجب رُنوَّها ، وألمَّ حبيب النظر نحوها . فالتقت العين بالعين ، ووَجب القلب للقلب ، ثم أخضع الأمى عينيه ، وأسْجَد جَفنيه ؛ فسارت نحوه مضطربة السير ، قد مدّ الاستفهام ذراعيها ، وابتدَر سؤاله فمها . قالت : مالكَ ؟ فقص عليها قصته . فهزت رأسها وقالت : فهمتُ ... فهمتُ ... لقد فاح ذكاء المنصور عطراً ، فنَصَبه شركاً ؛ إنه صُواع الملك فى قصة يوسف ! (وغمزتْ بعينها وضحكتْ) ؛ ثم قالت بصوت حزين : يا حبيب ... أعط الخليفة الهدية !

قال حبيب : لقد كانت صلةً تحمل طابع الحب ؟

قالت : إن حبَّنا معنا ، وأما هذا الطابع فنحن الذين طبَعناه ، ونحن إذا شئنا محوناه ، ليعود خاتمها الأول ... خاتمُ البخل ؛ فلقد يغلط البخيل فتكون غلطته جوداً ، ثم ينقلب ممنى الجود فى نفسه ندماً . ولقد علمتُ سعيداً بخيلاً ، يكاد يسترجع قَيئَه إذا ذكَر أنه كان طعاماً ! !

فاشمأزَّ حبيب شمأزيزة المال ، واطمأن طمأنينة الحب ، ونادى صاحبَ الشرطة حيث وقف جَنْبَةً ، فقال له : قد رضيتُ حكم الخليفة ، وإنى ذاهب لأحمل المـال إليه . فقال صاحب الشرطة : أرَحتَ واسترَحتَ ! وأمر شرطياً أن يذهب معه فيحملَ عنه ؛ ثم ذهب إلى الخليفة فى سُكانه ، فأسرَّ إليه رِضى حبيب بحكمه ، فتبسم ضاحكاً !

والتفت المنصور إلى سعيد وقال : إيه !

فنظر إليه سعيد نظرة تتألق بطلب الحديث !

قال المنصور : ألا يزال حديث المـال يتردد فى نفسك ؟

قال سعيد : إنه يتردد مع أنفاسي ، ولقد بتُّ الليلة ضجيع خياله !

قال المنصور : كأنه امرأة ثانية !

وضحك ثم قال : أرأيتكَ إن رددت عليك مالك بعينه أتحكّمني في امرأتك ؟

فأشرق وجه سعيد كثيراً ، وأغيمَ قليلاً ؛ ثم قال : نعم

قال المنصور : دعني إذن أستخلصه لك ، واجلسْ عند الآذن قليلاً حتى يأذنَ لك بالحضور مرة أخرى

فخرج سعيد متفائلاً ، وهو يجمجم : نعم المطر !

فاهتز المنصور ضاحكا ، وهو يزمزم : نعم ذكاؤه !

***

ودخلتْ حبيبة تهادى ، وقد ربط التجلد على قلبها ، فبدا وقارُها ...

قالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين والمؤمنات

قال المنصور : وعليكِ السلام أيتها المؤمنة

قالت : أحب أن أشكر أمير المؤمنين على عطره الذكي ؛ فقد كان بشير يُمن لزوجي ، وأرجو أن يمنى يمنه كذلك

قال : ولكني أظنكما فرطتما فيه

قالت : ما وضعناه إلا حيث تخيرنا ، عسى أن ينتشر طيبُه على الطيبين

قال : « والطيبات للطيبين ، والطيبون للطيبات » وابتسم !

فانتفضت وقالت : « أولئك مبرؤون مما يقولون ، لهم مغفرة ورزق كريم » !

قال : أوليس زوجك طيباً ؟!

فاربجفت وقالت : إنه طيِّب المال ، يجرى حبه فى دمه ، كأنه ابن الدوانيق ...

فاربدّ وجه المنصور غضباً وقال :

أتغمزينني بكنية « أبي الدوانيق » التي كنّاني بها بعض المرْجفين في المدينة ، إذ رأوني — حين بنيت بغداد — أباشرها بنفسي وأحاسب الصناع وأجازي المهملين ، فظنوا أني فُتنتُ بالدرهم والدانق ، وإنما راقبت ربي فراقبت عملي ، وقومتُ أمرى فأرضيت نفسي ، وما أنا بمفتون أو بخيل ، ولكني رأيت كثيراً من الناس عبيد المال ، فأمسكته لهم ، ليكونوا عبيداً لله وخليفته !

قالت : إني أجلُّ أمير المؤمنين أن أغمزه بتلك الكنية ، فلقد رعيتَ المال : كثيرَه وقليله ، ديناره ودانقه ، فكنتَ أباه !

وأما سعيد ، فقد حكمه المال وتولاه ، حتى صار خادمه ومتبنَّاه !

فتساير الغضب عن وجه المنصور وقال :

— إني أُكبرُ عقلك !

قالت : وهل أكبرتَ عقل سعيد ؟

فنظر إليها المنصور وسكت ثم قال :

— أراك برزةً !!

قالت : ما رآني مني أحبُّ الناس إليّ إلا ما رآه الخليفة من وجهي ويدي ، فاضرني أن أكون برزة ؟ ! إنما خلق الله المرأة رُجلةً ولم يخلقها جِنة ! وجعل اللسان حجة ولم يجعله عوْرة ! وإن المرأة التي تخشى الرجال هي التي أخشى عليها الرجال ... ! أليس الله أحق أن تخشاه ؟ !

ولقد حجبتُ نفسي بالعفاف ، فبلغت غاية الحجاب ؟

— أظن سعيداً معجباً بعفافك ؟

— يُعجب بعفافي بعد أن يعجب بماله !

— هو سعيد بك

— لو وجد هواه مع غيرى لكان أسعد !

— وأنت سعيدة ؟

— اسمي « حبيبة »

— ليست الأسماء حقائق

— قد تكون الأسماء آمالاً ، ألم يسم أمير المؤمنين قصره « الخلد » ؟

فنظر إليها المنصور نظرة رائعة ثم قال :

— وكيف تزوجتِ إذن سعيداً ؟ !

— تعارفنا بالأسماء وتقاربنا بالأنساب ، فتزوجنا ، وقد كان قلبي على فطرته ينبض كما كان ينبض منذ ميلادى ، وكان زوجي يرعاني كما يرعى إحدى قريباته ، ويحبني كما تحبني إحدى قريباتي ... وقد رأيته يتاجر فساعدته ، وساعده الحظ معي ، حتى أثرى ، فكشف ثراؤه عن نفسه ، وتجسد أمامي حبه للمال ، يستكثر ولا يستكفي ويبخل ولا يستمتع ، والمال تجاهه سلسلة لا تنتهي حلقاتها ، كلما جذب حلقة بانت له أطراف أخرى تجرى إليها ... ففكرتُ وقدرت ، فإذا موضع المال مَن قلبه في الأعماق ، وإذا موضعي من ذلك القلب على الشط : أحمل دلوى لأغرف له ، كأن عقد الزواج من عقود المال ، وكأني شريكته في متجره لا في بيته .

غير أنى شريكة لا تشارك فى ربح ولا تطالب بأجر ! ! وكيف يرانى أو يسمعنى وقد طرفت الدنيا عينيه ، وسدت أذنيه ؟ ! وهكذا حفر فى قلبى أسفاً ! وتتالت الأيام على حفر ذلك الأسف ، فكان غضباً ! وبالغت الشهور فى حفر ذلك الغضب ، فكان كرهاً ! ...

هناك سمعت من حفيرة قلبى دقاته الجديدة ، تخلت خفقانه وقع المعاول ! ... أنا لم أولد على دكان ربوى شحيح ، ولم أنشأ فى رحل بدوى غليظ، فقد كان أبى أديباً طبعنى على أدبه، حناناً أرقنى بحنانه ، فكيف أعيش فى كنز أسمع رنينه ولا يسمع أنينى ؟ طار قلبى عن بيتى ، فلم أدر : كيف يقع ؟ وأين يقع ؟ ولكنى أحسست صدرى فارغاً ، قد طلاه الأسى بسواد ، يعلن الحداد ! ثم رأيت – فى من رأيت – فلاناً

فابتسم المنصور ابتسامة المرفة ، واستكملت قولها :

عرفته فتبينت فيه العفافة ، وتأملته فتأولت فيه المروءة ، رأيته شاعر النفس واللسان ، رقيق القلب والبيان ، فأحسست أن قلبى قد هبط معه ، فما قابلته حتى تحادثت حمرة فى الوجهين ودف عرس فى القلبين !

قال المنصور : حسبك ! فإنى أخاف عليك الغرق والإغراق

قالت : قد بلغنا الساحل ! (وأشارت إليه)

قال : وأين واجب الزوج ؟

قالت : قد عرفت الواجب فرعيته ، وقدرت الأمانة فأديتها ؛ وما أثقل الواجب والأمانة إذا وغلت فيهما الكراهة ! وأمير المؤمنين يعلم أن الله قد شرع الزواج إلفة لا نفرة ، وشرع الطلاق ضرورة يلجأ إليها المضطر لا المغتر ؛ ولكن كثيراً من الناس تعاموا عن حكمة الله ، فاتخذوا الزواج مواجهة وجهين ، لا معاقدة قلبين ! وارتكبوا الطلاق مطية غرور لا قضية نفور ، وما أحكم قول الله : « فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ! »

***

واستأذن حبيب فأذن له ، ودخل مع المال يحيى الخليفة ، وابتسم لحبيبة ابتسامة ردتها بأحسن منها ، ثم قالت : إن هذا المال لحبيب . إذ أهديته إليه ، وقد كان مالى من قبل . إذ أهداه لى زوجى ، فما أبعد زوجى عنه !

قال المنصور : ألا تفتديان به قلبيكما ؟ !

قال حبيب وحبيبة معاً : نعم الحكم أمير المؤمنين !

ثم ابتسما فى خجل من تطابق الصوتين على الجواب ، فابتسم المنصور ... وأخذت العيون تسارق النظر : فالمنصور يرخى طرفه ثم يلمح الحبيبين ، وكل واحد منهما ينظر إلى صاحبه والخليفة نظرة مقسمة بينهما ، كأنها نظرة الأحول ، وما أروع نظرات الحول المستعار ! وأذن المنصور لسعيد بالحضور فحضر بدير عينيه !

قال المنصور : أهذا مالك يا سعيد ؟

فرنا سعيد فرحاً ؛ ثم قال : هو يا أمير المؤمنين

قال المنصور: خذه كما أشرت ، وقد طلقت امرأتك كما شرطت

فرفع سعيد رأسه ينظر إليه ، ويقول : ولكننى رأيت عندها حباً وإخلاصاً !

قال المنصور : لقد أدت واجب الزواج فظننته حباً ، ورعت أمانة العفاف فحسبته إخلاصاً ، وما ربط قلبيكما حب ، ولا جمع كبديكما ولد . . . على أننى قد تخيرت لك امرأة على هواك اسمها « سعدى » يا سعيد !

قال سعيد : الخيرة ما اختار أمير المؤمنين ، وأنا درج يديه

والتفت المنصور فجأة إلى حبيبة وحبيب ؛ فإذا هى قد سدلت جفنيها ، وحدرت من تحتهما إلى حبيب نظرة قد رويت من قلبها ، بحبها ! وإذا هو معقود النظر بها ، كأنما نفثت فيه من سحرها !...

فهمس المنصور : خلقت هواك كما خلقت هوى لها !

ثم قال لهما : جمع الله بينكما بشرعه

ثم أذن لهم جميعاً ، فخرجوا راضين ، وهو يقول : الحمد لك ، الآن تلاءمت الأسماء ، والتأمت الأهواء

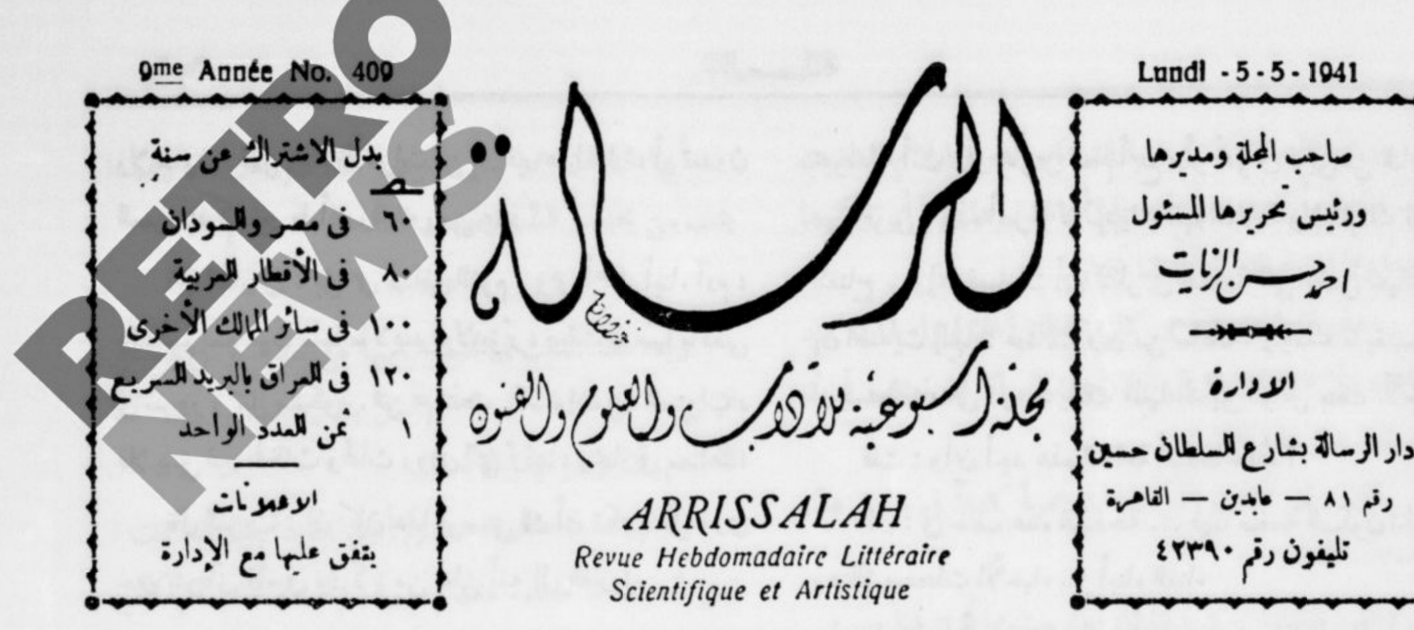
وبعد أيام زفت سعدى إلى سعيد ؛ وزف مالها إلى ماله ، فتواصيا بالاكتناز ، وتباعتا على الاكتساب ؛ فما أصبحت ليلة الزفاف حتى أمسكا دفتر الحساب !

وبعد أشهر زفت حبيبة إلى حبيب ، وزف حبها إلى حبه ، فوري القلبان بنار الشوق ، كأنهما زنداه ! وتلاقى الفمان على قبلة الـ « حب » كأنهما حرفاه ! واستبدت بهما القبلة ، فتطاعم المتلائمان ، كأنهما حمامتان !

رفعت فتح الله

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين – عابدين)





9me Année No. 409

Lundi - 5 - 5 - 1941

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٤٠٩ « القاهرة في يوم الإثنين ٨ ربيع الثاني سنة ١٣٦٠ — الموافق ٥ مايو سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــرس

وتقديم الساعة مرة أخرى

للأستاذ عباس محمود العقاد

يقول الراوي: سمعت فيما سمعت من فكاهات الناس أن غريباً نزل ببلد من البلدان يتفرج بالسياحة ويحتال للرزق، فلم ينفرج ضيقه، ولم يتسع في طلب الرزق طريقه؛ فخرج يوماً إلى مدافن البلد يتعظ ويستعبر، ومال على القبور يقرأ ما كتب عليها، فأذهله ما قرأ وعى بتفسيره وتأويله

هنا قبر كتبوا عليه أنه قبر الوزير المعظم فلان: حكم وعدل وأصلح وبلغ من العمر عشرة أيام

وهنا قبر كتبوا عليه أنه للقاضي الجليل فلان: كانت له أحكام يؤتم بها في مجالس القضاء، وأثرت عنه مؤلفات يتداولها الطلاب والأدباء، ومات ولم يجاوز من العمر أسبوعين

وهناك قبر لطبيب، وإلى جانبه قبر لأديب، ووراءهما قبر لسري حسيب، وعلى مقربة منه قبر لناشئ نجيب، وما منهم معمَّر ولا مختضَر يجاوز الساعات والأيام، إلى الشهور والأعوام، ولا منهم إلا من تذكر له المآثر ويرتفع به المقام

فاستغرب الغريب، وسعى إلى الحارس يسأله في سر هذا الكلام المريب: ما خطبكم يا هذا؟! ... أحياؤكم في المدينة يشيبون ويعمرون، وأمواتكم في المقابر لا تعدّ لهم شهور

ولا سنون . فهل يجاء بالأموات من بلد غير هذا البلد ، أو تمدون العمر عندكم بغير ما ألف الناس من عدد ؟

قال الحارس : بل هي مدافن القوم ، وهي أعمار أبناء آدم ، ولكنهم يسقطون منها مالا يسر ولا يؤثر ، ويثبتون منها ما قضى في سرور وعمل مشكور . فمن ثم تنحسر السنوات بعد السنوات ، فلا يبقى غير لحظات ولمحات ، وهي التي تراها ، وتحار في معناها !

قال الغريب : إن كان هذا فوصيتي لك أن تكتب على قبري حين يتوفاني الله في بلدكم : من بطن أمه إلى القبر !

* * *

ويقول الراوي مرة أخرى : ثم أدركتني سِنة من النوم وأنا أعيد حكاية هذا الغريب اليائس وأسأل نفسي : كم من الناس يحق له أن يزيد على ما أوصى ؟ وكم من الأعمار يبلغ الساعات على هذا الحساب ؟

وإني لكذلك إذ ارتفع بصري إلى دائرة هائلة الأقطار كأنها صفحة الساعة التي نقيس بها الزمن ، لولا أنها شيء لا يدرك له آخر ولا تظهر لعقربيه حركة ، ولولا أن العقربين لا ينتهيان ولا يزالان ذاهبين إلى وجهة يخيل إليك أنها حافة وما هي بحافة ، ولكنها أشبه شيء بخط الأفق المخلوق من وهم الناظر إليه

الأبد كله يقاس بهذه الصفحة !! أو هي الساعة السرمدية التي ترصد بها حركات الأكوان ، إن صح أن تسمى هذه ساعة وهي تشمل كل حين !

يقول الراوي : وألمح على الصفحة علامات مختلفة الشيات ، لا أهم بأن استوضحها حتى يتضح لي جواب ما هممت بالسؤال عنه كأنه خطرة من خطرات الضمير لا أسمعها ولا أرى قائلها ...

هذه علامات السعود والنحوس ، وهذه مفاتيح الإسراع والإبطاء ، وهذه لوالب الأفلاك ومنها فلك الأرض الصغير ، وهذه وهذه إلى آخر ما في الصفحة السرمدية من مجهول ومعلوم

وتتحرك يدي إلى مفتاح من المفاتيح ، ويهجس في ضميري المجيب الذي لا أسمعه ولا أراه : مكانك ! إلى أين ؟

قلت : إلى المفتاح الذي يعبر أوقات النحوس في لمحة عين

قال : ويحك . وما أنت وعلم هذا ؟ وأي نحوس تريد ؟ نحوسك أنت ، أو نحوس العالم أجمع ، أو نحوس فريق من الناس دون فريق ؟ هذه أسرار لا تهديك فيها العلامة ولا يطيعك فيها المفتاح . وإنما قصاراك أن تنظر في الساعة التي تخص حياتك إن اهتديت إليها . فهنالك ترى من ساعاتك وأيامك ما يقتضب أو يستطال ، على شروط يدلك عليها الدليل الموكل بتلك الآجال

قلت : وأين أجد هذه الساعة أصلحك الله ؟

قال : في خلف هذه الصفحة ... فهنا صفحة الكون الخالد وهناك صفحات الأحياء من أبناء الفناء

واستدرنا أو خيل إلينا أننا نستدير فإذا الدوائر أمامنا متشابكات متداخلات لا يحدها الطرف ولا يحصيها الحساب ، وإذا بالمجيب الذي لا أراه ولا أسمعه يشير إلى إحداهن ويقرئني عليها اسمي وعلامات السعد والنحس في عمري ، ويقول لي : دونك ساعتك فاصنع بها ما أنت صانع . فهي إن عمرت أو خربت لك أو عليك فلما يضارُّ من جرَّائها أحد سواك

ثم يعود صاحبنا فيقول : واعلم أنك لا تأخذ السعادة ولا تتقي الشقاوة في هذا المكان ، فإنما هو للحصر والتسجيل ثم تحال إلى الخزانة التي فيها ما تشتهيه وتتقيه ، فعلى حسب ما في يدك من سجل أوقاتك وسماداتك وشقاواتك يكون التسليم من يد الخازن الموكل بهذه الأمور

ودارت المفاتيح ، وذهبت إلى الخازن ، وأريته السجل والتعداد ، وانتظرت ما يقول ، فإذا هو يراجعني مراجعة البائع المتحرج الذي تأبى له ذمته أن يستر بخساً أو يبالغ في مزية ، ولا يثنيه عن ذلك غضب ولا استعجال

قال : هذه سويعات بل لحظات لك في سجل السعادة ، أفأنت نازل عن عمرك كله من أجل هذه اللحظات ؟

قلت : أوليست هي سعادة خالصة ؟

قال : بلى ، ولكني مأمور بأن أبصرك بالحقيقة قبل أن آخذ منك أو أعطيك

فهذه اللمحات لا يدخل فيها الوقت الذي تشتاق فيه إلى السعادة ، ولا الوقت الذي تحن فيه إلى ذكراها ، ولا الوقت الذي تعرف فيه قدرها بفقدانها والشعور بالفارق بينها وبين نقيضها .

وهذه اللمحات تتصل بسعادات أناس آخرين لولاهم لما ظفرت بحصتك التي كتبت بعنوانك، فإما أن تتسلموها جميعاً أو تتركوها جميعاً ولا انفراد لك بالرأي فيما تختار

وهذه اللمحات إنما هي كالري للظامئ فلا إرواء لها إلا بعد إظماء، ولا محل للإيجاز في أوقات الشقاء إلا أن تصاب لمحات السعادة بمثل هذا الإيجاز

قلت: إني أغليت الثمن وبذلت عمراً كاملاً في سبيل هذه اللمحات القصار

قال: إنك لم تبذل شيئاً بل استرحت مما أنت باذل من شقاء، ولهذه الراحة ثمنها، فمن عسى أن يبذل الثمن غير المستفيد؟

قلت: إننا في عالم الدنيا نشتري الحلو والحامض ونلق بالحامض جانباً إذا كرهناه، وغاية ما يسومنا البائع أن يبيعنا الفاكهة المنتقاة بأغلى من سعر الفاكهة التي ليس فيها انتقاء. فلم لا تتبعون في بيعكم وشرائكم ما نتبعه فيما بيننا من بيع وشراء؟

قال: ذلك لأن حلاوة الحلو عندنا من حموضة الحامض، فليس بينهما انفصال!

وسألته: وما النتيجة؟

فأجابني: والنتيجة أننا ننقصك من السعادة بمقدار ماننقصك من الشقاء، وليس الأمر كما ظننت زيادة على هذه يقابلها نقصان من ذاك

***

يقول الراوي: فتدبرت كلام الخازن الناصح فوجدته على صواب، وتبين لي أن الصفقة لا تنعقد إذا هي انعقدت إلا على ما اشترط ووفق ما رسم. فهذه الساعة التي نعمت بها لأنني قضيتها مع من أحب، كيف أنتزعها وحدي وأعزل حسابها من حساب عمره؟ وهذه الواحة التي ابتهجت بها لأنني عبرت إليها الصحراء كيف أبتهج بها ولا أبتئس بصحرائها؟ وهذه المرارة في كأس الفتنة، كيف أتركها ولا أترك معها نشوتها وأحلامها؟ وهذه الخلاصة كيف أستخلصها ولا أتعب في استخلاصها

أيها الخازن الناصح: شكراً لك، فقد نصحت وأبلغت، فهل يضيع تعبي في تقديم الساعة بغير جزاء؟

أيها الباحث عما ليس يوجد: هذا هو الجزاء، وهكذا يتعب من يختصر العمر ليختصر الشقاء!

***

وبعد فقد كتبت في السنة الماضية عن تقديم الزمن وتأخير الزمن، فحق لهذه السنة أن نحفل بتقديم ساعاتها وإن كنا لا نقدم ولا نؤخر بهذا الاحتفال

وأراني عشت عشرين سنة ولم أتبين جديداً يقال منذ قلت:

تبغي السعادة لا سعادة مثلها والعدم قسمة طالب الإكسير

ومنذ تبين لي أن الفقر نصيب من يطلب الإكسير الذي يعطي المعادن الخسيسة قيمة الذهب الإبريز، وأن الشقاء نصيب من يطلب الإكسير الذي تتساوى به معادن الأيام فكلاها نفيس وكلاها محمود وكلاها سعيد؛ فلا ذاك يبلغ الغنى ويسلم من الفقر، ولا هذا يبلغ السعادة ويسلم من الشقاء، وحسبنا نصيب أهل الفناء فهم في آخر الأمر تراب، وكل ما أصابوه أنفس من التراب

عباس محمود العقاد

صورة ... وصورة ...

للأستاذ محمد محمد المدنى

هذه كلة من نوع ما كنت أكتب من الأزهر من قبل ، جاشت النفس بها ثم احتبستها ، ولكن كلة الأستاذ الزيات : « هل انبعث الأزهر » قد أثارت كامن الشوق القديم :

وذو الشوق القديم وإن تعزى مشوق حين يلقى العاشقينا !

الصورتان متقابلتان كأتم ما يكون من التقابل ، متنافرتان كأعنف ما يتصور من التنافر ، وهما مع ذلك مجتمعتان فى مكان واحد ، وبينهما صلة جوار قريب ورابطة قوية يبدو أنه لا سبيل إلى التخلص منها قبل زمن بعيد !

ليس الموضوع خيالاً يا عشاق الخيال ، وإنما هو الواقع الذى لم تفسده التصاوير ، والحقيقة المبرأة من المبالغة والتهويل !

الصورتان فى الأزهر ، والأزهر يحتفظ بهما معاً ، ويصانعهما معاً ، ويود لو بقى الناس غافلين عنهما ، منصرفين عن النظر إليهما

الصورة الأولى

صورة باسمة مشرقة متميزة الملامح والقسمات ، يشع منها نور الإيمان ، وتبدو على محياها سمات العقل والتفكير : لمن هذه الصورة ؟ ؟ إنها صورة أزهرى صحيح الفكر ، رشيد العقل ، واسع الأفق ، لا يضيق صدراً بما يأخذ به الناس من أسباب حياتهم ، وألوان ثقافتهم ، وطريقة تفكيرهم ما دام ذلك فى حدود العقل الصحيح والعلم الصحيح !

يشعر بأن الأزهر فى عهده الحديث مطالب بأن يفهم ما حوله فهماً صحيحاً ، لأن هذا الفهم ضرورى له ، وضرورى للدين الذى يحمل لواءه ، وضرورى للأمة التى تجعله منها فى مكان القيادة !

فهو ضرورى له ، لأنه إذا لم يفهم ما حوله فهماً صحيحاً ، ظل يخبط فى ظلمات ، ويضرب فى مجاهل ، فتكون النتيجة — ويا الهول ! — أن يفقد اعتباره أمام الأمة ، وأن يكره بعد حين قريب أو بعيد ، على التخلى عن مركزه التاريخى العظيم فيها !

وهو ضرورى للدين ، لأن الدين عدو الجهالة والجمود ، ولو كان الإسلام يرضى بالجهل أو يسكت عنه ، أو يحب الجمود أو يصبر عليه ، لما عاش هذا العمر المبارك الممتد إلى آخر الزمان إن شاء الله ، بل لما وصل إلينا اليوم إلا طميناً جريحاً ، أو هرماً عملت الليالى والأيام فيه ، ولكنه وصل إلينا شاباً تجرى فى شرايينه دماء الحيـاة نقية متدفقة ، ووصل إلينا قوياً غلاباً مرّ بحضارات وحضارات فلم يضق بشىء منها صدراً ولم يقف أمام واحدة منها حائراً متردداً ، ولا مأخوذاً مشدوهاً ؛ ووصل إلينا سليما منتصراً ، قد تكسرت من حوله النصال ، وتحطمت السهام ؛ ذلك بأنه دين الفطرة والعقل والعلم والإصلاح !

وهذا الفهم الصحيح ضرورى للأمة نفسها ، لأن الأمة تنشد لأبنائها ثقافة قومية إسلامية خالصة ، ولا ترضى بأن تفنى فى غيرها ، أو تؤخذ بثقافة غريبة عنها عاجزة عن أن تمدها بوسائل الحياة التى تصلح لها ، قاصرة عن أن تثير فى نفسها شعور العزة والكرامة والتطلع إلى تاريخها ومفاخرها . تنشد الأمة لأبنائها هـذه الثقافة وتتجه إلى الأزهر طالبة منه أن يمدها بها ، لأن الأزهر قد زامل تاريخها الذى به تعتز ، ولأنه هو الذى حفظ لها هذه الكنوز فى الدين والفقه واللغة والأدب ، ولأن الأزهر هو مدرسة الشعب العليا التى تجمع ابن الفلاح وابن الصانع وابن التاجر من سواد الأمة الذين يفهمون حاجاتها ، ويدركون ما تصلح به شئونها !

فإذا ما تخلف الأزهر عن تلبية هذه الرغبة ، ولم يقابل ثقة الأمة به ، وتعويلها عليه ، بالنشاط والعمل والتقدم نحو الكمال ، ولم ينتفع بهذا المركز الفريد الذى ميزه به تاريخه وعلومه وطبيعة رسالته — أذاق الأمة لباس الحرمان والفجيعة ، ودفعها إلى أعداء الإسلام كرهاً من حيث لا يحتسب

تقول الأمة الإسلامية للأزهر : إن من أعز آمالى أن أحمل عليك عبء تزويدى بما أحتاج إليه من قانون وتشريع ، وفقه وقضاء ، وأن أعمل برأيك الناضج فى جميع نواحى الحياة :

فى الاجتماع ، فى الاقتصاد ، فى السياسة ، فى العلم ، فى الأدب ، ولكن ينبغى أن يكون منك تقدم وخطوات عملية فى جميع هذه النواحى ، تشعرنى بأنك عرفتها ودرستها عن خبرة وفهم وتحقيق ومقارنة ، ولا أكتفى منك بهذه الدراسات اللفظية الأثرية ، ولا بهذه الأفكار التقليدية التى لو كان أصحابها الآن بيننا لتخلوا عن كثير منها

لقد كان الفقيه المجتهد يغير رأيه فى المسألة الواحدة مراراً ، لاطلاعه على ما لم يكن قد اطلع عليه ، أو لانكشاف حالة لم تكن قد انكشفت له ، أو لمناقشة عالم أقنعته بما لم يكن مقتنعاً به ؛ وقد مر على هؤلاء الرجال المفكرين قرون وقرون ، وحدثت أحداث ، وجدّت نظم ، وتغيرت دول ، وانكشف للناس من أسرار الله فى الحياة ما لم يكن قد انكشف ، وظهرت مشكلات ومسائل وقضايا من طراز جديد ، فكيف يلتوى عنق الأمة إلى الماضى من غير نظر إلى الحاضر ، وكيف نقف والفلك المحرك دائر ؟ فى البلد شركات مالية تقوم على أساس من الاقتصاد خاص ، وفى البلد مصارف أصبحت جزءاً مقوّماً من نظام المال فى الدنيا ، وفى البلد ألوان من النظم والمعاملات لم تكن معروفة فيما مضى ، فهل درستم نظام هذه الشركات والمصارف ؟ وهل تفهمتم أصول هذه المعاملات والنظم ؟ وهل تبينتم من ذلك كله ما يتفق مع التشريع الصحيح وما لا يتفق ؟

فى البلد مشكلات اجتماعية ، وعلل تحتاج إلى الإصلاح ، فهل فكرتم فى أن تجدوا حلاً لهذه المشكلات ودواء لهذه العلل ، ثم عرضتم ذلك عرضاً منظماً جاداً حازماً على ولاة الأمور ، وأقنعتموهم بالصلاح فيما تعرضون ؟

إن أحداً من الناس لا يستطيع أن يقول : إن التشريع الإسلامى ليس كفيلاً بإسعاد المجتمع ، وإنهاض الأمة؛ ولو قال ذلك أحد من الناس لكان ممعناً فى الخطأ ، جاهلاً بالحقائق ، أو عدواً للاسلام جاحداً بفضله

ولكن قبل أن تنادوا بذلك ، تحللوا أنتم أولاً من هذه القيود التى أثقلتكم . تحللوا من هذه الدراسات اللفظية الأثرية التى شغلتكم . برئوا أنفسكم وكرموا وجه العلم من أن تخلوا على كل رأى قديم ، مهما كان أمره ، هذه القدسية التى لا يعرفها الإسلام إلا لله ورسوله !

إن هؤلاء الذين سبقوكم قد قاموا بما يجب عليهم ، وأدوا إلى الله أماناتهم ، ولبوا حاجات عصورهم ، وكانوا يصدرون فيما يرون أو يقولون عن نظر وتأمل واقتناع ، فمن البر بهم أن تسيروا على سنتهم ، وأن تهتدوا بهديهم : فتلبوا حاجات عصركم — فى حدود الشريعة — كما لبوا حاجات عصرهم ، وتصدروا عن فهم ووزن صحيح لحاجات أمتكم ، كما أصدروا عن مثل ذلك

ذلك هو النداء الروحى الذى يشعر الأزهرى الناضج بأن الأمة تنادى به الأزهر ؛ وذلك هو الصوت المدوى الذى ينادى به الدين أبناء الدين ؛ وذلك هو الروح الكريم الذى يوحى به الإخلاص للأزهر ورسالة الأزهر ؟

***

هذه إحدى الصورتين المتقابلتين فى الأزهر !

الصورة الثانية

أما الصورة الثانية فيالله ! كيف أصورها ؟ إنها صورة مظلمة قاتمة تنبو عنها العين ، وينقبض لمرآها الصدر : شيخ يعيش فى عصر النور والعلم ويأبى إلا أن يكون بروحه وعقله فى عصر الجهالة والتعصب والغموض والإبهام

تقول له : قال الله ، فيقول لك : قال فلان فى شرح كذا أو حاشية كذا . وتقول له : تأمل هداية الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، واعتبر بتطبيقه لآيات الله ، وفهمه وفقهه فى أحكام التشريع . فيقول لك : هذه مهمة المجتهدين وقد انقضى عهدهم ، وأصبح الزمان لا يجود بمثلهم . أما أنا فمقلد وسأبقى مقلداً ، لأن فلاناً يقول فى منظومته :

« وواجب تقليد حبر منهمُ ... »

وهكذا يجعل التقليد واجباً له مرتبة العقيدة !

وتقول له : أنظر ماذا كان يفعل الأصحاب الأولون ، وكيف كانوا يفهمون العقائد والأحكام كما نزلت فى كتاب الله ، لم تشبها الشوائب ، ولم تفسدها المذاهب الباطلة ، ولم تؤثر فيها النحل الغريبة ؛ فيخالطه الشك فى أمرك ، ويجرى لسانه بألفاظ

يرددها ولا يفهم لهـا معنى : أهل السنة ، المنزلة ، الباطنية ، الإجماع ، الإلحاد ، الزندقة ، إنكار الحقائق الشرعية ... إلى غير ذلك . ولو سألته ماذا يقصد بهذه الألفاظ ؟ ومتى حدثت فى تاريخ الإسلام ؟ ومتى جعلت معايير للكفر والإيمان لمـا وجدت جواباً !

وآفة الآفات فى ذلك كله افتراض الثقة المطلقة فى نظريات بعينها وأشخاص بخصوصهم ، مع الشك المطلق أو الرفض المطلق لنظريات أخرى وأشخاص آخرين ؛ ومثل هذه الطريقة لا يعرفها الإسلام ولا يرضاها لأهله ، ويأباها القرآن الكريم الذى عظم شأن البرهان ، ونعى على الذين يجمدون بدون تفكير على تقليد الآباء

***

هاتان هما الصورتان المتقابلتان فى الأزهر . وقد أبدع الأستاذ الكبير صاحب الرسالة فى تصويرهما إذ يقول فى العدد الماضى من الرسالة :

١ — « هؤلاء هم شباب الأزهر الجديد أساتذة وطلاباً ، قد جلت نفوسَهم ثقافة العصر ، وصقلتها مدنية الحاضر ، فأشرقت عليها أشعة النبوة ساطعة بعد ما حجبها الغمام والقتام حِقباً بعد حقب . فهم وحدهم الذين يدركون مسافة البعد بين روح الأزهر وحياة الناس ، وهم وحدهم الذين يملكون تزييف الأباطيل المقدسة التى اتسمت بسمة الحق ، وتسمَّت باسم الدين »

٢ — « ولكنهم حول هذا الهيكل البالى أشبه بالأغصان الخلفةِ التى تنبت نضيرة على أصل الدوحة المتيقة ، ثم لا يتسنى لها النماء والسموق لأن الجذور الشيخة لا تمدها بالغذاء كله ، والفروعَ الميتة لا تمكنها من الهواء كله . فإذا لم يرسل الله رسول الإصلاح ويؤته ما آتى أولى العزم من الرسل ، فيقطع من أعالى هذه الدوحة ما اعوج ، ويجتث من أسافلها ما ذبل ، ويكشف عن جذعها الواهن ما التف عليه من طفيلى النبت ، بنى الجفاف على هذه الأفنان النواشئ فتذوى فى زهرة العمر وبكرة الربيع »

فمتى يرسل الله هذا الرسول ، يا فضيلة الأستاذ الأكبر ؟

محمد محمد المدنى

المدرس بكلية الشريعة

عند ما حيرها الصمتُ !

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

قَالَتْ : أَرَاكَ كَأَنَّمَا انْـــفَجَرَتْ حَيَاتُكَ مِنْ شِهَابْ
وَتَدَفَّقَتْ بِكَ مَوْجَـةٌ سَوْدَاءُ مِنْ حُلْمِ الضَّبَابْ
فَكَأَنَّ عُمْرَكَ فى يَدِ الأَ (م) قْدَارِ إِعْصَــارٌ مُذَابْ
وَكَأَنَّ رُوحَكَ كَوْكَبٌ مُتَمَرِّدٌ فَوْقَ السَّحَابْ
لاَ النَّجْمُ يَعْرِفُهُ ، وَلاَ يَدْرِى مَنَابِعَهُ التُّرَابْ ...
أَفْصِحْ عَنِ السِّرِّ الدَّفِينْ
يَأَيُّهَا الْقَلِقُ الْحَــزِينْ !!

إِنِّي أَرَاكَ كَعَـــابِدٍ نَشْوَانَ يَحْضُنُهُ الإِلَهْ
سَكَبَتْكَ رَاحَاتُ الْغُيُو بِ رَحِيقَ خَمْرٍ فى صَلاَهْ !
وَكَشَاعِرٍ ذُبِحَتْ عَلَى قِيثَارِهِ الدَّامِي رُؤَاهْ !
نَفَضَتْكَ أَجْنِحَةُ السُّكو نِ ظِلاَلَ مَوْتٍ فى حَيَاهْ !
أَشْعَلْتَ فى قَلْبِى الْهَوَى وَتَرَكْتَنِى فى النَّارِ ! آهْ ...
... لَوْ كُنْتَ تُفْصِحُ أَوْ تُبِينْ !
أَهَوًى أَذَابَكَ أَمْ جُنُونْ ؟ !

قُلْتُ : اصْخِبِى بِهَوَاكِ حَوْ لِىَ يا حبيبةَ وَاعْصِفِى بِى !
أَنَا عَاشِقٌ قَذَفَتْ بِهِ بَلْوَاهُ فى عَدَمٍ رَهِيبِ
أَنَا قِصَّــةٌ بَكْمَاءُ تَرْ وِى سِحْرَهَا شَفَةُ الْغُيُوبِ
أَنَا جَدْوَلٌ تَجْرِى بِهِ الأَ (م) حْزَانُ فى وَادٍ غَرِيبِ
مَلَّتْ جِرَاحُ الْحُبِّ صَمْـــتِى فَارْتَمَيْتُ عَلَى اللَّهِيبِ
رُحْمَاكِ بِى ... وَدَعِى الْحَنِينْ
يُلْقِى سُـــؤَالَكِ لِلسِّنِينْ
وَغَــدًا ... تَرَيْنَ وَتَعْرِفِينْ !

(مراقبة الثقافة العامة) محمود حسن اسماعيل

في الأدب العراقي

ديوان الحبوبي

للدكتور زكي مبارك

حق الأدب على الأديب — خطبة لبسون وخطبة تشرشل — إنتقام الغزالي — الحبوبي بين الشعر والتدريس — لمحات من شاعرية الحبوبي — مراجع — شهيد الدفاع — الشاعر المصري المجهول أحمد زناتي

حق الأدب على الأديب

بعد أن فرغتُ من مقالي عن « الصحافة العراقية » وقدمته لمطبعة الرسالة جاءت الأخبار بانقلاب جديد في العراق ، وهي أخبار آذتني أشد الإيذاء ، لأني أتمنى في كل وقت أن يعيش العراق في هدوء واطمئنان ليفرُغ لتحقيق ما يسمو إليه من التفوق في ميادين العلم والأدب والاقتصاد

وكان من أثر ذلك الانقلاب وأثر اشتداد الأزمة الدولية أن أسكت عن حديث الأدب إلى أن تنكشف الغُمّة هنا وهناك فنجد ويجدون مساغاً للكلام عن الأدب والبيان

ولكني رجعت فنظرت في حق الأدب على الأديب ، ومن حق الأدب الذي نتشرف بخدمته أن نجمل الهيام بتقييد أوابده فرضاً من أوجب الفروض فلا نسكت عنه ولو آذنت أشراط القيامة بسقوط السماء على الأرض ، والله الحفيظ من مكاره هذه الأيام ... !

فمن طاب له أن يعجب من اشتغالنا بالأدب في أوقات لا يُشغل فيها الناس بغير أخبار الحروب فليعرف أن للأدب ميداناً لا يقلّ خطراً عن ميدان القتال ، وقد شاءت المقادير أن نكون جنوداً في الميدان الأدبي ، فمن واجبنا أن نقف صادقين في ذلك الميدان ، وأن نتناسى ما سواه من الميادين ، وإن كان تناسي ما يهدد مصر والشرق من المستحيلات

ولو شئت لقلت إن روح الغزالي ينتقم مني . ففي كتاب « الأخلاق عند الغزالي » تنديدٌ بالرجل الذي غرق في خلوته وانقطع لأوراده ، والدنيا من حوله تضجّ بنارة الإفرنج على بيت المقدس ، وتذكّره بالواجب في الدعوة إلى الجهاد

الآن عرفتُ أن العلماء والأدباء لا يصورون عصورهم أصدق التصوير من النواحي السياسية ، وإنما يصورونها من النواحي العقلية والروحية ، فأنا لا ألتفت التفاتاً جِديًّا إلى أخبار الحرب ولا يهمني أن أدوّن ملاحظاتي على ما أقرأ من أقوال الزعماء ، وإنما أوجه جهودي إلى متابعة الحياة الأدبية والفلسفية عساني أصل إلى أشياء يستنير بها روحي وعقلي

أليس من العجب أن تستهويني خطبة السير لبسون عن القديس جورج أكثر مما استهوتني خطبة المستر تشرشل عن مراحل الحرب في لوبيا والبلقان ، مع أن الظروف توجب أن يكون اهتمامي بالخطبة الأولى أقل من اهتمامي بالخطبة الثانية ؟

كان في خطبة لبسون فكرة فلسفية آذنتني بأنه يسايرنا في آفاق الأرواح والعقول ؛ أما خطبة تشرشل فتسير في طريق لست منه وليس مني ، لأني بعيد كل البعد عن آفاق السياسة والحرب ، ومن الخير ألا يعي خطبة تشرشل غير من يشتركون في توجيه دفة السياسة والاستعداد لدفع أخطار الحرب ، فهم المسئولون عن وعي الدقائق من هذه الشؤون

وليس معنى هذا أني أفاضل بين ميدان وميدان ، فجميع الميادين أمام الواجب سواء ، وإنما أقول بأن الاشتغال بالأدب الصِّرف لا يعدّ انسحاباً من المعترَك السياسي ، ولا هرباً من الإصاخة لدعوة الواجب عند احتدام الخطوب ، فقد أعدّنا الوطن لفروض لا تقل أهمية عن السياسة والحرب ، وهو لن يطالبنا بغير الوفاء لتلك الفروض ، وسيرى كيف نكون عند ظنه الجميل إن أشار بإغماد الأقلام وإشهار السيوف ، فلنا سواعد وعزائم وقلوب ، ولن تضام مصر وهي موصولة الفتوّة برجال أقوياء يعدّون بالألوف وألوف الألوف

أما بعد ، فإن الأخبار السود التي أطالعها في الصباح والمساء لن تصدّني عن الواجب الذي أعدني له وطني ، وهو خدمة الأدب في مصر وفي سائر الأقطار العربية ، وأنا ماضٍ في أداء ذلك الواجب مهما اعتكرت الظروف

فما حديث اليوم ؟

ومن الأدب الذي نلوذ بجناحيه العاديّ فننسى أو نتناسى

ما يحيط بنا من متاعب لا يتجاهل وقعها الأليم إلا من قُدَّ قلبه من الصخر الجلمود ؟

الحبوبي

نحن أمام ديوان طُبع في بيروت سنة ١٣٣١ هـ ١٩١٣ م على نفقة الحاج عبد المحسن شلاش ، والشاعر هو السيد محمد سعيد حبوبي « أشعر شعراء الشرق أمس وأكبر علمائه اليوم » كما كُتب في صدر الديوان ، فمن هو بين الشعراء والعلماء ؟

إن العبارة التي رُقِمَتْ على صدر الديوان تشهد بأن الرجل واجهَ لونين من ألوان الحياة الفكرية ، فعاش أولاً للشعر ، ثم انقطع للعلم ، وبذلك طغت شخصيته العلمية على شخصيته الشعرية ؛ فإن انتهى بنا البحث إلى القول بأنه كان من الطبقة الثانية أو الثالثة بين الشعراء فسيصدِّق أقوامٌ حين يقولون بأنه كان في صدر الطبقة الأولى من العلماء ، وهل من القليل أن يسمو العلم بالحبوبي فيحفظ له ضريحاً في رحاب الحرم الحيدرى بالنجف ؟

ولكن كيف هجر الحبوبي حياة الشعر وانقطع للعلم والتعليم مع ذلك الحظ من الفِطرة الشعرية ؟

يرجع السبب فيما أفترض إلى الرغبة في التفوق ، وكان الحبوبي يعرف في سريرة نفسه أن طاقته العلمية أقوى من طاقته الأدبية . وفي المقدمة التي كتبها الشيخ عبد العزيز الجواهري لديوان الحبوبي عبارة تشهد بأنه كان مفهوماً أن الحبوبي لا يقدر على مسايرة شوقي وحافظ وزنانى وصبرى ، وهم شعراء وصلت قصائدهم إلى العراق في ديباجة مصقولة لم يسبق لها نظير في الشعر الحديث ، ولا تسهُل محاكاتها على رجل يعيش في بيئة تأخذ زادها الأعظم من أقوال النحاة وقضايا الفقه والأصول

على أنه لا موجب للتكلف في البحث عن الأسباب التي قضت بانتقال الحبوبي من ميدان الشعر إلى ميدان التدريس . فالرجل فيما يظهر كان يميل إلى إيثار الحياة العلمية ، وكان الناس من حوله يطيب لهم أن يروه من أعاظم العلماء ، إن صح أن البيئة التي سكن إليها وسكنت إليه كانت تملك صرفه عن الانخراط في سِلك أكابر الشعراء ، لو أرادت به شياطين الشعر غير ما يريدون !

والواقع أن البيئة التي أحاطت بالحبوبي كانت ترجو أن يظفر بأعظم الحظوظ من الشاعرية ، ولكن الرجل عرف ما يملك من الطبع ، فلم يجاوز ما يطيق إلى ما لا يطيق ، وإن أثقله محبوه بأضخم الألقاب

والواقع أيضاً أن الحبوبي الشاعر أضاعته الحياة الفقهية ، وهي حياة لا يرتفع معها شعر ولا خيال ، وإن كانت في ذاتها من أجل الحيوات ، وهل تمز الشاعرية على من يسمفه الروح بمثل هذا الهتاف

إسقني كأساً وخذ كأساً إليك ... فلذيذ العيش أن نشتركا
وإذا جدت بها من شفتيك ... فاسقنيها وخذ الأولى لكا
أو لحسي خمرة من ناظريك ... أذهبت نسكي وأضحت منسكا
وانهب الوقت ودع ما سلفا ... واغتنم صفوك قبل الرَّنق
إن صفا العيش فما كان صفا ... أو تلاقَيْنا فقد لا نلتقي

وقد فتن الشاعر بهذا المعنى فأعاده بأسلوب آخر حين قال :

ياغزال الكرخ وا وجدى عليك ... كاد سرى فيك أن ينهتكا
هذه الصهباء والكأس لديك ... وغرامى في هواك احتنكا
فاسقني كأساً وخذ كأساً إليك ... فلذيذ العيش أن نشتركا
أترع الأقداح راحاً قرقفا
واسقني واشرب أو اشرب واسقني
فلماك العذب أحلى مرشفاً ... من دم الكرم وماء المزُن[1]

إن الشاعرية لا تمز على من يسمفه الروح بمثل هذا الهتاف ولا تمظم على من يزور داراً في بغداد فيروعه ما عند أهلها من صباحة الوجوه وطهارة القلوب فيقول :

فلست أدرى أأملى فيهم غزلاً ... لما رأيتهمُ أو أنشئ المِدَحا

إن الفقه هو الذي وأد الشاعرية في صدر من كان يجيد مثل هذا النشيد :

رويداً سائق النوق ... فما ودعتُ معشوق
فبالأحداج لي رشأٌ ... رمى مهجاً بلا فُوق
بسهم اللحظ يرشقني ... وقلبي جِدَّ مرشوق
كأن القلب يوم سرى ... هوى من فوق عيّوق

(١) المعروف أن الحبوبي لم يشرب الخمر حتى يجيد فيها القول ، ولكن الحاج عبود شلاش حدثنا أن الحبوبي كان له إخوان في بغداد

فليت العيس ما رحلت ولا قامت على سوق
فقد خفّت بمنبلج من اللألاء مخلوق

والبيت الأخير من وثبات الخيال

الفقه هو الذى أضاع صاحب هذا الهتاف :

يا حامل الوردة ما ألطفك ! فهل ترى لى اليوم أن أرشفك ؟
يا وردة الناظر بالله قل بهذه الوردة من أتحفك ؟
لا أقطف الورد ، ولكننى
قد كدت من روضك أن أقطفك

وخلاصة القول أن الحبوبى كان آية فى قوة الطبع ، ودقة الذوق ، ولكن الفقه جنى عليه فلم يحفظ له مكان بين أكابر الشعراء

مراجع

رأى القارئ فى صدر هذا المقال أنى ضيّق الصدر بسبب ما يثور من الأزمات الدولية ، وقد حاولت أن أنتفع بفرصة الكلام عن الحبوبى فأسوق طوائف من البحوث المتصلة بتاريخ الشعر العراقى فى العصر الحديث ، ولكن الحوادث صدتنى عما أريد ، فلم يبق إلا أن أوجه نظر القارئ إلى المراجع التى تساعد على فهم شاعرية الحبوبى ، وأهمها بعد الديوان كتاب « العقد المفصل » ففيه أخبار كثيرة عن الحبوبى ، وفيه إشارات تشرح بعض الغوامض من ذلك الديوان

شهيد الدفاع

هذا عنوان قصيدة نظمها معالى الأستاذ محمد رضا الشبيبى فى رثاء الحبوبى ومن هذه القصيدة نعرف أن الحبوبى كان نهض إلى الدفاع فى المحرم سنة ١٣٣٣ « ١٩١٥ » فأجابه خلق من أهل الفرات والأقاليم الجنوبية وسار بهم إلى (الشعيبة) ولكنهم أصيبوا بالخذلان فعاد إلى الناصرية ورابط فيها إلى أن مات فى عشية الأربعاء ثانى شعبان سنة ١٣٣٣

ومعنى ذلك أن الحبوبى لم يكتف بالمنزلة الأدبية والعلمية فتسامت نفسه إلى الاتسام بوسم الجهاد

وقصيدة الشبيبى فى رثاء الحبوبى تضمّنت إشارات إلى أغراض سياسية يضيق عنهما هذا الحديث ، وفيها نفحة من قصيدة شوقى فى « الأندلس الجديدة »

زناتى

مرت إشارة إلى الشاعر زناتى عند الحديث عن الشعراء الذين عجزوا عن مجاراتهم الحبوبى ، فمن هذا الشاعر المصرى المجهول؟

هو الشيخ أحمد زناتى ، أحد أساتذة اللغة العربية ، وكان الشاعر الثانى بعد شوقى فى نظر أستاذنا الشيخ محمد المهدى ، وكنا نحفظ له فى عهد الحداثة قصيداً نخاله مبتدأً بهذين البيتين

أرقتُ وأصحابى خليّون نُوّمُ وما أنا ذو شوق ولا أنا مُغرمُ
ولكنّ همًّا بين جنبىّ شبّهُ علىّ ذوو القربى عفا الله عنهمُ

وقد أرجع إلى البحث عن آثار هذا الشاعر بعد حين ، الشاعر الذى جهله المصريون وعرفه العراقيون .

زكى مبارك

في الاجتماع اللغوي

اللهجات العامية الحديثة

عوامل تطورها وصفاتها المشتركة

للدكتور علي عبد الواحد وافي

أستاذ الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

— ١ —

تقتضي نواميس اللغات أنه متى انتشرت اللغة في مناطق واسعة من الأرض، وتكلم بها طوائف مختلفة من الناس، استحال عليها الاحتفاظ بوحدتها الأولى أمداً طويلاً، بل لا تلبث أن تنشعب إلى لهجات، وتسلك كل لهجة من هذه اللهجات في سبيل تطورها منهجاً يختلف عن منهج غيرها، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بينها حتى تصبح كل منها لهجة متميزة غير مفهومة إلا لأهلها. وبذلك يتولد عن اللغة الأولى فصيلة أو شعبة من اللهجات يختلف بعضها عن بعض في كثير من الوجوه. ولكنها تظل مع ذلك متفقة في وجوه أخرى، إذ يترك الأصل الأول في كل منها آثاراً تنطق بما بينها من صلات القرابة ولحمة النسب اللغوي. وكثيراً ما يبقى الأصل الأول مدة كبيرة لغة أدب وكتابة بين الشعوب الناطقة باللهجات المتفرعة منه

ولهذا القانون خضعت اللغات الإنسانية من مبدأ نشأتها إلى العصر الحاضر. فاللغة اللاتينية مثلاً — وهي إحدى لغات الفرع الإيطالي من الفصيلة الهندية — الأوربية، قد أخذت في أواخر العصور القديمة وفي العصور الوسطى تنشعب إلى عدد كبير من اللهجات، وأخذت كل لهجة من هذه اللهجات تسلك في سبيل تطورها منهجاً يختلف عن منهج غيرها، حتى أصبحت كل منها لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها. وقد بقيت اللاتينية مدة كبيرة لغة أدب وكتابة بين الشعوب الناطقة باللهجات المتفرعة منها (الفرنسية، الإيطالية، الإسبانية، البرتغالية، لغة رومانيا ...). ولكنها تنحت عن هذه الوظيفة بعد أن اكتمل نمو هذه اللغات [1] ...

ولم تفلت اللغة العربية — وما كان يمكن أن تفلت — من هذا المصير؛ فمنذ أن اتسع انتشارها، أخذت تنشعب إلى لهجات يختلف بعضها عن بعض وتختلف عن الأصل الأول الذي انشعبت عنه في كثير من مظاهر الصوت والقواعد والدلالة والمفردات؛ وسلكت كل لهجة منها في تطورها منهجاً يختلف عن منهج غيرها، تحت تأثير ظروفها الخاصة، وأخذت مسافة الخلف تتسع بين هذه اللهجات، حتى أصبح بعضها غريباً عن بعض: فلهجة العراق أو لهجة المغرب مثلاً في العصر الحاضر، لا يفهمها المصري إلا بصعوبة وفي صورة تقريبية. غير أنه قد خفف من أثر هذا الانقسام اللغوي بقاء العربية الأولى بين هذه الشعوب لغة أدب وكتابة ودين

ويرجع السبب في انشعاب هذه اللهجات عن العربية الفصحى وفي تطورها المطرد في نواحي: الأصوات والقواعد والدلالة والمفردات، إلى عوامل كثيرة من أهمها ما يلي:

١ — انتشار اللغة العربية في مناطق لم تكن عربية اللسان فقد تغلبت اللغة العربية على اللغات اليمنية القديمة في معظم بلاد اليمن، وعلى اللهجات الآرامية في العراق والشام، وعلى الألسنة القبطية والبربرية والكوشية في مصر وشمال أفريقيا وشرقها. ومن المقرر أن اللغة الغالبة ينالها كثير من التحريف في ألسنة المحدثين من الناطقين بها (المغلوبين لغوياً) تحت تأثير لهجاتهم القديمة وأصواتها ومفرداتها وما درجوا عليه من عادات في النطق وهلم جراً ...

وقد كان لهذا العامل أثر واضح في اختلاف لهجات هذه المناطق الجديدة بعضها عن بعض، واختلافها عن اللسان العربي الأول. فقد تأثرت اللغة العربية في كل منطقة من هذه المناطق بلهجاتها القديمة، وانحرفت في ألسنة أهلها انحرافاً خاصاً اقتضته عاداتهم الصوتية المتأصلة ومناهج ألسنتهم الأولى؛ وتأثرت ألسنة الجاليات العربية نفسها في كل منطقة من هذه المناطق بألسنة أهلها، فنشأ من جراء ذلك في كل بلد من هذه البلاد لهجة

(١) أنظر تفصيل هذا القانون في الفصل الخامس من كتابنا «علم اللغة» صفحات ٢٠٢ — ٢١١

عربية تختلف عن لهجة غيرها ، وتختلف عن اللغة العربية الأولى فالعربية فى الشام مثلاً متأثرة بالألسنة الآرامية القديمة ، وفى المغرب باللهجات البربرية التى صرعتها العربية فى هذه البلاد ... وهلم جراً ...

٢ — عوامل اجتماعية سياسية : كاستقلال البلاد العربية بعضها عن بعض ، وضعف السلطان المركزى الذى كان يجمعها ويوثّق ما بينها من علاقات . فمن الواضح أن انفصام الوحدة السياسية يؤدى إلى انفصام فى الوحدة الفكرية واللغوية

٣ — عوامل اجتماعية نفسية تتمثل فيما بين سكان هذه المناطق من فروق فى النظم الاجتماعية والعرف والتقاليد والعادات ومبلغ الثقافة ومناحى التفكير والوجدان ... وما إلى ذلك ، فمن الواضح أن الاختلاف فى هذه الأمور يتردد صداه فى أداة التعبير

٤ — عوامل جغرافية تتمثل فيما بين سكان هذه المناطق من فروق فى الجو وطبيعة البلاد وبيئتها وشكلها وموقعها ... وما إلى ذلك ؛ وفيما يفصل كل منطقة منها عن غيرها من جبال وأنهار وبحار وبحيرات ... وهلم جرا . فلا يخفى أن هذه الفروق والفواصل الطبيعية تؤدى — عاجلاً أو آجلاً — إلى فروق وفواصل فى اللغات

٥ — عوامل شعبية جنسية تتمثل فيما بين سكان هذه المناطق من فروق فى الأجناس والفصائل الإنسانية التى ينتمون إليها والأصول التى انحدروا منها . فمن الواضح أن لهذه الفروق آثاراً بليغة فى تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات

٦ — اختلاف أعضاء النطق باختلاف الشعوب . فمن المقرر أن هذه الأعضاء تختلف فى تكوينها واستعدادها ومنهج تطورها تبعاً لاختلاف الشعوب وتنوع الخواص الطبيعية المزود بها كل شعب والتى تنتقل بطريق الوراثة من السلف إلى الخلف [1] . فلم يكن مناص إذن أن تختلف أصوات اللهجات العربية بعضها عن بعض باختلاف الشعوب التى انتشرت فيها ، وأن تتجه كل لهجة منها فى تطورها من هذه الناحية إلى منهج يختلف عن منهج غيرها

٧ — التطور الطبيعى المطرد لأعضاء النطق . فمن المقرر أن أعضاء النطق فى الإنسان فى تطور طبيعى مطرد فى تكوينها

(١) أنظر تفصيل هذا الموضوع فى كتابنا « علم اللغة » ص ٢٧٤ وتوابعها .

واستعدادها ومنهج أدائها لوظائفها . فحناجرنا وحبالنا الصوتية وألسنتنا وحلوقنا وسائر أعضاء نطقنا تختلف عما كانت عليه عند آبائنا الأولين ، إن لم تكن فى تكوينها الطبيعى ، فعلى الأقل فى استعداداتها ؛ بل إنها لتختلف عما كانت عليه عند آبائنا الأقربين [1]

وغنى عن البيان أن كل تطور يحدث فى أعضاء النطق أو فى استعدادها يتبعه تطور فى أصوات الكلمات ، فتحرف هذه الأصوات عن الصورة التى كانت عليها إلى صورة أخرى أكثر منها ملاءمة مع الحالة التى انتهت إليها أعضاء النطق . فكان من المستحيل أن تجمد ألفاظ اللغة العربية على حالتها الأولى فى الأمم الناطقة بها ؛ ولم يكن مفر من أن ينالها كثير من التطور باختلاف العصور . ومن آثار هذا ما حدث فى اللغة العربية بصدد أصوات الجيم والثاء والذال والظاء والقاف . فقد أصبحت هذه الأصوات ثقيلة على اللسان فى كثير من البلاد العربية ، وأصبح لفظها على الوجه الصحيح يتطلب تلقيناً خاصاً ومجهوداً إرادياً وقيادة مقصودة لحركات المخارج . ولعدم ملاءمتها مع الحالة التى انتهت إليها أعضاء النطق فى هذه البلاد أخذت تتحول منذ أمد بعيد إلى أصوات أخرى قريبة منها [2] ، فصوت الجيم الذى كان ينطق به معطشاً بعض التعطيش فى العربية الفصحى قد تحول فى معظم المناطق المصرية إلى جاف (جيم غير معطشة) ، وفى معظم المناطق السورية والغربية إلى جيم معطشة كل التعطيش (J) [3] ، والثاء قد تحولت إلى تاء فى معظم المناطق المصرية وفى بلاد أخرى فيقال : (توب . تلج . تخين . تعلب . تعبان . تفل . تقيل . تلت . تلاتة . تمن . تمانية . تور . اتنين . تتر . جتة . عتة . عتر ... الخ . بدلاً من : ثوب . ثلج . ثخين . ثعلب . ثعبان . ثفل . ثقيل . ثلث . ثلاثة . ثمن . ثمانية . ثور . اثنان . نثر . جثة . عثة . عثر ... الخ) [4] . والذال قد تحولت فى كثير

(١) أنظر تفصيل هذا الموضوع فى كتابنا « علم اللغة » ص ٢٧٠ وتوابعها

(٢) يحتمل كذلك أن بعضها كان متحولا إلى هذه الأصوات فى بعض القبائل العربية التى انتقلت لهجتها إلى هذه الأمم .

(٣) لا يزال ينطق بصوت الجيم نطقا صحيحا فى عامية العراق وبعض المناطق المصرية وخاصة فى مديرية الشرقية

(٤) تحول هذا الصوت فى كلمات قليلة إلى سين أو صاد : « ثواب » تنطق أحيانا « سواب » أو « صواب » .

من المناطق العربية إلى دال فى معظم الكلمات ، فيقال : (داب . دراع . ديب . ده . دى . دبل . دبح . دبان . دأن . أدان . ودن . دهب . ديل ... إلخ . بدلاً من : ذاب . ذراع . ذئب . ذا . ذى . ذبل . ذبح . ذُبّان . ذقن . أذان . أذن . ذهب . ذيل ... الخ) ؛ وإلى زاى فى بعض الكلمات ، فيقال مثلاً : (زنب . زهن . زكى . بزر . رزالة ... الخ ؛ بدلاً من : ذنب . ذهن . ذكى . بذر . رذالة ... الخ) . والظاء قد تحولت إلى ضاد فى معظم الكلمات ؛ فيقال : (ضلام . ضفر . ضل . ضهر . الخ . بدلاً من ظلام . ظفر . ظل . ظهر ... الخ) وإلى زاى مفخّمة فى بعض الكلمات (كما ينطق فى عامية المصريين بكلمات : ظالم . ظريف . أظن . حظ ... الخ)[1] . والقاف قد تحولت إلى همزة فى بعض الكلمات المصرية ، فيقال : (أط . ألت . أبل . عأد . نطأ ... الخ ؛ بدلاً من : قط . قلت . قبل . عقد . نطق . الخ) ؛ وإلى جاف (جيم غير معطشة) فى معظم اللهجات العامية فى مصر وغيرها من البلاد العربية ، فيقال : (جط . جلت . جبل . عجد . نطج . الخ) ؛ بدلاً من : قط . قلت . قبل . عقد . نطق . الخ)[2]

٨ — الأخطاء السمعية وسقوط الأصوات الضعيفة . قد يحيط بالصوت بعض مؤثرات تعمل على ضعفه بالتدريج ، كوقوعه فى آخر الكلمة ، وزيادته عن بنيتها ، وعدم توقف المعنى المقصود عليه ؛ فيتضاءل جرسه شيئاً فشيئاً حتى يصل فى عصر ما إلى درجة لا يكاد يتبينه فيها السمع ؛ فحينئذ يكون عرضة للسقوط . وذلك أن معظم الصغار فى هذا العصر لا يكادون يتبينونه فى نطق الكبار ؛ فينطقون بالكلمات مجردة منه[3] .

وقد كان لهذا العامل ، مع عوامل أخرى سيأتى ذكرها ، أثر كبير فى سقوط علامات الإعراب بالحركات من جميع اللهجات العامية المنشعبة عن العربية ؛ على حين أن الإعراب بالحروف ، لعدم تأثره بهذا العامل ، قد بقيت آثاره فى اللهجات العامية : (أخوك ، أبوك ، المؤمنين ، الطيبين ... الخ)

٩ — موقع الصوت فى الكلمة . وموقع الصوت فى الكلمة يعرضه كذلك لكثير من صنوف التطور والانحراف

(ا) وأكثر ما يكون ذلك فى الأصوات الواقعة فى أواخر الكلمات سواء أكانت الأصوات أصوات مد أم أصواتاً ساكنة

أما أصوات المد ، فقد لوحظ أن وقوعها فى آخر الكلمة يجعلها فى الغالب عرضة للسقوط ، ويؤدى أحياناً إلى تحولها إلى أصوات أخرى . وقد كان لهذا العامل أثر كبير فى سقوط أصوات المد القصيرة المسماة بالحركات (التى يرمز إليها فى الرسم العربى بالفتحة والكسرة والضمة) التى تلحق أواخر الكلمات العربية . ففى جميع اللهجات العامية المنشعبة عن العربية (عاميات مصر والعراق والشام وفلسطين والحجاز واليمن والمغرب ... الخ) قد انقرضت هذه الأصوات جميعها ، سواء فى ذلك ما كان منها علامة إعراب وما كان منها حركة بناء . فينطق الآن فى هذه اللهجات بجميع الكلمات مسكنة الأواخر (فيقال مثلاً : « رجعْ عمرْ المدرسة بعد ما خفْ من عياه » بدلاً من « رجَع عمرُ إلى المدرسة بعد ما خفّ من إعيائه » . ـ ولعل هذا هو أكبر انقلاب حدث فى اللغة العربية ؛ فقد أتى جميع الكلمات فانتقصها من أطرافها ، وجردها من العلامات الدالة على وظائفها فى الجملة ، وقلب قواعدها القديمة رأساً على عقب

ومن هذا القبيل كذلك ما حدث فى اللغة العربية بصدد أصوات المد الطويلة : (الألف والياء والواو) الواقعة فى آخر الكلمات ، فقد تضاءلت هذه الأصوات فى عامية المصريين وغيرهم حتى كادت تنقرض تمام الانقراض ، سواء فى ذلك ما كان منها داخلاً فى بنية الكلمة (رمى ، يرمى . . . الخ وما كان خارجاً عنها (ضربوا ، ناموا ... الخ) ، فيقال مثلاً فى عامية المصريين : « رام وعيسَ ومصطفَ أبُ حسين سافرَ يوم الخميس لجرجَ » بدلاً من : « رامى وعيسى ومصطفى أبو حسين سافروا يوم الخميس إلى جرجا »

وما حدث فى اللغة العربية تحت تأثير هذا العامل ، حدث مثله فى كثير من اللغات الأخرى . فمعظم أصوات اللين المتطرفة

---

(١) لا يزال بأصوات الثاء والظاء والذال نطقا صحيحا فى عامية العراق والمغرب وخاصة فى طرابلس وفى القبائل العربية النازحة إلى مصر (الفوايد الرماح ، البراعصة ، أولاد على ، الحرابى ، الضعفاء ، سمالوس ... الخ .

(٢) لا يزال صوت القاف محتفظا بنطقه الصحيح فى كثير من الكلمات فى عامية العراق وعامية رشيد . وكان مستعملا منذ عهد غير بعيد فى بعض مناطق بنى سويف ؛ وقد سمعت أنا نفسى بعض شيوخ أسرتى (ببلدة الحمام مركز بنى سويف) يتكلمون بالقاف ؛ ولا يزال العامة فى هذه المناطق يتكلمون بالقاف حينما يروون عبارة منسوبة إلى أجدادهم فى الأقاصيص الشعبية وما إليها ؛ وهذا يدل على أن صوت القاف لم ينقرض لديهم إلا منذ أمد قريب .

(٣) أنظر تفصيل هذا العامل فى كتابنا « علم اللغة » ص ٧٨ وتوابعها

فى اللغة اللاتينية قد انقرض فى اللغات المنشعبة عنها .(١)

ووقوع الصوت الساكن (ونعنى به ما يقابل صوت المد فى آخر الكلمة يجعله كذلك عرضة للتحول أو السقوط ، فمن ذلك ما حدث فى اللغة العربية بصدد التنوين ونون الأفعال الخمسة والهمزة والهاء المتطرفتين (٢) . فقد انقرضت هذه الأصوات فى معظم اللهجات العامية المنشعبة عن العربية ، كما يظهر ذلك بالموازنة بين العبارات العربية المدونة فى السطر الأول ونظائرها فى عامية المصريين المدونة فى السطر الثانى :

محمدٌ ولدٌ مطيعٌ ؛ الأولاد يلعبون ، الهواء شديدٌ ؛ إنتظرته ساعةً كاملةً

محمدْ ولدْ مطيعْ ؛ الأولاد بِيِلعَبُ ؛ الهوَ شديدْ ، إنتظرتُ سَاعَ كامْلَ

ومن هذا القبيل كذلك حذف آخر الكلمة التى يوقف عليها فى عامية كثير من المناطق المصرية ، كبعض مناطق بنى سويف والشرقية ورشيد ، فيقال مثلاً : « إنت يَاوَلَ » ؛ بدلاً من « أنت يا ولد » ؛ « فين أخوك محو » بدلاً من « أين أخوك محمود » ؛ « إدِّيلُ خَمْسَارو » بدلاً من « أدِّ له خمسة قروش »(٣)

وما حدث فى اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله فى كثير من اللغات الأخرى . فمعظم الأصوات الساكنة المختتمة بها الكلمات اللاتينية قد انقرضت فى النطق الفرنسى أو تحولت إلى أصوات ساكنة أخرى أضعف منها أو إلى أصوات لين(٤)

(ب) ووقوع الصوت فى وسط الكلمة يعرضه كذلك لكثير من صنوف التطور والانحراف . فمن ذلك ما حدث فى اللغة العربية بصدد الهمزة الساكنة الواقعة فى وسط الثلاثى ، فقد تحولت إلى ألف لينة فى عامية المصريين وغيرهم ، (فيقال : راس ، فاس ، فال ، ضانى ... الخ بدلاً من : رأس ، فأس ، فأل ، ضأن ... الخ)

ومن هذا القبيل كذلك ما حدث بصدد الياء والواو الساكنتين فى وسط الكلمة فى مثل « عين » و « يوم » . فقد تحولتا فى بعض المناطق المصرية وغيرها إلى صوتين من أصوات المد ، فأولهما تحول إلى صوت يشبه صوت « ê » فى اللغة الفرنسية (عين ، خيل ، بين ، زنيب ... الخ) ، وثانيهما تحول إلى صوت يشبه صوت « ô » الفرنسى (يوم ، نوم ، فوز ، لوم ... الخ)

ومن ذلك تحريك الحرف الساكن إذا وقع فى وسط كلمة ثلاثية فى كثير من لهجات البلاد العربية (عامية الشرقية ، وبعض عاميات الصعيد ، ولهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر ، ولهجة العراق ... الخ ؛ فيقال مثلاً : إسِم ، رَمِم ، مَصِر ، جُرُن ، بَدِر ، فِجِل ، نِخَل ... الخ ، بدلاً من اسْم ، رمْم ، مصْر ، جرْن ، فجْل ، نخْل ... الخ)(١)

وقد سجل الباحثون ظواهر كثيرة من هذا القبيل فى اللغات الهندية الأوربية(٢)

(ج) ووقوع الصوت فى أول الكلمة يجعله كذلك عرضة للانحراف . فمن ذلك ما حدث فى بعض المفردات العربية المفتتحة بالهمزة ؛ إذ تحولت همزتها فى بعض اللهجات العامية إلى فاء أو واو (« أُذْن » تحولت فى عامية المصريين إلى « وِدْن » و « أين » تحولت إلى « فين » أو إلى « وين » فى عامية القبائل العربية النازحة إلى مصر ، وفى عامية العراق والحجاز ؛ و « أدّى » تحولت فى بعض المواضع فى عامية المصريين إلى « ودّى » فيقال مثلاً : « ودّاه المدرسة » بمعنى « أدي به إلى المدرسة » أى أوصله إليها(٣))

وسنعرض لبقية هذه العوامل فى المقالات التالية إن شاء الله

علي عبد الواحد وافي
ليسانسيه ودكتور فى الآداب من جامعة السربون

(١) يستثنى من ذلك الايطالية ، فقد احتفظت بمعظم هذه الأصوات (أنظر تفصيل هذا الموضوع بكتابنا « علم اللغة » ص ٢٨٤ وتوابعها)

(٢) التاء المربوطة حكمها فى ذلك حكم الهاء المتطرفة كما يظهر من المثال المذكور فيما بعد .

(٣) سار على هذا الأسلوب كذلك بعض اللغات العربية الفصيحة كلغة طيء ، وقد جرت عادة المؤلفين من العرب بتسميته « قطعة طيء » أى قطع اللفظ قبل تمامه . فكان يقال مثلا فى لغتهم « يا أبا الحك » بدلا من « يا أبا الحكم » ولم يكن هذا مقصورا على المنادى بل كان عاما فى جميع الكلمات .

(٤) أنظر تفصيل هذا الموضوع بكتابنا «علم اللغة» صفحتى ٢٨٦ ، ٢٨٧

(١) هذه كذلك لهجة قديمة من لهجات بعض القبائل العربية .

(٢) أنظر تفصيل هذا الموضوع بكتابى « علم اللغة » ص ٢٨٨ .

(٣) ليس هذا مقصورا على اللغات العامية ، بل يوجد له نظير فى اللهجات العربية . ففى لغة لأهل اليمن تبدل الهمزة واوا فى مثل « أتنه » فيقال مثلا : وأتيته على الأمر مواتاة ، وهي المشهورة على ألسنة الناس .

هـــل لليهود فن ؟

رد على رد

للدكتور أحمد موسى

[جاء بالعدد رقم ٩٣ من مجلة الثقافة مقال بعنوان « هل لليهود فن » قرر فيه الدكتور زكى محمد حسن مبدأين خطيرين كانا سببا في اهتمامى ، وهما (أولا) أن اليهود لم يعرضوا الفنون الجميلة أبداً . و(ثانياً) أن اليهود تركوا أدباً وديناً أثروا بهما أثراً لا يقل عن أثر الاغريق في الحضارة الانسانية . وقد نفينا الزعم الأول في استفهام أرسلناه إلى مجلة الثقافة ونشر بالعدد رقم ٩٩ مزوداً بمصادر علمية ، وطلبنا إلى الدكتور زكي أن يدعم الزعم الثاني بالأدلة ؛ لأننا اعتبرناه فتحاً جديداً في العلم يحتاج إلى البحث والفحص وذكر المصادر

وقد رد الدكتور على استفهامنا رداً نشرته مجلة الثقافة بالعدد ١٠٠ لم يكن مقنعاً — والقارىء يستطيع أن يكون لنفسه فكرة عامة عن المقال الأول وعن الحوار العلمى الذى دار حول هذا الموضوع الخطير ، بقراءة هذا الرد] . (أ . م)

نشرت لى مجلة « الثقافة » استفهاماً بالعدد ٩٩ ونشرت للدكتور زكى محمد حسن رده على استفهامى بالعدد ١٠٠ وها هى مجلة « الرسالة » تفسح الصدر لنشر ردى على رده

والدكتور زكى مؤلف وكاتب معروف ، ولا ينتظر من قراء مقالاته أن يهملوا ما يكتب ، فنشكره ونعتذر إليه عن العودة إلى الكتابة لأن رده لم يكن مقنعاً

فمن رده على استفهامنا تؤخذ المسائل الآتية حسب ما ورد فى مقاله بالعدد ١٠٠ فى مجلة « الثقافة » :

١ — أن الأركيولوجيا أو علم الآثار تعنى بدراسة المخلفات كلها وتدرس حياة الشعوب وطرق معيشتها ، وهى مرجعنا الوحيد فى دراسة مدنيات الأمم التى اندثرت بدون أن تصل إلينا وثائق مكتوبة عنها (ص ٢٥ العمود الأيمن)

٢ — إن تاريخ الفن هو دراسة التحف التى صنعها الإنسان مراعياً فيها إلى حد ما شيئاً من مبادىء الجمال ، وهو لا يعنى إلا بالتحف والآثار ذات القيمة الفنية (ص ٢٥ العمود الأيمن)

٣ — أنه إذا كان فى كتب الآثار الموضوعة عن شعب من الشعوب ما يدل على أن الفنون كانت زاهرة بين أفراده ؛ فإن هذا لا يستلزم أن هذه الفنون كانت فنونهم ومطبوعة بطابعهم (ص ٢٥ العمود الأيمن)

٤ — أن الدكتور زكى يرجح أننا لسنا على حق فى حسبان بنسنجر Benzinger من بنى إسرائيل ، لأنه كان مدرساً فى كلية اللاهوت البروتستانتية بتوبنجن (ص ٢٥ العمود الأيسر)

٥ — إن المراجع والكتب فى تاريخ الفن تتحدث عن الطرز الفنية طرزاً طرزاً ، ولكن (مستفهم) لن يجد بين صفحاتها فصلاً أو بعض فصل عقد للكلام عن فن ينسب لليهود (ص ٢٦ العمود الأيمن)

٦ — يأبى (مستفهم) أن يصدق أن اليهود أثروا بدينهم وأدبهم أثراً لا يقل عن أثر الإغريق ، ويقول إن هذا فتح جديد فى العلم يحتاج لتصديقه والإيمان به إلى البحث والفحص وذكر المصادر ، ويدعو (مستفهم) إلى دراسة العلاقة بين اليهودية والمسيحية والإسلام ، وقراءة سير كبار العلماء والمفكرين اليهود واستعراض صلة اليهودية بحركة الإصلاح الدينى فى أوربا ، وتبين أثر اليهود فى القوانين الغربية ؛ حتى أرى بذلك أن أثر اليهود فى الحضارة لا يقل عن أثر الإغريق (ص ٢٦ العمود الأيسر)

٧ — إن أثر الإغريق فى الحضارة الإنسانية وأثر اليهود فيها مسألة اعتبارية ونسبية (ص ٢٦ العمود الأيسر)

وردنا على هذه المسائل ما يأتى :

١ — لم تعن الأركيولوجيا بدراسة المخلفات كلها وحياة الشعوب وطرق معيشتها إلا فى عصر ديونيزيوس الهاليكرناسى Dionysius of Halikarnass (٣١ ق . م) . الذى ذهب إلى روما وألف كتاباً فى عشرين جزءاً لم يبق منها إلا نصفها تقريباً عن أركيولوجية روما Archaologia Romana ، تناول فيه حياة الشعب وطرق معيشته وعاداته وفنونه ، وعصر يوسيفوس اليهودى Josephus المولود فى أورشليم عام ٣٧ بعد الميلاد الذى ألف كتاب الأركيولوجيا اليهودية Archaologia Judaica فى عشرين جزءاً ذكر فيها كل ما يتعلق ببنى جنسه وأحوالهم وعاداتهم وفنونهم من أقدم العصور إلى آخر أيام نيرون

وقصد بالأركيولوجيا فى عصر إحياء العلوم والآداب والفنون:

(ا) تفسير المخلفات الأثرية القديمة وتقدير الدرجة الفنية

التى بلغتها ليدرك الناس ماهية الآثار والفنون ، كما كان الحال عند « الإنسانيين » Humanen ، عندما تناولوا التراث الأدبى القديم Humaniore لتحويله إلى دراسات عامة بعد أن كان من شأن الخاصة [١] .

(ب) وتأريخ المخلفات التى يرجع عهدها إلى المرحلة الزمنية المحصورة بين عامى ١٥٠٠ر١٧٥٠ من مبان وتماثيل ونقوش واتخذت الأركيولوجيا اتجاهاً جديداً بعد ظهور كتاب أوتفريد مولر (١٧١٧ — ١٧٦٨) عن أركيولوجية الفن [٢] . وكتب غيره من العلماء والأدباء والباحثين فى الفنون فى بلاد الإغريق وآسيا الصغرى والشرق ، وبذا تم تأسيس معهد الدراسات الأركيولوجية فى برلين سنة ١٨٢٨ ، فاستقلت الأركيولوجيا علماً قائماً بذاته بفضل فنكلمان [٣]

وفى فجر القرن الثامن عشر عنى بنجهام الإنجليزى بوضع كتاب « أركيولوجية الكنائس » فى عشرة أجزاء [٤] ، طبع لندن سنة ١٧١٠ — ١٧٢٢ ، كما عنى أوجستى الألمانى بوضع كتاب آخر فى اثنى عشر جزءاً [٥] ، طبع ليبتسج فى نفس الفترة الزمنية

وظاهر مما تقدم أن الأركيولوجيا تطورت تخصيصاً ؛ فأصبحت لا تعنى بالمخلفات كلها ، أو حياة الشعوب وطرق معيشتها ، ولم تعد المرجع الوحيد فى درس الحضارات البائدة ، إذ لا بد من الاستعانة بعلوم أخرى لإكمال هذا الدرس ، كعلم تطور القشرة الأرضية Geologie وعلم الجماجم والعظام البشرية Anthropologie وعلم الأجناس وسلالاتها Ethnologie وعلم المسكوكات والدراهم Numismatik

٢ — أما قصر تاريخ الفن على دراسة التحف التى صنعها الإنسان « مراعياً إلى حد ما شيئاً من مبادئ الجمال » ؛ فقد يبدو براقاً وإن يكن غير صحيح ؛ والصحيح أن درس كل إنتاج فنى من اختصاص تاريخ الفن بغير حساب للجمال ، لأن مجرد نسبة هذا الإنتاج للجمال ، تقلل من قيمته الفنية لاختلاف الآراء فى الجمال فى كل زمان ومكان

يعنى تاريخ الفن بالفكرة Idèe واتصالها بالطبيعة صلة إلهام (البرشت دورر) [١] وتتلوها وسيلة الإنتاج الفنى (المسلك) وبها تقدر كفايته ، وعلى هذا الرأى فى الفن الأديب الأشهر جوتهولد ليسنج [٢]

وجعل العلامة فنكلمان [٣] التناسب أساس الفن ، ووصف الجمال بأنه المثل الأعلى ، متتبعاً فى رأيه خطوات أوجستين (٣٥٤ — ٤٣٠) non mole constat, sed parallitate ac dimensione membrosum

٣ — « إذا كان فى كتب الآثار الموضوعة عن شعب ما يدل على أن الفنون كانت زاهرة بين أفراده ؛ فهذا لا يستلزم أن هذه الفنون كانت فنونهم ومطبوعة بطابعهم » ؛ فهذا مردود عليه باستحالة جود شعب عن ممارسة فن يُنتِجَ ويُخرِجَ ويُبرِز فى وطنه ! على أن الجائز هو أنه لا يشترط حتماً أن يكون الفن المزدهر فى بلد ما خالصاً لأبنائه دون أثر أجنبى فيه

٤ — وترجيح صديقى الأستاذ الدكتور زكى حسن أن بنسنجر ليس من اليهود ، لأنه كان مدرساً فى كلية اللاهوت البروتستانتية بتوبنجن مخالف للواقع ؛ فإنه ولد فى شتوتجارت وتخرج فى جامعتها وجامعة توبنجن ودرس لاهوت التوراة ببرلين إلى سنة ١٩٠١ ، ثم صار نائباً لقنصل هولاندا فى أورشليم إلى سنة ١٩١٢ ثم ندب لتدريس اللغات السامية فى جامعة تورنتو إلى سنة ١٩١٤ ، فأستاذاً لآداب التوراة فى مدفيل Meadville إلى نهاية الحرب الماضية . أما مؤلفاته فكتاب الآثار العبرانية [٣] وشرح أسفار الملوك [٤] ، وتاريخ بنى إسرائيل [٥] ، وفضل اليهود فى ابتداء التشريع [٦] ، ويافت ، وإلوه [٧] ودليل

---

(١) G. Voigt, Die Wiederbelebung des klassichen Altertums, Berlin 1893.

(٢) Ottfried Müller, Handbuch der Archäologie der Kunst, Breslau 1830.

(٣) Justi, Johann J. Winckelmann; sein Leben, seine Werke und seine Zeitgenossen, 3 Bde. Leipzig.

(٤) Bengham, The antiquities of the Christian Church, London 1710-22.

(٥) Augusti, Denkwürdigkeiten aus der christlichen Archäologie, Leipzig 1817.

(١) Die Kunst steckt wahrhaftig in der Natur, wer sie heraus kann reissen; der hat sie. Albrecht Dürer (1471-1582)

(٢) Gotthold Lessing, Hamburgische Dermaturgie, Stück 70 (1 Jan. 1768).

(٣) Hebräische Archäologie

(٤) Commentar zu den Königsbüchern

(٥) Commentar zu der Chronik; Geschichte Israels.

(٦) Wie würden die Juden das Volk des Gesetzes ?

(٧) Jahvist und Elohist in den Königsbüchern.

« بيدكر » عن فلسطين وسوريا سنة ١٩١٢[١] كل ذلك مما يؤيد أن بنتسنجر يهودي

٥ — لم تخل كتب تاريخ الفن من صفحات وفصول عقدت للكلام على فن ينسب لليهود ، وإليك ياصديقي ثلاثة منها :

(ا) طرز الزخرفة ، تأليف شپلتس ، صفحات ٣٩ ـ ٤١ ولوحة رقم ١٤[٢]

(ب) الفن القديم تأليف لوبكه ـ پرنيس ، الجزء الأول ، صفحة ١٠٥[٣]

(حـ) أسس تاريخ الفن ، تأليف لوبكه ، الجزء الأول من صفحة ٥٨ إلى ٦٧[٤]

وهذه الكتب الثلاثة قليلة بالنسبة إلى كتب أخرى عالجت تاريخ الفنون عامة وألمت بتاريخ الفن اليهودي

٦ — أما قول الدكتور الفاضل بأن اليهود أثروا بدينهم وأدبهم أثراً لا يقل عن أثر الإغريق فلا يوافقه عليه أحد ، على حين توافقني على نقيضه الكثرة الغالبة من العلماء والمؤرخين حتى من اليهود أنفسهم . وأقرر بأن اليهود تأثروا بالعرب في مصر وشمال أفريقيا وأسبانيا وغيرها ، ونقلوا عنهم . وكان الفضل فيما وصلوا إليه راجعاً إلى علوم الإغريق التي اشتغل العرب بترجمتها

قال ابن ميمون (١١٨٥ — ١٢٠٤) في كتابه « مرشد الحائرين[٥] » أن ما اقتبسه اليهود من العلم والفلسفة كبصيص من النور وصل إليهم عن طريق العرب الذين استفادوا من حكمة الإغريق

أما ما كتبه العالم اليهودي الألماني « مونك » في كتابه « مزيج من الفلسفة العربية واليهودية[٦] » ؛ فهو يؤيد فضل العرب على اليهود ، كما يقرر بأنه لم يكن لبني إسرائيل فيلسوف سوى ابن ميمون

ولا نحب في هذا المجال أن ننقص من فضل « باروخ شبينوزا » الفيلسوف الهولاندي المتوفى سنة ١٦٧٧ المنسوب إلى اليهود ، وإن كان التنويه بذكره لا يكسب بني جنسه شيئاً فيما نحن بصدده ، لأنه كان مغضوباً عليه ومحروماً من دخول المعبد لإلحاده ولمذهبه في وحدة الوجود[١]

هاتان شهادتان ليهوديين من كبار رجالهم لم يزعما قط أن أدب اليهود أو حكمتهم دنت من حكمة الإغريق أو أدبهم ، ولم يدعيا أنه كان لأدب اليهود ودينهم أثر في تاريخ الحضارة لا يقل عن أثر الإغريق

أما ما استند إليه الأستاذ وهو درس العلاقة بين اليهودية والمسيحية والإسلام فهذا ما لا دخل له في موضوع الحضارة من حيث هي إنتاج إنساني قائم بذاته ؛ إذ أن العقائد في جوهرها تمس الباطن ، كما تمس الحضارة من حيث الحالة النفسية للمتعبد ، ودرس الحالة النفسية من اختصاص علم النفس ، وهو فرع من البحوث الإنسانية التي لا دخل لليهود فيها . وإن اتفاق الإسلام واليهودية في بعض التعاليم والآداب كالختان والصوم والطهارة من الجنابة ... الخ ؛ فهذه أمور كان التشابه فيها لتشابه وتسلسل الشعبين من الجنس السامي ، مع اختلافهما الجوهري في العقلية والنظر إلى الحياة والمثل العليا ، ولا إخال صديقي يرمي إلى إثبات محاولة انتحال الإسلام عن اليهودية

والإصلاح الديني عند المسيحيين وهو أبرز ما في تاريخهم الكنسي قام به رجل ألماني اسمه مارتن لوتر ، وآخر سويسري اسمه كلفن ، وثالث من أهل سانت جال بسويسرا اسمه تسوينجلي Zwingli ، وليس واحد من هؤلاء من اليهود .

وحتى حركة حرية الفكر التي ظهرت في أوربا قبل الثورة الفرنسية فهي لرجال أمثال فولتير وروسو وديدرو ومونتسكيو ، وفي انجلترا أمثال دودويل وتيندل وكوليتر وكلهم كما يعرف الأستاذ مسيحيون لا علاقة لهم باليهود .

(١) Baedekers, Palestine und Syrien, Leipzig 1912

(٢) A. Spaltz, Der Ornamentstil, Leipzig 1912, Seite 39-41 u. Tafel 14.

(٣) Lübke-Pernice, Die Kunst des Altertums, Esslingen 1914, Bd. 1 Seit 105.

(٤) Lübke, Grundriss der Kunst geschichte, Stuttgart 1887, Seite 58-67

(٥) Moses ben Maimonides, Le Guide des égarés. 1-3 Paris 1865-66

(٦) S. Munk, Mélanges de Philosophie juive et arabe renfermant des notices sur les principaux philosophes arabes et une esquisse historique de la philosophie chze les Juifs. Paris 1859.

(١) Freudenthal: Spinoza, sein Leben und seine Lehre, Stuttgart 1904

وإن كان لليهود أثر ملحوظ فى الدنيا الجديدة فهذا الأثر محصور فى الأعمال المالية والتجارية، وهى مع قيمتها الاقتصادية لا تمت بصلة إلى الأدب أو الفلسفة أو الفن كما يمت أدب الإغريق وفلسفة الإغريق وفن الإغريق.

ولعلى لم أدرك تماماً قصد الدكتور من علاقة القوانين الغربية باليهود؛ فغير خاف أن القوانين فى انجلترا مأخوذة فى أول أمرها من العرف الذى تواضع عليه الناس هناك، وفى الدول اللاتينية أُخذ فى لبه عن القانون الرومانى. أما فى العصر الحديث فهو عن الثورة الفرنسية والقانون الألمانى. وقانون روسيا لا يخرج عن التشريع الشيوعى. وفى البلاد الإسلامية عن الشريعة المحمدية وعن بعض الدول الأوربية كقانون بونابرت.

على أن هذا لا يمنع من أن نذكر أن لليهود أثراً فى التشريع الخاص بهم حيثما وجدوا، فيما يتعلق بالأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والنسب .. الخ وطهارة المأكل وصحة الذبح، غير ما جاء فى التوراة بسفر الخروج وأخبار الملوك.

وكتاب «تراث بنى إسرائيل» مكتوب فى عصرنا هذا لتمجيد اليهود، فلم يكن إلا نوعاً من الدعاية لقضية معينة؛ فكانت المبالغة فيه ظاهرة واضحة لمن يتعمق فى درسه.

٧ — أما أن أثر الإغريق وأثر اليهود مسألة اعتبارية ونسبية فهذا يخرج بنا عن حدود المقارنة العلمية التى يقوم الحكم فيها على الحالة الذاتية للشئ وليس على الحالة النفسية للباحث.

وخلاصة ما تقدم:

١ — أن الأركيولوجيا لا تفسر وحدها الماضى بما خلفه، وليست مرجعنا الوحيد فى دراسة مدنيات الأمم التى اندثرت

٢ — أن تاريخ الفن لا يعنى بتوافر شئ من مبادئ الجمال فى الخلق الفنى

٣ — أن من المستحيل وجود شعب يزدهر الفن بين أفراده دون اشتراكه، كما أنه من المستحيل أن يوجد شعب له أثر ملحوظ فى الأدب والفلسفة والعلم ولا يعرض للفنون الجميلة أبداً

٤ — أن بنتسنجر كان من اليهود حقاً وصدقاً

٥ — أن مراجع كتب تاريخ الفن لا تخلو من فصل أو فصول عقدت لتاريخ الفن عند اليهود

٦ — أن أثر اليهود بدينهم وأدبهم لا يدنو من أثر الإغريق فى الحضارة الإنسانية

٧ — عند المقارنة والموازنة - بين حضارتين - لا يكون للاعتبارية والنسبية المقام الأول فى البحث العلمى

ولما كان الاتجاه الذى رغب الأستاذ زكى محمد حسن إلباسه ثوب الحقيقة العلمية، وهو الإقرار لليهود بفضل التأثير فى الحضارة الإنسانية بما لا يقل عن فضل الإغريق بأدبهم وحكمتهم وعلومهم وفنونهم يُعد من أشد الاتجاهات العلمية خطورة، ولا يجوز لباحث مثلى ومثله إبقاءه على هذه الحالة من الإيجاز والغموض؛ فقد صحت عزيمة كاتب هذه السطور خدمة للعلم، على إفراد فصل قائم بذاته لتصفية هذه المسألة عندما يحين الوقت إن شاء الله.

أحمد موسى

ألقاب الشرف والتعظيم

عنـــد العرب

للأب أنستاس مارى الكرملى

١ — توطئة

ضرِىَ السوريون منذ برهةٍ، باستعمال ألفاظ جديدة، للتعظيم والتبجيل، واستهجان كل كلمة دخيلة تدل على نظائر تلك المعانى. ولذا تجدهم اليوم، لا يتخذون لقباً أو جلاء[1] يدل على أدب، أو تكريم، أو علم، أو إدارة، أو سياسة، أو نبالة، أو كل لفظ عليه طابعُ دخيلٍ، فليس فيهم كاتب يتخذ فى كلامه كلمة آغا، ولا أفندى، ولا بك. وأما مسيو. ومستر، وسنيور، وهر وضون، فقد أصبحت فى خبر كان. وكذلك لا تجد أثراً لماجستير وليسانسيه ودكتور وپروفسور. وقد نفَوْا من عباراتهم الكبتن والماجور والكولونل والجنرال هذا فى الرجال. وكذلك نفوا كلامهم من ألقاب الإناث مثل: هانم، وخانم، وخاتون، ومدموازيل، ومدام، ومسّ، ومسز وليدى. والكلام هنا على ما يقال فى الأجانب على اختلاف قومياتهم. وليس هناك خلاف فى أنه إذا جرى الكلام على أبناء العرب من ذكور وأناث فيتخذ لقب السيد، والسيدة، والآنسة، والكريمة، والعقيلة، إلى ما ضارع هذه المفردات

أما إنهم يحاولون إطلاق هذه القاعدة على الأجانب، وعلى ما وضعه هؤلاء من الألقاب العلمية والسياسية والأدبية بشروط وامتحانات وأحكام، فإنهم يحاولون القبض على حبال القمر، أو على قبض الماء بأيديهم؛ إذ لا حق لهم فيها، ولا يوافقهم على تحكمهم هـذا إلا كل أهوج، خال من الوقوف على تقدم علوم العصر ومصطلحاته وآدبه، واتفاق جميع الأقوام على اتخاذه، لأنها أصبحت من أوضاع الأقوام جميعها، ومن مشتركاتهم فيها ومن حق الجميع وممتلكاتهم لها

ومن مضحكات أوضاعهم أنهم أخذوا يستعملون (العليم) و(الحكيم) فى مكان (الدكتور). وجهلوا أن هـذا اللقب وأمثاله بمنزلة الأعلام، أى أعلام الألقاب. والاعلام تروى، أو ينطق بها على علاتها، ولا يحق لأحد أن يبدلها بغيرها، أو يصلحها، أو يحرر فيها أى تحرير، كبيراً كان أم صغيراً. فكما أن أحمد غير حامد، وهذا غير محمود، ومحمود غير محمد، وهذا غير حماد، وحماد غير حميد، وإن كان الأصل واحداً؛ فكذلك ألقاب الآداب لا يبدل بعضها ببعض، ولا يقوم اللفظ الواحد مقام اللفظ الآخر؛ فـ(المسيو) مثلاً يدل على أن المتكلم عليه رجل فرنسى، و(المستر) على أنه إنكليزى، و(السنيور) على أنه إيطالى، و(الهر) على أنه ألمانى، و(الضون) على أنه أسبانى. وفى كل ذلك من تسهيل معرفة قومية الرجل عند ذكر لقبه مالا تجده فى قولك: السيد فلان. إذ هذه الكلمة تدل على أن المدلول عليه هو من أبناء الناطقين بالضاد؛ بل يدل عند بعضهم على أنه من صلب النبى العربى. فأين هذا الحرف من الحروف التى سردنا لك منها أمثلة؟ إن السوريين يجورون على الأمم، ولا يجارون السلف فى أعمالهم منذ القدم

٢ — ألقاب رؤساء الممالك:

اتصل السلف مع تمادى الزمن بأقوام مختلفة وبدول شتى، وعرفوا ألقابهم مع ما فيها من الغرابة، ولم ينقلوها إلى معانيها فى العربية، بل حافظوا عليها أعظم المحافظة. ونحن ننقلها لك من كتاب الآثار الباقية لأبى الريحان، وهى هذه (عن النسخة المطبوعة فى أوربة):

أنواع الملوك	الألقاب الواقعة على أشخاص تلك الأنواع
١ ـ ملوك الفرس الساسانية	شاهنشاه وكسرى
٢ ـ « الروم	باسلى وهو قيصر
٣ ـ « الأسكندرية	بطلميوس
٤ ـ « اليمن	تبّع
٥ ـ « الترك الخزر والتغزغز	خاقان
٦ ـ « الترك الغُزّية	حنونه
٧ ـ « الصين	بغبور [أو فغفور]
٨ ـ « الهند	بلهرا
٩ ـ « قنّوج	رابى
١٠ ـ « الحبشة	النجاشى
١١ ـ « النوبة	كابيل

(١) الجلاء: ما يخاطب به الرجل من الأسماء والألقاب الحسنة فيعظم به

أنواع الملوك	الألقاب الواقعة على أشخاص تلك الأنواع
١٢ ـ ملوك جزائر البحر الشرق	مهراج
١٣ ـ « جبال طبرستان	إصفهبذ
١٤ ـ « دنباوند	مصمغان
١٥ ـ « غرجستان	شار
١٦ ـ « سرخس	زاذويه
١٧ ـ « نسا وابيورد	بهمنه
١٨ ـ « كش	نيدون
١٩ ـ « فرغانة	إخشيد
٢٠ ـ « أشروسنة	افشين
٢١ ـ « الشاش	تدن
٢٢ ـ « مرو	ماهويه
٢٣ ـ « نيسابور	كنفبار
٢٤ ـ « سمرقند	طرخون
٢٥ ـ « السرير	الحجاج
٢٦ ـ « دهستان	صول
٢٧ ـ « جرجان	أناهبذ
٢٨ ـ « الصقالبة	قبار
٢٩ ـ « السريانيين	نمرود
٣٠ ـ « القبط	فرعون
٣١ ـ « باميان	شير باميان
٣٢ ـ « مصر	العزيز
٣٣ ـ « كابل	كابل شاه
٣٤ ـ « الترمذ	ترمذ شاه
٣٥ ـ « خوارزم	خوارزم شاه
٣٦ ـ « شروان	شروان شاه
٣٧ ـ ملوك بخارا	بخار خداه
٣٨ ـ « كوزكانان	كوزكان خداه

وكل ما جاء هنا يتعلق بالشرق الأدنى أو الشرق الأوسط، ولم يتعرض المؤلف لألقاب أهل المغرب، مع أنها وردت في كتب التاريخ، لا سيما حين اتصل العرب بأهل الغرب في أيام الحروب الصليبية وبالتجارات والمراجعات التي جرت في عهد العباسيين والفاطميين والأندلسيين من ذلك:

٣ — البابا

٤ — الأنبراذور أو الأنبراطور أو الأنبرور

٥ — البطرك

جاء في مقدمة ابن خلدون[1] في آخر الفصل الثالث والثلاثين ما هذا نقله بحروفه:

واختص اسم البابا[2] ببطرك رومة لهذا العهد، ولا تسمى اليعاقبة بطركهم بهذا الإسم. وضبط هذه اللفظة بباءين موحدتين من أسفل والنطق بها مفخمة والثانية مشددة. ومن مذاهب البابا[3] عند الإفرنجة، أنه يحضهم على الانقياد لملك واحد، يرجعون إليه في اختلافهم واجتماعهم، تحرجاً من افتراق الكلمة، ويتحرى به العصبية التي لا فوقها منهم، لتكون يده عالية على جميعهم، ويسمونه الأنبرذور[4]، وحرفه الوسط بين الذال والظاء المعجمتين. ومباشره يضع التاج على رأسه للتبرك، فيسمى المتوّج، ولعله معنى لفظة الأنبرذور. وهذا ملخص ما أوردناه من شرح هذين الإسمين اللذين هما البابا (كذا) والكوهن »

ونحن نورد هنا أيضاً الحاشية التي جاءت على كلمة الأمبرذور. قال الناشر: « المشهور قديماً إمبراطور، بالطاء المهملة، والفرنسيس تقول: إمبرور ومعناها عندهم ملك الملوك » اهـ.

ولنا هنا عدة ملاحظات، منها: ١ — أن المؤلف كتب الباب ولم يكتب البابا. ولما لم يكن عنده يومئذ الباء المنقطة بثلاث، ضبطها بالكلام لا بالقلم.

٢ — إن صريح كلامه لتقييد الكلمة أنها بباء مفخمة والثانية مشددة ولم يذكر أنها تختم بباء وألف بل بباء مشددة،

(١) في ص ٢٣٤ من نسخة بيروت الأولى المطبوعة بالمطبعة الأدبية في بيروت سنة ١٨٧٩، ثم طبعت ثانية سنة ١٨٨٦ وثالثة بالشكل الكامل سنة ١٩٠٠، وهي النسخة التي صورت تصويراً شمسياً ثم طبعت على الحجر بعناية مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية الكبرى في مصر. ولم يشر إلى النسخة المنسوخة منه، بل زاد الطين بلة أن قال: « روجعت هذه الطبعة وقوبلت على عدة نسخ بمعرفة لجنة من العلماء ». ثم زاد هذه البلة بلة أخرى أن قال: « حقوق الطبع محفوظة ».

(٢) و (٣) يؤخذ من سياق الكلام بعد ذلك أن الكلمة هي باب، بباء منقطة بثلاث وبلا ألف في الآخر، والذي زادها هو الناشر الأول الذي طبع الكتاب في مصر أو غير مصر

(٤) في النسخة المطبوعة في باريس، وهي أضبط النسخ وأصحها وأوثقها أمانة: الأنبراظور » (في ١ : ٤٢٢)

فكان يجب أن تكتب هكذا (الپاپ) لا (البابا) ونحن نظن أن رسم الكلمة البابا من الناسخ لا من المؤلف بما أن نص المؤلف واضح هو بباء مفخمة مشددة . وأول من نقلها بهذه الصورة ابن رُسته ، وقد وضع كتابه في آخر المائة الثالثة للهجرة ، أي في نحو سنة ٩٠٨ للميلاد كما سترى

٣ — أما كتابة الانبرذور فتكاد تكون صحيحة ، لأنها في لغة اللاتين Imperator ، ومعناها : الآمر . وكان أصل وضعه لرئيس الجيش ، أي القائد العام له ، ثم في أيام كيكرون جعل لقباً للقائد الظافر ، ثم للقنصل وفي الآخر للملك الأكبر ؛ فانتقل بمدذلك إلى كل ملك كبير ؛ فهو كقولك ملك الملوك ، أو كشاهنشاهان عند الفرس . إذن ليس معناه المتوَّج ولا معناه ملك الملوك

٤ — إن كتابة الامبراطور بهذا الرسم كما يرسمه المعاصرون لا يوافق القواعد العربية ، لأنه لا يُرى في الكلم الضادية من عربية ومعربة ، فيها الميم ساكنة ، ويليها باء متحركة ، فإذا وقع مثل ذلك رُسمت الميم نوناً . ولهذا يجب أن تكتب (الانبراطور) بنون

٥ — جرى العرب على كتابة الكلمة (أنبرور) بهذا الرسم . عند اتصالهم بالألمان والفرنسيين في نحو أواخر المائة الثانية عشرة وأوائل المائة الثالثة عشرة من تاريخ الميلاد ، أو بعبارة أخرى في أواخر المائة السادسة وأوائل المائة السابعة للهجرة . فقد قال ابن خلكان في ترجمة أبي العباس أحمد عبد السيد الملقب صلاح الدين : « وعند وصول الأنبرور ، صاحب صقلية إلى ساحل الشام في سنة ٦٢٦ هـ [١٢٢٨ م] بعث الملك الكامل الصلاح إليه رسولاً » .

وقال في ترجمة أبي طاهر يحيى بن تميم : « ولما هلك غنيمة (بن زُجار . كذا . والصواب بن زُجار براء مهملة) . ملكت ابنتهُ ، وهي أم الأنبرور ملك ألمانيا في زماننا . ثم هلكت أم الأنبرور » ا هـ

وجاء في تقويم البلدان لأبي الفداء : « وسلطانها (سلطان ألمانية) هو المعروف بالأنبرطور ومعناه ملك الملوك والعامة تقول الأنبرُوز » ا هـ . وفي كتاب المبادئ في كتاب ألفُنْس بن سانشس إلى الخليفة المعتمد الإنبيطور

فهذه عشر لغات في تعريب كلمة واحدة ، أصلها اللاتيني Imperator ، فقيل فيها : إنبيطور ، إنبرذور ، إنبرظور ، إنبراطور ، إنبرادور ، إنبرطور ، إنبرور . وقال فيها بعض المعاصرين خطأ : إمبراطور ، إمبراطور ، إمبرور . ومن اللازم على المعاصرين أن يلاحظوا كيف أن الأقدمين باختلاف بلدانهم وعصورهم كتبوها بألف ونون ، وليس أبداً بألف وميم ، لأنهم عرب صميم والعرب لا تخالف قواعد سلفهم أبداً ، وذلك سليقةً لا تطبُّعاً !

(له صلة)

الأب أنستاس ماري الكرملي

من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية



صفحة من كتاب

من جوف الليـــل

للأســتاذ شكرى فيصل

— ١ —

أرقت فى هذه الساعة فما استطعت أن أنام . . . لقد حاولت أن أغمض عينىّ ، وأن أستسلم لهذه الرؤى البارعة ، وتلك الأحلام الرائعة ، وذاك الجمال الذى أهواه ، لعلى أنام على ذكراه وأغفى على هدهدته ، وأجد اللذة فى مداعبة خياله ، والأنس بحبنا له ، ولكنى لم أفد شيئاً من هذه المحاولة . إن النوم ليصعبنى كأن بينى وبينه عداء ؟ وما كنت لأعادى إنساناً أو أغضب رجلاً ، أو أسيء إلى مخلوق ، لأن قسوة الحياة علمتنى منذ كنت طفلاً منكمشاً فى زاوية المدرسة ، وحيداً فى أطراف الطريق ، معتزلاً فى ركن البيت ، ألا أقسو على أحد ، وأن أنشد الخير لهؤلاء الناس جميعاً ؟ فليس أحلى من الخير ، ولا أحسن منه استثارة للعاطفة ، وإرضاء للشعور الغاضب المضطرب

— ٢ —

لِمَ يجفونى النوم ؟ ولِمَ يباعد بينى وبين أحلامى الهائمة وقصورى الناعمة فى جنات الخيال ؟ ولِمَ يريدنى على أن أساهر النجم وأراقب الكواكب وأشهد صفحة السماء بعينىّ ، بينا تتطلع إلى السماء بألف عين فأخافها وأخشاها ، وأرتمد منها ، وأفر إلى أعماق السرير ، وأستر وجهى بهذا الغطاء الكثيف ؟ فلا أنجو من الرعب ولا أخلص من الارتعاد ، وتظل هـذه الأعين تطل على ، وتلحق بى ، وتنتشر فى ناظرى ، وترمقنى بشعاعاتها النافذات ؟!

أى شيء أصبت من إثم حتى يجردنى الله من لباس الليل ، فلا أرتع فيه ، ولا أغيب فى آفاقه السعيدة أنسى هموم اليوم ومتاعب النهار ، وأخبار السوء ؟ ولم تتوافد على الذكريات أليمة محزنة ، وتطوف فى خاطرى كئيبة سوداء ، وتنشر فى نفسى ليلاً آخر بكل سواده القاتم ، وجلاله القائم ، ونجومه المنطفئات ؟!

— ٣ —

لم تعد لى قوة أحتمل بها هذه الوحشة ... لقد كنت ألقى أهوال النهار فأفر منها إلى الليل ، ولكن الليل يطردنى عنه ، وينفينى منه ، ويريد أن يحول بينى وبينه . لقد وسع كل شيء : كل الخيرين والأبرار ، والآثمين والأشرار ، والناصبين والأخيار ؛ ولكنه ضاق عنى ، وقذف بى إلى مغارة هائلة لا أدرى أين أستقر فيها ...

رحمة بالضعفاء يا ليل ! إن الذين تزدريهم أعينك الليلة ، ويتجافى عنهم مداك الواسع ، وسلطانك الممتد ... ليس لهم ما يستريحون إليه إلا هذه الساعات يقتطعونها من عمر الزمن ، ويختلسونها من حياة الدهر ، ويسرقونها مسرقة الجائع المتهالك للكسرة الجافة واللقمة الشاردة لينعموا بها ساعة فى نوم عميق ينسون فيه أنفسهم ، وهـذه الآفاق التى تحيط بهم ، وتلك الذكريات التى تنتاشهم ، وحادثات الألم التى تصك مسامعهم فلا يملكون بعدها الحركة والشعور ، فهلا رفقت بهم أيها الليل ؛ هلا ضممتهم فى نسيمك الممتع ، ولففتهم بسكونك المتراخى ، وتركتهم إلى هـذا الهدوء الذى ينشدونه ، وهذا الصفاء الذى يرمقونه ، وتلك الفترات التى يتطلعون إليها ليجددوا بعد القوة على احتمال الأسى ، ولقاء الشرور

— ٤ —

إنى لأخشى هذا الفضاء الهائل الذى أجدنى فيه ، ليس من حولى شيء ، ولا إلى جانبي إنسان ، لقد ذعرت حقاً حين مددت يدى هنا وهنالك ، وأجلت بصرى أمام ووراء ، فلم ألق هذه الإنسانة البرة الحنون التى رعت طفولتى بشقائها ، وغذت يفاعتى بدموعها ، ونشأت صباى من دم قلبها ... لقد أدركت ... إنها بعيدة عنى ، وأن بينى وبينها آماداً ومسافات يرعاها الله ، ويكلؤها الرحمن ، فمن لى باليد التى تطوق عنقى ، من لى يفيض علىّ الجرأة ، ويبعث فى القوة ، ويطرد عنى خوف الليل ؟

إن فضاء كبيراً حولى ... وإن فضاء أكبر فى نفسى ... وليس فى وسعى أن أملأه بما أرى فى النهار ، وأسمع فى الطريق ، وأحس فى العمل ، لأنى لا أرى شيئاً ، ولا أسمع صوتاً ، ولا أحس حركة . لقد ابتلع الليل كل شيء ، فطواه فى ثناياه ، وضمه

إلى حشاه الواسع ... إلا أنا ... إلا أنا مهران لأنه يفيق عني ، فأظل مشرداً في كهوف مرعبة من الشكوك والأحزان : شأن هؤلاء المشردين في أطراف الأحياء ، وأرصفة الشوارع ، وحافات المقاهي في النهار ، ولكني أنا مشرد ليل ، وليس لهذا الليل ندى آوي إليه ، أو صديق أسلو معه ، أو شارع أجوس خلاله ... ليس فيه إلا الفراغ الرعب ، وهذه السهام المسددة التي تبعثها النجوم في نفسي

— ٥ —

أخذت أتقلب في أطراف السرير وألوذ بجوانبه ، ولكن الحركة لم تكن لتنجو بي من هذا الذي أشتي به ، وأطراف السرير وجوانبه قلقة حائرة . لقد نبا بي كل شيء : حتى هذا الغطاء الذي آلفه في الليل وفي طرق النهار ... إنه ليضطرب فوق جسمي كأنما أنا أرتعد ، وما أدري سر هذه الرعدات الخانقة وما أعرف متى أخلص منها ... إن القمر الدائر ليتراءى لي ، وإني لأحاول أن أفزع إليه ... ولكن المسكين لا يقوى على شيء . لقد أهزله الطواف حول الأرض مدى عشرين يوماً ونيفاً فلم يُبق منه إلا الجسم الناحل والعظم المقوس ، ولم يعد له ذلك البريق الذي كان يفيض منه ، ولا ذاك الألق الذي ينساب من أطرافه ، ولا تلك الأضواء التي كانت تغمر الأرض ، وتنير حواشي السماء ، وتطرد ظلمات النفوس . لقد أضحى كابي النظرات ، خامد الحسن ، متهافت القوى ، وأصبح جمرة هامدة بعد أن كان شعلة متقدة . إن طبقة من الرماد الأزرق تحاول أن تطغى عليه . لقد امتدت إليه فمهات فيه كما يعمل السل ؛ ونفذت في طرف منه فتقبلها بضحكته الكاملة وبسمته المستديرة وغمرها بألقه الحنون ، ولكنها كانت من طباع الناس : فيها لؤم وغدر ، وفيها إثم وشر فلم ترعه ، وإنما أخذت تنفث سمومها فيه . لقد بترت أوصاله ، وإنها لتسري الآن إلى أحشائه تلتهمها . لم يبق بينها وبين قلبه شيء . إنها لتكاد تلتهم هذا القلب الكبير الذي وسع الأرض وطاف حولها ، لا تكبر شيخوخته ، ولا تحترم مشيبه ولا تذكر إحسانه إليها ... هاهي الماكرة تسرق قلبه وتأتي عليه ... لقد أضحى القمر المسكين ذؤابة بيضاء منحنية لا تملك أن تتماسك ، ولا تستطيع أن تشتد ، وستلحق هذه الأنحناءة النادبة بالقلب الكبير : لتجدد معه في العالم الآخر عهود الصفاء والضياء والنور

— ٦ —

لقد نهضت أمشي ... ولكني لا أملك أين أضع قدمي مخافة أن أنزلق به ... إني لأحبو كالطفل ، أتلمس الطريق بكل أطرافي وحواسي . لقد عدت طفلاً لا يعرف كيف يسير ، فهو محتاج إلى من يمسك بيده ويأخذ بساعده ويمضي به ، فهلّا أخذت بساعدي — أيها الليل — ومضيت بي كما تمضي بكل هؤلاء الناس إلى أحبتهم يناشدونهم الوصل ، ويعتبون عليهم القطيعة ، ويلومون منهم هذا الإهمال ، وإلى أهلهم البعيدين منهم المتغربين عنهم : يبثونهم الحنين ، ويهدونهم التحيات ، ويطبعون على جبينهم قبلة الحب الذي يملأ كل جارحة ويطغى على كل شيء ، وإلى معاهد الصبا يطوّفون فيها ويسمون في جنباتها ويرددون في آفاقها نشيد المرح والسعادة ، وإلى أرض الوطن يسألونها ماذا حل بها وأي شيء أصابها ، وما ذا فيها من مكر الدهاة ومكاره الدنيا وعبث الزمان ؟ ؟ وهل من بلاء — لا كان — يلقاه أبناؤها الغر : الذين يحملون فوق كل ما يحمل أبناء العالم من واجبات المدرسة والبيت ، وحقوق المدن والريف ، وأهداف الوطن والمستقبل ، وغايات العرب والإسلام ؟ ؟

— ٧ —

لم يعد في وسعي شيء — أيها الليل — لقد سددت النافذة وأقفلت الباب ودفنت وجهي في الوسادة ، ودسست كل أطرافي في أعماق السرير كمن يتحصن ... ولكنك لم تشأ أن ترفق بي : إن الباب ليطرق طرقاً عنيفاً ، وإن النافذة لتهتز هزة شديدة ، وإن كل ما حولي ليتحرك ... ولكني سأجمع كل قوتي ، وستتركني أنت هنا في هذا الأمر الموحش ... غير أن النهار سيفيء وسيحسن إليّ مرة ، لأنه يعرف أنه أساء إلي مرات ، وسأنهض على قدميّ وأفتح ناظري وأرى النور ...

— ٨ —

إنّ غبش الفجر ليلمع في جبين الليل ، وإن همسات خافتة من أضوائه لتتراءى لي ... هذا السواد يهزل ويهزل ، إنه ليمضي في طرف الأفق مطرقاً مستحيياً ، ولكني سأغفر له هذه الإساءة لأني أحب هدوءه وأعشق صفاءه وأعيش في أحلامه ...

« القاهرة » شكري فيصل

المرحوم محمد مسعود بك

للأستاذ خليل مطران بك

مضوا تباعًا وهذا يوم مسعود ... هل في الكنانة قلبٌ غيرُ مكمود

نوابغٌ ملأوا بالفخر عصرَهمُ ... وجددوا المجد فيه كلَّ تجديد

عادت به لفحول الشعر دولتهم ... ودولةٌ للنحارير المجاويد

الكاتب الفذ قد ألقى يراعته ... بعد اصطحاب طويل العهد محمود

بحر من الأدب الزخار مصطفق ... بصدرِ أروعَ فيه حشمة الرُّود

تراه في وجهِ مستحيٍ وتخبُره ... فلست تخبُر غيرَ النبل والجود

تبدي ظواهره ما في سرائره ... وقد تشعُّ نفوسٌ في التجاليد

يحيا وَدودًا ومودودًا كأحسن ما ... يرجو وهل مِن وَدُودٍ غيرُ مودود

ولم يكن مع لين الطبع واهيَهُ ... ولم يكن بمداجٍ أو برِعديد

وربما صال ذودًا عن حقيقته ... فجال في الشوط جولاتِ الصناديد

جارى صحافةَ مصر منذ نشأتها ... وعيْنُها مرهقٌ في نضرة العود

بالعزم والحزم يستوفي مطالبها ... وهل بغيرهما إدراك منشود

حتى إذا آب من أقطاب نهضتها ... وسدَّد الرأيَ فيها كل تسديد

أجرى بما يخصب الألباب أنهرها ... كالنيل بالخصب يجري في الأخاديد

وعلم الطير في أفنان روضتها ... شتى الأفانين من شدوٍ وتغريد

إن الصحافة موسوعات معرفة ... يزود العقل منها خير تزويد

تزيد أخبارها بالناس خبرته ... حتى تقوِّمَ منه كل تأويد

مسعود مهَّدَ في مصر السبيلَ لها ... فحاز فضلين من سبق وتمهيد

ثم انتحى مرْصَدًا للعلم همته ... متابعًا كل مجهود بمجهود

يبني معارف ألوانًا ويخرجها ... لفظًا ومعنى بإتقان وتجويد

فمن تآليفَ لا تُحصَى فوائدها ... محدودة ومداها غير محدود

ومن رسائل في فن وفي لغة ... سيقت لإقرار رأى أو لتفنيد

ومن مباحث في التاريخ شائقة ... وفي البحار وفي الأمصار والبيد

وفي صفات بني الدنيا وما اصطلحوا ... عليه في عهدهم من غير معهود

وفي عوالم أفلاك تحيط بنا ... ما بين محتجب منها ومرصود

هديةٌ وهُدًى منه لأمته ... وموطنٍ بعد وجه الله معبود

مسعود يبكيك أبناء بررت بهم ... فنشئوا نشأة الغر الأماجيد

يبكيك قوم مشوا والحزن يشملهم ... في مشهد لك يوم البين مشهود

يبكيك إخوان صدق هاهنا احتشدوا ... ينوهون بفضل غير مجحود

يمضي الزمان وتبقى في ضمائرهم ... خليق ذكرى بتكريم وتخليد

خليل مطران

غريب

للأديب محمد قطب

غريب أنا في ذلك الكون كله ... على سعة في الكون توحي بإيناس

غريب بنفسي عن نفوس كثيرة ... غريب بفكري عن دُنى ذلك الناس

وأحسب أني تائه في غمارهم ... كما ضل ممض في غمار الدجى القاسي

وما نلتقي في خفقة أو وشيجة ... ولا فكرة عليا ولا طيف وسواس

وما بيننا من رابط غير أننا ... نجوب معًا دنيا من الحالك الكاسي

ترى أينا أصفى ضميرًا وعنصرًا ... ومن فيه صدق أو سلامة إحساس

لأحسب في دنياهمُ كل ضلة ... وأحسبها دنيا شرور وأرجاس

لقد كنت قبل اليوم هيمان في الذرا ... أحلق نشوانًا إلى كل مرتاد

يفيض بنفسي الفن بشرًا وغبطة ... ويهتف في أذنيَّ كالطائر الشادي

ويخلق في نفسي مُنًى عبقرية ... ويلهمني الإحساس كالكوكب الهادي

ويمنحني صفو الحياة وذخرها ... وأجمل ما يهفو له الناهل الصادي

فأشبع حسي الحياة نقية ... ويسمو إلى خلد السماء فؤادي



فقر الأنبياء

ليس الفقر عيباً ، وإنما السكوت عن مقاومة الفقر هو العيب ، فنحن جميعاً مسئولون عن محاربة ما يحيط بنا من متاعب معنوية وحسية ، ومن واجبنا جميعاً ان نطمع فى الانتفاع بما فى الوجود من ثمرات ، على شرط أن ننال ما ننال عن طريق الجهاد المحمود

وقد سأل الأديب « ح . ع . مطر » عن فقر الأنبياء وما يدل عليه من معان على فرض أن الفقر يدل على ضعف الأخلاق الاجتماعية والمعاشية

وأجيب بأن الأنبياء رحبوا بالفقر طائعين ، لتقل شواغلهم الدنيوية فيستطيعوا القيام بفروض الهداية والتهذيب ، وليكون فى انصرافهم عما فى الدنيا من منافع قطعٌ لألسنة من يروق لهم اتهام الأنبياء بحب المال ، وهو اتهام يزعزع ثقة الجماهير ويروضها على التمرد والعصيان

والمعروف أن الناس فى كل أرض يتزيدون على الزعماء والمصلحين ويجعلون طلب الدنيا من أكبر العيوب ، فليس غريباً أن ينسلخ الأنبياء من المنافع الدنيوية ليصدوا من يمارضون باسم الغيرة على الأخلاق ؛ كأن الأخلاق تكره أن يتزود المصلحون بثروة الرزق الحلال !

وفى طلب السلامة من أذى السفهاء قال الرسول : « نحن معاشر الأنبياء لانورث . ما تركناه صدقة » أو كما قال ، فلست أملك الرجوع فى هذه اللحظة إلى نص الحديث

والعدل يوجب أن يكون ما يترك الأنبياء ميراثاً حلالاً لأبنائهم ، ولكن الحرص على قطع ألسنة المتزيدين هو الذى أوجب أن يحرم الأنبياء أبناءهم من ذلك الميراث ، وذلك ظلم جميل

ومن نحن حتى نرحب بالفقر كما رحب به الأنبياء ؟

أولئك رجال يأخذون زادهم من الإيمان واليقين قبل أن يأخذوه من الطعام والشراب ، فمن أنس فى نفسه القدرة على الظمأ والجوع لينقطع إلى مجاهدة النفس ومجاهدة الآثام الاجتماعية فهو أقرب منا جميعاً إلى التخلق بأخلاق الأنبياء

العصاميون

وقال قائل : كيف تتهم الفقراء بضعف الأخلاق الاجتماعية والمعاشية ، ومن بين الفقراء نبغ العصاميون ؟ وأجيب بأن العصاميين هم حجتى على أن الفقر داء له دواء . فالرجل العصامى يقيم الدليل على أن القوة الخلقية قد تقتلع ما يعترض طريق الرزق والمجد من حواجز وأسداد . والتاريخ يشهد بأن أكثر العظماء كانوا فى البداية فقراء ، فما تفسير هذا الذى يشهد به التاريخ ؟

إنما كان ذلك لأن الفقير الموهوب تقوى عزيمته بفضل الاعتماد على الله وعلى النفس ، ومَثَله فى ذلك مَثَل من يعيش بلا عصبية تحميه ، فهو يستعدّ للمقاومة فى كل وقت ، ومن ذلك الاستعداد يفوز بمناعة جسمية وروحية تصد عنه عدوان المتدين

فالذين يمنّون الفقراء بأموال الأغنياء يقتلون بُذور العصامية من النفوس ، ويمدون الجيل المقبل لأمراض أخفها الاعتماد على الغير ، وهو بداية الخذلان

الإحسان إلى من يعجزون عن الارتزاق هو أوجب الواجبات ، وهو الشاهد على اتصافنا بالكرم والجود ، أما الإحسان إلى من يقدرون على الارتزاق فجريمة اجتماعية ، ولا يشجع على هذه الجريمة غير الكتّاب الذين يعيشون بفضل الرياء الاجتماعى

زكي مبارك

فأرقب هذا الناس فى دنيواته ! ... كما أرقب الأنعام تنساب فى الوادى
فيأخذنى رفق بهم فى ضلالهم ... يهيمون فى دنيا الظلام بلا حادى

ولكننى أقفرت يومًا من المنى ... وجئت إلى الظلماء غير مزود
فلفتنى الظلماء من كل جانب ... وبثت لىَ الأشواك فى كل مقصد
وما أرتوى من مورد ، أى مورد ... وما ألتقى إلا بدجوان أجرد
وطال هيامى فى الظلام بلا هدى ... فأجهدت من سير ممل مشرد
وأخلد قلبى للسكون وللكرى ... بليداً من الإحساس أى تبلد
فلما أفقت اليوم من ذلك الكرى ... تلمست حولى الكون علىّ أهتدى
فألفيتنى فيـه غريباً مشرداً ... أهوّم فى واد من التيه سرمد

محمد قطب

(معهد التربية)

وهو رياء له عواقب سود، فى الدنيا وفى الآخرة، والآخرة حق، ولو كره من يراءون الناس

الحب والبغض

أما الأديب الذى كتب من المنصورة خطاباً فى صفحات طوال عراض فمن حقه أن يبغضنى كيف شاء، فما أفكر فى الحب ولا فى البغض حين أحاور قرائى، وإنما أفكر فى الصدق، لأستطيع القول — ولو بينى وبين نفسى — بأنى لم أفكر أبداً فى مخادعة قومى، فالدنيا أصغر وأحقر من أن تروضنا بمغرياتها الأوائم على جلب منفعة وقتية ببغضها الصدق

وفى مجلة الرسالة كتّاب أعظم منى، فما الذى يمنع بعض الناس من غض النظر عما أكتب، وقد صح عند ذلك «البعض» أن مقالاتى فى الإصلاح الاجتماعى لم تصب هوىً من قلبه الرقيق ؟

أفلح الدكتور طه وأخفقت : أفلح لأنه دعا الحكومة إلى إنقاذ الفقراء، وأخفقت لأنى قلت باعتماد الفقراء على أنفسهم وعلى سواعدهم، فما تستطيع الحكومة أن تعين رجلاً لا يعين نفسه، ولا يستطيع المجتمع أن يحمى مخلوقاً يعجز عن حفظ مكانه بين طبقات المجتمع

أنا رجلٌ فقير يحارب الفقر فى كل وقت، وأنتظر من إخوانى الفقراء أن يعينونى على محاربة ذلك العدو البغيض، لأصبح ويصبحوا من المياسير بفضل الكسب الشريف

لا يهمنى أن يحبنى قرائى، فما يبكى على الحب غير النساء، وإنما يهمنى أن يكون ما أكتب صورة صادقة لما يعتلج فى صدرى من آراء وأهواء

الصدق هو الذى يرفع أدب اللغة العربية. وهو الذى يزيد فى ثقة الرجال بعضهم ببعض. أكرمنا الله جميعاً بنعمة الصدق وهدانا جميعاً إلى ما يحبه ويرضاه، فهو وحده الحبيب الذى تتشرف بحبه القلوب

زكى مبارك

الى الباحث الجليل (*)**

السلام عليكم :

وبعد فقد جاء فى بحثكم الممتع فى العدد ٤٠٤ من الرسالة للغراء ما يلى :

(فى درّة الغواص فى أوهام الخواص : ويقولون : بعثت إليه بغلام، وأرسلت إليه هدية، فيخطئون فيهما ؛ لأن العرب تقول فيما يتصرف بنفسه : بعثته وأرسلته، كما قال تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا » وتقول فيما يُحمل : بعثت به وأرسلت به، كما قال سبحانه إخباراً عن بلقيس : « وإنى مرسلة إليهم بهدية » فعقبتم على ذلك فى الحاشية بقولكم : (قلت : هل يرى الحريرىّ الريح والصيحة والحاصب مما يتصرف بنفسه ؟ ففى الكتاب : « إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً »، « إنا أرسلنا عليهم حاصباً »، « إنا أرسلنا عليهم صيحة » ...)

قلت : الإرسال فى هذه الآيات الكريمة بمعنى التسليط، لا بمعنى التوجيه ؛ فليس يقال فى مفعوله : (إنه مما يتصرف بنفسه، أولا يتصرف)، حتى يتفرغ عليه دخول الباء عليه أو عدم دخولها ؛ إذ يمتنع أن يقال : سلّط عليه بكذا

ومن أمثلة الإرسال بمعنى التسليط قول الأساس : أرسل كلبه وصقره على الصيد، أرسل الله عليهم العذاب

وإكمالاً للبحث نورد ما جاء فى (التاج) قال : (والإرسال التسليط، وبه فُسّر قوله تعالى : « إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزّا »، أى سُلّطوا عليهم وقيضوا لهم بكفرهم. والإرسال أيضاً التوجيه، وبه فسر إرسال الله عز وجل أنبياءه عليهم السلام)

هذا ما عنّ لى أعرضه على الأستاذ المحقق (ا. ع)

وفاة الأستاذ محمود مصطفى

استأثر الله فى الأسبوع الماضى بالأستاذ « محمود مصطفى » أستاذ الأدب العربى بكلية اللغة العربية ؛ وقد كان رحمه الله من أصحاب الملكات القوية فى الأدب واللغة. تخرج فى دار العلوم ثم اشتغل بالتعليم فى المدارس الأهلية والأميرية بقية شبابه الأول، ثم اختير لتدريس الأدب فى كلية اللغة فقسم حياته العاملة بين التعليم والتأليف حتى زود المكتبة العربية بطائفة من الكتب النافعة فى تاريخ الأدب والعروض. وقد قال الأديب البر محمد عبد المنعم خفاجى إن للفقيد سفرين جليلين فى الأدب المصرى منذ الفتح العربى إلى الآن يقعان فى ألف صفحة، وقد عكف فى آخر حياته على إعدادهما للطبع حتى انتهى منهما قبل وفاته بأسبوع. رحمه الله رحمة واسعة وعوض الأدب والعربية منه خير العوض.

تأبين المرحوم محمد مسعود بك

اجتمعت فى مسرح الحديقة فى مساء الأربعاء الماضى جمهرة من أعيان الفضل وأقطاب الأدب ورجال الصحافة للاحتفال بتأبين العالم البحاثة المرحوم « محمد مسعود بك » . فألقى كلمة الافتتاح معالى الأستاذ محمد على علوبة باشا ؛ ثم تتابع الخطباء والشعراء فجلوا مواهب الفقيد وآثاره فى الصحافة والعلم والخلق والأدب والوطنية والترجمة . وكان الشعراء على الأخص قد احتفلوا لما قالوا فجاءت قصائدهم من محكم الشعر وجيده . وقد نشرنا منها فى هذا العدد قصيدة الشاعر الكبير خليل مطران بك، وسنختار فى العدد المقبل فرائد من قصيدتى الأستاذين محمد مصطفى الماحى ومحمد الأسمر لأنهما نشرتا بالأهرام . وقد كانت الكلمة البليغة التى ألقاها الأستاذ يحيى مسعود نجل الفقيد شكراً جيلاً للمحتفلين وتحية برة لوالده . أجزل الله عزاءه وعزاء الوطن فى الراحل الكريم

حول بشر بن عوانة

كانت (المكشوف) قد ذكرت فى بعض أعدادها أن الأستاذ بطرس البستانى أول من نفى شخصية بشر بن عوانة فى الجزء الثانى من كتابه (أدباء العرب) فرأت (الرسالة) من واجبها أن تنبه إلى أنها أشارت إلى هذه الأسطورة فى يناير سنة ١٩٣٥ . ويظهر من العدد ٢٩٦ من المكشوف أنها نشرت هذا التنبيه ولاحظت عليه أن الجزء الثانى من (أدباء العرب) طبع للمرة الأولى فى شباط سنة ١٩٣٤ فيكون أسبق

نقول يظهر لأننا لم نطلع على العدد الذى نشرت به هذه الملاحظة لاضطراب البريد بين البلدين فى هذه الظروف . ولو كنا اطلعنا عليها لنشرناها فينتهى الأمر من جهة الزميلة ، ويبقى الرأى من جهتنا موقوفاً إلى أن نطلع على الطبعة الأولى من هذا الكتاب .

اكتشاف جديد لإطالة عمر الإنسان

جاء من هنتنجتون فى ولاية فرجينيا الجنوبية أن الأستاذ ماليسوف أستاذ علم الكيمياء الحيوية فى معهد الفنون والصناعات فى بروكلين أعلن فى اجتماع عقد فى هنتنجتون أن الإنسان يستطيع أن يعيش ١٨٥ سنة بفضل المادة الجديدة المسماة « صوديوم ثيوسيانات » وقد اكتشف تأثيرها بعد تجارب عديدة

وكان مما قاله أيضاً أنهم استطاعوا فى التجارب التى أجروها فى الأرانب أن يبطلوا فيها أعراض كبر السن . ثم قال إن مادة الكولسترول اللزجة التى تشبه الشمع ترسب كمية منها فى الأوردة والشرايين ، وأن ثمة علاقة بين العمر وهذه الراسبة ، وأن هذه المادة الكيميائية الجديدة (الصوديوم ثيوسيانيت) توزع الكولسترول من غير أن تحدث ضرراً فى الجسم .

حول وأد البنات عند العرب فى الجاهلية

لجأ الأستاذ الصعيدى ـ وهو من علماء الأزهر الشريف ـ إلى المغالطة والتقول علىّ بما لم أقله ، بعد أن سُدّت أمامه السبل فى تأييد ما يذهب إليه . فقد انقسم رده الأخير إلى نقطتين تمثل كلتاهما أقصى ما يمكن أن تصل إليه الجرأة فى طمس الحقائق :

١ — يقول فى النقطة الأولى : « وقد رأى الأستاذ على عبد الواحد وافى أن حمل قوله تعالى « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون » ، على معنى أنهم يجعلون لآلهتهم ما يشتهون لا يستقيم مع الآيات الأخرى كما ذكرت (أى كما ذكر الأستاذ الصعيدى) ، لأنها صريحة فى أنهم كانوا يجعلون ذلك لأنفسهم لا لآلهتهم »[1]

وأنا لم أر مطلقاً هذا الرأى ، بل رأيت — عكسه تماماً — كما صرحت بذلك فى كلمتى الأخيرة إذ قلت ما نصه : « على أن ما ذكرناه فى المقال السابق بصدد الذكور (أى نسبتهم لآلهتهم) تحتمله آية النحل ، وخاصة لأن الضمير فى الآية التى قبلها يرجع إلى الشركاء : « ويجعلون لما لا يعلمون (أى لآلهتهم التى لا علم لها لأنها جماد ... ا . هـ البيضاوى) نصيباً مما رزقناهم ، تالله لتسألن عما كنتم تفترون ، ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون » فرجع الضمير فى « لهم » إلى الشركاء المذكورين فى الآية السابقة ليس محتملاً فحسب ، بل أرجح كثيراً فى نظرى من رجعه إلى المشركين ، لأن موضوع الحديث هو تقسيمهم المخلوقات بين الله

(١) عدد ٤٠٨ ص ٦٠١ العمود الثانى

وشركائهم لا بين الله وأنفسهم . ويزداد هذا المعنى تأييداً إذا ربطت هذه الآيات بآيات الأنعام : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، فقالوا : هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ... وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ... » ويزداد هذا المعنى تأييداً كذلك إذا لاحظنا أنهم ما كانوا ينسبون خلق شيء لأنفسهم ، بل كان ذلك يتردد بين الله وآلهتهم »[١]

٢ — وذكر في النقطة الثانية ما نصه : « وكذلك رأى الأستاذ على عبد الواحد وافى أن النصوص القرآنية صريحة فى أن العرب كانوا يجعلون الملائكة بنات الله ، فلم يسعه إلا أن يعترف بهذا »[٢] ؛ ويقصد بذلك — كما يفهم من سياق كلامه — أننى كنت أنكر هذه الحقيقة ، حتى كتب ما كتب ، فلم يسعنى حيال قوة حجته إلا أن أعدل عن إنكارها وأعترف بها

مع أننى لم أنكر مطلقاً هذه الحقيقة ، بل اتخذت منها دليلاً على صحة ما ذهبت إليه ، كما صرحت بذلك فى أول كلمة لى فى هذا الموضوع ؛ إذ قلت ما نصه : « ولم يقف أمر اعتقادهم عند حدود العالم الطبيعى : عالم النبات والحيوان والإنسان ، بل جاوزه إلى عالم السماء ؛ فكانوا ينسبون لله تعالى من هذا العالم كل ما يعتقدون أنه من نوع الإناث . ومن أجل ذلك نسبوا إليه الملائكة لاعتقادهم أنهم من هذا النوع »[٣]

ثم أوردت الآيات التى تؤيد هذا ومنها قوله تعالى : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ... » . « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى » . « أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً ... » . « أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ، ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله ... »[٤]

وأسأل الله أن يوفقنا إلى تحرى الصدق فى القول ويهيء لنا من أمرنا رشداً

على عبد الواحد وافى

(١) عدد ٤٠٦ ص ٥٤٠ العمود الثانى

(٢) عدد ٤٠٨ ص ٦٠١ العمود الثانى

(٣) العدد الممتاز ص ٢٦٦ العمود الثانى

(٤) العدد الممتاز ص ٢٦٧

فى اللغة

من حق الأستاذ الكبير (ا . ع) علىّ ، وقد سلفت عندى يده ، وطوق رقبتى ثناؤه ، أن أشكره على حسن ظنه وجميل رأيه فى قصيدتى التى نشرتها بالرسالة وجعلتها ذكرى لمولد النبى عليه السلام .

ولقد تقبلت نقده المؤدب المهذب بقبول حسن ، فقد والله لمحت من خلال سطوره أدب الناقد ، ورقة الأديب ، وتواضع العالم

وأنا مع الأستاذ الكبير أن كلمة « سمحاء » التى استعملتها فى قصيدتى النبوية لم ترد فى كتاب من اللغة مما بين أيدينا . ويظهر أنها دلفت إلينا فيما دلف من ألفاظ أخر . ومن الغريب أنها دائرة على شباة أقلام كثير من كتابنا المعتد بهم ؛ ولقد وجدت المرحوم « قاسم أمين » يستعملها أكثر من مرة فى كتابه تحرير المرأة [راجع الطبعة الثانية من الكتاب ص ١٢٨ ، ١٦٢] .

على أن نفراً من محققى كتابنا الأعلام فطن إلى خطئها ، واستعمل فى مكانها كلمة (السمح والسمحة) للمذكر والمؤنث ، وفقاً لما جاء فى اللغة . وفى الحديث الشريف (بعثت بالحنيفية السمحة) .

وللأستاذ الجليل أحمد حسن الزيات فضل إشاعة هذا الاستعمال الصحيح ؛ ولا زلت أذكر له مقاله البليغ (أمة التوحيد تتحد) فى العدد ٣٨٤ من الرسالة ، ويشير فيه إلى الديمقراطية (السمحة) وكيف كان فى مكنة العرب والمسلمين أن يعيشوا فى حماها بوجه من الوجوه .

أما قول الأستاذ الفاضل إن الفعل (نفياً) يتعدى بالباء أو بنفسه كما صنع أبو تمام . ولا يتعدى باللام كما جاء فى قصيدة « ميلاد نبى » فهو قول نقبله على العين والرأس ، ولكنى أضيف إليه أن تعدية هذا الفعل باللام ليست خطأ ، فحروف الجر ينوب بعضها عن بعض . وقد عدى القرآن الكريم الفعل (يخيَّل) بإلى فى قوله تعالى : (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) . ولكنه يَرِدُ كثيراً فى الشعر العربى معدًّى باللام كما لا يخفى على علم الأستاذ الكبير .

محمد عبد الغنى حسن



مجالس الغورى

للأستاذ محمد لطفى جمعة

نشرت لجنة التأليف والترجمة والنشر منذ شهر للأستاذ النابغة الدكتور عبد الوهاب عزام كتاباً جميلاً يمثل فترة من تاريخ مصر فى آخر القرن التاسع الهجرى ، وطرفاً من القرن العاشر

وقد شاء أدبه وفنه ووفاؤه وثقافته أن يجعل من علاقته بقبة الغورى أثراً أدبياً ، لأنه رئيس جمعية الأخوة الإسلامية التى تعقد اجتماعها فى القبة مرة فى كل أسبوع ؛ فبحث ونقب فى مكاتب مصر والآستانة حتى اهتدى إلى ثلاثة آثار نفيسة للغورى : أولها ترجمة تركية للشاهنامة التى نشرها الدكتور منذ بضع سنين ؛ وثانيها هذا الكتاب للمجالس ؛ والثالث فى المجالس أيضاً ، ولكنه أصغر حجماً وأضيق نطاقاً ، وفيه تكرار لبعض المجالس الواردة فى الكتاب الكبير . ويحسن بى قبل أن أتكلم عن الكتاب أن أشكر الدكتور العالم الذى أثبت بنشر هذين الكتابين أن كانت لبعض سلاطين مصر ندوة أدبية هى أشبه الأشياء بمجمع العلوم والآداب يضبط فيها الوقت بالدرجات ويحضرها لفيف من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء وتدور فيها الأحاديث حول المسائل العقلية والفقهية والتاريخية ، ولا تخلو من سمر رقيق وفكاهة ودعابة . وكان السلطان نفسه رأس الاجتماع ويتلقى الأسئلة ويجيب على بعضها عند ما يثبت عجز الحاضرين

وهذه الصورة الجميلة لسلطان صالح كريم شجاع من أجمل صور التاريخ وتجمل لآثار الغورى التى نشهدها ونراها أثراً حياً فى النفوس . كان الملك من رجال قايتباى ، ولم يكن ينظر إلى السلطنة ؛ ولكن تقواه وعلمه وإخلاصه أوصلته إليها فقابل ذلك بالشكر لله والإحسان إلى الفقراء . وكان زمنه زمناً رخواً فهناك قصة عن هجوم بعض السفن الحربية على شواطئ مصر وانصرافها بقراءة الفاتحة . وهناك صورة أخرى لأخلاق البدو والحضر فى الحجاز ومؤامرة بعض أمراء مكة مع هولاكو على جيوش الظاهر بيبرس وعمله ، وتدبير مكيدة لقتل أمير المحمل المصرى . فدلت على أن تلك البلاد المقدسة ما زالت على وتيرة واحدة إلى أن أنقذها الله بالعهد السعودى

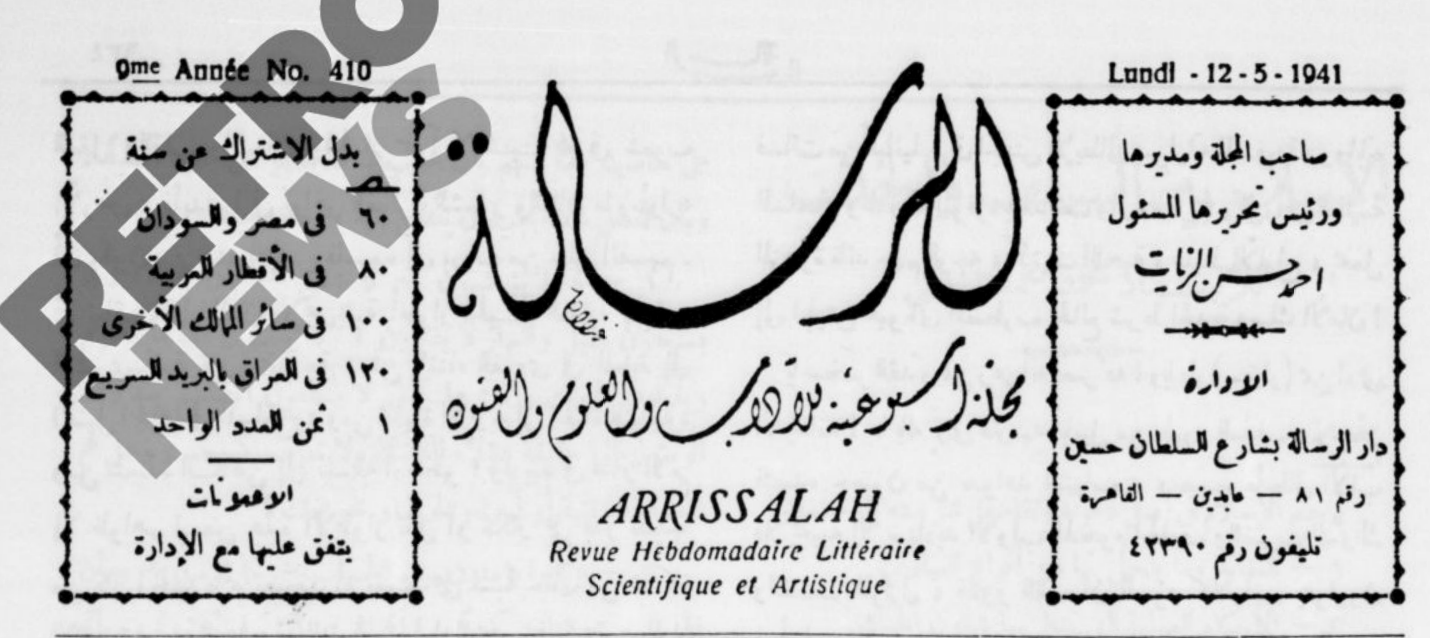
وكان السلطان إذا فقد ولده بالوفاة أو صديقاً عالماً أو وزيراً حكيماً كف عن الجلوس فى ندوته يومين أو ثلاثة ، وكان يجلس للناس ويسمع شكواهم ، ويوزع الصدقات عليهم بيده ، ويجد فى ذلك لذة عظمى ؛ وكان ينظم الشعر العربى والتركى ويضع الألغاز بهما ، ويداعب جلساءه بمعضلات الفقه . ولم يكن مقصراً فى الحرب فقد بنى قلاعاً فى جدة وفى ينبع ؛ ومن أسماء سلطان الحرمين ما يدل على أن كل حكومة شرقية طمعت فى أن يكون لها سلطة فى الحجاز

وقد اهتدى الدكتور الأستاذ عبد الوهاب عزام إلى نسخ مخطوطة فقارنها وصححها وطبعها ولقى فى ذلك مشقة يستحق عليها كل إعجاب وثناء . ومن محاسنه أنه أبقى الأسلوب على حالته ليدل على حقيقة ما كان يكتب . وللسلطان الغورى هنة واحدة وهو أن كرمه أفقره فاحتاج إلى أخذ ضرائب فادحة من الشعب ؛ ومن بين الذى وقع عليهم هذا الحيف سيدة مغنية معاصرة فرض عليها خمسة آلاف دينار فباعت حليها أو ما زعمت أنه كل ما تملك وحملت إليه ألف دينار وشفاعة القاضى فقبلها السلطان وأعفاها . وإذن كان فى القرن التاسع الهجرى فى القاهرة قيان يغتنين من الغناء ويدخرن المال الكثير ولا يدفعن عنه زكاة حتى يأتى السلطان وينتزعه انتزاعاً . فما أشبه اليوم بالبارحة فيما عدا اغتصاب مال القيان . وأشكر اللجنة التى أعانت على نشر الكتاب والدكتور عزام على عمله الجليل

محمد لطفى جمعة

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)





العـــدد ٤١٠ « القاهرة فى يوم الإثنين ١٥ ربيع الآخِر سنة ١٣٦٠ — الموافق ١٢ مايو سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــرس

ما خلفته أثينا وروما

أهل رومةَ الأولون قومٌ بناهم الله بِنْـية وثيقة ، فنشأوا عظامَ التجاليد أشداء العضل أقوياء العصب ، يمطون البهيمية من نفوسهم ، أكثر مما يمطون الإنسانية من قلوبهم . ووثاقة البنية وسورة الهوى تحركان فى المرء شهوة الغلب وحب الأثْرة ؛ فبنى الرومان على الناس بحدة القلب وبأس الحديد ، فلكوا أمم البحر المتوسط ملك الرقيق ، واستماتوا على تدبير هذا الملك العظيم بالسيف واللسان والقانون ، فتهيأت لهم بذلك مَلَكَة أصيلة فى الحرب والخطابة والتشريع ، وحرمتهم جِبلّتهم فنون النفس الرفيعة فكانوا فى الأدب والفلسفة والفن عَيلةً على الإغريق . فلما أذنَ الله لدولتهم أن تدول سلّط عليهم الترف والفسوق فتدفقوا فى اللهو و(الأُرجى) حتى ترهل من لحومهم ما اكتنز ، وهش من عظامهم ما صلب ، وانسرق من قوامهم ما اشتد ، وذهب بذهاب سلطانهم ما شرعوا من قوانين وسنوا من نظم وألقوا من خطب ؛ وأصبحوا لا يد تطول ، ولا لسان يقول ، ولا فكرة تجول ؛ ثم بادوا ولم يتركوا لأخلافهم على تعاقب القرون إلا ما يُعقبه السلطان الزائل من الغرور والتبجح والفيْش ، وإلا ما يورثه اللهو الباطل من الغناء والموسيقى والرقص

وأهل أثينا الأقدمون قوم صاغهم الله صيغة حسنة ، فكانوا مثلاً للكمال الممكن فى الإنسان الأعلى . سمت فيهم ملكات

العقل والقلب واللسان والجسم سمواً لا شبيه له فى شعوب الأرض ، فأبدعوا فى نواحى الفكر والشعور والبيان ما ربأوا به أن يكون من صنع الإنس فنسبوه إلى أرباب من خلق أنفسهم . ثم تعاقبت على المدن الإغريقية أطوار الحياة العقلية للجنس البشرى تامة غير مُخدَّجة : فن الغناء الفردى فى المعابد إلى التمثيل الجماعى فى المسارح ، ومن الحياة الأبوية إلى الحياة النيابية ، ومن شعبذة الكاهن إلى فلسفة أرسطو ؛ ولم يبد فى سائر الأمم إلا ظواهر لبعض هذه الأطوار تقل أو تكثر على قدر نصيبها من كمال الخَلق ، ثم تضعف أو تقوى على نسبة حظها من محاكاة الإغريق . فكأنما هذه البقعة وأهلها لِما جمعوا من شتيت المزايا صورة مصغرة لأمم العالم ، ونسخة مختصرة لتاريخ الإنسان

فلما أصابهم داء الأمم فنى مُلكهم فى ملكوت الرومان ، ولكنهم انبثوا فى عقول الناس وحضارات الأمم وثقافات الشعوب ، فكراً لا يأفن ، وفناً لا يبلى ، وأدباً لا يقدُم ، وفلسفة لا تبطل ، ونظاماً لا يفسد ، وعلماً لا يذهب ؛ فكان الفكر اليونانى أساساً قائماً لكل حضارة ، ولقاحاً مثمراً لكل ثقافة

ذلك أثره فى الناس عن طريق الاقتباس ؛ أما أثره فى أعقاب بركليس والإسكندر فمن طريق الوراثة المتحدرة فى الدماء حاملة مجد السلطان والغَلَب ، وعظمة الفكر والروح ، وعزة الملك والقيادة ، ومزية الإبداع والخَلق ، وفضيلة الجمال والحق ، وسمو الإيمان والعقيدة ؛ فكان يونان اليوم كيونان الأمس مثلاً مضروباً فى شهامة النفس وشجاعة القلب وحمية الأنف وصدق الوطنية والضرب فى الأرض من أفق إلى أفق

أولئك أعقاب رومة يتمثلون فى الطاغية (موسو) ؛ وهؤلاء أخلاف أثينا يتمثلون فى الرئيس ماتكساس . هناك الرأس الخواء ، والقلب الهواء ، والصلف البغيض ، والغرور المريض ، واللسان الطائش . وهنا العمل الصامت ، والقول الثابت ، والدماء التى تفور بمزايا الجنس ، والقلوب التى تنبض بحب الوطن . ويشاء الله عزت حكمته أن يخرج العبرة للناس فى هذه الكوارث المؤتسة من تراث وتراث وجيل وجيل ، فسلط نُعَرةَ نيرون على أنف الدتشى فوقف على ماسورة مدفع ضخم ، ثم رفع أنفه إلى السماء ، وبسط يده فى الفضاء ، وأرسل أمره الأرعن إلى عديده وحديده أن يخترقا حدود اليونان وهم فى إغفاءة الفجر ينعمون تحت الكلل بأواخر الأحلام السعيدة .

فسالت من ألبانيا فِرق الجيش الإيطالى بسياراته المصفحة ، ودباباته المسلحة ، وطائراته الموقرة بالقذائف والرصاص ؛ وعلى رأس الطليعة المزهوة قائد جهم الوجه ، كثيف اللحية ، غليظ الألواح ، يحمل إلى الجيش اليونانى المضطرب الهالع شرط الهدنة وصك الأمان !

يا سخَر القدَر ممن زعم أنه يصرّفه ! ويا عار (سيزار) ممن ادعى أنه يخافه ! ما باله يرى فترميه أبابيل من طيور العذاب ، ويهجم فتصده حصون من سواعد الشباب ، ويصيح بأبطال الألب فلا يجيبه إلا صناديد الأولمب بالهجوم الجارف والضرب الدرّاك والقصف الزلزل ، فذوو القمصان السود كالأرانب يتوارون فى أخاديد الأرض ، ويلوذون بجلاميد الصخر ؛ فإذا أعجلهم الفزع عن التماس النجاة ألقوا السلاح صاغرين واستأسروا !

حينئذ تصبب الزعيم الشحيم عرقاً لا ندرى أمن الكلال هو أم من الخجل ، فأقسم ليحشدن الامبراطورية كلها أمام الجيش اليونانى الصغير الفقير الذى يقاتل الطائرات بالحجارة ، وينازل الدبابات بالسلاح الأبيض ، ويزوده بالميرة والذخيرة النساء والشيوخ والأيفاع فى شعاف الجبال وبطون الأودية ، فكانت أفواج الجيش تذوب أمامه ذوبان الشمع ، وأمواج الحديد تتكسر دونه تكسر الهشيم ، والأكياس الحازمون من قواد الفاشية وجنودها يتقهقرون حتى ارتدوا عن اليونان ، وكادوا يجلون عن ألبانيا ، لولا أن استغاث الدتشى بالفوهرر ، فكانت الفاجعة التى لا ينصُل عارها من تاريخ الألمان أبد الدهر !

* * *

أرأيت ؟! هذه هى الفئة القليلة التى يصبح فى دمائها وأعصابها تاريخ أثينا بأسره . وتاريخ أثينا ليس كتاريخ روما مسارحَ دارسة لصراع الثيران ، وآثاراً عافية من مناورات الفرسان ، وأسفاراً ميتة من شرائع جوستنيان ؛ وإنما هو ومضات الضمير التى لا تخبو ، وآيات العقل التى لا تموت

وتلك هى الفئة الكثيرة التى تنتفخ بالهواء كالفقاقيع ، وتعيش بغير مثل كالجراد ، وتحارب بغير إيمان كالمرتزقة . فلذلك تراهم يستأثرون بجانب الهزيمة فى هذه الحرب ، ويؤثرون وسائل الحقارة فى هذه الجريمة . وإذا كان فى انتصار اليونان وانكسار الطليان عبرة ، فهى للعرب الذين يتميزون على الإغريق بوراثة القرآن الخالد الذى لا يتبدل ، واكتساب الإيمان الصادق الذى لا يحول !

احمد حسن الزيات

الاسلام بين السلف والخلف

للأستاذ محمد محمد المدنى

مقدمة

يرجع الإسلام فى أصل دعوته وتفاصيل شريعته إلى قسمين:

١ — العقائد وما يلحق بها من أنواع العبادات

٢ — الأحكام العملية التى ينظم بها شئون الحياة

وللعلماء فى بحث هذين القسمين طريقتان:

١ — طريقة السلف من العلماء الأولين الذين تلقوا دعوة الإسلام من معينها الصافى، لم تشبها الشوائب، ولم تتحكم فيها الأهواء ولا المذاهب، ولم تفرقها الفرق ولا الطوائف

٢ — طريقة المتأخرين الذين خلفوا من بعدهم بعد أن دخل فى الإسلام ما ليس منه، وطغت على عقول المسلمين فلسفات أجنبية، وأفكار طارئة لا عهد لهم بها من قبل

ونريد أن ننظر فى هاتين الطريقتين، لنعرف: أيهما هى الطريقة القويمة التى يصلح بها شأن المسلمين فى حاضرهم

(١) طريقة السلف

تمتاز هذه الطريقة بالبساطة المطلقة فى العقائد وما يتصل بها، فهى لا تعرف التعقيد، ولا تتكلف التأويل، ولا تنزل على أساليب الفلسفة الملتوية ولا المنطق المركب، ولا تتصيد الأخبار والروايات لتضخيم العقائد أو تركيب العبادات

إيمان بالله لا يعدله إيمان، مصدره الاقتناع النفسى، والاطمئنان القلبى الناشئان من النظر فى ملكوت السموات والأرض، والتأمل فى بدائع هذا الكون وإدراك أسراره، والإذعان لقدرة خالقه

وإيمان برسوله الذى أيده بوحيه، وأنزل عليه كتابه يتلى عليهم بكرة وعشيا، ويهديهم للتى هى أقوم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور

ورضا فيما وراء ذلك بما يخبرهم به الله أو الصادق الأمين عن عالم الغيب، لا يكلفون أنفسهم بحثه أو التعمق فيه، أو الوقوف على تفاصيله علماً منهم بأن الغيب لله لا يظاهر على غيبه أحداً، وبأن للعقل حداً يجب أن ينتهى إليه، ويقف عنده

١ — كانوا يؤمنون — كما نؤمن — بأن لله ملائكة يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون: ولكنهم لا يكلفون أنفسهم بعد ذلك الوصول إلى حقيقة هؤلاء الملائكة ولا تعرف كنههم، وهل هم أجسام نورانية أو أرواح علوية أو نحو ذلك؟

٢ — وكانوا يؤمنون بيوم الحساب — كما نؤمن — وبأن الله سيخرج للناس كتباً فيها أعمالهم، يلقونها منشورة، وبأنه سيضع الموازين القسط ليوم القيامة، فلا تظلم نفس شيئاً، ولكنهم لم يكونوا يكلفون أنفسهم ما وراء ذلك من معرفة هذا الكتاب، ولا أين تكون ساحة هذا الحساب، ولا حقيقة هذه الموازين، وكيف تقام، وهل لها كفتان ولسان، أو هى على شكل ميزان القبان، وهل هى من حديد أو نحاس، وهل تجسد الأعمال ثم توزن بها، أو تكتب فى صحف ثم توضع فى كفتيها

٣ — وكانوا يؤمنون — كما نؤمن — باللوح المحفوظ، ولكنهم لا يكلفون أنفسهم أن يثيروا نقاشاً أو جدالاً حول هذا اللوح: ليعلموا أنه فوق السموات السبع أو تحتهن، أو أن مساحته كذا وكذا، أو أن قلمه كيت وكيت!

٤ — وكانوا يؤمنون — كما نؤمن — بأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، لكنهم لا يتطلعون إلى معرفة كنه هذه الحياة، ولا نوع هذا الرزق

٥ — وكانوا يؤمنون بأن الرحمن على العرش استوى: «وأينما تولوا فثم وجه الله» و «يد الله فوق أيديهم» و «ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم»؛ ولكنهم لا يشغلون أنفسهم بالبحث فى الاستواء وكيف كان، ولا بالسؤال عن اليد أو الوجه أو تأويل معناهما، ولا يتطلعون إلى معرفة حقيقة هذه المصاحبة وعلى أى حال تكون

سئل مالك — رضى الله عنه — عن معنى الاستواء المذكور فى القرآن، فغضب وقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة!

وسئل على — رضى الله عنه — : كيف يحاسب الناس يوم القيامة ؟ وهل يكون ذلك دفعة واحدة ؟ فأجاب : يحاسبون كما يرزقون !

وكان عمر — رضى الله عنه — يضرب أمثال هؤلاء بالدرة ويسفههم ويتعقبهم ، وقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوم فسمعهم يخوضون فى القدر ، فغضب حتى احمرت وجنتاه وقال : أفبهذا أمرتم ؟ إنما هلك من كان قبلكم بكثرة السؤال !

هذه طريقة السلف الصالح فى الإيمان بالله وما أخبر به من الغيب : لم يكونوا يكلفون أنفسهم شيئاً من التفاصيل التى لم يذكرها الله فى كتابه ، ولم ترد عن الصادق الأمين من طريق يعول عليه فى إثبات العقائد ، لأن العقائد إيمان ويقين لا يغنى فيهما الظن : إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً !

وقد أدركوا بعالم من العقول الصافية أن قياس الغائب على الشاهد لا يستقيم ، وأن الله كلفهم بالإيمان بالغيب كما يريده غيباً يحتفظ به لنفسه ولا يطلع عليه أحداً من خلقه « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » « وما كان الله ليطلعكم على الغيب »

وعلموا أن الاشتغال بما لم يأذن به الله من هذه التفاصيل هجوم على الغيب ، وتعقيد للعقيدة ، وتشتيت لأفكار المسلمين ، وصرف لهم عما يجب من العمل بمقتضى إيمانهم إلى أنواع من الجدل ، ليس فيها فائدة فى العقيدة ولا فى العمل !

وقد كان لهم فى العبادات شأن كهذا الشأن : يعبدون الله كما يريد الله ، لا ينظمون ذلك على ما يشاءون ، ولا يبتدعون فيه أو يحدثون علماً بأن العبادة ، أنواعها ورسومها وهيئاتها ، شأن يرجع فيه إلى المعبود ويؤخذ فيه بما ارتضاه لنفسه ، وإذا كان الملوك والحكام لا يستحبون لأنفسهم ، ولا يرضون من رعاياهم أن يخرجوا على تقاليدهم أو يبدلوا فيها ، بل يوجبون فى تشريفاتهم أوضاعاً خاصة ، وملابس خاصة ، وأوقاتاً خاصة ، فهل يجوز للناس أن يبتدعوا أو يخترعوا فى عباداتهم مالم يأذن به مالك الملوك ؟

لهذا كله سلم الدين فى عهد الأولين من الابتداع والتفرق بالأهواء . ولم يدخل على العقائد والعبادات ما دخل من بعد ، ولم يكثر الزيغ والإلحاد ، ولم تتحير العقول ، ولم يتقاذف الناس فى الدين والعقيدة تهم الكفر والزندقة والفسوق تجرى على ألسنتهم بغير حساب !

***

أما سنة الأولين فى النظر إلى المعاملات وأحكام الحياة ، واستنباط ذلك من شريعتهم : فقد فهموا أن هذه الشريعة إنما وضعت لإسعاد العباد وتحقيق مصالح الناس ، وأنها تقوم على أساس العدل والرحمة ، وأن السياسة الصالحة جزء من أجزائها وفرع من فروعها

فهموا ذلك ، فلم يتعنتوا ، ولم يتزمتوا ، ولم يضيقوا واسعاً ، ولم يحجروا على العقول والأفكار ، ولم يصادموا حرية الرأى ، ولم يفرضوا على الناس مذهباً بعينه ، ولم يقفوا أمام أحداث الزمن جامدين ، بل وضعوا لكل مشكلة حلها ، ولكل قضية قضاءها ، وفتحوا باب الاجتهاد والرأى والنظر ليجاروا سنة الله فى الحياة التى لا تعرف الركود ولا الجمود ، والتى لا تنتظر المتخلفين والمترددين ، ورسموا لذلك حدوداً لا يقصد بها تقييد العقول ولا التضييق على الأفكار ؛ ولكن يقصد بها تنظيم الفكر ، وتقويم الرأى ، وتجنب الزلل ، وضمان الصواب !

استمدوا كل ذلك من كتاب الله وسنة رسوله ، ومن مقاصد الشريعة الكبرى التى هى رعاية المصلحة ، وتحقيق معنى العدل والرحمة ، وتطبيق ما تقضى به السياسة الرشيدة والقياس الصحيح !

وقد أوسعوا بذلك دائرة الشريعة علماً وعملاً ، ولبوا بها مطالب عصورهم ونهضوا بحاجات قومهم وأوطانهم ، واشتركوا مع رجال الحكم والرأى فى تدبير شئون الأمة ، والحفاظ عليها ، وحياطة دينها وشريعتها ؛ وكان لهم فى ذلك مفاخر ترفع الرءوس وتكرم شأن العقول ، وتحدث عنهم بأنهم عرفوا لأنفسهم حقها ومتعوا عقولهم بلذات النظر والفكر !

أخصبت فى ظل هذه الحرية الفكرية عقول المسلمين ، واتسع نطاق الرأى والنظر فى جميع علوم الإسلام ، وكثر المجتهدون والمستنبطون لأحكام الشريعة ، وانبثوا فى كل قطر من أقطار المسلمين ، وصاروا يعدون بالمئات لا بالآحاد ولا بالعشرات ؛ ووجد الخلفاء والأمراء والقضاة والحكام

حاجتهم من المبادئ والأحكام والنظم والقوانين فى الشريعة ، فلم يحاولوا الخروج عليها ، ولم تحدثهم نفوسهم بنبذ أحكامها أو استبدال غيرها بها ، واحتفظت الشريعة بما ينبغى لها من الاحترام والمكانة والكلمة العليا فى المراكز العملية وقصور الحكم والسلطان ، ودور الإدارة ؛ ولم تقصر على الدراسات فى المدارس أو المساجد ، ولم يتخذ أهلها وحملتها طابع الروحية والكهنوت ، يحشرون لأيام الزينة ، ويعرضون للاحتفالات !

هكذا كان شأن علمائنا السالفين فى فهم العقائد ، وإدراك المقاصد ، وتطبيق أحكام الله : تسليم فيما يتصل بالعقائد والعبادات أغناهم عن الجدل والتفرق بالأهواء والبدع ، وحرية واجتهاد فى فقه الحياة ، فتحا أمام الناس أبواب الحياة !

فاذا فعل الخلف من بعدهم ؟

(ب) طريقة الخلف

لقد عكسوا طريقة السلف : ففصلوا ما كان مجملاً ، وأجملوا ما كان مفصلاً ، وضيقوا ما كان واسعاً ، وظلموا أنفسهم بتجاوز حدودهم ، وجنوا على شريعتهم بتفريطهم !

١ — جروا فى العقائد على تفصيل أدخل على المسلمين الفرقة والانقسام ، وفتح أمامهم أبواباً من الجدال المفضى إلى التشاحن والتدابر كانوا فى غنى عنها وسلامة منها ، وشوهوا أمام الناس علم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتجرأوا على الغيب يستطلعون خباياه ويستكشفون أسراره ، وزحموا العقائد الصافية فى زحمة الروايات الموضوعة ، والأخبار الملفقة ، والإسرائيليات المدسوسة !

وصفوا لنا عالم الأرواح ، وما يدور فيه من أقوال وأفعال ، وحدثونا عن حياة الأولياء فى قبورهم ، والشهداء عند ربهم ، فذكروا أنها حياة حقيقية يأكلون فيها ويشربون ؛ بل يتمتعون فيها ويتزاوجون !

وصفوا لنا الملائكة وأصنافهم وأحوالهم وأجنحتهم ومقاييس أجسامهم ، وما يقولونه فى تسبيحهم حين غدوهم أو رواحهم ، وما يكون من حوارهم بعضهم وبعض !

وصفوا لنا أرض المحشر وساحة الحساب ، ومواقف الأولين منها والآخرين وحدثونا فى تفصيل دقيق عن الصحف المنشورة والموازين المنصوبة ، وعن الحوض ومياهه ، وأكوابه وسقاته ، وتدافع الناس من حوله ، وازدحامهم بالمناكب عليه ؛ كأنما كانوا شهوداً لكل ذلك إذ يفيضون فيه ، أو كأنما أطلعهم الله على برنامج هذا اليوم المشهود فهم يقرأون منه على الناس كتاباً مفصلاً !

وحدثونا عن اللوح والقلم ، والعرش والكرسى : أيها خلق قبل الآخر ، وأيها يصدر إليه أمر الله أولاً ، وكيف يكتب القلم وما عدد أسنانه ، وما عدد ما سطر فى اللوح من آيات الله وكلماته ، ونسوا أن ذلك كله من عالم الغيب ، وأنهم يتهجمون منه على ما احتفظ الله به ، ويتعدون حدود بشريتهم ، ودائرة عقولهم ، ويركبون متن الشطط والغرور !

ثم صوروا للناس قضاء الله وقدره بصورة تدفعهم إلى التواكل ، وتعلمهم الركود والإخلاد ، وتوهمهم أنهم مكبلون من فوق هذا الكون بقيود أو أغلال لا سبيل إلى تحطيمها ، ولا إلى التخلص منها !

٢ — وأدخلوا على العبادات أنواعاً من البدع لم يأذن بها الله : يتصيدون لذلك من الأحاديث الضعيفة ما يؤيدون به شهواتهم ، ويحاجون به ناصحيهم ، حتى اختلط على الناس أمر الدين ، ولم يعد أكثرهم يميز بين ما شرعه الله وما شرعته الأهواء : ففى الصلاة بدع ، وفى الصيام بدع ، وفى الحج بدع ، وفى الذكر بدع ، وفى الأذان بدع ، وفى تشييع الجنائز وزيارة القبور بدع . بل استباحوا لأنفسهم أن يركبوا أنواعاً من العبادات أو الرسوم الدينية لم يكن يعرفها المتقدمون : كفائدة الأربعاء ، وإقامة الموالد ، وإسقاط الصلاة عن الميت ، وعدية يس ، والعتاقة ، ونحو ذلك من ألوان العبث الهازل الذى لا يليق بأمة دينها الإسلام ، وكتابها القرآن !

ولقد أصبح المسلمون بذلك أشتاتاً : كل طائفة بإمام ، وكل شيخ بطريقة ، يكفر بعضهم بعضاً ، ويفسق بعضهم بعضاً ، وكل حزب بما لديهم فرحون !

٣ — أما فى الفقه والتشريع ، وتطبيق أحكام الله على مشكلات الحياة ، وأمراض المجتمع وأحداث الزمن ، فهناك

الجمود والخمول : جمود لواهم عن التفكير ، وأغمض عليهم كلام الله ، وباعد بينهم وبين إدراك روح التشريع ، وتقدير المصالح ودراسة فقه الحياة ، وخمول زواهم عن الناس ، وأنساهم أنفسهم وصرف العقول عنهم ، وأيأس المفكرين منهم ، وأضعف ثقة أهل الحكم والسياسة بهم وبشريعتهم : فذهبوا يلتمسون أحكام الحياة والمعاملات ، ونظم المال والاقتصاد والعقوبات من شرائع أوربا ، ويحكمون فى بلاد الإسلام بغير ما أنزل الله ، وتركوا هؤلاء قابعين فى مساجدهم ومعاهدهم يتناقشون فى حملة العرش هل هم أوعال أو غير أوعال ، ويتدارسون أحكام المياه المطلقة والمياه المختلطة ، ويختلفون فى سؤر البغل : أطاهر هو أم طَهور ، ويكتبون فى مجلاتهم عن الحسد والرقية منه ، وعن الجنب والشطح وما يكون فيهما ، وعن العباد المكلفين : أيخلقون أفعال أنفسهم أم يخلقها الله لهم ، وعن تلقين الميت : أمشروع هو أم غير مشروع ؛ ثم عن العمامة والفاروقية ، وأيهما « تحقق » الشخصية العلمية ... الخ

تركوهم لذلك وأشباهه يدرسون منه ما يدرسون ، ويتركون منه ما يتركون ، وينقطعون عنه ما ينقطعون ، وصار كز الفقه والتشريع والإدارة والقضاء فى أيدى غيرهم ، وكراسى الحكم والنيابة خالية منهم ، وبيئات العلم والأدب جاهلة بهم معرضة عنهم ، والأمة لا تراهم إلا حيث يكون الاحتفال بالمحمل ، أو الاجتماع للموالد مع أرباب الطرق ، أو الحشد للمواسم والأعياد !

وهكذا قضى عليهم بالموت البطئ ينساب إليهم فى مثابرة واتصال كما ينساب إلى المصدور أو العليل !

فى مثل هؤلاء يقول (ابن القيم) منذ ستة قرون :

« لقد جعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد ، محتاجة إلى غيرها ، وسدوا على أنفسهم طرقاً صحيحة من معرفة الحق والتنفيذ له ، ظناً منهم أنها منافية لقواعد الشرع ، ولعمرى إنها لم تناف ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإن نافت ما فهموه من شريعته ... والذى أوجب لهم ذلك نوع تقصير فى معرفة الشريعة ، وتقصير فى معرفة الواقع ، وتنزيل أحدهما على الآخر ، فلما رأى ولاة الأمور ذلك وأن الناس لا يستقيم لهم أمرهم إلا بأمر وراء ما فهمه هؤلاء من الشريعة أحدثوا من أوضاع سياستهم شراً طويلاً ، وفساداً عريضاً ، فتفاقم الأمر ، وتعذر استدراكه ... » [الطرق الحكمية ص ١٣]

وفيهم يقول الأستاذ الأكبر الإمام المراغى فى مذكرته الإصلاحية التى كتبها فى سنة ١٩٢٨ وجعلها برنامجه فى إصلاح الأزهر :

« ولكن العلماء فى القرون الأخيرة استكانوا إلى الراحة ، وظنوا أنه لا مطمع لهم فى الاجتهاد ، فأقفلوا أبوابه ، ورضوا بالتقليد ، وعكفوا على كتب لا يوجد فيها روح العلم ، وابتعدوا عن الناس فجهلوا الحياة وجهلهم الناس ، وجهلوا طرق التفكير الحديثة وطرق البحث الحديث ، وجهلوا ما جد فى الحياة من علم وما جد فيها من مذاهب وآراء ، فأعرض الناس عنهم ، ونقموا هم على الناس ، فلم يؤدوا الواجب الدينى الذى خصصوا أنفسهم له ، وأصبح الإسلام بلا حملة وبلا دعاة بالمعنى الذى يتطلبه الدين »

هذا ، ولعل الرسالة توفق إلى نشر مذكرة الأستاذ الأكبر الإمام المراغى بعد أن مضى عليها أكثر من اثنى عشر عاماً ، فأنى أخشى أن يكون طول الزمان قد خلع عليها ثوب النسيان ، ولستُ أعلم مذكرة عالجت شئون الأزهر والفقه والدين بمثل ما عالجتها به هذه المذكرة فى العصر الحديث .

محمد محمد المدنى

المدرس بكلية الشريعة

مقال أوحاه قصف المدافع في ليلة حمراء

دنيــــا الشقى السعيد

في ١٧٢٨٠٠ ثانية

للدكتور زكي مبـــارك

في الساعة العاشرة من مساء الجمعة وهو اليوم الثاني من شهر مايو ، شهر الأزهار ، كما يسميه أحد شعراء الفرنسيس ، مضيت إلى دار الفوضية العراقيـة مع مترجم « آلام فرتر » لنشهد آلام الأصدقاء الأعزاء وقد آذتهم أخبار الحرب في يوم الاحتفال بميلاد « الملك الشبل » وهو ابن غازى وحفيد فيصل

وفي الساعة العاشرة من مساء الأحد ، وهو اليوم الرابع من شهر مايو ، حملت القلم لأحدث قراء « الرسالة » عن تفاصيل ما ثار بيني وبينهم من خصومات ، ولـكن المدافع ثارت فوق رأسي حتى كدت أتوهم أنني المقصود بعدوانها الأثيم ، فالبيت الذي أقيم فيه يرتج ارتجاجاً عنيفاً جداً ؛ وأنا أكتب هذه السطور بدون أن أعرف كيف تنتهي هـذه الليلة السوداء ، وإن كانت قمراء . وصاحب البيت يطرق باب غرفتي بعنف ليحضني على النزول إلى السرداب ، فأجيب : دعني ، دعني ، فأنا أشتهي أن أموت والقلم في يدي ! !

ومعنى ذلك أنني في الأسكندرية وفي أخطر مكان وهو « الرمل »

الغرفة محجوبة النوافذ بحجاب سميك ، وفيها نور ينفعني ولا يراه أحدٌ غيري ، وأنا مع ذلك أكاد أشهد نيران المدافع وهي تخترق أحجبة النوافذ ، فهل حان الوقت لأستريح من دنياي ، ولأنجو من بغي الأعداء ، وغدر الأصدقاء ؟

طاخ ! طاخ ! طاخ !

تلك أصوات المدافع ، وكأنها تقصدني بالذات ، فهي تزلزل الدنيا من حولي ، وتنذرني بنهاية كريهة دميمة هي الموت في مكان لا أودّع فيه أهلي وأبنائي

طاخ ! طاخ ! طاخ !

اصنعوا ما شئتم ، أيها العادون من بني الألمان ، فأنا أشتهي أن أموت والقـلم في يدي ، ولن أنزل أبداً إلى السرداب ، ولو لقيت الحتف بعدافعكم الباغيات

طاخ ! طاخ ! طاخ !

لـكم الويل ، ماذا تريدون مني ، وقد قضيت شبابي في خدمة الآداب والفنون ؟

طاخ ! طاخ ! طاخ !

تلك إذن خاتمة المطاف لدنيا الشقيّ السعيد ، وهو الرجل الذي شهد الاحتفال بعيد ١٤ يولية في باريس ست مرات ، ونعِم بالألعاب النارية في باريس أكثر من عشر مرات في مواسم مختلفات ، ولعلها تزيد على العشرين ، فلا ضَيْرَ عليه في أن يموت بالنار الحقيقية في اسكندرية وفي يده قلم أعنف من قنابل الألمان ، وإن عشت بعـد هذه الليلة الباغية ، فسيرون كيف صدقتُ في الثناء على نفسي ، فأنا بالرغم منهم فتًى مصريٌّ لم يعرف الخضوع لغير صاحب العزة والجبروت

طاخ ! طاخ ! طاخ !

الجـيران يصرخون ويولولون ، ونوافذ غرفتي تصرخ وتولول ، وقلمي مع هذه المزعجات أكثر طمأنينة من التمساح الجاثم بأعالي النيل ، فكيف أُغمِدُ قلمي في هذه اللحظة وأنا أشتهي أن أموت وقلمي في يدي ؟

طاخ ! طاخ ! طاخ !

سأموت بعد لحظة أو لحظتين ، فقد كادت نوافذ غرفتي تتصدع من هول الصيال بين مدافع الإنجليز وقنابل الألمان ، فـا أسعدني حين أموت والقلم في يدي ، وإن كنت أرتاب في إنصاف التاريخ

توت ! توت ! توت !

انتهت الغارة بعد تسعين دقيقة ، فواخجلتاه من العيش ، وليس في يدي مدفع ولا سيف !

فما دنياي وأنا الشقيُّ السعيد في الثواني التي تعد بالـ١٧٢٨٠٠؟

ما دنياي في تلك الثواني التي تفوق الأزمان الطوال ؟

دخلت الفوضية العراقية فى ليلة حرب وقد تهيأت أبهاؤها لتكون ميدان رقص ، فقلت : إن اللهو لا يعاب على الأمم القوية والعراقيون أقوياء بالروح ، وإن اتُّهموا كذباً أو صدقاً بنقض العهود .

قال الحجاج : إن أهل العراق أهل شقاق ونفاق

وأقول : إن أهل العراق أهل شقاق ، ولكنهم ليسوا أهل نفاق

فأين من يسمع كلامي قبل أن ينجح من يسرهم إفساد ما بين انجلترا والعراق ؟

وأين من يسعى للصلح بين جيشين كانا بالأمس حليفين ؟ ولن يستفيد من تأريث القتال بين هذين الجيشين غير من يتربصون لأولئك وهؤلاء ؟

وهل ضاعت الفرصة لإصلاح ذات البين ؟

ثم اشتركت فى الحديث مع الرجلين الكريمين عبد الستار الباسل وعلى الشمسى ، وكان الحديث حول ما تستطيع مصر أن تصنع فى هذا الظرف الدقيق (؟!)

وقيل كلام وكلام وأنا ضيِّق الصدر بكل ما أسمع ؛ فقد كان دخان المدافع فى حدود الحبانية يصل إلىَّ ، على بُعد ما بينى وبين الحبانية . وهل يبعد عنى شرٌّ يطير أواره فى أروقة بغداد ؟

الله وحده هو الذى يعلم كيف كان حالى والرقص محتدم بأبهاء الفوضية العراقية ، والرقص من فنون الحرب ، لأنه صراع بين العواطف والأحاسيس

ورجعت إلى دارى فى سيارة رجل كريم من أشراف الحجاز وصدرى يكاد ينشقّ من الألم والغيظ ؛ فقد كنت أحب أن تعفينى الحوادث من صدمة الكرب فى ليلة الاحتفال بعيلاد ملك العراق !

ماذا أصنع ؟ ماذا أصنع ؟

سأمضى فى الصباح لمقابلة رئيس الوزراء ، وسأقول له كيت وكيت ، وسيكون لى مقام محمود فى التمهيد لشئون تقوِّى المركز الأدبى لمصر فى الشرق

ثم جاء الصباح فتذكرت أنى مسئول أمام وزير المعارف لا أمام وزير الخارجية ؛ وخطة السير فى هذا الأسبوع توجب أن يكون عملى فى المدينة التى تواجه عدوان الحرب من يوم إلى يوم ، فهل أغيِّر الخطة وقد عرفت أن عملى سيكون فى مدينة مبتلاة بمخاوف الحرب ؟

وكيف وأنا لا أرحم نفسى فى أداء الواجب ؛ لأنى أؤدى الواجب بلا رقيب ، فقد وثق بى رؤسائى وأسلمونى إلى ضميرى لأقتل نفسى بلا ترفق ولا استبقاء . ولو راقبنى رؤسائى لرحمت نفسى ، وانتفعت بحقى فى تعديل خطة السير وفقاً للظروف ، ومَن أسلمك إلى ضميرك فقد أسلمك إلى رقيب لا يعرف الغفلة ولا الهجود !

ثم امتطيت القطار إلى الإسكندرية وصدرى معتكر بالمعانى التى ساورتنى فى الليل ، وبعد الوصول بدقائق كنت أحاور الأدباء الإسكندريين ، فهم سلوتى كلما حللت بمغانى ذلك الشاطئ الجميل

— ستطيل عندنا الثواء ، يا دكتور ؟

— خمس ليالٍ طوال !

— إذن فستمتع عينيك وأذنيك بقصف المدافع !

وفى صدر اليوم التالى كنت أؤدى واجباً بمدرسة الطائفة الإسرائيلية ، وهى مدرسة لا تعطِّل فى أيام الآحاد ، أو هى المدرسة الإسرائيلية الوحيدة التى لا تعطِّل فى الأحد الأول من كل شهر ، وما يرضينى أن أقضى يوماً بلا عمل ؛ وقد آذتنى وزارة المعارف حين أسلمتنى إلى ضميرى

السنة الأولى الثانوية بهذه المدرسة مكانها فى السطح . وعند الظهر صكت آذاننا المدافع بأصوات أعنف من قصف الرعد فى لحظات الخوف والبأس

ومدير المدرسة يشير بأن ننزل إلى مكان أمين

وأقول : يجب أن نموت ونحن فى الدرس

ثم يصلصل الجرَس مؤذناً بالانصراف فتضعف حجتى فى العناد

وفى المساء يقع ما عرفه القراء فى مطلع هذا الحديث

أما بعد فأين أنا مما كنت أريد ؟

ألقاب الشرف والتعظيم

عنـــد العرب

للأب أنستاس ماري الكرملي

– ٢ –

ونعود إلى الكلام على الباب فنقول : إن القلقشندى قال (صبح الأعشى ٥ : ٤٧٢) : « الباب بباءين موحدتين مفخمتين فى اللفظ . وهو لقب على القائم بأمور دين النصارى الملكانية [أى الكاثوليك] بمدينة رومية . . . وأصله الباپا بزيادة ألف فى آخره ، والكتاب يثبتونها فى بعض المواضع ويحذفونهـا فى بعض ، وربما قيل فيه البابة بإبدال الألف هاء ، وهى لفظة رومية [أى لا تينية] معناها أبو الآباء . . . » إنتهى المطلوب من إيراده

وقال ابن رُستَه فى كتابه الأعلاق النفيسة ص ١٤٨ من طبعة الإفرنج : « مدينة الرومية وهى مدينة يدبر أمرها ملك يقال له الباب »

وفى نزهة المشتاق للادريسى ما هـذا نصه (ص ٧٤) : « وفى مدينة رومة قصر الملك المسمى البابة ، وليس فوق البابة فوق فى القدر والملوك دونه »

وجاء فى تقويم البلدان لأبى الفداء فى مادة رومية : « وهى مدينة مشهورة ، ومقر خليفة النصارى المسمى بالباب » . وقال فى أهل بيزة : « وليس لهم ملك ؛ وإنمـا مرجعهم إلى الباب خليفة النصارى »

وذكر ابن الوردى فى كتابه خريدة العجائب طبعة مصر سنة ١٣٠٠ فى ص ٥٨ : « وبها قصر الملك المسمى الباپا وهو قصر عظيم أجمع المسافرون على أنه لم يبن مثله على وجه الأرض »

وورد فى رحلة ابن بطوطة ذكر البابة فقال (فى ٢ : ٤٣٦ من طبعة باريس) : « ويأتى إليها البابة [وهو يريد هنا نائب الباپة الذى سماه أبو شامة فى كتاب الروضتين فى ص ١٨٣ من طبعة باريس] مرة فى السنة ، وإذا كان على مسيرة أربع من البلد يخرج الملك إلى لقائه ، ويترجل له ، وعند دخوله المدينـة يمشى بين يديه على قدميه ، ويأتيه صباحاً ومساء للسلام عليه ، طول مقامه فى القسطنطينية حتى ينصرف » . اهـ

وابن خلدون تكلم مراراً على الباپا ، من ذلك ما ورد فى مقدمته ونقلناه فى صدر هذا البحث ، ثم قال : « وأردوا أن يميزوا البطرك عن الأسقف فى التعظيم فدعوه الباپا ، ومعناه أبو الآباء . وظهر هـذا الاسم أول ظهوره بعصر ، على ما زعم جرجس بن العميد فى تاريخه ، ثم نقلوه إلى صاحب الكرسى الأعظم عندهم ، وهو كرسى رومة ، لأنه كرسى بطرس الرسول كما قدمناه ، فلم يزل سمة عليه إلى الآن . . . »

وممن كرر اسم الباپا مراراً المقريزى . فقد قال فى كتابه المواعظ والاعتبار طبعة بولاق (فى ٢ : ٤٨٤) : « وكان بطرك الإسكندرية يقال له الباپا . . . ومعناه أبو الآباء ؛ ثم انتقل هذا الإسم عن كرسى الإسكندرية إلى كرسى رومية . من أجل أنه كرسى بطرس ، رأس الحواريين ، فصار بطرك رومية يقال له الباپا ، واستمر ذلك إلى زمننا الذى نحن فيه » . انتهى

كنت أحب أن أتحدث عن الشاطئ الذى أوحشَ بعد إيناس

كنت أحب أن أدرس بعض الشؤون الأدبية أو الاجتماعية

كنت أشتهى أن أقول كلمة فى « الإنسان » الذى رُفع عنه بعض الحجاب فعرف من أسرار الوجود أشياء ، ثم كان حاله حال الطفل الذى وُهِبَ مسدَّساً محشواً بالرصاص فهو يصوِّبه إلى صدور الآمنين كيف شاء عقله الوليد ! وإنى لأخشى أن ينتقم الله من « الإنسان » فيسلبه القدرة على « استغلال » ما عرف من أسرار الوجود !

انتصف الليل أو كاد ، وسكتت المدافع منذ لحظات ، فهل هدأ البلبال الذى يساورنى كلما فكرت فى مصير الشرق ؟

ما أشقى الرجل الذى يعيش وهو موكَّل بتعقب ما فى الدنيا من قُبح وحُسن ، وجهل وعلم ، وقنوط ورجاء ، وإن استباح القول بأنه الشقىّ السعيد

زكى مبارك

ونحن لا نريد أن نمعن أبعد من هذا فى المدى لإيراد الشواهد على هذا الاسم، وأنه لاتينى، أى رومى أو رومانى، ففيها مجزأة، لمن يتحرى الحق، ويرمى إليه.

فهذه سبع لغات فى البابا، وهى: الباب، والپاب. والبابة، والپابة، والباب ّ، والبابا، والپاپا. وكل كاتب، حاول أن يؤدى اللفظ على ما ينطق به أصحابه، ولم يحاول واحد منهم أن ينقل معناها إلى العربية، بعكس ما يفعل اليوم بعض المتفصّحين والمتحذلقين من السوريين وأشباههم

وأما البطرك، فقد اختلفوا فى تعريبهم إياه اختلافهم فى الباب، والإنبراطور. قال فى التاج فى (ب ط ر ك): « البطرك، كقمطر وجعفر، أهمله الجوهرى. وقال الأصمعى: هو البطريق، وهو مقدم النصارى، وبه فسر قول الراعى يصف ثوراً وحشياً:

يعلو الظواهر فرداً لا أليف له مشى البطرك عليه ريط كتان

ويروى مشى النطول، وهو الذى يتنطّل فى مشيته، أى يتبختر. قاله الأزهرى، أو هو سيّد المجوس. قال الأزهرى: وهو دخيل ليس بعربى » اهـ.

قلنا: البطرك: يونانى، وهو فى هذا اللسان: Patriarcha أو Patriarches ومعناه الأب الأكبر أو الأب الدينى

وقال فى صبح الأعشى (٥ : ٤٧٣): « البطرك: بباء موحدة مفتوحة، ثم طاء مهملة ساكنة، وبعدها راء مهملة مفتوحة، ثم كاف فى الآخر. وهو لقب القائم بأمور دين النصرانية ... وأصله البطريرك، بزيادة ياء مثناة تحت مفتوحة، بعدها راء ساكنة، وهو لفظ رومى ... ورأيت فى ترسل العلاء ابن موصلايا، كاتب القائم بأمر الله العباسى فى تقليد أنشأه: الفطرك بإبدال الباء الموحدة فاء ... »

وفى التنبيه والإشراف، للمسعودى فى ص ١٥٩ من طبعة الافرنج: « وأخبار أصحاب الكراسىّ الذين هم البطاركة أحدهم بطريرك »؛ قال ناشره فى الحاشية: « وكل مرة وردت البطريرك ذكره الثعالبى صاحب اللطائف باسم بطريرك »

وقال المسعودى نفسه فى كتابه الآخر « مروج الذهب » (٣ : ٤٠٦ من طبعة باريس): « وذلك أن مدينة أنطاكية بها كرسى البطريق المعظم عندهم »

وورد فى تاج العروس فى مادة بطرق: « ... وقيل البطريق هو الحاذق بالحرب وأمورها بلغة الروم، وهو ذو منصب يقدم عندهم. قلت: (أى الشارح وهو السيد مرتضى) هو بالرومية بترك، قاله الجواليقى وغيره » . انتهى

قال الأب أنستاس مارى الكرملى: وهذا وهم من السيد الشارح، لأن بترك هو تخفيف البطريرك، كما ذكره القلقشندى وأما البطريق فرومية أى لاتينية لا يونانية، وهى من Patricius وبالفرنسية Patrice قال معجم لاروس الوسيط: « أنشأ منصب البطريق قسطنطين وقلده خلفاؤه أشهر ضباطهم، ولما صارت دولة الغرب فى أقصى دركاتها اتخذ بعض الرؤساء لقب البطريق وكان يقابل البرنس أو نائب الملك. ولما أعلن أورستس بانبراطورية ابنه أوغسطس، كان لقبه يومئذ بطريقاً وآيتيوس الذى أذل أتيلا وغلبه، كان لقبه بطريقاً يومئذ، وتلقب بلقب البطريق أيضاً كلوڤيس ملك فرنسة، وكذلك ملوك برغونية. ولقب الملوك البرابرة بطارقة قواد جيوشهم. وكان قياصرة الروم يجودون به على لباب الوظائف العليا من مدنية وحربية، وبعد ذلك بكثير خلع البابوات هذا اللقب على ملوك الأفرنج لما استأنفوا التقاليد الانبراطورية، فكان ممن تلقب به: بيبن، وشرلمان، ودُعوا بطارقة رومة ا. هـ تعريباً

ويُرى من هذه النصوص المنقولة هنا، أن بعض الكتّاب لم يميزوا بين البطرك أو البطريرك، وبين البطريق. فصاحب الإسم الأول رجل دينى، وصاحب الإسم الثانى رجل مدنى. واللفظ الأول يونانى الوضع، واللفظ الثانى لاتينيه. على أن كلاَ الاسمين مأخوذ من معنى الأب. فالأول يعنى الأب الروحانى، والثانى الأب النبيل أو الشريف. لكن لا بد من أن يميّز الواحد من الآخر حرصاً على المعنى، وتمسكاً بمدلولات الألفاظ الأصلية، لكى لا يقع التباس فيها

ويُرى من هذه النصوص أيضاً أن فى البطريرك ثمانية أوجه معربة ؛ وهى : البَطْرَك ، والبِطْرَك ، والبَتْرَك ، والبطريك ، والبطريرك ، والفطرك ، والفطريرك ، والبطريق .

فهل بعد هذا من ينكر هذه المفردات ، ومعانيها ولغاتها ، وقد أيدناها بالشواهد والنقول الموثوق بها ؟ وهل يستطيع المُتَبَلْتِمُون السوريون ، أن يضحكوا من كتّاب مصر ، لأنهم يستعملون فى مقالاتهم مثل سكرتير ، وبروفسور ، ودكتور ، وماجستير ، وليسانسيه ؛ وكلها ألقاب وضعها الغربيون كأنها أعلام ألقاب . ومن ثمّ لا حقّ للناطقين بالضاد أن يغيروها ، ولا أن يترجوها بأى صورة كانت . وقد جمعنا من الألقاب الغربية التى عرّبها العرب نحواً من مائتين وخمسين ؛ ولم يفكروا يوماً بوضع مقابلات لها فى لغتهم ، لا بل إن بعضهم ظنها مُضَرِيّة محضة ، ولا صلة لها بغير لغتهم . وأنا أذكر هنا بعضاً منها مصداقاً لكلامى . من ذلك ما يتم بحثى السابق :

٦ — الدوفن

قال ابن مكرّم فى تركيب (دفن) ما هذه عبارته بنصها :
« ودَوْفَن : اسمٌ . قال ابن سيده : ولا أدرى أرَجُلٌ أم موضع . أنشد ابن الأعرابى :

وعلتُ أنى قد مُنيتُ بِنِشْطِلِ
إذ قيل : كان من آل دَوْفنَ قُمّسُ

قال : فإن كان رجلاً ، فعسى أن يكون أعجمياً فلم يصرفه ، أو لعل الشاعر احتاج إلى ترك صرفه ، فلم يصرفه ؛ فإنه رأىٌ لبعض النحويين . وإن كان عَنَى قبيلة ، أو امرأة ، أو بقعة ، فحكمه ألا ينصرف ؛ وهذا بين واضح . اه

وقد نقل صاحب التاج عبارة اللسان من غير أن يشير إلى مأخذها مع أن النص واحد بلا أدنى تغيير ، سوى أنه قال : قمّس وهى قس ؛ وقال : إن كان عنى قبيلة والصواب وإن كان عنى قبيلة

وقال صاحب القاموس : ودوفن رجل وامرأة . وفى بعض النسخ : رجل أو امرأة

قلنا : فما معنى هذه اللفظة ، ومن أى لغة هى ؟ فعند الوقوف على الحقيقة ، تضمحل الآراء المتضاربة ، ويقبض على ناصية الحق فنتمسك بها

أما رأينا فهو أنها من الفرنسية Dauphin على حد اللفظ العربى ومعناه . وكان أصل وضعه لقباً للشنيان الفرنسى أى للذى يكون دون السيد أو الملك فى فرنسة ؛ ثم غلب هذا اللقب على كثيرين من أولئك الأشراف ، فصار بمنزلة العلَم لهم ، وأول من لقب بذلك ، كان فى عهد كيك الرابع Guigue IV وكان أحد قمامسة فينّة الفرنسية ، المتوفى سنة ١١٤٢ للميلاد . وفى أوفرنية كان أحد القمامسة فى عهد غليوم السابع . وكان لقب به لأول مرة سنة ١١٥٢ ؛ ثم انقلب هذا اللقب فصار علماً لأولئك الرجالات ، ومن أراد التفصيل فليراجع كتب التاريخ والمعاجم فى مادة دَوْفن . وهناك دوفن اشتهر بدوفن أوفرنية وهو شاعر بروفنسى ، من المائة الـ ١٢ و الـ ١٣ ، واسمه الحقيق روبر الأول Robert 1er ، وكان دوفناً من سنة ١١٦٩ إلى سنة ١٢٣٤

ودوفن أيضاً امرأة الدوفن ، وبالفرنسية Dauphine والأحسن أن يقال فى العربية دَوْفَنة لكى لا تلتبس بالذكر ودَوْفن أيضاً ، والأحسن دَوْفِينَه Dauphiné ، عَلَم بقعة فى فرنسة . فصحّ بهذا التأويل أن (دوفن) كلمة أعجمية وإنها أتت بمعنى اسم رجل ، واسم امرأة ، واسم بقعة ، ومما يؤيد أن الدوفن هو بالتأويل الذى ذكرناه أن الشاعر قال :

« كان من آل دوفن قمّسُ »

والقُمّس هو Comes سابقاً ، والذى نقل بعد ذلك إلى صورة كُنْت Comte ومعلوم أن البيت الذى فيه دَوْفن ، قد يكون فيه عدة قَمَامِسَة ، إذا كان فيه عدة ذكور ، غير البكر ونحن نذكر بعد هذا القمس ونبحث فى مختلف لغاتِهِ

ومن الغريب أن المعاجم الإفرنجية ، وبالعكس أى العربية الفرنجية . لم تذكر مقابلاً للفرنسية Dauphin . كما لم تذكر مقابلاً أفرنجياً للدَّوْفَن . فمعجم بادجر الانكليزى العربى ، (وهو

خواطر فى الموسيقى والناس

فى الإنســـانية خير

ما دام فيها أمثال « شتروس »

للأســـتاذ سيد قطب

منذ لحظات كنت أستمع إلى أفراح الإنسانية المهذبة فى موسيقى « شتروس » فى أحد الأفلام الشهيرة . لست أدرى كم مرة شاهدت هذا الفيلم ؛ ولكننى أدرى أننى انسقت لشاهدته كالمسحور ، كلما قرأت عن عرضه فى إحدى الدور .

وفى لحظة من لحظات الشك التى تساور النفس هذه الأيام فى ضمير الإنسانية وطبيعتها ؛ وفى غمرة من غمرات اليأس أن يكون فى الفطرة البشرية خير أو تطلع ؛ وفى فترة من فترات الجمود الروحى والجسمى ، رانت على النفس فيها غشاوة ، وحطت على الجسم فيها أثقال ، ذهبت منساقاً إلى استماع هذه الألحان

وإن هى إلا لحظات ، ونغمات ، ورقصات ، حتى أحسست بالخفة الناشطة فى نفسى وجسمى ؛ وبالرجاء المشمشع والاطمئنان المصفى ، والأمل المحلق ، والإنسانية الطليقة ، والفرح السعيد .

قلت فى نفسى : إن الإنسانية التى وسع ضميرها كل هذه الأفراح النقية وكل هذه الغبطة البريئة ، والتى ذخرت طبيعتها هذا الفيض الإنسانى المرح ، وتلك الطلاقة الروحية المرفرفة فى ألحان « شتروس » ورقصاته ، لا يمكن أن تخلو من الخير ، وأن تتهم بالإقفار من الحب ، مهما نقل فيها اليوم من أحقاد وأضغان

هذا الفرح الملماع فى أجواز النفس وأجواز السماء ؛ وتلك الطلاقة التى لا ظل فيها لقيد من قيود الأرض والغريزة ؛ وذلك التحليق النابض بالحياة الحلوة البريئة ؛ هذا كله لا يكون إلا أن يكون فى البشرية خير مذخور ، ورجاء منظور ، وقبس من نور . وإلا أن يكون لها فى السماء أمل ، وفى الفراديس مكان ، لا يتاح لغير الإنسان

وذكرت فى هـذه الساعة من يتحدثون عن « الفكر والسلطة » ومن يتحدثون عن « منفعة » الفنون المجردة . أولئك الذين يرفعون مرتبة التنفيذ فوق مرتبة التوجيه ، وهؤلاء الذين لا يريدون أن يروا فى « الإنسان » إلا معدته .

قلت : أين هى السلطة الكائنة على وجه هذه الأرض التى تستطيع أن تصنع من الخير ما تصنعه هذه الحان ؟ بل أين هى النبوة التى تستطيع أن ترتفع بالفطرة إلى أعلى من هذا المكان ؟ ثم أية « منفعة » فى هذه الدنيا الفانية أنفس من هذه السعادة التى تقرب وتقرب ، حتى لهى نغمة فى الآذان وحركة فى الأبدان

لن يستطيع ذو سلطان يعتمد على السلطان ، مهما سما فكره ، وطابت نفسه ، أن يصنع مثل هذا الخير ، وأن يطلق النفوس من غرائزها وقيودها ، فرحة سعيدة راضية ، لا تخطر الخطيئة لها ببال ، ولا يهجس الشر لها فى ضمير ؛ وهى محلقة فى هذا الأوج ، مرفرفة فى هذه الآفاق ، خالصة من وحى الفناء ولذع الشقاء .

ولن يستطيع أكبر المخترعين والمهندسين والعالمين أن يزجى

أساس جميع المعاجم الإنكليزية العربية ذكر مقابلاً لها فى العربية « بكرُ ملك فرانسا » — وقال بجاري بك ، فى معجمه الفرنسى العربى : « بكرى الأمير » وهو كلام لا معنى له . — ومعجم غسلين الفرنسى العربى Ed. Gasselin ، ذكر المؤنث ولم يذكر المذكر فقال : « زوجة ولد سلطان فرنسة » وهـذا غريب . — وقال الأب بلو Belot فى معجمه الفرنسى العربى : « ولى عهد ملوك فرنسا » — وأما صاحبنا الشهير إلياس بقطر فقد قابله بقوله : « ابن بكر سلطان فرنسا »

ولا تسألنى عمن نقل (دوفن) إلى لغة أجنبية فى المعاجم العربية الغربية ، فإن أصحابها جميعهم أهملوها كأنها لم تكن ، وفى كل ما ذكرناه من النقول ، ما يبين لك قصور أرباب تلك الدواوين ، وبذلك يظهر لك ما فيها من النقص والعجز ، والحاجة إلى الإصلاح الأعظم

(له صلة)

الأب أنستاس مارى الكرملى
من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية

إلى الإنسانية باختراعاته وآلاته ونظرياته هذه السعادة التي تحسها وهي تستمع لمثل هذه الأنغام . وإذا لم تكن غاية الجهاد في الحياة هي هذه السعادة العالية وتلك الغبطة الراضية ، فما عساها تكون ؟

جالت في نفسي هذه الخواطر ثم استعرضت لخيالي صورة الجزرة البشرية في هذه الأيام ، وصورة الحقد الوخيم ، والضغن الذميم الذي يؤرثها ، وصورة الغرائز السفلة التي تهيجها الدكتاتورية وتعلقها في طبائع الأفراد والشعب ، وصورة الذلة المشتملة التي تثير الإعجاب في بعض النفوس ببطش الباطشين وغدر الغادرين ...

فقلت : كيف اضطغنت البشرية هذا الحقد الحيواني كله ، ووسعت معه ذلك الفرح الإنساني كله ؟ ثم ذكرت قول العقاد :

ثقلة في الحياة لم ينج طبع   من عراقيلها ولم يخل عرف

وذكرت أن الإنسانية - كما يقول تاريخ الحياة - لا تزال طفلة تحبو في مدارج الزمن والارتقاء ، وأن الحياة كلها لم تتجاوز الفجر الأول ؛ فهي ما تزال تعيش حتى اليوم على نبات الأرض وحيوانه ، كما يعيش الطفل الرضيع على لبن أمه ؛ ولن تبلغ هذه الحياة طور الصبا حتى تتطلع إلى غذاء تصنعه وتخلقه غير الغذاء الذي تجمعه وتؤلفه ، كما يصنع الطفل بعد الفطام سواء

فينبغي ألا نستعجل الزمن ، وألا نخدع بأبناء الحياة السابقين أولئك الفنانين الذين نضجوا قبل الأوان ، وسبقوا خطوات الإنسانية بمراحل وأزمان ، فتلك بواكير الروض ، وطلائع الثمار . والنذر كفيل بالجنى والقطاف ! ...

وما كنت أملك إلا أن أوغل نفسي هكذا في الرجاء ، وألا أتطلع إلى الأجواز والآفاق ، وأنغام « شتروس » تتخلل دمي فترقرقه مزاجاً صافياً ، وتلمس روحي فتطلقها ترفرف في السماء ، وتخلصني من ثقلة الأرض ووكسة الغريزة ، فأتطلع إلى هناك ... إلى حيث الإنسان المرموق في آمال الوجود

وتشاء المصادفات الساخرة العجيبة أن أخرج من هذا العالم الوضيء الإشراق ، فيطرق سمعي — على غير إرادة — صوت المذياع وينقل إليّ بعض الحشرجات البائسة التي يسمونها في مصر أغنيات جديدة !

يا للشيطان ! بل أظلم الشيطان ، فما تستطيع طبيعته أن تهبط إلى هذه المناقع والقيعان وأن تدبر لي تلك المفاجأة في هذا الأوان !

رباه !

أيمكن أن يكون واضعو هذه المنبثات والحشرجات ومستمعوها من أبناء آدم الذي نعرفه ، وأن يكون « شتروس » ومستمعوه من أبنائه كذلك في آن ؟

محال . فما تلك إلا دوديات وجنادب وهوام ، وأشياء أخرى مما يرتكس في المناقع والقيعان . وإلا فما كانوا يطيقون مجرد الصبر على هذا الغثاء ؛ وفي متناولهم تلك الموائد الربانية الشهية وذلك الغذاء السماوي المريء !

(حلوان)   سيد قطب

بين الأدب والتاريخ

الرحلات العربية

كيف بدأت ومتى دونت ؟

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

الرحلة هى النقلة من مكان إلى آخر . وقد تكون فردية لا يحتاج الإنسان فيها إلا إلى راحلته وحمامة نفسه ومشدود رحله . وقد تكون جماعية يخرج فيها الجم الغفير من الناس لغرض من الأغراض أو باعث من البواعث

وأكثر الرحلات يأتى طوع الإرادة ووليد المشيئة من غير اضطرار ولا قسر . وبعضها يكون وليد ظروف طارئة أو مناسبات قاهرة ، تخرج المرء أو الجماعة عن الوطن الأول ، أو ترى به بعيداً عن مراتع صباه وملاعب شبابه ، إلى وادٍ سحيق ، أو مطرح بعيد ...

ومن الرحلات ما يغير أوضاع التاريخ ويفرض على العالم نظاماً جديداً ، فيقرب بعيداً ، أو يبعد قريباً ، أو يصل بين شعب وشعب ، أو يربط بين جنس وجنس ، فتظهر لغات جديدة ، وثقافات جديدة . ومن هذا النوع رحلة القحطانيين من الجنوب إلى الشمال ؛ أو إذا شئت التدقيق من اليمن إلى الحجاز . وهى رحلة جماعية كبيرة ، وسمّها إذا شئت هجرة ، وسمّها إذا أردت انتقالاً . ولكنها على كل حال أخرجت القحطانيين من ديارهم ونشرتهم فى أنحاء الجزيرة العربية وأخرجت منهم بطوناً كثيرة وقبائل كثيرة يعرفها كل من قرأ تاريخ الأدب

ولقد كانت هذه الرحلة بنت القهر ووليدة الاضطرار ، وسببها أن سيل العرم فاض وبلغ الزبى فاكتسح السدود ، ورمى بالحواجز ، وغمر الأرض ، وبُدّل السبئيون حالاً بحال ، فارتحلوا إلى الشمال — ولولا هذه الرحلة الجامعة ما قام المناذرة على حدود الفرس ، ولا استقام ملك الغسانيين على حدود بلاد الروم

ومن سوء حظ التاريخ والأدب أنه لم يهتم بهذه الرحلة واحد من المهاجرين المشتركين فيها ولم يدون أنباءها ولم يصف مشاهدها وكل ما وصل إلينا منها أنباء قليلة بعضها من مصادر دينية ، وبعضها يعتمد على الرواية والأخبار . ولو اهتم بها أحد ممن حثوا مطاياها أو شدوا رحالها لخرج لنا سفر عظيم من أسفار الرحلات الخالدة .

وبعض الرحلات أو الهجرات يكون ضرورياً لإكمال دعوة فى أرض بعيدة غريبة ، واجتناب أذى فى دار قريبة حبيبة ، ومن ذلك هجرة النبي محمد عليه السلام إلى المدينة بعد ما أوذى فى مكة بين أهله وعشيرته مما هو مدون بالتفصيل فى كتب السيرة الزكية

ولقد هاجر بعض المسلمين الأولين إلى الحبشة فراراً من الأذية ، واستجابة لدعوة الجهاد — والحبشة بلاد كانت معروفة عند العرب وكان الاتصال بينها وبين الجزيرة قائماً إلا أن الإسلام زاده ووسمه . وكان فى استطاعة بعض الراحلين إليها من المسلمين أن يدونوا رحلتهم ومشاهدها ، إلا أنهم لم يفعلوا . ولعل مشاغل الجهاد ومتاعب الكفاح صرفتهم

والرحالة الذكى الفطن يستفيد دائماً من رحلته علماً وتجربة ، ويكتسب منها فوائد ، ويفتح عينيه دائماً على ما أمامه من مشاهد وما يلاقيه من معالم . فلا يدع شيئاً يمر من غير أن يقف على حقيقته ، أو يكشف عن ماهيته ، كما صنع بعض الرحالين من العرب الذين سنشير إليهم فيما بعد

وتزداد الرحلات بالطبع تبعاً لسهولة الاتصال بين المكان والمكان ؛ فإن الاتصال هو الأداة الوحيدة لاستكمال الرحلة ونجاحها . ومن هذا نفهم قلة الرحلات وندورتها فى الزمن القديم

وقد كان لقريش قبل الإسلام رحلتان عظيمتان : إحداهما إلى اليمن والأخرى إلى الشام . أشار إليهما القرآن الكريم فى سورة خاصة من القصار . وكانتا تتعاوران فى كل عام . وكان فيهما بالطبع ما فى كل رحلة من لذة ومتعة واستجمام وطرائف ومشاهد ... إلا أن ذلك كله لم يدون لمكان العرب من الأمية ومنزلتهم من البداوة ... واكتفى أعضاء هذه الرحلات — ونسميهم رحالين تجاوزاً — بقص القصص وسرد الحديث وإطالة الأسمار كلما حطوا الرحال إلى مكان ، أو استقر بهم النوى فى أى مستقر

ومن حكماء العرب وشعرائهم من جاب البلاد ، وطاف كل

مطاف ، وأتهم وأنجد ، وشرق وغرب ؛ إلا أنه لم يسجل لرحلته تاريخاً ولم يضع لها ثبتاً ، ولكنه مضى على السفر إلى غير غاية ... الهم إلا المتاع ورياضة النفس واستجمام الخاطر . وقليل منهم من سافر لحكمة يصطادها أو معرفة يقتنصها

ولقد طوف امرؤ القيس فى الجزيرة فخرج من بنى أسد ، ومر على السموأل بن عاديا فى حصنه ، وذهب إلى اليمن ؛ وشاهد الموج يصطخب فى البحر ويتعالى لجة فوق لجة فشبه به الليل فى قوله :

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلى

وأبعد فى الرحلات والأسفار حتى وصل إلى بلاد الروم ، ودخل أنقرة . ويقال إنه لقى قيصر وأتيح له من أسباب الرحلة ما لم يتح لغيره لغناه وشرفه ومكانه من السيادة فى قومه ، إلا أنه لم يدون هذه الرحلة فى شعر طويل أو فى نثر عريض ، ولكنه أشار إليها فى بعض قصائده

ولقد طاف أبو بصير الأعشى كذلك وأكثر من الرحلة ، وظهر لذلك بعض الأثر فى شعره ، فقال :

قد جبت ما بين بانيقيا إلى عدن وطال فى العجم ترحالى وتسيارى

وأدخل بعض ألفاظ أعجمية فى شعره تظرفاً أو تمالحاً كقوله :

وشاهدنا الجل والياسميـ ن والمسمعات بأقصابها

إلا أنه لم يصنع أكثر مما صنع امرؤ القيس

* * *

وجاء الإسلام وفتح المسلمون بلاداً جديدة ، ودخلوا أرضاً كثيرة لم يدخلوها ، وصار إليهم ملك واسع يحتاج إلى سهر كثير لحفظه ، ويحتاج إلى تعب كثير لضبطه . فعرفوا الكثير عن البلاد المفتوحة ودروبها وجوادّها وجبالها وأنهارها وغلة أرضها ومتنوع ثمارها ليجمعوا الخراج على قدر ذلك وليفرضوا الأموال على نسبته . ولم تكن هذه المعرفة مبنية على علم دقيق أو بحث متين ولكنها كانت تميل إلى التقريب أكثر منها إلى التحديد

ثم كثرت الرحلات التجارية بين أجزاء المملكة الإسلامية — وهى تذكرنا برحلتى قريش فى الشتاء والصيف — إلا أن هذه كانت بين أقطار بعيدة وكانت تحمل من عروض التجارة ألواناً عديدة

ولقد ساهم الشعراء فى نوع جديد من الرحلات يلتمسون به المال ويطلبون العطاء من ممدوح يقصدونه ، أو عظيم يندبونه ؛ فيكون ذلك الاتصال سبباً فى بروز الشعراء وتألق نجمهم . يخرج الواحد منهم من رمال البادية إلى معالم الحضر ، أو يخرج من مدينة إلى مدينة ، أو يرحل من قطر إلى قطر طلباً للجاه والشهرة ؛ ولكن واحداً منهم لم يفكر فى تدوين رحلة أو تسجيل مشاهدة ، لأنه مشغول عن ذلك كله بالحاجة التى قام إليها وركب الأسفار من أجلها ...

ولقد خرج (جرير) من بادية اليمامة إلى عاصمة الخلافة الأموية يقصد عبد الملك بن مروان ويقول لامرأته :

سأمتاح البحور فجنبينى أذاة اللوم وانتظرى امتياحى

وخرج أبو نواس إلى مصر (راحلاً) يمدح الخصيب ويقول :

ذريني أكثر حاسديك برحلة إلى بلد فيه الخصيب أمير

وابن هانئ الأندلسى يخرج من الأندلس إلى شمالى أفريقية فيمدح الخليفة المعز ويرحل معه إلى مصر ويصف هذه الرحلة فى بعض شعره

وإذا كانت هذه الرحلات الفردية وكثير غيرها قد أضافت بعض الثروة إلى الأدب إلا أنها لم تكن منتجة بالنسبة للرحلات والأسفار . فهى عقيم كل العقم من هذه الناحية

ولم يبتدئ الاهتمام بالرحلات لذاتها وتدوينها فى أسفار خاصة ، وتقييد كل ملاحظات الرحالة عليها إلا فى القرن الرابع الهجرى ــ المقابل للعاشر الميلادى ــ

ومن المقدمين فى هذا الباب المسعودى صاحب (مروج الذهب) وقد أولع بالأسفار وهو صغير ، وخرج للسياحة ولم يسلخ العشرين من عمره . ويمتاز بعض الدقة العلمية ، وعدم التصديق لكل خرافة تذاع أو ذائعة تشيع . وعبارته فى الكتابة قوية لا تميل إلى ضعف ولا تجنح إلى ركاكة

أما البيرونى ــ وكان من رحالى القرن الرابع أيضاً ــ فقد ترك لنا كتابيه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » و « تاريخ الهند » . ويعد كتابه الثانى أوفى مرجع عن بلاد الهند وأملأ كتب الأسفار تعريفاً بها

ولقد ظهر فى هذا القرن أيضاً رحالة عظيم اختصه الأستاذ

أحمد أمين بمقال ممتع فى الجزء الثانى من فيض الخاطر . واسمه أبو عبد الله المقدسى . وكتابه الذى وضع فيه قوانين الرحالين ، وقواعد السفر ، وشروط من يتصدى لشد الرحال اسمه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » . وقد رأيته عند صديق المستشرق الهولندى « مستر ستريكر » ، وكان يعتمد عليه فى دراساته الجغرافية التاريخية

ويمتاز هذا الرحالة باستجماع عدة الجوّاب ، واستكمال أدواته . فقد عمل كل ما يستطاع عمله لدرس حالة البلد الذى ينزل فيه . واتصل بالملوك ، وخالط السوقة وعمل فى أشرف الأعمال ، وزاول أحقرها . وانق فى تأليف الرحلة وتدوينها عنتاً كثيراً ليكون كلامه عن صدق ، وروايته عن تجربة ، أو كما قال هو عن نفسه : [وإنما ذكرت هذا القدر ليعلم الناظر فى كتابنا أننا لم نضمه جزافاً ، ولا رتبناه مجازاً ، فكم بين من قاسى هذه الأسباب وبين من صنف كتابه فى الرفاهية ووضعه على السماع]

ومن الرحالين المشهورين ابن جبير الأندلسى وابن سعيد المغربى صاحب كتاب (المغرب) ، وياقوت الرومى صاحب المعجمين المشهورين : «معجم الأدباء» فى تراجم الرجال «ومعجم البلدان » فى جغرافية البلاد

وفضل معجم البلدان على كتب الرحالين جميعاً أنه _ كاسمه _ معجم مرتب ترتيباً أبجديًّا لكل بلد أو مكان أو قطر مشهور أو مغمور ، أو أرض عامرة أو غامرة ، أو مدينة صغيرة أو كبيرة . وطالما أسعف الأديب بطلبته فى الكشف عن محلة ، أو الاهتداء إلى موضع ، أو تحقيق غوطة ، أو معرفة واد ، أو متابعة نهر فى مجراه . ويتخلل ذلك كله شعر جميل ، أو رواية واسعة ، أو قصة طريفة ، أو حادثة تاريخية ، أو ذكر يوم من أيام العرب

ولقد اعتمد عليه من أتى بعده من الرحالين فى تحقيق الأماكن ، ومعرفة المواطن . ولابن بطوطة شهرة واسعة برحلته المعروفة . وتمتاز بما فيها من ذكر الكرامات واستطراد الحكايات ، وتصديق الخرافات ... ويظهر أن صاحبها كان حسن الاعتقاد سهل التصديق . والحق أنها ليست تستوى من الناحية الأدبية شيئاً بالقياس إلى الناحية الجغرافية ؛ ومؤلفها من رحالى القرن الثامن الهجرى ، المقابل للرابع عشر الميلادى

ولقد سكنت ريح الرحلات حيناً فى عصور الاستبداد المظلمة لقلة الأمن وصعوبة الرحلة . ويظهر أن سلسلة الرحلات العربية كانت باعثاً لرحلات الغربيين التى تمخضت عن كشف أستراليا وجزرها . وكشف العالم الجديد الذى يبلغ عمره الآن أربعة قرون ونصف قرن

وفى مفتتح القرن التاسع عشر عاد العرب إلى نشاطهم فى الرحلات . وكان حظ مصر فى هذا المضمار عظيماً ؛ فظهر جماعة من الرحالين الذين أنتجوا كتباً قيمة فى أدب الأسفار . منهم : رفاعة بك الطهطاوى ، وعلى باشا مبارك ، وأمين باشا فكرى ، والشيخ أحمد فارس الشدياق صاحب كتاب (الواسطة فى أخبار مالطة) وهو ممتع لذيذ . ومحمد لبيب البتانونى بك صاحب (الرحلة الحجازية) و (رحلة الأندلس) وغيرهما . وأمين الريحانى زعيم الرحالين فى العصر الحديث ، وقد ماتوا جميعاً إلى رحمة الله

أما الأحياء فنذكر منهم المكتشف الرحالة أحمد حسنين باشا صاحب (فى صحراء ليبيا) ، والأمير شكيب أرسلان صاحب (الحلل السندسية) ، والأساتذة : محمد ثابت ، وجميل خانكى المحامى ، وتوفيق حبيب ، ونزيه مسعد الصحافيين . أطال الله حياتهم

محمد عبد الغنى حسن

من مدهشات العلم الهندسي والصناعة الحربية

المدافع الثقيلة

للأستاذ عبد اللطيف حسن الشامى

لا شك فى أن مدفع برتا Berta الذى ظهر فى أواخر سنى حرب ١٤ — ١٨ من مدهشات العلم والصناعة . أراد الألمان به أن يعززوا هجومهم فى جبهة باريس بعد ما طال وقوفهم أمام استحكامات الحلفاء فى الخط الأخير فى الميدان الغربى . وهذا المدفع الضخم العظيم كان من تصميم ووضع البروفسور المهندس راوزنبرجر Rausenberger من حوالى عام ١٩٠٩ وأخرجته إلى حيز الوجود مصانع كروب فى مدينة إيسن بإقليم الرور الصناعى

واسطوانة هذا المدفع (الماسورة) من الصلب الكهربائى أى الصلب المصهور فى أفران كهربائيـة ويضاف إلى المعدن المصهور السائل بعض عينات من معادن كالمنجنيز وغيره تزيد فى صلابة السبيكة وشدة مراسها ومقاومتها للضغوط العظيمة واحتمال الحرارات العالية الناجمة من انفجار وخروج المقذوفات . وتصنع كذلك بعض أجزاء المدافع الأخرى التى عليها ضغوط أو رضوض أو ارتكازات هائلة من نفس المعدن النفيس السابق ذكره ؛ وأمر هذا المعدن من اختيار خاماته إلى صهره إلى حرارته إلى إضافات معدنية أخرى إلى صبه إلى تبريده من الأسرار الصناعية التى يُحرص على تكتمها

وكان لشدة انفجاره عند بدء تجربته فى تهديد استحكامات الحلفاء دوى مفزع وقمقمة شديدة وصلصلة مصمة وصفير حاد نافذ صارخ ، أخذ كل ذلك بألباب الجنود أول الامر وأفزعهم وأزهق منهم الأنفاس ، وأدخل الارتباك فى صفوفهم والذعر بينهم ، وتناقلته الألسن بالتهويل . أما آثار التخريب الحقيقية من وقوع القذائف على الأهداف فلم تكن مما يناسب هذه الأصوات المدوّية ، وإن كانت لبعد المرمى تصيب التحصينات الخلفية الأقل استعداداً . وأخذت قيادة الحلفاء بهذا الأمر على غرة فاستعدت له وأصلحت من آثار وقعه فى نفوس الجنود

ونظراً لبعد المرمى الذى يبلغ عشرات الكيلو مترات لا يمكن ضبط وتحديد الهدف ، وعدم سقوط كل قذيفة تاليـة على سابقتها . وتتعذر الرؤية ، وقد تسوء وقد تختلى ، ولا بد من ستر المدفع وإخفاء موقعه ؛ وهو يشغل مساحة كبيرة ويعلو فى الهواء ، فأمر تعميته وتغطية العمليات العسكرية التى حوله ليست أمراً مهلاً ؛ وهى اليوم من الفنون الحربية . وهو لا يشتغل دواماً برمى قذائفه بل لا بد من راحة طويلة بعد كل سويعات ، ولا بد من راحة أطول بعد كل عملية ، إذ الحرارة الشديدة لا يتسنى تلطيفها بسرعة ، وهى تقوّس من استقامة الاسطوانة . وكذلك التآكل المعدنى فى سطح الاسطوانة الداخلى نتيجة احتكاك وانزلاق المقذوفات وخروجها حلزونية ، وللترفيه كذلك وللتخفيف النفسانى عن الجنود القائمين بأمره

وسمى (برتا) باسم بنت أو أخت كروب الكبرى . وانتظر الألمان من وراء استعماله مفاجأة للعدو وآثار تخريب وتمهيد نفسانى ؛ ولكن برغم سقوط بعض القذائف فى باريس ودويّها فى ضواحيها ، فلم يتأت لهم جنى ثمرة مغرية من غرسه . وكانوا يودون نصبه فى كاليه ليضربوا منها الساحل الإنجليزى عند دوفر عبر بحر المانش ولم يدركوا هذه الأمنية كذلك . وإذا ما علمنا أن الألمان عند أول استعمال هذا المدفع أعوزتهم بعض أمور نقص فى البناء والتصميم والتركيب والحساب والخبرة وضيق الوقت والعجلة فى الصنع وحرج الموقف الحربى ، فيمكن القول إجمالاً بأن تجربته تمخضت عن فشل فى الخارج وفى الداخل . وإذا ما قدرنا ثمن أجزاء المدفع الباهظة ومعادنه النفيسة وثمن تشغيله وتضخم النقد وما علق الألمان عليه من آمال ، أدركنا قيمة سقوط هـذا المبتدع المخرب العظيم ، وانتهت الحرب

بانتهاء سنة ١٩١٨ على الوجه الذى نعلم جميعاً

غير أن الألمان أخذوا من الفشل درساً وعبرة ، ولم تعجزهم تضييق شرائط الهدنة والصلح ، حتى ولا سقوط النقد بعد الحرب والاضطراب السياسى ، عن متابعة التحسين ومداومة الإبداع والاستحداث سراً ، فأكملوا النقص وأصلحوا الأخطاء وصححوا المعايير الحسابية والأوزان الهندسية والنظريات العلمية والتراكيب المدنية ؛ وظهر مدفع برتا الثقيل من جديد فى مخابىء كاليه على الساحل الفرنسى المحتل يطل بفوهته على البحر ويرنو إلى الشاطئ الإنجليزى ، يقذف عليه الحمم ويصب النار والدمار تدله الطائرات بالاتصال اللاسلكى ، وكذلك السفن الصغيرة السريعة على مواقع الأهداف وعلى سرعة واتجاه القافلات البحرية

إلا أن الإنجليز من جانبهم كالوا للألمان صاعاً بصاع وقذيفة بقذيفة وطلقة مدوية بطلقة داوية ، فبهت الألمان وأدهشتهم المدفعية الإنجليزية الثقيلة . ولا بد من الانتظار حتى تنتهى هذه الحرب لنقول أى المحاربين كان لسلاحه أحسن استعمالاً وأدق تصويباً ، وأى مدفعية أحق بالذكر والخلود فى سجل مخربات حرب ١٩٣٩

ويعقب كل طلقة تمزق فى الهواء وتخلخل فيه واضطراب ، ويمتد أثر هذه الخلخلة المدمرة والضغوط الهوائية إلى وديان واسعة ، وينتشر أثرها المخرب إلى أبعاد مترامية . وعند أول استعمال هذا المدفع قضى على رجاله وطوح بهم ، فكانوا بعد ذلك يطلقونه بالاتصال الكهربائى بعد شحنه وهم محتمون بالخنادق الأرضية والغرف المحصنة . وحدث أن كان جنديان من جنود مراقبة الحلفاء واقفين على شجرة مرتفعة يرقبان حركات العدو ، أن هويا على رأسيهما من حالق أثر طلقة تمزق بعدها الهواء واندفع بقوة عاتية

ومع أن تكاليف هذا المدفع الثقيل باهظة وتشغيله يكلف الأموال الطائلة فإن أثره المخرب لا يوائم هذه المصاريف . إنما يقصد به زعزعة الروح المعنوية وانتشار الذعر والهلع والدهشة والانتفاض والإحراج والفوضى وبلبلة الأفكار والتهويل ، وهذه كلها تتطلب ثمناً ولا يقل أثرها فى الحرب عن أثر التخريب والتدمير . ويقصد كذلك دك الحصون القوية وأجزاء الجيش المحصنة داخل الأسوار وتحت الأقبية . وحدث فى الحرب الماضية أن وقف المنيرون الألمان أمام بعض الحصون البلجيكية التاريخية كنامور ولييج عاجزين عن سحق مقاومتها وتركوا أمر ذلك أخيراً لأعمال هذه المدافع . وحدث مثل هذا فى هذه الحرب . ولما تابع الألمان زحفهم لتطويق جيوش الحلفاء فى سهول الفلاندر قامت المدفعية الثقيلة فى البوارج بتغطية الانسحاب وتعجيز الألمان عن اللحاق بالمنسحبين . وكانت تقع القذيفة على الدبابة الهائلة فتنتثر أشلاءها وتصبحها فتاتاً . ولما قاومت فارسوفيا ورفضت التسليم طوقها الألمان بالمدافع الثقيلة فدكوا ربوعها وروعوا أهليها

ويحتاج المدفع الثقيل الواحد إلى ١٢ عربة نقل من عربات السكة الحديد ، وإلى ٥ عربات ذات بناء خاص لنقل الاسطوانة وغيرها من الأدوات الهامة ، وهو يزن ٨٨٫٧٥٠ كيلو جراماً (ثمانية وثمانون طناً وثلاثة أرباع الطن) . وتزن اسطوانته وحدها التى يبلغ قطرها الداخلى ٤٢ سنتيمتر أو ١٧ بوصة ٧٥٠٠ كيلو جرام (سبعة أطنان ونصف) . ويزن الترباس ١٢٥٠ كيلو جراماً (طناً وربع الطن) . وتزن كمية الخرطوش المتفجرة ثمانين كيلو جراماً ، وهى من المفرقعات ذات القيمة العالية والضغط الهائل ؛ وتشغل غازاتها وأبخرتها إثر الاحتراق والتسامى من حالة الصلابة إلى الغازية حيزاً كبيراً جداً . ويندفع لسان اللهب بعد الطلقة ويسير عشرين متراً ، كما ترتد الاسطوانة عقب كل انفجار مائة وستين سنتيمتراً إلى الوراء رغم صدها وفرملتها بإسطوانة تحوطها مليئة بالجليسرين والهواء المضغوط . وترتفع القذيفة (الدانة بالوصف العسكرى) فى الهواء إلى ستة آلاف متر ؛ ويحتاج المدفع الثقيل إلى ١٣٥ جندى لإدارته وتشغيله . والمدفع مصفح من الأمام بدرع متينة لحماية جنود

النيشان وضبط آلات الرصد . وتكلف الطلقة الواحدة ما يقرب من ألف جنيه . وتزن القذيفة تسمائة كيلو جرام

وتتطلب هذه الدافع أسساً قوية تتحمل الضغوط والرضوض والأثقال . فالأرضية منها تُبنى لها حصيرة من الاسمنت المسلح أو ظهر الحديد المصبوب فى قوالب . تربط هـذه القوالب بعضها وبحوطها سِياج من الحديد يضمها إلى بعضها ، وهى بهذا الوضع يمكن نقل أساساتها . أما المدافع الثقيلة فى البوارج البحرية فهى من الأعمال الهندسية الجبارة . وتحمل بعض وحدات الأسطول الإنجليزى من هـذه المدافع ما سمة قطر خوهته ١٤ بوصة من الداخل . وهى مُثبتة على ظهور السفن ذات السطوح المدرعة ، وروعى فيها الإقلال من الوزن قدر المستطاع لضمان حرية فى التوجيه والدوران أكبر ، وزوايا الارتفاع والانخفاض

وما دمنا قد ذكرنا بعض ما قامت به المدافع الثقيلة الأرضية من أعمال فى هـذه الحرب فلنعرض كذلك لبعض ما قامت به المدافع البحرية الثقيلة ولننوه بعملها الشاق ليل نهار فى الانسحاب الناجح من أوربا بعد تسليم الجيش البلجيكى ولندلل على البسالة فى بحار الشمال قبالة الساحل النرويجى . كما برهنت المدفعية البحرية الثقيلة فى الأسطول الإنجليزى على تقاليد عظيمة وهندسة عالية وفن راق فى مياه البلطيق والبِلت والاسكاجراك وفى البحر الأبيض مواجهة الساحل الليبى وفى البحر الأدرياتيكى مكنت لهندستها وصيتها ذيوعاً وإحقاقاً من ضرب العدو الإيطالى فى عقر بحره وفى وهران ودكار . وبعض أعمال البطولة البحرية والرماية المدفعية أكدتها رولبندى وجارفس بى وكوزاك وأشيل وأجاكس وسدنى . والمدفعية الساحلية الثقيلة فى جبل طارق ودكار وكاليه ودوفر وهى كلها آيات ناطقة بالمكنة الهندسية والمقدرة الصناعية وللعقل الإنسانى وصفحات عظيمة فى التاريخ الهندسى فى الجزء الخاص بالحرب

عبد اللطيف حسى الشامى

في مهرجان التاج

فاروق...

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

فلك بحبك في الشواطي دائر   أمل الحياة به عتي هادر...
رقصت له الأيام وازدحمت على   كفيه من سحر الخلود بشائر
وتنفس الوادي به، فكأنه   نغم من الفجر المهلل طائر
فإذا رأيت النيل قلت متوج   الدهر صولجه القوي القاهر!
وإذا رأيت الحقل قلت قصيدة   خضراء وقعها الربيع الساحر
وإذا رأيت الطير قلت ملائك   للحب في فمها نشيد طاهر!
وإذا رأيت الناس خلت بهم هوى   مما يحمله المشوق الساهر
مهج يرف بها سناك كأنها   ظمأ يدف إليه نبع زاخر
ودعاء ألسنة يكاد لطهره   ترفض منه على الوجود مجامر
ويكاد ينقله إلى شفة الربى   ويعيد نغمته الحمام الذاكر
وأكاد في موج الضفاف أرى له   رجعا يردده الرشاش الثائر
وأكاد أسمعه جنينا لم تذع   أصداء لجته إليك سرائر
أنا من عش الأسرار في كبد الدجى   والليل عراف الظلام محاذر
شعرا هو الدم لو لمست خياله   في الروح أحرقني الهدوء الساعر
أرسلت في فاروق آية حبه   إعجاز فن وحيه يتواتر
إن لم أذع للنجم سر جلاله   حتى يهيم به الشعاع الطائر
إن لم أرق لعلاه أحلام الضحى   حتى أرى الدنيا به تتسامر
إن لم يطر نغمي إليه على رؤى   بيضاء يحملها الصباح العاطر
إن لم أر الأفلاك تصغي لمزهري   وأنا أغني التاج ما أنا شاعر!
فاروق يا حادي العظائم في حمى   بك نجمه فوق العوالم سائر
في ضجة الأيام والدنيا غدت   بركان هول ناره تتطاير
والحرب عاجلت القيامة يومها   فمشت بها بين العباد تقامر
نقلت جهنم للشعوب وإنما   حمل الخطيئة في لظاه الطاهر
إن حل جاحمها بأرض أصبحت   وبها القصور الشاهقات مقابر
نشرت خريف الموت في ساحاتها   فجماجم الهلكى بهن أزاهر
ذبحت أمانيها على راحاتها   فغد المؤمل في هواها حائر
وغدا بها سيين في لهب الردى   ذو رحمة يخشى السماء وجائر
لا ترو للزيتون ذكرا عندها   فحديدها بالسلم جان كافر
دفنت شرائعها فضلل دهرها   في غيهب الطغيان شرع حائر
في ليلها الداجي ودون قتامه   خطو الرياح الهوج خطو عاثر
سطعت بك الأوطان شرق السنا   فجر البشائر من يمينك سافر
نشرت خطاك بها سكينة مؤمن   يحدوه بطش للعزيمة قادر!
أنى مشيت بدت بركبك آية   ليست لها في المالكين نظائر
حب مداه إلى القداسة ينتهي   لو كان للحب المقدس آخر!
أذكاه شعب في ظلالك سابح   يا طالما أغفى وطرفك ساهر!
أولست آسي جرحه من بعد ما   شقت بنار الخلف منه مرائر؟
أولست جامع شمله من بعد ما   أرداه في لهب الشقاق تنافر؟
أولست باعث جيله من رقدة   بوق النشور لها أنين عابر؟
أولست قائده لعصر أبيض   آيات ملكك في سماه منائر
أولست فجر اليائسين بشطه   وزمانهم كالليل داج عاكر
أولست من ماضيه بعثا أوشكت   أيام «فرعون» به تتفاخر
أولست للشرق المجرح بلسما   يا طالما بنداه قر الثائر؟
يأيها الأمل الفتي لأمة   كادت يشيبها الشباب السادر
قدها إلى الجوزاء أنت شبابها   ومعين حكمتها الدفيق الزاخر
واسبح بها فوق النجوم فطرفها   أبدا الحياة بنور عرشك ناظر
قالوا: وعيد التاج! قلت: تميمة   للنيل تنشدها ربى ومخاضر
إن هزت الأوتار فيه غناءها   وترنمت للشعب فيه قياثر
فأنا بقلبي جدول متدفق   بالشدو مشبوب الأغاني ثائر
الله ظلله، وكرم شدوه   تاج رعته من السماء مقادر

محمود حسن إسماعيل



آدمي ... !!

كان يوم رأيته آخر مرة فى الحقل يبدو مصفاراً مضموفاً لم تبق العلة فى وجهه غير أثر ضئيل مما كان يترقرق فيه من نضرة العافية ، ولم يدع السقم فى بدنه إلا بقية طفيفة مما كان يكمن فيه من فتوة الشباب ؛ وكان يجيل الفأس فى حركة أشبه بحركة الآلة البخارية نفد وقودها أو كاد فبدت كأنما أوهنها طول العمل

وألح عليه الداء فلم يبرح داره أياماً ؛ وساورتنى رغبة قوية أن أذهب لأعوده ، ولم أكن أعرف موضع بيته من القرية فاستصحبت من يدلنى عليه

مشيت دقيقتين أو ثلاثاً فيما يسمى فى القرية شارع « دائر الناحية » . ثم قادنى صاحبى إلى حارة لا يزيد اتساعها على ثلاثة أمتار أخذت تلتوى ، فأنعطف تارة نحو اليمين وطوراً صوب اليسار وأنا أمر على الجانبين بهاتيك المبانى المتلاصقة التى تتشابه فى كل شىء ، فى صغر منافذها وقلتها ، وفى حجم أبوابها ووضاعة مظهرها ، ثم فى هذه الأقراص الجافة المتخذة من روث الماشية والمرصوصة فوق هاماتها كأنها الأكاليل !

ولم أكن دخلت من قبل داراً من هاتيك الدور البائسة ، ولم أر إحداها من الداخل إلا بالنظرة العابرة حين أمر بباب مفتوح من تلك الأبواب القبيحة التى تزين صدر كل منها ضبة أشد قبحاً منه

ووجدتنى فى فناء دار ذلك المريض الذى جئت لأعوده ، وهو فناء لا يزيد اتساعه كثيراً على ثلاثة أمتار فى مثلها ، فى ناحية منه مصطبة عليها جرة من تلك الجرار التى يحمل فيها الماء من الترعة ؛ وإلى جانب المصطبة موقد من الطين أحسب أنه لم توقد فيه نار من زمن طويل فلا أثر للرماد فيه ؛ وفى ناحية أخرى من الفناء وقفت جاموسة عجفاء هى أثمن ما فى الدار من متاع ، بل هى أصل ما فى الدار من متاع ، وعليها وحدها يتوقف ما فيها من معيشة . وكانت أرض الفناء إلا مساحة قليلة مبللة بالماء الذى ينساب إليها من فوق المصطبة حيناً ومن تحت الجاموسة أحياناً !

ودهشت زوجة المريض أن رأتنا وأخذتها ربكة حتى ما تجد كلاماً تقوله ، وبدت الدهشة فى عينيها وفى وجهها وفى ارتعاش أطرافها وتعثر خطواتها وهى تشير إلى القاعة التى يرقد فيها زوجها ... وما كنا لنخطئ تلك القاعة لو لم تدلنا عليها ، فلم يك أمامنا غير باب تحكم إغلاقه ضبة عتيقة ، وآخر انفرج قليلاً ؛ وليس مما يجوز فى العقل أن تلك الضبة العتيقة ، تغلق الباب دون المريض ، فليس إلى حبسه سبب ظاهر أو خفى فيما نعلم ...

وأسرعت المرأة أمامنا فدخلت قاعة المريض تخبره بمجيئنا . وتألمت إذ أدركت أنه سيحاول القيام ، فأسرعت فى إثرها لأقسم عليه ألا يفعل ؛ ودخلت ولكنى لم أره أول الأمر ، فالقاعة مظلمة لا يدخلها نور النهار إلا من كوة صغيرة قرب السقف

وسمعت صوتاً يئن ويقول فى إعياء وهمود بالغين : « كتر خيرك يا سيدى ... الحمد لله ... الله يخليك يارب ولا يريك اللى أنا فيه »

وحركت نبرات ذلك الصوت نفسى من أعماقها ، وخيل إلىّ أنى داخل قبر أستمع إلى صوت آدمى عادت إليه الحياة منذ لحظة ، فهو لطول عهده بالصمت لا يستطيع إخراج الألفاظ إلا فى عسر شديد ... وكاد يغلب الخيال يقينى ، فرحت أستمع إلى ذلك الأنين المؤلم ، وفى وهمى أنه يخلص إلى من تحت الأرض

ولكنى رأيت الرجل حينما اعتادت النظر فى الظلمة عيناى فسألته عما به ؛ فأشار إلى فخذه واسترسل فى أنينه . وقالت امرأته وهى تحبس دمعها : « بعيد عنك ، طالع له طلوع فى فخذه وجسمه سخن زى النار »

ونظرت فرأيت الرجل ممدداً على التراب ، فليس تحت جسده فرش ما ولا تحت رأسه وسادة اللهم إلا خرقة قديمة كورتها له امرأته . وعاد الخيال يغرينى أنه ميت بعث ، وأنه برز من جوف الأرض ، حتى لقد توهمت أنى أرى خضرة الكفن فيما تهدل على جسده الهزيل من ثياب !

ونظرت حولى فى القاعة ، فلم أجد غير بعض الحبال ومنجل وفأس فى زاوية ، فوثبت إلى ذهنى صورة أخرى من صور الموت فقد كان آباؤنا الأقدمون يضمون مع الميت فى قبره متاع دنياه !

وخرجت أستدعى الطبيب وخلفى زوجة المريض تقول فى نبرات حزينة : « حصلت البركة ، مستعجل ليه يا سيدى ، خليك نذبح لك خروف »

أيها التعساء البائسون ! إن بهائم سادتكم الذين يسخرون مثلكم فى فلاحة الأرض لأسعد حالاً منكم ، ومع ذلك فأنتم آدميون كما أنهم آدميون !

الخفيف

مختارات من مراثي مسعود

من قصيدة الأستاذ محمد مصطفى الماحي :

مسعود يا علم الفصحى ومنجدها ... ومرسل النور في أيامها الجون
ويا مجيل اليراع العف في صحف ... برئن من غمزات المطمح الدون
وكم عكفت على بحث كشفت به ... ما حير الناس من سر الدهاقين
إذا تغشت صحيح الرأي غاشية ... جليتها برهيف الحد مسنون
وإن تكشف عن رعناء جائرة ... خصم تكشفت عن حق وعن لين
ما العلم مجداً إذا لم يحمه خلق ... ولا الإخاء على حقد بمضمون
فارقت دنيا تبدت في مفاتنها ... لكل غر هواه القلب مفتون
لا الخل فيها بموف في مواثقه ... ولا الصديق على سر بمأمون
بغى القوي وكم للبغي من صور ... ذاق الضعيف بها شتى الأفانين
وأصبح الناس فوضى لا منار لهم ... ولا مدبر من عقل ومن دين
وأطبق الشر حتى عاد أحزمهم ... يمضي برأي من الأهواء مأفون
لا يؤمنون وإن لانت قناتهم ... وكيف تؤمن غرات الشياطين
فمن مداج رمى عن قوسه عجباً ... من النقيضين: تمكين وتوهين
ومستبد رمى الدنيا بآبدة ... كأنما هي أفواه البراكين
في لمحة الطرف أمسى أهلها سيراً ... ما بين محترق منهم ومطعون
فبات ظاهر ما فوق التراب صدى ... لكل ناء من الماضين مدفون
وبات باطن ما تحت التراب حمى ... يأوي إلى غوره شم العرانين !
لم ينج في سبح الأفلاك معتصم ... من البلاء ولا في مسبح النون
ويل الحضارة باتت لا تطالعنا ... إلا بفن إلى الآثام مقرون
ومرحباً بالوحوش الضاريات ففي ... جوارهن أمان غير موهون
هل غاية العلم أن تشقى النفوس به ... وأن تسام عذاب الخسف والهون
وأن يعيش ذووه عيشة نكدا ... طاوين ما بين محروم ومسجون
فاهنأ بتركك داراً لا قرار لها ... ما كان تاركها يوماً بمغبون

ومن قصيدة الأستاذ محمد الأسمر :

أمسعود خانتني القافيات ... وحبل القوافي لدي اضطرب
وماذا تقول بحور القصيد ... وطوفان قولك شيء عجب
يعب ففي الصحف من موجه ... على كل أرض وبحر لجب
كتابة مطلع قادر ... دءوب وليس يمل الدأب
خبير بأبحاثه صادق ... تراه مع الحق أنى ذهب
وكم كاتب لا يعي ما يقول ... وآخر لا يتحاشى الكذب
وكم كاتب ليس همٌّ له ... سوى أن يقال فلان كتب
وكم كاتب همه كسبه ... ولو كسب العار فيما كسب
يرى أبداً مسرجاً ملجماً ... رهين الإشارة ، تحت الطلب
فيا ضيعة الحق بين العبيد : ... عبيد الهوى ، وعبيد الذهب

ومن قصيدة الأستاذ حسين شفيق المصري :

أمسعود هات تحدث إلينا ... فإن لك السمر المشتهى
تحدث إلينا عن العادلين ... من المالكين وعمن بغى
فعندك أخبارهم كيف كانوا ... ومن للضلال ومن للهدى
تحدث إلينا بهم في العصور ... وعد في الحديث بنا القهقرى
إلى عهد مينا الذي كان أو ... ل من عرف الناس ممن علا
أرى الناس من قبل مينا توالت ... عليهم دهور وطال المدى
وما جهلنا بقدامى الأناسي ... جاعلهم يذهبون سدى
أما كان في الأرض ملك كبير ... يدين لملك شديد القوى
بلى كان فيها ممالك بادت ... وباد الذي ملكت وانمحى
فزالت مساكنهم والقبور ... وآثارهم ، كزوال الرؤى
وما الدهر إلا سحاب تمر ... فعهد يجيء وعهد مضى
ومن تلد الأرض تأكله إما ... شواء وغى أو قديد ضنى
أما في ظلال السلام الردى ... كما هو تحت قتام الوغى
رويد الجحافل فيم القتال ... وفي اللهو قتل لهذا الورى
وهذا الغرور إذا ران يوماً ... على مبصر فالنهار دجى
وليس بعينيه ما يشتكى ... ولكن عمى القلب شر العمى
ومن يغترر يحسب الناس عبدا ... نه وقديماً أتيلا طغى
وكان هلاكو ظلوماً جهولاً ... ونيرون كان يبيد القرى
وكانت جيوش تلاقي جيوشاً ... بضرب يذيب غلاظ الكلى
فمات الكمي وملقي السلاح ... وجاء الفناء على ذا وذا
فلم يبق مستضعف مستكين ... يخال الحضيض له مرتقى
ولم يبق ذو مرة مستبد ... يدوس بنعليه هام العلى
ولولا الردى في صروف الحروب ... لكان الردى في صنوف المنى



علاقة الكهرب بالأثير

للأستاذ حسين عباس قائدبيه

ما هي علاقة الكهرب بالأثير ؟

أهي مباشرة أم غير مباشرة ؟ وهل يمكن وجود أحدهما بدون الآخر ؟

وهل يوجد مصدر لحركة هذه الكهارب ؟

هذه أسئلة لا بد أن تعترض الباحث فى هذا الموضوع الغامض ؛ ويمكن الجواب عنها كما يلى :

نحن نعلم أن الكهرب يسير فى فلكه حول النواة بانتظام ، كما تسير الأرض حول الشمس لحفظ كيانها ، وإذا غادر هذا الكهرب مركزه لسبب ما من الأسباب اختلّ توازن الذرة .

ونعلم أيضاً أن الأمواج الكهرطيسية لا تنتشر فى الفضاء إن لم تقذفها الكهارب ؛ وأشعة الراديوم الخارقة ليست سوى فيالق من الكهارب المنطلقة من ذراته .

فإذا انطلقت الكهارب من أفلاكها ، أحدثت ارتجاجاً أو تموجاً فى الأثير . ومن الثابت أنه لا يمكن إحداث تموجات ضوئية فى الأثير بدون انفصال الكهارب وانطلاقها من مراكزها

والارتجاج الذى يحدث فى الأثير من انطلاق الكهارب من مراكزها ، حالة من حالات الأثير غير الاعتيادية ، كما أن انطلاق الكهارب من مراكزها ، حركة من حركات الكهارب غير الاعتيادية ؛ فعند ما تكون الكهارب فى حالتها الاعتيادية سائرة فى أفلاكها بحركتها الدائمة المنتظمة حول النواة ، يكون الأثير فى حالته الاعتيادية المنتظمة

ومن الثابت أن الكهارب تدور حول النواة باستمرار وانتظام ، وأن الفراغ الموجود بين الكهارب والنواة ، يشبه الفراغ الموجود بين الأرض والشمس ؛ كما أن الأرض تدور حول الشمس بقوة جاذبية الشمس ، والفراغ الموجود بين الأرض والشمس تدل عليه بالأثير

إذن يمكن الاعتقاد بأن حركة الكهارب حول النواة ليس لها علاقة مباشرة بجاذبية الأرض والشمس ؛ وإنما هى نظام خاص محصور بالمادة ؛ ولكن الفراغ الموجود بين الكهارب والنواة يشبه إلى حد ما الفراغ الموجود بين الأرض والشمس

وعليه يمكن القول بأن الأثير الذى يشغل فراغ الكون ، هو نفس الأثير الذى يشغل فراغ المادة ، ونحن إذ نلمس المادة إنما نلمس الأثير ، لأنه يملأ كل فراغ ، وكل المسافات بين أجزاء المادة ، إذن فالأثير هو شيء فى كل شيء : أو ليست السيارات والشموس والنجوم نقاطاً فى بحار الأثير

وبعد كل هذا أرى أن للكهارب صلة بالأثير ، وهذه الصلة إما مباشرة أو غير مباشرة ، وهذا الاتصال لا ندركه لأننا نجهل خواص الأثير وعمله ، ولكن نعلم أنه الرابط بين دقائق وأجزاء المادة . ومن صفات الأثير أنه لا يرى ولا يلمس ولا يسمع ولا يشم ولا يتحول ولا ينحل ، لا تؤثر فيه الحرارة ولا البرودة ، شديد الصلابة كثير الليونة ، تتحرك فيه المادة بدون مقاومة وبسهولة مطلقة . هذا كل ما يعرف وما يظهر من صفات الأثير

فإذا كانت حواسنا لا تدرك الأثير ، ألا يمكن أن ندركه بالواسطة ؟ ولكن ما هى الواسطة التى تمكننا من الاطلاع على أسرار الأثير المحتجبة وراءها أسرار الكون بما فيه سر الحياة الغامض ؟ ! ويمكننى الإجابة عن هذا السؤال ببساطة : ربما كان الكهرب !

أقول ربما كان الكهرب أو ما يتفرع من الكهرب ، لأن العلم لم يجزم بأن الكهرب هو نهاية الصغر فى تركيب المادة ، ولا يحق له أن ينفى وجود دقيقة أخرى أصغر من الكهرب لها تأثير ما على حركته فى كيانه أو خارجاً عنه ، لأن النفى أصعب من الإثبات ، وسواء أكان هناك دقيقة أصغر منه أم لم يكن ، فلا بد من وجود صلة بين الكهرب والأثير

فالكهرب سبب كل حركة فى الكون ، واستمرار حركته

يرجع إلى الأثير ؛ وهو الذي سيكون المعتمد في الكشف عن أسرار الأثير

الكهرب لا علاقة له بالوقت (أنا أقصد الوقت الذي نعرفه نحن سكان الكرة الأرضية) ، لأن بإمكانه الانطلاق بسرعة النور تقريباً : — سرعة دوران الكهارب تختلف باختلاف الذرة المرافقة لها ، فذرة الإيدروجين مثلاً أصغر وأخف من جميع ذرات العناصر الاثنين والتسعين المعروفة ، وسرعة الكهرب الذي يدور حول نواة ذرة الإيدروجين تبلغ ٢١٠٠ كيلومتر في الثانية ، بينما سرعة الكهرب الذي يدور حول نواة ذرة الأيرانيوم تبلغ ١٩٠ ألف كيلومتر في الثانية . ومهما كانت ظروف الكهارب مناسبة فقد لا تتجاوز سرعتها الـ ٢٠٠ ألف كيلومتر في الثانية أي ما يعادل ثلثي سرعة النور

وحسب نظرية النسبية العامة « لاينشتين » — التي اعتقد بصحتها — فإن كل جسم يسير بهذه السرعة — أي سرعة النور أو ما يقاربها — يعتبر الوقت لهذا الجسم صفراً

وعليه يمكن القول بأن القرون والدهور في عرفنا ليست إزاء الكهرب سوى لحظة . نحن نستعمل الأوقات والقياسات حسب المكان والزمان الذي يحيط بنا والذي تدركه حواسنا ، وبالنسبة إلى السرعة التي نسير بها في الفضاء وهي ١٨ ميلاً في الثانية ، فما هي نسبة الأوقات والقياسات المستعملة لمن يسير بسرعة النور؟

نحن لنا حواس خمس ، أيمكن بهذه الحواس الخمس أن نصل إلى أعماق أسرار الكون ؟ وهل يقتضى للمعرفة الشاملة خمس حواس فقط ؟ وهل هناك ما لا يمكن إدراكه بهذه الحواس الخمس ؟

في الأثير أسرار عظيمة محجوبة ، وهو القابض على زمام الحركة في الكون ، وفي عبابه سر الأسرار الذي يتطلع إليه الإنسان بلهفة وحسرة ، وهو كمن عرف مقر الكنز الثمين ، ولكنه يجهل كلمة السر التي يفتح بها الكنز ؛ فمن يا ترى سيحمل إلى العالم كلمة السر هذه ؟

إذا نفحنا الدهر برسول يحمل إلى العالم كلمة السر التي يفتح بها كنز الأسرار ، فمنذ ذلك الرسول سيكون الجواب الفصل .

نحن نقول إن الأرض مضى على وجودها ملايين السنين ، ولكن الكهرب ينكر علينا هذا القول . أليس من المدهش أن نثبت بالبرهان حسب التواريخ والآثار أنه مضى على وجودنا على الأرض ألوف ومئات الألوف من السنين ، ثم يأتي الكهرب فينكر علينا هذه الحقيقة ! أو ليس من العجب العجاب أن نسمع الكهرب يقول — لو كان للكهرب لسان — بأننا خلقنا الآن !

لا شك بأنه شاهد سيارات غير هذه التي نعرفها وقد اندثرت وربما شيدت هذه السيارات التي نعرفها من بقايا تلك ؛ والساعة التي تنتقل فيها هذه الكرة الأرضية من حالة إلى حالة يراها الكهرب كما نشاهد نحن الرؤيا

هو يسير منذ الأزل ويقطع فيافي الأزمان والدهور ، وسيبقى إلى الأبد يتخطى رحاب الكون في حركته الدائمة وسرعته التي لا يحصرها الوقت ، يقع على هذا النجم ويصطدم بذاك ، ويمر الآخر ، ويدمر الذي بعده ليجعل منه مذنبات ونيازك يبعثها إلى العوالم الأخرى ، ليدل على وجوده ودوام حركته السرمدية

« عين عنوب — لبنان » حسين عباس قاسم



الملاح التائه

وأخيراً عاد (الملاح التائه) إلى مرفإه الأول يتزود من روح خالقه ويزداد. عاد وهو ينشد دعاء سيده للشاعر لحبيبه الهاجر:

فاجعل للبحر أماناً حوله   واملأ السهل سلاماً وليفاعا
وقُد الفُلك إلى بر الرضى   وانشر الحب على الفُلك شِراعا

ولله ما لقى الملاح التائه تحت الشراع المضطرب على تبيج البحر المائج من تصاوير الشر وتهاويل الموت! كان زورقه الفضى الراقص ينساب بين الغواصات والمدمرات والبوارج كما تنساب عروس الماء بين عمالقة التماسيح والتنانين في نهر العدم. كان نشيده في وسط الزعازع كصوت السلام في وغى الحرب. وكلمة السلام لا تبيد ولا تخفت لأنها من الحق وإلى الأبد. وهي على كل حال وفي كل وقت حجة في فم الطاغية الفاتك يبرر بها الحرب الضروس، كما يحلل الذابح بذكر الله الدم المسفوح!

ليس (الملاح التائه) قصائد أجراها على طه على بحور الخليل؛ وإنما هو نبضات قلب، وخلجات نفس، ولفتات ذهن، صاغها الفنان الموهوب أناشيد يرددها المجهودون والمعمودون ومن شق عليهم أن يبصروا ومضات المنار على خضم الحياة

صاغها أناشيد يتسع الخيال فيها اتساع اللانهاية، ويعمق الفكر فيها عمق الأزل، ثم نميها ألفاظ مونقة متخيرة كزهرات الطاقة المفوّفة نسقتها يد عاشقة شاعرة

كان ديوان (الملاح التائه[1]) يوم ظهر في طبعته الأولى حادثاً أدبياً استفاض حوله الحديث، واستطال به الشعر، وانتعش على حسابه النقد. ومن النادر أن نال شاعر ما نال على طه من تقدير أعيان الأدب وتكريم أقطاب الصحافة. ذلك لأن على طه شاعر بالمعنى الأخص الذي تريده السليقة والصنعة من لفظ الشعر. واليوم يظهر في طبعته الثانية على فترة يسيرة من ظهور شقيقه (ليالي الملاح التائه) فيضخُم ويعظُم بالدواوين ديوان الألحان في موسيقى الشعر الحديث.

الزيات

مسابقة القصة

ذكرنا من قبل ما علمناه عن المسابقة القصصية التي تعتزمها وزراة المعارف. ونزيد اليوم أن معالي الوزير قد أصدر قراراً وزارياً بذلك؛ وهذا نصه:

تحتاج وزارة المعارف إلى قصة مصرية في نحو مائتين وخمسين أو ثلثمائة صفحة يكون موضوعها مصرياً من أحداث التاريخ الماضية أو وقائع الحياة المصرية، وأن تكون في مستوى المثقف المتوسط صالحة بذلك لأن يقرأها تلاميذ المدارس الثانوية وتلميذاتها داخل المدرسة وخارجها، وأن تكون خالية مما ينبغي أن يتسون عنه الشبان والشابات، وأن تكون في لغة سهلة بأسلوب عربي صحيح تستسيغه جمهرة المثقفين، وبألفاظ واضحة لا يحتاج قارئها إلى معجم. وتترك لغة الحوار فيها إلى ذوق الكاتب وحسن مسلكه

وستمنح الوزارة الفائز الأول جائزة قدرها مائة جنيه، والفائز الثاني ٧٥ جنيهاً، والثالث خمسين جنيهاً. وإذا تبين للوزارة صلاحية القصة لأن تقرر في المدارس للمطالعة فهي مستعدة لشراء حق تأليفها وفق القواعد المرعية

في تأبين محمد مسعود بك

كان حفلاً أدبياً رائعاً حفلُ تأبين المغفور له الأستاذ محمد مسعود بحديقة الأزبكية مساء الأربعاء ٣٠ أبريل، سمعنا فيه من غرر المنظوم والمنثور، ما الفقيد به جدير.

واسمحوا لي أن أسجل هنا ظاهرتين غريبتين لفتتا نظرى في هذا الحفل.

الأولى أن أكثر ما سمعناه من الشعر — على جودته — كان أميل إلى الصنعة والتقليد، فيه من التشبه بالقدماء أو المحدثين الشيء الكثير. فقصيدة الأستاذ حسين شفيق المصري هي هي مقصورة ابن دُرَيْد المشهورة معانيَ وألفاظاً وقوافيَ، وقصيدة

(١) «الملاح التائه» يشبه «ليالي الملاح التائه» في الطبع والورق والغلاف. فأكتفت إحدى الزميلات بهذه النظرة الخادعة فلم تقرأ العنوان وقرظت الملاح التائه على أنه ليالي الملاح التائه!

الأستاذ الأسمر هي هي (وحقك أنت المنى والطلب) قافية وبحراً بل ... ولفظاً . يحضرني منها :

وماذا تقول بحور القريض وطوفان يحرك شيء عجب

أو نحو من ذلك .

أما قصيدة الأستاذ الساحي فلعلها القصيدة التي انفردت بالطبع وقلة الصنعة ، ويلوح لي أنها وليدة نفس فجعها المصاب أكثر مما فجع غيرها

هذا وإن لدى ميزاناً قلما يخطئ في نقد الشعر كان عمدتي في هذا الحكم . أما هذا الميزان فهو أني أقرأ الأبيات الثلاثة أو الأربعة بإمعان ثم أنكس الصحيفة وأمتحن ذاكرتي ، فكل بيت يحضرني فهو — عندي — جيد وإلا فلا

ولقد انصرفت من هذا الحفل وفي خيالي صدى يتجاوب لأبيات من قصيدة الساحي منها :

لم أنس قولك في حفل سمعت به
شعري وقد كنت تطريه وتطريني
أجدت صوغ المراثي في أحبتنا فهل تراك إذا ما مت ترثيني ؟
لبيك مسعود ... ... الخ

ألا ترى الصدق والطبع في هذا الشعر على بساطته ؟

أما الظاهرة الأخرى ففي كلمة الأستاذ كامل كيلاني ؛ ولا أدري إن كان غيري تنبه لها

ذلك أنه وقف فقال أول ما قال : « لقد ألم الذين سبقوني من الخطباء بما كنت أريد أن أقول ، ولم يبق إلا الذي لم أكن أريد أن أقول ، وهو ما سأقوله الآن » . ثم إن الأستاذ أخرج أوراقاً وأخذ يتلو منها رثاءه وذكرياته عن محمد مسعود ؛ ومضى يتلو من هذه الأوراق فصولاً من (رسالة الغفران) لشيخ المعرة ليدلل على أن مسعوداً لن يفوته الاشتغال بالتأليف والتصنيف في قبره

فليت شعري ... هل أوحى الله إلى كامل كيلاني بما لن يقوله الخطباء فأعده ليلقيه من أوراقه ... ؟ أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً ؟

« حدائق القبة » محمد محمد رضوان
المدرس بالمدرسة النموذجية

زناني :

في العدد (٤٠٩) من « الرسالة » الغراء مقال للدكتور زكي مبارك ذكر فيه : « الشاعر المصري المجهول الشيخ أحمد زناني » ، « الشاعر الذي جهله المصريون وعرفه العراقيون »

فليأذن لي حضرة الدكتور أن أنبهه على أن الشاعر الذي يعنيه هو الشيخ عثمان زناني الذي درس في الأزهر ، وسلخ وقتاً غير قصير من حياته مدرساً للغة العربية بالمدرسة الحربية ، ولا يزال كثير من أصفيائه يتحدثون بمناقبه ، ويروون شعره ، ويتمثلون به

وكان رحمه الله بين الفئة الممتازة من شعرائنا الذين ازدانت بهم أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن

ولم يبالغ الشيخ محمد المهدي في أن عدّه (الشاعر الثاني بعد شوقي) ؛ فقد رُويت لي منذ حقبة طويلة بعض قصائده ومقطوعاته ، فأحسست من الرصانة والجزالة شيئاً كثير الشبه بشعر المتنبي والبحتري وأبي تمام . وليتني كنت قد دونت إذ ذاك ما سمعت ؛ فإني والله لشديد الأسف على أن أفلتت مني هذه الفرصة . على أني عظيم الرجاء أن يُتاح لأنجاله (وهم — على ما بلغني — من صفوة المثقفين) أن ينشروا هذا التراث ، حتى يضيفوا إلى ثروتنا الشعرية — في تلك الحقبة من تاريخ الأدب — فناً ممتازاً

أما الشيخ أحمد زناني بك فأخو شاعرنا ؛ وكان (أحد أساتذة اللغة العربية) ، كما قال الدكتور ، وتخرج في دار العلوم لنحو خمس وأربعين سنة خلت . فالتحق بخدمة سمو الخديو عباس حلمي ، فعينه ناظراً لمدرسة « القبة » التي أنشأها على غرار المدارس الأولية الآن ، ليتعلم بها بعض أطفال الطبقة الراقية في ذلك الحي . وكأني أذكر أن سمو الأمير محمد عبد المنعم تعلم بها فترة غير طويلة

وكان أحمد زناني بك — إلى هذا — من ذوي المكانة والحظوة عند سمو الخديو ، يشاوره ويجالسه ، ويصحبه في رحلاته الصيفية إلى الآستانة وأوربا

ثم ألقى عصا التسيار في الرحلة الأخيرة من حياته العلمية

بوزارة المعارف ، فعمل فى التفتيش ، وتوفى سنة ١٩٢٩ قبل أن يحال إلى المعاش ، وتوفى الشيخ عثمان بعده بنحو خمس سنوات ، على ما أخبرت

وكان الشيخ أحمد زناتى بك من دماثة الأخلاق وحميد الخلال بالمنزلة السامية ؛ كما كان مضرب المثل فى جمال البزة وطلاقة المحيا . ولقد خالطته طويلاً ، فما رأيته مرة عابساً ولا مكتئباً ولا مضطرباً . وهذا نادر فى الرجال

رحم الله الأخوين الكريمين وأجزل ثوابهما .

(ا . ع)

توجيه وأمل

سيدى الأستاذ الزيات

تطالعنا فى رسالتك الغراء ببحوث ممتعة ناضجة ، تحلق فيها بفكرة سابحة جوالة ، وتصقلها بعقلك المتزن الحصيف ، ثم تُنمقها بقلم فى يدك برته لك المواهب الممتازة التى خصك به وبها حكيم عليم

وتحمل إلينا فى رسالتك فصولاً رائعة فاتنة ييممها إلينا من طريقك أولئك العباقرة الأفذاذ ، والكتاب النابغون العلماء : تقتطفون الزهرات الفياحة من مختلف الرياض ، وتلتمسون لنا فى رحاب أفكاركم الفسيحة ما تنفسون به روح الحياة العلمية ، وتبردون غلة النفوس الصادية

لك يا أستاذنا العظيم ، ولهؤلاء الصفوة الأخيار ، من : الدكتور منصور فهمى بك ، والدكتور زكي مبارك اللبق ، والأستاذ الكبير العقاد ، ومن هم أصحاب فضل علينا وعلى الناس فى إبلاغ صوت « الرسالة » ندياً إلى الآذان من أسبوع إلى أسبوع ... لكم الإحساس المرهف والتقدير الصادق والصوت المسموع ؛ وفى أيديكم الأقلام ، وعندكم الغيرة ، وفيكم الإقدام

وقد عالجتم ولا تزالون تعالجون الكثير من نقائص المجتمع ، وبحثتم ولا تزالون تبحثون عن مواضع الداء لتطبوها بما توفر لكم من قدرة وما وهبكم الله من حكمة

غير أن شيئاً واحداً هاماً لا أذكر للرسالة نظرة فيه ، ولا عناية به ، وهو عندى وثيق الصلة بأغراض « الرسالة » ، وهدف كان ولا يزال مما يسر النفوس أن تأخذوا بالأسباب فى إصلاحه ، ذلك هو شأن الحياة الزوجية فى مصر وما أحاط بها من سوء تأصلت جذوره وتشعبت فروعه ، حتى باتت مهددة بالزهادة فيها من شباب الجيل الحاضر

أظنكم فى غير حاجة إلى ما دب فى نفوس الكثرة المتعلمة من كراهية للبناء العائلى ، حتى سرت عدوى ذلك إلى الكبار ، أو هى منهم بادئة ، وسرت إلى الصغار أخيراً

يقول الناس : إن التفكير فى هذا إنما يعنى ويتصل برجال الدين وعليهم الدعاوة له ؛ فإن يكن هذا حقاً : أفتكون الرسالة فى معزل عن الإدلاء بصوتها فى شأن يتصل أكثر الصلة بالدين ؟ ما أظن .

على أن المسألة فيما أعتقد مسألة اجتماعية ، وما تكون للدين عناية بها إلا لأنها أساس الاجتماع ؛ وأنتم فى غنى عن هذا ، بل فى تعرض له الآن تطاول عليكم ، وإنما يكون التعرض لقوم يجهلون

شجعنى على كتابة هذا إليكم وفى هذا الشأن بخصوصه أمور ثلاثة :

١ — ما نراه يتفشى من مرض العزوبة مع ما يلحقه من تلاعب فى الحياة بين الأزواج

٢ — أننى بالذات تحدثت عن هذا فى نبذة قصيرة بالإذاعة منذ أسبوعين ، فتلقيت رسائل جمة تستحثنى على الكلام كثيراً فى هذا مما يدل على أن الأسرة المصرية فى مضض وبحاجة إلى من يتعطف عليها بنظرة إصلاح

٣ — أننا قرأنا للدكتور منصور بك فهمى كلاماً غاية فى الجودة والصدق عن حالة المرأة فى مصر ، فهل له ولك أن تمدا الحديث إلى هذه الناحية قياماً بحق « الرسالة » عليكما للناس ؟ إنا لمنتظرون ، والسلام

(ع . ف)

مدرس فى كلية الشريعة

أسبوع الفنون الجميلة

كان الأسبوع الأخير من شهر إبريل الفائت أسبوع الفنون الجميلة حقاً ، فلقد تفضل مولانا الملك حفظه الله فافتتح معرض محبي الفنون الجميلة الحادى والعشرين الذى أقيم بسراى الفنون الجميلة ، وذلك فى صباح السبت ٢٦ إبريل الماضى ، ولقد دل ذلك على حب جلالة الملك للفن وعطفه على المشتغلين به ، وإن أسرة الفنون الجميلة العليا لتتقدم إلى جلالته بأسمى آيات الشكر والولاء

كما كان الأسبوع الأخير من شهر إبريل هو أيضاً أسبوع مختار الفنان المثال، فقد أقيمت مسابقة للتصوير والنحت، وقد تفضلت السيدة هدى هانم شعراوى فتبرعت بجوائز مسابقة النحت كما تفضل صاحب العزة محمد بك ذو الفقار فتبرع بجوائز التصوير. وقد تكرم صاحب المعالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا فافتتح المعرض الذي أقيم في بهو المعرض بفندق الكونتننتال وذلك في يوم الخميس ٢٤ من إبريل الماضي ...

مسابقة مختار وفيس

أعلن منذ أكثر من شهر عن هذه المسابقة للنحت والتصوير وكان موضوعها (عروس النيل) فتقدم الكثير من المصورين الشبان بلوحات ذات موضوعات جميلة، كما تقدم الكثير من المثالين بتماثيل فنية تبشر بنهضة في فن النحت. وقد فاز بالجائزة الأولى في التصوير الأستاذ عبد العزيز خالد درويش وقدرها عشرة جنيهات، وفاز بالجائزة الثانية وقدرها خمسة جنيهات الأستاذ علي كامل الديب. وفاز بالجائزة الأولى في فن النحت الأستاذ فتحي محمود علي وقدرها ٢٠ جنيهاً، وفازت بالجائزة الثانية السيدة فريدة كساب وقدرها ١٥ جنيهاً

ولقد أعجبتني كثيراً فكرة الأستاذ عبد العزيز خالد درويش فقد رسم منظر النيل ورسم العروس في مركب وحولها أشخاص يزفونها، بينما تخيل النيل في هيئة رجل وقف على الشاطئ في انتظار عروسه، فوفق إلى حد كبير في إظهار فكرته، فنهنئ الأستاذ درويش على توفيقه

معرض محبي الفنون الجميلة

أقيم هذا المعرض كالمعتاد بسراى الفنون الجميلة بشارع مجلس النواب وقد تبين من هذا المعرض تقدم محسوس للفنون في هذا العام، فقد اشتمل على أكثر من خمسمائة لوحة، ويسرني أن أسجل هنا الهمة المشكورة التي بذلها مدير وأساتذة وطلاب مدرسة الفنون الجميلة العليا. فقد قام بتنظيم المعرض وزخرفته الأستاذ حسين يوسف فوزي، وزين طلبة المدرسة السلم بمشاريع زخرفية جميلة. ولقد أعجبت بصور كثيرة أخص بالذكر منها صورة (المسيو جورج ريمون) مراقب الفنون الجميلة التي صورها وقدمها الأستاذ محمد بك حسن مدير مدرسة الفنون الجميلة العليا. كذلك أعجبتني صورة (الصديقان) للأستاذ الكبير يوسف كامل رئيس قسم التصوير بمدرسة الفنون الجميلة. وكذلك صورة (الدلالة) التي عرضها الأستاذ حسين محمود فوزي، و(اللبانة) من تصويره أيضاً وقد اشترتها وزارة المعارف العمومية، و(حياة القرية) للأستاذ صلاح الدين طاهر، و(فناء جامع) للأستاذ حسن البناني الرسام بدار الأوبرا الملكية، وكذلك قدمت الآنسة كوكب يوسف صورة طريفة أسمتها (سماد). ولقد أبدع الأستاذ محمود بك سعيد في لوحاته التي قدمها، وكذلك الأستاذ عبد العزيز خالد درويش في صورته (الرسام). هذا وقد زين الأستاذ صالح الشيتي بالفرقة القومية الصالة الخارجية للمعرض بمشاريع مسرحية مثالية كانت غاية في الإتقان والإبداع وقد اشترت معظمها وزارة المعارف

وقد أعجبني من التماثيل المعروضة تمثال المرحوم عبد الحميد بك سعيد من عمل النحات المشهور الأستاذ مصطفى متولى، وكذلك تماثيل الأستاذ السجيني. وعلى الجملة كان معرض هذا العام موفقاً إلى حد كبير؛ إذ ظهر منه النشاط الذي ساد شبابنا في هذه الأيام؛ ولكن يؤلمني حقاً أن أذكر هنا أن فتياتنا المصريات لم يقمن بما كنا ننتظره منهن؛ فإن مجهودهن لا يكاد يظهر في هذا المعرض

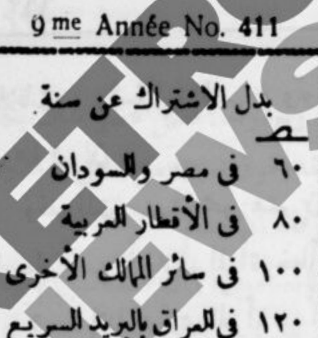
أحمد كمال غراسك

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)



9 me Année No. 411

Lundi - 19 - 5 - 1941



بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

السنة التاسعة « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٢ ربيع الآخير سنة ١٣٦٠ — الموافق ١٩ مايو سنة ١٩٤١ » العـــدد ٤١١

الفهـــــرس

مسألة الفقـــر

للأستاذ عباس محمود العقاد

سألنى الأستاذ زكى مبارك عن رأيى فى الخلاف القائم على مسألة الفقر بينه وبين الأساتذة : توفيق الحكيم ، وسلامة موسى ، وفكرى أباظة ، وبعض حضرات القراء

وخلاصة هذا الخلاف أن الدكتور زكى مبارك يرجح أن الفقر عقوبة مستحقة على شيء من القصور ، وأن مخالفيه يرجحون أن الفقر غلطة اجتماعية تصيب الناس من خلل فى « المجتمع » أكثر من إصابتها أيام من تقصير فى الجهود .

وعندنا نحن أن الفقر داء كسائر الأدواء : يصيب المريض به من إهماله كما يصيبه من ضعفه الموروث ، ويصيبه مع الحيطة إذا جرى مجرى الوباء الذى تنتشر عدواه ، كما يصيبه مع ترك الحيطة فى هذه الحال وفى غيرها من الأحوال

وليس فى وسع أحد أن يزعم أن ميزان المجتمع سليم من الخلل فى توزيع الأرزاق أو تقدير المكافآت على حسب الجهود . ففى كل أمة أغنياء لا يستحقون الغنى وفقراء لا يستحقون الفقر وإن تفاوت الخلل وتفاوت الجور وتفاوت السعى فى الإصلاح .

ولست أنا ممن ينكرون فضل البراعة المالية ، لأنها فى الحقيقة براعة لازمة لتأسيس المرافق الاجتماعية والأخلاق القومية وتنظيم

الملاقات ، واستشارة الهمم ، وتوزيع الأعمال التي لا يستبحر بغيرها عمران

وقد قلت منذ نحو عشرين سنة حين عرضت للبحث فيما يعاب من أخلاق المرأة خطأ وجهلاً بالبواعث النفسية :

« ... إننا قد نرى المرأة سبباً غير سائر الأسباب التي تغرى بحب المال وإعظام أصحابه : نرى أن كسب المال كان ولا يزال أسهل مسبار لاختبار قوة الرجل وحيلته ، وأدعى الظواهر إلى اجتذاب القلوب والأنظار ، واجتلاب الإعجاب والإكبار . فقد كان أغنى الرجال في القرون الأولى أقدرهم على الاستلاب وأجرأهم على الغارات وأحماهم أنفاً وأعزهم جاراً ، فكان الغنى قرين الشجاعة والقوة والحمية ، وعنواناً على شمائل الرجولة المحببة إلى النساء أو التي يجب أن تكون محببة إليهن . ثم تقدم الزمان فصار أغنى الرجال أصبرهم على احتمال المشاق وتجشم الأخطار والتمرس بأهوال السفر وطول الاغتراب ، وأقدرهم على ضبط النفس وحسن التدبير . فكان الغنى في هذا العصر قرين الشجاعة أيضاً وقوة الإرادة وعلو الهمة وصعوبة المراس . ثم تقدم الزمان فصار أغنى الرجال أبعدهم نظراً وأوسعهم حيلة وأكيسهم خلقاً وأصلبهم على المثابرة وأجلدهم على مباشرة الحياة ومعاملة الناس ، فكان الغنى في هذا العصر : قرين الثبات والنشاط ومتانة الخلق وجودة النظر في الأمور ؛ وهكذا تجد اكتساب المال الكثير في كل عصر دليلاً على فضل الرجل ، وعلاقة توحى إلى نفس المرأة ما يعين غريزتها على اختيار أجدر الرجال بحبها وأصلح الآباء لأبنائها. فلا تثريب عليها أن تختبر مزايا الرجل بهذا المسبار السهل القريب ، ولا لوم عليها أن تريد ثراء المال ولا تعدل به الفقر والفاقة ... »

فنحن لا نبخس البراعة المالية حقها ولا نغض من نفعها في باب الخدمة الاجتماعية ، ولا من دلالتها على الخلق والكفاءة العقلية ، ولكننا مطالبون في هذا العصر الحديث بإنقاذ المجتمع من الخلل الشديد الذي ألم بموازين الاقتصاد ومعايير الأرزاق حتى أصبح اقتناء الثروات ميسراً للمحتال والدجال الذي لا يعطى الناس بديلاً نافعاً يساوى الربح الغزير الذي يتدفق عليه . ولعلنا نتلطف في الأمر حين نقول إنه لا يعطى الناس بديلاً نافعاً وهو في الواقع يضرهم بمقدار ما يستفيد منهم ، ويحرمهم بمقدار ما يغدقون الرزق عليه طائعين أو كارهين

ومثل من هذه الأمثال أولئك السماسرة الآفاقون الذين يتواطأون على إشاعة الأراجيف، وإقلاق الأسواق، واللعب بأثمان الأسناد والأوراق ليسرقوا في ساعات ما تنقضى الأعمار دون الوصول إليه بالسعى الحلال أو بالسرقة على طريقة اللصوص الأقدمين

ومثل آخر من هذه الأمثال تلك الصفقات التي تنعقد في الهواء بغير مبادلة صحيحة في البيع والشراء ، وإنما هي استغلال لثقة الناس التي كسبها أولئك المستغلون بحكم مراكزهم الاجتماعية أو المالية لا بحكم الكفاءة والجهد وتثمير المال الحلال

وإذا ارتفعنا شيئاً فشيئاً من هذه الهوة الغائرة في قرارة الإجرام فقد نصل إلى الكفاءات القيمة التي تُعطى الناس ما ينفعهم ويسرهم ، ولكنها تتقاضاهم جزاء لهم أضعاف حقهم وأضعاف ما يحتاجون إليه لموالاة النفع والسرور

فإخراج رواية على اللوحة البيضاء عمل قد ينفع العقول ويدخل السرور على القلوب ، ولكن الدنيا تسرف جد الإسراف حين تشترى نفع الرواية وسرورها بمئات الألوف من الجنيهات وهي تضن بعشر معشار هذا على المآثر الإنسانية التي يتصل بها نفع أقوام وسرور أجيال

وأقبح من هذا أن تكون الألوف المؤلفة نصيب الرواية الماجنة المقيمة ولا تحظى ببعض هذا النصيب أجود الروايات وأحفلها بالمعارف والمتع والعظات ، أو يكون الجزاء الوافر حظ الممثل الذي لا يستحى أن يعرض رجولته للفضوليات من المتفرجات ، ولا يكتب هذا الحظ لنوابغ الفن وأفذاذ الرجال

هنالك خلل في الميزات لا نكران له ولا مناص من إصلاحه ، لأن الغبن فيه غبن الأمم ، والبلاء فيه بلاء الهمم ؛ وليس غبن فقير يشكو الفاقة ، أو بلاء ضعيف يطلب الرحمة والإنصاف

ولا نطمع أن يجيء اليوم الذي يتساوى فيه العمل والجزاء كل المساواة ، ويبطل فيه الخلل بطلاناً يمنع الحيف ويحقق العدل في كل تقدير ؛ فهذا مستحيل ، ولعله غير محمود في عقباه ، لأن الدوافع الحيوية إذا استقامت هذه الاستقامة خيف عليها أن تفقد الاندفاع الصالح والاندفاع الذميم على السواء

لكننا إذا استبعدنا الكمال المطلق فالنقص المطبق أولى منه بالإبعاد ، وبين المثل الأعلى والمثل الأدنى خطوات لا تعيا بها قدرة الإنسان ولا يجمل به أن يقعد عنها مكتوف اليدين مقيد الرجلين ،

وحاجة مصر إلى الجهد فى هذا الباب أعظم من حاجة بلاد كثيرات يعلو فيها صراخ لا يسمع له صدى فى هذه البلاد

وقوام الإصلاح فى مسألة الفقر على ما نرى أن نذكر الحقائق كلها ولا نكتفى بجانب واحد منها دون سائر جوانبها

أو الخير فى هذه المسألة أن نقرن كل حقيقة جامحة بحقيقة كابحة تساويها وتكف من غربها

فأول الحقائق فى مسألة الفقر أن حياة الإنسان كائناً ما كان أنفس من القوت والكساء ومطالب المعيشة ، وأنه ما من مخلوق آدمى يعجز عن تقديم خدمة تكافئ ثمن قوته وكسائه ومطالب عيشه . فإذا هلك إنسان جوعاً أو عرياً ففى تقسيم الأعمال نقص يستدركه المصلحون والمتكفلون بسياسة الإجتماع

وبإزاء هذه الحقيقة الظاهرة حقيقة أخرى لا تقل عنها ظهوراً وجدارة بطول العناية والتدبر ، وهى أن الأمان كل الأمان، خطر على الهمم والأذهان . فإن كثيراً من الجهد النافع مبعثه طلب الأمان فى المستقبل، وشعور النفس بالحاجة إليه فى أخريات الحياة . فإذا اطمأن إليه كل حى من بداية حياته فترت حركته وغلب عليه حب الاستقرار، ومُنىَ العالم بخطر من جراء ذلك هو أخطر عليه من الإجحاف فى تقسيم بعض الأعمال وتوزيع بعض الأرزاق

وهناك حقيقة لا مراء فيها وهى أن النافرين المقتحمين ينالون أحياناً فوق ما يستحقون من جزاء ، ويأخذون أحياناً بعض ما يستحقه المحرومون الذين لا وزر عليهم فى هذا الحرمان

أما الحقيقة التى بإزائها فهى أن النافرين المقتحمين ينكبون أحياناً فى الأرواح فضلاً عن نكبتهم فى الأرزاق والأموال ، وأنهم لا ينطلقون مع طبائعهم القوية فى عالم تشتد قيوده وتتساوى نتائجه ولا تتسع فيه الهوة بين الأمل العظيم فى نجاح كبير وبين الإقدام العظيم على خيبة قاصمة للظهور ، وأن خسارة العنصر النافر فى أحداث الدنيا وتواريخها لتضارع خسارة العنصر المسالم الوديع

وهناك حقيقة من هذه الحقائق فحواها أن الغنى ليس بجريمة، وأن الفقر ليس بفضيلة ، فلن يقول أحد به مسكة عقل أن الأغنياء يستحقون الفقر لأنهم أغنياء ، وأن الفقراء يستحقون الغنى لأنهم فقراء ، وإن جاز أن يقال إن الإفراط فى الغنى والإفراط فى الفقر ظالمان محققان

أما الحقيقة التى بإزائها فهى أن الأمر لا يرجع هنا إلى العدل والاستحقاق ، ولكنه يرجع إلى صلاح المجتمع ولو نال فيه فريق فوق ما يكافئ عمله وجدواه . فكل عضو شاك يكلف الجسم بعض الأحيان فوق حقه وفوق نصيبه من العمل والجدوى؛ وبغير هذا العلاج لا تستقيم صحة الأجسام

وصحيح أن العالم مدين للمصامبين، وأن المصامبين لم يولدوا فى الذروة العليا من طبقات الأمة ، ولكن ليس بصحيح أن طبقة الحضيض هى صاحبة الحصة الكبرى فى إنجاب المصامبين؛ وإنما الصحيح أنهم ينشأون وسطاً بين الطبقة التى تنهكها رذائل الترف والغرور ، والطبقة التى تنهكها رذائل الهوان والمسكنة . ومعظم المصلحين الذين نفعوا الفقراء لم يكونوا من ضحايا الفقر المدقع والمنبت المنحدر البالغ فى الانحدار ، مما يؤيد رأى القائلين إن الفقر المدقع الذى يلازم أصحابه عقباً بعد عقب إنما هو قصور فى الذهن والخلق يحلهم حيث يحل القاصرون المتخلفون أيا كان المجتمع الذى يعيشون فيه

وبعد هذه الحقائق جميعها تبقى لنا حقيقة لا يطول فيها جدل المنصفين ، وهى أن الفقر آفة يجب أن تزول إذا استطعنا أن نزيلها ، ويجب ألا يمنعنا عن إزالتها إلا مانع واحد لا نحفل بغيره : وهو عدم الاستطاعة ، ولو كان الفقراء مستحقين لما هم فيه . فلن يبحث منصف عن المريض هل جلب المرض لنفسه بيديه ، أو سيق إلى المرض مكرهاً عليه ، إذا كانت المسألة مسألة طب وشفاء مستطاع

عباس محمود العقاد



من أوهام العقل وأحلام القلب

برج بابـــل ؟ !

للدكتور زكى مبـــارك

لما زرت بابل فى سنة ١٩٣٧ بحثت عن البرج المشهور فى التاريخ ، ولـكنى لم أهتد إليه ، برغم ما بذلت من العناء فى التعرف إلى ما هنالك من رسوم وأطلال

فكيف بخلت الأقدار بحرمانى من الاهتداء إلى معالم ذلك الأثر النفيس ، وكان أول رمز لما فُطرت عليه الإنسانية من تنافر الآراء وتناحُر الأهواء ؟

كان برج بابل خليقاً بالخلود ، لو عرف بنو آدم مغزاه الدقيق ، فصانوه من عوادى الزمان . وهل كانت بلبلة الألسنة حول ذلك البرج إلا إيذاناً بأن الإنسانية شَبَّت عن الطوق ، ولم يبق إلا أن تنتفع بمزايا الشقاق والنزاع والخلاف ، وهى معانٍ ظاهرُها قبيح ، وباطنها جميل ؟

لو عاش برج بابل لـكان مَزَاراً من أقدس المزارات ، فحول رحابه طارت أول شرارة من ضريم الصراع بين الأجناس والألوان ، وبين حناياه ذاق الإنسان الأول مرارة الحيرة ، وهى مرارة جزيلة النفع ، وإن كانت كريهة المذاق

ولو عرفنا تاريخ برج بابل لعرفنا فى أى عهد بدأ الصيال بين الألسنة والعقول ، فما نطمئن إلى ما قالت الأساطير فى تحديد ذلك التاريخ ، وهى لا تبعد به غير عشرات من القرون ، وأنا أكره أن تصدُق تلك الأساطير ، لأنى أحب أن يكون عهد أسلافنا بالخلاف أبعد من تلك القرون بآماد طوال طوال

لو عثرت على برج بابل ، أو اهتديت إلى شيء من رسومه الهوامد ، لأضيف اسمى إلى أسماء من خدموا الإنسانية بكشف بعض المجاهيل من حَسَبها العريق

ولـكن الحظ أراد غير ما أريد ، فلم أعرف من بابل غير ما يعرف سواد الناس ، ولم أشهد غير بقايا الحدائق المرفوعة فوق قواعد من الجدران ، وهى جدران لم يفكر فى هدمها الزمان ، فبقيت شاهداً على مطامح أهل بابل فى السمو والعلاء

لا بدّ من برج بابل ، لا بدّ ، لا بدّ ، ولن أستريح أو أهتدىَ إلى مكان ذلك البرج ، فهو المهد الأول ، المهد الذى نشأت فيه شياطين الخلاف ، والخلاف هو صاحب الفضل فى تأريث جمرات العقول ، ونزوات القلوب ، وشهوات الأرواح ، وبدَوَات الأحاسيس

الحمد لله ! الحمد لله ! لقد وجدت البرج المنشود ، ولكن أين ؟ لم أجده فى بابل ، وإنما وجدته فى قلبى ، وأين بابل من قلبى ؟ القلب الذى أجهله أشد الجهل ، وإن كنت سمعت أنه يقيم بين ضلوعى ؛ والجيران قد يجهل بعضهم أسرار بعض . وسنعرف يوماً أن العين ليست ترجمان القلب فى جميع الأحيان ؛ فلكل من القلب والعين وجودٌ مستقلٌ تمام الاستقلال ، وإلا فكيف يقع فى كل يوم أن تنِمّ العيون بنميم لا تسمح به القلوب ؟

الجاهل هو الذى يتوهم أن العين ترجمان القلب

وقد جهلتُ يوماً فتوهمت أنى أعرف سرائر قلبى ، ثم عرفت أنى واهمٌ فيما توهمت ، فما كان قلبى إلا غابة تعيش فيها ألوف الألوف من أنواع الشجر والنبات والطير والحيوان والأفاعى والصِّلال

وآية ذلك أنى لا أعرف أسباب أفراحى وأتراحى إلا فى أندر الأحايين ؛ ثم يُغَمّ علىّ الأمر فلا أدرى مصدر سعادتى أو منبع شقائى ، فأفزع إلى ما يفزع إليه الصوفية عند البسط والقبض بلا وعى ولا إدراك . ولو وعيت وأدركت لنفذ مهمى فى جذب السعادة أو دفع الشقاء

وأنا مع ذلك اهتديت إلى ما لم يهتد إليه ديكارت ؛ فديكارت فطن إلى أنه يفكر فعرف أنه موجود ، وأنا فطنت إلى أن برج بابل أقيمت صروحه فوق سواد قلبى ، فاستشعرت الخوف من ظلمات قلبى ، وهى ظلمات يعجز عن تبديدها نور القمر وضياء الشمس ، لأنهـا ألفاف من الشر المدفون فى أصول تلك الغابة الشجراء

وما أشد خوفى من قلبى ، وهو قلبى !

وآه ثم آه من الجبن عن مكاشفة العـدوّ الذى يلبس ثوب الصديق ! ؟

كان يطيب للشعراء أن يقولوا إنهم يعيشون بلا قلوب ليبرروا عجزهم عن استبدال حبيب بحبيب.

وأقول : إنى يئست من الأمل فى العيش بلا قلب ، وأين المفرّ من قلبي وهو قِطارٌ من أحابيل وعقابيل شُـدَّ بعضُها إلى بعض بسلاسل مصنوعة من أوهامى وظنونى ، وأنا رجلٌ مخلوق من أوهام وظنون ، وإن شهد خوفى من القلب بأنى على شيء من العقل ، والعقل أضعف حلية يتحلى بها الآدميون ، فلو عاش بنو آدم بعقولهم فى جميع الشؤون لـكان مصيرهم مصير الأنعام ، فلم يزينوا الوجود بروائع الآداب وغرائب الفنون لم أستطع التخلص من أوزار القلب ، ولن أستطيع التخلص من أثقال العقل ، فما عيشى فى صحبة هذين المدوين ؟ وما قيمة وجودى وأنا محروم من نعمة الاستقلال ؟

وهل أنسى بلائى بعدوان القلب والعقل وقد عانيت منهما فى الليلة الماضية ما عانيت ؟

وما الليلة الماضية ؟ هى ليلة من ليال ، فما رحمتنى الأقدار من معاناة الصراع بين القلب والعقل منـذ اليوم الذى عرفت فيه أن العيون لا يكون لها سِحرٌ حرام أو حلال إلا فى نور القمر أو ظلال الرياض

إن واجهت العيون ضياء الشمس فعلى سحرها العفاء ، لأن الشمس تحيل العيون إلى جوارح تعجز عن الختل والفتك . وهل تصنع الغلالة المنسوجة من نور القمر أو ظل الروض حين تواجه الطرف الـكحيل إلا كما تصنع الغلالة المنسوجة من الحرير حين تطوّق الجسم اللطيف ؟

الحرير يزيد الأجسام النورانية صفاء إلى صفاء ، وهى تتخايل من تحته كما تتخايل الـكواكب من فوق السحاب الرقيق

وأنا لم أصاول سهام العيون إلا فى نور القمر أو ظلال الرياض ، فأين كنت فى الليلة الماضية وقد كان « برج بابل » بعض ما تشقى بحمله ضلوعى ؟

كنت فى ضيافة قمرين : قمر الروض وقمر السماء ، ويا ويل من يعيش فى مصر الجديدة وهو يعانى مكاره الصراع بين القلب والعقل !

وفى لحظات أقصر من عمر الطيف تحولت دنيانا من صفاء إلى كدر ، ومن كدر إلى صفاء ؛ ثم انتهينا إلى قطيعة قد تقصُر وقد تطول ، فما استطاع الدهر ولن يستطيع أن يفرّق بيننا أكثر من أيام أو أسابيع

سمعت صوت العقل فأقسمت لأهجرنّ ذلك البدر إلى آخر الزمان وما هى إلا لحظة حتى تحركت الحيات والثعابين فى برج بابل فأصختُ إلى ما تجود به أفواهها الـفيح من فَحيح ، فكنت والله كمن يسمع نشيداً ترتّله ملائكة السماء

أنا مشدودٌ مشدود إلى قِطار الوجود ، فأين من يرحمنى من مصارعة العيون فى نور القمر أو ظلال الرياض ؟

الليلة الماضية ، وما أدراك ما الليلة الماضية ؟

هى ليلة من ليال ، ومن لم يعش كما عشت فليس من حقه أن يقول بأنه اكتوى بنار الصيال بين الهدى والضلال

وما ليلتى الحاضرة بين الليالى ؟

مصباح وقلم ومداد وقرطاس ، وآمال بيض ، وآلام سود ، وقرار فى دار تواجه الصحراء فى ليلة قمراء ، والقمر يشجع أفاعى الفيافى على الدبيب والوثوب

ليلتى الحاضرة ليـلة كرب وبلاء ، فبرج بابل تمتلج فيه خواطر أشد سواداً من قلب الغانية التى لطمت وجهها منذ سويعات فى أعقاب موجة من موجات العتاب ، وبرج بابل يقول بأن الحوادث تنذر بالشر الوبيل فى مدائن منها الأسكندرية وبور سعيد والسويس وبغداد ، وتلك أول مرة صرح فيها برج بابل بأشياء وأشياء ، فتى أرجع إلى جهل ما فى ذلك البرج من أحابيل وعقابيل ؟ !

أنا أملك أمرى فى الليلة الحاضرة ، فليس بينى وبين دار هواى غير خطوات ، ولـكن بلائى صيغ من الليالى المواضى ، فن الليالى المواضى نُسِجت عواطفى وأحلامى وأوهامى وظنونى ، وهل أنا إلا مجموعة آراء وأهواء كُتِبتْ صحائفها الأولى فى القاهرة ودمشق والقدس وبغداد وقرطبة وتونس وباريس ؟

لو فكرت فى إحصاء المدائن التى تملت فى مدارسها المعروفة والمجهولة ، ولو فكرت فى إحصاء من استفدت بمعارفهم من أهل الشرق وأهل الغرب ، لوصلت إلى القول بأنى شخصية دولية لا يستقل بها بلدٌ عن بلد ولا جيل عن جيل ، فكيف أملك الفرار من الجزع لآلام المكتوين بنيران الحرب ولو كانوا — رسمياً — من أعدائى ؟

ولو فكرت فى أن الثانية التى لطمتُ وجهها الجميل فى أعقاب العتاب لم تخرج على الأدب فى خطابى إلا وهى مثقلة بأوهام نشأ بعضها فى الشرق وأخذ بعضها عن الغرب لنظرتُ إليها كما أنظر إلى الطفل الذى يُجرم وهو غيرُ مسئول

وهل تسأل صحراء مصر الجديدة عن الإمحال وقد هجرها الغيث ؟

إن كان ذلك فستسأل القلوب التى أذويتها بجفائى ، وما كنت من الجافين ، لولا الشواغل التى صيرتنى أقسى من الجلمود فى محاجر أسوان

القمر فى ليلتى الحاضرة جميل جميل ، ولكن ما قيمة جماله وأنا مصدودٌ عن الاستصباح بنوره الوهّاج ؟

وما طِيبُ النوم والأحلام لمن حُرموا طيب نجواى ؟

ألم أقل لهم : إن الذى ينام بمصر فى المقمرات من ليالى الصيف ليس إلا قطعة من ثلوج الشمال نُقِلَتْ ظلماً إلى هذه البلاد ؟

النوم ضربٌ من الموت ، وهو الموت الأعظم لمن يجهل فضل الليالى المقمرة بمصر فى أوقات الصيف

لو كنا معاً فى هذه اللحظة لعرف البدر أن السعادة ليست مقصورة على أهل السماء ؟ إن صحّ أن أهل السماء سعداء ، وكيف يسعدون وما عرفوا ظلم العواطف ولا طغيان الأحباب ، وإلا فكيف استطاع القمر أن يحتفظ بصباه على مرّ الدهور وكأنه فلان فى البلادة والغباء ؟

وسيصنع الدهر ما يصنع بالغصن الذى آذته نسائم الحب ، وإن عاش وعشنا فستقيم المناحات فى حضرته العالية على الظل الذى زال عند « الزوال »

القطيمة باقية ، ولن نسأل عن تلك السرحة إلا يوم تمسى وهى مهددة بأرواح الخريف ، فلتصنع بمصيرها ما تشاء ، فلن تكون أكرم على الدهر من نخلةٍ حلوان فى أشمار القدماء

ومن يرعى تلك النخلة وقد تخلّى عنها الحارس الأمين ؟

ترعاها الفواقر والقوارع والخطوب !

يرعاها الجهل بالسر المكنون فى ضمائر الشعراء !

وإن استطال الجمال على الشاعر فبشره بالمحاق والأفول لغير وجهكِ الجميل يوجّه هذا النذير ، يا صاحبة الجِيد الأغيد والمِعصم الريّان

وما الدنيا وما الوجود إذا أمسى جمالك الفتان وهو طلل من الأطلال ؟

سيصنع بك الدهر ما يصنع ، لأنه موكل بإذلال الأقوياء ، ولكنه سيعجز عن محو ما دار بيننا من أكواب العتاب فى تلك الليلة القمراء

هى ليلة من ليال ، وسأعرف كيف أنتقم لنفسى ، إن طاب لك الاعتصام بالهجر والصدود

أما بعد فقد رجعت إلى قلبى لأشهد بعض العجائب من برج بابل ، فماذا رأيت ؟

رأيت وجودى مقدوداً من أحجار ذلك البرج ، ورأيت عواطفى وأحلامى مشبوبة أو مقبوسة من اللهب الذى يتأجج فى أركان ذلك البرج ، ورأيتنى جديراً بما اتصف به أهله من الحيرة والقلق والانزعاج

رأيت ورأيت ، وكأننى إنسان وقف يتلهى بصراع الأسود ، وهو يجهل أن فيها أسداً قريب العهد بالاستئناس ، فهو يرجع إلى الشراسة حين تسمح الظروف

رأيتنى واقفاً على حافة الهاوية بلا رفيق ولا معين

رأيتنى أحمل القلم لأمزق به ما بينى وبين الناس من أواصر وصلات.

رأيتنى أساهر النجوم وهى لا تدرك من همى غير أطياف

رأيتنى انفصلتِ عن « برج بابل » فلا أدرى ما يثور فيه من مصاعب وأهوال

رأيت ورأيت

مؤتمر ...

للأستاذ عبد العزيز محمد عيسى

تسرى الآن فى نواحى الحياة المصرية حركة مباركة تبشرنا بعهد زاهر من عهود الإسلام التى يذكرها التاريخ بالفخار

هذه الحركة هى المطالبة بأن يكون التشريع الإسلامى أساساً لما نضع من قوانين وأحكام . وقد كان من بواكير ذلك مؤتمر رابطة الإصلاح الاجتماعى الذى هيأته للناس فى الشهر الماضى ، ودعتهم إلى شهود جلساته دعوة عامة ليسمعوا ما أعده خطباؤه من أبحاث قيمة تبين كيف وضع ديننا القواعد التى تنير سبيل الحياة وتوصل إلى الخير

وقد عرف الناس من هؤلاء الباحثين على أى نحو يحارب الإسلام آفات المجتمع التى تشكو الأمم منها، ويعالجها بأدوية ناجعة فى القضاء عليها . وكيف يدعو إلى الأخلاق الفاضلة حين يقررها ويجعلها غاية من غاياته . وعلى أى وجه يبنى نظام الأسرة ويحوطه برعاية تجعله ثابتاً أمام الأعاصير ، صالحاً لحياة دائمة مفيدة . وكيف يعامل الناس على أساس من الحرية والإخاء ، وينظم علاقة الدولة بغيرها فى السلم والحرب ، على قاعدة العدالة والمساواة ... الخ . واطمأن السامعون إلى أن الإسلام معين صالح للتشريع فى العصر الحديث ، وأن تشريعات البشر فى أسمى صورة قد عجزت عن معالجة أدواء المجتمعات واضطربت . ولذا اعترف العقلاء من غير المسلمين بصلاحية الدين الإسلامى للنهوض بعبء التشريع وموافقته لأرقى النظم وتلبيته لحاجات المدنية والعمران

لست أكتب الآن لأجلى نظريات المؤتمر أمام القارئين وأبين لهم فائدة ما دعا إليه ، ولا لأنظر فى النتيجة التى وصل إليها المؤتمرون أسلبية هى أم إيجابية ، ولا لأستحث لجانه التى يقال إنها تبحث لتصل إلى قرارات عملية حتى نسرع فى ذلك ؛ ولكننى وقد شهدت جلساته جميعاً أردت أن أسجل ملاحظات كانت حديث جمهور المستمعين وغيرهم، وحديث كثير من المثقفين فى مجالسهم العامة والخاصة

١ — إن الظاهرة الواضحة استعداد الناس لقبول النظم الإسلامية فى مظاهر حياتهم ومعاملاتهم ، لأنهم رأوا العنت من النظم الوضعية وعجزت هذه النظم عن تحقيق ما يبتغون . ومن ثم نادى كثير منهم بذلك ونشرت الصحف رغباتهم فى وضوح وجلاء . وإن نواب الأمة وشيوخها ليناودون بذلك الذى ينادى به الناس ويجهرون به على مسمع من رجال الحكم وتسجل آراؤهم فى هذه الناحية بين التصفيق والإعجاب

ورجال الحكم أنفسهم لا يقفون فى هذه الطريق ولا يعوقون عنها، فقد رأينا كثيراً من كبارهم يشتركون فى المؤتمر ويحرصون على نجاح دعوته . وهذا وزير من وزراء الدولة يأتى بنفسه فيفتتح جلساته وينوه فيه بتعاليم الإسلام السامية ونواحى إصلاحه التى لم يصل أحد إلى مثلها ، ثم يقول : « إن هذه الثورة الاجتماعية العظيمة قد مكن لها الإسلام فى جميع العصور بما وضع من المبادىء العامة التى يجب أن تكون سنن الاجتماع فى كل أمة وفى كل عصر . وبما ترك من التفاصيل والجزئيات التى يجب أن

رأيت أنى سأسأل بعد أيام عن مصاير أحباب كان لهم فى حياتى تاريخ ، فمن أولئك الأحباب ؟

الدنيا التى ضنت بأن أحمل السيف فى الدفاع عن وطنى هى الدنيا التى ضنت بأن أحمل السيف فى الدفاع عن وطن أحبابى

لله الأمر من قبلُ ومن بَعد

وسيعرف أقوامٌ مغازىَ هذا الرمز الدقيق

أنا إذن أعبِّر بالرموز ؟؟

هو ذلك ، لأنى أكتب مقالى هذا فى أيام السرار من شهر الوجود

اللهم عونك ولطفك وغفرانك ، فما استعنت إلا بك ، ولا توكلت إلا عليك ، فأنت وحدك أمل اللائذ بحصنك الحصين

زكى مبارك

تكون موضع الاجتهاد لمن يتقيدون بأمر الله ونهيه ، ويستمدون بحثهم من روح الإسلام ويلائمون بينه وبين الزمن والبيئة » .

بل إن جلالة الملك حفظه الله ليحب ذلك ويرجو أن يكون، وقد تواتر الحديث عن جلالته بهذه الرغبة الكريمة . وكان آخر ما سمعنا من ذلك ما رواه عن جلالته شيخ الإسلام ليلة الاحتفال بعيد الجلوس الملكي في هذا الشهر حين قال فضيلته : « إن من أعز أماني جلالته أن يرى البلاد تسير على نظام اجتماعي يستند إلى دينها وتقاليدها »

فالدواعي إذن متضافرة للعمل على هذا النوع من الإصلاح الاجتماعي ورسم للطريق المثلى أمام الناس بعد ما أعدوا أنفسهم لتلقي هذه التعاليم المباركة . ولا نحسب بعد ذلك كله أن عقبة مهما كانت تقف في سبيل هذا الإصلاح الذي يتطلع إليه الشعب ويحرص عليه مليك البلاد

* * *

٢ — مما يدعو إلى الأسف أن الأزهر الرسمي لم يشترك في هذا العمل الجليل الذي يفرضه عليه واجبه وتحتمه طبيعة رسالته . وليس من شك أن الأزهر لم يوجد لتخريج العلماء وتدريس هذا اللون من الكتب المعقدة فحسب ؛ ولكن عليه إلى جانب ذلك واجباً أسمى : هو إطلاع الناس عامة على مزايا الإسلام وصلاحيته للنهوض بأعباء الحياة الاجتماعية في شتى صورها ، وتنقية الأذهان من هذه الشبه الباطلة التي ألصقت به زوراً وبهتاناً ، وتأثر بها كثير ممن يلون مناصب الحكم والتشريع في البلاد ؛ لأن الأزهر خصص لرعاية الدين ونشر تعاليمه وتوصيل قبسه إلى الناس . فإذا لم يقم بما خصص له ولم يؤد هذا الواجب كان جسما لا روح فيه . وأكثر الأشياء عندنا، كما يقول فضيلة الأستاذ الأكبر : أجسام لا أرواح فيها . وما نحب للأزهر أن ينزل إلى ذلك

وإذا كان الناس فيما مضى يعللون ابتعاد العلماء الأزهريين عن مثل هذه المواطن بكبر السن وحب العزلة عن الناس وعدم المعرفة بطرق الاتصال وأساليبه ، فإن هذا العذر لا يقبل الآن وعلى رأس الأزهر رجل مفكر يحمد له الناس نشاطه في نواحي المجتمع، وحسن صلاته بكثير من البيئات العلمية وغيرها، ويعقدون عليه آمالاً جساماً في إصلاح جريء لا يعرف المجاملة ولا المداراة

* * *

٣ — إذا كان التقصير عيباً ، فإن من أقبح ذلك وأفظعه التمادي في التقصير . ولذلك يرى من لاحظوا على المؤتمر أن من واجب رجال الأزهر أن يتداركوا هذا التقصير ، ويقبلوا على عمل يبين للناس وجودهم ومجهودهم وينصرفوا إلى ذلك مخلصين ليرضوا ضمائرهم أمام الله والتاريخ ، وأمام الأبناء والأحفاد

وإن أشد ما يخشاه المخلصون أن تتجاوب الأصداء من حول الأزهر بالدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي على أساس النظم الإسلامية ويقف رجال الأزهر موقف المتفرج أو المتحرج

ليس ذلك لأن هذه الدعوة ستموت كما ماتت دعوات ، أو لأن الناس سيتركون التشريع الإسلامي في هذه المرة إلى غيره وتتكرر مأساة الفقهاء في عهد إسماعيل ، فإن شيئاً من ذلك لن يكون إن شاء الله ؛ ولكن لأن الناس حين يترك الأزهر معالجة هذه الشئون ، سيرونه شيئاً لا فائدة فيه ، حتى في تنفيذ ما هو من رسالته . وهذا يؤدي بهم إلى محاولة التخلص منه والقضاء عليه . فإن لم يستطيعوا ذلك لأمر ما نحّوه عن الطريق وأغمضوا عنه العيون ، وتركوا أهله في عزلتهم يهيمون

لذلك يجب أن يتنبه الأزهر إلى مثل هـذه الدعوات في المستقبل ويحرص على الاشتراك في هذه الأمور اشتراكا عملياً نافعاً ، ويغزيها برجاله وأفكاره وخبرته ، ويعمل على إنجاحها ما استطاع إلى ذلك سبيلا

ولا ينبغي أن تقوم دعوة إلى مثل هذا العمل القيم مرة أخرى ثم لا يكون الأزهر في مقدمة الدعاة إليها والمنفذين لها

* * *

وإذا كان لنا — بعد تسجيل هذه الملاحظات — أن ندلي برأي عملي في هذا المقام ، فها هو ذا اقتراحنا عسى أن ينظر إليه رجال الأزهر بما يستحق من عناية تليق بموضوعه ، لينصرفوا

بعد تعديله أو إقراره إلى ناحية العمل المنتج المثمر

نرى من أهم واجبات الأزهر الآن أن يؤلف هيئتين علميتين من نابهي رجاله لا ينظر في تكوينهما إلى ما يجب بعض شيوخه أن ينظر إليه من الشكليات. على أن تعنى واحدة منهما بمخلفات السلفين في الناحية التشريعية فتخرجه إخراجاً جديداً وتلبسه ثوباً جديداً، وتعرضه على الناس في أساليب يألفونها ويجدون طريق الوصول إليها معبداً ميسوراً. ويقوم الأزهر بنشر هذا التراث في زيه الجديد على نحو ما تفعل الهيئات العلمية

وتعنى الثانية بدراسة القوانين الوضعية المعمول بها الآن في القضاء أو في الإدارة أو في نظام الشركات أو ما إلى ذلك، وتستخرج من الشريعة الإسلامية السمحة قوانين مسايرة لروح العصر تحل محل هذه القوانين وتؤدي مطالبها وترسم الخطة المحكمة التي ينبغي السير عليها في نواحي الإصلاح عامة

وعلى الأزهر بعد ذلك بمعونة أولئك الذين اعترفوا جميعاً بوجوب السير على مقتضى النظم الإسلامية وصلاحيتها دون سواها أن يعمل على تطبيق هذه القوانين الجديدة على الناس شيئاً فشيئاً حتى يكون الحكم بينهم بما أنزل الله

وإذا قيل لنا كيف ينفق الأزهر على هاتين الهيئتين الآن والموارد قليلة، ذكرنا على سبيل المثال — وإن كان شرف المقصود كفيلاً بتدبير المال الوافر — أن الأزهر يحبس من ميزانيته كل عام خمسة آلاف من الجنيهات باسم نشر الثقافة، ونحو هذا المبلغ الضخم لشيء لا يعرفه أحد من المثقفين يسمونه مجلة الأزهر، فأولى له أن يوجه هذه الآلاف الكثيرة ونحوها إلى هذه الناحية من الإصلاح منتهزاً هذه الفرص الواتية حتى تغزو التعاليم الإسلامية نظم الإدارة والسياسة ونظم التعليم والتشريع والقضاء

بذلك يحقق الأزهر رسالته الكريمة، ويؤدي واجبه المقدس، ويحمل الناس على الاعتراف بوجوده ونفعه والاتجاه إليه، ويفهم من فتنتهم المدنية الغربية بزخرفها وزينتها أن الإسلام هو الدستور الصحيح للحياة، وأن تعاليمه السامية هي الكفيلة بإسعاد الناس والترفيه عنهم

عبد العزيز محمد عيسى
المدرس بمعهد القاهرة

في الاجتماع اللغوي

اللهجات العامية الحديثة

عوامل تطورها وصفاتها المشتركة

للدكتور علي عبد الواحد وافي

أستاذ الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

— ٢ —

درسنا في المقال السابق [1] تسع طوائف من العوامل التي أدت إلى انشعاب هذه اللهجات عن العربية الفصحي وإلى تطورها المطرد في نواحي الأصوات والقواعد والدلالة والمفردات. وسنعالج في مقال اليوم بقية هذه العوامل، ونختتمه بنظرة في الصفات التي تشترك فيها هذه اللهجات.

***

١٠ — تناوب الأصوات المتحدة النوع، القريبة المخرج، وحلول بعضها محل بعض. يتبين من ملاحظة ظواهر التطور في مختلف اللغات الإنسانية أن الأصوات المتحدة النوع، القريبة المخرج، تميل بطبعها إلى التناوب وحلول بعضها محل بعض. فكل صوت لين عرضة بطبعه لأن ينحرف إلى صوت لين آخر، وكل صوت ساكن عرضة بطبعه لأن ينحرف إلى صوت ساكن متحد معه في مخرجه أو قريب منه. وقد كان لهذا القانون آثار ذات بال في انشعاب اللهجات العامية عن العربية وفي تطورها من ناحية الأصوات وقواعد الصرف ووزن الكلمات.

(ا) فقد حدث في هذه اللهجات تناوب واسع النطاق بين أصوات المد القصيرة التي يرمز إليها في الرسم العربي بالفتحة والكسرة والضمة. ويمثل هذا التناوب انقلاباً من أهم الانقلابات التي اعتورت اللغة العربية، فقد كان من آثاره أن انحرفت أوزان الكلمات، وانقلبت أشكالها رأساً على عقب، حتى لا نكاد نجد في اللهجات العامية كلمة واحدة باقية على وزنها العربي القديم.

فالفتحة قد استبدل بها الضمة أحياناً والكسرة في كثير من الأحوال (فبدلاً من: يَموم، يَسجد، يَسمع، عَثَر، خَلَص، سَكَت، عِند، كَبير، ألكتاب... الخ؛ يقال في عامية المصريين: يُمُوم، يُسجد، يِسمع، عِتِر أو عُتُر، خِلِص أو خُلُص، سِكت أو سُكت، عَند، كِبير، إلكتاب... الخ).

— والكسرة قد استبدل بها الضمة أحياناً والفتحة في كثير من الأحوال (فبدلاً من: يلطم، يضرب، يسرق... الخ؛ يقال في عامية المصريين: يلُطم، يضرَب، يسرأ... الخ).

والضمة قد استبدل بها الفتحة أحياناً والكسرة في معظم الحالات (فبدلاً من: مُحمد، ثُعبان، أُنثى، عُنقه، يقتُل، يذُم، ظُفر... الخ؛ يقال في عامية المصريين: محمد، تِعبان، إنتاية، عِنه، يقتِل، يِزم، ضِفر... الخ)

وحدث كذلك تناسخ في أصوات المد الطويلة نفسها، وخاصة في الألف اللينة إذ أحيلت في لغات بعض القبائل العربية القديمة، وتُحال الآن في كثير من لهجات المغرب ولهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر وفي بعض اللهجات في بلاد الشرقية

وما حدث في اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله في اللغات الهندية، الأوربية [1]

(ب) وكثير من الأصوات الساكنة المتحدة النوع أو القريبة المخرج قد تناسخت كذلك في اللهجات العامية وحل بعضها محل بعض. فالسين مثلاً قد تحولت إلى صاد في بعض المواطن (« ساخن » تحول إلى « صاخن » في عامية الشرقية وغيرها)؛ والصاد إلى سين في كثير من الألفاظ في عامية القاهرة وغيرها (فبدلاً من: يصدق، مصير... الخ؛ يقال: يسدأ، مسير... الخ)؛ والضاد إلى ظاء في عامية المغرب

(١) أنظر عدد ٤٠٩

(١) أنظر تفصيل ذلك في كتابي « علم اللغة » ص ٢٩١ وتوابعها

وخاصة طرابلس وفى لهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر[1] (فبدلاً من : وضوء ، يضيع ، يضرب ، يضم ... الخ ، يقال : وظوء ، يظيع ، يظرب ، يظم ... الخ) والعين إلى نون فى بعض الكلمات فى لهجة المراقيين (فيقال مثلاً « ينطى » بدلاً من « يعطى »)[2] ؛ واللام إلى ميم فى بعض الكلمات فى عامية القاهرة (« امبارح » بدلاً من « البارحة »)[3] ؛ والميم إلى نون أحياناً فى عامية المصريين (فيقال « فاطنة » بدلاً من « فاطمة ») وهلم جرا ...

وما حدث فى اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله فى اللغات الهندية الأوربية[4]

١١ — يتغير مدلول الكلمات تبعاً للحالات التى يكثر فيها استخدامها . فكثرة استخدام العام مثلاً فى بلد ما أو فى عصر ما فى بعض ما يدل عليه تزيل مع تقادم العهد عموم معناه وتقصر مدلوله على الحالات التى شاع فيها استعماله ؛ وكثرة استخدام الخاص فى معان عامة عن طريق التوسع تزيل مع تقادم العهد خصوص معناه وتكسبه العموم . وكثرة استخدام الكلمة فى معنى مجازى تؤدى غالباً إلى انقراض معناها الحقيقى وحلول هذا المعنى المجازى محله . واستخدام الكلمة فى فن أو صناعة بمعنى خاص يجردها فى هذا الفن أو فى هذه الصناعة من معناها اللغوى ويقصرها على مدلولها الاصطلاحى[5] . والتطورات التى حدثت فى اللهجات العامية تحت تأثير هـذا العامل تناولت آلافاً من المفردات العربية ؛ حتى أنه ليندر أن نجد مفرداً عامياً مطابقاً فى مدلوله كل المطابقة للمفرد العربى الذى انحدر منه

١٢ — يتغير مدلول الكلمة أحياناً تحت تأثير القواعد . فقد تذلل قواعد اللغة نفسها السبيل إلى انحراف معنى الكلمة وتساعد على توجيهه وجهة خاصة . فتذكير كلمة « ولد » مثلاً فى العربية (ولد صغير) ، قد جعل معناها يرتبط فى الذهن بالمذكر ؛ ولذلك أخذ مدلولها يدنو شيئاً فشيئاً من هذا النوع ، حتى أصبحت لا تطلق فى كثير من اللهجات العامية إلا على الولد من نوع الذكور

١٣ — قد يتغير مدلول الكلمة فى انتقالها من السلف إلى الخلف . فكثيراً ما ينجم عن هذا الانتقال تطور فى معانى المفردات . وذلك أن الجيل اللاحق لا يفهم جميع الكلمات على الوجه الذى يفهمها عليه الجيل السابق . ويساعد على هذا الاختلاف كثرة استخدام بعض المفردات فى غير ما وضعت له عن طريق التوسع والمجاز . فقد يكثر استخدام الكلمة فى جيل ما فى بعض ما تدل عليه ، أو فى معنى مجازى تربطه بمعناها الأصلى بعض العلاقات ، فيعلق المعنى الخاص أو المجازى وحده بأذهان الصغار ، ويتحول بذلك مدلولها إلى هذا المعنى الجديد

١٤ — وقد تغيرت فى اللغات العامية مدلولات كثير من الكلمات ، لأن الشىء نفسه الذى تدل عليه قد تغيرت طبيعته أو عناصره أو وظائفه أو الشئون الاجتماعية المتصلة به وما إلى ذلك . فكلمة « الريشة » مثلاً كانت تطلق على آلة الكتابة أيام أن كانت تتخذ من ريش الطيور . ولكن تغير الآن مدلولها الأصلى تبعاً لتغير المادة المتخذة منها آلة الكتابة ؛ فأصبحت تطلق على قطعة من الحديد مشكلة فى صورة خاصة . و « القطار » كان يطلق فى الأصل على عدد من الإبل على نسق واحد تستخدم فى السفر . ولكن تغير الآن مدلوله الأصلى تبعاً لتطور وسائل المواصلات ، فأصبح يطلق على مجموعة عربات تقطرها قاطرة

---

(١) نعنى بها القبائل الحاضرة التى تسكن الفيوم وبنى سويف والشرقية والبحيرة . . . الخ (الفوايد ، الرماح ، الحرابى ، أولاد على ، الضعفاء ، خويلد ، معالوس . . . الخ) .

(٢) تكاد تكون هذه الظاهرة مقصورة لديهم على العين المتبوعة بطاء وهذه كذلك لهجة قديمة هى لهجة هذيل .

(٣) هذه كذلك لهجة حمير ، وقد جاء بها الحديث « ليس من امبر امصيام فى امسفر » .

(٤) أنظر تفصيل هذا الموضوع فى كتابنا « علم اللغة » ص ٢٩٣ وتوابعها .

(٥) أنظر تفصيل هـذا العامل وآثاره فى اللغات الأخرى فى كتابنا « علم اللغة » ٣٠٥ ، ٣٠٦

(١) أنظر تفصيل هـذا العامل وآثاره فى اللغات الأخرى فى كتابنا « علم اللغة » ٣٠٧

بحارية . و « البريد » كان يطلق على الدابة التى تحمل عليها الرسائل ، ثم تغير الآن مدلوله تبعاً لتطور الطرق المستخدمة فى إيصال الرسائل ، فأصبح يطلق على النظم والوسائل المتخذة لهذه الغاية فى العصر الحاضر

١٥ — انتقال كلمات جديدة إلى بعض اللهجات العامية من اللغات الأجنبية التى احتكت بها . فقد انتقل إلى كل بلد عربى اللسان كثير من كلمات اللغات التى أتيح له الاتصال بأهلها اتصالاً ثقافياً أو سياسياً أو اقتصادياً . فانتقل إلى لهجة العراق كثير من الكلمات التركية والفارسية والكردية والإنجليزية . وإلى لهجات الشام كثير من الكلمات التركية والفرنسية . وإلى لهجة مصر كثير من الكلمات التركية واليونانية والفرنسية والإيطالية ... وهلم جراً

١٦ — انتقال أصوات جديدة إلى بعض اللهجات العامية من اللغات الأجنبية التى احتكت بها . فمن ذلك مثلاً صوت بين الشين والجيم المعطشة ينطق به فى عامية العراق فى مثل كلمة « عربنجي » (سائق العربة) . فمن المحتمل أن يكون هذا الصوت قد انتقل إليها من التركية[1]

١٧ — دخول قواعد جديدة فى بعض اللهجات العامية لحاجة إليها فى الكلام أو عن طريق احتكاكها باللغات الأخرى . فقد انتقل مثلاً إلى المصرية والعراقية طريقة النسب التركية (بزيادة جيم وياء) فى بعض الكلمات وخاصة ما يدل منها على الحرفة : (عربجى . طرشجى . جزمجى ...) ، وطريقة الإضافة فى بعض الكلمات بتقديم المضاف إليه على المضاف (كتبخانة ، أنتيكخانة ... الخ) . وانتقل إلى اللهجة العراقية طريقة النعت الفارسية التى يقدم فيها أحياناً النعت على المنعوت (... « خوش ولد » خوش كلمة فارسية معناها حسن . ومعنى الجملة ولد حسن أو ما أحسنه من ولد) . وطريقة تنكير الإسم المفرد بذكر كلمة قبله تدل على الوحدة (« فرد رجل » ؛ « فرد مخالفة » ... الخ)

وانتقل إلى معظم اللهجات العامية المنشعبة عن العربية طريقة الإضافة بتوسط كلمة تدل على الملك بين المضاف والمضاف إليه : ففى مصر تتوسط غالباً كلمة « بتاع » المحرفة عن متاع ؛ وفى تونس والجزائر كلمة « إنتاع » أو « تاع » المحرفة كذلك عن متاع ؛ وفى المغرب الأقصى كلمة « ديال » ؛ وفى العراق كلمة « مال » للمذكر و « مالة » للمؤنث ؛ (... « الكتاب مالى » ؛ « الكراسة مالتى » ، أى كتابى وكراستى)[1] . ودخل فى معظم هذه اللهجات كذلك زمن جديد للمضارع للدلالة على الاستمرار. وقد اختلفت هذه اللهجات فى الإشارة إلى هذا الزمن ، فبعضها يشير إليه بياء فى أول الفعل (« بيكتب » فى بعض اللهجات المصرية) ؛ وبعضها يشير إليه بميم فى أول الفعل كذلك (« منكتب » فى بعض اللهجات المصرية والسورية) ؛ وبعضها يشير إليه بكاف قبل الفعل (« كيكتب » فى لهجة المغرب) ؛ وبعضها يشير إليه بكلمة « عم » قبل الفعل (« عم يكتب » فى كثير من اللهجات المصرية والعراقية) ؛ أو بكلمة « راه » (« راه يكتب » فى لهجة المغرب . وتستخدم هذه الأداة كذلك فى مصر ولكن للدلالة على الاستقبال وتقلب هاؤها حاء ، فيقال « راح يكتب »)[2]

١٨ — انقراض بعض الكلمات لانقراض مدلولها أو قلة استخدامه . فقد انقرض فى اللهجات العامية كثير من الأسماء العربية الدالة على أمور بطل استعمالها ؛ ويصدق هذا على أسماء الملابس والأثاث وعدد الحرب ووسائل النقل وآلات الصناعة والمقاييس والنقود ومظاهر النشاط والنظم الاجتماعية ... التى كانت سائدة عند العرب فى عصورهم الأولى ، ولكنها انقرضت أو لم يعد لها شأن فى عصورنا الحديثة ، فانقرضت معها الكلمات الدالة عليها

١٩ — انقراض بعض الكلمات لثقلها على اللسان أو عدم

---

(١) هذا الصوت كان موجودا فى بعض اللهجات العربية القديمة ، فمن المحتمل كذلك أن يكون قد انتقل إلى العراقية من هذه اللهجات .

(١) أنظر فى ذلك بعض ملاحظات طريفة لرينان فى كتابه :
Renan : Histoire générale des Langues sémitiques, p. 411

(٢) يظهر لى أن هذا الزمن لم ينتقل إلى هذه اللهجات من لغات أخرى ، بل تكون فيها بشكل تلقائى لحاجة إليه فى التعبير .

تلاؤمها مع الحالة التى انتهت إليها أعضاء النطق ... وما إلى ذلك وإلى هذا العامل يرجع السبب فى انقراض كثير من الكلمات العربية من لغات التخاطب العامية فى العصر الحاضر

٢٠ — انقراض الكلمة لدقة مدلولها ، أو عدم الاحتياج إليه فى لهجات المحادثة العادية ، أو قلة دورانه فيها ، أو وجود لفظ آخر مرادف له . فلهجات المحادثة تقتصر فى العادة على الضرورى وتنفر من الكمالى وتنأى عن مظاهر الترف ؛ وإلى هذا العامل يرجع السبب فى انقراض آلاف من الكلمات العربية من لهجات المحادثة الحاضرة ، وفى تجرد هذه اللهجات من أهم خاصة تمتاز بها العربية ، وهى سمة الثروة فى المفردات وكثرة المترادفات

***

هذا ، وعلى الرغم من اختلاف هذه اللهجات فى ظروفها ، فقد تأثرت فى بعض النواحى بعوامل متحدة ، فاتفقت فى طائفة من مظاهر التطور . وتبدو وجوه اتفاقها هذا فى أمور كثيرة من أهمها ما يلى :

١ — تجردها من جميع الحركات التى تلحق آخر الكلمات فى العربية الفصحى ، سواء فى ذلك ما كان منها علامة إعراب وما كان حركة بناء . فينطق فى هذه اللهجات بجميع الكلمات مسكنة الأواخر ، وتُلتزم حالة واحدة فى الكلمات المعربة بالحروف ويُعتمد فى فهم الأمور التى ترشد إليها فى العربية الفصحى علامات الإعراب (وظيفة الكلمة ، علاقة عناصر العبارة بعضها ببعض ... الخ) على سياق الحديث أو على كلمات مستقلة تذكر فى الجملة .

٢ — استبدل فى هذه اللهجات بالطرق المعقدة الدقيقة التى تسير عليها العربية الفصحى فى تركيب الجملة وترتيب عناصرها ، طرق بسيطة ساذجة وأساليب حرة طليقة

٣ — لم تحتفظ هذه اللهجات إلا بجزء يسير من تراث أمها العربية وثروتها العظيمة فى المفردات ، ويتمثل هذا الجزء فى الكلمات الضرورية للحديث العادى

***

ومن هذه الخواص الثلاث يتبين أن أهم ما تمتاز به العربية الفصحى عن أخواتها السامية قد تجردت منه اللهجات العامية الحديثة ، فمسافة الخلف بين لهجاتنا الحاضرة واللغات السامية الأخرى أضيق إذن من مسافة الخلف بين هذه اللغات والعربية الفصحى .

علي عبد الواحد وافي
ليسانسيه ودكتور فى الآداب من جامعة السربون

الليبيـــون . . .

للأديب مصطفى بعيو الطرابلسي

من المتفق عليه بين علماء الجيولوجيا أن شمال أفريقيا لم يكن صحراوياً في العصور الغابرة ، بل بالعكس كانت أمطاره غزيرة مما ساعد على جريان الأنهار فيه واخضرار أراضيه ونمو الغابات ، وبالتالي على تكوين البحيرات الشاسعة التي كانت ملجأ للتماسيح والجاموس البحري ، وعاملاً على وجود المستنقعات التي تحلق فوقها الطيور ؛ وكانت هذه المستنقعات تشغل الأماكن المنخفضة وما زالت آثارها باقية إلى الآن تشهد بما كانت عليه الصحراء الكبرى في العصور القديمة ؛ وكانت ترتع حول هذه البحيرات وبين أشجار الغابات أنواع من الحيوانات ، بعضها من آكلة اللحوم وبعضها من آكلة العشب ، ولكنها انقرضت بعض أجناسها واختفت نهائياً بمرور الزمن نتيجة لحدوث تحول في الأمطار أدى إلى نقصانها شيئاً فشيئاً في الصحراء وازديادها في أواسط أفريقيا مما نتج عنه جريان نهر النيل الحالي ، فاضطر سكان شمال أفريقيا ، ومنهم « الليبيون » أن يهجروا إقليمهم ويتجمعوا حول الأماكن الخصبة الجديدة التي كان من بينها نهر النيل وواديه ، وإلى الآن لم يُعرف بالضبط تاريخ صحيح لبدء هذا التجمع ، وقيل أنه يرجع إلى ستة عشر ألف سنة مضت ، ومن هنا نرى أن الليبيين كانوا عنصراً أساسياً في تكوين الشعب المصري القديم الذي ازدهرت المدنية على يديه ، والذي سبق الشعوب الأخرى في مضمار الحضارة . أما من بقي من الليبيين في مكانه ، فقد كان على اتصال بمصر وأهلها

وبالأسف أن معلوماتنا عن الليبيين في تلك العصور القديمة قليلة جداً ، وكل الذي نعرفه أنهم كانوا يعيشون على هيئة قبائل متفرقة مثل الآن ، والقبائل اللاصقة لحدود مصر كانت تمتاز بشعرها الأسود وعيونها العسلية وهي قبائل التحنو ، أما قبائل المشواش Meshwesh ، فهي إلى غرب القبائل الأولى ، وقد سكنت الصحراء المجهولة الحد وقتئذ ، وأهلها ذوو شعور شقراء وعيون زرقاء ، وهناك أسماء أخرى كانت تطلق عليهم منها رابو Rabu ، وقد ذكر هيرودوت أبو التاريخ هؤلاء القوم تحت اسم ماكسيز Maxyes ، وهم بلا جدال أصل البربر الذين استعمروا شمال أفريقيا فيما بعد ، والمشواش قوم متمدينون نوعاً ماهرون في الفنون الحربية مسلحون جيداً

وكان الليبيون ينظرون إلى مصر الممثلة في واديها الخصيب بعين الطامع خصوصاً وأنهم قد أصبحوا في صحراء جرداء مما دفعهم إلى محاولة الاستيلاء على مصر للحصول على خيراتها العظيمة كلما حانت الفرص، فليس بغريب بعد ذلك أن يصفهم أحد ملوك مصر وهو منفتاح « بأنهم يمضون أوقاتهم محاربين ليملئوا بطونهم كل يوم ، وقد أتوا إلى مصر ليحصلوا على ما تحتاج إليه أفواههم » وكان الوجه البحري دائماً عرضة لهجوم الليبيين القاطنين غربيه وأنه لكثرة هجرة هؤلاء القوم إليه انصبغ الجزء الغربي منه بالصبغة الليبية التي بقيت ظاهرة فيه حتى زمن هيرودوت المؤرخ اليوناني. وتشير أقدم أخبار الوجه البحري إلى منازعات ومشاحنات مستمرة مع الليبيين . على أنه عند ما تمكن الملك مينا من توحيد الوجهين وتثبيت عرشه وجه همه لتأمين البلاد من هجمات الليبيين فشن عليهم الغارات وأسر منهم حوالى مائة وعشرين ألف نسمة عدا مليون وأربعمائة وعشرين ألفاً من الأغنام ، وأربعمائة ألف من البهائم كما جاء ذكره في الآثار المصرية . وكانت هذه الغارة بمثابة طرد عام لهم . على أن هذه الضربة القاسية التي حلت بهم لم تمنعهم من الإغارة على مصر بل كانوا ينتهزون فرصة حكم الملوك الضعاف للهجوم على الوادي وسلب ما يحتاجون إليه مما أقلق بال فراعنة مصر ؛ ولهذا نراهم يتخذون سياسة حازمة نحو الليبيين ويقومون بالحملات عليهم تارة، وأحياناً يلجأون إلى سياسة سلمية لإيقاف هذه الغارات بأن يتزوجوا من الليبيات لعقد أواصر الألفة والسلام . ومن أنصار السياسة الأولى مينا كما تقدم ، وسهورع أحد ملوك الأسرة الخامسة الذي ترك لنا نقشاً غائراً يمثل انتصاره على اللوبيين وفيه نرى جماعة المهزومين من قبيلتي

« باقت » و « باش » ومعهم قطعانهم من البقر والماعز والحمير وهي تعد بالآلاف . أما أمنحمت الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة فقد أرسل نجله سيزوستريس الأول على رأس جيش ليعاقب الليبيين على أثر غارة شنوها على الدلتا فثأر منهم . وأهم عمل قام به أنصار هذه السياسة هو ما فعلته الملكة حتشبسوت حيث أجبرتهم على دفع الجزية . وأما الذين اتبعوا سياسة المصاهرة فهم قليلون وعلى رأسهم الملك خوفو العظيم باني الهرم الأكبر الذي تزوج من سيدة ليبية

وحدث حوالى القرن الثانى عشر قبل الميلاد أن استوطن بعض الليبيين الواحتين اللتين هما جنوبي وغربي الفيوم ، وتقدم بعضهم حتى بلغوا الشاطئ الغربي لفرع النيل الكانوبي المعروف وقتئذ بالنهر الكبير . ولما زاد عدد الليبيين بالدلتا تجاسروا وتطاولوا على فرعون مصر فجمعوا شملهم وكونوا قوة نظامية للاستيلاء على أرض مصر ، وكانوا وقتئذ تحت قيادة ملكهم المدعو مريى Meryey وهذا أجبر بدوره التحنو أن ينضموا إليه ، ثم استعان بقرصان البحر الأبيض المتوسط وأخذوا يزحفون على مصر للاستيلاء عليها والاستيطان بها . أما حلفاؤه من قرصان البحر المتوسط فكانوا مكونين من سردينيين وصقليين ومن باقي أهالي جزر البحر الأبيض المتوسط ، وكان هؤلاء القوم قد عبروا البحر كثيراً فيما مضى وإليهم يعزى أصل الليبيين البيض البشرة (يرى هذا المرحوم جيمس والأستاذ هنرى برستدت) ، بذلك أصبح الليبيون يهددون كيان الدولة المصرية . وكان على عرشها فى ذلك الوقت منفتاح فرعون موسى عليه السلام – على ما يقال – فاستعد هذا الفرعون لخطرهم وأمر موظفيه بحشد الجيوش وتجهيزها . وكان الليبيون فى ذلك الوقت قد أخذوا يتقدمون نحو مصر فلما أبصروا خيراتها العظيمة ازدادت همتهم واشرأبت أعناقهم إليها ، فاخترقوا الحصون المصرية الغربية ، وهناك عند مدينة بريرع « Perire » التى نجهل موقعها الآن اشتبكت الجنود المصرية مع الأعداء وتمكنت من طردهم بعد أن كبدتهم خسائر فادحة وأجبر ملكهم مريى « Meryey » على الفرار إلى وطنه

تاركا جميع أسرته يائساً من النصر بعد أن قتل أولاده الستة ؛ ثم خلعه قومه وملكوا عليهم غيره . ويستدل من القتلى والغنائم أن جيش الليبيين وحلفائهم كان لا يقل عن عشرين ألف مقاتل وهكذا نجت مصر من الغزو الليبي

توفى الملك ورمر « Wermer » خليفة الملك السابق المعزول فورث العرش ابنه تيمر « Themer » وهـذا صمم على الانتقام لشرف الليبيين من فرعون مصر ، وكان فى ذلك الوقت رمسيس الثالث ، ولتنفيذ غرضه نراه يتحالف مع قرصان البحر الأبيض المتوسط ثانياً ولكن سرعان ما هزمهم رمسيس الثالث بالقرب من مدينة « رمسيس الثالث معاقب أهل التمحو (لبيا) »

أمام هذا الفشل المتكرر لم ير الليبيون فائدة من القيام بحملات ضد مصر لكى يستوطنوها ولكنهم مع ذلك قاموا بهجرة عظيمة ثانية إلى غربي الدلتا على أثر غزو قبائل المشواش لبلادهم التى أتلفوها ثم أجبروهم أن يتحدوا معهم لمحاربة مصر ، وتولى قيادة هذه الحملة الجديدة مشِشر « Meshesher » بن ملك المشواشيين المدعو كبر « Keper » ولكن الفشل فى هذه المرة أيضاً كان حليفهم إذ هزمهم فرعون مصر فولوا هاربين بعد أن قتل قائدهم وأسر والده مع عدد عظيم منهم واعتبر رمسيس الثالث هذا النصر العظيم عيداً يحتفل به سنوياً وسماه « عيد قتل المشواشيين » ولقب جلالته نفسه بعد ذلك بالألقاب الآتية : « حامى مصر والدافع عن الأقطار وغازى المشواشيين ومتلف أرض التمحو »

هذه هى المرة الثالثة التى صدت فيها القبائل الغربية عن الدلتا ونيلها . ولم يعد بعد ذلك عند رمسيس الثالث مجال للخوف من تلك الجهة بالرغم من أن قوة الاستعمار عند الليبيين لم تنعدم بالمرة . والمعروف أن هؤلاء القوم لم تتحد لهم كلمة بعد ذلك ، لكنهم أخذوا يهاجرون مسالمين إلى القطر المصرى كما فعلوا قبل حكم الأسر ، وكان ذلك على فترات متقطعة وبنفر قليل لم يقاومهم فرعون مصر ولم يهتم بهم كثيراً لعله بضعفهم وعجزهم ، ولكن بفضل هذه الهاجرة السلمية استطاعوا أن يبسطوا بعض نفوذهم على الوجه البحرى . ومما ساعدهم على ذلك

زيادة الجنود الليبية المأجورة بالجيش المصرى باطراد . وكان فراعنة مصر قد لجأوا إلى استخدام الجنود المرتزقة فى أواخر الدولة الحديثة من التاريخ المصرى القديم ، وأصبح الجيش المعسكر بالدلتا لحفظ النظام هناك تحت قيادة ضباط مشواشيين قابضين على قلاع تلك الجهة مما أدى إلى تقوية نفوذ المشواشيين حتى إنه حدث فى عهد الأسرة الحادية والعشرين أن قصرت بعض الوظائف الهامة عليهم

ثم ظهر من بينهم رجل قوى ثرى يدعى شيشنق لقب نفسه « رئيس المشاس العظيم » استطاع أحد أحفاده أن يعلى من نفوذ أسرته الليبية ثم انتهز فرصة ضعف آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين أو انقراض ملوكها واستولى على عرش مصر واتخذ له مدينة تل بسطة عاصمة للملك وكان ذلك فى عام ٩٤٥ق م وقد اعتبر مانيتون المؤرخ المصرى القديم شيشنق هذا مؤسساً للأسرة الثانية والعشرين وبذلك استطاع الليبيون التربع على عرش مصر بلا تعب ولا حاجة إلى امتشاق الحسام بعد مضى مائتى سنة تقريباً من وفاة رمسيس الثالث الذى سحقهم سحقاً لما علم بنياتهم الخبيثة نحوه ولكى يوطد شيشنق عرش أسرته زوج ابنه بكريمة آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين لكى يمنح ابنه حقاً شرعياً لتولى عرش مصر بعد وفاته وذلك عن طريق زوجته

حاول شيشنق هذا إصلاح حال مصر وإرجاع أملاكها القديمة فنراه يبسط نفوذه على فلسطين تاركاً ولايتها لسليمان الحكيم كما استرجع النوبة . والخلاصة أن مصر تمتعت برخاء نسبى فى أول عهد الحكم الليبى بعد أن ساء حالها . وقد كشفت آثار بعض ملوكهم فى العام الماضى فوجد معظمها من الفضة وهى كما نعلم كانت فى عهد الفراعنة أغلى من الذهب مما يدل على حياتهم المترفة . ويجب علينا ألا ننسى أن الحكام الليبيين تطبعوا بالطباع المصرية وحاكوا أهلها فى العادات وعبدوا المعبودات المصرية وقدموا إليها القرابين كأهل البلاد تماماً ، ولكن كل هذا لم يمنع سقوط عرشهم فى عام سنة ٧٤٥ ق . م على أثر ازدياد نفوذ قواد الجيش المأجورين فقووا مراكزهم فى مدن الوجه البحرى وعملوا على تقسيم القطر المصرى إلى عدة أمارات حربية صغيرة وبذلك يكون طول مدة الحكم الليبى فى مصر حوالى ٢٠٠ سنة إذ تولوا العرش فى سنة ٩٤٥ ق . م تقريباً

ويجب ألا ننسى أنه لولا المشاغبات التى كان يقوم بها الليبيون لما فكر فراعنة مصر فى غزو تلك البلاد لفقرها ، اللهم إذا استثنينا الواحات حيث تزرع الكروم التى كانت لها شهرة خاصة وزيتها الذى يطلق عليه الزيت اللوبى ، وكان يستعمل حسب التقاليد المصرية لدلك الأجسام .

مصطفى بعيو الطرابلسى
كلية الآداب — اسكندرية

ألقاب الشرف والتعظيم

عند العرب

للأب أنستاس ماري الكرملي

— ٣ —

٧ — القمس

تقدم لنا ذكر القمس ، وقد ذكره غير واحد من فقهاء اللغة وجاء في بيت شعر ، لأحد شعراء حلب في سنة ٥٤٤ للهجرة (في ١١٤٩و١١٥٠ للميلاد) ، ما هذا نصه (في كتاب الروضتين ص ٦٤ من طبعة باريس) :

«واستفودوا الخيل عُرْباً واستقدتَ لنا ،

قوامِصَ الكفرِ في ذلٍّ وفي صَغَرِ »

فيكون مفردها هنا : (قومَص) ، ولاتينيتها Comes ، بمعنى Comte الفرنسية . وجاءت أنثاها (قومَصِيّة) . قال في الكتاب المذكور ، (ص ١٩٩) : « وأخو صاحب جُبَيل ، وابن القومصية » — وفي ص ٢٠٠ : « وأما ابن القومصية فإنه استفكَّتْهُ أمه »

وقال في ص ١٩١ : « ووصل في هذه السنة (٥٧٣ هـ ١١٧٧و١١٧٨م) ، إلى الساحل من البحر ، كُنْد كبير يقال له اقلندس ، (صوابُهُ إِفِلِبُّس Philippus) أكبر طواغيت الكفر » وفي ص ٢٥٧ و ٢٥٨ ، ذكر القومص خمس مرات ، والقَوْمَصيةُ مرة واحدة . ثم تكرر ذكر القومس مراراً عدة وفي ص ٢٧١ ذكر « الملك وكنوده » وهو جمع كند ثم تكررت هذه الألفاظ باختلاف وجوهها ، لكنها لم تختلف عما ذكرناه هنا فلا حاجة لنا إلى الإكثار منها

ولم يذكر أرباب المعاجم هذه المفردات جميعها وبلغاتها في دواوينهم . فقد قيدوا أشياء منها وأهملوا شيئاً آخر . فأما ما قيدوه فالقومس . قال السيد مرتضى : القومس كجوهر الأمير بالنبطية[1] . نقله الصاغاني عن ابن عباد ؛ وقال الأزهري : الملك الشريف ... وقيل : هو الأمير بالرومية

قلنا : وهذا هو الصحيح ، لا من اللغة النبطية ، وإن كانت هي السبب إلى نقلها إلى العربية ، ومعناها الأصلي في الرومية الرفيق ، لأنه كان في بادئ الأمر يرافق الملك في حروبه وتنقلاته ثم أطلق على الأمير ؛ ثم قال الشارح : والقمَّس كسُكَّر : الرجل الشريف . كذا نقله الصاغاني وهو قول ابن الأعرابي وأنشد:

وعلمت ... (البيت)

فسره بالسيد والجمع قامس وقامسة . أدخلوا الهاء لتأنيث الجمع ؛ والقامسة : البطارقة نقله الصاغاني عن ابن عباد ولم يذكر واحدة وكأنه جمع قمَّس كسكر

قلنا : إن البطارقة هنا بمعنى الأشراف من أكابر القوم . وكذلك قولهم القومس : الأمير ؛ والقمس : الرجل الشريف . فكل هذه المعاني مرجعها واحد ، وإنما الفروق هي من بعض الشراح . أما من جهة التحقيق ، فالقومس أو القمس غير البطريق وهذا غير الرجل الشريف ؛ والرجل الشريف غير كبير القوم أو أميرهم . أما التوسع في المعاني فأشهر من أن يذكر

والأقباط يسمُّون كبير قسوسهم بالقمص كالقُفل ، أو القمُّص بضم الأول وتشديد الثاني المضموم ، والجمع القامصة . وسمى النويري القامسة : قامصة بالصاد بمعنى الأشراف ؛ وهذا يشعر بأنه اعتبر المفرد قمصاً ، وزان سكر ، بصاد في الآخر . وهذا من لغات مضر ، أي قلب السين صاداً للتفخيم . وكذا فعل ابن الأثير المؤرخ ؛ فإن الذي سماه بعض المؤرخين قومساً ، سماه هو قومصاً : وسمي الأنثى قَوْمصة — قُوْمصِيَّة . قال في الكامل (١١ : ٢٤٧ من طبعة الإفرنج) : « وكان للقمص (وفي بعض الروايات للقومص) صاحب طرابلس ، واسمه ديمند ابن ديمند الصنجيلي ، قد تزوج بالقومصة ، صاحبة طبرية »

(١) كذا . واللغويون كثيراً ما يجهلون اللغة الأصلية التي نقلت منها الكلمة الدخيلة . ولما كانت تلك الحروف أخذت من الأعاجم — على اختلاف قومياتهم — على أيدي النبط ، أي الآرميين كانوا يظنون أنها نبطية أي أرمية ، زد على ذلك أنهم لم يحققوا المعنى الأول للكلمة ، لأنهم ما كانوا يدرسون لغى الأجانب في ذلك العهد بل كانوا يكتفون بدرس الضادية .

وقد جرى على هذه التسمية كثير من المؤرخين الذين جاؤوا بعده . وقال فى وقائع سنة ٥٨٣ : « فرّ القومص إليها (إلى صور) يوم كسرتهم (كسرة الصليبيين) »

والذين جاؤوا بعد هذه الطبقة من المؤرخين الكتاب قالوا : الكند بدال فى الآخر ، أو القند بقاف ونون ودال . فمن الأول قول أبى شامة (راجع كلامه الذى أوردناه فى الدوفن)

ومنه أيضاً الكنداسطبل . وقد تحذف الهمزة . ومعناها أمير الإسطبل . وهو تعريب اللاتينية Comes Slabuti قال صاحب مختصر الدول (ص ٤٤٨ من طبعة بيروت) :

« ومن الأرمن الكندسطبل ، أخو التكفور حاتم » . — وفى الكامل لابن الأثير (١٠ : ٢١١) : « وأسر مقدمهم المعروف بكنداسطبل ، فافتدى نفسه . »

وقد غلط المعلم بطرس البستانى غلطاً فظيعاً فى معجمه ، محيط المحيط ، إذ قال فى ترجمة (ك ن د) : « الكُنْد : الشرس الشديد . فارسى » اهـ . — وقد نقل الكلمة عن فريتغ وهو مأخذه الأكبر ولم يصرح به . وفريتغ حاطب ليل ، لا يميز بين الحطب والجزل ، وقد أولج فى الضادية مفردات جمة لا حقيقة لها ، سوى سوء فهمه لكلام بنى عدنان ، أو لسوء قراءة كلمهم . هذا فضلاً عن أن البستانى لم يفهم معنى كلمة فريتغ اللاتينية وهى Strenuvs فهى لا تفيد أبداً معنى (الشرس) كما نقلها إلى لغتنا ، بل النشيط ، الثقف ، العامل ، الفعال . فهذه أغلاط فوق أغلاط فوق أغلاط ، هى ظلمات من فوقها ظلمات ومن تحتها ظلمات . ومن الغريب أنه نقل هذه الكلمة اللاتينية نفسها فى مادة (كُنْداكر) بالمعنى غير المعنى المذكور . فقد قال : « الكنداكر : الشجاع الجسور » اهـ .

قلنا : وهذا يجوز لأنه من معانى الرومية المذكورة أى Strenuvs ؛ لكن كنداكر منقولة عن فريتغ أيضاً ، وقد قال فيها إنها فارسية ، وهى لا فارسية ولا عربية ولا هندية ولا صينية ، بل ولا واقواقية ، لأنها مركبة من كند Comte أى أمير وأكر Acre أى عكاء ، ومحصل معناها : كند عكاء أو أمير عكاء ، ويراد به هنا الكنت هنرى دى شنبانى وبالحروف الفرنسية : Le comte d'Acre, Henri de Champagne

وسعيد الشرتونى صاحب أقرب الموارد ، نقل هذين الغلطين عن البستانى ، ونسبهما توّاً إلى فريتغ كذباً وزوراً . مع أن الحقيقة أنه نقلهما رأساً عن محيط المحيط ، فنكرانه لجهود المعلم بطرس البستانى لا يشرفه ولا يبرر وهمه . فقد قال فى مادة (ك ن د) : « الكند بالضم الشرس الشديد (فارسى) ، نقله فريتغ عن بعض كتب العرب » اهـ . فلو نقل الشرتونى الكلمة توّاً عن فريتغ ، لنقل معنى اللاتينية نقلاً صحيحاً غير ما نقله البستانى ، لكن أراد الله أن يكشف سوء عمله ، فقال ما قال كذباً وزوراً ، فكان عليه أن يعترف بالصدق ويقول : « نقلته عن محيط المحيط وهو نقله عن فريتغ » ؛ وهذا لم يحسن القراءة ولا فهم معنى اللفظة

وكذلك قال فى كنداكر : الكنداكر [وضبطها ضبط قلم بضم الكاف وإسكان النون وفتح الدال يليها ألف فكاف مكسورة فراء فى الآخر] : الشجاع الجسور، فارسية ، نقلها فريتغ عن بعض كتب العرب ؛ وكان حقه أن يقول ما ذكرناه فى كلمة الكند

أما صاحب البستانى فذكر الكند إذ قال : الكند بالضم الشديد الشرس (معرب) . فأراد أن يبين أنه لا ينقل عبارته عن محيط المحيط ولا عن أقرب الموارد فقدم وأخر فقال : « الشديد الشرس معرب » عوض أن يقول : الشرس الشديد فارسى .

فيا للأسف ! كيف أن أبناء العرب ينقلون لغتهم عن الدخلاء ولا يشعرون بالضرر الذى يلحقونه بلسانهم الفصيح ، البديع ، البليغ بعملهم هذا اللئيم ! وكيف أنهم يسرقون أتعاب غيرهم ولا يقرون بفضلهم ، وكيف أن الله يهتك أسرارهم وسرائرهم بصورة لا تعلى شرفهم

وخلاصة البحث فى القند ، أنه يقال : القُنْد ، والكُنْد ، والقُمْس ، والقُمَّس ، والقُمِس ، والقُمْص ، والقُمَّص ، والقُمَص ، والقُمُص ، والقَوْمَس ، والقَوْمَص . وإذا

زدنا عليها ما يقوله سحفيون فى هذا العهد، أى الكنْت والكونت، وما ذكره بادجر فى معجمه الإنكليزى العربى، الذى صححه الشيخ أحمد فارس الشدياق، أى القونت، مَثُلَ بين يديك رجل عربى ينطق بأربع عشرة لغة، فلله درُّهُ من لغوى بارع!

٨ – الهنباط

قال فى تاج العروس: «المنباط، بالفتح، صاحب الجيش بالرومية. وقد جاء فى حديث حبيب بن مسلمة: إذا نزل المنباط ثم قال: هنا (أى فى مادة هـ ن ب ط) ذكره ابن الأثير [صاحب النهاية]، وذكره الصاغانى فى مادة (هـ ب ط) وقلده المصنِّف أى [الفيروزابادى] والصواب أنه بالنون. وقال فى تركيب هـ ب ط: «الهيباط، بالفتح: ملك الروم. نقله الصاغانى هنا. والصواب أنه المنباط بالنون» اهـ. وفى النهاية لابن الأثير المطبوع فى مصر، ضبط الهنباط بالضمّ، وهو خطأ، لأنه مخالف لنصوص جمهرة اللغويين.

وكان فكرنا فى أول الأمر أن المنباط مقطوعة من الرومية (إنبراطور)، لكن نبّهنا الأستاذ الأجل إلياس قدسى إلى أن الكلمة من اليونانية Hypatos (هُيبَاطُس)، وأول معناها: الأعلى والأرفع، ثم أطلق عندهم على الرئيس الأعلى؛ أى ما يسميه الرومان (قنصلاً). وكان يراد بالمنباط يومئذ لقب أحد الحاكمَيْن الأعظميْن اللذيْن كانا بديوان رومة. وجاء الهيباط بعض الأحيان بمعنى قنصل الإقليم، وهذا كان يسمى باللاتينية بُرُو قنصلاً. وكان الهيباط يلفظ فى أول الأمر (هُبَاط) وزان غراب، ثم (هِباط) بكسر الأول ككتاب، ثم صحفه بعضهم فقال (هَيباط) بياء مثناة بعد الهاء. وآخرون قالوا (هنباط) بنون بعد الهاء. فالمادة الأصلية هى (هبط) وكان يجب على اللغويين أن يذكروها فى هذا التركيب الثلاثى لا فى سواه

وأصل اليونانية Hypatos (هُفاطُس) Hypamos (هفامُس)، أى أن اللفظة فى أصل وضعها القديم كانت بالميم، ثم قلبت تاء أو طاء. قلنا: فإذا جردنا الكلمة من زوائدها، يكون لنا (هفا) أو (عفا)، لأنه ليس فى لغة اليونان حرف حلق نخم، فعندهم الهاء والعين شىء واحد، والعرب تقول: عفا فلان على فلان فى العلم وغيره زاد. واسم الفاعل عافٍ والجمع عُفاة. فالهيباط أو المفاط هو العافى لا غير فى أصل معناه، أى المشرف على غيره بالعلم أو بالرئاسة

وقلب الميم تاء أو طاء فى العربية واقع وقوعه فى اليونانية. فقد قال بنو عدنان: حات يحوت بمعنى حام يحوم، وقالوا: النَّمْطس كالنَّمْمس، ورجل أطرط الحاجبين كأمرطهما، وجمل الماء عيناً، وبالعكس أمر مشهور أيضاً لا يحتاج إلى تأييد، من ذلك قولهم: تَرَبّع السراب وتَرَيَّهَ، وعاث فيه وهاث، والمنَشْنش كالمنشنش، والمكوك كالمكوك والمجفة من النساء كالمجفة. فاتضح من هذه المقابلة اللغوية أن اللفظين هما واحد فى الأصل، وهذا عجيب غريب!

(له صلة)

الأب أنستاس مارى الكرملى
من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية

من الأدب النسائى

من مذكرات مطلقة

للسيدة الفاضلة « ليلى »

[إذا قسا قلب الرجل ومات ضميره فلن تجد الرحمة سبيلا إلى قلبه ، وهيهات أن يرد إليه الشعور أنه سارق ، وفى بعض الحالات قاتل . يعطى باليمنى ويسلب باليسرى ، ويغتصب الروح الهائمة لتحل الشقوة ويدب التلف إلى القلب النابض فيخفت . أيها الانسان العابث ! أما عرفت أن هناك إلهاً بالمرصاد ؟]

أذلك حلم أتخيله ، أم هى الذكريات تطوف برأسى كما يطوف النحل بخلاياه ، لها أزيزه وطنينه ، ولكنها لا تنتج العسل ولا فيها شفاء للنفس ولا للناس ؟ لقد كادت صرخة الجوع تفلت من بين شفتى ، ولكنها فى سجن من الإباء وقيد من الكبرياء ! لقد سمحت للدموع أن تطفئ أشجانى وتبرد نار أحزانى ، ولقد هتفت بوحدتى أن أسبلى علىّ ستارك ، ولا تحتمى بآلامى مهجة الشامت ، حتى تستقر نفسى ، ويعاودنى كسابق الأمر أنسى ، وهيهات ... فالقلب قبر صامت يحمل رفات الذكريات ! لقد نسى الغادر كؤوس الهناءة التى سكبتها له بيدى ، وألوان السعادة نعم بها فى جوارى ، وجنة البيت تضفى عليه النعيم ... نسى الصدر الرحب الذى وسع أنانيته ، والروح التى خلقت فيه عبقريته ... نسى الحنان يرتع فى جنباته ، والحب الخالص يرعاه فى غدواته وروحاته ... كانت حياتنا معاً مثلاً عالياً للوفاء ، فبرهنت الأيام على أنْ ليس لحالٍ بقاء ... نسى كل شىء ، وبرم بعشرة السنين الطويلة : لم يرحم الإحساس المرهف يجرح بسكين الصد والهجران ؛ ولا الآلام تخترم الجسم الرقيق كالنبال ، ولا النفس العالية يسيمها الخسف والهوان ؛ وطغى كالسيل الجارف يهد من جسر الآمال ، ويذيب الأمانىّ ويغرقها فى صميم الأوحال !

إستبدل بالمرحلة السعيدة التى قطعناها ، أخرى شقية ما ألفناها ، تبدل وتغير من ربيع زاهر ضاحك إلى خريف مجدب ماحل ، ثارت النفس لهذا الاختلاف ، ثم جاء وقت الحساب ، فما أجدى تفاهم ولا عتاب . افترقنا ، هو سادر فى غلوائه ، وأنا قلبي تائه فى بيدائه ، وحملت نفسى أشلاء ممزقة وهى حائرة مبعثرة ، وصرخت فى وجه القدر : أنا صابرة صابرة ، وعلى تحدى غدره قادرة ! أشحت بوجهى حين تقدم إلى بالمساعدة ، حتى حقوقى رفضتها معاندة ، وخرجت من بيته مرفوعة الرأس . وهناك فى غرفة حقيرة الأثاث انطويت على نفسى بعيدة عن الناس ، أبيع الحلية أسد بها الرمق ، وأغالب حالات الضيق والقلق ، وأطارد شبح الذكرى حتى حقرت فى نظرى الحياة . وها هى ذى نفسى تستمرئ هذا العيش الجديد ، بالرغم من بعده عن كل تغيير وتجديد . بقى فضول الناس ، فهم بمعرفة حقيقتى مولعون ؛ يعجبون لوحدتى وانفرادى ، ويتساءلون عمن أحب وعمن أعادى . لم يبق غير الجبل أسارع إليه لأدفع عنى شر الإنسان ، ولا بد أنه ملاحق فى كل زمان ومكان . إنى أحسن جوارهم ، ولكن لا أحب حوارهم . آنس بالوحدة وأرى فيها عالماً من نور ، وأوقن أن ما يصيبنا فى كتاب مسطور . درأت عن نفسى فتنة الدنيا بهذا الاحتجاب ، وكأنى سائحة طال عليها الاغتراب . رأيت السلوان فى مصحفى وكتابى ، وناشدت الله أن يجزل ثوابى ؛ حتى إذا اجتزت المحنة فى ثبات . أخذت أفيق من غمرة ذهولى وأقول : حياة كالعدم ، شىء غير معقول ... لم لا آخذ من دهرى بنصيب ، وأستبدل حبيباً بحبيب ؟

صحت وقد نفضت عنى حياة العدم ، فليس فى صفحتى ما يوجب اليأس والندم : أشرقى يا نفسى فى جوانب صدرى . هأنذى لا زلت شابة فتية ... لم تكونين يا نفس ضحية الأحزان ونعيم الوجود يبدو أمامك ؟ انشطى وافسحى المجال لروحك ، وضمدى بالسرور شتى جروحك ... ما ضرك لو تعرفت بهذا وذاك ...؟ أليس لأسير الأسى من فكاك ؟ أيقضى على بالقسوة والحرمان ،

وسواى يلهو مع الصحب والخلان . . . إن ظهرى لا يحتمل وقر السنين ، ولا يرضى بشقاء العيش غير المجانين ! لقد لقيت جزاء الإخلاص ، وأفلست من حبه أيما إفلاس ، ولكنى سأتناول بيدى كؤوس النعيم ، وأطرح همى الدائم المقيم . نحن بنى آدم كالأعاصير نثور ونهدأ ، وما نحن إلا قصة أو حديث فى أساطير ، ومهما طال بنا الأمد فسيجرفنا الفناء ، وسنجد أن الحياة لم تكن تستحق العناء ، فلنشرب من وردها الصافى .

إنى أحبها وعلى رأسى تاج من الشرف يلمسه من جهلنى ومن عرفنى . أحبها فى أحضان السمعة الطيبة والكرامة ، لا ينغصها وخزة ضمير ولا ندامة . فاللهم اهدنى السبيل ، واكفنى شر القال والقيل . كيف أتأمل للعيش وحيدة ، وأنا بمعرفة أساليب الناس بعيدة ؟ واخيبتاه إن وقعتْ فى الحبالة ، ولم يبق فى مصباح عقلى زبالة . اللهم خذ بيدى فلست أريد إلا أن أخرج عن جودى وأشعر بكيانى ووجودى . هأنذى أفتح النافذة وأتلقى نظرات جارى متحفزة . قال : عمى مساء ! قلت : عم مساء ! قال : يظهر أننا فى الوحدة سواء . لم تنفرين من المجتمع ، أما من أقارب أو أصدقاء لك فى هذا البلد ؟ قلت وجدت الخير فى صحبة الكتاب ، بعد أن تقطعت بينى وبين صاحبى الأسباب . أما البنون فالحمد لله الذى رفع عنى عبئهم ، ولم يشأ أن أتحمل ذنبهم . قال يا لك من مسكينة ! لا بد أن تكون حياتك موحشة قاسية ، وماذا يملأ فراغك ؟ ما ضرك لو نكون صديقين ؟ فكانت إجابتى بسمة ساخرة ، وكنت فى تحويل دفة الحديث ماهرة . ثم أقفلت النافذة بغير تحية ، وأنا أقول : خاب فألك ! لن أكون مرة أخرى ضحية

دخلت علىَّ جارتى ودعتنى للزيارة ، فلم أشأ أن أعارض ، وجلست إليها أستمع هراء فى هراء ، ولا أدرى إن كان حديثاً أو مواء . لقد حاولت الإفصاح ، وأخذت تستدرجنى لأقص عليهـا وافمة حالى ، وأنبئها بآلامى وآمالى ، فقصصت عليها أمرى باختصار ، فأظهرت لى أنها من خيرة الأنصار ، وأخذت تلين ملمسها كالحية الرقطاء ، على صورة لم يخف ما بها من دهاء . وبرغم تظاهرها بالبذخ واليسار شعرت باحتقارها . ثم خرجت من لدنها وبينى وبينها هوة سحيقة . لقد تجرعت الساعة التى قضيتها معها ككأس مرة المـذاق ، وقد عزمت وأكدت العزم ألا يكون بعدها تلاق

خرجت اليوم فى الطريق ، من غير ما صاحب ولا رفيق ، فأخذتنى النظرات السافلة ، ورحت أتعثر بين السابلة . أخذت سمتى إلى ماهى من الملاهى ، وأنا أقول أسألك العصمة يا إلهى . رأيت نساء يرقصن شبه عرايا ، ونفوسهن تشف كالمرايا ، ليس لهن هدف غير الرجال ، وسلب ما يقدرن عليه من مال . أما الحب الذى يتظاهرن به فما هو إلا خداع وإغراء ، قد جاز على عقول هؤلاء التعساء . كانوا يلتهموهن بأنظارهم إلتهاماً ، ويظهرون جوعاً وهياماً . والنساء يتدللن والرجال يتعللون ، وكل بدوره يحيك الشباك ، ويبحث عن ضالته هنا وهناك . وبدلاً من أن أسر بالأنوار الساطعة والموسيقى الصاخبة ، شعرت كأنى أريق ماء وجهى ، وأن الشيطان واقف وراء ظهرى وأمامى ينفث من روحه فى تلـكم الأنغام ؛ فأسرعت بالفرار من هذا المكان ، أنشد فى وحدتى الطمأنينة والأمان .

« ليلى »

سليمان فوزى

دمعـــة مكبوتة

على فقيد عزيز

الأستاذ صالح على عيسى السودانى

أى أستاذى وصديق سليمان فوزى !

لقد كنت فى حياتك بى مرحباً حفياً ، وها أنا قد أصبحت اليوم بموتك شقياً ... لجأت إلى الدموع فلم تسعفنى من شدة الحزن ... وشر الدمع ما كان عصياً ... وأقتل الحزن ما كان مكبوتاً دفيناً

وما قصّرت فى جزع ولكن إذا غلب الأسى ذهب البكاء

أى سليمان ! فما أعظم مصابى بك ! وما أشد حزنى عليك !

إلى الله أشكو لا إلى الناس أننى

أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب

أخلاىَ لو غير الحِمــام أصابكم

عتبت ، ولـكن ما على الموت معتب

***

اتصلت بالمغفور له سليمان فوزى منذ نيف وعشرين سنة فألفيته على جوانب عظيمة من المروءة والشهامة والنجدة والإخلاص لإخوانه ، والاستخفاف بالشدائد والاعتداد بالرأى والاعتماد على النفس والاستهانة بالمال ينفقه فى سبيل أداء الواجب نحو وطنه وأبناء وطنه وإخوانه وزملائه ، إذ كان يؤثرهم على نفسه ، ويا طالما كان يضيّق على نفسه ليوسع على العانى المعوز من أصدقائه الذين اتصلوا به

ولقد لازمت الفقيد — رحمه الله — فى كثير من أوقات الشدة والمحنة داخل السجن وخارجه ؛ فكان القدوة ومضرب المثل فى تحمل الشدائد مع الرضاء ... كان يقابل النكبات بابتسامته الساخرة والتهكم المحبب إلى ذوى النفوس القوية ، فإذا حاولت أن تسرى عنه أو تهوّن عليه سرعان ما كان يقف منك موقف المسرى المخفف لما حاولت أن تهونه عليه ! مزدرداً البلوى النازلة مهما عظمت ، والنكبة الطارئة مهما كبرت ، بتلك الكلمة التى كان يتخذها شعاره وهى : « ربنا يستر » . كان يقولها فى المواقف الحرجة التى ترتعد فيها الفرائص ، والمواطن الخطرة التى تنخلع لها القلوب وتذهب شعاعاً . ولا عجب ، فقد كانت تتجلى فى الأستاذ سليمان فوزى جميع صفات الشجاعة بأجلى ما فى كلمة الشجاعة من المعانى ، إذ كان يمضى قُدُماً إلى الغاية التى كان يتوخاها بنقده ، والهدف الذى كان يرمى إليه بحملته الصحفية ، لأنه كان يقدس عمله الصحفى ، وكيف لا ، وهو الذى كان يضحى فى سبيل أداء الواجب الصحفى براحته ومكسبه وصحته ! ولا جدال فى أنه لم يستطع حاكم بسطوته وجبروته أن يرهبه أو يخيفه أو يحمله على العدول عما كان يعتقد محاربته لزاماً . ولم يستطع زعيم أو متزعم مهما بلغ من قوة نفوذه أن يثنيه عن المضى فى عمله الصحفى ناقداً أو داعياً إلى فكرة

وكان الأستاذ سليمان فوزى (أنموذجاً) ومثالاً وصورة ناطقة لجيل من رجال الصحافة فى مصر الذين احتواهم أعنف عهـد من سنى الحركة القومية والنهضة الفكرية . ولا مرية فى أن فقيد الصحافة كان من أبرز الشخصيات الذين قام على أكتافهم إعلاء شأن الصحافة فى مصر ، كما كان فى طليعة أولئك الذين خلقوا للصحافة نفوذاً يخشى تجاهله ويعمل حسابه ...

ولـكن سليمان انفرد بذلك الطابع الخاص فى النقد السياسى اللاذع والتهكم المرير على سياسة وأنانية كثيرين من المتزعمين الذين اتخذوا الاشتغال بالسياسة حرفة ووسيلة لإشباع بطونهم الجائعة ، وملء جيوبهم الخاوية . وبعبارة أخرى ، كان سليمان فى مقدمة أولئك الذين كشفوا للأمة — فى شجاعة — خبايا نفوس بعض المتزعمين ، وأبانوا للناس حقيقة وطنية المتجرين بالسياسة وعواطف الأمة

وكان من صفات الأستاذ سليمان فوزى المبادرة إلى معاونة كل صحفى إذا ألمت به ملمة حتى لو كان هذا الصحفى من خصومه فى الرأى الذين قاومهم وقاوموه — على أنى لم أر للراحل الكريم ضريباً فى بذل المجهود لمعاونة إخوانه فى أوقات شدتهم . وإنى لأكتفى بذكر القليل من المروءة التى كانت تتجلى فى الأستاذ سليمان فوزى نحو خصومه من رجال الصحافة والسياسة

لما قبض على الأستاذ الكبير محمد توفيق دياب فى قضية سياسية « كيدية » وكان قد استشهد بى ضد الكاتب الكبير بعض الذين كانوا يأكلون لقمتهم مغمسة بدماء الناس . وبالرغم من أن الأستاذ سليمان فوزى كان يخاصم الأستاذ الكبير توفيق دياب ويقاوم السياسة التى كان يروج لها ، فإذا به (أى الفقيد الكريم) يسرع فى مقابلتى — بمجرد أن علم بإلقاء القبض — ليذكرنى بواجب الرجولة نحو رجل من حملة الأقلام — ولم أك ناسياً — وقد طالبنى أن أقف فى صف الأستاذ الكبير توفيق دياب وأن أكون له لا عليه فى وقت شدته ، على أن نستأنف مقاومة رأيه السياسى بعد إطلاق سراحه . وقال : أما وهو رهين السجن فلنقم نحوه بما يفرضه الواجب على الرجال . قال ذلك ، ثم أخذ يسعى لدى الدوائر الرسمية طالباً أن يعامل الأستاذ توفيق دياب فى سجنه معاملة تليق بمكانته كأحد قادة الفكر فى البلاد

إذن لست مبالغاً إذا قلت إن المغفور له الأستاذ سليمان فوزى كان ينفرد فى بيئته بالمروءة والشهامة والنجدة والشرف فى الخصومة وتناسى الأحقاد وقت الشدائد ... فهل قام إخوانه بالواجب نحو رجل كان يقوم بالواجب طوال حياته ... ! لعل الجواب لدى الأستاذ الهيهاوى والأستاذ محمود أبو الفتح وغيرهما

ولقد كان الأستاذ سليمان يقدم حيث يحجم غيره ! كان قوياً فى مواقفه الوطنية ، كما كان يجامل أنداده ويلاطف من دونه ، يشبع جائعهم ويكسو عاريهم ... وقد كان رجلاً ... فوداعاً يا رجل !

صالح على عيسى السودانى

ليلة قمراء

للأستاذ العوضى الوكيل

جلستُ أناجى ضياء القمرْ وأنهلُ أحلامهُ بالنظرْ

وألمحه بشغاف الفؤاد وأشهده بعميق الفكرْ

سَرِىّ فى المشاعرِ سَيْرَ الخيال رضىّ الهدوء ، جميلَ الأثرْ

يطارحنى خلجاتِ الشعور ويشدو وإن لم يكنْ ذا وترْ

فأسمعه ملء هذا الوجودِ ما بَانَ من أفقه واستترْ

ندىّ الجبين ، ندىّ الشعاعِ حَيِىّ تلفتُه ، ذو خفرْ

***

فحيا الكون يا ليلتى وابتدرْ ورقت عشيانه والسَّحَرْ

ألا فاقبسى من سَنى ما اشتهيتِ وصونيه فى كنزكِ المدخرْ

تَمَلَّىْ مسارحَ هذا الجمالِ منتظراً سحرُها من نظرْ

رياضٌ من النورِ تَسبى العيون فأين الغصون وأينَ الزهرْ

***

جلست وفى جانبي من أحِبُّ يأمرنى أن أجيلَ البصرْ

ويطلبُ منى رقيق النشيد يخلد حيناً علينا عبرْ

أما كان يعلمُ أنّ سناه معانٍ لديوانيَ المنتظرْ

يدلّ عَلَىّ وما ينثنى ولكنه ما نأى أو هجرْ

قديمٌ ـ لعمرك ـ دلّ الحسان ألا ليته طارف مُبتَكَرْ

***

ألا ما النشيد وما سحرُهُ لدى وجهك العبقرىّ الأغرْ

معانيه أخلدُ ما فى الوجود إذا ما انطوى غيرها واندثرْ

نمتْ واستطالت أفانينُها ولم تبقِ من روعةٍ أو تذرْ

فرحتُ أصلّى لدى سحرها وأحبسُ الصلواتِ العُمُرْ

وأفنى حياتى . . . فناء البقاء وأنى عن الروح هذا الضجرْ

***

سرى البدرُ فى غفوةٍ من سَنًى فى أىّ حلمٍ وضىء نضرْ ؟

تعالَىْ لنوقظه من سُبَاتٍ ونترك آلامنَا تحتضرْ

العوضى الوكيل

مختارات من مراثي الشعراء

فى المرحوم فؤاد بليبل

من قصيدة الأديب محمود السيد شعبانه :

إلى الشاطئ المجهولِ قد سارَ زورقٌ يَشُقُّ عُبَابَ الغيبِ مهما مُسَدَّدَا

عَلَى مَتنِهِ مَلاّحُهُ وَيْحَكَ اتئِدْ ! فإنكَ ما أدركتَ من عُمْرِكَ المَدَى

تعوَّدتُ أنْ ألقاكَ بالبِشرِ دانيًا فها أنذا ألقاكَ بالدمعِ مُبْعَدَا

وما كلُّ مَيْتٍ خالدٌ غيرَ أننى رأيتُكَ فِى الأمواتِ حيًّا مُخَلَّدَا

فؤادُ ! لقدْ آبَ الربيعُ ولَمْ تَعُدْ وَمَاضَرَّ لو أسدَيتَ بالعَوْدِ لى يَدَا؟

عَرَفتُكَ سَبَّاقاً إلى كلِّ غايةٍ

فهلْ كنتَ تهوَى السَّبْقَ حتَّى إلى الرَّدَى؟

مَشَوْا بِكَ فِى حَشْدٍ وَفِىٍّ مُوَدِّعٍ

فأبكَمتَ مَنْ غنّى وأبكيتَ مَنْ شَدَا !

شَقِيتَ زَمَاناً فاسْتَرِحْ ، طِبْتَ مَرْجِعًا

وَطَابَ لَكَ الفِرْدَوْسُ مَهْدًا وَمَرْقَدَا !

رَجَعْتَ إلى الأرْضِ اليَبابِ فَقلْ لها :

دَعِينِى أعِشْ لِلنورِ وَالحُبُّ سَرْمَدَ

رَوَّيتُكِ مِنْ شِعْرِى فلم أبقِ بَلقعًا عَلَى ظَمَأٍ يومًا ولمْ أبقِ فدفدا

وَنَضَّرْتُ بالأحلامِ رَوضَكِ مُنْشئاً وأطربتُ بالألحانِ طيرَكِ مُنْشِدَا

وَبَارَكْتُ فِيكِ الحُسْنَ وَالطُّهْرَ وَالهوَى

وَأَبْدَعْتُ مِنْكِ الحَقَّ وَالخيْرَ وَالهُدَى !

وَصُغْتُ قَرِيضِى مِنْ شُعُورِى وَمِنْ دَمِى

وَمَا كُنْتُ فِى يَوْمٍ لِغَيْرِي مُقَلِّدَا

فَمَالَكِ قَدْ غَيَّبتِ فِى التُّرْبِ هَيْكَلِى وَلَمْ تَحْفَظِى عَهْدًا وَلَمْ تَحْمَدِى يَدَا؟

ومن قصيدة الأستاذ محمود غنيم :

استقبل الناس الربيع بموكب ومضى أحبائى فرحت أشيع

الزهر ينفح فيه إلا زهرة منثورة الأوراق لا تتضوع

والطير يسجع فيه إلا بلبلاً تحت التراب موسدًا لا يسجع



إلى الأستاذ الكبير (١. ع)

السلام على سيدي العلامة الأستاذ الكبير الكريم ورحمة الله وبركاته ... وبعد، فرأى الأستاذ — أدام الله نفع الناس بطول بقائه — في أمر (الإرسال) هو الأعلى ؛ ولا ريب في أن إرسال الريح الصرصر والحاصب والصيحة والعذاب — تسليط وعقاب، وكذلك إرسال الكلب والصقر على الصيد (المسكين) عند أبي العلاء والبراهمة والمنصفين من الآدميين ... غير أن هذا الضعيف لا يرى في الإرسال إلا معناه الظاهر أي ضد الإمساك «ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له» ؛ ويرى التوجيه مثل الإرسال «وجه إليه كذا أرسله» ، كما في اللسان «وجهه في حاجته توجيهاً أرسله فتوجه جهة كذا» كما في التاج ؛ وترسل النعم «يرسل السماء عليكم مدرارا» كما ترسل النقم «ويرسل عليها حسباناً»[1] قال الراغب في (المفردات) : «الإرسال يقال في الإنسان وفي الأشياء المحبوبة والمكروهة» ، فتختلف الإرسالات كما يختلف المرسلون والمرسلات . . . والإرسال حقيقة كما روى الأستاذ عن الأساس : «أرسل كلبه وصقره على الصيد» ومجاز كما روى — أيده الله — عن ذلك الكتاب «أرسل الله عليهم العذاب» والآية الكريمة التي استشهد بها التاج — ناقلاً من اللسان ؛ والتسليط قول الزجاج — وأوردها الأستاذ فيما روى من كلامه وهي : «ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً» قد تشعبت في معنى الإرسال فيها أقوال لغويين ومفسرين — والأستاذ أعلم مني بذلك — والإمام ابن جرير يقول في تفسيره : «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ألم تر يا محمد أنا أرسلنا الشياطين على أهل الكفر بالله تؤزهم ، يقول : تحركهم بالإغواء والإضلال ، فتزعجهم إلى معاصي الله وتغريهم بها حتى يواقعوها . أزا : إزعاجاً وإغواء»

ولو لم يوجه الله الشياطين إليهم أو يسلطهم عليهم أو يخل بينهم وبينهم لطاروا إليهم من تلقاء أنفسهم ، لأن عملهم في هذا الدنيا — وهذا (قضاء من الله العزيز أراده)[1] — إضلال الكافرين وغير الكافرين وإفساد جميع الأناسين «إلا عباد الله المخلصين»

وأرسل في ختام هذا الكلام إلى سيدي العلامة الأستاذ الكبير الكريم — مد الله في عمره — خير تحياتي

* * *

عثمان زناني

(١) قيل : حسبانا مرامي الواحدة حسبانة وهي الصواعق (الكشاف)

تفضل الأستاذ الكبير «١. ع» فصحح الخطأ الذي وقعت فيه حين تحدثت عن أحمد زناني وأنا أريد عثمان زناني

وأقول إن ذلك الخطأ كان نعمة عظيمة . فقد أوحى إلى هذا الأستاذ الكبير كلمة من أطيب الكلمات في التعريف بأخوين كان لهما في خدمة اللغة والأدب والتعليم مكان مرموق

ذلك خطأ وقعت فيه سهواً ، فكان من آثاره أن ينتفع القراء بتلك الكلمة الطيبة ، وإلا فأنا أعرف أن الشاعر هو عثمان زناني ، وكذلك ورد اسمه في كتابي «الأسمار والأحاديث» ص ٢٩٨ عند الكلام عما انتهب شوقي من معانيه الجياد

ولو ضمنت أن يصحح الأستاذ «١. ع» جميع أخطائي لأخطأت عن عمد لأظفر بتلك النفثات التي تصدر عن باحث من أعاظم الباحثين

(١) صدر بيت للمتنبي والعجز معروف

كم الردى فمه وكان إذا شدا ... في الأيك راح فم الزمان يرجع

لم يبق من نغماته إلا صدى ... كالنزع في أذني يرن فأفزع

يأيها المرح الطروب تحية ... أتراك تلهو في الضريح وترفع؟

قد كنت تبسم للحياة : شقائها ... ونعيمها ، بكليهما تتمتع

تتزلزل الدنيا وقلبك فارغ ... مما يزلزلها وجامك مترع

ما كان ينقصك الشعور بوخزها ... بل كنت عن آلامها تترفع

أسرعت في قطع الحياة كأنما ... هي حلبة فيها يفوز المسرع

يا ساكن الصحراء هلا خط في ... ظل الخمائل والربا لك مضجع

أدمى فؤادي أن نجمك قد هوى ... إذ راح يأخذ في الظهور ويلمع

فاجأت أندية القريض بكوثر ... لم يعرفوا من أي عدن ينبع ؟

ما كان لاسمك رنة لكنهم ... وجدوا لشعرك رنة فتتبعوا

شعر صريح في العروبة محكم ... لا معجم واهي النسيج مرقع

هذا ، ولم أفهم المراد من القول بأن الشيخ عثمان زناتى كان من الشعراء الذين نبغوا فى أواخر القرن التاسع عشر

فهل يكون معنى ذلك أننا انتقلنا من تاريخ الهجرة إلى تاريخ الميلاد ؟

أرجو أن يتفضل الأستاذ الكبير « ا . ع » بالإجابة عن هذا السؤال ، فإن لم يفعل فهو وحده الذى عاد يطرق باب « التجديف » وهى تورية أتحفنى بها منذ أسابيع ، فهى منه وإليه

أدام الله عليه نعمة العافية والتوفيق والسلام

زكى مبارك

فى تأبين المرحوم فؤاد بليبل

... وكان أيضاً فى تأبين فقيد الشعر المرحوم فؤاد بليبل بنادى لبنان مساء الأحد ١١ مايو ظاهرتان تلفتان النظر ، وتستوقفان الفكر

أما الأولى فكانت روح الشباب فى إبانه ، وثورة الصبا فى عنفوانه ، فالمرثىُّ شاب والراثون شباب . فلا جرم أن يكون رثاؤهم من شباب الرثاء إن صحّ أن يكون للرثاء شباب

ومن ثم كانت القصائد التى سمعناها فى هذا الحفل تفيض بالحرقة والأسى ... والحياة ... وما عرفت الفقيد ولا رأيته إلا فى شعره ، ولكننى والله ما تمنيت أن أرى مرثياً لم يُتح لى لقاؤه ، كما تمنيت أن أرى فؤاداً بعد أن شغفّنى رثاؤه . وهيهات

ولقد يكون من حسن التقدير أن نشير إلى قصيدة كانت (بيت القصيد) فيما سمعنا من القصيد[1] ، وهى قصيدة الأديب محمود السيد شعبان الدالية ... استمع إلى حسن المقابلة فى قوله :

فيالك من حلم جميل قد انتهى ويالك من حزن طويل قد ابتدا

أو إلى قوله :

عرفتُكَ سبّاقا إلى كلِّ غايةٍ

فهل كنت تهوى السبق حتى إلى الردى

أما الأخرى - وإن أغضبت صراحتها الرسالة - فقد زادتنى إيماناً بأن الناقد الحق ينبغى أن يسمع الشاعر أو الكاتب خطيباً فيستشف منه ما لم يستشفه من قلمه ، ويستشرف من روحه وصوته ونبراته ، وموقفه وإشاراته ونظراته ، إلى ما ينير له الطريق فلا يزيغ حكمه ، ولا يضل قلمه

أيقنت أن قلم التحرير والتصحيح فى الرسالة يعانى الأمرَّين فى ضبط ما يرد إليها من قصائد الشعراء ، وإلا فكيف نعلل هذا اللحن الشائن الذى كان يخيم على ألسنتهم خطباء ؟ ...

لقد أتيح لنا فى هذا الحفل أن نسمع من يقول فى شعره (عِرفت ورجعت ووقِفت) فلعلها لهجة عامية غلبت على الألسنة ... وأتيح لنا أن نسمع من يقول (تهرِب منى القوافى) و (أمسك القلم) ، وأن نسمع من يقول (كان فؤاد عبقرىُّ النفس عبقرىُّ الروح) و (كان ابنَ الروى ثائراً) ويكررها مرات ...

ومن البلية أن خطيباً استشهد بقول الفقيد (المصلحون وليس فيهم مصلحُ) بالرفع وهو ضبط صحيح كما ترى ، ولكنه حسب أنه أخطأ فأعادها (مصلح) بالجر ...

أفبعد هذا نستبعد أن يكون لقلم التصحيح فى الرسالة فضل كبير فيما نراه من ضبط صحيح ؟ ...

فشكراً لمواقف الخطابة ... إنها تبصرك بالأدباء فلتعرفهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول .

محمد محمد رضوان

ربيع وجمادى

شاع - خطأ - وصف هذا الشهرين بما لم يعرف فى اللغة فأحببت أن أنقل عن كتب اللغة وصفهما تنبيهاً وتصويباً ؛ ولفت نظر الكتاب والمؤرخين ؛ والرسالة الغراء - ومكانها فى اللغة والأدب عالى الذروة - أسبق المجلات إلى الصواب والهدى

قال صاحب القاموس وغيره : والربيع ربيعان : ربيع الشهور ، وربيع الأزمنة ؛ فربيع الشهور شهران بعد صفر ، ولا يقال إلا شهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر (بوزن فاعل) . وأما ربيع الأزمنة فربيعان : الربيع الأول الذى يأتى فيه النَّوْر والكمأة ؛ والربيع الثانى الذى تدرك فيه الثمار ...

وجُمادى من أسماء الشهور معرفة مؤنثة وجمعها جماديات ، وجمادى خمسةٍ الأولى وجمادى ستةٍ الآخرة .

طه محمد الساكت

مدرس بمعهد القاهرة

---

(١) لم يكن من حظنا سماع قصيدتى الأستاذ غنيم والدكتور ناجى

مذهب الفرد ومذهب الجماعة

أثار الأستاذ الكبير الدكتور زكي مبارك مناقشة في مقاله «الفرد أساس الجماعة». ولا ينكر أحد أن الفرد أساس الجماعة بمعنى أن الجماعة أفراد. لكن الأمة ليست أفراداً فحسب، بل هي أفراد اقتضى اشتراكهم في فوائد المجتمع أن يضحي كل فرد بشيء قل أو كثر. والمعضلة هي إلى أي حد ينبغي أن يضحي الفرد من أجل الجماعة ... ففي بعض العصور راجت فكرة مَن يقول: إن الفرد ينبغي أن يضحي بكل شيء إذا اقتضت فائدة الجماعة ذلك، وفي عصور أخرى راجت فكرة من يقول: إن الدولة التي أنشأتها الجماعة ينبغي ألا يتعدى اختصاصها النظر في أمور الأمن العام، وأنها ينبغي أن تترك كل فرد حراً في آرائه وإحساسه وميوله وأفعاله، ما دام لا يعتدي على غيره اعتداء يحرمه القانون؛ أما فكرة من يقول: إن الفرد ينبغي أن يكون في كل أمر خاضعاً للجماعة، فإنها تضحي بحريات كثيرة، وقد تؤدي إلى تضاؤل الإنسان في فكره وإحساسه وعمله، وهذا التضاؤل مصيره تأخر الإنسانية؛ كما أن فكرة من يقول بمذهب صيانة أعظم قدر من الحرية للفرد قد تؤدي إلى كثير من الاختلال في الأمور الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وإلى التخاذل والتفرق والتباغض، وقد تؤدي إلى أن يضر الفرد نفسه بإساءة استعمال حريته الكبيرة. وهذا أيضاً مصيره تأخر الإنسانية لو دام هذا الأمر ودامت عواقبه. وقد كانت الفكرة السائدة بعد تأسيس الديمقراطيات الحديثة فكرة صون قداسة حرية الفرد لأن المفكرين وجدوا أن تدخل الحكومات قبلها لم يكن رشيداً ولا منتجاً نتاجاً حسناً. لكن تاريخ الديمقراطيات الحديثة قد أثبت أن الأخذ بمبدأ الفرد أخذاً عاماً أدى إلى فساد كثير، وقد اضطرت الحكومات إلى رفضه في أمور كثيرة حتى في العهد الذي بلغ فيه غايته؛ فقد رفضته الحكومة الإنجليزية في القرن التاسع عشر بالرغم من أنها تقدس مبدأ الفرد، رفضته عند ما تدخلت لحماية الأولاد والنساء والرجال في المصانع، وقد أدى الغلو في الأخذ بمبدأ الفرد إلى ضياعه وإلى قلة الثقة بالديمقراطية في بعض الأمم الأوربية، وإلى سقوط تلك الديمقراطية فيها، وإلى اضطرار الدول التي لا تزال تعتنقه إلى التفكير في أن تحده بتنظيم أمور الجماعة تنظيماً لا بد أن يحد حرية الفرد وحقوقه، ولا شك أن هذه الحاجة إلى التنظيم ستزداد بعد الحرب القائمة الآن. فهذه المسألة التي أثارها الأستاذ لا تحل إلا بمحاولة التوفيق بين المذهبين وتجنب ما في كل منهما من أضرار لا شك فيها؛ والبحث في كل أمر يراد به إنقاص حرية الفرد وحقوقه وفحص نتائجه وألا يكون تدخل الحكومة في أمثال هذه الأمور نتيجة العاطفة وحدها أو الحيرة من وجود فساد لا تدري علاجه فتعالجه بالعاطفة أو القهر أو الوسائل التي لا تؤدي إلى إزالته وإن خيلت أنها تؤدي

رشيد العقلاوي

أصل الفقر

كتب الدكتور زكي مبارك في «المصور» وفي «الرسالة» كلاماً كثيراً عن الفقر والفقراء، خلاصته أن الفقر ظاهرة فردية ترجع إلى انحطاط أخلاق الفرد. فليسمح لي الدكتور الفاضل أن أقول له في صراحة نافعة له جداً، إنه لو كان قد درس شيئاً من الاجتماعيات والاقتصاديات قبل أن يكتب ما كتب، لعلم علم اليقين أن علماء الاجتماع والاقتصاد في العالم كله قد أجمعوا على أن الفقر ظاهرة اجتماعية وليست فردية. وأن علة الفقر هي النظام الاقتصادي لا الأخلاق. فنحن عند ما نبحث مشكلة الفقر في مصر مثلاً، لا نقول إن فيها أفراداً أغنياء وأفراداً فقراء. ولكننا نقول إن في مصر طبقات غنية وطبقات فقيرة. وهذه الطبقات الفقيرة — وهي الأغلبية الساحقة — ليست فقيرة لأنها منحطة الأخلاق كما يتوهم الدكتور. ولكنها فقيرة لأن النظام الاقتصادي السائد قد فرض عليها الفقر فرضاً. وأرجو أن يعلم الدكتور أن الأخلاق هي أيضاً ظاهرة اجتماعية. فأخلاق الطبقات تتكيف إلى حد كبير جداً بالمستوى الاقتصادي لتلك الطبقات، أي بالغنى والفقر. ولم تكن أخلاق الطبقات قط، ولن تكون أبداً، سبباً من أسباب فقر الطبقات أو غناها

وغني عن البيان أن هذا كلام مجمل يحتاج إلى تفصيل وإلى شرح طويل. ولكني لا أنوي الآن أن أتولى هذا الشرح فليلتمسه الدكتور – إذا شاء – في مظانه، أي عند علماء الاجتماع والاقتصاد. فلو قد فعل لفهم المسألة على وجهها الصحيح. ولأراح نفسه وأراح القراء من هذا الكلام الكثير عن مشكلة لم يدرسها ولم تتصل بحياته الأدبية المعروفة عن قرب أو عن بعد

عزمي الدويري

الأُرجى

سيدى الأستاذ الزيات :

ورد فى مقالكم القيم (ما خلفته أثينا وروما) العبارة الآتية : فتدفقوا فى اللهو و (الأُرْجى) ، فرجعت إلى القاموس فوجدته يقول : الأرج والأريج والأريجة توهج ريح الطيب ، والتأريج الإغراء ، كالأَرج والأُرَجان المغرى ، والأُراج الكذاب ، والمؤرّج كمحد الأسد ، ولم أجد كلمة (الأُرْجى) . فهل لسيدى الأستاذ الكبير أن ينفحنا بنفثة من يراعه السيال فى معنى هذه الكلمة ، وله جزيل الشكر . حسن محمد هريس

(الرسالة) : الأرجى (L'orgie) كلمة لم تعرفها العرب ولذلك وضعناها بين قوسين . إنما هي إغريقية الأصل كان الأقدمون من اليونان والرومان يطلقونها على أعياد باخوس إله الخمر . ثم أطلقها الرومان أيام ترفهم على نوع من المآدب الداعرة المسرفة فى الطعام والشراب كان لها فى تاريخهم أثر معروف

روافد الأدب العراقى

طلعت علينا أميرة المجلات العربية — كما سماها الزهاوى — فى عددها (رقم ٤٠٤) بمقالة للدكتور الأستاذ زكى مبارك ، حول (الأدب العربى الحديث فى العراق) ، وقد أكبرنا له جرأته وتجشمه المصاعب ، وكتابته عن أدبنا الحديث الذى لم يكتب له تاريخاً يقرأ ، وقد ذكر — حياه الله — ثلاثة روافد للأدب العربى العراقى هى : الأدب التركى والفارسى ، والأدب المصرى ؛ وقال عن الأدب المصرى : « (ص٣٧٥) ... أما اتصال العراقيين بالأدب المصرى فهو أقوى من اتصال المصريين بالأدب المصرى وقال أيضاً : « ولن يمضي زمن قليل حتى يكون من الصعب أن نجد اختلافاً جوهرياً بين أساليب الشعراء والكتاب فى مصر والعراق . . . » . ويخيل إلى أن الدكتور نسى رافداً رابعاً وهو الأدب السورى الأمريكى ، وإن أراد الدكتور أن أذكر له كتابنا الكثيرين الذين اقتفوا أثر (جبران خليل جبران) و (أمين الريحانى) و (ميخائيل نعيمة) ؛ فأما على قدم الاستعداد ؛ وهم فى السنين الأخيرة اتصلوا بالأدب المصرى ، اتصال محكما — كما يقول الدكتور — ولكنهم لا يزالون متصلين اتصالهم القديم بأدب سورية فى المهجر محمود العبطة

تصويب

وقع تحريف مطبعى فى بيتين من قصيدة الأستاذ محمد مصطفى الماحى فى رثاء المغفور له محمد مسعود بك ، وصحة الأول :

ما العلم مجد إذا لم يحمه خلق ولا الإخاء على حقد بمضمون

وصحة الثانى :

لم ينج فى مسبح الأفلاك معتصم من البلاء ولا فى مسبح النون

نداء الصخرة

هـذا الاسم لمجموعة قصصية مصرية ، أصدرها الأديب القصصى الأستاذ شعبان فهمى ، وهو من نوابغ شباننا القصصيين ؛ وقد تجلت مقدرته القصصية فى روايته الطويلة (وجيدة) التى أخرجها فى مثل هذه الأيام من العام الماضى

وهذه المجموعة التى نحن بصدد الكتابة عنها ، تحوى ستة أقاصيص مصرية ، ومسرحية واحدة عنوانها (من السما)

وهذه الأقاصيص كتبت بأسلوب عربى جيد ممتع ، غير أنك تقع فى أثناء الكتاب على بعض الهنات اللغوية وهى قليلة جداً . وأرى أنها من المطبعة أكثر منها راجعة إلى قلم الكاتب . ونجد واحدة من قصصه كتبت بالعامية الدارجة ، كذلك كتب مسرحية باللغة العامية

والكاتب شديد الولع بالشقراوات من النساء ، فبطلات أقاصيصه كلهن شقراوات ، وفى هذا تكرار للصورة الواحدة ، فى قصص مختلفة ، فى مجموعة واحدة . والحق أن هـذه الصورة المتكررة بعثت فى نفسى شيئاً من الضيق ؟ كذلك نرى الكاتب يغرم بمشرب واحد من المشارب العامة فى الإسكندرية كلها . فكلما أراد أن ينقـل شخوص أقاصيصه إلى مشرب عام نقلهم إلى (كارلتون) ، كأن الإسكندرية خلت إلا من (كارلتون) والأستاذ كتب قصة الأميرة الراقصة فى شكل يوميات ، وقد وفق فى ذلك . وهو يبث فى قصصه فكرات اجتماعية عميقة ويحلل بعض نواحى مجتمعنا المصرى فى الطبقات الوسطى والمترفة ، كما أن له قدرة فى الحبكة القصصية ، ولمّ أطراف الموضوع ، والتسيطر على قلمه ، وفى قصصه وحدة فنية ، فالفكرة الأساسية واضحة بارزة

ومسرحية (من السما) لم أستطع أن أسكت على بعض حوادثها ، فهى عندى مفتعلة ، وليست صادرة عن منطق الحياة . فهو يظهر فيفى وهى التى بلغت السادسة عشرة من عمرها فى مظهر ساذج . وأرى بعض الوقائع تبعد عن الواقع ، ولا سيما إذا لاحظنا أنها تقع فى مصر ، بل وفى صميم الريف

ولا يسعنى إلا أن أهنىء الأستاذ شعبان فهمى بهذا التوفيق

(القاهرة) ابراهيم أحمد أدهم



9me Année No. 412

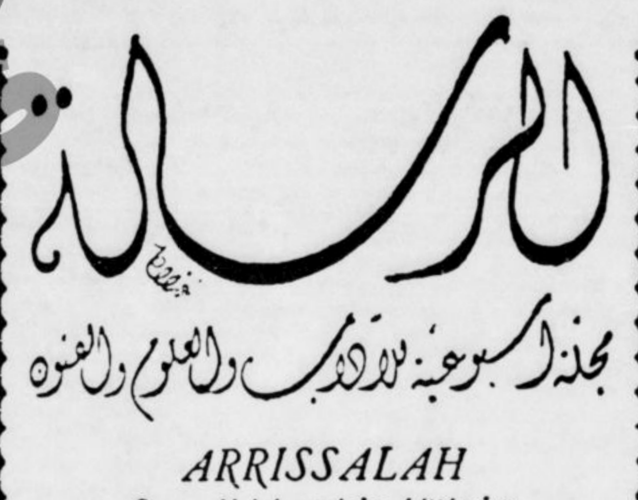
Lundi - 26 - 5 - 1941



بدل الاشتراك عن سنة

٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة



الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٤١٢ « القاهرة فى يوم الإثنين ٢٩ ربيع الآخر سنة ١٣٦٠ — الموافق ٢٦ مايو سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

مثـــل الغنى الصالح

أنا لا آلف بنى قارون بحكم مَرْباى ومَحْياى وطبعى . لا آلفهم لأن فيهم شموخاً على الناس لا يدرى أحد ما سَبَبُه ، لا هم آلهة فيرزقوا ، ولا هم أناس فيحسنوا ؛ إنما هم صِنف من خلق الله إلـهم الذهب ، ومعابدهم البنوك ، ورسالتهم أن يظلموا أنفسهم بالشح ، ويظلموا غيرهم بالأثرة

حبسوا مُشاع الرزق فى خزائن من الحديد ومخازن من الأسمنت ؛ ثم جعلوا عليها أقفالاً من صنع الشيطان لا تنفتح إلا لتأخذ ؛ واستغلوا ما ركب الله فى طباع الناس من تقديس المال وتمجيد أهله ؛ فجعل لهم نفوذاً فى الحكم ، ورأياً فى التشريع ، وسلطاناً على العامة . وكان من وراء جشعهم وشحهم وأثرتهم وسلطتهم ودلِّهم أن اختلت موازين الخير ، وتكدرت مجارى النعمة ، واحتكرت منابت الرزق ؛ ووجد الضعيف مجاله الحيوى ضيقاً فاضطرب فيه ، وحظه المقسوم مغتصباً فسكت عنه ؛ ومن هنا نشأت مشكلة الفقر وما نجم عنها خلال القرون من نظم وأحكام وعظات ومقالات وثورات وحروب

ما رأيت قارونيًا إلا ملكنى نوع من الشعور يحسه من يلقى سجَّان النعمة وحابس القوت وغاصب الحياة . وكان فى مقدور كل غنى أن يكون رسول سلام وملاك حب لو أنه فقه معنى الدين ، وفهم حقيقة الإنسان . وإن اللذة التى يجدها الغنى البَرُّ حين يرى صنائعه يرتعون فى معروفه ويستظلون بجاهه،

الفهـــــرس

لأصدق وأعمق من اللذة التي يدركها الغني الفاجر حين يرى ضحاياه يغمسون خبزهم في الدماء والدموع والعرق

على أن التعبير باللذة عن ذلك الشعور الآثم الذي يجده الغني اللئيم في بؤس الناس فيه تجوُّزٌ لجهلنا اللفظ الذي يطلق على هذا الوجدان في هذا الحيوان. وبحسبي أن أضرب لك مثلين: رجلين أحدهما فاجر والآخر بَرٌّ، لتدرك بنفسك الفرق بين أثر الغنى في قلب دجا فيه الكفر، وبينه في قلب أشرق فيه الإيمان

عرفت من لئام الأغنياء رجلاً وصفته منذ عامين لقراء الرسالة فلا أسميه؛ وكان مما أملاه لسانه على قلمي قوله:

أفرط عليّ الغنى حتى غطى على بصيرتي وبصري، فلم أعرف أن لي ديناً له حرمة، وزوجة لها حق، وأولاداً لهم رعاية. وعشت لنفسي، بل لمالي: أفني النهار له وأسهر الليل عليه، حتى كرهتني أسرتي، وحقَّرتني عشيرتي، وسئمتني حياتي. وأصبت بمرض عُقام برى عظام ساقي ونخذي فلم أستطع المشي ولا النهوض. واستولى ولدي البكر على مفاتيح الكنوز وأضفى على نفسه وزوجه وأمه وأخواته الذهب والحرير والنعيم والأبهة، وتركوني سطيحة في حجرة منعزلة لا يدخلها علي إلا الخادم بالماء والثريد والقهوة. ولا أدري لماذا استمرت في نفسي اليوم شهوة الأكل ورغبة المتاع، فأنا أشتهي كل شيء، وأبتغي كل شيء، ثم أنظر في يدي الجُمَّاعة الكسوب فإذا هي ممروقة كيد المشلول، فارغة كراحة السائل؛ وأدور بعيني في الحجرة الموحشة فأرى أطياف الذين لجمتهم في أموالهم وآمالهم تخفق على الجدران ساهمة حزينة، فأتذكر كم مدين أغرقت، وكم بيت أغلقت، وكم قلب سحقت، فتنهلّ مدامعي انهلال القَطر على خدي الناشر الشاحب، وأتمنى لو تعود قدرتي على ثروتي فأمحص خطاياي بإنفاقها كلها في سبيل الله؛ ولكن هيهات هيهات لما أرجو! لم يبق لي منها إلا حريق القلب في الدنيا، وحريق الجسم في الآخرة. حتى الدواء لا أناله، وحتى الكفن لا أرجوه! وكأنما أمات الله نصفي الساعي، وأبقى على نصفي الشاعر، لأدرك بعيني وفكري وخيالي مض الألم الذي يحسه المظلوم يُغتصَب ولا يستطيع أن يدفع، والمحروم يشتهي ولا يستطيع أن يجد، والمهموم يتلظى ولا يملك أن يموت

ذلك مثل، والمثل الآخر رجل يسرني أن أكشف قليلاً عن اسمه: هو الأستاذ «م. محمود جلال». عرفني هذا الرجل قبل أن أعرفه، وسعى إليّ دون أن أسعى إليه؛ وتلك مخالفة لرسوم الكبراء لم تقع من غيره. ثم حدثني وكتب إليّ، وزرته ثم كشفت عنه، فعلمت أنه رَجلٌ وَحدِه في هذه الطبقة. لا يعتبر الغنى غاية كما يعتبره الأشحة، وإنما يعتقده سبيلاً غايته السعادة. والسعادة في رأيه معنى منتشر لا يجتمع لنفسه إلا بسعادة أسرته وأمته وملته. فهو لا يحتكر ولا يدخر ولا يطمع. إنما ينفق غلة أرَضيه الواسعة على عامه الحاضر فلا يبقي شيئاً منها إلى قابل. وعلى هذا المبدأ يتسنى لإيمانه الكامل أن يعمر نواحي المعروف بفعله. والإيمان الكامل هو الإيمان بالله؛ لأن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بكل ما يدخل في مفهوم الحق والخير والجمال. يتجلى ذلك الإيمان في تدبيره لبيته، وتربيته لِبنيه، ومعاملته لفلاحيه، وإدارته لثروته، ونيابته عن أمته. فبيته المؤسس على الرضوان والتقوى متحف فن ومكان عبادة ودار ضيافة. وأولاده البنون والبنات قد أخذهم بأدب الإسلام، فهم يؤدون الصلوات، ويتنافسون في الخيرات، ويحفون من حول أبيهم كالملائكة لا يتكلمون إلا في العلم أو في الدين أو في الأدب. وهو في مزارعه بين أجرائه، كالأب الشفيق بين أبنائه: لا يجهد الضعيف ولا يرهق الفقير ولا ينهك المدين. أقام لهم المساجد واستقدم إليها الوعاظ والحفاظ وأهل العلم؛ وأنشأ المدارس واستخدم فيها أولى الكفاية في التعليم والتربية؛ وأسس المستشفيات ودعا إليها الأطباء المختلفين بالتناوب، وصرف فيها الأدوية بالمجان؛ وهيأ لفلاحيه ومستأجريه وسائل الصحة والراحة، وقطع من بينهم أسباب الحقد والخصومة، حتى أغناهم عن الحكومة فلم يتقدموا إليها في دفع مظلمة أو أداء معونة

وهو في البرلمان يمثل الدفاع عن الحق الكامل والرأي الثابت، لا يبتغي من ورائه الوصول إلى الحكم لأنه لا يوسّل إليه، ولا الحصولَ على الجاه لأنه من قبل ذلك حاصل عليه

وهو في كل مكان يبذل من يده ومن قلبه ما يكفكف الدمع ويخفف المصاب ويساعد على حدثان الدهر؛ فأخلصت النفوس في خدمته وأجمعت القلوب على حبه

ذلك يا أخي الفقير مثل الغني الصالح الذي استطاع أن ينشيء عالماً مستقلاً يسود فيه السلام والحب، ويرضى عنه الله والوطن. فلو أن جميع الأغنياء اتبعوا سبيله لمنحتهم حبَّك وإكبارَك، وشاركت في الدفاع عنهم صديقنا الدكتورَ المبارك

احمد حسن الزيات

رأي الامام المراغي في إصلاح الأزهر

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأى أن تترددا

في سنة ١٩٢٨ وفي ولايته الأولى على الأزهر ، قدم الأستاذ الأكبر المراغي إلى أولى الأمر في الحكومة هذه (المذكرة) الصريحة التي ضمنها زبدة رأيه في إصلاح الأزهر منهاجا وغاية . وهذه المذكرة — كما تراها — هي مقطع الصواب في هذا الباب ؛ وما نظن أحداً ممن تحرى وجوه الصلاح لهذه الجامعة الاسلامية العظمى قد بلغ من ذلك بعض ما بلغ الامام في هذه الكلمة . والأستاذ المراغي قد وضع هذه للذكرة لتكون برنامجه في سياسة الأزهر ، ثم أقرتها الحكومة وارتضتها الأمة ، فلم يبق عليه إلا أن ينفذ ما وضع ويطبق ما شرع . ولكن أزهر (المراغي) لا يزال كأزهر (الظواهري) يتغير في الشكل ولا يتغير في الموضوع ، ويستعير هيكل (الجامعة) الحديثة ، ويحتفظ بروح (الجامع) القديم ! فهل يستطيع كاتب من الكتاب ، أن يبين الحوائل ويشرح الأسباب ؟ (الزيات)

المذكرة

أوجب الدين الإسلامي على أهله أن تختص طائفة منهم بحمله وتبليغه إلى الناس « فلولا نفرَ من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون »

وأوجب على نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعو الناس إلى السبيل الموصلة إليه « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن »

وقواعد العلماء كلها متفقة على وجوب السعي إلى نشر الدين وإقناع العباد بصحته ، وعلى وجوب حمايته من نزعات الإلحاد وشُبَه المضلين

وفي الكتاب الكريم آيات كثيرة تحث على النظر في الكون وعلى فهم ما فيه من جمال ودقة صنع . وقد لفت النظر إلى ما في العالم الشمسي من جمال باهر ، وصنع محكم ؛ ولفت النظر إلى ما في الحيوانات من غرائز تدفعها إلى الصنع الدقيق والأعمال التي لها غايات محدودة ، وأشار إلى سير الأولين ، وحث على العلم وفاضل بين العلماء والجهال

وأعمال السلف الصالح وسير العلماء لا تدع شبهة في أن الدين الإسلامي يطلب من أهله السعي إلى معرفة كل شيء في الحياة

وقد تولى سلف علماء الأمة القيام بهذه المهمة على أحسن وجه وأكمله فخلفوا تلك الثروة العظيمة من المؤلفات في جميع فروع العلم ، ودرسوا أصول المذاهب في العالم ، ودرسوا الديانات ، ودرسوا الفلسفة على ما كان معروفاً في زمنهم ، وكتبوا المقالات في الرد على جميع الفرق ، وكانت للعقل عندهم حرمته وله حريته التامة في البحث ، وكان الاجتهاد غاية يسعى إليها كل مشتغل بالعلم متفرغ له

ولكن العلماء في القرون الأخيرة استكانوا إلى الراحة ، وظنوا أنه لا مطمع لهم في الاجتهاد ، فأقفلوا أبوابه ، ورضوا بالتقليد ، وعكفوا على كتب لا يوجد فيها روح العلم ، وابتعدوا عن الناس ، فجهلوا الحياة وجهلهم الناس ، وجهلوا طرق التفكير الحديثة وطرق البحث الحديث ، وجهلوا ما جد في الحياة من علم وما جد فيها من مذاهب وآراء ؛ فأعرض الناس عنهم ونقموا هم على الناس ، فلم يؤدوا الواجب الديني الذي خصصوا أنفسهم له ، وأصبح الإسلام بلا حملة وبلا دعاة بالمعنى الذي يتطلبه الدين !

في الدين الإسلامي عبادات وعقائد وأخلاق ، وفقه في نظام الأسرة ، وفقه في المعاملات مثل البيع والرهن ، وفقه في الجنايات

وقد عرض الدين الإسلامي لغيره من الأديان ، وعرض لعقائد لم تكن لأهل الأديان ، وأشار إلى بعض الأمور الكونية في النظام الشمسي والمواليد الثلاثة من : جماد ونبات وحيوان .

وقد هوجم الإسلام أكثر من غيره من الديانات السابقة : هوجم من أتباع الأديان السابقة ، وهوجم من ناحية العلم ، وهوجم من أهل القانون

لهذا كانت مهمة العلماء شاقة جداً تتطلب معلومات كثيرة : تتطلب معرفة المذاهب قديمها وحديثها ، ومعرفة ما في الأديان السابقة ، ومعرفة ما يجد في الحياة من معارف وآراء ، ومعرفة طرق البحث النظري وطرق الإقناع ، وتتطلب فهم الإسلام نفسه من ينابيعه الأولى فهماً صحيحاً ، وتتطلب معرفة اللغة وفقهها وآدابها ، وتتطلب معرفة التاريخ العام ، وتاريخ الأديان والمذاهب ، وتاريخ التشريع وأطواره ، وتتطلب العلم بقواعد الاجتماع

والأمة المصرية أمة دينها الإسلام ، فيجب عليها وهي تجاهر بذلك أن ترقى تعليمه ، ليرقى حملته ويكونوا حفاظاً ومرشدين يدعون الناس إليه

ولا يوجد دواء أنجع من الدين لإصلاح أخلاق الجماهير ، فإن العامة تتلقى أحكام الدين والأخلاق الدينية بسهولة لا تحتاج إلى أكثر من واعظ هاد حسن الأسلوب جذاب إلى الفضيلة بعمله ويحسن بصره في تصريف القول في مواضعه ، ولذلك كان الدعاة إلى الفضيلة قديماً وحديثاً يلجأون إلى الأديان يتخذونها وسائل للاصلاح ؛ بل إن كل دعاة المذاهب السياسية وحملة السيوف لم يجدوا بداً من الرجوع إلى الأديان وصبغ دعواتهم بهـا ، كل ذلك لأن حياة المجتمعات لا تدين لنوع من أنواع الإصلاح إلا إذا صبغ بصبغة دينية يكون قوامها الإيمان

والأمة المصرية ، بل والأمم الشرقية جمعاء ، تدهورت أخلاقها فضعفت فيها ملكات الصدق والوفاء بالوعد والشجاعة والصبر والإقدام والحزم وضبط النفس عن الشهوات ، وضعفت الروابط بين الجماعات ، فلم يعـد الفرد يشعر بآلام الآخرين ومصائبهم ، وقد أثرت الحياة الفردية في حياة الجماعة أثرها الضار فانحطت منزلة الأمم ورضيت من المكانة بأصغر المنازل

وقد أرى أن الأمة المصرية وهي تريد النهوض والجد وتتطلع إلى حياة سياسية راقية ؛ يجب عليها أن تذكر دينها ، وتلتفت إلى حملة ذلك الدين فتصلح شأنهم ، وترقى تعليمهم ، وتضعهم في المكانة اللائقة بالمرشدين ، والتي يجب أن يكون عليها حملة الدين . أما إهمال هذه الناحية والسعي إلى ترقية النواحي الأخرى من حياة الأمة ، فلا أرى أنه يوصل إلى الغرض المنشود ، فالخلق هو العمود الفقري للأمم لا يمكنها أن تنهض بغيره ، وأسهل طريق لتكوينه هو طريق الدين إذا أصلح تعليمه وهذب دعاته

وقد كان الأزهر مصدر أشعة نور العلوم الدينية والعربية وغيرها إلى البلاد الإسلامية . وقد أصابه ما أصاب غيره في الشرق من خمول وضعة . فيجب على الأمة المصرية وهي تحمل راية الأمم الإسلامية أن تنقى هذا المصباح (الأزهر) من الأكدار ، وأن توجد له جهازاً قوياً يستمد نوره منه على طريقة تتناسب مع ما جد في العالم من أطوار في العلم وفي التفكير وفي الحوار والتخاطب وفي طرق الاستدلال والبحث . والدولة تنفق على الأزهر قدراً عظيماً من المال لا تستطيع أن تمنعه عنه، ولا تستطيع أيضاً أن تلغى الأزهر وما يتبعه من معاهد لتوجد بدلها معاهد أخرى ؛ فالحاجة إلى إصلاح الأزهر واضحة لا تحتمل نزاعاً ولا جدالاً

وإني أقرر مع الأسف أن كل الجهود التي بذلت لإصلاح المعاهد منذ عشرين سنة لم تمد بفائدة تذكر في إصلاح التعليم ؛ وأقرر أن نتائج الأزهر والمعاهد تؤلم كل غيور على أمته وعلى دينه . وقد صار من الحتم لحماية الدين لا لحماية الأزهر ، أن يغير التعليم في المعاهد ، وأن تكون الخطوة إلى هذا جريئة يقصد بها وجه الله تعالى ، فلا يبالى بما تحدثه من ضجة وصراخ فقد قرنت كل الإصلاحات العظيمة في العالم بمثل هذه الضجة

يجب أن يدرس القرآن دراسة جيدة ، وأن تدرس السنة دراسة جيدة ، وأن يفهما على وفق ما تتطلبه اللغة العربية فقهها وآدابها من المعاني، وعلى وفق قواعد العلم الصحيحة ؛ وأن يبتعد في تفسيرهما عن كل ما أظهر العلم بطلانه وعن كل ما لا يتفق وقواعد اللغة العربية

يجب أن تهذب العقائد والعبادات وتنقى مما جد فيها وابتدع، وتهذب العادات الإسلامية بحيث تتفق والعقل وقواعد الإسلام الصحيحة

يجب أن يدرس الفقه الإسلامي دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب ، وأن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة . وأن تكون الغاية من هذه الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عليها في الكتاب والسنة والأحكام المجمع عليها ، والنظر في الأحكام الاجتهادية لجعلها ملائمة للعصور والأمكنة والعرف ، وأمزجة الأمم المختلفة كما كان يفعل السلف من الفقهاء

يجب أن تدرس الأديان ليقابل ما فيها من عقائد وعبادات وأحكام بما هو موجود في الدين الإسلامي ، ليظهر للناس يسره وقدسه وامتيازه عن غـيره في مواطن الاختلاف . ويجب أن يدرس تاريخ الأديان وفرقها ، وأسباب التفرق ، وتاريخ الفرق الإسلامية على الخصوص وأسباب حدوثها

يجب أن تدرس أصول المذاهب في العالم قديمها وحديثها

وكل المسائل العلمية فى النظام الشمسى ، والمواليد الثلاثة ، مما يتوقف عليه فهم القرآن فى الآيات التى أشارت إلى ذلك

يجب أن تدرس اللغة العربية دراسة جيدة كما درسها الأسلاف، وأن يضاف إلى هذه الدراسة دراسة أخرى على النحو الحديث فى بحث اللغات وآدابها

يجب أن توجد كتب قيمة فى جميع فروع العلوم الدينية واللغوية على طريقة التأليف الحديثة ، وأن تكون الدراسة جامعة بين الطرق القديمة (فى عصور الإسلام الزاهرة) والطرق الحديثة المعروفة الآن عند علماء التربية . وعلى الجملة يجب أن يحافظ على جوهر الدين وكل ما هو قطعى فيه محافظة تامة ، وأن تهذب الأساليب ويهذب كل ما حدث بالاجتهاد بحيث لا يبقى منه إلا ما هو صحيح من جهة الدليل وكل ما هو موافق لمصلحة العباد .

يجب أن يفعل هذا لإعداد رجال الدين ، لأن رسالة النبى صلى الله عليه وسلم عامة ودينه عام ، ويجب أن يطبق بحيث يلائم العصور المختلفة ، والأمكنة المختلفة ، وإن لم يفعل هذا فإنه يكون عرضة للنفور منه والابتعاد عنه كما فعلت بعض الأمم الإسلامية ، وكما حصل فى الامة المصرية نفسها إذ تركت الفقه الاسلامى لأنها وجدته بحالته التى أوصله إليها العلماء غير ملائم . ولو أن الأمة المصرية وجدت من الفقهاء من جارى أحوال الزمان وتبدل العرف والعادة، وراعى الضرورات والحرج ، لما تركته إلى غيره لأنه يرتكن إلى الدين الذى هو عزيز عليها

ولست أنسى أن هذه الدراسة التى أسلفت بيانها دراسة شاقة تحتاج إلى مجهود عظيم ، وتحتاج إلى رجال قد لا نجدهم فى طائفة العلماء ، وتحتاج إلى مال يكافأ به العاملون ؛ ولكن سمو المطلب يحملنا على تذليل كل عقبة تقف فى طريقه ، وتوجب علينا السخاء والبذل لأننا نريد إصلاح أعز شىء على نفوس الجماهير ، ونريد بهذا الإصلاح تقويم هذه الأمة ونهوضها

***

بعد أن ذكر الأستاذ الأكبر هذا البيان الشامل لما ينبغى أن يكون عليه الإصلاح ، أتبعه بذكر الأسس الإجمالية للنظام الذى ينبغى أن يكون عليه الأزهر والمعاهد الدينية ؛ وهى أسس لا يكاد نظام الأزهر المعمول به الآن يخرج عنها . وقد جاء فى أثناء ذلك فقرات هامة لا بد من تسجيلها

منها قوله :

« عنـد ما فكرت الحكومة المصرية فى إنشاء مدرسة دار العلوم لتخريج أساتذة اللغة العربية فى المدارس الأميرية ، كان العلماء فى الأزهر لا يعنون إلا بدراسة القواعد وفلسفتها دراسة نظرية بعيدة عن التطبيق ، وبدراسة الألفاظ وخدمة عبارات المؤلفين ، ولا يعنون بالغاية من اللغة ولا بخدمة اللغة نفسها !

يشهد بذلك أن أسلوب الكتب المؤلفة فى تلك الأيام بعيد كل البعد عن اللغة . ويشهد بذلك أن بعض كبار العلماء ممن شاهدناهم لم يكونوا يحسنون التعبير عن أغراضهم ، ولا تزال منهم بقية إلى اليوم . وكان العلماء لا يدرسون شيئاً من العلوم العامة كالتاريخ والحساب والهندسة وتقويم البلدان . وكانوا يحافظون على ما هم عليه أشد المحافظة ، ولا يرون الخير إلا فيما هم فيه ؛ فلم تكن معلوماتهم العامة ولا طرائق تعليمهم مؤهلة لتوليهم تعليم النشء فى المدارس الأميرية على النحو الحديث

وعند ما فكرت الحكومة فى إنشاء مدرسة القضاء الشرعى كان الأزهر على النحو الذى وصفته ؛ وكان فيهم علماء يحرمون تقويم البلدان والتاريخ والحساب ، ويكتبون مقالات فى الجرائد ضد هذه العلوم . وكان ولاة الأمور يشكون من أن القضاة لا يعرفون الأرقام، ولا يعرفون طرق التوثيق، ولا يعرفون من العلوم العامة ما يجب أن يعرفه شخص يتولى الحكم بين الناس

وقد بدل الله هذه الأحوال ، وأصبح قانون الأزهر مشتملاً على ضمن العلوم التى كانت تدرس من قبل ، وأصبح يدرس فيه التاريخ الطبيعى ، وتدرس فيه الطبيعة والكيمياء ، ويدرس فيه الجبر والهندسة ؛ وقبل الأزهر فى قسم تخصص القضاء الشرعى دروساً فى وظائف الأعضاء، ودروساً فى التشريح قبل الأزهريون كل جديد ، وأعدوا أنفسهم له ، وزالت كل العقبات التى كانت من قبل ، ولم يبق إلا إصلاح طرق التعليم وإيجاد المعلمين الأكفاء وتوزيع العلوم على الأقسام توزيعاً صحيحاً ، وإذا كانت

هناك بقية تعترض الجديد فلم يبق لها من الشأن ما تستطيع معه أن تكون عقبة فى طريق الإصلاح

فى الدولة الآن مدارس متعددة بنوع واحد من التعليم : فيها دار العلوم لتعلم اللغة ، وفيها الأزهر وكل المعاهد لعلوم اللغة ، فيها مدرسة القضاء الشرعى للفقه ونظم القضاء ، وفيها الأزهر للفقه ونظم القضاء ، وفيها تجهيزية دار العلوم ، وفى الأزهر أقسام تماثلها

تنفق الدولة على هذه المدارس جميعها ، ومن الممكن أن نقتصد فى هذه النفقات ، ومن الممكن أن نضم هذه النفقات بعضها إلى بعض وتوحد جهودها لتخرج أمثلة أحسن من هذه الأمثلة

فى الدولة أشكال مختلفة من العلماء تخرجوا فى مدارس مختلفة ، يحسد بعضهم بعضاً وينقم بعضهم على بعض ، ولهذا أثره فى إفساد الأخلاق

لم لا يحملنا هذا كله على التفكير فى توحيد الجهود وتوحيد النفقات ؟ »

ومنها فى وصف الكتب القديمة قوله :

« هى كتب معقدة لها طريقة خاصة فى التأليف لا يفهمها كل من يعرف اللغة العربية ، وإنما يفهمها من مارسها ومرن على فهمها ، وعرف اصطلاح مؤلفيها . . . وأرجو الله أن يمكننا من الاستغناء عنها بأحسن منها . فنحن فى حاجة إلى رسل بين القديم والحديث . وأولئك الرسل يجب أن نعلمهم القديم والحديث ليخرجوا للناس حديثاً جيداً ؛ فلا بد لنا من علماء فيهم من القوة ما يستطيعون به فهم تلك الكتب القديمة ومعرفة تلك الطرائق القديمة ، وفيهم من القوة ما يستطيعون معه تصوير ذلك فى أسلوب حديث ، ولذلك فإنه يجب أن يراعى فى النظام الجديد للأزهر عدم إهمال طرقه الأصلية فى البحث وفهم الكتب »

ومنها قوله :

« وهناك أمر لا يصح الإغضاء عنه : ذلك أن وجود مدارس دار العلوم والقضاء وتجهيزية دار العلوم مؤثر فى الأزهر والمعاهد من حيث الرغبة فيهما ، لأن نتيجة الأزهر — إذا لم يخرج قضاة ومحامين وعلماء للغة العربية فى مدارس الحكومة — تقتصر على إخراج علماء للمعاهد وخطباء للمساجد ، وهى نتيجة غير مرغبة ، ومن شأنها أن تجعل التعليم الدينى فى المعاهد مقصوراً على بعض الطبقات التى ليس لها فى الحياة آمال سامية ، وهذه الطبقات وحدها قد لا تؤمن على هذه الوديعة : وديعة الخلق الدينى والثقافة الإسلامية . ومن الواجب ألا يغيب عنا ونحن نتقدم لتهذيب التعليم الدينى وتقويم أخلاق الأمة ، أن نشجع الطبقات الراقية على الدخول فى هذه المعاهد لتقوم بما يطلب منها من العناية بالأخلاق

« وأمر آخر ، وهو أن سلب الامتيازات القديمة التى كانت للأزهر من تخريج القضاة والمحامين وعلماء اللغة العربية يؤثر أمام الرأى العام داخل الدولة المصرية وخارجها فى الأقطار الأخرى فى سمعة الأزهر والمعاهد ، ومن واجب الدولة المصرية أن تحافظ على كرامة هذا المعهد القديم ، وأن ترد إليه مجده »

لوجه الله ولوجه الحق

معضـــلة المعضلات

فى مصر والشرق

للدكتور زكى مبارك

قبل أن أشرع فى التعقيب على مقال الأستاذ عباس محمود العقاد ألتفت إلى بعض القراء فأقول: لا يستطيع الكاتب أن يظفر بثقة القارئ إلا إذا زهد فى تلك الثقة كل الزهد، وليس معنى هذا أن يستهين الكاتب بعواطف القارئ، ولكن معناه أن يتحرر من رغبة الظفر بثقة القارئ، ليستوحى العقل والقلب والوجدان، وقد خلص من شوائب التودد إلى بعض الآراء والأهواء، فعندئذ يطمئن القارئ إلى أنه يقرأ كلاماً سلم منبعه من أقذاء التصنع والرياء

أكتب هـذا وقد تلقيت فى الأسابيع الأخيرة رسائل يدعونى بها كاتبوها إلى الخروج من الميدان الأدبى، بحجة أنى أبلبل أفكارهم وأدخلهم فى محرجات من الحقد والبغضاء، وهم يعجبون من أن يصبر علىّ قراء «الرسالة» على كثرة ما آذيتهم فى تلك الأعوام الطوال (؟!)

وأجيب بأنى أعجب مما يعجبون، وأشتهى الخروج من الميدان الأدبى، لأخلو إلى نفسى لا إلى قلمى، ولأتذوّق الراحة من متاعب التفكير فى نفع القراء

ولكن خاطراً واحداً يصدنى عما أريد ويريد بعض الثائرين: وهو الخوف من أن يخلو الميدان الأدبى من كاتب يثير فى صدور القراء ثائرة الغيظ والحقد من حين إلى حين. فتلك الثائرة من أكرم الحظوظ الوجدانية، ولا تخلو الصدور من معانى البغض إلا حين تخلو من معانى الحب، ومن البغض والحب يقوم هيكل الوجود

فالأديب الذى يثور ويهتاج كلما قرأ لى مقالاً لا يرضيه، هذا الأديب سيعض بنان الندم إن استجبت لرجائه فطويت عنه عدوان قلمى. وكيف يعيش هذا الأديب وهو لا يجد الكاتب الذى يبلبل أفكاره ويدخله فى محرجات من الحقد والبغضاء؟

أخوف ما أخاف على اللغة العربية أن يصير جميع كتابها من المرضىّ عنهم فى جميع الشؤون، فالكاتب الذى يرضى عنه القراء فى جميع الأحوال قد يتعرض للتفاهة والابتذال، وقد يمسى وهو حاك لا يجيد غير مضغ الحديث المعاد، إلا أن يرتفع جميع القراء فلا يرضيهم غير الذهن المبتكـر والعقل الوثاب

وما الذى يوجب أن نجعل رضا القراء غاية من الغايات؟ وكيف نهون على أنفسنا فنتقبل ذلك الضرب من الاستعباد؟

وبأى حق ندعو إلى الحرية إذا أصغنا لدعوات بعض القراء فحرمنا أقلامنا نعمة الحرية؟

وما الذى يغضبكم، يا قراء هذا الزمان، ونحن لا نصوّب سنان القلم إلى عيوب المجتمع إلا بتلطف وترفق؟

ما الذى يغضبكم وقد «راعينا خواطركم» فلم نؤدّ من رسالة القلم غير كلمات ملفوفة لا يندحر بها باطل ولا ينتصر بها حق؟

ما الذى يغضبكم وقد أطمنا بعض القلوب الخوامد، فعققنا روح العصر أبشع العقوق؟

كانت العصور الخوالى تسمى عصور الظلمات، ومع ذلك استطاع الأسلاف أن يواجهوا الجماهير بأفكار وآراء نعجز عن روايتها فى هذا الجيل، فأين عصركم من تلك العصور؟ وأين أنتم من أولئك الرجال؟

قضت ظروف الحرب بإعلان الأحكام العرفية، وقضت الأحكام العرفيـة بمراقبة ما يُنشر فى الجرائد والمجلات، فما الذى وقع؟

لم تتعرض الرقابة لمقالات الكتاب بالمحو والإثبات إلا بتلطف ورفق، أما الجمهور فيرى أنه على كل شىء رقيب، وهو يعطـل حركة الفكر بلا تهيب ولا استبقاء، وهو يدعى ما لا يملك من السيطرة على القلوب والعقول، وهو يؤذى من يخدمونه صادقين، وهو يحاول إخماد الجـذوة الأدبية لتصبح آثار الأقلام وهى رسوم وأطلال

ما نظرت فى الرسائل التى «يتحفنى» بها بعض الناس إلا أشفقت على مصير اللغة العربية، فهذه اللغة لا تحيا إلا إذا صارت أداة لتسجيل الحقائق والأباطيل. لن تحيا لغة العرب إلا إذا وجد فيهـا القارئ كل ما تشتهى العقول والقلوب والأهواء، على نحو ما يجد القارئ فى لغة الفرنسيس والإنجليز والألمان. لن تحيا اللغة العربية إلا إذا أصبح أدبها وهو أشبه الأشياء بالحدائق التى تجمع الأطايب من شتى الأفانين، وفيها

مع ذلك أشواك وأدغال تؤوى للفواتك من الحشرات والثعابين

وما نظرت فى مصاير الكتاب الذين « أدّبهم » قراؤهم إلا جزعتُ : فالدكتور فلان كان خليقاً بأن يقيم فى مصر نهضة فلسفية ؛ ثم « أدّبه » قراؤه ، فهو اليوم « رجل طيب » يرى الفلاسفة زنادقة وملحدين ؛ والأستاذ فلان كان جديراً بأن يبعث فى مصر وثبة اجتماعية ؛ ثم « أدّبه » قراؤه ، فهو اليوم أكبر نصير لمأثور العادات والتقاليد ؛ والشيخ فلان كان أهلاً لحمل راية السلف الصالح ؛ ثم « أدّبه » قراؤه ، فهو اليوم رجل متحذلق يسره أن يتسم بوسم التجديد ليضاف إلى أبناء العصر الحديث ! ! !

فماذا يريد أن يصنع معى قرائى ؟

هل يتوهمون أن فى مقدورهم أن « يؤدبونى » فلا أقول بغير ما يسرهم أن أقول ، ولا أكتب إلا فى حدود ما يشتهون ؟

هيهات ، ثم هيهات ! !

سأحرص على الصدق فى جميع الأحوال ، ولن يقرأوا لى حرفاً إلا وهو من صور ضميرى ؛ ولهم أن يجرّبوا قدرتهم على الانصراف عن أدبى : فأنا أتحدث عن آرائهم وأهوائهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون ، وأنا أقرب إليهم من أنفسهم ، وأعرف منهم بسرائرهم ، وأقدر على التعبير عما يجول فى ضمائرهم من نفثات الخوف وخطرات الأمان

لو كنا نعيش فى زمان سليم من الآفات لعرف قومٌ أنْ لا موجب لشتمى فى خطابات مغرّمة قد تزيد عن الآحاد فى بعض الأسابيع

وما الذى يوجب أن أُشتَم ولم أقترف غير إجادة التعبير عما فى زمانى من مشكلات ومعضلات ؟ ؟

إن هذا البغى يزيدنى حرصاً على الثبات فى ميدان الجهاد ، وستأتى إجازة الصيف بعد أيام فأفرُغ لمكافحة ما أراه من طغيان الأوهام وانحراف الآراء

ومعاذ الحق أن يكون قرائى جميعاً من الجاحدين ، فتحت يدىّ مئات من الرسائل تشهد بأن الرجل المخلص لا يضيع بين قومه الأكرمين . ولو نشرت رسالة الأديب « م . ا . ش » ، والأديب « م . ع . ف » ، والأديبة التى تكتب من الأُرمان ، لعرف بعض الناس أن فى الدنيا قلوباً يستهويها الصدق ، وبالصدق وصلنا إلى كرائم الطيبات ، فلله الحمد وعليه الثناء !

أما بعد ، فما الذى جاء فى مقال الأستاذ العقاد ؟

كان مقال هذا الباحث المفكر مؤيداً لما قلت كل التأييد ،

فأنا قلت : « الفقر مرض ولكل مرض أسباب ، كما أن الغنى عافية ولكل عافية أسباب »

وهو قال : « عندنا نحن أن الفقر داء كسائر الأدواء ، يصيب المريضَ به من إهماله كما يصيبه من ضعفه الموروث ، ويصيبه مع الحيطة إذا جرى مجرى الوباء الذى تنتشر عدواه ، كما يصيبه مع ترك الحيطة فى هذه الحال وفى غيرها من الأحوال »

والطريف فى هذه الكلمة هو النص على أن مرض الفقر قد يصيب أهل السعى فى طلب الرزق إذا جرى الفقر مجرى الوباء ، وليس هذا مما نحن فيه ، ولكنه ينفع حين يجب العطف على من سُدّت فى وجوههم المسالك لأسباب يعجز عن دفعها أهل الأمانة والاجتهاد[1]

وأنا قلت : « إن الغنى يشهد لأهله بقوة الأخلاق الاجتماعية والماشية ، وإن الأغنياء عِماد المجتمع ، وبفضل قدرتهم على تدبير المال يرجع الفضل فى تجميل الوجود »

وهو قال : « لست أنا ممن ينكر فضل البراعة المالية ، لأنها فى الحقيقة براعة لازمة لتأسيس المرافق الاجتماعية والأخلاق القومية ، وتنظيم العلاقات ، واستثارة الهمم ، وتوزيع الأعمال التى لا يستبحر بغيرها عمران »

وأنا قلت : « إن التغرير بالفقراء ودعوتهم إلى انتظار أنصبتهم فى أموال الأغنياء قتلٌ للمواهب الإنسانية ، وإن الحزم يوجب أن نذكّرهم فى كل وقت بأن الغنى لا يوهَب وإنما هو ثمرة الكدح الموصول فى طلب الرزق الحلال »

أما الأستاذ العقاد فيقول : « إن الأمان كل الأمان ، خطر على الهمم والأذهان ، فإن كثيراً من الجهد النافع مبعثه طلب الأمان فى المستقبل ، وشعور النفس بالحاجة إليه فى أخريات الحياة. فإذا اطمأن إليه كل حى من بداية حياته فترت حركته وغلب عليه حب الاستقرار ، ومُنِىَ العالم بخطر من جرّاء ذلك هو أخطر عليه من الإجحاف فى تقسيم بعض الأعمال وتوزيع بعض الأرزاق »

ومعنى هذه العبارة أن بعض منافع الدنيا مدين فى وجوده إلى ما يستشعر الناس من الخوف ، وأن انعدام الخوف قد يكون

(١) الاجتهاد كلمة صحيحة فى هذا الوضع

أخطر على العالم من الإجحاف فى تقسيم بعض الأعمال وتوزيع بعض الأرزاق

وكذلك قلت ، فقد صرحت بأن استنامة الفقراء إلى ما قد يوزَّع عليهم من أموال الأغنياء ستخلق فيهم ضروباً من الطمأنينة تصرفهم عن الكفاح فى التسبب والارتزاق

ثم مضى ذلك الكاتب البليغ فسرد من غرائب الحظوظ أشياء وأشياء

وأقول بصراحة إنى لن ألتفت إلى تلك الغرائب ، لأنها فوق الطب والعلاج ، فستمضى أجيال وأجيال قبل أن يصح ذوق المجتمع فلا يستوى عنده الطيِّب والخبيث ، ولا يصبح المخلوق التافه وهو آثر عنده من الرجل الحصيف

وما الوجب لانتظار تلك العافية الاجتماعية ، وهى العدل المطلَق ، والعقاد نفسه يرى أن ذلك العدل قد يقضى على الدوافع الحيوية فينعدم الاندفاع الصالح والاندفاع الذميم على السواء ؟

لن ألتفت إلى ما يقع فى المجتمع من غرائب الحظوظ ، ولن أجيب من يسألنى عن أقوام تلطف معهم الدهر المخبول ، ولن أقول كلمة فى الوارثين ، بحجة أنهم يرزقون بلا كدّ ولا اجتهاد ، فلو عطل نظام الميراث لانعدم النشاط الإنسانى بعض الانعدام ، ولآثر الناس جميعاً أن تكون جهودهم مقصورة على كسب القوت من يوم إلى يوم . ولو قلنا الحق كل الحق لصرحنا بأن الميراث هو أجمل نظام عرفته الإنسانية ، فهو الشاهد على أن الجهاد فى طلب الرزق لا يضيع ، وأنه قد يصل إلى الأعقاب وأعقاب الأعقاب ، وذلك أقوى حافز لتأريث عزائم الرجال

لن ألتفت إلا إلى ظاهرة واحدة : هى شيوع الفقر فى البيئة المصرية ، مع كثرة وجوه الارتزاق

الفقر فى مصر كثير وفظيع ، ودميم وشنيع ، وملعون وقبيح ، إلى آخر ما فى اللغة من ذميم الأوصاف والنعوت . ومصر مع ذلك أخصب بقاع الأرض ، وهى جديرة بأن تضفى على جميع أبنائها أثواب النعيم ، لو عرفوا كيف يجاهدون الفقر جهاد الرجال

قلت : إن أسباب الفقر كثيرة ، ولكنها ترجع إلى ثلاثة أسباب أساسية ، هى الكسل ، وقلة الأمانة ، والرضا بالدون من مطالب الوجود

وهنا صرخ المتحذلقون فقالوا : إنك تجعل الفقر علة فردية مع أنه علة اجتماعية

وقد أجبت بأن الفرد هو الحجر الأول فى بناء المجتمع ، فالمجتمع أفراد أضيف بعضهم إلى بعض ، وبذلك يشهد من زوّده الله بزاد العقل

ثم صرخ جماعة آخرون فقالوا : أنت أديب ، فما شأنك بالمعضلات الاجتماعية ؟!

فتى يفهم القائلون أن الأدب صورة الحياة ، وأن الأديب رجلٌ يعيش كما يعيش سائر الرجال ، وأنه قد يحسّ بلايا الحياة بأقوى مما يحسها زعماء الاقتصاد ؟

ألأنى أديب يُحرَّم علىّ أن أتمرّض المكاره التى يعانيها وطنى فى الميادين الاجتماعية والمعاشية ؟

يقول فلان إنه قرأ مالم أقرأ من الكتب التى تبحث فى أسباب الفقر والغنى

وأقول إنى رأيت ما لم ير فلان من أخلاق الناس فى ميدان المعاش ، لأنى رجل ممتحَن بطلب الرزق ، وطلاّب الرزق « يرون » أكثر مما « يقرأ » فلان وفلان

أليس من العجب أن يتحدث جماعةٌ عن العمال والصنّاع والفلاحين فى مصر بعد قراءة كتاب عن العمال والصناع والفلاحين فى بلاد الإنجليز أو بلاد الألمان ؟

أكثر هؤلاء المتحذلقين لا يعرفون شيئاً عن بلادهم ، وأكثر المتوجعين لشقاء الفلاح المصرى لا يرونه إلا بعيون من قرأوا لهم من الكتاب الأجانب

ولست بحمد الله من أولئك ولا هؤلاء ، فأنا لا أستوحى كتاباً قرأته ، وإن كنت أحرص الناس على القراءة والاطلاع ، وإنما أستوحى ما تراه عيناى ، ولى مصالح معاشية تسوقنى سوقاً إلى درس أحوال العمال والصناع والفلاحين : فلى معهم فى كل يوم شأن وشؤون ، وبفضل ما ساقتنى إليه المقادير من الاهتمام بالحياة المعاشية ، سأصل إلى قرارة الضمير المصرى ، وسأعرف ما هو عليه من تحليق وإسفاف

كنت دعوت الأستاذين الكبيرين الزيات والعقاد إلى إبداء رأيهما فيما قلت به من أن الفرد هو الحجر الأول فى بناء المجتمع

وقد أجاب الأستاذ العقاد بما رأى القراء ، فما هو رأى الأستاذ الزيات ؟

كتب هامشاً قال فيه : « إن رأى « الرسالة » فى الفقر والفقراء معروف »

وهو كذلك ، ولكن ما رأيكم إذا سجلت على الأستاذ الزيات أنه صرح فى إحدى افتتاحياته بأن « الرسالة » قضت عاماً كاملاً فى استنهاض الأغنياء إلى البر بالفقراء ، فلم يسمع سامع ولم يستجب مجيب ؟

ألم أقل لكم : إن الاعتماد على الأغنياء يضر أكثر مما ينفع ؟ الأغنياء يخافون من معاملة الفقراء لأسباب لا يجوز النص عليها بغير التلميح ، فمتى نرجع لمحاسبة أنفسنا بصدق وإخلاص ؟

أنا أرجع إلى نفسى من وقت إلى وقت ، لأرى كيف تقدّم زملائى وتخلّفت ، فأرى أنى المسئول الأول والأخير ، لأن فى شمائلى جفوة تجمل التهور من صور الشجاعة الأدبية ، مع أن بين الشراسة والشجاعة أبعاداً يعجز عن طيّها البرق اللمّاح .

وأنا أنصح قرائى بما لا أنصح به نفسى ، لأنى أومن بأن للكاتب شخصيتين مختلفتين بعض الاختلاف : شخصية من يمثل عقله ، وشخصية من يمثل هواه ؛ فأنا أخاطب قرائى بعقلى ، وأخاطب نفسى بهواى ، إلى أن يلطف الله فلا أصدُر فى جميع أحكامى إلا عن وحى العقل

ثم أما بعد فأنا أدعو إلى بناء المجتمع المصرى من جديد أدعو إلى خلق الجاذبية بين الأغنياء والفقراء ، ليشعر الغنى بأن الفقير هو الذى حمل على كاهله أحجار القصور الشوامخ ، وهو الذى عانى عرق الجبين فى استنبات البقول ، وليشعر الفقير بأن الغنى هو الذى دبر المال لتصير مصر إلى ما صارت إليه من وفرة المصانع والمتاجر والمزارع والخيرات

أدعو الغنى إلى التألم لألم الفقير والتوجع لبلواه ؛ وأدعو الفقير إلى الدعاء للغنى فى أعقاب الصلوات

أدعو أولئك وهؤلاء إلى التعاون الصادق بأمانة وعطف ، ونزاهة وصدق

وأكره أن يتدخّل الكتاب المراءون فى إفساد ما بين الأغنياء والفقراء

أكره أن يحاول كاتب منافق أن يتسم بوسم المصلح الاجتماعى وهو مأجور للشيطان الرجيم ، وإن خدع نفسه فتخيل ثم خال أنه رسول الاشتراكية فى هذه البلاد

لقد شبعت مصر من الكتاب المرائين فى الميادين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، فمتى تعلن مصر شوقها المتوقد إلى كتّاب لا ينافقون ولا يخادعون ؟

إن صراحتى فى الكلام عن الفقراء والأغنياء صنعت ما صنعتْ فى تبصيرى بدقائق من أحوال الناس وخلائق المجتمع ، وأشنعُ ما دلتنى عليه هو أن فى مصر كتاباً كسالى ، وهم الذين يرون ما أرى ، ثم يصدّهم الكسل عن الاصطلاء بما اكتوت به يداى ، وفيهم الباحث الذى تحدث عن انقراض « الأجاج » فما الأجاج ؟

أمِثْلى يُدْعى إلى الخروج من الميدان الأدبى ليتمتع الغافلون بنعمة الصفاء ؟

لا ، والله ، فسأتعقب الغافلين فى جميع الميادين ، ولن أسكت عن كلمة الحق ولو آذيت بها أعز أصدقائى

ارجعوا إلى أنفسكم ، يا بنى آدم من أهل هذه البلاد ، ولا تحوجونى إلى ضرب الأمثال ، فما أحب أن تشقوا بالحقائق المجردة من إفك التزيين والتهويل

بداية البلاء هى الرضا عن النفس ، والنفس أمّارةٌ بالسوء ، فكيف ترضون عن أنفسكم ، مع دعوى التسامى إلى معرفة أسرار الوجود ؟

من قرارة القلب أمتاح هذه المعانى ، لأقتل فتنةً لا تزال فى المهد ، فمن اتهمنى بسوء النية فإلى الله إيابه ، وعلى الله حسابه ؛ ومن الله وحده أنتظر حسن الجزاء

زكى مبارك

الحيـــاة الزوجية
في نظر الاسلام

للأستاذ عبد اللطيف محمد السبكى

ينظر الإسلام إلى الحياة الزوجية نظر اهتمام ورعاية ، ويعتبرها بحق الوضعَ الأساسى لتكوين أسر طيبة تتألف منها أمة قوية تمثل روح الاسلام فى أخلاقها وسمو آدابها ، وفى عظمتها وسلطانها . ويعلمنا الاسلام أن الحياة الزوجية ليست فكاهة من متع الحياة فحسب ، حتى يتعفف عنها بعض الناس ، وليست مغنماً تجارياً ، حتى يتخذها الرجل شبكة يصيد بها أموال النساء ، أو تتخذها المرأة شركا تصيد به أموال الرجال ، وإنما هى وسيلة ضرورية يكمل الرجل بها نفسه ، وتكمل المرأة بها نفسها ؛ فكلاهما شطر ناقص لا يتم وجوده إلا بصاحبه ، ولا تعمر الدنيا إلا بهما معاً . ومن أجل ذلك وضع لها الاسلام أسباباً قوية تقوم عليها ، وحاطها بالكثير من محفظاته ، حتى تكون محببة إلى الزوجين ، وليسد عنهما مداخل الشيطان بينهما

فهو يدعو — أولاً — إلى الحياة الزوجية فى تأكيد من النصح . . . وبعد أن تتركز الفكرة عند من يستجيب لدعوته يرسم لنا — ثانياً — طريق الخطبة ، واختيار الزوجة والزوج ، ليباعد بيننا وبين التورط فى الوقوع وراء رغبة عارضة ، أو طوعاً بمظهر خاطف . فإذا قامت الحياة الزوجية فى وضعها الصحيح بين لنا — ثالثاً — أن لكل من الزوجين آداباً يجب أن يرعاها نحو صاحبه ؛ ليتصل القلب بالقلب ، وتركن النفس إلى النفس ، فلا تتبدل الحال بينهما من خير إلى شر ، ومن يسر إلى عسر ، « وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ، إن الله بكل شىء عليم »

١ — الدعوة الى الحياة الزوجية

يقول الله تعالى فى شأن الزوجات والأزواج : « هن لباس لكم ، وأنتم لباس لهن » فإذا كانت الزوجة فى نظر القرآن كاللبس للرجل ، وكان الرجل كاللبس للمرأة ، فحاجة كل منهما إلى صاحبه كحاجته إلى اللبس ، فإن يكن اللبس لستر معايب الجسم ، ولحفظه من عاديات الأذى ، وللتجمل والزينة ، فكل من الزوجين لصاحبه كذلك . يحفظ عليه شرفه ، ويصون عرضه من التهم ، ويوفر له راحته وصحته . ومن يستغنى عن هذا ؟ إنما يستغنى عنه من لا يبالى بشرفه ، ولا يعنيه أن يكون هدفاً للأنظار الساخرة ، ولأقاويل السوء تنال من سيرته ، ولا يتألم شعوره لتعطيل النمو فى أسرته وفى أمته

ويقول تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة . . . » فهـذه الآية تنبه الرجل والمرأة إلى أن من أعظم دلائل قدرته وآيات كرمه أن خلق للرجل زوجة من لحمه ودمه ليكون الإلف أتم ، والجاذبية أقوى ، ولتكون الزوجة مأوى له ، يسكن إليها وقت فراغه ، فيأنس بحنوها ، ويتفيأ بظل عطفها ، ويستمد من جانبها هناءة العيش وروح التشجيع فى حياته ، فتهون عليه متاعب الأعمال ، ويستهين بالكفاح فى الدنيا ، ويستقبل شأنه كل يوم بعزم قوى وأمل جديد ؛ وهكذا دواليك ؛ ليظل البناء فى صعود ، وعمارة الكون فى ازدياد ؛ وهـذه سنة الله تعالى ، فقد أقام دنيانا على البناء والتعمير ولن تجد لسنة الله تبديلاً

كذلك من دلائل كرمه التى حدثتنا بها الآية أنه جعل بين الزوجين مودة حب ، ورحمة عطف ، ثابتتين لا تبليان كما تبلى مودة غير الزوجين ممن جمعت بينهما الصدف ، أو ألفت بينهما الشهوات

فمن انقطع عن التزوج فقد فاتته سلوة الحياة وأسلم نفسه للوحشة البغيضة ؛ وقد يصادفه يوم قريب أو بعيد يتمنى فيه لو تدارك ما فاته

ويقول تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » وفى اعتبار البنين زينة الدنيا ترغيب قوى فى الزواج . فإن النفس مطبوعة على حب الدنيا وزينتها بأكمل ما يستطيع المرء تحصيله

ويقول عز شأنه : « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم » . فهو يأمرنا بتزويج الأيامى : وهم أهل العزوبة

ولو كانوا من العبيد المملوكين ، ويطمئننا من جهة الرزق فيقول : « إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ، والله واسع عليم » .

ويحدثنا المولى سبحانه عن الأنبياء وعن المؤمنين الصادقين بأنهم كانوا يتمنون الذرية الطيبة ، والزوجة الموفقة الممتعة ، فإبراهيم عليه السلام كان يقول : « رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ، ربنا وتقبل دعائي » ؛ وزكريا عليه السلام كان يقول : « رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء »

فأنت ترى مقدار حرص النبيين على الذرية الطيبة ، وليس للذرية سبيل غير الحياة الزوجية ؛ وهذا ما كان يدعو به المؤمنون فيقولون : « ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، واجعلنا للمتقين إماماً » .. فالأمل الذي تردد على ألسنة النبيين والمؤمنين في الزوجة والذرية ، مظهر صادق لسلامة الطبع وصدق الإيمان ، حتى ليرويه عنهم القرآن ويمتدحهم به ، ويشهد لهم بحسن القصد وصواب التقدير لما في الحياة الزوجية من خير لهم وللناس . وها هم المؤمنون يختتمون دعاءهم بإجمال الطلب في قولهم : «واجعلنا للمتقين إماماً » ؛ وهذا هو القرآن يشيد بتلك الأماني ، ويمدحهم بالاستجابة : « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا — الجنة — ويلقون فيها تحية وسلاماً ... »

وفي هذا النبأ عن الأنبياء والمؤمنين توجيه للناس أن يأخذوا بأسباب التقليد لأولئك الصفوة ، ومتابعة السير على هداهم : قضاء لحق الدين ، وتلبيـة للطبيعة ، ورعاية لحاجة الأمة في الإكثار من سوادها وتقوية جماعتها ... وهذا هو ما أجمله النبي (ص) في قوله : « تناكحوا ، تناسلوا ، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة »

فهذه دعوة ملحة جهر بها النبي (ص) في صراحة أكيدة ورددها في وجه الشباب بنوع خاص ، إذ هم مطمح الأمل ، وهم القوة التي يشتد بها ساعد الأمة ، وعلى أيديهم نهضتها ممثلة في كل أعمالهم ، فيقول النبي (ص) : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ... » ، يعني من تيسرت له وسائل الحياة الزوجية ، فعليه أن يفعل

وإن النبي ليرثي لمن تخلف عن الحياة الزوجية ، وينبه إلى أن شيئاً آخر لا يعدلها ، وإن تهيأ لبعض الأذهان القاصرة ، أو لبعض النفوس التي ألهتها مطامعها وشهواتها في غير هذه الناحية عن هذه الناحية

فيقول (ص) في ذلك : « مسكين ، مسكين رجل ليست له امرأة . قالوا : وإن كان كثير المال ؟ قال : وإن كان كثير المال . مسكينة ، مسكينة امرأة لا زوج لها . قالوا : وإن كانت كثيرة المال ؟ قال : وإن كانت كثيرة المال » ... فأنت ترى من حِكَم النبوة ، بل من وحي الرسالة ، أن متاع المال وأن كثر لا يعدل متاع الزوجه للرجل ، ولا متاع الزوج للمرأة

وإن يكن في الدنيا ضروب من المتاع وألوان أخرى للحياة فلعل الحياة الزوجية أول هذه الضروب وأصدق هذه الألوان . ولسنا نعني مطلق الزوجة ومجرد اقتناء الحليلة ، بل الزوجة التي تكفل للزوج هناءة ووفاقاً ، على ما يأتي — بعد — من أوصافها . وذلك ما أوحي به إلى النبي (ص) وجرى على لسانه في إيجاز عذب وكلمات أخاذة هي قوله : « الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة »

لا نجد من القول للترغيب في الدنيا وامتداح ما فيها خيراً من هذا ولا قريباً من هذا . وإنه لإحباط وتزييف لما يحاوله نفر من الناس في الترغيب عن متع الحياة وصرف النفوس عما خلق الله من الطيبات . فلم تكن الدنيا وما اشتملته من مظاهر القدرة وأنواع الخير إلا متاعاً للإنسان : يناله ، ويشكر ، ويمن به المولى — بعد — على عباده ، ويثيب من شكر . ثم يترقى كلام النبي (ص) في المدح لمتاع الدنيا فيقول : « وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة » . أفرأيت ما يجذب الرجل نحو الزوجة خيراً من هذا وأبلغ ؟ أو رأيت أن الزوجة تعتبر خير متاع في الدنيا ثم ينظر إليها فريق منا نظرتهم إلى شيء مشؤوم ، ويفرون منها فرارهم من أمر بغيض ؟ ؟ هذه غاية الغايات في امتداح الحياة الزوجية . أفلا يكون التغاضي عنها إلا من مكابر استعذب المرّ واستمرأ الخبيث ؟ ؟ إنه لكذلك

ولقد اعتزم ثلاثة من أصحاب النبي (ص) أن يجتهدوا في العبادة ، فاختار أحدهم أن يصوم دائماً ، واختار الثاني أن يصلي ليله دائماً ، ورغب الثالث أن يترك الزواج دائماً ، فجاء إليهم النبي (ص) وقال لهم : « أنتم قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » فهو يأبى على أصحابه أن يهجروا الدنيا للدين ، وأن ينقطعوا عن النساء ليتصلوا بالعبادة ، ويعلمهم أنه لا رهبانية في الإسلام ، وأن ما يحسبونه متاعاً محضاً إن هو إلا دين محض ، وهو على ما فيه من ترضية النفس أكرم وسيلة لترضية الله ، وخير سنة نأخذ بها عن رسول الله ، فمن زهد في متابعته فليس من دينه في شيء ، ولا من الصلة بالنبي على طرف

وإذاً كان الانقطاع للعبادة أمراً مستهجناً ، والتعفف عن الزواج لذلك نبواً عن الدين ، وجهلاً بمزاياه . فما بالك بمن يعتاض عن الزيجة الحلال بمن لا تحل ؟ وما ظنك بمن يعاف الطيب الشهي ويتكالب على القذر الكريه ؟ رب : « إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء ... »

ورضي الله عن عمر فقد قال يوماً لرجل أعزب يراه قادراً على الزواج : لا يمنعك من الزواج إلا عجز أو فجور

وكذلك قال بعض الأئمة من سلف المسلمين : ليست العزوبة من الإسلام في شيء ، ومن دعاك إلى ترك التزوج فقد دعاك إلى غير الإسلام. ولقد صدق الله ورسوله ، وصدق الأئمة السابقون

وبعد ، فهذه طائفة من القول في دعوة الإسلام إلى التزوج ومفهوم طبعاً أن العاجز — لعذر قاهر — مطلوب إليه أن يتعفف عن الحرام حتى تتهيأ له الفرصة « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله »

فماذا لقيت دعوة الله ورسوله عند أهل الجيل الذي نعيش فيه ؟ لقيت رواجاً غير منظم في الطبقات الصغيرة ، ولقيت إعراضاً غير منظم في الطبقة المستنيرة ، حتى أصبحت الفوضى في محيط الجماعة الأولى، وبين الجماعة الأخيرة مثلاً سيئاً تتهم به الحياة الإسلامية ، وأصبحتَ ترى الفتيات الصالحات للزواج يتطلعنَ إلى الزوج فلا يجدنه ، وتلتمس الفتيات المهذبات أمامهن في الرجل فلا يصادفنه

ووراء ذلك ما وراءه مما يحزن كثيراً ولا يسر قليلاً . ووراءه ما وراءه من كساد يطفيء لمة الشباب في وجوه الحسان ، وغما يساور الآباء والأمهات على بناتهم من هموم وأحزان

فكم من آهات حزينة ، وتنهدات موجعات تلتهب بها قلوب الآباء والأمهات !

فمتى يكون في مصر قانون يردع ، ما دامت القلوب لا تخشع ، والآذان لا تسمع ؟

(لها بقية)

عبد اللطيف محمد السبكي
المدرس في كلية الشريعة

فى « عين شمس »

للأستاذ شكرى فيصل

— ١ —

لم أعرف « عين شمس » قبل هـذا اليوم ؛ ولم يقدر لى أن تصافح عيناى هذه الجنبات الفساح ، وتلك الأرض المنطلقة . وما أدرى أين كان منى هذا الهدوء السمح ، وهذه الطبيعة الضاحكة ، وذاك الجمال المنثور هنا وهناك .. لقد قنعت بنفسى فانطويت عليها ، وزهدت فى الناس فانصرفت عنهم ، وقضيت فى القاهرة سنوات فإذا أنا أعيش فى هيا كل الوحدة ، ومعابد العزلة ، وكهوف الانقطاع البعيد ... وإذا أنا أحيا بهذه الأجواء التى أنشرها ، وهذه الدُنى التى أنثرها ، وتلك الرؤى التى أهيم بها ... وإذا أنا أنتزع قبس الحياة من أعماق ، وأمدّ زيته من دمى ، وأعيش فى عالى الرحب ، أطوّف فيه ، وأسكن إلى ظلاله الوارفات

— ٢ —

وفى القطار إلى « عين شمس » كانت تمر بى كل هذه الضواحى الفينانة ، القائمة على برزخ الحياة ، المستلقية على قدمى الصحراء ، السابحة فى بحر النور ... فأعجب كيف غبت عنها كل هذا الأمد الطويل ، وهذا المدى المتباعد . ولـكنى أثيب إلى نفسى فأذكر أن لى قلباً وقفته على ملاعب الصبا ، ومسارح الطفولة ، وجنات النوطة ؛ وأن فى أعماق خلجات استأثر بها الحنين ، واستبد بها الشوق ؛ وأن فى أضلاعى روحاً تخفق للأسرة الناعمة والبيت الندىّ والوطن البعيد

لشدّ ما ملـكت علىّ نفسى هـذه الضاحية الضاحكة ... لقد أحسست فيها الحياة ، وشعرت معها بالانطلاق ، وامتدت بى آفاق النظر هنا وهناك ، لا تحدها عوائق ، ولا تقف من دونها حواجز ، ولا يمنع عنها النور جدران قائمة وأبنية متراصة

— ٣ —

إن الصحراء الناعمة على ذراع الأفق ، الممتدة على صفحة الدنيا ، لتبعث ألواناً من الأحاسيس ، وتثير أنغاماً من العواطف ، وتبث المعانى الرائعة من السلام والهدوء ... لا يملك معها الإنسان إلا أن يستجيب لها ، ويتحد معها ، ويفنى فيها

لقد وقفت فى ساعات الضحى أتأمل هذا الفضاء الواسع فاجتمع علىّ الألق والشعاع والنسيم ... كانت الأضواء الراقصة تداعب جفنىّ ، وتربدها على الإغماضة الخفيفة فى ظلال الرؤى والمباهج ... وكانت النسمات الرخية تبعث بشعورى فتمر عليها باليد الناعمة واللمسة الخفيفة ... وكان الألق الفضى ينسكب فوق كل شىء ، فإذا الدنيا تموج فى بريقه المتقد ، وتتلألأ فى سناه الوضاء

— ٤ —

لم يعد يشوقنى إلا أن أنظر إلى بعيد . أشهد الصحراء العارية على شاطئ الأفق . لقد تجردت من كل شىء : من البناء المرتفع والعشب النامى ، والشجر المخضلّ ... وأوغلت فى البعد ... وذهبت تتنفس فى خضم واسع من الزرقة الخفيفة :.. لقد غابت فيه فلم يعد يظهر منها إلا هذه الذيول التى ألقت بها على الشاطئ تتاقى الشعاعات المترجحة ، وتكتسى السراب الخادع ... ثم ظهرت من جديد ... فإذا الشمس تفيض عليها حلة من نورها الخاطف وألقها الوضاء ... وإذا هى تبدو صافية نقية ناعمة ، طهرتها السماء ، وكساها النور ، وفاض منها الجلال

يا لروعة الصحراء ! ... إن رمالها المتراصة لتغنى على مسمع الزمن أنشودة رائعة من أناشيد القوة والمجد ، وإنها لتوقع لحناً بارعاً من ألحان الكرامة والنبل ، وإنها لتكتب صفحات بارزات (فى كتاب) الصفاء والطهر ... فتى نخلص إلى هذه الصحراء لننجو من غدر المدنية ؛ وأثقال الحضارة ، وأوضار المجتمع ... ؟ ومتى نعيش على هذه الرمال نستمع إلى حدائها ، ونصغى إلى غنائها ، وننعم بصفائها الطهور ؟ ؟

— ٥ —

أخذت أطوف مع الظهيرة فى أطراف الضاحية ... لا أخشى لفحات الشمس ، لأن النسائم اللطاف كانت تذهب بشدتها وتحيلها ضوءاً ناعماً ، ولوناً زاهياً ، ونوراً حلواً ... ومضيت فى جنباتها

المتباعدة ؛ ووقفت أمام هذه الدارات المنثورة على أكناف الطرق أشهد بساطتها المحببة ... كان أروع ما فيها هذه الحدائق القائمة على كتف الصحراء ، وهذا الياسمين المنتثر على الرمال الصفراء ، وتلك الأزاهير الفواحة فى الأرض الجدباء . . . لقد ضمت عالمين متباعدين فألفت بينهما ، فإذا الخضرة الزاهية تتموج على حفافى الصحراء الصامتة ؛ وإذا الزهر الندى يقبل الرمل الحالم ، وإذا دنيا الحضارة والترف تتآخى مع دنيا الجـلال والخشونة ، فى عالم رائع أخاذ

— ٦ —

كان كل شىء فى « عين شمس » يسلمنى إلى سلسلة بعيدة من مفاتن الجمال ... لقد أحسست النشوة فى كل نظرة ، ووجدت الهدوء فى كل مشهد ، وأحببت الصحراء فوق ما كنت أحبها ، وفنيت فى أجوائها المنسمة ، وفى فضائها الرهيب . . . ولم ألق الخشوع عثل ما لقيته فى فناء مسجدها الجامع . . . لقد صليت على الرمل الممتد ... فإذا أنا أحلق فى عوالم مُثلى وسموات عليا ، وإذا أنا أنسى كل شىء وأغيب عن كل شىء ، وأن هدفى كل ما حولى ، وإذا أنا أنشد الحقيقة الحقة ، والخير المحض ، والجمال المطلق . . . وألتمس إلى ذلك الهداية والنور ، وأحس اليقين والاطمئنان ؛ وأجد من اللذاذات ما لم أجده من قبل فى مكان

— ٧ —

حين جلست فى المساء أنتظر أن ينشق هذا الهدوء الضافى عن القطار الصاخب ، كان كل ما حولى يرتل نغمة السكون على هدهدة الليل الهابط ... لقد انتشرت على صفحة السماء قطع متناثرة من الغيم الوردى الزاهى ، واستعارت الدنيا لحظات هذا اللون الجميل ، فصبغت به كل ما حولها ... ثم لم يلبث أن اضطرب واهتز كما يهتز الطير الذبيح ... لقد طمس عليه الليل ، فغابت آخر شعاعاته من الأفق حين كان عامل المحطة يبعث أول ألسنة النار الحمراء فى كومة من الخشب المشتعل

... لشد ما تمنيت أن أكون فى « عين شمس » هذا العامل السعيد ... !

« القاهرة » شكرى فيصل

من تسابيح القلب

نشيد المغرِب الباكى ...

[إلى فاتنى بسحرها الشقى ... !]

للأستاذ محمود حسن اسماعيل

إذَا مَا اللَّيـلُ نَادَاكِ
وَغَـنَّى حَوْلَ دُنْيَاكِ
نَشِيدَ المُغْرَبِ البَاكِى فَهُبِّى وَانْشُرِى فَجْرَا
عَلَى أحْـلامِهِ الحَيْرَى
لَعَلَّ جِرَاحَهَا تَبْرَا ...
وَكُونِى فى الدُّجَى شِعْرَا
يَهُـزُّ الغَيْبَ إنْشَادَا وَيُسْعِدُ عُمْرِىَ الشَّاكِى
أنَا اللَّيْلُ الَّذِى نَادَى وَمَا غَنَّيْتُ إلاَّكِ !!

***

وَإنْ طَارَتْ لَكِ الرِّيحُ
يُرَتِّلُ فَوْقَهَا رُوحُ
غَرِيبُ اللَّحْنِ مَجْرُوحُ رَآكِ فَقَالَ : لَبَّيْكِ
هَبِينِى سِحْرَ عَيْنَيْكِ
لأُلْقِى بَيْنَ كَفَّيْكِ
صَلاَةَ الْعِطْرِ لِلأَيْكِ ...
فَزُفِّى الحُبَّ أنْوَارَا وَأنْغَـامًا لِمُضْنَاكِ
أنَا الرُّوحُ الَّذِى طَارَا لِيُبْعَثَ حِينَ يَلْقَاكِ
أنَا اللَّيْلُ ، أنَا الرِّيحُ !
أنَا اللَّحْنُ ، أنَا الرُّوحُ !
فَهَاتِى خَمْـرَ نَجْوَاكِ

محمود حسن اسماعيل

رد على مقال :

الرحلات العربيـــة

للأستاذ محمد محمود رضوان

قرأت المقال الممتع الطريف الذى كتبه الأستاذ الشاعر محمد عبد الغنى حسن بالعدد ٤١٠ من الرسالة وأنى فيه على تاريخ الرحلات العربية . ولعل الأستاذ يفسح لنا صدره فنأخذ عليه بعض مآخذ لا تغض من مقاله القيم

حاول الأستاذ أن يستقصى فى مقاله جميع أنواع الرحلات التى نعرفها للعرب فوُفق كثيراً حيث ذكر الرحلات الاضطرارية كرحلة القحطانيين ، والتجارية كرحلة الشتاء والصيف لقريش، والدينية كهجرة المسلمين إلى الحبشة وإلى المدينة ، والسياسية كرحلات المسلمين إلى المدن المفتوحة ، ورحلات الاستجداء كرحلة جرير وأبى نواس ، وأخيراً (الرحلات لذاتها ولم تبدأ إلا فى القرن الرابع الهجرى) كرحلة المسعودى والبيرونى والمقدسى وابن جبير والمغربى وياقوت الخ

وعجبى للأستاذ محمد عبد الغنى أن ينسى ضرباً من الرحلات هو فى نظرى أهم ضروبها ، وأجدرها بالدراسة لأنه أجلها أثراً وأجلها خطراً فى العلم والأدب ، وأعنى به (الرحلة فى طلب العلم)

وأعجب من هـذا أن ينسى الأستاذ الكاتب نفسه وهو قد رحل فى طلب العلم . وليته قرأ ابن خلدون يقول : (إن الرحلة فى طلب العلم ولقاء المشيخة مزيد كمال فى التعلم)

ولقد عرف العرب لرحلات العلم قيمتها فكانوا يتنقلون فى مشارق الأرض ومغاربها للقاء الشيوخ ، ويرحلون إلى البادية لتَتَضرَّى مقاولهم بالفصاحة ، ويتحملون فى سبيل العلم من بعد الشقة وقلة الزاد ووحشة الطريق ورهق السفر ما الله به عليم

ذكر ابن خلكان أن الخطيب أبا زكريا التبريزي شارح ديوان الحماسة ، والقصائد العشر (٤٢١ — ٥٠٢) وقعت له نسخةٌ من كتاب التهذيب للأزهرى فى عدة مجلدات يُعوزُ بعضَ مسائلها شىء من التحرير ، فسأل عمن يقوم بذلك فدلوه على أبى العلاء ... فماذا يصنع الرجل والشقة بعيدة وهو فقير لا يملك أجرة دابة تحمله ؟ لقد وضع الكتاب فى حقيبة وحملها على ظهره وسافر من تبريز إلى المعرة مشياً على قدميه حتى بلغها وقد قطع نحو سبعمائة ميل ثم أخرج الكتاب فوجد العرق قد نفذ إليه فأفسد منه ما أفسد

والأندلس العربية ، لقد كانت كعبة القاصدين من أهل المشرق كما كان المشرق نجمة الرائدين من أهلها طالبين للعلم ، والعلامة المقرى صاحب كتاب (نفح الطيب) يسهب فى كتابه إسهاباً ، ويُطنب إطناباً ، حين يتعرض لذكر الذين رحلوا من الأندلس إلى المشرق يطلبون العلم وينافسون فيه المشارقة

وكتب التراجم كوفيات الأعيان ومعجم الأدباء وطبقات الأطباء وتاريخ الحكماء تؤرخ لألوف من العرب رحلوا يطلبون العلم (ولو فى الصين) ، لا يعوِّقهم الإملاق عن شهود محافِله ، ولا تحلِّئهم المشاق عن ورود مناهله

ولقد كتبتُ فصلاً مسهباً عن (رحلات العرب فى طلب العلم) من فصول كتاب أشتغلُ جاداً بوضعه عن (المسلمون والتربية) عسى أن يكون الفراغ منه قريباً

وللأستاذ شرف الدين خطاب المفتش بوزارة المعارف فصل موجز فى هذا الموضوع فى كتابه (التربية فى العصور الوسطى) الذى يدرس فى دار العلوم ، فراجعه إن شئت

***

نعود لناحية أخرى نعتقد أن الأستاذ عبد الغنى تجنى فيها على شعراء العربية ، وذلك حيث قال عنهم : « ولكن واحداً منهم لم يفكر فى تدوين رحلة أو تسجيل مشاهدة » ، وحيث قال : « وإذا كانت هذه الرحلات الفردية وكثير غيرها قد أضافت بعض الثروة إلى الأدب إلا أنها لم تكن منتجة بالنسبة للرحلات والأسفار ، فهى عقيمٌ كل العقم من هذه الناحية »

فلقد عرفنا لكثير من شعراء العربية الرحّالين شعراً رائعاً يصفون فيه رحلاتهم ليس هـذا موضع الإفاضة فيه ، ولكنى أمثل بالبحترى وقصيدته فى وصف إيوان كسرى التى ضمنها وصف رحلته ومشاهداته ، وأمثّل بأبى الطيب المتنبى الذى تقلب ما بين دمشق وحلب ولبنان وفارس ومصر وشهد غزوات سيف الدولة فضمّن شعره الكثير مما شاهده ، فوصف بحيرة طبرية وشعب بوان وحمص وتُفاح لُبنان ، ووصف نساء الروم فى وقعة نهر (أرْسَناس) ، وليس فى إغفاله وصف آثار مصر ونيلها دليل على قصوره أو تقصيره فإن لذلك أسباباً لا نتعرض

لما فى هذه المُجلة ، بل لقد كان لرحلته إلى مصر آثار كثيرة فى شعره ... أقلها أنه هجا المصريين

وابن هانىء الذى قال عنه الأستاذ (يخرج من الأندلس إلى شمال أفريقية فيمدح الخليفة المعز ويرحل معه إلى مصر ويصف هـذه الرحلة فى بعض شعره) لقد ظلمه وتجنى عليه ، فالرجل لم يرحل مع المعز إلى مصر ولـكنه رحل من الأندلس إلى عدوة المغرب فلقى جوهراً القائد ، ثم علم به المعز فقربه وأجرى عليه المطايا ؛ ثم رحل المعز إلى مصر فشيعه ابن هانىء ورجع إلى المغرب لأخذ عياله ، ثم مات قبل أن يلحق بالمعز . ولما بلغه خبر موته أسف وقال : « كنا نريد أن نفاخر به شعراء الشرق فلم يقدر لنا ذلك »

ومع هذا فقد كان لرحلة ابن هانىء إلى المغرب أثرها فى شعره ، وقد وصف أسطول المعز وصفاً رائعاً بقصيدته المشهورة :

أما والجوارى المنشآت التى سَرَتْ
لقـد ظاهرتْهـا عدةٌ وعـديدُ

* * *

وبعد ففى مقال الأستاذ محمد عبد الغنى بعض هنات فى التعبير واللغة نرى لزاماً علينا أن نشير إليها ، ولا سيما أنه من المولعين بتعقب أمثالها

فهو أولاً ، يقول عن الراحلين من قريش إلى اليمن والشام : (وسنسميهم رحالين تجاوزاً) ، مع أن الله تعالى يقول : (رحلة الشتاء والصيف) فهل سماهم القرآن رحالين تجاوزاً ؟

وهو ثانياً يروى بيت الأعشى هكذا :

وشاهدنا الجُلُّ والياسميـــن والمسمعات بأقصابها

وأظن الرواية الصحيحة للبيت (بقصابها) لا (بأقصابها) ، وقد جاء فى الأساس : « ونفخ فى القصّابة : فى المزمار ، ورأيت القُصّاب ينفخون فى القُصّاب : أى الزمارين ينفخون فى المزامير ، جمع قاصب الخ » . أما الأقصاب فهى الأمعاء

وقد روى البيت كما ذكرت العالم التونسى الجليل الأستاذ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور شيخ الإسلام المالكى فى تونس ، فى بحثه النفيس (الترادف فى اللغة العربية) المنشور بالجزء الرابع من مجلة المجمع اللغوى

وهو ثالثاً ... استعمل فى مقاله (ساهم) بمعنى (شارك) أو (كان له نصيب) ، والمساهمة هى القارعة من (القرعة) كما فى قوله تعالى فى قصة يونس (فساهم فكان من المدحضين)[1] وكان يصيب لو قال : (أسهم) أو (سَهَم)

وقد نبه على هذا الخطأ أستاذنا الجليل العوامرى بك[2] . ولا حجة للدكتور زكي مبارك فى رده لأنه يستشهد بكلام المتأخرين ، ويرضى بأن يخطئ مع الشريف الرضى[3]

وهو رابعاً يقول : (ويعد كتابه الثانى أوفى مرجع عن بلاد الهند ، وأملأ كتب الأسفار تعريفاً بها)

والشذوذ كل الشذوذ فى (أملأ) ، لأن أفعل التفضيل — كفعل التعجب — لا يصاغ من الخماسى (امتلأ) على وزن أفعل . ولا يُقال إنه مصوغ من مَلأ ، لأنه كان عليه حينئذ أن يقول : « ويُعَد المؤلف أملأ المؤلفين لكتابه تعريفاً بالأسفار » لا أن يسند الملء للكتاب

نعم ، إن الأشمونى فى شرحه على الألفية وابن هشام فى أوضح المسالك ذكرا من الشذوذ قولهم : « ما أملأه للقربة » مصوغاً من امتلأ ؛ وهذا وهمٌ منهما لأنه لا شذوذ حينئذ فى العبارة ، إذ هو مصوغ من ملأ ... والمعنى جيد

وقد اعتذر لهما الصبان بأن الشذوذ يكون حين يقال : « ما أملأ القربة » ، كعبارة الأستاذ عبد الغنى

فهل يقوم هذا اعتذاراً له ؟

وهو خامساً يقول : « وإذا كانت هـذه الرحلات الفردية وكثير غيرها قد أضافت بعض الثروة إلى الأدب ، إلا أنها لم تكن منتجة ... الخ »

وأنا لا أعلق على هذه العبارة إلا بأن أتحدّى الأستاذ بأن يُعربها ويبين لنا جواب إذاً ويخرّج هذا الاستثناء

ومنى إليه التحية

(حدائق القبة)

محمد محمود رضوان
المدرس بالمدرسة النموذجية

---

(١) راجع تفسير البيضاوى وغريب القرآن السجستانى ص ٩٨

(٢) ص ٢٢٢ من العدد الرابع من مجلة المجمع

(٣) قال الأستاذ العوامرى مما قال : « وهناك معنى آخر لتساهم ؛ ففى الأساس : « وتساهموا الشىء : تقاسموه » . وجاء الدكتور مبارك فى العدد ٣٧٨ من الرسالة يقول : « ثم عجبت كل العجب من غفلة بعض النقاد حين رأيت الزمخشرى نص عليها فى الأساس فقال : « وتساهموا الشىء : تقاسموه » اهـ . قلت : الخطأ هو ساهم بمعنى اشترك »



فى الترام أيضا . . . !

لعل هـذه ثالث مرة أكتب فيها عما وقع عليه منظارى فى الترام مما يصور أخلاق بعض الناس فى مجتمعنا الواسع ، والترام لا تنس أيها القارىء مجتمع له خطره . وإن عجبت لهذا التعبير فأخطر ببالك مبلغ ما تمتلىء به طيلة النهار وساعات من الليل تلك المركبة من أنماط الناس مرات كثيرة متتابعة

وما اتخذت موضعاً لى يوماً بين هؤلاء الناس إلا وقع منظارى على ما لا أحب أن يقع عليه . ولو أنى رحت أحدثك كل يوم بما أرى لجئتك كل يوم بالطريف ، بل ولحملتك على أن تستزيدنى إن سكت

وماذا عسى أن أعرض عليك اليوم مما شاهدت والمجال لا يتسع له كله وليس فيه ما أحب أن أدعه ، وما أعرض عليك ما أعرض محبة فى نشر ما يعاب وإنما أشهر بما يعاب بغية القضاء عليه ...

هذان يافعان من أبناء مدارسنا يكلم كلاهما صاحبه وكأنه يتعمد أن يسمع الراكبين جميعاً ، وليت العيب قاصراً على ما يحدث كلاهما من ضجة مكروهة ، بل إنهما ليتحدثان فى غير تحفظ عن أمور أحسب أن الحديث فيها مما يوجب الخجل لو جرى بينهما على انفراد ، دع عنك ما ينعت به كل منهما صاحبه من الألفاظ التى نستفظع صدورها من السوقة إذا عظمت بينهم جلبة المزاح ، أو إذا استحرّ بينهم بالأيدى والألسن القتال ... وما أرى على وجه من هذين الوجهين أى شعور بأنهما تقع عليهما أعين الناس

ودع هـذين إلى ذلك الذى يتحدث إلى جيرانه عن إحدى القضايا فيذكر أسماء معروفة ويعقب على كل اسم بما يشاء له أدبه من قاذع السباب فى غير تحرج ولا مبالاة

ثم ما قصيلة هـذا (الإنسان) الذى جعل يحملق فى فتاة أمامه من بنات المدارس لا يكاد يتحول نظره عنها وإنما يتحرك بصره إذ يتحرك صاعداً من طرفى قدميها إلى قمة رأسها فيستقر بعض الوقت فى مواضع معينة ، ثم يهبط إلى أسفل من جديد متوقفاً عنـد مواضع الاستقرار حتى يعود إلى حيث بدأ ليصعد من جديد ، وهكذا دواليك دون أن يفطن هذا الأفندى إلى ما يكاد يزهق روحها من ضيق وارتباك

وما هذا الذى راح يقضم اللب ويلقى بقشره فى سرعة فيقع على ملابس من هم حوله فى غير وعى منه كأنما يفعل ذلك فى حجرته الخاصة ؟ فإذا فرغ ما فى يده دسها فى جيب سرواله فعادت ممتلئة ، ودار فكاه فألقيا بالقشر تباعاً كأنهما تلك الآلة التى تفصل القمح حبه عن تبنه فى الأجران

وماذا يريد ذلك « البارد » الذى يطيل النظر إلى ملابس من هم أمامه ، كأنما يتفرج على معروضات الأزياء فى إحدى « الفترينات » . يفحص ببصره أربطة الرقبة والقمصان والحلل ولا يتحول بعينيه عنك مهما أبديت له بنظراتك من دهش أو استنكار ! !

على أن هؤلاء جميعاً أهون شراً وأقل خطورة من ذلك الذى جلس فى طرف المقعد إلى اليسار وأخذ يبصق كل بضع ثوان بصقة لا يبالى على أنف من ولا على عين من وقع رشاشها المذب الذى ينثره الهواء على من خلفه ، كأنما يتحتم على راكب الترام أن يلبس قناعاً من الأقنعة الواقية ...

ومثل ذلك الظريف هذا الذى يتحرك لينزل فيطأ بنعله وجه نعلك ، أو يفزع بيده طربوشك فما تدرى إلا وقد طار عن رأسك ، أو يتحاشى الانزلاق إذ يقرب من السلم فتستقر لطمة منه على عينيك أو خدك أو أنفك بحيث لو سددها إليك من يتعمد ذلك — لا قدر الله — ما جاءت محكمة كما تجىء من يد ذلك الذى يمر بك أثناء نزوله من الترام ، وإنه ليقع منه ذلك فلا يلتفت إليك بكلمة اعتذار أو بنظرة أسف ! وسبحان الذى سوى الجبلات

ودع عنك غير من ذكرت (المتشبطين) على السلم والمتحاربين مع « الكمسارى » من أجل مليم مشكوك فى أمره ، أو على الأكثر من أجل قرش زائف ، دع عنك هؤلاء فالأمر محصور بينهم وبين « الكمسارى » إلا إذا نفخ هذا فى زمارته فأوقف الترام وأخذ الجميع بذنب صفيق أو صفيقين

أقسم لك أن ذلك كله حدث فى الترام فى وقت معاً ، فإن لم تصدقنى بعد هذا القسم فليس لدى شك فى أنك لم تركب هذه المركبة

الخفيف

تدخل الدولة فى الإصلاح

واجب لا مناص منه

للأستاذ على توفيق حجاج

تناول الدكتور زكى مبارك فى مقاله الطويل : « الفرد هو الحجر الأول فى بناء المجتمع » المنشور بعدد « الرسالة » ٤٠٨ مسائل متنوعة الألوان مختلفة المذاهب ، وتصدى فيها للرد على بعض الكتاب ؛ وقد لفت نظرى ذلك الخلط الغريب فى وجهات النظر ، وأدهشنى أن أرى الدكتور زكى يدعو إلى الفوضى فى الوقت الذى فيه يدعو إلى الإصلاح ؛ وقد استخلصت من مقاله الطويل آراءه الآتية بنصها ، حيث يقول :

أولاً : « وأنا أرى أن الفرد هو الحجر الأول فى بناء المجتمع وأرى من الواجب أن توجه الجهود الصادقة إلى إصلاح الفرد ، لأن المجتمع يتكون من الأفراد »

ثانياً : « المنحطون هم الذين ينتظرون من الحكومة كل شىء ، فهى عندهم مسئولة عن صيانة المرافق ، وتدبير جميع المنافع ، وإبعاد جميع المخاطر ، وإصلاح جميع الأحوال »

ثالثاً : « عيب الفرد هو اعتماده على المجتمع واحتماؤه بالقوانين فقد شلت من الإنسان مواهب كثيرة منذ اليوم الذى اطمأن فيه إلى أنه له عصبية تنصره وحكومة تحميه ... وأنا أدعو إلى اعتصام الفرد بنفسه ، قبل اعتصامه بعدالة الحكومة وحصانة المجتمع »

هذه هى خلاصة ما يقرره الدكتور زكى مبارك فى مقاله

أنا أرى :

وأنا أرى أننا جميعاً متفقون مع الدكتور فى أن « الفرد هو الحجر الأول فى بناء المجتمع » ؛ ولكن ما هى تلك الجهود الصادقة التى يجب أن توجه إلى إصلاح الفرد ؟ ... أليست هى المشروعات الاقتصادية والاجتماعية التى تقوم الحكومة « الدولة » بتنفيذها لرفع مستوى حياة الشعب ومعيشته ؟ خذ لذلك مثلاً قيام الحكومة بإصلاح الأراضى البور — فى شمال الدلتا وغيرها — وتوزيعها على صغار الملاك رغبة فى التوسع فى الملكيات الصغيرة والنهوض بمستوى صغار الزراع والعمال الزراعيين ؛ وقد حدثتنا الإحصائيات الرسمية للدولة المصرية فى سنة ١٩٣٨ أن عدد ملاك الأراضى الزراعية فى المملكة المصرية هو ٢ر٤٤٤ر١٨١ مالكا ، منهم ١ر٧١٦ر٧٠٧ يملك فداناً فأقل ، و ٥٦٧ر٨٠٦ يملك من فدان إلى خمسة أفدنة ، ونسبة هؤلاء الملاك إلى مجموع الملاك فى الدولة هو ٩٣/٥٪ ، ومتوسط ما يملكه الواحد منهم ٢٠ قيراطاً فقط ، وأن الملاك الذين يملكون خمسة أفدنة فأكثر هم ١٥٩ر٦٦٧ ، ونسبتهم إلى عدد الملاك ٦/٥٪ ، فهل يعقل يا دكتور أن مالكا لفدان واحد ، يملكه أن يقوم بتربية أبنائه وخلق جيل جديد يتفق مع نهضة البلاد ؟ هذا هو شأن الملاك ، فما بالك بمن لا يمتلكون شيئاً ! ؟

لقد اتخذت فرنسا وغيرها من دول أوربا إجراءات مختلفة للانماش الاقتصادى ، خصوصاً ما كان متصلاً منها بالزراع وصغار الملاك ، والعمال الزراعيين ، والطبقات الفقيرة . ومما يذكر أن حكومة فرنسا وضعت فى سنة ١٩٣٨ نظاماً أطلقت عليه اسم : الإقطاعيات الزراعية للمعاش Domaine retraite ، وأصدرت به قانون ٢٤ مايو سنة ١٩٣٨ [1] ، واستفاد من هذا النظام جميع العمال الزراعيين ، بل جميع المشتغلين بالزراعة

إن حصر الإجراءات والوسائل التى اتخذتها الدول للعناية برفع مستوى الشعوب من الناحية الاقتصادية والاجتماعية يتطلب مجلات ضخمة ، ولا يمكن لمجلة قيمة « كالرسالة » ، أن تشغل وقت قرائها بسرد طويل — قد يمله بعضهم — ولكنى على سبيل الإشارة ، قد ضربت هذين المثالين :

الحكومات هى أم للشعب الذى يجب أن ترعاه ، بل المسئولة عن توجيهه ، وتوجيه أفراده ، وصيانة المرافق ، وتدبير جميع المنافع ، وإبعاد جميع المخاطر ، وإصلاح جميع « الأحوال »

والعيب كل العيب يا دكتور على الفرد الذى لا يعتمد على احتمائه بقوانين الدولة التى تصدرها لتنظيم العلاقات المختلفة بين الأفراد والجماعات ، بين أصحاب الأعمال والعمال ، بين الملاك

---

(١) راجع :

Annuaire International de Legislation Agricole, 1938,
Institut International d'agriculture, Rome,
Les Services Sociaux, en 1933 Bureau International du Travail, 1936 Génève.

والمستأجرين ، بين التاجر وعملائه ، بين الموظف ووظيفته إلى آخره

بل « لقد شلت مواهب كثيرة » بسبب عدم تشجيع الدولة لها ، وتقدمت وارتقت مواهب المفكرين والمخترعين الذين أولتهم الدولة عنايتها ، وشجعتهم بمختلف الوسائل ، كالتعيين فى الوظائف العامة ، ومنح المكافآت ، والامتيازات Concession وما إلى ذلك

والواقع أن الأعمال التى اطمئن عمالها إلى مستقبلهم ، قد ارتقت وتقدمت تقدماً باهراً ، بسبب رعاية الدولة لعمالها ووضعها تشريعاً روعى فيه مصلحة الطرفين ، أى مصلحة العامل وأصحاب الأعمال ، وضماناً للعدالة التى يجب أن تحتل المكان الأول فى المعاملة

أما « احتماء الفرد بنفسه » وإن النفس لأمارة بالسوء ، فهو الفوضى بعينها ، ولو كان الأمر كذلك لما أرسل الله مبشراً ونذيراً ، وسنت الشرائع السماوية ، ولما فكر العلماء فى وضع القوانين واللوائح التى تحد من طمع الإنسان وجشعه ، وحب الذات ، « كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى »

ولذلك أرجو أن يرجع الدكتور عن رأيه وأن يقرر معى ، كما قررا العقل والناموس الطبيعى . أن يعتمد الفرد على « الدولة » ، وأن يوجه عنايته دائماً للتعاون معها فى سبيل الإصلاح خصوصاً بعد أن أصبح مبدأ تدخل الدولة من المبادئ المحتومة التطبيق ، ما دام قائماً على أساس التضامن الاجتماعى Solidarité Sociale والعدالة فى توزيع الضرائب

تدخل الدولة

إن تدخل الدولة فى أحوال المجتمع والأفراد أصبح أمراً لازماً لا مناص منه منذ زمن بعيد ، ولقد اضطرت الدول لفرض مختلف أنواع الضرائب كى تتمكن من القيام بأعباء مسؤولية التدخل وتكاليفه ، وقد قسم علماء الاقتصاد والقانون هذا التدخل إلى الأقسام الآتية :

أولاً — التدخل الوطنى : « L'interventionnisme National »[1] وهو تدخل الدولة فى التجارة الخارجية أو الدولية حماية للانتاج الأهلى إذ لا بد للدولة من العمل على تنظيم القوى الانتاجية للجماعة ، وتنشيط الانتاج وتشجيعه فى مختلف نواحيه حتى يتم بذلك تكوين المجتمع أو الأمة ، وهذا لا يتأتى إلا عن طريق الحماية الجركية مثلاً للواردات . وقد تدخلت حكومة مصر فى هذه الناحية عند ما رغبت فى رفع مستوى الصناعات المحلية وتشجيعها ، والاستغناء جهد الطاقة عن الواردات الأجنبية . فقررت فرض رسوم جمركية مرتفعة على الواردات من المنسوجات الأجنبية وغيرها خصوصاً وأن الصناعات المصرية كانت فى دور النشوء ، ولا يمكنها أن تتحمل المنافسة الأجنبية ، ولا بد أن يتناول التدخل الوطنى الحماية الجركية وجميع نواحى الصناعة والزراعة والتجارة

ثانياً — التدخل الاجتماعى : « L'interventionnisme Social »[1] ، الغرض منه تدخل الدولة لتحسين حالة العمال ورفع مستوى معيشتهم ، خصوصاً من ناحية محاربة نظام المنافسة الحرة الذى يدفع بالمنتجين إلى محاولة العمل على تخفيض نفقة الانتاج بتخفيض أجور العمال واستعمال الأيدى الرخيصة ، واستخدام النساء والأطفال

ولما كان مركز العامل دائماً يكون ضعيفاً أمام صاحب العمل ، والقوى المتنازعة غير متكافئة ، فلا بد من تدخل الدولة لحماية الضعيف ، ولا بد من سن تشريع صناعى ، وتحديد ساعات العمل ، ووضع نظام الأجور والإعانات والمكافآت فى جميع الأحوال سواء فى أحوال المرض والشيخوخة والبطالة ، وتعميم نظام التأمين الاجتماعى

وقد تدخلت الحكومات على اختلاف ألوانها : دكتاتورية كانت أو ديمقراطية فى جميع نواحى النشاط

وشرعت مصر فى هذه النهضة فعمدت إلى سن تشريع إصابات « العمل » ، وقانون عقد العمل ، وتشغيل الأحداث ، والتأمين الاجتماعى ، والتأمين ضد البطالة وغير ذلك

وفيما يتعلق بالإصلاح الاجتماعى لا بد من العمل على إفساح المجال للعوامل الأخلاقية والدينية فى الجماعة ، بمعنى أنه لا بد من إخضاع الفرد لقانون أخلاقى وسلطة عليا هى سلطة رئيس العائلة فى المنزل ، وصاحب العمل فى المصنع ، والدولة فى مختلف الشؤون[2]

---

(١) راجع : Von list, Système National d'Economie Politique, 1841

(١) راجع : Simonde de Sismondi, Nauveaux prinècye, d'Ecome, Polit 1819

(٢) راجع : Le Play : La Rèforme Social, 1846

ثالثاً — التدخل الاقتصادى :

« Interventionnisme Economique »

وهو تدخل الدولة فى الإنتاج ، بأن تحل مكان الفرد فى بعض فروع الإنتاج وبذا ينشأ الاحتكار العام ، فتتولى الدولة أو البلديات أعمال السكك الحديدية والبريد والمناجم ، وذلك دون تغيير فى نظام الجماعة الحاضرة ، فتنشأ بجانب الملكية الفردية ملكية الدولة لبعض الفروع[1]

وقد تطور تدخل الدولة الاقتصادى ، فأصبحت الدولة تعتبر جميع نواحيها الاقتصادية وحدة اقتصادية مكونة من مجموع قوى إنتاجية تتعاون وتتضافر وتتضامن فيما بينها بحيث يستفيد الشعب من هذه القوى ، ويحصل على كل ما يكون فى استطاعته إنتاجه بنفسه لنفسه ، ويقل اعتماده على غيره ، أو بمعنى إيجاد سيطرة اقتصادية ، مع الاعتراف بوجود روابط اقتصادية دولية ، بشرط حماية الإنتاج المحلى الأهلى . وهـذا التدخل يسمى أيضاً بنظام الاقتصاد الدار Economie National Dirigé ؛ وقد جرت عليه تقريباً جميع الحكومات على اختلافها ، ويرجع تاريخ تطبيقه الحديث فى مصر إلى عهد محمد على باشا الكبير ، ومازالت حكومة مصر تتخذ إجراءات من وقت لآخر فى سبيل حماية الإنتاج المحلى ، وبحث ودراسة وسائل تصريفه

وقد ثبت أن تدخل الدولة غرضه الأول تنظيم جميع المرافق وإيجاد تناسق فى جميع الدول[2]

(١) راجع الاقتصاد السياسى : للدكتور عبد الحكيم الرفاعى . الاقتصاد السياسى : للدكتور زكى عبد العال .

(٢) راجع : Bodin : Economie dirigée, economie Scientifique, 1933., Siegfried : L'Economie dirigée, 1934.

وسائل تدخل الدولة

تتدخل الدولة لحماية الأفراد بسن القوانين ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ ويكون فيما يتعلق بتدخلها فى الإنتاج ، أولاً : بصفتها مشرعاً لتنظيم وتشجيع المنشآت الخاصة ، ويكون تدخلاً غير مباشر . ثانياً : بصفتها صاحب عمل ويكون تدخلاً مباشراً . ويكون ذلك بوضع قواعد عامة وشروط معينة لا بد للمنشآت من إتباعها

هذه يا دكتور بعض المبادئ العامة لتدخل الدولة مع إشارة موجزة كل الإيجاز إلى بعض وسائل تطبيق التدخل . وقد شعرت بلادنا وحكومتها نفسها وبرلماننا بأننا أمة فى حاجة ملحة للاصلاح ، ولا يكون ذلك إلا عن طريق تدخل الحكومة . وإليك نص ما جاء فى الصفحة الثالثة من تقرير لجنة المالية بمجلس النواب عن سنة ١٩٤٠ — سنة ١٩٤١

« ولن تتحقق العدالة الاجتماعية ويرتفع مستوى الحياة العامة لطائفة كبيرة من أبناء هذا الوطن ، تئن تحت أثقال الفقر والمرض والجهل ، إلا باتجاه الجهود متكاتفة ، إلى علاج هذه الأدواء الثلاثة ، والعمل على خلق طبقة من صغار الملاك ، تحيا حياة إنسانية فى المستوى الأدنى الذى تراه البلدان المتمدينة أقل ما يجب أن يبلغه واحد من أبنائها »

لا بد وأن يكون الدكتور الفاضل زكى مبارك قد رجع عن رأيه بعد هذا البيان الموجز ، وأن يقرر أنه لا بد من اعتماد الفرد على الدولة واحتمائه بقوانينها

على توفيق صباغ

رسالة الشعر

لو تكلم الفلاح ...

للأستاذ محمود الخفيف

شَبَابِي جَفَتْ عَلَيْهَا الشِّفَاهْ وَلَحْنُهَا مَا هَزَّ قَوْمِي بُكَاهْ
بَكَيْتُ لا سَلْوَةَ غَيْرَ البُكَا حَتَّى البُكَا قَدْ مَاتَ حَوْلِي صَدَاهْ

* * *

نَشَأْتُ فِي الشَّوْكِ سَقِيمَ البَدَنْ وَالشَّوْكُ لِي حَتَّى ارْتِدَائِي الكَفَنْ
يَا وَيْلَتَا مَاذَا جَنَتْهُ يَدِي يَدِي بَنَتْ فَوْقَ التُّرَابِ الحَيَاهْ

* * *

يَا لَيْتَ قَامِي لَمْ تَحِلْهَا يَدِي أَوْ لَيْتَنِي يَا قَوْمُ لَمْ أُولَدِ !
أَشْقَى لِيَبْنِي بِشَقَائِي الغِنَى وَالجَاهَ ، بَانٍ ، كَمْ رَمَتْنِي يَدَاهْ

* * *

أَعِيشُ مِنْ تَجْمَاتِهِ أَوْضَعَا يَا لَيْتَ لِي مِنْ فِكْرِهِ مَوْضِعَا
لِلثَّوْرِ ضِعْفٌ إِنْ ذَكَرْتُ الَّذِي أَعْطَاهُ أَجْرًا سَاءَ شَرْعُ الطُّغَاهْ !

* * *

حِمَارُهُ فِي سُرُجٍ مِنْ حَرِيرْ وَبَيْنَنَا فِي الرِّزْقِ فَرْقٌ كَبِيرْ
وَكَلْبُهُ ، لَوْ أَنَّ بَعْضَ الَّذِي يَحْظَى بِهِ حَظِّي جَهِلْتُ الشَّكَاهْ

* * *

ضَنِيتُ حَتَّى مَا عَرَفْتُ الضَّنَى وَالمَوْتُ طِبِّي بَعْدَ طُولِ العَنَا
يَا قَوْمُ إِنِّي جِئْتُ مِنْ آدَمٍ مَالِي بِهَذَا الكَوْنِ جَدٌّ سِوَاهْ

* * *

شَقِيتُ حَتَّى قَدْ جَهِلْتُ الشَّقَاءْ وَبَعْضَ اليَأْسُ لِقَلْبِي الرَّجَاءْ
كَمْ لُذْتُ بِالآمَالِ حَتَّى غَدَتْ بَعْضَ عَذَابِي اليَوْمَ وَاحَسْرَتَاهْ !

* * *

أَلِمْتُ حَتَّى قَدْ رَثَى لِي الأَلَمْ وَأَشْفَقَ السُّقْمُ وَحَارَ العَدَمْ
لَمْ يُبْقِ مِنِّي غَيْرَ طَيْفِ البِلَى عَيْشِي وَمَا لِي حِيلَةٌ فِي سِوَاهْ

* * *

لا هُوَ مُحْيِينِي وَلا قَاتِلِي مَنْ ذَا يُزِيحُ العَيْشَ عَنْ كَاهِلِي ؟
مِنْ مَوْلِدِ الشَّمْسِ إِلَى مَوْتِهَا كَدْحٌ وَمَا غَيْرُ الرَّدَى مُنْتَهَاهْ

* * *

وَفِي لَظَى الشَّمْسِ وَقَرِّ الشِّتَاءْ مَا كَانَ لِي غَيْرَ قَمِيصِي وِقَاءْ
وَقُوتِيَ الخُبْزُ ، يَمِينًا لَئِنْ يُلْقَى لِكَلْبِ مُتْرَفٍ لازْدَرَاهْ

* * *

لِغَيْرِيَ النِّيلُ جَرَى كَوْثَرَا وَلِي جَرَى مِنْ عِيشَتِي أَكْدَرَا
مِنْ طِينِهِ الذَّائِبِ أَرْوِي الظَّمَا وَقَدْ رَوَى مَاءُ جَبِينِي ثَرَاهْ !

* * *

آوِي إِلَى كُوخِي ذَلِيلَ الخُطَى وَلَيْسَ فِي كُوخِيَ غَيْرُ الأَسَى
هَذَا بَرَاهُ السُّقْمُ حَتَّى بَدَا طَيْفًا وَذَا دَاءُ الكُلَى مَا دَهَاهْ

* * *

وَلَيْسَ لِي وَيْلاهُ مِنْ رَاحِمِ وَهَلْ أُرَجِّي البِرَّ مِنْ ظَالِمِي ؟
يَنْظُرُ لِي إِنْ مَرَّ بِي نَظْرَةً كَأَنَّنِي فِي الحَقْلِ بَعْضُ الشِّيَاهْ !

* * *

يَا بَانِيًا هَذَا الثَّرَاءَ العَمَمْ بَنَيْتَ بِالأَشْلاءِ هَذَا الهَرَمْ
أَقُولُ إِمَّا بِتُّ فِي مَضْجَعِي طَاوِي الحَشَا : تَبَّتْ يَدَا مَنْ بَنَاهْ

* * *

يَا سَامِرًا أَغْرَاهُ حُلْوَ السَّمَرْ يَا لاعِبًا بِالمَالِ حَتَّى السَّحَرْ
يَا وَالِغًا فِي الكَأْسِ هَذَا دَمِي ،
هَلاَّ ذَكَرْتَ الكَأْسَ كَيْفَ احْتَوَاهْ

* * *

مَا قَلَّ مِنْ هَذَا الَّذِي تُتْلِفُ يُسْعِدُنِي إِنْ كُنْتَ لا تَعْرِفُ
حَرَمْتَنِي مَا فَرَضَ اللهُ لِي إِصْلَ لَظَاهُ يَوْمَ تُكْوَى الجِبَاهْ

الخفيف



السنوسيون والمذهب المالكي

كان لي حظ الاطلاع على ما كتب الأستاذان جعفر والعيساوى عن السنوسيين ، ويظهر أن الأستاذ جعفر قد استند في تقديره بعد السنوسيين عن المالكية بما قد حصل من ثورة بعض من حسبوا أنهم علماء على السنوسيين . فقد قرأت في مطالعاتي أخيراً في كتاب الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية للمرحوم الأستاذ الإمام الطبعة الثانية في (صفحة ١١٢) تحت عنوان « الإسلام اليوم ، أو الاحتجاج بالمسلمين على الإسلام » ما يلي : « ... لكن أليس من العلماء المسلمين اليوم أعداء للعلوم العقلية ... ؟ ألم يسمع السامعون أن الشيخ السنوسي (والد السنوسي صاحب (الجغبوب) كتب كتاباً في أحوال الفقه زاد فيه بعض مسائل على أصول المالكية ، وجاء في كتاب له ما يدل على دعواه أنه ممن يفهم الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة ، وقد يرى ما يخالف رأى مجتهد أو مجتهدين ؛ فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية رحمه الله تعالى ، وكان المقدم في علماء الأزهر الشريف فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسي ليطعنه ، لأنه خرق حرمة الدين ، واتبع سبيلاً غير سبيل المؤمنين . . . وإنما الذي نجى السنوسي من الطعنة ونجى الشيخ من سوء المغبة وارتكاب الجريمة باسم الشريعة ، هو مفارقة السنوسي للقاهرة قبل أن يلاقيه الأستاذ المالكي . » اهـ

وأظن أن في كلام الاستاذ المرحوم الشيخ محمد عبده ما يحدد قرب السنوسيين لا بعدهم عن الإسلام

محمد فخرى مهنا

الخطة النازية في الحرب

إن الخطط التي اعتمدتها النازية في هذه الحرب قد عدلت كثيراً من الخطط الحربية القديمة ، حتى أصبح من ذكريات الماضي الرأى القائل بأن على المدفعية أن تمهد السبيل للمشاة ، وعلى قوافل المؤن والذخر أن ترافق الجيش

فبناء على خطة الألمان الجديدة يجب على قاذفات القنابل أن تبتدئ أولاً بضرب الأهداف الحربية في بلاد العدو بدلاً من المدفعية البعيدة المرمى التي كانت تقوم بهذه المهمة في الحرب الماضية . وبعد أن تلقى هذه الطائرات الجبارة محمولها من القذائف الكبيرة ، تمطر رصاص مدافعها الرشاشة جنود العدو ، وتتلوها أسراب من الطائرات الخفيفة تحمل قذائف صغيرة وقنابل محرقة وهي تمثل دور الفرسان قديماً ؛ ثم يبتدئ هجوم الدبابات الضخمة من ذوات الستين طناً ، وتسير إلى جانبها الفرق الآلية ، ولا يتقدم المشاة إلا بعد تمهيد الطريق وتنظيف الساحة من العدو

ولكل فئة من رجال الهوابط مهمة : فهمة الفئة التي تتألف من خمس طائرات أن تهبط في مكان معين ، حيث تنتظرها عصابة من الطابور الخامس ؛ والتي تتألف من أربع طائرات أن تهبط لنسف الجسور أو لتخريب السكك الحديدية ونحو ذلك ؛ والتي تتألف من ثلاث طائرات أن تستولى على مستودعات النفط والمؤن ، والتي تتألف من طائرتين أن تعطل المطارات . أما التي تتألف من طائرة واحدة ، فتحمل مهندسين وخبراء فنيين لدرس الطرقات وطبيعة الأنهار وأمثالها . وكل ذلك يتم بنظام دقيق يشبه نظام الساعة .

جنود الهوابط (الباراشوت)

منذ سنة ١٩٣٥ ابتدأت ألمانيا بتأليف فرق الهوابط وتمرين رجالها على هذه الطريقة الحربية الجديدة التي تقتضى مهارة كبيرة وتمريناً طويلاً ، لأن الخطر الذي يهدد الهابط ليس في الجو بل عند وصوله إلى الأرض ، إذ تنكسر رجله ، أو تصدع على الأقل فلا يعود يستطيع أن يقوم بمهمته ، وكل هابط يحمل بندقية رشاشة خفيفة ودراجة وكية من الذخيرة ، وعليه أن يحسن جيداً لغة البلاد التي يهبط فيها

كان الألمان في الحرب الماضية ينشئون وراء خطوطهم مثالاً تاماً من خنادق الحلفاء ويمرنون جنودهم على طريقة مواجهتها ، وهكذا فعلوا في الحرب الحاضرة ، فصنعوا بدلاً من الخنادق نموذجاً من البلدان التي نووا اجتياحها تتراوح مساحته بين أربعة وخمسة أمتار ، وأثبتوا فيه الطرقات والأشجار والبيوت والأقنية والأنهار وغيرها ، فيعكف جنود الهوابط على درسها حتى إذا حانت ساعة العمل قاموا بمهامهم بكل دقة

ولا يبلغ جنود الهوابط أهدافهم بدون مساعدة رجال الطابور

الخامس ، وهذا ما دل عليه اجتياح نورج . وفى هولندا هاجم الهابطون الألمان مطاراً وهم متنكرون بالملابس الهولندية فلم يستطع الهولنديون أن يميزوا بين الأصيل والدخيل . وفى بلجيكا سقط هابط ألمانى على سقف بيت فى وسط المدينة واختفى فجأة فاحتشد الناس حول البيت وطوقت الشرطة الحى برمته ، وطفقت تفتش كل المساكن دون أن تعثر على رسول هتلر . ومن ساعتئذ بين الجمهور كاهن يدل مظهره على ورع ، فقال أحدهم مازحاً : « من يدرى ؟ لعل هذا الكاهن هو نفسه ذلك الهابط الألمانى ! » وما كاد ينتهى من كلامه حتى رأوا عربة مسرعة تقف فجأة فيدخلها الكاهن ثم تتابع سيرها ، فلحق بها رجال الشرطة وقبضوا على الكاهن وهو يصرخ : « إن فى ألمانيا ٢٠ ألف هابط ، وكلهم مستعدون لبذل حياتهم من أجل زعيمنا هتلر ! »

وقبض فى هولندا على هابطين من الألمان كانوا متنكرين بأزياء مختلفة وشارات عسكرية منوعة من بلجيكية وهولندية وفرنسية وإنجليزية

جبل طارق

يقع جبل طارق فى طرف شبه جزيرة متصلة بالأرض الأسبانية ويدعى طرف أوربا ، مساحة منطقته خمسة كيلومترات يعيش فيها نحو ١٨ ألفاً

ينسب اسمه إلى طارق بن زياد الذى فتح أسبانيا عام ٧١١ ، وبقى فى حوزة العرب حتى انتزعه منهم أولونسى دى أركوس عام ١٤٦٢

وفى عام ١٧٠٤ احتلَّ البريطانيون جبل طارق وثبتوا فيه ضد هجمات الأسبان وحصارهم الطويل . ولما فتحت قناة السويس ازدادت أهميته الحربية ، لأنه يشرف على المضيق الذى يصل المحيط الأطلسى بالبحر المتوسط

وليس فى منطقة الجبل ماء للشرب فيضطر سكانها إلى جمع ماء المطر وخزنه . وللانجليز خزانات تسع أربعين مليون لتر ولا خوف على الحامية العسكرية والأهالى من الحملات الجوية ، لأنهم يختبئون فى الملاجىء الصخرية التى حفرت فى الجبل فى أثناء حصاره من ١٧٧٩ إلى ١٧٨٣

قال الأسبانى فلوريدا بانكا عام ١٧٨٣ : « إن جبل طارق شوكة فى جنب أسبانيا ، ولن تجمع الشعبين الأسبانى والإنجليزى صداقة حقيقية ما لم تنزع هذه الشوكة »

هتلر واليهود

بعث المراسل الأسوجى سلفيج إلى « ذى داى » الأمريكية بالمعلومات التالية :

« إن الألغام المغناطيسية التى علق عليها الألمان الآمال الكبيرة فى بداءة الحرب قد اخترعها فى أواخر الحرب الماضية بعض علماء الكيمياء من يهود ألمانيا وقدموا إلى أركان الحرب الألمانية يومئذ سر اختراعهم فاحتفظت به وضمنته إلى الوثائق السرية فى وزارة الحرب الألمانية . ولما سيطر النازيون على ألمانيا كشفوا ذلك السر فى جملة ما كشفوه وابتدأوا قبل نشوب الحرب الحالية يصنعون مقادير كبيرة من تلك الألغام . ولكن مصيرها كان الإخفاق لأن مخترعها وأمثالهم من اليهود كانوا قد طردوا من ألمانيا ولجأوا إلى انكلترا حيث عكفوا على اختراع الوسائل للوقاية منها

إن النازيين عرفوا — ولكن بعد فوات الوقت — أن البيض ينقطع بعد قتل الدجاجة ؛ ولكنهم لم يقتلوا الدجاجة بل رموها فى يد العدو . وقد أدركوا خطأهم بعد وقوع الحرب ، وعند ما شعروا بحاجتهم إليها . ولهذا أوفدوا بعض دهاتهم إلى كل الأنحاء الأوربية لاسترضاء رجال العلم والاختصاص من أولئك المطرودين لكى يعودوا إلى ألمانيا ولكنهم أخفقوا . وقد تمكنوا فى البرتغال من إقناع ٢٣٣ طريداً كلهم من العلماء والأطباء والاختصاصيين بعد ما أغروهم بالوعود وأكدوا لهم أن اضطهاد اليهود فى ألمانيا قد بطل ، وأنه فى كل المعامل الألمانية قد ألصقت نشرات تنوه بنبالة العنصر اليهودى وبتحدره من أصل شريف ، وأعدوا لهم مركباً أسبانياً ينقلهم إلى أسوج ومنها إلى ألمانيا ؛ ولكن عمال انكلترا السريين وزعماء الجالية الإسرائيلية فى البورتغال أفسدوا هذه الخطة . وسافر المركب ، إلا أنه اتجه إلى ناحية من نواحى الباسفيكى بدلاً من أن يتجه إلى أسوج !

كان فى معامل كروب قبل أن يستولى هتلر على الحكم نحو عشرين ألف ميكانيكى يهودى ؛ أما اليوم فلا يبلغ عددهم الخمسين ؛ وقد جلب الألمان ثلاثين ألف عامل إيطالى ليحلوا محل أولئك المطرودين . غير أن مناخ ألمانيا الشمالية لم يلائم العمال الإيطاليين فعاد أكثرهم إلى وطنه

إن مختبرات انكلترا الفنية ملأى اليوم برجال الاختصاص

من اليهود المطرودين ؛ والذى أعلنه أن فى مدينة واحدة بانكلترا ١٦٥ شخصاً من يهود النمسا والتشيك وألمانيا وبينهم علماء مشهورون واختصاصيون من الطراز الأول يعرفون جيداً كل أسرار الصناعة الألمانية (العصبة)

ازدهار الفكر وبطش المسيطر

ربما كان من الأسباب التى جعلت بعض الأساتذة ينكرون ازدهار الفكر فى عهد الأمان والاستقرار — أى عهد انتظام أمور الدولة وقوة حكومتها واتساع نطاق تجارتها — أن الحكومات القوية فى تلك العهود كان يخشى بطشها بالفكر، لكنا إذا رجعنا إلى التاريخ، وجدنا أن الفكر فى تلك العهود كان يستفحل ويستفرخ وينمو نمو النبات فى المنطقة الخصبة الحارة، فلم يؤثر فيه ذلك البطش مهما اشتد بأس الحكومات، فكان نموه أشبه بنمو نبات البردى فى مناقع النيل قرب منبعه، فإذا قطع بعضه، عوضت سرعة النمو وغزارته أكثر مما قطع. على أن تلك الحكومات القوية، كثيراً ما كانت ترعى المفكرين رعايتها، فإذا عادت مفكراً كانت المعاداة بسبب وشاية شخصية أو عداوة سياسية، أو تظاهر بإرواء الذمة أمام الجمهور المعادى له

وهذه كانت حالات مفردة يعوض نمو الفكر الغزير فى تلك العهود عما يكون فيها من فقد. على أن كثيراً من الحكام ذوى البأس والشدة كانوا يفاخر بعضهم بعضاً برعاية العلماء والمفكرين والفلاسفة، حتى صارت تلك الرعاية عدوى أشبه بعدوى أزياء الثياب، وقلما يستطيع أحد أن يتخلف عن الزى الشائع فى الثياب إذا كان يريد الظهور، فكانت رعاية صاحب البطش وعنايته بالمفكرين إما لأنه كان حاكما مثقفاً، وبعض هؤلاء الحكام كانوا على شىء كثير من الثقافة، وإما لأنه رأى الثقافة زيًا يتباهى به فكان صنيع هذا كصنيع الأثرياء الجهال الذين أغنتهم الحرب الكبرى الماضية فى أوربا، فقد كانوا يجمعون الكتب والصور والآثار العلمية والفنية، فينتفع بها غيرهم وإن لم ينتفعوا بها. وكل هذه الأسباب المختلفة توضح أسباب نمو الفكر فى عهود الأمان والاستقرار والحكومات القوية الباطشة. وإذا تدبرنا حقائق التاريخ، وجدنا أن بطش الحكام بالفكر قلما كان ينجح إلا إذا كان هذا البطش بالفكر مبدأ وطنياً شعبياً، كما حدث فى أسبانيا بعد سقوط دولة العرب فيها وقيام دولة الأسبان المسيحية، فلم يكن البطش بالفكر فى عهد شارل الخامس وفيليب الثانى خطة الحاكم وحده، وإنما كان يريده الشعب كخطة وطنية دينية، وهذا كان سبب تدهور أسبانيا. أما عهود الفوضى، فكما أن الحكام فيها أضعف من أن يبطشوا بالفكر، فهم كانوا أيضاً أضعف من أن يحموه، وفى تلك العهود يكون كل ذى عصبية صغيرة صائلاً باطشاً فينشأ اضمحلال الفكر. أنظر إلى عهد النزاع بين الوالى العثمانى وسناجق المماليك، وبين كل أمير وأمير؛ وانظر إلى عهد الفوضى فى تاريخ مصر القديم بعد الأسرة السادسة وبعد الأسرة الثانية عشرة (ع . س)

مؤلف كتاب سحر العيون :

قرأت فى بعض أعداد «الثقافة» فصلاً دبجته براعة الأستاذ أحمد أمين بك يدور حول ما جاء فى كتاب «سحر العيون» من بحوث وتقسيمات

وقد ظن الأستاذ أن مؤلف هذا الكتاب مصرى استناداً على ما ورد فى الكتاب المذكور من أمثال عامية مصرية وغيرها

وأنا أقول: إن مؤلف هذا الكتاب دمشقى لا مصرى، وهو من أدباء القرن التاسع الهجرى عاش حوالى سنة ٨٤٢؛ والدليل على ذلك ما ورد فى الكتاب المذكور :

قول المؤلف (ص ٢٩٨) : بلدينا العلاى الميثانى الدمشقى مواليا (الأبيات)

وقوله (ص ٣٠٣) : بلدينا الشيخ عبدالله الأرموى الدمشقى

وقوله (ص ٣٠٨) : نقلت من خط القاضى زين الدين عبد الرحمن بن الخراط (وهذه الأسرة دمشقية مشهورة)

وقوله (ص ٣١٢) : أنشدنى المرحوم الجناب العالى سرى الدين بن الذهبى من أعيان كتاب الإنشاء الشريف بدمشق فى غلام نشابى (الأبيات)

وقوله (ص ٣١٦) : الرشيد عبد الرحمن بن بدر النابلسى وفاته فى سنة تسع عشرة وستمائة، ودفن بتربة باب الصغير، (وهذا المدفن مشهور فى دمشق)

هذا، وقد ورد فى الكتاب المذكور عدد غير قليل من الأسماء الدالة على أسر دمشقية شهيرة: كالعطار والسبكى والخراط والنابلسى وغيرها

أرجو إثبات هذه الملاحظات ولكم الشكر

«دمشق» يحيى الشهابى

من الشعر المنسي لحافظ

بعث المرحوم حافظ بك إبراهيم إلى صديقه الشاعر الناثر مصطفى صادق الرافعي طيب الله ثراه بهذه الأبيات :

قد قرأنا نظيمكم فرأينا حكمة كهلة وشعراً فتيا
وتلونا نثيركم فشهدنا كاتباً بارع اليراع سريا
خاطر يسبق العيون إلى القلب ويطوى منازل البرق طيا
ومعان كأنها الروح في الصيف تهز النفوس هز الحميا
من بنات الحجار يصبو إليها تاج كسرى وتشتهيها الثريا
إيه يا رافعي أحسنت حتى لا أرى محسناً بجنبيك شيا
أنت والله شاعر حضري إن عدوناك شاعراً بدويا

عبد القادر محمود الدسوقي

دخول أل على غير

لم يوجد في معاجم اللغة العربية ولا في كتب النحو ما يؤخذ منه جواز دخول (أل) على كلمة غير . وقد قال الصبان في باب الإضافة صفحة ١٦٢ ج ٢ ما نصه : « ونقل الشنواني عن السيد أنه صرح في حواشي الكشاف بأن غيراً لا تدخل عليها (أل) إلا في كلام المولدين » اهـ . وتوضيح ذلك أن العلماء طراً نصوا على أن غيراً إسم ملازم للاضافة في المعنى ، ولا يقطع عنها إلا إن فهم المعنى وتقدمت عليها ليس مثل قبضت عشرة ليس غير . ويجوز ليس غيراً وليس غير . فالأول على البناء ، والثاني على أنها معربة ؛ ويجوز ليس غيرها بالإضافة اللفظية . أنظر الصبان والتوضيح والمغنى وقاموس المحيط . وهناك قول بأن غيراً يقل إبهامها إذا وقعت بين ضدين مثل قوله تعالى : « أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم » . ويقال : رأيت الصعب غير الهين ، ومررت بالكريم غير البخيل

والشائع الذائع في كلام العرب أن غير حين تستعمل تكون متوغلة في الإبهام . والشأن في مثلها ألا يتعرف بأي معرف ؛ غير أن بعض أمثلة من كلام العرب ورد فيها دخول (أل) على كلمة غير حيث يريدون بذلك غيراً معيناً ، فهي بهذا قد خرجت من أصلها فبقى قولنا بأن (أل) لا تدخل على غير سليما حيث تكون متوغلة في الإبهام، وذلك مثل : جاء اليوم غيرك، هذا الغير تناول من طعام الغداء

أحمد حلمي العباسي
بجريدة الوفد المصري



كتب قيمة

فى تاريخ الأخلاق ، الرسالة للإمام الشافعى ، امتاع الأسماع

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

فى تاريخ الأخلاق

يعجبنى من الأستاذ الشيخ محمد يوسف موسى المدرس بكلية أصول الدين توفره على العلم وإكبابه على الدرس وشغفه بالمطالعة ، وهو يجمع إلى ذلك حركة المصلح المجدد وحطوة العاقل المتزن . وقد ذكره أستاذنا الجليل الزيات مع جماعة من شباب الأزهر العلماء الذين يرجى الخير فيهم وتعلق الآمال عليهم . وفى السيد الزيات فراسة لا تخطئ واستكناه لا يكذب

وقد أخرج الأستاذ كتاباً « فى تاريخ الأخلاق » لم يمل فيه إلى أن يكون جمعاً صرفاً ، وإنما هو دراسات صغيرة مختصرة لتطور مسائل هـذا العلم وتعدد مذاهبه والموازنة بين مذهب ومذهب ، وفكرة وفكرة

وليس عجيباً أن يقف اليوم شيخ من شيوخ الأزهر ، يعرض المسائل الأخلاقية المتصلة بالفلسفة فى القديم والحديث ، وفى الشرق والغرب ، فيبسطها بسطاً ويصورها تصويراً يدلان على الفهم والهضم ، لا على الحفظ (والصم)

ليس عجيباً ذلك ، فقد تغيرت اليوم طريقة الأزهر فى العلم وتغيرت نظرته إلى الحياة ، وسبيله إلى المعرفة ؛ وأصبحنا نقرأ لفضيلة الأستـاذ الـكبير الشيخ محمود شلتوت وكيل كلية الشريعة بحثاً فى (القرآن والمسلمين) يحمل مع خلوص النية ، وصدق الطوية جرأة فى الدعوة ، وصرامة فى النقد ، واستقامة فى القصد . وصرنا نقرأ للأستـاذ العالم الشيخ محمد محمد المدنى مقالاً (فى الإسلام بين السلف والخلف) فنرى فيه الغيرة على الدين ، والوضاحة فى العقيدة ، والشجاعة فى قوله الحق ، من غير خوف من تأويل مؤول

الحق أن فى الأزهر نهضة تستمد عناصرها من حرية شيوخه ويقظة علمائه ، يقظة يودعون بها إغفاءة العهد القديم .

الرسالة للإمام الشافعى

الرسالة للامام المطلبي محمد بن إدريس الشافعى كتاب يقع فى ٦٧٠ صفحة من القطع الكبير ، قام بتحقيقه وشرحه الأستاذ الفاضل الشيخ أحمد محمد شاكر القاضى الشرعى .

وجرى فى ذلك مجرى لم يقف عند الشرح والتحقيق ، بل اقتضى إخراج ذلك الـكتاب على الصورة الـكاملة التى خرج عليها جهداً متصلاً ، وصبراً طويلاً ، وبصيرة فى الفقه الإسلامى ، وإحاطة بالتشريع ، وذوقاً فى الأدب ، وأصالة فى اللغة ، وتمكناً فى التاريخ

والحق أنى ما قلبت صفحة من ذلك الكتاب إلا عجبت من صبر الأستاذ على البحث ، وسرعة تقصيه للمسائل ، وتنبهه للأصول ، وكثرة رجوعه للمظان وغير المظان ، مما دل على اطلاع واسع وإلمام تام

وقد يكون إخراج كتاب قديم عملاً هيناً ، وأمراً غير إدٌ عند من لا يرقبون أمانة العلم ، ولا يخشون حرمة الحق . وغرضهم من ذلك أن يطلعوا على السوق بعمل عملوه ، ولو كان ناقصاً غير كامل ، ومعيباً غير سالم

أما الأستاذ الشيخ أحمد شاكر فبعيد من ذلك كله ؛ فإذا عمل فلله ، وإذا حقق فللعلم ، وإذا أكب فهو موف على الغاية ومشرف على النهاية ، لا يثنيه عن ذلك صعوبة بحث أو إعنات درس

ويظهر فى الـكتاب مزية الإخراج العلمى الحـديث . ففى الأول : مقدمة وافية عن الرسالة وقيمتها وقيمة الشافعى ، ونسخ الـكتاب المخطوطة والمطبوعة ، وأصل الربيع صاحب الشافعى وكاتب رسالته ، ووصف النسخة التى رجع إليها الشارح وذكر أصحابها ، ووصف نسخة ابن جماعة . ويلى المقدمة باب السماعات التى رتبها الشارح وحذف المـكرر منها ، ووضع لها فهرساً مرتباً على حروف المعجم

ويلى ذلك الرسالة وقد زينت بحواش مفيدة وتعليقات طيبة ؛ ويلى ذلك جريدة المراجع التى استعان بها الشارح ورجع إليها ،

ويمتاز عن كل ما رأينا من جرائد المراجع بحسن تنسيقها وذكر أجزاء الكتاب ، واسم المؤلف ووفاته ، وتاريخ طبع الكتاب ومكان طبعه

ويمتاز هذا الكتاب بكثرة مفاتيحه التي تسهل على القارئ الرجوع إليه في أوجز وقت ، كما أن فيه فهرساً للفوائد اللغوية التي استنبطت من استدلالات الشافعي ؛ وإن كنت لا أذهب مع فضيلة الشارح فيما رأى من وجوه لا أردها إلى علم الشافعي وجنحه إلى الضعيف من الأقوال والردئ من اللغات ، ولكني أردها إلى خطأ في النسخ ، ولو حاول فضيلته أن يبرئ الكتاب من الخطأ

امتاع الاسماع

إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع : المقريزي هو مؤلف هذا الكتاب ، والأستاذ محمود محمد شاكر هو مصححه وشارحه ، والسيدة قوت القلوب الدمرداشية هي القائمة بنفقات طبعه ، ولجنة التأليف والترجمة والنشر هي المشرفة على إخراجه . فالكتاب مجدود من كل ناحية ، ومحظوظ من كل وجه .

وقد تفضل الأستاذ أحمد أمين بك عميد كلية الآداب بتقديم الكتاب في بضعة أسطر لم تخرج عن أن تكون شكراً للسيدة المتبرعة ، ولم يعودنا الأستاذ الكبير هذا الاختصار في التقديم ، والإيجاز في التصدير .

وحبذا لو كان حدثنا عن الكتاب وقيمته بين كتب السيرة للمتأخرين وطريقة المقريزي فيه ؛ والنسخ المخطوطة والمطبوعة لهذا الكتاب ، والأصل الذي رجع إليه شارحه ، كما عودنا حضرته ذلك في الكتب التي تولى القيام عليها وأحسن التمهيد لها

وللأستاذ محمود محمد شاكر فضل تصحيح هذا الكتاب القيم ومراجعته على الأصل تارة ، وعلى أصول الحديث والتاريخ تارة أخرى ، وهو فضل يتجلى في الهوامش الكثيرة التي لا تكاد تخلو منها صفحة واحدة ، والتي تدل على موفور اطلاع وواسع قراءة ومصفى ذوق عرف عن شاكر الأديب اللبيب

وليأذن لي الأخ الفاضل مصحح إمتاع الأسماع وشارحه بإبداء الملحوظات الآتية :

١ — في صفحة ٢٢٢ كلام على هيئة الرجز لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعمل في الخندق يوم الوقعة ونصه كما ورد في الامتاع :

اللهم لولا أنت ما اهتدَينا ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا
فأنزلَنْ سكينةً علينا وثبِّت الأقدام إن لاقينا

وزاد صديقنا الشارح البيت الآتي عن البخاري حـ ٥ ص ١١٠

إن الأُلى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبَيْنا

والأستاذ شاكر شاعر وعروضي ؛ فكيف فاته أن صواب البيت الأول :

(لاهُمَّ لولا أنت ما اهتدينا) ونداء اسم الجلالة بهذا الشكل وارد في كتب العرب . وكيف فاته أن البيت الثالث صوابه هكذا :

(إن الأُلى لقد بغوا علينا) أو (إن الذين قد بغوا علينا) ليستقيم الوزن الرجزي الذي كثيراً ما سمع عن رسول الله في الغزوات كقوله :

هل أنتِ ألا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيتِ

٢ — في صفحة ٢٢٤ (وما منهم ألا ابن خمس عشرة سنة) بكسرة على السين في خمس وهو خطأ مطبعي

٣ — وفي الصفحة نفسها (وكان المسلمون يومئذ ثلاثة آلاف) برفع ثلاثة والصحيح نصبها

٤ — في صفحة ٢٤٨ (رفاعة بن سموأل) وقد حذف ألف ابن مع وقوعها في أول السطر ، والصحيح إثباتها جرياً على المشهور من قواعد الإملاء . وقد كرر هذا الوهم نفسه في صفحة ٢٥٠ ـ إلا أنه تجُنِّب في بقية الصفحات

٥ — في صفحة ٢٩٧ (لجمل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخُنفضهم) . والضمة على الخاء لا محل لها هنا والصواب جعلها فتحة

٦ — في صفحة ٣٢٩ (واستشهد بخيبر خمسةُ عشر رجلاً) بضمة على التاء المربوطة من خمسة والصواب فتحها لبناء هذا العدد على فتح الجزأين

٧ — في صفحة ٤٠١ (من هوَزان) وقد زادها الشارح للبيان . ولعلها (هوزان)

وبعد : فهذه هنوات لا تقلل من قيمة المجهود الذي بذله الأخ الكريم الأستاذ محمود شاكر في إمتاع الأسماع . ولعلها وردت ليصح قول القائل :

ما كان أحوج ذا الكمال إلى عيب يوقِّيه من العين

محمد عبد الغني حسن

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)



9me Année No. 413

Lundi - 2 - 6 - 1941

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٤١٣ « القاهرة في يوم الاثنين ٧ جمادى الأولى سنة ١٣٦٠ — الموافق ٢ يونية سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــرس

المـــال

للأستاذ عباس محمود العقاد

قال الدكتور زكي مبارك في حديثه عن الفقر والغنى ، ولا نهاية لحديث الفقر والغنى ، ولا الفقر والغنى ينتهيان من الدنيا :

« ... لن أقول كلمة في الوارثين بحجة أنهم يرزقون بلا كد ولا اجتهاد ، فلو عطل نظام الميراث لانعدم النشاط الإنساني بعض الانعدام ، ولآثر الناس جميعاً أن تكون جهودهم مقصورة على كسب القوت من يوم إلى يوم . ولو قلنا الحق كل الحق لصرحنا بأن الميراث هو أجمل نظام عرفته الإنسانية ، فهو الشاهد على أن الجهاد في طلب الرزق لا يضيع ، وأنه قد يصل إلى الأعقاب وأعقاب الأعقاب ، وذلك أقوى حافز لتأريث عزائم الرجال »

ورأيي في الميراث أنه حق وعدل ، وأن المذاهب الاجتماعية التي تحرمه تجور على الآباء والأبناء ، ولا تتحرى سنن الطبيعة فيما جرت عليه بين جميع الأحياء ، لأن المجتمع لا يستطيع أن يحول بين الأب وبين توريث أبنائه ما اشتمل عليه من عيوب الخلق والفكر ومن دمامة الوجه وشوه الجسم وضعف التركيب ؛ فليس من العدل أن يحول بينه وبين توريثهم الخير أو نصيباً من الخير ، وإن كان عدلاً أن تفرض للمجتمع حصة وافية من ذلك النصيب .

كذلك تجرى الطبيعة على سنة الوراثة فى جميع السلالات ، وهى سنة أعرق من المجتمعات الإنسانية وغير الإنسانية ، ولم تنشأ عبثاً ليلغيها الإنسان كل الإلغاء بقانون أو نظام

لكننى أخالف الدكتور فى قوله إن الميراث لو عطل « لآثر الناس جميعاً أن تكون مقصورة على كسب القوت من يوم إلى يوم . . . »

فإن طلب المال كطلب العلم فطرة لا تتوقف على التوريث ولا على ما يعقبه الآباء للأبناء ، وقد يهمل الإنسان رزقه ورزق أبنائه ليتابع الدرس ويتقصى مسألة من مسائل العلم والمعرفة ، وهو على يقين أنه لن يخلف لأبنائه زاداً من علومه ودروسه إلا مايخلف الملدون للمتعلمين ، وقد يفوتهم منه حتى هذا النصيب

وبين طلاب المال من بلغ أرذل العمر وليس له عقب ولا هو ممن يبسطون الكف بالإنفاق فيخشى نفاد ماله الكثير ، ومنهم من لو بسط يده بالإنفاق عشرات السنين لما خشى على ماله النفاد

أعرف رجلاً له نظراء كثيرون كان يملك القصور ويدخر الأموال فى المصارف ، وله معاش لا ينقطع من خزانة الحكومة ، وهو مع هذا يبخل على نفسه بالقليل ويعيش معيشة الفقراء ، ويراه الحوذية فى الطريق فيهربون منه لأنه يأبى أن ينقدهم الأجر إلا على حساب ما تعود قبل أربعين أو خمسين سنة يوم كان للمليم سعر القرش فى هذه الأيام . وأعجب العجب أن هذا الرجل الشحيح كان مجدوداً فى أوراق المصارف التى يناط بها النصيب فكان يربح جوائزها الأولى من حين إلى حين . وحدث مرة أن وكيله تسلم جائزة من هذه الجوائز وأخر إيداعها المصرف الذى يعاملونه بضعة أيام ، فلما راجع الغنى الشحيح حسابه قطع أرباح الجائزة فى هذه الأيام القليلة من مرتب الوكيل المسكين ، وهو شىء يبذله من يربح مثل هذه الجائزة هبة لمن يحمل إليه بشارتها ولا يندم عليه

ولم يكن لهذا الرجل عقب ولا كان له مطمع فى العيش الطويل بعد السن التى ارتفع إليها ، ولكنه يطلب المال لأن طلب المال شهوة لا يشترط أن تتعلق بالإنفاق والتوريث

ولو نظر الناس إلى الواقع فى أمر الورثة لما حرصوا على ترك المال بعدهم للأبناء والأحفاد ؛ فإن أبناء الفقراء الذين عاشوا فى الدنيا عيشة راضية بغير ميراث يملئون أضعاف الوارثين عدة سواء ورثوا الكثير أو القليل ، وأن الذين أشقاهم الميراث لايقلون عن الذين سعدوا به وحفظوه أو زادوا عليه ، وأن الذين يموتون وهم خائفون من تبديد أبنائهم لتروتهم أكثر جداً من الذين يموتون وهم مطمئنون إلى حسن التصرف ودوام الحال

كان العلامة يعقوب صروف طيب الله ثراه يوصينى كلما لقيته أن أدخر وأن أحسب حساب المال والثراء ، وكأنه أنس منى التوانى فى الإصغاء إلى هذه النصيحة فروى لى حديثاً جرى بينه وبين تاجر من كبار التجار السوريين المصابيين رآه مشغول البال معنى بما يخشاه على ثروته وأبنائه بعد موته من تقسيم وبوار . قال : وهكذا الدنيا دواليك بين جيل عصامى يجمع ، وجيل عظامى يضيع ما جمعه الآباء ، ويأتى بالمعذرة لمن يتركون الأبناء فقراء ناشطين فى طلب الجاه والثراء

قال العلامة صروف : ومنذ أيام طرق علينا الباب أبناء صاحب من أصحابنا مات فجأة وليس فى الدار ما يشيعونه به إلى لحده ؛ وكان هذا الصاحب مفراحاً ، يأكل ما يشتهى ، ويلبس الفاخر من الثياب ، ويطعم أبناءه أحسن مطعم ، ويكسوهم أجمل كسوة ، ويقضى سهراته بينهم ضاحكا متهللاً على صينية من الحلوى أو الفاكهة ، وهو لايشغل باله لحظة بما يكون ، ولا يبالى بعد موته ما يأكلون ويشربون . فأى الأبوين أسعد ؟ وأى الأبناء أحظى بحسن المصير ؟

وهذا السؤال الذى سأله الدكتور صروف سيظل أبد الزمان مسئولاً يجيبه من يشاء كما يشاء ؛ ولكنه جواب لن يجعل المفراح مشغولاً بتوريث أبنائه ، ولا المشغول بتوريث الأبناء مفراحاً ينعم بالحاضر ولا يمنى نفسه بالغيب المجهول

خديعةٌ من خدائع النفس أن تملل حرصها على المال بحب الأبناء ، ولو كان حبٌ مانعاً أن ينفق الإنسان كل ما عنده لكان حبه لنفسه وخوفه على غده أحرى أن يمنعه ويقبض يديه ، ولكنها خديعة النفس كما نقول تتراءى لها فى مختلف الذرائع والتعلات

إنما تفسر أعمال الإنسان بالبواعث والدوافع قبل أن تفسر بالنتائج والغايات . وإذا قيل لنا إن فلاناً يجمع المال لأنه يخاف عاقبة الفقر ، قلنا : ولماذا يخاف هذه العاقبة التى لا يخافها غيره ؟ ! إنه لا يخالف غيره إلا لاختلاف البواعث النفسية دون

الاختلاف في الغايات التي قد يتفقون عليها من جانب التأمل والتفكير

المال يطلبه الإنسان لباعث قبل أن يطلبه لغاية ، ومن بواعث طلبه الخوف والمنافسة والطموح وحب الكسب للكسب كما يفرح اللاعب بالرهان الذي ليس من ورائه طائل ، وهنا موضع التحذير للمصلحين الذين يعالجون مسألة الغنى والفقر على أساس الأرقام والقواعد الاقتصادية ويغفلون علاجها على أساس الشعور والبواعث النفسية . فأنت إذا أعطيت الفارس قصبة السبق قبل دخوله الميدان لم ترحه ولم تعطه ما يريد ؛ وإذا منعت المتنافسين أن يتنافسوا لأنك ضمنت الرزق لأبنائهم أو ضمنت الأمان لهم في عقباهم لم تستأصل أسباب التنافس ولم تعطهم الحياة التي جعلتهم يتنافسون

إنما الواجب أن ندع الناس يطلبون المال كما يطلبون العلم أو يطلبون الجاه أو يطلبون السرور أو يطلبون الفرص النادرة والمقاحم المجهولة ، وليس علينا أن نسألهم لماذا يطلبونه ، وإنما علينا أن نمنعهم إنفاقه فيما يضير الآخرين ، فغاية ما يحق للمجتمع في هذا الصدد أن يحرم الغش والجور وتخويل أناس بغير حق ما يحرمه غيرهم من العاملين

كان أوليفر لودج عالماً رياضياً من الطراز الأول ، وكانت له بحوث مشهورة في مخاطبة الأرواح وما وراء المادة ، وربما انصرف أحياناً من الرياضيات والروحيات إلى المباحث الاجتماعية وشئون الثروة والسياسة ، ولكنه كان يأتي فيها إذا انصرف إليها بمقطع الرأي وفصل الخطاب ، لأنه بعيد من الهوى والتشيع لهذا المذهب أو ذاك ... فمن نصائحه في هذا الباب أن تتولى الدولة مراقبة المال كما تتولى مراقبة السلاح ، لأن الخطر من سوء استخدام المال لا يقل عن الخطر من سوء استخدام السلاح ، وربما ظهرت جريمة السلاح بعد اقترافها بقليل ولقي صاحبها من الجزاء ما فيه عبرة لغيره ؛ أما جريمة المال فقد ينقضي العمر وهي خافية ؛ وقد يقترفها أناس بعيدون من الشبهات لأنهم ليسوا من حثالة الخلق الذين يعتدون بالخناجر والمسدسات

فإذا وجبت مراقبة المال في أيدي المسيطرين به على سواد الناس ، فمن الواجب أن تكون الرقابة على النحو الذي قصد إليه الرياضي الكبير ، ولا سيما في العصر الذي أصبح المال فيه مرادفاً لمعنى الثقة والائتمان . فلا يجوز في هذا العصر أن توضع الثقة الاجتماعية في أيدي أناس يعبثون بها جهرة أو خفية ، ولا يجوز إذا هي وضعت في بعض الأيدي أن تترك هملاً بغير رقابة أو حيطة أو بغير علم بما تتجه إليه وتجري فيه

وهنا نسأل : ما هي حدود الرقابة الاجتماعية على سيطرة الأموال في أيدي الأفراد أو الجماعات التي تسوس أموال الأفراد؟

وجواب هذا السؤال أن الرقابة الوحيدة الممنوعة هي الرقابة التي تشل الدوافع النفسية والبواعث الحيوية وتخرجها في نظامها مخرج الجهود الآلية والأرقام الحسابية ، فإن المجتمع الإنساني لن يكسب شيئاً من تنظيمه النفوس تنظيم الآلات التي تتحرك بأمر وتسكن بأمر ولا تتخطى ما يرسم لها من الخطوط والغايات

فللمجتمع أن يراقب المال وأن يأخذ نصيبه منه للمصلحة الاجتماعية التي يشترك فيها الأغنياء والفقراء ، ولكن ليس للمجتمع أن يمسخ الطبيعة ويجور على حركات النفوس وبواعث الحياة ، لأنه يتعرض بالقوانين لأمر لم تخلقه القوانين ، ويأخذ ما ليس في وسعه أن يرده أو يعوضه بمثله

عباس محمود العقاد

أشعار ابن النحاس

للدكتور زكي مبارك

حياة ابن النحاس — الحياة بلا عمل تحجب الأديب من فهم الجوانب الجدية من الحياة — تأثير الأفيون في هدم ابن النحاس ، وكان في صباه أجمل ما رأت العيون — أشعاره في البكاء على جماله الذاهب — أيامه في دمشق والقاهرة والمدينة — قصائده الباقيات — أشعاره في « شرب الدخان » — شعوره بالمعاني المنقولة عن القدماء

١ — فتحُ الله بن النحاس شاعرٌ نشأ في حلب في أواخر القرن العاشر أو أوائل القرن الحادي عشر ، فقد سكتت المصادر عن العام الذي وُلد فيه ، واكتفت بالنص على أنه مات بالمدينة ليلة الخميس ثاني عشر صَفر من شهور سنة اثنتين وخمسين وألف

٢ — وسكتت المصادر أيضاً عن حياته العملية ، فلم نعرف كيف كان يعيش [1] ، ولكنا فهمنا من سياق القول أنه أقام مدة في حلب ، ومدة في دمشق ، ومدة في القاهرة ، ومدة في المدينة ؛ فعرفنا أنه شاعر لم تكن تربطه ببلده أو غير بلده رابطة معاشية ، ولذلك تأثيرٌ في صبغ وجوده بصبغة الرجل الهائم في بيداء الوجود

٣ — والواقع أن هذه الحال كانت مألوفة في حيوات الشعراء ، ولكن ابن النحاس فيما يظهر أسرف في اعتزال الناس والبعد عن طلب المعاش ، لينجو بنفسه من آثام الخلق ، وليعفي كاهله من حمل أثقال العيش المنظَّم ، وهي أثقال لا يتصدى لحملها غير أقوياء الرجال ، ولهذا رأيناه يتزيا بزيّ الزهاد ويعيش عيش الدراويش من الفقراء مع الترفع عن قبول الإحسان ؛ فقد كانت لهذا الرجل فِطرة سليمة تصده صدًّا عن المكسب الرخيص ، وتسوقه إلى صف المتعففين من أتباع التصوف الصحيح

٤ — فكيف كانت البداية وكيف كانت النهاية لهذا الشاعر الرقيق ؟

كان ابن النحاس في صباه غاية في روعة الجمال ، وكانت صباحة وجهه أعجوبة الأعاجيب ؛ فكان معاصروه يتوهمون أنه لم يُخلق إلا ليكون دُمْيةً في قصر ، أو زهرة في بستان ، ولكنه صان نفسه عن مواطن الشبهات ، فاعتزل الناس ليسلم شبابه وجماله من إفك القال والقيل في زمنٍ لا يسلم فيه أهل الجمال من بغي الأقاويل والأراجيف

نجا ابن النحاس من شر معاصريه فصار مثالاً للجمال المصون ، ولكنه لم ينج من شر نفسه ، والنفس في بعض الأحيان أعدى الأعداء !

فماذا صنع بنفسه ، أو ماذا صنعت به نفسه ، حتى نزل من الشرف إلى الحضيض ؟

أقبل ابن النحاس على تعاطي « الكيف » ، والكيف الذي كان يتعاطاه هو « الأفيون » ، وقد هده الأفيون في شهور أو أعوام ، فأمسى جماله طللاً من الأطلال ، ولم يكن يحسب لجهله وغفلته أن الجمال دولةٌ تدول

فإن رأيتم شاعراً يبكي شبابه الذي ضاع ، فاعرفوا أن ابن النحاس كاد يتفرد بالبكاء على الجمال الذي ضاع ، وما أضاع جمال هذا الشاعر غير الابتلاء بكيف الأفيون ، وهو كيف أتى على بناء هذا الشاب الجميل من الأساس ، ولننظر كيف يقول :

من يدخل الأفيون بيت لهاته ... فليلق بين يديه نقد حياته
وإذا سمعتم بامرئ شرب الردى ... عزّوه بعد حياته بمماته
ما شأنه وحشاه يؤوي أرقماً ... لا يستفيق الدهرَ من نفثاته

وهذا الشاعر الذي يرى الأفيون ثعباناً لا تنقطع نفثاته الفواتك على الأحشاء هو الشاعر الذي رثى صباه فقال في تصوير ماضيه لعهد الجمال ، يوم كان في مثل عمر البدر ، ويوم كانت لفتاته لفتات الظبي بين أزهار الرياض :

وتراه إن عبث النسيم بقدّه ... ينقدّ شروى الغصن في حركاته
وإذا مشى تيهاً على عشاقه ... تتقطّر الآجال من خطراته
يرنو فيفعل ما يشاء كأنما ... مَلكُ المنية صال من لحظاته
حُسْنٌ ولا كيفٌ يخالط ذاته ... والآن صار الكيف بعض صفاته
والكيف حقدٌ إن تشبث بامرئٍ ... لم يَبْقَ للرائين غير سِماته

وهو الشاعر الذي أرّخ جماله الذاهب فقال :

سقى المزنُ أقواماً بوعساء رامةٍ ... لقد قطَّعتْ بيني وبينهم السُّبْلُ
وحيّا زماناً كلما جئت طارقاً ... سليمى أجابتني إلى وصلها عجلُ

---

[1] إنما نصصنا على الحياة العملية ، لأننا نوقن بأن الأديب الذي يعيش بلا عمل تغيب عنه أشياء من معاني الحياة

تودّ ولا أصبو وتوفى ولا أفى
وأنأى ولا تنأى وأسلو ولا تسلو
إذِ الغُصنُ غضٌّ والشباب بمائه
وجيد الرضا من كل نائبة عطل
ومن خشية النار التى فوق وجنتى
تقاصرَ أن يدنو بعارضىَ النمل

فهو يرى أن نار وجنته أخافت نمال الشَّعر حيناً من الزمان فظل أمرد ، أسيل الخدين ، إلى أن ابتلته المقادير بالأفيون فأمسى جماله تاريخاً من التواريخ

والجمال حلة نفيسة يرفعها الله عمن يجهل قدرها الرفيع ، وكذلك كان حظ الشاعر الذى أضاعه الجهل بنعمة الله عليه فلم يؤد زكاة الجمال ، وهى الابتعاد عما يوهن الجسم ويشل الروح

ثم ماذا ؟ ثم رحل الشاعر عن الوطن الذى نشأ فيه وهو حلب ، بعد أن فضحه الأفيون ، الأفيون الذى أصار جماله رسماً من الرسوم وطللاً من الأطلال

٥ — وإلى أين ؟ إلى دمشق ، وهى مدينة سمعت باسمه قبل أن يحل ساحتها الفيحاء ، فأقام بها ما أقام بين أيام بيض وأيام سود ؛ فقد كان فقيراً لا يتبلغ بغير ما يجود به أهل الأدب ، وكانوا فى أغلب أحوالهم فقراء

ومن دمشق انتقل إلى القاهرة فاتصل بالسادة البكرية ، وكانوا كراماً أجاويد ، لا يشعر بينهم بالغربة رجلٌ أديب ، وكانت حفاوتهم بالأدباء الوافدين من الشام مضرب الأمثال[1]

ويظهر أن أيام ابن النحاس بالقاهرة لم تخل من رخاء ، فقد اتصل بالقضاة والأعيان ، واتصل به الأمل المعسول فدح سنجق منفلوط ، ومعنى ذلك أنه عرف كيف ينتفع بوداد المصريين ، وكانوا فى ذلك العهد يرعون حقوق الغرباء من أهل الأدب والبيان

ثم امتدت السن بالشاعر الذى كان له ماض فى الجمال فرأى أن ينتقل إلى المدينة ليعيش عيش المجاورين ، وهو عيش يليق بمن يلبس ثوب الحداد على جماله الذاهب ذهاب البرق اللامع فى أجواز السماء

وفى المدينة مات ، وقد دفن فى بقيع الفرقد ، بجوار الأكابر من رجال الأدب والدين ، فعليه رحمة الله ، وألف سلام على روحه الجميل ! !

٦ — ولكن أين مكان ابن النحاس بين الشعراء ؟

لا تظنوه شاعراً من طبقة أبى تمام أو البحترى أو المتنبى أو الشريف الرضى ، فبينه وبين أمثال هؤلاء مسافات أعرض من الصحراء

ولكنه شاعر من طبقة ابن زريق ، وما عاش ابن زريق إلا بقصيدة واحدة هى العينية التى سارت مسير الأمثال

وكذلك عاش ابن النحاس بقصيدة أو قصيدتين ، ومن لم يعرف ابن النحاس فى معانيه القلائل وهى نوادر فليس بأهل للانتساب إلى دوحة الأدب الرفيع

والذى يجهل ابن زريق وابن النحاس لا يقلّ حمقاً عن الذى يجهل ابن النبيه صاحب هذا البيت

إذا نشرتْ ذوائبه عليه ... حسبتَ الماء رفَّ عليه ظِلّ

فما فرائد ابن النحاس ؟

الفريدة الأولى هى الحائية

بات ساجى الطرف والشوق يُلحّ
والدجا إن يَمضِ جنحٌ يأتِ جُنحُ
يقـدح النجم لعينى شرراً ... ولزند الشوق فى الأحشاء قدح
لست أشكو حرب جفنى والكرى
لم يكن بينى وبين الدمع صلح
إنما حال المحبين البكا ... أىّ فضل لسحاب لا يسحّ
يا ندامای وأيامَ الصبا ... هل لنا رجع وهل للعمر فسح
صبَّحتك المزن يا دار اللوى ... كان لى فيك خلاعات وشطح
حيثُ لى شغلٌ بأجفان الظبا ... ولقلبي مرهمٌ منها وجرح
كل عيْش ينقضى ما لم يكن ... مع مليح ما لذاك العيش مِلح
وبذات الطلح لى من عالج ... وقفة أذكرها ما اخضل طلح
يوم منا الركب بالركب التقى ... وقضى حاجته الشوق الملح
لا أذمُّ العِيسَ ، للعيس يدٌ ... فى تلاقينا وللأسفار نجح
قرَّبتْ منا فما نحو فمٍ ... واعتنقنا فالتقى كشحٌ وكشح
وتزودتُ الشذى من مرشف ... بفمى منه إلى ذا اليوم نفح
وتعاهدنا على كأس اللمى ... إننى ما دمت حياً لست أصحو
يا ترى هل عند من قد ظمئوا ... إن عيشى بعدهم كدٌّ وكدح ؟

(١) لم أكن أفهم سر هذه الحفاوة حين تكلمت عن حفاوتهم بالنابلسى فى كتاب « التصوف الاسلامى » ثم عرفت أن لهم أبناء عمومة فى الشام .

كنت فى قرح النوى فانتدب ... من مشيبى كربة أخرى وقرح
كم أداوى ! القلب قلت حيلتى ... كلما داويت جرحاً سال جرح
ولكمْ أدعو ومالى سامعٌ ... فكأنى عند ما أدعو أبَحّ

وأنفاسه فى هذه الحائية تذكر بأنفاسه فى الحائية الثانية

تذكر السفح فانهلت سوافحه ... وليس يخفاك ما تخفى جوانحه
صدع الهوى ياعذولى غير ملتئم ... يدريه بالبان من أشجاه صادحه

فهذه القصيدة من ذخائر الأدب العربى ولا ينكر قيمتها إلا غافل أو جهول ، وهى مقدودة من روح الشاعر ، وليس فيها بيت إلا وهو صورة من أقباس وجده المشبوب

وهل فى الدنيا أديب عربى لا يحفظ هذا البيت :

كم أداوى القلب قلّتْ حيلتى ... كلما داويت جرحاً سال جرح

أما الفريدة الثانية فهى العينية (1)

رأى اللوم من كل الجهات فراعه ... فلا تنكروا إعراضهُ وامتناعهُ
ولا تسألونى عن فؤادى فإننى ... علمتُ يقيناً أنه قد أضاعه
له الله ظبياً كل شىء يَرُوعهُ ... وياليت عندى ما يزيل ارتياعه
وياليته لو كان من أول الهوى ... أطاع عذولى واكتفينا نزاعه
فما راشنا بالسوء إلا لسانُهُ ... وما خرب الدنيا سوى ما أشاعه
فأصبح من أهوَى على فيه قُفلة ... يُكتم خوف الشامتين انفجاعه
وآلى على أن لا أقيم بأرضه ... وأحرمنى يومَ الفراق وداعه
فرحت وسيرى خطوة والتفاتة ... إلى فائت منه أُرجى ارتجاعه
ذرعت الفلا شرقاً وغرباً لأجله ... وصيرت أخفاف المطىّ ذراعه
فلم يَبق بَرٌّ ما طويت بساطه ... ولم يبق بحرٌ ما رفعت شراعه
كأنى ضميرٌ كنت فى خاطر النوى ... أحس به واشى السُّرى فأذاعه
أخلاى من دار الهوىَ زارها الحيا ... ومد إليها صالح الغيث باعه
بعيشكم عوجوا على من أضاعنى ... وحيوه عنى ثم حيوا رباعه
وقولوا فلان أوحشتنا نِكاتهُ ... وما كان أحلى شعره وابتداعه
فتًى كان كالبنيان حولك واقفاً ... فليتك بالحسنى طلبت اندفاعه
أبحت العدا سمعاً فلا كانت العدا ... متى وجدوا خرقاً أحبوا اتساعه
فكنت كذى عبدٍ هو الرجل والعصا ... تجنَّى بلا ذنب عليه فباعه

(1) الأبيات الآتية جزء من قصيد طويل يحسن الرجوع إليه فى الديوان

لكل هوًى واش فإن مُضيع الهوى ... فلا تلم الواشى ولُم من أطاعه
وقولوا رأينا من حمدتَ افتراقه ... ولم ترنا من لم تذم اجتماعه
وما كنتما إلا يراعاً وكاتباً ... فلّ وألقى فى التراب يراعه
فإن أطرق الغضبان أو خط فى الثرى ... فقولوا فقد ألقى إليكم سماعه
وبالله كفُّوا إن تمادى فإنه ... رقيق حواشى الطبع أخشى انصداعه
وإن نصب الشكوى علىّ فسابقوا ... وقولوا : نعم ، نشكو إليك طباعه
وإن رام سبى فاحدثوا لى معايباً ... وسبا بليغاً تحسنون اختراعه
وهنوا رقيبى بالرقاد فطالما ... جعلت على جمر السهاد اضطجاعه
ولا تحسدوا ود ابن يومين عنده ... فإن حبيبى تعلمون خداعه
ودوروا على حكم الغرام فإنه ... قضى لظاه أن تهين سباعه
ضعيف الهوى من بات يشكو زمانه ... وأضعف منه من يرجّى اصطناعه
ولو علم المشتاق عقبى اتصاله ... لآثر بين العاشقين انقطاعه
ومن طلب الأحباب حرصاً على البقا ... فما رام بين الناس إلا ضياعه

فهذه القصيدة من آيات الشعر العربى . ومن غرائبها هذا البيت :

لكل هوًى واشٍ فإن مُضيِع الهوى ... فلا تلم الواشى ولُمْ من أطاعهُ

وهذا البيت :

ولو علم المشتاق عقبى اتصاله ... لآثر بين العاشقين انقطاعهُ

والقصيدة فى جملتها روحٌ مضرَّج بالدم ، وإن بدت للغافل فى صورة الحديث المعاد

٧ — ويجىء بعد ذلك مقتطفات من شعره الرقيق ؛ ولكن أين تلك المقتطفات ؟

كنت أرجو أن أجد شواهد كثيرة على شاعرية ابن النحاس مما انتثر فى أثناء قصائده من الأبيات الفرائد ؛ ثم صَعُب علىّ تحقيق ما رجوت ؛ فقد راجعتُ الديوانَ مرات ومرات ولم أظفر بما أريد

فهل يكون من الخير أن أشير إلى أن له بيتين فى « الدُّخان » لا يزال معناهما على ألسنة الناس فى مصر إلى هذا العهد ؟ ابن النحاس يقول :

وأرى التولع بالدخان وشربه عوناً لكامن لوعة الأحشاء
فأديم ذلك خوف إظهار الجوى وأشوبه بتنفس الصُّعَداء

وهو معنًى لطيف ، فهو يستر بدخان التبغ دخان القلب ، حتى لا يفتضح بين الرقباء

وقد يداوي ناراً بنار ، كأن يقول :

عكفت على شرب الدخان وفي الحشا
لهيب جوًى فازددت جمراً على جمر
وقلت أداوي نار قلبي بمثلها «كما يتداوى شارب الخمر بالخمر»

وكان التدخين في تلك الأيام مما يعاب ؛ فقد كان مفهوماً عند أهل مصر أنه من أهواء العبيد . ولهذا شواهد قد نرجع إلى سردها بعد حين !

٨ – أين شاعرية ابن النحاس بعد الحائية والعينية ؟ أين ؟ أين ؟

لم يرضني شعر ابن النحاس من الوجهة الفنية ، ولكني مع ذلك أجده شاعراً في جميع معانيه ، وإن كان أكثرها منقولاً عن الشعراء القدماء ؛ فهو في رأيي يعني ما يقول ، وإن ضعف عن مقارعة الفحول

تلك ومضة من الشاعرية تألقت حيناً ثم خَبَت ، كما تألق جمال صاحبها لحظة ثم خبا ، وقد حقّت في هذا الشاعر كلمته في مصيره فأصبح تاريخاً من التواريخ ، وهل من القليل أن يمسي الرجل وله تاريخ ؟ !

٩ – على أن من الظلم أن نحكم بأن ابن النحاس لم يجد في غير الحائية والعينية ، وكيف وهو صاحب هذا القصيد :

عطفَ الغصنُ الرطيبُ وتـلافانا الحبيب
أضمر الدهر لنا الصُّلـح فلم يبق غضوب
زار والعرْف له من نفَس الصبح هبوب
يظهر البثَّ وأولى منه بالبث الكثيب
كل عضوٍ منه في الحسن عن الوجه ينوب
أيُّ عضو تسرح الألحاظ فيه وتؤوب
أنا والقلبُ إذا لا حَ سليبٌ وكسيب
بأبي جفنة وصلٍ منه ما فيها لغوب
بات يدعوني بها طوراً وطوراً يستجيب
والنقل نقلٌ ومن ند ماننا كأسٌ وكوب
أيها العشاق محزو نُ الهوى مني طروبُ
أيُّ وقتٍ ليس تنشق قلوبٌ وجيوبُ
إنما يمرح بي في لجة العشق لعوبُ
والذي يهجر في الحبِّ للاحبه نصيب
ما على مَن مرةٌ الوصلُ إذا غيظَ الرقيب
رنة القوس لراميها والنفير الندوب
حسراتي هي دمعي ولما قلبي قليبُ
ليس لي مالٌ ولكن ذَهبٌ قولي صبيبُ
من بني جنسي ولكني مع الغزلان ذيبُ
كلَّ يومٍ لي صلاحٌ بخلاعاتٍ مشوبُ
ومتى أمكنت الفر صة أجني وأتوب
في الهوى صح اجتهادي فأنا المخطي المصيب
هذه حالي وأحوا لُ بني العشق ضروب

وقد نجد لابن النحاس أطايب كثيرة إذا سايرناه بتلطف وترفق ، فليكتف القارئ بهذه اللمحات ، فإن المقام لا يسمح بالإطناب .

زكي مبارك

في الاجتماع اللغوى

اللهجات العامية الحديثة

تجردها من الإعراب

للدكتور على عبد الواحد وافى

أستاذ الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

— ٣ —

تمتاز اللغة العربية بأنها أوسع أخواتها السامية جميعاً وأدقها فى قواعد الصرف والنحو

فمن مميزاتها الصرفية أن الأصل الواحد يتوارد عليه مئات من المعانى بدون أن يقتضى ذلك أكثر من تغيير فى حركات أصواته الأصلية نفسها مع زيادة بعض أصوات عليها أو بدون زيادة ، وأن كل ذلك يجرى وفق قواعد مضبوطة دقيقة نادرة الشذوذ (عَلِمَ ، علِمنا ... يعلم ، نعلم ... إعلم ، إعلمى ... أعلم ، نعلّم ... عَلَّم ، نُعلِّم ... تعلَّم ... تعالَمَ ... عُلِمَ ، يُعلَم ... عِلْمٌ ، علم ، علامة ، علوم ، أعلام ، علامات ، عالم ، عليم ، علامة ، علماء ، عالِمون ... متعلم ، متعلم ، معلم ، معلم ، معلم ، معلوم ، عالَمَ ، عالَمون ... إلخ) . ولم تصل أية لغة سامية أخرى فى هذه الناحية إلى هذا الشأو ... ومن ذلك أيضاً نظام جمع التكسير الذى لا تشاركها فيه إلا أختاها الجنوبيتان (اليمنية القديمة والحبشية) ؛ فقد توسعت هى فى استخدامه توسعاً كبيراً ، حتى أصبح للمفرد الواحد فيها عدة جموع من هذا النوع [١]

(١) يرى بروكلمان وريتان وغيرهما أن هذه الخاصة مجردة من الفائدة وأنها مسببة للاضطراب . وفى الحق أنه ليس لها ما للخاصة الأولى (تغير المعانى بتغير البنية) من الفوائد ؛ ولـكنها لاتخلو من فائدة فى الدلالة . فصيغ التـكسير التى تتوارد على اللفظ الواحد ليست جميعها سواء فى المعنى لأن بعضها يفيد كثرة العدد (جموع الـكثرة) وبعضها يفيد قلته (جموع القلة) وبعضها جمع مباشر ، وبعضها جمع الجمع . . . وهلم جرا . هذا إلى أنها توسع من نطاق اللغة وتسعف المتكلم والـكاتب . أما سبب هذه الظاهرة فيرجع قسط كبير منه إلى تعدد اللغات ، وذلك أنه قد انتقل إلى لغة قريش صيغ جموع كانت مستخدمة فى اللهجات العامية الأخرى .

ومن مميزاتها النحوية تلك القواعد الدقيقة التى اشتهرت باسم قواعد الإعراب ، والتى يتمثل معظمها فى أصوات مد قصيرة تلحق أواخر الـكلمات لتـدل على وظيفة الـكلمة فى العبارة وعلاقتها بما عداها من عناصر الجملة . وهذا النظام لا يوجد له نظير فى أية أخت من أخواتها السامية ، اللهم إلا بعض آثار ضئيلة بدائية فى العبرية والآرامية والحبشية [١]

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن هذه القواعد المتشعبة الدقيقة ، وخاصة قواعد الإعراب ، لم تكن مراعاة إلا فى لغة الآداب شعرها وخطابتها ونثرها ؛ أما لهجات الحديث فكانت من أقدم عصورها غير معربة ، أو على الأقل لم يكن لقواعد الإعراب فيها ما كان لها فى لغة الآداب من شأن ، واستدل على رأيه هذا بأدلة كثيرة أهمها دليلان :

أحدهما دليل لغوى يتعلق بالموضوع الذى نحن بصدد دراسته ، وهو أن جميع اللهجات العامية المتشعبة عن العربية والتى تستخدم الآن فى الحجاز ومصر والعراق والشام وبلاد المغرب مجردة من الإعراب كما ذكرنا ذلك فى المقال الأخير [٢] فلو كانت لهجات المحادثة العربية القديمة معربة لانتقل شىء من نظامها هذا إلى جميع اللهجات الحاضرة أو إلى بعضها

وثانيهما دليل منطقى عقلى وهو أن قواعد هذا شأنها فى التشعب والدقة وصعوبة التطبيق وما تتطلبه من الانتباه وملاحظة عناصر الجملة وعلاقتها بعضها ببعض ، لا يعقل أنها كانت مراعاة فى لهجات الحديث ؛ لأن لهجات الحديث تتوخى فى العادة السهولة واليسر وتلجأ إلى أقرب الطرق للتعبير [٣]

بل ذهب بعضهم إلى أبعـد من ذلك فزعم أن هذه القواعد لم تكن مراعاة فى لهجات الحديث ولا فى لغة الكتابة ، وإنما خلقها النحاة خلقاً قاصدين بذلك تزويد اللغة العربية بنظم شبيه بنظم اللغة الإغريقية حتى يكمل نقصها فى نظرهم وتسمو إلى مصاف اللغات الراقية ، ويعتمد هؤلاء فى تأييد هذا المذهب على نفس الدليلين اللذين اعتمد عليهما الفريق الأول مع توجيههما

(١) V. Renan ; Langues Sémitiques, 384

(٢) أنظر عدد ٤١١ ص ٦٧٣ .

(٣) يميل إلى هذا المذهب الأستاذ كوهين فى كتاب : Langues du Mond, chap. "Arabe"

وجهة تتفق مع ما يذهبون إليه . وعلى دليل ثالث خلاصته أن قواعد هذا شأنها تشعباً ودقة لا يعقل أن تكون قد نشأت من تلقاء نفسها ؛ ولا يمكن لعقليات ساذجة كعقليات العرب فى عصورهم الأولى أن تقوى على خلقها . فهى تحمل آثار الصنعة الدقيقة المحكمة ، ويبدو عليها طابع من عقلية المدارس النحوية التى ظهرت فى العهود الإسلامية بالبصرة والكوفة وما إليهما

وقد تبين فساد هذين المذهبين لجميع المحققين من الباحثين ؛ حتى لأكثرهم تحاملاً على الساميين ، وأشدهم ولوعاً بالانتقاص من حضاراتهم ولغاتهم كالأستاذ رينان الفرنسى[1] . وإليك طرفاً من الأدلة التى لا تدع مجالاً للشك فى فسادهما :

١ — إن عدم وجود هذه القواعد فى اللهجات العامية الحاضرة ، لا ينهض دليلاً على أنها لم تكن موجودة فى العربية الأولى ، فقد انتاب أصوات اللغة العربية وقواعدها فى هذه اللهجات كثير من صنوف التغيير والانحراف ، وخضعت لقوانين التطور فى مفرداتها وأوزانها ودلالاتها ، فبعدت بعداً كبيراً عن أصلها ، كما تقدم بيان ذلك بتفصيل فى المقالين السابقين[2] .

٢ — وليس بغريب أن تتفق اللهجات العامية جميعاً فى التجرد من علامات الإعراب ، فقد خضعت لقانون من قوانين التطور الصوتى ، وهو « ضعف الأصوات الأخيرة فى الكلمة وانقراضها » ، وهو قانون عام قد خضعت له جميع اللغات الإنسانية فى تطورها ؛ فما كان يمكن أن تفلت منه لهجة من اللهجات العامية المنشعبة عن العربية ، كما تقدم الكلام عن ذلك فى المقالين السابقين

٣ — على أنه قد بقى فى اللهجات العامية الحاضرة كثير من آثار الإعراب وخاصة الإعراب بالحروف ، فيقال مثلاً فى عامية المصريين وغيرهم « أبوك وأخوك » ، لا « أبك » و « أخك » ؛ وينطق بجمع المذكر السالم مع الياء والنون (الطيبين ، المؤمنين الخ ...) ؛ وفى معظم لهجات العراق فى العصر الحاضر ينطق بالأفعال الخمسة مثبتة فيها نون الإعراب : (يمشون ، تمشين ، تمشون ...) ؛ وروى كثير من الباحثين أن آثار الإعراب بالحركات لا تزال باقية فى لهجات بعض القبائل الحجازية فى العصر الحاضر

٤ — يستفاد من كثير من كتب التاريخ ، وخاصة كتب أبى الفداء أن بعض علامات الإعراب ظلت باقية فى بعض لهجات المحادثة المنشعبة عن العربية حتى أواخر العصور الوسطى

٥ — إن دقة القواعد وتشعبها لا يدل مطلقاً على أنها مخترعة اختراعاً . فاليونانية واللاتينية مثلاً فى العصور القديمة والألمانية فى العصر الحاضر ، يشتمل كل منها على قواعد لا تقل فى دقتها وتشعبها عن قواعد اللغة العربية ، ولم يؤثر هذا فى انتقالها من جيل إلى جيل عن طريق التقليد ، ولا فى مراعاتها فى الحديث ، ولم يقل أحد أنها من خلق علماء القواعد

٦ — إن خلق القواعد خلقاً محاولة لا يتصورها العقل ، ولم يحدث لها نظير فى التاريخ ، ولا يمكن أن يفكر فيها عاقل أو يتصور نجاحها ؛ فمن الواضح أن قواعد اللغة ليست من الأمور التى تخترع أو تفرض على الناس ، بل تنشأ من تلقاء نفسها وتتكون بالتدريج

٧ — إن علماء القواعد العربية لم يكونوا على علم باللغة اليونانية وقواعدها ، ولم تكن لهم صلة ما بعلماء القواعد من الإغريق . هذا إلى أن قواعد اللغة العربية تختلف فى طبيعتها ومناهجها اختلافاً جوهرياً عن قواعد اللغة اليونانية . فلو كانت قواعد العربية قد اخترعت على غرار القواعد اليونانية كما يزعمون لجاءت متفقة معها ، أو على الأقل مشبهة لها فى أصولها ومناهجها

٨ — يدلنا التاريخ أن علماء البصرة والكوفة كانوا يلاحظون المحادثة العربية فى أصح مظاهرها ويستنبطون قواعدهم من هذه الملاحظة ؛ وأنهم كانوا لا يدخرون وسعاً فى دقة الملاحظة واتخاذ وسائل الحيطة ؛ حتى أنهم ما كانوا يثقون بأهل الحضر لفساد لغتهم ، ولا بالقبائل التى احتكت ألسنتها بلغات أجنبية كلخم وجذام وقضاعة وغسان وإياد وبكر وأزد عمان وأهل اليمن ؛ وأنهم كانوا يبذلون فى سبيل ذلك من وقتهم وجهودهم شيئاً كثيراً ، فكانوا يرحلون إلى الأعراب فى باديتهم

---

(١) V. Renan op. cit., 398 — 403

(٢) أنظر عددى ٤٠٩ ، ٤١١ .

ويقضون عندهم الشهور بل السنين ؛ وعلماء هذا شأنهم دقة واحتياطاً وإخلاصاً للعلم لا يعقل أن يتواطئوا جميعاً على مثل هذا الإفك المبين

٩ — وإذا أمكن أن نتصور أن علماء القواعد تواطئوا جميعاً على ذلك ، فإنه لا يمكن أن نتصور أنه تواطأ معهم عليه جميع العلماء من معاصريهم ، فأجمعوا كلهم ألا يذكر أحد منهم شيئاً ما عن هـذا الاختراع الغريب . ولا يعقل أن يقبل معاصروهم هذه القواعد على أنها ممثلة لقواعد اللغة ويحتذونها فى كتاباتهم ؛ اللهم إلا إذا كان علماء البصرة والكوفة قد سحروا عقول الناس واسترهبوهم وأنسوهم معارفهم عن لغتهم وتاريخها ، فجعلوهم يعتقدون أن ما جاءوا به من الإفك ممثل لفصيح هذه اللغة

١٠ — إن النقوش التى كشفت حديثاً فى شمال الحجاز بمنطقة تيماء والحجر والعلا لتدلنا أقطع دلالة على أن الإعراب كان مستخدماً فى « العربية البائدة » نفسها ، فبعض العلامات الإعرابية قد رمز إليه فى هذه النقوش بحروف ملحقة فى آخر الكلمة (« صنمه كبير » « وهرب مزحجو » ... الخ)

١١ — لم تنفرد اللغة العربية من بين أخواتها السامية انفراداً كاملاً بنظام الإعراب ، فلهذا النظام آثار فى اللغات الحبشية السامية ، وخاصة فى الجغرية والأمهرية . صحيح أن هذه الآثار محدودة ضئيلة ، وأنها تختلف اختلافاً غير يسير عن نظام الإعراب فى اللغة العربية ؛ ولكن وجود أثر لهذا النظام فى لغة سامية لا تزال لغة حديث إلى الوقت الحاضر ، كاللغة الأمهرية مهما كان هذا الأثر ضئيلاً — وعلى أى صورة كانت أوضاعه — لدليل قاطع على أنه منحدر من الأصل السامى الأول وليس من خلق النحاة

١٢ — تقوم أوزان الشعر العربى وقواعده الموسيقية على ملاحظة نظام الإعراب فى المفردات ، فبدون إعراب الكلمات تختل أوزان هذا الشعر وتضطرب موسيقاه . ومما لا شك فيه أن هذه الأوزان سابقة لعلماء البصرة والكوفة ، وأن شعراً عربياً كثيراً قد قيل على غرارها من قبل الإسلام ومن بعده قبل أن يخلق هؤلاء العلماء . فإنكار هذا الشعر لا سبيل إليه . ولا يمكن أن يكون قد أُلّف غير معرب الكلمات ؛ لأن عدم إعرابها يترتب عليه اضطراب أوزانه واختلال موسيقاه

١٣ — وأقوى من هذا كله فى الدلالة على فساد هذا المذهب تواتر القرآن الكريم ووصوله إلينا معرب الكلمات

١٤ — وإن فى رسم المصحف العثمانى نفسه ، مع تجرده من الإعجام والشكل ، لدليلاً على فساد هذا المذهب . وذلك أن المصحف العثمانى يرمز إلى كثير من علامات الإعراب بالحروف (المؤمنون ، المؤمنين ...) ، وعلامة إعراب المنصوب المنون (رسولاً ، شهيداً ، حسيباً ، بصيراً . . .) وهلم جراً . ولا شك أن المصحف العثمانى قد دُوّن فى عصر سابق بأمد غير قصير لعهد علماء البصرة والكوفة الذين تنسب إليهم هذه المذاهب الفاسدة اختراع قواعد الإعراب

فنظام الإعراب عنصر أساسى من عناصر اللغة العربية ؛ وقد اشتملت عليه منذ أقدم عهودها . وكل ما عمله علماء القواعد حياله هو أنهم استخلصوا مناهجه استخلاصاً من القرآن والحديث وكلام الفصحاء من العرب ورتبوها ، وصاغوها فى صورة قواعد وقوانين . ثم أخذ هذا النظام ينقرض شيئاً فشيئاً من اللهجات العامية تحت تأثير العوامل السابق ذكرها فى المقالين السابقين ، حتى لم يبق له فى هذه اللهجات إلا آثار ضئيلة

غير أنه لا يسعنا أن ننكر أن قواعد الإعراب لم يكن لها قديماً فى لهجات الحديث ما كان لها فى لغة الأدب من شأن . وذلك أن طائفة كبيرة من هذه القواعد لا تظهر وظائفها وتمس الحاجة إليها إلا فى مسائل التفكير المنظم المتسلسل ، والمعانى المرتبة الدقيقة التى يندر أن تعالج فى لغات التخاطب العادى . وهكذا الشأن فى جميع لغات العالم ؛ فكثير من قواعد الفرنسية مثلاً يندر أن يحتاج إليها فى المحادثات العادية . وفضلاً عن ذلك فقد نقل إلينا المؤرخون الثقات أن ألسنة العرب كانت عرضة للزلل فى هذه القواعد منذ العصر الإسلامى ، بل قبل ذلك العصر وأن هذا اللحن لم يكن مقصوراً على عامتهم ، بل كان يقع من

الخاصة والخلفاء والمحدثين ، وأئمة الفقهاء أنفسهم [(١)] . ويظهر أن هذا اللحن كان يقع منهم حتى فى تلاوة كتاب الله ؛ فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أعربوا القرآن [(٢)] » . وهذا يدل على أنه سمع بعض الناس فى عصره يقرؤه ملحوناً .

على عبد الواحد وافى

ليسانسيه ودكتور فى الآداب من جامعة السربون

(١) أنظر ابن خلكان فى حياة أبى الأسود ، وانظر الصاحبى لابن فارس ص ٣١ إذ يقول : « وإن قبيحاً مفرطاً فى القباحة بمن يعيب مالك بن أنس بأنه لحن فى مخاطبة العامة بأن قال : « مطرنا البارحة مطرا أى مطرا » أن يرضى هو لنفسه أن يتكلم بمثل هذا . لأن الناس لم يزالوا يلحنون ويتلاحنون فيما يخاطب بعضهم بعضا إتقاء الخروج عن عادة العامة فلا يعيب ذلك من ينصفهم من الخاصة » .

(٢) الصاحبى لابن فارس ص ٣١ — وإذا صح هذا الحديث لايكون الغرض من الاعراب ما يقصده النحاة بالضبط ، لأن كلة الإعراب لم يكن لها هذا المعنى فى عصر الرسول عليه السلام ، وإنما يكون الغرض منها مجرد الابانة وإظهار الحروف والحركات وتلاوته وفق قواعد العربية .

فى اختلاط الجنسين

للأستاذ محمود محمود بسيونى

ألقى أستاذنا صاحب العزة الدكتور منصور بك فهمى قنبلة جديدة فى الميدان الاجتماعى تنبه على صوتها الكتاب والمفكرون والمهتمون بالشؤون الاجتماعية فى مصر . تحدث عن اختلاط الجنسين فى مصر وكان صريحاً حازماً جريئاً فى إبداء رأيه ، وفى إنكار الاختلاط بصورته الحاضرة ، وقد ألقى شعاعاً مضيئاً أنار به السبيل إلى ذلك الهدف الاجتماعى الخطير . وهكذا حفزنى وشجعنى على أن أرفع صوتى أنا الآخر معلناً انضمام صوت الشباب إلى صوت الشيوخ . وقد يبدو هذا غريباً ، فالشباب معروف بحبه للفرح والسرور واللهو والعبث ولكنى لا أكتمكم أنى استمتعت بأنواع كثيرة من لهو الشباب وقد كان ذلك درساً طيباً اغتنمت فرصة اليوم لأن أعيده على مسامع إخوانى الشباب ولكى أنبه الغافلين من الجيل الذى تقدمنى إلى سوء نتيجة إهمالهم بعض الأمور الاجتماعية

حينما نحارب الاختلاط اليوم إنما نحارب الرذيلة والفساد محافظة على كيان أمتنا العزيزة ودينها الإسلامى القويم ، وفقنا الله جميعاً إلى ما فيه خير وطننا وإعلاء شأن ديننا

لنحاول أول كل شىء أن نفهم العلاقة الطبيعية بين المرأة والرجل ، فهما يكونان معاً الأسرة ، والأسرة هى الوحدة التى يتكون من كثيرها المجتمع ؛ إذن فالرجل والمرأة لازمان معاً لحفظ كيان المجتمع ، ولا غنى لأحدهما عن الآخر لاستمرار الحياة الاجتماعية ، وما دامت المسألة تقوم على التعاون بين الرجل والمرأة فلا بد من انسجام وظائفهما من الوجهة العامة أى من حيث أن الرجل رجل وأن المرأة امرأة . فقد زودت الطبيعة كلا منهما بفضائل وميزات خاصة يكمل بعضها بعضاً ، وهكذا كان لكل منهما عمل خاص وأسلوب خاص فى تأدية وظيفته فى الحياة ، ولكن هذه الوظائف كما قلنا يكمل بعضها الآخر . وهكذا كان الرجل فى حاجة طبيعية إلى المرأة لكى تبادله التشجيع والمساعدة على القيام بأعمالهما على خير الوجوه ، وينقسم اتصال المرأة بالرجل إلى نوعين : اتصال فردى خاص ، وهو اتصال الرجل بزوجه فقط وذلك لحفظ النوع ؛ ثم اتصال اجتماعى ، وهو اتصال الرجال فى مجموعهم بالنساء فى مجموعهن وهو ما يعبر عنه بالاختلاط وهو موضوع حديثنا الليلة

وقبل أن نبدأ فى علاج الموضوع نحب أن نذكر أن المرأة عنصر له خطره العظيم ؛ فإذا أسىء استخدام هذا العنصر فى الحياة الاجتماعية فقد تكون النتائج قتالة فتاكة . وهذا الاعتبار يجب أن يراعى حين يصدر الإنسان حكمه على فائدة الاختلاط أو ضرره فإن ذلك يلقى على المسألة ضوءاً جديداً ويكشف عن معانيها إلى حد كبير ، والسبب فى خطورة المرأة هو تكوينها الطبى خلقاً وخلقاً . فهى بما فيها من جمال وفتنة وإغراء وبما لروحها من دلال ورقة وعذوبة تؤثر فى قلوب الرجال تأثيراً شديداً كثيراً ما يحول دفة حياتهم خاصة كانت أو عامة . وقد عرف الفرنسيون أثر المرأة فكلما صادفتهم مشكلة غامضة قالوا قبل كل شىء « فتش عن المرأة » ولما كان عمل الرجل فى الحياة بحسب تقاليدنا المصرية أبعد أثراً وأعظم شأناً . فعمله دائماً يتصل بالمجتمع كله ؛ بينما المرأة وفاق هذه التقاليد اتصالها بفرد واحد أو أفراد قليلين . على أن ترك هذه التقاليد وتوسيع الاختلاط للمرأة بعامة الرجال لا بد

أن يحدث أثره فى المجتمع لأنه لم يعد لهذا الاختلاط وفقاً لماضينا المعروف

يظن بعض الناس أن الاختلاط مظهر من مظاهر المدنية والتقدم الإنسانى فى الوقت الحاضر ، وأنه يعود على المرأة وعلى الرجل أيضاً بفوائد لا يستطيعان أن يجنياها إذا كان كل منهما بمعزل عن الآخر . فهم يتوهمون أن هذا الاختلاط يسير بهما فى طريق التقدم من حيث الثقافة ومن حيث الإحساس ومن حيث أشياء أخرى يزعمون أنهم يفهمونها ؛ ثم هم يبنون هذا الزعم على أن الاختلاط حق من حقوق المرأة يجب أن تستعمله وتفيد منه ، وأن المرأة باشتراكها مع الرجل فى حياته العامة إنما هو تنفيذ لحق الحرية الذى أوجدته النظم الاجتماعية الحديثة ، ولكنهم أسرفوا فى استغلال هذا الحق واستعمال هذه الحرية . فانقلبت الآية وأصبح تقدمهم تأخراً ومدنيتهم همجية

بدأت المرأة بفكرة السفور ونزع الحجاب . وكأنها كانت فى معقل وانطلقت بعد أن كانت لا تحلم بالخروج ؛ فأسرفت فى نزع الحجاب إسرافاً شديداً إذ أصبحت سافرة الوجه أولاً ، ثم سافرة الوجه والرأس ، وأضافت بعد ذلك قليلاً قليلاً سفور الذراعين والساقين والصدر ؛ ثم تلفتت مع ذلك إلى تغيير الزى وتكييفه بما يتناسب مع ما تريد أن تبرزه من محاسن جسمها . ثم أتقنت ألوان التزين والتجمل واندفعت فى كل هذا اندفاعاً كبيراً ، ودفعت فى سبيل ذلك كل ما تملك من مال وذكاء ؛ واحتملت مشقة وعذاباً ؛ ثم شاءت أن تعرض جمالها وتجملها فخرجت إلى الأماكن العامة من شوارع ومقاه وأندية . وراحت تتسابق مع مثيلاتها فى هذا المضمار ، فأصبحت تلك الأماكن معارض يتبارين فيها لإظهار مقدرتهن على الفتنة والإغراء . وخرج الرجال بطبيعة الحال يستمتعون بهذه المظاهر الجديدة الخلابة ، فكانوا يلقون كلمات الإعجاب فى آذان النساء سواء أكانوا فى ذلك مخلصين أم منافقين ؛ ولكنها كلمات تروق النساء وتأخذ بمجامع قلوبهن على كل حال

فكرت المرأة فى أنه من العبث أن تتجمل هكذا للشوارع فقط ، وفكر الرجل فى أن يستمتع هو الآخر بهذه الفتنة ، فأخذ كل منهما يسعى إلى الاستمتاع : المرأة بتجملها وتدللها ، والرجل بما ينجذب إليه من هذا التجمل وهذا الدلال . وأخذت النشوة كلا من الفريقين ، وأعمتهم الشهوة فاستحلوا ما حرم ، واستباحوا كل ممنوع ، فانتحلوا أسباباً وخلقوا أساليب . وتستروا باسم المدنية والتقدم لتنفيذ أغراضهم ، واندفعوا فى تيار حياة الاختلاط البراقة فشربوا السم فى بشاشة .

وهكذا أصبحت ترى المرأة بشكلها الجديد ترتاد دور الخيالة وأندية السباق والمراهنات ، وحدها تارة أو مصحوبة أخرى بأصدقاء من الجنس الآخر اتخذتهم دون اعتبار لما بين الجنسين من فوارق . تراها تحتضن رجالها واحداً بعد واحد ، وتراقصهم وتحتسى معهم الخمر . فالفتاة الصغيرة لا يقوى أبوها على ردها ، لأن المدنية تتطلب منه ذلك ؛ والزوجة الصغيرة لا يقوى زوجها على منعها ، لأنه هو الآخر يفعل ذلك ؛ فالمدنية تتطلب هذا ، والأم القديمة تملت هى الأخرى ، تخلبتها المدنية الحديثة ، فاشتركت فى هذا . فعلت المرأة كل ذلك وأكثر من ذلك غير عابئة بدين ولا خلق ، وهى تظن أن هذه هى الحياة كما يجب أن تكون ، وزكاها فى ذلك جماعة من المخبولين العابثين الذين يسوقونها ويسخرونها لشهواتهم ولذاتهم ويتركونها بعد ذلك محتقرة مزدراة . إندفعت إذن المرأة فى مدنيتها المزعومة وحريتها الموهومة ، فهم للفساد والشر

وخلاصة القول أن المرأة بما اتبعته من ضروب التبذل غيرت معالم أنوثتها فبدلت جمالها الطبيعى الذى وهبها الله إياه وأحلت محله بعض النقوش والأصباغ ، ففسد ذوقها فى فهم الجمال وأفسدت ذوق الرجال أيضاً ، فضاع جزء كبير من قيمة أنوثتها الطبيعية ، وفقدت الرقة والسحر الحقيقيين . فبإسرافها فى إبراز محاسنها أضعفت إلى حد كبير سطوتها على قلوب الرجال وعواطفهم . والأمر فى الواقع يخضع كذلك لقانون العرض والطلب . فلكثرة المرأة فى ميادين الرجال ، ولكثرة ما تبديه من محاسنها وزينتها انخفض سعرها وقل طلبها

والذى لا شك فيه أن الاحتجاب أو نصف الاحتجاب يثير فى النفس — وهى فضيلة بطبعها — الرغبة القوية وحب الاستطلاع ؛ فبعد أن كان الرجل يطلب المرأة — وهى بعيدة عنه — ليستمتع بأنوثتها المستترة فى خجلها وحيائها ووقارها ، أصبح يكره تبذلها وعقت جرأتها ، فهو لا يفكر فيها إلا كأداة لسروره وعبثه

كذلك نجم عن الاختلاط السيء أن فقدت المرأة كثيراً من المعاني السامية: كالأمانة والشرف والعفة والقناعة، فانحطت وهبطت بالرجل إلى منزلة الحيوان

وإننا إذا نظرنا إلى حياة الأسرة بعد الاختلاط فأول ما يبدو لنا هو تلك المسألة العويصة التي أصبحت مشكلة المشاكل الاجتماعية وهي مسألة الزواج. فإن الرجل بعد الذي رآه في المرأة من استهتار وتهتك أصبح يعتقد أنها لم تعد صالحة للحياة الزوجية؛ فأعرض عن الزواج وجعل يستعيض عنه بالمتعة الوقتية التي مهلتها له المرأة ووفرتها له كل التوفير

على أن الذين يقبلون على الزواج ينقسمون إلى فريقين؛ فمنهم من هو محافظ غيور على شرفه وكرامته، وهذا الصنف تصبح حياته كالآتي: المرأة تريد التبذل والاختلاط، وتريد التحرر من القيود والأغلال على حد تعبيرها؛ والرجل يغار عليها ويشمل الشك فؤاده وجوانحه فلا يطيق صبراً على هذه الحياة فيثور ويفور ويهدد ويتوعد وتصبح حياته جحيماً لا يطاق. فإما أن ينتهي الأمر إلى الطلاق وهو وبل لو تعلمون عظيم؛ وإما أن ينتهي والعياذ بالله إلى مأساة محزنة لا استدراك لها فتتهدم أركان الأسرة الجديدة

أما الفريق الآخر من الأزواج فهم الذين يتركون الأمور كما تسيرها الظروف والأهواء، فيلقون الحبل على الغارب متكلفين الهدوء والبرود، لا يسألون زوجاتهم أين هن وماذا يفعلن. وذلك إما لضعفهن الأخلاق، وإما ليأسهم من وجود ما هو خير من حالهم. والنتيجة دمار وخراب. فإن المرأة حينئذ تتمادى في عبثها وفي فسادها، وينخرط هو في سبيل الرذيلة والشر إلى أن يحدث أحد أمرين: إما ألا يطيق أحد الزوجين صبراً فينفجر مرة واحدة، فإذا بالزواج رماد تذروه الرياح؛ وإما أن يدب العطب في الحياة الزوجية لخلوها من العناصر الشريفة الطاهرة التي تصونها من العفن فتصير نوعاً من الهمجية الإباحية التي لا نستطيع أن نسميها حياة بالمعنى الذي تقبله الحضارة الحقة والإنسانية الرفيعة

وإذا ألقينا نظرة عامة على بيت الزوجية في وقتنا هذا نستطيع أن نلمس آثار الاختلاط هكذا: تنقطع المرأة عن تأدية وظيفتها كسيدة وهي التي جعلت لتلازم بيتها كي تنفث فيه من روحها وأنوثتها فتدعو ملائكة السعادة لترفرف بأجنحتها على تلك الجنة. جعلت الآن تكثر من التغيب في الخارج. فحالات الاختلاط الجديدة ومقتضياته تشغلها بعيداً عن بيتها؛ فهي دائماً في زيارة صديقاتها وأصدقائها والاجتماع بهم في كل وقت وفي كل مكان؛ فإذا بها لا تعرف شيئاً عن نظافة بيتها ونظامه وترتيبه، ولا تعرف شيئاً عن مأكلها ومشربها، ولا تعرف شيئاً عما يتطلبه البيت من إصلاح خلل أو إكمال نقص، ولا تعرف شيئاً عما هو أهم من ذلك كله وهو تربية أطفالها. أما زوجها فهو آخر من تفكر في أن تعنى بهم، وهي التي جاءت من أجله ومن أجله فقط: تؤنسه في وحدته، وتشاركه الحياة وتمتعه بما لديها من صفات منحها الله إياها.

كل ذلك لأنها خرجت عن الحياة التي خلقت لها، فخرجت بذلك هي وزوجها من الجنة؛ وأخرجها تجنيها على البيت واندفاعها في الاختلاط وفي حياة الشوارع. فهل هذه إذن حياة المدنية وهل هذا هو الرقي، وهل هذه هي نتيجة العلم والثقافة؟ المضحك أن تسمى ثقافة وهي أبعد ما تكون عما يطابق العقل والمنطق. ليست الثقافة والحضارة والتقدم أن تتقن المرأة الكلام بالفرنسية والانجليزية لا لشيء إلا للفرنجة وتكلف الأرستقراطية واتخاذها وسيلة للرقاعة والتهتك. ليست الثقافة والحضارة والتقدم أن تغشى المرأة المنتديات والمجتمعات، وأن تتقن فن المقابلات والتشريفات بعد إتقانها لفن البهرجة والزينات. الثقافة الحقة والحضارة الحقة والتقدم الحق هو أن تعرف المرأة واجبها نحو بيتها ونحو الحياة النافعة، وأن تتقن فنونها التي خلقت لها لتعيش مطمئنة سعيدة ولتشيد أسس حياة هادئة هي عنوان التقدم والرقي المستمر

ورحم الله قاسم أمين! فلو كان حياً لاستنكر أسلوب المرأة في تنفيذ تعاليمه، فما كان قصد قاسم أمين إلا أن يحرر المرأة من العبودية القديمة حين كان الرجل يجعل المرأة عبداً يشترى ويسخر في تنفيذ رغباته وإشباع شهواته. لقد أراد قاسم أمين أن يخلص المرأة من ظلم خاطئ، فأساءت المرأة فهم الغرض الذي قصد إليه وتمثرت في الطريق الذي أشار به فضلت السبيل وتمادت في ضلالها. فنحن إذ نرفع صوتنا اليوم إنما نحسن إلى ذكرى قاسم أمين ونخلص للمرأة نفسها فنظهرها على طريق الحق ونهديها إلى السبيل القويم

(البقية في العدد القادم)

محمود محمود بسيوني

الطابور الخامس الألمانى

الطابور الخامس ! لفظتان تنطويان على كل معانى الإرهاب والقسوة والفظاظة والغدر والخيانة ، وتعيد إلى الأذهان تلك المآسى التى كان يمثلها ديوان التفتيش فى القرون المتوسطة

الطابور الخامس هو الخطر العصرى الذى يهدد المدنية الحاضرة والأمم الديمقراطية والشرائع الحرة التى كتبت بدماء الألوف من أحرار البشر ، بل هى عصابة هائلة تبثها الحكومة النازية فى كل أنحاء العالم لتاتى الفساد وتذرع الفتن ، وتنخر كيان الأمم بأساليب شريرة لم يعهدها العالم المتمدن ؛ فالنازية والطابور الخامس اسمان مترادفان لمسمى واحد

كان هدف هتلر فى أول أمره أن يستولى على الحكم فى ألمانيا ويعدم كل الأحزاب السياسية الألمانية (وكان عددها يومئذ ٣٦ حزباً) التى لا تعتنق المبادىء النازية . وكانت النازية قبل أن يسيطر هتلر على ألمانيا حزباً سياسياً عادياً اعتمدت لبلوغ مآربها خطتين : القوة والدعاية ، فطفقت تنفيذاً للخطة الأولى تتسلح سراً وتعدُّ عُدتها لليوم المنتظر ، وأنشأت تنفيذاً للخطة الأولى « معهداً » كبيراً للدعاية والتمويه والتضليل ، ثم لتخريج طلاب الغدر والخيانة والفتك ، وهم المعروفون اليوم بأعضاء الطابور الخامس

قسم هتلر بعد ما استتب له الأمر أنصاره ورجال حزبه إلى فئات ثلاث : الأولى مؤلفة من أنصاره وأصدقائه الخلص الذين يعرفون أفكاره وغاياته الخفية ، وهم : هيس ، جورينج ، جوبلز ، هملر ، ستريشر ، بُهل ، فون ريبنتروب ، دارّه ، روزنبرج . والثانية مؤلفة من أشخاص لا يعرفون إلا شيئاً من أفكاره وخططه ، ولكنهم مرشحون للانضمام إلى الفئة الأولى . والثالثة مؤلفة من رجال مصلحة التقصى الألمانية ، ومن عصابة « الجستابو » التى يديرها « هملر » . وليس فى الفئات الثلاث إلا عدد ضئيل من ذوى المراتب العالية فى الجيش

ولكل من هذه الفئات مهمة خاصة ؛ فمهمة الفئة الأولى إنشاء مذهب جنسى أساسه تفوق الجنس الجرمانى الآرى على سائر الأجناس البشرية لنبل أصله وشرف محتده ، وتأليف ألمانيا الكبيرة التى يجب أن تسود العالم . ومهمة الفئة الثانية تنفيذ خطط الأولى فى ألمانيا وخارجها بالدعاية والجاسوسية وغيرهما من الأساليب التى يكل عنها الوصف ، كأن توهم أحياناً أنها ناقمة على النازية لكى تقف على الرأى العام فيها وتعرف البيئات التى تناهضها . ومهمة الفئة الثالثة الاستكشاف وتمهيد السبل للفئة الثانية ، فهى أشبه شىء بفرق الكشافة فى الجيش

أما الجستابو فهي العصابة السرية الهائلة التى يديرها « أريك هملر » وتضم ستين ألف رجل وعشرة آلاف امرأة فى ألمانيا ، وخمسة آلاف رجل وأربعة آلاف امرأة فى البلدان الأجنبية . وفى الجستابو دائرة خاصة مهمتها تزوير الوثائق والجوازات والمراسلات الدولية والأوراق المالية الأجنبية وغيرها . ومن الوثائق المزورة تلك التى أعلنها فون ريبنتروب واتخذها حجة لكى يبرر اجتياح دولته للبلدان الصغيرة ، وما هى فى الحقيقة إلا وثائق مزورة مصنوعة فى تلك الدائرة

مكتب ريبنتروب

هو دائرة مستقلة تعمل تحت إشراف فون ريبنتروب أولاً وهتلر ثانياً . تجمع كل المعلومات غير الحربية عن البلدان الأجنبية ورؤسائها وساستها وأصحاب النفوذ فيها ، وتُعنى بمعتقدات تلك البلدان الدينية وأحزابها وطرق معيشتها حتى بمسائلها العائلية . ومن هذه المعلومات تستقى مصلحة التقصى الألمانية وتستهدى بها . وعمال مكتب ريبنتروب هم فى معظمهم من الأشخاص الذين تقلبوا فى المناصب العالية وشغلوا مراكز سياسية هامة فى السفارات ونحوها ، وبينهم عدد من النساء اللواتى يعملن أيضاً فى دائرة الجستابو

وزارة الدعاية

يرأس هذه الوزارة الدكتور « جوزف جوبلز » ، ومن مهامها التسلط على الرأى العام الألمانى ، وحمل الدول على اقتباس المبادئ النازية وإخضاعها لنفوذ ألمانيا الاقتصادى . وفى هذه الوزارة الدوائر الآتية : الدعاية الداخلية ، الدعاية الخارجية ، الراديو ، الصحافة ، السينما ، المسرح ، الآداب والفنون . وفيها قوائم بأسماء كل المؤسسات فى العالم ، وقد قسمت إلى مراتب وعرفت بالأوصاف الآتية : « حلفاء » ، « ميالون » ، « قابلون للاستمالة » ، « أعداء » . وقائمة الأعداء ترسل رأساً إلى دائرة الجستابو .

مدرسة الطابور الخامس

في سنة ١٩٠٨ أنشئت في ألمانيا مؤسسة غايتها بث الروح الألمانية في أبناء الألمان المولودين في البلدان الأجنبية لكي يحافظوا على جرمانيتهم . وفي سنة ١٩٢١ استعانت الحكومة الألمانية بهذه المؤسسة لكي تجدد عزيمة رعاياها ، وقد وهنت بعد نكبة ألمانيا في الحرب الماضية ، وتثير في الأحياء منهم خارج وطنهم العصبية الجرمانيـة ، وتحول دون إدغامهم في البيئات الأجنبية . ولما قبض النازيون على زمام الحكم في ألمانيا وجدوا في سجل هذه المؤسسة أن ٣٥٫٨٠٣٫٠٠٠ ألماني يعيشون خارج الحدود الألمانية ، منهم ٧٥ في المائة تربطهم العاطفة العصبية ارتباطاً متيناً بأمهم ألمانيا ، والفضل في ذلك عائد إلى مساعي المؤسسة المذكورة التي تعرف اليوم باسم الطابور الخامس الألماني

وينتخب أعضاء الطابور الخامس من رجال ونساء ذوي جدارة وثقافة ودهاء وحيلة ، وكثيرون منهم يحسنون كتابة وتكلم عدة لغات أجنبية ، ومنهم سياسيون ومهندسون وكيميائيون وعسكريون واختصاصيون بفروع العلم . وتختلف مهامهم وطرق أعمالهم باختلاف البلدان التي يوفدون إليها . أما الهدف فواحد ، وهو خدمة المصلحة الألمانية بأي الوسائل ، لأن الغاية في شريعتهم تبرر الواسطة . وكانت دعايتهم في البلدان الأجنبية قبل الحرب تضرب خاصة على وترين : خطر الشيوعية ومكافحتها ، ومصادرة اليهود المرابين الدساسين ؛ فاستهووا بالدعاية الأولى كل خصوم الشيوعية ومقبحي مبادئها ، واستمالوا بالثانية كل العمال الذين يرون في اليهود صورة الرأسمالية عدوتهم الكبرى

ونشط في هذه الحرب رجال الطابور الخامس المتبثون في كل العالم ، وعلى الأخص في البلدان الديمقراطية ، فقاموا بمهامهم الشاقة ، غير عابئين بالأخطار التي تهددهم في كل لحظة ، فكانوا من العوامل الأولية التي مكنت الألمان من اكتساح عدة بلدان بتلك السهولة الغريبة ؛ وقد تحقق العالم اليوم أن أولئك الألمان الذين « نفتهم » الحكومة النازية لنقمتهم على الوضع النازي ، أو لكونهم يهوداً ، أو لتزوجهم يهوديات ، ما كانوا في الحقيقة إلا من أعضاء الطابور الخامس ، وقد خرجوا من ألمانيا بجوازات مزورة مصنوعة في دائرة التزوير بالجستابو . وقد حضنتهم الدول الديمقراطية وعطفت عليهم حتى كشف لها الواقع أنها ما حضنت إلا ثعابين قتّالة كانت تنفث السم في جسمها وهي غافلة عنها بعامل الشفقة والإحسان .

وكان أولئك « المضطهدون » يتسربون في كل مكان ويجتمع ويخالطون الجماعات الناقمة على النازية ، لكي يطلعوا على أفكارها وحركاتها ونياتها ، ويرسلون بها تقارير إلى الحكومة النازية « مضطهدتهم » .

أما مهام الطابور الخامس العام فتنقسم إلى أربعة أهداف : الأول دعاية سياسية وثقافية . الثاني تمرين عسكري . الثالث تجسس اقتصادي . الرابع تجسس صناعي ، كحمل العمال في البلدان الأجنبية على الإضراب أو تدمير المصانع . والدعاية الفكرية يقوم مبدأها على إظهار تفوق الجنس الآري ، وهـذا مثال منها نشر في الولايات المتحدة : « إن الولايات المتحدة ما بلغت درجتها الحاضرة من الثقافة والعمران لولا امتزاج العنصر الجرماني في مستوطنيها الأولين » . فالطابور الخامس إن هو إلا شكل جديد للجاسوسية ، ولكنها تفوق كل أنواع الجاسوسية المعروفة بجرائمها الهائلة وغدرها الشنيع وأساليبها الفظيعة

إن أمضى سلاح استخدمته ألمانيا لاكتساح نروج هو الطابور الخامس ، وقد ذكرت الكاتبة النروجيـة الشهيرة « سيجريد اوندست » في ما روته عن مأساة وطنها ما يأتي :

« كان علينا ألا نتكل على حيادنا وأن نتسلح استعداداً للطوارىء . إننا قلما أكترثنا للطابور الخامس الألماني ، فجر علينا إهمالنا محنتنا الحاضرة ، إذ في ظلال السنوات الأخيرة كان كثيرون من شبان الألمان يأتوننا زائرين ويتوغلون في بلادنا دارسين طبيعة أرضنا ، راسمين مواقعها الحربية وطرقها ومعابرها وكل ما يهمهم منها . وعلى الجملة كانوا يعرفون نروج أكثر من سكانها الأصليين »

وفي رأي النازيين أنهم ذوو حق شرعي في كل بلاد يقيمون فيها . يدل على ذلك ما وجد في ولايات البرازيل الجنوبية ، وفي شمال الأرجنتين من الألواح التي تحمل الكلمات التالية : « هذه الأرض جزء من ألمانيا »

(العصبة)

واشـــــقيقاه ! !

للآنسة الفاضلة فدوى طوقان

[في الساعة التاسعة من مساء الجمعة الثالث من شهر مايو سنة ١٩٤١ . خبا السراج الذي كان يسكب النور في جوانب نفسي ويهديني إلى سبل الحق والخير والجمال لقد ذهب شقيقي إبراهيم وخلف لي حسرة الأبد .]

(فدوى طوقان)

و (الرسالة) تقدم إلى الآنسة الفاضلة أجل العزاء ، وتشاطرها ما أظهرت من العواطف الصادقة في هذا الرثاء .

وا شقيقاه ، ما أجـــلَّ مصابي
كيف أوْدَى الرَّدى بزين الشبابِ
كيف جفَّ الغصن الرطيب وأضحى
يا لقلبي موسَّـــداً في الترابِ

وا شقيقاه ، مال في عمرا لورد   غضيرَ الصِّبَى نضيرَ الإهابِ
أين مني أخي ؟ لَىَ الله ! ما خلاَّ   ه عني ؟ ما عاقه عن جوابي ؟
سلبتني الأيام بهجة عيشي   يوم ولَّى وحطَّمتْ أعصابي
وأعاضتْ قلبي من النور ناراً   ليس تخبو على مدي الأحقابِ
ليت شعري أخي افتقدك أشجى   أم لطفليك أم لحظى الكابي
أم لأمّ الطفلين لوَّعها الثكلُ   فباتت في حسرة وا كتئابِ
دمعها من عصارة القلب، والهمّ   على قلبهـا الجريح المذابِ
ودَّعتْ بعدك المباهج والأفـ   ـراح واستقبلتْ مقيم العذابِ
لهْفَ نفسي على نضير صباها   ينزوي في الأمي وسود الثياب
حرَّ قلبي لجعفر وعريبٍ[1]   إذ هما يرقبان يوم الإيابِ
كلما استثمرا إليكَ حنيناً   هاج في الصدر من طويل الغيابِ
... هتفا باسمكَ الحبيبِ و باتا   رهن همٍّ ووحشة وارتقابِ

***

أوحشتْ بعدك المجالس والأسمـا   ر وارفضَّ مجمع الأحبابِ
وانطوى الأنس إذ طوتكَ الليالي   عن نفوس الأتراب والأصحابِ

كنت ريحانها فغُيِّبْتَ عنها   في صعيد قفر الجناب يبابِ
حسرتا للخلائق الزُّهْر تُطوى،   للمزايا وللسَّجايا العِــذابِ
ليت شعرى ما عالَمٌ صِرتَ فيــه
عن عيون الأحياء خلف حجابِ ؟
أهْوَ شطُّ الأمانُ للنفس بعد الـ
ـخوض في مزبدات طامى العُباب
أترى فيــه راحة من عناء   وقراراً من حيْرة واضطرابِ
يا شقيقي حدِّث ، أتنضبُ فيـ   ـه النفس من كل رغبة وطِلاب
هل نفضتَ اليدين من نشوة الأحـ
ـلام والشعـــر والمنى والرغاب
هل طرحتَ الآلام عنــك وكم
عانيتَ منها ممَضّاً وطول اصطحاب
قد سقتكَ الحياة في العسر واليسر
بكاسين من شهـادٍ وصاب
وبلوْتَ الصحاب في السر والجهر
فمن بين خالص ومحـــابي

... ...
... ...
... ...

أقصر اليوم صاحب وعدوٌّ   وَوَهَتْ بينكم عرى الأسباب

***

حسراتي عليكَ ما تنقضي   لا ، ولن ينتهي عليك انتحابي
ويعزّون فيك يا صِنْوَ نفسي   أيّ شيء فيه العزا عن مصابي
ما عزائي أخي وقد كنتَ حظاً   من حظوظي وكنت من آرابي
كنتَ أزْرى، إنْ ضِقْتُ بالهم والكر
ب جلوْتَ الأسى وفرَّجْتَ ما بي
فإلى من أشكو إذا حزَبتْني   طارقات الهموم والأوصاب
يا شقيقي مهِّد لجنبي مكاناً   وارتقبني فإنني في الرِّكابِ

(نابلس)   فدوى عبد الفتاح طوقان

---

(١) ابن الفقيد وابنته

ألقاب الشرف والتعظيم

عند العرب

للأب أنستاس مارى الكرملى

— ٤ —

٩ — القيصر

هذه الكلمة واضحة الأصل اللاتيني وهو Caesar ، وكثيراً ما ينقل الحرف C إلى القاف العربية أو الكاف ، والحرف S إلى السين أو الصاد العربيتين . وأما قول القلقشندى فى صبح الأعشى (٥ : ٤٨٢) : « وأصل هذه اللفظة فى اللغة الرومية (جاشر) بجيم وشين معجمة فعربتها العرب (قيصر) » فغير صحيح البتة ؛ لأن (القيصر) بهذا التعريب أقدم من تعريبها بصورة (جاشر) فهذه بالنسبة إلى تلك محدثة ، وقد قيل أو يقال اليوم (جِيْزر) وتلفظ Tchézar بالأحرف الإفرنجيه المصرية . وأما الرومان الأقدمون فكانوا يقولون Késar والسين تلفظ سيناً صريحة لا زاياً كما يلفظونها اليوم ، إذا وقعت بين حرفين مليلين . وكذلك كان الرومان يقولون فى أول الأمر Iesu (ييسو) لا (ييزو) ولا (ييشو) . وكانوا يقولون (ألياقيم) Eliacim لا (الياجيم) ولا (الياشيم) ولا (الياسيم) . وأما قولهم اليوم (ألياجيم) بالجيم المقودة ، فحدث بالنسبة إلى قولهم القديم (ألياقيم) أو (أليا كيم)

وأما متى أبدلوا اللفظ الواحد من اللفظ الآخر ، فحدث رويداً رويداً ، ومن شخص نافذ الكلمة إلى شخص دونه ، ومن بلد إلى بلد حتى عم اليوم البلاد الإيطالية كلها . وأما علماء ألمانية فيعودون إلى لفظ C كافاً حيثما وقعت بدون أدنى تغيير ، فيقولون (كيكرو) ولا يقولون (شيشرو) ولا (جيجرو) ولا (سيسرو)

ومن الغريب أن العرب تبعت لفظ الرومان فى عصرهم ، فكان اللفظ القديم (قيصر) ثم صار (شيزر) ، فقالوا : (قلعة شيزر) ولم يقولوا : (قلعة قيصر) وهى Césarée والآن صاروا يقولون (جيزر) ولفظها القلقشندى (جاشر) وهو لفظ لا ينطق به أحد ، لأنه كثيراً ما يصحف الألفاظ الأعجمية فيجعل سينهم شيناً معجمة ، ويجعل الجيم المثلثة المقودة جيماً عربية أو جيماً مصرية . وكل ذلك خطأ

وقال القلقشندى بعد ذلك : « ولها (أى لكلمة قيصر) فى لغتهم معنيان : أحدهما الشعر ، والثانى الشيء المشقوق » اه

قلنا : اللفظة التى تدل على شعر الرأس عند الرومان هى Caesaries (قيصَرِيَس) لا Caesar (قَيْصر) كما توهمه القلقشندى . فيحتمل أن يكون السبب لتسمية (قيصر) هو ما يقوله ، نقلاً عمن سمع عنه

وقال القلقشندى بعد ذلك : « واختلف فى أول من تلقب بهذا اللقب منهم : فقيل أغانيوش[1] أول ملوك الطبقة الثانية منهم . سمى بذلك لأن أمه ماتت وهو حمل فى بطنها فشق جوفها وأخرج فأطلق عليه هذا اللفظ ، أخذاً من معنى الشق ؛ ثم صار علماً على كل من ملكهم بعده . وقيل أول من لقب بذلك يوليوش[2] الذى ملك بعد أغانيوش المذكور . وقيل أول من لقب به أغشطش[3] . واختلف فى سبب تسميته بذلك ، فقيل : لأن أمه ماتت وهو فى جوفها فشق عنه وأخرج ، كما تقدم القول فى أغانيوش . وقيل لأنه ولد وله شعر تام فلقب بذلك ، أخذاً من معنى الشعر كما تقدم . ولم يزل هذا اللقب جارياً على ملوكهم ، إلى أن كان منهم هرقل الذى كتب إليه النبي صلى الله عليه وسلم » اه

قلنا : إن الذى عندنا أن قيصراً سمى كذلك من معنى الشعر لا من معنى البقر (أى شق البطن) ، لأن أول من سمى بقيصر لم يكن خشمة (أى مُخرَجاً من بطن أمه ببقره) . بل كان مولوداً وعلى رأسه شعر ، وهو أكتافيوس أو أكتابيوس . هذا فضلاً عن أنه لو كان خشمة لسماه السلف (خشمة) لأن هذه الكلمة معروفة عندهم ، وما كانوا سموه (قيصراً)

---

(١) ليس فى أعلام القياصرة من هو بهذا الاسم ، بل أول من سمى بقيصر هو (أكتافيوس) Octavius ونظن أن الكلمة مصحفة تصحيف خط لكلمة (أغتابيوس) بجعل الكاف غيناً والفاء باء موحدة تحتية وأمثاله كثيرة عندهم .

(٢) صوابه : يوليوش .

(٣) صوابه : أوغسطس .

١٠ — الأطربون

قال فى تاج العروس فى مادة (ط ر ب) : والأطربون[١] : البطريق . كذا فى شرح أمالى القالى . وحكى عن ابن قتيبة : أنه رجل رومى . وذكره الجواليقى . وقال ابن سيدة : هو الرئيس من الروم . وقال ابن جنى فى حاشيته : هى خماسية كعضرفوط فعلى هذا وضعه للنون والهمزة، والصواب : أن وزنه أفعلون من الطرب . وهذا موضع ذكره استدركه شيخنا » انتهى

قلنا : الأطربون غير البطريق ، وكان فى أول أمره : حاكم القبيلة ، ثم جعل حاكما على الجند لحاكما عليهم مع سلطة هيباط . ولو اتخذ عبارة اللسان لكان له أحسن . فقد قال ابن مكرم : « الأطربون : من رؤساء الروم وقيل : المقدم فى الحرب ، وقال عبدالله بن سبرة الحرشى :

فإن يكن أطربون الروم قطَّعها، فإن فيها بحمد الله منتفعا

قال ابن جنى : هى خماسية كعضرفوط » اﻫ

قلنا : وأما ما حكى عن ابن قتيبة أنه رجل رومى ، فليس من الموضوعات، فقد كان رجل اسمه (اطربونو) Tribuno (Pietro) وكان الدوج السابع عشر للبندقية توفى سنة ٩١٢

وأما قولهم هو الرئيس من الروم ؛ فكلام لا يحصل منه شىء . فالرؤساء طبقات . وهناك رؤساء مدنيون وعسكريون وروحانيون وأصحاب مهن إلى ما شابهها . فقولهم هو الرئيس من الروم كلام مبهم ؛ والأحسن ألا يذكر مثل هذا التعريف الخالى من حلية تحليه

وقول ابن جنى أنه خماسى هو القول الحق الذى لا ريب فيه

وأما قول الشارح : أن وزنه أفعلون من الطرب ، فالقسم الأول من عبارته صحيح ، أى أن وزنه أفعلون . وأما القسم الثانى أنه من الطرب ، فهو الخطأ بعينه ، لأن الكلمة ليست عربية بل هى رومية (لاتينية) Tribunus ومعناها فى الأصل : حاكم القبيلة كما قلنا . وهل يعقل أن الرومان يسمون رئيساً من رؤسائهم المدنيين باسم عربى ؟ فهذا لا يعقل . فوضع ذكره إذن فى (اطربون) ، لأن جميع أحرف الكلمة الدخيلة أصول كما اتفق عليه جمهرة اللغويين بلا شاذ واحد

١١ — الفرناس

١٢ — البرنس

وهو البده عند العرب ؛ والفرسان تعريب فرنـ[ـ]ا[بـ]س Princeps . ونقل الحرف الإفرنجى P إلى الفاء أو الباء ، أشهر من أن يذكر . وكان حق السلف أن يقولوا فيها (فرنكابس) لكنها ثقيلة وليس لها وزن عربى خففوها وحملوها على مركب عربى ليرحب بها أهل الذوق السليم . ولم يذكر أحد أنها معربة . وهى فى لغة الرومان تفيد « الأول فى قومه »

والظاهر أن بنى عدنان لم يعرفوا معناها حق المعرفة لأسباب ، منها :

أنهم ذكروها فى مادة (ف ر س) إعتقاداً منهم أنها عربية النجار .

أنهم ذكروا لها معانى قاربوا فيها الحقيقة لكنهم لم يصيبوها ، فقد شرحوها بقولهم : « الفرناس كفرصاد : رئيس الدهاقين أو القرى . عن ابن خالويه ... والأسد الضارى ، وقيل الغليظ الرقبة .

وقال ابن خالويه : سمى الأسد فرناساً ، لأنه رئيس السباع ، ونونه زائدة عند سيبويه ، كالفرانس بالضم . والفرناس أيضاً : الشديد الشجاع من الرجال ، شبه بالأسد . قال النضر فى كتاب الجود والكرم : والفِرْنَوس كفِرْدَوْس من أسماء الأسد . حكاه ابن جنى وهو بناء لم يحكه سيبويه ، وأسد فرانس كفرناس فُرانس، وهو مما شذ من أبنية الكتاب » اﻫ

فالكلمة إذن عرّبت على صور مختلفة ، واختلاف اللغات آت من عجمة اللفظة ، وسمى العرب الأسد (فرانس) و (فرناس)

(١) فى النسخة المطبوعة التى بيدنا « وأطرابون » (بألف بعد الراء) والصواب ما ذكرناه فى النص أى : والأطربون ، بأل وبدون ألف بعد الراء . لأنه شرحه بقوله : البطريق . أى معرفا بأل . فيجب أن تكون الكلمتان المفسرة والمفسرة من جنس واحد ، إما تكونا نكرتين وإما تكونا معرفتين .

و (فرنوس) لأنه الأول بين السباع كما قال ابن خالويه ، وكما يقول الفرنسيون : Le lion est le roi des animaux

وكتاب العرب نسوا ما عربه السلف فنقلوا اللفظة الإفرنجية بلا أدنى تغيير فى عهد العباسيين ، فسموا الفرناس « برنس » نقلاً عن الفرنسية Prince والذين نقلوا هذا اللفظ بهذه الصورة هم جميع المؤرخين الذين دونوا الوقائع فى القرون الوسطى .

وإذا عذرنا الجميع من هذا التعريب الحديث فلا نعذر ابن شداد قاضى حلب صاحب كتاب النوادر السلطانية ، فى المحاسن اليوسفية ، فقد قال فى حوادث سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠ م) : « إن البرنس صاحب أنطاكية ، خرج بعسكره نحو القرايا[1] الإسلامية » اهـ

فنستنتج من هذا : أن العرب كانوا يتصرفون فى اللفظة الواحدة على مناح شتى ، اعتماداً على ما يسمعونه فى عصرهم وبلادهم لا على ما نقله أجدادهم ، ولا على ما يرونه مدوناً فى دواوين من تقدمهم من السلف ، بل يعتمدون على لغة الأقوام الذين يطوون بساط أيامهم بين ظهرانيهم . فإذا سلمنا بهذا ، عذرنا ابن شداد نفسه لجريه على هذا المنحى من صنع الناطقين بالضاد

وهل تعلم ما كان اسم البرنس عند بنى مُضر فى أقدم الزمان ؟ كانوا يسمونه (البدء) أى الأَول وهو معنى البرنس الأَجنبية . والدليل على ذلك ما ذكره ابن خلدون فى كتابه العبر ، وديوان المبتدأ والخبر (٢ : ٢٦٣ من طبعة بولاق) : « ولما هلك عمرو ابن عدى ، ولى بعده على العرب ، وسائر مَنْ ببادية العراق ، والحجاز ، والجزيرة ، امرؤ القيس بن عمرو بن عدى ، ويقال له (البدء) ، وهو أول من تنصّر من ملوك آل نصر ، وعمال الفرس » اهـ ، وكانت وفاته فى نحو سنة ٣٣٨ للميلاد . فالبدء إذن قديمة بمعنى البرنس

وكلام ابن خلدون هذا مقتبس من تاريخ الطبرى (١ : ٨٣٣ وما يليها) : « وكان من عمال سابور بن أردشير ، وهرمز بن سابور ، وبهرام بن سابور ، بعد مهلك عمرو بن عدى بن نصر بن ربيعة على فَرْج العرب من ربيعة ، ومُضَر ، وسائر من ببادية العراق ، والحجاز ، والجزيرة يومئذ ، ابنٌ لعمرو بن عدى ، يقال له (امرؤ القيْس البدْء)[1] ، وهو أول من تنصّر من ملوك آل نصْر بن ربيعة ، وعمال ملوك الفرس . وعاش فيما ذكر هشام بن محمد ، مملكا فى عمله ، مائة سنة وأربع عشرة سنة » اهـ.

وفى التاج : « البَدْء : السيد الأول فى السيادة . والثُّنْيان الذى يليه فى السُّؤْدَد . قال أوس بن مغرّى السعدي :

« ثنيانُنا إن أتاهم كان « بَدْءَهم »
و « بدءهم » إن أتانا كان ثُنْيانا » اهـ

فلم يبق شك فى أن (البدء) يقابل البرنس Prince عند الأُفرنج والثنيان يقابل الدُّوق Duc عندهم .

(له صلة) الأَب أنستاس مارى الكرملي

من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية

(١) كذا وهو يريد القرى . وقد وردت فى كتب كثير فى المولدين ولها وجه صحيح ، لأن فعلة قد جاءت على فعائل فى كثير من الألفاظ ، خلافاً لما أنكره النحاة ، وقد جمعنا منها شيئاً كثيراً ؛ على أن الأفصح هو أن القرى جمع لقرية

(١) سماه خير الدين الزركلى فى معجمه (الأعلام) ١ : ١٢٢ : « امرؤ القيس الأول » . وهذا غير صحيح . لأن الأعلام والألقاب تروى كما وردت ولا يحق لنا أن نغيرها . وقد أصاب العلامة يوسف رزق الله غنيمة في إبقاء هذا اللقب على امريء القيس (فى كتابه الحيرة ص ٣١ وما يليها) .

من أشجان الربيع

حبي . . . !

للأديب ابرهيم محمد نجا

ذاك حبي أيها القلب على المرج البديع
سدَّد الدهر إليه ، ورماه في الضلوع
بينما كان يغني فوق هاتيك الربوع
فجثت من حوله الغربان تبكي في خشوع
ونسيم الفجر غشّاه بأكفان الدموع
عجباً ! كيف يموت الحب في فصل الربيع ؟

فابك يا قلبي فما الدمع سوى سلوة المحزون أضناه النوى !
رُب صادٍ شرب الدمع ارتوى ودموعٍ أطفأت نار الجوى !

يمرح الناس كما شاءوا على العشب الرفيف
ويغنون مع الطير على نقر الدفوف
للصَّبا البسام ، للحب ، وللنور اللطيف
للربيع الطلق ، للأحلام ، للزهر المَشُوف
وأنا وحديَ ـ يا ويلاه ! ـ ذو قلب لهيف
كل أيامي تغشتها كآبات الخريف

فابك يا قلبي فما الدمع سوى سلوة المحزون أضناه النوى !
رُب صادٍ شرب الدمع ارتوى ودموعٍ أطفأت نار الجوى !

ها همُ العشاق يمشون إلى وادي الغرام
مثلما تمشي إلى الجدول أسراب الحمام
نشوة الحب سرت في دمهم مثل الضرام
والأماني البيض غنّت لهمُ فوق الغمام
وأنا من يأسيَ المُرّ دفين في الرجام
حائر لا أعرف الصفو ولا طيب المقام

فابك يا قلبي فما الدمع سوى سلوة المحزون أضناه النوى !
رُب صادٍ شرب الدمع ارتوى ودموعٍ أطفأت نار الجوى !

يا ربيع الحب ! أين الحب ؟ يا نبع الرجاء
أنا ظمآنُ ! . . . وفي نبعك رِيٌّ للظماء
أنا حيرانُ ! . . . وفي فجرك أطياف الضياء
أنا سأمانُ ! . . . وفي نايك أفراح السماء
لست أدري أربيعي أنت ، أم أنت شتائي ؟
لم أجد فيك لقلبي غير همٍّ وشقاء

فابك يا قلبي فما الدمع سوى سلوة المحزون أضناه النوى !
رُب صادٍ شرب الدمع ارتوى ودموعٍ أطفأت نار الجوى !

ليتني كالطائر الغرِّيد في تلك النواحي
ليتني كالزهرة البيضاء في نور الصباح
ليتني كالجدول الرقراق في تلك البطاح
ليتني كاللحن ، كالطَّل على ثغر الأقاحي
ليتني ! أوّاهُ مما في فؤادي من جراح
فُجّرت منها دموعي ، وأغانيَّ نُواحي

فابك يا قلبي فما الدمع سوي سلوة المحزون أضناه النوى !
رُب صادٍ شرب الدمع ارتوى ودموعٍ أطفأت نار الجوى !

أيها الوردُ ، جميلٌ أنت ، لكني حزينُ
أيها الأفقُ ، رحيبٌ أنت ، لكني سجين
أيها النورُ ، رطيبٌ أنت ، لكني دفين
حطم الدهر جناحي ، وبرت جسمي السنون
ومشى اليأس على قلبي ، وغشّتني الشجون
فحياتي كلها بلوى ، وشكوى ، وأنين

فابك يا قلبي فما الدمع سوى سلوة المحزون أضناه النوى !
رُب صادٍ شرب الدمع ارتوى ودموعٍ أطفأت نار الجوى !

ابرهيم محمد نجا



حول ابعاد الحيز

آلـــة الوقت

THE TIME MACHINE
H. G. WELLS.

[إلى أستاذى الفاضل جردان أهدى هذه الفصول]

للأستاذ خليل السالم

لا أريد بتلخيص هـذا الـكتاب تعريف القراء بالـكاتب المبقرى ويلز ، فويلز ليس غريباً عنهم . لقد سمعوا المحاضرين يتحدثون عنه بكل تجلة واحترام ، وقرأوا الكتاب يستقون من نبمه الصافى آراء ثاقبة فى علم الاجتماع وفى علم التاريخ وحول مستقبل الإنسانية ، وترجم له كثير من الروايات البديعة التى كان فيها نسيج وحده . ولو أننى قصدت ذلك لأصاب مقالى الفشل ، لأن عبقرية ويلز المحيطة لا تبدو جلية واضحة فى مقال قصير ، ولا يعبر عنها تلخيص كتاب أصدق تعبير

أريد بهذا العرض الموجز أن يكون مقدمة مناسبة للبحث « حول أبعاد الحيز » وهو بحث قيم فى فلسفة الرياضيات يجدر بكل مثقف أن يطلع عليه ، وبودى أن أطلع عليـه قراء العربية بواسطة الرسالة الغراء إن اتسع صدرها لمثل هذه الأبحاث

ولسنا فى حاجة للقول أن ظهور هذا الـكتاب منذ زمن بعيد أى نحو سنة ١٨٨٨ لا يغض من قيمته ، فالآثار الخالدة لا تعرف الزمن ولا تقف روعتها عند ما تهرم أو يبلغ عمرها سناً بعينها ، وآلة الوقت طليعة موفقة لروايات أتحف بها ويلز قراء العالم أجمع ، وهذه الروايات تتميز أول ما تتميز بالفكرة العلمية فى بوتقة الأدب الحى والخيال الرائع والتصوير الصادق .

ولا أكتم أن تبيين هذه الفكرة العلمية فى آلة الوقت هو رائدى أولاً وآخراً

نحن فى أمسية صاحية ، وقد جلس مخترع « آلة الوقت » بين نفر من صحبه ينعمون بدفء الغرفة وإشعاع الخمر فى كاساتها ويتناوبون الحديث فنسمع أول ما نسمع مخترع « آلة الوقت » ينعى على العالم قبوله بعض الآراء الخاطئة دون تحقيق أو تمحيص ، ويذكر على سبيل المثال الهندسة الإقليدسية ؛ فهى لا تدرس فى المدارس بالطريقة المثلى ولا تفهم على الوجه الصحيح ، وإلا فكيف نؤمن بوجود مكعب أو أى جسم إذا كان له طول وعرض وسمك فقط ؟ أنستطيع القول أن هـذا الـكعب موجود إذا لم يشغل حيزاً ولو لحظة قصيرة من الزمان ؟

ويستمر فى حديثه قائلاً : من الواضح أن لكل جسم امتداداً فى أربعة أبعاد : الطول والعرض والعلو (السماكة أو العمق) والاستدامة الزمنية Duration . وهذا البعد الرابع (الزمن) لا يختلف عن الأبعاد الثلاثة فى شىء سوى أن وعينا يتحرك معه فلا نشعر به كبعد رابع يمكن أن نتحرك فيه . وإنى لأعجب كيف يجد بعضهم فى فكرة البعد الرابع الهجنة والغرابة . لا أكتمكم أننى كنت من المشتغلين إلى أجل غير قصير بهندسة الأبعاد الأربعة وتوصلت إلى نتائج غريبة : هذه صورة رجل فى الثالثة ثم فى الثامنة ثم فى الخامسة عشرة ثم فى السابعة عشرة ثم فى الثالثة والعشرين وهكذا . وهذه الصور تمثل فى ثلاثة أبعاد كيانه الرباعى الأبعاد الذى لا يتغير ولا يتبدل . أنظروا أيضاً هذا الخط البيانى ، إنه يرمز إلى قراءات البارومتر فى فترات متقطعة من الزمان . لقد كان البارومتر مرتفعاً فى الصباح ثم انخفض قليلاً عند الظهر ثم عاد إلى الصعود ثم عاد إلى الهبوط وهو فى كل هذا يرسم خطاً بيانياً الزمن بعد فيه .

وقد ابتدأ رجال العلم يلمسون هذه الحقائق ، فمنذ أجل قصير سمعت أحدهم يتحدث عن الزمن كبعد رابع يمثل هذا التأكيد

وهنا يعترض أحد الجلوس وهو طبيب : « إذا كان الزمن بعداً كأى أبعاد الفضاء فلم لا نستطيع أن نتحرك فيه كما نتحرك فى الفضاء ونتنقل فيه كما ننتقل من مكان إلى آخر ؟ »

وهنا نرى صاحبنا تلتمع عيناه ونسمعه يجيبه تملو الابتسامة شفتيه : « سؤال وجيه . ولكن قبل أن نحاول الإجابة عليه نريد أن نتحقق من الحقيقة التى يتضمنها كأنها حقيقة مفهومة بداهة . هل حقيقة نستطيع أن نتحرك فى الفضاء بسهولة ؟ أنا متأكد أن هذا صحيح فى بعدين فقط ؛ أما البعد الثالث (العلو) فيشذ عن هذا الحكم . وأنى لنا أن نفلت من سنة الجاذبية ؟ إننا محصورون ضمن جدران المكان لا نتمتع فيه إلا بقدر ضئيل من الحرية والإنطلاق ، وحريتنا هذه تعتمد على ما تمنى لنا المرتفعات والجبال فى الأرض ، أو قوتنا فى القفز العالى ، أو آلات الطيران كالمناطيد مثلاً »

ويقاطعه الطبيب أيضاً : « إذا كنا كما تقول محصورين حقيقة ضمن نطاق المكان فلا شك أن سجننا فى الزمان أضيق حدوداً وأكثر قيوداً ، فأنت لا تستطيع بأى جهد مهما كان عظيما أن تتخلص من اللحظة الحاضرة »

ويجيبه صاحب الاختراع مسرعاً : لا . هذا هو الخطأ بعينه ؛ وهو خطأ درجت عليه الإنسانية من قديم الأزمان منذ عرفت معنى الأبعاد . فنحن نستطيع أن نفك قيود الزمان ، أو وجودنا العقلى الذى لا يتأثر بالأبعاد المكانية يتحرك فى البعد الزمانى بسرعة متناسقة من المهد إلى اللحد كما يسقط فى البعد الثالث جسم على بعد عدة أميال من الأرض . ثم نحن نستطيع أن نستعيد من الذكريات ما نشاء فنسترجع الماضى ونتحرك فى الزمان. وإذا كانت الآلات الطائرة قد سهلت مهمة الانطلاق فى البعد الثالث فلماذا لا ينسنى هذا فى البعد الرابع ؟ أرجو ألا تعجبوا كثيراً أو تستهجنوا أن تكون هذه الفكرة الأخيرة قد شغلت دماغى مدة طويلة . إن هدفاً غامضاً كان يسير أبحاثى ويتجه بها نحو وضع تصميم آلة تتحرك فى الوقت

وبالرغم من رجاء صاحبنا يقاطعه صحبه بعلامات التعجب والدهشة والاستنكار والسخرية ، ولكنه لا يلبث أن يخفف من حدتهم عند ما يخبرهم بكل ثقة واطمئنان أن أبحاثه قد أثمرت ، وأن جهود عامين متتاليين قد وصلت بالآلة إلى درجة الكمال . وليتحققوا من ذلك بأنفسهم يصمم أن يجرب التجربة الأولى تحت سمعهم وبصرهم

ويذهب إلى مختبره ليعود بعد دقائق معدودة يحمل فى يده آلة صغيرة دقيقة الصنع تشبه ساعة الجيب كثيراً ، ويضعها على المنضدة أمامه ، ثم يشير إلى زرين إذا ضغط أحدهما تندفع الآلة فى الزمن ، وإذا ضغط الثانى انعكست الحركة . ويطلب من أحدهم — وهو عالم نفسانى — أن يضغط الزر بنفسه . ولا تستطيع أن تتصور مقدار العجب الذى تملكهم عندما حامت الآلة قليلاً كنسمة عاصفة فوق رؤوسهم ، ثم اختفت ولم تترك خلفها أثراً .

لم يكن للآلة من سبيل لأن تغادر الغرفة ، وهى لم تبق فيها ، فلا شك إذاً أنها سافرت عن طريق البعد الرابع ، وهو بعد عمودى على المتعامدات الثلاثة المألوفة[1] ، ولا بد أن يكون الزمان هذا البعد الرابع كما فهمنا سابقاً .

إذا كانت الآلة قد تحركت بسرعة تساوى سرعة الزمن ، فهى تبقى دائماً فى الحاضر . أما إذا كانت قد تحركت بسرعة تفوق سرعة الزمن ، فتكون قد اندفعت فى المستقبل . أما إذا كانت سرعتها أقل من سرعة الزمن ، فإنها قد عادت إلى الماضى . هذه ثلاثة احتمالات ننفى أحدها وهو الأول ، لأن الآلة لم تبق فى الحاضر ، ولم يكن لدى صاحب الاقتراح طريقة يفصل بها بين الاحتمالين الآخرين ، إلا أنه يقول لصحبه : إن راكب الآلة يستطيع أن يتحقق من ذلك بنفسه . وإذا ما سألوا كيف ذلك

---

(١) سنعود لشرح هذه الفكرة فى مقال قريب فهذه الخاصة أهم ما يمتاز به كون ذو أربعة أبعاد .

أجابهم أن تلك الآلة الصغيرة لم تكن إلا أنموذجاً للآلة التى سيمتطيها عند رحلته فى آفاق الزمان . وينتقل بهم إلى مختبره يريهم تلك الآلة ، ثم ينفض الاجتماع على أن يعود وافى الأسبوع القادم لإجراء التجربة على الآلة الكبرى

* * *

نحن فى مساء الخميس التالى ، وقد جلس الرفاق ينتظرون على أحر من الجمر مخترع « آلة الوقت » الذى تأخر على غير عادة ويقررون أن يقضوا الوقت فى تناول طعام العشاء ، ويتناقلون فى هذه الأثناء حديثاً متقطعاً قلقاً ، ينبئ عما فى نفوسهم من الشوق الملح لمجىء صاحب الاختراع

لا تسل عن مقدار فرحهم ودهشتهم فى آن واحد عندما فتح الباب بكل هدوء وسكون ودخل صاحب الاختراع شاحب الوجه مغبر الثياب ، دامى الأقدام ، كأنه عاد من سفر بعيد عانى فيه ماعانى « السندباد » من ألوان العذاب والشقاء فى جميع رحلاته . وتحار الأسئلة على وجوههم فلا يعبأ بها ، ويعمد إلى كأس مما بين أيديهم من الشراب فيكرعها حتى آخر قطرة ، وكأنه استعاد بعض حيويته ونشاطه ، يخبرهم أنه ذاهب إلى الحمام ، ويرجوهم أن يتركوا له قطعة لحم ، فهو يخشى على معدته أن تهضم نفسها لفرط ما بلغ منه الجوع ... ويعود بعد هنيهة موفور النشاط يقص عليهم خبره مشترطاً ألا يقاطعه أحدهم أو أن يضطره للجدل والنقاش اللذين لا يحتملهما جسمه المجهد المضنى . قال صاحبنا :

« لقد قدر لبعضكم أن يروا يوم الخميس الفائت « آلة الوقت » وهى فى طور الإعداد والتركيب ، وفى صباح اليوم فقط قدر لآلة الوقت الأولى أن تتنسم أولى نسمة من نسمات الحياة وأن تدخل فى العمل ؛ فقد ألقيت عليها نظرة فاحصة أخيرة ، وسكبت بعض نقاط الزيت بين أجزائها وامتطيت صهوتها . وضعت يدى اليمنى على الزر الأول ويدى اليسرى على الزر الثانى ، وكان فى نيتى أن أقوم بالتجربة بنفسى وأتحقق من عمل اختراعى . بقيت غير قليل بين إقدام وإحجام حتى جمعت كل ما فى نفسى من عزم ، فضغطت الزر الأول ، وما راعنى إلا أن أرى الساعة تتقدم ، كأن عقرب الساعات فيها هو عقرب الثوانى ، ورأيت أحدهم يتحرك كأنه عقاب الجو ينقض على فريسته . وعندما ضغطت الزر إلى نهايته ، رأيت الشمس تسبح فى الفضاء بسرعة غريبة ... والليل والنهار يذهبان ويجيئان فى لمحة خاطفة ، وكان تتابعهما مما يؤذى عينى ... ورأيت القمر يتحول بين عشية وضحاها من هلال إلى بدر إلى هلال ... وهكذا وجدت أننى قد قذفت نفسى فى أعماق المستقبل ، ولم يخطر ببالى أن أضغط الزر الثانى لأعكس الحركة ، فقد شغل استكناه المجهول وكشف حجبه وهتك ستائره كل خاطرى ، ووددت أن أعرف التطورات الجديدة التى طرأت على الإنسانية ، وأين وصلت هذه فى تقدمها العجيب . إلا أنه فى الوقت نفسه كان خاطر يزعجنى ، فربما أحاول إيقاف آلتى فلا تعنو لإرادتى وتستمر فى سرعتها ، أو أن تصطدم بمادة فى الفضاء تتحطم عليها ، وعندئذ نفلت أنا وهى من حدود الأبعاد وناتى بكل عنف فى أعماق المجهول ، لذا قررت أن أقف فى هذه المخاطرة عند حد ، فأوقفت آلتى ونزلت أرضاً غريبة لم أتصورها يوماً ما حتى فى أحلامى وأوهامى ، ويخيل إلى أن التقاويم كانت لسنة (٨٠٢٧٠١) واخترت مكاناً هادئاً وضعت فيه آلتى وأخذت معى مفتاح الحركة وذهبت أتجول لأتعرف مناطق الحياة فى هـذا العالم الجديد »

يحدثنا ويلز بعدئذ على لسان بطله عن العالم فى المستقبل فيرى أن الإنسانية لن تنتصر فى التربية الخلقية والتعاون العملى ، وإنما تنتصر بعلم ناضج لا على الطبيعة فقط ، بل على أخيها الإنسان أيضاً . فى ذلك العالم الجديد تفرقة وتباين واسعان بين العامل وصاحب المال ، فالمجتمع منقسم إلى فريقين : فريق يعيش فوق الأرض يمثل أرستقراطية متعجرفة وهو قد آثر الدعة واللين وعمت بين أفراده الاشتراكية فامحت الفروق حتى بين الجنسين وأصبحت الأرض له حديقة غناء ملأى بالأزهار والرياحين ، فليس ما يشغل باله سوى تبادل الحب والتنعم بطيبات المأكل

واللعب الهادىء والاستحمام فى الأنهار والتمتع بالنوم المريح ؛ وفريق ثان يعيش تحت الأرض يدير أعمال الصناعة ويعد الإنسان الأعلى بضرورياته وكمالياته ، ولا يخرج هـذا الفريق من كهوفه إلا ليلاً ، فأصبح النور يؤذى عينيه ؛ ولذا كان سلاح البطل الوحيد الذى يتقى به شر تلك المملكة المظلمة هو عود الثقاب يشعله فتهرب منه تلك المخلوقات الحقيرة كما تهرب الخفافيش من وهج الشمس الساطعة

وقد ارتقى الطب فى العالم الجديد ارتقاء مثالياً فلم يعد يخشى شر الأوبئة بعد ، وعم الأمن سائر أرجائه مما بعث فى النفوس الضعف والارتخاء والكسل

ويشعر المسافر أن الشقة بينه وبين عالم ذلك العصر الذهبى أكثر اتساعاً من الشقة التى تفصل أبناء لندن عن زنوج أفريقيا . ولذا يجد من الصعب جداً أن يشرح لرفاقه مظاهر التقدم والحضارة شرحاً وافياً . ترى ماذا يستطيع زنجى نزل لندن وشاهد ابتكارات العلم فيها أن يصف لقومه إذا ما رغب التحدث عنها ؟

ولا أحب أنا أن أطيل فى الوصف الذى حدث به المسافر ، فالإيجاز هنا يقلل من روعة الخيال وسموه ؛ وأفضل أن يعود القارئ إلى الكتاب فيتمتع بالجو الذى يخلقه ويلز ويطلع على آرائه المبنية على الفكرة العميقة والنظر الثاقب ؛ وتقدر هذه الآراء حق قدرها إذا علمنا أنه قدم اقتراح لأن يصبح ويلز « نبى العرش » كما أن هناك « شاعر العرش » . وذلك لكثرة ما حدث ويلز عن مستقبل العوالم القادمة ، ولكثرة ما أصاب فى كثير من تنبؤاته

وقبل أن ينتهى المسافر من قصته الشائقة التى تذكر برحلة « جمفر » فى بلاد « ليليبت » يخاطب رفاقه بصوت هادئ رزين : « لا أتوقع أن تصدقوا كل أقوالى ، غير أنى أترك لكم أن تظنوا بى ما شئتم من الظنون . اعتبروها كذبة أو نبوءة ، قولوا إنها حلم أو تأمل لمصير الإنسانية ، وإننى عند ما أحاول تأكيد صحتها إنما أفعل ذلك لأزيد فى لذة القصة وجمالها ؛ ولنفرض أنها رواية فماذا ترون فيها ؟ »

هـذا ملخص موجز لكتاب آلة الوقت ، وبودى أن أنبه إلى أن هذه الفكرة العلمية — الزمان بعد رابع — التى زين بها ويلز جيد روايته كانت قبساً مشعاً استنار به ناموس النسبية ، ذلك الناموس الذى يعد بجدارة أقصى ما توصل إليـه العقل البشرى من الكمال فى التحليل الرياضي الطبيعى . هل الزمن حقيقة بعد رابع ؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه فى البحث القادم

(الجامعة الأمريكية — بيروت) خليل السالم



كيف يرى الأستاذ المراغي الإصلاح ولا ينفذه

نشكر للأستاذ الجليل صاحب مجلة الرسالة عنايته بإصلاح الأزهر ، لأنا نعتقد أن عنايته بهذا الإصلاح ستكون من أكبر العوامل فى تحقيقه ، لما للرسالة من المكانة بين الناس عموماً ، وبين الأزهريين خصوصاً

وقد طلب الأستاذ الجليل من الكتاب أن يشرحوا الحوائل التى تعترض هذا الإصلاح ، وتمنع الأستاذ المراغى من تنفيذ ما وضعه فى ولايته الأولى على الأزهر ، وهأنذا أبين فى إيجاز تلك الحوائل

فإصلاح الأزهر على الوجه الذى يريده الأستاذ المراغى وغيره من المصلحين ، يقتضى أن نفتح باب الاجتهاد فى علومنا كلها ، وفتح باب الاجتهاد فى تلك العلوم يقضى على الكتب التى تدرس فيها من مئات السنين ، والقضاء على تلك الكتب يقتضى خلق أزهر جديد ، ويقضى على الأزهر القائم الآن ، وهنا تعمل غريزة حب البقاء عملها ، وتقف المصالح فى سبيل الإصلاح ، وهى مصالح الكثرة الغالبة فى الأزهر ، لأن أنصار الإصلاح بيننا قلة لا تذكر . وقد أراد الأستاذ المراغى أن ينفذ ذلك الإصلاح فى ولايته الأولى ، فوقفت تلك الكثرة فى سبيله ، وألجأته إلى ترك منصبه ، فلم يشأ فى هذه المرة إلا أن يلاين تلك الكثرة ، ويتغاضى عن تنفيذ الإصلاح الذى يراه ، حتى تتهيأ له الأسباب ، فانصرفت النفوس عن الإصلاح تبعاً لانصرافه عنه ، وصارت تمنى بأمور أخرى من الوظائف وما إليها ، حتى استفحل الداء ، وأعضل أمر الدواء

ورأيى أن هـذا الإصلاح لا يمكن تنفيذه بدون معونة الحكومة ، فهى التى نفذت بالقوة أولى الخطوات فيه ، وهى التى تستطيع بقوتها أن تنفذ هذه الخطوة الأخيرة منه .

« عالم »

تيسير الكتابة العربية

درست لجنة الأصول فى مجمع فؤاد الأول للغة العربية مختلف المقترحات التى قدمت إليها فى شأن تيسير الكتابة العربية وإدخال الشكل فى صلب الحروف تخلصاً من الخطأ فى الضبط وتسهيلاً للكتابة المشكولة فى المطابع . وفى مقدمة المقترحات التى عنيت بها اللجنة مقترح للأستاذ على الجارم بك ، وقد نظرته فى جلسات متعددة ، وأدخلت عليه بعض التعديلات ، وينتظر أن يعرض قريباً فى صورته النهائية مذكرة لتطبيقه مكتوبة بالقواعد المرسومة فيه ، فإذا أقرته اللجنة أدرج فى برنامج الاجتماع المقبل لمجلس المجمع

مأساة الفقهاء فى عهد إسماعيل

أشار أحد الكتاب الأفاضل فى مقال له بالعدد (٤١١) إلى هذه الواقعة إشارة عابرة . وأحسب أن كثيراً من ناشئة هذا الجيل — وأنا منهم — يجهلون كل الجهل وقائع هذه المأساة على قرب عهدها فى تاريخنا الديد شأن كثير من حادثات هذا الوطن جهلتها أو تجاهلتها كتب التاريخ الحديثة التى بين أيدينا

فهلا تفضل أحد علماء الأزهر الأفاضل الذين يكتبون فى « الرسالة » فحدثنا حديث هذه المأساة ... وإنا له لشاكرون ...

« المنصورة » عبد الفتاح حسين عطية

دخول أل على غير

ذكرتنى الكلمة التى كتبها الأديب أحمد حلمى العباسى فى العدد ٤١٢ من الرسالة عن دخول أل على غير، ببحث كنت نشرته فى جريدة الأهرام منذ عامين فى هذا الموضوع ، خرجت منه يومئذ ـ مؤيداً بمعاجم اللغة وكتب النحو ـ بعدم جواز دخول أل عليها لأنها متوغلة فى الإبهام لا تتعرف

ثم نشب على صفحات الأهرام جدال عنيف حول هـذا البحث ولكنه لم ينته إلى رأى حاسم ؛ وكانت شواغل الامتحان وشواغل العيش.

ولقد تبين لى فى أثناء مطالعاتى طوال تلك المدة أن ذلك الرأى لا يخلو من تعسف ، ذلك أنى وجدت أكثر المؤلفين القدامى فى اللغة والأدب ينصون فى كتبهم على أنها كلة مبهمة

لا تدخل عليها أل ؛ ثم أراهم يقعون فيما منعوه وهذا غريب . فالأشمونى والصبان وابن هشام والأمير وأصحاب شروح التلخيص وغيرهم يذكرون (الغير) عشرات المرات مع أن منهم من نصّ على تخطئتها

وليست (غير) وحدها التى حرمت أل ؛ بل كذلك (كل) و (بعض) ؛ والمؤلفون يعرّفونهما فى كتبهم

ثم رأيت ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة ينص على أن ذلك لا يجوز ؛ ولكنه يبيح لنفسه استعماله فى مواطن خاصة فيقول : « وقد استعملتُ فى كثير مما يتعلق بكلام المتكلمين والحكماء خاصة ألفاظ القوم مع علمى بأن العربية لا تجيزها نحو قولهم الكل والبعض والصفات الذاتية والجسمانيات ونحو ذلك مما لا يخفى على من له أدنى أنس بالأدب ، ولكنا استهجنّا تبديل ألفاظهم ، فمن كلم قوماً كلمهم باصطلاحهم » اه . وتلك حجة تؤيد الدكتور زكى مبارك فى بعض ما يذهب إليه من آراء فى اللغة . . .

ثم أراد الله أن أهتدى — فى كتاب من كتب الفقه — إلى تعليل لإدخال (أل) على هذه الكلمات ، والحق أنه تعليل طريف اطمأنت له نفسى ، وقرت به عينى

كنت أقرأ فى (باب الحج عن الغير) فى حاشية ابن عابدين فوجدت تَطْلِيقى عفواً . وهأنذا أنقل ما وجدت إلى القراء . قال ج ٢ ص ٢٤٢ : « اعترض فى الفتح بأن إدخال أل على غير غير واقع على وجه الصحة ، بل هو ملزوم الإضافة . إه

لكن قال بعض أئمة النحاة : منع قوم دخول الألف واللام على غير وكل وبعض وقالوا : هذه كما لا تتعرف بالإضافة لا تتعرف بالالف واللام . وعندى أنها تدخل عليها فيقال (فعل الغير كذا) (والكل خير من البعض) . وهذا لأن الالف واللام هنا ليست للتعريف ولكنها المعاقبة للاضافة ، لأنه قد نص أن غيراً تتعرف بالإضافة فى بعض المواقع ، ثم إن الغير قد يحمل على الضد ، والكل على الجملة ، والبعض على الجزء ، فيصلح دخول الألف واللام عليه أيضاً من هذا الوجه ؛ يعنى أنها تتعرف على طريقة حمل النظير على النظير ، فإن الغير نظير الضد والكل نظير الجلة والبعض نظير الجزء ، وحمل النظير على النظير سائغ شائع فى لسان العرب كحمل الضد على الضد كما لا يخفى على من تتبع كلامهم . وقد نص العلامة الزمخشرى على وقوع هذين الحلين وشيوعهما فى لسانهم فى الكشاف . أفاده ابن كمال » اه

قلت : فى هذا مقنع وغناء ، فقل (الغير) حيث تشاء

محمد محمود رضوان

المدرس بالمدرسة النموذجية

أمتاع الأسماع

قرأت — فى الرسالة عدد ٤١٢ — كلمة الأخ الصديق الأستاذ محمد عبد الغنى حسن عن كتاب « إمتاع الأسماع » الذى ألفه المقريزى ، وكان لى شرف تصحيحه وشرحه ، وإنى لأشكر للأخ الكريم ثناءه وحسن ظنه بأخيه . جزاه الله عنى أفضل الجزاء

وقد استدرك الأخ الأستاذ بعض ما فاتنى من الخطأ ، فله الشكر على اهتمامه وحسن تَهَدِّيه ويقظة عينيه ، وإن صحّ لى أن أقول شيئاً تعقيباً على استدراك الأستاذ ، فلست أزيد على أن التصحيح المطبعى صناعة وفنّ قبل أن يكون علماً ودراية ، وكل ما استدركه — إلا الفقرة الأولى يدخل فى باب تصحيح الأخطاء المطبعية ، فالأخيرة منها مثلاً ، وهى : « من هوزان » ص ٤٠١ مذكورة فى هذا الوجه نفسه مرات كثيرة على الصواب « هوازن » بتقديم الألف على الزاى — لا كما جاءت فى تصحيح الأستاذ نفسه « هوزان » كما فى الإمتاع !! — ، ولكن تنبُّه الأستاذ إلى مثل هذه الأخطاء يدل على دقة وبصر ، وأنه يحسن التصحيح المطبعى وذلك لما جُبِل عليه من الهدوء والوداعة

وأما الفقرة الأولى من استدراكه ، وهى التى جاء فيها تعقيبه على هذا الرجز : ص ٢٢٢

« اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدّقنا ولا صلّينا
. . . .
إن الأُلى قد بغوْا علينا . . . .

وقوله : إن صواب الأول : « لا هُمّ لولا أنت ما اهتدينا » وإن صواب الأخير : « إن الألى لقد بغوا علينا » ، ثم تعجبه من أن يفوتنى ذلك الاختلال فى وزن الرجز ، وأنا شاعر وعروضىّ !! فإنى أبرأ إليه من نسبة العروض ، فطالما أفسد العروض ما بينى وبين أصحابى من الشعراء ، وليس الأمس ببعيد

ورواية الأول : « اللهم لولا أنت ما اهتدينا » ، هى الواردة فى الأصل ، وفى البخارى وفى مسلم (شرح النووى ج ١٢

ص ١٦٦) ، وفى أكثر كتب التاريخ والسير والحديث . وقد جاءت الرواية التى ذكرها الأستاذ فى كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ج ٢ ص ٥١ ، وجاءت رواية أخرى : « والله لولا الله ما اهتدينا » فى البخارى ج ٥ ص ١٠٩ ، وأخرى : « والله لولا أنت ما اهتدينا » فى مسلم (شرح النووى) ج ١٢ ص ١٧٠ و ١٧١ ، وقال النووى فى ذكر الرواية الأولى ج ١٢ ص ١٦٦ ما نصه : « كذا الرواية » قالوا : وصوابه فى الوزن « لا هم » ، أو « تالله » ، أو « والله لولا أنت » كما فى الحديث الآخر : « فوالله لولا الله ... »

ورواية الأخير : « إن الألى قد بغوا علينا » هى الواردة فى الأصل أيضاً ، وفى البخارى فى مواضع ، وفى مسلم ج ١٢ ص ١٧١ ، وفى أكثر كتب السيرة والتاريخ والحديث . وجاء فى مسلم ج ١٢ ص ١٧٠ : « والمشركون قد بغوا علينا » ، وفى ص ١٧١ منه ما نصه : « وربما قال [يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم] : إن الملا قد بَغَوا علينا » ، وهى فى اختلال الوزن كالرواية الأولى التى أثبتناها . ومثلها فى ذلك أيضاً رواية من روى : « إن الأعادى بغوا علينا »

وقد نص شراح كتب السير ، وشراح البخارى ، على أن هذا الرجز ليس يتّزن (أنظر العينى ج ١٤ ص ١٣٢ ، وابن حجر ج ٧ ص ٣٠٨) ، ولم يصححوه أو يبدلوه إلى ما يتزنُ ، مما جاء فى الروايات الأخر ، كالذى ذكر الأستاذ « إن الألى قد بغوا علينا » ، وهى رواية ابن سعد ج ٢ ص ٥١

فإذا كان أصحاب العلم والدراية والبصر بالرواية لم يفعلوا ما أرادنى الأستاذ على أن أفعله — من حيث أنى عَرُوضى كما يقول ! — فلى العذر تابعاً لهم ، مقتدياً بهم ، حريصاً على ألا أبدّل أو أحرف ما اتفق عليه الأصل الذى أطبع عنه ، والروايات المتعددة التى جاءت فى أصح الكتب إسناداً أو رواية وتحريراً بعد كتاب الله

هذا ، والكلام عن مثل هذا الرَّجَز — وما يقع فى بعض أوزانه من الاختلال والاضطراب — يفضى إلى القول فى المواضع التى كان يُنشَدُ فيها ، وكيف يكون إنشادُه ؟ ولِمَ يُتجاوز فيه عن الوزن ؟ ولو نظر الأستاذ الشاعر إلى صلة هذا الرَّجَز بما كان من الصحابة فى حفر الخندق ، وحملهم التراب فى المكاتل ، وسيرهم مصعّدين ومصوّبين . متوافقين فى الإنشاد يحدُون به أصواتهم مختلطة مرتفعةً ، لعَلِمَ عِلْمَ ذلك ، ولكفانا مؤونة الجرى وراء العروض ، أهو يتّزنُ أو لا يتزن ؟ حتى يبلغ بنا ذلك إلى تبديل الروايات وتحريفها ، وقد جاءت عمن كان أعلم منا بالشعر والعروض

وأخيراً ، أشكر للأستاذ هذه الهمة التى دفعته إلى النظر والتنقيب ، والبحث والتنقير ؛ وأثنى عليه بما هو له أهل ، وأسأله أن يتغمّد خطأ أخيه بما أعرفه من نبله وعلمه وفضله والسلام

محمود محمد شاكر

ابرهيم طوقان !

ألقى إلىَّ بريد فلسطين صباح الثلاثاء الماضى رسالة من نابلس ، وجّهتها « لجنة تأبين الشاعر الأديب المرحوم إبرهيم طوقان » ...

وإنه لمما يضاعف الحزنَ على الفقيد الشاب والإحساسَ بشدة المصاب فيه ، ألا يَذيع نعيُه إلا مع الدعوة لتأبينه ، وقد كان من المنزلة بين شعراء العربية وأدبائها بحيث يحس فقدَه كل من تربطه به صلةٌ من الودأو صلةٌ من الأدب فى مختلف أقطار العربية .

وما أريد أن يُذهلنى مصابى فيه عن توجيه العتب إلى أصدقائه وخاصّته فى فلسطين : كيف فاتهم أن يَنعوهُ يوم نعوه إلى أدباء مصر ، وهو كان أقرب صلة وأدنى منزلة ، وله فيهم عشرات من الأصدقاء الأوفياء يعرفون فضله ويُعجبون بأدبه ؟

ألا إن الخطْب فى إبرهيم ليس خطب أسرته وأهله ولا خطب أصدقائه فى نابلس وفلسطين ، ولكنه خطبُ كل أديب عربى تذوق من شعره ، أو اطلع على نتائج رويّته وبحثه ، أو استمع إلى صوته فى المذياع من محطة القدس العربية ...

ولكنه قد مات ، واخترمته المنون فى نضرة الصبا وعنفوان الشباب ، وهذا ناعيه ينعاه ... فماذا على أصدقائه بعد ؟

لقد عاش إبراهيم حياته عزوفاً عن الشهرة ، بعيداً عن الفخر والادعاء ؛ فما عرفه حق العرفان إلا طائفة قليلةٌ من قراء

العربية وإن كان فى حقيقته بالمنزلة التى لا يتسامى فلانٌ وفلان من ذوى الألقاب الأدبية . وإنه على أصدقائه اليوم لحقًّا يقتضيه الأدب ويقتضيه الوفاء : أن يذيعوا ما يعرفون من فضله وينشروا ما طواه من أدبه ؛ وإنه لجدير بأطيب الذكرى وأحسن الثناء !

وهأنذا أعتمد على كرم صديق الأستاذ الزيات ، فأدعو من يشاء من خاصة الفقيد وأهله وذوى ودّه ، أن يبعثوا إلى الرسالة بما يريدون أن يعرف الأدباء عن طوقان الشاعر المحقق الأديب ، وإن فى صدر الرسالة لَسَعَة لمن يشاء أن يسجل آية من آيات الوفاء للشاعر الشاب الذى وهب حياته للعربية ومات فى ميدان الجهاد !

أما الدعوة لتأبينه وضجة الحرب تبتلع الأصوات ، وتردّ الألسنة فى الأفواه ، فدعوة إلى غير نتيجة وعمل ليس فيه غناء !

وعزاء إلى أسرة الفقيد وأصدقائه ، وإلى فلسطين الصابرة المأجورة .

محمد سعيد العريان

إلى علماء الإسلام

يا أحق الناس بالحلم وأولاهم بسعة الصدر ، هبوا لى بعض وقتكم وازلوا لأنفاسهم معكم ، فإن كنتم على صواب تملت منكم واعتذرت لكم ، وإن كنت محقاً فارجعوا إلى الصواب مأجورين مشكورين !

أرى الإقبال على الأزهر الشريف والمعاهد الدينية فى ازدياد مستمر ، وأجد المتخرجين منها كثيرين كثرة ملحوظة ؛ فأسائل النفس لم يفنى كل هؤلاء الطلبة ربيع حياتهم فى الجلوس إلى المعلمين واستذكار الدروس ، لينالوا شهادة لا يوظف بها إلا القليلون ، أم ليظهروا على الناس بعلمهم ويفرضوا عليهم احترامهم ، أم ليلزم كل منهم صومعة ويعبد الله بعيداً عن الدنيا ومن فيها

إن كانت هذه هى الغاية فما لهذا يعمل ذو عقل ، وما لهذا يصح لإنسان أن يعيش عالة على أهله نصف عمره أو يزيد ؛ وقد كان الأفضل أن يستثمر شبابه فى زراعة أو صناعة أو أى عمل فيفيد ويستفيد

لم تتعلموا إذن لشىء من هذا ولكن لقصد أشرف وغرض أنبل ؛ تتعلمون لتعملوا ، ولتعلموا الناس فيعملوا

إن كان ذلك كذلك فالواقع لا يقره ، والمشاهد ينكره ولا يؤيده ؛ فليس هناك منكم إلا فئة أقل من الضئيلة تحاول ذلك بطريقة عتيقة تكاد لا تتغير ، وما أثمرت ولن تثمر أبداً

أنظروا إلى عددكم تخفكم كثرتكم ، وفتشوا عما أفادت الأمة منكم ، ثم أجيبونى : هل نحن فى بلد إسلامى به مثل هذا الجيش من العلماء

ألا فاعلموا أن بعد الموت حساباً ، وأنكم ستسألون يومئذ عما فعلتم بعلمكم

الدين صحيح مدعم بالحجج القاهرة والبراهين القاطعة ، وعقول الناس مهيأة لتلقيه متى حسنت طريقة تلقينه . فهلا قمتم من رقادكم ، وأفقتم من غفوتكم ، وجمعتم صفوفكم ، وتدارستم أمركم بينكم ، ثم استنبطتم وسائل جديدة للدعاية لدينكم ، ثم ألفتم لجاناً وجميات وعلمتموه للناس وحببتموه إليهم

لا تحصروا نشاطكم فى وعظ من بالمساجد ، فلا يؤمها إلا الصالحون أو المتشبهون بالصالحين

علموا الناس حيث وجدتموهم . علموهم فى دور الملاهى والصور المتحركة والمقاهى والحانات والمنتديات والمتنزهات . عظوهم فى الشوارع والأزقة والمآتم والأفراح . عظوهم فى الصحف والكتب والمجلات والمذياع وعلى الشاشة البيضاء

لا تقولوا لهم إن الله أمر بقطع يد السارق ، وقتل القاتل ، ورجم الزانى ، ولا تقولوا لهم أدوا الصلاة فى أوقاتها ، وأخرجوا زكاة أموالكم ، وصوموا وحجوا ؛ ولكن بينوا لهم الحكمة فى كل شىء ، واشرحوا لهم الضرر فى إتيان ما نهوا عنه والفائدة فى اتباع ما أمروا به ، وعرفوهم ما يلاقيه المتدين من انشراح صدر وجميل عزاء ونعومة بال

صفوا لهم الرجل الكامل (الأسبور والجنتلمان) ، وقارنوا بينهما وبين متخلق بأخلاق القرآن ، وأروهم الفروق بينهم ، واشرحوا لهم أن الدين لا يتنافى مع المدنية الحقة إن لم يكن أصلها ومبدعها

جزيرة ميت عقبة — إمبابه مصطفى ميرهم

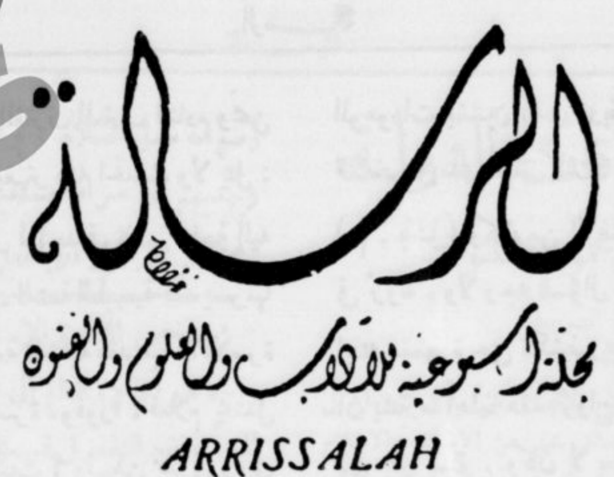
(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)



9 me Année No. 414

Lundi - 9 - 6 - 1941





ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

السنة التاسعة « القاهرة فى يوم الاثنين ١٤ جمادى الأولى سنة ١٣٦٠ — الموافق ٩ يونية سنة ١٩٤١ » العـــدد ٤١٤

الفهـــــرس

حول مشكلة الزواج

إلى السيدة « ليلى »

لم تَعْدِى الصواب يا سيدتى حين قلت فى كتابك الرقيق المدْرَج فى مقالك البليغ : إن لكل من الشباب والشواب معايب ومطالب قد تعاونت على خلق مشكلة الزواج ؛ ولكن السبب المباشر والمصدر الأول هو المادة

وتصديقاً لقولك أسوق إليك قصة سمعتها من بطلها الدكتور « م . ش » . والدكتور « م . ش » يا سيدتى فتى سَوىّ الخَلق كامل الثقافة ، يملأ البصر والسمع بروعة منظره وبراعة حديثه . نشأ فى بيت من أوساط البيوت ، ولكنه تعلم فى أوربا ، وتقدم فى الوظيفة ، فنحا منحى الأوربيين فى العيش ، وسَمَت سَمْت الأرستقراطيين فى المظهر ؛ فهو يلبس كما يلبسون ، ويجلس حيث يجلسون ، ويلح بالسرف على مرتبه الكافى حتى يضيق بشهواته فيتمزق عند منتصف الشهر ، ثم يكون فى النصف الآخر حملة على والديه

حسبك يا سيدتى من وصفه هذا ، فإنى لأخشى أن يُكشف فيُعرف ؛ ومعرفته تجر إلى معرفة الفتاتين اللتين ضحى بهما لهواه ؛ وإذا علمت أسرتاهما أنهما ذُكرتا فى موضع العبرة ، كان ذلك أشد على نفوسهما من ألم المصيبة .

قال الدكتور ذات مساء بلهجة المقترف المعترف النادم ونحن نتناقل الحديث عن جنسك الذي لا يفتُر عنه الحديث ولا يُمل :

كنت مصروفاً عن الزواج لأني لم أجد في نفسي حاجة إليه ولا في رأيي فائدة منه . إن كان يطلب للمتعة الطبيعية فقد يسرتها المرأة الطليقة ؛ وإن كان يطلب للراحة المنزلية فقد هيأتها الأسرة الشفيقة ؛ ومادام الأنس بالمرأة والأسرة موفوراً ، فعلام يُحتمل عنت الزوجة وهم الولد وتكاليف البيت ؟ ولكن سَرفي وترفي وقلة مرتبي وضيق ثروة أبي ، نبهتني إلى أن الزواج يطلب لأمر ثالث : هو الثروة . فرغبت إلى أمي أن تستعين بالأقارب والصواحب والخواطب على أن تجد لي (بنلة المشر) ، فعقدّبن على عيني أشتاتاً من العبقريات الحسان يملكن كل شيء إلا ما أريده ، حتى وصلتني إحدى الخاطبات بفتاة قالت إنها أكثر مما أطلب . ثم خلى أهلها بينها وبيني ، فتلاقت عينانا ، ثم فكرانا ، ثم قلبانا ، فما أنكرت منها خلقاً ، ولا ذممت لها صحبة : ملاحة شرقية تسترق البصر ، وثقافة عصرية ترضي العقل ، ورشاقة رياضية تملك النفس ، وشهوة جامحة لعيش المترفين تصور لها بالألوان السحرية أي قصر ستسكن ، وأي حلة ستلبس ، وأي سيارة ستركب ، وأي حفلة ستقيم ، وأي أسرة ستقدير ؛ فرأيت في رغباتها وحياتها صورة رغباتي ونمط حياتي ، كأنما خلقها الله رضاً لهواي وتحقيقاً لمناي وتماماً لنفسي . ثم توثقت بيننا على جلوات الربيع وخلواته عرى المحبة ، فتساقينا كؤوس الهوى في كل حديقة وعلى كل نهر ، وأخذنا نهدهد حبنا الوليد على أناشيد الأمل انتظاراً ليومنا الموعود وعيشنا المرتقب !

على أن وحدة الخلق وجمعة الأمل وألفة الهوى لم تُنسني السؤال عن المحبوب الأول والمطلوب الأولى وهو المال . ولشد ما كانت خيبتي حين تكشّف لي غناها عن دَين فادح لا ضمان له ، ورياء فاضح لا حيلة فيه . حينئذ تغير النظر وتبدل الرأي واختلف الغرض ، وأصبحت الخطيبة الحبيبة كمشرات الأوانس اللائى عقدتُ بهن أسبابي ، وأذقتهن ضلال نفسي وعبث شبابي . إذن فما معنى أن أجمع بين طمعي وطموحها ، ثم لا أملك لي ولا لها تحقيق أمل ولا قضاء نَهْمة ؟

مشيت معها مشي الشباب المعروف أعدُها وأمنّيها ، والخواطب الموعودات يمشين الدور ويقتحمن الخدور باحثات عن الثراء الضخم في أي فتاة كانت ؛ حتى اهتدين إلى ابنة المرحوم (م . باشا) وكان من الأغنياء المذكورين ، فلا مساغ للشك في ثروته ، ولا وجه للسؤال عن ملكه . وكان العجب أن تظل ابنته مغمورة حتى تكشف عنها الخاطبة ، ولكن أعجب العجب أن يشترط أهلها عقد الزواج من غير رؤية ، وتعجيل يوم الزفاف من غير مهلة . وكان لا يعنيني أن أسأل الخاطبة عن حِلية الخطيبة ، فإنها إن تكن جميلة ظفرت بالحسنيين ، وإن تكن دميمة كان لها مني بحكم زواجها بيت ، ولي مع غيرها بفضل ثروتها ألف بيت !

وفي الحق أني تمثلتها حين دخلت بها كومة عالية من اللحم والشحم أضفوا عليها أفواف الوشي وشفوف الحرير ، وفي ذروة الكومة نتأ رأس كرأس أبي الهول طوقوا أسفله بالذهب ، وتوجوا أعلاه باللؤلؤ . ولا تسل عن الذراعين والساقين فإنهن قوائم فيل أو أساطين هيكل ! ولكنها على بدانتها – شهد الله – خفيفة الظل عذبة الروح . وحسبي منها ألا تكون هُولةً تقذى العين وتؤذي النفس في الساعات القليلة التي ألمُّ بالبيت فيها

أطلقتْ يدي في ثروتها ، على الرغم من معارضة أسرتها ، فعشت عيش الأمراء السفهاء أنفق باليدين على خليلاتي وندماي وهي تنظر و تُغضي ، وتسمع وتسكت ، كأنما وازنت بين جمالهن وجمالها ، وقارنت بين حالي وحالها ، فلم يسعها غير الرضا بهذا النصيب . وكنت قد خدعت خطيبتي الأولى عن نفسها بقوة النقود والوعود فخضعت لي خضوع النوّمة . ثم ركض بي في طريق الغواية فرس الهوى الجموح ، وخلفت في غبار النسيان حليلة يذيبها فقدُ زوجها ومالها فتموت ، وخليلةً يذلها ضياع أملها وشرفها فتُجن ! ...

***

لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الأبصار . ما كان حديثاً يُفترى ؛ ولكنه الواقع يا سيدتي يثبت لك أن المال إذا جُعل غاية للزواج كان شقاء لمن وجدته ولمن فقدته على السواء . فهل سمعت حديثاً كهذا الحديث ، أو رأيت خبيثاً كهذا الخبيث ؟ ؟

احمد حسن الزيات

الاسلام والعلاقات الدولية

للأستاذ الشيخ محمود شلتوت
وكيل كلية الشريعة

[عقدت رابطة الاصلاح الاجتماعي مؤتمراً في شهر أبريل الماضي عالج فيه الخطباء مسائل شتى من الاسلام والاصلاح الاجتماعي ، وكان من بحوثه القيمة هذا البحث الممتع لفقيه الكبير الأستاذ محمود شلتوت وكيل كلية الشريعة ، وهو نوع جديد من البحث الفقهي يسهل على الناس تناوله ، ويبين لهم بعض كنوز الفقه الاسلامي وما فيه من قواعد يظن كثير من الناس أنه لم يعرض لها]

مقدمة

كان العالم – قبيل الدعوة الإسلامية – يتخبط في ظلمات داجية من الشرك والوثنية ، والجهل والعصبية ، والظلم والاستبداد كانت الظاهرة العامة التي تنتظم الوجود إذ ذاك هي الفساد في كل شيء : فساد في العقائد ، فساد في الأخلاق ، فساد في العلائق الاجتماعية ، فساد في نظم الحكم والسياسة

كان الناس يعيشون في أسر الأوهام والأباطيل والشبهات والعقائد الفاسدة . كانت الغرائز الحيوانية والطباع الوحشية مسيطرة على أخلاقهم وتصرفاتهم ، بينما الصفات الإنسانية في غفلة وذهول

كانت علاقة الفرد بالفرد والأمة بالأمة تقوم على أساس الموازنة بين الضعف والقوة : يفتك الأقوياء بالمستضعفين ، ويستلب القادرون حقوق العاجزين ، ويستنزف الغالبون دماء المغلوبين .

كانت قاعدة السياسة بين الحاكمين والمحكومين هي شهوات الرؤساء ورغبات السلطين : يتحكمون في الرقاب والأموال والأرواح والأعراض ما شاء لهم الهوى والغرض ، وما أسعفتهم عوامل القوة والبطش والجبروت

من أجل ذلك قضت حكمة الله أن ينتشل العالم من حمأة هذا الفساد ، وأن ينقذه من براثن هذه الفوضى ، وأن يداويه من تلك الأمراض الفتاكة التي تفشت تفشي الوباء في جميع الأرجاء

وهكذا بزغت شمس الإسلام ، فبددت ذلك الظلام

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم »(1)

عناصر الدعوة الاسلامية

تتلخص الدعوة الإسلامية مهما تشعبت فروعها في مبدأ واحد هو (دعوة العالم إلى الخير) . فإذا أردنا أن نفصل في هذا المبدأ بعض التفصيل قسمناه إلى نواح ثلاث هي :

التوحيد ، والمساواة ، والعدل

١ – أصلح الإسلام بالتوحيد فساد العقيدة . فدعا الناس إلى احترام عقولهم بهجر ما كانوا عليه من الأوثان ، معلناً أن للكون رباً عظيما ، وإلهاً مدبراً حكيما ، هو الجدير وحده بأن يعبد .

(لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير)(2)

ولم يخرج بهذه الدعوة على أصل الفطرة وطبيعة الإنسانية ، ولم يخالف بها ديناً من الأديان قبله

(فطرة الله التي فطر الناس عليها)(3)

(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)(4)

٢ – وقرر بالمساواة مبدأ الوحدة الإنسانية التي لا تعرف التفريق بين جنس وجنس ، ولا بين لون ولون ، ولا بين عنصر وعنصر

(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا : إن أكرمكم عند الله أتقاكم)(5)

(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء . واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام)(6)

٣ – وقضى بمبدأ العدل على الظلم والتحكم والاستبداد ، وأقر به الأمن والطمأنينة والرضا ، ولم يفرق فيه بين قريب وبعيد ، ولا بين عدو وصديق ، ولا بين مؤمن وكافر :

(1) الآية : ١٦ – سورة المائدة
(2) الآية : ١٠٣ – من سورة الأنعام
(3) الآية : ٣٠ – الروم
(4) الآية : ١٣ – الشورى
(5) الآية : ١٣ – الحجرات
(6) الآية : الأولى – النساء

(لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط)[١]

(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا)[٢]

على هذه الأسس بنى الإسلام سياسته الإصلاحية فيما بين المسلمين والمسلمين ، وفيما بين المسلمين وغيرهم من الأمم المختلفة .

والذى يهمنا فى هذا البحث هو استخلاص القواعد التى وضعها الإسلام تنظيما للعلاقات الدولية : وذلك ينتظم :

١ — القواعد التى ينظم بها علاقته بالدول الأخرى

٢ — القواعد التى ينظم بها علاقته بمن يعيشون فى بلاده من غير المسلمين

العلاقة بالدول الأخرى

إن العلاقة بين المسلمين وغيرهم لا تخرج عن إحدى حالتين : إما حالة سلام ووئام ، وإما حالة حرب وخصام . وفى ضوء ما تقدم نرى الإسلام ينظر إلى الحالة الأولى على أنها الحالة الطبيعية الأصلية ، ولا يطالب من غير المسلمين فيها إلا أن يخلّوا بينه وبين ما يريد من الدعوة إلى مبادئه دون أن يضعوا فى طريقه العقبات ، أو يثيروا أمامه الفتن والمشكلات . ذلك بأن دعوته هى دعوة الحق والعقل والصلاح والرشاد ؛ وأن العقول إذا خليت وشأنها ارتاحت إليها وآمنت بها عن طريق الاقتناع والرضا ، لا عن طريق الإلجاء والقهر

(أدعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن[٣]) (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن[٤]) (لا إكراه فى الدين . قد تبين الرشد من الغى[٥]) (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين[٦] !)

وهكذا يقرر القرآن أن الدعوة إلى الله لا يكون طريقها الإلجاء والقهر ؛ وإنما يكون طريقها الحجة والبرهان . ولو تركه الناس يسرى بحجته وبرهانه ، وخلوا بينه وبين العقول ، ولم يضعوا فى طريقه العراقيل ، لما سفكت قطرة واحدة من الدم فى سبيل الله ، ولغزت دعوته العقول ، ونفذت إلى القلوب

(١) الآية : ٢٥ — الحديد (٢) الآية : ٨ — المائدة
(٣) الآية ١٢٥ النحل (٤) الآية ٤٦ العنكبوت
(٥) الآية ٢٥٦ البقرة (٦) الآية ٩٩ يونس

والإسلام يسلك فى هذه الدعوة السلمية الإقناعية كل طريق تواضع عليه الناس فى دعوتهم إلى المبادئ ودفاعهم عنها ، وبيانهم لمزاياها : من خطب فى المجتمعات ، ومن كتب يرسلها إلى الملوك والرؤساء ، ومن وفود يتلقاهم ويحسن وفادتهم ، ويبين لهم ما يدعو إليه

وفى ظل هذه السلم يترك الناس فى شتى معاملاتهم إلى طبيعتهم وما يرون أن يسيروا عليه من نظم : يتركهم يتعاملون ويتبادلون المنافع ويتعاونون ويختلطون ، لا يقيدهم فى ذلك بقيد إلا ماتقتضيه طبيعة الشريعة بالنسبة للمسلمين من حظر أنواع من التعامل والعلاقات كالربا وزواج الكتابى من المسلمة ، وزواج المسلم ممن لا تدين بدين سماوى ونحو ذلك

ولا يحظر الإسلام على المسلمين أن ينشئوا بينهم وبين غيرهم من العلاقات ما يرونه مصلحة لهم وعونا على حياتهم فى شئون التجارة والصناعة والسياسة والعلم والثقافة : ينظمون ذلك على الوجه الذى يتبين صلاحه ، والذى تقضى به سنن الاجتماع الفطرية ، والذى لا يتعارض مع دستورهم الخاص

وقد وضع القرآن الكريم أساس الدستور لهذه العلاقة السلمية إذ يقول :

(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم . إن الله يحب المقسطين)[١]

فهذه الآية تبيح للمسلمين أن ينشئوا ما شاءوا من العلاقات بينهم وبين الذين لم يعتدوا عليهم فى الدين أو الوطن ، بل تجيز أن تصل هذه العلاقات إلى حد البر بهم والإحسان إليهم

هذه هى الحالة الأولى : حالة السلم والوئام ؛ أما الحالة الثانية : حالة الحرب والخصام ، فقد نظر الإسلام إليها من نواح متعددة :

١ — نظر إلى الحرب فى ذاتها كأمر تدعو إليه طبيعة الاجتماع البشرى ، فلم يحاول أن ينكرها ، ولا أن يعارض مقتضيات الفطَر فيها ، ولكنه اعترف بها كوسيلة لا بد منها لدفع العدوان ، وتقليم أظافر الطغيان ، وكبح جماح المفسدين : اعترف بها لأنه يعلم أن طبيعة البشر وسنة الاجتماع كثيراً ما تفضيان إلى التنازع ، والبغى ، والتنكر للحق ، والاعتداء على

(١) الآية : ٨ من الممتحنة

الحريات ، والفتنة فى الدين . والإسلام شريعة عملية إصلاحية لا تغمض عن الواقع ، ولا تسترسل وراء الخيال . ولو لم يقرر الإسلام الحرب ويعترف بها لتكون وسيلة من وسائل المقاومة ودفع العدوان ، وإزالة العقبات من طريقة دعوته إلى الخير العام، لقضت عوامل الشر والفساد التى تؤازرها دائماً قوى الطغيان والعناد على هذه الدعوة وهى فى مهدها ، ولحرمت الإنسانية أن تجتنى ثمراتها الطيبة فى معاشها ومعادها

وإن القرآن ليرشد إلى هذا المعنى واضحاً إذ يقول :

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولـكن الله ذو فضل على العالمين)[1] (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً)[2]

تلك هى نظرة الإسلام إلى الحرب من حيث تقريرها والحكم بمشروعيتها

٢ — وقد نظر الإسلام كذلك إلى أسبابها الداعية إليها نظرة تتفق وغايته من الصلاح العام والمساواة بين الناس والسير فيهم على سنن العدل والرحمة ، فلم يبح امتشاق الحسام بدافع الرغبة فى الفتح والاستعمار ؛ ولم يرض عن حروب العسف والظلم والاضطهاد التى كانت وما زالت تثيرها عوامل الجشع والطمع والاستغلال ، ورغبة التسلط على الضعفاء ، واستنزاف الموارد ، والتضييق على عباد الله . واعتبر كل حرب فى هذه الدائرة حرب ظلم واعتداء لا يليق صـدورها من أمة تحترم الإنسانية وتعرف لها حقها ، وبذلك حصر الحرب فى أسبابها المعقولة ، وضيق فى دائرتها تضييقاً يتناسب مع كونها ضرورة من الضرورات !

وهذه الأسباب هى :

(ا) دفع الظلم والعدوان

(ب) إقرار حرية التدين

(ج) الدفاع عن الأوطان

وإن القرآن ليرشد إلى ذلك فى عدة مواضع إذ يقول :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »[1] « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين »[2] « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله »[3]

وأساس الدستور العام فى ذلك قوله تعالى :

« إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم . ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون »[4]

٣ — وقد وضع الإسلام بعد ذلك للحرب نفسها نظاماً تشريعياً مفصلاً قوامه العدل والرحمة واحترام الحقوق والغيرة على الإنسانية

وهذا النظام منه ما يسبق الحرب ، ومنه ما يكون فى أثنائها ، ومنه ما يكون فى نهايتها

(البقية فى العدد الآتى)

محمود شلتوت

---

(١) الآية : ٢٥١ البقرة
(٢) الآية : ٤٠ من سورة الحج

(١) الآية : ١٩٠ من البقرة (٢) من الآية : ٣٦ . التوبة
(٣) الآيتان ٣٩ ، ٤٠ من الحج (٤) الآية : ٩ من الممتحنة

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

حرية الرأي في القديم والحديث — التضامن الأدبي — المال والبنون — الباقيات الصالحات من الشمائل الانسانية — لاتنزعجوا — تهديد طريف!

حرية الرأى

كنت قلت: إن الناس فى عصور الظلمات كانوا يجهرون بآراء لا نستطيع روايتها فى هذا الجيل، فهل يكون معنى ذلك أن القدماء كانوا أشجع؟ وهل يكون معناه أنهم كانوا أبصر بمذاهب النفوس، وأقدر على تصريف الآراء؟

الواقع أن أرباب الفكر فى هـذا العصر أكثر نفاذاً إلى الدقائق، وأعرف بشؤون المجتمع، وأهدى إلى أسرار المشكلات والمعضلات، بفضل ما أتيح لهم من وسائل الفهم والإدراك

فكيف يتفق أن يكون المحصول الفكرى فى هذا الجيل أقل من أمثاله فيما سلف من الأجيال؟ أو كيف جاز أن يمر محصولنا الفكرى بدون ضجيج يوقظ غافيات العقول؟

يرجع السبب فيما أرجح إلى ظاهرتين تتصل أولاهما بالقارئ وتتصل الثانية بالكاتب، وفى تفصيل ذلك أقول:

كان القراء قديماً من الخواصّ، أو خواصّ الخواصّ، بسبب شيوع الأمية، وبسبب غلاء المؤلفات، أو ندرتها فى بعض الأحايين، فقد قضى ابن خلدون عمره وهو يتشوف إلى الاطلاع على جزء من كتاب الأغانى، ولعله مات قبل أن يظفر بما يريد. وحدثنا صاحب «الطراز» أنه عجز كل العجز عن الوصول إلى مؤلفات عبد القاهر الجرجانى فى البلاغة، مع أنه كان على جانب من الغنى والجاه، وعلى اتصال بجماعة من الأمراء فى مختلف الحواضر الإسلامية [1] وعرفنا فيما قرأنا أن بعض الباحثين كان يقصد مناسك الحج لينادى علناً فى عرفات عن رغبته فى اقتناء كتاب لم يستطع الوصول إليه برغم ما بذل فى سبيله من عناء

هذا يؤكد أن القراء قديماً كانوا من الخواص، أو خواص الخواص، وذلك هو السر فى عدم تهيُّب المفكرين من إعلان ما يجول بصدورهم من آراء وأهواء، فقد كان المفكر يحادث قراءه كما يحادث أصفياءه، لثقته بأنهم فئة ممتازة تفهم عنه ما يريد بلا تزيد ولا تحريف، وذلك أيضاً هو السر فى أن تعابير القدماء تغلب عليها الصراحة، ويَسود فيها الصدق، وقد تُوصَم بالعُرْى فى بعض الأحيان

ولا كذلك القراء فى هذا العصر، فهم يُعدّون بالألوف وألوف الألوف، فمن العسير أن يكونوا جميعاً من الخواص، وربما جاز القول بأن جمهرتهم من العوامّ، أو عوامّ الخواصّ، وهذه الحال تفرض على المفكر أن يحتاط فى عرض ما يجول بصدره من آراء وأهواء، وذلك هو السبب فى أن تعابير أهل العصر تعوزها الصراحة، ويقل فيها الصدق، ولا تخرج سافرة أو عارية، كبعض تعابير القدماء، وإنما تخرج ملفوفة فى أثواب من الرمز والإيماء والتلميح، إن لم يحملها الإسراف فى حب السلامة على التدثر بأثواب من المداهنة والمصانعة والرياء

فإن رأيتم جماعة من المفكرين يدورون حول أغراضهم فى تردد وتهيب وإشفاق فاعرفوا أنهم يصانعون قراءهم «الألباء»، واذكروا أنهم لا يملكون من حرية التعبير غير أطياف، وإن قيل وقيل بأنهم يعيشون فى القرن العشرين!

وهل كان التفاوت بين طبقات القراء هو كل ما يعوق الفكر فى هذا الجيل؟

هنا يجيء القول بالفرق بين حال الكاتب فى هذا العصر وحال الكاتب فى العصور الماضية

فالكاتب قديماً كان فى أغلب أحواله رجلاً قليل التأثر بضجيج المجتمع، لأن آراءه لم تكن تصل إلا إلى جمهور ضئيل يُعد أفراده بالعشرات أو بالمئات، ولأنه لم يكن يفكر إلا قليلاً فى التطلع إلى المناصب التى تفتقر إلى ثقة المجتمع؛ فأكثر المفكرين القدماء لم يكونوا رجال سياسة ولا رجال أعمال، فقد كان فيهم جماعات يعيشون فى عزلة رهبانية ولا يهمهم غير التعبير عن أغراضهم بحرية وصراحة وجلاء، ولم يتعرض منهم للأذى والقتل غير من طاب لهم أن يواجهوا مشكلات السياسة أو معضلات الدين

أما الكاتب فى هذه الأيام فله حال وأحوال

هو أولاً رجل يخاطب الألوف وألوف الألوف، وفيهم أذكياء وأغبياء وأعداء وأصدقاء، وهو عن مراعاة أهوائهم مسئول وهو ثانياً رجل يهمه أن يتمتع بحقوقه المدنية، وقد يتسامى

---

(١) كان صاحب الطراز يلقب بأمير المؤمنين

إلى كبار المناصب ، وذلك يوجب الحرص على مسالمة المجتمع فى أكثر الشؤون

الكاتب فى هذه الأيام يعرف جيداً أنه يعيش تحت رقابة عنيفة من الدولة ومن المجتمع ، وهو مقهور على مراعاة تلك الرقابة مادام يتطلع إلى بعض المناصب العالية ، وهى مناصب لا تمنحها الدولة إلا لمن يرضى عنهم المجتمع ، وهنا يكون الخطر على حرية الفكر والرأى ، ويكون الجحود لما وهب الله الناس من قلوب وعقول

التضامن الأدبى

وبعد عرض هذه الصورة التى تمثل ما صرنا إليه نوجّه الأسئلة الآتية :

هل من مصلحة مصر — ولها الزعامة الأدبية فى الشرق العربى والإسلامى — أن يشعر المفكرون من أبنائها بأنْ لا سبيل إلى الظفر بما تؤهلهم له مواهبهم من كبار المناصب إلا بمصانعة الدولة ومصانعة المجتمع ؟

وهل من الخير لمصر أن تكون مناصبها العلمية والأدبية وقفاً على من يملكون أكبر نصيب من القدرة على إخفاء ما يثور فى صدورهم من آراء وأهواء ؟

وهل من الممكن أن يزدهر الأدب العربى وهو مصدودٌ عن الترجمة الصحيحة للأزمات التى تضطرم فى صدور أهل هذا الجيل ؟

وكيف تقوى لغتنا على منافسة اللغات الحية وهى أداة ضعيفة بسبب الكَبْت المفروض على قادة الفكر وحَمَلة الأقلام ؟

نترك الدولة ونترك المجتمع إلى أن تفهم الدولة ويفهم المجتمع أن حرية الفكر والرأى هى المزية التى يُفضَّل بها الشعوب على بعض ، ونسأل رجال الفكر والرأى عن واجبهم فى حماية الأقلام والعقول ، وما سألناهم هذا السؤال إلا ونحن نعرف أنهم آخر من يتقدمون لحماية الفكر والرأى من عدوان الخادعين والمرائين

ومعاذ الأدب أن أنكر أن الأدباء يتعاونون ويتساندون من وقت إلى وقت ، ولكنى مع ذلك أشعر بأن التضامن الأدبى غير موجود بمعناه الصحيح

وكيف أطمئن إلى وجود التضامن الأدبى وأنا أعرف أن الأديب لا يجد من ينصره إذا تنكرت له الدولة أو تنكر له المجتمع ؟

الأديب لا يعيش عيشاً مقبولاً فى مصر إلا إذا راض نفسه على شمائل ينفر منها الذوق فى أكثر الأحيان ، كأن يعلن أنه راضٍ عن كل ما اتفق عليه العُرف من عادات وتقاليد ، وكأن يتبرأ من كل من يتعرض لنقد الشرائع والقوانين

لا يعيش الأديب فى مصر إلا إذا تخلق بأخلاق فلان .

وفلان هذا رجل عاقل إلى أبعد حدود العقل . هو رجل يواجه قومه بما يحبون ، فيدعوهم إلى السلم إن جنحوا للسلم ، ويدعوهم إلى الحرب إن مالوا إلى الحرب ؛ وهو يساير أهواءهم بخضوع لا نظير له ولا مثيل ، وكأنه جمل مشدود إلى ظواعن القطيع !

ولفلان هذا زملاء يشاطرونه التمتع بنعمة « العقل » ولن يتقدم الأدب على أيديهم خطوة واحدة ، لأن الأدب لا يحيا إلا فى جو الحرية الفكرية والوجدانية ؛ ولأن الأدب لا يعترف بوجود المرائين ، ولو جُنّ الدهر فخلع عليهم أثواب الغنى والأمان [1] .

الأدب ينتظر ثورة وجدانية وروحية وعقلية ليمان حقه فى الوجود

الأدب يطمع فى أن يكون أداة التعبير عما فى هذا العصر من أوهام وأحلام وحقائق وأباطيل ، فيرج الأذهان والعقول بأقوى وأعنف مما يصنع الزلزال

الأدب يريد أن يكون صوراً صوادق لما عند أهل العصر من فجور وعفاف وإلحاد وإيمان ، ليشعر الناس بأن الأدب ليس زخرفاً من القول ، وإنما هو بعث وإحياء

ولكن الأدب سيظل مقيداً مغلولاً إلى أن يعرف أهله قيمة التضامن الأدبى ، فتى يعرفون ؟ ومتى نطمئن إلى أن حرية الرأى لها أنصار بين أعلام الفكر وأقطاب البيان ؟

لو ضمنا عطف الأدباء بعضهم على بعض لزهدنا فى رفق الدولة وعطف المجتمع ، فنحن ننتظر أن تقوم للأدب دولة تعصم أبناءها من التعرض لأذى الجاهلين ، وتغنيهم عن انتظار الرزق الحرام ، وهو الرزق المجلوب بمصانعة أهل الغفلة والجمود

المال والبنون

كنت أنكر على علماء النحو أن يقولوا إن واو العطف لا تفيد الترتيب ، وكانت حجتى أن البليغ يقدم الأهم على المهم حين يعطف بالواو ، بدليل قول القرآن : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » فما قدّم المال إلا لأنه آثر فى زينة الحياة من البنين

ثم تذكرت هذه الحقيقة النحوية حين قرأت كلمة الأستاذ عباس العقاد فى التعقيب على الكلمة التى نصصت فيها على حقوق الوارثين ؛ فقد كنت قررت أن انعدام الميراث يشل العزائم

(١) شخصية فلان شخصية رمزية تصور جوانب من المجتمع الأدبى ، ولا يراد بها التعريض بفلان .

الإنسانية ، ويروض الناس على الاكتفاء بجمع ماينفعهم يوماً بيوم

ويرى الأستاذ العقاد أن طلب المال كطلب العلم ، فهو فطرة لا تتوقف على التوريث ولا على ما يعقبه الآباء للأبناء

وهذا الرأى حق ، وقد تذكرت به الكلمة المنسوبة إلى الرسول : « جائعان لا يشبعان : طالب علم وطالب مال » ، أو لعله قال : « منهومان » ، فما أذكر بالضبط نص هذا الأثر النفيس

وصدَق الأستاذ العقاد فيما رواه من أحوال ناس ليس لهم أعقاب ولا يُخشى على أموالهم النفاد لو بسطوا فيها الأكف بالإنفاق عشرات السنين

وأنا لم أبعد من الصدق حين قررت أن انعدام الميراث يشل العزائم الإنسانية ، فأمامى أحوال كثيرة تشهد بأن الرجل تفتُر عزيمته فى جمع المال حين يشعر بأن أملاكه قد تصير إلى غير من يحب من الأقربين ، أو حين يرى أن أبناءه ليسوا من النجباء ، وأن أملاكه قد تبدَّد بعد موته بقليل . وتلك أحوال يعرف منها الأستاذ العقاد مثل الذى أعرف ، وهو نفسه قد نصَّ على لون من لوعة الآباء حكاه له الدكتور يعقوب صرّوف

الذى يهمنى هو رأى الأستاذ العقاد فيمن يجمعون المال ويحرصون عليه مع يقينهم بأنه لا وارث لهم غير من يتمنون لهم الموت من لئام الأسباط أو لئام الأقرباء

ما رأى الأستاذ العقاد فى هؤلاء من الوجهة الأخلاقية ؟

الجمهور يرى هؤلاء من الغافلين ، وقد نُظِمت فيهم أشعار ، وقيلت فيهم أمثال ، وتعقَّبهم الناس بالغمز واللمز فى جميع العصور وفى جميع البلاد

أما أنا ، فأرى هؤلاء على جانب عظيم من قوة الإحساس بالوجود ، وأراهم نماذج حسنة من الوجهة الخُلُقية ... ولكن كيف ؟ وهل من السهل أن ننقض نظرية رحب بها الناس منذ مئات الأجيال ؟

أخاطر مرة جديدة فأقول : إن حب المال دليلٌ على العافية الروحية ، فما يحب المال غير الأصحاء ، ولا يزهد فى المال غير الأموات أو أشباه الأحياء

والمال يفرض على محبيه أن يكونوا من أهل النشاط والنظام والتدقيق ، وتلك شمائل لا يتصف بها غير أهل العافية الروحية وإن أعوزَتهم العافية البدنية . أما الزاهدون فى المال ، فهم خلائق ضعاف لا يصلحون لدنيا ولا دين

والشخص الميت هو الذى لا يعرف قيمة المال ، ولا يفهم — لأنه ميت — أن المال سناد الأحياء ، وأنه شاهدٌ على أن أصحابه أدّوا واجبهم فى مصارعة أمواج الوجود

وأنا أؤكد هذا القول بعنف يصل إلى الإلحاح البغيض ، لأنى أرى أهل مصر فى احتياج إلى من يدق ناقوس الخطر ليذكرهم بوجوب التأمل فى هذه المعانى

أنا أكثرت من القول فى هذه الشئون ، حتى صح للدكتور إبرهيم ناجى أن يقول فى إحدى المحاضرات بأن أدب زكى مبارك مستوحَى من غريزته فى حب الحيازة والامتلاك

ولو كان هذا القول صدقاً فى صدق ، لبحثت عن أسلوب غير الأسلوب الذى ارتضيته فى حياتى ، وهو احتراف التعليم والتأليف ، فمن المؤكد أن الأوقات التى أبذلها فى خدمة الحياة الأدبية ، كانت تجعلنى أغنى الناس لو بذلتها فى الاتجار بالتراب

الحياة خدعتْنا فزينت لنا احتراف التعليم والتأليف ، فما الذى يوجب أن نطوى عن قومنا ما فطنّا إليه بعد فوات الوقت ؟

نحن نرى أن جمع المال ليس بعيب ، ونحن ندعو مواطنينا إلى الاعتصام بالمال ، فقد قدمه الله على الاعتصام بالبنين

المفتونون بجمع المال هم فى نظرى أعرف الناس بقواعد الأخلاق !

وهل أخطأ أسلافنا حين قرّروا أن للغنىّ الشاكر أفضل من الفقير الصابر ؟

الفقر كريه الطعم ، قبيح اللون ، فاقتلوه حيث ثَقِفتموه

الفقر فضيحة علنية . الفقر أكبر الذنوب ، وأشنع العيوب

حاربوا الفقر ، حاربوه ، حاربوه ، فهو أقدر البلايا على إذلال الرجال !

يقول المثل الفرنسى : « قل لى مَن تصاحب ، أقل لك من أنت »

وأنا أقول : « قل لى ماذا تملك ، أقل لك من أنت »[1]

أقبح عيب يوصَم به الغنى هو البخل ، وأقبح عيب يوصَم به الفقير هو السؤال ، وما أبعد الفرقَ بين البخل والسؤال !

---

(١) لا يا دكتور ! مَثلك هذا يزيفه التدقيق أو التطبيق ، فهل سمعت بثروة (الغربى) ؟ (الرسالة)

هل يعرف الناقلون من الذين يشتموننا ظالمين أننا لم نَدْعُهم إلا إلى إكرام أنفسهم بالحرص على طلب الرزق الحلال ؟

الذى لا ينفق عشر ساعات من كل يوم فى طلب الرزق ليس بأهل للعيش

والذى لا يجعل من همه أن يعيش مستوراً ويموت مستوراً ليس بأهل للظفر بنعمة الكرامة الذاتية

والذى يعجز لفقره عن إنجاد إخوانه من وقت إلى وقت لا يجوز له التوهم بأنه من أحرار الرجال

الغِنَى أجمل مظاهر من مظاهر الأخلاق ، جعلنا الله جميعاً من الأغنياء !

الباقيات الصالحات من الشمائل الإنسانية

يذكر أخونا الزيات — حفظه الله ورعاه — أنى أرسلت إليه كلمة سايرنى خيالها فى تجوالى بين الإسكندرية وأسوان ، وأنه طوى تلك الكلمة لأسباب لا يجهلها القراء ؛ فهل أستطيع أن أسجل أن الإنسانية لا تزال فيها شمائل من الباقيات الصالحات ؟

من شمائل الإنسانية فى هذا العصر أن من الممكن أن تُحمَى بعض المدائن من أهوال الحرب ، إذا شاء أهلوها أن يجعلوها فى أمان من البلاء

ومن شمائل الإنسانية فى هذا العصر أن يُحمَى (اتحاد البريد) من التعطيل ، ولو وُجِّهتْ رسائله إلى ميادين الحروب

وبفضل هذه الشمائل الإنسانية حمل إلىَّ البريدُ كتاباً من حضرة الأستاذ غالب المؤيد العظم ، وهو يعلن رضاه عن مجلة الرسالة ، وعن المقال الذى نشرتُه بعنوان : « الفرد هو الحجَر الأول فى بناء المجتمع »

فإلى ذلك الأستاذ الفاضل أقدِّم أصدق التحيات ، وأرجوه أن يعفونى من نشر قصيدته فى الثناء على صاحب ذلك المقال

وإن عاد السلام فسيكون لنا مع أصدقائنا فى جميع البلاد العربية أحاديث وأحاديث

لا تنزعجوا

ظن القراء أنى قد أطيع جماعة الثائرين فأنسحب من الميدان الأدبى ، فكتب فريق منهم رسائل طريفة يدعوننى فيها إلى الثبات فى الميدان

وأجيب بأن أعز أصدقائى هم أولئك الثائرون ، وأنا بثورتهم مزهوٌّ مختال ، لأنها تشهد بأنهم يسايروننى بيقظة والتفات ، فثورتهم ليست إلا فناً من فنون الإعجاب

والحق كل الحق أنى لا أفكر أبداً فى إيذاء قرائى بعرض ما قد ينكرون من المذاهب والآراء ، وإنما أنا مسئول أمامهم عن التزام الصدق فى جميع الأحوال ولو تعرضت لغضبهم الهتاج ؛ وثورتهم علىَّ بسبب الصدق أخف وأهون من ثورتهم على بعض الناس بسبب الرياء

إن الكاتب الذى يرائى قراءه ليس بأهل للحياة الأدبية ، ومن الواجب أن نقول للقراء بصراحة إننا لا نستوحيهم ولا نستهديهم ، حتى ننتظر ما يتفضلون به من حمد وثناء ، وإن كان الحرص على منافعهم أول ما يشغلنا حين نمتشق القلم فى سبيل الحق ، وهل كان هوانا إلا فيضاً من هواهم ، وإن غفل بعضهم عن حقائق ما نريد ؟

وإذن فمن حق السيد ناصر الدين النشاشيبى أن يطمئن إلى أننا لن نخرج أبداً من الميدان الأدبى ، ولن نأتمر أبداً بأوامر أهل الحقد والبغضاء

تهديد طريف

وبهذه المناسبة أذكر أن قارئاً لا أسميه هدد بالكتابة إلى الأستاذ الزيات ليبلغه آراء القراء فى صاحب هذا الحديث !

وأقول إنى تطوعت بتبليغ هذه الآراء إلى الأستاذ الزيات وإلى جميع القراء ، فما الذى يراد من أمانتى أكثر من ذلك ؟

أنا أشتهى أن أرى فى الدنيا أقواماً يغضبون ويحقدون ، فما تأخر الشرق إلا لعجزه عن الغضب والحقد ، وهما من شواهد الحيوية فى الغرائز والطباع

إغضبوا واحقدوا ، ثم اغضبوا واحقدوا ، غير باغين ولا عادين ، وكونوا رجالاً يؤذيهم ما يكرهون فيثورون عليه ثورة الحليم العاقل الحصيف

إغضبوا واحقدوا ، يا بنى آدم من أهل مصر والشرق ، ولا تنسوا أن الذى أملى عليكم دروس البغض والحقد هو الكاتب الذى يحبكم أصدق الحب :

زكى مبارك

الحيـــاة الزوجية في نظر الإســـلام

للأستاذ عبد اللطيف محمد السبكي

— ٢ —

خطبة الزواج

يحدثنا عن دعوة الإسـلام إلى الزواج ؛ لأنه الرباط الوثيق - أولاً - بين الأفراد في محيط الجماعات الصغيرة ، ولأنه - ثانياً - الدعامة التي يرتكز عليها البنَاء القوي في تكوين شعوب ، وقبائل يعمر بها الـكون ، وتؤدي رسالة البشرية بما يجري على يدها من الإنشاء والإبداع والتعمير ، وإبراز ما أودع الله في الـكائنات من أمارات وجوده . وذلك هو مظهر الحياة الذي كان من أجله آدم خليفة في الأرض عن ربه ، وكانت خلافته على هذا النحو إرثاً بين أعقابه إلى ما شاء الله

فإن يكن تكوين الجماعة القوية المنظمة هو الهدف الأهم الذي يرمي إليه الإسـلام من وراء الحياة الزوجية ، فمن شأن الإسلام أن يرشدنا إلى طريق الدخول في حوزة هذه الحياة ، ومن شأنه أن يقيم لنا على جوانب هذه الطريق معالم لا يضل معها من استجاب للدعوة

ومن الحصافة - وقد فصل الإسلام - أن يأخذ المرء نفسه بالتبصر ، والأناة ، وتقدير الغاية ، حتى إذا أقدم أقدم عن بينة لا يشوبها تردد ، ولا يلاحقها ندم

وقد حدثنا الرواة أن الاتصال الزوجي على عهد الجاهلية كان على ضروب شتى ، وكانت نظمهم في ذلك وليدة عرف قاصر مشوه ، وأخلاطاً من عادات موروثة ملفقة ؛ لذلك لم تخل وسائلهم في الحياة الزوجية من أنواع معيبة لا تكفل سلامة النسل من الدخالة ، ولا تأتي بنظام للجماعة على النحو ولا قريباً من النحو الذي يتوخاه الإسلام

جاء الإسلام فمزف عما كان لدى الأعراب من الوسائل ، وعفى عليها ، إلا وسيلة واحدة فيها سمو بالمرأة عن الريبة ، وسمو بالرجل عن الطيش والرعونة ، وفيها صيانة للأسباب أي صيانة تلك وسيلة الخطبة التي تدور حولها آي القرآن وأحاديث الرسول ، وعليها جرى العمل بين سلف المسلمين ، وبين الخلف الذين لم يعصمهم أفن الرأي وانحلال العقيدة ، ولم ينزعوا إلى فوضى الجاهلية الأولى ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا

يقول الله تعالى : « الخبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات ... » فهذا شق من آية كريمة ، يحدثنا — على أنسب الوجوه في تفسيرها — بأن الخبيثات من النساء لا يستأهلن من الأزواج إلا الخبيثين ، فمن كرمت نفسه من الرجال ، وضن بمروءته عن مواطن الذلة والهوان فبعيد عليه أن يجنح إلى خبيثة ساقطة يتخذها زوجة له . وكذلك الخبيثون من الرجال لا يستحقون إلا خبائث النساء ، فمن ربأت بها العزة ، وامتزج بها الشمم ، تحاشت أن تجعل نفسها فراشاً لرجل ساقط المروءة ، وضيع النفس ، هين الـكرامة

فإذا ما بخل كل ذي كرامة من الجانبين بنفسه عن لوثة الاتصال بالخبيث — تهيأ له أن يكون مع من يدانيه شرفاً وطهراً ، ويناسبه أدباً وخلقاً ؛ وهذا ما تهتف به الآية في شقها الثاني ، إذ يقول تعالى : « ... والطيبات للطيبين ، والطيبون للطيبات » ففي هذا الشق إشادة بالنساء الطيبات ، وإغراء للرجال باختيارهن ، وكذلك إشادة بالطيبين ، وأغراء للنساء الطيبات باختيارهم أزواجا

فنحن نرى من هذا السياق حثاً قوياً « لـكل من الرجل والمرأة على التنزه عن اختيار الوضيع قريناً له ، ونرى فيه حثاً قوياً على اختيار الطيب للزيجة ، فـكلا الزوجين مرآة تتمثل فيها صورة صاحبه » فلينظر المرء : على أي شكل يحب أن يراه الناس ؟

ويقول تعالى : « الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ... » فهذا شق آخر من آية ثانية ، فيها تجريح مقذع للزاني ، حتى أنه في الغالب لا يرغب أن يتزوج إلا من كانت على شاكلته ، أو كانت أخس منه ، وأبعد عن الإسلام إلى الشرك ؛ فهو لا يألف من النساء كرائمهن العفيفات ، إذ هو لا يبالي المرءة ، ولا يراعي لنفسه ولا لذريته حرمة ، مادام يتخذ الزواج وسيلة إلى قضاء لباناته الجنسية . . . وفي هذا تنفير لذات العفاف أن ترضى عمن عرف بالدعارة زوجاً لها ، وإنما تتركه لزوجة من فصيلته الزواني

أو المشركات إن استطاع ، وتنتظر من الرجال من تشرف بشرفه وتحظى بالحياة معه معافاة فى دينها وسمعتها . وكذلك الشأن فى المرأة الزانية « ... والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك » فهى مُجرحَة ممخوطة ، ومبتذلة مستهجنة ؛ فما ينبغى لرجل عزيز على نفسه أن يرضاها ، وإنما لها من يشاكلها نزعة وخلقاً ، «وحرم ذلك على المؤمنين» . الكاملين فلم يبق من سبيل إلا أن يتجه الرجل فى خطبته إلى من تكون حرثاً نقياً له ، وتربة طيبة لبذور نسله ، وأن تتجه المرأة فى خطيبها إلى النبل، أو كرم الطبع، ومحاسن الرجولة ؛ ليكون البناء بهما قوياً متماسكا ، فيسدا فراغاً فى بناء الجماعة الكبرى — الأمة — ويكون لهما — بجانب ما يتوفر من هناءة وطيب حياة — فضل الاشتراك فى تكملة الصفوف ، وتكثير السواد بما ينجبان من ذرية كريمة المنبت

وهكذا ينصح النبى (ص) إلى الخاطب أن يأخذ بالحزم ، ويتفرس فى المخطوبة ما يفى برغباته : من شكلها ودينها وأصلها ، وما إلى ذلك مما جبلت النفوس على التطلع إليه ، ليتوفر الرضا ، ويكون المرء بنجوة من نزغات الطمع وخواطر النفس التى تحقِّر ما لديه فيمد عينيه إلى غير ما يملك ، ثم لا يكون من وراء ذلك إلا استهانته لما فى حوزته ، واكتئابه لما حرم منه ، وهو مخدوع بالأمانى ؛ والأمانىّ والأحلام تضليل

يقول النبى (ص) : « إذا خطب أحدكم المرأة ، فإن استطاع أن ينظر منها ما يدعوه إلى نكاحها — زواجها — فليفعل »

وقال (ص) لرجل من أصحابه كان يخطب امرأة : « أنظرت إليها ؟ قال : لا ، قال (ص) : إذهب فانظر إليها »

وقال (ص) لرجل آخر فى شأن كهذا : «إذهب فانظر إليها ؛ فإنه أحرى أن يوائم بينكما »

يعنى — إذا رأيتها وأعجبتك كان ذلك أدعى لدوام الألفة بينكما . . . فإذا لم يستطع المرء أن ينظر ، لمانع قام فى سبيله ، فمن السنة أن يبعث من النساء من تستوضح له شأن المخطوبة ، وتتعرف له ما يعنيه من أمرها . وقد فعل النبى (ص) ذلك ، إذ رغب فى خطبة امرأة ، وأحب أن يعلم عنها ما يرغبه فيها ، أو يرغبه عنها ؛ فأرسل إليها امرأة ثقة ، وأمرها أن تنظر إلى قدميها ، وتشم رائحتها ... وإن يكن هذا حق الرجل فى خطبة المرأة ، فهو كذلك حق المرأة فى اختيار الرجل زوجاً لها ؛ لها أن تراه وتتفرس فيه ما يعجبها ، ولها أن يتحدثا ليقف كل منهما على ما بصاحبه من لباقة أو لكنة ، ومن نشاط الذهن أو خموده ... ولكن على أن يكون هذا الاختبار فى غير خلوة ، بل مع وجود محرم للمرأة . وإن تكرر هذا فليس فيه من حرج إلى أن تطمئن نفس كليهما ، وللعرف شأنه فى تحديد هذا الاختبار بالقدر الكافى

وليس يدخل فى ذلك أن يجتمع الرجل بالمرأة فى جماعة من الرجال الأجانب ، فإن الحراسة المقصودة من وجود المحرم معدومة ؛ بل هذه من أشد أنواع الخلوة خطراً على حياة المرأة وعفتها ؛ فضلاً عما يجره إليها من الريبة وسوء الأحدوثة

كما أنه لا يدخل فى حدود الاختبار المباح أن يجتمع بالمرأة فى حضرة عدد من النساء . فإن انفراد النساء برجل واحد يعد فى الشرع من الخلوة المحظورة . ووجهة الإسلام واضحة فى ذلك ؛ فإن الأثر السيئ الذى ينشأ عن هذا الاجتماع لا يقف عند سمعة امرأة واحدة ؛ بل يتطاير شرره إلى هذا العدد من النساء جميعاً . والإسلام يدرأ الشر من أبعد طرقه ، ويحتاط له فى كثير من المبالغة ، حفاظاً على السمعة ، واستبقاء للشرف والكرامة ، وخاصة فيما يتصل بالأعراض . ولما كانت أسباب الرغبة فى المرأة كثيرة ، وتختلف باختلاف نزعات الرجال وميولهم ، بينها النبى (ص) أو بين أهمها وأولاها بالاعتبار فقال :

« تنكح المرأة — والنكاح فى كل ما نذكره معناه الزواج — لمالها ، وحسبها ، وجمالها ، ودينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » فهذه أهم الأسباب التى ينبغى أن تدور حولها الرغبة فى الزواج ، وهى الأسباب التى ترى الناس يلتمسونها فى الخطوبة ؛ والنبى (ص) يُقرنا على اعتبار تلك المزايا . غير أنه لما كان الدين عند الناس فى الوضع الأخير من تقديرهم ، مع أنه خير ما يُرجى فى الزوجة — أكد علينا النبى (ص) أن نفضل ذات الدين على غيرها ، وأن نلتفت إلى الدين قبل سواه فيمن نريدها زوجة أمينة على الشرف ، وعلى طهارة النسل ، وأن نبنى منها نسباً ، ونتخذ منها صهراً

أكد علينا النبى (ص) أن نؤثر ذات الدين ، ولو لم تكن ذات مال ، ولا جمال بارع ، ولا حسب ، والحسب هم الأهل الطيبون ، وقد بالغ فى تأكيده حتى قال : تربت يداك ، وهذا

دعاء بالفقر فى أصل معناه ، ولكنه غير مقصود وإنما يجرى على لسان العرب فى مقام التنبيه على أمر ذى بال ، وهكذا أراد منه سيد العرب وأفصحهم (ص) ؛ فإن اجتمعت هذه المزايا لزوج محظوظ فذلك فضل من الله يشكر ، وإن اجتمع مع الدين بعضها فتلك نعمة لا تكفر . أما إذا ضاع الدين فى المرأة فلا خير فى مالها ، ولا حسنها ، ولا أهلها ، وفى هذا ينطلق الوحى على لسان الرسول (ص) فيقول : « لا تنكحوا النساء لحسنهن فلعله يرديهن ، ولا لمالهن فلعله يطغيهن ، وأنكحوهن للدين . ولأمة سوداء خرقاء ذات دين أفضل »

يريد النبى (ص) أن حسن المرأة — من غير دين يكون سياجاً لها — يدفع بها إلى مهابط الرذيلة . ويريد أن مالها — من غير دين تتوقر به — يحملها على الطغيان وسوء العشرة . ويريد النبى (ص) أن امرأة سوداء خرقاء — يعنى مخرومة الأذن على نحو ما كان معهوداً فى الإماء المملوكات — أو خرقاء ناقصة العقل مع احتفاظها بالدين : أفضل ممن خسرت دينها وإن بلغت من المال والجمال والحسب فوق ما يشتهى الرجال من المطامع

وليس القصد من الدين أن تصلى المرأة أو تصوم - مثلاً - وكفى ولو كانت سيئة الطباع ؟ - لا - بل التى هذب الدين أخلاقها ، وحفظ عليها حياءها ، واستمدت من روحه وآدابه تربيتها ، وإن ورثت هذا عن بيئتها وأهلها ؛ حتى لا تكون مبتذلة جارحة لسمعته ، ولا حمقاء متعبة فى عشرته ، ولا جشعة مستقلة لخيره ، متلفتة إلى غيره

وفى حديث آخر ينصح النبى (ص) باجتناب خصال ثلاث وباجتناب من عرفت بها أو ببعضها من النساء فيقول : « لا تتزوج حنّانة ، ولا أنّانة ، ولا منّانة » ؛ والحنانة : التى عرف عنها أنها تسخط حياة زوجها ، وتحن إلى عهدها قبل التزوج منه ؛ والأنانة : التى عرفت بالأنين والشكوى مما بيدها أو من حظها ، أو من صحتها ؛ والمنانة : التى ترى لنفسها فضلاً تمتد به على الزوج . فواحدة من هذه النقائص تنغص من راحة الزوج فى عشرتها ، وتخرج بها عن الإلف والامتزاج إلى الضغينة والشحناء واتساع الخلاف ؛ وما لشىء من هذا يراد الزواج

وهكذا يطلب من الرجل أن يكون ذا دين ، ويحث النبى على تفضيل المتدين على سواه ، مع مراعاة الوسائل الأخرى التى ينشدها الإسلام فى الزوج من خَلق وخُلق ، ومن قدرة على الحياة الزوجية ، ولياقة فى الحسب

فيقول (ص) : « إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخُلقه فزوجوه . إلاّ تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض » . يقصد النبى (ص) رعاية الدين والخلق ، والتنفير من الأحمق والفاسق وإن اجتمعت فيهما أسباب القبول بعد هذين . وإلا كانت حياة نكدة بين الزوجين ، وكان فساداً فى نظام الأُسر ، وهدماً فى بناء المجتمع ، وشراً لا يقف عند حد ، والدين — كما نوهنا من قبل — حريص على استئصال الشر من جذوره

لم يكتف الإسلام بأن يطلب فى الرجل دينه وخلقه ، ولا بأن جعل للمرأة حق الرؤية كما جعله للرجل ، بل أعطى للمخطوبة حرية أوسع من ذلك ، ومكن لها أن تقبل فى صراحة أو ترفض فى شمم وإباء . فأمر النبى (ص) أن يؤخذ إذنها فى الزوج قبل العقد له عليها ، ومنع وليها أن يكرهها على من لم ترضه زوجاً لها إذا لم يكن كفئاً لها ، وعلى ذلك جرى الفقه الإسلامى ... ولقد جاءت فتاة إلى النبى (ص) فأخبرته أن أباها زوجها وهى كارهة لمن رضيه أبوها ، فأحضر النبى (ص) أباها ، وتبين منه صحة ما شكت منه الفتاة ، فخيرها النبى (ص) فى بقاء العقد أو بفسخه لها ؟ فرضيت — بعد — بمن رضى أبوها

« لها بقية »

عبد اللطيف محمد السبكى
المدرس بكلية الشريعة

من الأدب الفرنسى

صديقى موبسَّان

MAUPASSANT

للأستاذ محمد عبد الغنى العطرى

مما لا جدال فيه أن الصداقة ضرب من لوازم الحياة الضرورية التى يندر أن يستغنى عنها إنسان . فهى كالغذاء للجسد أو العلاج للمريض . ولكل امرئ فى هذا المجتمع صديق يأوى إليه فى وقت الضيق ، أو فى ساعة السرور ، فيقتسمان الفرح والترح ، ويشتركان فى السراء والضراء . والحياة دون صديق تبدو جافة قاتمة ، لا أثر فيها للعواطف الروحية السامية التى تربط القلب بالقلب وتصل الروح بالروح .

هذا الضرب من الصداقة نجده بين عامة الناس ، إذ لا بد لكل فرد من صديق . ولكن فريقاً من الناس فى كل بلد وقطر ، يصاحب الكتب ويصادق الأدباء ، سواء منهم من كان فى عالم الفناء الآجل ، أو فى عالم البقاء الأبدى . هذا الفريق يتألف من طبقة المتأدبين والأدباء ، والكتاب والشعراء ، ويضاف إلى هؤلاء طبقة القراء المولعين .

***

منذ سنوات عدة بدأت أشعر بميل شديد إلى أدب القصة ، وأخذت أهيم بهذا الفن الجميل هياماً عظيماً ، فصرت ألتهم ما يقع بين يدى من روايات وأقاصيص ، وأبحث عما فى الصحف والمجلات الكبيرة من روائع القصص . وبينما كنت ذات يوم أقلّب بصرى فى إحدى المجلات عثرت بقصة مترجمة عن كاتب لم أقرأ له شيئاً من قبل . فجلست أقرأ وأقرأ ... فلما انتهيت وجدتُنى فى عالَم جديد من أدب القصة لم أعرفه قبل ذلك اليوم ، عالم كله سحر وعطر ، وفن وجمال . وكنت أشعر وأنا أقرأ تلك القصة بأنها تتدفق بالذوق الفنى الرائع ، وأنها قطعة تفيض بألوان بارعة التنسيق من الحياة . ومكثت بعد ذلك برهة أستعيد حوادث القصة ، وأسلوبَ عرضها الأنيق ، وحوارها الطريف ؛ فما نهضت من مجلسى يومذاك إلا لأذهب إلى إحدى المكتبات وأقتنى بعض أقاصيص هذا الكاتب ، الذى لم يكن سوى « جى دى موبَسَّان » .

منذ ذلك اليوم أصبح موباسان صديقاً لى حميماً ، لا أجد له مؤلفاً إلا اشتريته ، ولا يُكتب عنه شئ إلا قرأته ، وهو يجزينى عن هذا الإخلاص خير الجزاء ؛ فنى كل مرة أجلس إلى قصة من قصصه أو رواية من رواياته ، يكشف لى عن نواح من فنه وعبقريته تزيد فى حبى له وتضاعف من إعجابى به .

***

وإذا نحن حاولنا أن نكشف القناع عن سر عبقرية موبسان وفنه ، لم نستطع أن نُرجع السبب إلا إلى أمرين اثنين : الأول نبوغ فطرى واستعداد طبيعى . والثانى تتلمذه على الروائى العظيم (غوستاف فلوبير) مدة سبع سنوات ، لقَّنه فى خلالها أصول الفن الحديث وقواعده العلمية الصحيحة ، حتى إن موبسان كتب بعد ذلك يقول : « لقد اشتغلت مع فلوبير سبع سنوات لم أنشر خلالها سطراً . وفى هذه السنوات السبع أعطانى معلومات أدبية لم أحصل عليها بعد أربعين عاماً من التجارب[1] »

والحق أن تتلمذ موبسان على فلوبير طوال هذه الأعوام صقل مواهبه وسدد خطاه ، ورانه على التأمل الطويل والتفكير الكثير فى سبيل الفن وحده . وكان فلوبير خلال ذلك يأخذ بيد تلميذه فى طريق السمو والإبداع ، ويقدم له خالص النصح ، وكان يقول له : « ليست الموهبة إلا صبراً طويلاً . إنها تقتضى تأملاً كافياً لكل ما يراد التعبير عنه ، مع كثير من الانتباه ، كى نصل إلى وصف منظر لم يره أحد ولم يصفه . لا يزال فى كل مكان أشياء لم تُكشف بعد ؛ والسبب فى ذلك أننا معتادون عدم استعمال نظرنا الخاص فى التفكير والتأمل ، إلا ممزوجاً بما قاله الأقدمون . إن فى أصغر شىء وأقله قيمة قليلاً من المجهول ، فلنبحث عنه . ولكى نصف مثلاً ناراً تتأجج أو شجرة فى سهل ، يجب علينا أن نطيل الوقوف أمام تلك النار أو هذه الشجرة حتى نستطيع أن نخرج إلى الناس بوصف لا يشبه أى وصف لأية شجرة أو أية نار ، بهذا يستطيع الكاتب أن يكون مبتكراً مجدداً »

ويقول موبسان معلقاً على ذلك :

« وعند ما بسط فلوبير أمامى هذه الحقيقة التى تقول إنه لا يوجد فى الكون كله ذرتان من الرمل ، أو ذبابتان أو يدان

---

(١) رينه دى مسنيل فى كتابه « جى دى موبسان » صفحة ٩٩

أو أنفان متشابهين كل التشابه . أخذ يجبرنى على التعبير فى بضع جمل عن كائن أو شىء يميزه بوضوح من كل كائن وكل شىء من النوع ذاته والجنس نفسه »[١]

ولقد قسا صاحب « مدام بوفارى » على تلميذه قسوة شديدة فكان موبسان يكتب خلال تلمذته عليه كثيراً من الأقاصيص والروايات ، وينظم كثيراً من الأشعار ، ثم يعرضها على أستاذه فكان هذا يظهر له أغلاطه ويبسط له نقده ثم يقدّم له النصح ويتلف ما كتبه التلميذ ، وكانت هذه القسوة من أكبر العوامل فى خلق عبقرية موبسان . إذ أنها كانت تدفعه إلى الإبداع والتجويد ، ولو كانت على غيره لقتلت مواهبه وقضت عليه القضاء الأخير ، ولكن النبوغ يقحم كل عقبة ، والعبقرية تجتاز كل الصعاب . وظهر بعد ذلك موبسان فى عالم الأدب متسلحاً بكل ما يتطلبه فن القصة الرفيع من خيال واسع ، وموهبة فذة ، وعبقرية لا تبارى ، وكانت أولى ثماره فى الأدب قصة دعاها « كرة الشحم » كتبها بمناسبة حرب السبعين وفيها ينتصر للعنصر الفرنسى على العنصر الجرمانى ويظهر تفوقه عليه . وقد فازت قصة موبسان هذه على خمس من القصص كتبها فى الموضوع نفسه : أميل زولا وكيّار وهويسمن وآلكسى وهانيك . حتى إن فلوبير الذى لم يكن يرضى فى بادئ الأمر عن نتاج موبسان الأدبى كتب يقول عنها : « إنها تحفة رائعة جداً فى إنشائها وتهكمها ودقة ملاحظتها »

ثم أخذ موبسّان يطل على الناس بنتاجه القصصى الرفيع الذى جمع كل ما فى الحياة من مشاهد وصور يمر بها الإنسان العادى فلا يجد بها ما يهزه أو يثير مشاعره ، ولكن القصصى المبدع يرى فيها خير مادة يغذى بها فنه ويستمد منها قصصه ، وما هى إلا أعوام خمسة عشر حتى استطاع موبسان أن يقدم للناس ثمانى عشرة مجموعة من الأقاصيص فى كل مجموعة منها نحو من خمس عشرة قصة . كل ذلك عدا سبع روايات كبيرة وثلاث مسرحيات وثلاثة كتب فى السياحة ومجموعة من الشعر

ولسنا نعجب لغزارة هذا النتاج الأدبى وكثرته ، ولكننا نعجب للسرعة والبراعة والقوة التى أبداها موبسان فى مؤلفاته عامة وأقاصيصه خاصة حتى لقد سُمى بحق « زعيم الأقصوصة الأكبر »[١]

أما ترى معى أيها القارئ أن موبسان كتب ما يقارب الثلاثمائة أقصوصة وقلما نجد بينها واحدة تمت بصلة إلى غيرها من أقاصيصه ؟ أما ترى أن أقاصيصه مختلفة الأشكال متباينة الألوان لا تربطها إلى بعضها سوى رابطة واحدة هى رابطة الفن ؟

لقد توفرت لموبسان جميع العناصر الفنية والأدبية التى تؤهله لأن يكون الزعيم الأقصوصى الأول ، فزخرت مواهبه بالصور الفنية والقطع الساحرة ، فأخرجها ألواحاً رائعة التلوين بارعة التنسيق يتمشى خلال سطورها الفن وينسجم ، وتلتمع بين ثناياها العبقرية وتفىء . ليس من العجيب بعد ذلك إذا علمنا أن الروائى الفرنسى الكبير ألكسندر دوماس كتب إلى موبسان يقول ، دون تملق أو مصانعة : « إنك أنت الكاتب الوحيد الذى أنتظر كتبه برغبة ملحة وصبر نافد »[٢]

كان موبسان فناناً بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، وفيلسوفاً فى نظر كثير من الكتاب . أما أنه فنان فهذا أمر ما اختلف ولن يختلف فيه اثنان ، لأن فنه يتجلى بأوضح معانيه فى جميع أقاصيصه دون استثناء . ولنأخذ أية قصة شئنا من قصصه ولننظر فيها نظرة نافذة فاحصة فماذا نجد يا ترى ؟

إننا نراه يقدم لنا صوراً ومشاهد من الحياة الواقعية ، كثيراً ما نراها فى عصرنا هذا فى الحياة العملية . نراه يقدمها لنا فى كثير من السهولة والبساطة والوضوح ؛ ويظهر لنا أبطاله فى صور وألواح هى غاية فى الدقة والروعة والإبداع ، صور تميزهم من كل أبطال آخرين ، فى أية قصة أخرى ، لأى كاتب كان ، وذلك تطبيقاً لوصية أستاذه فلوبير ؛ كل ذلك دون أن ينسى أن ينطقهم بلغة الوسط الذى يعيشون فيه ، والمهنة التى يزاولونها . وحينئذ تنسى أنك تقرأ قصة لموبسان ، وتحسب نفسك أمام مشهد حقيقى تراه بناظريك ، وتسمعه بأذنيك . فإذا ما بلغت القصة نهايتها ، وصحوتَ من الحلم الجميل الذى هيأه لك الكاتب ، عجبت لاقتداره ودقة ملاحظته وعلو كعبه فى التصور والتحليل . وهو منذ السطر الأول الذى يخطه فى قصته ، حتى السطر الأخير منها ، يحاول بنجاح أن تكون رشيقة أنيقة ،

---

(١) مقدمة رواية « بيروجان » لموبسان صفحة (١٦) طبعة فلاماريون لامور سنة ١٩٣٦

(١) مقدمة « فرعون الصغير » للأستاذ محمود تيمور ص ١٨

(٢) « دومسنيل » فى كتابه « جى دى موباسان » ص ٢١١

متسلسلة الحوادث دون تكرار ، رائعة المفاجأة دون مغالاة أو ابتعاد عن الواقع

وموبسان يحب الحقيقة والواقع كل الحب ، والدليل على ذلك أنه نسج أقاصيصه ورواياته متبعاً فى ذلك المذهب الواقعى ولم يحد عنه إلا فى أواخر حياته الأدبية . والمذهب الواقعى فى نظر أكثر الكتّاب العالميين هو أقصى غاية الفن ، لذلك نرى « أميل فاجيه » يقول فى دراسته عن « بلزاك » : « من الجدير بالملاحظة حقاً أنه إذا كان المذهب الواقعى هو أقصى غاية الفن ، فليس أصعب من أن يكون المرء واقعياً »[1] . وبالرغم من ذلك ، فقد كان « موبسان » فى الطبقة الأولى من الكتاب الواقعيين . وكان يصور المجتمع الفرنسى — ولا سيما الباريسى منه — بأمانة وإخلاص ؛ وكان يرتاد البيوت المشبوهة وينغمس فيها حتى النهاية ، ثم يصورها لنا بما لا يكاد يختلف عن الحقيقة فى شىء ، بعد أن يكسوها حُللاً من فنه ، وأثواباً من عبقريته . وكثيراً ما يُطوّف فى الأحياء والأمكنة البعيدة ، ويستلهم من غريب مشاهداته وعجيب مصادفاته مادة غزيرة لقصصه

وقد يصور فى قصصه البائسين والفقراء ، والتاعسين والأشقياء ، وغيرهم ممن طحنتهم الحياة بالهموم وغمرتهم بالآلام . ولكنه فى هذه الصور يُخفى الشفقة والرحمة ويبدو قاسىَ القلب متحجرَ الفؤاد ، لا يحاول أن يستدر الدمع بمناظر البؤس ، ولا يستنزل الرحمة بصور الشقاء ، ولا يصغى إلا إلى صوتٍ واحد هو صوت الفن . ومن هنا قال الناقدون بانعدام الطابع الإنسانى فى قصصه ، وهو فى ذلك على نقيض تام مع « ألفونس دوديه » ، فهذا يحاول أن يُشعر القارئ بالألم والحزن فى جميع أقاصيصه ورواياته . فنراه يبكى ويستبكى حزناً على الأشقياء والتاعسين . بينما نرى ذلك كصانع التماثيل الفنان ، لا يهمه وهو ينحت تمثاله سوى الفن والإبداع ، لذا يضرب بأزميله أينما شاء وحيثما قضى الفن ، لا يدرى أآلم بضربه أم لم يؤلم ، ولكنه يعرف حق المعرفة أأصاب فى نحته أم أخطأ

وفى رأينا أن الحق هنا فى جانب « موبسان » ، لأنه يَعرِض قصصه دون أى تعليق ، فهو يرينا صورة البائس دون أن يقول : « ها كم هذا البائس ! إرحموه أيها الناس وأشفقوا عليه » ؛ بل نراه يقول من طرف خفى : « ها كم قصة هذا البائس ! فأشفقوا أو لا تشفقوا » . وعلى القارئُ وحده أن يكون ذا حس مرهف وشعور دقيق ، فيرحم من يستحق الرحمة ويقسو على من لا يستحقها . ولنأخذ مثالاً بسيطاً على ذلك : فى إحدى أقاصيصه المسماة « والد سيمون » ، يصور لنا فتاة خطبها رجل فاستسلمت له قبل الزفاف ... ثم هجرها الخطيب ، ووضعت منه بعد مدة طفلها غير الشرعى ، ونشأ الطفل بعد ذلك يحف به العار دون أن يكون له فى ذلك ذنب أو إثم . وهنا يظهر موبسان فى قسوته المزعومة على الأشقياء والبائسين ، إذ أنه لا يكتب فى قصته كلها كلمة واحدة تبعث فى نفسك الشفقة على هذا الطفل البرىء ، أو تثير فى كوامنك الرحمة لتلك الفتاة المظلومة ؛ بل يشير إلى خجل المرأة من الناس واعتزالها إياهم ، ويصور لك ذلّ الطفل وعذابه واضطهاد رفاقه له ، لأنه على حد زعمهم « ليس له أب » . ثم يصفه لنا وهو على وشك الانتحار بعد أن شبع رفاقه من السخرية به وإسماعه لواذع الكلام ... ولا يُخلِّص الفتاة وطفلها من العار والموت سوى رجل شهم يتزوج من الأم ويتبنى الطفل

هذه قسوة موبسان المزعومة على الإنسانية ، وهى قسوة — إن صحت عليها هذه التسمية — فى موضعها ؛ لأن الفن الصحيح الخالص البعيد عن الضعف الإنسانى كثيراً ما يقضى بذلك

قلت : إن موبسان فيلسوف ، وفلسفته لا تخلو من آراء طريفة فيما يتعلق بالمرأة ، والحياة خاصة . أما رأيه فى المرأة فهو قاس شديد القسوة ؛ وهو يمت بأوثق صلة إلى رأى أبى العلاء المعرى فى العربية ، ورأى « مارسيل بريفو » بالفرنسية . فكلاهما يقول مع موبسان بأن المرأة مخلوق غادر قلما يخلص أو يعف ، وهى فى نظرهم أداة فتنة وفساد . وليس للمرأة من شاغل — فى نظر موبسان وبريفو — إلا إشباع رغباتها وميولها التى ليست سوى نار تتأجج ولهيب يستعر

المرأة ... إن موبسان يحبها من كل قلبه ، ولكنه لا يحبها زوجة وإنما يريدها خليلة ؛ لأنه يندر وجود المرأة المخلصة فى العالم ؛ وما دامت كذلك فهى لا تصلح إلا لإشباع الشهوات

وأما الحياة فله فيها فلسفة خاصة . فهو يرى « أنها سخافة ومعاناة وآلام فقط ، وليس فيها ما يشوق ويبهج »[1] »

(١) « أميل فاجيه » فى كتابه « القرن التاسع عشر » ص ٤٣٢

(١) « قصص اجتماعية » ترجمها الأستاذ محمد عبد الله عنان ص ١٧٢

ويغلب على ظننا أن هـذا الرأى لم يأخذ به موبسان إلا فى أواخر حياته ، أى عند ما تناوشته الأدواء وتكاثرت على جسمه العلل ؛ فداخله اليأس والقنوط ، لأنه كان قبل ذلك زير غوانٍ لا يرتوى ، وكان مدمناً على الشراب والمخدرات ، مقبلاً على الحياة ، متمتعاً بكل لذائذها ، غارقاً فى مفاسدها . وهذه كلها أشياء « تشوق وتبهج » لا يأنيها من كان يائساً من الحياة محتقراً لها معرضاً عنها . ويلتقى موبسان ثانية مع المعرى فى رأيه فى الحياة ولكن الأول يطمن فيها وهو مقبل عليها يتمتع بلذائذها ، بينما الآخر يكره الحياة ويعيش بعيداً عنها وعن جميع لذائذها

وعلى أى حال فقد اشتد بأس كاتبنا من الحياة وزاد كرهه لها عند ما تقلبت عليه الأمراض ، وانتهت به إلى أسوأ عاقبة ، وأعنى بذلك الجنون ... نعم ، لقد جُنَّ الرجل فى أواخر حياته وكان السبب فى ذلك شدة إخلاصه لأدبه وفنه ، واعتقاده بأنه ميت لا محالة ، بينما كانت نفسه لا تزال تزخر بشتى الصور الفنية التى يود أن ينسجها أقاصيص رائعة الحسن موفورة الجمال . فكان لتنفيذ هـذه الرغبة يعمل فى يومه مدة ثمانى عشرة ساعة ـ كما يقول روبير مونتيه فى كتابه عن أسباب جنون موبسان ـ واضطر الرجل إلى إجهاد ذهنه إجهاداً متواصلاً فى سبيل تنفيذ مشروعه ونسج أقاصيصه التى خشى أن يأتى عليها الموت فتدفن معه فى اللحد وهى أجِنَّة لم تولد . ولما أدركه الجنون المطبق صار يرى فى الناس أبطال قصصه الذين صنعهم خياله وصورهم يراعه . وأخذ يسىء إلى من رمته بقلمه شرياً منهم ، فاضطر ذووه إلى نقله إلى مصح للأمراض العقلية ، ولكنه أعيد بعد مدة إلى باريس حيث قضى وهو فى قمة المجد وأوج الصبا وأبعد الصيت . مات موبسان فأنكره قومه فى مماته كما أنكروه فى حياته ، ولم ينتبهوا إلى فنه الرائع وعبقريته الفذة إلا فى الأعوام الأخيرة حيث احتفلت فرنسة بتخليد ذكراه عام ١٩٢٥ ، وأقامت له فى مسقط رأسه تمثالاً يليق بعبقريته ونبوغه

هذه صفحة موجزة من أدب الرجل الذى عاش ومات من أجل أدبه وفنه ، والذى جعلت منه صديقاً لى وفياً . فهل ثمة من يلوم على إكبارى لهذا الصديق الذى عانقته إلاهة الفن وهدهدته ، ثم سقته من كأس الخلود والبقاء ، وجعلت منه كاتباً عبقريًا تباهى به القرون وتفخر به الأجيال

(دمشق) عبد الغنى العطرى

أمـــل يضيع

للسيدة الفاضلة «ليلى»

إلى العذراء التي طال عليها الانتظار ، وظلت مجهولة كزهرة الصحارى والقفار . إلى الحزينة الصامتة تسائل نفسها : متى وأيان ، أهدى كلمتي وأقدم تعزيتي «ليلى»

يا لؤلؤتي اللامعة ، يادرتي الغالية ، يازنبقتي الناضرة الناصعة ، مضت الشهور والأعوام ، وأنت قابعة في انتظار . ما الذنب ذنبك ، ولكنه أبوك الفقير ، لا هو موظف كبير ، ولا صاحب جاه خطير ، لقد طغت المادة على الرجولة فأضعفتها ، وعلى الأخلاق فأفسدتها ، فتعامت العيون عن الجوهر المكنون ، وتهافت الشباب المتسكع على أبواب الغنى واليسار يطلبون يد الفتاة التي يعيشون على هامش حياة أبيها متفاخرين ، وعلى صبابة من ماله متهالكين . يحز في قلبي وتملأه الحسرة أن ينطفىء في نفسك نور الأمل ، وينهار صرح الأماني ، وأن تخبو نظرتك المتألقة ، وتغيض ابتساماتك المشرقة ، ويختفي الفرح الذي يملأ قلبك ، والمرح الذي يشع في نفسك ، والروح الهانئة الحالمة تصبح حيرى متألمة . ها هن أخوات لك أخريات ينمو بهن الشباب كما تنمو الأزهار في المنبت الطيب والتربة الجيدة يشتد ، عودهن ويقوى ينتظرن انتظارك ويحلمن أحلامك ، والمستقبل أمامكن مظلم غامض ، وعجلة الحياة تدور بغير ما هوادة ولا رحمة ، والقلوب الحزينة مطوية على الأمل الضائع كما يطوى القبر على عزيز غال ، والعبرة محبوسة لا تغيض ، والشفاه لا تنبس بأنة ولا شكوى ، والعاطفة مكبوتة في سجن من التقاليد . إنه ليؤلمك أن تكوني عالة على ذويك ، وهماً على أمك وأبيك . ما توقعنا لك خيبة الأمل ، وإلا أعددناك لحياة الشقاء والعمل

يا بنيتي الحبيبة ، لم يكن ينقصك عقل ولا ذكاء موفور ، لك الحسن والرواء ، ثقفناك على قدر ما وسع جهدنا ، وحبوناك بعطفنا وحناننا ، ورعيناك بالأعين والقلوب ، وأتحفناك بكل ما تسمح الجيوب ، ولم نترك فيك خلقاً إلا قومناه ، ولا اعوجاجاً إلا أصلحناه ، حتى ملأت البيت علينا بالبهجة والسرور ، وغدوت زينة المجتمع والخدور . والآن يعتورك الملل تضيقين بنا ونضيق بك ، وما هو ذنبنا أو ذنبك ، إنها المادة التي طغت على الرجولة فأضعفتها ، ولا على الأخلاق فأفسدتها . وأبوك موظف صغير ، لا هو بالغني ولا بالكبير . لقد تغير العصر والجيل ، وضاعت وصايا القرآن والإنجيل . كان جدودك السابقون يبحثون لأولادهم عن المنبت الطيب والأساس المتين ، وتتصاهر العائلات وسداها السمعة الطيبة ولحمتها البيت الكريم . والآن يا فتاتي لا الخلق الجميل ، ولا العقل الرصين ، ولا كفايتك في إدارة البيت ، ولا ثقافتك لتكوني من خيرة الأمهات ، وأمانتك لتكوني أطهر الزوجات ، ولا سمو روحك وجمال نفسك ، بمزكينك لدى الرجل ما دمت لست غنية ، ولا أبوك صاحب ضيعة (وأبعدية) ، وعلى هذا يظل الشبان متقاعدين ، عابثين أو منتظرين ، وعلى مقربة منهم وفي متناول أيديهم السعادة والنعيم ، وما هي بمضمونة في زيف الجاه الباطل ، أو موجودة في استجداء المرض الزائل ، واليأس في ارتواء الحب الآثم غير الخسران ، والجرى وراء المعصية غير إطاعة الشيطان . أعجب للرجل يهرب من التبعة كالسائمة الضالة ؛ لا تعرف لها راع من رعية ، ينتظر حتى يفوته الشباب ويجدب أيما إجداب ، وهكذا يظل ينغمس في أحضان الفسق والدعارة الشيوعية . ما دامت لا توجد الزوجة الغنية . حقاً لقد طغت المادة أي طغيان ، وتُنوسي الواجب أي نسيان ، فعزاء للعذارى في خدورهن ، ونصيحتي أن تعملن ولا تنتظرن ، وربما تجدن من يتزوجكن من شباب الجيل الحاضر لتقمن بالنفقة عليه ؛ ورحم الله ماضي الرجولة وأيام أمهاتكم وجداتكم ولا فخر بعد ذلك للرجال

«ليلى»

في اختلاط الجنسين

للأستاذ محمود محمود بسيوني

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

ولما كان ما نراه اليوم من فساد ناتجاً عن سوء فهم الناس لمعنى الاختلاط فلندرس إذن الاختلاط ولنفهمه بمعناه الحقيق.

الإنسان مدني بطبعه ، أي أنه لا يمكن أن يعيش منعزلاً ؛ فلا بد من التعاون الحقيقي بين أفراد الإنسان بوجه عام . فإن اختلاف القوى البدنية والعقلية يحتم احتياج كل إنسان إلى الآخر لإكمال ما به من نقص ، ولكي يتعاون الجميع على الحياة في أمن وهدوء . والحياة كثيرة الشعب متعددة الفروع بحيث أن كل فرد لا بد أن يقوم بعمله كاملاً من ناحية اختصاصه . ومن هذا نرى أن الرجل لازم للمرأة ، وأن المرأة لازمة للرجل ، أي أن الاتصال بين الرجل والمرأة لازم لا لحفظ النوع فقط ؛ وإنما كذلك للتعاون على شؤون الحياة ، أو بمعنى آخر نستطيع أن نقوله أن الاختلاط أمر لا بد منه ، ولكن متى يكون هذا الاختلاط وما حدوده ؟

الاختلاط ممكن في الحدود الطبيعية أي حيث تتطلبه شؤون الحياة . وهو لا يكون حينئذ خطراً لانصراف الفكر إلى المهام الجدية التي تطلبها الاختلاط ، ولانعدام الجو الذي يولد التفكير السيء . فالرجل الذي يذهب ليشتري شيئاً تحسن المرأة صنعته أو تجارته ، لا يتوفر لديه ما يبعث على التفكير السيء ؛ والمريض في المستشفى محتاج إلى رقة المرأة وحنانها ، فلا ضرر من اتصال الرجل بالمرأة في مثل هذه الحالة ، حيث لا مجال هناك للتفكير السيء . والرجل الذي يتلقى فناً خاصاً تحذقه امرأة لا بأس عليه من اختلاطه بها كذلك . وكل هذا هو ما نقصد به الاختلاط الطبيعي الذي تتطلبه شؤون الحياة وتوزيع العمل بين الرجل والمرأة كما فهمته تلك المرأة القروية على حقيقته . فهي تخالط الرجل في الحقل إذا دعت إلى ذلك الشؤون الزراعية ، كما تخالطه في السوق إذا دعت إلى ذلك حاجة البيع والشراء . ولكن هؤلاء الذين تختلط بهم في الحقل وفي السوق تحتجب عنهم في المنزل لأنها في هذه الحالة لا تجد مبرراً طبيعياً لاختلاطها بالرجال ، وعلى ذلك نستطيع أن نقرر في غير تحرج أن تلك القروية قد أدركت بفطرتها السليمة وظيفتها الحقيقية أكثر مما فهمتها تلك الفتاة الحضرية التي تدعي العلم والفلسفة

على أن هناك مجالات أخرى قد يبدو فيها الاختلاط أمراً ضرورياً كالحفلات الخاصة وما شابهها . وخير الأمور في مثل هذه الأحوال هو أن يقتصر الاختلاط على الأهل والأقارب والأصهار ومن إليهم ممن توجد بينهم صلة قوية وثقة تامة ؛ فحينئذ أظن أن خطر الاختلاط يبتعد كثيراً ويكاد ينعدم ، وبخاصة إذا روعي الواجب حيال هذا الاختلاط من احتشام المرأة ومراعاتها له في حدود الوقار والحياء . وإني لا أفهم مطلقاً أي معنى لأن يدعو إنسان في بيته رجالاً ونساء لا يعرف بعضهم بعضاً ويزعم لنفسه بأنه يقدم التعارف بينهم . فهذا النوع من الاختلاط هو الذي لا نقره مطلقاً . فمنه تقع الحوادث والكوارث . فإن المرأة بطبيعتها ضعيفة سريعة الانقياد ؛ ثم إنه من الممكن أن يندس بين الرجال من ليس منهم من الجهة الخلقية الجديرة بالرجولة . فكثيراً ما تلقى وحوشاً إنسانية في زي الرجال . وفي وجود هؤلاء خطر شديد . فقد تلتقي المرأة برجل تتوسم فيه محاسن خاصة وفضائل ظاهرية قد تميزه على زوجها إن كانت متزوجة ، أو توهمها بأن فيه المثل الذي تنشده إن لم تكن متزوجة ، فإذا بها تنقاد له وتقع في شركه وتتمادى في علاقتها به ؛ ثم تنكشف الحقيقة فجأة وتقع الكارثة كما هو معروف .

لقد قلنا إن الاختلاط ممكن في الحدود التي تستلزمها الطبيعة ولا تتنافى في شيء مع الدين والأخلاق ، وهي حدود لا تعوق الحرية ولا تؤثر على التقدم والرقي ؛ إنما هي حدود تكفي لأن يعيش الإنسان هادئاً مطمئناً سالكاً الطريق الذي خلق له . أما الاختلاط على الصورة الحاضرة فهو خطأ كل الخطأ ، وإنما هو تقليد أعمى لا يجوز الأخذ به بتاتاً . وقد قال الفيلسوف Montesquieu : إن لكل بلاد جوها وعاداتها وتقاليدها وموقعها الجغرافي مما يخلق لها ظروفاً خاصة قد لا تتناسب مع ظروف البلد الآخر . وهذه النظرية الصحيحة إذا طبقت في موضوعنا هذا نستطيع أن نصل بوساطتها إلى

أن الاختلاط وإن أمكن توسيع نطاقه فى أوربا (على أن أوربا هى الأخرى قد نالها منه ما نالها من شر وضر) قد يكون مقبولا إلى حد ما ، لأن جو البلاد وطبيعة أهلها الباردة ؛ ثم عاداتها وتقاليدها قد تجيز الاختلاط دون ضرر كبير . أما فى الشرق حيث الجو حار وطبيعة السكان حارة أيضاً، سريعة التأثر والثوران، وحيث تقاليد الناس المتوارثة لا تجيز هذا الاختلاط ؛ فإنه من الخطر حقاً أن ننقل اختلاط أوربا إلى مصر ، فسيبقى الغرب غرباً وسيبقى الشرق شرقاً إلى نهاية الحياة

أما ما يقول به البعض من أن المرأة إذا كانت شريفة بطبعها واثقة بنفسها، موثوقاً بها، فهى تستطيع أن تبقى طاهرة مطهرة ، حصينة محصنة ، تحت أى ظرف أو ضد أى ظرف من ظروف الإغراء والسقوط ، فهذا شىء من الصعب التسليم به ، فمن الخطأ أن توفر لإنسان أسباب الشر وتغريه بها وتحببه إليها مع علمك بأنه ضعيف أمام سطوة الشيطان ، ثم تزعم أنه يستطيع التغلب عليها ؛ وقد قالت حكمة القدماء أن الوقاية خير من العلاج

وقد قال البعض أيضاً أن العلم والثقافة يقيان المرأة شر السقوط . ولكنا لا نستطيع أيضاً أن نسلم بهذا ؛ فإننا قد رأينا المتعلمين والمتعلمات هم الذين يبدأون بفكرة الاختلاط ويسرفون فى الحرية التى يهيئها لهم علمهم وثقافتهم فيغررون بذلك طائفة أخرى أكثر منهم عدداً وأقوى منهم أثراً ، ولكنها أقل علماً وفهماً . هؤلاء هم أنصاف المتعلمين والمتعلمات الذين لا يقدرون الأمور كما يجب أن تقدر ، ولا يفهمون الحرية كما يجب أن تفهم ، فيعتقدون أن الأمر عبث ولهو لا أكثر ولا أقل ، فيندفعون وراء عقولهم الضعيفة وقلوبهم المستسلمة ويصبحون الخطر الأعظم . أما المتعلمون الذين ينفعهم علمهم ويقيهم شر السوء فهم الذين بلغوا من العلم شأواً بعيداً . أما الذين لم يصيبوا منه مثل هذا القدر فإنه يتسرب إلى اعتقادهم أن العلم يعطيهم شيئاً من الحرية وشيئاً من التفكير فى الأمور من نواحيها السهلة الضعيفة فيتناسون ما فيها من قيود شديدة ، وبهذا يصبحون مستهترين إلى حد ما . فخير إذن أن نترك الأفكار الصالحة تسيطر على العقول والنفوس على شكل تقاليد وعادات تتوارثها الأجيال ، فلا تجرؤ على مهاجمتها . وخير للمرأة إذن ألا تسرف فى الاستنتاجات من الفلسفة والعلم ، وإنما يجب أن يكون علمها فى الشؤون التى خلقت لها وهى فنون البيت وشؤون الأسرة ، وأن نكتفى فيما عدا ذلك بما تشير به تعاليم الدين وتقاليد البلاد . فليتجنب الجميع منابع الشر ، وليبتعدوا عن مسبباته درءاً للخطر ، وبخاصة أنه ليس هناك ما يستوجب الاقتراب منه

وإنما نحمل المرأة أكثر التبعة نظراً لأنها تعلم حق العلم أن مسماها غير مسمى الرجل فهى سريعة التأثر كالزهرة اليانعة إذا لمسها الأيدى الكثيرة ذبلت وتناثرت أوراقها وديست بالأقدام ، بينما حال الرجل ومسماه قليل التأثر . فلو أن المرأة لم تقدم نفسها إلى الرجل ولم تسهل له سبيل الاتصال بها ولم تستمع إلى إغرائه وغوايته لما جرأ هو على الاستخفاف بها واستغلال مخالطتها بالسوء . على أن ذلك لا يبرىء الرجل من التبعة واللوم ، فإن صفات الرجولة توجب عليه أن يكون قوياً شهماً مترفعاً عن أساليب الخداع والغش التى يتبعها لإيقاع المرأة فى الشرك وهى الضعيفة أمام سلطانه . فكان الواجب أن يرد المرأة إلى سبيل الجد والهداية . فلو أنه استغل رجولته وشهامته فى عدم الاندفاع فى الاختلاط وفى عدم تشجيعه له ، لانعدمت الأسباب التى نتج عنها الاختلاط السيء ولما شكونا مما نشكو منه الآن

وكل ما نريده اليوم هو أن نستجيب إلى النداء العظيم الذى وجهه صاحب العزة الدكتور منصور فهمى بك حيث حثنا على أن نتعاون جميعاً على تنظيم حياتنا الاجتماعية تنظيما جديداً يتناسب مع تقدمنا ومدنيتنا الحقيقية لا المزعومة . وأن نطهر تلك الحياة مما فيها من آثام وشرور قبل أن يستفحل أمرها ويستعصى استئصالها ، فواجب كل فرد أن يضع فى رأسه أنه مكلف أخلاقياً بأن يساهم فى مكافحته للفساد والشر وفى هداية الناس إلى الطريق المستقيم وفى إظهارهم على ما فى ذمتهم وما فى تقاليدهم من معان سامية ومن تعاليم رفيعة تضمن لهم أمنهم وسعادتهم . فليقم كل منا بأكبر قسط يمكنه أداؤه فى دائرته : فى منزله أولاً وفى البيئة المحيطة به ثانياً . كذلك نستجيب إلى نداء الأستاذ الدكتور فندعو إلى تأليف جماعات تعمل متضامنة على مكافحة الأمراض الاجتماعية الناتجة عن الاختلاط . ونحن نتمنى أن تتسع هذه الخطوة بأن تساهم الصحافة بقسط أوفر ، بأن تكثر

بين الأدب والتاريخ

مـــــدن الحضارات

فى القديم والحديث

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

لكل حضارة قديمة أو حديثة مدنية كبيرة يستقر فيها السلطان، وتتمثل فيها الأدارة والسياسة، والصدارة والرياسة؛ وتتجه إليها الأنظار، ترى فيها المثل، وتجد فيها القدوة، وتأخذ عنها الأساليب. ولقد كتبتُ فى إحدى المجلات الأسبوعية بحثاً عن بعض هذه المدن القديمة، واليوم أنقل المجال إلى «الرسالة» الغراء، جاعلاً حديث اليوم عن بيزنطة عاصمة المسيحية الأولى؛ ودمشق وبغداد العاصمتين الكبيرتين للإسلام

ولقد سميت بيزنطة بعد إنشائها بزمن بالقسطنطينية وخفقت عليها فى عصور متعاقبة: أعلام الوثنية وألوية المسيحية وراية الإسلام. وبقيت إلى اليوم تحت الراية الأخيرة منذ أن فتحها السلطان محمد الفاتح فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى.

أسس هذه المدينة المستعمرون الأولون من الإغريق فى سنة ٦٦٧ قبل الميلاد، وقد ظلت قرابة ستة قرون ونصف قرن وهى حاضرة كبرى للوثنية. وفى عصر قسطنطين الأول امبراطور الرومان، انتقلت عاصمة الإمبراطوريات إلى بيزنطة، التى أسميت من ذلك الحين بالقسطنطينية نسبة إليه. وكان ذلك فى الثلث الأول من القرن الرابع الميلادى.

ولقد أخذ نجمها منذ ذلك اليوم يصعد ويزداد ألقاً فى سماء التاريخ. فأقام فيها قسطنطين كثيراً من المنشآت العامة والمبانى الضخمة، وشيد (تيودور) حولها سوراً منيعاً جعلها عزيزة المنال بعيدة المطلب؛ وأصبحت عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وزخرت بالعلماء والحكماء والفلاسفة، وامتلأت بالمدارس ودور الكتب، واتسعت رقعتها من يوم إلى يوم بضاحية تمدّ، أو دسكرة تبنى، أو طريق يعبّد.

وظلت القسطنطينية بعد ذلك قرابة عشرة قرون، توالت عليها خلالها سعود الأيام ونحوسها، وتتابعت عليها الحظوظ شقيها وسعيدها، وهى فى ذلك ما بين خفض ورفع وجزر ومد، إلى أن سقطت فى أيدى الأتراك سنة ١٤٥٣ م، وأصبحت بانتقال الخلافة الإسلامية من مصر إليها عاصمة الممالك الإسلامية وقبلة الأمم المحمدية تتجه إليها فى الشدة والرخاء. وكان للباب العالى فى تلك الأزمان مقام لا يدانيه مقام، وسلطان ما بعده سلطان

وتمتاز تلك المدينة بموقعها الفريد على البوسفور، وامتدادها فى شبه جزيرة على بحر مرمرة، وإشراف خليج القرن الذهبى عليها من الشمال. كما تمتاز بأسواقها التجارية التى تعد من أبدع أسواق العالم، وبمجموعة من المساجد الجميلة المبنية على طراز تركى أخذت عنه طائفة من مساجد القاهرة التركية كمسجد محمد على باشا

وأشهر تلك المساجد جامع (أيا صوفيا)، وقد كان كنيسة قبل الفتح العثمانى، ولكن قرع النواقيس فيه انقلب إلى تسبيحات المؤذن، وتهليلات المكبر، معلنة اسم الله العظيم، يتجاوب فى آفاق المدينة الساحرة التى طالما فتنت السلطان الفاتح وأخذت عليه تفكيره وخالطت أحلامه وخواطره؛ حتى تمت له الأمنية وتحققت الأحلام. ودخلها يوم الفتح — كما تقول الروايات التاريخية — حافى القدمين بادى الخشوع، شاكراً لله على ما وهب، مصلياً فيها أول صلاة للمغرب

وشاء الله بهذا الفتح أن تصبح المدينة عاصمة الإسلام، وإذا بالأباطرة العظام يستبدلون بخلفاء أعظم وسلاطين أمنع دولة وأعز صولة. ثم يخاف العلماء والحكماء فيها على مصائرهم ويشفقون على أنفسهم، ولا يؤمنون المقام تحت ظل الأتراك وفى كنف

أخبار الاجتماعات المختلطة الخاوية، وأخبار الحفلات التى تخلو من كل ما يهم المصلحة العامة وأن تمتنع عن ذكر كل ما يتنافى مع تعاليم الدين وتقاليد البلاد. لعل هذه العقوبة الأدبية ترد الغاوين عن غيهم والمستهترين عن استهتارهم، فلا يلقى مقلدوهم وأنصارهم أى تشجيع إلى أن تموت بالتدريج كل فكرة فاسدة حتى يتصالح حال المرأة ويحسن ظنها وفهمها لمبادئ قاسم أمين فتنفذ آراءه وتعاليمه كما كان يريدها وكما يريدها المصلحون والله أسأل أن يلهمنا التوفيق والسداد.

محمود محمود بسيونى

الحكم الجديد، فيفرون ويهجرون المدينة المسلمة والعاصمة المسلمة ويحملون معهم تعاليم اليونان وثقافة الرومان وينشرونها فى أوربا فتكون طلائع النهضة المباركة والحركة الجديدة التى تعرف فى التاريخ باسم Renaissance

وفى القرن الثامن الميلادى ظهرت فى الشرق العربى المسلم مدينة جديدة ليست فى مضارب الصحراء ومجاهل البيداء كمكة والمدينة ولكنها فى الشام حيث كانت حضارة الفينيقيين تزدحم وتتكاثر على الشاطىء الشرقى لبحر الروم (البحر الأبيض المتوسط). تلك المدينة هى (دمشق) حاضرة الدولة الأموية، ومقر الخلافة الإسلامية، ومركز القيادة التى تفرعت منه الحملات وانسابت منه المغازى إلى أقطار بعيدة، وجهات سحيقة لتوسيع رقعة المملكة الإسلامية

ودمشق قبل الإسلام قديمة قدم الدهر، ترجع إلى أيام إبراهيم عليه السلام. فلما دخلها الإسلام غير من حالها وبدل من أمورها. ولما انتقلت إليها الخلافة الأموية، أصبح لها الشأن والمركز والمحل والموضع يفد إليها الشعراء على الخلفاء طلباً للعطاء فيقول جرير:

فإنى قد رأيت على فرضاً زيارتى الخليفة وامتداحى

ويملل زوجته (أم حزرة) بالغنى بعد رحلته إلى دمشق ووفوده على الخليفة بقوله:

سأمتاح البحور فجنبينى أذاة اللوم وانتظرى امتياحى

وكان معاوية أول خلفاء بنى أمية يسكن غوطة دمشق، وهى — كما يقول جغرافيو العرب — إحدى نزه الدنيا. ومعاوية — على ما زعم الرحالة اليعقوبى — أول من بنى وشيد البناء، وسخر الناس فى بنائه

وكانت أغلب بيوت دمشق فى أول الفتح تبنى من المدر: أى اللبن والطين؛ ولكنهم عادوا فبنوها بالحجر لما روى أن عمر ابن الخطاب نهى أصحابه بدمشق عن استعمال اللبن فى البناء. وكان للسابقين من الصحابة فى دمشق قصور كثيرة، أو دور عامرة منتشرة فى أنحائها كدار خالد بن الوليد، ودار أبى عبيدة عامر بن الجراح، ودار العباس بن مرداس. ودار عمرو بن العاص وغيرهم؛ وبنيت كذلك مساجد ملحقة بالبيوت يتجاوب فوق مآذنها التكبير باسم الله الكبير

وإنا لندرك من الأبيات التى قالتها ميسون زوج معاوية الفرق بين بيوت البادية ودور الحضر. فقد أبت هذه السيدة أن تعيش فى قصر معاوية العظيم أو (المنيف) على حد تعبيرها، ورضيت أن تسكن فى كوخ صغير أو بيت من الشعر فى البادية. وقالت فى ذلك أبياتاً معروفة منها:

لبيت تخفق الأرياح فيه أحب إلى من قصر منيف

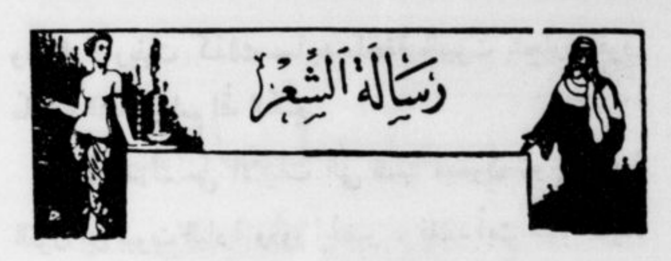
وكانت دار معاوية بدمشق تسمى الخضراء لقبة خضراء نصبت عليها. بناها بالمدر أولاً فسخر منها جماعة من الروم فأعاد بناءها بالحجر. ومن عجائب الأقدار أن تصبح هذه الدار اليوم فى حى من أحقر أحياء المدينة، وهو حى مصبغة الخضراء

وللأستاذ العالم الجليل عيسى اسكندر المعلوف كتاب كبير مخطوط اسمه «حضارة دمشق وآثارها» ذكر فيه فصلاً عن دور الخلفاء الأمويين فى دمشق، ونشرت خلاصة هذا الفصل فى مجلة (دمشق) الأدبية العلمية التى يحررها جماعة من أهل الفضل والعلم فى القطر الشقيق (جزء خامس. سنة ثانية. عدد شهر آيار سنة ١٩٤١

وكان الوليد بن عبد الملك يحب البناء ويعشق العمارة - والناس على دين ملوكهم - فبنيت فى عهده القصور وشيدت الدور وزيدت فى المساجد زيادات، وأضيفت إليها ملحقات. ومهدت الطرق، وحفرت الترع، ويذكر السيد العلامة الكبير محمد كرد على الدمشقى فى كتابه «خطط الشام» أن الوليد أول من أمر بعمل «بيمارستانات» تعالج فيها المرضى

وإلى الوليد يرجع الفضل فى بناء الجامع الأموى والمسجد الأقصى، ولقد أنفق على بنائه خراج الشام لمدة عامين على إحدى الروايات التاريخية، وأنفق فى سبيل تشييده وزخرفته وتذهيبه ومرمرته (صبغه بالمرمر) وتفصيصه ورفع قبته، وإقامة عمده الكثير من المال، والوافر من الجهد، وفن ريازته (عمارته) ليس إسلامياً محضاً، ولا يونانياً صرفاً ولكنه خليط من هذا وذاك

(الحديث موصول) محمد عبد الغنى حسن



من ظلال البعث !

راهبتي الشقية ...

« إلى التي أعبد فيها عذاب الزمن وقداسة الروح »

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

رَمَى بِنَا الْمَقْدُورْ فِي عَالَمٍ مَهْجُورْ
إلاَّ مِنَ الْعُشْبِ
وَأَنْتِ ... وَالْحُبّ !

وَاللَّيْلُ فِي الشُّطْآنْ كَرَاهِبٍ نَعْسَانْ
غَنَّتْ عَلَيْهِ الْجَانْ تَمِيمَةَ النِّسْيَانْ
فَذَابَتِ الأَكْوَانْ وَالنَّاسُ ، وَالأَزْمَانْ
فِي خَاطِرٍ نَشْوَانْ لَمْ يَسْرِ فِي وِجْدَانْ
وَلاَ سَقَى إِنْسَانْ مِمَّا سَقَى قَلْبِي ...
مِنْ خَمْرَةِ الْعُشْبِ
وَأَنْتِ ... وَالْحُبّ !

جَاءَتْ بِكِ الأَقْدَارْ مَذْعُورَةَ الأَسْرَارْ !
دَهْرِيَّةَ الأَسْتَارْ خَمْرِيَّةَ الأَنْوَارْ ...
شُقِّي حِجَابَ النَّارْ لِخَافِقٍ جَبَّارْ
مِنْ سِحْرِكِ الْقَهَّارْ أَبْكَى رُؤَى الأَسْحَارْ
بِالسُّهْدِ وَالأَفْكَارْ وَذَابَ كَالْغَيْبِ
فِي خَاطِرِ الْعُشْبِ
وَأَنْتِ ... وَالْحُبّ !

رَمَى بِنَا الْمَقْدُورْ فِي عَالَمٍ مَهْجُورْ
سَاقِي الْهَوَى الْمَفْطُورْ فِي زَوْرَقٍ مَذْعُورْ
يَجْرِي بِهِ الدَّيْجُورْ لِمَعْبَدٍ مَسْحُورْ
تَفَجَّرَتْ فِيهِ النُّورْ لِمَالِكٍ مَقْبُورْ
أَوْدَى بِهِ التَّفْكِيرْ فَجَاءَ يَا رَبِّي ...
يَحْيَا مِنَ الْعُشْبِ
وَمِنْكِ ... وَالْحُبّ !
رَبَّاهُ ! مَا ذَنْبِي ؟

محمود حسن اسماعيل

أكذوبة السلوان

للأستاذ سيد قطب

[بعد عام أحس في نفسه بالسلوان ، وأحس بمغاليق نفسه تتفتح للجمال . ولكنه تنبه إلى أن كل نموذج جميل يتفتح له قلبه فيه شبه أو مسحة من الجمال الذي حسب نفسه قد سلاه ؟ وإذا هو يهفو إلى الماضي وللماضي وحده دون سواه !]

الآن أعلمُ أنَّ كلَّ خواطرى تهفو إليكِ كرفرفاتِ الطائرِ
ما كان سُلواني سوى أكذوبةٍ خُدِعَتْ بها نفسي خديعةَ شاعرِ
بينَ الشغافِ وفي مُنايَ وفي دمي ألقاكِ هاجسةً و بين مرائرى
أنساكِ ؟ كيف وأنتِ بين جوانحي
شِطرى الجميلُ وأنت وحيُ خواطرى ؟
أنساكِ والآمالُ والذكرى معاً موصولةٌ بكِ في صميم مشاعرى؟
و إذا هفوتُ إلى الجمالِ فإنما أهوَى مِثالَكِ في الجمالِ العابرِ
أنساكِ إذ أنسَى حياتيَ كلها فإذا حييتُ فأنتِ أوّلُ خاطرِ
نبضُ الربيعِ فكنتِ أوّلَ نابضٍ في خاطرى يهفو وأوّلَ زائرِ
وهفوتُ للماضي الذي قد أودَعَتْ نفسي لديه رغائبي وذخائرى
أنا ذلك الماضي الذي لا ينقضي أنا ذلك الماضي يعيشُ بحاضرى!

(حلوان) سيد قطب



حول أبعاد الحيز

هل الزمن بعد رابع ؟

[إلى أستاذى جردان أهدى هذه الفصول]

للأستاذ خليل السالم

— ٢ —

قال أرسطوطاليس فى أحد كتبه The Heaven للخط الهندسى مقدار فى بعد واحد وللمستوى فى بعدين وللحجم فى ثلاثة أبعاد ، وبعد هذه لا نجد تحويلاً كما نجد تحويلاً من الخط إلى المستوى أو من المستوى إلى الحجم . وبنى إقليدس هندسته التى اعتمدت عليها أكثر العلوم التى تمت إلى الرياضيات بصلة على هذه الفكرة ، وهى أن أبعاد أى جسم أو أبعاد المكان ثلاثة ولا يمكن أن تزيد ، ولذا كان من العجيب حقاً أن يقول العلماء — بعد قرون طويلة أخص ما يميزها إيمان بالأبعاد الثلاثة فقط — بالبعد الرابع الذى لا يقبله حس أو تصور . ونحاول فى هذه المجالة التعقيب على هذا الرأى الذى قال به أول من قال الكاتب الفيلسوف ويلز فى كتابه « آلة الوقت » ، الذى أتينا على تلخيصه فى المقال السابق

لا تزال مشكلة البعد الرابع ، مثار البحث والجدل بين أقطاب العلم والفلسفة . فبينا نرى الأستاذ بيران من الجمعية الملكية يسخر من بدعة البعد الرابع سواء كان هذا الزمان أو غيره من أبعاد المكان ، ويزرى على تلك المقالات التى تؤيد هذه الفكرة خلوها من الدقة العلمية والتمحيص الواعى ، نرى « أنشتين » وأتباعه يتبنون الفكرة ويجعلونها أساساً قوياً فى بناء ناموس النسبية ، واستطاعوا بذلك أن يفسروا كثيراً من الظواهر الطبيعية التى وقف أمامها مبدأ « نيوتون » فى الجاذبية حائراً عاجزاً . ونرى كذلك فريقاً من فلاسفة الرياضيات لهم قيمتهم وشهرتهم العلميتان ، يؤمنون بالبعد الرابع والخامس والسادس إلى ما لا نهاية ، ويرفضون أن يكون المكان ثلاثى الأبعاد فقط كما عرفت الأجيال السابقة فى قرون طويلة وكما نتعلم نحن الآن . (لعل لنا عودة لشرح هذا الرأى الأخير)

عرف « لاجرانج » الرياضى الفرنسى المشهور علم الحيل (الميكانيكا) بأنه هندسة رباعية الأبعاد ـ الزمن بعدها الرابع ـ ، فإن أى جسم متحرك يتحدد موقعه فى الكون بأربعة متغيرات Variables على أن هذا التعريف لم يلفت أنظار العلماء كما فعلت رواية « آلة الوقت » وما إخال القارئ إلا ذاكراً جملة صاحب الاختراع إذ يقول : « واضح أن لكل جسم امتداداً فى أربعة أبعاد : الطول والعرض والسمك والاستدامة الزمانية » . فوجود جسم يحتم أن يستمر لحظة من الزمان مهما كانت قصيرة . أما إذا لم يستغرق وجوده جزءاً من الزمان فهو غير موجود حتما ، ولكن هل يعنى شرط وجود الجسم فى الزمان أن الزمان بعد رابع كأبعاد المكان ؟ نجد الجواب عند بعض العلماء ، أو بالأحرى عند أكثرهم إيجاباً . يقول « برجسون » الفيلسوف الفرنسى المتوفى حديثاً فى كتابه « الزمن والإرادة الحرة » : « وهكذا فإن الزمن يكتسب شكلا وهمياً لوسط متجانس يربطه مع المكان رابطة التواقت ، وهذه يمكن تعريفها بأنها تقاطع الزمان والمكان (مهما كان معنى هذا) »

ومنذ سنة ١٩٠٩ ادعى منكوفسكى الرياضى الألمانى — وهو من أعلام هذا البحث — أنه محا الفاصل بين الزمان والمكان ، وأن الزمان والمكان منفصلين عدم ، ليس لكل منهما أى حظ من الحقيقة ؛ أما حقيقتهما فهى الاندماج فى وحدة « الزمان » كاندماج الماء فى الماء الملح ، وهذا الاندماج يعتمد فى النسبية على معادلات رياضية قد لا تلذ إلا نفراً قليلاً من القراء ، ولذا نغفلها عارضين للمشكلة من وجهتها البسيطة السهلة . ولكنا سنتساءل هل هذا الاندماج صحيح ؟ هل يرمز إلى شىء واقعى فى العالم الخارجى أو أنه مجرد خيال رياضى له ميزة جديرة بالاعتبار هى أنه يفسر بعض الظواهر التى أعجزت العلماء منذ طويل ؟ وإذا كان الزمان واقعياً فهل نستطيع أن نفصل الزمن عنه كبعد رابع له خصائص الأبعاد الثلاثة ننتقل فيه فى الواقع كما انتقل بطل ويلز فى الخيال ؟

يحسن قبل أن نحاول الإجابة على هذه الأسئلة أن نشرح نظرتنا إلى المكان والزمان . لنفرض أننا نتصور جسما فى الفضاء فأول ما يتميز به تصورنا هذا الجسم هو وجوده فى مكان ثلاثى الأبعاد . ولعلنا لا نحتاج إلى القول إن هـذا المكان موجود ما وجد فيه ذلك الجسم . ففضاء لا تشغله مادة عدم . والعدم لا يتناوله تفكيرنا فى شيء قليل أو كثير . إذاً وجود المكان مكتسب من وجود المادة ، ووجود المادة لا يقبله العقل إلا فى ثلاثة أبعاد . ولقد يظن بعضهم أنه يمكن تصور شيء على بعدين فقط كرسم على ورقة مثلاً ، والواقع ينفى هذا الظن لأن الفضاء يحيط بالرسم من الأعلى والأسفل ومن اليمين والشمال ومن جميع الجهات . إذاً نحن لم نتصور المادة إلا فى ثلاثة أبعاد . وإذا تساءلنا لماذا نجد هذه الخاصة فى تصورنا ، وجدنا عند المنطق المحض جوابين: الأول أن تكون هذه الخاصة نفسها صفة لازمة للعالم الخارجى حولنا : أى أنه ثلاثى الأبعاد ؛ وهذا التعليل لا يتعدى قولنا : إن المكان ثلاثى الأبعاد لأنه ثلاثى الأبعاد . والجواب الثانى وهو أكثر إقناعاً : أن العقل البشرى اكتسب هذه الخاصة فى تطوره منذ القدم . على أن هذا الاكتساب لا يعنى أن فكرتنا عن المكان هى قسطاس الحق ، فربما نكون قد اكتسبنا وجهة نظر ضيقة محدودة ، وكان يمكن أن نتصور الكون فى أربعة أو خمسة أبعاد ، وبذلك نكون ككثير من الناس عاشوا فى سفح جبل ولم يتسلقوه فى يوم من الأيام فبقى الجبل بالنسبة إليهم كلوحة ساكنة

وقبولنا نظرية الاكتساب يعنى أننا نؤمن بأن حالة الإنسان الفسيولوجية والسيكلوجية كانت العامل الفعال فى اكتساب هذه الخاصة ؛ ولقد ذهب بعضهم إلى أن فى جسم الإنسان جهازاً يعد الزمن يحسب علينا كل ثانية تمر بنا ، حتى إذا ما اكتشف فى جسم الإنسان تيار كهربائى يسرى بانتظام طول الحياة ، قالوا إن هذا التيار هو ذلك الجهاز . على أن هذه الفكرة لم تثبت علمياً لأن الإنسان يفقد الإحساس بالزمن وهو تحت تأثير المخدر . إن فكرة الزمن هى فكرة توالى الحوادث حادثة تتلو أخرى ، وكل حادثة تترك فى النفس أثراً ؛ وتتوالى الحوادث وتتوالى الانفعالات النفسية تبعاً لهذه الحوادث . ولما كانت هذه الانفعالات النفسية غير عكسية دائماً كان الرجوع إلى الماضى عسيراً . وترى السبب النسبى أن وجود الزمان مشتق من وجود الحركة ، كما أن وجود المكان مشتق من وجود المادة ؛ والحركة تعبير منفصل عن الحوادث ؛ فليست ساعاتنا التى تقيس الزمن إلا حركة مستمرة ، والأرض التى تعد أكبر الساعات بالنسبة لعالمنا إنما تقيس الزمن بحركتها المستمرة المنتظمة حول الشمس . وعلى هذا فحيث لا حركة لا يوجد زمن . والبعد الرابع فى النسبية ليس هو الوقت مستقلاً عن أى شيء آخر ، وإنما هو الوقت الذى يدخل فى المعادلة السهلة : المسافة ، السرعة ، الزمن ، الجـذر التربيعى لمجموع مربعات الأبعاد الثلاثة

وإليك بعض الأدلة التى نتأكد فيها من اندماج الزمان بالمكان .

فنحن عند ما ننظر — على طول بعد واحد — أحد النجوم فليس ما نراه هو صورة النجم فى وقت الرصد ، وإنما نراه كما كانت قبل وقت الرصد بزمن هو الوقت الذى استغرقه الشعاع الضوئى حتى يقطع المسافة بين مصدر النور وآلات الرصد . وإذا علمنا أن شعاعة النور (من السدم اللولبية مثلاً) تحتاج حتى تصل إلى نظامنا الشمسى مليوناً من السنين ، أدركنا مقدار تدخل الزمن فى البعد المكانى ، وعرفنا أيضاً قدر المسافة التى نستطيع أن نرى فيها من الماضى ؛ وربما بتحسن الآلات وبناء مراقب أكبر حجما نستطيع أن نرى نجوماً أبعد من هذه بكثير ؛ وعندها نزيد مقدار ما نستطيع أن نراه من الماضى . من هذا يتبين أننا نستطيع أن نتحرك فى البعد الرابع الزمنى كما نتحرك فى البعد المكانى ، ويخيل إلى أن العلم لا ينكر إمكانية رؤية المستقبل ، فلو تصورنا أن لدينا طائرة مسرعة تفوق سرعة الزمن فمنذئذ نفلت من قيود الزمن ونرى المستقبل . أما أن يتسنى لنا التعرف إلى الإنسان فى المستقبل فهذا محال ، لأن وجود إنسان المستقبل يعتمد على وجود إنسان الحاضر الذى لا يدوم إلا إلى أجل قصير ، ولأن رؤيتنا الأشياء تتطلب أن نكون أحياء نحس ونفكر

إذا تحركنا بسرعة النور فإننا نرى صورة واحدة للعالم لا تتغير ولا تلين ؛ ذلك لأن الزمن يمر بنا بسرعة النور ، ولذلك لا نستطيع أن نتحقق ما يحدث لأجسامنا إذا قدر لنا أن نطير بسرعة النور

النسبية تقول إن أي جسم تبلغ سرعته سرعة النور يصير إلى العدم طبقاً لناموس انكماش فتز جيرلد

$$ت = \frac{١}{\sqrt{١ - \frac{س^٢}{ن^٢}}}$$

ت = تقلص
س = سرعة الجسم
ن = سرعة النور

نعتبر الزمن بعداً رابعاً لإننا نستطيع أن نقيسه بوحدات تماثل الوحدات التي نقيس بها الأبعاد المكانية ، فالثانية تعادل (١٨٦٠٠٠) ميل وهذا الرقم هو سرعة النور في الثانية . ونعتبره بعداً رابعاً ، لأنه متعامد مع المتعامدات الديكارتية الثلاثة ، وقد أثبتت التجارب هذه الحقيقة ؛ فتجربة ميكلسن - مورلي - التي كانت أساس للنسبية والتي قصد بها أن يعرف الفرق بين سرعة النور في اتجاهين متضادين : الأول اتجاه سرعة الأرض والآخر عكس هذا الاتجاه ، ولما لم نجد أي فرق كما أثبتت التجارب المتوالية ، فيجب أن نحكم أن سرعة النور وهي وحدة الزمن كما قلنا سابقاً يجب أن تكون في اتجاه عامودي لسرعة الأرض التي هي بالنسبة لنا تعبير عن المتعامدات الثلاثة الديكارتية

ويزيد في إيمان العلماء بالزمن كبعد رابع تفسير الظواهر الطبيعية تفسيراً سهلاً وبسيطاً . ولما كانت غاية العلم في شتى مراحله وأطواره السهولة والبساطة ، فيجب علينا أن نقبل النظرية . ويرى بعضهم أن الإنسانية في مجرى تطورها ستستطيع مع تقدم العلم واتساع الخيال وأثر التطور في التصور أن تحس وتعي هذا الاندماج بين الزمان والمكان في وحدة الزمان ؛ إلا أن هذا لا يبدو قريب الحدوث أو ممكن الحدوث على الإطلاق

جواب سؤالنا الذي صدرنا به هذا المقال يعتمد إذاً على معنى البعد في ذهن السائل ، فإذا كان يعني هل يشبه الزمان المكان من كل وجهات النظر ، وهل نستطيع أن نتحرك فيه بكل حرية كما نتحرك في الأبعاد الأخرى فسيكون الجواب نفياً ، وسيبقى نفياً ما دام الإنسان إنساناً يحس بأنامله ويرى بعينيه ويشعر بالفرق بين الماضي والمستقبل . وفي نظرية النسبية نفسها لا يزال هناك بعض الفروق بين الزمان وأبعاد المكان كاعتبار الزمان خيالياً لانضوائه على الجذر التربيعي للوحدة السالبة . أما إذا عنى السائل هل في الإمكان خلع الزمان والمكان على الأجسام والحوادث واستخدامها كوسائل لربط هذه الحوادث والأجسام الطبيعية بعضها ببعض فيكون الجواب إيجاباً ، لأننا نستطيع أن نختار هيا كل الإسناد كما نشاء خصوصاً التي تعود علينا بأكبر قسط من السهولة والوضوح

وسنشرح في مقال تال خصائص كون رباعي الأبعاد سواء كان هذا البعد الرابع زماناً أو مكاناً ، ففي هذي الخصائص طرافة يجدر بالقراء أن يطلعوا عليها .

(بيروت — الجامعة الأميركية) خليل السالم

البريد الأدبي

نصوص من الشرائع المصرية القديمة

فى شتاء عام ١٩٣٨ ، كانت بعثة الكشف عن الآثار المصرية القديمة بجامعة فؤاد الأول ، تقوم بأعمال الحفر والتنقيب فى تونة الجبل « هرموبوليس غرب » فعثرت على ملف من ورق البردى طوله متران وعرضه ٢٥ سنتيمتراً داخل « قادوس » من الفخار كسر جزؤه الأعلى ، وكان من المحتمل أن هذا اللف يؤلف قسما من مجموعة قوانين مدنية وجنائية ، كانت محفوظة فى عدة قواديس أقفلت قفلاً محكما

ومنذ حوالى عام ونصف عام عهد إلى الدكتور جرجس متى من جامعة فؤاد الأول بترجمة هذا اللف الذى كان مكتوباً بالخط الديموطيقى ، فتبين من ترجمته أن للملف أهمية كبرى فى تاريخ القوانين والتشريع ، إذ أنه يحوى مجموعة عظيمة من القوانين المدنية ، وخاصة ما يتعلق بالمالك والمؤجر وشؤون الهبة والميراث ، وحقوق الانتفاع والتسجيل . وربما كانت هذه هى المرة الأولى التى يكشف الحفر عن نصوص تتعلق بالتشريع المصرى الذى كثيراً ما ورد ذكره فى نصوص الآثار المصرية ، وشاد بعدالته كتاب اليونان والمؤرخون القدماء

ومما يجدر بالذكر لهذه المناسبة أن القواديس التى كانت فيها مجموعة القوانين المدنية والجنائية توجد فى مبنى صغير شيد باللبن (الطوب الأخضر) ، وهو يقوم الآن تجاه معبد توت والدهليز للثالث ؛ وكانت هذه المجموعة تحت رعاية كهنة توت يرجعون إليها كلما دعت الحاجة . ثم حدث أن احتل هذه الأمكنة فى العصر الأول قبل ميلاد المسيح طوائف من النساك الذين سئموا الحياة فهربوا من المدن إلى أماكن منعزلة ، وألقوا بما عثروا عليه فيها من الآثار جانباً ، ولهذا وجد اللف الثمين المتقدم ذكره ملقى على الأرض قريباً من الجدار الغربى للمبنى

وقد كان هذا اللف مثار المناقشة بين أعضاء المجمع العلمى المصرى فى الاجتماع الذى عقد بداره فى الأسبوع الماضى

حول الرحلات العربية

أشكر لحضرة الفاضل الأديب الأستاذ محمد محمود رضوان مقاله رداً على مقالى « الرحلات العربية » ، فقد أتى فيه بما يكمل ما فاتنى ، وتفضل فدلنى على نوع من الرحلات فى طلب العلم أرجو أن تتم لنا قراءته ويحصل لنا منه الفائدة فى كتابه الذى يشتغل الآن بتأليفه عن المسلمين والتربية

ولقد اعترض الأستاذ الفاضل على روايتى لبيت الأعشى :

وشاهدنا الجل والياسميـــن والمسمعات بأقصابها

وذكر أن الرواية الصحيحة « بُقصابها » لا « بأقصابها » ، والحق أن كلتا الروايتين صحيحة ؛ فالأقصاب جمع قصب بفتحتين وهى جمع قصبة الغناء كما جاء فى المخصص لابن سيده . وأظن — إذا لم تخنى الذاكرة — أننى أخذت روايتى عن كتاب « شعراء النصرانية » للأب لويس شيخو اليسوعى ، ولا أدرى عمن أخذها هذا . أما الأقصاب بمعنى الأمعاء ، فهو معنى آخر للكلمة ليس هذا موضعه

ولقد سميت الراحلين من قريش إلى اليمن والشام « رحّالين تجاوزاً » ، لأنهم ليسوا رحّالين بالمعنى العلمى الذى نعرفه الآن ولم يكونوا : كابن جبير وابن خرداذبة والمسعودى والمقدسى وابن بطوطة . والقرآن لم يسمّهم رحّالين كما يذكر الأستاذ رضوان ؛ ولكن سمى عملهم رحلة أى نقلة

أما استعمالى لأفعل التفضيل « أملأ » من الفعل الخماسى « امتلأ » ، فهو استعمال صحيح لا غبار عليه ؛ وقد وجدت له نظيراً فى اللغة ؛ فالعرب يقولون : « هذا الكتاب أخصر من ذاك » ؛ وكان الأولى ـ قياساً ـ أن يقولوا : « هذا الكتاب أكثر اختصاراً من ذاك » . فهذا الاستعمالان شاذان حقاً فى نظر النحويين — والأستاذ جد عليم بسخافاتهم فى كثير من المواضع — ولكنهما صحيحان لورود الاستعمال عليهما من قديم

أما العبارة التى يتحدانى الأستاذ أن أعربها وأبين له جواب شرطها ، فإنى أسأله أن يقدّر الجواب بما يشاء ، ليتضح له صحة الاستثناء ، وعليه التحية والسلام

محمد عبد الغنى حسن

إلى الأديب ابراهيم نجا

ورد فى قصيدة الأديب إبراهيم نجا المنشورة بالعدد ٤١٣ من الرسالة هذه الأبيات :

أيها الورد جميل أنت لكنى حزينُ
أيها الأفق رحيب أنت لكنى سجين
أيها النور رطيب أنت لكنى دفين
حطم الدهر جناحى وبرت جسمى السنون

وقد ضبط الشاعر القافية (حزينُ) بالرفع كما ترى

قلت : إن الصواب واحد من إثنين :

١ — إما أن تضبط القوافى كلها بالسكون
٢ — وإما أن يقول (السنينُ) بدلاً من (السنونُ)

وقد يبدو هذا غريباً بادى الرأى ، ولكنك حين تمعن الفكر يتبين لك صحة ما أقول ... حقيقة أن الرفع مطَّرد فى قوافى الأبيات الثلاثة الأولى ولا غبار عليه ، ولكنه شذَّ فى البيت الأخير لأن رفع (السنون) الملحقة بجمع المذكر السالم بالواو يدل على أن الشاعر أعربها إعراب جمع المذكر السالم وهو المشهور ، وإذن فقد وجب عليه ضبط النون بالفتحة كما تقول (المسلمونَ) ، وكما يقول الله تعالى : (كم لبثتم فى الأرض عدد سنينَ) (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنينَ) (قال تزرعون سبع سنينَ)

أما إن أراد الشاعر ضبط النون بالضم فعليه أن يعرب الكلمة الظاهرة على النون مع لزوم الياء كقول الشاعر :

دعانى من نجد فإن سنينه لعبْن بنا شيباً وشيَّبننا مردا

وفى الحديث : (اللهم اجعلها عليهم سنيناً كسنين يوسف) فى إحدى الروايتين

وبعد . فإنه يحق للدكتور زكى مبارك أن يقول للأديب نجا : (كما يدين الفتى يدان)

وإلى الأب أنستاس

فى مقالك القيم الأخير (ألقاب الشرف والتعظيم عند العرب) قلت : (وفى التاج ، البده : السيد الأول فى السيادة ، والثُّنيان الذى يليه فى السؤدَد)

وأقول : ليس بين يدىّ الآن (التاج) لأرى ضبط (السؤدد) أهو كما نقلت أم لا ؛ ولكنى أعرف عن أساتذتى فى دار العلوم أن هذه الكلمة إذا هُمِزتْ ضُمَّت الدال الأولى فتقول : (السؤدُد) ، وإذا لم تهمَز فتحت هذه الدال فتقول : (السُودَد) . أما (السؤدَد) بالهمز وفتح الدال فلا

وعلى ذكر أن البده معناه السيد أذكر بيتاً يستشهد به النحاة فى باب الجوازم وهو :

فجئت قبورهم بدءاً ولما فناديت القبور فلم يجبْنَه
أى ولما أكن بدءاً قبل ذلك أى سيداً

محمد محمود رضوان
المدرس بالمدرسة النموذجية

المرحوم ابراهيم طوقان فى العراق

حظيت بزمالة الراحل الكريم فى دار المعلمين الريفية بالرستمية من ضواحى بغداد — وقد كان قبل هذا العام فى إذاعة القدس ، ولكن نفسه الكبيرة ضاقت بها فمكث معنا قرابة نهاية العام الدراسى الحالى ، بعد جهد حميد بذله لطلابه ؛ ولكن جسمه النحيل الذى يحمل هذه النفس العالية والروح الشاعرية لم يحتمل عناء الدرس ، فانقطع عن المدرسة وعاد ، ثم انقطع وعاد ، ولكن المرض غالبه ، ففضل الاستقالة والعودة إلى « نابلس »

عاش معنا سبعة أشهر كان فيها مثال الأخ الكامل والصديق الوفى . كان حلو الحديث جميل المعاشرة عذب السمر ، تجلس معه فلا تحب ترك مجلسه ؛ يغمرك بما تطلب منه من شعر جذاب يملك على النفس مشاعرها ، من شعره وشعر شوقى وحافظ والجارم وعلى محمود طه وكان معجباً به لأن شعر طه كان يفيض على البلاد العربية ، وقد كان الفقيد حدباً على العرب والعربيــة ، وكثيراً ما كان يحدثنى عن شعراء مصر وأن كثيراً منهم لا يهتم بغير ذكر مصر ورجال مصر وآلام مصر وآمالها ، فحملنى رجاءه إلى شعراء مصر الأجلاء أن يعنوا بالشرق العربى حتى يكون الشعر المصرى النفيس التالى ترنيمة المواطن العربية جميعها . لأن الجميع ينظر إلى مصر وشعرائها وكتابها نظرة الإمامة والتبجيل والقداسة

وما كنت أعتقد هذا الرجاء سيصبح يوماً ما وصية الراحل الكريم لشعراء مصر الأكرمين . ولقد كان كثير الاهتمام بمصر وأخبارها السياسية والأدبية ، ولا غرابة فى ذلك ، فقد حدثنى بأنه تربطه بمصر رابطة الأصل والنسب

مات طوقان ؛ وهو عزيز على دولة الأدب ، عزيز على زملائه وطلابه .

وإن الكلام فى نواحى عظمة طوقان ، وكرم نفسه وعلو همته ، وعراقة محتده ، لا تسعه هذه العجالة . فأكِلْ إلى الزملاء العارفين قدره توفيته ، وعند الله حسن جزائه فى جنات الخلد جزاء الصديقين والشهداء والصالحين السيد ابراهيم سالم

بطن الشاعر ...

« بطن الشاعر » هذه كلمة أشبه بالألغاز والأحاجى ، ظللت أستوضحها — بينى وبين نفسى — وأستلهم الله تفسيرها ، فلم أجد ما يشفى الغُلّة ، اللهم إلا ما يتخبط فيه الفكر ويتعثر معه الخيال ...

وربما قلت — فى بعض الأحايين — إذا أردت التاريخ لها أنها ظهرت يوم كانت الفلسفة مبغضة محاربة . فلما خاف الفتى من الفلاسفة أن يموت من عثرة لسانه ، أغمض وأغرب ، وعمَّى وألغز ، وأغلق وأبهم ، لِيَنْجُوَ بجلاده ، ويخلص بنفسه إن اشتد عليه النكير ، أو تجهّمت له أعين الجلاّد . وأغلب الظن أن هذه الكلمة يوم « ماتت » لم تشأ إلا أن تترك لها ذنباً يلعب فيما يسمى بغرابة اللفظ وغموض المعنى . وقد كان المتنبي يلذ له أن ينام ملء جفونه عن أوابد شعره ، فى الوقت الذى يسهر معاصروه فى شرحه ، ويختصمون فى بيان منزلته . وهكذا يحكى عن بعض المؤلفين القدامى ، أصحاب الشروح والحواشى والتقارير ... فقد كان الواحد منهم يروقه أن يتخبط الناس فى كلامه ، ويقلبوه على وجوهه المختلفة ، ويزيدوا على عبارته ، أو ينقصوا منها ، ليستقيم المعنى ويظهر المراد ، فإن لم تتطاحن فيه الأفهام ، وتختلف العقول ، وتتضارب الآراء ، فهو كتاب ميت ، أو مؤلف لا قيمة له ...

وكان أخوف ما يخافه الإمام الشيخ « محمد عبده » أن يتصدّى أحد بالكتابة على مؤلفاته ، فتراه يستعيذ بالله من هذا ويتبرأ منه ، وقد حدا به إلى ذلك أنه رأى الكتب — فى عهده — لا ترى إلى المعنى الخالص ، والبيان الصراح ، ولكنها تلتوى وتتخبط ، وترمى إلى التعقيد والإبهام ... وربما كان فينا من أدرك هذا — فى الأزهر — حين كان الأستاذ أو التلميذ فى الدرس ، يمر بالعبارة من العلم ، أو الجملة من الكتاب ، فإذا رأى أنه مر بها مرور الكرام ، وعبرها عبوراً سهلاً ، اتهم فهمه ، وأساء الظن بعقله ، واستكبر على نفسه أن يلتق المعنى بخاطره — عفواً — دون تكلف أو مماناة ، فعاد يرجع الضمير إلى مرجع آخر ، أو يورد الشبه والاعتراضات ، ليرى هل يسلم له الفهم ، ويخلص المعنى ، أم تحيط به الأشواك والمقابيل ... لأنه يعلم — حق العلم — أن صاحب الكتاب كدح فيه ذهنه ، وأتعب نفسه ، وأضاع من وقته الجم الكثير وأن تأليفاً كهذا لا يمر به قارىء إلا على جسر من التعب ، وطريق أدق من الصراط ... وبعض الناس يحيط الإغلاق ببيانه ولسانه ... فهو كاتباً أشبه به محدثاً ، بطنه كظهره ، وظهره كبطنه ... لا يضيرك أن تقول المعنى فى بطنه أو ظهره ... كأنما هم عالة على البيان ، أو زائدة فى بنى الإنسان !!!

ابراهيم على أبو الخشب

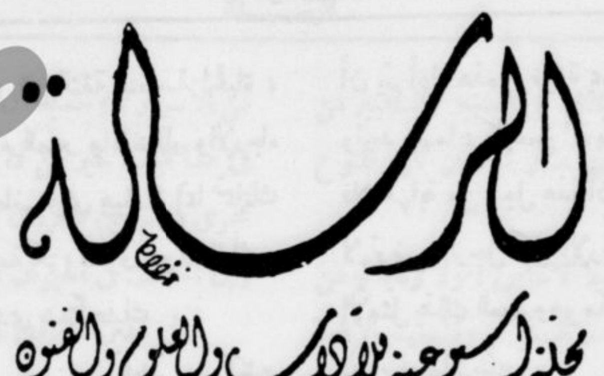
(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)



9 me Année No. 415

Lundi - 16 - 6 - 1941

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

السنة التاسعة « القاهرة فى يوم الاثنين ٢١ جمادى الأولى سنة ١٣٦٠ — الموافق ١٦ يونية سنة ١٩٤١ » العــدد ٤١٥

الفهــــرس

الزوجة المثــــلى

للأستاذ عباس محمود العقاد

وصلت إلىّ محاضرة العالم الفاضل الدكتور عبد المعطى خيال عميد كلية الحقوق بالأسكندرية فى موضوع « الزوجة المثلى »، وهى المحاضرة التى اقترحتها عليه وزارة الشئون الاجتماعية، وأذاعها الأستاذ فى منتصف الشهر الماضى، وفيها يقول ما فحواه أن الآفة كلها هى : « حرص الشباب على المادة، وجريه وراء الكسب، وحطه من القيم التى خلفها السلف الصالح ومن قواعد الأخلاق التى كانت مقررة عندهم، واكتفاؤه بالعاجل من اللذات »

وظهر العدد المــاضى من « الرسالة » وفيه مقال صديقنا الأستاذ الزيات الذى يعقب به على خطاب السيدة « ليلى »، وما رأنه من أن السبب المباشر والمصدر الأول لمشكلة الزواج هو المادة، وكان ختام مقاله : « إن المال إذا جعل غاية للزواج كان شقاء لمن وجدته ولمن فقدته على السواء ... »

وعندى أن المادة هى آفة العصر الحديث كله، وفى عداد مشاكله الكبرى مشكلة الزواج . فالناس لا يتهالكون على المادة ولا على اللذة العاجلة إلا إذا قل إيمانهم بالحياة . ومن ثم يغلب الشح على الشيوخ والضعفاء، كما يغلب على الشعوب التى ضاعت من أيديها السيادة وقيم الحياة العليا . فكل تهالك على المادة إنما

هو بديل من الحياة الصحيحة ، أو من الثقة بنفاسة الحياة ، وكأنما يقول الإنسان لنفسه : علام الصبر والانتظار والإرجاء وأى ضمان لك من الأخلاق والعواطف وهى هباء ؟ إنما ضمانك الوحيد المادة التى فى يديك ، والنقمة التى تسوق غيرك إليك ، وكل ما عدا ذلك فهو فضول لا يجدى شيئاً عليك

لكن الزواج مشكلة كبرى ، ولو خلص الناس من آفات العصر ومشكلاته ، ومن ولع الشباب بمآربه ولذاته

الزواج مشكلة لأنه يحاول التوفيق بين نقائض كثيرة فى الطبيعة الإنسانية ، ولا يقتصر أمره على التوفيق بين فردين

فمن الناس من يظن أن الزوجة المثلى هى المرأة المثلى ؛ وهذا فى اعتقادنا خطأ ظاهر يتكشف بقليل من الروية

لأن المرأة المثلى من شأن الطبيعة

أما الزوجة المثلى فمن شأن المجتمع والآداب الإنسانية حسبما تتعاقب بها الأزمان

وقد تكون المرأة أنثى طبيعية من الطراز الأول فى تكوين الأنوثة ؛ وليس من اللازم بعد هذا أن تكون زوجة من الطراز الأول فى معاشرتها لزوجها وفى أمومتها أو فى رعايتها للآداب وقيودها

وقد تكون المرأة زوجة مُثلى فى البيت والأمة ، ومع الزوج والولد ، ولا يلزم من ذلك أن تبلغ فيها الأنوثة الطبيعية تمامها

وتنجلى هذه الحقيقة بعض الجلاء إذا تذكرنا أن الحيوان فيه إناث مثليات فى عرف الطبيعة ، وليس فيه زوجات مثليات على النحو الذى يتطلبه الإنسان

وهنا مشكلة ليست بالهينة من مشكلات الزواج ، لأنها مشكلة التوفيق بين ما توحيه طبيعة الأنثى ، وبين ما تمليه آداب المجتمعات ، وهما شيئان لا يتفقان كل الاتفاق

ويفهم بعض الناس أن الزوجة المثلى هى التى ترضى الرجل ، وأن الزوج الأمثل هو الذى يرضى المرأة

وهذا خطأ آخر من أخطاء الآراء فى هذا الموضوع ، ويكفى أن نسأل : ما هو غرض الزواج ، ليكون الجواب تصحيحاً سريعاً لهذا الخطأ المشهور

الزواج مقصود لأنه وظيفة اجتماعية ونزعة إنسانية ، ويصح أن يتم أداء هذه الوظيفة بمضايقة الزوجين معاً أو بمضايقة زوج واحد منهما ، كما يصح أن يتم أداؤها بما يرضى أحدهما أو كليهما ، فلا غرابة من أجل هذا أن تبر الزوجة المثلى بعهد الزواج وهى لا ترضى الرجل كل الإرضاء فى كل حين ، وأن يبر الزوج الأمثل بذلك العهد وهو مكره على إغضاب حليلته التى يتوخى لها الإرضاء والإيناس

وهنا مشكلة ليست بالهينة كذلك من مشكلات الزواج ، لأنها مشكلة التوفيق بين الهوى والواجب ، أو بين النظر القريب والنظر البعيد ، وهى المشكلة الخالدة فى حياة الإنسان

***

ومن المشكلات فى هذا الباب أن الزوج الأمثل لامرأة لا يلزم أن يصبح زوجاً أمثل لامرأة أخرى . فالرجل فى الأربعين زوج أمثل لامرأة فى حدود الثلاثين ، والرجل الذى فيه صلابة زوج أمثل للمرأة التى فيها شكاسة ، والرجل الحليم المتئد زوج أمثل للمرأة المتعجلة الرعناء ، ولكنهم يختلفون ولا يتوافقون هذا التوافق ، فإذا هم أسوأ الأمثلة للأزواج وأقلهم أملاً فى الرفاء والوفاء

***

والبيت مشكلة المشاكل فى العصر الحديث

ففى العصور الماضية كانت المسافة قريبة جداً بين العالم البيتى والعالم الخارجى ، وكانت الملاهى الخارجية أشبه شىء بملاهى النادر فى البيوت مع قليل من التوسع والتعميم . فلم يكن من العسير أن تتفق معيشة الأسرة ومعيشة المحافل الساهرة ، ولو كانت محافل لهو وانطلاق

أما اليوم ، فالمسافة بعيدة جداً بين عالم البيت والعالم الخارج ، لأن المناظر التى يراها الساهر فى العالم الخارج لا يراها فى بيته ولو كان من أهل السعة واليسار ، وإنما نشأ هذا عن اختراع الآلات التى تعمل للألوف وألوف الألوف ولا تقصر عملها على جماعات من الناس يعدون بالعشرات كما كانت محافل اللهو فى العصر القديم . وليس من المعقول أن تنفق الشركات مليون ريال على منظر سينماء يدار فى بندرة أو بهو أو قصر كبير بضع ساعات ؛ ولا نعرف اختراعاً من هذه الاختراعات يوافق الحياة

البيتية غير الذياع الذى يسهل اقتناؤه فى الصغير والكبير من البيوت ، وهو وحده لا يغنى عن سائر الأفانين التى تتنوع فى محافل السهرات

فالبيت فى العصر الحديث مهدد الأساس ، ولا وقاية له من هذا التهديد إلا الإقلال من المواسم الكبرى وتشجيع الإقامة فى الريف ، وإلا تربية الذوق المستقل الذى يصعب انغماسه فى غمرة الجماهير ، وتربية الإرادة الفردية التى يهمها أن تنطوى على نفسها حيناً بعد حين ، ويعجبها أن تنعم بالعشرة الأخوية بين الصحب المتفاهمين والأقارب المتعاونين ، فوق إعجابها بضجة السواد وزحام القطيع

وليس ما نذكره هنا حلولاً لمشكلة الزواج ولا علاجاً حاسماً لآفات العصر الحديث ، ولكنه محاولة لفهم المشاكل على حقيقتها لا غنى عنها وعن أمثالها قبل الرجاء فى علاج ناجع ؛ إذ كل علاج لا يسبقه الفهم الصحيح يقع على غير الداء ، وقد يضاعف الأذى ولا يدنى من الشفاء

***

إلا أننا نعتقد أن الحلول جميعاً لن تخلى الزواج من عقدة مؤرّبة باقية على الزمن كله ، لأنها قائمة على طبيعة فى النفس الإنسانية لا يرجى لها تبديل كبير

تلك العقدة هى غرابة الأسرار الجنسية التى تدفع بالرجل إلى اختيار المرأة ، وتدفع بالمرأة إلى اختيار الرجل . فليس لزاماً أن يحب الرجل امرأة تستحق حبه ، أو تصلحه وتصلح أبناءه ، أو تجد فيه مزية كالمزية التى يجدها فيها ؛ بل يتفق كثيراً أن يترك المرأة التى تسعده ويتعلق بالمرأة التى تشقيه ، ويتفق كثيراً أن يهواها للأسباب التى توجب عليه اجتواءها والإعراض عنها . وشأن المرأة فى هذه الخليقة أعجب من شأن الرجل وأنأى عن الرشد ودواعى الاختيار المميز البصير ؛ فإن إخلاصها لمن يستحق منها الإخلاص أندر من إخلاصها لمن يفسدونها ويسيئون إليها ، وهى خليقة لها أسرار أعمق من عرف المجتمع وآداب الزواج وأواصر الأهل والأسر ، وليس بالميسور مع بقائها فى الطباع خلو الزواج من المشكلات

ولكن الطبيعة تهدينا إلى بعض الأسرار كما تخفى عنا كثيراً من الأسرار ، وحسبنا أن نقتدى بها فى أساليبها لننتهى إلى شىء فى هذا الباب خير من لا شىء . فإن أساليبها فى علاقة الجنسين تجرى فى نهجين مطردين لا يختلفان بين الإنسان وسائر الحيوان وإن اختلفت فى الحيوان العاقل ببعض المظاهر والغايات

أول هذين النهجين هو مزج الواجب بالسرور ، فلا يخدم الإنسان النوع بإدامة النسل أو بالإصلاح والإرشاد إلا وفى خدمته سرور له يقويه على واجبه ويغريه باحتماله

وثانى هذين النهجين « التوريط » الذى يقيد الإنسان حين يريد الإفلات فلا يقدر على الإفلات ، لأن مصاعب النجاة من الحالة التى يعانيها أكبر من مصاعب الصبر عليها بعد وقوعه فيها . وخير الأمثلة على ذلك كفالة الأبناء ومتابعة السعى فى سبيل المجد من مرحلة إلى مرحلة ، وقد كان الساعى فيه يحسب أنه مستريح بعد المرحلة الأولى

وتلك هداية لا يعدم الفائدة من يتوخاها فى علاج جميع المشكلات

عباس محمود العقاد

الإسلام والعلاقات الدولية

للأستاذ الشيخ محمود شلتوت

وكيل كلية الشريعة

— ٢ —

(ا) النظام الذى يسبق الحرب[1]

يقرر الإسلام أنه لا يصح بدء الحرب إلا بعد أن تتحقق روح العداء للمسلمين ، وأنه يجب على المسلمين إذا تحققوا من ذلك أن يبلغوهم الدعوة

وشبيه بهذا ما يسمى فى العرف الدولى الحاضر بالإنذار النهائى . وفى ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم لأحد قواده : « إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث »

وقد قال الفقهاء : « إننا بهذه الدعوة نعلمهم أننا لا نقاتلهم على أخذ أموالهم وسبي عيالهم ، فربما يجيبون إلى المقصود من غير قتال ، وقتالهم قبل الدعوة إثم يستوجب غضب الله

(ب) النظام الذى يكون فى أثناء الحرب

لا يريد الإسلام من الحرب تنكيلاً ولا تخريباً ، ولا يرضى للناس أن ينسوا فيها واجب الإنسانية من الرفق والرحمة ورعاية العدل والخوف من الله

وإنه ليأخذ المسلمين فى أثناء الحرب بآداب لو رعتها الأمم لخففت من ويلات البشرية وضمدت من جراحها

وقد يكون من اللائم لنا فى هذه الظروف التى جنّ فيها جنون العالم ، وانفتحت فيها على الناس أبواب من الجحيم الذي صنعه الناس لأنفسهم ، وأنفقوا فيه جهودهم وأموالهم وأفلاذ أكبادهم ؛ قد يكون من اللائم أن نذكر شيئاً من تلك الآداب الإسلامية للحرب ، ليعلم الناس أن هذا الدين دين الرحمة والرفق والعدل والصلاح :

١ — فالإسلام لا يجيز قتل المرأة ولا الصبي ولا الشيخ الفانى ولا المقعد ولا الأعمى ولا المعتوه ؛ ولا يجيز قتل أصحاب الصوامع ولا الزراع ولا الصناع الذين لا يقاتلون

٢ — ولا يجيز المثلة ولا التحريق ولا قطع الأشجار ولا هدم البنيان إلا إذا بدأ بذلك العدو نزولاً على مبدأ المعاملة بالمثل « وجزاء سيئة سيئة مثلها »[1]

٣ — ولا يجيز الإجهاز على الجرحى ولا التحريق بالنار

وفى وصاياه صلى الله عليه وسلم لأحد قواده : « لا تقتل امرأة ولا صبيا ولا كبيراً هرماً ، ولا تقطع شجراً مثمراً ، ولا تخرب عامراً ، ولا تعقرن شاة إلا لمأكلة ، ولا تفرقن نخلاً ولا تحرقه « وإن النار لا يعذب بها إلا الله »

ومن المأثور عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لا تقتلوا الذرية فى الحرب . فقالوا : يارسول الله : أليسوا أولاد المشركين؟ فقال : أوليس خياركم أولاد المشركين ؟)

٤ — ويقرر الإسلام ـ تمشياً مع مبدئه من عدم محاربة غير المحاربين من النساء والأطفال والشيوخ والعجزة والدنيين ـ أنه لا يجوز تجويع الأمة المحاربة ولا منع المواد الضرورية للحياة عنها ، وإن كان يبيح ذلك بالنسبة للجيش المحارب

٥ — ومن نظم الإسلام فى أثناء الحرب الدالة على السماحة أنه يبيح لأفراد وجماعات من الدولة المحاربة أن تتصل بالمسلمين وتدخل فى ديارهم ، وتقيم فيها بعض الزمن وتزاول بها أنواعاً من المعاملات التجارية وغيرها فى عصمة شىء يعرف فى التشريع الإسلامى باسم الأمان

ويقرر به عصمة المستأمنين ، ويوجب على المسلمين حمايتهم فى أنفسهم وفى أموالهم ما داموا فى ديار الإسلام . بل يذهب فى التسهيل عليهم إلى حد بعيد : ذلك أنه يمنحهم أنواعاً من الامتيازات ، ويعفيهم من بعض ما ينفذه على المسلمين من أحكام، ولا يؤاخذهم إلا على الجرائم التى تهدد أمن الدولة وسلامتها ، أو يكون فيها اعتداء على المسلمين ومن فى حكمهم

وقد توسع الإسلام فى هذا الباب توسعاً عظيما : فجعل لأفراد المسلمين حق إعطاء ذلك الأمان يسعى بذمتهم أدناهم ، ولم يشترط

(١) مراجع هذا الفصل والذى بعده من كتب الحديث والفقه فى أبواب السير والمغازى والجهاد

(١) من الآية : ٤٠ الشورى

فى ذلك إلا ما يضمن على المسلمين سلامتهم كالتأكد من أنه ليس للمستأمنين قوة ولا منعة ، ولا يبدو عليهم مظاهر الركون إلى الفتنة أو التجسس على المسلمين . وليس معنى هذا أن الإسلام ينسى حق الإمام المهيمن على شئون المسلمين ، بل جعل له بمقتضى هيمنته العامة وتقديره لوجوه المصلحة إبطال أى أمان لم يصادف محله ، أو لم يستوف شروطه ، كما له أن يقيد أمان الأفراد ويمنع إقدامهم عليه

والأصل فى هذا المبدأ الذى تتجلى فيه روح السماحة على نحو لا يعرف له مثال حتى فى الأمم المتحضرة الآن قوله تعالى :

« وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه »[١]

والإسلام يبيح بهذا الأمان تبادل التجارة بين المسلمين والمحاربين ، وتبادل المنافع الأخرى فى الصناعة والثقافة وسائر الأعمال .

وهو لا يقيد المسلمين فى ذلك إلا بأن يحتاطوا لأنفسهم ودينهم ودولتهم ، ولذلك يحرم عليهم أن يبيعوا السلاح والذخيرة والخيل والعتاد الحربى إلى أعدائهم

وهو فى الوقت نفسه يهيئ بهذا الأمان فرصة للمستأمنين تمكنهم من تفهم حقيقة الإسلام وإدراك أغراضه عن كثب . ولقد كان للإسلام من ذلك وسيلة قوية لنشر دعوته وإيصال كلمة الله إلى كثير من الأقاليم النائية من غير حرب ولا قتال

ويقرر الفقهاء « أنه يجب على الإمام — إذا وقت للمستأمن مدة — ألا يجعل هذه المدة قليلة كالشهر والشهرين ، فإن فى ذلك إلحاق العسر به خصوصاً إذا كان له معاملات يحتاج فى اقتضائها إلى زمان طويل »

٦ — ومن تقاليد الإسلام فى أثناء الحرب رعاية الرسل الذين يقومون بالسفارة بينه وبين المحاربين وشدة الحرص على سلامتهم وتكريمهم والمحافظة عليهم حتى يعودوا إلى مأمنهم ، ورفض الاحتفاظ بهم ولو خلعوا أنفسهم من قومهم ، وفى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم شواهد كثيرة على ذلك من أروعها ما يرويه أبو رافع إذ يقول :

(١) الآية : ٦ من التوبة

بعثتنى قريش إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأتيته فوقع الإسلام فى قلبى فرأيت ألا أعود إليهم . فقلت يا رسول الله : لا أرجع إليهم . فقال : إننى لا أخيس بالعهد ولا أحتبس البرد . إرجع إليهم ، فإن كان فى قلبك الذى فيه الآن فارجع إلينا

٧ — ومن تشريع الإسلام فى أثناء الحرب قاعدة معاملة الأسرى . أمر بالإحسان إليهم ، وعدم مسهم بأذى ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأسير : أحسنوا إساره . وقال أجمعوا ما عندكم من طعام فابعثوا به إليه

وقد حث القرآن الكريم على تكريم الأسرى عامة ، وجعل ذلك من البر الذى هو علامة الإيمان فقال جل شأنه فى التمدح بصفات المؤمنين :

(ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً)[١]

وخير الإمام بين إطلاقهم من غير مقابل ، وفدائهم على حسب ما يرى من المصلحة . وقد مَنّ النبى صلى الله عليه وسلم وفادى بالمال وبتعليم الأسارى أبناء المسلمين الكتابة . أما استرقاقه صلى الله عليه وسلم أو إباحته للاسترقاق فقد كان مجاراة لحالة اجتماعية سائدة فى الأمم إذ ذاك . ولم يكن على وجه التشريع العام . وإنما التشريع العام فى ذلك هو قوله تعالى : (فإما مَنّاً بعدُ وإما فداء)[٢]

وإن فى التشريع القرآنى للأسرى على هذا النحو مع تصرف النبى صلى الله عليه وسلم ما يرشد إلى أن الإسلام يمنح الحاكم من الحقوق فى ظروف خاصة ما يستطيع به علاج المشكلات الواقعة من غير أن يكون ذلك تشريعاً عاماً يسرى حكمه على جميع الأزمان

٨ — وكما شرع الإسلام معاملة الأسرى على أساس من الرأفة والرحمة شرع للغنائم على أساس من العدل والمساواة فقرر حق تملكها لمن حازها من المتحاربين المسلمين وغيرهم فى ذلك سواء

(البقية فى العدد الآتى) محمود شلتوت

(١) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الانسان

(٢) الآية : ٤ من سورة القتال

عبد القادر حمزة باشا

للدكتور زكي مبارك

منذ عامين مات الشاعر محمد الهراوي فغلبني الدمع بقوة وعنف، على قلة ما تدمع العين لفراق الراحلين من المعارف والأصحاب، وإنما كان ذلك لإيماني بأن الهراوي صديق لا تغيّره الأيام ولا الليالي، فهو ثروة ضاعت من يدي إلى آخر الزمان

وفي هذه الأيام مات الكاتب عبد القادر حمزة فعرفت من جديد كيف تكون غزارة الدمع حين يموت الصديق، وكان عبد القادر صديقاً لا نظير له ولا مثيل، كان أخاً نقيّ القلب، عذب الروح؛ وكان مثالاً نادراً في حفظ الوداد بالمحضر والمغيب. كان دنيا باسمة من الأخوّة الروحية. كان كنزاً نزعته الأقدار من يدي، فأنا لفراقه محزون إلى آخر الزمان

لم أفكر مرة واحدة في الانتفاع بجاه عبد القادر حمزة باشا، وكان رجلاً مسموع الكلمة عند من يملكون تصريف الأمور، وإنما زهدت في الانتفاع بجاهه لأصون ما بيني وبينه من الوداد عن شوائب المنافع الدنيوية، وإن كان انتفاع الصديق بجاه الصديق أمراً لا يغض من أقدار الرجال

كانت صداقة عبد القادر حمزة جوهراً من أكرم الجواهر. كانت ذخيرة يدّخرها الحرّ لزمانه، فما يبالي أين تقع الحوادث، ما دام عبد القادر بخير وعافية. وهل أنسى أني لم أكن أبالي حوادث الأيام لأني كنت أعرف أن مكاني محفوظ في جريدة البلاغ لأرجع إليه حين أشاء؟

هل أنسى أني أملك نحو عشرين خطاباً دبّجها بيده صديقٌ كريم يُعزّ القلم والبيان؟

هل أنسى أن الصداقة التي جمعت بيني وبينه لم تكن إلا نتيجة لعداوة أثرتها في وجهه بصدق وإخلاص، وكان رحمه الله من أهل الصدق والإخلاص؟

لاحظتُ مرة أنه لا يستريح لبعض ما أكتب في جريدة البلاغ وكانت تناصر الوفد المصري وأنا أناصر الحزب الوطني، فكتبت إليه أستعفيه من الاشتراك في تحرير البلاغ، بحجة أني لا أستبيح الانتفاع بجريدة ليس مبدؤها من مبدئي ولا هواها من هواي، فكتب إليّ رحمه الله يقول:

« أكتب ما تشاء، وجريدة البلاغ تحت تصرفك »

فإن راجعتم « البلاغ » لذلك العهد ورأيتم فيه أشياء لا تنسجم مع سياسة « البلاغ » فاعرفوا أنها من قلمي، القلم الذي تمرّد على صاحب « البلاغ » ليظفر بمودة صاحب « البلاغ » وكان الصدق أعظم وسيلة لغزو ذلك القلب الأمين

لن ينقضي حزني لفراق عبد القادر، ولن أنسى جميله أبداً ولو أن قلمي استطاع الاستشهاد بجميع ما قال الشعراء في الرثاء، لما كان في ذلك ما يصوّر فجيعتي في « الصديق الذي وصل جناحي، وراش سهمي » على حد التعبير الذي قدّمت به إليه كتاب « ذكريات باريس »

صحبت عبد القادر نحو خمسة عشر عاماً، فلم أره إلا جذوةً من الأقباس الروحية. ولو أني قضيت هذه المدة مع عدو لتحول إلى صديق، فكيف تروننا صرنا — وقد قضينا هذه المدة في إخاء وصفاء؟ كيف تروننا صرنا وقد كان التعاون الصادق أساساً لما بيني وبينه من وداد؟

كان عبد القادر في أعوامه الأخيرة يعتب عليّ أشد العتب، لأني لا أمر بداره للسؤال عنه وهو مريض، وكنت أعرف كيف أعتِبُه فأقول: سألت عنك في « البلاغ »، وأنا لا أعرف لك داراً غير دار « البلاغ »

فمن يعزّيني وقد ضاع حظي في عيادة ذلك العليل النبيل؟ من يعزيني ولم أسمع بموت عبد القادر إلا بعد أن فُضّ مأتمه فلم أشترك في حمل نعشه ولم أقبّل جبينه قبل أن يوارَى التراب؟ من يعزيني في أخٍ كان لي وكنت له عوناً على الشدائد والخطوب؟

التفتُّ مرة، فلم أر غيره في سنة ١٩٢٨؛ والتفتَ مرة، فلم ير غيري في سنة ١٩٣١، فإلى مَن ألتفتُ إذا دجت الخطوب وبيني وبين عبد القادر بُعدُ ما بين الأحياء والأموات؟!

مات عبد القادر، مات أخي، فمن يعزيني؟

مات الرجل الذي لا يكذب ولا يغدر ولا يخون

مات الرجل الذى شهد خصومه بأن موته كان نكبة وطنية

مات عبد القادر ، مات أخى ، فمن يعزينى ؟ !

لو كان شقُّ الجيوب من شمائل هذا العصر لشققتُ جيوبى ، فلم يبق إلا أن أشق قلبي حزناً على عبد القادر ، وإنه بذلك لخليق . وهل من الكثير أن يصرعنى الحزن وقد فقدت صديقاً كان أعظم الذخائر فى دنياى ؟

وهل فقد الناس مثل مَن فقدتُ فى قديمٍ أو حديث ؟

دلونى على صديق فى مثل أخلاق عبد القادر ، ليخفّ عتبى على الأقدار التى أطفأت نوره الوهاج ولم يَعدُ الثالثة والستين ؟

دلونى على صديق لا يثور علىّ ولا أثور عليه ، وإن أسرفت الحوادث فى إفساد ما بين الأصفياء

أمثلك يموت ، يا عبد القادر ، وكان روحك بشير الخلود ؟

نماك الناعون وبكاك الباكون ، يا عبد القادر ، وأنا وحدى أحمل من رزئك الأثقال ، لأنى أول وآخر من ظفر بثقتك الغالية ولأنك أول وآخر من وثقت بهم بلا تحفظ ولا احتراس

ما أحرّ وجدى لفراقك ، يا أخى وصديقى !

وما أشقانى لبُعدك ، يا أصدق من عرفت بين أحرار الرجال ! أخى وصديقى :

أظلم نفسى وأظلم الحق إذا قلت بأن الدنيا لم تعرف رجلاً فى مثل شمائلك ، ولكنى أظلم نفسى وأظلم الحق إذا قلت بأنى عرفت فى حياتى صديقاً أنفع منك ، وكنت وحدك الرجل الذى أقنعنى بأن للصداقة مكاناً بين أطايب الوجود

أنا حزين لفراقك ، يا عبد القادر ، حزين ، حزين

وإن امتد الأجل ، فسوف أجزيك وفاء بوفاء ، وإخلاصاً بإخلاص .

أما بعد فما أحب أن يشغلنى بكاء هذا الصديق عن شرح بعض الشمائل التى صار بها رجلاً يضر وينفع ، ففى ذلك توجيه يستفيد به الناشئون من أبناء هذا الجيل

عرفت عبد القادر أول مرة — معرفة أدبية لا شخصية — عن طريق ما كان يكتب فى « الأهالى » سنة ١٩١٩ ، وكانت جريدة صغيرة الحجم ، ولكن أسلوبه فى تحريرها كان يجعل منها جريدة قوية لا يستغنى عنها من يحرص على غذاء العقل والوجدان

ثم كانت « الأهالى » سميرى وأنيسى فى وحشة الاعتقال ، لأنها كانت تساير جريدة « الأمة » لسان الحزب الوطنى فى ذلك الوقت ، ومن لم ير كفاح « الأهالى » و « الأمة » فى محاربة « مشروع ملنر » فليس من حقه أن يتوهم أنه شهد صيال الأقلام فى خدمة القضية المصرية

كانت هاتان الجريدتان تصدران فى الإسكندرية ، وكان المعتقل الذى صرنا إليه بعد معتقل قصر النيل يقع بضاحية « سيدى بشر » وكان قبل وصولنا إليه معموراً بجماعة من أسرى الألمان فى الحرب الماضية

فى تلك المدة فُتِنْتُ فتنة شديدة بالمحصول الذى يصدُر عن « الأمة » و « الأهالى » ؛ فكان الجدل لا ينقطع بينى وبين إخوانى من المعتقلين حول ذلك المحصول الجزيل ، لأن المعتقلين كانوا ينقسمون إلى معسكَرين : معسكر الحزب الوطنى ومعسكر الوفد المصرى

فلما قضى الله بانتهاء كرب الاعتقال كان أول همى أن أزور الأستاذ محمد المهياوى رئيس تحرير « الأمة » والأستاذ عبد القادر حمزة رئيس تحرير « الأهالى »

وفى جريدة الأمة لقيت فقيد الوطنية عبد اللطيف الصوفانى بك لحيّانى والدمع فى عينيه ، وقدّم إلىّ خمسة جنيهات لأقضى بها فى الإسكندرية أياماً أنسى بها متاعب الاعتقال ، فما دخلت الإسكندرية أول مرة إلا فى سيارة مقفلة من سيارات الجيش الإنجليزى وفى ظلمات الليل

ومضيت إلى جريدة الأهالى فرأيت فيها الأستاذ عبد القادر حمزة ، ورأيت فى صحبته رجلاً بسّاماً هو الأستاذ محمد أبو العزّ ، وفتًى عبوساً هو الأستاذ أحمد سعيد

وفى أوائل سنة ١٩٢١ دعانى الصوفانى بك لرياسة تحرير جريدة « الأفكار » وكنت من محرريها قبل الاعتقال ، فبذلت ما بذلت من الجهود فى تأييد الحزب الوطنى ومقاومة الوفد المصرى ؛ ولكن الأقدار لم تمهلنى فى رياسة تحرير الأفكار غير

عام وبعض عام . فقد اتفق الصوفانى بك مع الأستاذ عبد القادر حمزة اتفاقاً يقضى بأن تصبح الجريدة « وطنية وفدية » واشترط الأستاذ عبد القادر شروطاً كان أهمها أن يكون حرّ التصرف فى اختيار المحررين . واشترط الصوفانى بك أن يكون للحزب الوطنى محرر يعتمد عليه فى رعاية ما يهم الحزب من دقائق الشؤون ، وكان ذلك المحرر هو زكى مبارك . وقَبِل عبد القادر هذا الشرط وفى نفسه أشياء ، ومن أجل هذا لم يسمح بأن أنشر فى الأفكار غير مباحث أدبية لا تقدّم ولا تؤخر فى السياسة الحزبية ! !

ثم فوجئ عبد القادر بأن لى نشاطاً صحفياً يغيب عن عينه الواعية ، وهو مقالات كنت أرسلها إلى جريدة « الأمة » بإمضاءات مختلفات ؛ فأدرك أنّ لا أمل فى أن أسير كما يسير ، وأنى لو وجدت مسدساً لصوّبته بلا ترفق إلى صدر سعد زغلول !

عندئذٍ بدا لعبد القادر أنه يصاحب شاباً له أهداف ، فوثق بى ، وأخذ يحاول تبديد ما بينى وبين الوفد من بغضاء ، وتلطف فدعانى إلى الاشتراك فى تحرير البلاغ عند ظهوره فى أوائل سنة ١٩٢٣ . ولكنى رفضت بحجة أن هواى لن يزال مع الحزب الوطنى

ولكن عبد القادر لم ينسنى ؛ فكان يدعونى من وقت إلى وقت لتحرير بعض المباحث الأدبية والاجتماعية . ثم دعانى للاشتراك فى تحرير (البلاغ الأسبوعى) ؛ ثم رأى أن أكون مراسل البلاغ فى باريس حين مضيت لطلب العلم فى السوربون ، ثم وصلت به الثقة إلى أبعد الحدود ، فدعانى لرياسة تحرير البلاغ فى سنة ١٩٣١

فمن أراد أن يعرف بعض الشمائل التى رفعت عبد القادر حمزة فليذكر أنه كان يحترم أصحاب المبادئ ولو كانوا من خصومه الألداء ، فالعنف الذى وقع بينى وبينه كان سبب تآخينا وتصافينا ، ومن أجل هذا كان ينشر مقالاتى بلا مراجعة ، ولو عارضت سياسة (البلاغ)

وهنا نادرة تستحق التسجيل ، لما فيها من الدلالة على قوته الخُلُقية !

فى سنة ١٩٣٧ تعرّض البلاغ لأزمة مالية قضت بتخفيض مرتبات المحررين وإعفاء من يجوز عنهم الاستغناء ، ونظرتُ فرأيت مرتبى لم يُخصم منه شىء ، فكنت أتغافل عن طلبه ، ولكن إدارة البلاغ كانت تلاحقنى فترسله إلىّ بدون تسويف

وقدّرتُ فى نفسى أن عبد القادر يستبقينى بالرغم من تلك الأزمة المالية ، فأطمعت أصدقائى من الوفديين ونقلت محيفتى الأدبية إلى جريدة « المصرى » وكان بينها وبين « البلاغ » ضغائن وحُقود . ولما سألنى عبد القادر عن السبب أجبت بأنى لا أرى رأيه فى نشر ما كان ينشر من « فضائح الوثائق » ولم أذكر السبب الصحيح وهو رغبتى فى إعفاء البلاغ من مرتبى فقد كنت أخشى أن أجرح عزة نفسه لو اقترحت العمل فى البلاغ بالمجان ، وكذلك ظلمت نفسى لأكرم صديقى بدون أن أدله على حقيقة ما أريد

وتحدث الناس بأن زكى مبارك عق صاحب البلاغ . فهل التفت صاحب البلاغ إلى أحاديث الناس ؟

هيهات . فما تغيّر عبد القادر ولا تبدّل ، وإنما ظل أخاً وفياً إلى أبعد حدود الأخوة والوفاء

من يعزينى فيك يا عبد القادر ، ومن يواسينى وقد غاب عنى وجهك المشرق الجميل ؟

ثم ماذا ؟

ثم كان عبد القادر رجلاً يستعد للدهر والأيام أكمل استعداد . كان يدرك أن الرجل لا ينجح إلا إذا تسلح بقوة العزيمة وقوة النفس . فكان يقضى ليله ونهاره فى تدبير وسائل الحياة لجريدة البلاغ . وقد حدثنى مرة أنه يحب أن يعيش صحفياً ويموت صحفياً ، وأنه يشتهى أن ينقل لأبنائه هذا الميراث ، ولم يحس أحد مدلول كلمة « المستقبل » بقدر إحساس هذا الفقيد النبيل

عاش عبد القادر فى متاعب جِسام ثِقال . فقد كان يعادى بعنف ، ويصادق بعنف ، ومن أجل هذا كانت حياته سلسلة من الآلام والآمال ، والعواطف المنيفة تزلزل بنيان الجسد فتسوق إليه الموت قبل أوان الموت

وكان عبد القادر على قوته الصحفية يحترم حياة التأليف ،

لأنه أبق على الزمان ، فكان يقضي أوقات فراغه وهي قليلة في استقصاء حوادث التاريخ ، ولو قال قائل بأن عبد القادر هو أصدق مؤرخي مصر في القديم والحديث لما اتهمه أحد بالمبالغة والإغراق

وكان عبد القادر يحب أن تكون جريدته مَعرِضاً لجميع الآراء ، فعلى صفحات البلاغ أثيرت مشكلات ومعضلات هي أقوى وأصدق ما صدر عن العقول والقلوب ، وفي ميدان البلاغ تصاول الثلاث من أقطاب الفكر والبيان

وكان عبد القادر حر العقل ، فلم يتذوق في حياته طعم البهلوانيات الشعبية ، ولم يفهم إلا أنه مسئول أمام العقل ، ومن هنا كانت جريدته أصدق صحيفة صانت النضال السياسي من أوضار التبذل والإسفاف

قالت جريدة المصري وهي خصم شريف :

« فقدنا زميلاً نصاوله إذا اختلفنا ، ونناضله إذا احتدم النزاع »

وأقول إن النضال العف النزيه سوف يستوحش لغياب عبد القادر ، وسوف يذكر خصومه أنهم فقدوا رجلاً كانت خصومته من علائم التشريف

إن جريدة المصري تكافح كفاح الأبطال في إعزاز الصحافة المصرية ، فهل يدري صاحبها ومحرروها أن صاحب البلاغ كان السابق إلى رفع قواعد هذا البناء ؟

ذهبت جريدة المؤيد ، وبقي « بار المؤيد »

وذهبت جريدة اللواء ، وبقي « بار اللواء »

فهل نضمن بعد اليوم أن يبقى « المصري » و « البلاغ » شاهدَين على قوة العقلية المصرية في البلاد المفطورة على حب الخلود ؟

ثم أما بعد فأنا أشعر بأني لم أوفِ عبد القادر بعض ما يستحق من صادق الرثاء ، لأني واجهت الموضوع وأنا في حزن يبلبل الروح ، ويقلقل البيان

ولن يكون هذا آخر العهد يا عبد القادر ، فسوف أشغل نفسي بتأريخ مواهبك السامية . بعد أن تذهب كروب الحرب ويلتفت الناس إلى الحديث عن أكابر الرجال

زكي مبارك

عهد ... وعهد

مقارنة وتعليل

للأستاذ محمد محمد المدني

لا أقارن بين عهد الأستاذ الأكبر المراغي، وعهد الأستاذ الأكبر الظواهري، فإني امرؤ مراغي بروحه وقلبه وقلمه، أخشى أن يؤثر ذلك في حكمي فأحيد عن الإنصاف!

ولكني أقارن بين عهد وعهد كلاهما للأستاذ الأكبر المراغي، وتلك مقارنة مأمونة النتيجة على كل حال، فسيرجع إليه فضل أحد العهدين مهما أخذ على الآخر!

العهد الأول

إني أعود بذاكرتي إلى العهد الأول للأستاذ الأكبر المراغي فأرى روحاً طيبة ترفرف في أجواء الأزهر: هي روح المصلح الأمين الذي وضعت فيه الأمة ثقتها، وعلق عليه المفكرون آمالهم. هي روح المصلح الجريء الذي لا تأخذه في الحق لومة لائم، ولا يصرفه عما يرى من الإصلاح اعتبار من الاعتبارات؛ هي روح المصلح الغيور على دعوته، المدافع عنها دفاع الأسد المصور يكتسح العقبات، ويقتلع العراقيل، ولا يفرى فريَّه أحد! هي روح قوية غلابة متوثبة إلى الإصلاح، غيورة عليه، صريحة في أمره؛ تقهر العقبات ولا تقهرها العقبات، وتتحكم في العيوب ولا تتحكم فيها العيوب!

هي روح جريئة تثير في الأزهر معركة إصلاحية جامعة حامية الوطيس هي أشبه بثورة عنيفة على الفساد في أي لون من ألوانه: على الجمود والكسل، على الجهل والتقليد، على الجحود والكفران، على الرجعية البالية المتعفنة التي تتعصب على الحق، وتنفر من حكم العقل، وتعيش في ظل الأوهام!

* * *

تولى الأستاذ الأكبر المراغي مشيخة الأزهر للمرة الأولى ولم يكن قد داخل الأزهريين، ولا عاش في جوهم، ولا ابتلى بأساليبهم؛ ولكنه كان مع ذلك بصيراً بعيوب الأزهر وطرق إصلاحه كالطبيب الحاذق يعرف الداء ويصف الدواء

فما هو إلا أن ألقيت إليه مقاليده حتى مضى قُدماً في طريق الإصلاح، لا يلوى على أحد، ولا يبطئ به شيء، بل كان له في ذلك نشاط عظيم، جعله يسبق القوانين أحياناً فينفذ مشروعاته قبل أن تصدر

ولقد رج الأزهر يومئذ رجة عنيفة هي الرجة التي تصاحب دائماً عهود الثورة، وتترى المصلحين بالمضي في طريقها غير ناكصين، ومن يتتبع خطواته في الإصلاح يجدها خطوات واسعة موفقة يرجع إليها الفضل من غير شك في كثير مما يتمتع به الأزهر الآن من خير؛ فقد أعد قانون الأزهر الذي يسير عليه الآن، وأعد مشروع بناء كلياته ومعاهده ومكتبته ومساكن طلابه على نمط سيكون به للأزهر إن شاء الله مدينة جامعية محترمة، وأنشأ قسم الوعظ والإرشاد ففتح بذلك للأزهر وللأمة وللدين ألواناً من الخير والصلاح ليس ينكرها أحد، ووضع أساساً جيداً لمجلة راقية - فيما كان يرجو - تصدر باسم الأزهر، فتنشر بين الناس ثقافته، وتعلن في مشكلات الحياة رأيه، وتهدي الأمة إلى أقوم السبل في دينها ودنياها، وأدخل في مناهج التعليم بالأزهر علوماً وكتباً ما كان الأزهريون من قبل يعرفونها، ورسم في كل ناحية من نواحي الإصلاح خطة جامعة جريئة؛ ونجح إلى حد ما في إصلاح نفوس الأزهريين، وفي كبح جماح العناصر الفاسدة المقاومة لفكرة الإصلاح، وفي توجيه المستعدين للعمل نحو النشاط والانتاج!

وابتدأ الحظ السعيد يبسم للأزهر، وشهد التاريخ كيف أخذت هذه الجامعة الكبرى بأسباب النهوض والتقدم، ودلفت إلى طريق المجد والعظمة؛ وآمن الناس بأن للأزهر وجوداً، وبأن في الأزهر حياة!

ولكن الزمان لم يلبث أن استدار وتجهم، كأنما نفس هذه السعادة أن ترف على الأزهر ظلالها، فإذا الشيخ الأكبر يترك منصبه ولما يزل غرسه محتاجاً إلى التعهد والرعاية: خرج يومئذ من الأزهر خروجاً مفاجئاً لم يكن الناس يتوقعونه، ولكنهم عرفوا فيما بعد

أسبابه . وليس صحيحاً ما ذكره « عالم » فى الرسالة[1] من أن كثرة الأزهريين هى التى وقفت فى سبيله وألجأته إلى ترك منصبه ؛ فكلنا يعرف الأسباب الحقيقية التى من أجلها ترك الأستاذ الأكبر منصبه العظيم ؛ وكلنا يعرف أن الأزهريين كبارهم وصغارهم ظلت أعناقهم له خاضعين ما دام فى الأزهر ، حتى إذا اعتزل منصبه نبت عليه قوم وتصايحو ، وأخشوا من بعد فى القول وجاءوا بإفك عظيم !

العهد الثانى

عاد الأستاذ الأكبر المراغى إلى منصبه بعد الثورة الأزهرية المعروفة ، وترقب الناس جميعاً أن يتم من آيات الإصلاح ما بدأ ، وأن تعود إلى الأزهر روح « المراغية » القوية التى كانوا يعهدونها من قبل ، وأن تتلاحق فى كتاب الأزهر الخالد — بعد مقدمته التى كتبها فى عهده الأول — فصول مشرقة الصفحات ، واضحة الأغراض ، سليمة الأساليب والمعانى ، ولكن الأيام توالت ، والشهور تتابعت ، والأعوام تلاحقت ، ولو شئت لقلت إن حالة من الانتكاس قد أصابت الأزهر ، وأن ريحاً من رياح الفناء توشك أن تهب عليه فتعصف به ، ولكنى لا أحب أن أقول ذلك ، وإنما أحب أن ألتزم القصد فى التعبير فأقول : إن الناس لم يروا من الإمام المراغى ما كانوا يرقبون

هذه هى الحركة الفكرية فى الأزهر قد سكنت ريحها ، وخبت جذوتها ، وما زال الأزهر عاكفاً على كتبه يدور بها حول نفسه ، ويفنى فيها زهرة شبابه ، وينقطع بها عن الناس ، فليس له اشتراك ذو قيمة فى التشريع العملى للبلاد ، وليس له صلة محترمة بأوساط العلم والثقافة ، وليس له نشاط فى إخراج كتب علمية أو أدبية كما يخرج الناس ، وليس لمجلته أى أثر فى توجيه العقول والأفكار ، وإن كان لها أثر كبير فى تشجيع الخرافات والأوهام !

وهذه هى الحركة الدراسية فى الأزهر ، تشكو من تهاون الرؤساء وطغيان الطلاب ، وعدم قراءة المقررات ، وضعف المستوى العلمى ضعفاً يشغل البال ، ويقلق الأفكار

فما هو السر فى ذلك كله ؟

إن الذى يلى شئون الأزهر رجل مؤمن بفكرته إيماناً يداخل قلبه ويخالط نفسه ، ويملك عليه جميع مشاعره : فهو حين يخطب يدعو إلى الإصلاح ، وحين يكتب يدعو إلى الإصلاح ، وحين يدرس يدعو إلى الإصلاح ، وحين يجلس إلى الناس يدعو إلى الإصلاح ، أليس فى كل هذا دليل على أن فكرة الإصلاح قد تغلغلت فى نفسه وأثرت فى تفكيره ، ونطقت لسانه ، وأجرت قلمه ، وأنه حينما يدعو لها ، ويحض عليها ، إنما يلبى هتافاً من نفسه ، ووحياً من قلبه

ثم هو رجل لا يوزن وزانه فى العلم والفقه وجودة النظر ، له فى ذلك بحوث ومذكرات وآراء وقوانين وتوجيهات حقيق على تاريخ العلم أن يخلدها ، فليس كهؤلاء الدعاة الخلاة ، أفئدتهم هواء ، وصيحاتهم أصوات طبول جوفاء !

ثم هو رجل فى يده سلطان الأزهر ، وتحت أمرته كل شىء فيه ، وللأزهر استقلال يغبط عليه لم تصل إلى مثله جامعة حديثة . وليس فى الأزهريين بحمد الله من يستطيع إذا جد الجد أن يقف على قدميه ليناوىء حركة الإصلاح !

وهو بعد هذا كله رجل ذو جاه ومنزلة بين الناس ، يتمتع بين أولى الأمر وأصحاب السلطان بما لم يتمتع به أحد سواه من رجال الإصلاح : فالحكومة تحترمه ، والشعب يقدره ، ورجال الفكر والعلم يحبونه ، وولى الأمر — حفظه الله — يتوج هذا كله بعطفه ورعايته وتكريمه ، ويفد إليه فى دروسه يحيط به رجال دولته وأفذاذ أمته !

فماذا بقى بعد ذلك ليعطل الإصلاح ، ويحول بين هذا الرجل العظيم وبين مَقْعَدٍ فى التاريخ عظيم ؟ !

***

ترجع العوامل التى تحول بين الأستاذ الأكبر وبين تنفيذ برنامج الإصلاح الذى وضعه إلى نواح ثلاث :

١ — طبيعة الأزهر

(١) العدد الماضى ١٣٤ ص ٧٤١

٢ — أحوال الطلاب

٣ — السياسة العامة فى الإدارة

وليس من الخير أن نفصل كل هذه العوامل على هذا المنبر العام، ولكننا نكتفى بالإجمال رعاية لمقتضيات الأحوال

١ — طبيعة الأزهر:

هناك نوع من الأعمال يكفى لكى ينجح المرء فيه أن يرجع إلى نفسه، ويعتمد على ما يبذله شخصياً من جهود، فالمؤلف يستطيع أن يعكف على مراجعه، وينقطع إلى بحوثه وتأملاته، ويبذل من فكره وعقله ما يستطيع أن يبذل، فينتهى به الأمر إلى أن ينتج، أو يسير فى طريق الإنتاج شوطاً يتناسب مع عمله وجهوده.

وهناك من الأعمال ما لا بد فيه من تعاون، ولا تكفى فيه عبقرية العبقرى ولا جهد المجتهد، فالمعلم لا يستطيع أن يفيد بعلمه كل تلميذ، وإنما يفيد التلميذ القابل للتعلم، المستعد للفهم، الآخذ بالأسباب!

ومهمة المصلح كمهمة القائد من النوع الثانى، فكما أن القائد مهما كان شجاعاً عبقرياً محنكاً، لا ينجح فى خططه إلا إذا أسعفه جيش له صفات ممتازة واستعداد حسن يكفلان تنفيذ خطته على الوجه الأكمل. كذلك لا ينجح المصلح فى إصلاحه إلا إذا كانت البيئة التى يعمل فى دائرتها مستعدة لتلقى تعاليمه، غير متأبية بطبعها عليها.

والأستاذ الأكبر المراغى مصلح قد وضع خطط الإصلاح فأحسن وضعها، ولكن طبيعة الأزهر تحتاج فى علاجها إلى صبر ومثابرة وحسن تأت وسعة حيلة، كما تحتاج إلى انتهاز الفرص، وبث الدعاوة للأفكار الصالحة، وخلق القدوة وضرب المثل وتشجيع العاملين ومكافأة المنتجين. وكل ذلك يفعله الأستاذ الأكبر إلا تشجيع العاملين ومكافأة المنتجين: فهو حين يدرس يضرب للأزهريين بدراسته أحسن الأمثال، ويعلمهم كيف يكون الإخلاص للعلم والاعتماد على الدليل والبرهان، ووزن النظريات العلمية بقيمتها الذاتية، لا بمنزلة أصحابها والقائلين بها؛ وهو يحسن الدعوة إلى مبادئ الإصلاح وينتهز لها الفرص؛ وهو يصابر الأزهريين ويحتال لهم، ولكنه لا يعمل شيئاً يشعر به العامل أنه راض عنه، ويشعر به المهمل أنه غاضب عليه. فالأزهرى الذى يعمل ليله ونهاره ويقوم بواجبه خير قيام، كالأزهرى النائم الناقل الذى يعمل لإرضاء الرسميات وحفظ المظاهر فقط، بل ربما كان للثانى من سنه أو من وسائله الخاصة ما يدفعه إلى الأمام دفعاً يسبق به العاملين. وقد كان من نتائج ذلك أن خيم الكسل فى كثير من النواحى، وقتل النشاط، وفترت حياة الأزهر العملية فتوراً صار مضرب الأمثال!

٢ — أحوال الطلاب

عاد الأستاذ الأكبر إلى منصبه فى ظروف يعرفها الذين يتابعون حركة الأزهر؛ وقد أوحت هذه الظروف إلى طلاب الأزهر والمعاهد الدينية أن لهم يداً فى عودة الأستاذ الأكبر إلى منصبه، لأنهم نادوا به، وأضربوا من أجله، وشردوا فى سبيل ذلك وأوذوا، فهم إذن جديرون بأن يصيبوا حظهم من المكافأة، وجديرون بأن تتغمض العيون عنهم إذ يتخففون من وطأة النظام ويحاولون الإفلات من هيمنة الرؤساء والأساتذة؛ وقد سارت سياسة الأزهر بالنسبة إليهم فعلاً فى طريق من شأنها أن تشجعهم على هذا الفهم وتؤكده لهم، فقد ألفوا أن يطلبوا فيجابوا إلى ما يطلبون، وأن يذنبوا فيغفر لهم ما يذنبون، وأن يعاقبوا ثم تقبل فيهم شفاعة الشافعين، واستباحوا أن يذهبوا إلى الإدارة العامة فى كل صغيرة وكبيرة متخطين رؤساءهم المباشرين، فتراهم يقتحمون مكاتبها، ويشغلون موظفيها، ويدخلون عليهم من أقطارها، ويتنادون فى أبهائها صاخبين لهم فيها ضجيج وعجيج!

ومن الإنصاف أن نذكر أن هذه الحالة ليست خاصة بالأزهر وحده، وإنما هى حالة نصطلى بنيرانها المدارس المصرية جميعاً. فكلنا يعرف كيف تدخلت السياسة الحزبية فى نظم التربية والتعليم والامتحانات تدخلاً يراد به التقرب إلى الطلاب وكسب تأييدهم، وكيف انبثت الفوضى فى كل شىء، وطغت على كل شىء، فليس الأزهر وحده هو المسئول عن هذا العامل، ولا ينبغى أن يحمل عبؤه عليه من دون معاهد التعليم جميعاً، ولكننا فيما يظهر قد سبقنا غيرنا فى هذه الناحية وبرزنا فيها تبرزاً حتى

أصبنا منها بطعنات فى الصميم أساءت إلى النظام ، والإدارة والعلم والكتب والمقررات والامتحانات ، وإلى المستوى العلمى والخلق إساءة فظيعة ، تحتاج إلى العمل السريع ، وإلى الحزم الصادق ، والعزائم المتكاتفة، إن كان لنا فى بقاء الأزهر حاجة !

٣ — السياسة العامة

أرجو أن يسمح لى فضيلة الأستاذ الأكبر بأن أتوجه إليه فى هذه الناحية بشىء من الصراحة ، فإن فضيلته يريد أن يسوس الأزهر سياسة قوامها إرضاء العناصر المختلفة فيه ، وإرضاء العناصر المختلفة فى الأزهر أمر بعيد المنال إن لم يكن مستحيلاً ، فإن المرء لا يجد بيئة من البيئات قد تفاوتت فى التفكير حظاً ولوناً وطابعاً كالبيئة الأزهرية ، والمصلح لا بد أن يكون جريئاً فى إصلاحه ، صريحاً فى مداواة العلل والأمراض ، وكلنا يعرف أن فى الأزهر قوماً مؤمنين بالإصلاح ، وقوماً به كافرين ، وعنه معوقين ، كما أن فيه قوماً لم يتعودوا أن يؤمنوا بشىء أو يكفروا بشىء ، فإذا كان من سياسة المصلح أن يستعين بخصوم الإصلاح ، أو بالذين لا يدركون أغراضه ، ولا ينبعثون بطبيعة نفوسهم فى طريقه ، أو لا تمكنهم أحوالهم وسنهم وتربيتهم من تطبيقه ، فإن الإصلاح من غير شك فاشل ، وأن الجهود التى تبذل فى سبيله ، والأموال التى تنفق عليه ، ضائعة !

لا ينبغى أن تسيطر ظروف السن والأقدمية والأمر الواقع على كل شىء فى الأزهر ، فيظل التعيين فى المناصب الكبرى وقفاً على الذين كلّوا من شدة الإعياء ، عن حمل الأعباء

لا ينبغى أن يغفل عند تعيين جماعة كبار العلماء ما بقى مغفلاً حتى الآن من رعاية النشاط العلمى والقدرة على الإنتاج والعمل وإقناع الناس بوجود الأزهر ؛ فقد كان الناس يعتقدون ، وحق لهم أن يعتقدوا ، أن عضوية هذه الجماعة مكافأة على طول العمر ، وتعويض للقعدة والضعفاء ، لا على الإنتاج والتأثير فى حياة الأمة

لا ينبغى أن نستعين بالذين لا يؤمنون بإصلاح ولا يدينون بمبادئ ولا يحفلون بمثل عليا ، وليس لهم فى الأزهر رسالة إلا التخزيل عن النهوض ، والتعويق عن التقدم ، بينما المتشبعون بالأفكار الإصلاحية القادرون على تحقيق مبادئها مبعدون عن تولى الأعمال الهامة لاعتبارات لا يصح أن يقام لها وزن فى نظر المصلح .

لا ينبغى أن يدخل فى توزيع الأعمال أن ينتدب فلان من أجل فلان ، وأن يقصى فلان من أجل فلان، وأن يجتهد فى تمثيل البلاد والأقاليم فى كل عمل من الأعمال كأنها لجان عصبة الأمم !

لا ينبغى أن نرضى بالواقع المخجل فى مجلة كمجلة الأزهر أجمع الناس على فساد إدارتها ، وضعف مستواها ، وانحرافها عن الطريق القويم الذى تقتضيه طبيعة رسالتها ، وأنها أصبحت طريقاً من طرق التكسب والتعيش وفتح البيوت ، وهى مع ذلك محمية من أن تقع على عيوبها عين فضيلة الأستاذ الأكبر ، ومن أن تصل الشكوى منها إلى مسامعه بوسائل يعتقد الناس أنها لا ترضيه !

لا ينبغى أن يكون فى الأزهر امرؤ يضع الأستاذ الأكبر فيه ثقته ، ثم يعبث معتمداً على هذه الثقة بأمانة العلم أو العمل أو الإدارة أو النظام ؛ فإنه لا يسىء بذلك إلى نفسه فقط ولكنه يسىء أيضاً إلى من ائتمنه ووضع فيه ثقته !

سيدى الأستاذ الأكبر :

معذرة فقد استرسل القلم ، يملى عليه قلب لك مخلص وعلى عهدك غيور . فغض الطرف عما عسى أن يكون من الإسراف ، لما تنطوى عليه النفس من الإخلاص ؛ ولا تسمع فىّ وشاية الواشين ولا كيد الكائدين !

وفقك الله إلى ما يحبه لك أخلص محبيك

محمد محمد المدنى
المدرس بكلية الشريعة

ألقاب الشرف والتعظيم عند العرب

للأب أنستاس ماري الكرملي

— ٥ —

١٣ — الدقس وهو الرهينة

الدقس وهو أيضاً : الدقوس والقدوس والعطوس والدعوس والدوقس . وكلها تعريب dux, ducis . قال الصاغاني : الدقس : الملك ؛ وقال الأزهري : الدقوس ، كصبور : الذي يستقدم في الحروب والغمرات كالقدوس (التاج)

وعندنا أن العرب كتبوها في أول الأمر : دقس كقفل ودُوقس بضم فواو وقاف ساكنتين فسين لتحقيق اللفظ الرومي أو الروماني الأصل . ثم وقع فيها القلب والإبدال ، كما وقعا في كثير من الألفاظ المعربة ، بل في العربية نفسها ، فصارت : دقوس وقدوس . ولما كان بعضهم يقلب القاف عيناً ، صيّروا قاف دقوس عيناً ، فقالوا : دعوس كما قالوا القرناس والعرناس والقسوس والعسوس والنقل والنعل ، وفرق بين القوم وفرّع ، أي حجز ، إلى نظائرها

وأما عطوس ، فهو مقلوب دعوس ، بجعل الدال طاء من باب تفخيم الحروف كما قالوا : مد الحرف ومطه ، ترياق ودرياق وطرياق (عن الجمهرة لابن دريد) . اختدفه واختطفه (التاج) والدقس باللاتينية دليل القوم ورئيس الجيش وقائده ومقدم القوم والأمير والملك على حد ما قاله العرب . وكل ذلك من باب التوسع

وجاء في التاج في مادة (دع س) : « في النوادر : رجل دعوس ، عطوس ، قدوس ، دقوس : أي مقدام في الغمرات والحروب ؛ وحرفه الصاغاني فقال : « في العمل » بدل « في الغمرات » اﻫ

قلنا : لا تحريف عند الصاغاني ، لأن الدقوس على ما نقلناه لك عن كلام الرومان هو دليل القوم في أي شيء كان في الغمرات والحروب ، كما في الأعمال والمبرات . فاحفظه

والظاهر أن كتبة عهد الخلفاء لم يعرفوا أن سلفهم عرّبوا الكلمة بالأوجه التي ذكرناها ، كما جهلها حملة الأقلام في عصرنا هذا . أما سَفَرة عهدنا فإنهم سموه (دوق) أي duc بقاف في الآخر . وأما العرب الخلص فقد سموه (الثنيان) ، كما مر الكلام عليه في (البدء)

وأما أرباب اليراع في عصر الخلفاء ، فعرفوه بالدوك بكاف في الآخر . قال أبو شامة في كتاب الروضتين ، في ص ١٨٣ من طبعة باريس : « وكان فيهم مائة كند ، وثمانمائة من الخيالة المعروفين ، وملك عكاء ، والدوك ، (وهو يريد به يومئذ دوك النمسة) ، واللوكات ، نائب الباب ، ومن الرّجالة ما لا يحصى » اﻫ . أما دوك البندقية ، المسمى عند الإفرنج دوج doge ، فسماه العرب (دوك) أو (دوج) ؛ كما فرق الإفرنج بين الواحد والآخر ، مخصصين (الدوج) ، بمن يكون للبندقية ، إلا أن القلقشندي كتب الدوج بالكاف ، وصرح بأنها بالجيم كجيم doge الفرنسية المعروفة بالكاف المشوبة بالجيم ، أو الكاف المعقودة ، أو الجيم المعقودة . وهذه عبارته (صبح الأعشى ٥ : ٤٨٥) : « كل ملك منهم (من ملوك البندقية) يسمونه (دوك) ، بالكاف المشوبة بالجيم ، فيقال (دوك البندقية) ، وهذا اللقب جارٍ على ملوكهم إلى آخر وقت » اﻫ .

فانظر — حرسك الله — إلى كم صورة من الصور انتقلت كلمة dux اللاتينية ، فإنها بَدَتْ لك بأثواب مختلفة ؛ منها : دُقس ، ودَوْقس . ودُقوس . وقَدُوس . ودَعُوس . وعَطُوس . ودوق . ودوك . ودوج . ولعل ثم غيرها ونحن نجهلها إذ رأينا بعض المعربين عن الإنكليزية في عهدنا هذا يقولون (ديوك) ، و (ديوق) لأن الإنكليز ينطقون بها كذلك . فهذه إذاً إحدى عشرة لغة ، فتدبر !

على أن أبناء مُضر ، لو كانوا واقفين على كلام من تقدمهم من اللغويين البصراء ، لما احتاجوا إلى كل ذلك ، لأن عربيتها

الصحيحة والقديمة هى — ما عدا (الثنيان) — (الدِّحية) بكسر الأول وأصلها (دحى)، فعل بمعنى فاعل وفى الآخر تاء المبالغة وهو من دحى الإبل وغيرها أى ساقها . وهى تشبه فى مجارها الكلمة اللاتينية dux المشتقة من ducere بمعنى ساق، فالحرف d = د، والحرف c = ح، وإن كان فى مواطن أخر = (ق) أو (ك)؛ إنما هنا = ح . كما قالوا فى حيْفا caïffa، وفى حرّان carrhae أو carrae، وفى حرْتك (أى صغير) curtus وفى حليم clem [ens] إلى نظائرها . ولا يعلم هل (دحى) أو (دحا) سبقت اللاتينية، أم الرومية سبقت الضادية . وفعل هنا بمعنى فاعل : كنِدّ وتبِع؛ وخلف بمعنى نادّ وتابع وخالف .

إما أن الدحية هو بمعنى الدوق اللاتينية فواضح من كلام الشارح . قال فى تركيب (د . ح . ى) : الدحية بالكسر : رئيس الجند ومقدمهم، أو الرئيس مطلقاً فى لغة اليمن [كذا] كما فى الروض للسهيلى . وقال أبو عمرو : أصل هذه الكلمة السيد بالفارسية[1] [كذا]، وكأنه من دحاه يدحوه[2] : إذا بسطه ومهده لأن الرئيس له البسط والتمهيد . وقلب الواو فيه ياء نظير قلبها فى فتية وصبية . قلت (أى الشارح) : فإذاً صواب ذكره فى دحا دحواً . وفى الحديث يدخل البيت المعمور كل يوم سبعون ألف دحية، مع كل دحية سبعون ألف ملك » ا . هـ كلام الشارح

قلنا : وكل ذلك موافق لما ذكره اللغويون اللاتين للكلمة dux فليست الدِحْيَة إذن من لغة اليمن، ولا من الفارسية، فهى عربية محضة، وهى تشبه مقلوبها (حدا يَحدو) يقال : حدا الإبل ساقها، وحدت الريح السحاب : ساقته . ولا شك فى أن (حدا) مقلوب (دحا) أو (دحى) . لأن (دحا) موجود فى العبرية والإرَمية، بخلاف (حَدا) . ووجود (دحا) فى اللغات الثلاث الساميات القديمات : العبرية، والعربية، والإرمية، أدل دليل على أن اللاتين هم الذين أخذوا لفظهم من الساميين، منذ أقدم الأزمنة، لو جاز لنا هذا القول

١٤ — المركيس

١٥ — المرزُبان

لم تعرب المركيس فى قديم الزمن، إنما عربت فى عهد العباسيين، لأنها نشأت فى عهدهم؛ وكثيراً ما وردت فى كتب المؤرخين، كقول ابن الأثير فى حوادث سنة ٨٣ هـ : « واتفق أن إنساناً من الفرنج الذين داخل البحرية يقال له (المركيس) » اهـ . وفى أغلب النسخ ورد : المركيش بالشين المعجمة . وقد كثر عندهم ورود هذا اللقب فى جميع كتب التاريخ فى عهد الصليبيين؛ حتى أننا لا نرى حاجة إلى الاستشهاد بها . على أن بعض المعربين النقلة فى عصرنا هذا يذكرونها بصورة مركيز، وماركيز، وماركيس (راجع المعاجم الفرنسية العربية) . وفى معجم بجارى بك الفرنسى العربى : « ماركى » وهو لفظها الفرنسى : وسمى مؤنثها « ماركيزة »؛ وكان عليه أن يقول : « ماركيز » جرياً على لفظها الفرنسى أيضاً . أو كان يحسن به أن يقول فى المذكر : (ماركيز) ليصح له أن يقول فى المؤنث (ماركيزة) . والذين نقلوا الكلمة عن الانكليزية قالوا : ماركويس ومركيز (راجع معجم بادجر الانكليزى العربى) . فهذه سبع لغات لحرف واحد أعجمى . وأحسنها مَرْكيس بسين مهملة فى الآخر، لقدمها وقربها من أصلها وخفة لفظها

والمركيس مشتقة من marche، ومعناها التخم، والحط، والثغر، والفرجة . فكان المركيس رجلاً عسكرياً قائماً على حفظ الثغر، ثم نقل إلى لقب شرف . وهذا اللقب الإفرنجى، يقابل اللقب الفارسى (مَرْزُبان)، بفتح الميم، وإسكان الراء وضم الزاى وفتح الباء الموحدة التحتية، يليها ألف فنون .

---

(١) ليس فى الفارسية كلمة فيها حاء ولعله يشير إلى كذخدا أو كتخدا ومعناها : رب البيت، والوزير، والرئيس، ومقدم القرية، والرجل الوقور، والملك .

(٢) لا نفهم كيف يكون بالفارسية وكيف يقول بعد ذلك : « وكأنه من دحاه . فهذا من قبيل الطلاسم .

والكلمة مركبة من (مرْزَ) وهو حد المملكة وثغرها . ومن (بان) أى حافظ . ومحصلها (حافظ الثغر) كالمركيس سواء بسواء

ومن الغريب أن القاموس والتاج يذكرانها فى (رزب) ، وكان الأفضل أن تذكر فى (مرز) أو فى (م رزب ان) لأنها تعتبر مركبة من صدر وعجز ، أى من (مرز) و (بان) أو تعتبر كلمة واحدة وجميع أحرفها أصولاً ، لأنها أعجمية ، وقد صرحوا مراراً لا تحصى أن أحرف الأعجمى كلها أصول . قال القاموس والتاج فى (رزب) :

« (المرزبة كرحلة رياسة الفرس)[1] . تقول : فلان على مرزبة كذا . وله مرزبة كذا كما تقول : له دهقنة كذا . (وهو مرزبانهم بضم الزاى) : رئيسهم ، تكلموا به قديماً . كذا فى شفاء الغليل . وفى الحديث : أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم . هو بضم الزاى وهو الفارس الشجاع المقدم على القوم دون الملك ، وهو معرَّب (ج مرازبة) وفى لسان العرب : وأما المرازبة من الفرس ، فمعرب . وقال ابن برى : حُكى عن الأصمعى أنه يقال : الرئيس من العجم : مَرْزُبان ومَرْزُبان بالراء والزاى وأنشد فى المعجم لبعض الشعراء :

الدارُ دارانِ : إيوان وغمدان

والملكُ ملكان : ساسان وقحطان

والأرض فارس والإقليم بابل والْـ

إسلام مكة والدنيا خراسان

إلى أن قال :

قد رتب الناس جمٌّ فى مراتبهم

فرزبانٌ وبطريق وطرخانُ

وقال المسعودى فى التنبيه والإشراف (ص ١٠٣ من طبعة الإفرنج) : « فأما المرزبان ، فهو صاحب الثغر ، لأن (المرْز) هو الثغر بلغتهم ، و (بان) : القيم . وكانت المرازبة أربعة : للمشرق والمغرب والشمال والجنوب كل واحد على ربع المملكة »

وأما اللغويون المحدثون ، فذكروا المرزبان فى (مرز) أيضاً فهم كالشاه ، وقد قيل فى المثل : ياشاة أين تذهبين ؟ قالت : أُجَزّ مع المجزوزين ؛ أو كالفرار وقد قيل فيها : نَزْو الفرار استجهل الفُرارا

(له صلة)

الأب أنستاس مارى الكرملى
من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية

(١) ما كان بين قوسين فهو من كلام القاموس .

ذكريات السنين الخمس

عبد القادر حمزة باشا

للأستاذ محمود الشرقاوى

في قرب الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الإثنين ٤ يونيو لسنة ١٩٣٤ قدم إلى حيث كنا نشتغل بتحرير صحيفة أدبية أحد السعاة فى جريدة « البلاغ » وطلب إلى أن أتوجه لملاقاة الأستاذ عبد القادر حمزة ؛ وفى مساء ذلك اليوم لقيت لأول مرة ذلك الرجل الذى أحببته وأكبرته . وبدأت عملى محرراً معه فى « البلاغ » خمس سنين

كنت قبل هذا التاريخ لا يفوتنى شىء مما يكتبه عبد القادر حمزة . وكنت أجد فى قراءته مثل ما يجد الشارب الذوّاق من كأس خمر معتقة ؛ فلما اتصلت بينى وبينه الأسباب وخالطته بالعمل والعشرة زاد حبى له وزدت إعجاباً بشخصه

أما عبد القادر حمزة الكاتب والسياسى والمؤرخ ، وعبد القادر حمزة المجاهد الصادق الجهاد فى سبيل مصر والحركة الوطنية والدستور ، وعبد القادر حمزة الخصم السياسى ، فذلك كله ليس من شأنى أن أكتب عنه اليوم لقراء « الرسالة » ؛ فقد كتب فيه وسيكتب كثيرون غيرى . وسيكتب التاريخ عن هذا كله كلمة الحق

أما أنا فسأكتب شيئاً من ذكريات تلك السنين الخمس التى قضيتها فى صحبة عبد القادر حمزة باشا صاحب « البلاغ »

***

كان أستاذنا عبد القادر رجلاً أميز ما ينفرد به من الخلق : الطيبة والتواضع وبساطة النفس والمنىاد ، ثم الانكفاف عن الناس وعفة القلم واللسان

فى صباح يوم من صيف إحدى السنوات القريبة أراد المرحوم عبد القادر باشا أن يزور رجلاً من كبار رجال الدولة فى ذلك العهد . وكان عملى فى « البلاغ » يجعلنى من ألصق الناس بذلك الرجل ، فنادانى الأستاذ عبد القادر وطلب أن أرافقه فى زيارة ذلك العظيم ليشكره على أمر ما

فلما أخذنا أماكن جلوسنا فى سيارة الأستاذ بدأت أحدثه عن ذلك العظيم ، فقال إنه لا يعرفه إلا أقل المعرفة ، وأنه لم يجتمع به سوى مرات قليلة فى مناسبات مكتفياً بالتحية من بعيد ، فتعجبت مما قال ! كيف لا يعرف الأستاذ عبد القادر حمزة وهو من أبرز رجال المجتمع المصرى ذلك الرجل الكبير من رجال الدولة ... !؟ وكان له فى ذلك الحين شأن عظيم حتى فى الأمور السياسية التى يشتغل بها صاحب البلاغ ؛ ولكن هكذا كان عبد القادر حمزة قليل الأصدقاء قليل الخلطة بالناس منكفاً عنهم بما يستطيع

وفى ذلك الوقت نفسه كانت الخصومة السياسية على أشد عنفوانها بين البلاغ وبين حكومة يؤيدها صاحب المقام الرفيع النحاس باشا . وكانت صحف الوفد فى ذلك الحين تذكر اسم عبد القادر حمزة مقترناً باسم ذلك العظيم الذى كنا نقصد زيارته ، وأنهما يجتمعان فى قصر عظيم آخر كان اسمه فى ذلك الوقت أبرز الأسماء فى ميدان السياسة المصرية المعارضة للنحاس باشا ، وكان من كبار رجال القصر . فقلت للأستاذ عبد القادر : ولكن صحف الوفد تقول إنك تجتمع مع هذا العظيم فى قصر فلان لتدبير المؤامرات لحكومة النحاس باشا . فأجاب الأستاذ بهدوئه العظيم : دعهم يقولون

ثم عرفت بعد ذلك أنه كان صادقاً حين قال إنه لا يعرف ذلك العظيم ولم يجلس إليه قبل تلك الزيارة

وكان الأستاذ عبد القادر حمزة رجل كفاح وجلد، عظيم الثقة بنفسه إلى حد عجيب

بعد هذا التاريخ بسنتين كان ذلك الصراع الهائل الجبار الذى سيبقى خالداً فى تاريخ الصحافة المصرية، وخالداً فى تاريخ السياسة المصرية كلها ، ذلك الصراع الذى قام به عبد القادر حمزة وحده مواجهاً به ومتحدياً أقوى حكومة استندت إلى قوة الرأى العام المصرى وإلى قوة البرلمان وإلى عزة النجاح فى مفاوضة الإنجليز

وتوقيع معاهدة معهم ، وإلى إلغاء الامتيازات الأجنبية وإنهاء سيطرتها . وكان عبد القادر حمزة يبدو لنا فى ذلك الحين — وأنا أحد الذين عملوا معه فى ذلك الصراع — كان يبدو لنا كمن يريد أن يمسك بأصابعه الخمس جبلاً شامخاً راسخاً صلداً فيفتته ويجعل منه تراباً منهلاً

ولكن عبد القادر حمزة ظل يكافح فى كل يوم وحده حتى نخر الجبل الشامخ الراسخ ، ولم تهن عزيمته يوماً ، ولم يفقد ثقته بنفسه على رغم ما لقى فى ذلك من مؤنسات كانت تهد عزم الجليد فى أيام ذلك الصراع العجيب ، كان يهيئ حملاته الصحفية ويرقبها بفكر منظم لا يستطيع أن يهوشه سواه

وكانت إحدى حملاته تلك تقوم على وثائق تثبت سوء اختيار الوزارة القائمة إذ ذاك لتوزيع الرتب والألقاب الملكية ؛ وكلفنى الحصول على وثيقة تثبت أن واحداً من الذين نالوا رتب التشريف إذ ذاك من أصحاب السلوك السيئ . واستطعت أن أنقل إليه الصيغة الرسمية لتلك الوثيقة من حفظى وقدمتها إليه وهو لا يكاد يصدق . ومرت الأيام والأسابيع ولم يبدأ حملته تلك ولم ينشر وثيقتى أو يشر إليها ، حتى ظننت أنه لم يعتمد على ثقتى

ولكنه بعد وقت طويل بدأ ينشر وثائق تلك الحملة بعد أن هيأها فكره المنظم العجيب ؛ وكانت وثيقتى واحدة من نظيرات كثيرات جعل منها عبد القادر حمزة عملاً من أعظم ما قام به صحفى فى مصر : براعة وقوة وتوفيقاً

وهو فى كل هذا الصراع القاتل لم ينس مرة واحدة عفة قلمه ولسانه فى الخصومة . لا أذكر أنى سمعت منه فى ألد خصومه أعنف من هذه الكلمة : « هؤلاء ناس مضللون ! »

كان محرر « السينما والمسرح » فى « البلاغ » فى إحدى تلك السنين شاباً قليل الخبرة ، ولو أنه طاهر النفس . فكتب عن إحدى الممثلات المصريات كلمة ذات وجهين أحدهما قبيح ؛ وتحدثت هى فى ذلك بالتلفون إلى عبد القادر باشا ، وبعد لحظة دعا ذلك المحرر عنده ، وعنفه أشد التعنيف ، وأمر بفصله من « البلاغ » . وكان كثيراً ما يفعل ذلك معه ومع غيره ثم يعفو ، ولكنه فى هذه المرة لم يقبل فيه شفاعة شافع . ولم ير العاملون مع عبد القادر حمزة أنه غضب من شيء بمثل ما غضب فى ذلك .

وكان من صفات عبد القادر حمزة أنه عنيف فى حبه عنيف فى بغضه ، وذلك شأن صاحب القلب العظيم

ذلك الصراع الذى أشرت إليه بينه وبين خصومه فى السياسة والحكم دام سنتين لقى فيها عبد القادر حمزة من العنت والجبروت ما يوهن عزائم جيش من الرجال الصامدين ؛ وكان هو بين تلك الزعازع كالأشم الراسخ ، لا تنال منه الرياح ولا الأعاصير ، ولا تزيده العنت إلا عناداً . كنا نراه فى « البلاغ » يزلزل أقدام خصومه فى كل يوم . ثم هو يسير إلى حجرته صامتاً ويجلس إلى مكتبه صامتاً ، ويكتب ويراجع ويصحح صامتاً ، ويعود للعمل فى المساء ممعنا صامتاً ، كأن هذه القيامة القائمة فى مصر ليست منه ولا بسببه ؛ وكان فى أشد الأيام حلوكة وسواداً لا ينى يقول : نحن قريبون من النصر . ولست أنسى ضحى ذلك اليوم وقد انتهى فيه صراع عبد القادر حمزة إلى نجاح فريد ؛ وقد صعد ذلك الرجل الوقور على درج « البلاغ » متهلل الوجه غير صامت . بل كان يعلن إلى كل من يلاقيه فى صوت قوى : لقد أقبل [...] ... !

ولا يزال فى وعيى صوت عبد القادر حمزة إذ ذاك أحس فيه قوة القلب والنصر بعد كفاح طويل وبعد صبر طويل . ذلك قلب الرجل الذى هو قوى فى بغضه قوى فى حبه ، وذلك هو كان فى بغضه !

أما عبد القادر حمزة فى حبه ، فذلك شأن عجيب

فى صيف سنة ١٩٣٨ كان المرحوم عبد القادر باشا مسافراً إلى أوربا ، وكنت إذ ذاك فى الإسكندرية ؛ فذهبت لوداعه على الباخرة محمد على الكبير . وبقيت معه على ظهرها حتى أوشكت على الرحيل . ونظرت إلى وجه أستاذنا العظيم فى تلك اللحظة القاسية — لحظة الوداع — وكان إلى جانبه أحد أولاده وقد وقف ينظر وكأنه يبكى ، إلى أولاده الأخر ومودعيه على الميناء . فلما

أوشكت الباخرة أن تسير ، سمعته يميل على ولده يقول : « إنزل يا محمود وروّح مع إخوتك من الشمس

وبعد قليل نزل ولده ونزات . وقد أحسست فى ذلك الوقت أنه ما كان مشفقاً على ولده من حرارة الشمس وحدها ؛ بل كان مشفقاً عليهم وعلى نفسه حرقة تلك اللحظة القاسية — لحظة الوداع — فقد كان عبد القادر حمزة حين تحركت محمد على الكبير منحرفة إلى البحر وقد أخرج الركب أيديهم ومناديلهم يشيرون بها إلى مودعيهم وأحبائهم . كان عبد القادر حمزة أسرعهم جميعاً إلى التوارى وأقلهم إشارة وحركة

لقد كان يشفق على نفسه أن يطيل ساعة الوداع ، وقد كان قبل ذلك بقليل يسلّم على ولده ويده ترتعش ولا يكاد يبين من لفظه صوت

أما ذلك اليوم الذى ماتت فيه ابنته سعاد ؛ وأما تلك الساعة التى ذهبنا معه فيها نواريها التراب ، حين نزل معها إلى فجوة القبر وانحاز إلى ركن منه مظلم رطيب ، وأما حين هو يبكى كطفل ورأسه بين يديه لا يريد أن يترك ابنته ، على رغم أنه يغالب حزنه المظلم ونحن معه فلا يستطيع . أما ذلك اليوم وهذه الساعة من حزن عبد القادر حمزة وعصيانه أن يصمد من قبر فتاته وقد وسدت فى التراب .

أما هذا وذاك فشىء لا أنساه ولا أستطيع أن أكتب فيه

***

وفى شتاء سنة ١٩٣٨ — ١٩٣٩ — إنسللت من تحرير البلاغ مخاصماً وفارقت أستاذى عبد القادر لأسباب ليست من العمل ولا من المال ، ولكنها أجلّ عندى من العمل ومن المال . وقد ظللت وسأظل أذكر عبد القادر حمزة فقد أحببته على الغيب والشهادة

رحمه الله وأجل عزاءنا فيه وصبر جميل

محمود الشرقاوى

الفقيـــد العزيز

للأستـــاذ على شوقى

خامتُ رداء الشباب الجديدْ ... وأُلبِستُ تاجَ المشيب النضيدْ

وأصبحتُ نضواً مهيض الجناح ... وقد كنت آوى لركن شديد

وما شاب رأسى ولكنه ... ضحَى عنه ظلُّ الشباب المديد

فقل لعذولى مضت وانقضت ... ليالى التصابى وتلك العهود

وأنى فقدت الشباب العزيز ... ألا رحم الله ذاك الفقيــد

وعدتُ من الحب خلو الفؤاد ... وما كنت أحسب أنى أعود

وحطَّمت كأسي وأُنسيتُ أنسى ... فلا اللهو لهو ولا الغيد غيد

وقطّعتُ باليأس حبل الرجاء ... وألقيت عنىَ تلك القيود

فما يستبينىَ سحرُ العيون ... ولا يطّبينىَ وردُ الخـــدود

وقلت لجفني هَناك المنامُ ... فيا طالما كنت تشكو الهجود

وقلت لقلبى اغتبط بالسلوّ ... فهذا الذى كنت منه تحيد

وجنّبت نفسى خداع المنى ... وتغرير شيطانهن المَريد

وكنتُ امرأً مولعاً بالجمال ... إذا ما انقضت صبوة أستعيد

على أننى كنتُ ذاك الوفىّ ... الشريفَ الأبىَّ الأليفَ الودود

ولم آت بائقــــةً فى الغرام ... تسلُّ علىّ لسان الحسود

وذلك أنى صحبت الليالى ... فأوحين لى سر هذا الوجود

وعلمنـــنىَ كل ما ينبغى ... لمن يبتغى طول عيش رغيد

كما أننى قد خبرت الأنام ... ومارست إيعادهم والوعود

فما راقنى الوعد من صاحب ... ولا راعنى من عدوّ وعيد

وبتُّ من الناس فى راحة ... سـواء قريبهمُ والبعيــد

أعيشُ كما عاش ليثُ الشّرى ... وحيداً وهل ذلّ ليثٌ وحيد

يروح ويغـدو على قُوته ... ويكفيه من قوته ما يصيد

أسيرَ الحياة طريدَ الممات ... ألا فاعجبوا للأسير الطريد

وما لامرئ لذة فى حياة ... إذا آذنت ناره بالخمــود

فلا يستخفن عبء الحياة ... فعبء الحياة ثقيل يئود

وإن يك قد زيد فى عمره ... فآية نقصانه أن يزيد

ولولا تكاليف هذى الحياة ... لما سئم العيشَ فيها لَبيـد

على شوقى

نيابة بعض حروف الجر عن بعض

للأستاذ الكبير (ا . ع)

كان لكلمة الشاعر الكبير الأستاذ محمد عبد الغنى حسن (بالعدد ٤٠٩ من الرسالة) أثر بالغ فى نفسى ، لأدبها الجم ، وإنصافها للحق

ولقد حمدت هذه الكلمة التعقيبية على أن أتاحت لى موضوعاً طالما تمنيت أن أكتب فيه ، موضوعاً كثرت فيه وقفاتى فى مجالس التعليم ، لما كنت أرى من إهماله وسوء فهمه وتشويه الغرض منه

هذا الموضوع هو (نيابة بعض حروف الجر عن بعض) .

قال الأستاذ :

« أما قول الأستاذ الفاضل : إن الفعل (تفيأ) يتعدّى بالباء ، أو بنفسه كما صنع أبو تمام ، ولا يتعدى باللام ، كما جاء فى قصيدة (ميلاد نبىّ)[1] ، فهو قول نقبله على العين والرأس ولكنى أضيف إليه أن تعدية هذا الفعل باللام ليست خطأ ؛ لحروف الجر ينوب بعضها عن بعض . »

هكذا أطلق الأستاذ هذا الحكم من كل قيد ، فيتوهم من هذا الإطلاق أن كل حرف من حروف الجر يجوز أن ينوب عن أى حرف آخر منها . وهو ما لم يقل به أحد من النحويين القدماء أو المحدثين . ولا يمكن أن يعتقده الأستاذ أو يقول به . وإنما هى عبارة شاعت على الألسنة ، وتناقلها الناس منذ بعيد من غير تأمل أو بحث

فلهذا أردت أن أوضح المقام بعض التوضيح ، وأن أكشف عن أسسه العامة وقواعده . ولستُ أدعى أنى أضيف إليه جديداً ؛ فقد بسطه العلماء بسطاً ، وأفاضوا فيه إفاضة ليس وراءها من مزيد ، وإن كانوا قد أثاروا فى خلافهم ومناقشاتهم عجاجاً استبهم وراءه بعض الحقائق أو أشكل

* * *

لما تدارس العلماء كتاب الله والشعر القديم ، منذ فجر النهضة العلمية الإسلامية ، فطنوا لأن بعض الأفعال والمشتقات التى تتعدى ببعض حروف الجر ، تؤدى معنى غير معناها الوضعى فعكفوا على تعليل ذلك ، وانقسموا جماعات ، وأشهرهم البصريون والكوفيون

فالبصريون يقولون : (١) إما يتضمن العامل معنى عامل آخر يتعدى بذلك الحرف ، كما فى قوله تعالى : « وأحسن بى إذ أخرجنى من السجن[1] » . فالفعل (أحسن) لا يتعدى بالباء ، فضُمِّن معنى (لطف) ؛ (٢) وإما بأن الحرف الذى تعدّى به العامل قد استعير لمعنى الحرف الذى كان ينبغى أن يتعدى به - استعارةً تبعية - وذلك كقول طرفة :

وإن يلتق الحى الجميع تُلاقنى
إلى ذروة البيت الكريم المصمَّد[2]

فقد استعيرت (إلى) لمعنى (فى) ، إذ أن (تلاقنى) لا يتعدى بإلى ؛ (٣) وإما بالشذوذ ، إن لم يتأت التضمين فى العامل بشروطه أو الاستعارة فى الحرف بشروطها . فليرجع القارىء إلى هذه الشروط فى كتب البلاغة إن شاء

فأنت قد رأيت أنه لا نيابة لحرف عن حرف عند البصريين ، فليس للحرف معنى وضعى عندهم إلا معنى واحد

والتضمين قياسى على المختار من أقوال العلماء ، وعلى ما قرره « مجمع فؤاد الأول للغة العربية » - وكذا الاستعارة فى الحرف . فلنا إذاً أن نترخص فيهما ، وأن نراعى منهما فى كلامنا من نظم أو نثر ما نشاء .

* * *

وأما الكوفيون فيقولون : إن بعض حروف الجر ينوب عن بعض بطريق الوضع : أى إن الحرف موضوع لأكثر من معنى واحد[3] ، فهو مشترك وضعاً بين جميع ما ورد له من

---

(١) فى البيت :
متفرقين هناك . . . لم يتفيئوا لحبلة . . . أو يمسكوا بعنان

(١) وقال الكوفيون : إن الباء فيه للغاية ، وإنها نائبة عن (إلى) . فلا تضمين إذاً .

(٢) المصمد : الذى يصمد إليه ويقصد

(٣) وسبيل معرفة هذه المعانى تتبعها فى المعجمات وكتب النحو المطولة

المعانى (١) ؛ فبعضها يكثر استعماله ، وبعضها يقل .. فيوهم وضع ذى المعنى القليل الاستعمال موضع الكثير أن هناك معنيين اشتمل عليهما العامل : فلا تجوّز عندهم فى الحرف . وإنما هى نيابة محضة

وهاك مثالاً موضحاً : فقد عد ابن هشام للباء أربعة عشر معنى ، منها الاستعلاء ، قال : (نحو : « مَنْ إنْ تأمَنْه بِقِنْطار » ، بدليل : « هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل . »)

فالعرب — على رأى الكوفيين — قد وضعوا (على) والباء لمعنى الاستعلاء . غير أنه فى (على) أكثر دوراناً منه فى الباء . فاعتبرت (على) أصلاً فى هذا المعنى ، واعتبرت الباء نائبة عنها ، وإن كانت أصيلة فيه . فتأمنه بقنطار ، أى عليه .

* * *

ولكن من يتتبع الكتب التى توسعت فى الكلام على (نيابة بعض حروف الجر عن بعض) ، — ولا سيما المغنى — يجد فيها عراكا عنيفاً حول الشواهد التى جىء بها لذلك ؛ فهى بين أخذ ورد ، وجذب ودفع . فهذا يسلم بنيابة الحرف فى مثال ، وهذا يتأوله فيخرجه عنها بضروب من الحجاج والفلسفة النحوية . فسقطت بذلك فى هذا المعترك طائفة ليست بالقليلة من الشواهد ، كانت — لو أنها ظلت سالمة — تكون قوة لقياسية هذا الباب .

ولو أنى أنشأت أضرب الأمثلة لذلك من هذه الكتب ، لخرجت عما أنا بسبيله . ومن طريف ما يقال هنا أن سيبويه لم يعترف للباء إلا بمعنى واحد هو الإلصاق ، وخرّج عليه كل ما عدّدوه لها من المعانى . وقال ابن عصفور : لو صحْ مجىء (إلى) بمعنى (فى) لجاز : زيد إلى الكوفة(٢)

فأنت ترى كيف ضاقت بذلك دائرة النيابة فى حروف الجر حتى كانت من النوادر . وقد عبر ابن هشام عن هذا المعنى فى (مغنى اللبيب) ، فى باب (التحذير من أمور اشتهرت بين المعربين ، والصواب خلافها) . قال : [منها] قولهم : ينوب بعض حروف الجر عن بعض ؛ وهذا أيضاً مما يتداولونه ويستدلون به . وتصحيحه بإدخال (قد) على قولهم : (ينوب). وحينئذ فيتعذر استدلالهم به ؛ إذ كل موضع ادعوا فيه ذلك ، يقال لهم فيه : لا نسلم أن هذا مما وقعت فيه النيابة . ولو صح قولهم لجاز أن يقال : مررت فى زيد ، ودخلت من عمرو ، وكتبت إلى القلم

فنيابة حرف من حروف الجر عن آخر عند الكوفيين ليست معبّدة السبل ، كما قد يُظَنّ بادىَ الرأى ؛ فإنه يجب لقياسيتها ألا تنبو عن الذوق العربى وأساليبه فى التعبير ، وأن يكون الحرف النائب قد جاء لمعنى الحرف المنوب عنه وضعاً كما قد فهمت مما مر بك

* * *

والآن فلنعمد إلى بيت الأستاذ الذى كان مبعث هذا النقاش وقد رأيت أنه أجاب عن اعتراضى على تعدية (يتفيئوا) باللام بأنه ليس خطأ ... الخ . ويظهر أنه اعتبر اللام نائبة عن الباء(١)

ولم أر فيما لدىّ من المراجع أن اللام تنوب عن الباء ولكنهم قالوا بنيابتها عن (فى) ، كما فى قوله تعالى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة » ، وكقوله : « لا يجليها لوقتها إلا هو » ، وكما فى قولهم : « مضى لسبيله »

فعلى اعتبار أن اللام فى البيت نائبة عن (فى) لم يخطئْ الأستاذ فى تعبيره ، مهتدياً بسليقته السليمة ، وإن لم يَقصد إلى هذه النيابة عند إنشاء البيت

* * *

هذا ما أمكن إيجازه من هذا الموضوع الذى أرجو أن أكون قد وفقت للكشف عن وجه الصواب فيه

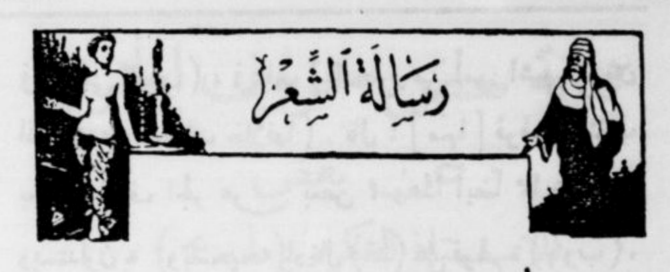
(ع . ا)

---

(١) ولا ينافيه ذكر (النيابة) ؛ لأنهم لما رأوا هذا المعنى متبادراً من هذا الحرف أكثر من تبادره من الآخر ، حكموا بأن الآخر نائب ، وإن كان كل منهما يستعمل فيه حقيقة

(٢) وقد مثل المجوزون بقوله تعالى : « ليجمعنكم إلى يوم القيامة » وبغير ذلك .

(١) قد ذكرت فى مقال فى العدد ٤٠٧ من الرسالة أن (تفيأ) يتعدى بالباء وبفى ، وبنفسه أيضا كما جاء فى شعر أبى تمام . ولكن الأستاذ أغفل فى تعقيبه — سهوا على ما يظهر — عند نقله عبارتى ، أنه يتعدى بفى أيضا .



موسيقى تائهة ...!

« نانا ... »

[مهداة إلى الروح المتمرد الحزين الذى حلت إلى الريح نجواه منذ ليال ، ... ولا أدرى متى يعود !]

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

اللَّيلُ يا « نانا » والرِّيحُ يا « نانا »

مِيرَانِ مِنْ قَلبِي ...

أقبلتُ حيرانا وعُدْتُ حيرانا

مِنْ شاطئِ الغيبِ

***

اللَّيلُ نادانِي مِنْ عالمٍ نائِ

وقال : يا فانى هَيَّجتَ أحزانى ...

إنْ كُنتَ ظمآنا

أقبِلْ لِدُنْيانا

واتبعْ خُطا « نانا »

واسمعْ صَدَى « نانا »

فالله سوَّانا لِلشِّعرِ والحُبِّ ...

والله غنَّانا أُنشودةَ الحُبِّ ...

***

... اللَّيلُ يا « نانا » والرِّيحُ يا « نانا »

مِيرَانِ مِنْ قَلبِي ...

***

والرِّيحُ فِي السَّفحِ هَبَّتْ عَلَى جُرْحِي ...

وَرَفرَفَتْ نَوْحِي شِعْرًا عَلَى الدَّوْحِ ...

كالرُّوحِ وَلهانا

كالخمرِ سكرانا

كالطَّيرِ غنَّانا

وَقالَ : يا « نانا »

إنِّي مِنَ الغَيبِ حُمِّلتُ مِنْ رَبِّي

لِلمُذنِبِ الصَّبِّ أُنشودةَ الحُبِّ

***

اللَّيلُ يا « نانا » والرِّيحُ يا « نانا »

مِيرانِ مِنْ قَلبِي

***

أقبلتُ حيرانا كالجُرحِ أشيانا

كاللَّيلِ دَجْوانا كالرِّيحِ إرنانا

وَعُدْتُ يا « نانا »

هَيمانَ ... حَيرانا

لِشاطئِ الحُبِّ ! !

محمود حسن اسماعيل



حول أبعاد الحيز

كون رباعى الأبعاد

[إلى أستاذى جوداق أهدى هذه الفصول]

للأستاذ خليل السالم

— ٣ —

أبنّا فى المقال السابق بعض الخصائص التى يلتقى عندها الزمان والمكان ، والتى سمحت لنا أن نعتبر الأول بعداً رابعاً ، وسنحاول هنا أن نذكر أهم خصائص كون ذى أربعة أبعاد ، سواء كان هذا البعد الرابع زماناً أو مكاناً . ورب من يستغرب كيف يمكن أن يكون المكان ذا أربعة أو خمسة أبعاد إلى ما لا نهاية من الأبعاد . فنحن لا ننتهى من بدعة الزمان كبعد رابع ، تلك البدعة التى لا يقبلها الحس والتصور ، حتى تأتينا بدعة أكثر هجنة وغرابة ، هى أن يكون المكان كثير الأبعاد . على أننى لا أقصد أن أحول عن خطتى لأشرح هذه الفكرة الجديدة ، فربما نحاول فى فرصة قريبة تبسيطها وعرضها على القراء إلا أننى أعطي المثال البسيط التالى لأزيل قليلاً من حيرة القارئ .

فهو يعلم مهما بلغ ضآلة ثقافته الرياضية أن النقطة الهندسية إذا تحركت رسمت خطاً هندسياً طوله المسافة التى تحركتها تلك النقطة ، وهذا الخط المستقيم ذو بعد واحد ، لأن للنقطة مجال حرية الحركة فى اتجاه واحد فقط ، وإذا تحرك هذا الخط الهندسى فى اتجاه علوى على طوله بعداً يساوى طوله نتج المربع ، وهو مستو ذو بعدين ، لأن النقطة تجد مجال الحركة واسعاً أمامها فى اتجاهين ، أو لأن مكان النقطة يتعين ببعدين اثنين عن أضلاع مربع ، وإذا تحرك المربع فى اتجاه علوى لمستوى مسافة تعادل طول ضلعه نتج المكعب ، وهو حجم ذو ثلاثة أبعاد . يقف تصورنا عند هذا الحد . أما التحليل الرياضي ، فلا يقف هنا ، فبنفس الطريقة المنطقية السالفة ، نتصور المكعب متحركاً فى اتجاه عمودى على متعامداته الثلاثة مسافة تساوى ضلعه فينتج فوق المكعب Hypercube[1] ذو أربعة أبعاد ، وإذا تحرك هذا نتج فوق المكعب ذو خمسة أبعاد ، والعملية تتسع لعدد لا متناه من التكرار

ولعل القارئ يذكر أننا نحول القوة الأولى (س) إلى خط مستقيم ، والقوة الثانية (س ٢) إلى مربع ، والقوة الثالثة (س ٣) إلى مكعب ، فيجب أن يستمر القياس إلى (س ٤) فنحولها إلى جسم فى أربعة أبعاد وإلى (س ن) فنحولها إلى جسم عدد أبعاده (ن) . ولا أرى من الضرورى أن أعيد ما ذكرت فى البحث السابق من أن تصور مثل هذه الأجسام مستحيل . على أن الدكتور كايزر C. J. Keyser وهو علم من أعلام فلسفة الرياضيات يقول : إذا لم يكن لهذه الأجسام وجود فى البصيرة فلها وجود فى التفكير ، وإذا لم يكن فى الحس فهو فى العقل ، وإذا لم يكن فى المادة فهو فى الفكر ، وهو لا يكتفى بهذا فيقول فى كتابه « Thinking Human Worth of Rigorous » : لقد أقنعنى التأمل بأن حيزاً أبعاده أربعة أو أكثر له من خصائص الوجود مثل ما للفضاء الهندسى العادى

وقبل أن نعرض لتلك الخصائص نود ذكر بعض الظواهر الطبيعية التى استخدم فى تفسيرها البعد الرابع وكان أسهل مما تبناه العلماء من تعاليل وفرضوه من فروض . ولا أرانى فى حاجة للقول بأن نظرية النسبية التى فسرت أكثر الظواهر الطبيعية المعقدة المعويصة لا تدخل ضمن نطاق هذا الشرح

هناك نوعان من حامض الطرطريك (ك$_{٤}$ يد$_{١٠}$ ا$_{٦}$) Tartaric Acid. يشبه أحدهما الآخر كأنه صورته فى المرآة ويتحول أحد هذين النوعين إلى النوع الآخر دون حدوث تفاعل كيماوى يفسر هذا التحول بأنه تحرك نوع واحد فى البعد الرابع فى اتجاهين متضادين

ونجد نفس الظاهرة فى سكر العنب (دكسترو Dextro ك$_{٦}$ يد$_{١٢}$ ا$_{٦}$) وسكر الفواكه (ليفيلوز Levulose ك$_{٦}$ يد$_{١٢}$ ا$_{٦}$) وهما نوعان من السكر موجودان فى العسل متشابهان

(١) لم أر فيما وقع تحت يدى من الكتابات العربية ترجمة لهذه الكلمة ، ولا أدرى إذا كانت ستلقى هذه الترجمة رضى فى نفوس المشتغلين بهذا الموضوع .

فى التركيب الكيماوى ولكن أحدهما معكوس الآخر إذا ما فحص تحت الضوء المستقطب Light Polaized وإذا تصورنا تحرك ذراتهما فى البعد الرابع أمكننا أن نعلل سبب اختلافهما

ومن العجب حقاً أن نجد نفس الظاهرة فى نوع من الحلازين فبعضها ملتو إلى اليمين والبعض الآخر ملتو إلى اليسار كأن أحد النوعين صورة فى المرآة للنوع الآخر . ليس هذا فحسب ، وإنما تبدى عصارة كل منهما ما يبديه نوعا السكر من أن إحدى العصارتين تظهر تحت الضوء المستقطب عكس العصارة الأخرى . وقد أشار هنتون Hinton وهو من المشتغلين بمثل هذه الأبحاث أن التيار الكهربائى يمكن شرحه كتموجات فى البعد الرابع

والآن ما هى أهم خصائص كون ذى أربعة أبعاد ؟

هناك ثلاث خصائص رئيسية :

١ — إذا تحرك جسم ذو أربعة أبعاد فإن قطعه الذى يبدو لعالم ثلاثى الأبعاد يتغير فى الجسم والشكل وهذه ظاهرة « انكماش فتزجيرلد » ، وقد عمد العلماء إلى تعليل هذه الظاهرة بأن كهارب المادة إذا تحركت بسرعة كبيرة فى الفضاء تتمغنط فيجذب بعضها بعضاً ، وينتج عن هذا الجذب التقلص أو الانكماش طبقاً لقانون فتزجيرلد الذى ذكرناه فى البحث الماضى

$$ت - ت \sqrt{1 - \frac{س^2}{ن^2}}$$

ت = تقلص

س = سرعة الجسم

ن = سرعة النور

٢ — يجب أن يتسنى لجسم أن يدخل مكاناً مغلقاً عن طريق البعد الرابع دون أن يمس أضلاع المكان الثلاثة كما يتسنى أن تضع نقطة فى مربع دون أن تمس أضلاعه . ومن هذا يتبين أنه لو استطاع اللصوص مثلاً أن يتحركوا فى البعد الرابع لما أغنت الصناديق الحديدية فتيلاً ، لأنه يمكن سحب الأموال والجواهر المخزونة دون فتح الصناديق . وكذلك يستطيع أن تشرب زجاجة الكازوزة دون فتحها ، وتأكل البيضة دون كسر قشرتها ، ويمكن لنقطة فى مركز الكرة أن تتركها دون أن تمس سطح الكرة . ولا تزيد العقد فى البعد الرابع عن نشطات . وتسقط حلقات سلسلة فولاذية منفصلة عن بعضها من تلقاء نفسها . والأجسام المتشابهة يمكن توجيهها بحيث ينطبق بعضها على بعض تمام الانطباق فى البعد الرابع : فالجانب الأيمن يصبح الجانب الأيسر ، كأنه صورة فى المرآة ، نستطيع فى البعد الرابع أن نجد خمس نقاط متساوية الأبعاد عن بعضها . الدوران فى مستوى حول نقطة ، وفى الفضاء حول خط ، وفى كون رباعى الأبعاد حول مستوى

كان يمكن أن يحصل هـذا فى عالمنا لولا قانون حفظ الطاقة والكتلة ؛ على أننا نستطيع أن نقول إن هذا يمكن أن يحدث فى عالمنا ولكنه لا يحدث

٣ — يجب أن نستطيع رؤية داخل الأشياء مهما بلغت سماكتها وكثافتها عن طريق البعد الرابع ، كما نستطيع رؤية داخل مربع بالإشراف عليه من أعلى . على أن هـذا لا يحدث فى عالمنا ، ويقـدم أدنتون Sir A. Eddington تعليلاً بسيطاً لعدم الحدوث . لما كان عالمنا رباعى الأبعاد — لا حاجة بى إلى القول أن أدنتون من أنصار ناموس النسبية — فلكى يصح القياس يجب أن نشرف على الجسم الجامد من كون خماسى الأبعاد حتى نستطيع أن نراه ؛ لأن أبعاد الجسم المرئى يجب أن تكون أقل ببعد واحد من أبعاد الكون الذى نراه فيه

لا أحب أن أترك البحث دون أن أشير إلى ناحيـة طريفة فى الموضوع تتعلق بإيمان بعضهم بالخلود والأبدية كانغماس فى البعد الرابع ، فنحن نسير مع الزمن حتى إذا ألم بنا عارض وقف سيرنا هذا وتأخرنا فى المـاضى ؛ وتأخرنا هذا هو الموت ؛ ولا يعنى هذا الموت أننا نصير إلى العدم وإنما نبقى فى البعد الرابع أحياء أحراراً ؛ ولذا كان البعـد الرابع الطريق الذى تظهر به الأرواح لعالمنا ، وكان البعد الرابع التفسير الذى تمسك به المشتغلون بالروحانيات وانتقال الأفـكار وعلم الغيب والتصوف . وإذا كان هناك رجل يجب أن يلام على انتشار مثل هذه الأفـكار فهو زولنر Zollner وكان أستاذ علم الفلك الطبيعى فى ليبزج . ففى السنتين ١٨٧٧ ، ١٨٧٨ نزل الوسيط الأمريكى سليد Slade إنكلترا وتنقل فى أنحاء القارة الأوربية يعرض أعماله السحرية العجيبة ، يدخل الأجسام بعضها ببعض ويعقد ويحل عقداً فى سلسلة ليس لها من نهاية . والخلاصة أنه



عبد القادر حمزة باشا في ذمة الله

في الساعة السادسة من صباح يوم الجمعة السادس من شهر يونية سنة ١٩٤١ خلا مكان عميد الصحافة وفقيد الأدب الأستاذ عبد القادر حمزة باشا وهو في الثالثة والستين من عمره الحافل الخصب. (وخلا مكانه) تعبير صادق عن وفاة صاحب البلاغ؛ فإن الأخلاق والمواهب التي كونته قلما تجتمع إلا للأحدين الذين يتعاقبون في الحياة على فترات بعيدة. ولقد بلغ ما بلغ من رفيع المنزلة وبعد الصوت بحسن استمداده وطول اجتهاده، فلم يتكئ في جهاده المادي أو الأدبي على سند من أسرة أو ثروة أو وظيفة؛ وهو في ذلك أحد الأفذاذ الذين شقوا طريقهم الوعر بسن القلم؛ وقلمه في يده كان كالمبضع في يد الجراح الماهر: لا يشق إلا بتقدير، ولا يقطع إلا بقدر. ولم يتميز من الأساليب الصحفية غير أسلوبه وأسلوب لطفي السيد باشا من قبل: تميزاً بالإيجاز والإشراق والطلاوة والمنطق، وبرئاً مما تجره الصحافة على كاتبيها من ضرورة الثرثرة واللغو

عالج المرحوم عبد القادر حمزة باشا المحاماة في مقتبل عمره؛ ثم دفعته الظروف بمعونة ميله الفطري إلى الصحافة فبرز فيها تبرزاً لا يتهيأ إلا لأصحاب الملكات القوية؛ وكان مما ساعد على هـذا التبرز طريقته الواضحة في الجدل، ومذهبه المفيف في النقد، ونظرته الثاقبة في الأدب، ورجولته المنيدة في الخصومة. وكان للفقيد الكريم مشاركة في أنواع الأدب ولا سيما التاريخ والترجمة. ولسنا اليوم بصدد الكلام عن مكانته في الأدب وأثره في السياسة؛ إنما هي إشارة تدل على عظم المصاب فيه وصعوبة العزاء عنه. برد الله ثراه بالرحمة، وعوض منه أسرته وأمته خير العوض

لقد نفذ الأستاذ المراغي الإصلاح

تعرض «عالم» في «الرسالة» القراء لما حسب أنه «الحوائل» التي اعترضت سبيل الإصلاح الأزهري على النحو الذي وضحه الأستاذ الإمام المراغي في مذكرته القيمة الجليلة القدر التي أنتجها في عهد ولايته الأولى على الأزهر

وما من شك في أن «الحوائل» التي سجلها صاحب الفضيلة «العالم» في كلمته حقيقة أن تثير الدهش والعجب، لأنه فهم من منهاج الأستاذ الأكبر في الإصلاح أنه قضاء مبرم على كتب الأزهر وتراثه الثقافي جميعاً، على حين يفهم كل أحد أن فكرة «الاجتهاد» التي يدعو إليها الأستاذ الأكبر ليست هي القضاء على «جميع» ما تضمه كتب الأزهر بين دفتيها، وإنما هي ترمي إلى «تنقية» هذه الكتب وتصفيتها وتجويد عرضها من ناحية الأسلوب ومن نواح أخرى لا ينكرها المتدين المتعمق متى أخذها بالتفكير الدقيق. ولقد فعل الأستاذ الإمام المراغي في ذلك كثيراً، فلم ينكر عليه أحد ما فعل، وإنما أيده الأزهريون القدامى والمحدثون فيما اضطلع به من التجديد الذي استمد مادته من كتاب الله وسنة نبيه الكريم، في موضوع الطلاق، وفي موضوع الهبة والتوريث؛ وإنما أيده أولئك وأولئك في منهاجه الحكيم المحكم الدقيق الذي عرفه له العالم الإسلامي في تفسيره لطائفة من سور القرآن الكريم

والأستاذ الأكبر حين ظفر بكل هذا التأييد في إنتاجه الذي هو إصلاح بالغ، إنما وضع الأساس لأمثال صاحب

كان يسحر الجمهور ويدهشه بألاعيبه. وقد قدر لزولنر هذا أن يجلس مع ستيد نحو ثلاثين جلسة خرج منها معتقداً أقوى الاعتقاد أننا نعيش في عالم مغمور في كون رباعي الأبعاد، وأن البعد الرابع مسكن الأرواح التي تظهر بين حين وآخر وتؤثر في حياة سكان الأرض

وقد بلغ من زولنر الوهم حتى صرح أنه في إحدى الجلسات «صافح صديقاً من ذلك العالم الآخر»

على أن السلطات لم تترك ستيد حراً، فقد ألقي عليه القبض في انكلترا وحكم عليه بالإعدام، إلا أن زولنر أبى إلا أن يرى ستيد بريئاً «وقد قضى ضحية جهل القضاة والمتهمين»، ولقد كان زولنر كاتباً بليغاً، فلا عجب إن وجدت آراؤه انتشاراً واسعاً، ولا عجب إن آمن بها الكثيرون.

(الجامعة الأمريكية — بيروت) خليل السالم

الفضيلة « العالم » الكاتب حتى ينهجوا نهجه ، وحتى ينفقوا أوقاتهم كلها فى السير على منواله ، فإصلاحه من هذه الناحية حقيقة لقيت وجودها تحت الشمس . وهو فى عهده الآن بالأزهر لم يلاين كثرة الأزهريين ولا قلتهم، لسبب بسيط، هو أن إصلاحه ماض فى طريقه بالخطوة الوئيدة، ماض إلى هدفه بالرمية السديدة، أما العناية الأزهرية بالوظائف وما إليها ، فهذه حكاية أقحمها العالم الجليل على موضوع لا صلة له بالبحث الذى نحن بصدده ، لا من قريب ولا من بعيد ، ونحسب أن الرد عليها يكون طريفاً حقاً لو تفضل العالم الكاتب وقال لنا من يكون ؟

« القاهرة » كمال عبد الآخر

رسالة الأزهر

للأزهر رسالة واضحة كل الوضوح، كما أنها ثقيلة لا ينهض بها إلا رجال أكفاء قد وهبوا أنفسهم لله ووقفوا حياتهم على أمتهم .

وحسبنا لنعرف هذه الرسالة أن ننظر إلى رجال الدين المسيحى ونوازن بين ما يعملون وما يعمله رجال الدين الإسلامى لنرجع من هذه الموازنة والكرب يكاد يقتلنا على تقصير رجال الدين الإسلامى وإهمالهم وضعفهم ونقصهم

اعداد رجال الدين المسيحى

لأجل أن يصير الشاب المسيحى قسيساً لا بد له أن يدرس دراسة طويلة شاقة ، وأن يزود بألوان من المعارف لا يظفر بمثلها غيره ممن يعدون أنفسهم لأى نوع من الحرف الدقيقة الخطيرة، كالطب والقضاء والهندسة وغير ذلك - ويؤخذ بضروب من الرياضة البدنية والروحية ، ويصقل صقلاً يجعله بعد ذلك متميزاً عن غيره صالحاً لأداء مهمته الشاقة أحسن أداء . يقضى مدة دراسته تحت حراسة يقظة ورقابة دقيقة ورعاية كريمة وإرشاد متواصل وتوجيه سام وتدريب شاق ورياضة طويلة ، حتى يصير رجلاً نموذجياً فى جسمه وعقله وخلقه وذوقه وعاداته وأكله وشربه ونومه وغير ذلك من كل ما يدخل تحت النقد والتكوين

فأين هذا مما يلقى طلاب الأزهر من الإهمال والتضييع

١ — مناهج قد ازدحمت بكل معاد ثقيل لا فائدة منه

٢ — سنة دراسية يضيع أكثر من نصفها فى العطلات

٣ — يترك الطلبة يسكنون فى مساكن غير صحية وفى أحياء قذرة ويتعرضون لآفات خلقية وجسمية ومتاعب معاشية وأضرار لا يجهلها أحد ممن عرف الأزهر والأزهريين

٤ — نقص كبير فى المناهج

رسالة المتخرجين فى الأزهر

والآن فلنوازن بين ما يعمله رجل الدين المسيحى وبين ما يعمله المتخرج فى الأزهر : رجل الدين المسيحى يتخرج فيجد أمامه عملاً جليلاً ثقيلاً يحتاج إلى مثل أعمار النسور وهمة الجن ودأب النمل : يشتغل راعياً فى كنيسة ، فيدرس الحى الذى يعمل فيه دراسة دقيقة شاملة، ويتصل بكل من فيه من أبناء ملته، ويكون وسيلة للتعارف والتآليف بينهم ، وهو فى كل ذلك محتفظ بكرامته ومكانته ، وذلك لما توفر عنده من اللباقة والإخلاص ، ويعمل على تأسيس جمعيات عملية لا قولية تقوم بجمع الصدقات وتأسيس المدارس وإقامة المشافى والصلح بين المتخاصمين والتأليف بين الزوجين، وهو فى كل ذلك الرأس المدبر واليد العاملة والقلب الخافق الحى، ولن يفشل فى أى مشروع يحاوله أبداً لأن الإخلاص سائقه والعزم حليفه والله رائده ؛ فتجد الكنيسة إذا ما استقرت فى مكان صارت مصدر هداية وإرشاد وعمران ووفاق ويسر لأبنائها الملتفين حولها جميعاً ، والفضل فى كل ذلك لرجل الدين الذى أعد لهذا العمل الجليل إعداداً حسناً ، تجده حركة دائبة لا يستقر ولا يهدأ؛ إذا رأيته أشفقت عليه من كثرة العمل وطول الإجهاد ، فهو آناً عند مريض يعوده ، أو عند فقير يحمل له صدقة أخذها فى السر من غنى ، أو عند غنى يعظه برفق ويغريه على نفع أبناء ملته ، أو عند أسرة يوفق بين أفرادها . يؤسسون المدارس الكبرى والمعاهد العليا والكليات العظمى ، ويجمعون لها التبرعات غير يائسين ولا متضجرين ، ويقيمونها صروحاً شاهقة ، ويعدون أبناء ملتهم لحياة ناجحة ، فيزودونهم بالثقافات المختلفة الدينية والعمرانية التى تؤهلهم للنجاح فى الحياة؛ وطف بمصر لترى معاهدهم لم تجذب إليها أبناء المسيحيين فقط ، بل جذبت أيضاً أبناء المسلمين ، لما شوهد على متخرجيها من دلائل النجح والتهذيب والتميز ، وهذه معاهد الآباء اليسوعيين «الجزويت» ، والأخوة المسيحيين «الفرير» ، والراهبات وغيرها مما لا تخلو منه مدينة فى مصر والشرق

فأين هذا من مسجدنا وعالمنا وإمامنا . لا داعي للموازنة بعد ذلك فسنخرج بنتيجة محزنة

لقد قضى أستاذنا الزيات صدر شبابه أستاذاً بالمدارس الدينية المسيحية ، وحبذا لو تناول وصفها بقلمه الساحر وناشد الأزهريين أن يتعلموا من هؤلاء الرجال المخلصين خدمة دينهم ومعرفة رسالتهم في الحياة ؛ وعلى ضوء هذه الرسالة توضع المناهج وبؤسس الأزهر من جديد .

زكى غانم

ليس هذا هو الطريق إلى الإصلاح

أضنانا السير والسرى ولم نقطع أرضاً ولم نقض مأرباً . أردنا أن نصل إلى نقطة ما فجعلناها مركز الدائرة ودرنا حولها في محيط ثابت . لنا الله فقد جاهدنا فأجهدنا أنفسنا ولم نتقدم من غايتنا باعاً أو ذراعاً ، وأغلب الظن أننا سنعاود الكرة مرات إن طوعاً وإن كرهاً . سنمشي على أرجلنا أو على أيدينا أو على أربع ، وسنزحف على بطوننا ، وسنطير في الهواء أو نغوص في الماء ؛ ولكننا لن ننحرف عن محيط الدائرة ، ولن تتغير النتيجة أبداً

تعبنا وأضعنا الجهد هباء ، لأن هذا ليس هو الطريق ، ولأن هذه ليست هي الوسيلة

أردتم فيما أردتم تعليم الفلاح وتحسين صحته وتنظيم حياته ورفع مستواه ، ووددتم منع البطالة والقضاء على الجرائم والاستجداء والخمر والميسر والإعراض عن الزواج والطلاق وتخنث الشبان وتهتك النساء وتبرجهن ، وحاولتم مكافحة الأمراض السرية والعلنية ، وبنيتم مطاعم وحمامات ومغاسل للشعب ، ثم شرعتم في كسوة أقدام الفقراء بالأحذية ، وستشرعون في إقامة منشآت لم

أردتم مالا حصر له من الإصلاحات ولم توفقوا التوفيق المرتجى في أحدها ، وإذا أنكرتم ذلك فهاتوا برهانكم ، وإذا كنتم تقرون قولي فتعالوا نبحث العلة ونفهم المسببات .

إنكم مسلمون لأن دين الدولة الرسمي هو الإسلام . وإنكم تعلمون أن القرآن من عند الله ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأنه لم يحرف ، وأنه صالح لكل الأزمنة ولن ينزل كتاب بعده .

ثم إنكم تسلمون أنه مهما سما تفكير الإنسان وتدبيره ، ومهما صح حكمه على الأشياء فلن يصل إلى درجة خالقه ولن يرقى لمرتبته في العلم . إذن فالقوانين التي نضعها لا يمكن بأية حال أن تكون أصلح من تلك التي وضعها لنا الله ، فإذا أسلمتم بهذا أيضاً ولا إخالكم إلا مسلمين ، أفليس من حسن التمييز أن نجرب السير على قوانين الله ولو لمدة محدودة كما سرنا على غيرها أعواماً من غير طائل ؟

إن هذا لا يكلفنا كثيراً ، ولا يتطلب إلا أن تجند وزارة الشئون الاجتماعية ذلك الجيش من علماء الأزهر الشريف والمعاهد الدينية ليقوموا بما فرض الله عليهم . ليعلموا الناس دينهم وليفهموهم مثلا أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وأنها أفضل أنواع الرياضة البدنية ، وليبينوا لهم الحكمة في نظامها وكيفية أدائها وعدد ركعاتها وتحديد أوقاتها . ليعرفوهم أخلاق الرسول صلوات الله عليه وأخلاق الصحابة والتابعين ، وليفهموهم حقوق الرجل على زوجه والمرأة على بعلها ، وأن أكره الحلال عند الله الطلاق ، وليشرحوا لهم أن بعض الذنوب لا يكفرها إلا السعي على الرزق ، وجزاء المستجدي في الدنيا والآخرة ، وما يلاقيه السكران في يومه وغده .

ثم نفذوا فيهم أحكام الدين بعد ذلك ولا تأخذكم بهم رحمة . ولا تعتقدوا أن أحكام الله قاسية فهو أرحم بكم منكم ، فقطع يد السارق في حقيقتها أخف بكثير من سرقة يعقبها سجن ، فسرقة يتبعها سجن ، فسرقة يتلوها سجن ، فسرقة في أثرها سجن ؛ وهكذا دواليك . إنكم بعد ذلك لن تجدوا مجرماً ولا شارب خمر ولا لاعب ميسر ولا داعياً لفجور ، ثم إنكم لن تلفوا مستجدياً ولا عاطلاً ، ثم إنكم بعد ذلك ستجدون الجميع في صحة تامة وهناء متصل وتآخ أكيد .

(جزيرة ميت عقبه — امبابة) مصطفى اسماعيل جوهر

مكتبة الحرم الشريف النبوي العامة

أسست حكومة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز الأول مكتبة عظيمة في الحرم الشريف أسمتها « مكتبة الحرم الشريف النبوي العامة بالمدينة المنورة » : جمعت فيها شتات الكتب المفرقة

فى مستودعات الحرم النبوى والمحكمة الشرعية الكبرى وكتب طوسون أحمد باشا وغيرها. وقدم لها جلالة الملك عبد العزيز الأول جميع مطبوعاته النفيسة، كما تفضل فأمر بصنع عشر خزائن للكتب. وقدم لها الشيخ عبد الكريم المصرى الأزهرى ستة صناديق تحتوي على ثمانمائة مجلد. وساهم فى تأسيسها بإهداء الكتب إليها سعادة السيد محمد بدوى بك المنصورى الأزهرى، وسعادة الشيخ محمد سرور صبان وغيرهم.

وأعفت الحكومة السنية بريد المكتبة من الرسوم فى جميع أنحاء المملكة العربية السعودية كلها. وفى المكتبة الآن كتب فى التفسير والحديث والتوحيد والتجويد والقراءآت العشر والفقه الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى والنحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والأدب والتاريخ والشعر وعلم الأصول والمصطلح وغير ذلك باللغات العربية والفارسية والهندية والتركية

وقد بلغ عدد المجلدات الموجودة الآن زهاء ثلاثة آلاف مجلد. وفى المكتبة قسم الصحافة للمجلات والجرائد العامة التى تهدى إليها

وفى المكتبة قسم مكتبة التلميذ لإعارة بعض الكتب العلمية للتلاميذ الفقراء على نظام مكتبة الأزهر الشريف بمصر وقد وردت لهذا القسم بعض المؤلفات المدرسية من مؤلفيها وغيرهم. وقد سر من هذا القسم الدكتور محمد عبد الغنى عزام مفتش صحة مركز المنصورة بالديار المصرية فقدم لإدارة المكتبة مقداراً من النقود لشراء بعض الكتب العلمية النافعة المفيدة لهذا القسم. وفى المكتبة ورشة تجليد فنية لتجليد كتبها المحتاجة للتجليد. وقد أهدى بعض أهل الخير لهذه الورشة بعض الآلات والأدوات

وقد عينت الحكومة السنية العربية السعودية الأستاذ أحمد يس الخيارى الأزهرى من علماء الحرم الشريف النبوى وقرائه ومدير مدرسة التجويد والقراءآت بالمدينة المنورة مديراً رسمياً لهذه المكتبة العلمية العامة مستقلاً فى جميع أعمالها الداخلية والخارجية.

والمكتبة الآن فى حاجة إلى التشجيع مادياً بالنقود وأدبياً بالكتب والرسائل والمجلات والجرائد والخزائن والآلات والأدوات والأثاث من أفراد العالم الاسلامى. لأنها فى داخل الحرم النبوى ومنسوبة إليه وعائدة له. والمخابرة فى كل ما يخصها تكون باسم مديرها. والله يتولى التوفيق

مدير مكتبة الحرم النبوى الشريف العامة

تحذير ورجاء

يعلن كمال مصطفى مؤلف كتاب «الصحافة والأدب فى مائة يوم» أن بعض الأشخاص قد اختلسوا كثيراً من نسخ الكتاب وبددوها، وعمد أحدهم إلى تغيير الإسم ووضع بدله اسم «على ماهر باشا المثل الأعلى للوطنية والصحافة والأدب»، واتخذ هذا سبيلاً للنصب والاحتيال، وتتولى النيابة التحقيق الآن

فيرجو المؤلف كل من يقدم إليه الكتاب بالاسم المنتحل: «على ماهر باشا المثل الأعلى ...»، أو بأى اسم آخر، أو بالاسم الأصلى: «الصحافة والأدب فى مائة يوم»، وغير مختوم بخاتم المؤلف أن يتفضل بالاتصال به بوزارة الداخلية وأن يمتنع عن دفع الثمن وله عظيم الشكر

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)



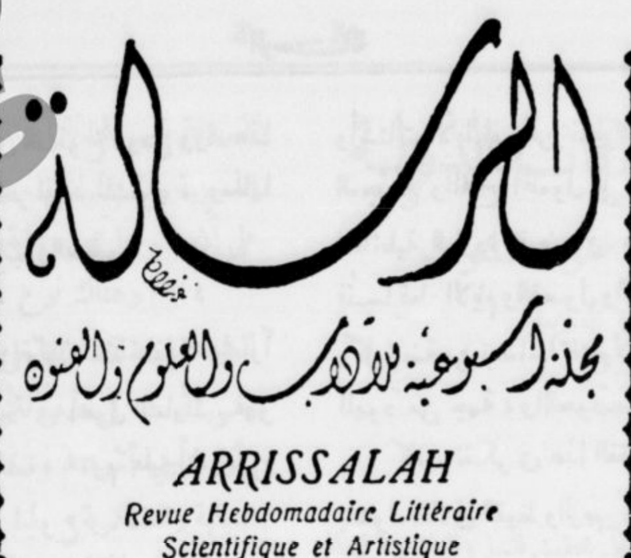
9me Année No. 416

Lundi - 23 - 6 - 1941

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique


بدل الاشتراك عن سنة
ـص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٤١٦ « القاهرة فى يوم الإثنين ٢٨ جمادى الأولى سنة ١٣٦٠ — الموافق ٢٣ يونية سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــرس

بمناسبة المهاجرين من منكوبى الغارات

الفقـــــراء

LES PAUVRES GENS

قصيدة لفكتور هوجو (*)

[مهداة إلى السادة : يوسف كمال والبدراوى وقوت القلوب]

— ١ —

الليـل مُرْخَى السدول ؛ والكوخ ظاهر الإملاق ، ولـكنه محكمَ الإغلاق .

كان المسكَن يغشاه الظلام ، ولـكنك تحس شيئاً فيه يضيء خلال هذه العتمة

على حائطه علق الصياد شباكه ؛ وفى أحد ركنيه من الداخل تلمع بعض المواعين الحقيرة على صندوق الخبز ؛ وفى الركن الآخر يقوم سرير كبير قد انسدلت عليه أستارُه الطويلة

وعلى مقربة منه حشيَّة مفروشة على دَكتين باليتين، وخمسة أطفال صغار كعش من أعشاش الأرواح قد رقدوا عليها

وكان فى الموقد العالى بقية من الضَّرَم تلقى ضوءها الأحمر على السقف القاتم ، وبجانب السرير امرأة قد وضعت جبينها على حافته وهى جاثية تصلى وفى صدرها نجيَّة وعلى وجهها شحوب

(*) قد حذفنا من الفضول ما يجوز فى الشعر ولا يجوز فى النثر

تلك كانت الأم ، وهي وحدها في الكوخ ؛ ومن وراء هذا الكوخ المظلم المحروم ، زفراتُ البحر المزبد المشئوم ، يرسلها سوداء في السماء والهواء ، وفي الضباب والصخور

— ٢ —

كان الزوج يعمل في البحر ؛ وكان منذ طفولته بحاراً كُتب عليه أن يلاقي الحظوظ السودَ في أهول المعارك . فهو في المطر الواكف ، وفي الهواء العاصف ، محتومٌ عليه أن يخرج إلى الصيد لأن أطفاله يتضاغَون من الجوع ... !

يخرج في المساء إذا مد الماء وغمر سلالم الجسر ، ثم يقود وحده سفينته ذات الشُّرُع الأربعة ، وتبقى الزوجة في البيت تخيط شراعاً ، أو ترتق شبكة ، أو تهيئ شِصاً ؛ وتراقب في غضون ذلك القدر وهي تغلي على الكانون بحساء السمك . حتى إذا طاف الكرى بأطفالها الخمسة اتجهت هي إلى الله تصلي وتضرع !

***

غاب الرجل وحده في ظلمات الليل ، وفي لجج المحيط ، والأمواج المتجددة تغالبه وتصرعه ، والخطوب المترصدة تجذبه وتدفعه

أبهذا العمل الكادح ما أقساك ! الظلام شديد الحلك ، والجو قارس البرد ، والمكان الصالح للصيد لا يكون إلا في مصادم البحر بين الأمواج الرُّعن والهُوَى السحيقة ، فترى على مجاهل المحيط الواسع هذا المكان المتنقل المتدلل على هوى السمك ذى الزعانف الفضية ، يضيق فيكون بمقدار النقطة ، ثم يتسع فيكون في ضعف الغرفة ؛ والصياد مقضى عليه أن يجهد جهده ، فيحسب حساب المد والهواء ، ويوفق بين أفاعيل السماء والماء ، ليهتدي في ظلام الليل وفي ضباب ديسمبر إلى هذه النقطة المتنقلة في هذه الصحراء المتحركة !

الأمواج على طول الشاطئ تنساب انسياب الأفاعي الخضر ، والهاوية تدور وتُدوِّم وتدوِّي فتصطك أعضاء السفينة من الرعب ، وتئن أدوانها من الهلع ، والصياد في أحضان البحر المجنون يفكر في زوجه جاني ، وزوجُه جاني على البعد تناديه وتناجيه وهي تبكي ، فتتلاقى أفكارهما في الظلام ، وأفكار العشاق طيورٌ قدسية أبراجها القلوب

— ٣ —

كانت جاني تصلي وطير النُّورس بصوته الأصحل الساخر يزعجها ، وموج البحر بهديره المتكسر الصاخب يرعبها ، وأشتات الأطياف تمر بخاطرها فتقلقها . كانت تتمثل ذلك المحيط المجّاجَ واللاحَ المحمول على تَبَجه الغاضب ، وترى هذه الساعة الحائطية الباردة تنبض في علبتها كما ينبض الدم في عروقه ، فتُنسا قطُ الأيام والفصول والأعوام في خفاء الغيب قطرة فقطرة ؛ وكل نبضة من نبضاتها تفتح لأسراب النفوس : صقورها وحمائمها الهودَ من جهة ، واللحودَ من جهة أخرى

كانت تفكر في هذا الفقر المدقع الذي قضى على أطفالها أن يمشوا حفاة في القيظ والزمهرير ، وأن يعوزَهم خبز القمح فيتبلغوا بخبز الشعير !

رباه ! إن الهواء يفهق كالكير ، والشاطئ يصوت كالسندان ، وكأني أرى صور السماء ، تتطاير في الزوبعة السوداء ، كما تتطاير زوابع الشرر في دخان الوقد

هذا هو الوقت الذي ينتصف فيه الليل على الراقص المرح وهو يقصف هيمان بين مضحكات القلوب ومُتَع الأعين

وهذا هو الوقت الذي ينتصف فيه الليل على قاطع من قطاع الطرق عجيب ، ينتقب بالظلام والمطر ، ويتصدى لملاح مسكين يرتعد من البرد فيحطمه على الصخرة الماثلة التي تظهر فجأة ؛ فيشعر المسكين — والموت يقطع زَوِيله وعويله — أن السفينة تنشق لتغوص ، وأن اللجة تنفتح لتبلع ؛ ثم يلمح في خاطره وهو يهوى في غيابة الفناء ولجة الماء ذكرى الحلقة الحديدية في رصيف المرفأ المشمس !

فزّعتْ هذه الرؤى العابسة قلب جاني فاضطربت اضطراب ليلها ، واستكانت لجزعها وويلها ، فلم ينفّس عنها غير البكاء

— ٤ —

لله ما أشقاكن يا نساء الصيادين ! إن مما يَرُوع النفس ويَلُوع الفؤاد أن تقول كل منكن لنفسها : « إن أبي وحبيبي وأخي وولدي وكل عزيز عليَّ هم جميعاً في ذمة هذا المضطرَب المظلم ؛ وإن القدَر قد أباح للبحر الأهوج أن يعبث بهذه الرءوس منذ كان المرء صبياً يتعلم ، إلى أن يصير زوجاً يترنّم ؛ وإنهم في هذه الساعة قد يحزبهم الأمر ، ويكربهم الهم ، فلا يدرون أين يسيرون ، وهم لا يملكون لمقارعة هذه البحار اللجية التي لا قاع لها ، وهذه اللجج المظلمة التي لا نجم فوقها ، إلا قطعة من الخشب ومِزْقة من النسيج !

احمد حسن الزيات

[البقية على صفحة ٨٢٧]

الاسلام والعلاقات الدولية

للأستاذ الشيخ محمود شلتوت
وكيل كلية الشريعة

[تتمة]

(ج) – وسائل إنهاء الحرب

إن الإسلام شديد الحرص على تحقيق السلم والطمأنينة للعالم فهو يطلب إلى المسلمين أن يدخلوا فى السلم كافة ولا يتبعوا خطوات الشيطان ؛ ويقول لرسوله الكريم : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله »(1)

(ا) وهو يصل إلى ذلك من طريق المفاوضات كما هى العادة الطبيعية فيتقبل فيه وساطة الرسل وسفارة السفراء من غير أن يتكلف لذلك رسوماً خاصة تؤدى إلى التعقيد أو تثير الإشكال .

(ب) ولا تختص المعاهدات فى نظر الإسلام بإنهاء حالة الحرب . ولكنه يقرر أنواعاً من المعاهدات على حسب ما تقضى به الظروف التى يترك للمسلمين تقديرها والعمل بما توحى به فى حالتى السلم والحرب

١ – فهو ينشىء المعاهدات إبقاء على حالة السلم الأصلى وحفظاً له من أن يخدش

ومن ذلك ما عاهد عليه النبى صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب لأول عهده بالمدينة وقد كانت هذه المعاهدة أول حجر فى بناء الدولة الإسلامية ، كما كانت أول علاقة سياسية ينشئها الإسلام ويعترف فيها بحرية العقيدة وحرية الرأى ، ويحفظ بها على المسلمين أمنهم وسلامتهم وحرمة حياتهم ومدينتهم

٢ – وينشىء المعاهدات للتحالف الحربى بينه وبين غير المسلمين ، ويرشد إلى هذا النوع من المعاهدات قول النبى صلى الله عليه وسلم : « ستصالحون الروم صلحاً تغزون أنتم وهم عدواً من ورائكم » . وقد وقع للمسلمين كثير من هذا النوع من المعاهدات فى ذكرياتهم الماضية ، وقد حارب النبى صلى الله عليه وسلم قريشاً وفاء بعهد خزاعة الذى حصل يوم الحديبية .

٣ – وينشىء المعاهدات لإنهاء الحرب إنهاء مؤقتاً ، وهى المعروفة باسم الهدنة أو الموادعة ، وذلك كما حصل فى معاهدة الحديبية ولإنهائها إنهاء دائماً ، وذلك كما حصل مع أهل نجران على أن يكونوا تحت حماية المسلمين فى مقابلة ارتضوها

٤ – وهناك نوع آخر من المعاهدات يترك فيه للدولة المعاهدة استقلالها الداخلى تحت ظل من السيادة كما فعل معاوية رضى الله عنه فى عهده للأرمن . فقد ترك لهم حريتهم فى بلادهم وأن يعينوا أمراءهم وقضاتهم ورؤساءهم ، ويحتفظوا بتقاليدهم الدينية والعسكرية

(ج) والإسلام يترك للمسلمين تقدير المصلحة فى كل نوع من هذه المعاهدات ولا يقيدهم فى ذلك بشىء إلا بشرط واحد : هو ألا تمس المعاهدة قانونه الأساسى ولا تتعارض مع شريعته العامة والأصل فى ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم : « كل شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل » ، وشبيه بهذا ما تقوله الدول من أن المعاهدات التى لا تتفق مع الدستور باطلة

ولا يستخدم الإسلام ذلك الشرط لمصلحة المسلمين فقط . وإنما يطبقه لمصلحة أهل العهد أنفسهم ، ومن هنا يقول الفقهاء : « لو طلب ملك عهد الذمة على أن يترك وما يحكم به أهل مملكته من القتل والظلم والفساد ، فلا يصح فى الإسلام أن يجاب إلى ذلك ، لأن التقرير على الظلم مع قدرة المنع منه حرام »

(د) والإسلام يبيح للمسلمين عند الضرورة أن ينزلوا عن بعض حقوقهم ، أو يصالحوا غيرهم على أن يبذلوا له مالاً طلباً لخير يرونه فيما بعد ، واتقاء لشر يخافونه على أنفسهم . ولنا فى صلح الحديبية أوضح مثال على سماحة الإسلام ومرونته فى سبيل الحصول على السلام

(هـ) ومما يتصل بمعاهدات الصلح تقرير الإسلام لمبدأ الجزية وليست الجزية – كما يتصورها بعض الناس – بدلاً عن إسلامهم أو عن دمائهم ، وإنما هى علامة على خضوعهم ، وكفهم عن الفتنة واعتراض سبيل الدعوة ، ومعونة تهيىء لهم الاشتراك فى مصالح الدولة ، والارتفاق بما يرتفق به المسلمون . يقابلها من جانب المسلمين فوق ذلك حمايتهم من الاعتداء عليهم فى أنفسهم وأهليهم وأموالهم

وقد جاء فى كتاب الخراج للامام أبى يوسف أن أبا عبيدة بعد ما صالح أهل الشام وجبى منهم الجزية والخراج بلغه أن الروم

(1) الآية : ٦١ من سورة الأنفال

قد جمعوا للمسلمين جموعاً لا قبل لهم بها . فكتب إلى أمراء المدن المصالحة : (أن ردوا على أهل الذمة ما جبيتم منهم من جزية وقولوا لهم إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع ، وأنكم قد شرطتم علينا أن نمنعكم ؛ إنا لا نقدر على ذلك وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ، ونحن على الشرط وما كتب بيننا وبينكم إن نصرنا الله)

ولهذا لم ينس الإسلام فيها واجب المروءة والرحمة . فهو لا يجيز أن توضع على امرأة ولا صبي ولا ضعيف عاجز عن الكسب ، ولا على الرهبان الذين لا يخالطون الناس

(و) هذا والإسلام يحتم على المسلمين أن تكون سياستهم في العهود على وجه عام مبنية على التراضي وحب السلام وإقرار الأمن والعدالة . وهو يمقت العهود التي يكون أساسها القهر والغلبة وتحكيم القوة ويمقت الخداع والخيانة في العهود . ويصف الناقضين للعهد بأنهم شر الدواب عند الله . ويأمر بالاشتداد على الخائنين الذين لا يرقبون إلاً ولا ذمة . ويوجب أن يكون نبذ العهد إذا جد ما يقتضيه على سواء بينه وبين الخصوم . بل يوجب تمكين العدو من إيصال خبر النبذ إلى أطراف بلاده وأنحاء مملكته

وفي ذلك يقول الكمال بن الهمام ، وهو بصدد قوله تعالى : (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين)[1]

(إنه لا يكفي مجرد إعلامهم بل لا بد من مضي مدة يتمكن فيها ملكهم بعد علمه بالنبذ من إنفاذ الخبر إلى أطراف مملكته . ولا يجوز للمسلمين أن يغيروا على شيء من أطرافهم قبل مضي تلك المدة)

ويجمل بنا في هذا المقام أن نسوق آية من الكتاب الكريم هي بحق دستور الإسلام في الوفاء بالعهود . قال تعالى :

وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة)[2]

(ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم)[3]

(١) الآية : ٥٨ — الأنفال (٢) الآيتان : ٩١ ، ٩٢ من النحل
(٣) الآية : ٩٤ من النحل

وقد بلغ من حرص الإسلام على الوفاء بالعهود أنه لم يبح للمسلمين أن ينصروا إخوانهم المقيمين في بلاد أعدائهم . الذين لم يهاجروا منها — على المعاهدين وفي ذلك يقول القرآن الكريم في سورة الأنفال

والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق)[1]

هذه صورة مصغرة لأهم القواعد التي نظم بها الإسلام علاقة المسلمين بغيرهم من الدول

معاملة الدولة الإسلامية لمن يعيش في بلادها من غير المسلمين

كما نظم الإسلام العلاقات الدولية العامة على الأسس التي أوضحنا . وضع أساساً صالحاً لتنظيم معاملة غير المسلمين الذين يقيمون في بلاد الإسلام

يقوم ذلك الأساس على ما يأتي :

١ — اشتراكهم مع المسلمين في الحقوق والواجبات العامة

٢ — تركهم وما يدينون من غير تحكم في عقائدهم ولا في كنائسهم ولا في رسومهم وطقوس عباداتهم ما دامت على وجه لا يفتن المسلمين في دينهم

٣ — جواز الرجوع بهم في مسائلهم الخاصة إلى حاكم منهم ، وأن يحكم الحاكم المسلم بينهم بمقتضى ما يدينون به

٤ — الإحسان إليهم في الروابط الاجتماعية العامة على حدود ما بين المسلمين بعضهم مع بعض

وقد جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم وصايا كثيرة في حسن معاملتهم والتوصية بهم

موازنة

هذه هي القواعد التي ينظم بها الإسلام العلاقات الدولية عامة كانت أم خاصة

وضع أساسها القرآن وبينتها السنة . وشرحها عمل الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بعده . ثم تناولها التابعون وفقهاء المسلمين فأعملوا فيها الرأي والتخريج شأنهم في الشريعة كلها حتى اتسع نطاقها لتنظيم كل ما يجد من مظاهر العلاقات على وجه يحقق النفع العام والسلام الشامل

(١) الآية : ٧٢ من الأنفال

ومنع الإسلام هذه القواعد وعرفها علماؤه وفقهاؤه فى وقت كانت فيه دول الحضارة الغابرة تتعثر فى عادات جافة لا تعرف للانسانية حقاً ولا تقيم للعدالة والسلام وزناً . ثم تلتها دول الحضارة الناشئة فأخذت تخطو فى آثار الحضارة الغابرة حتى أسس فقيه هولندى فى القرن السابع عشر ما سماه القانون الدولى الحديث ووضعه على مبادىء القانون الطبيعى الذى يرفض القانونيون الآن الاعتماد عليه كقانون له احترام القوانين . ولقد حاول العالم أن يضمن السلام فى عصرنا الحاضر بالرجوع إلى هيئات دولية محكمة ولكن المجازر البشرية الدائرة الآن فى أقاليم الأرض تنطق بالفشل الذريع الذى أصاب العالم فى الوصول إلى غايته

فأين هـذا من قواعد الإسلام الصريحة العادلة . وأين لهم ضمان كضمان الإسلام إذ يجعل هـذه القوانين أحكاماً تكليفية دينية لا يسع المسلمين بمقتضى تدينهم إلا أن يرعوها حق رعايتها ويعملوا على تنفيذها وتحقيقها سواء فيما يختص بهم أم بغيرهم . فهذا وذاك شرع الله الذى لا مناص من النزول عليه والعمل بمقتضاه من غير تفرقة بين مسلم وغير مسلم . ويقول فيه (ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم)[1] (أن لا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير)[2] (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم إنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وأن كثيراً من الناس لفاسقون أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون)[3]

اقتراح

يذكرنى مؤتمر رابطة الإصلاح الاجتماعى فى عرضه هذه الموضوعات على بساط البحث ـ بمؤتمر القانون الدولى المقارن الذى عقد فى سنة ١٩٣٧ بمدينة لاهاى وقد مثلت فيه الشريعة الإسلامية بموضوعين عظيمين : علاقة الشريعة الإسلامية بالقانون الرومانى . والمسئولية المدنية والجنائية فى الشريعة الإسلامية

وقد ظفرت الشريعة فى هذا المؤتمر الأوربى بقرارات أهمها : إن الشريعة الإسلامية شريعة مستقلة وأنها صالحة لمجاراة التطور الحديث . وقد أوصى المؤتمرون هيئة المؤتمر بأن تعنى فى أدواره المقبلة أشد العناية بمسائل التشريع الإسلامى . وأن تدعو إلى الاشتراك فى أعماله ودراساته أكبر عدد ممكن من أقطار المسلمين

وإنى لأنتهز هذه الفرصة فأقترح على مؤتمر رابطة الإصلاح الاجتماعى المصرى المسلم أن يعمل منذ الآن على إعداد العدة لإقامة مؤتمر عالمى تكون مهمته استخراج القواعد الشرعية التى تتخذ أساساً لتقنين شرعى — يظهر به جلال هذه الشريعة وحسن ضمانها لمصالح الناس مهما تقدمت حياتهم وتطورت حضارتهم .

هذا هو اقتراحى أتوجه به من هذا المنبر إلى جميع رجال الفكر فى مصر والشرق — أتوجه به إلى ملوك الإسلام وفى مقدمتهم حضرة صاحب الجلالة ملك مصر المعظم الغيور على دينه الحريص على شريعته .

أتوجه به إلى علماء الشريعة وعلى رأسهم عالمان عظيمان من أفذاذ علمـاء الإسلام لهما تاريخ مشهود فى التخريج الفقهى والتطور التشريعى الإسلامى : الأستاذ الأكبر والمفتى الأكبر

أتوجه به إلى رجال الحقوق ومن خرجت من رجال القانون الحريصين على خدمة شريعتهم وإعلاء شأنها بين القوانين الحديثة أتوجه به إلى هؤلاء جميعاً وأحملهم إياه أمانة يسألون عنها أمام الأبناء والأحفاد ويسألون عنها أمام الله والرسول (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ...)[1]

محمود شلتوت

(١) الآية : ١٠٥ من سورة التوبة

(١) الآية : ١٠ من الممتحنة (٢) الآية : ٧٣ من الأنفال

(٣) الآيتان ٤٩ ، ٥٠ من المائدة

الحديث ذو شجون

للدكتور زكى مبارك

امتحان جديد — فلان وفلان — محصول « الرسالة » — أقسمت بالحر والنساء — الافراج عن ديوان « سبط ابن التعاويذى — الصلات الأدبية بين مصر والسودان — الأستاذ محمد فريد أبو حديد — لا تنسوا أندية السودان

امتحان جديد

ومن المحنة جاء الامتحان ، كما جاء الابتلاء من البلاء !

وقد امتُحِنَتْ مصر فى هذه الأيام بضروب من الخوف والجوع بسبب الغارات الجوية ، فما الذى أعددناه لنخرج من هذه المحنة بسلام ؟

السياسة الرسمية للسياسيين الرسميين ، أما السياسة القومية فمُلقاةٌ على عواتقنا ، إن كنا أهلاً للظفر بثقة الوطن الغالى ، فما واجبنا اليوم وقد جدّت شؤون لا يباح معها لعب ولا مزاح ؟

قيل إن الذين هاجروا من الأسكندرية سبعون ألفاً أو يزيدون ، فإلى أين تتوجه تلك الألوف ؟

ندَع الحكومة تدبّر من هذه الشؤون ما تستطيع ، ثم نلتفت إلى أغنيائنا فنقول :

هـذه فرصة سنحت لشكر الله على نعمة الغنى والعافية ، والأمان ، فماذا عندكم من فنون الشكر والحمد والثناء على واهب الغنى والعافية والأمان ؟

إن كان الله ابتلى فريقاً من الفقراء بتعريضهم للخوف والجوع فقد ابتلى جماعات الأغنياء بتعريضهم للشح والبخل فى أوقات لا يبخل فيها غنىٌ بماله إلا وقد عرّض نفسه لغضب صاحب العزة والجبروت

قلت خمسين مرة : « إن الأمم بأغنيائها » ولمثل هذه الأيام الفواجع أعددنا أغنياءنا ، ليزدادوا قوة إلى قوة ، فما ينمّى الخيرات والثمرات غير الجود بها فى أوقات البلاء

هذا يوم الامتحان ، وهو امتحان يؤديه أغنياؤنا طائعين لا كارهين ، فما نحب أن يكون عليهم رقيب غير ضمائرهم ، ولا نقبل أن تتدخل الحكومة لحملهم على البر والإفضال فيضيع المعنى الشعرى الجميل ، الذى يمثل رفق الأغنياء بالمهاجرين الفقراء ، عن طِيب نفس وبلا انتظار لأمرٍ يصدُر من هنا أو هناك !

أغنياؤنا اليوم مدعوّون لوليمة روحية لا تتاح فى كل يوم ، فأمامهم فرصة للشعور بمعانٍ جديدة لم يشعروا بمثلها من قبلُ ، الشعور بمعانى الكرم والإيثار والإفضال ، وهى معانٍ أشهى وأطيب من الأنس بالمال المكنوز فى أوثق الحصون

فالبائس الذى يكرمونه اليوم ، ليس صُعلوكا يتسوّل حتى يملكوا كف أيديهم عن الإحسان إليه ، وإنما هو أخ مُواطن صدّته الظروف القواهر عن مواصلة عمله فى مدينة معرّضة لعدوان الباغين على الحق وعلى الإنسانية

وهذا المواطن المصدود عن طلب الرزق يستطيع أن يؤدى خدمة تنفعه وتنفعكم إذا أردتم أن يدفع ثمن القوت والإيواء .

نحن لا ندعوكم إلى تدليل المهاجرين حتى ينسوا أن الدنيا دار كفاح ونضال ؛ وإنما ندعوكم إلى تيسير وسائل الرزق الحلال لمن يستطيعون أن يعملوا بلا إجهاد ولا إرهاق

أما الذين لا يصلحون للعمل من الأطفال والعجائز ، فهم غيوث تساق إليكم ، وما أسعد من تواتيه الظروف على تربية طفل يتيم ، أو إسعاد عجوز فقد من يعوله من أهل وأبناء !

جرّبوا هذه الألوان من طعوم الحياة ، يا أبناء هذه البلاد جربوها ثم حدّثونى عما وجدتم من شهىّ المذاق

سبعون ألفاً يبدّدون كما يبدّد العِقد المنظوم ؛ ثم لا يلتفت إليهم أحد من الأغنياء المتفانة الرفق والعطف والإشفاق ؟

فلأى يوم ادخرنا أغنياءنا ، إن لم نكن ادخرناهم لمثل هذا اليوم؟

الرفق باليتامى لا يمر بلا جزاء ، والإشفاق على المنكوبين لا يفوت بلا ثواب ، وإن الله لينظر إلى ما تعاملون به أولئك وهؤلاء ، فما أنتم صانعون ؟

سيخرج المحاربون بغنائم جديدة أقلُّها القدرة على تعديل صحائف التاريخ

فما غنائمنا فى هذه الحرب ؟

ما غنائمنا إن لم نفز بفتح جديد هو تفجير ينابيع العطف والتآخى فى الصدور المصرية ؟

وما قيمة الحياة إن لم نذق فيها من طعوم الرغد غير الشبع والرىّ فى عزلة عن بلايا المجتمع ؟

ما قيمة الحياة إن لم نثق بأننا أهل لإغاثة الملهوفين حين يعتسف البلاء ؟

رحمةُ الله على أيامنا السوالف ، ثم رحمة الله على ليالينا الخوالى !!

كنا أجود من الغيث حين نسمع بنكبة حلت بشعب من الشعوب ، ولو ضَعُفت بيننا وبينه الأواصر والصلات ، ألم يتوجّع شعراؤنا الكبار للزلازل التي وقعت في بلاد الطليان وبلاد اليابان ؟

ألم نؤلف اللجان لمنكوبي الحرب الفلسطينية ؟

فما سكوتنا اليوم والنكبة حلت بسكان الأسكندرية وطن الفتوة والجمال ؟

كان مصطفى كامل يقول : الأسكندرية مَعقِل الحزب الوطنى

وكان سعد زغلول يقول : الأسكندرية معقل الوفد المصرى .

وكذلك كانت الأسكندرية مدينة مدلّلة يتودد إليها جميع الأحزاب ، فما حالها اليوم فى أنفس الزعماء ؟

الأسكندرية — مدينتنا البحرية الجميلة — تعانى عذاب التشريد ونحن صامتون صمت الأموات !

الأسكندرية — عروس الماء — التي دانت جميع شعرائنا وكتابنا تنتظر اليوم إلى من يواسيها بكلمة رثاء ، وإلى من ينظر إلى أبنائها نظرة إشفاق

وإلى من يتوجه أبناؤها المشرّدون ؟ إلى أين ؟

أيتوجهون إلى الريف وأهل الريف فى أغلب أحوالهم فقراء ؟

دعوا هذا الحل ، فهو لا ينفع بشيء ، واسمعوا كلمة الحق : يجب أن يكتتب القادرون من الأمة بمبالغ تتفاوت بتفاوت القدرة المالية ، ثم يكون ما يُجمع من الاكتتاب ذخيرة تُدبر بها وسائل العيش المقبول لأولئك المنكوبين ، على شرط أن يعيشوا من كسب أيديهم فى الحدود التي تسمح لهم بالتسبب والارتزاق ، وليس ذلك بالأمر المستحيل

وما سبعون ألفاً حين توزّع همومهم على ستة عشر مليوناً ؟

أتريدون أن أقول مرة ثانية إنه عدد بلا محصول ؟

أغنياءنا ، أغنياءنا ، أين أنتم ، أين أنتم ؟

إنكم تهربون من منازل التكريم والتشريف ، وإلا فكيف جاز ألا يزيد بركم بمنكوبى الغارات عن بضعة آلاف ؟

أخرجوا من دنياكم فى سبيل المنكوبين من مواطنيكم ، لتظفروا بزاد نفيس من رضا الله الذي تفضل فأسبغ عليكم أثواب الغنى والعافية والأمان

أخرجوا من دنياكم ، لتعودوا إليها أعزاء ، فالله لا ينسى ولن ينسى من يخرج من دنياه لمواساة المكروبين

الله عز شأنه يقول : « من جاء بالحسنة فله عَشر أمثالها »

فهل علمتم أن هنالك وعداً أرحب من هذا الوعد ؟

هو قول الله عز شأنه : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء »

وما عسى أن يكون الإنفاق فى سبيل الله إن لم يكن فى مواساة من دعوناهم لحفظ الحياة فى أجمل المدائن ، ثم نكبهم الدهر اللئيم بما أراد ؟

أليس من الكرب الماحق أن تدعونا الكوارث إلى استدرار العطف على المنكوبين من أهل الإسكندرية وكانوا أشجع الناس وأسعد الناس ؟

لو كنا نملك من أمورنا ما نريد لأقمنا قبوراً من الياقوت لمن عدا عليهم الموت من أهل الإسكندرية ، فما كانوا إلا ذخيرة من أكرم ذخائر الوطن الغالى ، فكيف نضن بالعطف على أحيائهم المنكوبين بالغارات ، وكان آباؤهم وأجدادهم أمل الوطن فى حماية ذلك الثغر الجميل ؟

إسكندرية !! إسكندرية !!

إليك أقدم تحيتى وعزائى !

فلان وفلان

من عادتى أن أنوه بما يقوله فىّ أعدائى ، وأن أسكت عما يقوله فى أصدقائى ، رغبة فى السلامة من آصار التكبر والازدهاء

ولو أنى أطعت الأستاذ الزيات لكان لى مع أصدقائى حال غير هذه الحال ، فهو يدعونى من وقت إلى وقت لتلخيص رسائل قرائى ، ولكنى أعتذر لتحقيق المنى الذى أشرت إليه ، وهو السلامة من التكبر والازدهاء

فهل أستطيع اليوم أن أقول إنى شعرت بالرهبة حين قرأت خطاب الأديب « رضوان العوادلى » ؟ وهل أملك التصريح بأن خطاب الأديب « أحمد المجمى » أوقعنى فى زلزال ، وكأنه خطاب الأديب « شلتوت » أو خطاب الأديب « أنور الحلبي » ؟

إن لقرائى فضلاً لن أنساه ، فهم يحببون إلى الدنيا والوجود ، وهم يسوقوننى سوقاً إلى الاعتزاز بسنان القلم وسلطان البيان

ولكن لى عليهم حقاً يفوق حقوقهم على ، وهو دعوتهم

إلى أن تكون لهم غاية وطنية وروحية فإنى أرى لهم قدرة على التعبير الجيل ، وتلك موهبة يعز علينا أن تضيع

هل يذكرون أنى حدثتهم مرة بأنى لم أشرب فنجان قهوة فى غير دارى قبل أن أظفر بأجازة الدكتوراه وقبل أن أبلغ الثلاثين ؟

شبابكم ، شبابكم ، يا قرائى ، من أبناء الجيل الجديد

إحذروا، ثم احذروا ، أن تضيع من دمائكم قطرة فى غير الواجب وتذكروا ، ثم تذكروا ، أنكم خلفاؤنا فى الحياة الأدبية والفلسفية

واعرفوا ، ثم اعرفوا ، أن المجد الأدبى لا يُنال بالأمانى ، وإنما يُنال بالجهاد الشاقّ ، فكونوا عند ما نريد لكم من كرائم الآمال ، ثم تيقنوا أن الدنيا لكم إذا واجهتموها بعزائم المجاهدين الصادقين

كتب الله لكم عافية البدن ، وطهارة القلب ، وسلامة الروح

محصول « الرسالة »

بين الموظفين برياسة مجلس الوزراء أديبٌ يتخيّر الأطايب من محصول « الرسالة » ثم يدوّنه فى دفتر خاص ، وقد لاحظت أنه لا يتخيّر إلا الفقرات الموسومة بالرصانة والرنين ، وفى هذه الكلمة أوجه نظره إلى أن الكلام قد يصل إلى أوج القوة وإن لم يظهر أن صاحبه قد احتفل بالأسلوب

ومن أمثلة ذلك قول الأستاذ محمود الشرقاوى فى وصف شمائل صاحب البلاغ :

« كان محرر السينما والمسرح بالبلاغ فى إحدى السنين شابًّا قليل الخبرة ، ولو أنه طاهر النفس ، فكتب عن إحدى الممثلات المصريات كلمة ذات وجهين أحدهما قبيح ، وتحدثت هى فى ذلك بالتليفون إلى عبد القادر باشا ، وبعد لحظة دعا ذلك المحرر عنده وعنّفه أشد التعنيف ، وأمر بفصله من « البلاغ » وكان كثيراً ما يفعل ذلك معه ومع غيره ثم يعفو ، ولكنه فى هذه المرة لم يقبل فيه شفاعة شافع ، ولم يرَ العاملون مع عبد القادر حمزة أنه غضب من شىء بمثل ما غضب فى ذلك »

فهذه الفقرة بسيطة جداً ، ولكنها قوية جداً ، بفضل قوة المعنى الذى انطوت عليه وهو إظهار الغضب على من يستبيحون غمز الأعراض

ولم يتسع وقت الأستاذ الزيات لرثاء عبد القادر حمزة فى إحدى افتتاحياته التى يحتفل بتجويدها كل الاحتفال ، فكتب فى البريد الأدبى كلمة قصيرة ، ولكن تلك الكلمة على قِصرها أدت الواجب فى توديع صاحب البلاغ أجمل أداء ، وأكاد أحسبها لخصت تاريخ صاحب البلاغ أبرع تلخيص

والمهم هو تذكير أصدقاء الرسالة بواجب فكرت فيه مرات كثيرة ثم صرفتنى عنه الشواغل ، وهو تعقّب كل عدد بالنص على ما فيه من دقائق تفوت بعض القراء

لو قام بهذا الواجب أحد أصدقاء الرسالة لنص على العُذوبة فى قول الشاعر محمود حسن إسماعيل

الليلُ نادانى من عالمٍ ثانِ
وقال : يا فانى هيّجت أحزانى

فهذا والله من نفيس الكلام ، كما كان يعبّر محمد بن داوود طيّب الله ثراه !

أقسمت بالخمر والنساء

كان الأستاذ « محمد لطفى جمعة » قال فى كلمة نشرها بجريدة الدستور : إن الشاعر على محمود طه أول من أقسم بالخمر والنساء حين يقول :

أقسمت بالخمر والنساء ومجلس الشعر والغناء

وهذا حق ، ولكن فات الأستاذ لطفى جمعه أن ينص على أسماء بعض الشعراء الذين سرقوا هذا المعنى من شاعرنا المهندس ليبيّن فضله فى إذاعة المبتكرات من المعانى الشعرية

ولو أنه وفّى هذا البحث بعض حقه لأشار إلى أن سبط ابن التعاويذى المتوفى سنة ٥٨٤ فى بغداد كان من بين الذين سرقوا معنى الشاعر على محمود طه ، فقد رأيته يقول :

أما وحقّ المُدام صِرفاً يخجلُ من لونها الشقيقُ
وكلّ هيفاء ذاتِ دَلّ يقتُلنى قدُّها الرّشيقُ
يشكو إلى رِدفها العبًّا من جورِه خصرُها الدقيق
للصبّ من وردِ وجنتيها وِردٌ ومن ثغرها رحيق

إلى آخر ذلك القَسَم الطريف

وهذه خدمة أُكرِم بها صديقى شاعر « الجندول » أعزّه الحبُّ ورعاه !

الإفراج عن ديوان السبط

وبهذه المناسبة أقول : إن الظروف سمحت بالإفراج عن ديوان (سبط ابن التعاويذى) ، فقد كان معتقلاً فى « مكتبة

هندية » ثم اشترته « المكتبة التجارية » فهو اليوم فى متناول من يشتاق إليه من عشاق الشعر البليغ

ولكن كيف وقع ذلك الاعتقال ؟

كان الديوان قد نشر بعناية المستشرق مَرجليوث ؛ ثم مرّت عليه أعوام وهو محبوس ، لأسباب لا نعرف سرها الصحيح !

فإلى مرجليوث فى قبره نوجّه صادق الثناء على ذلك الجهد المحمود .

الصلات الأدبية بين مصر والسودان

أنست القاهرة بوجوه الأساتذة الأماجد حسن مأمون ، وعبد العزيز عبد المجيد ومحيي الدين عبد الحميد ، وهم يلهجون بالثناء على ما رأوا عند عرب السودان من أريحية ومروءة وإخلاص . وقد عرفنا أن إقامتهم هناك من أطيب الفُرص فى حياتهم العلمية والأدبية ؛ فأهل السودان أهل جِد ، ولا يلق بينهم أهل العلم إلا أكرم الرعاية والترحيب . وقد شعرتُ بالسرور يغمر قلبي حين حدثونى أن الحياة الأدبية هناك تفوق ما نتصوره بمراحل طوال ، ولا غرابة فى ذلك : فالصلات الأدبية بين شَطْرَى الوادى تعين على تحقيق ما نرجوه لأهل السودان من التفوق فى الأدب والبيان

وقد انتفعت بمعارف الأستاذ عبد العزيز عبد المجيد عن الحياة فى السودان ، وهى معارف صدرت عن قلبٍ يحب أولئك الرجال حب الشقيق للشقيق

محمد فريد أبو حديد

وفى هذه الأيام تَرِد الأخبار بأن الأستاذ محمد فريد أبو حديد استُقبِلَ بحفاوةٍ عظيمة فى الأندية الأدبية بالخرطوم ، وأنه دُعِى لإلقاء طائفة من المحاضرات ، ومن المؤكد أنه ظفر من إخواننا هنالك بالإعجاب ، بفضل ما يملك من صفاء الفكر وجمال الأداء ، وإنه لأهلٌ لما لَقِىَ من جميل الترحيب

ومن طريف ما وُفِّق إليه أنه حمل خمس مجموعات من مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر وأهداها إلى الأندية الأدبية فى الخرطوم . والذى يعرف مطبوعات هذه اللجنة يدرك قيمة الفرح الذى قوبلت به تلك النفائس

فهل أستطيع أن أرجو أستاذنا مدير دار الكتب المصرية أن يتذكر أندية السودان حين يُهدى مطبوعات دار الكتب إلى الأندية الأدبية والعلمية ؟

وهل يتفضل معالى وزير المعارف فيشير بإهداء أندية السودان طائفة من مطبوعات المجمع اللغوى ومطبوعات كلية الآداب ؟

زكي مبارك

فى الاجتماع اللغوى

اللهجات العامية الحديثة

ضيق متنها وقلة مترادفاتها

للدكتور على عبد الواحد وافى

أستاذ الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

— ٤ —

من أهم ما تمتاز به العربية أنها أوسع أخواتها الساميّة ثروة فى أصول الكلمات والمفردات . فهى تشتمل على جميع الأصول التى تشتمل عليها أخواتها السامية أو على معظمها ، وتزيد عنها بأصول كثيرة احتفظت بها من اللسان السامى الأول ، ولا يوجد لها نظير فى أية أخت من أخواتها . هذا إلى أنه قد تجمع فيها من المفردات فى مختلف أنواع الكلمة إسمها وفعلها وحرفها ، ومن المترادفات فى الأسماء والصفات والأفعال ... ما لم يتجمع مثله للغة سامية أخرى ، بل ما يندر وجود مثله فى لغة من لغات العالم . فقد جمع للأسد خمسمائة إسم ، وللثعبان مائتا إسم ؛ وكتب الفيروزابادى صاحب القاموس المحيط كتاب فى أسماء العسل ؛ فذكر له أكثر من ثمانين إسماً ، وقرر مع ذلك أنه لم يستوعبها جميعاً . ويرى الفيروزابادى أنه يوجد للسيف فى العربية ألف إسم على الأقل ؛ ويقرر آخرون أنه يوجد أكثر من أربعمائة إسم للداهية ؛ ويوجد لكل من المطر والريح والنور والظلام والناقة والحجر والماء والبئر أسماء كثيرة تبلغ عشرين فى بعضها وتصل إلى ثلثمائة فى بعضها الآخر . وقد جمع الأستاذ دو هامر De Hammer المفردات العربية المتصلة بالجمل وشئونه ، فوصلت إلى أكثر من خمسة آلاف وستمائة وأربعة وأربعين[١] . وكذلك الشأن فى الأوصاف : فلكل من الطويل والقصير والكريم والبخيل والشجاع والجبان ... فى اللغة العربية عشرات من الألفاظ

وفى ذلك تختلف العربيـة الفصحى اختلافاً كبيراً عن اللهجات العامية الحديثة المنشعبة عنها . فمتون هذه اللهجات ضيقة كل الضيق لا تكاد تشتمل على أكثر من الكلمات الضرورية للحديث العادى ، وتكاد تكون مجردة من المترادفات ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك فى إحدى مقالاتنا السابقة[١]

وقد كان هذا أحد الأسباب التى حملت بعض الباحثين على أن يقف حيال مفردات اللغة العربية موقف الشك الذى وقفه آخرون حيال قواعدها[٢] . فزعم أنه لا يبعد أن يكون جامعو المعاجم قد خلقوا كثيراً من هـذه المفردات خلقاً لحاجات فى نفوسهم

وفساد هذا الرأى لا يكاد يحتاج إلى بيان

فلهجات الحادثة فى جميع الأمم تقتصر فى المادة على الضرورى وتنفر من الكمال ، وتنأى عن مظاهر الترف فى المترادفات وما إلى ذلك . ولذلك تتسع دائماً هوة الخلاف بينها وبين اللغة الفصحى فى هذه الناحية فليست العربية فذة فى هذا الباب ، بل تشترك معها فيه جميع « لغات الآداب » أو « اللغات الفصحى » وإليك مثلاً اللغة الفرنسية الفصحى ، أو لغة الكتابة ، واللغة الفرنسية المستحدثة فى التخاطب العادى ، فالفرق بينهما فى المفردات لا يكاد يقل عن الفرق بين العربية الفصحى واللهجات العامية الحديثة المتفرعة منها

أما جامعو المعاجم فيدلنا التاريخ وتدلنا آثارهم على شدة حرصهم على تحرى الحق . فقد استخلصوا معظم ما اشتملت عليه معاجمهم من كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومن أحاديث الرسول عليه السلام ، والآثار العربية فى العصر الجاهلى والعصور الإسلاميـة الأولى ، واستخلصوا بعضه من العرب المعاصرين لهم . وكانوا شديدى الحيطة فى هـذه الناحية إلى حد الإفراط . فكانوا يتحاشون الأخذ عمن تشوب عربيته أية شائبة . ولذلك كانوا لا يكادون يأخذون إلا عن عرب البادية لفصاحة ألسنتهم ، وبُعد لهجاتهم عن التأثر باللغات الأعجمية ، وعزلتهم وقلة احتكاكهم بغيرهم . فكانوا يترقبون مجىء أعراب البادية إلى المدن فى التجارة أو غيرها ...

(١) V. Renan, Langage Sémitiques 387

(١) أنظر عدد ٤١١ ص ٦٧٣

(٢) أنظر عدد ٤١٣ ص ٧٢٤ وتوابعها

فيستمعون إلى حديثهم ويناقشونهم فى مختلف شئون اللغة ، ويدونون من فورهم كل ما يهديهم إليه هذا الحديث وترشدهم إليه هذه المناقشة بصدد مفردات اللغة ودلالتها ووجوه استخدامها . وكانوا يتبعون أحياناً ما يسميه علماء اللغة بطريقة « الملاحظة السلبية » Observation passive ، فيرحلون إلى البادية ويقضون فيها بين ظهرانى الأعراب الأشهر بل السنين ، يباشرونهم ويستمعون إليهم فى أحاديثهم الطبيعية ، ويدونون ما يقفون عليه فى هذا السبيل ، وفى ذلك يقول أبو نصر الفارابى فى كتابه : « الألفاظ والحروف » : والذين عنهم نقلت اللغة العربية من بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضرى قط ، ولا من لخم وجذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون العبرية ، ولا من تغلب لمجاورتهم للروم ، ولا من بكر لمجاورتهم للقبط[1] والفرس ، ولا من عبد القيس وأزدعمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين لأهل فارس والهند ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم لأهل الحبشة والهند ، ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة وثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن من المقيمين وغيرهم وقربهم من الجاليات اليمنية ، ولا من حواضر الحجاز لأن ألسنة أهلها كانت قد فسدت حينئذ لامتزاجهم بأمم كثيرة[2] ، ويقول ابن خلدون « وكانت لغة قريش أفصح اللغات وأحرصها لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتها ، ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبنى كناية وغطفان وبنى أسد وبنى تميم . فأما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وإياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة فلم تكن لغتهم تامة الملكة لمخالطة الأعاجم . وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم فى الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية[3] »

وما اتخذوه من وسائل الحيطة حيال القبائل والأمكنة اتخذوه حيال الأزمنة والعصور . فلم يأخذوا إلا عن العصور التى كان فيها اللسان العربى سليما لم يصبه بعد تبلبل أعجمى ولا انحراف عن أوضاع اللغة الفصحى . ولذلك لم يأخذوا إلا عن عرب الجاهلية والإسلام إلى أواسط القرن الثانى الهجرى بالنسبة إلى فصحاء الأحضار ، وإلى أوائل الرابع بالنسبة إلى فصحاء البادية ؛ وسموا هذه العصور « عصور الاحتجاج » . وأهملوا ما عداها مبالغة فى الدقة وحرصاً على تحرى وجوه الصدق واليقين .

* * *

أما الأسباب الحقيقية لكثرة المفردات والمترادفات إلى الحد الذى وصفناه فيرجع أهمها إلى الأمور الآتية :

١ — أن طول احتكاك لغة قريش باللهجات العربية الأخرى قد نقل إليها طائفة كبيرة من مفردات هذه اللهجات . ولم تقف لغة قريش فى اقتباسها هذا عند الأمور التى كانت تعوزها ، بل انتقل إليها كذلك من هذه اللهجات كثير من المفردات والصيغ التى لم تكن فى حاجة إليها لوجود نظائرها فى متنها الأصلى ؛ فغزرت من جراء ذلك مفرداتها وكثرت فيها المترادفات فى الأسماء والأوصاف والصيغ ، وأصبحت الحالة التى انتهت إليها أشبه شىء ببحيرة امتزج بمياهها الأصلية مياه أخرى انحدرت إليها من جداول كثيرة . وإلى هذا يشير ابن جنى فى كتابه الخصائص إذ يقول : « وكلما كثرت الألفاظ على المعنى الواحد كان ذلك أولى بأن يكون لغات لجماعات اجتمعت لإنسان واحد من هنا وهناك » ، ويشير إليه كذلك ابن فارس فى كتابه الصاحبي إذ يقول : « فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ويتحاكمون إلى قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها ؛ فإذا أتتهم الوفود من العرب يتخيرون من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التى طبعوا عليها[1] » .

٢ — إن جامعى المعاجم لم يأخذوا عن قريش وحدها ، بل أخذوا كذلك عن قبائل أخرى كثيرة ؛ ومن المقرر أن لهجات المحادثة كانت تختلف فى بعض مظاهر المفردات باختلاف القبائل حتى بعد تغلب لغة قريش على سائر ألسنة العرب . وكان من جراء ذلك أن اشتملت المعاجم على مفردات لم تكن مستخدمة فى لغة

(١) فى الأصل « القبط » وصوابه « القبط » كما لا يخفى

(٢) المزهر للسيوطى جزء أول ص ١٠٤ بتلخيص وتصرف فى العبارة

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٦٣٥

(١) غير أن هذه العبارة تشعر أن الانتقال الذى نحن بصدده كان يحدث دائما عن قصد ، والحق أنه يحدث فى الغالب فى صورة تلقائية من غير قصد المتكلمين .

قريش ويوجد لمعظمها مترادفات فى متن هـذه اللغة الأصلى وفيما انتقل إليها من غيرها ، فزاد هذا من نطاق المفردات والمترادفات فى المعاجم سعة على سعة

٣ — إن جامعى المعاجم ، لشدة حرصهم على تقييد كل شىء دونوا كلمات كثيرة كانت مهجورة فى الاستعمال ومستبدلاً بها مفردات أخرى . فكثرت من جراء ذلك فى المعاجم مفردات اللغة ومترادفاتها

٤ — إن كثيراً من الكلمات التى تذكرها المعاجم على أنها مرادفة فى معانيها لكلمات أخرى غير موضوعة فى الأصل لهذه المعانى ، بل مستخدمة فيها استخداماً مجازياً [١]

٥ — إن الأسماء الكثيرة التى يذكرونها للشىء الواحد ليست جميعها فى الواقع أسماء ، بل معظمها صفات مستخدمة استخدام الأسماء . فكثير من الأسماء المترادفة كانت فى الأصل نعوتاً لأحوال المسمى الواحد ، ثم تنوسيت هذه الأحوال بالتدريج وتجردت مدلولات هذه النعوت مما كان بينها من فوارق وغلبت عليها الاسمية . فالخطار والحطام والباسل والأصيد ... من أسماء الأسد يدل كل منها فى الأصل على وصف خاص مغاير لما يدل عليه الآخر ، وكذلك ما يعد من أسماء السيف : كالصمم والهندى والحسام والعضب والقاطع ... وهلم جرا

٦ — إن كثيراً من الألفاظ التى تبدو مترادفة هى فى الواقع غير مترادفة ، بل يدل كل منها على حالة خاصة تختلف بعض الاختلاف عن الحالة التى يدل عليها غيره ؛ وإليك مثلاً : رمق ولحظ ولمح وحدج وشفن ورنا ... وما إلى ذلك من الألفاظ التى تدل على النظر ؛ فإن كل منها يعبر عن حالة خاصة للنظر تختلف عن الحالات التى تدل عليها الألفاظ الأخرى . فرمق يدل على النظر بمجامع العين ؛ ولحظ عن النظر من جانب الأذن ؛ وحدجه معناه رماه ببصره مع حدة ؛ وشفن يدل على نظر المتعجب أو الكاره ؛ ورنا يفيد إدامة النظر فى سكون ... وهلم جرا [٢]

* * *

هذا ، ومع ما كان يتخذه جامعوا المعاجم من وسائل الحيطة والحرص على تحرى الصواب ، فقد اندس فى معاجمهم كثير من المفردات المولدة والمشكوك فى عربيتها ، وحرفت فيها كلمات كثيرة عن أوضاعها الصحيحة . ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة أهمها سببان :

(أحدهما) أن بعض الأشعار التى أخذوا عنها قد ثبت فيما بعد أنها موضوعة . فلا يبعد أن يكون بعض مفرداتها من اختراع الواضعين

(وثانيهما) أنهم كانوا أحياناً يأخذون عن الكتب والصحف . فحدث من جراء ذلك تحريف فى كثير من الكلمات التى نقلوها . لأن الرسم فى عصورهم كان مجرداً من الإعجام والشكل . فكان من الممكن أحياناً قراءة الكلمة الواحدة على عدة وجوه .

على عبد الواحد وافى
ليسانسيه ودكتور فى الآداب من جامعة السربون

(١) اختلط فى كثير من المعاجم المعانى الحقيقية بالمعانى المجازية ، ولم يعن بتمييزها إلا بعض المعاجم كالأساس الزمخشرى وقد كتب الزمخشرى كتابا خاصا سماه « المجاز » ، وبين فيه ما تجوزت به العرب من الألفاظ وما تجوزت به من الدلالات . أنظر مقدمة ابن خلدون صفحة ٦٢٩

(٢) انظر المخصص لابن سيده ، وفقه اللغة للثعالبى تجد فيهما آلافا من الأمثلة بهذا الصدد .

رســــالة ...

« للناقد الأزهرى »

فى أوائل القرن الهجرى الحاضر كان يقيم فى باريس جماعة من التلاميذ المسلمين الذين نزحوا من بلادهم لأجل العلم والتثقف ، وكان يقيم بها أيضاً عالم مسلم من أهل الجزائر اسمه « سليمان بن على »

توجه هؤلاء التلاميذ المسلمون إلى هذا العالم الجزائرى المسلم يسألونه عن حكم لبس قلنسوة النصارى « البرنيطة » ويذكرون أن أحوال باريس تضطرهم إلى لبسها ، لأنهم كلما مروا فى شوارع باريس بلباسهم ، توقف الناس عن يمين وشمال ، وصاروا ينظرون إليهم متعجبين ، ولأنهم يريدون أن يمنعوا عيونهم من ضرر البرد القارس فى هذه البلاد ... الخ

درس الشيخ هـذا السؤال ، ووضع فى الجواب عنه رسالة مفصلة سماها « أجوبة الحيارى » عن حكم قلنسوة النصارى » أباح فيها لبس البرنيطة وأيد رأيه بما وسعه أن يؤيده به على طريقة فقهية سائغة

أفزع ذلك عالماً كبيراً من علماء الأزهر فى ذلك الحين هو المرحوم الشيخ محمد عليش مفتى السادة المالـكية فكتب رسالة فى الرد على هـذا العالم الجزائرى تناوله فيها بألوان من الإقذاع والتسفيه ، ووصمه بالجهل ، والقصور ، والتهجم على الشريعة ، والخروج على أجماع المسلمين ... الخ

وهذه نصوص من الرسالة « العليشية » نضعها أمام القراء ، قال الشيخ بعد الديباجة :

١ — « أقول : يأهل الذكاء تعجبوا ممن كان عيبه مستوراً ، ففضح نفسه ، ونادى به عليها بين الناس وصير عيبه مشهوراً ، وبيان ذلك أنه تقرر فى شريعة الإسلام أن السفر لأرض العدو للتجارة جرُحة فى الشهادة ، ومخل بالعدالة ، فضلاً عن توطنها وطول الإقامة بهـا ، وهذا الرجل « يقصد الشيخ الجزائرى » كان مجهولاً مستوراً فعرف بنفسه بأنه من علماء المسلمين خرج عن حد الشريعة وتهتك ، ولم يبال بالُجرحة فى شهادته ، ولا باختلال عدالته ، واختار مساكنة الـكافرين فى ديارهم ، وزهد فى مساكنة المسلمين وفسيح بلادهم . فيالها من فضيحة ، وما أفظعها من وقيحة ! ولم يشعر بها من شدة حماقته وكثافة جهله ، وشدة غباوته ... »

٢ — « يأهل الذكاء تعجبوا ممن كان عيبه مستورا فأبى إلا إشاعته وصيرورته مشهورا [1] ، وبيان ذلك أن قوله « أتوا من بلادهم لأجل التعلم » فيه اعتراف بالجهل بما يطلب تعلمه وما لا يطلب ، وذلك أنه قد تقرر فى شريعة المسلمين أن المطلوب تعلمه من أقسام العلم العلوم الشرعية وآلاتها وهى علوم العربية ، وما زاد على ذلك لا يطلب تعلمه ، بل ينهى عنه . ومن المعلوم أن النصارى لا يعلمون شيئاً من العلوم الشرعية ، ولا من آلاتها بالـكلية ، وأن غالب علومهم راجع إلى الحياكة والقبانة والحجامة وهى من أخس الحرف بين المسلمين . وقد تقرر فى شريعتهم أنها تخل بالعدالة . وهل كذب الرب جل جلاله فى قوله : « ولـكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » وصدقت أنت فى زعمك يا مفتون ؟ فما أقبح حالك ! وما أفظع مقالك »

٣ — « إن قوله : إمتداد القلنسوة يمنع عيونهم من ضرر البرد فيه فضيحة عظيمة ، ومثقبة وخيمة ، إذ لم يلتفت لمنع الامتداد المذكور من السجود للملك المعبود ! »

٤ — « وقد بقيت عليك وعليهم ورطة الإقامة فى بلاد الـكفار بالاختيار حيث لا جمعـة ولا جماعة ولا أذان ولا إقامة ولا شعيرة من شعائر الإسلام ، ومحل عبادة الأصنام والأوثان والصلبان ؛ كيف يرضي بذلك من فى قلبه إيمان ؟ لا سيما وهو معرض للموت فى كل نَفَس وأوان ، وقبورهم حفر من النار ، فكيف يختار المؤمن دفنه بها ؟ فاخلعوا فوراً زى الـكافرين ، وهاجروا لبلاد المسلمين إن كنتم مؤمنين »

٥ — « وقوله لم يرد تحريمها لا فى الـكتاب ولا فى السنة ولا فى أقوال الأئمة فيه نداء على نفسه بالجهل والقصور ، إذ قد دل الـكتاب على تحريمها بقوله : (واسجدوا) ، وبقوله : (خذوا زينتكم عند كل مسجد) وبغير ذلك من الآيات ؛ ومعلوم أنها مانعة من السجود ، ودلت السنة على ذلك فى قوله : « أمرت أن أسجد على سبعة أعضاء . الحديث ؛ وانعقد الإجماع على تحريمها ولا بد من استناده لـكتاب أو سنة ، وهو معصوم من الخطأ

(١) كرر الشيخ هذه العبارة « يأهل الذكاء تعجبوا . . . الخ » أربعا وعشرين مرة فى رسالته التى هى فى إحدى عشرة صفحة خطية من القطع الصغير .

كما هو معلوم ؟ كيف يجوّز أحد من المسلمين لبسها وهو كفر إجماعاً أو على قول ؟ ! »

٦ — وقوله : إن النبي صلى الله عليه وسلم لبس جبة رومية ضيقة الكمين ، فضيحة فاضحة ، لأن الجبة المذكورة لم يختص بها الكفار ولم تصر شعاراً لهم ... وكيف تتجاسر يا أحمق يا مفتون يا غبي على نسبة لبس ملبوس النصارى الذي صار زياً لهم وعلامة على ذلهم وإهانتهم وكفرهم ، إلى أشرف الخلق ومنبع الدين الحق ، فأي فضيحة أفضح من هذه الفضيحة ، وأي شنيعة أشنع من هذه الشنيعة ، يا أعمى البصيرة ، ويا خبيث السريرة ! شقيت شقاوة لا تسعد بعدها أبداً ، وصار دمك مهدوراً ، والسعي في سفكه واجباً مشكوراً »

٧ — وختم الشيخ رده بهذه النتيجة بعد كلام طويل :

« إنه تقرر في شريعة المسلمين أن حكم هؤلاء أمرهم بالتوبة والرجوع إلى دينهم ، والتزيي بزي المسلمين . وإمهالهم لذلك ثلاثة أيام ، فإن فعلوا ذلك قبلت توبتهم ، وخلي سبيلهم ؛ وإن تمت الأيام الثلاثة ولم يتوبوا ، قطعت رقابهم بالسيف ، ولا يغسلون ، ولا يصلى عليهم لموتهم على الكفر ... والسلام على من اتبع الهدى حامداً لمن نور قلب المؤمنين بالإيمان ... »

***

هذه هي الرسالة العليشية ، ولكل قارئ أن يحكم عليها بما يشاء ، وأن ينقد أسلوبها في البحث ، ولغتها في الحوار ، وأدبها في المناظرة ، على أن يقدر ظروف العصر الذي كتبت فيه ، ونوع الثقافة التي كانت تسيطر على أهل العلم يومئذ ؛ فإن كثيراً من تلك الأحوال ، قد هذبه الزمان ، وأصلحته الأيام

وأهم ما في الرسالة في نظري مما ينبغي أن تستخلص منه العبرة ، هو محاولة المؤلف في جد واهتمام تكفير بعض المؤمنين أو تفسيقهم لأنهم أخذوا برأي لا يوافق رأيه ، ولا يتمشى فيما يحسب مع رأي جمهور المسلمين !

وهذه النزعة إلى التكفير أو التفسيق بما لا كفر فيه ولا فسوق ما تزال سائدة في جو الأزهر ، وقد انبثت عدواها على يديه في كثير من أنحاء مصر والشرق ، فمنكر الوسيلة والتوسل كافر عند فلان ، ومنكر سحر النبي صلى الله عليه وسلم كافر عند فلان ، والذي لا يتلقى بالقبول كل ما يروون من المعجزات والكرامات شاك مكذب ، والذي يدعو إلى تهذيب العقائد مما ألم بها من خرافات وأوهام لا يعرفها الإسلام ضال مضل ، والذي ينهى عن الإحداث في الدين والابتداع في العبادات متهجم على الشريعة ، منكر لما تلقته الأمة بالقبول !

تجد هذا كله إلى الآن ، وتجد العامة في أقاليم مصر وأقطار الشرق يتماركون فيه ويختصمون عليه ، ثم يتجهون إلى علماء الأزهر بأسئلتهم : ما قولكم دام فضلكم في رجل أنكر كذا أو حكم بكذا ؟ أهو مؤمن أم كافر ، أتطلق عليه امرأته أم تبقى في عصمته ؟ فإذا جاءهم ما أرادوا من فتوى شهروه في أيديهم سلاحاً ماضياً فتاكا في وجوه خصومهم ومجادليهم ، وأثاروا به حولهم من أسباب الشغب والفتنة ما الله به عليم

وليس هذا فقط ! بل إن العلماء الكبار ليتجهون أحياناً إلى جماعتهم الموقرة ، فيسألونها في عناية واهتمام : ما قول سادتنا أعلام الأمة جماعة كبار العلماء فيمن قال ... كذا وكذا أو ناصر كتاباً فيه كذا وكذا من الأحاديث الموهمة خلاف ما يرى جمهور المسلمين بأن أشرف على طبعه وقدم له : هل يكفر أو يفسق أو لا ولا ؟

يرد مثل هذا السؤال على « الجماعة » من أحد أعضائها ، فتهتم به ، وتجتمع له ، وتؤلف له اللجان ، وتبحثه المرة بعد المرة ، وتعكف عليه أكثر من عام : كل ذلك من أجل كتاب قديم نشره رجل من العلماء مع اعتراف الجميع بأن ما ورد فيه من الروايات والأحاديث قد ورد في غيره من كتب التفسير والحديث !

ففيم كل هذا ؟ وأي مصلحة للإسلام والمسلمين ترجى من ورائه ؟ ولماذا لم يحكم فيما مضى ، ولم تحكموا أنتم ، بكفر المؤلف أو فسقه ، حتى تأتوا اليوم فتتساءلوا : هل كفر الناشر أو فسق ؟ تعقدون لذلك الجلسات ، وترجعون فيه إلى المراجع ، وتؤلفون من أجله اللجان !

اللهم إن هذه نزعة لا يسرنا أن تسود الأزهر ، ولا أن تشجعها جماعة كبار علمائه . فإذا كان القديم في زمن « عليش » قد احتمل ذلك أو شرح به صدراً ، فإن الجديد في زمن « المراغي » قد ملّه واجتواه وضاق به ذرعاً !

(الناقد الأزهري)

الحيـــاة الزوجية في نظر الاسلام

للأستاذ عبد اللطيف محمد السبكى

— ٣ —

خطبة الزواج

إذا كان الزوج كفئاً لائقاً ورضيته الفتاة ، فليس للولى أن يعضُلها (يمنعها من التزوج به) ، وإن فعل ذلك سقط حقه فى الولاية عليها ، وانتقل الحق إلى من يليه من عَصَبتِها ، « ولا تعضُلوهن أن ينكحن أزواجهن » أى لا تمنعوهن ذلك ؟ فهاتان حالتان لا يملك الولى أن يقهر المخطوبة فيهما على غير ما تريد :

١ — غير كفء يخطبها وهى ترفضه

٢ — كفء يخطبها وهى فيه راغبة

وهناك حالة ثالثة ، للاجتهاد فيها مجال ، وللعلماء فيها مقال ومقال ؛ هى : خاطب كفء لائق ، ولكن المخطوبة ترفضه وتأباه ؛ ففريق يرى قولها مسموعاً ، وحقها ناهضاً ، ما دامت رشيدة تعرف ما يطيب ويخبث من شئونها ، وتدرك خيرها من شرها ؛ وفريق يذهب إلى هذا الرأى كذلك إن كانت المخطوبة ثيباً ، أما إن كانت بكراً فليس لها أن ترفض من يراه الأب صالحاً وكفئاً ، وإنما تستأذن فيه ، عملاً بظاهر حديث الرسول : « تستأذن البكر ، وتستأمر الثيب » ، ويرون أن أباها أعرف منها بصالحها ، فمن حقه إجبارها

وعلى الإجمال الذى يعفينا من التطويل ، فإن الإسلام ينشد لكل من الزوجين رفيقاً ساراً ، ويبتغى لكل منهما حياة مأمونة المكاره ، ويلتمس من وراء ذلك نسلاً كريماً ، وأمة ماجدة عريقة فى الطهر والعفاف ومكارم الأخلاق

ويجمع هذه الأغراض كلها قول النبى (ص) : « إياكم وخضراء الدِّمن » : يحذرنا من المرأة الجميلة الشكل ، القبيحة الأصل والأخلاق ، ويشبهها بالدوحة الخضراء النَّدية تنبت فى الدِّمن — وهى القاذورات ومطارح الزبالة — فإن يكن لها نصيب من حسن الرواء ، وفرط البهاء ، فبئس ما وراء هذا المنظر من شناعة المخبر

ويجمعها كذلك قول النبى (ص) : « تخيروا لنطفكم فإن العِرق دساس » فهذه حكمته البالغة فى نصيحة الزوجين والأولياء فى حسن الاختيار قبل التوثيق والارتباط — وعلى المرء أن يسعى إلى الخير جهده — غير أن الناس فى شأن الخطبة على أمور متناقضة ؛ أكثرهم بأهل الجاهليـة أشبه ، وقليل منهم الراشدون ؛ ففريق يتوسمون إلى الاختلاط ، والخلوة ، وما يدنو من هذين أو يعظم ، ثم قد تكون النتيجة إفلات الأمل من أيديهم من حيث بالغوا فى الحرص عليه ، فلا يبقى لهم سوى الندم على ما فرطوا والخزى اللاصق بهم مما جنوا ما عاشوا .

وفريق يتحجر رأيهم وتجمد عقولهم فلا يمكنون الخاطب والمخطوبة من حقهما المشروع ، وقد يتم الأمر ويكون أحد المشيرين على غير ما يرضى صاحبه ، فتكون الحياة بينهما شقاء لا نعرف له نهاية ، وسجناً لا يدريان له غاية

وفريق ثالث يسوقون الفتاة سوقاً إلى شخص ماجن أو رجل متهدم البنية يخطو إلى مقره الأخير، فيبدون لها من المحاسن ما ترجو هى بعضَه ، ولا يكون الأمر كذلك ، وإنما هى رغبتهم فى ماله ، أو طمعهم فى جاهه ؛ وهذا نوع فاحش من التضليل ، وشر لون من ألوان الغش ؛ والنبى (ص) يقول : « من غشنا فليس منا » فحسب هؤلاء أن النبى أبعدهم عن الإسلام ، وإن الإسلام منهم برىء

أدب العشرة بين الزوجين

ما كان الإسلام ليُغفل علاقة الزوجين أن يدعمها ويدرأ عنها عوادى الخلف والجفوة ، بعد أن دعاهما إلى الانضمام وهيأ لكل منهما سبيل اختيار صاحبه للمرافقة الدائمة فى اجتياز هذه الحياة

بل وضع الإسلام منهاجاً مزدوجاً من أدب العشرة ، وحتم على كل منهما أن يأخذ بالجانب الذى يتصل به من هذا المنهاج نحو صاحبه

وبعد أن حمّلهما الإسلام تلك الأمانة ، أهاب بهما — مع

مَن أهاب به من كل طرفين بينهما صلة — أن يرعاها حق رعايتها ؛ فهو يقف بهما أمام الحديث القدسي : « أنا ثالث الشريكين إذا لم يخن أحدهما صاحبه ، فإن خان أحدهما صاحبه نزعت البركة من بينهما »

وعلى ضوء هذا الحديث تكون الحياة الزوجية لكل منهما طيبة مريئة ، وتكون الشركة بينهما مثمرة مباركة ، وإلا كانت صلتهما في الدنيا هماً ناصباً ، وشقاء متعباً ؛ ثم هي في الآخرة مأثم مأخوذ به من يقترفه ، وعهد مسؤول عنه من خان فيه

(١) أدب الزوج

يقول الله سبحانه للأزواج في شأن زوجاتهم : « وعاشروهن بمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » ، فالقرآن يعطف قلب الرجل على زوجه ، ويعلمه أن العشرة بالمعروف أمر يحتمه الدين إن لم تنهض به مروءة ولم تدفع إليه عاطفة

حتى إذا ما فترت جذوة الحب ، وهدأت وقدة الاشتياق ، وبدأ يلتوي عنها زهادة فيها أو طموحاً إلى سواها ؛ فمن الحزم ألا يغلو في الصدود عنها ، وألا يسرف في متابعة هواه ، وأن يتلمس الخير من جانبها ، فربما كانت — على سلوته عنها — مصدر نمائه ، وملتقى أمله ورجائه ، وكثيراً ما تعزف النفس عن شيء ويجعل الله فيه خيراً كثيراً

كذلك يأمر الله أن يبسط الزوج كفه بالإنفاق على الزوجة غير مسرف ولا مجهود ، بل على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ، « لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله » ، فليس جائزاً للواجد أن يبخل ، ولا مطلوباً من المعسر أن يتكلف ، وإلا تصدع البناء بجموح المرأة إذا استفزها الزوج بشحه وتقتيره ؛ وكم ترامى إلى الأسماع من سوء القالة بسبب شح الزوج ، وعدم قيامه على رعاية الزوجة فيما تقتضيه العشرة ...

فالإسلام حينما يطلب إلى الأزواج أن تسخو أيديهم على الزوجات ، لا يرمي إلى شهوة الطعام والشراب وحدها ، وإنما يتجه إلى شيء لا يعدله شيء ، وإلى الاحتفاظ بنفيس دونه كل نفيس ؛ ذلك هو العفاف مصوناً مما يشوبه ، مضنوناً به أن تنال منه المساومات وتستغل فيه الحاجة

وفوق هذا الحض على كفاية الزوجة ، يحظر علينا الإسلام أن يطمع الرجل في مال زوجته ، أو يحتال في استرداد ما أعطاها من صداق ؛ ويقول القرآن في ذلك : « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن » ويقول : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة » ففي هاتين الآيتين يمنع الإسلام أن يقتنص الرجل مال المرأة كرهاً ، على نحو ما كان شائعاً في الجاهلية ، ويمنع أن يعضلها الرجل — يضايقها بنوع من أنواع الإساءة — ليستدرجها إلى ترضيته بشيء من مالها ، أو لترد إليه بعض ما أعطاها . ويأمر الإسلام أن يدفع الزوج إلى الزوجة ما تستحقه من الصداقة نحلة : — خالصاً من شوائب النقص والتلكؤ في الوفاء — وليس يحل للرجل إلا ما رضيت به نفسها طائعة سمحة ، فقد يطيب لها أن تجامله أو ترغب في معونته « فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً » . ونحن إذ نرى الإسلام يتحرى الاحتفاظ بحقوق الزوجة في مثل هذه الآيات ، لا يعزب عن خواطرنا أنه كذلك يستبقي للرجل كرامته ، ويؤيد ماله على الزوجة من الهيمنة ، وأن زوجاً يتَنَـاسى مكانة الرجولة ، ويبتاع بها شيئاً من حطام الزوجة ، لهادمٌ بيده بناء الأسرة ، وواضع نفسه حيث لا ترضى طبيعة الرجولة ولا تطمئن الكرامة إلى حراسته لأنوثة الزوجة

وإلى جانب ما ذكر القرآن من أدب الزوج ، جاءت سنة النبي (ص) بالكثير من وصايا الأزواج ، فيقول (ص) : «استوصوا بالنساء خيراً ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتموهن بكلمة الله » . ويقول : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » . ويقول : « إن المرأة خلقت من ضلع أعوج ، فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج ، وإن ذهبت تقيمها كسرتها ، وكسرها طلاقها »

فالزوجة في اعتبار الإسلام أمانة عند الرجل ، وهو مسئول عن الأمانة في غير هوادة أمام الله ، والمرأة مخلوقة من ضلع ، وهو أعوج بطبعه ، فلا بد أن يكون بالزوجة بعض القصور ،

فمن شاءها تامة المواهب ، وطمع فى كمال النضج منها ، فإنما يطمع فى محال لم تتهيأ له طبيعة المرأة

وإن حاول الرجل تقويم المعوج منها كسرها ، وكسرها هو الطلاق ، فليترفق بها ما استطاع ، لئلا يذهب تعديلها إلى كسرها بالطلاق ، والطلاق مكروه عند الله ، وإن كان جائزاً شرعاً

والنبي (ص) يصرفنا عن التعرض لذلك بقوله : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق »

فالمرأة على أى حال بحاجة إلى الصبر على ما يمكن احتماله منها ؛ ومن شرف الرجولة أن يكون الزوج سمحاً لا غضوباً ، وبساماً لا قطوباً ، وأن يكون محسناً معها فى كل آن ، وصاحب اليد عليها فى كل شىء ؛ واليد العليا خير من اليد السفلى كما يقول الرسول

(ب) أدب الزوجة

أما أدب الزوجة مع الزوج فيتمثل واضحاً فى قول النبي (ص) : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » ... فانظر إلى هذا البيان الجامع الحق ، تر أن فضل الرجل على زوجته يقتضيها فى نظر الإسلام أن تتأدب معه إلى غاية من الأدب هى أقرب منزلة إلى العبادة ؛ ولو كان السجود مشروعاً لغير الله سبحانه لكان لزاماً على الزوجة لزوجها ، فإن لم يكن هذا فليكن ما يدنو منه من الأدب المشروع ، حتى ليخبرنا النبي (ص) بأن من لم تتسم بهذه السمة لا حظ لها فيما تأتى به من التقرب إلى الله ، وإن كدّت فى العمل وضاعفت فى السعى والجهود ، فيقول (ص) : « ثلاثة لا تقبل لهم صلاة ، ولا تصعد لهم إلى السماء حسنة : العبد الآبق حتى يرجع ، والسكران حتى يصحو ، والمرأة الساخط عليها زوجها حتى يرضى » فليس لمن سخطها الزوج سبيل إلى الله سوى عدولها عن مناضبة زوجها والتماسها مرضاته ، وإلا فعذاب الآخرة يترصدها ، ونعيمها غير ممدود إليها إلا بعد لأى وهوان

وفى هذا يقول الرسول (ص) « ... ورأيت النار ، فلم أر منظراً – يعنى لم ير ما يسر – ورأيت أكثر أهلها النساء . قال الصحابة : ولمَ يا رسول الله ؟ قال (ص) : بكفرهن ! قالوا : أيكفرن بالله ؟ قال (ص) : بكفرهن العشير – الزوج – وبكفرهن الإحسان : لو أحسنتَ إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئاً قالت : ما رأيت منك خيراً قط ! »

وفى هذا تنبيه للنساء إلى عيب شائع فى الكثرة منهن ، هو عدم اعترافها بفضل الزوج ، حتى لو أنه غمرها بفضله ، ومكن لها من عطائه وبره ، ثم صادفت منه أمراً هيناً لا يعجبها ، أنكرت ماله من حسنات سابقات ؛ وإن القرآن ليعطف قلوب النساء على الرجال كما عطف قلوب الرجال عليهن ، فهو يرجع بالمرأة إلى القناعة والرضا عما يستطيعه الزوج من النفقة ، ويعدها بتفريج ما قد تحس به من ضيق ، فيقول تعالى : « ... ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ، لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ، سيجعل الله بعد عسر يسراً » ، ففى هذا مواساة لمن قدر عليه رزقه كما أسلفنا ، وفيه توجيه للمرأة : ألا ترهق الرجل بما لا يطيقه ، مخافة أن يثقله العبء ، وتعجزه الحيلة ، فيضيق بالحياة الزوجية ، ويتصدع البناء

والقرآن يصارح الزوجة أكثر من ذلك بما للرجل من فضل ، وبالسبب الذى كان من أجله ذلك الفضل عليها ، فيقول : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم »

فالرجل هو القوام – المهيمن – على زوجته ، وصاحب الأمر معها فى حدود ما شرع الله ، لما امتاز به غالباً من حصافة ونضج ، ولما ينفق من ماله ويلتزم لها من الحاجيات والمصالح ، وكذلك يقول القرآن : « وللرجال عليهن درجة » ، يعنى : للأزواج سلطة ورياسة ، ولهم الأمر والنهى بمقتضى ذلك ، فما ينبغى أن تأبى الخضوع له ، وتتخطى حدودها معه ، وعليها أن تمد إليه يد الطاعة ، وتستمد الرأى من جانبه ، ما دام غير متحيف ولا متجانف ، لئلا تُعرّض الحياة بينهما لطوارئ الفساد والانحلال

وخلاصة ما يرجى من الزوجة تحدث بها النبي فى إيجاز ، إذ قال له سائل : أى النساء خير يا رسول الله ؟ فأجابه : « التى

تسره إن نظر، وتطيعه إن أمر، ولا تخالفه فى نفسها ومالها — أو ماله — بما يكره »

ومن هذا الذى تحدثنا به ورويناه، يتبين للناس ما ينبغى أن يراعوه من نظام الحياة الزوجية، من آداب العشرة بين الزوجين، ولو أن الأمر هنا على ما يقتضيه النظام الإسلامى، لما سمعنا تلك الشكايات الصارخة تتردد على ألسنة الرجال من بعض النساء، وتنحدر بها مدامع النساء من قسوة بعض الرجال، والله يعلم المفسد من المصلح، ويعلم المنصف وغير المنصف

وسيجزى الله الذين أساءوا بما عملوا، وسيجزى الذين أحسنوا بالحسنى.

« لها بقية »

عبد اللطيف محمد السبكى
المدرس بكلية الشريعة

للحق والتاريخ

عبد القادر حمزة باشا

وقفة قصيرة بهامش أدبه الحى

كيف كان ينقل كنوز اللغات المختلفة إلى العربية

للأستاذ محمد السوادى

تحدثت إلى قرائى فى جريدة « البلاغ » بعددها الصادر فى اليوم الثامن من يونية الحالى عن بعض ما عرفت فى « عبد القادر حمزة بين محرريه، وعبد القادر حمزة بين ذويه، وعبد القادر حمزة بين الجلال والحنان والدمع الغزير »

وأوثر أن يكون حديثى إلى قراء « الرسالة » حديثاً أدبياً يلائم أمزجتهم، ويوائم بينها وبين شعورى بالرغبة فى حديث لا نهاية له فى سيرة الرجل الذى تملمت منه قارئاً ناشئاً، وأخذت عنه كاتباً شاباً، وقويت صلتى به فى أثناء اشتغاله بطبع كتابه التاريخى الأخير، وعلى حين غفلة استرد هذه اليد منى ليتوارى عنى، صاعداً بالروح إلى السماوات العلا حيث الحقيقة الكبرى التى ظل يبحث عنها طوال نصف قرن قضاه ضيفاً على الأرض.

وليس فى نيتى أن أرسم لك صورة من أدبه — وإن كنت لا أنكر أن فى نيتى المودة إلى رسم هذه الصورة على صفحات « الرسالة » نفسها — وإنما أريد اليوم أن أقف على « هامش أدب عبد القادر حمزة »، كما وقف هو على « هامش تاريخ مصر القديم »، فأسوق إليك لوناً من الروح الذى كان يحدوه وهو يفكر تفكيراً أدبياً، ثم يهديه وهو يسجل ثمار هذا التفكير:

على هامش ترجمة

ولكى تعرف كيف كان عبد القادر حمزة يترجم إلى العربية بعض كنوز اللغات المختلفة، فيبدع إبداعاً وفق فيه بين الأمانة الممكنة والسلاسة التى عرف بها، ثم ينفرد أخيراً بخاصة إخضاع الكلمات للمعانى التى يريدها، وخاصة صوغ العبارات التى تؤدى بقوة تماسكها وبساطة مفرداتها نفس المعانى ... لكى تعرف بعض سر هذه الحقيقة، ينبغى أن تعرف رأى الفقيد فى الترجمة، فإذا عرفت مدى تهيبه ضخامة المهمة الملقاة على عاتق المترجم، فإنك قادر مدى الجهود التى كان يحرص على بذلها وهو يترجم، وكاشف سر القوة التى جعلت منه مترجماً لا يجارَى ولا يقلد!

وهذا الرأى — رأيه فى الترجمة — مثبت فى أحد فصول الجلد الثانى الذى كان يشتغل بطبعه فى الشهور الأخيرة وقضى قبل أن يفرغ منه، وشفيعى فى إثبات هذا الرأى أو فى استعارته من كتاب تحت الطبع بغير إذن من أبناء الفقيد، ثقتى بأن هؤلاء الأبناء لا يغلِّبون « شكلية » كهذه على وفاء أريد أداءه لتاريخ الفقيد الأديب، ولتاريخ الأدب فى ذاته، وشعورى بأن روح الفقيد راضية فى عليائها عن صنيعى هذا

رأيه فى الترجمة

عرض الفقيد فى أحد فصول كتابه للأدب فى مصر القديمة فأثبت وجوده وأثبت له الجودة، ثم أسف على « أن المثقفين منا يعرفون إلى جانب الأدب العربى: الأدب الإنجليزى، والأدب الفرنسى، والأدب الألمانى، والأدب الإيطالى؛ ومنا من يعرفون حتى الأدب الفارسى، وحتى الأدب اليونانى القديم؛ ولكننا لم نُعن إلى الآن بمعرفة أدبنا المصرى القديم »

وبعد أن دلل على ضرورة هذا الأدب لنا قال:

« ولا يطمع القراء فى أن أنقل إليهم ما أنقله من هـذا الأدب فى بلاغته الأصلية ، فإن المترجين يعرفون أن شعر شكسبير الإنجليزى، أو راسين الفرنسى، أو جيته الألمانى، تفقده الترجمة كثيراً من بلاغتـه ؛ ومثل ذلك شعر امرئ القيس أو أى شعر عربى آخر إذا نقل إلى لغة أوربية ؛ وهذا لأن الشعر أو النثر الفنى الذى يسمى أدباً يتكونان من عنصرين : أحدهما الفكرة ، والثانى الصياغة ؛ واجتماع هذين العنصرين هو الذى يبعث فى النفس أثراً خاصاً وموسيقا خاصة ، والترجمة تنقل الفكرة ولا تنقل الصياغة ، فكأنها تنقل الهيكل العظمى دون اللحم والدم . وهذا يقال فى أدب عصرى ، أو فى أدب لم يمض عليه غير بضع مئات من السنين ؛ أما الأدب الذى مضت عليه خمسة آلاف سنة ، أو ثلاثة آلاف على الأقل ، فيجب أن يقال فيه إلى جانب ذلك إنه ابن بيئة تختلف عن البيئات التى يعرفها العالم الآن ، وقد وجد فى ظل عقلية واعتقادات وتقاليد وعادات لم يبق لها وجود وقل من يعرفها ومن المسلم به أن الأدب يكتسب كثيراً من العقلية والاعتقادات والتقاليد والعادات التى يعيش فيها ، بل هو لا يكون أدباً حياً إلا إذا امتزج بها وكان وحياً منها ؛ ولهذا السبب يكون نقل الأدب المصرى القديم الآن إلى اللغة العربية تجريداً له من هـذه العناصر كلها فوق تجريده من الصياغة وموسيقاها ؛ ولهذا السبب نفسه سترانا محتاجين فى كثير من الأحيان إلى إعطاء بيانات وتعليقات ننقل بها القارئ — على قدر استطاعتنا وفى حدود دراستنا — إلى العصور التى قيل فيهـا ما نمر به لهم من القطع الأدبية »

مهلول المرهق

هذا هو رأى عبد القادر حمزة فى الترجمة ؛ فما الذى نخرج به من هذا الرأى المتعلق بعبد القادر حمزه المترجم ؟

نخرج من هذا الرأى بالنتائج الآتية :

أولاً — يرى الفقيد أن الترجمة تنقل الفكرة ولا تنقل الصياغة

ثانياً — إن الفكرة أشبه بالهيكل العظمى ، وإن الصياغة أشبه باللحم والدم؛ فالترجمة ليست إلا تجريداً للنتاج من اللحم والدم

ثالثاً — إن الترجمة تتطلب فهماً للنتاج المنقول ، والفهم يتطلب دراسة الزمن الذى قيل فيه هذا النتاج ، والبيئة التى وجد فيها القائل، والعقلية التى أصدر عنها، والتقاليد والعادات والاعتقادات التى أثرت فيه فتأثر بها

رابعاً — إن الأدب لا يكون حياً إلا إذا امتزج بهـذه العوامل وكان وحياً منها

وضع الفقيد هذه القوانين الأربعة أمامه حين هم بالنقل من الأدب المصرى القديم ، ثم رأى فيها سبباً يجعل هذا النقل بمثابة تجريد للمنقول من هذه العناصر ، أو من اللحم والدم . . . فلماذا إذاً أقدم على النقل ، وهل نقل إلينا هيا كل عظمية تحقق النذير الذى أنذرنا به وخوّفنا منه ؟

كلا ... وإنما أعطانا « بيانات وتعليقات » نقلنا بها إلى العصور التى قيل فيها ما عربه لنا ؛ وتواضع فقال إن هذه البيانات والتعليقات هى على قدر ما فى استطاعته وفى حدود دراسته

وشىء أجل قدراً قام به ولم يشر إليه ، هو توفره قبل النقل على دراسة العقلية والعادات والتقاليد والاعتقادات التى كانت سائدة فى تلك العصور ، والتى سبق أن أشار إليها ، ثم لم يدر مدى التوفيق الذى أحرزه ، وخشى أن يكون هذا التوفر غير كاف ، وهذا التعمق غير بالغ به الأعماق ، فقال إنه محتاج إلى إعطائنا بيانات وتعليقات ، فى حين أن هذه البيانات والتعليقات إنما أفادت فى تهيئتنا لاستقبال نتاج هذه الآباد ، وأطلقت حولنا من بخور القدم ما خالط أنفاسنا ، فمشنا فى الجو الفرعونى ونحن نطالع نتاج تلك العصور ؛ أما الترجمة — ترجمة النصوص أو الأصول — فقد جرى فى هيكلها كثير من الدم القديم ، ورأينا بعين المخيلة لحما مقروناً بهذا الدم الغزير ، وشعرنا بالحياة تدب فى الهيكل ، وبالمنقول أدباً حياً نقله الفقيد فأحسن نقله . وهذه النتيجة التى تكاد تكون لوناً من الإعجاز لم تكن بسبب البيانات والتعليقات وحدها، بل كانت وحياً من فهم الفقيد عقلية تلك العصور ، وإدراكه الكثير من عقائدهم وعاداتهم وتقاليدهم

نماذج وأمثلة وأسانيد

ولكى ترسخ هذه الحقائق فى أذهان القراء الذين يبحثون وراء الأسانيد لكل حقيقة يتصدون لها، أرى لزاماً على أن أقدم

إليهم أمثلة للبيانات والتعليقات، ونماذج من القطع الأدبية التي ترجمها الفقيد في مجلده الثاني الذي أرقب صدوره في القريب بكثير من التشوف والمصابرة

أراد الفقيد أن يترجم بعض القصائد والأغاني، فعرضت له كلمة «أخت» وكلمة «أخ»، فرأى أن يقدم بياناً لهذه التسمية، فلما قدم البيان وجده منطوياً على ما يتصل بالفكرة الخاطئة التي أرساها المؤرخون في الأذهان، فنمت واستقرت بفعل التكرار وعلى الأزمان، فكرة أن الأخت كانت تتزوج من أخيها، فرأى الفقيد أن يكون له تعليق على البيان يجلو غامض الفكرة الخاطئة؛ ومن هنا جاءت عنايته بالبيانات والتعليقات، وجاء دور التعليق على الفكرة الشائعة؛ فقال رحمه الله:

* * *

«وهنا أستطرد قليلاً فأقول: إن إباحة زواج الأخت بأخيها كانت معروفة في الأسر المالكة لسببين: أولهما الحرص على الدم الشمسي، أي الدم الملكي، والثاني: أن حق البنت المولودة من أب هو ملك وأم هي ملكة في وراثة العرش، كان أقوى من حق الابن المولود من أب هو ملك وأم ليست ملكة، بحيث كانت الأخت في حالة كهذه هي التي تعتبر وريثة شرعية للعرش دون أخيها، ولهذا كان يقترن بها ليكون حقه في العرش شرعياً

«كان هذا هو المعروف في الأسر المالكة، أما في غيرها من عامة الشعب فلم تكن الحاجة ماسة إلى الحرص على دم شمسي، ولا إلى وراثة عرش، ولذلك يرى بعض العلماء أن القول بإباحة زواج الأخت من أخيها بين أفراد الشعب يجب أن يبقى محل تحفظ إلى أن تقوم عليه أدلة كافية، لأن جميع الحالات التي عرف إلى الآن أن أختاً تزوجت فيها بأخيها، هي حالات خاصة بالأسر المالكة»

أما وقد عرفت الآن مبعث تسمية «الحبيبة» و«الحبيب» بكلمتي «الأخت» و«الأخ» فالفقيد يقدم إليك صورة من غزل أحد الشعراء يشكو إعراض أخته عنه وصدها له، ثم يفكر في ألوان من الحيل عسى أن يظفر برؤيتها، فيقول:

«سأرقد في سريري متمارضاً

«فيعودني جيراني

«وتعودني أختي معهم

«وتفضحك أختي من أطبائي

«لأنها تعرف دخيلة مرضي!»

ويطيب للفقيد أن يقف بعد كل بضعة سطور ليقارن أو ليفاضل بين الأدب فيما قبل خمسة آلاف سنة والأدب الحديث في مختلف اللغات، بل الأدب العربي الذي درسناه، فيلفتك إلى أن تمني الحبيب أن تزوره حبيبته إذا رقد في سريره مريضاً أو متمارضاً شائع في عزّ الشعر العربي، كقول الشاعر:

ماذا عليكِ إذا خُبِّرْتِني دنفا رهن المنية يوماً أن تزوريني

... وإلى أن جهل الأطباء بمرض الحب شائع أيضاً كقول قيس بن ذريح:

عيدَ قيس من حب لبنى ولبنى داء قيس والحب داء شديد

وإذا عادني العوائد يوماً قالت العين: لا أرى من أريد!

ليت لبنى تعودني ثم أقضي إنها لا تعود فيمن يعود

ويمضي فقيدنا بشاعرنا المصري وتمنياته أن يكون الخاتمَ الذي تلبسه الحبيبة «الأخت» في أصبعها، أو إكليلَ الزهر الذي يطوق عنقها ويداعب صدرها، وهو لا يتردد في أن يسقيها — لو استطاع — شراب الحب ليحملها على أن تفتح بابها قليلاً وتسمح له برؤيتها، وحين لا يجد فائدة من كل هذا يتجه وجهة أخرى ليركب النيل إلى حيث الإله بتاح صاحب «الوجه الجميل» في ممفيس، ليتضرع إليه أن يهيء له رؤية أخته. وقبل أن يشرع الفقيد في الترجمة يهيء لك جوها ويعقد الصلة بينك وبين هذا المحب، ويعرفك أنه من أهل طيبة؛ فهو إذاً ركب النيل إلى ممفيس يكون (نازلاً) من مصر العليا، ويكون في نزوله سائراً مع التيار، وهذا أدعى إلى الإسراع، لأن السفن لم تكن تعتمد في ذلك الوقت إلا على الشراع أو المجذاف

وبعد أن يضني الفقيد نفسه في عقد أواصر هذه الصداقة بينك

وبين ذلك الجو القديم، يمضى بك إلى سطور أخرى ينقلها إليك على هذا كله، لتقرأ منها قول الشاعر:

« سأركب النيل نازلاً مع التيار
« وسأمضى مسرعاً
« وباقة من الريحان على كتفى
« وسأصل إلى مدينة عنخ تاوى (أى ممفيس)
« وهناك أقول للإله بتاح رب العدل:
« هيء لى أن أرى الليلة أختى!
« إن النهر خمر
« وأن بتاح لَبَابُه
« وأن سخمت (هى آلهة الانتقام أو الحرب) لبرديه
« وأن إزيت (معبود كان فى سمنود الحالية) لبرعومه
« وأن نفرتوم (ابن الإله بتاح) لأزهاره
« وفتحت ذراعيها لى
« شعرت كأن أزكى روائح بلاد العرب تغمرنى
« ثم إذا افترت شفتا أختى
« وأدنتهما منى وقبلتنى
« فذلك لى هو السكر من غير مسكر »

هذا نموذج من أدق النماذج، لأن المقائد فيه خالطت العرف وتصاعدت روائحها إلى أنف القارئ المعاصر.

وإلى هنا أقف راجياً أن أواصل هذا الحديث فى القريب، بل راجياً أن أصل بينه وبين مواجهة «عبد القادر حمزة الأديب» فى بضع حلقات تتألف منها سلسلة دراسات «مركزة»، فما أردت بهذا المقال «تركيزاً»، وإنما أردت أن أثير اهتمام الأدباء برجل يجده الناس كاتباً سياسياً لا ند له فى مصر ولا نظير، وجهلوه أديباً من طراز معين، أديباً مثرياً طائل الثراء فى طرائقه الخاصة، فى التفكير وفى الأسلوب، وفى الترجمة وفى الإنشاء

نعم، هى وقفة بهامش أدبه، فإلى اللقاء عند هذا الأدب

وليرحم الله عبد القادر حمزة، فلسوف يسمو ويزداد سمواً كلما تقادم العهد ومضت الأيام على وفاته

لقد كان تاريخاً، فمن حق الجيل دراسة هذا التاريخ

٤٦ ١٦ محمد السوادى

إعلان

تعلن وزارة المعارف العمومية (إدارة المبانى) عن حاجتها إلى استئجار مكان لمدرسة التجارة الراقية المزمع افتتاحها ابتداء من السنة الدراسية المقبلة بمدينة القاهرة يكون فى وسط المدينة وتتوافر فيه الشروط الصحية والتعليمية ويشتمل على ثلاثين حجرة كبيرة على الأقل تصلح فصولا دراسية ومكاتب للادارة عدا المرافق من دورة مياه ومصلى وفناء فسيح يسمح برياضة التلاميذ.

فعلى من يرغب فى تأجير منزله أن يقدم للوزارة طلباً بعنوان (حضرة صاحب العزة السكرتير العام) مشفوعاً برسم مبين عليه عدد الحجرات ومساحتها والمرافق الأخرى مع ملاحظة أن من يقع الاختيار على منزله يكون مستعداً لعمل الانشاءات والتعديلات المطلوبة إذا دعت الحاجة إليها. وآخر موعد لتقديم الطلبات هو آخر يونية سنة ١٩٤١. وللوزارة الحق فى قبول أو رفض أى طلب بدون إبداء الأسباب.

٨٢٧٣

الاسكندرية بعد الفاجعة

للأستاذ عبد اللطيف النشار

يا كُنْتَ مصطاف ريفيٍّ ومربعه
يا ثغرُ فى جنبات الريف تصطاف ؟ !

مهـــاجرون على الأنصار قد نزلوا
كِلاَ الفريقين رحبُ الساح مضياف

يا ضاحك السن ما العين دامعة … فى الصبر أجر والرحمن ألطاف
أم القرى حمدت من قَبْلُ هجرتَها … واستنَّ للخَلَفِ الباقين أسلاف
لعـلَّ فى تاركى دور محطمة … ملاذ أمن لمن ضلوا ومن خافوا
لعل فى الصبية الباكين أهْلَهُمُ … نصلاً له من خطوب اليُتم إرهاف
لعل فى دَمِنا الزاكى زكاة مُنىً … عِرْقُ الأمانى فى الأوداج نزّاف

ما حزَّ فى مهجتى خطب ألم بهـا
كالعجز عن صد من ضلوا ومن خافوا

كأننى مفرد فى الثغر مرتهن … بتُربه ولصوت الموت إرجاف

ما راعنى فيـه ما انقضَّتْ صـواعقه
بل راعنى أن خلا فى الصيف مصطاف

هذى الديار فأين الوادعون بها … لم يبق إلا سَمادِيرٌ وأطياف
(أضحت خلاء وأضحي أهلها احتملوا)

قف يا لسـانى فبعض القول إسفاف

لم يُخْنِ دهر عليها ـ لا ولا أبداً … مامثل أكنافها فى الدهر أكناف
ألفان تُملى على الدنيا محاسنها … وسوف تشهد آلافٌ وآلاف

عبد اللطيف النشار

أغنيـــة البلبل . . .

للأديب محمود السيد شعبان

طَافَ فِي قَلْبِي نَشِيـدٌ … بِالْمُنَى يَمْـلأُ نَفْسِي !
وَأَنَا الْيَائِسُ يَا بُلْبُـلُ … مَا بَـدأَ يَأْسِي
هَذِهِ كَأْسِي ! ... فَهَلْ … يُرْضِيكَ أَنْ تَفْرَغَ كَأْسِي؟
لاَ غَدِي يَضْحَكُ لِي فِيهَا … وَلاَ يَرْجِعُ أَمْسِي !

* * *

أَيُّهَا الْبُلْبُلُ ! ... إِنِّي … ظَامِئٌ فَارْوِ لَهِـانِي
هَاتِ لِي مَا شِئْتَ … يَا سَاحِرُ مِنْ لَحْنِكَ هَاتِ
وَأَدِرْ كَأْسَكَ بِالْحُبِّ … لِتَحْيَا فِيــهِ ذَاتِي
سَوْفَ يَفْنَى الْجَسَدُ … الْبَالِي وَتَبْقَى صَبَوَاتِي !

* * *

أَيُّهَا الْبُلْبُلُ ... ! خُذْ أُغْـ … رُودَةَ الْمُشَّاقِ عَنِّي !
وَتَعَـلَّمْ كَيْفَ تَحْيَا … لِلْهَوَى الْعُذْرِيِّ مِنِّي
عِشْهَا فِي الْقَلْبِ مَهْجُو … رٌ ... وَلَـكِنِّي أُغَنِّي !
وَأَنَا الشَّـاعِرُ يَا … بُلْبُل دُنْيَاهُ التَّمَنِّي !

* * *

فِي مَغَانِي الْحُسْنِ يَا … بُلْبُلُ هَا نَحْنُ الْتَقَيْنَا !
مَا عَلَيْنَا إِنْ مَلأْنَا … الـكَوْنَ سِحْرًا مَا عَلَيْنَا؟
الْهَوَى مِلْكُ صِـبَانَا … وَالصِّبَى مِلْءُ يَدَيْنَا !
فَدَعِ الأَلْحَانَ يَا … بُلْبُلُ تَرْوِي شَفَتَيْنَا !

* * *

الْهَوَي يَا عَابِدَ الأَلْـ … حَانِ كَأْسِي وَشَرَابِي !
وَالْمُنَي يَا عَاشِقَ الأَوْ … هَامِ هَمِّي وَعَذَابِي !
وَأَنَا ... فِي مَوْكِبِ الْحِرْ … مَانِ وَدَّعْتُ رِغَابِي !
الْمُنَى حُـلْمُ فُؤَادِي … وَالأَسَى لَحْنُ شَبَابِي !

* * *

كُلُّ صَدَّاحٍ عَلَى الأَيْـ … كِ يُحَيِّيهِ حَبِيبُ !
وَأَنَا بَيْنَ الْوَرَى فِي … هَـذِهِ الدُّنْيَا غَرِيبُ
لَيْتَهَا يَا بُلْبُلِي يَوْ … مًا لِنَجْوَايَ تُجِيبُ !
ذَهَبَ الْعُمْرُ ... وَمَالِي … مِنْ لَيَالِيهَا نَصِيبُ !

* * *

أَنَا يَا بُلْبُلُ فِي دُنْـ … يَايَ أَحْلاَمُ شَرِيدِ
أَنَا لَحْنٌ حَائِرٌ بَيْـ … نَ سَمَاوَاتٍ وَبِيدِ !
أَنَا مَغْنِيٌّ مِنْ شَفَا … ءِ الرُّوحِ فِي قَلْبٍ سَعِيدِ !
اللَّظَى مَهْدُ فُؤَادِي … وَالصَّدَى وَحْيُ نَشِيدِي !

* * *

غرَّبتْني طالَتْ عنِ الرُّو ح ... فَرُدِّيني لِنفسِي !
لَمْ يَعُدْ يُنشِدُ قِيثا رِي وَلاَ تضحكُ كأسِي
أنا مِنْ بَعدِكِ ضَيَّعْـ ـتُ سُدًى يَومِي وَأمسِي
وَغدِي ؟ ... ضَلَّتْ إليْـ ـهِ النَّفسُ في ظُلْمةِ يأسِي

***

قُبلةٌ حَيْرَى عَلَى ثَغْـ ـرِي تُنادِي شَفتيْها !
مِلؤها شَوقٌ ولكنْ أينَ مَنْ يحنُو عليها ؟ ؟
وَيدٌ كلُّ مُنَاها رَقْدةٌ بينَ يَديْها !
أنا يا بُلبُلُ منها قَبَسٌ حَنَّ إليها !

***

نحنُ يا بُلبلُ كأسا نِ مِنَ الحُبِّ مُلِئنا !
نحنُ سِرَّانِ جَريحا نِ التقيْنا فهَنِئْنا !
نحنُ لَحنانِ حَبيبا نِ إلى مَهْدِكَ جِئنا !
الغَرامُ العَفُّ ما شِئْـ ـتَ مِنَ الدُّنيا وَشِئنا

***

باركِي وَحدةَ صَدَّا حٍ أمانِيهِ شَقاهُ !
كلّما أضنَاهُ يأسٌ عادَهُ منكِ رَجاهُ !
وَخُذِيهِ مِلْءَ دُنياكِ نَشيدًا يا سَماهُ !
هُوَ في الحُبِّ فَناهُ وَمِنَ الحُبِّ بَقاهُ !

***

ها هُنا مَعبَدُ حُسنٍ لَمْ يُفارِقْهُ سَناهُ
التقَتْ فيهِ صُدورٌ وَارْتَوتْ فيهِ شِفاهُ !
وَتلاقَى عِندَهُ العُشَّا قُ ... كلٌّ وَهَواهُ !
فتعالَيْ يا هُدَى رُو حِي نَكُنْ نحنُ حُلاهُ !

***

ها هُنا أيكُ أغا رِيدَ وَأعشاشُ قُلوبِ !
ما أرَى فيها سِوَى إلْـ ـفَيْنِ كالّلحنِ الطَّرُوبِ
هاتِ لي زادي مِنَ الحُسنِ وَقيثاري وَكوبي
إنْ يَكُنْ حُبُّكِ ذنبًا فأنا أهوَى ذُنُوبِي !

***

ها هُنا هَيكلُ حُبٍّ لِلمُصَلِّينَ مُباحُ !
سَجَدَتْ فيهِ جِباهٌ وَالتقَتْ فيهِ جِراحُ !
إنَّ ألحانَكَ يا بُلبُلُ لِلعُشَّاقِ راحُ !
فَعَلَى رِسْلِكَ ... قَدْ طا شَ بِهِمْ منكَ مِراحُ

***

ها هُنا ... كَمْ نَعِمَ القَلـ ـبُ بأحلامِ اللِّقاءِ !
يا لَيالِيها ! ... لَقَدْ طا لَ عَلَى الدُّنيا شَقائي !
أنا مَنْ خَلَّفْتُ لِلحِرْ مانِ أوهامِي وَرائي
وَدَوَتْ في نَفْسِيَ الحَيْرَى أغارِيدُ هَنائي !

***

يا فَتاتي ! ... كيفَ يُرْضِـ ـيكِ شَقائي يا فَتاتي ؟
في دَمِي شَوقٌ يُنادِ يكِ : تَعالَيْ يا حَياتي
أنا في مِحرابِكِ الطّا هِرِ طالَتْ بِي صَلاتي
فَدَعِيني ساعةً فيـ ـهِ أبارِكْ صَبَواتي !

***

هذِهِ قِيثارةُ الحُبِّ تُغَنِّي في يَميني !
فَدَعيني أطرِبِ الدُّ نيا بِنَجواكِ ... دَعِيني
وَأنا النّاسِكُ يا رُو حِي وَنُسْكي فيكِ دِيني
صَلَواتِي بَعضُ أشوا قِي وَأوزارِي حَنيني

***

أنا أُغرودةُ أيّا مِي وَقيثارةُ عَصرِي
أنا وَحدِي شاعِرُ الحُبِّ وَمَنْ لِلحُبِّ غَيري ؟
تَنفَدُ الدُّنيا وَلا يَنْـ ـفَدُ يا حَسناءُ شِعرِي
وَيَجِفُّ الزَّهرُ إنْ عا شَ وَلا يَذْبُلُ زَهري

***

أنا لِلأشواقِ يا أُنشودةَ الرُّوحِ وَقُودُ !
شاعِرٌ أحْيَتْهُ في دُنيا الأمانِيِّ وُعودُ !
أبدًا نجواهُ ألحا نٌ وَدَعواهُ سُجُودُ
هُوَ إنْ غِبْتِ فَناهُ وَإذا عُدْتِ وُجودُ !

***

يا حَياةَ القلبِ ! ... قَدْ طا لَ إلى سَعْدِي حَنِيني
وَأنا وَحدِي ! ... فإنْ شِئْـ ـتِ إلى حُبِّي خُذِيني
هذِهِ دُنيايَ ! ما لِي في الأسَى ضاعَتْ سِنيني ؟
سَئِمَتْ رُوحِي مُناها فإذا مِتُّ اذكُريني !

(القاهرة) محمود السيد شعبان



حول إصلاح الأزهر

ظهر فى العدد (٤١٥) من مجلة « الرسالة » الغراء كلمتان فى إصلاح الأزهر : إحداهما لفضيلة الأستاذ الدنى ، والثانية لفضيلة الأستاذ عبد الآخر . فأما الكلمة الثانية ، فيرى كاتبها أن فضيلة الأستاذ المراغى نفذ الإصلاح الذى وضعه ، وذلك بتنقية الكتب الأزهرية وتهذيبها وتحسين طريقة عرضها والكتب الأزهرية لا تزال على حالها ، وكاتبا يعرف أن الفساد متغلغل فيها بحيث لا يفيد فى علاجه تنقية ولا تحسين عرض . وأما مسألة انصرافنا إلى الوظائف وما إليها ، ففضيلة الأستاذ عبد الآخر أدرى الناس بها، وفضيلته يعرف (مسألة العرائض) التى كادت تقضى على عهد الإصلاح لولا لطف الله تعالى

وأما كلمة الأستاذ المدنى ، فهى متفقة مع كلمتي الأولى كل الاتفاق ، وإن حاول الأستاذ الدنى أن يهون من أمر الرجعيين المعارضين للاصلاح . وعجيب أن يهون من أمرهم ولهم فى كل وقت ثورات عنيفة على كل من يحاول تجديداً فى بعض الأحكام ، أو يريد فتح ذلك الباب المغلق على الاجتهاد من قريب أو بعيد ، وهم إذا قاموا بتلك الثورات يقوم وراءهم جنود مجندة من العامة وأشباه العامة ، ويقف طالب الإصلاح وحده لا معين ولا نصير . ولو كان أولئك الرجعيون يعتمدون فى ثورتهم على الدليل لهان الأمر ، ولكنهم لا يعتمدون فى ذلك إلا على التكفير ولا يفكرون إلا فى محاربة ما يعتمد عليه طالب الإصلاح من وسائل العيش ، وقد رأى الأستاذ الدنى كل هذا ببصره ، وسمعه بأذنه ، ولمسه بيده ، فكيف يهون بعد هذا من أمره ؟

« عالم »

بين عبد القادر حمزة والعقاد

قرأت فى العدد الفائت من « الرسالة » كلمة للأستاذ محمود الشرقاوى عن المغفور له الأستاذ عبد القادر حمزة باشا وأنا موافقه على كل ما ذكر للفقيد الكبير من خلال طيبات لمستها كما لمسها فى أثناء اشتغالى معه فى البلاغ من سنة ١٩٢٨ إلى سنة ١٩٣١ ؛ وفى خلال السنوات السابقة واللاحقة لهذا العهد وكنت فيها جميعاً على صلة طيبة بالراحل الكريم ...

وقد بعثنى هذه الصلة العزيزة إلى رثائه شعراً على صفحات البلاغ وأنا فى سرير المريض ممنوع من الجهد والتفكير ؛ إلا أن ذكر حقوق الراحلين لا يجوز أن يحملنا على غمط حقوق الأحياء وطمسها أمام التاريخ ، فالظلم ظلم الموتى وللأحياء سواء ...

يقول الأستاذ الشرقاوى فى موضع من كلمته القيمة : « ذلك الصراع الذى قام به عبد القادر حمزة وحده مواجهاً به ومتحدياً أقوى حكومة ... » . ثم يقول فى موضع آخر : « ولكن عبد القادر حمزة ظل يكافح فى كل يوم وحده حتى نخر الجبل الشامخ الراسخ ... »

وكلمة « وحده » هى الكلمة التى تجاوزت حد الحق ، فالراحل الكريم قد صنع فى هذا الكفاح الذى يشير إليه الأستاذ ما يصنع أصحاب الرأى الأبطال ، وقد كال جهاده بنجاح سيخلده تاريخ مصر السياسى وتاريخ الرأى والعقيدة ؛ ولكن يجب أن نذكر أن هناك قلماً آخر صنع الأعاجيب فى هذا النضال وعلى صفحات البلاغ أيضاً وفى نفس هذه الأيام ذلك هو قلم العقاد الجبار

بل لقد كان ذلك القلم هو أول قلم حمله صاحبه فى وجه « ديكتاتورية الرأى » قبل أن يأخذ البلاغ موقفه فى جانب المعارضة الصريحة أيام وزارة نسيم باشا ، وفى وقت لم يكن أحد — غير العقاد — يجرؤ على اتخاذ هذا الموقف المخيف فى جريدة روز اليوسف اليومية .

أما اجتماع القلمين على صفحات البلاغ بعد هذا بعام فقد وضع النهاية التى انتهت إليها المأساة . ولست أدرى : إن كنت اليوم بعد انقضاء هذه الأيام بخيرها وشرها فى حل من نشر شيء من أسباب التمهيد لاجتماعهما لم يعلم به كلاهما

كان العقاد قد ترك البلاغ وفى نفسه شيء زادته حوادث وقعت بعد خروجه ، كما جعلت شيئاً فى نفس صاحب البلاغ . وكنت أرى أن المعارضة لا تجتمع لها قوتها كاملة حتى

يجتمع هذان القلمان فى ميدان : هذا قلم يحطم ويزلزل كالصواعق والأعاصير ، وذلك يجادل ويحاور ويجمع الحجج الدامغة والأسانيد المفحمة ويسدد الضربة فى الصميم .

وفى يوم كنت عند العقاد فقلت : ... « ولم لا ترجع الآن إلى البلاغ ؟ » قال بكبريائه الشامخة المعهودة : « وهل أنا الذى تُطلب منى المودة ؟ » قلت : « إن صلتى بصاحب البلاغ تسمح لى أن أصنع شيئاً » فقال بحدة وكان قد لان عند السؤال الأول : لا . لا تصنع . فمهما كانت صلتك بصاحب البلاغ فإن صلتك بى أقوى . وسيقال : إن المَرْض جاء من جانب أحد أصدقائه » !

وانصرفت وفى نفسى أن الموقف يحتم اجتماع القلمين وأن لا بد لهما من الاجتماع ؛ وبقى أن أتفادى غضب العقاد

فتركت أياماً قليلة تنقضى وزرت الراحل الكبير فى جريدة البلاغ فى المساء حيث تكون فى مأمن من مشاغل العمل

ودار الحديث عن المعارضة ووجوب تنظيمها وتوجيهها ، وانسللت من هذا إلى أن أقول : « ولكن هناك قوة معطلة عن العمل وهذا وقتها » فقال : « تعنى الأستاذ العقاد ؟ » قلت : « نعم » قال : « ولماذا لا يعود ؟ إن البلاغ وكره القديم ! »

قلت : ولكنك يا سيدى تعرف العقاد وتعرف أنه مغضب من البلاغ ولا بد من شىء من جانب البلاغ » قال — رحمه الله — « إنك صديقه وأنت واحد كذلك من أسرة البلاغ وأنت مفوض منى فى قول ما تقول للأستاذ وفى صنع ما تراه باسمى » .

وتذكرت — حينئذ ما سيلقانى به العقاد وما سيظنه بى من الظانون ، وخفت أن تفسد الحيلة وأبديت هذه المخاوف للرجل العظيم ، فابتسم وقال : « وهو كذلك . دعنى أتصرف » وتصرف بالفعل ، واجتمع القلم الجبار والقلم الرصين على صفحات البلاغ .

ذلك طرف من التاريخ أذكره ، وصورة ذلك العهد حية ماثلة فى نفسى وفى نفس كل من تتبعوا ذلك الصراع العجيب فى تلك الأيام

سيد قطب

نيابة بعض الحروف عن بعض

جاء فى ختام الكلمة القيمة الموجزة للباحث المتمكن الأستاذ « ا . ع » ما يأتى :

« ولم أر فيما لدى من المراجع أن اللام تنوب عن الباء ، ولكنهم قالوا بنيابتها عن (فى) ... »

وأقول : إنها جاءت نائبة عن الباء فى قول أبى تمام من قصيدته السينية المشهورة يمدح أحمد بن المعتصم :

إن الذى خلق الخلائق قاتها أقواتها لتصرف الأحراس

قال الشراح : اللام بمعنى الباء ، والأحراس جمع حرس كدهر وزناً ومعنى

نعم إن أبا تمام من الشعراء المحدثين الذين لا يحتج بشعرهم ، ولكنه كان عالماً ضليعاً ، وراوية غزير المحفوظ ؛ فلا أقل من أن نستأنس بقوله كما استأنس به الأستاذ الكبير (ا . ع) فى تعدية الفعل « تفيأ » بنفسه . وأبو تمام أهل لهذه الثقة .

على الجندى

خطأ فقهى فى مجلة الأزهر

فى الجزء الأخير من مجلة الأزهر مقال بتوقيع مديرها الأستاذ محمد فريد وجدى ، يقول فى السطر الأول منه ما نصه :

« فى السنة السادسة من الهجرة أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه بأنه يريد العمرة ، والعمرة هى الطواف بالبيت فى غير وقت الحج ... الخ »

والخطأ فى الجملة الأخيرة ظاهر ، فإن العمرة ليست هى الطواف بالبيت فقط . وليست فى غير وقت الحج فقط ، والأستاذ المدير وإن يكن غير أزهرى أجل من أن يقع فى مثل هذا الخطأ ، ولعل مجلة الأزهر تعنى فى عددها المقبل بتصحيحه

(م ...)

حول مكتبة الحرم النبوى الشريف

بالعدد ٤١٥ نشرتم كلمة شاملة عن مكتبة الحرم النبوى الشريف بقلم مديرها الأستاذ أحمد يس الخيارى . وقد ذكرتنى كلمته برسالة بُلِّغتها وأمانة حُملتها ولما أؤدها فألفيت فى تفضلكم بالنشر أنسب فرصة لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة . وأكبر الظن أنكم مشاطرىّ فضل الأداء . والمساعد فى الخير شريك فيه .

كنت فى هذا العام ١٣٥٩ هـ مشرفاً على البعثة الأزهرية للحج والزيارة ، وكانت لى عناية خاصة بالبحث عن مدى الثقافة العامة فى الحجاز ممثلة فى مكتباته ولا سيما الحرمين الشريفين ، فلم يرعنى إلا أنها مكتبات ينقصها كثير من الكتب المختلفة ، وكثير من النظم المتنوعة فى حسن العرض وتيسير النفع وجمال الموقع ؛ ولذا لا يعرفها إلا قليل من الخاصة ولا ينتفع بها إلا أقل من القليل .

هذه مكتبة الحرم المكى لا تزيد فيما أظن على ألف مجلد فى علوم محدودة . وهذه مكتبة الحرم النبوى لا تزيد على ثلاثة آلاف مجلد، وهى على قلتها خير مكتبات الحجاز نظاماً وأكثرها نفعاً وذلك بفضل جلالة ملك الحجاز وحكومته وبهمة مديرها العامل النشيط . وقد كافنى أن أناشد أهل الغَيْرة على الحرمين وبخاصة فضيلة الأستاذ الأكبر ، وحضرة صاحب العزة مدير « دار الكتب الملكية » أن يساعدوا فى تكوينها وتغذيتها بمختلف العلوم والمعارف ولا سيما كتب التاريخ والأدب والعلوم الحديثة والمجلات الدينية والأدبية والفهارس المتنوعة .

وعلى مقربة من الحرم النبوى الشريف مكتبة هادئة ؛ ظريفة فى بنائها ونظامها أسسها شيخ الإسلام عارف حكمت سنة ١٢٧٠ هـ فى عهد السلطان عبد المجيد وتحتوى على عشرة آلاف مجلد تقريباً أكثرها مخطوط وكثير منها نادر؛ وقد رأيت فيها كتاب الأوائل للعسكرى وقد نسخ سنة ٣٩٥ هـ وكتاب المسافات وصور الأقاليم لابن سهل البلخى ونسخ سنة ٣٠٩ هـ وهو من خزانة العباسيين

وفى الحجاز مكتبات مدرسية وفردية لا بأس بها نذكر منها مكتبة دار العلوم الشرعية بالمدينة المنورة وهى مدرسة ناهضة تقوم على تبرعات الهند وتدرس القرآن الكريم وقسطاً من العلوم العربية والشرعية وتجمع إلى دراسة العلوم تعليم الصناعات المختلفة ، ومكتبة دار الحديث لمديرها شيخ الحرم المكى ، ومكتبة يشرف عليها قاضى القضاة وكلتاهما بالحرم المكى الشريف ، ومكتبة السيد نصيف بجُدّة ومنزله مثابة العلماء والباحثين . وقد تفضل أصحابها فأهدوا إلىّ طائفة من الكتب القيمة

ومجمل القول أن مكتبات الحجاز العامة فى أشد الحاجة إلى معونة الغير والمخلصين . وفى هذا بلاغ .

طه محمد الساكت

المدرس بمعهد القاهرة

الفقـــراء

LES PAUVRES GENS

(بقية المنشور على صفحة ٨٠٢)

فإذا ما اعتلج فى صـدرها الهم ، هبت مذعورة تجرى خلال الصخور وهى تسأل الأمواج ضارعة : « رديهم علىّ ! ! ... »

ولـكن وا أسفاه ! ماذا عسى أن يرد البحر الذى لا يبرح فى تقلب واضطراب ، على الفكر الذى لا ينفك فى تشتت وا كتئاب ؟

* * *

كانت « جانى » أشـد هماً وغماً من ترائبها جميعاً ؛ لأن زوجها وحيد فى جوف هذا الليل الشديد وتحت هذا الـكفن الأسود ؛ وأطفاله لا يزالون صغاراً فلا وزَر له فيهم ولا عون !

أيتها الأم ! إنك تقولين اليوم وأنت ترين أبامم وحيداً : ليتهم كانوا كباراً ! ولـكنك ستقولين غداً عندما ترينهم يذهبون مع الأب : ليتهم كانوا صغاراً ! »

— ٥ —

أخذت « جانى » مصباحها ورداءها وذهبت ترى : هل عاد الزوج ، وهل سكن البحر ، وهل أشرق الصبح ، وهل ومض النور فى سارية الإشارة ؟

ها هى ذى تسرع الخطى فى الطريق ، ولـكن هواء الصبح لم يهب ، وضياء الفجر لم يلح . وكانت السماء تمطر ؛ ولا تجد أشد ظلاماً من مطر الصباح ! كأنمـا كان النهار يضطرب مخافة أن يُوجَد ، وكأنما كان الفجر يبكى كالطفل ساعة يُولد !

* * *

وعلى حين فجأة لاح لعينيها وهما تتحسسان الطريق كوخ واهى الدعائم قاتم الأعماق فلا نور ولا نار . له باب لا يستقر من الريح ، وعليه سقف لا يسكن من القلق ، ومن فوقه تعبث الريح الصرصر بهشيم من القش الأصـفر الـكريه المنظر ؛ فقالت « جانى » : « عجيب ! ما لى لم أفكر فى هذه الأرملة الفقيرة التى عثر عليها زوجى ذات يوم وهى وحدها تكابد غصص المرض ؟ ! لا بد أن أعودها لأنظر ما حالها ! »

قرعت جانى الباب وتسمعت فلم يجبها أحد . فقالت لنفسها وهى تنتفض من البرد : « لا تزال مريضة ؛ وأولادها ، لا ريب ، يقاسون سوء التغذية ! لم يبق للمسكينة غير طفلين ! » ثم طرقت الباب ثانية ونادت : يا جارتى ! يا جارتى ! فلم يرد عليها أحد . فقالت جانى : لقد أثقلها النوم فلا بد من تكرار الطرق ومعاودة النداء . ولـكن الباب فى هذه اللحظة أدركته نفحة من عناية الله فانفتح من ذات نفسه !

— ٦ —

دخلت جانى الـكوخ المظلم الصامت ونور مصباحها يسعى بين يديها ، فوجدت سقفه كالغربال لا يمسك المطر ، ورأت فى صدره امرأة هامدة لا تَنبِض بها ولا حس ! قدماها عاريتان ، وعيناها مظلمتان ، وهيئتها فظيعة . كانت هذه هى الأم المرحة التى قضت حياتها الأولى فى بهجة وقوة ، فلم تزل الأيام والآلام تعرُكها وتبريها حتى لم يبق منها غير هذا الهيكل . كانت إحدى ذراعيها قد تدلت على جانب الفراش الخشن ، وكان فمها المفغور ينبعث منه الرعب بعد أن لفظ الروح وهى تصيح صيحة الموت إذا سمع نداء الأبد

وعلى مقربة من سرير الميتة كان طفلان ذكر وأنثى ينامان باسمين فى مهـد واحد . وكانت الأم حين أحست دبيب المنية قد وضعت معطفها على قدميهما ، وثوبها على جسميهما ، حتى يحسا الدفء فى الساعة التى تسرى فى جثمانها برودة الموت !

— ٧ —

كان الطفلان ينامان ملء الجفون فى مهدهما النابى القلق ؛ وكان المطر يهدر خارج الـكوخ هدير السيل ، والسقف المتيق يُساقط الحين بعد الحين على جبين الميتة قطرة ، فتسيل على خدها الشاحب فتكون عَبرة ؛ وكان الموج يصلصل كناقوس الخطر ، والميتة تتسمع فى الظلام والسكون فى هيئة الأبله ؛ لأن الجسم متى فارقته الروح بدت عليه حال الباحث عنها . وكأنك تسمع هذا الحوار بين الفم الذابل والعين الحزينة :

تقول العين للفم : ماذا صنعت بزفراتك ؟

ويقول الفم للعين : وماذا صنعتِ أنتِ بنظراتك ؟

* * *

وا أسفاه ! عيشوا أيهـا الناس وأحبوا ، وارقصوا ، واضحكوا ، واقطفوا الزهور ، وارشفوا النور ، واحرقوا القلوب ، وأفرغوا الـكؤوس ، فإن الله قد جعل مآل كل لذة إلى القبر ، كما جعل مآل كل نهر إلى البحر !

— ٨ —

ماذا صنعت جانى عند الأرملة الميتة ؟ ماذا تحمل تحت ردائها الضافى وهى تمشى ؟ لماذا يخفق قلبها وتسرع خطاها ؟ لماذا تعدو فى الطريق ولا تجرؤ أن تلتفت ؟ أى شيء تضمه فى الظلام خفية على السرير ؟ ليت شعرى ماذا سرقت جانى ؟

— ٩ —

عادت جانى بما تحمل إلى بيتها ، ثم وضعت كرسياً بجانب السرير وجلست عليه ساهمة الوجه كأنما تمانى وخز الضمير . ثم ضاق ذرعها بما تجد فألقت جبينهـا على حافة السرير وأخذت تتمتم بهذه الكلمات المتقطعة :

واحسرتاه عليك يا زوجى المسكين ! رباه ! ماذا عسى أن يقول ؟ ألا يكفيه ما يحمل من الهم ؟ وهل فضَل كَدْحه المرهق عن قوت أطفاله الصغار حتى أثقل كاهله بهذا العبء الجديد ؟

أهو هذا ؟ كلا ! لا شيء . لئن ضربنى زوجى لأقولن له : حسناً فعلت

أهو هذا ؟ كلا ! حسن ! إن الباب يتحرك كأن إنساناً دخل ، ولكن لا

رباه ! مالى أصبحت الآن أخشى عودة زوجى ؟

ثم اعتراها الوجوم فظلت ساهمة تغوص فى الهم كما يغوص الغريق فى اللجة ؛ ثم فقدت الشعور بالدنيا فلم تسمع فى الخارج حركة ولا نجمة

* * *

انفتح الباب فجأة فانسكب فى الكوخ شعاع أبيض ، ثم لاح الصياد على العتبة يجر شبكته وهى تقطر من البلل ويقول بلهجة المبتهج : تلك مهنة البحر !

— ١٠ —

رأت جانى زوجها فهتفت به وعانقته عناق الحبيب . وكان الزوج فى أثناء ذلك جذلان يقول : هأنذا يا امرأتى ! ثم ينعكس على جبينه الذى يضيئه نور الكانون، قلبُه المسرور الطيب الذى يضيئه حب جانى

— كيف كان الجو ؟ — كان قاسياً . وكيف كان الصيد ؟

— كان سيئاً ! ومع ذلك أجدنى قد وجدت السرور والراحة حين قبلتك !

لقد خرقت شباكى ولم أصد شيئاً ! ما كان أهول ذلك الجو ! لقد كان يخيل إلىّ أن الشيطان ينفخ فى الهواء ، وأن السفينة المضطربة توشك أن ترقد فى الماء !

— وأنت ماذا صنعت فى هذا الجو القاسى ؟

فاستقلت الرعدة جانى وقالت :

— أنا ؟ لا شيء . لقد كنت أخيط كالعادة ؛ وكنت أسمع البحر يزمجر كالرعد فتدركنى روعة شديدة

— أجل إن الشتاء شديد ؛ ولكن الزمن كله فى حياتنا سواء !

ثم قالت جانى وهى تضطرب اضطراب من فعل شرا :

— إن جارتنا الأرملة قد ماتت . ولعل موتها كان فى عشية الأمس بعد أن خرجت أنت . لقد تركت طفلين صغيرين : غليوم ومادلين . ذاك يحبو ولا يمشى ، وتلك تتمتم ولا تبين . لشد ما كابدت هذه المرأة الصالحة برحاء الهم والفقر !

* * *

فلما سمع الرجل هذا الخبر اتخذ هيئة الجد ورمى بقبعته المبللة فى كسر الكوخ ثم قال وهو يحك بأظفاره جلدة رأسه :

— يا للشيطان ! إن لنا خمسة أطفال فهل يصبحون سبعة ؟ إننا فى هذا الفصل الشديد نقضى بعض أيامنا على الحساء فماذا نصنع ؟ ليس الذنب ذنبى ؛ إنما هى مشيئة الله . إن من الحوادث ما يحار فى تعليله الفكر . لماذا حرم الله هذين الطفلين أمهما وهما فى هذه السن وهذه الحاجة ؟ لا جرَم أن أعمال الله لحكمة ، ولكنها كثيراً ما تخفى على غير البصير

اذهبى يا جانى فأتى بهما . إنى لأخشى أن يستيقظا فيستشعرا الخوف من وجودهما وحيدين مع الميتة

إيتى بهما يا جانى نخلطهما بأبنائنا ، ونشركهما فى سرائنا ، وأنا واثق أن الله سبحانه وتعالى سيرزقنا من حيث لا نحتسب ، ويبارك صيدنا فنكتسب أكثر مما كنا نكتسب

ماذا بك يا جانى ! أهذا يغضبك ؟ مالك لا تسرعين إلى تنفيذ رغبتى كالعادة !

فلم يكن جواب جانى إلا أن كشفت الستار وقالت متهللة :

« هاهما ذان ! ! »

احمد حسن الزيات

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)

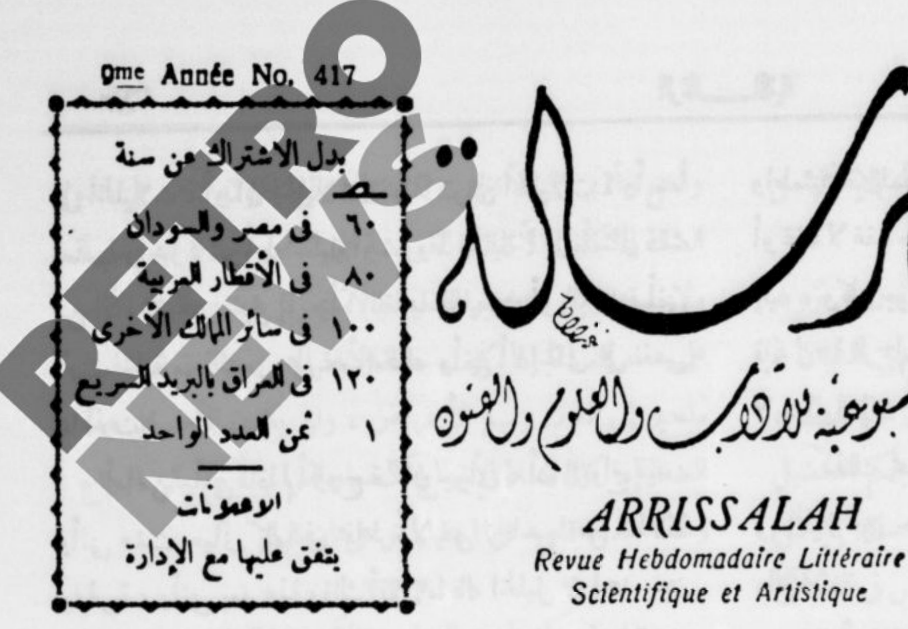


9me Année No. 417

Lundi - 30 - 6 - 1941

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠



بدل الاشتراك عن سنة
مصـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

العـــدد ٤١٧ « القاهرة في يوم الإثنين ٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٠ — الموافق ٣٠ يونية سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــرس

صفحة

في الـــزواج

للأستاذ عباس محمود العقاد

بعد القصص الغرامي أو قصص الحوادث الأخاذة، لا أحسب أن الجمهرة الغالبة من القراء يهتمون بموضوع عام كاهتمامهم بالموضوعات الاجتماعية التي لها مساس بالرزق أو مساس بالعلاقات بين الجنسين ، وعلى رأس هذه الموضوعات الحب والزواج ؛ لأن الأمر في هذه الموضوعات وما إليها لا يقتصر على الأفكار المجردة أو البحوث الأفلاطونية التي يشتغل بها الدارسون وأصحاب النظر والتأمل دون غيرهم ، ولكنه يشمل المسائل اليومية التي تعرض لكل إنسان في حياته الخاصة ، وينتقل إلى المحسوسات التي لا محيد عنها لمفكر ولا غير مفكر ، والتي يعيش المرء مائة سنة وهو خلو من التفكير في شأن من الشؤون المجردة ، ولكنه لن يخلو من معاناتها والانغماس فيها بحال

لهذا عرضتني الكتابة في موضوع الزواج لكثير من الطرائف التي تصلح للفكاهة كما تصلح للدرس والعناية . ومنها أنني سئلت لماذا لم أتزوج ؟ وسئلت هل من حرج على المصرية المسلمة أن ترضى الزواج بالأجنبي الذي يحبها ويدين بالإسلام لأجلها ؟ وسئلت : ما هو الفرق بين المرأة التي يرتضيها الرجل حليلة والمرأة التي يرتضيها خليلة ؟ وهل معنى هذا الفرق أن الحليلات مفضلات

على الخليلات ، أو أن الخليلات مفضلات على الحليلات ؟ وأيهما أصعب وأندر : شروط الحليلة أو شروط الخليلة ؟ إلى أمثال ذلك من الأسئلة التي خيل إلى وأنا أتلقاها بالتليفون أو بالبريد ، أنني أثرت خلية من النحل على غير عمد ، وأنني أنا الجاني على نفسي بما أثرت !

أما من سألني لماذا لم أتزوج فكان جوابي له أن الزواج قيد ، وأنني عشت حياتي كلها في مخاطرة لا غنى لصاحبها عن الطلاقة والحرية ، وأنني بعد هذا وذاك أقول ما قاله الخليل بن أحمد حين سئل في قرض الشعر ، فأجاب : إن الذي يرضاه من الشعر لا يجيئه ، وأن الذي يجيئه منه لا يرضاه !

وأما المصرية المسلمة التي يبنى بها الأجنبي المسلم فلا حرج عليها فيما أعلم . ولست أنا من المتشددين في منع السلالات الإنسانية أن تمتزج على السنة المرضية . بل قد مضى لي زمان كنت أصف فيه لقاح الجنس المصري والأجناس القوية علاجاً من داء الركود والضوى

وأما الفرق بين شروط الحليلة وشروط الخليلة فالتمثيل هنا أجدى من الإفاضة في التحليل : الفرق بينهما كالفرق بين شروط البيت وشروط الفندق ، أو كالفرق بين مطالب الإقامة ومطالب السياحة ، أو كالفرق بين دوافع الطبيعة وروابط الهيئة الاجتماعية ، أو كالفرق بين الواجب والهوى وبين الدرس والقصيدة ... ومن لم يفهم الفرق بينهما من هذا التمثيل ، فما هو بفاهمه من الإفاضة في التحليل

على أنني تلقيت من الأسئلة في موضوع الزواج ما هو أقرب إلى الجديات والشئون الجوهرية ، ومنها السؤال عما يزعمه الزاعمون قسوة من الشريعة أو العرف على المرأة الخائنة ، وإجحافاً منها في التمييز بين حقوق الرجال وحقوق النساء

ورأيي أنا أن المرأة أسعد حظاً في مسألة الخيانة من الرجل بحكم الطبيعة التي لا حيلة لأحد فيها . فمن الإنصاف أن يكون الرجل أسعد حظاً في مسألة الخيانة بحكم العرف والشريعة

فالرجل يخون المرأة التي يحبها ، ولكنه لا ينسب إليها ولداً من غيرها ، ولا يستطيع أن يخدعها في صدق أمومتها لأبنائها ، وهذا ضمان عظيم لا يظفر الرجل بنصيب منه بالغاً ما بلغ حرصه واطمئنانه . ولكن المرأة تسلط على الرجل عذاباً لا عذاب مثله ، أو غفلة لا غفلة مثلها ، كلما خانته وجاءته بولد من غيره وهو منسوب إليه ، وكل جور من العرف أو القانون في التمييز بين الجنسين ، فإنه لرجحة الرجحات بالقياس إلى هذه المزية التي ضمنتها المرأة ضماناً لا يتطاول إليه عرف ولا قانون

كذلك يحق للمرأة أن تلوم الطبيعة قبل أن تلوم الشريعة في التمييز بين حقوق الرجال والنساء ، أو بين حقوق الذكور والإناث .

فالمرأة إذا حملت لم تحمل مرة أخرى في بطن واحد ، ولكن الرجل ينسل مئات المرات وهي لا تنسل إلا هذه المرة الواحدة . فليس من الطبيعي إذن أن يطالب الرجل بالوفاء الجسدي الذي تطالب به المرأة ، وليس هذا من مقتضيات حفظ النوع ولا من مقتضيات تركيب البنية الجسدية

ويحق للمرأة أن تلوم الطبيعة قبل أن تلوم الشريعة في ناحية أخرى من نواحي التفرقة بين الجنسين ، وهي شيخوختها وفقدانها المزية الجنسية قبل أن يفقدها الرجل بعشرات السنين ، لأن الولادة تجهدها وتضنيها وتجور على محاسنها وقواها

على أن الطبيعة قد عوضتها عن هذا أنها تستغرق في الجنس وتستغرق في الحب وتستغرق في الأمومة ، فهي تأخذ في أربعين سنة من نصيب الشواغل الجنسية وشواغل النسل ما ليس يأخذ رجل في ثمانين ، لانصرافه إلى ما عدا ذلك من فروض الحياة .

***

وبحث آخر قد حركته الأسئلة التي أثارتها كتابتي عن موضوع الزواج ، وهو تشجيع الزواج بالقوانين أو بفرض الضرائب على العزاب

وعندي أنه رأي خاطيء من شتى الوجوه ، لأنه يستبقي عيوب الزواج التي ينبغي أن تزول ، ولعلها لا تزول إلا بالإعراض عن الزواج في بعض الأحوال

مثال ذلك عيب المغالاة بالمهور ، فلو أن القوانين أكرهت الناس على الزواج لبقي هذا العيب ولم يشعر أحد بضرورة العدول عنه كما شعر الأكثرون في مصر من جراء الإعراض عن مرهقات الزواج وفي مقدمتها المهور . ولقد بلغ من شعورهم به

أن بعض الموسرين جعلوا من أنفسهم قدوة للفقراء بالإقلال من قيمة المهر حتى نزلوا به إلى دراهم لا تتم الدينار

ومثال ذلك عيب الإغراق فى الحجاب والتهاون فى تزويد الشابات بمحاسن التعليم والتجميل التى ترغب فيهن الشبان . فلولا الإعراض عن الزواج حيناً لما التفت أحد إلى هذا العيب ، ولوجب على الشاب أن يتزوج بحكم القانون لا بحكم التفضيل والاستحسان . وهل يجئ التفضيل والاستحسان إلا من التنافس فى الفضائل والحسنات ؟ وهل يجئ التنافس فى الفضائل والحسنات إذا أكره الناس على الزواج وكان الباعث لهم إليه أنهم يفرون من وطأة الضرائب وفرائض الإلزام ؟

ومثال العيوب التى يبقيها التشجيع على الزواج بالدوافع المصطنعة والزواجر القانونية عيب العرف الذى تنبعه الفتيات فى تفضيل شاب على شاب وصناعة على صناعة

فالقانون يفرض الضريبة على الشاب الذى لم يتزوج ولا يفرض مثلها على الفتاة التى ترفض هذا الفتى لأنه تاجر وليس بموظف ، أو ترفض فتى غيره لأنه موظف وليس بضابط ، أو ترفض فتى آخر لأنه سيقيم فى الأقاليم ولا ينوى الإقامة فى العواصم ، وليس هذا من العدل فى التشريع ، ولا هو من مصلحة الفتيات أو مصلحة الزواج .

والأولى بالشرائع أن تعنى بأمرين هما خير من العناية بالإكراه على الزواج ، إذا كان الغرض من الإكراه على الزواج زيادة النسل وقلة الفساد :

الأولى بالشرائع أن تعنى «أولاً» بتصحيح أجسام المولودين وتصحيح أجسام الآباء والأمهات قبل الزواج

فلو أن ألفاً من المرضى والعجزة والفاشلين تزوجوا ورزقوا البنين والبنات لما كان هذا مانعاً أن يموت معظم المولودين فى سن الطفولة ، وأن يعيش من يعيش بعد ذلك أفشل مما عاش الآباء والأمهات

وخير من هذا أن تتحرى الصحة فى طلاب الزواج ، وأن تتحرى التربية التى تصون حياة الأطفال من عبث الجهل والإهمال

والأولى بالشرائع أن تعنى «ثانياً» بتبغيض الناس فى الفساد لا بمجرد الحجر عليهم وهم يشتهونه ويقبلون عليه

وإنما يصبح الفساد بغيضاً إذا كانت الاستقامة أطيب منه وأمتع وأدنى إلى الأنفس والأيدى ، ولن يكون الأمر على هذه الصفة إذا كانت الأخلاق المفروضة على الناس أخلاقاً غير معقولة ولا مستندة إلى سند غير التقليد والاستمرار ، ولن يكون الأمر على هذه الصفة إذا كانت بطالة الأغنياء وعوز الفقراء دافعين ملحين إلى الترف وبيع الأعراض ، ولن يكون الأمر على هذه الصفة إذا كان فساد الأزواج كفساد العزاب ، ولم يكن الزواج وحده عصمة لذويه على اختيار أو على اضطرار

***

وبعد فقد كتبنا عن الزواج مقالاً بعد مقال ؛ فهل نستطيع أن نكتب فى هذه المسألة الاجتماعية الإنسانية على الأسلوب الذى كتب به برتراند رسل الإنجليزى، وليون بلوم الفرنسى، وغيرهما من كتاب أوربا الوسطى ؟

أما أنا فأستطيع !

وأما الشك كل الشك فهو فى استطاعة كثير من القراء الشرقيين أن يستمعوا لآراء كتلك الآراء ، ولو ليخالفوها أو يتبينوا ما فيها من الأخطاء !

عباس محمود العقاد

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

كلام ينفع ! — فائدة تاريخية — أساطير الأولين — اختراع الأحاديث — محاربة الوثنية — الحصار الفني في الإسلام — إلى معالي وزير الأوقاف — أجيبوا ، يا أصدقاء الرسالة — الأمواج — بلد الأستاذ أحمد أمين — بين الرسالة والثقافة — أيام وأيام — يوم البعث

كلام ينفع !

لقيني بعض الأصدقاء وهو منزعج أشد الانزعاج ، فقلت : ماذا بك ؟ فأجاب : صديق فلان كان يلقاني في كل يوم ، ثم انقطعت عني أخباره منذ أيام ، وأنا أخشى عليه كوارث هذه الأوقات السود

فقلت : هل كان يحاول الانتفاع بجاهك في شأن من الشؤون ؟

فقال : وما الموجب لهذا السؤال ؟

فقلت : إن كان ذلك فلا تضجر ولا تنزعج ، ولا تتوهم أن سيارة داسته ، أو أن قنبلة سقطت عليه ، وإنما يجب أن تسر وتفرح ، لأن انقطاعه عنك ليس إلا أمارة على أن تعبك في خدمته قد وصل به إلى ما يريد ، فاستغنى عن التودد إليك !

فقال : أكذلك يكون إخوان هذا الزمان ؟

فقلت : كذلك كان الإخوان من قديم الزمان ، وسيكونون كذلك إلى آخر الزمان !

فقال : ولكني مع ذلك مشتاق إليه أشد الاشتياق

فقلت : صبراً ثم صبراً ، فستشبع من رؤيته يوم يحتاج إليك ، وسيحتاج ثم يحتاج ، لأن الله كتب الفقر على من ينكرون الجميل

فائدة تاريخية

كان العرب يؤرخون بواقعة الفيل ، قبل أن يؤرّخوا بهجرة الرسول ، فكيف كانوا يؤرخون قبل هلاك أصحاب الفيل ؟

أرّخ الدميري هجوم أبرهة على الكعبة بأنه كان في أول المحرم سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة من تاريخ ذي القرنين

فهل يتفضل أحد كتاب (الرسالة) بتحقيق هذا التاريخ ؟

المعروف جيداً أن العرب قبل الإسلام قد اختلفوا في التوقيت ، وذلك يشهد بتأثرهم بالحركة العلمية عند المصريين والكلدانيين ، فهل يمكن الوصول إلى معرفة ما كانوا عليه في التأريخ قبل أن ترج أذهانهم واقعة الفيل ؟

والمعروف أيضاً أن العرب قبل الإسلام كانت لهم صلات قوية أو ضعيفة بأمم ذلك العهد ، وجرتهم تلك الصلات إلى وقائع لا تمر بدون ضجيج تتناقله الأجيال ، وإن مرت بدون تدوين يحدد مواقعها من التاريخ

على أنه ليس من المستغرب أن يكون العرب أرّخوا بموت ذي القرنين ، فقد كان له في أذهانهم صورة صخّابة ضجّاجة ، ولولا ذلك لسكت عنه القرآن ، لأن القرآن لم يذكر من حوادث التاريخ إلا ما كان له في أذهان العرب وجود برّاق ، ليتم الغرض من الاعتبار المنشود .

أساطير الأولين

و « أساطير الأولين » كلمة قرآنية يحكيها القرآن عن العرب الذين يطيب لهم أن يشككوا فيما رواه من أخبار القدماء وهذه الكلمة تشهد بأن جمهور العرب في تلك الأيام كان يملك ملامح من صور النقد الأدبي ، فقد كانوا بشهادة القرآن يقسمون الأخبار إلى قسمين : صحيح ومدخول ، وكان من سياستهم في مقاومة الدعوة الإسلامية أن يضيفوا أخبار القرآن إلى القسم المدخول فيجعلوها من أساطير الأولين . وما صدّق من عاندوا القرآن ، ولكن إصرارهم على مقاومته بهذا الأسلوب يشهد بما كانوا عليه من مكر ودهاء ، وهما من صور الذكاء

اختراع الأحاديث

والذي يراجع كتب التفسير وكتب الأخبار يعجب للثروة الأدبية التي سايرت قصص القرآن ، وهي ثروة لم تورث كلها عن عرب الجاهلية ، وإنما ابتدعها فريق من الجاهليين وفريق من الإسلاميين ، وهي في جملتها شاهد على براعة العرب في ابتداع الأسمار والأحاديث

ولو اهتمّ كاتب بتلفيق[1] ما اخترع العرب من الأقاصيص المتصلة بالسور القرآنية لكان لنا من ذلك « إلياذة » عربية

---

(١) المراد بالتلفيق ضم ما تناسب من الأخبار بعضها مع بعض

تفوق الإلياذة اليونانية ، وتشهد بأن العرب لا يقلون عن اليونان فى سعة التصور وقوة الخيال

فتى يوجد ذلك الكاتب ؟ ومتى نرجع لماضينا فنعرف ما كان فيه من تصاوير وتهاويل ، ليضعف الوهم القائل بأن نصيب العرب من التخييل قليل ؟

محاربة الوثنية

ولكن ما الذى دعا العرب إلى وقف تلك الحركة الفنية ، بحيث يُظَنّ أنهم أقل الأمم عناية بزخرفة الأخبار المتصلة بالدين ؟

يرجع ذلك إلى تأثرهم بالقرآن فى محاربة الوثنية ، وهذه الدعوة السليمة فى جوهرها كانت السبب فى صرف كثير من الأمم الإسلامية عن الزخارف الأدبية والفنية ، لأن الزخرف الأدبى والفنى لا يقوم إلا على التلوين والتزيين ، وذلك ممنوع فى نظر رجال الدين ، لأنهم يرون الافتتان فى زخرفة الأخبار الدينية أمراً لا يليق ، فقد يسوق الناس إلى الوثنية من حيث لا يشعرون

الحصار الفنى فى الإسلام

ما معنى هذا التعبير الغريب ؟

أنا مُقبل على عرض مسألة فنية كان لها تأثير فى تضييق نطاق الدعوة الإسلامية ، وما أحب أن يتهمنى أحدٌ بسوء النية ، فلى غرضٌ شريف أرجو به من الله الثواب

ماذا أريد أن أقول ؟

أقول بصراحة إن الإصرار على تجريد المبادئ الإسلامية من الزخارف الفنية كان له تأثير فى عرقلة الدعوة الإسلامية ، لأن الذين حرّموا التصوير وقاوموا الأساطير نسوا أن فى الدنيا ملايين لا تنقاد لأية فكرة دينية إلا إن كانت موشّاة بالزخرف والخيال !

ولهذا السبب ضاعت الفرصة فى إسلام الأمة الروسية ، حين فكرت فى اعتناق إحدى الديانات السماوية ، منذ بضع مئات من السنين

ظلت روسيا على عقائدها الوثنية إلى ما بعد ظهور الإسلام بأزمان طوال ، ثم بدا لها أن توازن بين المسجد والكنيسة ، فهالها أن ترى المسجد محروماً من البريق والرُّواء ، وراعها أن ترى الكنيسة تحفة من الفن المرصّع بغرائب الخيال

وسألت روسيا بعض علماء المسلمين عن قواعد الإسلام فكان أول ما سمعت هو القول بتحريم الخمر ، مع أن نبىّ الإسلام لم يحرم الخمر إلا بتلطف واستدراج

وكذلك كانت غفلة الدعاة عن سياسة القول سبباً فى منع الإسلام من دخول البلاد الروسية ، كما كانت خشونة المساجد من أسباب الانصراف عن هذا الدين الحنيف

وأقول أيضاً : إن الحكمة فى تجريد المساجد من الزخرف كان لها مكان فى بداية الدعوة الإسلامية ، فما مكانها اليوم ولم يبق أثر للخوف من رجعة الوثنية ؟

يجب أن يكون لمساجدنا نصيبٌ وافٍ من الزخارف الفنية ، ويجب أن تكون على جانب عظيم من الرونق والبهاء ، ويجب أن نشعر بأن جمالها يذكّر بجمال الفردوس ، لتكون الواحة التى نأنس إليها عند الفرار من هجير الشقاء فى طلب المعاش

ما هذا الأزهر القفر الموحش ؟

ألا تمتد إليه يد فتنقله من حال إلى أحوال ؟

وما جامع عمرو فى بلائه بالدنيا والزمان ، وهو أول مسجد أقيم فى هذه البلاد ؟

وما هذه الخرائب المنثورة فى الحواضر والدساكر على أنها مساجد ؟

أفيقوا من غفلتكم ، يا دعاة التقشف المدسوس على الدين ، وتذكروا مرة واحدة أن تجميل المساجد من أبواب الاقتصاد ، لأنه يغنى الناس عن تبديد أموالهم فى المشارب والقهوات ، وبأى حق تكون بيوتكم أجمل من بيوت الله ، إلا أن تكون نياتكم أقيمت فوق خرائب وأطلال ؟

إلى معالى وزير الأوقاف

وهو اليوم رجل بارع الأدب ، وافر الذوق ، متين الدين ، وكأنه صورة من محمد عبده أو عبد العزيز جاويش ، إلى الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا أوجه القول :

فى هذه الأيام — ولعل هذا من وحى خاطرك — أخذت وزارة الأوقاف تتأنق فى بناية العمارات المرصدة للاستغلال ، فلم يَعُد « بيت الوقف » كالذى كان فى ذهن حافظ إبراهيم وهو يداعب صديقه حفنى ناصف ، وإنما صار « بيت الوقف » بَنِيّة تنافس بَنِيّة « الجراند أوتيل » فى باريس ، وصار طلاب المنافع عن طريق العمارات الشواهق يخشون منافسة وزارة الأوقاف

فهل ترى من الخروج على عنجهية بعض المشايخ أن يكون

فى كل حاضرة مسجد أو مسجدان أو مساجد على أحدث طراز من التأنق فى الزخارف الفنية ؟

أنت فرصة من الفرص السوانح ، يا مصطفى باشا ، فلن تكون وزارة الأوقاف إلى رجل مثلك فى كل وقت ، فبادر إلى تجميل بيوت الله ، ليزيدك الله جمالاً إلى جمال ، وكمالاً إلى كمال ، وليكون أسلوبك فى الإصلاح ، شبيهاً بأسلوبك فى الإفصاح

أجيبوا ، يا أصدقاء الرسالة

لنا صديق من رجال الأدب يحاول أن يحتكم إلى العقل فى جميع المشكلات ، فما مشكلة اليوم عند هذا الصديق ؟

هو يوازن بين الاحتلال والاستقلال ، ومن رأيه أن الاستقلال وسيلة لا غاية ، فإذا تمت نعمة الرخاء مع الاحتلال فلا موجب لوجع الدماغ فى طلب الاستقلال

وأنا أنتظر آراء أصدقاء الرسالة فى هذا الرأى الطريف لأنه بالتأكيد من الآراء التى تساور مَنْ مناهم الألمان بنعمة العافية فى ظلال الاحتلال !

الأجاج

أشرت فى أحد الأحاديث إلى الأجاج ، فما الأجاج ؟

هو نوع من السمك الجيد ، وكان يوجد بالبحيرات المصرية ثم انقرض ، ولكن كيف انقرض ؟

كان الصيادون لجشعهم ، لا لجهلهم ، يضيقون عيون الشباك ليجترفوه بالمئات ، فكان من أثر هذا الجشع أن انقرض ذلك النوع من السمك النفيس

حدثنى بهذا الأستاذ عبده حسن الزيات تأييداً لما كنت أقول من أن الفقر سَبَبَهُ الخيانة لا الجهل . وهل يجهل أحد أوجه الضر والنفع حتى نقول إن الفقراء يُعذَرون لأنهم جهلاء ؟ وهل كان جميع الأغنياء من المزوّدين بعلم الاقتصاد وعلم تدبير المعاش ؟

مازلت أذكر ضحكة الشيخ عبد الباقى سرور ، رحمه الله ، وقد تلقينا فى جريدة الأفكار سنة ١٩١٩ شكاية الصيادين من إصرار الحكومة على تضييق عيون شباك الصيد !

كنا نظن عمل الحكومة تعسفاً فى تعسف ، ولم نكن ندرى أن الثروة المصرية تحتاج إلى حرّاس أمناء ، ولو كانت مصادر تلك الثروة فى أعماق البحيرات

واستطرد الأستاذ عبده حسن الزيات فقال : حضر أحد النواب المقربين إلى سعادة الأستاذ الجليل محمود فهمى النقراشى باشا ومعه وفد من الصيادين المطالبين بتضييق عيون الشباك ، وكان النقراشى باشا يومئذ وزير الداخلية ، فغضب وقال : « ألا يعرف حضرة النائب المحترم أن هؤلاء الصيادين يريدون أن نعينهم على قطع ما منّ الله به عليهم من مصادر الرزق ؟ إن منفعة الصياد فى أن تكبر الأسماك ، ليبيع بالواحدة لا بالقُفة ، وليصبح الصيد من أنواع الفروسية ، فما موجب الجشع فى تضييق عيون الشباك »

مصر أمة بحرية ، ومع ذلك لا توجد عند أهلها النزعة البحرية فى الأدب والبيان ، إذا استثنينا القصائد والرسائل التى أوحتها الشواطىء منذ أعوام قِلال

أفلا يكون من أسباب انعدام الأدب البحرى عند أهل مصر حرمانهم من السمك الجيد فى النيل والبحرين والبحيرات ؟[1]

بأى حق يجوز أن يقضى المصرى سنة بدون أن يرى وفرة الأسماك فى الأسواق ؟ أليس ذلك برهاناً على أننا لا نجيد الصيانة لثروتنا الأهلية ؟

كانت أسماك مصر حديث القدماء من المؤرخين فأين هى اليوم ؟

إن أبناء مصر أبادوا التماسيح من مياه النيل ، فكيف يبقون على الأسماك ؟!

بلد أحمد أمين

جاء فى « المنصورة » — وهى المجلة التى تصدرها مدرسة المنصورة الثانوية — أن الأستاذ أحمد أمين منصورىُّ المنبَت ، وأقول إن الأستاذ أحمد أمين نفسه حدثنى أن آباءه من النوفية ، وإن تحلى بالتواضع فلم يدّعِ أنه من سنتريس

ولم يكن يهمنى أن يُزَيَّف نسب أحمد أمين إلى المنوفية ، ولكن مقاله عن « غاية العالم » أقنعنى بأنه موهوب ، ولا بأس بإضافته إلى المنوفية ، وإن كان فى مقاله عبارات سمعت مثلها فى تمهيد الدكتور إبراهيم ناجى لبحثه عن « نفسية المرأة » مع فارق بسيط : هو أن الدكتور ناجى أشار إلى المصدر الذى نقل عنه وأن الأستاذ أحمد أمين لم ير موجباً لذلك ، فدلنا من جديد على حسن هضمه لما يقرأ من آراء الباحثين ، بحيث ينسى أنه ينقل عن هذا المفكر أو ذاك

بين الرسالة والثقافة

تلطف الأستاذ محمد فريد أبو حديد فنقل تحية أدباء السودان

(١) أدب البحر فى نشأته الأولى يرجع إلى وصف الصيد

إلى مبارك والزيات ، وحدثنا أن الخطباء الذين أثنوا على جهوده الأدبية كانوا يقولون إنه من كتّاب « الرسالة » وأن ذلك وقع من نفسه موقع الارتياح ، فقد سره أن تكون « الرسالة » على ألسنة جميع الناس فى ذلك القطر الشقيق

وأقول إن مجلة الثقافة أخلفت الظن الجميل بعض الإخلاف ، فقد كنا نرجو أن تكون أقوى من مجلة الرسالة ، وأن تفتح باباً من المنافسة تنتعش به الحياة الأدبية ، ويتسع به المجال أمام الشادين من أبناء الجيل الجديد

والحق أن طغيان « الرسالة » على « الثقافة » يسر المتطلعين إلى تقدم العلوم والآداب والفنون ، لأنه يشهد بأن القراء فى البلاد العربية قد وصلوا إلى غاية من النضج يصعب معها الأمل فى إرضائهم بالجهد القليل ، و « الرسالة » تبذل جهداً لا تبذله « الثقافة » وإن استندت « الثقافة » إلى علماء من « كل صنف » كما نوه بذلك الأستاذ أحمد أمين

أنا أرجو أن تهتم « الثقافة » إهتماماً جدياً بتخيّر موضوعاتها ، وأن تعنَى عناية خاصة بتخير الشعر الذى تنشره ؛ فقد يتوهم الناس فى بعض الأقطار العربية أن الشعر فى مصر لم تبق له موازين يُعرَف بها الراجح من المرجوح

والحرص على منفعة « الثقافة » هو الذى أباح أن نوجه إليها هذا النقد الرفيق ، مع الاعتراف بما تقدم من الوَقود الجزل لنار الأفكار والعقول

متى يجئ اليوم الذى نرى فيه خمسين مجلة من أمثال « الرسالة » و « الثقافة » بالخصائص التى عُرفت عن هاتين المجلتين ، فى التسامى إلى أدب القول وإعزاز البيان ؟

الله عز شأنه هو المرجو لتحقيق هذا الأمل الجميل

أيام وأيام

وقعت غارتان على الأسكندرية فى ليلة واحدة ، ومع ذلك لم يُصَب غير بضعة أشخاص ، فكيف وقعت هذه المعجزة بعد انقضاء عهد المعجزات ؟

يرجع السبب إلى أن الغارتين وقعتا فى أحياء هجرها أهلوها فراراً من شراسة الخطوب ، فما أقسى الدهر الذى يحكم بأن يرى أهل الأسكندرية أن الحياة أفضل من الموت ؟

لو كان بيننا وبين الألمان حرب ، لكان من المستحيل أن يترك أهل الأسكندرية بلادهم الجميل قبل أن يجملوه مقابر للباغين والمعتدين ، ولكن الظروف الدميمة قضت بأن يعيش الأسكندريون مجردين من السلاح ، وما أشقى من يعيش بلا سلاح فى أيام لا يأمن أهلها بغير البغى والعدوان !

هل تنتفع مصر بهذا الدرس ؟ ومتى ؟ وكيف ؟

إن بلاء مصر بزعمائها سيطول ، ويطول ، ويطول ، فمتى يَعقِلون ؟

يوم البعث

وأنا مع هذا لا أيأس ، ولن أيأس ، ما دام دم الفتوّة المصرية والفتوة العربية والفتوة الإسلامية ، يجري فى عروق الفتيان من أهل مصر والشرق

يجب أن نفهم جيداً أن القوات الأوربية صائرة إلى الفناء ، لأنها تجاوزت حدود الله ، ولأنها تستبيح قتل الأبرياء ، ليتم لها ما تريد من إعزاز شرائع الشياطين

« ألمانيا فوق الجميع » !

ذلك مطلع النشيد الألمانى ، وهو نذيرٌ بما سيصير إليه الألمان ، فما تغطرستْ أمةٌ إلا ابتلاها الله بالذل وسلّط عليها الضعفاء .

اعتقد فراعين مصر أنهم سلالة الشمس وأبناء السماء ، فأدال الله منهم وعرّض أحفادهم وأسباطهم لعوادى الاستعمار والاحتلال .

واعتقد الرومان أنهم سادة الناس ، فأباد الله ملكهم بلا إمهال .

واعتقد العرب أن أرومتهم أشرف من جميع الأرومات ، فكتب الله عليهم التخلف ، وجعل نصر الإسلام بأيدٍ غير أيديهم لأنهم خانوا عهد زعيمهم الأكبر ، ولم يفهموا أن الإسلام دين مبادئ لا دين أجناس

فما مصير ألمانيا وهى تعتقد أنها فوق الجميع ؟

إن هذه العقيدة ستأتى على بنيان ألمانيا من الأساس ، فستؤلب عليها الشعوب ، وستخلق لها أعداء لا يعرف عددهم غير من تفرّد بالعزة والجبروت

« ألمانيا فوق الجميع » و « ألمانيا فوق الجميع » ثم « ألمانيا فوق الجميع » !

جيــــل وجيـــــل

للأستاذ محمود البشبيشي

— ٢ —

[كان هذا المقال قد فقد بيننا وبين البريد فنشرنا الثالث قبله ؛ فلما وجدناه نشرناه وسننشر المقال الرابع بعده]

التأمل فن الفنون — فلسفة التأمل — هل يكون الحب رائد ضلال ؟ — صلة الروح بين سائر الأشياء — الرذائل تضعف التأمل ، والمغالاة فى الفضائل تفسده — مسلك الشكوى وبكاء الآمال فى أدب الشباب — غلبة الغزل فى شعرهم وهل من المستطاع توازنها مع سائر الأغراض ؟ .

. . . ومن الأفكار أفكار تنفخ فى الألفاظ أرواحاً ، فتخلقها آراء حية ، لا تعترف بقيود الفناء ، لأنها من جوهر الروح ، ولا يعتريها الضعف فى التعبير عن وجودها ، لأن كل كلمة فيها قوة روحية ، ومن هذه الأفكار والآراء ما دار بينى وبين ولدنا الأديب « حسين » فى المقال السابق ، حيث انتهينا إلى أن التأمل أساس الحياة تصلح بصلاحه وتفسد بفساده ، وإن قوة الأجيال بقوة الروح والفكر فيها ، وقادنا الحديث إلى أدب الآباء وأدب الأبناء . بدأنا بشىء من الفلسفة ، وخلصنا من أوعارها وأوعائها إلى رياض الأدب ، وسنبدأ اليوم كما بدأنا ، وسننتهى كما انتهينا . . . !

— أنا معك يا بنى فى أن التأمل أساس الحياة ، ولا يسعنى إلا أن أدعو القوم إلى سبيله الصحيح ، وأهيب بهم أن تأملوا فى الحياة وأحوالها ، تبسم لكم زهورها ، وتتساقط تحت أقدامكم ثمراتها ، وتسمعوا أنشودة السعادة والنصر فى بسمة الصبح وجلوة المساء ! ويحس كل فرد نعمتها فيعمل على زيادتها وتعمل هى أيضاً ، لأن الحياة ككل شىء تعطى بمقدار ما تأخذ ! وحقيق بالعاقل أن يتأمل مشكلاته ويقلبها على رأى يعقد عليه القلب ، ويحسن عليه الأمر ، فلا يرمى إلا عن قوس عقيدة راسخة ، والرجل الصادق فى تأمله من كان الإيمان أعلق بقلبه من الشك ، والطفرة آثر عنده من التردد ، والحقيقة أشهى إليه من الظواهر الكواذب ، والمغالبة فى سبيل الحق آنس له من الاستكانة فى أرض المجدود !

— هذا حق يا والدى ، فإن التأمل فن الفنون ، تترعرع فى ظلاله كل فنون الحياة من سرور وحزن وحب وتقدير ، وهل يجىء السرور إلا بعد الشعور باللذة والنشوة التى يكتشفها الإحساس بعد قليل من التأمل فى نتائج العمل الذى نشعر نحوه بالسرور ؟ وفن الحزن أيضاً . فنحن لا نشعر بالحزن والألم من شىء إلا بعد التأمل فى مداه وسبر غوره وما يخلفه من أثر ، ثم ما هو أكثر من ذلك . فنحن قد نستمر فى الحزن ونسايره ولو ذهب المؤثر ، لأننا نتأمل ونطيل التأمل ؛ وفن التقدير والاعتراف بالفضل ، لاشك أن التأمل أساسهما إذ كيف نحكم على شىء بالجودة إذا لم نتأمله ! وفن الحب ، وهل هناك حب لم يلهبه التأمل ؟ إن الإنسان فى حبه يتأمل بكل حواسه ، بعينه وشعوره وقلبه

— قد بينت يا بنى خطر التأمل ، فهل نسيت أن التأمل كأساس للحياة يتأثر بالميول والعواطف كالحب والكراهية والطمع والغيرة ، تلك العواطف العمياء الضاربة فى الضلال

— ماذا أسمع ؟ كيف يكون الحب رائد ضلال ؟ كيف يكون أيها الوالد الكريم ، وهو العاطفة الروحية السماوية التى تربط الإنسان بخالقه ، والتى تولد مع الوليد فيميل إلى والده وأقاربه بطبيعة الحب الروحى فيه ، والتى نلمسها فى الحيوان قوية واضحة ، وهو الذى لا يدرك ولا يفكر تفكيراً يصح أن ينطبق عليه حقيقة التفكير بكل معانيه . وكيف تكون الروح عمياء ! إننا إذا نظرنا إلى حيوانين من فصيلتين مختلفتين ، ورأينا

ولهذا المعنى وحده ستصير « ألمانيا تحت الجميع » ، وإن عشتم فسترى ، وإن عشتم فسترون ، فما أذل الأفرادَ والشعوب غيرُ الاعتصام بالسيطرة والاستعلاء

لو كان « هتلر » مستشار أمين لدله على أن الرجولة ليست فى البطش الأحمق ، وإنما الرجولة أن تحارب من تسلّح بمثل سلاحك ، أما إيذاء مدينة مجردة من السلاح ، فهو عملٌ لا يقوم به رجل يتوهم أن أمته فوق الجميع

أما بعد ، فهذا يوم البعث ، وسأعيش بإذن الله إلى أن أرى الأنوار تنتصف من الظلمات ، « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب سينقلبون » ، وعند الله جزاء المخلصين الأمناء

زكى مبارك

كيف يجمع بينهما الحب ، وعرفنا أنه حب لا تعكره شهوة فهو نقي طاهر ، لأدركنا أن هناك سراً هو من عنصر الروح ، وأن هذا السر فوق الغاية ؛ لأنه استطاع أن ينير للحيوان الذي لا يدرك فلسفة يعجز عن إدراكها الإنسان . ومنطق هذه الفلسفة يقول : إن كل شيء حي تجمعه بسائر الأشياء صلة الروح الحية ... وإذا كانت هذه الروح مشتركة في الشكل فقد مال الكلب مثلاً إلى القط برغم ما بينهما من عداء ، ومال الإنسان مثلاً إلى الحصان بل إلى كل حيوان يمتلكه . فهل يكون الحب هنا داعية ضلال ؟! وكيف وقد انعدمت الشهوة والتجانس منه ! فإن الكلب يشعر بأن القط ليس من عشيرته ، وكذلك الإنسان وحيوانه ... وهذا العلم والشعور من الإنسان والكلب نوع من الهداية والبصر ، وإن عاطفة الحب الروحية لتجمع بينهما ... فهل تكون مثل هذه العاطفة الفلسفية عطية الغواية ؟ أعتقد أنها لا تكون ولن تكون إلا إذا أصابتها سهام الشهوة والغرض !

— تريد يابني أن تقول إن الحب ليس دائماً سبيل الغواية .. ولكن الكثير من الناس ضلوا ووصفوا الحب بما ليس فيه . إنهم رأوا حيرة المحب وضلاله فقالوا في معنى الحب ما قالوا ، وليتهم اقتربوا من الحقيقة فقالوا إن الحب يفسد التأمل . ويتفاوت هذا الأمر بتفاوت قوة التأمل والعقل ... ومن هنا يجيء فساد حكم العاشق في معشوقه لأن حبه أضعف تأمله ، وعاطفته سيطرت على عقله المتأمل ... والذي يجري على الحب وأثره في التأمل يجري مثله في البغض والكراهية ، لأنك حين تبغض وتكره شخصاً تتأمل أعماله وإن حسنت بعاطفة الكراهية ، فيصدر حكمك عليه غير عادل وغير سديد . والطامع كذلك يفسد التأمل ويقوده إلى التدمير ، فإنك إذا تأملت تأملاً يغلب عليه الطمع في حاجة غيرك ، دفعك هذا التأمل الطامع إلى الرغبة في حيازتها ، وجاء وراء هذه الرغبة الاعتداء ووراء الاعتداء المهلكات والمخوفات ... وهكذا ...

— هذا جميل يا والدي ، ولكني أميل إلى تركيز نظريتي في التأمل وفلسفته وكنت بسطتها في العام الماضي في جريدة « المقطم الغراء » فأقول إن جميع الرذائل كالبغض والغيرة والطامع وغيرها تفسد التأمل فتفسد الحياة تبعاً لذلك ... كما إني أرى أن بعض الفضائل قد تفسده وذلك إذا تغالينا فيها ...

إن التأمل لو قل أفاد ، ولو كثر كشف عن خفايا ، ولو طال علمنا معنى الحياة ، وحقيق بالمتأمل كي يصل إلى المرتبة السامية أن يجاهد نفسه ، ويغالب طبعه ، وألا يكون في أعماله أثر للحيلة ، ولا عمد إلى الخدعة ، وأن ينفذ الوسع في إدراك أسرار مُشتَبَهِ الأمور ، ويداور ويصاول حتى يستشفها ويُجَلّي عنها ، وأن يكون في طريقة سلوكه في الحياة الرجل الذي يحاول معرفة نفسه ، وإصلاح مَقابِحه ، والرجل الصادق المتأمل كما أراه هو الذي يزن الأمور بميزان التجارب والعبر ! ... ولصدق القياس في التجربة موضع وله مقدار ، فتى جازهما أحدٌ وقصّر عنهما قبح منه الفاضل ، ونقص التقصير ... والسبيل إلى هذه المرتبة وعر المسالك شائك الجوانب ولكن من يكتف الأمور بالحجة كتفاً لا تؤوده نبمات ولا ترهبه مخبآت الحوادث .

— هذا جميل حقاً يا بني وأجمل منه أن يصدر من شاب مثلك ؛ وإذا تضافر الطبع النابض بالحيوية ، والبيئة الملهمة ، والشعور المرهف الذي يعرف كيف يألم وكيف يفرح ، ويدرك مداخل وموالج الأمور كما يعرف مخارجها ، لم يعد عجيباً أن يجمع شاعر من الشباب أو ناثر بين عاطفة الشباب وحكمة الشيوخ ، بين ثورة الوجدان ورزانة العقل ، بين المحافظة والتجديد ، ... ولكني أنتهز هذه الفرصة فآخذ عليك وعلى سائر الشعراء من الشباب سلوكهم أحياناً مسلك الشكوى وبكاء الآمال ... فأوصيك أن تبتسم أنت وإخوانك الشعراء للحياة ؛ فقد يكون الشاعر باسماً ومتفائلاً أجدى منه على الحياة الإنسانية عابساً متشائماً ، وشعر التفاؤل في اعتقادي هو البناء ، وما أحوج الحياة اليوم إلى من يشهد بمحاسنها ، ويخفف من ويلاتها ، ويقيم من بنائها ، ... فكل شعركم إما غزل وإما شكوى ... فأين شعر القوة ؟ أين شعر التحفز والطموح ؟

— تأخذ علينا غلبة شعر الحب وفي هذا كثير من القسوة . فكما أن عبير الزهرة بضعة منها ، وشعاع الشمس صورة لحرارتها وصفتها المنيرة ، وتراب الأرض دليل على أصل من فيها ، يكون شعر الحب والجمال صورة لنفس الشباب وأماني الشباب وأحلام الشباب ! وكيف لا تفيض نفسي بما يضطرب فيها ولا سبيل لكتمانه ؛ وإن الشباب هو حلم الحياة ، فحرام أن نمر به من غير أن نفسره شعراً حياً بالحب والجمال ...

لا تلم الشباب ، ولم إذن الشيوخ الذين يتغنون بشعر الحب

فليس من الغريب أن يتغنى الشباب به ، وقد يكون من العجب - وإن كنت لا أميل إلى هذا الرأى ولكن الجدل يدفعنى إليه - تغنانى بعض الشيوخ من أكابر الأدباء فى معانى الحب والجمال . . .

ولقد قرأت نفثات الرافعى فى فلسفة الحب والجمال ، وقرأت للزيات السحر الرائع فى الجمال ، ولمحت قلب الدكتور المبارك يتدفق فى كتاباته ... ورنمت بأغاريد أبى شادى ... وكيف أقرأ وأحس وأدرك وأترنم بكل هذا ... ثم أقتل الأنشودة الحلوة فى مهد قلبى ، وأقنع بصداها يدوى فى جوانبى فتظل الأحاسيس ساكنة كالملق ... إن هذا الظلم ما فوقه ظلم ... !

وتأخذ علينا شكوى الزمان والتبرم ... ولم لا نشكو ونتبرم وقد رأينا بعض الآباء الأفاضل يحمل للأدب أرستقراطية كان منها عقوق للشباب وجحود وإنكار لفضل النابهين وتحطيم لآمال الناشئين، وإن كنت لا أعترف بالبقاء لمن يصيبه فى المخوفات بهر، ويدركه عند الملكات عى ! ! وما كان البقاء الحق إلا للثبت الذى صهرته التجاريب الذى لا يأخذ منه الهم ، ولا تغلب عليه الصعاب ، فلا يهاب أهاويل أهل الزمان فيرتبك ويظن أن الأرض قد ضربت عليه بالأسداد ، فيضرب فى طيخة عمياء.

ومهما يكن من أمر تلك الصعاب التى تعترض الشباب ، فإنى أعتقد أنها لا تصد غير الهبابة النكس ! ! فليس منا من يتحامى المغالبة والمصاولة ، وحقيق بكل من تتألق بين ألفاف نفسه أقباس الحيوية والنبوغ أن يوطن النفس على المكاره حتى يحتل مكانه فى بُهرة الحلقة الأدبية ... ولا يشتم أحد من هذا الكلام حقداً أو تحاملاً على الأكابر والأفاضل من كتاب العروبة ، فما هجس فى خاطرى ذلك ... وكيف وأنا أغلف القلب بأزاهير المحبة والتوقير والإجلال لأستاذى الكبيرين الزيات والدكتور مبارك ، فقد أسعدتنى الأيام بلحظات كالحلم الجميل جمعتنى بهما نشقت فيها عبقة السحر من أطايبهما ! ...

وكنت أول من رثى الشاعر الفيلسوف الزهاوى فى مجلة « الرابطة العربية » للأستاذ أمين السعيد . أما إعجابى بالأستاذ العقاد ، فقد بلغ به الحد أن جعلنى أقرأ كتابه « ابن الرومى » فى جلسة واحدة ...

تلك كلمة كان لا بد منها لأدفع عن نفسي عوامل الحقد ، ولأقترب من الحقيقة الخالصة ...

أما تعبيرنا عن آلامنا بالشعر ، فأسمى مراتب التعبير ما صهرها الألم ، وإننى لا أهدم الإنسانية عندما أشرح الأسباب التى تبعث الألم وأحللها ، بل إننى بذلك أضع للناس صوراً يتعظون بها ، والعظة سبيل من سبل البناء ، وهل آلام إذا قلت :

وما قيمة الدنيا وحظك عاثر وعيشك خداع به فتن تترى !
وما قيمة الدنيا وثغرك ملجم وفكرك محدود يعذب فى الأسر

وما هى إلا حقيقة الحياة وأسرارها المستغلقة . وهل عاش الفكر الحر غير معذب بالقيود والأوضاع ... ؟ وهل آلام إذا روع القلب بمخبآت الدهر وهلكات البين الأبدى فأقول :

أعيادها ولت فهل لك عيد ! هيهات أن يهتز منك جديد !
أنا ذلك الهيمان ضلله الهوى وتلقفته من التعاسة بيدُ !
لا النور يسعدنى بثغر ضيائه فى معبد الذكرى ولا التغريد !
تترصد الأقدار همسة خافق ! ويصدنى عن معبدى تشريد

وهل تستطيع أن تأمر نفساً بحبس ألم لا سبيل للخلاص منه ثم تستبعد منها أن تقول :

كبرت بسمتى وأضحكنى الدهر (م) وطاف الغـرام يسأل عنى
رغم ما فى الفؤاد من ألم الداء (م) وزهر الغرام يذبل منى
أزن العمر بالسرور وبالفن (م) وأقصى عوامل اليأس عنى !

واستمع إلى الشاعر عبد الرحمن الشرقاوى وانظر كيف قدم زهر العمر للآلام قربانا ... ولو صدق ظنى فى هذا الشاعر الحى فسيكون له فى رياض الخلود مستقر ومقام وإن قنع اليوم بالوقوف على الشاطئ يترنم لنفسه ويرقب الخضم الثائر المضطرب بالنيات الصوادق والظواهر الكواذب ... قال :

وقلت : الآن استجلى الشباب الذاهب الآنا
ويطوينى فتون العمر والأنس الذى كانا ! !
وأبقى بعض أيامى وأطويهن نشوانا
فقد قدمت زهر العمر للآلام قربانا ! !

يا بنى إن للشباب الحق فى التعبير عن عواطفه ، ولكن من الخير أن تغلب عليه صفة التفاؤل وأن يبسم للحياة فتبسم له . وهل يكون صدى الأغنية الجميلة غير أغنية جميلة ؟

وأخيراً أنصح للشباب ألا يقنع باللمحات ، بل يكون رائده الفكر العميق والخيال الدقيق ، وأن ينزه نفسه عن المواطن الرذلة وأن يحدد رغباته ؛ لخير الرغبات ما وافقت الوضع ولم تجاوز

القدار ، وأن يعلم أن الجدود قرينات النفر المتقاعد

وما أحوجنا إلى نوع من الكتاب والشعراء يعكفون على القديم ليعرفوا فتنته وجزالته ، فإذا اكتسبوا صناعة لغوية وتم لهم الذوق الأدبى ، طبعوا على غراره ما أرادوا من طريف الفكر ، وبديع الخيال مما تطالعهم به الحياة الجديدة

يا بنى ما لك ولشكوى الزمان ، دع قافلة آمالك سائرة ولا تحسب الدهر حلواً كله ...

يا بنى كم أحب أن يكون شعرك باسماً كأفكارك فى الوضوح ؛ حينئذ أبتسم كما تبتسم ، ويضحكنى الدهر كما أضحكك .

محمود البشبيشى

حاشية : كل ما جاء على لسان ولدنا الأديب « حسين محمود البشبيشى » فهو له .

فى غزوة حنين

بين السياسة الرشيدة والتعمق فى الدين

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

قد يكون من المعلوم عند الناس أن التعمق فى الدين ليس من الدين فى شىء ، وإن كنا فى زمن قد انقلبت فيه أوضاع الدين ، وصار التعمق فى الدين هو المثل الأعلى فى التدين ، وأصبح المتعمقون فى الدين قدوة الناس ، منهم تلتمس البركات ، وتقام لهم بعد مماتهم القباب والمزارات

ولكن هناك أمراً طريفاً فى باب التعمق فى الدين يجهله كثير من الناس ، وقد أردت أن ألفت النظر إليه فى مجلة الرسالة الغراء ، فيكون للناس فيه عظة تنفعهم فى دينهم ودنياهم ، ويعرفوا أن الدين ليس أذكاراً تتلى ، وأوراداً تكرر كل يوم وليلة ، وقواعد ينظر إلى ألفاظها وحروفها ، ولا ينظر إلى الغاية المقصودة منها ، ولا يلتفت إلى وجه الحكمة فيها ، ليراعى فيها حال الزمان والمكان ، وتؤخذ بشىء من التساهل إذا كان من اللائق أخذها به ، وعدم التقيد بأحكامها وقيودها ، وفى هذا تظهر حاجة المتدين إلى أن يكون عنده شىء من حسن السياسة ، وإلى أن يكون من المرونة بحيث لا يقف جامداً أمام الألفاظ والنصوص ، ولا يؤثرها على الظروف الطارئة ، والأحوال العارضة ، وذلك مالا يمكن اجتماعه مع التعمق فى الدين ، والجمود على ما فيه من قواعد وقيود

وكيف لا يكون طريفاً كل الطرافة أن ينكر بعض المتعمقين فى الدين على من أرسله الله به ، فيؤدى به هذا التعمق إلى أن يرى نفسه أرسخ منه ديناً ، وأكثر منه رعاية له ، ووقوفاً عند حده وامتثالاً لما جاء به من الأوامر والنواهى ، ولا يحمله على هذا إلا أنه حفظ قاعدة من قواعد الدين ، فأخذها قاعدة مطردة لا تشذ ، ولا يصح أن يؤخذ فيها وقتاً ما بشىء من التسمح ، ولا يمكن أن تتأثر بشىء مما تقتضيه الظروف والأحوال

وقد كانت تلك الحادثة الطريفة فى غزوة حنين ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم خرج إليها من مكة بعد فتحها ، ومعه الجيش الذى فتح مكة من الأنصار وغيرهم ، وكذلك أهل مكة الذين لم يمض إلا قليل على إسلامهم ، وكان بينهم نفر بقوا على الشرك ، وخرجوا إلى القتال طمعاً فى الغنيمة والمال ، وآخرون أسلموا ولم تخلص قلوبهم من أثر الحنين إلى وثنيتهم ؛ حتى إن المسلمين لما انهزموا فى حنين أول الأمر فرح كثير من أهل مكة بهزيمتهم ، وقال بعضهم : ألا قد بطل السحر اليوم . وقال قائل منهم : الآن ترجع العرب إلى دين آبائها . وقال أبو سفيان ابن حرب : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر . وكان قد أسلم إلا أن إسلامه كان مدخولاً ، وكانت الأزلام فى كنانته

ثم انتصر النبى صلى الله عليه وسلم بفضل من ثبت معه من المسلمين الأولين ، وأصابوا فى تلك الغزوة كثيراً من الغنائم ، وكان لقسمة الغنائم قواعد مقررة فى الدين ، ولكن النبى صلى الله عليه وسلم لم يشأ فى هذه الغزوة أن يتقيد بها ، ورأى أن يبسط يده بالعطاء لأهل مكة تأليفاً لهم ، وكان من بسط يده لتأليفه على ثلاثة أصناف : صنف تألفه ليسلم كصفوان بن أمية ، وصنف تألفه ليثبت إسلامه كأبى سفيان بن حرب ، وصنف تألفه دفعاً لشره كعيينة بن حصن والعباس بن مرداس . فأعطى صفوان ابن أمية شعباً مملوءاً نعماً وشاء ، وكان قد رآه يرمقه ، فقال له : هل يعجبك هذا ؟ قال : نعم ، قال : هو لك ، فقال صفوان : ما طابت بمثل هذا نفس أحد . وكان ذلك سبب إسلامه . وأعطى أبا سفيان أربعين أوقية ومائة من الإبل ، وقال ابنى يزيد : فأعطاه كذلك ، وقال ابنى معاوية : فأعطاه كذلك ، فأخذ ثلثمائة من الإبل ومائة وعشرين أوقية من الفضة ، وقال : بأبى أنت وأمى

يا رسول الله : لقد حاربتك فنعم المحارب كنت ! وقد سالمتك فنعم المسالم أنت ! هذا غاية الكرم جزاك الله خيراً . وأعطى العباس بن مِرْداس دون عيينة بن حصن والأقرع بن حابس ، فسخط ما أعطاه دونهما ، وقال فى ذلك يعاتب النبى صلى الله عليه وسلم :

وكانت نهـابا تلافيتهـا بكرِّى على المهر فى الأجرع
فأصبح نَهْبِى ونهب العُبيـد بين عُيَيْنَة والأقرع
وما كان حصن ولا حابسٌ يفوقان مِرْداس فى المجمع
وما كنت دون امرئٍ منهما ومن تضع اليوم لا يُرْفع

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إذهبوا فاقطعوا عنى لسانه . فأعطوه حتى رضى

فلما رأى كل هذا ذو الخويصرَة التميمى ، وكان امرأً متعمقاً فى دينه ، جاء فوقف على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يعطى الناس ، فقال : يا محمد ، قد رأيت ما صنعت فى هذا اليوم . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : أجل ، فكيف رأيت ؟ فقال : لم أرك عدلت . فغضب النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : ويحك ! إذا لم يكن العدل عندى فعند من يكون ؟ فقال عمر رضى الله عنه : يا رسول الله ، دعنى أقتل هذا المنافق . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى . دعه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون فى الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرَّمية يُنظر فى النصل فلا يوجد شىء ، ثم فى القدْح فلا يوجد شىء ، ثم فى الفوق فلا يوجد شىء ، سبق الفرث والدم

فهذا التعمق فى الدين قد أدى بذى الخويصرة إلى هذا الجهل الفاضح ، وأوقعه فى ذلك الجمود القبيح ، وجعله ينسى مقام النبوة فيتعالى عليها ، ويظن أنه أرسخ فى الدين منها ، وينكر على النبى صلى الله عليه وسلم أن يأخذ فى قسمة غنائم حنين بشىء من حسن السياسة ، ويتسمح فيما وضع فى قسمة الغنائم ببعض التسمح ، ولا يعرف أن حسن السياسة من الدين ، وأن الإسلام ليس بشىء من ذلك التزمت الذى يضيق بالتسمح ، ويأبى الأخذ بشىء من التساهل . وما أكثر الآن أولئك المتزمتين بيننا وما أحوجهم إلى الانتماظ بما أوقع فيه التزمت ذا الخويصرة ، فلا تضيق نفوسهم بما تدعو إليه الضرورة من بعض الخروج على المألوف ، ولا يقفون جامدين أمام الألفاظ والحروف ، لأن منطق الألفاظ لا يقوى على منطق الحوادث ، فيجب إخضاعها لها ، ولا يصح أن تقف حجر عثرة فى سبيلها

وقد يظن بعض الناس أن ذا الخويصرة كان من أولئك المنافقين الذين يضمرون الكفر ويظهرون الإسلام ، ويرى أن الذى أوقعه فى الإنكار على النبى صلى الله عليه وسلم نفاقه لا تعمقه فى الدين ، ويأخذ فى هذا بظاهر قول عمر رضى الله عنه : دعنى أقتل هذا المنافق . ولكن الحقيقة أن ذا الخويصرة لم يكن من أولئك المنافقين ، وإنما كان طليعة لصنف آخر يخلص فى دينه عن جهل ، ويأخذ الدين على أنه قواعد ورسوم ، فيبالغ فى الجمود عليها ، ويقف عند ألفاظها وحروفها . وذلك الصنف من الناس هو الذى سمى فيما بعد باسم الخوارج . وقد سئل النبى صلى الله عليه وسلم عنهم أهم كفار ؟ فقال : من الكفر فرُّوا . فقيل : أمنافقون ؟ فقال : إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً وهؤلاء يذكرون الله كثيراً . فقيل : ما هم ؟ فقال : أصابتهم فتنة فَعَمُوا وصَمُّوا

وتلك الفتنة التى ذكرها النبى صلى الله عليه وسلم هى فتنة الغرور بالتشدد فى الدين ، والوقوف عند حدود القواعد والرسوم ، وكل شىء جاوز حده انقلب إلى ضده ، والإسلام وسط بين التساهل والتشدد ، ولهذا جاء ديناً عاماً لكل البشر ، وكانت أحكامه صالحة لكل زمان ومكان .

عبد المتعال الصعيدى

ألقاب الشرف والتعظيم
عند العرب
للأب أنستاس ماري الكرملي

[تتمة]

١٦ — البارونه

هذا الحرف لم يكن معروفاً عند الأعاجم قبل الإسلام، بل بعده. وعرِّب بلفظه لقرب صيغته من صيغ الحروف العربية، كفاروق. وهاضوم. وكابوس. وقالوا فيه أيضاً: باروني. وجموها على بارونة وبارونية. قال في الفتح القدسي: «وأحضرت (الإفرنج) الاسبتارية والداوية والبارونة». وقال ابن الأثير في الكامل في حوادث سنة ٥٨٢: «ثم إن هذه الملكة هويت رجلاً من الفرنج الذين قدموا الشام من الغرب اسمه (كي) فتزوجته، ونقلت الملك إليه وجعلت التاج على رأسه؛ وأحضرت البطرك، والقسوس، والرهبان، والاسبتارية، والداوية، والبارونية» اهـ. ونحن لا نطيل الاستشهاد بكلام المؤرخين، إذ لا نرى فيه عظيم جدوى، ويغني هذا القل عن الجل

١٧ — الفارس

تنظر إليه الفرنسية chevalier والإنكليزية knight واللاتينية eques, itis واليونانية hippeus. وكل هذه الألفاظ مشتقة من الفرس الدابة المشهورة، كاشتقاق الفارس العربية من اللفظة المذكورة، إلا الإنكليزية، فإنها مشتقة من كلمة تعني الخادم، ولا جرم أن الأصل في المعنى: «خادم (خيل) الملك» ثم ارتقى في منصبه مكافأة لخدماته، كما وقع لمن تسمى بأمير الإصطبل، أو أمير الأخور، أو كند اصطبل

على أن لبني مضر لفظة مشتقة من اللاتينية (أقوس equus) بمعنى الفرس، وهي (القاوس) ومعناها عند السلف: «الذي يرسل الخيل للسباق jockey». ولا جرم أن الأشراف الفرسان كانوا يفعلون ذلك لما كانوا في خدمة الملك. فالعربية إذن لاتينية الأصل. لا سيما أن ليس في أصول اللفظة العربية ما يشير إلى معنى الخيل سوى (المِقوس)، وهو حبل نُصفُ عليه الخيل عند السباق؛ لكن (القوس) نفسه مأخوذ من الرومية المذكورة، وكذلك القول في (الكوسى) بمعنى الفرس القصير الدوارج؛ وبالفرنسية poney وبالإنكليزية pony

١٨ — اللوكات

هذه الكلمة من الألفاظ الخاصة بأرباب المناصب الدينية النصرانية، وهو سفير الحبر الأعظم أي البابا. وقد جاءت في كتاب الروضتين المطبوع في باريس، في ص١٨٣ وهو لأبي شامة. والكلمة منقولة عن légat الفرنسية وهذه عن اللاتينية legatus

١٩ — الدكّاد

هو الذي يسميه نصارى اليوم (القاصد)، وقد وردت اللفظة في مختصر الدول لابن العبري، في ص ٤٠٣ من طبعة بيروت. قال «وقرّر الصلح عاماً مع الدكاد، نائب البابا، وملك عكاء، وملوك فرنجة، ومقدمي الدواية والاسبتارية»، وهي من اللاتينية delegatus وبالفرنسية délégué

٢٠ — كرذَنال وكردَنال وكردِنال

وردت كَرذَنال بالذال المنقوطة المفتوحة في معجم بطرس القلعي المؤلف في غرناطة سنة ٩١١ للهجرة (١٥٠٥ للميلاد) والمطبوع في غرناطة نفسها في تلك السنة نفسها، وجاءت كذلك في الخزانة العربية الصقلية لأماري المطبوعة في ليبسيك سنة ١٨٥٧، ص ٣٤١ س ٦؛ فكان يجب أن تكون بالدال المهملة المكسورة لكن لم ترد إلا بالمنقوطة المفتوحة، وقد ذكر كل ذلك دوزي في معجمه، وأما المعاصرون فإنهم يذكرونها هكذا (كردنال) بالدال المهملة المكسورة، لأن اللفظة من أصل لاتيني، لا من نجار يوناني. فلو كان يونانياً لقيل بالذال المعجمة، وأما قول بعضهم (كردينال) بياء بعد الدال المهملة، (وكارْدِينال) وهذه أقبح، ويجمعونها على (كرادلة) فخطأ في خطأ. والصواب كرْدَنال بفتح الدال والجمع كرادِنة ليحمل على وزن عربي أي على وزن قهرمان وصوْلجان ودَيْدبان وطيلسان التي يقال في جمعها: قهارمة، وصوالجة، وديادِبة، وطيالِسة. فافهم ذلك ولا تجْرِ وراء الغُرَّار الذي يستجهل الفُرارا. زد على ذلك أن فَيْعَلان، بضم العين وفتحها كثير الأمثلة، بخلاف كسره فإنه نادر

طائفة من ألفاظ المناصب النصرانية

نحن لا نريد أن نمعن فى ذكر جميع الألفاظ النصرانية ؛ فهذا يدعونا إلى وضع كتاب قائم برأسه ، لكثرة ما هناك من المصطلحات ، إلا أننا نذكر بعضاً منها من باب الذكرى والإجمال لا غير . من ذلك : الجاثليق ، والكتاغيكوس ، والبَربِم ، والمفريان ، والمطران ، والرطبليط (أى المطروبوليط) ، والملفان ، والخور أفسقفس ، والخورى ، والقسّ ، والكاهن ، والشماس ، والإكليريس ، والواهف ، والساعور ؛ إلى غيرها ، وهى لا تكاد تحصى لكثرتها . فهذه خمس عشرة لفظة دخيلة ، فإذا أضفناها إلى العشرين المتقدم بسطها ، كان لنا خمس وثلاثون لفظة من دينية ودنيوية لم يترجمها العرب إلى لغتهم ، بل أبقوها على حالها بتغيير طفيف ، لتحمل على الأوزان العربية لا غير

ولننتقل الآن إلى ألفاظ الآداب والمجاملة والمعاشرة . من ذلك

٣٦ — السنور

السنور : الحر ، والسيد ... والسنانير : رؤساء كل قبيلة . (ملخص عن التاج) . قلنا : والسنور بمعنى السيد من الإسبانية senor وهى باللاتينية senior وبالفرنسية seigneur

٣٧ — الضونة

الضَونَة ، بهاء : الصبية الصغيرة (اللغويون) وهى فى الإسبانية dona بمعنى السيدة غير المتزوجة ، أى المادموازيل mademoiselle ، كما يقول اليوم بعض المتفرنجين ، أو الآنسة كما يقول بعض الراغبين فى تصحيح الكلام الأعجمى

٣٨ — الضامة

قال فى التاج فى مادة (ض ى م) : « ومما يستدرك عليه : الضامة ، مخففة . الحاجة ، زنة ومعنى . ومنه المثل : « تأتى بك الضامة عِرِّيس الأسد » فسروها بالحاجة وبالمرأة . وقالوا : هى من الضيم ، كما فى أمثال الميدانى . نقله شيخنا » انتهى كلام التاج . وبالفرنسية dame أو madame

٣٩ — الخاتون

قال المجد : « الخاتون للمرأة الشريفة ، كلمة أعجمية » وزاد الشارح : « استعملها الفرس والترك ، والجمع الخواتين » اهـ . قلنا : والخاتون كلمة شرف تقال للمتزوجة وللصبية والكلمة مستعملة إلى يومنا هذا فى العراق كله ، يقول أهله : أمينة خاتون وبهية خاتون ، والأولى للمتزوجة والثانية لغير المتزوجة ، وكانت اللفظة مستعملة فى جميع البلاد العربية اللسان فى العصر العباسى ، ومنها الخاتونية لمحلة كانت فى بغداد . قال ابن الأثير فى حوادث سنة ٥٥١ هـ : « وفى هذه السنة احترق درب فرّاشا والظفرية والخاتونية ... »

وذكر ابن بطوطة فى رحلته (فى ١ : ٢١٢ من طبعة الإفرنج) الخانقاه الخاتونية فى دمشق . وذكر هذين المحلّين فى بلدين عربيين ، بهذين الاسمين دليل على أن الخاتون ، كانت شائعة عندهم شيوعها اليوم فى العراق

٤٠ — الخواجه

هذه لفظة فارسية ومعناها رب البيت ورئيسه ، والرجل الشهير ، والشيخ الجليل ، والسيد المعظم ، والمقدم بين الناس ، والغنى والعامل ، والحاكم والوزير ، وهو من ألقاب التعظيم أيضاً وقد لقب به منذ القدم محمد بن محمد بن الحسين الطوسى فعرف بالخواجه نصير الدين الطوسى . وكان مولده سنة ٥٩٧ ووفاته سنة ٦٧٢ للهجرة (١٢٠٣ — ١٢٧٤ م) . ثم أطلق على كل من امتاز بصفة من الصفات التى ذكرناها فى معنى اللفظة . فكانت شائعة كل الشيوع بين الكتاب ، وأرباب اليراع ، قبل نحو مائة سنة ، أو أكثر ، والآن لا يكاد يسمع بها إلا قليلاً ، ولا يكتب بها إلا أقل . فكان لها وقت ثم مضى

هذا وقد ذكرنا لك من ألقاب الملوك والأمراء ، نحواً من ٣٨ ، نقلاً عن أبى الريحان . و ٤٠ جمعناها لك من ألقاب الرجال والنساء ، من دنيوية ودينية ، ولو أردنا ، لضاعفناها لك ثلاث مرات ، أو أربعاً ، أفما يكفى لك هذا العدد وحده ، ليقنعك بأن الألقاب تعد كالأعلام ، وتروى كما هى ولا تترجم ، ولا تنقل بمعانيها . إذن يقال : دكتور ، وأستاذ ، وماجستير ، ولا يقال : عليم ، وعالم ، ومعلّم ، ونحوها . ولا تغتر بمن يتعصب لقومه كذباً ، وهو يطمنه بشر الأسلحة وأشدها فعلاً فيه !

الأب أنستاس مارى الكرملى
من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية

تاريخ وأدب

مدن الحضارات
في القديم والحديث
للأستاذ محمد عبد الغني حسن

— ٢ —

الحق أن المسجد الأموي بدمشق هو ذخر للمسلمين بعد الكعبة المكرمة ؛ وقد قال فيه الرحالة المقدسي : « والجامع جامع دمشق أحسن شيء للمسلمين اليوم ، ولا يعلم لهم مال مجتمع أكثر منه ، ومن أعجب شيء فيه تأليف الرخام المجزع كل شامة إلى أختها ؛ ولو أن رجلاً من أهل الحكمة اختلف إليه سنة لأفاد كل يوم صنعة »

ولقد زار دمشق كثير من الرحالين المسلمين ووصفوا آثارها في آثارهم ، وأخذوا بروعة الجامع الأموي وكمال صنعه . ومنهم ابن بطوطة الذي قال فيه : « وهو أعظم مساجد الدنيا احتفالاً ، وأتقنها صناعة ، وأبدعها حسناً وبهجة وكمالاً ، ولا يعلم له نظير ، ولا يوجد له شبيه »

وكانت قصور الأمراء على الجملة في دمشق الأموية تمثل الحضارة العربية أجل تمثيل ؛ لأنها قصور دولة قامت على أكتاف العرب ، واستقامت على كواهلهم . إلا أن هذه القصور كانت تجمع بين البساطة العربية والفخامة الرومانية . وحماد الراوية وصف لدار الخليفة هشام بن عبد الملك يقول فيه : « إنها دار قوراء مفروشة بالرخام ؛ وهو - يعني الخليفة - في مجلس مفروش بالرخام ، وبين كل رخامتين قضيب من ذهب ، وحيطانه كذلك »

وصف يزيد بن المهلب دار ولي عهد سليمان بن عبد الملك بدمشق فقال (دخلتها فإذا هي دار مجصصة حيطانها وسقوفها . ثم أدخلت داراً أخرى فإذا حيطانها وسقوفها خضر ، وإذا وصفاؤها ووصيفاتها عليهم ثياب خضر وحلي الزمرد

على أنه يلوح لنا أن هذا الوصف فيه كثير من الخيال الشائق والمبالغة اللذيذة . وأن هذه الرواية تمتت بشيء من الإغراق في الوصف لتتم محاسن الموصوف ... ألا أنه من المحقق أن هذه العاصمة الإسلامية الكبرى ازدحمت بالقصور الشاهقة في جوف المدينة أو على نجوة منها

... ثم يدور كوكب النحس - كعادته - على دمشق . . . فتسقط الخلافة الأموية ويشرد أبناء الخلفاء ؛ ويتحسسهم العباسيون في كل مكان ؛ ويُغري الشعراء الخليفة العباسي بقتلهم وإبادتهم حتى لا يحسوا منهم من أحد أو يسمعوا لهم ركزاً . ويقول في ذلك شاعر أبياتاً مشهورة منها هذا البيت :

جرد السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

وكان ذلك في الثلث الأول من القرن الثاني للهجرة . فتنتقل الخلافة إلى بغداد التي بناها أبو جعفر المنصور وجعلها مقر الملك وحاضرة الخلافة .

و (بغداد) قديمة في التاريخ . وترجع إلى ألفي سنة قبل الميلاد في عهد البابليين ، وقد ورد ذكرها في حَجَر Michaux ، الذي وجد لَقىً على ضفاف نهر دجلة وعليه تاريخ يرجع إلى سنة ١١٠٠ قبل الميلاد . ومما يدل على قدم بغداد رصيف نهري اكتشفت بقاياه وأحجاره على نهر دجلة بوساطة العلامة الإنجليزي السير هنري رالنسون ، وعليه لوحة تحمل اسم أحد ملوك بابل القدماء .

وفي عهد الإسلام كانت (بغداد) في الشرق ، وقرطبة في الغرب تتقاسمان سيادة العالم في التجارة والثراء والثقافة والحضارة . ولقد أوحت ليالي بغداد وقصورها وجسورها ومالها وغاداتها وغلمانها وجواريها وشعراؤها ومغنوها إلى مؤلف (قصص ألف ليلة وليلة) خيالاً واسعاً كل السعة ، مبدعاً كل الإبداع . تلك القصص الشائقة الجميلة التي ترجمت أول ما ترجمت الى الفرنسية سنة ١٧٠٤ بوساطة الكاتب الفرنسي (جالاند)

وتفيض كتب التاريخ والأسفار والأدب في وصف بغداد ، وتطيل في ذلك الكلام إطالة لا يدخلها ملل ، وخاصة في عصور المنصور مؤسسها والرشيد وولده المأمون . وهم الخلفاء الثلاثة البارزون في العصر العباسي

وكانت بيوت بغداد وقصورها تبنى من الطوب والقرميد ، لا من الحجر — كما كان الشأن في دمشق — لأنها في منطقة غير صخرية . وكانت هذه البيوت تشرف على العبرين من نهر دجلة ، وتتعالى في أجواز السماء إلى علو شاهق ، وتحيط بها البساتين الناضرة ، وتجري في وسطها الجداول المنسابة

تحت أفياء أشجارها، وغرد أطيارها، وتتلألأ في وسطها الغدر الصافية والبرك الصقيلة

والبحترى الشاعر الرقيق يصف لنا بركة المتوكل فى شعر تصويرى جميل، ويصور انعكاس النجوم عليها ليلاً فتبدو كأنها سماء أرضية! ويصف انسياب وفود الماء فيها معجلة كأنها الخيل وهى تخرج من حبال مجريها، ويقول فى ذلك:

تنساب فيها وفود الماء معجلة كالخيل خارجة من حبل مجريها

ويقول فى المعنى الأول ولعله أول مخترع له:

إذا النجوم تراءت فى جوانبها ليلاً حسبت سماء ركبت فيها

والقصيدة مشهورة معروفة فى كتب الأدب فلا معنى لكتابتها هنا

والأبيات التالية تصور لنا أصدق تصوير ارتفاع القصر المعروف بالكامل فى بغداد، وتصف لنا فى بيان عذب شرفاته المطلة على حبك السماء ورياضه المتعطرة بأرج الأزهار وهى:

لما كملت روية وعزيمة أعملت رأيك فى ابتناء (الكامل)

وغدوت من بين الملوك موفقاً منه لأيمن حلة ومنازل

ذعر الحمام وقد ترنم فوقه من منظر خطر المزلة هائل

أغنته دجلة إذ تلاحق فيضها

عن صوب متسكب السحاب الهاطل

رفعت لمخترق السحاب سموكه وزهت عجائب حسنه المتخايل

وتنفست فيه الصبا فتعطرت أشجاره من حول وحوامل

وكان نهر دجلة فى ذلك الحين يكاد يغص بالحرامات الكثيرة، والزوارق الجميلة تتهادى فوق مياهه المتكسرة، وكلنا يذكر أبيات أبى نواس فى وصف حراقة الأمين

اشتهرت تلك العاصمة الاسلامية العظيمة فيما اشتهرت بنوع من الحرير المعروف بحرير (العتّابية) نسبة إلى العتّابى (بتشديد التاء) الصحابى الجليل. وأخذت هذه الكلمة إلى اللغات الأوربية باسم تابى Tabby دلالة على الحرير الغنى بالألوان المائية الكثيرة الزاهية

ومن المؤلم فى تاريخ بغداد أن تلك القصور العظيمة قد دكت من القواعد، وأن تلك الرياض الناضرة قد صوحت، وأن تلك البرك الصقيلة قد جف ماؤها وانعدم السكون إليها، وأن هذه الأنسجة الجميلة والثياب الحريرية لم يبق لها أثر، وأن الكتب

التى كانت فى دور العلم والحكمة فيها قد ضاعت وغرقت وأحرقت فيما اختلف على بغداد من حوادث وفتن جسام، وخاصة فى غارة التتار عليها سنة ٦٥٦ هـ والله يذل من يشاء

ولقد قلت أهمية بغداد نوعاً ما حينما نقلت العاصمة إلى «سر من رأى» على يد المعتصم. ألا أنها عادت إلى بعض ما سلف من جاهها فى عهد المستعين بالله حينما عاد إليها هارباً من الأتراك واستبدادهم. ولكنها لم تستطع أن تسترد مكانتها القديمة وحضارتها العظيمة، وإن كانت بقيت بعد ذلك حاضرة للاسلام مدة من الزمان

ومن عجب أنها احتفظت بعد سقوطها باسم عظيم ولقب كريم فكانت تسمى فى الوثائق التركية الرسمية باسم (المدينة الفائقة)

ويدور الزمان على بغداد كما دار على بابل وروما وأثينا وبيزنطة ودمشق فتزول عنها صفة العاصمة، وتزول عنها الخلافة؛ ويجيء الخليفة هنا إلى مصر فلا يبقى له غير اسم الخلافة حتى تنتقل من مصر إلى القسطنطينية فى زمن السلطان سليم العثمانى فى الربع الأول من القرن العاشر الهجرى

ويظهر فى المشرق تيمورلنك المغولى المسلم، والفاتح العظيم، والقاسى فى ساح الحروب، والعفو الرحيم فى ميدان السلم، فيحكم بغداد ويخضعها لسلطانه حوالى سنة ١٤٠٠ ميلادية

ثم تنتقل بها عجلة الأقدار إلى يد أخرى أجنبية غير عربية، هى يد الشاه اسماعيل الصفوى مؤسس الأسرة الصفوية ببلاد الفرس، وتصبح بعد ذلك محلاً للنزاع بين الترك والفرس، وتدار على أيد فارسية حيناً، وتركية حيناً آخر: فيأخذها سليمان الأول التركى، ثم يأخذها الشاه عباس العظيم سنة ١٦٢٠ ويستردها السلطان مراد التركى سنة ١٦٣٨ م بعد مذبحة عظيمة عند التسليم

واسم بغداد مدينة السلام، أو دار السلام. وكلا الاسمين صحيح. وقد اعترض على أديب بغدادى فى مجلة الثقافة الغراء منكراً الاسم الثانى، وهو اعتراض لا محل له، فقد استعمل هذا الاسم أكثر من مؤرخ ممن يوثق بهم، كابن بطوطة، وجيل محلة الدور العراق، وصاحب كتاب (حضارة الإسلام فى دار السلام) وجورجى زيدان، والعلامة محمد كرد على عالم الشام ومؤرخها وصاحب خططها.

(الحديث موصول) محمد عبد الغنى حسن

في علم النفس القضائي

القاضي الجنائي

في مدى العوامل غير الشعورية

للأستاذ حسين الظريفي

كان ينظر في القاضي إلى عقليته القانونية وإلى جانب خاص من خلقه الفردي مما يترك وراءه أثراً ظاهراً في فصل الدعاوى بالشكل الذي تنتهي فيه . وقد نص فقهاء الإسلام على جملة صفات خلقية أوجبوا توفرها فيمن يلي القضاء ويحكم بين الناس . غير أن هذه النظرة الخاصة إلى مزايا القاضي القانونية والخلقية وتحديدها في الإطار المعين الذي وضعت فيه ، مما يدعو إلى كثير من التأمل ، ذلك لأنها لا تكاد تتعدى الشكل الظاهر لولاة القضاء دون النفوذ إلى ما وراء هذا الظاهر ، حيث تقوم هناك البواعث التي قد تقيد القضاء بماهية الاتجاه وبنوع الحركة وبمدى الزمن الذي يجب أن يصل القضاء فيه إلى مرماه المعين . فإن توفر العقلية القانونية فيمن يلي القضاء وافتراض توفر عدة مزايا خلقية معينة لا يكفي وحده لصيانة القضاء من التردي في مهاوي الميل مع الهوى وكفالة الضمانة القانونية لصاحب الحق على من يتولى القضاء .

إن المعنى المستنتج مما كان قد نص عليه فقهاء القانون في موضوع كفاية القاضي من الناحيتين العلمية والخلقية قد يكفي لتأمين العدالة في مجال القضاء الحقوقي بالنظر إلى طبيعة هذا القضاء وكونها منصبة في نطاق محدود فرضت شكله وموضوعه قوانين الدولة . غير أن الوضع ينقلب إلى شكل وموضوع آخرين في حدود الدائرة الجنائية، وتتبدل الغاية والطريقة وما وراءهما من بواعث ينطوي عليها معنى الحق العام في كل جريمة

إن تأدية المهمة الملقاة على عاتق القاضي الجنائي تتطلب كفاية أوسع مدى من تلك التي يجب توفرها فيمن يحكم بين الناس في المنازعات الحقوقية ؛ ذلك لأن المبدأ الجنائي العام منطو على أن الأدلة في الأصل إقناعية . وهذه القناعة قد تكون مجرد معنى تمتلئ به نفس القاضي دون أن يجد اللفظ المفصح عنه ، لأنه ليس إلا شعوراً قائماً وراء حدود اللفظ

وفي انطلاق هذا الأفق في الدائرة الجنائية أصبح قاضي الدعوة رهين بواعث خفية في عقله الباطن وهي تعبر عن ذاتيتها في أعماله القانونية ، وقد تتحكم في عقليته القانونية فيأتي بأحكام منشؤها مجرد البواعث النفسية ، وقد يصدر عن مثل هذه الأحكام وهو غير شاعر بالبواعث

إن هذا الانقلاب الذي حدث في تفهم وتطبيق موضوعات الدائرة الجنائية والذي عرفته وأخذت به دول الحضارة قد جاء عقب الفتح الذي قام به العالم النفسي المنقطع النظير - فرويد - فقد غزا العقل وتمثله ثم نشر كل مطوى فيه ونفذ إلى الصميم من معاقل النفس فملل وفسر كل ظاهرة وكل اختلاجة . ثم تبعه علماء النفس الآخرون ففصلوا ما أجمله فرويد أو عقبوا عليه ، وظهر من وراء كل هذه البحوث أن هناك تيارات خفية في نفس الإنسان أو في عقله الباطن ، هي ولية الشأن فيه ، وهو وديعة الأيام في ذمتها . وجاء بدورهم فقهاء القانون فأيقنوا أن وراء العقلية القانونية ، حياة نفسية مقنعة يجب على القضاء أن يقف على ما هي فيه وما هي عليه إذا أراد أن يمتلك عواطفه في رؤية الدعاوى ويعدو عن العدل في الأحكام

إن العوامل غير الشعورية إنما تقوم بدورها وهي من وراء قناع تختفي فيه عن الأبصار فتوقع أثرها الخاص من دون أن يشعر بها صاحبها في جليل أو قليل ؛ غير أن هذه البواعث وإن كانت تظهر برداء مستعار فإنه يمكن إخراجها إلى المشاهدة بتطبيق حقائق علم النفس الحديث ، وهذا ما أوجب على القاضي الجنائي أن يكون عالماً نفسياً فوق تفقهه في القانون ، ليكون في أحكامه بمنجاة من غوائل مجرى شعوره النفسي فيقيم من نفسه على نفسه رقيباً فيه ضمان العدالة

إن هناك آفات تصيب العدالة من جرائر القضاة ، وأخطر هذه الآفات تلك التي يقوم بها القاضي من غير شعور أو إرادة وهو يستلهم الطريقة والاتجاه مما وراء عقله الظاهر من عقل باطن

ومنطقة غير شعورية . فمن القضاة من تنطوى نفسه على نزعة الاندماج فى الجانى أو من كان مجنياً عليه ، وهو إذا تمثل نفسه فيمن قارف الجريمة ، ورأى فيه رجلاً غير معصوم وأنه مثله لولا اختلاف الظروف ، فقد جنح إلى البراءة ووقف من شهود الإثبات فى موقف الارتياب ، وقد يؤثر فيهم موقفه هـذا بحكم مركزه الممتاز ، فيضيع على الحق العام كثيراً من الحقائق الجرمية ؛ وهو إذا ذهب إلى الإدانة ، فإنه ينزل بالعقوبة إلى أدنى حد مستطاع . أما إذا تقمص شخصية المجنى عليه ، فقد انقلبت آية الموضوع وأصبح شديد الصرامة على الجانى فى حكم الإدانة وفى تقدير العقوبة .

إن القاضى المحدود بعقليته القانونية كالرجل العادى يميل بهواه إلى جانب من الدعوى منذ البداية ، ومن هذا الموطن تبدأ خطورة الضلالة فى إصدار أحكام البراءة والتجريم ؛ ذلك لأن القاضى الجنائى متى تكونت عنده فكرة الحكم قبل أن يحيره دوره ويستكمل كافة أدوار التحقيق والمحاكمة ، فقد جنح بإجراءاته كلها إلى ما يدعم ويحقق تلك الفكرة ، ورأى فى كل دليل يعرض عليه الجانب الذى يؤيد فكرته التى كونها منذ البدء عن الدعوى

وهناك مظاهر أخرى يتلبس بها القضاة فتلتبس عليهم مواضع الرشد والهدى فى تحقيق العدالة ، وكلها تنطوى تحت مفهوم « الرغبات الخفية » تلك التى تنبعث إلى العقل الظاهر مما وراءه من مناطق باطنة وغير شعورية ، تكنز فى تضاعيفها ثمرات أجيال طويلة . فإذا كان القاضى الجنائى لا يمتلك شيئاً غير عقليته القانونية ، ولا يعول فى إصدار الأحكام إلا على هذه البيئة العلمية المحدودة وماله من خواص خلقية يعرفها فى نفسه ؛ فقد أضاع ما يجب أن تكون له فى الدعاوى من شخصية مستقلة هو فيها كمن يلحظ المحيط وهو على الساحل . وكان جزءاً من كل دعوى تطرح أمامه ؛ فلا ينظر فيها إلا بعين عاطفته المصطبغة بلون الظاهرة البارزة فى وقائع الدعوى ، فيفقد استقلال فكره وحياد نفسه من دون وعى منه ، ويأتى بأحكام مبعثها الهوى وهو غير شاعر بما هو فيه

(بغداد) حسين الظريفى
المحامي

قالتْ لنا « الْفَرَاشَة » ! !

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

مَرَّتْ عَلَيْكِ «فَرَاشَةٌ» كَهَوَاىَ بَاكِيَةُ الْجَنَاحْ
عَذْرَاءُ عَاطِرَةُ الرَّفِيـــفِ كَأَنَّهَا حُلْمُ الصَّبَاحْ
وَكَأَنَّهَا سِرُّ الزُّهُو رِ سَحَرْتِ هَيْبَتَهُ فَلَاحْ
وَكَأَنَّهَا فى الرَّوْضِ أُغْـــنِيَةٌ مُوَلَّهَةُ الصُّدَاحْ
حَيْرَى تَمِيلُ مِنَ الْأَثِيـــرِ إلى الْغَدِيرِ إلى الْأَقَاحْ
بِخَوَاطِرِى هَتَفَتْ فَكُنْـــتِ بِهَا الْأَمَانِيَ وَالْجِرَاحْ
لِمَ لَمْ أَطِرْ نَغَماً عَلَيْهَا ، أَوْ صَدَى
أَفْنَى وَيَبْقَى فى الْفَضَاءِ مُخَلَّدًا ؟
أَنَّى مَشَيْتِ أَتَاكِ فى الـــأَنْسَامِ يَخْفِقُ وَالرِّيَاحْ
يُلْقِى إِلَيْكِ عِبَادَتِى وَحْياً لِغَيْرِكِ مَا يُتَاحْ !

***

مَرَّتْ عَلَيْكِ وَكُنْتِ بَيْـــنَ يَدَيْكِ مَسْحُورَ الْجَنَانْ
وَقَفَتْ بِنَا الدُّنْيَا وَمَا تَ بِأَيْكِنَا خَطْوُ الزَّمَانْ
فَكَأَنَّنَا فى وَاحَةِ الْـــغَيْبِ الْمُحَجَّبِ طَائِرَانْ
أَرْخَى عَلَيْنَا اللهُ أَسْـــتَارَ السَّعَادَةِ وَالْأَمَانْ !
مَرَّتْ بِنَا ... وَكَأَنَّنَا مِمَّا نُكَابِدُ آهَتَانْ
الْحُبُّ ذَوَّبَنَا بِكَأْ سٍ فَيْضُ خَمْرَتِهَا حَنَانْ
قَالَتْ : عَذَابُ الرُّوحِ طَالَ بِهِ الْمَدَى
وَأَخَافُ يَخْطَفُهَا مِنَ الْأَمَلِ الرَّدَى
قُومَا وَرَائِى نَرْتَوِى مِنْ كُلِّ خَمْرٍ فى الْجِنَانْ
مِنْ قَبْلِ مَا يَأْتِى الْخَرِ يفُ فَلَا رَحِيقَ وَلَا دِنَانْ

محمود حسن اسماعيل

التسعيرة الجبرية

من حضارة الاسلام في الأندلس

للأستاذ محمود الشرقاوي

من هذه النظم الجديدة المحدثة في مصر، والتي جاءت بها هذه الحرب القائمة فكانت من النظم التي تريح الناس وتسهل عليهم قضاء حوائجهم الماشية: نظام البطاقات والتسعيرة الجبرية

« والتسعيرة الجبرية » كما حددها الأمر العسكري الذي صدر في السنة الماضية بتطبيقها في معاملات البيوع والشراء، وكما فهمها الناس ورأوها بعد ذلك في معاملاتهم تلك، هي أن يجعل الحاكم « الحكومة » سعراً خاصاً لكل سلعة ولكل مبيع يعرف مقداره بوزنه أو بقياسه أو بعدده أو بما يمكن أن يضبط به

وقد وجدت هذا النظام بنفسه مما كان يجرى به أمر الحاكم في بلاد الأندلس على حكم المسلمين لها. فهو ليس من بدع هذه الحضارة الجديدة ولا من فنون أوربا، فقد سبقتها به الحضارة الإسلامية منذ دهر طويل. وهذه الفقرة التي أنقلها عن كتاب « نفح الطيب »[1] فيها تفصيل ذلك:

وأما خطة الاحتساب فإنها عندهم موضوعة في أهل العلم والفطن وكأن صاحبها قاض؛ والعادة فيه أن يمشي بنفسه راكباً على الأسواق وأعوانه معه وميزانه الذي يزن به الخبز في يد أحد الأعوان، لأن الخبز عندهم معلوم الأوزان: للربع من الدرهم رغيف على وزن معلوم وكذلك للثمن، وفي ذلك من المصلحة أن يرسل المبتاع الصبي الصغير أو الجارية الرعناء فيستويان فيما يأتيان به من السوق مع الحاذق في معرفة الأوزان، وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسعره، ولا يجسر الجزار أن يبيع بأكثر أو دون ما حد له المحتسب في الورقة، ولا تكاد تخفى خيانته، فإن المحتسب يدس عليه صبياً أو جارية يبتاع أحدهما منه ثم يختبر الوزن المحتسب؛ فإن وجد نقصاً قاس على ذلك حاله مع الناس فلا تسأل عما يلقى

وإن كثر ذلك منه ولم يتب بعد الضرب والتجريس[1] في الأسواق نفي من البلد

ولهم في أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما تتدارس أحكام الفقه لأنها عندهم تدخل في جميع المبتاعات وتتفرع إلى ما يطول ذكره »

فهذه الفقرة التي كتبها المقرى عن نظام الاحتساب في الأندلس تدلنا على أن المسلمين فيما كان من نظم حضارتهم هذا الذي اصطلحنا على تسميته « التسعيرة الجبرية » وأنهم كانوا يعاقبون من يطفف الناس أو يزيد عليهم سعر ما يبتاعون. وكان من عقوباتهم في ذلك التجريس؛ وهو عقوبة مؤذية ضارة يفقد بها التاجر شرطه الأول للنجاح والربح وهو طيب السمعة. وأنهم وصلوا في أعقاب المطففين والطامعين إلى عقوبة النفي

وكان صاحب الاحتساب — كما رأينا — يمشي بنفسه راكباً على الأسواق وأعوانه معه وميزانه

أما أن هذا النظام كان العمل به مقصوراً على الخبز واللحم كما يفهم من نفح الطيب فذلك أن الخبز واللحم كانا لذلك العهد قوام الحياة العامة ومطالب الضرورة الماشية للناس يشترك فيها الفقير والموسر. ولم تكن ضرورات الحياة ومطالب العيش بمثل ما نعرف في حضاراتنا الراهنة من السعة والكثرة ...

أو أن المقرى ذكر الخبز واللحم مثالاً لما كان يقوم عليه نظام الاحتساب في الأندلس فهو يريد بذكرهما التمثيل ولا يريد الحصر والتقصي.

محمود الشرقاوي

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى ص ١٠٢ جزء ٢ من طبعة الحلبي وشركاه بمصر

(١) الاسم الجرسة أي الفضيحة والتشهير والتسميع

رأى الفلك في مستقبل الحرب

أدلى إلينا الأستاذ يوسف مفيني العالم الفلكي المشهور بنتيجة دراساته الفلكية عن نهاية الحرب القائمة فقال:

سيظهر بعد أربعة أشهر نجم ذو لون أحمر يرى على الأفق الشرقي في جميع أنحاء العالم وسيكون حجم ذلك النجم كبيراً ونوره واضحاً شديد الاحمرار وسيظهر ليلا بعد الغروب وعند انتقال الشمس إلى برج العقرب وسيرى ذلك النجم في آخر برج الحمل ، ويدل ظهوره في ذلك الوقت على أن رجلا خطراً على العالم ومجازفاً جريئاً في إراقة الدماء سينتهي أمره — وإني كعالم فلكي أقول صراحة أن ما يدل عليه ذلك النجم هو: أن إمبراطوراً لم يتوج سيموت مقتولا ولعل القراء قد فهموا من هذه العبارة أن الذي يعنيه الأستاذ الفلكي هو « هتلر ».

غارة

للأستاذ عبد اللطيف النشار

جَلاك أم يغشاك ليل مقمرُ بدر ونُطفاً في الديار الأنوَرُ
وتُمَدُّ أذرعةُ الشعاع طويلةً ويصيح من فرق الوقاية منذر
النورأصبح بعض أسلحة العدى ولديهمو لا في الظلام المنكر
وتقاصت كِسَفُ الظلام وكُشِّفت
للناظرين مدينة لا تستتر
جرُّ المُدافع والمغيرُ كلاهما فَلَقَ الصباح كأنما هو مسفر
لولا المنون ولن يُحب لقاؤه لسبا العيونَ من الطوائر منظر
هبطت ثريّات مضاعفة السنا وكأنها في بُطئها تتبختر
أعراس جِنٍّ أتقنت حفلاتها والإنس فيها كالذبائح تنحر
وانقضَّ من وسط البروق صواعق
وعلا من الأرض الغبار الأكدر
كالعهن منفوشاً تطير منازل والله من كيد الأعادى أكبر
وتوالت الضربات لا مِن حاسب يُحصى ولا المحصى لها يتذكر
وتجاوبت بالنار ألسنة الردى يا سمعُ كم أسد بجوفك يزأر
رأمى كسندان القيون وناظرى تحت المطارق جفنه والمحجر
وبخاطرى من لا تفارق خاطرى أن تسلمى تحلو الحياة وتُشكر
الله أكبر ليس ييأس مؤمن والصبر سلوان وحظ أوفر
ذهبَ المغيرُ بقضه وقضيضه وانجاب من لج المصائب عِثْيَرُ
وأتى صباحٌ ليس أمثلَ من دجًى :
دورٌ محطمـــة وحىٌّ مقفرُ
وغدٌ نؤمله ونرجو خيره (والله يرزق من يشاء ويقدر)
يا رب لا تمنح عدوك رحمة أيريد بالدنيا الخراب وينصر
يا خالق الدنيا وحامى مجدها أنكون معبوداً ويعبد (هِتلر)

عبد اللطيف النشار

الفقـــراء

[ملخصة]

LES PAUVRES GENS

لفكتور هوجو

للأديب حسين محمود البشبيشى

[إلى أستاذى العظيم « مترجم الفقراء » أهدى وحى ترجمته أقباساً من أنوارها ، وعبيراً من عبقة سحرها]

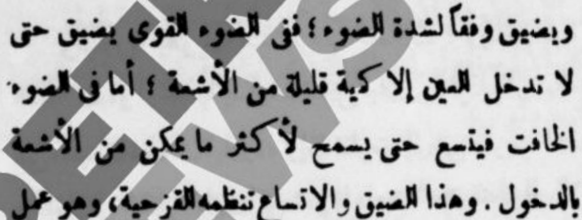
وفى ظلام الدجى ، والليل منسدلٌ
والكوخ يغرق فى الإملاق والظُّلَمِ !
على وسادٍ كشَّ الروح قد رقدوا والأم جاثية ، تهتزّ فى ألمِ !
كانت تصلّى وفى أفكارها صورٌ من عنصر النار ، لم تهدأ ولم تنم
بانت تصلى بظلّ الكوخ مُرعَشة
فى ظلمة الفكر بل فى ظلمة السَّقَم
ترنو إلى الزاخر العجاج خاشعة والموج عن شوقها الجبار فى صَمَم !
مثل الأفاعى صوب الشط ساعية أمواجه الرُّعن ، بالظلام الفَلِم[1]
بانت تنادى «أسير الموج[2]» صارخة
والموج يُرعشها فى كل مصطدم
فإن تفرق فى الآفاق شملُهما فقد تجمع شملُ الفكرِ والألمِ !
هى القلوب مهاد الحب تسكنها مع الفراق ، طيور الحب والرحم
ما باله لم يعد ، والليل منتصف والهول محتدم ، والصفو لم يدم
فى كل ثائرةٍ في الموج مقبرة بل كل خافقة أسرار مُنْبَهِم !

يا ويل زوجته ، يا هول وحدتها !
قد هاجها عاصفٌ من هولِ أشجانِ
قامت إلى الزاخر العجاج ضارعةً ترجو من الموج ردَّ الراحل الوانى
مصباحها خافق والسيل يعطرها والشوق فى جَنْبها ألوان نيرانِ !
وفى طريق البِـلى مرّت بجارتها
ماذا رأت ؟ يا تُرى غير البِلَى الفانى !

---

(١) الفلم : الهائج
(٢) أسير الموج : زوجها البحار





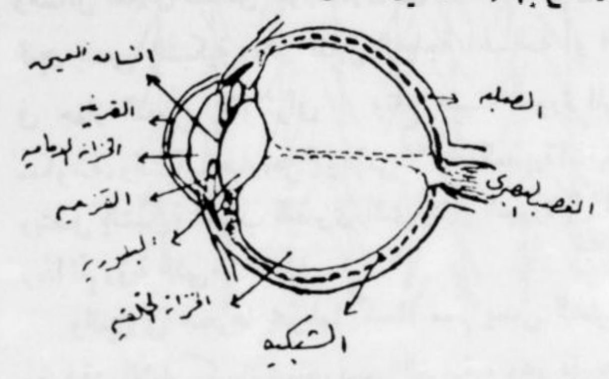
العيون التى صرعت العاشقين

للأستاذ أحمد على الشحات

سحر العيون — تركيبها — قصر النظر وعلاقته بالمدنية — طول النظر ووراثته من الأجداد — الاستجماتزم — بياض العيون وعلاقته بالأمراض — عينك تخدعك أحياناً

يا قارئى ! هل سُددت إليك يوماً سهام من عينين نجلاوين شع منهما السحر فسرت فى أوصالك الرجفة وألفتك صريع الهوى ؟ إن كان ذلك فدعنى أخفف عنك هذا الوقع وأرشدك إلى مصدر هذا السحر ومن أى جزء شع لعلك إن عرفت مصدره فى العين استطعت يوماً أن تغالبه فتغلبه

يا قارئى ! إن قلت يوماً لقد كانتا عينين زرقاوين أو سوداوين أو عسليتين حسبما كان لونهما فاعلم — حفظك الله من فتنتهما — أن هذا اللون صادر من جزء فى العين نسميه علمياً القزحية، وهو قرص مستدير ، ولون هذا القرص هو الذى يميز ألوان العيون وفى وسطه فتحة مستديرة تسمى إنسان العين ؛ ويتسع هذا الإنسان ويضيق وفقاً لشدة الضوء ؛ فى الضوء القوى يضيق حتى لا تدخل العين إلا كمية قليلة من الأشعة ؛ أما فى الضوء الخافت فيتسع حتى يسمح لأكثر ما يمكن من الأشعة بالدخول . وهذا الضيق والاتساع تنظمه القزحية، وهو عمل غير إرادى ، أى أن المرء لا يستطيع أن يتحكم فى ضيق أو اتساع هذا الإنسان . والشاهد أن القط يستطيع الرؤية فى الظلام ؛ ذلك لأن إنسان العين فيه كبير جداً ، وبذا يسمح لدخول أشعة كثيرة لا يسمح بها إنسان عين الآدمى



(شكل ١)

وخلف إنسان العين نجد عدسة العين وتسمى البلورية، وهى محدبة الوجهين إلا أن وجهها الخلفى أكثر انحناء من الأمامى ، والفراغ الذى أمام البلورية يملأه سائل شفاف يسمى السائل المائى، والجزء الذى يحويه يسمى الخزانة الأمامية ؛ وأما ما خلف البلورية فيملأه سائل هلامى، والتجويف الذى يحويه يسمى الخزانة الخلفية

ماتت ومن حولها طفلان ضمَّهما
فى شقوة العمر هول العاصف الجانى !

يُساقط السيل دمعاً فوق وجنتها ويعزف الموجُ لحنَ الذابل العانى

هيا ارقصوا وافرحوا يا قوم وابتسموا
إن الحياة سبيل العالم الثانى !

وفى حنانٍ وخوفٍ عاصفٍ حملتْ أبناء جارتها فى نبلِ روحانى !

قد هاج خاطرَها الإملاقُ فاضطربت
وثار فى جانبيها روحُ تحنان

أترهبُ الزوج ؟ والإملاق يعركها !
أم ترقب الله فى خيرٍ وإحسانِ !

وفى سكون من الأحـــلام سابحة
غابت عن الكون فى صمت وأشجان

غابت عن الكون لم تسمع لهامسةٍ من النسيم ولم تحفل بطوفان !

وبينما هى فى أعماق حيرتها إذعاد «بحارها» فى روح جذلان

قصَّتْ عليه حديث الليل ساردة عن موت جارتها ألوان أحزانِ !

فاهتز هزة من قد مسَّه ألم
وقال : هيا إلى الطفلين يا (جانى)

إن الذى قدَّر الأرزاق يرزقنا لاأرهب الدهر والرحمن يرعانى!

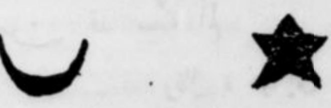
وهاجه أنهـــا لم تمض مسرعة
وقال : ويحك ! قالت : هاهما ذان !

(المنصورة) صبحى محمود البشبيشى

والبلورية يحوطها عند طرفيها عضلات ؛ وبتأثير شد هذه العضلات أو ارتخائها يتكيف شكل البلورية ؛ فإذا نظرت العين إلى شيء بعيد تفلطحت البلورة، وإذا نظرت إلى شيء قريب انتفخت. والتغير فى شكل البلورية مستمر ما دامت العين تنظر إلى الأشياء حتى أثناء قراءتك فى السطر الواحد يحدث تغير مستمر ولو أنه طفيف ؛ وتستطيع أن تلمس هذا التغير إن قربت المجلة إلى عينيك فتشعر كأن هناك ضغطاً فى العين ، وبعد أن تمر الأشعة بالبلورية والسائل الهلامى تنعكس صورة المرئى على جزء حساس فى قاع العين يسمى بالشبكية ، وهى تقابل الزجاجة الحساسة أو الفلم فى جهاز التصوير الفوتغرافى ، وتقع عليها صورة المرئى معكوسة. والشبكية عبارة عن مجموعة من الألياف العصبية الدقيقة؛ ويتصل بالشبكية العصب البصرى الذى ينقل الصورة إلى المخ وبذا تتم رؤية الشيء

والعين فى محجرها يحوطها كساء متين يسمى الصلبة ، وفى الجزء الأمامى كساء شفاف يسمى القرنية ، وهو على هيئة زجاجة ساعة كبيرة التحدب

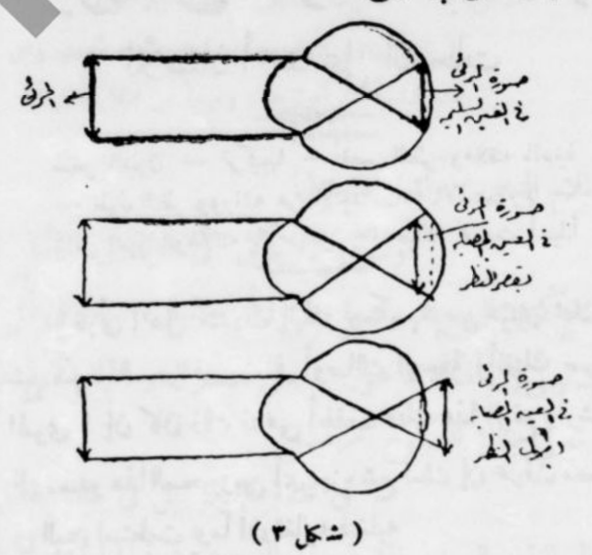
وجميع المناطق التى يمر بها الضوء فى العين شفافة ، فيبدأ بالقرنية ، ثم بالخزانة الأمامية، فإنسان العين، فالبلورية ، فالخزانة الخلفية ، إلى أن يصل إلى الشبكة ، والنقطة التى يلتقى فيها العصب البصرى . بالشبكية غير حساسة ، وإذا وقعت صورة المرئى عليها فإنه لا يرى . ويمكن الاستدلال على وجود هذه النقطة إن أنت نظرت إلى النجمة والهلال (شكل ٢) . اقفل الآن عينك اليمنى وصوب اليسرى نحو النجمة ، ثم قرّب المجلة إليك شيئاً فشيئاً تصل إلى وضع لا ترى فيه الهلال ؛ ذلك لأن صورة الهلال فى هذا الوضع قد وقعت على النقطة العمياء . على أنه بجوار تلك النقطة توجد أخرى صفراء إذا وقعت صورة المرئى عليها كانت أوضح ما يمكن واسمها النقطة الصفراء



(شكل ٢)

وكلما تقدم العمر بالإنسان تصلبت البلورية وعضلاتها نوعاً ما حتى لا تستطيع أن تتكيف حسب أبعاد الأشياء، ولذا يجد المتقدم فى العمر نفسه فى حاجة إلى منظار يسد به هذا النقص

على أنه قد يكون هناك نقص طبيعى فى بعض العيون فمنها مالا ترى الأشياء إلا على بعد أقل مما تراه فيه العين الطبيعية السليمة ويعبر عن هذا النقص بقصر النظر ؛ ومنها ما لا ترى إلا على بعد أبعد مما ترى فيه العين السليمة ويسمى بطول النظر . والتعليل العلمى لذلك تفسره الرسوم التى فى شكل (٣) فالرسم الأعلى يمثل العين السليمة وأن صورة المرئى تقع على الشبكية تماماً فيرى الشيء بوضوح



(شكل ٣)

أما الرسم الأوسط فيمثل العين المصابة بقصر النظر ويلاحظ فيها أن العين مصابة بطول من الخلف للأمام ، ونتيجته أن تقع صورة المرئى أمام الشبكية ؛ ولذا لا يرى الشيء بوضوح ويتعين على الناظر أن يقرب من المرئى

والرسم الأخير يمثل العين المصابة بطول النظر ، ويلاحظ أن العين مصابة بقصر فى طولها من الخلف للأمام، ونتيجته أن تقع صورة المرئى خلف الشبكية وعلى الناظر أن يقف على بعد أطول مما يقف عليه ذو النظر السليم

ولقد شاع قصر النظر حين تمدين العالم وازدحمت المدن بالناس وبالمنشئات من عمارات ومصانع وغيرها، وأصبحت العين تقع على أشياء كثيرة قريبة فى محيط ضيق . ويصاب الإنسان به عادة بين سن العاشرة والسادسة عشرة ، وهو غالباً ما يكون سن التحصيل فى الدرس، ولذا يصاب به المتعلمون أكثر من الأميين؛ ونتيجة لذلك تصاب به المدن المتحضرة أكثر من تلك التى لم ينتشر العلم فيها ، ويعالج قصر النظر باستعمال عدسة مقعرة

وأما طول النظر فكثيراً ما يكون عند الأطفال ثم يتلاشى تدريجياً كلما كبر الطفل

وأغلب الظن أن هذا النقص قد ورثه الناس عن الأجداد

الأقدمين الذين كانت بيئتهم وظروف العيش آنئذ تحتم عليهم أن يقتاتوا مما يصطادونه عن بعد ، وكانت الفلاة واسعة أمامهم ويعالج هذا النقص باستعمال عدسة محدبة

على أن هناك نقصاً آخر في العين يعبر عنه بالاستجماتزم ، وهو ناتج عن عدم الانتظام في انحناء القرنية ، ونتيجة لهذا النقص يحدث للمصاب به حين يرى الوقت في ساعته مثلاً ، ألا يرى أحياناً أحد عقربي الساعة ، ويخيل إليه أنه غير موجود ؛ وذلك حين يتعامد العقربان (مثلاً حين تكون الساعة الثالثة تماماً) كذلك لا يستطيع هذا المريض إن رسمت له مجموعتين إحداهما من الخطوط الأفقية والأخرى من الخطوط الرأسية ، أن يميز إلا واحدة منهما فقط

وللأمراض التي تنتاب الإنسان تأثير في لون بياض العين ، فإن اختلط بزرقة دل على اضطراب في الجهاز الدوري أو أمراض قلبية أو أنيميا . وإن مال إلى الصفرة دل على مرض في الكبد . وإن شابه اخضرار كانت الأمعاء متعبة . وإن تعكر بلون أحمر كان نتيجة احتقان أو انفعالات عصبية في الوجه ، أو ألم في العين ذاتها

والآن هل لك يا سيدي أن أطلب إليك ألا تصدق كل ما تراه عيناك ؟ قد يبدو هذا عجيباً ، ولكن عذري أن أعطيك الدليل الملموس

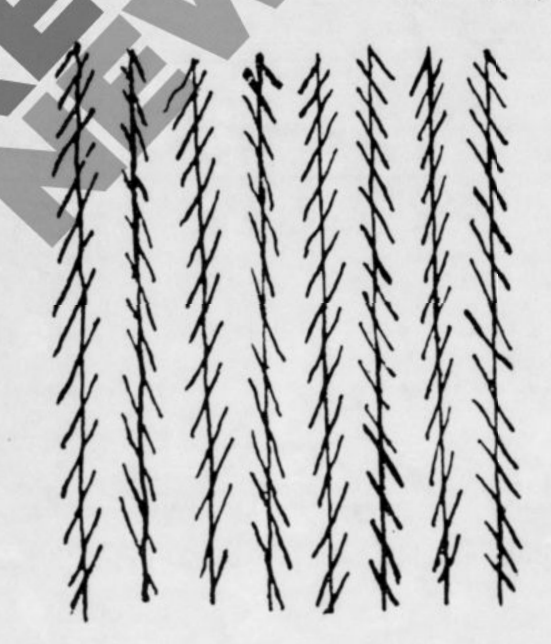
في الشكل (٤) أيهما أطول ؟ المستقيم : أ ب ، أم ج د ؟

(شكل ٤)

وفي الشكل (٥) أي المستقيمات الأفقية أطول ؟

(شكل ٥)

وفي الشكل (٦) هل المستقيمات الرأسية متوازية أم غير متوازية ؟ أغلب الظن أن النظر سيخطئ ، وسيحكم بأنه في الشكل (٤) المستقيم (ا ب) أطول من الآخر ، مع أنهما في حقيقة الأمر متساويان . وفي الشكل (٥) سيخيل إلينا أن المستقيم الأعلى هو الأطول مع أن الأربعة جميعها متساوية في الطول . وفي الشكل (٦) سنقول إن المستقيمات الرأسية غير متوازية ، مع أنها جميعاً متوازية



(شكل ٦)

ولكنه خداع النظر الذي هيأ لنا ذلك وعليك بالقياس والسراب يا سيدي : السراب الذي تؤكد لك العين أن هناك مجرى ماء ، وقد تكون في بيداء قاحلة فتجري إليه لتروي ظمأك ، وتظل تجري وتجري ، ولو شئت لجريت إلى ما شاء الله ولكن لن تصل إليه مع أن العين أكدت لك أنه قريب هناك . إذن ! حذار يا سيدي فالعيون خادعة

أحمد علي الشحات



عبد القادر حمزة و « المقالة الافتتاحية »(1)

على غير تعارف بيني وبين الأستاذ الجليل عبد القادر باشا حمزة — رحمه الله — كنت أكن له في نفسي من الإجلال والإكبار ما نما وترعرع على الزمن : لكريم سجاياه ، وكمال رجولته ، ولما كان يحمل من قلم بارع ، ولما اختطه لنفسه من أسلوب شائق في الكتابة السياسية

ولقد كنت أحس من أسلوبه هذا أنه كان يرمي إلى إحياء عهد (المؤيد) و (الجريدة) في إعلاء شأن (المقالة الافتتاحية) ورفع مستواها

فقد كان (المؤيد) يمتاز من بين صحف ذلك الزمن بمقالاته الممتعة التي كان يطلع بها على الناس صاحبه القدير ، والتي كان لها من الشأن في مصر والشرق ما لا يمكن أن يصفه إلا من حضر ذلك العهد وشاهد عظمة (المؤيد) وقوة سلطانه

ولقد كنا معشر الشباب إذ ذاك نرقب (المؤيد) عصر كل يوم ـ ولا سيما في الأزمات والأحداث الجسام ـ فنتخاطفه فيما بيننا . فلا والله ما كانت تمنينا حوادثه ولا أخباره ولا برقياته فهذه كانت قدراً مشاعاً بين الجرائد جميعاً ؛ وإنما كان همنا المقال الافتتاحي : في شائق أسلوبه ، وبارع نقاشه ، ولاذع سخره ؛ وفيما كان يعالج من مشكلة اليوم أو مشكلاته ، وفيما كان يتناوله أحياناً من أدب أو اجتماع أو نقد أو وصف ، أو مقارعة قِرْن أو مناهضة نِد

فلا غرو أن كان (المؤيد) في الحقبة الطويلة التي عاشها أثر لا ينكر في نهضة الكتابة المرسلة ، وترقية الفنّ الجدليّ ؛ فقد كان الشيخ علي يوسف مجادلاً من الطبقة الأولى ؛ ولا غرو أيضاً أن أحل الشيخ مؤرخو الأدب بالمكانة اللائقة به بين كبار المترسلين في عصره ، وهو عصر لم يكن قد خلص خلوصاً تاماً من رِبقة السجع وغثاثة الأساليب الكتابية في مصر والشرق العربي

ومقالات الأستاذ الحكيم أحمد لطفي السيد باشا في (الجريدة) أشهر من أن تعرف ، فقد عني بها النقاد ، وأطراها المتأدبون ، وتحدثوا عن عمقها ، وبُعد غورها ، ونصاعة أسلوبها ؛ غير أنه لم يتح لي أن أطلع إلا على قليل منها

ومنذ قريب رأيت للأستاذ الدكتور زكي مبارك نقداً في (الرسالة) لمجموعة منها ، انتخبها الأستاذ إسماعيل مظهر من أعداد (الجريدة) ، وطبعها وقدم لها . وإني لعلى أمل أن أدرس هذه المجموعة وأعلق عليها في (الرسالة) استكمالاً لهذا البحث

* * *

ودارت الأيام بعد (الجريدة) ، ومرت السنون ، وكنت في غضونها أتفقد الصحافة السياسية ، في مختلف نزعاتها وأهوائها لعلي أظفر بذلك الضرب من المقالة الافتتاحية ، تلك المقالة التي تشف عن علم وإحاطة ، وتكشف عن الحقيقة فيما يُعالَج من أمر وتشعرك بالثقة بأنك إنما تقرأ جداً لا لغو فيه ولا عبث — كل أولئك في سلامة تعبير ولطف تأت وبعد عن التعقيد والحشو — حتى جاء عبد القادر حمزة على ظمأ ، فحقق الرجاء

* * *

أدركت (الأهالي) أول ما صدرت بالأسكندرية ، ولم أكن قد قرأت بعد شيئاً لعبد القادر حمزة ، ولم يكن الرجل حينئذ نابهاً بين الكتاب ، ولكن لَسُرْعان ما التفتت إليه الأنظار وتحدث عنه الناس ؛ إذ لمحوا في (الأهالي) صفات غير التي يعهدون في الصحف ، ورأوا فيها طرافة ، ورأوا فيها خروجاً على المألوف المملول

وهنا بدأ عبد القادر ينشئ مقالاته على طريقته الفذة ، وهنا أيضاً بدأ القراء يتذوقون فناً جميلاً من التعبير ، ولوناً شهياً من ألوان التحرير

ولم تُعمِّر (الأهالي) ؛ بل اختُضِرت وشيكا ، وجاء (البلاغ) ، فوصل فيه عبد القادر ما انقطع ؛ وطفق يعمل غير وان ولا فاتر . ونضجت (المقالة) على مر الأيام ، وصقلتها المرانة وعادت تحمل طابعَ كاتبها ، وتمتاز بصفات لها وحدها

وإذا كان الناس قد شغفوا بمقالات عبد القادر ، فإنما ذلك لإجازتها وسلاستها واستيعابها وبعدها عن الإسفاف والتهاتر ؛ حتى لقد كان في مصارعة الخصم ، ومنازلة المنافس ، لا يحمل غير المنطق سلاحاً للصيال . والمنطق ـ كما قد تعلم ـ من خصائص أسلوب عبد القادر المتغلغلة في صميمه

(1) The leuding article وبعضهم يسميها المقال الرئيسي

كان على يوسف يدعو لرأى سياسى ؛ وكذلك كان عبد القادر حمزة ، فعمدا كلاهما إلى أن يصلا إلى قلوب الجماهير فى يُسْر لا تكلف فيه ، فتوخيا سهولة العبارة ، وجانبا النابى من الألفاظ ، والمستَصْعِبَ من التراكيب ، كما جانبا الزخرف والتمحل والتفصح ، فجاء الأسلوبان من السهل الممتنع حقاً .

على أن الرجلين نبتا فى عصرين مختلفين كل الاختلاف : فلم تكن الكتابة — كما أشرنا آنفاً — قد نهضت بعد فى عصر على يوسف ، بل كانت تحبو إلى النهوض . فليس غريباً إذاً ألا تخلو مقالاته — على ما فيها من حياة وقوة — من زلاّت لغوية وتركيبية ، وأن يتداخلها أحياناً شيء من ضعف التأليف ، نلحظه دائماً فى كتابات ذلك العصر .

ولا كذلك عبد القادر حمزة : فقد نشأ فى بيئة غير تلك ، وعصر نُبهت فيه العربية ، ونضجت الأقلام ، حتى إنْ مصر لَتُباهى فيه بكتاب هم بلا شك من مفاخر العربية .

هـذه إلمامة عامة مجملة . وتفصيلها يقتضى بحثاً طويلاً ، ودراسة مسهبة لهؤلاء الرجال وأزمانهم وثقافتهم ، ثم كتاباتهم ، وكيف كانت أولاً ، وكيف تطورت ، وعوامل كل أولئك ونتائجه . ولا شك أن تاريخ الأدب الحديث سيقول فى ذلك كله قوله الفصل .

(ا . ع)

إلى الأستاذ محمود شلتوت

ورد فى مقالكم القيم (الإسلام والعلاقات الدولية) العدد ٤١٥ من الرسالة الغراء عن أسرى الحرب فى الإسلام ما يلى : «يخير الإمام بين إطلاقهم من غير مقابل وفدائهم على حسب ما يرى من المصلحة . وقد مَنَّ صلى الله عليه وسلم وفادى بالمال وبتعليم الأسارى أبناء المسلمين الكتابة . أما استرقاقه صلى الله عليه وسلم أو إباحته للاسترقاق فقد كان مجاراة لحالة اجتماعية سائدة فى الأمم إذ ذاك ولم يكن على وجه التشريع العام ، وإنما التشريع العام فى ذلك قوله تعالى : « فإما مَنًّا بعد وإما فداء »

فهل لنا يا سيدى الأستاذ أن نفهم من ذلك أن الرق فى الإسلام من قبيل الأحكام التى تزول بزوال أسبابها ومقتضياتها كتركه صلى الله عليه وسلم صلاة التراويح بالناس معللاً هذا الترك بقوله : إنى خشيت أن تفرض عليكم . حتى إذا ما أكملت الشريعة وفصلت الأحكام وانتقل النبى الكريم إلى الرفيق الأعلى وزالت خشية فرضيتها جمع عمر بن الخطاب الناس عليها وقال : نعم البدعة هذه ؟

وكذلك ما ذهب إليه كثير من فقهاء السلف والخلف من إسقاط المؤلفة قلوبهم من سهم الزكاة مع أن الآية بظاهرها قد جعلت لهم نصيباً مفروضاً منها ؛ قال تعالى (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم) الآية ٦٠ من سورة التوبة، وقالوا إن إعطاءهم هذا السهم إنما كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والإسلام إذذاك فى قلة وضعف . وقد زال ذلك بظهور الإسلام وإعزازه واستغنائه عن تأليف القلوب لدخولها فيه أو كف أذيتها عنه . ولهذا فإن الخلفاء الراشدين لم يعطوهم شيئاً . وقال عمر إنا لا نعطى على الإسلام شيئاً فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . وقد اشتد فى رده للأقرع ابن حابس المجاشعى وعيينة بن حصن الفزارى فى خلافة الصديق رضى الله عنه وقال لهما : اذهبا واجهدا جهدكما ، لأرعى الله لكما إن رعيتما . لقد تألفكما رسول الله والإسلام قليل

وقد تغيرت اليوم الأوضاع الاجتماعية للأمم وأصبح الرق السائد فى الأمس يكاد أن يتواضع الناس اليوم على أنه إضرار وجريرة كبرى . فهل لنا يا سيدى الأستاذ فى مجاراة هذه الحالة السائدة اليوم أن نمنع الرق فى الشريعة الإسلامية كما منعنا سهم المؤلفة لزوال المقتضيات والأسباب ؟

وتقبلوا فائق التحية والاحترام .

محمد عادل الحامى
نزيل القاهرة

تصحيح مثل

قرأ البلاغيون فى بعض الكتب من ضمن الأمثال قول القائل : « النحو فى الكلام كالملح فى الطعام » وهو قول كما ترى فاسد خاطئ ، فأتعبوا أنفسهم فى نقده وتشريحه ، وإيراد التأويلات المختلفة لتصحيحه وتسويغه ؛ فقال الخطيب القزوينى فى كتابه (الإيضاح) ما نصه : « وإذا علم أن وجه الشبه هو ما يشترك فيه الطرفان — يعنى المشبه والمشبه به — علم فساد جعله فى قول القائل : (النحو فى الكلام كالملح فى الطعام) كون القليل مصلحاً والكثير مفسداً ، لأن القلة والكثرة إنما يتصور جريانهما فى الملح ، وذلك بأن يجعل منه فى الطعام القدر المصلح أو أكثر منه دون النحو ، فإنه إذا كان من حكمه رفع الفاعل ونصب المفعول مثلاً ، فإن وجد ذلك فى الكلام فقد حصل النحو فيه ، وانتفى الفساد عنه ، وصار



سمبر ايدم

عن الإنجليزية

الأستاذ فوزى الشتوى

كان الجراح « بكتل » رحيماً على غير عادته ، برغم حادثة بسيطة ، أو بعبارة أدق برغم إهمال بسيط حدث فى الليلة الماضية ، فأدى إلى وفاة رجل كان ينتظر له الشفاء . وكان الرجل من أولئك البحارة الكثيرين ، إلا أن وفاته أقلقت كبير الممرضين منذ الصباح . ولم يكن سبب قلقه وفاة الرجل ، فهو يعرف الجراح « بكتل » فى مثل هذه المسائل ، ولكن جزعه كان يرجع إلى نجاح العملية الجراحية برغم دقتها وخطورتها ، وبهذا انتقل أمر شفاء المريض من يد الجراح إلى يد الممرض وإلى العناية بأمر العلاج ؛ ولكن الرجل مات ، بدون سبب سوى إهمال بسيط ، ولكنه سبب كاف لإثارة سخط الجراح « بكتل » وسبب كاف لإسماع كبير الممرضين قوارص الكلام ، ثم إرسال موجة من الاضطراب بين صفوف جميع الممرضين والممرضات لمدة ٢٤ ساعة كاملة

وعلى رغم هذا كله كان الجراح « بكتل » رحيما على غير عادته فعند ما أخطره كبير الممرضين وهو يرجف رعباً بوفاة الرجل الفجائية لم تنفرج شفتاه عن كلمة تقريع أو لوم ، وظلتا مضمومتين فانسابت منهما علامات الغضب بسكون لم يقطعه إلا سؤاله المستبشر عن صحة الرجل الآخر . ولم يصدق الممرض ما سمع فمن المستحيل أن يكون الدكتور سمع الموضوع فأعاد شرحه

ففقد الدكتور « بكتل » صبره وقال : فهمت . فهمت ، وماذا جرى لسمبرايدم ، هل هو مستعد لمغادرة المستشفى ؟

— نعم ياسيدى وهم يساعدونه الآن على ارتداء ملابسه .

قال كبير الممرضين مكملاً تقريره مسروراً لأن السلام يستقر بين جدران المستشفى :

فلم يكن للأرواح عند الدكتور « بكتل » من قيمة ، وكان فقدها أحد حوادث المهنة التى لامفر منها ؛ أما الحالات وخصوصاً الحالات الغريبة ، فقد كانت كل شىء لديه . ولهذا عوضه شفاء سمبر ايدم عن وفاة البحار

أطلق الناس على الدكتور « بكتل » اسم الجزار . أما زملاؤه

منتفعاً به فى فهم المراد منه ، وإلا لم يحصل وكان فاسداً لا ينتفع به . فالوجه فيه هو كون الاستعمال مصاحاً والإهمال مفسداً لاشتراكهما فى ذلك ... »

والحق أننى لم أسترح إلى قبول هذا التوجيه الذى ذكره الخطيب لتصحيح المثل ، وبقيت منه على علة ؛ وبينما كنت أقرأ فى كتاب « نفائس المجالس السلطانية » الذى نشره الدكتور عبدالوهاب عزام ضمن كتابه الأخير « مجالس السلطان الغورى » ؛ إذا بى أقف على تحريف فى المثل السابق ، وأعلم أن صحته كما جاء فى الصفحة الثامنة والستين من كتاب النفائس المذكور إذ وردت فيه هذه العبارة :

قال بعض الحكماء : المزل فى الكلام كالملح فى الطعام !

ومن اليسير على القارئ أن يدرك جمال المعنى فى قول ذلك الحكيم : « المزل فى الكلام كالملح فى الطعام » فإن الكلام إذا خلا من المزل المباح المحمول كان جافاً ثقيلاً ، وكانت النفوس أسرع إلى النفور منه والعزوف عنه ، وقد كان النبى صلوات الله عليه يمزح أحياناً ؛ وإن كان لبلاغته وتمكنه وعصمته لا يقول فى مزاحه إلا حقاً . وإذا زاد المزل فى الكلام كان ذلك أدعى إلى الإفحاش فيه ، والخروج به إلى المجانة والهذر . ولعل مما يستأنس به لذلك قول الرسول الكريم : « كثرة الضحك تميت القلب » وقوله ما معناه : « كثرة المزاح تسقط الهيبة » . وبذلك يتضح أن التشبيه — بعد التصحيح السابق — قد استكمل شرائطه ، وصار له من الجمال والدقة ما له .

فليُرح البلاغيون أنفسهم ، وليستبدلوا كلمة « النحو » بكلمة « المزل » فيستقيم لهم المثل ، وفوق كل ذى علم عليم .

« البجلات » أحمد الشرباصى

فكانوا يعتقدون أنه لم يقبض على مبضع الجراح رجل أجرأ ولا أكفأ منه . لم يكن رجلاً خيالياً ولا عاطفياً ، بل كانت طبيعته علمية مضبوطة وصادقة . لم يكن الرجال فى عرفه سوى ودائع لا شخصية لها ولا قيمة ، إلا أن أمره كان يختلف فى الحالات الغريبة ، فكلما كان الرجل محطما ، وكلما قل الأمل فى شفائه زادت أهميته فى عينى الدكتور بكتل ، فهو يتخلى عن شاعر الملك إذا كانت حادثته عادية ليعنى بأمر متشرد تحدى جميع قوانين الحياة ورفض أن يموت

وهكذا كانت الحال فى حالة سمبر ايدم . لم تجذب الدكتور بكتل غرابة أطوار سمبر ايدم ولا صمته ، ولم يحاول إزاحة الستار عن مأساة غرامه كما حاول الصحافيون إثارة الناس دون جدوى فى صحف الأحد . لم يثر شيء من هذا اهتمام الدكتور بكتل ، وإنما أثار اهتمامه أن رقبة سمبر ايدم قطعت ، وفى هذه النقطة وحدها تركزت كل لذته ، فقد قطعت من الأذن إلى الأذن ، وما كان جراح واحد من ألف ليرى بارقة أمل فى شفائه ، ولكنه بفضل عربات الإسعاف السريعة وبفضل الدكتور بكتل عاد مرة أخرى إلى الحياة التى حاول أن يتركها

وعندما عرضت الحالة على مساعدى الجراح بكتل هزوا رؤوسهم وقالوا محال ، فقد أصيبت الحنجرة والقصبة الهوائية والعنق بأضرار بالغة فضلاً عن كمية الدماء الكبيرة التى نزفت . وبناء على هذه النتيجة جرب الجراح بكتل عدة وسائل ، وأجرى عدة عمليات جعلت زملاءه برغم تضلعهم فى الفن يقفون مشدوهين وأكثر من هذا أن الرجل شفى

وهكذا مر اليوم فى المستشفى بسلام دون أن يسوده الاضطراب والذعر نتيجة لتقرير كبير المرضين . فقد كان من الأمور السارة أن يغادره فى ذلك اليوم سمبر ايدم صحيحاً معافى ، بل إن جثة الطفل الذى صدمه الترام فجعتها لم تؤثر على المرح السائد ولم ترسل موجة الأسف العادية

وأثارت قضية سمبر ايدم إعجاب كثيرين، وأثارت كثيراً من اللغط ؛ فقد وجد فى أحد منازل الإحسان مقطوع الرقبة والدم ينزف منها فتساقطت نقطة على الغرفة السفلى فدب الذعر فى صفوف سكانها ؛ وكان من الواضح أنه فعل فعلته وهو واقف ورأسه منحن إلى الأمام حتى يظل نظره موجهاً إلى صورة موضوعة على طاولة ، ومسندة إلى شمعدان ، فأتاح هذا الوضع للجراح بكتل أن يتم معجزته . فلو تغير الوضع وكان انحناء الرأس إلى الخلف، لتمددت الأوعية المنقية وتم الانتحار على خير ما يرام ، ولفقد الجراح بكتل لذة تنفيذ أعجوبته

ومضى سمبر ايدم طول مدة عودته إلى الحياة فى المستشفى دون أن ينبس بكلمة ؛ حتى ضابط البوليس لم يظفر من شفتيه بأية معلومات أو تفاصيل . ولم يعثر على إنسان واحد عرفه أو تحدث إليه ؛ فقد كان ظاهرة غريبة شاذة . دلت ملابسه على أنه من أحط طبقات العمال ، ولكن يديه دلتا على يدى رجل مهذب . وفحصت ملابسه قطعة قطعة فلم يعثروا فيها على ورقة واحدة أو دليل واحد يدل على ماضيه أو مركزه الاجتماعى ، فلم يكن لديهم إلا الصورة الفوتغرافية

أما المرأة التى كانت تنظر من خلال الصورة فكانت بديعة صافية الجمال تلتقى عيناها بعينى المحدق فيها . وعبثاً بحث المخبرون السريون عن اسم مصورها ؛ فقد كانت من تصوير أحد الهواة . وفى أحد الزوايا ظهر خط نسائى دقيق كتب « سمبر ايدم ، سمبر الأمين » باللاتينية ؛ وكما يذكر كثيرون كان وجهها من الوجوه التى لا ينساها الإنسان أبداً . نشرت صورتها فى عدة جرائد رئيسية ؛ ولكن مثل هذا الإجراء لم يظهر دليلاً جديداً وإن أثار فضول الجمهور ووفر المجال أمام الصحفيين للفروض والتخمينات

واشتهر المنتحر المنقذ باسم سمبرايدم لزوار المستشفى وفى العالم أجمع ؛ فهو لم يحاول تغيير هذا الاسم . وتعب الصحفيون ورجال البوليس والممرضون فى استطلاع أمره ، ولكن شفتاه لم تنفرجا عن كلمة واحدة رغم بريق عينيه الذى كان يدل على أن أذنيه سمعتا وأن عقله أدرك ما وجه إليه من أسئلة . وأخيراً أهملوه وبقى له إسم سمبرايدم

إلا أن هذا الغموض الماثل والغرام المنيف لم يكن له معنى عند الجراح بكتل عند ما استدعى مريضه إلى مكتبه ، فهذا الرجل فى عرفه هو الأعجوبة التى تمت على يديه فعمل فيه ما اعتبره فن الجراحة مستحيلاً ، دون أن يهتم باسم الرجل أو ماضيه ، بل كان من المحتمل ألا يطلب رؤيته مرة ثانية ، ولكنه فى هذه اللحظة كان كفنان يحدق فى المخلوق الذى أوجده . فقد أراد أن يرى صنع يديه وعقله للمرة الأخيرة

واحتفظ سمبر ايدم بصمته ؛ وكان يبدو عليه السرور لبارحته المستشفى دون أن يفوز منه الجراح بكلمة ، وإن كان فى الواقع لم يهتم بصمته أو كلامه ، وكل ما عمل أن اختبر رقبة المريض بدقة، فتحسس أثر التحام الجرح البشع الطويل متمهلاً كأنه أب يحنو على ولده . ولم يكن المنظر مريحاً ، إذ كان يمثل خطاً يلف حول الرقبة ويختفى تحت الأذنين كما لو كان صاحب هذه الرقبة خارجاً من تحت حبل المشنقة

وصبر سمبر ايدم على هذا الاختبار كأنه أسد سجين ، فكل رغبته أن يختفى عن أعين الناس . وأخيراً قال الجراح بكتل وهو يضع يده على كتف الرجل ويختلس نظرة أخيرة إلى صنع يديه :

— حسن ! لن أحجزك . ولكن دعنى أقدم إليك نصيحة صغيرة : عند ما تحاول قطع رقبتك مرة ثانية إرفع ذقنك ولا تلفها إلى الأمام ثم اذبح نفسك كبقرة

ولمت عينا سمبر ايدم علامة على أنه سمع وفهم ؛ وبعد لحظة كان باب المستشفى يغلق خلفه

كان ذلك اليوم أحد أيام الجراح بكتل المليئة بالعمل ، فلم يتح له أن يشعل سيجاره الكبير إلا بعد أن أوشك العصر أن ينتهى . وكان آخر حادث عرض عليه حادث رجل بمجمع الخرق كسرت إحدى عظام كتفه . تخلص منه بسرعة وجذب نفساً طويلاً من سيجاره وأوشك أن يغادر طاولته ، وما كادت رائحة الدخان وأشكاله البيضاء تنتشر فى جو الغرفة حتى سمع صوت جرس إحدى سيارات الإسعاف السريعة يطن فى أذنيه منبعثاً من نافذة الغرفة المطلة على الشارع ، وتبعها دخول نقالة تحمل إنساناً جديداً

ووضع الجراح بكتل سيجاره فى مكان أمين وقال : « ضعه على الشرحة . ماذا حدث ؟ »

فقال أحد حاملى النقالة : « حادث انتحار بقطع الرقبة فى زقاق مورجان ، وأعتقد أن الأمل ضعيف وأنه مات تقريباً »

« حسن سأراه على أية حال »

ومال الطبيب الجراح على الرجل فى اللحظة التى اهتز فيها جسمه هزته الأخيرة وأسلم الروح . وما كاد كبير الممرضين يراه حتى قال : « إنه سمبر ايدم ! عاد مرة ثانية »

فقال الجراح : « نعم ولكنه رحل . ولا فائدة هذه المرة فقد أتقن التنفيذ . نفذ نصيحتى حرفياً . خذه إلى معرض الموتى »

ووضع سيجاره بين شفتيه ثم أعاد إشعاله وقال لكبير الممرضين من ثنايا الدخان المتصاعد : « هذا يعادل الرجل الذى فقدته أنت فى الليلة الماضية ، فنحن متساويان الآن

فوزى الشترى

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)